موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

التربية الاسلامية

موضوعات مختلفة في التربية

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (001) :الحجاب - أحاديث - إني...- الصحابي نعيم بن مسعود

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-12-1984

بسم الله الرحمن الرحيم

أيُّها الإخوة الكرام :

وصلنا إلى موضوع التبرج، التبرج: إظهار ما يجب إخفاؤه، إظهار محاسن المرأة التي أمر الله بإخفائها، الآية القرآنية التي تتحدث عن التبرج قوله تعالى:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآَتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (33))

(سورة الأحزاب: الآية 33)

في هذه الآية أسئلة كثيرة، أول شيء: حينما يذكر الله عزَّ وجلَّ شيئاً في كتابه الكريم، فمعنى ذلك أن هذا الشيء أساسي في سلامة المرء وسعادته في الدنيا والآخرة، لا يظن أحد الناس أنه إذا الله عزَّ وجلَّ ذكر آية في القرآن الكريم فيها توجيه اجتماعي أن هذه الآية من الثانويات ما دام الله عزَّ وجلَّ قال: وقرن في بيوتكن، معنى ذلك أن بقاء المرأة في بيتها نظام اجتماعي أمثل تنتظم به الحياة ويسعد به الرجال وتسعد به النساء ويسعد به الناس في الدنيا والآخرة، المرأة إذا خرجت من بيتها وخالطت الرجال سببت فساداً كبيراً، لأن المرأة محببة إلى الرجال، هذه فطرة:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآَبِ (14))

(سورة آل عمران: الآية 14)

كيف أن البارود يشتعل بالنار، من خصائصه.. من خصائص هذه المادة اشتعاله السريع بالنار، فإذا منعت النار عن البارود فهذا مبنيٍ على علمٍ كبير، ربنا عزَّ وجلَّ قال: وقرن في بيوتكن، فلمّا خرجتا ابنتا سيدنا شعيب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام لسقي الغنم:

(قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)

(سورة القصص: من الآية 23)

يعني لم يخرجن إلا لسببٍ قاهر، أما من غير سبب قاهر، فينبغي أن تبقى المرأة في بيتها، وليس معنى ذلك أن تبقى جاهلة، بعض الجهلة يقرنَّ بين بقاء المرأة في بيتها وبين الجهل، يجب أن تبقى في بيتها وهي في قمة الفهم والتأدُّب بأخلاق الإسلام والتفقه في الدين وفهم كتاب الله واتباع سنة رسول الله،

فربنا عزَّ وجلَّ يقول :

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)

ليس هنالك حاجة لمزيدٍ من التفصيل لأنَّ كلكم تعرفون ذلك.

لو إن امرأةً متبرجةً تعمل في مكانٍ يراها الرجال كلّ يوم وكل ساعة، الرجال على أنواع.. بعضهم كالذئب بعضهم كالثعلب بعضهم مريض النفس بعضهم يشتهي ما ليس عنده، أي أنّ هذا شيء طبيعي أن يتقرّب الرجال إليها، فإذا تقرب الرجال إليها شعرت بقيمتها وبخطورة جمالها في الحياة، لذلك فتجدها مستعلية على زوجها في البيت، فتفسد علاقتها مع زوجها، وتفسد علاقة الأزواج مع زوجاتهم، وتحتل مكان رجل في العمل لو عيّن مكانها لتزوج.. إذاً فهي قد عطّلت مكاناً لرجل وعطلت زواجاً لأنثى، ورزقها مضمون على أبيها أو زوجها، هذا نظام الإسلام.. فربنا عزَّ وجلَّ حينما قال: وقرن في بيوتكن أي النظام الأمثل: أن تتفرّغ المرأة لرعاية زوجها وأولادها، وأن تكون عالمة بأمر دينها وبحقوق زوجها..

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)

السؤال الدقيق: لماذا قرَن الله عز وجل بين أمرهِ الشريف العظيم

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)

وبين أمره الآخر وكلمة: ولا.. أو نهيه الآخر:

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

إذاً لماذا قرنهم مع بعضهم؟.. الأصل أن تبقى المرأة في البيت.

يا بنيتي يا فاطمة هكذا قال عليه الصلاة والسلام: ما خير ما تفعله المرأة ؟

قالت: الآ تُرى وألآ تَرى. ألآ ترى، وألآ ترى، صلاة المرأة في دارها خير من صلاتها في مسجدها، وصلاة المرأة في بيتها خير من صلاتها في دارها، الدار مجمل الغرف مع الساحة السماوية، مع الفناء.. أما البيت: الغرفة - وصلاتها في قعر بيتها خير من صلاتها في بيتها _إذاً في غرفتين، غرفة مطلة على الفناء، فناء الدار، وغرفة داخلية _ لأن المرأة كلها فتنة، صوتها فتنة، حركتها، مشيتها.

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)

ما علاقة النهي الثاني: فإذا خرجتنّ لأمر ضروري.. لا تبرجنَ.. فإذا قلنا لأحد: لا تأكل كما يأكل النهم، فهل نحن ننهاه عن الأكل ؟ لا.. لا تأكل كما يأكل النهم، لا تقوموا لي كما يقوم الأعاجم، الأعاجم يقومون تعظيما لملوكهم، أما إذا قام الصحابة الكرام لنبيّهم فهذا التعظيم ليس لذاته بل لحقيقته العظمى، إذاً النهي ليس نهياً مطلقاً.

ولا تبرجن: المرأة لا بد من أن تتبرّج لزوجها، فإذا تركت التبرج لزوجها أثمت، لأنها إذا تبرّجت لزوجها كان تبرُّجها لزوجها أغضَّ لبصره وأحصن لنفسه، لكن المرأة غير المسلمة تتبرج لغير زوجها، للأجانب، في الطرقات تظهر مفاتنها لمن ليس له علاقة بها، تبرز مفاتنها لمن لا يجوز له أن يرى مفاتنها، تبرز مفاتنها فتفسد علاقة الأزواج بزوجاتهم، أو تفسد علاقة الشباب بربّهم، أو تفسد علاقة المجتمع بعضه ببعض.

(وَلَا تَبَرَّجْنَ)

يعني هذه الفتنة، هذا الجمال الذي منحه الله للمرأة، حينما منحه من أجل أن يكون عوناً لها على أن يحبها زوجها من أجل الوفاق الزوجي، يعني المرأة محببة، لو أنها تقوم بتربية الأولاد، وتقوم بالوضع وبالحمل وبالرضاع وبالخدمة وبالطبخ وليس لها شكل مقبول لم تستقم الحياة الزوجية، لكن الله سبحانه وتعالى جعل لها هذا الشكل المحبب وقال:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14))

(سورة آل عمران: آية " 14 ")

من أجل أن تكون ألألفة بينهما.. وقد قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21))

(سورة الروم: آية: "21 ")

هذه مودة تأتي من أنها محببة للرجل، هذا الشيء الذي منحها الله إيّاه لعلة واضحة إذا استخدمت في غير ما خلقت له فقد فسدت وأفسدت.

(بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

.. في الجاهلية كانت النساء تتبرّج، لا بقصد إرضاء أزواجهنّ، بل بقصد إظهار مفاتنهنّ، لذلك هذه الآية أصل في تفرغ المرأة لزوجها، وفي صونها لنفسها، وأثمن ما تملك المرأة شرفها وعرضها وعفافها، فإذا عرضت هذا الشيء الثمين لأنظار الناس كلّهم فقد أثارت حولها الذئاب،.. الجوهرة المكنونة توضع في علبة مخملية وفي صندوق، أما الشيء التافه الذي لا قيمة له تراه ملقيا في الطريق.

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

ومن كلمة الأولى يفهم أنّ هناك جاهلية أمرّ وأدهى سوف تأتي في آخر الزمان.

يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما.

(سورة الأحزاب: آية "59 ")

أكثر المفسرين فسّروا هذه الآية: أنّ الجلباب يجب أن يستر جسد المرأة كله من رأسها إلى أخمصها، هذا هو الجلباب، وسمح أن تبقى عين واحدة مكشوفة كي ترى طريقها.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (59))

(سورة الأحزاب: آية "59")

والآن أنظر إلى امرأة لا يرى الناس وجهها لا يستطيع أحد مهما بلغ فسقه أن يسمعها كلمة لا تليق في الطريق، ولا أن يتحرّش بها ولا أن يصف شكلها، ولا أن يتكلم كلاماً يؤذيها، لأنّه لا يراها، فإذا بَدَى الوجه وهو موطن الفتنة في المرأة كانت التعليقات، إن كان فاتناً علّق الناس تعليقاً خاصاً، فإن لم يعلّقوا أضمروا في نفوسهم ما لا تحمد عُقباه، وإن نظروا وإن كان في الوجه دمامة تكلّموا بكلمات تعقّد هذه المرأة، لذلك ربنا عزَّ وجلَّ قال:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (59))

(سورة الأحزاب: آية "59")

معنى المرأة التي تظهر مفاتنها قد تؤذي وقد تؤذى، تؤذي بإثارة الشهوات، وقد تؤذى ببعض الكلمات التي تجرح شعورها إن بقي عندها شعور.

على كلٍ.. الآية الثانية:

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آَبَائِهِنَّ أَوْ آَبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31))

(سورة النور: آية " 31 ")

المفسرون قالوا: الذي يظهر من زينة المرأة، طولها.. هل تستطيع أن تخفي طولها ؟، كونها ممتلئة الجسم أم نحيلة، هذا شيء لا تستطيع أن تخفيه، لذلك الآية الكريمة تقول: ولا يبدين

(زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ)

أما الوجه.. لو أنّ الوجه مستثنى من هذه الآية فتأتي الآية: إلا ما أظهرن.. أي بيدها أن تظهره أو أن لا تظهره، أمّا قوله تعالى: إلا ما ظهر وليس: إلا ما أظهرن منها.. الوجه إلا ما أظهرن، والمعصم إلا

ما أظهرن، والرقبة إلا ما أظهرن، كل هذه الأعضاء يمكن ستره إلا ما ظهر من دون قصد ومن دون إرادة ومن دون إمكان إلا ما ظهر منها قالوا: طولها.. وقالوا: ثيابها.

(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ)

الجيب فتحة الصدر، يضربن بخمرهنّ.. والخمار الرداء الذي تختمر به المرأة، والخمر تستر عقل الإنسان.. والخمار يستر المرأة، ولتضرب خمارها من رأسها على جيبها مرورا بوجهها..

(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ)

وإلى آخر الآية.

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: يا أسماء إنَّ المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح لها أن يرى منها. أي أنّ إذا بلغت المرأة سنّ البلوغ لا ينبغي أن يراها الأجنبيّ، لأنها إذا رآها زرعت الشهوة في قلب من يراها.

ويقول عليه الصلاة والسلام: إنّ المرأة إذا أقبلت، أقبلت ومعها شيطان، وإذا أدبرت أدبرت ومعها شيطان.

أي أنَّك لو رأيتها مقبلة بزينتها حرَّكت الشهوة، وإذا رأيتها مدبرة حرَّكت الشهوة.

لذلك قال عليه الصلاة والسلام: ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء.

ويقول عليه الصلاة والسلام: صنفان من أهل النار لم أرهم، رجال بأيديهم سياط كأذناب البقر، ونساء كاسيات عاريات.

أي أن شفّ الثوب عن لون الجلد فهذا ليس بثوب، إنها بهذه الثياب كاسية عارية،أي أنّ القماش الرقيق الذي يظهر ملامح الجسد.. هذا يدخل في هذا الحديث، كاسية عارية.. والثياب الثخينة، إذا كانت ضيّقه فوصفت حجم العضو، كاسية عارية.. كاسيات عاريات مائلات مميلات، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليشم من مسافة كذا وكذا،

فكيف أفهم أنَّ امرأة مؤمنة تظهر مفاتنها للأجنبي ؟ لا.. الإيمان بقلبها كبير، لا تدع الصلاة..أي أنّ غطاء رأسها تحمله معها في حقيبتها، لكن أن تقول: مضطرة !! هذا كلام مرفوض.. لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، أب سأل بناته لماذا أنتنّ متحجبات ؟ فأجابت كل فتاة بكلمة حسب مستواها.. قالت إحداهن: لأن الله أمر بذلك. قال: جيد. وقالت أخرى: لأنني بهذا أرضي الله عزَّ وجلَّ. وقالت ثالثة: أنا متحجبة لئلا أؤذي عباد الله.

إذا كان شاباً في مقتبل حياته، أي ملتهب إذا رأى فتاتاً وكان منظرها مثيراً لشهوته، فماذا يفعل بنفسه ؟ وهو جاهل ليس له مجلس علم يعلمه غضّ البصر، ليس له معلّماً يعلمه الدين الصحيح ليس له تعلُّق بالآخرة، فلا بدّ من أن يفسق، وينحرف ويبتغي وراء ذلك كما قال الله عزَّ وجلَّ.

ولو قيل أنها شريفة لم يستطع الحديث معها ولا تكلّم أساساً وتمشي ونظرها بالأرض!. لكن: قد زرعت الفتنة بنفسه، فإذا لبست المرأة لباس حديث وفق أحدث الموضات معنى ذلك أنّها تدعو الناس إلى النظر إليها، تدعو الناس إلى التهامها بعيونهم، وتقول: إنها شريفة !! أين شرفها ؟! لو أنها شريفة لحجبت مفاتنها عن الذئاب، أقول: الذئاب بالذات.. لحجبت مفاتنها عن الذئاب.

مثال مضحك: إذا ركب أحدكم سيارةً عامةً تجد أبوابها منزوعة، لها وضع خاص هي لأنّها عامة، أمّا السيارة الخاصة تلاقيها منتظمة. كذلك عندما تظهر المرأة مفاتنها أصبحت عمومي ولم تصبح خصوصي، أي مستهلكة من الجميع، يستمتع بها الجميع، ولا شأن لها عند الله عزَّ وجلَّ.

أما هذه المرأة التي خلقها الله لتكون لزوجها عند إذٍ يرزقها الله بهاءً إلى أمدٍ طويل، سبحان الله المرأة التي تصون نفسها.. تجدها بالخمسينات مشرقة، والتي يراها الأجنبيّ صباحاً ومساءً.. فتجدها وهي في عمرٍ مبكرٍ يذهب رونقها ويذهب جمالها لأنها استهلكت،.. استهلكت وأهلكت.

وعن موسى بن يسار رضي الله عنه قال: مرَّت بأبي هريرة امرأة وريحها تعصف، _ الآن أين ما مشيت، على بعد ثلاث أمتار تشم ريحة المرأة، فالناس تدفع على العطورات مبالغ طائلة، النساء في الطريق إذا الواحد ليس منتبه يشعر برائحة نسائية.. فينظر.. طبعا أهل الدنيا _ فسيّدنا أبي هريرة مرَّ بامرأة وريحها تعصف، فقال لها: أين تريدين يا أمة ؟. قالت: إلى المسجد. فقال: وتتطيبين !. قالت: نعم. قال: فأرجعي فاغتسلي. _أي أنّه إذا خرجت المرأة متعطّرة خرجت زانية _ قال: فإنّي سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: لا يقبل الله صلاة من امرأة خرجت إلى المسجد وريحها تعصف حتى ترجع فتغتسل.

أي أنّ الموضوع حساس ودقيق وكل منا يعرف أبعاده ويعرف أنه كم من طلاق تم بسبب الاختلاط، كم من شقاء وقع في بيت بسبب التبرُّج، كم من انحراف وقع من زوج أو من زوجة بسبب الاختلاط، تعرض علي في هذا المسجد مشاكل كثيرة، أشياء لا تذكر..

رجل متغيّب عن زوجته، وقد دخلت إلى بيت الجار في غيبته، طبعا في إهمال للشرع، هذا الشرع إذا طبقته كان وقاية لك من المشكلات ومن المفاجئات ومن الأمور التي لا تحتملها، فإذا طبّقته ولم تكن عالماً بمضار الاختلاط نجوت،.. جاء رجل إليّ والله في هذا المسجد قصة حدثت منذ ثماني سنوات، بعد ما انتهاء خطبة الجمعة قال لي: والله زوجتي وجدتها تخونني مع رجل، وعندي منها خمسة أولاد. قلت له: فما السبب ؟.... قال لي: هذا جارنا.. القصة قالها لي من أولها.. قال لي والله قد دخل هذا الجار للبيت ليزورني، فقلت لها: يا أم فلان تعالي أحضري لنا القهوة فجارنا مثل أخاكي.

فهذا جاهل بما يكون من من عواقب الاختلاط، فالإنسان الذي يحب نفسه، يحب أن يقضي عمره كلّه مع زوجته في هدوء ودعة واطمئنان إلى أخلاقها وإلى استقامتها ووفائها، لا يعرِّض نفسه إلى المهالك بسبب جهله بالدين.

شخصٌ آخر دعى زوجته إلى العمل خارج المنزل بوظيفة حساسة لها علاقة بضرائب معينة، فجاءتها الهدايا، وجاءتها الأموال، اشترت بيت آخر، غابت عن البيت، استعلت على زوجها، فشعر انّه كما قيل بالمثل _ على نفسها جنت براقش _ ثمّ تركته بعد إذٍ.. فمن هو أمامها؟! هو معجب بها وبقيمتها وبدخلها ولكن على نفسها جنت براقش.. أحدهم نفخ قربة وتعلّق بها بالنهر، وفي منتصف الطريق فرغ هوائها فغرق.. فقال له بعضهم: (يداك أوكتا، وفوك نفخ.)، أنت نفختها وأنت ربطتها، ربك لم يرد ذلك !!، (يداك أوكتا) يعني ربطتا (وفوك نفخ).

هذا من صنعك.

اسمع أيام إنه: لازم تظهري على أخواتي كلّهم من دون شيء هؤلاء أخواتي، ما هذا ؟ هل هذا الكلام آية أم حديث ؟!! من أين جئت بهذا ؟! جهل.. أيام الأهل يشترطوا على الزوج إن ابنتهم تختلط مع إخوة زوجها، شرط قد شرطوه.. ويقولون له: لا تعمل لنا تفرقه بالعائلة نحن قد تربينا معاً، شيء جميل.. فما هذه العادات !!.

صنف آخر من الناس.. أين فلانة فإنني قد قمت بتربيتها، قد أصبحت زوجة، لا يجوز أن تحجبها عني فأنا الذي ربيتها.. فما هذا الكلام !! كلام جهل وتجد مضاعفات وانحرافات وغمز ولمز، ويفاجئوا بعضهم بأوضاع غير سليمة ويشتكوا من بعضهم ويخونوا بعضهم وتحدث العداوة بينهم، هذه كلها منافذ الشيطان، فإذا أردت أن تحيى سليما من هذه المشكلات فطبّق كتاب الله.

الآن إذا قام شخص بشراء آلة، اشترى سيارة فيوجد معها نشرة، السيارات الحديثة معها نشرة بالعربي.. قرأتها بكاملها بلغت حوالي الستين أو السبعين صفحة، وفيها متى يجب أن تضع الزيت، كيف تمسح الزجاج.. فإن مسحته من دون ماء فيتجرّح مثلا، لازم تفحصها من أسفلها كل فترة لكي تعزلها بالزفت وإلا يتآكل الهيكل، فقد وجدت أشياء ضرورية جدا، من الجهة التي على دراية عالية وتعطيك النصائح الصحيحة لصيانة السيارة؟.. المعمل.. أما إذا كانت سألت من ليس له علاقة بهذه المصلحة إطلاقا يعطيك نصائح غير صحيحة، لا تديرها فترة بالصباح.. تحمّيها.. فلا يوجد وقت فقائل ذلك لا يفهم.

فعندما يتلقى الإنسان نصائح بأمور حياته من جهات غير خبيرة..فسوف يدفع الثمن، أما إذا كان تلقى النصيحة من الخبير:

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14))

(سورة الملك: آية " 14 ")

نحن من خلقه.. نحن خلقناه، وهذا الكتاب: القرآن الكريم.. هو دستورنا في الحياة.. فإن لم تطبّقه تخاف من دفع الثمن.

كنت أقول دائما: إذا الإنسان لمسَ مدفأة فاحترقت يده، العلاقة بين لمسها واحتراق اليد.. هذه علاقة سبب بنتيجة.. أي فهي علاقة علميّة، أما إذا كان الأب اشترى درّاجة لأبنه لنجاحه في الفحص.. فهذه علاقة حكميّة.. أي أنّ الأب قال له: إن نجحت فسأشتري لك درّاجة، هذه علاقة ليست بالضرورة.. علاقة قد وضعها الأب.. فعندما نجح الابن نجح جاء له بالدراجة.

علاقة المعصية بنتائجها علاقة علميّة.. أي أنّ كل معصية يوجد فيها بذور نتائجها، من غير أن يتدخّل الله، نفس المعصية فيها،.. تيار ثلاثة آلاف فولت _ خطر الموت _ فهل لا يوجد خطر إن مسكه أحد ؟ يأتي المسؤول يكتبه ضبط ويخالفه بالموت !! لا.. فسيموت من نفسه منه، من دون تدخّل الدولة، إذا واحد مسك تيار ذو فولت عالي وخالف هذه اللوحة الّتي رسمت عليها.. جمجمة وعضمتين.. فإنّه سيتفحّم على الفور فلا توجد حاجة أن يكتبه مخالفة ويحال على القضاء ويجعله فحماً بالقضاء، فلا حاجة لذلك فمسك التيار نفسه يجعل صاحبه فحماً على الفور.

يجب أن تفهم الدين بهذا الشكل، الاختلاط يسبب خراب البيوت، التبرُّج يسبب فساد العلاقة بين كلّ الأزواج، كل معصية لله عزَّ وجلَّ تتسبب في فساد الحياة، من دون أن يتدخّل الله لا يعاقب أحد،فهو سبحانه وتعالى قد قام بعمل نظام دقيق فإن خالفت فستقع، الآن إذا واحد حرّك المقود على اليمين فجأة ويمينه ويوجد وادي هل توجد حاجة لأحد لأن يدفعه في الوادي ؟!.لا.. سيقع من نفسه بالوادي هذا التحريك للمقود بحدّ ذاته توجد فيه بزور الوقوع في الوادي.. هكذا الشرع، لذلك أوامر الشرع ليست قيوداً للإنسان ولكنها ضمان لسلامته.

لا أقول لكم من باب المبالغة: إذا أحبَّ الإنسان نفسه يستقيم على أمر الله، يحب أن يعيش حياة هادئة مع زوجته.. يقول لك: والله عشت معها خمسة وأربعين سنة ما رأيت منها شيئاً أكرهه، معنى ذلك انّك قد حصّنتها وحصّنت نفسك، أما المفاجئات لا يعلمها إلا الله،.. فأنا لا أريد أن أخوض في هذه الموضوعات كثيراً لأنني سمعت قصصاً والله يقشعر منها البدن بسبب الاختلاط.

قال أحدهم لأستاذ في المدرسة: أخي عنده ست أولاد من كل أخ واحد.. فله مني واحد ومن أخوه الثاني واحد ومنه واحد.. اختلاط، يقول هذا مثل أخي، لا ! (الحمو الموت.) الذي حرّمه الله فهو حرام، سبحان الله تجد عائلات في قمة الجهل.. الجهل ما له قمة.. بل في حضيض الجهل، أي إذا كان أراد الشاب أن يطبّق الشرع يقيموا عليه النكير، لماذا ؟ يقولون: من أين جاء بهذا الدين !؟ هذا قرآن كريم.. وحديث رسول الله، فهل لا يعجبكم كلام الله عزَّ وجلَّ:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآَتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (33))

(سورة الأحزاب: آية " 33 ")

وقال تعالى كذلك:

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آَبَائِهِنَّ أَوْ آَبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31))

(سورة النور: آية " 31 ")

معدودين سبعة لا يوجد غيرهنّ أمّا هذا أبن عمها.. فمن أبن عمها ؟ بالآية لم يرد ذكره، يقولوا: يا أخي هكذا نحن..هكذا تربينا، وكذلك لم يرد بالآية أبن خالتها وأخوا الزوجة، وخال زوجها، فبذلك يخالفون الشرع.. فتقع المشاكل.

والآن إلى بعض الأحاديث الشريفة التي درجنا قبل رمضان على شرحها بفضل الله وتوفيقه.. يمكن أن يكون الحق مر أو الحق قاسي على بعض الناس، ولكن هذا هو الحق.. إن نحن قلنا أن النسب النظامية للكلسترول بالدم بهذا القدر، فإذا كان عندك نسبة أعلى، تقول: أنا لا أشعر بشيء،لا.. يجب عليك أن تعلم أنّك مصاباً بحالة مرضية، فإذا الواحد انحرف عن الشرع هذه حالة مرضية والعلاج حتميّ، فإما أن يعالج نفسه قبل أن يعالجه الله عزَّ وجلَّ.. حتمية المعالجة.. رحمة الله عزَّ وجلَّ تقتضي أن يعالج كلّ العباد، يقول لك:لم يحدث شيء معنا، نحنا نخالف لم يحدث لنا شيء، هذا الكلام فيه جهل كذلك.. توجد أمراض دورة حضانتها ثلاثين سنة، وبعض الأمراض حضانتها عشر سنوات، وأمراض خمس سنوات.

إذا وضع أحد للأساسات بدلاً من سبع أكياس خمس أكياس فقط، لا.. لم يحدث شيء، بالضبط لم يحدث شيء.. لا بل انتبه فهذا الطابق الخامس أصبح في خطر.. هذا الحديث، صدق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.. لما سيدنا حنظلة كان يبكي في الطريق ورآه سيّدنا الصديق وقال له: ما لك يا حنظلة تبكي؟. قال: نافق حنظله. فقال له: لما يا أخي ؟. قال: نكون مع رسول الله ونحن والجنّة كهاتين، فإذا عافسنا الأهل ننسى.، قال له: أنا كذلك يا أخي، انطلق بنا إلى رسول الله.، عند النبي الكريم قالا له ما قالا، فقال عليه الصلاة والسلام:

أما نحن معاشر الأنبياء فتنام أعيننا ولا تنام قلوبنا، وأما أنتم يا أخي فساعة وساعة، لو بقيتم على الحال الذي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة ولزارتكم في بيوتكم.

الإنسان كلّ ما ارتقى إيمانه تشفّ نفسه، يصبح يرى ما لا يراه الناس. الآن إذا شعر أحد بنزول المطر.. يجوز واحد من أهل الدنيا، مطر قالوا اليوم في مطر.. اعرف لنا كم ميللي نازلة اليوم يأتي في نفسه المطر نزلت ومقدارها، وكان يجب أن لا تمطر لأنّ عنده شيء تاركه من دون تغطية مثلاً.. عنده أكياس من الإسمنت من دون ما يغطيهم.. هذا تفكيره ؛ أمّا المؤمن يرى المطر تنزل.. يراها رحمة من الله عزَّ وجلَّ يرى يد الله تنزلها، يرى استجابة الله لعباده،.. يخطر في باله معاني قد يبكي منها، كل هذه المعاني لا تخطر في بال الكافر أبدا.

عندما يأكل المؤمن الفاكهة يرى الّذي خلقها بهذا القوام بهذا الشكل بهذه الرائحة بهذا الطعم بهذا السعر بهذه الكمية بهذه الغزارة.. تراب في بستان يزرع فيه أشجار من الأجاص والتّفاح والخوخ والمشمش، أثمار متفاوتة في الأشكال والألوان والطعوم، هذه حامضة وهذه كثيرة الحلاوة، هذه هلامية هذه قاسية، هذه لها قشرة هذه ليس لها قشرة، هذه شكلها كمثرىّ هذه مربّعة الشكل، هذه شكلها كروي هذه شكلها دائري، هذه كبيرة هذه صغيرة،..يرى رحمة الله عزَّ وجلَّ، لذلك المؤمن يرى ما لا يراه الناس، لو كبر إيمانه أكثر يحس أن هذه المخلوقات تسبِّح الله عزَّ وجلَّ.

إذا إنسان رأى زهرة، والله تجد أنّه قد اقشعرَّ بدنه، كائن جميل الله خلقه تسبح بحمد الله، يتجنب أن يدعس على زهرة في الطريق، وإذا ارتقى المؤمن أكثر.. فيشعر كأنها تخاطبه ويخاطبها.

واحد صالح بقي بالطعام حبّة من الأرز في الصحن فأكلها قال: سمعتها تقول ربي لا تزرني فردا وألحقني بالصالحين.، الله خلقها هكذا من أجلك أيها الإنسان لما تتركها هكذا هملا ؟.. خلقت من أجلك.. فكلّ ما شفت نفس الإنسان يرى ويسمع ما لا يراه الناس وما لا يسمعون.. أمّا الأنبياء: أعرف حجرا بمكة كان يسلّم عليّ.

دخل على بستان اللهمّ صلّي عليه فرأى جملاً فلما رآه حنّ.. بكي الجمل.. فتقدَّم منه ومسح ظفريه وقال: من صاحب هذا الجمل ؟. فقالوا: فتى من الأنصار. فقال: أدعوه إليّ فلما جاءوا به، قال: أيها الفتى.. ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إيّاها، فإنه شكى إليّ أنّك تجيعه وتذئبه.

فإنه شكى إلي أنك تجيعه وتذئبه.. لا تنكر على العلماء الكبار، لا تنكر على العارفين بالله أحوالهم.. شفافية نفوسهم.. وكشوفاتهم قل: الله أعلم. فهذا القول: يا سارية الجبل الجبل ؟ هل أنت في مستوى سيّدنا عمر ؟.. وقال سارية: أسمع صوت أمير المؤمنين يحذّرني الجبل.، قال: يا سارية الجبل الجبل. فإذا سمع أحد هذه الحادثة من عالم.. دكتور في الجامعة.. يقول: هذه حقيقة علمية..كم نحن مخدّرين، دخل عندنا دكتور ونحن بالجامعة فقال لنا: هذه الحادثة اسمها التخاطر النفسي.

النفس لا تزال كائن مجهول لها شعاع، توجد حوادث سجّلها العلماء.. امرأة بإيطاليا ابنها في باريس، رأت وهي في المطبخ أن ابنها قد داسته سيارة، بعينها رأته.. هذه اسمها أحلام اليقظة.. بعد أربعة أيام جاء ابنها في نعش مع تقرير موته بنفس الدقيقة..هذه حادثة علميّة ثابتة اسمها _ التخاطر النفسي _ صعب تفسيرها لكنها واقعة، عندما يقولها دكتور بالجامعة فعند إذٍ تصبح حادثة.. يا سارية الجبل الجبل) صحيحة.. وإذا لم يقولها الدكتور فهي غير صحيحة.، هذا هو الجهل.. فأنت لازم إذا وجدت شيء بالعلم يوافق الدين تقبله وليس إذ كان الدين يوافق العلم تقبل الدين، الأصل هو الدين، الأصل ما جاء به كتاب الله.

بعض العلماء قالوا: الحقائق نوعان.. حقائق تنحدر إلينا عن طريق الوحي للأنبياء، وحقائق نكشفها عن طريق التجربة، مصدرها واحد..، ربنا عز وجل قال:

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69))

(سورة النحل: آية " 68، 69 ")

العسل فيه شفاء للناس.. هذا كلام الله، حقيقة ثابتة قطعيّة،.. يجوز أن يكون العلماء الآن قد كشفوا للعسل مليون فائدة، وألّفوا عنه الكتب.. هذا العلم جاءنا عن طريق التجربة، وكلمة: فيه شفاء للناس. هذا عن طريق الوحي،.. العلم الذي جاءنا عن طريق التجربة علم ناقص أحياناً يعتريه الشك والخطأ والنسيان، وأما العلم الذي جاءنا عن طريق الوحي، فكامل مكمّل.

أي إنّك إذا مسكت مذياع ونزعت منه صمّام، فتوقف الصوت.. قلت: هذا من أجل الصوت، قد يكون على طريق الصوت الصمام.. من أجل شيء آخر، أما إذا كان قال لك مخترع الجهاز: هذا الصمام من أجل ثلاثين فائدة.. هي كذا وكذا وكذا، هذا علم كامل من مخترع الجهاز، أمّا أنت إذا نزعت صمام ورأيت آثار نزعه.. غاب الصوت. قلت: هذا من أجل الصوت، فهذا خطأ، هذا علم ناقص.. قد يكون هذا على طريق الصوت.. أما هو مهمته تصفية الصوت لا إحداث الصوت.

العلم التجريبي علم له قيمته لكن يظلّ ناقص، أما علم الأنبياء كامل.. عندما قال ربنا:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآَتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (33))

(سورة الأحزاب آية " 33 ")

الآن العلماء الأجانب يقترحون إنشاء جامعات للفتيات وجامعات للذكور، في أمريكا نفسها، سبعة وعشرين ألف لقيط في الحدائق وجدوهم ملقون، فيه بلاد نصف سكانها لقطاء.. نصف سكانها، الآن عند الأجانب بدافع علمي بحت يقترحون أن تكون جامعات للفتيات وجامعات للذكور.

والآن إلى قصة لصحابي جليل رضي الله عنه وأرضاه

فقد قام بعمل كبير جداً.. هذه القصة مفادها أن المؤمن يجب أن يكون ذكياً، والله المؤمنين كلهم مكرمين، ولكن فيه مؤمن محدود.. وفيه مؤمن متّقد الذكاء، هذا المتّقد الذكاء.. فالله يجري على يده خيراً كثيراً.

قال: نعيم بن مسعود فتى يقظ الفؤاد المعيّ الذكاء خرّاج _ يفوت هون يطلع من هون.. أي أنّه برم باللغة العامية _ لا تعوقه معضلة ولا تعجزه مشكلة، يمثّل ابن الصحراء من كل ما حباه الله من صحّة الحدث وسرعة البديهة وشدّة الدهاء، لكنه كان صاحب صبوة..

أي له ميول وخدين متعة، كان ينشدهما أكثر ما ينشدهما عند يهود يثرب _ هذا طبعا قبل أن يسلم _ فكان كل ما تاقت نفسه لقينة أو غفى سمعه لوتر شد رحاله إلى منازل قومه بنجد، ويمّم وجهه شطر المدينة حيث يبذل المال ليهودها بسخاء ليبذلوا له المتعة بسخاء أكثر، ومن هنا كان نعيم بن مسعود كثير التردد على يثرب، وثيق الصلة بمن فيها من اليهود وبخاصة بني قريظة. ولما أكرم الله الإنسانية برسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان نعيم بن مسعود مرخي لنفسه العنان، _ لسه على كيفه ماشي _ فأعرض عن هذا الدين الجديد أشدّ الإعراض خوفاً من أن يحول هذا الدين بينه وبين متّعه ولذّاته،_أيام تجد شخص ليس له خلاف مع الدين عقائدي.. خلافه ليس أيدلوجي مع الدين، خلاف تضارب مصالح.. فهو له بعض من الشهوات مستمتع بها وخائف من أنّه إذا تدين ينحرم منها، يقول لك: لأ ما بدي يا أخي أنا بكير يا حوينتي أنا بكير علي هذا سيدنا نعيم كان من هذا القبيل، ثم ما لبس أن وجد نفسه.. وجد نفسه مسوقاً إلى الانضمام إلى خصوم الإسلام، أنضمّ إلى الخصوم.. كان على الحياد فانضم إلى الخصوم.. مدفوعاً دفعاً إلى إشهار السيف في وجه المسلمين.

لكنّ نعيم بن مسعود فتح لنفسه يوم غزوة الأحزاب صفحة جديدة في تاريخ الدعوة الإسلامية وخط في هذه الصفحة قصة من روائع قصص مكايد الحروب، الحقيقة مذهلة.. قصة مثيرة جداً، قصة ما يزال يرويها التاريخ بكثير من الانبهار بفصولها المحكمة، والإعجاب ببطلها الأريب اللبيب. فقبيل غزوة الأحزاب بقليل هبّت طائفة من يهود بني النضير في يثرب، وطفق زعماؤهم يحزّبون الأحزاب لحرب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والقضاء على دينه،فقدموا على قريش من بني النضيروحرضوهم على قتال المسلمين، وعاهدوهم على الانضمام إليهم عند وصولهم إلى المدينة، وضربوا لذلك موعداً لا يخلفونه، ثم تركوهم وانطلقوا إلى غطفان في نجد فأثاروهم ضد الإسلام ونبيّه، ودعوهم إلى استئصال

الدين الجديد من جذوره، وأسرّوا إليهم بما تمّ بينهم وبين قريش، _ أي أن وفداً من بني النضير ذهبوا إلى قريش وحرضوهم على قتال المسلمين، لكن ليس قتال استئصال.. بل حرب إبادة، إنهاء الإسلام كله _ وانطلقوا بعدها إلى غطفان وحرّضوهم كذلك، وعاهدوهم على ما عاهدوهم عليه وآذنوهم بالموعد المتّفق عليه.

خرجت قريش من مكة بقضّدها وقضيدها.. كما يقولون..، وخيلها ورجلها، بقيادة زعيمها سفيان بن حرب متجهةً شطر المدينة كما خرجت غطفان من نجد بعدّتها وعديدها بقيادة عيينة بن حصين الغطفاني، وكان في طليعة رجال غطفان بطل قصتنا نعيم بن مسعود، خرج مع الأحزاب ليحارب رسول الله، كان في القمّة، فلما بلغ الرسول صلوات الله عليه نبأ خروجهم، جمع أصحابه الكرام وشاورهم في الأمر، فقرّ قرارهم على أن يحفروا خندقاً حول المدينة ليصدّوا عنها هذا الزحف غير المقدس _ طبعا _ الكبير الذي لا طاقة لها به، وليقف الخندق في وجه الجيش الكثيف الغازي،.. هذا كله معروف لديكم.

وما كاد الجيشان الزاحفان من مكة ونجد يقتربان من مشارف المدينة حتى مضى زعماء يهود بني النضير _ انتبهوا دقيقاً _ إلى زعماء يهود بني قريظة القاطنين في المدينة _ الآن مؤامرة ثالثة._ زعماء بني النضير ذهبوا إلى زعماء بني قريظة وهم يسكنون في المدينة نفسها، وجعلوا يحرضونهم على الدخول في حرب النبيّ، ويحضونهم على مؤازرة الجيشين القادمين من مكة ونجد فقال لهم زعماء بني قريظة: لقد دعوتمونا إلى ما نحبّ ونبغي،ولكنّكم تعلمون أننا بيننا وبين محمداً ميثاقاً _أي في عهد بيننا _ على أن نسالمه ونوادعه لقاء أن نعيش في المدينة آمنين مطمئنّين، وأنتم تدرون أن مداد ميثاقنا معه لم يجفّ بعد _ أي فالحبر طري _ ونحن نخشى إذا انتصر محمد في هذه الحرب أن يبطش بنا بطشةً جبارةً، وأن يستأصلنا من المدينة استئصالا جزاء غدرنا به _ فهي عمليّة خطرة جداً _لكن زعماء بني النضير مازالوا يغرونهم بنقض العهد ويزيّنون لهم الغدر بمحمد صلّى الله عليه وسلّم ويؤكّدون لهم بأن الدائرة ستدور عليه في هذه المرّة لا محالة _أي يعني لا تغلطوا _ ويشدون عزمهم بقدوم الجيشين الكبيرين، فما لبث يهود بني قريظة أن لانوا لهم ونقضوا عهدهم مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، ومزّقوا الصحيفة التي بينهم وبينه، وأعلنوا انضمامهم إلى الأحزاب في حربهم _ لكنّ النبي الكريم حفر الخندق تجاه الجيش الغازي أما قريظة في ظهره يسكنون فوقع الخبر على المسلمين وقوع الصاعقة، حاصرت جيوش الأحزاب المدينة وقطعت عن أهلها الميرة والقوت، _ أصبحت محاصرة _ وشعر النبي صلوات الله عليه أنه وقع بين فكّي عدوّين ؛ قريش وغطفان وبني قريظة وبني النضير، فقريش وغطفان معسكرون قبالة المسلمين من خارج المدينة وبنوا قريظة متربّصون متأهّبون خلف المسلمون في داخل المدينة، ثم إن المنافقين الذين في قلوبهم مرض أخذوا يكشفون عن مخبّئات

نفوسهم ويقولون: كان محمد يعدنا بأن نملك كنوز كسرى وقيصر، وها نحن اليوم لا يأمن الواحد منا على نفسه أن يذهب إلى بيت الخلاء لقضاء حاجته،كنا نريد أن نصل لقيصر وكسرى الآن نريد أن نقضي حاجتنا لكن لا نستطيع _ ثم طفقوا ينفضّون عن النبيّ جماعة إثر جماعة بحجة الخوف على نسائهم وأولادهم وبيوتهم من هجمة يشنها عليهم بني قريظة إذا نشب القتال حتى لم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى بضع مئات من المؤمنين الصادقين، _ أعتقد هذه النقطة أخطر نقطة مر بها المسلمون _ وفي ذات ليلة من ليالي الحصار الذي دام قريباً من عشرين يوماً، لجأ النبيّ صلوات الله وسلامه عليه إلى ربّه، وجعل يدعوه دعاء المضطر ويقول:

اللهمّ إنّي أنشدك عهدك ووعدك، اللهمّ إني أنشدك عهدك ووعدك..في ذلك تعليم لنا إذا الإنسان وقع في مأزق حرج وكبير وتقطّعت به الآمال يلتجئ لله عزَّ وجلَّ، فهذا الّذي حدث بحسب الظاهر وبحسب التفكير العادي انتهى الإسلام.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (002) :ذكرى الإسراء والمعراج.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1986-04-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... لابد من أن نقف عند ذكرى الإسراء والمعراج، هذه الذكرى تمر على المسلمين مروراً يشبه أن تكون عادة من عوائدهم، يصوموا في هذا اليوم، ويشاهدوا الاحتفالات، ويستمعوا إلى الخطب، وانتهى الأمر، لذلك ترى أن المسلمين على كثرتهم، وهم يعدّون ألف مليون لا وزن لهم في الأرض، أما أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام فعلى قلّتهم كانوا هداةً للأمم، فالسؤال أنحن رجال وهم رجال ؟ النبي عليه الصلاة والسلام بشر ونحن بشر ؟!

الإنسان حينما يرى هذه العظمة، وهذا الخلق العظيم، وهذه الرفعة وهذا الذكر العلي، كيف يفكر ؟ دائماً هناك تفكير واقعي، وهناك تفكير غير مجدي، لو تصورنا إنسان فقير وله قريب غني، قد يملأ الحديث كله عن هذا القريب الغني ؛ كيف يأكل، أين يذهب، كيف يدعو الناس إلى ولائمه، كيف يسافر، كم ينفق، لباسه، بيته، فالحديث على هذا القريب الغني ماذا يجدي هذا الفقير ؟ الفقير هو هو، والغني هو هو، هذا التفكير غير واقعي. مهما تحدثت عن النبي عليه الصلاة والسلام هو هو ونحن نحن، ولكنك إذا عرفت أن هذا النبي العظيم كان قدوة لنا، كان هذا النبي الكريم هدفاً من أهداف الإنسان في الدنيا، إذا فكرت في مناسبات الإسراء والمعراج مثل هذا التفكير، احتفلت حقاً بذكرى الإسراء والمعراج.

النبي عليه الصلاة والسلام جاء إلى الدنيا وشغلته معرفة الله عز وجل، فحينما كان صغيراً كان يدعى إلى اللعب، له كلمة مأثورة كان يقول عليه الصلاة والسلام حينما كان طفلاً: لم أخلق لهذا، كأن هدفاً كبيراً يشغله، كأن طموحاً كبيراً يملأ ساحته، كأن هماً كبيراً يحمله، لم أخلق لهذا، تعبَّد في غار حراء، انقطع عن الناس، غار حراء لو أنك ذهبت إلى الأماكن المقدسة، وأردت أن تصل إلى غار حراء، لاحتجت بعد ركوب السيارة مسافةً طويلة عن مكة، إلى مشي شاق يزيد عن ساعتين أو ثلاثة ساعات، كي يصل إلى جبل اسمه جبل النور، كان عليه الصلاة والسلام يتعبَّد الأيام ذوات العدد، يوم ويمان وثلاثة، فهذا النبي عليه الصلاة والسلام، هكذا عرف الله عز وجل.

فهل أحدنا له مع الله جلسة ربع ساعة باليوم ؟ هل له ذكره ؟ هل له تفكُّره ؟ هل له تلاوته ؟ هل ينقطع عن الناس ويقبل على الله عز وجل، الاحتفال بذكرى الإسراء والمعراج من هذا القبيل، هكذا كان النبي، باب البطولة مفتوح على مصراعيه، النبي عليه الصلاة والسلام بشر ونحن بشر، الإنسان ألا يطمح أن يكون إنسان عالي الشأن عند الله، أيكتفي أن يكون عالي الشأن في الدنيا، أيكتفي أن يكون همه بطنه، أن يكون همه الدرهم والدينار، أيكتفي بهذا !!

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38))

(سورة التوبة)

النبي عليه الصلاة والسلام كان يتعبَّد الليالي ذوات العدد في غار حراء، في الأربعين جاءه الوحي، يعني نظري، صار مؤهلاً للرسالة، صار مؤهلاً لنشر الحق، لهداية الخلق، جاءه جبريل، قال: اقرأ، قال: لست بقارئ، والقصة المعروفة، عرف النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الوقت وقت نزول الوحي، أنه مبعوث العناية الإلهية، هذه الهموم العالية، التي كان يحملها قلبه الكبير، هذه الأهداف الكبيرة أن يعم الأرض الهدى التي كان يطمح إليها، جاء الوحي مصداقاً لها، دعا قومه إلى عبادة الله عز وجل، حاربه قومه، ضايقوه، شددوا عليه، كذَّبوه، ائتمروا عليه، عذبوا أصحابه، أخرجوهم، هنا السؤال: الله سبحانه وتعالى أليس قادراً أن يخلقه في بيئة لا كافر فيها ؟ سؤال: لو أن النبي عليه الصلاة والسلام وجد في بيئة كلهم مؤمنون، كلهم آمنوا به، وأحبوه، وعظموه، وبجلوه، وأيدوه، وليس له عدو ؟

النبي عليه الصلاة والسلام انطوى قلبه على كمالٍ عظيمٍ لا يظهر إلا بهذه المضايقات، جاءه جبربل، قال له: يا محمد أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك، لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين. قال:

((اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحد الله))

ضيق عليه قومه، ائتمروا على قتله، حاولوا أن يضيقوا على أصحابه، قاطعوه، هذا كله زاده صلابة:

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

الآن، أنا أصل إلى الإسراء والمعراج، حينما اشتدت عليه المحن، وحينما توفي عمه أبو طالب، وتوفي أقرب الناس إليه، عندئذٍ أسرى الله به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومن المسجد الأقصى عُرج به إلى السماء، في السماء رأى من آيات ربه الكبرى..

(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17))

(سورة النجم)

فيبدو أنه في الإسراء والمعراج عرف أنه سيد الأنبياء، وأنه سيد ولد آدم، وأنه باب الله، وهذا الباب لا ينبغي إلا لواحد من خلقه وهو النبي عليه الصلاة والسلام، النبي عليه الصلاة والسلام أكرمه الله عز وجل، فنحن ربنا عز وجل قال:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآَنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآَنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً (79))

(سورة الإسراء)

أنا الذي أريده من هذا الحديث عن الإسراء والمعراج شيءٌ واحد، ما علاقتنا نحن كمؤمنين بالإسراء والمعراج ؟ فهذه آية للنبي عليه الصلاة والسلام:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ)

(سورة الإسراء: من آية " 1 ")

هو آية كبرى له، أما نحن ما علاقتنا بالإسراء والمعراج ؟ نحن كبشر لا نرقى إلا إذا عرفنا الله سبحانه وتعالى، " ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء "، الناس غارقون في شهواتهم، غارقون في تجاراتهم، غارقون في أعمالهم، غرقون في أهوائهم، غارقون في ملذاتهم، لو كشف لهم الغطاء لأراهم خسارتهم، لوجدوا أنهم في خسارة لا تعوض، لذلك ونحن أحياء وقبل أن يفوت الأوان، الإسراء والمعراج يذكّرنا بأن أثمن شيء في الدنيا أن تعرف الله، فإذا عرفته كشف الله على بصيرتك، زادك هدىً..

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13))

(سورة الكهف)

إذا عرفته رفع لك ذكرك، ما من إنسان رفع الله مقامه وذكره كالنبي عليه الصلاة والسلام، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله..

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4))

(سورة الشرح)

فأنت أيها الأخ الكريم، أنا هذا الذي أُلِحُّ عليه اليوم، أنت أنت إذا تعرفت إلى الله سعدت في الدنيا، وسعدت في الآخرة، وفتح على بصيرتك، فرأيت ما لم يرَ الناس، سمعت ما لم يسمعوا، شعرت بما لم يشعروا، أحسست بما لم يحسوا، أدركت ما لم يدركوا، ورفعك الله مقاماً علياً في الدنيا قبل الآخرة، فالشيء الذي يدعو للعجب، كيف يرضى الإنسان عن نفسه وهو مقصر ؟ ألا يقول في نفسه أهذا بشر وأنا بشر ؟ أهذا النبي العظيم الذي اصطفاه الله، والذي رفع ذكره وقربه وكرمه، أهذا بشر وأنا بشر ؟ لا أقول لك كن مثله، باب النبوة قد خُتِم، أقول لك كن على أثره، اقتدي به، اقتفي أثره، اجعله قدوةً لك، اجعله أسوة لك، اجعله أمامك، اجعله هدفاً من أهدافك، فالنبي عليه الصلاة والسلام صبر على الأذى، وتحمَّل المضايقات، وتحمل التكذيب، وتحمل المعارضات، وائتمر عليه كفار قريش، وهو صابر محتسب ما غير وما بدل، فأكرمه الله عز وجل.

فأحياناً يتجلى الله على قلبك، فتنسى كل هموم الحياة، تنسى كل متاعبها، تنسى كل مشكلاتها، تحس أن لك عند الله شأناً كبيراً، تحس أن لك عند الله مقاماً، تحس أنك موضع عناية الله سبحانه وتعالى، تحس أنك في عنايته المشددة، فمغزى الإسراء والمعراج أنه ينبغي أن تتخذ النبي عليه الصلاة والسلام قدوة لك، أن تكون همومك سماوية لا أرضية، الآن تقعد مع واحد ما له هم إلا ارتفاع الأسعار، ومعاشه لا

يكفي، هذه النغمة لا يوجد عنده غيرها بكل حياته، لا يوجد حديث يديره إلا على دخله قليل، والحاجات تغلى، وما في إمكان يعيش، وكيف يزوج أولاده، ينسى أنه لما تزوج لم يكن عنده بيت، ينسى أنه لما كان في سن الشباب لا يملك شيئاً من حطام الدنيا، والله سبحانه وتعالى أكرمه، فنحن لما تمر ذكريات عزيزة على قلب كل مسلم لا ينبغي أن تمر هكذا، لا ينبغي أن تمر كعادة من عاداتنا، يجب أن تقف عندها.

ما الذي نستفيده نحن كما قلت قبل قليل: إذا إنسان فقير له قريب غني، جلس وحدثك عن هذا القريب ساعات طويلة، حدثك عن رحلاته، عن احتفالاته، عن ولائمه، عن بيته، عن ترتيب بيته، عن لبسه، وأنت، وهذا الفقير هو هو، فقير فقير، لكن لو تأمَّل هذا الفقير كيف صار قريبه غنياً ؟ ما الطريق الذي اتبعه ؟ ما الأسلوب الذي سلكه ؟ وبدأ يقتفي أثره إلى أن صار على شيء من الغنى، هذا تفكير صار مجدي، الآن هذا التفكير مجدي، إن وصفت لنا قريبك الغني، وأنت فقير أنت أنت وهو هو، ولكن إذا اتخذت من طريقته في تحصيل المال درساً لك، إن اتخذت من أسلوبه في جمع الثروة منهجاً لك، عندئذٍ يكون التفكير في هذا الموضوع مجدياً، هذا المثل للتوضيحي، إذا حدثتنا عن النبي عليه الصلاة والسلام فقط، هكذا كانت صورته، هكذا كان مربوعاً، هكذا كان أبيض اللون، كان أزهر، كان منطقه كذا وكذا، هذا الحديث على عظم شأنه، وعلى أنه يثلج الصدور، ولكنه غير مجدٍ لنا، لكنك إذا فكرت في النبي عليه الصلاة والسلام كيف عرف الله ؟ كيف أحبه ؟ كيف آثره على كل شيء ؟ كيف سخر كل إمكاناته لتعريف الناس به ؟ كيف صبر ؟ كيف ذكر؟ كيف شكر ؟ كيف كان عند الله ذا مكانة عليَّة ؟ إذا اتبعت سنته، واقتفيت أثره، فقد احتفلت بذكرى الإسراء والمعراج، قال عليه الصلاة والسلام:

((الصلاة معراج المؤمن))

(من شرح الجامع الصغير)

النبي عليه الصلاة والسلام لعلو مقامه عرج من الأرض إلى السماء، وفي السماء تجلَّى الله على قلبه فأراه حقائق الوجود..

(لَقَدْ رَأَى مِنْ آَيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18))

(سورة النجم)

(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17))

(سورة النجم)

(أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12) وَلَقَدْ رَآَهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15))

(سورة النجم)

الوصف صعب، فإذا واحد منكم بهذا العمر قرأ القرآن، ففاضت دموعه، وامتلأ قلبه رحمة، يعرف ما أقول، أحد العارفين بالله اسمه ابن عطاء الله الإسكندري، قال: " لا يعرف ما نقول إلا من اقتفى أثر الرسول " أي إذا كان تمكنت من أن تذوق طعم رحمته تصغر الدنيا في عينيك، هي، ومالها، ومتاجرها، ونساؤها، وبيوتها، ومزارعها، ووجاهتها، لا شأن لها عندك، مَن عرف الله زهد في نفسه، فالإنسان يحتاج إلى أن يجتهد، فإذا كان تمكن أ، يصلي بالليل ركعتين، ويتجه بهما إلى الله من كل قلبه، إذا تمكن أن يقرأ في اليوم صفحتين من كتاب الله ويتفاعل معها، أن يرى أمر الله فيعظمه، أن يرى نهي الله فيبتعد عنه، أن يقرأ قانوناً سنه الله لخلقه، فيتمسك به، ويبث في قلبه الطمأنينة، فكم الآن متاعب في الحياة، من مخاوف ؟ من مهلكات، إذا كان الإنسان قرأ قوله تعالى:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور: من آية " 48 ")

إذا قرأ قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج: من آية " 38 ")

إذا قرأ قوله تعالى:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79))

(سورة النمل)

إذا قرأ قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من آية " 97 ")

إذا قرأ قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً (96))

(سورة مريم)

إذا قرأ قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30))

(سورة فصلت)

هذا كلام إله، هذا الكلام الصحيح، هذا الكلام المعتمد، هذا الكلام الذي من عند خالق السماوات والأرض، اترك هذا الكلام، لا ترى لا ترى إلا شيئاً يبعث في النفس الضيق، والقلق، والخوف، والحزن، اللهم صل عليه كان أسعد الناس، فلو أنك اقتربت منه، لو أنك زرته، لو أنك شاهدته في

الرؤيا، لبقيت الأسابيع تلو الأسابيع مغموساً في سعادةٍ لا توصف، لأنه كان مع الله عز وجل، فما علاقتنا نحن بالإسراء والمعراج، قال عليه الصلاة والسلام:

((الصلاة معراج المؤمن))

(من شرح الجامع الصغير)

((لا خير في دين لا صلاة فيه))

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آَبَاؤُنَا)

(سورة هود: من آية " 87 ")

إذاً كان يصلي، سيدنا عيسى..

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً (31))

(سورة مريم)

فالشيء الذي يميز المؤمن الصادق عن غير المؤمن هي الصلاة، غير المؤمن عنده كتب، يقرأ كتاب، يتناقش، يحفظه، يتكلم فيه، يحدثك حديث ممتع، يتفلسف أحياناً، يتكلم كلام منمَّق، مطالعاته واسعة جداً، وثقافته جيدة، وذاكرته قوية، وفي عندنا روح دعابة، ليس هذا الدين بل هذه ثقافة إسلامية، الدين أن تكون موصولاً بالله عز وجل، فالنبي عليه الصلاة والسلام حقق أعلى صلة ينالها مخلوق في الكون في الإسراء والمعراج، وأنت أيها المؤمن يجب أن تحقق نوعاً من الصلة، فأنت تصلي، وتصلي، تقول:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2))

فهل قلبك شاكر لله ؟

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

(سورة الفاتحة)

فهل أنت مع هذه المعاني ؟ مع معنى العبادة، معنى الاستعانة، معنى الدعاء، معنى الرحمة، معنى الحمد، هكذا أنت ؟ الصلاة معراج المؤمن، لا خير في دين لا صلاة فيه، الصلاة ميزان فمن وفى استوفى، أي من وفى الاستقامة حقها استوفى من الصلاة ثمراتها، سيدنا سعد رجل وأنت رجل ؟ قال: " ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس، ما صليت صلاة فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها ". هذه البطولة، ألك صلة بالله بهذا المستوى ؟ إذا كان دخلت بالصلاة تشعر أن الله ينظر إليك، أنت بين يديه، تناجيه، تخاطبه، تتضرع إليه، ترجوه، تستغفره، تخاطبه، تناجيه، تدعوه، هكذا أنت في الصلاة؟ الصلاة معراج المؤمن.

النبي عليه الصلاة والسلام لعلو مقامه عرج إلى السماء، ورأى من آيات ربه الكبرى، وعرف أنه سيد الخلق وحبيب الحق، وعرف أنه صاحب المقام المحمود، والحوض المورود، عرف أنه لا إنسان فوقه في الوجود، هكذا، فأين أنت ؟ أين أنت من هذه المقامات؟ أنا مَن أنا، الله عز وجل إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، الباب مفتوح، يمكن أن يكون حجمك الاجتماعي متواضع جداً، عندك مصلحة صغيرة، وظيفة صغيرة، معك بكالوريا، لا أحد يعرفك، إذا واحد مشي بالطريق من عامة الناس، لا أحد ينتبه له، هؤلاء الأتقياء الأخفياء، ولكن لو أن لك عند الله مقاماً عظيماً، وشأناً كبيراً، وكنت محباً، مخلصاً، صادقاً، وأذاقك طعم قربه، قال له: يا رب لقد عصيتك فلم تعاقبني ـ هكذا المناجاة ـ فوقع في قلب هذا المناجي: أن يا عبدي قد عاقبتك ولم تدر، ألم أحرمك لذة مناجاتي. إذا واحد قام صلى صلاة شكلية، وإنسان ثاني صلى صلاة زاد قلبه حباً بالله، هذا مثل هذا ؟ هذا محروم، والثاني موصول.

واحد أحب فتاة اسمها وصال، خطبها من أبيها، أبوها عالم، فقال له: مهرها أن تجلس في مجلسي ـ فالقصة رمزية، تقول لي: كيف أحبها ؟ قصة رمزية ـ فيبدو أنه جلس في المجلس، وصار له أحوال طيبة، ونسي وصال، التقت به فقالت له: أين الموعد ؟ قال: يا وصال كنت سبب الاتصال، فلا تكوني سبب الانفصال.

فأحياناً الإنسان إذا اتصل بالله انتهت كل مشاكله، اتصل، هذا الصلح مع الله عز وجل، فالواحد لا يسمع ويمشي، العمر ثمين جداً، لا يسمع ويمشي بل يحاسب نفسه، له صلة مع الله ؟ إذا أحب يصلي قيام الليل ماذا يشعر ؟ قام صلى، لما يحس أنه بكي ذات مرة بالصلاة؟ ذرفت دموعه، اقشعر جلده، شعر أنه من أسعد الناس، في أخ ذهب للحج فلما جاءه زرته قال لي كلمة تركت بنفسي أثر قال لي: والله لم أجد من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني. أنت كذلك ؟ هل تقول أنا أسعد الناس ؟ لا شك لو كنت مع الله لقلت هذا، لأن الله لو تجلى على قلب الإنسان ينسيه كل متاعب الحياة.

النبي عليه الصلاة والسلام ما كان من الذين أوتوا الدنيا، دخل عليه عمر، كان ينام على الحصير، وقد أثر في خده الشريف، بكى سيدنا عمر قال له:

ـ يا عمر ما يبكيك ؟

ـ قال له

((رسول الله ينام على الحصير، وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير))

ـ قال

((يا عمر أما ترضى أن تكون الدنيا لهم والآخرة لنا ؟ يا عمر إنما هي نبوة وليست ملكاً))

فالصلاة ميزان، فمن وفَّى استوفى، مَن وفى الاستقامة حقها استوفى من الصلاة ثمرها.

حديث آخر:

((الصلاة نور))

(من الدر المنثور: عن " أنس ")

في بقلبك نور، نور كشَّاف، يريك الحق حقاً والباطل باطل، ترى المصلي لا يتورط ؛ كلامه سديد، نظره ثاقب، رؤيته صحيحة، إدراكه دقيق ، تفكيره عميق، دائماً في موقف كامل لماذا ؟ لأن الصلاة نور، الصلاة كما قال عليه الصلاة والسلام:

((طهور))

مصلي حاقد لا يوجد، مصلي متكبر لا يوجد، الصلاة نور الله سبحانه وتعالى الذي قذفه الله في قلب المؤمن في أثناء الصلاة محا منه الكبر، محا منه الأنانية، محا منه الاستعلاء، محا منه الحسد، محا منه الحقد، محا منه الضغينة، محا منه حب الذات، محا منه كل هذه الأمراض، لذلك الله عز وجل قال:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4))

(سورة القلم)

لماذا ؟ لأن إقبال النبي على الله عز وجل جعله طاهراً، طه يا طاهراً من الذنوب يا هادياً إلى علام الغيوب، هذه الصلاة، الصلاة طهور، الصلاة نور، الصلاة ميزان، فمن وفى استوفى.

((أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه في اليوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيئاً ؟ قالوا: لا يا رسول الله))

ـ قال: كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا.

(من الدر المنثور: عن " ابن مسعود ")

بهذه المناسبة المباركة مناسبة الإسراء والمعراج أتمنى عليكم أن الإنسان يعمل مراجعة لحساباته كلها، في مخالفة ببيته ؟ في مخالفة بعمله؟ في عليه حقوق للناس ؟ في تقصيرات ؟ في تقصير بالصلاة ؟ صلاته شكلية أم حقيقية ؟ غض بصره حازم أم شكلي ؟ إذا كان ماشي مع آخ تغض بصرك ولحالك تتطلع ؟ أهذا إيمان ؟ ألك وضع خاص في البيت، ووضع خاص من الناس، في البيت متساهل، ومع الناس متشدد ؟ أهذا إيمان ؟ أأنت في مستوى أن تكون ولياً لله عز وجل ؟ فالإنسان يعمل حساب لحاله، ما دام القلب ينبض فالباب مفتوح، كله يتعدل، الصلحة بلمحة، كله يتعدل، فالإنسان لا يسمع ويمشي، إذا سمع ومشي لم يستفد، يكون استهلك وقته استهلاك رخيص، ما دام العمل محدود، والهدف سامي، والطريق قصير فلابد من أخذ الحيطة قبل فوات الأوان، الصلاة معراج المؤمن، " الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين "، " بين الرجل المؤمن والكفر ترك الصلاة، فمن تركها فقد كفر "، فالنبي عليه الصلاة والسلام ربنا قال:

(وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7))

(سورة النجم)

وعد البلاط، لم يأتِ البلاط لم يأتي، وعده لم يأت لا حول الله، أول ما فتح عينه، " مَن أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة" فأتمنى كما قال عليه الصلاة والسلام: شمروا فإن الأمر جد. شيء خطير جداً، شمر، قل يا رب، اعمل لحالك برنامج حازم، قراءة قرآن، ذكر، تفكر، عمل صالح، سجل، ابحث عن عمل صالح، لك أخت ساكنة بمنطقة التل، اطلع لعندها، ادعوها إلى الله، لها أولاد أكرمهم، لك جار يحتاج مساعدة ساعده، قدم له هدية، لعل يميل قلبه إليك، فتأتي به على الجامع، اهدي لك واحد، زوجتك لا تصلي صلاة متقنة..

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)

(سورة طه: من آية " 132 ")

أولادك، بعملك في خلل، أصلحه، في بضاعة محرمة اخلص منها، في علاقة مشبوهة، علاقة بالبيع والشراء غير صحيحة تخلى عنها، قل: يا رب لا أعصيك مهما كلف الثمن. هذا المؤمن، فإذا كان في يوم ذكرى كالإسراء والمعراج تقلبه رأساً على عقب، والله هذه الذكرى الحقيقية، أما يمر الإسراء والمعراج، ويمر بعده خمسة عشر شعبان، ويأتي بعدها رمضان، ونسهر لأنصاف الليالي، ونتسحر وننام قبل صلاة الصبح، ونرى بعض البرامج، إكراماً لشهر رمضان المبارك نراها، هذه إكراماً لشهر رمضان، ونعيِّد، ونعمل سيران مختلط، وتمر أول سنة والثانية والثالثة..

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً)

(سورة البقرة: من آية " 74 ")

تجد الله عز وجل ندعوه فلا يستجيب لنا، لماذا ؟ من إصرارنا على ذنوبنا، يقول العبد يا رب يا رب، ومأكله حرام، ومشربه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له. هذا الذي أردت أن أقول شمروا فإن الأمر جد، وتأهبوا، من يعرف متى المنية ؟ فما منا واحد إلا قطع مرحلة من العمر، إن كان عشرين، وإن كان خمسة عشر، وإن كان ثلاثين، وإن خمسة وثلاثين، إن كان أربعين، إن كان خمسة وأربعين، إن كان واحد وخمسين، إن كان اثنين وستين، ماذا يتأمل يبقى ستين سنة من عمره أخر ؟ مضى ستين إن شاء يبقى أمامه عشرين أخريات، مضوا ستين بقوا عشرين، مضوا أربعين صفي أربعين، مضوا ثلاثين صفي ثلاثين، فالشغلة ما معها لعبة، فهذه الساعة العصيبة، ساعة الوفاة، ساعة لقاء الله، إذا الإنسان اشتغل الآن يشعر نفسه بالجنة، لو جاء ملك الموت، شخص كان في حالة النزاع، دخل لعنده أولاده، وجدوه مستبشراً ضاحكاً، فقال لهم: بابا قم سلم على عمك. ما في أحد، عمك، قم فوراً قبل يده، ياما نحن كنا مع بعضنا، تعاوننا مع بعضنا، أكرمنا، ما في عم ولا يوجد أحد، الله عز وجل بعث له الملائكة بأحب الناس إليه، هكذا المؤمن، إذا كان جاءته المنية يأتيه ملك الموت بأحب الناس إليه.

إذاً الإسراء والمعراج هذا رفع النبي عليه الصلاة والسلام إلى الأوج، رفعه إلى سدرة المنتهى، رفعه إلى مقام ما بعده مقام، رفعه إلى سيادة الخلق، أنا سيد ولد آدم ولا فخر، أنت اجعله قدوة لك، هذا الدي

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً (31))

(سورة مريم)

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة البينة)

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

(سورة العصر)

إذا تمر المناسبات الدينية هكذا، نفهم جوهرها، هكذا، نفهم إن كان عرج بروحه أو جسده، هذه الخلافيات لا تقدِّم ولا تؤخر، هي آية له، الله أعلم..

(لِنُرِيَهُ مِنْ آَيَاتِنَا)

(سورة الإسراء: من آية " 1 ")

نحن يعنينا أن نتخذ من الصلاة معراجاً لنا.

والآن إلى بعض شمائله صلى الله عليه وسلم:

إذا الإنسان أصلح الخلل باستقامته، وأصلح وجهته، وأخلص نيته وانضبط انضباط كامل، وفعل الأعمال الطيبة كل يوم، لازم يقول: أنا أسعد الناس، لازم يقول: أنا حققت الهدف الأسمى من خلقي.

هذا الشيء بيدكم على قدر جهدكم ونشاطكم تقطفوا الثمار.

سيرته صلى الله عليه وسلم في سكوته. قال الحسين رضي الله عنه: " سألت أبي علياً رضي الله عنه كيف كان سكوته صلى الله عليه وسلم ؟ "

فقال: " كان سكوته على أربع ـ أي إذا سكت فهناك أربع حالات يسكت فيها، كيف أحياناً السكوت يرفع قيمة الإنسان، جالس بجلسة كله كلام سخيف، ظل هكذا ساكت، أنت فوق المستوى، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان سكوته على أربع ـ الحلم ـ واحد تطاول، تجاوز حده، ممكن ترد عليه بكلمة يرد عليك بعشرة، تحاكيه كلمة قاسية يتكلم أقسى، ليس من الحكمة أن ترد عليه السكوت، الحلم، إذا واحد سفيه، إذا نطق السفيه فلا تجبه، فخير من إجابته السكوت، إذا سكت اللهم صلي عليه فسكوته عن حلمٍ، وقد يسكت النبي عليه الصلاة والسلام عن حذر، فالنبي الكريم قال: احترس من الناس بسوء الظن..

احفظ لســانك أيها الإنســـان لا يلدغنك إنه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعان

* * *

السكوت عن حذر، قال عليه الصلاة والسلام:

((احترسوا من الناس بسوء الظن))"

(من الجامع الصغير: عن " أنس ")

سوء الظن عصمة، الحزم سوء الظن، والتقدير، حالةٌ ثالثة كان يسكت فيها، فقد كان يفكر، أهذا الكلام مفيد أم غير مفيد ؟ مجدٍ أم غير مجد، كان يقدر الأمور وهو ساكت، والتفكر، شرب كأس ماء، نظر إلى ابنه، نظر إلى أرضية الغرفة، فيها سجادة من الصوف، يتذكر قوله تعالى:

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ)

(سورة النحل: من آية " 5 ")

السجاد يمنع الرطوبة، لابس رداء صوف مثلاً فذكر الله عز وجل، هذه الكنزة الصوف ذكر الله عز وجل، هذه الكنزة فضل من الله عز وجل، فالتفكر مثلما قال النبي الكريم:

((أمرني ربي بتسع ؛ خشية الله في السر والعلانية، كلمة العدل في الغضب والرضا، القصد في الفقر والغنى، أن أصل مَن قطعني، أعفو عمن ظلمني، أعطي من حرمني، أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرة))

شيء جميل: الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكر، في أربع حالات يجب أن تسكت.

وجُمِعَ له صلى الله عليه وسلم الحلم والصبر، فكان لا يغضبه شيء ولا يستفزه، الحلم سيد الأخلاق، كاد الحليم أن يكون نبياً، لا يكون الرفق في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه، جمع له صلى الله عليه وسلم الحلم والصبر، فكان لا يغضبه شيءٌ ولا يستفزه.

صحابي سرق ماله، قال: يا ب إن كان الذي أخذه عن حاجة فبارك له فيه، وإن كان قد أخذه بطراً، فاجعله آخر ذنوبه.

صحابي جليل تهجَّم عليه أحد الناس، تطاول عليه، فقال: يا أخي إن كنتم صادقاً فيما تقول غفر الله لي، وإن كنت غير ذلك غفر الله لك. انتهى الأمر، لما الإنسان يكون له صلة بالله تجده مثل البحر، هادئ، لا يستفزه شيء، لا يغضبه شيء، لا يحزن على شيء، إلا على طاعة فاتته.

وجمع له الحذر صلى الله عليه وسلم في أربع: أخذه بالحسن ليقتدي به، انتق الكلمة الحسنى، التفرق الحسن، النظرة الحسنى، الهيئة الحسنى، كان يأخذ بالحسن، أي بكل شيء حسن، ليقتدي به، وتركه القبيح ليتناهى عنه، واجتهاده الرأي فيما يصلح أمته، والقيام فيما جمع للدنيا والآخرة، أي له عمل يكسب رزقه، وإن كل عاقل إذا تدبر هذه الأوصاف الكاملة، والأخلاق الفاضلة، والخصال الحميدة، والمزايا الرشيدة التي تأصَّلت في سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم، واجتمعت كلها فيه على أكمل وجوهها. النبي عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه قال:

((ليس كل مصلٍ يصلي..."))

(من كنز العمال: عن " حارثة بن وهب ")

ليس، يوم الجمعة تجد لا يوجد مكان بالمساجد، لو أن هؤلاء يصلون صلاة صحيحة لكنا في خير، لكنا في بحبوحة، لكنا في راحة نفسية، لكنا في طمأنينة، لكنا في يُسر، لكنا من سعداء الدنيا، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول في الحديث القدسي:

((ليس كل مصلٍ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي ـ أي عرفني حق المعرفة، فكر في آلائي، فكر في الكون، فكر في جسده، فكر في طعامه، في شرابه، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي ـ وكف شهواته عن محارمي ـ وقافٌ عند كتاب الله، إن الله عز وجل أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي ـ ولم يصر على معصيتي ـ يعني إذا غلط، فعلى الفور يتوب، أما غلط يستمر، لم يعد مؤمن، لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار ولم يصر على معصيتي ـ و أطعم الجائع، وكسا العريان ورحم المصاب وآوى الغريب...))

له عمل طيب، يطرق كل أبواب الخير، إطعام الطعام، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، إغاثة اللهفان، إقراض المحتاج، معوانة الضعيف

((إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي وكف شهواته عن محارمي ولم يصر على معصيتي وأطعم الجائع وكسا العريان ورحم المصاب وآوى الغريب، كل ذلك لي خالصاً لي))

فإذا الإنسان ذاق طعم الإخلاص، لو أنه عمل صالح ما تكلم به إطلاقاً، لا يعلمه إلا الله، ماشي بالطريق مرت امرأة أمامه، غض بصره عنها غضاً حازماً، لا أحد يرى ذلك، لا أحد يحس عليه، لا أحد يثني عليه، إلا أن الله سبحانه وتعالى رأى منه هذا الورع وهذه العفة فأحبه، عبدي المؤمن أحب إلي من بعض ملائكتي، إن الله ليباهي الملائكة بالشاب المؤمن يقول: انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي، كل ذلك لي

((وعزتي وجلالي إن نور وجهه لضوء عندي من نور الشمس "))

((لذلك سيماهم في وجوههم، لو أن الوجه الحسن رجلٌ لكان رجل صالحاً، ولو أن الوجه القبيح رجلٌ لكان رجل سيئاً، القبح والجمال ليس بالملامح، بالنور، سيدنا بلال كان جميل الصورة، في نور بوجهه، أحياناً تجد واحد في نور بوجهه آخاذ، أما بمقاييس الجمال دون الوسط، فالمقاييس النورانية في القلب ـ وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس على أن أجعل ـ بهذه الصلاة الصحيحة ـ الجهالة له حلماً والظلمة نوراً، يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه، ويقسم علي فأبره، أكلأه بقربي وأستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس لا يمس ثمرها ولا يتغير حاله))

(من كنز العمال: عن " حارثة بن وهب ")

بعد أن أمضينا دروساً كثيرة في شمائل النبي عليه الصلاة والسلام، ليسأل كلاً منكم نفسه هذا السؤال: ماذا طبقتم من هذه الشمائل ؟ فهل أحدكم سمع شيء من أخلاق النبي العالية فاقتدى بها في حياته اليومية ؟ إذا واحد حقق شيء من هذه الأخلاق والله استفاد فائدة كبرى، أما إذا كان استمع ولم يطبق فقد خسر خسارة كبرى، لأن العلم علمان مطبوع ومسموع، العلم الذي على اللسان حجةٌ على ابن آدم، والعلم الذي في القلب ذلك هو العلم النافع.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (003) : باب الخوف والرجاء - الموازنة بين الخوف والرجاء.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-06-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... لا زلنا مع الحديث النبوي الشريف، ولا زلنا في كتاب رياض الصالحين، وفي هذا الكتاب أبواب عدَّة، من هذه الأبواب باب الخوف، ومن هذه الأبواب باب الرجاء، ومن هذه الأبواب باب الخوف والرجاء معاً، أي لابد من أن يجتمع في قلب المؤمن خوفٌ ورجاء..

(يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً)

(سورة السجدة: من آية " 16 ")

(وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً)

(سورة الأنبياء : من آية " 90 ")

والله سبحانه وتعالى كما قال في الحديث القدسي، حينما سأله سيدنا موسى في المناجاة:

((ـ يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك فقال: أحب عبادي إلي تقي القلب نقي اليدين، لا يمشي إلى أحدٍ بسوء، أحبني وأحب مَن أحبني وحببني إلى خلقي ـ قال: يا رب إنك تعلم أني أحبك وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ـ قال: ذكرهم بآلائي وبنعمائي وبلائي))

(من كنز العمال)

من أجل أن يجتمع في قلب المؤمن خوفٌ ورجاء، ذكرهم بآلائي من أجل أن يعظموني، ذكرهم بنعمائي من أجل أن يحبوني، ذكرهم ببلائي من أجل أن يخافوني، محبة من دون خوف، قد يشتط معها الإنسان، خوفٌ من دون محبة، قد يقع في اليأس والقنوط، الخوف وحده وضع غير صحيح، الرجاء وحده وضع غير صحيح، أما إذا اجتمع الخوف والرجاء أن يعبد الله رغباً ورهباً، خوفاً وطعما، يجمع بين محبته وبين الخوف منه، لأن اليأس قاتل، والمحبة من دون خوف، العارفين بالله قال: " يا ربي والله لو عرفوك ما عبدوك "، لو عرفوا ما عنده من رحمة لما عبدوه، فإذا لما يعبدوه شقوا، وقعوا في الشقاء.

سيدنا عمر رضي الله عنه، حينما قال له أبو ذر رضي الله عنه:

ـ والله يا أمير المؤمنين إن الناس يخافون شدتك.

فبكى سيدنا عمر، وقال:

ـ والله يا أبا ذر ما يعلم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عباءتي هذه.

في قلبه رحمة، ولكن لا يناسب أن تكون هذه الرحمة بادية وحدها، لذلك المربي، المعلّم، الأب، من السهل أن يكون ليناً، ومن السهل أن يكون قاسياً، القسوة شيءٌ سهل، ضرب مبرح وانتهى الأمر، أو حبلٌ أرخي على غاربة، ولكن البطولة أن تجمع بين الشدة واللين، بين الضبط وبين التساهل، بين الرحمة وبين المحاسبة.

فربنا سبحانه وتعالى، المؤمن أحياناً يرى من رحمته، ومن في تجلياته، إلى درجة أنه يطمع بهذه الرحمة فيقصِّر، تأتي الشدة، يأتي التضييق فينضبط، ينضبط إلى أن ييأس، يأتي التجلي فيرتاح، فربنا عز وجل يقلّب هذا المؤمن بين الشدة والرخاء، فإذا أعطى أدهش، وإذا حاسب فتَّش، إذا تجلى على قلبك ظننت أنه لن يبقى في النار أحد، وإذا أذاقك من شدته ظننت أنه لن يدخل الجنة أحد، وربنا عز وجل حكيم ؛ يقلب بين حالتين، والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء.

إذاً لفت نظري في هذا الكتاب، باب الخوف، وباب الرجاء، وباب الخوف والرجاء معاً، الحالة الصحية، الحالة السليمة السوية أن يجتمع في قلبك خوف ورجاء، ذكرهم بآلائي أي بآياتي من أجل أن يعظموني، لأن الله عز وجل يقول:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: من آية " 28 ")

وذكرهم ببلائي من أجل أن يخافوني، وذكرهم بنعمائي من أجل أن يحبوني، فإذا دعوت إلى الله أيها الأخ الكريم، فاسلك هذا المنهج، ذكر الناس بآيات الله، اتلو عليهم آيات الله، آيات الله نوعان ؛ آيات كونيةٌ وآيات قرآنية، هذا الكون خلقه، وهذا القرآن كلامه، اتلوا عليهم آيات الله، ذكرهم بآياتي، بآلاء الله، وذكرهم بنعمائه، فلو الإنسان عرف قيمة كليتيه لذاب لله شكراً لله، لا يعرف قيمة الكليتين إلا من اضطر إلى أن يغسلهما في الأسبوع مرتين، وكم ينتظر، وكم يتألّم، وكم يدفع من أمواله، وقد لا ينجح الغسيل، كلٌ منا له كليتان تعملان بانتظام، هل شكر الله عز وجل عليهما ؟ هل شكرت الله على كمال خلقك ؟ النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا نظر إلى المرآة قال:

((اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي))

(من الأذكار النووية: عن " ابن عباس ")

مَن أدرك الإسلام والصحة ما فاته شيء، ذكرهم بنعماء الله، ذكرهم بآيات الله، ذكرهم ببلاء الله، هناك نقطة مهمة جداً، ليس كل الناس يخافون الله عز وجل، ليس كل الناس يخافون النار، لذلك يتفلّتون من منهج الله، من أجل ألا تفسد الأرض، ربنا سبحانه وتعالى يعجِّل بالعقوبة لبعض العباد، ترى أمراض وبيلة، ترى فقر متقع، ترى مرضين بآن واحد، أدوية هذا المرض يتفاقم لها ذاك المرض، أدوية هذا

المرض يتفاقم لها هذا المرض، ترى حياة زوجية تعيسة أحياناً، ترى شقاق زوجي، ترى أمراض وبيلة، ترى قهر، ترى فقر، هذه تذكّرنا ببطش الله عز وجل..

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12))

(سورة البروج)

فلذلك، من باب الخوف، وباب الرجاء، وباب الخوف والرجاء في أحاديث كثيرة، اخترت لكم من باب الخوف هذا الحديث، وهذا الحديث سمعتموه مني كثيراً، ولكنني بين أنني أن أذكر الحديث كشاهدٍ، وبين أن أفصِّل فيه.

عن أبي برزة نضلة بن عبيد الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لا تزول قدما عبدٍ...))

أحياناً في بالدنيا شيء يشبه هذا الموقف ؛ وأنت تسافر، لا تُعْطى بطاقة الركوب الصعود إلى الطائرة إلا بعد أن تفتش حقائبك، إلا بعد أن يعرض اسمك على قائمة معيَّنة، فإن كنت فيها مُنِعْتَ من السفر، لابد من أن تأتي بشهادة تلقيح، لابد من أن تأتي ببيان، لابد من أن تأتي بطابع، لابد من أن تأتي بقسيمة، وغيرها.. لن تعطى هذه البطاقة البطاقة الأخيرة لصعود الطائرة حتى تحاسب، وحتى تسأل، وحتى تدفع، وحتى تقدِّم، وحتى توقِّع، وحتى وحتى، لا تزول قدما عبدٍ، وقد لا تأخذ هذه البضاعة حتى تقدم هذه الشهادة الصحية، وهذا الدليل، وهذا البيان، وهذه الفاتورة، وهذه براءة الذمة، وهذه وهذه، لا تنتقل إلى استلام البضاعة، لا تنتقل للسفر، إلا وتشعر أنك مقيد، هناك مَن يسألك، هناك مَن يحاسبك، أين الشهادة الصحية لهذه البضاعة ؟ ائتي بها وتعالى، تأتي بها، ائتي بالوثيقة الفلانية، ائتي ببراءة الذمة، ائتي بكذا بكذا بكذا.

((لا تزول قدما عبد))

أي لن ينصرف إلى الجنة ولا إلى النار، بعد أن يسأل، النبي عليه الصلاة والسلام لما قال: يحشر الأغنياء أربع فرق يوم القيامة، فريق جمع المال من حرام ـ عنده ملهى ولكنه درجة أولى ـ وأنفقه في حرام ـ جمع من هذا الملهى وأنفقه على الليالي الحمراء، أو الموائد الخضراء، هذه تعبيرين ـ فيقال خذوه إلى النار ـ وفريق جمع المال من حلال ـ تجارة مشروعة، ولكن ـ أنفقه في حرام ـ أنفقه في الليالي الحمراء وعلى الموائد الخضراء ـ فيقال: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حرام ـ من تجارة غير مشروعة ـ وأنفقه في حلال ـ تزوج واشترى بيت، واشترى مركبة ـ فيقال: خذوه إلى النار ـ فيكفي فقرة من الفقرتين أن تكون حراماً إما الجمع أو الإنفاق، أما الفريق الرابع هو ـ الذي جمع المال من حلال وأنفقه في حلال ـ التجارة مشروعة، والإنفاق مشروع، هذا يسأل، هذا قفوه فسألوه: هل ضيع فرض صلاة، هل قصر في حق إخوانه، هل قال جيرانه: يا رب قد أغنيته بين أظهرنا، فقصَّر في حقنا،

قد نسي الأرملة والمسكين، هل نسي قريباً له بعيداً مفتقر، هل نسي أختاً له، هل نسي مَن يلوذ به، هل شعر أنه فوق الناس، هل، هل، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان بليغاً، أشد البلاغة، فلكي يعبِّر عن كثرة الأسئلة، وعن شدة المحاسبة، وقف انتظر طويلاً، أسئلة كثيرة جداً، قال: فما زال يسأل ويسأل " أي ضاق خلقه، انتظر انتظر أسئلة كثيرة، أحياناً خمسمائة سؤال سألوني، ملأت عشرين استمارة، هذا مع إنسان هكذا، فكيف مع خالق البشر.

إذاً، لا تزول قدما عبد حتى يسأل، وربنا عز وجل يقول:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

أي إلى درجة لماذا قبَّلت هذا الابن ولم تقبِّل أخاه، أيها القاضي لماذا ابتسمت لفلان ولم تبتسم لفلان ؟ أيها القاضي لماذا قلت لهذا الخصم أبو فلان، وقلت لهذا باسمه الصريح، والقصة معروفة، سيدنا علي عندما كان مع سيدنا عمر، فجاء يهودي يقاضيه، فقال عمر رضي الله عنه: قم يا أبا حسن فقف إلى جنب الرجل، هكذا العدل، فتغير لون سيدنا علي بعدما حكم له، قال:

ـ يا أبا حسن أوجدت علي ؟

ـ قال: نعم.

ـ قال: ولمَ ؟

ـ قال: لما ناديتني يا أبا الحسن، ولم تقل لي يا علي ؟ لقد ميزتني عنه.

قاضي يرحب بواحد يعبس في الثاني، سوف تسأل، ففي أسئلة كثيرة:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

المعلم مسؤول عن تلاميذه، الطبيب: لمَ لمْ تعتني بهذا المريض، أخذت منه كما تريد ؟ لمَ لمْ تسأله عن حساسية هذا الدواء ؟ صار معه صدمة عندما أخذ الدواء، الطبيب يسأل، المحام يسأل: لمَ قدمت مذكرةً ضعيفة فخسرت الدعوة، وقد وضع ثقته فيك ؟ البائع يسأل: لمَ لمْ تقل له هذا القماش ينكمش ؟ قل قضية فيها سؤال.

فلذلك الإنسان، هذه كلمة أقولها لكم والله من أعماقي، البطل ليس من يقطع طرقاً بطلاً، إنما مَن يتقي الله البطل، البطل هو الذي يهيئ، لكل موقف يقفه جواباً لله عز وجل، لا للبشر، قد تكون ذكياً فتهيئ جواب مقنع ومسكت لكل مَن يحاسبك، ولكن البطولة أن تهيئ الجواب لله عز وجل، الله عز وجل يعلم السر وأخفى، يطلع على ما في القلوب.

فعن أبي برزة نضلة بن عبيد الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه))

لنأخذ فقرات هذا الحديث واحدة واحدة، فهذا العمر المديد، شخص عاش ستين سنة، مر عليه ستين ربيع، وستين خريف، وستين صيف، وستين شتاء، كم مرة أكل العنب ؟ كم مرة أكل البطيخ ؟ كم مرة أكل الفواكه ؟ كم مرة أكل البرتقال ؟ كم مرة ذهب إلى بعض البساتين في الربيع رأى هذا الجمال الأخَّاذ ؟ كم مرة رأى آيات الله تتلى عليه ؟ كم مرة رأى الشمس تشرق والشمس تغيب ؟ فربنا عز وجل قال:

(أوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ)

(سورة فاطر: من آية " 37 ")

عمَّرت، عشتم ما فيه الكفاية، أمضيتم وقتاً طويلاً، لو أنكم تودون أن تتعرفوا إلى الله لتعرفتم إليه..

(أوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر: من آية " 37 ")

الأقارب ماتوا أمامكم، الرأس اشتعل شيباً، العمر أربعين، العمر ستين، الأنبياء جاءوا، القرآن نزل، العلماء يتكلمون، المصائب كثيرة، هذه كلها نذير، لذلك، لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره، أنا أشعر أن في إنسان عمره رخيص، والزمن عنده رخيص، يستهلكه استهلاكاً رخيصاً، ينام حتي يشبع، يجلس سهرة للساعة اثنين ليلاً كلام فارغ، حديث في الدنيا، كلام ليس له معنى إطلاقاً ؛ فلان، وعلان، وزيد وعبيد، وفلان تزوج، وفلان طلق، وفلان أكل، وفلان شرب، وفلان سافر، وفلان سرق في هذا السفر ثلاثين ألف، وفلان لم يسافر، وفلان سمحوا له، وأفلام لم يسمحوا له، وفلان أرسلوه بعثة، وفلان لم يبعثوه بعثة، فلان اشترى بيت، طلع البيت مباع سابقاً، هذا الكلام كله فارغ، النبي عليه الصلاة والسلام، قال:

((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))

(من الأذكار النووية: عن " أبي هريرة ")

((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس))

(من الجامع الصغير: عن " أنس ")

أحياناً، سيدنا الشافعي كم عاش ؟ تسعة وأربعين عاماً، مؤلف هذا الكتاب الإمام النووي مؤلف رياض الصالحين، الذي ترك أكثر من مائتين مؤلف، هذا عاش أقل من خمسة وأربعين سنة، الإمام النووي رحمه الله تعالى عاش فيما أذكر بين الاثنتين والأربعين، والخامسة والأربعين، وترك هذه المؤلفات، فالقضية ليست بطول العمر، بالإنجاز، إذا واحد فتح المحل التجاري اثني عشر ساعة باع بألف ليرة، واحد فتحه ساعة باع بمائة ألف، فهل القضية بالوقت ؟ لا، بل بالغلة، القضية بالغلة لا بالوقت، أحياناً

الإنسان يتحرك حركة يأخذ مبلغ ضخم، أحياناً يرفع صوته طوال النهار، ويبيع بألف ليرة، يربح مائة ليرة منهم.

فهناك أناس عمرهم ثمين يستهلكونه استهلاكاً ثميناً، شخص يكبس آلة العملة، هذه الكبسة على الليرات، في كبسة على الخمسمئات، في فرق كبير كثير، أحياناً نسك نقود، هناك مَن يسك ليرة سوري، وفي ليرة ذهب، هذه ثمنها خمسة آلاف، كل كبسة بخمسة آلاف، ففي أعمال صالحة كبيرة كثير، فالإنسان أكل، شرب، نام، تسيرن، تنزه، جلس، التقى مع أصدقاؤه، تحادثوا، ضحكوا، مزحوا، تحدثوا عن الأكل، عن الشرب، عن الأسعار، عن الرحلات، عن النزهات، عن الأقارب، عن الأباعد، عن الأحداث، عن الأخبار، عن الصحف، عن المجلات، عن الأرباح، عن الخسائر، كل هذا كلام فارغ لا يقدم ولا يؤخر، " ما جلس قومٌ مجلساً لم يذكروا الله فيه إلا قاموا عن أنتن من جيفة حمار ".

فهذا العمر، إما أن تستهلكه استهلاكاً ثميناً، وإما أن تستهلكه استهلاكاً رخيصاً، الزمن يمشي، السيدة رابعة العدوية تقول: " الإنسان بضعة أيام، كلما انقضى منه يوم، انقضى بضعٌ منه " فالأيام تسير، ماذا فعلت في هذا اليوم، انظر إلى النبي اللهم صلي عليه، قال:

((لا بارك الله لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله علماً))

وفي رواية أخرى:

((لم أزدد فيه من الله قرباً))

فأنت أمام حالتين ؛ إما أنك تعلمت شيئاً من الله عز وجل فازداد علمك، وحينما يزداد علمك يزداد عملك، أو يرتقي عملك، أو أنك فعلت عملاً صالحاً تقرَّبت به إلى الله عز وجل.

والله يا إخوان، وما سوى ذلك خسارة في خسارة، والدليل قوله تعالى:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2))

(سورة العصر)

فإذا شخص عنده أضخم شركة في العالم، في شركات يسمونها ذات جنسيات متعددة، يقول لك: هذه الشركة لها فرع بفرنسا، وفرع بألمانيا، وفرع بإنكلترا، وفرع بتايوان، وفرع بالصين، وفرع بأمريكا، شركة ميزانيتها تساوي ميزانية خمسة دول أحياناً، لو أنك تملك مثل هذه الشركة، أو تملك عشرات من هذه الشركات، ولك دخل يومي يفوق عن ألف مليون، ربنا قال:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

(سورة العصر)

انتهى الأمر، باليوم إن لم يكن هناك معرفةٌ بالله جديدة، أو لم يكن هناك عملٌ جديد، أو لم يكن هناك دعوةٌ إلى الله، أو أمرٌ بالمعروف، أو نهيٌ عن المنكر، إن لم يكن هناك صبر على ماذا ؟ أنا كنت أظن هذا الصبر فقد بالدعوة إلى الله، صبر على الإيمان، وصبر على العمل الصالح، والصبر على الدعوة إلى الله، فالصبر يشمل كل المراحل، فحياة الإنسان خسارةٌ في خسارة.

فالذي أتمنى أن أقوله لكم: استهلاك الوقت، أثمن شيء تملكه هو الوقت، في هذا الوقت قد تقرأ القرآن، قد تقرأ حديثاً شريفاً، قد تقرأ شرح حديثٍ شريف، قد تقرأ حُكماً فقهياً، قد تقرأ موقفاً لصحابة رسول الله، قد تقرأ السيرة النبوية، أي شيءٍ تزداد به علماً ينعكس على عملك، فلذلك تعلّموا، العلم العلم، أطلعني إنسان اليوم على صفحة في معجم فيها أنواع الخطوط، الخط الثلثي، والفارسي، والكوفي، والديواني، والرُقعي، وهذا الأخ هو خطاط، اختار آية:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر: من آية " 9 ")

فقلت له: هل تعلم أن الله سبحانه وتعالى لم يرض أن يعتمد أية قيمة تواضع الناس عليها، فالناس تواضعوا على أن قيمة المال قيمة كبيرة، فصاحب المال معزز مكرم محترم، والقوة قيمةٌ أيضاً، صاحب الشأن، والحول، والطول هذا محترم ومبجل ومعزز ومكرم أيضاً، وصاحب الوسامة والجمال يلفت النظر وهو معزز ومبجل، والذكي أيضاً يلفت النظر، هل تعلم أن الله سبحانه وتعالى ليس في كتابه كله إشارةٌ لا إلى الذكي، ولا إلى القوي، ولا إلى صاحب المال، ولا إلى صاحب الجاه، ولكن الله عز وجل اعتمد هذه القيمة الوحيدة وجعلها أداة ترجيحٍ بين خلقه ألا وهي العلم، فقال:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر: من آية " 9 ")

العلم العلم، ما من مرتبة أعظم عند الله من أن تكون عالماً، رتبة العلم أعلى الرتب، شتان بين العالم والجاهل، شتان بين مَن يعلم ومَن لا يعلم، بين مَن يعرف ومَن لا يعرف، فالذي أريده استهلاك العمر، كيف تستهلك هذا العمر ؟ وقت للعمل، العمل شيء مهم جداً، منه تكسب قوت يومك، تطعم أولادك، ترتدي ثياباً، تعيش مع أهلك في البيت بسبب هذا الرزق الذي مَنَّ الله به عليك، هل تعلم أن رزقك هذا يجب أن تنوي به أن تكفي نفسك وأن تتقرب إلى ربك، وأن تنفع المسلمين، وأن يكون هذا العمل مشروعاً، وأن تتعامل مع الناس فيه وفق قواعد الشرع، وألا يشغلك عن مجلس علمٍ أو عن عبادةٍ أو عن فرض صلاةٍ، إذا فعلت هذا أصبح عملك عبادة، فوقتك بالمكتب، بالمعمل، بالمتجر، بالوظيفة، هذا بالعيادة، بمكتب المحاماة، بقاعة التدريس، هذا جزء من عبادتك.

الآن، مع أهلك، إذا جلست مع أهلك ونويت أن تؤنسهم فهذه عبادة، نويت أن تملك قلوبهم فهذه عبادة، نويت أن تداعبهم فهذه عبادة، نويت أن تعلّمهم، أن ترشدهم فهذه عبادة، وأنت في البيت يجب أن تكون في طاعة الله دائماً، وأنت في نزهة، وأنت في العمل، وأنت حتى إذا نمت، النوم عبادة، غير نوم الظالمين عبادة، هذه لحالها، فأنت إذا نمت من أجل أن تتقوى على طاعة الله فالنوم عبادة.

فأنا الذي لفت نظري في هذا الحديث استهلاك الوقت، يجب أن تستهلكه بعنايةٍ فائقة، بتخطيطٍ دقيق، بتنظيمٍ شديد، أما هكذا أن تمضي الأيام والسنين !! سبعة أيام في غفلة، عشرة أيام في نزهة، ثمانية عشر يوماً في مكان جميل ليس لك عمل صالح إطلاقاً، بسبب تافه تدع مجالس العلم !! والله هذا ليس من أخلاق المؤمن.

لذلك واحد عاش أربعين سنة، في سؤال مر: هل بقي من العمر بقدر ما مضى، سؤال؟ والله سؤال محرج، أغلب الظن أنه مضى أكثر مما بقي، ما بقي أقل مما مضى، أنظر إلى الناس إذا راح إلى نزهة، أول يوم في إقبال إقبال، فهو سيمكث خمسة أيام، أول يوم، ثاني يوم، ثالث يوم، باليوم الرابع تجده متوجها توجه آخر ؛ جمع الأغراض، قطع تذاكر العودة أو تثبيت الحجز مثلاً، الانتقال لمركز الانطلاق، الوصول قبل بيوم دخل في عالم آخر، لذلك قال العلماء: " مَن بلغ سن الأربعين فقد دخل في أسواق الآخرة "، لازم ينصرف الإنسان في الأربعين فما فوق إلى كيفية لقاء الله عز وجل، حل مشكلات مع الله عز وجل، حل مشكلات مع الناس، تصفية حسابات، تبرئة ذِمَم، إلغاء خصومات، إلغاء مُشاحنات، عمل الصالحات، زيادة القربات، المبادرة للطاعات، هكذا بعد سن الأربعين، فذلك كما يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه))

كيف أمضيت هذه الليالي ؟ للساعة اثني عشر كل يوم كل يوم، للساعة الواحدة، شخص يلعب طاولة، غلبه بثلاثة دقوق وراء بعضهم، كسر له شوكته، ما هذا الكلام ؟ هذه بطولة هذه ؟ أو بالشدة، أو بالبرجيس للساعة اثنين مساء أحياناً، أو بألعاب ليس لها معنى تقريباً، هذا عمر ثمين.

مر أحد العلماء وأظن أنه الشيخ بدر الدين الحسني، رحمه الله تعالى، مر على مقهى، رأى أناس يلعبون النرد فقال: " سبحان الله لو أن الوقت يشترى لاشتريته من هؤلاء ". والله المؤمن يتمنى يكون النهار خمسين ساعة، قد ما في عنده أشغال، وكلها لله، يتمنى يعيش ألف سنة، ليس حباً، لا والله ولك حباً بأن يزداد عمله، عندما يأتي الموت يختم العمل، انتهى، تفضل ؛ إما إلى جنة يدوم نعيمها، أو إلى نار لا ينفد عذابها، فالقضية حينما يختم العمل هكذا إلى هنا، واحد دخل إلى مكان وفي جواهر ولآلئ وقطع ذهب وسبائك، وقال له خذ قر ما تستطيع ؛ كيس شوال قلم أحمر، عبئ على قدر استطاعتك،

فأخذ قطعة واحدة فقط، ألا يكون مجنون ؟ فرصة لا تعوض ثمينة جداً، وأنت في الدنيا أنت الآن في فرصة لا تعوض، فأعمالك الصالحة سوف تحدد مصير سعادتك.

فو الله الذي لا إله إلا هو لو عرفنا قيمة الوقت، لضننا على أنفسنا أن ننام، تجد النوم خسارة، أحياناً حديث خسارة، جلسة مع فلان خسارة، أن تزور فلان خسارة، اعتبرها خسارة، أن تقرأ هذه القصة خسارة، اقرأ موضوع يفيدك، هذه قصة وبالأخير تزوجوا، معروفة، ألف قصة بموضوع واحد، ففي قراءة خسارة، في لقاء خسارة، في سهرة خسارة، في نزهة خسارة، في عمل خسارة، لذلك أنا الذي لفت نظري في هذا الحديث أن المؤمن يعرف كيف يستهلك عمره، يعرف كيف يستهلك وقته، إن أثمن شيءٍ تملكه الوقت، لذلك الوقت ما من يومٍ إلا وكأن اليوم يقول لبني آدم: يا ابن آدم يا ابن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد، إلى يوم القيامة، فتزود منه.

إذا الإنسان استيقظ صباحاً ورأى أن الله سبحانه وتعالى سمح له أن يعيش يوماً جديداً، تجد واحد يقول لك: نام لم يفق. لي قريب التفت إلى الله التفاتة بسبب شريك، نام ما فاق، واحد نام زوجته مسَّته وجدت يده باردة، فقامت مذعورة، فإذا هو ميت، فإذا الإنسان يفتح عينه صباحاً، سمح له أن يعيش يوماً جديد، فاستهلاك العمر، استهلاك العمر، كيف تستهلك الوقت ؟ هل هذه الدراسة مجدية ؟ هل قراءة هذه القصة مجدية ؟ هل أن تجلس وراء هذا الجهاز للساعة واحدة شيء مجدي ؟ ماذا استفدت؟ هل لقاءك مع هذا الإنسان مجدي ؟ هل الحديث في الغيبة والنميمة مجدي ؟ شيء مهم جداً، هذا الذي أتمناه عليكم، أتمنى أن أنقل ما شعرت تجاه هذا الحديث، أن تستهلك العمر استهلاك ثمين،

((لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه))

يعمل ويعمل، القلب يضخ باليوم ثمانية أمتار مكعبة، الذي لديه مستودع للوقود السائل متر مكعب أي خمسة براميل، متر بمتر بمتر هذا يعني خمسة براميل، البرميل مائتين لتر، هذا يسع ألف ليتر، القلب يضج باليوم ثمانية آلاف لتر، يضخ بالعمر، واحد عاش ستين أو خمسة وستين يضخ ما يعادل حجم أكبر ناطحة سحاب في العالم، ثلاثمائة ألف متر، فإذا كان أرض مساحتها ألف متر، ما معنى ألف متر؟ أي ثلاثين بخمسة وثلاثين تقريباً، وارتفاع ثلاثمائة متر، طابقين، القلب يضخ بعمر متوسط دم يملأ هذه الناطحة، أو هذه البناء، أي يملأ القلب دماً في عمر متوسط مستودع بحجم ثلاثمائة ألف متر مكعب، هذا الضخ ماذا فائدته ؟ في عمر سخيف، وفي عمر ثمين.

مجلس العلم حافظ عليه، الصلاة حافظ عليها، تعرَّف إلى الله عز وجل، تحرك للعمل الصالح، اعمل عمل ليس لك مصلحة فيه، خالص لوجه الله، فهنيئاً لهؤلاء الذين ينطلقون إلى أعمال صالحة، إلى خدمة الخلق، والإنسان بين خمسة أيام ؛ يوم ما مضى فات، والمؤمل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها، ما مضى مضى، فالكلام عنه غير مجدي، يوم مفقود، ويوم مشهود، ويوم موعود، ويوم مورود، ويوم

ممدود، أخطر شيء اليوم الممدود، اليوم الممدود له علاقة باليوم المشهود، ما تفعله في هذا اليوم المشهود يؤثِّر في ذلك اليوم الممدود، أما المفقود مفقود، والمورود مورود، والموعود موعود، الموت موعدين فيه، ويوم القيامة سوف نرده، المفقود مفقود، والمورود مورود، والموعود موعود، بقي الممدود والمشهود، المشهود يومك هذا، لحظتك هذه، هذه الساعة التي أنت فيها، هذا المشهود، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((هلك المسوفون))

كلما دعوته إلى التوبة قال: غداً أو بعد غد، هلك المسوفون.

((لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه وعن علمه فيما فعل فيه))

أحياناً يقول لك: أخي والله أخذنا أول درس، وثاني درس، وثلاث دروس الحمد لله، والدرس فيه أحاديث كثيرة، وآيات كثيرة، وقطعنا الآن ثلث القرآن فسرناه، وفسرنا كذا، وأنا قرأت السيرة الفلانية، وقرأت... لا تحتاج لكل هذا الكلام، حديث واحد يكفيك طول عمرك، آية واحدة ؛ لما قال له:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7))

(سورة الزلزلة)

قال له: قد كفيت، فقال عليه الصلاة والسلام:

((فقه الرجل))

وانتهى أمره، لسنا بحاجة لكثير معلومات، بحاجة إلى أعمال كثيرة، كل واحد يكون عنده معلومات فتكفي ألف سنة، شغل ألف سنة، مليون سنة، أحياناً يكون عندك مواد أولية تكفيك لخمسة سنوات، العبرة تصنعها، تقدمها إنتاج للسوق، فهذا العلم مثل مواد أولية، ولكن غير مصنعة، لن تكون بضاعةً إلا إذا صنعتها، لن تباع إلا إذ صنعتها، ففي تقصير بالتصنيع، المواد الأولية تتراكم، تتراكم تتراكم والتصنيع واقف، فالإنسان إذا كان ارتفع مستوى علمه ولم يرافقه عمل بمستوى علمه يقع بشكل كاريكاتوري، يتضخم علمه ويتضاءل عمله، ليس هناك تناسب، تضخم في العلم وضآلة في العمل، فالمفروض يكون في توازي وتنسيق بين العلم والعمل، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول(عن علمه فيما فعل فيه)

سؤال: ماذا تعرف عن بر الوالدين ؟ قال تعالى:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

(سورة الإسراء: من آية " 23 ")

حافظ الآية، حافظ الحديث، والحديث، الزم قدميهما فتلك الجنة، فهناك أحاديث للنبي الكريم ؛

((فيهما فجاهد، ارجع إليهما،))

لكن ماذا فعلت في هذه الأحاديث والآيات ؟ ماذا عملت بهما ؟ ماذا تعرف عن الإحسان للخلق ؟ ماذا تعرف عن الإحسان للحيوان ؟ ماذا تعرف عن صلاة الليل ؟ ماذا تعرف عن خدمة المؤمنين ؟ ماذا تعرف عن الإحسان إلى الجار، ما في مسلم لا يعرف أشياء كثيرة، لكن المشكلة ليس الذي يعرفه بل الذي يفعله، ربنا ما قال: قد أفلح من تعلّم كيف يزكيها، قال:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9))

(سورة الشمس)

أكثر الناس يتعلمون كيف يزكون أنفسهم، البطولة كيف تزكيها لا كيف تعلم كيف تزكيها.

((وعن علمه فيما فعل فيه..))

دائماً الإنسان يحس في عتاب إلهي: أنه يا عبدي أنت كما تعلم، فعلك في مستوى علمك ؟ أنت هكذا، إذا قلت للناس شيئاً، أنت كذا ؟ أنت بهذا الورع؟ أنت بهذه الدقة في المعاملة ؟ أنت بهذا الوفاء ؟ أنت بهذا الإكرام ؟ سؤال، كأن الله يعاتبك، أنت كذلك يا عبدي ؟

تعصي الإله وأنت تظـهر حبـه ذاك لعمري في المقال بديع
لو كان حبـك صـادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب يطيع

* * *

لذلك تعلموا ما شئتم فو الله لن تؤجروا حتى تعملوا بما علمتم، وكل علم وبالٌ على صاحبه ما لم يعمل به، وعالم بعلمه لم يعملن معذب من قبل عبَّاد الوثن، والعلم ما عمل به فإن لم يعمل كان الجهل أفضل منه، وعن علمه ماذا فعل فيه، ماذا فعلت بقوله تعالى

((التائبون الحامدون، السائحون الراكعون الساجدون))

هل أنت في هذا المستوى ؟ ماذا فعلت في قوله تعالى

((من عمل صالحاً. هل عملك صالح.))

((وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه))

.. أول بند العمر، ثاني بند العلم، ثالث بند المال، هذا المال الذي بين يديك من أين جئت به ؟ هل جاءك من طريق مشروع، أو من طريق غير مشروع ؟ هل في كسبه شبهة ؟ هل أنت موقن أنه حلال مائة بالمائة ؟ هل سألت؟ هل تحققت ؟ الكسب سهل، ولكن البطولة أن تحاسب نفسك كيف اكتسبت المال، الشيء الدارج: كم سآخذ على هذا العمل ؟ أما السلف الصالح: أيحق لي أن آخذ على هذا العمل شيئاً ؟ هل يرضى الله عني إذا أخذت على هذا العمل شيئاً؟ فكانت المشكلة: هل يجوز أن آخذ أو لا يجوز، أما الآن: كم آخذ، أما البطولة: هل يجوز أن آخذ على هذا العمل أجراً أم لا يجوز ؟

((وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه...))

فأحياناً المال يكون وسيلة فعالة لبلوغ أعلى درجات الآخرة، قد يستهلك بشيء تافه، أو شيء زائل، أو شيء نتحول عنه، ممكن واحد يشتري سجادة فرضاً جيدة وصوف مائة في المائة، تؤدي الوظائف كاملة، وفي سجادة ثمنها عشرة أمثال ومائة مثل، ولكنها أجمل، يقدر تلك يريها للضيوف، ما في منها، قطعتان فقط في سوريا، هذه أخذتها من المحل الفلاني بالزور أخذتها بثمانين ألف للأقدام، يا ترى بهذه السبعين ألف فرق بين سجادتين، ماذا تفعل بالسبعين ألف ؟ هذا المبلغ قد يرقى بك إلى أعلى عليين، قد تستر إنسان بهذا المبلغ، قد تطعم أسرة لسنة تقريباً، قد تزوج شاب بهذا المبلغ، فالمال ثمين جداً، فالمؤمن قال له: اتضع لا ترتفع، اتبع لا تبتدع، الورع لا يتسع، أحياً يكون الفارق بين المواد الأساسية، وبين المواد المترفة فارق كبير جداً، في شيء يقدم لك الوظيفة كاملة، وفي شيء في معه فخامة، معه جمال، معه روعة زائدة، هذا الشيء لو أن الإنسان أنفقه في طاعة الله لبلغ به أعلى عليين في جنَّات النعيم،

((وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه.وعن جسمه فيما أبلاه))

... هذه الكلاوي تعبت، وهذا القلب تعب، والرئتين تعبت، والعضلات تعبت، والمفاصل تيبسوا، والمخ نشف قليلاً، لم يتذكر، والله لم أتذكر، هذا العمر كيف أبليته ؟ هذا الجسم كيف أبليته؟ كيف استهلكته ؟ أول شيء يرى اثني عشر على عشرة، بعد ذلك عشرة، بعد ذلك ثمانية، وبعد ذلك نظارة يحتاج كل سنة تبديلها، بعد ذلك يحتاج ضوء قوي، ونظارة قوية، كان يسمع أدق الهمس، الآن يحتاج أن يقرب أذنه هكذا، يحتاج مقوي للسمع، كان يقفز فوق الدرج درجتين درجتين، الآن درجة درجة، ترى واحد متقدم بالسن يصعد درجة درجة، كيف استهلك جسمه هذا الإنسان، هاتان العينان ماذا نظر بهما إلى عورات المسلمين أم إلى خلق الله ؟ هل تأمل في ملكوت السماوات والأرض ؟ نظر إلى أشياء محببة أشياء مباحة، أما إلى أشياء محرمة ؟ هذه الأذن ماذا استمعت، استمعت إلى قصص لا ترضي الله عز وجل، إلى حديث باطل، إلى حديث مثير حول بعض الشهوات، أم استمع إلى الحق ؟ جلس بمجلس العلم واستمع للحق ؟ هذه الأذن محاسب عليها، والعين محاسب عليها، والشم، واليد، واللمس، والرجل، كل شيء محاسب عليه.

((. وعن جسمه فيما أبلاه))

كيف استهلك هذه الكليتين، والقلب والرئتين، والمعدة والأمعاء، كيف استهلك هذا السمع والبصر، والعضلات والمفاصل كلها أجهزة دقيقة جداً، أحياناً تستهلك كلها في طاعة الله، اللهم كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا))

(من الأذكار النووية: عن " ابن عمر ")

هذا الحديث رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، أي حديث مهم جداً، عن أبي برزة نضلة بن عبيد الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لا تزول قدما عبدٍ حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه))

انظر لهذه الملاحظة: العمر سؤال، والعلم سؤال، والجسم سؤال، أما المال في سؤالين، العلماء قالوا: تسعة أعشار المعاصي من كسب المال، في مركزين خطيرين في حياة الإنسان المال والنساء، المال محبب، والمرأة محببة، فإذا كان انضبط انضباط دقيق في كسب المال وإنفاق المال، وفي علاقته بالنساء، فقد حقق تسعة أعشار الطاعة، الباقي سهل، أما أخطر شيء كسب المال وإنفاقه، وعلاقة الإنسان بالمرأة، هذه حلال، هذه أم، أخت، زوجة فرضاً، بنت أخ، بنت أخت، عمة، خالة، هذه المحارم، غيرهم في غض بصر، وليس طليق في الحديث، نظرات بريئة، هذا كلام فارغ، نظرات بريئة، روح رياضية عالية، كله كلام تزييف للانحراف.

عن أبي برزة نضلة بن عبيد الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره في أفناه، وعن علمه فيما فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه))

(رواه الترمذي).

بقي علينا شيء من السيرة المطهرة.

الحقيقة الوقت ضاق جداً، ولكن لقطة واحدة عن النبي عليه الصلاة والسلام. فالنبي عليه الصلاة والسلام لاقى من المتاعب ما لاقى، وقال:

((ما أوذي أحد ما أوذيت))

(من الجامع الصغير: عن " جابر ")

فهل إيذاء النبي عليه الصلاة والسلام، هل المتاعب التي لاقاها، هل البلاء الذي ابتلي به، هل المؤامرات التي واجهها، هل إخراج قريشٍ له، هل كيدهم ائتمارهم على قتله، إخراجهم له من مكة إلى المدينة، حربهم له ثلاث مرات، هذه المتاعب، والمحن، والعقبات، والمؤامرات، ما حكمة ذلك ؟ لماذا لم يخلق الله عز وجل أعداء النبي في زمن آخر، وقت آخر ؟ لماذا لم يجعل الله عز وجل حياة النبي كلها مسرات ومباهج ويسر وسهولة؟! لماذا شاءت حكمة المولى جل وعلا أن تكون حياة النبي كلها متاعب ؟

أولاً: لأن الجنة شيء ثمين، وأن يدخل الإنسان هذه الجنة من دون ثمن هذا مستحيل

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142))

(سورة آل عمران)

ألا إن سلعة الله غالية، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام وحده نجا من هذه المتاعب، وهذه الشدائد، وهذه البلايا، وهذا التضييق، وهذه المؤامرات، وهذه المعارضات، وهذه الحروب، لو نجا وحده لما كان النبي عليه الصلاة والسلام لنا أسوة حسنة، عندئذٍ لا يتحمل المؤمن أية مصيبة، يقول لك: هذه لي وحدي، النبي لم يصب بمصيبة. لكن الله سبحانه وتعالى شاءت حكمته أن يجعل النبي قدوة حسنة وأسوة صالحة عن طريق أنه ابتلي بالمصائب، وتحمل الشدائد، ولاقى المتاعب، وواجه الأمرّين، وواجه الخصوم، وواجه المعارضة، وواجه التكذيب، وواجه السخرية، وواجه القهر، وواجه الضعف، هذا كله واجهه، والدليل قول الله عز وجل:

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ)

(سورة الأحقاف: من آية " 35 ")

حينما أمر الله النبي عليه الصلاة والسلام أن يصبر، ذلك أنا أيضاً مكلف أن أصبر، فهذا الكلام له ما وراءه، فالمؤمن لا يظن الحياة كلها وروود ورياحين وطرق عريضة، ونزهات وسرور، وطعام وشراب ونوم ملء العين، وأعمال ميسرة، لا، فأنت تطلب الجنة، والجنة لها ثمن باهظ، أحد أثمانها الابتلاء، أحد أثمانها الفتنة..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2))

(سورة العنكبوت)

أحد أثمانها الضيق، الضيق المادي أحياناً، المرض أحياناً، لذلك المؤمن مبتلى، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إذا أحب الله عبده ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن شكر اقتناه))

(من تخريج أحاديث الإحياء: عن " ابي عنبة ")

هذا الكلام له ما وراءه، فهو يدفعنا إلى تحمل الشدائد، يدفعنا إلى الصبر، يدفعنا إلى الرضا بقضاء الله وقدره، يدفعنا إلى أن يكون النبي أسوة لنا صالحة، مَن أنا ؟ إذا كان النبي قد عورض وكذب وأوذي في سبيل الله، وإذا كان النبي قد توفيت زوجته وتوفي ابنه، وتحدث الناس عن السيدة عائشة أنها زانية، وتحمل وصبر، وقد فقد أمه وهو صغير وفقد أباه قبل أن يراه، وفقد جده، لاقى ما لاقى، وعمل في رعي الغنم، النبي قدوة لنا، فالإنسان أحياناً يرى نفسه ضئيلاً جداً أمام هذه الشدائد، هذا المعنى يدفعنا إلى تحمُّل كل شيء، المؤمن كالجبل الراسخ، كالسفينة الشامخة لا ينهز لأقل خبر.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (004) :باب الزهد1 - الحث على التقرب منه .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-08-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... الحديث الشريف في هذا اليوم من باب فضل الزهد في الدنيا، والحث على التقلل منها، وقبل أن نبدأ بقراءة بعض الأحاديث من هذا الباب لابدَّ من مقدمة.

المقدمة هي: أن الإنسان وجد في هذه الدنيا، ولكن الله سبحانه وتعالى تفضل عليه بأن أرسل إليه الأنبياء المرسلين، وأنزل عليهم الكُتُب، لماذا ؟ كأن الإنسان وجد في أرضٍ فيها تضاريس، فيها أكمات، فيها وديان، فيها أشياء مخيفة، فيها أشياء نافعة، فكأن ضوءً شديداً سلِّط على هذه الأرض ؛ فرأيت الحفرة، ورأيت الحشرة، ورأيت الوحش، ورأيت الثمرة، ورأيت كل شيءٍ واضحاً، فهذه الكتب السماوية، أو بالأخص هذا القرآن الكريم ألقى ضوءً على أشياء ثلاث ؛ ألقى ضوءً ساطعاً على حقيقة الكون، وألقى ضوءً ساطعاً على حقيقة الحياة، وألقى ضوءً ساطعاً على حقيقة الإنسان.

أي أنت أيها الإنسان، وأنت على ظهر الأرض مفتقرٌ افتقاراً شديداً إلى تفسيرٍ صحيحٍ للكون والحياة وللإنسان، في ضوء هذا التفسير تتحرَّك تحركاً صحيحاً، الأشياء موجودة، الكون موجود، ولكن العقبة في أن تملك التفسير الصحيح لهذا الكون، والحياة قائمة، ولكن الشيء الخطير أن تملك التفسير الصحيح للحياة، وأنت موجود، ولكن الشيء الذي هو أهم من وجودك أن تعرف لماذا أنت موجود ؟ وما المهمة التي أنت بصددها ؟

فلذلك الكتب السماوية كما أنزلها الله عزَّ وجل، والقرآن الكريم بشكلٍ خاص نورٌ من الله عزَّ وجل أضاء للإنسان حقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة وجوده، فالعلم الذي في القرآن الكريم هو علم كشفٍ لحقائق الأشياء..

فبادئ ذي بدء أنت إنسان موجود، وغيرك موجود، والكافر موجود، والذي أنكر وجود الله موجود، والمنحرف موجود، والفاسق موجود، والكافر موجود، ولكن المؤمن ما الذي رفعه عن غيره ؟ هو أنه صَدَّق هذا التفسير الذي أنزله خالق الكون، فلو إنسان صنع آلة وأعطاك نشرة يقول لك: هذه الآلة مهمتها كذا وكذا وكذا، طريقة صيانتها كذا وكذا وكذا، طريقة استعمالها كذا وكذا وكذا، فلما الإنسان يتقبَّل من الله عزَّ وجل هذا التفسير للكون، والحياة، ولحقيقة الإنسان الآن التحرك صار صحيح.

وكما أقول دائماً: إذا عرفت أنك في هذه المدينة من أجل التجارة إذاً توجَّه نحو المعامل، إذا عرفت أنك من أجل العلم توجه نحو الجامعات، إذا عرفت أنك من أجل السياحة توجه نحو الأماكن الأثرية، إذاً طريقة التحرك أساسها أن تملك التفسير الصحيح، لماذا أنت هنا ؟ فهناك أحاديث كثيرة عن النبي عليه

الصلاة والسلام في حقيقة الدنيا، وهذه الأحاديث خطيرة جداً، الناس يأخذونها هكذا على محملٍ حسن من دون أن يدققوا، يعمِّقوا، وكأن الحديث يقرؤونه للتبرُّك، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام يبين لنا..

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(سورة النجم)

النبي عليه الصلاة والسلام يقدِّم لنا تفسيراً للدنيا عن الله عزَّ وجل، عن خالق الكون، فأنت بين أمرين إما أن تقبل هذا التفسير، وفي ضوء هذا التفسير الصحيح تتحرك حركةً صحيحة، وإما أن ترفضه، فإذا رفضته كان التحرك مغلوطاً، لأن المشكلة أن الكون والحياة والإنسان، الحديث اليوم عن الحياة الدنيا، هذه الحياة الدنيا شغلت الناس كلهم. النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((حب الدنيا رأس كل خطيئة))

(من الجامع الصغير: عن " السحسن مرسلاً ")

والدعاء الشريف يقول: " اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ".. فالدنيا عند بعض الناس أكبر همهم ومبلغ علمهم، ينتهي علمهم، تنتهي خبرتهم، ينتهي ذكاؤهم، ينتهي نشاطهم، ينتهي سعيهم عند الدنيا، فإذا جاء الموت، أو قربت أيامه، فإذا دخل الإنسان في خريف العمر شعر بكآبة لا توصف، لأن هذا الذي أقبل عليه طوال حياته يوشك أن يزول عنه.

فنحن أمام مشكلة: أنه أنت على وجه الأرض، وجودك صحيح، قائم، صارخ، أنت مؤمن بوجودك بشكلٍ قطعي، ولكن البطولة أن تعرف لماذا أنت هنا موجود ؟ الذي يظن أنه موجود ليجمع الدرهم والدينار..

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (2) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4))

(سورة اللتكاثر)

الموجود على وجه الأرض من أجل أن ينغمس في المُتَع الرخيصة، هذا فهم مغلوط، فإذا جاء خريف العمر شعر بالخيبة والخسران. فأنت حينما تطلب العلم أنت تبحث عن أساس وجودك، تبحث عن التفسير الصحيح لوجودك، تبحث عن علّة وجودك، تبحث عن حكمة وجودك، تبحث عن سبب ووجودك، فإذا عرفت السبب كان الانطلاق إلى الهدف واضحاً.

فالنبي عليه الصلاة والسلام في طائفةٍ كثيرةٍ من أحاديثه الشريفة المتعلقة بالدنيا وحقيقة الدنيا يصف لكم الدنيا، فمَن كان تصوره للدنيا خلاف هذا التصور فهو في ضلال، ومن جاء تصوره للدنيا وفق هذا التصور فهو في هدى، فمتى يفلح الإنسان ؟ إذا جاءت حركته اليومية؛ تصوراته، انطلاقه في الحياة وفق الهدف الكبير الذي رسمه الله له.

الآن الطالب، لماذا الطالب الذي يأخذ علامات عالية جداً في الامتحان، ما هو السر ؟ السر هو أن هذا الطالب من أول يوم في العام الدراسي ما غفل عن الامتحان، الامتحان الذي سيكون في خمسة حزيران

مثلاً، وهو في أيلول، تسعة أشهر وصورة الامتحان، والتفوق في الامتحان، وأداء الامتحان، والنجاح في هذا الامتحان لا يبرح مخيلته أبداً، من هنا ينظِّم وقته، ويوزِّع وقته، يستهلك جهوده، يستهلك عضلاته، يستهلك أفكاره، يستهلك طاقاته بشكلٍ يؤدي إلى التفوق في الامتحان.

فسيدنا سعد الله يرضى عن سيدنا سعد، عندما قال: " ثلاثةٌ أنا فيهن رجل وفيما سوى ذلك أنا واحدٌ من الناس ـ أحدها ـ ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حقٌ من الله تعالى ".

فهذا الحديث الشريف بلغة معاصرة: تعليمات الصانع، أو تفسيرات الصانع، أو إيضاحات الصانع جاءتنا عن طريق النبي عليه الصلاة والسلام.

بالإسلام في شيئين، في إضاءة وفي رسم للطريق الصحيح، عندما قلنا أن الإنسان وجد في أرض فيها تضاريس متنوعة، فيها حفر، وفيها أكمات، وفيها طريق معبَّد، وفيها ورود، وفي ثمار، وفيها مياه للشرب، وفيها مياه آسنة، وفيها بحيرات للسباحة، وبحيرات عميقة قد يغرق الإنسان فيها، وهو لا يرى شيئاً في ظلامٍ دامس، فجأةً أضيء له ضوءً ساطع ؛ فرأى بعينه الجبل، رأى الحفرة، رأى الماء العذب الذي يشربه، ورأى الماء الآسن الذي يجب أن يبتعد عنه، ورأى البحيرة التي يمكن أن يسبح بها، ورأى البحيرة العميقة التي يخشى منها أن يغرق، فهذا الضوء الساطع هو القرآن الكريم..

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة النور: من آية " 35 ")

الله عزَّ وجل أضاء لك الحياة، قال لك: هذا صح، هذا يسعدك وهذا لا يسعدك، هذا يقربك مني وهذا يبعدك عني، هذا يجعلك موفقاً وهذا يجعلك في أمرٍ عَسِر. فربنا عزَّ وجل بعث القرآن.

الآن، في هذه الأرض المتنوعة في التضاريس في طريق، هذا الطريق معبَّد، في حوله إشارات، وأسهم، وتحذيرات، وإيضاحات هذا هو طريق الإيمان. فبالإسلام في شيئين ؛ في توضيح، وفي رسم لطريق السعادة، فأنت أولاً لابد من أن تقبل التوضيح الإلهي، فعندما تقرأ القرآن هذا القرآن شيء خطير جداً، هذا القرآن توضيحٌ لحقيقة الكون والحياة والإنسان، هذا مصطلح فلسفي الكون والحياة والإنسان، وفي القرآن أيضاً رسمٌ لمنهجٍ يوصلك إلى السعادة الأبدية.

الآن، النبي عليه الصلاة والسلام فسر هذا القرآن من خلال أحاديثه الشريفة، فالسنة النبوية المطهرة في حقيقتها توضيحٌ، وتبيينٌ، وتفصيلٌ للقرآن الكريم، فالآن أنت إذا قرأت حديثاً شريفاً يجب أن تعلم ماذا تقرأ، إنك تقرأ توضيحات الصانع، توضيحات الخالق وهي أصح التوضيحات، ما في نظرية وضعية إلا لها توضيحات، الحياة عند مثلاً أحد الفلاسفة جنس فقط من أولها إلى آخر، عند (فرويد)، كل ظاهرةٍ إنسانية، كل تحرك بشري، كل مشكلة، كل تجمُّع، كل تفرق، كل نزاع، كل صراع أساسه الجنس هذا عند إنسان ضالٌ مضل.

والحياة عند إنسان آخر مادة، يفسر التاريخ كله، والعلاقات الإنسانية كلها، والقيم كلها في ضوء المادة، في ضوء المنافع فقط، وهذا أيضاً ضلالٌ في ضلال. وإنسان آخر يفسر الحياة كلها في ضوء اللذة، اقتناص اللذة من أي طريق، وبأي شكل، ودون أي رادع، هذا المذهب الوجودي.

لكن الإسلام هو فلسفة الكون من وجهة نظر خالق الكون، إذاً هي أصح فلسفة، أصح توضيح، فعندما يعطيك النبي الكريم الآن توجيهات الآن عن الدنيا فأنت بين أمرين إما أن تأخذ بها فتسعد، وإما أن تدعها فتشقى، فالقضية ليست قضية اقتنعت أو ما اقتنعت، هذه القضية تعليمات الصانع، هذه تعليمات الخالق، هذه توضيحات الخالق وتعليمات الخالق فإذا طبقتها، وأخذت بها، وضِعْتَ على الطريق الصحيح الذي تسعد به في الدنيا والآخرة.

أنا لا أقبل، أو لا أصدق أن إنساناً على وجه الأرض لا يتمنى أن يعيش حياةً في سلام من كل مرض، من كل هم، من كل مشكلة، من كل أزمة، من كل شيء مزعج، ولا يتمنى أن يستمر وجوده، وأن يعافى وجوده، وأن يكمل وجوده، هذه الفطرة، فإذا عرفت أنك إذا سرت على منهج الله عزَّ وجل تحققت سلامة وجودك، وتحقق كمال وجودك، وتحقق استمرار وجودك، الاستمرار بعد الموت، الإنسان يتمنى أن يبقى إلى الأبد، هذا الهدف الحقيقي لا يتحقق إلا إذا عرفت الله، فإذا عرفت الله عزَّ وجل وسرت على منهجه كانت حياتك خط صاعد إلى ما شاء الله، صعود مستمر، والموت نقطة على هذا الخط، بعد الموت حياة أسعد.

لذلك، هذه المقدمة أردتها من أجل أن تعرف أن حقيقة الدنيا كما نطق بها عليه الصلاة والسلام شيءٌ دقيقٌ جداً، إما أن تأخذ به وإما أن تدعه، إن أخذت به سعدت في الدنيا والآخرة.

يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن الدنيا حلوةٌ خضرة))

(من الجامع الصغير: عن " أبي سعيد ")

وهذه من حكمة الله عزَّ وجل، جعل فيها طعام، وشراب، وحدائق، وبساتين، وأسبغ على بعض المخلوقات الجمال، في مخلوقات جميلة، في أماكن جميلة، في رياض غنَّاء، في بساتين جميلة، في وجاهة، في سمعة، في علو، في انغماس في الملذَّات، في أشياء لا تعد ولا تحصى..

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

(سورة الملك: من آية " 2 ")

هو لولا أن في الدنيا شيء جميل، ولولا أن فطرة الإنسان تتوق إلى هذا الشيء الجميل، لما صحَّ الامتحان، ولما صحَّ الابتلاء، يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن الدنيا حلوةٌ خضرة وإن الله تعالى مستخلفكم فيها))

(من الجامع الصغير: عن " أبي سعيد ")

فحينما قال الله عزّ وجل:

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة: من آية " 30 ")

استخلفك على أولادك، هل تأخذ بيدهم إلى الله أم تنتفع بهم فقط ؟ استخلفك على زوجتك، هل يعنيك من زوجتك أن تكون زوجةً تلبي كل حاجاتك، أم أنك تهدف من هذه الزوجة إلى أن تأخذ بها إلى الله والدار الآخرة ؟ استخلفك على طلاّبك إذا كنت معلماً، هل يعنيك أن تأخذ المال فقط من دون أن تقدم ما يكافئ هذا المال، أم أن هدفك الأول أن تهديهم إلى سواء السبيل ؟ الإنسان مستخلف، مستخلف على أهله، مستخلف على أولاده، مستخلف على زبائنه، هذا زبونك أعطاك هذا المبلغ وهو تعبان فيه، أعطيته مقابل هذا المبلغ شيء صحيح جيد ؟ شيء ينتفع به أم أعطيته شيئاً مزيفاً أو فيه غش ؟ فالإنسان مستخلف بأوسع معاني هذه الكلمة، في بيتك مستخلف، في عملك مستخلف، مع إخوانك مستخلف، مع جيرانك مستخلف، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن الدنيا حلوةٌ خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون))

(من الجامع الصغير: عن " أبي سعيد ")

أنت تحت المراقبة، ماذا تعمل،هل تؤثر الشهوة أم تؤثر إرضاء الله عزّ وجل ؟ هل تؤثر الدرهم والدينار، أم تؤثر ما يرضي الله عزّ وجل ؟ هل تؤثر راحتك، أم تؤثر معادك ؟ هل تؤثر الشهوة، أم تؤثر العقل ؟ هل تؤثر الحاجة، أم تؤثر القيمة ؟ فدائماً الإنسان في محك، لذلك ربنا عزّ وجل جعل أحد أسباب خلقك في هذه الدنيا هو الابتلاء..

(كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30))

(سورة المؤمنون)

يقول عليه الصلاة والسلام:

((فاتقوا الدنيا واتقوا النساء))

(من الجامع الصغير: عن " أبي سعيد ")

فالدنيا كما قال عليه الصلاة والسلام خطرة، فيها منزلقات، فإذا أقبلت عليها بنور الله عزّ وجل، وسرت فيها بتوجيه النبي عليه الصلاة والسلام، أغلب الظن أنك تنجو منها، فإذا آثرت حظك فيها وقعت في حبائلها

((فاتقوا الدنيا واتقوا النساء))

أي اتقوا النساء، النساء كما قال عليه الصلاة والسلام:

((حبائل الشيطان))

(من الجامع الصغير: عن " زيد بن خالد ")

الشيطان إذا أحب أن يوقع مؤمناً في فخ يستخدم المرأة، فالمؤمن محصن من المرأة، لأن الله أمره بغض البصر، وأمره بالعفة، وما من رجل في الأرض إلا وفيه نقطة ضعف ؛ المال والنساء، نقطتا ضعفٍ في شخصية الإنسان العادي، المؤمن محصَّن من هاتين النقطتين الضعيفتين، لا يكسب مالاً إلا حلالاً، ولا يقبل أية علاقةٍ إلا العلاقة التي شرعها الله عزَّ وجل، إذاً هو في حصن، إذاً:

((وإن الله مستخلفكم))

فالاستخلاف أن الله سبحانه وتعالى جعل الدنيا خضرةً حلوة، الإنسان في الطريق قد يرى امرأةً جميلة، هو الآن مستخلف ؛ إما أن يغض بصره عن محارم الله وإما أن ينظر، فإذا نظر سقط، وإذا غضَّ بصره نجح، قد يكون في يده مال، وصاحب هذا المال توفي، والورثة لا يعلمون هذا المال، الآن هو في امتحان ؛ إما أن يأكل هذا المال وإما أن يعطيه للورثة؟ إن أعطاه للورثة فقط نجح وإن أكله فقط رسب..

((إن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون))

حال المراقبة أن تشعر أن الله سبحانه وتعالى مطلعٌ عليك ؛ مطلعٌ على ظاهرك، مطلعٌ على جوارحك، مطلعٌ على قلبك، مطلعٌ على نواياك، مطلعٌ على صراعاتك، مطلعٌ على طموحاتك، أن تشعر أن الله مطلعٌ عليك هذه حالةٌ راقية، وهذه الحالة سمَّاها بعض الصوفيون حالة المراقبة، فإذا بلغها الإنسان فهو بخير، أن تكون في حال المراقبة، أن تشعر أن الله سبحانه وتعالى مطلعٌ عليك.. " اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ".. اعبده كأنه يراك، الشيء الآخر بعض الأدعية النبوية:

((اللهم اجعلني أخشاك حتى كأنني أراك وأسعدني بلقياك))

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((يتبع الميت ثلاثة ـ أهله، وماله، وعمله ـ...))

(من تخريج أحاديث الإحياء: عن " أنس ")

أحياناً يكون في سيارات بالجنازة، أحد هذه السيارات كانت للميت، فهذا ماله يمشي معه، ويمشي معه أولاده، وأخواته، وأقرباؤه، وهو معهم كذلك، حينما يدفن هو يبقى في القبر، والأهل والمال يرجعوا إلى البيت، ويبقى عمله. فالمشكلة أنه دائماً في كل لحظة من لحظات الإنسان؛ النظرة، والكلمة، والحركة، وإنفاق المال وكسب المال، والغضب والرضا، والحب والبغض، والعطاء والمنع، هذا النشاط الإنساني يجب أن يقيَّم دائماً في علاقته في القبر ؛ هذا الموقف يدخل معي في القبر أم يقف هنا ؟ أنت سهرت سهرة ممتعة للساعة الثانية ولكن لا يوجد فيها ذكر لله عزَّ وجل، هذه السهرة ينتهي أثرها بانتهائها، أم يستمر أثرها بعد الموت؟ إذا ذكرت الله في هذه السهرة استمر أثرها بعد الموت، فإذا ذكرت الدنيا انتهت في وقتها، فإذا كان فيها الغيبة والنميمة حمِّلت منها أوزاراً.

فالإنسان وهو جالس مع أصدقاؤه، مع أقرباؤه، مع جيرانه يا ترى هذا الموقف، ذكر اسم شخص، هل اغتابه ؟ في وزر، بقي ساكت في سلام، ما تكلم عن الله عزَّ وجل في خسارة، لذلك.. " برئ من النفاق من أكثر من ذكر الله ".. المؤمن شغله الشاغل أن يذكر الله عزَّ وجل، وربنا عزَّ وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41))

(سورة الأحزاب)

((يتبع الميت ثلاثة ـ أهله، وماله، وعمله ـ فيرجع اثنان ـ أهله وماله ـ ويبقى واحد))

(من تخريج أحاديث الإحياء: عن " أنس ")

وعنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة))

أنعم أهل الدنيا، الإنسان يعيش في بيت مساحته سبعين متر، إذا بيته مائة متر والله أريح، مائة وخمسين، مائتين، إذا واحد بيته أربعمائة متر، أو خمسمائة متر، أو ثلاثة طوابق فيلا مستقلة مع حديقة غنَّاء، فهذا متنعِّم، متنعم بالحديقة، متنعم بهذه المساحات الواسعة، متنعم بهذا التبريد، بهذا التكييف، بهذه التدفئة، متنعم بهذا الطعام والشراب، بهذه الثياب الأنيقة جداً، كل ثيابه أجنبية، وحياته عطرة كلها، وطعامه نفيس، ومناظره جميلة، ومرقَّه رفاهية كاملة.

يقول عليه الصلاة والسلام:

يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار ـ أنعم أهل الدنيا أي أشد أهل الدنيا نعيماً ـ يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة ـ معنى يصبغ أي يغمس، غمسة واحدة ـ ثم يقال له: يا ابن آدم ـ اسمعوا هذا الجواب ـ هل رأيت خيراً قط ؟ ـ عاش ثمانين سنة غارق في النعيم، غارق في الرفاه، غارق فيما لذ وطاب، غارق في الوجاهة، غارق في المتع، غارق في المباهج، غارق في كل شيء

((يقال له: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط ؟ ـ صبغة واحدة، غمسة واحدة ـ هل مرَّ بك نعيمٌ قط ؟ فيقول: لا والله يا رب))

لذلك حديث سيدنا علي يقول لابنه الحسن

((يا بني ما خير بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنة بشر))

يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار ـ من العصاة طبعاً، من الفاسقين، من الظالمين، من المنحرفين، من الكفار ـ "... يوم القيامة فيصبغ في النار صبغةً ـ أي يغمس في النار غمسةً واحدة ـ ثم يقال له: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيمٌ قط ؟ فيقول: لا والله يا رب ـ أين النعيم ؟ أين الطعام والشراب ؟ أين ما لذَّ وطاب ؟ أين الوجاهة؟ أين القيمة الاجتماعية ؟ أين البيت الفخم ؟ لا والله يا رب.

((ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة ـ يدخل إليها ـ فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مرت بك شدةً قط ؟ فيقول: لا والله يا رب ما مر بي بؤسٌ قط ولا رأيت شدةً قط))

(رواه مسلم)

فما قولكم ؟ إذا الإنسان انغمس غمسة واحدة في النار ينسى نعيم الدنيا كلها، وإذا أطل على الجنة إطلالة واحدة ينسى بؤس الدنيا كلها، إذاً هذه الدنيا لا تستحق أن نجعلها أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، هذا توضيح الصانع، هذا توضيح الخالق لحقيقة الدنيا، إذاً هي شيء عابر، شيء طارئ، شيء موقّت، شيء سوف يمضي، دار ابتلاءٍ وانقطاع، دار غرور، دار العمل، دار المرور، فمن جعلها مستقراً فقط وقع في خطأٍ كبير.

وقد قال عليه الصلاة والسلام في حديثٍ آخر عن الدنيا:

((ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بما يرجع))

هذا تشبيه النبي عليه الصلاة والسلام للدنيا، واحد يركب قارب في البحر غمس يده، غمس إصبعه فقط، يا ترى في قطرة ماء ؟ هذه القطرة انسبها إلى مياه البحر كله، هذا ما أخذت الدنيا من الآخرة، هذا كلام النبي عليه الصلاة والسلام، فعندما يقضي الإنسان أربعة وعشرون ساعة ثماني ساعات نوم، واثنا عشرة ساعة عمل وهم في الدنيا، وربنا عزَّ وجل ما له نصيب أبداً، يكون خسران، فهذا..

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (2) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8))

(سورة التكاثر)

وعنه صلى الله عليه وسلم إذ يقول:

((تعس عبد الدينار والدرهم، والقطيفة والخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط لم يرض))

(رواه البخاري)

فالإنسان حينما يجعل الدنيا أكبر همه أصبح عبداً لها، فبين أن تكون عبداً لله، أخ اليوم ذكر لي أنه يلتقي مع بعض أصدقائه، مع بعض جيرانه يحس في هموم ساحقة، إذا الإنسان ترك الله عزَّ وجل الهم يأكل قلبه، تجده تحت ثقل كبير، تحت كابوس من الهم. " ما أحب عبد الدنيا إلا التاط منها بثلاثة ـ أي أصابه منها أشياء ثلاثة ـ شغلٍ عناه، وأملٍ لا يبلغ منتهاه، وفقرٍ لا يبلغ غناه ". دائماً يشكو الفقر، يقول لك: الأسواق ميتة، وهو ربحان نصف مليون، وأكثر من مصروفه بعشر أضعاف ويقول لك: الأسواق ميتة، سوق مسموم، قل: الحمد لله، الحمد لله صحتك طيبة، كليتاك سليمتان، أجهزتك، قلبك، رئتاك،

أولادك، أهلك، كلمة الحمد لله فيها أدب مع الله عزَّ وجل، فيها شكر، دائماً يشكو، الذي يشكو دائماً ولا يعرف ما هو فيه من نعمةٍ، هو إنسان بعيد عن الله عزَّ وجل.

سيدنا عمر عندما أصابته مصيبة قال: " الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني. مال ذهب يذهب، بيعة لم تباع معنا، هذه البضاعة لم تباع، أو غلي ثمنها فلم نشترها، الآن سعرها صار الضعف، هذا كلها مال، لكن دينك سليم، وقعت بمعصية، خرقت الاستقامة، أكلت مال حرام ؟ ملت للمعصية ميلاً؟.الحمد لله إذ لم تكن في ديني، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ ألهمت الصبر عليها ".

وعنه صلى الله عليه وسلم:

((الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر))

لأن الإيمان قيد الفتك، فهل أنت تستطيع أن تأكل مال حرام ؟ لا تستطيع، تستطيع أن تدخل إلى مطعم فيه نساء كاسيات عاريات، وفيه خمر ؟ فيك تعمل عمل فيه إعطاء حظ للنفس على حساب طاعتك لله عزَّ وجل ؟ لا تقدر، فمعنى سجن أي أنت مقيد بالشرع، ما لك حق تجلس في أي مكان، ولا بأي فندق، ولا بأي سهرة تحضرها، ولا بأي نزهة، في نزه فيها شبهات فيها نساء كاسيات عاريات، في أماكن موبوءة، في طرقات موبوءة، في علاقات فاسدة، في أماكن فيها اختلاط، فأنت عندك شرع، عندك حدود، هذه تجوز، وهذه لا تجوز، المؤمن ليس فلتان، المؤمن مقيد بالشرع، إن القرآن قد قيد المؤمن عن كثيرٍ من هوى نفسه وحفظه من أن يقع في الحرام، فـ..

((الدنيا سجن المؤمن))

يجلسوا مع بعضهم بسهرة زوجة هذا، وزوجة هذا، عينه على هذه، وعلى هذه، مزح مع هذه، وتطلع بهذه، وهذه نظرة مغشوشة، وهذه نظرة مقصودة، أي لا يوجد تكليف بينهم، فالدنيا سجن المؤمن لأنه لا يستطيع أن يجلس سهرة مختلطة، ولا يجلس في مكان فيه معصية، فحركته مقيدة بالشرع، قبضه للمال بالشرع مقيد، هل يستطيع أن يأخذ أي مبلغ ؟ لا يقدر، فهل يأكل أي طعام لو سافر ؟ أي شيء يأكله ؟ يخاف أن يكون فيه لحم خنزير فلا يقدر، يخاف أن يكون في هذه المادة كحول، فطعامه وشرابه في قيد، حركته فيها قيد، مكان إقامته فيها قيد، يقدر أن يشتغل أي شغلة، إذا كان شغلة رائجة كثير ولكنها حرام ، أحياناً يكون في بضاعة محرمة ولكن رائجة كثير، فيها أرباح طائلة، أخي والله سأفتح محل وأبيع هذه الأشرطة، لا تقدر لأنها محرمة. فما معنى سجن ؟ أي أنت مقيد وليس فلتان، أنت عبد لله عزَّ وجل، هل تستطيع أن تأكل مال حرام ؟ لا تقدر، هل تستطيع أن تدين مبلغ لك وهذه فائدة عليه ؟ هذه الفائدة حرام، فمعنى سجن أنك مقيد في كسب المال، في إنفاق المال، في علاقاتك الاجتماعية، في رحلاتك، في نزهاتك، في حِلِّك، في ترحالك، في عملك، في أي حركة مقيد بالشرع، فمعنى السجن بمعنى القيد..

((وجنة الكافر))

.هذا فلتان ولا يوجد قيد. فيبدو للإنسان ضعيف النظر، هذا الكافر آخذ حريته، ما في قيد يصافح، ويمزح، ويسهر، ويأتي على البيت، الزوج غير موجود يدخل ويجلس مع الزوجة، فيه روح رياضية عنده، الزوج غير موجود يدخل يجلس مع الزوجة، قعد عندها وأداروا حديث ممتع حتى يأتي زوجها، يأتي: أهلين وسهلين فرحت فيك والله، كله مقرِّن، فيبدو أن الكافر آخذ حريته في حركاته، في نزهاته، يلعبوا مثلاً نساء ورجال بالثلج، يتضاربوا، يمزحوا مع بعضهم، يقرءوا مجلات وقصص فاضحة، يشاهدوا مسلسلات ممتعة، في أفلام خاصة يأتوا بها، فيبدوا للإنسان القاصر الذهن أن الكافر في جنة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام فيما يبدو لعامة الناس:

((الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر))

لكن المؤمن في بقلبه سعادة والله الذي لا إله إلا هو لو وزعت على أهل بلدٍ لكفتهم، شعورك أن الله يحبك، وأن الله راضٍ عنك، وأنك في عين الله، وأنك في حفظ الله، وأنك نظيف، علاقاتك كلها واضحة، كل علاقاتك مقننة بالشرع، ما في عندك شيء غامض أبداً، هذا الشعور ـ شعور الأمن ـ لا يملكه إلا المؤمن..

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

(سورة الأنعام)

يقولون أن رجل ذمي يعمل عمل شاق جداً في الأسيقة، وبحالة من البؤس، والفقر، والحاجة، والضعف، شاهد عالم من علماء المسلمين بين إخوانه في موكب، وشكله جميل ولباسه أنيق، والإخوان يحفوا فيه من كل جانب، ومعزز، مبجَّل، مكرَّم، مرفَّه، فيبدو أن هذا الذمي قرأ هذا الحديث فطار عقله، واستوقفه، قال له: يا سيدي أي سجنٍ أنت فيه وأية جنةٍ أنا فيها ؟ ما هذا الحديث، لأن نبيكم قال:

((الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر))

فأي سجنٍ أنت فيه، وأي جنةٍ أنا فيها ؟!! أنا محروق نفسي أي جنة هذه ؟ فأجابه قائلاً: ما أنت فيه لما ينتظرك فأنت في جنة، وما أنا لما ينتظرني فأنا في سجن. معنى ذلك الإنسان مهما ترفه في الدنيا لو قست حياته لما بعد الموت فحياته لا شيء، لذلك ربنا عزَّ وجل قال:

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت))

(من الجامع الصغير: عن " سهل بن سعد ")

أنت لك مشاهدات، لو سألناك: أنت أين مسافر ؟ والله أنا أعرف حلب، وذاهب إلى الحج، فأعرف مكة والمدينة وجدة فقط، ولكن ممنوع أذهب إلى الطائف، لحد هنا، وذاهب مرة لمصر فرضاً، إذاً القاهرة،

وجدة، ومكة، والمدينة، وحلب، ودمشق، هذه عينٌ رأت، فهل رأيت الأرجنتين ؟ لا والله، ذهبت إلى اليابان ؟ لا والله لم أذهب، زرت أمريكا ؟ لا والله، كندا ؟ لا والله لا أعرفها، ألم تذهب إلى المكان الفلاني؟ لا والله لا أعرفه، فأضيق دائرة بحياة الإنسان هي المشاهدات، المرئيات، فالله عزّ وجل قال في الحديث القدسي:

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت))

(من الجامع الصغير: عن " سهل بن سعد ")

في واحد رأى القارات الخمس، بعض التجار الكبار يوم في اليابان، يوم بأمريكا، يوم بالبرازيل، يوم بفرنسا، يوم بإنكلترا، هذا مرئياته واسعة كثير ولكنها كلها تتم في الأرض، ولكن رواد الفضاء وصلوا إلى القمر، إذاً يضاف للأرض القمر هذه المرئيات، لكن:

((ولا أذنٌ سمعت))

أوسع بكثير، تسمع بكل دول العالم بالأخبار، يقول لك: صار زلزال باليابان، صار فيضان بدولة من دول آسيا، بالهند مثلاً، صار في جراد بالسودان، أنت تسمع عن السودان، والهند، والباكستان، وفي بنجلاديش، فمسموعاتك أوسع بكثير من مرئياتك، ضرب مليون، ضرب خمس ملايين، تسمع بالمجرات، تسمع بالقمر، سمعت بكل شيء، إذاً دائرة المسموعات أوسع بكثير من دائرة المرئيات، أما دائرة الخواطر هذه ليس لها حدود، ممكن يخطر في بالك إنسان طوله من هنا إلى القمر، ممكن ولكن هذا خاطر ، ممكن تتصور مثلاً ماء مثل القطر لزج، هذا خاطر، ممكن تتصور مثلاً أفعى طولها من هنا إلى حلب ، هذا خاطر هذا، ماذا قال الله عزَّ وجل ؟

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ـ هذه أضيق دائرة ـ ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

(ن الجامع الصغير: عن " سهل بن سعد ")

فهذا الذي ينتظرك أيها الأخ المؤمن، لو تعلم ماذا ينتظرك ؛ والله لوجدت أن كل ثانيةٍ تضيع منك خسارة ما بعدها خسارة، فإذا ركب الإنسان سيارة وسافر يذكر الله عزَّ وجل، يقرأ موضوع إن تمكن له أن يقرأ، يقرأ قرآن إذا كان حافظه، جلس مع إنسان يذكره بالآخرة، النبي الكريم قال:

((أمرت أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً))

إذا نظر يعتبر، وإذا صمت يفكر، وإذا تكلم يتكلم عن الله عزَّ وجل، هذا من استغلال الوقت لأن الوقت أثمن شيء، الآية الكريمة:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2))

(سورة العصر)

العصر هنا مطلق الزمن، يعني إذا أنت ذهبت إلى نزهة مثلاً، وحجزت في الفندق خمسة أيام، كلما تمضى ساعة المسافة قصرت، أبداً، فالزمن ليس في صالح الإنسان إلا في حالة واحدة..

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

الإنسان ما تاب لله عزَّ وجل الأيام تمضى، مضت أول سنة بالسبعينات، صار بالثمانينات، خمسة وثمانين، ستة وثمانية، سبعة وثمانين، ثمانية وثمانين، تسعة وثمانين، تسعين بعد فترة ستأتي، بالتسعينات وصل للألفين، الزمن ماشي، هل في صالحه ؟ لا، ليس في صالحة لأنه كلما مضت سنة اقترب من الموت، من الحساب، من نهاية اللذائذ كلها، من بدء العذاب، إلا المؤمن..

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

هذا مستثنى من هذه الخسارة، فهذه الآية دقيقة جداً، فتحرك الزمن ليس في صالح الإنسان، بل إنه ينقِص من وجوده، لأن الإنسان في حقيقته بضعة أيام فكلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه.

((الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر))

(رواه مسلم)

آخر حديث، يقول عليه الصلاة والسلام:

((كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابر سبيل))

(من الجامع الصغير: عن " ابن عمر ")

لما الإنسان يذهب إلى مكان موقتاً، لو استأجر بيت في مصيف شهر لا يهتم بالجلايل إطلاقاً، يقول لك: الشغلة مؤقتة، يمكن يجد السجادة مهرية يقول لك: ماشي الحال، التخت طوال الليل يزقزق، ماشي الحال، يمكن يأخذ معه دولة من دون يد يقول لك: نمسكها بالمساكة، فلماذا قبلت هذه الدولة، وقبلت هذه السجادة، وهذا التخت ؟ لأن القضية قضية شهر واحد، فلو الإنسان تعمق في الدنيا يجدها مؤقتة كلها، فعندما يهتم بتنظيم أموره بأقصى درجة، هذا البيت يهري مائة من نمرته، البيت يهريه، من إسمنت مسلح، يقول لك: أخي وضعنا سبع أكياس شمينتو، شيء مكان مثل القلعة، فهذا البيت يهري مائة رجل، يهري ألف أسرة.

فالنبي الكريم قال:

((كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابر سبيل))

(من الجامع الصغير: عن " ابن عمر ")

كلما رأيت نفسك مسافر تخف طلباتك، تخف حاجاتك، تخف همومك، تخف متاعبك، تخف مقلقاتك، كلما كثرت الحاجات ورأيت أن الدنيا طويلة كثير، وفيها كل شيء الدنيا، تبدأ المشاكل، لذلك النبي الكريم يقول:

((إن أسعد الناس فيها أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها))

كلما تعلقت فيها أكثر تشقى بها، وكلما تركتها أكثر تسعد بها، لذلك:

((كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابر سبيل))

(من الجامع الصغير: عن " ابن عمر ")

هذه بعض الأحاديث الشريفة المتعلقة بالدنيا، هذه توضيحات الخالق، والكون والدنيا والإنسان أشياء أساسية في حياتك، فإذا عرفت لماذا أنت في الدنيا، وأنها مؤقتة، وأن العمل الصالح هو أساس كل شيء.

في نقطة مهمة: إذا واحد جاءه ملك الموت وكان تاجر عمار، ماذا يقول لملك الموت ؟ فقط جمعة لأصب السقف الأخير. هذه لا يحكيها، هل قالها أحد ؟ امهلنا جمعة لكي نصب هذا السقف. لو كان تاجر: أخي لأبيع البضاعة، لم أبعها بعد، لا ليس هذا يقول، لكن ماذا يقول ؟ يقول:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ)

(سورة المؤمنون)

إذاً ما هو أهم شيءٍ في الدنيا ؟ العمل الصالح، هذا الذي على وشك الموت، على فراش الموت، في النزع الأخير، ماذا يقول ؟..

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ)

ما قال شيء آخر إطلاقاً، هذه الحقيقة، معنى هذا أن الذي تندم عليه هو العمل الصالح، لا تندم على شيء إلا العمل الصالح، إذاً هو حقيقة الدنيا، لذلك:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

(سورة العصر)

السيرة النبوية الشريفة

بقي موضوع قصير عن السيرة ـ الحديث الشريف استغرق الوقت كله ـ نحن في عندنا النبي عليه الصلاة والسلام حينما اتجر بمال السيدة خديجة، فعند الفقهاء النبي عليه الصلاة والسلام أول مضاربٍ في الإسلام، معنى مضارب ـ هذا مصطلح فقهي ـ شركة المضاربة أي المال من إنسان والجهد من إنسان آخر، فإذا اشترك إنسان بجهده وإنسان بماله، فهذه شركة مضاربة، فالنبي عليه الصلاة والسلام اتجر بمال السيدة خديجة.

الشيء المهم، أن النبي عليه الصلاة والسلام ذهب إلى الشام بمال السيدة خديجة رضي الله عنها، وكان معه ميسرة غلام خديجة. ميسرة رأى من صدقه، ومن أمانته، ومن استقامته، ومن عفّته الشيء الذي لا يوصف، فلما عاد إلى مكة ، أخبر السيدة خديجة بما رآه من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

التعليق على هذا الحدث في السيرة: أن المؤمن لا تبدو قيمته في صلاته وصيامه، ولكن في محاككته بالدرهم والدينار، عندما تعامله، عندما تعطيه نقود يشغلها لك، عندما تدينه مبلغ، عندما تكون مع شريكها تظهر، فالنبي عليه الصلاة والسلام متى ظهر ؟ متى تألّق ؟ حينما اتجر بمال السيدة خديجة، فهذا النبي قدوة اللهم صلِ عليه، أولاً رعى الغنم ـ في درس سابق ـ لماذا رعى الغنم ؟ لأنه أكّد قيمة العمل، وأكد أن اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى، وأكّد أن الذي لا عمل له لا قيمة له، وسيدنا عمر رضي الله عنه لما يقول: " إني أرى الرجل ليس له عمل فيسقط من عيني ". فرعي الغنم فيه تأكيدٌ لقيمة العمل، وهذا الذي رآه النبي يصلي في المسجد سأله:

((من يطعمك ؟))

ـ قال: أخي.

ـ قال

((أخوك أعبد منك))

والنبي حينما أمسك يد أحد أصحابه وكانت خشنة فأمسكها وقال:

((إن هذه اليد يحبها الله ورسوله))

فهذه السنة المطهرة نبراس لنا، مشعل وضّاء، فالنبي على عظم شأنه، على أنه سيد الخلق وحبيب الحق، على أنه سيد ولد آدم كان يعمل، عمل عمل دخله قليل جداً، على قراريط رعي الغنم، وعمل في مال السيدة خديجة، فكان مثلاً أعلى في الأمانة، لذلك لا صلاة ولا صوم ولا حج ولا زكاة تُذْكَر أمام الخيانة، انتهيت كمؤمن.

فأنت بطولتك باستقامتك، بأمانتك، بصدقك، بورعك، بحرصك الحرص الشديد على كسب المال وعلى إنفاق المال، فهذه لقطة من السيرة النبوية المطهرة، أن الذي رفع مكانة النبي عند السيدة خديجة أمانته واستقامته، لذلك تمنّته أن يكون زوجاً لها، وسعت لأن يكون زوجاً لها عن طريق صديقتها السيدة نفسية.

لكن الذي يلفت النظر، من يقول: أخي أنا أصلي خمس أوقات، دينك بالتعامل المادي، لا يبدو الدين الصحيح إلا بالتعامل المادي الصحيح، وإلا الصلاة والصيام والحج والزكاة ليست بشيءٍ إطلاقاً أمام الانحراف في كسب المال، أو في إنفاق المال.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (005) :باب الزهد2 - إن صحت العقيدة صح العمل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-08-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... لازلنا في باب هام من أبواب رياض الصالحين، ألا وهو فضل الزهد في الدنيا والحث على التقلل منها، والدنيا كما ذكرت لكم في الدرس الماضي، ثلث فلسفة الإسلام، لأن الفلسفة في الأصل هي تقديم تفسير دقيق لحقيقة الكون، ولحقيقة الدنيا، ولحقيقة الإنسان، فبقدر ما تملك التصوّر الصحيح، والإدراك العميق لحقيقة الكون، ولحقيقة الحياة، ولحقيقة الإنسان، تستطيع أن تتحرك التحرك الصحيح، فالتصور الصحيح يقودك إلى السلوك الصحيح، والسلوك الصحيح يقودك إلى الجنة وإلى سعادة الدنيا والآخرة. إذاً إذا صحَّت عقيدة المرء صح عمله، فسعد بهذا العمل الصالح، وإذا فسدت، فسد عمله، فشقي بهذا العمل الفاسد، فالقضية واضحة كالشمس.

النبي عليه الصلاة والسلام في أحاديث كثيرة صحيحة، يصف الدنيا، والدنيا كما قال عليه الصلاة والسلام رأس كل خطيئة، والدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى مَن لا عقل له

ولقد ذكرت لكم في الدرس الماضي كيف أن العلم يضيء لنا حقيقة الشيء، لو أن الإنسان وجد في أرضٍ في حفرةٌ وفيها أكمة، فيها أفعى وفيها طير، فيها ثمرة وفيها حَنْظلة، فيها شجرة وفيها شوك، فيها وحشٌ مفترس، وفيها حملٌ وديع، فيها مياه صافية، وفيها مياه آسنة، فيها أشياء من كل شيء نوعان، نوع نافع ونوع ضار، فإذا كانت هذه الأرض يلفها الظلام الدامس، وأنت وسط هذا الظلام لا تدري ماذا تفعل، حيثما تحركت تقع في خطأ، حيثما تقدَّمت تقع في مطل، حيثما تناولت، قد يكون هذا الشيء ضاراً، فجأة أضيئت لك هذه الأرض، رأيت الحفرة فاجتنبتها، رأيت السهل فسرت فيه، رأيت الجبل فتجنَّبته، رأيت الفاكهة فأكلتها، رأيت الشيء المُر فتركته، رأيت العقرب فقتلتها، رأيت السمكة فشويتها، رأيت الماء الآسن فتجنبته، رأيت الماء العذب فشربته، إذاً العلم كشف، طبعاً هذا الكشف لا يكون إلا من عند الله، والدليل:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78))

(سورة الشعراء)

من درس الجمعة، الذي خلقني فهو يهدي، أي الخالق وحده، الصانع وحده، هو وحده الذي يمكن أن يهديك سواء السبيل، لذلك أي هدىً يأتيك عن غير الله فهو ضلالٌ بشكلٍ قطعي. يبدو أن العلوم الحديثة تكشف بعض الحقائق، لكن لو جئنا بمصباح صغير، وأضأنا مسافة لا تزيد عن سنتيمتر مربع، أو

مساحة لا تزيد عن ديسيمتر مرب، بالنسبة إلى حقل كبير فيه كل شيء، هذه الإضاءة ماذا تفعل ؟ أنت بحاجة إلى فكر شمولي، إلى عقيدة شاملة، تُجْمِل لك الكون كله، والحياة كلها، والإنسان كله، أما إذا اكتفيت بعلم متخصص بحقل معين، هذا العلم قد ينفعك في دنياك، ولكن أنت بحاجة إلى شمول في العقيدة، إلى علم يشمل كل شيء.

فلذلك النبي عليه الصلاة والسلام في أحاديث كثيرة حدَّثنا عن حقيقة الدنيا ونحن في الدنيا، نحن في الدنيا نتحرَّك، فإذا جاء التحرُّك وفق الهدف فهي السعادة، وإذا جاء التحرك على عكس الهدف، كطالب في عام دراسي، حركته اليومية إذا كانت باتجاه دراسته ومطالعته، وتذكر دروسه وكتابة وظائفه، ويرتاح ليدرس، ويأكل ليتنشَّط، إذا كان عمله هكذا، فتأتي حركته اليومية مطابقة لهدفه، يشعر بالطمأنينة، يشعر بحالة اسمها الإنجاز، فإذا أمضى وقته بشكل سخيف، إذا استهلك وقته استهلاكاً رخيصاً يشعر بقلق عميق.

فالإنسان إذا تحرك باتجاه الهدف الذي خلقه الله له يشعر بطمأنينة، فإذا تحرك حركة مناقضةً لما أعدَّه الله له يشعر بقلق، وهذا معنى قول بعضهم: الإسلام دين الفطرة. أي لا ترتاح هذه النفس إلا إذا سارت في الاتجاه الصحيح الذي رسمه الله لها، ولا تشقى هذه النفس إلا إذا ابتعدت عن الهدف الذي رسمه الله لها، فالقضية قضية مصيرية، قضية سعادةٍ أو شقاء، قضية حياة أو موت، قضية مصير أبدي، قضية جنة إلى الأبد، أو نارٍ إلى الأبد، قضية توازن، قضية تماسك، قضية راحة، فالذي يبتغي السعادة، ولا أظن أن أحداً على وجه الأرض لا يبتغي السلامة والسعادة، فالإنسان فطر على حب البقاء، وعلى سلامة البقاء، وعلى كمال البقاء، وعلى الاستمرار في البقاء، أو خلود البقاء، وهذا كله لا يتحقق إلا إذا عرفت الله عز وجل.

هذا التمهيد تحدثنا عنه في الدرس الماضي بشكل مفصل، وقد أوجزته ليكون أيضاً تمهيداً لبعض الأحاديث التي جاءت عن النبي عليه الصلاة والسلام، يقول عليه الصلاة والسلام: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد))

لبيد أحد الشعراء الذين كانوا في الجاهلية، وأدركوا الإسلام، فالشاعر الذي يدرك الجاهلية والإسلام اسمه شاعرٌ مُخَضْرَم، قال عليه الصلاة والسلام: " أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد "

ماذا قال هذا الشاعر ؟ قال: ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل.. البيت تتمَّته:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

* * *

لأن نعيم أهل الجنة لا يزول، النبي أعرض عن ذكر الشطر الثاني، قال:

((أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل))

ما معنى باطل ؟ كلمة نفهمها جميعاً فهماً ضبابياً، ولكن إذا دققنا فيها: " ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل" الباطل الشيء الزائل، فلو تعلّقت بزوجةٍ تعلقاً شديداً، ومن أجلها عصيت ربك، فهذه الزوجة لابد من أن تتركها شئت أم أبيت، أو لابد من أن تترك، يأتي الموت فيخطفها، أو يأتي الموت فيأخذ زوجها، إذاً الفراق لابد من أن يقع، هذا شيء باطل، لو تعلقت بالمال ؛ تأتي ساعةٌ لا ينفع مال ولا بنون، لو تعلقت بالجاه ؛ تأتي ساعة يزاح الإنسان عن هذا المنصب، لو تعلقت بالطعام والشراب ؛ تأتي ساعة لا تستطيع أن تأكل شيئاً، لو تعلقت لو تعلقت، كل شيء ما خلا الله باطل، لو تعلقت بالله عز وجل، لو التفت إليه، لو أقبلت عليه، لو أخلصت له، هذا كله يستمر، هذا كله زادك في الدار الآخرة، إذاً:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

* * *

الشاعر لبيد يقصد نعيم أهل الدنيا، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام لأنه يعلم علم اليقين أن نعيم أهل الجنة لا يزول..

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً)

(سورة الأحزاب: من آية " ")

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (48))

(سورة الحجر)

(لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً (13))

(سورة الإنسان)

إنك لك ألا تجوع فيها ولا تعرى، ولا تظمأ فيها ولا تضحى، فهذا النعيم المقيم، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام ما قال: وكل نعيم لا محالة زائل، ألا كل شيء ما خلا الله باطل فهنا في نقطة مهمة جداً: أن الحقيقة الأولى في الكون هي الله عز وجل، فأي شيءٍ يقربك إليه، أو يزيدك تعريفاً به، أو يحملك على طاعته، فهو حق، وأي شيء يبعدك عنه، أو يحملك على معصيته، أو يبعدك عن معرفته فهو باطل، فلذلك القرآن الكريم لما ربنا عز وجل قال:

(مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 38 ")

يا ترى أنواع الحديد القرآن ذكرها ؟ لا لم يذكرها، ذكر بعض الحيوانات، ولكن لم يذكر حيوانات أخرى، ذكر بعض الفواكه ولكن لم يذكر فواكه أخرى، فالإنسان يحتار، كيف قال الله عز وجل:

(مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 38 ")

في عندنا مليون نوع من السمك قال:

(لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً)

(سورة النحل: من آية " 14 ")

ما تكلّم عن أنواع السمك، لم يتكلّم عن أنواع الطيور، لم يتكلم عن أنواع المعادن، لم يتكلم عن الذرة بشكل تفصيلي، لم يتكلم عن النيترون، والبروتون، لم يتكلم عن القنابل الحديثة، فكيف الله قال:

(مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 38 ")

الحقيقة أن القرآن ليس كتاب فيزياء، ولا كيمياء، ولا رياضيات، ولا كتاب تشريح، ولا طبيعة، بل كتاب هداية، فأي شيءٍ يؤثّر في علاقتك بالله تأثيراً إيجابياً أو سلبياً ذكره القرآن، فالحقيقة الأولى والأخيرة، الحقيقة الوحيدة هي الله عز وجل، فأي شيءٍ يؤثر في معرفتك بالله تأثيراً إيجابياً أو سلبياً، أي شيءٍ يقربك من الله، أو أي شيءٍ يبعدك عنه، أو أي شيءٍ يحملك على طاعته، أو يحملك على معصيته، ذكره الله تعالى..

(مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 38 ")

يقربك من الله عز وجل، فموضوع النظرة إلى النساء، فهذه لها علاقة بالاتصال بالله عز وجل، موضوع كسب المال له علاقة بالاتصال بالله عز وجل، موضوع إنفاق المال له علاقة بالاتصال بالله عز وجل، موضوع العلاقة الأسرية له علاقة بالاتصال بالله عز وجل، علاقتك بزوجتك، بأولادك، بزبائنك، بمرءوسيك، علاقتك بصحتك، علاقتك بنفسك، علاقتك بربك، فأيَّة علاقةٍ القرآن تحدَّث عن أسباب إيجابيتها وعن أسباب سلبيتها، فلذلك هذا معنى قول الله عز وجل:

(مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 38 ")

فأهم ما في المدرسة أن تؤدي الامتحان بنجاح، أهم شيءٍ في المدرسة، فلذلك أي شيءٍ يحملك على الدراسة الصحيحة ذُكِر، أي شيء يبعدك عنها ذكر، ولكن نوع الخشب في المقعد لم يذكروه، بالنظام الداخلي، ولم يتحدث عنه الأستاذ، هذا شيء خاص بالنجار، أنت عليك أن تجلس على مقعد، أما موضوع نوع الخشب وكيف صنع هذا شيء لا يقدم ولا يؤخر بالنسبة للطالب، هذا معنى:

(مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 38 ")

حتى إذا واحد قال لك: هذه الله لم يذكرها، وهذه لم تُذْكَر، من أجل أن تعرف كيف تجيبه، هذا كتاب هداية، هذا كتاب يحدد علاقة الإنسان بربه، فأي شيء في حياته اليومية متعلّق بهذه العلاقة، يزيدها أو يضعفها، ذكره الله عز وجل..

(مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 38 ")

يؤكد هذا قول الله عز وجل:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

(سورة المائدة: من آية " 3 ")

معنى (أكملت لكم دينكم): الكمال متعلّقٌ بالنوعية، والتمام متعلقٌ بالكمية، لو أنك أعطيت إنسان عشر ليرات ذهبية، تقول له: بالتمام والكمال، ما معنى بالتمام والكمال، أي عشرة كاملة، عشرة، أما بالكمال ليرات جديدة، حروفها حادة، هذا الكمال، أما التمام عشرة، فلما ربنا عز وجل قال:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)

أي أن أي موضوع طرقه القرآن الكريم عالجه معالجةً واسعةً شاملةً كاملة، أما الموضوعات التي طرقها القرآن الكريم فهي موضوعات تامَّة تغطي كل حاجات الإنسان، فالموضوعات التي عرضها القرآن الكريم من حيث العدد، ومن حيث النوع تامةٌ وكاملة، تامة للعدد، وكاملة للنوع..

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ)

لذلك قال بعض علماء الأصول: إن أية قضية يواجهها الإنسان في حياته، لابد من أن يكون لها تشريعاً مستنبطاً من كتاب الله بشكل قطعي أو ظني، يعني أية قضية تواجه الناس لابد من أن يكون لها أصل في القرآن الكريم، وإذا لم نهتد بهذا الأصل فهذا تقصير من العلماء المجتهدين.

إذاً، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل))

لذلك إذا ذكرت الله فأنت الرابح، وإذا ذكرت سواه فأنت الخاسر، إذا أحببت الله فأنت الرابح، إذا أحببت غير الله فأنت الخاسر، لأن الله باقٍ، وأن ما سواه باطل أي زائل، الحق هو الشيء الثابت والهادف، والباطل هو الشيء الطارئ والزائل، الطارئ والزائل، والثابت والهادف، الزائل والعابث، من معاني الباطل، سابقاً في موضوع قبل سنوات طرقته من معاني الحق، أنه شيء ثابت، لقول الله عز وجل:

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

(سورة الأحقاف: من آية " 3 ")

لكن في آية ثانية قال:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16))

(سورة الأنبياء)

صار الحق عكس اللعب، وفي آية ثالثة:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

(سورة المؤمنون: من آية " 115 ")

والعبث أيضاً عكس الشيء الجاد، فصار الحق الشيء الثابت والهادف، والباطل الشيء الزائل والعابث، العبث هو عمل لا جدوى منه، وهو موقت، زائل، فالآن صار معنى أي تعلقٍ بالحق فهو تعلق ثابت ودائم، وأي تعلق بالباطل ؛ إن كان نظرية، وإن كان شخص مبطل، وإن كان بدعة، أي شيء باطل على مستوى الأفكار، على مستوى السلوك على مستوى الأعمال، هذا الذي يفرِّق الحق عن الباطل، إذاً

(("أصدق كلمة قالها شاعر كلمة: لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل))

في ضوء هذا الحديث الشريف ممكن أن تمتحن عملك أثناء النهار، أنت الآن تبيع وتشتري، تبيع وتشتري لتكسب رزقك، وهذا شيء جميل، إذاً هذا العمل عبادة، لكن هل وفَّرت له الشرط ؟ هل تبتغي بكسب هذا الرزق أن تتقرب إلى الله بهذا المال، وأن تصون عرضك، كما قال أبو ذر:

((حبذا المال أصون به عرضي وأتقرب به إلى ربي))

هذا أول شرط.

هل تفعل هذا العمل وفق الشرع الشريف، فهل هناك علاقات ربوية، في مخالفات في الشراء أو في المبيع ؟ الشيء الثالث ؟ هل تبتغي نفع المسلمين ؟ الشيء الرابع هي يصرفك هذا العمل عن طاعةٍ، عن مجلس علم، عن مجلس ذكر، عن أداء صلاة ؟ فيجب أن تكون هذه الشروط متوافرة، حتى يصبح عملك عبادة تؤجر عليها.

الآن، جلست مع أهل بيتك، هل في هذا الجلوس معصية ؟ إذا كان هناك حديث عن الله، أو استماع لما تقول تطييباً لخاطرها، أو توجيه لأطفالك ؟ الجلوس في البيت أيضاً عبادة ولكن يحتاج توجيه صحيح، وإدخال الأنس على قلب الأهل، على قلوب الأولاد، وعلى قلب الزوجة، هذا كذلك عمل صالح.

الآن، أنت تشتري بها ثياب جميلة، تبتغي بها ماذا ؟ تبتغي بها أن تظهر بمظهر مقبولاً عند الناس، أنت مسلم تمثل هذا الدين الصحيح، إذاً شراء الملابس بنية أن يكون لك مظهر مقبول هذا عبادة أيضاً، فأي حركة وأي سكنة إذا ابتغيت بها وجه الله فهي عبادة، فالأصل أن تعرف الله، وأن تعرف لماذا أنت هنا في الدنيا، عندئذٍ يصبح عملك كله عبادة خالصة لوجه الله عز وجل.

* * * * *

حديث آخر متعلق بالدنيا:

عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه))

أي لو أن ذئبين جائعين أدخلا على قطيع غنم، هذان الذئبان أكلا من هذا الغنم ما طاب لهما الأكل، قتلا هذه الغنمة، وأكلا جزءً من هذه الغنمة، أي أفسدا هذا القطيع إفساداً لا حدود له، النبي عليه الصلاة والسلام شبَّه كيف أن الحرص على المال والحرص على الشرف، أي الجاه، الحرص على المال والحرص على الجاه، كيف أن هذين الشيئين يفسدان الدين كما يفسد الذئب إذا أرسل في قطيع الغنم. فأحياناً الإنسان بدافع من حرصه على المال يتواني عن أداء فريضة الزكاة، حرصه على المال حمله عن ترك الزكاة، وترك الزكاة يسوق إلى إتلاف المال، لذلك هذه المصادرات، وهذه الفيضانات، قال عليه الصلاة والسلام:

((ما تلف مال في بر أو بحر إلا بحبس الزكاة))

(من الجامع الصغير: عن " عمر ")

فصار الحرص على المال مرض والله سبحانه وتعالى يقول: " ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون "

يوق شح، فالشح مرض، فالحرص على المال مريض خطير، يفسد الدين، قد يتاح لك أعمال صالحة كثيرة، خوفك من أن تنفق المال يحجمك عن هذه الأعمال الصالحة، لا يوجد عمل صالح، إذاً لا يوجد إقبال، إذاً ما في سعادة، يصبح الدين معلومات، ثقافات، مشاعر، عواطف، يقول لك: فلان ألقى خطبة ناجحة، والله قرأت مقالة رائعة، واكتشفوا حقيقة علمية جديدة، عبارة تعاطف فكري مع المسلمين، من دون أن يكون هناك سعادة حقيقة، إذا ما في بذل، ما في إقبال، ما في سعادة، الحرص على المال يبعدك عن العمل الصالح، يبعدك عن أداء فرض الزكاة، يبعدك عن العمل الصالح، لذلك الحرص على المال يفسد الدين كما يفسد الذئب إذا أرسل في قطيع الغنم، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه))

فأحياناً مكانته الاجتماعية، وحرصه على شيء يخيَّل له، يمنعه من حضور مجالس العلم، أحياناً تماديه في الباطل ولئلا يقال تراجع، وأعلن عن خطئه، يدفعه إلى أن يركب رأسه وتأخذه العزة في الإثم، حرصه على مكانته، لأنه قال كذا لا يتراجع، لأنه هدد ابنه أن يفعل معه كذا وكذا، إن هو لم يظهر امرأته على إخوته، لا يتراجع، يأتيه عالم يقنعه أن هذا لا يجوز، يقول: لا، هذا الذي تأخذه العزة بالإثم، هذا الذي يتوهَّم أن مكانته الاجتماعية تهتز إذا رجع إلى الحق، هذا يفسد دينه وهو لا يشعر.

لذلك، سيدنا عمر كان وقّافاً عند كتاب الله، كان يخطب، فذكّرته امرأة بآية متعلقة بالمهر، فقال عمر رضي الله عنه على رؤوس الأشهاد: " أصابت امرأة وأخطأ عمر " وما تضعضعت مكانته أبداً، ومرة أحدهم قال له: والله ما رأينا خيراً منك بعد رسول الله، فحدَّق فيهم واحداً واحداً وكاد يأكلهم بنظراته، إلى أن قال أحدهم:

ـ لا والله لقد رأينا مَن هو خيراً منك هو.

ـ قال: ومَن هو ؟

ـ قالوا: أبو بكر.

ـ فقال رضي الله عنه: كذبتم جميعاً وصدق. وعد سكوتهم كذباً.

ـ وقال: كان أبو بكر أطيب من ريح المسك، وكنت أنا أضل من بعيري.

ما منعته مكانته، ذات مرة وهو يخطب، قال: " يا ابن الخطاب كنت ترعى الغنم على قراريط لأبناء خالتك ". فما علاقة هذا الكلام بالخطبة ؟ خطبة رائعة، هو أمير المؤمنين، فسأله أحد أصحابه فقال له:

ـ يا أمير المؤمنين لمَ قلت هذا الكلام ؟ ماذا تعني به ؟

ـ فقال له: حدثتني نفسي وأنا أخطب الناس أنه أنت أمير المؤمنين، وليس بينك وبين الله أحد ـ أنت أعلى واحد ـ وأنت وأنت، فأردت أن أعرفها قدرها أمام الناس.

والواحد لا يقول: أنا لي جاه، جاهك اجعله عند الله، فإذا في كان خطأ تراجع، التراجع فضيلة، كان وقّافاً عند كتاب الله، النبي عليه الصلاة والسلام، كان يسأل فيسكت إلى أن يأتي الوحي، لهذا قال الله عنه:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(سورة النجم)

فأنت أيضاً لو سئلت قل: لا أعرف، كلمة لا أعرف وسام شرف، نصف العلم لا أدري، تجد بعضهم لازم يحكي، لازم يجيب عن أي مسألة، فلذلك تراه يهرف بما لا يعرف، كلما تكلم كلام يلقي قنابل بدلاً من أن يلقي كلمات، لأنه يخبص، فقل: لا أعرف. هذا أسلم لك، ولمكانتك، ولدينك، ولمسئوليتك أمام الله عز وجل، إما أن تكون متأكداً، وإما أن تقول: لا أعلم، ونصف العلم لا أدري، لذلك من صفات العالم المتواضع، يقول سيدنا الشافعي: " كلما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي " وربنا عز وجل قال:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85))

(سورة الإسراء)

هذا العالم الشاب الذي جاءه رجل يريد أن يحجِّمه أمام تلاميذه فقال له:

ـ يا هذا هذا الكلام ما سمعنا به.

ـ قال له: أو حصَّلت العلم كله ؟

ـ قال له: لا.

ـ قال له: ماذا حصَّلت منه ؟

ـ قال له: شطره.

ـ فقال له: هذا الكلام الذي قلته من الشطر الذي لا تعرفه. النصف الثاني هذا، لا تعرفه لا يوجد إنسان لم يحط بالعلم كله، فلذلك التواضع من صفات العالم، فهذا الجاه خطير جداً، له مكانة، تكلم كلمة خطأ لا يتراجع عنها، هذا أفسد دينك، فسَّرت آية خطأ لا يتراجع، هذا الشيء يتلف دينك، لذلك:

((ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه))

أي ما شيئان يفسدان دين الإنسان كأن يحرص على المال وعلى الشرف، هنا الشرف بمعنى على جاهه، على سمعته، فأحياناً يكون الأب من عادته أن يكون عنده اختلاط بالبيت، يكون عند ابن شاب ذكي الله يكرمه بمجلس العلم، بابا هذه الجلسة لا تجوز، فيعنفه، يبهدله، أحضر له آية، آية صريحة، جاب له حديث شريف، جاب له قول عالم شهير، جاب له كتاب، وقال له: تفضل، فلا يتراجع، لأنه لا يغلط، الشعور أن الأب لا يغلط وهذا ابنه يعلمه ؟! هذا شعور مرضي، هذا الجاه، يتراجع أمام ابنه، يعترف لابنه بالخطأ، يا ابني الله يرضى عليك والله نبَّهتني، الله يجزيك الخير يا بني، والله لازم أتراجع، حدثني شخص طبيب له صهر مقيم بدولة من دول الخليج، فجاء في الصيف لزيارة الأهل، فقال لي: في سهرة من السهرات، أخبره أنه يضع ماله في البنوك بفائدة ربوية في الخليج، فقال له: هذه العملية فيها مخالفة للشرع، فيها مخالفة، لا ما فيها مخالفة، ما الدليل ؟ الآية، الحديث، تفسير الآية، الكتاب، ظل النقاش حامياً إلى الساعة الثانية عشر ليلاً، يبدو أن هذا الشخص المقيم في دول الخليج حوصر بالحجة، وجاء بالدليل القطعة، الآية، الحديث، تفسير الآية، فقال له: لازم أنا أخبر وأسحب أموالي من هذه الشركة، يقولون: أنه خبر أول يوم صباحاً فلم يتم الاتصال، مساءاً أخبر، لم يتمكن، ثاني يوم صباحاً، ثاني يوم مساءً، ثالث يوم صباحاً، ثالث يوم مساءً، ست محاولات، قال: ماذا حصل، بعد شهر أسحب أموالي، أقام شهر بالشام وسافر للبلد الخليجي، استقبله بالمطار شريكه قال له: الشركة أفلست، له فيها مليون دينار، فانهارت أعصابه ووقع مغمياً عليه، فيقول له: قم ما نفد غيرك، قال له كيف؟ قال له: رأيتك في المنام، قبل شهر تقول لي: بع أسهمي برأس مالها، ما صدَّقت، رأيتك مرة ثانية، ما صدقت، رأيتك مرة ثالثة في نفس الليلة، على الثالثة خشيت أن يكون هذا المنام حق، فذهبت وبعت لك هذه الأسهم برأس مالها، فلم ينج غيرك من هذه، الله رب النوايا، هذا الشخص نوى وهو في الشام أن يسحب أمواله من هذه الشركة، فالله عز وجل تولى أن يُعْلِم شريكه أن يبيع هذه الأسهم برأس مالها، فلما عرضت، قبل إعلان الإفلاس بأسبوع أو بأسبوعين، لم يكن ريحة إفلاس فبيعت رأساً برأس

مالها ونجى، لما يتراجع الإنسان، فهذا الشخص تراجع، لما قال له: الآية والحديث القطعي والنقلي وتفسير الآية، أن هذا العمل فيه عملية ربا، فتراجع، فعندما تراجع فالله عز وجل تولى حفظ ماله، فالله رب النوايا.

أحياناً الإنسان مكانته الاجتماعية تمنعه من الحق، أحياناً يكون الذي يعلم الناس أقل منه بالسن، هذه ليست لها علاقة، خذ الحكمة ولا يهمك من أي مكان خرجت، ولو يكون أصغر منك بالسن، خليه يكون أقل منك رتبة اجتماعية، أنت مدير عام شركة، وعندك موظف، والله عز وجل فتح عليه، تعلم منه، إذا كان الله غالي عليك، تعلم من الناس كلهم، فأحياناً المكانة الاجتماعية خطرة، تمنعك من الحق، تمنعك أن تعترف بالحق، تمنعك من أن تنصاع للحق، هذه مكانة اجتماعية مرضية، النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((ما ذئبان جائعان أرسلا في غنمٍ بأفسد لها ـ للغنم ـ من حرص المرء على المال والشرف لدينه))

أي أن أعظم شيء يفسد الدين أن تحرص على المال، هذا المال عارية مستردة، جعله الله بين يديك كي تصون عرضك، وكي تتقرَّب إلى ربك، فإذا جمَّعته، وكنزْته، وحرصت عليه، وخبأته للأيام السوداء، تأتي هذه الأيام قبل أوانها، تأتي وقد لا تكفي هذه الأموال لهذه الأيام السوداء، ولكن إذا أنفقته في سبيل الله، وأرضيت الله عز وجل، أغلب الظن أن الأيام القادمة كلها بيضاء وليست سوداء، لأن الله عز وجل شاكر عليم، يشكر لك صنيعك، وربنا عز وجل قال:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

(سورة التوبة : من آية " 103 ")

إذاً معنى الشرف هنا الحرص على المكانة الاجتماعية، فلا يتراجع، قال كلمة ولا يتراجع، أن يأبى الإنسان أن يتعلم ممن هو دونه في السن، أو دونه في القدر، أو دونه في المرتبة الاجتماعية، هذا شيء خطير، وهذه العلة أحياناً تصيب الآباء، هو الأب لم يتعلم، ألف عادات وتقاليد غير صحيحة، غير إسلامية، له ابن الله أكرمه بالعلم، يا بابا هذه هكذا جوابها، الآية هكذا تقول، إطلاق البصر حرام، هذه الطريقة في البيع حرام، سعرين حرام، حسم السند حرام، زيادة الثمن حرام، كتمان العيب بالبيع حرام، فيرد الأب عيه: أنت ستعلمني ؟! فسكت الابن، هذا الشرف، أب يتعلم من ابنه !! أما المؤمن يتعلم، يقول له: يا بني جزاك الله عني كل خير، الله يكرمك كما أكرمتني بهذا العلم، خذني معك إلى هذا الجامع لأتعلم، يا ترى هذا الشيء شرف، والنبي علمنا اللهم صلي وسلم عليه التواضع، قال:

((تواضعوا لمن تعلمون منه وتواضعوا لمن تعلمونه "))

(من الجامع الصغير: عن " أبي هريرة ")

أي إذا كان جاءك شخص أكبر منك بالسن احترمه احترام بالغ، قال عليه الصلاة والسلام:

((أنزلوا الناس منازلهم))

وقره، اجعله يشعر أنه معزز مكرم، هذا المؤمن، العلم في أحياناً منزلقات خطيرة، يصير فيه تجبر أحياناً، إذا واحد سأل سؤال، فيصير في سخرية، أو: لا تعرف الجواب إلى الآن، لا يعرف الجواب، لو كان يعرف لما كان قدم إليك، أنا في لي كلمة أعدها شعار في التعامل مع الناس: ليس العار أن تكون جاهلاً، ولكن العار أن تبقى جاهلاً. اسأل ما بدا لك، وإذا أنت كنت معلم ناجح، إياك أن تسخر من سؤال، ولو كان سخيفاً، ولو كان بديهياً، إنك إن سخرت من سؤال سخيف حطّمت السائل وأربكته، وألجمته، وحملته على أن يسكت طوال حياته، ولكن لو كان السؤال واضح، أو سؤال بديهي، أو سؤال سخيف، فبشكل جاد وبشكل أديب قل له الجواب.

فكما أن الإنسان مأمور ما يمنعه جاهه عن أن يتعلم، أيضاً العالم مأمور لا يستخدم سلطانه العلمي في تصغير الناس وفي تحجيمهم، لا، هو سأل وأنت أجب بأدبٍ جم، كما سألك بأدب جم، أجبه بأدب جم، لذلك الحديث الشريف:

((تواضعوا لمن تعلمون منه وتواضعوا لمن تعلمونه))

(من الجامع الصغير: عن " أبي هريرة ")

فهذا الذي يتعلم منك له فضل عليك، كيف ؟ لو لا ما أحب يسمع لك، لا يوجد عندك أحد، وثق من علمك، وطرق بابك، وأحب أن يسألك، فمعنى ذلك أنه يعرف قدرك، فله فضل عليه، هكذا انظر، هذا الذي جاءك يسأل، لولا أنه واثق من علمك ما سألك، فيشكر على هذه الثقة، سألك لك بالذات، معناها واثق من علمك وورعك، فلولا أنه سألك ما كسبت أنت الأجر، هو كان سبب أن تكسب الأجر، إذا هذا الجاه لا يمنع الإنسان يتعلم، المتكلم أصغر مني، المتكلم من أسرة أقل مني، المتكلم معه شهادة أقل مني، أنا أحمل دكتوراه، هو معه ليسانس أو ماجستير، أنا مختص بهذا الفرع الفلاني، هو غير مختص، أنا أغنى منه، أنا أقوى منه، أنا رتبتي أعلى منه، هذا كله كلام فارغ، العالم شيخٌ ولو كان حدثاً، والجاهل حدثٌ ولو كان شيخاً، ورتبة العلم أعلى الرتب، والحقيقة الله عز وجل قال:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

(سورة المائدة: من آية " 2 ")

لم يقل تسلّطوا على الناس، تعاونوا، انظر التعاون البر والتقوى، البر صلاح الدنيا، والتقوى صلاح الآخرة، الله عز وجل وجهنا نتعاون، وليس نترأس على بعضنا، أنت واحد من الناس، دخل عليه فأصابته رعدة قال:

((ما أنا إلا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد))

(من تخريج أحاديث الإحياء: عن " جرير ")

هذا حجمي، هكذا قال النبي، وذات مرة كان جالساً مع مسكين، فمر عليهما رجل قال من أنتما ؟ قال:

((مسكين يجلس بين مساكين))

(من شرح الجامع الصغير)

هكذا تواضع النبي عليه الصلاة والسلام، كان بنزهة فقال: وعلي جمع الحطب، واحد منهم قال: وعلي ذبحها، والثاني علي سلخها، قال:

((وعلي جمع الحطب))

كان بمعركة كل ثلاثة على راحلة، قال:

((وأنا وعلي وفلان على راحلة، جاء دوره في المشي، قيل له: ابق راكباً، قال: لا، ما أنتما بأقوى مني على السير، ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر))

طلعت مع إخوانك لمشوار، يجب أن يكون لك دور مثلهم، تدفع مثلهم، إذا كنت حولك كم أخ توجههم، عامل حالك واحد منهم، هكذا قال سيدنا عمر، قال: " أريد أميراً إن كان أميراً على قوم بدا وكأنهم واحد منهم ـ لتواضعه ـ وإن لم يكن أمير عليهم، بدا وكأنه أميرهم ـ لحرصه عليهم ـ " ما هو بأمير عليهم، بدا وكأنه أمير بدافع الحرص والرحمة والمحبة، الآن هو أمير وبدا وكأنه واحدً منهم.

هذه الدعوة إلى الله شيء مقدس، لا تتحمل نفوس، ما فيها ست نفوس، ما فيها أنا أعلى من فلان، ما فيها شعور بالاستعلاء أبداً، بل شعور بالخدمة، شعور بالتواضع، فكلما كان علمك أعمق ينعكس هذا على أخلاقك، وأنت لا تقدر تجذب الناس بالكلام المنطقي فقط، لكن بالتواضع، باللطف، بخدمتهم، بالعطف عليهم، بأن تعيش مشكلتهم، بأن تكون واحداً منهم، بأن تحس بما يحسون، بأن تغضب لما يغضبون، بأن تُسَر لما يسرهم، يجب أن ترتاح لراحتهم، أن تسعد لسعادتهم، وأن تتألم لألمهم، إذا ما في مشاركة وجدانية صعب تعاونهم، لذلك:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

(سورة المائدة: من آية " 2 ")

تعاونوا، فإذا عز أخوك فهن أنت، تعاون معه، فهذا الذي عنده طموح لله عز وجل الدعوة لها أخلاق، الله عز وجل ذكر ببعض الآيات بعض الصفات، قال:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا)

(سورة السجدة: من آية " 24 ")

الإنسان يمتحن أحياناً، يمتحن بالفقر، يمتحن بالمرض، يمتحن بمشكلة اجتماعية، يمتحن بمشكلة نفسية، فإذا كان امتحن وبالامتحان رسب، فهذا ليس أهلاً أن يدعو إلى الله عز وجل، يرسب..

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)

(سورة البقرة: من آية " 124 ")

متى قال :

((إني جاعلك للناس إماماً))

حينما ابتلاه ربه بكلمات فأتمهن، هذه علامة ثانية

العلامة الثالثة قال:

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً)

(سورة يس)

لا يريد شيئاً ؛ لا أبيض، ولا أصفر، ولا ورق، ولا شيء معنوي، ولا شيء أدبي، لا يريد شيئاً، علامة إخلاص الدعوة أن يترفع الداعي عن كل مطلب مادي، هذه علامة ثالثة.

بعد ذلك الله عز وجل قال:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب: من آية " 39 ")

هذا الإخلاص لله عز وجل، في مجموعة آيات بهذا المعنى..

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران: من آية " 18 ")

أن تقوم بالقسط.

في توجيه آخر يقول الله عز وجل:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف: من آية " 108 ")

يجب أن تكون الدعوة على بصيرة، ويجب أن تكون هناك جرأة في ألا تأخذك في الله لومة لائم، ويجب أن تترفع عن كل مكسب من هذه الدعوة، ويجب أن تمتحن فتنجح في الامتحان، وأن تصبر على حكم الله عز وجل، فهذه بعض الصفات التي يجب توافرها، فلما الإنسان تأخذه العزة في الإثم هذا ليس أهلاً أن يتعلم شيئاً، العلم يحتاج إلى تواضع، من المتعلّم ومن المعَلّم، تواضع لمن تعلّم، وتواضع لمن تتعلّم منه، إذاً:

((ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه))

(رواه الترمذي)

فالحرص على المال عقبة كؤود، والحرص على الجاه عقبة كؤود في طلب العلم، وعقبة كؤود في طريق الإيمان، وآفة كبيرة في الدين، هذان الحديثان نكتفي بهما في هذا الدرس الحديث الأول:

((أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل))

والحديث الثاني:

((ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه))

* * * * *

الآن في عندنا فقرة قصيرة من السيرة، كل مرة أتمنى أن تكون فقرة السيرة طويلة، لكن الاسترسال في شرح الحديث يأكل شيئاً من وقت السيرة.

كلكم يعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام يوحى إليه، والوحي أصل الدين، فهذا الدين الحنيف، هذا الشرع الشريف، هذا القرآن الكريم، هذا الحديث الشريف، هذا كله وحيٌ من عند الله عز وجل، في عندنا وحي متلو هو القرآن الكريم، وفي عندنا غير متلو هو الحديث الشريف لقول الله عز وجل:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(سورة النجم)

المشكلة أن الوحي له تعريف دقيق، الأجانب أعداء الدين، المستشرقون فسروا الوحي تفسير بعيد عن حقيقته، قالوا: الوحي حديث نفسي، تأملات، خلوات طويلة قام بها النبي عليه الصلاة والسلام، هذه التأملات، وهذه الخلوات أوصلته إلى أن يرى طريقاً لإنقاذ أمته العربية مما هي فيه. هذا تفسير لبعض العلماء الغرب.

هناك تفسير آخر: أن الوحي عملية إشراق نفسي، أي ساعة من ساعات التألق النفسي، ساعة من ساعات الإشراق الروحي، فكان هذا الدين من إبداع النبي عليه الصلاة والسلام. طبعاً هذا كلام باطل.

وهناك عالم له تفسير لا يليق بنا أن نذكره إطلاقاً: أنه هذه حالات من الصرع تصيب النبي عليه الصلاة والسلام.

ولكن التعريف الدقيق للوحي: أنه حقيقة خارجة عن كيان النبي عليه الصلاة والسلام، لا يملك جذبها ولا ردَّها، حقيقة خارجة عن كيان النبي، لو قلنا أن الوحي تأمل نفسي، ضمن كيانه، لو قلنا أن الوحي إشراق روحي، ضمن كيانه، لكن الوحي حقيقة خارجة عن كيان النبي عليه الصلاة والسلام لا يملك جذبها إليه ولا دفعها عنه، تمثّلت في إخبارٍ عن الله عز وجل بواسطة جبريل، فالدين كله إخبار عن الله، وليس قضية أرضية، وليس من البشر، ليس الدين تراثاً، القضية سماوية من عند الله عز وجل، إخباراً عن الله.

لذلك في ضوء هذا التعريف نفهم لماذا ضم جبريل النبي عليه الصلاة والسلام ثلاث ضمّات أجهدته، حينما قال له: اقرأ، قال: لست بقارئ، قال: اقرأ. قال: لست بقارئ، قال: اقرأ. هذه الضمّات الثلاث لتؤكد أن هذا الوحي جاءه وهو يقظ وليس في النوم، كأن الله عز وجل يعلم ما سيكون، سيأتي أناس

يصفون الوحي بأنه حالة رؤيا في المنام، هذه الضمَّات الثلاث التي ضمَّها سيدنا جبريل للنبي عليه الصلاة والسلام تؤكِّد أنه كان في اليقظة، كان في أتم حالات اليقظة، هذه واحدة. وتؤكد أيضاً أن الذي خاطبه كان مستقلاً عنه، ليس حديث داخلي، ليس إشراق روحي، الذي خاطبه كان مستقلاً عنه صلى الله عليه وسلم، وهذا الاضطراب والرعب الذي أصاب النبي عليه الصلاة والسلام يؤكد أيضاً أن الوحي حقيقة خارجة عن كيان النبي عليه الصلاة والسلام، وانقطاع الوحي ثلاث سنوات، يؤكد أن الوحي حقيقةٌ خارجةٌ عن كيان النبي ؛ انقطاع الوحي..

(وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3))

(سورة الضحى)

لماذا انقطع الوحي ؟ بعضهم قال ثلاث سنوات، وبعضهم قال ستة أشهر، على كلٍ هناك انقطاع، انقطاع الوحي يؤكد أن النبي لا يملك جذبه ولا دفعه، هذه فكرة مهمة جداً، كان في أتم حالات اليقظة، والذي يخاطبه كان مستقل عنه، ورعبه واضطرابه صلى الله عليه وسلم يؤكد أن هذا الوحي شيء خارج عنه، وانقطاع الوحي أيضاً يؤكد أن الوحي لا يملك النبي جذبه ولا دفعه، هذا الذي حصل في بداية الوحي له دلالات خطيرة جداً، هذا الذي حصل يؤكِّد تعريف الوحي أنه حقيقة وليس وهم، خيال، رؤيا، منام، إشراق، تأمل، لا، بل حقيقة خارجة عن كيان النبي عليه الصلاة والسلام لا يملك جذبها ولا دفعها، تمثلت في إخبار عن الله عن طريق سيدنا جبريل عليه السلام.

أدق ما في الموضوع: أن انقطاع الوحي يؤكد أن الوحي شيء خارج عن كيان النبي، الاضطراب الذي أصاب النبي الله عز وجل قادر أن يلقي على قلب النبي السكينة والهدوء، ولكن هذا الاضطراب يؤكِّد أن هذا الوحي شيء خارج عن كيان النبي، وليس قضية وهم، ولا تخيل، ولا حلم، ولا تأمل، ولا إشراق، ولا حديث النفس، ولا تصور، هذا الذي يزعمه الأجانب، لا، فالوحي حقيقة صارخة خارجة عن كيان النبي عليه الصلاة والسلام لا يملك جذبها، ما الدليل ؟ انقطاع الوحي، انقطع ثلاثة سنوات أو ستة أشهر، لا يملك جذبها ولا دفعها، تمثَّلت في إخبارٍ عن الله عز وجل عن طريق سيدنا جبريل.

الآن، الوحي شيء والحديث شيء، فهناك تمايز واضح بين القرآن والحديث، الحديث الشريف له أسلوب، والقرآن له أسلوب، لذلك القرآن وحيٌ متلو معنىً ولفظاً، والسنة وحي غير متلو، معنىً فقط، بينما اللفظ من عند النبي عليه الصلاة والسلام، فتمييز القرآن عن الوحي شيء يؤكد أن الوحي خارج عن كيان النبي عليه الصلاة والسلام، النبي عليه الصلاة والسلام أحياناً يسأل فلا يجيب، متى يجيب ؟ بعد أن يأتي الوحي، يسألونه عن شيء، فلا يجيب، إلى أن يأتي الوحي بالجواب..

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)

(سورة البقرة: من آية " 189 ")

عن ماذا ينفقون ؟ قل العفو. في آيات كثيرة بهذا المعنى، الشيء الآخر النبي عليه الصلاة والسلام كان يتصرف باتجاه، ويأتي الوحي ليوجِّهه في اتجاهٍ آخر، هذا يؤكد أن الوحي خارجٌ عنه..

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ)

(سورة التوبة : من آية " 43 ")

تصرف كامل ولكن باتجاه، والوحي جاء باتجاه آخر، فإذاً الوحي شيء خارج عنه، لو كان الوحي من عنده لما كان في هذه الآيات، آيات التوجيه المغاير.

شيء آخر: النبي كان أمي، ومعنى أنه أمي، أن الله سبحانه وتعالى أن الله سبحانه وتعالى منعه عن كل ثقافة عصره، ليكون كلامه كله وحي من عند الله عز وجل، لو أنه اطَّلع على ثقافة عصره واستوعبها ثم تكلم، الأمر صار مختلط، ولقيل له: يا رسول الله هذه من عندك، من ثقافتك، من دراستك، من اطلاعك، أم من عند الله ؟ لا..

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48))

(سورة العنكبوت)

من عظمة النبي عليه الصلاة والسلام أنه أمي، فكل هذا الذي تكلم به من عند الله.

شيء آخر: أنه كان يسمى بالصادق الأمين، فما كان لهذا النبي العظيم أن يدع الكذب عن الخلق ويكذب على الله عز وجل، إذاً كل هذه الأدلة تؤكد أن الوحي شيء مستقل عن رسول الله، فإخبار السماء للأرض، شيء خارجي، وليس شيئاً جاء من عند النبي، جاء إليه من السماء ولم ينبع من كيان النبي، لأن القرآن أساسه الوحي، والسنة أساسها الوحي، ديننا كله مبني على الوحي، أي إلقاء السماء إلى الأرض، إخبار السماء للأرض، في شيء آخر: ثقافة النبي واطلاعه لا تسمح له بالحديث عن سيدنا موسى، وعن سيدنا يوسف، وعن سيدنا آدم، وعن سيدنا إبراهيم، هذه القصص التي جاءت في القرآن والتي أخبر بها القرآن هذه ما عرفها النبي..

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48))

(سورة العنكبوت)

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ)

(سورة آل عمران: من آية " 44 ")

أنت لم تكن معهم، ففي آيات كثيرة... ما كنت لديهم، ما كنت بجانب الطور إذ أوحينا إلى موسى، فهذه كلها أخبار من عند الله عز وجل، فالمسلم يجب أن يكون متمكن من عقيدته، لو أن إنسان ضال مضل، أراد أن يلقي في نفسه الشُبَه، فيقول له: أخي هذا الوحي عملية حديث نفسي متراكم، فالنبي تصور أن هذا المنهج أو أن هذا الدين يصلح أمته العربية، الوحي إشراق، حالة من حالات الإشراق، الوحي تصور، لا، لا، فالوحي شيء خارج عن كيان رسول الله جاءه من السماء، لذلك كلام العباقرة،

والمصلحين، والفلاسفة، والمفكرين شيء، وكلام الأنبياء شيء آخر، كلام الأنبياء نقلوه عن الله جل وعلا بمنتهى الأمانة، أما كلام المصلحين كلام من عند أنفسهم، يصيبون أو يخطئون، لذلك الوحي قطعي الثبوت، قطعي الدلالة، حق محض، النبي عليه الصلاة والسلام معصوم فكلامه كله حق، فهذا أيضاً يبث في نفس المؤمن الطمأنينة، فالوحي شيء مهم جداً، وشيء بني عليه الدين كله.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (006) :التواضع1.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-08-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... لازلنا في الحديث النبوي الشريف، ففي صحيح مسلم من حديث عياضٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخَرَ أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد))

النبي عليه الصلاة والسلام يحذِّر المتكبِّرين، يحذِّرهم بالحرمان من دخول الجنة، في شرح هذا الحديث يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كبر))

(صحيح مسلم: عن " ابن مسعود ")

لأن الكبر يتناقض مع العبودية، فمَن كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كبر لا يكون عبداً لله عزَّ وجل، هناك تناقضٌ بين العبودية لله عزَّ وجل وبين الكبر.

ففي صحيح مسلمٍ أيضاً، عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كبر))

ويقول الله عزَّ وجل في الحديث القدسي:

((العز إزاري والكبرياء ردائي فمن ينازعني عذبته))

(من رياض الصالحين: رواه مسلم)

أي أن الكبرياء لله عزَّ وجل، العزة لله، أن يأخذ العبد صفاتٍ تتناقض مع عبوديته، فهذا يستحق أن يعذَّب.

إن هذه الأحاديث يشرح بعضها بعضاً، ويقول عليه الصلاة والسلام:

((لايزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم من العذاب))

(من تخريج أحاديث الإحياء: عن " سلمة بن الأكوع ")

إذاً:

((إن الله تعالى أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد ولا يبغي أحدٌ على أحد))

(من الأذكار النووية: عن " عياض ")

و..

((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كبر))

لأن الكبر يتناقض مع العبودية.

و..

((العز إزاري والكبرياء ردائي فمن ينازعني عذبته))

(من رياض الصالحين: رواه مسلم)

و..

((لايزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم من العذاب))

(من تخريج أحاديث الإحياء: عن " سلمة بن الأكوع ")

هذا كلام النبي عليه الصلاة والسلام، هل كان مع كلامه ؟ هل كانت أخلاقه في مستوى كلامه ؟ كان عليه الصلاة والسلام يمر على الصبيان فيسلّم عليهم، طفل صغير: السلام عليك، كان عليه الصلاة والسلام يمر على الصبيان فيسلم عليهم. وكانت الأمة ـ الطفلة الصغيرة ـ تأخذ بيده صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت، أي إذا بنتٌ صغيرة ؛ ابنته، أو ابنة ابنته أمسكت بيده وسارت يتبعها حيث شاءت.

وكان صلى الله عليه وسلم إذا أكل لعق أصابعه الثلاث. لعق الأصابع من السنة، وفيه تواضع، أي أن تبقي في الصحن شيئاً من الطعام هذا فيه كبر، أما إذا الواحد اكتفى يضعه في مكان ليأكله ثانيةً، أما إذا دخل لمطعم، وترك شيء ليلقى في القمامة، هذا فيه شيء من الكبر، فكان عليه الصلاة والسلام يلعق أصابعه الثلاث.

أنا قرأت لكم أحاديثه الشريفة في التواضع، والآن أقرأ لكم شمائله في التواضع، أي كان عليه الصلاة والسلام في مستوى كلامه، ليس هناك مسافةٌ بين أقواله وأفعاله، سرُّ تأثيره في الناس أن المسافة بين أقواله وأفعاله معدومة، يعني يقول للناس ما هو متخَلقٌ به، ويتخلّق بما يقوله للناس، وكان صلى الله عليه وسلم في بيته في خدمة أهل بيته، أي إذا دخل بيته هو واحدٌ من أهل البيت، يمكن أن يعينهم على قضاء حوائجهم، يمكن أن يخصف نعله، أن يحلب شاته، أن يكنس أرضه، أن يوصغ الإناء للهرة، هو في خدمة أهله، على ما هو عليه من مقامٍ عظيم هو في خدمة أهله، ولم يكن ينتقم لنفسه قط، عليه الصلاة والسلام ما انتقم لنفسه قط، يعني من تواضعه صلى الله عليه وسلم أنه لا ينتقم لنفسه، إذا غضب غضب لله.

وكان عليه الصلاة والسلام يخصف نعله، ويرقّع ثوبه، ويحلب شاته، ويعلف البعير، ويأكل مع الخادم، ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما. ويبدأ مَن لقيه بالسلام، ويجيب دعوة مَن دعاه ولو إلى أيسر شيء. لو دعاك إنسان إلى كأس من الشاي، من واجبك أن تجيبه تواضعاً لله عزَّ وجل، أما هذا الذي يقول: لم يعرف قدري، جئت إليه ولم يقدم على الغداء إلا صنفاً واحداً، هذا فيه كبر. كان عليه الصلاة والسلام يجب من دعاه ولو إلى أيسر شيء. وكان صلى الله عليه وسلم هيِّن المؤنة،

أي شغلته خفيفة، المطعم ما فيه طعام يأكل سندويش، ما عندكم شيء ؟ فإني صائم، ليس له أعباء كبيرة، الآن لو واحد ضيف دخل عندك، فإذا قصرت معه ينتقدك، وإذا لم تقدم له المقبلات قبل الأكل ينتقدك، وإن لم يكن هناك كأس عصير تقول: لا يعرف ترتيبنا، هذا ليس بضيف هذا عبء، أما الضيف خفيف الظل مثل العصفور، لا تبخل بشيء مما عندك، هكذا المؤمنين، أمرنا ألا نبخل بالموجود، وألا نتكلف المفقود، فلو عندك ثلاثة برتقالات ضعهم في صحن ولكن لا تكبر الصحن لأنهم يضيعوا، صغر الصحن يظهروا، أمرنا ألا نبخل بالموجود، وألا نتكلف المفقود، كان هين المؤنة.

والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أعظم النساء بركة أقَلَّهن مؤنة))

(من شرح الجامع الصغير)

طلباتها خفيفة، لازمك شيء ؟ لا والله شكراً الله يعطيك العافية، أتريدين شيء على العيد ؟ لا والله عندي، هذه المرأة المؤمنة الصالحة، أما الأخرى تعطيه قائمة تجده نخَّ تحتها، لا يكفي معاشه لمعاشين أخريان..

((أعظم النساء بركة أقَلَّهن مؤنة))

(من شرح الجامع الصغير)

و..

((إن أعظم النساء بركة أقلهن مهراً))

(من تخريج أحاديث الإحياء: عن " السيدة عائشة ")

كان عليه الصلاة والسلام هين المؤنة ليِّن الخلق، أي اعتذرت له يقبل منك، بيَّنت عذرك يسامحك، تأخرت على الموعد يقول لك: طوَّلت علي، ومشي الحال، أما إذا غلطت معه غلطة يظل يعايرك فيها سنتان أو ثلاثة، حقود، أعوذ بالله، غلط معك، قال هذا البدوي: يا رب أنا ربك وأنت عبدي قال:

((لله أفرح بتوبة عبده من ذلك البدوي بناقته))

ما صار شيء، ما قصد أن يكفر، لكن من شدة فرحه هكذا قال، ربنا يعلمنا كذلك، ما قال له دكتور لأنه نسي بل قال له أستاذ، أعوذ بالله قامت القيامة، نسي يقول له دكتور، هؤلاء معقدين ويحتاجون إلى مصحَّات نفسية.

كان هيِّن المؤنة ليِّن الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه بسَّاماً. أحياناً واحد رب عمل يضن على عماله بابتسامة، تجده عبوساً قمطريرا، قل لهم: السلام عليكم، الله يعطيكم العافية، إن شاء الله مرتاحين ؟ هل يلزمكم شيء ؟ هذه كلمات ما كلَّفتك شيء، لكنها أدخلت على قلبهم السرور، أحياناً الإنسان بكلمة لطيفة، ابتسامة، ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طلق، هذه الابتسامة لها ثمن، إذا إنسان ـ حسب

الظاهر ـ مصيرك بيده، وعبث، لا يجعلك تنام الليل، والله ما عملت شيء، لماذا تجهَّم بوجهي ؟ ابتسم يا أخي ابتسم..

(عَبَسَ وَتَوَلَّى (1))

(سورة عبس)

في عبَّاس وفي بسَّام، كن بسَّام. كان طلق الوجه بساماً، متواضعاً من غير ذلةٍ، كذلك هناك تواضع لمستوى التذلل، لا، يتواضع من غير ذلةٍ، يعتز بالله من غير كبرٍ، جواداً من غير سرفٍ. واحد له راتب ألف وخمسمائة يمشي مع رفاقه، حمَّسوه، أدخلوه على مطعم، فأطعمهم بثمانمائة ليرة، ما هذا الكلام ؟! عندك خس أولاد وأمهم، إذا حمَّسوك ودفعت ثمانمائة على غذاء، ومعاشك ألف وخمسمائة غير معقول هذا الكلام، هذا ليس جود، ضيَّعت أهلك، ضيعت أولادك، وكذلك ولم يشبعوا.

جواداً من غير سرفٍ، رقيق القلب رحيماً، أبعد القلوب عن الله عزَّ وجل القلب القاسي. رقيق القلب، خافض الجناح للمؤمنين، أي أنه يتواضع لأصحابه كأنه واحدٌ منهم، قال لسيدنا عمر:

((يا أخي لا تنسنا من دعائك))

سيدنا رسول الله، سيد الخلق وحبيب الحق، يطلب من سيدنا عمر أن يدعو له..

((يا أخي لا تنسنا من دعائك))

كان عليه الصلاة والسلام يحب إخوانه وأصحابه كما يحبونه، مرةً طرق بابه أسامة بن زيد، فهشَّ له وبش وخرج إليه قبل أن يحكم ثيابه، من شدة فرحه به، كما تحبه يحبك، في محبة متبادلة، المحبة لا تكون إلا من طرفين، ما في محبة من جانب واحد، هذه مستحيلة، ربنا عزَّ وجل قال:

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

(سورة المائدة: من آية " 54 ")

خافض الجناح للمؤمنين، ربنا عزَّ وجل هكذا أمرنا، قال:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215))

(سورة الشعراء)

يعني تواضع لهم، تواضع للمؤمنين، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((تواضعوا لمن تعلمون))

(من شرح الجامع الصغير)

أنت لولا فضلي عليك ما كنت مؤمناً الآن، ما هذا الكلام، الفضل لله عزَّ وجل، لولا أن هديتك لكانت حالتك الآن بالويل، ما هذا الكلام ؟ يريد أن يريه فضله عليه، لولا إقناعي لك أين كنت الآن ؟ لا، المؤمن لا يتكلَّم عن أعماله الطيبة أبداً، لا ينسى فضل الناس ولا يذكر فضله، هذه خذوها قاعدة: " لا

تنس فضل الناس ولا تذكر فضلك "، أي شيءٍ فعلته مع الناس كأن لم يكن، وأي شيءٍ فعلوه معك يجب أن تذكره دائماً، هكذا أخلاق المؤمن.

لين الجانب لهم. أي أن اللهم صلي عليه مع أنه سيد الخلق وحبيب الحق، جمع الكمالات البشرية كلها، ومع ذلك ما نسي فضل أصحابه، فبالهجرة لما وجدوا عليه في أنفسهم وجمعهم وخطب بهم وقال:

((أما إنكم لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم به، أتيتنا مكذباً فصدقناك، أتيتنا طريداً فآويناك، أتيتنا مخذولاً فنصرناك))

بماذا بدأ عليه الصلاة والسلام ؟ بدأ بفضلهم عليه، ثم قال:

((يا معشر الأنصار ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي ؟ ألم تكونوا عالة فأغناكم الله بي ؟ ألم تكونوا أعداءا فألف بين قلوبكم))

(من صحيح البخاري: عن " عبد الله بن زيد بن عاصم ")

إذا واحد له فضل عليك لا تنسَ فضله، ذكّره بفضاله، لا أنسى لك هذا الفضل حتى الموت لين الجانب لهم، فسيدنا خالد قال له:

((خالدٌ بن الوليد سيفٌ من سيوف الله))

(من الجامع الصغير: عن " عبد الله بن جعفر ")

سيدنا معاذ:

((والله إني أحبك يا معاذ))

(من تخريج أحاديث الإحياء)

سيدنا أبو عبيدة:

((أمين هذه الأمة))

(من الجامع الصغير: عن " أنس ")

سيدنا ابن الزبير:

((حواري هذه الأمة))

سيدنا عمر:

((لو كان نبيٌ بعدي لكان عمر))

(من كنز العمال)

سيدنا سلمان:

((سلمان منا أهل البيت))

(من الجامع الصغير: عن " عمرو بن العوف ")

سيدنا بلال:

((أنفق بلالاً ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً))

(من تخريج أحاديث الإحياء: عن " أبي هريرة ")

فما في صحابي جليل ما خصَّه بصفة تليق به ويستحقها، أحياناً الإنسان الأضواء كلها مسلَّطة عليه، والتعتيم كله على الآخرين، أما النبي عليه الصلاة والسلام أيضاً إقراراً بفضل أصحابه سلَّط عليهم الأضواء.

لين الجانب لهم، أي يقبل عذر المعتذر، يقبل توبة التائب، يعفو عمَّن أساء إليه، وقال عليه الصلاة والسلام:

((ألا أخبركم بمن يحرم على النار ؟ أو تحرم عليه النار ؟ تحرم على كل قريبٍ هينٍ لينٍ سهل))

معاملته سهلة، يريد جارك منك عشرة سنتيمتر للحائط، أبداً ولا سانتي الآن سأشتكي عليك، طول بالك، هذا أخ بالله مسلم مضطر لعشرة سانتي من بيتك، ولا ميلي، بالدفع اثنتا عشر ألف وثلاثمائة وستة وسبعون ليرة، الست ورقات قبل الثلاثة آلاف المبلغ كله، طول بالك، ولا قرش، كان عليه الصلاة والسلام يقول:

((تحرم عليه النار ؟ تحرم على كل قريبٍ هينٍ لينٍ سهل))

((رحم الله عبداً سمحاً إذا باع، وسمحاً إذا اشترى، وسمحاً إذا قضى، وسمحاً إذا اقتضى))

(من الجامع الصغير: عن " أبي هريرة ")

أي في بيعه وشرائه، ودفعه وقبضه سهل.

وقال عليه الصلاة والسلام ولازلنا في شرح حديث التواضع، الحديث المقرر:

((إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخَرَ أحدٌ على أحد ولا يبغي أحدٌ على أحد))

(من شرح الجامع الصغير: عن " عياض ")

يعني أردت أن أجمع لكم بين أقواله وأفعاله عليه الصلاة والسلام، كيف أن أفعاله في مستوى أقواله، فأنت أحياناً تلتقي مع إنسان له حديث رائع لكن معاملته سيئة، تقول: آه، ليت أفعاله كأقواله، وأحياناً تلتقي مع إنسان أعماله طيبة لكنه جاهل، تقول ليت علمه كأفعاله، لكن النبي عليه الصلاة والسلام جمع بين القال والحال.

وقال عليه الصلاة والسلام:

((لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أهدي إليّ ذراعٌ أو كراعٌ لقبلت))

(من الجامع الصغير: عن " أنس ")

حياناً إنسان يصافحك ويشد المصافحة، ويعطيك شيء وتكون سكرة، الله يجزيه الخير، أحب يكرمك بهذه السكرة، في شخص ينزعج، سكرة أحب أن يكرمك بها، ملبَّسة واحدة، وهكذا كذلك عمل لها ضجيج، أستاذ تفضَّل، أهلاً وسهلاً، الله يجزيك الخير، الله يكرمك كما أكرمتني.

((لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أهدي إليّ ذراعٌ أو كراعٌ لقبلت))

(من الجامع الصغير: عن " أنس ")

في شخص تأتيه هدية أول شيء يقيِّمها كم تساوي هذه ؟ إذا ما كان سعرها قد المقام ينزعج، يا أخي مطلية هذه، ليست فضة ولكن مطلية فضة، طلعت رخيصة، النبي قال:

((لو أهدي إليّ ذراعٌ أو كراعٌ))

إذا واحد قدمت له مُقْدِم على عيد الأضحى، قرع الباب تفضلوا خذوا، ما هذا ؟ مقدم فقط واحد لحاله، ألا تنزعج ؟ إذا القطعة لم تكن كيليان أو ثلاثة تنزعج، فقط كيلو ؟ مقدم !!

((ولو أهدي إليّ ذراعٌ أو كراعٌ لقبلت))

اللهم صلِ عليه، أرأيت إلى التواضع ؟ كيف أحبه أصحابه، كيف ما استطاعوا يناموا من أجله، كيف كما قال الكفار سحرهم ؟ بتواضعه، برحمته، بإنصافه.

وكان عليه الصلاة والسلام يعود المريض، ويشهد الجنازة، ويجيب دعوة العبد، إذا واحد عنده معمل، وعنده عامل أحب أن يتقرَّب منك ويعزمك على الغذاء، وما عنده شيء يليق بالمقام، أكلة واحدة اعتنى فيها، ودعاك، فيجب أن تجيبه، ويجب أن تكون رضيّ النفس، وأن تكون مسرور بهذه الدعوة، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يعود المريض، ويشهد الجنازة، ويجيب دعوة العبد. وهنا في كذلك ويركب الحمار، في حصان وفي حمار، والآن في سيارة فخمة وفي هوندا مثلاً، صحت هذه اركب فيها، وراء وراء، على الواقف على الواقف، إذا الإنسان أعطى نفسه هالة كبيرة، كأن الله عزَّ وجل يقطع عنه الإمداد. لكن إنسان ليس له حق إذا كان يمثل الدين أن يبهدل نفسه، إذا كان موطن نظر، في أعمال يمكن الناس ينتقدونه بها، إذا كان بهذا التواضع أمام أناس لا يعرفون الله عزَّ وجل، انظر هذه نقطة دقيقة ـ إذا تواضعت أمام أناسٍ لا يعرفون ما التواضع فازدروك وازدروا مكانتك الدينية والعلمية هذا صار في ضرر أكبر من الميزة.

فاللهم صلِ عليه رأى أحد أصحابه يمشي متبختراً أمام الكفار فقال:

((إن الله يكره هذه المشية إلا في هذا الموطن.))

و..

((التكبر على المتكبر صدقة))

(من كشف الخفاء: للإمام العجلوني)

يعني صار في أعراف بين المجتمع، أن يكون اللباس مقبول وليس فيه خطأ كبير.

الفضيل بن عياض سئل عن التواضع فقال: أن تخضع للحق وأن تنقاد له، وأن تقبله من أي إنسان. أن تخضع للحق خضوع نفسي، وأن تنقاد له بأعمالك، وأن تقبله من أي إنسان، في شخص إذا كان المتحدث أصغر منه سناً يراها إهانة له، هذا غلط، العالم شيخٌ ولو كان حدثاً، والجاهل حدثاً ولو كان شيخاً، غلط، خذ الحكمة ولا يهمك من أيّ مكان خرجت.

والتواضع كما قال بعضهم: ألا ترى لنفسك قيمة. في شخص يعبد نفسه، دائماً يعطي لنفسه حجم كبير، كبير جداً، فإذا واحد ما قدم له مراسم التقدير، والتبجيل، والاحترام ينزعج، لعرف قيمتي، ما عرف حجمي في البلد، ما عرف مكانتي العلمية، ما عرف حجمي المالي، ما عرف وزني ـ وزنك مائة كيلو ما هو وزنك ؟ ـ دائماً هذه الكلمات تدور على ألسنة المتكبرين. التواضع من تعاريفه ألا تجد لنفسك قيمة، يعني أنت من عباد الله. فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب.

ولكن أتمنى ألا تفهموا فهم آخر ما أردته أنا، الإنسان كذلك يذل نفسه أمام الناس، ويبهدل حاله، ويلبس لباس ذري، يتذلل أمام واحد كافر هذا خلاف التواضع، التواضع مع المؤمنين، والدليل سيأتي قوله تعالى:

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

((سورة المائدة: من آية " 54 ")

مدعو لحفلة يجب أن يكون لباسك مقبول، أنا لا أقول فخم ولكن مقبول، حذاء بلا جوارب وتقول: أخي الشغلة بالقلب، هذا لا يصح، النبي عليه الصلاة والسلام كان لديه ثياب جديدة يلبسها أيام الجمع والأعياد وحين استقبال الوفود، وكان أصحابه يفعلون ذلك، يجب أن يكون عندك لباس مقبول، أنا أقول مقبول بالضبط، دُعيت لعقد قران، دعيت لحفلة ما في عليك مأخذ، نظيف وليس غالي، قد يكون أرخص نوع من الأقمشة ولكنه نظيف، نظيف فيه تناسب معقول، ما فيه مأخذ خطير، هذه السنة، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يقول:

((حسنوا رحالكم، وأصلحوا لباسكم حتى تكونوا شامة بين الناس))

التواضع لا يكون بالهرجلة، ولا بالتذلل، ولا بالخنوع للناس، التواضع سيأتي في الدرس القادم فيه تفصيلات دقيقة جداً عن التواضع. الآن نحن بالنصوص.

وقال الجنيد: التواضع هو خَفْضُ الجناح ولين الجانب. خفض الجناح يعني أنت نفسك هينة على عامل، على أجير، على صغير، على صبي، على مستخدم، على آذن، على حاجب، هذا مؤمن وقد يكون أرفع عند الله منك..

((ربَّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرَّه))

(من الجامع الصغير: عن " ابن مسعود ")

إذا كنت تعرف الله عزَّ وجل ترى نفسك خلف الناس. وقال أبو يزيد البسطاني: التواضع ألا ترى لنفسك مقاماً ولا حالاً. في أحد الصالحين وأظنه من التابعين وهو الحسن البصري حج، فقال وهو في عرفات: لولا أنني في عرفات لظننت أن الله غفر للناس جميعاً، ولكن أنا جالس معهم يمكن لا يغفر لي الله عزَّ وجل، لولا أنني في عرفات لظننت أن الله غفر للناس جميعاً. هذا من التواضع.

أحد العلماء الكبار في الشام قديماً يضع لفة يسمونها أغباني، فقال له واحد: سيدي أين لقَّتك البيضاء ؟ قال له: أنا ليس بعالم يا بني هؤلاء علماء ذو اللفات البيض، أنا ليس عالم. وهو من كبار العلماء، في أشخاص يعطي حجم أقل من حجمه، والناس يعظمونه تعظيم كبير جداً لتواضعه..

وانظر إلى الأكحال وهي حجارةٌ لانت فصار مقرُّها في الأعين

لما الحجر الكحل لان وضع في العين.

وابن عطاء الله السكندري يقول: التواضع هو قبول الحق ممن كان. يعني طفل يعلمك أحياناً، لو أنك قرأت القرآن وغلطت غلطة، وردَّك طفل، فقل له: الله يجزيك الخير، طفل أحياناً غلطت بحركة، غلطت بحكم، إذا واحد ردَّك بحكم بالتجويد مَن أنت ؟ القرآن فوق الجميع. من حفظ حجة على من لم يحفظ، من علامة تواضعك أنه إذا واحد ردَّك بالتجويد، بحكم بالتجويد، بحركة بالقرآن، بحديث لست مصححه، أو لم تدققه وقال لك: هذا الحديث هكذا، فلا يجب ألا تنزعج وتنفعل، تجرأ علي، ما عرف مكانتي، بل قل له: الله يجزيك الخير، يعني من قال إني عالم فهو جاهل، ونصف العلم لا أدري.

الإمام مالك رضي الله عنه ـ وهو إمام دار الهجرة ـ يعني لا يفتى ومالكٌ في المدينة، كان أعظم إمام، جاءه وفد من المغرب، وفد من عشر أشخاص يحملون خمسة وثلاثين سؤال من أهل المغرب للإمام مالك، طبعاً قطعوا المسافات الطويلة، وأشهر حتى وصلوا عنده، السؤال هذا أجابهم عنه، وهذا أجابهم عنه، أجابهم عن سبعة عشرَ سؤالاً والباقي قال: لا أعرف، فقالوا: أنت الإمام مالك ؟ قال: قولوا لمَن أرسلكم الإمام مالك لا يعرف. بهذه البساطة..

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85))

(سورة الإسراء)

فمن قال: أنا أعرف كل شيء فهو كاذب، فإذا شيء ما لك متأكد منه، ليس متأكد من تفسير الآية، ما لك متأكد من صحة الحديث، ما لك متأكد من الحكم الفقهي لا تلقه بسرعة، زعزع مكانتك العلمية وقل: لا أعرف أفضل لك ألف مرة من أن تلقي كلاماً غير صحيح، من أن تلقي كلاماً ثم تضطر أن تعتذر.

فابن عطاء الله السكندري يقول: التواضع هو قبول الحق ممَّن كان والعز في التواضع، فمن طلبه في الكبر فهو كمَن طلب الماء في النار. العز في التواضع والذل في الكبر.

وقال إبراهيم: الشرف في التواضع، والعز في التقوى، والحرية في القناعة.

سيدنا عروة بن الزبير رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قربة ماء، فقلت

ـ يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك هذا. غير معقول !! أنت أمير المؤمنين وعلى عاتقك قربة ماء !!

ـ فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين دخلت نفسي نخوةٌ، فأردت أن أكسرها.

جاءه وفود من أنحاء البلاد وعظَّموه، وبجَّلوه، وأطاعوه فشعر أنه إنسان في درجة عليا فأراد أن يكسر نفسه.

ومرة أثناء خطابه قطع الخطاب وقال:

ـ يا ابن الخطاب كنت ترعى غنماً على قراريط لبني مخزوم.

ـ فقال له ابن عوف: ما هذا الكلام ؟ أي ما معنى هذا الكلام ؟ ما علاقته بالخطبة ؟

ـ قال: حدَّثتني نفسي فقالت: أنت أمير المؤمنين، ليس بينك وبين الله أحد، فأردت أن أعرِّفها قدرها. أي كنت أرعى غنماً لخالاتٍ لي من بني مخزوم على قراريط، هذا هو عمر بن الخطاب.

ركب زيد بن ثابت مرةً، فدنا بن عباس ليأخذ بركابه، فقال:

ـ مه يا ابن عم رسول الله ؟

ـ فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بكبرائنا.

ـ فقال: أرني يدك، سيدنا ابن عباس. فأخرجها إليه فقبلها.

ـ فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل البيت، أهل بيت رسول الله هؤلاء منسوبون له.

يروون قصَّة أن سيدنا عمر لما جاءته الحلل ـ الأقمشة ـ وزعها بين أصحابه، فبعث إلى معاذ بن جبل حلَّةً مثمَّنة، فباعها واشترى بثمنها ستة أعبدٍ واعتقهم، فبلغ ذلك عمر، كان عمر يتمنى على سيدنا معاذ أن يلبسها، هو باعها واشترى بثمنها أعبداً وأعتقهم لوجه الله، في المرة الثانية بعث له حلَّة ثمنها أقل، يبدو أن معاذ كان عصبي المزاج ـ سيدنا معاذ ـ فعاتبه معاذ، فقال عمر: لأنك بعت الأولى بعثت لك بهذه. سيدنا معاذ يبدو أنه ثارت ثائرته وقال: وما عليك ادفع لي نصيبي، وقد حلفت بالله لألقينها على وجهك، فقال عمر: هذا رأسي بين يديك ولكن ارفق بي ـ لا تقوي الضربة ـ ولكن ارفق بي. طبعاً الصحابة أجلاء، أي حلف يمين، وهذا الحديث وارد بموضوع الأيمان، أي إذا واحد حلف يمين يجب أن ينفذه، فخشية من سيدنا عمر أن يحنث بيمينه قال له: هذا رأسي بين يديك ولكن ارفق بهذا الشيخ، لا تقوي الضربة.

سيدنا الحسن مرَّ على صبيانٍ معهم كِسَر خبزٍ ـ خبز يابس ـ فاستضافوه، فنزل فأكل معهم سيدنا الحسن، ثم حملهم إلى منزله، انظر الأدب. واحد ضيَّفك، اقبل ضيافته وكافئه، لا ترفضها، فأطعمهم وكساهم وقال: اليد لهم. أي لهم فضل علي لأنهم أطعموني كل ما عندهم، هذا الذي عندهم، ونحن نجد أكثر مما

أعطيناهم.

أحد الصحابة في ساعة غضب عيَّر بلالاً بسواده ثم ندم، ويبدو أن النبي عندما سمع الكلام قال له:

((إنك امرئٌ فيك جاهليَّة))

أنت جاهل. فهذا الصحابي ألقى بنفسه على الأرض، أي وضع رأسه على الأرض، وحلف لا يرفعه حتى يطأه بلالٌ بقدميه، تكفيراً لكلمة (يا ابن السوداء) لا يرفع رأسه حتى يطأه بلالٌ بقدميه، فلم يرفع حتى فعل بلالٌ ذلك.

عندما قالت السيدة عائشة له: هذه قصيرة، على صفية. فقال:

((يا عائشة لقد قلتِ كلمةٍ لو مزجت بمياه البحر لأفسدته))

أين نحنا ؟ كلمة قصيرة تفسد مياه البحر.

أحد أصحاب سيدنا عمر بن عبد العزيز قال: قوَّمت ثياب عمر ـ أي ثمَّنتها ـ باثي عشر درهماً، كل ثيابه ؛ العباءة، مع الجلابية، مع القلنصوة باثني عشر درهماً، وكانت قباءً ـ ثوب ـ وعمامة، وقميصاً، وسراويل، ورداء، وخفين، وقلنصوة، الكل باثني عشر درهم، يقول لك: هذه الكرافة لوحدها ثمنها اثني عشر درهم، هل أنت داري بهذا ؟ لا والله لا أدري، هذه البذلة سان لوران، هذه السباط رد شوذ، مثلاً يبقى يريك ما عنده، هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((قيمة المرء متاعئ))

سيدنا عمر بن عبد العزيز قيِّمت ثيابه باثني عشر درهماً.

أحد التابعين قال: التواضع ألا ترى لأحدٍ إلى نفسك حاجة، أي لا أحد بحاجة لك، إذا رأيت الناس بحاجةٍ إليك تحس باعتزاز، ما أحد بحاجة لك، والعوام لهم كلمة مشهورة: أنه النبي مات والله من بعده دبَّر الأمور، فمَن أنت ؟ سيد الخلق توفاه الله والأمور من بعده سارت كما ينبغي.

و احد كان في الطواف، قال: كنت في الطواف، فرأيت رجلاً بين يديه أناسٌ يمنعون الناس لأجله، أي يمشون حوله حلقة، يبدو إنسان غني أو عظيم، أو له مكانة، فأحب يطوف براحة بدون ازدحام، فجاء سبعة رجال أقوياء أشداء جعلوا حوله دائرة، وطاف بينهم في راحة، ما في ازدحام، ما في يد واحد إفريقي يضعها عليك فتشعر وكأن كتفك انهد، في هدوء، ثم رأيته بعد ذلك بمدةٍ على جسر بغداد يسأل الناس ـ يشحذ ـ فتعجبت منه !! فقال لي: إني تكبرت في موضعٍ يتواضع فيه الناس ـ بالطواف ـ فابتلاني الله بالذل في موضع يترفع فيه الناس. أي أنه أبى أن يطوف مع الازدحام، أبى أن يطوف مع الناس، أبى أن يكون واحداً منهم، أراد أن يطوف طواف خاص فيه راحة، في موضوع التواضع تكبَّر فأذله الله في موضع الاعتزاز.

سيدنا عمر بن عبد العزيز بلغه أن ابنه اشترى خاتماً بألف درهم ـ ابنه ـ فكتب إليه عمر: بلغني أنك اشتريت فِصًّا ـ أي خاتم ـ بألف درهم، فإذا أتاك كتابي هذا فبع الخاتم وأشبع به ألف بطن.

والله سمعت أنه في عرس كلَّف عشرين مليون، كم شاباً يتزوج بثمن هذا العرس ؟ عرس كلَّف عشرين مليون. قال له: بع الخاتم، وأشبع به ألف بطن، واتخذ خاتم بدرهمين ـ يكفي درهمان ـ واجعل فِصَّه حديداً صينياً، واكتب عليه: رحم الله امرئ عرف قدره فوقف عنده، والله أعلم.

أحد العلماء يقول: التكبُّر شرٌ من الشرك. النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لو لم تذنبوا لذهب الله بكم))

((لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أكبر من ذلك ـ ما الذي هو أكبر من الذنب ـ العجب العجب))

(من الجامع الصغير: عن " أنس ")

العجب أكبر من الذنب. فالعالم يقول: الكبر أكبر من الشرك. لماذا؟ لأن المتكبِّر يتكبَّر عن عبادة الله، أما المشرك يعبد الله ويعبد غيره، أما المتكبر يتكبر في الأصل عن عبادة الله.

اسمعوا كم آية بالقرآن للمتكبرين..

(ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (72))

(سورة الزمر)

(أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (60))

(سورة الزمر)

(كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35))

(سورة غافر)

فهذه بعض أقوال العلماء، وبعض شمائل النبي عليه الصلاة والسلام، وبعض أقواله في التواضع، وهذا الدرس ينبغي أن يترجم إلى واقع، أن يترجم إلى أخلاق، أن يترجم إلى مُثُل لا أن يبقى في الكتاب، وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله نتحدَّث عن تعريف التواضع، وعن درجات التواضع بشكلٍ تفصيلي. على كلٍ أذكركم بقول النبي عليه الصلاة والسلام الذي رواه الإمام مسلم:

((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كبر))

(من صحيح مسلم: عن " ابن مسعود ")

والآن إلى بعض ما في السنة النبوية.

نصوص من السيرة النبوية جمعتها بهدفٍ واحد، هو أن النبي عليه الصلاة والسلام عاش مع قومه، لم ينسحب من قومه، لم يبتعد عنهم، لم ينسلخ منهم، لم يرَ أنه من جهة غير جهتهم، فنشأ النبي عليه الصلاة والسلام بين قومه في مكة، يعيش فيها كما يعيشون، يأكل ما يأكلون، يشرب كما يشربون، يلبس كما يلبسون، يخضع لأحكام البيئة وتقاليدها في الأخذ والعطاء، والبيع والشراء، والسفر والإقامة،

ويشارك القوم في أفراحهم وأتراحهم، وفي شغلهم وفراغهم، وفي كل ما تمليه عليهم ظروف الحياة.
فإذا لم تكن مع الناس كيف تهديهم ؟ إذا لم تحسَّ بإحساسهم كيف تهديهم ؟ إذا لم تعان ما يعانون كيف يعنيك أمرهم ؟ فإذا أردت أن تأخذ بيد الناس إلى الله عزَّ وجل يجب أن تعيش واقعهم، أن تعيش آلامهم، أن تعيش مشكلاتهم، أن تعيش صراعاتهم، أن تعيش قضاياهم، أن تعيش مآسيهم، فإذا ابتعدت عنهم وعشت في برج عاجي، هذا الابتعاد عن المجتمع لا يعينك على تفهم قضاياهم، ولا على الأخذ بيدهم، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان قدوةً لنا. فمع أنه عاش مع قومه، وعناه ما يعنيهم، وتفهَّم قضاياهم لكنه ما انزلق في وحولهم أبداً، حافظ على نقائه، وعلى صفائه، وعلى طهارته التي كانت سبباً في تكريم الناس له.

الشيء المهم: يعني هذا الشاب الذي هو النبي عليه الصلاة والسلام صار علماً بين الناس، لا ينادَى ولا يذكر إلا بالأمين، صار اسم الأمين علماً عليه فوق اسمه، فكان صادقاً لا يكذب، وفياً لا يغدر، ناصحاً لا يغش، أميناً لا يخون، عرفه الناس طاهر النفس، واسع الحلم، رحيم القلب، جَمَّ التواضع، عرفوا فيه كرم العشرة، حسن الجوار، رجاحة العقل، علو الهمة، زاهداً في الدنيا، أي أنه عاش مع الناس ولم يهبط إلى وحولهم، شيء دقيق جداً إما أن تعيش مع الناس في أخطائهم، وسقطاتهم، وانحرافاتهم، وترُّهاتهم، ووحولهم، وإما أن تبتعد عنهم متكبِّراً، لا، فالموقف الصعب أن تكون بين هذا وذاك، أ، تعيش معهم من دون أن تسقط معهم، أن تفهم قضاياهم من دون أن تنجرف معهم، أن تحس بمشكلاتهم من دون أن تكون أنت أحد مشكلاتهم.

فكانت قريش تعظِّم صنماً اسمه (بوابة) تحضره وتعظمه، وتنسك له النسائك، ويحلق أهل قريشٍ رؤوسهم عنده، ويعكفون عنده يوماً إلى اليوم وذلك يوماً في السنة، وكان أبو طالب يحضره مع قومه، وكان يكلِّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد مع قومه، فيأبى النبي عليه الصلاة والسلام، حتى رأيت أبا طالب غضب عليه، ورأيت عمَّاته غضبن عليه يومئذٍ أشدَّ الغضب وجعلن يقلن له: إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا، وجعلن يقلن: ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً، ولا تكثِّر لهم جمعاً ؟ فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء، ثم رجع إلينا مرعوباً فزعاً، فقلن له: ما دهاك ؟ قال: إني أخشى أن يكون بي لمم. ماذا حصل ؟ قال: كلما دنوت من صنم تمثَّل لي رجل أبيض يصيح بي: وراءك يا محمد لا تمسَّه. فما عاد إلى عيدٍ من أعيادهم قط في حياته، اللهم صلِ عليه، أي أنه ما لمس صنم.

وعن زيد بن حارثة رضي الله عنه كان صنمٌ من نحاس يقال له (أساف، ونائلة) يتمسَّح به المشركون، إذا طافوا بالكعبة، فطاف عليه الصلاة والسلام يوماً وطفت معه، فلما مررت بالصنم مسحت به، فقال

عليه الصلاة والسلام: " لا تمسَّه ". ثم طفنا فقلت في نفسي: لأمسَّنه حتى أنظر ماذا يكون، فمسحته فقال عليه الصلاة والسلام

((ألم تنهى ؟))

قال زيد: فو الذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنماً قطُّ حتى أكرمه الله بالنبوة.

أي أن النبي الكريم عاش مع قومه ولكنه ما عبد صنماً، ولا استلم صنماً، ولا توجَّه إلى صنم، ولا شرب خمر، ولا سقط مع قومه. عاش معهم من دون أن يسقط معهم، هذا الموقف الدقيق أن تبتعد عن الناس القضية سهلة ـ تنعزل ـ وأن تكون معهم في سقطاتهم القضية سهلة، لكن البطولة أن تبتعد عنهم من دون أن تسقط معهم.

فقرتان قصيرتان، شهد النبي عليه الصلاة والسلام وهو في سن العشرين (حلف الفضول)، وهو حلفٌ تداعت فيه قريش إلى نصرة المظلوم، في دار رجلٍ من أشرافهم يقال له عبد الله بن جدعان، فتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً إلا نصروه، وكانوا معه حتى يردَّ إليه حقه، فكان هذا الحِلف أكرم حلفٍ وأشرفه سمع به العرب، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت))

أي مجتمع الجاهلية تداعوا إلى حلف لنصرة المظلوم فالنبي قَبِلَ وشارك في هذا الحلف.

لما الكعبة هدمت، شارك النبي عليه الصلاة والسلام في بنائها، وشارك في نقل الحجارة، فلما اختلف أشراف قريش على الحجر الأسود مَن يمسكه بيده، وكادوا يقتتلون، وكادت تنشب بينهم حربٌ ضروس، ثم اتفقوا على أن يحكّموا أول داخلٍ عليهم، فدخل عليه الصلاة والسلام، وكان شاباً راجح العقل فقال: ائتوني بثوب، فجاءوه بثوب، وأمسك بالحجر بيده الشريفة ووضعه في الثوب، وأمر كل رئيس قبيلةٍ أن يمسك بطرف الثوب، فنقلوا هذا الحجر من مكانٍ إلى مكان، وبهذا تفادى النبي بهذا التصرُّف الحكيم حرباً طاحنةً كادت تودي بقريش.

فالقصد الكعبة ساهم في بنائها، ما انعزل عن المجتمع، كان إيجابي، بحلف الفضول شارك فيه، بالطواف حول الكعبة، طاف بها ولم يمسَّ صنماً، أريد أن أقول لكم من خلال هذه المواقف، كذلك بالتجارة كان له موقف بالتجارة، وكانت التجارة مهنةً شائعةً في مكّة، فاشتغل النبي بها كما يشتغل بها غيره، وكان له فيها شريك يسمى السائب بن أبي السائب. وكان صلى الله عليه وسلم يستريح إليه ويثني على أخلاقه، ويضرب به المثل لأصحابه، كان يقول:

((نعم الشريك السائب لا يشارى ولا يمارى))

(من مجمع الزوائد)

جاءه السائب يوم فتح مكة، فالنبي أكرمه، واستقبله، وعرف له مكانته، وتلقَّاه فرحاً وهو يقول:

((مرحباً بأخي وشريكي كان لا يداري ولا يماري))

اشتغل بالتجارة، وله شريك، وكان وفياً له، وأثنى عليه، وأكرمه. وساهم في بناء الكعبة، ووقف موقف حكيم تفادى بهذا الموقف حرب ضروس، وشارك في حلف الفضول، وكان مع قومه في أفراحهم وأتراحهم، في حلّهم وسفرهم، في سلمهم وحربهم، كان مع الناس.

إذا كنت مع الناس وتفهمت قضاياهم ومشكلاتهم، عندئذٍ يمكن أن تأخذ بيدهم إلى الله عزَّ وجل، أما إذا ابتعدت عنهم، وانسلخت منهم، واستعليت عليهم، عندئذٍ أصبح بينك وبينهم هوّةً كبيرة وبهذا لن تستطيع أن تمدَّ لهم يد العون.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (007) :التواضع2 - حقيقة التواضع والكبر وعلاقتهما - إن الله أوحى إلي...

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-09-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... لازلنا في الحديث النبوي الشريف الذي ورد في صحيح مسلم، من حديث عياض رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد))

أيها الإخوة الأكارم... الخُلقُ من الدين كالرأس من الجسد، أي إذا أردت أن تلخِّص الدين كله فهو خلقٌ عظيم، خلقٌ كريم، الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، والمُعاملات، والعبادات كلها من أجل أن تكون إنساناً راقياً، لذلك لما ربنا عزَّ وجل مدح النبي عليه الصلاة والسلام، بماذا مدحه ؟ قال:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4))

(سورة القلم)

موقع الخُلق من الدين موقعٌ خطير، فإذا تخلى الإنسان عن مكارم الأخلاق فلا دين له، الذي يميز المؤمن عن غير المؤمن اتصافه بمكارم الأخلاق، من هنا جاء الحديث عن التواضع ؛ لأن الإنسان إذا عرف الله، ولم يكنْ في المستوى المطلوب من الخلق الكريم فكأنه ما عرف الله عزَّ وجل، فربنا عزَّ وجل يقول:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

(سورة الفرقان: من آية " 63 ")

الهَوْن برفقٍ ولين، أما الهُون من الهوان. أرأيت حركة واحدة بين الهَون وبين الهُون، الهَون الرفق واللين، والهُون الذل والخنوع..

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

أي برفقٍ ولين، بتواضع، بتراحم، أي يمشون بسكينةٍ، ووقارٍ، متواضعين غير أشرين، ولا مرحين، ولا متكبِّرين.

الإمام الحسن وصف هذه الآية، أو فسَّر هذه الآية فقال: علماء حكماء..

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

أي علماء حكماء.

وقال ابن الحنفية: أي أصحاب وقار وعفةٍ، لا يسفهون، وإن سفه عليهم أغيارهم.

إذاً الهَون الرقَّة، واللين، والتواضع، والرحمة، والعِلم، والحكمة، كل هذه المعاني مستفادةٌ من كلمة (الهَون) أما الهُون فهو الهوان، وشتَّان بين الهَوْن وبين الهَوان.

آيةٌ ثانية تعيننا على فهم الحديث الشريف، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

(سورة المائدة: من آية " 54 ")

فـ الأذلّة جمع ذلول، وذلول شيء وذليل شيءٌ آخر، المؤمن ذلول، المؤمن كالجمل الذلول، والمنافق والفاسق ذليل، وشتَّان بين الذلول وبين الذليل، الذلول سهل الانقياد، الذلول ليِّن الجانب، الذلول يألف ويؤلف، الذلول هو السَمْح ؛ في بيعه، وشرائه، في قضائه، في كل أحواله، فلذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((المؤمن كالجمل الذلول))

(من كشف الخفاء: عن " أبي هريرة ")

والمنافق والفاسق ذليل لأن المعاصي، والدناءات، والقذارات، وانخفاض النفس، وطمعٌ فيما عند الآخرين هذا كله يجعله ذليلاً، بينما المؤمن لحبه لله عزَّ وجل، ورحمته بالخلق يصبح كالجمل الذلول، ليِّن الجانب.

ألم يمر معنا البارحة أن الجارية ـ أي الطفلة الصغيرة ـ كانت تمسك بيد النبي عليه الصلاة والسلام وتمشي به حيث تشاء ؟ فالمؤمن ذلول أي لين، تعامله سهل، يسامح. ربنا عزَّ وجل قال:

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

أي عزة القوة والمَنَعة والغَلَبة. في بهذه الآية لقطة رائعة جداً، كلمة: فلان عزيزٌ في نفسه، أو عزيزٌ لفلان، أما هنا جاء في الآية:

(أَعِزَّةٍ عَلَى)

ما في باللغة عزيزٌ على، هذه الصفة حمِّلت معنى الرحمة، أي شفوقٌ عليهم، خائفٌ عليهم، رحيمٌ بهم، فجاءت كلمة (على) مع أعزة لتفيد أن هذه الذلة ذلة برحمةٍ، وذلة عطفٍ وشفقة..

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

أي على مع أذلة تعني أن هذا المؤمن يشفق على إخوانه، يعطف عليهم، يخاف عليهم، أي ذل، عطف، وشفقة، وخوف.

شيءٌ آخر: كما قلت في الدرس الماضي:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)

(سورة النساء: من آية " 48 ")

أيهما أكبر الكبْر أم الشرك ؟ الشرك أن تعبد الله وأن تعبد معه إلهاً آخر، ولكن الكِبْر أن تستنكف عن عبادة الله، فالعلماء اتفقوا على أن الكبْر أعظم من الشرك، فإذا كان الله عزَّ وجل..

(لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)

فهل يغفر الكبْر ؟ الكبر أعظم من الشرك لأن المشرك يعبد الله ويعبد غيره، بينما المتكبِّر يستنكف عن عبادة الله عزَّ وجل.

لذلك القاعدة يا إخوان، هذه قاعدة لا تخيب

((من تواضع لله رفعه، ومن تكبر وضعه))

أي أن المتكبر له عذابٌ خاص هو عذاب الهون، عذاب الذل، عذاب الإهانة، من تواضع لله رفعه.

يروون أن هارون الرشيد سأل أحد خلفائه: أريد عالماً أستفاد منه. فهذا المرافق ذهب إلى الإمام مالك ـ إمام دار الهجرة ـ قال له:

ـ إن الخليفة يطلبك.

ـ فقال له: قل لهارون العلم يؤتى ولا يأتي.

فلما قيل لهارون الرشيد هذا الكلام قال:

ـ صدق نحن نأتيه.

ـ قال له أيضاً: وقل له أنني لا أسمح له بتخطي رقاب الناس.

ـ قال له: صدق.

فلما وصل الخليفة إلى المسجد وضعوا له كرسياً فخماً جلس عليه،

ـ فقال الإمام مالك: من تواضع لله رفعه.

ـ فقال: نحوا عني هذا الكرسي وجلس مع الناس.

هذه قاعدة:

((من تواضع للناس رفعه))

وانظر إلى الأكحال وهي حجارةٌ لانت فصار مقرها في الأعين

* * *

والتواضع هو سبب لمحبة الناس لك، إذاً من تواضع رفعه، ومن تكبَّر أذله الله، ووضعه، وصغره، وحقَّره، هذا لم ندخل بعد في حقيقة التواضع.

حقيقة التواضع تتضح من حقيقة الكبر، لأن التواضع نقيضٌ للكبر، بماذا شرح النبي عليه الصلاة والسلام الكبر ؟ إذا فهمنا شرح النبي عليه الصلاة والسلام للكبر نعرف معنى التواضع. قال عليه الصلاة والسلام:

((الكبر بطر الحق غمص الناس))

(من الموطأ للإمام مالك: عن " ابن مسعود ")

أدق تعريف للكبر بطر الحق، البطر أي الرد، يأتيك الحق على شكل آيةٍ قرآنية، تردُّ هذا المعنى، لا تنقاد له، يأتيك الحق على شكل سنةٍ للنبي عليه الصلاة والسلام، ترد هذا الحق، أن ترد الحق ولا تعبأ به، أن ترى نفسك فوق ذلك هذا أحد أنواع الكبر.

((الكبر بطر الحق غمص الناس))

(من الموطأ للإمام مالك: عن " ابن مسعود ")

غمص الناس يعني إنسان له مكانته، فتتجاهل هذه المكانة، تريد أن تصغِّره، تتجاهل علمه، تتجاهل أخلاقه، تتجاهل قيمته، تتجاهل أعماله وإنجازه، تتجاهل حجمه، وترى نفسك فوقه بالباطل، فحينما ترد الحق من جهة، وحينما تستعلي على الناس من جهةٍ أخرى فهذا هو الكبر.

ما هو التواضع إذاً ؟ أن تخضع للحق، أي أنت عبد من عبيد الله، فالله سبحانه وتعالى أنزل على النبي عليه الصلاة والسلام قرآناً هو منهجك في الحياة، فمن لوازم تواضعك لله عزَّ وجل أن تقبل كل ما في هذا القرآن. إذا ثبت لديك أن الله خالق السماوات والأرض، وأنك عرفت الله عزَّ وجل من خلال الكون، وأن الله عزَّ وجل لن يدع خلقه من دون منهج، من دون تعليمات، من دون توجيه، من دون دستور، وأن هذا القرآن قرأته وعرفت إعجازه التشريعي، والعلمي، والبلاغي، والبياني، وإعجازه في النَظم، حينما تيَقَّنت أن هذا القرآن كلامه، وأن الله سبحانه وتعالى خلق الكون، الآن يقتضي التواضع أن تخضع لهذا القرآن بكل آياته.

هذا الذي يأخذ آيةً ويدع أخرى، يقبل هذا المعنى ولا يقبل هذا المعنى، يقبل هذا التوجيه ويرفض هذا التوجيه، ينصاع لهذا الحُكم ولا ينصاع لذلك الحكم، هذا مثله كمثل بني إسرائيل، هم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، لذلك معنى التواضع أن تقبل الحق، أن تقبله كلاً وجزءًا، بقضِّه وقضيده، جملةً وتفصيلاً، أي تقبل أحكام الزواج، والله أخي الزواج سنة، وترفض أحكام الميراث، تتهرَّب من توريث البنات، تكتب أموالك كلها في حياتك لأولادك الذكور وتدع البنات بلا شيء، ما معنى هذا ؟

معنى ذلك أنك رفضت حكم الله عزَّ وجل، كأنك تشرِّع من جديد، كأن حكم الله لا يعجبك، هذا الذي يقبل شيئاً ويدع شيئاً آخر، يقبل سنة الزواج ويرفض أن يعطي المهر لامرأته المطلَّقة، يضايقها حتى

تنزل له عن المهر، هذا المهر من حقها، ما دمت قد طلّقتها فهذا المهر من حقها، فالإنسان عندما يتهرب من تنفيذ حكم الله فهو متكبِّر، لذلك:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (65))

(سورة النساء)

حينما تنصاع لأمر النبي عليه الصلاة والسلام، حينما تنصاع لسنته، حينما تنصاع لتوجيهه، فأنت مؤمنٌ ورب الكعبة، لذلك:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: من آية " 36 ")

أنت كمؤمن ؛ بعد أن عرفت الله عزَّ وجل، وعرفت عظمته، وعرفت إعجاز كتابه، لا تستطيع أن ترفض حكماً لله عزَّ وجل أبداً، لذلك أحكام العبادات، أحكام المعاملات، أحكام البيوع، أحكام الزواج، أحكام الطلاق هذه كلها تخضع لها، هكذا حكم الله، سمعاً وطاعةً يا رب، في كبر مبطن، أنت متواضع، ومنظرك متواضع جداً، لكن حينما ترفض هذا الحكم، حينما تعطّل هذا الحكم، حينما تتهرَّب من تنفيذ هذا الحكم فهذا أحد أنواع الكبر، إنك رفضت هذا الحكم، إما أن ترفضه صراحةً بلسانك، وإما أن ترفضه حقيقةً بتهرُّبك من تنفيذه، فهذا الذي يعطّل حكم الله إما تهرباً، أو رداً، أو تعطيلاً هذا متكبر.

الآن نداخل بمعاني دقيقة للتواضع... تحدثنا الدرس الماضي عن قول النبي عليه الصلاة والسلام في التواضع، وعن أن سنته المطرة توافق كلامه. الآن في شيء آخر:

أنت كعبد أمام تشريعٍ من عند الله عزَّ وجل، متمثلٍ في القرآن والسنة، لمجرد أن تختار من هذا التشريع ما يعجبك، وأن تدع ما لا يعجبك، فهذا كبر، من أنت حتى تختار ؟!! هذا التشريع كلُّه من عند الله عزَّ وجل، الأشياء التي تعجبه يأخذ بها، ويثني عليها، أما التي تقيِّد حريته، أو لا تعجبه يتجاهلها، أو يردها، أو يتحايل للتخلص منها، هذا أحد أنواع الكبر في الإنسان.

هذا الذي يختار من الدين ما يعجبه، هؤلاء فئة قليلة اسمها أصحاب الرأي، لهم رأي خاص، هم اخترعوا ديناً جديداً، يأخذوا من القرآن ما يوافق هذا الرأي، ويتجاهلوا الآيات التي تخالف هذا الرأي، يأخذوا من العبادات ما يحلوا لهم ويتجاهلوا من العبادات ما لا يروق لهم، طبعاً بشكل أو بآخر ؛ هذا الإنسان يخترع ديناً جديداً، من علامات تواضعك لله عزَّ وجل أن تأخذ بكل ما جاء به القرآن الكريم من أمرٍ ونهيٍ.

إذاً انتبهوا أيها الإخوة... عندما يهمل الإنسان أمر، يتجاهل حكم، يتنصَّل، يتهرَّب، يحاول ألا يأخذ بكل الأحكام، هذا عنده كبر، فالتواضع أن تخضع للحق لأن الكبر بطر الحق، أي أن ترد الحق، وغمص

الناس، فالمتكبر لا يحب إلا نفسه، لا يرى مع نفسه أحداً، كل هؤلاء الناس لا يراهم إطلاقاً، يراهم تافهين، يراهم لا شأن لهم، لا يرى أحداً أعلم منه، هذا إنسان يعبد ذاته، حينما تنقلب إلى تعظيم ذاتك فهذا أحد أنواع العبادة للذات، وهذا مرض خطير.

لذلك، بعض العلماء قالوا: التواضع على ثلاث درجات ؛ الدرجة الأولى التواضع للدين، وهو ألا تعارض بمعقولٍ منقولاً، الدين نقل، نقلٌ عن الله، والعقل ـ كما قلت في الدرس السابق البارحة، أو قبل البارحة ـ العقل ميزان، لكن هذا الميزان قد يختل، قد يضل، ما الذي جعله الله على الميزان ميزاناً ؟ الشرع ، العقل ميزان، والشرع ميزان على الميزان، فأيُّ تفكيرٍ منطقي خالف الشرع فهذا تفكيرٌ فيه خلل، أي تفكيرٍ عقلاني انتهى بك إلى مخالفة الشرع فهذا التفكير خطأ، وغلط مائة بالمائة، لأن الله سبحانه وتعالى هو الحق، وكلامه الحق، وشرعه الحق، والحق هو الشيء الثابت والهادف.

كحائط بني على غير شاقول، بني مائلاً، فهذا الحائط لابدَّ من أن يقع، لأنه باطل، مادام هذا الحائط لم يبنَ على شاقول، مادام هناك ميل، فهذا الميل لابدَّ من أن يتفاقم إلى أن يهوي الجدار، هذا هو الباطل، أما الحق جدارٌ بني على أسسٍ صحيحة، إنه بني ليبقى، فالحق هو الشيء الباقي، الشيء الثابت..

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (81))

(سورة الإسراء)

من صفات الباطل أنه زهوق، وهذه الصفة صفة مترابطة مع الباطل ترابطاً وجودياً، يعني أي باطل ؛ الفكر الباطل لابد من أن ينهار، والسلوك الباطل لابد من أن ينكره الناس، وأي عمل باطل ينتهي إلى بوار، إذاً أول شيء بالدين: ألا تعارض بالمعقول منقولاً، تقرأ النص، تصفن فيه، فلا يعجبك، فترفضه، هذا كبر، من أنت ؟! هذا النص من عند الله، وهذا الحديث من عند الله، من حضرتك أنت حتى لا يعجبك ؟ ومن هو عقلك ؟ وما قيمة عقلك ؟ عقلك إذا هداك إلى تعظيم هذا النص فهو عقلُ راجح ؟ " أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً ابن آدم أطع ربك تسمى عاقلاً "، عقلك لابد من أن يهديك إلى طاعة الله عزَّ وجل، لأن عقلك ميزان أعطاك الله إياه.

أحياناً المصالح، أحياناً الشهوات، أحياناً الغرائز، النزوات هذه تصرف العقل عن الحُكم الصحيح، يأتي الشرع ليصحح خطأ العقل، فنحن عندنا الشرع هو الميزان، لذلك كل مَن ألقى من يده ميزان الشريعة لحظة هلك..

أحبابنا اختاروا المحبة مذهباً وما خالفوا في مذهب الحب شرعنا

* * *

أي إنسان يخرج عن قواعد الشرع هذا ليس بمؤمن، إذاً فهمنا أن المعقول والمنقول، الدين بالنقل، الدين نقلٌ جاءك من الله، قطعي الثبوت، القرآن والسنة المتواترة هذه قطعية الثبوت جاءتك عن الله، عقلك

مسموحٌ له أن يفهم المنقول فقط، أما أن يرد المنقول فهذا ليس من شأن عقلك، ليس من شأن عقلك أن تردَّ به المنقول بل يجب أن تفهم به المنقول، لأنه أنت عبد، عبد علمك محدود، والله سبحانه وتعالى أنزل هذا الكتاب على نبيه، وأمره أن يبينه للناس، فنص الكتاب، وتبيين النبي له، هذا نقلٌ صحيح عن الله عزَّ وجل، فأنت دورك عقلك مهمته أن يفهم هذا النقل لا أن يرد النقل، فلذلك الدرجة الأولى في التواضع ألا يعارض المنقول بالمعقول، فكل إنسان جعل عقله هو المقياس، عقله القاصر.

العقل يا إخوان تماماً كالعين ؛ جهاز بالغ الدقة، لكن كيف أن العين لا ترى إلا بالنور، كذلك العقل لا يُدْرِك إلا بنور الله عزَّ وجل، فمَن انقطع عن الله عزَّ وجل صار في ظلام، ظلماتٌ بعضها فوق بعض، الله عزَّ وجل قال عن المؤمنون..

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

(سورة البقرة: من آية " 257 ")

فالإنسان لو كان ذكي جداً، وعقله متفوّق جداً، مادام مقطوع عن الله عزَّ وجل فهو في ظلماتٍ بعضها فوق بعض.

إذاً ؛ إذا عارضت بالمعقول المنقول فهذا أحد أنواع الكبر، التواضع أن تخضع لله من خلال خضوعك لكتابه، ولسنة نبيّه، النبي الكريم أعطاك هذا التوجيه فقال لك:

((لا تبع شيئاً حتى تحوزه إلى رحلك))

هذا توجيه نبوي في البيع والشراء، فإذا أنت بعت شيء قبل أن تحوزه، تقع في إشكاليات كبيرة جداً، من هنا سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: " والله ثلاثةٌ أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك فأنا واحدٌ من الناس، ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حقٌ من الله تعالى".. هذا توجيه رسول الله اللهم صلِ عليه..

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3))

(سورة النجم)

حديثٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم سمَّاه علماء الأصول وحياً غير متلو، لقول الله عزَّ وجل:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

كلامه وحيٌ من عند الله، لكنه وحيٌ غير متلو، إذاً ألا تعارض بالمعقول المنقول، لذلك علماء الكلام رفضوا النصوص وحكّموا العقل، بعض الفلاسفة رفضوا النصوص وحكّموا العقل، فكل مَن يرفض النص ويحكّم العقل مكانه ـ العقل غير المنضبط ـ فهذا أحد أنواع الكبر.

درسنا عن التواضع، لكننا انتقلنا منه إلى أن التواضع له علاقة بالعقيدة، من تواضعك لله عزَّ وجل أنك تقبل من الله كل شيء، لأنه هو الخالق، وأنت عبد، أي أن الله عزَّ وجل قال:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85))

(سورة الإسراء)

فإذا توهَّمت أنك تعرف كل شيء فأنت متكبِّر، فإذا ربنا عزَّ وجل قال:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85))

أنت تريد أن تعرف كل شيء ؟! يجب أن تبقى أشياء لا تعرفها، في أشياء متعلّقة بعالم الأزل، في أشياء متعلقة بعالم الأبد، في أشياء متعلقة بذات الله عزَّ وجل، هذه موضوعات محظورٌ عليك أن تطرُقها، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا))

(من الجامع الصغير: عن " أبي ذر ")

فإذا الإنسان دخل بموضوع العلم الإلهي وتعمق فيه، وصل لمتاهة، ووصل لمشكلة كبيرة جداً، الاختيار، والعلم الإلهي، علم الله علم كشف وليس علم جبر، الله يعلم كل شيء، يعلم ما كان، ويعلم ما يكون، ويعلم ما سيكون، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون..

(وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (16))

(سورة الحجرات)

الله عزَّ وجل قال لك في القرآن الكريم:

(وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (16))

والله سبحانه وتعالى خالق المكان والزمان... وانتهى الأمر... وربنا عزَّ وجل بآيات كثيرة يبيِّن أنك مخيَّر..

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

(سورة البقرة: من آية " 148 ")

فهذه موضوعات متعلّقة بذات الله، من الأولى أن تقف معها أديباً، أن تقول: لا أعلم. ويجب ألا تعلم، وينبغي ألا تعلم، وإذا كنت تعلم تقول: لا أعلم، لأن العجز عن الإدراك إدراك، فهذا الذي يظن أنه يعرف كل شيء، ويريد أن يُدلي رأيه في أي موضوع مهما كان شائكاً.

سيدنا مالك بن أنس ـ كما قلت لكم ـ جاءه وفد من المغرب يحمل له ثلاثين سؤالاً أو أكثر من ذلك، أجاب عن سبعة عشر وقال عن الباقي: لا أعلم، فاستغربوا، الإمام مالك لا يعلم ؟!، الإمام مالك لا يعلم،

هكذا ببساطة، عوِّد نفسك العبودية لله عزَّ وجل، هذه أعرفها وهذه لا أعرفها، فأنت عالم إذاً، أما إذا ادَّعيت أنك تعرف كل شيء فأنت لا تعرف شيئاً، لكن قل: هذه أعرفها وهذه لا أعرفها، الله سبحانه وتعالى وفقني في هذا الموضوع، هذا الموضوع فلان أقوى مني على فهمه، اعرف للآخرين حقوقهم.

الآن الطبيب المتواضع المؤمن يعرف أنه مختص بالموضوع الفلاني، يأتيه مريض فيقول له: علاجك عند فلان، هذا المؤمن، عند فلان، فلان يحمل اختصاص في هذا الموضوع، معلوماته أحدث، علمه أغزر، هذا المؤمن، أما هذا الذي يدعي أنه يعرف كل شيء هذا إنسان جاهل، فمن علامات التواضع أن تقول: لا أعلم، الله عزَّ وجل قال لك: إنني أعلم، صدقت يا رب، وقال لك: إنك مخير، صدقت يا رب وانتهى الأمر، كيف مخير، وكيف يعلم ؟ أما أن تقول: لا، لا يعلم، لا بل يعلم. فمن أنت ؟ أنت عبد لله عزَّ وجل، أتظن أنك ندٌ لله عزَّ وجل فتحاسبه ؟ ليس هذا من شأن العبد أبداً، من شأنك أن تقبل ما قاله الله عزَّ وجل، عقلك تستخدمه في فهم قول الله عزَّ وجل لا في رده، في فهمه لا في رده. كيف انتقلنا من موضوع التواضع لموضوع عن العقيدة، انتقلنا من التواضع كخُلُق إلى رد الحق، فلا إله إلا الله، قال:

(وَمَا أُوتِيتُمْ)

أيها البشر..

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85))

قال:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة: من آية " 255 ")

فانظر حينما ترد النصوص الصحيحة، النص قطعي الثبوت حينما ترده فأنت لا تعلم، أنت متكبر، أحد أنواع الكبر أن ترد النص الصحيح لأن الدين نص، الدين نقل، وأنت عبد، وهذا النقل جاءك عن الرب، تصور سيِّد وله عبد، بعث له رسالة ـ السيد للعبد ـ افعل كذا وكذا وكذا، فتطلع العبد فيها وقال: هذه بلاها، هذه غير معقولة، هذه لن أفعلها، هذه ما، هذه سأعمل نصفها فقط، هذا أصبح ليس عبد، هذا صار شريك، فالشريك يمكن يأخ برأي شريكه أو لا يأخذ لأنه شريك، إذا كنت شريك لله عزَّ وجل فخذ ما يعجبك ودع ما لا يعجبك، إذا كنت شريك لله، أما إذا كنت عبداً له يجب أن تأخذ كل شيء عن الحق عزَّ وجل.

هذا موضوع دقيق جداً لأن الإنسان أحياناً لا يحس على حاله، بشكل لا شعوري، هذا الحكم جمَّده، هذا الآية ما أخذ فيها، هذه ما عجبته..

(حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ)

(سورة البقرة: من آية " 230 ")

هذا حكم إلهي هذا، يعملها شغلة شكلية، يعمل عقد قران لليلة واحدة، ويطلقها ثاني يوم، أنت بهذا تلعب بدين الله عزَّ وجل، تستخف بالله عزَّ وجل..

(حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ)

أي تنكح زوجاً غيره، أي زواج ثاني على التأبيد، ينتهي بطلاق طبيعي، عندئذٍ تحل هذه المرأة بهذا الزوج. فكل إنسان هذه يتلافاها، أساساً الحيل الشرعية استخفاف بالله عزَّ وجل، استهزاء بشرعه، الحيل الشرعية.

يعني أنا أقدر أن أبيعك هذه الحاجة بمائة ليرة ديناً، أتبيعني إياها بمائة وعشرين نقداً ؟ أتبيعني إياها بثمانين نقداً ؟ أعطيتك الثمانين وسجلت عليك المائة، فأنا ماذا فعلت ؟ أقرضتك بالربا على شكل بيع وشراء، هذه حيلةٌ شرعية، وكأن الله طفلٌ صغير تنطلي عليه هذه الحيلة، شيء مضحك جداً.

فهذا الذي يحتال على الله عزَّ وجل.. كمن يقول: لازم نسكن مع زوجة أخانا في بيت واحد، سهلة الشغلة سهلة، هذه البنت الصغيرة بنت أخيك، تأتي امرأة من الحي ترضعها، تخطب أنت بنت الجيران عمرها سنة ونصف تخطبها وأنت عمرك خمسة وخمسين سنة، تخطب بنت عمرها سنة ونصف، ما هذا الزواج، تأتي زوجة أخاك وترضعها، عندما أرضعتها أصبحت حماتك، والحماة محرَّمة على التأبيد، بعد ساعة تطلقها لهذه البنت الرضيع، وتصبح زوجة أخاك حماتك، وجلسنا في بيت واحد وانتهت المشكلة، هذا لعبٌ في دين الله عزَّ وجل، هذه الحِيَل الشرعية لا تنطلي على الله عزَّ وجل.

فلذلك حينما تأخذ كلام الله بشكلٍ جدي ؛ تأخذه كله من دون تمييز، وليس أن تأخذ ما يعجبك وتدع ما لا يعجبك ليس هذا الدين، ولكن أن تأخذه كله، هذا من صفات التواضع لله عزَّ وجل، فأنت عبد وهذه تعليمات من سيدك، أول واحدة سمعاً وطاعة، الثانية سمعاً وطاعة، الثالثة سمعاً وطاعة، الرابعة سمعاً وطاعة، عشرة سمعاً وطاعة، إذا كنت ليس عبد فموقفك: هذه الثالثة ليست مظبوطة، هذه تخنها نلغيها، الرابعة غير معقولة، الخامسة ليس وقتها، هذه ليس وقتها، وهذه غير معقولة هذا لم يعد عبد، هذا صار شريك ند لند.

فكيف انتقلنا من التواضع كخُلُق إلى رد الحق، رد الحق هو بطر الحق كما قال النبي الكريم:

((الكبر بطر الحق غمص الناس))

(من الموطأ للإمام مالك: عن " ابن مسعود ")

إنسان له حجم، وأنت صغَّرته، هكذا بهوى في نفسك، طمست إمكانياته، أهملته، جعلته في الظل، تكلمت عنه كلاماً لا يليق وغير صحيح، فهذا الذي يحكم على الناس من دون علم، من دون تروي، من

دون بصيرة هذا إنسان متكبر. لا تنسوا هذا التعريف النبوي الشريف، التعريف النبوي:

((الكبر بطر الحق... - أي رد الحق، لك موقف من هذا النص غير الخضوع، موقف الرد -... وغمص الناس " - أن ترى نفسك فوق الناس جميعاً.))

الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول: أجمع المسلمون على أن مَن استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يحل له أن يدعها لقول أحد. انظر هذه النقطة ما أخطرها، أي إذا ثبت لديك أن سنة النبي عليه الصلاة والسلام أن تفعل كذا وكذا، لا يجوز أن تنصاع لإنسانٍ على وجه الأرض كائناً مَن كان، إذا استبان لك بالدليل القطعي أن هذا الحديث صحيحٌ عن رسول الله، وفي توجيه معين، حينما تتبع قول أي إنسانٍ مخالفاً هذا الحديث فأنت لست مسلماً..

قال الإمام الشافعي:

((أجمع المسلمون على أنه مَن استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحل له أن يدعها لقول أحد))

الشيء قبل الأخير في هذا الدرس: أن النجاة من الشقاء والضلال إنما هي في البصيرة، البصيرة نورٌ يقذفه الله في القلب..

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور (46))

(سورة الحج)

فمَن لا بصيرة له فهو من أهل الضلال في الدنيا وأهل الشقاء في الآخرة، هذا النور لا يقذف في قلبك إلا إذا استقمت على أمر الله، وأقبلت عليه، عندئذٍ يقذف الله في قلبك النور، فإذا قذف الله في قلبك النور رأيت الحق حقاً فاتبعته، ورأيت الباطل باطلاً فاجتنبته، يعني هذا النور يريك الحق حقاً، ترى في توجيه النبي عليه الصلاة والسلام أنه عين الصواب، وأنه عين الكمال والحكمة.

ملخصٌ سريعٌ لما ورد في هذا الدرس أن التواضع عكس الكبر، النبي عليه الصلاة والسلام عرَّف الكبر فقال:

((. " بطر الحق.))

أي رد الحق..

((.. وغمص الناس))

إنسان يحب الأناقة هذا ليس كبر، يحب أن يرتدي ثوباً جميلاً، يحب أن يكون بيته نظيفاً مرتَّباً، دكانه فيها جمال، فهذا الذي يحب الأناقة والنظافة والتجمُّل هذا من الإيمان، ليس هذا هو الكبر، الكبر أن ترد الحق، وأن تغمص الناس حقهم، أي لمجرد أن تبني مجدك على أنقاض الآخرين فهذا كبر، لمجرد أن

تهمل الناس جميعاً، أن تصغِّرهم، أن تحقِّرهم، أن تبحث عن عيوبهم لا لشيء إلا من أجل أن تجعلهم دونك فهذا كبر، فكيف انتقل الموضوع من خُلُق إلى علم ؟ الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: من آية " 36 ")

ليس له خيار، إذاً قبِلَ الحق كله، فالذي يحرم البنات من الميراث هذا في عنده كبر، لأنه يرى رأيه أقوى من القرآن الكريم، يرى أن هذه البنت مزوجة لها زوج، يجب أن يبقى هذا المال في بيت فلان كله، فعمل ترتيبات في حياته ؛ المعمل والبيت كله سجله باسم أبنائه الذكور والبنات متزوجات ماشي حالهم، هذا متكبر، هذا رفض حكم الله عزَّ وجل، فأنت كن مع الحق حيثما دار.

إن شاء الله الموضوع لم ينته بعد، في له تفصيلات دقيقة جداً ونحن في أمس الحاجة إليها. أنه حينما تنصاع لحكم الله تقبل عليه، تسعد بقربه، عندئذٍ يلقي الله في قلبك نوراً، ترى فيه الخير خيراً والشر شراً، أما إذا الإنسان رفض حكم، أو عطله، أو جمَّده، أو احتال عليه أنت أصبحت من أهل الرأي، تخترع ديناً جديداً تأخذ ما يحلو لك، وترفض ما لا يحلو لك، إما رفض قولي ظاهر أو رفض ضمني باطن، حينما تعطل حكماً، أو ترفض حكماً، أو ترى رأياً آخر موازياً لحكم الله عزَّ وجل أنت ماذا فعلت؟ قدمت بين يدي الله ورسوله، قدمت رأياً آخر الله سبحانه وتعالى لا يرضى عنه.

فالناس في أشياء تعجبهم في الدين، يقول لك: يا أخي الزواج سنة. نعم لكن كذلك الطلاق سنة، عندما تدفع المهر، يجعلها معذبة إلى أن تنزل له عن المهر، لماذا أنت اعتبرت الزواج سنة وأخذت به، فلما أردت أن تترك هذه المرأة ضايقتها حتى تركت لك المهر ؟ أنت رفضت بذلك حكم الله في المهر وفي أحكام الطلاق. فالإنسان..

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: من آية " 36 ")

لذلك قال بعضهم: في بالمصطلحات الاجتماعية " أنه تنتهي حريتك حينما تبدأ حرية الآخرين "، هذه كلمة مدنية. في لها تعبير آخر: " تنتهي حريتك حينما تعرف الله عزَّ وجل "، ليس لك حرية، صرت أنت عبد في معك تعليمات من سيدك، وتحبه، وتعظمه، ولك ثقةٌ بعلمه، وبحكمته، وبرحمته، وبحبه لك، تأخذ هذه التعليمات واحدةً واحدة، لا تختار منها على كيفك، اجعلوا هذا المثل في بالكم، سيد بعث إلى عبد تعليمات فتطلع فيها وقال: هذه معقولة، هذه غير معقولة، هذه لن أنفذها، هذه ليس وقتها، أنت لست بعبد أصبحت، إذاً أنت شريك له، أما العبد يأخذها، ويطبقها واحداً واحداً ويقول: سمعاً وطاعة وعلى العين والرأس.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (008) :التواضع3 - سمات التواضع - عدم رد النقل بالعقل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-09-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... لا زلنا في شرح الحديث النبوي الشريف الذي ورد في صحيح مسلم، عن عياض رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد ولا يبغي أحد على أحد))

الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم يقول:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات)

معناها أعلى مرتبة يبلغها الإنسان في الحياة الدنيا أن يكون عبداً لله، العبودية لله هي أقصى الآمال تتحقق بشيئين، تتحقق بالتوحيد، وتتحقق بالطاعة..

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25))

(سورة الأنبياء)

(أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (11))

(سورة الزمر)

لذلك لا يدخل الجنة مَن كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ؛ لأن الكبر يتناقض مع العبودية، من هنا كان الحديث عن التواضع، فالإنسان حينما يسلك سلوكاً يتناقض مع عبوديّته، أو حينما يفكر تفكيراً يتناقض مع عبوديته، أو حينما يقف موقفاً يتناقض مع عبوديته، فقد بَعُدَ عن المرتبة التي تليق به، إذا قلنا: العبودية فلها في الإسلام معنىً عظيم، فلها في الإسلام معنى أن كل خير السيّد للعبد، أن تكون عبداً لله يعني ذلك أن كل خير مولاك لك، أما أن تكون عبداً لإنسان معنى ذلك أن كل خيرك له، بين أن يكون كل خير المولى للعبد، وبين أن يكون كل خير العبد لسيّده، فشتان بين أن تكون عبداً لله وبين أن تكون عبداً لعبدٍ لئيم. لذلك أعلى مرتبة يمكن أن تقترب منها أن تكون عبداً لله، من هذا المنطلق كان التشديد على معاني العبودية، هناك تفكيرٌ فيه تجاوزٌ لمعنى العبودية، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد ولا يبغي أحد على أحد))

في الدرس الماضي، والفضل لله عز وجل، كان شرحاً لهذا الحديث الشريف، ولا زلنا في شرح هذا الحديث، شيء آخر أن الدين كله مأخوذٌ من القرآن الكريم، وما فعل النبي في كل أحاديثه الشريفة إلا أنه بين ما في هذا القرآن الكريم، فقد يسأل سائل: هل ترك النبي عليه الصلاة والسلام تفسيراً لكتاب

الله؟ الجواب: نعم، إن السنة المطهَّرة كلها تفسيرٌ وتبيين وتوضيح لكتاب الله، فهناك أصلان كبيران ؛ كتاب الله، وسنة رسوله، ما إن تمسَّكتم بهما فلن تضلوا أبداً، إذاً الدين كله مأخوذ من كتاب الله، وما السنة إلا تفسيرٌ، وتبيينٌ، وتوضيحٌ لما في كتاب الله، فالدين جُمِع في القرآن، والقرآن كله جمع في الفاتحة، والفاتحة كلها جمعت في آيةٍ واحدة:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5))

(سورة الفاتحة)

من هنا كان الحديث عن العبودية حديثاً شيّقاً، حديثاً مصيرياً، حديثاً خَطيراً، أنت عبد، هل تعرف ما معنى أنك عبد ؟ ماذا يقتضي أن تكون ؟ كيف يجب أن تفكر ؟ كيف يجب أن تقف ؟ كيف يجب أن تتحرك في ضوء عبوديتك لله عز وجل ؟

في الدرس الماضي كان الحديث عن أن التواضع من لوازم العبودية، وأن التواضع على درجات ثلاث، الدرجة الأولى: التواضع للدين بمعنى ألا تُحَكِّم العقل في النقل، لخَّصت الدرس الماضي بمثالٍ واحد، هو أن العبد يمثل الضعف..

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً (28))

(سورة النساء)

هو أن العبد يمثل الفقر..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ)

(سورة فاطر: من آية " ")

أنت مفتقر إلى الهواء، مفتقر إلى الماء، مفتقر إلى هرمون لو قصَّر في جسمك لأصبحت الحياة جحيماً، أنت مفتقر إلى هرمون اسمه هرمون التجلُّط، هذا لو زادت نسبته عن الحد المقرر لأصبح الدم وحلاً في الأوردة والشرايين، وأنت مفتقر إلى هرمون التميُّع، بمعنى أنه لو زاد هذا الهرمون عن حده المحدد له لسال الدم كله من شكَّة دبوس، الدم كله يسيل، من تحقيق التوازن الدقيق بين هرمون التميُّع وهرمون التجلُّط تشعر أنك في صحة تامة، فأنت من أجل أن تستيقظ صباحاً وتقول: الحمد لله الذي أصبحنا وأصبح الملك لله ؛ معنى ذلك أن هناك عشرات الأجهزة، ومئات الأنسجة، وعشرات الغدد الصمَّاء وأجهزة لا يعلم عددها إلا الله تعمل في كفاءةٍ عالية جداً، إذاً أنت عبد لله، أنت مفتقر إلى الله.

وأنت أيضاً ضعيف، والله سبحانه وتعالى هو القوي، أنت الضعيف وهو القوي، أنت الفقير وهو الغني، أنت الجاهل وهو العليم، أنت في أدنى درجة من درجات الضعف، والله سبحانه وتعالى لا نهاية لكماله، الإله العظيم أنزل على سيدنا محمدٍ كتاباً كريماً ؛ هذا هو المنهج، هذا هو الدستور، هذه هي نشرة التعليمات، هذا هو (الكتالوك) إن صح التعبير، أنت من حقك كعبد أن تدقق في قطعية ثبوت هذا

الكتاب، يجب أن تؤمن إيماناً لا ريب فيه أن هذا القرآن قطعي الثبوت، وأنت من حقك أن تؤمن، أو أن تتعرف إلى مدلولات كلمات هذا القرآن.

جاءتك نشرة من سيدك، يجب أن تتأكد من صحة نسبتها إليه، ويجب أن تتأكد من المعنى الدقيق التي تعنيه هذه الكلمات، فلمجرد أن تقول هذه أفعلها وهذه لا أفعلها، هذه أختارها وهذه لا أختارها، إذاً أنت لست عبداً، أنت إذاً شريك، وشتان بين العبد وبين الشريك، هذا كان في الدرس الماضي، من لوازم العبودية ألا تأخذ من كتاب الله ما يعجبك وأن تدع ما لا يعجبك، ألا تأخذ من السنة المطهرة ما يوافق رأيك وأن تدع ما لا يوافق رأيك، هذا ليس من صفات العبودية، العبد عبد والرب رب، يجب أن تأخذ بما صح من السنة النبوية، ويجب أن تأخذ بكتاب الله عز وجل لأنه في الأصل قطعي الثبوت، وآياته في معظمها قطعية الدلالة، وفي بعضها ظني الدلالة، وفي الآيات ذات الدلالة الظنية يجب أن تأخذ بالأحوط، وأن هذه الآيات من نوع المتشابهات، فالوَرِع يأخذ بالأحوط ويدع ما يريبه إلى ما لا يريبه.

فلمجرد أن تحكم العقل في النقل فأنت متكبِّر، مَن أنت ؟ ما حجم عقلك ؟ لمجرد أن تحكم العقل في النقل فأنت متكبِّر، أما العقل له ثلاث وظائف ؛ له أن يتحقق من صحة النقل، وله أن يفهم مضمون النقل، وله أن يفكر في خلق السماوات والأرض كي يعرف الله عز وجل.

إذاً الدرجة الأولى من درجات التواضع ألا يعارض العقل النقل، والحقيقة لا يمكن أن يتعارض، لا يمكن، والسبب: لأن هذا العقل من خلقه ؟ خلقه الله سبحانه وتعالى، من أعطاه قوانينه ؟ الحقيقة العقل له قوانين، قوانين هذا العقل: قانون السببية، وقانون الغائية، وقانون عدم التناقض، أوضح لكم هذا مع بعض التفصيل:

أنت إذا كنت في نزهة استغرقت أسبوعا، وقبل أن تغادر البيت ارتجت الأبواب، وأحكمت إغلاقها، وقطعت الكهرباء عن البيت خشية حريق أو ما شاكل ذلك، وعدت من المصيف، فإذا ضوءٌ متألقٌ في البيت، لا شك أن الفزع يصيبك، وربما يُصْعَق الإنسان تقول: هذا الضوء من ألّقه ؟ تقول لك امرأتك: أطفئه. أهذه هي المشكلة أطفئه ؟؟ لأن عقله بني على ثلاث مبادئ، على مبدأ السببية، وهو أن شيئاً في الأرض لم يكون إلا بسبب، فما دام قد أطفأ الكهرباء قبل أن يغادر المنزل فلابد من دخول إنسان لهذا البيت، هكذا العقل يفكر، لكل شيء سبب.

والعقل يفكر تفكير آخر: لكل شيء غاية، أنت في حياتك اليومية تجد في آلة حركة، هذه الحركة قد لا تستعملها، ولكن لا ترتاح نفسك إلا إذا عرفت لماذا صنعت، لماذا وضع هذا الارتجاج ؟ لماذا وضعت هذه الفُرْضَة ؟ لماذا وضع هذا التجويف ؟ أحياناً الإنسان يجد شاحنة في لها غطاء مضاعف فلماذا ؟ لماذا بعض الشاحنات التي تحمل الوقود السائل بلا غطاء وهذه لها غطاء، أنت لا علاقة لك بهذا

الموضوع إطلاقاً، ولكن عقلك لا يفهم ذلك، إلا إذا فهم الغاية من هذا الغطاء الإضافي، إذاً العقل لا يفهم الأشياء إلا وفق مبدأ السببية، ولا يفهمها إلا وفق مبدأ الغائية.

ولا يفهمها إلا وفق مبدأ الهوية: مبدأ الهوية أي مبدأ عدم التناقض، أنت لا يمكن أن تصدِّق أن يكون أخوك في بيته وفي حلب في وقت واحد، لذلك يكفي أن يثبت المتهم بجريمةٍ أنه كان وقت وقوع الجريمة في هذه البلدة، فانتهى الأمر، فيحكم ببراءته، لأن العقل لا يقبل أن يكون في هذا المكان وفي غير هذا المكان في وقت واحد.

فمَن خلق العقل ؟ الله سبحانه وتعالى، من أنزل هذا القرآن ؟ الله سبحانه وتعالى، هل يعقل أن يتناقض هذا القرآن مع العقل ؟ مستحيل، لأن هذا كلامه وهذا خلقه، العقل جهاز الله عز وجل خلقه، والقرآن كلامه، إذاً لا يمكن أن يتعارض المعقول مع المنقول، وإذا تعارضا ؟ والحقيقة في تعارض، لابد من أن يكون المنقول غير صحيح، أو أن العقل قد جَنَح عن طريق الصحيح، أي شطط، إما في العقل أو في النقل، نقل غير صحيح يتعارض مع العقل، لذلك كل الأحاديث الموضوعة عقلك لا يقبلها، لا يعقل ذلك، العقل السليم لا يتعارض مع النقل الصحيح، أما نظرية في العلم فيها تجنّي، وضعت لأسباب معينة، وضعت للكيد لجهة معيَّنة، هذه النظرية ليست حقيقة، إنما هي نظرية، أصحابها طرحوها ليكيدوا لرجال الدين في العصور الوسطى، فهذه النظرية في الأصل ليست صحيحة، ليست حقيقة، إنما أراد بعض العلماء في عصور النهضة أن يكيدوا للدين كيداً كبيراً، فاخترعوا نظرياتٍ تنسف الأسس التي بني عليها الدين، فإذا تعارضت نظرية (داروين) مع قصة خلق الإنسان، هذا التعارض طبيعي جداً، لأن هذه النظرية لم يرتكب أصحابها خطأً علمياً بل ارتكبوا خطأً أخلاقياً، إنهم قالوا شيئاً لا يعتقدون به من أجل أن ينسفوا أصل الدين، إذا تعارض العقل مع النقل فإما لعدم لصحة النقل أو لجنوح العقل، العقل الناجح يتعارض مع النقل الصحيح، والنقل غير الصحيح يتعارض مع العقل الجانح.

إذاً لابد من أن يتوافق العقل والنقل، لكن إذا تعارضا الأصل النقل، أحياناً مثل بسيط: يكون إنسان متواضع فتح محل تصليح سيارات، يأتي زبون إليه يريد أن يقنعه أن هذه القطعة ليس لها لزوم، يكون الوكالة أو المعمل صممها، يأتي صاحب السيارة يقول ليس معقول هذا الكلام، شركة لها تاريخها في الصناعة مائة عام، وما في حركة إلا موضوعة لهدف كبير، معقول هذا الإنسان الجاهل الذي عهده بالتصليح سنتين أو ثلاثة يقول لك: هذه القطعة ما لها لزوم بالسيارة ؟ وكثيراً من يعمل في التصليح يقول: هذه ليس لها لزوم، هذه زائدة، يركب المحرك، فإذا سألته ما هذه؟ يقول لك: ما لها لزوم، كيف ما لها لزوم !! لا يصدق أنك أفهم من شركة، في عندك مبادئ، فإذا كان تعارض النقل مع العقل تأكد كن مع النقل، إذا تعارض لك النقل مع العقل بادئ ذي بدء أنت كن مع النقل لأن النقل عن خالق الكون، والعقل فيه قصور أحياناً الآن.

فمن صفات التواضع ألا تعارض المنقول بالمعقول، وألا تتهم للدين دليلاً، فأحياناً يأتي الدليل، فيأتي إنسان لا يقنع بهذا الدليل، أنا الذي أقوله: إذا قرأت قصة، قرأت مقالة علمية، قرأت بحث علمي مؤدَّاه مخالفٌ لما في كتاب الله، بكل بساطة، بكل طمأنينة قل: صدق الله العظيم وكذب كاتب هذه المقالة. بكل بساطة، وأنت في أعلى درجة من الدرجات العلمية، أي أنك تكون موضوعي، وتكون حر في تفكيرك إذا جاءتك مقالة علمية، أو بحث علمي، طبعاً المظهر علمي، الأسلوب علمي، أما هناك أغراض لا يعلمها إلا الله، فإذا تعارض العقل مع النقل كن مع النقل واتهم العقل، لأن العقل فيه جنوح، وفي قصور، وفي غرور، وفيه تبريرٌ أحياناً، وفيه غاية في نفس يعقوب أحياناً، أحياناً الإنسان يتفلسف لكي يغطي شهوة من شهواته، يتفلسف لكي يتمتع بالاختلاط، يقول لك: ثبت علمياً أن المجتمع الذي فيه اختلاط مجتمع مهذَّب، مجتمع راقي، هذه المقالة فيها فلسفة من أجل أن تغطَّى حاجات الرجال إلى النساء بشكل غير مشروع، فإذا قرأت مقالة، قرأت قصة، قرأت بحث، سمعت محاضرة، طالعت خبر في الصحيفة، ورأيته يتعارض تعارضاً بيناً مع ما في القرآن الكريم ومع ما في السنة المطهرة فأنت في أعلى درجة من الدرجات الموضوعية تقول: صدق الله العظيم وكذب كاتب هذه المقالة، فلو قيل: اخترعنا دواء يطيل العمر. ربنا عز وجل قال:

(فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (34))

(سورة الأعراف)

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام جاءه رجل قال:

ـ يا رسول الله إن أخي يشكو استطلاقاً في بطنه.

ـ فقال له

((: اسقه العسل))

ـ فشرب العسل فقال: يا رسول الله شرب العسل فلم يزد بطنه إلا استطلاقاً. زاد إسهاله.

ـ قال له

((اسقه العسل.))

ـ قال له: زاده استطلاقاً.

ـ قال له

((صدق الله العظيم وكذب بطن أخيك.))

(من سنن الترمذي: عن " ابي سعيد ")

وفي الحقيقة أحدث مقالة قرأتها: أن أحد حالات الإسهالات الإنتانية علاجها بالعسل، طبعاً أول مرة يزداد، وبعد ذلك ينقطع انقطاعاً تاماً، فانظر إلى هذا الموقف النبوي

((صدق الله العظيم وكذب بطن أخيك،))

أنت عايش بمجتمع الدين له خصوم كثيرون، فتطالع بالصحيفة أو بالمجلة، أو تسمع خبر في قضية فيها خرق لقواعد الدين، أو فيها تجاوز، أو فيها استخفاف، يقول لك: ثبت أن الخمر قليل منه مفيد، النبي الذي لا ينطق عن الهوى قال:

((ما أسكر كثيره فقليله الحرام))

(من الجامع الصغير: عن " ابن عمرو ")

((فملئ الكف منه الحرام))

(من كنز العمال: عن " السيدة عائشة ")

جمع الشر كله في بيت، ثم ارتج عليه فكان مفتاحه السُكْر، إذا كان المعقول تعارض مع المنقول، أنا أنصحك: قف إلى جانب المنقول، لأن المنقول عن خالق الكون، والمعقول فيه شطط. ولكن والله الذي لا إله إلا هو لو وقفت بدافعٍ من عبوديتك موقفاً حازماً إلى جانب المنقول، لكشف الله عن بصيرتك، وأراك حكمة هذا المنقول، حتى يصبح معقولاً.

أحياناً يبدو لك بنظرة أولية أن هذا المعقول يخالف المنقول، أنت كن مع المنقول لأنه عن خالق السماوات والأرض، واتهم عقلك، وسوف ترى أن الله سبحانه وتعالى يكافئك على هذا الموقف التعبدي الأديب بأن يكشف لك عن بصيرتك فترى حكمة المنقول، وهذا الشيء يقع منه دائماً، سبحان الله لقد أدركت حكمة هذه الآية، حكمة هذا الأمر، حكمة هذا النهي.

شيء آخر: إما أن ترى أنت أن هذا المعقول يخالف المنقول، فكن مع المنقول، وإما أن تسمع من غيرك شيئاً يخالف المنقول، فكن مع المنقول، ولا تلق بالاً لهذا الذي يبدو للناس أنه معقول، يعني: رضيت ورضيت، أين الإثم بالزنا، هي راضية، هكذا المجتمعات الغربية، ما دام راضية، إذا في اغتصاب في زنا، ما في اغتصاب، ما في إكراه هي راضية وهو راضي، هذا المعقول، أما المنقول:

(فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)

(سورة النور: من آية " 2 ")

هذه جاهلة، راضية ولكنها جاهلة، في عندنا نظام عام، في عندنا مجتمع إنساني، من أجل سلامة هذا المجتمع، لذلك عندما يعيش الإنسان بدولة بعيدة عن الدين يجد أشياء كبيرة جداً ؛ فواحش ترتكب على قارعة الطريق وفق مبدأ المعقول، حرية، الحرية مقدسة، هذه ليست حرية، هذه تفلُّت من القواعد الأساسية في المجتمع.

الإمام الشافعي له كلمة رائعة جداً يقول: " من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحل أن يدعها لقول أحد ".

في عندنا من لوازم التواضع صفة أخرى: أنه لا ينبغي لا بعقلك، ولا بكلامك، ولا بعملك، ولا بحالك، أن تخالف النص الصحيح ؛ آية كريمة أو حديث صحيح أن تخالفه لأي سبب، فتقول: أنا قناعتي كذا، مَن أنت ؟ مَن أنت حتى تحل قناعتك محل نص جاءك عن الله عز وجل، قناعتي، هكذا أرى، هكذا يبدو لي، رأيي الشخصي، أرى مع الكاتب الفلاني كذا وكذا، كلام فارغ هذا كله، فلا يحل لك أن تقول:
رأيي، وقناعتي، واتجاهي، وبُنيتي النفسية هكذا ؛ تحب المجتمعات الراقية مثلاً، وفي هذا الرقي ما تعرفونه..

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: من آية " 36 ")

قضية القرآن بت بها، أعطاها حكماً قطعياً، رأي شخصي، اتجاه فردي، مزاج، ما أحب هذا الشيء، أحب هذا الشيء، كلام فارغ كله، أنت عندئذٍ لست عبداً لله، أنت عبد شهوتك، أنت عبد هواك، العبد لله عز وجل يضع شهوته، ورغبته، ورأيه، وقناعته تحت قدمه إذا تعارض مع كلام الله، مَن أنت ؟ العبد الحق يضع فكرته، وقناعته، ورأيه، ومزاجه، ورغبته، وميله، وهوايته تحت قدمه إذا تعارضت مع كتاب الله، هذا هو مقام العبودية لله عز وجل، إنما أنا عبد لك يا رب.

والله في سعادة بالعبودية، والله الذي لا إله إلا هو لا يعلمها إلا من ذاقها، تشعر بطمأنينة، تشعر بأدب، تشعر أن هذا المكان الطبيعي، وكلما ازددت تواضعاً لله عز وجل، زادك الله رفعة، كلما ازددت خضوعاً لله عز وجل زادك الله بصيرةً، كلما ازددت انصياعاً لأمره زادك الله شرفاً، كن للحق عبداً فعبد الحق حر.

في عندنا شيء مهم جداً، قد يقول لك أحد الأشخاص: أنا مستقيم على أمر الله. هل عرفت أمر الله ؟ هنا سؤال دقيق، قد يظن أحدهم أن الاستقامة بند واحد اثنين ثلاثة، فعلها فأنا مستقيم، أخي أنا مستقيم استقامة تامة، مَن قال لك ذلك ؟ قد يكون هناك مخالفة كبيرة في حديثه، معصية كبيرة في بيعه وشرائه، أحياناً صلاته مع إحساسه أنه فوق البشر، هذه صلاة تحتاج إلى استغفار، قال بعض العارفين: " استغفارنا يحتاج إلى استغفار، إخلاصنا يحتاج إلى إخلاص " فالقضية مع الله عز وجل أنت عبد لله، إذا كنت معتداً باستقامتك، هذه الاستقامة جعلتك ترى نفسك فوق البشر، أنت ارتكبت أكبر ذنب وهو العجب " لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أكبر ألا وهو العجب " العجب خطير جداً، العجب حجاب، العجب خرق للعبودية لله عز وجل، العجب خرق للعبودية واقتراب من الألوهية، هذا الذي يعجب بنفسه في النهاية يعبد نفسه، فكلما تمدحه يزداد شعوراً بالنشوة، فإذا أوقفت عنه المديح لحظة شعر بالضيق، هذا الذي يستجدي مديح الآخرين هذا يعبد نفسه ولا يعبد ربه.

لذلك، لا تقل أنا مستقيم إلا إذا عرفت أمر الله بالدليل الصحيح، مَن قال لك أن هذا البيع يقره الشرع ؟ مَن قال لك أن هذا السلوك يرضاه الله عز وجل ؟ هل عرفت أحكام البيع والشراء كلها ؟ هل عرفت أحكام الزواج ؟ هل عرفت حقوق الزوجة ؟ هل عرفت حقوق الجار ؟ هل عرفت حقوق الابن ؟ هل عرفت حكم الله في كل شأن من شؤون الحياة ؟ لا تقل أنا مستقيم إلا إذا علمت أمر الله ونفذته، أما لم يقرأ بالفقه شيء بعد، قرأ موضوعان أو ثلاثة، الفقه مائة موضوع، مائتين موضوع، خمسمائة موضوع، فالاستقامة لا تكون إلا بعد الثقة بمعرفة أمر الله وتنفيذ هذا الأمر، وهذا أيضاً من لوازم العبودية لله عز وجل.

في عندنا شيء آخر من لوازم العبودية، وهذا شيء والله خطير جداً: الله عز وجل لحكمة يريدها جعل الناس مراتب، في إنسان يعيش على ألف ليرة في الشهر، في إنسان يقول لك: أنا صرفت ثلاثمائة ألف في هذا الشهر، جعل الناس درجات، في كسب المال وفي إنفاق المال، وجعل أشخاص ضعفاء، وجعل أشخاص أقوياء، يقول لك يده طولى، وباللغة الدارجة: يفك المشنوق من المشنقة. جعل إنسان ضعيف، وإنسان قوي، إنسان غني وإنسان فقير، إنسان عالم وإنسان جاهل، إنسان ذكي جداً وإنسان غبي جداً، إنسان وسيم الصورة، إنسان ذميم الخلقة.

الآن، لو تصورت، لو أحد منكم أو أحد آخر تصور أن فلان المؤمن الذي يعمل حاجباً لا شيء إذا قيس إليك، فأنت لست عبداً لله، والدليل: ما دام الله قد قبله عبداً له هذا المؤمن، هذا الحاجب، فإذا رفضت أن يكون لك أخاً فأنت لست عبداً لله، مَن أنت ؟ خالق الكون رضيه عبداً له، أنت لا ترضاه أخاً لك ؟!! هذه فكرة مهمة جداً يا إخوان، أحياناً مؤمن يكون بمرتبة، معه شهادة عُاليا، له دخل كبير، له شكل جميل، له مكانة اجتماعية، بيده قوة، يقيس نفسه مع إنسان ضعيف ويرى نفسه أعلى منه، إذا الإنسان دعاه يقول له: أنا ليس فاضي، عندي شغل، أحب يزوره يقول له: ما هو الموضوع قل لي هنا، لا يريده أن يزوره، شعر حاله فوقه، هذا الذي رضيه الله عبداً تستنكف عن أن يكون لك أخاً ؟ أنت إذاً لست عبداً لله، إنتبهوا يا إخوان..

((رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره))

(من تخريج أحاديث الإحياء: عن " معاذ ")

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

(سورة الواقعة)

قد يكون الإنسان بأعلى درجة في السُّلم الاجتماعي، يأتي يوم القيامة فإذا هو في الحضيض، وقد يكون إنسان لا أحد يعرفه، فإذا هو في الأوج، النبي عليه الصلاة والسلام قال لأحد أصحابه دخل عليه:

((أهلاً بمن خبرني جبريل بقدومه))

فهذا الصحابي الجليل عظم عليه قال:

ـ أو مثلي ؟

ـ قال

((نعم يا أخي خامل في الأرض علم في السماء))

هذا الكلام لنا كلنا يا إخوان، يعني واحد منا قد يكون بوظيفة متواضعة جداً، قد يكون دخله أقل من القليل، قد يكون مظهره أقل من المقبول، قد يكون بيته غرفة واحدة، قد يكون لا أحد يعرفه، ولا أحد يلقي له بال، إذا كان محباً لله، مخلصاً له، مستقيماً على أمره، حافظاً لحدوده، قد يكون هذا الإنسان أكرم على الله عز وجل من أكبر اسمٍ ممَّن يتكلمون بالعلم، قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه عن ربه:

((أنا مع المنكسرة قلوبهم))

الحزانى في كنف الله، إن الله يحب كل قلب حزين، الحزانى معرضون للرحمة، أي إياك أن تنظر إلى أخيك المؤمن أنه دونك، أنت أعلى وظيفة، هو حاجب على بابك، فإذا دخل عليك فرحب به: أهلاً وسهلاً، باحترام تقف له، تستقبله، تعامله كأخ ند لند، هكذا طبيعة العبودية لله عز وجل، هذا إنسان له مشاعره، له أحاسيسه، له كرامته، له رغباته، فإذا الله عز وجل رفعك لا من أجل أن تهيمن عليه، ولا من أجل لأن تستعلي عليه، ولا من أجل أن تحتقره، عندئذٍ يعكس الله الآية، لذلك لا تشمت بأخيك فيعافيه الله ويبتليك، هذا أيضا من لوازم التواضع لله عز وجل.

في شيء آخر من لوازم التواضع: أن أخاك إذا أساء إليك، ثم جاءك معتذراً، يجب أن تقبل منه محقاً كان أم مبطلاً، لمجرد أنه جاء يعتذر منك يعني معنى ذلك أنه ندم على فعلته، معنى ذلك أنه استحيا بعمله، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يقبل عذر المعتذر، أخاك اعتذر منك، قل له: أبداً الحمد لله، سليم الصدر تجاهك، أما إنسان يعتذر إليه فلا يقبل، هذا ليس من بني البشر، هذا أيضاً من سمات التواضع لله عز وجل.

في عندنا نقطة مهمة جداً: بعض المذاهب الإسلامية ترى أن العبد أقل وأعجز من أن يوجب على ربه شيئاً، حتى عند هؤلاء أن الله لا يجب عليه شيء، بل إنهم ينكرون ما أوجب الله على نفسه. فإذا الله وعد المؤمنين حتى هذا الذي أوجبه على نفسه ينكرونه، وبعض المذاهب الأخرى ترى أن الله سبحانه وتعالى أوجب على نفسه أموراً لعبده، فإذا فعلها هذا العبد، صار له حقٌ عند الله، أيضاً هذه الفكرة غير صحيح، ولكن الرأي المعتدل أنه لا يجب على الله شيء، لكن هذا لا يعني أن الله سبحانه وتعالى يخلف وعده، أي الجنة بفضل الله، والنار بعدله، والله عز وجل وعده محققٌ قطعاً، ووعيده يتحقق أو لا يتحقق، أما وعده محقق قطعاً، فالذي يقول: أنا لي عنده حق، أنا مستقيم، لماذا هكذا صار معي؟!! أنت بذلك الكلام مالك عبد لله عز وجل، الله عز وجل امتحنك، امتحن لك العبودية فرسبت، أنا مستقيم، لازم

ما يصير معي شيء، مَن قال لك ذلك ؟ أنت عبد لله عز وجل، لا يجب على الله شيء، لكن وعده يتحقق، وعده يتحقق قطعاً، الذي أوجبه على نفسه محقق،، أما أنت تقول: أنا يجب على الله أن ينقذني. لا، فلك أن تدعو ربك من دون أن توجب عليه شيئاً، هذا أيضاً من لوازم العبودية.

صار معنى العبودية لله عز وجل تتناقض مع الكبر، والكبر كما تعلمون " بطر الحق وغمص الناس " في كتب جاءت " غمص " بالصاد، وفي كتب " غمط " بالطاء وكلاهما صحيح، الكبر أن تأبى حكماً شرعياً، أو آيةً أو حديثاً أو أن تأخذ من الدين ما تحب وتدع ما لا تحب، هذا كبر بطر الحق أي رد الحق، وغمص أو غمط الناس أي ازدراؤهم واحتقارهم النبي عليه الصلاة والسلام سئل:

((أن يا رسول الله أحدنا يحب أن يعجبه ثوبه))

الإنسان أحياناً يشتري ثياب أنيقة، ألوانها زاهية فيها انسجام، الخياطة جيدة، يكون هو شاب في أول حياته، فيرتدي هذه الثياب، ويتزين يرجِّل شعره، يتعطر، شايف حاله مظهره مقبول وجيد فهل هذا كبر؟ قال النبي: ليس هذا كبر،

((الكبر بطر الحق وغمط الناس))

أن ترد الحق وأن تحتقر الناس فهذا هو الكبر.

للفقرة الأخيرة... أن عدم رؤية العبد لنفسه حقاً على الله عز وجل، لا ينافي ما أوجبه الله على نفسه، وجعله حقاً لعبده، فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل رضي الله عنه:

((يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد))

ـ قال: الله ورسوله أعلم ؟

ـ قال

((حقه عليهم أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً، يا معاذ أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك))

ـ قلت: الله ورسوله أعلم.

ـ قال

((حقهم عليه ألا يعذبهم بالنار))

فالله سبحانه وتعالى ما لأحدٍ عليه حق، ولكن لا يضيع لديه سعي، لا أعرف تقدر تجد عمل أصغر من ذلك كمن يجد خيط على سجادة في المسجد، طوله نصف سنتيمتر، فرفعه ووضعه بجيبه، والله الذي لا إله إلا هو هذا العمل لا يضيع عند الله، وآخر أنقذ نملة على المغسلة، هذا العمل لا يضيع عند الله، لقول الله عز وجل:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

فما قولك فيما فوق ذلك ؟!! يقولون أن الإمام الغزالي الله يرضى عنه، بعد أن توفي رآه أحد تلامذته، فسأله عن أحواله، فقال له: "رحمني الله ـ وقد يفسرونها تفسيراً آخر ـ أن الدويبية حشرة صغيرة حجمها كرأس دبوس، كانت على صفحة كتابه أثناء الكتابة، فاقتربت من الحبر لتشرب، فأمهلها حتى تشرب، فهذا العمل حفظه الله له ".

النبي عليه الصلاة والسلام أحد أصحابه نزع عن ردائه ريشة طائر فرفع النبي يديه وقال: جزاك الله عني كل خير. أحياناً تخدم إنسان وتظل تخدمه لخمس سنوات بعد ذلك يرفس، نزع ريشة اللهم صلي عليه فقال: جزاك الله عني كل خير. خالق الكون لا يضيع عنده شيء، شيء ؛ أي نملة أنقذتها، فراشة أنقذتها، هرة أطعمتها، ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا سخَّر الله له مَن يكرمه عند سنه، فهكذا معاملة رب العالمين، أنا أقول والله زوال السماوات والأرض أهون على الله من أن يضيع على مؤمن عمله، أنت جئت من مكان بعيد ثلاثة ساعات في الطريق، ساعة ونصف ذهاباً وساعة ونصف إياباً، وغيرك قاعد في بيته مرتاح، مع أهله يمزح ويضحك، فهل هذا العمل يضيع عند الله عز وجل ؟؟ لا في عندنا ضيافة، لا في شاي، لا في كنبات مريحة، لا في كاتو، لا في كعك، ما في شيء، شيء ناشف ناشف، مجلس علم فقط، عند الله عز وجل لا يضيع شيء، لذلك " إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع "، إذا الإنسان بيته بعيد له أجر أكبر من أصحاب البيوت القريبة، إنسان المواصلات صعبة، من باص إلى باص، وازدحام، وما في مواصلات، عند الله كله محسوب..

(وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)

(سورة المزمل: من آية " 20 ")

ويقدر حق البنزين الغالي، إذا كان المحل بعيد وجئت بسيارتك على كل كيلو ليرتين، كلفتنا هذه الجية خمسين ليرة مثلاً..

(وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)

(سورة المزمل: من آية " 20 ")

يقدر الأسعار، ويقدر الوقت، يقدر التضحية، يقدر المسافة، كل ذلك عند الله محفوظ، لذلك:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

و:

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)

(سورة التوبة: من آية " 105 ")

وفي آية أخرى:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُم)

(سورة فصلت: من آية " 40")

كل عمل له حساب، قال له: يا رسول الله عظني ولا تطل. لا تطول علي، يظهر أن خلقه ضيق، قال له:

ـ عظني ولا تطل.

ـ فقال عليه الصلاة والسلام

((: قل آمنت بالله ثم استقم))

ـ فقال: أريد أخف من ذلك.

ـ فقال عليه الصلاة والسلام

((: إذاً فاستعد للبلاء))

أي القى.

إذا رأيت الاستقامة ثقيلة عليك استعد للبلاء ؛ لكل سيئة عقاب، فالذي يحب نفسه، الذي ينطلق من حبه لذاته فقط عليه أن يعرف منهجه الصحيح وأن يسير على منهج الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (009) :الإخلاص1 - أهميته ومراتبه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-09-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... موضوعات مجالس العلم متنوِّعة ؛ هناك موضوعاتٌ تهمّ بعض الحاضرين، لو أن موضوع الطلاق بحثناه بالتفصيل، قد يقول أحدكم: أنا أحب زوجتي وتحبني ولا أنوي تطليقها، فما شأني بهذا الموضوع ؟ ممكن، أحياناً ينطرح موضوع البيوع، وموضوع البيوع يهم التجار بالدرجة الأولى، لأن نشاطهم اليومي بيعٌ وشراء، وإيجابٌ وقبول، وبيعٌ حالٌ ومؤجَّل، ونقدٌ للثمن، واستلامٌ للبضاعة، فموضوع البيوع مثلاً يهم الإخوة التجار في الدرجة الأولى، ولكن الداعية إلى الله تهمُّه كل الموضوعات لأنه يُسْأَل.

لكن موضوع اليوم ما منكم واحدٌ وأنا معكم، إلا ويهمه أشد الاهتمام، إنه موضوع الإخلاص، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((يا معاذ أخلص دينك يكفك القليل من العمل))

(من الجامع الصغير: عن " معاذ ")

ما منكم واحدٌ وأنا معكم إلا ونحن في أمسِّ الحاجة لهذا الموضوع، ما قولك لو أنك تملك ألوف الملايين من العملة الورقية، واكتشفت فجأةً أنها كلها مزيفة ؟!

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً (23))

(سورة الفرقان)

طبعاً في عجينة الورق، التي تصنع منها العملات النقدية، مواد معدنية، وهناك أجهزةٌ دقيقةٌ جداً، توضع الورقة النقدية عليها، فإذا تألق ضوءٌ بنفسجي فهي عملة حقيقية، وإذا تألق ضوءٌ آخر فهي عملةٌ مزيفة، فلو أن إنساناً يملك ألوف الملايين من العملات الصعبة، واكتشف فجأةً أن هذه العملة كلها مزيَّفة، ما هو شعوره ؟ كم هي خيبة أمله ؟ كم هو إحساسه بالإخفاق ؟ لذلك لئلا ـ لا سمح الله ولا قدَّر ـ لئلا نقف يوم القيامة ولنا أعمالٌ كالجبال، وينطبق علينا قوله تعالى:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً (23))

(سورة الفرقان)

لئلا يكون ذلك كان هذا الدرس، شيء خطير جداً، هناك مَن يصلي، وهناك مَن يصوم، وهناك مَن يحج، وهناك مَن يتعلَّم العِلم، وهناك مَن يعلم العلم، وهناك مَن يدفع، وهناك مَن ينفق، وهناك مَن يأخذ، وهناك من يقاتل في سبيل الله، وهناك مَن يقرأ القرآن، وهناك مَن يعلِّم القرآن، لئلا نقف هذا الموقف الصعب حيث لا ينفع الندم، لئلا نقف موقفاً لا حل له كان هذا الدرس (الإخلاص)..

((يا معاذ أخلص دينك يكفك القليل من العمل))

(من الجامع الصغير: عن " معاذ ")

موضوعٌ دقيق، وموضوعٌ خطير، وموضوعٌ مصيري، وما منا واحدٌ وأنا معكم إلا في أمسِّ الحاجة إليه.

ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ)

(سورة البينة: من آية " 5 ")

في شيء خارجي وشيء داخلي، الشيء الخارجي أن يعبد الله ؛ يصلي، ويصوم، ويحج، ويزكي، ويغض بصره، ويحرر دخله، ويضبط لسانه، ويضبط حواسَّه الخمس، أن يعبد الله. الشيء الداخلي مخلصين..

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ)

من الخارج عبادة، ومن الداخل إخلاص، امرأةٌ ترتدي ثياباً سوداء، من الخارج سواد، من الداخل حزن، إذا لم يتطابق الحزن في قلبها مع اللون الأسود في ثيابها فهذا نفاق، أو هذا دَجَل، أو هذا يعني موقف مزوَّر..

لذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ)

العبادة غاية الخضوع، والإخلاص غاية التوجه إلى الله عزَّ وجل.

آيةٌ ثانية:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (2))

(سورة الزمر)

أمر ثاني..

(فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (2) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)

والله سبحانه وتعالى أمر النبي عليه الصلاة والسلام

(قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (14) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ)

(سورة الزمر)

وفي آية أخرى:

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163))

(سورة الأنعام)

هذه الآيات كلها تؤكّد أنه لا تقبل العبادة إلا مخلصة، لا تقبل العبادة إلا خالصة لله عزَّ وجل.

الآية الدقيقة التي عليها مدار البحث هي قوله تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

(سورة الملك: من آية " 2 ")

أحد العلماء واسمه الفضيل بن عياض سُئل عن معنى قوله تعالى:

(أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

ما معنى: أيكم أحسن عملا ؟..

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

ما معنى أيكم أحسن عملا ؟ فقال: " هو أخلصه وأصوبه ". يعني شرطان إذا توافرا كان العمل صالحاً، لا يسمى العمل صالحاً إلا إذا توافر فيه شرطان..

(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

قالوا: يا أبا علي ـ الفضيل بن عياض كُنيته أبو علي ـ قالوا:

ـ يا أبا علي ما أخلصه وما أصوبه ؟ أي ما معنى أنه مخلص وما معنى أنه صواب ؟.

ـ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل.

هذه أخطر فكرة في الدرس، إذا كان العمل خالصاً لله عزَّ وجل، ولم يكن صواباً لا يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لا يقبل. لا يقبل إلا إذا كان خالصاً وصواباً.

ما معنى خالصاً ؟ أن يكون لوجه الله عزَّ وجل ؛ لا تبتغي مدحاً، ولا ثناءً، ولا سمعة، ولا مكافأةً، ولا تقديراً، ولا إطراءً، لا تبتغي إلا وجه الله، ولا يعنيك أردَّ الناس على هذا العمل بالشكر أم بالامتنان، نوهوا أم سكتوا، أحسنوا أم أساءوا..

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً (9))

(سورة الإنسان)

وأما الصواب أن يكون على السُّنة، أن يكون العمل وفق السنة، هذا الصواب، والإخلاص أن تبتغي به وجه الله عزَّ وجل. فمَن قال: يا أخي نيته طيبة. هذا لا يكفي، أنا سآتي بإنسان وأحطمه وأقول: أنا أنوي له الخير، لكنني حطَّمته، هذا الذي أراد أن يقتل ذبابة على وجه سيده، فأمسك صخرةً وقذف به وجه سيده ليقتل الذبابة بنيةٍ طيبة، فقتله.

أي إذا سمحنا لأنفسنا أن نقول: يقبل العمل إذا كان صاحبه طيّب النيّة، عندئذٍ فتحنا باب الإساءة على مصراعيه، لا يقبل العمل إلا إذا كان خالصاً وكان صواباً، خالصاً تبتغي به وجه الله، وصواباً أي موافقاً للسنة، والدليل قوله تعالى:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110))

(سورة الكهف)

صالحاً أي وفق السنة، لم يشرك مخلصاً.

آية ثانية:

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ)

(سورة النساء: من آية " 125 ")

(سْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ)

مخلص..

(وَهُوَ مُحْسِنٌ)

عمله وفق السنة. أخطر ما في الدرس هذه الفكرة: لا يقبل عملك إلا إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً تبتغي به وجه الله، وصواباً موافقاً للسنة المطهرة، أن تقول: أنا والله نيتي طيبة، أنا أنوي الخير لكنني أخطأت، الله عزَّ وجل لا يعفيك من المحاسبة إذا كانت نيَّتك طيبة، ربما تقلُّ مسئوليتك أما أن تتلاشى فهذا مستحيل.

فإسلام الوجه..

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ)

فإسلام الوجه لله الإخلاص لله، وقصد مرضاة الله..

(وَهُوَ مُحْسِنٌ)

أي تابع عمله سنة النبي عليه الصلاة والسلام، لأن النبي معصوم وقد أكرمنا الله به ليدلنا على الطريق الصحيح، فأقواله، وأفعاله، وإقراره، وصفاته الخلقية كلها سنة، والنبي عليه الصلاة والسلام ـ بنص القرآن الكريم ـ جعله الله لنا أسوةً حسنة، ومثلاً أعلا، وقدوةً حسنة، والنبي عليه الصلاة والسلام الله عزَّ وجل نقَّاه، وأخلصه، وطهَّره، وكرَّمه، وجعله النموذج الأول لبني البشر.

الآية الكريمة التي بدأت بها الدرس:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً (23))

(سورة الفرقان)

أي العمل يجعله الله هباءً منثورا إذا أريد به غير الله، أو إذا أريد به وجه الله لكنه لم يكن صواباً، أي إذا اختل أحد الشرطين..

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً (23))

فالإنسان يكون صاحي، الإنسان ينتبه، يتحقق من صواب عمله، يتحقق من سلامة نيته، الجهل ليس عذراً في الإسلام، حتى في القوانين الجاهل غير معذور، معذور إنسان واحد أسلم في ساحة المعركة،

وهو في دار الحرب ولم ينتقل إلى دار السلم ـ دار الإسلام ـ معذورٌ في هذه الحالة، لكن الذي نشأ في بلاد الإسلام لا يجزئه أن يقول: أنا لا أعلم. لمَ لا تعلم ؟ تعلَّم.

يقول عليه الصلاة والسلام:

((ثلاثٌ لا يغل عليهن قلب مسلم ـ أي ثلاث أشياء لا يجتمعن على خيانة، أو لا يجتمعن على نفاق، مادام الإنسان قد فعلها فهو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مخلص ـ إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين))

في شخص أعلى منك وجدته على خطأ، يجب أن تنصحه وإلا لست مخلصاً، إذا سكتَّ عن خطئه، فأنت بذلك بحثت عن سلامتك، أنت تحب نفسك ولا تحب الحق، الذي يحب الحق ينصح مَن هم فوقه، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ثلاثٌ لا يغل عليهن قلب مسلم، إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين))

يعني اتَّبع لا تبتدع، اتضع لا ترتفع، الورع لا يرتفع، كن مع جماعة المسلمين، كن مع جمهور العلماء، لا تشذَّ عن جماعة المسلمين لأن يد الله مع الجماعة، ويد الله على الجماعة.. " ولا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق ".. أي أن الجماعة لا تنعدم في وقتٍ من الأوقات.

النبي عليه الصلاة والسلام سُئِل عن الرجل يقاتل رياءً، ويقاتل شجاعةً، ويقاتل حميةً، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله "))

لماذا أنت تأتي إلى الدرس ؟ والله سؤال خطير، لئلا يقال ترك الدروس ؟ لئلا يسألني أحد غداً لماذا لم تحضر ؟ تأتي من أجل أن تحل بعض المشكلات مع إخوانك في المسجد ؟ لك علاقةٌ مع زيد أو عُبَيْد فتأتي إلى الدرس من أجل أن تلتقي به ؟ تأتي من أجل أن يكون هؤلاء الذين في مجلس العلم زبائن لك؟!..

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ)

(سورة البينة: من آية " 5 ")

أم تأتي إلى مجلس العلم لا يدفعك إلا إرضاء الله عزَّ وجل ؟ سُئل عليه الصلاة والسلام عن الرجل يقاتل رياءً، ويقاتل شجاعةً، ويقاتل حميةً أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله "))

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن ثلاثةٍ تُسَعَّر بهم النار أول ما تسعَّر: قارئ القرآن. أي إذا كان قارئ قرآن مثلاً وابنته تغني على المسارح فرضاً. قارئ القرآن ولا يطبق القرآن.. ما آمن بالقرآن من

استحلَّ محارمه.. قارئ القرآن لا يعمل بالقرآن.. قارئ القرآن يتخذ قراءته مهنةً وحرفةً.. قارئ القرآن يقرأ القرآن ليصبح غنياً.. قارئ القرآن هو في وادٍ والقرآن في وادٍ.. ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((ربَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

فعليه الصلاة والسلام أخبر عن أول ثلاثة تسعر بهم النار:

((قارئ القرآن، والمجاهد، والمتصدِّق بماله، الذين فعلوا ذلك ليقال فلان قارئ، وفلان شجاع، وفلان متصدِّق، ولم تكن أعمالهم خالصة لوجه الله))

تذكروا، تذكروا المثل الأول: إنسان معه ألوف الملايين من العملات الصعبة، وهو يتيه بها، ويظن أنه يفعل بها أي شيء وكل شيء، اكتشف فجأةً أنها مزورة، كم هي خيبة أمله، كم هو ألمه، كم هو إحباطه؟؟ هذا الإخلاص، أي..

((يا معاذ أخلص دينك يكفك القليل من العمل))

(من الجامع الصغير: عن " معاذ ")

والله الذي لا إله إلا هو المخلص يشعر بسعادة لا توصف لأنه يتلقى ثمن إخلاصه مباشرةً نقداً، لا ديناً، ثمن إخلاصه أن الله سبحانه وتعالى يتجلَّى على قلبه، ثمن إخلاصه أنه أسعد الناس، ثمن إخلاصه أنه مطمئن، يشعر بالأمن، يشعر أن الله يحبه، يشعر أن الله راضٍ عنه، هذه المعاني كلها يعانيها المُخلص، يشعر بها المخلص، أما غير المخلص فهو يعاني من متاعب لا تعد ولا تحصى، لأنه فعل هذا من أجل فلان وفلان لم يدرِ به، أخذ له هدية فلم يشاهدها، لا حول ولا قوة إلا بالله، فعل هذا العمل من أجل أن يصل إلى فلان، فلان وصله لكن لم يعبأ بذلك الخبر، عندما يتشعَّب الإنسان، ويتشتت، ويتبعثر، همه إرضاء زيد أو عُبيد، فلان أو علان، وفلان رضي وفلان ما رضي، فلان صعب إرضائه، فلان جحد، فلان كفر، فلان قصَّر في الرد، فلان ما عرف قيمة عملي، فلان ما عرف شأني، هذه متاهةٌ لا تنتهي. لذلك:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213))

(سورة الشعراء)

أي أن أشد أنواع العذاب أن تبتغي غير الله، أن ترجو غير الله، أن تخاف من غير الله، أن تتكل على غير الله، أن يكون همك غير الله، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((مَن جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها))

(من زيادة الجامع الصغير: عن " ابن مسعود ")

حديثٌ ثالث خطير، يقول الله عزَّ وجل في الحديث القدسي:

((أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به وأنا منه بريء))

الله عزَّ وجل غنيٌ عن أن تشرك به، فإذا فعلت شيئاً تبتغي به زيداً أو عبيداً فالله بريءٌ من هذا العمل.

((أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به وأنا منه بريء))

في حديثٍ آخر، يقول الله عزَّ وجل له يوم القيامة:

((اذهب فخذ أجرك ممَّن كنت تعمل له لا أجر لك عندنا))

(من تخريج أحاديث الإحياء: عن " ابن أبي الدنيا ")

وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))

والدليل:

(لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ)

(سورة الحج: من آية " 37 ")

وفي بعض الآثار أن: " الإخلاص سرٌ من سري، أستودعه قلب من أحببته من أحبابي.

شيءٌ آخر من تعاريف الإخلاص، نحن في أمس الحاجة إلى تعاريف الإخلاص، بعض هذه التعاريف: إفراد الحق سبحانه وتعالى بالقصد في الطاعة. وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين. فلان ماذا قال ؟ فلان كيف كانت انطباعه عن السهرة ؟ فلان بعدما أكل ماذا قال عن الأكل ؟ إن شاء الله بيضنا وجه ؟ الإنسان عندما يلاحظ المخلوقين ؛ موقفهم، شعورهم، مدحهم، ثناءهم، انتقادهم، حينما يعيش في دوامة الخلق، فهذا يبتعد عن الإخلاص شيئاً فشيئاً، تصفية الفِعل من ملاحظة المخلوقين، أو التوَقّي من ملاحظة الخلق حتى عن نفسك.

قال بعض العلماء: من شهد في إخلاصه الإخلاص فإخلاصه يحتاج إلى إخلاص، تأمل فقال: أنا مخلص والحمد لله، من شهد في إخلاصه الإخلاص فإخلاصه يحتاج إلى إخلاص. فيجب أن تخلص وأن يغيب عنك أنك مخلص من أجل أن تكون مخلصاً. من شهد في إخلاصه الإخلاص فإخلاصه يحتاج إلى إخلاص.

بعض تعاريف الإخلاص: أن تستوي أعمال العبد في الظاهر والباطن ـ هذا مقياس دقيق ـ صلاتك في المسجد صلاتك في البيت سيَّان، عملك الصالح أمام الناس كعملك الصالح أمام من لا يعرفك، الإخلاص أن يستوي عملك في الظاهر مع عملك في الباطن، الإخلاص أن تكون في جلوتك كما تكون في خلوتك، الإخلاص أن يكون سرّك كجهرك، وظاهرك كباطنك، وخلوتك كجلوتك، هذا من معاني الإخلاص.

أما الرياء أن يكون الظاهر خيراً من الباطن، الإخلاص أن يستوي الظاهر مع الباطن، الرياء أن يكون الظاهر خيراً من الباطن.

أما الصدق في الإخلاص أن يكون الباطن أعمر من الظاهر، إذا كان الباطن أرقى من الظاهر هذا أعلى درجة في الإخلاص، إذا كان الباطن كالظاهر هذا إخلاص، إذا كان الباطن أقل من الظاهر هذا رياء.

من تعاريف الإخلاص أيضاً: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الحق. دوام النظر إلى الحق أنساه رؤية الخلق، هذا من تعاريف الإخلاص.

ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما. من ترك عملاً صالحاً من أجل الناس لئلا يقال أنه محسن، فهو لا يحب أن يكون أمام الناس محسناً، ترك العمل الصالح من أجل الناس رياء، وفعله من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما معاً، أن تترك العمل الصالح من أجل الناس هذا رياء، أن تعمله من أجل الناس هذا شرك، الإخلاص أن يعافيك الله منهما معاً.

الإمام الجُنيد يقول: الإخلاص سرٌ بين الله وبين العبد، لا يعلمه ملكٌ فيكتبه، ولا شيطانٌ فيفسده، ولا هوىً فيميله. هذا بينك وبين الله.

الإخلاص ألا تطلب على عملك شاهداً غير الله، عملت عمل، يا ترى فلان رآني، لو كان رآني يا الله ما أحلاها، لو كان رآني، يا ترى فلان رآني، فلان دري بعملي ؟ ليته يدري بعملي، إذا كان يرغب إنسان يعرف ماذا فعلت فهذا ليس إخلاصاً، ألا تطلب على عملك شاهداً إلا الله، الله يراك، انتهى الأمر.

عندما سيدنا عمر قال لرسول القادسية، معركة القادسية جرت وجاء رسول من هذه المعركة ـ من سيدنا سعد ـ إلى عمر بن الخطاب وبشره بالنصر، قال له:

ـ ولكن يا أمير المؤمنين مات خلقٌ كثير.

ـ قال: مَن هم ؟.

ـ قال له: إنك لا تعرفهم. فبكى عمر وقال:

ـ وما يضرهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم ؟. ومَن أنا ؟ وما يضرهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم ؟.

فمن طلب على عمله شاهداً غير الله فهذا يقدح في إخلاصه.

وقال بعضهم: ما أخلص عبدٌ قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه. أي أن الإخلاص أربعين يوم يكفي لتكون حكيماً.

وقال أحد العارفين: إذا أخلص العبد للرب انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء.

شيء خطير ! هذه كلها تعاريف الإخلاص، لكن أخطر ما في هذا الدرس: أن العمل لا يقبل إلا إذا كان صواباً وكان خالصاً، فأما خالصاً أن تبتغي به وجه الله وحده، وأما صواباً أن يكون موافقاً للسنة، إذاً أن تقول: أنا نيتي طيبة، يشفع لي عند الله نيتي، تحرسني نيتي، هذا غير مقبول عند الله عزَّ وجل. يجب أن تكون مخلصاً ويجب أن تكون على صواب، إذاً تحرَّ الصواب.

لنرى بعض الشوائب التي تخالط العمل

أحياناً الإنسان يطلب التزيّن في قلوب الخلق، يهمه سمعته، يهمه أن يتحدث عنه الناس بالكلام الطيب، يهمه أن يكون له مكانة اجتماعية، فهذا الذي يطلب حُسن السمعة، يطلب أن يتزين عند الناس، هذا الذي يطلب أن يتحدث الناس عنه بالمديح الطيب، هذا في إخلاصه شائبة، لذلك الدعاء:

((اللهم إني أعوذ بك أن أتزين للناس بشيءٍ يشينني عندك))

((اللهم إني أعوذ بك أن يكون أحدٌ أسعد بما علمتي مني))

أن أعلم إنسان، والإنسان يأخذ بهذا العلم، ويدخل به الجنة وأنا أدخل به النار ؟!! والله هذه أكبر المصائب، أندم الناس عالمٌ دخل الناس بعلمه الجنة ودخل هو بعلمه النار، أندم الناس غنيٌ دخل ورثته بماله الجنة، ودخل هو بماله النار. لذلك:

((اللهم إني أعوذ بك ـ ادعوا هذا الدعاء ـ أن يكون أحدٌ أسعد بما علمتي مني))

جالس في البيت، وعندك ضيف، فحكيت له تفسير درس الأحد، فتأثر هذا الضيف تأثيراً شديداً، وراح اشتغل بنفسه حتى صار مخلص، وسبقك بمراحل كثيرة، يوم القيامة: ألا يا رُبَّ مبلغٍ أوعى من سامع، شيء مؤلم جداً

((أعوذ بك ان يكون أحدٌ أسعد بما علمته مني))

((أعوذ بك أن أتزين للناس بشيءٍ يشينني عندك))

((أعوذ بك أن أكون عبرةً لأحدٍ من خلقك))

أكون أنا قصة للناس، يتعظوا في.

((اللهم إني أعوذ بك أن أقول كلاماً فيه رضاك، ألتمس به أحداً سواك))

شيء مخيف، ما الذي يشوب الإخلاص؟ طلب التزيّن عند الناس، أي يريد سمعته، الناس يمدحوه، يتحدثوا عنه أنه من أهل الفضل، والإحسان، والعلم، والبيان، والمنطق، والحكمة، رجل قلَّ مثاله، هذا الذي يسعى لهذا المديح، هذا إنسان في إخلاصه شائبة.

وإما طلب مدحهم، وإما الهرب من ذمِّهم، يخاف على سمعته جداً، إما طلب مدحهم، وإما الهرب من ذمهم ، أو التزين عندهم، وإما طلب تعظيمهم له، إذا كان له رغبة ملحة في أن يعظموه فهذا أيضاً مما يشوب إخلاصه، أو طلب أموالهم بطريقةٍ أو بأخرى، أو طلب خدمتهم له، أو طلب محبَّتهم له، أو طلب

قضاء حوائجه عن طريق، أو غير ذلك من العلل، إذا أردت أن تقضى حوائجك، إذا أردت أن تمدح، إذا أردت أن تعظَّم، إذا أردت أن تخدم، إذا أردت أن تهرب من ذم الناس، إذا أردت التزين في قلوب الخلق، إذا أردت كل هذا على حساب دينك فهذا مما يعيق التقدم إلى الله عزَّ وجل، ومما يضعف إخلاص العبد تجاه ربه.

الآن في عندنا سؤال: ما درجات الإخلاص ؟ الدرجة الأولى إخراج رؤية العمل عن العمل. إنسان شايف له عمل طيب، إذا كان الإنسان يرى هذا العمل على أنه فضلٌ من الله عزَّ وجل اختصَّه به، وامتنَّ به عليه، فهذه رؤيا طيبة، هذه الرؤية تزيده قرباً من الله عزَّ وجل، أما إذا شعر أن له عمل كبير يدلُّ به على الناس، رؤية العمل يتناقض مع الإخلاص، أن ترى عملك أنك فعلته بجهدك، وبإمكاناتك، وبمحبتك لله عزَّ وجل، أنا فعلت كذا وكذا، أنا اشتغلت، أنا هديت، أنا علمت، أنا أنفقت، أنا أعطيت، أنا، أنا... رؤية العمل مما يجعل الإخلاص فيه شائبةٌ كبيرة.

والخلاص من الطلب بالعمل. بعد ما عمل عملاً صالحاً شعر أن له على الله دالة، يريد الأجرة، أين ؟ إذا واحد اشتغل عندك وأنت تجاهلت الأجرة يقول لك: سيدي ما حاسبتنا. أحياناً يعمل لك إشارة صار القبض، ألا يوجد قبض، فإذا كان هذا علاقة العبد مع ربه، استقام، غض بصره، ما زوجني الله إلى الآن، أين الزواج ؟ ألم يقل الشيخ أن الواحد إذا غض بصره، استقام في البيع والشراء، ما ربحنا اليوم مثل البارحة، لم نستفد شيء.

فلما الإنسان يطلب على عمله الجزاء العاجل فهذا مما يقدح في إخلاصه، رؤية العمل تقدح في الإخلاص، وطلب العِوَض يقدح في الإخلاص.

تصور واحد يحب والدته كثير وخدمها خدمة، أتسمحي لنا بالأجرة. ما هذا الكلام أي أجرة ؟ تدعي أنك تحبها، تدعي أنك تفنى في محبتها فأية أجرةٍ تريد ؟ فهذا الذي يرى عمله بأنه من فعله، وأعطى، وعلَّم، وفضَّل على الناس، وكرَّم وتكرَّم، وقدم شيء ثمين والناس لم تعرف قدره، هذا الذي يدَّعي ذلك هذا ممن يقدح في إخلاصه، وهذا الذي ينتظر من الله العوض الفوري، أيضاً انتظار العوض على العمل الصالح أيضاً هذا يقدح في إخلاصه، فالآية الكريمة:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23))

(سورة الأحزاب)

أي في السراء والضراء، في الضيق والسعة، في إقبال الدنيا و إدبارها، في الصحة والمرض، في السعادة الزوجية والشقاء الزوجي، في الرفعة وفي الضعف أنت مع الله لا تبتغي عنه بديلاً.

في عندنا ثلاث آفات تضعف العمل، تقدح في الإخلاص: رؤية العمل، وطلب العوض، والسكون إليه.

أن ترضى عنه ؛ أنا عملي الحمد لله ما في له مثيل، والله عامل عمل من فضل الله هذا للموت، هذا الركون إلى الدنيا. إذا كان سيدنا عمر يقول: " ليت أم عمر لم تلد عمر ليتها كانت عقيما ". فمَن أنت حضرتك ؟ إذا كان الصحابة الكرام قالوا: " أتمنى أن أخرج من الدنيا لا لي ولا علي "، أنت تقول أن لك عمل طيب كثير وأنت مرتاح ومطمئن، إما أنك الصحيح وسيدنا عمر الغلطان، لا أدري مَن الصح منكم ؟ سيدنا عمر عملاق الإسلام: " أتمنى أن أخرج من الدنيا لا لي ولا علي ". " ليت أم عمر لم تلد عمر ليتها كانت عقيما ". هذا الإخلاص، رؤية العمل تقدح في الإخلاص، طلب العوض يقدح في الإخلاص، الرضى بالعمل يقدح في الإخلاص.

ربنا ماذا قال ؟..

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً)

(سورة النور: من آية " 21 ")

هل هناك آية أوضح من هذه الآية ؟.

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً)

أخي أنا أخلاقي عالية الحمد لله، أنا مربى تربابة عالية، أنا عندي عفة والحمد لله، أنا عندي استقامة، أنا بحب الله ورسوله، أنا في عندي رحمة، أنا في عندي إنصاف، هذا من أين هذا كله ؟.

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً)

فإذا رأيت عملك الطيب، وغفلت عن الخالق الذي منَّ به عليك، فهذا مما يقدح في إخلاصك.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ)

(سورة الإخلاص: من آية " 43 ")

هذا نسمعه كل أسبوع..

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ)

(سورة الإخلاص: من آية " 43 ")

(وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (74))

(سورة الإسراء)

النبي الكريم..

(وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (74))

(وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ)

(سورة الحجرات: من آية " 7 ")

لو أن العكس كان ما كنا مؤمنين، لأحببنا الفسق، والفجور، والعصيان، أما ربنا عزَّ وجل حبب إلى قلوبنا الإيمان، وزينه في قلوبنا، وكرَّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان.

إذاً رؤية العمل ضعفٌ في رؤية التوحيد، رؤية العمل غفلةٌ عن رؤية الفضل الإلهي، هذه أدق حالات النفس، لك عمل طيب، دعوت إلى الله، اهتدى خلقٌ كثيرٌ على يديك، يجب أن تجد هذا فضلاً من الله عزَّ وجل، ولو أن الناس توجهوا إليك، واستمعوا إليك، وأنصتوا إليك، مَن أنت ؟ لو أن الله نفَّر الناس منك، لو أن الله عزَّ وجل لم يهدك السبيل الصحيح في الدعوة إلى الله لما اجتمع عليك أحد، فحتى أن ترى العمل فهذا مما يقدح في الإخلاص.

مَن عرف نفسه عرف ربه، مَن عرف ضعفه عرف قوة ربه، مَن عرف فقره عرف غنى ربه، مَن عرف جهله عرف علم ربه، مَن عرف نفسه عرف ربه، مَن عرف نفسه وما فيه من آياتٍ دالةٍ على عظمة الله عرف ربه، مَن عرف نفسه عرف ربه وأنت لا تعرف نفسك حتى الآن، لها ثلاث معاني: معنى النفي، ومعنى الأولوية، ومعنى التدرُّج، مَن عرف نفسه عرف ربه.

أما العلة الثانية: العوض على العمل، ما الذي يقدح في إخلاص العمل ؟ رؤيته، إذا رأيت فضل الله غابت عنك رؤية العمل، ما الذي يقدح فيه أيضاً ؟ طلب العوض عليه، إذا كنت عبداً لله تماماً ابن مثلاً، أو واحد فرضاً، خطر في بالي مثل اليوم: أن شخص لقيط، جاء إنسان وتبنَّاه، وربَّاه وعلمه ابتدائي وإعدادي وثانوي، وأدخله جامعة، وطلع له طب بالكمبيوتر، طب أسنان، وصار طبيب أسنان، ومضى عليه عشر سنوات فأصبح طبيب لامع، فهذا الرجل الذي تبنَّاه وهو كان لقيط تبنَّاه، وربَّاه، وأطعمه، وسقاه، وأكرمه، وعلمه ابتدائي، وإعدادي، وثانوي، وجامعة، وطلع له طب، وأحضر له اختصاص، وفتح له عيادة، واشترى له بيت، وزوجه، فهذا الشخص الكريم يحتاج لإصلاح لأسنانه ذهب لعنده، ولكن كم مرة حشينا أسنان ؟ كم حشوة حشينا ؟ أنا مقيدهم عندي هذه حشوة والثانية.

أي حشوة هذه ؟!! كان لقيط، أخذه من الطريق رباه، أطعمه، سقاه، كساه، علمه ؛ ابتدائي، إعدادي، ثانوي، أدخله جامعة، تخرج، فعمل له اختصاص، وفتح له عيادة، زوجه، واشترى له بيت، وأخذ له سيارة، وهذا المحسن سوس ضرسه فذهب عنده، هذا كتب كم حشوة ؟ هذه إبرة مخدر، كتب إبرة المخدر والحشوات ليحاسبه فيهم، هذا ليس إنسان.

فهذا الذي يريد عوض، أنت كلك من فضل الله عزَّ وجل، جميعك من تفكيرك، لجسمك، لحواسك، لسمعك، لبصرك، لعلمك، لفهمك، لبيتك، لزوجتك كلك من الله عزَّ وجل، فضل من الله عزَّ وجل، يريد من الله عوض !! فطلب العوض يقدح في الإخلاص.

الإنسان يخدم عباد الله بمقتضى عبوديته لله عزَّ وجل فقط. لذلك النبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق وحبيب الحق، ما في أعلى منه، قال مرةً:

((اللهم هذا جهد مقل))

(من مجمع الزوائد: عن " أبو عمر الدمشقي ")

يا رب هذا شيء لا يبيض الوجه، إنه شيءٌ قليل سامحني يا رب، هكذا المؤمن، هذا جهد مقل وليس جهد مدل يريد من الله عوض وأجر.

الشيء الثالث الذي يقدح في الإخلاص: أن ترضى عن عملك، وأن تسكن إليه، الحقيقة ما في عمل يليق بالله عزَّ وجل، أي مهما عملت عمل طيب لا يكافئ فضل الله عزَّ وجل، لو أنه خالٍ من كل شائبة، فلو أنك عرفت فضل الله عليك تستقل عملك، لا ترضى عنه، لا تركن إليه، لا تسكن إليه، هذا إذا عرفت فضل الله عليك.

الشيء الثاني: أنك لو دققت لرأيت في عملك أخطاء كثيرة، في عيوب كثيرة، فشيئان يمنعانك من أن ترضى عن عملك، وأن تدل به على الله، وأن تركن إليه، أو تسكن إليه. الشيء الأول: أن تدقق في عيوب عملك، لعل في رياء، لعل في سمعة، لعل في نقص، لعل في خلل، لعل في شائبة، لعل في تقصير، لعل في نيَّة غير طيبة، لو دققت لرأيت في العمل خلل، فهذا العمل الذي فيه خلل لا ينبغي أن تركن إليه، ولا أن تسكن إليه، ولا أن ترضى به، والشيء الثاني: لو عرفت فضل الله عليك، لاستقلَّيت أي عملٍ جنب هذا الفضل، فإذاً الذي يقدح في الإخلاص أن ترى عملك ولا ترى فضل الله عليك..

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً)

(سورة النور: من آية " 21 ")

الشيء الثاني: أن لا تطلب العوض، لأنك لو عرفت عظم الفضل ما طلبت العوض، الآن مثل آخر: واحد صار طبيب، وأمه بحاجة لمعالجته، زارته في العيادة، إذا فكَّر بشيء اسمه مال من أمه، يكون مجرم بحقها، تفكير فكر فقط، والأم ماذا فعلت ؟ فضل الله عزَّ وجل أعظم من فضل الأم، فأول شيء ألا ترى العمل، وألا تطلب به العوض، وألا تركن إليه، إذا دققت ورأيت عيوب العمل، أعظم عملٍ لا يرقى إلى أن تركن إليه، أو أن تسكن إليه، أو أن ترضى عنه، ولو عرفت عظم فضل الله عليه لما ركنت إلى هذا العمل، فإذا لم ترَ لك عملاً صالحاً، ولم تطلب به العوض، ولم تركن إليه، فهذا مما يؤكِّد إخلاصك لله عزَّ وجل.وأخطر ما في الدرس أن الله عزَّ وجل:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

(سورة الملك: من آية " 2 ")

العمل الحَسَن ما كان خالصاً وصواباً، والعمل الخالص ما ابتغي به وجه الله وحده، والعمل الصواب ما كان وفق السنة، والنية الطيبة وحدها لا تكفي، ولا تجزء العبد من أن يحاسب على تقصيره، فالإنسان يقول لك: أنا مخلص، يجدبها ويقول لك: أنا مخلص، لا يجوز هذا، بل يجب أن يكون عملك وفق السنة، وأن تكون مخلصاً حتى يرضى الله عنك

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (010) :الإخلاص2 - الفرق بينه وبين الصدق.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-09-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... الله سبحانه وتعالى في الحديث عن سيدنا إبراهيم، وردت هذه الآية:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

معناها القلب السليم هو كل شيء في الآخرة، في الدنيا القلب السليم مع الجسم السليم، مع العقل السليم، مع الدخل المعقول، مع الزوجة، مع الأولاد، مع المهنة، مع الحرفة، مع المنزل، لكن يبدو أن في الآخرة لا ينفع من خلال هذه الآية:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

سيدنا عمر رضي الله عنه كان يقول: " تعاهدوا قلوبكم " يعني المؤمن يراقب قلبه، يا ترى فيه غل، في حقد، في حب للذات، في استعلاء، هل يطلب هذا الشيء لغير الله، هذه كلها أمراض، أمراض نفسية، تصور العين التي أكرمك الله بها، لو أن ذبابة رأيتها في أثناء النظر لبادرت إلى الطبيب، فأحدنا حريص على عينيه حرصاً لا حدود له، مباشرة لا يفكر في أجور الطبيب إطلاقاً، مهما علت، يتوسل لمن مع الطبيب أن يدخل إلى الطبيب في أقرب وقت، يتمنى أن يتجاوز الدور كله، يقول لك: عين، العين غالية.

لو عرفت أيها الإخوة الكريم قيمة القلب لبادرت إلى تطهيره من كل درن، لبادرت إلى تطهيره من كل شائبة، لحرصت على سلامته حرصاً لا حدود له، لأن الله عز وجل يقول:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

من هذا المنطلق كان الحديث في الدرس الماضي عن الإخلاص، من هذا المنطلق كان الحديث في الدروس قبل الماضية عن التواضع، لأن الكبر آفة قلبية مهلكة، عدم الإخلاص آفة قلبية مهلكة، أن تتكل على نفسك آفة قلبية مهلكة، لو أنك تتبعت ما يجري في الأرض، لا أبالغ إذا قلت إن مردَّ ذلك هو ما يجري في القلب، الدليل:

أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام كانوا معه في معركة حنين، نبيٌّ عظيم، سيد الأنبياء والمرسلين، أصحاب أطهار، جاهدوا معه بأنفسهم وأموالهم، وهاجروا معه، ونصروه، وقدموا من أجله الغالي

والرخيص، والنفس والنفيس، وخاضوا معه الغزوات والحروب كلها ؛ خاضوا معه بدر، وأحد، والخندق، وفتحوا مكة..

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ)

(سورة التوبة: من آية " 25")

قالوا: لن نغلب اليوم من قلة. هذه الكلمة، هذا مرض قلبي، شعور بالقوة، الاستغناء عن الله عز وجل، الاتكال على النفس، من أجل هذا:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25))

(سورة التوبة: من آية " 25")

بنص القرآن الكريم، مَن نحن إذاً ؟ إذا كان أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام مع علو شأنهم، وعلو قدرهم، وتفانيهم، وإخلاصهم، وورعهم، وطاعتهم، قالوا: لن نغلب من قلة. إذاً أي مؤمن حتى نهاية الدوران لو أن قلبه أصابه مرض ؛ مرض الشرك الخفي، اعتمد على ذاته، شعر بأنه قوي، شعر بأنه غني، استعلى على عباد الله، راءى بعمله، ابتغى بعمله غير الله، اتكل على غير الله، هذه كلها آفات قلبية مدمرة، من هنا كان الحديث عن القلب، وكان الحديث عن الإخلاص، وكان الحديث عن التواضع، لأن آفات القلب مهلكة.

نحن في درس سابق تحدثنا عن الإخلاص، وقلنا إن الإخلاص: يعني الوجه الآخر للعبادة، ربنا عز وجل قال:

(فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (2))

(سورة الزمر)

اعبده أي طبِّق أمره، والعبادة كما تعرفون غاية الخضوع، لكن من الخارج عبادة ومن الداخل إخلاص، وكيف أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً (23))

(سورة الفرقان)

شيء ليس سهل، شيء مخيف جداً ؛ يكون معك مئات ألوف الألوف من العملات الصعبة، وتكتشف فجأةً أنها مزورة كلها، في أشخاص يصيبهم مرض عضال، لمجرد أن يأتي على ذهنهم هذا الخاطر، إذاً فما قول هذا الإنسان لو جاء بعمل كالجبال، وانطبقت عليه الآية الكريمة:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً (23))

(سورة الفرقان)

شيءٌ خطير، لذلك العلماء قالوا: إن الله لا يقبل العمل إلا إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً ابتغي به وجه الله، وصواباً وافق السنة. من الآن فصاعد لا تقل لي: النية طيبة أستاذ الحمد لله، لا تكفي، النية الطيبة لا تكفي، نية طيبة، الهدف عالي، نيتي الإصلاح، يجب أن تتقصى السنة النبوية المطهرة، لأن العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصاً وكان صواباً، وتحدثت عن تعاريف الإخلاص، وبيَّنت أبرز التعاريف، وذكرت كيف أن الإخلاص درجات، الدرجة الأولى ألا تنظر إلى عملك، مَن نظر إلى عمله غاب عنه فضل ربه، والدليل قول الله عز وجل:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً)

(سورة النور: من آية " 21 ")

والشيء الثاني في هذه الدرجة: ألا تطالب العِوَض، وسقت مثل وإن كان غريب ولكنه معبّر، إنسان ذهب ليلقي القمامة في الحاوية، فرأى طفل مولود حديثاً في الحاوية، أخذه إلى البيت واعتنى به، وجعله في أكبر عناية، إلى أن كبر، أدخله الابتدائي، والإعدادي، والثانوي، أدخله جامعة، طب أسنان، عمل له اختصاص، زوجه، اشترى له بيت، عيادة، سيارة، بعد ذلك اضطر هذا الإنسان المحسن أن يتحكم عنده، فلمجرد أن يفكر هذا الطبيب الذي كان في الحاوية، لمجرد أن يفكر أن يأخذ منه العوض فهذا لا يعرف الفضل أبداً.

فمن يقول: أخي هذه استقمت ما صار معي شيء، هذه غضضت بصري عن محارم الله وإلى الآن لم أتزوج، كأنه يريد كل شيء يعمله يأخذ عوض مكانه، مما يقدح في إخلاصك أن تطلب العوض من الله عز وجل على استقامتك وعملك الصالح، مما يقدح في إخلاصك أن تنظر إلى عملك.

والشيء الثالث في ذلك: مما يقدح في إخلاصك أن تُدِلّ بعملك، لذلك ربنا عز وجل يحب أنَّاتِ المذنبين أكثر مما يحب آهات المدلين، هذا الذي يدلُّ بعمله، ويمن على الله بعمله هذا ليس من الصنف الذي وصفهم الله بالإخلاص، هذا ملخص الدرس السابق.

* * * * *

الآن ننتقل إلى الدرجة الثانية من الإخلاص: الدرجة الثانية الخجل من العمل، هذا الذي يعمل الأعمال الصالحة، ويفتخر، ويراها أعمال صالحة، كافية، ضحَّى، بذل، ضبط شهواته، هذا الذي يفتخر بعمله الصالح بعيدٌ عن الإخلاص، أما المؤمن يخجل بعمله الصالح، كيف يخجل بعمله الصالح ؟ إذا إنسان أنقذ لك حياتك كلها، أحضرت معك قلم تحبير ثمنه خمسين ليرة، فهل ترى أن هذا القلم يكافئ إنقاذه لك؟! كنت غريقاً فأنقذك، أنقذ حياتك المادية، فإذا الإنسان شعر أن ربنا عز وجل خلقه من نطفة ولم يكن شيئاً، مهما عمل؛ لو غض بصره، لو أنفق ماله، لو أعطى المسكين، لو دل الضال، لو أفرغ دلوه

في دلو المستسقي، لو بر أباه وأمه، يرى أن كل هذا العمل لا شيء أمام فضل الله، إذاً من صفات المخلصين أنهم يخجلون بأعمالهم، والدليل.. قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ)

(سورة المؤمنون: من آية " 60 ")

خائف..

(أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60))

(سورة المؤمنون: من آية " 60 ")

(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ)

(سورة المؤمنون: من آية " 60 ")

خائفون ألا تُقبَل أعمالهم، يرون أعمالهم ضئيلةً في جنب فضل الله عز وجل، فيا أخي الكريم مهما كان عملك كبير لا تذكره في جانب فضل الله عز وجل. النبي عليه الصلاة والسلام فسَّر هذه الآية فقال:

((هو الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه))

(من تخريج أحاديث الإحياء: عن " السيدة عائشة ")

يعني هل أنت مطمئن أن عملك مقبول مائة بالمائة ولا توجد مشكلة أبداً ؟؟ هذه الطمأنينة تقدح في إخلاصك، من صفات أهل الإيمان أنهم يعملون ويخجلون بأعمالهم، لأنها إذا قيست بأعمال الله عز وجل، كأم كل حياتها أن ترى ابنها إنساناً عظيماً ؛ قدمت له وقتها، قدمت له قلبها، قدمت له عطفها، قدمت له ليلها، قدمت له عملها، قدمت له مالها، فإذا كان بعيد الأم الأول أحضر هذا الابن معه مثلاً قارورة عطر، لازم كل يومين تقول لها: قنينة جبت لك، كل ثلاثة أيام قنينة، العطرات نسيتهم، هذا ليس عارف فضل أمه عليه، لكن الابن البار يخجل، فما قيمة قنينة ثمنها خمسين ليرة ؟ فهل هذه تقابل تربية الأم خلال عشرين سنة؟! فاضرب الأمثال كي يتضح الأمر..

(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60))

(سورة المؤمنون: من آية " 60 ")

قال النبي عليه الصلاة والسلام في تفسير هذه الآية:

((هو الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه))

(من تخريج أحاديث الإحياء: عن " السيدة عائشة ")

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ)

(سورة الحجرات: من آية " 17 ")

يا إخوان... فكرة مهمة جداً: المؤمن جمع إحساناً في مخافةٍ وسوء ظن بنفسه، عمله طيب وهو خائف و سيئ الظن بنفسه، والمغرور حَسَن الظن بنفسه مع سوء عمله، عمله سيئ، ظاهر للملأ سيئ وهو حسن الظن بنفسه، المغرور يجمع إلى سوء عمله حُسْنَ الظن بنفسه، والمؤمن يجمع إلى حسن عمله

سوء الظن بنفسه، هذه قاعدة، فهذه نفسك اتهمها دائماً..

والنفس كالطفل إن تتركه شب على
حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فلا ترم بالمعاصي كثرة شـــهوتها
إن الطعام يقوي شـــهوة النهم

* * *

الإنسان لا يمدح نفسه أمام نفسه، يتهم نفسه بالإساءَة دائماً، كي يرقى بها، فكرة مهمة جداً، المؤمن يجمع إلى حُسن عمله سوء الظن بنفسه، والمغرور يجمع إلى سوء عمله حسن الظن بنفسه، فالنبي عليه الصلاة والسلام، كان يقول:

((اللهم أرني بعين نفسي صغيراً وبعين الناس كبيراً))

وهناك من يراه الناس صغيراً، ويرى نفسه بعين نفسه كبيراً، البطولة أن يراك الناس كبيراً وأن ترى نفسك صغيراً، لكن المغرور يراه الناس صغيراً ويرى نفسه كبيراً.

الحد الثاني في الإخلاص: أن يسعى المؤمن دوماً إلى تصحيح عمله، يراقب نيته ؛ أنا ذاهب إلى هذا المكان، ما نيتي ؟ أنا ذاهب إلى هذه الوليمة، أنا ذاهب لحضور هذا المجلس، أنا سأفعل كذا، سأشتري هذه الحاجة، سأبيع هذه الحاجة، سألتقي مع فلان، سأقاطع فلان، سأصل فلان، ما نيتي ؟ ما هدفي ؟ ما قصدي ؟ تصحيح العمل، من علامات الإخلاص.

فإذا الإنسان ارتقى يرى عمله الصالح الذي أكرمه الله به من فضل الله عليه، أحياناً الإنسان يرى رؤية مغلوطة ؛ أنا فعلت، أنا رعيت أولاد أخي، لحمهم من خيري، هكذا شايف عمله، يرى عمله عظيم، المؤمن يرى فضل الله عليه، يرى أن الله عز وجل أكرمه بالمال، وألهمه الإنفاق، وجعله ينفق، المؤمن شعاره: إذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك.

من علامة الإخلاص في العمل أن تجعل العمل وفق الشرع تماماً، فأنت ليس معك رأي مع الشرع..

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب : من آية " 36 ")

أنت ليس لك خيار، في هذا الموقف يجب أن تغضب، في هذا الموقف يجب أن تتبسَّم، كان إذا دخل بيته بسَّاماً ضحاكاً، إذا انتهكت حرمة من حرمات الله يغضب، كان النبي عليه الصلاة والسلام يغضب، ويغضب لله عز وجل، فأن ليس لك عمل من تخطيطك، مثل ما تكلمنا البارحة ؛ تنتهي حريتك بعد أن تعرف الله، ماذا ينبغي أن أقف من زوجتي وهذه أخلاقها ؟ ماذا ينبغي أنا أقف من شريكي ؟ ماذا ينبغي أن أقف من هذا الذي اشترى هذه البضاعة وجاء لأردها له ؟ أأرفض هذا الطلب أم أقبله ؟ اسأل عن

رأي الشرع، فليس لك عمل من تخطيطك أنت عبد لله عز وجل، ليس لك اختيار مع اختيار الله عز وجل، فمن علامة إخلاصك أن عملك يسير وفق الشرع، إن أمرك الشرع أن تصل فصل.

سيدنا سعد الله رضي عنه، في قبيل معركة بدر، النبي عليه الصلاة والسلام كأن العهد الذي بينه وبين الأنصار أن ينصروه في المدينة، أما الآن في خروج إلى بدر، كأن هذا الطلب ليس من بنود الاتفاق، فكان عليه الصلاة والسلام لطيفاً، وكان ذكياً فطناً فقال:

ـ أيها الناس أشيروا علي. ما رأيكم.

ـ فقام سيدنا سعد وهو سيد الأنصار، فقال: يا رسول الله كأنك تعنينا ؟

ـ قال: نعم.

ـ قال له: لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أنما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، فسِر بنا على بركة الله، فنحن معك، لا يتخلَّف منا رجل، إنا لصبر في الحرب صدقٌ عند اللقاء، فصل حبال مَن شئت، واقطع جبال مَن شئت، وسالم مَن شئت، وعادي مَن شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، ودع ما شئت، فو الذي بعثك بالحق للذي تأخذه من أموالنا أحب إلينا من الذي تتركه لنا، فو الذي بعثك بالحق، لو خُضتَّ معنا هذا البحر لخضناه معك.

والله هذا موقف مشرف، هكذا المؤمن مع الله عز وجل، يا ربي أنا كلي لك، فأنت ليس لك رأي ؛ رأي شخصي، قناعات خاصة، خلاف الشرع، تخطيط خاص لعمل لا يرضي الله عز وجل، إذا كنت مخلصاً لله عز وجل تجعل من عملك مطابقاً للشرع تماماً في كل شيء.

في عندنا شيء دقيق: ما الفرق بين الإخلاص والصدق ؟ الحقيقة كلمة الصدق نستعملها كثيراً، لكن نستعملها في جانب ضيق من جوانب معانيها، فحينما يأتي الخبر مطابق للواقع فهذا صدق، ولكن للصدق معنى آخر، حينما يأتي الواقع مطابقاً للخبر هذا نوع آخر من الصدق، إذا جاء الخبر مطابقاً للواقع، فهو الصدق، أما إذا جاء الواقع مطابقاً للخبر فهذا صدق العمل، في عندنا صدق القول، وعندنا صدق العمل، فالذي يدَّعي أنه يحب الله، إذا فعل فعلاً يؤكد حب الله له، يؤكد حبه لله، فهذا صادق في الطلب، فالعلماء قالوا: الإخلاص عدم انقسام المطلوب، طالب الله، طالب الدنيا، طالب الوجاهة، وطالب المال، وطالب الملذات، مطلوبٌ متعدد، هذا غير مخلص، لكن الصدق عدم انقسام الطلب، الإخلاص عدم انقسام المطلوب، أما الصدق عدم انقسام الطلب، فهذه الشهادة من أجل أن أنالها، يجب أن أدرس كل يوم عشر ساعات، درست ساعتين، أنا غير صادق، إذا ما أدرس عشر ساعات يومياً لن أستطيع أن أنال هذه الشهادة، فالإخلاص شيء والصدق شيء آخر، الإخلاص عدم انقسام المطلوب، إلهي أنت مطلوبي ورضاك مطلوبي، الإخلاص عدم انقسام المطلوب، ولكن الصدق عدم انقسام الطلب، فالإنسان يمتحن إخلاصه ؛ هل له مقصد غير الله عز وجل؟ ويمتحن صدقه ؛ هل يبذل الجهد الكافي لمعرفة الله؟

هل يستقيم الاستقامة الكافية ؟ هل يضحي التضحية الكافية ؟ هل يفعل الفعل الكافي ؟ ربنا عز وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102))

(سورة آل عمران)

الحقيقة كلمة الصدق بمعنى عدم انقسام الطلب، تنقلنا إلى قصةٍ شهيرةٍ وهي قصة سيدنا سلمان الفارسي. فالحقيقة أحياناً تتعجب، إنسان العلم مبذول بين يديه ؛ في بيته، حوله مدرسين، وحوله خطباء، وعلماء، والكتب موفورة، والبيئة صالحة، والبيئة مؤمنة، وحيثما التفت هناك مَن يذكّره، ومع ذلك بعيد عن الله عز وجل بعداً كبير، وإنسان آخر يعيش في بيئة بعيدة عن الله، كلها كفر وفسوق وعصيان، ومع ذلك صدقه يهديه إلى الله عز وجل.

سيدنا سلمان الفارسي من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام الأطهار، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((سلمان منا أهل البيت))

(من الجامع الصغير: عن " عمرو بن العوف ")

سلمان الفارسي كان يعيش في بلاد فارس، وكان أبوه مجوسي، أي يعبد النار، وكان من كهنة هذه العبادة، هل يُعْقَل إنسان يعيش في بلاد الفرس، وهو مجوسي يعبد النار، هل يعقل أن يصبح هذا أحد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ؟

والله سمعت قصة واقعية: امرأة تعمل في بلاد المغرب، مدرسة لغة فرنسية، فنمط حياتها نمط غربي مائة في المائة ؛ سباحة، ودور لهو، ورقص، وشرب الخمور، وزوجها كذلك، هي في الأصل من أب وأم مسلمين، تعيش أكثر ما تعيش في فرنسا، ذات مرة عقب السباحة رأت كتلة محمرة في صدرها، وهي قاسية، فبادرت إلى طبيب فإذا هذا المرض ورمٌ خبيث في صدرها، من طبيب إلى طبيب، ومن خزعة إلى خزعة، ومن تحليل إلى تحليل، إلى أن استشرى المرض، وأصبح في أماكن متعددة من جسمها، آخر طبيب في فرنسا في باريس، قال لزوجها بالحرف الواحد: أغلب الظن أنها لن تعيش أكثر من ثلاثة أسابيع، أغلب الظن، وهذا الذي حصل، حينما أعلمها بشكل أو بآخر، ورأت أنها ميتة لا محالة، تمنت أن تتوب إلى الله قبل أن يأتي الأجل المحتَّم، وتمنت أيضاً أن تتوب وهي في البلاد المقدسة، في الحجاز في مكة، طبعاً إنسانة ميتة تمشي على قدمين.

أخذها زوجها إلى الحجاز، إلى مكة، تروي قصتها بكتابٍ مؤلّف ومطبوع، مَن يقرأ هذا الكتاب لا يملك إلا أن يبكي، وبعد أن تابت وتحجبت، بدأت الطواف، وما زالت تطوف وتبكي حتى وقعت مغمياً عليها، ثم استأنفت تشرب من ماء زمزم وتطوف، لأنها موقنة أنها ميتة، ولا سبيل للحياة إذاً، إذاً لعل

الله يقبل توبتها، بقيت تطوف حول الكعبة ليلاً نهاراً وتبكي وتعلن توبتها وندمها، ثمانية عشر يوماً، ثم اكتشفت فجأة أن هذه الأورام تلاشت، لم تصدِّق، زارت طبيب في مكة قال لها: لا يوجد فيها شيء.

فعادت تواً إلى الطبيب الذي قال لزوجها بقي لك من العمر ثلاثة أسابيع فلما رآها دهش، قال: هذه الحالة لم تمر معي من قبل، لكن نصحها أن تأخذ دواءً لعل بقايا هذا المرض موجود، هذا الدواء جعلها تفقد شعرها كله، فحينما سقط شعرها، وهي أنثى، فقد تألّمت ألماً لا حدود له، نامت فرأت النبي عليه الصلاة والسلام وبكت أمامه، وشكت له ما أصاب شعرها، وتروي هي في القصة: أن النبي عليه الصلاة والسلام وضع يده الشريفة على رأسها، فلما استيقظ، أيام بدأ الشعر ينبت بسرعة عجيبة، إلى أن استعادت شعرها، واستعادت صحَّتها، وتابت إلى الله توبةً لو وزعت على مليون إنسان لوسعتهم، وألفات الكتاب، هذا الذي ذكرته أعتقد واحد من عشرة من الكتاب، فالقصة طويلة، والكتاب مؤلف ومطبوع.

فالله عز وجل قريب، سميع مجيب، وإذا مرضت فهو يشفين، لا في مرض عضال عند الله، ولا في رزق قليل، فهو بيده كل شيء، لكن المشكلة أن تكون أنت أهلاً ذي العطاء، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام كان يدعو ويقول:

((اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك))

(من الأذكار النووية)

فسيدنا سلمان الفارسي من بلاد، فارس مجوسي، وحتى يصبح من أحد أصحابه الكرام، وأن يقول النبي عليه الصلاة والسلام في حقه:

((سلمان منا أهل البيت))

عقول !!

(من الجامع الصغير: عن " عمرو بن العوف ")

أنا أعرف إنسان أصابه مرض عضال في رئتيه، وأخذت خزعة من رئتيه إلى بلاد الغرب، وجاء الجواب: مرضٌ خبيث من الدرجة الخامسة، من أصعب الأمراض، وكان الخيار أن يبيع بيته ليعالجوه في أمريكا، ولكن احتمال نجاح العملية ثلاثين في المائة، وأولاده صغار، فقرروا أن يبقوا الأمر على حاله، وقد شفاه الله عز وجل شفاءً تاماً، هذه قصص تتكرر، لذلك الأطباء يقولون عن هذه الحالات: (الشفاء الذاتي) أنت أصدق مع الله عز وجل، لنا إخوان كثيرين في ساعات الشدة عاهدوا الله عز وجل على التوبة النصوح، هذه التوبة النصوح إذا وقعت من العبد، فالله عز وجل يقبله، ويحل مشكلته، ويريه آياته، وهذا ما يسميه علماء العقيدة: الكرامة. أي أن الله عز وجل يكرمك بمعاملةٍ استثنائية.

حدثني سلمان الفارسي قال: كنت رجلاً فارسياً، من أهل أصبهان، من أهل قرية يقال لها (جي)، وكان أبي دهقان قريته، أي رجل دين، وكنت أحب خلق الله إليه، فلم يزل حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية، واجتهدت في المجوسية حتى كنت قطنَ النار، أي رئيس النار وحاكمها الذي يوقدها ولا يتركها ساعة تخبو ـ هذا كلام سيدنا سلمان الفارسي ـ وكانت لأبي ضيعةٌ عظيمة، فشغل في بنيان له يوماً فقال لي: يا بني إني قد شغلت في بنيان هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب إليها فاطَّلعها ـ أي راقبها ـ وأمرني فيها ببعض ما يريد، ثم قال لي: لا تحتبس عني، فإنك إن احتبست عني كنت أهم إليَّ من ضيعتي، وشغلني أمرك عن كل شيء.

قال: فخرجت أريد الضيعة التي بعثني إليها، فمررت بكنيسةٍ من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس لحبس أبي إياي في بيته، فلما سمعت أصواتهم، دخلت عليهم أنظر ماذا يصنعون، فلما رأيتهم، أعجبتني صلاتهم، ورغبت في أمرهم، وقلت هذا والله خيرٌ من الدين الذي نحن عليه، فو الله ما برحتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي فلم آتها.

ثم قلت لهم: أين أهل هذا الدين ؟ قالوا: بالشام، فرجعت إلى أبي، وقد بعث في طلبي، وشغلته عن أمري، فلما جئت قال: أي بني أين كنت؟ ألم أعهد إليك ما عهدته ؟!! قلت: يا أبت مررت بأناس يصلون في كنيسة لهم، فأعجبني ما رأيت من دينهم، فو الله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس ـ هذه رواية سيدنا سلمان الفارسي بنصها الدقيق ـ قال: أي بني ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه، قلت: كلا، والله إنه لخيرٌ من ديننا، فخافني، فجعل في رجلي قيداً، ثم حبسني في بيته.

وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركبٌ من الشام فأخبروني بهم، فقدم عليهم ركب من الشام، فجاءني النصارى فأخبروني بهم، فقلت: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني ـ أي أعلموني ـ فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام.

فلكما قدمتها قلت: مَن أفضل هذا الدين علماً ؟ قالوا: الأسقف الفلاني في الكنيسة، فجئته فقلت له: إني رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك، وأخدمك في كنيستك، وأتعلم منك فأصلي معك، فقال: ادخل، فدخلت معه، فكان رجل سوء، يأمرهم بالصدقة ويرغبهم بها، فإذا جمعوا له شيئاً، كنزه لنفسه، ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهبٍ وورق ـ أي الفضة ـ قال: وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع، ثم مات، واجتمعت له النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء، يأمركم بالصدقة، ويرّغبكم فيها، فإذا جئتموه بها كنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً.

فقالوا: وما علمك بذلك ؟ قلت لهم أنا أدلكم على كنزه، قالوا: فدلنا، فأريتهم موضعه، فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً، فلما رأوها قالوا: لا ندفنه أبداً، فصلبوه ورجموه بالحجارة.

وجاءوا برجل آخر، قال سلمان فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه، ولا أزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه، فأحببته حباً لم أحب شيئاً قبله مثله، فأقمت معه زماناً، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: إني قد كنت معك، وأحببتك حباً لم أحبه أحداً قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى، فإلى مَن توصي بي وبما تأمرني ؟ فقال: أي بني والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه، لقد هلك الناس، وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلاً بالموصل هو فلان، وهو على ما كنت عليه، فالحق به. صدق، من مكان لمكان.

قال: فلما مات وغُيِّب، لحقت بصاحب الموصل، فقلت: يا فلان إن فلاناً أوصاني قبل موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره، فقال لي: أقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته خير رجل، على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلما حضرته نقله إلى شخص آخر، والآخر إلى آخر، وسأختصر لكم هذه الفقرة من القصة إلى أن آخر واحد فلما مات وغُيِّب لحقت بصاحب عمورية، فأخبرته خبري، فقال: أقم عندي، فأقمت على خير رجل على هدي أصحابه وأمرهم، واكتسبت حتى صارت لي بقراتٌ وغنيمة ـ أي غنمة صغيرة ـ ثم نزل به أمر الله، فلما حضر ـ أي حضرته الوفاة ـ قلت له: يا فلان إني كنت مع فلانٍ، فأوصى بي إلى فلان، فأوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى مَن توصي بي ؟ وبمَن تأمرني ؟

قال: والله ما أعلمه اليوم أصبح أحدٌ على مثل ما كنا عليه من الناس، آمرك أن تأتيه، ولكن قد أظل زمان نبيٌ مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجَرَه أرض بين حرَّتين، بينهما نخل، به علاماتٌ لا تخفى ؛ يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل. ثم مات، وغُيِّب، ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث.

ثم مر بي نفرٌ من بني كلبٍ تُجَّار فقلت لهم: احملوني إلى أرض العرب، وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي ـ ست بقرات وغنيمة مقابل أن يحملوه إلى أرض العرب ـ قالوا: نعم. فأخذوها مني وحملوني معهم، حتى إذا بلغوا وادي القرى، ظلموني، وباعوني لرجل يهودي، باعوه رقيق، عبداً، فكنت عنده، ورأيت النخل، فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي ـ رأى نخل، سمع من الراهب عنه ـ ولم يحق في نفسي، فبين أنا عنده إذ قدم ابن عم له يهودي، من بني قريظة من المدينة فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة، فو الله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي لها، فاقمت بها.

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقام بمكة ما أقام ولا أسمع له بذكر مما أنا فيه من شغل الرق ـ عمل مجهد ـ ثم هاجر إلى المدينة، فو الله إني لفي رأس عزق ـ رأس شجرة ـ لسيدي أعمل فيه بعض العمل، وسيدي جالسٌ تحتي، إذ أقبل ابن عمٍ له حتى وقف عليه فقال: يا فلان، قاتل الله بني قيلة، والله إنهم لمجتمعون الآن في قباء على رجلٍ قدم من مكة اليوم يزعم أنه نبي.

قال سلمان: فلما سمعت هذا الكلام أخذتني الرعدة، حتى كدت أسقط على سيدي، فنزلت من النخلة سريعاً، فجعلت أقول لابن عمه: ماذا تقول ؟ فغضب سيدي فلكمني لكمةً شديدة، وقال لي: مالك ولهذا، أقبل على عملك. فقلتك: لا شيء إنما أردت أن أستثبته عما قال. وقد كان عندي شيء قد جمعته، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت إلى رسول الله وهو بقباء، فدخلت عليه فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحابٌ لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيءٌ كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم ـ علامته يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ـ فرأيتكم أحق به من غيركم، فقربته إليه، فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: كلوا وأمسك بيده فلم يأكل، قلت في نفسي هذه واحدة ـ هذه أول علامة ـ ثم انصرفت فجمعت شيئاً، وتحوَّل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ثم جئته فقلت له: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هديةٌ أكرمتك بها، فأكل عليه الصلاة والسلام منها وأمر أصحابه فأكلوا معه، فقلت في نفس: هاتان اثنتان، وعرفت أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأكببت عليه أقبّله وأبكي.

فقال لي رسول الله: تحول. فتحولت بين يديه، فقصصت عليه حديثي كله ـ هذا الطويل ـ كما حدثتك يا ابن عباس، فأعجب النبي عليه الصلاة والسلام، وسمع لي قصتي كلها، ثم شغل سلمان بالرق، حتى فاته مع رسول الله بدر وأحد.

قال سلمان: ثم قال لي النبي عليه الصلاة والسلام: كاتب يا سلمان. فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير، وأربعين أوقية، أي مقابل إعتاقه.

فقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه

((أعينوا أخاكم))

فقد عمل عقد مع سيده اليهودي ؛ أنه يخدم له ثلاثمائة نخلة، وأعمال معينة، وإذا فعل هذا أعتقه، فقال عليه الصلاة والسلام:

((أعينوا أخاكم))

وإذا كنا نحن مؤمنين وأحدنا بحاجة إلى مساعدة يجب أن نعينه إذا كان مؤمنين

((أعينوا أخاكم))

فأعانوني في النخيل الرجل بثلاثين ودية، والرجل بعشرين ودية، والرجل بخمس عشر ودية، ورجل بعشرة، يعين الرجل على ما قدر ما عنده، حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية، فقال لي رسول الله صلى الله عليه

((اذهب يا سلمان فقدمها له، فإذا فرغت أكن أنا أضعها بيدي))

فأعانني أصحابه، حتى إذا فرغت جئته فأخبرته، فخرج النبي عليه الصلاة والسلام معي، فجعلنا نقرِّب إلى هذا اليهودي الودي، ويضعه النبي في يده، حتى إذا فرغنا، فو الذي نفس سلمان بيده، ما ماتت منها

ودية واحدة، فأديت النخل وبقي المال، فأتى رسول الله بمثل بيضةٍ من الدجاجة من ذهب من بعض المعادن فقال

((ما فعل الفارسي المكاتب))

فدعيت له، فقال:

((خذ هذه فأدها مما عليك يا سلمان))

قلت: وأين تقع هذه مما عليَّ يا رسول الله ؟ قال

((خذها فإن الله سيؤدي عنك بها))

فأخذتها، فوزنت لهم منها، والذي نفس سلمان بيده أوفيتهم حقهم، وعُتِقَ سلمان، فشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق حراً، لم يفتني منها مشهد.

هذا الصدق ؛ من شاب في بلاد فارس، من قرية أصبهان، من أب يعبد النار، انتقل من مكان إلى مكان إلى مكان، ستة أمكنة، وحتى قدَّم كل ما عنده ثمن انتقاله إلى المدينة، وظلمه مَن وعده بهذا النقل، وباعه في سوق العبيد، واشتراه يهودي من مدينة، وأتعبه في العمل، إلى أن سمع بالنبي عليه الصلاة والسلام، وسمع عن علاماته، فجاء النبي عليه الصلاة والسلام، وعرفه أنه نبي، وكيف أن النبي رق له، وأمر إخوانه وأصحابه أن يعينوه، وكيف أعتق، وكيف صار سلمان الفارسي الذي قال عنه النبي عليه الصلاة والسلام: سلمان منا آل البيت.

هذا نوع من الصدق، إذاً الإخلاص عدم انقسام المطلوب، أما الصدق عدم انقسام الطلب.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (011) :الإخلاص3 - الفرق بين الصدق والإخلاص - استقيموا ولن تحصوا....
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-10-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... قبل ذكر الحديث الشريف الذي هو محور هذا الدرس، طلب مني أخٌ كريم أن أوضِّح الفكرة الأخيرة من الدرس الماضي، حيث تم التفريق بين الإخلاص وبين الصدق.

قلت في الإخلاص عدم انقسام المطلوب، وقلت في الصدق عدم انقسام الطلب، أي أن المخلص يبتغي وجه الله وحده، دعاؤه " إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي " لا يرجو جاهاً، ولا سمعةً، ولا مديحاً، ولا مالاً، ولا دنيا عريضة، ولا ثراء، ولا يرجو إلا مرضاة الله عزَّ وجل، وحَّد مطلوبه، مطلوبه لم ينقسم.

هذا الذي يريد الله، ويريد الدنيا، ويريد المتعة في المباح، ويريد السمعة، ويريد الوجاهة، ويريد أن يطير سيطه، هذا الذي له مطالب متعددة هذا ليس مخلصاً، انقسام المطلوب يتناقض مع الإخلاص، فالمُخلص لا ينقسم مطلوبه.

أما الصادق هو يبتغي وجه الله وحده، ولكن يقدِّم ثمناً لا يكفي لهذا الطلب العالي، نقول لمثل هذا الإنسان: أنت مخلص ولكنك غير صادق، لابد للمؤمن من أن يكون مخلصاً، أي أن مطلبه هو الله عزَّ وجل، ولابد للمؤمن أن يكون صادقاً، أي أن يبذِل الجهد، والوقت، والطاقة، وما يملك بشكلٍ كافٍ.

فقد تنزل إلى السوق تريد سجادة، تريد غرفة نوم، تريد ثلاجة، تريد وتريد، مطلوبك متعدد، قد ينزل إنسان إلى السوق يريد فقط غرفة نوم، لا يبتغي شيئاً آخر، فنقول: مطلوبه موحَّد. الآن، لو أن إنسان نزل إلى السوق ليشتري هذه الغرفة، اختار أجمل غرفة لكن المبلغ لا يكفي، نقول: هذا مخلص بمعنى أن طلبه واحد، لا يوجد تعدد، لكن غير صادق، الجهد المبذول غير كافي.

فمن أجل أن نصل. لو كان في جهد كبير لكن هناك أهداف متعددة، تتبعثر الأمور، الجهد يتبعثر، الطاقة تتشتت، الفاعلية، الوقت تذهب شزر مزر ـ كما يقولون ـ ولكن إذا توحَّد المطلوب ؛ كيف أن الأشعة المتوازية إذا واجهت عدسة انكسر الشعاع، وتلاقت الإشعاعات في بؤرة واحدة هي محرق العدسة، عندئذٍ أشعة الشمس اللطيفة يمكن أن تحرق قماشاً عن طريق هذه العدسة، فالإنسان المخلص كل طاقاته، وكل وقته، وإمكاناته كلها، وقته، ذكاؤه، مطالعاته، ماله، أهله، أولاده كله يصبُّ في خانةٍ واحدة هي معرفة الله عزَّ وجل والتقرب إليه. هذا الإخلاص.

أما الصدق ؛ يجب ولو أن هدفه واحد، ولو أن مطلبه واحد، لكن أحياناً ينقسم عنده الطلب وليس المطلوب، أي أن هذا الطلب يحتاج إلى هذا الجهد، وهو بذل قسم بسيط. فلذلك من أجل أن نصل. أي أن القضية أعقد وأخطر من أن الإنسان يستمع إلى درس علم يُلقى، القضية أخطر من أن يستمع إلى خطبة تلقى، القضية أعمق من أن تقرأ كتاب فتثني على مؤلفه، القضية أخطر من ذلك، أنت خُلِقت في هذه الدنيا من أجل هدفٍ كبير، لن تصل إلى الهدف إلا إذا وحَّدت المطلوب ووحَّدت الطلب، إذا وحَّدت المطلوب فأنت مخلص، وإذا وحَّدت الطلب فأنت صادق. فإذا توافر عندك الإخلاص والصدق وصلت إلى الهدف بإذن الله عزَّ وجل.

قلت لكم في الدرس الماضي: إن كلمة صادق لها معنيان، إذا تطابق الخبر مع الحَدَث فهذا صدق الإخبار، هذا المعنى الشائع لكلمة صادق، فلان صادق ؛ يتكلم عن شيء وقع. ولكن المعنى الأخطر للصدق مطابقة الحدث للخبر، مطابقة الخبر للحدث هذا المعنى الشائع بين الناس، ولكن مطابقة الحدث للخبر هذا هو الصدق الذي يتحدَّث عنه القرآن..

(لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ)

(سورة الأحزاب: من آية " 24 ")

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ)

(سورة الأحزاب: من آية " 23 ")

((إن الصدق يهدي...))

أي إذا كان طلبك فيه صدق لابدَّ من أن يدفعك إلى هدفك الواضح. هذا الموضوع ذكرته في نهاية الدرس الماضي، يبدو أن شرحه كان مختصراً، لذلك هذا الأخ الكريم الذي طلب مني أن أعيده جزاه الله عنا كل خير.

الآن، ننتقل إلى حديثٍ نبوي شريف:

عن ثوبان رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن))

الحقيقة في شرح هذا الحديث اتجه الشارحون اتجاهين اثنين، بعضهم قال: لن تحصوا الخيرات المتأتية من الاستقامة. يعني استقم على أمر الله، وانظر كيف تأتي الأمور كما تريد، وانظر كيف يبارك الله لك في مالك، وفي صحتك، وفي زواجك، وفي عملك، استقم على أمر الله وانظر كيف أن الدنيا كلها تحبك..

ينادَى له في الكون أنَّى نحبه   فيسمع مَن في الكون أمر محبِّنا

* * *

ينادى له في الكون أنَّى نحبه، وإذا أحبك الله عزَّ وجل أحبك كل خلقه

((، مَن يكرم الله فماله من مهين))

الذي يكرمه الله عزَّ وجل لا يستطيع أحدٌ أن يهينه، فلذلك:

((استقيموا ولن تحصوا.))

أي إذا استقمت في البيع والشراء لن تقع في أخطارٍ وبيلة، كالتي يقع فيها أهل الدنيا، لأنهم خالفوا الشرع، إذا استقمت في زواجك، لن تقع في مطبَّات يقع فيها الأزواج عادةً، إذا استقمت في تزويج ابنتك، ما سمحت للخطيب أن يلتقي بخطيبته إلا بعد عقد القِران، لن تقع في مفاجآتٍ صاعقة، إذا استقمت في أمر الزواج، في أمر البيوع، في أمر العلاقات بالآخرين، إذا طبَّقت الأخلاق النبوية التي نصت عليها السنة الشريفة، فأنت في خيرٍ لا يحصى، هذا معنى.

لكن بعض العلماء قالوا: ولن تحصوا الاستقامة. هذا الحديث يأتي دواءً لأناسٍ معهم مرضٌ اسمه الوسواس، أنت نظَّفت الدار، فلعل هناك نملة وراء هذا القصيص ماتت، أنا قاتل إذاً، هذا مرض هذا، إنك لن تستطيع أن تصل إلى درجة من الإطلاق، أنت بائع خبز، أثناء حمل كيس القمح، أو كيس الطحين فنزل شيء من الدقيق، هذا شيء فوق طاقتك، بعت زيت، بعدما وضعت في المحرك بقي ما يساوي اثنين سانتي أو ثلاثة مكعب، هذا من حقه لم يأخذهم، ما نزلوا، في حالات مرضية، حالات من (الوساوس ـ كما يسميها العلماء ـ المتسلطة). فهذا الذي يبتلى بمرضٍ اسمه الوسواس، يأتي هذا الحديث بمعناه الآخر شفاء له، بالمعنى الآخر.

على كلٍ، النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

(سورة فصلت: من آية " 30 ")

فهذه (ثم) تفيد الترتيب على التراخي..

(قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ)

ما قال: فاستقاموا، ما قال: واستقاموا..

(رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

يعني كلمة..

(رَبُّنَا اللَّهُ)

لا تقال مرة واحدة بل تقال مئات المرّات، تقال آلاف المرات، أي فكروا في خلق السماوات والأرض، فكروا في خلق أنفسهم، فكروا في طعامهم، فكروا في شرابهم، رأوا مقام الربوبية، رأوا هذا المقام العظيم أن الله سبحانه وتعالى يمدُّ كل المخلوقات بكل الحاجات فقالوا:

(رَبُّنَا اللَّهُ)

أقرب كلمة من أسماء الله الحسنى إلى الإنسان كلمة (رب) لأنه المربي، إنه يمدك بكل شيء، إنه يربي جسدك، إنه يربي نفسك..

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

أي أن هذه المعرفة إن لم تثمر استقامة، فهذه المعرفة لا قيمة لها، أي من علامات صحة الإيمان بالربوبية الاستقامة على أمر الله، الاستقامة معيار دقيق جداً، من علامة صحة الإيمان بمقام الربوبية الاستقامة على أمر الله، لذلك إن لم تستقم فهناك شكٌ في عقيدتنا، إن لم تستقم فهناك شكٌ في معرفتنا، إن لم تستقم فهناك شكٌ في إيماننا، ربنا عزَّ وجل في أكثر من مائتي آية:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة البينة: من آية " 7 ")

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

(سورة فصلت: من آية " 30 ")

(ثم) تفيد الترتيب على التراخي، بمعنى أن يقول: ربي الله كل يوم مرات عديدة ؛ كلما تناول طعاماً، كلما رأى منظراً، كلما عاين آيةً، كلما سمع قصة، المؤمن كما قال عليه الصلاة والسلام:

((صمته فكر، ونطقه ذكر، ونظره عبره))

قال: هؤلاء..

(تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

سبحان الله ! فحديثٌ شريف أرويه على مسامعكم كثيراً:

((لا يحزن قارئ القرآن))

لا يجتمع عند قارئ القرآن حزن، ولا يأس، ولا قنوط، ولا شعور بالضعف، ولا شعور بالهَوْن، مشاعر الهوان، والقهر، والحرمان، والضعف، واليأس، والقنوط ؛ كل هذه المشاعر المؤمن معافى منها، ولو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفت..

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

عرف مقام الربوبية، فكَّر في خالق السماوات والأرض، عرف الذي يمدّه بكل شيء، عرف كيف أن الله سبحانه وتعالى لا يغفل عنه ؛ كيف أنه يربي جسده، ويربي نفسه.

إخوةٌ أكارم كثر يحدثونني: كيف أن الله سبحانه وتعالى يعالجهم على موقف، على كلمة، على تصرُّف، على تجاوز، يشعرُ شعوراً صارخاً، يتيقنُ تمام اليقين أن الله عزَّ وجل اطلع على قلبه وعامله كما يستحق..

(تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

لا خوف لما أنت فيه، ولا حزن لما أنت عليه قادم، لا تخف ولا تحزن..

(وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30))

آية ثانية:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13))

(سورة الأحقاف)

لا خوفٌ عليهم، والله يا أيها الإخوة الأكارم مشاعر الخوف لا تحتمل، فالله عزَّ وجل ذكر في القرآن قانون..

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

(سورة آل عمران: من آية " 151 ")

لمجرَّد أن تشرك يقذف الله في قلبك الرعب ؛ ولو كنت قوياً، ولو كنت غنياً، ولو كنت متمكّناً، أي إنسان على وجه الأرض لمجرَّد أن يشرك يقذف الله في قلبه الرعب.

أما المؤمن..

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

(سورة الأنعام)

نعمة الأمن، إن الله يعطي الصحة والمال والذكاء والجمال للكثيرين من خَلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين.

قد يقول قائل: يا أخي هذه الاستقامة صعبة. النبي كان مستقيم، هذا نبي يا أخي، هذا كلام مرفوض لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين))

(من الأذكار النووية: عن " أبي هريرة ")

من أين أخذ النبي هذا الحديث ؟ من قوله تعالى:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

(سورة هود: من آية " 112 ")

الأمر موجَّهٌ إلى النبي وإلى أتباعه الذين عاصروه، أو الذين سيأتون من بعده على حدٍ سواء، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((شيَّبتني هود وأخواتها))

(من الجامع الصغير: عن " ابي جحيفة ")

مَن هي هود ؟ سورة هود. ولماذا شيّبته سورة هود ؟ لأن فيها هذه الآية. هذه هي الآية، فنحن مأمورون جميعاً أن نستقيم على أمر الله، مؤمنين بالدرجة الأولى..

(فاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

لكن في بالآية الرابعة، تسمى لَفْتَة، يقول الله عزَّ وجل:

(فاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ)

(سورة فصلت: من آية " 6 ")

لِمَ لمْ يقل الله عزَّ وجل: فاستقيموا على أمره، أو فاستقيموا كما جاء في الآيات الأخرى؟ قال:

(|فاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ)

أي اجعلوا غاية استقامتكم ابتغاء مرضاته، هناك إنسان يستقيم يقول لك: أنا أُلَبِّي نداء الضمير، أنا أقوم بالواجب المَسْلَكي الذي تفرضه عليَّ وظيفتي، أنا أخاف على سمعتي، أنا أبتغي أن يكون اسمي متألّقاً في السماء، فهذا يستقيم، يستقيم ليكون اسمه متألّقاً، يستقيم ليرتاح ضميره، يستقيم ليؤدي واجبه المَسْلَكِيّ، يستقيم لينتزع إعجاب الناس، لا..

(|فاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ)

يجب أن تستقيم من أجل أن ترضي الله عزَّ وجل، يجب أن تنتهي استقامتك إليه، يجب أن تكون الغاية القصوى من استقامتك ابتغاء مرضاته.

سيدنا الصديق رضي الله عنه، يقول عنه النبي عليه الصلاة والسلام:

((ما طلعت شمسٌ على رجلٍ بعد نبيٍ أفضل من أبي بكر))

(من كنز العمال: عن " أبي الدرداء ")

((لو وزن إيمان الخلق مع إيمان أبي بكرٍ لرجح))

سيدنا الصديق يقول عندما سئل عن الاستقامة، لأن كل إنسان يطلب من الله الكرامة، كل إنسان وهذا مطلب ثابت، فقد قال أحدهم: أنت تطلب من الله الكرامة وهو يطلب منك الاستقامة. فسيدنا الصديق سئل عن الاستقامة فقال رضي الله عنه: " ألا تشرك بالله شيئاً ". كلام عميق جداً، ما علاقة الاستقامة بالتوحيد ؟

أنت متى تنحرف ؟ تنحرف من أجل أن ترضي زيداً أو عُبَيداً، متى تبحث عن إرضاء زيد أو عُبيد ؟ حينما تغفل عن أن الله بيده كل شيء، ألم يقل التابعي الجليل لأحد ولاة الخليفة يزيد بن معاوية، حينما جاءه توجيهٌ من يزيد لا يرضي الله عزَّ وجل، فاستشار هذا الوالي ذاك التابعي الجليل فقال: ماذا أفعل ؟ أجاب إجابة تكتب بماء الذهب، قال:

((إن الله يمنعك من يزيد ولكن يزيد لا يمنعك من الله))

انظر سيدنا الصديق شرح الاستقامة بأنها التوحيد، أنت متى تعصي؟ حينما ترى فلان له أهمية، وقد يصيبك منه ضرر، أو قد ترجو منه مغنماً، فتنسى أمر الله وتطيع هذا الإنسان، لمجرَّد أن تطيع إنساناً وتعصي الله عزَّ وجل، فهذا أحد أنواع الشرك، لذلك لا يمكن أن ينحرف إلا مشرك، طبعاً بالمعنى المخفف لا المعنى الكبير، في عندنا شرك جلي وشرك خفي، لذلك سيدنا الصديق قال: " ألا تشرك بالله شيئاً ". أي أن الاستقامة تتطابق مع التوحيد، بقدر ما أنت موحِّد أنت مستقيم، لو إنسان هددك، وتوعَّدك، وقال لك: أنا أفعل كذا وكذا، وسأريك ما سيكون، إذا خفت منه، ففي توحيدك ضعف، لذلك قال الله عزَّ وجل في الآية الكريمة:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213))

(سورة الشعراء)

إذاً تعرف سيدنا الصديق للاستقامة هي التوحيد، كلما ازداد مستوى توحيدك كلما ازدادت استقامتك، فلو إنسان شهوته غلبته وعصى الله عزَّ وجل ؟ هو جعل إلهه هواه، أشرك هواه مع الله عزَّ وجل، إذاً كن موحداً تستقم على أمر ربك.

سيدنا عمر له تعريفٌ آخر للاستقامة، قال: " أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعالب ". كل إنسان يريد مخرج، يريد حيلة شرعية، يريد فتوى، الحق واضح، الحلال بيِّن والحرام بيِّن، الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطَّلع عليه الناس، فسيدنا عمر يقول: هذا الذي يروغ روغان الثعالب ليس مستقيماً، يحتال في البيع والشراء، يأكل الربا بشكلٍ أو بآخر، يلتقي مع النساء التي لا تحل له بطريقةٍ أو بأخرى، فالذي يروغ روغان الثعالب ليس مستقيماً، سيدنا عمر فهم الاستقامة فهماً عملياً فقال:

((أن تستقيم عن الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعالب))

سيدنا عثمان له تعريفٌ ثالثٌ للاستقامة قال: " استقاموا أي أخلصوا العمل لله ". لو جاء عملك مطابقاً للشريعة، ولم تبتغ به وجه الله، فأنت لست مستقيماً، الاستقامة عند سيدنا عثمان الإخلاص، وعند سيدنا عمر الطاعة، وعند سيدنا الصديق التوحيد.

أما سيدنا علي فقال: " الاستقامة هداء الفرائض لأن الله سبحانه وتعالى يقول

((" أحب ما تقرَّب إليَّ عبادي ما افترضتهم عليه))

سيدنا الحسن يقول:

((استقاموا على أمر الله أي عملوا بطاعته واجتنبوا معصيته)).

سيدنا مجاهد من التابعين قال: " استقاموا على أمر الله أي استقاموا على شهادة ألا إله إلا الله. لأنه توجد أحاديث يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا إله إلا الله حصني))

فالآن، إذا أنت عندك إنسان يعمل موظف، وعليه مراقبة تلفزيونية، بأي لحظة أنت مراقب، مراقبة مستمرة، إذا إنسان راقب إنسان ينضبط، فشهادة أن لا إله إلا الله أن تؤمن أنه لا إله إلا الله، لا رافع، لا خافض، لا معز، لا مذل، لا رازق، لا معطي، لا مانع، لا مُكْرم، لا مهين إلا الله، فإذا أيقنت بشهادة ألا إله إلا الله فقد استقمت على أمر الله، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((لا إله إلا الله حصني من دخلها أمن من عذابي))

أحد العلماء يقول: " استقاموا على محبته وعبوديته ". كيف أن العبودية غاية الحب مع غاية الطاعة، مَن أطاع الله ولم يحبه ما عبده، ومَن أحبه ولم يطعه ما عبده، يجب أن تمتزج الطاعة التَّامة بالمحبة التامة عندئذٍ أنت عبدٌ لله، فالاستقامة عند بعض العلماء: " أن تجتمع الطاعة مع المحبة "، أما هذا الذي ينفّذ الأمر وهو حانق، وهو متألم، ويقول: يا أخي الدين ثقيل..

(إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (5))

(سورة المزمل)

تكاليف، أعباء، لست عبداً لله إلا إذا نفّذت أمره وأنت مسرور.

في صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك. يعني الإسلام لخصه لي بكلمات، فقال عليه الصلاة والسلام:

((قل آمنت بالله ثم استقم))

الإسلام كله ؛ قل آمنت بالله ثم استقم، الإسلام عقيدة وعمل، إيمان واستقامة، شعور ومواقف.

في حالات الإنسان يكون عاجز عن أن يفعل شيئاً، لهذا جاء عليه الصلاة والسلام وقال

((سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن ينجو أحدٌ منكم بعمله))

أي في حالات كأن يكون ليس لك سلطة على والدتك أحياناً، ما لك سلطة على والدك، جالس في مكان مجموع الحاضرين لا يطيعون الله عزَّ وجل، أي ليس كل شيء يجري كما تريد، لذلك قال العلماء: هناك أهون الشرَّين، ابحث في الأمرين، وابحث في الشرّين، واختر أهونهما، أي أن هناك حالات أهون الشرين أن تفعل كذا وكذا، هذا في آخر الزمان في الوضع الصعب حينما لا تستطيع، أحياناً ليس في اختيارك أن تفعل أو أن لا تفعل، إذا انتفى الاختيار فأنت عندئذٍ يرجى من الله عزَّ وجل أن يقبل هذا العمل أو أن يعفو عن صاحبه

((سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن ينجو أحدٌ منكم بعمله، قالوا: ولا أنت؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمةٍ منه وفضل))

(من الجامع الصغير: عن " السيدة عائشة ")

يعني الجنة محض فضلٍ والنار محض عدلٍ، العذاب بالعدل، أما العطاء من فضل الله عزَّ وجل.

شيءٌ آخر: الاستقامة يجب أن تكون في الاجتهاد والاقتصاد، الاجتهاد أي فاتقوا الله ما استطعتم، أي يجب أن تستنفد كل الجهد.... أن تقف موقفاً معتدلاً بين تطرفين، الحق وسطٌ بين طرفين، يعني لا إفراط ولا تفريط، لا إسراف ولا تقتير، لا اندفاع إلى أحد الطرفين ومعاداة الطرف الآخر، بل لابد من موقف وسط معتدل، لذلك الإسلام من سماته الأساسية أنه وسطي..

(وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (29))

(سورة الإسراء)

((ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله "))

فالوضع الوسط في كل شيء، هذا من لوازم الاستقامة.

لكن هناك فكرة مهمة جداً: الإنسان له قناعات وله أحوال، قناعاته أي معتقداته، المعتقدات تستقر في الدماغ، في الفكر، وقد تنتقل إلى القلب، قلب النفس، أما الأحوال تستقر في القلب، حال الانشراح، حال التوكل، حال الصبر، حال الرضى، حال الاستسلام، هذه الأحوال قد تُدَّعى.

أخطر فكرةٍ في هذا الموضوع أن الاستقامة بالنسبة إلى الحال كالروح في البدن تماماً، يعني مَن لم يكن مستقيماً على أمر الله فأحواله كلها كاذبة، أحواله كلها ادِّعاء، أحواله كلها من نوع التفاخر، مَن لم يكن مستقيماً على أمر الله، لذلك لا تقبل من إنسانٍ خارج عن أمر الله إذا ادَّعى أن له حال مع الله، هذا كلام فارغ.

الحقيقة الثابتة: أن الاستقامة بالنسبة إلى الحال كالروح بالنسبة إلى الجسد، لا حال من دون استقامة، هذا الذي يأكل أموال الناس بالباطل، أو يعتدي عليهم، أو يستهين بهم، أو يخالف السنة، ليس له حالٌ مع الله عزَّ وجل ولو ادَّعى ذلك.. خاضوا بحار الهوى دعوى وما ابتلوا.. فلذلك كثرة الحديث عن الحال هذه حالة مرضية، معنى ذلك أن حاله ليس كما يرام.

الشيء الآخر: الاستقامة يجب أن تكون لها صفاتٌ أساسية، من سماتها الأساسية الاجتهاد ، في شخص متساهل ؛ أخي كحِّب هكذا يقول لك، لا تدقق، هذه لا تدقق، واتركها لله، والله لن يحاسبك، وأنت مازلت شاب، هذا كله كلام مرفوض، يجب أن تجتهد في معرفة حكم الله عزَّ وجل، حكم الله في هذه الجلسة، في هذه السهرة المختلطة، في هذا اللقاء، حكم الله في هذا البيع، في هذا الشراء، في هذه الحرفة، في هذا العقد، في هذه الشراكة، في شركة باطلة، في شركة فيها ربا، أخي أنا أعطيته مائة ألف وأريد في

الشهر ثلاثة آلاف، هذا ربا يا أخي، ما هذه لا تدقق ؟ أنت تأخذ ربح ثابت هذا ربا مائة في المائة، لا يكون ربحك مشروعاً إلا إذا كان ربحاً حقيقياً على الحسابات، ربح وخسارة.

فلذلك، من صفات المستقيم الاجتهاد، لذلك لن تستطيع أن تعبد الله إلا إذا عرفت أمره، من هنا جاء (تعلم الفقه أمرٌ حتمي على كل مسلم)، فأنت بالفقه ليس لك خيار، إما أن تتفقَّه في حكم الله، وإما أن تقع في الحرام.. " من دخل السوق من غير فقهٍ أكل الربا شاء أم أبى ".. أنا أخي دفعت له ربع ثمن البيت وسيعطيني أجرة على هذا الربع، أجرة حلال زلال، شيء جميل ! لكن لو فرضنا البيت صار عليه استملاك، لا أنا مدينه، أنا أريد نقودي، ما هذا الكلام ؟ دافع له مائتي ألف وربح ثمن البيت، لو البيت استملك أو صار له تنظيم يريد نقوده مائتي ألف، ويريد عليها أجرة، هذا ربا، إذا أخذت أجرةً فالهلاك على المالكين وأنت أحد المالكين، إذا أخذت أجرةً فالسعر يتبدَّل بعد سنتان يرتفع أو ينخفض.

فالإنسان يستقيم من دون علم صعب لن يستقيم، يقع في الربا شاء أم أبى ؛ في بيعه، في شرائه، وفي إيجاره، وفي استئجاره، وفي تعامله، وفي عقود شركته. لذلك معرفة الأحكام الفقهية حتمٌ واجبٌ على كل مسلم، من أجل أن يستقيم، إذا عرفته بالكون فلابد من أن تعبده بالشرع، فمعرفة حكم الله عزَّ وجل في كل مجال، أحياناً بالزواج في حالات الإنسان ينوي فيها التوقيت، أما يوقع عقد وفق الأصول ؛ إيجابٌ وقبول، ومهرٌ وشاهدا عدل، هذا العقد في ظاهره شرعي لكنه نوى التوقيت، والتوقيت يجب أن يكون الزواج على التأبيد، إذاً الموضوع دقيق جداً، فمن صفات الاستقامة الاجتهاد في معرفة حكم الشرع.

أحياناً بالخطبة يحصل: والله أنا خاطب فلانة، هذا خلاف الشرع، لو ما تم الزواج، أخي لماذا ما قبلتها؟ صارت مشكلة، لم تعجبك ؟ سمعت عنها شيء ؟ لا والله لم أسمع عنها شيء، النبي أمرنا أن نخفي الخطبة ونعلن النكاح، أما الخطبة يجب أن تختفي وأن تكون في طي الكتمان، يجب أن تعرف حكم الله في الخطبة، وفي النكاح، وفي الزواج، وفي البيع، وفي الشراء، وفي العبادات ؛ في الصلاة والصوم والحج والزكاة.

تجد أكثر الأسئلة هذه الزكاة يجب أن تبقى في هذه الأسرة كيفما كان، والله ابنتي يلزمها براد، أو عندها براد لكن صغير يريدون قياس كبير، فيدفع الزكاة لابنته، هذه من الفروع، فالفروع، والأصول، والزوجة، لا يصح أن تعطيها الزكاة، لا يعرف حكم الله عزَّ وجل في هذا الأمر، فيجب أن تكون فقيهاً في الزكاة، وفي الصيام، وفي الحج، وفي الصلاة وفي كل شيء. فالاستقامة تحتاج إلى اجتهاد في معرفة حكم الله عزَّ وجل.

شيء آخر: في مع الاجتهاد اقتصاد، أي أن دين الإسلام دين الفطرة، فيه توازن بين الجسد وبين النفس، بين الدنيا وبين الآخرة..

((ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا من ترك آخرته لدنياه إلا أن يأخذ منهما معاً فإن الأولى مطية للثانية))

. في توازن، يعني إن لنفسك عليك حق، إن لأهلك عليك حق، إن لجسدك عليك حق، هذا التوازن.

لا عادياً رسم العِلم، يعني باستقامتك أنت تابع لشرع الله عزَّ وجل، ما في عندك ابتداع، ما في شطحات، ما في تجاوز، ما في رأي شخصي، الرأي الشخصي مرفوض بالاستقامة، طموحك مرفوض، والنزوة الخاصة مرفوضة، ما حكم الشرع في هذا الموضوع ؟

أي اجتهادٌ واقتصادٌ ووقوفٌ عند حدود العِلم، وألا يتجاوز حد الإخلاص، أي واحد أراد أن يحرم من المسجد النبوي، فقال له أحد أصدقاؤه:

ـ احرم من المكان الذي حرم منه النبي عليه الصلاة والسلام وإلا تُفتن.

ـ قال له: وكيف أفتن ؟

ـ قال له: وهل من فتنةٌ أعظم من أن ترى نفسك سبقت رسول الله !!

النبي تزوج، النبي أكل اللحم، النبي عمل بالتجارة، باع واشترى في مكة، رعى الغنم، فالعمل شرف، فهذا الذي يبحث عن منهج خاص مخالفاً لهذا المنهج سنة النبي عليه الصلاة والسلام، هذا إنسان ليس مستقيماً.

كما قلت في الدرس السابق: حتى يقبل العمل لابدَّ من أن يكون خالصاً، ولابدَّ من أن يكون صواباً، الإخلاص أن تبتغي به وجه الله، والصواب أن يأتي موافقاً للسنة، فيا أخي اسأل، ليس العار أن تكون جاهلاً، ولكن العار كل العار أن تبقى جاهلاً، مفتاح العلم السؤال، وكلما أكثرت من السؤال كنت ورعاً، ما رأي الشرع في هذا العمل ؟ في هذا المبلغ الذي أخذته من فلان بأنني جئت له بهذا الزبون ؟ هل هذا المبلغ مقبول أم غير مقبول ؟ له حكم شرعي، فالسائل معنى ذلك أنه يخشى على دينه، لذلك كما قال سيدنا بلال: " لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت ". فإذا الإنسان في كل موضوع سأل، حتى في علاقاته الحميمية، حتى في أموره الشخصية، هناك أحكام شرعية.

إذاً الاجتهاد، والاقتصاد، ومتابعة العِلم، والإخلاص، وعدم مخالفة نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم. هذه كلها شروطٌ يجب أن تتوافر في الاستقامة، والاستقامة كما تعلمون عين الكرامة، والدين من دون استقامة كلام بكلام بكلام، وهذا الكلام لا يقدِّم ولا يؤخر. فالصحابة الكرام كانوا عشرة آلاف فتحوا الدنيا، ورفرفت أعلام المسلمين في الخافقين، والمسلمين الآن ألف مليون، فالاستقامة ـ تقريباً ـ تشبه مستودع محكم، فكل شيء ينزل في هذا المستودع يحفظه هذا البرميل، لكن لو كان في ثقب في هذا البرميل، فهذا الثقب يفرغه بخمسة أيام، الثقب كلما كبر، لكن هناك برميل بلا قعر..

(وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28))

(سورة الكهف)

ما في انضباط، إذاً ما في صلاة، ما في صبغة، فهذا الذي وصل بالمسلمين أنهم عندهم مشاعر إسلامية، عندهم قناعات إسلامية، ولكن استقامة غير موجودة. لذلك النبي الكريم قال:

((استقيموا ولن تحصوا..؟.))

" أي لن تحصوا الخيرات من استقامتكم، لكن أهم ما في الأمر أن هذا الذي يدعي أن له مع الله حالاً وهو غير مستقيم، هذا الحال كاذب قولاً واحداً، ودعوى، ولا قيمة له، إلا أن يكون هذا الحال تتويجاً لعمله الطيِّب، ولانضباطه، ولمحبته، وإقباله، والحال لا يحتاج إلى ذكر، فالإنسان عندما يشعر بحاجة أن يمدح نفسه هذا إنسان مريض يحتاج إلى معالجة.

* * * * *

الآيات التي كنا قد تحدثنا عنها آياتٌ لها في القرآن مكانة خاصة، وكما قلت قبل قليل

((لا يحزن قارئ القرآن))

. مادم في بالقرآن هذه الآية:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت)

لا تخافوا لما أنتم مقدمون عليه، ولا تحزنوا على ما تركتم من الدنيا..

(وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ)

لكن في بعض الأحاديث لها روايات جديدة، هذا الذي سأل النبي عليه الصلاة والسلام، قال له: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، فقال عليه الصلاة والسلام:

((قل آمنت بالله ثم استقم))

في رواية تضيف إلى هذه الرواية فقال: أريد أخف من ذلك. فقال عليه الصلاة والسلام:

((إذاً فاستعدَّ للبلاء "))

أي أن الذي لا يرضى بالاستقامة لابدَّ من أن يدفع الثمن، وكل مخالفة لها ثمن.

((إن لكل حسنةٍ ثواباً ولكل سيئةٍ عقاباً))

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (012) :ليلة القدر - العيد - ما بعد العيد .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-04-22

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، في ذهني أن في هذا الدرس موضوعات عدة يجب أن تعالج، الموضوع الأول موضوع ليلة القدر، والموضوع الثاني موضوع العيد، و الموضوع الثالث موضوع ما بعد رمضان، أما الموضوع الأول فقد يحملُ الناس عن هذه الليلة تصورات بعيدة عن الحقيقة، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1))

(سورة القدر)

وكلمة القدر مشروحة في آية أخرى، حيث قال الله عز وجل:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

(سورة الأنعام)

إذًا الإنسان مطالب بمصلحته، أن يعرف الله عز وجل، فأي جهد و أي نشاط و أيّ طاقة وأي وقت و أي عمل لا يصب في معرفة الله عز وجل فهو جهد ضائع و عمل فاشل، ووقت خاسر، هكذا، قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

(سورة الأنعام)

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1))

(سورة القدر)

قلت البارحة في إحياء هذه الليلة بعيدا عن المعاني الدقيقة و التي جاءت في التفاسير لسورة القدر، بعيدا، كخواطر إذا قرأت هذه السورة بماذا تشعر ؟ لو أن هناك ليلة معينة، على هذا التصور تساؤلات، لأن الشهر العربي الهجري يختلف عن الشهر الميلادي، إذًا عبر هذه السنوات الطويلة، وعبر مئات السنين جاء رمضان في الصيف و جاء في الشتاء، وجاء في الربيع و جاء في الخريف، ما من شهر إلا وجاء فيه رمضان، إذًا هذه الليلة ربما انزلقت في أيام السنة كلها، فالقدسية نابعة من ليلة بالذات، لا إطلاقا، ما يحمله بعض الناس من تصورات أن هناك ليلة معينة بالذات إذا وافقها الإنسان فقد سعد في الدنيا و الآخرة، هذا كلام بالغ به، بل هو بعيد عن الحقيقة، ما دام رمضان شهر هجري، و أيام السنة الميلادية، وهناك انزلاق مستمر، طبعا كل واحد منا ذاق رمضان في الصيف، في شهر آب، تشرين فيها رمضان، حرب تشرين، عشر رمضان، تشرين إلى أيلول إلى آب إلى حزيران إلى مايو، فهناك

انزلاق مستمر، إذًا ما من يوم من أيام السنة إلا و مرت فيه ليلة القدر، إذًا قيمة هذه الليلة من تحديدها ؟ لا إطلاقا، من شيء آخر، يبدو أن الإنسان إذا بلغ مستوى من المعرفة بالله عز وجل استحق من الله شيئا ثمينا، كحالة حادة صارخة النبي عليه الصلاة و السلام إ

(نَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1))

(سورة القدر)

أي حينما تعبد ربه في غار حراء، و حينما كان يقضي الليالي ذوات العدد، حينما عزف عن متع الحياة، وحينما قال للغلمان في سنه: لم أخلق لهذا، حينما اصرف إلى التفكر في خلق السماوات و الأرض، حينما ترفعت نفسه عن وحل البشر، عن حماقات قومه، عن انحرافهم، عن شهواتهم، حينما عاش في أفق آخر، حينما قدّر ربه حق قدره استحق أن ينزل عليه القرآن على شكل مخفف، على شكل ممدد، على شكل مبسط، إذا رآك الله عز وجل محبا له، تسعى لهداية خلقه، إذا رآك عند الحلال و الحرام، إذا رآك تبذل كل طاقاتك في سبيل خدمة الخلق، إذا رأى وقتك كله قد بعته لله عز وجل، إذا رآك محبا للناس، إذا رآك حريصا على هدايتهم، إذا رأيت خلقه كلهم عيال الله و أحسنت إليهم، إذا كان همك الدار الآخرة، إذا استيقظت والآخرة أكبر همك، عند ئذ تستحق أن يعطيك شيئا ثمينا، ما هو هذا الشيء ؟

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1))

(سورة القدر)

و في الليلة التي تقدر فيها ربك حق قدره يتجلى الله على قلبك، ما هذا التجلي ؟ واللهِ ما أدري ما هو، و لكن أعرف نتائجه، طبيعته مجهولة، من أسرار الله عز وجل، أما نتائجه فهي واضحة، تشعر براحة لا توصف، تشعر بتوازن، تشعر أنك اسعد الناس و لو كانت ظروفك المادية من أصعبها، ولو كانت حياتك من أصعب حياة الناس، ولو أن دخلك أقل من دخول الناس، تشعر بسعادة لأنك تشرفت بمعرفة الله عز وجل، تشعر بحالة اسمها الغنى، أحيانا تدعو إنسانا إلى الطعام، و تظنه جائعا، لا شكرا، تشعر أنه في غنى و ممتلئ، وقد يكون جائعا و لكن نفسه أغلى عليه من أن يقول لك: إني جائع،

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ))

(رواه البخاري)

الشعور بالغنى هذا شيء لا يوصف، قد يكون فقيرا، قد يكون أجيرا، قد يكون موظفا بسيطا، و لكن في نفسه شعور بالغنى لو وُزّع على أهل بلد لكفاهم، و عند الكبراء والأغنياء من الفقر ما لو وزِّع على بلد لأشقاهم، تجده حريصا على الليرة و معه الآلاف الملايين، يقاتل من أجلها، و يحلف يمينا كاذبا من أجلها، هذا فقير، هذا إنسان في مستوى منخفض جدا، فنتائج التجلي الإلهي من هذه النتائج رؤية

صحيحة، أي في الوقت الذي يتهافت الناس على المال الحرام يترفع المؤمن، يرى ما في هذا المال من خراب و دمار، ومن بعد عن الله عز وجل، قد تمشي امرأة في مستوى رفيع من الجمال، لو راقبت معظم الناس عيونهم منعقد و عليها، أما المؤمن فتشعر أنه في غنى، ليس عبدا لشهوته، شهوته تحت قدمه، الله أغلى عليه، لذلك بعض النساء اللواتي حباهن الله بمستوى رفيع من الجمال لا يفاجأن إلا بموقف المؤمن، ما هذه العفة ؟! ما هذا الغنى ؟ ما هذا الترفع ؟ هذا من آثار تجلي الله عز وجل، قد تكون أما مبلغ كبير من المال يحل كبير مشكلاتك دفعة واحدة، و لكن في هذا المال شبهة، فبقرار سريع من دون صراع نفسي، من دون سؤال و جواب، من دون يا ليت، من دون مشادة، تحت قدمه هذا المال، فلان تجلى الله على قلبه، عنده عفة عن المطامع، وعنده عفة عن المحارم، عنده شعور بالغنى، عنده شعور أن الله يحبه، عنده رحمة اتجاه كل الخلائق، ليس عنده تعصب و لا حقد، و لا نظرة ضيقة، فلان من جماعتنا، من غير جماعتنا، هذا عبد لله عز وجل، فأنت إنسان وهو إنسان، والله أدري ما أقول لكم عن هذا التجلي، لا أعرف كنهه، و لكن أعرف نتائجه، فأحيانا تلتقي مع إنسان فتراه في أدنى مستوى، قد تكون له مرتبة اجتماعية عالية، و قد يكون له مكانة كبيرة، لكن إذا تكلم، قال لي شخص: التقيت مع رجل بحسب مقاييس المجتمع، و المجتمع له مقاييس، له مقياس المال، ومقياس العلم الدنيوي طبعا، يحمل دكتوراه، نوبل، معه بورد، معه أعلى الشهادات، أو يتمتع بمركز قوي، إما القوة، و إما العلم و إما المال، قال لي: كان يتحدث و قال: إذا الإنسان تقدمت به السن و زوجته متعبة ما هو المانع لو أنه تكون له عشيقة مثلا، أين هذا الإنسان من مبادئ الشرع، هذا صار عدوانا، فتكلم كلمة سقط بها إلى الحضيض، فالتجلي، إنسان يعرف الله عز وجل، منضبط، إنسان ذو مبدأ، مال الدنيا كله في كفة و مبدأه في كفة، فإذا تناقض المال مع مبدأه ضحّى به، وهو مرتاح، مثلا، وهذا مثل منتزع من الواقع، قاضي أو طبيب شرعي جريمة ارتكبت و المقتول قتل، و انتهى الأمر، و الحكم لهذا القاضي، إما أن يقول وفاة طبيعية أو تسمم، عرض عليه خمس ملايين، يكتب فقط وفاة طبيعية، و القاضي بيته بالأجرة، و دخله لا يكفيه خمسة أيام، وليس عنده مركبة، وفي حاجة ماسة، و المبلغ يحل به جميع مشاكله، أعوذ بالله، هذه جريمة، هذا المؤمن، إنسان من أجل مائة ليرة يبيع دينه، مائة وليس خمس ملايين، يبيع دينه كله، فلما ربنا عز وجل يقول لك:

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1))

(سورة القدر)

معنى ذلك أنك أنت لما تعرف الله عز وجل صارت نفسك مؤهلة لتتلقى ما يسمى بالتجلي الإلهي، هذا التجلي ماذا سماه الله في آيات أخرى، من يعرف ؟ رحمة، نور، روح، جميل، كله صحيح، سكينة،

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة التوبة]

هذه الطمأنينة و هذه الراحة النفسية، فالقضية أعقد من أن تصلي ركعتين، القضية أعقد من أن تصوم الأيام الثلاثين، هذا عابد، و العابد في مكانه، حكيت البارحة مثلا و لا مانع من أن أعيده الآن، دكتور من أعلى مستوى في الجامعة، علامة عصره، فريد بعلمه، بحر، له سمعة على مستوى الشرق الأوسط فرضا، وفي هذه الكلية مستخدم جالس على هذا الباب، كلما مرّ هذا الدكتور يقوم له، أهلا دكتور، وكلما خرج يقوم له و يرحب به، هذا المستخدم سنة، سنتان، ثلاثة، خمسة، عشرة، ثلاثون سنة، معرفته بهذا الدكتور لا تزيد، كلما يعرفه عنه أنه أستاذ في هذه الكلية، و الطلاب يحبونه فقط، أما هؤلاء الذين جلسوا معه في المحاضرات، كلما ألقى عليهم محاضرة ارتفع في نفوسهم، كلما ألقى محاضرة كبر حجمه عندهم، فأنت لا ينبغي أن تكون كهذا المستخدم، كن كهذا الطالب، الطالب يزداد علمه، فلو أننا - ولله المثل الأعلى - لو إنسان عابد، كلمة أنا أعرف سهلة، لو أن إنسانا ركب طائرة من عمان إلى بيروت، مباشرة، وهذه الطائرة طارت فوق دمشق تماما، و سئل أتعرف الشام ؟ يقول لك: أعرفها، كلام صحيح، رآها من الجو، لو أنه هبط في المطار ساعة ثم تابع رحلته أتعرف الشام ؟ أعرفها، رأى المطار و رأى البرج، ورأى صورا عن دمشق ببهو المطاء، رأى نوعا من الزخرفة الشامية في قاعة الانتظار، وقال: أنا أعرفها الشام، و قد مررت بها، وقفت في مطارها ساعة، لو إنسان آخر انتقل إلى مركز المدينة، إلى المرجة مثلا ، سوق الحميدية، يعرفها، إنسان عاش بها أسبوعين، أطل إطلالة على الأحياء الشعبية وقصر العظم، وعلى جبل قاسيون، أيضا يعرف الشام، طيب و إنسان أقام شهرا، و إنسان درس في الجامعة في دمشق، ومكث أربع سنوات، و أخذ بيتا في حي فقير، رأى العادات و التقاليد و الحمص يوم الجمعة صباحا، و التساقي مثلا، و العيد و الزينة و المعمول، وفهم هذه الأشياء كلها، وعلاقات الاجتماعية، والجو المحافظ، والشغل المحافظ فرضا، يقول لك: أنا عرفت كل التقاليد الشعبية، وإذا كان الإنسان مولودا في الشام و عمره ثمانون سنة يقول لك: كان مدحت باشا أتى إلى الشام و جلس في المسجد الأموي، قال: أنا خالع الملكين في زماني، و جلس عند الشيخ بدر الدين و قال له: أنا سأخلعك الآن، بعث برقية للسلطان فأتى و خلعه بعد ساعة، يعرف قصص الشام القديمة، وهذا مثلا خان أسعد باشا يعرف أصله، وهذا منزل كيف بنوه، وكيف أن بابا للوادي مثلا، كل هؤلاء يعرفون دمشق، و شتّان بين معرفة و أخرى، هنا المرتبة، أتعرف الله نعم، ماذا تعرف عنه يقول لك: الله جل جلاله خالق الكون، وقف، كمِّل، هل هناك أوضح من هذا ؟ هناك إنسان يحكي عنه عشر ساعات، عشرين ساعة و لا يقف، فكلما ازددت به معرفة ازددت عنده رفعة، فـ:

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1))

(سورة القدر)

في هذه الليلة، فحينما تتعرف إلى الله عز وجل، و الحقيقة معرفته لها خطان ؛ و لا أقول خط واحد، هناك طريقان يوصلان إليه ؛ الطريق الأول طريق الكون، لأن الكون من خلقه فإذا تأملت في الصنعة عرفت الصانع، إذا تأملت في النظام عرفت المنظِّم، إذا تأملت في الكون عرفت المكوِّن، إذا تأملت في التسيير عرفت المسيِّر، ممكن نجم كبير كبير يقطع في العام ألوف ألوف الملايين من الكيلومترات و يصل إلى زاوية معينة في معشار الثانية، و تنضبط ساعة بيغ بان عليه، ممكن، سيارة مثلا لو كان طريق حلب ليس فيه ولا مشكلة، ليس فيه دخول إلى المدن و لا تقاطع، و لا فيه إشكال، تقدر أن تقول للسائق كم يلزمك من ساعة ؟ فيقول لك: يلزمني خمس ساعات، يقدر هذا السائق يمشي على سرعة ثابتة و يصل بأعشار الثانية إلى حلب، هذا فوق طاقة البشر، سمعت أن هناك قطار في اليابان إذا كان التأخر بثلاث دقائق فما فوق يُعطى للركاب تعويض، من طوكيو إلى أوزاكا، ستمائة كيلومتر، إذا كان التأخر ثلاث دقائق هناك تعويض، فهذا نجم يدور ألوف ألوف الملايين، دورة خلال سنة ويصل إلى زاوية رصد بأقل من واحد من المائة في الثانية، لذلك ساعة بيغ بان تتأخر في السنة بثلاث ثوان و النجم لا يتأخر، تُضبط عليه، هذا تسيير من ؟ الله عز وجل، فأنت تعرف المسيِّر من التسيير، و المنظم من التنظيم، والمكون من التكوين، و الخال من الخلق، و الصنعة من الصانع، هذا طريق، لا يكفي هذا الطريق، طريق أمر الله، كما أن الله سبحانه و تعالى تتجلى عظمته في خلقه تتجلى عظمته في أمره، بالضبط خطان متوازيان، بل إن معرفة أمر الله عز وجل له فائدة مزدوجة، له فائدتان، من جهة تعرف من خلاله عظمة الله عز وجل، ومن جهة ثانية تعرف الأمر الذي ينبغي أن تفعله، أنت تلقيت هاتفا ثمينا جدا فيه ستون ذاكرة أوتوماتيك، يعطيك على الشاشة رقم الخط، إذا كانت مخابرة خارجية كم دقيقة بالضبط، وهذا الهاتف أنت عرفت أن المصمم الذي صمّمه من أعلى مستوى، وهناك شيء ثان أنك في خدمتك تستعمله و استفدت منه، عظّمت صانعه و استفدت منه، معرفة أمر الله هذه تؤدي غرضين ؛ تعرف الله من خلال هذا الأمر، وهو أمر أنت في أمس الحاجة إليه، إذّا هذا خط وذاك خط، خط معرفة الله من خلال الكون، و خط معرفته من خلال الأمر و النهي، إذّا هذه بعض الخواطر حول

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2))

(سورة القدر)

أنا أعجب فمثلا سيدنا زيد الخير دخل على النبي عليه الصلاة و السلام وهو يخطب الجمعة، فالنبي لفت نظره، و كان له شكل جميل جدا، و كان شهما، كان صاحب مروءة، جمع بين جمال الخَلق و الخُلق، فدخل على النبي عليه الصلاة و السلام، فلما انتهت الخطبة دعاه إلى البيت، أول مرة يراه فيها، قال له النبي: يا زيد عليه الصلاة و السلام: ما وُصف لي رجل إلا رأيته دون ما وُصف إلا أنت يا زيد، أنت أكثر، وُصفت لي و لكنك بدرجة أعلى مما وصفت لي، النتيجة ليست هنا، دعاه إلى البيت و قدّم له

وسادة، قال زيد الخير: واللهِ يا رسول الله لا أتكئ في حضرتك، لم يرض، متى عرفه الرسول ؟ ما هذه السرعة ؟ هذا رقم قياسي، متى عرف رسول الله ؟ في ساعة، قال: والله لا أتكئ في حضرتك، وفي طريق العودة إلى قومه توفاه الله، من أرقى الصحابة، أعتقد ساعات، تفضل، و تجد واحدا ثمانون سنة و هو يصلي و يصوم و بعد ذلك إذا جاءه ضيوف نساء ذهب و لصق بالباب، ثمانون سنة وهو يصلي و يصوم، يحلف يمينا من أجل مائة ليرة كذبا، وهو يصلي و يصوم، إذًا نحن نريد اللبّ، نريد جوهر الدين، نريد هذا الدين الذي كان عليه أصحاب النبي، هذا الذي نريد، هذا الدين نريده من منبعه، نريد الينابيع الأولى للدي، نريد هؤلاء الصحابة الذين كانوا ألفا أو يزيدون أو عشرة آلاف كيف فتحوا العالَم، ونحن ألف مليون و كلمتنا ليست عليا، إذًا:

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3))

(سورة القدر)

من ألف شهر، أي ثمانين سنة، صوم و صلاة و حج و زكاة، من دون معرفة الله عز وجل، هذه لا شيء، لكنك إذا عرفت الله عز وجل عرفت كل شيء:

(تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا)

(سورة القدر)

الملائكة تلهمك الصواب، تجدك موفقا في عملك، دائما ملهم، دائما حركتك مسددة، دائما موفق، دائما يدك خيرة، دائما كلامك سديد، دائما خواطرك طيبة، دائما عملك حكيم، الملائكة و الروح فيها.." دائما مسرور سعيد،

(بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4))

(سورة القدر)

كلما أردت أمرا جاءك الإلهام، افعل يا عبد الله هكذا، كلما أزمعت عملا جاءك الإلهام افعل هكذا،

(مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4))

(سورة القدر)

قال:

(سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5))

(سورة القدر)

(إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ)

(سورة هود)

أي الفجر طلوع شمس الحقيقة، هذا تعبير رمزي، أي أنت في الدنيا مسدد سعيد إلى أن يأتي ملك الموت و تنكشف عندها الحقائق، أنت بهذه الليلة عرفت الحقيقة في الوقت المناسب، عرفتها في الوقت المناسب، عرفتها و لكن الكفار يعرفونها بعد فوات الأوان، بعيدا عن التفسير الدقيق وعن خلاف

المفسرين، هذه خواطر، أعجبني من بعض العلماء فسّر القرآن و قال: خواطر إيمانية، حتى لا يحاسَب، خواطر إيمانية، أي:

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1))

(سورة القدر)

على هذا المعنى كل يوم عندك ليلة القدر، الباب مفتوح في واحد شوال و اثنين شوال و خمس شوال، و تشرين و كانون وشباط وآذار، أنت الآن في الطريق إلى الله عز وجل، بالغ في معرفته، جنِّد نفسك لخدمة خلقه، وفِّر وقتك لقراءة كتابه و لفهم كتابه، أطلق لسانك بالدعوة إليه، جند كاطاقاتك لخدمة خلقه، عندئذ يشف الله لك عن عظمته شيئا فشيئا إلى أن تقع في حالة سماها بعضهم حالة الفناء، أي تفنى عن ذاتك في شهود جلال خالقك، هذه بعض المعاني غير المتأنية والعميقة، بعض المعاني التي قد يفهمها الإنسان من سورة القدر.

الشيء الثاني موضوع العيد ؛ أي أجمل تعريف للعيد مأخوذ من العودة، النفس لا تأنس إلا برها، و لا تطمئن إلا بالقرب منه، ولا تسعد إلا بالإقبال عليه، وأنت و العيد في الإسلام من خصائصه أنه يأتي بعد عبادة ثمينة، عيد الفطر بعد الصيام، وعيد الأضحى بعد الحج، هذا العيد دليل أنك في هذا الشهر عدت إلى الله عز وجل، هذه العودة إلى الله عز وجل توجت بالفرحة، سؤال دقيق ؛ لو فرضنا إنسانا دخل امتحانا مصيريا، صف تخرج، دكتوراه في الطب مثلا، مهندس فرضا، يا ترى فرحته بانتهاء الامتحان، الامتحان شهر في الجامعة، فرحته الحقيقية بانتهاء الامتحان أم بالنجاح في الامتحان، بالنجاح، الانتهاء حتى الراسب ينتهي امتحانه، خلصنا الفحص، اليوم آخر يوم أستاذ، خلصنا، وهو خاسر، و إذا كان خلص الامتحان، ففرحة الطالب ليست في انتهاء الامتحان، لا فرحته في نجاحه في الامتحان، فمن نجح في هذا الامتحان في هذه الأيام الثلاثين، نجح فعلا فرحته في العيد حقيقية، الله عز وجل أكرمه و صام ثلاثين يوما، و قام ثلاثين يوما و شهد الفجر في جماعة ثلاثين يوما، و قرأ القرآن مرة، و ما مضى إلى الحرام، وما أكل درهما و لا تكلم كلمة سوء، لا غيبة و لا نميمة ولا سخرية، وشعر في الصلاة بأنه قريب من الله عز وجل، وبكى في التراويح، و شعر أنه انتقل نلة نوعية، كان يمشي في هذا المستوى صعد و بقي ماشيا، هذا واللهِ في عيد، فكنت أقول في خطبة سابقة: ليس العيد لأكل الثريد - عندنا فخذ اليوم - و لا بلبس الجديد، ولا بأكل الحلوى، و لكن إذا نال من التقوى ما يريد، هذا العيد، إذا وصلت غلى الهدف فأنت في عيد، فلذلك عيد المؤمن فرحة حقيقية، ولو فرضنا التقيت بأناس في عيد، في رمضان هم هم لم يتغيروا، اختلاط و لقاءاتهم و لهوهم و مزحهم، طريقتهم في الحياة، كسبهم للمال، و إنفاقهم للمال هو هو، تجده في العيد يقول: فيه أمر، صحيح فيه أمر، شيء ممل لأنه، صار له ثمانون سنه و هو يعيد، أتى بالشكلاطة و الحلويات، فصل بذلة و استقبل الناس، كل عام

و أنتم بخير، و كل واحد زاره رد له الزيارة، من لم يجد يترك له كارت، وضع الكارت، و يا ربنا نجده، واللهِ شيء ممل، فالعيد في حقيقته عملية عودة إلى الله عز وجل، أو نجاح في امتحان، عيد الفطر و عيد الأضحى.

أما الشقُّ الثالث في حديثي ما بعد العيد، واللهِ الذي لا إله إلا هو أشعر كل عام بنشاط بعد العيد لمتابعة الطريق إلى الله عز وجل، لأنك أنت الله عز وجل كشف لك شيئا من جنابه في رمضان، رفع قليلا من الستار، رأيت شيئا من جماله، هذا الجمال الذي رأيت منه طرفا في رمضان ألا يستهويك أن تشمر و تنطلق، لا أعرف كيف أعبِّر عن هذا، أحيانا الطفل الصغير لا يحب الموز فرضا، والأب يعرف لو أنه أكل منه عضة واحدة لتعلق به تعلقا شديدا، يصير كالروح له، لا يتركه علق به، إلى أن يبلغ درجة الذوق، فأنا لا أعتقد مسلما صادقا مؤمنا كاملا يغيِّر شيئا ما بعد العيد إطلاقا، أما هؤلاء عامة الناس فو اللهِ الذي لا إله إلا هو قال عنهم أحد العلماء كلمة أنا أترفع عنها، صيام البهائم، ترك الدعام و الشراب، نظرات خبيثة، أحوال شهوتهم هي هي، ما فعل شيئا، فصيام البهائم شيء و صيام المؤمنين شيء شيء آخر، و صيام خواص الخواص شيء ثالث، هؤلاء عن الطعام و الشراب، وهؤلاء عن المعاصي، وهؤلاء عما سوى الله، فأنا أشعر و ما يشعره كل مؤمن له برنامج دقيق، في صلاة الفجر كيف كان في رمضان، كل يوم، استمرار، بشكل أو بآخر خط ماش، رمضان صعد، فتظل ماشيا إلى فوق، ولا تنزل إلى المكان الذي كنت فيه، ما استفدت شيئا، أنت الآن صعدت صعودا نوعيا، البطولة في الحفاظ عليها، كثير من الناس يفتحون بلادا وينتصرون بكسب أراضي، فالاحتلال لا قيمة له، أما البطولة الحفاظ على هذه الأرض المحتلة، أو المفتوحة، يمكن أن تحتلها و تخرج منها، أما البطولة الحفاظ، النصر لا قيمة له، أما القيمة أن تحافظ عليها، فأنت في معركة الإنسان مع الشيطان، إذا انتصرت على الشيطان البطولة الحفاظ على هذا النصر، هذه البطولة، فلذلك الذي عود نفسه أن تكون له جلسة صباحية مع ربه في رمضان فليستمر فيها، والذي عود نفسه على أن يكون غضٌّ بصره حازما جدا في رمضان فليستمر فيه، والذي عود نفسه تنزيه اللسان عن أي كلمة خلاف الحق، عن كلمة غيبة واحدة، عن كلمة سخرية واحدة، عن كلمة سوء واحدة فليستمر في ضبط لسانه، و يستمر في ضبط عينيه، و يستمر في ضبط أذنيه، في رمضان إذا لم يسمع الغناء لا يسمع بعده الغناء، هذا الذي قال:

رمضان ولّى هاتها يا ساقي مشتاقة تسعى إلى مشتاق

هذا لم يصم إطلاقا، فكل إنسان يعود إلى ما كان عليه قبل الصيام هذا كأنه ما صام، أي كأنه فتح حنفية على برميل ليس له قعر، لا يمتلئ البرميل، لا قعر له إطلاقا، إذا لم يكن له قعر محكَم لا يمتلئ هذا البرميل، هكذا.

إذًا ليلة القدر من جهة، والعيد من جهة ثانية، الفرح الحقيقي لا بانتهاء الفحص، بل بالنجاح في الفحص، والفقرة الثالثة ما بعد العيد يجب أن يكون استمرارا لما قبل العيد، هكذا المؤمن، ذكره، إذا في رمضان قرأ القرآن عليه أن يتابع قراءته بعد رمضان، بالعكس الشيء الذي ذاق كعمه في رمضان و أعجب بهذا الطعم عليه أن يستمر عليه بعد رمضان.

هذه بعض الملاحظات التي كنت أتمنى أن تكون بين أيديكم في هذا الدرس الأخير من رمضان، ونحن بالناسبة قلنا أن هناك تعطيل يوم الخميس و الجمعة و السبت و الأحد، و نستأنف الدروس إن شاء الله تعالى بعد رمضان، الجمعة بعد المغرب دائما، والأحد صار بعد المغرب، مع تقديم الساعة، و درس الخميس و السبت، درس الخطباء و الدعاة يكون بعد أذان العشاء مباشرة، هذان الدرسان لفترة بسيطة.

هناك إخوان اقترحوا علي اقتراحا واللهِ أعجبني تماما، نحن في العيد نشتاق لبعضنا البعض، و الزيارة واردة، من السنة الزيارة، لكن الأماكن متباعدة، شيء ضمن دمشق، و شيء خارج دمشق، فاقترحوا علي أن نعمل نصف يوم في العيد، بهذا المسجد لتلقي الزيارات، فعرضت الأمر على إخواننا فكان فيه ترحيب كبير، نعمل ثاني يوم العيد من الساعة العاشرة وحتى أذان الظهر، فكل أخ أراد أن يزور أخا يلتقي معه في المسجد، عندنا قاعة فوق في المكتبة و القاعة كبيرة، وبلغوني أن هناك ضيافة، قهوة و شوكولا، ويمكن ثاني عيد يكون هناك حلويات، لا نعرف ما الذي يحدث معنا، هذه المرة منطلق، فنحن نعمل معايدة في هذا المسجد، اليوم الثاني الساعة العاشرة وحتى آذان الظهر، فأولا يصير أنه يركب من باص إلا باص فلا يجد، يشعر بخيبة أمل، والزيارات في العيد واردة، أما نحن فجمعنا كل هذه الزيارات،وكل هذه التقاطعات جمعناها بوقت محدد، فأنت إذا جئت إلى هذا المسجد، تلتقي بكل إخوانك في العيد، و تلتقي بمن تحب، وهذا الواجب أدّيته من دون ما تكون هناك زيارات خلبية، غير مجدية، هكذا الاقتراح ووجدته مناسبا، ونحن عندنا قاعدة، عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ

((جَاءَ نَاسٌ مِنْ الْأَعْرَابِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ الصُّوفُ فَرَأَى سُوءَ حَالِهِمْ قَدْ أَصَابَتْهُمْ حَاجَةٌ فَحَثَّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ فَأَبْطَئُوا عَنْهُ حَتَّى رُئِيَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ قَالَ ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ جَاءَ بِصُرَّةٍ مِنْ وَرِقٍ ثُمَّ جَاءَ آخَرُ ثُمَّ تَتَابَعُوا حَتَّى عُرِفَ السُّرُورُ فِي وَجْهِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ))

(رواه مسلم)

هذه من السنة الحسنة، لقاء في العيد، لقاء موحد، ما بقي من أيام العيد لك أقرباء، ولك رحم، الأقرباء الذين لا يتاح لك أن تراهم إلا في العيد، العيد لهم، له خالة و له عمة، وله بنت في طرف المدينة، فأنت

من واجبك أن تصل الرحم، مناسبة، أما ثلاثة أيام لإخوانك و أنت معهم طول السنة، وأهملت رحمك فقد وقعت في خطأ، وحدث هناك تقصير، لك أخت غالية عليك، يجب أن تزورها في العيد، ألك عمة، و لك خالة، ولك قريب، و لك جد مثلا، لك ابن ابن، كل واحد له أقرباء، فالعيد مناسبة مهمة جدا لصلة الرحم، وحتى لا نعمل صلة رحم على حساب إخواننا عملنا يوم ثلاث ساعات أربع ساعات في اليوم الثاني، حتى لو كان يوم الجمعة، تأتي رأسا بعد ذلك على الخطبة، و تطلع خالصا، زيارة و خطبة.
بقي عندنا فقرة بسيط، هل هناك سؤال، إذًا ثاني يوم العيد إن شاء الله من الساعة العاشرة وحتى أذان الظهر، وأنا موجود في هذا الوقت بالتمام، في المكتبة فوق، عندنا قاعة مكتبة واسعة كثيرا، وفيها كراسي، و سيعملون لنا قهوة.

اليوم الموضوع عن سيدنا عبادة بن الصامت، نقيب في حزب الله القديم طبعا، سيدنا عبادة بن الصامت بعد كونه من الأنصار هو واحد من زعماء الأنصار الذين اتخذهم النبي عليه الصلاة و السلام نقباء على أهلهم و عشائرهم، لا أطيل عليكم، و لكن لفت نظري في هذه السيرة موقف واحد تأثرت له تأثرا بالغا، قال: ومنذ اختار - هذا الصحابيُّ- اللهَ ورسوله، اختارهما على من سواهما، وهو يقوم على أفضل وجه بتبعات هذا الاختيار، كل ولائه لله، كل طاعاته لله، كل علاقاته بأقربائه وبحلفائه و بأعدائه إنما يشكلها إيمانُه، هنا النقطة الدقيقة، إنسان له ترتيب، و له مواقف، وله علاقات، و له مودات، وله عداوات، له بذل و له منع، له لقاءات، له قطيعة، هذه المنظومة من العلاقات الاجتماعية قد تشكلها مصالحُه، وقد تشكلها عصبيته، و قد تشكلها تجارته، له شركة مثلا، ضد الإسلام يحبه، يقول لك: والله ربحنا منه، يضيفه خمرا، لا يهمه، لكن أخي هذا فيه ربح منه، هذا تشكيل حياته على أساس مصالحه، هناك إنسان تشكيل حياته على أساس عصبيته إلى أسرته أو إلى عائلته، أو إلى حيه، أو إلى بلده، لكن المؤمن يشكل كل علاقاته وفق إيمانه، هذه النقطة التي أثرت في نفسي، أنت لا تكون مؤمنا حقا إلا إذا غضبت لله، ورضيت لله وأعطيت لله ومنعت لله، وابتسمت لله وعبست لله، ودفعت لله و منعت لله، ووصلت لله و قطعت لله، هذا المؤمن، إذا كنت تفعل هذا لأجل الله فأنت مؤمن ورب الكعبة، فأنا هذه الكلمة اكتفيت بها عن هذا الصحابي، قال: كل ولائه لله، كل طاعاته لله، كل علاقاته بأقربائه لله، بحلفائه لله، بأعدائه لله، كل هذه العلاقات إنما يشكلها إيمانه، أحيانا واحد مثلا يكون مؤمنا في مقتبل حياته، ويريد أن يتزوج، و له ثلاثون شرطا، يريدها صاحبة دين، صائمة مصلية محجبة، من أسرة راقية، من أسرة دينة، هذا الجهاز ممنوع، وهذا الاختلاط ممنوع، سهرات لا توجد، يعطيها ثلاثين شرطا، يشكل زواجه وفق إيمانه، يريد أن يذهب إلى النزهة مع بيت خالته وبيت عمته، يذهب إلى النزهة، و لكن يشكل النزهة وفق إيمانه من غير اختلاط، كل يجلس وحده، أراد أن يعمل حفلة عرس مثلا، لا مانع، يشكل الحفلة وفق إيمانه، لا يوجد هناك من يصعد و يصور النساء، هذه لا يعملها، لا يقدم طيرا تمثالا،

بل يقدم مصحفا، يشكل الكتاب و العقد و العروس وفق إيمانه، جاءه الأولاد يربيهم وفق إيمانه، فتح محلا تجاريا، لا يوجد فيه بيع بضاعة محرمة، أخي لحم الخنزير - مرتديلا- لا يبيعها، سندويش تُطلب، مليون سندويش، هذه محرمة، فتجد بيعه و شراءه، لا يبيعها في السوق و يقول:هذه رائجة نشتغل في الفيديو مثلا، تشكل مصلحتك و مهنتك و زواجك واحتفالك و نزهتك و سهرتك، كل هذا يشكل وفق إيمانك، ليس عنده شغلة نشاز، أنت مؤمن، نزهتك وفق الإيمان، ليس فيها اختلاط، تنتقي مكانا بعيدا عن الناس، ليس معناه إذا لم يكن اختلاط تقعد في مكان مزدحم مع الكاسيات العاريات، أخي مقهى لا يوجد، تنتقي نزهتك وفق إيمانك، حفلاتك، تنتقي زوجتك، تربي أولادك و تختار مهنتك، الآن علاقاتك مع الناس، الذي فيه إيمان صادق تصادقه، والذي عنده استهزاء بالدين تعاديه، إذا لا تعاديه اتركه، هذا ليس من جنسي، هذا من طبيعة ثانية، لا تقيم معه علاقة حميمة، يا ليت أن الإنسان يشكل علاقاته وفق الإيمان، يبني علاقاته كلها وفق إيمانه، حتى مزاحه، ليس عنده مزاح خلاف الشرع، مزاحه إسلامي، كان النبي يمزح ولا يمزح إلا حقا.

نأتي بمثل عملي ؛ كانت عائلة عبادة مرتبطة بحلف قديم مع يهود بني قينقاع بالمدينة، و لما هاجر النبي عليه الصلاة و السلام إلى المدينة ويهودها يتظاهرون بمسالمته، و لكن هذه القبائل إحدى قبائل اليهود بني قينقاع افتعلت أسبابا للفتنة و للشغب على المسلمين، انظر الآن، و لا يكاد عبادة - عائلة عبادة علة صلات حسنة جدا مع بني قينقاع، هناك علاقات شخصية، و هناك مصالح، قال: ولا يكاد عبادة يرى موقفهم هذا حتى ينبذ إليهم عهدهم و يفسخ حلفهم و يقول: إنما أتولى الله و رسوله والمؤمنين، فينزل القرآن الكريم محيًّا موقفه وولاءه، يقول الله عز وجل:

(وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (56))

(سورة المائدة)

تحت قدمه، ولاءه القديم تحت قدمه، ما نشأ عليه مع أسرته تحت قدمه، قال: هذه كلمته - إنما أتولى، فنزل قوله تعالى:

(وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (56))

(سورة المائدة)

سمع النبي عليه الصلاة و السلام - هنا نقطة ثانية - نحن نسمع أحاديث كثيرة عن رسول الله، بآلة الدارجة هناك أشخاص يسمع الحديث ولكن لا يغضه كثيرا، فهذا سيدنا سعد قال: ثلاث أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك أنا واحد من الناس، ما سمعت حديثا من رسول الله صلى الله عليه و سلم إلا علمت أنه حق من الله تعالى

فهذا سيدنا عبادة سمع من رسول الله مرة قال عن مسؤولية الأمراء و الولاة،

((عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي قَالَ فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ثُمَّ قَالَ يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةُ وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا))

(رواه مسلم)

فقال: فزُلزل بهذا الحديث زلزالا، وأقسم بالله ألاّ يكون أميرا على اثنين أبدا، النبي بيّن أن هذا الأمير أو الوالي عليه حساب شديد،

((عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي قَالَ فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ثُمَّ قَالَ يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةُ وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا))

(رواه مسلم)

هكذا قال النبي اللهم صل عليه، فخاف أن يكون مسؤولا فحلف بالله ألاّ يتولى إمارة على اثنين أبدا، لا يوجد خليفة ما حاول إقناعه بشت الوسائل ما استطاع، سيدنا عمر بذل المستحيل لإقناعه أن يتولى منصبا، ما رضي، إلا منصبا واحدا، ما هذا المنصب ؟ العلم،إلا تعليم الناس و تفقيههم في الدين، هذا قبله، وهذا منصب فيه شرف كبير، و ليبس فيه دنيا، وليس فيه ظلم، هذا أشرف علاقة بين إنسانين علاقة تعليم، أشرف علاقة بين إنسان و إنسان هي علاقة التعليم، لذلك قبل تعليم الناس و تفقيههم في الدين.

كانت له مواقف جريئة من الولاة في الشام، وهي مواقف جريئة جدا، فقال مرة

((عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ))

(رواه البخاري)

والي الشام من قِبل سيدنا عمر ضاق به ذرعا من انتقاده الشديد فشكى إلى سيدنا عمر، وسيدنا عمر فهم القضية تماما فقال له: ارجع إلى مكانك فقبَّح الله أرضا ليس فيها مثلك، ولا إمرة لأحد عليك يا عبادة " أعطاه استثناء و سمح له أن يكون عينا يقظة، ولسانا ناقدا لكل من تجاوز حدوده في الولاية.

توفي هذا الصحابي الجليل بالرملة في أرض فلسطين تاركا في الحياة عبيره و شذاه.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (013) :محاسبة النفس .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-11-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، في الدرس الماضي كان الموضوع الأدب مع الله عز وجل، و اليوم الموضوع محاسبة النفس، و قبل أن نبدأ في الموضوع أريد أن أضع بين أيديكم بعض الحقائق، أصحاب النبي عليهم رضوان الله سمعوا أقوال النبي و طبّقوها، بل إن بعض الأعراب سمع آية واحدة من كتاب الله من رسول الله صلى الله عليه و سلم، قال: قد كفيت، فقال عليه الصلاة و السلام: فقه الرجل، إذًا نحن أمام كتاب كريم يعد ستة مائة صفحة، ونحن أمام تراث نبوي عظيم يزيد عن مئات الألوف الأحاديث الشريفة، لو أن الإنسان قرأ آية و تدبرها و طبقها فقف ثمارها لكان خيرا له من آلاف المعلومات والحقائق التي سمعها و تبقى في حيز التفكير، فالعبرة في التدبر، العبرة في التحقق، و العبرة أن تكون في مستوى الآية أو الحديث، فربنا عز وجل هل ذكر آية في القرآن بمعنى أن يحاسب الإنسان نفسه ؟ سؤال، هل في القرآن آية تشير أو تأمر بمحاسبة النفس، الأستاذ عبد الرحمن،

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14))

(سورة القيامة)

هو بصير، هو يعلم حقيقة نفسه من دون شك، الإنسان لا يستطيع أن يجهل نفسه إطلاقا، لأن الله عز وجل يقول:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14))

(سورة القيامة)

هذا شيء واقع، أما هل هناك توجيه من قِبل الله عز وجل لهذا الإنسان أن يحاسب نفسه، هذه في الآخرة:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (14))

(سورة الإسراء)

نعم: فمن يعمل، هذه قاعدة و قانون ينبئك أن كل عمل مهما دقّ سوف تحاسب عليه، تفضل، أيضا تقرير حقيقة ثابتة هذه، تفضل،

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)

(سورة هود)

هذا أمر بالاستقامة،

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (36))

[سورة الإسراء]

هذا أمر ألاّ تروي شيئا لست متحققا منه، السيد هشام، هذا أمر متوجه إلى تزكية النفس، أما الإنسان أحيانا قبل نهاية الموسم إذا كان عنده متجر، عنده معمل، عنده مؤسسة منشأة، يا ترى ما عليه ديون، المحاسبة السنوية جرد الأرباح و الخسائر، كيف تعرف أرباحك من خسائرك، تجرد البضاعة، وما لك من ديون، و قيمة الموجودات ثابتة و تجرد ما عليك من التزامات، تعمل موازنة يطلع معك الربح، هذه عملية محاسبة، السيد سمير، بارك الله بك، هذه هي الآية التي تدعونا إلى أن نحاسب أنفسنا،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

(سورة الحديد)

أي أطيعوا الله، التقوى هي طاعة الله بمعناها البسيط، تطيعه إذا عرفت أمره، من لوازم التقوى أن تتعرف إلى أمر الله عز وجل، إذًا معرفة أمر الله فرض عين، لأن الله يأمرك أن تتقيه، يأمرك أن تتقي عذابه بطاعته، أن تتقي سخطه برضوانه، أن تتقي الكفر بالإيمان، أن تتقي الشرك بالتوحيد، أن تتقي إتلاف المال بكسبه من وجوه حلال، فالتقوى،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18))

(سورة الحشر)

يا ترى ما عملي ؟ هل لي عمل يصلح للعرض على الله عز وجل ؟ كل إنسان يحاسب نفسه، ـأكلنا و شربنا، و ذهبنا وعدنا، و تركنا وربحنا، وتاجرنا، وسافرنا و عدنا، الشكل الذي تلقى الله به ما هو ؟ العمل الذي تعده للقبر، القبر صندوق العمل، ما هو ؟ إذا أغمضت عينيك و تصورت أنك لاقيت الله عز وجل ما العمل الذي تعرضه على الله عز وجل؟ هذه المحاسبة،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18))

(سورة الحشر)

هناك أشياء ينتهي أثرها في الدنيا، هناك أشياء ينتهي أثرها عند الموت، وهناك أعمال تستمر إلى ما بعد الموت، فالإنسان،

(وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)

(سورة الحشر)

الحقيقة العلماء قالوا: إن المحاسبة تأتي قبل التوبة و تأتي بعدها، تأتي قبل التوبة لتحمل على التوبة، و تأتي بعد التوبة لتحافظ على التوبة، عندنا محاسبة تكون تقبل التوبة، و محاسبة تكون بعد التوبة، فالتي قبلها من أحل أن تحمل عليها، و التي بعدها من أجل أن تحافظ عليها.

سيدنا عمر له قول شهير يقوله عامة خطباء المساجد،

((حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، زنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، و سيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت، و العاجز من أتبع نفسه هواها و تمنى على الله الأماني))

الآن موضوع المحاسبة ينقلنا بلطف إلى موضوع الاغترار، الإنسان أحيانا يغتر بالله عز وجل، و أحيانا يغتر بنفسه، و الذي يغره بالله، و يغره بنفسه هو الغرور، والغرور و هو الشيطان، وأخطر شيء في الإنسان أن يغتر بالله، أو أن يغتر بنفسه، يغتر بعمله، فما هو الاغترار بالله ؟ من يجيب على هذا السؤال ؟ الاغترار بالله، كيف يكون ؟ والله كنت مغرورا بك، كنت أظنك أحسن، طلعت أسوأ، هذا المعنى يستقيم مع حضرة الله عز وجل، أعوذ بالله لا يستقيم، أن يأمن مكر الله،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5)

(سورة فاطر)

يغرنكم بالله، أنت منهي عن شيئين ؛ عن أن تغتر بالدنيا، و عن أن تغتر بالله عز وجل، فالاغترار بالله له معنى دقيق جدا، ما هو ؟ تفضل، أن يظن أن الله لا يحاسبه، و الحقيقة أن سيحاسبه، أن يظن أن الله عز وجل لن يؤاخذه، والحقيقة أن الله سيؤاخذه، أن يظن أن الله سيعفو عنه، و الحقيقة أن الله عز وجل لا يعفو عنه إلا بأسباب، لذلك من المهلكات أن يغتر الإنسان بالله عز وجل، أوضِّح هذا بمثل ؛ لو أن إنسانا مطلوب للقضاء بقضية لها عقاب كبير، هو اطمأن و قال: هذا القاضي سأقدم له هدية و سيحكم لي، و القضية بسيطة جدا، نقول: هذا الإنسان مغتر بالقاضي، القاضي لن يقبل هدية و لن يحكم إلا بالحق، فأن تظن أن القاضي يقبل هذه الهدية فهذا اغترار بالقاضي، والاغترار مهلك، أو أن طالبا عليه امتحان شفهي مصيري، يتوقف عليه نجاحه، يقول:هذا الأستاذ أقدم له هدية و يعطيني السؤال مسبقا، أحضِّره وأنجح، هذا اغترار بهذا المدرس النزيه، فالاغترار بالله عز وجل أن تظنه لن يعدل بين خلقه، أن تظنه سيحابيك لأنك مسلم، لأنك من أمة محمد،

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ فَقَالَ يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا))

(رواه مسلم)

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ

سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

لا يأتيني الناس بأعمالهم و تأتوني بأنسابكم، فالاغترار بالله عز وجل أن تظنه على صفة هو منزه عنها، أن تظنه بظن، لذلك الله عز وجل قال:

(الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ)

(سورة الفتح)

حسن الظن بالله ثمن الجنة، فأول معنى من معاني الاغترار ما الذي يعيق المحاسبة ؟ أن تغتر بالله عز وجل، ما الذي يصرفك عن أن تحاسب نفسك الاغترار بالله، وأقول العوام دائما " أخي الله عز وجل غفور رحيم " ربنا عز وجل قال:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50))

(سورة الحجر)

الاغترار أن تقول:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53))

(سورة الزمر)

أكمل الآية:

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55))

(سورة الزمر)

إذًا الذي يصرفك عن أن تحاسب نفسك الاغترار بالله، والاغترار بالدنيا.

مرة ضربت مثلا قلته سابقا، رجل توفي رحمه الله حدّثني عن شيء كان يفعله حينما كان شابا، كان في محل في سوق الحميدية يشتغل صانعا، فعنده هواية أن يجمع قمامة المحل، و يضعها في علبة فخمة، و يلفها بورق هدايا و يضع لها شريطا، ويضعها على الرصيف، و يراقب المارة، فيمر إنسان و يجد علبة أنيقة، في ورق هدايا وعليها شريط يلمع، يحملها و يمشي، فيلحقه هذا الرجل، بعد مائة متر يفك الشريط، يا رتى طقم غرافات، طقم جرابات، ساعة، لا تعرف ما في العلبة، بعد مائة ثانية يفك الورق، بعد ذلك يفتح فيجد زبالة، و القمامة، يصاب بخيبة أمل مرة، هذا المثل و إن كان صارخا، لكنه واللهِ ينطبق على الدنيا تماما، بمقتبل الحياة يظن أن المال كل شيء، وأن اللذة والمتعة والمباهج كل

شيء، كلما اقترب من القبر ذوت هذه الدنيا و ظهرت حقيقة عظمى، وهي أن الله سبحانه و تعالى هو كل شيء، ليس في الكون إلا حقيقة واحدة هي الله، كل ما قربك إليه هو الحق، و كل ما أبعدك عنه هو الباطل، كل نشاطك إذا جمعك على الله عز وجل فهو النشاط الصحيح، وإذا صرفك عن الله عز وجل فهو الباطل، هذه حقيقة، لكن البطولة أن تعرف هذه الحقائق الخطيرة في مقتبل العمر، وأنت صحيح شحيح، في شبابك، وفي أوج حياتك، من هنا كان التعليم، الحقيقة فرعون الذي قال: أنا ربكم الأعلى، و الذي قال: ما أرى لكم من إله غيري، و الذي فعل، حينما جاءه الموت عرف الحقيقة، فمعرفة الحقيقة قضية لا بد منها، أما المشكلة متى تعرف الحقيقة، إذا عرفتها في خريف العمر فالوقت قليل، و الجسم أصبح مريضا، أما إذا عرفتها في شبابك، واللهِ هناك كلمات لرسول الله تُكتب بماء الذهب، اغتنم خمسا، اغتنم، إذًا الذي يصرف الإنسانَ عن محاسبة نفسه اغترارُه بالله عز وجل، أو أن يفهم الشفاعة فهما ساذجا، يا أخي نحن أمة محمد مرحومة، النبي عليه الصلاة و السلام يشفع لنا، هذه خطأ في الكنباية من رأس الماعون، ما هذه الشفاعة ؟ الشفاعة حق، و هذا ثابتة في الأحاديث الصحيحة، و لكن النبي عليه الصلاة و السلام لا يشفع إلا من غير مشرك، هذا في صحيح مسلم، فإذا مات الإنسان غير مشرك وصل إلى كل شيء، شفاعة النبي عطاء إضافي، إكرام إلهي عن طريق النبي، أما واحد غارق في المعاصي و الشهوات يستوي يوم القيامة مع مؤمن يعمل الصالحات، هذا شيء مستحيل،

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21))

[سورة الجاثية]

وقال تعالى:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ)

(سورة الزمر)

يا محمد

(تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19))

(سورة الزمر)

فلذلك مما يصرفك عن محاسبة النفس بعض العقائد الزائغة، بعض العقائد الزائفة، بعض العقائد الفاسدة، أن الله عز وجل، النبي سيشفع لنا، و قد قال النبي وقد رأى أمته

((عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ قَالَ أَبُو حَازِمٍ فَسَمِعَنِي النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عَيَّاشٍ فَقَالَ هَكَذَا سَمِعْتَ مِنْ سَهْلٍ فَقُلْتُ نَعَمْ فَقَالَ أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ

الْخُدْرِيِّ لَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَزِيدُ فِيهَا فَأَقُولُ إِنَّهُمْ مِنِّي فَيُقَالُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي))

(رواه البخاري)

هذا كله في الأحاديث الصحيحة،

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ فَقَالَ يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا *))

(رواه مسلم)

هذا الحديث يكتب بماء الذهب

((فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا))

بالعكس عليه الصلاة و السلام قال: لا أمثل بهم فيمثل الله بي و لو كنت نبيا..." هذا الحق، الله عز وجل لا يحابي أحدا، قال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

وقال تعالى:

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47))

(سورة الحاقة)

إذًا يصرفك عن أن تحاسب نفسك، أن تغتر بالله عز وجل، و أن تغتر بالحياة الدنيا، فتراها كل شيء، و أن تغتر بعملك غير الصالح، لك أعمال صالحة مع ركام من الأعمال السيئة، تقول: الله عز وجل هذه بتلك، أي يعمل حسنة فيقول: هذه في مقابلها هناك عشر حسنات، السيئة الواحدة على طول ميزان راجح، هذه كلها حسابات غير صحيحة، الآن إذا أردنا أن نحاسب أنفسنا ما المقياس، نريد أن نقيس هذا القماش هناك متر، نريد أن نقيس الحرارة هناك ميزان الحرارة، نريد أن نزن الذهب هناك ميزان ذهب، فالآن ما المقياس في محاسبة أنفسنا، العلماء قالوا: ثلاث مقاييس، أولا: العلم، يجب أن تعلم أن الطريق إلى الله طريق وحيدة، ذات اتجاه واحد، و طريق السير فيها إجباري، إنه العلم، طريق آخر غير العلم مستحيل، لماذا ؟ بالجهل تعصي، وبالجهل تغتر، و بالجهل تبالغ، بالجهل تقع في الموبقات، تترك الصالحات و أنت لا تدري، فيجب أن تعلم أن صلاح العمل بصلاح العلم، لا يصلح عملك إلا إذا

صلح علمك، فأيُّ خلل في العلم يقابله خلل في السلوك، أي خلل في العقيد يقابله خلل في السلوك، الآية الكريمة التي قلتها يوم الجمعة:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الكهف)

قال: لماذا ضل سعيهم ؟ لأنه ضل اعتقادهم، صح اعتقادك صح عملك، ساء اعتقادك، ساء عملك، إذًا مادام العلم هو مركز الثقل فالتعلم هو الموجب لهذا العمل الصالح، العلم له مراتب كثيرة، من مراتبه أن تعرف أن هذا أمر الله و هذا نهيه، وهذا حلا و هذا حرام، و هذا واجب وهذا منكر، وهذا مستحب وهذا مندوب، وهذا فرض وهذا سنة، هذا العلم، كل شيء تفعله في الدنيا لا بد أن ينطبق عليه حكم لشرع،فإذا عرفت الأحكام الشرعية فهذه مرحلة لا بد منها، و لكن المشكلة، أن أناسا كثيرين يقفون عند الأحكام الشرعية، ولا يتجاوزونها إلى التطبيق، لذلك بعض العارفين بالله يقول: الدعاة إلى الله ثلاثة ؛ عالم بالشريعة، و عالم بالطريقة، و عالم بالحقيقة، عالم الشريعة يعرف أحكام الله عز وجل، إذا بلّغها للناس انتهت مهمته، أما عالم الطريقة هو عالم يعرف كيف تقع هذه الأحكام على النحو الذي يرضي الله عز وجل، عالم الشريعة يقول لك: قم صلِّ، توضّأ و استقبل القبلة، وقف واقرأ الفاتحة وسورة، أو ثلاث آيات و اركع مطمئنا و اسجد، إلى آخره، هذا عالم الشريعة، عالم الشريعة يقول لك: صم، و دع الطعام و الشراب و سائر المفطرات من طلوع الفجر الصادق إلى غياب الشمس بنية، عالم الشريعة يقول لك: الحج أعمال مخصوصة في أماكن مخصوصة في أزمان مخصوصة، لكن عالم الطريقة يجب أن يعرِّفك كيف تصلي، كيف تتصل بالله، يقول لك: إن لم تستقم لم تصلِّ، إن لك تحرر دخلك لم تصلِّ، إن لم تغض بصرك عن محارم الله لم تصلِّ، إن لم تضبط لسانك لم تصلِّ، عالم الطريقة يبيِّن لك كيف تستطيع أن تصلي، أن تتصل بالله، وكيف يصح صيامك و كيف يصح حجك، وكيف تُقبل زكاتك، فلذلك العلم علم بالحكم و علم بالحكمة، و علم بالله عز وجل، فالعلم هو الطريق إلى محاسبة النفس، أنت تعرف هذه الطريقة في البيع حرام، وهذه حلال، هذه الكلمة نميمة، وهذه غيبة، هذه النظرة محاسب عليها، هذه الشهادة لست متأكدًا منها، هذه شهادة زور، هذا الدفاع عن إنسان تحبه بالباطل، تحاسب عليه، هذه القطيعة منهي عنها، هذه العلاقة الحميمة مع إنسان غير مؤمن منهي عنها، فكلما ازداد علمك ازدادت أحكامك، إذًا العلم، إذًا ثلاث أشياء ؛ العلم أولا، و العلم ثانيا، و العلم ثالثا، أي شيء واحد، لذلك

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَوَاضِعُ الْعِلْمِ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمُقَلِّدِ الْخَنَازِيرِ الْجَوْهَرَ وَاللُّؤْلُؤَ وَالذَّهَبَ))

(رواه ابن ماجة)

لذلك:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر)

أي العلماء وحدهم و ليس أحد سواهم هم الذين يخشون الله عز وجل، لذلك حضور مجلس علم، و فهم كتاب الله و فهم السنة حتم واجب على كل مسلم، القضية ليست إمضاء وقت، و ليست تزكية وقت، وليست " واللهِ الدرس ممتع" و ليست " أنا اليوم متفرغ ليس عندي شيء، أذهب لأحضر درسًا " لا الأمر أخطر بكثير، الأمر

((دينك دينك، إنه لحمك و دمك، ابن عمر دينك دينك.......))

قال: من موجبات المحاسبة فضلا عن العلم بفروعه الثلاثة، عن العلم بالأمر، وعن العلم بالطريقة، و عن العلم بالحقيقة، سوء الظن بالنفس، فكل إنسان راضٍ عن نفسه، هذا لا يحاسب نفسه، وأن ترضى عن نفسك مرض خطير، "ماذا نفعل ؟ أنت هذه سهرة مختلطة، ما أكلنا أحدا، النظر و سبّح الله على الجمال، ماذا فعلنا، فيكون مع الإنسان حينما يرضى عن نفسه يكف عن محاسبتها، فرضاؤك عن نفسك أحد أمراض النفس، لذلك قال تابعي جليل:

((التقيت بأربعين صحابيا، ما منهم واحد إلا و يظن أنه منافق))

ما كان يرضى عن نفسه، أصحاب النبي ما كانوا يرضون عن أنفسهم، ليت أم عمر لم تلد عمر، ليتها كانت عقيما، أرجو الله أن أقدم عليه لا لي و لا عليّ" كلام سيدنا عمر، فكلما أسأت الظن بنفسك كلما ارتقيت عند الله عز وجل، و كلما أحسنت الظن بها حبطت مرتبتك.

الحقيقة متى تصغر نفسك ؟ إذا عرفت ربك، كلما عرفت الله عز وجل، و عرفت جلاله و عظمته صغرت نفسك أمامه، واستصغرتَ عملك، و استصغرت استقامتك وأعمالك الصالحة، و كلما غفلتَ عن الله عز وجل تضخمت نفسك، و رأيت لك أعمالا جليلة.

العلماء قالوا: لا يسيء الظن بنفسه إلا من عرفها، و مكن أحسن ظنه بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه، والحقيقة هذه قاعدة، لو التقيت مع أشخاص في غفلة شديدة يحدثك عن نفسه، أنا صاحب مبدأ، أنا كذا، وأنا كذا، حينما يرضى عن نفسه وهو يجهلها، لو أن الله عز وجل كرم الإنسان وجعله المخلوق الأول و سخر له ما في السماوات و الأرض من أجل أن يفعل شيئا يلقى اللهَ به، لذلك الشيء الثالث يجب أن تميز النعمة من الفتنة، هذه نقطة مهمة جدا، إنسان في بحبوحة، الله يحبني، من قال لك ذلك ؟

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ)

(سورة القصص)

وسيدنا ابن عوف كان من أغنى الصحابة، إذًا مادام الغنى يكون لشر العباد و لخير العباد إذًا ليس مقياسا، فنحن الآن أمام مشكلة إذا قدرت أن تفرق بين الفتنة و النعمة، إذا قدرت أن تفرق بدقة بالغة بين الفتنة و بين النعمة، طيب الدليل هناك آية قرآنية توضح هذه الحقيقة،

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16))

(سورة الفجر)

الله قال كلمة:

(كَلَّا)

(سورة الفجر)

كلا أداة نفي وردع، ليس هذا صحيحا، هذه مقولتكم، ليس عطائي إكراما، وليس منعي حرمانا، بل عطائي ابتلاء، و حرماني دواء، طيب ما المقياس ؟ كيف أفرق بين النعمة الفتنة ؟ نأخذ المال فرضا، في المثالب، في الصحة، في الجمال، في الذكاء، في القوة، قد تكون من أصحاب الأموال، و قد تكون من أصحاب السلطان، و قد تكون من أصحاب البيان، ومن أصحاب اللسان، و قد تكون وسيما، و قد تكون قويا، و قد يكون لك مركز قوي، هذه نعم أم فتن ؟ هل عندنا مقياس ؟ هناك مقياس، هذه الحظوظ إذا استخدمتها في طاعة الله و قربتك غلى الله فهي نعم كبيرة، أما إذا أبعدتك عن الله عز وجل فهي نقم و ليست نِعمًا، واحد الله عز وجل آتاه المال فأنفقه في طاعة الله، نعمة، المال من نعم الله الكبرى، أما إذا أنفقه في البُعد عن الله فهو من نِقم الله الكبرى، القوة إذا بذلتها من أجل الضعيف فهي من نعم الله الكبرى، فإذا بذلتها من أجل الحواشي و المقربين فهي من نقم الله الكبرى، وهكذا الذكاء المال و الجمال والنعمة و القوة و الصحة، هذه حد فاصل بين النعمة و بين النقمة، بين النعمة و بين الفتنة، أحيانا هنا تفريق آخر بين المنة و الحجة، أي القوة أحيانا تكون منذرة من الله إذا وظفها في طاعة الله، و إلاّ حجة عليه، المال منة و إلا حجة عليك، وهكذا، إذًا أول شيء يجب أن نتعلم حتى نمتلك المقياس في المحاسبة، الشيء الثاني يجب أن نسيء الظن بأنفسنا حتى نستطيع أن نحاسب أنفسنا، و الشيء الثالث يجب أن نفرق دائما بين المنّة وبين الحجة، وبين النعمة و بين الفتنة، أما إذا دفعه هذا الحالُ إلى الله، و كشف له بعض الكشوفات فهذا أصبحت نعمة.

عندنا نقطة ثانية في محاسبة النفس، الحقيقة الإنسان لا بدّ له أن يجلس مع نفسه جلسات، لا بد من أن ينطلق هذا الفكر في محاسبة نفسه، لو استُهلك استهلاكا رخيصا، لو طُحن بين عجلات الحياة، لو استهلكته الحياة استهلاكا رخيصا أمضى حياته سدى، و الحقيقة لما يأتي خريف العمر تظهر عللٌ في جسمه و متاعب و يصبح على شفير القبر، يندم و لا ساعة مندم.

عندنا ملاحظة و لها علاقة بمحاسبة النفس، أن الله سبحانه و تعالى يقول:

(فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (198) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (199))

(سورة البقرة)

أشرف مكان هو عرفات، وأشرف زمان يوم عرفة، وكان هذا الإنسان في حج عظيم، لماذا يجب عليه أن يستغفر الله عز وجل ؟ هذه بالحج، طيب في الصلاة، أُثِر عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه بعد الصلاة يقول: أستغفر الله، ثلاثا، أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، لماذا الاستغفار بعد الصلاة؟، و لماذا الاستغفار بعد الحج ؟ و لماذا الاستغفار عقب الطاعات ؟ هكذا سنّ النبي، و هكذا قال الله عز وجل، و هكذا سن النبي، هناك آية تقول:

(وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (17))

(سورة آل عمران)

صلى قيام الليل حتى جاء السحر، وصلى السحر، و بعدها جلس يستغفر، ماذا فعل حتى يستغفر ؟ قال: كلما رأيت الطاعة عظيمة قل شأنك عند الله، فإذا استقليت الطاعة في جنب الله و استغفرت الله عما فيها من خلل، عما بدر منك فيها من خلل، فأنت في المستوى المطلوب، فلذلك مما يدعوك إلى محاسبة النفس أنه حتى إذا فعلت الطاعات، وحتى إذا أقمت العبادات، وحتى إذا بذلت الخيرات لا بد من أنم تستغفر الله لعلك تنوي بها المباهاة بين الناس، لعلك تنوي بها أن يمتدح الناس سيرتك، لعلك ترجو غير الله، كنت أقول لكم دائما هذا الدعاء ؛ أربعة أدعية أدعوها و أشعر أننا جميعا بحاجة إليها، وجدتها في مقدمة كتاب، الأول: اللهم إني أعوذ بك أن أقول قولا فيه رضاك، ألتمس به أحدا سواك " ممكن تكلم كلاما أحلى من العسل، يُكتب بماء الذهب، و مع ذلك تبتغي به غير الله، ليمتدحك الناس، كي تصرف وجوه الناس إليك، و الدعاء الثاني: " اللهم إني أعوذ بك أن أتزيّن للناس بشيء يشينني عندك " و الدعاء الثالث: " اللهم إني أعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك " أحيانا الإنسان يزور آثارا يرى، الله عز وجل قال: فجعلناهم أحاديث.." كان لهم شأن و عظم و صولة و دولة فصاروا أحاديث، الأهرامات مثلا، آثار الرومان، آثار شامخة الله عز وجل قال:

(فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

(سورة سبأ)

فإذا الإنسان عصى الله عز وجل والله أدّبه انتهت حياته و صار قصة، هو نفسه صار قصة تُروى للموعظة، واللهِ هذه من المصائب أن تكون قصة سيئة للعبرة، فاللهم إني أعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك " و آخر دعاء: " اللهم إني أعوذ بك أن يكون أحد أسعدَ بما علّمتني مني " واللهِ أكبر مصيبة،

تتعلم آية و تشرحها للناس و يتأثر الناس بها ويطبّقونها، يسعدون و أنت لستَ مطبقا لها، المشكلة كبيرة جدا، فإذا أردت أن تكون أسعد الناس احرص على أن تسبق الناس في الطاعة.

محور الدرس الأحكام الشرعية وحدها لا قيمة لها ما لم تطبَّق، بل إن من تعاريف الحقيقة تطبيق حكم الشريعة، الشريعة إذا بقيت في حيز الفكر، و قرأناها في الكتب، درسناها، ودرَّسناها، شريعة، أما إذا طبّقناها و قطفنا ثمارها أصبحت حقيقة.

ورد في الصحيح عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَالَ اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ))

(رواه مسلم)

وأنت تصلي، لعلك أتاك خاطرٌ، لعل صار في غفلة، أو صار في سهو، فالاستغفار يرمِّم و يُشعِر بالتقصير، أما الذي يدل بعبادته و يختال بها و يفتخر بها فعبادته تحتاج إلى توبة، هناك توبة تحتاج إلى توبة، وهناك إخلاص يحتاج إلى إخلاص، لما عبَّرت عن إخلاصك لله فهذا الإخلاص يحتاج إلى إخلاص، وهناك توبة تحتاج إلى أن تتوب منها.

بعض العارفين قال: متى رضيت نفسك وعملك فاعلم أن الله غير راض عنك - قاعدة- ومن عرف نفسه مأوى كل عيب و شر، و عمله عرضة كل آفة و نقص رضي الله عنه " معناه هناك تقدم سريع، وهناك محاسبة سريعة.

الآن نختم هذا البحث بآخر موضوع في موضوع المحاسبة، هو الحقيقة يقولها الخطباء " حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، والدليل القرآني عليها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)

(سورة الحشر)

هذه المحاسبة، انظر إلى رأس مالك، والمطالب و الموجودات، حسابا، ديون، سندات، المقبوضات، البضاعة، الجرد، هذه المحاسبة.

قال: من لوازم المحاسبة أن تربأ بنفسك عن تعيير المقصِّرين، النبي عليه الصلاة و السلام يقول

((" الذنب شؤم على غير صاحبه..........))

لك أخ فعل ذنب، فأنت عندك ثلاث منزلقات خطيرة ؛ إن ذكرت هذا الذنب للناس من دون حاجة فقد اغتبته، وإن عيّرته بذنبه ابتُليت به، وإن رضيت به شاركته في الإثم، فكي فاعل الذنب ؟ بربكم إذا كان الذي لم يفهم معرَّض لثلاث مزالق ؛ إن ذكر هذا الذنب من دون حاجة فقد اغتابه،وإن رضي به فقد

شاركه في الإثم، وإن عيّره ابتلي به، لذلك من لوازم المحاسبة، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس،

((نْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ))

(رواه الترمذي)

أن تربأ بنفسك عن تعيير المقصِّرين، فلعل تعيير ك لأخيك من ذنبه أعظم إثما من ذنبه، دققوا ؛ لعل تعيير ك لأخيك من ذنبه أعظم إثما من ذنبه، لذلك مرض الدعوة و الكبر و العجب هذا مرض خطير، لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أكبر، أي ما هو أكبر من الذنب، ألا وهو العجب العجب "

قال بعض العارفين: " فما أقرب العاصي من رحمة الله، وما أقرب المدِلَّ من مقت الله " المدل الذي يتباهى بطاعته، و يعتدّ بها و يتيه بها على خلق الله، لعل العاصي أقرب إلى الله عز وجل من هذا المدل بكاعته، لذلك الإمام ابن عطاء الله السكندري يقول: رُبَّ معصية أورثت ذلا و انكسارا خير من طاعة أورثت عزا و استكبارا "

قال: ذنب تذل به لديه أحب إليه من طاعة تدل بها " صليت قيام الليل، تشرفنا يا سيدي، أفضل من طاعة تدل بها، " لأن نائما و تصبح نادما خير من أن تبيت قائما و تصبح معجبا " حاسب نفسك، فيها تيه، فيها كبر، فيها اعتداد بالنفس، إن المعجب بنفسه لا يصعد له عمل " " أنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين المدلّين " هذه كلها من رعونات النفس، كما قلت لكم مرة: رقصت الفضيلة تيها بنفسها فانكشفت عورتها، الفضيلة من لوازمها أن تسكت عنها، و أن تتواضع، لذلك النبي عليه الصلاة و السلام حينما ذهب سيدنا عمر إلى العمرة قال

((عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ اسْتَأْذَنَهُ فِي الْعُمْرَةِ فَأَذِنَ لَهُ فَقَالَ يَا أَخِي لَا تَنْسَنَا مِنْ دُعَائِكَ وَقَالَ بَعْدُ فِي الْمَدِينَةِ يَا أَخِي أَشْرِكْنَا فِي دُعَائِكَ فَقَالَ عُمَرُ مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ لِقَوْلِهِ يَا أَخِي))

(رواه أحمد)

دخل عليه رجل، النبي من صفاته من رآه بديهة هابه، و من عامله أحبه، قال

((، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ فَقَالَ لَهُ هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

(رواه ابن ماجة)

((ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا زَنَتْ الْأَمَةُ فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا فَلْيَجْلِدْهَا وَلَا يُثَرِّبْ ثُمَّ إِنْ زَنَتْ فَلْيَجْلِدْهَا وَلَا يُثَرِّبْ ثُمَّ إِنْ زَنَتْ الثَّالِثَةَ فَلْيَبِعْهَا وَلَوْ بِحَبْلٍ مِنْ شَعَرٍ))

(رواه البخاري)

لا يعيِّرها، صارت هناك معصية، فليُقِم عليه الحد و ليسكت، هناك أدب، إنسان وقع في مشكلة، أنت عاقبه حسب القوانين، لا تعيره، فإذا عيّرته و قسوت عليه لعلك تبتلى به، هكذا النبي وجّهنا قال:

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا زَنَتْ الْأَمَةُ فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا فَلْيَجْلِدْهَا وَلَا يُثَرِّبْ ثُمَّ إِنْ زَنَتْ فَلْيَجْلِدْهَا وَلَا يُثَرِّبْ ثُمَّ إِنْ زَنَتْ الثَّالِثَةَ فَلْيَبِعْهَا وَلَوْ بِحَبْلٍ مِنْ شَعَرٍ))

(رواه البخاري)

أي لا يعيِّر، هذا مأخوذ من قول الله عز وجل:

(قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ)

(سورة يوسف)

و كلكم يعلم أدب سيدنا يوسف مع إخوته لما قال:

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ)

(سورة يوسف)

و لم يقل: إذ أخرجني من البئر، لو قال: إذ أخرجني من البئر لذكّرهم بجريمتهم، وربنا عز وجل هكذا علّم النبي الكريم قال:

(وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (74))

(سورة الإسراء)

تحت ألطاف الله عز وجل،

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5))

(سورة الفاتحة)

الآية الثانية لسيدنا يوسف:

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ)

(سورة يوسف)

انظر إلى التواضع، و النبي الكريم أكثر أيمانه " لا و مقلب القلوب " و قال في حديث آخر

((عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكِلَابِيِّ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ وَكَانَ يَقُولُ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ وَالْمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ يَخْفِضُهُ وَيَرْفَعُهُ))

(رواه أحمد)

لكن توضيحا للموضوع:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف)

أي عندنا زيغ اختياري يعقبه زيغ جزائي،

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف)

و يُحمل على هذا: أضلهم الله، هذا الضلال جزائي أساسه ضلال اختياري، والدعاء الثاني

((عَنْ أَنَسٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا قَالَ نَعَمْ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ))

(رواه الترمذي)

إذًا المحاسبة أن تعرف ما لك وما عليك، و المحاسبة تسبق التوبة و تعقب التوبة، تسبق التوبة لتحملك على التوبة، و تعقب التوبة لتحافظ عليها، و آية اليوم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)

(سورة الحشر)

أنا أتمنى أن يكون أول سؤال و أخطر سؤال و أكبر سؤال " ماذا أعددت من العمل كي ألقى الله به " ممكن مهنتك، حرفتك، صنعتك، وظيفتك، تجارتك، صناعتك إذا ابتغيت به وجه الله، كانت في الأصل مشروعة، و مارستها بطريقة مشروعة، و لم تشغلك عن طاعة و لا عن مجلس علم، و لا عن أمر بالمعروف ولا عن نهي عن منكر، ونويت أن تكفي نفسك و أهلك، و أن تتقرب إلى ربك، و نويت بها أن تنفع المسلمين فهذا مما يُعدّ لقاء الله عز وجل، برُّ الوالدين عمل تلقى الله به، أن تكون أبا مثاليا عمل تلقى الله به، أن تكوني أيتها الأخت أما مثالية عمل تلقين الله به، إذًا ممكن للإنسان أن يختار عملا يلقى الله به، هذه المحاسبة، و الأعمال الصالحة لا تُفتح صحيفة تسجيلها قبل أن تُغلق صحيفة المعاصي، أما هذا التخليط، شيء يعدِّل شيئا، لا، شيء يغطي شيئا،

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط.........))

و من لم يكن له ورع يصدُّه عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله، أغلق سجل المعاصي كي يُفتح سجل الطاعات، ابن علة نظافة، أنت تريد أن تستقيم، لا بد لك من عمل صالح تلقى الله به، هذا أكبر هدف في حياتك، و الكلام له مسؤولية، وإذا أردت أن تسعد فأسعد الآخرين، وإذا أردت أن يرحمك الله عز وجل فارحم من دونك، وإذا أردت أن تدعو إلى الله فاسلك سبيل المتقين و التزم بما تقول، أكبر وصية لمن يدعو إلى الله عز وجل أن يحرص أن يكون في مستوى دعوته.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (014) :فضل الصبر .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-11-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون:

الحديث اليوم في موضوع الصبر وقد يسأل سائل لماذا ذكر الله الصبر في القرآن الكريم عشرات المرات بل مئات المرات ألا يمكن والله على كل شيء قدير أن يؤتي الناس أجمعين سؤلهم، فإذا أتى الناس أجمعين سؤلهم فلا حاجة عندئذ للصبر، سؤال دقيق مادام الله على كل شيءٍ قدير، مادام الله عز وجل يقول في الحديث القدسي:

((عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:... يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

[الترمزي ـ ابن ماجة ـ أحمد ـ الدارمي]

يعني مخيط إبرة اغمسها في ماء البحر وارفعها هذا المخيط بما يرجع ؟ وماذا نقص من ماء البحر، قال الله عز وجل: ذلك لأن عطائي كلام وأخذي كلام

((... فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا))

مادام الله على كل شيء قدير وهو الغني، لو أن الناس جميعاً آتاهم سؤلهم ما نقص ذلك في ملكه، لماذا الدنيا محفوفة بالمكاره ؟ لماذا المصائب، لماذا المآسي، لماذا الحرمان ؟ هذه كلها أسئلة تتعلق بالعقيدة، فإذا صحت عقيدة الإنسان صبر وإن لم تصح عقيدته لج وكفر.

أيها الأخوة الأكارم:

نحن في الدنيا وهذه الدنيا مدرسة وليست مقراً دائماً إنها ممر وليست مقر فإذا فهمناها على أنها مقر شقينا بها وشقيت بنا وأسعدنا وسعدنا، وسألنا وتساءلنا، أما إذا عرفنا حقيقة الدنيا وصحت عقيدتنا قبلنا ما يسوقه الله لنا من مصائب، الشيء الذي أتمناه عليكم أنه خلقت في الدنيا كي ترقى في الآخرة ولا ترقى في الآخرة إلا إذا عاكست هوى نفسك، يعني أنت مفطور على فطرة والتكليف يخالف ما أنت عليه مطبوع، مطبوع على الراحة هذا الجسد يميل إلى الراحة فأنت قد تضطر إلى أن تبذل جهداً تحتاج إلى صبر الشيء الذي يلفت النظر أن النبي عليه الصلاة والسلام سئل عن الإسلام وسئل عن الإيمان

فأجاب بكلمة واحدة قال الصبر والسماح، الصبر تلقي الشدائد، تلقي التكاليف، الصبر على الطاعة، الصبر عن المعصية، الصبر على قضاء الله والسماحة البذل، أنت بين حالتين بين حالة بذل وحالة صبر، هذا هو الدين كله وهذا هو الإيمان كله، أما الإنسان بالآخرة هناك الراحة، هناك الاسترخاء، هناك التمتع، هناك اللذائذ، هناك السعادة فحينما يظن الإنسان أنه خلق في الدنيا كي يسعد بها فقد أخطأ خطأً كبيراً لأن هذه الحياة الدنيا ركبت على الابتلاء، الله عز وجل يقول:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30))

(سورة المؤمنون)

الإمام الشافعي سئل أنسأل الله التميكن أم الابتلاء، فقال: لن تمكنوا قبل أن تبتلوا، لابد من الابتلاء، قال تعالى:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآَيَاتِنَا يُوقِنُونَ (24))

[سورة السجدة]

فهذه الفكرة أتمنى عليكم من كل قلبي أن تكون واضحةً عندكم، لا يمكن أن يمر المؤمن في طريق الإيمان من دون امتحان فإذا كان للصبر مؤشر وللإيمان مؤشر فاعلم علم اليقين أن مؤشر الإيمان يتحرك مع مؤشر الصبر، فكلما زاد إيمانك زاد صبرك، قد يسأل سائل أنا لا أصبر على شيء صحتي جيدة وقوتي جيدة ودخلي يكفيني وعندي زوجة وأولاد وبيتي أملكه ولي عمل أين الصبر ؟ أيها الأخ الكريم الصبر له معنى واسع جداً بل إن الغني الصحيح لأشد حاجةً إلى الصبر من الفقير المريض لماذا؟ هذا الموضوع إنشاء الله سوف نعالجه في دروس عديدة، كلما ضاقت الخيارات ضاق مجال الصبر وكلما اتسعت الخيارات اتسع مجال الصبر، يعني أنت حينما تكون قادراً على أن تفعل كذا وكذا وكذا وكلها معاصي ولزمت أمر الله عز وجل ولزمت ما هم عليه المؤمنون الطيبون هذا صبر، فلذلك ربنا عز وجل ذكر الصبر في أكثر من خمسة عشر موضوعاً، آيات الصبر كثيرة جداً أما موضوعات الصبر في القرآن تزيد عن خمسة عشر موضوعاً.

الأمر الأول قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153))

[سورة البقرة]

واستعينوا بالصبر والصلاة آية ثانية، وقوله تعالى:

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127))

[سورة النحل]

والأمر في القرآن يقتضي الوجوب أنت إذاً مأمور أن تصبر، مادمت قد آمنت بالله عز وجل وأنت مؤمن فهذا القرآن يخاطبك يقول لك واصبر وما صبرك إلا بالله، خالق الكون العظيم الغني يقول لك

اصبر أفلا تصبر، يعني أحياناً حينما يستجب الإنسان لأمر الله عز وجل يشعر ببردٍ وسكينةٍ وسرورٍ لا يعلمه إلا الله، وقوله تعالى:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48))

[سورة الطور]

لو أن حكم الله عز وجل واضحٌ وضوحاً جلياً لما أمرك أن تصبر لماذا أنت وعلى كرسي الطبيب الأسنان لماذا إذا أعطاك حقنة كمخدر لماذا تمسك بأطراف الكرسي وتكتم ألمك ؟ لأنك قانع قناعةً تامة أن هذا الألم سيتبعه راحة وأن هذا الألم لابد منه، إذاً تصبر ولا داعي أن يقال لك يا أخي اصبر، الأمر واضح جداً لو أن الأمر واضحٌ وضوحاً تاماً لما كان هناك معنىً للصبر ولكن الله عز وجل يأمرك أن تصبر، قد لا يبدو لك حكم الله واضحاً، قد لا تبدو لك حكمة الله واضحة.

والآن أنتقل إلى موضوع دقيق جداً وأعلق عليه أهمية كبرى، إذا كانت أوامر الله كلها واضحة وحكم الأوامر كلها واضحة والأمور وحكم الأوامر كلها واضحة والأمور مجلوة فما قيمة إيمانك، لو رأى الكافر بالله أن هذا في مصلحته وهذا في مصلحته... لاتبع أوامر الله كلها من دون أن يعبده، لكن أنت مؤمن آمن بالله، آمنت بالخالق العظيم، برب حكيم، آمنت بمنهج قويم هذا المنهج يأمرك أن تصبر إذاً حينما تطبق أمر الله عز وجل فهمت حكمتها أو لم تفهمها، عرفت المراد أو لم تعرف، أدركت المغزى أو لم تدرك أنت مؤمن يكفيك قناعةً أن الله أمرك بهذا، والله خالق الكون، يعني أقوى دليل على طاعة الإنسان لله أن هذا أمر الله، أنت يوجد عندك مشكلة أو حركة يجب أن تتحرك من خلالها فقط هل هذا الأمر أمر الله ؟ نعم انتهى الأمر إذاً أطيعه، إنك تبحث عن أمر الله تبحث عن حكم الله، تبحث عما يرضي الله، لك أن تسأل هذا الحديث صحيح، هذه الآية هكذا تفسيرها، هكذا يريد الله عز وجل مني، هذا كل ما في الأمر لكن إذا ثبت أن هذا أمر الله عز وجل وأن هذا حكمه وأن هذا نهيه وأن هذا توجيهه وأن هذا يرضيه ماذا تنتظر مادمت قد آمنت بالله عز وجل إيمانك بالله عز وجل هو علة مبادرتك إلى تنفيذ أمر الله، إيمانك بالله عز وجل هو العلة الوحيدة على مبادرتك إلى تنفيذ أمر الله، إذاً أولاً الله عز وجل أمرنا أن نصبر ونحن عبيد وليس من شأن العبد أن يسأل ولا أن يستفهم ولا أن يعلق ولا أن يقرر.

كان رجل كما تروي بعض القصص غارق في ملذاته، مسرف على نفسه في كل المعاصي اسمه بشر، كان يعاقر الخمرة بين القيان ومع المغنين طرق الباب فذهب خادمه ليرى من الطارق، الطارق رجل قال له: قل لسيدك إن كان حراً فليفعل ما يشاء وإن كان عبداً فما هكذا تصنع العبيد، هذا الغلام عاد إلى سيده وقال له طرق الباب رجل وقال لي كيت وكيت، يقال هذا بشر نهض من شرابه واتجه نحو الباب

فلم يجد أحداً بحث عنه حافي القدمين إلى أن عثر عليه وتاب على يديه وصار من كبار الأولياء واسمه بشر الحافي.

السؤال أنت عبد ولست حراً، أنت عبد لله وليس من شأن العبد أن يطيع أو لا يطيع، ليس من شأن العبد أنا لا أطيع يا رب حتى أفهم الحكمة، أنت لست عبداً إذاً، إذاً أنت ند لا يسأل عن الحكمة إلا المساوي، إذا كنت في مستوى الخالق اسأله لماذا أمرتني بهذا إن لم تبين لي لن أطيعك وهذا ليس من شأن العبد ولكن شأن الله عز وجل وشأنك أن تطيعه، فأنت أول شيء مأمور بالصبر والصبر أنواع كثيرة جداً، الصبر على الطاعات وأنت صحيح معافى، قوي، غني عتيد، أنت مأمور أن تطيع الله عز وجل الصلوات الخمس، والصيام، والحج، والزكاة، وغض البصر، وكظم الغيظ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وترك الغيبة والنميمة، أنت عندك أوامر كثيرة جداً أكثرها تعاملي وبعضها شعائري وكل أوامر الله عز وجل تكاليف معنى تكاليف أي تقتضي جهداً تقتضي صراعاً مع شهوتك، تقتضي أخذاً و رداً مع نفسك، تقتضي أن تفعل شيئاً نفسك تأمرك بخلافه، تقتضي أن تبذل شيئاً نفسك تأمرك أن تحتفظ به، تقتضي أن تنصرف عن هذا الشيء نفسك تميل إليه، هذا الصبر، الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والله عز وجل لحكمةٍ أرادها يوجد أشياء كثيرة في الحياة مغرية جداً، يوجد مال يغري، ونساء تغري، مناصب، بيوت، رحلات، ولذائذ، ومناظر الله عز وجل جعل الدنيا خضرة نضرة ليمتحننا بها، هل تؤثر هذه الدنيا العاجلة على الآخرة الآجلة، هل تؤثر سنوات عديدة تقضيها بالملذات على حياة أبدية تقضيها في الجنان، إذاً أنت مأمور أن تصبر على الطاعات وأن تصبر عن المعاصي هذا هو أمر الله التكليفي أمر ونهي افعل ولا تفعل، لكن الله عز وجل له أمر تكويني قد يسوق لك شدةً ضائقةً، موقفاً حرجاً، قد يحرمك من رزق، قد تعيش أياماً في قلق شديد أنت مأمور أن تصبر على أمره وعلى نهيه وعلى قضائه وقدره، لأنك عبد له.

الشيء الثاني في موضوع الصبر أن الله عز وجل نهانا عن ضد الصبر، نهانا عن ضده، قال تعالى:

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35))

[سورة الأحقاف]

الاستعجال دليل ماذا ؟ دليل نفاذ الصبر، قال تعالى ولا تولوهم الأدبار، التولية يوم الزحف دليل نفاذ الصبر، لا تبطلوا أعمالكم النكوص عدم متابعة المسير، أنت عاهدت الله عز وجل، أنت عاهدت إنساناً؟ أنت عاهدت خالق الأكوان على أن تمشي في طريق الإيمان فالبطولة أن تسير في هذا الطريق في السراء والضراء في إقبال الدنيا وإدبارها، قبل الزواج وبعد الزواج، قبل العمل وبعد العمل، في فراغك وفي شغلك، صيفاً وشتاءً، ربيعاً وخريفاً، صباحاً ومساءً، قوياً وضعيفاً، غنياً وفقيراً هكذا عاهدت خالق

الكون لما الإنسان ملاحظ أنه يوجد أخوان كثيرون لهم بداية جميلة جداً يتألقون تألق وبعد فترة هذا التألق يخبو يعني مليت، هل مللت من الله عز وجل ؟ هل سئمت من الله عز وجل ؟ هل ألفت كلام الله عز وجل ؟ هل انتهت معاني كلام الله عز وجل ؟ لذلك موضوع السأم والضجر في طريق الإيمان بادرة ليست مريحة وليست رضية كلما زاد صدقك زاد إقبالك، كلما زاد تعلقك بالله عز وجل زاد بذلك وعطاؤك لذلك أنا أؤكد لكم وأنا واثق من قولي المؤمن شـاب حتى الموت، ما الشباب ؟ الحيوية والتدفق والنشاط الزائد والاندفاع الشديد والتفجر، يقول لك فلان يتفجر حيويةٍ، إذا كانت أهدافك مادية وحققتها تصاب بالسأم والضجر، أما إذا كانت أهدافك كبيرة جداً، أهدافك لا نهائية إذاً أنت في شباب دائم لذلك لو التقيت بمؤمن في التسعين، في الثمانين، في السبعين تعجب لأمره في كامل تدفقه وحيويته، ونشاطه حيوية نفسه أعني الجسد له قوانين ثابتة، لكن ليس هناك سأم أو ضجر أو ملل أو ضياع أو تشتت أو هوان إطلاقاً، لذلك حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا بالكبر، من عاش تقياً عاش قوياً.

البطولة أن تعمل لخريف العمر، اليوم في الطريق وجدت شخص يعني في مقتبل حياته كان يحتل أعلى منصب علمي في الجامعة وضع، مشية، تهاون، خمول، ضياع، قلت سبحان الله كان في شبابه متألقاً جداً يحمل شهادات عليا ويحتل منصب علمي رفيع جداً رأيته في خريف العمر في وضع لا يرضي لماذا ؟ من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، المؤمن لا يشيخ ولا يشيب بمعنى أن لا تضعف نفسه، هو يشيب، يعني علائم الشيخوخة لا يتأثر بها كغيره من الناس، إذاً النهي عن ضده.

الشيء الثالث أن الله سبحانه وتعالى أثنى على الصابرين قال تعالى:

(الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (17))

[سورة آل عمران]

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (214))

[سورة البقرة]

هذا كله من ثناء الله عليهم يعني ألا تحب أن تكون مع الله عز وجل، ألا تحب أن تكون في موضع ثناء من الله عز وجل كل شيء يفنى ما قيمة ثناء الناس جميعاً ؟ أما إذا أثنى الله عليك ثمن هذا الثناء أن تكون صابراً ومعنى أن تكون صابراً يعني أنك تعرف الله عز وجل وترضى بحكمه.

قلت لكم مرةً إنسان يطوف حول الكعبة يقول يا رب هل أنت راضٍ عني قال له رجل: هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى الله عنك، قال: من أنت يرحمك الله، قال: أنا محمد بن إدريس ـ الإمام الشافعي ـ قال: كيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه ؟ قال: يا هذا ـ دققوا ـ إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله.

هل أنت راض عن الله ؟ سؤال دقيق، هل رضيت عنه فيما أعطاك في جسمك، في شكلك، طولك، وضعك الصحي، أجهزتك أعضاءك راض عنه فيها، هل أنت راض عن زوجتك هذه اختارها الله لك، قد لا ترضى عنها ولكن ترضى عن الله الذي اختارها لك، أحد الصالحين عنده زوجة سيئة جداً قالوا له طلقها يا أخي، قال: والله لا أطلقها فينغش فيها المسلمين لها خمسين عيباً أعرفهم، يجب أن ترضى عن أعضائك وعن أجهزتك وعن زوجتك، يعني أن ترى حكمة الله عز وجل، أن ترى أن الله يعطي بحكمةٍ بالغة، سر السعادة أن ترضى عن الله.

الآن هل تعلم أن الله يحب الصابرين بنص القرآن الكريم:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146))

[سورة آل عمران]

أمرك بالصبر، ونهاك عن ضده، وأثنى عن الصابرين، وأحبهم أما الشيء الخامس يوجب معية الله لك، كلكم يعلم أن معية الله على نوعين، معية عامة ومعية خاصة، المعية العامة مستنبطة من قوله تعالى:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4))

(سورة الحديد)

مع المؤمن، ومع الكافر، ومع الملحد، ومع المنحرف، ومع العاصي، ومع الحيوان، ومع المخلوق، ومع الشجر، ومع كل شيء، وهو معكم أينما كنتم، لكن الله عز وجل قال:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46))

[سورة الأنفال]

لعلماء التفسير فهم دقيق جداً، هذه المعية غير هذه المعية، هذه معية خاصة وتلك معية عامة، المعية العامة لكل مخلوق أما المعية الخاصة أي أن الله عز وجل معك بالرعاية، معك بالتوفيق، معك بالإرشاد، معك بالحفظ، معك يدافع عنك يعني بيت الشعر يقول:

وإذا العناية لاحظتك جفونها نم فالمخاوف كلهن أمان

يوجد كلمات أنا أرددها كثيراً اعذروني بها لأنني أحبها، أقول دائماً إذا كان الله معك فمن عليك، من يستطيع أن يقترب منك، من أقوى قوى الأرض وإذا كان الله عليك فمن معك، يتلقى الإنسان أحياناً من أقرب الأقربين له، يتقدم بالسن لا يلحق نفسه فيأكل نعرة من زوجته وتقول له الآن نظفتك، وهي من أقرب الناس له، إذا رضي الله عنك سخر لك أعداءك وإذا غضب عليك أهانك أقرب بالناس إليك.

أيها الأخوة الأكارم:

كما قلت لكم كما تدين تدان، البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت اعمل ما شئت كما تدين تدان، لي قريب كان يجمع أن يسافر إلى بلدة إلى شمال سوريا إلى حلب، قال لي ذهبت إلى مكتب سيارات والقصة قديمة، ويوجد ازدحام شديد، قال لي: أحدهم وضع يده على كتفي وقال لي أتحب أن تسافر إلى حلب، فقلت له: نعم، فقال: تعال معي، قال لي: السيارة فخمة جداً وصاحبها مهندس يريد أن يسافر إلى حلب فجاء ونظر في المسافرين واختار منهم هذا الرجل، قال لي: في الطريق حدثني قصته، قصته عجيبة إنسان أخذ شهادة هندسة وعصامي وناشئ اشتغل في التعهدات فنظر في الجريدة كان يوجد تعهد فذهب إلى المكان الذي يجب أن يقدم الأوراق وإذا يوجد ورقة ناقصة فقالوا له قابل المدير العام فدخل فقابله، والمدير العام قام من مكتبه وعانقه وصار يبكي وهو لا يعرفه ما القصة ؟ قال: القصة هذا المدير العام كان يركب سيارة فوقع معه حادث وكان جريح وهذا المهندس كان في هذا الطريق نفسه رآه في هذه الحالة فوضعه في سيارته وأسعفه حتى نجا هو لم ينتبه إلى شكل وجهه أسعف مصاب ووضعه في المستشفى، أما هذا المدير العام بقيت صورة المهندس الذي أنقذه في مخيلته، يعني ساعده مساعدة إلى أن وقف على قدميه وأصبح في وضع مقبول وجيد، هذه القصة تذكرني بقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تدان))

معية الله خير لك من كل شيء، خير لك من الذهب والفضة، خير لك من الدنيا وما فيها، أن يكون الله معك بالتوفيق والحفظ والرعاية والتأييد والتثبيت، الآن ربنا عز وجل أخبرنا أن الصبر خير لأصحابه، لما الخبير يقول لك هذا خير، أنت أمام بائع عادي تقول له انصحني، يقول لك هذه، بائع لك ثقة به ومؤمن ويوجد قرابة وما يغشك، سألته ماذا أشتري أي قطعة أشتري، ماذا أفعل، أنت تنساق إلى نصيحة هذا الناصح وتشكره على ذلك، الآن ربنا عز وجل ينصحك:

(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرينَ (126))

[سورة النحل]

نصيحة الله لك أن تصبر لا أن تلج، الصابر ربنا عز وجل قال:

(مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (96))

[سورة النحل]

الإنسان له أعمال كثيرة أحسن أعماله يجزيه الله بها، العمل النموذجي، بينما أهل الشرك الله عز وجل يجزيهم بأسوأ أعمالهم أحياناً كمثل مقرب يكون الإنسان معلم أحد الأيام تحضيره وسط أو ليس محضر في هذا اليوم العصيب يأتيه المفتش كأن الله جازاه بأسوأ أعماله، أحياناً الإنسان بأجمل أحواله وأفضل

أوضاعه يأتيه الذي سيحاسبه، فربنا عز وجل يحاسب المؤمن بأحسن أعماله، وربنا عز وجل قال:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155))

[سورة البقرة]

إذاً الله عز وجل أمرنا بالصبر لأن طبيعة الحياة الدنيا تقتضي الابتلاء ولأن سعة الحياة الدنيا تقتضي أن نفعل أشياء على خلاف طباعنا، وتكاليف الله كلها تتناقض مع طبائع الإنسان، طبيعته تميل إلى الراحة وإلى أخذ المال، وإلى إطلاق البصر وإطلاق اللسان والأوامر الإلهية تأمرك أن تغض بصرك وأن تمسك لسانك وأن تعطي وأن تفعل ما أمرك الله به.

الآن عندنا شيء يعين على الصبر أن تذكر أيام الله، لا أعتقد مؤمن إلا وله مع الله تاريخ، يعني في اليوم الفلاني فعل كذا فعامله الله كذا وكذا، آثر رضوان الله عز وجل فأكرمه الله بكذا وكذا، وقف عند حدود الله فوهبه الله كذا وكذا، وقف موقفاً مشرفاً فدافع الله عنه، وقف موقفاً مع الحق ولا يبالي بالنتائج فأرسل الله له من يكرمه ويدافع عنه، هذه سماها الله عز وجل أيام الله، أليس لك مع الله خبرة، أليس لك مع الله تجربة، أليس لك مع الله معاناة، أليس لك مع الله تاريخ ؟ كل واحد منا له مع الله تاريخ فعل كذا ففعل الله كذا، يعني زلت قدمه فعاقبه الله، وقف على قدميه شاكراً فأكرمه الله، هذه أيام الله دائماً تذكر منها ما يلي: الله عودك الجميل فقس على ما قد مضى، لذلك ربنا عز وجل قال لسيدنا موسى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (5))

[سورة إبراهيم]

الآن يوجد عندنا في الصبر حالتان أن تصبر على قضاء الله وأن تصبر على المقضي، ما الفرق بين القضاء والمقضي ؟ القضاء أن يأتيك الشيء من الله مباشرةً من دون تدخل بشري، أما المقضي أن يأتيك هذا الشيء على يد إنسان، إذا جاءك قضاء الله على يد إنسان سماه علماء العقيدة المقضي وإذا جاءك من الله مباشرةً سماه علماء العقيدة القضاء والقدر، الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن، يبدو أن الإنسان مع الله القضية سهلة، ولكن متى ينشأ الحقد ؟ إذا ساق الله له قضاءً على يد إنسان فالموحد يرى هذه المصيبة عصىً بيد الله عز وجل فهو لا يأبه لهذا الذي ساق الله على يديه هذه المصيبة بل يحاسب نفسه لماذا سمح الله لزيد أو عبيد أن يناله، لأنه تعلمون جميعاً أن الله عز وجل يقول:

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55))

[سورة هود]

فكل من على الأرض من مخلوقات الله عز وجل أخذ بناصيتها، أو كأن لها أزمة بيد الله فإذا أرخى العنان لبعضها وصلت إليك وإذا شد العنان أبعدها عنك، علاقتك مع الله وليس مع هذه المخلوقات، قال تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5))

[سورة الفلق]

فربنا عز وجل يقول:

(وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43))

[سورة الشورى]

صبر على قضاء الله وغفر لهذه اليد التي سحرها الله لتكون وسيلة لقضاء الله، المؤمن دائماً بعيداً عن الحقد لماذا ؟ لماذا المؤمن لا يحقد ؟ لأنه موحد والموحد لا يحقد، لأن الأمر أمر الله عز وجل ومادام الأمر قد وقع فإن الله سمح به ببساطة ومادام الله قد سمح به إذاً أراده، وما دام الله أراده إرادته متعلقةٌ بالحكمة وما دامت إرادته تعلقت بالحكمة، حكمته متعلقة بالخير المطلق، والله الذي لا إله إلا هو هذه القاعدة وحدها تبث في قلب المؤمن إيماناً وطمأنينةً وثقةً وتسليماً وتوكلاً لا يعلمه إلا من ذاقه، إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي.

(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آَبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (23) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (24))

[سورة الرعد]

هذه الباء للمعاوضة، يعني هذا النعيم المقيم بسبب صبركم، ثمنه صبركم، هذا الكلام يفيد أنك وأنت في الدنيا لا تشتهي أن تكون فوق الناس أو في رفاه شديد أو في بحبوحة كبيرة، هذه لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء، كفاك نصراً على عدوك أنه في معصية الله، سيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبة قال: الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني، شيء عظيم جداً أن ينجو دينك من الخلل والتلف، الحمد لله الذي لم تكن أكبر منها، الحمد لله إذ ألهمت الصبر عليها.

يعني أنا قبل أن آتي إليكم اليوم كنت مدعواً إلى احتفال في عيد المولد في دار العجزة ـ دار الكرامة ـ من كان أمامي ؟ كراسي كلها أكثرهم مشلولين أو مقطعة أيديهم أو أرجلهم، إنسان على هذا الكرسي طوال حياته في هذا البناء، نعمة الحركة أن تقوم وتمشي وتخرج من بيتك، يعني الذي يحبه الله من عبده أن يكون شاكراً، إذا كنت متمتعاً بقوتك هذه نعمة كبيرة جداً، إذا كنت متمتعاً بأعضائك لا تنسى أن طبيباً قلت مرةً في درس من الدروس، قلت لو أن الله عز وجل أوكل إلينا موضوع التنفس أو ضربات القلب ما الذي يحدث ؟ يحدث أن الإنسان لا يستطيع أن ينام أبداً، إذا نام مات بالإضافة إلى

ذلك لا يستطيع أن يعمل يجب أن تستهلك كل الوقت في إحكام ضربات قلبك أو وجيب رئتيك، هكذا خطر في بالي خاطر خرجت من المسجد زرت أحد الأخوة الأكارم وله ابن طبيب قلت لهذا الطبيب هكذا قلت اليوم قال: هذا كلام حق أستاذ ذاك مرض نادر هذا المرض يصيب مركز التنفس الآلي في الإنسان فإذا أصيب هذا المركز بعطب الإنسان لا يستطيع إلا أن يتنفس إلا عن طريق عضلات الرئتين والصدر يعني شهيق وزفير إرادي، الإنسان وهو مرتاح يتنفس عن طريق الوجيب الآلي أما أحياناً يعمل شهيق ويعمل زفير هذا تنفس إرادي، حدثني طيار قال لي: أخطر شيء في الهبوط أن تنزل العجلات فإذا لم تنزل الكارثة محققة إذاً هناك جهاز هدروليكي يحرك هذه العجلات فإذا تعطل هناك جهاز آخر فإذا تعطل لولب في أرض الطائرة يحرك العجلات باليد ـ مانويل ـ قلت سبحان الله لأن القضية خطيرة جداً أولاً يوجد جهاز أول إذا تعطل جهاز ثاني إذا تعطل الجهازان الحركة يدوية، الإنسان لو أن مركز التنفس النوبي تعطل، يستطيع أن يتنفس عن طريق الشهيق والزفير هذا في النهار وأما في الليل يموت، هذا الطبيب الأخ الكريم قال لي: يوجد طبيب في الشام وذكر لي اسمه أصيب بهذا المرض قال لي بعد البحث والدراسة وجد أن هناك دواء حديث جداً جاء به بالطائرة هذا الدواء من أجل أن يبقى التنفس لا إرادي نوبي يجب أن تأخذ كل ساعة حبة وإذا نسي أن يأخذ الحبة يموت، اشترى أربع منبهات أحب أن ينام الساعة العاشرة الأربع منبهات الساعة الحادي عشر يستيقظ ويأخذ حبة الساعة الثانية عشر يأخذ حبة وينام، الساعة الثانية عشر يأخذ حبة وينام، الساعة الثانية،.... كل ساعة وهذا أحدث دواء صنع لتلافي تعطل مركز التنفس النوبي، فقال لي هذا الطبيب: أن هذا الطبيب له ابن في دولة أجنبية كان مسافر وحضر وقت حضوره من فرحهم به طبعاً سهروا معه، الساعة الواحدة ما استيقظ الأب فاستيقظوا فوجدوه ميتاً أربع منبهات وما استيقظ.

نحن نتنفس ونأخذ راحتنا يقول لك ـ رحت يا داوي ـ هذه يا داوي قليلة هذه من نعم الله الكبرى أن تنام والتنفس يعمل، تنام والقلب يعمل والأمعاء تعمل، الهضم، والبنكرياس، والكبد، والصفراء، والكظر، والرئتين، والأوردة، والشرايين، يوجد شيء دقيق جداً نحن أثناء النهار كل دقيقة دقيقتين يبلع الإنسان لعابه، بلع هذا اللعاب يعني عملية تتم في أدق الأجهزة، هذا لسان المزمار شبهوه بشرطي سير يعمل عمله ليلاً نهاراً من دون كلل أو ملل ثمانين سنة، موضوع وله وضع فوق القصبة لكن أيام يكون معمل غسالات يقول لك هذه مانعة ما معنى مانعة ؟ يجب أن يكون محور في قعر الغسالة حتى يدور الفراش، يجب أن نحفر قعر الغسالة يخرج المحور، وفيها ماء الغسالة والماء شديد النفوذ إذاً نحتاج إلى شيء مطاطي يمنع الماء ويحرك المحور، هذه قضية معقدة جداً اسمها مانعة، أنت عندما تبلع اللعاب يأتي لسان المزمار يغلق الرئة بإحكام مائة بالمائة والدليل لو دخل نقطة ماء أو أقل من نقطة تسعل مائة سعلة أنت الآن تشرب أو تبلغ ريقك لسان المزمان بحركة آلية سكر القصبة الهوائية الآن تريد أن

تتنفس لسام المزمار أغلق المري، يعمل ليلاً نهاراً، في النهار أنت واعي أما الشيء الذي لا يصدق وأنت نائم، أحياناً عند طبيب الأسنان يضطر الطبيب أن يفتح الفم لفترة طويلة ويضع لك شراقة حتى لا تبلع ريقك، فلذلك بالليل وأنت نائم وأنت لا تدري كلما تجمع الريق يأتي أمر من الدماغ أنه كثروا هؤلاء الريقات ماذا نفعل ؟ يعطي أمر للسان المزمار أن يفتح المري ويغلق القصبة وأنت نائم، يوجد عندنا آية مشابهة لهذه الآية، الإنسان لما ينام له جهاز عظمي وله عضلات تكون تحت الجهاز العظمي نائم عليهم وعضلات فوق الجهاز العظمي وضعوا ثقلهم على الجهاز العظمي، يعني يوجد عندك لحم وعظم ولحم أليس كذلك، عضلات وفي المنتصف العظام وفوق العظام يوجد عضلات فما الذي يحصل؟ أن عضلات الإنسان التي فوق هيكله العظمي تضغط على العضلات التي تحت الهيكل العظمي والشرايين والأوردة عبارة عن أنابيب مطاطية مرنة تنضغط ولما تنضغط التروية تضعف ـ تنمل القدمين ـ إذا جالس على ركبته لفترة طويلة يقول لك نملوا قدمي، ما معنى نملوا؟ أي ضعفت التروية، نقص تروية وأنت نائم الله عز وجل أودع في الإنسان مجموعة كبيرة جداً من نهايات عصبية متخصصة في الإحساس بالضغط هذه تنبه الدماغ، الدماغ يعطي أمر للعضلات وأنت نائم تقلب قلبة، ولكن الأمر عجيب أمر يميني وأمر يساري باستمرار لقوله تعالى:

(وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً (18))

[سورة الكهف]

حتى لا تقع من على السرير وأنت لا تدري وهذه من آيات الله الدالة على عظمته وأنت نائم هذا الوزن العضلات مع العظم ضغطوا على العضلات السفلة والأوعية انضغطت واللمعة ضاقت والتروية ضعفت العضلات نملت أجهزة نهايات العصبية المتعلقة بالإحساس بالضغط أخبرت الدماغ، الدماغ أعطى أمر وأنت نائم لهذه العضلات بالتقلص، تصور إنسان نائم يتقلب في الليلة الواحدة ثماني وثلاثين لأربعين مرة، وهذه الآية أساساً من إعجاز القرآن الكريم وربنا قال

((نقلبهم ذات اليمين وذات الشمال))

لولا تقليبهم لتفسخت عضلاتهم بعد سنوات، قال لي طبيب أول أمر لمريض مصاب بالثبات التقليب، فواحد منا وهو نائم يتقلب وريقه ينزل والبنكرياس يفرز، والصفراء تفرز، والكبد خمسة آلاف وظيفة يعمل، والهضم يتم، والكظر، والقلب يعمل بانتظام، والرئتين، الله عز وجل أراحك من آلاف الأعمال وقال لك أنت تفرغ لعبادتي، إنسان يأكل ويذهب وينام، لو كان هو الذي يهضم الطعام يقول لصديقه أعذرني عندي ثلاث ساعات هضم الطعام وأنا لا يوجد لدي وقت فارغ، والبنكرياس فرغناه أم لم نفرغه، أنت لا يوجد عندك علم ماذا يحدث كل الطعام وامشي، الصفراء تعمل، كلور المار اشتغل،

يوجد عامل له اسم معين أفرز أنت لا تدري، خمسة وثلاثين مليون عصارة هاضمة في المعدة بمعدة كل سنتمتر مربع ثمان مائة عصارة هاضمة، والمعدة تفرز ما يعادل لتر ونصف من حمض كلور الماء بعد الطعام يعني قنينة بقين بكاملها تخرج من جدار المعدة.

مرة أحضروا لحم ووضعوه بكرة وثقبوا الكرة، أطعموها لحيوان بعد ما خرجت هذه الكرة فارغة من اللحم، معنى هذا أن الهضم ليس مكيانيكياً يوجد هضم كيميائي، العصارات دخلت من الثقوب وأذابت اللهم، الله عز وجل زود الإنسان بهضم ميكانيكي وبهضم آلي، تصور أنت أيام تأكل ـ آبوات ـ أليس كذلك هذه أساساً لحم ومعدتك لحم، أكبر سؤال كيف لا تهضم المعدة نفسها ؟ هذا السؤال حتى الآن محير، كيف الله زودها بسوائل ذات فعالية كبيرة جداً لهضم الطعام وهي من لحم، ممكن الآن أنت مثلاً أن يكون جهاز الطحن لين، إذا عندك مطحنة كبة يكون الجهاز قوامه من قوام اللحم لا يعمل معك.

الله عز وجل جهز الجسم بأشياء تأخذ بالألباب.

قلنا لكم يوم الجمعة بالخطبة أن علم الجنين تقدم تقدماً كبيراً جداً فصار من الممكن أن نصور الجنين في رحم الأم يوجد صور التقطت بالجنين بالأسبوع الرابع، الخامس، بأول السادس الصورة كما يلي مخلوق رأسه ملتصق بجذعه، وأطرافه نتوءات صغيرة جداً كزعانف السمك، وعيناه مع أنفه وفمه متصلة، بعد سبعة أيام تنفصل العينان عن الأنف عن الفم ويبتعد الرأس عن الجذع وتظهر للأطراف نتوءات الأصابع هذه في آخر الأسبوع السادس، الأسبوع كم يوم سبعة أيام ستة في سبعة، كيف ورد في الحديث الشريف الصحيح الذي رواه الإمام مسلم، والإمام أحمد، وخرجه معظم المحدثين كيف ورد أنه:

((عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولا: الشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ فَأَتَى رَجُلاً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَالُ لَهُ حُذَيْفَةُ بْنُ أَسِيدٍ الْغِفَارِيُّ فَحَدَّثَهُ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ وَكَيْفَ يَشْقَى رَجُلٌ بِغَيْرِ عَمَلٍ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ أَتَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا ثُمَّ قَالَ يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ثُمَّ يَقُولُ يَا رَبِّ أَجَلُهُ فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ثُمَّ يَقُولُ يَا رَبِّ رِزْقُهُ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ فَلا يَزِيدُ عَلَى مَا أُمِرَ وَلا يَنْقُصُ))

[بخاري ـ الترمزي ـ أبي داود ـ ابن ماجة ـ مسند أحمد]

قلت سبحان الله أكان متاح في عهد النبي الكريم آلات تصوير للرحم أكان تصوير طبقي، مادة ظليلة، مُنظر، غرفة عمليات ويشاهد الجنين

فكيف عرف النبي ذلك هذا من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم.

(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (23) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (24))

[سورة الرعد]

الآن لن تكون إماماً إلا إذا صبرت على أمر الله والدليل قوله تعالى:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (24))

(سورة السجدة)

يعني الله عز وجل يسمح لك أن تدعو إليه ولست صابراً، لن تصل إلى مرتبة الإمامة بالدين إلا إذا كنت صابراً، وتعرف الله عز وجل وتعرف حكمته من أفعاله، الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان.

سيدنا عمر يقول: خير عيش أدركناه بالصبر، لما الإنسان يكون بمصيبة، مر معي حديث معروف عندكم:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي))

[مسند أحمد]

النقطة الدقيقة وهي لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ يعني هذا الذي ابتليته بهذا المرض أنا قريب منه أنا معه، لذلك الصابر دائماً قريب من الله عز وجل، بل إن المرض نافذة إلى السماء، آخر حديث:

((عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))

[مسند أحمد ـ الدارمي]

الآية الأخيرة قال تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (52) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ (53))

[سورة التوبة]

إن انتصرنا فهذه حسنة وإن صبرنا فهذه حسنة.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (015) :الدين النصيحة .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-11-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون:

الحديث الشريف اليوم:

((عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، قَالُوا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: لِلَّهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَأَئِمَّةِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَامَّتِهِمْ أَوْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))

أيها الأخوة الأكارم:

هذا الحديث من الأحاديث الكبرى التي يدور عليها الفقه ؛ لأن في هذا الحديث تعريفاً جامعاً مانعاً للدين، كلكم يعلم أن للدين جوهر وللدين مظاهر قد تختلط على الناس مظاهر الدين بجوهره فالسعيد من وفق إلى معرفة جوهر الدين وغير السعيد من تعلق بمظاهره ونسي جوهره، فلذلك هذا الحديث الشريف من أبرز الأحاديث الشريفة التي يدور عليها الفقه وهذا الحديث أيضاً له شأن عظيم بل إن بعض العلماء قال: إنه ربع الدين، إنما الأعمال بالنيات هذا هو الربع الأول وهذا الحديث الشريف يعد ربع الدين أي أحد أركان الدين.

النبي عليه الصلاة والسلام قال: من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم يعني إذا انسحبت من المجتمع وقلت هؤلاء المسلمين لا يعنيني أمرهم أنا مصالحي متوافرة وأموري منتظمة لي صلة بالله عز وجل ولي إقبال عليه، أنا مستقيم، أنا ناجي أما عامة الناس لا شأن لي بهم، النبي عليه الصلاة والسلام يحذر هذا الإنسان فيقول: من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم يعني ليس مسلم، ومن لم يمس ويصبح ناصحاً لله ولرسوله ولكتابه ولإمامة المسلمين ولعامة المسلمين فليس منهم.

إن لم تكن ناصحاً لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم فلست مسلماً، إذاً هو أحد أركان الإسلام أحد أركان الدين، شيء آخر ورد في بعض الأحاديث القدسية حيث أخرجه الإمام أحمد:

((عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَحَبُّ مَا تَعَبَّدَنِي بِهِ عَبْدِي إِلَيَّ النُّصْحُ لِي))

أحاديث النصح كثيرةٌ جداً بعضها يحض على النصح لولاة الأمور وبعضها يحض ولاة الأمور أن ينصحوا رعيتهم، يعني لابد من أن تكون هناك نصائح متبادلة لابد أن تكون هناك شبكةٌ من النصيحة

بين أولي الأمر وبين الناس وبين عامة المسلمين وبين أولي الأمر، في أحد الأحاديث الصحيحية يقول عبد الله بن جرير:

((عن جَرِيرُ بْنُ عَبْدِاللَّهِ بَايَعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى إقام الصلاة وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأحمد والدرامي]

كل إنسان بمعمله، بوظيفته، بدكانه، طبيب، مهندس، محامي موظف، مدرس إن لم تنصح فلست مسلماً، يعني إن لم تنصح ضع صلاتك وصيامك وعباداتك كلها ومعلوماتك ضعها في سلة المهملات إن لم تنصح لأن الدين هو أن تنصح، هذا تعريف جامع مانع هذا هو جوهر الدين حينما عرف أصحاب النبي عليهم رضوان الله جوهر الدين فتحوا أطراف الأرض ورفرفت راياتهم في الخافقين وجعلهم الله سادة الدنيا كانوا رعاة الغنم فأصبحوا رعاة الأمم، حينما نصحوا لله ولرسوله، أما إذا قال الإنسان: دعني والناس، مالي والناس باللغة الدارجة ـ فخار يكسر بعضه ـ هذا موقف انهزامي، هذا موقف لا يتصف به المسلم، أنت مسلم وهؤلاء مسلمون أقرباؤك، أبناء جلدتك، أبناء مدينتك، أبناء بلدك، هؤلاء مقصرون، فكر في إصلاحهم، فكر في هدايتهم، فكر في حل مشكلاتهم، الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، وفي مسند أحمد:"

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: حَقُّ الْمُؤْمِنِ عَلَى الْمُؤْمِنِ سِتُّ خِصَالٍ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَيْهِ إِذَا لَقِيَهُ وَيُشَمِّتَهُ إِذَا عَطَسَ وَإِنْ دَعَاهُ أَنْ يُجِيبَهُ وَإِذَا مَرِضَ أَنْ يَعُودَهُ وَإِذَا مَاتَ أَنْ يَشْهَدَهُ وَإِذَا غَابَ أَنْ يَنْصَحَ لَهُ))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة وأحمد]

إن طلب عمل رائج تقول له هذه مصلحة فقيرة هذه يخاف أن تفسد عليه وتنافسه ينفرك منها ويجعلها كلها عقبات أمامك، يجعلها كلها هموم، أنت ما نصحته أحياناً تنصحه بشيء مؤذي بعدته، أحياناً تبيعه بضاعة سيئة فاسدة وتقول ألبسته إياها ويصلي أول صف من أجل الثواب، إذا فعلت العبادات كلها وصليت وصمت حججت كل عام مرة وفعلت كل شيء من عبادات الله الشعائرية ولم تضع يدك على جوهر الدين فلست مؤمناً، المسلمون كثر ألف مليون ولا أكتمكم أن كلمتهم ليست هي العليا في الأرض لماذا؟ لأنهم تركوا جوهر الدين، كنت أقول لكم دائماً هذا الأعرابي هذا البدوي الذي قال له سيدنا عمر بعني هذه الشاة قال له خذ ثمنها، قال: ليست لي، قال: قل لصاحبها ماتت، قال: ليست لي عندئذٍ قال هذا الراعي: والله إني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني فإني عنده صادق أمين ولكن أين الله، هذا هو الدين، الدين أن تقول في كل لحظة أين الله ماذا سأجيب ربي عن هذا الموقف كل لحظة تتصور أنك واقف بين يدي الله عز وجل ماذا أفعل ؟ لماذا فعلت هذا يا عبدي ؟

لماذا غششت الناس ؟ لماذا لم تنصح لهم ؟ لماذا أوقعتهم في هذه المشكلة ؟ لماذا نجوت منها وأوقعت الناس فيها لماذا غررت بهم ؟ لماذا تحكمت بضعفهم ؟ فنما مالك على حسابهم لماذا ؟ فيا أخوان أعيد عليكم قول سيدنا عمر: من شاء صام ومن شاء صلى ولكنها الاستقامة.

الاستقامة عين الكرامة، الاستقامة عمل، الاستقامة ضبط والعمل العمل الصالح بذل وأنت أمام حالتين ضبط وبذل، ضبط شهواتك وبذل خيراتك، إذاً أنت مسلم أما تتعلق بالشعائر التعبدية، قلت لكم سابقاً كما قال سيدنا علي: أركان الدين والدنيا أربعة رجال، عالم مستعمل علمه وجاهل لا يستنكف أن يتعلم وغني لا يبخل بماله وفقير لا يبيع آخرته بدنيا، فإذا ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم.

لا يوجد إنسان يزهد الإنسان بالدين إلا إنسان له مظهر ديني ويغش الناس ويكذب عليهم ويبدو أمامهم غير منطقي، يبدو أمامهم أنانياً هذا الذي له مظهر ديني لو يعلم ماذا يفعل في مجتمعه لتمنى أن يقطع إرباً إربا ولا يفعل ما يفعل، لو أن إنسان مظهره عادي فعل واحتال وفعل ما فعل فالناس لا يعبئون به ويقولون فعل ما فعل فلان أساء أما لك هوية دينية، اتجاه ديني، عند أهلك وأسرتك مظنة صلاح فإذا فعلت شيئاً خلاف السنة اتخذ الناس موقفك حجةً على الدين وأعداء الدين يتمنون مثل هذا الإنسان تشفي غلهم ؛ الدين يصنع أناس هكذا ؛ انظروا إلى الدين هذه غيبيات ؛ هذه خرافات ؛ هذه مصالح ؛ هذه تجارة ؛ هذه وحول ؛ أعداء الدين لا يتمنون على المجتمع إلا أن يجدوا أناساً لهم مظهر ديني وهم خارجون عن قواعد الحق.

((حَقُّ الْمُؤْمِنِ عَلَى الْمُؤْمِنِ سِتُّ خِصَالٍ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَيْهِ إِذَا لَقِيَهُ وَيُشَمِّتَهُ إِذَا عَطَسَ وَإِنْ دَعَاهُ أَنْ يُجِيبَهُ وَإِذَا مَرِضَ أَنْ يَعُودَهُ وَإِذَا مَاتَ أَنْ يَشْهَدَهُ وَإِذَا غَابَ أَنْ يَنْصَحَ لَهُ))

دائماً الإنسان يفكر إذا استقام لا يموت جوعاً، إذا نصحت المسلمين في بضاعتهم لا تموت جوعاً، لا تظن أن الغشاش هو الذي يربح وهو الذي يعيش في بحبوحة إذاً الدين باطل إذاً، لو أن المنحرف هو الذي يعيش والمستقيم هو الذي لا يعيش الدين إذاً باطل المستقيم يعيش ويربح ويعيش حياة كريمة لأن الله بخفي ألطافه يتولى رعايته وعنايته، إذاً القضية قضية أن تؤمن بالله عز وجل شرع منهجاً صحيحاً، الآن كلام الناس إن لم نغش لا نعيش عنده أولاد وهكذا الناس تريد الغش، أخي الناس مالهم حرام يريدون من يغشهم الغش يتناسب مع مالهم الحرام، أنت لست وصي عليهم وليس وكيل إذا كان مالهم حراماً هذا لا يعفيك من المسؤولية، وفي حديث آخر:

((عن حَكِيمُ بْنُ أَبِي يَزِيدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: دَعُوا النَّاسَ يُصِيبُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ فَإِذَا اسْتَنْصَحَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَنْصَحْهُ))

أيام يأتي إنسان إلى عند محامي والمحامي خبير بالقانون وهذه قضية خاسرة سلفاً، أما يستطيع أن يمضي مع هذه الدعوة ثمان سنوات، ويستطيع أن يبلغ الموكل أن القضية رابحة في آخر لحظة عندما

تسقط الدعوة عنده كلام جاهز أنه يا أخي قلنا لك ادفع ما دفعت يوجد رجل بطنه كبير وخصمك دفع وأنت لم تدفع وقلنا لك ولم تصدق، ويكون قد ابتز ماله ثمان سنوات وعيشه بالأمل هذا مسلم ؟ لا والله ولو صلى وصام وحج صيامه وصلاته وحجه لا قيمة لها عند الله إطلاقاً، طبيب لا يوجد زبائن يلتقي بمحلل ويتفق معه أرسل لك اثني عشر تحليل أول واحد تساويه بشكل جيد والباقي خلبي ومناصفة بيني وبينك، هل هذا مسلم ؟ لا والله إن لم تنصح الناس في عملك، في اختصاصك، في خبرتك، مدرس هذا الطالب لا ينجح إطلاقاً تعد أباه وتقول له أنا أنجح لك ابنك وبتفوق وأضمن لك مئتان علامة في الشهادة الثانوية، كل درس ثلاث مائة وخمسين وفي الجمعة درسين إلى سنة زمان، ثم ما نجح، فيقول والله نصحته كثيراً ولم يدرس، يوجد عنده جواب عند الخبر المؤلم، هذا ما نصح، قس على هذا المدرس، والطبيب، والمحامي، والصيدلي الدواء انتهى مفعوله فوراً يمحي التاريخ ويضع لصاقة ويقول وإلا يخرب بيتي، يخرب بيتك يا أخي أفضل من أن ينخرب بيت الزبون يدفع ثمن الدواء ولا يستفيد، فموضوع الدواء، وموضوع الإسمنت في البناء إسمنت منتهي مفعوله ينصب ويتعمر طابق فوقه ترى أن البناء تشقق وهذا مسكين حتى اشترى هذا البيت مات مائتان موتة بعته بيت مغشوش.

النجار يغش، والحداد يغش، والبائع، والموظف، والتاجر، والمهندس، والطبيب، كل مصلحة فيها غش وكل مصلحة ممكن أن تكون فيها مستقيم وأقول لكم من كل قلبي إن مهنة الإنسان وحدها يمكن أن تدخله الجنة أو أن تدخله النار المهنة فقط، إذا كانت مشروعةً في الأصل وابتغيت بها وجه الله وأنت تكفي نفسك وأهلك وأن تنفق من هذا المال لصالح قربك من الله عز وجل وهي مشروعة في أصلها ومارستها بطريقة مشروعة ولم تقعدك عن صلاةٍ أو صيامٍ أو حجٍ أو عن مجلس علمٍ وابتغيت بها خدمة المسلمين هذه مصلحتك نفسها عمل صالح تلقى الله بها.

وكل هذه الأحاديث حول هذا الحديث الشريف الذي هو ربع الدين، هو جوهر الدين:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثاً وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ وَيَسْخَطُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ))

يعني الناس الآن أميل إلى المجاملة، أعطه جمله وكما يريد، ليس هذا هو الدين، لك جار يغش الناس انصحه، لك جار يتعامل مع النساء تعامل غير مقبول فيه شطط انصحه، لك صديق، أخ، زوجة ابن، أنت انصح وعلى الله الباقي، أنت عليك أن تنصح وعلى الله أن يجعل قوةً في تأثيرها هذا من فعل الله عز وجل.

الآن يوجد معنى خطير جداً، قال: مادام الدين هو النصيحة، أنا مرة سمعت كلمة تركت في نفسي أثراً لا يعقل، هذه الكلمة سمعت مرةً أن أتفه شيء تفعله في الدنيا أن تنصح الناس، جعل بعضهم النصيحة

أتفه عملٍ على الإطلاق، وأنا أظن وأعتقد أن النصيحة أشرف عمل تفعله، طبعاً كيف أوفق بين القولين؟ التوفيق بينهما سهل إذا كنت أنت لست في مستوى النصيحة ونصحت الناس نفرت الناس من النصيحة يا طبيب طب لنفسك.

يا أيها الرجل المعلم غيـــره　　　هلا لنفسك كان ذا التعليـم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيرها　　　فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

لا تنهى عن خلق وتأتي مثلـه　　　عارٌ عليك إذا فعلت عظيـم

فإذا نصحت الناس ولم تكن في مستوى هذه النصائح فالنصيحة أتفه شيء تفعله في الدنيا، لذلك الأئمة الكبار رضي الله عنهم فسروا النصح لله قالوا: النصح لله أن تقوم بأداء واجباته على أكمل وجه، إذا قمت أنت بإقامة واجباتك اتجاه الله عز وجل على أكمل وجه هذا هو مقام الإحسان، كلكم يعلم أن في الدين مقام الإحسان ومقام الإيمان ومقام الإسلام فالدين فيه إسلام، إيمان، إحسان، وما دام الدين النصيحة إذاً ينبغي أن تكون مسلماً مؤمناً محسناً، ما الإحسان ؟ أن تعبد الله كأنك تراه ـ خائفاً ـ فإن لم تكن تراه، أن تعبد الله كأنك تراه محباً فإن لم تكن تراه فإنه يراك خائفاً، يعني أن تعبده خوفاً وطمعاً، رجاءً وخشية، أن تعبده في كلا الحالين.

يقول عليه الصلاة والسلام أن هذا الذي ينصح الناس عليه أن يقوم بواجباته على أكمل وجه فلا يكمل النصح لله بدون ذلك ولا يتأتى ذلك بدون كمال المحبة الواجبة ويستلزم ذلك الاجتهاد في التقرب إليه بنوافل الطاعات وترك المحرمات يعني قبل أن تنبس ببنت شفه قبل أن تقول أي كلمة اجتهد أنت في الطاعات، اجتهد أنت في المحبة، اجتهد في البذل، اجتهد في البذل وبعد ذلك يأتي بكلامك أثر كأثر السحر:

((النبي عليه الصلاة والسلام يقول: أرأيتم لو كان لأحدكم عبدان فكان أحدهما يطيعه إذا أمره ويؤدي إليه إذا ائتمنه وينصح له إذا غاب عنه وكان الآخر يعصيه إذا أمره ويخونه إذا ائتمنه ويغشه إذا غاب عنه، كانا سواءً ؟ قالوا: لا، قال عليه الصلاة والسلام: فكذا أنتم عند الله عز وجل))

يعني العبد الأول يطيعه إذا أمره وينصحه إذا ائتمنه ويبذل له إذا استأمنه والعبد الآخر يخون ويغش ولا ينصح هذان العبادان سواء عند الله عز وجل ؟ مستحيل لهذا قال الله عز وجل:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21))

[سورة الجاثية]

أيضاً شيء مستحيل، سئل أحد العلماء ما النصح لله، قال: أن تبدأ بحق الله قبل حق الناس، ابدأ بحق الله، فإن بدأت بحق الناس ولم تبدأ بحق الله مكشوف أنت توقع وصل ولا تملك الرصيد، إذا بدأت بحق

الناس قبل حق الله نصحتهم أديت لهم حقهم ولم تنصح نفسك عند الله عز وجل، إذاً النصح أن تبدأ بحق الله قبل حق الناس، لن تستطيع أن تنصح إلا إذا بدأت بحق الله أولاً ثم حق الناس ثانياً.

الآن يوجد عندنا شيء آخر، قال: النصح أساسه أول أساس للنصح أن تكون أنت قدوةً، أن تكون أنت متفوقاً، أن تكون أنت محسناً أن تكون أنت في مستوى النصيحة يعني إن لم تكن في مستوى النصيحة فاسكت فالسكوت أشرف لك، هذا أول عنصر والعنصر الثاني النصيحة في أصلها محبة فالناصح لا يحقد والحاقد لا ينصح، هل تحب الناس إذا أحببتهم تنصحهم، قال بعض العلماء النصيحة عناية القلب بالمنصوح له أن تحبه، أن تسعى لخيره، أن تخشى فساده، أن تخشى فتنته، هذا الشعور الغني بمحبة الآخرين عامل آخر في النصيحة، أول عامل أن تكون أنت قدوةً أن تكون مثلاً أعلى، أن تكون سباقاً إلى ما تنصح إليه أن تكون في المستوى الذي يرضي الله عز وجل، العامل الثاني لا أن تتخذ النصيحة حرفة أن تتخذ النصيحة مبدأ، أن تتخذ النصيحة تعبيراً عن حبك للناس هذا الموقف الثاني. لهذا قال بعض العلماء: النصيحة هي شدة العناية من الناصح باتباع محبة الله في أداء ما افترض عليه ومجانبة ما حرم عليه، إذاً النصيحة محبةٌ قبل كل شيء.

هناك تعريف آخر للنصيحة، النصيحة لله كما قلنا أن تحب عباده أما النصيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتبع سنته أولاً وأن تبين للناس سنته، دائماً في النصيحة أن تتبع وتبين، تبين بلا أن تتبع هذه ليست نصيحة هذه حرفة، مصلحة أما تتبع وتبين هذه هي النصيحة، النصيحة لكتاب الله عز وجل شدة حبه للكتاب وتعظيم أمره وهو كلام الخالق وشدة الرغبة في فهمه وشدة العناية في تدبره والوقوف عند تلاوته بطلب المعاني، أن تنصح لكتاب الله الشيء العجيب قد تفاجئون به لا تتكلم اسكت، اقرأ كتاب الله وافهمه، وتدبره، وتمثله، وطبقه، وتخلق بأخلاقه، آخر مرحلة تبين هذا الكتاب للناس بعد أن تمثلته، النصح لرسول الله قبل أن تتكلم اعرف قدر النبي اقرأ سنته تدبرها اعرف أبعادها افهم حكمها طبقها وبعدئذٍ انصح الناس باتباع سنة النبي لماذا ؟ لأنك إذا طبقت السنة وقطفت ثمارها فإذا تكلمت عنها بكلامك روح.

لو فرضنا إنسان سافر إلى بلد جميل جداً أمضى فيه أيام عديدة وعاد، لو قيل لهذا الإنسان صف لنا هذا البلد، يصفه لك وصفاً رائعاً مثيراً محبباً لك أن تزور هذا البلد لماذا ؟ لأنه لا يتكلم من مطالعاته بل يتكلم من أحاسيسه، من تجاربه، من خبراته، إذا أردت أن تؤثر بالناس تكلم من خبراتك الشخصية، تكلم من معاناتك لهذا قيل القرآن الكريم تؤخذ ألفاظه من حفاظه وتأخذ معانيه ممن يعانيه، إذاً النصح أولاً لما أنت تقرأ وتنصح ما عانيت وما طبقت وما تفاعلت وما قطفت الثمار ما شعرت بعظمة الدين، ما شعرت بالراحة النفسية ولا الطمأنينة، وما شعرت بالسعادة.

يا أخوان تدينوا وصلوا أنت فاقد الشيء كيف تعطيه، لكنك إذا كنت قدوةً ومثلاً صار في عندك خبرة وتجربة وسعادة، صار في عندك كما يقولون ذوبان في محبة الله، الآن أنت تعبر للناس عن أحاسيسك، عن تجاربك، عن خبراتك، عن معاناتك لذلك لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها، إذاً النصيحة تحتاج إلى تطبيق والنصيحة تحتاج إلى محبة.

أما النصيحة للنبي عليه الصلاة والسلام فبذل المجهود في طاعته ونصرته ومعاونته وبذل المال إذا أراد والمسارعة إلى محبته في حياته، بعد مماته العناية بطلب سنته، لما ربنا عز وجل قال:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33))

(سورة الأنفال)

في حياته وأنت في ظهرانيهم وبعد مماته وسنتك مطبقة في حياتهم أو محبتك في قلوبهم ما كان الله ليعذبهم، أما النصيحة لأئمة المسلمين فحب صلاحهم ورشدهم وعدلهم وحب اجتماع الأمة عليهم وكراهة افتراق الأمة عنهم، وأما النصيحة للمسلمين فأن تحب لهم ما تحب لنفسك، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ))

وحتى يكره لها ما يكره لنفسه، وعامل الناس كما تحب أن يعاملوك، هذا معنى النصح لعامة المسلمين، فكل إنسان له مصلحة تحب أن يشتري الزبون قماش يغش، تحب أن يأخذ شيء على أول غسلة ينتهي، تحب أن يسكن بيت تغشه في أساسه، تحب أن تعطيه بضاعة فيها مواد صناعية مضرة، النصيحة للمسلمين أن تحب لهم ما تحب لنفسك وأن تكره لهم ما تكره لنفسك، وأن تشفق عليهم وأن ترحم صغيرهم وأن توقر كبيرهم وأن تحزن لحزنهم وأن تفرح لفرحهم، أيام مثلاً عندك بضاعة فصار مشكلة فارتفع سعرها عشر أمثال يقول لك: بيتي في الجنة هذه صفقة ولكن هذه بضاعة غذاء وارتفع سعرها عشرة أمثال حرم منها الفقير فأنت أحببت نفسك فقط قال العلماء: علامة المؤمن لو أنك تاجر والأسعار رخصت جداً وخسرت وأكل الناس جميعاً هذا الطعام تفرح، هذا امتحان صعب جداً لأن عندك بضاعة ومعلق آمال أن تربح منها أرباح مضاعفة لسبب أو لآخر هبط سعرها فشاع شراءها بين الناس جميعاً، كثر سمعت من سنتين ثلاثة أن أناس ضمنوا المشمش بعشر ليرات فبيع بخمسة طبعاً خسروا، وإذا شاهدت أن كل الناس أطعموا أولادهم إذا مؤمن فعلاً تقول هنيئاً لهم، أكلوا الفاكهة بعد أن حرموا منها.

النصيحة للمؤمنين دقيقة جداً أن تفرح لفرحهم وأن تحزن لحزنهم وإن ضر ذلك في دنياه كرخص أسعارهم إن كان في ذلك فوات ربح ما يبيع لهم، ولو السعر هبط وما ربحت، أحياناً يصير إجراء يضرك شخصياً لكن ينفع المسلمين جميعاً يجب أن تفرح له إن كنت مسلماً صادقاً.

النصيحة لعامة المسلمين أيضاً إرشادهم لمصالحهم تعليمهم أمور دينهم ودنياهم، انظر تعليم الدين من نصيحة المسلمين، أمور الدنيا وضع ابنه عندك وأنت صاحب مصلحة لما الأب وضع ابنه عندك لتعلمه الميكانيك وما طلب منك أجرة صار عندك صانع مجاناً وأنت لا تريد أن يفتح محل في المستقبل عملت طريقة رائعة جداً وفيها ذكاء شغله بأعمال ليس لها علاقة بالميكانيك إطلاقاً، اذهب وتعال واحضر لي الغداء من البيت ولم تعلمه شيء إطلاقاً وعند فك المحرك تقول له اخرج إلى خارج المحل أنت ولو صمت وصليت وحجيت، الأب وضع ابنه عندك لكي تعلمه أنت ما علمته بل استخدمته أين دينك ؟ لم يبقَ دين إطلاقاً فلذلك النصح، ليس الدين أن نصلي وفقط، الدين أعمق من هذا بكثير فإذا لم يدخل الدين إلى كل خلية من خلاياك وإذا ما جرى الدين في عروقك إذا ما جرى في أعصابك، هذا ابن مسلم وضعه عندك أمانة وسامحك بالأجرة من أجل أن تعلمه مصلحةً ويفتح محل في المستقبل ويصبح ميكانيكي، كهربائي، وإلا أنت غششته.

إذاً الله عز وجل رب النوايا وكل إنسان بمصلحته إن كانت مصلحته فكرية، يدوية، مهنة معينة، سمعت أن السلف الصالح كانوا إذا فتح محله التجاري يقول نويت خدمة المسلمين، هذا عمل صالح، إذا قدمت للمسلم بضاعة جيدة متقنة وسعرها معقول ولا يوجد فيها ربح فاحش وعاملته معاملة طيبة ولقيت الله عز وجل يا رب هكذا فعلت أنت سخرتني لخدمة عبادك المؤمنين، يقول له حباً وكرامة أهلاً بك سلام عليك، ربنا عز وجل يتجلى على المؤمنين يوم القيامة تجليات متعددة.

إرشادهم إلى مصالحهم وتعليمهم أمور دينهم وأمر دنياهم وستر عوراتهم، من النصح بالمسلمين إذا في فضيحة اسكت، الحديث عنها ممتع فيها لذة الخبر مثير، قصة رائعة تعطي للسهرة بهجة ماذا حدث، فعلاً صار هكذا عجيب، وأنت تتصدر مجلس وتتكلم والناس تصغي إليك وهذه غيبة، من نصحك للمسلمين ستر عوراتهم وستر عيوبهم، العورة غير العيب، العيب مقصر فلان مخ لا يوجد غبي، يعني أنت ذكي لا حينما استغبته فليس ذكياً وكنت أغبى منه ستر عوراتهم وستر نقائصهم ونصرهم على أعدائهم والذب عنهم أي الدفاع عنهم، ومجانبة الغش والحسد لهم وأن يحب لهم ما يحب لنفسه وأن يكره لهم ما يكره لنفسه وما شابه ذلك، ومن نصحهم دفع الأذى والمكروه عنهم، يعني نريد أن نبيع هذه المادة الغذائية إذا كانت ناصعة سعرها أعلى لذلك نضع مادة كيميائية تستعمل للدهان ونأخذ ليرتين زيادة أنت مسلم ؟ لا والله الذي يضع مواد مؤذية في صناعات غذائية حتى يرفع السعر برأ الإسلام منه إطلاقاً لأنه ترك جوهر الدين، صلى وصام ولكن ترك جوهر الدين.

بعض السلف يقولون وددت أن هؤلاء الخلق أطاعوا الله عز وجل وأن لحمي قرض بالمقاريض، وكان عمر بن عبد العزيز يقول: يا ليتني عملت فيكم بكتاب الله وعملتم به فكلما عملت فيكم بسنةٍ وقع مني عضو حتى آخر شيء منها خروج نفسي، مرة أرسل لأحد الولاة والوالي أرسل له بمبلغ ضخم الجزية، فقال له: إن محمداً بعثه الله هادياً ولم يبعثه جابياً وددت أن الناس أسلموا وأن أعمل أنا وإياك راعيان للغنم، هذا موقف سيدنا عمر بن عبد العزيز.

الآن يوجد نصيحة خاصة بالعلماء هي قال: العلماء إذا أرادوا أن ينصحوا لله عز وجل عليهم أن يردوا الأهواء المضلة بالكتاب والسنة، إذا في أهواء، رغبات جامحة، انحراف في العقيدة، انحراف بالسلوك، شبه استحلها المسلمون، أعمال استبرأها المسلمون عليهم أن يوقفوا هؤلاء عند حدهم وأن يردوهم إلى الكتاب والسنة أيضاً رد الأقوال الضعيفة من زلات العلماء يعني أحياناً العالم له زلة فيروج شيء ينفي عن الله كمالاته أحياناً أو ييأس الناس من الله عز وجل وهو بنية حسنة فمن النصح لله عز وجل أن تفند هذه الأقوال الضعيفة وأن تبين الصواب، كلكم يعلم لما أحد الأنبياء سأل الله عز وجل قال: يا رب إنك تعلم أنني أحبك، قال يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك، قال: أحب عبادي إلي تقي القلب نقي اليدين لا يمشي لأحد بسوء أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقي، قال: يا رب إنك تعلم إني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى خلقك، قال: ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي.

إذاً من النصح لله عز وجل أن تفند الآراء الفاسدة وأن تفند السلوك الفاسد وأن تعيد الناس إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم، أيضاً من الأقوال الضعيفة أحدهم قال مثلاً من وحد فقد ألحد، هذه قالها الشيخ محي الدين، أنا مالي وما لهذا الشيخ العظيم هذا الكلام ليس لعامة المسلمين فإذا إنسان روج هذه الكلمات بين المسلمين أوقعهم في حيرة أوقعهم في لبس، أوقعهم في حيرة فكرية، النبي عليه الصلاة والسلام يقول: أتريدون أن يكذب الله خاطبوا الناس بما يفهمون.

أنا أيضاً من مهمتي لا أسمح لإنسان يروج أفكار محيرة ألغاز مثلاً يروج أحاديث تحتاج إلى شرح طويل جداً:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهم أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي إِنَاءِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ كُلَّهُ ثُمَّ لِيَطْرَحْهُ فَإِنَّ فِي أَحَدِ جَنَاحَيْهِ شِفَاءً وَفِي الآخَرِ دَاءً))

هذا الحديث العلم الحديث أثبته الآن ولكن إذا ما شرحته شرح كافي لعل الناس ينفرون منه، فأنت مكلف أن تنتقي الأحاديث التي تحبب الناس بهذه السنة، أما إذا في حديث يحتاج إلى شرح طويل يجب أن تشرحه شرحاً طويلاً، أحدهم خطب قال: قال عليه الصلاة والسلام

((عَنْ أَبِي أَيُّوبَ أَنَّهُ قَالَ: حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ كُنْتُ كَتَمْتُ عَنْكُمْ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لَوْلا أَنَّكُمْ تُذْنِبُونَ لَخَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ يَغْفِرُ لَهُمْ))

أنت ألقيت قنبلة هذا ليس حديث شريف، بل هو شريف ولكن يحتاج إلى شرح كبير قبل أن تلقيه على الناس، إذا في أحاديث يحتاج إلى تبين تأويل يجب أن توضح للناس أبعاد هذا الحديث وإلا وقعت في ضلال بعيد، إذاً هذه من مهمة العلماء.

قال أحد الأئمة: إنك لن تبلغ حق نصيحتك لأخيك حتى تأمره بما يعجز عنه، أنت لا تريد أن تحرج الآخرين فمقيم على بعض المعاصي وأنت ساكت، ما نصحته أنت مادام يوجد معاصي مقطوع الخط مع الله عز وجل وإذا مقطوع لا يوجد ثمار للدين يوجد وحشة يصير الدين عبء، إذا لا يوجد استقامة تامة لا يوجد اتجاه إلى الله عز وجل، لا يوجد اتجاه لا يوجد سعادة، إذا أنت شاهدت إنسان يعجز عن ضبط حواسه انصحه واحمله على ذلك حتى يسعد بلقاء الله عز وجل وإلا ما نصحته أنت، أي دله على طريق تتحرك سيارته وإلا يمل منها أصبحت وقافة وليست سيارة إذا تحركت ورأى مناظر جميلة وشعر بالتنقل من مكان إلى مكان شعر بقيمتها وقطف ثمارها، على كلٍ هذا الحديث أحد أركان الدين قلت لكم في بداية الدرس الدين له مظاهر وله جوهر، هذا الحديث إن لم تنصح الناس في كل شيء في أقوالك، وفي أفعالك، مهنتك، حرفتك، في كل نشاطاتك فلست مسلماً ولست مؤمناً ولست محسناً إذاً الإنسان حتى لا يضيع وقته، إن الله كره لكم قيل وقال، ماذا قال فلان أيهما أرجح استهلكت حياتك في قيل وقال وفي كثرة السؤال وإضاعة المال، حتى الإنسان ما يستهلك وقته وما يضيع عمره سدى عليه أن يضع يده على جوهر الدين وجوهر الدين أن تنصح لله أي أن تؤدي واجباتك اتجاه الله عز وجل أولاً وأن تدعو إليه ثانياً، مع النبي أن تفهم سنته وأن تدعو الناس إلى طاعته، مع الكتاب أن تفهمه وأن تطبقه بعدئذٍ دل الناس عليه، يعني يوجد عملية أولية في النصح وحتى يكون النصح أخطر عمل يفعله الإنسان فإن لم تكن كذلك يكون النصح أتفه عمل تفعله وإن كان كما أراد النبي عليه الصلاة والسلام فالنصح أخطر عمل.

يوجد فقرة متعلقة بالنساء وعدتكم في كل درس سابق أحب أن أجعل فقرة لها مساس بالنساء، النبي عليه الصلاة والسلام يقول حديث رواه أبو هريرة وهذا الحديث رواه الإمام البخاري:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهم عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: التَّسْبِيحُ لِلرِّجَالِ وَالتَّصْفِيقُ لِلنِّسَاءِ))

كانوا مثلاً في محاضرة وألقى الخطيب خطبة رائعة، الحقيقة لو أن امرأة كانت في صلاة تصلي وراء زوجها وزوجها قام بالركعة الخامسة للظهر ماذا تفعل ؟ لو أن المقتضي رجل لقال له سبحان الله لو قعد

القعود الأول وتابع إلى آخر القعود ماذا يفعل ؟ يقول سبحان الله أما إذا كانت امرأة النبي عليه الصلاة والسلام سن لها أن تصفق أن تضع باطن كفها اليمنى على ظاهر كفها اليسرى، والحديث يبدو سهل جداً، الإمام البخاري قال التسبيح للرجال والتصفيق للنساء، لكن التحليل النبي عليه الصلاة والسلام منع المرأة أن تسمع صوتها وهي في الصلاة أي في حالة يغلب على الظن أنها لا تخضع بصوتها قال تعالى:

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (32))

[سورة الأحزاب]

وهي في الصلاة وهي في أشد حالات الخشوع وهي في حالة يظن أنها لا تخضع بصوتها ولا تترنم به ولا ترجو منه أن يستميل له الرجال ومع ذلك أمرها أن تصفق لا تسبح لذلك إلى الآن بلاد المغرب عند الفئات المحافظة إذا طرقت الباب لا يقال لك من ؟ لا يوجد كلام أبداً يقرع لك على الباب من الداخل أي سمعنا أنك طرقت الباب ماذا تريد حديث لا يوجد، المرأة وهي في الصلاة لا ينبغي أن تقول سبحان الله وهي خاشعة فكيف إذا غنت وكيف إذا سمع غناءها وكيف إذا ألف الناس أن يستمعوا إلى غناء النساء يوجد بعد شديد جداً عن أحكام الشريعة طبعاً التحريم دقيق، النبي الكريم منع المرأة أن تقول سبحان الله وهي في الصلاة لئلا يكون صوتها فتنة للرجال فكيف إذا صار في اختلاط وصار أخذ وعطاء وما إلى ذلك، لذلك الإسلام شرع مجموعة قواعد لكي لا تقع الفتنة في المجتمع أول قاعدة قال: يحرم خلوة الرجل بامرأة ليست بذات محرم له ولا تنسوا أيها الأخوة أن العلماء يقولون السفر خلوة، إذا إنسان سافر مع امرأة لا تحل له فهذا السفر خلوة لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَّةً وَاكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا قَالَ ارْجِعْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ))

رواه البخاري ومسلم، وقال عليه الصلاة والسلام:

((إياك والخلوة بالنساء والذي نفسي بيده ما خلا رجل بامرأة إلا دخل الشيطان بينهما ولأن يزحم رجل خنزيراً متلطخاً بطين أو حمأة خير له من أن يزحم منكبه منكب امرأة لا تحل له "))

يعني حتى في مصعد المصعد خلوة، يعني إذا في مكان فيه ازدحام وأنت زاحمت ولامست كتفك كتف امرأة لا تحل لك أو ظهراً بكتف أو بطناً بظهر وهكذا، هذا الإجراء الثاني، قال الإجراء الثالث ويحرم عليها الخروج من بيتها إلا لضرورة ماسة وإذا خرجت لضرورة فعليها أن لا تخرج إلا بإذن زوجها أو

ذي محرم منه، وأن تبتعد عن مظاهر الزينة فتستر جسمها بلباس سابغ ساتر لا يصف البدن وأن لا تتعطر ولا تتبختر، قال تعالى:

(التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31))

[سورة النور]

الإجراء

((عَنِ الأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا مِنْ رِيحِهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ))

((عَنْ أَبِي مُوسَى أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ ثُمَّ خَرَجَتْ لِيُوجَدَ رِيحُهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ وَكُلُّ عَيْنٍ زَانٍ))

جاء في شرح الحديث كل عين زانية أو كل عين نظرت إليها نظرة إعجاب و استحسان فهي زانية، لا أحد يقول لي لفها برمة أستاذ هذا هو الشرع.

ويحرم عليها السفر منفردةً قال عليه الصلاة والسلام:

((عن سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رَضِي اللَّهم عَنْهم يُحَدِّثُ بِأَرْبَعٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْجَبْنَنِي وَآنَقْنَنِي قَالَ لا تُسَافِرِ الْمَرْأَةُ يَوْمَيْنِ إلا مَعَهَا زَوْجُهَا أَوْ ذُو مَحْرَمٍ))

حدثني رجل كان في بلد في بلاد الحجاز فرجل مقيم في هذه البلاد من مصر ذهب إلى مصر في إجازة وتزوج ولكن إلى أن تهيء الزوجة وتجهز ألبستها وحاجاتها فعاد إلى مكان عمله وطلب من أهل زوجته أن يرسلوها إليه بالطائرة وحدها وطلب منهم أن يرسلوا رسالة أو برقية بميعاد انطلاق الطائرة والوقت المناسب، وكان عنده عمل خارج مقر عمله وجاءت البرقية للموظف حدثته نفسه بشر فأخفى البرقية وجاء إلى المطار واستقبلها نيابة عن زوجها وفعل بها ما فعل هو وأصدقاؤه ثم قتلت لئلا تنتشر، وهو ينتظر زوجته إلى أن جاء جواب لقد طارت إليك على الطائرة الفلانية وأرسلنا برقية يعني حينما تجد بعض المشكلات تنشأ من مخالفة منهج الله عز وجل يحرم عليها التشبه بالرجال:

((عَنْ عَطَاءٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْ هُذَيْلٍ قَالَ: رَأَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَمَنْزِلُهُ فِي الْحِلِّ وَمَسْجِدُهُ فِي الْحَرَمِ قَالَ فَبَيْنَا أَنَا عِنْدَهُ رَأَى أُمَّ سَعِيدٍ ابْنَةَ أَبِي جَهْلٍ مُتَقَلِّدَةً قَوْسًا وَهِيَ تَمْشِي مِشْيَةَ الرَّجُلِ فَقَالَ: عَبْدُ اللَّهِ مَنْ هَذِهِ ؟ قَالَ: الْهُذَلِيُّ، فَقُلْتُ: هَذِهِ أُمُّ سَعِيدٍ بِنْتُ أَبِي جَهْلٍ، فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَشَبَّهَ بِالرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ وَلا مَنْ تَشَبَّهَ بِالنِّسَاءِ مِنَ الرِّجَالِ))

يعني هذه بعض الإجراءات التي تمنع الفساد في المجتمع وتمنع وقوع الفتنة وهذه كلها أحاديث صحيحة وهذه توجيهات النبي، وأذكركم بقول سيدنا سعد:

((ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حق من الله تعالى "))

يعني بالمختصر المفيد هذه تعليمات الصانع إذا شئت أن تحيا سعيداً وأن تموت سعيداً وأن تعيش في الجنة سعيداً فعليك بتطبيق السنة، آخر فقرة بالدرس ليست هناك قصة محددة ولكن مجموعة قصص حول موضوع واحد، ورد في بعض الأخبار أن ملك الموت حينما يأتي المؤمن يأتيه على أطيب ريح وأحسن صورة، من يحب هذا المؤمن له ابن عم، ابن خال، صديق، شريك، الله عز وجل إكراماً له يأتيه ملك الموت على صورة أحب الناس إليه ويأتيه على أطيب ريح وأحب صورة، وأحب الناس إليك لهم أشكال عديدة، ساعة يقول لك متعب، وساعة معصب، وساعة مشرق الوجه فهذا الذي يحبه يأتيه على أطيب ريح وعلى أطيب صورة ويقول هذا الملك للمؤمن مرحباً بك، ويقول هذا المؤمن لملك الموت لأي أمر جئت ؟ فيقول له الملك لقبض روحك وعلى أي حال تحب أن أقبض روحك فيقول هذا المؤمن إذا كنت في السجود فافعل ما أمرت فيأتيه حافظاه ويقول أحدهما لصاحبه كان لنا صاحباً وأخاً وقد حان الفراق فيقولان له ـ الذين عاشوا معه طوال حياته يسجلون ـ لا يوجد في مكان في اليمين من كثرة الأعمال الصالحة كله امتلأ، يقولان له جزاك الله خيراً وغفر لك فنعم الأخ كنت لقد كنت أيسر مؤمن ونعم ما قدمت لنفسك، وتقول روحه لجسده جزاك الله عني خيراً كنت تحب الخير وأهله وتبغض الشر وأهله نستودعك الله.

هذا مشهد من مشاهد مغادرة المؤمن للدنيا، مأمون السَلمي رحمه الله قال لما توفي أبو عبد الله بن مقاتل غسلناه وكفناه ودفناه فهتف بنا هاتف من السماء الحمد لله الذي أوصل الحبيب إلى الحبيب راضياً مرضيا، بعد أن مات رآه بعض أصحابه في المنام بعد موته وكان يتبختر في حظيرة القدس وهذه المشية غير لائقة وغير شرعية فقلت له ما هذا التبختر يا أبا عبد الله ألسنا قد نهينا عنه، فيقول: هذا مشي الخدام في دار السلام عند الملك العلام، هذا مشي المؤمنين في الجنة والله معه حق أن يتبختر نجح، إذا طالب جاء وناجح والأولي يختل توازنه من فرحه وإذا راسب يشق الجلاء.

وقال عمار بن إبراهيم رحمه الله تعالى، في امرأة صالحة عاشقة لله اسمها المسكينة قال عمار بن إبراهيم: رأيت المسكينة الطاوية بعد موتها في المنام، امرأة مسكينة مثل رابعة العدوية، رأيتها في المنام وكانت تحب مجالس الذكر، مجلس يذكر فيه اسم الله عز وجل، يذكر فيه النبي، يذكر فيه أحكام الشرع، وكانت تحب مجالس الذكر فقلت لها مرحباً يا مسكينة، فقالت: هيهات يا عمار ذهبت المسكينة وهذه في الدنيا كانت.

والله مرة قرأت كلمة أقشعر لها بدني، أحد العارفين بالله قال: مساكين أهل الدنيا عاشوا فيها وغادروها ولم يذوقوا أطيب ما فيها ما أطيب ما فيها ؟ ذكر الله، أكلوا، وشربوا، وتنزهوا، وسكنوا، ونظموا حياتهم، وعملوا لقاءات، واحتفالات، وأعراس، وأطيب شيء في الدنيا ما ذاقوه ذكر الله ومن والاه،

فقال لها: مرحباً يا مسكينة، فقالت له: هيهات يا عمار ذهبت المسكينة وجاء الغنى، فقلت: هنيئاً لكِ، فقالت: ولم تسأل عمن أبيحت لها الجنة بحذافيرها يبدو أن الجنة شيء عظيم، لما ربنا عز وجل قال:

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17))

[سورة السجدة]

قلت: بماذا أبيحت لك الجنة بحذافيرها، قالت: بمجالس الذكر، الآن بطارية تريد أن تكون دائماً متقدة تحتاج إلى شحن باستمرار، وأنت بطارية تريد شحن أسبوعي وإذا كان الشحن مرتين أفضل في الأسبوع تكون الإضاءة متألقة أكثر، يوجد رجل آخر اسمه علي بن زادان.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (016) :مقاييس الإيمان - الرحمة - عدم هجر الأخ لأخيه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1990-12-02

بسم الله الرحمن الرحيم

مقاييس صحة الإيمان :

أيها الأخوة المؤمنون ، الإنسان أحياناً يود أن يطمئن على إيمانه، على إسلامه، على مرتبته، على مكانته عند الله، على مدى نجاحه في الدنيا، على مدى الحظوة عند الله يوم القيامة، هذا دافع مستمر، أن تعرف حدود إيمانك، مرتبة إيمانك، أن تعرف ما لك عند الله، أن تعرف كرامتك عند الله، هذا دافع كامن في كل مؤمن، ولكن المؤمن أحياناً يتخذ بعض المقاييس، ويعرض عن بعضها الآخر، فقد يقيس إيمانه بأنه يصلي الصلوات الخمسة، ويصوم الصيام المفروض، وقد حج البيت مرتين، وأنفق من ماله كثيراً، هذا مقياس، شرط لازم غير كاف لكن أحياناً هناك مقاييس أخرى، لو أن المؤمن قاس نفسه بها لجاء المؤشر منخفضاً.

يا ترى هل هناك في القرآن مقاييس لصحة الإيمان؟.. مقاييس لتفوق المؤمن في إيمانه؟

أقول لكم في هذا الدرس مقياساً واحداً، من هذه المقاييس ما إذا كان قلبك مفعماً بالرحمة أو لا؛ لأن الله عز وجل يقول متحدثاً عن الكفار:

(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة المائدة : 13]

هناك علاقة بين بعد الإنسان عن الله عز وجل وبين قسوة قلبه، لا أقول هذا هو المقياس الوحيد لا.. هذا أحد المقاييس، ولكن إذا وضعنا بين أيديكم هذا المقياس، هذا مقياس دقيق جداً، أي الإنسان كلما اقترب من الله عز وجل كلما اشتق منه الرحمة، فكل قلب مفعم بالرحمة هو قلب قريب من الله عز وجل، وكل قلب قاسٍ هو قلب بعيد، وهذه علاقة ضرورية، لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

[سورة الحديد : 27]

إذاً هذا القلب الذي بين جوانحك إذا أقبلت على الله عز وجل واتبعت النبي عليه الصلاة والسلام امتلأ قلبك رحمة، فإذا ابتعدت عن الله عز وجل امتلأ القلب قسوةً.

الرحمة التي أودعها الله في قلب الآباء و الأمهات :

قد يسأل سائل: ما بال جميع الأمهات يحببن أولادهن؟ أقول لكم: هذه الرحمة التي أودعها الله في قلب الأم، هذه الرحمة الأقل منها التي أودعها الله في قلب الأب، هذه رحمته تُسمى في علم الميكانيك السرعة الابتدائية، أي الله عز وجل وضع هذه الرحمة في قلب الأمهات المؤمنات، والفاسقات، والفاجرات، والملحدات، والمستهترات، والساقطات، أية امرأة أودع الله في قلبها رحمة إكراماً لابنها من أجل أن تربيه، لذلك من معاني قوله تعالى:

(أن اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)

[سورة طه : 39]

أي أودعت في قلب أمك وأبيك رحمة يرحمانك بها، وما منا واحد إلا وله أم وأب، وقد تلقى من رحمات أمه وأبيه الشيء الكثير، هذه الرحمة الخاصة رحمة الأم بولدها، رحمة الأب بولده رحمة موجودة ولكنها ليست من كسبه إنما جعلها الله في قلبه ليتراحم الناس، أعرف صديقاً له قريبة توفيت، طبعاً أنا لا أتخذ من الرؤيا حكماً ولكنه نستأنس بهذه الرؤيا، فرق كبير بين أن تستنبط حكماً أو تقييماً من رؤيا وبين أن تستأنس بهذه الرؤيا، هذه القريبة لها ابن من زوجها ولها ابن زوج من غيرها، وكانا صغيرين، فإذا أرادت أن تطعم ابنها تسقيه حليباً خالصاً، أما ابن زوجها فكانت تملأ له نصف الكوب حليباً ونصفه ماءً، توفيت هذه المرأة بعد عمر طويل رآها قريبها في المنام تعذب، قال لي قريبها رأيتها في ثمان سنوات كلما رأيتها في الرؤيا أراها معذبة إلى أن رأيتها بعد ثمان سنوات في حالة طيبة فلما سألتها عن سرّ حالتها الطيبة قال: يا ولدي لقد غفر الله لي ذنب الحليب، إذاً الأم فاسقة، قريبة، بعيدة، مقبلة، معرضة، مستهترة، في قلبها رحمة، هذه الرحمة ليست من كسبها، وليس لها فضل بها، وإنما أودعها الله في قلبها لترحم أولادها، إذاً أية رحمة هذه التي نسعى من أجلها، أية رحمة هذه التي نرقى من أجلها، أية رحمة هذه التي نتقرب بها إلى الله عز وجل، أية رحمة هذه التي تعد مؤشراً على صدق إيماننا وقربنا من الله عز وجل، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((ولكنها رحمة العامة))

[الطبراني عن ابن مسعود]

أن يكون في قلبك رحمة هذا مقياس، مادام القلب قاسياً، جلموداً صخراً، الصلاة والصيام والحج والزكاة عبادات شكلية لم تحدث هذه الصلة الحقيقية، كما تعلمون الصلاة ومن أجل الصلة بالله عز وجل، والصيام من أجل الصلة بالله عز وجل، والحج من أجل الصلة بالله عز وجل، والزكاة من أجل الصلة بالله عز وجل، وكل العبادات من أجل أن يتصل قلبك بالخالق، فإذا اتصل اصطبغ بكمال الله عز وجل، مقاييس، الآن عندك ابنك في المحل التجاري وعندك صانع فإذا وضعت على ظهر الصانع أكداس مكدسة من البضائع وكلما ناء ظهره بهذا الحمل الشديد تقول: أنت شاب احمل، أما إذا جاء ابنك ليحمل الحمل تقول له: لا لا أخاف على ظهرك، اعلم علم اليقين أن رحمتك بابنك لا قيمة لها لكن الذي سوف تحاسب عليه رحمتك بهذا الطفل الصغير الذي لا ينتمي إليك نماء نسب، ألا تحب أن تملك مقياساً تقيس به إيمانك؟ ألا تحب أن ترى مقامك عند الله عز وجل؟ ألا تحب أن ترى مكانتك عند الله عز وجل؟ إن الرحمة التي أودعها الله عز وجل في قلبك تجاه أهلك وأولادك هذه رحمة ليست كسبية وليست من كسبك إنما هي رحمة أودعها الله في قلبك لترحم أولادك كي تستمر الحياة.

قسوة القلب علامة البعد عن الله عز وجل :

أنت مقابل ذلك كما تعلمون من قبل الله عز وجل كلفك أن تبر أباك وأمك، فإذا رحمت أمك وأباك هذه رحمة الإيمان، هذه رحمة كسبية، لكن أباك وأمك ما كلفا من قبل المولى جل وعلا أن يرحماك، لأن الرحمة في قلبهما فطرة طبع، سرعة ابتدائية، لذلك الله عز وجل أمرك أن ترحم أمك وأباك ولم يأمرك أن ترحم أولادك، لأنه أودع في قلبك ما يكفي لترحم به أولادك، إذاً إذا قست ابنك بمقياس وهذا الطفل الصغير في المحل التجاري بمقياس آخر فاعلم أنك بعيد عن الله جداً، اعرف أنك لا تعرف الله عز وجل، إذا أردت أن تسب إنساناً تقول لعامة الناس كلمات معروفة بذيئة، أما إذا أردت أن تسب إنساناً سباباً راقياً فقل له هذا الكلام قل له: أنت تستخدم مقياسين، أنت لك مقاييس مزدوجة، إذا أردت أن تعامل ابنك لك مقياس، وإذا أردت أن تعامل الآخرين لك مقياس، راقب نفسك إذا كان في البيت ابنتك وزوجة ابنك هل عندك الإيمان الكافي لترحم زوجة ابنك كما ترحم ابنتك؟ أخطاء ابنتك مغفورة أما أخطاء زوجة ابنتك فلا تغتفر، إذاً أنت لك مقاييس مزدوجة تقيس بها الأمور ليس هذا هو الدين، أردت من هذه الكلمة أن أضع بين أيديكم مقياساً ورد في الكتاب والسنة، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة الزمر:22]

ما أبعدهم عن ذكر الله، والصلاة ذكر، ما أبعدهم عن طاعة الله، يا ترى لأنهم قساة هم بعيدون أم لأنهم قساة ابتعدوا أم ابتعدوا لأنهم قساة؟ كلاهما صحيح، سماها المناطقة علاقة ترابطية تقسو فتبتعد، تبتعد فتقسو، كلما ابتعدت عن الله عز وجل قسا قلبك، وكلما اقتربت منه رق قلبك، إذاً رقة القلب وقسوة القلب ورحمة الغريب، النبي عليه الصلاة والسلام فيما أذكر في بعض الأحاديث قال له أصحابه: كلنا يرحم صغارنا، قال عليه الصلاة والسلام ولكنها رحمة العامة.

أنا أريد الرحمة العامة، أريد أن ترحم الإنسان أي إنسان، الطفل أي طفل، هذا هو الذي يرفعك عند الله عز وجل، أتعامل هذا الأجير كما تعامل ابنك؟ أتعامل هذه البنت الغريبة في بيتك وهي زوجة ابنك كما تعامل ابنتك؟ أتعفو عن أغلاطها؟ أتتسامح معها في تقصيرها؟ أترحمها؟ أتلتمس لها عذراً؟ أم تقسو عليها وتوغر صدر ابنك عليها؟ فلذلك القضية قضية تعامل، قضية قلب اتصل بالله عز وجل فامتلأ رحمة هذه الرحمة فاضت، كان عليه الصلاة والسلام يبكي للأرملة والمسكين، كان يوصل للهرة الإناء هذا من رحمته إذاً هذا مقياس، فالإنسان يراقب نفسه هل يرحمهم؟ هل يعطف عليهم؟ هل يبكي إشفاقاً على مصائبهم أم أنه ليس منهم؟ النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((والله ما آمن والله ما آمن من بات شبعان وجاره إلى جانبه جائع))

[أخرجه الطبراني عن أنس]

هذه الاستقلالية عن الناس، أنا بخير وانتهى الأمر، أنا في بحبوحة ولا يوجد عندي مشكلة، أنا دخلي يكفيني، إذا كنت كذلك فقلبك قاس، وقسوة قلبك علامة بعدك عن الله عز وجل، هذه حقيقة أضعها بين أيديكم حتى الإنسان لا يغش بصلاته، لا يغش بصيام النفل، لا يغش بقيام الليل، لا يغش بدفع الصدقات، مادام له قلب قاسٍ لا يرحم فهذا القلب بالتأكيد وبالنص القرآني:

(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة المائدة: 13]

(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة الزمر:22]

قسا قلبه من بعده عن ذكر الله، هذا معنى الآية الدقيق، ولو ذكر الله عز وجل لرق قلبه، قال تعالى:

(ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

[سورة الحديد:27]

حديث اليوم:

((لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثٍ يَلْتَقِيَانِ فَيَصُدُّ هَذَا وَيَصُدُّ هَذَا وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بالسلامِ))

[رواه البخاري ومسلم عن أبي أيوب]

حرص الإسلام على تماسك المجتمع :

الحقيقة هناك توجيهات للمؤمنين من قبل النبي عليه الصلاة والسلام، ولكن هناك توجيهات اجتماعية، أي أنت إنسان اجتماعي تعيش في مجتمع، فكما أن الإسلام حرص حرصاً على سلامة الفرد وعلى صفائه وعلى قربه من الله عز وجل، أيضاً حرص الإسلام على تماسك المجتمع، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، ألا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَمْرٍ إِذَا أَنْتُمْ فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ))

[رواه مسلم، أبو داود، ابن ماجة، أحمد عن أبي هريرة]

ما لم نحب بعضنا بعضاً فلسنا مؤمنين، النبي عليه الصلاة والسلام ربط الإيمان بالحب، إن لم تحب أخاك المؤمن فلست مؤمناً، إن أبغضته فلست مؤمناً، وإن أبغضك ليس مؤمناً، إن كنت مستقيماً على أمر الله، قائماً بواجباتك الدينية، واقفاً عند حدود الشرع، متخلقاً بأخلاق الإسلام، متبعاً لسنة النبي عليه الصلاة والسلام ومع ذلك يبغضك، لماذا يبغضك؟ هناك مشكلة، هناك خلل، إذاً النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ...))

ولن كما يقول علماء اللغة لتأبيد النفي، ولن تدخلوا الجنة حتى يحب بعضكم بعضاً، مادام النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ولن تؤمنوا حتى تحابوا))

إذاً كأن النبي عليه الصلاة والسلام يدعونا إلى أن نحب بعضنا بعضاً، كيف يحب بعضنا بعضاً؟ يجب أن تحب أخاك، كيف تحبه؟ هنا السؤال؛ إذا عاملته بالإحسان أحبك، وإذا أحبك أحسن إليك، وإذا أحسن إليك أحببته، ابدأ أنت بإكرامه، ابدأ أنت بمراعاته، ابدأ بالحرص عليه، ابدأ بتقديم خدمات له، ابدأ برعايته، ابدأ بتفقده، ابدأ بزيارته، ابدأ بإهدائه هدية إذا كان عنده مناسبة، قدم له شيئاً، إذا فعلت هذا أحبك وإذا أحبك أحببته، كن أنت المبادر إلى التقرب إليه، كلما أحب أحدنا الآخر أحبنا الله جميعاً، يبدو أن الله سبحانه وتعالى يحبنا أن نحب بعضنا بعضاً، يقول الله عز وجل:

((سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ))

[أخرجه الطبراني عن معاذ بن جبل]

الفاسق و المبتدع :

لكن هناك سؤالاً، الإنسان هكذا يحب ببساطة؟ بسذاجة يقدم كل ما عنده للناس؟ بشيء من البساطة أم له مواقف؟ أي إذا رأيت ابنك منحرفاً أتبالغ في محبته والود له؟ كأنك تقره على عمله، أحياناً الإنسان إذا بالغ في بسط الوجه وإطلاق السرائر والإعلان عن محبته بعذب الألفاظ هذا ماذا يفعل؟ يجعله في موضع لا يستطيع أن يؤثر بالآخرين إذاً ما الحل؟ العلماء والفقهاء قالوا: إذا كان الرجل فاسقاً أو مبتدعاً، ما الفرق بين الفاسق والمبتدع؟ الفاسق إنسان عقيدته صحيحة لكنه انحرف، ارتكب معصية، مخالفة، تجاوز الحدود، أطلق بصره في الحرام، أكل مالاً حراماً، أؤثر عنه أنه يكذب، الفاسق كل من خرج عن منهج الله عز وجل، والمبتدع كل من اعتنق عقيدةً فاسدة، عقيدةً غير صحيحة، كل من خالف في اعتقاده ما ينبغي أن يعلن بالضرورة، كل من أنكر أساسيات العقيدة، أنكر شيئاً أجمع عليه العلماء، أنكر شيئاً فيه نص ثابت، آية قرآنية، حديث صحيح، حديث متواتر أجمعت عليه الأمة من رسول الله وحتى الآن، فعندك فاسق وعندك مبتدع، إنك إن أعرضت عن الفسق وغلب على ظنك أنه بإعراضك عنه ربما عاد إلى رشده، ربما تاب، هنا أجاز الفقهاء أن تهجره فوق ثلاث، رجل له ابن لا يصلي، يرتاد أماكن غير مقبولة، له أصدقاء غير مقبولين، فهذا الابن إذا أعرض عنه بنية أن يصلحه، أن يحمله على الطاعة، هذا الإعراض لا يدخل في صلب هذا الحديث، الحديث علاقته بمؤمن مستقيم، ملتزم، له عقيدة صحيحة، أما الفاسق والمبتدع فإذا أردت أن تعرض عنهما كي تحملهما على طاعة الله عز وجل وعلى تصحيح ما يعتقدان به وغلب على ظنك أنك بهذا العمل ربما دفعتهما إلى طاعة الله وإلى الصواب بالاعتقاد، قال: هذا الهجران لا علاقة له بهذا الحديث.

((لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثٍ يَلْتَقِيَانِ فَيَصُدُّ هَذَا وَيَصُدُّ هَذَا وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسلامِ))

[رواه البخاري ومسلم عن أبي أيوب]

الأصل أنه من أكرم أخاه فكأنما أكرم ربه، الأصل أخوك إذا عرف بالصلاح والتستر، معنى الصلاح أي يغلب عليه الصلاح، فإذا فعل شيئاً عن غير قصد ستره عن الناس حياءً من الله عز وجل، وحياءً من الناس، هذا الأخ الكريم لا يجوز أن تغتابه ، من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته ، قبل أن

تقول: فلان كذا وكذا، قبل أن تطلق لسانك في أعراض الناس، قبل أن تقيّم الناس، انظر إلى النبي عليه الصلاة والسلام:

((الغيبة أشد من الزنا))

[الجامع الصغير عن ابن أبي الدنيا]

أيعقل أن يزني المؤمن؟ إذا كان المؤمن لا يعقل أن يزني فكيف يغتاب والغيبة أشد من الزنا؟ قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحجرات:12]

فهذا الذي نبغيه أن:

((لا تَحَاسَدُوا وَلا تَنَاجَشُوا وَلا تَبَاغَضُوا وَلا تَدَابَرُوا وَلا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يَخْذُلُهُ وَلا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

إذاً قال الفقهاء: يجوز أن تهجر المبتدع، أي إنسان أنكر شيئاً مما ينبغي أن يعلم بالضرورة هذا مبتدع. أنكر شيئاً أقرّ به كل علماء المسلمين، مثلاً الحج ليس فرضاً، هذا الحج والصوم أخي لماذا لا تصوم؟ الصيام من أجل أن تتهذب الأخلاق، وأنا أخلاقي مهذبة، هذا مبتدع أنكر فرضية الصوم، فكل إنسان طلع عليك بأفكارٍ جديدة تخالف القرآن والسنة هذا مبتدع، هذا إذا بالغت في مودته، ومحبته، وإكرامه، والهش له، والابتسام له، والإحسان إليه، وتعظيمه، فقد غششت الناس به، وقد جعلته يتمادى في غيه، الفقهاء أجازوا أن تقاطع الفاسق والمبتدع إذا ظننت أن هذه القطيعة ربما حملتهما على طاعة الله عز وجل وعلى تصحيح ما يعتقدان.

قوة المؤمنين في تماسكهم وتعاونهم وتعاضدهم :

شيء آخر: سيدنا عمر ابنه تعرفونه جيداً عبد الله بن عمر، يروي التاريخ أنه قاطع ولده مقاطعةً طويلة، إذا الإنسان له ولد وأساء ومده في طغيانه الأب آثم، لذلك ورد في السنة أن الولد يوم القيامة يقول: يا رب لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، والعلماء قالوا: يجوز أن تهجر الزوجة فوق ثلاث إذا كان هجرانها نافعاً، وغلب على ظنك أن في هذا الهجران تعود إلى رشدها، لكن اشترط العلماء أنه لا يجوز أن تهجر هذه الزوجة إلا بعد وعظها وتذكيرها، يوجد مواقف كثيرة جداً فيها غلط، فالإنسان يأخذ موقفاً

قاسياً من زوجته دون أن يبين، دون أن يوضح، عليك أن تعظ، أن توضح، وأن تدلي بالحجة، وأن تذكر بكتاب الله وبالسنة، عليك أن تفعل كل شيء يوضح الحقيقة، وبعد ذلك إن حصل النشوز والبعد عندئذٍ تستخدم هذا الأسلوب الذي جاء بالقرآن الكريم، تهجرها فوق ثلاث، فوق ثلاث لا يجوز إلا لفاسقٍ، أو مبتدعٍ، أو لزوجةٍ استعصت على أمر زوجها وأبت أن تنصاع إلى زوجها والحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها أخذها، قال لأصحابه: " من كنت أخذت له مالاً فهذا مالي، ومن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليقتد منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليشتمه، ولا يخشى الشحناء فإنها ليست من شأني ولا طبيعتي "

الحديث الذي يدعم هذه الأحاديث يقول عليه الصلاة والسلام:

((لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثلاثٍ فَمَنْ هَجَرَ فَوْقَ ثلاثٍ فَمَاتَ دَخَلَ النَّارَ))

[مسلم وأحمد عن أبي هريرة]

أنت مؤمن وهذا مؤمن وقوة المؤمنين في تماسكهم، وتعاونهم، وتعاضدهم، وتكاتفهم، عليك أن تلتمس لأخيك عذراً ولو سبعين مرة، التمس لأخيك عذراً ولو سبعين مرة، إنسان ما جاء على الموعد، أخي هذا ليس له مواعيد، ليس له حق، لعله وقع في مشكلة كبيرة جداً، لعل قريباً له مات، لعل ابنه دخل المستشفى، فأنت من قواعد التعامل الاجتماعي أن تلتمس لأخيك الأعذار ولو سبعين مرة.

النبي معصوم بمفرده بينما أمته معصومة بمجموعها :

هناك نقطة دقيقة هي أن النبي عليه الصلاة والسلام كلكم يعلم أنه معصوم لأنه نبي ولأنه مشرع، لو لم يكن معصوماً، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن معصوماً وأمرنا الله عز وجل أن نتابعه، وأن نقتفي آثره، وأن نسير على منهجه وسنته، ولم يكن معصوماً، فكأن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالمعصية، النبي عصمه الله عصمة تبليغ في أقواله وفي أفعاله وفي إقراره وفي سلوكه، لكن أمته معصومة أيضاً، من يقبل هذا الكلام؟ هو معصوم وأمته معصومة، لكن الفرق بين الكلمتين أنه معصوم بمفرده بينما أمته معصومة بمجموعها، المجموع معصوم، أن الإنسان تفوق في ناحية وغابت عنه ناحية، إنسان آخر تفوق في هذه الناحية التي غابت عن الأول وقصر في ناحية توفرت في الأول، إذاً كلاهما بمجموعهما معصومان، كلاهما متكاملان، إذا فهمنا هذه الحقيقة تعاونا فيما اتفقنا، وأعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا، إذا قلنا لابد من أساسيات نتفق عليها، الأساسيات ما ينبغي أن يعلم من هذا الدين بالضرورة، أركان الإسلام وأركان الإيمان، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تعالى، وأن نشهد أن لا إله إلا الله، وأن نصوم رمضان، ونصلي الخمس، ونحج البيت، طبعاً والتفرعات في البيوع وفق الشريعة الإسلامية، في الزواج، في الطلاق، في كل حركاتنا

وسكناتنا، هذه الأشياء الأساسية مادمنا متفقين عليها إذاً لنتعاون فيما اتفقنا عليه، وليعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه، إذا إنسان له وجهة نظر في موضوع معين تخالف وجهة النظر لإنسان آخر هذا لا يقتضي العداء والشحناء والقطيعة، هذا شيء لا يرقى لهذا المستوى، النبي صلى الله عليه وسلم معصوم عصمة تبليغ بأقواله وأفعاله وأحواله وإقراره وصفاته، وأمته معصومة أيضاً ولكن بمجموعها، كل منا يكمل الآخر هذه الفكرة رائعة جداً في التقريب، في التوفيق، في التحبيب، في تأليف القلوب، في تقريب وجهات النظر، في التعاون، في التكاتف، لأن المسلمين قوتهم في اجتماعهم وضعفهم في تفرقهم، قوتهم في تعاونهم وضعفهم في تنافسهم، قوتهم في محبتهم وضعفهم في البغض الذي بينهم.

صفات المنافقين :

شيء آخر نحن كما قلنا دائماً: إذا كان الهدف واحداً والطريق إلى هذا الهدف واحدٌ أيضاً، والوسائل واحدة، فاللقاء حتمي، إذاً نحن نريد لأن النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الثاني يعد من يهجر أخاه فوق ثلاث بالنار، لأنه خرج من خندق المسلمين وكان في خندقٍ آخر، لأنه خرج من صف المسلمين مادام قلبه ممتلئاً بغضاً لهم، وحقداً، حسداً، وضغينة، إذاً هو ليس منهم وهذه صفات المنافقين، قال تعالى:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ)

[سورة التوبة: 50]

أي أنت معك مقياس ثان، أول مقياس بدأنا به الدرس الرحمة، إذا أخوك أصابه خير، أو أخوك الله عز وجل أكرمه، أو أخوك انطلق في الدعوة إلى الله، أو أخوك رفعه الله، أو علمه علماً ثميناً فإذا امتلأ قلبك حقداً عليه، وحسداً، فهذه علامة ضعفٍ خطيرة جداً ينبغي أن تحب ذلك له، وأن تحبه لنفسك، لذلك العلماء فرقوا بين الحسد والغبطة، الحسد أن تتمنى زوال النعمة عن أخيك وأن تصير إليك، أما الغبطة فأن تفرح له بهذه النعمة وأن ترجو الله عز وجل أن يهبك مثلما وهبه هذه الغبطة، أي توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام لو طبقناها لأصبح المجتمع متماسكاً، لأصبح المجتمع قوياً.

منهج القرآن منهج كامل :

نقطة أخيرة أحب أن أعالجها لكم، نحن كما قلت لكم من قبل يقول الله عز وجل:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ

يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة المائدة:3]

معنى أتممت أي عدد القضايا التي عالجها الإسلام قضايا تامة، الإسلام ما أغفل ولا قضية لقول الله عز وجل:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)

ومعنى أكملت أي طريقة معالجة كل قضية طريقة كاملة، معالجة عميقة، شاملة، تعطي القضية كل أبعادها.

المنهج الذي جاء به القرآن، هذا الكلام دقيق جداً، وأعلق عليه أهمية كبرى، المنهج الذي جاء به القرآن هل هو منهج كامل أو ناقص؟ طبعاً سوف تقولون: كامل، إذا كان هذا المنهج كاملاً هذا المنهج صالحاً لأنه يرقى بك إلى أعلى عليين، صالح إلى أن يحق لك الهدف الذي من أجله خلقت، أيستطيع إنسان كائن من كان أن يضيف عليه شيئاً؟ لمجرد أن يضيف عليه شيئاً فقد اتهمه بالنقص أليس كذلك؟ لذلك نحن عندنا إسلام، وعندنا إيمان، وعندنا سنة النبي العدنان، لا نريد أن ندخل في الإسلام مصطلحات جديدة، الإسلام ليس فيه ازدواجية، هكذا وهكذا، ظاهر وباطن، لا، ما فعله النبي بنية صافية خالصة هو الإسلام، إذاً كلما عقدّنا الإسلام ابتعدنا عنه، وكلما بسطناه اقتربنا منه، تعقيده ليس في صالح المسلمين، وتعقيده بعد به عن حقيقته، بعد به عن خط سيره، بعد به عن جوهره، إذاً الصلاة مثلاً ماذا يقول في الصلاة علماء الشريعة؟ يقولون: إنها حركات وسكنات وقراءات، تبدأ بالتكبير وتنتهي بالتسليم، لها شروط ولها أركان، ولها واجبات، سنن ومستحبات، لها آداب، إذا الإنسان طبق شروطها وأركانها ووقف بين يدي الله عز وجل وقلبه ساهٍ ولاهٍ، يا ترى صلى بمقياس القرآن؟ عند الفقهاء صلى صلاةً تامة أما بمقياس القرآن قال تعالى:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه:14]

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

[سورة العلق :19]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً)

[سورة النساء :43]

هل علمت ما قلت؟ هل ذكرت الله في الصلاة؟ هل اقتربت منه؟ هل أقمت الصلاة لذكر الله عز وجل؟ علماء الشريعة يقولون: الصلاة حركات وسكنات وقراءات وعلماء التصوف يقولون: الصلاة إقبال على الله عز وجل، ماذا قال النبي؟ من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً، معنى هذا بمقياس النبي أن تقف وأن تركع وأن تسجد وأن تقبل على الله عز وجل، قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل: قم فصلِّ فإنك لم تصلِّ؟ إذاً إذا بقينا في سنة النبي من دون أن نضيف مصطلحات جديدة، مصطلحاتنا الإيمان، الإسلام، الصلاة، الصوم ، الحج، الزكاة، أراد الله عز وجل أن نصوم كما يريد، يريد صياماً لا معصية فيه، يريد قلباً مفعماً بمحبته وذكره، يريد جوارح مستقيمة على أمره، يريد لساناً رطباً بذكر الله، يريد دخلاً حلالاً أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، إذاً الأصح: " لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"

صلح أولها بأن الإسلام شيء واحد، ازدواجية لا يوجد، ظاهر وباطن وحقيقة وشريعة، الإسلام واحد، والنبي عليه الصلاة والسلام سننه، وأفعاله من روح واحدة، هذا الذي أريد أن أقوله لئلا نظن أن هناك ازدواجية، هناك شيء ظاهر وشيء غير ظاهر ليس هناك إلا الإسلام، أما إذا طبقناه كما أراد الله عز وجل نكون قد أحطناه من كل جوانبه.

صفات النوائح يوم القيامة :

والآن إلى فقرة قصيرة متعلقة بالمرأة:

((إن هذه النوائح))

[الطبراني عن أبي هريرة]

أي المرأة التي تبكي، وتصيح، وتشد شعرها، وتمزق ثوبها، وتصرخ بويلها، وتلطم وجهها، وتستأجر نائحات معها، وتخرج خلف الجنازة إلى مسافة بعيدة، ويعلو صوتها، وتنكشف عورتها.... هذه ليست مسلمة لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم إن هذه النوائح يجعلن صفين يوم القيامة في جهنم، صف عن اليمين وصف عن الشمال فينبحن على أهل النار كما تنبح الكلاب))

[الطبراني عن أبي هريرة]

المرأة المؤمنة تبكي وتتألم وتحزن، أما شد الشعر، ولطم الخد، وتمزيق الثوب، والصراخ بالويل، وجسر البيت راح، وتخرج كاشفة ظاهرة العورة وراء الميت، فهذه صفة غير المسلمات هكذا وجه النبي عليه الصلاة و السلام:

((لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّائِحَةَ وَالْمُسْتَمِعَةَ))

[أبو داود عن أبي سعيد الخدري]

والمستمعة أيضاً آثمة.

أخلاق المرأة المسلمة :

وهناك نساء الصحابة مثل أعلى، أحد أصحاب رسول الله له ولد مريض فجاء إلى البيت وكان مسافراً فسأل زوجته كيف حال ابني؟ وكان قد جاء متعباً ومسافراً وربما جاء من الجهاد، قالت: هو في أهدأ حال، فأكل وشرب واستراح وفي بعض الروايات وأصاب منها، الصحابة كان لهم كلام رائع جداً، كلام كله أدب، أصاب منها وقوله تعالى:

(لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ)

[سورة النساء :43]

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ)

[سورة المؤمنون:7]

" يا بنيتي إن هذه الثياب تصف حجم عظامك"، كلمة عظام لا تثير الشهوة، أية كلمة قالها النبي غير هذه الكلمة تثير الشهوة:

((عَنْ أَنَسٍ قَالَ: مَاتَ ابْنٌ لأَبِي طَلْحَةَ مِنْ أُمِّ سُلَيْمٍ فَقَالَتْ لأَهْلِهَا لا تُحَدِّثُوا أَبَا طَلْحَةَ بِابْنِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا أُحَدِّثُهُ قَالَ فَجَاءَ فَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ عَشَاءً فَأَكَلَ وَشَرِبَ، فَقَالَ: ثُمَّ تَصَنَّعَتْ لَهُ أَحْسَنَ مَا كَانَ تَصَنَّعُ قَبْلَ ذَلِكَ فَوَقَعَ بِهَا فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ شَبِعَ وَأَصَابَ مِنْهَا قَالَتْ: يَا أَبَا طَلْحَةَ أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْمًا أَعَارُوا عَارِيَتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ فَطَلَبُوا عَارِيَتَهُمْ أَلَهُمْ أَنْ يَمْنَعُوهُمْ قَالَ: لا قَالَتْ: فَاحْتَسِبِ ابْنَكَ، قَالَ: فَغَضِبَ وَقَالَ تَرَكْتِنِي حَتَّى تَلَطَّخْتُ ثُمَّ أَخْبَرْتِنِي بِابْنِي فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَارَكَ اللَّهُ لَكُمَا فِي غَابِرِ لَيْلَتِكُمَا))

[مسلم عَنْ أَنَسٍ]

ما هذا الموقف الحكيم؟ ما هذا الموقف الشجاع؟ يبدو أن هذا الصحابي الجليل لشدة إعجابه بزوجته ذهب إلى النبي عليه الصلاة والسلام وحدثه بهذه القصة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((بَارَكَ اللَّهُ لَكُمَا فِي غَابِرِ لَيْلَتِكُمَا))

ويروي التاريخ أنه أنجب ولداً ذكراً حفظ القرآن كله، وهذا الولد أنجب عشرة أولاد حفظوا كلهم القرآن الكريم، هكذا الصحابية، كانت الصحابية تقول لزوجها قبل أن يغادر البيت: يا فلان اتق الله فينا نصبر على الجوع ولا نصبر على الحرام، الآن تقول له: لماذا لا تغير هذا الأثاث؟ هذا فلان غير وهذا فلان غير، أي تحمله على أكل المال الحرام، لذلك قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة التغابن:14]

هذه عدوة المآل لا عدوة الحال، أي إذا حملتك زوجتك من أجل أن ترضيها على أن تعصي الله عز وجل، وعلى أن تكسب مالاً حراماً، هذه الزوجة ولو أنك تحبها وتحبك لكنها في النهاية عدوةٌ لك لأنها تدفعك إلى النار، لذلك المرأة المؤمنة الصالحة تقول:"نصبر على الجوع ولا نصبر على الحرام"، شد الشعر ولطم الخد، والصراخ بالويل، وكشف العورة، ورفع الصوت، هذه أخلاق غير المسلمات، والشيء الآخر حتى في مناسبات الأفراح ترفع النسوة أصواتهن فرحاً، الصوت عورة فإذا انتقل الصوت إلى كل الجيران أو صار غناء وهرجاً ومرجاً في هذا العرس هذا أيضاً ليس من أخلاق المسلمات:

((لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّائِحَةَ وَالْمُسْتَمِعَةَ))

[أبو داود عن أبي سعيد الخدري]

لذلك ورد في بعض الأحاديث:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ حَفْصَةَ بَكَتْ عَلَى عُمَرَ فَقَالَ مَهْلاً يَا بُنَيَّةُ أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ))

[مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ]

أي هو لماذا لم يعلم أهله هو قصر معهم؟ لماذا لم يبين لهم؟ لم يبلغهم؟ لم يرشدهم؟ في حياته أنني إذا مت لا يعلو صوتكن، لا تفعلن كذا، هذا بعض توجيهات الحديث.

توجيهات رسول الله في أفراحنا وأحزاننا :

هناك توجيه آخر: إذا مات المؤمن ورأى مقامه عند ربه، ورأى مكانه في الجنة فإذا بكى عليه أهله يتألم هو أنا في مقعد صدق عند مليك مقتدر، لماذا البكاء والعويل؟

((عَنِ امْرَأَةٍ مِنَ الْمُبَايِعَاتِ قَالَتْ: كَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَعْرُوفِ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ لا نَعْصِيَهُ فِيهِ أَنْ لا نَخْمُشَ وَجْهًا وَلا نَدْعُوَ وَيْلاً وَلا نَشُقَّ جَيْبًا وَأَنْ لا نَنْشُرَ شَعَرًا))

[البخاري عن أم عطية]

وفي حديث آخر:

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ))

[أحمد عن عبد الله]

مرة حدثني أخ طبيب في مستشفى قال لي: في غرفة جاء مريض مصاب بمرض خبيث في أمعائه، ووجهه فيه نور، فكلما دخل عليه إنسان، ممرض، طبيب، زائر، قريب، يقول له: اشهد أنني راض عن الله، يا ربي لك الحمد، قال: هذه الكلمة ما غابت عن لسانه، مضى اليوم واليومان والأيام الثلاث ثم توفاه الله عز وجل، قال: أذكر أنه إذا قرع الجرس تهافتنا على خدمته، تدافعنا، تسابقنا قال: والله كلما دخلت غرفته أشم رائحة طيبة وآنس به وأتمنى أن أخدمه، قال لي: من آيات الله الدالة على عظمته مات هذا المريض في أحسن حال، ودخل مريض آخر يعاني المرض نفسه وفي أمعائه، قال لي: والله ما ترك نبياً إلا وسبه، وكان سباب الإله عنده مع أنفاسه، فإذا قرع الجرس لا أحد يلبيه يسب ويسب، قال: ندخل إلى غرفته ففيها رائحة لا تحتمل، موازنة عجيبة، الغرفة واحدة والأطباء هم هم، والممرضون هم هم، المرض هو هو، الآلام هي هي، قال لي: إنسان ملأ المستشفى أنساً وروحاً وريحاناً وإقبالاً وهو مريض وما صاح، كلما دخل عليه إنسان يقول له: اشهد أنني راض عن الله، أما الثاني فقال لي: والله عندما مات كأنه كالجيفة، قال تعالى:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً)

[سورة السجدة]

لا في المرض، ولا في الصحة، بمناسبات الفرح، حدثني أخ قال لي: صار عندنا حفل فرح في البيت، وأنا سمعت ذلك، أي مديح رسول الله، وألقيت كلمة طيبة عن رسول الله وعن آداب المرأة المؤمنة، وعن أخلاق المسلمة، وعن وعن، شيء رائع جداً، عقد قران فيه توجيه ديني، فيه مديح لرسول الله، يوجد حشمة في اللباس، أدب نبوي، ترى حفلاً آخر التهتك، والتفلت، والصراخ، والغناء، والرقص إلى ما شاء الله، شتان بين احتفال المؤمن واحتفال غيرهم حتى في المناسبات الحزينة هنا يوجد صبر، النبي الكريم توفي ابنه إبراهيم فبكى فنظر له سيدنا عمر وقال:" أتبكي؟ فقال: يا عمر إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن وما نقول ما يسخط الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون"

هذا الموقف الإسلامي، المؤمن يحزن شيء طبيعي جداً، لكن لسانه منضبط، يعرف أن فعل الله كله حكمة، لأن قضاء الله عز وجل وقدره كله رحمة، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن))

[الحاكم عن أبي هريرة]

توجيهات النبي في أفراحنا، ولا سمح الله ولا قدر رجل له قريب توفي، الموت حق، العين تدمع والقلب يحزن لكن يا رب لك الحمد والشكر، هذا قضاؤك وقدرك، ماذا علمنا النبي؟ علمنا أن نقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، لا حول ولا قوة إلا بالله:

((عَجِبْتُ لأمْرِ الْمُؤْمِنِ إنَّ أمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ لَيْسَ ذَلِكَ لأحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ إنْ أصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ وَكَانَ خَيْرًا وَإنْ أصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ وَكَانَ خَيْرًا))

[مسلم و الدارمي عن صهيب]

النبي عليه الصلاة والسلام:

((حَدَّثَنِي أَبُو بُرْدَةَ بْنُ أَبِي مُوسَى قَالَ وَجِعَ أَبُو مُوسَى وَجَعًا فَغُشِيَ عَلَيْهِ وَرَأْسُهُ فِي حَجْرِ امْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِهِ فَصَاحَتِ امْرَأَةٌ مِنْ أَهْلِهِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهَا شَيْئًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا بَرِئَ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِئَ مِنَ الصَّالِقَةِ وَالْحَالِقَةِ وَالشَّاقَّةِ))

[النسائي و أحمد و أبو داود و ابن ماجة عن أبي بردة بن أبي موسى]

الصالقة هي المرأة التي ترفع صوتها بالندب والنياحة، برأ منها، والحالقة التي تحلق رأسها عند المصيبة، والشاقة التي تشق ثوبها.

هذه توجيهات رسول الله صلى الله عليه وسلم في أفراحنا وفي أحزاننا، هذا المسلم هكذا.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (017) :الإنسان كائن إجتماعي يؤثر ويتأثر.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-01-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون:

حديث اليوم أخرجه الإمام مسلم والإمام مالك وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص من آثامهم شيئا.

أيها الأخوة الأكارم:

هذا الحديث الشريف أيضاً من أصول الإسلام، قلت لكم في درس سابق إن النملة حشرة اجتماعية، بمعنى أنك إذا عزلتها عن أخواتها تموت ولو وفرت لها كل شيء، الغذاء والمأوى، والمسكن والتهوية والرطوبة والهواء، إذا عزلت عن أخواتها تموت، والإنسان كائن اجتماعي، ومعنى كائن اجتماعي، يعني حياته متوقفة على وجوده مع أخيه الإنسان، كلكم يعلم أن الإنسان يتقن شيئاً واحداً، له مهنة، له حرفة، لكنه بحاجة إلى آلاف آلاف المهن والحرف، هذا الزر الذي في قميصك معامل ومهندسون واختصاصات، هذا القميص الذي ترتديه، هذه الحاجات التي تستخدمها فالإنسان يتقن شيئاً وبحاجة إلى آلاف آلاف الحرف والمهن.

إذاً الإنسان في أصله كائن اجتماعي، ماذا يعنينا من أنه كائن اجتماعي، يعنينا أنه في علاقاته مع أخيه الإنسان في علاقاته، في علاقات مالية، في علاقات فكرية، في علاقات أسرية، في علاقات قرابة في علاقات أخذ وعطاء، في علاقات إقناع، في علاقات دعوة، في علاقات كثيرة جداً مع أخيه الإنسان، من خلال هذه العلاقات لابد من أن تنتشر الأفكار، لابد من أن تقتبس الأفكار، من خلال هذه العلاقات لابد من أن تنتشر المبادئ، ولا بد من أن تقتبس المبادئ، من خلال هذه العلاقات لابد من أن تنتشر العادات، وأنماط السلوك، ولابد من أن تقتبس يعني هناك تفاعل دائم بين الإنسان وأخيه الإنسان، شاء أو أبى، رضي أو لم يرض، الطفل يقلد والديه، في المدرسة يقلد معلمه، الصانع في المحل التجاري يقلد صاحب المحل، يراه كبيراً، الموظف يقلد مديره العام فأنت بشكل أو بآخر تعطي وتأخذ، تعطي أفكار، تعطي معتقدات، تعطي مبادئ، تعطي قيم، تعطي علاقات، وتأخذ أيضاً من أخيك هذه الأفكار وهذه المبادئ، الأصح أن نقول هناك تفاعل مستمر بين الإنسان وبين أخيه الإنسان.

المشكلة أنك إذا عرفت الله عز وجل، أنك إذا عرفت أمره، أنك إذا أقبلت عليه، وسعدت بقربه، أنت الآن عندك أفكار، عندك عقيدة عندك فلسفة للحياة، فلسفة للكون، فلسفة لوجودك في هذه الدنيا، فلسفة لمَ قبل الحياة، لمَ ما بعد الحياة، هذا يعبر عنه بأصول الدين، عقيدة المسلم لماذا هو في الأرض، أين هو ذاهب، ما المصير، ما حقيقة الحياة، ما حقيقة الموت، ما حقيقة الخير، ما حقيقة الشر، ما العمل الذي يقبل ما الذي العمل الذي لا يقبل، متى يرضى الله، متى يسخط الله، أنت إذا عرفت الله، وعرفت أمره، وأقبلت عليه، وذقت من لذة قربه، وأنت كائن في مجتمع، أنت أب، الحد الأدنى عندك زوجة وأولاد، أنت معلم في مدرسة عندك خمسين طالب، أنت طبيب في مستشفى وعندك ممرضين وعندك مساعدون، أنت صاحب متجر عندك موظفين أنت شئت أم أبيت موجود في مجتمع، صغير أو كبير، الآن إذا تكلمت هناك من يقتبس منك إذا قلت رأي كذا في هذا الموضوع هناك من يقلدك، هناك من يصدقك هناك من يقتدي بك، هناك من يراك كبيراً.

كما يقولون المرأة والولد الصغير يحسبان الرجل على كل شيء قدير.

فأنت وضعك الله عز وجل في موضع القيادة، ولو بأوسع معانيها الآن يجب أن تأخذ كلام رسول الله مأخذاً جدياً، يعني أنت إذا استهزأت بحقيقة دينية أمام أولادك ولو كنت مازحاً هل تدري ماذا فعلت غرست فيهم إمكانية أن يكون في الدين شيء باطل، أنت إذا مدحت إنساناً لا يستحق المدح غرست في نفوس أولادك مبدأ النفاق، إذا كذبت المرأة على زوجها على مرأى من أولادها غرست في أولادها معنى الكذب فالشيء الخطير هو أنك قدوة لأولادك، لطلابك، لزبائنك، لموظفيك لمن هم دونك، لمن هم حولك، لمن يراقبك، إذا أمنت أن هذا الكلام كلام رسول الله، وأن كلام رسول الله هو من عند الله، وإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، إذا أمنت بهذا فاستمع إلى ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام:

من دعا إلى هدى، يعني قلت لابنك، أو لإخوانك، أو لموظفيك أو لطلابك، أو لمن هم دونك أن الأمر بيد الله لا بيد زيد أو عبيد، دعوت إلى التوحيد، دعوت إلى الهدى، أنت إذا رآك من حولك عفيفاً عن المحارم، عفيفاً عن المطامع، إن في سلوكك، وإن في كلامك، دعوت إلى هدى، إذا غضضت بصرك عن محارم الله، وأمرت بغض البصر عن محارم الله، دعوت إلى هدى، إنك إن صليت الصلاة في وقتها وأديت خصائصها ووجباتها من خشوع وقيام وقعود وركوع وسجود وأمرت أهلك بالصلاة دعوت إلى هدى، إنك إن ربيت ابنتك على مكارم الأخلاق، وعلى حب الله ورسوله، وعلى تلاوة القرآن وعلى معرفة حقوق الزوج دعوت إلى هدى، وإنك إن زوجتها من شاب مؤمن دين، ثم نشب بينهما خلاف وقفت موقفاً محقاً، وقفت موقفاً مشرفاً، وفقت بينهما ولم تفرق، لم تأخذك العزة بالإثم، لم تأمرها أن تأتي إلى البيت، وأن تدع زوجها كي تكسر رأسه، ما فعلت هذا، وفقت بينهما، حسنت الزوج في

نظر الزوجة، أثنيت عليه بما هو أهله بينت لها أخلاق الأزواج الشريرين، دعوت إلى هدى، يعني يجب أن تعلم أن كل حركة و سكنة فيها دعوة إلى هدى أو دعوة إلى ضلالة شئت أو أبيت، إلا في حالة واحدة، أنك إذا ذهبت إلى قمة جبل وبنيت غرفةً وسكنت وحدك، إذا اعتزلت عن الناس يمكن أن تتعطل عن الدعوة إلى هدى، أو إلى ضلال أما إذا كنت في أسرة، مع صديق لك، مع أخ، في محل تجاري، في معمل، في متجر، في مزرعة، في التعليم، طبيب، محامي، مهندس موظف، بأي مكان إذا معك إنسان آخر فأنت شئت أم أبيت، أحببت أم كرهت، رضيت أم لم ترض لابد من أن تدعو إلى هدى، ولا بد من أن تدعو إلى ضلال، شيء خطير الذي لا يصدق، هو يصدق لأن النبي قاله لكن أقول لا يصدق لعظم النتائج، أنك إذا فعلت معصية، فعلك للمعصية دعوة إليها، والأنكى من ذلك أن تدعو إلى فعل هذه المعصية، طبعاً ما من إنسان يتكلم إلا بشيء من المنطق، أنت شاب أول حياتك لا تكون متقوقع، لا تكون انعزالي، لا تكون جاهل بالحياة، تعلم كل شيء مارس الأمور، اعرفها عن كثب، يعني الحديث لفت نظري أنه من أصول الدين وأنا والله الذي لا إله إلا هو أقرا لكم أكثر من مائة حديث كي أعثر على حديث شريف يعد من أصول الدين، في أحاديث كثيرة، وكلها شريفة في أحاديث متعقلة بالبيوع فقط، بموضوع محدد جداً، هذا يعنى به الفقهاء ولكن أنا أتمنى أن اصل إلى أحاديث التي لها علاقة بأصول الدين، فأنت عندك حالتان إما أن تعيش وحدك بلا زوجة ولا ولد ولا أهل ولا عمل وهذا شيء مستحيل، ونادر جداً، وإما أن تعيش في مجتمع، أصغر حلقة فيه بيتك وأكبر حلقة فيه أن يوليك الله على قوم، يعني معلم عندك 55 طالب، مدير مدرسة عندك 700 طالب، مدير مشفى، مدير معمل عندك ثمانين عامل، كلما اتسعت دائرة من تشرف عليهم زادت مسئوليتك عند الله عز وجل، إذاً أنت أمام خيار صعب، إما أن تعيش وحدك في هذه الحياة، وعندئذٍ لست مضطراً لا أن تدعو إلى هدى، ولا إلى ضلالة أما إذا كنت عضواً في مجتمع مهما بدا صغيراً فإنك مقهور على أن تدعو إلى هدى أو إلى ضلالة، من حيث تريد أو لا تريد، من حيث ترضى أو لا ترضى.

أيها الأخوة الكرام:

من معاني الدعوة إلى الهدى أو إلى الضلالة السلوك، لو كان معك ابنك، ومرت امرأة سافرة متهكتة، وملئت عينيك من جمالها على مرأى من ابنك الصغير هل تدري أنك دعوت إلى ضلالة وأنت لا تدري، وأنت لا تشعر، إذا وزنت في محلك التجاري لإنسان ولم تأتِ العين على العين على مرأى من ابنك، أو صانعك، أو إنسان يقتدي بك دعوت إلى ضلالة وأنت لا تدري، يعني سنقول لو بقيت ساكتاً، لو نذرت للرحمن صوماً فلم تكلم إنسياً، لو فعلت هذا إنك داعية إلى الهدى أو الضلال شئت أم أبيت أحببت أم كرهت، لأن فعلك وحده دعوة إلى هدى، إنك إن صليت العشاء في جماعة، أو صليت الصبح في جماعة، أو سلكت السلوك الإسلامي الصحيح، إن دعوت الله حينما تدخل بيتك، إن دعوت الله حينما

تقدم على عمل خطير، إن دعوت دعاء السفر على مسمع من ابنك فقد دعوت إلى هدى، يعني الطفل يرى أباه، حركاته، تثاؤبه، إذا تثاءب الأب ولم يضع يده على فمه دعوت إلى ضلال وأنت لا تدري، ماذا فعلنا يا أخي ابنك ينظر إليك، فتحت فمك على مصراعيه ولم تضع يدك على فمك يعني يجب أن تعلموا أن كل حركة و سكنة وكلمة وتصرف وموقف على مرأى من أي إنسان، إن ابنك، أو أخوك، أو صديقك، أو عاملك، أو صانعك، أو موظفك، فأنت بهذا تدعو إلى هدى أو تدعو إلى ضلالة.

من منا يصدق أنك إذا دعوت إلى هدى طبعاً أنا أضعكم أمام الموقف الطبيعي، إنسان ليس بداعية ولا شيء، ولا عالم، فقط من عامة الناس، عنده أسرة وعنده عمل، حتى على هذا المستوى الحديث ينطبق عليه، أم أن تقف بالناس خطيباً، أن تقف بالناس مدرساً، داعية هذا في حساب عسير جداً، أن هناك القدوة مركزة جداً، لك مظهر ديني لك، لك هوية دينية، لك خلفية دينية، لك شخصية دينية، لك انتماء ديني، لك دعوتك، لك كذا، تحاسب على السكنة.

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)

(سورة البقرة: 124).

متى جعله إماماً، بالزعبرة ؟

((فأتمهن))

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة: 24)

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21))

(سورة ياسين: 20 -21)

في هدى، إذاً هذا الحديث ينطبق على كل مسلم، مهما بدا شأنه صغيراً، مهما بدا خاملاً، مهما بدا ضعيفاً، مهما بدا على هامش الحياة أليس له أولاد ؟ أليس له جيران، صاحب متجر أليس عنده صانع ؟ معلم ابتدائي ما عنده طلاب، فلذلك اعلم علم اليقين أنك إذا دعوت إلى هدى إما بسلوكك، وإما بلسانك، أو دعوت إلى الهدى دعوة مركزة، اجتمع الناس حولك، وألقيت فيهم كلمة، وقفت فيهم خطيباً، جلست فيهم مدرساً، اعلم أنك إذا دعوت إلى هدى واحد من تلاميذك إذا قبل دعوتك واستوعبها وفهمها، وتمثلها، وطبقها، وسعد بها، مثلاً أنت بعالم التجارة ممكن أن تقول لواحد خذ هذا البيت يربح، تقول له، يشتري البيت، أخذه بـ 30 ألف قبل عشرين سنة صار بـ 15 مليون، ممكن، ممكن لأنك قلت له اشتر هالبيت يأتيك 15 مليون ربح، غير ربحه، مستحيل في عالم التجار هي، إذا أنت تاجر ونصحت إنسان بشراء قطعة أرض أو شراء بيت، أو شراء هذه البضاعة، وربحت أضعاف مضاعفة، يعني واردة بالتجارة أنه بعد يومين، أو بعد شهر، يبعث لك 15 مليون الربح الذي ربحه، مبلغ يكافئ ربحه ويعطيك إياه هذا شيء مستحيل، والله الذي لا إله إلا هو في الدين ليس مستحيلاً، والدليل، إلا إذا ما صدقنا النبي،

أما إذا صدقنا النبي عليه الصلاة والسلام، كلام رسول الله، أخرجه الإمام مسلم، لا ينطق عن الهوى، ما سمعت حديث من رسول الله إلا علمت أنه حق من الله تعالى، اسمع: من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه أبداً، كل الأجر الذي كتب لهذا الشاب في أول حياته، وفي وسط حياته وفي خريف حياته، كل أعماله الصالحة نسخة طبق الأصل توضع في إضبارة الداعي.

لو فرضنا الناس سألوا كيف هي بالمصاري التي معنا، أنت قلت له اشتري ذهب، هذا مثلاً اشتري بيوت، هذا اشتري أراضي، هذا اشتري بضاعة، وذهبوا كلهم واشتروا حسب توجيهاتك، لك أنت حساب جاءك كذا مليون من فلان أرباحه نفسها لعندك، أرباح هذا لعندك، أرباح هذا لعندك، هذا كلام مضحك لا يصدق، أما في الدين يصدق، فأنت انتبه لأولادك، انتبه لجيرانك، انتبه لإخوانك، انتبه لأصحابك، لزملائك لمن يلوذ بك، النبي الكريم ما كان خطيب، ولا كان داعية، ماذا كان ؟

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب: 21)

يعني أعظم لقب لقبه الله إياه أنه أسوة حسنة، قدوة كان، فأنت لو أردت أن تسكت وكنت وفق أمر الله ونهيه دعوت إلى هدى، وهؤلاء الذين قلدوك، هؤلاء الذين اتبعوك، هؤلاء الذين أحبوا سيرك بالحياة، هؤلاء الذين أحبوا عقيدتك، اعتنقوها، هؤلاء الذين أحبوا مبدئك فتبنوه، هؤلاء لهم أجر ولك مثل أجرهم، من غير أن ينقص من أجورهم شيء أجورهم هي هي، والمبلغ نفسه يحول إلى الذي دلهم على هذا الخير.

هذا كرم الله عز وجل، هذا من كرم الله عز وجل، من كرم الله عز وجل أن يعطيك مثل ما أعطاهم، وأن يهبك مثل ما وهب لهم، وأن يكرمك مثل ما أكرمهم، مثلاً لو فرضنا عندك بنت صغيرة، اعتنيت بها عناية فائقة، اهتممت بصلاتها، الآن يخافون على أسنانها أن يكون في عيب خلقي، يقول لك تقويم أسنان، حتى إذا غداً تزوجت، على العين والرأس، كلام صحيح، يقول لك دفعت 60 ألف ليرة، ماشي الحال حتى الخطيب لا ينفر منها، ما لك خائف على دينها، على صلاتها مالك خائف، على عقيدتها مالك خائف، أتسمح لهذه الفتاة أن تأتيها ثقافة غريبة عن ثقافة الدين، أن تغذى تغذية غير إسلامية، تنشأ نشأة لا تحب أن تكون مسلمة طاهرة، تحب أن تكون فتاة عصرية مثلاً، هذا الشيء رخيص عليك، لو فرضنا إنسان اعتنى ببناته عناية فائقة بعقيدة بناته بصلاة بناته، بسلوك بناته، بثياب بناته، ثياب الإسلامية الفضفاضة كما ذكرنا قبل درسين، وزوج هذه الفتاة من شاب مؤمن، وهذه الأسرة الصالحة أنجبت أولاد صالحين، هل تصدق أن هذه الأسرة أعمالها كلها خيراتها كلها، طهارتها، عفافها، استقامتها كلها في صحيفتك، هذا الذي قاله النبي عليه الصلاة والسلام:

((إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له))

(أخرجه البخاري في الأدب ومسلم والثلاثة [أبو داود، الترمذي، النسائي)

والله وجدت هذا الحديث فيه من التشجيع على العمل الصالح ما لا نهاية له.

شيء ثاني: أقول هذا كثيراً ولعلكم تعذروني في ذلك، يعني أنت ما لك عند الله، ليس لك عند الله إلا ما لله عندك، إذا أردت أن تعرف ما لك عند الله فانظر ما لله عندك، أنت ماذا قدمت، ما العمل الذي تلقى الله به، يعني أنت ترضى أن تتعلم العلم وأن تكتفي بذلك، أنت اهتديت وعلى الدنيا السلام، والناس هم وشأنهم، يعني أنت حجمك عند الله بحجم عملك، ومن أكبر حجوم الأعمال الصالحة أن تسهم بهداية إنسان هذا المسعى الطويل، يعني لك قريب توسمت به الصلاح، عنده حياء عنده خجل، لكنه لا يصلي، تقربت منه، وزرته، وأقنعته، وبينت له ما لك سمعان في حديث أنت عن الصلاة، يعني الذي يريد أن يكون داعية يجب أن يكتب ويسجل ويحفظ، أنت تحضر درس علم وتارك زوجتك وأولادك وبيتك، ماذا تكلم في الدرس، تكلم الحديث الفلاني، اكتب عندك الحديث وتذكر تفسيره، يجب أن تكون زاد عندك، شاهدت إنسان فيه خير، بين له، بين له شيء من كتاب الله، تفسير آية، تفسير حديث، آية كونية تأثرت بها، موقف من مواقف الصحابة المشرف، في عندك آيات كونية في عندك آيات قرآنية، في عندك سنة نبوية، في عندك السيرة النبوية في عندك قصة، في عندك مواقف كثيرة جداً، إذا يهمك أمر أخرتك يهمك أن يكتب لك أجر مثل أجور الذين اهتدوا بهديك، افعل هذا، فكلما كثر الذين دعوتهم إلى الله عز وجل واستفادوا منك كلما كبر حجمك عند الله عز وجل.

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأحقاف: 19)

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة: 11)

لك أنت درجة عند الله بقدر علمك وبقدر عملك، فالواحد ما يكون همه هو سمع الحق وانتهى الأمر، وهمه شغله، وكسب المال، والسنة ربحنا كذا، وعملنا جرد، وربحنا وما ربحنا، في قضية أخطر من ذلك الربح الحقيقي:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ)

(سورة الصف: 10 - 11)

يعني الذي أتمناه عليكم كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((ما أحدث رجل أخا في الله إلا أحدث الله له درجة في الجنة.))

[أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان عن أنسر ضي الله عنه]

أنت بقدر ما تقنع الناس بالحق، تدعوهم إلى الهدى، في عقيدتهم في تصوراتهم، في عبادتهم، في معاملاتهم، في أخلاقهم، كلما قربتهم من الله عز وجل، كلما حببت الله إليهم، كلما دفعتهم إلى طاعته، كلما دفعتهم إلى فعل الخيرات، وترك المنكرات، كلما فعلوا خيراً في صحيفتك.

إذاً: يجب أن تعرف أن الدعوة إلى الله عز وجل، وأن هداية الخلق هي صنعت الأنبياء، وصنعت الأنبياء أعلى صنعة في الأرض ما من صنعة أشرف منها، لأن هذا الذي خلق الكون هؤلاء جميعاً عباده وهو يحبهم جميعاً فإذا قربت أحدهم إليه أزحت عنه كابوس الشرك، والشك أزحت عنه شقاء العقيدة الفاسدة، أزحت عنه شقاء الشرك، أزحت عنه الضلال، أزحت عنه كابوس البعد عن الله عز وجل، أزحت عنه الجفوة مع الله عز وجل، قربته من الله عز وحل، يعني والله لا أبالغ، إن شاء الله لا أبالغ، لو إنسان حصل تجارة يعني بالعام الواحد حققت ربح ألف مليون والله لا تعدل أن تهدي واحد إلى الله عز وجل، لأن الألف مليون لن تأخذها معك إلى القبر، لكن هذا الذي هديته إلى الله هذا يسعدك إلى الأبد، هذا زادك إلى الله، أنا أقول هذه الكلمة دائماً، إذا لاحظت أخ يعتني بأخ مهتم به. يعني مثلاً الحقيقة أن ممكن الإنسان يلقي درسين وإنسان يستمع ويمشي، واردة هذه، في كل مراحل التعليم ليس هناك علاقة بين الطالب والمعلم، لكن لو أخ من أخوانا حضران الدرس ولاحظ أن في أخ ما حضر اليوم، وكلف خاطره وسأل عنه، إما بمخابرة إما باتصال، إما بزيارة، يعني هذا السؤال لا تعرف مقدار تأثيره، يعني أنا لهذه الدرجة غالي على أخواني، معناها أنا عايش بأسرة ما لي عايش بمكان عام، أنا لي أسرة معناها، معنى عدم حضوري أقلق بعض أخواني معناها أنا لي قيمة عندهم، أنت تعرف لو سالت عنه هذا السؤال كم تشده إلى المسجد، هذه واحدة منهم، من دعا إلى هدى، تفقدت إخوانك، أنا لا أكلفك أن تتفقد الإخوان كلهم، واحد، تآخيا اثنين اثنين، هذا فلان أخي في الله، تفقد أموره بغيابه وبحضوره، لا سمح الله مرض، إذا أنت عرفت أنه مريض وزرته وأخذت له معك عرقين ورد، أو من دون شيء لأنك زرته أمام أهله أمام زوجته، والله جاء فلان زارك، وفلان كمان زارك، فلان زارك، يشعر الزوج بمكانته عند أهله، معناها والله هذا زوجي مهم، مانا عرفانين لهذه الدرجة أنه مهم، إذا كان زاروه عشرة إذا كان غاب درس قام عشرة زاروه، لم يعد يغيب أبداً، عشر فناجين قهوة مشكلة، هذه واحدة، تفقد أخوك إذا كان تغيب عن الدرس عمل صالح، أولاً ينمي العلاقات الأسرية، يجعلك عضو في أسرة أنت مو موضوع درس عام حضرناه ومشينا، أخ مريض إخوانه كلهم زاروه.

((انتهى الوجه الأول من الشريط))

الحلويات والفواكه، المزاح الطرائف، هذا حلو كثير، لكن في أيام زيارات مكلفة، لك أخ ساكن بالقدم، والله من باص لباص بدي شي ساعة لأصل لعنده، أنت لا تبحث عن الشيء الممتع، عن الشيء المؤجر

في كثير من النشاط الممتع ما لك عليه أجر إطلاقاً، والله عاملين دور كل ثلاثاء، والله إخوانك وتحبهم، وسهرة وفي مزح وفي طرافة هذه مالك فيها أجر، أما أن تزور مريض في طرف المدينة، وتكلف خاطرك ثلاث ساعات لتصل له، تأخذ معك عرقين ورد، أو علبة شوكولا، أو كيلو فاكهة مثلاً، ألفت قلبه، وجبرت خاطره، شاف حاله له قيمة على إخوانه رفعت معنوياته، وبثيت به الحماس، والله شيء حلو الدين، أنا لست وحدي أعيش، أنا أعيش بين أسرة، هذه واحدة منهم، من دعا إلى هدى مرض وتفقدته، لزمه مساعدة ساعدته، أنا لا أشوف عمل أعظم، لازمه حاجة وأنت خبير فيها، من وقتك الثمين اذهب أنا أخذها لك، درت أنت وإياه من محل لمحل حتى أخذت له غرض سعره معتدل ونوعه جيد، يقول لك الله يجزيك الخير أنا لا أعرف بهذا الشيء و الله، يريد غرفة نوم وأنت عندك خبرة بغرف النوم، هو غشيم يعطونه غرفة كلها نشارة، باع طقم كنبات بياع، اشتراه شخص، أول ما جاءه ضيوف خفس، ركض لعنده قال له هذا خفس، قال له قعدتم عليه الظاهر، إذا كان غشيم يأكلها الواحد، إذا كان لك صديق يعرف بغرف الضيوف يعرف بغرف النوم عاونك، ليست الحياة كلها صلاة وصوم وحج وزكاة، الدين كله مساعدة قال عليه الصلاة والسلام:

((لأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد شهرا .))

[أخرجه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج طب عن ابن عمر].

في أعمال غير منظورة، تعاون أخ في تأمين دواء أحياناً، عنده بنت معها التهاب سحايا ويلزمها دواء، ولا يوجد أحد، وأنت عندك سيارة قلت له على عيني، درت من مكان لمكان لمكان وجلبت له الدواء، ليس كل الدين صوم وصلاة، بالعكس الصوم والصلاة والزكاة والحج هذه عبادات شعائرية، هذه العبادات عبارة عن محك للعبادة التعاونية لا تقدر أن تصلي إذا ما كان عملك طيب، وإلا الصلاة شكلية تصبح، والله حركات وسكنات لا تعني شيئاً، طقوس، يعني حركات إيمائية تصبح الصلاة، إذا ما في عمل صالح، فليس كل الحياة صوم وصلاة، جوهر الدين خدمة الخلق، لأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد شهرا.

أنت بالرياضيات متفوق، ولك أخ حالته المادية رقيقة، وعنده ابن عاونته بدرسين ثلاثة وجهته جبرت خاطره، ما بدك الله يرضى عنك هذه دعوت إلى هدى، لكن لا تنسى، ما بتقدر تحكي عن الله كلمة إذا عملك سيئ، مكشوف لأنك والناس ما في أحد مغفل، كل الناس أذكياء إذا كان ظننتهم مغفلين أنت مغفل هذه خذها قاعدة، من ظن أن الناس مغفلون فهو المغفل، لا بتقدر تحكي عن الله كلمة إذا لم يكن عملك طيب هذه واحدة، ولا تفتح قلب الإنسان بلسانك، قلب الإنسان لا يفتح إلا بعملك الصالح، افتحه بعملك الصالح حتى ينفتح عقله بكلامك، أنا أجد المؤمن همه الأول، شغله الشاغل، اهتمامه الكبير أن يسهم في هداية الخلق ولكن أقول لكم هذه الكلمة وهي خطيرة جداً. ورد بإحياء علوم الدين قول للإمام الغزالي،

أما هو قول غريب، يقول الإمام أبو حامد الغزالي، يعني العوام، معنى العوام ؛ قد تكون طبيب أنت، قد تكون بأعلى درجة علمية لكن معلوماتك الدينية ضعيفة جداً، فأنت عامي في الدين، وأنا هذا العبد الفقير أعطني ورقة تخطيط قلب أنا عامي فيها، يا ترى ماذا يوجد معه هذا، طبيب القلب ينظر إلى التخطيط يقول لك ما فيه شيء، أو تجده تغير لونه يقول لك عندك بعض الاضطراب بالنظم أو في عندك ارتجاف أذيني من نظرة الطبيب، أما جيب إنسان ما له طبيب بالقلب، وأطلعه على ورقة التخطيط لا يفهم شيء بها، نقول هذا عامي في هذا الموضوع، ليس معناها عامي يعني جاهل، قد يكون طبيب، قد يكون مهندس، قد يكون له مرتبة علمية كبيرة، لكن معلوماته الدينة ضعيفة، فإذا أراد أن يدعو إلى الله على كيفه، على تفسيره الشخصي قد يلقي ضلالات وهو لا يدري ماذا قال الإمام أبو حامد الغزالي العوام لئن يرتكبوا الكبائر أهون من أن يتكلموا على الله ما لا يعلمون، أين مجال العمل الصالح، إذا واحد معلوماته الدينة وسط، أنت أحسن له حتى يحبك، وادعيه للجامع، في واحد مختص بالحل يكفي عنك، الذي تعرفه صحيح تكلم فيه، المتأكد منه تكلم فيه، آية كونية، حكى لنا الأستاذ عن النملة مثلاً، ما فيها شيء واضحة، آية قرآنية محكمة ارويها له، حديث شريف محكم ارويه له أما أن تغوص بمسائل متعلقة بالعقيدة، والقضاء والقدر، وبصفات الله وبأسمائه الحسنى، وأنت ما عندك تمكن، تعطيه معلومات غلط، ويفهمها منك غلط، ويكفروك الناس، مسألة خطيرة جداً، إذا أنت ما لك متأكد من المعلومات، إياك أن تلقيها على الناس، لأنه يحصل خطأ كبير، لهذا من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، مو لازم الإنسان أن يكون مستهلك، يقول لك مستهلكين يقول لك سعر المستهلك على كل شغلة، أيام يكون المستهلك مستَهلك، هو نفسه استهلك، كيف يكون هذا المستهلك مستهلك يعني إذا كانت الحياة استهلكته، الحياة روتينية ما لها معنى، نوم طعام عمل راحة، ما في شيء بحياته جديد، ما له رسالة بالحياة، ما له هدف كبير، الموت خارج حساباته كلها، طيب هذا إنسان مستهلك انتهى، استهلكته الحياة همه بطنه همه رزقه، همه دخله، همه تجارته، ربنا عز وجل قال:

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (22))

(سورة فاطر: 22)

كأن هذا الإنسان في قبر، أنا أتمنى عليكم ألا تستهلكوا من قبل الحياة، الواحد يومه كأمسه كغده، عمل مستمر، أعمال كبيرة، يعني رجل أعمال، ما عنده وقت إطلاقاً مواعيد مغلقة كلها، يعني ما قيمة هذا الشيء، كنت ضربت على ذلك مثلا، لو أنت ذهبت إلى بلد أجنبي لتأخذ الدكتوراه، ومعلق آمال كبرى جداً على نيل هذه الشهادة، ولو حصلتها لكنت في مستوى رفيع جداً، أنت بحاجة إلى ألف فرنك فرنسي تعيش منهم وجدت شغلة ساعتين بألف فرنك بالشهر، وعندك ثمان ساعات دراسة ممتازة هذه الشغلة،

جاءك عمل ثاني قال لك ألفين فرنك لكن أربع ساعات بالدوام، شيء مغري، أخذتهم، عمل ثالث ثلاث آلاف فرنك لكن ستة ساعات بالدوام، كل ما كثر دوام العمل نقص وقت الدراسة، جاءتك شغلة أربع وعشرين ساعة الدوام إقامة بالمعمل، لكن مائة ألف فرنك، لو أعطوك مهما أعطوك مادام هذا العمل استغرق وقتك كله أنت الخاسر الأكبر، لأن ضيعت الهدف الأكبر، الآن أي عمل إذا امتص كل وقتك ما خلاك تلتفت لربك، وأهملت صلواتك، وأهملت عبادتك، وأهملت قراءة القرآن الكريم، وأهملت مجالس العلم، هذا العمل خسارة كبيرة مهما عاد عليك بالربح الجليل.

القسم الثاني من الحديث:

ومن دعا إلى ضلالة.

يعني أقنعت الناس أن دارون محق بنظريته، الإنسان أصله قرد والله الآن أصبح قرد، دعوت إلى عقيدة فسدة، دعوت إلى ضلالة دعوت إلى أن فلان هو كل شيء، المال كل شيء، أخي الدراهم مراهم هذه ضلالة من قال لك مراهم، في عند ربنا مليون مرض لو معك مليون مرهم لا يصنعون شيء، في أمراض لا تحلها الدراهم، ضلالة هذه تقول مثلاً يعني إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب، هذه ضلالة هي، عال والله شو هذه المبادئ هي ، إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب، ضلالة هذه، أخي فلان لأن مليح الله ابتلاه، كمان ضلالة هذه، بدك تشجع على الطاعة فمن دعا إلى ضلالة، اعتقاديه، أو روى قصة فيها ظلم شديد، وما وجهها توجيه صحيح، ما قال لك هذا المظلوم قد يكون ظالم بمجال آخر أيام يكون شريك ظالم وشريك آخر مظلوم، بس هذا المظلوم كمان قد يكون في بيته ظالم، ما بتعرف، قد يكون ماله حرام، فالله أرسل له هذا الشريك الظالم تحكم فيه، فإذا أنت رويت قصة انتبه، في قصص لها مؤدى خطير، لها مؤدى يتناقض مع مبادئ الدين، لا تروي كل شيء إذا القصة تخدم هدف ديني ارويها وإلا قل لا أعرف والله، لعلها تكن لها خلفية ثانية، في فصل لا أعلمه فيها، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثار من اتبعه، لا ينقص من آثامهم شيء.

إذاً: من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها.

يعني واحدة نصيب وواحدة كفالة، فإذا شفعت، دللت واحد على معصية بهذه الطريقة تربح، هذه الطريقة فيها غش، هذه فيها تدليس هذه فيها كذب، إذا دللت على عقيدة فاسدة، أو على طريقة فاسدة، أو على سلوك فاسد، أو على معصية، أو على مخالفة، أو شجعته، أو فعلته، أحد أنواع الدعوة أن تفعل هذه المعصية، فعلتها، أو أوحيت أنها لا بأس بها، أو شجعت عليها، أو أقررتها، كان عليه من الإثم مثل آثار من اتبعه لا ينقص من آثامهم شيئا، خذوا الحديث مرة ثانية بدقة.

((عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثار من اتبعه، لا ينقص من آثامهم شيئا))

[أخرجه مسلم ومالك وأبو داوود والترمذي].

وهذا الحديث كما قلت لكم أصل من أصول الدين.

في كتاب الجامع الصغير وهو من أحاديث البشير النذير، كتاب أحاديث جمعه السيوطي، وأحاديثه مرتبة وفق حروف المعجم، مرة قرأت بعض الأحاديث التي أولها حق المسلم على المسلم، حق الأخ على أخيه حق الجار على جاره، حق الزوجة على زوجها، حق الزوج على زوجته حق الوالد على ولده، حق الولد على والده، يعني أحاديث كثيرة، لكن حديثاً واحداً قرأته فقشر جلدي، حق المسلم على الله، الآن لا يحضرني حديث الجامع الصغير، أما الرواية الثانية.

ثلاثة حق على الله عونهم، حق على الله عونهم، من هؤلاء الثلاثة الناكح الذي يريد العفاف، يعني شاب يحب ألا يعصي الله عز وجل يريد أن يعف نفسه عن الحرام، هذه نيته، هذا إقراره، بظروف صعبة جداً والأبواب كلها مغلقة، والطرق كلها مسدودة، والأمور معقدة جداً لكن مال ما في عنده، مثل هذا الشاب إذا أراد أن يتزوج ليعف نفسه عن الحرام، وعنده إصرار شديد ألا يعصي الله عز وجل، فهذا الشاب حق على الله، أن يعينه إذا أراد العفاف، حق على الله، قلت لكم 12 حديث المسلم على المسلم، والجار على جاره، والأخ على أخيه، والصديق على صديقه، والابن على أبوه، والأب على ابنه، والزوجة على زوجها والزوج على زوجته، إلا حديث واحد حق المسلم على الله، يعني إذا أراد النكاح ليتعفف أن يعينه، والقصص التي تروى في هذا المجال لا تعد ولا تحصى، الله يسر له منزل يعني مأوى في طرف المدينة، في رأس الجبل في مكان آخر، يسر له زوجة صالحة، يسر له بعض المال، إخوانه عاونوه، فالواحد لا يحجم، النبي الكريم يقول:

من ترك التزويج مخافة العليلة فليس منا.

يعني معقول، الله عز وجل أمر ونهى، وأنت حريص على أن تأتمر بأمره، وأن تنتهي عما عنه نهى، وألا يعينك ؟ تريد أن تتزوج والزنا حرام، وإطلاق البصر حرام، والوقت وقت فتنة، والله ما يعينك لذلك ليس على الإنسان أن يسعى، وليس عليه إدراك النجاح، عليه أن يسعى، عليه أن يخطو الخطوة الأولى.

الدليل: قال عليه الصلاة والسلام: أو من شمائل النبي عليه الصلاة والسلام:

أنه ما شكى إليه أحد ضيق ذات يده إلا قال له اذهب فتزوج.

يعني وداويها بالتي كانت هي الداء، هو لحاله مو ماشي حاله، ما شكى إلى النبي عليه الصلاة والسلام

واحد ضيق ذات يده إلا قال له اذهب فتزوج.

يعني إذا واحد كان وكيل على إطعام جماعة، فالجهة التي موكلته كم واحد عندك، عندي ثلاثة، يعطيه ثلاثة، خمسة خمسة هذا الشي بديهي، فإذا كان رب العالمين هو الرزاق، وأنت تزوجت، أصبحنا اثنين يا رب، كنا واحد أصبحنا اثنين، ثلاث أصبحنا، ومعروفة هذه إذا واحد جاءته بنت واستقبلها بقبول وبرضا، ورآها هدية من الله والنبي الكريم لما جاءته السيدة فاطمة، ضمها وشمها وقال ريحانة أشمها وعلى الله رزقها في ناس يقطب جبينه، ويكن كنة، بتلاقيه انزعج من زوجته، ما دخلها الزوجة ؟ هذه جاهلية، موقف جاهلي، المؤمن غير هيك، هذه البنت هدية، أهداه الله إياها، قد تأتي ويأتي رزقها معها وقد يأتي صهر لك أغلى عليك من أولادك، وأنت لا تدري، لا تعلم أين الخير، هذا الحديث تشجيع للشباب، يعني أنت اخطوا أول خطوة، وعلى الله الباقي.

((ثلاثة حق على الله عونهم، من هؤلاء الثلاثة: الناكح الذي يريد العفاف))

[رواه الترمذي واللفظ له قال حديث حسن صحيح]

والحديث الآخر:

إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين فليتق الله في النصف الباقي.

يعني باب كبير من أبواب المعاصي أغلقه وارتاح منه، يعني إطلاق البصر معصية، والزواج كما قال النبي أغض للبصر، فإذا إنسان مؤمن تزوج صار أقدر على غض البصر، هو المؤمن يغض بصره بكل الحالات، لكن في غض بصر عن غض بصر يختلف، واحد مكتفي واحد ما اكتفى، هذا المكتفي يعني قضية ارتاح منها قامها من باله، التفت لشيء ثاني، هذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام: إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين فليتق الله في النصف الباقي.

والحديث الثالث:

من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه فليتق الله في الشطر الباقي.

والحديث الذي قلته قبل قليل: من ترك التزويج، ما قال الزواج لو قال من ترك الزواج لنصرف الحديث إلى الشباب، أما لمن قال من ترك التزويج انصرف الحديث إلى أولياء الفتيات والفتيان، والشباب والشابات:

من ترك التزويج مخافة العيلة فليس منا.

في حكم فقهي صغير أردت أن أنهي به الدرس، هذا الحكم هو النميمة، تعريف النميمة كشف ما يكره كشفه، التعريف الدقيق كشف ما يكره كشفه، سواء كرهه المنقول إليه، أو المنقول عنه، أو كرهه ثالث أنت تكلمت كلمة، يعني أنا.......... أن إنسان، أخ كريم حدثني عن قصة وقعت، شخص له محل تجاري في أحد أسواق دمشق وله جار، هذا الجار عنده فتيات في سن الزواج، جاء خاطب لهذه

الفتيات، فهذا الخاطب ذهب إلى جار والد مخطوبته وسأله ما قولك في هذه الأسرة فقال له والله الناس كلهم خير وبركة، دعني من هذا يا أخي اسأل غيري أصر عليه، استحلفه بالله، أكد عليه، فأبدا هذا الجار أن والله لا ترتاح كثير، وهذا واجب، بالزواج واجب، قال له أستحلفك بالله، لو أن عندك شاب أتزوج هذا الشاب من هذه الفتاة، قال له لا والله، يبدو أنه مطلع على شيء لا يليق أن إنسان يكون زوج من هذه الأسرة، هذا السائل ذهب إلى والد الفتاة وبلغه ذلك، أن والله سألنا جارك قال هيك، فما عاد لنا مصلحة، السلام عليكم، الأمر تفاقم وتفاقم وصل إلى مستويات خطيرة في المجتمع، يعني قصة طويلة كثير، أبعادها خطيرة، أنت سألته ونصحك أليس هذا حمقاً، تنقل للطرف الثاني ما قاله الأول فيه، من هذه القصة خطر في بالي أن أعطيكم معنى النميمة، سواء، قال كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول إليه أو المنقول عنه، أو كرهه ثالث، يعني نصحك هو، لكن يزعجه أن تنقل الكلام عنه، يزعجه جداً، طيب هذا الذي نقلت الكلام، هذا لا يزعجه، تكلم، أنا هذا رأي تكلم لفلان، المنقول له يزعجه، أحياناً المنقول عنه يزعجه، في أحيان أخرى المنقول له يزعجه وفي أحيان لا هذا ولا ذاك،، شخص ثالث، كان له مصلحة بعقد شراكة مع فلان قام ما عاد له مصلحة، عملت أنت فساد كبير، فلذلك سواءٌ كانت بالقول، أو الإشارة، أو الكتابة، تعريف النميمة بالضبط، كشف ما يكره كشفه، سواءٌ كرهه المنقول إليه، أو المنقول عنه، أو كرهه ثالث وسواءً كانت بالقول، أو بالإشارة، لم يتكلم، رفع حواجبه، قال لي والله رفع لي حواجبه بصراحة، نفس الشيء، هو لم يتكلم، رفع لي حواجبه نفض ثوبه، أيضاً هذه نميمة، قال سوءً بالقول أو بالإشارة أو بالكتابة وسواءً كان المنقول من الأقوال، أو الأعمال، وسواءً كان عيباً أو نقصاً حقيقة النميمة، إفشاء السر، وهتك السر عما يكره كشفه، قال من أدب المسلم أن يسكت عن كل ما يراه من أحوال الناس، إلا ما في حكايته فائدة لمسلم، انعقد مجلس وصار فيه تداول على سفك دم، أو على نهب مال أو على هتك عرض، هذه المجالس الثلاثة يجب أن تخبر عنها، هنا ما في أخي نميمة لا أقدر أن أتكلم، شو ما تتكلم، روحتهم سفك دم، أو هتك عرض، أو نهب مال، هذه المجالس التي يتداول فيها في هذه الموضوعات هذه لا غيبة فيها، ولا نميمة فيها، لأنك إن سكت أوقعت إضراراً بالمسلمين، لذلك وينبغي أن يسكت عن كل ما يراه من أحوال الناس إلا ما في حكايته فائدة لمسلم، أو دفع لمعصية، أو دفع لضرر فيختار أخف الضررين. واحد يشارك فلان وتعرفه فلان نصاب كبير أخي أنا لا أريد أن أغتاب أحد، آسف، يجب أن تغتابه، لكن ما له حق أن يسألك من قال لك هذا الكلام ، موضوع زواج، موضوع شراكة موضوع تجارة، موضوع تعامل، موضوع جوار، تعرف هذا البيت أساسه ضعيف، وكان في أمر بإخلائه، والشاري لا يدري والشاري مؤمن، لا يصح أن تخبي عنه، نبهه، هذا البيت فيه مشكلة تعرف بهذا الشيء في عيب خطير، وتعرف هذه السيارة غير صحيحة، أوراقها غير نظامية، والمظهر ما كشفه الشاري، لو اشتراها كان وقع في بلاء كبير جداً،

بدك تبين له، هكذا حق المسلم على المسلم، إذاً إلا ما في حكايته فائدة لمسلم، أو دفع لمعصية، أو دفع لضرر فيختار أخف الضررين وأهون الشرين.

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم النميمة هي نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد، يروا قصة مشهورة عن قاضي ذهب ليشتري عبد فوجد عبد رخيص كثير، وذكي وشاطر، ببلاش هذا، قال له لكنه نمام، قال لا يهم، هاته جاء لعند السيدة زوجة القاضي قال لها هذا زوجك يحب واحدة غيرك، أنا أنبهك وبلغه أنها عاملة له سحر تنوي أن تذبحك في الليل، عمل طريقة القصة طويلة ومعقدة هي ستأخذ شعرة من ذقنه في الليل ومعها مقص، وهو عنده علم أنها ستذبحه، قام ذبحها ودخل السجن، بقى رخيص طلع العبد مو غالي.

فالنميمة هي نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد وهي حرام قال الله تعالى:

(وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11))

(سورة القلم: 10 - 11)

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ أنه قال

((سمعت رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول:لا يدخل الجنة قتات))

والقتات هو النمام، معنى ذلك أن النميمة من الكبائر، لا يدخل الجنة قتات، أي نمام، فإن كان ما ينم به نقصاً وعيباً بالمحكي عنه كان قد جمع بين الغيبة والنميمة، إذا كان نقل خبر فيه عيب أو نقص أصبح هذا النقد غيبة مع نميمة.

وقال الحسن من نم إليك نم عليك، هذه قاعدة.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (018) :الفرق بين الحسد والغبطة - حديث لا حسد إلا في اثنتين.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-01-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون:

حديث اليوم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال:

((لا حسد إلا في اثنتين رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار فسمعه جار له فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل، ورجل أتاه الله مالاً فهو يهلكه بالحق فقال رجل ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل))

[رواه الإمام بخاري والنسائي]

وفي رواية للشيخين:

لا حسد إلا في اثنتين رجل أتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها.

أيها الأخوة الكرام:

كلمة الحسد وردت في القرآن الكريم:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5))

(سورة الفلق: 1 - 5)

فالحسد ثابت في القرآن الكريم، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

إن العين لتضع الجمل في القدر، والرجل في القبر .

أي عين الحسود، بعض علماء القلوب يقولون: إن الحسد حينما تسري هذه العين الحاسدة يسري شعاعها إلى إنسان محسود غافل عن الله عز وجل، فالغافل إذا حسد أصابته عين الحسود، أما إذا كان معتصماً بالله وكان مستعيذاً به، ملتجئاً إليه، قولك أعوذ بالله ينتهي كل شيء يعنينا من هذا الكلام أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: لا حسد، الحسد في التعريف الدقيق أن تتمنى زوال النعمة عن أخيك، كي تنصرف إليك أو إلى غيرك، على كلٍ أن تتمنى زوال النعمة عن أخيك هذا حسد لا شك فيه، هذا حسد، وهناك حسد من نوع مثقل وهو أن تسعى عن طريق الوشاية، أو عن طريق المكر، أو عن طريق الإيقاع في أن تزيل هذه النعمة عن أخيك، إذاً الحسد في أصله تمني زوال النعمة، وفي فعله أن تسعى جاهداً كي تزيل هذه النعمة عن أخيك لتنصرف إليك أو إلى غيرك هذا هو الحسد.

وحينما قال عليه الصلاة والسلام: لا حسد، هذه إلا نافيه للجنس كي أن تقول لا إله إلا الله.

يعني من أشد أنواع النفي أن تستخدم لا النافية للجنس، يعني أيام إنسان يطرق بابه جاره يقول له هل من رغيف خبزٍ، باللغة الدارجة من شدة رغبتك أن تلبي جارك وليس عندك خبز إطلاقاً، تقول جنس الخبز لا أملكه، ما معنى جنس الخبر لا أملكه يعني لا الخبز ولا الكعك ولا خبز يابس ولا أي شيء من هذا القبيل.

فحينما نستخدم لا النافية للجنس هذا نفي مشدد، نفي مغلظ، وأعلى أنواع النفي أن تقول لا إله إلا الله لا معبود بحق إلا الله، اللا النافية للجنس تنفي الجنس وفي لا تنفي المفرد، تقول لا طالب في الصف بل طالبة، نفيت جنس الذكور، أما إذا قلت لا طالب في الصف بل طالبات في عندنا لا باللغة اسمها حجازية تنفي المفرد، بينما لا النافية للجنس تنفي الجنس.

فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما قال لا حسد، يعني جنس الحسد لا يمكن أن يكون عند المؤمن، مستحيل، لماذا ؟ لأنه مؤمن، لأنه مؤمن أن الله بيده كل شيء، وأن الله هو الغني، وأن الله هو الرزاق، وأن الله عادل فيما يعطي، لذلك ربنا عز وجل في القرآن قال:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

(سورة النساء: 32)

كل إنسان له بنية خاصة، له شكل خاص، له أجهزة خاصة قد تكون أجهزته قوية، قد تكون ضعيفة، قد يكون له شكل وسيم، وقد يكون له شكل دميم، قد يكون له بشرة معينة، قد يكون له طول معين، قد يكون له بيت من نوع معين، بمساحة معينة، له عمل معين، بدخل معين فحينما يحسد الآخرين يعلن لهم أنني لا أعرف الله عز وجل، لأن الحسد أساسه جهل لله عز وجل، جهل بعدالته، جهل بحكمته، جهل بأن الدنيا فانية لا قيمة لها، الله سبحانه وتعالى وزع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء وسوف توزع هذه الحظوظ في الآخرة توزيع جزاء، فمادامت القضية مؤقتة، ما قيمة المال إذا كان موقتاً، ما قيمة السلطان، والقوة إذا كانت مؤقتة، ما قيمة الوجاهة إذا كانت مؤقتة، ما قيمة الوسامة والصحة، ما دام كل شيء إلى زوال، إذاً أنا ممتحن في هذه الدنيا، فالإنسان حينما يحسد لا يعرف الله عز وجل، ما عرف الله، ولا عرف طبيعة الحياة الدنيا، ولا عرف مهمته فيها، لأنه إذا عرف مهمته فيها أعرض عن الدنيا والتفت إلى الآخرة، وأخذ من الدنيا ما يكفيه، أخذ من الدنيا ما يعينه على أداء مهمته.

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال: لا حسد، فلذلك الذي كان يطوف حول الكعبة، وكان يقول يا رب هل أنت راضٍ عني، قال له الإمام الشافعي وكان وراءه، قال: يا هذا هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك، قال وكيف أرضى عن الله ! قال إن كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله، هذا امتحان دقيق أيها الأخوة مقياس دقيق، لك وضع، لك جسم، لك مكان، لك بيت، لك زوجة،

لك أولاد، راضي عن الله أنت فيما أعطاك ؟ هل ترى أن الهدى أثمن عطاء هل ترى معرفة الله لا يعدلها شيء.

من أوتي القرآن فظن أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حقر ما عظمه الله تعالى.

من ندم على شيء فاته من الدنيا ما عرف الله عز وجل.

فالحسد دليل الجهل، مؤشر، إذا كان للحسد مؤشر هذا المؤشر يتناسب مع الجهل، الحسود لا يعرف الله، لا يعرف طبيعة الحياة الدنيا لا يعرف طبيعة الآخرة، لا يعرف مهمة الإنسان في الدنيا، لا يعرف سر التكليف، لا يعرف ما الأمانة، لا يعرف ما قيمة العمل الصالح، هذا الحسود، فالنبي عليه الصلاة والسلام، طبعاً الأقوال كثيرة جداً في الحسد.

قل لي من بات لي حاسداً أتدري على من أسأت الأدب

أسأت على الله في فعله إذا لم ترض بما وهبك

لكن بالمقابل ليس مشكوراً، ولا مستحسناً، ولا مقبولاً، وليس من علامات الحكمة والعقل والذكاء والأدب مع الله عز وجل أن تزهوا على الناس بما عندك، ليس من العقل والحكمة أن تعرض ما عندك للناس، أن تفتخر بما عندك، هذا الوضع يستجلب الحسد، لهذا قالوا: كثرت الظهور تقسم الظهور، ماذا فعل قارون، قال:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ)

(سورة القصص: 79)

الإنسان أحياناً في عنده رغبة يظهر ما عنده، من مال، من أثاث من بيت، هدفه يظهر، يستعلي بما عنده، وهذا ما قاله الإمام علي كرم الله وجهه، قال:

في آخر الزمان قيمة المرء متاعه.

يستمد مكانته من بيته، من مساحة بيته، من موقع بيته، من تزينات بيته، من أثاث بيته، من مركبته، من متجره، من دخله، من شكله فقط، من أناقته، من ثيابه، ما دام الإنسان يستمد مكانته من هذه الأشياء الخارجية المؤقتة، العارضة، الزائلة، فهذه المكانة مزوره.

دخل على أحد الخلفاء أعرابي يرتدي عباءة ليست جيدة، يبدو أن الخليفة إزور عنه، فقال له: أعلم العباءة لا تكلمك، ولكن يكلمك من في العباءة.

سيدنا يوسف كيف ارتفع إلى هذه المكانة العلية، فلما جاءه وكلمه الإنسان مخبوء بين ثوبيه.

المرء تحت طي لسانه لا تحت طي لسانه، تحت طي لسانه تحت علمه، الرجل جماله فصاحته، جماله علمه، جماله حكمته، جماله ما حصل من معرفة الله عز وجل، جماله أخلاقه، جماله عمله، جماله إتقان عمله، جماله إنجازاته، ماذا فعلت أنت في الدنيا، فعلت كذا وكذا يا ربي، إذاً حينما يظهر الإنسان ما

عنده مفتخراً فهذا ضعف في عقله وضعف في حكمته، وضعف في استقامته، قارون خرج على ومه في زينته.

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

(سورة القصص: 81)

النبي عليه الصلاة والسلام كما تعلمون، ما ذم طعاماً قط، ولا مدحه، مدح أطايب الطعام، والحديث عن الطعام، وعن المتع، وعن النساء، كلكم يعلم أنه مما يجرح عدالة الإنسان الحديث عن النساء التنزه في الطرقات، صحبة الأراذل، هذا كله يجرح عدالة الإنسان، الإسلام ليس بمعلومات محشوة في عقلك، ولكنه تصرفات حكيمة، مواقف نبيلة أخلاق رضية، نفس طاهرة، عفيفة كما قال عليه الصلاة والسلام:

((الإيمان عفيف عن المحارم، عفيف عن المطامع))

أخرجه أبي نعيم في الحلية عن محمد بن النضر الحارثي مرسلا

((إذاً الحسد دليل الجهل بالله، الحسد دليل الجهل بحقيقة الحياة الدنيا الحسد دليل الجهل بمهمة الإنسان في الدنيا، لا تعرف ربك، ولا طبيعة الحياة الدنيا، دار ابتلاء وانقطاع وعمل، والآخرة دار جزاء وخلود وتكريم، لا تعرف أن الله يعطي بحكمة، ويأخذ بحكمة.

وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي لمن لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو بسطت له لأفسده ذلك.))

[أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء وأبو نعيم في الحلية وابن عساكر والبخاري والنسائي والدارقطني]

قال عليه الصلاة والسلام:

لا حسد.

يعني أصل الحسد غير موجود في حياة المؤمن، فإذا وجد فليس بمؤمن، هذا يسمونه باللغة في علم الأصول المفهوم المخالف، ربنا عز وجل مثلاً قال:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة النور: 55)

خالق الكون الإله العظيم الذي بيده كل شيء، يقول:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور: 55)

المعنى واضح.

(يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: 55)

ماذا يأخذ من المعنى المخالف، معنى المخالفة أنك إذا رأيت إنساناً يدعي أنه مؤمن ولم ينل ما وعده الله به فهذه دلالة على أن في إيمانه ضعف، أو عبادته ليست صحيحة، هذا المعنى المخالف، فإذا إنسان حسد معنى ذلك أنه بعيد عن أخلاق المؤمنين، بعيد عن عقيدته الصحيحة بعيد عن فهمه الدقيق، لا حسد.

لكن علماء الدين قالوا: يمكن أن تغبط أخاك، الغبطة شيء والحسد شيءٌ آخر، الغبطة أن ترى نعمة على أخيك تتمنى أن يكون لك مثلها، هنئه الله، وأكرمه الله، وبارك الله له بهذه النعمة، ويا ليتني عندي مثل ما عنده، هذه الغبطة، فلما النبي عليه الصلاة والسلام قال:

(لا حسد إلا في اثنتين)

(متفق عليه من حديث ابن مسعود)

حمل هذا الحديث على الاستثناء المنقطع، ما هو المنقطع ؟ مثلاً.

(فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلَّا إِبْلِيسَ)

(سورة الحجر: 30 - 31).

إبليس ملك ؟ لا، الدليل

((" فسجد الملائكة كلهم أجمعون"))

إذاً إبليس ليس ملك، هذا الاستثناء اسمه استثناء منقطع، دخل الطلاب جميعاً إلا المعلم، المعلم ليس طالباً، لا حسد، النبي عليه الصلاة والسلام ينفي عن المؤمن أن يكون حسوداً، لو أنه حسود لما كان مؤمناً، لو أنه حسود معنى هذا أنه لا يعرف الله، لا يعرف أسمائه الحسنة، وصفاته الفضلة، لا يعرف عدالته، ولا حكمته، ولا تقديره، ولا عطائه بحكمة بالغة، ولا يعرف حقيقة الدنيا، ولا ما ينتظره بعد الدنيا من عقاب أو من ثواب، هذا إذا حسد، طيب كيف يقول النبي يستثني، لا حسد إلا في اثنتين، قال هذا استثناء منقطع، الاثنتين ليستا حسداً ولكنهما غبطة، الاثنتان ليستا حسداً لكنهما غبطة، هذه المقدمة لا بد منها، معنى الحسد ومعنى الغبطة الحسد أن تتمنى من أعماقك أن تزول هذه النعمة عن أخيك، وأن تنصرف إليك، الأخطر من هذا أن تسعى كي تزيلها عنه، إما بوشاية، أو بمشكلة أو بإيقاع، أو بأشياء من هذا القبيل، أما الغبطة أن ترى لك أخ لك مؤمناً أكرمه الله بشيء، تقول يا ليتني أوتيت مثلما أوتيت فلان، يا ليتني أوتيت علماً مثل علمه، يا ليتني أوتيت فقهاً كفقهه، يا ليتني أوتيت حكمة كحكمته يا ليت الله قدر على يدي عمل صالحاً كهذا العمل الذي قدره على يديه هذه الغبطة، هل في القرآن ما يؤكدها ؟

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26))

(سورة المطففين: 26)

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ)

(سورة آل عمران: 38)

لما رأى السيدة مريم قال:

(قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (37) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ)

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61))

(سورة الصافات: 61)

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: 58)

معنى في شيء يجب أن تفرح به، في شيء يجب أن تتنافس فيه في شيء يجب أن تسعى عليه تسعى إليه متنافساً، ومقبلاً، لذلك:

((إن الله تعالى يباهي ملائكته بالشاب العابد فيقول أيها الشاب التارك شهوته لأجلي المبذل شبابه لي أنت عندي كبعض ملائكتي.))

(أخرجه ابن عدي من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ)

انظر صباحاً الساعة الثامنة، قف في مكان مزدحم وانظر إلى الناس واتلوا قوله تعالى

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4))

(سورة الليل: 1 - 4)

كل واحد له هدف في رأسه، هذا لعمله، هذا ليعمل مشكلة، هذا بدو يقيم دعوى، هذا ليفتري على إنسان، هذا ليؤذي إنسان، هذا ليأخذ مال إنسان، هذا ليقضي شهوة من شهواته، كل واحد في باله شيء، أما المؤمن إذا رأيته يسعى لمرضاة الله، إذا رأيته يسعى لحضور مجلس علم إذا رأيته يسعى لعمل صالح، إذا رأيته يسعى للمسجد، إذا رأيته يسعى فلطلب العلم، إذا رأيته يسعى فلخدمة الخلق، إذا رأيته يسعى فلبر الوالدين أقول لكم شيء إذا الإنسان ما أحس بالغيرة في قلبه من مؤمن حالته تعبانة كثير، إذا شاف مؤمن متفوق عليه، بعلمه أو بحكمته وبعمله الصالح وبإدراكه الدقيق، وما تعلمه من قرآن، ما شعرت برغبة تكون مثله، ما شعرت بالغيرة هي، هذه غيرة محمودة يا أخوان، أن تغار من أخيك المؤمن، وأن تغبطه على ما هو فيه، وأن تتمنى أن تكون مثله، وأن تسعى إلا أن تكون في مرتبته، هذا شيء محمود، هذا شيء مرغوب لازم تغار، لازم تشعر بالغبطة، تسعى، سمعت عن أحد العارفين بالله مر أمام مقام لعارف بالله جليل، قرأ له الفاتحة، ناقش نفسه، قال هو إنسان وأنت إنسان، أنت شو ناقصك يعني ما تكون عارف بالله، الباب مفتوح، ما سقف يا أخون سقف ما في، كلنا عباد الله، أبواب الخير مفتوحة دائماً، أبواب العمل الصالحة مفتوحة دائماً، أبواب طلب العلم مفتوحة دائماً، ولما الإنسان

يرغب يخدم الناس، الله يمكنه، يقدر على يديه هداية الناس، يقدر على يديه ما لم يعطيه لهم، القضية بالطلب يعني كأن الله عز وجل لخص كل العلاقة بينه وبين خلقه بكلمتين، قال:

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً)

(سورة الأنعام: 115)

يعني يا عبادي كلمتان بيني وبينكم، منكم الصدق ومني العدل تفضل نقي.

(كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (20))

(سورة الإسراء: 20)

فضل الله عز وجل مبذول للخلق، تفضل صلي، أقر قرآن أحفظ قرآن، روينا لكم قصة مشهورة كثير، رويتها أكثر من مرة، قصة ثابتة مشهورة، رجل في الخامسة والخمسين، من ريف مصر يعني تاقت نفسه أن يكون عالماً، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، ركب دابته وتوجه بها إلى القاهرة، فسأل بعض الباعة أين الأزعر ؟ قصده جامع الأزهر، أين الأزعر ؟ فسخروا منه، شو أزعر، إلى أن التقى برجل طيب صالح قال له فتح الله عليك فتوح العارفين، اسمه الأزهر يا أخي، مو أزعر اسمه، طريقه كيت وكيت دله عليه، القصة طويلة جداً، وصاحب هذه القصة اسمه الشيخ زكريا الأنصاري توفي في السادسة والتسعين وما توفاه الله عز وجل إلا وهو شيخ الأزهر، تعلم القراءة والكتابة، وحفظ القرآن كله في الخامسة والخمسين، وطلب العلم حتى وصل إلى هذه المرتبة وكان من الصالحين.

إذا واحد مر أمام شخص، أو التقى بشخص يعني أعلم منه في الإيمان ليش ما بغار منه، ما في سقف الباب مفتوح إلى الله، كرامة الله عز وجل لا لمن سبق ولكن لمن صدق، فالغيرة محمودة، أن تغار من أخيك المؤمن إذا أكرمه الله بعلمٍ، أو بعملٍ، شيء مطلوب، وأساساً إذا لم تغر ففي الإيمان ثلمه، إن لم تغر ففي الإيمان ضعف، إن لم تغر فليس لك هذا المطلب لك مطلب آخر، فلما قال النبي عليه الصلاة والسلام: لا حسد نفى الحسد الذي نهى الله عنه، نعم

(("ومن شر حاسد إذا حسد))

" إلا في اثنتين، صار في استثناء منقطع، يعني المستثنى منه من طبيعة أخرى كقول الله عز وجل:

(فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلَّا إِبْلِيسَ)

(سورة ص: 73 - 74)

إبليس ليس ملكاً، كأن نقول دخل الطلاب جميعاً إلى الصف إلا المعلم، لا حسد إلا في اثنتين، هاتان الاثنتين ليستا حسداً، إنما هما غبطة إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام يريكم أن الشيء العظيم في الحياة، أن الشيء الذي يمكن أن تغبط أخاك عليه، أن الشيء الذي يمكن أن تسعى إليه هو هذا الشيء، أو هذان الشيئان، أيعقل أن يكون لك مقاييس أنت أخرى، هذه نقطة مهمة جداً، أنت عندك مقاييس تقيس

بها الأمور، ما الضلال ؟ أن تكون مقاييسك للأمور خلاف مقاييس رسول الله، مثلاً: إذا كنت تتوهم أن الفوز بأن يكون لك مال وفير، وربنا عز وجل يقول:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (71))

(سورة الأحزاب: 71).)

فإذا أنت الفوز بنظرك أن تكون غنياً، والفوز في القرآن أن تكون مطيعاً، معنى في ضلال الإنسان، إذا كان في نظرك الفلاح أن يكون لك بيت كبير جداً، فيه كل شيء، وفي القرآن الكريم:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1))

(سورة المؤمنون: 1)

((الفلاح بالإيمان، فإن لم تر أن الفلاح في الإيمان، لكن الفلاح بالمتاع، إن لم تر أن الفوز بالطاعة ولكن الفوز بالمال، هذا هو الضلال أن تكون لك مقاييس خاصة، لذلك:

لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه متبعا لما جئت به.))

[أخرجه الحكيم وأبو نصر السجزي في الإبانة وقال حسن غريب والخطيب عن ابن عمرو]

تطابق، إذاً: لا حسد إلا في اثنتين، في هاتين الاثنتين يجب أن تغبط أخاك عليهما قال رجل علمه الله القرآن، الحقيقة أنه أي كتاب آخر في صواب وفي خطأ، أما القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وفضل كلام الله على كلام خلقه، إذا عددنا كل كتاب كتب في الأرض من كلام الخلق، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، هذا كلام خالق الأكوان، هذا كلام مخلوق، فأنت إذا يعني انكببت على القرآن وأقبلت عليه تلاوةً وحفظاً وفهماً وتطبيقاً ليس في حياتك مغامرة إطلاقاً ولا مخاطرة، لا مغامرة ولا مخاطرة، لأنك واثق ثقة مطلقة أن هذا الذي تقرأه كلام الله، وكلام الله حقاً يقين، حقٌ صرف، في طمأنينة، كلام خالق الكون، تعليمات صانع هذه الآلة المعقدة، الآن أنت في آلة معقدة كمبيوتر مثلاً حاسوب إلكتروني، سمعت في أجهزة، استخدموا جهاز الفحص سمعت ثمنه مائة مليون، هذا الجهاز بحاجة لكتيب المعلومات للإستفادة منه.

وكذلك لفهم القرآن حلاله وحرامه وحدوده ووعده ووعيده فأنت تحب نفسك تنصح لها، تسعى لسلامتها، تسعى لتفوقها، تسعى لسعادتها. رجل علمه الله القرآن. لذلك يعني الإنسان يصيبه أيام أزمة، في الأزمات الخاصة والعامة الذي يقرأ القرآن معافى من أمراض كثيرة تصيب عامة الناس الذي يقرأ القرآن، والذي يتمثل معانيه معافى من أمراض كثيرة تصيب عامة الناس، قارئ القرآن يشعر أن يد الله فوق أيدي الناس، هذا شعور مريح جداً.

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: 10)

((قارئ القرآن يرى أن كل شيءٍ وقع أراده الله، وأن كل شيءٍ أراده الله وقع، وأن إرادته متعلقة بالحكمة، وحكمته متعلقة بالخير المطلق قارئ القرآن يرى أن الله مع كل مخلوق، وما من حدث يقع إلا والله سبحانه وتعالى عليم به وله فيه حكمة بالغة، فلذلك كما قال عليه الصلاة والسلام:

لا يخرف قارئ القرآن.))

(أخرجه ابن عساكر في تاريخه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ ورواه عنه أيضاً أبو نعيم والديلمي)

لا يحزن لأنه معه تعليمات الصانع.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: 97)

فإذا كان رأيت إنسان مؤمن مستقيم، يحي حياة طيبة صحيح هكذا قال الله عز وجل، ومرة قلت لكم في درس سابق، إنه لما الله عز وجل كيف يشهد لك أيها المؤمن أن هذا القرآن كلامه، قال لك في القرآن من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة

((الحياة الطيبة التي هي من قدر الله لك والتي قدرها الله لك، تحقيقاً لوعده هي شهادة الله لك بأن هذا القرآن كلامه، وهاهو قد تطابق كلامه مع فعله، إذاً هذا دليل قطعي على أن القرآن كلامه، كذلك.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(سورة طه: 124)

لو التقيت مع إنسان قال لك أنا أشقى الناس، متضايق، بحالة ضياع، شاعر بالقهر، شاعر بالملل، صح كلامه، هكذا قال الله عز وجل:

((ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا))

وإذا لقيت مرابي الله يدمر له ماله، تستغرب لا، بالعكس هكذا قال الله عز وجل كأنك إذا تلوت القرآن وفهمته فهماً عميقاً رأيت كل شيء يقع في الحياة له عندك تفسير، مو تفسير اختراع من عندك، تفسير من خالق الكون نشرة إيضاحية.

إذاً: لا حسد إلا في اثنتين رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه أناء الليل. سنقف عند يتلوه وقفة.

معنى تلو: التِّلْوُ ؛ الفطيم أو الرضيع الذي يتبع أمه قبل الفطام نسميه تِلْوٌ.

التِّلْوُ، من معاني هذه الكلمة أو تَلاَ الفعل التباع، لذلك غاب عن الناس أن تلاوة القرآن لا كما يفهما عامة الناس قراءته لا، يا ليت، تلاوة القرآن أن تتبع ما جاء فيه، لأن تَلاَ تبع، والتِّلْوُ الرضيع الذي يتبع أمه أينما ذهبت، فتلا القرآن بادر إلى تطبيق ما قرأه فيه، لذلك، لا حسد إلا في اثنتين رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه أناء الليل وأناء النهار، يعني ليس منا من لم يتغنى بالقرآن، القرآن ربيع القلوب، لا غناً بعده، ولا فقراً دونه، القرآن الكريم يعني يؤنس الإنسان في وحشته، يسليه في غربته يهديه في حيرته،

القرآن حبل الله المتين، القرآن الكريم معنى يتلوه أناء الليل وأناء النهار يعني يتبع ما جاءه به، السعيد هو الذي يقرأ ليطبق مثلاً، الله عز وجل قال:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

(سورة النساء: 19)

ما معنى تلاوة هذه الآية أن تعاشر أهلك بالمعروف، الله عز وجل قال:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً)

(سورة البقرة: 83).

ما معنى تلاوة هذه الآية ؟ أن تقول للناس حسناً، ما معنى تلاوة قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: 30)

أن تغض بصرك عن محارم الله، ما معنى قوله تعالى:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة البقرة: 188)

أن تمتنع عن أكل المال بالباطل هي معنى التلاوة، ألا يذهب بنا الظن إلى أنك إذا قرأت القرآن فقد تلوته، لا والله يا أخي، تلاوته شيءٌ آخر غير قراءته، لذلك: لا حسد إلا في اثنتين، رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه أناء الليل وأناء النهار، فسمعه جار له فقال: ليتني أوتيت مثلما أوتي فلان أما أهل الدنيا ماذا قالوا لما شافوا قارون بموكبه، بعظمته، بثيابه الأنيقة بجماله، فتنهدوا من أعماقهم وقالوا:

(يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ)

(سورة القصص: 79)

يقول لك أيام واحد والله شفت سيارة اشتهيت تدهسني، من حمقه أساساً، أيام إذا الإنسان شاف شيء جميل بتلاقي ذابت نفسه ذوبان، هذه علامة أهل الدنيا، بيت فخم، يذوب ذوبان، بقلك شيء بزحل العقل شيء بعقد، فلما رأوا قارون وموكبه قالوا: " يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ". أما المؤمن إذا شاف مؤمن أتقى منه تفوق عليه في حفظ القرآن وفي تلاوته، تفوق عليه في العلم، تفوق عليه في العمل، تذوب نفسه متمنياً أن يكون مثله، هذه علامة الإيمان، ما الذي تشتهيه ؟ قال طاقت نفسي للإمارة سيدنا عمر بن عبد العزيز، فلما بلغتها، طاقت نفسي إلى لخلافة، يبدو أن هذا الطوقان شريف، فلما بلغتها، طاقت نفسي إلى الجنة واستخدمها كوسيلة للجنة، كل إنسان مهنته، إن كان بالتعليم، إن كان بالطب، بالهندسة، بالتجارة، بالصناعة، بأي حرفة، ممكن أن يستخدم حرفته كطريق إلى الجنة، في خدمة المسلمين، فكانوا السلف الصالح، إذا فتحوا محلاتهم يقولون اللهم نويت خدمة المسلمين، إنسان فتح محله التجاري، هؤلاء الناس مسلمون، إخوانك، أعطهم بضاعة جيدة بسعر معتدل، وكن لطيف معهم،

بالصناعة قدم لهم صناعة متقنة، بكل شيء قدم شيء متقن بسعر معتدل فأنت قد خدمت المسلمين بهذا العمل.

إذاً: لا حسد إلا في اثنتين رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه أناء الليل وأناء النهار، فسمعه رجل له فقال ليتني أوتيت مثلما أوتي فلان. لذلك من لم يكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة، كثير سهل أن تكون بشابك متنعم، الشباب مثل السيارة بأول ما بتشتريها مكنة، تتحمل، أما البطولة بخريف العمر، كيف أمضيت هذا الشباب، في طاعة الله ؟ لك خريف عمر مشرق، كيف أمضيت هذا الشباب في طلب العلم ؟ لك خريف عمر مشرق، يعني الحقيقة الإنسان في ببدايته يبذل جهد كبير والمردود قليل كلما ارتقى إلى الله عز وجل، لو بذل جهد يسيراً جنى محصول كبيراً كيف ما تحرك المؤمن الذي أمضى حياته كلها في طاعة الله، وخدمة الخلق، ومعرفة الله بتلاقي حركاته كلها بأسعار باهظة جداً الكلام الدارج ضربة معلم بألف، يعني إذا كان الله عز وجل أكرمه خيره كبير، خيره جزيل، الآن الرجل الثاني الذي بقي معنا هو:

رجل أتاه الله مالاً، المال قوة، كأن في الحياة قوتان، قوة العلم وقوة المال، فإما أن تكون عالماً فتعلم الناس، وإما أن تكون غنياً فتنفق عليهم، على كلٍ هذا المال اجعله مطية لك إلى الجنة، قال:

ورجل أتاه الله مالاً فهو يهلكه في الحق، برعاية الأيتام، برعاية الأرامل، بجبر الخواطر، بتأليف القلوب، بإكرام الناس، بإطعامهم بإدخال السرور على قلوبهم، يعني إذا أدخل على قلب ابنه السرور هذا دخل فيه، على قلب أهل بيته، على قلب جيرانه، على قلب إخوانه على قلب من يلوذ به.

ورجل أتاه الله مالاً فهو يهلكه في الحق، فقال رجل ليتني أوتيت مثلما أوتي فلان فعملت مثلما يعمل.

فيا أيها الأخوة الأكارم: يعني الإنسان إذا الله عز وجل أتاه مال المال شيء ثمين جداً، يمكن أن يبلغ به أعلى درجات الجنة، لكن غير مكلف أن يلقيه جزافة، كيفما اتفق، يجب أن يجتهد في إعطائه لمن يستحق، وللمؤمن بالذات، لكن ممكن تنقذ أسرة، ممكن تعين شاب في بدايته كان يائس، فلما أعنته على زواجه، وعلى تأمين عمل له، فأنت بهذا ماذا فعلت ؟ بززت في قلبه الأمل، وشعر على مجتمعه غالي، لذلك لما ربنا عز وجل قال:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)

(سورة التوبة: 103)

معنى تطهرهم ؛ يعني المال طهر من تعلق حق الغير به، والفقير طهر من الحقد، والغني طهر من الشح، ثلاث تطهيرات، الغني طهر من الشح، والفقير طهر من الحقد، والمال طهر من تعلق حق الأخريين به

(("وتزكيهم))

"المال ينمو بقانون طبيعي أنك إذا أعطيت الفقير ملك قوة شرائية اشترى منك، فأنت المبيعات ازدادت، هذا نماء طبيعي، وفي نماء بعناية الله الخاصة، الله عز وجل يلهمك عمل فيه ربح، فهذا المال يزكو، أي ينمو، إما ينمو بحسب القوانين التي سنها الله عز وجل أو ينمو بحسب عناية إلهية خاصة، والفقير نفسه تنمو، كيف تنمو ؟ يشعر الفقير أنه له مكانة في مجتمعه، مجتمعه حريص عليه، هو مجتمعه ولا سيما الأغنياء حريصون على مصلحته، هذا شعور بالأهمية، في نماء، والغني يشعر أنه قدم عملاً عظيماً، بقلك الله أكرمني فعلت كذا، أكرمني بنيت جامع أكرمني مثلاً عاونت إنسان، أكرمني زوجت خمس شباب.

إذاً هؤلاء الذين أتاهم الله المال مؤهلون كي يصلوا به إلى أعلى درجات الجنة، شوف أيام التاجر الذكي لا ينفق ماله استهلاكاً، ينفقه استثماراً، بقلك كل ما صار معي قرشين أخذت دكانه، ولحشتها عملت مطمورة، شوف الذكاء تبعه، صار معي قرشين أخذت بيت، شفت هذه البضاعة رخيصة وهي سوف تغلى، أخذتهم، دائماً التاجر تفكيره استثماري، مو استهلاكي، إذا كان تاجر حقيقة مع الله، تجعل مالك إنفاقه استثماري للجنة، لا استهلاكي في الدنيا، كل ما تنفقه من مال من أجل المتع والرفاه، وأن تبالغ فيما استمتاعك بمباهج الدنيا، هذا اسمه إنفاق استهلاكي، هذا في معه ضيق أفق، في معه قصر في العقل، أما الإنفاق الاستثماري أن تنفقه في طاعة الله عز وجل حتى يبقى أثره ممتد إلى الآخرة، هذا الحديث أعيده على أسماعكم مرة ثانية:

((عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: لا حسد إلا في اثنتين، رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه أناء الليل وأناء النهار، فسمعه جار له فقال: ليتني أوتيت مثلما أوتي فلان، فعملت مثلما يعمل ورجل أتاه الله مالاً فهو يهلكه في الحق، فقال رجل ليتني أوتيت مثلما أوتي فلان فعملت مثلما يعمل.))

[رواه البخاري والنسائي]

تعليق على درس سابق:

الدرس الماضي جزاه الله عني كل خير أحد أخوانا الأكارم أنا قلت في الدرس الماضي أولاً النبي وحده عليه الصلاة والسلام معصوم، وما سوى النبي غير معصوم، قلت في الدرس الماضي يعني هذا الذي يقول إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب، هذا كلام هو كلام النبي عليه الصلاة والسلام ولكن فرق كبير بين أن تفهم كلام النبي على أنه أسلوب بالتعامل مع الآخرين، وبين أن تفهمه من علامات قيام الساعة، أنا حينما قلت هذا كلام أقصد به، هذا الذي يقول إن لم تكن ذئباً أكلت الذئاب، يعني كن ذئباً وكل مالهم لئلا يأكلوك هذا ما فهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ينبغي أن يفهم، هذا الحديث يعني أن النبي عليه الصلاة والسلام أشار إلى علامات قيام الساعة، ألم يقل مثلاً:

إذا أوسد الأمر إلى غير أهله فانتظر السعة، إذا رأيت شحاً مطاعاً وهواً متبعاً، وإعجاباً كل ذي رأيٍ برأيه، هل معنى ذلك أن يكون لك هواً مطاع وأن تعجب برأيك، لا، هذه إشارات إلى أن الزمن الذي فيه يكون الإنسان ذئباً كي يمحو هذه من علامات آخر الزمان، فلا ينبغي أن نفهم الحديث على أن نفعل ما قاله النبي، النبي أشار إلى علامات آخر الزمان يعني تنقطع الرحمة، هكذا قال النبي من علامات قيام الساعة أن يذهب الحياء من وجوه النساء، ما في حياء إطلاقاً، تحد النظر إليك هي، أنت مستحي وتغض بصرك وهي تنظر إليك، تحد النظر إليك، يذهب الحياء من وجوه النساء، وترتفع النخوة من رؤوس الرجال، يفتخر بزوجته يفتخر بجمالها، تسير معه بأبها زينة، لأنه عرفان ينقي، هكذا، ما فيه نخوة، ولا في حياء عندها.

ومن علامات آخر الزمان أن تنتزع الرحمة من قلوب الأمراء، ما في رحمة، لا في رحمة عند الأمراء، ولا في حياء عند النساء، ولا في نخوة عند الرجال.

قال عليه الصلاة والسلام قال: إذا كان أغنياءكم سمحاءكم وأمراءكم رحماءكم، وأمركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراءكم شراركم، وأغنياءكم بخلاءكم، وأمركم إلى نساءكم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها.

هذه من علامات قيام الساعة، هل يعقل أن نقول يجب أن يكون الغني شرير هيك النبي قال ؟ لا، هذه علامات قيام الساعة، أنا حينما ذكرت هذا الكلام ورفضته لا على أنه كلام رسول الله، لا، رفضت أن يتخذ الآن هذا الكلام مقياس للتعامل، هذا الذي ذكرته، على كلٍ الذي ذكرني بهذا الكلام جزاه الله عني كل خير.

بقي علينا حديثٌ قصيرٌ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعلق بالنساء، طبعاً الحديث موجه إلى من يقدم على الزواج، يقول عليه الصلاة والسلام عن أنس رضي الله عنه عن النبي صل الله عليه وسلم:

((من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلاً، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقراً، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءةً، ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه.))

[رواه الطبراني في الأوسط]

يعني إذا كان الهدف من الزواج مصالح دنيوية فهذا الزواج غير مبارك، أما إذا ابتغيت بهذه الزوجة مرضاة الله عز وجل.

وحديث آخر ذكره النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((تنكح المرأة لأربع لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك))

((يعني إن لم تفعل هكذا ما قال النبي ما نلت إلا التراب، ما نلت شيئاً، تنكح المرأة لأربع لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك.))

[رواه البخاري ومسلم]

آخر حديث: وعن أنس قال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((من احتسب ثلاثة من صلبه دخل الجنة، فقامت امرأة قالت أو اثنتان فقال أو اثنتان، فقالت ليتني قلت واحدة))

[رواه النسائي وابن حبان في صحيحه مختصراً]

من احتسب ثلاثة من صلبه، يعني ثلاث بنات جاءته من صلبه بناته يعني، احتسبهن لله عز وجل، يعني رباهم تربية صالحة اعتنى بأخلاقهم، بدينهم، بصلاتهم، بقرآنهم، بعلمهن، بفقههم، اعتنى بعاداتهم بمعرفة حق الزوج من احتسب ثلاثة من صلبه دخل الجنة، فقامت امرأة فالت عندها ابنتان فقط، أو اثنتان فقال أو اثنتان، فقالت ليتني قلت واحدة، لو عنده بنت واحدة دخل بالموقف فقالت ليتني قلت واحدة.

من احتسب ثلاثة من صلبه دخل الجنة، فقامت امرأة فالت أو اثنتان فقال أو اثنتان، فقالت ليتني قلت واحدة.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (019) :قصة صلى الله عليه وسلم مع الوفد الأزدي.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-01-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم:

قال سويد الأزدي: وفدت سابعة سبعة من قومي على رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما دخلنا عليه، وكلمناه.

الإنسان مخبوءٌ تحت طي لسانه لا تحت طيلسانه، قيمة المرء في علمه، قيمة المرء في حديثه، قيمة المرء في حكمته.

سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام كيف انتقل من سجين إلى عزيزٍ من سجين إلى أميرٍ، من سجين إلى حاكمٍ، كيف ؟.

(فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54))

(سورة يوسف: 54)

إذاً كلمه، والإنسان إذا تكلم يرتفع، وإذا تكلم يسقط، وكائن ترى من صامت لك معجبٍ، زيادته أو نقصه في التكلم، الإنسان قد يلتقي بشخص، يزينه من ثيابه، من هيئته، فإذا تكلم نسي هندامه وقيمه من كلامه، فإذا عامله نسي كلامه وقيمه من معاملته.

إذاً الإنسان لما يتعلم العالم له قيمة كبيرة جداً، طلب العلم فريضة ورتبة العلم أعلى الرتب.

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر: 9)

الآن مقياس البشر ما هو ؟ المال، الجمال، الذكاء، القوة الصحة، القوة العضلية، القوة الزهنية، القوة المالية، أما المقياس الذي أعتمده القرآن وجعله قيمة مرجحة بين عباده إنها العلم، قال:

((قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون))

ومن لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة، إذا لم تجلس على ركبتيك في بيوت الله لسنوات طويلة، تتعلم كتاب الله، تتعلم سنة رسول الله، تتعلم أحكام الدين تعرف شيئاً عن أحوال القلب، عن إقبال القلب، عن طهر النفس، عن سعادة الدين، هذا الذي ليس كذلك فارغ، لذلك ربنا عز وجل قال:

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً (105))

(سورة الكهف: 105)

ما في وزن، تافه، لهم صغار عند الله، في الدنيا ما عرف الله ولا استقام على أمره، ولا أقبل عليه، ولا طهر قلبه، ولا فعل المعروف أنا لفت نظري في هذا الحديث قال:

فلما دخلنا عليه ـ على النبي عليه الصلاة والسلام ـ دخلنا عليه وكلمناه ـ اللهم صل عليه ـ في أشخاص عظام، الأضواء كلها عليه مسلطة يغفل كل تفوق حوله، مهما بدى الذين حوله متفوقون يهملهم، يضعهم في التعتيم، أما النبي عليه الصلاة والسلام، من جوانب بطولته، من جوانب عظمته، من كرم أخلاقه، أنه إذا رأى من حوله على علم، أو على خلق أو سمت، أو على بطولة، كان يثني عليهم.

سيدنا سعد، قال له: أرمِ سعد فداك أمي وأبي، طيره طيران أرمِ سعد فداك أمي وأبي، ما فدى النبي عليه الصلاة والسلام من أصحابه إلا سعد.

سيدنا أبو عبيدة، قال له: أبو عبيدة أمين هذه الأمة.

سيدنا خالد، سيف الله.

سيدنا الزبير قال له: أنت حواري رسول الله.

سيدنا عمر لو كان نبي بعدي لكان عمر.

سيدنا عثمان ألا استحي من عثمان.

سيدنا علي أنا مدينة العلم وعلي بابها.

إذاً ما ترك النبي صحابي من أصحابه إلا وسلط عليه الأضواء كشفه، كشف حقيقته، رفع شأنه، عظمه هذا من جوانب بطولته صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالنبي لما رأى.

قال: فلما دخلنا عليه وكلمناه أعجبه ما رأى من سمتنا وزينا يعني ثياب مقبولة، نظيفة، لا أقول لكم ارتدوا ثياب غالية الثمن، هذا كلام لا أقول أبداً، ولكن الإنسان بإمكانه أن يرتدي ثوباً مقبولاً، أنت تمثل الدين، أنت سفير هذا الدين، أنت على ثغرة من ثغر الإسلام، فلا يؤتين من قبلك، يجب أن تكون دكانك منظمة، بيتك منظم، يعني مظهرك مقبول مركبتك نظيفة، بيتك فيه نظافة، في ترتيب، أنت تمثل الدين، كيف تقول لإنسان يكره الدين، ويرى إنسان له زي ديني، أو له هوية دينية، أو له انتماء ديني، أو له خلفية دينية، وفوضوي، وغير مهتم، وغير مرتب شوف النبي ماذا قال:

قال: فلما دخلنا عليه وكلمناه أعجبوه ما رأى من سمتنا وزينا يعني مظهر مقبول، وسمتنا حسن، في إنسان يضحك باعتدال، كلامه مهذب، منضبط، كلمة واحدة بذيئة تسقطك من عيون الناس، مزاح رخبص يجعلك في الوحل، كلمة نابية، كلمة قاسية، ذكر العورة أحياناً طرفة لها علاقة بأمور الجنس، هذا المؤمن بعيد عنه، لسانه طاهر لذلك ربنا عز وجل قال:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً)

(سورة البقرة: 83)

يعني ترفة مستواه متدني هابطة، كلمة قاسية، كلمة فاحشة، كلمة بذيئة، هذا كله المؤمن بعيد عنه، لأن المؤمن سفير هذا الدين، ماذا قال الله عز وجل في الحديث القدسي، قال:

((إن هذا دين ارتضيته لنفسي ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما استطعتما))

[أخرجه الدارقطني في المستجاد عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ]

أعجبه ما رأى من سمتنا وزينا، فقال من أنتم.

شيء ثاني تمام استنباط آخر، يعني إذا أنت التقيت بإنسان سلم عليك بحرارة، شفته أديب، تعرف عليه، لعل هذا اللقاء العابر ينعاد رأيت فيه سمة الصلاح، رأيت فيه ذكاء، رأيت فيه طيباً، رأيت فيه ورعاً، رأيت فيه تواضعاً، هذه صفات المؤمنين، اسألوه عن اسمه واسم أبيه، وعن عمله، لعل الله عز وجل يجعل هذا الأخ أخوك في الله، لعلك تنفعه وينفعك، النبي من سنته صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا التقى بأخٍ يسأله عن اسمه وعن اسم أبيه وممن هو، هكذا، التقيت من أخ أساله عن اسمه وعن عمله، يعني هذا الشيء يزيد المودة بين المؤمنين.

فقال من أنتم ؟ فقلنا مؤمنون، قالوا كلام عام، فقلنا مؤمنون.

أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يعلمهم، أنت دائماً مهمتك أن تعطي، إياك أن تتكلم كلاماً فارغاً، إياك أن تمضي وقتاً بلا طائل، إياك أن تفعل شيئاً لا جدوى منه، لا معنى له.

قال من أنتم ؟ قالوا مؤمنون، هنا دخل النبي عليه الصلاة والسلام.

أحياناً يزورني أخ، بحب أساله السؤال التقليدي كيف عرفت الله عز وجل، كل أخ له قصة، أحياناً أخ اهتدى إلى الله عن طريق كلمة طيبة قالها له أخ من هذا المسجد، كلمة طيبة سؤال لطيف، شرح آية شرح حديث، فإذا الإنسان سمع حقيقة وتفاعل معها، وحفظها، هي ذخر له، فإذا التقى بأخ وتوسم فيه سماء الصلاح يذكره بالحق، يذكره بآية كريمة، بحديث شريف، بآية كونية، تلفت النظر.

فقال عليه الصلاة والسلام: إن لكل قول حقيقة، فما حقيقة قولكم ؟

واحد قال لك أنا طبيب قل له إذا كان ضغط ارتفع مليح، بلك ما بعرف، معناه مو طبيب، أنا مهندس، أخي نحنا بدنا نساوي عضايض من دون حديد بقلك بصير، معناها مو مهندس هذا، لا يفقه شيئاً في علم الهندسة، كل إنسان له أن يدعي ما يشاء، له أن يعطي عن نفسه حجماً كبيراً، بس في امتحان، القضية بالدعوة فقط.

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي)

(سورة آل عمران: 31)

لما كثر مدعوه المحبة طولبوا بالدليل، والدليل طاعة الله عز وجل وطاعة النبي، فهذا كلام دقيق، حينما ادعى هؤلاء أنهم مؤمنون قال عليه الصلاة والسلام: إن لكل قول حقيقة، فما حقيقة قولكم ؟ ماذا قال عليه الصلاة والسلام ؟ في حديث آخر:

إن لكل شيءٍ حقيقةً، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم، أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وإنما ما أخطئه لم يكن ليصيبه.

الآن فرق المؤمن عن غير المؤمن، أن المؤمن يرى أن يد الله فوق أيدي البشر، وأن فعلهم هو فعله لا فعلهم، وأن لهذه الأفعال حكمة ما بعدها حكمة، ومغزى ما بعده مغزى، وله مؤدى ما بعد مؤدى، فبين المؤمن وغير المؤمن أن المؤمن يرى الله ولا يرى معه أحد، وغير المؤمن يرى كل إنسان ولا يرى الله من خلال هؤلاء، فقلنا، هذا الوفد وفد الأزد.

فقلنا خمسة عشر خصلة ـ نحن في عنا خمسة عشر خصلة هي حقيقة إيماننا، قال هؤلاء: خمس آمن بها، وخمس عملنا بها وخمس تخلقنا بها في الجاهلية، ونحن عليها للآن، فإن كرهتها تركناها حوار لطيف ـ فقال عليه الصلاة والسلام: فاذكروا ما عندكم ؟

الحقيقة أن تدير حديثاً مع إنسان هذا توفيق من الله عز وجل تدير حديث مع إنسان توقظ فكره، تعطيه الدليل بيدك، تدفعه دفع إلى طاعة الله، تضعه أمام خيار صعب، تعرفه بذاته، بمسئوليته، بمهمته في الحياة، تعرفه بجوهر الحياة، من خلال حوار، وسؤال، وجواب أنا العبد الفقير مرة كنت مع إنسان من بلد أجنبي وفي مترجم، فلاحظني أغض بصري قال لي ما هذا ؟ قلت هذه تعليمات الصانع، يعني أردت أن أخاطبه بلغته، قلت هذه تعليمات الصانع، ترجمها، نحن آلة معقدة جداً معقدة جداً هذه الآلة ولها تعليمات، فإذا أردت أن تحب نفسك، إذا أردت سلامتك، من العطب والعطل، إذا أردت أن تسعد في الدنيا والآخرة طبق تعليمات الصانع، طبعاً هذا الإنسان تفيده هذه اللغة، إنسان آخر يفيده أن تقول له قال الله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: 30)

كلام إله، ما في مجال، فالذي يؤمن بالكتاب تقول له الآية والذي لا يعرف ما الكتاب ولا الإيمان قل له هذه تعليمات الصانع، هذا الكتالوج تبعنا، وغض بصرك

فالنبي عليه الصلاة والسلام قال: فذكروا ما عندكم.

بالمناسبة إذا كان جلست مع أخ لا تستأثر أنت بالكلام، أنت استأثرت بالكلام هو له أسئلة، له طلبات، في عنده قضية تجول في خاطره، في عنده سؤال كبير، في بنفسه حاجة، عنده مشكلة عما يعانيها أفسح له المجال، أن يتكلم، خلي يفضي ما عنده، من أخلاق المؤمن وتراه يصغ بالحديث بسمعه وقلبه ولعله أدرى به.

يعني أحياناً يزعجني شيء أن أنت عم تحكي آية بكملها عنك شخص، وأنت حافظها، إذا كان سألك كمل هذه بحث ثاني، التدخل والدخول على الكلام، ومقاطعة المتحدث، تربك، هناك أدب للاستماع كما

أن هناك أدب للحديث، فالنبي عليه الصلاة والسلام، سيد الخلق وحبيب الحق، وتراه يصغ بالحديث بسمعه وقلبه ولعله أدرى به.

قال: فذكروا ما عندكم.

دائماً الحوار في متعة، السؤال والجواب، وتعليق، والبرهان والدليل، والاعتراض، ورد الاعتراض، يعني يقظة فكرية، فنحن حينما تعلمنا في كلية التربية أصول التدريس تعلمنا أن أسوء طريقة في تعليم الطلاب طريقة الإلقاء، هو الإنسان وعاء وأنت تملئ فيه، قد يكون هو شارد، أما طريقة السؤال والجواب والحوار والتعليق والتدقيق وطلب الدليل وإقامة الدليل ورد الدليل، هذا.

فالنبي قال: اذكروا ما عندكم، فقال هؤلاء: أما خمس الإيمان فهي أن نؤمن بالله، خالقاً ومربياً ومسيراً، أسمائه الحسنة، صفاته فضلة إليه يرجع الأمر كله، يد الله فوق أيديهم، له الخلق والأمر، ما لهم من دونه من ولي، ولا يشرك في حكمه أحد، أما خمس الإيمان أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت.

هكذا قالوا، هذه أركان الإيمان خمس آمن بها، وخمس عملنا بها وخمس تخلقنا بها، شوف صار في عقيدة، وفي عبادة، وفي معاملة وفي خلق.

وخمس تخلقنا بها في الجاهلية ونحن عليها إلى الآن فإن كرهتها تركناها، فقال اذكروا ما عندكم: قالوا أما خمس الإيمان هي أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، وأما خمس العمل فهي أن نشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن نقيم الصلاة ونؤتي الزكاة ونصوم رمضان ونحج البيت إن استطعنا إليه سبيلا.

ما في شك، أركان الإيمان، وأركان الإسلام خمس آمنوا بها وخمس عملوا بها.

قالوا وأما خمس الجاهلية فهي: الشكر عند الرخاء.

يا ترى إذا أنت استيقظت صحيح الجسم، عطب ما في بالقلب بالكلاوي، بالشرايين، بالضغط، بالأعصاب بالعضلات، بالمعدة، جهة الجسم سليمة، لك مأوى، زوجتك وأولادك بخير، عندك قوت يومك صحيح ونشيط، والله عز وجل هداك إلى بابه، ومستقيم على أمره، هل تذوب شكراً لله عز وجل، أما تقول يا أخي ما في شغل، ما في بيع وشراء، سوق مسموم، ما عم نستفتح، فكل إنسان يتبرم يكون الله عز وجل أكرمه إكرام كبير لسبب طارئ أو عارض أخر عنه شيء يتبرم هذا ليس أهلاً أن يكون في هذا المقام.

قال: الشكر عند الرخاء.

في الرخاء شكوراً، الإنسان دائماً وهذه نصيحة لكل أخ، إذا كان حب يعمل حسابات يعدد ما عنده، لا ما يفقده، المتشائم واللئيم والكفور والجحود والأناني والمادي واليائس والقنوط دائماً شو ناقصة، دائماً يفتقد أشياء كثيرة، أما المؤمن شو عنده، ماذا عنده، نعمة الهدى فوق كل نعمة.

سيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبة، قال: الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني ـ دينك سليم، تنك، حديد، كله يتعوض، لكن الدين سليم، ما خرقت الاستقامة، ما وقعت في المعاصي، ما فعلت المنكرات، واحد ما شرب الخمر الحمد لله، ما زنى، ما سرق.

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ)

(سورة النساء: 31)

وغض بصره كمان، وحرر دخله، النبي عليه الصلاة والسلام يعني علمنا أن نشكر عند الرخاء، هناك نعمة الهدى ولا تعدلها نعمة وهناك نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد ونعمة الإرشاد، هناك الهدى العام الله جعل لك حواس، سبح إنسان بمسبح عام أصابته جرثومة في عصبه السمعي، قال له الطبيب أشهر طبيب قال له مرضك نادر جداً 100ألف إنسان، إنسان واحد يصاب بهذا المرض، وأغلب الظن أنك سوف تفقد سمعك نهائياً، شاب في مقتبل الأمر، دخل على والدته ورمى نفسه على الأرض وصار يبحث، قال لها صرت أطرش، السمع نعمة كبيرة كثير التكلم النطق، العينين، الدعاء الشهير، ومتعنا اللهم بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، هذا الدعاء الشهير، أذكر أن والدته قالت له: لما تألم الألم الشديد، قال لها والله إذا الله يشفيني لأدفع خمسين ألف، القصة قديمة، قالت له: لا الآن أدفع، يعني هو حالة ميسورة المادية، رأساً وزعه على أشخاص يعرفهم محتاجين من أقربائه الله عز وجل نجاه، والنبي قال: داووا مرضاكم بالصدقات، شو الصدقة استرضاء لله عز وجل الله يسترض، وهذه خذوها قاعدة، إذا وقعت مشكلة هيك شبح مشكلة، مرض شخص منافس له عما يضايقه، ويضيق عليه، شخص أعلى منه عما يضايقه كثير، وما له أحد ضعيف، ما له إنسان يعينه، ما له إلا الله عز وجل، الله أقوى شيء الله عز وجل، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، هؤلاء أعداء الدين بقلك الدعاء سلاح الضعفاء، غلطان، أقوى سلاح وأمضى سلاح، لأنك بالدعاء تستعين بخالق الكون، كل خصومك بيده، قد يلقي في قلبهم الرعب، قد يصرفهم عنك، قد يوهمهم أشياء أنت لست فيها، فإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله.

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79))

(سورة النمل: 79)

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139))

(سورة آل عمران: 139)

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج: 38)

عبدي المؤمن أحب إلي من بعض ملائكتي، لو يعلموا المعرضون انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لتقطعت أوصالهم من حبي ولماتوا شوقاً إلي، هذه إرادتي بالمعرضين، فكيف إرادتي بالمقبلين.

الآية الكريمة:

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44))

(سورة طه: 43 - 44)

قال يا رب: إذا كانت هذه رحمتك لمن قال: أنا ربكم الأعلى فكيف رحمتك بمن قال: سبحان ربي الأعلى. الذي قال أنا ربكم الأعلى قال:

((اذهبا إلى فرعون إنه طغى، فقولا له قولا لينا))

" إذا كانت هذه رحمتك بمن قال: أنا ربكم الأعلى، فكيف رحمتك بمن قال سبحان ربي الأعلى، وإذا كانت هذه رحمتك بمن قال: ما أرى لكم من إلهاً غيري فكيف رحمتك لمن قال أشهد أن لا إله إلا الله.

قال: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء.

الدنيا دار ابتلاء، دار امتحان، لا بد من أن تمتحن، يا رب هل أنت راض عني، فقال الإمام الشافعي لمن وراءه، إنسان يطوف بالحرم قال له: وهل رضيت عنه حتى يرضى عنك، قال: وكيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه، قال له: إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله، كلمة صريحة مختصرة، كل واحد منا على الرخاء يا رب لك الحمد، القضية سهلة جداً، الدلال سهل ما في مشكلة، لكن أن يأتيك القضاء المر، أن يأتيك قضاء مكروه، أن يأتي شيءٌ على خلاف مرادك، على خلاف رغبتك، على خلاف سجيتك، وتقول الحمد لله معناها أنت عالم، تماماً كطبيب الأسنان، إذا جلس طفل على الكرسي يبكي، ويمسك يده، يصرخ ويصرخ، أيام يتكلم كلمات كبيرة، يجلس واحد كبير ساكت، الألم واحد، الكبير واعي، رأى أن هذا لمصلحته فكلما ازددت معرفة بالله عز وجل ترى أن يده يد رحيمة، حكيمة عليمة الأمر كله بيد الله، نعم.

قال: والصبر عند البلاء، والرضى بمر القضاء، والصدق والثبات عند الحرب واللقاء، وترك الشماتة للأعداء.

المؤمن لا يشمت، لأن الإنسان إذا شمت فهو جاهل، لعل الله عز وجل يعافي هذا الذي شمت به ويبتليك، هذا شيء وقع كثيراً، لا تشمت بأخيك فيافيه الله ويبتليك، والذنب شئم على غير صاحبه، إن تكلم فقد اغتابه، وإن رضي به فقد شاركه بالإثم، وأن عيره ابتلي فالإنسان لا يشمت، اللهم لا شماتة هي قاعدة.

النبي عليه الصلاة والسلام سر بهذا الكلام سروراً عظيماً، قال ومن عظم سرور النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهم وبإيمانهم النقي وفطرتهم السليمة قال لهم:

أنتم حكماء، علماء، فقهاء، كدتم أن تكونوا أنبياء، وأنا أزيدكم خمساً ليتم لكم عشرون ـ داخلين إلى عندي بخمسة عشر، أذهبوا بعشرين خمس أمنا بها، وخمس عملنا بها، وخمس تخلقنا بها، قال وأنا أزيدكم خمساً: ليتم لكم عشرون.

إن كنتم كم تقولون فلا تجمعوا ما لا تأكلون.

يعني الإنسان أحياناً يكون له عمر محدود عند الله عز وجل يجمع أموالاً طائلة، لا يستطيع أن ينفقها لا هو ولا أولاده، فإن كانت من حلال فقد ضيع عمره سدى، وإن كانت من حرام فقد وقع في الإثم، لهذا قال النبي: خذ من الدنيا ما شئت، وخذ بقدرها هماً.

فقال إن كنتم كم تقولون: فلا تجمعوا ما لا تأكلون.

يعني الدنيا ساعة أجعلها طاعة، والنفس طماعة عودها القناعة الدنيا إذا حلت أوحلت، وإذا جلت أوجلت، نعم في مجموعة كلمات بهذا المعنى، يعني القبر صندوق العمل والدنيا ساعة اجعلها طاعة.

قال: ولا تبنوا ما لا تسكنون،

الوجه الثاني للشريط.

المشكلة طلعت على الفاضي كلها، بتلاقي دعوة طويلة بعدين شوف لموت أحد الطرفين، كثير في دعاوي تنتهي بموت أحد الطرفين الجلسة بعد جمعة مات البارحة، انتهت، لوفاة أحد المتقاضيين، فالحياة قصيرة، يعني ليست مستأهلة، النفس الطويل بالخصوم، والآمال الكبيرة والنبي عليه الصلاة والسلام رسم مستطيل ورسم خط على الرمل، مرره من داخل المستطيل وأخرجه منه فقال: هذا عمر الإنسان وهذا أمله الأمل يتجاوز أيام العمر، القصة تعرفونها قلتها كثير لأخوانا، بس فيها فائدة والله.

مرة كنت في التعليم وفي مدير وفي مودة وفي صداقة بيني وبينه دخلت لعنده في الإدارة، كان في عندي ساعة فراغ، عما يحدثني قال: أنا ضاق خلقي من التعليم، ناوي أن أقدم طلب إعارة للجزائر قلت خير إن شاء الله، قال: مليت، قال لي: بدي تم خمس سنوات خير إن شاء الله قال لي: أول سنة بدي زور فرنسا، أنا ما بدي زورها بسرعة بدي أتملا من مساحتها، من مقاصفها، من فنونها، من كذا، قال لي ثاني صيفه أزور انجلترا، الثالثة إيطاليا، عدد لي خمس بلاد، وقال لي برجع، والله هذا كلامه حرفياً، بتقاعد بفتح محل هدايا، كريستال أشياء، بجيب أولادي بحطون بالمحل، بعمل المحل مثل ندوة إلي يعني صفنت أن هذا المشروع مداه طويل يعني عشرة أو أثنى عشرة سنة أو أكثر، يعني عامل ترتيب لخمسة عشرة سنة، طلعت على البيت تغذيت وانزلت في شغلة بالشام أنا طالع رأيت نعوته على الجدران، والله بنفس اليوم والله، انظر أين أمله ماشي.

قاعد مرة بمكان بدائرة اثنان تحدثوا قال له يا أخي هلكنا بالشوفاج تبعه، يظهر اثنان أصحاب مصالح، قال له هلكنا، حيرنا ساعة بدو الشوفاج تحت البلاط، ساعة خارجي، الناس كمان شككوه تحت البلاط بخاف يتعطل، كسر البلاط، ما في منه البلاط، وخارجي البلاط مبهدل قال له والله صار له ستة أشهر هلكنا فيه، بعدي بعد جهد جهيد نصحوه يساويه تحت البلاط، وبعد عشرين سنة بس يتعطل، لا تكسر البلاط ممده خارجي ساعتها، طلعت هيك لعشرين سنة قادمة، كثير في حالات بعد ساعتين مات، بعد جمعة مات، ويلي توفى أخو وترك له خمس أولاد وجاء يبكي تركوهم أنا فقير، قال ما خلف لهم شيء قال خلف شي يكفيهم سنة، قال عال، أنفق الأموال بس ينتهوا ساعتها أبكي، بكير على البكاء قالوا أنه مات بعد سبعة أشهر .

إن كنتم كم تقولون فلا تجمعون ولا تأكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون ولا تتنافسوا في شيءٍ أنتم عنه غداً زائلون واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون وارغبوا فيما أنتم عليه تقدمون، وفيه تخلدون. أنا أعتقد الجنازة وحدها تكفي، لاقيت جنازة ماشية، ماذا بدخلها بداخلها إنسان، إنسان مثلنا، وعنده كان دفتر أعمال، قوائم وهي شطبها وهي لا شطبها، وعنده هموم وآمال، وعنده طموحات، وعنده رغبات وين الآن تركها وغادر، الإنسان بس يموت خصوصياته يفتحوها له، ما عاد في شيء مخبئ، فالبطولة والذكاء أن تعد لهذا اليوم عدته، البطولة والذكاء، البطل، ليس من يقطع الطرق بطلاً، إنما من يتقي الله البطل أعيد على أسماعكم هذا الحديث قراءة.

قال سويد الأزدي وفدت سابع سبعة من قومي على رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما دخلنا عليه، وكلمناه أعجبه ما رأى من سمتنا وزينا، فقال من أنتم: فقلنا مؤمنون، فقال: إن لكل قول حقيقة، فما حقيقة قولكم، وصدق إيمانكم، فقلنا خمسة عشرة خلصة، خمس آمن بها وخمس عملنا بها، وخمس تخلقنا بها في الجاهلية، ونحن عليها للآن فإن كرهتها تركناها، فقال عليه الصلاة والسلام: فاذكروا ما عندكم فقالوا: أما الخمس الإيمان فهي: أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، وأما خمس العمل فهي: أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله، وأن نقيم الصلاة ونؤتي الزكاة ونصوم رمضان ونحج البيت إن استطعنا إليه سبيلا، وأما خمس الجاهلية فهي الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضى بمر القضاء، والصدق والثبات عند الحرب واللقاء، وترك الشماتة بالأعداء.

ومن عظم سرور النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهم وبأيمانهم النقي وفطرتهم السليمة، قال لهم: أنتم حكماء علماء فقهاء، كدتم أن تكونوا أنبياء، وأنا أزيدكم خمساً ليتم لكم عشرون، إن كنتم كما تقولون، فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا في شيءٍ أنتم عنه غدا زائلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون، وعليه تعرضون وارغبوا فيما أنتم عليه تقدمون، وفيه تخلدون.

قال الإمام الشبلي: قرأ 400حديثاً لرسول الله فوجد فيها حديثاً واحداً يغنيه عن علم الأولين والآخرين، هذا الحديث يقول:

أعمل لدنياك بقدر بقائك فيها، وأعمل لأخرتك بقدر مقامك فيها واتقي النار بقدر صبرك عليها، واتقي الله بقدر حاجتك إليه.

كل كيانك بالله، أنت محتاجة، في كل أعضائك وأجهزتك، وفي علاقاتك الداخلية والخارجية، وفي كسب الرزق.

اعمل لله بدر حاجتك إليه، و اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، واعمل للآخرة بقدر مقامك فيها، واتقي النار بقدر صبرك عليها.

الآن قضية متعلقة بالمرأة يعني سؤال طرح، هذا السؤال نصه كما يلي:

جاء بنهج البلاغة عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قوله: المرأة شر كلها ـ لا تستغربوا طول بالكم ـ وشر ما فيها أنه لا بد منها، فما تفسيركم لهذا القول، وهل هذا يمثل موقف الإسلام من المرأة أرجو الإيضاح والبيان وشكراً.

سؤال ورد لأحد العلماء، أعجبتني الإجابة ورأيت أن في هذه الإجابة خيراً كثيراً أول جواب:

ما الذي يمثل موقف الإسلام من أي قضية، أي قضية، من موضوع المرأة، من موضوع الزواج، موضوع الطلاق، موضوع كسب المال، موضوع إنفاق المال، أي شيء يمثل موقف الإسلام من أية قضية من يجبني عن هذا السؤال ؟ العمل الصالح، ما رأي الإسلام في هذا الموضوع ؟ ما الذي يمثل الإسلام في هذا الموضوع ؟ حتى نأخذ رأيه ؟ شرع الله، مصلحة، القرآن والسنة، نستقي ديننا من الكتاب والسنة، أبداً لا نستطيع أن نفهم شيئاً عن قضية ما إلا من خلال الكتاب والسنة، نحن قلنا سابقاً القرآن الكريم، ما في معنى حركة واحدة، أو نشاط واحد وهو أن نفهمه، لأنه قطعي الثبوت، أن نفهمه كما أراد الله عز وجل، أما الحديث الشريف، أمامنا شيئان أن نصححه، وأن نفهمه كما أراد رسول الله، التصحيح لعله موضوع، لعله ضعيف، الآن النقطة الدقيقة جداً، أما شيء آخر غير الكتاب والسنة يجب أن نصححه أولاً، وأن نفهمه، وأن نقيمه بالكتاب والسنة، فكل إنسان يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذه القبة الخضراء.

فمثلاً هذا القول، نحن قبل أن نقول ما له حق يحكي هيك سيدنا علي، لا في شغلة قبل منها ما هي ؟ قبل أن نتهم هذا الإمام العظيم، هذا الصحابي الجليل، ابن عم رسول الله، الذي قال عنه النبي أنا مدينة العلم وعلي بابها، قبل أن نتهم هذا الصحابي ماذا نفعل ؟ نبحث لعل هذا القول ليس له، لذلك أول جواب الذي يمثل موقف الإسلام من قضية ما هو الكتاب والسنة الصحيحة فقط، وأما قول الإمام علي، أول شيء يجب أن نبحث في صحة نسب هذا القول إليه، في نهج البلاغة أشياء كثيرة مضافة عليه، طيب،

الآن لو أنه صح أن هذا الكلام قاله سيدنا علي ماذا نفعل ؟ ليس مشرعاً، إذا صح أن هذا الكلام كلامه، إذا صح لدينا بالسند المتصل أن هذا الكلام كلامه نقول عندئذٍ ليس مشرعاً، أما الأكمل من ذلك أن يكون هذا الكلام منحولاً عليه.

الآن يلي عنده ميزان صحيح، ماذا قال الله عز وجل، في القرآن والسنة، القرآن والسنة مقياسان دقيقان، قال:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

(سورة النساء: 1)

المرأة كالرجل من نفس واحدة، لها مشاعر، ولها عواطف وتؤمن، وتتقي، وتعبد الله عز وجل، وترقى عند الله، وتدخل الجنة.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً)

(سورة النساء: 1)

المرأة كالرجل، تماماً، في التكليف، وفي التشريف، وفي الحساب، وفي التكريم، وفي دخول الجنة، وفي الرقي عند الله عز وجل هذا كلام ربنا عز وجل، آية ثانية:

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً(35))

(سورة الأحزاب: 35)

ماذا أراد الله عز وجل من هذه الاثنيين بهذه الآية ؟ لو أن الله عز وجل قال إن المسلمين والمؤمنين والقانتين والخاشعين والمتصدقين والصائمين والحافظين فروجهم والذاكرين الله كثيراً، لكان المعنى والذاكرات، إذا خاطبت الذكور فالإناث مشمولون في الذكور.

باللغة العربية، إذا دخل إلى الصف تسعة وثلاثون طالبة ودخل معهم طالب نقول دخل الطلاب، هيك باللغة العربية، فإذا خاطب الله الذكور فالإناث مشمولون بالتغليب، إذاً لما ربنا عز وجل ذكر المؤمن والمؤمنة، والقانت والقانتة، والصادق والصادقة، والصابر والصابرة والخاشع والخاشعة، والمتصدق والمتصدقة، والصائم والصائمة، والحافظ لفرجه والحافظة، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات، معنى ذلك النساء كالرجال تماماً، قد تعرف الله، وقد تفنى في محبته، رابعة العدوية السيدة رابعة.

فليتك تحلو والحياة مـريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بين وبينك عامر وبين وبين العالمين خـــراب

دليل ثالث:

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى)

(سورة آل عمران: 195)

واحد، دليل خامس:

(هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ)

(سورة البقرة: 187)

في تكامل، دليل سادس:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم: 21)

دليل سابع:

قال عليه الصلاة والسلام: إنما النساء شقائق الرجال.

مرأة، كائن له عقل، عواطف، ممكن يعشق الله عز وجل ممكن تلاقي عما يقدم خدمات للمجتمع مذهلة، ممكن يربي أولاد، يدفعهم للمجتمع أطهار طيبين، يعرفون الله صادقين مخلصين، إنما النساء شائق الرجال، دليل ثامن:

الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة.

دليل تاسع:

من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح.

ودليل عاشر:

من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه، فليتقي الله في الشطر الآخر.

دليل حادي عشر:

أربع من أوتيهن فقد أوتي خير الدنيا والآخرة منها زوجة صالحة لا تبغيه حبواً في نفسها وماله.

فمعقول يكون كلام سيدنا علي الإمام العظيم، أنا مدينة العلم وعلي بابها، يقول المرأة شر كلها، وشر ما فيها أنه لا بد منها، طيب سوف نسأله سؤال لسيدنا علي، ما قولك في زوجتك السيدة فاطمة، هل هي شر كلها، سيدة نساء العالمين، فاطمة بضعة مني، من أحبها فقد أحبني ومن أبغضها فقد أبغضني، حينما جاءته فاطمة ضمها وشمها وقال: ريحانة أشمها وعلى الله رزقها ،

يا أخوان المؤمن فقيه، في معه مقاييس دقيقة يقيس بهما الأقوال التي ليست ثابتة، هذا القول يقوله عامة الناس، بقلك المرأة شر كلها وشر ما فيها أنه لا بد منها، ما عندك أولاد، تحبهم كروحك، من جاء بهذه الأولاد ؟ زوجتك.

أما في نقطة مهمة، النقطة النبي عليه الصلاة والسلام يقول: ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء، الحديث رائع جداً قال: إن إبليس طلاع رصاد، وما هو من فخوخه، شو معنى فخوخ جمع فخ، مصيدة يعني، عنده كثير مصايد إبليس، وما هو من فخوخه بأوثق لصيده في الرجال من النساء، عنده خمسين ستين فخ إبليس، فخ الحسابات، بقلك ضيف صفر، ضيف خانة بالمصاريف، بقل الربح على شريك، الحسابات فخ هذا، وكسب المال فخ، وإنفاق المال فخ، في أشياء كثيرة، أما الفخ المتين هو المرأة، إن إبليس طلاع رصاد وما هو من فخوخه بأوثق لصيده في الرجال من النساء، لهذا النبي يقول: ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء، نقطة ضعف بالإنسان فإذا تساهل واختلط، وأنس بحديثهن، وخرق حدود الشرع قد ينتهي.

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ)

(سورة التغابن: 15)

والمرأة فتنة، فإذا اتقيت الله بها وجعلتها زوجة طاهرة عفيفة سعدت بها، فإذا أغوتك سقطت وسقط معها، لذلك إذا كان في تعليق على القول النبي عليه الصلاة والسلام حذر الرجال من فتنة النساء، لهذا جاء غض البصر، وجاء ترك المصافحة، وعدم الاختلاط، وعدم الخلوة عدم الخلوة والمصافحة والاختلاط وغض البصر، هذه كلها تدابير احترازية من الزنى، كل هذه التدابير تجعل بينك وبين الزنى هامشاً هامش آمان.

فالذي أحببته من هذه الفتوى، إذا الإنسان سمع شيء مخالف للكتاب والسنة لا يقبله، في عندك مقياس أنت، معك مقياس دقيق، مقياس أصولي، أم كل ما حكوا الناس قضية بنحكيها، أخ سبحان الله، الله خلق الناس للعذاب، لكن ربنا لم يقول هكذا قال:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: 119)

العذاب ليس مقصوداً لذاته، لذلك القضية في هذا الموضوع أن المؤمن وقاف عند كتاب الله، عشرة أدلة من الكتاب والسنة، تؤكد أن المرأة خير كلها، وخير ما فيها أنه لا بد منها، يصح القول هذا. السيدة عائشة، سألت النبي عليه الصلاة والسلام كيف حبك لي قال كعقدة الحبل، فكانت تقول له من حين لآخر، كيف العقدة ؟ يقول على حالها، كان زوج ناجح اللهم صل عليه، كان إذا دخل بيته بساماً

ضحاكاً كان في علاقات طيبة جداً مع زوجاته، فالإنسان إذا سعد في بيته سعد خارج البيت، فالمرأة خير كلها وخير ما فيها أنه لا بد منها.

أقول هذا مؤكداً أنك إذا بعت شيئاً ديناً ثم اشتريته نقداً بسعر أقل واحتلت حيلة شرعية من أجل أن تأكل الربا، يعني تنكة زيت يأتيك شخص بقلك هذه كم حقها ؟ تقول له هذه حقها 1500 ليرة ديناً، بقلك أعطينها، ما حملها، خلاها بمحلها، قيدها علي، على أبو فلان 1500 ليرة تنكة زيت، بعدين قال اشتريها مني، بقول نعم، قديش، 1200 ليرة، أعطيني، بعطيه 1200 ليرة، التنكة ما في غيرها، يبعها ويشتريها بالنهار مئة مرة، هذا البيع سماه العلماء بيع العينة، بيع حرام هذا ربا على صورة بيع، هذا مرابي الإنسان، يبع التنكة بـ 1500 ليرة ديناً، وهي هي، في مكانها يشتريها 1200 ليرة نقداً والفرق هو الربا والفائدة، ربنا عز وجل لا يعرف أنك تحتال عليه، للدرجة جاهل أنت خالق هذا الكون الذي يعرف السر وأخفى، يعرف الظاهر والباطن يخفى عليه هذه الحيلة الشرعية، قال لي بعض أخوتي أن هناك أناس يفعلون هذا تجار، يبيع ويشتري هذه التنكة على شكل يقرض الناس بالربا والمظهر بيع وشراء، وهذا حراماً بإجماع العلماء ومن دون استثناء وليست هذه قضية خلافية.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (020) :الابتلاء1 .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-03-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم:

محور الأحاديث في هذا اليوم حول البلاء، وكللكم يعلم أن الله سبحانه وتعالى في نص القرآن الكريم وفي آية محكمة، قطعية الدلالة يقول:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

(سورة الملك: 2)

الإنسان متى يتألم ؟ أو متى يشقى ؟ إذا لم يعرف حقيقة الدنيا، ولم يعرف حقيقة نفسه، فإن ظن أن الدنيا دار استقرار، دار قرار، دار نعيم دار جزاء، يفاجئ، يصاب بخيبة أمل، وما من شعورٍ أمض في النفس من خيبة الأمل، المؤمن في ضوء القرآن والسنة يملك السنن التي سنها الله في القرآن، ففي ضوء السنن يفهم الحوادث، الحادث وقع البطولة لا في أنه وقع أو لم يقع لا وقع، ولكن البطولة في تفسير ما وقع، فأحياناً ينصب التفكير كله، وينصب الاهتمام كله على هذه الدنيا فإذا فجع فيها المؤمن بماله، أو بأهله، أو بمكانته، يتألم ألماً شديداً، فكلما اقترب المؤمن من روح القرآن، كلما اقترب المؤمن من فهم حكمة الوجود وحقيقة الحياة الدنيا، وحقيقة الإنسان أمكنه أن يواجه الأحداث المؤلمة بتفسير صحيح، هو أقرب إلى الرضا والاستسلام.

أولاً قبل أن نقرأ بعض الأحاديث المتعلقة بالابتلاء، في بالإسلام مفهوم إن شئت أن تسميه مفهوماً، أو في بالإسلام مقام إن أن تسميه مقاماً أو في بالإسلام مركز خطير جداً ألا وهو العبودية، ما العبودية ؟ أي أنك عبدٌ لله عز وجل، فقير، جاهل، ضعيف، وأن الله سبحانه وتعالى هو الغني، وهو القوي، وهو العليم، فكلما تحققت بعبوديتك لله عز وجل كلما عرفة الله أكثر، وكلما أمكن أن تلقي على الأحداث ضوء كاشفاً، هذه مقدمة.

أولاً: الإنسان إذا كان شريكاً يناقش شريكه، إذا كان نداً يناقش نده أما إذا كان عبداً ضعيفاً وقد ائتمر بما أمر وانتهى عما عنه نهي ورب العالمين اختار هذا، الشيء قبل أن يقع لك أن تتلاف وقوعه، لك أن تحرص على ألا يقع، لك أن تسهم في دفعه، لك أن تقف، لك أن تعمل لك أن تسعى، ولكن الشيء لمجرد أنه قد وقع ففي علم التوحيد أراده الله عز وجل، أن لعبد ضعيف، أن لعبد جاهل، أن لعبد قاصر الإدراك أن لعبد حادث، أن لعبد مفتقر أن يكشف حقائق الأشياء، الله عز وجل في قرآن كريم ذكر آية واحدة، قال:

(وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (216))

(سورة البقرة: 216)

لا أعتقد في أخ من الأخوان الحاضرين إلا بحياته مجموعة حوادث حينما وقع الحادث كان مؤلماً جداً، حينما وقع الحادث كان مدعاة للحزن والألم، وبعد أن انجلى الحدث، وبعد أن مضى عليه ردح من الزمن تكشف الخير الكامن في هذا الشر، الشيء الذي أتمناه من كل قلبي أن يكون واضحاً عندكم هو أنه لا شر في الكون بمعنى الشر المطلق المراد بذاته، مادام هناك إله موجود واجب الوجود، واحد في ذاته، وفي أفعاله وفي صفاته، مادام هذا الإله له أسماء حسنة وصفات فضلى، إذاً ليس في كونه شر مطلق إطلاقاً، أبداً، هذه حقيقة سماعها سهل، وألقاها سهل لكن التحقق منها يحتاج إلى جهد كبير، يحتاج إلى سعي حثيث، إلى بحث دقيق، إلى إيمان مكين، قد ترى الشرور بعضها فوق بعض، قد ترى الظلمات بعضها فوق بعض، قد ترى أن هذا الأمر، أن هذا الزلازل أطاح بخمسين ألف إنسان، أصبحوا تحت الأنقاض، تحت الأنقاض أطفال ونساء، أن هذا الفيضان أتلف المحاصيل، أن هذه الجائحة أذهبت نفوساً بريئة، يجب أن تؤمن من خلال تأملاتك العميقة والدقيقة في الكون، من خلال رؤيتك للأسماء الله الحسنة، أن الشر المطلق لا وجود له في الكون إطلاقاً، الشر بالنفوس موجود، نية المؤمن خير من عمله، ونية الكافر شر من عمله، لو شققت على صدر كافر لرأيت فيه من الشر وحب الأذى وحب أن يعيش وحده، وأن يعيش على أنقاض الناس كلهم، وأن يبني مجده على حطامهم، وأن يبني غناه على فقرهم، لرأيت الشيء الكثير ولكن ما دام الله موجوداً فبيده كل أمر.

النبي عليه الصلاة والسلام في صلح الحديبية وقع صلحاً مع مشركي مكة هذا الصلح في ظاهره مهين، هذا الصلح ما رضي به سيدنا عمر قال علامَ نعطي الدنيا في ديننا، سيدنا الصديق قال ألم تؤمن أنه رسول الله، قال بلا، قال الزم حرزه.

يعني مر في التاريخ الإسلامي، طبعاً مع فارق كبير جداً مر أشياء في ظاهرها مزعج مؤلم، ولكن في حقيقتها مسعدة، إذاً

((" وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون))

" العبودية لله عز وجل أن تستلم له، أن تستسلم لمشيئته، أن ترضى بقضائه، أو تفوض له، أن تعطي الرضى لحكمه هذه هي المشيئة، أساس هذا التسليم وذاك الرضى أن تعرف أن هذه الحياة الدنيا حياة قصيرة جداً أعدت لحياة أبدية، فمن السهل على الله عز وجل أن يضحي بها من أجل حياة أبدية، من السهل على الله عز وجل أن هذه يجعل الحياة الدنيا مشحونة بالمتاعب، والمصائب من أجل أن تزكو النفس.

لذلك لما دخل النبي عليه الصلاة والسلام على بعض أصحابه وكان مريضاً فقال هذا الصحابي الجليل يا رسول الله ادع الله أن يرحمني فقال: يا ربي ارحمه، فقال الله عز وجل فيما روى عنه النبي: يا عبدي كيف أرحمه مما أنا به أرحمه، وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه وعلى هذا فقس، فأنت إن لم تستلم ففي العبودية ضعف.

النبي عليه الصلاة والسلام في الإسراء والمعراج بلغ أعلى مكانة ومقام يبلغه إنسان في الكون، إنه مقام العبودية أن ترى أنك لا شيء، وأن الله كل شيء، أن ترى حكمته ورحمته وعدله وإنصافه، وأن ترى قدرته أن ترى أسمائه في أفعاله، فإذا رأيت في أفعاله شيئاً يناقض أسمائه إذاً لا بد من جهد جهيد، ومن بحث دقيق حتى نبلغ هذا المستوى الرفيع.

الآن إلى بعض الأحاديث الشريفة المتعقلة بالبلاء يقول النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه الإمام أحمد في مسنده: إن الله عز وجل يبتلي عبده بما أعطاه، انظر إلى دقت البلاء، أنت ماذا أعطاك الله، أعطى فلان أمناً مالك ملاحق، في بحبوحة، نعمة الأمن هذه كيف تستهلكها ؟ في لعب النرد ؟ في الاسترخاء ؟ في التمطي ؟ في الحديث عن الناس، أم تستهلك نعمة الأمن في معرفة الله وفي العمل الصالح، أعطاك المال هذا المال شيء نفيس جداً، هو قوام الحياة، كيف تنفقه ؟ تنفقه في الترف والبذخ أم تنفقه في إسعاد الآخرين، في مواساتهم، في مسح جراحهم إن الله عز وجل يبتلي عبده بما أعطاه، أعطاك صحةً، أعطاك مالاً سلبك شيئاً أعطاك دخلاً محدوداً قليلاً، أعطاك زوجة دون المستوى المطلوب أعطاك حرفة متعبة، أسكنك في بيت صغير، إن الله عز وجل يبتلي عبده فيما أعطاه، فمن رضي بما قسم الله له بارك الله فيه ووسعه، ومن لم يرض لم يبارك له، من رضي، أنت متى ترضى ؟ إذا رأيت أن يد الله هي المتصرفة، الذي يرضى بقضاء الله، الذي يرضى بنصيبه من الله عز وجل، لك شكل معين، لك قوام معين، لك صحة معينة، لك أعضاء معينة، لك أجهزة معينة، لك بيت، لك أهل، لك أولاد، لك عمل، لك دخل، هذه سميت حظوظ، حظوظك من الدنيا هل أنت راضٍ عنها راضي عن أنه أنت ابن فلان، جئت في هذا العصر، في هذه البلدة، في مدينة، في قرية، من أبوين غنيين، من أبوين فقيرين، في بالجسم بعض العلل الولادية، في ضعف عام، في نشاط، جئت بقدر عال من الذكاء بذكاء متوسط، هل أنت راضٍ بما قسمه الله لك، من الذي يرضى ؟ الذي يعرف أسماء الله الحسنى، يعرف أن كل ما وقع أراده الله، وأن حكمة وعلماً وقدرةً وغنىً ورحمةً ولطفاً دخل في هذا التقدير.

إذاً أول حديث: إن الله عز وجل يبتلي عبده بما أعطاه، فمن رضي بما قسم الله له بارك الله فيه ووسعه، يعني زوجة حينما خطبتها رأيتها دون المستوى المطلوب لكن قلت الحمد لله هذا نصيبي أنا

راضٍ به يا ربي هذه هديتك إلي، هذه الزوجة التي تصورها الزوج أنها دون المستوى المطلوب سوف تسعده، سوف تسعده بأخلاقها ووفائها وإخلاصها ودينها وعفافها وورعها، تنجب له أولاداً أبراراً، هذه الزوجة التي لم ترض بها من قبل كل الخير كان كامناً فيها، وقد يكون لك دخل محدود ولكن الله عز وجل متعك أنت وأهلك وأولادك إلى عمر مديد بصحتك، مادام ما في أمراض وبيلة وألهمك الحكمة في إنفاق هذا الدخل، في آية كريمة قرأت عنها كتاباً ألف كتاب في تفسير آية واحدة، هذه الآية:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة: 269)

أنت بالحكمة تجعل من الزوجة السيئة زوجة صالحة، وبالحمق تجعل أرقى زوجة أسوء زوجة، بالقسوة والفظاظة والسخرية والتهكم والأنانية، تبتعد عنك شيئاً فشيئاً حتى تقف مواقف قاسية، مواقف لا تبالي بك ولا بمكانتك، ولا بحقوقك عليها، إذاً "ومن يؤت الحكمة" انتبه دقق أن الأنبياء العظام الذين اصطفاهم الله عز وجل من كل الخلق.

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33))

(ورة آل عمران: 33)

ماذا أعطاهم الله عز وجل، العلم والحكمة، فإذا كان نصيبك من العلم والحكمة وافراً فأنت الغني، بالحكمة تسعد في بيتك، تسعد في عملك تسعد في متجرك، بالحكمة تمضي وقتك بشكل غني فرِ، بالحكمة تعرف سر وجودك في الدنيا، بالحكمة تعمل الأعمال الصالحة، إذاً: إن الله عز وجل يبتلي عبده بما أعطاه، فمن رضي بما قسم الله له بارك الله فيه ووسعه.

تجد هذه الزوجة التي كان تردد بقبولها، الذي كان في ضيق كيف تم الأمر ؟ لا حول الله تورطنا مثلاً، أصبحت هذه الزوجة مصدر سعادته وهنائه، هذا البيت، هذا الدخل، هذه الوظيفة، اختار الفرع في الجامعة فإذا بهذا الفرع يعني جعل له أداة طيعة مثلاً للدعوة إلى الله.

إذاً هذا الحديث الأول، فكل واحد له شكل، في طويل وفي قصير في أبيض وفي أسمر، في قوي وفي ضعيف، في وسيم وفي دميم، له دخل، له حرفة، له أهل، هذا حظك من الله، يجب أن تعلم أنه ليس بالإمكان أبدع مما كان، هذا كلام الإمام الغزالي، ليس في الإمكان أبدع مما كان، أقول كلمة دائماً أنه إذا كشف الغطاء قبل الأوان لذاب الإنسان شكراً على أن خصه الله بهذه الحظوظ، يا ربي ليس في الإمكان أبدع مما أعطيتني، مو ليس في إمكانك ؟ لا، حاشا لله، ليس في إمكاني أنا أبدع مما أعطاني ، الواحد يا أخي علامة واحدة كنت سأطلع إلى بعثة راحت مني، علامة واحدة، لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبدٌ حقيقة الإيمان حتى يعلم، أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطائه لم يكن ليصيبه، ارضَ إن رضيت يعني أمنت بوجوده، وأمنت بوحدانيته وأمنت بألوهيته وبربوبيته، أمنت بحكمته، أمنت بعلمه،

أمنت بقدرته، أمنت بغناه أمنت بكماله، إذا رضيت وإن لم ترضى فكأنك شاك في قضائه وقدره كأنك شاك في حكمته.

الحديث الثاني الذي رواه الإمام البخاري:

((من يرد الله به خيراً يصب منه))

يعني عندك ولد فتح باللغة الدارجة ذكي، في متابعة، بل في قسوة بل في محاسبة، بل في حساب عسير، لأنك حينما رأيته نبيهاً ذكياً رسمت له في ذهنك له مستقبلاً عالياً، في ضوء هذا المستقبل تحاسبه أنت حساباً عسيراً، في إنسان يفعل كل المعاصي، يرتكب كل الموبقات، لسانه في الغيبة والنميمة، أعضاءه في المعصية، أشجانه في الفسق والفجور قوته يستعلي بها على الناس، ماله يبدده على ملذاته الرخيصة، ومع لك تراه قوياً، رفيع الشأن، هذا سماه النبي عفريت نفريت، لا يمرض أموره كلها جيدة، مثل الأجانب، ينزلون واقفين دائماً، يا رب ما القصة ؟ القصة سهلة جداً.

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: 44)

متى تشكر المولى على أن جعلك مع أناس مستضعفين، حياتهم كلها مآسي، حينما تأتي يوم القيامة وترى مصير هؤلاء الأذكياء، الأقوياء الذين يوقعون الناس في شباكهم، ويتفوقون عليهم، ترى أنهم في أسفل سافلين.

إذاً: من يرد الله به خيراً يصب منه، وأنا لي مثل مشهور ثلاث أولاد، ولد ذكي ومتفوق، وولد ذكي ومقصر، وولد أبله، فأنت بشكل لا شعوري تدع الأبله وتهمله لا عن عجزٍ ولكن استجابته ضعيفة، وتعتني بهذا الذكي المقصر، وهذا الذكي المتفوق هو وشأنه، صار في معنا قاعدة إذا عصاني من يعرفني صلت عليه من لا يعرفني.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6))

(سورة القصص: 4 - 5 - 6)

هذا قانون إلهي، بالأرض هناك فئتان، فئة لا تعرف الله أبداً وفئة تعرفه لكنها تعصيه، سنة الله في خلقه أن هذه التي لا تعرفه يصلطها على من تعرفه، من أجل أن تعود هذه التي تعرفه إلى رشدها فإن عادت مكنها من التي لا تعرفه، وهكذا.

إذاً: من يريد الله به خيراً يصب منه، في نقطة دقيقة جداً أتمنى على الله عز وجل أن تكون واضحة عندكم، يعني إذا واحد منكم ماله مستقيم أموره ميسرة وفي بحبوحة كل شيء يأتي كما يريد، له أفعال لا

ترضي الله، له أقوال لا ترضي الله، له علاقات، له شبهات، له معاصي وفي إنسان يحاسب نفسه على نظرة، وعلى كلمة، وعلى خاطر، وكل ما غلط تأتيه مصيبة، الذي أراه أن هذا الذي يحاسب حساباً يسيراً هو المحبوب عند الله عز وجل، والدليل إذا أحب الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن شكر اقتناه، إذا أحب الله عبداً عجل له بالعقوبة، غلطة جاء القضيب بسرعة، كان الكتاب في القديم كنا طلاب في معهد تعليمي قديمة القصة، في لوحة زيتية ببهو المعهد لوحة لرسام يصور التعليم القديم شيخ جالس على الأرض، وأمامه الطلاب الصغار يقرؤون عليه العلم ومعه قصبة، هذه القصبة تطول آخر طالب، فلما الطالب يغلط تأتي فوق رأسه رأساً، ما في تعال إلى عندي وما اسمك، ودفترك، رأساً تأتي الضربة، في إنسان تلاقيه ما شي بشكل جيد مستقيم غلط غلطة رأساً مشكلة، إذا كنت تعرف حقيقة افرح لأنك غالٍ على الله عز وجل، لأن الله يعدك لمرتبة راقية، لأن الله يؤهلك لأن تكون من أحبابه، هذه المحاسبة الشديدة، الآن إذا كان أب مسيب أولاده نشئوا بلا علم، نشئوا أولاد أزقة، نشئوا بحالة اجتماعية ذرية، لا مهنة، ولا صنعة، ولا شهادة، ولا حرفة، ومركزهم الاجتماعي متدني، لهم عمل متعب يحتاج 12 ساعة، وأب ثاني ربى الأولاد تربية عالية جداً، حاسبهم على الدقيقة، أنت خرجت الساعة الرابعة الآن الرابعة والثلث، الطريق فقط عشرة دقائق، بابا ما في تعال لهون، على التمام أين وظيفتك، أين دراستك، لماذا لم تأخذ عشرة، كل يوم يجلس معه ساعتين ثلاث يحاسبه على العشرة والتسعة، وليش تأخرت، وأحسنت، وكم عشرة عندك لحتى صار هذا الابن بمركز اجتماعي مرموق، ومكانة كبيرة، ودخل كبير، هذا الابن لما نظر إلى زملاءه المقصرين مصيرهن، وهو بفضل شدة والده متابعته، وقسوة والده، بلغ هذه المرتبة تلاقيه ذاب حباً بوالده إذا واحد يحب الله عز وجل بدو يتحمل شوي، طالبان واحد بمدرسة وواحد من أبناء الأزقة، أحياناً يفتخر ابن الشارع على ابن المدرسة، أنا لا أحد يتكلم معي، أنا لا أحد يضربني، أنا لا أحد يقول لي أين وظيفتك أنا مكيف، أنا أستيقظ الساعة 12 إذا أردت، أن أغيب وآتي الساعة 12 بالليل، لا في مدير جيب وليك، هذا افتخار باطل، أنت خارج المدرسة كلها، أنت خارج العناية المشددة، كلمة عناية مشددة مزعجة ناس يفهمونها لأمراض القلب فقط، أما نحن والله جميعاً في عناية مشددة بالمعنى اللغوي، فأنت لما أمنت بالله عز وجل وطلبت مرضاته، وقف لأقول لك، خمسين علة في بنفسك، هذه أول علة، يضعه ربنا في ظرف معين هالمرض يظهر، يكشف العبد نفسه، أنا أناني لهذه الدرجة، أنا عندي هذه العصبية السريعة، عندي هذا التسرع، ما لي منضبط، يأتي العقاب الإلهي، تلاقي تشطيب، أول مرض خلص، يريحه جمعتين ثلاث لا بعدين تأتيه مشكلة ثانية، يظهر عنده شيء من اللؤم أنت مؤمن ! يبعث له عقاب يتوب منه يريحه جمعتين ثلاث، فكلما المرتبة نزلت يرتاح أكثر كل ما عليت تصبح أوقات الراحة ضيقة شوي، النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، سيد الخلق ومع ذلك قال أوذيت بالله، طبعاً من نوع ثاني وما أوذي أحد مثلي،

وخفت وما خاف أحد مثلي، ومضى علي ثلاثون يوماً لم يدخل جوفي إلا ما يوارى إبط بلال، هذا الحديث مريح جداً من يريد الله به خيراً يصب منه.

ما في أيام الإنسان سبب عودته إلا الله مشكلة كبيرة، كان شارد كان بعيد عن الله، كان مقصر، كان يأكل حقوق الناس، الله بعث له مشكلة كبيرة جداً، هذه المشكلة جعلته على أبواب الله، على أعتاب الله دفعته إلى التوبة، حملته على الطاعة، الله عودك الجميل فقس على ما قد مضى، هذه أيام الله، لذلك ربنا عز وجل قال:

(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ)

(سورة النحل: 126)

الآية في لها معناً دقيق، أنت حينما عاقبك الله عز وجل ما عاقبك انتقاماً، وما عاقبك تشفاً، إنما عاقبك ليردك إليه، إنما عاقبك ليسعدك إنما عاقبك ليهديك، إنما عاقبك ليجعلك تتوب، فأنت إن عاقبت الآخرين لا تنطبق في عقابك من حقد عليهم، لا، عاقبهم من قلب رحيم، عابهم من حرص عليهم، عاقبهم بهدف نبيل

(("وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم"))

الحديث الذي رواه الإمام الترمذي يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن عظم الجزء مع عظم البلاء.))

لو أن جسمه قرض بالمقاريض في سبيل الله، لأن يوم القيامة يرم العطاء، يوم الجزاء، فالذي قاسى في سبيل الله، الذي صبر، الذي قدم الذي تلقى الضربات في سبيل الله، هذا كله عند الله، فلذلك عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله عز وجل إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن صبر فله صبره ومن سخط فله السخط، يعني فرق المؤمن الناجي عن غير المؤمن فرق زمني، تأتي المصيبة، المؤمن يقول لا إله إلا الله لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا العليم الحكيم، لا إله إلا الله الرحمن الرحيم الكلام الدقيق، يعني هذا ليس بفعل فلان، ولا علان، ولا زيد ولا عبيد ولا هذه أفعال لا........ الفاعل الحقيقي هو الله عز وجل، والله أسمائه حسنى، لا إله إلا الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا العليم الحكيم، لا إله إلا الغني القدير هذا من دعاء النبي إذا نزلت مصيبة، إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله عز وجل إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن صبر فله صبره، ومن سخط فله السخط ما معنى إذا أحب الله قوماً ؟ الله عز وجل كما قال العلماء محبته صفة زائدة على رحمته، الأب يرحم كل أولاده، الطائعين والعصاة، إلا أن الابن المتفوق الأخلاقي البار يرحمه بطعام وشراب وكسوة ومصروف ويحبه فالمؤمن لورعه واستقامته وحرصه وخدمة الناس وطاعته لربه عز وجل الله عز وجل يرحمه ويحبه، وحب الله له صفة زائدة على رحمته به.

الآن بقي إما أن تصبر، معنى هذا أنك قد نجحت، وإما أن تسخط معنى ذلك أنك قد غضرسة، ما معنى السخط ؟ يعني يا رب قضائك لم يعجبني يا رب هذه ليست حكمة، لماذا لم تفعل هكذا، معناها أنت شريك له، ما عدت عبداً له، لماذا لم تفعل هكذا، لماذا لم تؤيد هؤلاء على هؤلاء، لماذا هذا ؟ لماذا هذا ؟ لماذا هذا ؟ أنت خرجت من مقام العبودية إلى مقام الألوهية وأنت لا تدري، أنت عبد يجب أن تحترم مشيئة الله عز وجل، ويجب أن تنتظر كيف أن الله يكشف لك عن حكمته، من أدراك أن الذي حدث وراءه خير كبير، بالمدى المنظور غير مرئي بالمدى البعيد قد يكون مرئي.

((ما من مسلم يشاك بشوكة فما فوقها إلا كتب الله له بها حسنة وحط بها عنه خطيئة))

[رواه البخاري]

الواحد كل شيء بقدر ما دام ، وما تسقط من ورقة إلا هو يعلمها إذاً: لا من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم وما يعف الله أكثر، عثرة واحد وقع بسمار طالع من باب خدش يدك لا من عثرة ولا اختلاج عرق، اضرب، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم وما يعف الله أكثر، فإذا كانت شكة دبوس، ما من مسلم يشاك بشوكة فما فوقها خسر ماله كله، فلس، جاء التقرير مرض عضال، يقول لك انهرت، لا ما من مسلم يشاك بشوكة فما فوقها إلا كتب الله له بها حسنة وحط بها عنه خطيئة.

لي صديق طبيب قال لي أعجب ما رأيت مريض يبدو أنه مؤمن إيمان عالي، دخل إلى المستشفى وفي أمعائه ورم خبيث، وآلام هذا الورم في الأمعاء لا تحتمل، يعني قد ما كان مريض وأعصابه قوية يصرخ ويصيح، قال هذا المريض نراه متألماً ألماً شديداً كلما دخلنا عليه يقول للداخل اشهد أنني راضٍ عن الله، الحمد لله يا ربي على ما أنا فيه، أقسم لي هذا الطبيب وهو صادق، قال والله كلما دخلنا طبعاً المرض بالأمعاء وصار في فتح للأمعاء، وأصبح الخروج من جانب البطن يعني أصبح الغائط يخرج من طرف البطن، قال لي لا أحس بهذه الغرفة إلا وفيها ملائكة، فيها روائح طيبة، إذا طلب هذا المريض ممرض أو ممرضة قال لي يتهافتوا على خدمته، يتخانقوا، الأطباء عندهم دائماً قال ثلاث أيام توفي، أما توفي بأحلى حال، قلت سبحان الله واحد مرض خبيث، وهو شاب في ريعان الشباب، لكن إيمانه قوي، قال يا ربي اشهد أنني راضٍ عنك، وراضٍ بقضائك وقدرك، من غرائب الصدف، في المستشفى نفسها، وفي الغرفة نفسها دخل مريض بالمرض نفسه بعد فترة، لكن من أهل الدنيا والإعراض، قال لي ما في نبي ما سبه، سب الدين، صراخ الرائحة الكريهة، قال لي يا لطف كأن أصبحوا هاذين المريضين آية لأهل المستشفى، انظر إلى المؤمن ملائكة، قال النبي الكريم الصبر عند الصدمة الأولى، لكن بعد جمعة ما نفعل ؟ يستوي المؤمن والفاجر بعد جمعة، أما البطولة عند الصدمة

الأولى.

إذاً: ما من مسلم يشاك بشوكة فما فوقها إلا كتب الله له بها حسنة وحط بها عنه خطيئة.

يعني أنت غالي على الله، يعني كرامتك غالية عليه، وصحتك غالية، لكن لما يأخذ منك بعض الصحة فليرفعك، أنا ما في كلمة تؤثر في نفسي كهذا الحديث، إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، حينما تنطلق إلى أن تصفو لك الحياة فأنت واهم، هذه الحياة ركبت على المشكلات لأنها دار ابتلاء، تتوهم أن مثلاً قاعة الصف ستجد فيها مقعد مثل الكرنك مريح على ثلاث حركات، ويصبح تخت مثلاً، وأمامك أنواع المشروبات السندويش والمجلات، والمذياع، هذه قاعة صف ؟ هذه قاعة فندق مكان بفندق هذا، الصف مقعد خشب، والحرارة 12، 18، وما في أي شيء يدعو للرفاه، لو كان مقعد مريح كنت تنام والطلاب كلهم يناموا، إذاً أساس التدريس يكون في نشاط وفي يقظة، وفي خشونة، حتى أرقى الجامعات فيها خشونة، أما الراحة التامة في الجامعة مدعاة للنوم، مدعاة للهو، إن هذه الدنيا دار التواء أساسها، تلاقي دخله كبير ما عنده أولاد عنده عر أولاد كما يقول العوام ما معه شيء، طيب دخله جيد وعنده أولاد الزوجة سيئة جداً، الزوجة جيدة الدخل قليل، الدخل جيد في علتين ثلاث بجسده، بعمله مزعوج، إن هذه الدنيا دار التواء، لا دار استواء ومنزل ترح تلاقيه تزوج فرح بحاله، جاءه ولد حرارته أربعين ركض خمسة أيام ما نام الليل التهاب سحايا معه، تلاقي الأب بوضع مضطرب جداً، هكذا الحياة في أمراض، وفي سؤال، وفي جواب، وفي تعال لعندنا، كل شيء في بالحياة، وفي فقر، وفي أحياناً مواقف صعبة ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها: هنا الآن البطولة، من عرفه دار ابتلاء، ممر دار امتحان، دار عمل، وقت محدود، فمن عرفها فلم يفرح لرخاء لأنه موقت، فمن عرفها لم يحزن لشقاء كمان موقت، لا الرخاء دائم ولا الشقاء دائم، قد جعلها الله دار بلوى، جعلها في أساسها دار ابتلاء وجعل الآخرة دار عقبة، فجعل دار الدنيا لعطاء الآخرة سببا وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي.

حديث قدسي كنت أقوله للناس آلاف المرات، في مرة سبحان الله انتبهت لنقطة فيه كانت غابت عني، قال له يا داوود مرضت فلم تعدني قال كيف أعودك وأنت رب العالمين، قال مرض عبدي فلان فلم تعوده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده، فلما ربنا سحب منك شيء من الصحة هو تجلى عليك برحمته، تلاقي المريض المؤمن قريب من الله كثير، إن زرته ترتاح، لأنه ريب من هذا المرض، الله سلبه شيء من الصحة لكن أعطاه مزيد من التجلي، والطمأنينة، والراحة، أفلا تحب أن يكون الله معك، وأخذ منك شيء، مثل ما تكلم رسول الله.

أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا أنتم برسول الله، هذه كلمة عميقة كثير قسها على نفسك، أما ترضى أن يكون الله راضياً عنك، والناس الأموال والسيارات والبيوت والمزارع والعز

والسلطان، أما ترضى أن يكون الله راضياً عنك وللناس الدنيا كلها سيدنا عمر ألم يرى النبي نائم على الحصير، رسول الله،على حصير وقد أثر الحصير على خده الشريف، وبكى، لم تبكي يا عمر ؟ قال رسول الله ينام على الحصير ، ما تحملها، وكسرى ملك الفرس هذا المجوسي ينام على الحرير، قال يا عمر أما ترضى أن تكون الدنيا لهم والآخرة لنا، هذا في رواية، الرواية الثانية يا عمر إنما هي نبوة وليست ملكاً أنا لست ملك، هذه نبوة، فالنبي متواضع، النبي متقشف، النبي مخلص، النبي محب، فأنت أما ترضى أن يكون الله راضياً عنك أن تكون على الحق، أن تكون مستنيراً، أم تكون طائعاً، أن تكون في رضوان الله، دخلك حلال، أهلك مستقيمين، بيتك إسلامي، أنت ورع حريص على طاعة الله، هذه المشاعر، أن خالق الكون يحبك، وعلى الدنيا السلام، لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء.

في أحاديث نرويها كثيراً، يقولوا شدة القرب حجاب، يقال في علم اللغة الكلمة التي كثر استعمالها فقدت مدلولها، مثلاً يقول قتلته كلمة قتل يعني ذبحه، من كثر ما استعملنها يقول قتلني أستاذ، ما معنى أتلني باللغة الفصحى قتلني، يعني أزهق روحي، هي ليست هكذا من شدة استعمال هذه الكلمة فقدت مدلولها الحقيقي، أحاديث يسمعونها المسلمون كثيراً لكنهم لم يقفوا عندها وقفة متأنية، لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة يعني إذا واحد على يده بعوضة وقتلها ينظر إلى نفسه أنه مجرم قاتل يتحاسب أحد يحاسب، ينظر نفسه فعل غلطة كبيرة ؟ أبداً بأعلى درجات التألق والورع يقتل بعوضة، ما لها قيمة أبداً البعوضة لا على أحد، ولا على مجتمع، ولا على إنسان، وقتلها عمل لا يعني شيء، فما قولك في جناحها، لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء فالمقياس مو مقياس مال وغنى وصحة ومناطق، لا، المقياس أن تعرف الله، وأن تكون في طاعته هذه البطولة.

((قال سعد بن أبي وقاس رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: سألت رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أي الناس أشد بلاء، فقال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان رقيق الدين ابتلي على حسب ذاك، وإن كان صلب الدين ابتلي على حسب ذاك، فما تزال البلايا بالرجل حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة))

[رواه الإمام البخاري]

معناها البلايا عملية تطهير.

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7))

(سورة طه: 7)

في أمراض نفسية تخفى عنك أنت، فربنا يضعك في ظرف صعب هذا المرض يظهر، يأتي العقاب وبعده التوبة بعده الإقبال معناها طهرت أنت، طيب كل جمعة مشكلة، بقلك نضج فلان، صار كلامه فيه

أدب ما عاد كلامه فيه تنطع، فيه تجبر، في تعالي، في شرك، قد ما أكل قتل عرف نفسه، كل كلمة يحكيها زيادة يقول لك أنا، من أنت ؟ تأتي الضربة مثل القصبة، قال أنا أتت الضربة، فأنا ونحن ولي وعندي مهلكات هذه، فكلما شعر أنه أزيحت عنه مشكلة ارتقى عند الله عز وجل أي الناس أشد بلاء، فقال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان رقيق الدين ابتلي على حسب ذاك، وإن كان صلب الدين ابتلي على حسب ذاك، فما تزال البلايا بالرجل حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة.

الدليل: أنت قضيت بالجامع ثلاث سنوات أربع سنوا سنتين خمسة سبعة أثنى عشر، لك مدة أمضيتها، راقب نفسك أول يوم أتيت والآن من تعرف حالك، اجلس مع أناس كانوا أصدقاءك، بتلاقي في فرق كبير جداً، في الحديث، في المنطق، في الأخلاق، في الورع، في الطهارة بتلاقي في له نظرات خبيثة للنساء، عنده مزاح جنسي عندما يتكلم، في عنده أساليب احتيالية، كان رفيقك، وكنت مثله، لكن بعد ما تعرفت إلى الله عز وجل واستقمت على أمره الله رقاك من درجة إلى درجة، كنت تطرب للغناء، كنت ذائب في هذا المغني أو ذاك، الآن تطرب لكتاب الله أصبح لسانك مهذب، نقي طاهر، فأنت تعرف نفسك من أصدقاءك الذين كانوا معك من قبل، و بقوا على اتجاههم، فهذه المتاعب والمشكلات والمصائب والبلايا هذه محصلتها طهارة نفسية محصلتها استقامة محصلتها ورع، محصلتها خوف، فإن كان رقيق الدين ابتلي على حسب ذاك وإن كان صلب الدين ابتلي على حسب ذاك فما تزال البلايا بالرجل حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة.

وفيما رواه الإمام الطبراني: إن العبد لتكون له الدرجة في الجنة فما يبلغها بشيء من عمله فيبتليه الله في البلاء ليبلغ تلك الدرجة.

يعني أحياناً يكون عملك أقل من مرتبتك، لك إمكانيات، عند صدق لك مرتبة عند الله، عملك لا يكفي، أيام الإنسان يقصر بالعمل الصالح هذه يعتذر منها، هذه ما لي فاضي، هذه غيري يعملها، هذه فلان يعملها، كل ما جاءه عمل صالح تنصل منه، هو جيد، قف، تأتيه مشكلة يصبر عليها، إما أن ترقى بالعمل، وإما بالصبر، فأنت اختر أحد الموقفين، قد ترقى بالعمل الصالح، وقد ترقى بالصبر، إن العبد لتكون له الدرجة في الجنة فما يبلغها بشيء من عمله فيبتليه الله بالبلاء ليبلغ تلك الدرجة لذلك البلاء له فلسفة في الدين، جزء أساسي من إيمانك أن تعرف فلسفة البلاء إذا عرفت فلسفة البلاء تلقيته بالصبر بل شكرت الله عليه، بل كان البلاء طريقاً إلى الله عز وجل، أنا لا أبلغ إذا أخذنا ألف مؤمن، تسعة مائة وخمسين مؤمن منهم عرفوا الله عن طريق البلاء، كل أخ له قصة بالمائة عشرة أو خمسة الذين يأتون

الله عز وجل طواعية، بمبادرة شخصية، أما الأكثرية يأتون إلى باب الله عز وجل على أثر مشكلة على أثر دفع، على أثر بلاء، على أثر مصيبة، على أثر نازلة، على كل حال جيد جداً هذا موقف أكرم بكثير من الذي تأتيه المصائب ويقول أخي طلب لي الدهر ظهر المجن، ينسبها للدهر، تأتي المصيبة يقول أنا ما لي حظ بالدنيا، حظي قليل، تأتيه مصيبة يقول لك الدهر يومان يوم لك ويوم عليك، فكل ما تأتيه مصيبة يعزيها للدهر وللقدر، حس متبلد، فهم سقيم، لا تزيده المصائب إلا بعداً عن الله عز وجل، أما المؤمن كلما جاءته مصيبة فكر فيها لعل الله عز وجل يريد مني شيئاً، لعلي منحرف لعلي مقصر، لعلي، يعالج نفسه.

النبي عليه الصلاة والسلام وصف بعض أصحابه قال: لأحدهم أشد فرحاً بالبلاء من أحدكم بالعطاء.

شيء ليس بالسهل، الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين معناها الله عز وجل يحبني، معنى جاءت الوسيلة إلي، جاء الباب إلي لأحدهم أشد فرحاً بالبلاء من أحدكم بالعطاء، لكن إياكم أيها الأخوة إياكم ثم إياكم ثم إياكم أن تطلبوا البلاء، لا، هذا سوء أدب مع الله، النبي عليه الصلاة والسلام في الطائف قال له يا ربي إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، يعني إذا كان في خط بياني للدعوة، بلغ الخط البياني لرسول الله في الطائف النهاية الصغرى، توفيت زوجته خديجة، توفي عمه أبو طالب ائتمر عليه كفار قريش، خرج إلى الطائف على قدميه، عرض عليهم الدين ردوه وسخروا منه، وبالغوا في إيذائه، هذه النهاية الصغرى، إلا أن قال ربي إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ولك العتبة حتى ترضى لكن عافيتك أوسع لي، العافي أوسع، البحبوحة أوسع، الصحة أوسع، يكون لك زوجة أوسع، إذا طلب أحد البلاء فهو لا يعرف الله عز وجل.

إذاً: لأحدهم أشد فرحاً بالبلاء من أحدكم بالعطاء.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (021) :الابتلاء2 . الفرق بين البلاء والابتلاء ـ فهم فلسفة المصيبة من الإيمان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-03-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... لاشك أن موضوع الدرس اليوم هو الصيام، لأن شهر رمضان على الأبواب، وقد أقبل علينا، وهو موسم الطاعات، ولكن تأكيداً للدرس الماضي والذي قبل الماضي، هناك آيةٌ في سورة القلم، أو بضعٌ آيات تعطينا حقيقةً دقيقةً جداً، وعميقةً جداً، ونحن في أمس الحاجة إليها، يقولون: البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

إن رأيت إنسان في بحبوحة تدعوه إلى الشكر، وإن رأيته في ضائقة فادعوه إلى الصبر، إن رأيته متزمتا إلى درجةٍ غير معقولة فادعوه إلى الاعتدال، أما إن رأيته غارقاً في الدنيا إلى قمة رأسه فادعوه إلى الزهد، فمن صفات البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، إن ألمَّت بالناس نازلة، إن ضاق الأمر على بعض المؤمنين، يصح، ويناسب، وينبغي أن يكون الحديث عن فلسفة المصائب، لأن الحب أساس هذا الدين..

((ألا لا إيمان لمن لا أمانة له)) وفي بعض الأحاديث :

((ألا لا إيمان لمن لا محبة له))

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((. حسن الظن بالله ثمن الجنة))

(من كنز العمال)

فركنٌ أساسيٌ من أركان الإيمان أن تحب الله عزَّ وجل، وهذا الحب ليس إرحسن الظنادياً، هناك أشياء كثيرة تفعلها بإرادتك ولكن الحب ليس إرادياً، لابد من أن تحب الله، والأدلة على ذلك كثيرة، قول الله عزَّ وجل:

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

(سورة المائدة: من آية " 54 ")

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا)

(سورة التوبة: من آية " 24 ")

ما الذي يعكّر صفو الحب فيما بين العبد والرب ؟ الكون يدل على عظمة الله، ثابت، القرآن يدل على عظمة الله، ثابت، هناك ثوابت كثيرة في حياتنا، وهذه تدعونا إلى معرفة الله، تدعونا إلى إجلاله، تدعونا

إلى تقديره، تدعونا إلى طاعته، ولكن قد يعكّر صفو الحب فيما بين العبد والرب مصيبةٌ لم يحسن تفسيرها، هنا، فمحور هذه المقدمة لهذا الدرس الذي يعكر صفو الحب فيما بين العبد والرب مصيبةٌ لم يحسن العبد تفسيرها، إذاً جزءٌ من الإيمان أن تحسن تفسير المصائب، ولاسيما إذا كانت مصائب كبيرة، ولاسيما إذا كانت مصائب مصيرية.

فربنا سبحانه وتعالى يستخدم أحياناً كثيرة. كنت أصلي المغرب هذا اليوم في أحد مساجد دمشق، وقرأ الإمام هذه القصة، ما رأيت قصةً أقرب إلى درسنا السابق، تتوِّجُه، وترسِّخ حقائقه وقيمه من هذه القصَّة، ولا تنسَ أن أسلوب القصة من أنجح الأساليب في التربية، لأنك متعلقٌ بشخصيات تتحرك، أحداث تتعقد، حوار، ثم تنتهي هذه الأحداث على نحوٍ معين، أنت لا تشعر، وقطعاً لا تشعر، تستنبط المغزى وأنت لا تدري..

فربنا سبحانه وتعالى يقول في سورة القلم عن أصحاب الجنة، والجنة هنا البساتين الغنَّاء، يقول لك: مشروع ثلاثمائة دونم تفاح وكرز، مثلاً، مشروع حمضيات، مشروع كذا، فربنا عزَّ وجل قال:

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ

(سورة القلم: من آية " 17 ")

في عندنا ابتلاء، وفي عندنا بلاء، هل هناك فرقٌ بينهما ؟ البلاء المصيبة، أما الابتلاء الامتحان..

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ

أي امتحناهم..

(كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ)

يا أيها الأخ الكريم... هل أنت موقن أن سر وجودك في هذه الأرض هو الابتلاء، وأنه لابدَّ من أن تبتلى شئت أم أبيت ؟ وأن الإمام الشافعي حينما سُئل: أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ فتبسَّم وقال: لن تبتلى قبل أن تمكّن، هل ورد عليك أنه لابد من أن تبتلى ؟ ليس معنى هذا أنه لابد من أن تصاب بمصيبة، لا، ليس المعنى هذا، لكن لابد من أن تبتلى، أحياناً تجد أنك أمام زوجةٍ كل مصالحك معها، وأمام أمٍ يلزمك الوازع الأخلاقي والديني أن ترعاها، وأن هناك تصادماً بين هذه الأم التي ربَّتك، وهذه الزوجة التي أنت في أشد الحاجة إليها، هذا ابتلاء. ليس معنى هذا أنه مصاب، لا، لكنه موقف حرج، ماذا تعمل ؟.

بعض الإخوة الأكارم يتوهَّمون توهماً أن الإنسان إذا استقام على أمر الله أصبحت حياته حياةً رغيدةً، غنَّاء، كلها مسرَّات، كلها توفيق، الدخل كبير، والصحة طيبة، والمكانة الاجتماعية عالية، هذا يتناقض مع الابتلاء، مَن قال لك ذلك ؟ إذا استقمت على الله فأنت أسعد الناس، ولكن لا على طريقتك، لا على تصميمك، لا على كما تريد ؛ ولكن على ما يريد الله عزَّ وجل.

الآن أنا أتكلم كلمة دقيقة جداً، إذا توهم الإنسان أنه بمجرد أن يستقيم أصبحت حياته طريقاً معبداً، محفوفاً بالرياحين، زوجته تصبح إنسانة مقدسة، ملائكية، أولاده أبرار، منزله واسع، دخله كبير، مكانة اجتماعية، والله شيءٌ جميل ! لمَ لا يتجه الناس جميعاً إلى الدنين ؟ لمَ لا يتهافتون على الدين ؟

أقول لكم الحقيقة: إنك إذا آمنت بالله عزَّ وجل، واستقمت على أمره لابد من أن تبتلى، وأُأكد لكم مرةً ثانية، فرقٌ كبير بين الابتلاء وبين البلاء، البلاء مرض عضال، البلاء تدمير المال، هذا البلاء، أما الابتلاء الامتحان، فإذا عندك مركبة قوة أحصنتها ستون حصان، وكل هذه المركبات التي أمامك لا تزيد قوة محركها عن سبعة عشر، عن عشرين، عن خمسٍ وعشرين، إذا كان عندك مركبة قوة محركها ستون، والطريق كله مستقيم، طريق هابط ومعبَّد، هل يظهر في هذا الطريق قوة محركها ؟ هل تظهر قوة هذا المحرك ؟

أنا أقول لكم: ليست البطولة ألا تواجه الصعاب، ليست البطولة ألا تواجه مشكلة، ليست البطولة ألا تواجه مصيبة، ليست المشكلة ألا تواجه مُعْضِلة، ليست المشكلة ألا تواجه ضائقة، في ضائقة، وفي معضلة، وفي مشكلة ؛ في البيت، وفي العمل، وفي الصحة، وفي الأولاد، ولكن بطولة المؤمن كلها كامنة في أن تقف الموقف النبوي الكامل من هذه المشكلة..

ألا يواجه النبي عليه الصلاة والسلام مشكلة حديث الإفك ؟ هل تحتمل أنت هذه المشكلة ؟ هل تحتمل أن يقول الناس عن أهلك ما يقولون ؟ هل تحتمل أن تتحدَّث المدينة كلها عن أهلك ؟ عن انحرافهم ؟ هذه مشكلة، واجه النبي مشكلة في أهله، مشكلة في أولاده حينما مات ابنه إبراهيم، واجه مشكلة في الدعوة حينما ذهب إلى الطائف، واجه مشكلة مع قريش حينما قاطعوه، واجه مشكلة مع قريش حينما حاربوه، واجه مشكلة حينما ائتمروا عليه، واجه مشكلة وفاة الزوجة، وفاة العم، وفاة الابن، حياة النبي عليه الصلاة والسلام كلها مشكلات وصعاب، ولكن بطولته صلى الله عليه وسلم أنه كيف واجه هذه الصعوبات بأكمل موقف ؟

فأنت لا تفرح إذا كانت حياتك خط مستقيم لا معنىً له، لا، افرح إذا جاءتك المشكلة ووقفت منها الموقف الشرعي ؛ كنت صابراً، أو كنت موحداً، أو كنت مطيعاً، أو كنت محسناً، هذا الذي أتمناه عليكم أن أضعه بين أيديكم.

فربنا عزَّ وجل له أساليب كثيرة في التعريف بذاته، من هذه الأساليب، ومن أجمل هذه الأساليب القصة، لأن الناس مهما تنوَّعت ثقافاتهم، واختلفت مشاربهم، واختلفت مستوياتهم متعلّقون بالقصة، مندفعون إلى سماعها ؛ لأنها تحاكي أنفسهم، لأنها تحرِّك أوتار قلوبهم، لأنها تعبِّر عن مشاعرهم، لأنها تعبر عن صراعاتهم، عن تساؤلاتهم، فربنا عزِّ وجل قال:

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ)

مشروع زراعي ضخم، أنفق عليه أصحابه ألوف الألوف، بل الملايين، والآن النفقات باهظة جداً، يقول لك: المتر الفلاني ثمنه ثلاثة آلاف ليرة، الدواء الفلاني ثمنه كذا، الإصلاح الفلاني ثمنه كذا، التنقيط ثمنه كذا، نفقات باهظة، قال:

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17))

ربنا عزَّ وجل الآن سَيُرينا مصيبة نموذجية، ما هي نتائجها في الدنيا، وما هي نتائجها في الآخرة ؟ ثم يقول الله عزَّ وجل كلمة واحدة، هذه الكلمة أو الكلمتان، هاتان الكلمتان هما مغزى القصة كلها، ولهاتين الكلمتين مدلول كبير جداً إذا استوعبنا ثنيّات القصة، قال:

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18))

انظر إلى الأَثَرَة، لن نستثني من هذا المحصول أحداً، لن نطعم أحداً، لن نعطي أحداً، ما لنا وللناس ؟ الناس لهم ربٌ يرزقهم، هكذا يقول بعض الناس، من بعدي الطوفان، ما دام عندي طعامي وشرابي فعلى الدنيا السلام، هذه النفس المريضة المصابة بالأنانية أو بالأثرة، هذه النفس الحريصة على صالحها فقط، هذه النفس المنسلخة من المجتمع، لا يعنيها أمر الناس، لا يعنيها أمر الفقراء، أمر الجائعين، أمر المتعبين، أمر المحرومين هذه نفس مريضة عند الله عزَّ وجل، بمقياس الكمال، بمقياس الشرف، بمقياس الدين، بمقياس الإيمان هذه نفسٌ مريضة..

(وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18))

الصحابة الكرام حينما كانوا في حنين، وكانوا عشرة آلاف مقاتل، وما اجتمع هذا العدد أبداً في الجزيرة، وفتحوا مكة، وقد دانت لهم الجزيرة من أقطارها، وبلغوا قمة مجدهم، وهم أصحابٌ أجلاءٌ، مجاهدون، ورعون، طائعون، أتقياء، ومع ذلك حينما تسرَّب إلى أنفسهم شعورٌ بالكبر، شعورٌ بالقوة، شعورٌ بالاستغناء، شعورٌ بأنهم لن يغلبوا الآن من قلّة، ماذا فعل الله بهم، والنبي معهم، بين أظهرهم ؟ هل منع وجود النبي بينهم أن يمتحنهم الله عزَّ وجل ؟ أو أن يعالجهم ؟ فإذا كان أصحاب النبي وهم على ما هم عليه من رفعة شأن، ومن جهادٍ طويل معرَّضون للمعالجة ومعهم النبي عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم، فما قولك بنا ونحن بعد ألفٍ وخمسمائة عام، والمشكلات، والمخالفات، وحب الدنيا، والتمزُّق، والتدابُر، والتباغض، والتحاسد، والتخاصم، وكلٌ يحب ذاته، يحب أن يشبع ويجوع الآخرون، يحب أن يكتسي ويعرى الآخرون، يحب أن يرتفع ويهبط الآخرون، فإذا مجتمع الصحابة، مجتمع ربَّاهم النبي عليه الصلاة والسلام، مجتمع كله جهادٌ في سبيل الله، كله طاعةٌ، كله ورع، كله بذل، ومع ذلك هؤلاء حينما تسرب مرضٌ نفسيٌ إلى قلوبهم استحقوا أن يعالجوا.

إذا شخص في معه ورم بسيط جداً يحتاج إلى عملية جراحية واستئصال، فما قولك بإنسان مصاب بعشرات الأمراض ؟ بعشرات بل بمئات الأمراض، أتريد من الله عزَّ وجل أن يدع الناس على

أمراضهم ؟ وعلى انحرافاتهم ؟ وعلى اعتدادهم ؟ وعلى شِركهم ؟ وعلى شكِّهم ؟ وعلى انحرافهم ؟ وعلى معاصيهم ؟ وعلى بَغْيهم ؟ وعلى عدوانهم ؟ لا، إذا كان أصحاب النبي وهم ما عليهم من جلالة القدر، قد عالجهم الله عزَّ وجل في الوقت المناسب، إذاً يجب أن تفهم المصيبة فهماً يليق بجلال الله عزَّ وجل.

ما قولك بإنسان يرى طبيب يفتح بطن مريض، فيتهم هذا الطبيب بأنه قاتل ؟ فيقول: واللهِ رأيته بأم عيني يذبح هذا المريض من خاصرته. أليس هذا مجنوناً ؟ هذا مريض في غرفة عمليات، في تخدير، دافع خمسين ألف سلفاً، وهذا الطبيب كله علم، وكله خبرة، وكله براعة في استقصاء المرض.

إذاً شيءٌ أساسيٌ جداً، مهمٌ جداً أن تفلسف المصيبة، المصيبة هي هي، لها حجم، لها بُعد، لها مكان، لها زمان، لها آثار، لها أسباب، فالبطولة لا في إدراك هذه الآثار، وإدراك هذه الأبعاد، وإدراك هذه الأسباب، البطولة في إدراك المَغْزى الذي من خلاله جاءت المصيبة، كلما ارتقى الإنسان في فهم المصيبة، كلما ارتقى إيمانه، وكلما واجه بقية المصائب برؤيةٍ صحيحة وموقفٍ شريف.

فهؤلاء من أين جاء المرض ؟..

(إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18))

أنا أردت أن أقول هذه القصة قُبَيْل رمضان، هل تعلمون لماذا ؟ لأن رمضان شهر الإنفاق، شهر القرآن، دائماً برمضان موضوعات تقليدية ؛ موضوع الإنفاق، موضوع القرآن، موضوع بدر، موضوع ليلة القدر، أربع موضوعات في رمضان تقليدية لابد من طرحها في كل عام، إلى آخر الدوران، إذاً هذا الموضوع وإن كان قصة قرآنية لكن له معنى كبير، من أين جاء المرض ؟ جاء المرض..

(وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18))

يا أخي له رب، له رب فلماذا تتدخل أنت فيه ؟ أنت عليك بنفسك. كلكم يعلم أحياناً تكون مزرعة ثمن ما تحمل من ثمار مليون ليرة، خلال ثوانٍ معدودة تهبط درجة الحرارة إلى ما دون الصفر أكثر من زمن محدود، فإذا بها كلها تسود وتحترق بفعل الصقيع، كلكم يعلم أن الصقيع له أجهزة إنذار، له مشكلات، مزرعة تتضمَّن بأربعمائة ألف تذهب بثواني، هكذا ربنا قال، قال:

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19))

هم نائمون على أحلام لذيذة، والله ما أضمن، لو دفعوا لي ثمانمائة لا أضمن، يقول لك: غير معقول غير معقول لا أضمِّن. يحس بنشوة أن هذا المحصول كبير، يريد الضمَّان ألا يربح شيء، يريد أعلى سعر..

(وَهُمْ نَائِمُونَ (19))

على أحلام لذيذة جداً، أحلام الربح الفاحش، أحلام الأثرة، أحلام أن هذه الأموال كلها لي، لن أعطي أحداً، لن أطعم الفقير، ما لي وللناس، الناس لهم ربٌ يرزقهم يا أخي، أنا أوْلى، قال له الرب:

ـ عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟

ـ قال له: يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي.

ـ قال: ألم تعلم بأني أنا الرزاق ذو القوة المتين ؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم.

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20))

أي كأنها مقطوعة، كأنها مزرعة قد قُطِفَ ثمرها، صباحاً طبعاً ؛ يوم الحصاد، يوم الغنيمة، يوم عقد الصفقة مع المشترين، يوم قبض المبالغ الطائلة..

(فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (21) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (22))

هيا يا شباب..

(أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (22) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (23))

إنه لا يرغب أن يدخل عنده فقير، يقول لك: الثمار مرشوشة بمواد سامة، حتى إذا اشتهى هذا الفقير يقطف تفاحة متدلية من على الجدار يخاف من السم، لا يقدر، أنا سمعت في بعض البلدان أتلفوا محصول البرتقال بكميات كالجبال، فصاروا الزنوج يأتون من أطراف أماكن الإتلاف ويأكلوا برتقال بلا ثمن، في العام القادم سمموا هذا المحصول، قرأت خبر قبل ستة أشهر بمجلّة أو بجريدة تصدر في الخليج: أنه تم إعدام عشرين مليون رأس غنم في أستراليا، عشرين مليون رأس في أستراليا، وسط مطالبة الجمعيات الخيرية بإرسال هذه الأغنام إلى الدول الفقيرة التي فيها مجاعات، انظر تجد البعيد عن الله عزَّ وجل أناني، يحب نفسه، يكره الناس، و الإنسان بنيان الله وملعونٌ من هدم بنيان الله.

النتيجة:

(أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (22) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (23) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (25))

توهموا أنهم قادرون على قبض نتائج أعمالهم الناجحة..

(فَلَمَّا رَأَوْهَا)

انظر للحركة في القصة..

(فَلَمَّا رَأَوْهَا)

صُعِقوا ؛ هذه مزرعتنا ؟ هذا بستاننا ؟ هذا هو المشروع ؟ أعوذ بالله ليس هذا، غلطانين..

(فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26))

ثم لما رأوا الباب هو هو، والمدخل هو هو، والطريق هي هي، والبيت موجود، وكل شيء كما تركوه البارحة، ولكن ليس هناك من ثمارٍ إطلاقاً، الآن يأتي شخص فضولي يأتي فيقول لك: الله لو كان أبقاها ماذا كان حصل ؟ قال لي واحد: الله ليس الآن، وقتها كان في شح أمطار شديد جداً كاد يكون كأس الماء مهدداً، شهر أيلول ما في مطر، تشرين أول ما في، تشرين ثاني ما في، كانون أول الشمس ساطعة، الأرض قاحلة، الأمطار منحبسة، الينابيع جافة، النبات كله مصفَر، ففي واحد ضعيف الإيمان بالله، فقال لي: الله يكون أحسن منا وينزل لنا المطر ماذا كان صار ؟ قلت له: عملها كثير وما بانت معكم.
هنا يأتي شخص فيقول لك: لماذا يبعث الصقيع الله عزَّ وجل ؟ ما هي فائدة الصقيع ؟ هذه الخمسمائة ألف أو الستمائة ألف لماذا أتلفهم الله ؟ ينطرح موضوع يقول لك: فيضانات، وزلازل، وبراكين، وحروب، وتدمير، ويقول لك: تحتاج إلى كذا. هذه الأخبار التي يسمعها الإنسان ؛ تدمير شامل، هنا تلوث، وهنا شيء يحترق، وهنا كذا، وهنا كذا، وهنا كذا، وهنا في كوليرا، وهنا في جراد سيأتي، وهنا في زلزال، وهنا زلزال راح، أنت تتوازن لأنك مؤمن، في كل يوم خبر، إذا تتبعت الأخبار في كل يوم خبر مؤلم بالأرض، هنا إعصار دمَّر مدينة، هنا زلزال أطاح بخمسين ألف، هنا حرب أهلية أبادت كذا، هنا صار في مشكلة، هذا السؤال الأبدي: الله لماذا فعل هذا ؟ أنت مؤمن، في قرآن، في بيان إلهي، في توضيح، في إرشاد..

(فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26))

هذا ليس بستاننا، مستحيل، نحن بستاننا سنضمنه بثمانمائة ألف، ومتواعدون في الساعة العاشرة مع الضمَّانة، ولا نأخذ غير نقدي، وبعقد. ثم عرفوا الحقيقة المرة فقالوا:

(بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67))

لقد حرمنا الله عزَّ وجل هذا المحصول كله، الآن ؛ كم بضاعة احترقت، بضاعة صودرت، بضاعة غرقت، بضاعة تلفت، في إتلاف، إتلاف بضائع، إتلاف ممتلكات، إتلاف محاصيل، ممكن، يقول لك: هذه الذبابة أتلفت ما قيمته ثلاثين مليون مثلاً، هذه دودة القطن أتلفت كذا، وفي ذبابة أتلفت محصول الزيتون، فتجد البعض يقول: يا رب مَن خلق هذا الذباب ؟ لماذا هذا الذباب يأتي لنا ؟ يقول لك بعدها: في قوارض بالتربة، فالأمراض بالنبات لا تعد ولا تحصى، يا رب لماذا خلقت هذه ؟ أنت مؤمن وتسأل أحياناً، انظر لهذه القصة ما أجملها..

(بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قَالَ أَوْسَطُهُمْ)

هنا، هذا أوسطهم، أي أقربهم إلى الله عزَّ وجل..

(قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28))

لو أنكم سبَّحتم الله عزَّ وجل لما بخلتم، لو عرفتم الرزَّاق لما بخلتم، لو عرفتم أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين لما بخلتم، لو عرفتم أن الله عزَّ وجل:

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ)

(سورة سبأ: من آية " 39 ")

ما بخلتم، لو عرفتم ما عند الله من ثوابٍ عظيم ما بخلتم، لو عرفتم ما عنده من عذاب أليم ما بخلتم، لو عرفتم مَن تعاملون ما أحجمتم..

(أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28))

صحوا، وأدركوا خطأهم، وأنانيَّتهم، وأثرتهم، وبخلهم، وشحهم، وحبهم لذاتهم، وإعراضهم عن ربهم، واستغنائهم عن فضله..

(قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29))

فعلاً نحن ظلمنا أنفسنا، فإذا الواحد، في آية قرآنية يا إخوان دقيقة جداً، في آيات يقرأها الإنسان فيفهمها فهم ظاهري..

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)

(سورة البقرة: من آية " 195 ")

لا تنفق كثير، هكذا يقول له، أي طول بالك، ضب هذان القرشان ضبهم ـ باللغة الدارجة ـ يفهم الآية هكذا، والآية تعني هذا المعنى لاشك، ولكن هناك معنىً آخر..

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

فإن لم تنفقوا تكونون قد ألقيتم بأنفسكم إلى التهلكة، لا تهلكة الدنيا بل تهلكة الآخرة، شخص ذهب إلى بلد أجنبي وليس معه إطلاقاً عملة متداولة في هذا البلد ألم يظلم نفسه ؟ أراد أن يركب سيارة، فليس معه عملة، يأكل شطيرة ما معه، فإذا الإنسان انتقل للدار الآخرة، يحتاج لإنفاق من عملتها، إلا وهي العمل الصالح.

إن لأهلك عليك حقاً، إن لأولادك عليك حقاً، إن لجسدك عليك حقاً، هذا المعنى الأول، المعنى الثاني: إن لم تنفقوا فقد ألقيتم بأنفسكم إلى التهلكة إن لم تنفقوا، فأنت هالك إن أسرفت في الإنفاق، وهالك إن أحجمت عن الأنفاق، هذا المعنى:

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31))

(قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (30) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (30))

أحد الأشخاص حكى لي قصة نُقِلت عن شخص آخر، رجل إيمانه على بسيط، وعارف أنه في زكاة مال، وعارف الزكاة أمر واجب، وجمع أمواله وطلع زكاتها إحدى عشر ألف، وهو في طريقه إلى أن يدفعها له زوجة شحيحة، أقنعته، لماذا تدفع هذا المبلغ نحن أولى فيه، نريد أن نغير طقم الكنبات، في عندنا ثريات، في عندنا مشكلات، نريد أن نعمل برندة ألومنيوم، طول بالك، أقنعته فاستجاب لها، القصة من أغرب القصص، فهو يملك سيارة انضربت، صلحها جلس، ومعجن، واشترى قطع، أما أن تطلع الفاتورة بالضبط مقدار الزكاة، شيء غريب جداً، بعد ما دفع التجليس والتدهين والقِطَع، وإذ الرقم نفسه مع الكسور، درس بليغ، فهذا حق الله عز وجل:

(قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (30) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31))

طغينا، هذا المال تعلَّق فيه حق الفقير، تعلَّق فيه حق الفقير، فما معنى:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ)

(سورة التوبة: من آية " 103 ")

تطهر هذا المال، ما طهارة المال ؟ إنفاق زكاته، إذا أنفقت زكاة مالك فقد ذهب عنك شرك، هذا المال متعلّق في حق الفقير..

(عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (32))

هنا البطولة، كمان موقفهم راقي، الشيء فقد مثلما قال سيدنا عمر: " كان إذا أصابته مصيبة قال: الحمد لله ثلاث، الحمد لله إن لم تكن في ديني، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ ألهمت الصبر عليها " الإنسان إذا أصابته مصيبة، ونقلته إلى مرتبةٍ أعلى فهو الرابح الأول، إذا أصابته مصيبة، واستنبط منها درساً بليغاً فهو الرابح الأول، إذا أصابته مصيبة، واتعظ منها فهو الرابح الأول، اسمعوا هذه الكلمة وسجلوها في أذهانكم:

((من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة، فمصيبته في نفسه أكبر))

أي إذا جاءت المصيبة ولم تحدث درساً بليغاً، فالمصيبة ليست هذه المصيبة، المصيبة صاحب المصيبة، تقول لفلان: أنت مصيبة، إذا الإنسان أصابته مصيبة وقال لك: هكذا الدهر يوم لك ويوم عليك، هكذا، ليس لي حظ بالدنيا، حظوظي قليلة، إذا واجه هذه المصيبة بهذه التفسيرات السخيفة، إن عزاها إلى الدهر، أو عزاها إلى القدر بمعناه الشائع، لا بمعناه الإسلامي، أو عزاها إلى قلة حظه، فهذا نوع خطير من أنواع فهم المصائب، فلذلك قالوا:

(عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (32))

فإذا أنت لك ابن، ومخطط له مستقبل كبير جداً، وتلهى عن هذا المستقبل بلعبة غالية، فجئت أنت وكسرتها كي يدعها، هو يرى أن هذه مصيبة كبيرة، ولكنك تعده إعداد كبير، ومن أجل هذه المرتبة العالية تضحي بكل شيء بين يديه، فالنتيجة كل هذه القصة من أجل كلمتين، الكلمتان هما:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

أي أن أي عذاب في الدنيا هذه قصتنا، أي مصيبةٍ، أي نازلة، أي قضية، أي مشكلة، أي ضائقة، أي محنة، أي بلية، هذه قصتها:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

فهل فهمت على الله عز وجل ؟ هل فهمت أن الله عز وجل لا يبتغي إزعاجنا، ولا يبتغي حرماننا، ولا يبتغي مضايقتنا، ولا يبتغي أن يقسو علينا، ولكن الله عز وجل يحب أن يرحمنا ؟ إن فهمت المصيبة هكذا فأنت مؤمن، لذلك هذا الذي يفهم المصائب هكذا إنسان متفائل، إنسان مدرك، إنسان مؤمن بالله عز وجل:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

هكذا العذاب، كل عذاب أسوقه لكم يا عبادي في الدنيا هذا هو.

((إني والإنسان والجن في نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي ـ الحديث طويل ـ خيري إلى العباد نازل وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي، مَن أقبل عليهم منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي أهل معصيتي، لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ـ ضع في ذهنك هاتين الكلمتين: الله جل في علاه حبيب أو طبيب، حبيب أو طبيب ـ إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها ".))

مرض نفسي ؛ أثرة، بخل، شح، في بحبوحة ولكن حرص على المال، ذكرت هذه القصة قبَيل رمضان لأن النبي عليه الصلاة والسلام كان جواداً، وكان أجود ما يكون في رمضان، تفقَّد أهلك، تفقد المتعَبين، أقول لكم كلمة يا إخوان: الوقت الذي تنتظر أن يسألك إنسان عن حاجته، انتهى هذا الوقت، الآن يجب أن تسأل أنت عن حاجة الناس، أنا أعني ما أقول، الوقت الذي كان فيه المحتاج يتحرك ويسأل وكانوا قلّة، انتهى، الآن إن لم تتفقد أحوال إخوانك ؛ لك أخت، لك قريب، لك عمة، لك ابنة عمة، لك أخ ساكن بأطراف المدينة، يا ترى وضعه المالي جيد، الدنيا رمضان، الدنيا عيد، عنده ثمن ألبسة لأولاده، فقول: ما دخلني، ما دخلهم قالوا، لهم رب هؤلاء الفقراء، إلقى ما دخلك، ما دخلك، هكذا!! ما دخلنا، ماذا ما

دخلك لكن دخل مَن ؟ أنت خليفة الله في الأرض، "الأغنياء أوصيائي، والفقراء عيالي، فمن منع مالي عيالي أذقته عذابي ولا أبالي ".

سبحان الله القارئ اليوم بالمغرب قرأ هذه الآيات في الصلاة، يعني تفاعلت مع كلمة:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

بشكل غير محدود..

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

أي: يا عبادي، كل ما تراه أعينكم من مِحن، من مصائب، من مشكلات، من قهر، من فقر، مما يبدو لكم ؛ مرض، من، من، اكتب خمسين كلمة، هذه قصة كل عذاب، هذه قصة كل مصيبة، التعليم حرف والتكرار ألف، القصة لها منطوق ولها مفهوم، مفهومها يشمل كل مصيبة، منطوقها يشمل قصة وقعت في زمن معين، هذا ملخصها..

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

وإذا الإنسان هذا العذاب في الدنيا لم يستفد منه، ما وظّفه لمصلحة إيمانه، ما استقى منه الموعظة، ما استقى منه العبرة، ما كان هذا العذاب دافعاً له إلى باب الله، ما حمله هذا العذاب على التوبة، إن لم يستفد من هذا العذاب فما هي مصيبته ؟ نفسه، إذاً هو المصيبة، كان في مصيبة أصابته إذا لم يستفد منها معنى ذلك هو المصيبة، هذا الإنسان هو مصيبة، صار فلان مصيبة، وجوده مصيبة، مَن لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر، مصيبته في نفسه أكبر، لذلك الإنسان " ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله أكثر ". يحاسب نفسه حساب عسير، ولا يبرئ نفسه، وما أبرئ نفسي، إن النفس لأمارة بالسوء، لا تقل: هذه مصائبي مصائب ترقية، لا، بل اترك الكلام لغيرك، اتهم نفسك دائماً بأن الله عز وجل حينما ساق لك هذه المشكلة يريد منك إصلاحك.

في نقطة ثانية ذكرتها اليوم بمجلس: أن ربنا عز وجل قال:

(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ)

(سورة النحل: من آية " 126 ")

يفهم من الآية فهم ظاهري، وفهم صحيح أيضاً، القرآن حمَّال أوجه، أنه يجب أن تعاقب بالقدر الذي عوقبت به، ضرب بضرب، ضربين بضربين، خمسة بخمسة، في تفسير آخر لهذه الآية: أي حينما عاقبك الله لماذا عاقبك الله عز وجل ؟ عاقبك كي يردك إليه، عاقبك ليرحمك، عاقبك ليهديك، عاقبك ليكرمك، عاقبك ليرفعك، عاقبك ليقرِّبك، عاقبك ليصلك، عاقبك لتكون من سعداء الدنيا والآخرة، إذاً في أهداف نبيلة جداً في العقاب، لا يوجد تشفي، أنت إذا عاقبت الناس لا تعاقبهم تشفياً، لا تعاقبهم انتقاماً،

لا تعاقبهم حقداً، عاقبهم رحمة، أدِّبهم، ليتعرفوا إلى الله عز وجل، أدبهم لتوقفهم عند حدهم، أدبهم كي تردهم إلى جادة الصواب، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((انصر أخاك ظالماً أو مظلوما، قالوا يا رسول الله ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالماً ؟ قال بالأخذ على يديه))

(من الجامع لأحكام القرآن: للإمام القرطبي)

فالذي أتمناه على كل أخ كريم يحضر هذا المجلس أن يراجع نفسه، والإنسان لا يكون مستهلك، لا يكون هامشي، أنا الله عز وجل خلقني ليسعدني، لابد من أن أطبق أمره، هذه المشكلة لعلها إشارة، لعلها تنبيه، لعلها لفت نظر، لعلها تحذير، لعلها إنذار، لعلها لتوجيه معين، فأنا أقول لإخواني الكرام: حينما تفهموا على الله سر تصرفاته فقد قطعت نصف الطريق إليه، حينما تفهم على الله سر تصرفاته، وسر هذه المِحَن والشدائد التي يسوقها، أحياناً الإنسان يقول لك: في بلد رجع مائة سنة إلى الوراء، الله عز وجل هو لا إله إلا الله، لعل الله عز وجل يخلق فرج، لعل الله يخلق خير لا نعلمه نحن، دائماً اجعل شعارك:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216))

(سورة البقرة)

كما قلت لكم من قبل لا أبالغ إذا قلت لك: إن تسعين بالمائة من المؤمنين صاروا مؤمنين على أثر نازلة نزلت بهم، كانت هذه النازلة دافعة لهم إلى الله عز وجل، فأنا ترنَّمت بكلمة:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

هذه قصة العذاب في الأرض، هل عرفناها ؟ هذه القصة طبِّق عليها أية قصة، طبِّق عليها أية مصيبة، طبِّقها على أية نازلة، طبقها على أية محنة، طبقها على أية مشكلة..

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

وإذا الإنسان لم يستفد من هذه المصيبة، قال:

(وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (33))

انتبه إلى هذه الآية:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21))

(سورة السجدة)

إذا واحد مقدم على عمل يستحق به الإعدام، وأنت ضربته ضرب مبرِّح حجزته عن هذه الجريمة، ألم تكن به رحيماً، إذا أنت ضربته ضرب حجزته عن أن يقتل فيعدم، ألست رحيماً بهذا الضرب ؟ هذا معنى قوله تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21))

(سورة السجدة)

أقول لكم آخر كلمة: ممكن تأتي مصيبة، ربنا عز وجل إذا أحب يداوي يعرف يداوي، من محل يوجع تماماً، إذا شخص معه مئات الألوف ألوف الألوف ضاع له ألف ليرة، ولا يحدث له شيء إطلاقاً، قال لي واحد: شخص عنده سيارة عملت حادث، ثمنها كذا مليون، ما تنازل يشوفها، قال: بيعوها لي، هذا الشخص لا ينهز بإتلاف مال، ولكن يجوز إنسان يأتي فيقسوا عليه بالكلام يهزه هز، فربنا عز وجل، إذا أحب يداوي إنسان يعرف يداويه، من أين يجعه تمام ؟ يجوز الشحيح يداويه بفقد المال، يجوز إنسان عنده شيء من الشأن الاجتماعي يداويه بإنسان ينال منه، يصغره، يقول لك: ظللت شهر لا أنسى هذا الموقف، يجوز يداويه بأن يوهمه بمرض، هو مرض غير عضال، ولكن أوهمه بمرض عضال، ركضه ركيض لعنده، أنا مرة حكيت كلمة مضحكة، قلت: ملخص ملخص الملخص، يا تأتيه راكضاً أو بإمكانه وقدرته أن يجعلك أن تأتيه راكضاً، اركض لحالك أحسن ما يركضك، لأن الله عز وجل يريدك، لأنه خلقك ليسعدك، قال بعض علماء القلوب: أنت أيها الإنسان مطلوب أكثر مما أنت طالب، مطلوب من قِبَل المولى عز وجل، خلق لك الكون، دعاك إليه، دعاك إلى طاعته، دعاك إلى عبادته، إذاً هذه الآية، خلوها ببالكم:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

هذه قصة العذاب، وإذا الإنسان أصر، واستكبر، وركب رأسه، وإنما هذه الحياة الدنيا وليس بعدها شيء، نموت ونحيا، ولا يهلكنا إلا الدهر، وهكذا الحياة، هكذا شأن الحياة، نقول له أكمل الآية:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (33))

فهم كتاب الله دقيق جداً، هذه القصة نور لنا كلنا، فلا تجد هذا الضيق، وتقول: تمزقت عندما سمعت هذا الشيء، لم يعد في هذا الضيق الشديد، ما عاد في هذه الحيرة: يا رب لماذا هكذا فعلت ؟ لم يعد في تساؤل: أين الله عز وجل، هذه كله رعونات جاهلية، رعونات أناس ضعاف الإيمان، أما ربنا ذكر لك العذاب قال لك:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

صف هذا العذاب ما شئت، في عذاب حديث، في عذاب قديم، صف هذا العذاب ما شئت..

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (33))

لذلك قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21))

(سورة السجدة)

هذا الذي أتمناه على نفسي وعليكم أن نواجه كل مشكلة، كل امتحان، كل ابتلاء، كل ضغط، كل ضائقة، كل نازلة، كل محنة، بهذا الفهم العميق، الله عز وجل غنيٌّ عن أن يعذبنا، غني أن يزعجنا، غني عن أن يضيِّق علينا، أقول لكم دائماً: إذا قنن الإنسان فتقنينه تقنين عجزٍ، أما إذا قنن الإله فتقنينه تقنين تأديب..

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

(سورة الحجر: من آية " 21 ")

هذا الذي والله في صلاة المغرب اليوم هذه الآيات قرأت فتفاعلت معها تفاعلاً شديداً، قلت لعل الله يوفقني إلى أن أذكر بعض المعاني في يوم الأحد، وإن كان الدرس انقلب إلى درس تفسير أرجو المعذرة، فهو درس حديث عندنا، ولكن هذا الحديث صار متمم للموضوعات السابقة التي تحدَّثنا بها عن سر وعن فلسفة المصيبة في الإسلام، هكذا، فالإنسان يجب أن يشمر، كل ما جاءته مشكلة يجب أن ترقى به، قال: كل مِحْنَة بعدها مِنْحة، وكل شدة بعدها شدَّة إليه، فالإنسان لا يتشائم، يتفائل، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يحب الفائل الحسن، في شخص سوداوي الطبع، متشائم، قنوط، يئوس، هذا إنسان يحتاج إلى معالجة، هذا عنده حالة مرضية، فلان متشائم، أما المؤمن يتأمل: الأمر كله بيد الله، الله أسماؤه كلها حسنى، الله عز وجل لو لم يشأ ما كان الذي كان، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فإذا كان، إذاً خير، وقبل أن يقع؟ الخير فيما يبدو ألا يقع، قبل أن يقع الشر، الخير ألا يقع، إذا وقع وانتهى الأمر، إذاً هو الخير، هو الخير غير الظاهر الخير الباطن، الإنسان عليه أن يستقبل بعض المحن بعض الشدائد على مستوى فردي وعلى مستوى جماعي بهذا الفهم العميق لكتاب الله، والله سبحانه وتعالى يحب المؤمن الواعي.

تصور طفل صغير عند طبيب أسنان، تجده يتحرك حركات غير صحيحة، يبكي، يكسر يد الطبيب، يلبكه، أنظر لإنسان راشد كبير، ممكن إذا كان أعطاه إبرة من غير بنج يمسك مسند الكرسي ويشد عليه ومع ذلك يعطيه الأجر ويتشكره، لأنه راشد، فالراشد يفهم أن هذه الإبرة لمصلحته، يقول: وجع ساعة ولا كل ساعة، هذه الإبرة وهذا الحفر، طول بالك، غير ممكن حتى ينظف تمام، بعد ذلك يضخ له هذا الهواء يموت من ألمه، يكون رأس العصب لم ينسحب، لا يتكلم شيء لا يسب الطبيب المريض، لأنه راشد، فمَن يحوص، ويبكي ويعيط، وأحياناً إذا كان غير مربى يسب، هذا الطفل الصغير الجاهل.

فالإنسان لما يضوج من مصيبة، ويضطرب اضطراب شديد، يكون في عنده ضعف في إيمانه، أما كلما زاده إيمانه:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26))

(سورة آل عمران)

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (022) :بعض الحكم لأبي زكريا - يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-10-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم:

أردت في هذا الدرس أن أطلعكم على أقوال رجل تابع النبي عليه الصلاة والسلام.

نحن في درس الأحد نتحدث عن حديث النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن سيرته المطهرة، ولكن العلماء قالوا:إن كل من تابع النبي عليه الصلاة والسلام ظهرت آثار هدايته على أقواله وأفعاله، الآن نريد أن نبين لكم كيف أن المؤمن إذا تابع النبي، وسار على أثره، واقتدى به وجعله قدوةً له، كيف أن الحكمة ينطق بها لسانه، وكيف أن الأفعال الطيبة يقوم بها في حياته اليومية.

من هؤلاء، أي كتاب تقرؤونه تجدون أقوال يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، له أقوال كثيرة وكثيرة، اطلعت عليها فإذا بها تدهش قلت والله لو أنني أطلعت إخواني على ثمرة من ثمار متابعة النبي، هذا يكنى أبا زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي نزيل الري، قرية من قرى بلاد فارس، انتقل إلى نيسابور فسكنها وبها مات، أقواله خلاصة تجاربه، خلاصة خبرته مع ربه، خلاصة حقيقة الدنيا.

من أقواله:الكلام الحسن حسن.

قال:وأحسن من الحسن معناه.

أن تفقه معناه قد يجري على لسانك كلام حسن، كلام طيب، كلام عميق، لكن الأحسن منه أن تفقه معناه، ربنا عز وجل يقول :

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

(سورة محمد:24)

فقالوا تدبر القرآن خير من تلاوته، تتلوه مع التدبر.

قال:وأحسن من الحسن معناه، وأحسن من معناه استعماله.

أن تطبقه، أن ينقلب هذا الكلام الحسن إلى سلوك، إلى أخلاق إلى عادات، إلى مواقف، إلى أخذ، إلى عطاء.

قال:وأحسن من استعماله ثوابه.

حينما تطبق هذه الأقوال الحسنة تقبل بها على الله عز وجل تذوق بها طعم القرب، ما هو الثواب ؟ من ثاب، يعني رجعت إليك ثمار هذا العمل، إذاً الكلام الحسن حسن، لكن الأفضل منه أن تفهم معناه

وأفضل من معناه أن تطبقه، وأثمن من تطبيقه ما يأتيك من إقبالك على الله أو ما يأتيك من تجلي الله على قلبك هو ثواب العمل، يعني المردود الذي تناله حينما تعمل صالحاً.

قال:وأعظم من ثوابه رضاء الله عنك.

وهو قمة السعادة، فهذا قانون، كلام حسن، أحسن منه أن تفهمه أحسن من فهمه أن تطبقه، أحسن من تطبيقه الثواب الذي يأتيك من الله عز وجل، هذه السكينة، هذا السرور، هذه السعادة، هذا التجلي وأحسن من التجلي أن يرضى الله عنك، إنك بهذا الرضوان تسعد في جنان الخلد.

فنحن كم مرحلة، كلام، معنى، تطبيق، ثواب، جنة، كلما انتقلت من مرحلة إلى أخرى ارتقت مرتبتك عند الله عز وجل، كل إنسان يبحث عن موقعه من هذا الكلام، هو على مستوى الكلام، أم على مستوى العقل والفهم، أم على مستوى التطبيق، أم على مستوى السكينة التي تنحدر إلى قلبك من قبل الله عز وجل ثمن إخلاصه، أم على مستوى أن يشعر أن الله راضٍ عنك، وربنا عز وجل قال حينما تحدث عن الجنة:

(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة التوبة:72)

يعني أكبر من الجنة أن يرضى الله عنك، إحساس المؤمن أن الله راضٍ عنه أكبر من نعيم الجنة، مع أن نعيمها لا يوصف، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأعظم من هذا النعيم أن يرضى الله عنك، والله كلام دقيق، كلام حسن، فهم حسن، تطبيق حسن، ثواب حسن، رضوان من الله عز وجل، فلتكن همتنا عالية لنسعى، لا إلى أن ينطق اللسان بكلام حسن، هذا حجة علينا، وسوف يندم من يتكلم بالكلام الحسن ولا يفقه معناه ولا يطبقه أشد الندم، فكلام بني آدم إما حجة له أو حجة عليه.

وله قول آخر يقول:الذي حجب الناس عن التوبة طول الأمل.

لماذا الناس لا يتوبون من فورهم، يقول لك أنا صغير بعدني وين للستين وأنا بالثلاثين الآن، مادام يأمل أن يعيش مديداً، فأخطر آفات النفس طول الأمل.

من حوالي ستة أشهر يعني صديق صديقي قاعد بسهرة قال بكل راحة، قال أنا لا أموت، كلام غريب، لماذا ؟ قال أنا أولاً لا أدخن ولا أحملها، والله ما مضى اثنا عشر يوم حتى كان من أصحاب القبور أما فعلاً كلمة دقيقة قالها أمام جمع في سهرة، هو طبعاً يعتني بصحته لكن بعيد عن أن يكون في مستوى المسؤولية فوجد أن القضية لها علاقة بالدخان، لها علاقة بالهموم والأحزان، أنا لا أدخن، ولا أهتم لشيء وصحتي طيبة، ومعتني بنفسي، الآن لا أموت، بعد اثنا عشر يوماً كان من أصحاب القبور. إذاً:طول الأمل من أخطر آفات النفس، لهذا ورد في الحديث الشريف :

((من عد غدا من أجله فقد أساء صحبة الموت))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أنس تصحيح السيوطي: ضعيف]

إذا الإنسان قال غداً سوف أفعل كذا وكذا وعلى أن غداً مضمون فقد أساء صحبة الموت.

قال:إن الذي حجب الناس عن التوبة طول الأمل، وعلامة التائب انهمار الدموع، وحب الخلوة، ومحاسبة النفس.

علامة التائب شدة بكاءه، وميله للخلوة مع ربه، ومحاسبة نفسه حساباً عسيرا، لماذا قلت هذه الكلمة، لماذا ابتسمت، لماذا ردت هذا الرد علامة التائب الصادق، انهمار الدموع، وحبه للخلوة مع الله عز وجل وشدة محاسبته لنفسه.

من أقوال هذا العالم الجليل:العالم العامل، عمل كالسراب، وقلب من التقوى خراب، وذنوب بعدد الرمل والتراب، ثم تطمع في الكواعب والأتراب.

بدك جنة، جنة عرضها السماوات والأرض، ركعتين بلا وضوء كيف ما كان الدين، أما إذا كان صنع شيء يريده متقناً، إذا اشترى حاجة يريدها متقنة، أما عمل الآخرة من الدرجة الخامسة.

ناجى ربه مرةً فقال:يا رب كيف أمتنع من الذنب بالدعاء، ولا أراك تمتنع بذنبي من العطاء.

يعني إذا الإنسان وقع بذنب من له غير الله ؟ أحد أمراض النفس الكبيرة اليأس، القنوت، بل إن اليأس والقنوت يلتقي مع الكفر، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((لا ملجأ وَلا مَنْجَى مِنْكَ إلاَّ إليْكَ))

[رواه البخاري ومسلم]

((اللَّهُمَّ أعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخطِكَ))

(رواه مسلم، عن عائشة رضي الله عنها)

كيف أمتنع بالذنب من الدعاء، ولو كنت مذنباً، توسل إلى الله تذلل إليه، اعقد توبةً نصوحة، كيف أمتنع بالذنب من الدعاء، ولا أرك يا رب تمتنع بذنبي من العطاء، لذلك ابن آدم لي عليك فريضة ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك.

أما تستحي منا ويكفيك ما جرى أما تختشي من عتبنا يوم جمعنا

أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً وتنظر ما به جاء وعدنا

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الحديد:16)

دائماً القلب صخري، دائماً العين لا تدمع، دائماً في تعلق بالدنيا.

أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً وتنظر به ما جاء وعدنا

((ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله))

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

ويقول هذا العالم الجليل:ليكن حظ المؤمن منك ثلاثاً، إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تفرحه فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تذمه.

المؤمن غالي على الله، هذا ولي الله، ومن عاد لي ولياً آذنته بحرب، يعني إذا ما عندك استعداد أن تنفعه فلا تضره، وإذا ما عندك استعداد أن تفرحه فلا تحزنه، وإذا ما عندك استعداد أن تمدحه فلا تذمه لأنه من أكرم أخاه فكأنما أكرم ربه، الحد الأدنى ألا تذمه، وألا تغمه وألا تضره.

قال:أكبر مصيبة تصيب الإنسان عند الموت في ماله شيئان، انه يأخذ ماله كله ويحاسب عن ماله كله.

الآن من باب التشبيه أيام بضاعة تصادر، تؤخذ، وتدفع ثماني أمثال ثمنها غرامة، هو من الثلاثة للثمانية النظام، الأدنى ثلاثة، الأقصى ثمان أمثالها، تؤخذ كلها، وتدفع ثمانية أمثالها غرامة، لو أخذت مصيبة لو دفعت الغرامة مصيبة، أما أن تؤخذ وأن تدفع، فقال مصيبة الإنسان يوم القيامة في ماله مصيبتان أنه يؤخذ منه كله، ويسأل عنه كله.

لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله من

((أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه))

[رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَدِيْثٌ حَسَنٌ]

أما عن ماله سؤالان، من أين اكتسبه وفيم أنفقه.

هذا العالم الجليل يحي بن معاذ يقول:دواء القلب خمسة أشياء :

قراءة القرآن بالتفكر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر ومجالسة الصالحين.

أنت إذا جالست الصالحين، جالست أهل الإيمان، أهل القرب أهل المعرفة، أهل الحب، تقتبس شيء من محبتهم، شيء من علمهم شيء من أخلاقهم، شيء من قيمهم، شيء من أشواقهم، من جالس جانس هكذا يقولون، والصاحب ساحب، قل لي من تجالس أقول لك من أنت فقال دواء القلب في خمسة أشياء:قراءة القرآن بالتفكر، يعني المؤمن لا بد له من وجبة صباحية يتلو بها كلام الله، والله سبحانه وتعالى قال :

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (78))

(سورة الإسراء:78)

قال بعض العلماء:القرآن الذي يتلى في صلاة الفجر، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((من صلى الصبح في جماعة فهو في ذمة الله.))

[رواه مسلم عن جندب بن سفيان مرفوعا].

مَنْ صَلَّى الفَجْرِ في جَماعَةٍ، يعني حينما خرج من بيته شعر بالنشاط، حينما دخل إلى المسجد رأى إخوانه، رأى القارئ يقرأ القرآن بشكل جيد بإحكام، كل يوم يقرأ صفحة أو صفحتين بتسلسل، إنك

تستمع إلى كلام الله كله خلال عام تقريباً، بشكل متسلسل، فدواء القلب خمسة أشياء:قراءة القرآن بالتفكر، وخلاء البطن، الخير كله مجموع في خزائن الجوع، وقيام الليل ، ولو قبل الفجر، قبل الفجر بنصف ساعة هذا الحد الأدنى بالصيف، بالشتاء ربيع المؤمن، طال ليله فأقامه فقصر نهاره فصامه، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين.

يعني التضرع هو الدعاء، والدعاء مخ العبادة، والدعاء في أعلى درجات القرب، يا رب أنا عبدك وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي في يدك، ماضٍ فيّ قضاءك، نافذ فيّ حكمك، اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، دعاء فيه جوامع الحكم، اهدنا فيمن هديت مع المهتدين لا مع الضالين وعافنا فيمن عافيت، نعوذ بك من عضال الداء، وتولنا فيمن توليت وبارك اللهم لنا فيما أعطيت، وقنا واصرف عنا شر ما قضيت، إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت، الحقيقة إذا الإنسان دعا ربه هذا الأدعية النبوية يشعر بأعلى درجات القرب، فإذا الإنسان ماشي بالطريق مثلاً، وراكب مركبة عامة إذا شغل نفسه بالدعاء أو بالذكر، بالتسبيح أو الحمد أو الاستغفار أو التهليل، هذا شيء يبعث بالنفس المسرة.

ويقول هذا العالم الجليل يحيى بن معاذ أبو زكريا:إذا كنت لا ترضى عن الله، فكيف تسأله الرضى عنك، الله عز وجل قال:

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

(سورة المجادلة:22)

إذا أردت أن يرضى الله عنك فارضا عنه، ولا ترضى عنه إلا إذا عرفته، إذا عرفته، عرفت أسماءه الحسنى، عرفت حكمته، علمه عدالته، قدرته، رحمته، عندئذٍ ترضى عنه، عندئذٍ تقول كما قال الإمام أبو حامد الغزالي:ليس بالإمكان أبدع مما كان، تقول كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة وحكمته متعلقة بالخير المطلق، وهذه المقولة لو عقلناها لارتاحت قلوبنا.

قال يحيى بن معاذ:كم من مستغفر ممقوت، وساكت مرحوم قالوا كيف ؟ قال:هذا استغفر الله وقلبه فاجر، وهذا ساكت وقلبه ذاكر.

يعني في حالات يسبح بلسانه وعينه تنظر.

طيب محبتك لله عز وجل ما علامتها، المحبة الصادقة، الأصلية المحبة الخالصة، يعني الله عز وجل قال:

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

(سورة المائدة:54)

فما علامتك حبك لله الصادق قال هذا العالم:المحبة الحقيقية لا تزيد بالبر ولا تنقص بالجفاء. يعني إذا الله أعطاك الدنيا والمحبة زادت معناها أنت هذه المحبة مشوبة بالمصلحة، وإذا حجب عنك الدنيا أو قلل رزقك، أو ضيق عليك أو حجب عنك الأحوال، صار في جفاء، ولم تعد تحب الله عز وجل هذه المحبة إذاً لا قيمة لها، المحبة الحقيقية لا تزيد بالبر، ولا تنقص بالجفاء، هذه علامة الحب الصحيح.

أنا أقلب هذا الكتاب صفة الصفوة، وجدت هذه الأقوال رأيتها رائعةً جداً يمكن أن تعرض عليكم. قال:الرجال ثلاثة رجلٌ شغله معاده عن معاشه ـ الآخرة عن الدنيا ـ ورجل شغله معاشه عن معاده ـ غارق في الدنيا ـ ورجل مشتغل بهما جميعاً، قال:الأول فائز، والثاني هالك ـ والثالث ؟ الأول فائز، من اشتغل لأخرته وآثرها على دنياه، معرفة الله، مجالس علم، عمل صالح، استقامة، خدمة، دعوة إلى الله، طبعاً له حرفة، لكن جل وقته، جل اهتمامه، كل قلبه ملأن محبة لله، هذا اشتغل بآخرته عن دنياه، وإنسان غارق هذا لمصلحته بتجارته، بنزهاته، باحتفالاته، بزواجه، بتأسيس بيته، بتزيين بيته غارق في الدنيا، الغارق في الدنيا هالك، والغارق في الآخرة ناجي، أما الذي جمع بينهما، أنا أسألكم:سيد معتز:موقوف.

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (24))

(سورة الصافات:24)

سيد أحمد:فالح، قال:هذا مخاطر لعل الدنيا تجره إليها.

قال:من شغله معاشه عن معاده فهو هالك، ومن شغله معاده عن معاشه فهو فائز، ومن شغله معاده ومعاشه معاً فهو مخاطر.

يعني على حرف، لأن الدنيا تغر وتضر وتمر.

((إني أوحيت إلى الدنيا أن تمرري وتكدري وتضيقي وتشددي على أوليائي كي يحبوا لقائي، فإني خلقتها سجنا لأوليائي وجنة لأعدائي)).

(رواه البيهقي عن قتادة بن النعمان، تصحيح السيوطي:ضعيف)

فإذا المؤمن وجد هذا الطريق مسدود، وهذه الصفقة لم تصح له وهذا البيت لم يؤمن، وهذه السفرة لم تتيسر، لا يتبرم، لعل الله يحميه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام، لعل الله يحميه من الدنيا كما يحمي الراعي الشفيق غنمه من مراتع الهلاك.

يقول هذا العالم الجليل:يا بن آدم طلبت الدنيا طلب من لا بد له منها ـ بإلحاح، بإصرار، بتشبث ـ وطلبت الآخرة طلب من لا حاجة له بها.

يعني صليت شعرت شيء بالصلاة ما شي الحال، ما شعرت ماشي الحال، صمت صيام الأتقياء ماشي الحال، صيام المؤمنين ماشي الحال، صيام الناس العاديين ماشي الحال، ما في اهتمام، يعني أعمالك الصالحة إذا أحد كلفك، تتفضى لها، تبحث عنها، يعني في برود وفي فتور بأعمال الآخرة، أما الدنيا لا ينام الليل، إذا يريد الذهاب لرحلة يربط الساعة، لا ينام أبداً، هو يوقظ الساعة، لم ينام، أين النوم طار من عيونه، فهنا قال:يا بن آدم طلبت الدنيا طلب من لا بد له منها وطلبت الآخرة طلب من لا حاجة له إليها، والدنيا وقد كفيتها وإن لم تطلبها، والآخرة بالطلب منك تنالها فاعقل شأنك

يعني الله عز وجل قال :

(نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الزخرف:32)

وقال :

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39))

(سورة النجم:39)

هذه الآية دقيقة جداً، لو قلت لك لك ما سعيت، هل يمنع أن يكون لك ما تسعى، لا يمنع، لك هذا الكتاب، هل يمنع أن تكون لك هذه المسجلة لا يمنع، لو أن صاحب هذه المسجلة قلت له لك هذا الكتاب يقول لك وهذه لي أيضاً، أما إذا قلت له ليس لك على هذه الطاولة إلا هذا الكتاب معناها راحت من يده

((ليس للإنسان إلا))

هذا اسمه حصر، الله لم يقل، وإن للإنسان ما سعى، لا، قال

((وإن ليس للإنسان إلا ما سعى))

يعني ليس لك في الآخرة شيء إطلاقاً إلا الذي سعيت إليه، فلما الإنسان يهتم بالغ الاهتمام لما ضمن له، ويهمل ما كلف به.

حينما كنا في التجهيز الأولى، فهذه الثانوية أضخم ثانوية في القطر وكانت كالجامعة، تستقبل طلاب من كل المحافظات، فيها قسم داخلي في قسم مهاجع، وقسم للمطالعة، وفي مطبخ، الآن ابن خلدون، هذا مطبخ الثانوية كان، فخطر مرة في بالي مثل، أن طالب انتهى الدوام له أن يجلس في مهجعه ساعة أو ساعتين ليستريح، وبعدها يجلس للمطالعة ساعة أو ساعتين، وبعدها يأتي طعام الغذاء، طعام الغذاء فيه طباخين فيه موظفين، كل شيء جاهز، حينما يقرع الجرس يجد مكانه على الطاولة وأطباق الطعام، وكل ما يحتاجه، هو ترك دارسته الأساسية وجاء على المطبخ، البصلات فرموا ؟ هذه ليست شغلتك، حضرتم البقدونس ؟ أين السلطة، أين الشوربة، فترك مهمته الأساسية وهي الدراسة، وهو مكلف بها، وسيحاسب عنها، وذهب يهتم بشيء مضمون له، فإذا الإنسان عنده عشي يزفر يديه ؟

فالدنيا مضمونة والناس مهتمين، والآخرة مطلوبة والناس تاركين فهذا كلام، يا ابن آدم طلبت الدنيا طلب من لا بد له منها وطلبت الآخرة طلب من لا حاجة له إليها، والدنيا وقد كفيتها وإن لم تطلبها، والآخرة بالطلب منك تنالها فاعقل شأنك.

قال هذا العالم الجليل:مفاوز الدنيا تقطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تقطع بالقلوب.

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء:88 - 89).

يعني رأس مال الإنسان يوم القيامة قلبه السليم، لا في غش، لا في حقد، في محبة لله، في إخلاص، في توكل، في رضى، في استسلام، في تواضع، في حب للآخرين، في رحمة، في إنصاف رأس مالك قلبك والآية رائعة جداً

((يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم))

انتهى الوجه الأول من الشريط.

لا يفلح من شممت منه رائحة الرياسة، يلي يحب الزعامة، ويلي يحب يقود الناس، يحب أن يستعلي عليهم، ويحب أن يسيطر عليهم، هذا لا يشم رائحة القرب، الدليل :

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83)

(سور القصص:83).

هذه الدار الآخرة لا تنالها إلا إذا عزفت نفسك عن العلو في الأرض.

ويقول:للتائب فخر لا يعادله فخر، فرح الله بتوبته.

يعني مرة قال لي واحد أنت عرفان من دعا الناس لحضور الخطبة أنا لم أنتبه قلت له لا والله من دعاهم؟ قال لي الله دعاهم، قلت له كيف قال لي الله ما قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ)

(سورة الجمعة:9).

((معناها الله دعا الناس للجامع، وللصلاة، فالداعي هو الله، فبقدر عظمة الداعي يجب أن تتقن هذه الخطبة، طيب هذا التائب هل يعرف ما شرفه العظيم، شرفه العظيم أن الله يفرح بتوبته، شو قولك إذا أنت عملت عمل يفرح الله عز وجل، أن تتوب.

لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضال الواجد، ومن الظمآن الوارد.))

(عن ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة، تصحيح السيوطي:ضعيف).

تصور واحد عقيم وصل لليأس، وسيطلق زوجته، وهو يحبها حباً جما فإذا بها حاملة أو حامل أما حاملة، شو معنى حاملة ؛ على ظهرها، حامل ؛ في بطنها، حاملة على ظهرها في اللغة، كالعقيم الوالد، ومن الضال الواجد، ومن الظمآن الوارد.

قال:الليل طويل، فلا تقصره بمنامك، والنهار نقي فلا تدنسه بآثامك.

يعني من أمضى عمره بالنوم جاء يوم القيامة مفلساً، ما في واحد نام واستيقظ ووجد معه دكتوراه، نام واستيقظ ووجد نفسه أكبر تاجر، ما في أحد، نام واستيقظ وجد نفسه صاحب معمل، بدى سعي، حتى بالآخرة من أمضى حياته بالنوم جاء يوم القيامة مفلساً، فالليل طويل فلا تقصره بمنامك، والنهار نقي ؛ صافي متألق فلا تدنسه بآثامك.

في منجاة:يا ربِ لا يحل الليل إلا بمناجاتك، ولا يحل النهار إلا بخدمة عبادك.

يعني أجمل ما في النهار أن توفق لعمل صالح، أن تكون مصدر سعادة للآخرين، وأجمل ما في الليل مناجاة الله عز وجل، وأصحاب النبي كانوا رهباناً في الليل فرساناً في النهار.

قال:العاقل المصيب من عمل ثلاثاً، ترك الدنيا قبل أن تتركه.

تجد المؤمن قبل ما يموت بثلاثين سنة يفكر بالموت، بساعة المقابلة ساعة الحساب، ساعة الوقوف بين يدي الله عز وجل، ساعة مواجهة حضرة الله، ساعة المحاسبة، فقبل أن تتركه الدنيا تركها، قال لها غري غيري يا دنيا، طلقتك بالثلاث، إليك عني، أمدك قصير وشأنك حقير، وزادك قليل. فقال:العاقل ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره قبل أن يدخله.

هذا الصالح كان ينام يوم الخميس بالقبر، اشترى قبر وهو طيب وتركه مفتوح، كل خميس يزل ويجلس فيه، يتلو آية واحدة يقول :

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنين:99 - 100).

يقع بقلبه قومي فقد أرجعناك، تفضل اذهب واشتغل، قومي قد أرجعناك.

وأرضى ربه قبل أن يلقاه.

مادام قال له عبدي رجعوا وتركوك وفي التراب دفنوك ولو بقوا معك ما نفعوك ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت.

الآن إذا لك خدمة كبيرة لشخص وأصبح وزير، لك دالة عليه تدخل لعنده بدون إذن، أما بعد ما أصبح، أنت تقربت منه، يقول لك إني مشغول، لو لك خدمة كبيرة له قبل أن يصبح وزير موضوع ثاني صار.

قبل أن تلقى الله عز وجل لك معرفتك، لك استقامتك، لك محبتك له أعمال طيبة، فإذا جاء الموت، والنبي الكريم يقول:أن ملك الموت يأتي للمؤمن بأحب الناس إليه، من أحب شخص له بالدنيا يأتيه ملك الموت بصورة هذا الشخص، إكراماً له، لهذا اعرف الله في الرخاء يعرفك في الشدة.
ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا، طاعمة ناعمة يوم القيامة. ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين. ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم.
سيدنا عمر بن عبد العزيز انتقى عالم جليل وقال له أنت مرافق أنت معي دائماً، راقبني، انظر ماذا أفعل، ماذا أقول، فإذا رأيتني ضللت امسكني من تلابيبي وهزني هزاً شديداً، وقل لي اتق الله يا عمر فإنك ستموت، هذه وظيفتك، كن معي دائماً، وراقبني مراقبة دقيقة، فإذا رأيتني ضللت امسكني من تلابيبي، وهزني هزاً شديداً، وقل لي اتق الله يا عمر فإنك ستموت.
يقول:الدنيا خراب، وأخرب منها قلب من يعمرها، والآخرة دار عمران، وأعمر منها قلب من يطلبها.
إذا إنسان أخلص لله كيف أن الحكمة تجري على لسانه، هذه ثمار المعرفة، هذه خلاصة تجاربه في الدنيا، هذه خلاصة معرفته بالله عز وجل، وكل واحد منا إذا سار بصدق مع الله عز وجل ينطق لسانه بالحكمة، ويمتلأ قلبه بالحب.
قال:أخوك من عرفك بالعيوب، وصديقك من حذرك من الذنوب.
الذي يمدحك إنه يغشك، فإذا الإنسان نصحك قال لك هذا العمل غلط، هذا الخط غير صحيح، هذا التصرف لا يري الله، هذه العلاقة مشبوه، هذه السهرة ما بدك إياها، هذه التجارة دعها، إذا إنسان يحبك ينصحك، إذا لا يحبك يقول أعطيه جمله، ما شاء الله، أحسن شيء والله في أشخاص عندهم مجاملة، يمدحك على الدوام، بأي عمل، بأي تصرف بأي موقف، ما في أحسن من هيك، الله يوفقك، أما إذا كان مؤمن يقول له غلط هذا الشيء
قال:عجبت لمن يحزن على نقصان ماله كيف لا يحزن على نقصان عمره.
وأجمل ما في هذا الكلام.
قال:على قدر خوفك من الله يهابك الخلق.
علاقة عالية جداً، كأنه في علاقة مضطربة، كلما ازداد خوفك من الله ازداد خوف الخلق منك، أصبح لك مهابة، وكلما قل خوفك من الله قل خوف الخلق منك، المؤمن الله يعطيه مهابة كبيرة.
يقولون من هاب الله هابه كل شيء، ومن لم يهب الله أهابه الله من كل شيء، يخاف من آذن عنده، يخاف من طفل صغير، الله عز وجل جعل قلبه هواء، يخاف لنسمة، لحركة، لصوت، طبعاً الله عز وجل قذف في قلوبهم الرعب بما أشركوا، المشرك خائف دائماً.

فقال:على قدر خوفك من الله يهابك الخلق، وعلى قدر حبك لله يحبك الخلق.

كلما ازداد حبك لله ألق الله حبك في قلوب الخلق، يحبونك الناس يقولون نحبه، نفرح به، نأنس به، نحب أن نجالسه، نحب أن نعامله نحب أن نزوره، إذاً ما أخلص عبد لله عز وجل إلا جعل قلوب العباد تهفو إليه، والله رائع القول، وعلى قدر شغلك بالله يشتغل الخلق بأمرك كلما اشتغلت بالله أكثر، اشتغل الناس بأمرك يعني اعتنوا واهتموا وأعانوا والتفوا، إذا انشغلت في الدنيا انصرف الناس عنك، لذلك:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران:159).

أروع ما في القول، على قدر خوفك من الله يهابك الخلق، حتى الواحد مع زوجته، إذا كان طاعته لله عز وجل له هيبته بالبيت، إذا ما في طاعة لله يتكلم مع زوجته كلمة تردها له عشرة، ما له هيبة، وعلى قدر شغلك بالله يشتغل الخلق بأمرك.

قال:من قوة اليقين ترك ما يرى لما لا يرى.

أنت شايف الدنيا شايف بيوتها، شايف سياراتها، شايف مزارعها شايف متاجرها، شايف الأرصدة، الدنيا صارخة، حلوة خضرة، أما إذا كان شفت أعلى منها تتركها، الأعلى منها لا تراه، لكن بالفكر تراه العقل أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه.

قال:أيها المريدون، إذا اضطررتم إلى طلب الدنيا فاطلبوها ولا تحبوها، واشغلوا بها أبدانكم وعلقوا بغيرها قلوبكم، فإنها دار ممر وليست لدار مقر.

ناجى ربه فقال:ربِ إن غفرت فخير راحم، وإن عذبت فغير ظالم.

قال:يا رب هذا سروري بك خائفاً فكيف سروري بك آمناً.

الإنسان بالدنيا يخاف الله ومع أنه يخاف الله يشعر بسعادة، وهو في خوفه، الخوف نعمة لأنه، فهذه السعادة وهو خائف فكيف بها وهو آمن.

في شيء آخر:سئل ما العبادة ؟

قال:حرفة حانوتها الخلوة، وربحها الجنة.

الدكان الخلوة مع الله، وربحها الجنة، والواحد منا لا بد له من ساعة يناجي بها ربه، يستغفر، يحمد، يوحد، يهلل، يكبر، يقول الله الله، يفكر، يقرأ قرآن، لا بد من خلوة، فهذه العبادة حرفتها حرفة حانوتها الخلوة وربحها الجنة.

الآن مع صحابي جليل اسمه خبيب بن عدي :

هذا الصحابي الجليل الحقيقة تعرفون قصته، وأنا لم أذكره لتعاد قصته ولكن لفقرة من قصته ما ذكرتها لكم من قبل، ولها أهمية كبرى.

هذا الصحابي الجليل اسمه خبيب بن عدي بن مالك، قال شهد أُحداً مع النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان فيمن بعثه رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع بني لحيان فأسروه هو وزيد بن بفنة، فباعوهما من قريش فقتلوهما وصلبوهما بمكة بالتنعيم هذه ملخص قصتهم.

التفصيل:روى البخاري من حديث أبي هريرة قال بعث رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشرة أصحاب ليكونوا عيناً له، يبدو بعد موقعة بدر أصبح في توتر شديد، فأمر عليهم عاصم بن ثابت، حتى إذا كانوا بالهدى، موقع بين مكة والمدينة يقال له الهدى، بين عسفان ومكة، ذكروا لحي من هذيل، يعني قبيلة هزيل بلغها أن هناك عشرة من أصحاب رسول الله أرسلهم ليكونوا عيناً له، هؤلاء الحي من هذيل هم بنو لحيان فنفروا إليهم بقريب من مائة رجل رامٍ، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم التمر في منزل نزلوه، فقالوا هذا تمر يثرب، فاتبعوا آثارهم فلما أحس بهم عاصم وأصحابه لجئوا إلى موضع، فأحاط بهم القوم، فقالوا لهم انزلوا وأعطوا أيديكم لنا، ولكم العهد والميثاق ألا نقتل منكم أحداً، يعني عشرة فوجئوا بمائة فارس قد أحاطوا بهم، ومعهم السيوف والرماح والقسي ونادوا بهم أعطوا أيدكم لنا، ولكم العهد ألا نقتل منكم أحد، فقال أميرهم عاصم:أما أنا فلا أنزل بذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك، فرموهم بالنبل فقتلوا عاصماً في سبعة، ونزل إليهم نفر على العهد والميثاق، هم عشرة مات منهم سبعة، بقي منهم ثلاثة، هؤلاء الثلاثة صدقوهم، ألم يقولوا أعطينا أيديكم ولكم العهد والميثاق ألا نقتل منكم أحداً، صدقوا، هؤلاء الذي صدقوهم هم خبيب بن عدي صاحب هذه الترجمة، وزيد بن الدفنة ورجل آخر، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، ماذا فعلوا إذاً ؟ غدروا بأبشع أنواع الغدر، إنسان أمنته فلما صدقك غدرت به فقال الثالث وقد رأى غدرهم:هذا أول الغدر، فو الله لا أصحبكم إن لي بهؤلاء الذين سبقوني إلى الله أسوة حسنة، فجرجروه وعالجوه فأبَ فقتلوه بقي كم واحد ؟ اثنان، سيدنا خبيب بن عدي، وزيد بن الدفنة، قال باعوهما بمكة بعد وقعة بدر باعوهما أحراراً، هم أحرار فباعوهم عبيداً فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل خبيباً، بنو الحارث بمكة اشتروا خبيب، لأن أبوهم قتل ببدر فاشتروا خبيب لماذا ؟ ليقتلوه، وكان خبيب عندهم أسيراً قيدوه في غرفة من غرف البيت ثم أجمعوا قتله، هذا سيدنا خبيب استعار من بعض بنات الحارث موس، شفرة يعني، ليستحد بها فأعارته هذا الموس هنا القصة الجديدة، فدرج بني لها، ابن صغير درج نحو هذا الأسير، وهم في غفلة عنه، حتى أتاه، فوجدته مجلسه على رجله، سيدنا خبيب لما هذا الطفل الصغير قدم إليه، أخذه ووضعه على رجله، على حضنه يعني، طفل صغير، فلما رأته أمه فزعت فزعةً شديدة، لأنه هذا أسير وغداً سيقتل، وابنهم بحضنهم، ومعه موس اللازم أن يقتله، ففزعت فزعة شديدة، انتبه خبيب، قال أتخشين أن أقتله ما كنت لأفعل هذا، هم غدروا به، وباعوه أسيراً ليقتل، وها هو ذا ابنهم الصغير في حجره وبيده موس، فقال أتخشين أن أقتله ما كنت لأفعل قالت والله ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، يعلم علم اليقين أنه غداً

سوف يقتل، وأنه قبض عليه غدراً، والله لقد وجدته يوماً يأكل قطفاً من عنب في يده، وإنه لموثق بالحديد، وما بمكة من ثمرة، وكانت تقول:إنه لرزقٌ رزقه الله خبيباً، فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحل قال خبيب دعوني أصلي ركعتين فتركوه يركع ركعتين، قال والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع لزدت صلاةً، خاف أن يظنوا إذا أطال في الصلاة أنه خايف من الموت، فصلى صلاة عادية، وقال اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تبق منهم أحداً، وقال بيتين من الشعر :
واقتلهم بدداً ولا تبق منهم أحداً، وقال:

فلست أبالي حين أقتل مسلما   على أي جنب كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ   يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم قام إليه أبو سروعة، عقبة بن الحارث فقتله، وكان بإمكانه أن يقتل ابنهم الصغير، ويشفي غليله، لكنه الوفاء، لكنه الإخلاص.

قال سيدنا خبيب سن لكل مسلم يقتل صبراً الصلاة أن يموت، وأبو سروعة أسلم بالنهاية الذي قتله، وروى الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال سعيد بن عامر شهدت مصرع خبيب، وقد بضعت قريش لحمه، ثم حملوه على جزعةٍ فقالوا، هنا تعرفونها القصة، أتحب أن يكون محمد مكانك، قبل أن يموت، وضعوه على خشبة، وبدؤوا ينهشوا بالسهام والسيوف، قاموا جزء من لحمه قبل أن يموت، فقالوا أتحب أن يكون محمد مكانك، وأنت معافاً في أهلك، فقال والله ما أحب أن أكون في أهلي وولدي، وعندي عافية الدنيا ونعيمها ويصاب رسول الله بشوكة.

ويروى أن معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قال كنت فيمن حضر قتل خبيب، وقد رأيت أبا سفيان حينما دعا خبيب اللهم أحصيهم عدداً يلقيني إلى الأرض فزعاً من دعوة خبيب، يعني رجل لما دعا هذا الدعاء خاف أبا سفيان أن يصيبه دعاءه، فألقاني في الأرض وخشع وكانوا يقولون إن الرجل إذا دعي عليه فاضجع زالت عنه الدعوة، هذا كان وهم في الجاهلية، إنسان دعا على إنسان إذا انبطح لا تصيبه، هكذا فعل أبو سفيان.

أنا مرة قرأت قصة، ذكرتني بهذه القصة، كان في قصة بالمناهج التعليمية بالصف الحادي عشر، قصة أدبية بس واقعية، باخرة غرقت نجى منها قارب نجاة واحد فيه 76 شخص، وفيه كمية ماء بحسب تقدير قائد هذا المركب أن كل واحد لازم أن يشرب ملعقة ماء كل يوم حتى يكفي هذا الماء الـ 76 شخص حتى الشط، هؤلاء 76 شخص وصلوا إلى الشط ثلاث أشخاص فقط كل واحد يقتل أخوه عندما ينام أو يغفل ليشرب ملعقتين بدل ملعقة، انظر كيف مجتمع البعد عن الله، هذه القصة واقعية 76 شخص لو شرب كل واحد ملعقة ماء الكل يصلون، لكن الطمع بملعقة ماء دفعه لقتل أخيه.
أما أصحاب النبي عليهم رضوان الله كانوا في بعض المعارك عشرة جرحى، وجاء ساقي ليسقيهم،

فأول جريح قال له أسق أخي لعله أحوج مني، فانتقل للثاني فقال له اسق أخي، من واحد لواحد، إلى أن وصل على كل العشرة، فلما عاد لأول فقد مات، والثاني مات، كلهم ماتوا، وهو على وشك الموت وجاءه الماء، والجريح في أشد الحاجة إلى الماء آثر أخاه بالماء.

هذه تربية رسول الله، وهذا سيدنا خبيب كان بإمكانه أن يفعل ما يفعل لكن طهره ووفاءه لله عز وجل منعه من أن يغدر مع أنه ألقي القبض عليه غدراً، واشتراه من اشتراه ليقتله في اليوم التالي.

فلذلك هذه البطولات إذا الإنسان أخلاقي، وكان مطبق لمنهج الله عز وجل يشعر بسعادة لا توصف، هذا نمط من أصحاب رسول الله وهذه تربية رسول الله لأصحابه، هكذا، نحنا مثلاً بهذا الزمان المؤمن لا يكذب، لا يخون، لا ينظر لامرأة لا تحل له، لا يأكل قرش حرام لا يكذب، ولا يغش، ولا يدلس، لا يخفي عيب، الحد الأدنى هذا، يعني إذا لم نستطيع للبطولات العالية، البطولات المألوفة هي الاستقامة والعمل الصالح، لا تتألق إلا بطاعة لله عز وجل، الواحد حتى لا يغلب نفسه ولا يمضي عمره سُدى، إذا ما استقام استقامة تامة لن تفتح له أبواب السماء لن يذوق طعم القرب، لن يشعر بالسكينة، لن يشعر بثمار الدين، ثمار الدين كلها، السعادة النفسية، هذا الرقي، وهذه الطمأنينة كلها بطاعتك لله وجرب مع أن الله لا يجرب، لكن إذا أخلصت لله عز وجل حقاً، وتبت له توبة نصوحاً تعرف معنى القرب، معنى التجلي الإلهي على قلبك معنى السعادة، من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة .

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (023) :آداب التعامل بين الرجل والمرأة .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-11-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... حديث اليوم: عن أم المؤمنين صفية بنت حُيَيّ رضي الله عنها، قالت:
كان النبي صلى الله عليه وسلَّم معتكفاً في رمضان فأتيته أزوره ليلاً ـ المتكلمة السيدة صفية ـ فحدثته، ثم قمت لأنقلب إلى بيتي فقام معي ليردني إلى البيت، فمرَّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي عليه الصلاة والسلام أسرعا، فقال عليه الصلاة والسلام:

((على رسلكما ـ أي انتظرا ـ هذه صفية بنت حُيَيّ زوجتي))

ـ فقالا: سبحان الله يا رسول الله !!
ـ فقال عليه الصلاة والسلام

" ((. إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً أو شيئاً))

(رواه البخاري ومسلم)

هذا الحديث تعرفونه جميعاً، وأنا كثيراً ما أسترشد به، ولكن لي وقفة تحليلية أستنبط منه بفضل الله تعالى أحكاماً كثيرة.

قبل أن أشرع في شرح الحديث، بادئ ذي بدء النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((الزكاة في الأربعة: الحنطة والشعير والتمر والزبيب))

(من الجامع الصغير: عن " ابن عمر ")

نص الحديث يوحي أنه لا زكاة فيما سوى هذه المحاصيل

((الزكاة في الأربعة: الحنطة والشعير والتمر والزبيب))

الآن، في سؤال: الإنسان الذي يملك مزرعة حمضيَّات، وضمنها بمليون، ليس عليه زكاة ؟ والذي عنده مزرعة كرز، أو مزرعة تفاح، والذي عنده أعشاش عسل بكميات تجارية كبيرة، ألا تجب عليه الزكاة ؟ كيف نوفق بين نص الحديث وبين الأحكام الفقهية ؟ مَن يعرف الجواب ؟

الجواب الفقهي أن الفقهاء قالوا: لا تجب الزكاة في عينها بل في علتها، علتها أنها محصولٌ أساسي، محصولٌ ذو قيمةٍ كبيرة، إذاً من هذا يستنبط أن كلام النبي عليه الصلاة والسلام واسع الدلالة، هو ضرب مثلاً وذكر شيئاً، ويستنبط من هذا الشيء أشياء ن فتجب الزكاة لا في هذه المحاصيل الأربع، بل في علتها، وعلتها أنها محصول يدر على صاحبه دخلاً كبيراً، فالعلة واحدة في محصول الحمضيات، محصول العنب، التفاح، محصول القمح والشعير.

هذا ينقلنا إلى حديثٍ آخر، حينما قال عليه الصلاة والسلام:

((.والله ما آمن بي))

فقال أصحاب النبي عليهم رضوان الله: خاب وخسر ـ مَن هو ؟

قال:

((.من بات شبعان وجاره إلى جانبه جائع وهو يعلم))

(من الجامع الصغير: عن " أنس ")

وقد يقول قائل: أنا لا أعلم. نقول له: مَن لم يتفقد شؤون المسلمين فليس منهم، لكن فقط الجائع ؟ هل الجوع مثل الطعام والشراب ؟ إذا كان هناك حاجة إلى مأوى، حاجة إلى مسكن، حاجة إلى ملبس، حاجة إلى عمل. فأحياناً نعبر عن شدة الحاجة إلى هذا الشيء بالجوع، فنقول: فلان جائع إلى طلب العلم، مثلاً، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما قال:

((والله ما آمن بي))

فقال أصحاب النبي عليهم رضوان الله: خاب وخسر ـ مَن هو ؟ قال:

((".من بات شبعان وجاره إلى جانبه جائع وهو يعلم))

(من الجامع الصغير: عن " أنس ")

فإذا قسنا هذا الحديث الثاني على الحديث الأول، بأن المقصود ليس الشيء ذاته بل المقصود علته، إذاً حينما تجد جارك المسلم في حاجةٍ ماسةٍ إلى أي شيء، وأنت يتوافر عندك هذا الشيء، وحرمته منه، فو الله ما آمنت، فو الله ما آمنت، فو الله ما آمنت.

أردت من هذين الحديثين أن أنقلكما نقلة خفيفة، من نص الحديث إلى مضمونه، من ظاهر كلماته إلى فحواها، من المنطوق إلى المفهوم، فحينما قال الله عز وجل:

(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا)

(سورة الإسراء: من آية " 23 ")

المنطوق ؛ منطوق هذه الآية نهيٌ عن أن تقول كلمة (أف) لأمك ولأبيك، لكن المفهوم أن كل تصرفٍ فيه إيذاءٌ للوالدين منهيٌ عنه، أن تشد نظرك إليه كقولك (أف)، أن تغلق الباب، أن تغلق سماعة الهاتف مثلاً، أن تحدَّ النظر إليهما، هذا كله مما يفهم من قوله تعالى:

(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً (23))

من هذه الأحاديث حديث:

((الزكاة في الأربعة: الحنطة والشعير والتمر والزبيب "))

(من الجامع الصغير: عن " ابن عمر ")

والعلماء قالوا: لا تجب في عينها بل في علّتها، وحديث النبي عليه الصلاة والسلام:

((والله ما آمن، والله ما آمن، والله ما آمن من بات شبعان وجاره إلى جانبه جائع وهو يعلم))

مفهوم هذا الحديث أوسع بكثيرٍ جداً من مدلوله المحدود، أوسع من منطوقه، مفهوم هذا الحديث ؛ إذا كان أخوك المسلم بحاجةٍ إلى شيءٍ، وأنت يتوافر هذا الشيء لديك، ومنعته عنه، فلست مؤمناً، فلست مؤمناً، فلست مؤمناً.

لذلك حينما اخترت هذا الحديث، الذي تعرفونه جميعاً، وأنا كثيراً ما أردده، أردت أن نتوسع في فهم معناه، عن أم المؤمنين صفية بنت حُيَيّ رضي الله عنها قالت

((: كان النبي صلى الله عليه وسلم معتكفاً في المسجد في رمضان فأتيته أزوره ليلاً ـ وفي بعض الروايات: أتيت أجلب له طعاماً ـ فحدثته، ثم قمت لأنقلب، فقام معي ليردني إلى البيت))

الاستنباط الأول: لا ينبغي أن تتحرك المرأة وحدها، فيجب أن تكون معها، والدليل: حينما خرجت بنتا سيدنا شعيب ولقيهما سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام وقال:

(مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ)

(سورة القصص: من آية " 23 ")

أي نحن لا نزاحم الرجال، هذا استنباط أيضاً، امرأة تدخل في ازدحام، تدخل في مركبة الازدحام لا يحتمل، والله لأن تمشي على قدميها ولأن تتعب أفضل عند الله ألف مرة من أن تدخل بين الرجال في مركبةٍ عامة..

(قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23))

يعني علة وجودنا هنا أن أبانا شيخ كبير، ولولا أن أبانا شيخٌ كبير لما كان من المعقول أن تجدنا في الطريق.

فيستنبط من هذا الحديث الاعتكاف في رمضان، يستنبط وفاء الزوجة، خدمة الزوجة للزوج، يستنبط صون الزوجة من أن تكون وحدها في الطريق، من أن تتحرك في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل، من أن تنطلق وهي شابة وحدها إلى بيت أهلها.

فقالت السيدة صفية بنت حيي رضي الله عنها وهي أم المؤمنين

((فقام معي ليردَّني، فمرَّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم أسرعا.))

وهذا من أدب أصحاب رسول الله، أي:

((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))

(من الأذكار النووية: عن " أبي هريرة ")

من هذه التي معه ؟ دائماً في أسئلة فيها فضول، في أسئلة حشرية، كم المهر ؟ ماذا قدم لها في العُرس؟ ماذا ألبسها من الذهب؟ كم دخلك أنت ؟ كم تتقاضى على هذه الوظيفة ؟ هذا البيت اشتريته، أم هو مستأجر ؟ أسئلةٌ كثيرةٌ، كم ربحتم هذا العام ؟ أنت ليس لك علاقة بذلك. هو حر، يريد أن يعرف كم تربح، وأين تسهر، وهذا البيت ما وضعه، ووبكم استأجرته، ومتى استأجرته، ولماذا أنت فيه، وهل اشتريته ؟؟

((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))

(من الأذكار النووية: عن " أبي هريرة ")

و..

((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس))

(من الجامع الصغير: عن " أنس")

فهذان الصحابيان الأنصاريان حينما رأيا النبي عليه الصلاة والسلام أسرعا، فقال عليه الصلاة والسلام:

((على رسلكما ـ أي تمهَّلا ـ إنها ـ هناك روايات كثيرة ـ إنها صفية بنت حُيَيّ زوجتي، وإنها أمكم صفية))

فقال

((سبحان الله يا رسول الله))

أي أنهما ذابا من الخجل. أي اتهمك يا رسول الله، معاذ الله !! ـ فقال عليه الصلاة والسلام:

((إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وإني خشيت أن يخرج في قلوبكما شراً ـ أو قال ـ شيئاً))

(رواه البخاري ومسلم)

إذا أردنا أن نطبق هذا الحديث على القاعدة السابقة، أن كلام النبي عليه الصلاة والسلام له مفهومٌ وله منطوق، له معنى محدود بنص الحديث وله معنى واسع، فكيف نستنبط من هذا الحديث أحكاماً فقهيةً أخرى ؟ من عنده جواب ؟

شخص أعطاك مثلاً مبلغاً من المال قال لك: اشتري به لي هذه الحاجات، بعدما اشتريتها له وأنت في أعلى درجات الأمانة، قال لك: كم الثمن ؟ قلت له: طلعنا خلاص. لا يشك في أمانتك، لكن يا ترى كم الأسعار ؟ كم ثمن هذه الحاجة ؟ أنت أوقعت الشك في قلبه، أنت بريء، هنا النقطة الدقيقة أنك قد تكون في أعلى درجات النزاهة، وفي أعلى درجات الأمانة، وفي أعلى درجات الطُهر، وفي أعلى درجات الإخلاص، ومع ذلك ليس هذا هو المقصود، المقصود انطباع الناس عنك، فلو سلكت امرأةٌ عفيفةٌ سلوكاً يجر لها التهمة، واتهمها الناس بالفاحشة، لو إنها بريئة ؛ جلبت لنفسها متاعب لا تحصى، إذاً ليس

المقصود أن تكون بريئة أو غير بريئة، المقصود أن تَجُبَّ المغيبة عن نفسها، وهذا ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام:

((.رحم الله عبداً جب المغيبة عن نفسه))

لذلك، البطولة إذا أردت أن تتحرك، أو أن تتصرف، أو أن تسلك سلوكاً معيناً، دقق، هذا السلوك كم تفسير له ؟ إن كان له تفسير واحد هذا من أرقى أنواع السلوك، لا يستطيع خصومك، ولا أعداؤك، ولا حُسَّادك أن يجرِّحوا فيك. أما السلوك الذي يحتمل له تفسيران، يجب أن تبادر إلى توضيح التفسير الثاني.

يعني إنسان له محل تجاري بسوق مغلق، واضطر إلى أن يسافر في اليوم الثاني باكراً، ويحتاج إلى دفتر من هذا المحل، وجاء إلى السوق ليلاً، وفي للسوق حارس، ينبغي أن يوضح لهذا الحارس الذي لا علاقة له بهذا الموضوع: أنني جئت لآخذ هذا الدفتر من المحل فأنا في الغد مسافر، لأنه لو دخل دكانه ليلاً وله شريك، فهذا الدخول في الليل يثير الشبهات.

فأي عملٍ يمكن أن يفسَّر تفسيراً آخر، كأن تكون في محل تجاري، ودخلت عليك امرأة، فاستقبلتها استقبالاً حاراً، ولك أخ بالطرف الثاني قل له: هذه أختي. وإلا يسيء الظن بك، فإذا في استقبال غير استقبال الإنسانة العادية فلابد من التوضيح، وقد قيل: البيان يطرد الشيطان.

فدائماً المؤمن ليس شاكاً في نفسه بل هو يعرف نفسه علم اليقين، يعلم طهارته، ونبله، لكن المشكلة ما يأخذ الناس عنك من انطباعات، فلو سلكت سلوكاً شائناً، أو سلوكاً صحيحاً لكن يفسَّر تفسيراً آخر، يعني أنت كلَّفت أخو زوجتك بغيابك بالسفر أن يأتي إلى البيت ليتفقد أحوال أختك ـ زوجتك ـ ولك جيران، فإذا أعلمتهم أنني كلفت أخا زوجتي أن يتفقد أخته، هذا من الضروري، لأنهم إذا رأوا رجلاً لا يعرفونه دخل إلى بيتك في سفرك، ماذا يقولون؟ لو أنهم أخلاقيون لوقعوا في شك، لو أنهم غير أخلاقيين للاكتك الألسنة، ففي كل حركةٍ، في كل سكنةٍ، في كل تصرف بيّن الحساب، بيّن من هذا الذي تحدثه سراً، بيِّن من هذه التي رحبت بها، كلما بيَّنت أبعدت عن نفسك التُهَم، ومَن وضع نفسه موضع التهمة واتهمه الناس، فلا يلومن إلا نفسه.

أنت جالس عند صديقك بالمحل التجاري، ووراء الطاولة، ودرج الغلَّة مفتوح، ويلزمك صرف مائة ليرة، يمكن تضع المائة ليرة ثم تأخذ ما يقابلها، قد يراك أحدهم تأخذ من الدرج مبلغاً من المال، استئذنه: أتسمح لي أن أصرف مائة ليرة، أنت بريء مائة في المائة، ألف بالمائة، لكن حينما تفتح درج المال وتأخذ من هذا الدرج، ويراك إنسان أخذت ولم يرك قد وضعت، فأنت وضعت نفسك موضع التهمة، تريد أن تتصل بالهاتف قل له: أتسمح لي، لعل هي مخابرة خارجية، تصير، أريد أن أخبر فلان، أنت

دقيت طلعوا ثمانية أو تسعة أرقام بدلاً من ستة، أنت الرقم ما ظبت فأعدته مرة ثانية، فظنها مخابرة خارجية، قل له: سأخبر فلان في الحي الفلاني.

((فدائماً وأبداً حينما تطبِّق سنة النبي عليه الصلاة والسلام))

((على رسلكما هذه زوجتي فلانة.))

وانتهى الأمر، كن واضحاً، هذا ابني، هذا الشيء اشتريته أنا. أحياناً تدخل على محل تجاري ومعك بضاعة ليست من بضاعة هذا المحل، حينما تريد أن تأخذها وتخرج، يقال لك: إلى أين آخذها، ما دفعت ثمنها ؟ هذه ليست من هنا، فتجبه: هذه أنا اشتريتها، فإذا دخلت قل: هذه ليس من عندك. هذا يحدث. أحياناً تدخل على محل ومعك بضاعة من نوع بضاعة المحل، فإذا حملتها وخرجت، وكان لك هيبة، واستحيا صاحب المحل التجاري أن يقول لك: لم تدفع ثمنها، وهذه ليست من عنده. دائماً فكر: هل موقفي له تفسير آخر ؟ هل أنا متهم بهذا التفسير ؟

فهذه صفية التي حدَّث النبي عنها فقال:

((هذه صفية بنت حُيَيّ زوجتي))

قالوا: سبحان الله يا رسول الله !! النبي عليه الصلاة والسلام يعلم علم اليقين أنه أنقى من ماء الثلج، ويعلم علم اليقين أنه أطهر من الملائكة، ويعلم علم اليقين أنه معصوم، ومع ذلك خاف على أصحابه. وأنت أيضاً أيها الأخ، لك معاش محدود، جاءك مبلغ من مال من طريق الإرث، غيَّرت مصروفك، وغيرت، فظن الناس أن لك دخلاً غير مشروع، فبيِّن: أنا والله الله عزَّ وجل أكرمني بمبلغ من المال ورثته عن فلان، فإذا غيرت فرش البيت، أو أي شيء سيسألون: من أين أتى به هذا معاشه محدود ؟ دائماً بيِّن، البيان يطرد الشيطان، ولاسيما ومع الشركاء، ولاسيما مع الأقرباء.

قال: هذه صفية بنت حيي، كان النبي عليه الصلاة والسلام يرحم ضعفها، ويقوم لها مقام الأب الحنون والولد البار، والزوج الكريم، كانت معه في حجة الوداع، وقد علم أنها لم تطف طواف الإفاضة، وكانت في الحيض، فكاد يؤخِّر المسلمين جميعاً من أجل طوافها، تكريماً لها، وعطفاً عليها.

وقد تطاول عليها بعض نسائه، وتِهْنَ عليها بشرفهن ونسبهن، فعلَّمها عليه الصلاة والسلام أنه إذا تطاول عليها أحد من زوجاته أن تقول له

((أبي هارون، وعمي موسى، وزوجي محمد))

((. قال لها هكذا قولي لهن، وهي بنت حيي بن أخطب. فحينما تتيه عليها ضُرَّاتها كان عليه الصلاة والسلام يعلمها أن تقول لهن: قولي لهن))

((أبي هارون، وعمي موسى، وزوجي محمد.))

مرةً في مرض وفاته صلى الله عليه وسلم، كانت صفية تعاني من ألمٍ شديد لما ألمَّ بالنبي، فقالت له ببراءةٍ وبحبٍ وبإخلاصٍ: لو أن الذي تشكو منه كان بي يا رسول الله. أي أتمنى أن يكون هذا الوجع بي وليس بك، ضرَّاتها سمعن قولها، فتغامزن عليها، فعليه الصلاة والسلام،

((أمرهن أن يتمضمضن من قولهن فيها))

أي تكلمتن كلاماً فأغسلوا فمكم منه.

والكلمة التي قلتها البارحة حينما قالت السيدة عائشة: إنها قصيرة، فقال:

((يا عائشة لقد قلت كلمةٍ لو مزجت بمياه البحر لأفسدته))

إذاً هذه زوجة النبي عليه الصلاة والسلام.

الشيء الآخر الذي يستنبط: أن النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن التجسس ونهى عن التحسس.

((إياكم وسوء الظن فإنه أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا))

(من مختصر تفسير ابن كثير)

فالتجسس تتبع الأخبار السيِّئة، والتحسس تتبع الأخبار الطيبة، وأنت يجب أن تنصرف عن تتبع الأخبار كلها

((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس))

و..

((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه".))

الآن نريد أن نأخذ أمثلة مما يشير إليه هذا الحديث الشريف، أي أن النبي الكريم ما أراد من هذين الصحابيين الجليلين الأنصاريين أن يقعا في سوء ظن، فأوقفهما، وأخبرهما بأنها زوجته، لكن هل هناك موقف يدعو للتهمة، وقد تكون أنت بريئاً جداً يفيدنا فيه هذا الحديث ؟

((الخلوة بامرأةٍ أجنبية.))

أي إذا دخلت على بيت وليس فيه الزوج، ودخلت إلى غرفة الضيوف وقيل لك: انتظره هنا، وليس في البيت إلا أنت وهي، وأنت أطهر من ماء السماء وأنقى من الثلج، لو نجوت من فتنة الخلوة لا تنجو من سوء الظن بك، فلذلك مما يستنبط من هذا الحديث الشريف الذي قال فيه النبي

عليه الصلاة والسلام

((على رسلكما هذه زوجتي صفيَّة بنت حيي))

أنه لا يجوز أن تخلو بامرأةٍ أجنبيَّة، طبعاً لا يجوز لأنه لا يجوز، لأن النبي عليه الصلاة والسلام نهاك عن أن تخلو بامرأةٍ أجنبية.

فلو أنت في البيت وحدك، طرق الباب، جاءت أخت زوجتك، أنت في المهاجرين وهي قد أتت من الميدان، تفضلي والله غير موجودة، تفضلي، وأنت أنقى من ماء السماء، وأنت أنقى من ماء الثلج، إذا قلت لها: تفضلي، وبقيت في البيت وهي أخت زوجتك ؛ لا تحل لك، ولا أن تنظر إليها، ولا أن تجلس معها، ولا أن تكلمها فضلاً عن أن تخلو بها، فإذا قلت: والله استحييت، فإذا كان الأمر ضروري فقل: تفضلي واخرج أنت من البيت، ما في مانع، رأساً قال لها: تفضلي وأنا سأخرج، هذا استنباط.. النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((. إياكم والدخول على النساء))

(من الجامع الصغير: عن " عقبة بن عامر ")

والمقصود من هذا الحديث الخلوة بهن، وأكرر بشكلٍ دقيق: إذا نجوت من فتنة الخلوة بها لا تنجو من سوء الظن بك، و..

((رحم الله عبداً جبَّ المغيبة عن نفسه))

يقابلها بالمصعد. وقف المصعد وفيه امرأة وحدها، الأكمل لأنك مؤمن أن لا تخلو بها في المصعد، إن نجوت من الفتنة لا تنجو من سوء الظن، هذا يستنبط من على رسلكم

((هذه زوجتي ..))

((" وضّح.))

والحقيقة الشيء الذي يلفت النظر: أنه إذا خلوت بامرأةٍ من أحمائك، أي أخت زوجتك، هذه الخلوة مألوفة عند الناس أن هذه أخت زوجته، وابنة حماه، والمألوف عند الناس ما فيها شيء، فقال عليه الصلاة والسلام

((الحمو الموت))

وسأريكم الحديث، قال عليه الصلاة والسلام:

((إياكم والدخول على النساء. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أفرأيت الحَمْوَ ؟ ـ أي بنت حماي ـ فقال: الحمو الموت "))

(من الجامع الصغير: عن " عقبة بن عامر ")

والفاحشة التي وقعت في هذه البلدة بسبب التهاون بهذا الحكم، وقعت الفاحشة بين الأحماء بسبب التهاون بهذا الحكم.

وفي حديثٍ آخر يقول عليه الصلاة والسلام:

((إياك والخلوة بالنساء، والذي نفسي بيده ما خلا رجلاً بامرأةٍ إلا ودخل الشيطان بينهما، ولأن يزحم رجلٌ خنزيراً متلطخاً بطينٍ أو حمأةٍ خيرٍ له من أن يزحم بمنكبه امرأةً لا تحل له))

(من كنز العمال: عن " أبي أمامة ")

أعيد عليكم نصَّ الحديث:

((إياك والخلوة بالنساء، والذي نفسي بيده ما خلا رجلاً بامرأةٍ إلا ودخل الشيطان بينهما، ولأن يزحم رجلٌ خنزيراً متلطخاً بطينٍ أو حمأةٍ خيرٍ له من أن يزحم بمنكبه امرأةً لا تحل له))

(من كنز العمال: عن " أبي أمامة ")

مركز ضعف الرجل المرأة والمال، فإذا تحصَّن من أن يأكل مالاً حراماً، ومن أن يلتقي بامرأة لا تحل له، فقد تحصَّن من كل الجوانب، وأساساً خصوم الإنسان لا يستطيعون أن يصلوا إليه إلا من هذين البندين ؛ المرأة والمال.

في كتب الفقهاء من باب نظر الرجل إلى المرأة قولهم: يجوز نظر الطبيب إلى ما يحتاج إليه من المرأة الأجنبيَّة وقت علاجها، بشرط أن يكون معها زوجٌ أو ذو محرم، وبشرط ألا تكون ثمَّة امرأةٌ طبيبةٌ تحسن من العلاج ما يحسنه الرجل، مادام هناك طبيبة بمستوى الطبيب فالأولى الطبيبة، والأولى أن يكون الزوج مع زوجته، أو معها ابنها، أو أخوها، أو أبوها حينما يخلو بها الطبيب.

فيما يبدو أن العلاقات المالية تحتاج إلى توضيح، بيِّن الحساب، بين التفاصيل، هذه ثمن المواد، وهذه الأجرة، طلب منك رقم كبير، يا ترى أنت ببالك الأجرة ألف فظهر أنها بثلاثة آلاف الأجرة، المواد سألت عنها فرأيتها رخيصة جداً، وهنا غالية كثيراً، بين المواد والأجرة، بين التكاليف، أما كل حساب تأخذه خفيةً ولو كنت مُحِقّاً به، وما بينت، ربما يسبب هذا أن تتهم في أمانتك، فيبدو أن الإنسان في أكثر الحالات التي ينطبق عليها هذا الحديث ؛ العلاقات المالية، والعلاقات الاجتماعية ، فإذا كنت منزَّهاً، وهذه المشكلة.

درسنا اليوم نحن فيه لا نتحدث عن إنسان يعصي، ولا عن إنسان يعتدي على عرض الآخرين، ولا على إنسان يأكل أموال الناس أبداً، ليس هذا موضوع الدرس، موضوع الدرس المؤمن المستقيم، النظيف، المخلص، التقي، النقي، هذا إذا لم يبيِّن جرَّ لنفسه سوء الظن، مَن أنت؟ فالنبي عليه الصلاة والسلام الذي هو فوق الشبهات، وفوق التُهَم، وفوق الظن، وهو في أعلى عليين، وهو ذو الخلق العظيم، وهو العفيف، وهو الشريف، وهو ذو النسب، ومع ذلك قال لهما:

((هذه زوجتي "))

فالإنسان أحياناً يكون معه زوجته ويحدثها، فليسلك سلوك النبي، في ظروف الإنسان دخل هذا ابني مثلاً، هذه ابنتي مثلاً، وضِّح في العلاقات النسائية وفي العلاقات المالية، كل شيء وضحه، طبعاً لو كان ممكن تأكل مال حرام فهذه مشكلة، لكنني أنا أتحدث عن المؤمنين، أنا أتحدث عن المستقيمين، أنا أتحدث عن الأنقياء، عن الأتقياء هؤلاء مكلَّفون أن يفعلوا ما فعل النبي عليه الصلاة والسلام.

فمثلاً أنا كلّفني صاحب العمل أشتري المواد الأولية، سأضيف له على الفاتورة عطلتي، لكن سأدخلها مع المواد، لا، اكتب ثمن المواد واكتب أجرة جلب هذه المواد، لو سأل ووجد السعر أقل اتهمك بقلة الأمانة، أنت أضفت الأجرة، تضيفها مع الفاتورة ببند مستقل، ولا تضيفها مع المواد، كن صريح، ما عجبه لا يعجه، فالرزق على الله عزَّ وجل، أنا سأعطل يوم لتأمين حاجاتك، أنا يومي بمائة ليرة، أنا سأأمّن لك أفضل الحاجات بأرخص الأسعار. اتفق معه، كلما كنت صريحاً وواضحاً، أي اعمل تحت ضوء النهار ولا تعمل في الظلام ؛ لا خفية، ولا مواربا، ولا هارباً، ولا معتماً، ولا ضبابياً، بل كن صريحاً واضحاً.

((إياكم وسوء الظن فإنه أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا))

(من مختصر تفسير ابن كثير)

والتحسس تتبع الأخبار الطيبة، لكن لا شأن لك بها، والتجسس تتبع الأخبار السيئة، ومن كمال الإنسان عدم تتبعه للأخبار الطيبة وللأخبار السيئة في وقتٍ واحد.

أحياناً يكون الطريق مزدحم بالنساء في وقت العصر، ويكون الطريق كله يبيعون حاجات النساء، فإذا سرت من هذا الطريق، أيضاً جلبت لنفسك سوء ظنٍ بك، إذا كنت مضطراً أن تصل إلى أحد محلات هذا الطريق خذه عرضاً ولا تمش به طولاً، أيضاً تبرئةً لسمعتك، فهناك أماكن مشبوهة، ذات مرة واحد قال لشخص في بائع أحذية ممتاز في مدخل سينما، قال له: والله أستغني عن ألف حذاء ولا أدخل هذا المدخل أمام طلابي. فإذا دخل، هو دخل يشتري حذاء لكن ماذا يقول طلابه لو رأوه ؟

يعني مثلاً دائماً هذه النقطة مهمة جداً، وأتمنى على الله سبحانه وتعالى أن ينظر الإنسان في هذا الموضوع جليلاً، لأن أكثر التهم، والأراجيل، والأقوال السيئة، ما في إنسان ما له خصوم، ما في إنسان ما له حسَّاد، ما في إنسان ما له أعداء، ودائماً أعداء الدين يسلطون الأضواء الكاشفة على المؤمن، فإذا زلَّت قدمه، إذا وقع في غلطٍ طفيف، نشروا هذا الخطأ، وكبَّروه، وروَّجوه، وأرجفوا به، حتى يشوهوا سمعة المؤمنين، لذلك الله عزَّ وجل قال:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة النور: من آية " 19 ")

يعني يحب أن تشيع الفاحشة، فأنت ممكن تمنع خصومك وحسَّادك وأعداءك من أن ينالوا منك بتطبيق السنة، وممكن تتساهل قليلاً، فتتهم بتهمٍ أنت غنيٌ عنها.

((إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم))

كل إنسان معه قرين من الشيطان، ففي ساعة غفلة يأتي الشيطان ويوسوس له، هذا الذي ينصحك أنظر ماذا يفعل **!!** فأنت إذا نصحت الناس كن دقيق جداً، كن ورع جداً، كن فوق الشبهات حتى لا تخلق عند

المستمع اختلال توازن، فأصعب شيء بالحياة أن يختل عندك المثل الأعلى، اهتزاز المثل الأعلى من أصعب مِحَن الإنسان، تكون أنت ظانن بهذا الإنسان خير، ويهتز هذا المثل، هو قد لا يهتز لكن يهتز لو أن هذا المثل ما طبَّق سنة رسول الله.

وأعيد وأكرر: أكثر ما نحتاج إلى هذا الحديث في النواحي المالية، وفي النواحي النسائية، ومادمت قانعاً بهذا الدخل، ومادمت تأخذ حقك الثابت، لا تستحي بحقك، سجله وأبلغه وأعطيه، أما الحسابات غير الواضحة، غير الدقيقة، المعمَّاة، المغطَّاة، سيدي طلعنا خلاص، ماشي الحال، خير إن شاء الله هذا كله كلام عام، هو دافع لك ثمن الحاجة قل له: هذه كلفت هكذا، فيها حاجات كذا، واضح، كن واضحاً ونم على ريش النعام ـ كما يقولون ـ

أكثر نقطة أتمنى على الإخوان الكرام أن يعقلونها في هذا الحديث: أن كلام النبي عليه الصلاة والسلام فيه إشارات، وفيه دلائل واسعة جداً، فأنت ليس من العقل، ولا من الحكمة أن تفهم الحديث فهماً محدوداً، أي إذا قال لك:

((واللهِ ما آمن، والله ما آمن، والله ما آمن. من بات شبعان وجاره إلى جانبه جائع وهو يعلم))

معنى ذلك أنه أي إنسان مسلم بحاجة إلى الشيء، وهذا الشيء متوافر لديك، يجب أن تبذله له، لتكون مؤمناً، أما أن تَقْصُرَهُ على الطعام فقط !! أعرف أباً عنده بيوت كثيرة، وابنه يتضور، يتلوَّى على غرفةٍ يسكنها، فو الله ما آمن، لو صلَّى هذا الأب، بيوت فارغة وابنه من صلبه، لو أنه صلى وصام وزعم أنه مسلم.

((واللهِ ما آمن، والله ما آمن، والله ما آمن. من بات شبعان وجاره إلى جانبه جائع)

فهمنا هذا الحديث فهماً موسعاً، كما فهمنا أن الزكاة تجب في الشعير والقمح والزبيب والتمر، والعلماء قالوا: تجب في علتها لا في عينها، فأي محصول زراعي في عليه زكاة، وأي إنسان بحاجة لشيء في عليه زكاة، وأي شبهة يمكن أن تنسحب عليك وضِّحها وبينها، ولا تنسوا هذا القول الدقيق: البيان يطرد الشيطان.

في إنسان طبعه سكوتي، وهذا السكوتي يُتَّهم كثيراً، حركاته كلها بدون توضيح، تصرفاته كلها بدون توضيح، فمثل هذا الإنسان تأتيه متاعب كثيرة جداً من سكوته، في موطن السكوت سكوت شيطان، وفي موطن التكلم تكلم شيطان، فالحكيم مَن يحسن الكلام في موطن الكلام، والسكوت في موطن السكوت.

والشيء الثاني: أي موضوع الخلوة بالمرأة الأجنبية موضوع له علاقة ماسَّة بهذا الحديث، فإذا نجوت من فتنة الخلوة، لا تنجو من فتنة سوء الظن، والحمو.

((الحمو الموت))

أي لا نسمح للزوجة أن تلتقي مع إخوة زوجها، ولا للزوج أن يلتقي مع إخوة زوجته، لأن طبيعة القرابة تسبب، أو تتيح للإنسان التكلُّم، والنظر، والمزاح، وكما قال النبي

((الحمو الموت.))

والإنسان بعد ذلك يقول لك: والله أستحي، مع النساء الأجنبيات إذا كان موقفك هكذا قاسي أو جاف أكمل، امرأة فإذا ابتسمت لها، وإذا سألتها عن صحتها، وعن أهلها، صار في حديث، صار في مشاعر مشتركة وأنت لا تملك قلبك، هنا ما في لباقة، اللباقة معه الرجال، لكن المرأة الأجنبية لا تحل لك، سؤال وجواب، ما في كلمة أروع من كلمة سيدنا موسى..

(فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ)

(سورة القصص: من آية " 25 ")

قبل ذلك، لما رأى امرأتين تزودان ماذا يقول لهما ؟..

(مَا خَطْبُكُمَا)

(سورة القصص: من آية " 23 ")

لو درست اللغة العربية كلها، أو أية لغة، ما وجدت كلمة أشد إيجازاً، وأشد جدية، وأشد وضوحاً، وأشد اختصاراً وإيجازاً من هذه الكلمة، من الآنستين مثلاً ؟ صار في..

(مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ)

هي لما جاءت قالت:

(إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ)

انظر لدقة الآية..

(إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا)

لماذا لم تقسِّم الكلام ؟ والله إن أبي يدعوك، فيقول هو: خير إن شاء الله، ما المناسبة؟ ما أتاحت له أن يسألها وأن يجيبها..

(إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا)

هذا الكلام للنساء إذا اشترين من البائعين لا يجب أن يقلن: راعينا، وجيرانك، وزبائنك، وقلبك قاسي علينا، هذا لا يجوز..

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (32))

(سورة الأحزاب)

فهذا الكلام اللطيف، وتكسر الكلمات، والاسترحام، والاستعطاف بين رجل وامرأةٍ أجنبية هذه فتنة كبيرة جداً، فالمؤمن ما في عنده كلام لين زائد، وكذلك ليس جفص، يتكلم كلام معروف لا يعني شيئاً من كلامه.

فموضوع العلاقات المالية، والعلاقات مع النساء، والخلوة بالمرأة الأجنبية، والحمو، هذه كلها حالات تنسحب على قول النبي عليه الصلاة والسلام، ولا تنسوا أن هذا الحديث يستنبط منه الاعتكاف، وخدمة الزوجة، ورعاية الزوجة، وعدم السؤال عما لا يعني، فمرَّ أنصاريان، فلما رأيا النبي أسرعا، والنبي وضَّح وبيَّن، وهو يعلم أنه معصومٌ ونقيٌ، لكن لئلا يتيح للشيطان أن يأتي هذين الصحابيين فيلقي فيهما شيئاً عن النبي عليه الصلاة والسلام، و.. " رحم الله عبداً جبَّ المغيبة عن نفسه ".. والبيان يطرد الشيطان. وهذا الحديث له نص وله فحوى، فحواه أن توسِّعه على كل شيء.

يعني ملخَّص الدرس: إياك أن تسلك سلوكاً له تفسيران، التفسير الأول طيب، أما التفسير الثاني سيئ، فأعداؤك، وخصومك، وحسادك يختارون التفسير الثاني، فإذا كنت بطلاً لا تسمح لأعمالك، وأفعالك، وتصرُّفاتك أن تفسَّر غير التفسير الذي هو واقع فعلاً، وطبعاً فهمكم كفاية. ضربت مثل واثنين وثلاثة وخمسة، لكن أنت ممكن أن تطبق الحديث على آلاف الحالات.

قلت لكم هذه النقطة: أنت تريد أن تصرف مائة ليرة من عند صديقك قل له: اصرفها لي، ولا تفتح الدرج لوحدك، قال لك: اجلس في المحل، وهذا المحل يمكن يكون له شريك سيئ الظن فلا ترضى، دائماً ممكن يسيئوا الظن فيك ؟ إذا ممكن لا ترضى، ابقى أنقى من ماء السماء، وقلنا لكم كلمة: ليست العبرة أن تكون أنت نقياً، ليست هنا المشكلة، الحديث عن المؤمنين، العبرة ألا تؤخذ عنك فكرة سيئة، لأن أنت رأس مالك سمعتك، هذا هو عرض الإنسان، عرض الإنسان موضع المدح والذم فيه، فإذا هو تساهل في هذه النقطة، سبب للمسلم، أنا والله لا أبالغ آلاف القصص سمعتها لا أصل لها، لكن سببها أن أخاً كريماً تصرف تصرفاً من دون دقة، فخصومه وأعداؤه فهموا الجانب الآخر، فروجوا بين الناس. أنا الآن لو أردت أن آتي بقصص كثيرة جداً، ولكن اخترت ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام، دائماً كن في الدرجة الأولى من النزاهة والنقاء

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (024) :الحب الإلهي.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-11-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... قبل أن أشرع في شرح بعض الأحاديث الشريفة التي اخترتها لكم من كتاب الجامع الصغير، لابد من مقدمة تلقي ضوءً على محور هذه الأحاديث، المقدمة

هو أن الإنسان له جانب عقلي وجانب نفسي، لأن غذاء العقل هو العلم، وأن غذاء القلب هو الحب، والذي لا يُحِب أو لا يُحَب ليس من بني البشر، إذا كنت تنتمي إلى بني البشر لابد من أن تُحِب، ولابد من أن تُحَب، السؤال الآن أن تحب شيء واقع، هذه حقيقة لا يستطيع إنسان على وجه الأرض أن ينكرها، لأن هذا من جبلة الإنسان، ولكن المشكلة مَنْ تُحب، المشكلة كلها مَن الذي هو أهلٌ أن تحبه ؛ زوجتك، أولادك، عملك، الدرهم والدينار، الشهوات، الملذَّات، المباهج، لابد من أن تحب لأنها فطرتك، لأنها جبلّتك، لأنها طبيعتك، ولكن السؤال الدقيق: مَن هو أهلٌ أن تحبه ؟

بادئ ذي بدء كل شيء فانٍ ليس أهلاً أن تحبه، لسبب بسيط لأنه فانٍ، لأنك إذا تورَّطت وأحببته غاب عنك في أدق اللحظات، " لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لكان أبو بكر خليلي، ولكن أخ وصاحب في الله " فلما الإنسان يتورط، أقول يتورط في حب غير الله، فقد غامر وقامر بحياته، وقد ضل ضلالاً مبيناً، وقد ضل سواء السبيل، وقد اتجه إلى طريق مسدودة، وقد انطلق في هاويةٍ ما لها من قرار، لسبب بسيط ؛ لأن الذي أحببته لن يدوم لك، هذا أول سبب. فأحب الباقي ودع الفاني، أحب الذي يدوم إلى الأبد، ودع الذي ينتهي عند الموت، ألم يقل عليه الصلاة والسلام:

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارق، واعمل ما شئت فإنه مجزيٌ به))

(الدر المنثور في التفسير المأثور)

حتى أن هذا الإنسان الذي طرق باب سيدنا عمر ليشكو زوجته، فسمع صراخاً في بيت عمر، فعاد أدراجه، سيدنا عمر سمع طرق الباب، انطلق ليفتح الباب، رأى رجل قد ابتعد، فناداه:

ـ يا أخَ العرب تعال، لماذا طرقت الباب وابتعدت ؟

ـ قال: جئتك أشكو مما أنت منه تشكو. ماذا أشكو لك، فتشكو أنت من المشكلة نفسها.

ـ قال: يا أخَ العرب هذه الزوجة إما أن تفارقنا وإما أن نفارقها.

فليست شيء أبدي، دارها تعش بها، كذلك فهو حل معقول، الحياة لا تدوم ؛ فشيء من المداراة، شيء من التساهل، شيء من التنازل، منك شيء، منها شيء، التقوا في منتصف الطريق، فالقضية انحلت، فمَن مؤهل أن تحبه ؟ الله سبحانه وتعالى، هذا أول موضوع.

أول قسم بالدرس: لماذا يجب أن تحب الله ؟ لأنه باقي، ولماذا يجب ألا تتورط في حب الدنيا ؟ لأنها زائلة، فمَن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار، بلوى وجعل الآخرة دار عقبى.

في سبب آخر: لأن المخلوق مهما علا شأنه لا يستطيع أن يدفع عنك ضراً ولا أن يجلب لك نفعاً. لو كنت أقرب الناس إلى فلان، وصار في مرض عضال، يبعث لك باقة من الورد، يموت يبعث له إكليل، هل هناك غير ذلك ؟ يبكي، والله تأثرنا لمرضك، لكن هل يقدر مخلوق يتدخل ليشفيك ؟ لا يقدر، لأن الله عز وجل باقٍ على الدوام، هو الذي ينبغي أن تحبه، الشيء الثاني: لأن ما سوى الله لا يستطيع أن يجلب لك نفعاً ولا أن يدفع عنك ضراً..

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ)

(سورة فاطر: من آية " 14 ")

إذاً يجب أن تحب الله لأنه باقٍ على الدوام، ولأن أمرك كله بيده، النقطة الثانية في الدرس: يا ترى المُعَوَّل عليه أن تحبه أم أن يحبك ؟ أن تحبه شيء طبيعي وبديهي، لأنه المنعم، ولكن الشيء الذي يسعدك أن يحبك هو، إنسان عندك، وأعطيته منحة كبيرة فأحبك، ما له فضل بهذا الحب، ولكن إذا رأيت منه عملاً أخلاقياً رائعاً تضحية إيثاراً الآن تحبه، فمحبتك له بعطائك إياه محبة ابتدائية، أما إذا وقف موقفاً أخلاقياً، وقف موقفاً مخلصاً الآن تحبه محبةً لها نوعٌ خاص.

درسنا اليوم: يا ترى إذا أنت أحببت الله عز وجل لأنه يغزوك بنعمة، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((أحبوا الله لما يغزوكم به من نعمة))

وقال: أحبوني بحب الله وأحبوا آل بيتي بحبي، إذا أحببت الله عز وجل لما يغزوك به من نعمه، ماذا يقتضي حبك لله عز وجل ؟ أن تلتزم أمره ونهيه، الآن إذا طبقته أمره تماماً أحبك الله، فالسؤال اليوم: هل عندك دليل على أن الله يحبك ؟ في الحديث الشريف طائفة من أقوال النبي عليه الصلاة والسلام فيها إشارةٌ إلى الآن الله إذا أحبك أراد بك الخير، وإذا أراد بك الخير فعل معك كذا وكذا وكذا، وهذا محور درسنا.

يقول عليه الصلاة والسلام:

((إذا أراد الله بعبد خير جعل غناه في نفسه))

(من الدر المنثور: عن " أبي سعيد الخدري ")

أنت عالم، هذه النفس البشرية خُلِقت للأبد، عالم زاخر بكل شيء..

أتحســب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

* * *

فإذا كنت غنياً في نفسك، إذا كنت مؤمناً بربك، إذا كنت صادقاً مع نفسك، إذا كنت أميناً على من ائتمنك، إذا كنت محباً لمن خلقك، إذا كنت صابراً، إذا كنت ذاكراً، إذا كنت شاكراً، إذا كنت متوكّلاً، إذا كنت مستسلماً، إذا كنت مفوِّضاً، أنت دولة، إن إبراهيم كان أمة، في شخص بألف، بمليون، بألف مليون، بمائة ألف مليون، النبي عليه الصلاة والسلام أقسم الله بعمره، فقال له:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72))

(سورة الحجر)

الله عز وجل خاطب النبي فقال:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4))

(سورة القلم)

الله عز وجل قال:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4))

(سورة الشرح)

لا يذكر الله عز وجل وإلا ويذكر معه النبي، وأنت أيها المؤمن لك نصيبٌ من هذه الآية، فإذا أنت أخلصت لله عز وجل إخلاص جيد، وأحببت الله حباً صحيحاً صداقاً، وانطلقت لخدمة الخلق لكي يرضى عنك رب الخلق، إذا كنت كذلك، الله عز وجل يرفع لك ذكرك بقدر إيمانك، بقدر إخلاصك، أي أنك إذا أحببته ألقى حبك في قلوب الخلق، إذا أحببته فيما بينك وبينه ألقى حبك في قلوب الملائكة، فإذا أحببته وانطلق لسانك بذكر نعمائه، ألقى حبك في قلوب بالخلق، إذا خفته ألقى في قلوب الخلق الخوف منك، صار لك هيبة، إذا اشتغلت به اشتغل الناس بك، بمعنى حديثهم أنت، إذا اشتغلت به اشتغل الناس بك، إذا أحببته أحبك الناس، إذا هبته هابك الناس، إذا خفته خافك الناس، معادلة دقيقة جداً، ومعادلة رياضية، بالثواني لا بالدقائق، إذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله، إذا أردت أن تكون أغنى فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، فقال

((إذا أراد الله بعبد خيراً جعل غناه في نفسه.))

غني، إن جلست معه تحسه منتش، مُمْتَلئ، في عنده معنويات عالية بشكل لا تصدق، من أين هذه المعنويات ؟ تصور شخص يعمل عند ملك، دخل على الملك، قابله، والملك ابتسم بوجهه، أثنى على ذكائه، منحه شيء، يطلع ماشي بالعرض، ابتسامته إلى هنا، منتشي، يشعر بمكانة علية، إذا كان إنسان عادي أقوى من الآخرين، له مكانة عند الآخرين، الله جعله فوقهم، خصك بابتسامة، أو بنظرة، أو بمصافحة حارة، أو بهدية، أو أثنى عليك، فتجد أنك تنتشي، هذا انتشاء مزيف، أما إذا شعرت أن خالق الكون يحبك، وأنك بعينه، وأنك برعايته، هذه معنويات، هذه إذا أراد الله بعبد خيراً جعل غناه في نفسه.

وإذا كان هذا الإنسان امتلأ قلبه حباً للدنيا، قد يجعل غناه في دفتر شيكاته، فيقول لك: أنا معي شيك مفتوح، لكن هذا لا ينفعه، حين يأتي الأجل، وهذا لا ينفعه، إذا أراد الله المعالجة، إذاً أنت غنيُ بماذا، غني بممتلكاتك، أم غني بنفسك ؟ المؤمن غني بنفسه، غير المؤمن غني بممتلكاته.

لذلك، من علامات قيام الساعة أن قيمة المرء في آخر الزمان متاعه، ولكن المؤمن قيمته في معرفته بربه، وفي تطبيقه لمنهجه، وفي حبه له، قال و:

((إذا أراد الله بعبدٍ خيراً فقَّه في الدين))

(الدر المنثور في التفسير الماثور)

أي أن رتبة العلم أعلى الرتب، إن الله عالم يحب كل عالم، الفرق الدقيق بين الإنسان وبين غير الإنسان هو العلم، قف عند قصاب يقول هذه الكلاوي يا أستاذ، هذا الكظر، هذه الكبد، هذه المعدة، أمعاء، عضلات، عظام، أوتار، دماغ في خروف، نخاع، سودة، أي في كبد، البُنيا واحدة، يجوز يكون حيوان أقوى من الإنسان، يجوز يكون أضخم، أوزن، أسرع، بصره أدق، النسر ثماني أمثال بصره، الكلب، قرأت أن شمه مليون ضعف شم الإنسان، يكفي أن تعطيه بعض أدوات المتهم حتى يميز رائحته من بين الملايين، بالشم الكلاب أقوى، بالبصر النسور أقوى، بالسمع القطط والكلاب أدق سمعاً ؛ يتعرفون إلى الزلازل قبل وقوعها، وبعض الدواب كذلك، في خفة الحركة القطط، في سرعة الجريان هناك الغزال، فأي حيوان، لحكمة أرادها الله عز وجل، جعله يتفوق على الإنسان، إلا الإنسان بالعلم والخُلُق، فإذا تخلَّف في عقله وفي أخلاقه، كان دون مستوى الحيوان، وهذا الذي قاله الله عز وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7)

(سورة البينة)

و..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (6))

(سورة البينة)

الإنسان المؤمن خير ما برأ الله، والكافر شر ما برأ الله

((إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين))

بالمناسبة أي علم ممتع، لو تعلمت تاريخ العصور البيزنطية، فيه متعة، أي علم تقرأه ؛ تاريخ، جغرافية، فيزياء، كيمياء، رياضيات، فلك، تقرأ تشريح بعض الحيوانات، أي علم ممتع، هناك علم ممتع ونافع، إذا كان معك اختصاص، الناس في أمس الحاجة له، تطلب أرقام غالية جداً، مختص بالكومبيوتر، ونحن بحاجة له، تطلب بالشهر ثلاثين ألف مثلاً، وفي علم ممتع، في علم ممتع نافع، أما العلم الديني ممتع نافع مسعد، لا في الدنيا فحسب بل في الدنيا والآخرة

((فإذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين وزهده في الدنيا، وبصره بعيوبه))

، هذه كلها مقاييس، أي إذا أردت أن تعرف أيحبك الله عز وجل ؟ أيريد بك خيراً ؟ فقهك في الدين، أي جمعك مع أهل الحق، جعل قلبك يهفو إلى المساجد، جعل المسجد مأواً لك..

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً (16))

(سورة الكهف)

الكهف في آخر الزمان هو المسجد، أنت أويت إلى بيت الله، حيث معرفة الله، حيث آياته، حيث سنة نبيه، حيث سيرة أصحابه، فلذلك إذا أراد الله بعبدٍ خيراً فقهه في الدين، وبالمعنى المعاكس ؛ إذا أراد به شراً، يريد خمسة نجوم، يريد عرس بمكان فخم، يريد حفلة مختلطة، يريد نادي ليلي، يريد حيث الخمور، وحيث الزنا، وحيث الفسق والفجور، فالناس رجلان برٌ تقي، وفاجر شقي، فالمؤمن يأوي إلى بيوت الله، وغير المؤمن يأوي إلى أماكن اللهو والطرب، الحديث جداً دقيق:

((إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين وزهده في الدنيا وبصره عيوبه))

(الدر المنثور في التفسير الماثور)

الآن:

((إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه))

(الجامع الصغير)

دائماً في تفكير، في حساب مع نفسه، يا ولد لا تذهب هذا المذهب، واعظ من نفسه، هذه الصفقة لا تريدها فيها شبهة، فلان لا تزوره هذا إنسان ضال مضل، فلان زره، دائماً إذا أراد الله بعبد خيراً في عنده وعظ داخلي يأمره وينهاه، هذا الواعظ هو المَلَك، أنت بين إلهام مَلَكٍ ووسوسة شيطان، تأكد أن حركتك اليومية إما بوحي من مَلَك أو بوسوسة من شيطان، فإذا كنت مع الله قيَّد الله لك ملكاً يلهمك رشدك، وإذا كنت مع الشيطان ـ لا سمح الله ـ قيد لك قريناً يوسوس لك كل فعل سيئ..

(وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ)

(سورة النمل: من آية " 24 ")

الشيطان يريك المعصية متألّقة، يريك أكل مال الناس مغنماً، وذكاءً، يريك العدوان بطولة، يريك الانغماس في الشهوات ذكاءً، هكذا، هذا الذي دعاه النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

((اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه))

(مختصر ابن كثير)

إذاً:

((أراد الله بعبد خيراً جعل غناه في نفسه))

(الدر المنثور في التفسير المأثور)

و..

((إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين، وزهده في الدنيا، وبصره عيوبه "))

(الدر المنثور في التفسير المأثور)

و..

((إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه))

(الجامع الصغير)

في عنده محكمة داخلية، في عنده ميزان داخلي، هو في ميزان والله لو نطبقه، أنا أقول لإخواني: هذا الميزان الذي قاله النبي عليه الصلاة والسلام لو طبق، والله لمات القضاة من الجوع، ولأغلقت المحاكم كلها، ما هو الميزان ؟ قال:

((عامل الناس كما تحب أن يعاملوك))

هذه كنتك التي بالبيت، هل تعاملها معاملة كما تتمنى أن يعامل زيد ابنتك وهي عنده ؟ عندما تعامل أم زوجتك معاملة، أتنتظر من زوجتك أن تعاملها بهذه المعاملة ؟ أترضى من زوجتك أن تسخر من أمك ؟ لماذا تسخر من أم زوجتك ؟ لو طبقت هذه القاعدة في العلاقات الاجتماعية، في العلاقات المالية، في البيع، في الشراء، في كل شيء، عامل الناس، وأقول لكم ولا أكتمكم: أن الإنسان إذا استخدم مقياسين سقط من عين الله، مرة كنت بمحل تجاري، فالابن حمل، فقال له أبوه: أوعك بابا ظهرك. لم ينتبه، بعد دقيقتين أو ثلاثة عنده صانع، حمله، حمله، حمله، فقال الصانع له: سيدي !! فقال له: أنت شاب، مازلت في أول حياتك. لم ينتبه لحاله، ابنه خاف على ظهره، أما الصانع مازلت شاب، مقياسين، حينما تقيس الأمور بمقياسين انتهيت كإنسان، سقطت من عين الله، يجب أن تقيس الأمور كلها بمقياسٍ واحد: عامل الناس كما تحب أن يعاملوك هذا كيف طبقه النبي ؟ جاءه أعرابي قال:

ـ يا رسول الله إذن لي بالزنا. دجها وبدون مقدمات مرة واحدة، فالصحابة قاموا إليه، قال:

ـ دعوه، تعال يا عبد الله اقترب مني. بالمنطق، قال له: يا عبد الله أتحبه لأمك ؟ يا لطيف احمر وجهه:

ـ أعوذ بالله !!

ـ قال له: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، أتحبه لأختك ؟ أتحبه لزوجتك؟ أتحبه لابنتك ؟ يكفي.

ـ يقول: دخلت على رسول وليس شيء أحب إلي من الزنا، وخرجت من عنده وليس شيء أبغض إلي من الزنا.

فعلى مستوى شاب، إذا كان أطلق بصره بفتاة، هذا الشاب نفسه لو رأى شاباً آخر يحدق في أخته، يمكن يغلي، هذا المقياس، هذا المقياس لو طبقناه بحياتنا لا يوجد عندنا ولا مشكلة، ما عندنا ولا قضية، ما عندنا ولا معضلة، ينتهي كل شيء، أنت واقف وراء الطاولة أمام موظف، أنت موظف أمامك

مراجع، لو كنت مكانه أترضى أن يقول لك: تعال غداً وبعد غد، تخلق له مشكلة، عقبة، تخوفه، ترضى تكون محله، لا ترضى، أنت بائع، أترضى لو كنت شارياً أن تغش ؟ أن يدلّس عليك، لا ترضى هذا المقياس: عامل الناس كما تحبك أن يعاملوك.

فلذلك، إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظ من نفسه يأمره وينهاه.

و..

((إذا أراد الله بعبد خيراً عسله، وقيل ما عسله ؟ ـ ليس طعمه عسل، لا ـ قيل: وما عسله ؟ قال: يفتح له عملاً صالحاً قبل موته))

(الجامع الصغير)

يرزقه عمل صالح ؛ إن في الدعوة إلى الله، إن في هداية الناس، إن في خدمتهم، إن في بناء المساجد، إن في إطعام اليتامى، إن في رعاية الأرامل، إن في تأمين الشباب في بيوت، إن في تزويج الشباب:

((إذا أراد الله بعبد خيراً عسله، قيل: وما عسله ؟ قال: يفتح له عمل صالحاً قبل موته ثم يقبضه عليه))

و..

((إذا أراد الله بعبدٍ خيراً صيَّر حوائج الناس إليه))

(الدر المنثور في التفسير المأثور)

وهذا مقياس أيضاً، إذا أراد الله بعبد خيراً صير حوائج الناس إليه، فالإنسان لا يضجر، إذا الله عز وجل سمح لك أن تخدم خلقه هذا شرف عظيم نلته، وهذه مرتبة عالية تفضل الله بك عليها، ولو شاء لصرفهم عنك إلى غيرك، والآية المُخيفة:

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38))

(سورة محمد)

لا تتدلل كثير: يا أخي لا أرتاح. لا ترتاح، الدنيا للعمل، هموم، والهموم كلها مقدسة، حامل هموم كبير جداً، كلها هموم مقدسة، لا تمن على الله عز وجل..

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (17))

(سورة الحجرات)

الآن، إذا شخص جاء على وليمة ولم يأكل، أتينا، أما إذا أكل فيقول: كثر خيرك، دائمة إنشاء الله، على هوى إذا أكل شيء، وإذا لم يأكل شيء آخر، إذا كان وضعوا له صحون وما في طعام، معالق وصحون، وانتظر ساعات، وبعد ذلك خرج، تجده يقول: لقد أتينا يا سيدي. يمن عليه، أما لو أكل لا يمن عليه، بالعكس شكروا..

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (17))

(سورة الحجرات)

إذا كنتم صادقين في طلب الإيمان، ذقتم حلاوة الإيمان، عندئذٍ لا تمنون على الله بل الله يمن عليكم، " إذا أراد الله بعبد خيراً صير حوائج الناس إليه "

وقال:

((إذا أراد الله بعبد خيراً عاتبه في منامه))

(الجامع الصغير)

الإنسان الصادق، إذا كان في طريق غلط، يرى مناماً فيه تحذير، معنى ذلك أنه غالي على الله، فالعتاب في المنام، صير حوائج الناس إليك، طهره قبل موته، عسله، فقهه في الدين، زهده في الدنيا، بصَّره بعيوب نفسه، جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه، جعل غناه في قلبه، هذه كلها من علامات حب الله لك، وهذا مقياس، تجد الشخص يعمل تحليل يجد في القائمة النسبة الطبيعية، يرى النسبة عنده الكولسترول ثلاثمائة وخمسين، والطبيعية مائة وخمسة وعشرين، تجده يقول: والله زيادة، الأحاديث كلها معايير طبيعية، هكذا المؤمن، فإذا أنت طُبِّقت عليك هذه الصفات فاشكر الله عز وجل، ما طبقت في شيء آخر.

قبل أن ننتقل إلى السيرة أقرأ عليكم مرة أخيرة الأحاديث:

((إذا أراد الله بعبد خيراً جعل غناه في نفسه))

(من الدر المنثور: عن " أبي سعيد ")

غني..

و..

((إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين، وزهده في الدنيا، وبصره عيوبه))

و..

((إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظا من نفسه يأمره وينهاه))

و..

((إذا أراد الله بعبد خيراً عسله، قيل: وما عسله ؟ قال: يفتح له عملاً صالحاً قبل موته ثم يقبضه عليه))

و..

((إذا أراد الله بعبدٍ خيراً طهره قبل موته))

و..

((إذا أراد الله بعبد خيراً صير حوائج الناس إليه))

و..

((" إذا أراد الله بعبد خيراً عاتبه في منامه))

في حديث أخير:

((إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا))

يعني ثوب أبيض في عليه نقطة، رأساً تنظف، أما ثوب أصله أزرق من الشحم والزيت والوحل صار أسود، أسكب عليه لتر حبر لا يبين، ما في مشكلة، إذا واحد كله ذنوب، كله انحرافات، لا يشعر على شيء، أما النقي الطاهر لو كلمة قالها بلسانه، قال لها:

((يا عائشة لقد قلتي كلمة لو مزجت بمياه البحر لأفسدته "))

قالت له عن السيدة صفية: قصيرة، هذه الكلمة قالتها.

فإذا واحد شعر أن الله عز وجل يراقبه كلما غلط، تأتيه ضربة، يفرح لذلك.

سيدنا ابن حذافة، الذي حدثتكم عنه في الدرس الماضي، كان قائداً لسرية فيها ثمانون من أصحاب رسول الله، وقد وقعوا في أسر هرقل، وكيف أن هرقل ملك الروم عذَّبهم، ووصل إلى رئيسهم، أو إلى قائدهم ابن حذافة، وعرض عليه أن يتنصَّر، أو أن يضعه في بقرةٍ من النحاس فيها زيتٌ مغلي، وكيف أن ابن حذافة، هذا الصحابي الجليل، قال: والله لا أفعل. فجاء برجل ووضعه أمامه في هذه البقرة فانفصل جلده عن لحمه فوراً.

ثم عرض عليه أن يزوجه ابنته، وأن يجعله شريكه في الحكم على شرط أن يتنصَّر، فأبى فقال: والله لا أفعل.

ثم جاءه كتاب من سيدنا عمر يأمره أن يطلقه سراحه، قال: قبِّل رأسي وانطلق، قال: والله لا أفعل. إلى أن قال له: قبل رأسي وخذ كل أصحابك. فقال له: أما هذه فنعم، وقبَّل رأس هرقل، ولما بلغ عمر ما فعل، قام أمام أصحابه جميعاً وقبَّل رأسه إكراماً له.

هذا سيدنا ابن حذافة، كان في القسطنطينية، في استنبول حالياً مقر هرقل، وفي القسطنطينية رجل عربي كان ملك من ملوك الغساسنة، وفي القسطنطينية رجل مقيم مع هرقل كان ملكاً من ملوك الغساسنة اسمه جبلة بن الأيهم الغساني، من آل جفنة، آخر ملوك الغساسنة في بادية الشام، عاش زمناً في العصر الجاهلي، وقاتل المسلمين في دومة الجندل، وحضر معركة اليرموك، وهو على أطراف الجزيرة، ثم أسلم، وجاء المدينة في عهد سيدنا عمر بن الخطاب، مَلِك جاء المدينة وقد أعلن إسلامه،

سيدنا عمر رحَّب به، وقرَّبه منه، فهذا لا يزال عقليته عقلية مَلِك، فلما كان في الطواف ـ والقصة تعرفونها جميعاً الآن نأخذ تتمتها ـ

فلما كان في الطواف يبدو أن بدوياً من قبيلة فزارة داس طرف ردائه، الذي كان يجر وراءه، فلما داس طرف ردائه انكشف عن كتفه، فالتفت وهو ملك إلى هذا البدوي، وضربه ضربة هشَّمت أنفه، هذا البدوي ليس له إلا عمر، توجه إلى سيدنا عمر يشكو جبلة بن الأيهم الملك الغساني، يقول: فلطم جبلة عينه أو أنفه. فأمر عمر بالاقتصاص منه.

ـ فقال: يا أمير المؤمنين أوعينه مثل عيني !! هو من سوقة الناس، أنا ملك، عينه مثل عيني ؟! والله لا أقيم في بلدٍ علي به سلطان، فهاجر إلى بلاد الروم مرتداً، لأنه رفض أن ينفذ حكم الله. ضرب أنف هذا البدوي فهشمها، فلما أمر عمر أن يضرب أنفه، رفض.

أحد الشعراء صاغ هذا الحوار ببعض الأبيات فيقول له:

ـ يا ابن أيهم ما ادعا هذا الفزاري الجريح ؟

ـ فقال ابن الأيهم: لست ممن يكتم شيئاً، أنا أدَّبت الفتى، أدركت حقي بيدي.

ـ قال له: أرض الفتى لابد من إرضائه، مازال ظفرك عالقاً بدمائه، أو يهشمن الآن أنفك، وتنال ما فعلته كفك.

ـ قال: كيف ذاك يا أمير، هو سوقة وأنا عرش وتاج ؟!! هذا من عامة الشعب، وأنا ملك، كيف ترضى أن يخر النجم أرضا ؟!

ـ يقول له عمر: نزوات الجاهلية ورياح العنجهية قد دفناها، أقمنا فوقها صرحاً جديداً، وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيدا.

ـ قال له جبلة: كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندي أقوى وأعز ـ محسب حالي أقوى عندك من هذا المقام ـ أنا مرتدٌ إذا أكرهتني.

ـ فقال عمر: عنق المرتد بالسيف تحز، عالم مبني، كل صدع فيه بشذى السيف يداوى، وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى.

وارتد إلى بلاد الروم، واستقبله هرقل، وقرَّبه، وأعطاه قصراً وأسكنه فيه، وتنصر.

سقت هذه القصة لأن الإنسان أحياناً بساعة غضب يرتكب حماقة يدفع ثمنها طوال حياته، وأحياناً يدفع ثمنها بعد مماته، وأحياناً يخلَّد النار بسبب موقفٍ غير صحيح، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((ألا رب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً))

(من الجامع الصغير: عن " أبي الجبير ")

يصنفون المجرمين مع الأغبياء، لأنه بساعة من ساعات الغضب قتل إنسان، فمكث ثلاثين سنة بالسجن، غبي، غبي جداً، لذلك النبي قال: لا تغضب، ودائماً الإنسان المستقيم لا يصل إلى مواقف حرجة، فهذا ارتدى ثوباً طويلاً، وهذه مخالفة للسنة، بالخطأ داس هذا البدوي طرف الثوب، انخلع من كتفه، انزعج، التفت فإذا بدوي، ضربه ضربة هشمت أنفه، البدوي شكاه إلى عمر، وعمر يقيم الحق، فالناس عنده سواسية كأسنان المشط قال النبي الكريم:

((والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها، إنما أهلك الناس الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد))

(رياض الصالحين)

فهذا التمييز بالمعاملة هذا يوجب الهلاك للأمة، أن الشريف لا يحاسب إذا سرق والضعيف يحاسب.

ابن حذافة رضي الله عنه كان في القسطنطينية، ويبدو أنه كان قبل الإسلام على علاقة مع جبلة بن الأيهم، أراد أن يزوره فلعله يعيده إلى حظيرة الإسلام، فالآن زاره في القسطنطينية في قصره المنيف، يقول له ابن حذافة:

ـ ويلك يا جبلة، إن قصرك هذا لأجمل من القصر الذي يقيم فيه هرقل!!

ـ قال: أجل، ذاك قصرهم القديم وهذا قصر جديد.

ـ يقول له ابن حذافة: متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب.

سيدنا عمر بن العزيز كلما دخل إلى مجلس الخلافة يقول:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (207))

(سورة الشعراء)

ـ يقول له جبلة: هات ما عندك، فليس بيننا أحد.

ـ يقول له ابن حذافة: بلغني أن هرقل قد تغيَّر عليك.

ـ فقال جبلة: أفلهذا رغبت في زيارتي ؟

ـ يقول له: نعم، لا تبتئس يا جبلة، فلعل الله قد أراد بك خيراً في ذلك.

ـ فقال جبلة: أي خير يا أبا حذافة ؟!

ـ فقال: وما يمنعك من الرجوع إلى قومك والإسلام. عد إلى دينك، عد إلى أمّتك، عد إلى قومك، عد إلى المدينة.

ـ قال: أبعد الذي قد كان !! بعد الموقف مع سيدنا عمر.

ـ قال له ابن حذافة: قد ارتد الأشعث بن قيس، ثم رجع للإسلام. في أمثلة أخرى.

ـ فقال جبلة: شتان ما بيني وبين الأشعث، الأشعث لم يلحق بقيصر مثلي، ولم يتزوَّج ابنته، قيصر زوجه ابنته لجبلة.

ـ ابن حذافة قال له: بلغني أنك لست معها على وفاق فلمَ لا تطلقها ؟

ـ فقال: أطلقها وهي ابنة القيصر ؟!

ـ قال له: ولم لا، وقد هجرتك ونشزت عنك.

ـ فقال له: وكيف أعيش بعد ذلك ؟ من أين إذا طلقتها ؟ تحمل الهوان.

ـ قال له: تعني الرزق الذي يجريه عليك قيصر ؟

ـ قال له: نعم.

ـ قال له: سنفرض عليك عطاءً من ديوان المسلمين.

ـ فقال: هل أجد عندكم هذه العيشة ؟ هنا في رفاه كبير جداً، فقد آثر هذا الرفاه على كرامته.

ـ فقال ابن حذافة: هذه عيشة الملوك يا جبلة، وليس في الإسلام ملوك، ولكنك سوف تعيش بيننا حراً كريماً، لا يتعبدك أحد ولا يمن عليك أحد.

ـ قال له جبلة: إذا ليلطمني أعرابي جلف من بني فزارة ؟!!

ـ قال له: ذلك الحق يا جبلة ولا غضاضة على أحد، أن يؤخذ منه الحق، ألا تحب يا جبلة أن تقيم في أرض تسوده كلمة الحق ؟

ـ قال: تلك آفة الملوك يا ابن حذافة، لا يستطيعون إن عزلوا أن يعيشوا ملوكاً، ولا أن يعيشوا سوقة، فيضيعون بين ذاك وذاك، قال له: لو أن عمر ولأني الشام لكفاني هذا الهوان

ـ فقال: ما كان لعمر أن يوليك شيئاً من أمور المسلمين وأنت ترى أنك ملك عليهم وهم سوقة. ما نضجت، لست أهلاً أن تكون ملكاً عليهم.

ـ قال له جبلة: أتضمن لي يا ابن حذافة أن عمر يقبلني إن عدت إليه ؟

ـ قال له: نعم.

ـ قال له: بعد كل هذا الذي صنعته معه ؟

ـ قال له: نعم، إنه لا يملك أن يردك.

ـ فقال له: ويزوجني إحدى بناته.

ـ قال له: ويزوجك إحدى بناته.

ـ قال له: وتضمن لي ذلك ؟

ـ قال له: نعم.

ـ قال له: وأين أسكن، في خصٍ كالخص الذي يقيم هو فيه ؟

ـ قال له: ويحك يا جبلة ستكون واحداً من المسلمين لك ما لهم وعليك ما عليهم.

ـ قال: يا ليتني أستطيع أن أفعل هذا يا ابن حذافة.

ـ قال له: وما يمنعك ؟

ـ قال له: المصير الذي كتب عليّ.

أرأيت إلى أهل الشرك دائماً: الله مقدر علي ذلك، دائماً المذنب المنحرف يتهم الأقدار، قال له: هذا مصيري هكذا الله كاتب علي.

ـ قال له: كلمة واحدة تقولها يا جبلة، ويتغير هذا المصير كله.

ـ قال له: هيهات يا ابن حذافة، إني أعرف بنفسي منك، ولكن لي رجاءٌ حبذا لو قبلت. طلب منه أن يتزوج ابن حذافة ابنته، فذهب إلى ابنته وقال:

ـ يا بنيتي إن ابن حذافة يريد الرجوع إلى المدينة، وقد رجوته أن يحملك معه، فيزوجك هناك مَن هو جديرٌ بك من فتيان العرب ـ فابن حذافة رفض أن يتزوجها ـ

ـ قالت له: امرأتك الرومية يا أبي هي التي أوعزت إليك ذلك ؟

ـ ضاع فقال جبلة: إنك تعلمين أني لست معها اليوم على وفاق.

ـ قالت: فعلامَ تريد أن تقصيني عن القسطنطينية، لترميني في الصحراء ؟

ـ فقال: إنها ليست صحراء، إنها مدينة عامرة.

ـ قالت وردة: أنسيت يا أبي ما كنت تحدثنا بالأمس، ألم تقل لي: أن أمير المؤمنين يقيم في خصٍ حقير لا ترضاه أنت لخدمك وعبيدك ؟ ذكرته بالكلام السابق.

ـ فقال لها جبلة: إنه عمر بن الخطاب زاهد في الدنيا

ـ قالت: كلا، بل تريد أن تقصيني عنك، تريد أن تقبرني كما قبرت أمي من قبل. وصارت تبكي.

ـ قال جبلة: لا والله، إنك لأغلى الناس عندي، وما كنت لأصبر على فراقك، ولكنني أخاف عليك.

ـ قالت له: مما ؟

ـ أن يتزوج علج من علوج الروم.

ـ فقالت له: ما بالك، تريد أن تزوج عمتي عالية واحداً منهم.

ـ قال: يا وردة ـ اسمها وردة ـ قيصر أكرهني على ذلك ـ ليس لي خيار ـ وطلبها مني، وأخاف أن يزوجك هو أحد علوج الروم.

أنا ذكرت التفصيلات لأن: الإنسان لما قال عليه الصلاة والسلام:

((مَن أقام مع المشركين برئت منه الذمة))

(الجامع الصغير)

صار تحت رحمتهم، وتحت ضغوطهم، يمرِّغون به الوحل، ويضغطون عليه، فساعة غضب شيطاني جعلته يعيش هذه العيشة البعيدة والتي فيها إهانة لكرامته.

في نقطة دقيقة جداً...

ـ يقول له: تلك المحنة التي ليس لي بها يد، فبالله عليك يا ابن حذافة إن سألوك عني فقل لهم إني سعيد في بلاد الروم، أعيش في هذا القصر المنيف، كما يعيش قيصر الروم بل أكرم وأعز، إحكِ لهم ما رأيت عندي من الجواري والكراسي من الذهب، والطنافس والحرير، والطيور المغردة، احكِ لهم كل ذلك، ولا تحك لهم عن شيئاً من ذلي وهواني وعذابي في هذه الديار.

فالذي أتمناه على كل مسلم أن يعرف أنه إذا بقي مع دينه، ومع إسلامه، ومع طاعة ربه، ومع إقباله على الله، ومع تطبيقه منهج ربه، في قصة طويلة فيها كثير من التفصيلات، نقلت لكم هذه التفصيلات: زوجوه امرأة تأمره وتنهاه، ونشزت عنه، واستعلت عليه، وهجرته، وأمروه أن يزوج أخته لعلجٍ من علوجهم، وهو يخاف على ابنته أن يتزوجها واحد منهم، وهو في ذل، كرامته في الوحل، هذا كله ما جناه، لذلك هذه القصة يمكن أن تكون ترجمة تفصيلية لحديث رسول الله الذي ورد في الجامع الصغير:

((من أقام مع المشركين فقد برئت منه الذمة))

(الجامع الصغير)

فأنت انكشفت، كنت مغطى، فكشفت، كنت في ظل الله، فانكشفت، كنت تحت رحمة الله، فانكشفت، فالإنسان عليه دائماً وأبداً أن يبقى مع منهج الله عز وجل.

أيها الإخوة الأكارم... القصص تعلمنا الشيء الكثير، فالسعيد من اتعظ بغيره لا من اتعظ بنفسه، فكلما قرأت قصة، وهذه قصة قديمة، هذا جبلة بن الأيهم الملك الغساني، كان ملكاً في بلاد الغساسنة، وحارب المسلمين في مواقع عديدة، في دومة الجندل، ثم اهتدى إلى الله، وجاء إلى المدينة، وطاف حول الكعبة، وفي ساعة غضب، ساعة ثأر، ساعة حُمق، ساعة ثأرَ لكرامته، فارتكب هذه الأحموقة، فهشم أنف الأعرابي، احتكما إلى عمر، أمره أن يرضيه قال له:

ـ أرض الفتى لابد من إرضائه لو أرضيته انتهى الأمر، ما زال ظفرك عالقاً بدمائه وإن لم ترضه أو يهشمن الآن أنفك وتنال ما فعلته كفك، فلم يتحمل.

ـ قال: كيف ذاك يا أمير هو سوقة وأنا عرش وتاج، كيف ترضى أن يخر النجم أرضاً ؟

ـ قال له هذه نزوات الجاهلية ورياح العنجهية، قد دفناها، أقمنا فوقها صرحاً جديداً، وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيدا.

ـ قال له: كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى وأعز، أنا مرتد إذا أكرهتني.

ارتد وذهب إلى بلاد الروم، وتزوج بنت قيصر، وعاش في هذا الذل والهوان، هو تأمره أن يرسل ابنته إلى الصحراء، تأمره أن يفعل كذا، فدائماً وأبداً: أرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حباً، الله عز وجل أعطانا عقل، وبهذا العقل نستطيع أن نحكم، والنبي الكريم يقول:

((إذا أردت إنفاذ أمر تدبر عاقبته))

قبل أن تقدم عليه، قبل أن تقدم على هذه التجارة، قبل أن تقدم على هذا الزواج، قبل أن تقدم على هذا السفر، قبل أن تقدم على هذا الطلاق، قبل أن تقدم على هذه الشراكة، تدبَّر عاقبتك، دائماً ليكن عملك وفق المنهج الإلهي، دائماً ليكن عملك وفق ما أراد الله، لا وفق ما تريد، أقول لكم كلاماً صحيحاً:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123))

(سورة طه)

والله الذي لا إله إلا هو ما من إنسان ضالٍ على وجه الأرض إلا بسبب خروجه عن منهج الله، وما من إنسان شقيٍّ على وجه الأرض إلا بسبب خروجه عن منهج الله، وهذه الآية من آيات الله الدالة على عظمته:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123))

(سورة طه)

و..

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

(سورة البقرة)

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: من آية " 9 ")

اجعل هذا القرآن حَكَماً في زواجك، في عملك، في حرفتك، في سفرك، في إقامتك، في غضبك، في رضاك، في عطائك، في منعك، في كل أحوالك، فالإنسان إما أن يتَّبع أمر الله وإما أن يتعظ، هذا عبد الله بن جحش زوج مَن ؟ زوج رملة بنت أبي سفيان، كان معها في الحبشة، تنصر، وعاقر الخمر، ومات مرتداً، فلذلك الإنسان عندما يتّبع شهوته انتهى، أما إذا حكم عقله نجح، والعقل هو كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((إنما الدين هو العقل، ومَن لا عقل له لا دين له))

فكما قلت لكم: إذا كان أخ في مغنم كبير من سفر، ولكن على حساب دينه، لا يسافر، وإذا في مغنم دنيوي كبير على حساب استقامته وعلى حساب انضباطه الشرعي لا يسافر، لأن الآخرة خير لك من الأولى، الله عز وجل قال:

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (4) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (5) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7))

(سورة الأعلى)

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15))

(سورة الأعلى)

قد أفلح وردت في أربع مواطن:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14))

(سورة الشمس)

و..

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14))

(سورة الأعلى)

و..

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2))

(سورة المؤمنون)

هذا هو الفلاح، أن تأتي الله بقلب سليم.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (025) :أحكام الحسد في أمور الدنيا والآخرة وحب العلو.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-12-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... الحديث اليوم حديثٌ موجز، وقد تكون البلاغة في الإيجاز، وإيجاز النبي عليه الصلاة والسلام من نوع الإيجاز الغني، فقد قال عليه الصلاة والسلام، فيما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))

(رواه البخاري ومسلم)

وكلكم يعلم أن أعلى درجات الحديث ما اتفق عليه الشيخان ؛ الإمام البخاري، والإمام مسلم. في رواية أخرى أوردها الإمام احمد في مسنده، يقول:

((لا يبلغ عبدٌ حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير))

الحقيقة الإيمان قد يوجد، ولكن قد يكون غير كافٍ لنجاة صاحبه، فأي إنسانٍ أقرَّ بوجود الله فهو مؤمن، ولكن يا تُرى هذا الإقرار وحده يكفي ؟ لا يكفي، فإذا قال عليه الصلاة والسلام: " لا يؤمن أحدكم... " قد يكون مؤمناً ولكن لا يؤمن الإيمان الذي يجعله يرقى في درجات القرب، لا يؤمن الإيمان الذي ينجيه من عذاب الله، الإيمان واسع جداً، دائرةٌ واسعةٌ جداً، فإذا أقررت أن الله تعالى موجود فقد دخلت فيها، ولكن لابد من التحرك إلى مركزها، في مركزها الأنبياء، حول الأنبياء الصديقون، كبار المؤمنين، فلا يؤمن أحدكم بمعنى أنه لا يبلغ الدرجة الكاملة من الإيمان، أو الدرجة المنجية من الإيمان، أو الدرجة التي ترقى به في الإيمان إلا إذا فعل كذا وكذا.

((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))

هذا الكلام فسَّره المفسرون، فمن جملة ما قالوا: المقصود من جملة خصال الإيمان الواجبة أن يحب المرء لأخيه المؤمن، والحقيقة هذا قيد. وهناك مَن يفسِّر هذا الحديث تفسيراً أوسع، حتى يحب لأخيه في الإنسانية ما يحب لنفسه، المؤمن يتميّز دائماً بأن انتماءه إلى كل البشر، لكن بين أن تنتمي إلى الإنسانية، وتبغض ما تفعله الإنسانية، وبين أن تنتمي إلى جهةٍ معينةٍ وتبغض غيرك لا لشيءٍ إلا لأنه غيرك، فالمؤمن نظرته واسعة شاملة.

الآن، هذا الحديث يعد قاعدة أصولية في الإيمان، أي أنك لن تكون مؤمناً على النحو الذي يرضي الله، لن تكون مؤمناً في الدرجة التي تنجو بها من عذاب الله، لن تكون مؤمناً في المستوى الذي يقبله الله عزَّ

وجل إلا إذا أحببت لغيرك، لأخيك إن في الإنسانية، وإن في الإسلام، وإن في الإيمان، وإن فيمَن حولك، على كلٍ كلَّما وسَّعت الدائرة فأنت أرقى، لأن النبي عليه الصلاة والسلام بعثه الله رحمة مهداة، ونعمة مُزجاة.

وقد تجدون أنتم بعض الدول المتقدمة التي تهيئ لشعوبها مستوىً معيشياً مرتفعاً جداً وراقياً جداً، ولكن هذا على حساب بقية الشعوب، أنت لا ترضى عن هذا المجتمع الذي يعيش أفراده على مستوى رفيع على حساب أنقاض شعوب أخرى، هذه نظرةٌ ضيقة، لا ترضى عن مجتمعٍ إلا إذا قام على العدالة، والمساواة، وتكافؤ الفُرَص.

الحقيقة قبل أن نتابع الحديث له إضافة:

((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وحتى يكره لأخيه ما يكره لنفسه))

إذا كنت تحب لأخيك ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك، فأنت في المستوى الذي يرضي الله عزَّ وجل.

النبي عليه الصلاة والسلام، فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه يقول:

((أحبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً))

فهذا الذي يُسْأل عن شاب من أجل الزواج، سيسأله السائل: بالله عليك، أنشدك الله هل ترضاه لابنتك ؟ والله الذي لا إله إلا هو لو قال له: نعم، أو بلى أرضاه لابنتي، وهو في الحقيقة لا يرضاه لابنته، فقد غشَّ الله ورسوله، وقد غشَّ عامة المسلمين انطلاقاً من هذا الحديث، أتزوجه لابنتك ؟ أتقبله لابنتك ؟ ادرس الوضع، لو جاءك هذا الخاطب يريد ابنتك هل تقبل به، أم أن لك اعتراضاتٍ كثيرة على أخلاقه، وعلى دينه، وعلى سلوكه ؟ إن كنت لا ترضاه لنفسك، لا ينبغي أن تقول بسذاجة، وأن تلقي الكلام على عواهنه، وألا تدقق في الأمر: نعم إنسان آدمي. ما معنى آدمي ؟ هذه الكلمة لا معنى لها، أي منسوب لبني آدم، أي أنه على رجلين يمشي، هذا معنى آدمي، هل ترضاه لابنتك فعلاً ؟ هذا الحديث دقيق.

هذا الطعام الذي تبيعه هل تأكله أنت ؟ نفسك هل تستسيغ أن تأكله ؟ إنك تشهد كيف يصنع، وكيف يطبخ، وكيف يعالج بالمواد، وتبيعه في مطعم هل تأكله أنت ؟ هذا الشيء الذي تركبه عند الناس، هل تفعله في بيتك ؟ هل تمدد هذه التمديدات في بيتك ؟ شيء دقيق جداً، هذا مقياس يدخل معنا في المصالح، في المهن، في الحرف، في الصناعات، هذا الشيء الذي تصنعه تقبله لنفسك ؟ تشتريه أنت بهذا المستوى ؟ لذلك هذا الذي يتوهَّم بأن الدين صلاةٌ وصيام وحجٌ وزكاة، وانتهى الأمر، فقد وقع في وهمٍ كبير، الدين أعظم من ذلك، الدين يقوم على هذه العبادات لأنه يقوم على أسسٍ أخلاقية، إذاً كما يقول عليه الصلاة والسلام:

((أحبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً))

ذات مرَّة التقيت مع خياط، لفت نظري دخله الكبير، عنده بيتان ؛ بيت للضيوف في كل الغرف والأسرة والمرافق، فسألته: هل أنت ورثت هذين البيتين ؟ قال: لا والله هذا من جهدي ومن عملي، قال لي شيخٌ نصحني: أن أخيط الثوب كما أخيطه لنفسي. قلت: والله هذه نصيحةٌ ثمينة، وقال: بفضل هذه النصيحة أقبل الناس علي، أن أخيط الثوب كما أخيطه لنفسي، هذا سؤال، لا تلتفت إلى الربح السريع، لا تلتفت إلى أن تصبح غنياً في وقتٍ قصير، التفت إلى نصيحة المسلمين، أصحاب المهن، أصحاب الصناعات، أصحاب التجارات، أصحاب الخبرات، هل ترضى أنت لبيتك هذا ؟ لو طبَّقنا هذا الحديث، والله لا أزيد ولا أبالغ، لحلَّت كل مشكلاتنا، الدرس الماضي قلت لكم: " عامل الناس كما تحب أن يعاملوك ".وفي هذا الدرس:

((أحبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً))

لذلك المؤمن يراقب الله عزَّ وجل، لو أتاه طفلٌ صغير ليشتري لحماً يعطيه اللحم الذي يأكله هو، هذا الطفل ليس بإمكانه أن يراقبه، ولا أن يقيِّم عمله، ولا أن يوجِّهَه، ولكن القصاب المؤمن لا يعطيه إلا الشيء الذي يرضى الله عنه، حتى إنهم قالوا: إن عظمة الدين أن كل علاقةٍ بين اثنين الله بينهما، أخطر شيء، وأعظم ما في الدين أن أيَّة علاقة بين اثنين، فبين الزوجين ؛ الزوج يتقي الله في زوجته، والزوجة تتقي الله في زوجها، والبائع يتقي الله فيمن يبيعه، والمشتري يتقي الله فيمن يشتري منه، أحياناً يكون بائع مغدور، أعطاك صنفاً مكان صنفٍ خطأ، أخطأ معك في الحساب، البائع قد يغفل عن مصلحته.

أخ كريم من إخواننا، اشترى حاجة من بائع، ولم يدخل في علم هذا البائع أن الأسعار قد ارتفعت إلى أربعة أمثال، نظراً لارتفاع الرسوم، فبعد أن اشترى هذه الحاجة عاد إليه وقال له: إنني سأعلمك أن الضرائب قد ارتفعت أربعة أمثال على هذه الحاجة، عندئذٍ قال له: أعطني الفرق إذاً، بعد يومين بفضل الله عزَّ وجل، عاد كل شيءٍ إلى ما كان عليه، فالإنسان امتُحِن، فالمشتري يتقي الله فيمن يشتري منه، والمشتري المؤمن يتمنَّى أن يربح أخوه عليه، كيف يعيش إذاً ؟ الصانع يتقي الله فيما يصنع، المزارع يتقي الله فيما يزرع، فهناك أدوية مؤذية، هناك تعالج بعض المزروعات بأدوية لها آثار في الصحة، فأية علاقةٍ بين اثنين الله بينهما، حتى لو تعاملت مع طفلٍ صغير، حتى لو تعامل الصغير مع الكبير، الضعيف مع القوي، القوي مع الضعيف، الخبير مع الساذج، قال عليه الصلاة والسلام:

" غبن المسترسل ربا ".

المسترسل الغشيم ـ باللغة الدراجة ـ فغبن المسترسل حرام، إذاً:

((" أحبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً))

وفيما رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث معاذ رضي الله عنه، أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلّم عن أفضل الإيمان قال ـ استمعوا ـ قال عليه الصلاة والسلام:

((أفضل الإيمان أن تحب لله، وتبغض لله، وأن تُعْمِل لسانك في ذكر الله. قال: وماذا يا رسول الله ؟ قال: أن تحب للناس ما تحب لنفسك، وأن تكره لهم ما تكره لنفسك، وأن تقول خيراً أو تصمت))

موطن الشاهد مرة ثالثة:

((وأن تحب للناس ما تحب لنفسك))

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام جعل دخول الجنة، وهو نهاية الآمال، منوطٌ بأن تحب للناس ما تحب لنفسك، فقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الإمام أحمد، قال يزيد بن أسد القشيري: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((أتحب الجنة يا يزيد ؟))

ـ قلت: نعم.

ـ قال

((إذاً فأحب لأخيك ما تحب لنفسك))

وقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، الحديث رواه سيدنا أبو ذر، قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم))

لأن سيدنا عمر رضي الله عنه عيَّن والي ـ أعطاه كتاب التولية ـ وقال له: " خذ عهدك، وانصرف إلى عملك، واعلم أنك مصروفٌ رأس سنتك، وأنك تصير إلى أربع خلال فاختر لنفسك، إن وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلناك لضعفك، وسلّمتك من معرتنا أمانتك، وإن وجدناك خائناً قوياً استهنا بقوتك وأوجعنا ظهرك وأحسنا أدبك، وإن جمعت الجرمين جمعنا عليك المضرَّتين ـ العزل والتأديب ـ وإن وجدناك أميناً قوياً زدناك في عملك ورفعنا لك ذكرك وأوطأنا لك عقبك "..

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ)

(سورة القصص)

قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تتأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم))

الإنسان لو تأمَّر على اثنين وكان ضعيفاً يستحي، القوي منهما يجره إلى خانته، والضعيف منهما يستحي، إذاً يقع في الظلم وهو لا يدري، لكن الذي يتولَّى أمر اثنين يجب أن يكون حازماً، قوي الشخصية، وقَّافاً عند حدود الله، لا تأخذه في الله لومة لائم، لا يستحي من الناس إلى الدرجة التي يسكت فيها عن الحق..

((لا تتأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم))

وقد روي عن عليٍ رضي الله عنه أنه قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم:

((يا علي، إني أرضى لك ما أرضاه لنفسي، وأكره لك ما أكره لنفسي، لا تقرأ القرآن وأنت جُنُب، ولا وأنت راكع، ولا وأنت ساجد))

موطن الشاهد أن..

((يا علي، إني أتمنى لك ما أتمناه لنفسي، وأكره لك ما أكرهه لنفسي))

أما هذا الذي يقوله الناس ماذا تريد من وجع الرأس ؟ يصطفلوا، كلمة يصطفلوا، ما دخلك، عليك من نفسك، هذه إذا قالها الإنسان وفق من يحبه، ومع مَن يستمع إليه، فقد خان الله ورسوله، لأن الدين هو النصيحة.

يروى أن أحد المؤمنين اسمه محمد بن واسع، كان يبيع حماراً له، قال له رجل: أترضاه لي ؟ قال: لو رضيته ما بعته، أي أنه انحرج.

أنا أعرف شخص حكى لي قصة لا تزال مؤثرة في نفسي، عنده مركبة ـ سيارة ـ فيها عيب خطير، فذهب وباعها وقال لي: بعتها وهو فرحٌ، وكأنه انتصر على مَن اشتراها، قال لي: " لبَّسناها لواحد " بالضبط وأنا أحفظها تماماً، وكان وقتها في بطرطوس سيارات تباع مباشرةً، فذهب إلى هناك واشترى المركبة التي تروق له، يعني اختارها اللون المناسب، والقوة المناسبة، وجاء بها إلى الشام، بعد أن أجرى معاملات تسجيلها، زارني وقد رأيته واجماً، قال لي: ضُربَت سيارتي ضرباً قاسياً جداً، وهو متألم، خامس يوم من شرائها، كان في حي المخيم صار في حادث لكنه حادث وجيع، فقلت له: تذكر ما قلت لي بالأمس، يجب أن تحب للناس ما تحب لنفسك، إذا أعلنت عن عيبها لا مانع، هناك مَن يشتريها على عيبها، حينما تخفي العيب إذاً أنت رضيت أن تكون هذه لإنسان وأنت لا ترضاها لنفسك. قال وهو يبيع حماراً: أترضاه لي ؟ قال: لو رضيته لم بعته. أي فيه عيوب.

النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه النعمان بن البشير قال:

((مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى))

هذا الحديث يستنبط منه قطعاً: أن المؤمن يسره ما يسر أخاه المؤمن، ويريد للمؤمن ما يريد لنفسه، ويؤلمه ما يؤلم أخاه.

الآن، دخلنا في موضوع أساسي ومتعلق بهذا الحديث، الإنسان إذا تمنى أن يكون متفرداً عن الناس، أن يصل إلى مرتبة لا يرقى إليها أحد، قال بعض العلماء في تفسير قوله تعالى:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83))

(سورة القصص)

العلو في الأرض أن تتمنى أن تكون دائماً فوق الناس، أن تتمنى أن تكون أعلى من مستواهم، تنزعج لو أن أحداً اقترب منك، أو كاد أن يصل إلى مستواك ؛ إن في العلم، وإن في العمل الصالح، وإن في الغنى، وإن في الزواج تحب أن تكون فوق الناس، قال:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83))

وقد قيل للنبي عليه الصلاة والسلام: إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه، فهل يدخل في هذه الآية ؟ يعني يتمنى أن يلبس شيء متميز، هذه كوبونة، خير إن شاء الله ؟ يحب إن ارتدى شيء لا أحد يكون بمستواه، إذا رأى اثنان يلبسون مثله يقول لك: معطت. يشمخ بأنفه ويقول لك: معطت، فسئل النبي عليه الصلاة والسلام: إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه، فهل يدخل في قوله تعالى:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83))

أجاب النبي عليه الصلاة والسلام إجابة دقيقة، قال:

((الكبر بطر الحق وغمص الناس))

(الجامع لأحكام القرآن)

يعني أنت حينما ترى أنك إذا تعارض الحق مع أهوائك وشهواتك، فأنت أكبر من أن تنصاع للحق، لو جاءتك نصيحة من طفلٍ صغير كبرت عليك نفسك. ذات مرة الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه كان يمشي في الطريق، ورأى طفلاً صغيراً على وشك أن يقع في حفرة فقال:

ـ يا غلام إياك أن تسقط.

ـ قال له هذا الطفل: بل أنت يا إمام إياك أن تسقط، إني إن سقطت سقطت وحدي، وإنك إن سقطت سقط العالم معك.

قدوة لأنه، مثل أعلى. كل الناس متعلقون بك، كل الناس يعجبهم ما تصنع، فإذا سقطت من عين الله سقط الناس معك بمعنى أنك أحبطت طموحهم، وأربكت تصوّرهم، وأوقعتهم في خلل، فمن علامة المتواضع أنه يقبل النصيحة من أي إنسان ولو كان صغير الشأن.

بطر الحق رد الحق، ألا ترضى بهذا الحق، هذا الحق يتعارض مع ما أنت عليه، إذاً ترفضه، أو ترى أنك أكبر منه، أو ترى أنك أكبر من هذا الناصح. وغمص الناس أي أن تظلمهم. قال بعض العلماء: المسلم الحق، والمؤمن الحق إذا رأى في أخيه المسلم نقصاً في دينه اجتهد في إصلاحه، أي أنه قد يرى أخاه في وضع لا يرضي الله، يقول لك: ما دخلني لا أريد إزعاجه، لا، أنت مخلص ولكن على انفراد بدون تشهير، التشهير صار فضيحة، في نصيحة وفي فضيحة، يجب أن تختار النصيحة لا أن تختار الفضيحة، فبقدر الإمكان بينك وبينه قل له: يا أخي هذه لا تجوز، هذا التعامل لا يجوز، هذه العلاقة لا تجوز، هذه النزهة لا تجوز، هذا الموقف لا يجوز، أنت بهذا ضعضعت ثقة المسلمين.

بعض السلف الصالح كان يقول: أهل المحبة لله نظروا بنور الله وعطفوا على أهل المعاصي، مقتوا أعمالهم ولم يمقتوهم. لأنك إذا عرفت الله عزَّ وجل يجب أن يتسع صدرك لكل الناس، أبو حنيفة النعمان ـ كما قلت لكم سابقاً ـ له جار مغني، والغناء كما تعلمون حرام ولاسيما إذا كان من امرأة، قولاً واحداً بالإجماع، لو أن المرأة قالت: أشهد أن لا إله إلا الله فصوتها عورة، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام أمرها إذا أخطأ الإمام في الصلاة أن تصفّق لا أن تقول: سبحان الله. كرجال: سبحان الله أما المرأة تصفق لأن صوتها عورة وهي في الصلاة، وهي تقرأ القرآن فكيف إذا غنَّت، وكسَّرت صوتها، وألانته؟ طبعاً. فأبو حنيفة النعمان له جار مغني كان طوال الليل يقول:

أضاعوني وأي فتىٍ أضاعوا ليوم كريهةٍ وطعان خلفي

فلما في أحد الأيام لم يسمع صوته، أيقن أنه موقوف، فذهب وشفع له عند صاحب السجن وخلَّصه، وهو في طريق العودة قال له: يا فتى هل أضعناك ؟ وكانت توبته على يده، فالداعية إلى الله عزَّ وجل نَفَسَه طويل، وأفقه واسع، وصدره رحب يتسع حتى للعصاة، ولكن لا يمقتهم بل يمقت عملهم.

وسيدنا عمر عندما دخل عمير بن وهب على سيدنا رسول الله وقال: " والله دخل عمير على النبي صلى الله عليه وسلم والخنزير أحب إليّ منه، وخرج من عنده وهو أحب إلي من بعض أولادي ". هذا أخوك في الله، كان منحرفاً، كان عاصياً، فلما عاد إلى الله دخل في قلبك.

الآن في موضوع ثالث، الآن، إذا رأيت فضيلةً دينية في إنسان هل هناك ما يمنع أن تتمنى أن تكون فيها ؟ قيل: لا، بل بالعكس يجب، يجب أن تغار في هذا المجال، لقوله تعالى:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26))

(سورة المطففين)

ولقوله تعالى:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61))

(سورة الصافات)

فالتنافس في أمر الآخرة محمود، الآن موضوع آخر، لو أن إنسان سبقك في أمور الدين يجب أن تغار منه، يجب أن تغبطه، أو يجب أن تحسده كما قال النبي:

((لا حسد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله علماً، ورجلٌ آتاه الله مالاً))

(الجامع لأحكام القرآن)

الأول ينفق من علمه والثاني من ماله، والحسد هنا كما قال شُرَّاح الحديث بمعنى الغبطة، أي أنك تتمنى أن تكون في مستواه من دون أن تزول النعمة عن أخيك، أما الحسد تتمنى زوالها عن أخيك لتتحول إليك، هذا صفةٌ ذميمة.فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((لا حسد إلا في اثنتين: رجلٍ آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار، ورجلٌ آتاه الله القرآن فهو يقرؤه آناء الليل وآناء النهار))

(الجامع لأحكام القرآن)

وقال عليه الصلاة والسلام:

((لو أن لي مالاً لفعلت فيه كما فعل هذا ـ قال ـ فهما في الأجر سواء))

(مختصر تفسير ابن كثير)

أحياناً تجد غني مؤمن ينفق ؛ على اليتامى، والأرامل، وعلى الشباب، وفي موضوع الزواج، وموضوع المعالجات الجراحية، كلما قصده إنسان لبَّاه، يعمل ليلاً نهاراً في خدمة الخلق، أنت أحياناً تقول: ليتني غنياً مثله، تتمنى أن تكون مثله، تقول: آه لو أنني أملك كما يملك لأنفقته كما ينفق، قال: من تمنى ذلك فهما في الأجر سواء، لأنه نية المؤمن خيرٌ من عمله، ونية الكافر شرٌ من عمله، أحياناً الكافر يقول لك: آخ لو معي مال لعملت ملهى.

قال: أما إذا رأيت أحداً فاقك في الدنيا، فلا ينبغي أن تتمنى أن تكون مثله، لقوله تعالى: قارون خرج على قومه في زينته بأبهى حلة:

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79))

(سورة القصص)

بالمناسبة أنا أقول لكم الآن: قل لي ماذا تتمنى، أقل لمك مَن أنت بالضبط، ماذا تتمنى ؟ فأحياناً المؤمن يتمنى أن يكون إيمانه عالي، صلاته متقنة، إقباله جيد، ذكره يقظ، يفهم القرآن كله، أن يكون عالماً، أن يكون داعية، أن يسخِّره الله في خدمة الخلق، قل لي ماذا تتمنى أقل لك مَن أنت، وهناك إنسان إذا أراد أن يحلم، يحلم ببيت، يقول لك: مساحته كذا، مركبة ماركة كذا، موديل كذا، فعلى هوى الخيال، خيالك إلى أين يسير ؟ اعلم أنك معه، فقل لي ماذا تتمنى أقل لك مَن أنت، أما قوله تعالى:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

(سورة النساء: من آية " 32")

فُسِّر هذا بالحسد..

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

حتى إن الإمام الغزالي يقول: ليس في الإمكان أبدع مما كان. أي ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني، هذا الذي أنت فيه هو أكمل ما يكون بالنسبة إليك، هذا الذي يرضيك.

إذاً يجب أن تحزن أيها المؤمن لفوات الفضائل الدينية، وينبغي ألا تحزن لفوات الدنيا، فسيدنا الصديق لم يندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط.

الآن، في عندنا خاتمة لهذا الموضوع بعض المواقف المشرفة من بعض العلماء، قال محمد بن واسع لابنه: أما أبوك يا بني فلا كثَّر الله في المسلمين مثله ـ لماذا يدعو على نفسه؟ ـ قال: كان لا يرضى على نفسه فكيف يحب للمسلمين أن يكونوا مثله ؟ أي أنه يتمنى أن يكون الناس أرقى منه، هذا المؤمن. إلا أنه في حالة خاصة إذا الإنسان خصه الله بشيءٍ تفوق به، وذكره للناس ليقتدوا به، أو ليتحمَّسوا، أو ليغاروا، قيل هذه على حسب النية، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما كان يقول:

((أنا سيد ولد آدم ولا فخر))

أنا لا أفتخر لكنني أعلمكم الحقيقة.

سيدنا ابن مسعود قال: ما أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني. طبعاً لنيته أن يتعلم الناس منه

ابن عباس يقول: إني لأمر على الآية في كتاب الله، فأود أن الناس كلهم يعلمون منها ما أعلم.

الإمام الشافعي يقول: وددت أن الناس يتعلموا هذا العلم ولم ينسب إلي. منكر لذاته. وددت أن الناس يتعلموا هذا العلم ولم ينسب إلي، يعني من دون أن ينسب إلي.

هذا الحديث مرةً ثانية يعد من أصول طريق الإيمان، يعد من قواعد الإيمان، الحديث رواه مالك بن أنس خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه "))

هذا الحديث العظيم لا تختصره، إذا كان في تفاحة كبيرة أخي خذ هكذا النبي قال، الشغلة أعمق من ذلك، على تفاحة سهلة عليك، خذ أخي هكذا قال النبي ـ حتى يحب ـ خذ أنا أحببتها والله ولكن خذ كلها أنت، الحديث أعمق من ذلك، بمصلحتك، أنت نجَّار، أنت كهربجي، أنت صانع صاحب مهنة، الشيء الذي ترضاه لنفسك اصنعه للناس، الشيء الذي تشتهي أن تأكله بعه لهم، الشيء الذي تلبسه بعه إيَّاهم، إلا إذا كان في بضاعة مستواها متدني وسعرها رخيص جداً وأبلغت ذلك، أما بالأصل ينبغي أن تحب للناس ما تحب لنفسك.

* * *

الآن، كمقدمة قبل أن نتحدث عن عَلَمٍ من علماء الإسلام، الحقيقة أنا أحب في هذا الدرس ـ درس الأحد ـ أن أعطيكم نماذج من صفوة البشر، اليوم مع أحد أولياء الله الصالحين هو من أهل القُرب، قد نجد أهل العلم، وقد نجد أهل الجهاد، وقد نجد أهل السخاء والبر، والآن مع عَلَمٍ من أعلام القرب بشر الحافي كلكم تسمعون به.

رجل كان مسرفاً على نفسه، غارق في المعاصي والشرب، والقيان والغناء، وما إلى ذلك، يروى أنه طرق بابه، الذي طرق الباب طبعاً فتح له خادمه، قال له: قل لسيدك إن كان حراً فليفعل ما يشاء، وإن كان عبداً فما هكذا تصنع العبيد !! هذا كان في حالة سكرٍ، وغيبوبةٍ، وشرابٍ، ومعصيةٍ، بلغت هذه الكلمة من نفسه مبلغاً بليغاً، فصحا من سكرته، ولحق بهذا الطارق حافياً، حتى سُمِّيَ بشر الحافي، هذه القصة سمعتها، والآن مع بعضٍ من قصصه وأقواله.

هذا الإنسان يُكْنَى أبا نصر، قال لي بشر بن الحارث الحافي: أحدثك عن بدو أمري قال: بينما أن أمشي رأيت قرطاساً على وجه الأرض فيه اسم الله ـ يعني ورقة عليها اسم الله ـ تعالى فنزلت إلى النهر فغسلته، وكنت لا أملك من الدنيا إلا درهماً فيه خمسة دوانق، فاشتريت بأربعة دوانيق مسكاً، وبدانقٍ ماء وردٍ، وجعلت أتتبع اسم الله تعالى في القرطاس وأطيِّبه، ثم رجعت إلى منزلي، فنت فأتاني آتٍ في منامي فقال: يا بشر كما طيَّبت اسمي لأطيبنَّ اسمك، وكما طهَّرته لأطهرنَّ قلبك.

يعني..

((وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32))

(سورة الحج)

أحياناً تباع ليس في بلادنا بل في بعض بلاد الغرب أحذية، في أسفلها كلمة (الله) أو في أسفلها صورة الكعبة، فالإنسان يجب أن ينتبه لأنه:

((وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32))

له كلمة رائعة جداً ونحن في أمس الحاجة إليها، يقول هذا العارف بالله: أنا عشت إلى زمنٍ إن لم أعمل فيه بالجفاء لم يسلم ديني. أي في زمن الفتن، والاختلاط، إذا كان لطيف كثير ؛ هذه صافحتها، وهذه ابتسمت في وجهها، وهذه استحيت منها، وهذا سحبك على غذاء فيه غناء، وفيه طرب، وفيه نساء، أخي أنا أستحي طبعي أستحي، إن كنت تستحي فقد ذهب دينك، فنحن في زمنٍ لا ينفع معه إلا بعض الجفاء، أخي والله استحيت فصافحتها، خير إن شاء الله ؟ استحيت فذهبنا معهم وطلعت السهرة غير مضبوطة، كلمة استحيت، إذا قلت استحيت راح دينك. فقال: نحن في زمنٍ إن لم نعمل فيه بالجفاء لم يسلم ديننا. يعني كلمة (لا) لصديق يحرجك رائعة جداً، لزوجةٍ طائشةٍ أرْوَع، لشريكٍ يريد أن يأكل مالاً حراماً أشد روعة، كلمة (لا).

في بعض مناجاته كان يقول بشر الحافي: لقد شَهَرني ربي في الدنيا فليته لا يفضحني يوم القيامة. فالقضية ليست سهلة أن تكون مشهوراً، أن يشار إليك بالبنان، أن يعرفك الناس جميعاً، قال: لقد شهرني ربي في الدنيا، فليته لا يفضحني يوم القيامة. وما أقبح مثلي يظن في ظنٌ وأنا على خلافه. في نقطة مهمة جداً، إذا أنت مظنّة صلاح، الناس يظنونك شيء ممتاز، يظنون فيك الورع، والأمانة، الصدق والاستقامة، والتقوى، والصلاح، والإقبال، والأحوال، والانضباط في بيتك، وفي عملك، وفي سفرك وفي حضرك، فمن الفضيحة الكُبرى أن تكون في مستوى أقل من ظن الناس فيك، فكان يقول: ما أقبح مثلي يظن في ظنٌ وأنا على خلافه. قال: إنما ينبغي أن أكون أكثر مما يظن بي. لهذا كنت أقول لكم دائماً أربع أدعية أتفاعل معها تفاعلاً عجيباً، بعض هذه الأدعية:

((اللهم إني أعوذ بك أن أقول قولاً فيه رضاك ألتمس به أحداً سواك))

((أعوذ بك أن أتزين للناس بشيءٍ يشينني عندك))

((أعوذ بك أن يكون أحدٌ أسعد بما علمتني منه))

((أعوذ بك أن أكون عبرةً لأحدٍ من خلقك))

كان يقول هذا العارف بالله: غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه، وإخفاء مكانه عنه. أي أن كثرة الظهور تقسم الظهور، فإذا كنت خافياً عن الناس، والناس ما عرفوا مكانك، فهذه نعمةٌ لا يعرفها إلا من فقدها. له دعاءٌ رائع يقول: اللهم استر واجعل تحت الستر ما تحب، فربما سترت على ما تكره. فلان الله ساتره، لكن على المعاصي ساتره، البطولة أن يسترك الله على الطاعات. اللهم استر واجعل تحت الستر ما تحب، فربما سترت يا رب على ما تكره.

وكان يقول: يا أخي بادر بادر، فإن ساعات الليل والنهار تذهب الأعمار . أبلَغ كلمة قالها سيدنا عمر بن عبد العزيز: الليل والنهار يعملان فيك ـ انظر لصورتك قبل خمسة وعشرين سنة، ثلاثين سنة، والآن تجدها اختلفت اختلاف كبير جداً، من فعل هذا فيك ؟ تعاقب الليل والنهار. الليل والنهار يعملان فيك، أنت فاعمل فيهما الصالحات حتى يكون الوقت مستثمراً وليس منفقاً.

ماتت أخت بشر، فأشار إشارة لطيفة لكنها ليست قاعدة، قال: إن العبد إذا قصَّر في طاعة الله سلبه الله مَن يؤنسه، أحياناً ربنا عزَّ وجل من تكريمه للعبد أن يجعل عمر زوجته مقارباً لعمره، أحياناً تموت قبله، تختلف حياته، إن تزوج أهله يصيره ضده، أولاده ضده، وإن لم يتزوج ما في مَن يخدمه، ما في مَن يؤنس وحشته، ما في مَن يسكن إليه، فمن إكرام الله للعبد أن يجعل عمره متقارباً مع عمر زوجته.

يقال أن بشر بن الحافي لقيه رجل فجعل يقبله ويقول: يا سيدي يا أبا نصر. فلما ولّى تغرغرت عينا بشر بالدموع وقال: رجلٌ أحب رجلاً على خيرٍ توهمَّه، لعل المحبَّ قد نجا والمحبوب لا يدري ما حاله.

هذا الإنسان ظن فيه الصلاح وأحبه نفد، لعل المحب قد نجا والمحبوب لا يدري ما حاله.

ذات مرة وقف بشر على بائع فاكهة، ونظر إلى هذه الفاكهة ملياً فقيل له: أتشتري منها شيئاً ؟ قال: لا والله، ولكنني نظرت في هذا الذي يطعم هذه الفاكهة كيف يعصي الله ؟ فهذه الشفافية ، يأكل برتقال، وتفاح وما شاكل ذلك، يشتري ومعه مال، يضع الفاكهة على طاولة، ويأكل ويدعو الناس إلى الطعام، كيف يعصي الله ؟ كيف تتقوى على معصيته برزقه؟

مرة واحد قال له: ما لي أراك يا بشر مغموماً ؟ منقبض ؟ قال: ما لي لا أكون مغموماً وأنا رجل مطلوب. إذا واحد مطلوب لا ينام الليل، الله عزَّ وجل طالب الإنسان، في وقفة وتحقيق دقيق، يحاسب على كل حركةٍ وسكنةٍ، وعلى كل نظرةٍ، وعلى كل درهمٍ أنفقه وكسبه، قال له ما لي أراك مغموماً ؟

قال: ما لي لا أكون مغموماً وأنا رجل مطلوب في عدالة الله عزَّ وجل.

ألا تعرفوا الذي طاف حول الكعبة وقال:

ـ يا رب اغفر لي ذنبي ولا أظنك تفعل.

ـ واحد وراءه قال له: سبحان الله ما أشد يأسك من رحمة الله **؟!**

ـ قالله: ذنبي عظيم.

ـ قال له: ما ذنبك ؟

دخل لبيت وقتل الرجل، وطلب من زوجته أن تعطيه كل ما تملك، أعطته دنانير ذهبية، فقتل ابنها الأول، فلما رأته جاداً في قتل الثاني أعطته درعاً مذهبة، تسلّمها وتأملها وأعجب بها، فإذا عليها بيتان من الشعر..

إذا جار الأمير وحاجباه وقاض   الأرض أسرف في القضاءِ

فويلٌ، ثم ويلٌ، ثم ويلٌ لقاضي   الأرض من قاض السماءِ

* * *

وقع مغشياً عليه من وقته، وتوجَّه إلى الكعبة، ويقول: رب اغفر لي ذنبي ولا أظنك تفعل. قال له: لماذا لا أكون مغموماً وأنا رجل مطلوب.

قال بعضهم: كنت عند بشر إذ جاءه رجل فسأله عن مسألة ـ فالإنسان كلما كان جباناً في الفتوى فهي فضيلة، الفتوى خطيرة جداً، جسر إلى جهنم ـ أطرق ملياً، ثم رفع رأسه، فقال: اللهم إنك تعلم أني أخاف أن أتكلم، اللهم إنك تعلم أني أخاف أن أسكت، اللهم إنك تعلم أني أخاف أن تأخذني فيما بين السكوت والكلام. إن تكلم بجهل فقد وقع في غضب الله، وإن كان يعلم وسكت، أريح له، أيضاً وقع في غضب

الله، وإذا أحب أن يحير الآخرين، لا حكى ولا سكت، فالقضية دقيقة جداً، قال له: اللهم إنك تعلم أني أخاف أن أتكلم، وإنك تعلم أني أخاف أن أسكت، وإنك تعلم أني أخاف أن تأخذني فيما بين السكوت والكلام.

مرة دخل إلى بيته وتأمل ملياً، وقال: تفكرت في بشر النصراني، وبشر اليهودي، وبشر المجوسي، فقلت: ما الذي سبق منك حتى خصك الله بهذا الهُدى، تفكرت في فضل الله علي، وحمدته على أن جعلني من خاصَّته، وألبسني لباس أحبائه. فأعداء الله بشر مثل حكايتنا ؛ يزنون، ويشربون الخمر، ويعتدون، وينغمسون في الملاهي، ويتحدَّون، فنعمة الهدى لله عزَّ وجل أعظم نعمة، مادام الله عزَّ وجل قد ألبسك ثوب أحبائك، وخصَّك بالهدى، لذلك اقرأ الآية، اقرأها ألف مرة ما في مانع:

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (113))

(سورة النساء)

قال له أحدهم: يا بشر أحب أن أخلو معك. قال: إذا شئت. فبكرت يوماً، فرأيته قد دخل قبة فصلى فيها ـ بشر ما رآه ـ صلى فيها أربع ركعات، لا أحسن أن أصلي مثلها، فسمعته يقول في سجوده: اللهم إنك تعلم فوق عرشك أن الذل أحب إلي من الشرف ـ من المكانة العلية ـ وإنك تعلم أن الفقر أحب إلي من الغنى، وإنك تعلم أني لا أؤثر على حبك شيئاً. فلما سمعته أخذني الشهيق والبكاء، فلما سمعني قال: اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن هذا هنا ما تكلّمت شيئاً. في أناس يحبوا ترونهم يبكوا، يناجوا ربهم عزَّ وجل، والله صار لي أحوال اليوم تجنن، قرأت قرآن بكيت لشبعت، يحب أن يتعرف الناس لمكانته عند الله عزَّ وجل، ولكن هذا من علامة القرب إخفاء أحواله مع الله عزَّ وجل، قال له: اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن هذا يسمعني لما تكلمت.

أحمد بن حنبل كان معاصر له، سُئِل مسألة في الورع فقال: أنا ؟! أنا أجيب عن هذه المسألة أستغفر الله؟! أحمد بن حبنل، لا يحل لي أن أتكلم في مسألةٍ في الورع وأنا آكل من غلّة بغداد. يبدو أن فيها شبهة، فبشر يصلح أن يجيبك عنها، فإنه كان لا يأكل من غلة بغداد، ولا من طعام السواد، هو الذي يصلح أن يتكلم في الورع. هذا كلام أحمد بن حنبل..

له كلمة بشر رضي الله عنه: ليس من المودة أن تحب ما يبغض حبيبك. شخص الله يبغضه لمعصيةٍ، لانحرافٍ، لتهاون في صلاة، فإذا أحببته فليس هذا مودة مع الله عزَّ وجل، ليس هذا من المودة مع الله أن تحب ما يبغض حبيبك.

يقول بشر: بحسبك أن أقواماً موتى تحيا القلوب بذكرهم، وأن أقواماً أحياء تعمى الأبصار بالنظر إليهم.

بالمناسبة عَوِّد نفسك تذكر الصالحين، وفي رأسهم النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام، والتابعون، والعلماء الأجلاء الصالحون، في ذكر الصالحين تتنزل الرحمة، تسر، يتغير حالك، تتمنى أن

تكون مثلهم، تنطلق إلى السعي في طريقهم، تتشوق أن تكون في مستواهم، تتأسى بهم، تندفع إلى طاعة الله، أما إذا ذكرت اللؤماء، أهل البغي والعدوان، أهل الفسق والفجور ينعقد المجلس، أو يقوم من في المسجد كما قال عليه الصلاة والسلام عن أنتن من جيفة حمار، فعوِّد نفسك أن الصالحين إذا ذكروا تنزَّلت على الناس الرحمة.

قال بشر: أيكون الرجل مُرائياً في حياته، مرائياً بعد موته كذلك ؟ قالوا: كيف هذا يا بشر ؟ فقال: يحب أن يكثر الناس على جنازته. يا ترى إذا مت كم واحد، ماذا يحصل بعد موتي ؟ هل يمشي في جنازتي خمسمائة ألف، نصف مليون ؟ كم واحد يمشي في ؟ هذا يحب الرياء بعد مماته كذلك.

وقال بشر: ما أقبح أن يُطْلَب العالم فيقال هو في باب الأمير.

توفي بشر رحمه الله تعالى، هكذا تروي الروايات، قال: خرجت جنازته بعد صلاة الصبح، ولم يجعل في القبر إلا في الليل، وكان نهاراً صائفاً، من أيام الصيف كذلك، لم يستقر في القبر إلا إلى العَتَمَة، ولما مات ابن حنبل، قال ابن خذيمة: بت من ليلتي فرأيته في النوم، قلت: يا إمام ما فعل الله بك ؟ قال: غفر لي، وتوجني، وألبسني نعلين من ذهب وقال لي: يا أحمد هذا بقولك القرآن كلامي، لأنه دخل السجن ثمانية سنوات لأنه أصر أن القرآن كلام الله القديم. فقال: يا إمام، فما فعل بشر ـ الاثنان ميتان كانوا ـ قال: بَخٍ بخٍ مَن مثل بشر، تركته بين يدي الجليل وبين يديه مائدةٌ من الطعام والشراب ويقال له: كل يا بشر يا مَن لم تأكل، واشرب يا مَن لم تشرب، وانعم يا مَن لم تنعم، رحمه الله ورضي عنه.

فما في شيء الدنيا، كلها زائلة، الدنيا ساعة اجعلها طاعة، فهذا الإنسان أخلص لله، هذا من أهل القرب، أحياناً شخص أبرز ما فيه أنه عالم جليل، وفي إنسان يعني قدم خدمات كبرى للمجتمع، هذا الإنسان نموذجٌ من أهل القرب، لذلك الإنسان إذا اقترب من الله عزَّ وجل ذاق حلاوةً لا يعرفها إلا من فقدها.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (026) :ذكر الله1 - قيمة الذكر.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-01-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... في درسنا اليوم موضوعٌ متعلقٌ بذكر الله تعالى، وقبل أن أشرح الأحاديث التي وردت في هذا الموضوع، أحب أن أقدم لشرحي بمقدمةٍ تلقي ضوءً على الموضوع.

فهناك ما يسمى بالتعليم، وهناك ما يسمى بالتربية، وفرقٌ كبير بين التعليم وبين التربية، فالتعليم أن تنقل بعض الحقائق إلى الطلاب، لكن التربية أن تعين الطلاب بأساليب متعددة على أن يطبقوا هذه الحقائق، يعني يمكن أن نقول: التعليم نقل حقيقة، والتربية تمكين المتعلّم من تمَثُّل هذه الحقيقة والأخذ بها وتطبيقها، لذلك في التاريخ الإسلامي فرّقوا بين المعلّمين وبين المربِّين، بين شيوخ التعليم وشيوخ التربية، فنحن إذا قلنا للمتعلم: قال عليه الصلاة والسلام كذا وكذا وكذا، وهذا هو الحكم الفلاني، وألقينا على مسامعه أحكام الشريعة، وأقوال العلماء، وتفصيلات وجزئيات دقيقة، فهذا لا يزيد عن التعليم، أما حينما نعطي المتعلّم طريقة يتمثّل بها هذه الحقائق، ويأخذ بها، ويعيشها، وتصبح جزءً من كيانه وحياته فهذه تربية.

فالذي ينبغي أن يكون هو أن يجمع المعلّم بين مهمة التعليم وبين مهمة التربية، طبعاً ما كل معلمٍ بمربٍ، لكن كل مربٍ هو قولاً واحداً معلم، ما كل معلم بمربي أما كل مربي يجب أن يكون معلم، يجب أن يكون عالم حتى يربي، فمثلاً: لو أنك دعوت إنسان إلى الله عزَّ وجل، وذكرت له حكم غض البصر، أن النظر حرام، وجئته بالآية، وجئته بأربعة أحاديث شريفة تحرِّم عليه النظر، أنت ماذا فعلت ؟ أنت علّمته حكم النظر إلى المحرمات.

لو بيَّنت له حمم الإسلام في الربا، ذكرت له آية الربا، وذكرت له الأحاديث المتعلقة بتحريم الربا، أنت ماذا فعلت ؟ علّمته حكم الإسلام في شأن الربا، ولكن حينما تستطيع بأسلوبٍ أو بآخر، بطريقةٍ أو بأخرى، بقصةٍ، بترغيبٍ، بترهيبٍ، بدعوةٍ إلى التفكُّر، حينما تستطيع أن تجعل هذا المتعلّم يغض بصره فعلاً، أنت الآن أصبحت مربي، كنت معلماً فأصبحت مربِّياً، أنت تعرف في الأصل حكم النظر، لكن حينما سلكت مع هذا المتعلّم طريقاً لحمله على غض البصر أنت أديت له وظيفة المربي فضلاً عن وظيفة المعلم.

ومن باب التمثيل والتوضيح: لو أنك زرعت ألف نبتة مثلاً، زرعتها مرةً واحدة ثم تركتها إلى أن جفت ويبست، فماذا صنعت ؟ أنا أقول لك لم تصنع شيئاً، أما حينما تعتني بمائة بنتة تتعهدها بالسقي، وبالتسميد، وبالحرث، وبالتقليم، وبمكافحة الأمراض، أنت بهذا جعلت من هذه المائة نبتة غابة بعد

حين، إذاً ليكن هم أحدنا إذا دعا إلى الله، لا يكن همه نقل الحقائق فقط، نقل المعلومات فقط، ليس المتعلم وعاءً يملأ ولكنه نفسٌ تتفاعل، ليس المتعلِّم إناءً يملأ علماً بل هو شخصٌ له مشاعر، له أفكار، له قناعات.

فلذلك، بإمكاني أن أقول لكم: في الإسلام عدة اتجاهات ؛ في اتجاه فكري، وفي اتجاه قلبي، وفي اتجاه عملي، فمن الممكن أن تمضي الوقت كله في خدمة الناس وأنت عند الله مشكور، ومحمود، ممكن تقضي الوقت كله في ذكر الله، وفي الأوراد، وفي الأذكار، وفي الدعاء وأنت عند الله محمود، وممكن أن تمضي الوقت كله في تعلم العلم وتأليف الكتب وأنت عند الله محمود، ولكن حينما يرجح جانبٌ على جانب، وحينما ينمو جانبٌ على حساب جانب تختل هذه الشخصية.

الحقيقة الشخص الكامل هو المتوازن، الشخص الكامل هو الذي يحقق انسجاماً بين كل جوانبه، فلا ينمو عقله على حساب قلبه، ولا ينمو قلبه على حساب عقله، ولا تنمو أعماله على حساب عقله وقلبه معاً.

فلذلك، نجد في الإسلام آياتٌ كثيرة تحضُّ على الذكر، وآياتٌ كثيرة تحض على التفكر، وآياتٌ كثيرة تحض على العمل، وآياتٌ كثيرة تحض على الاستقامة، وآياتٌ كثيرة تحض على الدعوة إلى الله، الحقيقة لا ينجح في هذا الدين إلا مَن أحاطه من كل جوانبه، تكون داعية بلا ذكر فهذه مشكلة، تكون ذاكر بلا دعوة مشكلة، تكون ذاكر وداعية بلا علم مشكلة، تكون عالم بلا دعوة مشكلة، تكون عالم وداعية وذاكر بلا عمل صالح مشكلة.

فيعني إذا أردنا أن نبحث في الإسلام ؛ في أوامره القرآنية، في أوامره النبوية، في تاريخ الصحابة، إذا بحثنا وقرأنا، ودققنا، ومحصنا، وأردنا أن نصنِّف هذا التراث العظيم، نجد هذا التراث في النهاية ينشعب إلى ثلاث شُعَب: شعبة الأقوال، وشعبة الأحوال، وشعبة الأعمال، في أعمال، وفي أقوال، وفي أحوال، فتعلُّم العلم، وتعليم العلم، والتدقيق، والبحث، والتفكُّر جانب، والإقبال على الله، والذكر، والدعاء، والاستغفار جانب، وخدمة الخلق، وإسعاف الفقراء، وإغاثة المحتاجين جانب، هذا جانب، وهذا جانب، وهذا جانب. في التاريخ الإسلامي ماذا نجد ؟

نجد فرق إسلامية نما عندها الفكر على حساب القلب كالمعتزلة، ونجد أُناساً نما عندهم الجانب العاطفي، الوجداني، الانفعالي، القلبي على حساب الفكر كالمتصوفة، وجانبٌ آخر نما عندهم الأعمال الخيرية على حساب العقل والقلب معاً، فإذا أردنا أن نكون كما أراد الله، إذا أردنا أن نكون كما أراد النبي عليه الصلاة والسلام، لابد من تحقيق التوازن بين الجانب الوجداني ؛ والذكر، والدعاء، والاستغفار، والتسبيح، والتحميد، والتكبير، والتهليل، و، و، وتلاوة القرآن مع طلب العلم، وفهم الأمور، واتباع العقيدة الصحيحة، والقدرة على إقامة الحُجَّة، والقدرة على البيان، جانب، وخدمة الخلق، وصلة

الرحم، وإسعاف الفقراء، ورعاية الأيتام والمحتاجين.. إلخ. فالذي يحقق في حياته هذا التوازن بين العناية بقلبه تارةً، والعناية بعقله تارةً، العناية بعمله تارةً أخرى، الذي يحقق هذا التوازن في حياته فهو ممَّن اتبع النبي عليه الصلاة والسلام.

دائماً وأبداً أذكر لكم أن كل تطرف يتبعه رد فعل متطرف، كل تطرف في الدين أي أن ينمو شيء على حساب شيء، أن ينمو جانبٌ على حساب جانب، أن يرجح العقل على حساب القلب، أن ينمو القلب على حساب العقل، أن ينمو العقل على حسابهما معاً، إذا رجَّحت جانباً وأغفلت جانباً فقد وقعت في التطرُّف، وكل تطرُّف في التاريخ الإسلامي يقابله رد فعلٍ متطرف، كل تطرف يقابله رد فعل متطرف، والكمال تحقيق التوازن، والكمال أن يكون عقلك نامياً، وقلبك موصولاً، وعملك صالحاً.

وقبل كل شيء بيَّنت لكم الفرق الدقيق بين المعلم وبين المربي، فإذا نقلت الحقيقة فأنت معلم، فإذا مكّنت المتعلّم من تطبيق هذه الحقيقة فأنت مربي، هذا ما يسميه بعضهم: التسليك إلى الله عزَّ وجل، الإنسان متى يسعد ؟

مثل أوضح من ذلك: أنت تاجر يا ترى سعادتك بمحلك التجاري ؟ الجواب: لا، سعادتك بموقعه ؟ لا، سعادتك بتزييناته ؟ لا، سعادتك بالدفاتر النظامية ؟ لا، سعادتك بكثرة الموظفين ؟ لا، سعادتك بشيء واحد وهو الربح آخر السنة، في ربح، إذاً في شعور بالرضى، في خسارة، إذاً في شعور بالألم، مهما كان المحل فخم، والآرمة، واللافتة كبيرة، والأضواء متألقة، والحسابات نظامية ودقيقة، والموظفين كُثُر، والحركة كبيرة، وداخل وخارج، ومن، وإلى، كل هذا الضجيج إذا انتهى بخسارة فقلبك يعتصر ألماً. إذا كان محل متواضع جداً، والأمور بسيطة، وفي ربح، تمتلئ نشوةً، هذا بالتجارة.

ولكن بالدين ؛ إذا وصلت إلى الله عزَّ وجل تسعد، إذا تمكنت من الإقبال عليه، إذا تمكنت من الاتصال به، إذا رضيت بقضائه، إذا استسلمت لحكمه، إذا دمعت عينك خشيةً له، إذا قرأت القرآن فاقشعرَّ جلدك، إذا شعرت أنك في حماه، إذا شعرت أنك في رعايته، إذا شعرت أنه يراقبك، أي إذا وصلت إلى الله وصلت إلى كل شيء، فعندما نحن نغفل الاتصال بالله أغفلنا كل شيء بالدين، بقي الدين ثقافة، معلومات، كتب، دراسات، مؤلّفات، امتحانات، علامات، شهادات، مناصب، هذا دنيا، هذه دنيا عن طريق الدين، ولكنك إذا وصلت إلى الله عزَّ وجل، واتصلت به، وشعرت بسعادة القرب، وشعرت أن الله معك، وأنه لن يتخلى عنك، وأنه يحبك، وأنك برعايته، وأنك بعينه، وأن المستقبل لصالحك، وأن الزمن معك، وأن بعد الموت جنة عرضها السماوات والأرض، إذا شعرت بهذا فقد وصلت إليه.

فلذلك نحن كما أنه بالتجارة فيها آلاف المظاهر ؛ شحن، استقبال بضاعة، جرد، عد، حسابات، تعيين موظفين، صرف موظفين، علاقات عامة، دعاية، وبالآخر ما في ربح، إذاً كل هذا شيء فاضي، في بالتجارة هدف واحد هو تحقيق الربح، وفي بالدين هدف واحد هو الوصول إلى الله، الوصول إليه،

وحتى الإنسان يصل لدرجة يتعامل مع الله، وباللغة العامية يفهم على الله، أن هذه كذا، وهذه كذا، يسترضيه، يطلب منه، يتوسَّل إليه، يستغفره، يشكره، يحمده، عندما يصل الإنسان إلى هذا المستوى يكون قطع من الطريق مسافات كبيرة جداً.

الحقيقة إذا كان لنا مربي فهو لا يطمئن على طلابه إلا إذا وصلوا إلى الله، يكون قدم لهم شيء ثمين إذا أوصلهم إلى الله، أما إذا لم يوصلهم !! والقصة التي تعرفونها جميعاً أن واحد خطب بنت أحد الشيوخ، فالشيخ كان حصيف فقال له:

ـ يا ابني هذه مهرها غالي كثير.

ـ قال له: وما هو مهرها ؟

ـ قال له: تحضر عندي الدروس.

ـ قال له: هذه شغلة سهلة نحضر له كم درس ونرضيه.

أحياناً يكون هدف الإنسان فقط الدنيا، هكذا يريد الشيخ حاضرين سيدي، كم درس يريدنا أن نحضر ؟ فقط نريد أن نتزوج في نهاية الأمر، فهذا الرجل حضر الدروس، فتألَّقت نفسه، وشعر بسعادة لا يعرفها سابقاً، وجد نفسه، عرف هويته، عرف لماذا هو في الدنيا، فنسي ابنة الشيخ، يقولوا أنه بعثت له وقالت:

ـ يا فلان أين أنت ؟ وكان اسمها وصال.

ـ فقال لها: يا وصال كنتِ سبب الاتصال.

هكذا قال الإمام الغزالي: " أردنا العلم لغير الله، فأبى العلم إلا أن يكون لله ". فلذلك، نحن الموضوع ليس بموضوع معلومات، تريد معلومات فالكتاب أريح لك من ألف معلم، ومن ألف مسجد، خفيف ونظيف، ما له مشاكل، ما في له عبء، في بيتك واضعه تريد تقرأ فيف فتقرأ، لا تريد تضعه، لا يكلفك شيء الكتاب، إذا تريد معلومات فقط فالكتب فيها كل شيء، أما إذا كنت تريد الوصول إلى الله عزَّ وجل، فهناك وسائل، وفي طرق، في أعمال إذا عملتها اقتربت من الله عزَّ وجل.

فلذلك نحن اليوم درسنا الحث على ذكر الله تعالى بعد صلاة الصبح. فلا تجد إنساناً موصولاً بالله عزَّ وجل، سعيداً بهذا الاتصال، غارقاً في نشوة القرب إلا وله مع الله خلوة، تكون في النهار سعيد، متألِّق، طليق اللسان، حكيم، دقيق، مصيب في أقوالك وأفعالك، واثق من نفسك، تحس أن الله راضٍ عنك، مستسلم لقضاء الله، لقدره، راضٍ بحكمه، هذه المعنويات العالية كثير، بالقدرة على التأثير، وبالإشعاع الروحي، وبلا خلوة مع الله هذه مستحيلة، فلذلك إذا تحدثنا في دروس كثيرة عن قيمة الإعمال الصالحة، وإذا تحدثنا في دروس عن قيمة طلب العلم، اليوم درسنا عن قيمة الذكر.

قبل أن نبدأ بالدرس أذكر قصة مشجعة نقلت عن بعض أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم.

هذا الصحابي الجليل اسمه أبو الدرداء، وهذا الحديث ورد في كتاب الأذكار للإمام النووي. قال: جاء رجلٌ إلى أبي الدرداء فقال:

ـ يا أبا الدرداء قد احترق بيتك.

ـ فقال: ما احترق، ولم يكن الله عزَّ وجل ليفعل ذلك ـ ما هذه الثقة بالنفس ؟ ـ بكلماتٍ سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم مَن قالها في أول نهاره لم تصبه مصيبةٌ حتى يمسي، ومَن قالها في آخر نهاره لم تصبه مصيبةٌ حتى يصبح.

البيت ما احترق وأنتم غلطانين وما كان الله ليفعل ذلك، لكن ما هو الدليل ؟ أنا قلت كلمات علّمنيها رسول الله من قالها حين يصبح ما أصابه شيءٌ حتى يمسي، ومن قالها حين يمسي ما أصابه شيءٌ حتى يصبح، فما هذه الكلمات ؟ أو ما هذه الأذكار، طبعاً الموضوع من كتاب الأذكار للإمام النووي رضي الله عنه وأرضاه، وهذا من أهم الكتب، قال:

((لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أعلم أن الله على كل شيءٍ قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيءٍ علماً، اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر كل دابةٍ أنت آخذ بناصيتها، إن ربي على صراطٍ مستقيم))

بهذه الثقة العالية، قال: النبي الكريم علمني هذه الكلمات فمن قالها حين يصبح ما أصابته مصيبةٌ حتى يمسي، ومن قالها حين يمسي ما أصابته مصيبة حتى يصبح

((. " اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أعلم أن الله على كل شيءٍ قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيءٍ علماً، اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر كل دابةٍ أنت آخذ بناصيتها، إن ربي على صراطٍ مستقيم))

هذا الرجل لما وجده بهذه الثقة قال له: ما احترق البيت، وما كان الله ليفعل، غير معقول هذا الكلام فتوجه إلى البيت فعلاً رآه لم يحترق وإنما احترق ما حوله، فعاد إليه مبشراً:

ـ أنه كما قلت فعلاً.

ـ قال له: أعرف ذلك.

الآن في سؤال ولكنه دقيق ومحرج: يا ترى إذا قال لك واحد: أنا دعيت هذا الدعاء صباحاً وصار معي مشكلة، بماذا ستجاوبه ؟ هذا سؤال محرج، إيه سيدي مثلما حكيت قلنا وصار معي مشكلة، يحبوا التهكم.

الجواب: أنه ليس كل إنسان أراد الدعاء قراءة شكلية، وأراد منه المصلحة تعحقق، فإذا أنت قلت: لا إله

إلا الله. هذه كلمة، أما أنت فعلاً مؤمن أنه لا إله إلا الله ؟ هل ترى مع الله أحداً ؟ إذا أنت معتقد أن فلان، وعلان، وزيد، وعُبيد، وفلان يقدر، إذا أنت كنت ترى آلهة كثيرة وكلهم بأيديهم أن يفعلوا شيئاً معك، وقلت: لا إله إلا أنت، أنت ما قلتها أبداً، هذا كلام فارغ، فلن تجدي هذه الكلمات إلا إذا كنت في مستواها ؛ أي إذا قلت: لا إله إلا الله وأنت لا ترى إلا الله، وإذا قلت: اللهم أنت ربي، لما الإنسان ـ بشكل مبسط أنا مضطر أن أضرب الأمثلة:

إذا ابن وجد من والده الرعاية الكافية، وكل حاجاته مؤمنة بأدق تفاصيلها، مع العطف، مع الإكرام، مع الدلال، كلمة أبي هذه كلمة، ولكن وراءها في مشاعر المحبة، والامتنان، في عنده ألف شاهد على كلمة: فلان أبي، عايش العطف كله، عايش الرحمة كلها، عايش العناية، الإكرام، كل هذا يعيشه، فإذا أنت قلت: اللهم أنت ربي، هل ترى تربيته للعالم ؟ حتى المجرات هو ربها، ترى الشمس والقمر، والليل والنهار، والهواء والماء، والأطيار والأسماك، والبحار، والطعام والشراب، والخضراوات والفواكه، والأزهار، والعطور هذه كلها لك، وهو يربي جسمك تارةً، ونفسك تارةً، وعقلك تارةً، وينقلك من حال لحال، هل ترى هذه العناية الفائقة ؟ فلكي لا يقول لك أحد: أخي أنا قلتها وصار معي مشكلة، أنت تحكي لنا كلام غير صحيح، أنا دعيت الدعاء ووقعت بمشكلة، هذا الدعاء لا يجدي إلا إذا تمثّلته، حتى تقول: الله ربي، هل فكرت بخالق الكون ؟ هل فكرت برب العالمين ؟

اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت هل رأيته هو الخالق، وهو المربي، وهو المسير، وهو الواحد، وهو الكامل ؟ أي رأيته خالقاً، ورأيته مربياً، خالق خلق، مربي أمد، مسيّر حرك، يسيرك ويسير كل مخلوق، بيده الخير والشر، والنفع والضر، والبسط والمنع، والرفع والخفض، والعز والذل كله بيده، فإذا أنت بلغت درجة رأيت اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، وأنت رب العرش العظيم، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، يكفي إذا إنسان منع عنك شيء وحقدت عليه، فأنت لا تعرف الله، أنت لما حقدت عليه لماذا حقدت عليه ؟ لأنك رأيته هو الذي منعك، أما لو قلت: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فالشيء الذي ما كان ما شاء الله له أن يكون، وانتهى الأمر، والشيء الذي وقع، شاء الله له أن يقع، هذه رؤية.

أذكر طرفة: أنه واحد دخل عند طبيب فوجد عنده خمسين شخص، وكل واحد يدفع خمسمائة، ضرب خمسين بخمسمائة معقول دخله كل يوم هكذا ؟ فجاء عنده بسذاجة وقال له: أنت كيف تحكّم الناس علمني، كيف تكتب هذه الراشيتة ؟ تبسم الطبيب، قال له: هذه كتابة الوصفة محصلة الطب كله، يعني اذهب وخذ شهادة ثانوية، وخذ مائتي وثلاثين علامة، وادخل كلية الطب، وامكث فيها سبع سنوات، واذهب لأمريكا أربع سنوات، واعمل بورد، وارجع، الأربعة، والسبعة، و الأثني عشر، وليل نهار دراسة، حتى إذا رأيت مريض تكتب له وصفة يستفيد منها، هذا هو الطب.

فأنت إذا قلت: الله ربي هي كلمة يقولها كل إنسان، ولكن يا ترى هل عندك فهم أبعادها؟ هل فكرت في هذا الكون تفكير وهذا كانت الكلمة محصلة تفكير طويل ؟ هذه الكلمة خلاصة علم غزير، اللهم أنت ربي، واحد عاش مع أمه أربعين سنة، رأى من عطفها وحنانها، ومن سهرها ومن رحمتها، ومن إيثارها، ومن إنكارها لذاتها الشيء الذي لا يوصف، إذا قال: هذه أمي، أرأيت كلمة أم، هذه تكون ممتلئة بآلاف المعاني، بآلاف المشاعر، كلمة ولكن تتفجر بملايين الأحاسيس، فإذا واحد قال: الله ربي، هذه الكلمة من كل تفكيرك للكون، وكل محبتك لله، وكل اتصالك به، وبأذواقك بالقرب، وكل مواجيدك هي كلها منطوية في كلمة: اللهم أنت ربي. لا إله إلا أنت، توكلت عليك وأنت رب العرش العظيم، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لا إله إلا الله، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أعلم أن الله على كل شيءٍ قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيءٍ علما، اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر كل دابة أنت آخذٌ بناصيتها، إن ربي على صراطٍ مستقيم.

يعني حتى الأخ الكريم إذا جاء للمسجد واستفاد، وصل لله عزَّ وجل، وسعد بقربه، وتوفق بحياته، وشعر حاله من أسعد الناس، وتألَّقت نفسه، ونما عقله، وعنده موازين دقيقة، وصار عنده مقاييس رائعة، وفي عنده وسائل إلى الآخرة سريعة، نقول والله هذا وصل إلى الله عزَّ وجل، هذا خريج المدرسة، فحتى الإنسان لا يمضي وقته سدىً، وبعمل غير مجدٍ، ويروح ويأتي، وكلفة، وركوب، ووقت، ومسافات، وسماع دروس، إذا الإنسان ما وصل لله عزَّ وجل ما وصل لشيء، اجعل في بالك هذا المثل:

أن التجارة كلها، كل نشاطاتها ؛ الشراء نشاط، البيع نشاط، المحاسبة نشاط، العلاقات العامة نشاط، الدعاية نشاط، كل هذه النشاطات مؤداها أن تحقق الربح، فإذا لم تربح فلست سعيداً، كذلك في الدين تلاوة القرآن، إتقان القرآن، فهم القرآن، تجويد القرآن فهم الحديث، إتقان علم الحديث، فهم أحكام الفقه، وقراءة السيَر، كل هذه النشاط إذا ما أدى بك إلى أن تصل إلى الله ما فعلت شيئاً، وباللغة العامية، هكذا يقول بعض الشيوخ: روح ابحث عن نفسك، شوف أين واقفة.

فأنا مرة قلت لواحد: إذا راكب أنت مركبة وتعطلت بالطريق، والطريق سفر والدنيا ثلج، ماذا تفعل ؟ هذا واحد مركبته تعطلت نزل ودعا: يا رب ما في غيرك، الدعاء مقبول ولكن افتح هذا الغطاء وانظر لماذا واقفة السيارة، الدعاء مقبول لكن قبل الدعاء الفعل. يا ترى العطل هل من طريق الوقود ؟ في شيء أعاق الكهرباء مثلاً، تبحث عن علة علة، إذا اكتشفت العلة تزيلها فتمشي السيارة، فإذا الإنسان وجد نفسه في دقر عنده، صلاته غير صحيحة، نيته لا كما ينبغي، في عنده نوايا أرضية، في عنده حب الظهور، فيبحث عن السبب، يكون طبيب لنفسه ويكون حكيم.

فنحن نريد إذا إنسان دعا إلى الله يكون معلم ويكون مربي، ونريد إذا إنسان حضر مجلس علم يسمع الحقائق ويتمثلها إلى أن يصل إلى الله، فإذا وصل إليه وصل إلى كل شيء، إذا لم يصل إلى الله ما وصل إلى شيء، ولا أقول: يا حسرةً على عمله لقد ضاع سدىً، لكن أقول له: حاسب نفسك قبل أن تحاسب.

فلذلك أنا أقول لكم: هذا الطريق إلى الله عزَّ وجل طريق ولكن له معالم، أولى هذه المعالم الاستقامة على أمر الله، يعني إذا كان أنت مستودع أو وعاء مادام في ثقب بقعره لا تغلب حالك، كل ما تعبئ فيه ينزل، لن يمتلئ في حياته كلها، مادام في معصية في حجاب، مادام في مخالفة في حُجُب كثيفة، مادام في معاصي ما في اتصال بالله، ما في اتصال في ملل، في سَأم، في كسل، في ضَجَر، في شعور بالحيرة، في استقامة في اتصال، في اتصال في سعادة، فأول نقطة علاّم في الطريق إلى الله الاستقامة، لأن الله عزَّ وجل طيِّب ولا يقبل إلا طيباً.

فيجب أن نعيدها مائة سنة: مادام في انحراف عن الاستقامة، مادام في تقصير، مادام في مخالفات، مادام في جُنَح، مادام في معاصي، مادام في أشياء نهى الله عنها نرتكبها، وفي أشياء أمر الله بها لا نفعلها ، مادام نحن في هذا الموقع نحن في حجاب عن الله عزَّ وجل، مادمنا في حجاب في حالة نفسية تعني السأم، والضجر، والملل، وقد يقول: والله هذا الكلام سمعناه كثير، ما في شيء، طبعاً ما في شيء، لأن محجوب، وهذا الحجاب منعه من اقتباس أنوار الله عزَّ وجل، منعه أن يسعد بالقرب من الله عزَّ وجل، فهذه الاستقامة واحدة.

الثاني: العمل الصالح، العمل الصالح يرفعه، هنا الإنسان، هذا الحديث في الطريق إلى الله، فهل أنت لك عمل صالح تلقى الله به ؟ غير مهنتك، هذا موظف، هذا تاجر، هذا صانع، هذا مزارع، عنده عمل يقوم فيه ويأخذ قرشين ويعيش منه، هذه مصالحك، أما ألك عمل خالص لوجه الله لا تبتغي به سمعةً، ولا شهرةً، ولا وجاهةً، ولا حظ نفسٍ، هكذا تفعله سراً بينك وبين الله، ترجو أن تلقى الله به عند الموت؟ إذاً نزل الإنسان القبر يرجو أن يلقى الله به. قال له: يا بشر لا صدقة ولا جهاد فبما تلقى الله إذاً ؟ هل خادم خدمة لوجه الله؟ علّمت علم لوجه الله؟ عاونت إنسان لوجه الله ؟ أنفقت نفقة لوجه الله ؟ دافعت عن إنسان لوجه الله ؟ وقفت موقف مشرف لوجه الله ؟ اعتنيت بيتيم لوجه الله ؟ نصحت إنسان لوجه الله من دون قصد ؟.

إذاً أول بند كبير الاستقامة، البند الكبير الثاني العمل الصالح، يجب أن يكون لك عمل صالح، ألا تصلي الفجر حاضراً كل يوم ؟ ألا يدعو الإمام في دعاء الفجر:

((اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، وبارك اللهم لنا فيما أعطيت، وقنا واصرف عنا شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك ـ وبعدها ـ اللهم هب لنا عملاً صالحاً يقربنا إليك))

انظر للقرآن ما أجمله :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

(سورة الكهف: من آية " 110 ")

تجد صاحب العمل الصالح قريب من الله، العلماء يشبهوه مثل زيت الكاز قديماً، ممتلئ الخزَّان، والجرس مجلّس، والفتيلة مقصوصة، والبلورة نظيفة، يحتاج فقط لكبريتة، في كثير أشياء تكون الجاهزية عالية جداً، يحتاج فقط ضربة مرش، ما فيها شيء السيارة، كاز يحتاج كبريتة، وهذه تحتاج لقدحة، فقط كبسة زر، وفي أشياء تريد أن تشعله لا يوجد كاز، هاتوا كاز، الأنبنة تزرب والتنكة فارغة، ما في كاز، أتينا بكاز، الفتيلة محروقة، هات فتيلة ما في فتيلة، فانتهت السهرة كلها، فحتى الإنسان يأتي إلى مجلس العلم وعنده خمس أو ست مخالفات لا يصير له شيء، لا تقدح معه، أما إذا جاء جاهز، فأنا أقول هذه الكلمة الدقيقة: يجب أن يكون لك استقامتك، وعمل صالح، عمل صالح كل يوم.. " لا بورك لي في طلوع شمس يومٍ لم أزدد فيه من الله قرباً ".

ماذا فعلت ؟ ماذا خدمت ؟ مَن أطعمت ؟ عدت مريض ؟ لا والله ما صح لي ؟ واسيت إنسان ؟ لا والله، أطعمت حيوان ؟ لا والله، تصدقت على إنسان ؟ لا والله، نصحت إنسان ؟ لا والله، قرأت قرآن ؟ لا والله، ماذا تفعل إذاً ؟ هذه أبواب الخير، هذه أبواب القرب إلى الله عزَّ وجل..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)

(سورة المائدة: من آية " 35")

ما الوسيلة ؟ يعني وسيط بينك وبين الله، العلم، الخدمة ، الاستقامة، العمل الصالح، فأول بند الاستقامة، الثاني العمل الصالح، الثالث التفكر، هذا القرآن لمَن ؟ أليس للمؤمنين ؟

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس: من آية " 101 ")

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

(سورة الذاريات)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24))

(سورة عبس)

(مَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6))

(سورة الطارق)

أمر إلهي خالق الكون يقول لك: انظر إلى نفسك ممَ خلقت ؟ خلقت من ماءٍ دافق، عندك الشمس، عندك القمر، عندك المجرات، عندك الجاذبية، عندك الهواء، عندك الماء، عندك الأطيار، عندك ملايين الموضوعات، وكل موضوع يتفتَّق على ملايين الموضوعات، هذه كلها تزيد حجم معرفتك بالله عزَّ وجل، إذاً نريد استقامة، ونريد عمل صالح، وتفكر، ونريد ذكر، اسمعوا ماذا قال عليه الصلاة والسلام؟ عن أنسٍ رضي الله عنه قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((من صلَّى الفجر في جماعة ـ الإلحاح هنا على الجماعة ـ من صلَّى الفجر في جماعة...))

ما قال: في وقته بل في جماعة، هذا حديث حسن رواه الترمذي:

((من صلَّى الفجر في جماعة، ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين كانت كأجر حجةٍ وعمرةٍ تامةٍ تامةٍ تامةٍ))

(حديثٌ حسن رواه الإمام الترمذي)

هذه الخلوة مع الله، أنا أعطيك حرية حركة ؛ تحب تدعي، تحب تذكر، تحب تفكر، تحب تستغفر، تحب توحِّد: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له المُلك ولك الحمد، تحب تكبِّر: الله أكبر ولله الحمد، تحب تسبح: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، تحب تقول: الله الله الله ـ عندنا البحث طويل إن شاء الله سأكمله في الدرس القادم ـ عندك الفاتحة والمعوذتين، عندك الاستغفار، عند الذكر المفرد: الله الله، عندك التسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، عندك التلاوة، عندك التفكر، هذه كلها نشاطات تنطوي تحب ذكر الله عزَّ وجل، إن فكَّرت في خلق الإنسان هذا ذكر، وإن قلت: الله الله هذا ذكر، وإن سبحت الله هذا ذكر، وإن تلوت القرآن هذا ذكر، يعني نريد ساعة مع الله، نصف ساعة مع الله، جلسة مع الله، خلوة مع الله، صباحاً ما تمكنت اعملها مساءً، تمكنت صباحاً ومساءً أفضل، لحتى تقطف الثمار وتقول: والله فعلاً شيء جميل، فعلاً وصلت له، شيء مسعد جداً أن الإنسان يكون ماشي بهذه الطريقة.

فهذا كتاب الأذكار للإمام النووي هو أذكار النبي عليه الصلاة والسلام، أي أن هذا الإمام الجليل، العظيم، الذي عاش حوالي أربعين سنة فقط، ترك كتب يعني سبحان الله من توفيقات الله له، ترك رياض الصالحين، وهو من أجَل كتب الحديث، ترك كتاب الأذكار للنووي وهو من أجل كتب الأذكار للنووي.

وفي حديثٍ آخر رواه الترمذي، عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((من قال دبر صلاة الصبح وهو ثانٍ رجلاه قبل أن يتكلَّم ـ قبل أن يقول كلمة ـ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيءٍ قدير. عشر مراتٍ كتبت له عشر حسنات ومحا الله بها عشر سيئات، ورفع الله له بها عشر درجات، وكان يومه ذلك في حرزٍ من كل مكروه))

ولكن أنا أقول لكم كلمة دقيقة: الآن في كل الجوامع في هذا الذكر، لا أعتقد أن هناك جامع في الشام إلا وفيه هذا الذكر، أنت لما تقول الكلمات من دون ما تتحقق منها، الآن قل: بحر، هل يبتل شيء ؟ والله ملعقة شاي فيها ماء تبله، كأس شاي فيها ماء يضعها في جيبه في الشتاء تظل ست ساعات لكي تنشف، يقول بحر مائة مرة لا يبتل، لأنه كلام، البحر ماء، أما كاسة ماء تبله وكلمة بحر لا تبله، يعني أضرب مثل أوضح من هذا.

قل كلمة: ألف مليون، شتان بين مَن يلفظها وبين ومَن يملكها، مسافة كبيرة كثير بين واحد يقولها وما معه رغيف خبز وبين واحد يملكها، موضوع الذكر ممكن تقول: لا إله إلا الله، سهلة، إذا واحد طلع خلقه يقول: لا إله إلا الله، صارت لفش الخلق هذه الكلمة، أما إذا واحد قالها فعلاً وكان في مستواها..

((من قال دبر صلاة الصبح وهو ثانٍ رجلاه قبل أن يتكلم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيءٍ قدير. عشر مراتٍ كتبت له عشر حسنات ومحا الله بها عشر سيئات، ورفع الله له بها عشر درجات، وكان يومه ذلك في حرزٍ من كل مكروه، وحُرِسَ من الشيطان، ولم ينبغ لذنبٍ أن يدركه في ذلك اليوم إلا الشرك بالله تعالى))

قال الترمذي: هذا حديثٌ حسن، وفي بعض النُسَخ صحيح.

أنا كل تركيزي اليوم لا على لفظ الذكر بل على حقيقة الذكر، إذا قلت: الله ربي. رأيت ربوبيته، وإذا قلت: اللهم. رأيت ألوهيته، وإذا قلت: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. رأيت أنه لا فعَّال إلا الله، إذا عندك هذه الرؤية، والآن ذكرت هذه الكلمات، والكلمات تصديق لكلمات أنت تعيشها، عندئذٍ هذه الكلمات، انظر الله ماذا قال:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ)

يعني أي إنسان ؟ جنس الإنسان..

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19))

(سورة المعارج)

أي أنه خويف، مقطوع قلبه دائماً، قال لي واحد: الآن قال لي شخص سيأتي موظف تموين فركبي ترجف هكذا، شخصية ومهم طبعاً..

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22)

هذا مصلي، هذا موصول، راع من الخوف، راع من القلق، كان مقطوع قلبه، ولكن الله ثبت له قلبه بالقول الثابت، هذه السكينة الله عزَّ وجل أنزلها على أصحاب رسول الله يوم أحد..

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا)

(سورة التوبة: من آية " 40 ")

تجد المؤمن قلبه ثابت، واثق من الله عزَّ وجل، باللغة العامية معنوياته عالية كثير، كأنه لا يخاف من أحد، لا إنه يخاف من الله فقط، ولما خاف من الله، فالله طمأنه، إذا واحد ما خاف من الله يخوفه الله من أحقر مخلوقاته، مَن خاف الله خافه كل شيء، مَن هاب الله هابه كل شيء، ومَن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء، تجد شخصية، ومكانة وملء السمع والبصر مقطوع قلبه من أصغر إنسان، يقول لك: مشكلة والله ما نمت الليل، الشرك أساساً، هذا الشرك، دائماً الشرك في معه خوف، والإيمان في معه أمن..

(الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

(سورة الأنعام)

فأنا الذي أتمناه على إخواننا الكرام، هذا موضوع مناصحة، موضوع الدين النصيحة، مثل التجارة حتى تربح، فإنك لا تسر بالتجارة إلا إذا ربحت، فلو زينت محلك، وعملت نظام كله بالفيش، كله بالصندوق، ولكنك لم تربح، تتضايق، بعد شهر أخي برسم التسليم، أين هذا التعب ؟ هلكت فيه، أين تعبك بالتزينات ؟ وضعه برسم التسليم لأنه ملَّ منه، فليس من الممكن أن تقبل على الدين إقبال النهم إلا بحالة واحدة أن تصل إلى الله، أن تتعامل معه، أن تخلص له، أن تتصل به، أن تأوي إلى ظله، أن تهتدي بهداه، أن تكون في خدمة خلقك.. يا رب لا يطيب الليل إلا بمنجاتك، ولا يطيب النهار إلا بخدمة عبادك.. إذا أنت كنت بخدمة العباد فأنت أسعد العباد، أنت أسعدهم.

فنحن كي نصل لله عزَّ وجل لا يكفي نحضر درس، ولكن يجب أن نعمل برنامج لحالنا، هذا البرنامج يحتاج لنصف ساعة باليوم بعد صلاة الفجر، وإذا تتمكن بجماعة والله أفضل، أفضل بمليون مرة...

((" من صلى الفجر في جماعة...))

طبعاً الجامع غير وضع، أنشط، أكمل، فيه إمام، قارئ يقرأ القرآن كل يوم آيات جديدة، بصوت حسن، تجويد رائع، لك إخوان تفقدوني لماذا ما نزلت اليوم ؟ صار في تفقد عليك، أما بالبيت لحالك كيفما كان تنمعس معك الشغلة، فـ:

((من صلى الفجر في جماعة... ".))

وبعد الفجر هذا الورد، قرآن، تحب قرآن، نفسك هفت على القرآن اقرأ قرآن، تحب تذكر فاذكر، تحب تفكر فكر، لكن بعد فترة تستقر على نظام معين، استغفار، مائة مرة استغفار، " إني أستغفر الله في اليوم أكثر من مائة مرة "،

فالإمام النووي قال:

أستغفر مائة مرة، مع الاستغفار الفاتحة والمعوذتين، شيء من التفكر بآية من آيات جسمك، كل يوم آية، شيء من الذكر، تلاوة قرآن، قضيت حصتك مع الله عزَّ وجل، انطلق بعد ذلك إلى عملك تجد نفسك إنسان آخر، مَن أنا ؟ أنت إنسان آخر صرت، طليق اللسان، قوي الحجة، حكيم، وأنت في حفظ الله، أنت اليوم في ذمة الله، كان الله عزَّ وجل أعطاك إلى المساء فأنت في ذمتي، وأنت في حفظي، وأنت في رعايتي، هذا نريده نحن، إذا شيء تحقق ننتقل من حال إلى حال، "المغبون من تساوى يوماه "، " مَن لم يكن في زيادة فهو في نقصان ".

إن شاء الله الدرس القادم نتابع أيضاً أذكار رسول الله، يعني في أشياء جميلة جداً هيأتها لكم هذا الدرس، هيأت لكم عشرين حديث، ولكن فقط واحد شرحناه، في أشياء جميلة جداً عن رسول الله، وكلها أحاديث صحيحة عن النبي عليه الصلاة والسلام.

هذه واحدة ثانية النبي الكريم فيما رواه أبو سعيد الخدري قال: دخل النبي عليه الصلاة والسلام ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة، فقال له:

((يا أبا أمامة ما لي أراك جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة؟))

معنى هذا في مشكلة.

- فقال: يا رسول الله همومٌ لزمتني، وديون ما أطيق أداءها.
- فقال عليه الصلاة والسلام:

((أفلا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله همك، وقضى عنك دينك؟))

- قلت: بلى يا رسول الله.
- قال

((قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحَزَن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال.))

- قال: ففعلت، فأذهب الله تعالى همي وغمي، وقضى عني ديني.

أنت معك أقوى سلاح وهو الدعاء، هل تعلم مَن تناجي ؟ تناجي خالق الكون، تناجي من بيده كل شيء، في أشخاص يسخرون من الدعاء، أخي ادعي، ادعي لنا سيدي، ادعي لنا، يستهزئ، هل تعلم ما هو الدعاء ؟ أنت بالدعاء تناجي خالق الكون، تناجي من بيده كل شيء، فإذا كان في إخلاص أذهب الله عنك همك، وحزنك، وقضى عنك دينك، طبعاً.

إن شاء الله في لقاء آخر نتابع موضوع الأذكار حتى نحقق توازن في شخصية المسلم ؛ بين طلب العلم، وبين الذكر، وبين العمل. أقول لكم هذه الأشياء الثلاثة: لابد من جانب عقلي، تكون صاحب

حجة، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلّمه، وتكون صاحب قلب يفيض على الناس أنواراً، وتكون صاحب عمل صالح يكون زادك يوم القيامة.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (027) :آداب الطعام والشراب.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-01-26

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... من ضمن سلسلة دروسٍ حول الآداب الإسلامية، تحدَّثنا من قبل عن آداب السفر، وتحدثنا عن آداب الضيافة، وها نحن أولاء نتحدث عن نشاط يومي، يقوم به كل مسلم بل كل إنسان وهو الطعام والشراب، يا ترى ماذا جاء في أحكام الفقه، وفي أبواب الآداب الإسلامية حول الطعام والشراب، ما منا واحد إلا ويجلس على المائدة في اليوم ثلاثة مرات، فمن الأولى والأجدر أن نتعرف إلى آداب الإسلام في موضوع الطعام والشراب.

الحقيقة عدد هذه الآداب يزيد عن عشرين أدباً، ورأيت من المناسب لعل بعضكم يعرف بعض هذه الآداب، أما أن نعرفها كلها بتفاصيلها وأدلتها فهذا، ما دعاني إلى أن يكون محور هذا الدرس الآداب الإسلامية في الطعام والشراب.

بادئ ذي بدء يقول عليه الصلاة والسلام:

((بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده))

(من الجامع الصغير: عن " سليمان ")

وضوء الطعام غسل اليدين والفم، والحقيقة الهدف واضح جداً ؛ الإنسان في أثناء عمله قد يصافح يد ملوثة، قد يمسك بأداة غير نظيفة، قد يمسك بشيء فيه جراثيم، فحينما يغسل يديه وفمه قبل الطعام فقد ضمن النظافة والوقاية من الأمراض السارية، إذاً أن يغسل اليدين قبل الطعام وبعده وأن نتمضمض هذا هو الوضوء الذي سماه النبي وضوءً.

الآن، في نقطة مهمة جداً، كلكم يعلم في الشرع أوامر، فرائض، وفي واجبات، وفي سنن مؤكدة، وفي سنن غير مؤكدة، وفي مندوبات، وفي آداب، وفي مباحات، وفي مكروهات ؛ مكروهات تنزيهاً، ومكرهات تحريماً، وفي محرمات، الأصل في الأشياء الإباحة، استنشاق الهواء مباح، النظر إلى جبلٍ شامخ مباح، النظر إلى حيوان جميل كالطاووس مباح، أن يشم الإنسان وردةً فيتعبَّق أريجها مباح، الأصل في الأشياء الإباحة، وتناول الطعام والشراب مباحٌ في الشرع على قاعدة: "أن الأصل في الأشياء الإباحة ".

لكن الذي أتمنى عليكم أن تقفوا عنده هو: أنك إذا فعلت مباحاً بنيةٍ انقلب المباح إلى عبادة. المباح أهل الدنيا، أهل الكفر يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنار مثوىً لهم، أما المؤمن إذا تناول طعامه، ونوى بتناول هذا الطعام التقوِّي على طاعة الله، انقلب هذا الطعام الذي تناوله على شكل مباحٍ، انقلب

إلى طاعة وعبادة، إذاً أن تستصحب مع تناول الطعام، النية على التقوي على طاعة الله، النقطة الدقيقة الآن هذه النية كيف تتأتى ؟

الحقيقة النية محصلة إيمانك بالله، معرفتك بجلاله وعظمته، معرفتك بما عنده من عطاءٍ عظيم، معرفتك بما عنده من عذابٍ أليم، فمحصلة إيمانك كله هذه النية، المؤمن الصادق إذا تاجر ينوي بتجارته خدمة المسلمين، وإذا تناول الطعام والشراب ينوي بطعامه وشرابه التقوّي على طاعة الله، وإذا أخذ أهله نزهة ينوي بهذه النزهة إدخال السرور على قلب أهله، فأي عملٍ يفعله ما دام أنه قد نوى قبله نية عالية انقلب هذا المباح إلى طعام، إذاً غسل اليدين قبل الطعام وبعدهما لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده))

(من الجامع الصغير: عن " سليمان ")

وأن يستصحب تناول الطعام نية بمعنى أن يتقوى بهذا الطعام على طاعة الله، والمؤمن كالنحلة لا يأكل إلا طيباً، ولا يطعم إلا طيباً، أي حلالاً، وكما تعلمون كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا تصحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي))

(من مختصر تفسير ابن كثير)

الآن رقم الثلاثة: التسمية، غسل الدين والفم قبل الطعام وبعده رقم واحد، اثنين: أن تنوي بهذا الطعام التقوي على طاعة الله، ثلاثة: أن تسمي بالله، الحقيقة التسمية لها معنيان دقيقان ؛ المعنى الأول: أن أيها الإنسان هل فكّرت في هذا الطعام، من صنعه ؟ من هيَّأه، مَن أنزل الماء مَن السماء، مَن أنبت النبات في الأرض، مَن أنضج هذه التفاحة، مَن أعطاها هذا اللون، مَن أعطاها هذا الطعم، مَن أعطاها هذا القوام، مَن أعطاها هذه المكوِّنات التي تتناسب تناسباً رائعاً مع حاجات جسمك ؟ الشكل، والمكونات، واللون، والطعم، والحجم، والقوام، الشكل في قوام قاسي، الشكل والقوام واللون والطعم والمكونات والحجم، مَن جعلها كلها متوافقة مع حاجات جسمك ؟ هذه معنى بسم الله، إذا أردت أن تشرب بسم الله، من جعله عذباً فراتاً بعد أن كان ملحاً أجاجاً ؟ مَن أساله وجعله ينابيع تنبع ؟ الخبز، مَن أنبت هذه الحبة، التي بها قوام حياتنا، هنا الدقة، البسملة كي تذكر أن هذا الطعام من صنع الله..

(وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (35))

(سورة يس)

الشيء الثاني في البسملة أن تذكر أمر الله في تناول الطعام، البسملة لها معنيان المعنى الأول: أن تذكر نعمة الله عز وجل، والمعنى الثاني: أن تذك أمر الله في تناول الطعام، يعني بسم الله الرحمن الرحيم ينبغي أن أتناول هذا الطعام وفق ما أمر الله، يجب أن أطبق السنة في تناول هذا الطعم، هذا معنى بسم

الله الثاني، المعنى الأول: يجب أن أذكر أن هذه نعم الله عز وجل، وأن الله سبحانه وتعالى مَكَّنني من شراء هذا الطعام، ومكنني من تناوله، بدليل أن النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا دخل الخلاء قال:

((الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى فيَّ قوته، وأذهب عني أذاه))

(من الدر المنثور: عن " السيدة عائشة ")

إذاً كان من الممكن أن يأخذ الإنسان سائل في وريده ويتغذَّى به، لكن أذاقني لذته، وأبقى فيّ قوته، وأذهب عني أذاه، يقول عليه الصلاة والسلام:

((إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل: بسم الله، فإن نسي في الأول فليقل في الآخر بسم الله أوله وآخره))

(رواه أبو داود)

الأدب الثالث: التسمية، كي تذكر نِعَمَ الله عز وجل، وأن هذا الطعام والشراب من صُنع الله عز وجل، وهذه المائدة مائدة الله عز وجل، وهذه النِعَم نعم الله ساقها إليك، مَكَّنك من شراء الطعام، أعطاك أجهزة تهضمه، سمح لك أن تذوق لذته، وأن تبقى فيك قوته، وأن يذهب عنك أذاه.

الحديث الثاني يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن الشيطان يستحل الطعام إن لم يذكر اسم الله علي))

(من مختصر تفسير البن كثير)

والقصة التي تعرفونها جميعاً: " أن الشيطان يقول لإخوانه إذا دخل الرجل ولم يسلّم يقول أدركتم المبيت في هذا البيت، إذا جلس في الطعام ولم يسمِّ يقول: أدركتم العشاء، فإن دخل ولم يسلم، وإن جلس ولم يسم، يقول الشيطان لإخوانه: أدركتم المبيت والعشاء معاً ". طوال الوقت ؛ المشكلات، والخصومات، والكلام القاسي، والغضب، والبغضاء، والعداوة، إذا دخلت فسلم، وإذا جلست إلى الطعام فسم، حتى يذهب الشيطان. الأدب إذاً الثالث التسمية لعلتين ولحديثين شريفين.

الأدب الرابع: الاجتماع على الطعام، فليس مستحسناً أن يأكل الإنسان وحده، يعني مع أهله وأولاده، أن يجتمع الأهل على الطعام ولو وجبة واحدة في اليوم، في أنس، في مودة، في حديث لطيف، فالطعام يجمع، فيقول عليه الصلاة والسلام حينما شكى إليه جماعة من أصحابه، شكوا إليه أنهم يأكلون ولا يشبعون، فقال عليه الصلاة والسلام:

ـ لعلكم تفترقون ؟

ـ قالوا: نعم.

ـ قال: فاجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله عليه، يبارك لكم فيه.

(رواه أبو داود)

من السنة أن نأكل مجتمعين، من السنة أن نأكل مع الأهل، أن نأكل مع الأولاد، أن نأكل مع الأقارب، مع الأصحاب، فكلما كَثُرَ الجالسون على المائدة بارك الله في الطعام، هذا التوجيه يقابله حديث شريف آخر:

((طعام الاثنين يكفي لثلاثة، وطعام الثلاثة يكفي لأربعة... وهكذا))

(من كشف الخفاء: عن " جابر ")

هذا هو الأدب الثالث: الاجتماع على الطعام، والأكل مع الآخرين، كالضيف والأهل والأولاد، في هذا تأليفٌ للقلوب، وترقيقٌ لها، وحصول البركة، والبعد عن الكبر والتعالي، ثم في الاجتماع على الطعام مدعاة للشبع.

الأدب الخامس: الدعاء عند الطعام. وضع الطعام، كان يقول عليه الصلاة والسلام:

((اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه))

(من الجامع لأحكام القرآن: عن " ابن عباس ")

بارك لنا فيه أي أحياناً الإنسان يأكل أكل نفيس يصير معه تقيء ليلاً، لم يستفد منه، بارك لنا فيه أن يتمثّل هذا الطعام، نشاطاً وقوة وحيويةً، وبارك لنا فيه أن يكفينا جميعاً، أحياناً الطعام لا يكفي، ما دام في تسمية، ما دام في ذكر لنِعَم الله عز وجل، في دعاء، تحصل البركة، فلذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه))

(من الجامع لأحكام القرآن: عن " ابن عباس ")

إلا أنه يقول إذا شرب لبناً ـ أي حليباً ـ كان يقول:

((اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه))

(من الجامع لأحكام القرآن: عن " ابن عباس ")

هذه إشارة إلى أن أعلى أنواع الطعام هو اللبن، اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه.

الأدب السادس: الأكل والشرب باليد اليمنى، لقوله صلى الله عليه وسلم:

((لا يأكل أحد منكم بشماله ولا يشربن بها، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها))

(من الموطأ للإمام مالك)

فكأن في ترتيب إلهي، أو ترتيب نبوي أن هذه اليد تمسك بها كتاب الله، تصافح بها أهل الإيمان، تقوم بها بالأعمال الشريفة، وهذه اليد اليسرى تتنظف بها، فيد لبعض الأعمال، ويد لجليل الأعمال، فتناول الطعام والشراب من السنة أن تأكل باليد اليمنى.

إذاً، غسل اليدين والفم قبل الطعام وبعده رقم واحد، استصحاب النية أي أن تنوي التقوي على طاعة الله بهذا الطعام رقم اثنين، التسمية في أول الطعام أو في آخره لتذكر نِعَم الله عليك، ولتذكر أمر الله في

تناول الطعام، ولأن الشيطان إذا سميت انصرف ولم يأكل مع الآكلين، هذا الأدب رقم ثلاثة، والاجتماع على الطعام، وأن تكثر عليه الأيدي هذا رقم أربعة، والدعاء عند الطعام إذا كان حليب أو لبن بالزيادة، وإن يكن طعام آخر فالدعاء: وأطعمنا خيراً منه، والأكل والشرب باليد اليمينى لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا يأكل أحد منكم بشماله ولا يشربن بها، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها))

(من الموطأ للإمام مالك)

ومن شمائل النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يحب التيامُن في أمره كله.

الأدب الذي يلي هذه الآداب: أن يأكل المسلم مما يليه، لما رواه الإمام البخاري ومسلم عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أي جالس في حضنه ـ وكانت يدي تطيش في الصحفة ـ يأكل من هنا، ومن هنا، ومن هنا ـ فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((يا غلام سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك))

أي أنك عندما تأكل مما يليك، بقي الطعام في شكل مقبول، فلو أراد أحد أن يأكل من هذا الطبق يأكل ونفسه تشتهيه، أما إذا جالت اليد في كل أطراف الطعام، النفس تقززت أن تأكل من هذا الطبق هذا من السنة.

قال: من آداب الطعام التواضع في الجلوس للأكل، فهناك جلسة فيها اتّكاء، في جلسات لا ترضي الله عز وجل، إذا جلست متّكئاً فالنبي عليه الصلاة والسلام ما تناول الطعام متكئاً أبداً، لأن الاتكاء فيه كبر، وأنت حينما تأكل تأكل من نِعَم الله عز وجل، فالأولى أن تجلس جلسة أدب لتأكل الطعام، فالاتكاء ليس من صفات المؤمنين في طعامهم، يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا آكل متكئاً))

وفي رواية:

((لا آكل وأنا متكئ))

(رواه البخاري)

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يأكل الرجل وأن يشرب منبطحاً، نهى أن نأكل متكئين، ونهى أن يشرب الرجل منبطحاً، والقصد من هذا احترام النعمة، والمؤمن حقيقة إذا أكل أكل بأدبٍ جم، وإذا جلس جلس جلسة فيها أدب، وإذا ركب مركبة يركب مركبته بأدب جم، حتى في كل أحواله له مظهرٌ واضحٌ صارخٌ في أدبه مع ربه عز وجل.

الآن، من السنة أيضاً أن نأكل من جانب الإناء، وأطرافه وعدم البدء بالأكل من الوسط، نهى النبي عليه الصلاة والسلام أن نأكل من وسط الطبق، أن نأكل من جانبه إن كنا وحدنا، أو من أطرافه إن كنا مجتمعين، أما أن تمتد اليد إلى وسط الطبق، فهذا مما نهى النبي صلى الله عليه سلّم عنه لقوله صلى الله عليه وسلم:

((البركة تنزل وسط الطعام، فكلوا من حافتيه ولا تأكلوا من وسطه "))

(رواه الترمذي)

ومن آداب النبي صلى الله عليه وسلم في تناول الطعام عدم النفخ في الطعام الحار، لأنه ثبت علمياً أن هناك نوعاً من الجراثيم تكون في النفس، في رئة الإنسان، فإذا نفخ في الإناء أو في كأس الشرب، النبي عليه الصلاة والسلام أمرنا أن نبعد القدح عن فمنا، قال عليه الصلاة والسلام:

((أدن القدح عن فيك))

أبعده في أثناء التنفس، ومما يتبع هذا أن النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن التنفس في الطعام، وعن النفخ في الطعام الحار، وقد ثبت علمياً أن الطعام الحار يضعف حساسية الخلايا الذوقية في اللسان، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((الطعام الحار لا بركة فيه "))

(من شرح الجامع الصغير)

لأنه يضعف الخلايا الذوقية في الإنسان، لذلك نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن أكل الطعام الحار، وعن النفخ فيه، فأحياناً يتناول الطعام من على النار إلى الطبق مباشرة، يأكل بألم، قد يبقى لسانه أسبوعاً متأثراً من هذه اللقمة الأولى التي أكلها والطعام حارٌ جداً، فالطعام الحار لا بركة فيه، ويضعف خلايا الذوق.

وكان عليه الصلاة والسلام اتباعاً لهذه القاعدة يتنفس في الشراب ثلاثاً، أي يشرب كأس الماء ثلاث مرات، وفي كل مرة يبعد القدح عن فيه، ويتبع ذلك ألا ننفخ في طبق الطعام.

الآن، أحياناً تلاحظ إنسان أكله قليل، ولكن يمسك الخبزة بخمسة أصابع بهذا الشكل، فالنبي علمنا أن نأكل بثلاثة أصابع قال:

((الأكل بأصبعين دلع، وبثلاثة أصابع ورع، وبأربعة أصابع طمع، وبخمسة أصابع جشع))

بالخمسة جشع، بالأربعة طمع، بالثلاثة ورع، بالاثنين دلع، على كلٍ السنة أن نأكل بثلاث أصابع. والسنة أيضاً أن تلعق أصابعك بعد تناول الطعام، ما الحكمة من ذلك ؟ أي أن النفس لا تستسيغ أن تلعق الأصبع إلا إذا كانت نظيفة جداً، أي اغسل يديك قبل الطعام كي تستسيغ نفسك أن تلعق أصابعك بعده، فأحياناً يبقى أثر من دسم، أثر من طعام، فإذا لعقت أصابعك الثلاث بلسانك فقد نقلت هذا الدسم

إلى جسمك أولاً وهكذا السنة، فتأكد من أنك قد غسَّلت يديك قبل الطعام لأنك سوف تضطر تنفيذاً للسنة أن تلعق أصابعك بعد الطعام.

من الأدب قال:

((إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها، فليمط ما كان بها من أذى، وليأكلها، ولا يدعها للشيطان، ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه ـ أحياناً يكون باليد في كمية طعام كثيرة، فرأساً مسح بقماشة هذا الطعام، ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه ـ فإنه لا يدري في أي طعامه البركة"))

(رواه مسلم)

ومن آداب الطعام: عدم الإكثار في الأكل، لقوله صلى الله عليه وسلم:

((المسلم يأكل في مِعَاً واحد والكافر أو المنافق يأكل في سبعة أمعاء))

(رواه البخاري ومسلم)

من السنة عدم ذم الطعام، الأدب النبي عليه الصلاة والسلام ما عاب طعاماً قط، إن أحبه أكله، وإن لم يحبه تركه، ولكنه لا يعيبه، ما عاب طعاماً قط، وفي المناسبة ولا مدح طعاماً قط، في أشخاص يصف لك الطعام وطريقة طهوه، وطريقة إعداده حتى يسيل لعابك، فليس من السنة لا أن تمدح الطعام ولا أن تذمه، لأنك تأكل لتعيش، لا تعيش لتأكل، والأصح من ذلك أنك تعيش لتعرف الله عز وجل، فالنبي عليه الصلاة والسلام:

((ما عاب طعاماً قط إن اشتهاه أكله وإن كرهه تركه))

(رواه البخاري ومسلم)

ومن السنة النبوية في تناول الطعام: التحدث أثناء الطعام بالكلام أي أنك عندما تأكل تتحدث سوف يطول وقت الطعام، وإذا طال وقت الطعام ارتفع مستوى المضغ ومستوى الهضم، فليس من السنة أن تضع عينك في طبق الطعام وتأكل حتى تنتهي وتقوم، لا، فما دمت قد جلست إلى أهلك وأولادك فليكن حديثٌ على الطعام، ولا سيما إذا كان الحديث ذكر الله عز وجل، والأجمل من ذلك كما قال عليه الصلاة والسلام:

((اذيبوا طعامكم بذكر الله))

(من الدر المنثور: عن " الشيدة عائشة ")

إذا الإنسان كان مسرور، حديث ممتع، أفكار جميلة، قصة لطيفة، تعليق لطيف، فكرة رائعة، إذا كان هذا مع تناول الطعام، أعان هذا على هضم الطعام، والذي لفت نظري مرة أن صديقاً لي قرأ مقالة بلغةٍ أجنبية، ولكن هذه المقالة إلى أن تكون بحثاً علمياً هي أقرب، وهذه المقالة تؤكد أن على الإنسان أن يأكل أكبر كمية من وجبته الاعتيادية صباحاً، لأنه بعد تناول طعام الصباح هناك جهدٌ طويل، ثمان ساعات، والوجبة الأقل منها عند الظهيرة، وأقل وجبةٍ عند المساء، لأن طعام المساء يعقبه نومٌ مديد،

فكلما كان الجهد أكبر بعد الطعام سُمِحَ للإنسان أن يأكل أكثر، فقالوا: تقريباً خمسة وأربعين بالمائة ـ فيما أذكر ـ أو خمسة وخمسين بالمائة من مجموع الوجبة صباحاً، وخمسة وثلاثين ظهراً، وخمسة عشر بالمائة من مجموع وجباتك يمكن أن تأكله مساءً، ولا ينبغي أن تتناول طعام العشاء قبل النوم، والذي يلفت النظر أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أذيبوا طعامكم بذكر الله ولا تناموا عليه))

(من الدر المنثور: عن " الشيدة عائشة ")

وهذا الحديث هو ملخص الوصايا الصحية التي يأخذ بها الأطباء، فالتحدث أثناء الطعام أيضاً من السنة، هذا نُقِلَ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لأن الصمت المطبق في أثناء تناول الطعام، من صفات اليهود ونحن مأمورون بمخالفتهم، الحديث عن الطعام سنة.

الآن، من السنة أيضاً حمد الله وشكره بعد الفراغ من الطعام، لقول النبي صلى الله عليه وسلم:

((إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها))

(رواه مسلم)

يا رب لك الحمد، أطعمتني، وسقيتني، وآويتني، ورزقتني، وأمَّنتني، وأكرمتني.

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((من أكل طعاماً فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا، ورزقنيه من غير حولٍ مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه))

(من رياض الصالحين: عن " معاذ بن أنس "

الآن إذا تناولت طعاماً عند مسلم يجب أن تقول: اللهم أطعم من أطعمني واسق من سقاني.

أو تقول: أكل طعامكم الأبرار، وأفطر عندكم الصائمون، وذكركم الله فيمن عنده.

لكن الآن في عندنا آداب يقرها العرف، مثلاً: أن يأكل الإنسان من الطعام كفايته لا أقل ولا أكثر، لو أكل أقل من كفايته، والذي دعاك يحرص على أن تأكل، فهذا ليس من السنة، لا أن تأكل أكثر من كفايتك ولا أقل من كفايتك.

من آداب الطعام ألا تنظر إلى جيرانك، تنظر إليه كم أكل من كمية الطعام، هذا النظر فيه سوء أدب، ألا تنظر إلى جيرانك.

ومن آداب الطعام في أعمال مستقذرة، أحياناً يريد ينظف أنفه على المائدة، في منديل، لكن هذه الأصوات منكرة، يجب أن يتحول لغرفة أخرى، في أصوات منكرة، في التجشُّؤ، قال له: كف عنا جشأَكَ، لأحد الأشخاص اللهم صلي عليه، فبعض الأعمال المستقذرة، والتجشُّؤ وذكر قصة مقززة أثناء الطعام، هذا أيضاً ليس من السنة.

وعدم الحديث والفم مملوء من الطعام، يصبح في رشاش من الطعام، فالحديث والفم مملوء ممنوع، أعمال تتقذذ منها النفس ممنوعة، قصة أو موضوع يثير الاشمئزاز ممنوع، النظر إلى مَن حولك في الطعام ممنوع. فهذه بعضٌ من آداب الإسلام في تناول الطعام، والطعام نشاط يومي كل يوم ثلاث مرات، شيء جميل جداً بالمسلم أن يتبع هذه التعليمات ممكن نعيدها لكن سريعاً:

1- غسل اليدين قبل الطعام وبعده لقول النبي عليه الصلاة والسلام

((بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده))

2- استصحاب النية الصالحة في الأكل، وهو أن يتقوّى بها الفرد على طاعة الله عز وجل.

3- التسمية في بداية الطعام لمعنيين لتتذكر نعمة الله عليك، ولتتذكر أمر الله في تناول الطعام، وإلا أكل الشيطان مع المسلم.

4- الاجتماع على الطعام، لعلكم تفترقون ؟ قالوا: نعم، قال

((فاجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله عليه، يبارك لكم فيه))

5- الدعاء عند الطعام

((اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه " وعند تناول الحليب أو اللبن: " اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه))

6- الأكل والشرب باليد اليمنى.

7- أن يأكل المسلم مما يليه لقول النبي عليه الصلاة والسلام

((" يا غلام سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك))

8 - التواضع في الجلوس إلى الطعام، النبي عليه الصلاة والسلام ما أكل متكئاً قط، ونهى عن أن يأكل الرجل منبطحاً.

9- الأكل من جانب الإناء لا من وسطه، لأن البركة تنزل في الوسط.

10- عدم النفخ في الطعام الحار، والطعام الحار في الأصل لا بركة فيه.

11- الأكل بثلاثة أصابع، لا اثنتين ولا أربعة ولا خمسة، باثنتين دلع، وبثلاثة ورع، وبأربعة طمع، وبخمسة جشع.

الآن...

11- إذا وقعت لقمة على الأرض يجب أن تأخذها وأن تميط عنها ألذى وأن تأكلها، لأنها نعمة الله عز وجل.

12- لعق الأصابع الثلاث باللسان بعد انتهاء الطعام.

13- عدم مسح اليد بالمنديل أو غسلها قبل لعقها.

14- عدم الإكثار من الطعام.

15- عدم ذم الطعام أو مدحه.

16- التحدث أثناء الطعام.

17- حمد الله تعالى،

((إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها))

(رواه مسلم)

والدعاء الثاني

((الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، من فعل هذا غفر له))

18- الدعاء لمن أكل المسلم عنده، إما أن تقول: " اللهم أطعم من أطعمني واسقي ومن سقاني ".

أو أن تقول: " أكل طعامكم الأبرار، وأفطر عندكم الصائمون وذكركم الله فيمن عنده "

19- مراعاة الآداب الاجتماعية من مثل: عدم فعل شيء تتقزز منه النفس، عدم ذكر موضوع أو حديث تنبو عنه الآذان، عدم إصدار أصوات تدعو إلى الاشمئزاز، وعد النظر إلى طبق أخيك.

هذه جملة من آداب الإسلام في تناول الطعام، وأتمنى على الله عز وجل أن ينفعنا بها جميعاً، وأن نطبقها وأن ننشئ أولادنا على ذلك.

الآن قصة فيها حكمة بالغة، كنت قد ألقيتها على مسامعكم قبل عشر سنين فيما أذكر، لكن أريد منها شيئاً دقيقاً جداً، هي قصة التابعي الجليل سيدنا أويس القرني:

وأويس القرني كما تعلمون النبي صلى الله عليه وسلم ذكر لسيدنا عمر ولسيدنا علي رضي الله عنهما فقال:

((إذا لقيتما أويس القرني فاطلبا إليه أن يستغفر لكما فإنه مجاب الدعاء))

هذا من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام، إن النبي عليه الصلاة والسلام لم ير أويس القرني ولكن أخبر به، فقال

((يا عمر وعلي إذا لقيتما أويس القرني فاطلبا إليه أن يستغفر لكما فإنه مجاب الدعاء))

وقد أشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى صورته، فقال:

((إنه أشهل ذو صهوبة، بعيد ما بين المنكبين، معتدل القامة، يضرب بذقنه إلى صدره، واضعٌ يمينه على شماله، يتلو القرآن، ذو طمرين، مجهول في الأرض، معروف في السماء))

سيدنا عمر، وسيدنا علي كرم الله وجهه ورضي الله عنه، عشر سنوات كلما جاء موسم الحج خرجا إلى وفود الحجاج، تصفحا وجوه هؤلاء، لعلهما يجتمعان بأويس القَرْني، إلى أن وصل إلى سمعهما في

السنة العاشرة بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، أنه قد جاءت قافلةٌ جديدةٌ من اليمن، فانطلق سيدنا عمر وسيدنا علي إلى هذه القافلة ليتصفحا وجوه القوم، فلعلهما يريان أويس القرني.

ـ فسأل رئيس هذه القافلة قال له: هل بقي منكم أحد ليس هنا ؟

ـ فقال: أجل يا ابن عم رسول الله، قال لا أذكر في أحد نحن جميعاً هكذا، قال له صبراً لقد أنسيته، إن في رحالنا فتىً خامل الذكر، ممزَّق الثوب، يرعى لنا، ونؤجره بدراهم معدودات، وما أظنك تنشد مثله.

من هو هذا ؟

القافلة جاءت إلى مكة المكرمة وأبقت عند إبلها هذا الغلام الفقير، ذو طمرين، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره.

ـ فقال سيدنا عمر: إنه أشهل ذو صهوبة، بعيد ما بين المنكبين، معتدل القامة، يضرب بذقنه إلى صدره؟

عجب رئيس القافلة ونظر إلى عمر، وهو لا يعرفه قائلاً:

ـ لقد وصفته أكمل ما يوصف به، فهل رأيته ؟!

ـ فسيدنا عمر قال: أجل.

وانطلقا سيدنا عمر وسيدنا علي إلى المكان الذي حدد لهما، طبعاً هذه مقدمات، القصة لها لب ولها مغزى، في صحراء مكة بالقرب من أبي قبيس شاهدا سيدنا عمر وسيدنا علي رجلاً يرعى إبلاً، فسلما عليه ثم قالا له:

ـ مَن الرجل ؟

ـ فقال هذا الرجل: راعي إبل وأجير قوم. في تواضع

ـ قالا: لسنا نسألك عن ذلك، ما اسمك ؟

ـ قال: عبد الله.

ـ قالا: قد علمنا أن أهل السماء والأرض كلهم عبيد لله، ما اسمك الذي سمتك به أمك ؟

ـ قال: يا هذان ما تريدان مني ؟ من أنتما ؟

ـ قالا: قد وصف لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أويساً القَرْنِي، وقد عرفنا الشهولة والصهوبة، ثم نظرا إلى منكبه فرأيا اللمعة، فأحسنا السلام والتحية، وطلبا منه الدعاء والاستغفار.

ـ قالا: ادع لنا واستغفر.

ـ فقال أويس القرني: ما أخصُّ بالاستغفار أحداً، ولكن للمؤمنين والمؤمنات، ثم من أنتما ؟!!

ـ قال علي: هذا عمر أميرالمؤمنين، وأما أنا فعلي.

فاستوى أويس القرني قائماً وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ويا ابن أبي طالب جزاكما الله عن هذه الأمة خيراً.

ـ قال عمر: عظني يا أويس ـ ينتظره منذ عشر سنوات ـ عظني يا أويس، هنا هذه موطن القصة كلها.

ـ قال أويس القرني: ابتغ رحمة الله عند طاعتك، واحذر نقمته عند معصيته، ولا تقطع رجاءك عنه خلال ذلك.

أي من الحمق أن تبتغي رحمته وأنت تعصيه، ومن الحمق أن تخاف منه وأنت تطيعه، ابتغي رحمة الله عند طاعته واحذر نقمته عند معصيته ولا تقطع رجاء عنه خلال ذلك.

ـ هتف عليٌّ كرم الله وجهه، قال: لقد حدثنا عنك النبي صلى الله عليه وسلم وهو لم يرك، ولكنه كان يحبك ويصفك ويقول: إنك أفضل التابعين فكيف تتصور رسول الله يا أويس؟ ما رآه.

ـ قال: والله لقد كان لكم فضل التمتع والشرف برؤيته، وأما أنا فقد حرمت هذا الشرف والفضل، لكنني أتصوره صلوات الله عليه في بصيرتي على غير ما رأيتم أنتم بأعينكم، أتصوره نوراً ساطعاً يملأ الفضاء، ويسري في الوجود، أتصوره رأسه الشريف عند العرش، وقدمه في مستقر الأرض.

هكذا كان يعظم النبي عليه الصلاة والسلام، وبكى عمر وعليٌّ شوقاً للنبي عليه الصلاة والسلام، فقال عمر وعلي:

ـ كيف الزمان عليك يا أويس ؟

ـ قال: كيف هو على رجلٍ إن أصبح ظن أنه لا يمسي، وإن أمسى ظن أنه لا يصبح ؟! دائماً متلهف للقاء الله عز وجل ينتظر ساعة اللقاء هذه حال أهل القرب.

ـ قال: كيف بلغت تلك المكانة العليا ؟

ـ قال: إني أعيش في مقام الخوف، وهو مقام لا يصبو إليه الإنسان حتى يصبح من خوف الله وكأنه قتل الناس جميعاً.

يعني مقام الخوف مقامٌ يقرِّب الإنسان من ربه كثيراً، وتناجيا طويلاً، ثم عرض عليه عمر كسوةً ونفقة، فقال:

ـ ما أصنع بهما ؟ أما ترى إزاري وردائي من صوفٍ، متى تُراني أخرقهما ؟ وأخذت على عملي أربعة دراهم متى تراني أنفقهما ؟! إن بين يدي ويدك عقبة كؤود لا يجوزها إلا كل ضامر مهزول، فأعرض عن الدنيا يا عمر، واخشَ يوماً لا ينفع فيه مال ولا بنون.

ـ فضرب بدرته الأرض ثم نادى بأعلى صوته: ألا ليت عمر لم تلده أمه.

هذه القصة سقتها لسبب: أن هذا التابعي الجليل فقير، ما كل فقير، قد يكون هذا الفقير خامل الذكر أعظم عند الله من معظم الناس، هذه القصة مصداق قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره))

(من الجامع الصغير: عن " أنس ")

أي في سعادة من القرب من الله عز وجل، ومن الإقبال عليه، ومن التوكل عليه، ومن الزهد في طلب الدنيا، هناك سعادة لا يعرفها إلا من ذاقها.

على كلٍ من كل هذه القصة فقرةٌ تهز المشاعر (ابتغ رحمة الله عند طاعته، واحذر نقمته عند معصيته، وكن راجياً فيما بين ذلك). فيما بين هذا وذاك كن راجياً لله عز وجل، فمن السذاجة ومن السخف أن ترجو الله وأنت تعصيه، هؤلاء الناس الذين يعصون الله عز وجل ويدعون ويجأرون بالدعاء: يا رب. مهما رفعت صوتك، " يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ".

إذاً سيدنا أويس القرني الذي وصفه النبي عليه الصلاة والسلام، والذي أمر عمر وعلياً كرم الله وجهه ورضي الله عنه، أمرهما أن يستغفر لهما وأن يسألاه الدعاء، كان زاهداً متقشفاً، وكان قريباً من الله عز وجل، وكان محباً له، وعلى شوقٍ كبير.

فيا أيها الإخوة الأكارم... الإنسان الدنيا ساعة اجعلها طاعة، والنفس طمَّاعة عوِّدها القناعة.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (028) :قواعد الدعوة إلى الله1.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-02-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم...
بدأنا في الدرس الماضي موضوعاً دقيقاً جداً يتعلّق باستنباط القواعد التربوية من آيات القرآن الكريم، ومن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومهَّدت لهذا الموضوع بأن للإنسان في الدنيا مهمةً كبيرة، بعد أن يعرف الله عزَّ وجل يجب أن يعمل عملاً يقبله الله يوم القيامة ليسعده إلى الأبد، بعد معرفة الله، بعد معرفة منهجه لابد من أن يكون لك عمل، " يا بشر لا صدقة ولا جهاد فبمَ تلقى الله إذاً ؟ " هذا أخطر سؤال يطرحه المؤمن على نفسه، غير المؤمن أكبر سؤال عنده: مَن خلقني ؟ ولماذا خلقني ؟ وما رسالتي في الحياة ؟ لكن المؤمن إذا عرف الله عزَّ وجل، وعرف منهجه، وعرف أنه خُلِقَ للعمل الصالح الآن أكبر سؤال يطرحه على نفسه: ماذا فعلت أنا ؟ ماذا قدمت بين يدي من أعمال يوم القيامة، إذا أوقفني الله على رؤوس الأشهاد، وقال لي: يا عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ أعطيتك وقتاً فراغاً ؟ أعطيتك صحة، أعطيتك أمناً، أعطيتك عقلاً، أعطيتك قواماً ماذا فعلت بهذه النِعَم؟ هذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8))

(سورة التكاثر)

نعمة الفراغ، ونعمة الصحة، ونعمة الأمن، ونعمة الكفاية، ونعمة المال، ونعمة الزوجة، ونعمة الولد، كل هذه النِعَم هل استهلكتها أم استثمرتها ؟
فلذلك السؤال الكبير للمؤمن: أنا ماذا فعلت ؟ ما العمل الذي قدَّمته لآخرتي ؟ إذا سألني الله عزَّ وجل: ماذا صنعت ؟ جئت إلى الدنيا ثم عشت ثلاثاً وستين عاماً ثم جئتني: ماذا صنعت ؟ ماذا فعلت ؟ هل هديت أحداً ؟ هل عرَّفت الناس بالحق ؟ هل بيَّنت لهم الصراط المستقيم ؟ هل أعنت الضعيف ؟ هل عطفت على الأرملة والمسكين ؟ هل كنت جاراً فاضلاً ؟ هل كنت أباً كاملاً، هل كنت ابناً باراً بأبيه ؟ هل كنت تاجراً صدوقاً ؟ هل كنت صانعاً متقناً؟ هل كنت موظفاً مخلصاً ؟ ماذا صنعت ؟ يا بشرُ لا صدقة ولا جهاد فبمَ تلقى الله إذاً ؟.
في نقطة مهمة كثير أيها الإخوة، ربنا عزَّ وجل قال:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (6) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الجمعة)

الشيء المُشعر الدقيق هو الموت، هل تخَف من الموت ؟ هل ينخلع قلبك من الموت ؟ إذا عرض بسيط من أعراض الأجهزة الخطيرة بالإنسان، أحياناً يكون في مرض جلدي لا يهزك، في علاج أو أدوية، ولكن أحياناً يكون في مرض بالمضخة لأن هذه المضخة إذا توقفت انتهت الحياة، فأيُّ عرضٍ في القلب ماذا يحصل للإنسان ؟ هل يختل توازنه ؟ هل يفقد صوابه ؟ لأنه مشعر بانتهاء الأجل، مشعر بدنو المغادرة، مشعر بنهاية الحياة الدنيا، فهذا مشعر.

إذاً كان عملك صالح، لا أقول ما في إنسان إلا ويتمنى أن يعيش عمراً طويلاً هذا شيء واقع، حتى المؤمن يتمنى العمر المديد ليزداد عمله، لكن المؤمن لو أنه شعر أن أجله قد انتهى لا يختل توازنه، فمرحباً بلقاء الله. والحقيقة بين أظهرنا أناسٌ كثيرون كانوا على درجة من الإيمان عالية، فلما جاءهم ملك الموت ما فزعوا، ولا صرخوا بويلهم، ولا فعلوا، ولا تركوا، ولكن َبَّساعة اللقاء لأنها ساعة القُرب.

إذاً السؤال الكبير: ماذا قدمت من عمل ؟ وذكرت لكم في الدرس الماضي أن أعظم هذه الأعمال أن تكون سبباً في تعريف الناس بربِّهم، سبباً في حملهم على التوبة، سبباً في صلحهم مع الله عزَّ وجل، سبباً في استقامتهم على أمره، سبباً في حبهم له، هذا هو المصير، وهذه صنعة الأنبياء، ولكن إذا أردت أن تتحدث، إذا أردت أن تكون سبباً في هداية الخلق، النبي عليه الصلاة والسلام علّمنا ؛ ما كل ما يعلم يقال، وما كل ما يقال له رجال، ولا إذا وجد الرجال آن الأوان.

تحدثنا في الدرس الماضي عن قوله تعالى:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)

(سورة النحل: من آية " 125 ")

وبيَّنت وقتها أن من الحكمة أن تقول ما ينبغي، بالقدر الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، للشخص الذي ينبغي، هذه هي الحكمة. لكن أنا أردت في هذا الدرس أن أستنبط بعض القوانين الأساسيَّة في الدعوة إلى الله عزَّ وجل.

المبدأ الأول: يجب أن تعرِّف الآمر قبل الأمر، أكثر الدعوات التي تخفق ولا تنجح، ما عنوان نجاح الدعوة إلى الله ؟ لو رأيت أناساً كثيرين ملتفين حول رجل، فإذا عاملتهم بالدرهم والدينار خيبوا ظنك، إذا تحدثوا كذبوا، وإذا تعاملوا احتالوا، وإذا وعدوا أخلفوا، فبناء هذه النفوس ليس صحيحاً، كل الطقوس الدينية التي يمارسونها لا قيمة لها، إذا كان بالتعامل في خلل، إذا بالتعامل في انحراف، فالطقوس الدينية تصبح طقوساً، وأنا ألح على هذه التسمية أي حركات لا معنى لها، بالإسلام في عبادات وما في طقوس، إذا لم تكن مستقيماً، لم تكن صادقاً، لم تكن أميناً، لم تكن متقناً لعملك، لم تكن مخلصاً، لم تكن

وفياً، لك تكن نصوحاً، لم تكن ورعاً، لم تكن خاشعاً، لم تكن لك مع الله صلة، كل ما تفعله من حركاتٍ، وسكناتٍ، وعباداتٍ إنما هي طقوس شأنها شأن طقوس الديانات الوثنية، والدليل:

((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً))

(من الجامع الصغير: عن " ابن عباس ")

و..

((من لم يكن له ورعٌ يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيْ من عمله))

والأحاديث كثيرة في هذا المعنى.

((من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه))

(من الجامع لأحكام القرآن)

إذاً أولاً: حينما ترى إنسان ترك بعض الأحكام الشرعية، وهو يخالفها، وهو يحتال عليها، وهو يتعامل مع الله وكأنه طفل، فقد يضع زكاة ماله في رغيف، ويعطيها للفقير، ثم يستردُّ الرغيف بالمال، أخي أنا دفعت زكاة مالي، فالذي أمرك بالزكاة أينطلي عليه هذا ؟ أتنطلي عليه هذه الحيلة ؟

أيها الإخوة الأكارم... من ازداد علماً ولم يزدد هدىً لم يزدد من الله إلا بعداً، في خطين؛ خط العلم وخط العمل، إذا تخلف خط العمل عن خط العلم لم يزدد من الله إلا بعداً، وفي عندك خط معرفة أمر الله، وخط معرفة الله عزَّ وجل، معرفة أمره ومعرفته، إذا ازداد خط معرفة أمره ولم يكن الخط الآخر معرفته في المستوى الأول تقع الحِيَل، والتناقضات، والازدواجية، والنفاق، المنافق هو الإنسان لا يعرف الله عزَّ وجل، لا يرى الله، يرى غيره هو القوي، فلذلك أول شيء: يجب أن تعرِّف بالآمر قبل الأمر، النبي عليه الصلاة والسلام في مكة ثلاث عشرة سنة أمضاها في تعريف أصحابه بربهم، وفي المدينة جاء التشريع، هذا المبدأ الأول.

المبدأ الثاني استنبطناه الدرس الماضي: الإحسان قبل البيان، أي قبل أن تجهد في إقناع الناس أحسن إليهم، إنك إن أحسنت إليهم فتحت قلوبهم، وإن لم تحسن إليهم جعلتهم ينفرون منك، الإحسان قبل البيان، أردت أن تدعو إلى الله، هذا الذي تدعوه هل له مشكلة ؟ حلها له قبل كل شيء، أعنه على أمر دنياه، قدِّم له خدمة ثمينة حتى يتعلَّق قلبه بك، إذا أحسنت إليه انفتح قلبه لك وانفتح عقله لك، المبدأ الأول الآمر قبل الأمر، أي معرفة الله مقدمةٌ على معرفة أمره، المبدأ الثاني الإحسان قبل البيان.

المبدأ الثالث: الإنسان عقلٌ يدرك وقلبٌ يحب، فإذا توجهت إلى عقله فقط أخفقت، وإذا توجهت إلى قلبه فقط أخفقت، لابد من التوجه إلى عقله وقلبه معاً، إذاً مخاطبة العقل والقلب معاً، والقرآن هكذا كان، الإنسان خاطب العقل والقلب معاً..

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7))

(سورة الانفطار)

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً (12) وَبَنِينَ شُهُوداً (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18))

(سورة المدثر)

لو قرأت القرآن الكريم تشعر أن الله يخاطب عقلك وقلبك معاً..

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (22) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (23)

(سورة عبس)

يستثير عاطفتك..

(كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (23))

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10))

يخاطب عقلك..

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13))

(سورة البلد)

أن تعتق رقبتك من أثر الشهوة، فأنت لماذا تبكي إذا قرأت القرآن؟ لأن القرآن يخاطب عقلك وقلبك معاً، يخاطب الجانب الإدراكي ويخاطب الجانب الانفعالي، يخاطب الفكر بالحقيقة الدامغة، ويخاطب القلب بالاستثارة الرائعة، إذاً المبدأ الثالث. أول مبدأ: الآمر قبل الأمر، معرفة الله قبل معرفة أمره، المبدأ الثاني: الإحسان قبل البيان، المبدأ الثالث: مخاطبة القلب والعقل معاً.

المبدأ الرابع: أنت إذا خاطبت إنساناً له فكر وله عقل، لا تستطيع أن تعطيه شيئاً يتمسك به إلا إذا كان معقولاً، إلا إذا كان منطقياً، إذاً المبدأ الرابع: اعتماد الدليل والتعليل، لأنه ما من أحدٍ على وجه الأرض بإمكانه، أو يستطيع، أو مخولٌ أن يقول: خذ هذا من عندي، أنت قل له ببساطة: ومَن أنت حتى أربط مصيري بآرائك ؟ مَن أنت حتى أربط مصير آخرتي بآرائك ؟ نحن عندنا خالقٌ للكون، وعندنا كونٌ عظيم يشهد بعظمته، وعندنا رجلٌ اصطفاه الله على العالمين، وأوحى إليه، وعصمه، وجعله مشرِّعاً، كلام المشرِّع لا يرد، كلامه هو الدليل، إذاً إذا أردت أن تدعو إلى الله لابد من الدليل ؛ إن من كتاب الله عزَّ وجل، وإن من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلَّم الصحيحة.

سيدنا الصديق، لو وزن إيمان الخلق مع إيمان أبي بكرٍ لرجح، قال: " إنما أن متبع ولست بمبتدع، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم ".

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إنما الطاعة في معروف))

إذاً لا تستطيع أن تلقي على الناس شيئاً ذا بال، ولا تستطيع أن تؤثر فيهم لأنهم عُقَلاء، إلا أن تأتيهم بالدليل القطعي على أية فكرة تلقيها عليهم، وأية دعوة تفتقر إلى الدليل، هذه الدعوة لن يكتب لها النجاح، الدليل والتعليل، لكن التعليل لغير المؤمن، أما المؤمن أكبر دليل أو أكبر تعليل لهذا الأمر هو أنه أمر الله عزَّ وجل، يكفيه ذلك، فإذا فعله تعبداً، تفضل الله عليه فكشف له عن حكمته، أما ليس من شأن المؤمن أن يعلّق تطبيق الأمر حتى يعرف الحكمة، ليس هذا من شأن المؤمن، المؤمن لا يعلّق تطبيق أمر الله على معرفة الحكمة، إذا ثبت له أنه أمر الله يطبقه من دون تردد.

المبدأ الخامس: التدرُّج، كيف أن الله جل في علاه حينما ربى أصحاب النبي عليهم رضوان الله، حتى في تحريم الخمر تدرَّج في تحريمه، وما بقاء آيات تحريم الخمر بالتدريج إلا تعليمٌ لنا أنك إذا دعوت إلى الله عزَّ وجل لا تواجه الإنسان بكل أخطائه، بكل المخالفات، بكل المعاصي دفعة واحدة، عندئذٍ يولي ظهره هارباً، ويقول لك: هذا الأمر صعب جداً علي. لا تواجه الإنسان بكل المعاصي والأخطاء بل عرفه بالله أولاً، فإذا سألك عن قضية، أبلغه إياها بالتدريج واحدة واحدة، فالتدرج في بيان أوامر الله عزَّ وجل أيضاً مبدأٌ خامسٌ من مبادئ الدعوة إلى الله عزَّ وجل.

في عندنا مبدأ هو: المتابعة، المتابعة يقابله التربية، أنت إما أن تلقي المعلومات وتذهب، ولا تعنى بهذا المتعلّم ؛ ماذا تعلم ؟ وكيف تعلم ؟ وهل استفاد أو لم يستفد ؟ أو طبق أو لم يطبق ؟ ألقيت المعلومات وانتهى الأمر، وقد ألقيت عن كاهلك المسؤولية، هذا شأن المعلم لا شأن المربي، هذا شأن مَن يلقي محاضرةً في الجامعة، لا يعرف مَن عنده، ولا مَن حضر، وهؤلاء الذين أمامه لا يعرف عنهم شيئاً، يعرف أنه ألقى المحاضرة بطلاقةٍ، وفصاحةٍ، وبيانٍ، وحجةٍ دامغةٍ، وانتهى الأمر، لكن هذا الذي ألقيت عليه بعض الحقائق هل تفقَّدته من حينٍ إلى آخر ؟ هل زرته في البيت ؟ هل سألته عن سبب غيابه ؟ هل تناقشت معه وحاورته في بعض الأفكار التي طرحت في الدرس ؟ هل رأيت عقله ؟ هل رأيت تفكيره، استيعابه، ذكاءه ؟ الحوار يجلو الأفكار، الحوار مُمْتع جداً.

أنت قد تقف أمام مائة شخص يقال لك: هل تعرفهم ؟ تقول: نعم أعرفهم فلان، وفلان، وفلان. أنا أقول لك أنك لا تعرفهم ولو عرفت أسماءهم، لو عرفت أشكالهم، لو عرفت أعمالهم، لو عرفة عناوين سُكْنَاهم، لو عرفت أرقام هواتفهم لا تعرفهم، تعرفهم متى؟ إذا حدَّثتهم وحدثوك، تجد شخص دقيق

الفهم، شخص استيعابه جيِّد جداً، شخص تقديره جيد، أنت لا تعرفه إلا إذا حاورته، لا تعرفه إلا إذا سألته، لا تعرفه إلا إذا استمعت إليه، لا تعرفه إلا إذا سبرت معلوماته، إلا إذا خبرت خبراته.

فلذلك، الإنسان إذا دعا إلى الله عزَّ وجل، أحياناً يكون في سهرة يتحدث حديث رائع يقول لك: والله الله أطلق لساني طلاقة شعرت بحال، وشعرت بقوة بيان، وحجة كبيرة، وهذه سهرة يتيمة وحيدة ألقاها ومشي، طبعاً التأثير آني، أكثر الناس يتأثروا في الجلسة نفسها، أما أنت إذا كنت تريد فعلاً أن تكون داعية لله عزَّ وجل، هذا ابن خالتك الذي سهرت معه، وتحدثت وانطلق لسانك، وأثرت فيك كيف نسيته بعدها، نهائياً نسيته ؟! لابد من أن تسأل عنه، لابد من أن تعيد زيارته مرة ثانية، لابد من أن تسأله ماذا تأثرت من هذه الجلسة، ماذا فهمت منها، ما النقاط التي تلفت النظر فيها، أي لابد من المتابعة، مبدأ المتابعة رقم ستة، الآمر قبل الأمر، والإحسان قبل البيان، مخاطبة القلب والعقل معاً، التعليل والدليل، والتدرج، والمتابعة.

طبعاً بالمناسبة يقول عليه الصلاة والسلام:

((ما أحدث امرؤٌ أخاً في الله إلا أحدث الله له درجة في الجنة))

في حديثٍ آخر:

((من أسلم على يديه رجل وجبت له الجنة))

رجل لا طموح له في أن يهدي الناس أبداً، إذا جاءه دخلٌ وفير، وصحةٌ طيبة، وبيتٌ مريح، وزوجةٌ تروق له، وانتهى الأمر، هذا انتهت كل آماله عند هذه المعطيات الدنيوية، لا يتمنى على الله أكثر من ذلك، هذا له درجة متدنية جداً، لكن السابقين السابقين كما قال الله عزَّ وجل:

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12))

(سورة الواقعة)

لمَ لا تكون في الآخرة طموحاً ؟ لماذا ينصب طموحك على الدنيا فقط مع أنها قصيرة ؟ ومع أنها محدودة ؟ ماذا تفعل بالمال بعد الموت ؟ ماذا تفعل بهذا المنزل الرائع الذي أتقنته، ولابد من أن تغادره أفقياً، كل يوم يغادر الإنسان بيته قائماً ويرجع، في مرة واحد يطلع أفقي بلا رجعه، كل مرة تغادره قائماً، وتعود إليه قائماً، إلا حينما يأتي الأجل يغادره الإنسان أفقياً، أنا حينما أحضر بعض التعزيات في بيوت فخمة جداً، والله هذا الأثر لا أنساه أبداً أن صاحب هذا البيت هو الذي اشترى هذا البيت، هو الذي زيَّنه، هو الذي اختار هذا الفرش الأنيق، هو الذي اختار هذه اللوحة ووضعها في هذا المكان، هو الذي اختار هذه الأجهزة، أين هو الآن ؟ تحت أطباق الثرى، في مترين بستين أو سبعين سنتيمتر، ما في أربعة وصالون هنا، ما في بلاط شحف، هنا لا يوجد شحف بل تراب، فوسائل الرفاه في البيوت هذه لابد من أن نتركها، هنا الفكرة.

الآن، مخاطبة العامة بأصول الدين ومخاطبة المؤمنين بفروع الدين، أنت كداعية ناجح إذا رأيت صديقاً لك في أصبعه خاتمٌ ذهبي، وهو لا يصلي، ولا يصوم مثلاً، صديق، ليس من الحكمة أن تقول له: هذا حرام، سيقول لك: لماذا حرام ما هذا السخف ؟ هذه فروع الدين، عرفه بالله عزَّ وجل، ادعوه إلى الصلاة أولاً، ادعوه إلى التفكُّر في الكون، ادعوه إلى تلاوة القرآن، ادعوه إلى معرفة النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا مشى معك خطوات قل له: يا أخي هذا الذهب حرام، النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن استعمال خاتم ذهب، الدليل أنه نهى، وهناك تعليل وهو مقبول، لكن أن تبدأ بالخاتم الذهب وهو لا يصلي، وهو لا يصوم، وهو لا يتعرَّف إلى الله عزَّ وجل، هذا أسلوب ليس صحيحاً.

لذلك خاطب عامة الناس بأصول الدين، وخاطب المؤمنين الذين عرفوا الله عزَّ وجل بفروعه، قل له: يا أخي هذا حرام، المؤمن يجب أن تذكِّره بالحكم الشرعي في كل موقف، في أيَّة حالةٍ، وفي أي موقفٍ، وفي أي مناسبةٍ، وفي أي وضع ذكِّر المؤمن بالحكم الشرعي: هذا هو الشرع. أما إذا رأيت إنسان شارد، وتائه، وبعيد، ومنقطع عن الله، وعنده شكوك بوجود الله، كأن تقول له: أخي أنت آلا تؤمن بالجن؟ ما هو الجن ؟ أين هو الجن ؟ ما قيمة أن يؤمن بالجن قبل أن يؤمن بالله عزَّ وجل ؟ فيجب أن تختار في سلَّم الأولويات الأخطر فالأخطر، الأهم فالمهم.

بالمناسبة أخطر شيء أن تحاول أن تقنع الناس بالدليل العقلي بما أخبر الله به، ما أخبر الله به دليله أن الله أخبر به فقط، لا يمكن للعقل أن يسلَّط على أخبار الله عزَّ وجل، هي حكمٌ على العقل وليس العقل حكماً عليها، فإذا الله عزَّ وجل قال: أن آدم بدأ الله به الخلق في القرآن الكريم، إيَّاك أن تحاول أن تقنع إنساناً بهذه الحقيقة بالدليل العقلي، هذا هو الماضي السحيق، هذا عقلنا لا يستطيع أن يتعرَّف إليه، لكن الله أخبرنا عنه، والدليل أن الله أخبر عنه الدليل نقلي وليس هناك دليل عقلي.

في متاهةٍ لا نهاية لها، يقول لك: أثبت لي أنه يوجد جن وخذ مليون، تفضل أثبت له أين الجن ؟ أثبت لي أنه في مَلَك، أين هم ؟ لا يجد شيء، نحن عندنا أحاديث صحيحة أنه في ملكان، هذا الموضوع ليس تحقيقياً بل هو تصديقي، هذا الموضوع ليس معقولاً ولكنه موضوع نقلي، إخباري، فأنت إيَّاك إذا أردت أن تقنع الناس بعظمة هذا الدين أن تبدأ معهم بالإخباريات، لأن الله عزَّ وجل يقول:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ)

(سورة الكهف: من آية " 51 ")

أنا أخبرتهم كيف خلقتهم، فالعقل لا يسلَّط على ما أخبرنا الله به، العقل يسلَّط على ما أمرنا أن نفكر فيه..

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس: من آية " 101 ")

لذلك يتفرَّع من هذا المبدأ القاعدة التي جاءت بها الأحاديث الشريفة

((تفكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا))

حينما تريد أن تتعرف إلى ذات الله هنا المنطقة خطيرة جداً، هنا بالتصديق لا بالتأمل والتحقيق

((تفكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا))

كنت أضرب هذا المثل: أن ورقة سيجارة رقيقة جداً، هذه إذا وضعناها في الفرن العالي لصهر الحديد، وضعناها وانتظرنا خمس ساعات، وقلنا ماذا حل بها ؟ من الوهج تبخرت، وعقل الإنسان إذا أعمله في غير ما خُلِقَ له يقع الإنسان في خطأ كبير، نحن نتفكر في مخلوقات الله، مهما تفكرت في مخلوقات الله تزداد تعظيماً، وتزداد خشوعاً، وتزداد قرباً، وتزداد حباً، لكنك إذا أردت أن تفكر في ذات الله تحترق..

(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً)

(سورة الأعراف: من آية " 143 ")

فأي سؤالٍ يأتيك متعلقٌ بذات الله عزَّ وجل قل: هذا من شأن الله، رحم الله عبداً عرف حده فوقف عنده، تماماً تماماً تماماً عقلك ميزان، من أعظم الموازين، من أدق الموازين لكن مكتوب عليه خمسين كيلو، ما دام الوزن دون الخمسين النتائج رائعة، النتائج دقيقة محكمة، لكنك إذا أردت أن تزن به خمس أطنان فانسحق الميزان وتحطم، لا تتهم صانع الميزان: يا أخي ما هذا الميزان، إنه لا يتحمل، والصانع قال لك خمسين كيلو، فالعقل البشري مهمته أن يرى شيئاً مادياً، وأن يستنبط منه شيئاً لا يراه بعينه، أنا متأكد مائة في المائة أن في هذه الأسلاك التي في المسجد كهرباء، الدليل تألُّق هذه المصابيح، فقط هذا الدليل، هذا اسمه علم اليقين، يقينٌ قطعيٌ مائة في المائة، هذا علم اليقين، لكنك إذا أردت أن تعرف كنه الكهرباء هذا يصعب عليك، أنت بإمكانك أن تستدل، وأن تستنبط، وأن تستنتج أن في الأسلاك التي داخل الجدران طاقة كهربائية، الدليل القطعي تألُّق المصابيح، أما أن تفهم كُنْه الكهرباء، لذلك العلم ماذا يقول يبحث في الظواهر لا في الماهية، ماهية الأشياء حتى الآن مجهولة، في معظمها مجهولة، لكن نحن نرى الظواهر.

الآن في الدعوة إلى الله ينبغي أن تعتمد لا على الترهيب فقط، بل على الترغيب والترهيب، لا على الإنذار فقط، على الإنذار والتبشير، لا على التعسير فقط، على التعسير والتيسير، هذا مستنبط من قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((بشروا ولا تنفروا، يسروا ولا تعسروا، سددوا وقاربوا))

(من سنن أبي داود: عن " أبي موسى ")

أي أنك إذا عرضت مشهداً من مشاهد النار، لا تنس أن تعرض في الجلسة نفسها مسهداً من مشاهد أهل الجنة، إذا خوَّفت الإنسان من عقاب الله عزَّ وجل، لا تنس أن تذكر له ما عند الله من العطاء والإكرام، لابد من التوازن، والتوازن يستنبط من قوله تعالى:

(وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً)

(سورة الأنبياء: من آية " 90 ")

فالمؤمنون الصادقون بين حالة الرجاء والخوف، والإنسان يلاحظ نفسه عندما يزداد رجاءه يخف التزامه، وعندما يخف التزامه الله يقسو عليه ويخوفه، إذا ازداد خوفه يقل إقباله، يصير عنده جفوة، إذا ازداد خوفه ربنا عزَّ وجل يطمئنه، يعني ميزان دقيق جداً بين الخوف وبين الرجاء، لا ينبغي أن يحملك رجاؤك على أن تتساهل في تطبيق أمر الله، ولا أن يحملك خوفك على أن تَجْمُد في مكانك لا أن تتحرك إلى الله عزَّ وجل.

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم))

أحياناً أنت تجلس مع شخص مستواه الفكري وسط، أفضل طريقةٍ في الدعوة إلى الله أن تذكر له بعض القصص التي يمكن أن نستنبط منها مواعظ بليغة، والقصة طريقة تربوية رائعةٌ ومؤثرةٌ ومبسَّطة، يعني سيدنا يونس وهو في بطن الحوت، والحوت في ظلمات البحر، والبحر في ظلمات الليل، في ظلماتٍ ثلاث..

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88))

(سورة الأنبياء)

فأي كرب مهما كان عظيماً، مهما مستحكِماً، مهما كان خطيراً، مهما كان وبيلاً إذا دعوت الله عزَّ وجل، الله لا ينساك، ممكن تذكر له قصة إنسان مرابي الله مَحَق له ماله، أبلغ من فلسفة الربا، وفلسفة الاقتصاد، وفلسفة تجميع الأموال بأيدي قليلة، وحرمان الأكثرية، فهناك بحث في الربا يطرق بما يسمى بالأيديولوجيات أي بالأفكار النظرية، وهناك بحث للربا يطرق من خلال بعض القصص الواقعية، فإذا رأيت إنسان ما عنده رغبة بالتعمق، بسيط، معلوماته على قده، تدعوه إلى الله عزَّ وجل بأسلوب القصة، والقصة مشوقة جداً، ومؤثرة جداً، فمن الممكن من خلال عدة قصص أن يشعر الإنسان أن الله حسيب، ويعاقب، ويكافئ، ويثيب، ويأخذ بالذنوب، ويكافئ بالحسنات، فالقصة أسلوبٌ تربويٌ رائع، والقصة أسموها (قاسم مشترك) أي أنك لو تلوتها على أعلى إنسان مثقف، أو على أعلى إنسان إدراكه دقيق جداً يتأثر بها، ولو تلوتها على إنسان إدراكه محدود جداً يتأثر بها، فإذا أردت أن تلقي شيئاً يتأثر به كل

الحاضرين فعليك بالقصص، وهذه القصص إما التاريخية أو التي تقع في حياتك لها شأنٌ كبيرٌ كبير في الدعوة إلى الله عزَّ وجل.

فأحياناً قصةٌ إذا رويتها بشكلٍ صحيح، لكن إياك أن تعتمد قصةٍ لم تقع، قد تكون تركيبية، وهذه قصةٌ لا تؤثر لأن الحق أعظم من أن تستعين لإيصاله إلى الناس بالكذب، لابد من أن تكون القصة واقعية، شيء وقع فعلاً، ولا تبالغ، لأن المبالغة تعطي نتيجة معكوسة، فالنبي عليه الصلاة والسلام أيضاً دعا أصحابه من خلال القصة، مرة قال: " أن أعرابي كان يقطع الصحراء على ناقة عليها زاده، وطعامه، وشرابه، فجلس ليستريح في ظل نخلةٍ، فأفاق فلم يجد الناقة، أيقن بالهلاك، فصار يبكي حتى أدركه النعاس، فنام فأفاق فرأى الناقة، فمن شدة فرحه قال: يا رب أنا ربك وأنت عبدي. يقول عليه الصلاة والسلام:

((لله أفرح بتوبة عبده من هذا البدوي بناقته))

قرَّب لك فرح الله عزَّ وجل حينما يصطلح العبد معه، وحينما يعود إليه منيباً تائباً بهذا البدوي الذي فرح بعودة ناقته، فمن شدة فرحه قال: يا رب أنا ربك وأنت عبدي. فالقصة طريقةٌ تربوية رائعة جداً في تعريف الناس بالحق.

مع القصة في شيء اسمه المَثَل، والنبي عليه الصلاة والسلام ضرب مثلاً فقال:

((إن قوماً ركبوا سفينة أصاب بعضهم أدناها وبعضهم أعلاها، فقال الذين في أدناها لنخرق في مكاننا حتى نأخذ الماء))

مثل رائع جداً ؛ سفينة أي نحن المسلمون كلهم في سفينة واحدة، فإذا بعض المسلمين فعلوا شيئاً لا يرضي الله عزَّ وجل، قال:

((فإن أخذ على أيديهم نجا ونجوا، وإن تركوهم هلك وهلكوا))

هذا التكافل الاجتماعي، نحن كلنا في قارب واحد، فإذا واحد أحب أن يخرق القارب من مكان جلوسه، ونحن سكتنا، وتأملنا، يصطفل هو حر، هنا ما في حر لأن حر ستغرق معه، إذا قلت: حر أي أفعل ما أشاء، مثل رائع جداً، طبعاً هنا لا يحضرني الأمثلة التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام، يعني بابٌ كبيرٌ كبير من أحاديثه الشريفة هو الأمثلة، فلذلك أيضاً الأمثلة ممكن أن تكون طريق من طرق توصيل المعلومات، وتبسيط الحقائق.

في عندنا شيء آخر هو: أن النبي عليه الصلاة والسلام من صفاته التربوية أنه كان يحسن الحسن ويقبح القبيح، مَن يذكر لي الحديث النبي حسن فيه الحسن ؟

((الراجع في هبته كالعائد في قيئه))

يعني إنسان بعد أن تقيَّأ أراد أن يأكل ما تقيَّأ شيءٌ تنفر منه الطباع، وقد لا يستطيعه الإنسان، فالنبي عليه الصلاة والسلام شبَّه الذي يهب إنساناً شيئاً ثم يرجع بهذه الهبة كمن يتقيَّأ ثم يأكل قيأه، هذا من باب تقبيح القبيح.

تحسين الحسن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أول من يمسك بحلق الجنة أنا، فإذا امرأةٌ تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي، قلت مَن هذه يا جبريل ؟ قال: هي امرأة مات زوجها وترك لها أولاداً فأبت الزواج من أجلهم))

يعني إذا سمعت امرأةٌ شابة توفي زوجها، وترك لها أولاداً، وآثرت تربية أولادها على حظ نفسها من الزواج، وسمعت المرأة هذا الحديث تطير إلى الله عزَّ وجل، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((الإنسان يطعم لقمة يراها يوم القيامة كجبل أحد))

هذا من تحسين الحسن، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يحسن الحسن ويقبِّح القبيح، أما كُتَّاب القِصَص حينما يصفون أحط المواقف اللا أخلاقية بشكلٍ مبهرجٍ، مزينٍ هذا عمل الشيطان، دائماً الشيطان يزيِّن للناس أعمالهم السيئة، فإذا صورت الرذيلة على نحوٍ نُعْجَب بها فهذا عمل إبليس، وإذا صورت الرذيلة على عملٍ ننفر منها فهذا عمل الملائكة، دائماً الداعي إلى الله عزَّ ينفر من كل معصيةٍ، ويحبب بكل طاعة، بينما أهل الفسق والفجور ينفِّرون من كل طاعةٍ، ويصمون رجال الدين، والمؤمنين بأنهم ضيقوا الأفق، وجامدون، يا أخي متزمتين لا يحلوها برمة، ويصفون أهل الفسق والكفر والفجور بالمرونة، يقول لك: مَرِن، تفكيره مفتوح، لبق، أو باللغة الدارجة يقول لك: (سبور) أي فلتان، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يحسن الحسن ويقبح القبيح، أنت كداعية لا تقدر إذا رأيت موقفاً فيه انحراف وفيه معصية تقول: ما شاء الله حوله فلان، سقط الداعية وانتهى، أنت انتهيت كداعية، الحسن حسن والقبيح قبيح، بل إن الداعية لله عزَّ وجل يحسن الحسن ويقبح القبيح.

مَن عنده أيضاً قاعدةٌ هو رآها، أو استنبطها من حديثٍ أو آيةٍ في الدعوة إلى الله عزَّ وجل ؟ أنت بهذه الطريقة تخاطب الناس بطريقةٍ فعالة، وطريقةٍ مجدية، فالقاعدة: أنت إما أن تعلم الناس بلسانك، وإما أن تعلمهم بأفعالك، والناس لا يتعلمون بآذانهم بل يتعلمون بعيونهم، وبين الحق والباطل أربع أصابع، الباطل أن تقول سمعت، والحق أن تقول رأيت، لذلك هذا اسمه: اعتماد مبدأ القدوة الحسنة، وإذا أردت بهذا الموضوع مزيداً فاعلم علم اليقين أن أخطر مهمة للنبي عليه الصلاة والسلام أنه علَّم الناس بأخلاقه. دخل عليه عمر رضي الله عنه وقد اضجع على حصير فأثر الحصير على خده الشريف فبكى سيدنا عمر.

ـ قال: يا عمر ما يبكيك ؟

ـ قال: يا رسول الله رسول الله ينام على الحصير، وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير؟

ـ قال: يا عمر إنما هي نبوةٌ وليست ملكاً.

عندما دخل عدي بن حاتم على النبي عليه الصلاة والسلام وعرفه النبي، ورحب به، وأخذه إلى بيته قال: دفع إلي وسادة من أدمٍ محشوةً ليفاً، قال: اجلس عليها.

ـ قلت: بل أنت.

ـ قال: بل أنت.

ـ قال: فجلست عليها وجلس هو على الأرض.

لما كان مع أصحابه وقال: وعلي جمع الحطب ـ القصة معروفة عندكم ـ نكفيك، قال:

((أعلم ذلك ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

لما كان في معركة بدر قال:

((كل ثلاثة على راحلة وأنا وعليٌ وأبو لبابة على راحلة " لما جاء دوره في المشي توسلا إليه أن يبقى راكباً قال: " لا بأنتما بأقوى مني على السير، ولا أنا بأغنى منكما على الأجر))

إذاً أبلغ طريقةٍ في الدعوة إلى الله أن تعلّم الناس بأفعالك لا بأقوالك، وأن تكون قدوةً حسنة لهم، وأن تكون مثلاً أعلى لهم، وأن تكون أسوةً صالحة، لذلك لو ألقيت على ابنك ألف محاضرةٍ في الصدق وقلت له لما طُرق الباب: قل له ليس هنا. أرأيت إلى هذه الكلمة كل المحاضرات التي ألقيتها على ابنك ذهبت أدراج الرياح لأنك مارست الكذب أمامه.

والنبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى امرأةً من قريباته تقول لطفلها الصغير الصغير أي أنه يحبو:

ـ تعال خذ.

ـ فقال عليه الصلاة والسلام

((ماذا أردتِ أن تعطيه))

ـ قالت: تمرة.

ـ قال

((أما إنكِ لو لم تفعلي لكتبت عليك كذبة))

على هذا الصغير.

وعالم الحديث الشهير الذي قصد البصرة من المدينة، سفر يمكن شهرين، ليلتقي براوٍ لحديث رسول الله، رآه يصنع لفرسه رداءه هكذا، موهماً إياه أن فيه شعيراً، فلما اقترب منه ولم يجد شعيراً، عاد إلى المدينة ولم يكلّمه كلمة، لأن الذي يكذب على فرسه ليس أهلاً أن ينقل حديث رسول الله.

فالحقيقة والله يا إخوان، هذه الفكرة التي حكاها الأخ، يمكن أن تكون أكبر داعية على وجه الأرض وأنت ساكت، ولا كلمة، ليس هذا غريباً، ليست هذه مفارقة، لكن الناس إذا رأوا صدقك، وتواضعك،

وصدقك في بيعك وشرائك، وإخلاصك، وورعك، أحبوك وأحبوا دينك واتبعوك وأنت ساكت، وأنت لا تدري، لذلك أقرب طريق إلى الدعوة إلى الله عزَّ وجل أن تكون أنت في المستوى المطلوب، إذا كنت في المستوى المطلوب نجحت وأفلحت، فلذلك القدوة الصالحة، أو الأسوة الحسنة، أو المثل الأعلى، أو التعليم بالقدوة، هو أكبر شيءٍ في الدعوة إلى الله، لاحظ أن الناس يراقبونك، كل إنسان مظنّة صلاح، مظنة هدى، مظنة تعليم، كل إنسان في موقع الدعوة إلى الله مُراقب، توضع حركاته وسكناته تحت المجهر، فإذا أردت أن تكون ناجحاً عملك فراقب نفسك قبل أن تراقب، وحاسب نفسك قبل أن تحاسِب، وعامل الناس كما تحب أن يعاملوك، وأنا أقول لكم: إخوان كثيرون من إخواننا جلب أول أخ، وثاني أخ، وثالث أخ، وابن عمه، وجاره وهو ساكت، فما هذا الإنسان ؟

سألوا واحد بالحج رأى شخص هيئته هيئة واحد غربي، طوله، وقوامه، ولون شعره فسألوه طلع من ألمانيا الغربية، لكن كيف أسلم ؟ قال: طالب مسلم سكن في بيته، وعند هذا الرجل فتاةٌ جميلة، الشيء الذي يلفت النظر أن هذا الطالب ما نظر إليها ولا مرة، كلما خطرت أمامه يغض بصره عنها، فما هذا الإنسان ؟!! هذا الموقف الشريف العفيف دفعه للجلوس معه، وللحوار معه، وكان هذا الطالب طليق اللسان ومؤمناً، فأقنعه وأسلم على يديه، أي أن غض بصر إنسان سبب هداية إنسان.

فأنت حينما تقف موقف أخلاقي، حينما تتقن عملك، حينما تصدق والصدق يجلب لك الخسارة، تعظم في عين الناس، حينما تنصح والنصيحة تتعبك، تعظم في عين الناس، حينما تخلص والإخلاص يخفف من ميِّزاتك، عندئذٍ تعظم في عين الناس، فلذلك إذا أردت أن تؤثِّر بالآخرين فكن أنت متأثراً بما تقول، لأنك إن لم تتأثر بما تقول لن تؤثر في أحد.

وأيضاً كما كان السلف الصالح من العلماء لهم شرف، ولهم أعمال ففصلوا دعوتهم إلى الله عن أعمالهم، أما لو كان الداعية متعلّقاً بما عند الناس، لاختلف الأمر، فلذلك سيدنا أبو حنيفة النعمان وعلماء كبار، وعلماء مشاهير كلهم كان لهم أعمال يعملون بها، ويرتزقون منها حتى تبقى دعوتهم صافية نقية، بعيدةً عن كل مظنة سوء، وعن كل اتهام، وعن كل لغطٍ أو قولٍ لا يرضي الله عزَّ وجل إذاً هذه أيضاً.

طوبى لمن وسعته السنة ولم تستهوه البدعة، يعني إذا كان في البيت موجود بدع كثيرة، وهذه البدع الكثيرة تستهلك الأوقات الكثيرة، وتنقل الإنسان من حال إلى حال، من أجواء مقدسة ؛ أجواء القرآن، أجواء الصلاة، أجواء طلب العلم إلى أجواء الفن، وغيرها، فهذه البدع كلها تبعد عن الله عزَّ وجل، فإنسان يستمع للغناء وهو يدعو إلى الله عزَّ وجل، لا يتوازنوا، هو لا يطرب بالقرآن بل يطرب بالغناء، إنسان يمضي وقته في متابعة قصص، ومتابعة برامج وأشياء لا ترضي الله عزَّ وجل كيف يكون طليقاً في الدعوة إلى الله عزَّ وجل؟ كيف ينتزع إعجاب الناس ؟ كيف يراه الناس في موضع كبير ؟ فلذلك لما الإنسان تستهويه البدع، وينغمس في هذه البدع، ويقول لك: هذا خيال يا أخي وليس حقيقة، والصوت

صدى، فما عاد في شيء بالدين، إذا كل قضية فرَّغها من مضمونها، إذا هذا البرنامج التمثيلي المثير الذي يعرض خيانات زوجية، ومشكلات، ومواقف حميمة، وتجد مَن يقول: هذا البرنامج خيال، والأغاني الساقطة هذه كلها صدى، فماذا بقي من الدين ؟ فلذلك الإيمان عفيفٌ عن المطامع، عفيفٌ عن المحارم، أجمل كلمة قالها سيدنا جعفر:

" كنا قوماً أهل جاهلية ؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته، وصدقه، وعفافه ـ أمانته وصدقه وعفافه ـ ونسبه، فدعانا إلى الله لنعبده، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، والكف عن المحارم والدماء ".

أيها الإخوة الأكارم... الإنسان يطلب العلم حتى يعلّم، يتلقَّى حتى يلقي، يتأثّر حتى يؤثر، يأخذ ليعطي، يتعلّم ليعلم، يمشي في طريق الحق، وفي مرحلة أخرى ليعين الآخرين على أن يسيروا في هذا الطريق، وحجمك عند الله بحجم عملك، وهذه القواعد: الآمر قبل الأمر، والإحسان قبل البيان، ومخاطبة العقل والقلب معاً، والدليل والتعليل، واعتماد الواقع، كذلك نسيناها، والفطرة، والنقل والعقل معاً أيضاً هذه قاعدة أساسية، واعتماد القدوة الحسنة، والترغيب مع الترهيب، والتبشير مع الإنذار، وتحسين الحسن وتقبيح القبيح، واعتماد القصة والمثل، هذه كلها بعض ملامح النواحي التربوية التي جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (029) :قواعد الدعوة إلى الله2 - قواعد مهمة في الدعوة إلى الله .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-02-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، موضوع اليوم موضوع دقيق جدا، ذلك أن المؤمن بعد أن ترسخ قدمه في الإيمان، و بعد أن يسلك طريق الإيمان، وبعد أن يتقلب من حال إلى حال، و من منزلة إلى منزلة، و بعد أن يحرص على طلب العلم، وعلى الاستزادة منه، لو أنه وعاء، و النبي عليه الصلاة و السلام وصف النفوس بأنها أوعية، هذا الوعاء ألا ينبغي له أن يمتلئ بعد كذا سنة، سنتين، أربع سنوات، ست سنوات، عشر سنوات يستمع إلى خطبة و إلى درس تفسير و إلى درس حديث وإلى درس سيرة و إلى درس في معرفة الله عز وجل و أسمائه الحسنى، هذا الوعاء أما آن له أن يمتلئ، فإذا امتلأ لا بد له من أن يفيض، و معنى أن يفيض الوعاء أن يظهر أثر المؤمن في الناس، لأن الله عز وجل يقول:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

[سورة العصر]

عرف الله

(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة العصر]

طبق منهجه،

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

[سورة العصر]

دعا إليه،

(وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

[سورة العصر]

إذًا ما لم يكن في حياتك و في وقتك و في يومك أحد هذه الأربعة، أولا بد من أن تكون هذه الأربعة أنشطة مجتمعة، فأنت خاسر، و خسارتك محقق،

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

[سورة العصر]

إذًا كمؤمن تعرفت إلى الله و تعرفت إلى أهل الحق و سلكت طريق الإيمان، و التزمت بأوامر الدين، هذا الوضع مقبول منك إلى حين، التلقي، الأخذ و التعلم، لكن إلى ما شاء الله تأخذ فمتى تعطي ؟ إلى ما شاء الله تستمع فمتى تتحدث، إلى ما شاء الله يؤلف قلبك فمتى تؤلف أنت القلوب ؟ إلى ما شاء الله تأخذ العلم من دون أن تعطيه ؟ طبعا هذا الدرس له محور خاص، محور هذا الدرس أن المؤمن إذا استمع من خلال عمر مديد أو سنوات طويلة إذا استمع إلى شيء من عقيدة صحيحة، من فهم صحيح لكلام الله عز وجل، من إدراك عميق لسنة رسول الله صلى الله عليه و سلم، من وقوف على مواقف النبي عليه الصلاة و السلام في سيرته، من وقوف على مواقف الصحابة في أحوالهم مع رسول الله، بعد أن تجمع هذه الحقائق، و بعد أن تختزن هذه الحقائق، و بعد أن تتلقى هذه الحقائق، الآن إذا أردت أن تلقي هذه الحقائق النبي عليه الصلاة و السلام هل علمنا كيف نلقي هذه الحقائق، هل هناك في أحاديث النبي عليه الصلاة و السلام أحاديث تربوية، كلكم يعلم أن التربية اختصاص، التربية الوسائل الفعالة المؤثرة المجدية التي تنقل بها المعلومات و الحقائق و المشاعر والمواقف، الآن عملية النقل، أحدكم بعد سنوات طويلة يستمع و يستمع و يستمع، ويتأثر، و يقول: درس رائع، وهذه الآية عظيمة، وهذه الآية الكونية مذهلة، والحديث عميق يا أخي، و الموقف مشرِّف، إلى متى، لا بد من أن تلقى، لا بد من أن تترك آثارا فيمن حولك، في مستوى الأسرة، في مستوى القرابة، في مستوى العمل، لك زوجة، و لك أولاد، و لك جيران، و لك زملاء، لك إخوة و لك أخوات، لك أصدقاء، لا بد أن يظهر أثر المؤمن فيمن حوله، هو المؤمن وعاء، وامتلأ الوعاء، و بعد أن يمتلئ الوعاء لا بد من أن يفيض هذا الوعاء، فلذلك أنت حينما تختار شيئا - دققوا - أنت حينما تريد أن تشتري شيئا و معك مال وفير تبحث عن ماذا ؟ أقول: معك مال وفير، و تريد أن تشتري حاجة أنت في أمس الحاجة إليها، تختا ماذا ؟ تختار أفضل الأنواع، و أعلى المستويات، وأكثر الآلات متانة و جمالا و دقة و مردودا، طيب أنت حينما تعمل في الدنيا الأعمال الصالحة ألا ينبغي أن تختار أعظمها عند الله، ألا ينبغي أن تختار أكثرها ثوابا، أكثرها قربا من الله عز وجل، إذا فاض إناؤك على من حولك فهذا أعظم عمل تفعله، إليكم بعض الأمثلة.

أب له ابن غاب عن البيت، وغياب الابن عن البيت يؤلم إيلاما لا حدود له، و من كان أبا و كان له ابن يعرف عطف الأب على الابن، لو أن هذا الطفل غاب فجأة، لا تعرف أين هو، أين ينام، و ماذا يأكل، مع من، الآن الأشخاص الذين حولك، لو أن أحدهم أطعمه و جاءك و قال: أنا أطعمت ابنك، تقول له: تفضلت عليّ، شكرا لك، يقول لك آخر: أنا أسقيته، ويقول لك ثالث: أنا كسوته، أما جاءك واحد وجاءك به، و قد علمه و هذّبه و عرّفه بقدر أبيه و جاءك بابنك، هذا الذي جاءك بابنك أليس عمله أعظم من كل هؤلاء، أنت هذا العبد أطعمته، ولكنه شارد، أنت أسقيته، و أنت أمّنت له سكنا و أمّنت له زوجة، أمّنت

له أعمالا، جميل، هي أعمال صالحة و اللهِ لا تقدّر بثمن، لكن هل تعلم أن أعظم هذه الأعمال أن تعرّف هذا العبد بربه وأن تردّه إليه، وأن تجعل هذا العبد يأوي إلى الله و يصطلح معه ويطيعه، هذه:

(وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً)

[سورة المائدة]

أنت حينما تريد أن تلقي على الناس هذه المعلومات، هذه الحقائق وهذه العقائد و هذه الأفكار، هذا الفهم لكتاب الله، وهذا الفهم لسنة رسول الله، ماذا تفعل، كيف تتحرك، بماذا تبدأ، أي أسلوب تستخدم، أسلوب السر، أسلوب الحوار، أسلوب القصة، أسلوب المثل، أسلوب التحذير، أسلوب التبشير، أسلوب الوعد، أسلوب الوعيد، أسلوب الفرض، أسلوب التخيير، هناك أساليب كثيرة جدا، هذا الدرس محوره أنت إذا أردت أن تلقي على الناس شيئا، إذا أردت أن تهدي الناس إلى الصراط المستقيم، إذا أردت أن تؤثر فيمن حولك، إذا أردت أن تترك بصمات واضحة فيمن حولك، إذا أردت أن تهدي أقرب الناس إليك ؛ زوجتك، أولادك، إخوانك، أصدقاءك، جيرانك، إخوتك، أخواتك، أبناء إخوتك، أبناء أخواتك، بنات إخوتك، بنات أخواتك، هؤلاء حولك، ماذا تفعل ؟ الحقيقة أرجو الله عز وجل أن يقدِّرني أو أن يمكنني من أن أعطيكم بعض الحقائق الدقيقة المستنبطة من القرآن الكريم ومن سنة النبي عليه الصلاة و السلام، الآن نحن بصدد أن نبحث عن الآيات و الأحاديث التي تتعلق بالتربية، كيف تربي، و كيف تعلم، و كيف تنقل الحقائق، وكيف تؤثر فيمن حولك، كيف تحمل الناس على طاعة الله، كيف تحملهم على الاستقامة، كيف تحملهم على أن يقبلوا على الله عز وجل، النبي عليه الصلاة والسلام بادئ ذي بدء ماذا قال عن نفسه ؟ قال عن نفسه حديثا متعلقا بالتربية

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ بَعْضِ حُجَرِهِ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ فَإِذَا هُوَ بِحَلْقَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَدْعُونَ اللَّهَ وَالْأُخْرَى يَتَعَلَّمُونَ وَيُعَلِّمُونَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلٌّ عَلَى خَيْرٍ هَؤُلَاءِ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَدْعُونَ اللَّهَ فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ وَهَؤُلَاءِ يَتَعَلَّمُونَ وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا فَجَلَسَ مَعَهُمْ))

(رواه ابن ماجة)

((عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))

[السيوطي: الجامع الصغير]

أنا الآن أسألكم قبل أن أجيب، قبل أن أخوض في فقرات الدرس، هل عندكم قاعدة في نقل المعرفة للناس استنبطتموها من القرآن الكريم و الآية، أو من سنة رسول الله و الحديث ؟ قاعدة في تعليم الحق، قاعدة في نشر الحق، أسلوب رائع في إلقاء العلم على الناس، طريقة مجدية في تحبيب الناس بالحق، هل عنكم قاعدة، ليكن هذا الدرس حوارا، تفضل:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)

[سورة النحل]

هذه قاعدة أساسها القرآن، لكن هذه القاعدة تحتاج إلى شرح، ما معنى الحكمة ؟ وضع الشيء في مكانه، قال بعض العلماء: أن تقول الذي ينبغي، بالقدر الذي ينبغي، للشخص الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي " واحد حضر عقد قران، فيربد أن يتكلم عن الموت، واللهِ ليس من الأصول أن تتكلم عن الموت في هذا الوقت، جماعة فرحين، فلا يُتكلم عن الموت، و لست حكيما بهذه الدعوة إلى الله عز وجل، واحد جلس مع خطيبته أول جلسة فحدّثها عن الموت، فكري بالموت، لم تر الحياة بعد حتى ترى الموت، هذا أول لقاء، أطل بالك، ليس هذا من الحكمة، أحيانا يلتقي إنسان بشخص غارق في المعاصي، يعطيه قوائل في المعاصي، هو يحتاج إلى تشجيع، يحتاج إلى تدرج، يحتاج إلى أن تأخذ بيده، فلذلك أنا أشعر أن هناك أشخاصا كثيرين يتمنون أن يلقوا على الناس العلم، و لكن لأنهم يفتقرون إلى الطريقة النبوية في التعليم يخفقون في مسعاهم، يجب أن تتبع طريقة النبي عليه الصلاة و السلام، النبي له وظيفتان ؛ هو معلم و مربي، معلم يعلم العلم، لكنه مربي، الحكمة سيد منير، إذًا أن تقول ما ينبغي بالقدر الذي ينبغي للشخص الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي، إنسا أضاع حاجة، حدثه عن الله عز وجل، ليس معك، ما دام له مشكلة دقيقة جدا هو مع مشكلته، و ليس معك، لذلك كما قال الله عز وجل:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)

[سورة المائدة]

الموعظة الحسنة، واحد قال لشخص ملِك:أنا سأنصحك و سأغلظ عليك، فكان الملِك افقه من الواعظ، قال له: و لِم الغلظة يا أخي ؟ لقد أرسل الله من هو خير منكَ إلى من هو شر مني، أرسل موسى إلى فرعون، ومع ذلك قال له:

(فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً)

[سورة طه]

سيد منير: الحكمة و الموعظة الحسنة، هذه قاعدة تربوية، من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف، من تكلم الحكمة لغير أهلها فقد ظلمها، ومن منعها أهلها فقد ظلمهم، هذه قاعدة، قاعدة أخرى ؛ تفضل،

(وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

[سورة النحل]

شيء جميل، كلمة " أحسن" في اللغة ماذا تعني ؟ أحسن على وزن أفعل، هذه الصيغة ماذا ؟ اسم تفضيل، أي كان هناك مائة طريقة للمناقشة يجب أن تختار أحسن هذه الطرق، هل عندكم في القرآن الكريم تعلمنا كيف نجادل، تفضل:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24)

[سورة سبأ]

أنت حينما تجادل لا ينبغي أن تستعلي على من تجادل، و لا ينبغي أن توحي إليه أنك أنت على الحق و هو على الباطل، تعال لنتناقش، لا، كثير من الأشخاص يجادلون ويفرضون أنفسهم، هو العالم و الآخر الجاهل، هو الفهم و الآخر لا يفهم، هو على الحق و الآخر على الباطل، الله لم يعلمنا هكذا، قال: إذا جادلت يا محمد فقل لهم:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24)

[سورة سبأ]

أي أحدنا على الحق و الآخر على باطل، لنبدأ، هناك آية أخرى تؤكد معنى:

(وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

[سورة النحل]

قال تعالى:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً)

(سورة البقرة)

آية ثالثة، السيد سمير ،

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ)

[سورة فصلت]

و قال تعالى:

(فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً)

[سورة طه]

قال تعالى:

(قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25))

[سورة سبأ]

أعوذ بالله، النبي هكذا علّمه الله عز وجل، إذا لا تسألون عما أجرمنا، و لا تسألون عما كنتم تعملون، هناك تواضع إلى أقصى درجة، إذا أردت أن تجادل، و أن تناقش، ينبغي أن تستخدم ألطف عبارة، أرق تعبير، من دون سباب، ومن دون تجريح، من دون طعن، من دون إيذاء، ومن دون إيلام، أعتقد أن هذه الفكرة، وأعتقد بخلاف ما تعتقد، و إليك الدليل، هذه الطريقة، أما " لست تفهم " فليست هذه مناقشة، شيء جميل، إذًا أول قاعدة:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ)

[سورة النحل]

قول ما ينبغي، بالقدر الذي ينبغي، للشخص الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، أيضا، تفضل، هذه قاعدة جديدة بارك الله بك، أي هذا الإنسان أمامك له نفس، وله مشاعر، وله حاجات، فأنت إذا أردت أن تقنعه بشيء، هو مستغن عن أفكارك، مستغن عن عقيدتك، هو معني بشيء، مهموم بقضية، فإذا أردت أن تفتح قلبه لك افتحه بالإحسان

((عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن الله تعالى أمرني بمداراة الناس، كما أمرني بإقامة الفرائض))

[السيوطي: الجامع الصغير]

لا تستطيع أن تجعل هذا الإنسان يصغي إليك و يلقي لك بالا و يقبل عليك و يستمع إليك، و يفتح أذنيه تماما إلا إذا أحسنت إليه، فأي إحسان لمن حولك بغية أن تجعله يستمع إليك، أنا حدثني أخ أنا أحترمه كثيرا، قال لي: زرت أختي وجدتها في خصام مع زوجها، خصام شديد، و الخصام على مبلغ من المال تريد أن تأخذه منه كل شهر، وتنفقه على حاجاتها و حاجات أولادها، ويبدو أن الزوج ذو دخل محدود، وأنه رفض هذا الطلب، نشب صراع بينهما و قد دخل عليهما أخو هذه الزوجة، فالرجل له دخل، و لكنه ليس في بحبوحة كبيرة، فأراد أن يفصم هذه المشكلة و قال: يا أختي هذا المبلغ خذيه مني كل شهر، فسكتت و سكت زوجها، حدثني بالضبط، وقال: أول الشهر دفعت المبلغ، و ثاني شهر و ثالث شهر و رابع شهر، دفع المبلغ ستة أشهر، و بعد ستة أشهر طلبت منه أخته أن يجعل لهم درسا أسبوعيا في البيت، لها و لبناتها ففعل، شهر، شهران، ثلاثة، ستة أشهر، قريبا من سنة، البنات تحجبن جميعا، يسر الله له تزويج واحدة تلو الأخرى، من شباب مؤمنين، فالموضوع بدأ بثلاثمائة ليرة في الشهر و انتهى بهداية أسرة، لكن متى طلبت منه أخته أن يجعل لهن درسا أسبوعيا ؟ بعد ستة أشهر، و بعد هذا الإنفاق، فهذا الذي قاله أحد إخواننا الشيخ نجيب: عن عائشة رضي الله عنها قالت

((قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن الله تعالى أمرني بمداراة الناس، كما أمرني بإقامة الفرائض))

[السيوطي: الجامع الصغير]

هذه الباء في الإعراب باء الاستعانة، أي أنت تستعين على هدايتهم بمداراتهم، و المداراة في التعريف الدقيق بذل الدنيا من أجل الدين، و المداهنة بذل الدين من أجل الدنيا، فأنت إذا أردت أن تهدي أخا لك، صديقا، جارا، ابنا، قريبا، ابن أخ، ابن أخت، يجب أن تحسن و يجب أن تبذل، و يجب تقدّم، يجب أن تفتح قلبه قبل أن تفتح عقله، هذه قاعدة للهداية، المسيء، أعرف رجلا كان إذا رأى أولاده قد قصّروا في الصلاة ضربهم ضربا مبرحا و قسا عليهم، و كان بخيلا عليهم بخلا شديدا، لمجرد أن توفاه الله عز

وجل هذه الأسرة انفجرت، أي عصوا ربهم كيدا له، لأنه قسا عليهم، و لأنه بخل عليهم، فكرهوا الدين من أجله.

أيها الإخوة الأكارم يجب أن تعلموا أن هناك مَن يدعو إلى الله، و أن هناك من يقوم بدور معاكس، إن صح التعبير منفّر ن هذا يدعو و هذا ينفّر، هذا يقرِّب و هذا يبعِّد، هذا يحبب و هذا يكرِّه، هذا يجعل الإيمان ينمو في قلبك، وهذا يجعل الإيمان يتلفت منك، فلذلك: يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليهما و بغض من أساء إليها، حدثني رجل بعيدا عن الدين بُعد الأرض عن السماء، بل إنه من أكبر أعداء الدين، بل إنه يكيد لكل مؤمن، وقع في مرض عضال و احتاج إلى مساعدة، هناك أناس ممن حوله جمعوا له بعض الأموال و ساعدوه حتى أجريت له عملية خارج القطر و نجحت هذه العملية، فإذا هذا الإنسان البعيد المعادي الحاقد المبغض، فإذا هو أحد رواد المسجد، وإذا هو من المؤمنين الصادقين، إن هذا الإحسان ملك قلبه.

فيا أيها الإخوة الأكارم، إذا أردت أن تدعو إلى الله فاعلم علم اليقين أن هذا القلب يجب أن تفتحه بإحسانك حتى يُفتح العقل لكلامك، هذا معنى قول النبي عليه الصلاة و السلام

((بعثت.....بمداراة الناس))

" رأس العقل بعد الإيمان التودد إلى الناس، اي إذا أطعمت الناس الطعام بغية أن تقرِّبهم إلى الله فنعما تفعل، و إذا قدّمت لهم بعض الهدايا، لك أخت جاءها مولود، دفعت من مالك الذي جمعته من حلال، و قد تكون أنت في ضائقة مالية، وقد تكون أنت في أمس الحاجة لهذا المبلغ.ـ لكن إذا قدمت لأختك هذه الهدية أو لأخيك أو لجيرانك أو لمن حولك، لا تدري ماذا تفعل هذه العطاء في نفس الإنسان. هذه قاعدة ثالثة، طيب قاعدة رابعة مستنبطة من القرآن و السنة، بعثت بمداراة الناس،

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ)

[سورة النحل]

أيضا السيد أحمد:

(خُذِ الْعَفْوَ)

[سورة الأعراف]

الحاقد لا يهدي الناس، لا يجتمع الحقد مع الهداية، أنت إذا أردت أن تدعو لباب الله، فباب الله لا يحقد، باب الله لا ينتقم، باب الله لا يتشفى، باب الله لا يروي غليله من خصومه أبدا، لو فعلت هذا لطردك الله من رحمته، أنت أب، الأخ غير الأب، إذا دعوت إلى الله ينبغي أن تضع نفسك تحت قدميك، ينبغي أن تضع حضوضك تحت قدمك، ما الذي يفرحك ؟ الذي أعطاك أم الذي أخذ منك ؟ إن كنت فرحت بمن أعطاك فأنت من أهل الدنيا، وإذا فرحت بمن أخذ منك فأنت من أهل الآخرة، هذا المقياس، لأن أساس

حياة المؤمن مبنية على العطاء لا على الأخذ، يا من جئت الحياة فأعطيت و لم تأخذ، يا من قدّست الوجود كله ورعيت قضية الإنسان، أعداء الإنسانية أخذوا من الناس كل شيء و لم يعطوهم شيئا، أما الأنبياء أعطوا كل شيء و لم يأخذوا شيئا، لا تركوا لا درهما و لا دينارا، من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليقتد مني، و من كنت أخذت منه مالي فهذا ملي فليأخذ منه، و من كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليقتد منه، ولا أخشى الشحناء فإنها ليست من شأني و لا من طبيعتي، هذا الدين، إذًا العفو يجب أن تعفوَ عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وأن تصل من قطعك، و أن تدفع بالتي هي أحسن، قال تعالى:

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34)

(سورة فصلت)

قال تعالى:

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ)

(سورة آل عمران)

درجة، قال تعالى:

(وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ)

(سورة آل عمران)

كاظم الغيظ يغلي من داخله، و لكنه خائف من الله عز وجل، لكنه يغلي، و يتمنى لو أن الله سمح له لقطّعه إربا إربا، هذا خصمه، هذا كظم الغيظ، درجة، و هي جيدة، مضبوط، من داخل فيه غليان، ومن خارج فيه انضباط، أما:

(وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ)

(سورة آل عمران)

من الداخل فيه عفو، لا عليك يا أخ:

(قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92))

[سورة يوسف]

ماذا فعلوا به ؟ وضعوه في غيابت الجب، و لماذا وضعوه في غيابت الجب ؟ ليموت جوعا، ليموت مكوتا محققا، من كرم هذا النبي العظيم أنه حينما حمد الله عز وجل بعد أن جعله الله عزيز مصر قال أمام إخوته:

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي)

[سورة يوسف]

ما قال: إذ أخرجني من الجب، لئلا يزعجهم، و لئلا يذكرهم بعملهم، لئلا يخجلهم، و لئلا يحرجهم، قال:

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ)

[سورة يوسف]

و الحقيقة السجن ليس فيه خطر الموت، أمّا أين يوجد خطر الموت ؟ الجب، هناك موت محقق، فهذا الكمال،

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ)

[سورة يوسف]

و لم يقل: من الجب لئلا يذكرهم بعملهم و جريمتهم و بكيدهم، وبمحاولة قتله من قِبَلِهم، فالعفو طريقة من طرق الدعوة إلى الله عز وجل، والإحسان طريقة من طرق الدعوة إلى الله، و لا أعتقد ولا أصدّق أن هناك إنسانا يمكن أن يسيء إليك أكثر مما لو اتهم ابنتك الطاهرة العفيفة التقية النقية بالزنا، شيء لا يحتمل، إنسان له فتاة، له بنت متزوجة صائمة قانتة طائعة، أن تُتهم بالزنا و أن يُروّج هذا الخبر في المدينة، هذا الذي حدث مع سيدنا الصديق، مسطح كان يعطيه و يحسن إليه، حدثته نفسه أن يمنع عنه العطاء، لأنه ليس معقولا أن يعطيه، إنسان أساء أشد الإساءة، و بلغ أقصى درجات الإساءة، فلما فكر الصديق عليه رضوان الله أن يمنع العطاء جاء العتابُ الإلهي:

(وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ)

[سورة النور]

فبكى وبكى و بكى، وقال: أحب أن يغفر الله لي، هذا الموقف، داعية حاقد لا يوجد، داعية ينتقم من خصومه لا يوجد، داعية تشفى من الناس لا يوجد، الداعية إلى الله يجب أن يتسم باعفو والإحسان حتى يستميل قلوب الناس إليه، هذه الثانية، شيء جميل.

أيضا، أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم، شيء جميل، أنت لم تتكلم بشيء فوق مستوى العقول، مثلا نحن لسنا مضطرين لنقرأ كتبا فيها شطحات، من وحّد فقد ألحد، هذه تحيِّر، هناك كتب ألّفها بعض العلماء والصوفيين و عبّروا فيها عن مواجدهم و أشواقه و شطحوا، هذه الشطحات الحلاج حينما قال: ليس في الجبة إلا الله قتل، من أفتى بقتله ؟ أحد كبار أئمة الدين، الجنيد، هذه كلمة خطيرة جدا، وهذه الكلمة تثير الفتنة، ما معنى لبس في الجبة إلا الله، قد يكون من أهل الجنة، قد تكون علاقتك مع الله متينة جدا، و قد عبّر عن شيء نحن ما تذوقناه، أو فهمناه، لكن هذه الكلمة لا يجوز أن تُلقى على الناس أبدا، فأمر أن أخاطب الناس على قدر عقولهم، أتحبون أن يكذب الله و رسوله....." معنى معقد جدا، قضية في القضاء والقدر، قضية لا يحتملها الناس، قضية فيها صدمة، يختل توازن الإنسان فيها، إياك أن تلقيها على الناس، مثلا ؛ لو قلت للناس ورد في صحيح البخاري أن النبي عليه الصلاة و السلام قال :

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

(رواه مسلم)

ألقيت الحديث و لم تشرح هذا الحديث، ماذا فهم الناس من هذا الحديث، لابد أن تلحقوا أنفسكم ببعض الذنوب و إلا تأكلوها، معنى خطير جدا، هذا الحديث لا يُلقى على الناس إلا مع شرح طويل، وإلا إلقاء هذا الحديث بلا شرح يسبب مشكلة، لأنه حسب الظاهر

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

(رواه مسلم)

عام، لا بد من أن يذنب، هنا يأتي دور الشرح و التفصيل و البيان، و حديث صحيح و رائع جدا، و لكن أنتم أيها الناس إن لم تشعروا بذنوبكم، إن لم تحسوا بذنوبكم، تلبد حسكم، اغتبتم لم تتأثروا، أكلتم المال الحرام فلم تخافوا، فعلتم الموبقات فلم ترتجفوا، لم تشعروا بذنوبكم، لم تحسوا بها، فقدتم الإحساس بالذنب، أي انتهيت، إذا وضع الطبيب يده و قال: لا يوجد نبض، أعوذ بالله، لا يوجد نبض، تعال لترى، هاتوا الجهاز، هاتوا مرآة، وضعها على أنفه فلم يجد البخار، هاتوا بين وضعها بعينه فلم تضق الحدقة على الضوء الشديد، هذا انتهى، و عظّم الله أجركم، خلاص، انتبهوا يا إخوان

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

(رواه مسلم)

أي أنتم ملتهون، إذا الواحد لم يشعر بذنبه و قال: ماذا فعلنا ؟ هذه " ما فعلنا " معناها هناك موت قلبي، القلب ليس فيه حياة،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال]

هنا فيه موت

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

(رواه مسلم)

أي إن لم تشعروا بذنوبكم، إن لم تحسوا بها، إن لم تبكوا عليها، إن لم تندموا، إن لم تستغفروا، إن لم تبادروا إلى التوبة منها، إن لم تقلقوا، لا قلق، ولا خوف و لا ألم و لا هناك ندم و لا وجل، ماذا فعلنا ؟ الله غفور رحيم، لا تدقق، هذا إنسان ميت منتهي، عندئذ لذهب الله بكم و أتى بقوم إذا أذنبوا يستغفرون،

يتألمون ويخافون، هذا الحديث لا يلقى على الناس بلا شرح، بلا تعليل بلا تبيين، وإلا فهم الناس منه عكس ما أراد النبي عليه الصلاة و السلام :

((عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي فَأَخْبَرَنِي أَوْ قَالَ بَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ قُلْتُ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ قَالَ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ))

(رواه البخاري)

أعوذ بالله، قال تعالى:

(وَلَا يَزْنُونَ)

[سورة الفرقان]

كيف وإن زنى وإن سرق، هذه " وإن زنى أي في الماضي ثم تاب، ما قال: و إن يزني، بل قال: وإن زنى، لا بد أن تبينها، في الماضي زنى ثم تاب، أقيم عليه الحد و تاب، الله يقبله، فلا تيئس الناس، و ليس معنى ذلك أن الزنى و السرقة يمكن أن تفعلها و أنت مؤمن، هذا شيء مستحيل، الذي أريده أن ليس كل آية ؛ مثلا:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13))

(سورة السجدة)

الله عز وجل يقدر أن يهدي الناس جميعا، لكنه لا يحب أن يفعل ذلك، يحب أن يملأ جهنم بالناس، هذا المعنى من الآية ؟ هذا المعنى ليس مرادا من قِبل الله عز وجل، أنتم تدّعون أيها العباد أني أجبتكم على المعاصي، لو أردت أن أجبركم لأجبرتكم على الهدى لا على المعصية، و لكنكم مخيرون، منحتكم حرية الاختيار، فأنتم مخيرون، فإذا فعلتم المعاصي فهذه من كسبكم، و من اختياركم و سوف تدفعون ثمنها باهظا، هذا المعنى الذي يليق بحضرة الله عز وجل، أما:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13))

[سورة السجدة]

هذا المعنى الذي يفهمه عامة الناس لا يليق بحضرة الله عز وجل، هل تقبل أنت من إنسان من جهة رسمية بنت سجنا ممتازا،و لكن لا يوجد أحدا يخالف القوانين، ليس معقولا أن نتركه فارغا، وضعنا حاجزا في الطريق فأخذنا ناس ووضعناهم في السجن، نملأه، هذا المعنى مرفوض و لا يليق بإنسان، فآيات قرآنية متشابهة تحتاج إلى توضيح و بيان، وإلى تأويل رائع،:

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا)

(سورة يوسف)

إذا كان نبيا كريما كسيدنا يوسف هم بها بعد ذلك ندم، معنى ذلك أنه بدر، هذا المعنى لا يليق بالأنبياء:

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا)

(سورة يوسف)

وقف،

(وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ)

(سورة يوسف)

لولا أن الله أودع فيه نورا كاشفا، لوقع، هذا المعنى، هناك معنى آخر: و لقد همت به.." أي همّت بإغرائه، وهم بدفعها، فهمّه غير همها، إن رأيت أفعى في غرفة هي تهم أن تلدغ و أنت تهم أن تقتلها، همها غير همك، فمثل هذه الآيات المتشابهات ينبغي أن تفسر و تؤول وأن توضَّح و تبيَّن، قال داوود: يا ربي من أحب عبادك إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: أحب العباد إلى تقي القلب نقي اليدين، لا يأتي إلى أحد بسوء، أحبني وأحب من أحبني " أما الشاهد، وحببني إلى خلقي " أنت كمؤمن يجب أن تبين للناس أجمل شيء الذي يليق بحضرة الله، لأن الله عز وجل يقول:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

[سورة الأعراف]

أخي الله متكبر، نعم متكبر، لأنه فعلا كبير، واحد مليء و قصدته أنت بقرض ، فقال لك: أنا ليس معي شيء، أنا فقير، هذا لا يليق بالغني، يقول لك: أنا غني أعطيك، الله عز وجل عظيم، كبير محسن، لكن إذا العبد قال: أنا معي، عبد تكبر، التكبر في العباد صفة نقص، لكن التكبر في الخالق صفة كمال، فأنت إذا حدثت عن الله عز وجل لا بد من أن تحدث عن أسمائه الحسنى وعن صفاته الفضلى، وعن كمال الأنبياء، وعن كمال أصحاب رسول الله، إذًا لا بد من أن تحدث الناس على قدر عقولهم، أحيانا تجلس مع ناس ثقافتهم وسط، تدخل معهم في متاهات القضاء و القدر، ومتاهات أشياء معقدة، أحيانا تجد قصتين أو ثلاثة فيها مغزى رائع أبلغ من الموضوع الذي تكلمت فيه، فهذه قاعدة.

هناك قاعدة أخرى

((عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَهُ وَمُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا))

(رواه مسلم)

هناك شخص دائما يتكلم عن جهنم، تكلم لنا عن الجنة قليلا، والله عز وجل من حكمته البالغة أنه يدعو عباده إليه رهبا و رغبا، مرة يرهبنا، يقدم لنا مشاهد من عذاب جهنم، قال تعالى:

(وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (37))

[سورة فاطر]

و مرة يبشرنا، و يصف لنا مشاهد من الجنة:

(َأمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27))

[سورة الحاقة]

إذًا التبشير و التحذير، وصف الجنة وما قرب إليها من عمل، ووقف النار وما قرّب إليها من عمل، هذا من أسلوب الدعوة الناجحة.

أيضا ؛

(فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

(سورة آل عمران)

المشاورة، إنسان، أحيانا الأب في بيته يسأل أولاده في البيت: ماذا تريدون أن نأكل اليوم ؟ في مودة، المؤمن يأكل بشهوة أهله، في بعض الأقوال، المشاورة تسبب الود و المحبة بين المؤمنين، فأنت إذا شاورت و أخذت رأي من حولك، إنك إذ شاورت الناس استعرت عقولهم، كل خبراتهم استعرتها بهذا السؤال، طبعا الموضوع كثير دقيق، لكن أنا بدأت فيه على أساس حوار، لكن عندنا موضوع مثلا ؛ أنت ما لم تعرِّف الناس بالآمر قبل الأمر لن يستقيموا على أمر الله، أن تبدأ بالطريق المعكوس، النبي عليه الصلاة و السلام بقي في مكة ثلاثة عشر عاما يدعو الناس إلى معرفة الله، عن طريق الكون، وفي المدينة جاء التشريع و بدأ يبيِّن للناس الأمر و النهي، إذًا هناك مرحلة مكية و مرحلة مدنية، مرحلة الإيمان، مرحلة بيان شرعه، مرحلة معرفته، مرحلة عبادته، مرحلة الوصول إليه، ومرحلة التقرب منه، هناك مرحلتان، فإذا عكستا أخفقنا في الدعوة إلى الله، بدأنا بتعريف الناس بأمره قبل أن نعرفهم به، بدأنا ببيان أمره و نهيه و نسينا أن نبين لهم أسماءه الحسنى فلذلك إذا عرفنا الناس بأمره قبل أن نعرفهم بذاته فقد سرنا طريقا طريقا معكوسا، وهذا الطريق المعكوس لا يجدي، فلما يعرف الإنسان الأوامر يحتال علبها، تجد حيلا لا تنتهي، يراد بالحيلة، يبيع هذه الحاجة بعشرة، ويبيعها دينا بعشرة، يشتريها بعد دقيقة نقدا بثمانية، فالفرق هو الربا، أما الظاهر فبيع و شراء، لماذا احتال على التحريم، لأنه ما عرف الآمر، عرف الأمر و ما عرف الآمر، فأيَّة حيلة شرعية أساسها الجهل بالله عز وجل، فإذا أردت أن تدعو إلى الله بتعريف الناس، قعدت مع أهلك، تعالوا ندرس أحكام المياه، أول درس، ثاني درس، ثالث درس، أول جمعة، ثاني جمعة، ثالث جمعة، هم ما عرفوا الله عز وجل، حكم الوضوء بماء الحمص، أحكام لا تنتهي، أنت بهذا الموضوع يقال بكلمة واحدة، الماء الذي تشرب منه توضأ منه و

انتهى الأمر، و التفت لأمور أخرى، فإذا أردت أن تفصل في الأحكام قبل أن تعرِّف بالواحد الديان تجد الناس لم يستقيموا، لا يستقيم الناس إلا إذا عرفوا أن لهم ربًّا يراقبهم، وسيعطيهم عطاء لا حدود له إذا أطاعوه، وسيحاسبهم حسابا دقيقا، من خلال آية، من خلال حديث، من خلال قصة، من خلال آية كونية، فإذا عرّفت الناس بأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، و ما عنده من عطاء و ما عنده من عقاب، الآن إذا جاء الأمر صار هناك طاعة لله عز وجل، هذه قاعدة، طيب أنت معقول أن ترى إنسانا في يده خاتم ذهب، لا يصلي ولا يصوم لا يتعرف على الله أبدا، تريد أن تقنعه أن الذهب حرام، هذا غلط في الطريق، و هذه من فروع الدين، عرفه بأصول الدين، عرفه بوجود الله عز وجل، حينما تبدأ مع أهل الغفلة و الإعراض و الكفر بفروع الدين و تنسى أصول الدين فقد ضللت سواء السبيل، لا تخاطب عامة الناس بفروع الدين، خاطبهم بأصول الدين، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

]سورة البقر

أما:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور)

أنت تخاطب مؤمنا فأعطه الأمر الدقيق، أما إذا خاطبت غير المؤمن عرفه بوجود الله، فلذلك إذا خاطبت الناس بأصول الدين فقد ضللت سواء السبيل، عامة الناس يُخاطَبون بأصول الدين، و المؤمنون يخاطَبون بفروع الدين، إذا عرّفت الناس بفروع فقد ضللت سواء السبيل، العوام بأصول الدين، تقول له: أنت لا تؤمن بالجن ؟ يقول لك: لا واللهِ أين هؤلاء الجن، كفرت، ما آمن بالله أولا حتى يؤمن بالجن، الجن لا يراهم بعينه، الإيمان بالجن إيمان إخباري تصديقي، فأنت إذا آمنت بالله عز وجل و آمنت بكتابه، الله عز وجل ذكر عن الجن، فأنت إذا أردت أن تحاول أن تقنع إنسانا بوجود الجن، وهو لم يؤمن بالله بعد طريق مسدود، لأن الإيمان بالجن و الإيمان بالآخرة و الإيمان بالحوض و الإيمان بالصور و الإيمان بالصحف نشرت، هذه كلها أقسام يسمونها السمعيات أو الإخباريات أو الإيمان التصديقي، أنت ابدأ بالإيمان التحقيقي، ابدأ مع الناس بوجود الله عز وجل، ثلاث أشياء يمكن أن تبدأ بها؛ وجود الله عز وجل، وحدانيته و كماله، شيء جميل، الآن منهجه و كتابه، الآن رسوله، هذه إذا بدأت بها تفلح، الإيمان بالله بوجوده ووحدانيته وكماله، و الإيمان بكتابه المنزَل و رسوله المبيِّن، هذه المعقولات، هذه من مهمات العقل، هذه منوطة بالعقل، فإذا آمن بوجود الله و آمن بوحدانيته و آمن بكماله و آمن بكتابه و آمن برسوله، الآن الكتاب الذي آمنت به يقول لك: هناك جن، وهناك صراط، وهناك حوض، وهناك جنة، وهناك نار، و الإنسان بدأ من سيدنا آدم، فأنت لا تستطيع أن تلق على

الناس القسم الإخباري في العقيدة، أو القسم التصديقي أو القسم السمعي إلا إذا آمن بقائل هذا الكلام.
إن شاء الله هذا الموضوع يحتاج إلى عناية بالغة، و السبب أن هذه الوجوه النيرة أراها كل أسبوع، فصار هناك ثبات و الحمد لله، صار هناك استقرار، هذا الأخ ثبت و استقر، إذّا الأخ إذا أراد أن يرقى إلى الله عز وجل يتفوق، كيف يدعو إلى الله، هناك أصول، لما يتعرف الإنسان على الله عز وجل و يعرف الناس هل يعلم أن صنعته هي صنعة الأنبياء، أعلى صنعة في الكون أن يسمح الله لك أن تهدي الناس إليه، أن يسمح الله لك أن تبث الهدى في الناس، أن يسمح الله لك أن تكون داعية إليه، هذه أعظم صنعة، لكن تحتاج إلى أساليب، و الحقيقة أنه سهل كثيرا أن تعالج خشبة، خشنة هناك فارة، طويلة هنالك منشار تقصها، قصيرة هناك وصلة، شغل سها، و خشب سهل، الحديد نفس الشيء، يقص الحديد:
لكل شيء آفة من جنسه حتى الحديد سطا عليه المبرد

تقصه بالمبرد، لكن نفس البشرية القضية فيها أصعب بكثير، بكلمة واحدة تنفرها، ابتسامة ساخرة تبعدها، فكرة غير منطقية يقول لك: ما هذه السحبة، قضية غير منطقية ينفر منك، يقول لك: الدين كله خلط، أنت كذلك بالمناسبة كثير من الحلقات الدينية أساس الدعوة كرامات، كلها خرق عادات، هذا أخي هذا صلى بالكعبة و رجع ثاني يوم صلى بالقدس، وثالث يوم صلى..، تنظر إليه وهو شاب منطقي متعلم مثقف، ما هذا الكلام ؟ ضيّعه، الكرامات أنا أؤمن بها، ولكن أنا قاعدتي في الكرامات أني أؤمن بها، لا أنكرها و لا أرويها، لا أنكرها لأنها ثابتة في القرآن، أهل الكهف أما لبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين، ثابتة، السيدة مريم ألم تنجب من دون زوج، هذه ثابتة، فالكرامات نؤمن بها بما ورد منها بالنص القطعي، أما أنا فلست مضطرا و لست مستعدا كلما قص علي واحد قضية خرافية أو غير منطقية أو شطحة أن أقول له: واللهِ صحيح، فقد انتهى الدين بهذه العملية، فالكرامات لا ينبغي أن تتخذ محورا في الدعوة إلى الله عز وجل، الكرامات معاملة خاصة من الله لك، هذه أنت من أنت حتى تتحدث عنها، أما النبي وحده حينما يؤيَّد بالمعجزة مكلف أن يتحدى بها الناس، النبي بشكل مختصر إذا قال الناس للنبي: إنك لست نبيا، فكيف يشهد الله لهم أنه نبيٌّ ؟ بمعجزة، الطريق الوحيد ليشهد لله لهؤلاء الناس أنّ هذا الإنسان هو رسوله بالمعجزة، هذه للأنبياء فقط، أما كلما واحد دعا إلى الله، أنا أخي البارحة وضعنا صحن أكل فأكل منه ثلاثون رجلا، شبعوا وتضايقوا لكثرة ما أكلوا، لا تضبط، صحن أكل، فكل يوم تسمع قصة، وهذه القصص تنفّر و تجعل الدين بعض خرافات، و بعض سحبات، ويجوز أن الله عز وجل يطرح البركة و لكن هذه لا تحكَى، يمكن أن يخرق العادات إكراما للمؤمن، والبارحة ذكرنا في الخطبة أن الإمام الغزالي يقول:- يا لطيف ما أجمل هذه الكلمة - قال: إذا رأيتم إنسانا يطير في الهواء - واللهِ صعد - أو يمشي على وجه الماء، ولم يكن مستقيما فاعلموا أنه شيطان.

هناك واحد يتحدث عن كراماته وليس مستقيما، فقالوا عنه: لقد وصل إلى الله، فقال العلماء الأصوليون: لقد وصل إلى سقر لا إلى الله عز وجل، إذا الإنسان لم يكن منضبطا بالشرع لا تعبأ لا بكلامه و لا بدعواه و لا بكراماته ولا بمناماته، هذه كلها تصير دعوى، ممكن أن الإنسان إذا رأى رؤيا صالحة نسمعها منه، و نقول له: الله يهنئك، أما إذا رأى رؤيا تأمره بترك الصلاة، نقول له: اركل هذه الرؤيا بقدمك فإنها من الشيطان، لو أن أحدا قال: لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم، وجاء في مضمون الرؤيا ما يخالف الشرع يثبت الشرع و تُرد الرؤيا، ديننا مبنيٌّ على العلم، ديننا مبني على العقل، العقل أصل ديني، فأنت في الدعوة إلى الله إياك، أنا أضرب مثلا ؛ لو فرضنا أبا مرض مرضا شديدا، و له ابن بار أنفق الوقت كله في خدمته و عنده شهادة رسمية، بعد أن أبل من مرضه بقي أسبوعين أو ثلاثة، هذا الابن درس، إذا الله عز وجل ألهمه بطريقة أو بأخرى الجهة التي يأتي منها السؤال فرضا، وهذا الولد توفق، هذه كرامة من الله له، لأه ضحّى في سبيل بر والديه، طيب هذه القصة تُحكى للطلاب ؟! لا يدرسون، لو أنها وقعت فلا يجوز أن تلقى على الطلاب، لأنها تشوِّش، تربك، فنحن الكرامات نؤمن بها ولا ننكرها، وفي الوقت نفسه لا نرويها أبدا، لأن في رواية الكرامات ما يجعل الاضطراب في الأفكار و التكذيب، إذا الإنسان مثقف و منطقي و سمع قصة ليست صحيحة وغير معقولة، واللهِ قرأت مرة في كتاب أن رجلا له شيخ يحضر عنده دائما، كم أحب هذا الشيخ ذاب ذاب وذاب صار كقليل من الماء على الأرض، أين فلان ؟ هذا فلان، ليس هذا بفلان، مكتوبة في كتاب، قص الخشبة فوجدها قصيرة، فقال: نسيت، فشد، فشددنا حتى ركزناها، إذا انبنى الدين على هذه القصص فقد انتهى الدين، الدين فيه قواعد و فيه أخذ بالأسباب، قال تعالى:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (84) فَأَتْبَعَ سَبَباً (85))

(سورة الكهف)

هذا الموضوع إن شاء الله يحتاج إلى متابعة، إذًا هذه أكثر من عشرين قاعدة، ولكن الإخوة الكرام ذكروا بعض هذه القواعد، وهناك قواعد دقيقة جدا، التدرج مثلا، الإحسان، المتابعة والحوار، واعتماد النقل والعقل والفطرة والواقع، التحسين، النبي الكريم أراد أن ينفّرنا من العودة في الهبة،

((فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَقِيءُ ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ))

(رواه البخاري)

واحد استقاء كم هذا القيء كريه محمض، قال له: كله، شيء لا يحتمل، قال

((عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَقِيءُ ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ))

(رواه البخاري)

فالنبي كان يحسن الحسن ويقبح القبيح، من أساليب الدعوة إلى الله تحسين الحسن وتقبيح القبيح إن شاء الله في درس قادم إذا مكنني الله عز وجل من متابعة هذا الموضوع، أنتم بقي لكم سنوات قليلة، هناك ثبات، وهناك محبة لله عز وجل، حتى نتحرك في الدعوة إلى الله، حتى نؤثر فيمن حولنا يجب أن نسلك أسلوبا تربويا صحيحا جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا سلكت الأسلوب الصحيح أفلحت ونجحت ورضي الله عنك.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (030) :ذكر الله1.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-03-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم ، رمضان كما تعلمون شهر العبادة ، ولكن هذه الكلمة لها مدلولات كثيرة ، فإذا قمت بعمل نافع ، فهذا العلم النافع نوع من العبادة ، وإذا أديت واجبك اتجاه أهلك وأولادك ، فأداء هذا الواجب نوع من العبادة ، والعبادة ألوان ، عبادات تعاملية ، وعبادات شعائرية ، الذي يعنينا من هذه العبادات ونحن في رمضان العبادات الشعائرية ، فالصلاة والصيام والحج هي في رأس العبادات الشعائرية ، ولكن ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو إلى ذكر الله ، وذكر الله عز وجل يقع في القرآن الكريم في قمة العبادات الشعائرية ، قال تعالى :

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

[سورة العنكبوت الآية : 45]

موضوع الدرس اليوم ذكر الله عز وجل ، بعض العلماء يقول : إذا ذكرت آيات الله الكونية فمن أجل أن تعرفه ، وإذا ذكرت آلاءه ، والآلاء هي النِعم فمن أجل أن تحبّه ، وإذا ذكرت عقوباته لخلقه فمن أجل أن تخافه ، و إذا ذكرت وعده ووعيده فمن أجل أن تسعى إلى الجنة و أن تبتعد عن النار ، إذًا هناك ذكر للآيات ، وذكر للآلاء ، وذكر للنقم و ذكر للوعد ، وذكر للوعيد ، على كلٍّ من الأحاديث الصحيحة التي وردت في كتاب البخاري و مسلم قول النبي عليه الصلاة و السلام عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ *

(رواه البخاري)

هذا الحديث يكفي ، عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ *

(رواه البخاري)

و في حديث آخر رواه الإمام مسلم عَنْ أَبِي مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ

مَثَلُ الْبَيْتِ - الآن مثل البيت -الَّذِي يُذْكَرُ اللَّهُ فِيهِ وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذْكَرُ اللَّهُ فِيهِ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ *

(رواه مسلم)

إذًا :

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد الآية : 28]

ألا بذكر الله تحيا القلوب ، و الآية الكريمة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال الآية : 24]

فذكر الله عز وجل حياة للقلب ، في الحقيقة دائما هذه الأحاديث إذا الإنسان طبقها شعر بقيمتها ، فالنبي عليه الصلاة و السلام سئل مرة وقيل له أي أهل المسجد خير ؟ رواد هذا المسجد ، و رواد أي مسجد من هو متصفون بالإسلام ، من هو متصوف بالإيمان ، أي أهل المسجد خير ؟ فقال عليه الصلاة و السلام أكثرهم ذكرا لله عز وجل " إذًا التفاوت بين رواد المساجد في كثرة الذكر ، و سئل عليه الصلاة و السلام : أي الجنازة خير ؟ أي أي أهل الجنازة خير ؟ هؤلاء المشيعون أيهم خير ؟ قال : أكثرهم ذكرا لله عز وجل ، مرة كنا في تشيع جنازة ووصلنا إلى المقبرة وشرع في دفن الميت و ألقيت كلمة وعظية في هذه المناسبة و إلى جحواري رجلان لا يفتآن يتحدثان عن صفقات وعن عقود وعن خلافات وعن توكيل وعن محامين ، فقلت : سبحان الله وهو في المقبرة ، وهو يرى بأم عينه هذا الميت يوضع في القبر يتحدث عن حطام الدنيا ، و مرة للإمام علي كرم الله وجهه جاءه رجل يطلب منه أن يكتب له عقد بيع بيت ، نظر هذا الإمام في عيني هذا الرجل فرأى عينيه غارقتين في الدنيا ، فقال : هذا ما اتفق عليه العبدان الفانيان المذنبان على شراء بيت يقع في شرقه الموت وفي طرفه .." ذكر له مصير الإنسان في الموت و البرزخ و في الحساب ، فالإنسان إذا ذكر الموت انضبط ، وإذا ذكر نعمة الله عليه أحب الله ، ذكر آياته الكونية عرفه ، الذكر إذًا ، بل إن القرآن الكريم كله ذكر ، قال تعالى :

(كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ)

[سورة المدثر الآية : 54]

عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ فَقَالَ أَيُّ الْجِهَادِ أَعْظَمُ أَجْرًا قَالَ أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا قَالَ فَأَيُّ الصَّائِمِينَ أَعْظَمُ أَجْرًا قَالَ أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا ثُمَّ ذَكَرَ لَنَا الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالْحَجَّ وَالصَّدَقَةَ كُلُّ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ يَا أَبَا حَفْصٍ ذَهَبَ الذَّاكِرُونَ بِكُلِّ خَيْرٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجَلْ *

(رواه أحمد)

أي أهل المسجد خير، خير العباد ، وخير الحجاج ، وخير المجاهدين ، وخير المشيعين، وخير رواد المساجد ، هؤلاء جميعا كلما كثر ذكر الله عز وجل كلما اقتربوا من الله عز وجل، وكلما كانوا أكثر مكانة ومقعد صدق عند الله عز وجل ، سيدنا الصديق رضي الله عنه قال : ذَهَبَ الذَّاكِرُونَ بِكُلِّ خَيْرٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجَلْ الذاكرون ، و ربنا عز وجل وصف فقال تعالى :

(وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ)

[سورة الأحزاب الآية : 35]

هذا هو ذكر الله عز وجل ، لو فرضنا إنسانا دخل إلى محله التجاري كيف يذكر الله عز وجل ، بالدعاء ، الدعاء ذكر ، بل هو قمة حالات الذكر ، اللهم وفقني لخدمة المسلمين ، اللهم ارزقني حلالا طيبا ، اللهم جنبني الشرور ، اللهم إني أعوذ بك من صفقة خاسرة أو يمين فاجرة ، دخل عند إنسان ليقابله : اللهم إني تبرأتُ من حولي و من قوتي ، والتجأت إلى حولك و قوتك ، يا ذا القوة المتين ، دخل إلى بيته " الحمد لله الذي آواني ، فكم ممن لا مأوى له " دخل إلى الخلاء : "الحمد لله الذي أذاقني لذته ، وأبقى في قوته ، و أذهب عني أذاه ، " نظر في المرآة : اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي ، هذا الذكر ، و الدعاء ذكر ، و الإنسان لا بد أن يقتني كتابا في الأذكار ، في أذكار النبي عليه الصلاة و السلام ، في حله و في ترحاله، إذا سافرت " اللهم أنت الرفيق في السفر و الخليفة في الأهل و المال و الولد " إذا عدت إلى البيت و انقلبت إلى بيتك معافى سليما ، فهذه نعمة من الله عز وجل ، القضية إذًا أن الإنسان ألاّ ينسى الله عز وجل في بيعه ، و في شرائه، في حله و ترحاله ، في لقاءاته و ندواته، مع بيته ، حتى إذا التقى مع أهل بيته :" اللهم جنبني الشيطان ، وجنبه ذريتي " هذا الدعاء النبي عليه الصلاة و السلام سنه لنا ، إذًا " ذَهَبَ الذَّاكِرُونَ بِكُلِّ خَيْرٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجَلْ " ،

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ - أي أتعلق به وأستمسك - قَالَ لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ *

(رواه الترمذي)

هذه الأذكار لها نتائج طيبة جدا ، من نتائجها راحة القلب ، من نتائجها جلاء القلب ، من نتائجها طمأنينة القلب ، وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة و السلام ،

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ قَالُوا بَلَى قَالَ ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا شَيْءٌ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ *

(رواه الترمذي)

أحاديث كلها صحيحة تدعو إلى ذكر الله ، مرة ثانية ؛ إن نظرت إلى آية كونية فذكر الله هو التفكر في هذه الآية ، و إن نظرت إلى حادث مؤلم ، فذكر الله أن تتعظ به ، إذا دمر الله إنسانا أو أتلف مالا أو أتلف محصولا ، فذكر الله أن تتعظ من خلال هذا الحادث ، لأن الله سبحانه و تعالى حكيم ، طيب إذا نظرت إلى القرآن فذكر الله تلاوته و تدبره ، إذا رأيت منكرا فذكر الله أن تأمر بالمعروف و أن تنهى عن المنكر ، فذكر الله إذًا سلوك واسع جدا و منوّع جدا ، ممكن أن يدور مع الإنسان في كل حالاته ، لكن العلماء استشكلوا قضيتين ، أولاهما أن النبي عليه الصلاة و السلام فضل الذكر على الصدقة ،و

فضّل الذكر على الجهاد، الإمام النووي رحمه الله تعالى حلَّ هذا الإشكال ، عن طريق التوجيه التالي فقال : الإنسان إذا كان ذا مال فأفضل أعماله إنفاق من هذا المال ، و الإنسان إذا كان ذا علم فأفضل أعماله إنفاق هذا العلم ، و الإنسان إذا كان ذا قوة فأفضل أعماله أن يجاهد العدو في سبيل الله ، لكن إذا افتقر الإنسان إلى المال أو إلى العلم أو إلى القوة فمن أفضل أعماله أن يذكر الله عز وجل، من دون أن يفهم من ذلك أن الغني معفى من الذكر ، و القوي معفى من الذكر ، و العالم معفى من الذكر ، لا بد لكل هؤلاء من أن يذكروا الله عز وجل ، و لكن كلما نما عند الإنسان شيء ، فهذا الشيء إنفاقه مقدّم على غيره .

أحد العلماء ممن له باع طويل في معرفة الله عز وجل ذكر من فوائد الذكر مائة فائدة ؛ فمن هذه الفوائد أن ذكر الله عز وجل يرضي الرحمن ، ويطرد الشيطان و يزيل الهم ، العوام يقولون لك " صل على النبي " الصلاة على النبي تزيل الهم و تجلب السرور ، تجد المؤمن عنده صفة مفقودة عند معظم الناس ، معظم الناس إذا جاءهم الهمُّ سحقهم ، وإذا جاءتهم الأخبار السيئة قبضتهم ، و دائما يشكون ، و دائما في ضيق ، ودائما في حيرة ، لكن النبي عليه الصلاة والسلام و القرآن الكريم في الدرجة الأولى بآية واحدة قال :

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد الآية : 28]

وأقرب مثل لك في أي سهرة وفي أية جلسة إذا ذكرت الله في هذا اللقاء رأيت الوجوه قد أشرقت و العيون قد برقت ، و القلوب قد نتو النفوس قد ارتاحت ، فإذا ذكرت الدنيا تفرق الناس ، لو أن في الجلسة أناس أغنياء و فقراء ، و الأغنياء تحدثوا عن دخولهم و عن ارتفاع الأسعار أو عن أرباحهم ، و الفقراء ينظرون ، صار هناك انقضاض ، الأغنياء متفوتون ، هناك غني عنده صفقة كاسدة ، و الثاني له صفقة رابحة ، حدثه عن أرباحه ، عنده كساد انقبض ، فإذا كان الحديث عن الدنيا رأيت الناس قد انقضوا ، و إذا كان الحديث عن الله عز وجل رأيت القلوب قد اطمأنت ، فذكر الله عز وجل يرضي الرحمن و يطرد الشيطان و يزيل الهم و يجلب السرور ، و يقوي القلب و البدن ، كثيرا ما أسمع حالات أمراضا عضالة ، و لا سيما في القلب بسبب أزمات اقتصادية ، إنسان عنده مشكلة في تجارته ، عنده مشكلة في بضاعته ، عنده خبر سيئ في دفع ثمن بضاعة و لم يصل ، صار عليه احتيال ، مباشرة أزمة في قلبه ، طيب المؤمن غير هذا ، استسلامه لله عز وجل ، و توكله على الله ، و صبره على حكم الله ، و تفويضه لله ، و استسلامه لمشيئة الله ، يقي قلبه الأزمات ، الحقيقة الإيمان صحة، و كلما تقدّم الزمن تبيّن أن معظم الأمراض يقع في قمة أسبابها الصدمات النفسية ، وأن المؤمن كلما ازداد

أزماته النفسية ، و كلما قلّ إيمانه ازدادت أزماته النفسية ، بل إن الشرك من لوازمه الخوف ، قال تعالى :

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً)

[سورة آل عمران الآية : 151]

بل إن الله عز وجل يؤكد أن الشرك يلازم الخوف في آية أخرى :

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء الآية : 213]

فالذكر يقوي القلب ، حتى قلب الإنسان ، القلب لأنه متعلق بالحالة النفسية ، اسأل أطباء القلب ، أطباء الهضم ، أطباء الأعصاب ، أطباء الأورام الخبيثة ، أحدث بحث عن الأورام الخبيثة أنه بسبب نقص المناعة ، ونقص المناعة بسبب الشدة النفسية ، الشدة النفسية تسبب نقص المناعة ، و نقص المناعة تسبب أوراما خبيثة ، يكاد يكون اختصاص الطب النفسي المتعلق بالأمراض الجسمية في أول أو في قمة الاختصاصات ، يقوي القلب و البدن ، و ينور القلب و الوجه ، المؤمن الذاكر سماهم في وجوههم، ذكر الله عز وجل ينور القلب ، فلا تتخذ قرارا خاطئا ، وينور الوجه ، فترى الوجه كالكوكب الدري ، ويجلب الرزق و يكسب المهابة والحلاوة ، و يورث محبة الله التي هي روح الإسلام ، و يورث المعرفة و الإنابة و القربى و حياة القلب ، وذكر الله تعالى للعبد ، عندنا ذكر العبد لله عز وجل ، لقول الله عز وجل :

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

[سورة البقرة الآية : 152]

و ذكر الله تعالى للعبد هو قوت قلبه وروحه يجلي صدره و يحط خطاياه ، و يرفع درجاته ، و يحدث الأنس و يزيل الوحشة .

أحيانا الإنسان يبلغ أعلى درجات النجاح في عالَم المال أو عالَم الفن أو عالَم التجارة أو عالَم المناصب، و قد ينتحر ، الناس جميعا يظنون أن هذا الإنسان هو أسعد الناس ، فلما انتحر يفاجئون ، ما لذي حمله أن ينتحر ، الوحشة التي في قلبه ، عنده أموال لا تأكلها النيران، تألق على صفحات المجلات ، جمهور كبير جدا يحبه ، ومع ذلك هو في وحشة ، لأن هؤلاء جميعا يحبون صوته و لا يحبونه بالذات ، يحبون شكله و لا يحبونه بالذات ، فلما يبتعد الإنسان عن الله عز وجل يعاني من وحشة ، هذه الوحشة لا يسدها إلا ذكر الله تعالى .

حدثني رجل كان مقيما في بلد أجنبي ، قال لي : مغني في قمة مجده ، دخله بمئات الملايين ، و صورته على كل المجلات ، و جمهوره يزيد عن مائة مليون ، و مع ذلك انتحر، كتب رسالة ذكر فيها

سبب انتحاره ، شعور بالوحشة ، شعور بالضيق ، هذا شيء واقع ، مستحيل في إنسان يكون بعيدا عن الله عز وجل أن يكون سعيدا ، و الآية الدقيقة :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه الآية : 124]

لا يمكن أن ترى ي العالم كله إنسانا وحيدا بعيدا عن الله عز وجل يشعر بالسعادة ، مستحيل ، كلام خالق الكون ، قد تقول : هو غني ، أقول لك : هو غني ، و لكن ضيق القلب سحقه ، قد تقول : هو قوي، أقول لك : نعم هو قوي و لكن ضيق القلب سحقه ، فيجب أن تعلم علم اليقين أنه لن تسعد إلا بالقُرب من الله عز وجل ، لن تطمئن نفسك ، يا رسول الله إني إذا رأيتك اطمأنت نفسي .." هذا شيء ثابت ، إذا أنت لك مجلس علم ، ولك إخوان مؤمنون طيبون إذا رافقتهم و إذا جالستهم تزداد إيمانا ، و تزداد أنسا ، و تزداد قربا ، فإذا خالطت أهل الدنيا تزداد وحشة ، تزداد ضيقا ، فصار كل أخ عنده ميزان ، يقول لك : في هذا المجلس ما ارتحت ، كله عن الدنيا ، و النميمة والغيبة ، و كلام غير منضبط ، و مزح رخيص ، شعرت بضيق ، شعرت بالتفاهة ، شعرت أني حقير معهم ، فإذا عشت مع المؤمنين و ذكرت الله عز وجل لهم ، أو ذكروا الله لك اطمأن القلب ، لذلك معنى الحديث القدسي : إن بيوتي في الأرض المساجد ، و إن زوارها هم عمارها ، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني ، و حق على المزور أن يكرم الزائر " إكرام المزور طبعا ليس عندنا ضيافة ، بغير رمضان لا يوجد ضيافة ، لا يوجد إلا الماء البارد في المسجد ، أما الضيافة الحقيقية هي هذا التجلي الذي يلقيه الله في قلبك ، هذا البشر ، وهذه الطمأنينة ، تجد المؤمن دنياه متواضعة ، ليس معه عمله أجنبية ، و ليس معه شيكات ، و ليس معه أراضي ، و لا عنده عمارات ، دخله أقل من حاجاته أحيانا ، ليس عنده احتياط ، و مع ذلك نجده سعيدا ، وتجلس مع واحد يكلمك بأرقام كلها فلكية ، و يقول لك : لا يوجد ، وهذه السنة خسرنا ، أنت او تنفق مالك يكفيك طوال حياتك ، يقول : خسرنا هذه السنة ، هناك ضيق ، لذلك هذا الشعور بالسعادة أول ثمرات الإيمان ، هذه حلاوة الإيمان ، يحدث الأنس ويزيل الوحشة ، ينجي من عذاب الله.

بعضهم قال : الذكر هو العلم المنافي للجهل ، ما معنى أنك ذكرت الله ؟ أي ذكرت الله كما يريد اله عز وجل ، ذكرت الله بأسمائه الحسنى ، ذكرته بالعلم ، فالعلم طريق إلى الذكر ، بعضهم قال : الذكر هو اليقين المنافي للشك ، من ذكر الله وهو شاك في عدالته ، من لوازم الذكر اليقين المنافي للشك ، ومن لوازم الذكر العلم المنافي للجهل ، ومن لوازم الذكر الإخلاص المنافي للشرك ، من لوازم الذكر الصدق المنافي للنفاق ، من لوازم الذكر القبول المنافي للرد ، أنت قبلت أمر الله عز وجل و قبلت سنة رسوله ، و صدقت في التطبيق ، و أخلصت لله ، و أيقنت بوعده ووعيده ، وعلمت علما حقيقيا يقينيا ، هذه إذا توافرت جاء الذكر صحيحا و مقبولا و مسعِدا .

الشيء الذي يجب أن نهتم به هو أن الأمر بالذكر لا ينصب على مطلق الذكر ، ولا على مجرد الذكر ، بل ينصب على كثرة الذكر ، والآية الكريمة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ)

[سورة الأحزاب الآية : 41-43]

إذا ذكرتموه ، انظر إلى الآية ما أجملها :

(هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ)

[سورة الأحزاب]

إذا ذكرتموه ،

(وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً)

[سورة الأحزاب]

من ظلمة الوحشة إلى نور القرب ، من ظلمة المعصية إلى نور الطاعة ، من ظلمة الدناءة إلى نور الكمال ، ربنا عز وجل قال :

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب الآية : 35]

قال ابن عباس : المراد يذكرون الله في إدبار الصلوات و غدوا وعشيا وفي المضاجع ، وكلما استيقظوا من نومهم " استيقظ من نومه ، آوى إلى فراشه ، غدوا و عشيا و في إدبار الصلوات ، بعد كل صلاة شيء من الذكر ، قبل أن ينام ، بعد أن يستيقظ ، عند الملمات ، هذا معنى :

(وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ)

[سورة الأحزاب الآية : 35]

و كلما غدا أو راح من منزله ذكر الله تعالى ، وقال مجاهد : " لا يكون من الذاكرين الله كثيرا و الذاكرات حتى يذكر الله تعالى قائما و قاعدا و مضطجعا ، وهذا معنى قوله تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً)

[سورة آل عمران الآية : 190-191]

طيب الإنسان كم حالة له ؟ واقف أو قاعد أو مضطجع في سريره ، وإما في غرفة الجلوس جالس أو واقف في عمله ، فإذا كان الذكر متعلقا بالقيام و القعود و الاضطجاع ، ما معنى ذلك ؟ في أي وقت ، وفي كل أحوالك ، يقول مجاهد : لا يكون من الذاكرين الله كثيرا و الذاكرات حتى يذكر الله تعالى قائما

و قاعدا و مضطجعا " وقال بعض العلماء وهو عطاء : من صلى الصلوات الخمس بحقوقها فهو داخل في قوله تعالى :

(وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ)

[سورة الأحزاب الآية : 35]

وإذا أيقظ الرجل أهله ، كما قال عليه الصلاة و السلام ، من الليل فصليا أو صلى ركعتين جميعا كتبا من الذاكرين الله كثيرا و الذاكرات .

سئل أحد العلماء وهو ابن صلاح رحمه الله تعالى عن القدر الذي يصير به المرء من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، فقال : إذا واظب على الأذكار المأثورة المثبتة صباحا و مساء ، وفي الأوقات والأحوال المختلفة ليلا و نهارا ، كان من الذاكرين الله كثيرا و الذاكرات " بل إن مجالس الفقه ؛ كيف تشتري ، و كيف تبيع ، إذا درست أحكام الفقه ، وإذا درست حديث رسول الله ، إذا درست التفسير أخبار الصحابة هذه أيضا عدّها العلماء من مجالس الذكر ، و قال عليه الصلاة و السلام فيما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال ،

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَةٌ لَا يُرَدُّ دُعَاؤُهُمْ الْإِمَامُ الْعَادِلُ وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللَّهُ فَوْقَ الْغَمَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ بِعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ *

(رواه احمد)

و أخرج الإمام أحمد في مسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ

أَكْثِرُوا ذِكْرَ اللَّهِ حَتَّى يَقُولُوا مَجْنُونٌ *

(رواه احمد)

إلى درجة أن أهل الغفلة و البُعد إذا اتهمك شخص غافل جاهل بالجنون فهذه علامة الذكر الكثير .

عندنا الآن الموضوع الأخير في هذا الدرس هو الذكر ضرورة و ليس شيئا مستحبا أو مندوبا ، ضرورة ، و الدليل قال : لو أن أعفي من الذكر - لو في الأرض كلها إنسان واحد أُعفي من الذكر لكان سيدنا زكريا عليه السلام ، لماذا ؟ فحين اعتقل لسانه عن الكلام وحُبس عن النطق ، حينما بشر بالغلام طلب من الله تعالى علامة يعرف بها فقال الله عز وجل :

(قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً)

[سورة آل عمران الآية : 41]

الله عز وجل جعل علامة إنجاب هذا الغلام حبس اللسان ، ومع أن لسانه محبوس ،

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ)

[سورة آل عمران الآية : 41]

ما قولكم ، لو أن في الأرض كلها عبر التاريخ كله رجل واحد معفى من الذكر هو سيدنا زكريا حينما عُقل لسانه ، و مع ذلك :

(قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ)

[سورة آل عمران الآية : 41]

قال : لو أن جماعة أعفيت من الذكر لكان أولى الناس بهذا المقاتلون في سبيل الله ، و هم في ساحة المعركة ، وهم يلقون عدوهم ، وهم يضربون رقاب أعداءهم ، وهم ينتظرون أن يُقتلوا ، وهذه أشد حالات الإنسان ، و الإنسان يخاف و يفزع ، و لكن هناك حالات يبلغ بها فزعه أشده ، في مثل هذه الحالة قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

[سورة الأنفال الآية : 45]

و الصلاة ذكر ، و الإنسان لا يُعفى من الصلاة أبدا إلا في حال الإغماء التام ، أما مادام على شيء من الوعي لا بد من أن يصلي و لو بالإيماء ، و لو قاعدا و لو برأسه ، معنى ذلك حياة الإنسان اتصاله بالله، و الحقيقة لماذا قلنا : صلاة أو ذكر ، الصلاة لها شروط ، تحتاج إلى طهارة بدن ، و تحتاج إلى مكان تصلي عليه طاهرا ، و تحتاج إلى قبلة ، لكن الذكر أوسع من الصلاة ، أنت في كل أحوالك بإمكانك أن تذكر ، إذا نظرت إلى الشمس و قلت : سبحان الله هذه الشمس تبعد عنا مائة و ست و خمسين كيلو مترا ، ومع ذلك إذا أشرقت نشعر بالدفء ، و كما تعلمون يعض ألسنة اللهب فيها نصف مليون كيلومتر ، أي في أعماقها تزيد الحرارة عن عشرين مليون درجة ، وفي سطحها ستة آلاف درجة ، ومع ذلك على هذا البعد الشاسع تصل أشعتها إلينا ، ضوءها و دفؤها ، إذا قلت : سبحان الله فهذا ذكر ، إن رأيت الأمطار الغريزة تنهمر فهذا ذكر ، من ساق الأمطار الغزيرة إلينا ، إن رأيت طفلا صغيرا بديع التكوين ، عينان ، أنف ، فم ، لسان ، أسنان ، يتكلم ، يضحك و يبتسم و يمشي ، وله أجهزة ، وأعصاب ، و جهاز هضم و جهاز دوران ، وجهاز طرح فضلات ، عضلات ، وأعصاب ، قوام ، له ذاكرة ، و يذكر ، و يتكلم و يسالك و يفكر ، من خلقه بهذا القوام و بهذه الطاقات و بهذه الميزات ، الله سبحانه و تعالى فهذا ذكر ، أي التأمل في السماوات والأرض نوع من أنواع الذكر .

الآن رأيت إنسانا دمّر الله ماله ، و تعرف أن ماله حرام ، هذه آية ، جاءت الوقائع مطابقة لقول الله عز وجل :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

[سورة البقرة الآية : 276]

إن رأيت إنسانا وفقه الله توفيقا استثنائيا و تأملت في قصته و رويتها للناس فهذا ذكر ، خلق الله و التأمل في خلق الله ذكر ، والتأمل في أفعاله ذكر ، و قراءة كتابه و تدبره ذكر ، الأمر بالمعروف ذكر ، و النهي عن المنكر ذكر ، طلب الحلال و الحرام ، إذا بحثت عن قضية أهي حلال أم حرام هذا ذكر ، نصحت مسلما هذا ذكر ، جاءك خوف فدعوت الله عز وجل هذا ذكر ، صليت هذا ذكر ، في أثناء الصيام صيامك و تلاوتك و إقبالك هذا ذكر ، يجب أن تعلم أن الذكر يدور معك حيثما اتجهت ، في فراشك ، عند استيقاظك ، عند تناول الطعام ، هذه مائدة الله عز وجل ، هو الذي خل هذه الطعوم وهذه الفواكه وهذه الخضار و هذا الماء أعذب الزلال ، و إذا نظرت إلى ابنك ، وإذا قمت من فراشك و إذا اتجهت إلى مسجدك ، وإذا اتجهت إلى عملك ، فالمؤمن إنسان ذاكر ، متصل بالله على الدوام ، وهذا معنى قول الله عز وجل :

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

[سورة المعارج الآية : 23]

دوام الذكر هو دوام الصلة بالله عز وجل ، و يجب أن تعلم أن الصلاة من أجل الذكر ، و أن الصيام من أجل الذكر ، الذكر أوسع من الصلاة ، الصلاة حالة معينة ، حالة وضوء و قيام و تلاوة و ركوع و سجود ، فالصلاة هناك خمس صلوات ، لكن الذكر يغطي كل أوقات ليلك و نهارك ، في سفرك ، في حضرك ، في دراستك ، يقرأ الطالب في كتاب التشريح ، فقرأ عن العضلات مخططة وملساء ، و عضلة لا إرادية و إرادية ، وحمض اللبن في العضلة كيف يتراكم ، و كيف ترتاح العضلة ، من صمم هذا التصميم ، إذا قرأت كتب التشريح وخشعت لله عز وجل فهذا ذكر ، فلذلك نعود مرة ثانية قبل أن ننهي الدرس إلى الأحاديث الدقيقة التي ذكرها النبي عليه الصلاة و السلام في شأن الذكر فقال عليه الصلاة و السلام :

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ *

(رواه البخاري)

أنت إذا ذكرت الله فأنت حي ، و إن لم تذكره فأنت ميت ، لذلك ربنا عز وجل قال :

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

[سورة النحل الآية : 21]

ميت وهو في أوج حياته ، القلب سليم و النبض سليم ، و التخطيط سليم ، التحاليل كلها مائة بالمائة وهو ميت عند الله ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال الآية : 24]

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ *

(رواه البخاري)

الحديث الثاني ، سيدنا الصديق يقول : ذَهَبَ الذَّاكِرُونَ بِكُلِّ خَيْرٍ فقالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجَلْ " عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ - أي أتعلق به وأستمسك - قَالَ لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ *

(رواه الترمذي)

النبي عليه الصلاة و السلام قال : عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ قَالُوا بَلَى قَالَ ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا شَيْءٌ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ *

(رواه الترمذي)

ونحن في شهر الذكر ، نحن في شهر القرب ، نحن في شهر العبادة ، نحن في شهر التفكر ، و في شهر التلاوة ، في شهر البذل ، و في شهر العطاء ، فرصة ثانوية ، دورة تدريبية .

أرجو الله سبحانه و تعالى أن ينفعنا بما علمنا ، و أن يعلمنا الخير

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (031) :الدعاء - الإستغفار.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-04-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... يقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه أنس بن مالك أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرةً))

(رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح)

أقرأ عليكم الحديث مرة ثانية:

عن أنس بن مالك أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرةً))

(رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح)

أيها الإخوة الأكارم... على شاكلة هذا الحديث هناك حديثان قدسيان، يقول الله تعالى:

((من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً لقيته بقرابها مغفرةً))

(من الدر المنثور في التفسير بالمأثور)

حديث ثالث، على الشاكلة نفسها، يقول عليه الصلاة والسلام:

((والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله عز وجل لغفر لكم))

(من الدر المنثور في التفسير بالمأثور: عن " أنس ")

في هذه الأحاديث شيئان أساسيان الاستغفار والدعاء، أو الدعاء بالاستغفار.

أيها الإخوة الأكارم... لا أبالغ إذا قلت لكم: إن أخطر ما في الدين الدعاء، لأن كل المشكلات تحل بالدعاء، ولكن قبل أن نمضي في الحديث عن الدعاء، للدعاء شروطه، وللدعاء أسبابه، وللدعاء موانعه، قبل أن نخوض في شروط الدعاء وأسبابه، ماذا تظنون أن شيئاً يمنع إجابة الدعاء؟ ما الذي

يمنع إجابة الدعاء من قبل الله عز وجل ؟ المعصية، مطلق المعصية، وكذلك عدم طاعة الله عز وجل، وأيضاً ألا يكون الرزق حلالاً، إذا كان الرزق حراماً، وإذا كان العبد مقصراً في أداء واجباته، منتهكاً لحدود الله عز وجل، هذه أشياء تمنع اجابة الدعاء، والرزق الحرام كذلك، إذا كان هناك رزق حرام لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

(من الدر المنثور في التفسير بالمأثور: عن " ابن عباس ")

بالمناسبة قد يتوهم متوهم أن المال المسروق رزق حرام، لا، فهذا بديهي، شيء صارخ، الاغتصاب ؛ اغتصاب بيت رزق حرام، اغتصاب دكان رزق حرام، اغتصاب شبر من أرض رزق حرام، هذا حرام صارخ، واضح، بَيِّن، لا يختلف عليه اثنان، لكنك إذا غششت المسلمين في بضاعتهم، فالربح الذي تربحه من هذه البيعة فيه شبهة الحرام، إذا دلّست عليهم، إذا أوهمتهم، إذا خفَّضت مستوى البضاعة، يقول لك: المادة الفعالة بالمائة ثلاثين، جعلتها بالمائة خمسة عشر، والعبوة كبيرة، خفضت المادة الفعالة والسعر مرتفع، فأنت أخذت من مالهم ما ليس لك، فإذا أردنا التوسع في هذا الموضوع فالقضية دقيقة جداً هذا هو الدين.

مثلاً، إذا كذبت في مواصفات البضاعة، هو أعطاك على أنها المادة مستوردة وهي المادة محلية، أعطاك هذا الثمن على أن المادة الفعالة بهذا المستوى، هي المادة الفعالة أقل من هذا المستوى، أعطاك الثمن على هذه الشروط، وأنت خالفتها، فإذا أردت أن تعد التدليس والكذب والغش، والإيهام مما يسبب الرزق الحرام، هذا الذي يدفع الناس إلى اليأس من الدعاء، فدعاء عريض، عبارات بليغة، أدعية مختارة، أدعية مأثورة، بصوت مرتفع، ورنَّة معبِّرة، ومع ذلك لا يستجيب الله عز وجل، لذلك:

((يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

(من الدر المنثور في التفسير بالمأثور: عن " ابن عباس ")

طاعة الله، والبعد عن الحرام، وأداء الواجبات، الطاعة مطلقة، لكن عدم اقتراف المنكرات، عدم الوقوع في المنهيات، وعدم التقصير في الواجبات، والكسب الحلال، هذه كلها إذا كانت منعت عدم الاستجابة، سمَّاها بعض العلماء موانع الدعاء، التقصير في أداء واجب، وارتكاب معصية، وعدم طاعة الله عز وجل بشكلٍ عام، يضاف إلى ذلك الرزق الحرام، هذه كلها من موانع الدعاء، وكذلك الشرك بالله، فالمشرك يدعو غير الله عز وجل أما المؤمن إذا دعا الله عز وجل فهو دعاؤه صادق، والدليل:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)

(سورة البقرة: من آية " 186 ")

الآن، دققوا في بعض هذه الأحاديث، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن الدعاء هو العبادة))

(من الجامع لأحكام القرآن: عن " النعمان بن بشر ")

وربنا عز وجل قال:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات)

هل هناك آية قرآنية تؤكد أن الدعاء هو العبادة ؟

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186))

(سورة البقرة: من آية " 186 ")

ثم يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي)

(سورة غافر: من آية " 60 ")

يستنكفون عن دعائي، هذا أسلوب قرآني..

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي)

(سورة غافر: من آية " 60 ")

إن الذين يستكفون عن دعائي، قال: عن عبادتي، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

" إن الدعاء هو العبادة "... ثم تلى هذه الآية:

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(سورة غافر: من آية " 60 ")

في حديث آخر، أربعة أحاديث مهمة جداً، يقول عليه الصلاة والسلام:

((من فتح له في الدعاء منكم فتحت له أبواب الإجابة))

(من الدر المنثور: عن " ابن عمر ")

ما دام الله عز وجل قد أمرك بالدعاء، أمرك بالدعاء ليستجيب لك، يفتح عليك باب الدعاء، ويغلق عليك باب الإجابة !! قدموا طلبات، بعد ما قدموا الطلبات، جاء الرد: لا توجد ولا موافقة، فلماذا إذاً أمرتنا أن نقدم الطلبات ؟! ما دام في تقديم طلبات، إذاً في اختيار، في مسابقة، في تعيين، في وظيفة، إذاً ما كان الله ليفتح على عباده باب الدعاء ثم يُغلق عليهم باب الإجابة، لأن الله عز وجل يقول لك:

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(سورة غافر: من آية " 60 ")

إذاً أمرك أن تدعوه ليستجيب لك، بالمناسبة أيها الإخوة: الأصل أن يستجيب لك، فإن لم يستجب فلِعِلَّة طارئة، نحن في عندنا قاعدة وفي عندنا استثناء، القاعدة أنه يستجيب لك، ما أمرك أن تدعوه إلا ليستجيب لك، فإذا لم يستجب فلعلّةٍ ظاهرة في الدعاء، أو في حالة.

حديث آخر: يقول عليه الصلاة والسلام:

من أعطي الدعاء أعطي الإجابة لأن الله تعالى يقول:

(ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(سورة غافر: من آية " 60 ")

ما كان الله ليفتح على عبدٍ باب الدعاء ثم يغلق عليه باب الإجابة، إن الدعاء هو العبادة

(من الدر المنثور في التفسير بالمأثور: عن " ابن مسعود ")

الآن، من شروط الدعاء، قال العلماء: حضور القلب، يمكن أن تدعو الله وأنت ساهٍ ولاهٍ، القلب غائب، هذا الدعاء لا يستجاب، أول شرطٍ من شروط الدعاء، حضور القلب. هذا الموضوع ينقلنا إلى موضوع آخر، هو أن الإنسان قد تصيبه وساوس، وقد تأتيه كوابيس، وقد يمسه بعض الجان، وقد يقع في الحسد، أي يحسد، وقد تأتيه مشكلات، فإذا قلت له: يا أخي ليس لك إلا أن تدعو الله عز وجل، ليس لك إلا أن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، يقول لك: والله استعذت بالله وما تغير شيء، تقول له: لابد من حضور القلب في الاستعاذة، في الاستعاذة والدعاء لابد من حضور القلب، وتعلم أنت كيف يحضر القلب، وكيف يغيب القلب.

تصور نفسك آلة من أعقد آلات التصوير، ومع أنها غالية جداً ولكن لا يوجد فيها فيلم، فمهما دققت في التقاط المنظر، وفي الزاوية، وفي الإضاءة، والفتحة، والسرعة، والمسافة، مهما بالغت لكن لا يوجد فيها فيلم، إذا القلب غير حاضر لا يوجد شيء، هذه نقطة مهمَّة جداً، أول شرط من شروط الدعاء حضور القلب، إذا أردت أن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، إذا أردت أن تلجأ لله عز وجل، إذا أردت أن تدعو الله عز وجل، كل هذه النصوص القطعية الواردة في القرآن والسنة، شرطها الأساسي حضور القلب.

في عندنا شرط آخر وهو: رجاء الإجابة. أحياناً الإنسان يصيبه مرض عضال، ويقول له الطبيب: هذا المرض لا شفاء منه، هذا الطبيب أوقعه في حالة اسمها اليأس، يقال لهذا المريض: ادعو الله عز وجل، فيدعو، ولكن يدعو الله وهو يائسٌ من الدعاء، إذا رافق الدعاء يأس، أو إذا ظننت أن الله لا يجيبك لهذا الطلب، شيء منته، هكذا قال الطبيب، المرض عضال ومميت، إن لم توقن أن الله قادر على أن يستجيب لك مهما كان الأمر خطيراً، لأن قدرة الله تتعلّق بكل شيء، مهما بدا كبيراً، عندئذٍ لا يجاب الدعاء.

أول شرط: حضور القلب، بالمناسبة حضور القلب ما الذي يمنعه ؟ أنت متى لا تقدر أن تكون مع الله بقلبك ؟ المعصية، المعصية حجاب، إذا ما في معاصي بإمكانك أن تكون حاضر القلب مع الله عز وجل، الدعاء شرطه حضور القلب، الشرط الثاني: أن توقن بالإجابة، الله عز وجل على كل شيء قدير.

والله أيها الإخوة القصص التي تناهت إلى سمعي، عن حالات مرضية ميؤوس منها، والله أعرف رجلاً هو صديق لي، أصابه مرضٌ عضال عضال، فإذا باع بيته كله ـ وما أغلى البيت الآن ـ ربما وفَّى بجزء من ثمن العملية الجراحية، واحتمال نجاحها بالمائة ثلاثين، وزرته مرتين أو ثلاثة، وقد دمعت عيني لا لشيء لأن أطفاله صغار، والخيار صعب جداً، لابد من أن يباع هذا البيت وتجرى هذه العملية في أقصى بلاد الدنيا، وكيف أن هذا المرض الخبيث تراجع ذاتياً، وشفي المريض شفاءً تاماً، وقد مضى على هذه القصة أكثر من عشر سنوات، وهو الآن حيٌّ يرزق، يتمتَّع بأعلى درجات الصحة، والله الذي لا إله إلا هو أربع أو خمس أطباء أشرفوا على المعالجة، وأخذوا خزعات، وذهبت هذه الخزعات إلى بلاد غربية للتحليل، أنا تناهى إلى سمعي عشرات، بل بضع عشرات القصص، التي تؤكّد أن مرضاً عُضالاً تم شفاؤه من دون معالجة، عندئذٍ سمَّى الأطباء هذه الحالات الاستثنائية (الشفاء الذاتي).

فإذا دعيت الله عز وجل، ومالك ثقة أن الله يقدر يفعل ما يفعل، الدعاء لا يجاب، لأنه أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء، أول شرط: حضور القلب، الشرط الثاني: أن توقن بالإجابة، رجاء الإجابة، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ادعوا الله وأنتم موقِنون بالإجابة...))

(من الجامع لاحكام القرآن: عن " أبي هريرة ")

هل يعقل ألاقي بيت ؟! نعم معقول، البيت ثمنه ملايين، وأنا دخلي محدود، متى سأتجوز، مثلاً، الله على كل شيء قدير، يخلق من الضعف قوةً، من الضيق فرجاً، من الفقر غنىً، فما دمت تشاهد أو موقن أن هذا الشيء الذي تدعو الله به، الله عز وجل مستحيل أن يعطيك إياه، صار الدعاء ليس له قيمة، أول شرط حضور القلب، وثاني شرط رجاء الإجابة..

((ادعو الله وأنتم موقنون بالاجابة ـ دققوا في تتمة الحديث ـ فإن الله تعالى لا يقبل دعاء من قلب غافل لاهٍ))

(من الجامع لاحكام القرآن: عن " أبي هريرة ")

حديث آخر على الشرط الثاني: على الإيقان بالإجابة قال: يقول عليه الصلاة والسلام فيما ورد في المسند عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((إن هذه القلوب أوعية، فبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله عز وجل فسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإن الله لا يستجيب لعبدٍ دعاءً من قلب غافل))

قلب غافلٍ، ساهٍ، لاهٍ، ما في يقين بالإجابة، ما في حضور قلب، هذا الدعاء لا يستجاب أبداً.

قال النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن أن يقول العبد في دعائه: اللهم اغفر لي إن شئت، إذا أردت يا ربي ترحمني ارحمني، وإذا لا تريد ماذا أفعل ؟ قال هذا في نهي عنه، نهى النبي عليه الصلاة والسلام

العبد أن يقول في دعائه " اللهم اغفر لي إن شئت ولكن ليعزم المسألة، فإن الله لا مكره له ". لا توجد قوة أخرى، يا رب اغفر لي، وارحمني، ووفقني، وأعني، وقربني، واهدني، واهد بي، فاسأل الله وأنت موقن بالإجابة، فإذا فتح عليكم باب الدعاء فهذا باب كبير وخير عميم، خالق الكون يقول لك: يا عبدي ادعني أستجب لك..

((إذا كان ثلث الليل الأخير، نزل ربكم إلى السماء الدنيا فيقول: هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من طالب حاجةٍ فأقضيها له، هل من سائل فأعطيه ؟ هل من تائب فأتوب عليه ؟))

(من الدر المنثور في التفسير بالمأثور)

في عندنا كذلك شيء دقيق، نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن أن يدعو الإنسان ربه، ثم ينتظر فلا يستجيب له، ثم يقول: ما في أمل، دعوته فلم يستجب. هذا إنسان مستعجل، قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله يحب الملحين في الدعاء))

فاسأله مرة، واثنين، وثلاثة، وخمسة، وعشرة، وسنة وسنتين، لأن هذا سؤال عظيم، أما دعيت مرة، انتظرت شهر فلم يحدث شيء، كففت عن الدعاء بحجة أنك دعوته فلم يستجب لك، الله عز وجل يحب الملحين في الدعاء.

صار عندنا أول شرط: حضور القلب، الشرط الثاني: اليقين بالإجابة، الشرط الثالث: أن تعزم المسألة، الشرط الرابع: أن تلح في الدعاء، هذه كلها من شروط الدعاء.

في الأثر: " أن العبد إذا دعا ربه وهو يحبه، قال:" يا جبريل لا تعجل بقضاء حاجة عبدي، فإني أحب أن أسمع صوته " لما وقع بمشكلة صار يصلي قيام الليل، ويدعو: يا رب ما لي غيرك، صار في التجاء، صار في توسل، مرغ جبهته بعتبة الله عز وجل، وهذا رد في الأثر قال: " يا جبريل لا تعجل بقضاء حاجة عبدي، فإني أحب أن أسمع صوته " أحياناً تكون أم مثلاً، ابنها متزوج وغائب عنها، يضطر يشترى بيت، صار يتردد، كل يوم مرة، كل يومين مرة، فالأم فرحت، الحمد لله أنه صار له حاجة عندي، صار يأتي عندي، من حبها له تفرح بهذه الحالة، أنه صار في حاجة وبدأ يتردد عليها، فهذا بالأثر ورد

((أن الله عز وجل "يحب أن يسمع صوت عبده اللهفان))

ويقول الله عز وجل:

(وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56))

(سورة الأعراف)

تحدثنا يوم الجمعة عن رحمة الله عز وجل، هذه ثمنها الإحسان، في عندنا شيء:

((من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له))

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته

ومدمن القرع بالأبواب أن يلج.

اسأل الله عز وجل الهداية، اسأله التوفيق، اسأله زوجة صالحة، اسأله مأوى تؤدي إليه، اسأله حجاً مبروراً، اسأله صلاة موصولة، اسأله صياماً متقبَّلاً، وهكذا ورد: " مَن أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له ". وفي الصحيح:

((لا تعجزوا عن الدعاء فإنه لن يهلك أحد مع الدعاء))

ما دام في دعاء لا يوجد هلاك، لا تعجزوا عن الدعاء فإنه لا يهلك عبدٌ مع الدعاء، لذلك ورد في حديث آخر:

((أن أعجز الناس من عجز عن الدعاء))

الله عز وجل سميعٌ مجيب، وقال لك: اسألني يا عبدي، ما عليك إلا أن تسأله، وعلى الله الباقي. حضور القلب، واليقين بالإجابة، والعزم في الدعاء، والإدمان، الإلحاح، هذه كلها من شروط الدعاء المستجاب. مرة النبي عليه الصلاة والسلام دخل عليه صحابي، فكان هناك حديث قبل أن يدخل، فقال عليه الصلاة والسلام:

((حولها ندندن))

(من الجامع لاحكام القرآن)

الدندنة أي الدردشة باللغة العاميَّة، حول ماذا ؟ قال العلماء، حول شيئين ؛ النجاة من النار ودخول الجنة، فدعاء النبي عليه الصلاة والسلام حول هذين الموضوعين، حول أن ننجو من عذاب الناس، وأن يسمح لنا بدخول الجنة، الآية الكريمة:

(رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (192) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آَمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآَمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (193) رَبَّنَا وَآَتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (194) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ)

(سورة آل عمران)

إذاً مضمون هذا الدعاء القرآني حول ماذا ؟ حول النجاة من النار وحول دخول الجنة، هذا أهم موضوعات الدعاء.

في عندنا نقطة دقيقة، في حالات استثنائية، لو أنك دعوت الله عز وجل ولم يستجب لك؟ ما الجواب ؟ الجواب: ما من أحدٍ يدعو بدعاءٍ إلا أتاه الله ما سأل، أو كفَّ عنه من السوء مثله، ما لم يدعو بإثمٍ أو قطيعة رحم، وبالطبع إذا كان الدعاء فيه إثم أو قطيعة رحم هذا الدعاء لا يستجاب أصلاً، هناك عدم استجابة استثنائية لعلة ظاهرة، أما إذا الدعاء كان لقطيعة رحم، أو اقتراف إثم، هذا الدعاء في الأصل لا

يستجاب، أما إذا دعاء مقبول: يا رب توفقني في هذه الدراسة، ما نجحت، هناك علةٌ وحكمة لو كشفت لك لرضيت عن الله عز وجل، يقول عليه الصلاة والسلام:

((ما من مسلم، يدعو بدعوةٍ ليس فيها إثم أو قطيعة رحمٍ، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته ـ الحالة الأولى الاستجابة ـ وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يكشف عنه من السوء مثلها، وقالوا: إذاً نكثر ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: الله أكثر))

(أخرجه الطبراني)

إذا لم يستجب في علة، وفي حكمة، لكن لو أن الدعاء بقطيعة رحمٍ، أو بإثمٍ، الأصل ألا يستجاب، لأن الحديث النبوي الشريف:

((إن الله حيي كريم يستحيي من عبده، إذا رفع يديه إليه أن يردهما خائبتين، فاتقوا الله عباد الله فيما تدعون))

(من الدر المنثور في التفسير بالمأثور: عن " سلمان الفارسي ")

أي ادعو دعاء مقبول، لذلك أفضل الدعاء ما كان قرآنياً..

(رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً)

(سورة البقرة: من آية " 201 ")

مَن يذكر أدعية قرآنية ؟

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا)

(سورة آل عمران: من آية " 8 ")

(رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (126))

(سورة الأعراف)

(رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا)

(سورة البقرة: من آية " 286 ")

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ)

(سورة الفرقان)

(رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

(سورة النمل: من آية " 19 ")

(رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً (10))

(سورة الكهف)

(رَبِّ اغْفِرْ لِي ولولدي)

(سورة نوح)

(قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي(28))

(سورة طه)

والله شيء جميل أن نجمع الأدعية القرآنية ونحفظها، فإذا دعونا ربنا عز وجل أفضل دعاء هو دعاء القرآن، وبعده أي دعاء ؟ الدعاء المأثور عن النبي عليه الصلاة والسلام، في كتاب الأذكار للنووي، هذا كتابٌ جامعٌ مانعٌ فيه كل أدعية النبي صلى الله عليه وسلم في كل أحواله، فإذا الإنسان اقتنى هذا الكتاب، وقرأ الأدعية، واختار منها بعضها، صار هذا الدعاء أنيسه، أحياناً الإنسان في وقت يمضيه من دون تفكير، يقول لك: أنا لازم _أمشي باليوم ساعة، المشي ساعة اجعلها خلوة، كيف يكون هذا المشي خلوة ؟ بالدعاء والاستغفار، بالدعاء، احفظ أدعية رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا أردت أن تنتظر إنسان، عند طبيب مثلاً انتظرت، قال لك: انتظر في ساعة، فأفضل الذكر الدعاء، أو تلاوة القرآن الكريم، أو تذكر ما حفظت من كتاب الله عز وجل.

ومن أدعية النبي صلى الله عليه وسلم:

((اللهم إنا نعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وغلبة الدين وقهر الرجال ".. " الهدى والتقى والعفاف والغنى))

اللهم إني أعوذ بك من أن أضل أو أضل، أو أذل أو أذل، أو أجهل أو يجهل علي ".. " اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ".. " اللهم إنا نسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل ".

فإذا واحد الله عز وجل أكرمه بحج أو بعمرة، هذا كلام أقوله لكم: يجد أنه في أمس الحاجة إلى أدعية النبي، لكن يحفظها عن ظهر غيب، أما أن يفتح الكتاب أثناء الطواف، ذهب كل الحال وهو يقلب صفحات الكتاب، أيغلط بالدعاء، واحد يرده من خلفه، فلم يعد هذا طواف، أفضل شيء أن تحفظ أدعية النبي عليه الصلاة والسلام، أن تحفظها عن ظهر قلب، فلو ناداك الله كما يقولون لحجةٍ، عندئذٍ أنت متسلح بهذه الأدعية.

سنعيد الحديث مرة ثانية:

((ما من مسلم يدعو بدعوةٍ ليس فيها إثم أو قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته ـ يا رب ارزقني رزقاً وفيراً، ممكن تأتيك رزقة مبحبحة، وممكن لا تأتيك رزقة مبحبحة، يكون الله عز وجل يعلم أن الرزق الوفير لا يناسبك، فإذا كان لم يستجب، هناك الحالة الثانية ـ وإما أن يدخرها له في الآخرة ـ بعد أن تنجو من الدنيا، ومن فتنها، ومن كل بلاء، وصلت إلى الآخرة، يقال لك: كنت قد دعوتني يا عبدي برزق وفير، وهاهو الرزق الوفير، وإما أن يدخرها لك في الآخرة ـ وإما أن يكشف عنه من السوء مثلها، قالوا: إذاً نكثر ؟ قال: الله أكثر))

(أخرجه الطبراني)

في للحديث إضافة

((أو يغفر له بها ذنباً قد سلف))

يا صرف عنه سوء، يا غفر له ذنب، إما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يؤتيه منها في الدنيا.
الحديث القدسي:

((أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما يشاء " وفي رواية: " فلا تظنوا بالله إلا خيراً))

(من الجامع لاحكام القرآن)

أحياناً الإنسان عرض مرض خطير يقول لك: انتهيت، لا تظن بالله إلا خيراً، لعله عرض سريع، لعل الله يرحمك، لعل الله يصرفه عنك، لا تظنوا بالله إلا خيراً.

ورد في الأثر: " يأتي الله بالمؤمن يوم القيامة، فيقربه حتى يجعله في حجابه من جميع الخلق ـ أي في حجابة من جميع الخلق ـ فيقول: ألم اقرأ ؟ فيعرفه ذنباً ذنباً، أتعرف هذا الذنب ؟ يقول: نعم، أتعرف هذا الذنب ؟ يقول: نعم، ثم يلتفت العبد يمنة ويسرة فيقول الله تعالى: لا بأس عليك يا عبدي، أنت في ستري من جميع خلقي، ليس بيني وبينك اليوم أحد يطلع على ذنوبك غيري، اذهب فقد غفرتها لك بحرفٍ واحدٍ من جميع ما أتيتني به، قال: وما هو يا رب ؟! قال: كنت لا ترجو العفو من أحدٍ غيري " كل هذه المغفرة لأنك لا ترجو العفو من أحد غيري، وهذا كما قال العلماء من أعظم أسباب المغفرة.
ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي، دعوتني ورجوتني، لاحظوا اقتران الرجاء مع الدعاء، والحديث:

((قل اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي))

(من الاذكار النووية: عن " جابر بن عبد الله ")

هذا الحديث قاله النبي عليه الصلاة والسلام لرجل، ماذا قال هذا الرجل قال:

((إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء، فذنوب العبد وإن عظمت فإن عفو الله عز وجل ومغفرتها أعظم منها وأعظم، فهي صغيرة في جنب عفو الله ومغفرته))

وفي الصحيح: أن رجلاً جاء النبي صلى الله عليه وسلم، وهو يقول: وا ذنوباه مرتين أو ثلاث، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم:

((قل اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي ـ دقق ـ ورحمتك أرجى عندك من عملي، فقالها ثم قال له: عد، فعاد، ثم قال له: عد، فعاد، فقال له: قم قد غفر الله لك))

مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندك من عملي، مهما كان لك عمل عظيم، رحمة الله عز وجل يجب أن تكون أرجى عندك من عملك، لأن هذا العمل لو خالطه شرك أو خالطه تيه أو عجب، حرمت أجره، أما رحمة الله عز وجل ثابتة.

إذاً الدعاء شيء أساسيٌّ جداً في حياة المؤمن، بل إن الدعاء هو الإيمان، بل إن الدعاء هو العبادة.

الآن في شيء آخر وهو الاستغفار، الله عز وجل قال:

(وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (20))

(سورة المزمل)

أمر إلهي أن تستغفر الله، وقوله أيضاً:

(وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)

(سورة هود: من آية " 3")

وتارةً مدح المستغفرين فقال:

(وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (17))

(سورة آل عمران: من آية " 17 ")

وقال عز وجل:

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا)

(سورة آل عمران: من آية " 135")

وآية أخرى:

(وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً (110))

(سورة النساء)

في عندنا بهذا الاستغفار شرط أساسي، ما هو ؟

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135))

(سورة آل عمران: من آية " 135")

العلماء قالوا: شرط الاستغفار ألا تصر على ذنبك، فإذا أصررت على ذنبك، بطل الاستغفار. استغفار مع إصرار على الذنب، كمن يقول: أنا كل ما أفعل الذنب أتوب الله عز وجل، أستغفره، هذا كالمستهزئ بربه، تستغفر وتقلع، ما دام هناك إصرار وعودة فالاستغفار نوع من أنواع الاستهزاء بالله عز وجل، إذاً مع الاستغفار عدم الإصرار.

لقمان يقول:

((يا بني عوِّد لسانك الاستغفار قل: اللهم اغفر لي، فإن لله ساعاتٍ لا يرد فيها سائلاً))

سيدنا الحسن يقول: " أكثروا من الاستغفار في بيوتكم، وعلى موائدكم، وفي طرقكم، وفي أسواقكم، وفي مجالسكم، وأينما كنتم، فإنكم لا تدرون متى تنزل المغفرة ".

قال:

((بينما رجل مستلق على ظهره، إذ نظر إلى السماء وإلى النجوم فقال: إن لأعلم أن لك رباً خالقاً، اللهم اغفر لي، فغفر له))

فالاستغفار يرافق الدعاء، وكل بني آدم خطاء وخير الخطَّائين التوابون، الله عز وجل يتوعَّد دائماً المصرين، المصر على معصية، المستكبر، العاتي، المستعلي، الذي يستكبر عن عبادة الله عز وجل، ما دام في خضوع، وفي ندم، وفي استغفار، في عدم إصرار، هذه كلها تسهل المغفرة.

ورد في الأثر أيضاً أو في الحديث الشريف

((أن عبداً أذنب ذنباً فقال ربي اذنبت ذنباً فاغفر لي، فقال الله تعالى، علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء حتى أذنب ذنباً آخر فذكر مثل الأول، مرتين أخريين " وفي روايةٍ لمسلم: " أنه قال في الثالثة: قد غفرت لعبدي))

وطبعاً نبهتكم لنقطة، ذنب آخر، أما نفس الذنب معناها في إصرار، لكن هذه النقطة لم يكن يعرفها، عرفها فاستغفر الله منها، زل لسانه فاستغفر، فكلما أخطأت فاستغفر، والمغفرة مع عدم الإصرار جزاؤها الغفران، معنى استغفر أي طلب المغفرة، قال عليه الصلاة والسلام:

((ما أصر من استغفر))

الذي يستغفر معناها غير مصر، علامة المصر أنه لا يستغفر، فإذا استغفر فهو من النوع الذي لم يصر.

ومن حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً:

((ويل للذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون))

وبعض العلماء يقول: استغفارنا يحتاج إلى استغفار، أحياناً في استغفار يحتاج إلى استغفار، وأحياناً في إخلاص يحتاج، قد ما حكيت عن إخلاصك، راح إخلاصك، الحديث عن الإخلاص كثيراً يذهب الإخلاص، فهناك إخلاص يحتاج إلى إخلاص، وهناك استغفار يحتاج إلى استغفار.

لهذا الحديث إن شاء الله تتمة في دروس قادمة، ولكن أعيد على أسماعكم الحديث الأول والثاني والثالث، حتى نربط هذا الموضوع وهذا الشرح بالحديث الشريف الذي رواه أنس بن ملك رضي الله عنه قال:

((سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت

لك، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرةً))

(رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح)

والحديث الثاني:

((من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة))

(من الدر المنثور في التفسير بالمأثور)

((والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله عز وجل لغفر لكم))

(من الدر المنثور في التفسير بالمأثور: عن " أنس ")

ملخص سريع للدرس: الدعاء شروطه، أول شرط: حضور القلب، الشرط الثاني: اليقين بالإجابة، الشرط الثالث: العزم، لا تقل: اللهم ارحمني إن شئت، ثم الإلحاح، هذه شرط الدعاء.

موانع الدعاء: اقتراف معصية، تقصير في واجب، ارتكاب ما نهى الله عنه، ثم الزرق الحرام، هذه موانع الدعاء.

والدعاء هو العبادة، لأن العبادة في أساسها التفات إلى الله عز وجل.

الاستغفار شرطه الوحيد عدم الإصرار..

(وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135))

فكل واحد في عنده قائمة حاجات مع الله عز وجل، له مطالب، عنده رغبات، تمنيات، في عنده مخاوف، عنده مقلقات، فالدعاء هو العبادة، وأنا أفضِّل أن تحفظوا أدعية القرآن الكريم، إذا أخ يجمعها لنا ونطبعها بصفحة أدعية القرآن الكريم، بالكتب الموجودة بالأسواق في منها، وأدعية النبي عليه الصلاة والسلام وأذكاره نجدها في كتاب الأذكار للإمام النووي.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (032) :الولي وتعريفه وأهمية تأدية النوافل.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-04-26

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... حديثٌ شريف من الأحاديث الصحيحة، ومن أحاديث الأربعين النووية، وهذه الأربعون مشهورةٌ في أقطار العالم الإسلامي، وهذا الحديث قيمته نابعة من أن الوسيلة مشرفةٌ من شرف الهدف، فكلما ارتقى الهدف، ارتقت الوسيلة إليه، فإذا كان الهدف إرضاء الله عزَّ وجل، إذا كان الهدف التقرُّب إلى الله عزَّ وجل، إذا كان الهدف مزيد حسن العلاقة بالله عزَّ وجل، فالوسيلة إلى هذا الهدف النبيل أيضاً نبيلة.

فالنبي عليه الصلاة والسلام في حديثٍ صحيح رواه الإمام البخاري في باب التواضع، يقول عليه الصلاة والسلام عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إلي عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضته علي، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته ولئن استعاذني لأعيذنه))

(رواه الإمام البخاري)

أعيد عليكم قراءته فلعلَّ بعضكم يكتبه:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن الله تعالى قال ـ إذاً هو حديثٌ قدسي ـ من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إلي عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته ولئن استعاذني لأعيذنه))

(رواه الإمام البخاري)

محور هذا الحديث أن الله سبحانه وتعالى يتولى أولياءه بالحب والرعاية، ويغار عليهم أن يصل إليهم أحدٌ بمكروه، وهذا الحديث الصحيح يوضِّح لنا مَن هم أولياء الله، لذلك قيل أن أشرف حديثٍ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في ذكر الأولياء هو هذا الحديث.

والإمام الشوكاني يقول: من عاد لي ولياً ـ هذا الحديث ـ اشتمل على فوائد كثيرة مَن فهمها حق فهمها، ومَن تدبَّرها حق تدبرها فقد أفلح. وعالمٌ آخر يقول: هذا الحديث أصلٌ في السلوك إلى الله. معرفة الله شيء والسلوك إليه شيءٌ آخر، عرفت أن الله هو الخلاَّق العليم، هو الرزاق الكريم، هو الرحمن

الرحيم، هو العليم القدير، هو السميع البصير، وماذا تنتظر إذاً ؟ وماذا تفعل ؟ لابد من التحرك إليه، لابد من الإقبال عليه، لابد من الوصول إليه، لابد من حركةٍ إلى الله عزَّ وجل، والدليل:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110))

(سورة الكهف)

ما قيمة أن تؤمن بالله دون أن تتحرك إليه ؟ ما قيمة أن تؤمن بالله دون أن تسعى إلى رضوانه ؟ ما قيمة أن تؤمن بالله دون أن تلتزم أمره ونهيه ؟ لذلك يقول أحد الأئمة الكبار: هذا الحديث أصلٌ في السلوك إلى الله تعالى، والوصول إلى معرفته ومحبته، وطريقٌ من طرق آداب العبد مع ربه سبحانه وتعالى. كلكم يعلم أن هناك مرتبة الإسلام، وأن هناك مرتبة الإيمان، وأن هناك مرتبة الإحسان، الإسلام انصياعٌ إلى الله عزَّ وجل، الإيمان من أعمال القلب تصديقٌ وإقبال، والإسلام انصياع، والإحسان أن تجمع بينهما. لذلك النبي عليه الصلاة والسلام في أحاديث كثيرة يذكّرنا بمرتبة الإسلام والإيمان والإحسان.

معنى (عاد، مَن عادى لي ولياً) معنى عادى أي آذى، أو أبغض، أو أغضب بالقول أو بالفعل، إغضاب، إيذاء، بغض قولاً وفعلاً، مَن هو الولي ؟ هنا السؤال، لعلكم تظنون أن كل مئة عام، كل ألف عام يأتي وليٌ لا يعرفه أحد، من الدراويش، لا ترضي هيأته، لعلكم تظنون أن هذا هو ولي الله، أدق تعريفٍ للولي هو ما عرَّفه الله به..

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63))

(سورة يونس)

مَن هو الولي إذاً ؟ هل بعد تعريف الله تعريف ؟

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63))

المؤمن الذي يطيعُ الله عزَّ وجل هو الولي، ما قولكم أنه يجب على كلٍ منا أن يكون ولياً ؟ إياك أن تظن أن دائرة الولاية ضيقة جداً بل إنها واسعة جداً، يجب أن تضم هذه الدائرة كل مؤمن، كل مؤمن عرف ربه واستقام على أمره..

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63))

هذا المعنى القرآني، هذا التعريف القرآني للولي. أما التعريف اللغوي، قيل: الولي على وزن فَعيل بمعنى فاعل، الذي وَالَىَ طاعة الله، الموالاة المتابعة، أي تابع طاعة الله في ليلٍ ونهارٍ، وصحةٍ ومرضٍ، وغنىً وفقرٍ، وسفرٍ وحضرٍ، تابع طاعة الله عزَّ وجل، وَالَىَ أي تابع، ولم تتخلل طاعته معاصيَ لله عزَّ وجل، فالولي على وزن فعيل بمعنى فاعل، أي تابع طاعة الله.

والولي بمعنى مفعول أي والاه الله أي حفظه من كل مكروه، تابعته أنت بالطاعة والحب، وتابعك هو بالحفظ من كل مكروه، منك الطاعة ومنه الحفظ، منك الاستقامة ومنه التكريم، منك موالاة طاعته ومنه موالاة حفظه وتأيده ونصره وتوفيقه، هذا معنى الولي.

الموالاة ضدُّ العداوة، الولي هو الصديق الحميم، والعدو هو الخصيم المبين..

((مَن عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب))

ما معنى (آذنته) ؟ أعلنته، الآذن يقف على باب الموظَّف، ما مهمته؟ أن يعلمه أن فلان حضر، أندخله عليك ؟ فقد آذنته، والآذان سمي الآذان آذاناً لأنه إعلانٌ للناس وإعلامٌ لهم أنه قد دخل وقت الظهر، فـ..

((من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب))

أيها الإخوة الأكارم... بادئ ذي بدء تعريف الولي هو المؤمن التقي، عرفت الله من خلال خلقه، عرفت الله من خلال أمره، عرفت الله من خلال فعله، ثم تقصَّيت أمره، وطبَّقت أمره فأنت ولي الله، هل يمكن أن أقول لكم: إن كل مؤمنٍ يجب أن يكون ولياً ؟ طبعاً كل مؤمنٍ يجب أن يكون ولياً، هذا المفهوم الساذج القديم أن الولي إنسان نادر، رثُّ الهيئة، بلا عمل، هو عالةٌ على الناس، لا يعرفه أحد، من الدراويش، ليس هذا، هذا مفهوم العصور الوسطى، مفهوم عصور التخلُّف، كل مؤمنٍ وهو على رأس عمله، وهو في أوج شبابه، وهو في أوج صحته وقوته، وهو عَلَمٌ بين الناس يجب أن يكون ولياً لله عزَّ وجل، ألا تكفينا هذه الآية ؟

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63))

ألا يكفينا أن الله سبحانه وتعالى توعَّد مَن يؤذي المؤمن بالحرب ؟ ألا يكفي أن الله سبحانه وتعالى يدافع عنك ؟ ألا يكفيك أن الله في عليائه وعد كل من يؤذيك بأن يحاربه ؟ ومن حاربه الله فقد أهلكه وانتهى الأمر.

طبعاً الله سبحانه وتعالى يقول:

(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ)

(سورة فاطر: من آية " 32 ")

مَن هو الظالم لنفسه ؟ هو الذي يرتكب المعاصي والآثام، هو الذي يقترف الذنوب..

(وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ)

مَن هو المقتصد ؟ هو الذي فعل المأمورات وترك المنهيّات..

(وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ)

مَن هو السابق ؟ الظالم مرتكب المعاصي، مقترف الذنوب، مجترح الآثام، المقتصد مَن فعل الأوامر وترك النواهي، هذا المقتصد أي أنه معتدل بين بين، لكنه ناجي، لكنه ينطبق عليه أنه وليٌ من أولياء الله ولكن في المرتبة الدنيا..

(وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ)

الذي فعل الأوامر والنوافل، وترك المحرمات والمكروهات كراهة تحريمية، وكرهة تنزيهيّة، مَن هم أفضل أولياء الله عزَّ وجل ؟ هم الأنبياء والمرسلون، من بعدهم ؟ الصحابة والتابعون، مَن بعدهم ؟ العلماء العاملون إلى يوم الدين.

دائماً دقق في هذه الكلمة: عامل عالم، احذف عامل، وضع على العالم إشارة ضرب، لأنه:

((أندم الناس عالمٌ دخل الناس بعلمه الجنة ودخل هو بعلمه النار))

الأنبياء والمرسلون، والصحابة والتابعون، والعلماء العاملون إلى يوم الدين، هؤلاء هم..

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62))

(سورة يونس)

الآن، مَن هذا الذي يعادي أولياء الله ؟ قال: كل من يعتدي عليه، حتى لا تظنوا أن الولي هو الإنسان اللامع العالم، لا، أي واحد منكم ولي، أنتم المقصودين ؛ المؤمن الذي عرف الله، المستقيم على أمر الله، هذا الولي، فمَن عادى ولياً لله، أي من عادى مؤمناً، قال: مَن يعتدي على ماله بالاغتصاب، أو بالسرقة، أو بالاحتيال، أو بالغُش، أو بالتدليس، أو بالكذب، أو بالحياء.. " ما أخذ بسيف الحياء فهو حرام "، مَن يعتدي على ماله، أو على عرضه، ما معنى عرضه ؟ قد يقول أحدكم يعني على أهل بيته، على بناته، لا، العرض هو موضع المدح والذم في الإنسان، أي تحدث عنه من دون تحقق..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6))

(سورة الحجرات)

إذا قلت: والله بخيل، من دون أن تتحقق من ذلك، وقد أعلمك النبي أنه:

((من أدى زكاة ماله فقد بريء من الشح))

(من مجمع الزوائد: عن " جابر ")

أنت حينما تقول عن فلان: بخيل. وقد أدى زكاة ماله، إنك تكذب النبي عليه الصلاة والسلام وأنت لا تدري، أنت اعتديت على أخيك المؤمن بعرضه، أي ذممته، قلت: والله ليس ورعاً، هل أنت متأكد ؟ هل رأيته مرةً لا يصلي ؟ هل رأيته مرةً أطلق بصره في الحرام ؟ هل رأيته أكل مالاً حراماً ؟ ليس عندك دليل، فحينما تعتدي على مال أخيك، أو على عرض أخيك، تذمه من دون أن تعلم، من دون تحقق، له عندك حق، والله سبحانه وتعالى هو الذي سيأخذ حقه منك يوم القيامة، لذلك أكبر عقاب يعاقب به

المغتاب أن الذي اغتابه يأخذ حسناته يوم القيامة، فإذا فنيت حسناته طرحت عليه سيئات التي اغتبته، فإذا ذهبت حسناتك وطرحت عليك سيئات من اغتبته طرحت في النار وأنت لا تدري، لا تنسوا قول النبي عليه الصلاة والسلام حينما سأل أصحابه:

((أتدرون من المفلس ؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار. فقال عليه الصلاة والسلام: لا، المفلس من أتى بصلاةٍ، وصيامٍ، وصدقةٍ وقد أكل مال هذا، وشتم هذا، وقتل هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته طرحت عليهم سيئاته، إلى أن يطرح في النار))

(من الجامع لأحكام القرآن: عن " أبي هريرة ")

إذاً:

((من عادى لي ولياً ـ بالاعتداء على عرضه، أو على ماله، أو على نفسه بالضرب أو القتل ـ فقد آذنته بحرب...))

وإذا حارب الله إنساناً فقد أهلكه، لأن الله يُمْهل ولا يُهْمِل. هل تصدقون أنك إذا حاربت مؤمناً فقد حاربت الله ومرسوله، من أين جئت بهذا المعنى يا أستاذ ؟ في حديث عائشة رضي الله عنها في المسند:

((من آذى ولياً فقد استحلَّ محاربتي))

يقول الله عزّ وجل من حديث عائشة الصحيح

((من آذى ولياً فقد استحلَّ محاربتي))

وأنا أقول الولي يعني أنتم، لا أقصد شيء آخر بل أنتم كمؤمنين، مادمت عرفت الله عزَّ وجل واستقمت على أمره

((من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلكم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته))

إذاً إذا آذيت ولياً لله عزَّ وجل، إذا آذيت مؤمناً في نفسه، أو في عرضه، أو في ماله، ذممته من دون تحقُّق، شتمته، أخذت ماله غصباً، أربكته، أخجلته، شوَّهت سمعته، تمنَّيت أن يفتضح بين الناس، إذا آذيت ولياً فقد استحل محاربتي، فكأنك تحارب الله ورسوله.

وفي حديث أبي أمامة عند الطبراني:

((مَن أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة))

أحياناً قد تسأل سؤال لغوي: مَن عادى، فعل عادى على وزن، عادى غير عدا، رسل غير راسل، راسل، عادى، قاوم، ناوش، فاعل يفيد المشاركة، إذا واحد عادى ولياً لله عزَّ وجل فهل يعقل أن هذا الولي الطاهر، المستقيم، الورع أن يبادله عداوةً بعداوة ؟ قال: نعم، لأن ولي الله إذا رأى إنساناً يكذب،

ويفتري، ويغتاب، ويأكل أموال الناس بالباطل، ويعتدي على المؤمنين، أيحبه هذا الولي ؟ معاداة الولي لأعداء الله حقٌ، لكن معاداة أعداء الله للولي باطلٌ، هو في معاداة، كما أن هذا الإنسان المنحرف الذي يؤذي أولياء الله عزَّ وجل يعاديهم، يأكل من أموالهم، يعتدي على أعراضهم ؛ بذمهم، وغيبتهم، هذا كما أنه يعتدي، ويعادي، كذلك ولي الله يحب الكمال، يحب الطهر، يحب الإنصاف، يحب العفاف، يحب التنزُّه، يحب الورع، يحب النزاهة، هل يعقل أن تكون أنت في أبهى درجات النظافة وأن ترى إنسان قذر، وأن تميل إليه ؟ لا تحبه أبداً، لا تميل إليه ولا تعجب به، هل تحب الكذاب ؟ هل تحب المنافق ؟ هلب تحب البذيء ؟ هل تحب الفاحش ؟ هل تحب المؤذي؟ لا تحبه أبداً، إذاً كلمة (من عادى) في محلها.

كما أن هذا الإنسان المنحرف، الشارد، الضال الذي يعادي أولياء الله بتجريحهم، وغيبتهم، والتحدث عنهم، وبأكل أموالهم، وبإحراجهم، وبالتضييق عليهم، وبالفرح بالإساءة إليهم، كذلك أولياء الله حينما يرون إنسان يحارب الله ورسوله، يحب أن يطفئ نور الله عزَّ وجل، يحب أن يضع العصيّ في العجلات، أيضاً يكرهونه، ويعادونه، لكن معاداة أولياء الله لأعداء الله معاداةٌ بالحق، بينما معاداة أعداء الله لأولياء الله معاداةٌ بالباطل، هذا هو الفرق.

يعني أيعقل أن يحب الورع المبتدع ؟ لا، أيعقل أن يحب المتَّبع لسنة النبي مَن اتبع شيئاً سنة خلاف سنة النبي ؟ مستحيل، أيعقل أن يحب المطيع العاقل ؟ أيعقل أن يحب المستقيم المنحرف ؟ لا.

ذا هو القسم الأول من الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن الله تعالى قال: مَن عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ـ الآن ـ وما تقرَّب إلي عبدي بشيءٍ أحب إلي...))

كلمة (أحب) ما وزنها ؟ على وزن أفعل، أفعل ما نوعها ؟ اسم تفضيل، أي أنه أحب شيءٍ إلى الله، أحب شيءٍ تتقرَّب به إلى الله، أحب شيءٍ تتوسَّل به إلى الله، أحب شيءٍ تقدِّمه إلى الله، أسرع شيءٍ يدفعك إلى الله..

((وما تقرَّب إلي عبدي بشيءٍ أحب إلي ـ نوافل ؟ لا، لا ـ مما افترضته عليه))

الصلوات الخمس، وصيام رمضان، وحج البيت، وأدء الزكاة، وغض البصر، والصدق، والعفَّة، والورع، هذه الفرائض، إذا أدَّيت الفرائض فأنت أورع الناس، إذا أديت الفرائض فأنت أحب الناس إلى الله

((وما تقرَّب))

حديثٌ رائعٌ جداً:

((وما تقرَّب إلي عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضته عليه))

الفرائض، صل الصلوات، صم رمضان إيماناً واحتساباً، أدِ زكاة مالك عن طيب نفس، غُضَّ بصرك عن محارم الله، أما إذا أطلقت بصرك في محارم الله ودفعت المبالغ الطائلة في إعمار المساجد، والله شيء جيد، لكن هذه تمنع هذه، في مثل سبحان الله، وأنا في طريقي إليكم، أو قبل أن آتي إليكم بربع ساعة، بحثت عن مثلٍ يوضح هذا المعنى، قلت: إذا عندك مستودع للوقود السائل ـ للبترول ـ أخطر ما فيه أن يكون محكماً، إذا كان محكماً يمكن أن تضع فيه مائة لتر جيد، مائتي لتر، ألف لتر، أما إن لم يكن محكماً كل شيءٍ يوضع فيه يذهب أدراج الرياح ، إذاً أخطر ما في هذا المستودع أن يكون مُحْكَاً، أخطر شيءٍ فيه، لذلك الله عزَّ وجل يقول في هذا الحديث القدسي:

((وما تقرَّب إلي عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضته عليه))

الآن اسمعوا، ماذا قال السلف الصالح أصحاب النبي عليهم رضوان الله. قال: روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: " أفضل الأعمال أداء ما افترض الله ـ الفرائض ـ والورع عما حرم الله، وصدق النية فيما عند الله " أداء الفرائض، ترك النواهي، إخلاص القلب، أفضل الأعمال من دون استثناء أداء الفرائض، ترك النواهي، إخلاص القلب، هذا كلام سيدنا عمر.

سيدنا عمر بن عبد العزيز قال في خطبته: أفضل العبادات أداء الفرائض، واجتناب المحارم، وذلك أن الله تعالى إنما افترض على عباده هذه الفرائض ليقرّبهم عنده، ويوجب لهم رضوانه ورحمته، أعظم هذه الفرائض إقامة الصلاة..

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14))

(سورة طه)

كان يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه..

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19))

(سورة العلق)

(فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً (103))

(سورة النساء)

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت: من آية " 45 ")

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14))

((ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها ".. " الصلاة نور))

((الصلاة طهور))

((الصلاة ميزان فمن وفَّى استوفى))

((" الصلاة معراج المؤمن))

هذه كلها أحاديث عن الصلاة. لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد))

(من الجامع لأحكام القرآن)

مرَّ معي في الأثر أن: " عدل ساعةٍ يعدل عبادة سبعين عاماً ".. ورد أيضاً من الأقوال الحكيمة: أن العدل حسن لكن في الأمراء أحسن، وأن الورع حسن لكن في العلماء أحسن، وأن الحياء حسن لكن في النساء أحسن، وأن التوبة حسن لكن في الشباب أحسن، وأن السخاء حسن لكن في الأغنياء أحسن، وأن الصبر حسن لكن في الفقراء أحسن ".

الحقيقة عدل الراعي في رعيته من أعظم القربات، لكن بعضهم قال: وكل واحدٍ منا راعٍ في بيته، راعٍ في معمله، راعٍ في دائرته، راعٍ في عيادته، أحياناً أنت طبيب وعندك موظف، وعندك زبائن للساعة الثانية عشر ليلاً، وفرحت فيهم كل واحد خمسمائة ليرة، تخطيط وما تخطيط، هذا الموظف ليس له ذنب أن يظل للساعة الثانية عشر، انصفه، أو أعطيه (أوفرتايم ـ بالتعبير الشائع ـ) أو اصرفه، إما أن تصرفه وإما أن تعطيه تعويضاً على هذا التأخُّر، فليس شرطاً أن تكون قاضياً، ولا أن تكون راعياً، إذا كنت موظفاً وعندك خمس موظفين، فأنت راعٍ عليهم، المرأة راعيةٌ في بيت زوجها، الأب راعٍ في أسرته، المُعَلِّم راعٍ في صفه، الموظف راعٍ في مراجعيه، أبداً، فالإنصاف من أعظم القربات، لذلك قالوا: " ترك دانقٍ من حرام خيرٌ من ثمانين حجةً بعد حجة الإسلام " دانق من حرام.

يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً إمامٌ عادل))

(من مختصر تفسير ابن كثير: عن " أبي سعيد الخدري "

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم:

((إن المقسطين عند الله))

والله أيها الإخوة... إذا عندك في البيت ابنتك وكنتك، وكنت منصف، والله هذا أفضل قرب لله عزَّ وجل، هذه البنت الغريبة، أحياناً البنت غالية، فإذا توعكت قليلاً: دعوها، دعوها ترتاح، وهذه زوجة ابنك إذا ادعت المرض إنها كاذبة، لماذا ؟ لماذا ابنتك مصدقةٌ عندك وهذه تكذب ؟ لست منصفاً أنت. فدائماً أحياناً الإنسان في معاملته لأولاده، لأصهاره، لبناته، حينما لا ينصف كأنه يطيح بصلاته وصيامه وحجه وزكاته. قولوا لفلان إنه أبطل جهاده مع رسول الله، يعني أعظم قربة إلى الله تعالى أن تكون منصفاً.

أنا أروي قصة مرات عديدة لأنني متأثر فيها، كنت مرة في محل تجاري، وجدت في المحل صانع، وابن صاحب المحل في سن متقاربة، فصاحب المحل حمَّل هذا الصانع أقمشة، تعب فقال له: احمل أنت

مازلت شاب، ابنه رفع حاجة، أوعك ظهرك يا بابا، ما لك منصف، هذا له أب كذلك، وله أم، وهذا له أهل وهو غالٍ على الله عزَّ وجل، ما لك منصف، إن لم تكن منصفاً كأنك أهدرت عملك، أعظم قربة الصلاة، أعظم قربة الإنصاف، العدل..

((عدل ساعة يعدل عبادة سبعين عاماً))

ألم يقل حجر لله: يا رب عبدتك خمسين عاماً وتضعني في أس كنيف ؟ قال له: تأدب يا حجر إذ لم أجعلك في مجلس قاضٍ ظالم. يعني مكانك في الكنيف أشرف لك ألف مرة من أن تكون في مجلس قاضٍ ظالم.

في شيء آخر:

((إن المقسطين عند الله تعالى على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا))

كن منصف، أحياناً توضع في ظرف وأنت قوي، وكلمتك هي المصدقة، ومَن معك ضعافٌ لا يستطيعون أن يأخذوا حقهم، فأنت تتكلم كيفما تريد على أي أحد ؛ توزع اتهامات، توزع ألقاب، تقوي فلان، تضعف فلان، ولكن هناك رب يراقب، إن لم تكن منصفاً فلست مؤمناً، أنا أعني ما أقول: إن لم تكن منصفاً فلست مؤمناً، أعظم قربةٍ إلى الله أن تكون منصفاً، بين أولادك ؛ أحياناً ابن معك يعمل ليلاً نهاراً، وتعطيه في النهاية كما تعطي أخوه الذي لا يعمل معك، ما أنصفته أنت، ذاك له يحمل شهادة عليا وعنده عيادة، يأخذ منك ما أخذه هذا الذي يعمل معك طول النهار والليل، ما في إنصاف، هذا له أجر نظير جهده، ثم له نصيب قرشه منك، أحياناً الإنسان يظلم أولاده وهو لا يدري، يظلم إخوته وهو لا يدري، إخوانه المؤمنين وهو لا يدري، زبائنه وهو لا يدري.

العلماء استنبطوا أن من أداء الفرائض ترك المعاصي، فـ:

((ما تقرَّب إلي عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضته عليه))

دخول الفرائض في ترك المعاصي قال مقدمٌ على دخول فرائض الطاعات، هذا مثل المستودع، الطاعات ضع في هذا المستودع الوقود السائل، وترك المعاصي اجعله محكماً، أيهما أهم ؟ في عندك أمران ؛ أمر أن تجعله محكماً، وأمر أن تضع فيه الوقود، أيهما مقدمٌ على الآخر ؟ أن تجعله محكماً، لأنك لو وضعت فيه الوقود وهو ليس محكماً، ضاع الوقود في الأرض.

مرة حدثني إنسان قصة فعلاً شر البلية ما يضحك: في بعض الأزمات الحادة جداً للوقود قال لي: بقيت أسبوعان أو ثلاثة أترجا حتى تمكنت أن آتي بسيارة وقود، وأضعه في مستودعي، والفرحة غمرت قلبي، وكأني لا أصدق، وكأنني ملكت الدنيا، بردٌ شديد، وفي أزمة شديدة على الوقود، قال لي: بعدما دفعت المبلغ المرقوم، جئت لأفتح، فإذا الحنفية مفتوحة نسوها الأولاد، كل الوقود صار بالمرحاض،

فإذا ما كان محكم انتهى الأمر. عندك أمران ؛ أمر بإحكام المستودع، وأمر بإملائه الوقود، أيهما مقدمٌ على الآخر ؟ الإحكام.

إذاً هنا في عندنا حديث شريف دقيق جداً، هذا مكانه الصحيح:

((إذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيءٍ فلا تقربوه))

(من الجامع لاحكام القرآن)

إذاً ترك المعاصي مقدمٌ على فعل الطاعات، لأن الطاعات مع المعاصي لا قيمة لها، لا جدوى منها، تضيع قيمتها، إذا عندك وعاء فيه آثار فيه رائحة كريهة، فهل تضع فيه الزيت الجيد ؟ لابد من التنظيف، هذا ما قاله العلماء: التخلية مقدمة على التحلية، فالتطهير مقدم على الاصطباغ.

قال بعض العلماء: إن جميع المعاصي هي في حقيقتها محاربة لله عزَّ وجل.

نُقِل عن بعضهم: هل لك في محاربة الله من طاقة ؟ قال: لا، قال: فإن من عصى الله فقد حاربه. أنت حينما تعصي فقد حاربت الله ورسوله. كلما كان الذنب أقبح كانت المحاربة أشد.

في شيء دقيق: الله عزَّ وجل سمى أكلة الربا وقُطّاع الطريق ماذا سمَّاهم ؟ هذا الكلام من عندنا ؟ عندما قال العلماء: إن من يعصي الله كمن يحاربه، هذا الكلام أله أصلٌ في كتاب الله ؟ آكل الربا الله يحاربه، ولكن أنا أريد المعنى الآخر، الذي يعصي الله هو يحارب الله ؟

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا)

(سورة المائدة: من آية " 33 ")

أي أن قُطّاع الطرق، المفسدون في الأرض، أكلة الربا، سمَّاهم الله محاربين لله ورسوله.

نعيد عليكم نصَّ الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إلي عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضته عليه))

بقية الحديث:

((وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه))

الآن النوافل، الصلوات الزائدة ؛ قيام الليل، الضحى، الأوَّابين، صيام نافلة، دفع الصدقة فوق الزكاة، كلما زاد عن الفريضة يسمى نافلة..

((وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه))

.. الاجتهاد في الطاعات من صلاةٍ وصيامٍ، وزكاةٍ وحج، وكف النفس عن دقائق المكروهات، حتى المكروهات التنزيهية يكف نفسه عنها.

قلنا

((من عاد لي ولياً فقد آذنته بالحرب ـ الآن ـ وما تقرَّب إلي عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضته عليه ـ مرحلة ثانية ـ وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه))

لكن

((فإذا أحببته))

اذا يحصل ؟ قيل: من النوافل كثرة تلاوة القرآن وسماعه بتفكرٍ وتدبرٍ وتفهمٍ وعمل، ففي الترمذي عن أبي أمامة مرفوعاً:

((" ما تقرب العبد إلى الله بمثل ما خرج منه ـ من قرآن ـ))

الآن هذه النوافل.

وقيل: لا شيء عند المحبين أحلى من كلام محبوبهم فهي لذةٌ لا تعدلها لذة، لذلك قالوا عندما ناجى الله عزَّ وجل سيدنا موسى، قال:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17))

(سورة طه)

إلهٌ يسأل..

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي)

وبعدها استحى أن يكون قد أساء الأدب، قال:

(وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18))

إذا ربنا أحب أن يتابع سيقول له: وما هذه المآرب يا موسى ؟ الله عزَّ وجل أراد من هذا أن هذه التي بيدك العصا انتبه إليها، الآن بعد قليل ستصبح حيةً، فأجمل شيء عند المحبوب أن تناجيه، وأن تخاطبه، وأن تسمع كلامه، ومن أراد أن يحدث ربه فليدعوه، فليدعو ربه، من أراد أن يحدثه ربه فليقرأ القرآن، المؤمن الصادق أجمل شيء في حياته إما أن يدعو الله عزَّ وجل، وإما أن يقرأ القرآن، هذه النوافل.

((وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته...))

يقول ابن مسعود: مَن أحب القرآن أحب الله ورسوله.

الآن، ومن أعظم النوافل كثرة ذكر الله تعالى، والله المؤمن الصادق ما في عنده حديث دنيوي، أينما جلس يحب أن يذكر الناس بالله عزَّ وجل ، وبحسب الحكمة أحياناً قصة، أحياناً آية، حديث، قصة عن صحابي، آية كونية، حكم فقهي، أي لا يدخر وسعاً في تذكير الناس بربهم ؛ من خلال آياته الكونية، من خلال آية القرآنية، من خلال آياته التكوينية، من خلال أوامره ونواهيه، من خلال سِيَر النبي عليه الصلاة والسلام، من خلال سير الصحابة الكرام. قال: ومن أعظم النوافل كثرة ذكر الله تعالى، قال تعالى:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

(سورة البقرة: من آية " 152 ")

ويقول الله تعالى فيما رواه الإمام البخاري ومسلم:

((أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأ خيرٌ منه))

المؤمن علامته أنه يذكر الله ذكراً كثيراً، ولما ربنا عزَّ وجل قال:

((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41))

(سورة الأحزاب)

الأمر يتعلق لا بالذكر بل بكثرة الذكر، لا بالذكر بل بكثرة الذكر، مؤمن صادق ؛ مع أهلك، مع أولادك، مع جيرانك، مع شركائك، مع أصدقائك، في حفلة، في نزهة، في سهرة، فأي كلامٍ آخر سخيف..

((وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3))

(سورة المؤمنون)

عما سوى الله عزَّ وجل.

أما أدق ما في الحديث الآن قال:

((فإذا أحببته ـ ماذا يحدث ؟ ـ كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها))

وفي بعض الروايات:

((وقلبه الذي يعقل به، ولسانه الذي ينطق به))

يا الله !!

((كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، قلبه الذي يعقل به، لسانه الذي ينطق به))

شيء مخيف إذا الإنسان أساء فهمه، أو أساء تفكيره، يقع في الزندقة والكفر، هذه عقيدة الحلول أن الله حل بفلان، ما في الجبة إلا الله أعدموه للحلاج، والذي أعدمه إمامٌ كبير أفتى بإعدامه، وهو الإمام الجيلاني، حينما سئل الحلاَّج: مَن في جبتك ؟ قال: ما في جبتي إلا الله. فأصدر الإمام عبد القادر الجيلاني فتوى بقتله.

الفقرة الأخيرة في الحديث الشريف:

((وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها ـ ويضاف إليه ـ وقلبه الذي يعقل به، ولسانه الذي ينطق به))

لهذا الحديث تفسيران ؛ التفسير الأول: أنك إذا تركت المعاصي كلها، وفعلت الفرائض كلها، ثم تقربت إلى الله بالنوافل، بالصلوات، والصيام، والحج، والزكاة، والصدقة، فماذا يحصل ؟ يمتلئ قلبك نوراً، يمتلئ قلبك حباً لله، تتجلى لك عظمة الله، لا ترى مع الله أحداً، هذا المستوى الرفيع من الإيمان يجعلك تغفل مَن سوى الله كله، ويجعلك تغفل عن هوى نفسك، وعن حظوظ نفسك، عندئذٍ لا تنطق إلا بالحق، ولا تسمع إلا ما يرضي الله، ولا تمشي إلا إلى مكانٍ فيه طاعة لله، ولا تفعل شيئاً إلا وفق مرضاة الله، لا في سمعك، ولا في بصرك، ولا في لسانك، ولا في يدك، ولا في رجلك، تركت المعاصي كلها، تركت المكروهات كلها، فعلت الفرائض كلها، فعلت الطاعات كلها، فعلت النوافل كلها، إذاً امتلأ قلبك هدىً، امتلأ حباً، امتلأ نوراً، امتلأ إخلاصاً، ذهلت عما سوى الله، ما رأيت مع الله أحداً، ذهلت عن هوى نفسك عندئذٍ لا تنطق عن الهوى، بصرك في طاعة الله، لا تنظر إلا إلى ملكوت الله، لا تسمع إلا الحق، لا تنطق إلا بالحق، لا تمشي إلا إلى طاعة، لا تفعل إلا ما يرضي الله، هذا المعنى، أي أن ارتقاء المستوى إلى درجة عالية جداً يجعل أعمالك خالصة لوجه الله عزَّ وجل، وفق الشرع، وفق الأمر، وفق النهي، وفقر ما يرضي الله.

المعنى الثاني يستنبط من قول النبي عليه الصلاة والسلام، وهو: يقول عليه الصلاة والسلام في دعائه الصحيح:

((اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن شمالي نوراً، ومن أمامي نوراً، ومن خلفي نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً))

بمعنى: أنه يا ربي أكون مستنير فأية كلمةٍ أعرف مداها، ومؤداها، ومدلولها، وأية نظرةٍ أعرف ما الذي يرضيك منها، وأيُّ سماعٍ أعرف ما الذي ترضاه من سماعي، فإما أنك تسمو إلى درجة أنك تذهل عن نفسك وعما سوى الله، وإما أن الله عزَّ وجل يقذف في قلبك نوراً فيريك الحق حقاً فتتبعه، والباطل باطلاً فتجتنبه.

إذاً هذا معنى أن الله عزَّ وجل:

((كنت سمعه، وبصره، ويده، ورجله، وقلبه الذي يعقل به، ولسانه الذي ينطق به))

أصبحت أعماله كلها منزهة عما سوى الله، أعماله كلها خالصة لوجه الله.

الآن: من التكريم، من تكريم هذا الولي الذي والى الله، آمن به واصطفاه، وفعل الطاعات، وترك المنكرات، وترك المكروهات، وفعل النوافل، وتقرب إلى الله عزَّ وجل حتى صفت نفسه، وحتى أخلص قلبه، وحتى استنار فؤاده، النتيجة، قال: ومن تكريم الله لوليه أنه إذا سأله أعطاه، وإذا استعاذ به من شيءٍ أعاذه، وإذا دعاه أجابه، أي صار مستجاب الدعوة، هذا الذي قاله النبي عن ربه في حديثٍ قدسي رواه الديلمي:

((ليس كل مصلٍ يصلي إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب كل ذلك لي، وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوء عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة نورا، يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه، ويقسم عليَّ فأبره، أكلأه بقربي وأستحفظه ملائكتي))

الآن، قيل لله رجالٌ إذا أرادوا أراد، قد تبلغ درجة من الولاية أن يصبح دعاؤك مستجاب، لكنك لا تدعو إلا بالخير، لكن في الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((ما من مسلم يدعو بدعوةٍ ليس فيها إثمٌ ولا قطيعة رحمٍ إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجِّل له دعوته، وإما أن يدَّخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها))

ومع ذلك أنت مستجاب الدعوة، لو أن الله لم يستجب لك أنت مستجاب الدعوة ؛ إما في الدنيا، أو في الآخرة، أو أنه صرف عنك من السوء مثل دعوتك.

آخر شيءٍ في هذا الحديث:

((وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله))

الآن في شيء يقشعر له الجلد، رب العزة في عليائه يقول:

((وما ترددت ـ طبعاً هذه الزيادة في صحيح البخاري ـ وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله ترددي عن قبض نفسي عبدي المؤمن))

الله يتردد ؟ هنا السؤال، فإذا قال الله عن نفسه أنه يتردد، فما معنى ذلك ؟ " وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله ترددي عن قبض نفسي عبدي المؤمن ". أي أن هذا المؤمن غالي على الله، والموت صعب عليه، والموت طريقه الوحيد إلى الجنة، حتى ينقله من هذه الدنيا، من دار الغرور، من دار التعب والنَصَب، من دار الهم والحزن، من دار العمل، من دار الكد

(إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ (6))

(سورة الانشقاق)

حتى ينتقل من هذه الدار إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض، فلابد من أن يموت، ولأنه يكره الموت فالله سبحانه وتعالى يتردد، تردد الله عزَّ وجل بمعنى أنه يشفق عليه فقط، إذا قلنا: الله تردد أي أشفق على عبده، قال:

((وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله ترددي عن قبض نفسي عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته))

هو يكره الموت وأنا أكره أن أسوئه بالموت، ولكن الموت طريقٌ وحيدٌ إلى الجنة، لذلك ربنا عزَّ وجل يبعث له ملك الموت بأحب الناس إليه، بأجمل حالاته، بحياتك في ألف شخص؛ أقرب الناس لك، أحب الناس لك، أكثرهم إيناساً لك، كثير يقولوا الصالحين حينما حضرتهم الوفاة أولاده جالسين، يقول: دخل عمكم، لمَ لا تسلموا على عمكم ؟ أين هو عمنا لا يوجد أحد، رأى ملك الموت أخاً له، رآه صديقاً حميماً..

((وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله ترددي عن قبض نفسي عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته))

فربنا عزَّ وجل إذا أراد أن يميت عبده المؤمن لا يريد أن يفعل هذا مهيناً له، بل يرفعه إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض، لذلك قالوا: إن المؤمن يخرج من الدنيا إلى الآخرة، كما يخرج الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا.

وقد استدل من هذا الحديث أول كلمة أن الإمام البخاري وضع هذا الحديث في باب التواضع، فما علاقة هذا الحديث بالتواضع ؟ قالوا: لأن العبد حينما يفعل النوافل يكون في هذا في غاية التواضع، وحينما يدقق في كلامه وفي نظره يكون هذا في غاية التواضع..

((إن الله تعالى أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد))

فتأدية النوافل، الالتزام بالأمر والنهي كله من باب التواضع، فهذا الحديث أنا أتمنى عليكم أن تحفظوه وأن تعملوا به فهو من أصول الدين، مرةً أقول ثالثة ورابعة: أبحث عن حديثٍ في درس الأحد يعد من أصول الدين، من أركان الدين، وهذا الحديث ورد في الأربعين النووية، أعيد عليكم قراءته مرةً أخيرة: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إلي عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته ولئن استعاذني لأعيذنه))

(رواه البخاري)

الزيادات:

((وكنت قلبه الذي يعقل به، ولسانه الذي ينطق به، وما ترددت عن شيءٍ ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته))

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (033) :أخلاق المسلم - الغضب.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-05-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم:

((يا رسول الله أوصني ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: لا تغضب، فردد مراراً أوصني، قال: لا تغضب، قال: أوصني، قال: لا تغضب))

يبدو أن هذا الصحابي حينما كان يقول: أوصني، ينتظر أن تأتي وصية طويلة، فلما قال الدنيا: لا تغضب، استقلها، فقال: أوصني، قال: لا تغضب، قال أوصني قال: لا تغضب.

(رواه البخاري)

((عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله أوصني ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: لا تغضب، فردد مراراً، قال: لا تغضب))

(رواه البخاري)

هذا الحديث على أنه حديثٌ قصيرٌ جداً، بل إن هذا الحديث هو كلمة واحدة، مسبوقة بأداة نهي، أي فعل مضارع مسبوق بأداة نهي، هذا كل الحديث، لكن بعض العلماء قال: إن هذا الحديث حديثٌ عظيم هو من جوامع الكلم، لأنه جمع بين خَيْرَي الدنيا والآخرة، قد لا ترون هذا واضحاً، كلمة: لا تغضب، تجمع بين خيري الدنيا والآخر ؟

فهل الطلاق إلا في ساعة غضب، وهل كل الحماقات ترتكب إلا في ساعات غضب، وهل كل معاصي اللسان ترتكب إلا في ساعة غضب، وهل كل الورطات التي يقع بها الإنسان إلا في ساعة غضب، أن يجمع هذا الحديث الشريف الذي رواه الإمام البخاري بين خيري الدنيا والآخرة ليس مستغرباً.

الحقيقة حينما قال أبو هريرة إن رجلاً سأل النبي عليه الصلاة والسلام، أحاديث أخرى تروي أن هذا الرجل هو أبو الدرداء... فقد أخرج الطبراني عنه، عن أبي الدرداء، قلت: يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة، أنا مشتاق إلى الجنة، أريد الطريق إليها، أريد عملاً يوصلني إليها، فقال عليه الصلاة والسلام:

((لا تغضب ولك الجنة))

لا زلنا في دهشة، جنة عرضها السماوات والأرض من وصية واحدة، من سلوكٍ واحد، وهو ألا تغضب، ألم تسمعوا أن الحلم سيد الأخلاق، ألم تسمعوا أنه كاد الحليم أن يكون نبياً، الحليم كاد أن يكون نبياً، وقيل في رواية أخرى، إن هذا السائل هو جارية بن قُدامة رضي الله عنه، فقد أخرج الإمام أحمد عن جارية بن قدامة قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم، قلت يا رسول الله قل لي قولاً وأقلل عليَّ ـ

لا تطول علي ـ لعلي أعقله فقال عليه الصلاة والسلام: " لا تغضب، فأعدت عليه مراراً وهو يقول: لا تغضب ". علماء الحديث يقولون: لا مانع من تكرار الحادثة بحديث واحد، هذا شيء مقبول في علم الحديث.

إذاً هذا الرجل إما أنه أبو الدرداء، وإما أنه جارية بن قدامة، الأول قال له النبي: لا تغضب ولك الجنة. والثاني قال: قل لي قولاً وأقلل علي لعلي أعقله: قال لا تغضب، فأعدت عليه مراراً وهو يقول: لا تغضب، معنى أوصني: دلني على عمل ينفعني، لا تغضب: الحقيقة الغضب ظاهرة نفسية، لكنها ليست إرادية، فكيف يقول النبي: لا تغضب ؟ أنا أغضب دون أن أشعر، أغضب دون أن أدري، إنسان يستفزني فأغضب، كلمة أسمعها فأغضب، موقف مهين يغضبني، فكيف لا أغضب ؟! كيف ينهاني النبي عليه الصلاة والسلام عن شيءٍ ليس إرادياً، الإنسان ينساق له سوقاً ؟

لا تتخذ موقفاً أساسه الغضب، أغضب، ولكن إذا أردت أن تتخذ قراراً فإياك أن تتخذه وأنت غاضب، هذا معنى لطيف جداً، قال:

(قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27))

(سورة النمل)

إياك أن تتخذ قراراً وأنت غاضب، تأكد هذا القرار لن يكون حكيماً، ولن يكون سليماً، وليس في صالحك، هذه نصيحة أيها الإخوة: إذا غضبت، ولابد من اتخاذ قرار فقل في نفسك: سأصدر هذا القرار بعد أسبوع، وبعد أسبوع ترى أنك أصبحت إنساناً آخر، في ساعة غضب: والله سأطلقها. أطل بالك، أجل هذا القرار إلى أسبوع واحد، تجد أنك إنسان واحد بعد أسبوع، والله ليس لها قيمة، جيد أننا لم نطلقها، إياك أن تتخذ قراراً وأنت غاضب، معنى لا تغضب، الغضب عمل ليس إرادياً، الإنسان أحياناً يسمع كلمة، فدقات قلبه ترتفع إلى المائة والثمانين، عمل لا إرادي، الغضب لا إرادي، بعد قليل سوف نصل إلى كيف أراد النبي من كلمة لا تغضب، أي ابتعد عن أسباب الغضب، أو إياك أن تتخذ قراراً وأنت غاضب.

من تعاريف الغضب: أنه ثورة النفس التي تحمل صاحبها على البطش والانتقام.

الآن، تحليل هذا الحديث: بادئ ذي بدء من أخلاق المسلم ؛ الحلم، والحياء، والتواضع، والتودد، والاحتمال، وكفُّ الأذى، والصبر، وكل هذه الصفات تتناقض مع الغضب، من أخلاق المسلم، تقول: ذهب. معنى ذهب، أي يقاوم كل الأعراض من حموضة، من تأثيرات كيماوية، لأنه ذهب، أما لو كان معدن رخيص مطلي بلون الذهب، ضعه في الماء أو في محلول حامضي، يطلع تنك، فإذا قلت مسلم، أي حليم، كيف أن صفات الذهب الثابتة أنه لا يصدأ، ولا يتأثر بالحموض، صنعوا ألماس صناعي، بلغ درجة من الاتقان درجة عالية جداً، حتى أن الخبراء وحدهم هم الذين يفرِّقون بين الألماس الصناعي،

والطبيعي، ومع ذلك لو أن امرأةً استعملت هذا الخاتم في الأعمال المنزلية، لانطفأ بريق هذا الألماس بعد حين، إذاً في فرق، إذا قلنا ألماس لا ينطفئ بريقه، إذا قلنا ذهب لا يصدأ، ولا يتأثر بالحموضة، ولا يضعف بريقه أبداً، هذا معنى ذهب.

أما مسلم، معنى مسلم، فلان مؤمن، أي حليم، إذا قلت الذهب معدن ثمين، والذهب لا يصدأ، والذهب لا يتغيَّر لونه، والذهب لا يتأثر بالحموض، والألماس لا ينطفئ بريقه، هذه صفات ثابتة في هذه المعادن، كذلك المسلم، إذا قلت مسلم أو مؤمن قولاً واحدا هو الحليم، الحيي، المتواضع، المتودد للناس، الذي يحتمل، والذي يكفُّ الأذى عن الناس، والذي يعفو عن المقدرة، والذي يصبر عند الشدائد، وكل هذه الصفات تتناقض أصلاً مع الغضب، كل هذه الصفات.

شيء آخر: هذا الصحابي الثاني الذي اشتاق إلى الجنة، وطلب الطريق إليها، فقال عليه الصلاة والسلام: لا تغضب. أي أن عدم الغضب من أخلاق النبوة، عدم الغضب من أخلاق القرآن، كان خُلُقه القرآن..

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً (10) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ)

(سورة المزمل)

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

(سورة فصلت)

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ)

(سورة المؤمنون: من آية " 96 ")

هذه آيات قرآنية كلها، أخلاق القرآن ؛ عدم الغضب، أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام ؛ أحدهم قال له: اعدل يا محمد. فتبسم عليه الصلاة والسلام، قال:

((ويحك من يعدل إن لم أعدل))

واحد جذب النبي من ردائه حتى علّم على رقبته الشريفة، فابتسم وقال: دعوه. فأخلاق النبي عليه الصلاة والسلام عدم الغضب، أخلاق القرآن عدم الغضب، أخلاق الإيمان عدم الغضب، فالإنسان إذا أصبح حليماً طبعاً وسجية لا تكلفاً، فقد ارتفع إلى مستوى الإيمان، في بدايات طريق الإيمان، إنما الحلم بالتحلُّم ؛ الإنسان يحتمل، من الداخل يغلي غليان، ولكنه من الخارج يضبط أعصابه، هذه في البدايات، لكن بعد مرحلة متطورة في الإيمان، المؤمن يشعر كأنه بحر عميق، كأنه جبل راسخ، كأنه باخرة عظيمة، هذه الأمواج السطحية لا تؤثر فيها إطلاقاً، أما القارب الصغير سريعاً ما يتأرجح لأدني موجة، أما السفينة العظيمة راسخة في مياه البحر، شامخة.

المعنى الثالث: لا تغضب، إياك أن تعطي نفسك ما تشتهي، أحياناً الإنسان يشتهي يحطّم خصمه، يشتهي يكيل له الصاع عشرة، يشتهي مزقه، يشتهي ينهش بعرضه، الإنسان البعيد هكذا يشتهي، كلمة:

لا تغضب، لا تستجب لدواعي الغضب، لا تستجب لنزوات النفس، لا تجعل نفسك قائداً لك، اجعل نفسك وفق الحق، ربنا عز وجل قال:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134))

(سورة آل عمران)

الكاظمين الغيظ هذه درجة، من الداخل في غليان، من الخارج في كظم، الدرجة الأعلى والعافين عن الناس، من الداخل في مسامحة، الأعلى من هذا وذاك، أنه يحسن لمن أساء إليه..

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134))

لكن الله يحب أن تواجه المسيء بالإحسان، الإمام أحمد من حديث عبد بالله بن عمر رشي الله عنه، سأل النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا رسول الله ما الذي يباعدني من غضب الله عز وجل ؟ قال:

((لا تغضب))

إن لم تغضب تبتعد عن غضب الله عز وجل، إذا غضبت وفعلت وتركت، وانتقمت وبطشت، فقد حل عليك غضب الله عز وجل، فإذا أردت أن تبتعد عن غضب الله عز وجل لا تغضب.

كما قلت قبل قليل: الحلم سيد الأخلاق، كما قلت قبل قليل: كاد الحليم أن يكون نبياً، وهله ترتكب كل الحماقات إلا في ساعة غضب ؟ وهل تُشَتت الأسرة إلا في ساعة غضب ؟ وهل ترتكب الجرائم إلا في ساعة غضب ؟ وهل تفصم الشركات إلا في ساعة غضب ؟ وهل يفرَّق بين الأم وولدها إلا في ساعة غضب ؟ وهل تطلَّق المرأة إلا في ساعة غضب ؟ إذاً لا تغضب، كأن هذا الحديث كما قال عليه الصلاة والسلام جمع بين خيري الدنيا والآخرة.. يا رسول الله ماذا يباعدني عن غضب الله عز وجل ؟ قال: لا تغضب.

والحسن البصري، هذا من كبار التابعين، يقول رضي الله عنه: "أربع من كن فيه عصمه الله من الشيطان، وحرَّمه على النار ـ دققوا الآن ـ من مَلَك نفسه عند الرغبة، والرهبة، والشهوة، والغضب... من ملك نفسه، هناك إنسان يملك نفسه، وهناك إنسان تملكه نفسه، هناك إنسان يخضع نفسه للحق، وهناك إنسان يريد أن يخضع الحق لنزواته، وهذا شيء مستحيل... من مَلَك نفسه عند الرغبة وعند الرهبة وعند الشهوة وعند الغضب فقد حرم الله عليه النار، وعصمه من الشيطان ".

الإنسان قد يشتهي، فإذا قال: إني أخاف الله رب العالمين. سعد، وصار بطلاً، فمئات الأجيال يذكرون هذا النبي العظيم، سيدنا يوسف بالخير، لماذا ؟ لأنه ملك نفسه عند الشهوة، أعذب، شاب، وسيم، في قصر العزيز، دعته امرأة العزيز، وليس من صالحها أن يفتضح الأمر، وهي سيدةٌ له، مرة المفسرون

ذكروا أكثر من عشرين بند مما يبرر له أن يرتكب الفاحشة، ومع ذلك قال: معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي. فسيدنا يوسف ملك نفسه عند الشهوة.

وذات مرة سيدنا علي ـ كما تذكر بعض الروايات ـ كان يتتبع مشركاً ليقتله في بعض الحروب، فبصق في وجهه، قال: " الآن ربما قتلتك ثأراً لنفسي "، تركه، ملك نفسه عند الغضب.

وعند الرهبة، أحياناً الإنسان خوفه يحمله على اقتراف المعاصي، تنهار قواه، يهدد، فيعصي الله، وهناك إنسان يملك نفسه عند الغضب.

ولعلكم ظننتم أن حديث شريف رواه البخاري فيه جماع خيري الدنيا والآخرة مؤلف من كلمة واحدة لا تغضب، والدليل أن الصحابي الثاني جارية بن قدامة، لما سأل النبي قال له: يا رسول الله قل لي قولاً وأقلل علي لعلي أعقله، قال له: لا تغضب، فأعدت عليه مراراً قال: لا تغضب، قال: أوصني قال: لا تغضب، قال: أوصني، أريد وصية طويلة، وصية كثيرة المعاني، متعددة قال: لا تغضب، معنى ذلك أن الصحابي استقل كلمة لا تغضب، وظنها وصية قصيرة لكنها في الحقيقة وصية ثمينة وعميقة. فمن لم يغضب فقد ترك الشر كله، ومَن ترك الشر كله أدرك الخير كله.

يروى أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال:

((حسن الخلق))

هو ألا تغضب إن استطعت، النبي عليه الصلاة والسلام جعل حسن الخلق بتعريفٍ مختصر هو ألا تغضب، سوء الخلق أن تغضب، وأن تبطش، وأن تضرب، وأن يعلو صوتك، وأن تدفع بيديك، وأن تبربر وأن وأن، هذا من سوء الخلق، حسن الخلق ألا تغضب، في الحقيقة، الغضوب ضعيف، وصغير في نظر الناس، والحليم قوي وكبير، هذه كلمات دقيقة، الغضوب صغير ؛ يتهم بالحمق، يتهم بالطيْش، يتهم بالسفاهة، يتهم بالسُخف، يتهم بأنه خفيف، قارب صغير أيَّة موجة تقلبه، أي اضطراب في الماء يزعزعه، لكن السفينة الكبيرة لا تبالي بهذه الأمواج هي راسخة.

روى البخاري ومسلم في صحيحَيْهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال عليه الصلاة والسلام:

((ليس الشديد بالصرعة ـ أي الذي يصرع الرجال، ملاكم من الدرجة الأولى، بطل في حمل الأثقال، بطل في المصارعة الحرة ـ إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب))

لذلك قال أحد زعماء بريطانيا قال: ملكنا العالم ولم نملك أنفسنا، فهم بالطبع سخروا البحار، والفضاء، والبر، واخترعوا المركبات والطائرات والصواريخ، والغوصات، ونقلوا الصور، والأصوات ولكن لم نملك أنفسنا، لهذا بعض الفلاسفة قال: الحضارة الغربية أساسها السيطرة على الطبيعة، والحضارة الإسلامية أساسها السيطرة على الذات، السيطرة على الطبيعة تنتهي كل ثمارها عند الموت، لكن

السيطرة على الذات تبدأ كل ثمارها بعد الموت، فهذه البطولة، فقد يقولون لك: بئر نفط في بحر الشمال، كيف غاصوا إلى أعماق البحر ؟ وكيف حفروا البئر خمسة آلاف متر تحت سطح البحر، حتى كشفوا النفط ؟ وكيف استخرجوا النفط من أعماق البحار ؟ وكيف نصبوا هذه الأنابيب ؟ وكيف صبوا الإسمنت وسط الماء ؟ فهذا شيء عجيب، السيطرة على الطبيعة، هذه حضارة الغرب، أما حضارة الإسلام السيطرة على الذات.

الحقيقة الغضب له أضرار كثير، من هذه الأضرار أضرار جسدية، لا أكتمكم وأنا متأكد مما أقول، تكاد تكون معظم الأمراض أسبابها التوتُّر النفسي، أمراض القلب، أمراض الشرايين ؛ في عندنا ضغط دم عصبي، وهناك ضغط دم وعائي، في شرايين متصلبة، عندئذٍ يرتفع ضغط الدم، هذا التصلب لأسباب الكولسترول والتقدم في السن وما إلى ذلك، أما هناك ضغط دم عصبي، أي شدة نفسي، توتر نفسي يرفع الضغط، إذا الإنسان غضب يقيس ضغطه يطلع ثلاثة درجات، وكلما ارتفع الضغط جَهدَ القلب، فقالوا: ضغط الدم هو ضغط الهم، الذي يؤدي إلى ضغط الدم، فالغضب يؤثر في القلب ووظائفه، وفي الشرايين ومرونتها، أحد أكبر أسباب القرحة في المعدة التوتر النفسي، الآن في آلام بالعضلات، آلام حقيقية، آلام في الكتف، آلام في الخاصرة، آلام في الرجل، هذه الآلام ثبت أنها ليس لها أي أسباب عضوية، بل أسبابها نفسية، فالتوتر النفسي يسبب آلام عضلية، أمراض الحساسية لها علاقة بالتوتر النفسي، ولا أريد أن أدخل في تفاصيل الأمراض، ولكنني قانع قناعة لا نهاية لها أن معظم الأمراض أسبابها توتر نفسي، إذاً الذي يغضب معنى ذلك يستهلك نفسه قبل الأوان، يستهلك جسمه قبل أن يستهلك استهلاكاً طبيعياً، هذا التوتر النفسي، هذه الشدة.

فأولاً: هناك أضرار مادية جسمية، وهناك أضرار خلقية، الغضوب ليس محترماً بين الناس، في أضرار جسمية، في قرحة، في آلام، في أمراض عصبية، في أمراض بالقلب والرئتين، في أمراض حساسية، هذه كلها أسبابها جسمية، الغضب له نتائج سلبية في الجسم والبدن، الغضب له نتائج معنوية ؛ الغضوب ليس محترماً، الغضوب دائماً في عليه غمز ولمز وتهكم وتقليد ومحاكاة وسخرية طبعاً بغيابه، ويتخذ موضوعاً للتسلية، فلذلك الغضوب يفقد احترامه بين الناس، والغضوب يبتعد عن خُلُق المسلم، وعن خُلُق المؤمن، وعن مرضاة الله عز وجل، فهناك أضرار جسمية، وأضرار خُلُقية اجتماعية، وأضرار روحية دينية، كل هذه أضرار فردية.

أما الغضوب له أضرار اجتماعية ؛ أنت حينما غضبت، وصببت جام غضبك على زيد أو على عُبيد ، فهذا حقد عليك، العنف دائماً لا يولّد إلا العنف، حينما تغضب على إنسان يقول لك: لا أنساها له، ولا بالموت لا أنساها له، ويبقى الإنسان الذي أغضبته الذي صببت عليه جام غضبك، يبقى سنوات طويلة

يفكر في الانتقام منك، إذاً هذا الذي يغضب، ويسب الناس، ويعتدي عليهم، ويجرِّحهم بلسانه، وقد يدفعهم بيده، هذا الإنسان يولّد أعداء، يولّد حاقدين، هذه أضراره الاجتماعية.

لكن في عندنا موضوع دقيق: النبي عليه الصلاة والسلام يقول: لا تغضب. كيف لا أغضب يا رسول الله، الغضب ليس عمل إرادياً، عمل لا إرادي ؟ فقال العلماء: لا تغضب بترك أسباب الغضب، فالكبر والتعالي والتفاخر على الناس، هذا يؤدي إلى مواقف سلبية من الناس، هذه المواقف السلبية قد تغضب المتكبر، المتكبر إذا لم ينصع الناس له، لم يخضعوا له ينزعج فيغضب، فأحد أسباب الغضب الكبر والتعالي والتفاخر، فإذا أردت أن يحبك الناس دعك من ذاتك، أنا وأنا، وبيتي، وتجارتي، وأرباحي، وسيارتي، وبناتي، وأصهاري، الحديث عن الذات دائماً يسبب إنكار من قبل الآخرين، فإذا أردت ألا يستفزَّك أحد، وألا يغضبك أحد، وألا ترد على هذا الاستفزاز بغضب شديد ؛ دعك من التكبر، والتفاخر، والتعالي، عندئذٍ يحبك الناس، فإذا أحبك الناس كانت العلاقات فيما بينك وبينهم علاقات طيبة.

الآن، الهزء والسخرية للآخرين أيضاً هو سبب للغضب، أنت سخرت من إنسان، فكال لك الصاع صاعين، فغضبت، أنت السبب، فأنت سخرت منه، أنت استهزأت به، أنت قرَّعته، أنت استخرفت به، السخرية والهزء بالآخرين يسبب رداً مقابلاً، وعندها ينشأ الغضب، كل مجموعة أصدقاء، إذا في مزاح بينهم، فأغلب الظن أن هذا المزاح ينقلب إلى عداء شديد، أخي مرفوعة الكلفة بيننا، مرفوعة الكلفة صار في عداء.

الآن كثر المزاح تسبب الغضب، من أسباب الغضب، يمزح مع زوجته، فتمزح هي معه مزاحاً أشد، فيغضب ويقلعها إلي أهلها، أنت الذي بدأت، أنت رافع الكلفة، تمزح، وهي ردت عليك بمزحة أشد طبعاً، لم يتحمل، أنت الذي بدأت، والبادئ أظلم، فأحد أسباب الغضب المزاح، أحد أسباب الغضب الكبر والتعالي والتفاخر، تفتخر، فيفتخر هو أكثر منك، أنا، لا أنا، يتلاسنوا، يتغاضبوا، أو الهزء والسخرية، فالكبر والتعالي والتفاخر، والهزء والسخرية والمزاح في غير حق، النبي كان يمزح، ولكن مزاح لطيف جداً، كان مزاحه صلى الله عليه وسلم يؤلف القلوب يطيب الخواطر.

الآن، الجدال، هذا القلب الحي، هذا الجدال الطويل مع الناس، قيل وقال وكذا وكذا، هذا يسبب الغضب أيضاً، التدخل فيما لا يعنيك يسبب الغضب، الحرص على معرفة أخبار الناس يسبب الغضب، الحرص على فضول المال والجاه يسبب الغضب، فالحرص على المال والجاه، أن تلتفت لما لا يعنيك، الجدل، المزاح، السخرية، الهزء، الكبر، التعالي، هذه كلها من أسباب الغضب، فإذا قال عليه الصلاة والسلام لهذا الصحابي الجليل: لا تغضب. أي ابتعد عن أسباب الغضب، إن تكبَّرت، هناك من يتكبر عليك فيغضبك، إن استهزأت، هناك من يستهزئ بك فيغضبك، إن تدخلت فيما لا يعنيك، هناك مَن يسكتك، إن أكثرت الجدل، هناك مَن يفحمك، إن تطلعت إلى ما ليس لك، هناك مَن يقسمك. إذاً هذه أسباب الغضب:

كبر، تعالي، تفاخر، سخرية، هزء، مزاح، جدل، تدخُّل، حرص على فضول المال والجاه، هذا كله من أسباب الغضب، والغضب يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه.

أنا أقول لكم وأنا أعني ما أقول: تكاد تكون معظم مشكلات الناس، أساسها الغضب، خلاف الزوجة، خلاف بين الشركاء، تكلَّم بكلمة قاسية، هذه الكلمة القاسية سببت كلمة أقسى، أنت ناقش، قل له: هذا العمل غير صحيح، أنا ليس مقتنع به، أما أن تقول: أنت لا تفهم، فهذه أصبحت تجريح، المناقشة شيء والتجريح شيء آخر، الحوار شيء، والسباب شيء آخر، الإقناع شيء وانتهاك كرامة الآخرين شيء آخر، فحينما تترك الإقناع والدليل والبرهان والحوار الهادئ ؛ إلى السباب والشتم والاستهزاز والتقريع، والتحقير والسخرية والاستهزاء، عندئذٍ تنشب معركة، وليس هناك إنسان إلا يقدر يؤذي، ويقدر يزعج، ما في إنسان ليس له أظافر، لو عندك مستخدم، إذا أردت أن تضايقه زيادة، سيتكلم عليك أشكال ألوان بالخارج، سمعتك سيئة، مستخدم، لأن صار في استفزاز.

هذه القصة رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيجب أن نفهمها من زاوية واحدة ؛ من زاوية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان حليماً، وقد أعطانا دروساً في الحلم، يأتيه رجل مشرك، أراد أن يمتحن حلمه، فهذا الرجل اسمه زيد بن سِعْنَة قبل إسلامه، أراد أن يختبر صفة النبوة في النبي صلى الله عليه وسلم، هو يعلم أن النبي حليم، ويبدو أن هناك تعامل مالي فيما بينهما، فهذا طالب سول الله صلى الله عليه وسلم بدين له، لم يبلغ أجله بعد، بفظاظة وغلظة، فيقابله النبي صلى الله عليه وسلم بكل رحابة صدر، وابتسامة ثغرٍ، سيدنا عمر جالس لم يتحمل، سيدنا عمر غضب غضباً شديداً، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى عمر يغضب، فيقول لهذا الصحابي الجليل سيدنا عمر:

((أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا يا عمر))

نحن لسنا محتاجين إلى غضبك، نحن محتاجون إلى شيء آخر، فما هو الشيء الآخر ؟ قال يا عمر:

((تأمرني بحسن القضاء وتأمره بحسن التقاضي ـ بلاً من أن تغضب، وجهه لأن تكون مطالبته أديبة، وقل لي: أدِّ ما عليك))

هذا درس بليغ لنا، أحياناً الإنسان في شخص يتطاول، ممكن أنت تكون أقوى منه وتبطشه، أما لو علمته درس بالحلم، وقد يكون غير محق، سيدنا عمر بالحق غضب، لأن النبي الكريم كامل، ومعصوم، وله مكانة كبيرة، ولكن غير المؤمن لا يعرف مكانة النبي، أحياناً الإنسان يتمنى من الناس يعاملونه على أنه مؤمن، لا يعرفونك أنك مؤمن، أنت بهذه النقطة قصَّرت، فإذا واحد انتقدك، معه حق ينتقدك، فالنبي عليه الصلاة والسلام اتخذ موقف دقيق قال له: يا عم، أنا وهو لسنا نحتاج هذا الموقف نحتاج تأمره بحسن الاقتضاء، وأن تأمرني بحسن الأداء.

طبعاً موقف في تعليم ؛ لو إنسان كان لا يعرف مكانتك، لا يعرف قدرك، تجاوز حده، عليك أن تقابله بالحلم، وأن تقابله بالعفو، ومن أدراكم أن هذا الموقف الحليم من النبي الكريم، كان سبب إسلام هذا الإنسان !! فتروي كتب السيرة أن هذا الرجل بهذا الموقف الحليم من النبي عليه الصلاة والسلام، كان هذا الموقف سبب إسلامه رضي الله عنه.

النقطة التي أود أن أقولها لكم، وهذه قد تعانون منها مع الناس: أنت ابن مؤمن، لك سلوك إلى الله عز وجل، لك جامعك، لك دروس، لك ثقافتك، لك ورعك، لك حبك لله عز وجل، أحياناً بخطأ منك أو بسهو يأتي شخص لا يعرفك، لا يعرف عنك شيئاً، فيحاسبك حساباً دقيقاً، أنت كن له واسع الصدر، من حقه فقد يطلب منك شيئاً كأن يقول لك: أريد هويتك، انظر هذا هويتي، أخي أنت نفسك، يكون شخص يكون له مكانة كبيرة اسمح لنا بالهوية، لماذا تغضب، من حقه ؟ معقول أكذب، أنت لا تكذب لكن غيرك يكذب، في مواقف، فالإنسان يكون بمكان لا أحد يعرفه، لا يعرف بهذه المكانة، فقد يطالب بشيء قد يستفزه هذا الشيء، فالأكمل ألا تغضب، وأن تكون كما فعل النبي عليه الصلاة والسلام فقد كان رحب الصدر، واسع الحلم، عظيم القدر، عفواً، مسامحاً.

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، حتى يخيِّريه في أي الحور شاء))

(من الجامع لأحكام القرآن: عن " أنس ")

وفي حديث آخر رواه الإمام أحمد:

((ما كظم عبدٌ لله إلا ملأ جوفه إيماناً ". وفي رواية: أمناً وإيماناً))

ما معنى أمن وإيمان، إذا واحد استفزك، وأنت بطشت فيه، لا تنام ليلتك، يا ترى ماذا يفعل معي بكرة؟ يعمل لي مشكلة بسيارتي ؟ يجوز يعمل لك مشكلة بالسيارة مثلاً، هل يا ترى يقف لي على الطريق، يعمل لي قصة، يعمل لي حكاية ؟ لا تنام الليل، أنت بطشت فيه، لو كنت معه حليم تنام مرتاح، البطَّاش والمنتقم ينام قَلِق، فالنبي الكريم أشار:

((ما كظم عبد لله إلا ملأ جوفه أمناً وإيماناً))

الأمن قبل الإيمان، أنت لم تؤذه، كنت حليم، ترفعت عن إيقاع الأذى به، ترفعت عن الانتقام، فما عاد في انتقام من قبله، لكن ما من إنسان يبطش بالآخرين إلا وهو يترقب أن يبطشوا به، أو أن يؤذوه، أو أن يوقعوا الضرر فيه.

في عندنا شيء آخر: لما الإنسان يغضب عليه أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، لكن دائماً وأبداً إياكم أن تفهموا أن هذه الاستعاذة يمكن أن تقبل بلسانك، فهي لا تقبل إلا بقلب حاضر، فإذا غضب، وبدأ

يرجف، فليقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. فالاستعاذة مع حضور القلب هذه تزيل كل ألوان الغضب، يروى أن رجلان استبا عند النبي صلى الله عليه وسلم، شخصين عاديين، والنبي كان ماشي بالطريق، وتسابوا، يسب صاحبه مغضباً قد أحمر وجهه، فقال عليه الصلاة والسلام:

((إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم))

(من مختصر تفسير ابن كثير، للإمام الصابوني)

أنا سمعت عن بعض الأشخاص ـ ولا أدري ما صحة ذلك ـ إذا كان في خناقة في الطريق يؤذن، إذا قال: الله أكبر. يهرب الشيطان، الشيطان داخل فيهم، فالأذان أحياناً يهرب الشيطان، إذا رأيت اثنين ضايجين استعذ بالله من الشيطان الرجيم، وقل: الله أكبر. فلعل هذا الشيطان الذي دخل بينهما يخرج.
الآن، في عندنا عدة حالات النبي الكريم أوصانا بها إذا غضبنا، أول شيء: أن تغير حالتك، فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فيضجع " الواقف يتحرك، اقعد ارتاح، ما زلت ترجف، تسطح، اجلس واضطجع، الواقف يريد أن يتحرك، يريد يكسر، يطبش، طول بالك، قال النبي الكريم: " إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب ذهب وإلا فليضجع "))

(من الجامع لاحكام القرآن: عن " أبي ذر ")

الآن، ترك الكلام، هذه نصيحة لوجه الله: طلع خلق الزوجة فاسكت أنت، لأن منك كلمة الآن وهي تغلي غليان، فلو قال لها: ما عجبك. تجبه: ما بدي هذا البيت، اسكت، إذا غضبت اسكت، وعلمها إذا غضبت هي كذلك تكست، فالنبي الكريم علمنا قال: ترك الكلام، فقد روى الإمام أحمد والترمذي وأبو داود:

((إذا غضب أحدكم فليسكت))

والإنسان غضبان أي كلمة تقولها كأنك تصب على النار الزيت، إذا قلت: أشهد ألا إله إلا الله، لا يتحمل، أحياناً تكون الزوجة غاضبة فيقول لها: الله عز وجل جعلنا قوَّامين عليكن. فتكردس، لا تستخدم الأحاديث لمصلحتك وهي غضبانة، أبعد عنها، فهي ليست بعقلها الآن، تخليها توقعها بكلمات كفر، كل شيء ممكن يزوِّد الغضب وقف عنه، هذا التوجيه الثاني، إذا غضب أحدكم فليسكت.
وفي نصيحة ثانية: إذا كانت الشغلة كبرانة اطلع من البيت كله، غادر البيت، الوضوء أيضاً، الوضوء يخفف من الغضب، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((ألا إن الغضب جمرة تتوقد في قلب ابن آدم فإذا غضب أحدكم فليتوضأ"))

حميان الموتور يحتاج لتبريد، كثير غضبان صب ماء، إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار فإذا غضب أحدك فليتوضأ.

في أول الدرس في أخ ذكرنا، أن في غضب لله عز وجل، هذا محمود، هذا محمود جداً أن تغضب لله، يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان أشد حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه، كان له عرق ينبض، كان يغضب لكن المؤمن لا يغضب إلا لله، إلا إذا انتهكت حرمات الله، إلا إذا اعتدي على إنسان ظلماً، إلا إذا رأى إنساناً محروماً، إنساناً مهضوم الحق، فكان يغضب عليه الصلاة والسلام، هذا الغضب المحمود. وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه: كان لا يغضب لشيءٍ، فإذا انتهكت حرمات الله عز وجل، فحينئذ لا يقوم لغضبه شيء. هذا الصاحب، أحد الأدباء قال: لي صاحب كان من أعظم الناس في عيني وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينيه، كان خارجاً عن سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، إذا واحد سلطان بطنه قوي عليه يغضب من أجل بطنه، فكان لا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجاً عن سلطان الجهالة، فلا يتكلم بما لا يعلم، ولا يماري بما علم، وكان أكثر دهره صامتاً، فإذا تكلم بذ القائدين، وكان يرى ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جد الجد فهو الليث عادياً، المؤمن بالمظهر آدمي، درويش، أما إذا انتهكت حرمات الله عز وجل، صار إنسان آخر ؛ يغضب لله.

((كان لا يغضب لشيء، فإذا انتهكت حرمات الله عز وجل فحينئذٍ لا يقوم لغضبه شيء))

(رواه البخاري ومسلم)

الآن سؤل: إذا الإنسان غضب وخالف السير، هل يعد غضبه ملغياً للمخالفة ؟ لا، بالقوانين الغضب لا يعفيك من المسؤولية، كذلك في الدين الغضبان مسؤول عن تصرفاته، إذا كنت في محل تجاري وغضبت وأمسكت بحاجة وكسرتها، تفضل ادفع ثمنها، أنا كنت غضبان، ما في كنت غضبان، الغضبان يدفع ثمن غضبه، فالغضبان مسؤول عن تصرفاته، فإذا أتلف الإنسان حال غضبه شيئاً ذا قيمة لأحد فإنه يضمن هذا الشيء لصاحبه، وإذا قتل نفساً فإنه يقتل ولو كان غاضباً، وإذا تلفَّظ بالكفر حُكم بردته عن الإسلام حتى يتوب، غضب فسب بالدين وسب الأنبياء كلهم، وإذا كنت غضبان، المؤمن في عنده مليون حاجز قبل أن يصل لهذا المستوى، فالإنسان ولو كان غضبان وتلفظ بكلمات الكفر يحاسب عليها حساباً عسيراً، وإذا طلق الغضبان، يقع طلاقه ؟ يقع، أما هذا الطلاق الذي لا يقع حالة من الغضب لا تقع بالمليون مرة مرة وهي ألا يعرف السماء من الأرض، إذا واحد غضبان إذا ما عرف الأرض من السماء، ولا الطول من العرض، هذه الحالة نادرة جداً، أما أكثر الذي يطلقون بساعة غضب، واعي هذا سقف وهنا الأرض تحت.

آخر شيء في الدرس هو: أن الإنسان أحياناً يحتاج في قيادة بعض الأمور إلى أن يتغاضب، فالغضب شيء، والتغاضب شيء آخر، العقلاء يتغاضبون، مرة قيل لسيدنا عمر: أنك شديد، والناس يهابونك، فبكى وقال: " والله يا أبا ذر لو يعلم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عبائتي هذه، ولكن هذا الأمر لا يناسبه إلا كما ترى " أحياناً الإنسان يحتاج يتغاضب، أي يعمل حاله غضبان، وأنت صعب تعرف غضبان أما متغاضب، لأنه صعب تجد الفرق بينهما، فالعاقل إذا كان بموقع قيادي، إذا كان ناعم زيادة لا أحد يسمع كلامه، ففي حالات من التغاضب هذه محمودة، أما من الداخل هادئ، من الداخل متملّك لأمور تماماً، يتغاضب، مرة سيدنا رسول الله اللهم صلي عليه عيَّن سيدنا أسامة بن زيد وهو في سن صغيرة جداً، سبعة عشر عاماً، عينه قائداً على جيش فيه أبو بكر وعمر، وتوفي النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا الجيش لم يرسل بعد، أراد سيدنا الصديق أن ينفذ بعث أسامة، وينفذ مشيئة النبي بعد وفاته، فرأى الصحابة تململوا، غير معقول سبعة عشر عاماً بالحادي عشر، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، كبار الصحابة، شيوخ كبار، ويقودهم سبعة عشر عاماً؟ فالصحابة تململوا، كأن ما في داعي الجيش يطلع الآن في حرب ردة، فسيدنا الصديق، هم همسوا بأذن سيدنا عمر قل له صاحبك يسمع كلامك، فجاء عرض له رأيه، فيقول سيدنا الصديق، أمسك عمر بن الخطاب من لحيته، وهزها هزاً شديداً، كادت تنخلع بيده قال: " ثكلتك أمك يا ابن الخطاب جبار في الجاهلية خوار في الإسلام، أتمنعني أن أجيِّش جيشاً جيشه رسول الله ؟! ". هذا غضب أم تغاضب ؟ هذا تغاضب، المؤمن كالبحر، لكن في مواقف تقتضي أن يظهر غاضباً، فالصحابة لما رأوا سيدنا عمر هزت ذقنه، فسكتوا، وانصاعوا، ومشي الأمر، في مواقف كثير جداً الإنسان يحتاج إلى أن يتغاضب، وإلا القيادة تحتاج إلى شدة، اللين أحياناً لا يجدي، لابد من الشدة، أو الأصح أن تكون حكيماً، أن تكون شديداً في موضع الشدة، وأن تكون ليناً في موضع اللين، في مواقف لابد لها من الشدة.

يقولون أن سيدنا رسول الله وقع ذات مرة أسير بين يديه، فترجاه وطلب العفو وعنده بنات، فعفا عنه النبي، وطبعاً بعد أن عفى عنه، وعاد إلى أهله وإلى قريش، عاد إلى سيرته الأولى، نكّل بأصحاب النبي، وقاتلهم، وهجاهم، لم يتب إطلاقاً، ولكنه وقع مرة ثانية أسيراً، فأعاد الكرة، قال: " لا والله، اقتلوه، لئلا تقول: خدعت محمداً مرتين " في مواقف لا يجب أن تكون ليِّن، متساهل، عندئذٍ ينتهي الأمر، فنحتاج إلى شدة من غير عنف، ولين من غير ضعف، لا تكن قاسياً فتكسر، ولا ليناً فتعصر، إذاً التغاضب غير الغضب، في أحد المفكرين والمصلحين، له كلمة قال: أنا أرضي أعدائي ولا أسترضيهم. الاسترضاء فيه تذلل، فيه خنوع، فيه بهدلة، أما يرضيهم بأفعاله، ولا يسترضيهم بأقواله.

((لا يقضي القاضي حين يقضي وهو غضبان))"

ملخص الدرس: كاد الحليم أن يكون نبياً، والحلم سيد الإخلاص، وهذه أخلاق المسلم، وأخلاق المؤمن، وأخلاق النبوة، وأخلاق القرآن، ثم من صفات المؤمن الحلم، أما الغضب والصياح، والضجيج، والضرب والمُشادة، هذه صفة عامة الناس وسوقتهم ودهمائهم، أما الخاصة من المؤمنين هو في موقع أرقى بكثير من أن يغضب، أنا أذكر حينما كنت طالباً في المدارس كان في مدرس غضوب، فالطلاب يستفزوه، يضعوا له على الطاولة شيء مزعج، يدخل يغضب ويزمجر، ويطلب، جاء مرة مدرس آخر كان هادئ جداً، وضعوه له أشياء مزعجة على الطاولة قال: أين العريف ؟ أطلب الآذن، وأمره بأن يرفع هذه الأشياء، لم يسترج طالب يعيدها معه، هذا الموقف الهادئ أنهى الموضوع، أما الذي يصخب ويضوج الناس يضوجوه بزيادة، فالإنسان يكون هادئ حتى يسكت الألسنة كلها.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (034) :حديث - أرأيت إذا صليت المكتوبات وصمت رمضان.....

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-05-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... حقائق الدين ثابتة، فأي داعيةٍ، أو أي خطيبٍ، أو أي عالمٍ ركز على بعض الأشياء وضخَّمها، وقلل من أهمية بعض الأشياء وصغَّرها فقد حاد عن الطريق المستقيم. مرةً ثانية حقائق الدين ثابتة، أي داعيةٍ، أي خطيبٍ، أو أي عالم ، أي مرشدٍ ضخم بعض الأشياء، وقلل من بعض الأشياء فقد حاد عن الطريق الصحيح.

هذه المقدمة بدأت بها لأن حديث اليوم من الأحاديث التي وردت في الأربعين النووية، وهو حديثٌ له فائدة تربوية دقيقة جداً، نستخدمه في الدعوة إلى الله عزَّ وجل، لكن لا أريد أن تضخم شيئاً له حجمٌ أقل من حجمه، ولا أن تصغر شيئاً له حجمٌ أكبر من حجمه، فالتضخيم مجانبةٌ للحق، والتصغير مجانبةٌ للحق، فمثلاً:

هناك دعاةٌ يركِّزون في الاستقامة على أمر الله على نقطةٍ أو نقطتين تركيزاً شديداً جداً، وفي نقاط أخرى خطيرة جداً يهملونها، فهذا طالب العلم يُبْنَى بناءً مغلوطاً، فمن جهةٍ هو متشددٌ إلى درجة التذمُّت في ناحية، ومتساهل إلى درجة التسيُّب من ناحية ثانية، لا هذا هو الحق، ولا ذاك هو الحق، أي لئلا نتشدد في موطن يجيب أن نتساهل فيه، ولئلا نتساهل في موطن يجب أن نتشدد فيه، لئلا تأتي أحكامنا تارةً مبالغاً بها، وتارةً ذات شأنٍ قليل، لئلا نقع في التطرف، لئلا نقع في الانحياز.

فمثلاً: إذا ركزت على القلب وأهملت الجوارح، هذه دعوةٌ عرجاء، وإذا ركزت على الجوارح وأهملت القلب، هذه دعوةٌ عرجاء، إذا ركزت على العِلم وأهملت القُرب، إذا ركزت على القرب وأهملت العلم، إذا ركزت على كل ما يتعلّق بالنساء وأهملت آفات اللسان، إذا ركزت على آفات اللسان وأهملت فيما يتعلق بالنساء، أية دعوةٍ تركز على جانبٍ وتهمل جانباً ؛ تركز على الدنيا وتهمل الآخرة، تركز على الفكر وتهمل العمل، تركز على العمل وتهمل الفكر، تركز على القلب وتهمل الفكر، الإنسان فكر وقلب وجوارح.

فأردت من هذه المقدمة أن أبين: أن أي تطرُّفٍ، أو أي مبالغةٍ، أو أي انحرافٍ، أو أي تركيزٍ على جانبٍ دون جانب، أو أي تقليلٍ لجانبٍ دون جانب، هذا مجانبةٌ للصواب، فالنبي عليه الصلاة والسلام في حديثٍ صحيح رواه الإمام البخاري والإمام مسلم، مطلعه: عن أبي عبد الله جابرِ بن عبد الله

الأنصاري رضي الله عنهما ـ أي هو وأبوه من الصحابة، إذا قلنا: رضي الله عنهما، هو وأبوه من الصحابة ـ أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((يا رسول الله أرأيت إذا صليت المكتوبات، وصمت رمضان، وأحللت الحلال وحرَّمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئاً أأدخل الجنة ؟ فقال الصلاة والسلام: نعم))

كلام رسول الله، لا ينطق عن الهوى..

((يا رسول الله أرأيت إذا صليت المكتوبات ـ الصلوات الخمس ـ وصمت رمضان، وأحللت الحلال وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئاً أأدخل الجنة ؟ فقال الصلاة والسلام: نعم))

(رواه مسلم)

طبعاً معنى حرَّمت الحرام أي اعتقدت حرمته واجتنبته، ومعنى أحللت الحلال أي اعتقدت حِلَّه وفعلته، هذا هو المعنى. قال بعض علماء الحديث: هذا حديث عظيم الموقع وعليه مدار الإسلام كله، لأن الأفعال إما أنها قلبية أو بدنية، وكلٌ منهما إما أنه مأذونٌ أن تفعله وهو الحلال، أو ممنوعٌ أن تفعله وهو الحرام، فإذا فعلت المأمورات وتركت المنهيات فقد استحققت الجنة.

الحقيقة نحن في الأحاديث الشريفة هناك أحاديث أخرى تفسر هذا الحديث، ففي حديثٍ آخر يفسر مَن هذا الرجل ؟ ألم يقل أبو عبد الله جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما أن رجلاً سأل النبي ؟ قال: هذا الرجل هو النعمان بن قوقل الخُزاعي، شهد بدراً، وقتل يوم أحدٍ شهيداً وهو القائل يومها ـ قال بأحد ـ قال: يا رب أقسمت عليك رب العزة لا تغيب الشمس حتى أطأ بعرجتي هذه خضر الجنة. كان أعرجاً، قال: يا رب أقسمت عليك رب العزة لا تغيب الشمس حتى أطأ بعرجتي هذه خضر الجنة. فقال النبي عليه الصلاة والسلام بعد استشهاده:

((إن النعمان ظن بالله عزَّ وجل خيراً فوجده عند ظنه))

أي كمؤمن إذا تدللت على الله عزَّ وجل، طلبت منه طلب عظيم وأنت صادق، إياك أن تظن أن الله يخيب ظنك، لأنه:

((أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما يشاء))

(الجامع لأحكام القرآن)

قال له: أقسمت عليك رب العزة لا تغيب الشمس حتى أطأ بعرجتي هذه خضر الجنة. فقال النبي صلى الله عليه وسلم بعد استشهاده:

((إن النعمان ظن بالله عزَّ وجل خيراً فوجده عند ظنه، ولقد رأيته يطأ في خضرها ما به من عرج))

هكذا قال النبي. هذا الرجل هو الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((يا رسول الله أرأيت إذا صليت المكتوبات ـ الصلوات الخمس ـ وصمت رمضان، وأحللت الحلال وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئاً أأدخل الجنة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: نعم))

إياكم أن تظنوا أن في هذا الحديث تسهيلاً، أخي صلاة وصوم القضية سهلة، صلاة وصوم وأن تحل الحلال وأن تحرم الحرام، أي استقامة تامة، أن تفعل المأمورات وأن تدع المنهيات، أن تفعل ما أمرك الله به وأن تدع ما نهاك عنه.

في شيء آخر: كلمة (أرأيت) أي يا رسول الله أفتني، أي أرأيت لو فعلت كذل وكذا، هذا المصطلح أو هذه العبار تعني بالضبط أفتني وأفدني يا رسول الله، والمكتوبات هم الصلوات الخمس المفروضات، ورمضان شهر الصيام المعروف، أحللت الحلال ـ هنا الدقة ـ اعتقدت إنه حلال وفعلته، وحرمت الحرام اعتقدت أنه حرام واجتنبته، فبالإحلال والتحريم في جانب فكري وجانب سلوكي، اعتقدت حليته وفعلته، واعتقدت حرمته واجتنبته، طبعاً الحرام هو كل ما منعك الشرع أن تفعله على وجه الجزم والقطع.

الحقيقة النبي عليه الصلاة والسلام حدد لطريق الجنة حدوداً، ودعا الناس إلى السير فيها، وهذا الطريق في طاقة الإنسان، يجب أن تعتقد اعتقاداً جازماً أن ما طالبك الله به ضمن طاقتك، فأي كلامٍ تسمعه عن أن الاستقامة صعبة، وهي شيء فوق طاقة الإنسان، هذا كلام مرفوض لأن الله عزَّ وجل يقول:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: من آية " 286 ")

الوسع لا تحدده أنت بل يحدده ربك، هو الخالق، هو المربي، هو الخبير، الوسع يحدده رب العزة، فإذا أمرك الله بأمرٍ فهو قطعاً ضمن طاقتك، الخطأ الكبير أن الإنسان يجتهد بوسواس من إبليس أن هذه فوق طاقتك يا أخي، أين تذهب بعيونك في الطريق ؟ والله لو أردت لغضضت، كيف تصلي العصر ؟ لو أردت لفعلت، وراقب نفسك في أمور أخرى تكاد تكون مستحيلة أن تفعلها إن كانت في صالحك، حينما تتوافق مع مصلحتك، وحينما تتعلق بها قضيةٌ هامة في حياتك تفعلها بشكلٍ عجيب.

على كلٍ الحديث يتَّجه إلى التيسير لا التعسير، وإلى التقريب لا التبعيد، وإلى التبسيط لا التعقيد، الحديث يتجه للتيسير والتبسيط والتقريب، والحقيقة أن هذا الذي سأل: إن فعلت هذا أأدخل الجنة ؟ معنى هذا هو مشتاقٌ لدخول الجنة، ولن تكون مؤمناً إلا إذا تطلَّعت إلى الجنة، لن تكون مؤمناً إلا إذا نقلت اهتماماتك كلها إلى الجنة، مشتاقٌ لدخول الجنة، هي محط الرحال ومعقد الآمال.

وعلى شاكلة هذا الحديث هناك أحاديث كثيرة، روى البخاري ومسلم عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم:

((أخبرني بعملٍ يدخلني الجنة ؟ قال: تعبد الله لا تشرك به شيئاً ـ طاعة الله، العبادة هي الطاعة، ولكن طاعة تسبقها معرفة، تعقبها سعادة ـ وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم))

عند مسلم:

((دلني على عملٍ أعمله يدنيني من الجنة ويباعدني من النار))

كملخَّص: الله هو الحق، والجنة هي الهدف، فأي عملٍ، أي سلوكٍ، أي تصرفٍ، أي نشاطٍ، أي تفكيرٍ، أي موقفٍ يقرِّبك من الله والجنة فهو حق، وأي سلوكٍ، ونشاطٍ، وعملٍ يبعدك عن الله والجنة فهو الباطل، الباطل ما أبعدك عن هدفك والحق ما قربك من هدفك.

حديثٌ آخر: روى أحمد بإسنادٍ عن ابن المُنْتَفِق أنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو بعرفات فقلت: اثنتان أسألك عنهما ـ أي شيئان اثنان ـ ما ينجيني من النار، وما يدخلني الجنة ؟ فالنبي عليه الصلاة والسلام، السؤال كبير، واحد قال لك سؤال صغير: يلزمني بيت في المالكي وفيلا هنا، ومعمل صغير وسيارة، فقط ؟ سأل سؤال كبير جداً، فقال عليه الصلاة والسلام:

((لئن كنت أوجزت في المسألة، لقد أعظمت وأطولت))

أي سألت عن عظيم والطريق إليه طويل. الجنة شهرين زمان فرنا فورة وبعدها همدنا، ألاحظ إخوان كثير له فورة، حلوة الفورة، لكن بعدها لم نعد نراه، أين هو ؟ شهر، شهران أو ثلاثة مثل الرغوة وبعدها همد فرد همدة، بعد الزواج لم نعد نراه، بعدما فتح محل لم نعد نراه، الجنة طريق طويل، وكل العمر طريق للجنة، الواحد يوطِّن نفسه بطاعة الله عزَّ وجل، والإقبال على العلم بالسراء والضراء، قبل الزواج وبعد الزواج، بالغنى، بالفقر، برمضان، خارج رمضان، طريق طويل، قال له النبي الكريم:

((لقد أعظمت وأطولت سألت عن عظيم والطريق إليه طويل، فاعقل عني إذاً ـ أي اسمعني، انتبه ـ اعبد الله لا تشرك به شيئاً، وأقم الصلاة المكتوبة، وأدِ الزكاة المفروضة، وصم رمضان ـ أما آخر واحدة أصعب واحدة ـ قال له: وما تحب أن يفعله بك الناس فافعله بهم، وما تكره أن يؤتى إليك فذر الناس منه))

هذا أدق مقياس، يعني عامل الناس كما تحب أن يعاملوك، قال له:

اعبد الله لا تشرك به شيئاً، وأقم الصلاة المكتوبة، وأدِ الزكاة المفروضة، وصم رمضان وما تحب أن يفعله بك الناس فافعله بهم، وما تكره أن يؤتى إليك فذر الناس منه ".

هذا العظيم والطويل، الحقيقة الحديث فيه استنباطاتٌ كثيرة، الاستنباط الأول: أن طريق الجنة طريقٌ ضمن طاقة الإنسان. الاستنباط الثاني، قال له:

((أرأيت إن صليت المكتوبات، وصمت رمضان، وأحللت الحلال وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئاً أأدخل الجنة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: نعم))

طريق الجنة طريق ميسور وسالك، وكل ما في هذا الطريق بإمكانك أن تجتازه، لو أنه فوق طاقة الإنسان لما استحق الإنسان دخول الجنة، ولما عوتب على تركها.

الاستنباط الثاني: أن التزام الفرائض وترك المحرَّمات أساس النجاة، كثير في حلقات دينية لهم حركات، وأوراد، وحضرات، جميل جداً، أما لو كان في تاركين فرائض، لو في أكل مال حرام هذا كله لا يغني شيئاً، قبل النوافل ترك المحرمات وفعل الواجبات، أساس النجاة ترك المحرمات وفعل الواجبات.

الشيء الثاني: طبعاً الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، والصيام كذلك، الصيام الفريضة الثانية بعد الصلاة، لكن عندما قال هذا الصحابي الجليل: "... ولم أزد على ذلك شيئاً ". كيف يعني ؟ كيف نفسر ولم أزد على ذلك شيئاً..

((أرايت إذا صليت المكتوبات، وصمت رمضان، وأحللت الحلال وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئاً أأدخل الجنة ؟ فقال: نعم))

فما هو الشيء الذي لم يزد فيه ؟ النوافل، قال: الشيء الذي لم يزد فيه فعل النوافل، وترك المكروهات، والتورُّع عن بعض المباحات، المقصود بالزيادة أنه هناك مباحات فعلها، هناك من يترفَّع عنها، في نوافل أهملها، في مكروهات وقع فيها، هذا معنى لم أزد على ذلك شيئاً.

في استنباط دقيق جداً، لماذا أقرَّه النبي على ذلك ؟ في سبب وجيه وسبب تربوي، أولاً النبي عليه الصلاة والسلام يخبر عن الله تعالى أنه يقول:

((ما تقرب إلي المتقربون بمثل أداء ما افترضته عليهم))

(من شرح الجامع الصغير: عن " السيدة عائشة ")

أعظم قربة إلى الله أن تؤدي ما افترضه الله عليك، بادئ ذي بدء، وفي الآية الكريمة:

(وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (112))

(سورة التوبة)

بشارة للمؤمن الذي حفظ حدود الله.

في الحديث الشريف:

((ما من عبدٍ يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويخرج الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع، إلا فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء))

(من الدر المنثور: " أبي هريرة ")

وقوله تعالى:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً (31))

(سورة النساء)

أقول لكم مرةً ثانية: هذا الحديث تفوح منه رائحة التيسير لأن الله عزَّ وجل يقول:

(يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)

(سورة البقرة: من آية " 185 ")

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: من آية " 286 ")

(وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)

(سورة الحج: من آية " 78 ")

في سؤال دقيق: لماذا تساهل النبي ؟ فقط قال له: أنا أصلي وأصوم، وأحلل الحلال، وأحرم الحرام، إن فعلت هذا أدخل الجنة ؟ قال: نعم. ولم أزد على ذلك، لماذا تساهل النبي؟ هنا السؤال، كلامه حق، يبدو أنه إذا كان داعية أو عالم جاءه طالب علم، شعر أن الاستقامة ثقيلة عليه، قال له: دع المحرمات، وافعل الفرائض، وأد الصلوات، وصم رمضان يكفي، في إنسان مشتاق ؛ يحب النوافل، يترك المباحات أحياناً، يتقرَّب بالقربات، يدفع أكثر من زكاة ماله، هذا إنسان بارك له هِمَّته، بارك له سعيه، بارك له إقباله، بارك له عزيمته، لكن جاءك إنسان إذا وضعت له شوط تعجيزية ؛ لابدَّ من أن تذكر الله كل يوم خمس ساعات مثلاً، وقيام الليل، والنوافل، والأوابين، يقول لك: والله شغلة صعبة، أتمنى ولكنها صعبة. إذا جاءك إنسان همته ليست كما تريد، أراد أن يكتفي بالفرائض، وأن يدع المحرمات، وأن يصلي، وأن يصوم فهذه طريقة تربوية لأن تدفعه إلى ذلك.

يقولون أن واحد قال له شخص لا يصلي، تارك الصلاة، قال له: أنا أصلي الصلوات عدا الفجر هذه صعبة علي، فقال له: صلِ أربع صلوات وضعها برقبتي، والفجر صليه قضاء، فأقاموا عليه النكير ـ بعض الناس ـ قال لهم: أنا أقنعته بأربع صلوات، أقنعوه بالخامسة أنتم. الحديث تقريباً اتجاهه أن الإنسان يجب ألا يضع عراقيل تعجيزية أمام طلاَّب العلم. هذا الصحابي صريح قال له:

((أرأيت إذا صليت المكتوبات، وصمت رمضان، وأحللت الحلال وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئاً أأدخل الجنة ؟ قال: نعم))

الحقيقة في استنباط دقيق، الصراحة، نحن عايشين في عصر فيه نفاق كثير، تجد إنسان له مظهر ديني صارخ، ويحكي عن أذكاره، وعن صلواته، وعن قيامه، وله خبصات كبيرة أحياناً، وفي له مخالفات شنيعة، وله مواقف لا ترضي الله عزَّ وجل، ومع ذلك يتحدث عن قيام الليل، ومع هذا يتحدث عن بكائه في الصلوات، هذا موقف فيه نوع من النفاق، الصحابي كان صريح، والأكمل أن تكون صريحاً، إن لن تستح من الله فليس من المعقول أن تستحي من عباده، وأن تدع الحياء من الله عزَّ وجل، فكن صريحاً، الصحابي كان صريح، قال له: ولم أزد على ذلك شيئاً، قال له: تدخل الجنة.

فتوجيه الحديث: كأن النبي عليه الصلاة والسلام أثنى على صراحته، وأثنى على جرأته، وأثنى على موقفه الواقعي، هذا استنباط أيضاً.

يرووا أن أحد الأئمة كان يمشي في الطريق، فسمع رجل يقول لآخر: هذا الإمام لا ينام الليل ـ هو أبو حنيفة النعمان ـ فيروى أن هذا الإمام استحيا من الله أن يظن به الناس ظناً غير واقعي، من بعد هذه الكلمة صار يقوم معظم الليل. فشيء شنيع جداً أن يظن الناس بك خيراً وأنت دون ذلك، فالإنسان لا يستحي من الناس بل يستحي من الله عزَّ وجل.

واحد وقف أمام الرسول وقال: إني نؤوم، ادعو الله أن يذهب عني النوم. فقال عليه الصلاة والسلام:

((اللهم أذهب عنه النوم إذا شاء))

لأن القضية باختياره.

واحد قال له: إني منافق، فقام سيدنا عمر ليضربه، فقال له: دعه يا عمر:

((فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة))

(من كنز العمال: عن " الفضيل ")

إذا أنت مع الله صادق لا تحاول تعمل مظهر ديني صارخ وأنت ليس كذلك، تغش مَن ؟ هؤلاء الذين تظهر أمامهم بهذا المظهر الديني لا قيمة لهم عند الله، ولا ينفعوك إطلاقاً، إن خدعتهم لن تخدع الله عزَّ وجل. فأنا أعجبني في هذا الحديث صراحة هذا الصحابي، كن صريح يا أخي، إذا تعاملت مع رجل دين أنا هكذا، أنت إذا أخفيت عنه كل معاصيك، وأخطاءك، أغفلت كل شيء سلبي وأظهرت كل شيء إيجابي، ما شاء الله حولك، يقول لك: أنت أحسن مني، أنت كن واقعي، لا تحاول أن تظهر بمظهر أكبر من حجمك، تخدع مَن ؟ الله يعرف، يعلم.

في موقف مشابه، النبي عليه الصلاة والسلام جاءه أعرابي، هو ضمام بن ثعلبة فسأله عن الصلوات فقال:

ـ خمس.

ـ فقال: هل علي غيرها ؟

ـ قال: لا إلا أن تطوع.

ثم سأله عن عددٍ من الواجبات والفرائض وهو يجيبه بالواجب عليه، فيقول السائل:

ـ هل عليّ غيرها ؟

ـ فيقول: لا إلا أن تطوع، هذا الذي عليك.

ـ فقال: والله لا أتطوع شيئاً ولا أنقص مما فرض الله علي شيئاً، فقال عليه الصلاة والسلام:

((أفلح إن صدق))

(من الدر المنثور: عن " طلحة بن عبيد الله ")

وفي روايةٍ عند مسلم:

((إن تمسَّك بما أمر دخل الجنة))

(من الدر المنثور: عن " أبي أيوب ")

وفي روايةٍ ثالثة:

((من سره أن ينظر إلى رجلٍ من أهل الجنة فلينظر إلى هذا))

أحياناً نحن نتوهم القضية سهلة، أنت إذا أحللت ما أحل الله، وحرمت ما حرم الله، فما معنى ذلك ؟ معنى ذلك أنك استقمت على أمر الله، فليس هناك شيء، صار الطريق سالكاً إلى الله عزَّ وجل، الآن صحت الصلاة، وصح الصيام، وصحت كل العبادات.

ألم تسألوا هذا السؤال: لماذا أغفل هذا السائل الحج والزكاة ؟ الحديث لأنه:

((أرأيت إذا صليت المكتوبات ـ الصلوات الخمس ـ وصمت رمضان، وأحللت الحلال وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئاً أأدخل الجنة ؟ قال: نعم))

مَن عنده جواب ؟ الحج على المستطيع، والزكاة على المالك، على الغني.

جواب آخر ؟ من ضمن إحلال الحلال، وتحريم الحرام، الحج والزكاة.

جواب ثالث ؟ سأل السائل النبي الكريم قبل أن يفرض الحج، وقبل أن تفرض الزكاة، ممكن، إما أن السؤال قبل فرضية الحج والزكاة، وإما أن السائل فقير وغير مستطيع، فلم يذكر الحج والزكاة، وإما أن إحلال الحلال وتحريم الحرام مما يدخل به الحج والزكاة.

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((عرى الإسلام وقواعد الدين ثلاثة عليهن أسس الإسلام، مَن ترك واحدةً فهو بها كافر ؛ شهادة ألا إله إلا الله، والصلاة المكتوبة، وصوم رمضان))

أيمكن أن نغفل الصيام ؟ إذا أغفلنا الحج بأن السائل غير مستطيع، وإذا أغفلنا الزكاة لأن السائل ليس غنياً، هل يمكن أن نُغْفِل الصيام ؟ إذا كان مريضاً أو مسافراً، لكن ما هو الفرض الذي لا يسقط بحال ؟ الصلاة، من تعاريف الصلاة: هي الفرض المتكرر الذي لا يسقط بحال. ولو في أشد حالات المرض، لابدَّ من أن تصلي ولو بالإيماء، بتحريك الوجه، لابد من أن تصلي ولو بالإيماء، ولو كنت خائفاً، في صلاة الخوف، ولو كنت مريضاً، في صلاة المريض، ولو كنت مسافراً، في صلاة المسافر، ولأنك في ساحة الحرب، في صلاة الحرب، ولو أن الإنسان في أشد أحواله مرضاً لابد من أن يصلي، إذاً الفرض الذي لا يسقط بحال والمتكرر هو الصلاة.

وقال بعضهم: في الصلاة معنى الصيام، وفي الصلاة معنى الحج، وفي الصلاة معنى الزكاة، فاقتطاع وقتٍ ثمين لتصلي، الوقت أساس المال، أصل المال الوقت، إذا واحد حجزنا حريته، هل يتمكن من

المتاجرة ؟ لا يقدر، أصل التجارة وكسب المال الوقت، فالوقت المبذول في الصلاة كأنه زكاة، بل هناك زكاة الوقت وزكاة المال، والتوجه إلى الكعبة من معاني الحج في الصلاة، وترك الطعام والشراب وأيَّة حركةٍ غريبة عن الصلاة أصل الصيام، ففي الصلاة معنى الصيام والحج والزكاة والصلاة، لذلك هي الفرض الذي لا يتكرر، هي عماد الدين مَن أقامها فقد أقام الدين، ومَن هدمها فقد هدم الدين، والصلاة سيدة القربات، وغُرَّة الطاعات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات.

في عندنا سؤال: قال الإتيان بالنوافل زيادة قربٍ من الله تعالى، والمؤمن الصادق، المؤمن ذو العزيمة القوية يفعل القُرُبات، ويدع المكروهات، ويقوم بالنوافل، وقد يدع بعض المباحات تأثماً وتحرجاً، ولا تبلغُ درجة اليقين حتى تدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس.

الآن، إليكم بعض الأحكام الشرعية الدقيقة: لو إنسان ترك بعض النوافل هل عليه إثم ؟ ليس عليه إثم، إذا ترك السنة فقد أساء، إن ترك الفرض فقد هلك، إن ترك النوافل لا شيء عليه، لكنه ترك الأولى، في هلك، في أساء، في ترك الأولى، أما الشيء العجيب قال: إذا كان الترك لهذه النوافل تركاً جماعياً، كما لو تواطأ أهل بلدةٍ على ترك نافلةٍ بشكل جماعي، عندئذٍ هذا حرامٌ حرمةٌ شديدة. واحد لوحده يترك نافلة مقبول، أما يتواطأ أهل بلدة على ترك نافلة بشكل جماعي هذا استخفافٌ بالسنة وخطوةٌ نحو ترك الواجبات، فلذلك لا يسمح أن تترك بعض النوافل تركاً جماعياً على شكل إجماع وتخطيط وتحلل من عرى الدين

الآن، إذا الإنسان ترك النوافل ترك مستمر، أي أنه منطلق من مبدأ: أنا لن أصلي قيام الليل، ولن أصلي الضحى. إذا ترك النوافل تركاً مستمراً، فهذه رقةٌ في الدين، وفسوقٌ، ومروقٌ منه، وتردُّ شهادته، مادام الحديث على: ولم أزد على ذلك شيئاً. الأصل أن تؤدي الفرائض، وأن تؤدي السنن، وأن تفعل النوافل، وأن تدع المكروهات، وأن تدع بعض المباحات إذا أدت إلى بعض المفاسد، الإنسان ممكن يزين بيته لكن أن يزين بيته بمبلغ يزوج فيه خمس شباب ؟ تزين البيت مباح، لكن الورع يؤثر أن يعمل عملاً صالحاً يرضي الله على هذه المبالغة، فالأكمل أن تؤدي الفرائض، والواجبات، والسنن، وأن تدع المكروهات، وأن تؤدي النوافل، وأن تدع بعض المباحات، توصلاً إلى رضى الله عزَّ وجل.

لكن إذا الإنسان ترك بعض النوافل بشكل غير مستمر، هل عليه شيء ؟ لا شيء عليه. إذا تواطأ أهل بلدةٍ على ترك نافلةٍ، اتفقت بلدة على ترك صلاة الضحى نهائياً، أو على ترك قيام الليل، إذا تواطأ مجتمعٌ مسلمٌ على ترك نافلةٍ فهذه حرمة شديدة، لأنها خطوة إلى ترك ما بعدها، هنا صار تخطيط..

((إن أمتي لا تجتمع على ضلالة))

(من الجامع الصغير: عن " أنس ")

الإنسان وحده لو ترك بعض النوافل بشكل مستمر، فهذا يعد رقةً في دينه، ونوعٌ من الفسوق ترد به شهادته، لكن لماذا ؟ هنا السؤال، الحقيقة أن السنة والنافلة إنما شُرعَت لتكون جبراً لنقصٍ في الفريضة، أو لخللٍ فيها، فمثلاً الظهر أربع ركعات الفرض، السنة القبلية من أجل أن تتهيأ لهذه الصلاة، والبعدية من أجل أن ترمم ما فاتك من الفرض، ففي تهيئة وفي ترميم، فلو تركت التهيئة والترميم، الفرض الأساسي بثلاث ركعات كنت شارداً، ضاع منك الفرض، فإنما شُرعَت السنن والنوافل من أجل أن ترمم النقص أو تصلح الخلل في الفرائض، فمن ترك هذه النوافل عمداً بشكل مستمر فقد عدَّ هذا نقصاً في دينه. كل يوم إذا قمنا صلينا الضحى، تذكرت صلِ الضحى هذا أكمل، نسيت مرة ما في شيء عليك، لكن الأكمل أن تصلي الضحى، استيقظت قبل الفجر بنصف ساعة صلِ قيام الليل، أما تاركه عمداً، تارك الضحى عمداً فهذا الشيء لا يناسب.

العلماء قالوا: المسلم الذي يرجو النجاة، وتطمح نفسه إلى رفيع الدرجات، لا يترك نافلة، ولا يقرب مكروهاً، ولا يفرِّق فيما يطلب منه بين واجبٍ أو مفروضٍ أو مندوب، كما كان يفعل الصحابة الكرام. أخي هذه شكليات، ما هو حكمها الشرعي ؟ إذا كانت سنة لا أريدها، ليست هذه صفات المسلم، النبي الكريم ورد عنه أنه فعل كذا، قال الله عزَّ وجل:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: من آية " 7 ")

تقول لي: هذه واجب، أم سنة، أم مكروهة ؛ كرهة تحريمية تنزيهية، بالله انظر لي فيها كي أتركها، أو لا أتركها، ليس هذا هو الورع، الورع أن تفعل كل ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من دون تفريق، أحياناً مثلاً إنسان يحب إنسان، فهذا الإنسان المحبوب طلباته كلها مقدسة ما كان منها عظيماً أو ما كان منها صغيراً، ما كان واجباً وما كان سنة، الإنسان المحبوب طلباته كلها مقدسة، إذاً قوله تعالى:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

يعني على المسلم الذي يرجو النجاة، ويتقصَّى أرفع الدرجات أن لا يفرِّق في الأمر والنهي بين واجبٍ وفرضٍ وسنةٍ ومستحب، ولا بين حرامٍ ومكروهٍ تنزيهاً أو تحريماً، الأكمل، لكن إنسان فاتته أيام الضحى ما في مانع، فاتته هذه النافلة ما في مانع، أما إذا أصرَّ على عدم فعلها بشكل مستمر فهذه رقةٌ في دينه، وإذا تواطأ جمعٌ غفير على تركها فهذه خطوةٌ خبيثة هدفها التحلل من عُرى الدين عروةٌ عروة.

الآن، أقرأ عليكم بعض الفقرات، النبي الكريم عندما قال له النعمان: لا أزيد عليها، لماذا أقرَّه ؟ لمَ لمْ ينصحه ؟ قال له: ولا أزيد عليها، طبعاً نحن حمدنا صراحته وجرأته، لكن أليس من المناسب أن يقول له النبي: لا بل افعل بعض النوافل، فقال: هذا تعليمٌ للدعاة، والعلماء، والمرشدين من بعد النبي، يعني

إذا شعرت أن هذا الإنسان يريد أخف الأشياء، فإذا أثقلت عليه، ووضعت أمامه العقبات، وشددت عليه، حتى حملته على ترك هذا الدين كله، أنت ما فعلت صالحاً، فهذا ما يفعله بعض الدعاة يضعون حلول وسط.

أنا أذكر مرة أخ كريم حضر شهران أو ثلاثة ثم افتقدته، سألت عنه قالوا: والله خجلان أن يأتي. خير ؟ قال: عنده محل يبيع فيه هدايا ثمينة كريستال، كؤوس للمشروب أحياناً، تماثيل، فضيات، مذهبات، أي أنه محل فخم جداً، وكل مواد البيع مواد تقريباً شيء منها حرام، وشيء منها مكروه، فهو شعر أنه واقع في معصية دائمة، وقد زرته وقلت له: أيعقل أن أقول لك إيتِ بشاكوش وكسِّر كل هذا ؟ هذا فوق طاقتك، بع هذه البضاعة وغيِّر هذه المصلحة، هذا شيء يمكن بمستوى أرقى أتلفها كلها، لكن كان إتلاف هذه البضاعة عقبةً كأداء بينه وبين الصلح مع الله، نقول له: بعها، وغير هذه المصلحة، وهذه توجيه لطيف من رسول الله إذا وجدت إنسان قوائم المكروهات، وقوائم النوافل، ثقيلةٌ عليه قل له: دعك منها، أد الصلوات الخمس، أحياناً يقولون لك: يجب أن تقعد ساعتان كل يوم في الفجر، وإن لم تفعل هذا فأنت لست مؤمناً، هذا وضع عقبات تعجيزيةً أحياناً، إن رأيت إنساناً يحب الأسهل كن معه كما يريد لكن لا على حساب الفرائض، ولا على حساب المنهيات، لكن رأى النوافل صعبةً عليه، أو رأى بعض المكروهات محببة لديه وأصر على ذلك قل له: افعل.

والحقيقة طبيعة الإيمان طبيعة كل خطوةٍ تفضي إلى أختها، أنا أقول لكم كلاماً دقيقاً، إذا إنسان صلى الصلوات الخمس بإتقان، وصام رمضان، وأحل الحلال، وحرم الحرام، والله الذي لا إله إلا هو لابد من أن يقوده هذا الموقف إلى النوافل والقربات، لان الإنسان لا يبقى بحالة واحدة، بل من طبييعته أنه يزداد، فلو فعل الإنسان هذا لقاده هذا الشيء إلى شيء أفضل، واحد سأل النبي الكريم اللهم صل عليه قال له:

ـ ماذا ينجي العبد من النار ؟

ـ قال له: إيمانٌ بالله ؟

ـ قال: أمع الإيمان عمل ؟

ـ قال: أن تعطي مما أعطاك الله.

ـ قال: فإن كان لا يملك، ما معه ؟

ـ قال: فليأمر بالمعروف.

ـ قال: فإن كان لا يستطيع ؟

ـ قال: فليعن الأخرق. يعاون واحد ضعيف.

ـ قال: فإن كان لا يحسن ؟

ـ قال: فليكف أذاه عن الناس.

ـ قال له: أو إن فعل هذا دخل الجنة ؟ فقط كف الأذى عن الناس، السؤال محرج في الحقيقة، فكان الجواب رائع جداً.

ـ قال له:

((ما من عبدٍ مسلم يصيب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده حتى تدخله الجن))

وأنا أقول لكم: والله ما من عبدٍ يصلي الصلوات الخمس بإتقان، ويصوم رمضان كما أراد الله، ويحل الحلال، ويحرِّم الحرام، إلا انتقل من هذا المستوى لمستوى أرقى، إلى مستوى أداء النوافل، إلى مستوى ترك المكروهات، إلى مستوى ترك بعض المباحات. الإنسان عنده حساسية: أنا أنفق هذا المبلغ الضخم وفي شباب يتلوون على غرفةٍ يسكنونها ؟ لا يتحمَّل، فأنت كلما فعلت شيء يرقى بك هذا الشيء إلى أن تصل إلى الكمال، على كل حال الحديث له اتجاه تربوي رائع، لأنه:

((ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، ولئن دعاني لأجيبنه))

(من صحيح البخاري: عن " أبي هريرة ")

هذا الحديث مرَّ معنا سابقاً، أي أن النوافل مهمة جداً، ولكن النبي تساهل، وقال له: لا تفعل غير هذا ولك الجنة، يعني إذا رأيت إنسان ترك النوافل، ترك المكروهات، وترك بعض المباحات، ستكون عقبة بينه وبين الصلح مع الله قل له: لا، أد الصلوات المكتوبات، وصم رمضان، وأحل الحلال، وحرم الحرام، ولا تزد على ذلك شيئاً ولك الجنة، وهذا الواقع، لكن هذا الموقف ينقله إلى أخذ بعض المستحبات.

بالمناسبة التحليل والتحريم هذا من اختصاص مَن ؟ من اختصاص الله عزَّ وجل، فأي إنسانٍ يحل وفق هوى نفسه، أو يحرم وفق هوى نفسه فهذا منحرف ومبتدع، والله أنا شايف أن هذه ما فيها شيء ؟ مَن أنت..

يقولون هذا عندنا غير جائزٍ فمَن أنتم حتى يكون لكم عند!

من حضرتك ؟ إحلال الحلال وتحريم الحرام ليس من شأن الإنسان، تحرم شيء هو بالأصل حلال هكذا نزوة، هذا التحريم لما هو حلال ليس أقل إثماً لتحليل ما هو حرام، فالتحليل والتحريم هذا من اختصاص الله عزَّ وجل، والدليل: " الحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله ". أما أنت تقول: هذه حلال ما فيها شيء، أنا بقناعتي ما فيها شيء، فمَن أنت هل أنت مشرع ؟ وما دليلك ؟ أو هذه حرام، لماذا هي حرام ؟ أنا أقول لكم: ليس تحريم الحلال أقل إثماً من تحريم الحرام، التحليل والتحريم ليس من

اختصاصك، هو من شأن الخالق جل وعلا، نعرفه من خلال كلام الله عزَّ وجل، ومن خلال سنة النبي، أما ما سوى ذلك نرجع في كل هذا إلى الله ورسوله.

سؤال ثاني: قال: مَن حلف أن يفعل خيراً وما فيه طاعة فالأفضل أن يفعل ذلك، لقوله تعالى:

(وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ)

(سورة المائدة: من آية " 89 ")

أما من حلف على ترك واجبٍ أو فعل معصيةٍ، وجب عليه أن يحنث بيمينه، وجب عليه. أختك ما لها غيرك، حلف بالله ألا يزورها طوال عمره، نقول له: يجب عليك أن تحنث بهذا اليمين، خدمت إنسان فأساء لك، والله ما عدت أعاون أحد، خلص أنا حالف يمين، خير إن شاء الله ؟ احنث بهذا اليمين، وكفر عن هذا اليمين، وافعل الخير، فقال:

((من حلف على ترك واجبٍ أو ترك معصيةٍ وجب عليه الحنث بيمينه))

لقول النبي صلى الله عليه وسلم:

((من حلف على معصيةٍ فلا يمين له ـ هذا يمين باطل ـ))

ومن حلف على ترك خيرٍ غير واجبٍ عليه فالأفضل في حقه أن يحنث، لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((من حلف على يمينٍ ورأى غيرها خيراً منها، فليأتِ الذي هو خير وليكفر عن يمينه))

هذا حكم الله الدقيق.

يفيد هذا الحديث أيضاً أن على المسلم أن يسأل، اسأل، وأن على العالم أن يتوسَّع بالسائل لا أن يضيق به ذرعاً، لا أزيد على ذلك، قال له: ولك الجنة، على المسلم أن يسأل، وعلى المسؤول أن يكون رحب الصدر أي أن يتسع لسؤال هذا السائل.

* * *

بقيت نقطة دقيقة جداً، في أخ كريم استبق الأمر وذكرها في هذه القصاصة، هذا السائل سأل عن أي شيء ؟ سأل عن الدخول، أنت ممكن يكون معك ثمن مركبة عامة تصل لهذه البلد، أما أن تسكن في أفخر قصر فيها، أما أن تسكن في أفخر فندق، أما أن تنفق إنفاق كبير تحتاج إلى أموال طائلة، دخلول البلد شيء والتمتع بكل ما فيها شيء آخر، فالسائل ماذا سأل ؟ قال:

((يا رسول الله أرأيت إذا صليت المكتوبات، وصمت رمضان، وأحللت الحلال وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئاً أأدخل الجنة ؟))

الجنة كما قال النبي:

((أنا زعيمٌ في رَبَض الجنة لمن ترك المراء وهو مُحق، وزعيمٌ في وسط الجنة لمن ترك الكذب ولو مازحاً، وزعيمٌ في أعلى الجنة لمن حَسن خلقه)).

(من رياض الصالحين: عن " ابي أمامة ")

معنى هذا الجنة مراتب، فيها مراتب لا يعلمها إلا الله، موضوع الدخول فقط يحتاج أن تؤدي هذه الفرائض، وأن تدع هذه النواهي، أن تحل الحلال وأن تحرم الحرام، ولك الجنة دخولاً، أما أن تصل بها إلى أعلى المراتب هذه تحتاج إلى قربات، وإلى نوافل، وإلى ترك المكروهات، وإلى ترك بعض المباحات.

في شيء آخر في الحديث هو أن الله عزَّ وجل يقول:

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12))

(سورة الواقعة)

(وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (27))

(سورة الواقعة)

هؤلاء درجة ثانية، فالسابقون درجة، وأصحاب اليمين درجة ثانية، فهنا الحديث عن دخول الجنة فقط لا عن بلوغ أعلى مراتبها، أعلى مراتبها يحتاج إلى ذكر، وإلى استغفار، وإلى تفكر، وإلى فعل المعروف وترك المنكر، وإلى خدمة الخلق، وإلى الدعوة إلى الله، وإلى قيام الليل، وإلى صلاة الضحى، وإلى النوافل، طبعاً، فبين أن تدخل الجنة وبين أن ترقى إلى أعلى مراتبها هذا هو الفرق، لكن أنت لا تطالب عوام الناس بأعلى مراتب الجنة، هنا الغلط، حينما تحمل الناس جميعاً على أعلى درجاتها، قد يكون هذا تحميلاً لهم فوق ما يستطيعون، فإذا دعوت إلى الله فارفق بالناس، أي أعطهم الحد الأدنى، أعطهم ما يبلغهم الجنة، فإذا رأيت إنسان متشوِّق، متقد، عندئذٍ كلفه بالنوافل والقربات.

فهذا الحديث تحت أي باب يصنَّف ؟ الحديث يصنف تحت باب الأحاديث التربوية، أي إذا أردت أن تدعو إلى الله عزَّ وجل، أن تلقي على الناس العِلم، ترفق بالناس، خذهم باليسير، بشِّر ولا تنفِّر، سدد وقارب، يسِّر ولا تعسر، طالبهم بالحد الأدنى، فإذا رأيت بعضهم مشتاقٌ للحد الأعلى فادفعهم إليه، فالنبي الكريم علمنا أن الحد الأدنى هو المطلوب وهو كافٍ لدخول الجنة، أما إذا أردت مراتبها، ما قال له: سيدي كم الزكاة، قال له ؟ عندنا أم عندكم ؟ قال له: ما عندنا وما عندكم ؟ قال له: عندكم اثنان ونصف في المائة، أما عندنا العبد وماله لسيده..

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10))

فنحن اليوم إذا تحدثنا عن النواحي السهلة، ليس معنى هذا أننا لا نريد العزائم، ولا نريد الهمة العالية، هذه الهمة العالية موقف شخصي، أما الموقف الذي يجب أن يُتَّبع أن تؤدي الفرائض، وأن تدع

المحرمات، وأن تحل الحلال، وأن تحرم الحرام، فإن فعلت هذا دخلت الجنة، أما بلوغ أعلى مراتبها، هذا يحتاج إلى القربات..

((ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه...))

(من صحيح البخاري: عن " أبي هريرة ")

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (035) :الطهور شطر الإيمان والعمل الصالح شطره الآخر.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-05-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... عن أبي مالكٍ الحارثي بن عاصم الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان والله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائعٌ نفسه فمعتقها أو موبقها))

رواه مسلم في كتاب الطهار، وفي باب فضل الوضوء.

يمكن أن يشرح الحديث وفق تسلسله، ويمكن أن يشرح وفق مراتب ثِقَلِه، فكل الناس يغدو، كل الناس يغدو، معنى غدا أي ذهب إلى عمله، كل إنسان يستيقظ، ويرتدي ثيابه، وينطلق إلى عمله، في التجارة، في الصناعة، في الزراعة، في الوظيفة، في الطب، في الهندسة، في الشراء، في البيع، في السياحة، النشاط البشري واسع جداً، كل الناس يغدو، أي كل الناس يتحرك، الحركة من صفات الإنسان، في طبيعة حركية بالإنسان ؛ يجب أن يتحرك، أن يسعى، أن ينطلق، أن يتكلم، أن يعطي، أن يمنع، أن يبيع، أن يشتري، أن يغضب، أن يرضى، أن يبتسم، أن يعبس، كل الناس يغدو، لكن إنسان يبيع نفسه، هذا البيع عملية في غاية التعقيد.

أنت حينما تهوى شيئاً، بعته نفسك، حينما تهوى شيئاً فكأنما بعته نفسك، يا ترى هذه النفس أليست غالية عليك، أيمكن أن تبيعها بثمن بخس، لو أنك بعتها لإنسان، هذا الإنسان ماذا يستطيع أن يفعل معك؟ لو بعت نفسك لإنسان، وهبته حياتك، وهبته مشاعرك، وهبته تفكيرك، وهبته لسانك، وهبته علمك، هذا الإنسان ماذا يستطيع أن يقدم لك ؟ لو كان أغنى الأغنياء وقدم لك أموالاً طائلة، هذا المال ماذا تستطيع أن تفعل به لو جاء من عند الله شيءٌ لا يحل بالمال ؟ انتهت قيمة المال، لو رفعك إلى أعلى المراتب وجاء مَلَك الموت، ماذا يستطيع هذا الإنسان الذي بعته نفسك، بعته ولاءك، بعته قلبك، بعته عقلك، بعته وقتك، بعته عضلاتك؟

فدقة الحديث أن الإنسان يجب أن يعرف قيمة نفسه، لا ينبغي أن يبيع نفسه بثمن بخس، لا ينبغي أن يبيع نفسه لغير الله، لأن غير الله كل ما يملك أن يقدم لك إكليل ورد عند الوفاة، وأن يسمي شارع باسمك، هذا أقصى ما يمكن، أما الجنة والنار هذه ملك الله عز وجل.

فكل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها، إما أن يعتقها من النار وإما أن يهلكها، أنت أمام عملية بيع، لابد من أن تبيع نفسك، إنسان باع نفسه لشهواته، اتخذ إلهه هواه، عبد شهوته من دون الله، حينما يأتي الموت تنتهي الشهوات، وتبقي التَبعات، إذاً بيع خاسر، إنسان باع نفسه من أجل أن يرضي أهله، تقدَّمت به السن، وضعفت قواه، وشارف على الموت، ماذا تستطيع أن تفعل معه زوجته التي باعها نفسه أي أرضاها وأسخط الله، أي حرص على رضاها ولم يحرص على رضى الله عز وجل..

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4))

(سورة الليل)

السعي مختلف، متفرِّق، متنوِّع، لكن هذا المسعى المختلف، يمكن أن ينضوي تحت بابين اثنين، تحت باب إعتاق النفس من النار، وتحت باب إهلاك النفس وإدخالها إلى النار، فإما أن تسعى سعياً تكسب به الجنة، وتبتعد به عن النار، وإما أن تسعى سعياً تقترب به من النار، وتبتعد به عن الجنة.

نعود إلى أول الحديث، يقول عليه الصلاة والسلام:

((الطهور شطر الإيمان))

طبعاً كلمة (الطهور) في مصطلح علماء الأصول من المشترك اللفظي، أي أننا يمكن أن نفسر الطهور بطهار البدن، وطهارة الثوب، وطهارة المكان، يمكن أن نفسر الطهور بالوضوء، وبالغُسل، هذا المعنى المادي، ويمكن أن نفسر الطهور بطهارة النفس ؛ من الغل والحسد والحقد، بطهارة العقل ؛ من الشك والشرك، طهارة القلب ؛ من كل مرضٍ نفسي يهلك صاحبه، فالنبي كلامه مطلق، والمطلق على إطلاقه، وقد قال عليه الصلاة والسلام عن نفسه: أوتيت جوامع الكلم.

فالطهور الوضوء، تصور شركة تصنع مركبات من أعلى مستوى، لو أنها باعت مركبة من أعلى مستوى إلى إنسان أهمل نظافتها، وأهمل صيانتها فأصبحت بمنظر قميء، أليس هذا العمل فيه إساءة للشركة الصانعة ؟ إنسان آخر اشترى مركبة من الشركة نفسها، دائماً جاهزة، دائماً نظيفة، دائماً تتلامع، أليس في هذا العمل إظهار لجمال هذه الصنعة؟ إذاً أنت مَن صنعك ؟ رب العالمين، صنعت بأدق صنعة ؛ التماسك، التناظر، الجلد له رائحة عطرة، العينان، الجبين، الخد الأسيل، إذا الإنسان كان قذر، كأنه شوه صنعة الله عز وجل، فلذلك أجمل تفسير لقول الله عز وجل:

(وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222))

(سورة البقرة)

قضية حب ؛ يحبهم، لأنهم يظهرون صنعته الكاملة، يظهرون اسم الجميل، يظهرون إتقان الصنعة، فالمؤمن نظيف، فلك أن تفهم كلمة الطهور شطر الإيمان نظافة البدن، أي ما في رائحة مزعجة منفرة، لا في جسمك، ولا في أعضائك، ولا في فمك، ولا في طهارة البدن، وطهارة الثوب، وطهارة المكان،

وإذا توسعت ؛ نظافة المنزل، ونظافة الدكان، أو مكان العمل، فالطهور شطر الإيمان، أي أنك إذا تطهَّرت أبرزت صنعة الله عز وجل إبرازاً رائعاً، من دون سرف، من دون ترف، من دون فخامة، من دون تيه، من دون عنجهية، ولكن الطهور شطر الإيمان، أي أن أحد أقسام الإيمان أن تكون طاهراً نظيفاً، هذا المعنى الأول.

لذلك، ما دام الله عز وجل قد أمرك أن تعبده وفق ما يريد، فينبغي أن تعبده وفق ما يريد لا وفق ما تريد، يجب أن تعبد الله وأن تعبده كما يريد، فأمرك بالطهارة، أمرك بالنظافة، أمرك بتقليم الأظافر، أمرك بتصفيف الشعر، أمرك بالتعطُّر، لذلك " الطهور شطر الإيمان " قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا)

(سورة المائدة: من آية " 6 ")

إلى آخر الآية، وفي آيةٍ ثانية:

(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

(سورة المدثر)

وفي آية ثالثة:

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222))

(سورة البقرة)

لذلك روى الإمام مسلم في صحيحه، عن عثمان رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((من توضأ فأحسن الوضوء، خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظافره))

الوضوء عبادة.. " من توضأ فأحسن الوضوء ".. لأن الله يحب المتطهر، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من أثر الوضوء، فمَن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل))

(من مختصر تفسير ابن كثير: عن " أبي هريرة ")

علماءٌ آخرون فسروا: الطهور شطر الإيمان، بأن الإيمان هي الصلاة، استنباطاً من قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ)

(سورة البقرة: من آية " 143 ")

أي ليضيع صلاتكم باتجاه بيت المقدس، فالوضوء إذاً شطر الإيمان أي شطر الصلاة، الصلاة تطهر النفس من الشك والشرك والإضرام والوضوء يؤهلك للصلاة.

في آية دقيقة حينما يقول الله عز وجل:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42))

(سورة المدثر)

إذاً الصلاة تنجِّي صاحبها من النار، والوضوء مفتاح الصلاة، إذاً الطهور شطر الإيمان، لذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((ما من مسلم يتوضأ فيحسن الوضوء، ثم يقوم فيصلي ركعتين، يقبل عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة، وما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء، ثم يقول: أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء))

(من مختصر تفسير ابن كثير: عن " عمر بن الخطاب ")

فالتركيز إذاً على عبادة الوضوء، وهذه العبادة، تمهيد للصلاة، والإنسان أحياناً إذا أراد أن يقابل إنسان مهم لابد من أن يكون نظيف، يتعطر، يرتدي أجمل ثيابه، فإذا أردت أن تقابل إنسان ذا شأن، فينبغي أن تهيئ نفسك لهذا اللقاء، فكيف إذا وقفت بين يدي الواحد الديان ؟ إذاً التركيز على الضوء شطر الإيمان على أنه هو الطهور، والنبي عليه الصلاة والسلام دعانا إلى ذلك.

لكن في نقطة دقيقة جداً يقول عليه الصلاة والسلام:

((الصلوت الخمس ـ أي من الصلاة إلى الصلاة ـ والجمعة إلى الجمعة، وأداء الأمانة كفارات لما بينهن ـ بين الصلاتين، إذا حصل خلل، أو غفلة، أو ذلة، أو كلمة غير مناسبة ـ تأتي الصلاة فتكفرها ـ فالصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة وأداء الأمانة كفارة لما بينهن. " فقيل يا رسول الله ؟ وما أداء الأمانة ؟ قال: الغسل من الجنابة، فإن تحت كل شعرة جنابة))

(من زيادة الجامع الصغير: عن " أبي أيوب ")

فأية أمانة هذه ؟ كيف فقسر النبي عليه الصلاة والسلام بأنها غسل الجنابة ؟ العلماء قالوا: مَن يدري ؟ وهل يستطيع الإنسان أن يدري أن هذا الإنسان جنب أو غير جنب ؟ إنها أمانة، لا يعلم إلا الله وحده، وإلا صاحب الجنابة، فإذا حرص على اغتساله من الجنابة فقد أدى الأمانة، شيء خاص، شيء شخصي جداً، فموضوع خاص جداً لا يمكن لإنسان أن يطلع عليه، ممكن إنسان لا يغتسل، خان الأمانة، فالنبي عليه الصلاة والسلام فسَّر الغُسل من الجنابة، أداء الأمانة.

ومن حديث أبي الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((فإن الله لم يأتمن ابن آدم على شيء من دينه غيرها))

فهذه عبادة خاصة جداً بينك وبين نفسك، لا يعلم ما إذا كنت قد خالفتها إلا الله.

ما دامت مكلمة الطهور من المشترك اللفظي، إذاً المعنى الآخر الطهارة من نوع آخر، طهارة النفس، يقول لك: فلان نظيف، تعبير مستعمل الآن ؛ نظيف، علاقاته نظيفة، أسلوبه صريح، دخله حلال، كلمته صادقة، علاقاته مشروعة، علاقاته مكشوفة لا يوجد عنده شيء سري، إنسان نظيف، أي أخلاقه قويمة، إذاً معنى نظيف، معنى طهور شطر الإيمان أن يكون القليب سليماً من كل عيب ؛ الكبر مرض، الاستعلاء مرض، الحقد مرض، فالقلب الطاهر ؛ القلب السليم من كل صفةٍ لا ترضي الله عز وجل، الإمام أبو حامد الغزالي، فسر هذا الحديث على شكل آخر، فسر الطهور على أنه طهارة النفس، وطهارة القلب، مثلاً ألا يمكن أن ترى محل فخم جداً فيه من الزينات، وروعة الأثاث، وجمال الطلاء، وروعة التزيين ما يأخذ بالألباب، والمحل يدير فرضاً دار دعارة ؟! ومن الممكن تجد محل آخر لتصليح السيارات ؛ كله زيوت وشحوم، منظر مزعج لكن علاقات كلها نظيفة، خدمات متقنة بأجر معتدل، أليست النظافة لها معنى أعمق مما يبدو لنا ؟ في عمل نظيف وقد يكون شاق، وقد يكون أساسه مواد زيتية، مواد شحمية، مواد دهنية، في أعمال تحتاج إلى نظافة شديدة جداً، لأن المواد الأولية مزعجة، وفي أعمال فخمة جداً ولكنها قائمة على الخداع، والكذب، والغش والاحتيال، مكاسب فخمة جداً، أحياناً تجد دار قمار مكلفة ثلاثين مليون الصالة، تجد مدرسة أكل الدهر عليها وشرب، ولكنها تنشر العلم، فيجب أن نأخذ معنى النظافة معنى أعمق، في نظافة المظهر، لكن الأخطر من المظهر نظافة المخبر.

المؤمن نظيف، ما في عنده شيء يستحيي فيه، لأنه يطبق الشرع ؛ في بيته، مع أهله، مع أولاده، مع جيرانه، في علاقاته، في بيعه، في شرائه، ما عنده موقف يستحيي منه، شيء مخفي، شيء معلن، شيء يفعله سراً، شيء يفعله جهراً، شيء يكتمه، شيء يظهره، سره كعلانيته، جلوته كخلوته، فلذلك النظافة لها معنى آخر.

ذات مرة إنسان صارحني له عمل لا يرضي الله عز وجل ولكن مقره فخم جداً، قال لي: أنا عملي قذر، لو شاهدت مكان عمله شيء لا يصدق ؛ الفخامة، والأناقة، والترتيب والنظافة، هو قال لي بساعة صفاء أنا عملي قذر، وقد تدخل لمحل، طبيعة العمل فيها شحوم، وفيها زيوت، وفيها وحول أحياناً، تشعر بالعمل أنه نظيف، فالنظافة والقذارة تأخذ معاني أخرى، أحياناً النفاق عمل قذر، أحياناً الإيقاع بين الناس عمل قذر، أحياناً النميمة عمل قذر، التفريق بين الشركاء عمل قذر، التفريق بين الأم وابنها عمل قذر، افتراء الكذب عمل قذر، تشويه سمعة إنسان بريء عمل قذر، في أعمال قذرة، كسب المال عن طريق الإيهام والاحتيال عمل قذر، هذه سرقة، قال عليه الصلاة والسلام:

((من أصاب مالا في نهاوش أذهبه الله في نهابر))

أحياناً ينبنى الكسب على الإيهام ي، جب أن تمس الرعب في قلب إنسان حتى يخاف، يفاوضك على مبلغ من المال، وتقبضه منه، عمل قذر، هذا عدوان على الكسب، نزِّه نفسك عن هذا، رأس مالك قدرة على الأذى، رأس مالك لا خبرة، ولا علم، ولا مال، ولا جهد، رأس مالك الوحيد أنك تملك قدرة على الأذى، كنت بموقع فيك تأذي الناس، فابتززت أموالهم بهذه الطريقة، هذا عمل قذر، ممكن يأتيك إنسان ساذج بسيط يقول لك: أنا واقع بمشكلة مع خصم، إذا كان و أقام عليه دعوى هل أرحبها ؟ ممكن تكون خسران الدعوة مطلقاً، يقول لك: تربحها، ويمنيك، ويأخذ دفعات على الحساب لخمسة سنوات، ثم تفاجأ بعد خمسة سنوات أن الدعوة خسرتها، وما كان هناك أمل بالأساس أن تربحها، ولكنه ابتز أموالك، هذا عمل قذر.

ممكن تمس الخوف بنفس المريض حتى يأتي لعندك دائماً، هذا عمل قذر، مكن أن يتفق محلل مع الطبيب، تحاليل مناصفة، يأتي الطبيب تحاليل كلها خلبية، لا يوجد حاجة لها، هذا عمل قذر، أما الأناقة، والروب الأبيض، والمخبر الفخم من أرقى مستوى، ممكن بالطب والهندسة، والتدريس ؛ ابن لا يوجد أمل أن ينجح، جاء به أبوه إليك، فطمأنته أنه سينجح، لكنه يحتاج كل أسبوع لخمسة دروس، كل درس ثلاثمائة، بقرة حلوب، ولكن لا ينجح، هذا عمل قذر.

موضوع القذارة والطهارة، الوضوح أن تكسب المال من طريق مشروع لذلك، " أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة "، ما أكثر الأعمال القذرة، وما أكثر طارق الكسب غير المشروع، وما أكثر المال الذي يأتي عن طريق الإيهام والاحتيال والخداع، يجوز تجد إنسان منحرف الأخلاق، سيئ السمعة، ملتوٍ في معاملاته، لكنه أنيق أناقة غير معقولة، أناقة، ونظافة، وترتيب، وعطر من مستوى غالي جداً، ودائماً بمظهر متألق، ودائماً حالق، ودائماً مهفهف، فنحن إذا ركّزنا على الطهور بمعنى الوضوء، والغسل، ونظافة البدن، والمكان، والثياب، لأن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، فينبغي أن نركز أيضاً على طهارة السلوك وعلى نقاء النفس، وعلى سلامة القلب، وعلى صحة العقل والعقيدة.

العقل نظيف من كل عقيدة زائغة، من كل عقيدة منحرفة، والقلب نظيف من كل مرض نفسي، من كل حقد، من كل غل، من كل حسد، والنفس نظيفة مما سوى الله عز وجل، فالإمام الغزالي كما قلت ركّز في الطهور شطر الإيمان لا على المعنى المادي للطهور بل على المعنى الآخر، فكل شيء لو كشف تستحي به فهذا سلوك قذر، عوِّد نفسك أن تفعل شيئاً لا تستحي به أبداً إطلاقاً من أي إنسان، أما العمل الذي لو كشف تستحي به فهذا عمل قذر.

إذاً النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال: " الطهور شطر الإيمان " معنى شطر بالضبط نصف، فإذا أردت التوسع بهذا المعنى ؛ الاستقامة نصف الإيمان، والعمل الصالح نصفه الثاني، الاستقامة طابعها

سلبي ؛ لم تكذب، لم تغش، لم تغتب، ما نميت، ما دلّست، ما أوهمت، ما أوقعت بين اثنين لمصلحتك، ما فعلت شيئاً يغضب الله هذا الطهور.

الآن، خدمت الناس، نصحتهم، واسيتهم بمالك، واسيتهم بجهدك، واسيتهم بخبرتك، فإذا أردت توسيع المعنى أن يكون شمولياً فالطهور الاستقامة، والعمل الصالح الشطر الثاني، فأنت بين انضباطٍ بأمر الله وبين تقرُّبٍ إلى الله، الانضباط بالاستقامة، والتقرب بالأعمال الصالحة هذا معنى الحديث الشمولي.

وممكن أن نفسر الطهور الوضوء والغسل، أو طهارة البدن والثوب والمكان، والبيت، والدكان، المظهر النظيف، شيء مؤلم جداً يكاد يعتصر القلب له، إن دخلت لقرية مسلمة تجدها منفّرة، إن دخلت لقرية أخرى ترى فيها النظافة والترتيب، شيء مؤلم جداً، النظافة والترتيب من صفات المسلم، من صفات المؤمن، أنت سفير هذا الدين، فالأناقة والترتيب، حتى جمال المظهر مطالب به أنت، النبي عليه الصلاة والسلام كانت له ثياب لا يرتديها إلا في الجمعة والأعياد والمناسبات، وكان عَلِيَّة قوه يفعلون ذلك، أنت مؤمن، أنت سفير، هل خطر في بالك في كل الأزمنة سفير دولة يدعا إلى حفل استقبال ضخم يرتدي ثياب قميئة؟ ممنوع، لأن هذا الإنسان يمثل دولة، تجد الأناقة، والترتيب، ويختار من الأذكياء، وطلقاء اللسان، وأصحاب الثقافة العميقة، لأن هذا الإنسان يعني هذه الدولة، ويجب أن تعلم علم اليقين أنك سفير هذا الدين، كل واحد منا ضمن عمله، ضمن حيه، فلان صاحب دين، في أضواء، في تركيز، والله المؤمن موضوع تحت ألف ضوء، تحت الأضواء والناس لا يرحمون المؤمن، أقل غلطة، أقل كلمة، أقل موقف، هكذا، لا يقول له: لماذا فعلت هذا ؟ يقول له: هكذا الإيمان، هكذا الإسلام ؟ هل أنت مسلم ؟ فأنت تحت الأضواء، وتحت المراقبة الشديد، لا لشيء إلا لشيء واحد هو أن المسلم مظنة صلاح، الناس يحسنون الظن بالمسلم.

فهل المسلم معقول يغش ؟ لا والله، معقول يعمل عمل دنيء ؟ لا والله، معقول يحتال ؟ لا والله، مستحيل، فإذا احتال أو كذب أو غش، سقط هو وأسقط معه التدين من النظر الجهلاء، فالطهور شطر الإيمان، وشطره الآخر العمل الصالح، الاستقامة والعمل الصالح، فاستقم كما أمرت ومن تاب معك، والحمد لله تملأ الميزان، لأن الله عز وجل قال:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

(سورة النساء: من آية " 147 ")

فالإيمان لا يكفي، لابد مع الإيمان من الشكر، لأن الكون مسخر تسخير تعريف وتكريم، التعريف آمنت، والتكريم شكرت، فالحمد لله تملأ الميزان.

وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السماء والأرض، التعليق الصغير هو أن كلمة سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر هذه كلمات ألفناها، نرددها صباح مساء، ينطلق لساننا بها، ولكن كأننا

أفرغناها من مضمونها، وكأن هذه الكلمات أصبحت أقرب إلى العادات، فالإنسان في غضبه يقول: سبحان الله، يسبح الله إذا غضب، وكأن كلمة سبحان الله تعني التضجر من هذا الإنسان، هذه الكلمات أفقدناها معناها، أفقدناها مدلولها، أفقدناها مضمونها، أما إذا الإنسان سبح الله فعلاً، أي نزَّهه، ومجَّده، وقال الله أكبر فعلاً كبره، ورأى أن الله أكبر من كل شيء، وأكبر من كل ما عرف عنه، وحمد الله، ورأى أن فضل الله عز وجل عظيم، وأنه لا حدود لفضل الله عز وجل، وأنه كلما تلى قوله تعالى:

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (113))

(سورة النساء)

ذابت نفسه، أوجدتني إذ لم أكن شيئاً مذكوراً، أوجدني بين أم وأب يحرصان علي، أنا والله يا إخوان حينما أرى أباً يحرص على ابنه، أو أماً، وهذا الشيء المألوف، لا أرى لا أم ولا أب أرى أن الله عز وجل لأنه يحب هذا الطفل الصغير ألقى حبه في قلب أمه وأبيه، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

(سورة طه: من آية " 39")

كيف يلقي الله على إنسان محبةً ؟ يلقي حبه في قلوب أمه وأبيه، وقلوب الناس أجمعين، فتجد الأم لا شأن لها إلا ابنها، تحرص عليه، تقلق لمرضه، تفرح لسروره، تطرب لنجاحه، تطرب لزواجه، ما هذا الإنسان العجيب الذي يعيش لغيره ؟ هي الأم، هي مظهر من مظاهر رحمة الله عز وجل، إذاً الحمد لله أوجدك، ورعاك أتم رعاية عن طريق ما أودع في أمك وأبيك من حب وعطف وحنان، فلما كبرت، خلق لك من نفسك زوجة تسكن إليها، فلما كبرت وهبك أولاداً في خدمتك، سخر لك أم وأب وأنت صغير، وزوجة لما كبرت، ولما كبرت زيادة أولاد، أعطاك السمع، أعطاك البصر، أعطاك العقل، أعطاك الذوق، الأجهزة، الأعضاء، الهواء، الماء، الأزهار، الأطيار، الأسماك، كل هذا الكون لك..

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

* * *

فلذلك المؤمن لا يوجد عند كلمة تعبر عن مكنون نفسه إلا الحمد لله، يقولها الإنسان: يا ربك لك الحمد، حمداً كثيراً طيباً مباركاً، بعدد خلقك، هذا شأن المؤمن الحمد، شأنه التسبيح، وشأنه التكبير، وشأنه الحمد، وشأنه التوحيد، فلا إله إلا الله... سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر... هذه الكلمات لو أردنا أن نجسد عظمتها بمساحات لملأت ما بين السماوات والأرض، أي ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية، لو أردنا أن نعرف عظمة هذه الكلمات، لكن الشيء المؤسف، أن هذه الكلمات أصبحت مفرغة من مضمونها، يقولها المسلمون وهم يستهزئون، وهم يغضبوهن، يقولونها متضجرين،

لا، فسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله و، الله أكبر هذه الكلمات فسرها المفسرون بأنها الباقيات الصالحات، قال:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً (46))

(سورة الكهف)

هي الباقية، والدنيا فانية وزائلة، لذلك قال: من عبَّر عن هذه الكلمات بلسانه: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر معتقداً بمعانيها، مستحضراً عظمة الله من خلالها، فإنه ينال أجراً عظيماً، فالمؤمن شأنه التسبيح والتحميد والتهليل والتوحيد، قال عليه الصلاة والسلام:

((ما قال عبدٌ لا إله إلا الله مخلصاً إلا فتحت له أبواب السماء حتى يفضي إلى العرش، ما اجتنبت الكبائر))

(من شرح الجامع الصغير: عن " أبي هريرة ")

في عندنا شيء دقيق جداً: لفت نظري إحصاء أن أمريكا بالحرب العالمية الثانية، مات من سكانها مليونان بسبب الخوف والقلق النفسي، ومات ثلث مليون بساحات المعركة، الثلث، صاروا السدس، ثلث مليون ماتوا في ساحات المعارك، ومليونين ماتوا خوفاً وقلقاً، تفسير ذلك ربنا عز وجل قال:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19))

(سورة المعارج)

هكذا الله خلقك، هذا ضعفٌ خلقي لمصلحتك، فالإنسان لا يطمئن إلا بذكر الله، لا ترتاح نفسه، والآن الإحصاءات عن القلق، والخوف، وتوقع المصائب، إحصاءات ليس لها حدود، كل إنسان إذا كان بعيد عن الله عز وجل، يموت من القلق والخوف، خوف من مجهول، خوف من مرض عضال، خوف من فقر، خوف من تشرد، خوف من خروج من بلاده، فهذا الخوف ساحق وماحق، فربنا عز وجل قال:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28))

(سورة الرعد)

فلذلك عندما قال النبي الكريم: " سبحان والله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض " أي إذا ذكرت الله اطمأنت نفسك، واستقرت جوارحك، وهدأ خاطرك، وأجمل شيء بالإيمان صلاح البال، فشأني مع الله، هو يعلم، إن تكلمت أو سكت، هو يعلم، يرى عملي، جمال الإيمان التعامل مع جهة واحدة، وهذه الجهة ترى، وتسمع، وتعلم السر وأخفى، فلذلك، يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً، حتى المؤمن يلاحظ نفسه، إذا ذكر الله قليلاً انتابته مشاعر الخوف، والقلق، والضياع، أدنى شيء بحياته يعطيه وهم كبير، لكن إذا ذكر الله ذكراً كثيراً، يشعر بقربه من الله، وبأن الله قوي، وغني، ورحيم، ووفي، ووعده صادق، ووعد المؤمن بكل خير، فلذلك دواء القلق ذكر الله، كلام:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28))

(سورة الرعد)

دواء القلق ذكر الله عز وجل..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (42) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (43))

(سورة الأحزاب)

فالحديث الشريف:

((الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان والله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض، والصلاة نور))

تشبيه لطيف جداً ؛ راكب مركبة، والمصابيح متألقة، والطريق مكشوف أمامك، ممكن أن يكشف لك نور هذه المركبة أن هناك حفرة على اليسار، طبعاً شيء بديهي أن تتجه نحو اليمين، المنعطف مكشوف، والحفرة مكشوفة، والعقبة مكشوفة، وضيق الطريق مكشوف، واتساعه مكشوف، والحاجز مكشوف، كل شيء مكشوف، فكما أن الضوء العادي يكشف لك كل خبايا طريق، لذلك تحطات، كذلك الصلاة، الصلاة نور، آيات كثيرة جداً تؤكد أن المصلي يلقي الله في قلبه نوراً يكشف له به الحق حقاً والباطل باطلاً، مشكلة المشاكل، مشكلة الناس جميعاً أنهم يتخذون قراراً غير صحيح، يقول لك: الله عمى على قلبي، ما انتبهت لهذه النقطة، غابت عني، معنى ذلك أنك في عمى، أما المؤمن بصير ؛ صلاته نور، دائماً يتخذ قراراً سليماً، فالحياة كلها اغراءات، كلها مزلق، كلها تُرُّهات، فإذا الإنسان لم يتسلح بنور الله عز وجل، يغش، ويحتال عليه، ويهلك نفسه، قال: والصلاة نور، قال عليه الصلاة والسلام:

((اذا حافظ العبد على صلاته فأقام وضوءها وركوعها وسجودها والقراءة فيها قالت له الصلاة: حفظك الله كما حفظتني، وصعد بها إلى السماء ولها نور تنتهي إلى الله عز وجل، فتشفع لصاحبها))

الصلاة نور، لا أقدر توضيح الفكرة، أنت ألا ترى شخص أحياناً إذا غش إنسان ولعب عليه، يرى نفسه كسبان، لو فرضنا بياع نسي أن يحاسبك، فهناك شخصين، إذا مؤمن لا يقول له: نسيت الحساب، تفضل، يرى نفسه سقط سقوط مريع والله عز وجل سيحاسبه حساباً شديداً لو سكت عن هذا، أما غير المؤمن إذا كان البائع نسي يحاسبه، يعدها مكسب كبير أنه نفد من الحساب، أليس هذا هو الأعمى.

وهذا الذي يعرض عن زوجته التي أباحها الله له، ويتطلع إلى غير زوجته بطريق غير مشروع، أليس هذا أعمى ؟ مَن يراه أعمى ؟ المؤمن، أنت تعرف في قناة نظيفة مسموح بها، في قنوات كلها قذرة ممنوعة، هذا عدوان على أعراض الآخرين، أما هذه زوجتك.

المال من هذا الطريق مشروع، من طريق آخر غير مشروع، فأنت من خلال تعاملك مع الناس تشعر

أن في إنسان مستنير، وفي إنسان أعمى، يجب أن تشعر بها، الذي يكذب أعمى، الذي ينسى أن الله يراقبه أعمى، الذي ينسى أن الله سيحاسبه أعمى، الذي يظن أنه إذا ظلم زوجته فهو الرجل، فهي مقطوعة وليس لها أحد، فيقول لك: معستها معس، أعمى، لا يعلم أن الله عز وجل سينتقم منه، وسيجعله يركع أحياناً، أعمى، فلان مستنير يعرف أنه في إله يراقبك، وكلهم عباده، وكلهم خلقه، وكلهم له حقوق سوف يطالبون بها يوم القيامة، معناها المؤمن مستنير.

فدقة الحديث الصلاة نور، غير المصلي أعمى ؛ يرتكب الحماقات، يأكل أموال الناس بالباطل، يعتدي على أعراض الناس، يتكبَّر، يكذب، يحتال، يغش، ألا ترى أن هؤلاء الذي يغشون الناس، الغش ظاهر، جلي، يسحبون أنهم أذكياء، وأنهم شُطَّر، وأنه هكذا كسب المال، ألا ترى أنه أعمى ؟ والله أعمى، فالظلم ظلمات، فأي إنسان ينحرف، تشعر أنت أنه أعمى، لأنه غفل عن أن الله يراقبه..

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

الصلاة نور، ولكن مَن صلى الصلوات الخمس في جماعة، جاز على الصراط كالبرق اللامع في أول زمرة من السابقين، وجاء يوم القيامة، ووجهه كالقمر ليلة البدر، وقال عليه الصلاة والسلام:

((بشر المشَّائين في الظُلَم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة))

(من الجامع لاحكام القرآن: عن " أبي أمامة ")

واحد يستيقظ يرتدي ثيابه، يتجه بوقت النوم ؛ النوم اللذيذ، النوم المريح، النوم العميق، ولا سيما في أيام الشتاء، حيث البرد القارس، قال

((بشر المشائين في اللظم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة))

قال تعالى:

(نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة التحريم: من آية " 8")

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((وجعلت قرة عيني في الصلاة))

وكان إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة، ويقول عليه الصلاة والسلام: والصدقة برهان، أنت كيف تبرهن لنفسك أنك تحب الله ؟ لأن الله أودع في قلبك حب المال، فالمال محبوب كلام واقعي، لا تصدق مَن يقول عكس ذلك يكون يدجل، الله عز وجل قال:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)

(سورة آل عمران: من آية " 14")

فإذا أنفقت هذا المحبوب معنى ذلك أنك تحب الله أكثر من محبوبك المال، الصدقة برهان، أتحتاج

برهان يقيني، أتحتاج لبرهان قطعي على أنك تحب الله، إنفاق المال، الصدقة برهان، لأن الله عز وجل أودع حب المال في قلب كل إنسان، فإذا أنفقه معنى ذلك هو يحب الله أكثر من المال، فالحج، يؤكد الحاج أن الله أحب إليه من بيته، ومن مركز عمله، ومن رفاهة عيشه، ومن ماله، لأن فيه مغادرة بيت، مغادرة أهل، أخطار، إنفاق مال، ازدحام، حر شديد، كلها أشياء غير محبوبة، إذاً تلبية دعوة الله عز وجل أغلى عنده من كل ذلك، الصائم يقدم برهان على أن طاعة الله أغلى عنده من الطعام والشراب، فالآن قد أرى شخص برمضان أفطر، في عنده عادات بالطعام والشراب لا يستطيع أن يتخلى عنها، لا يعبأ بالصيام كلياً، فالصائم يبرهن على أن الله عز وجل أغلى عليه من الطعام والشراب، والمصلي كذلك، والمتصدق كذلك، قال: " والصبر ضياء " ما معنى الضياء ؟ معنى النور الله عز وجل قال:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً)

(سورة يونس: من آية " 5")

العلماء فرقوا بين الضياء والنور أن النور لا يحرق، لكن الضياء يحرق، الضياء فيه إحراق، يقدم النور مع الإحراق، فالصبر ضياء، الصبر تحمل مشقة، كيف أن ضوء الشمس ينير لك الطريق لكنه يلسع الجلد، أما ضوء القمر نور، يقدم لك الكشف فقط من دون إزعاج، لكن ضوء الشمس يؤذي، كذلك الصبر ضياء، فهو تحمل ولكن مع التحمل في كشف، النبي الكريم يقول: " والصبر ضياء " قال تعالى:

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (43))

(سورة ص)

(وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157))

(سورة البقرة)

تعقيب أخير على آخر فقرة بالحديث: وكل الناس يغدو، أي أنك تعمل، ويعمل الكافر، ويعمل المنافق، ويعمل الفاجر، لكن المؤمن عمله يوصله إلى الجنة حتى في تجارته، لأنه يطبق شرع الله عز وجل، يتاجر بمواد مشروعة، مواد ممنوعة لا يتاجر، مواد تؤذي خلق الله لا يفعلها، فهناك قواسم مشتركة، وهناك اختلاف نوعي، فالقواسم المشتركة: كل الناس يغدو، أما الاختلاف النوعي أن المؤمن يتحرك لينجو من النار وليدخل الجنة، والكافر يتحرك ليقع في النار في النهاية، فكل الناس يغدو فبائع نفسه، هناك مَن يبيع نفسه للشيطان، فالأذى بدمه، يتمنى أن يوقع الأذى في كل الناس، يتمنى أن يتخلّف الناس جميعاً عنه، أن يموت الناس ليحيا، أن يجوعوا ليأكل، أن يخافوا ليطمئن ، هذا إنسان، وإنسان باع نفسه لإنسان آخر، عبده من دون الله، إنسان باع نفسه لجهة، إنسان باع نفسه لشهواته، فلابد من أن تبيع نفسك، لكن المؤمن يعرف قيمة نفسه، ويعرف أنها مكرَّمة جداً، وأنه لا يبيعها إلا لله عز وجل، معك ألماسة ثمنها عشرين أو ثلاثين مليون، نادرة، فهل تبيعها لإنسان لا يعرف قيمتها ؟ لا تبيعها إلا لمن

يدفع ثمنها الحقيقي، ولا توجد جهة مما سوى الله يمكن أن تدفع لك ثمن نفسك الحقيقي إلا الله عز وجل، لهذا قال الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

(سورة التوبة: من آية " 111 ")

الثمن هو الجنة، أما أي بيع آخر بأي جهة لا توجد جنة، فهو تكريم شكلي، إمداد بالمال، دعم بالقوة، أشياء شكلية لا تقدم ولا تؤخر، سأل أحدهم فقيه: أنا والله محتار، يا ترى الجنازة أمشي أمامها، أم أمشي خلفها، أم عن يمينها، أم عن يسارها، أسبل يدي أم أضعهم، قل لي ما الحكم الشرعي ؟ قال له: لا تكن في النعش وامشي أينما شئت. فلما الإنسان يبيع نفسه لغير الله عز وجل، انتهى، لأن غير الله لن يدفع الثمن إلا بثمن بخس، أما الله عز وجل إن بعته نفسك، بعته شبابك، بعته عمرك، بعته عضلاتك، وقتك، ذكاءك، فكرك، لسانك، لغتك، إن بعته لله عز وجل قبضت الثمن الحقيقي وهو الجنة.

أما لو بعت علمك لإنسان، سخر لشهوات، ألا توجد أعمال فنية فيها ذكاء عالي جداً ولكنها أساسها إفساد البشر ؟! الذي باع طاقات الفكرية، باع علمه، باع أذواقه لإظهار مفاتن المرأة، لإفساد الناس، فهذا إنسان ذكي جداً لكنه باع ذكاءه للشيطان، المهم أن تبيع نفسك لمن يدفع الثمن الباهظ، لا أن تبيعها لمن يدفع الثمن البخس، فإذا بعتها لغير الله فأنت مغبون، وهؤلاء الذين باعوا أنفسهم لسوى الله، مغبونون، جاهلون، حمقى، فهم باعوا أثمن شيء بأقل ثمن، دقيق الحديث جداً: كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها "

فالبيع إما بيع نجاة أو بيع حياة، التعقيب على آخر فقرة في الحديث: أحياناً أصحاب الحرف، الإنسان يغوص بحرفته لدرجة ينسى صلاته، ينسى دينه، هذا في التجارة، هذا في الصناعة، في الزراعة، هذا عنده هذه المزرعة كل شيء بحياته، غاص بها إلى درجة نسي كل شيء، كأنه باع نفسه لها، المعنى دقيق جداً، حتى الحرفة نفسها ممكن أن تشغلك عن الله نهائياً، فليس من الممكن أن يحضر مجلس علم، وقد تبيع هذا، فلا يوجد مجال، وقت كسب مال، باع نفسه للتجارة، مهما حصل من أموال، سيدعها ويغادر الدنيا بلا شيء، فالمشكلة، إنسان باع نفسه لبحث معين ثمانية عشر سنة يديره، بحث ليس له علاقة بالآخر، له علاقة في الدنيا، تجده مؤلّف عن شاعر جاهلي، وصف الخمر والنساء، درست شعره، عشرة سنوات دراسة، باع نفسه لجهة دفعت ثمن بخس.

أنا أتمنى على الله عز وجل أن أنقل لكم ما في نفسي بهذا المعنى: أنت غالي جداً، شبابك لله، عمرك لله عز وجل، ذكاءك لله، طلاقة لسانك لله عز وجل، وقتك عضلاتك، خبرتك، تبيع خبرتك بثمن بخس تبيعها، إنسان يعلم القرآن، يعلم شيء أخروي، فهذا الذي يقبض ثمناً بخساً، فالإنسان عندما يبيع نفسه لغير الله عز وجل مغبون، وسوف يكتشف هذا الغبن الفاحش عند الموت، إنسان أحياناً يبيع نفسه

لحرفته، أو لزوجته، أو لأولاده، يرضى بهم بلا صلاة، ولا صيام، زُناة، لكنه يريدهم أعلام في الدنيا، يطيعهم ويعصي الله، يؤمِّن لهم من أجل مستقبلهم كل شيء على حساب طاعة الله عز وجل، قد يأكل مالاً حراماً ليرَفّههم، باع نفسه لهم.

ممكن تبيع لنفسك لأولادك، تبيع نفسك لزوجتك، تبيع نفسك لدكانك، لتجارتك، لصنعتك، لمزرعتك، مغبون، الشباب، العمر، العضلات، الوقت، الذكاء، العلم، طلاقة اللسان، القدرة على التأليف، حتى الذي أتاه الله قدرة فنية يمكن أن تبيعها لله، اقرأ القرآن، امدح النبي العدنان، ممكن تبيعها لله، وقد تبيعها للدنيا، تصبح مغني، الذي عنده قدرات ؛ الذي عنده قدرات في التأليف ممكن يؤلف قصة سافلة يربح منها أموال طائلة، ممكن يؤلف قصة راقية ترقى بالقُرَّاء إلى أرقى شيء، فالقدرة على التأليف، القدر البيانية، القدرة اللغوية، القدرة الخطابية، القدرات الفرعية، الأساسية، هذه يجب أن تبيعها لله عز وجل..

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163))

(سورة الأنعام)

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

(سورة التوبة: من آية " 111 ")

فسأل نفسك أنت بعت لما بايعها ؟ في إنسان باع بيع قطعي، باع لله عز وجل، باع نفسه، حضور نفسية لا يوجد عنده كل طاقاته لله، طبعاً بالحكمة ولكن ليس بغير الحكمة، وفي إنسان حظوظه النفسية كبيرة جداً، أعطى شيء قليل للدين، فكل الناس يغدو..

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4))

(سورة الليل)

انظر للطريق الساعة الثامنة صباحاً تجد سيارات، وازدحام، والناس مجتمعين بالعمل، كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها، قد يتوجَّه طالبان للجامعة، طالب نيته يأخذ شهادة عليا، يكون قوة للدين، ملتزم، مستقيم، يغض بصره، كلامه صادق، جاد في عمله، حتى دراسته هذه لله عز وجل، هدفه تأسيس أسرة مسلمة مثلاً، يتزوج من امرأة صالحة، تجد هذا الطالب ينطلق إلى الجامعة وهو يعتق نفسه من النار، الجامعة نفسها، الكلية نفسها، يصير معه شهادة عليا، يصير طبيب، يأخذ فيلا هنا، وبيت هنا، ويسهر بالنادي الفلاني، يعمل سياحة، كل شيء برأسه شهوات، فإنسان الدراسة نفسها، الجامعة نفسها، الكلية نفسها، لكن إنسان يتجه لمرضاة الله عز وجل، وإنسان يتجه للدنيا، ولحظوظه، هذا باع نفسه لله، وسيقبض ثمن مذهل عند الموت وفي الدنيا، في دفعات على الحساب والرصيد يوم القيامة، وإنسان باع نفسه لغير الله عز وجل سيكتشف في الآخرة أنه مغبون.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (036) :الهجران .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-06-28

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... من سلسلة الموضوعات التي أشعر أننا في أمس الحاجة إليها موضوع الهجران بين الإخوة

هذا موضوع نجده في كل المستويات، وفي كل التجمُّعات، وفي كل الحلقات، وفي كل الأسر، خصومات، ومشاحنات، وأحقاد. فموضوعٌ دقيقٌ جداً يجب أن تعلموا علم اليقين الحكم الشرعي في مَن يهجر أخاه، أو يعرض عنه.

لكن قبل أن أعالج هذا الموضوع وجدتني بحاجةٍ إلى موضوع آخر، الموضوع الآخر هو: أن الإنسان أحياناً، أو أن المسلم أحياناً يرى أخاه منحرفاً قليلاً، متلبساً بمعصيةٍ، فيظنه ليس مسلماً بهذه الطريقة، فيبني إساءته على هذا الأساس.

قبل أن نشرح موضوع الهجران، سأسمعكم بعض الأحاديث المتعلقة بتكفير المسلم، الأحاديث كثيرة جداً في هذا الدرس، فالقصد ليس الشرح بل القصد أن تشعر أن هناك أحاديث كثيرة تلحُّ على موضوعٍ واحد.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال، قال عليه الصلاة والسلام:

((إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بهما أحدهما، فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه))

إذاً من الكفر أن تتهم أخاك بالكفر، الشيء الذي يكفِّر أن تكفر، الشيء الذي يجعلك متلبِّساً بالكفر أن تكفر أخاك المسلم.

بادئ ذي بدء ـ كلام دقيق جداً ـ يجب أن تعلم أن تقييم العباد من شأن رب العباد، ومَن أراد أن يقيِّم الناس فقد تطاول على مقام العبودية، ونازع الله في مقام الألوهية، تقويم العباد من شأن رب العباد. الإنسان الذي ينصِّب نفسه وصياً ليوزِّع ألقاب الإيمان، والكفر، والفسق على الناس، ليس هذا من أخلاق المسلمين أبداً، الحديث الصحيح رواه البخاري، ومسلم، والإمام مالك، وأبو داود، والترمذي:

((إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بهما أحدهما، فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه))

أي صار هو الكافر، الذي كفَّر أخاه هو الكافر، لو أنه حديث واحد، لكن الثاني:

عن أبي ذرٍ رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

((من دعا رجلاً بالكفر أو قال يا عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه ـ معنى حار أي رجع))

هذا الحديث رواه البخاري ومسلم.

حديثٌ ثالث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((من قال لأخيه يا كافر فقد باء بهما أحدهما))

(رواه البخاري)

صاروا ثلاث أحاديث. وعن أبي سعيدٍ رضي الله عنه قال: قال عليه الصلاة والسلام:

((ما أكفر رجلٌ رجلاً إلا باء بهما أحدهما إن كان كافراً وإلا كفر بتكفيره))

(رواه ابن حبَّان في صحيحه)

وفي حديثٍ آخر عن أبي قلادة رضي الله عنه، أن ثابت بن الضحَّاك رضي الله عنه أخبره أنه بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له:

((مَن حلف على يمينٍ بملةٍ غير الإسلام كاذباً متعمداً فهو كما قال، فقد خرج من ملة الإسلام))

يجب أن تقدِّس ما قدَّسه الله، أما إذا قدست مقدسات غير المسلمين، فأنت على مِلَّتهم..

((من أحب قوماً حشر معهم))

(من كشف الخفاء: عن " أبي قرصافة ")

((من قتل نفسه بشيءٍ عذب به يوم القيامة))

(من مختصر تفسير ابن كثير)

و..

((ليس على رجلٍ نذرٌ فيما لا يملك))

هذا تابع للدرس الماضي. و..

((لعن المؤمن كقتله))

و..

((من رمى مؤمناً بكفره فهو كقتله))

لعنه أو تكفيره أو إذا قلت له يا عدو الله.

و..

((من ذبح نفسه بشيءٍ عذِّب به يوم القيامة))

(رواه البخاري ومسلم، ورواه أبو داود والنسائي باختصار، والترمذي وصححه)

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((ليس على المرء نذرٌ فيما لا يملك ولاعن المؤمن كقاتله ، ومن قذف مؤمناً بكفرٍ فهو كقاتله، ومن قتل نفسه بشيءٍ عذب بما قتل به نفسه يوم القيامة))

حديثُ ثالث: وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال عليه الصلاة والسلام:

((إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فهو كقتله))

فقط كافر ؟ إذا قال له مشرك مثلاً ؟ هنا سؤال: إذا النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((الزكاة في هذه الأربعة: الحنطة والشعير والتمر والزبيب))

(من الجامع الصغير: عن " عمر ")

فقط أربعة ؟ إذا مزرعة كرز مثلاً، تفاح، كيف الحكم الشرعي ؟ قال: تجب في علتها لا فيها، ما علتها ؟ أنها محصول زراعي له قيمة كبيرة أساساً، بالهند، ألا يوجد مسلمون بها، محصول جوز الهند ليس عليه زكاة ؟ بسيلان في مسلمون، محصول الشاي ليس عليه زكاة ؟ كل شيء في عليه زكاة، تجب في علتها لا في عينها، ما علتها ؟ أنها محصول، وإذا قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يقضي القاضي حين يقضي وهو غضبان))

في قاضي ليس غضبان، لكن ابنه مريض كثير، وهو مشوش، ابنه معه التهاب سحايا بين الموت والحياة، فهل له أن يحكم في هذه الساعة ؟ لأن هذا التشويش يشبه الغضب، فعد الفقهاء ثلاثاً وثلاثين حالةً لا يجوز للقاضي فيها أن يقضي بين الناس، إذاً العلّة في الغضب أنه في تشويش، إذاً أية حالةٍ أخرى فيها تشويش لا ينبغي أن يقضي، فقط كافر ؟ هنا السؤال، ومشرك كذلك، كلما تحركنا حركة أشركت، والله هذه مشكلة، إذا واحد صلى على النبي أشرك، فكذلك لا في كلمة كفر، بل في أية كلمةٍ مشابهة.

لماذا قدمت هذا الموضوع لموضوع الهجران ؟ لأن أخاك هذا مسلم قد يكون مقصر وليس كافراً، مسلم قد يكون عاصي لكن ليس كافراً، مسلم مرتكب معصية لكن لا يستحلها، لو أنه استحلها كفر، يرتكبها عن ضعفٍ، أو عن غلبةٍ، نحن في عندنا قاعدة: " مَن أنكر أمراً إلهياً، أو استحل نهياً إليهاً فقد كفر " لكن ترك الصلاة إنكاراً لوجوبها كفرٌ، أما تركها تكاسلاً معصيةٌ وفسق، فحتى الإنسان لا يتورط ويتهم إنسان بالكفر وهو ليس كذلك، عاصي عاصي، فاسق فاسق، مقصِّر مقصِّر، يحتاج إلى توجيه منك، يحتاج إلى بيان أما أن تقاطعه، تهجره نهائياً !!

أما الأحاديث التي تتعلق بالهجران فشيءٌ مخيف، أقول لكم مخيف بكل ما في هذه الكلمة من معنى، أنا قصدي من الدرس أن الذي له صديق، الذي له أخ، قريب ويقاطعه نهائياً، لا يسلموا على بعضهم، متهاجرين، ليسمع كل إنسانٍ متلبسٍ بحالةٍ من هذه الحالات.

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال عليه الصلاة والسلام:

((لا تقاطعوا))

مسلم هذا توجيه النبي، أنت مسلم، هذا أمر النبي ونهي النبي، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: من آية " 7 ")

((لا تقاطعوا، ولا تدابروا))

تدابروا أن يدير كل واحد منا ظهره للآخر، وقد حمل الفقهاء أن تلتفت عنه لا إليه، أن تعرضَ بوجهك عنه، فهذا تدابر أيضاً، ليس التدابر أن توليه ظهرك، لا، التدابر أن تعرض عنه..

((لا تقاطعوا، ولا تدابروا، لا تباغضوا، لا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا))

و..

((لا يحل لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاث))

(رواه مالك والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي ورواه مسلم والطبراني)

الطبراني زاد في هذا الحديث فقال:

((يلتقيان فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهم الذي يبدأ بالسلام))

والذي يبدأ بالسلام يسبق إلى الجنة، أن تبدأ أنت بالسلام.

وعن أبي أيوب رضي الله عنه، عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((لا يحل لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام))

(رواه مالك والبخاري ومسلم والترمذي وأبو داود)

فهذا التوجيه ما مقصده ؟ طبعاً النبي الكريم عليه الصلاة والسلام له توجيهات للمسلمين ذات خطوط منوَّعة، أحياناً يوجهك لصحتك، أحياناً يوجهك لتعميق علاقتك بالله عزَّ وجل، هذا حديث اجتماعي لأن المسلم يعيش في مجتمع، فإذا كانت علاقاته حسنة في مَن حوله، كان المؤمنون يداً واحدة، وكان اجتماعهم، ومودَّتهم، وحبهم سبباً لرقيهم جميعاً، الملاحظ أن المجتمع الإسلامي شيءٌ يحتل جانباً في الدين كبيراً، فأي شيءٍ يقوي علاقة المسلم بأخيه أمرك الله به وأمرك به رسول الله، وأي شيءٍ يفتت العلاقة بين المؤمنين وبين المسلمين نهاك الله عنه، ونهاك عنه رسول الله. ولكن مَن يأتني بشيءٍ يقوي العلاقة وقد أمر الله بها ؟ إفشاء السلام، لذلك طرح السلام سنة، ورده فرض، و

((إذا حييتم بتحيةٍ فحيوا بأحسن منها أو ردوها))

شيء آخر يقوي العلاقة، الهدية.. " الهدية تذهب بوحر الصدر ".. إذا في تشويش بين أخين، في تدابر، في زعل بهدية لطيفة ولو كانت رمزية فـ: " الهدية تذهب بوحر الصدر

والنبي ماذا قال ؟

((تهادوا))

(من الجامع لاحكام القرآن: عن " ابن شهاب ")

ماذا يفهم من (تهادوا) ؟ مشاركة، أي إذا جاءتك هدية فردَّ عليها بهدية، تفاعلوا فيه معنى المشاركة، تحاببوا. غير الهدية ما الذي يقوي علاقات المؤمنين ؟ السلام، والهدية..

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا)

(سورة آل عمران: من آية " 103")

الاعتصام بحبل الله يجعلك أرقى من أخيك، الأرقى دائماً هو الذي يجذب إخوانه إليه، يعرفونه بتسامحه، أيضاً ـ نحن نريد الذي يقوي ـ الزيارة..

((وجبت محبتي للمتحابين في، والمتباذلين في، والمتجالسين في، والمتزاورين في))

(من الجامع الصغير: عن " معاذ ")

السلام، والهدية، والزيارة، وأيضاً أن يتفقد المسلم أخاه المسلم، النبي الكريم كان يتفقد أصحابه، أن تلقاه بوجهٍ طلق، ببشر، أن تناديه بأحب الأسماء إليه، أيضاً أن ترحمه وتعطف عليه، أيضاً العفو، فالعفو يمتن..

((من جاءه أخوه متنصلاً ـ أي معتذراً ـ فليقبل منه محقاً كان أو مبطلاً))

(من الدر المنثور: عن " جابر ")

العفو، والتراحم، والاعتذار، والزيارة، والهدية، والسلام، الإيثار، وإجابة الدعوة، دعاك أخ بيته بعيد، يقول لك: أخي روحة معنَّة، معنى هذا أنك ليس بمسلم، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((لو دعيت إلى كراع بالحطيم ـ في منطقة خارج المدينة ـ لأجبت))

هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((لو دعيت إلى كراع ـ الكراعه مئدُم وليس لحم، مآدم ـ ولو بالحطيم لأجبت))

أي مكان بعيد والأكل متواضع، مادام دعاك وجب حقه عليك، تلبية الدعوة مما يقوي الأخوة بين المؤمنين.

حفظنا: السلام، والهدية، وإجابة الدعوة، والعفو، والتراحم، وأن تلقاه بوجهٍ طلق، وأن تناديه بأحب الأسماء إليه، وأن تتفقَّده..

((والله لأن أمشي مع أخ في حاجته أحب إلي من أن أعتكف شهراً في مسجدي هذا))

(من الدر المنثور: عن " ابن عمر ")

و

((الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه))

أيضاً ؟ في عندنا حديث طويل تعرفونه، أنه:

((أتدرون ما حق الجار ؟ ـ هذا الحديث يعيننا على حقوق الأخ كذلك ـ إذا استعان بك أعنته، وإن استنصرك نصرته، وأن استقرضك أقرضته، وإن مرض عدته، وإن أصابه خيرٌ هنأته ـ تزوج وسكن

ببيت، حج يجب أن تزوره، هذا حق، نجح، توفق بشراء محل، توفق بشراء بيت، أخذ شهادة، عمل حجة، عمل عمرة، تزوج، جاءه مولود، تعين بوظيفة مرموقة، أخوك افرح له.... إن أصابه خيرٌ هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته))

(من الجامع لأحكام القرآن: عن " معاذ بن جبل ")

شيء جميل !

((إذا استعان بك أعنته، وإن استقرضك أقرضته، وإن مرض عدته، وإن أصابه خيرٌ هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته، إن مات شيعته، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فأهدِ له منها، فإن لم تفعل فأدخلها سراً ـ أنت في بحبوحة، وأولادك في بحبوحة، تعطيهم فواكه على المدرسة غالية كثير، نادرة، هذا عمل غير طيب، أعطهم شيء مألوف وموجود ـ ولا يخرج بها ولدك ليغيظ ولده، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها))

أحياناً يكون الواحد راكب سيارة عامة يشتري فستق حلبي ويأكل، وفي واحد معه أولاد بجواره، يشتهوا، طلعت رائحته، ما في ذوق، تريد أن تشتري أمام الناس تضيف أو لا تأكل، هذا الكمال. " أن تلتمس له العذر ولو سبعين مرة "، لذلك أحد الأدباء قال: "لي أخٌ كان في أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينيه، كان خارجاً عن سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان لا يلوم أحداً فيما يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره فما الذي يفتت ؟ الآن ما الذي يقوي حفظناهم: السلام، والهدية، والعفو، والتراحم، عيادة المريض، المعاونة، أن تقرضه، إذا أصابه خيرٌ هنأته، مصيبة عزيته. ألا تؤذيه، ما الذي يفتت ؟ الغيبة والنميمة.

((لا يدخل الجنة. نمام))

(من الجامع لأحكام القرآن: عن " حذيفة ")

أيضاً ؟ التنابذ بالألقاب، كل واحد الله أقامه بشيء هذا ليس ذنبه، إذا واحد الله أقامه بهيئة معينة، هذا ليس من صنعه، ليس كسباً هذا خلق لله عزَّ وجل، فإذا أردت أن تعيِّره بعيبٍ في جسمه فكأنما تعترض على الله عزَّ وجل، هذا سوء أدب. السخرية والاستهزاء. " كفى بالمرء إثماً أن يحقر أخاه المسلم ". السخرية.

أن تستعلي عليه أو أن تسخر منه، والتنابذ بالألقاب، المحاكاة، ما هي المحاكاة ؟ أن تقلده، له لدغة بلسانه فرضاً، له حركة معينة، له حركة بمشيته، هذا كله الذي عنده قدرة على التقليد يضحك الناس كثير، يقضوا عليه سهرة للساعة واحدة، والله قد انبسطنا كثيراً، ما ترك واحد إلا وقلّده، فهل عمل شيء نافع بذلك ؟ المحاكاة شيءٌ نهى عنه النبي عليه الصلاة والسلام، مرة قالت: قصيرة لأختها صفية، قال لها:

((يا عائشة لقد قلت كلمةً لو مزجت بمياه البحر لأفسدته))

المحاكاة ممنوعة، والغيبة ممنوعة، والنميمة، والاحتقار، والكبر، إفشاء سرِّه، المجالس بالأمانة، النبي علمنا إذا إنسان أسر لك شيء والتفت، التفاتته تعني أن هذا الكلام يجب أن يبقى سراً، أحياناً يقول: أغلق الباب، يحكي لك قصة خاصة فيه، يشكو من زوجته، لأنه وثق بعقلك، وبحكمتك، وبقدرتك، قال لك: بالله سكر الباب، إغلاق الباب هذا معناه كلام بالأمانة.

في شيء وهو الحسد، الخصام، اللوم، في حالة: " التكبر على المتكبر صدقة ".. هذا وضع آخر، أنا أقول عن المسلم.

الحديث الثالث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يحل))

أنا أعلم علم اليقين ما في أسرة ما فيها مشاكل، إخوة مقاطعين، لا يتحاكوا من ثماني سنوات، وكلاهما يصلي في المسجد، أخوات، أولاد عم، شركاء، أولاد أخ، تدابر، تقاطع، أنا ما اخترت هذا الموضوع عبثاً ولكن لشدة ما علمت فيما بين المسلمين من تدابر وتخاصم، فأحب أن تعلموا ما جزاء مَن يهجر أخاه، دققوا في هذا الحديث الثالث:

((لا يحل لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاث، فمَن هجر فوق ثلاثٍ فمات دخل النار))

(رواه أبو داود والنسائي بإسنادٍ صحيح على شرط البخاري ومسلم)

أن ألح على الإسناد، حديثٌ صحيح:

((لا يحل لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاث، فمَن هجر فوق ثلاثٍ فمات دخل النار))

وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يحل لمؤمنٍ أن يهجر مؤمناً فوق ثلاث، فإن مرت به ثلاثٌ فليسلم عليه، فإن ردَّ عليه السلام ـ قال ـ اشتركا في الأجر، وإن لم يرد عليه فقد باء بالإثم وخرج المسلم من الهُجْرَةِ))

سلَّمت وما رد، يصطفل، أنت نجوت من جريمة الهجران، هذا معنى جديد الآن، الأول الأحاديث متشابهة، أما الثالث في دخول للنار، والرابع: إذا هو مصر، أنت سلِّم عليه، فإذا ردَّ السلام اشتركا في الأجر، فإذا لم يرد السلام نجوت أنت من إثم الهجران.

وعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال:

((لا يكون لمسلمٍ أن يهجر مسلماً فوق ثلاثة أيام، فإذا لقيه سلَّم عليه ثلاث مرات ـ تأكيد، ثلاث مرات ـ كل ذلك لا يرد عليه فقد باء بإثمه))

(رواه أبو داود)

هنا أضفنا معنى جديد وهو كم مرة ؟ ثلاث مرات، السلام عليكم، أدار وجهه، السلام عليكم، أدار وجهه، السلام عليكم، انتهى، أنت نجوت من إثم الهجران، كل حديث بمعنى جديد.

وعن هشام بن عامر رضي الله عنه قال: قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يحل))

والله يا إخوان أحياناً إذا واحد كان جريء وشجاع وطرق باب أخيه الذي قاطعه، يمكن تنشأ مودة بعد ذلك لا يعلمها إلا الله، يمكن يكون في متاهات، وفي محاكمات، وفي محامين، وفي تقاطع، وفي أحقاد " أفشوا السلام تسلموا " فالإنسان ليطبِّق السنة، وليكن ما يكن. يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا يحل لمسلمٍ أن يهجر مسلماً فوق ثلاث ليالٍ فإنهما ناكبان عن الحق ـ الاثنان غلطانين، كلاهما بعيدٌ عن الحق، كلاهما متقاطعين، متدابرين، متشاحنين، كلاهما على باطل فإنهما ناكبان عن الحق، ناكبان أي مائلان ـ ماداما على صرامهما، وأولهما فيءٌ يكون سبقه بالفيء كفارةٌ له ـ معنى الفيء أي أولهما اتصالاً به، فاء إليه أي حنَّ إليه، أولهما يقبل على أخيه يكون هذا الإقبال كفارةٌ له، هنا معنى جديد، المعنى الجديد أنت حينما تقطع أخاك المسلم فقد وقعت في إثمٍ كبير، ما كفارته ؟ لو واحد فطر في رمضان ما كفارته ؟ إطعام عشرة مساكين وقضاؤه، إذا كان قطع أخاه المسلم ما كفارته ؟ أن يسلِّم عليه، إذا سلَّم عليه كان سلامه عليه كفارةٌ له، قال ـ وإن سلم فلم يقبل ورد عليه سلامه ـ أي لم يرد عليه صده، اذهب من وجهي مثلاً ـ ردت عليه الملائكة ورد على الآخر الشيطان، فإن ماتا على صرامهما لم يدخلا الجنة جميعاً أبداً))

(واه أحمد ورواته محتجٌ بهم في الصحيح وأبو يعلى والطبراني وابن حبان في صحيحه)

هنا صار في عندنا معنيين جديدين، الآن الاثنان ماتا وهما متقاطعا متدابران، لن يدخلا الجنة جميعاً، سلمت عليه ما رد عليك، ترد عليك الملائكة، والذي لم يرد عليك، ترد عليه الشياطين، كفارة إثم القطيعة إلقاء السلام.

حديثٌ آخر قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يحل أن يصطرما فوق ثلاثٍ، فإن اصطرما فوق ثلاثٍ لن يجتمعا في الجنة أبداً، وأيهما بدأ صاحبه كُفِّرت ذنوبه، وإن هو سلَّم فلم يرد عليه ولم يقبل سلامه رد عليه الملك ورد على ذلك الشيطان))

المعاني متشابهة.

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: قال عليه الصلاة والسلام:

((لا تحل الهجرة فوق ثلاثة أيام))

هنا الهجرة بمعنى الهجران..

((لا تحل الهجرة فوق ثلاثة أيام فإن التقيا فسلم أحدهما فرد الآخر اشتركا في الأجر، وإن لم يرد برئ هذا من الإثم وباء به الآخر ـ وأحسبه قال ـ وإن ماتا وهما متهاجران لا يجتمعان في الجنة أبداً))

وعن أبي أيوب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((لا تدابروا، ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخواناً، هجر المؤمنين ثلاثاً، فإن تكلما، وإلا أعرض الله عزَّ وجل عنهما حتى يتكلما))

هذا معنى جديد، الله عزَّ وجل أعرض عنهما جميعاً حتى يتكلّما، لا تتحاكوا، إذاً أنتم بعيدون عني، إذاً الله عزَّ وجل يحبنا أن نحب بعضنا بعضاً، يحب أن نكون متوادين، متحابين، متناصحين، متسامحين، متعاونين.

وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((مَن هجر أخاه فوق ثلاثٍ فهو في النار إلا أن يتداركه الله برحمته))

أي أن هذا يستحق دخول النار، إلا أن يعفو الله عنه، أو أن يتداركه برحمته.

وعن أبي حراثٍ الأسلمي رضي الله عنه، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

((من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه ـ كأنك قتلته ـ))

(رواه أبو داود والبيهقي)

وعن جابرٍ رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

((إن الشيطان قد يأس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب))

بعدما أكرم الله عزَّ وجل هذه الأمة بالإسلام، وبعدما أن فتحت مكة، وبعد أن كسِّرت الأصنام، وبعد أن دخل الناس في دين الله أفواجاً، أن يُعْبَد صنمٌ في الجزيرة !! أعتقد مستحيل، ولك أن تقول ومستحيلٌ أيضاً أن يعبد صنمٌ في بلاد المسلمين، مستحيل، وهذا الشرك الجلي، لكن كما قال النبي الكريم:

((أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي ـ فالشيطان يئس لأنه لا يمكن أن يعبد غير الله في بلاد المسلمين ـ ولكن الشيطان رضي في التحريش بينهم ". بقي مجاله الوحيد أن يحرِّش بين المسلمين، تجد في قطيعة، في تدابر، هذا قلبه مليان من فلان، هذا حاقد على فلان، هنا تقاطع، هذا الحديث: "... في التحريش بينهم))

(رواه مسلم)

أنت تلاحظ أن القطيعة تعمل أوهام، إذا اثنان تقاطعوا، كل واحد باني قصر من الأحقاد على أخوه، والثاني كذلك، أحياناً بين الأخوات، بين الأصهار، بين العُدلاء، بين الشركاء، بين الجيران، كيفما تحرك انظر ماذا فعل، لو صار في اتصال وفي سلام هذه الجبال من الجليد كلها تذوب بهذا السلام.

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال:

((لا يتهاجر الرجلان قد دخلا في الإسلام، إلا خرج أحدهما منه حتى يرجع إلى ما خرج منه، ورجوعه أن يأتيه فيسلم عليه))

أنا والله ما كنت أصدق أن الهجران يخرج الإنسان من الإسلام، إلا أنها أحاديث صحيحة كلها، فمثلاً اليمين الغموس هل له كفارة ؟ ليس له كفارة، لماذا ؟ لأنه يغمس صاحبه في النار، لأن اليمين الغموس يجب أن تجدد إسلامك بعده، يجب أن تُسْلِمَ من جديد، ويبدو لي أن هجران أخاك المسلم يشبه اليمين الغموس:

((.. إلا خرج أحدهما منه حتى يرجع إلى ما خرج منه، ورجوعه أن يأتيه فيسلم عليه))

الآن في طائفة أحاديث جاء الهجران فيها بشكل فرعي

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال عليه الصلاة والسلام:

((تعرض الأعمال في كل اثنين وخميس، فيغفر الله عزَّ وجل في ذلك اليوم لكل امرئٍ لا يشرك بالله شيئاً إلا امرؤٌ كانت بينه وبين أخيه شحناءٌ فيقول: اتركوا هاذين حتى يصطلحا))

هؤلاء موقوفون، أعمالهم موقوفة لا ترفع إلى الله، هذا معنى جديد، أعمالك الصالحة لا ترفع إلى الله مادام بينك وبين أخيك شحناء، فإذا اصطلحت معه رفعت أعمالكما إلى الله جل وعلا.

وفي روايةٍ لمسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين والخميس فيُغْفر لكل عبدٍ لا يشرك بالله شيئاً إلا رجلٌ كان بينه وبين أخيه شحناءٌ، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا))

عادها ثلاثاً.

إذا أحدهما اتجه إلى أخيه، وألقى عليه السلام فقد خرج من إثم الهجران، ألقى السلام، وحاول يزيل الخلاف، ويعيد الصلة، أصر على موقفه، الأول خرج من الإثم أبداً لا يحاسب، أعتقد أول الدرس حكينا في هذا، وسأذكرك بالحديث:

((فإن رد عليه السلام فقد اشتركا في الأجر، وإن لم يرد عليه فقد باء بالإثم وخرج المسلم من الهجرة))

وعن جابرٍ رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس فمِن مستغفرٍ فيغفر له، ومن تائبٍ فيتاب عليه، ويرد أهل الضغائن بضغائنهم حتى يتوبوا))

أصحاب الضغائن أعمالهم لا تُرفع إلى الله عزَّ وجل.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((يطلع الله إلى جميع خلقه ليلة النصف من شعبان، فيغفر لجميع خلقه إلا لمشركٍ أو مشاحن))

المشرك لا يغفر له، والمشاحن كذلك.

* * * * *

الآن في عندنا قصة قصيرة ترويها السيدة عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال: روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوضع عنه ثوبيه ـ خلع ثيابه ـ ثم لم يستحم، ما إن انتهى من خلع ثيابه حتى قام فلبسهما ـ مرة ثانية ـ فأخذتني غيرةٌ شديدة ـ أي سيذهب ؟ هذه غيرة النساء ـ فأخذتني غيرةٌ شديدة ظننت أنه يأتي بعض صويحباتي ـ أي عند ضراتها ذاهب، بعدما خلع رجع ولبس ـ فأخذتني غيرة شديدة ظننت أنه يأتي بعض صويحباتي.

بالمناسبة، الغيرة حالة نفسية لها حد معتدل طبيعي، لكن إذا خرجت عن حدها الطبيعي انقلبت إلى مرض، بعض المؤمنات في عندهم غيرة تفوق الحد المقبول، الآن بتحليل الدم يقول لك: هذا الحد طبيعي من ثلاثين لأربعين طبيعي، فوق الأربعين مرضي، كذلك الغيرة في لها حالة مقبولة، أما فوق هذه النِسَب تصبح الحالة مرضيَّة.

فأخذتني غيرة شديدة، ظننت أنه يأتي بعض صويحباتي، فخرجت أتبعه، فأدركته بالبقيع، بقيع الغرقد ـ إذا واحد زار المدينة يجد البقيع بجانب الحرم تماماً ـ يستغفر للمؤمنين والمؤمنات والشهداء، فقلت: بأبي أنت وأمي، أنت في حاجة ربك وأنا في حاجة الدنيا ـ كيف بحاجة ربك ؟ الله له حاجة ؟ هذا التعبير يُشرح معكم ؟ بأبي أنت وأمي يا رسول الله أنت في حاجة ربك وأنا في حاجة الدنيا، أي أن الله يحب عباده أن يغفر لهم، أن يرحمهم، فإذا الإنسان مثلاً اتجه لأخيه وأكرمه، أو هداه، أو دعا له، أو وجهه، أو نصحه، كأنه حقق حاجة الله عزَّ وجل.

ولله المثل الأعلى، أنت أخ لك أخ ضعيف في الرياضيات وأنت قوي الأولي، فاتجهت لأخيك تعطيه كل يوم درس من وقت راحتك، الأب يراك، الأب ما حاجته ؟ أن ينجح ابنه الضعيف، فلما رأى أول ابن يرعاه، فقد أحبه، فأنت حينما تفعل الخيرات فأنت في حاجة الله، أي أنك تلبي حاجة الله، الله عزَّ وجل ليس معنى محتاج غير معنى البشر، أي أنه يحب أن يسعد البشر، فإذا أسعدتهم فقد كنت في حاجة الله.

قلت: بأبي أنت وأمي ؛ أنت في حاجة ربك وأنا في حاجة الدنيا، فانصرفت ـ هو لم يرها ـ فانصرفت فدخلت حجرتي، ولي نفسٌ عالٍ ـ تلهث لأنها رجعت بسرعة ـ ولحقني صلى الله عليه وسلم وقال لي: " ما هذا النفس يا عائشة ؟! " الواحد يكون صحيان، ويكون دقيق الملاحظة، قال: " ما هذا النفس يا

عائشة ؟! " قلت: بأبي أنت وأمي أتيتني فوضعت عنك ثوبيك، ثم لم تستحم أن قمت فلبستهما، فأخذتني غيرة شديدة، ظننت أنك تأتي بعض صويحباتي، حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع، فقال:

((يا عائشة أكنت تخافين أن يحيف الله عليكِ ورسوله ـ أي نظلمك ـ أتاني جبريل عليه السلام ـ معنى هذا عندما لبس وخرج بدعوة ـ فقال: هذه ليلة النصف من شعبان، ولله فيها عتقاءٌ من النار، لا ينظر الله فيها إلا مشركٍ، ولا إلى مشاحن ـ هنا موطن الشاهد ـ ولا إلى قاطع رحمٍ، ولا إلى مسبلٍ، ولا إلى عاقٍ لوالديه، ولا إلى مدمن خمرٍ))

أعيدها عليكم: قال:

((يا عائشة، أكنت تخافين أن يحيف الله عليكِ ورسوله ؟! أتاني جبريل عليه السلام فقال: هذه ليلة النصف من شعبان ولله فيها عتقاءٌ من النار، لا ينظر الله فيها إلا مشركٍ، ولا إلى مشاحن، ولا إلى قاطع رحمٍ، ولا إلى مسبلٍ، ولا إلى عاقٍ لوالديه، ولا إلى مدمن خمرٍ))

قالت: ثم وضع عنه ثوبيه فقال لي:

((يا عائشة ـ دققوا في أدب النبي الكريم ـ قال: يا عائشة أتأذنين لي في قيام هذه الليلة))

هذه الليلة من حقك، حق الزوجة

((أتأذنين لي في قيام هذه الليلة؟))

أن أقوم أصلي طوال الليل ؟. قلت: بأبي أنت وأمي. فقام فسجد ليلاً طويلاً، حتى ظننت أنه قد قبض ـ يكون مات كذلك ـ فقمت ألتمسه، فوضعت يدي على باطن قدميه، فتحرك، ففرحت.. تحركت رجله، على كثرة ما أطال في السجود، ظننت أنه قد قبض.. لذلك السنة إذا صليت في الليل أطل السجود، ناجيه، اسأله حاجاتك، فأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، هذه أيضاً إشارة، أولاً استأذنها:

((أتأذنين لي في قيام هذه الليلة ؟))

جاءت امرأة إلى سيدنا عمر، قالت له:

ـ إن زوجي صوامٌ قوام، بالنهار صائم وبالليل قائم، لم ينتبه هو سبحان الله.

ـ فقال لها: بارك الله لك في زوجك.

كان جالس أحد الصحابة فقال له:

ـ إنها تشكوه. إنها تشكيه ولا تمدحه، إنها تشكوه. فانتبه سيدنا عمر وقال له:

ـ هكذا فهمت، احكم بينهما.

فهذا الصحابي قال: لو أن لهذا الرجل أربع زوجات كل واحدة منهن لها حق يوم من أربعة أيام، فأمره أن يتفرغ له يوماً من أربعة أيام، أعجب عمر بهذا الحكم، فعينه قاضياً للبصرة.

أرأيت حق الزوجة ؟

((تأذنين لي في قيام هذه الليلة ؟))

.. فلما قام وأطال السجود، قالت: وسمعته يقول في سجوده، اسمعوا الدعاء:

((أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك، جل وجهك، لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك))

فلما أصبح ذكرتهن له، قالت له: أنا سمعت الدعاء الذي قلته، قال:

((يا عائشة تعلميهن))

فقلت: نعم، فقال:

((تعلميهن وعلميهن ".. تعلميهم وعلميهم))

((فإن جبريل عليه السلام علمنيهن وأمرني أن أرددهن في السجود))

(رواه البيهقي)

الآن سؤال لكم ؟ كم حكم يستنبط من هذه القصة ؟

** أن نقوم الليل.

** وأن نطيل السجود.

** وأن ندعو بهذا الدعاء. ممكن تكتبوه عندكم:

((أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخط، وأعوذ بك منك، جل وجهك، لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك))

فلما أصبح ذكرتهن له، فقال:

((يا عائشة تعلميهن))

. فقلت: نعم، فقال

((تعلميهن وعلميهن فإن جبريل عليه السلام علمنيهن وأمرني أن أرددهن في السجود))

(رواه البيهقي)

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((يَطَّلع الله إلى عباده ليلة النصف من شعبان، فيغفر للمؤمنين، ويمهل الكافرين، ويدع أهل الحقد بحقدهم حتى يدعوه))

أنا أتمنى أن يكون للدرس مفعول عملي، لا قيمة إطلاقاً لسماع هذه الأحاديث من دون تطبيق، فكل واحد له أخ، قريب، صديق، جار، شريك، قريب من طرف زوجته، في تقاطع، في تدابر، في مشاحنة، في بغضاء، في حقد، ليأته في البيت، ويسلم عليه، ويسأله إن كان مخطئ المسامحة، وإن كان غير مخطئ كن أنت المبادر إلى عقد هذه الصلة.

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((ثلاثة لا ترفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً ؛ رجلٌ أمَّ قوماً وهم له كارهين، وامرأةٌ باتت وزوجها عليها ساخط - تؤذيه وتمسك القبلة، تؤذيه وتقرأ قرآن، صلاتها لا ترفع فوق رأسها شبراً إذا بات زوجها عنها ساخط - **وأخوان متصارمان))**

(رواه ابن ماجة واللفظ له)

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (037) :القائم على حدود الله.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-07-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم ... حديث اليوم عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما ، إذاً الوالد كان صحابياً ، والابن كان صحابياً ، إذا قلنا رضي الله عنهما ، إذاً بشير من أصحاب رسول الله والنعمان ابنه ، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((مثل القائم على حدود الله ، والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على مَن فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذِ مَن فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً))

أول سؤال : هذا الحديث الشريف يُصَنَّف تحت باب ـ في عندنا أحاديث متعلقة بعلاقة الإنسان مع الله ، في أحاديث متعلقة بالعقائد ، أحاديث متعلقة بالعبادات ، أحاديث متعلقة كهذا الحديث ، هذا حديث اجتماعي ـ الإنسان كائن اجتماعي ، الإنسان إنسان ؛ جسم بادئ ذي بدء، والإنسان نفس ، والإنسان عقل ، والإنسان عضوٌ في مجتمع . فهذا الحديث بادئ ذي بدئ يصنَّف تحت باب الموضوعات الاجتماعية التي عالجها النبي صلى الله عليه وسلم .

أنت في أسرة ؛ أب ، ابن ، زوجة ، ولد ، أخ ، أنت في مؤسَّسة ، في دائرة ، في وزارة، في شركة ، في محل تجارة ، في مزرعة ، أنت عضو في مجتمع ، وهكذا صمم الله جلَّ وعلا الإنسان ، صمَّمه ليكون اجتماعياً ، كيف كان ذلك ؟ خلق فيه مئات ألوف الحاجات، بل خلق فيه ملايين الحاجات ، وجعله يتقن حاجة واحدة ، هو في حاجةٍ إلى كل الناس، إلى كل البشر ، يحتاج إلى زر ، في معامل ، خبراء ، خبرات ، يحتاج إلى ثوب ، يحتاج إلى أن يحلق ، يحتاج إلى أن يأكل ، إلى أن يسكن في بيت، إلى أن يركب مركبة ، فكل حاجاته جميع الناس يقدِّمونها له ، وهو يقدم لهم حاجةً واحدة ، هذا تصميم ربنا جل وعلا حينما جعلك محتاجاً إلى آلاف بل ملايين الأشياء و سمح لك أ، تتقن حاجةً واحدة ، إذاً جعلك تلتقي مع أخيك وتجتمع معه .

بل إن الله سبحانه وتعالى حينما خلق الناس شعوباً وقبائل أرادهم أن يتعارفوا ، كل منطقة خصَّها بشيء ، خصها بإنتاج معين ، بطقس معين، بمناخ معين ، بثروات معينة ، فالناس يحتاجون بعضهم بعضاً ، وما حركة البضائع بين القارات ، وبين الدول إلا من تصميم الله عزَّ وجل ..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)

(سورة الحجرات : من آية " 13 ")

إذاً الإنسان في الأصل اجتماعي ، حينما خلقه الله عزَّ وجل فطره فطرةً اجتماعية ، والإنسان من طبيعته أنه يألف بأخيه ، الآن ، مادام الإنسان عضواً في مجتمع فلابدَّ من تنظيم العلاقات ، لو أنه يعيش وحده في رأس جبل لسنا بحاجة لهذا الحديث ، لكن مادام الإنسان اجتماعياً فلابدَّ من أن تنظَّم علاقاته مع بقية إخوانه ، أو الناس .

هذا الحديث أولاً : حديثٌ اجتماعي ، وثانياً : بالتعبير ، ما نوع التعبير ؟ أنت أحياناً تقرأ على باب تقول (مطعم) باللغة العربية ، بالمطارات ، باعتبار مَن يكون في المطار من أمم وشعوب مختلفة فيستعيضوا عن الأسلوب المباشر بالصور ، فالمطعم له رمز ، فالتعبير إما أن يكون بالتقرير ، وإما أن يكون بالتصوير ، مثلاً : وهذا مَن الطرف الأدبية ، شاعر أراد أن يصف مغنياً سيئاً ، لو أنه قال : أن هذا المغني سيئ الصوت ، هذا التعبير بأي طريقة ؟ بالتقرير أو بالتعبير المباشر ، أما حينما قال :

عواء كلبٍ على أوتار منـدفةٍ ف ي قبح قردٍ وفي استكبار هامان

وتحسب العين فكيه إذا اخت لفا عند التنغُّم فكي بغل طحَّان

* * *

هذا تعبير بأي طريقة ؟ بالتصوير ، في عندنا تعبير تقريري ، وتعبير تصويري ، إذا واحد قال : تكاثرت علي المصائب ، هذا تعبير تقريري ، أما إذا قال :

بلاني الدهر بالأرزاء حتى فـؤادي في غشـــاءٍ من نبال

فكنت إذا أصابتني ســـهامٌ تكسَّرت النصالُ على النصالِ

* * *

المصائب سهام وازدحمت على قلبه ، حتى لم يبقَ محلات لسهمٍ جديد ، لما قال الشاعر :

أبنت الدهر عندي كل بنتٍ فكيف وصلتِ أنتِ من ازدحامِ

* * *

واحد أصابته حمى ، لو واحد سأل واحد مريض ما لك ؟ والله أصابتني حمى ، قال :

وزائرتي كأن بهـا حياءً فليس تزور إلا في الظلامِ

بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي

* * *

هذا تعبير تصويري ، أرقى أنواع التعبير هو التعبير التصويري ، النبي عليه الصلاة والسلام أوتي جوامع الكلم ، من أجمل أحاديثه الشريفة هذا الحديث ، أسلوبه تقريري ، أم تصويري ؟ تصويري .

الآن سوف نرى بعد قليل ماذا يعني البحر ؟ وماذا تعني السفينة ؟ وماذا يعني الذين استهموا فكان مكانهم في أعلاها ، والذين كان مكانهم في أسفلها ؟ وماذا تعني حرية الإنسان في هذه السفينة ؟ وماذا يعني أن تأمر بالمعروف وأن تنهى عن المنكر ؟ من خلال هذه الصورة ، وهذا المشهد ، هناك دلالاتٌ لا تعد ولا تحصى ، لذلك يعد كلام النبي صلى الله عليه وسلم أفصح كلامٍ بعد كلام الله من دون استثناء.

فيقول عليه الصلاة والسلام :

((مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة))

الإنسان إذا دعا لله عزَّ وجل هل من المناسب أن يضرب أمثلة ؟ أجيبوني ، الدليل : أن النبي فعل هذا، النبي عليه الصلاة والسلام قال :

((إياكم وخضراء الدمن ، قالوا : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء))

(من تخريج أحاديث الإحياء : عن "أبي سعيد الخدري ")

شبَّه المرأة الفاتنة الجميلة ، بنبتة خضراء على مزبلة .. " إياكم وخضراء الدمن ، قالوا : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء " ، فالنبات على القمامة لأن القمامة كلها أسمدة تجد النبات ـ باللغة العامية ـ (غويان) ، تجده خضار ، وتألق .. " إياكم وخضراء الدمن ، قالوا : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء

النبي عليه الصلاة والسلام له أساليب رائعة جداً ، مثلاً قال :

((أول من يمسك بحلق الجنة أنا ـ أول إنسان يدخل الجنة النبي الكريم ـ فإذا امرأةٌ تنازعني تريد ان تدخل الجنة قبلي ، قلت : من هذه يا جبريل؟ قال : هي امرأةٌ مات زوجها وترك لها أولاداً فأبت الزواج من أجلهم))

أي أن الذي يريد أن يتعلم اللغة ، والبلاغة ، والقدرة على التأثير في الآخرين ليتعلم من النبي عليه الصلاة والسلام من أقواله ، ومن بلاغته الشيء الكثير .

أولاً النعمان بن بشير راوي هذا الحديث هو صحابي ، وأبوه صحابي ، وأمه صحابيَّة ، وهذا من نِعَم الله الكبرى ، والآن إذا كان الأب ديِّن ، والابن ديِّن ، والأم ديِّنة ، والله هذه من النعم الكبرى ، أنا أغبط إخواننا إذا كانوا أربع إخوات كلهم في الجامع ، أو أصهار ، أو عدلاء ، شيء جميل جداً أن يكون الواحد بيئته كلها صالحة ، مشرب واحد ، طهر، عفاف ، نظافة ، تفاهم ، توحُّد في الاتجاه ، فهذا الصحابي النعمان بن بشير الأنصاري كان صحابياً ، وكان أبوه صحابياً ، وكانت أمه صحابيَّة .

بالمناسبة كلمة صحابية شيء عظيم جداً ، أنا اعتقادي ـ وهذا هو الحق ـ أن المرأة لا تقلُّ أبداً عن الرجل في مضمار الدين ، الدليل الله عزَّ وجل :

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى)

(سورة آل عمران : من آية " 195")

مِن ، منا ؟ هذه الصحابية الجليلة التي بلغها في أحد أن أباها قد قُتل، وأن زوجها قد قُتل، وأن زوجها قد قتل ، وأن ابنها قد قُتِل فتقول : ما فعل رسول الله ؟ إلى أن رأته بأم عينها ، عندها قالت : يا رسول الله كل مصيبةٍ بعدك جلل . هذه امرأة ، الخنساء حينما بلغها أن أربعة من أولادها قد استشهدوا في القادسية ، ما زادت عن أن قالت : الحمد لله الذي شرَّفني بقتلهم ، وأرجو أن يجمعني الله بهم في مستقرِّ رحمته . فالمرأة كالرجل تماماً ، طبعاً كالرجل في ماذا؟ في التكليف ، كالرجل في التشريف ، ولكن تختلف عنه في بنيتها الجسمية ، وفي طبيعتها النفسية ، وفي قدراتها الخاصة ، زوِّدت بقدرات تتناسب مع طبيعتها ، ومع مهمتها ، يؤكد هذا قوله تعالى :

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

(سورة آل عمران : من آية " 36 ")

الأنثى كالذكر في التكليف وفي التشريف ، أما في البُنية ، وفي الإمكانات ، وفي الخصائص طبعاً تختلف عنه لا لأنها أقل منه ؟ لا أبداً ، بل لأن مهمتها في الحياة تختلف عن مهمته .

وهو أول مولودٍ ولد للأنصار بعد الهجرة ، أول مولود ولد في المدينة بعد الهجرة سيدنا النعمان بن بشير ، وحين توفي النبي عليه الصلاة والسلام كانت سنه لا تزيد عن ثماني سنين وسبعة أشهر ، سكن الكوفة ، وكان والياً عليها زمن معاوية ، ثم صار والياً على حمص لسيدنا معاوية . هذه كلمة سريعة عن رواي الحديث .

فأما كلمة (حدود) .. " مثل القائم على حدود الله ... " ما معنى حد ؟ الشيء الفاصل بين شيئين ، حدود الله عزَّ وجل في عندنا آيتان ، الآية الأولى :

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة : من آية " 187 ")

الآية الثانية :

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا)

(سورة البقرة : من آية " 229")

محارمه ، أوامره ونواهيه ، إذا الإنسان ارتكب ما نهى الله عنه فكأنه تجاوز حدود الله ، إذا الإنسان ما فعل ما أمره الله به ، فكأنه قصَّر في حدود الله ، لذلك بعضهم قال : المعاصي التي من شأنها أن تجذب ـ فيها قوة جذب ـ هذه المعاصي وردت في كتاب الله على النحو التالي

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

أما المعاصي التي لا علاقة لها بقوة الجذب قال :

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا)

بعضهم قال : لا ، إذا كنت في منطقةٍ ، ووصلت إلى حدٍ من حدود الله ، فلا تقرب هذا الحد ، دع بينك وبينه هامش أمان ، أما إذا كنت في منطقةٍ ، وانتهى حد الله عزَّ وجل ، فلا تعتدِ هذا الحد ولا تتجاوزه . على كلٍ حدود الله أوامره ونواهيه .

بالمناسبة مثلما قلنا لكم مرة سابقة : إذا كان تيار كهربائي يجذب الإنسان من ستة أمتار ، فالإعلان الحكيم لا تقل له : لا تمس التيار ، بل نقول له : لا تقترب من التيار ، هذه نصيحة لوجه الله : دائماً دع بينك وبين حدود الله هوامش أمان ، والدليل الله عزَّ وجل بالقرآن قال :

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

(سورة الإسراء : من آية " 32 ")

ما قال : ولا تزنوا ، قال :

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

يعني دع بينك وبين الزنا هوامش أمان ، هوامش الأمان غض البصر ، هوامش الأمان عدم صحبة الأراذل ، هوامش الأمان عدم الاختلاط ، هوامش الأمان عدم الخلوة بأجنبيَّة ، هوامش الأمان عدم قراءة أدب ساقط ، هوامش الأمان عدم متابعة أعمال فنيَّة ساقطة ، هوامش الأمان عدم متابعة أجهزة اللهو ، هوامش الأمان أن تملأ فراغك ، " نفسك إن لم تشغلها بالخير شغلتك بالشر " ، هذه كلها هوامش أمان ، فإذا تساهلت في هوامش الأمان لا تدري إلا وأنت واقعٌ في المعصية ، هذه معنى :

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

" مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة ... " السفينة أين تكون ؟ في البحر ، النبي عليه الصلاة والسلام شبَّه الحياة الدنيا بالبحر ، البحر من صفاته أنه يكون هادئاً ، مريحاً، ساكناً ، رَقْرَاقاً ، في نسمات عليلة ، في سماء صافية ، يصفو البحر لبعض الرُكاب ، وأحياناً يهيج البحر فترى الموج كالجبال ، والعواصف ، والرعود ، والأمطار ، والخوف ، البحر فيه مفارقات ، كذلك الدنيا تصفو ؛ صحة ، مال ، شأن ، جاه ، مكانة ، أولاد ، زوجة ، بيت ، مركبة ، تصفو ، وأحياناً ؛ أمراض عضالة ، فقر متقع ، قهر، ذل ، فكما أن البحر يصفو ويقسو ، تراه هادئاً ، مياهه رقراقة ، وتراه أحياناً هائجاً ، مياهه دقَّاقة ، كذلك الدنيا تصفو وتقسو .

وكل مجتمع بالدنيا ، أسرة قارب ، أمة سفينة ، كل مجموعة من الأشخاص النبي عليه الصلاة والسلام شبههم بسفينة .. ما معنى سفينة ؟ يعني المصير واحد .. إذا كنت راكب بالطائرة ، مرة أحد ركاب الطائرة أراد أن يشرب الشاي من صنع يده ، فشعل الغاز بين مقعدين ، واحترقت الطائرة وسقطت ، ومات من ركابها ثلاثمائة وخمسون ، كل ركابها ماتوا، فراكب الطائرة مصيره مع البقية ، إذا واحد أحب أن ينجو بنفسه أيستطيع؟ راكب السفينة فمصيره مع البقية ، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما

صور المجتمع بسفينةٍ أي وحدة المصير ، أنت من المجتمع ، أنت بأسرة إن شقيت شقيت بها ، وإن سعدت سعدت بها ، إن سعدت أسعدتها ، وإن شقيت أشقيتها .

أي أن النبي أراد ـ قبل أن أدخل في التفاصيل ـ أول شيء وصف الحياة بأنها بحر ، تشبيه تمثيلي ، كيف أن البحر يصفو ، فمن متع الحياة أن تركب البحر في ليالي الصيف الهادئة ، شيء جميل جداً ، القمر ساطع، والبحر هادئ ، والنسيم عليل ، والجو ساحر ، وإذا ركبت سفينة وقد هاج البحر وماج يرى الإنسان الموت بين عينيه ، إذاً الحياة كالبحر تصفو وتقسو ، المجتمع البشري كسفينة ، إن قلت أسرة ؛ قارب صغير ، إن قلت مدينة ؛ سفينة متوسطة ، إذا قلت أمة ؛ سفينة كبيرة . ما معنى سفينة ؟ أي أن مصيرهم واحد ، النبي عليه الصلاة والسلام أراد من هذا التشبيه أن يبيِّن أن راكب السفينة مصيره متوقفٌ على بقية الركاب ، أن تقول : أنا حر . هذه كلمة ليس لها معنى .

((مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة))

يا ترى القوم ، ما معنى كلمة (قوم) بالقرآن الكريم ؟ جماعة من الرجال ، الدليل :

(لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ)

(سورة الحجرات : من آية " 11 ")

فالقوم في اللغة العربية جماعة الرجال .. " قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ..." لكن هل الله عزَّ وجل على أشار إلى هذا المعنى في القرآن الكريم ؟ ..

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

(سورة النساء : من آية " 32 ")

الحياة درجات ، الآن معلم في قرية مثل أستاذ جامعة ؟ جندي مثل رئيس أركان ؟ ممرض مثل طبيب؟ تاجر على البسطة مثل رئيس غرفة تجارة ؟ فهذه الحياة مراتب ، وشاء الله عزَّ وجل أن تكون مراتبَ ، قال :

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (21))

(سورة الإسراء)

في إنسان دخله صغير ، وإنسان دخله أكبر ، فأكبر ، فأكبر ، دخل غير محدود ، غني كبير غنى فاحش ، في إنسان قوته بسيطة ، في إنسان أقوى ، أقوى ، أقوى ، فالله عزَّ وجل جعل الحياة مراتب ، والنبي عليه الصلاة والسلام قال

((فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها))

فإذا الإنسان كان بمرتبة دنيا في الحياة الدنيا ، كيف يعامله الله عز وجل يوم القيامة ؟ في سؤال دقيق الآن : الله أعطانا حظوظ ؛ حظ المال ، وحظ الصحة ، وحظ الذكاء ، وحظ الجمال ، وحظ القوة ، في إنسان قوي يقول لك : الرجل القوي في البلاد ، في إنسان قوي وفي إنسان ضعيف ، في إنسان ذكي

وفي إنسان أقل ذكاءً ، في إنسان جميل الصورة وفي إنسان أقل جمالاً ، في إنسان صحيح الجسم وفي إنسان مريض ، هذه الحظوظ هل وزِّعت بالتساوي ؟ أجيبوني ، لم توزَّع بالتساوي .

فكيف يحاسب هؤلاء يوم القيامة ؟ الله عزَّ وجل وزَّع الحظوظ في الدنيا توزيعاً متفاوتاً، فكيف تتحقق عدالة الله عزَّ وجل ؟ وزعت الحظوظ في الدنيا توزيعاً متفاوتاً ، لكن هذا التوزيع توزيع ابتلاء ، أي أنك إذا كان مالك قليلاً فهذه مادة امتحانك مع الله ؛ هل تصبر ؟ هل تتعفف ؟ هل تتجمَّل ؟ وإذا كان مالك كثيراً ، كثرة المال أيضاً مادة امتحانك مع الله ، في عندك مواد ، إذا مرت في الطريق امرأة هذه مادة عامة للجميع ، في عندنا مواد مشتركة لكل الكليات ، وفي عندنا مواد لكل كلية ، ففي امتحان عام؛ لو أن إنسان يمشي في الطريق ورأى امرأةً سافرة ، هذه المرأة امتحان لكل مَن في الطريق ، بعضهم يغض بصره ، بعضهم يطلق بصره، بعضهم يتكلَّم ، بعضهم يفعل ، بعضهم ... فهذه مادة امتحان عامة، أما المواد الخاصَّة الشيء الذي تفوقت به مادة امتحانٍ خاصة مع الله ، الشيء الذي فاتك مادة امتحانٍ خاصة مع الله ، النبي الكريم ماذا قال في الدعاء ؟ قال :

((يا رب ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب ، وما زويت عني ما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب))

(من شرح الجامع الصغير)

إذاً أنت بين شيئين ؛ هذه الحظوظ إما أنك نلتها أو فاتتك ، أنت ممتحن إذا نلتها ، وممتحن إذا فاتتك ، لكن الحياة محدودة !! فتأتي الآخرة؛ الفقير الذي نجح في امتحانه مع الله وهو الفقر سيسعد إلى الأبد ، والغني الذي رسب في مادة امتحانه مع الله سيفتقر إلى الأبد ، إذاً الحياة الدنيا الحظوظ موزَّعة فيها توزيع ابتلاء ، لكن هذه الحظوظ سوف توزَّع في الآخرة توزيع جزاء ، وهنا تتحقق عدالة الله عزَّ وجل، لذلك الذي ..

(يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

(سورة يونس : من آية " 4 ")

لماذا يعيده ؟

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15))

(سورة طه)

علَّة إعادة الخلق أن يجازى كل إنسانٍ بما عمل في الدنيا ، إذاً أنت يا ترى إذا كنت غني، أو كنت فقير، شيء مهم جداً ، سيَّن إذا كان غنياً فامتحانك هو الغنى وفي مواقف صعبة ، وإن كنت فقيراً فامتحانك هو الفقر، إن كنت قوياً تمتحن بقوتك ، ماذا فعلت بهذه القوة ؟ وإن كنت ضعيفاً، ماذا فعلت بهذا الضعف ، هل نقلك إلى اليأس والقنوط من رحمة الله أم صبرت؟ إن كنت صحيحاً تمتحن بالصحَّة،

إن كنت سقيماً تمتحن بالسُّقم ، إذاً الحظوظ في الدنيا توزع توزيع ابتلاء ، وسوف توزع في الآخرة توزيع جزاء ، هذا معنى قول النبي :

((فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها))

لذلك ، النقطة الدقيقة ، ليست البطولة ألا تصاب بمصيبة ، لا ، البطولة أنك إذا أصبت بمصيبة أن تقف الموقف الكامل ، ممكن تكون الزوجة سيئة ، وأنت مؤمن ، إيمانك العظيم يتمثَّل في موقفك الكامل من هذه الزوجة . كان في رجل صالح عنده زوجة سيئة جداً ، قيل له " طلّقها، قال : والله لا أطلقها فأغشَّ بها المسلمين " . وقيل في ..

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

(سورة النساء : من آية " 19 ")

ليست المعاشرة بالمعروف أن تمتنع عن إيقاع الأذى بها ، بل أن تحتمل الأذى منها . فهذه النقطة الدقيقة جداً ما في واحد من الحاضرين وأنا معكم ، في شيء حصلت عليه وفي شيء فاتك ، وأنت في الحالين ممتحن ، الله عز وجل قال :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30))

(سورة المؤمنون)

فقالوا : " لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذِ من فوقنا..." الذين قعدوا بأسفلها يبدو أن البحر عذب ، البحيرة عذبة وليست مالحة ، فيريدون الماء ، مَن كان في أسفلها ، ينبغي أن يصعد إلى أعلاها ، يمر على من فوقه ليأخذ الماء ، ففكر ، قال :

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24))

(سورة المدثر)

فكر : أنا أحفر حفرة صغيرة في السفينة ، وآخذ ماء مباشرة منها ، وكل عمل فاسد ، وكل عمل سيئ ، وكل عمل منحرف ، وكل انحراف خطير ؛ مفلسف ، مزخرف ، اسمع الباطل ، تجد الباطل مزخرف ، أشد أنواع الانحرافات الأخلاقية ، مفلسفة ، مزينة ، بأفكار باطلة أن هذه روح رياضية ، هذه نفس منفتحة ، هذه نفس حضارية ، الانحراف والفساد كله مفلسف فلسفة منمقة ، فقال : " لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ مَن فوقنا ... " هنا ظهر مفهوم الحرية ، ما هي الحرية ؟ بالإسلام في حرية لكن هل هي حرية مطلقة ؟ حرية مقيدة ، الحرية المطلقة هدَّامة ، فإذا إنسان فتح ملهى ، وأفسد الشباب ، وباع مخدرات ، وقال: أنا حر ، أنا أتمتع بحرية ، يجب أن أفعل ما أريد ، ولكن هذه الحرية هدمت هذا المجامع ، ولذلك المشكلة ، أنه إن لم يأمر المؤمنون بالمعروف ، وإن لم ينهوا عن المنكر ، عمَّهم البلاء ، وهذا الذي تفسره الآية الكريمة وتشير إليها هذه الآية الكريمة :

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

(سورة الأنفال : من آية " 25 ")

قال عليه الصلاة والسلام :

((فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذِ مَن فوقنا ، قال عليه لصلاة والسلام : فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً .))

إذاً في الأسرة لا توجد حرية مطلقة ، تقول : أنا أحب أربي أولادي تربية رياضية، يفعل ما يشاء ، ثم يكتشف خطأه ، فإذا فعل ما شاء ، واكتشف خطأه ودمر إخوته معه ، فأين مكانة الأب ، هذا توجيه اجتماعي ، أنت يجب أن تكون بيدك المبادرة ، إذا وجدت أحدد أفراد الأسرة شذ ، وقال لك: أنا حر . هذا كلام في الإسلام مرفوض ، لو أنك تسكن وحدك في رأس جبل لكنت حراً .

سمعت مرة عن سائق سيارة عامة واضع أغاني ساقطة ، ليست مألوفة ، فقام له رجل وقال له : هذه الأغنية لك أن تسمعها في بيتك ، أما هذه السيارة ليست ملكك ، مِلك كل الركاب ، كلام منطقي ، كلمة أنا حر ، في الإسلام ليست واردة ، حر أن تفعل ما تشاء وحدك، ما دمت في مجتمع ، ما دمت عضواً في مجتمع فلست حراً ، النبي عليه الصلاة والسلام قال

((فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً))

والآن تقريباً المشكلات التي يعاني منها العالم هي الفساد ؛ حرية الفساد ، نقدِّس لحرية بالمجتمعات الغربية بدرجة أن هذا المجتمع لو أن أب أراد أن يربي ابنته ، ممكن الشرطة يوقعوه على تعهد : أنك أسأت لابنتك ، وأنت منعتها من حريتها الشخصية ، ومن الحرية أن يكون لها صديق وأن تسهر معه في أي مكان ، يكتّبوه تعهد ، تحت اسم الحرية المطلقة بالمجتمعات ؛ صار في اختلاطات ، صار في انهيارات أسر ، صار في أمراض وبيلة ، صار في تفكك اجتماعي ، انحلال خلقي انهيار المجتمع بهذه الطريقة .

الآن ، لو تتبعنا القرآن الكريم الله عز وجل قال :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14))

(سورة الفجر)

يعني النساء حينما يخرجن متكشفات مائلات مميلات ، إذا الإنسان قال : ما دخلني ، له بنت أخ ، له قريبة ، له أخت ، له بنت أخت ، ليس له علاقة بهذه الظاهرة ، هذه الظاهرة إذا استفحلت وصلت إلى

بيته ، فوضع الفساد تماماً كالمثل التالي : حريق شب بآخر الحارة ، إذا كل أصحاب البيوت قالوا : نحن ما لنا علاقة ، الحمد لله بيتنا ما فيه حريق ، الحريق ينتقل ، إذا الكل ما خرجوا وأطفئوا هذا الحريق ، الحريق سوف ينتقل إليهم بيتاً بيتاً ، هذا مدلول الحديث ، إن لم تأخذ على يد المفسد هلك وأهلكك معه ، إن أخذت على يديه نجا ونجوت ، وإن تركته يفعل ما يشاء أهلكته وأهلكت نفسك معه .

الله عز وجل قال :

(وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86))

(سورة الأعراف)

الآن ، في دول حولنا طبعاً صار فيها مشكلات ، صار فيها حروب، صار فيها دمار ، صار فيها قتل ، وكان فيها فساد كبير ، وكل أمة تفسد الله عز وجل توعَّدها بالهلاك .

في آية دقيقة جداً ، الله عز وجل قال :

(قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (47))

(سورة الأنعام)

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً (59))

(سورة الكهف)

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآَيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103))

(سورة الأعراف)

يعني كل مجتمع مهما كان صغيراً إذا فسد لابد من أن يهلكه الله عز وجل .

أم المؤمنين زينب رضي الله عنها ، سألت النبي صلى الله عليه وسلم قالت :

ـ يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟!

ـ فقال عليه الصلاة والسلام : نعم .

فكيف نعم ، ما ذنب الصالح ؟ أنهلك وفينا الصالحون ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : نعم، ما أمر ، أصلح نفسه فقط ، كان أناني ، أصلح نفسه وارتاح ، وترك المجتمع الفساد فيه انتشر وتفاقم ، حتى وصل إليه ، حتى وصل إلى بيته ، المشكلة إذا أنت كنت صالح ولكن ما نبهت أخواتك وإخواتك البنات، وأسرتك ، ومَن حولك ، وأصهارك ، هؤلاء أقرباؤك ، فإذا فسدوا وزاروك عمَّ الفساد في بيتك .

الله عز وجل وصف الكفار الذين أهلكهم الله عز وجل بأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، أنا مرة سمعت قصة تأثرت جداً فيها ، ذكرتها لكم سابقاً : سائق سيارة مركب شاب وزوجته ، وهما ينتظران رجل يأتيهم بحقيبة ، يبدو أنهم طال انتظارهم ، والسائق تأفف ، وزمجر ، ثم جاء رجل كبير بالسن يحمل المحفظة ، فالشاب وكزه في صدره ، وقال له : لماذا تأخرت ؟ ثم علم السائق أن هذا الشخص

الذي كان يحمل الحقيبة هو والد هذا الشاب ، ما كان من هذا السائق إلا أن قال له : انزلا ، أخشى أن تصاب سيارتي بسوء ، أنا لما أحمل عاق والدين بسيارتي ، يأتحق معه العقاب ، فقد أدرك السائق بفطرته الآن هو في خطر ، ما دام مركب بسيارته إنسان فاسق إنسان عاق لوالديه ، فقال لهم باللغة العامية : انزلوا ولا نعمل حادث . أنزلهم من السيارة ، هذا الموقف سليم ، إذا كان المنحرف ، والضال، والمفسد ، والكافر وجد في ترحيب ورعاية وغضوا الناس عن أعماله ، وعن انحرافاته ، وعن فساده ، ورحبوا فيه لماله ، غضب الله عليهم جميعاً ، الحديث الشريف :

((إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق))

(من تخريج أحاديث الإحياء : عن " أنس ")

يغضب ، إذا أنت مدحت إنسان فاسق ، وأنت موثوق عند الناس ، لك مكانتك ، قلت عنه : كثير لطيف، وذكي ، وأخلاقي ، وشهم ، وهو شارب خمر ، أو لا يصلي ، فإذا الناس واثقين من كلامك ، بهذا الكلام أضعتهم ، اختل ميزانهم ، كيف ذكي وشهم ، وصاحب مروءة ومحسن ولكن شارب خمر لا يصلي ؟ معناها الدين ليس ضروري ، الدين شيء ثانوي جداً ، يشرب الخمر ولا يصلي ، وإنسان ذكي وشاطر وفهيم وشهم ومخلص ، إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق ، فقالت :

ـ يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟

ـ قال : نعم إذا كثر الخبث .

(رواه البخاري ومسلم)

في عندنا نقطة دقيقة : إذا كان عم الفساد ، والإنسان أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ولم يرضَ بهذا الفساد ، وجاء البلاء ، هذا الذي رفض الفساد ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، ما مصيره في هذا البلاء ؟ قانون ..

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة الزمر)

في آية أتذكرها :

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36))

(سورة الذاريات)

فقانون ربنا عز وجل : إذا أنت كنت صالح ، وأمرت بالصلاح ، وأنكرت المنكر ، وأمرت بالمعروف، أن الله عز وجل حق عليه أن ينجيك من البلاء العام ، اسمعوا الآيات :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (165))

(سورة الأعراف)

(أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ)

(سورة الأعراف)

(وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (33))

(سورة العنكبوت)

آيات كثيرة ، فكل ما كان في بلاء عام ، وأنت كنت مستقيم ، وأمرت بالمعروف ، ونهيت عن النكر ، وأنكرت المنكر ، ورفضت الفساد، فلك نجاةٌ خاصة بطريقةٍ خاصة لا يعلمها إلا الله ..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88))

(سورة الأنبياء)

هذه بشارة ، فتقول : صار فوضى ، البلاء يعم ، لا ، فالبلاء خاص والرحمة خاصة ، البلاء يعم إذا كان المؤمنون اكتفوا بصلاح أنفسهم، قال : ما دخلني ، الناس هلكوا .

فلذلك ، في نقطة دقيقة جداً ، أذكر بالسنة النبوية أن لما جاء البلاء ببلد فقال :

ـ إن فيها رجل صالح .

ـ فقيل : به فابدؤوا .

ـ قيل : ولمَ ؟

ـ قال : لأنه إذا كان رأى المنكر لا يتمعر وجهه .

(من مجمع الزوائد : عن " جابر ")

لا يسأل ، هو منيح ، هو مستقيم ، هو ناج ، هو مؤمن ، هو الله هداه ، الناس يصطفلوا، لك إخوان ، لك جيران ، لك أولاد أخ ، أولاد أخت ، لك مَن حولك ، ليس له علاقة بأحد ، مع الكل علاقته طيبة على فسقهم وفجورهم ، هو منيح لحاله ، قال : " به فابدؤوا لأنه كان لا يتمعر وجهه إذا رأى منكراً " .

لكن الآية الكريمة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105))

(سورة المائدة)

ماذا نفعل بهذا الآية ؟ كأن هذه الآية تقول لك : عليك من نفسك ، كيف نفهمها ؟ عليكم أنفسكم أي احرصوا على إيمانكم ، أحرصوا على طهارتكم ، احرصوا على استقامتكم ، احرصوا على سمو نفوسكم ، احرصوا على أمركم بالمعروف ، إذا فعلتم ذلك عندئذٍ الكفار يضعفون ، فإذا الشر استطال ،

استشرى ، وأنت ساكت ، الفسق انتشر ، وعم ، بعد ذلك ضيق عليه الفسق ، بعد ذلك دخل لبيتك الفسق، قووا الكفار ، أما نحن إذا أمرنا بالمعروف كل واحد اهتم بأسرته ، أهم شيء الواحد أسرته ..

(لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة : من آية " 233 ")

كل واحد أب ، أخ ، ابن ، يهتم بأسرته تكون طاهرة ، ما فيها معاصي ، إذا الأسر صلحت ، صلح المجتمع ، فدقة الآية عليكم أنفسكم ، أي احرصوا على إيمانكم ، على استقامتكم ، على طهارتكم ، على اتباعكم أمر الله عز وجل ، انصحوا الناس ، إن فعلتم ذلك الكفر تتضاءل ، ثم تتضاءل ، حتى صار ضعيفاً ، عندئذٍ :

(لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

أما إذا كان أنت لم تتكلم ، ولا تفاعلت ، ولا ساهمت ، وبقيت سلبي ، ومنهزم ، ومنسحب ، ومتقوقع ، الفساد عم ، واستشرى ، وصل لبيتك ، ضيق عليك ، دخل لبيتك ، أثر في بناتك ، في أولادك ، أصبحت أنت وحدك الغريب ، هذه نقطة مهمة جداً :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

سيدنا الصديق رضي الله عنه له موقف لطيف من هذه الآية ، في عهد سيدنا الصديق ، يبدو أن بعض الناس فهموا هذه الآية فهماً غير صحيحاً ، فقام فيهم خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه ، يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه " . الذي يحدث الآن ، سيدنا الصديق أدركه وخاف على الناس أن يفهموا هذه الآية فهماً مغلوطاً ، ونبَّه إليه ودعم رأيه بحديث سمعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

اسمع وصف المؤمنين قال :

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

(سورة التوبة : من آية " 71 ")

وأقصد من هذا الكلام : أنك ببيتك ، فيجب أن تسعى برفع مستوى إيمان زوجتك ، أن تسعى لإرشاد لأولادك ، أن تسعى لجيرانك ، أن تسعى لأقاربك ، فأنت كلما سعيت لهداية الناس ، المؤمنون أصبحوا كثيرين ، والحق توسع وانتشر ، والباطل انكمش ، أما إذا كان سكتت ، واكتفيت بصلاح نفسك ، الباطل

استشرى ، والفسق انتشر ، والباطل قوي ، حتى ضيَّق عليك ووصل إليك ، إذاً الحديث الشريف الذي علّمنا إياه النبي عليه الصلاة والسلام ، عن هؤلاء الذي استهموا في سفينة ، أصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، ولا بأس من أن نقرأ الحديث مرة ثانية

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على مَن فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذِ مَن فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً))

في طريقة في التربية غلط ، أن الأب أحياناً لابنته أو لابنه أو لزوجته ، تأخذ موقف غلط ، يتركها يقول لها : أنت حرة ، يريد أن يعلمها من خلال التجربة الذاتية ، لكن أحياناً في ظروف تمر بالإنسان يكون ثمنها باهظ جداً غالية جداً ؛ لو أطلق لابنه الحرية ، وصاحب الابن رفقاء السوء، ودلوه على شيء من المعاصي الوبيلة ، وأدمن عليها ، هل يكون الابن عرف الحقيقة لكن بعد فوات الأوان ، هذا الأسلوب عند الآباء خاطئ أن تعطي الابن الحرية يكتشف بنفسه الحياة ، في أشياء إذا اكتشفها بنفسه وقع ضحية لها وانتهى ، الآن كثير في ظاهرة المخدرات وهي شيء مخيف جداً ، تجد شاب متألقاً مثل الشمعة ، مرة واحدة أدمن ، انتقل للسرقة ، انتقل للجريمة ، ترك دراسته ، ترك الجامعة ، صار يريد يمارس هذه الهواية الجديدة ، فالأب مسؤول ، الأم مسئولة ، الابن مسؤول ، هذه المسؤولية ظهرت في هذا الحديث الشريف .

((فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على مَن فوقهم ، فقالوا : لو أن خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذِ مَن فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً))

هذا الحديث يعلمنا أن الإنسان اجتماعي ، وأن مع إخوانه يشبهون ركّاب سفينة مصيرهم واحد ، فإذا أحد الركاب أساء ، لكن هل في عندنا إساءات فردية ليس لنا علاقة بها ؟ لو أحد ركاب السفينة لبس لونين متنافرين ، هل تغرق السفينة ؟ لا تغرق ، يصطفل ، هذه حر ، هذه حرية، أحب يأكل أكل معين بالسفينة ، أحب يخفف من أكله ، أحب أن يكثر ، أشياء متعلّقة به فقط ، أما إذا أحب أن يحفر حفرة بالسفينة ، هذه القضية متعلقة بسلامة السفينة ، فكل واحد بحسب مجتمعه ، الأسرة قارب صغير ، المدرسة ، المستشفى ، المعمل ، الشركة ، فإذا واحد ترك شريكه يؤذي ، دمره معه .

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (038) :الحلم-حديث-ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-07-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... قبل أن نقرأ الحديث الشريف الذي هو موضوع هذا الدرس، أريد أن أبين لكم أن الحياة الدنيا كلها ملخَّصة في القرآن الكريم بكلمة واحدة إنها (العمل الصالح)، بدليل أن الإنسان حينما يشرف على الموت، يقول:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

(سورة المؤمنون)

الشيء الدقيق الآن، أن كل إنسان يعمل، الحركة من لوازم الكائن البشري، يتحرك ؛ بكسب رزقه، بسفر، بحضر، بنُزهة، باحتيال، بدعوة، لابد من حركة، فإما أن يكون العمل صالحاً، وإما أن يكون العمل غير صالح، ضربت لكم مثلاً يوم الجمعة:

أن إنسان تاجر ؛ في عليه دفع، في عليه سندات مستحقة، بإمكانه أن يماطل، وبإمكانه أن يعذب صاحب الحق، وهو يوازن بين أن يدفع أو أن لا يدفع، فإن دفع سلمت سمعته التجارية، وإن لم يدفع تلقَّى ضغطاً، وتلقى كلمات قاسية، وربما شوه صاحب الدين سمعته التجارية، فإذا دفع فلأنه وازن بين مضار عدم الدفع ومكاسب الدفع، هذا السلوك قلت يوم الجمعة: هذا سلوك مدني لا علاقة له بالأمانة.

أما الأمانة أن يكون لإنسان عليك دين، إنسان أودع عندك مائة ألف ليرة، ولم يأخذ بها إيصالاً، ولم يخبر أحداً ممَّن يلوذ به، ووافته المنية، هذا الإنسان إذا أخذت هذا المال لا يستطيع أحد أن يطالبك به، بل إن ورثة هذا المتوفَّى لا يستطيعون أن ينالوا منك، لا علم لهم بهذا المبلغ، إذا ذهبت إلى الورثة، وأديت هذا المال عن طيب خاطر، وتعففت عن مال هذا الإنسان، فأنت عند الله أمين، الأمانة أن تتعفف عن مال الغير من دون أن تكون مداناً عند الغير، أما حينما توازن بين مضار عدم الدفع، وبين مزايا الدفع، فهذا سلوك تجاري أو سلوك مدني.

فلذلك، نحن دائماً نسأل أنفسنا: كيف ألقى الله، كيف أجعل من أخلاقي عبادة ألقى الله بها ؟ يجوز القاضي حينما يحكم بالعدل يرقى عند رؤسائه، فإذا كان هناك تفتيش قضائي، وأخذوا بعض القضايا، ودققوا فيها، ورأوا الحكم دقيق، هذا القاضي يشعر بغبطة، لقد حقق مكسباً معنوياً عند أولي الأمر، لكن هذا الذي يحكم بالعدل ابتغاء مرضاة الله، انقلب حكمه بالعدل إلى عبادة.

إذاً، هذا الدرس المقصود لا أن نسلك السلوك المدني، في أناس كثيرون يعطون الحقوق، لكن يا ترى يؤدون هذه الحقوق خوفاً على سمعتهم، أو تحقيقاً لمصالحهم، أو يؤدون هذه الحقوق إرضاءً لله عز وجل ؟! المؤمن حركاته ونشاطاته وتجارته وبيعه وشراؤه تنقلب إلى عبادات، إما أنه يريد أن يظهر مَن هو المسلم، وإما أنه يرضي الله عز وجل بأداء هذه الحقوق.

هذه المقدمة قد أردت منها أن أبين لكم قد يتشابه عملان صالحان، الأول تبتغي به السمعة، والثاني تبتغي به وجه الله عز وجل، الذي يرقى بك يوم القيامة، والذي تدخره للدار الآخرة، والذي تشعر أنك بهذا العمل أقبلت على الله عز وجل، هو العمل الذي تفعله ابتغاء وجه الله.

الآن، الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((ليس الشديد بالصرعة ـ بضم الصاد، وفتح الراء ـ إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب))

هذا الحديث رواه الإمام البخاري ومسلم في صحيحهما.

وقد يسأل أحدكم نفسه: يا أستاذ، لماذا اخترت هذا الحديث ؟ لأن تسعين بالمائة من القضايا التي أُسْأَل عنها بعد الصلوات، وبعد الخطبة، وبعد الدروس، إنما هي في أكثرها حالات طلاق كانت على أثر غضب شديد، فالنبي عليه الصلاة والسلام يبيِّن أن الشديد ليس الذي يصرع الرجال، ولكن الشديد مَن يملك نفسه عند الغضب. لذلك العلماء قالوا: أفضل الجهاد جهاد النفس، أن تسمو بنفسك، وهذا تبينه الآية الكريمة:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

لذلك قالوا: أفضل الجهاد أن تعفو عمن ظلمك، وأن تصل مَن قطعك، وأن تعطي مَن حرمك. جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا رسول الله أوصني. قال عليه الصلاة والسلام: لا تغضب. وقد أمضينا درساً بأكمله من قبل حول هذا الحديث، وقال عليه الصلاة والسلام:

((وجبت محبة الله، على من أغضب فحلم))

(من الدر المنثور: عن " السيدة عائشة ")

فأنت حينما تستفز، حينما تُسْتَغضب، حينما يقسو عليك أحد بالكلام، وتبقى رابط الجأش، متماسكاً وقوراً، اعلم علم اليقين أن الله عز وجل يحبك لأن الحليم كما قيل كاد أن يكون نبياً، " والحلم سيد الأخلاق ".

في حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام:

((ألا أنبئكم بما يشرف البنيان ـ يرفع البنيان، وكأنه أراد بالبنيان بناء الإيمان ما الذي يرفع الإيمان ؟ ـ ويرفع به الدرجات قالوا: نعم يا رسول الله، قال: تحلم على من جهل عليك، وتعفو عمن

ظلمك،وتعطي من حرمك، وتصل مَن قطعك، هذه أخلاق المؤمن))

(من كنز العمال: عن " عبادة بن الصامت ")

هذه أخلاق المؤمن.

وفي حديث آخر متعلق بهذا الحديث:

((إذا جمع الله الخلائق نادى منادٍ: أين أهل الفضل ؟ قال: فيقوم ناس وهم قلة، فينطلقون سراعاً إلى الجنة، فتتلقهم الملائكة فيقولون: إنا نراكم سراعاً إلى الجنة فمَن أنتم ؟! فيقولون: نحن أهل الفضل، فيقولون: وما فضلكم ؟ فيقولون: كنا إذا ظلمنا صبرنا، وإذا أسيء إلينا حلمنا، فيقال لهم: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين))

(من الجامع لاحكام القرآن: عن " ابن عيسى ")

حديث، وحديثٌ، وحديث، كلها تبين قيمة أن تحلم، لكن دقيقة، أحياناً يقسو عليك أحد وهو قوي غشوم ظالم، لا تستطيع أن تقول له كلمة، هذا نوع آخر، هذا ليس حلم هذه موازنة، أما الحلم حينما تعفو عن إنسان أضعف منك، حينما تعفو عن إنسان بإمكانك أن تسحقه.

مثلاً من السيرة النبوية الشريفة:

النبي عليه الصلاة والسلام متى كان في أوج قوته ؟ بعد فتح مكة، دانت له الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها، دخل الناس في دين الله أفواجاً، وهو سيد الجزيرة، ونبي المسلمين، وسيد الرسل والأنبياء، وقد دانت له الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها، فئة قليلة من الأنصار، حينما وزع الغنائم، غنائم معركة هوازن، على بعض الضعاف الذين يريد النبي عليه الصلاة والسلام أن يتألّف قلوبهم بهذا العطاء، فجاء رجل وهو زعيم الأنصار إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقال:

ـ يا رسول الله إن قومي وجدوا عليك في أنفسهم. متألمون.

ـ قال: يا سعد أين أنت منهم ؟

ـ قال: ما أنا إلا من قومي. أنا متألم مثلهم.

ـ فقال: اجمع لي قومك.

الآن دقق في التحليل، النبي عليه الصلاة والسلام لأنه الآن في أعلى درجات القوة، وهو السيد المطاع، بإمكانه، وهذا لن يكون، أن يلغي وجودهم، واحد، وبإمكانه أن يهدر كرامتهم، إذا قال: هم منافقون انتهوا، وبإمكانه أن يهملهم، ثلاثة، وبإمكانهم أن يعاتبهم لمصلحته، ما الذي قاله لهم ؟ قال لهم كلام تقشعر منه الجلود قال لهم:

((يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم، واجدة وجدتموها علي في أنفسكم، من أجل لعاعة من هذه الغنائم تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، هنا دققوا، أما إنكم لو شئتم لقلتم فلصدقتكم

ولصدِّقتم به، أتيتنا مكذباً فصدقناك، وطريداً فأويناك، ومخذولاً فنصرناك ـ بماذا ذكرهم ؟ بفضلهم عليه، ذابوا ـ يا معشر الأنصار ألم تكونوا ضلالاً فهداهم الله بي، ألم تكونوا عالة فأغناكم الله، ألم تكونوا أعداءً فألف الله بين قلوبكم ـ والقصة طويلة ـ قال: فبكوا حتى أخضلوا لحلهم))

(من مختصر تفسير ابن كثير)

أنت ممكن حينما تقابل من ينتقدك بالإحسان أن تجعله من أشد الناس لك حباً، فالذي أقوله لكم مرة ثانية: أنت في دار امتحان، وفي دار عمل، وسوف تقدم على الله عز وجل، وأعمالك الصالحة يمكن أن تكون بدافعٍ من ذكاءٍ ومصلحةٍ، ويمكن أن تكون عبادات حقَّة.

فأتمنى على كل أخٍ كريم أن يتأمل نفسه، أن يدقق، أن يتفحَّص نواياه، أن يتفحَّص دوافعه، فإذا وجد دوافعه تبتغي مرضاة الله عز وجل، فهذا العمل يمكن أن يكون صالحاً، ويمكن أن تلقى الله به، ويمكن أن يسعدك إلى الأبد، أما هناك سلوك مدني، سلوك ذكي، سلوك مَصْلَحي، ممكن هذا السلوك لا يكون عبادة، يكون موقف أساسه الذكاء، قطفت ثماره في الدنيا.

لقمان الحكيم ماذا يقول ؟ قال: " لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا يعرف الشجاع إلا في الحرب، ولا يعرف الصديق إلا إذا احتجت إليه".

في قول دقيق وهو: " ما تكلم أحده في غضبه إلا ندم على ما قال " أتحب هذه القاعدة الذهبية: إذا غضبت فاسكت، إلى أن يسكت عنك الغضب، لأن أيَّة كلمة تقولها وأنت غضبان لابد من أن تندم عليها، ولابد بعد الغضب من أن تصغر في نظر الآخرين، ولابد من أن تعتذر منهم، ولابد من أن تستميحهم، ولابد من أن تبرر غضبك، إذا غضبت فاسكت، لك إذا غضبت وكنت في بيتٍ فاخرج، صار في تفجير الآن موقف متفجر، منك كلمة منه كلمة، منك كلمة ومنها كلمة يصير في صدام، فإذا غضبت فاسكت، وإذا غضبت فاخرج، إذاً ما تكلَّم حد بشيء في غضبه إلا وندم عليه.

ولما جاء الهدهد ماذا قال سيدنا سلمان ؟ قال:

(سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27))

(سورة النمل)

وهذا القرار أتمناه على كل أخ كريم، أنت كأب، أنت كزوج، أنت كشريك، أنت كموظف، أنت كرئيس على مجموعة موظفين، إذا شعرت أنك غضبان، إياك أن تتخذ قراراً، لأنك إن اتخذت قراراً لابد من أن تندم عليه، إيَّاك أن تقول كلمة واحدة، اسكت، وأي موضوع فيه استفزاز شديد، أرجئ بحثه إلى أسبوع، تجد نفسك بعد أسبوع قد هدأت أعصابك، وقد تيقظ فكرك، وقد وازنت بين المزايا والمحاسن.

فأحياناً يأتيني أخ كريم يشكو زوجته مثلاً، أنا أعرف أن زوجته جيدة، أسأله: أنه إذا خرج من البيت هل يقلق ؟ يقول أعوذ بالله. فهذه ميزة لم تكن تعرف قيمتها، أسأله عن أشياء كثيرة، فهو بشكل أو بآخر

ينساق إلى الحديث عن النواحي الإيجابية فيها، فإذا هو بعد قليل يخجل من الشكوى لأن النبي الكريم يقول:

((لا يفرك مؤمن مؤمنة ـ معنى يفرك أن يكره ـ إن كره منها خلقاً، رضي منها خلقاً آخر))

(من الجامع لأحكام القرآن: عن " أبي هريرة ")

والله ما اخترت هذا الحديث، خلال دعوتي إلى الله عز وجل يمكن إذا كان في عشرة أسئلة، ثمانية منهم طلاق، والطلاق بسبب تافه، وبسبب غضب، تجده بعدما طلق صار صغير ؛ من شيخ لشيخ، من مفتي لمفتي، يتذلل يدق البيت لا يجد أحد، يأتي ثاني يوم، خائف تبقى عنده بالبيت تكون بالحرام، كل هذا الحرج وهذا الصغار بسبب ساعة غضب اتخذت فيها قراراً.

أول نقطة أيها الإخوة: إياك أن تتخذ قراراً وأنت غضبان، البطولة أن ترجئ البحث في أي موضوع وأنت غضبان إلى أسبوع، أحياناً يكون في شركة مباركة، طيبة، تنفع الشركاء جميعاً، كلمة فيها استفزاز، لا أريد الشراكة، فك الشركة، يفكها، فدخلت في المحل سلموه، لمن المحل، ونسلمه كيف وفي مالية ؟ ومشاكل، وجرد، والناس كانوا متفقين والزبائن تفرَّقوا، والديَّانة لم يدفعوا ديونهم، كلها ساعة غضب، تخرب البيوت بساعة غضب، تفك الشركات بساعة غضب، تتهدم بعض المصالح بساعة غضب، فالنبي الكريم يقول:

((ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)).

(رواه البخاري ومسلم)

بالمناسبة، حتى لا تظنوا أن واحد تلقى إهانة من شخص أقوى منه فسكت لأنه لا يقدر يساوي شيء، قيل: " لا حلم إلا مع الانتصار، ولا عفو إلا مع الاقتدار " ما في حلم إلا مع الانتصار، ولا في عفو إلا مع الاقتدار، إن لم تكن مقتدراً فليس هذا عفواً، هذا ضعف، قيل لجعفر الصادق، عنده رجل سيئ الخلق، كثير الغضب، سريع الانفعال:

ـ أتطيق معاشرة هذا الرجل ؟

ـ قال نعم، وأتعلم منه الحلم.

إذا واحد عنده وسعة، عنده صدر رحب، عنده سياسة، عنده حكمة، عنده نفس مشرقة، يستوعب كل هؤلاء الصغار، يستوعبهم، فأنت كبير حينما تستوعب الآخرين، وأنت صغير حينما تضيق ذرعاً بهم، كبير إذا احتملت، كبير إذا حلمت، كبير إذا عفوت، أما إذا انتقمت، وضجرت، وسحقت، وآذيت، فأنت عند الله صغير، فهل هناك واحد أعظم من رسول الله ؟ في أعرابي شده من ثوبه حتى أثر على خده الشريف، ابتسم اللهم صلي عليه، قال له إنسان آخر:

ـ اعدل يا محمد.

ـ قال له: ويحك من يعدل إن لم أعدل !!

في قصة مشهورة: أن سيدنا جعفر كان يغسل يديه، وغلامه يصب الماء عليه، فسقط الإبريق وتطاير الماء إلى وجهه، فنظر إليه غضباناً فقال له الغلام:

ـ والكاظمين الغيظ.

ـ قال: كظمت غيظي.

ـ قال: والعافين عن الناس.

ـ قال: عفوت عنك .

ـ قال: والله يحب المحسنين.

ـ قال: أنت حر لوجه الله.

ثلاثة مراتب، الكظم يغلي من الداخل، أحياناً يكز على أسنانه، أحياناً يمسك المقعد سينفجر، هذا كظم غيظ، في مرتبة أعلى من الداخل في هدوء، في مرتبة أعلى من هذه وتلك، واحد جاء ليقتل النبي عليه الصلاة ولسلام فجاء مقيداً وقد أبلغ النبي أنه جاء ليقتلك، فقال عليه الصلاة والسلام:

((هل أعدتم له طعاماً))

أي طعام هذا ؟ جاء ليقتلك قال: هل أعدتم له طعاماً. الإحسان بالقرآن وارد..

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34))

(سورة فصلت)

قصة أرويها لكم، وتعد طرفة، كسرى أنوشروان كان في وليمة مع أضيافه، فجاء خادمه بالمرق ـ أي شوربة ـ وعثر في طرف الفراش، تعثر، وأصاب الملك بشيء مما في يده، فرفع الملك بصره غضباناً، فما كان من هذا الغلام إلا أن أفرغ المرقة في ثوب الملك، أكملها بالمرة، فقال: ويحك، لماذا فعلت هذا؟ قال: خشيت أن تعاقبني على ذلة صغيرة فيلومك الناس. فلكي تعاقبني على عمل يستاهل أن تقتلني به، فأحببت أن يشهدوا على إساءتي، فيعذروك إذا عاقبتني، فاستحسن ما قال وعفا عنه. هذه طرفة، إذا واحد غلط غلطة يكملها !! ليس هذا من الأصول.

من كلام النبوة: " كاد الحليم أن يكون نبياً " أنا أشعر أن أكثر مشكلات البيوت أساسها الغضب، أكثر مشكلات التجارة أساسها الغضب، الشركاء، الجيران، تجد عداء وخصومة بين جارين أدت بهم إلى المحاكم، كلمة استفزازية الثاني لم يتحملها رد عليها، فإذا غضبت فاسكت، وإذا غضبت والشخص الثاني دخل فيه شيطان فاخرج. كلكم تعلمون أنه بالطائف اللهم صلي عليه سيدنا جبريل قال له:

ـ لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين.

ـ فقال: اللهم اهد قومي إنهم لا يعلمون، لعل الله يخرج من أصلابهم مَن يوحد الله.

هنا التحليل أن النبي الكريم ما تبرأ من قومه، واعتذر عنهم، ودعا لهم، اعتذر عنهم قال: إنهم لا يعلمون، وما تبرأ منهم قال: إنهم قومي، اللهم اهد قومي إنهم لا يعلمون. أنا أعتقد أن أكثر المواقف التي تسبب انجذاب للدين الحلم، إذا إنسان أساء أنت حلمت عليه، هذا الموقف له تأثير كبير جداً.

يقول سيدنا علي كرم الله وجهه: " إذا قدرت على عدوك، فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه ".

وقال الأحنف بن قيس: " ما أذاني أحد إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاثـ واحد آذاك ـ قال: إن كان فوقي عرفت له فضله ـ أحياناً يكون لك أستاذ، رجل له فضل عليك، وأساء لك، قد يكون غير مقصودة الإساءة، ما دام له فضل، فضله السابق يعني يجب أن يغطي له هذه الإساءة ـ قال: " ما آذاني أحد إلا أخذت أمره بإحدى ثلاث، إن كان فوقي عرفت له فضله، وإن كان مثلي، تفضلت عليه بالعفو مثله، وإن كان دوني أكرمت نفسي عن أن أنتقم منه".

إن كان دونك ترفعت عن الانتقام، وإن كان في سويتك تفضلت عليه، وإن كان فوقك فضله السابق عليك يغطي هذه الإساءة.

سيدنا عمر بن عبد العزيز كتب إلى بعض عماله: " لا تعاقب عند غضبك، وإذا غضبت على رجل فاحبسه، فإذا سكن غضبك فأخرجه وعاقبه على قدر ذنبه ".. هذا مأخوذ من قوله تعالى سيدنا سليمان، عندما غضب من الهدهد قال:

((قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27))

(سورة النمل)

لم يتخذ قرار وهو غضبان، الدعاء المعروف عندكم ندعوه كل يوم: " اللهم أغننا بالعلم، وزينا بالحلم، وأكرمنا بالتقوى، وجملنا بالعافية".

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((اطلبوا العلم، واطلبوا مع العلم السكينة والحلم، لينوا لمَن تعلمون ولمَن تتعلمون منه))

ـ كن ليناً، أحياناً يعطي ابنه درس، سأله سؤال، ما عرف، ضربه كف، لأنه لم يتعلم شيء، في آباء كثيرين يعملون مثل ذلك، لم أتحمله، لم يتعلم منك شيء، اثنين واثنين يقول له ثلاثة، فيضربه طيارة، فلذلك ـ ولا تكونوا من جبابرة العلماء، فيغلب جهلكم حلمكم ". في علماء جبابرة إن غلط واحد غلطة أمامهم يمسحوا فيه الأرض، يتهكموا عليه تهكُّم شديد.

(من تخريج أحاديث الإحياء: عن " أبي هريرة ")

بالمناسبة أي إنسان يعلم إذا تهكم على إنسان جاهل منع السؤال، انتهى السؤال، وإذا انتهى السؤال انتهى طلب العلم، أنت إذا تهكّمت على سائل سؤاله سخيف، أنت كأنك تقول: أنا لن أجيب أحداً على أي سؤال، كل الناس يعرفوك، فيتهيَّبوا منك.

ويقول عليه الصلاة والسلام ـ إذا انتقم وقسى على زوجته وأولاده، كلمة جبار، واحد طاغية، هذا معنى كلمة جبار، يكتب عند الله جباراً عنيدا وليس له في الدنيا إلا أهل بيته. فلذلك الحلم سيد الإخلاص.
ابن عباس يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((ثلاث مَن لم تكن واحدةٌ فيه فلا تعتدوا بشيء من عمله ـ في صفات، إن لم تكن في كل إنسان لا تعتد بشيء من عمله ـ تقوىً تحجزه عن معاصي الله، وحلم يكف به السفيه، وخلق يعيش به في الناس))

يحتاج إلى خوف من الله يمنعه من المعاصي، وحلم يكفه عن السفيه، وخلق يعيش به في الناس.
سيدنا علي كرم الله وجهه يقول: " ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ـ مقياس أهل الدنيا إذا كان مالك وفيراً، وأولادك نجباء، فأنت من المحظوظين ـ ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك ـ الخير بمقياس سيدنا علي، أن يكثر علمك ويعظم حلمك ـ وألا تباهي الناس بعبادة الله، وإذا أحسنت حمدت الله تعالى، وإذا أسأت استغفرت الله تعالى ".إن أسأت فاستغفر، إن أحسنت فاحمد الله عز وجل، ولا تباهي الناس بعبادتك، وليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك.
الإمام الحسن رضي الله عنه، يقول: " اطلبوا العلم، وزينوه بالوقار والحلم " إذا واحد عالم أو طالب علم، وغضب غضب شديد، وخرج عن طوره يسقط معه علمه، العلم يناسبه الوقار، العلم يناسبه الحلم، العلم يناسبه الهدوء، العلم يناسبه السكينة، العلم يناسبه الحلم، أما إذا في طيش، وفي غضب شديد، وفي سباب، فهذه مشكلة.
سُئِل أحد العلماء: أي الرجال أشجع ؟ فقال: من رد جهله بحلمه. الجهل هنا ليس معناها ضد العلم الجهل هو السفه، الله عز وجل قال:

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

(سورة الأحزاب: من آية " 33 ")

والحقيقة الجاهلية السفاهة التي أساسها الجهل، الجهل يؤدي إلى السفاهة، والعلم يؤدي إلى وقار، أنت اجلس مع عالم تجد كلامه قليل، حركاته موزونة، مواقفه واضحة، فلا تحتاج إلى أن تحلل، أما اقعد مع سفيه تجد كل شيء بباطنه على لسانه، سريع الغضب، كثير السباب، فحَّاش، لعَّان، بذيء اللسان، ففرق كبير جداً بين مَن يطلب العلم ويطلب له السكينة والوقار، وبين إنسان آخر.
قيل لهذا العالم: أي الرجال أسخى ؟ قال من بذل دنياه لصلاح دينه.
القصة المعروفة عندكم: أن سيدنا معاوية جاءته رسالة من عبد الله بن الزبير وهو أحد المواطنين العاديين يخاطب خليفة المسلمين فقال له:

ـ أما بعد، فيا معاوية ـ باسمه المباشر ـ إن رجالك قد دخلوا أرضي، فانههم عن ذلك، وإلا كان لي ولك شأن والسلام. تهديد.

سيدنا معاوية عنده ابنه يزيد، قال له:

ـ ما قولك يا يزيد ؟ ماذا نفعل يمتحنه، غضب لما قرأ الرسالة، فقال له:

ـ أرى أن ترسل له جيشاً أوله عنده وآخره عندك ـ من الشام للمدينة، أي جيش يمتد من دمشق للمدينة ـ يأتوك برأسه. فهذا فيه تجاوز، فيه تطاول على مقام الخلافة، أما بعد، فيا معاوية إن رجالك قد دخلوا أرضي فانههم عن ذلك، وإلا كان لي ولك شأن، والسلام.

ـ فقال سيدنا معاوية لابنه: يا بني غير هذا أفضل. جاء بالكاتب، أمره أن يكتب، قال له: أما بعد فقد وقفت على كتاب ولد حواري رسول الله ـ الثاني قال له: أما بعد، فيا معاوية أما سيدنا معاوية فقال له: أما بعد فقد وقفت على كتاب ولد حواري رسول الله ـ ولقد ساءني ما ساءك، والدنيا كلها هينة جنب رضاه، لقد نزلت له عن الأرض ومَن فيها.

يتلقى الجواب:

ـ أما بعد، فيا أمير المؤمنين، أطال الله بقاءك، ولا أعدمك الرأي الذي أحلك من قومك هذا المحل.

بعث وراء ابنه يزيد، تعال إلي اسمع الجواب، تريد أن نبعث له جيش أوله عنده وآخره عندك، يأتوك برأسه قال له اسمع الجواب: أما بعد، فيا أمير المؤمنين أطال الله بقاءك، ولا أعدمك الرأي الذي أحلك من قومك هذا المحل، قال له:

ـ يا بني من عفا ساد، ومن حلم عظم، ومن تجاوز استمال إليه القلوب.

كلمته المعروفة عندكم يقول سيدنا معاوية: " لو كان بيني وبين الناس شعرة ما قطعت، إن شدوا أرخيتها، وإن أرخوا شددتها ".

الحكماء بعضهم قال: " اذكر عند قدرتك وغضبك قدرة الله عليك" ذات مرة الحجاج، جاء برجل ليقتله، هذا الرجل أيقن أنه ميت، فقال له كلمة: " أسألك بالذي أنت بين يديه أذل مني بين يديك، وهو على عقابك أقدر منك على عقابي ". فعفى عنه، فإذا أنت غضبت، وكنت قوي، وعند شخص ضعيف، بإمكانك أن تسحقه، اذكر قدرة الله عليك.

ذات مرة سيدنا النبي اللهم صلي عليه ماشي في الطريق، فسمع أحد أصحابه يضرب غلامه، قال له:

((اعلم أبا ذر أن الله اقدر عليه منك عليه))

فأعتقه.

سيدنا عمر بن عبد العزيز يقول: " ما قرن شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، ومن عفو إلى قدرة". علم، أجمل شيء معه الحلم، قدرة، أعظم ما فيها العفو.

الآن، في عندنا مشكلة، أن أحياناً ينشأ انحراف، أو نشوز من الزوجة، أو عقوق من الأولاد، أو إساءة من الشريك، أو إساءة من الجار، بعض العلماء يقول: إن هذا العقوق، وذاك النشوز، وهذه الإساءة أساسها أن الأول هو الذي حَمَل الثاني على ذلك، لهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((رحم الله والداً أعان ولده على بره))

ممكن تضييق، وتشدد لدرجة أن تحمل الإنسان على أن يسيء إليك، أجمل آية بهذا المعنى، الله عز وجل يقول:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ)

(سورة النور: من آية " 33 ")

فهل من الممكن مؤمن يكره ابنته على الزنا، هل يكون هذا ؟ هل تصدق على وجه الأرض مؤمن واحد يجبر ابنته على الزنا..

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ)

(سورة النور: من آية " 33 ")

ففي علماء وجهوا هذه الآية توجيه لطيف: أحياناً الأب كلما جاء خاطب، بحث عن علَّةٍ فيه فرده، لو أن هذه الفتاة زَلَّت قدمها وانحرفت وأخطأت، الله عز وجل يقول: إن هذا الأب المتعَنِّت الذي أعضلها عن الزواج هو سبب انحرافها، دائماً المعلم والمربي والأب إن وجد في أخطاء عند تلاميذه، أو عند أولاده، إذا كان موفق يبحث عن السبب الذي ارتكبه هو، ففي عندنا فعل ورد فعل، إذا كان رد الفعل من الابن عقوق، ومن الزوجة نشوز، ومن الشريك إساءة، ومن الجار تطاول، هذا اسمه رد الفعل، فما الفعل الذي سبب رد الفعل؟ هذا نقطة مهمة جداً، إذا كنت موفق.

إذا كنت صاحب عمل قيادي، مدير معمل، مدير مدرسة، مدير مستشفى، رئيس لدائرة، أب في بيت، معلم في صف، لك عمل قيادي، وجدت إساءة ممَّن هم دونك، أنا أنصح هذه النصيحة: بادئ ذي بدء فكر لعلني أنا السبب، أحياناً تجد أب مهمل لبناته، يكتشف فجأة أن ابنته حامل، فيريد أن يذبحها، لكن ألا ينبغي أن يسأل نفسه: لعلني أهملت تربيتها ؟ لعل أهملت مراقبتها ؟ لعل أهملت العناية بها ؟ فكل ما إنسان أساء لك، ابحث لعلك أنت السبب، لعلك أهملته، لعل ضغطت عليه، لعلك ظلمته، لعلك قسوت عليه، فلم يتحمل، أحياناً الإنسان له طاقة تحمل، فإذا كان الضغط أشد من هذه الطاقة، يقع انفجار، فهذا الانفجار سببه الأول.

بالمناسبة حديث يجر لحديث، إذا إنسان أهمل صون ماله، وجاء لص وسرق، هل تصدقون أن إثم الذي أهمل ماله عند الله لا يقل عن إثم السارق، أنت الذي أغريته بهذه السرقة، لولا إهمالك ما سرق، لو تسيب مالك ما سرق، لولا تغافلك ما سرق، فالذي يحمل الناس على الانحراف آثمٌ مثلهم.

فهذه الفقرة في هذه الدرس: الإنسان إذا كان شعر من أولاده العقوق، من زوجته النشوز، من جيرانه الإساءة، من شركائه التطاول، فليشعر، فليوقن أنه في الأعم الأغلب هو السبب، إذا كان أب لم يعدل بين أولاده، والمظلوم تطاول عليه، تطاول هذا الابن بسبب أن الأب لم يعدل، الأم لم تكن محسنة لأولادها، الجار لم يكن حليماً، فإذا شعرت أن هناك إساءة، أنا أُرَجِّح أن تعود بالسبب إلى نفسك.

هل في نوع من أنواع الغضب وعدم الحلم محمود ؟ إذا رأيت حق الله يضاع، محارمه تنتهك، عندئذٍ فاغضب، وهذا الغضب لله عز وجل، والنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا غضب لله نبض عرقٌ في جبينه، أما إنسان يرى حرمات الله تنتهك، فلا يتأثر ولا يتكلم، يؤثر السلامة، يرى إنسان مظلوم وبإمكانه أن ينصفه، ويبقى ساكتاً، هذا إنسان ضعيف الإيمان، في مواطن إن لم تغضب فلست مؤمناً، فلذلك من استغضب ولم يغضب، استغضب في الحق ولم يغضب، بقي هادئ البال، وأمامه تنتهك الحرمات، هذا ليس في الإيمان في شيء، قال:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ)

(سورة الشعراء)

إذاً محور الدرس: أن الإنسان في الدنيا له عمل، لابد له من عمل، يتحرك بحكم غرائزه، بحكم حاجاته، بحكم حاجته للطعام، للسكن، للزواج، ففي حركة، هذه الحركة اسمها عمل، ولكن متى تكون هذه الحركة عملاً صالحاً ؟ إذا توافقت مع الشرع، وسبقتها نية طيبة، هل في عندنا آية كريمة تبين أن العمل لا يقبل عند الله عز وجل إلا إذا كان صواباً وإلا إذا كان خالصاً ؟

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

(سورة النمل: من آية " 19 ")

العمل الصالح شرطه أن يرضاه الله عز وجل..

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

(سورة النمل: من آية " 19 ")

لذلك الإنسان المؤمن دائماً يراقب نفسه، يراقب دوافعه، يراقب نواياه، يراقب أهدافه، يراقب تبريراته أحياناً، يراقب مشاعره، هذه المراقبة من حسن الإيمان، يقول:

إذا كنت في كل الأمور معاتب صديقك لم تلقى الذي لا تعاتبه

فعش واحداً أو صل أخاك فإنه مقارب ذنب مرة، و مجانبه.

* * *

الحديث الشريف يقول عليه الصلاة والسلام:

((ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب))

هل هناك أحاديث أخرى تفيد هذا الحديث تحفظونها، متعلقة بهذا الحديث ؟ " ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب "

((إنما الصبر عند الصدمة الأولى))

الحلم متى ؟ في أول مرحلة، لكن بعد فترة أنت حليم مقهوراً، الأمر وقع، وانفجرت، وكسرت، وطبشت، وسببت، ولعنت، وبعد ذلك سكنت، ماذا نفعل، بعد هذا السكون لم تعد حليم أنت، بعدها صار حكماً حليم، بعد ذلك سكت هذه الفورة انتهت، فار وهمد، بعدما همد، هذا ليس حلم:

((" إنما الصبر عند الصدمة الأولى))

عند تلقي الخبر.

أيضاً:

إذا واحد كظم غيظه، من ثمار كظم الغيظ الأمن والإيمان، أريد أن أفهم لماذا الأمن ؟ ولماذا الإيمان أولاً ؟ واحد إنسان استفزه استفزاز شديد، فملك ناصيته وحلم، لماذا من ثمار هذا الحلم الأمن والإيمان؟ الإيمان طبَّق الشرع، بقيت العلاقة بينه وبين الله طيبة، بقي الطريق إلى الله سالكاً، بقيت ثقته بأنه مستقيم جيدة، هذا الإيمان، أما الأمن: إذا إنسان كظم غيظه أورثه الله أمناً وإيماناً، أو أن إنسان انتقم، أو صب جام غضبه على إنسان، هذا الإنسان تألم، وأهين، وأذل، فيفكر كيف ينتقم منه مرة ثانية، فصار المنتقم الأول يدخل في القلق، ماذا سيفعل معي؟ دخل بالقلق، أما لو كان حليماً لشعر بالأمن وشعر بالإيمان:

((أورثه الله أمناً وإيماناً))

((الإيمان نصف صبر ونصف شكر))

(من الجامع لأحكام القرآن: عن " قتادة ")

الصبر هنا يملك نفسه عند الغضب

((الإيمان نصف صبر ونصف شكر))

الكلمة مطلقة ومعنى مطلقة على إطلاقها، إذا الإنسان أصاب ذنب إذا في شيء من التجلي الإلهي على قلبه ينقطع، إذا في أنس بالله يتوقف، إذا في طمأنينة تزول، هذا رزق الله عز وجل، وإذا كان إنسان أذنب ذنب، ربنا يعاقبه بضيق الرزق أحياناً، فالحديث يحمل على معنيي الرزق، المادي والمعنوي، هل عندنا آيات تؤكد الرزق المعنوي ؟

(وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (82))

(سورة الواقعة)

المعنى المخالف: إذا الإنسان صدق بالحق، وآمن بالله عز وجل، وأقبل عليه، وطبق شرعه، هذا رزق كذلك، رزق عظيم جداً، هذا أهم أنواع الرزق..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10))

(سورة الصف)

ما هي هذه التجارة ؟

(تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة الصف: من آية " 11")

معنى الإيمان بالله رزق، والاستقامة على أمر الله رزق.

نعيد على أسماعكم الحديث مرة ثانية، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب))

كلما سمع حديث سجله وحفظه، وصار زاده إذا تحدث عن الله عز وجل، إنسان جمع أهله وأصدقاؤه بنزهة، وعنده دفتر أحاديث، إذا كل درس أحد أخذت حديثين أو ثلاثة سجلته، صار معك دفتر، صار معك زاد، ممكن يكون مادة حديث فيها خير كبير.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (039) :الأخلاق الإسلامية1 - كسب الرزق.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-07-20

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، أمضينا ثلاثا و أربعين درسا في مدارج السالكين في منازل إياك نعبد و إياك نستعين، وأمضينا سبعة وثلاثين درسا في أسماء الله الحسنى، فيكون المجموع ثمانين درسا، في مدارج السالكين، وفي أسماء الله الحسنى. قبل أن نخوض في هذا الموضوع الدقيق أن الإنسان لا يُحترم دينه، ولا يحترم اتجاهه، ولا تحترم قيمه إلا إذا كان متفوقا في حياته، فإذا كان مهملا كسولا متوانيا متباطئا مهملا، هذه الصفا تدعو الناس لا إلى ازدرائه، بل إلى ازدراء منهجه، وازدراء انتمائه، وازدراء دينه، وازدراء اتجاهاته، فإذ أردت أن ينظر الناس إلى الإسلام نظرة عظيمة كن أنت متفوقا في عملك، و التفوق في العمل كما سنَّ الله عز وجل مجلبة للرزق، و الرزق أحد القوى الثلاث في الحياة، قوة السلطة و قوة العلم و قوة المال، فالنبي عله الصلاة و السلام في سنته المطهرة، ومن خلال فهمه لآيات القرآن الكريم حثّنا على كسب الرزق، والأحاديث في هذا الموضوع كثيرة جدا، نأخذ بعضها.
أولاً ربنا جل و علا يقول في القرآن الكريم:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15))

[سورة الملك]

هذه الآية دقيقة جديدة، كل كلمة فيها موضوع، قال تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً)

[سورة الملك]

طبيعة الأرض، طبيعة الثروة في الأرض، طبيعة خصائص الأرض، ذلول، أرض منبسطة، القشرة ترابية يمكن أن تُفلح، البذور تنبت أضعافا مضاعفة، المياه مياه أمطار و مياه أنهار و مياه ينابيع، أي هناك وسائل كثيرة جدا، هناك معادن، هناك أشباه المعادن، هناك سوائل، هناك ترب، و هناك عضويات، وهناك نبات و هناك حيوان، وهناك أطيار و هناك أسماك، الأرض مصممة من أجل الإنسان، مهيأة له مذللة إليه، أوضح مثل أن الحيوانات التي خلقها الله عز وجل لنعتمد عليها في معاشنا جعلها مذللة، انظر إلى عقرب صغير إذا رآه الإنسان انخلع قلبُه، أما الجمل الكبير فيقوده الطفل الصغير، انظر إلى الأنعام كيف ذللها الله عز وجل، على كمل:

(هُوَالَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً)

(سورة الملك)

هذا موضوع للتفكر، لو أن الحديد كان كتلا صماء في أعماق الجبال، كيف نستخرجه، مستحيل، جعله فلزات ربنا جل و علا، لو أن الغابات لها قسوة الصخور، والخشب ليِّن يُقطع، و المياه تسيل، والنبات ينبت، لا أريد أن أستقصي في هذا الدرس عن كلمة " ذلول "لكن كلما تحركت وجدت أن طبيعةالأرض مذللة للإنسان، و لكن إنك لن تجد مئات أطنان القمح مكدّسة في العراء، لا، لا بد من أن نفلح الأرض، و لا بد من أن تسمِّدها، و لا بد من أن تزرعها، ولا بد من أن تسقيها، إذًا:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا)

[سورة الملك]

المناكب جمع منكب، و المنكب هو الكتف، و الكتف مرتفع، أي لا بد من بذل جهد لكسب الرزق، هذه سنة الله في الأرض، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ (6))

[سورة الانشقاق]

كادح، طبيعة الحياة الدنيا أساسها الأخذ بالأسباب، و طبيعة الجنة أساسها الكلب، في الجنة أي شيء تشتهيه تجده أمامك، ما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين، بمجرد أن تشتهي شيئا، بمجرد أن تريد شيئا تجده أمامك على الخاطر، هذا نظام الجنة، نظام الدار الآخرة لا على أساس الكسب و لا على أساس الأخذ بالأسباب، بل على أساس الطلب فقط، أنت ممكن تطلب أي شيء تجده أمامك، أما نظام الأرض لا بد من بذل الجهد، هكذا شاءت مشيئة الله، لأنك حينما تبذل الجهد تكشف عن معدنك، إما أن ترقى ببذل الجهد فتكون صادقا، مستقيمتا متعففا أمينا، وإما أن تسقط في بذل الجهد فتحتال و تكذب و تغش و تخدع، قبل كل شيء الأرض مذللة، لكنها مذللة بحيث لا تأخذ ما فيها إلا بعلم و عمل، هذا معنى قوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا)

[سورة الملك]

لكن كلمة " فامشوا " تنقلها فجأة إلى آية أخرى، يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة الجمعة]

لماذا التوجه إلى المسجد: فاسعوا، و لماذا أخذ أسباب الرزق " فامشوا " ؟ أيهما أسرع السعي أم المشي ؟ السعي، العلماء قالوا: لأن أداء العبادات نتائجها مضمونة، ووقتها محدد و شكلها محدد، فلا بد من أن تسعى، و لا بد من تنطلق بعزيمة شديدة، هذا الذي يمشي إلى المسجد مشيا إلى أن تنتهي الصلاة، إلى أن تنتهي الخطبة، إلى أن ينتهي الدرس، هذا لا يسعى، هذا يمشي، لكن كسب الرزق أنت تقدم أسبابا احتمالية، فإذا أسرعت ربما وقعت في مطب كبير، يجب أن تكون متئدا متمهلا، فالقرآن

الكريم كلام خالق الكون، في كسب الرزق " فامشوا" في الذهاب إلى المساجد و أداء العبادات، و أداء الطاعات " فاسعوا " لو أن الإنسان تكون له قبضة في جهة، المبلغ جاهز، و الشخص جاهز، ما عليك إلا أن تذهب إليه، ليس هناك مشكلة، و لا مطاردة، ولا اتخاذ وسائط، و لا يوجد إنكار، إذًا باكر و خذ هذا المبلغ، أما إذا كانت القضية تحتاج إلى تخطيط يجب التريُّث، إذًا:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا)

[سورة الملك

و لكن إياك أن تظن أن سعيك وحده يجلب لك الرزق، هذا شرك، قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ)

[سورة الملك]

يبدو أن هذا السعي إما أن يكون مشروعا أو غير مشروع، حلالا أو حراما مستحبا أو مكروها، مرضيا عنه أو مسخوطا عليه، من الذي يؤكد هذا المعنى ؟ قوله تعالى:

(وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15))

[سورة الملك]

سوف تعودون إليه و سوف يحاسبكم، كيف كسبتم هذا الرزق ؟ عن طريق الصدق أم الكذب، النصح أم الغش، الخداع أو الصراحة، عن طريق الكسب المشروع أم الكسب غير المشروع، عن طريق ما أحل الله أم ما حرم الله،

(وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15))

[سورة الملك]

إذًا المعنى الأول الأرض مذللة، والمعنى الثاني يحتاج كسب الرزق فيها إلى جهد، ومن خلال هذا الجهد تمتحن، و يظهر دينك، و أخلاقك و استقامتك و معرفتك بالله عز وجل، أي أكبر مجال الإنسان يظهر على حقيقته في دكانه، إخواننا رواد المساجد كلهم في المساجد جالسون في سكينة ووقار متوضئون، جاهزون لسماع الدرس، إذا أذّن المؤذن يصفون صفا واحدا، هناك تشابه تقريبا، و لكن تفاوت المؤمنين يبدو في أعمالهم، هذا لا يكذب، و هذا يكذب، هذا يحلف يمينا غير صحيح، وهذا ينصح، هذا يصدق، وهذا يترفع عن حرفة لا ترضي الله، هذا يرفض عملا يسخط الله عز وجل، لذلك أكبر مجال لإظهار حقيقة المؤمن و حقيقة ورعه، و حبه لله عز وجل و خوفه من الله، وكماله الإنساني هو عمله، والهِ الذي لا إله إلا هو لا أرى الدين إلا في الأعمال، تجد شخصا يحفظ و يتكلم و يناقش، و يحاور و يأتي إلى المسجد و يصلي، فإذا دققت في عمله التجاري وجدت عمه مبنيا على بعض المعاصي، على بعض المخالفات، يسوِّف، إنما أهلك الصنعة قول غد وبعد غد، له وجهان، يكتم بعض

العيوب، ليس هذا هو الدين، يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، ومعنى أطب مطعمك " أي اجعله حلالا، و معنى اجعله حلالا أي كن مستقيما، هذه آية،

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15))

[سورة الملك]

أحيانا الإنسان حينما ينقطع رزقه كليا في بلده له أن يسافر، قال تعالى:

(رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (66))

[سورة الإسراء]

أي الإنسان أحيانا يُقطع رزقه في بلده لعل الله جل و علا يخلق له متنفسا في بلد آخر، لكن أرقى أنواع السفر ؛ أولا أن تسافر في طلب العلم، إخوة كثر من أماكن بعيدة عن دمشق يأتون كل أسبوع، و يركبون السيارت العامة، يمضون ساعات طويلة قبل أن يصلوا، هذا أرقى أنواع السفر، و هناك سفر عظيم جدا، وهو أن تفر بدينك، ليسلم لك دينك، هذا سفر مما يرضي الله عز وجل، وهناك مسلمون كثر من بلاد أوروبا الشرقية قبل خمسين عاما أو أكثر جاءوا فرارا بدينهم، هؤلاء أرضوا الله عز وجل، و لحكمة أرادها الله كل من يهاجر فرارا بدينه يجد في الأرض مراغما و سعة، واللهِ التقيت مع شخص من بلد، وهذا البلد قبل خمسين عاما اضطهد فيه المسلمون اضطهادا شديدا، لدرجة أن الإنسان لا يأمن أن يصلي، فجاء من بلد كان في الأصل مسلما، و لكنه وقع تحت ضغط شديد، قال: واللهِ جئت إلى الشام و لا أملك شر نقير، أقسم لي بالله عنده الآن ثلاثون بيتا، و مئات الدونمات في جنوب دمشق، قلت: سبحان الله، هذا تحقيق قول الله عز وجل:

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً)

[سورة النساء]

قال: مراغما أي يرغم أنف أعدائه، لا يشمتون به، ترك بلده في سبيل الله فرارا بدينه، واللهُ جل و علا أكرم و أعظم من أن يشمت به الأعداء، يكرمه، أحيانا تشعر أن هناك قوانين نافة في الأرض،لفت نظري مرة أن لسكرات الموت ألاما شديدة، يؤكد هذا قول النبي عليه الصلاة و السلام

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَتْ تَقُولُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ أَوْ عُلْبَةٌ فِيهَا مَاءٌ يَشُكُّ عُمَرُ فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ وَيَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ))

[رواه البخاري]

الإنسان ينتقل من الدار الدنيا إلى الدار الآخرة تُنزع روحه كما تُنزع خيوط الحرير إذا علقت على نبات شائك، قال: إلا الشهيد، فالشهيد في الأحاديث الصحيحة لا يشعر بأي ألم عندما يفارق الدنيا، مهما كانت طعنة السيف قاسية، تكفل الله له ألاّ يشعره بأي ألم، و قد سمعت أن بعض من جاهد في سبيل الله

مر على لغم فاندلقت أقتابه في الأرض، فصار إخوانه يبكون من أجله، يقول له: مالكم لا أشعر بشيء، أنا في سرور، أنا مقبل على جنة الله عز وجل، هذا من الشيء الثابت أن الذي يموت في سبيل الله لا يشعر بأي ألم، و الذي يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض متسعا و رزقا وفيرا، إذًا من أفضل أنواع السفر أن تسافر في طلب العلم أو فرارا بدينك أو طلبا للرزق إذا سُدت في وجهك سبله في بلدك.

أنا ذكرت في مناسبة الهجرة أن هناك هجرة في سبيل الشيطان، لما الإنسان يبحث عن المال في سبيل دينه، على حساب دين بناته، و على حساب دين أولاده، على حساب انتمائه لأمته، حينما يهاجر يقوي العدو، حينما ينقل أمواله إلى بلاد الكفر فيضعف بلاد المسلمين، هنا أنواع كثيرة من الهجرة كلها في سبيل الشيطان، نعوذ بالله من هذه الهجرة.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال عليه الصلاة والسلام،

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ))

[رواه البخاري]

الحقيقة هذا الحديث يجب أن نقف عنده وقفة متأنية، اختار النبي أشق العمال و أقلها مردودا، أن تذهب إلى الجبل فتحتطب ساعات طويلة، و تعود لتبيع هذا الحمل الذي كلفك ساعات طويلة، وحملته على كتفيك أن تبيعه بدرهم أو درهمين، أشق الأعمال و أقلها مردودا، هذا أفضل للرجل من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه، الإنسان تنمو رزقه بكسب الرزق، أنا أقول لكم هذا الكلام، واللهِ كلما رأيت أخا كريما له مهنة يتقنها، أو حرفة يتقنها، متفوق في عمله أحس أن هاذ هو المسلم، أولا: رافع رأسه، ثانيا: ليس عالة على أحد، ثالثا: يده هي العليا، رابعا:ينتزع إعجاب الناس، أنا مرة حدثني أخ أن له ابن بعيد عن الدين كله، قال لي: زارني مرة أخ كريم له في دنياه ناجح نجاحا كبيرا، له معمل ناجح، شخص عملي، متفوق، منضبط، أخلاقه عالية ديِّن ورع، فقال لي هذا الصديق: لم يُعجب ابني مئات المؤمنين بل بهذا الإنسان الذي تفوق في عمله، كان معجبا به، و كان سبب هدايته، أنت إن رأيت مسلما ضعيفا كسولا مهملا متوانيا، هيئته رثة متواكلا، تقول: هذا هو الإسلام ! بمثل هؤلاء انتصر المسلمون و فتحوا العالم! لا والله، ليس هذا هو النموذج المطلوب، النموذج الذي يرفع الرأس و يملأ العين و يدعو إلى الإعجاب إنسان متفوق في عمله، أقول لكم هذه الكلمة و لها أبعاد خطيرة: إذا كانت متفوقا في عملك يحترم الناس صلاتك، و يحترمون صيامك، يحترمون جامعك، و يحترمون شيخك، يحترمون دينك، أم إذا أهملت عملك و قصّرت فيه، و كنت كسولا متوانيا خنوعا ذليلا و بعدها تصلي، يحتقر الناسُ صلاتك، و بعضهم يحتقر الصلاة كلها من أجلك، يحتقر بعض الناس صيامك، و بعضهم يحتقر الصيام من أجلك، فلذلك موضوع العمل موضوع خطير، فيجب أن تتقن عملك، أقول لك مرة ثانية و ثالثة و

رابعة: الذي يعرف الله عز وجل في سن مبكر هذا بإمكانه أن يختار عملا يرضي الله عز وجل، و بإمكانه أن يختار زوجة ترضي الله عز وجل، الذي يعرف الله في وقت مبكر ينمو، فإذا بلغ سن الأربعين بلغ أشده و كان متألقا، و كانت له نهاية مشرقة، من لم تكن بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة، أقول هذا الكلام لإخوتنا الشباب: أتقن عملك، و تفوّق فيه، وعلى الله الباقي، وهذا الكلام ينقلني إلى ملاحظة يسيرة، إذا ابتغيت المال من عملك فقط خسرت عملك، فإذا ابتغيت إتقان عملك ربحت عملك و ربحت المال، مثلا أحيانا تجد طبيبا همه الأول تجميع الثروة، و المرضى كثر، لا يعتني بهم، و لا يتأنى في معالجتهم، يأخذ مبالغ كبيرة، لو جاء يسأله سؤالا آخر مبلغ آخر، هذا الطبيب سرعان ما ينفض الناس عنه، لكن الطبيب الذي يبحث عن مصلحة المريض هذا الذي يغتني، الذي يحرص عن مصلحة المريض، إذا أتقنت عملك أغناك عملك، أما إذا لم تتقنه و حرصت على كسب المال خسرت عملك و خسرت المال، وأنا واللهِ أيها الإخوة أعتز بكل شاب تفوق في دراسته، و تفوق في حرفته، أتقن عمله، كان نشيطا، و باكر إلى عمله، الآن هناك ظاهرة خطيرة جدا ؛ بعض الشباب ينامون حتى الظهر كل يوم، تعود أن يجد الطعام في البيت، أبوه يكفح و يأتيه بالطعام و الشراب، و يشتري له اللباس وهو نائم، يستيقظ ليفند الطعام، ما هذا الأكل، هذا الشاب إذا بقي على هذه الحال لفترة طويلة استمرت معه هذه الحال حتى نهاية حياته، أنا أعرف لي قريب حتى الآن لا يستيقظ إلا مع أذان الظهر، يسهر طوال الليل و يستيقظ مع أذان الظهر، قال عليه الصلاة و السلام،

((عَنْ صَخْرٍ الْغَامِدِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا قَالَ وَكَانَ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً أَوْ جَيْشًا بَعَثَهُمْ أَوَّلَ النَّهَارِ وَكَانَ صَخْرٌ رَجُلًا تَاجِرًا وَكَانَ إِذَا بَعَثَ تِجَارَةً بَعَثَهُمْ أَوَّلَ النَّهَارِ فَأَثْرَى وَكَثُرَ مَالُهُ))

[رواه الترمذي]

نظم وقتك، العمل له وقت، و العبادة لها وقت، إن لله عملا في الليل لا يقبله في النهار، وإن لله عملا في النهار لا يقبله في الليل، هناك وقت لعملك، وقت لعبادتك، وقت لطلبي العلم، وقت للأعمال الصالحة، وقت لأهلك، وقت لأولادك، إذًا حديث آخر في البخار،

((عَنْ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ أَحْبُلًا فَيَأْخُذَ حُزْمَةً مِنْ حَطَبٍ فَيَبِيعَ فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهِ وَجْهَهُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أُعْطِيَ أَمْ مُنِعَ))

[رواه البخاري]

لئلا تتسرعوا هناك حالات خاصة يجب أن تسال الناس، قد تأتيك جائحة، قد تفقد مالك كله فجأة، قد تضطر إلى عمل جراحي لابنك، هذا الإنسان مستثنى من هذا الحديث، ليس هذا، إياكم أن تظنوا هذا، أنا أقول: إنسان يسأل الناس ليستكسب، لا يعمل و يسأل، أما أحيانا يكون أخ كريم كله عزة و كله

كرامة، لكن ابنه مريض و يحتاج عملا جراحيا، يجب أن يسأل إخوانه، إخوانه يقدمون له المعونة وهو يشعرون أنهم قد تفضل عليهم حينما قبل منهم، هذا المؤمن، إذا سألك أخوك شيئا و أنت معك، وأخوك في حاجة، واللهِ هذا الشعور صحيح، تشعر أن أخاك تفضل عليك حينما تقبل مساعدتك، إياكم أن تظنوا حينما أتابع هذه الأحاديث أن الذي تصيبة جائحة، أو أن الذي يحتاج إلى عمل جراحي، أو أن الذي تهدّمت بيته مثلا مضطر إلى زواج، هذه حالات مشروع فيها أن تسأل، و لا سيما في هذه الأيام، لكن نحن نقول عن إنسان يرفض العمل و يتخذ السؤال مهنة له، هذا إلى يمقته الله عز وجل ما قولكم أن يكون الأنبياء الكرام يعملون بأيديهم لكسب أرزاقهم، أنبياء، نحن أحيانا إنسان عادي جدا، لا بد أن أتفرغ، لماذا التفرغ، أبو حنيفة النعمان ملأ الدنيا علما و كان تاجرا، سيدنا الصديق كان خليفة المسلمين و كان بزازا، سيدنا أبو عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة كان قصّابا، سيدنا زكريا النبي العظيم كان نجارا، ما هذا التفرغ ؟

((قال عليه الصلاة و السلام عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ دَاوُدَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ))

[رواه البخاري]

هذا الحديث رواه أبو هريرة، و قد جاء في صحيح البخاري، مَن داود ؟ داود ملِك عظيم و نبي كريم، و مع ذلك كان لا يأكل إلا من عمل يده، و لستم عن حديث النبي عليه الصلاة و السلام حينما أمسك بيد عبد الله بن مسعود و كانت خشنة من عمل شاق، فقال عليه الصلاة و السلام و أمسك يده و رفع أمام أصحابه و قال:

((إن هذه اليد يحبها الله و رسوله......))

مرة وجدت إنسانا نؤوما، كل وقته نائم، قلت له: واللهِ أنا خلال ثلاثين عاما في التدريس الدرس الأول يبدأ الساعة السابعة، من الساعة السابعة أبدا في العمل، لأن الإنسان ينمو بالعمل، أن ألحُّ عليكم لأني أحب أن يكون إخواننا متفوقين، أنا حدّثني أخ طبيب متفوق جدا في عمله تعامل مع خصوم ألداء للدين، لأنه متفوق في عمله احترموا صلاته و احترموا صيامه و احترموا دينه، واحترموا المنهل الذي يشرب منه، والإنسان لا يخضع إلا إذا رأى المؤمن شخصية فذة، إذا وجد المؤمن أجدب مهملا هيئته رثة متواكلا سخيفا يتعلق بالسفاسف، مثل هذه الشخصية لا تجلب للدين أنصارا، تجلب له أعداء، أما التفوق في العمل هو الذي يرفعك،فمرة ثانية أيها الإخوة: إذا كان النبي الكريم ذمّ الطلب، الطلب الذي أساسه الكسل و دناءة النفس، و استغناؤه عن العمل بالتسول، أما هناك حالات يجب أن تسأل أخاك المؤمن، وأخوك المؤمن أقول: واللهِ أقول عن كل إخوته، حينما تشعر أن هذا الأخ الكريم بحاجة إليك، وبإمكانك

أن تساعده أنت في الجنة، أخي الله أكرمني و تفضل عليّ و قدر على يدي الخير إليه، هذا شعور المؤمن.

((عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ دَاوُدَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ))

[رواه البخاري]

هذا حديث ثان، الأنبياء، بقية الأنبياء، سيدنا زكرياء كان نجارا، و سيدنا النبي، قال عليه الصلاة والسلام،

((عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ فَقَالَ أَصْحَابُهُ وَأَنْتَ فَقَالَ نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ))

[رواه البخاري]

أنت أحيانا تكون مسافرا انظر إلى الراعي، من أشق الأعمال، مع مائتين أو ثلاثمائة غنمة في هذه الجبال، في أيام البرد، وفي أيام الحر، سكون رهيب، جبال وعرة، غنمات شاردة

((عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ فَقَالَ أَصْحَابُهُ وَأَنْتَ فَقَالَ نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ))

[رواه البخاري]

أي على دريهمات، سيد الخلق، وحبيب الحق رعى الغنم و باع واشترى في مكة، و كان شريكا مضاربا للسيدة خديجة، رعى الغنم و باع و اشترى و كان شريكا مضاربا للسيدة خديجة، إذا أنت لم تعمل لم تعرف قيمة المال، ولا قيمة كسبه، ولا الأخطار التي تنتظر العمل، إذا واحد ليس له عمل، و يأتيه المال بلا تعب، المال لا قيمة له، يعيش في برج عاج بعيد عن حقيقة الحياة، وعن صعوبة العيش.

و قد روى الترمذي و النسائي و ابن ماجة عن عائشة قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ))

[رواه الترمذي]

أنت حتى صار ابنك شابا، و فتح محلا و اشتغل، أنت مت مليون موتة، كله تعب، فهذا ابنك من كسبك، فإذا أكلت من كسبه فكأنما أكلت من كسبك، يقول عليه الصلاة و السلام:

((عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ))

[رواه الترمذي]

في حديث آخر،

((عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ))

[رواه النسائي]

لكن هناك حديث ثالث ورد في الجامع الصغير

((أطيب كسب الرجل ولده))

(الجامع الصغير)

أي أعظم كسب يكسبه الإنسان أن يرزقه الله ولدًا صالحا يعبد الله من بعده، وينفع الناس من بعده، يعلم الناس الخير، إذا الإنسان له ولد صالح ورع مستقيم، شيء عظيم جدا، و إذا كان له ابن عالم داعية أعظم، هذا هو الذي قاله النبي عليه الصلاة و السلام ؛

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[رواه مسلم]

أريد منكم، أو أريد أن ألفت النظر إلى شيء دقيق جدا، الرزق له وجهان،وجه كسبي، ووجه تفضلي، أنت مأمور، تشتغل، تفتح محلا، تتوظف و تتقن صنعة، تتقن مهنة، مأمور، هذا الوجه الكسبي، لكن هذا وحده لا يكفي، يحتاج إلى عامل آخر وهو أن يتفضل الله عليك فيوفقك، فيزيل من أماك العقبات، أحيانا نقول: هذه السنة هناك مطر كثير، صقيع واحد دمّر آلاف الزراعات المحمية، عاصفة هوجاء اقتلعت آلاف البيوت، كثرة الأمطار تعفنت البذور فماتت، مرة واحدة جاءت في غير وقتها أتلفت محاصيل القمح، الأمور بالتوفيق، لا بالكسب، فالرزق له وجه كسبي ووجه تفضلي، فالمؤمن عليه أن يأخذ بالأسباب، لكن حينما يعتقد أن هذه الأسباب كافية لتحصيل الرزق وقع في الشرك وهو لا يدري، فلذلك الوجه الكسبي ما يمارسه الإنسان من أعمال، من أجل كسب رزقه، يفتح محلا، يختار الموقع المناسب، و البضاعة المناسبة، يجتهد بالشراء، لا يكون رأس ماله غاليا، تكون البضاعة جيدة، يستقصي، عليه أن يأخذ بالأسباب، أما هناك أشخاص يجذبها و يشتري بسرعة، السوق لا بيع فيه، الخطأ خطأك، اشتريت بضاعة سيئة و غالية، طبعا لا تباع، المؤمن كيِّس فطن حذر، قبل أن تشتري ادرس السوق كله، أبتِ بكل أنواع المساطر، خذ الأسعار ناقش، فاصل، إلى أن تشتري أحسن بضاعة بأقل سعر، الآن بيعك صار سهلا، رأس مالك معروف و محدود، و هامش من ربح معقول، و معاملة طيبة، طبعا تربح، هناك أسباب، أما هناك توكل أو تواكل، شراء سريع، الله قال:

(فَامْشُوا)

[سورة الملك]

و ما قال: فاسعوا في مناكبها، قال لك:

(فاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة الجمعة]

اركض إلى الصلاة، أما الشراء و البيع و التجارة فتروَّى، وابحث ووازن.

أكثر الإخوة الكرام الذين يعانون من كساد أكثرهم بسبب خطئهم في الشراء، فأنت عليك أن تسأل، و اختر المكان المناسب، و الأسعار المناسبة و طريقة التعامل المناسبة، واحد يريد أن يشتري بالدَّين، قال له البائع: تقبِّل يدي ؟ قال له: ما هذا الكلام ؟ قال: هذا الشرط، لماذا ؟ قال: ذلك أقبِّل رجلك لأنك تأخذ حق هذه البضاعة، اجتهد أن تبيع نقدا، فهو أكثر راحة لك، و إذا بعت بدَّين فلواحد موثوق أكابر شخصية معتبرة، وإلا يصير شحاذا عنده، أنا قصدي هذا الجانب الكسبي، تكون كيسا فطنا حذرا، تهتم بالشراء و المبيع، موقع المحل، طريقة المعاملة، هناك أشخاص لا يبيعون رأسا، جاءه زبون يسأل عنه، قد يكون نصَّاب، قال له: اشحن لي، ماذا أشحن لك، انظر من هذا الشخص، له سمعة، ليس له سمعة، يدفع أو لا يدفع، هذا هو لجانب الكسبي، لكن الجانب التفضلي هو أن الرزق بتقدير الله عز وجل، لولا أن الله ييسر الأسباب لم تُرزق، لولا أن الله جل و علا يحول بينك و بين العقبات لا ترزق، ييسر لك الأسباب و يزيل من أمامك الموانع، لذلك:

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)

[سورة هود]

يعبر التجار عن هذا الكلام يقولون: " مع الله لا يوجد ذكي " بقدر ما كنت ذكيا يمكن أن تخسر كل رأس مالك بصفقة واحدة.

الآن الآية الكريمة، قال تعالى:

(فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (10))

[سورة الجمعة]

هذا كسب الرزق، أما الآية الثانية:

(الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ)

[سورة العنكبوت]

أول وجه كسبي و الثاني تفضلي من الله عز وجل.

الآن الأحاديث التي وردت في ذم المسألة، جاء في أحاديث صحيحة متعددة عن النبي صلى الله عليه و سلم،

((عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَذَكَرَ الصَّدَقَةَ وَالتَّعَفُّفَ وَالْمَسْأَلَةَ الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى فَالْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْفِقَةُ وَالسُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ))

[رواه البخاري]

هناك أغنياء مهذبون جدا متواضعون يعطي الفقير بهذه الطريقة، انحل الإشكال ؟ لا لم ينحل، النبي عليه الصلاة و السلام فيما رواه البخاري و مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال وهو على المنبر وذكر الصدقة و التعفف

((عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَذَكَرَ الصَّدَقَةَ وَالتَّعَفُّفَ وَالْمَسْأَلَةَ الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى فَالْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْفِقَةُ وَالسُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ))

[رواه البخاري]

و مرة ثانية المقصود بالسفلى و السائلة التي تسأل تعنتا و استكسار و تكسل وتؤثر القعود و ليس الذي يكون مضطرا، فالمضطر يجب أن يسال، وإن لم يسأل فهو آثم، قد يكون أخوك يساعدك.

وروى البخاري و مسلم

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ))

(رواه البخاري)

حديث خطير جدا، قد تملك ألوف الملايين، لا أقول مئات، وأنت فقير، ما دمت حريصا على الدرهم و الدينار و تشتهي أن يزداد مالك و تأخذ حقوق الآخرين الضعاف، أو تسلبهم حاجاتهم الأساسية، أحيانا أنت تأكل لقمة تأخذها من أفواه الناس، كيف، بالاحتكار، أحيانا تأتي ببضاعة غذائية جيدة و تخزِّنها، تُفتقد من الأسواق فيرتفع سعرها كثيرا، عندئذ تبيعها، أنت أخذت من كل إنسان جزءا من دخله كان ممكنا أن يشتري به أشياء أخرى، فالمحتكر ملعون، و المحتكر خاطئ، إذًا من هو الغني ؟ هو المتعفف، من هو الفقير ؟ هو الذي يطمع فيما عند الناس،

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ))

[رواه البخاري]

في حديث آخر رواه الإمام البخاري ومسلم

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ وَقَالَ إِنَّ الشَّمْسَ تَدْنُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَبْلُغَ الْعَرَقُ نِصْفَ الْأُذُنِ فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَغَاثُوا بِآدَمَ ثُمَّ بِمُوسَى ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[رواه البخاري]

كلما سأل ذهبت قطعة من لحم وجهه، إلى أن يفقد كل لحم وجهه، من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه..." في حديث دقيق جدا،

((عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ كَدٌّ يَكُدُّ بِهَا الرَّجُلُ وَجْهَهُ إِلَّا أَنْ يَسْأَلَ الرَّجُلُ سُلْطَانًا أَوْ فِي أَمْرٍ لَا بُدَّ مِنْهُ))

(رواه الترمذي)

أي يخدش بها وجهه، لماذا السلطان ؟ لأنه ولي أمر المسلمين، و بيده مقاليد الأمور، فيجب أن تسأله، و الحاجة لا بد من استيرادها، هذا المنع لا بد أن يلغى، هذا لا علاقة له بالسؤال،إلا أن يسأل سلطانا، أو في أمر لا بد منه، هذا لا علاقة له بالسؤال، أما من دون أمر ضروري، أو من دون قضية متعلقة بأولي الأمر،

((عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ كَدٌّ يَكُدُّ بِهَا الرَّجُلُ وَجْهَهُ إِلَّا أَنْ يَسْأَلَ الرَّجُلُ سُلْطَانًا أَوْ فِي أَمْرٍ لَا بُدَّ مِنْهُ))

(رواه الترمذي)

((وعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللَّهِ أَوْشَكَ اللَّهُ لَهُ بِالْغِنَى إِمَّا بِمَوْتٍ عَاجِلٍ أَوْ غِنًى عَاجِلٍ))

[رواه أبوداود]

عوِّد نفسك إذا أصابتك مشكلة لا أن تضعها على أكتاف الناس و تشكو همّك للناس، ضعها في باب الله عز وجل، صلِّ قيام الليل، و اسأل الله عز وجل أن يكشفها عنك، اجعل همك عند الله لا عند الناس، حديث دقيق

((عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللَّهِ أَوْشَكَ اللَّهُ لَهُ بِالْغِنَى إِمَّا بِمَوْتٍ عَاجِلٍ أَوْ غِنًى عَاجِلٍ))

[رواه أبوداود]

لكنه من شكا إلى مؤمن فكأنما اشتكى إلى الله، ومن شكا إلى كافر فكأنما اشتكى على الله.

وروى أبو داود بإسناد صحيح

((عَنْ ثوْبَانَ قالَ وَكانَ ثوْبَانُ مَوْلى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ قالَ قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ مَنْ يَكْفُلُ لِي أنْ لا يَسْألَ النَّاسَ شَيْئًا وَأتَكَفَّلُ لهُ بِالْجَنَّةِ فقالَ ثوْبَانُ أنا فكَانَ لا يَسْألُ أحَدًا شَيْئًا))

[رواه أبوداود]

ثمن الجنة ألاّ تسأل الناس شيئا، سيدنا الصديق خليفة المسلمين يركب ناقته، و حوله أصحابه، فنزل من على ناقته ليلتقط زمام الناقة، فعجب أصحابه، قالوا: يا خليفة رسول الله نكفيك ذلك، قال: سمعت حبيبي يقول: لا تسألوا الناس شيئا..." نزل من على ناقته، لذلك النبي عليه الصلاة و السلام قال

((عَنْ ثوْبَانَ قالَ وَكانَ ثوْبَانُ مَوْلى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ قالَ قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ مَنْ يَكْفُلُ لِي أنْ لا يَسْألَ النَّاسَ شَيْئًا وَأتَكَفَّلُ لهُ بِالْجَنَّةِ فقالَ ثوْبَانُ أنا فكَانَ لا يَسْألُ أحَدًا شَيْئًا))

[رواه أبوداود]

عوِّد نفسك، إذا بإمكانك أن تخدم نفسك فاخدم نفسك، و لو كنت أعظم الناس، النبي الكريم مع أصحابه قال: و علي جمع جمع الحطب...، قالوا: نكفيك، قال: أعلم ذلك، و لكن الله يكره أن يرى عبده متميزا على أقرانه......" هذه واحدة، الثانية في معركة قال: كل ثلاثة على راحلة، وأنا و علي و أبو لبابة على راحلة، ركب النبي، فلما جاء دوره في المشي، توسل أصحابه إليه أن يبقى راكبا، قال: ما أنتما بأقوى مني على السير، و لا أنا بأغنى منكما عن الأجر...." هكذا علّمنا النبي، عوِّد نفسك تخدم نفسك، فهو أرقى بكثير، إياك أن تتلقى خدمات الناس، أقد حياتك على خدمتهم لا على تلقي الخدمات.

((وروى مسلم حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى وَقُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ كِلاهُمَا عَنْ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ قالَ يَحْيَى أخْبَرَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ هَارُونَ بْنِ رِيَابٍ حَدَّثَنِي كِنَانَةُ بْنُ نُعَيْمٍ الْعَدَوِيُّ عَنْ قبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلالِيِّ قالَ تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً - أي أصابتني جائحة - فَأتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ أسْألُهُ فِيهَا فقالَ أقِمْ حَتَّى تَأتِيَنَا الصَّدَقَةُ فنَأمُرَ لكَ بِهَا قالَ ثُمَّ قالَ - دققوا في هذا الحديث - يَا قبِيصَةُ إنَّ الْمَسْألَةَ لا تَحِلُّ إلَّا لِأحَدِ ثَلاثَةٍ رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً - قتل إنسانا خطأ - أحيانا يكون هناك حادث دهس فرضا، كلفوه بمائة ألف دية، ليس معه، موظف، لا بد له أن يسأل - فَحَلَّتْ لهُ الْمَسْألَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ - وليس دائما، مرة واحدة - وَرَجُلٌ أصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ - احترق محصوله، خسر، احترق محله التجاري، احترقت سيارته التي يعمل عليها - فَحَلَّتْ لهُ الْمَسْألَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ أوْ قالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ وَرَجُلٌ أصَابَتْهُ فاقةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قوْمِهِ لقدْ أصَابَتْ فُلانًا فاقةٌ فَحَلَّتْ لهُ

الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ فَمَا سِوَاهُنَّ مِنْ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا - أي حرام - يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا))

[رواه مسلم]

ثلاث حالات.

آخر حديث ؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّرًا فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ))

[رواه مسلم]

وجدها شغلا مريحا من دون جهد، لا توجب دواما و لا بيعا و لا شراء و لا تحمل أعباء، واللهِ حدّثني شخص، قال لي: دخلت امرأة محلا تجاريا تتكفف، أعطاها ألأفين، لأنه على العيد، أيام جبر، رآها في بنك، فقال له أحد أصدقائه: حسابها سبعمائة ألف هذه المرأة، الذين يكسبون المال عن طريق التسول هؤلاء لا قيمة لهم عند الله أبدا، بل هم آثمون،

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّرًا فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ))

(رواه مسلم)

إذًا محور الدرس علوُّ الهمة من الإيمان، ومن علو الهمة أن تنشط في طلب الرزق، فقد يُعجب الناس بدينك و بإسلامك، وبصلاتك و قيمك من خلال إتقان عملك، و إتقان عملك يغنيك عن سؤال الناس، و قد بينت لكم كيف أن أصعب الأعمال على الإطلاق جمع الحطب و أقلها مردودا أهون من أن تسال الناس، ما فتح عبد على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر، و جرِّبوا، كل إنسان سال من فضل الله، الله عز وجل ييسر له عملا، يأخذ أجره عزيزا، هذا شيء قطعي، اطلب ما عند الله، لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، ابتغوا الحوائج بعزة الأنفس، فإن الأمور تجري بالمقادير، شرف المؤمن قيامه بالليل، و عزه استغناؤه عن الناس.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (040) :إحياء علوم الدين1 - التفكر أفضل العبادات.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-07-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، في الدرس الماضي بيّنت لكم ثمانين درسا موزعة بين أسماء الله الحسنى و بين مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين، ورأيت من المناسب أن ننتقل إلى موضوع جديد، فالموضوعات الجديدة كما تعلمون من شأنه أن تجدد الهمة، و قد بدأت في الدرس الماضي سلسلة من الدروس تحت عنوان " الأخلاق الإسلامية " وأردت أن أعيد الكرة فأجعل درس جامع العثمان درسا في الأخلاق الإسلامية و درسا في إحياء علوم الدين، و الإحياء كما تعلمون كتاب من أعظم الكتب التي تجمع بين أحكام الشريعة وأسرارها، و بين الأبواب المهلِكة و الأبواب المنجية، و لن أسير في الإحياء وفق الترتيب الذي ألّف به الكتاب، و لكن سأختار لكم فصولا من الإحياء مما تشتد الحاجة إليه، ففي الجزء السادس عُقد في الإحياء باب تحت عنوان " باب التفكر " و لا أكتمكم أن هذا الباب من أخطر أبواب الكتاب، لأنه قبل أن أمضي عن الحديث عن التفكر أبيِّن لكم ؛ إنك إن تفكرت علمت، وإن علمت نشأ في قلبك حال، هذا الحال يدفعك إلى العمل، الفكر أساس المعرفة، و المعرفة أساس الانفعال، و الانفعال أساس السلوك، أي إن صحت فكرتك صح إدراكك، وصح انفعالك و صح عملك، دخلت الجنة، لذلك الذي أعجب له أن هذا الباب العيم الذي يحتمل - إن لم أبالغ - ثلث القرآن، باب التفكر في خلق السماوات، كيف أن الدعوات إلى الله عز وجل أهملته، مع أنه فريضة، التفكر فريضة من أرقى الفرائض، لأن هذه الفريضة ترقى بها، الذكر يطمئن قلبك بذكر الله، لكن الفكر يزيدك علما، فلذلك استعرضت أبواب علوم الدين فلم أجد بابا نحن في أمس الحاجة إليه من باب التفكر، و لم أبالغ إذا قلت لبكم: إن أعظم جهاز أودعه الله في الإنسان هو الفكر، بل إن الفكر - كما يقولون عجز عن إدراك ذاته، لا يزال الدماغ سرا من أسرار الإنسان، طبيعة التفكر لا تزال مجهولة، طبيعة المحاكمة، طبيعة التصور، طبيعة التذكر، هذه كلها مجاهيل، لكن قد اهتدينا إلى أن هذه النقطة نقطة التذكر، هنا الذاكرة، هنا الإدراك، هنا المركز السمعي، المركز البصري، مركز المحاكمة، أما كيف تجري المحاكمة، واللهِ مرة قرأت مقالة في مجلة علمية عن الدماغ، تزيد هذه المقالة عن ثمانين صفحة، واللهِ شعرت بوجع في رأسي، لأن أسرار الدماغ فوق طاقة الدماغ، فربنا عز وجل أودع في الإنسان هذا الفكر، و إن شئت سمه عقلا، على كل حال الخلاف لفظي لا قيمة له، أودع فينا هذا الفكر ليكون أداة معرفة الله، أوضح مثل، أضرب لكم قبل أن أمضي في الحديث عن الفكر، لو فرضنا عندنا شمعة على الطاولة وإلى جانبها عود ثقاب، و الغرفة مظلمة، و هناك على الطاولة قطع من الأحجار، و قطعة من الألماس، ثمن

هذه القطعة مئات الألوف، بل ملايين، انتبه ماذا سيحصل، إنك إن أمسكت عود الثقاب وأشعلت هذه الشمعة تنور المكان، فرأيت الألماس فرأيت الألماس فرحت فرحا عظيما، فتحركت نحوه فالتقطته، فسعدت به، هذا الترتيب الطبيعي، قال: التفكر يحتاج إلى تذكر، والتفكر يوصل إلى العلم، و العلم يوصل إلى الحال، أي انفعال، و الانفعال يولد العمل، و العمل ثمن الجنة، البداية التفكر، لذلك هذا مثل مشوق، تمهيد، لكن الموضوع يسير على النحو التالي، أولا: فضيلة التفكر، من خلال الكتاب و السنة، و أقوال الصحابة و التابعين، الشيء لا يصدق أن أصحاب النبي عليهم رضوان الله و التابعين و تابعي التابعين، كانت هذه العبادة عبادة التفكر ملء سمعهم و أبصارهم، ملء جوانحهم، الآية الكريمة قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة آل عمران]

هذا فعل مضارع يفيد الخبر، لكن الخبر يأتي في القرآن في معرض الإنشاء و الأمر، فإذا قال الله عز وجل:

(وَلَا يَزْنُونَ)

[سورة الفرقان]

أي إياكم أن تزنوا، نفي الشيء أبلغ من النهي عنه، إذا نهيت عن الشيء فكأنك تضع في ذهن المنهي تصور فعله، لكن إذا نفيته فالنفي أبلغ، ربنا عز وجل قال:

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ)

[سورة البقرة]

ما قال: يا أيها الوالدات أرضعن أولادكن، من شأن الوالدات إرضاع أولادهن، فهذا خبر جرى مجرى الإنشاء، مجرى الأمر، و لا يزنون، هذا وصف جرى مجرى النهي، قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة آل عمران]

أي المؤمنون من شأنهم التفكر في خلق السماوات و الأرض، لازمة من لوازمهم، خصيصة من خصائصهم، سمة من سماتهم.

((عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن قوما تفكروا في الله عز وجل فقال عليه الصلاة و السلام " تفكروا في خلق الله، و لا تتفكروا في الله، فإنكم لن تقدروا قدره))

إذًا التفكر في ذات الله ممنوع و حرام و مهلك، و التفكر في مخلوقات الله فريضة من أرقى الفرائض، اطلعت على كتاب من كتب كلية الشريعة لجامعة دمشق للسنة الأولى عن النظم الإسلامية، النظام الإسلامي، ففي باب العبادات فوجئت، فريضة التفكر جاءت عند المؤلف قبل فريضة الصلاة، أساس الدين هو التفكر.

وعن النبي صلى الله عليه و سلم أنه خرج على قوم ذات يوم وهو يتفكرون، فقال: مالكم لا تتكلمون؟...." هذا اسمه في البلاغة تجاهل العارف، أحيانا يستخدم النبي هذا الأسلوب، دخل على أصحابه مرة في المسجد فرآهم قد تحلقوا حول رجل، فقال: من هذا ؟..." وهو يعرفه معرفة يقينية، قالوا: هذا نسابة، قال: و ما نسّابة ؟ قالوا: يعرف أنساب العرب، قال: ذلك علم لا ينفع من تعلمه، و لا يضر من جهل به...." أي مضيعة للوقت، كان يدعو و يقول: اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا، و زدنا علما، و كان يتعوذ و يقول كما في

حديث زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ

((كَانَ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا))

(رواه مسلم)

قال: مالكم لا تتكلمون ؟ فقالوا: نتفكر في خلق الله عز وجل

((فقال عليه الصلاة و السلام: فكذلك فافعلوا، تفكروا في خلقه و لا تتفكروا فيه))

طبعا هذا نهي قطعي، لأن الله جل و علا لا تدركه الأبصار، فإذا تجاوزت حدك فتفكرت في ذات الله فإن في هذا الطريق هلاكا، و أي هلاك.

بالمناسبة ؛ ما دام العقل لا يستطيع أن يخوض في ذات الله والعقل لا يستطيع أن يدرك كنه الله عز وجل، لكن الله تفضل علينا في قرآنه الكريم فأخبرنا عن ذاته بحيث أن ما عجز عقلك بإدراكه بذاته جاءك خبرا صادقا من الله عز وجل، قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

[سورة الرعد]

قال تعالى "

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2))

[سورة الإخلاص]

إلى آخر ذلك.

هذا حديث ذكرته مرة في خطبة، أحد أصحاب النبي اسمه عطاء انطلق إلى السيدة عائشة رضي الله عنها، و الله عز وجل يقول:

(وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ)

[سورة الأحزاب]

فقال هذا الصحابي الجليل: و بيننا و بينها حجاب، تطبيقا لقول الله عز وجل، أخبرينها بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه و سلم ؟ قال: فبكت، و قالت: كل أمره كان عجبا، أتاني في ليلة و قال لي: يا عائشة ذريني أتعبد ربي، أي اسمحي لي، و لك الحق أن أجلس معك، أي أتسمحين لي، أتأذنين لي يا عائشة، ذريني أتعبد ربي، أو أتعبدْ ربي، جاب الطلب، فقام إلى قربة فتوضأ منها، ثم قام يصلي، فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد حتى بلّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، اضطجاع تفكر، فقال: يا رسول الله ما يبكيك و قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك و ما تأخر، فقال: ويحك يا بلال و ما يمنعني أن أبكي و قد أنزل الله تعالى عليّ في هذه الليلة:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة آل عمران]

ثم قال عليه الصلاة و السلام: ويل - أي هلاك - لمن قرأها و لم يتفكر فيها، أي ويل لمن قرأ هذه الآية و لم ينفذ مضمونها فيتفكر في خلق السماوات و الأرض، لأن حجم خشيتك بحجم تفكرك، أنا كنت أضرب أمثلة موضِّحة، أنت الآن في الخدمة الإلزامية، جاءك أمر من عريف، سبعة واحدة، هذا الأمر له وزن، إذا من سبعين يصير أثقل، ومن ثمانية أو ثمانيتين، أو نجمة على الكتف أثقل، كلما كثرت النجوم، صار بعد ذلك سيفان، و صار هناك شيء أحمر، و بعد ذلك صار الصدر مملوءا بالأوسمة، كلما كثرت الرتب صار الأمر مخيفا، هذا مثل طبعا، و كذلك الإنسان كلما عرف عظمة الله عز وجل عرف قيمة أمره، لهذا النبي عليه الصلاة و السلام ثلاث عشرة سنة في مكة المكرمة يعرِّف الناسَ بالله عز وجل، فحينما عرّفهم بالله عز وجل عرّفهم بأمره و بشرعه، قال

((ويل لمن قرأها و لم يتفكر فيها..." قيل للأوزاعي: ما غاية التفكر فيهن ؟ قال: يقرأهن و يعقلهن))

بالمناسبة أيها الإخوة، كلما قرأت في القرآن الكريم أية كونية اعلم أنَها موضوع للتفكر، ليست هذه الآية هي التفكر، موضوع للتفكر، هذه عنوانات لموضوعات التفكر، مثلا ؛ لما أنت تفتح صنبور الماء في بيتك، و تملأ كأس الماء لتشربه، خطر ببالك أن لو أن الله عز وجل كلفك أن تخزِّن الماء عندك، تحتاج إلى مساحة بقدر مساحة بيتك بالضبط، الذي بيته مائتا متر لا بد له من مائتي متر أخرى ماء

يستهلكه طوال العام، أما ربنا عز وجل جعل خزانا نبع الفيجة يتمدد من دمشق و إلى مشارف حمص، ومن أسفل جبال لبنان إلى سيف البادية، ادخلوا إلى بناء عين الفيجة في الطابق الثالث تجدوا المصور الجيولوجي لحوض الفيجة، والله قال:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22))

[سورة الحجر]

موضوع تفكر هذا،

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22))

[سورة الحجر]

من خزن هذا الماء ؟ الآن إذا أرادوا أن يضعوا مستودعات للماء أكمل مستودع ما اقترب من تصميم الله عز وجل، تحت الأرض بأربعمائة متر، في حبل قاسيون أربعمائة متر، حيث الظلام الدامس، من خزن هذا الماء، تشرب ماء زلالا، فكلمة:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22))

[سورة الحجر]

هذا موضوع للتفكر، و كيف أن هذا النبع يقدم كل ثانية ستة عشر متر مكعب، و في أيام الثوران خمسا و ثلاثين متر مكعب، و في أيام الشح متر، أو متر و ستين:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22))

[سورة الحجر]

فكلما قرأت آية في القرآن الكريم اجعلها موضوعا للتفكر، و كلما ازداد علمك بالله ازدادت خشيتك، و كلما ازدادت خشيتك عظم حالك، حال الخشية، وكلما عظم حالك اندفعت إلى الحركة، و العلم الصالح، فذكر مثل بسيط، كبيرة و شمعة، أشعلت الشمعة فأضاءت لك الغرفة فرأيت ألماسا غالي الثمن، ففرحت و أقبلت عليه، و كذلك التفكر، إذا تفكرت، التفكير يضيء لك الحقائق، يكشف لك الحقائق، إن كشف لك الحقائق تاقت نفسك إليها، إن تاقت نفسك عليها أقبلن عليها، ففعلتها فسعدت في الدنيا و الآخرة.

أحد التابعين قال: ركبت إلى أم ذر، هذه غير أبي ذر، بعد موت أبي ذر، فسألتها عن عبادة أبي ذر فقالت: كان نهاره ألمع في ناحية البيت يتفكر " وعن الحسن - وهناك من يروي هذا الكلام عن رسول الله، هو للإمام الحسن " تفكر ساعة خير من قيام ليلة " و عن الفضيل: الفكر مرآة، تريك حسناتك و سيئاتك " وقيل لإبراهيم: إنك تطيل الفكر، فقال: الفكر مخ العقل " و كذان سفيان بن عيينة يقول هذا البيت:

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

أي هذا الفكر يجب أن يستيقظ، أنظمة التعليم أحيانا تشحن الفكر بالمعلومات من دون أن تدرِّبه على العمل، تجد الفكر، مرة أعتقد الإمام الغزالي قيل له: فلان حفظ كتاب الأم للشافعي، فتبسم و قال: زادت نسخة، والنبي الكريم يقول: كونوا للعلم وعاة، و لا تكونوا له رعاة...." الإنسان يحفظ يحفظ، هذا إنسان عبارة عن كتاب، عبارة عن قرطاس، عبارة عن مسجلة، أما حينما يفكر يبدع، فالإنسان هذه عبادة من أرقى العبادات، إن شربت كأس الماء، أحيانا الطعام وحده مجال واسع للتفكر، قال تعالى:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24))

[سورة عبس]

أحيانا إذا تناولت شيئا من لحم الخروف، الخروف مصمم كالإنسان تماما، درس عملي كل يوم، امسك الفقرات، كيف هي متراكبة، و في داخلها النخاع الشوكي، و كيف يتفرع هذا النخاع، هذا تجده في لحم الخروف، فربنا عز وجل قال:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20))

[سورة الذاريات]

قال: من كان منطقه ذكرا، و صمته فكرا، و نظرة عبرة، فإنه على شاكلة الأنبياء، والإمام الحسن يقول: من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكرا فهم سهو، ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو " لغو و سهو ولهو، من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3))

[سورة المؤمنون]

ومن لم يكن سكوته تفكرا فهم سهو ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو " بعضهم قال في تفسير قوله تعالى:

(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)

(سورة الأعراف)

قال بعض المفسرين: أمنعهم من التفكر، قال تعالى:

(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)

(سورة الأعراف)

أحد التابعين يقول: ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم، و ما علِم امرؤ قط إلا عمل، تفكر، علم، عمل، وقال عمر بن عبد العزيز: الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة " قال بشر: لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا اله عز وجل " لاحظتم العلاقة، إذا المعصية أساسها عد الخشية، و عدم الخشية أساسها عدم العلم، علم خشية طاعة، جهل عدم خشية معصية.

أبو شريح كان يمشي، إذ جلس فتقنع بكسائه، وقعد يبكي، قيل له: ما يبكيك ؟ قال: تفكرت في ذهابي عمري وقلة عملي و اقتراب أجلي " أنا أعجب شيء يلفت نظري إنسان في الخمسينات أو الستينات لا يصلي، يلعب الطاولة، يبحلق في النساء، مراهق في هذا السن، هذا ما تفكر في نهاية حياته كيف يلقى الله عز وجل، الإنسان إذا بلغ الأربعين بلغ أشده، و الأربعين إنذار من الله عز وجل، و الشيب إنذار، و ضعف البصر إنذار، عبدي كبت سنك و انحنى ظهرك، و ضعف بصرك و شاب شعرك، فاستح مني فأنا أستحي منك.

أبو سليمان الداراني يقول

((عوِّدوا أعينكم البكاء و قلوبكم التفكر " قال: الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة))

لطاقة الفكرية، معظم الناس هكذا، الطاقة الفكرية منصرفة لجمع المال، أول من يفتح عينيه، عندنا قبضة اليوم، و هذه البضاعة لم تشحن، وفلان فقس، لا حول إلا بالله، أول ما فتح عينيه، ما قال: لا إله إلا الله، قبل أن يقول: سبحان الله و بحمده، قبل أن يقول كما قال النبي: كان إذا استيقظ يقول:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة آل عمران]

لذلك اتخذوها قاعدة يرد عليك عند الاستيقاظ فهذا دليل ما أنت فيه منغمس، فإذا الإنسان أول فاق الصلاة، و القرآن و الآية الفلانية، مجلس علم الفلاني، و العمل الصالح، والله هنيئا له، أما إذا أول ما فاق على الدنيا فهذه مشكلة، هناك مفاجآت، والحديث لا يشبع منه، بادروا بالأعمال الصالحات، فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا، لو واحد يعيش، و جسمه تام صحيح قوي غني، و متمتع بكل ملاذ الحياة، يا ترى إلى متى، هنا السؤال، إلى متى، إلى الأبد، لا والله، عاش مائة وثلاثين سنة، وبعد ذلك ؟ أنا كان عندي درس ألقيته تحت عنوان " ثم ماذا؟" صار معك ألف ألف مليون، ثم ماذا ؟ و ما تركت مكانا زرته في العالم، ثم ماذا ؟ فقال النبي الكريم،

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوْ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(رواه الترمذ)

هناك مفاجأة، لابد منها، طبعا هذا لمن المفاجأة ؟ لمن غفل عن الله عز وجل، لمن انكب عن الدنيا، لمن جعل القرآن وراء ظهره، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا، حدثني أخ الأسبوع الماضي قال: واللهِ زيد من الناس قال لي: والله يملك بضع المئات من الملايين، قال لي: واللهِ الآن لا يملك ثمن رغيف خبز،

كما أن الله عز وجل إذا أعطى أدهش، إذا سلب أدهش، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا هناك واحد لم تعجبه المعيشة في هذا البلد جمع و طرح وقسم وضرب، قال: ثمن معملي، و ثمن محلي بالحريقة وحق مزرعتي و سيارتي و بيتي، فوجده مبلغا ضخما، أذهب إلى أوروبا وأضعه في البنك فآخذ في السنة كذا مليون، أعيش ملِك بلا شغل وبلا تموين وبلا جمارك و بلا مالية، عدّد متاعب التجارة، وهكذا فعل، و الإنسان موجود، ذهب - أعتقد إلى السويد - غلطة، توهّه الله فيها المال و المبلغ ضخم حتى يضعه في البنك لا بد له من إقامة ولابد له من وثيقة، ثاني يوم وضعه على اسم واحد مؤقتا، ثم قال له: ليس لك عندي شيء، إنسان فجأة من كل شيء إلى لا شيء، ليس لك عندي شيء، و النبي عليه الصلاة و السلام قال: فقرا منسيا، أو غنى مطغيا، كان مستقيما على الغنى ترك الاستقامة، أراد النواهي و النوادي الليلية، وأراد غير هذه الزوجة، وجد هذه الزوجة قديمة، فأحب واحدة " سبور"

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوْ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(رواه الترمذي)

فقال: الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة " محجوب، و الفكر في الآخرة يورث الحكمة و يحيا القلب به" إذا فكرت في الآخرة، في ساعة اللقاء مع الله عز وجل تدخل على الجامع، و على الصلاة، على القرآن، و على الصدقات، وعلى إعانة الضعفاء، وعلى البكاء، على التذكر، واللهِ يا إخوان هناك كلمات لا أشبع منها، أنا أقول لكم كلمة دائما: من.......بالهم والهمة " يقول الجنيد رحمه الله تعالى أشرف المجالس و أعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد، والتنسم بنسيم المعرفة، و الشرب من كأس المحبة من بحر الوداد، و النظر بحسن الظن بالله عز وجل، ثم قال: يا لها من مجالس ما أجلها، ومن شراب ما ألذه، طوبى لمن رُزقه"

يا أيها الإخوة ؛ هؤلاء الذين استقاموا على أمر الله وأقبلوا عليه و أحبوه، و ذابوا في حبه، واللهِ في قلوبهم سعادة او وزِّعت على أهل بلد لكفتهم، واللهِ أصحاب الملايين يفتقرون إلى بصيص من سعادتهم، حتى أن أبا يزيد البسطامي يقول: لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف "، تتعرف إلى الله و تشقى، اسمع الدعاء كل يوم في الفجر: سبحانك إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت " الإمام الشافعي يقول: استعينوا على الكلام بالصمت، وعلىالاستنباط بالفكر "، وقال: صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور ".

هذه الأقوال كلها لأصحاب النبي، و التابعين، من كبار العلماء في شأن الفكر، أنا كنت أقول لإخواننا الكرام، الإنسان صباحا هذه ساعة الفجر لا تعدلها ساعة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ

((لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا))

(رواه البخاري)

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ صَلَّى الْغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَامَّةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ))

(رواه الترمذي)

إذا الإنسان صلى الفجر و قرأ خمس صفحات من القرآن، و ذكر الله ربع ساعة، و تفكر في آية من آيات الله، افتح القرآن الكريم و تأخذ موضوعا:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22))

[سورة الحجر]

موضوع الأمطار، طبقات الأرض، النفوذة و الكتيمة و المستودعات، و بعد ذلك تفجر الينابيع، و الماء كان مالحا فصار عذبا زلالا، الماء كان مقطّرا صار ماء معدنيا، المملكة السعودية عندها محطات تحلية، تقدم ماء مقطرا لا يصلح للشرب أبدا، لابد من خلطه بمياه الآبار، لأن المياه المفيدة فيها معادن منحلة، يقول: هذه مياه معدنية، لتر و نصف ثمنه كذا ليرة، كالسيوم مغنيزيوم وكبريت و فوسفور، من جعل هذه المعادن تحل في الماء ؟ من صمم الماء، كأس الماء أيها الإخوة تتعرف إلى الله به، هذا التفكر، فالإنسان ابنه أمامه كان نقطة ماء، يكلمه و يمزح معه و يضحك، وينشد نشيدا، و يقرأ له سورة يس، حدثني أحد إخواننا قال لي: بعثت ابني إلى مدرسة حضانة، ولكن يبدو أن اتجاهها إسلامي، فثاني يوم استيقظوا مبكرين، لم يصلوا إلى وضع الأكل، أعطوه سندويش، وقال له: كلها في الطريق، قال، يا بابا قال عليه الصلاة و السلام: الأكل في الطريق دناءة.." لماذا آكلها في الطريق، واللهِ شيء جميل، هذا كان نقطة ماء، كان من ماء مهين لا تُرى بالعين، ثم صار طفلا يتكلم، و يبتسم، طيب فكر و دماغ و مشاعر و أحاسيس وقلب و أوعية و دسامات و رئتين و عظام و عضلات و بنكرياس وطحال و كظر، ما هذا الإنسان، فيه آلاف الأجهزة و الآلاف الأنسجة.

الآن، الإمام الغزالي، سبحان الله علم واحد، درسنا نحن في الجامعة في مادة المنطق أنه عندنا المنطق الصوري، خذ مثلا، كل إنسان فان، هذا مثل شهير، سقراط إنسان سقراط فان، عندك معلومتنا إذا تفاعلتا أعطتك معلومة ثالثة جديدة، هذا التفكر، التفكر أن تتذكر حقيقتين من تفاعل هاتين الحقيقتين تأخذ

حقيقة ثالثة، فالغزالي يقول: إن هناك طريقان؛ طريق التفكر و طريق التقليد، واحد لك ثقة فيه قال لك يا ابني، والآخرة أفضل و الآخرة باقية، آثر الآخرة، هذا السلوك الآن لا يصلح، سلوك التقليد، وبالمناسبة التقليد في الدين لا يُقبل، لو قبلنا بالتقليد لصار كل إنسان تكلم بالباطل فقلّدته فأنت صرتَ غير مؤاخذ، لا يقبل في العقيدة إلا التحقيق، لهذا قال الله عز وجل:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

[سورة محمد]

لا يقبل إلا التحقيق، و التقليد مرفوض، قال: و الطريق الثاني، لو أنك عرفت أن الأبقى أولى بالإيثار، واحد قال لك: تأخذ هذه السيارة سعة واحدة، وهذه الدراجة على طول، صفنت، ساعة تمضي كلمح البصر، أما هذه الدراجة ثمنها ثمانية آلاف على طول، ماش الحال، طبعا التفكير السليم أن تقبل أنت بطلب الأطول و الأبقى، يقول لك واحد: تأخذ هذه السيارة ساعة موديل 92، زرقاء جديدة، أو تأخذ هذه السيارة كذلك 92 و لكن على طول، تفكر شيئا، تقول له: دعني أفكر ! أعوذ بالله، الاثنتان نفس الموديل، واحدة ساعة واحدة على طول، مرحلة ثالثة ؛ لو قال لك: تأخذ هذه الدراجة ساعة أم هذه السيارة التي ثمنها ثلاثة عشر مليون على طول ؟ يا ليتك تفكر، هكذا قال الله:

(وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4))

[سورة الضحى]

ماذا قال سحرة فرعون:

(وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73))

[سورة طه]

وليس فقط أطول، بل خير و أبقى، بربكم هذا الذي يختار الدنيا فقط كم سنة بعد الأربعين، ما تستطيع أن تتنعم قبل الأربعين سنة، يكون لك بيت لوحدك، إذا كنت تسكن مع أهلك كل حركة أنت مراقب فيها، مشكلة الأم و مشكلة الزوجة، بيت لوحدك و دخل معقول و مركبة ترفعك عن الأرض، لا بد لك من أربعين سنة، ماذا بقي من العمر ؟ مضت الثلثان و بقي الثلث، والثلث الله أعلم ماذا يحصل له من علل في جسمه، مليون علة في جسمه، تنشأ له مشاكل مع أولاده ومع زوجته، يطلق لا يطلق، ما تعرف، هذه واللهِ مغامرة، الآخرة أفضل، لذلك قال الإمام الغزالي: إذا عرفت أن الأبقى أولى بالإيثار - هذه حقيقة - الحقيقة الثانية الآخرة أبقى، هاتان معلومتان، التفكر أن أقول: يجب أن أوثر الآخرة، فالتفكر هو تولد حقيقة من حقيقتين، تسمى في المنطق مقدمة أولى ومقدمة ثانية و نتيجة، كل إنسان فان، سقراط إنسان، سقراط فان،مقدمة أولى، مقدمة ثانية، نتيجة، لذلك فرّق العلماء بين التفكر و التذكر، التذكر استحضار حقيقة سابقة، إذا الواحد ذكر الله هل يزداد به علما ؟ لا، ولكن يزداد قربا، الذكر،

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28))

[سورة الرعد]

أما إذا أردت أن تزداد علما يجب أن تتجه نحو التفكر، التذكر يطمئن، أما التفكر فيزيدك علما، التذكر استحضار حقائق سابقة، تذكرها، فيها فائدة منها، لذلك صباحا ذكر و تفكر، ذكر انحضار الأشياء القديمة فتمكّنها، أما التفكر فهو إحداث شيء جديد، أنت بالتذكر تطمئن، و بالتفكر ترقى.

عندنا ملاحظة ؛ التفكر عملية فكرية يحتاج إلى مواد أولية، لو فرضنا إنسانا قرأ موضوعا عن الطيور، هذا الموضوع ليس تفكرا، و قراءة هذا الموضوع ليس تفكر، و لكنه مواد أولية للتفكر، قرأت كتابا عن جسم الإنسان ؛ عن قلبه و عن رئتيه و عن معدته وعن أمعائه ،عن دماغه و عن عضلاته وعن.." هذه معلومات مواد أولية، مواد خام، تحتاج إلى تصنيع، التفكر في الله هو القفزة نحو الأعلى، ليس هناك تناقض بين أن تقرأ موضوعا علميا و تأخذ منه حقائق تتأمّل فيها إلى أن تصل إلى حكم من خلال التفكر، ليس هناك تناقض أبدا، فالتفكر بلا بضاعة لا يقدم شيئا، بضاعة بلا تفكر لا تقدِّم شيئا، الأجانب بضاعة بلا تفكر، لهم حقائق دقيقة عن الكون، لهم مؤلفات تذهب بالعقول، تجد ثماني صفحات مراجع حول موضوع علمي، بضاعة مواد أولية غير مصنعة، وهناك أماكن فيها آلات و لكن لا توجد مراد أولية، الأكمل أن تملك معلومات دقيقة عن الكون، و من خلال هذه المعلومات تقفز بها لمعرفة الله عز وجل.

أجمل فقرة في الموضوع، قال: - اسمعوا بدقة - ثمرة الفكر هي العلوم، و الأحوال و الأعمال " الثمرة الخاصة إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب، أوضح مثل ؛ وإن كان مثلا سلبيا و ليس إيجابيا، واحد قاعد مرتاح في بستان، نظر فإذا هو بحية - أعوذ بالله - صورة هذه الأفعى انطبعت على الشبكية، الشبكية نقلتها إلى الدماغ، هنا إحساس، في الدماغ إدراك، لما أدرك شعر أن جسمه تنمّل، قفز، هذا دوركايم عالم نفس يقول: علاقة الإنسان بالمحيط الخارجي وفق قانون ؛ ثلاثة كلمات ؛ إدراك و انفعال وسلوك، إذا كان إدراكك أن هذه أفعى بشكل جيد، لو فرضنا أن طفلا عمره سنة و كان في حصيدة مع أهله، يمر الثعبان على جنبه يمحلس عليه و لا يقفز، و لا يقشعر جسمه و لا يخاف ولا يصيح، لأنه لا يوجد إدراك، إدراك صحيح انفعال صحيح، يقشعر جسمك و ينمل و حية جنبك ثم تتم القعود، كذاب، لو أنك أدركت أن هذه أفعى وأن لدغتها، قاتلة يمكن أن تقفز و تصيح، أو تقتلها، هذا قانون " إدراك، انفعال، سلوك " هذا كلام الغزالي، العالم الفلاني الكلام نفسه، ما قاله دوركايم قاله الغزالي قبله بألف عام، التفكر" إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح " بربكم هذا الكلام ألا يطابق ذاك الكلام ؟ مائة في المائة" إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح " فالعمل تابع للحال، و الحال تابع للعلم، و العلم تابع للتفكر، و

التفكر تابع للتذكر، تذكر تفكر علم حال عمل، جنة بعد ذلك،، تذكر تفكر علم حال عمل، جنة، لذلك قالوا: التفكر خير من الذكر، الذكر لا زيادة فيه، أما التفكر ففيه زيادة.

آخر مثل في الدرس ذكرته في أول الدرس، طاولة عليها شمعة وكبريت، وفي غرفة مظلمة، وإنسان على وشك الموت جوعا - سأضيفها إضافة - فمسك الكبريت و أشعله وأشعل الشمعة، فأضاءت له الطاولة، فإذا على الطاولة مثلا خمسمائة ليرة، هو على وشك الموت جوعا، حينما تفاعل الكبريت مع الشمعة حصل العلم، العلم نور أضاء له هذه الخمسمائة ليرة، فتبسم وفرح و ضحك، كان على وشك الموت جوعا، فأخذها و انطلق و اشترى طعاما و شرابا، مثل بسيط، و لكن التفكر يؤدي إلى العلم، و العلم إلى الحال، و الحال إلى العمل و العمل إلى الجنة، فلذلك ربما كان التفكر الطريق إلى الله عز وجل، وهذا معنى قوله تعالى:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28))

(سورة الجاثية)

السعيد مكن ألهم تطبيق هذا الأمر الإلهي، التفكر من أجل العبادات، والتفكر يمكن أن يكون طوال النهار، إذا الواحد متعلق بالله عز وجل.

مرة قرأت في كتاب، أن في الدماغ جهاز بالغ التعقيد، هذا الجهاز يحسب تفاضل وصول الصوت من الأذنين إلى الدماغ، من هنا إلى هنا كم سنتيمتر تقريبا ؟ خمسة عشر، الصوت ينتقل في الثانية ثلاثمائة ثلاثون مترا، الضوء ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية، لهذا السر تجد البرق تراه قبل الرعد، إذا واحد رأى نحّات حجر، من بُعد خمسين مترا، بعد أن يضرب يسمع الصوت، بعد الضربة تسمع الصوت، فالصوت ينتقل ثلاثمائة و ثلاثين مترا في الثانية، أما الضوء فثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية، لذلك قال تعالى:

(رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا)

[سورة السجدة]

قدّم البصر لأنه أسرع، أما في ثانية عشر آية قال:

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ)

(سورة المؤمنون)

لأن تشكل السمع يبدأ في بطن الأم، أم البصر فلا يبدأ إلا بعد الولادة، الإحساس بالضوء بعد الولادة، أما إدراك الأصوات فالجنين في بطن أمه يسمع الأصوات، ليس هذا القصد، فهناك جهاز في الدماغ يحسب لك تفاضل وصول الصوت من كل أذن إلى الدماغ، والحقيقة لو كان الصوت من هنا دخل إلى هذه الأذن قبل هذه بواحد على ألف و ستمائة و خمس وعشرين جزء من الثانية، لو أطلقنا طلقة خلبية على يمين الإنسان، فالصوت يبدأ من الأذن اليسرى، يصل الصوت قبل اليمين بواحد على ألف و

ستمائة و خمس وعشرين جزء من الثانية، قال: هناك جهاز في الدماغ يحسب تفاضل وصول الصوتين، فينبئ الإنسان بجهة الصوت، الدليل امش في الطريق، نصف الطريق واسمع صوت سيارة تأتي على اليمين، لماذا على اليمين، لأن السيارة أتت على اليسار، لو كان من اليسار تأتي على اليمين، دون أن تلتفت تعرف مصدر الصوت، من خلا هذه الجهاز، مرة كنت أقود مركبتي عائدا من سفر كان هناك أمامي قطيع غنم فأطلقت البوق فذهبوا على اليسار، ليس فقط نحن، كذلك الغنم له الجهاز نفسه، دون أن يلتفتوا سمعوا البوق أخذوا على اليسار، معنى ذلك أن عندهم جهاز، فالتفكر يمكن أن تتفكر طول النهار، لما أنت هذا الفكر يقبل على إدراك الحقائق هذه العبادة، أنت مع الله دائما، مع عظمته، ومع رحمته، و مع علمه، مع قدرته و مع غناه.

فيا أيها الإخوة هذه عبادة أغفلها معظم الدعاة، أغفلتها معظم الحلقات الدينية، كأنها ليست موجودة، مع أن ثلث القرآن يتحدث عنها، بالتفكر ترقى، التفكر يزيد حجم معرفتك بالله، ومه المعرفة خشية، ومع الخشية استقامة وتطبيق، لذلك قال سيدنا بلال: لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت" آخر آية في الموضوع، قال تعالى:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر]

إنما أداة قصر، أي العلماء وحدهم، و لا أحد سواهم يخشون الله، وحدهم، لذلك طريق العلم هو العلم، مرة أحد العلماء الأجلاء توفي رحمه الله، قاد ابنه إلى مدرسة لتعليم العلم الشرعي، وقال له في الطريق: يا بني واللهِ لو علمتُ أن كسح القمامة يوصلك إلى الله لجعلتك كناسا، و لكنني أعلم علم اليقين أنم العلم وحده يوصل إلى الله " إياك أن تظن أن هناك طريقا آخر غير العلم، العلم وحده و لا شيء سواه يوصل إلى الله، تتعلم، تستنير و تنفعل، وتعمل أعمالا صالحة تدخل الجنة، أول حركة العلم، والعلم أساسه التفكر، و تفكر ساعة خير من عبادة سبعين عاما،

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3))

[سورة القدر]

الألف شهر يساوون ثمانين سنة، أي إذا تفكرت في الكون و قدّرت الله حق قدره، تسبق من عبد الله ثمانين عاما، تفكر ساعة خير من أن تعبد الله ثمانين عاما.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (041) :الأخلاق الإسلامية2 - فضل الجماعة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-08-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من دروس الأخلاق الإسلامية، وعدتكم أن يكون درس من هذه الدروس في الأخلاق الإسلامية، و درس من هذه الدروس من إحياء علوم الدين، فهذا الدرس الثاني من دروس الأخلاق الإسلامية و قد تحدث في درس سابق عن خلق كسب الرزق بالنسبة للمؤمن، وكيف أن اليد العليا خير من اليد السفلى، و كيف أن العلم و المال و القوة قوة في يد المؤمن، و قد قال عليه الصلاة و السلام: المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف...." و اليوم الحديث عن خلق من أخلاق المسلم يميزه عن غيره من الناس، هذا الخلق أساسه الدافع الجماعي، كثيرة هي الرذائل التي تُعزى إلى النزعة الفردية والأثرة و حب الذات، وبالمناسبة كلمة " الأنانية" غلط شائع، صوابها الأثرة، كلمة " الغيرية " غلط شائع صوابها المؤاثرة، مرة أُلّف كتاب عنوانه "أخطاؤنا " فكُتب حوله مقالة مشابهة أن عنوان الكتاب خطأ شائع، لأن الخطيئة لا تُجمع على أخطاء بل على خطيئات، لقول الله عز وجل:

(مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا)

[سورة نوح]

فجاء كاتب آخر و قال: عنوان الكتاب بعد التصحيح غلط شائع، لأن الخطيئة متعلقة بالسلوك، بينما الخطيئة في العلم اسمها غلط، و ليست خطيئة، الزنا خطيئة، أما أن تعرب الفاعل منصوبا فهذا غلط و ليس خطيئة، إذًا أول عنوان غلط و الثاني غلط، و الصواب الأغلاط الشائعة، فأن تقول: أنانية هذا غلط، لأن " أنا " ضمير لا يصاغ منها مصدر صناعي، " أنانية، غيرية، كيفية، الكيفية و الغيرية و الأنانية و الهوية هذه أغلاط شائعة، صوابها " الأنانية الأثرة، والغيرية المؤاثرة، و الكيفية الطريقة، فرذائل كثيرة تعزى إلى النزعة الفردية والأثرة و حب الذات، و فضائل كثيرة تعزى إلى النزعة الجماعية و المؤاثرة و حب المجموع.

بادئ ذي بدء المؤمن اجتماعي، و أهل الدنيا فرديون، يؤثرون نفسهم على غيرهم، حب الذات أعمى أبصارهم، يحبون أن يأخذوا، و لا يحبون أن يعطوا، يؤثرون أنفسهم على كل شيء، بينما المؤمنون الصادقون قال تعالى:

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

(سورة الحشر)

فمؤمن انعزالي لا يوجد، مؤمن يكره الجماعة، مؤمن ينسحب من الجماعة و يكفرها هذا ليس مؤمنا، الأنبياء مع من عاشوا، مشوا في الأسواق، الله جل جلاله وصفهم أنهم كانوا يأكلون الطعام، و يمشون في الأسواق، تعاملوا مع عامة الناس، لو أنهم ابتعدوا عنهم و عاشوا في برج عاجي، بربكم أكانوا سببا لهداية الناس، فما من قوم - وأنا أعني ما أقول - أساءوا إلى النبي عليه الصلاة و السلام، من أهل الطائف حينما جاءهم مشيا على قدمه ليهديهم إلى سواء السبيل كذّبوه و سخروا منه، و أنا أعتقد أنهم آذوه إيذاء ماديا، لأن النبي بشر، و تجري عليه كل خصائص البشر، و لأنه قدوة لنا، و مع ذلك قال: اللهم اهد قومي.." تخلى عنهم، لا، ما تخلى عنهم، و دعا لهم و التمس لهم العذر، فالمؤمن في أخلاقه العامة فردي أم جماعي، جماعي، طبعه الأثرة أم المؤاثرة ؟ المؤاثرة، ذاتي أم غيري ؟ غيري، يؤثر نفسه على الآخرين، أم الآخرين على نفسه ؟ الآخرين على نفسه، و الآية الكريمة واضحة.

أيها الإخوة الأكارم، هذا الموضوع نحن في الأمس الحاجة إليه، لا في هذا المسجد وحده، بل على مجموع العالم الإسلامي، أولا: لماذا الجماعة، لماذا يجب أن نكون مع مجموعة، لماذا لا ينبغي أن أعيش وحدي منفردا ؟ لماذا قال عليه الصلاة و السلام، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ بَدَا جَفَا وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ وَمَنْ أَتَى أَبْوَابَ السُّلْطَانِ افْتُتِنَ وَمَا ازْدَادَ عَبْدٌ مِنْ السُّلْطَانِ قُرْبًا إِلَّا ازْدَادَ مِنْ اللَّهِ بُعْدًا))

(رواه أحمد)

لأن عظائم الأعمال لا تتحقق إلا في الجماعة، أيمكن أن تكون داعية إلى الله عز وجل وأنت قابع في رأس جبل، في صومعة، لا، عظائم الأعمال لا تقوم إلا في مجموع، إذًا من آثر العزلة و الهروب من المجتمع و التقوقع و البعد عن الناس، و قال: ما شأني و شأنهم، أغناني اله عنهم، أنت لست مستغنيا عنهم، أنت في أمس الحاجة إليهم، لأنك بهم ترقى إلى الله عز وجل، إنك في أمس الحاجة إليهم، لأنك بهم ترقى إلى الله عز وجل، لولا أن الله عز وجل أودع في الإنسان هذا الدافع الجماعي لما ارتقى إلى الله بالأعمال الصالحة، الله جعل القوي و الضعيف، والفقير و الغني، و العالم و الجاهل، و الصحيح و المريض، أنت كيف ترقى إلى الله، طبيب و هناك مريض، حينما تخلص له، و يتم الشفاء على يديك ارتقيت إلى الله عز وجل، كيف ترقى إذا كنت غنيا من دون فقير، تعطي الفقير فترقى إلى الله، كيف ترقى إن كنت عالما من دون جاهل، هذا الذي لا يعرف تعلمه فترقى عند الله عز وجل، لذلك أيها الإخوة يمكن أن تستغربوا، الذي يستمع إليك له فضل عليك، و الذي تعطيه من مالك له فضل عليك، بعكس ما يظن الناس، و الذي تعينه في شأن من شؤون الدنيا له فضل عليك، لأنه لو لم يقبل منك أن تعينه لما ارتقيت عند الله، لو لم يستمع إليك لم ترق عند الله، لو لم يأخذ منك، و يقبل أن يأخذ منك لم

ترق عند الله، فهذا الذي قبل معروفك هو سبب رقيك عند الله عز وجل، لذلك المؤمن يعاشر الناس و يصبر على أذاهم، وهو خير عند الله عز وجل ممن لا يعاشر الناس و لا يصبر على أذاهم.

أول فكرة في الدرس:

عظائم الأعمال، جلائل الأعمال لا تقوم إلا في مجموعة، لذلك أنا كنت أقول لإخواني دائما كلما شكى إلي أحد زوجتَه مثلا أو أولاده أو شركاؤه أو جيرانه أقول له: هؤلاء زادك إلى الله، هؤلاء بصبرك عليهم، و إحسانك لهم و عفوك عنهم ترقى عند الله عز وجل،

(أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ)

[سورة النور]

الفكرة الثانية :

أن النزعة الفردين من شأنها أنها نزعة هدّامة، الإنسان الفرد لا ينمو إلا على أنقاض الآخرين، أصحاب النزعات الفردية الذين يحبون ذواتهم حبا أعمى، الذين يحبون أن يكونوا وحدهم و لا أحد معهم، هؤلاء لا ينمون إلا على تحطيم الآخرين، وإلا على هدمهم، لذلك فإن النزعات الفردية هدامة، والنزعات الجماعية بنّاءة، المسلم اجتماعي، والمسلم يألف ويؤلف، المسلم يصنع المعروف مع أهله و مع غير أهله، أبو حنيفة النعمان له جار مُغَنٍ أزعجه إزعاجا لا حدود له، كان طوال الليل يغني ويقول:

أضاعوني و أي فتى أضاعوا ليوم كريهة و طعان خلس

مرة لم يسمع صوته، خير، إذّا جاره أصابه مكروه، سأل عنه فإذا هو في السجن، ذهب إلى المحتسِب و توسط له فأخرجه من السجن، وفي طريق العودة قال لخ: يا فتى هل أضعناك ؟ فكان هذا الموقف الأخلاقي سبب توبته.

أقول لكم كلمة صراحة ؛ دائما في اللغة الدارجة " المليح ما لو عاوزك " أنت يحتاجك واحد رديء، الجيد يمشي وحده، ليس لك عليه فضل إطلاقا، أنت لا ترقى إلا بإنسان متعب، فلو فرضنا إنسان له ولد مشاكس، و كان حليما و صدره واسه وعلّمه وهذّبه و صبر عليه و أكرمه حتى لان، هذا وسام شرف، الذي عنده زوجة سيئة، بحلمه و هدوئه، وبرحمته و بعطفه، بملاحظاته إلى أن استقامت فصلحت، هذا وسام شرف، الذي يريد أناسا جيدين فهذا إنسان أفقه ضيق جدا، هناك شخص يقول لك: أنا لا أجلس إلا مع ناس يفهمون، و لا أسهر إلى مع ناس نخبة صفوة، إذّا أنت صفوة، من النوع الثاني، إن كنتَ صفوة الناس يجب أن تجلس مع عامتهم، علمهم، هذّبهم و بيِّن لهم، فكل إنسان يعيش في برج عاجي بعيدا عن الناس، يرى نفسه فوقهم، يرى نفسه هو في مستوى غير هذا المستوى، هو يشمئز و يدعو للاشمئزاز، ليست هذه أخلاق المؤمن، هذه الفكرة الثانية.

الفكرة الثالثة :

إياك أن تظن أن واحدا زائد واحد يساوي اثنين، هذه حقيقة في الرياضيات، و لكن في علم الاجتماع واحد زائد واحد يساوي مليون، فردان متفرقان لو اجتمعا لا يساوي مجموعهما مجموع عددهما، بالاجتماع تتولد طاقات كبيرة جدا،

فعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ

((إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي أَوْ قَالَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ضَلَالَةٍ وَيَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ))

(رواه الترمذي)

أقل شيء في الجماعة أن تشعر بأنس، مرة قرأت مقالة في مجلة أعجبني عنوانها، هذا العنوان: " لسنا وحدنا في المعركة " أنا عدّلت العنوان فقلت: أيها المؤمن لست وحدك في الحياة، أنت لك إخوان مؤمنون، و لك أشخاص يتعاطفون معك، مسراتك مسراتهم، ومشكلاتك مشكلاتهم، و آلامك آلامهم، أفراحك أفراحهم، أتراحك أتراحهم، واللهِ الذي لا إله إلا هو يكاد ـ وأنا أعني ما أقول ـ يكاد يكون أثمن شيء في الحياة، وأسعد شيء في الحياة أخ لك في الله، تمحضه خالص ودك، لهذا قال الله عز وجل في الحديث القدسي،

((عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ قَالَ دَخَلْتُ مَسْجِدَ دِمَشْقَ الشَّامِ فَإِذَا أَنَا بِفَتًى بَرَّاقِ الثَّنَايَا وَإِذَا النَّاسُ حَوْلَهُ إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَسْنَدُوهُ إِلَيْهِ وَصَدَرُوا عَنْ رَأْيِهِ فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَقِيلَ هَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ هَجَّرْتُ فَوَجَدْتُ قَدْ سَبَقَنِي بِالْهَجِيرِ وَقَالَ إِسْحَاقُ بِالتَّهْجِيرِ وَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى إِذَا قَضَى صَلَاتَهُ جِئْتُهُ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُ وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ أَاللَّهِ فَقُلْتُ أَاللَّهِ فَقَالَ أَاللَّهِ فَقُلْتُ أَاللَّهِ فَأَخَذَ بِحُبْوَةِ رِدَائِي فَجَبَذَنِي إِلَيْهِ وَقَالَ أَبْشِرْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ))

[رواه أحمد]

أنت لو كنت أبا ووجدت أولادك يؤثرون بعضهم بعضا في الطعام، هناك تفاحة كبيرة و تفاحة صغيرة، جاء الأخ و أعطى الكبيرة لأخته، فقالت: هذه لك، ألا يشعر الأب بسعادة لا توصف إن وجد أولاده متعاونين، الله عز وجل علمنا وقال:

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى)

(سورة النحل)

وربنا عز وجل يحب عباده المتعاونين، واللهِ أيها الإخوة بالمناسبة لو سألتني عن أسعد لحظات حياتي، شهد الله، هناك حالتان، و عن أشقى لحظات حياتي، هناك حالتان ؛ أسعد لحظات حياتي لما أجد أخا

مستقيما متمثلا هذه الدعوة، و له صلة بالله عز وجل، وله ورع شديد، يحب الله و رسوله، استفاد من هذه الدروس، سعيد في بيته، حكيم في تصرفاته، دخله حلال، أشعر بسعادة لا توصف، أقول: هذه أثار الدعوة إلى الله، هذه صنعة الأنبياء، ويفرحني شيء آخر، حينما أرى الإخوة متعاونين، أنا من مدة بلغني أن أخا كان مريضا مقعدا، و له عشر إخوة، ومن دون أن أعلم تقاسموا مصروفهم الشهري ن و قدّموه له رأس كل شهر، هذا هو الدين، ليس الدين حديثا و لا فصاحة ولا طلاقة، الدين تعاون، لذلك الله عز وجل أمرنا أمرا قطعي الدلالة، قال:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

(سورة المائدة)

صدقوني أيها الإخوة أن الذي يشدك إلى المسجد لست أنا وحدي، أنتم تشدون بعضكم بعضا، إذا الواحد عاش بين إخوة أكارم محبين أتقياء أنقياء، يؤثرون، إذا الواحد صديقه افتقر فقال له: هذا دخلي مناصفة، ماذا فعل، قلدّ الصحابة تقليدا، صعب إذا كان لك أخ مؤمن، واللهِ هناك أخ من إخوانكم له أخ فقّد عمله فآثره على نفسه، أقسم بالله أن الله عز وجل ضاعف دخلهما عشر أمثال، أنت تؤثر أخاك لأتدعِّم الإيمان في قلبه و يتخلى الله عنك؟ هكذا أخلاق الله عز وجل ؟ المؤمن إنسان اجتماعي، إنسان منفتح، إنسان عقله مفتوح و صدره رحب، يستمع للنقد، ومن أنا، فعَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ

((كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))

(رواه الترمذي)

سيدنا عمر - كلام دقيق جدا - قال

(("أحب ما أهدى إلي أصحابي عيوبي))

عوِّد نفسك تسمع النقد، و عود نفسك تتواضع، وعود نفسك أن ترى إخوانك أعلى منك، إذا كان رسول الله الذي هو سيد الخلق قال: وعلى جمع الحطب.." فما قولكم ؟ هذه أخلاق النبي، إدًا الطاقات إذا اجتمعت شكّلت قوى جبّارة، أساسا ما أسباب ضعف المسلمين، تفرقهم، أبدا التفرق، مثلا لما النبي كان في غزوة و تفقد بعض أصحابه فلم يجدهم، فهناك واحد غمز، فوقف أحد الصحابة قال: واللهِ يا رسول الله لقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حبا لك منهم، و لو علموا أنك تلقى عدوا ما تخلفوا عنك.." مثل السيف في ظهره، هكذا هو أخوك، ما دام أخاك، من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته و ظهرت عدالته ووجبت أخوته و حرمت غيبته، أين تسير أنت، أخوك يُتكلم فيه بحضورك و تسكت ؟! تفرح، أعطيك مقياسا.

أيها الإخوة الأكارم:

مقياس خطير ؛ إذا كان أخوك المؤمن أصابه مكروه و أنت ارتحت، جيد الذي حدث معه، اعلم علم اليقين أنك لست مؤمنا، إنك في خندق المنافقين، لأن الله عز وجل وصف المنافقين فقال:

(تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا)

[سورة آل عمران]

أخواك اشترى بيتا تغضب، أخذ شهادة عليا تغضب، أخذ ليسانس تغضب، تزوج تغضب، الله رفعه مكانة عليك تغضب، هو قوة لك، فعلامة إيمانك أن تفرح، لأخيك إذا أصابه شيء طيب، وعلامة النفاق أنك تحسده، والحسد من علامات النفاق، انتبه، و راقب نفسك، إلا في حالة واحدة حتى نكون موضوعيين، إذا الإنسان انسحب من مجتمع فاسد، مجتمع فيه الزنا و الخمر، مجتمع فيه الغيبة و النميمة، مجتمع فيه التحاسد، مجتمع فيه العدوان، هذا المجتمع طالح الغنيمة هي البُعد عنه، لذلك قال عليه الصلاة و السلام: الوحدة خير من الجليس السوء، لكن الجليس الصالح خير من الوحدة....." أخوك دعاك لعقد قران، و أخوك مؤمن، و كل المدعوين مؤمنون، ليس هناك إلا مديح رسول الله و كلمة تقال، أنا لا أحب الزحمة، ما هذا الكلام الفارغ ؟ أخوك دعاك لوليمة، و أخوك مؤمن و ماله حلال، و لكن لو فرضنا أن هناك اختلاط و انحرافا و مجلسا لا يرضي الله عز وجل، عندئذ ابتعد، لذلك الإمام الغزالي عقد في إحياء علوم الدين بابين ؛ الباب الأول فضائل العزلة، و الثاني فضائل الاجتماع، فالمؤمن حكيم.

ملخص الملخص ؛ إنك إذا اجتمعت مع هؤلاء و أمكنك أن تأخذ بيدهم إلى الله عز وجل يجب أن تجتمع بهم، أما إذا اجتمعت مع هؤلاء و يحتمل أن يأخذوك إلى طريق لا يرضي الله ابتعد عنهم، هذه مقدمة. الآن نريد الأدلة والنصوص القرآنية و النبوية التي تبيِّن الدافع الاجتماعي في أخلاق المؤمن، روى الإمام مسلم في صحيحه

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةِ الْمَالِ))

(رواه مسلم)

إذًا يرضى لكم أن تعتصموا بحبل الله جميعا و لا تفرقوا، وروى الترمذي في صحيحه عن عبد الله بن عمر عن عمر أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: عليكم بالجماعة...." ما معنى عليك ؟ ما إعرابها ؟ اسم فعل أمر، أي الزموا، كقوله تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ)

(سورة الكهف)

وكقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119))

[سورة التوبة]

((عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ خَطَبَنَا عُمَرُ بِالْجَابِيَةِ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قُمْتُ فِيكُمْ كَمَقَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِينَا فَقَالَ أُوصِيكُمْ بِأَصْحَابِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ وَلَا يُسْتَحْلَفُ وَيَشْهَدَ الشَّاهِدُ وَلَا يُسْتَشْهَدُ أَلَا لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنْ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمْ الْجَمَاعَةَ مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمْ الْمُؤْمِنُ))

(رواه الترمذي)

التقيت بأخ اليوم انقطع عن الدروس فترة طويلة، فأنت توهّمت وجاء توهمي صحيحا، حجته أنه حتى تطهر نفسه ثم يأتي، قلت له: هذا كلام مرفوض، كالمريض الذي يقول: أنا حينما أشفى أتناول الدواء، لا، أنت تأخذ الدواء من أجل أن تشفى، أنت حينما تحضر مجالس العلم و تلتقي مع إخوانك، هذا يدعو إلى الشفاء، و حينما تبتعد عن جماعة المؤمنين هذا يدعو إلى الداء، فداؤك في البعد عن الجماعة، ودواؤك في القرب منهم، ما الذي يحصل لما الإنسان يبتعد عن مجلس، يصبح فردا، هو و عقله، هذه ليس فيها شيء، وهذه أعتقد أن ليس فيها شيء، هذه الناس كلها هكذا، شهر واحد إذا ترك مجلس العلم فيه تجده اقترب شيئا فشيئا فشيئا من عامة الناس، أصبح بعقليتهم و بقيمهم و تساهلهم و انحرافهم، لكن إذا اقترب من الجماعة كل درس فيه طرح حقائق إسلامية و مواد وقوانين آيات و أحاديث، كلما انحرفت هذه المركبة عن خط سيرها جاء مجلس العلم فصحح المسيرة، كلما انحرفت، لو فرضنا أن واحدا قال: هؤلاء الفقراء لهم رب لا ينساهم، هذا قاله لوحده، هذا الكلام دعاه إلى أن يبخل، حضر تفسيرًا فقرأ قوله تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ)

[سورة يس]

أعوذ بالله هذا كلام الكفار، هذا طرح الكفار لهذه القضية، يعيش في أوهام فردية، تصورات شخصية وفتاوى من عنده، يبتعد شيئا فشيئا فشيئا عن الخط الصحيح، يجب أن تؤمن أن حضور مجالس العلم و الدخول في الجماعة عملية تصحيح مسار، كلما شط بك الذهن، و كلما زلتك القدم، و كلما انحرفت قليلا جاء مجلس العلم فصحح المسار، الآن أنت عندك المركبة الفضائية من حين لآخر يصحح مسارها، و لولا ذلك لما وصلت إلى هدفها، فأنت في مجلس العلم يُصحّح مسارك دائما، هذه ليس فيها شيء، هذه أجازها الفقهاء، هذه فيها فتوى من العالم الفلاني، أما إذا كنت في جماعة فالجماعة بركة،و الجماعة رحمة، فيها سعادة، هناك دليل، هذا الصحابي سيدنا حنظلة

فعَنْ حَنْظَلَة الْأُسَيِّدِيِّ قَالَ:

((وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ قَالَ قُلْتُ نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا ذَاكَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

(رواه مسلم)

بربك ألا تشعر إذا كنت في مجلس العلم براحة نفسية و طمأنينة و بسعادة، هذا من إكرام الله لك في بيته، ألم يقل الله عز وجل في الحديث القدسي :

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر))

أحد العارفين بالله التقى بشخص، يبدو أنه لما التقى به بكى هذا الشخص حبا، و الحديث معروف: أولياء أمتي إذا رأوا ذكر الله بهم، بكى هذا العارف بالله وقال:والله يا رب ما جاء لعندي، و لكن جاء لعندك فوجدني عندك، أنا ليس لي علاقة، هو جاء عندك يا رب، رآني في بيتك فأحبني، فأنت لما تشعر أنك عضو في جماعة، أنا في درس من دروس الأحد بيّنت كيف النبي عليه الصلاة و السلام مثّل أن المؤمنين كأنهم في سفينة، مصيرك مصير الجماعة، تقول :

((لا دخل لي، من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، عليكم بالجماعة وإياكم - إياكم تفيد التحذير – عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنْ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمْ الْجَمَاعَةَ مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمْ الْمُؤْمِنُ))

إذا الواحد انعزالي ويحب العزلة تنشأ معه أمراض نفسية و يتوهّم، أحد أمراض انفصام الشخصية أساسه العزلة، شدة الانعزال يبني أوهاما، هؤلاء أعداؤه، وهؤلاء يمكرون به، هؤلاء كذا، لكن لو كان مع الجماعة رحمة، طبعا الجماعة الصالحة، و ليس أي جماعة، والله هناك جماعة تنجِّس البحر، النبي الكريم في حديث صحيح وصف المؤمن بأنه مألف، هذا مصدر ميمي، أي يألف و يؤلف، يحب الناس، و يحبه الناس، يألفهم يألفونه، مرن ليّن العريكة، يلتمس الأعذار للناس، ولا يستعلي عليهم،

قال عليه الصلاة و السلام فيما رواه البيهقي في شعب الإيمان و أحمد :

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الْمُؤْمِنُ مُؤْلَفٌ وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ))

(رواه أحمد)

والحديث الذي تعرفونه جميعا،

((عَنْ أَبِي مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ))

(رواه البخاري)

((عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ إِنْ اشْتَكَى عَيْنُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ وَإِنْ اشْتَكَى رَأْسُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ))

(رواه مسلم)

أما حديث البخاري، فعَن النُّعْمَان بْن بَشِيرٍ يَقُولُ قَالَ

((رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))

(رواه البخاري)

الآن ما دام الإنسان مفطور على حب الجماعة فمن قتل إنسانا فكأنما قتل من خلاله الجماعة كلها، معنى دقيق جدا، لو فرضنا إنسانا، ومن باب التمثيل ؛ طبيب من أشهر الأطباء و قد أجرى فيما مضى خمسة آلاف عملية ناجحة و معقدة جدا، و عمره أربعون أو خمسون سنة،و يمكن أن يعيش عشرين سنة بعدها، و يعمل مائة ألف عملية قادمة، فإذا جاء واحد وقتله ألم يقتل من خلال قتله مائة ألف إنسان، إذا كانت عملياته نادرة، و لا يوجد غيره، والأمراض وبيلة، لو فرضنا أنت طبيب مختص اختصاصا دقيقا و ليس له مثيل، وفي البلد مائة ألف حالة مرضية تحتاج إلى عملية جراحية على يد هذا الطبيب، فمن قتل هذا الطبيب ألم يقتل من خلال قتله مائة ألف إنسان، هذا المعنى أشار القرآن إليه، قال الله عز وجل:

(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً)

[سورة المائدة]

لأن الله عز وجل أودع في الإنسان دافعا جماعيا، بشكل أصح، إذا إنسان خطأ دهس رجلا قيك أسرة، عنده أسرة شابة، و له ثمانية أولاد صغار، كلهم في الابتدائي، أنت من أجل الرعونة و الطيش تقود من شهادة، دهست هذا الإنسان ألم تقتل من خلال هذا الإنسان أولاده قتلا معنويا، لذلك بالمقابل: ومن أحياها - يا لطيف قال:

(فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً)

[سورة المائدة]

هذا المعنى الثاني دقيق جدا، إذا أنت إنسان أعنته و أكرمته و هديته و هذّبته وعرّفته بالله عز وجل حتى استقامت نفسه، حتى اطمأنت نفسه، حتى صار ورعا، و صار محبا، هذا الإنسان بعدما علّمته أنت و صار ناضجا، هذا أمِّي، وسيتزوج واحدة مؤمنة، و ينجب أولادا أطهارا، و إن كان معلما فسيكون محسنا في تعليمه، و سيكون داعيا، و إن كان طبيبا فسيخدم الناس، لذلك:

(وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً)

[سورة المائدة]

صدقوني يا إخوان أنا لا أبالغ في الأمر لو عندك تجارة القرش بمليون، لو تملك بناية مكل طابق ثمنه خمسون مليون، مائة طابق و كل طابق عشر شقق، في بعض المدن العظمى أبنية شاهقة، كل طابق ثمنه خمسون مليون، مائة طابق و كل طابق عشر شقق، لو أن الله عز وجل أجرى على يدك هداية إنسان،

((عنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ خَيْبَرَ لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَى فَغَدَوْا كُلُّهُمْ يَرْجُوهُ فَقَالَ أَيْنَ عَلِيٌّ فَقِيلَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ فَقَالَ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا فَقَالَ انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ))

(رواه البخاري)

خير لك مما طلعت عليه الشمس، و خير لك من الدنيا وما فيها.

سأقول لكم كلمة يقولها الشيوخ: يقول الشيخ العارف بالله: واللهِ لا يصير المريد مريدا حتى تطلع عيون الشيخ بالطول و بالعرض " تجد له عشر سنوات، كل يومين وثلاثة لقاء و تحمل وأسئلة، وأجوبة وتجاوزات، ورعونات، ومرة يغيب، و مرة يغلط، حتى يصير الإنسان ملازما ومريدا و صادقا، بقي لك المربي، لكن قصدي أنه " ومن أحياها لابد له أن يتحمل، ولا بد له من صدر رحب وطول بال، ولا بد من حلم، وتحمل شدائد، لابد لها تحمل نقد، ينتقدك أحيانا، أحيانا يحاسبك حسابا عسيرا، إذا صبرت إلى أن يستقيم هذا الإنسان هذه التجارة الرابحة، يقال: فلان بيته في الجنة، لماذا بيته في الجنة، لأن له بيت اشتراه بعشرين ألف ثم صار ثمنه ثلاثين مليونا مثلا، سوف يموت و يتركه، عنده أرض فصدر تنظيم أمامها، يقال: هذا صار فوق الريح، كله كلام فارغ، يأتي الموت فيصير كله تحت الريح، نزل في القبر، ولم يعد فوق الريح، أما الذي أجرى اللهُ عز وجل على يديه العملَ الصالح فهذا هو الغنى " الغنى و الفقر بعد العرض على الله " الغنى غنى العمل، أنا هذا الكلام أقوله وأعني ما أقول، أحب أن

أحمّسكم، لا تقبل أن تستمع طول عمرك، أين كنت ؟ كنا في المسجد و الحمد لله، والله الدرس حلو، أين ذاهب ؟ واللهِ على الجامع، أين كنت ؟ في الجامع، عشر سنوات، عشرين سنة، ماذا نتج منك بعد ذلك، لم تستطع أن تهدي واحدا ؟ ترسخ الإيمان في إنسان، ما تمكنت في إخوانك و جيرانك أولادك أقربائك و زملائك وشركائك، و أولاد أختك، وأولاد أخيك، لم تتمكن أن تهدي واحدا و تقنعه بالدين، وتهذبه، هذا الحديث إذا الواحد لا يغار فمشكلة،

((عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ خَيْبَرَ لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَى فَغَدَوْا كُلُّهُمْ يَرْجُوهُ فَقَالَ أَيْنَ عَلِيٌّ فَقِيلَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ فَقَالَ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا فَقَالَ انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ))

(رواه البخاري)

خير لك مما طلعت عليه الشمس، و خير لك من الدنيا وما فيها.

هذه الآية أنا أتفاعل معها كثيرا ؛ قال تعالى:

(وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً)

(سورة المائدة)

أنت فقط اهد إنسانا واتركه، من باب الفرضية، لو فرضنا أن واحدا هدى إنسانا و مات، يوم القيامة رأى مائة ألف إنسانا مؤمنين، كلهم في صحيفتك، هذا الذي هديته تزوج وأنجب أولادا صالحين، و كان من نسله علماء و دعاة، على مدار مائتي سنة صار عنده مائة ألف، من يصدق أنك إذا هديت إنسانا واحدا ربما رأيت يوم القيامة أمة كلها اهتدت بسببك، والله نحن تجد أخا مؤمنا، هذا الأخ تغرب بعد شهرين أتى بأخيه، وابن عمه و شريكه و صاحبه، أنا أحيانا أجد أخا حوله عشرون، كلهم أتوا عن طريقه، نشيط وغيور، هذا الإناء متى يفيض ؟ إذا امتلأ، إذا لم يمتلئ لم يفض، إذا كان عندك نقص لا تفيض، أما إذا امتلأت ثم جاءك ما فوق الامتلاء فُضت على الناس، فمؤمن لا دخل لي، أو ليس فيه خير، هذا ليس جيد، هذا عقله ناشف، أعطى كل واحد صفة وارتاح، كلهم ليسوا جيدين وأنت الجيد وحدك ! أين الصبر و أين العطاء، فنحن أحيانا نجد دعوة إلى الله أساسها واحد أو اثنين، صارت مجموعة كبيرة جدا، لكن لا نريد التجمع على باطل، القضية قضية حق.

انظروا إلى إشارات ربنا عز وجل ؛ قال تعالى:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة البقرة]

بالله إذا الواحد عنده جيبان، هنا فيه خمسمائة، نزع الخمسمائة من هنا ووضعها هنا، هل يحاسبه من أحد ؟ الله يقول:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة البقرة]

هذا مالي، هذه الآية فيها إشارة رائعة، أي مال أخيك لأنكم أيها المؤمنون مجتمع واحد، فمال أخيك هو مالك، مالك أخيك قوة لك، مال أخيك هو مالك من حيث إنك يجب أن تحافظ عليه، و ليس لك، هكذا قال الله: مالكم، مال أخيك هو مالك من حيث إنه يجب أن تحافظ عليه، بما أنك مطالب أن تحافظ عليه لأنه مالك، فلأن تمتنع عن أكله فمن بأولى، هذا معنى الآية، هذا المعنى الأول، المعنى الثاني، إذا أكلت مال أخيك فضعف أصبحت ملزَما به، فكأنما أكلت مالك، إذا أنت مؤمن صادق، ولك أخ كان غنيا ومرتاح منه، ولست مرتاحا منه و لكنك تحبه، ليس له همٌّ عليك، و ليس عبئا عليك، فلو افتقر هذا الأخ و جاء فشكى لك همّه وأنت مؤمن لك ضمير حسَّاس، لم يبح همًّا على قلبك، لم يصبح عبئا عليك، فإذا كان مال أخيك وحافظت عليه، وأخوك اغتنى، فأنت ارتحت كذلك، فكأنك حافظت على مالك، فلو افتقر ينبغي أن تنفق من مالك من أجله، انظر إلى الآية ما أجملها:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة البقرة]

أي إذا أكلت مال أخيك فكأنما أكلت مالك، لأنه ضعف أخوك ضعفت معه، وإذا ضعف أخوك فأنت ملزم به، إذا ضعف أخوك كان الناس عبئا عليه، فأصبح عبئا على الناس، هذا المعنى، والمعنى الثاني: مال أخيك لأنك مؤمن، و المؤمنون إخوة، مال أخيك هو بمثابة مالك من حيث الحفاظ عليه، فلأن تمتنع عن أكله من باب أولى، هذه بلاغة القرآن.

الآية الثانية، قال تعالى:

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

(سورة الحجرات)

ما معنى الآية ؟

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

(سورة الحجرات)

الغمز و اللمز أن تحقر إنسانا، و لكن ما قال: و لا تحقروا إخوانكم، والله لم يقل: لا تحقروا غيركم، قال:

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

(سورة الحجرات)

أي هذا أخوك إذا أهنته أهنت نفسك، مثلا: إنسان يتكلم عن أبيه فرضا أمام مجموعة، ويسخر من والده، ما الذي حصل ؟ كأنه سخر من نفسه، هذا أبوك،

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

(سورة الحجرات)

الإنسان عضو في جماعة، فإذا أساء إليها فكأنما أساء إلى نفسه، واسمع الحديث ؛ أخرج النسائي وابن ماجة،

((عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ لَا تُقَامُ فِيهِمْ الصَّلَاةُ إِلَّا قَدْ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ الشَّيْطَانُ فَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ))

(رواه النسائي)

صل في المسجد، عوِّد نفسك أن تصلي في المسجد، و تعرف على إخوانك، صافح إخوانكم اسألهم عن حاجاتهم، تفقدهم.

الصحابة الكرام فيما روى أبوداود عَنْ وَحْشِيِّ بْنِ حَرْبٍ

((عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَأْكُلُ وَلَا نَشْبَعُ قَالَ فَلَعَلَّكُمْ تَفْتَرِقُونَ قَالُوا نَعَمْ قَالَ فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ))

(رواه أبو داوود)

تجد أسَرا، جاء الأب فتغدّى، ثم ذهب لينام، و أتى الأب على الساعة الثانية و النصف فأكل وحده، والبنت أتت فأكلت وحدها، وُضعت ثلاث وجبات ن لا تكفي الطبخة، لو أنهم اجتمعوا على الطعام لكفاهم نصف هذا الطعام، الأسرة يأكل كل فرد وحده، صنع الشاي فملأ الإبريق، وغلا الجبن وأكل وحده، شرب كأسين شاي و الباقي رماه، و جاء الثاني فصنع الشاي وصحن فول، بقي قليل فرمِي، لا البركة في تناول الطعام جماعة، هذا توجيه النبي الكريم، فاجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه.

وبعد ذلك هذا الذي يقول لك: الناس لا يتعاشرون، لن أزور أحدا، أحمق، قال عليه الصلاة والسلام،

((عَنْ يَحْيَى بْنِ وَثَّابٍ عَنْ شَيْخٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ مُخَالِطًا النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنْ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ))

(رواه الترمذي)

إذا خالطتهم و آذوك و صبرت على أذاهم أنت أفضل ألف مرة ممن لم يخالطهم و لم يصبر على أذاهم.

كل هذه الأحاديث تفيد تأكيد الدافع الجماعي في الإنسان، وهناك شيء مهم جدا، الجماعة تحتاج إلى قيادة، طيب ما قولك أن أمة عربية عريقة من زعماء قريش، قال النبي الكريم، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

((قَالَ اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ))

(رواه البخاري)

نظام الجماعة يقتضي وجود قيادة، فأنت مدرس في ثانوية، أنت معك ليسانس و ديبلوم تربية وأخذت امتيازا، و جيد جدا، ومن عائلة راقية، ووجدت المدير أقل منك، لا بد أن تستعلي عليه ؟ هذا نظام، وهذا مديرك لا بد أن تحترمه، ولا بد أن تنفذ أمره، هكذا نظام الجماعة، والنبي علّمنا إذا الواحد ذهب إلى النزهة إن كنتم ثلاثة فأمروا أحدكم، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ

((مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ يَعْصِنِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَمَنْ يُطِعْ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي))

(رواه البخاري)

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ))

(رواه البخاري)

هناك حديث أبلغ من ذلك ؛ روى الإمام مسلم :

((عَنْ أُمِّ الْحُصَيْنِ قَالَتْ حَجَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَجَّةَ الْوَدَاعِ فَرَأَيْتُهُ حِينَ رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ وَانْصَرَفَ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَمَعَهُ بِلَالٌ وَأُسَامَةُ أَحَدُهُمَا يَقُودُ بِهِ رَاحِلَتَهُ وَالْآخَرُ رَافِعٌ ثَوْبَهُ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الشَّمْسِ قَالَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلًا كَثِيرًا ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ حَسِبْتُهَا قَالَتْ أَسْوَدُ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا))

(رواه مسلم)

أي مقطع الأطراف، سمعتم أن أميرا جزء فقط، لا يدين و لا رجلين، جزء فقط، هل هناك إنسان مثل هذا ؟ هذه مبالغة، إن أمر عليكم عبد مجدع -أي مقطع الأطراف - يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا، كان الأحنف بن قيس قصير القامة أسمر اللون مائل الذقن ناتئ الوجنتين ضيق الجبين أحنف الرجل، ليس شيء من قبح المنظر إلا وهو آخذ منه بنصيب، و كان مع ذلك سيد قومه، إذا غضب غضب لغضبته مائة ألف سيف لا يسألونه فيما غضب - معه - و كان إذا علِم أن الماء يفسد مروءته ما شربه.

مرة كان عند أحد الخلفاء و كان المجلس مجلس أخذ البيعة لابنه لابن هذا الخليفة، فكل من حضر أثنى و أفاض في الثناء على هذا الابن،و قد يثني الناس بما ليس فيه، وهو بقي ساكتا، فقال له الخليفة: يا أحنف تكلم، لم أنت ساكت، قال له: أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت، فكانت كناية أبلغ من تصريح " عَنْ أُمِّ الْحُصَيْنِ قَالَتْ حَجَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَجَّةَ الْوَدَاعِ فَرَأَيْتُهُ حِينَ رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ وَانْصَرَفَ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَمَعَهُ بِلَالٌ وَأُسَامَةُ أَحَدُهُمَا يَقُودُ بِهِ رَاحِلَتَهُ وَالْآخَرُ رَافِعٌ ثَوْبَهُ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الشَّمْسِ قَالَتْ

((فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلًا كَثِيرًا ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ - أي مقطع الأطراف - حَسِبْتُهَا قَالَتْ أَسْوَدُ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا))

(رواه مسلم)

بقي علينا الحديث الذي قلته قبل قليل :

((عَنْ أُمِّ الْحُصَيْنِ قَالَتْ حَجَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَجَّةَ الْوَدَاعِ فَرَأَيْتُهُ حِينَ رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ وَانْصَرَفَ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَمَعَهُ بِلَالٌ وَأُسَامَةُ أَحَدُهُمَا يَقُودُ بِهِ رَاحِلَتَهُ وَالْآخَرُ رَافِعٌ ثَوْبَهُ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الشَّمْسِ قَالَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلًا كَثِيرًا ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ - أي مقطع الأطراف -حَسِبْتُهَا قَالَتْ أَسْوَدُ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا))

(رواه مسلم)

بالمقابل: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، روى البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

((عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ))

(رواه البخاري)

قد يأتيك أمر ممن هو فوقك لا تحبه، تكرهه، عليك أن تطيعه، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع و لا طاعة، لا طاعة في معصية،

((عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً فَاسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ فَغَضِبَ فَقَالَ أَلَيْسَ أَمَرَكُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُطِيعُونِي قَالُوا بَلَى قَالَ فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا فَجَمَعُوا فَقَالَ أَوْقِدُوا نَارًا فَأَوْقَدُوهَا فَقَالَ ادْخُلُوهَا فَهَمُّوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا وَيَقُولُونَ فَرَرْنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ النَّارِ فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتْ النَّارُ فَسَكَنَ غَضَبُهُ فَبَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَوْ))

(رواه البخاري)

هذا كلام النبي عليه الصلاة و السلام.

الآية الدقيقة ؛

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (59))

[سورة النساء]

هذه الآية دقيقة جدا وتعد أصلا من أصول الدين، سوف نشرحها بإذن الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (042) :إحياء علوم الدين2 - ذكر الموت1.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-08-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثاني من دروس إحياء علوم الدين، وقد عقد الإمام الغزالي، صاحب الإحياء، في الجزء السادس باباً يبدو لي أنه من أهم أبواب الكتاب، وهذا الباب، هو بحقٍّ ركيزة أساسية في الطريق إلى الله عز وجل، إنه ذكر الموت. فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أكثروا من ذكر هازم اللذات مفرق الجماعات))

(من سنن الترمذي: عن " أبي هريرة ")

يبدو أن الإنسان إن لم يؤمن بالدار الآخرة، إيماناً، يقيناً فسوف يتعلق بالدنيا، وسوف تأخذ عليه مجامع قلبه، وسوف تكون الدنيا حجاباً بينه وبين الله، فلئلا يغفل القلب عن ذكر الله، ولئلا تصبح الدنيا حجاباً بينك وبين الله عز وجل، فالنبي عليه الصلاة والسلام أمرنا أن نكثر من ذكر هازم اللذات.

إذاً ما أخطأ مَن خصص في اليوم دقائق معدودات لذكر الموت، لأن ذكر الموت يذيب الهموم والأحزان، كما يذيب الحر الجليد، مَن أكثر ذكر الموت هانت عليه الدنيا، وهانت عليه مصائبها، وهان عنه الارتحال عنها، لذلك قال بعضهم: " إذا ضاقت عليكم الصدور فعليكم بزيارة القبور" لأن هذا الموت مصير كل حي، يقول عليه الصلاة والسلام من حديث أم حبيبة:

((لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم، ما أكلتم منها سميناً))

السيدة عائشة رضي الله عنها سألت النبي عليه الصلاة والسلام، قالت له: يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال:

((نعم مَن يذكر الموت))

لأن الذي يذكر الموت مستعد له، وكيف يقول عليه الصلاة والسلام في حديث رواه ابن أبي الدنيا والطبراني كيف يقول:

((تحفة المؤمن الموت))

التحفة الشيء النفيس، الشيء المحبوب، الشيء المرغوب فيه، كيف يكون الموت تحفة المؤمن ؟! قال بعضهم: لأن الدنيا بالنسبة للمؤمن سجنٌ، في قيود، في تكاليف، في شرع، أيستطيع المؤمن أن يطلق بصره ؟ لا يستطيع، أيستطيع أن يغفل عن صلاة الفجر ؟ لا يستطيع، أيستطيع أن يكذب ؟ لا يستطيع، أبإمكانه أن يأخذ ما ليس له ؟ الإيمان قيد الفتك، الدنيا دار عمل، دار تكليف، الإنسان محاسب عن أدقِّ

الانحرافات، إذاً هو في مراقبةٍ لنفسه، ومراقبة لربه، فإذا جاء الموت استراح من عناء الدنيا، وقد قال عليه الصلاة والسلام، وقد رأى جنازة:

((مستريح ومستراح منه، أما العبد المؤمن إذا مات استراح من عناء الدنيا))

(من الدر المنثور: عن " أبي قتادة ")

لكن واحد من أهل الذمة ممن كان معذباً في الحياة وشقياً، رأى عالماً جليلاً، وأظنه ابن المبارك، رآه في موكب جليل، وطلعةٍ بهية، وإخوان يحفون به، فسأله هذا الذمي:

ـ يقول نبيكم: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فأيةٌ جنة أنا فيها، وأي سجن أنت فيه ؟! رأى هو في منتهى الشقاء، وهذا العالم الجليل في منتهى السعادة والرخاء.

ـ فقال ابن المبارك: يا هذا، لو قست حالتك إلى ما أنت قادم عليه فأنت في جنة، ولو قست حالتي إلى ما وعدني الله به فأنا في سجن.

عندئذٍ يروى أن هذا الذمي أسلم، جواب بليغ، مهما رأيت من نعيم الدنيا، مهما رأيت من بحبوحتها، إذا قست ذلك لجنة الله التي وعد بها المؤمنين، فإن هذه الدنيا سجن، وخير وصفٍ وصفه النبي عليه الصلاة والسلام أن المؤمن حينما ينتقل من الدنيا إلى الآخرة، ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، تماماً بتمام.

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الموت كفارة لكل مسلم))

(من الجامع الصغير: عن " أنس ")

أي أن سكرات الموت، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام حينما سأل الله عز وجل أن يرحم أحد أصحابه، فوقع في قلبه وقد روى ذلك في حديث قدسي:

((كيف أرحمه مما أنا أرحمه به، وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سُقماً في جسده أو اقتاراً في رزقه، أو مصيبةٍ في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

فلعل سكرات الموت وإن للموت لسكرات، كما قال عليه الصلاة والسلام، لعل سكرات الموت تكفيرٌ للمؤمن عن خطاياه في الدنيا، وقد قال عليه الصلاة والسلام، وقد مر بقوم قد استعلى فيهم الضحك، أحياناً تجد أناس يضحكون ملء أفواههم، يضحكون حتى ينحنون نصفين، يضحكون حتى يستلقون على ظهورهم، يضحكون بصوتٍ يصم الآذان، مر عليه الصلاة والسلام بقوم قد ارتفع فيه ضحكهم، فقال عليه الصلاة والسلام:

((شَوِّبوا مجلسكم، بذكر مكدر اللذات))

(من تخريج أحاديث الإحياء، أخرجه ابن أبي الدنيا)

أنا أتمنى بكل مجلس يكون فيه خبر، إشارة، تذكير، بأن لهذه الدنيا نهاية، بأن هذه الدنيا لابد من أن نغادرها ولا ندري متى، قصة أذكرها لكم دائماً، والآن مكانها المناسب، التقيت برجل في أحد الأيام وقد بثني أحزانه، متضايق من العمل الوظيفي، وسوف يقدِّم طلباً للإعارة إلى الجزائر ليعمل مدرساً هناك، وذكر لي بالتفصيل أنه لم يأتِ إلى الشام قبل خمسة سنوات، سيمضي أربعة عطل صيفية في أربعة دول تتوق نفسه أن يرى معالمها، ومقاصفها، ومتاحفها، وما فيها من جمالٍ طبيعي، وما فيها من مُتَعٍ حسِّية، فقال لي: أمضي الصيف الأول في بريطانيا، والصيف الثاني في فرنسا، والصيف الثالث في إيطاليا، والصيف الرابع في إسبانيا، وبعد أن أعود إلى الشام، أقدم استقالتي من العمل الوظيفي، وأفتتح محلاً تجارياً أبيع به التحف، شيء لطيف، ليس لها مواسم، وليس لها (هالك) أو بالتعبير التجاري (ستوك) وقد يكبر أبنائي، عندئذٍ وأجعل من هذا المحل مُنْتَداً فكرياً، وتابع حديثه في هذا الموضوع، وأذكر أنه تحدث عن عشرين سنة قادمة، والله، كنت عنده أمضي ساعة فراغ بين حصتي تدريس، وهو يعمل مديراً لثانوية، وذهبت الظهر إلى البيت، وقد بدت لي حاجة أن أكون في مركز المدينة مساءً، وفي طريق العودة إلى البيت ماشياً، والله الذي لا إله إلا هو، رأيت نعوته على الجدران، لا أقول في اليوم التالي، لا والله بل في اليوم نفسه، رأيت نعوته على الجدران.

لهذا أكثروا ذكر هازم اللذات، لا أحد يدري متى الأجل، ممكن الإنسان يمكن حفر قبره، ونسج كفنه وهو لا يدري، أنا اسمع قصص كثيرة جداً، كان هذا الذي توقَّاه الله عز وجل يفكر في كل شيء إلا الموت، يعد لكل شيء عُدَّةً، لكل قضية موقفاً، لكل ثغرةٍ غطاءً، إلا الموت، جاءه بغتةً.

أقول لكم دائماً أيها الإخوة، وهذا حديث دقيق، أن أحداً لا يستطيع إنكار الموت، لكن الفرق بين المؤمن وغير المؤمن هو أن المؤمن يستعد له، وغير المؤمن في غفلةٍ عنه، أما أن ينكره **!!** مَن يستطيع أن ينكر الموت ؟ فإذا كان رأيت مجلس تكلموا فيه عن التجارات، والاستيراد، والتصدير، وعلى فلان ربح مليون، وفلان ربح ثلاثة ملايين، وفلان معه حصر للشركة، وفلان عمل مضاربة، وفلان احتكر الصنف، وفلان استطاع أن يحقق ربح قياسي، وفلان اشترى بيت أربعمائة متر، وفلان عنده مزرعة ثمنها ثلاثين مليون، إذا وجدت الحديث من هذا القبيل كثر أنصحك أذكر لهم الموت، خوفهم، إن رأيت الحديث يأخذ هذا المنحى فذكرهم بالموت، إن رأيت الحديث يأخذ منحى الدنيا والاستغراق في ملذاتها فليكن حديثك عن الموت.

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب، ويزهِّد في الدنيا))

وقال صلى الله عليه وسلم:

((كفى بالموت مفرقاً، وكفى بالدهر واعظاً))

(من كنز العمال: عن " أبي الدراء ")

مفرق، أحياناً تجد رجل توفيت زوجته، يشعر بوحشة، وملل، وسَأم، أين هذه التي كانت إلى جانبه ليل نهار ؟ لقد افترقت عنه، فالذي تحبه لابد من أن تفارقه، أو لابد من أن يفارقك، دوام الحال من المحال.

يقول عليه الصلاة والسلام:

((اذكروا الموت، أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً "))

(من الدر المنثور: عن " أنس ")

بالمناسبة أحياناً الإنسان يسمع خبر سيئ عن صحته، يعمل تحليل يطلع معه هذه المادة الخطيرة نسبتها عالية جداً في الدم، وأنها أخذت موضعاً عنيداً، فهذا الإنسان لا يضحك أبداً؛ إن كان في مجلس وألقيت فيه طرفٌ من أعلى مستوى، وكاد مَن في المجلس أن ينثنون نصفين ضحكاً، تراه واجماً لا يضحك، إذا كان خبر المرض أذهب عنه الضحك، فكيف بالموت ؟ فالموت بالتعبير الشائع (مصيبة المصائب)، إذا أحد من الناس فقد بيت يتألم، فقد زوجة يتألم، فقد ربح يتألم، فقد منصب يتألم، تجده واجم، فكيف إذا فقد حياته، وانتهت حياته ؟! فلذلك النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً))

(من الدر المنثور: عن " أنس ")

النبي عليه الصلاة والسلام كان عنده رجل، وذهب، أصحابه أثنوا عليه ثناءً كثيراً، فقال عليه الصلاة والسلام:

ـ فكيف ذكر صاحبكم للموت ؟. لم ينتبهوا.

ـ قالوا: والله ما نسمع منه شيئاً عن ذكر الموت.

ـ فقال عليه الصلاة والسلام: إن صاحبكم ليس هنالك.

ما دام لا يذكر الموت إطلاقاً لا يستحق هذا المدح أبداً.

سئل النبي عليه الصلاة والسلام: مَن أكيس الناس، من أعقلهم، من أزكاهم، ومن أكرم الناس يا رسول الله ؟ قال:

((أكثرهم للموت ذكراً، وأشدهم استعداداً له، أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة))

(من تخريج أحاديث الإحياء: عن " ابن عمر ")

وتطبيقاً لهذه التوجيهات النبوية: إذا الإنسان تصور ماذا سيكتبون على شاهدة قبره ؟ هل يكتبون: هو الحي الباقي ؟ كل نفس ذائقة الموت ؟ هنا يرقد المغفور له ؟ إذا الإنسان رسم شاهده وكتب (فلان الفلاني الذي توفاه الله عصر يوم) ممكن، الإنسان يكتب شاهدة لنفسه، كان السلف الصالح يشتري قبر بحياته، وقد يضجع فيه، ويخاطب نفسه ويقول:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

فيخاطب نفسه فيقول: قومي يا نفس لقد أرجعناك.

وقد قلت لكم كلمة دقيقة أول الدرس قلت فيها: يعدُّ هذا الباب أحد ركائز الطريق إلى الله عز وجل، لأنك تحتاج لشيء يذوب لك الهموم والأحزان، والحزن، وحب الدنيا، والنظر إلى مَن هو فوقك، الموت يذهب عنك كل ذلك، فَضَحَ الموت الدنيا فلم يترك لذي لبٍ فرحاً، الموت كيف فضح الدنيا ؟ ما صدف أن شخص توفي وهو في بحبوحة كبيرة، وزرت بيته الواسع، الرخام في الأرض، والجبصين في السقف، والثريات، وورق الجدران، وصاحب هذا البيت يثوي في حفرةٍ صغيرةٍ لا تزيد عن طوله وعن عرضه !! لا رخام، ولا طلاء، ولا ثريات ولا شيء، ألا ترى أن هذا المنظر يثير أعمق ما في النفس ؟ لكن المؤمن كما قال بعض العلماء: ما غائب ينتظره المؤمن خيراً له من الموت..

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26))

(سورة يس)

تصور واحد بلغة الطلاب (ينحت) من أيلول لحزيران، لا ينام الليل ألغى كل علاقاته مع أصدقائه، ألغى كل الرحلات والنزهات، واللقاءات والسهرات، وقبع في غرفةٍ يقرأ ليلاً نهاراً، ليحقق الدرجة الأولى على القطر، هذا إذا قُرعَ جرس الامتحان، وقد درس المواد دراسةً مُحْكَمَة، وحفظها عن ظهر قلب، وهو يحلم بهذه الدرجة العليا التي يرفع بها رأسه، ويفخر على أقرانه، تصور أن ساعة الامتحان مزعجةٌ له ؟ لا والله، إنها الفرج، النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، قال:

((الموت تحفة المؤمن))

(من الجامع الصغير: عن " ابن عمر ")

بل إنه قال:

((للصائم فرحتان، فرحة يوم يفطر، وفرحة يوم يلقى الله عز وجل))

(من الجامع لأحكام القرآن)

أي إلى متى ؟ يا رب طال الشوق إليك، وا كربتاه يا أبت، قال لا كرب على أبيك بعد اليوم، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه ".

والله أعقل الناس، أسعد الناس، مَن نقل اهتماماته كلها إلى الدار الآخرة، لو واحد، من واقع حياتنا، رسم خطة بذهنه، عنده معمل باعه بثلاثين مليون، حوله، بطريقة أو بأخرى إلى بلد أجنبي، عنده مزرعة باعها، عنده فيلا بمصيف راقٍ باعها، باع أثاث بيته، باع بيته، باع سيارته، صار عنده مبلغ فلكي، ما بقي غير تأشيرة الخروج وبطاقة الطائرة، فحينما يمنح تأشيرة الخروج، ومعه بطاقة الطائرة، ويدخل المطار، ويعطى بطاقة الصعود إلى الطائرة، وتحرِّك الطائرة محركاتها وتُقْلِع، إلى أين هو

ذاهب ؟ إلى ماله، الذي أرسله أمامه، أليس كذلك ؟ هذا حال المؤمن، كل أملاكه، كل طاقاته، كل خبراته، كل وقته، بذله في سبيل الله، وكأنه أرسله أمامه..

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

(سورة البقرة: من آية " 245 ")

مَن قدَّم ماله أمامه سرَّه اللحاق به، يا إبراهيم لم نكره الموت ؟ قال: لسببٍ بسيط، لأنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة، واحد اشترى بيت لكي يشتريه بقي سنتين، لحتى تفنن بتنظيمه وتزيينه، وفرشه بالأثاث وورق الجدران، والشرفات، والواجهات، والمكيفات، وغرف الاستقبال، وغرف الجلوس، وغرف النوم، والحمامات، إلى آخره، ما إن انتهى من تنظيم هذا البيت حتى جاءته أزمة قلبية، زاره أحد أقربائه قال له بالحرف الواحد وباللغة الدارجة: (خايف تموت وبنت الحرام تطقها زواجة بعد مني) على زوجته، كل هذا التعب يأخذه واحد غيري، ما هذا الشقاء ؟ هكذا.

فالإنسان العاقل وقته، ماله، طاقاته، ذكائه، لسانه، طلاقة لسانه، أولاده، كلها يقرضها لله عز وجل، إذاً أحب شيءٍ إليه أن يلحق بأمواله التي أرسلها أمامه، الآن اعكس الآية:

شخص يملك معمل ثمنه ثلاثمائة مليون، وعنده بيت أربعمائة متر، وعنده أربع سيارات، إحداها لداخل البلد مصروفها قليل، واحدة أخرى للسفر، والثالثة للمعمل.. إلخ، وعنده على البحر فيلا، وعنده بالجبل فيلا، إلخ.. وجاءه أمر بمغادرة بلده إلى بلدٍ ناءٍ دون أن يأخذ معه شيء، ولا درهم، كيف حاله هذا ؟ نعطيكم حالتين، واحد أرسل ماله أمامه، فسَرَّه اللحاق به، وواحد أمر أن يغادر فوراً دون أن يأخذ معه شيئاً، ولا ثمن طعام، وألقي في مدينة نائيةٍ بعيدة لا يعرف أحد فيها، وترك كل أمواله في بلده، هذه أمثلة من واقعنا.

فإخواننا الذين اغتربوا في بعض الدول العربية، دول النفط، في على الجواز كلمة مرعبة، أنا لا أبالغ إذا قرأها على الجواز قد يقع مغشياً عليه، هذه الكلمة اسمها: مغادرة بلا عودة. إذا واحد دافع ثمن الفيزة مائتين ألف، وعامل عقود، ومؤسس عمل، وكل آماله معقودة على بقائه بهذا البلد، فإذا ذهب إلى دائرة الجوازات فكتبوا على جوازه: مغادرة بلا عودة، يمكن يموت بالسكتة القلبية، وكلنا سوف نغادر بلا عودة، إذا واحد توفي، قبل الوفاة أهله يسألون عنه: أين فلان ؟ تأخر !! ليس له بالعادة ألا يأتي بعد التاسعة، إذا واحد حي يسألوا عنه دائماً عند صديقه، طولوا ما في بالعادة، لو واحد توفاه الله عز وجل، واندفن العصر، هل يخطر ببال إنسان من أهله يقول: الساعة الثانية عشر لماذا لم يأت فلان، أي فلان ؟ اندفن وخلص، هذه مغادرة بلا عودة.

فيا إخوان هذه قضايا أساسية، هذا كلام واقعي، ما من كلام أشد واقعية من التفكر بالموت، يجوز إخواننا الشباب يعترضوا علي فيقولون: طول بالك يا أستاذ نحن ما زلنا صغار، طول بالك، لم نر شيء

من الدنيا بعد، كم قصة في هذا البلد، واحد مات بالثانية والثلاثين ولم يتزوج بعد ؟ وشاب نزل من الباص اندهس عمره سبعة عشر سنة ؟ أنا أسمع كل أسبوع قصة الشاب والشابة، موضوع الموت تقول: أنا كبير، أنا صغير باكراً علي.

واحد عاد مريض، ولكن هذه طرفة، عاد مريض معه مرض صعب، قال له: كم عمرك ؟ قال: له أربعين سنة. قال له: كفاك ذلك. فالإنسان ينتبه لهذه النقطة، أتمنى أنك ما تفهموا عكس ما أردت، ليس موضوع تشاؤم أبداً، إذا أنت فكرت بالموت، وعرفت في مصير، في مواجهة مع الله، في محاسبة، في وقوف بين يدي الله عز وجل، عندئذٍ تعمل، وتدرس، وتتاجر، ولكن وفق المنهج، وفق الشرع ، كلما أردت أن تفعل شيئاً تصورت أنك واقف بين يدي الله عز وجل والله يسألك: لماذا فعلت كذا يا عبدي ؟ يقول: يا رب فعلت كذا وكذا، لماذا ضربت هذا اليتيم ؟ يا رب ضربته لأنني أضرب ولدي من ذنبه، لو أن ولدي فعل هذا الذنب لضربته. إذاً معك حق، لماذا أعطيت ابنتك هذا البيت ؟ يا رب لأن ابنتي هي الوحيدة التي لا بيت عندها، وباقي بناتي أزواجهم أغنياء، فأردت أن استرها، صحيح، فهل تملك لكل موقف جواب ؟؟

أيها الإخوة الأكارم... البطل الذي يعد لربه جواباً عن كل موقف، هيئ الجواب، عن أي سؤال: لماذا طلقت ؟ لماذا تساهلت ؟ لماذا أخذت؟ لماذا دفعت ؟ لماذا غضبت ؟ لماذا رضيت ؟

قال: يا أخي احذر الموت في هذه الدار، قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده، كيف ذلك؟ وقالوا:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77))

(سورة الزخرف)

تفكر في الموت، قبل أن تتمنى الموت فلا تجده، قال أحد العلماء: مَن عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها. في رجل ميسور الحال، حاله وسط، له أخٌ توفي في سنٍ مبكرة، وترك له خمسة أولاد، فصار يبكي أنَّى له أن يعيلهم، أنَّى له أن ينفق عليهم ؟ بلغ أحد الشيوخ خبره، فاستدعاه، قال له:

ـ لماذا تبكِ يا ولدي ؟

ـ قال: أخي مات وترك أولاداً خمسة، وعلي أن أعيلهم.

ـ قال له: أخوك ما ترك لهم شيئاً.

ـ قال: نعم يا سيدي، ترك لهم شيئاً يكفيهم سنة واحدة.

ـ قال له: شيء جميل، أنت إذا مضت هذه السنة بعد هذه السنة ابدأ بالبكاء، الآن بكير على البكاء. مات بعد سبعة أشهر.

أثناء ترميمنا لمسجد النابلسي في دار صغيرة فيها رجل، فاضطرب، قلت له مؤكداً بأيمانٍ مغلّظة: لا يمكن أن تخرج من هذه الدار إلا إذا دارٍ أحسن منها، ريثما نبني لك بيتاً ملحقاً بالمسجد، وعد قطعي وعدته له، وهو يثور ويضوج، ويقول: أين سأذهب ؟ فو الذي نفس محمد بيده ما مضت أشهر إلا و توفاه الله عز وجل، قبل أن نحتاج إلى بيته بسنة، قبل أن نحتاج لهدم بيته، أثناء التوسعة، فالإنسان أحياناً يحملها ويكون الأجل أقرب من ذلك.

في طرفة... أن دابة واقفة بأيام الصيف الحارة ولها ظل صغير، في إنسان جلس بهذا الظل، شمس حارة جداً حادة، فقام ليشرب، فجاء إنسان آخر وجلس مكانه، فلما عاد، قال له: هذا المكان مكاني، فرد عليه: لا مكاني أنا، لا مكاني، تلاسنوا، تشاددوا، تماسكوا، تضاربوا، وفجأةً تحوَّلت هذه الدابة عن موقعها، فكل هذه المعركة بلا طائل، بلا جدوى، بلا معنى، حالات كثير من هذا القيل: دعوى في القضاء ثمانية أعوام، ثم يكتب عليها تشطب الدعوى لموت المدعي عليه، ففي قصر العدل فيه آلاف الدعاوى التي مات أصحابها قبل أن يبت بها.

لذلك، أنت وقت، أنت زمن، أخطر ما فيك هذا اليوم الذي تعيشه، ما مضى فات، فالحديث عن الوقت الماضي حديث ليس له طعم إطلاقاً، حديث فارغ، لأن عقارب الزمن لا تعود، قل: لو إلى ما شاء الله، لو لا تفعل شيئاً، والحديث عن المستقبل كصاحبنا الذي حدثني عن عشرين عام قادم وتوفي في اليوم نفسه، والحديث عن المستقبل لا جدوى منه، لأنه غيب، والغيب لا يعلمه إلا الله.

والله دعينا مرة، أخ كريم دعانا إلى مكان، ووضع لي قائمة فقال لي: فلان إذا ممكن، وفلان، وفلان، وفلان، انتقى عشرة، أحد المدعوين قاضي من كبار القضاة، ويشغل منصباً رفيعاً جداً في المحكمة الدستورية العُليا، وهو أحد المدعوين، وهو كان من إخواننا كان، لا يغيب درس إطلاقاً، دعينا قبل أسبوع، الدعوة السبت في مزرعة، الخميس كان متوفي، والله دفناه الخميس، والسبت لبَّينا الدعوة ولكن ناقص هذا الأخ الذي أصبح تحت أطباق الثرى، هذه الدنيا.

قال: قالت صفية رضي الله عنها، إن امرأةً اشتكت إلى عائشة قسوة قلبها فقالت: أكثري ذكر الموت يرق قلبك. الصراحة إذا الإنسان كان بجامع بالدرويشية، أو بالسِنانيَّة، ووجد في جنازة، ولو كان ما في معرفة سابقة، أحب يمشي وراءها لا يوجد مانع أبداً، هذا من تذكر الموت، وحينما يوضع النعش على القبر، وحينما يرفع الغطاء، وترى إنسان كان قبل ساعات يتحرك، ويأكل، ويتناول ألذ الطعام، وله غرفة نوم، وكل يوم له حمَّام من الدرجة الأولى، وله زوجة وأولاد، لسبب بسيطٍ وسريع جداً أصبح جثة هامدة، فغُسِّل، ولفت بهذا القماش الأبيض، وربطت رجلاه، وحشي فمه بالقطن، وكُفِّن بكفنه، وحينما يُحْمَل هذا الإنسان، وتفتح فتحة القبر، فإذا عظام مَن دفن قبله قد جمعت على طرف القبر، وأدخل قال له: استناول، القى، تعرفون كلام الحفارين، استناوله ولقيه ووضعه، ووضعت الحجرة فوق

الفتحة، وأهيل التراب، ووقف أولاده في مدخل المقبرة يقبلون التعازي، وذهب الناس إلى بيت الميت ليتناولوا طعام الغداء لأنهم تجشموا مشقة تشييع الجنازة، أين صاحب البيت الذي اشترى هذا البيت، وأحسن اختيار هذا البيت، وزيَّن هذا البيت، وفرش هذا البيت، أين أذواقه وأين أعماله ؟؟ أصبح تحت أطباق الثرى، هذا لنا جميعاً، كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت..

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبـور جنازة علم بأنك بعدها محمول

* * *

قال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء:

ـ عظني.

ـ قال: يا أمير المؤمنين لست أول خليفةٍ تموت.

ـ قال زدني.

ـ قال: ليس من آبائك أحدٌ إلا ذاق الموت، وقد جاءت نوبتك.

أنا أقول أحياناً بالخطبة: واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، يطلع من بيته لابس يمشي، فلان رحمة الله عليه، نعوة، المطبعة العصرية، فلان الشاب، فلان أنا سألت أحد إخواننا بدفن الموتى، قلت له: كم حادثة موت بالشام ؟ قال لي: حوالي خمسين، القصة منذ خمسة سنوات، في عشرين نعوة، وخمسين موتة، هذا رقم قديم يجوز الآن يكون ثمانين كل يوم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، فيظل الإنسان يقرأ نعوات الآخرين حتى يأتي يوم يقرؤون فيهم نعوته، ويظل يذهب إلى البيوت للتعزية، فلا في إنسان ما راح بعمره يمكن مائة مرة، أو مائتين مرة، أو خمسمائة مرة للتعزية، ولابد من أن يأتي يوم يكون هو صاحب الموت.

يقول سيدنا عمر بن عبد العزيز: أكثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش ضيَّقه عليه، وإن كنت ضيق العيش وسَّعه عليك. له تأثير مزدوج، وتأثيران متعاكسان. فإن كنت واسع العيش، ضيَّقه، هذا البيت الوسع سيصبح متر ونصف، والله أعرف رجل، كان في عنده بيت في مدينة غير هذه المدينة، يمكن أول بيت في هذا البلد، ففي زمن ما كان البيت ثمنه ثلاثين أو أربعين ألف، وضع في هذه الفيلا رخام بالملايين، رخام أونكس شفاف، وزمن ما كان البيت بسعر معقول جداً، كان ثمن هذه الفيلا ثمانية وثلاثين مليون، الآن ثمنها خمسمائة مليون، صاحبها كان طويل القامة، توفي في الثانية والأربعين من عمره، ووضع في قبرٍ كان أقصر من قامته، فاضطر حفَّار القبر أن يدفعه بصدره بقبضته هكذا، فصار رأسه منحنياً هكذا، هذا الذي كان يسكن في بناء يكاد لا يوصف بشدة البذخ فيه، كان هذا مصيره.

فالتذكير بالموت، النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا صلى قيام الليل، رفعت السيدة عائشة رجليها، لأن غرفته الصغيرة لا تتسع لصلاته ونومها.

قال: فإن كنت واسع العيش، ضيَّقه عليك، وإن كنت ضيق العيش، وسعه عليك، وإن كان دخلك قليل جداً، والبيت صغير، ولا تعرف كيف تتصرف بالحياة، فذكر نفسك وصبرها أن الحياة لن تطول، وإن كان ببحبوحة كبيرة، فذكرها أن في موت، وإن كان بضيق ليست طويلة، الإنسان أحياناً حينما يوقن بالموت، ويوقن بالدار الآخرة، تحل معظم مشكلاته.

أيها الإخوة الأكارم... التفكُّر بالموت من لوازمه، أو من نتائجه قصر الأمل، أخطر شيء بحياة الإنسان ضعف اليقين وطول الأمل، وأقوى شيء بحياته قوة اليقين وقصر الأمل، في قصة مشهور: أن واحد جلس تحت قدرة عسل وقال: غداً أبيع العسلات، أشتري غنمة، تتوالد الغنم، يصير عندي قطيع غنم، أشتري بيت، أتزوج، يأتيني أولاد، إذا كان ابني خالف الأصول، أمسك بالعصا وأدبه، فكسر القدرة ونزل العسل فوقه، أحياناً يحدث هذا، يبني أحلام، طول الأمل أن تحلم بمستقبل مديد.

والله ذات مرة كنت بدائرة حكومية، وأتابع معاملة، فلازم أنتظر، فجلست، وجالس بجواري اثنين بالحرف الواحد قال له: يا أخي فلان هلكنا، يكسي بيت، وله ستة أشهر محتار بنوع التمديد الخاص بالشوفاج يعمله ظاهر ولا مخفي، أناس نصحوه أن اعمله ظاهر، يشع الدفء أكثر، والتصليح أسهل ولكنه مبهدل، وأناس آخرين نصحوه يكون داخل البلاط، أجمل، ولكن في خطر أنه يكون التمديد فاسد يضطر يكسر البلاط، والبلاط غالي جداً، ستة أشهر ظل يحيرنا واحتار، بعد ذلك قرر يعمله داخلي، وبعد عشرين سنة إذا التمديد فسد، لا يكسر البلاط، ولكن يعمله خارجي، عامل بذهنه عشرين سنة قادمة، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((من عد غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت))

هل تصدِّق، ما في إنسان يموت إلا بباله إنجاز أعمال لشهر، وعنده دفتر مذكرات ؛ موعد يوم كذا، ومتابعة المعاملة يوم كذا، ولقاء مع فلان يوم كذا، محاسبة فلان يوم كذا، واستحقاق السند يوم كذا، عامل أعمال طويلة، ويأتي الموت فجأة، فالنبي عليه الصلاة والسلام:

((إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح))

(من تخريج أحاديث الإحياء: عن "عبد الله بن عمر ")

معنى ذلك أن الإنسان ينام تائب، ويفيق مسبح وذاكر.

وكان يقول اللهم صلي عليه:

((إن أمسكت نفسي فارحمها، وإذا أرسلتها فاحفظها))

(من الدر المنثور في التفسير بالمأثور)

يا رب أنا سأنام الآن فإما أفيق أو لا أفيق، انظر إلى هذه النفسية، يا استيقظ أو لا أستيقظ، إن استيقظت يا رب احفظني من المعاصي، وإن قبضتني بالليل، وهذا يصير كثيراً، لي صديق نائم، وزوجته نائمة بجانبه، مَسَّت يدها يده، فوجدتها مثل الثلج، فأفاقت مذعورة، فإذا هو ميت، طبعاً لأنه برد، توقف الدم في عروقه، كانت حرارته عالية، مست يدها يده، فرأتها باردة، فأفاقت مذعورة، فإذا هو ميت، فالنبي الكريم يقول:

((يا رب إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها مما تحفظ منه عبادك الصالحين))

(من الدر المنثور في التفسير بالمأثور)

سيدنا علي كرم الله وجهه يقول: " إن أشد ما أخاف عليك خصلتان، إتّباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى، فإنه يصد عن الحق ـ اتباع الهوى أكبر حاجز بينك وبين الحق، اتباع الهوى يصدك عن سبيل الله، يحملك على تكذيب أهل الحق، يحملك على تكذيب ما في كتاب الله عز وجل ـ وأما طول الأمل فإنه حب الدنيا رأس كل خطيئة ".

يقول عليه الصلاة والسلام:

((نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل))

(من الجامع لاحكام القرآن)

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((أكلكم يحب أن يدخل الجنة ؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: قصروا من الأمل، وثبتوا آجالكم بين أبصاركم، واستحيوا من الله حق الحياء))

وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم:

((اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة، وأعوذ بك من حياةٍ تمنع خير الممات، وأعوذ بك من أملٍ يمنع خير العمل))

أيها الإخوة الأكارم... ليس هناك تناقض إطلاقاً بين التفكُّر بالموت، وبين العمل للدنيا، ولكن إذا تفكرت بالموت، وأيقنت بالرحيل، وعرفت أنك مسؤولٌ أمام الله عز وجل، وَقَّعْتَ أعمالك وفق منهج الله.

ثمرة التفكر بالموت أنك تستقيم على أمر الله، ولا تتجاوز حدود الله عز وجل، ولكن الأشياء التي شرعها الله عز وجل يجب أن تفعلها لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ولا من ترك آخرته لدنياه، إلا أن يتزود منها معاً، فإن الأولى مطية للثانية))

أي حينما تفكر بالموت، تكون في أعلى درجات الواقعية، وتكون في أعلى درجات الإيجابية، وتكون في أعلى درجات الانفتاح على الدنيا، ولكن وفق المنهج الذي رسمه الله عز وجل، أما إذا غفل الإنسان عن لقاءه مع الله عز وجل فربما انحرف، وأكل مالاً حراماً، وجاءه الموت فجأةً، وليس مستعداً له، هذه هي الطّامة الكبرى، هذا اهو الصعق الذي ورد في آيات كثيرة من القرآن الكريم:

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83))

(سورة المعارج)

والله رجل أعرفه حق المعرفة، جاءه مرضٌ في دمه خبيث، ما علم بالمرض إلا بعد حين، أخفى عنه أهله هذا المرض، وعمره ثمانيةٌ وثلاثون عاماً، لما علم أن مرضه عضال، وربما انتهى به مرضه إلى الموت، صارت تأتيه نوبات هسترية يقول: لا أريد أن أموت، كل ربع ساعة ينتحب ويقول: لا أريد أن أموت. فلما جاءه ملك الموت، صاح صيحة ما بقي إنسان في البناء على ارتفاع طوابقه إلا وسمع صيحته، وانقضى أجله، فنحن يجب أن نستعد لهذه الساعة ولو بدت لبعضنا طويلة، ولكن العمر يمضي سريعاً، الدنيا ساعة اجعلها طاعة.

في شيء يقرب هذه المعلومات ؛ كل واحد منا له عمر، كيف مضى هذا العمر ؟ والله مضى كلمح البصر، فإذا مضت الأربعون عاماً كلمح البصر، فكيف سوف تمضي الأعوام المتبقية التي هي في أغلب الظن أقل مما مضى، فلإنسان يتفاءل ويعمل ولكن وفق منهج الله؛ يقف عند الحدود، وينتظر الموعود، ويضع كل آماله في الآخرة، ويقدِّم ماله أمامه حتى يسره اللحاق به.

وإلى درسٍ آخر متعلق بهذا الموضوع، الإمام الغزالي في هذا الباب أجاد جداً، أجاد وأفاد، فالباب كبيراً جداً وإن شاء الله نأخذ أهم فصوله، لأن التفكُّر بالموت أحد أركان الطريق إلى الله عز وجل، ما الذي يناقض التفكر بالموت حب الدنيا، وحب الدنيا رأس كل خطيئة، وحب الدنيا حجاب يعمي ويصم.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (043) :الأخلاق الإسلامية3 - طاعة الله ورسوله.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-08-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم...

مع الدرس الثاني من دروس الأخلاق الإسلامية، وقد بدأنا الدرس الماضي بخلقٍ إسلامي كبير ؛ ألا وهو الخُلُق الجَماعي، هذا الخُلُق ينسجم مع فطرة الإنسان، الفطرة الجماعية، فالإنسان كائنٌ اجتماعيٌ بالطبع، مصمم ليعيش في جماعة، مصمم ليتعامل معها تعاملاً وَفْق منهج الله عزَّ وجل.

تحدثنا في الدرس الماضي عن طبيعة الأخلاق الجماعية، وطبيعة الأخلاق الفردية، وكيف أن الأخلاق الجماعية تُعْزَى إليها مكارم كثيرة، وكيف أن الأخلاق الفردية تعزى إليها مكاسب كثيرة، وكيف أن النزعة الفردية هي نزعةٌ هدامة، وكيف أن النزعة الجماعية هي نزعةٌ بنَّاءَة، وكيف أن النصوص القرآنية والنبوية تصبُّ في خانة الروح الجماعية التي هي من صفات المجتمع المسلم. هذا بشكلٍ مختصر فحوى الدرس الماضي، وننتقل في هذا الدرس إلى متابعة فقرات هذا الموضوع.

من أولى فقرات هذا الموضوع أن الإسلام حرص حرصاً لا حدود له على وحدة الجماعة المسلمة، وحدة الجماعة المسلمة تتبدَّى صريحة واضحة من قول الله عزَّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّه)

(سورة النساء: من آية " 59 ")

خالقاً، المشرِّع، قيّوم السماوات والأرض، ما من جهةٍ يمكن أن تُطاع إلا الله ؛ خالق، مربي، مسيِّر، أسماؤه حسنى، صفاته فضلى، عليمٌ، سميعٌ، بصيرٌ، قويٌ، مجيبٌ، رحيمٌ، عدلٌ..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ)

لكن أمر الله عزَّ وجل جاء كُلّياً في القرآن، وأرسل لنا النبي عليه الصلاة والسلام بأوامر تفصيلية. بادئ ذي بدء عصم النبي من أن يخطئ لا في أقواله ولا في أفعاله، فالنبي مشرع، ولا ينطق عن الهوى، ومعصوم، و يوحى إليه، نبي يوحى إليه، رسول يحمل الرسالة، معصوم من أي خطأ..

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(سورة النجم)

لذلك في حياتنا إنسانٌ واحد يمكن أن تطيعه وأنت مغمض العينين، لأن خالق الكون تكفَّل لنا بعصمته، ولأن خالق الكون أخبرنا في قرآنه الكريم أنه لا ينطق عن الهوى، فقط النبي، قال:

)وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُم (

(سورة النساء: من آية " 59 ")

الآن دخلنا في الدرس، حرصاً على وحدة المسلمين، حرصاً على وحدة كلمتهم، ووحدة اتجاههم، ووحدة صفوفهم، حرصاً على أن تكون الجماعة المسلمة ؛ جماعةً قويةً، متماسكةً، متراصَّة، حرصاً على كل ذلك جاء الأمر الإلهي بطاعة الله، وطاعة الرسول، وطاعة أولي الأمر، طبعاً منكم، و (مِن) للتبعيض، يعني أولو الأمر الذين هم بعضٌ منكم، يعني يؤمنون بما تؤمنون به، وينتهون عما تُنْهَون عنه، ويعتقدون بما تعتقدون، ويتعاطفون مع ما تتعاطفون، ويحبون ما تحبون، ويكرهون ما تكرهون، كل هذه المعاني مقتبسة من كلمة (منكم)..

)وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ (

ولكن لو أن المسلمين احتُلَّت أرضهم، لا سمح الله ولا قدَّر، وجاءهم عدوٌ غاصب ليس من دينهم، كافر، وقال لك هذا العدو: يجب أن تطيعني لأن قرآنكم يقول:

)أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ (

نقول له ببساطة: أنت لست مسلماً، لست مؤمناً بما نؤمن، لا تعتقد ما نعتقد، لا ترجو ما نرجوا، لا تخاف ما نخاف، لا تحب ما نحب، لا تكره ما نكره. إذاً هذا معنى:

)وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ (

يعني لو أن المسلمين احتلَّت أرضهم، وجاءهم عدوٌ اغتصب أرضهم، حكمهم بغير كتاب الله، لا يعتقد بعقيدتهم، لا يؤدِ عباداتهم، إذاً هذا ليس منكم، بل هذا فيكم، هذه واحدة.

الثانية:

مَن هم أولي الأمر ؟ أولو الأمر، أولو يعني أصحاب، الأمر معرَّف، هذا تعريف أي أمرٍ هذا ؟ مثلاً تقول: نحن عايشين بالشام، تقول: نحن في هذه المدينة، أي مدينة ؟ هذه ألف ولام أل العهد، واضحة كالشمس، أنت عائش بإمارة تقول: جاء الأمير، أي أميرٍ هذا ؟ أمير البلاد، عايش في جمهورية تقول: جاء الرئيس، أي رئيسٍ هذا ؟ رئيس الجهورية، عايش في مملكة تقول: جاء الملك، أي ملكٍ هذا ؟ ملك البلاد، قال العلماء: هذه (أل) العهد، المعهود المعروف، شيءٌ كالشمس واضح، إذاً أولو بمعنى ذووا..

)أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ(

ما معنى الأمر ؟ في أمر جندي، أحياناً يأتيك أمر من موظَّف، يأتيك أمر أن تلتحق بالخدمة الإلزامية ـ هذا أمر ـ يأتيك أمر من وزير التموين أن السعر صار كذا، يأتيك أمر من وزير الداخلية المغادرة فيها رسم خروج، هذا أمر كذلك، يأتيك أمر من وزير التربية الافتتاح يوم خمسة عشر أيلول، هذا أمر، يأتي أمر من وزير التعليم العالي العلامة مائتي وعشرين طب، هذا أمر، في مليون أمر عندنا، فإذا قال الله:

)الْأَمْرِ (

مليون أمر، مليار أمر في عندنا، أحياناً تكون في الخدمة الإلزامية يأتيك أمر من عريف يضع شارة (7) يقول لك: ازحف، هذا أمر كذلك، أي أمرٍ مقصودٍ به، أي أمر ؟ حينما جاء الأمر معرفاً بـ (أل) فما هذا التعريف ؟ تعريف العهد، أي أمر الله، هذا أمر الله، أمر في أعظم من الله عزَّ وجل ؟ إذا قال الله: الأمر، أي أمر الله، أمر صاحب الأمر، أمر قيّوم السماوات والأرض، أمر الخالق، أمر المربي، أمر المسيِّر، أمر الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المُهَيْمن، العزيز، الجبار، المتكبر، هذا الأمر..

)أَطِيعُوا اللَّهَ (

هذه واضحة أي خالق الكون..

)وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ(

محمداً صلى الله عليه وسلَّم صاحب الرسالة، والمؤيَّد بالمعجزة وهي القرآن الكريم. أما..

)وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُم (

يعني أصحاب الأمر، مادام الأمر مُعَرَّف وفي مليار أمر بالأرض، وأولي الأمر، في أمر يقول لك: يجب أن ندخل على الوزارة الفلانية ونقوم بتفتيشها، هذا أمر، من إنسان عدو مثلاً، أما..

)وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ(

أي أمرٍ هذا ؟ أمر الله، لكن ما معنى أصحاب الأمر ؟ هم الذين أصدروه ؟ لا، بل هم الذين عَرَفوه، ونقلوه، مَن هم إذاً ؟ العلماء، والذين نفَّذوه مَن هم إذاً ؟ الأمراء، فأولو الأمر برأي الإمام الشافعي هم الذين عرفوا الأمر ؛ وهم العلماء، ونقلوه وبينوه وهم العلماء، ونفذوه وهم الأمراء.

فأنت معك أمر من صاحب الأمر، من صاحب الأمر وحده وهو الله عزَّ وجل الذي أمر ونهى، فالذي عرف الأمر والنهي عالم، والذي استخدم سلطانه في تنفيذ الأمر والنهي الأمير، فأنت مكلَّفٌ أن تطيع العلماء والأمراء بشرطٍ أساسي أن تطيع العالم إذا نقل لك بأمانةٍ أمر رسول الله، أمر الله ورسوله، إذا نقل لك بأمانةٍ تامةٍ مطلقةٍ أمر الله وأمر رسوله.

إذا أطعته فهل أنت في الحقيقة تطيعه ؟ أجيبوني، إن أطعت عالماً نقل لك بأمانةٍ تامةٍ أمر الله ورسوله فأنت لا تطيعه، إنك بهذا تطيع الله، هو ـ كما يقول بعض الدعاة إلى الله ـ هو دلاَّل على بضاعة الله عزَّ وجل، البضاعة بضاعة الله، التوجيهات توجيهات الله، الأوامر أوامر الله، النواهي نواهي الله، إلا أنه عرفها فنقلها لك بأمانة، هذا كل ما في الأمر، هذا الذي قاله الصديق رضي الله عنه: " إنما أنا متبع ولست بمبتدع ".

أحد علماء دمشق الأكارم، رحمه الله توفي، نصح ابنه، وابنه صديقٌ لي، وهو خطيب في دمشق، قال: نصحني والدي بثلاث نصائح، لإيجازها واختصارها تكتب على خاتم، قال له: " اتبع لا تبتدع، اتضع لا ترتفع، الورع لا يتسع "، اتبع أنت لست مبتدعاً أنت متبع، هكذا قال سيدنا الصديق: " إنما أنا متبع

ولست بمبتدع "، إذاً ما في عندنا عالم يعطي شيء من عنده، وإلا هذه مقامرة ومغامرة، مخاطرة كبيرة جداً، إن أصاب وقد لا يصيب، وإن أخطأ فقد ضيعنا آخرتنا كلها..

)أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ(

فأنت ملزم أن تطيع الذي يعرف الأمر، لك أستاذ، لك مرشد، لك طالب علم ؛ يتعلم ويعلمك، فأنت وثقت بعلمه، وبإخلاصه، واستقامته وقال لك: يا بني هذا أمر الله، هذه الآية وهذا الحديث، فأنت ملزمٌ أن تطيعه، لأنه نقل لك بأمانةٍ أمر الله ورسوله، وإذا كنت في بلدةٍ وفيها أمير، وطبَّق أمر الله عزَّ وجل، أنت عملت ميزاب فآذى المارة في الطريق، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

" لا ضرر ولا ضرار ".

فجاءتك مخالفةٌ تحت طائلة العقوبة بإزالة هذا الميزاب، فأنت لأنك مسلم ومؤمن يجب أن تطيع هذا الأمر التنفيذي، واضح تماماً ؟

)أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ(

أي الذين يعرفون أمر الله وينقلونه، والذين ينفّذون أمر الله عزَّ وجل. فأيُّ أميرٍ ألزمك بأن تفعل شيئاً ورد في الكتاب والسنة فطاعته من طاعة الله عزَّ وجل، القاضي أحياناً يلزم الزوج بالنفقة، فطاعة هذا القاضي من طاعة الله، القاضي أحياناً يلزم الزوج بإراءة ابنِه لأمه، هذا الأمر من أمر الله ورسوله، أي أمرٍ جاءك من قاضٍ، من أمير، من إنسان ولاّه الله عليك، من مدير ثانوية، وقد تأخرت على طلابك، فوجَّه لك إنذار، هذا من أولي الأمر، لأنك إذا أتيت في الوقت المناسب فقد نفذت أمر الله عزَّ وجل، وأمر النبي الكريم لقوله:

((إياك وما يعتذر منه))

(من الدر المنثور: عن " جابر ")

النبي نهاك عن أن تفعل شيئاً تضطر أن تعتذر منه، هكذا المجتمع المسلم، فلو مُنع إدخال بضاعة مؤذية تفسد أخلاقنا، فهذا المَنع من أولي الأمر، ويجب أن يطبَّق، إذاً، الآن واضح، أولي الأمر الذين يعرفون أمر الله هم العلماء، وينفذونه هم الأمراء.

لكن تتمة الآية فيها مشكل، قال:

)فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ (

فمع مَن ؟ فهل الخطاب الآن موجه بالمنازعة بين آحاد المسلمين ؟ لأن في عندنا قرينة مانعة، الآن المنازعة بين آحاد المسلمين ؟ لا، الآن قال:

)فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ(

أين الثالث ؟ ما بيَّن، معنى هذا مع مَن المنازعة ؟ فإن تنازعتم مع أمرائكم، أو تنازعتم مع علمائكم، هل العلماء معصومون ؟ لا، وكل مَن يدَّعي عصمة العلماء فقد خالف عقيدة أهل السنة والجماعة، ولكن إذا كان العلم غير معصوم أيشرب الخمر مثلاً ؟ لا، أعوذ بالله، غير معصوم أي أنه حريصاً حرصاً بالغاً على ألا يخطئ لكنه ليس معصوماً، يمكن أن يقع منه بعض الخطأ غير المقصود، وغير الكبير، لكن القاعدة الأساسية أن النبي عليه الصلاة والسلام معصومٌ بمفرده، بينما أمته معصومة بمجموعها.

والذي يحدث أنه إذا إنسان ألقى محاضرة، ووقع في خطأ في بعض أفكارها، وله أخ مؤمن صوَّب له آراؤه، صار غير المعصوم الثاني عصمه، الثاني غير معصوم بموضوع الأول عصمه، فالمسلمون يتكاملون، ويتعاونون، ويتناصحون، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((المؤمنون بعضهم لبعضٍ نصحة متوادون ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعضٍ غششة متحاسدون ولو اقتربت منازلهم))

(عن علي بن أبي طالب)

قال:

)فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ (

مَن هو الحَكَم ؟ لو تنازعت مع رجل يدعو إلى الله مَن هو الحَكَم ؟ كتاب الله وسنَّة رسوله، قالها النبي في حجة الوداع، وفي خطبة الوداع:

((اني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي ؛ أحدهما أعظم من الآخر ؛ كتاب الله وعترتي))

(من سنن الترمذي: عن " زيد بن أرقم ")

فلن تضلوا بعدي أبداً، هذا هو الميزان، هذا هو المقياس كتاب الله، وتفاصيل كتاب الله بسنة رسول الله، وهذا معنى الحكمة التي جاءت بعد الكتاب..

)هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ(

(سورة الجمعة: من آية " 2 ")

الكتاب والحكمة أي والسنة، الكتاب والسنة. إذاً إذا حصل منازعة بين المؤمنين وبين أولي الأمر، إن العلماء أو الأمراء فالحَكَمُ هو الكتاب والسنة، لذلك ارتاح وريِّح لا تقبل شيء إلا بالدليل من الكتاب والسنة، ولا ترفض شيء إلا بالدليل من الكتاب والسنة، ارتاح وريِّح، لا تعوِّد مَن يعلمك أن تقبل منه شيئاً بلا دليل، إذا عوَّدته أن تقبل منه بلا دليل تجده يشتطُّ عندئذٍ، أنت كذلك كمتعلم عاون هذا الذي يعلمك، فكلما قال لك: افعل، قلت له: يا سيدي ما الدليل ؟ الصحابة فعلوا هذا ؟ والله فعلوا هذا، مع مَن فعلوه ؟ مع النبي، صلى صلاة الظهر ركعتان، سألوه، يتموا ساكتين ألم يستحوا ؟ هذا دين، قالوا:

ـ يا رسول الله الصلاة قصرت أم نسيت ؟

ـ قال: كل هذا لم يكن. أنا ما نسيت، والصلاة ما قصرت، والصحابي جريء جداً وأديب.
ـ قالوا: بعضه قد كان. هذا خبره آحاد، فالنبي طلب التواتر، فلما طلب التواتر عرف أنه صلّى ركعتين.
ـ فقال: إنما نُسِّيت كي أسنَّ لكم.

لو أن الصحابي ظل ساكتاً لما عرفنا الحكم، فأنت كمسلم هذا دين ما في معه مزاح، إذا سمعت فكرة لم تفهمها لا تظل ساكت، ما في مجاملات بالدين، هذا ليس حياء بل هذا جهل، حكم ما فهمته سيدي هذا الحكم والله ما فهمته، ما هو دليله ؟ هل هناك آية، حديث ؟ الشيخ يخلصك ؟ لا يخلصك الشيخ، أبلغ من ذلك لو أنك انتزعت من فم النبي صلى الله عليه وسلم فتوى لصالحك ولم تكن محقاً لا تنجو من عذاب الله، ما أحد يخلصك، لا يخلصك شيخ، ولا يخلصك رسول الله لو أنك أوهمته وانتزعت منه فتوى لصالحك ولم تكن بها محقاً، لقول النبي في الحديث الصحيح:

((لعل أحدكم ألحن بحجته من الآخر فإذا قضيت له بشيء فإنما أقضي له بقطعةٍ من النار))

(من الجامع لأحكام القرآن)

يا إخوان... هذه آية مهمة جداً، هذه الآية من أخطر الآيات في ثبات الحق ، الحقيقة الإسلام جاءنا من عند رسول الله، ما الذي يضمن لنا أن يستمر الإسلام أربعة عشر قرناً دون أن يشوَّه ؟ ثلاثة أشياء ؛ ألا يضاف عليه شيء، وألا يحذف منه شيء، وأن نفهمه كما أراد الله ورسوله. أي ألا يضاف، وألا يحذف وألا يؤوَّل، إذا ضمنا ألا نضيف شيئاً، وألا نحذف شيئاً، وألا نؤول وفق أهوائنا، أي ألا نجر الآيات إلى أهوائنا، إذا ضمنا هذه الأشياء الثلاثة إذاً الإسلام يستمر كما بدأ، أما الإسلام بدأ ديناً عظيماً وانتهى بالرقص، يلبسوا ثياب بيضاء فضفاضة، ويدوروا تصير شمسية، أهذا هو الدين ؟ هذه فرقة، أو صار الإسلام أن تقف في مسجد وأن تقفز قفزةً مترين وأن ترجع، وأن ترقص، أقال الله حينما عبدتموه: كلوا أكل البهائم وارقصوا لي ؟ هذا هو الدين ؟ إما دوران، أو قفز، أو طرب، أو ضرب شيش، كي يستمر الدين كما بدأ.

كي يكون الدين كما كان على عهد رسول الله، هذا الدين متألق الذي فُتِحَت به أرجاء المعمورة، ما كان رقصاً، ولا قفزاً، ولا غناءً، ولا ألعاباً، ولا بهلوانيات، بل هو حق، والتزام، ومنهج، ودستور، ومبادئ، وقيَم، ودولة، هكذا الإسلام، فنحن حريصون حرصاً لا حدود له على أن يكون الدين كما بدأ، أن يبقى في نقائه، وصفائه، ومنطقيته، وعقلانيته، وصحة نصوصه كما بدأ، إذاً ينبغي ألا نضيف شيئاً، وألا نحذف شيئاً، وألا نؤوِّل وفق أهوائنا.

فبالقرآن لا تستطيع أن تقول: هذه ليست آية، كيف تحتال على تعطيلها ؟ بتأويلك، أما الحديث ممكن إذا إنسان ضعيف في علم الحديث يقول لك: هذا الحديث ليس بصحيح، وإذا كان صحيح وما أحبه يقول لك: هذا غير صحيح، بالقرآن لا تستطيع أن تقول: هذا ليس صحيح، تحتال على تعطيل الآية بتأويلها،

أما في الحديث قد تنفي هذا الحديث، لذلك نحن نريد أن يبقى الإسلام كما بدأ، ولا يبقى كما بدأ إلا بعدم إضافة شيء، وعدم حذف شيء، وألا يؤول إلا وفق ما أراد الله عزّ وجل، قال:

)فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ (

أي إن تنازع المسلمون المؤمنون مع أولي الأمر ؛ علماءً أو أمراءً فالحكم بينهم الكتاب والسنة..

)فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ (

كلمة (إلى الله) أي إلى القرآن الكريم، قال لك واحد: كل عملك ما له قيمة، ما هذا الكلام ؟ مَن قال لك ذلك ؟ هذا خلاف ما قال الله عزَّ وجل، الله عزَّ وجل قال:

)فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) (

(سورة الزلزلة)

هذا الكلام خلاف الآية، قال لك: يجب أن تخاف. مِن ماذا ؟ إن تركت إنسان يجب أن تخاف ؟ فهذا ليس نبياً بل هذا إنسان، حوَّلت من إنسان لإنسان، وهذا خلاف السنة، النبي قال:

((لا يخافن العبد إلا ذنبه))

لذلك فرَّقوا بين الأمر التكليفي والأمر التنظيمي، الرماة الذين عيّنهم النبي في جبل الرماة في معركة أُحد، ألم يخالفوا أمر النبي ؟ فهل خالفوا أمراً تكليفياً من عند الله أم أمراً تنظيمياً ؟ تنظيمي، إذا قلنا: يا إخوان في عندنا بابين فرجاءً اطلعوا من اليمين، هذا أمر تنظيمي، واحد طلع من اليسار، فقد خالف، ولكن ماذا خالف ؟ خالف أمر تكليفي ؟ لا، فرقٌ كبيرٌ كبيرٌ كبير بين أن تخالف أمراً تكليفياً ؛ أن تكذب، أن تغتاب، أن تأكل مالاً حراماً، وبين أن تخالف أمراً تنظيمياً. فرقٌ كبيرٌ كبير بينهما، فالذي يختلف عنده الأمر التكليفي من الأمر التنظيمي هذا لا يعرف حقيقة الأمرين، إذاً:

)فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ (

معنى إلى الله أي إلى كتاب الله، وقد تجد من يقول لك: أخي لأن فلان تنازع مع فلان ليسا مؤمنين، لا، الله قال:

)فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ (

ممكن أنت يكون لك وجهة نظر، ولأخيك وجهة نظر، والحكم بينكما كتاب الله وسنة رسوله..

)فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ (

النبي نهانا عن أكل الضفدع، انتهى هناك نص، وهو يبلغنا تعليمات الصانع، سمح لنا بأن نأكل السمك دون أن يذبح.. انتهى، طبعاً ما قاله الله عزَّ وجل وما قاله النبي هو الحَكَم، إذاً هذه الآية أساسية، حفاظاً على وحدة المسلمين، وعلى اتحاد كلمتهم، وعلى تماسكهم، وعلى ريحِهم القوية، وعلى سمعتهم العطرة، هكذا أمرنا الله عزَّ وجل:

)أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ(

إذا أنت آمنت أن الله عزَّ وجل تشريعه وكماله مطلق، والنبي معصوم ولا ينطق عن الهوى، فمرحباً بكتاب الله وسنة رسوله.

بالمناسبة سنأتي ببعض الأمثلة، الله عزَّ وجل قال:

)وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ(

(سورة ص: من آية " 24 ")

مامعنى (يبغي) ؟ يعني بعضهم يأخذ ما ليس له، مَن هم الخلطاء ؟ الشركاء، الأزواج، الجيران، الأخوات، الإخوة، معنى خليط أي أيُّ إنسانٍ تخالطه ؛ بعقد، برحلة، بنُزهة، ببيت، بشراكة، بمشروع، بدراسة، بخدمة إلزامية، فلو فرضنا وضعوا الأكل على الطعام، وفي بالقصعة ست قطع لحمٍ، وست أشخاص جالسين، لو واحد أكل أول قطعة وأكل الثانية، هذا ما بغى ؟ بغى، فالخليط هو مَن تخالطه إما مخالطة طارئة أو دائمة، أطول مخالطة الزوجة، قال:

)وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ(

هم كُثر، قال:

)إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (

مَن يكمل ؟

)وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ (

استنبط العلماء على أن الذي يبغي لى صاحبه ليس مؤمناً، استنبط العلماء، من هذه الآية قطعية الدلالة، على أن الذي يبغي على صاحبه ليس مؤمناً، ممكن نحكم حكم قطعي على إنسان أكل حق شريكه ظلماً بأنه غير مؤمنٍ، ولو صلى، وصام، وزعم أنه مسلم، ما قولكم ؟ بنصِّ هذه الآية.

اسمعوا الآيةالثانية:

)وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ(

(سورة الأحزاب: من آية " 36")

أي مستحيل، أشد أنواع النفي في القرآن الكريم هذه الصيغة، ما كان لفلان أن يأخذ ما ليس له، هذا العلماء سموه: هذا نفي الشأن وليس نفي الحدث، لو فرضنا التقينا مع أكبر سارق، وافتقدنا قلم نقول له: هل أخذت هذا القلم ؟ يقول: لا لم آخذه، هو آخذ ملايين ولكن هذا لم يأخذه، فهو نفى أن يكون سارقاً، ماذا نفى ؟ نفى سرقة هذا القلم، هذا نفي الحادث، أما إذا قلنا: ما كان له أن يسرق، أي هذا مستحيلٌ في حقه، شأنه لا يقبل السرقة، ليس من شأنه أن يسرق، ولا يحب أن يسرق، ولا يرضى أن يسرق، ولا

يقبل أن يسرق، ومستحيل أن يسرق، نفي الشأن أبلغ من نفي الحَدَث، اسمعوا ماذا قال الله عزَّ وجل، قال:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

أي حينما ترى كلام الله ؛ يأمرك بأمر، أو ينهاك عن نهي، وأنت تفكر معقول هذا ؟ أفعلها أم لا أفعلها؟ ما لك مؤمن، بكل بساطة، وبكل صراحة، إذا ممكن تتردد بأمر قطعي الدلالة في القرآن تتردد، مثلاً والله سيأتينا ضيوف اليوم، في اختلاط، نقعد معهم أم لا نقعد؟ والله شيء يحير، إن ما قعدنا معهم يقولوا: هذا بوش وحده، وإن قعدنا معهم أعتقد غير معقول نقعد معهم، هذا ليس مؤمن، مادام الاختلاط ممنوع ومحرَّم غليس هناك تردد إطلاقاً، أنت كمؤمن تعلم أن هذا أمر الله عزَّ جل واضح وضوح الشمس وتتردد ؟!..

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

إذاً أنت كمؤمن مشكلتك واحدة فقط أن تعرف ما هو الأمر ؟ إذا عندك إرادة كافية، وعزيمة كافية، وتصميم، وإصرار، واندفاع إلى طاعة الله، العقبة أن تعرف أين أمر الله ؟ ما الذي يرضي الله ؛ أن أعطي أم ألا أعطي ؟ يا ترى لي جار ليس مسلماً، وهو في مرضٍ عضال، ويحتاج لمساعدتي، يا ترى هل يرضي الله أن أساعده ؟ مشكلتك أين أمر الله، في آية بهذا المعنى من أسابيع فسَّرتها، أنه:

) وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ (

(سورة المائدة: من آية " 8 ")

الله يخاطب مَن ؟ يخاطب المؤمنين..

)وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ (

أيها المؤمنون..

)شَنَآَنُ قَوْمٍ(

لشنآن أشد أنواع البُغض، يعني لا يحملنَّكم بغضكم الشديد لقومٍ..

)عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا (

عهم، قال:

)اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى(

أي يا عبادي، يا أيها المؤمنون إذا توهمتم أنني أرضى عنكم إذا ظلمتم الكفار أعدائي، إذا ظلمتموهم، إذا أكلتم حقوقهم، إذا لم تنصفوهم، إذا توهَّمتم أنني أرضى عنكم بهذا، اعلموا علم اليقين أنني لا أرضَ..

)اعْدِلُوا (

عهم.. مع أعداء الله..

)هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى (

قرب لمحبتي، أقرب لطاعتي، أقرب لنجاتكم. هذا الدين، أنا أركز على النقطة: المؤمن مشكلته فقط أين أمر الله ؟ ما الذي يرضي الله، أعطي أم لا أعطي ؟ لك قريب لا يصلي، فقير جداً وعنده أولاد، يا ترى أريد الحكم الشرعي يا أخي، أعطيه أم لا أعطيه ؟ مشكلة المؤمن فقط في معرفة الأمر، لأن عنده إيمان بالله كافي، وعنده رغبة أكيدة في طاعة الله، وعنده اندفاع شديد لإرضاء الله، لكن مشكلته أن يقف على أمر الله، أن يقف ما الذي يرضي الله ؛ في العطاء أم في المنع ؟ في العفو أم في المحاسبة ؟ في الزيارة أم في القطيعة ؟ لي أنا أقرباء يا أستاذ ليسوا ملتزمين بالدين، يسخرون من الدين، هل أزورهم أم لا أزورهم ؟ ما الذي يرضي الله عزَّ وجل ؟

فبيني وبينكم ما لك غير مشكلة واحدة بعد أن تعرف الله، أو بعد أن عرفت الله لك مشكلة واحدة أن تبحث دائماً وكل يوم عن الذي يرضي الله، يعني أن تعرف الحكم الشرعي، أنا لي حق أعطي أم لا أعطي ؟ أغضب أم لا أغضب ؟ أسامح أم أحاسب ؟ ما الذي يرضي الله ؟ لذلك المؤمن شغله الشاغل البحث عن أمر الله، لأنه بالكون عرف الله، فكيف يعبده ؟ يعبده لا وفق هواه، المشكلة في العبادة أنه يجب أن تعبد الله، وأنه يجب أن تعبد الله وفق ما يريد الله، لا وفق ما تريد أنت.

يا ترى أنا لي حق أقسو مع إنسان كي أرجعه للدين ؟ مَن قال لك هذا ؟ لعلك إذا قسوت عليه تبعده عن الدين كله، فقد تقول: أنا نيتي عالية، وأنا نيتي أن أقربه زيادة فهرب، أنت الآن عبدت الله ولكن لا وفق ما يرضي الله بل وفق ما يرضيك أنت، لذلك قال الإمام الفضيل: " العمل لا يقبل إلا بشرطين إلا إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وفق السنة ".

الآن ؛ عملٌ وافق السنة ولم تكن به مخلصاً، لا يقبل، عملٌ كنت به مخلصاً ولم يوافق السنة، لا يقبل، العمل لا يقبل إلا بشيئين ؛ إذا كان خالصاً لله وصواباً وفق السنة، وهذا معنى قوله تعالى:

)وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ (

(سورة النمل: من آية " 19 ")

العمل الصالح مقيَّد بأن يرضى الله عنه.

أيها الإخوة الأكارم... هذه آية دقيقة جداً:

)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ(

(سورة النساء: من آية " 59 ")

وكل إنسان لا يقبل بحُكم الله في القرآن، أو لا يقبل بحكم النبي، هذا إنسان ضال مُضل، آية كالشمس واضحة تقول بخلافها ؟!!

حدثني أخ كان بمؤتمر إسلامي قال لي: جلس إلى جانبي مفتي بلدة إسلامية كبيرة، ولكن البلد ليس عربياً في الأصل بل هو من بلاد الشمال، لفت نظري أن خاتماً من الذهب في أصبع هذا المفتي، فقال له ـ طبعاً باللغة المترجمة ـ أن هذا حرام، قال له: مَن قال لك حرام ؟ أبو حنيفة أجازه، فذكر له الحديث الشريف، قال له: أقول لك أبو حنيفة وتقول يقول رسول الله هكذا ؟ هذا جاهل جهل كبير، أنا أقول لك أبو حنيفة قال وأنت تقول لي رسول الله نهى ؟ طبعاً رسول الله نهى، هو الأصل رسول الله، يجب أن تعرف مَن هو النبي ؟ المشرع، انتهى الأمر.أدق فكرة بهذا الدرس هي: أنك بعد أن عرفت الله لك أمر واحد هو أن تتقصَّى أمر الله، في بيتك ؛ يا ترى مع زوجتك التساهل أولى أم التشدد، ما الذي يرضي الله ؟ يجب أن تبحث عما يرضي الله، مع شريكك التساهل أم التشدد ؟ مع ابنتك بماذا آمرها ؟ عن أيّ شيءٍ أنهاها؟ لذلك طلب الفقه حتمٌ واجبٌ على كل مسلم، أنت أحببت إنسان حب شديد الآن أنت تغلي، كيف أرضيه ؟ كيف أتقرب إليه ؟ تتقرب إليه بتنفيذ أمره، إذاً أنت بالكون تعرف الله، وبالشرع تعبده، إذا عرفته ولم تعرف كيف تعبده، ما استفدنا شيء، الله عزَّ وجل قال:

)وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56)(

(سورة الذاريات)

وإذا عرفت أمره ولم تعرفه لا تعبده.

لذلك قال عليه الصلاة والسلام، هذا حديث في البخاري، فيما رواه الإمام البخاري ومسلم. بالمناسبة أعلى أنواع الأحاديث بالقمة، ما هو ؟ الذي اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم، قال: روى البخاري ومسلم، عن أبي هريرة قال: قال عليه الصلاة والسلام:

((مَن أطاعني فقد أطاع الله، ومَن عصاني فقد عصى الله، ومَن يطع الأمير فقد أطاعني ـ أي أمير ؟ الذي ينفذ أمر الله ـ ومَن يعصي الأمير فقد عصاني، وإنما الإمام جُنَّة يقاتل من ورائه ويتقى به، فإن أمر بتقوى الله وعدل فإن له بذلك أجراً، وإن قاتل بغيره فإن عليه منه ـ أي من الوزر))

إذاً هذا الحديث يأمرنا أن نطيع الله، وطاعة الله بطاعة رسوله، وطاعة رسوله بطاعة أولي الأمر، وأولي الأمر هم العلماء الذين ينقلون لك أمر الله ورسوله، والأمراء الذين ينفذون أمر الله ورسوله.

* * *

الموضوع الثاني: وأرجو الله سبحانه وتعالى في درسٍ قادم أن أوسِّعه هو أن هناك أخطاءً كثيرةً لكنها لا تمس عقيدة المسلم، ولا تمس كيانهم الواحد، أما الأخطاء التي تمس عقيدتهم ؛ أي البدع، أو الأخطاء

التي تفتت كيانهم، فهذه في الدين جرائم لا تغتفر، وقد حرَص الإسلام حرصاً لا حدود له على وحدة المسلمين، واحد دخل لمسجد في إمام يصلي وراءه، قال:

((صلوا وراء كل برٍ وفاجر))

(من الجامع الصغير: عن " أبي هريرة ")

من اجل الوحدة، هذا ليس من شأنك، هذا شأنه مع الله، أما شأنك كمسلم أن تصلي وراءه، أما كلما صلَّى يقول: هذا من أين الإمام ؟ دخله حلال ؟ أنت ما لك ودخله ؟ صرنا فئات متناحرة، متباغضة، كل واحد طعن بالآخر، فتفتتنا، فالإسلام حريصٌ حرصاً بالغاً..لذلك..

روى مسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((مَن خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت رايةٍ عُمِيَّةٍ يغضب لعصبيةٍ، أو يدعو لعصبيةٍ، أو ينصر عصبية فقتل، فقتلته جاهلية، ومن خرج على أمتي بسيفه يضرب بَرَّها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي بعهدٍ بعهده فليس مني ولا منه))

أحاديث كثيرة جداً إن شاء الله نأخذها في الدرس القادم تبين قيمة الوحدة بين المسلمين، والتعاون، والتماسك، والتناصر، والتناصح، والمسلم الحقيقي هو الذي يتعاون مع أخيه فيما اتفقا ويعذره فيما اختلفا، الخلاف لا ينبغي أن يفرِّق بيننا، لك وجهة نظر في قضية جزئية، ولي وجهة نظر في قضية جزئية، أما في الكليات متفقون نتعاون فيما اتفقنا، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا.كل هذه الدروس تنطلق من أن الطابع الجماعي طابعٌ أساسيٌ في حياة المسلمين، فالتفرقة، والطعن، والتنابذ، والتدابر، والخصومات هذه كلها من شأنها أن تضعفنا جميعاً، ونحن في أمسِّ الحاجة إلى أن نتعاون، وأن نتحابب، وأن نتماسك، وأن نتناصر، وأن نتناصح، هذا هو الذي يرضي الله عزَّ وجل.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (044) :الترغيب والترهيب1 - من أن تجلس مجلس لا يذكر الله فيه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-08-23

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... درسنا اليوم ترهيبٌ وترغيب، ترهيبٌ من أن يجلس الإنسان مجلساً لا يذكُر الله فيه، وترغيبٌ بمجالس الذكر، وقد بُني كتاب الترغيب والترهيب على هذا المبدأ، كيف أن النبي عليه الصلاة والسلام رهَّبنا وخوَّفنا من بعض الأمور، وكيف رغَّبنا وحبب إلينا بعض الأمور الأخرى.

فالموضوع اليوم هو الذكر، ولكن قبل أن نخوض في تفاصيل هذا الموضوع لابد من مقدمةٍ دقيقة:

أيها الإخوة الأكارم... الإنسان لابد له من حرفة، أو عمل، أو وظيفة يرتزق منها، فهذا الوقت وقتٌ مبذولٌ في كسب المعاش، بشكل استثنائي لو أن الإنسان أحسن اختيار حرفته بحيث تنفع المسلمين، وأحسن معرفته بالله عزَّ وجل بحيث جعل هذه الحرفة عبادة، إذ مارسها بطريقةٍ مشروعة، وابتغى بها وجه الله، وكفاية نفسه، وخدمة المسلمين، ولم تشغله عن مجلس علمٍ، ولا عن طاعةٍ، ولا عن واجب انقلبت حرفته إلى عبادة، وهذا موضوع معروف عندكم.

لكن الإنسان بعد أن يؤدي واجبه المهني، عنده وقت فراغ، هناك وقتٌ لطعامه وشرابه ونومه، ووقتٌ لعمله، وقتٌ لطعامه وشرابه ونومه، وقضاء حاجاته الأساسية، ووقتٌ لأداء عمله المهَني، الوقت الثالث ما هو؟ وقت الفراغ، لا أبالغ إذا قلت: إن أخطر الأوقات في حياة المسلم هو وقت الفراغ، لأنه قد تكون الحرفة شاقةً، أو غير محببةٍ، أو لا تتصل بطريقٍ أو بآخر إلى مبدئك، وإلى منهجك في الحياة، إذاً أنت تقوم بهذا العمل وأنت في مشقَّة من أجل كسب الرزق، وحينما تنام الليل من أجل أن تقوى في اليوم التالي على أداء عملك، وحينما تأكل وتشرب، الوقت الذي يحقق وجودك، ويؤكِّد ذاتك، ويرفعك إلى أعلى عليين هو وقت الفراغ، في هذا الوقت يمكن أن تحضر مجالس العلم، في هذا الوقت يمكن أن تنقل ما في هذه المجالس للآخرين، في هذا الوقت يمكن أن تزداد علماً، في هذا الوقت يمكن أن تزداد قُرباً، لذلك إذا ألغي وقت الفراغ من حياة الإنسان ألغيت حياته، وألغيت إنسانيته، وألغي وجوده، لأنه أصبح كالآلة، لذلك العمل الذي يمتص كل وقتك، عملٌ خاسر ولو درَّ عليك بألوف الألوف، لأنه عطَّل وجودك في الدنيا.

هذا وقت الفراغ، استثنينا وقت النوم، والطعام والشراب، وقضاء الحاجات، واستثنينا وقت العمل لكسب الرزق، بقي وقت الفراغ، ألا تلتقي بالآخرين ؟ ألا تلتقي في هذا الوقت بأفراد أسرتك ؟ ألا تلتقي

بجيرانك ؟ ألا تلتقي بأصحابك ؟ ألا تلتقي بأقربائك ؟ ألا تلتقي بمن تمونه، أو تليه، أو تشرف عليه ؟ هذا الوقت النبي عليه الصلاة والسلام تحدَّث عن ذكر الله فيه.

مرةً ثانية، أو مقدمة ثانية أضعها بين أيديكم: فرقٌ كبير بين من يتلقى وبين من يلقي، بين من يتعلَّم وبين من يُعلِّم، بين من يستمع وبين مَن يقول، بين من يستهلك وبين من ينتج، بين من هو سلبي وبين من هو إيجابي فرقٌ كبير، والشيء الملاحظ أن المسلم إذا اكتفى أن يستمع، وأن يتلقى، وأن يحضر، وأن يصغي، هذا عمل طيب، لكن هذا العمل الطيب له حدود يجب أن ينتهي عندها، وبعد هذا الوقت ينبغي أن يتجه الإنسان إلى أداء الرسالة، إلى نشر العلم، إلى إلقاء العلم، إلى توجيه الآخرين.

الفرق الدقيق بين حالة التلقي وحالة الإنصات، بين حالة الأخذ وحالة العطاء، بين حالة الاستهلاك وحالة الإنتاج، بين حالة السماع وحالة الكلام فرقٌ كبيرٌ جداً، من أين يأتي هذا الفرق ؟ يأتي هذا الفرق من أن الإنسان إذا غفل، والغفلة حالةٌ يمكن أن تصيب المؤمن، يغفل، فإذا لم يكن مرتبطاً بمجلس علمٍ يُلقي فيه العلم، فقد تطول غفلته أسابيع، وشهور، لكن إذا كان ملزماً بهداية الآخرين أو إلقاء العلم، أو العناية بأشخاص يلوذون به، هنا ينشأ عنده ما يسمى بالدَّافع النَوْبي.

أنت حينما يكون عندك مجلس أسبوعي ؛ جمعت أقرباءك، أصدقاءك، إخوانك، أبناء جلدتك، أبناء أخواتك الإناث، أبناء إخوتك الذكور، طلاَّبك أحياناً، وجلست معهم مجلساً أسبوعياً، أنت في هذا المجلس مضطرٌ أن تحضِّر نفسك، أن تحضِّر قلبك بالذكر، وأن تحضر نفسك بالطاعة التامة، والقدوة الصحيحة، وأن تحضِّر عقلك بالعلم، فأنت أصبحت مضطراً أن تكون مستعداً دائماً نفسياً، وقلبياً، وعقلياً لإلقاء العلم، إذاً خرجت من ديمومة الغفلة، الإنسان أحياناً يغفل، يظل غفلان شهران، يقول لك: والله من ثمانية أشهر ما صليت صلاة متقنة، كله تلحيق، أما لو أنك ألقيت العلم، لو تعهدت أناساً بالرعاية الدينية، لو أرشدت الناس إلى طاعة الله عزَّ وجل، تشعر أنك مضطرٌ شئت أم أبيت إلى أن تعد نفسك.

لذلك أنا أرى أن الإخوة الأكارم الذين يتعهَّدون إخوةً لهم ؛ بالرعاية، بالتوجيه، بالتفقد أحياناً، بالإكرام، بالزيارة، بالمتاعبة، بالصلة، هؤلاء هم المستفيدون الأوَّلون، أنت المستفيد الأول، أنت الرابح الأكبر، أنت الكاسب، أنت الفائز.

فكم كنت أتمنى أن كل إنسان من خلال أسرته، من خلال عمله، من خلال نشاطاته الأخرى، من جيرانه، من أقربائه، أربعة أو خمسة لو جلس إليهم أن يعيد عليهم بعض ما سمعه في الدروس العامة، في التفسير في آيتين، درس خمس آيات، أو عشر آيات لعل تكون آية من الآيات لفتت نظرك، تفاعلت معها، أحدثت عندك هزَّة نفسية، هذه الآية سجلها عندك، حديث شريف سمعته في درس الأحد، تأثرت له سجله عندك، قصة سمعتها في درس الاثنين، سجلها عندك عنوانها، فإذا جلست إلى إخوانك، إلى

جيرانك، إلى أصدقائك وذكرت الله لهم أنت الرابح الأول، وأنت الفائز الأول، وأنت وضعت نفسك في موضع الحركة المستمرة، صار في دافع نَوْبي أسبوعي.

لذلك كل إخواننا يعرفون هذه الحقيقة: أنه مثلاً في خطبة الجمعة، أو في درس التفسير، أو في درس الحديث، أو درس أسماء الله الحسنى يشحن الإنسان شحنة تستمر يومين أو ثلاثة، الشحنات الدورية النوبية شحنات مهمة جداً، أي أنك دائماً على الصراط المستقيم، دائماً في تصحيح للمسار، دائماً في دفع، في حالة تصحيح، وحالة دفع، وحالة تقويم بشكل مستمر، أما لو الإنسان كان سلبي ؛ تلقى، سمع، أصغى، أخذ، لم يعطِ، ولم يلقِ، ولم يتكلم، ولم يتعهَّد، ولم يتفقَّد، ولم يوجه قد يغفل، وقد تشغله الدنيا، وقد تدوم غفلته، وقد يتراجع، لكن إذا دعا إلى الله عزَّ وجل، عندئذٍ هو الرابح الأول.

الآن أيها الإخوة، استمعوا إلى ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام في الترهيب من أن يجلس الإنسان مجلساً لا يذكر الله فيه. أقول لكم وأنا أعني ما أقول: المؤمن إذا ارتقى عند الله عزَّ وجل لا يحتمل أن يجلس مع أناسٍ يتحدَّثون حديثاً فارغاً، حديثاً في الدنيا، في شؤونها، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها ودنيّها))

يقول عليه الصلاة والسلام:

((ما جلس قومٌ مجلساً لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا على نبيهم، إلا كان عليهم ترةٌ، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم))

(من الدر المنثور: عن " ابي هريرة ")

كلمة (تِرة) معناها النقص والتبعة، أي أنت استهلكت وقت بلا طائل، والتبعة تحمَّلت مسؤولية جسمية، كلمة تِرة تعني النقص والتبعة، فـ..

((ما جلس قومٌ مجلساً لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا على نبيهم، إلا كان عليهم ترةٌ فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم))

(من الدر المنثور: عن " ابي هريرة ")

إذاً، وقت الطعام والشراب وقضاء الحاجة والنوم هذا وقت وظيفي، وقت الحرفة والمهنة والعمل هذا وقت كسبي، بقي الوقت الخطير وهو وقت الفراغ، اللقاءات، والزيارات، والندوات، والحفلات، والنزهات، والسهرات، هذا وقت الفراغ الذي يقضيه الناس عادةً في القيل والقال، وفي الغيبة والنميمة، وفي أحاديث الدنيا، وشهواتها، ونسائها، وأطعمتها، وأسواقها، وبضائعها، وأسعارها، هذا الوقت الخطير كان من الممكن أن ترقى به عند الله إلى أعلى عليين، فإذا به يهوي بالإنسان إلى أسفل سافلين.

حديثٌ آخر: أو روايةٌ أخرى لأبي داود

((من قعد مقعداً لم يذكر الله فيه...))

المؤمن حقيقة كما قال عليه الصلاة والسلام:

((أمرت أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً))

الإنسان أحياناً يسكت، يركب سيارة عامة، سافر، يظل صامت، هذا الفكر يجب أن يعمل..

((نظري عبرةً، وصمتي فكراً))

نظر إلى إنسان منحرف فاعتبر، هذا العمل السيئ من إفرازات الجهل، هذا الإنسان المشرك بسبب نقصٍ في علمه وفي توحيده، دائماً صمته فكرٌ، ونطقه ذكرٌ، ونظره عبرة، قال:

((من قعد مقعداً لم يذكر الله فيه كان عليه من الله ترةٌ، ومن اضجع مضجعاً لم يذكر الله فيه كان عليه من الله ترةٌ، وما مشى أحدٌ ممشىً لا يذكر الله فيه إلا كان عليه من الله ترةٌ "))

و(الترة) كما قلت قبل قليل: النقص والتبعة.

حديثٌ آخر في المعنى نفسه:

((ما قعد قومٌ مقعداً لم يذكروا الله عزَّ وجل فيه، ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم...))

طبعاً ألف الناس، أحياناً الأوامر الدينية مع مضي الأيام تفرَّغ من مضمونها، تغدو بلا مضمون، أخي صلِ على النبي، اللهم صلِ على النبي، زده صلاة، اللهم صلِ على النبي، أهذه الصلاة على النبي ؟ والناس دائماً يصلون على النبي، ولكن ما هو البُعد العميق للصلاة على النبي ؟ أنا أسألكم الآن، يجب في كل مجلس أن تذكر الله، وأن تصلي على النبي، البُعد العميق للصلاة على النبي ؟ أن تذكر شمائله، أخلاقه، مواقفه، أحكامَه، أساليبه التربوية، أخلاقه المنزليّة، أخلاقه الاجتماعية، موقفه في هذا المكان، لذلك أؤكد عليكم أن قراءة السيرة فرض عين، لماذا؟ لأنك مأمورٌ من قِبل الله عزَّ وجل أن تتابع النبي في مواقفه..

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب: من آية " 21 ")

هذا النبي هو المُشَرِّع، هو الإنسان الكامل، هو الذي يجب أن تقتدي به، هو الذي إن تابعته فلن تضل أبداً، ما إن تمسَّكت بسنته فلن تضل أبداً، بالبديهة ما دامت النجاة في اتباعه والتمسك بسنته، فأول شيء يجب أن تفعله أن تعرف سنته، لذلك الذين قالوا: " إن العلم هو الطريق الوحيدة إلى الله ". ما أخطئوا، وما بالغوا، وما جانبوا الحقيقة، إذاً:

((ما قعد قومٌ مقعداً لم يذكروا الله عزَّ وجل فيه ويصلون على النبي...))

البُعد العميق لكلمة الصلاة على النبي أن تبين فضله ؛ كيف كان صبوراً، كيف كان حكيماً، كيف كان رحيماً، كيف كان ودوداً، بشوشاً، مثلاً كان يحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي بِشْرَه عن

أحد، كان طَلق الوجه، كان يسلّم على الصبيان، كان إذا دخل بيته بسّاماً ضحّاكاً، كان إذا جاءه شيءٌ يعجبه يقول:

((الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات))

(من الدر المنثور: عن " ابي هريرة ")

وإذا جاءت الأمور على خلاف ما يريد قال:

((الحمد لله على كل حال))

إذاً اتباع سنة النبي، واقتفاء أثره فرض عين، ومن مستلزمات هذا الفرض أن تعرف سيرته، وسنّته، لذلك:

((ما قعد قومٌ مقعداً لم يذكروا الله عزّ وجل فيه، ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم، إلا كان عليهم حسرةً يوم القيامة))

و..

((ما من قومٍ يقومون من مجلسٍ لا يذكرون الله فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار))

(من الأذكار النووية: عن " ابي هريرة ")

أنا أستحلفكم بالله لو سهرتم سهرة ؛ كلها على الأسعار، وعلى المال، وعلى السيارات الأجرة الجديدة، وعلى البيوت، وعلى المزارع، وعلى الأطعمة والأشربة، الساعة الثانية عشر إلا ربع انتهى المجلس، ألا يشعر الإنسان أن هذا المجلس ثقيل عليه ؟ كابوس، هموم، ما في خبر أحياناً سار يكون، المجلس نفسه لو كان عن الله عزّ وجل، عن الصحابة، عن رسول الله، عن كلام الله تحس الوجوه تألّقت، والعين برقت، الواحد إذا كان مسرور يتألّق وجهه، يصبح أزهر اللون، وتصبح عيناه زئبقيتين، يلمع، القرنية تلتمع، فأنت اجلس مجلس وراقب الحاضرين لو حدثتهم عن ربهم، عن ربهم ذي الأسماء الحسنى، ذي الصفات الفضلى، عن هذا النبي ؛ الرحيم، المقسط، الشفوق، عن هذا النبي العظيم، عن أصحابه الكرام، عن كلام الله، تجد الوجوه تألقت، والعيون برقت، والمجلس صار فيه تجلي، لذلك أما إذا كان في الدنيا الأمور دائماً نحو الأسوأ، قال عليه الصلاة والسلام:

((ما من يومٍ إلا والذي بعده أشر منه حتى تقوم الساعة))

يقول لك: مكان في تضخم سكاني، في تضخمك نقدي، الطبقة الوسطى تتلاشى إما إلى الغنى الفاحش وإما إلى الفقر المتقع، في تحوّل بالطقس بالعالم، في كساد عالمي، في إفلاسات بالشركات، في سيطرة الدول القوية على الدول الضعيفة، لا تجد خبر مريح، الأخبار كلها تبعث على الضيق، إذاً:

((ما من قومٍ يقومون من مجلسٍ لا يذكرون الله فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان عليهم حسرةٌ يوم القيامة))

(من الأذكار النووية: عن " ابي هريرة ")

وفي حديثٍ آخر:

((ما من قومٍ اجتمعوا في مجلسٍ فتفرقوا ولم يذكروا الله إلا كان ذلك المجلس حسرةً عليهم يوم القيامة))

(من الدر المنقور: عن " عبد الله بن مغفل ")

لذلك استنباطاً من هذه الأحاديث كلها ؛ سهرة، ندوة، دور، حفلة، سيران، نزهة المشتركون فيها من أهل الدنيا، الذين همَّهم بطنهم، وهمهم فرجهم، وهمُّهم شهواتهم، وهمهم الدرهم والدينار، عبيدٌ للدرهم والدينار، عبيدٌ لخميصتهم، عبيدٌ لفروجهم، عبيدٌ لبطونهم، هؤلاء الأشخاص ليس من صالحك أن تجلس معهم، أنت من صالحك أن تجلس مع أناس مؤمنين طيبين، يحبون الله ورسوله، يذكرونك بالآخرة، يذكرونك بالله عزَّ وجل، يقدّمون لك نماذج طيبة مثالية، يدفعونك إلى باب الله عزَّ وجل، يحمِّسونك، هنا مصلحتك، هذا هو الترهيب فما هو الترغيب ؟

* * * * *

الترغيب

أما الترغيب فاستمعوا إلى ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام في مجالس الذكر، أحاديثٌ كثيرةٌ جداً أنتقي لكم بعضها. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله:

((أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إن ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأ خيرٌ منه))

فأنت أحياناً بينك وبين نفسك تقول: سبحان الله، لا إله إلا الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يا الله ما أعظم هذه الآية، تذكر الله في نفسك، مقابل هذا الذكر يذكرك الله في نفسه، أما إذا جلست إلى إخوانك، إلى أصحابك، إلى جيرانك، إلى أولادك، إلى أهلك، إلى بنات أخواتك الإناث، إلى بنات إخوتك الذكور، إلى أولاد أولادك، وذكّرتهم بالله عزَّ وجل، قال

((وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأ خيرٍ منه))

ينطرح اسمك في مجلس راقي، يتبارى الناس في الثناء عليك، وأنت غائب، الله عزَّ وجل عدل، ذكرته في ملأٍ لابد من أن يلهم الناس ليذكروك في ملأٍ خيرٍ منه.

((وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة))

وقال الله جلَّ ذكره:

((لا يذكرني عبدٌ في نفسه إلا ذكرته في ملأٍ من ملائكتي، ولا يذكرني في ملأٍ إلا ذكرته في الملأ الأعلى))

فما معنى قول الله عزَّ وجل:

((وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4)))

(سورة الشرح)

تجد شخص يعني له مهنة، هذا نجَّار، هذا قصَّاب، لما تعلم القرآن نسوا الناس أنه نجار، صار العالم الجليل، يقول لك: شيخ القراء مثلاً، هذا حامل القرآن، ارتفعت بنظر الناس إلى أعلى عليين، لأنك طلبت العلم الشريف، من دون علم شريف لك حجم صغير في المجتمع.

أنا أعرف أناساً والله في الدرجة الدنيا، حينما طلبوا العلم أصبحوا في الدرجة العليا، أصبح عليّة القوم يتقربون إليهم، العلم عظيم كثير، مرة شاهدت إنسان له حرفة معينة قال لي: أنا والشيخ الفلاني كنا سوى، أين الثرا من الثريا ؟ أنت بحجم صغير صغير صغير وهو ملء الأسماع والأبصار بعلمه وورعه وعمله، ففي فرق كبير، الإمام الغزالي مَن هو لولا طلب العلم، ونشر العلم ؟ أنا مرة سألت طلابي سؤال من باب الطرفة مثلاً: أنه من يأتي لي باسم شخص غني عاش في الشام سنة ألف وثمانمائة وثلاثة عشر، الطلاَّب خمسين طالب تأملوا مفكرين، أعطيه علامة تامة، انتظرت انتظروا، صمت صمتوا، فقالوا: لا نذكر. قلت لهم: وأنا لا أذكر، وأنا معكم، لكن مَن منا لا يذكر سيدنا عمر ؟ سيدنا خالد ؟ سيدنا صلاح الدين ؟ سيدنا عمر بن عبد العزيز ؟ مَن منا لا يذكر الإمام الشافعي؟ أبو حنيفة ؟ هؤلاء الرجال بلغوا الأوج بعلمهم وعملهم وورعهم، فباب البطولة مفتوح.

فإذا أنت اشتغلت بمهنة من المهن مهما تكن هذه المهنة راقية، يأتي الموت ويطوي، ألا تقرأ في النعوات: الدكتور الفلاني ؟ تقرأ الدكتور أستاذ الجامعة من أشهر توفي، يعني شخص يحمل دكتوراه شهادة عليا، جاء الموت وطواه، لكن إذا الإنسان طلب العلم الشرعي، وطلب معرفة الله عزَّ وجل، ارتقى في نظر الناس وأصبح علماً كبيراً من أعلام البلدة.

إذاً، أنت إذا ذكرت الله عزَّ وجل، أنا أذكر مرة كان لي درس بجامع العفيف صباحاً لي سبع سنوات مع الفجر، درس تفسير لطيف، سبحان الله الإخوان أقبلوا على الدرس، كنا صف، صفين أو ثلاثة حتى أصبح الجامع ممتلئ، ناس أتوا من أواخر الأحياء، من المزة، من زملكا، من ظاهر المدينة يأتوا، صار في تجلي، فمرة طلبوا مني إخواننا نعمل درس عربي يوم من الأيام، كل يوم في تفسير، اخترنا الثلاثاء درس عربي، درس إعراب، لما حكينا بالإعراب ما في إلا ينقصوا هؤلاء الإخوان، وبعدها صاروا نصف صف يوم الثلاثاء، اللغة شيء ممتع لكن الراغبون فيها قلّة، أما الله عزَّ وجل شيء عظيم جداً.

فإذا أنت تكلمت عن الله عزَّ وجل الناس أقبلوا، واستمتعوا، وسعدوا، واستبشروا، وارتقوا، فأنت إذا ذكرت الله عزَّ وجل في أي مجلس، المؤمن الراقي ما في عنده موضوعات ثانية أينما جلس، لكن هو يصير معه حالة أن الإنسان لما يسمع الحق، وصادق في الدعوة إلى الله، تصير ذاكرته قوية جداً، أنا

أقسم بالله، أشعر أن ذكرياتك متعلّقة باهتمامك، فبينما أشعر بأنني نَسَّاء أي أنسى موضوعات كثيرة جداً، أما الموضوعات التي تتعلق بالدعوة إلى الله إن سمعتها مرةً واحدة لا أنساها، موضوع متعلق بآية، بحديث، بموقف للصحابة، بموقف من رسول الله، بحكم شرعي رائع معلل، هذا الموضوع يكفي أن أقرأه مرةً واحدة، أو أن أسمعه فإذا هو محفوظ، لكن موضوعات كثيرة جداً الناس في العادة لا ينسونها، أنا أنساها، إذاً الذاكرة ما لها علاقة، الإنسان ذاكرته متعلقة باهتمامه، وأنت إذا أردت أن تذكّر الله للناس ـ دقق ـ يكفي أن تستمع، كأن ذهنك ورقة يكتب عليها، لا تنسى. أحياناً تجد شخص ما يتعلّق بحرفته حافظه كله على غيب، فالإنسان ليس له عذر لأن الإنسان ينسى ما لا يهتم به، ويذكر ما يهتم به، فإذا كان اهتمامك بالله شديداً ذكرت كل ما يتعلق بهذا الموضوع.

" يا ابن آدم إذا ذكرتني خالياً ذكرتك خالياً، وإذا ذكرتني في ملأٍ ذكرتك في ملأٍ خير من الذين تذكرني فيهم، وأنا مع عبدي إذا هو ذكرني وتحركت بي شفتاه ". أنا والله أشعر أنه ما من عمل أشرف ولا أعظم من أن تستخدم هذه الطاقات، الذهن، الذاكرة، التصوّر، المحاكمة، طلاقة اللسان، السمع، البصر في التعريف بالله عزَّ وجل، قال:

((أنا مع عبدي إذا هو ذكرني وتحركت بي شفتاه))

(من الجامع لاحكام القرآن)

قال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فأخبرني بشيءٍ أتشبَّث به ؟ قال

((لايزال لسانك رطباً بذكر الله))

(من الجامع لاحكام القرآن)

يا رسول الله أي الأعمال أحب إلى الله ؟ قال:

((أن تموت ولسانك رطبٌ من ذكر الله))

(من الدر المنثور)

وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((مررت ليلة أسري بي برجلٍ مُغَيَّبٍ في نور العرش ـ ضمن النور ـ قلت: مَن هذا، أهذا مَلَك ؟ قيل: لا. قلت: نبيٌ ؟ قيل: لا. قلت: مَن هو ؟ قيل: هذا رجلٌ كان في الدنيا لسانه رطبٌ من ذكر الله، وقلبه معلّقٌ بالمساجد، ولم يستسب لوالديه))

أي ما عمل عمل ناقص أحوج الناس أن يسبوا والديه.

أذكر لكم متن الحديث اختصاراً..

((ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخيرٌ لكم في إنفاق الذهب والوَرِق، وخيرٌ لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضرب أعناقكم ؟ قالوا: بلى. قال: ذكر الله))

(من الدر المنثور في التفسير بالمأثور)

قال معاذ بن جبل: لا شيءٌ أنجا من عذاب الله من ذكر الله.

وأقول لكم شيء من الدقة: أن الإنسان أحياناً يسعد سعادة موهومة في بداية حياته، لأنه شاب يحلم بزوجة، يحلم ببيت، يحلم ويحلم، ينام ساعتان قبل النوم يفكر، والله لا آخذها إلا هكذا، طوِّل بالك، البيت أريده قبلي غربي، يحلم، كلما تقدَّمت به السن طموحاته تحددت، هذه زوجته انتهى، هذه نصيبه، وهذا بيته، وهذه حرفته، وهؤلاء أولاده، الآن يدخل في السَأم، يدخل في شعوره بتفاهة الحياة، شيء جميل جداً قبل أن تصل إليه، فإذا وصلت إليه أصبح باهتاً، كان الزواج يلتمع أمام عينيك، بعد الزواج بسنة، أو سنتين، أو شهرين أصبح الزواج عبأً على بعض الناس، قد تلتمع المركبة في عينيك، بعد أن تقتني هذه المركبة، تصبح شيئاً أقل من التافه في حياتك، هكذا الدنيا إلا المؤمن الذي تعلَّق قلبه بالله، هذا شيء اسمه سأم، ضجر، ملل، تفاهة، قرف، لا يوجد هذا بحياته لأن هدفه كبير جداً، دائماً شاب، دائماً يسعى للمزيد من العلم، يسعى لعملٍ صالح، يسعى لقُربةٍ من الله عزَّ وجل لذلك المؤمن لا يشيخ أبداً.

تلتقي مع إنسان عمره بالثمانية والتسعين تجده كمؤمن شاب، نفسه توَّاقة، قال: " تاقت نفسي للإمارة ـ سيدنا عمر بن عبد العزيز ـ فلما وصلتها تاقت نفسي للخلافة، فلما وصلتها تاقت نفسي إلى الجنة ". في عنده أهداف متجددة، أهداف كلما وصل إلى هدف لجأ لهدف آخر، لذلك تشعر أن المؤمن سعيد، معنوياته عالية، نفسه مستقرة، مطمئن، لكن أهل الدنيا في قلقٍ قبل الوصول، وفي سأمٍ بعد الوصول، قبل أن يتملَّكوا الدنيا في قلق وضجر، وبعد أن يتملَّكوها في سأمٍ وملل، تجد الشخص الذي ليس له معرفة بالله وصل للدنيا، الغني مثلاً، القوي، يعني بعبارة دارجة (يقرف ويقرِّف)، تجد كل كلامه فيه استعلاء، الحاضرين ينفرون منه وهو ينفر منهم، أما المؤمن بتواضعه، وبطلبه، وبإقباله، وبطموحاته، وبأهدافه النبيلة دائماً في سعادة.

وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي العباد أفضل درجةً عند الله يوم القيامة ؟ قال:

((الذاكرون الله كثيراً.))

ـ قال: قلت يا رسول الله ومن الغازي في سبيل الله ؟!

ـ قال

((ولو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر، ويختضب دماً لكان الذاكرون الله كثيراً أفضل منه درجةً))

(من الدر المنثور: عن " أبي سعيد الخدري ")

يعني أعلى الدرجات ينالها الذاكرون الله كثيراً والذاكرات.

وقال عليه الصلاة والسلام:

((مَن عجز منكم عن الليل أن يكابده، وبخل بالمال أن ينفقه، وجبن عن العدو أن يجاهده فليكثر ذكر الله))

(من الدر المنثور: عن " أبي موسى ")

قيام الليل ما صليت، فعندك النهار اثني عشر ساعة احكي عن الله عزَّ وجل، اقرأ القرآن، ذكّر الناس، إذا فاتك ما يجب أن تفعله بالليل في عندك النهار بطوله، اذكر الله في النهار.

((من عجز منكم عن الليل أن يكابده، وبخل بالمال أن ينفقه، وجبن عن العدو أن يجاهده فليكثر ذكر الله))

(من الدر المنثور: عن " أبي موسى ")

قال:

((أربعٌ من أعطيهن فقد أعطي خيري الدنيا والآخرة ؛ قلباً شاكراً))

الحمد لله، أحياناً تلتقي مع إنسان في بحبوحة من المال كبيرة جداً يشكي لك كساد الأسواق، وكساد البضاعة، وضيق ذات اليد، والله كأنك أمام إنسان معذب، فالإنسان المؤمن دائماً يذكر الله عزَّ وجل شاكراً وحامداً، قال:

((أربعٌ من أعطيهن فقد أعطي خيري الدنيا والآخرة ؛ قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وبدناً على البلاء صابراً، وزوجة لا تبغيه حوباً في نفسها وماله))

(من الدر المنثور في التفسير بالمأثور)

زوجة مؤمنة، وبدن صابر، ولسان ذاكر، وقلب شاكر أعطي خيري الدنيا والآخرة.

الحديث الذي رواه أبو موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثٌ دقيقٌ جداً:

((مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر الله عزَّ وجل مثل الحي والميت))

ما قولكم، ميت وحي ؟ ترى الميت مخيف، الناس يخافوا من حاجاته أحياناً، يخافوا من غرفته بعد موته، تبقى الغرفة التي مات بها الميت تبقى أشهر مهجورة، الحي مصدر أُنس، الميت منظره مخيف والحي منظره مريح، فـ:

((مثل الذي يذكر الله والذي لا يذكره عزَّ وجل مثل الحي والميت))

وعن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون))

لا يهمك، اذكر الله ليلاً ونهاراً، صبحاً ومساءً، في عملك، في الطريق إما ذكر شخصي، أو ذكر للآخرين، أو تذكير.

قال:

((إن الشيطان واضعٌ خطمه ـ أي أنفه ـ على قلب ابن آدم ـ يشمشم ـ فإن ذكر الله خنث وإن نسي الله التقم قلبه))

(من الجامع لأحكام القرآن: عن " أنس ")

ما في حالة وسط، إن ذكر الله خنث، وإن نسي التقم قلبه.

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((أن رجلاً سأله فقال: أي المجاهدين أعظم اجراً، قال: أكثرهم لله تعالى ذكراً. فقال: أي الصالحين أعظم أجراً ؟ قال: أكثرهم لله تعالى ذكراً، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة كل ذلك ورسول الله يقول: أكثرهم لله تعالى ذكراً. فقال أبو بكرٍ لعمر: يا أبا حفص ـ تعال أقل لك بهذا المعنى ـ ذهب الذاكرون بكل خير، قال: أجل))

وعن أم أنسٍ رضي الله عنها قالت: يا رسول الله أوصني، قال:

((اهجري المعاصي فإنها أفضل الهجرة، وحافظي على الفرائض فإنها أفضل الجهاد، وأكثري من ذكر الله فإنكِ لا تأتين الله بشيءٍ أحب إليه من كثرة ذكره))

وفي روايةٍ:

((واذكر الله كثيراً فإن أحب الأعمال إلى الله أن تلقاه بها))

وقال عليه الصلاة والسلام:

((مَن لم يكثر ذكر الله فقد برئ من الإيمان))

علامة المنافقين:

(وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً (142))

(سورة النساء)

أما علامة المؤمنين يذكرون الله ذكراً كثيراً.

لذلك الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41))

(سورة الأحزاب)

قيل: الأمر ليس على الذكر بل على الذكر الكثير.

والحديث الذي أرويه لكم كثيراً:

((برئ من النفاق من أكثر من ذكر الله))

وعلاقة الذكر بالشُكر:

((يا ابن آدم إنك إن ذكرتني شكرتني، وإذا نسيتني كفرتني))

معنى هذا أن أحد أنواع الشكر أن تذكر الله عزَّ وجل، إذا ذكرت الله عزَّ وجل، ذكرت أن هذه نعمة من الله عزَّ وجل، فهذا أحد أنواع الشكر.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((ما من ساعةٍ تمر بابن آدم لم يذكر الله فيها بخير إلا تحسَّر عليها يوم القيامة))

نستنبط من هذا الدرس، ومن خلال الأحاديث الكثيرة الصحيحة في الترهيب من مجلسٍ لا يذكر الله فيه، ومن خلال الأحاديث الصحيحة الكثيرة في الترغيب في مجالس الذكر، أن على الإنسان أن يبتعد عن كل مجلسٍ لا يذكر الله فيه، وإذا كان في مجلسه فليذكر الله، والذي أريده فوق هذا وذاك أن كل أخٍ كريم يطلب العلم الشريف يجب أن يطلب العلم وأن يعلم، أن يتعلَّم ويعلم، أن يستمع ويلقي، أن يأخذ ويعطي، يعني لابد من أن يكون حولك مجموعة أشخاص تتعهَّدهم، توَجِّهم، تنقل لهم بعض الأحاديث، بعض الآيات، بعض التوجيهات، إنك بهذه الطريقة تكون قد دفعت نفسك في طريقٍ صحيحٍ وعلى مسارٍ صحيح، لأن الإنسان حينما يتكلَّم صار مسؤولاً أمام الله عزَّ وجل عن إعداد قلبه، وعن إعداد نفسه، وعن إعداد عقله، فبعد أن كان طلب العلم شيئاً ثانوياً، يصبح طلب العلم شيئاً أساسياً، وبعد أن كان الذكر شيئاً يأتيك على راحتك، أصبح شيئاً مركَّزاً، فلذلك الإنسان حينما يطلب العلم يجب أن يعلّم، فبهذه الطريقة يتألق، تألق أحدكم في أن يفيض على الآخرين بما أفاض الله عليه، في أن يذكر الله في قلبه، ويذكر الله للناس، حتى يستحق رضاء الله عزَّ وجل، ويستحق أن يسعده الله في الدنيا والآخرة.

من الآن فصاعداً إن التقيت بأخ كريم بلقاء خاص، يحق لي أسأله: أنه هل لك إخوان ترعاهم، أولاد، أقرباء، أبناء، جيران، أصدقاء، أصدقاء في العمل، في الحرفة مثلاً ألك دعوة إلى الله ؟ الذي تعلمته طول حياتك ما آن الأوان تعلم الناس، أقرب الناس لك !! فاستعين أيام بدرس مسجل أسمعه، اسمعه مرتين أو ثلاثة واحفظه والقيه، لا تقدر آتي بأخ يحضر معك، وحمسه، لابد لك من مسعى، لأن المؤمن:

(وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى)

(سورة القصص: من آية " 20 ")

لابد لك من مسعى، الإنسان إذا أسعد الآخرين فهو أسعدهم، أنا مرة قرأت كلمة في مجلة مترجمة، في فراغ في صفحة وضعوا حكمة، هذه الكلمة تأثرت بها تأثراً كبيراً: " إذا أردت أن تسعد فأسعد الآخرين" أحياناً يكون الإنسان غارق في همومه الخاصة، الإنسان إذا خرج من ذاته لإسعاد الآخرين فهو أسعد الناس، ويتولى الله شؤونه، هم في مساجدهم والله في حوائجهم، دبر ألا تدبر، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، " ابن آدم كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك ".. " من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين ".. فهذا هو

الطريق أمامكم، تعلّموا وعلّموا، تذكّروا وذكّروا، استمعوا وألقوا، خذوا وأعطوا. لذلك النبي الكريم ماذا قال ؟ قال:

((خيركم ـ حديث خطير ـ خيركم ـ من دون استثناء ـ من تعلم القرآن وعلمه))

ما قال: من تعلم القرآن فقط، بل قال: وعلمه.

(من الجامع الصغير: عن " عثمان ")

فأنت حجمك عند الله بحجم الذين أرشدتهم إلى الله، بحجم عدد الذين دللتهم على الله، أكرمتهم، تفقدتهم، رعيت شؤونهم، أوصلتهم إلى باب الله عزَّ وجل، وهذا أعظم عمل، هذه والله صنعة الأنبياء، والله أشرف عمل يفعله الإنسان أن يمتِّن علاقة الناس بربهم، أن يدفعهم إلى طاعة الله، أن يحببهم بالله، أن يقربهم منه، أن يصلهم به، هؤلاء الذين يوصلون ما أمر الله به أن يوصل هم المؤمنون، والكفَّار يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، فالناس إن وجدوا إنسان دين رأساً يخوفوه من حضور مجالس العلم، أو يشككوا بالذي يعلمه، هذا كذا، هذا كذا، هذا عمل تخريبي أنت ماذا فعلت ؟ ما قربت عليه بحياتك، ولما رأيته صاحب دين أردت تقطعه عن مجالس العلم، المؤمن يصل ما أمر الله به أن يوصل، فلذلك الإنسان ليذكر هذه الحقيقة، حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، بحجم الذين دللتهم على الله، أنت بقلب كم إنسان ؟..

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

(سورة النحل: من آية " 120 ")

يمكن تكون بقلب خمسة، بقلب عشرة، بقلب مائة، بقلب ألف، كلما ازداد تأثيرك في الآخرين ازداد شأنك عند الله عزَّ وجل.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (045) :إحياء علوم الدين3 - مراقبة الله عز وجل.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-08-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم...

مع الدرس الثالث من دروس إحياء علوم الدين، الجزء السادس من إحياء علوم الدين فيه كتبٌ ثلاثة، كتاب المراقبة والمحاسبة، وكتاب التفكُّر، وكتاب تذكُّر الموت، أمضينا درسين الأول في موضوع التفكُّر، والثاني في موضوع تذكُّر الموت، واليوم ننتقل إلى كتاب المراقبة، الحقيقة المراقبة صفة تلازم المؤمن، ولها أثر كبير وخطير في حياته وفي استقامته، وفي فلاحه ونجاحه، كيف لا، وقد قال الله جل جلاله في القرآن الكريم:

(أفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

(سورة الرعد: من آية "33")

تحت المراقبة الشديدة، تحت:

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14))

(سورة الفجر)

(أفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

(سورة الرعد: من آية "33")

رفي آية ثانية:

(أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (14))

(سورة العلق)

آية ثالثة:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (1))

(سورة النساء)

آية رابعة:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33))

(سورة المعارج)

وأما الحديث النبوي الشريف:

((اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك))

هذه الآيات، وهذا الحديث ننطلق منهما في درس المراقبة:

(أفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

(سورة الرعد: من آية "33")

(أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (14))

(سورة العلق)

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (1))

(سورة النساء)

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33))

(سورة المعارج)

((اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك))

هذه الآيات وهذا الحديث تكفي كي يشعر الإنسان المؤمن أنه تحت المراقبة الشديدة، وإذا كان كذلك استقام على أمر الله جل جلاله.

ابن المبارك قال لرجل: راقب الله تعالى، فسأله عن تفسير ذلك. فقال له: كن أبداً كأنك ترى الله. أي كن دائماً كأنك ترى الله.

وقال عالم آخر: إذا كان سيدي رقيباً عليّ فلا أبالي بغيره. هذا القول له عندي شأن كبير، مثلاً: أنت لك محل تجاري، يدخل إلى هذا المحل عشرات الأشخاص بل مئات الأشخاص، وكل شخص يسألك عن حاجةٍ، وتبيعه إيّاها، فإذا راقبت الله عز وجل وخشيته ؛ فلم تظلم أحداً من هؤلاء، فالله جل جلاله يكرمك بأن يحفظك من شر خلقه، أي إن خفت منه، لن يخيفك من خلقه، وإن لم تخف منه أخافك من أحقر خلقه، أنت بين خيارين ؛ إما أن تخاف الله، وإما أن تخاف مَن لا يخاف الله، فاختر لنفسك: إما أن تخاف الله، وإما أن يجعلك الله تخاف مَن لا يخافك، إما أن تكون عبداً لله، وإما تكون عبداً لعبدٍ لئيم، لابد من أن تكون تابعاً لجهة، كُن تابعاً لأشرف جهة، كن عبداً لله، ومن كان عبداً لله كان حراً، لا تكن عبد شهوتك، لا تكن عبد بطنك، لا تكن عبد فرجك، لا تكن عبد خميصتك، قال عليه الصلاة والسلام:

((تعس عبد الدرهم والدينار، تعس عبد البطن، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الفرج))

فكن عبداً لله ولا تكن عبداً لعبدٍ لئيم، خف من الله عندئذٍ لا تخاف أحداً، لأن الله لن يخيفك من أحد، ولكن إن لم تراقبه في سرك، إن لم تراقبه في معاملة عباده، إن ظلمتهم، إن احتلت عليهم، إن غششتهم، إن أسأت عليهم، إن استغليت حاجتهم إليك، فلم تراقب الله فيهم، أخافك الله من أضعف خلقه، وملأ قلبك خوفاً ورعباً، هذا قانون.

لذلك أنا أعرف إخوة كثيرين، لهم أعمال تجارية، ومضى حين من الوقت كان هناك شدة على الباعة، فأي مخالفة تقتضي السجن، والمبالغ الطائلة، فهؤلاء الذين خافوا الله فيما بينهم وبين الله، ولم يظلموا أحداً من عباده، ورأوا كل العباد عيال الله عز وجل، وكانوا أنفعهم لعيال الله، هؤلاء ربنا جل جلاله يحميهم من كل سوء، لذلك..

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضا من أحبنا
و لذ بحمانا و احتم بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

* * *

هذه قاعدة، في بيعك، في شرائك، في تجارتك، في صناعتك، في زراعتك، فالإنسان أحياناً بالزراعة يستخدم هرمونات ممنوعة، ينمو النبات نمواً كبيراً، ترتفع أسعار منتجاته، ترضي السوق، ولكنها على حساب صحة الناس، فهذا الذي لا يخشى الله فيما بينه وبين الله، ويبتغي ربحاً سريعاً، هذه في الزراعة. في الصناعة، يمكن أن تغش المسلمين وهم لا يدرون، حتى المهن الراقية، التي أصحابها مصدر ثقةٍ عند الناس، يمكن أن يستغل أحدٌ ضعيف النفس هذه الثقة فيجني أرباحاً طائلة من خلال اختصاصه، عندئذٍ لا ينجو من مصيبة مفاجئةٍ قد يكون فيها مظلوماً في هذه الناحية، ولكن في النواحي الأخرى ليس مظلوماً. إذاً، إذا كان سيدي رقيباً عليّ فلا أبالي بغيره.

وقال ابن عطاء الله السكندري: أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات. كما لو أن إنسان سافر لبلد، وهذا البلد فيه شدة بالغة، وصار هناك مَن يتبَعه، وهناك مَن يحصي عليه أنفسه، وحركاته، وسكناته، يشعر أن هناك مراقبة شديدة، المؤمن يشعر بمراقبة الله له، لذلك يخاف الله، يتأدَّب مع الله، ينضبط بشرع الله عز وجل، دقق في هذا الكلام أحد العلماء يقول: إذا جلست للناس فكن واعظاً لنفسك وقلبك، ولا يغرنَّك اجتماعهم عليك. لا تغتر بها، في دروس وفي خطب، يقول لك: عندي عشرين ألف، ثلاثين ألف، درسي خمسة آلاف، عشرة آلاف، ألفين، ألف، خمسمائة، قال: " إذا جلست للناس فكن واعظاً لنفسك وقلبك، ولا يغرنك اجتماعهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك " لا تغتر بهذا، هم يراقبون ظاهرك، والله مطلع على باطنك، على نواياك، لذلك مَن تعلَّم العِلم ليجادل به العلماء، أو يماري به السفهاء، أو ليصرف وجوه الناس إليه، فليتجهز إلى النار. دقق في نواياك، تعهد قلبك، لاحظ أحوالك.

القصة المعروفة: أن شيخاً له تلامذة ؛ بعضهم كبار متقدمون في السن، وله تلميذ صغير السن، كان يحبه حباً جماً، فعاتبه التلامذة الكبار فقال: ليذبح لي كل منكم طيراً في مكانٍ لا يراه أحد فيه، وليأتي إلي، فكلهم ذبحوا الطير هذا وراء الحائط، وهذا في غرفة، إلا هذا الشاب قال: والله يا سيدي، لم أجد مكاناً إلا والله يراقبني فيه، قال: هذا هو الذي امتاز عليكم به، شعوره أن الله معه دائماً.

تروي بعض الكتب أن امرأة العزيز حينما راودت النبي الكريم يوسف عن نفسه، غطَّت وجه صنمٍ كان لها، استحيت منه، فقال لها يوسف عليه السلام: مالكِ، أتستحين من مراقبة جماد ولا أستحي من مراقبة الواحد القهَّار.

رجل سأل الجنيد: بما أستعين على غض البصر ؟ فقال: بعلمك، أن نَظَر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه. أنت تنظر، وفي منظور، وفي ناظر فوقك، نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه، بهذه الحقيقة تستعين على غض البصر.

وقال الجنيد: إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف فوت حظه من ربه. وهذه كلمة دقيقة جداً، الحقيقة ما الذي يدفعك إلى طاعة الله ؟ ما الذي يجعلك تلتزم سبيل الاستقامة لا تحيد عنها أبداً؟ ما الذي يجعلك تحرص على الاستقامة ؟ هو أنه حينما اتصلت بالله عز وجل شعرت بهذه السعادة، وذاك القرب، وتلك الطمأنينة، وتلك الراحة، فأنت حفاظاً على راحتك، وعلى طمأنينتك، وعلى سعادتك، وعلى اتصالك بربك، تحافظ على طاعتك له، هذا ما قاله الجنيد، قال: إنما يتحقق بالمراقة مَن يخاف فوت حظه من الله.

الإنسان له رزق ؛ يأكل ويشرب، وهذا الرزق يستوي فيه المؤمن والكافر، بل يستوي فيه الإنسان وغير الإنسان، لكن الرزق الذي ينالك من الله عز وجل من سكينةٍ، من راحة، من طمأنينة، من جلاء همٍ، من راحة بال، سيهديهم ويصلح بالهم، من شعورٍ بأن الله يحبك، هذا العطاء الذي يذيب القلب، هذا العطاء إذا كنت حريصاً عليه حرصاً شديداً تلتزم سبيل الاستقامة، هذا حظك من الله، لذلك " ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوضه الله خيرٌ منه في دينه ودنياه " معنى في دينه، أن اتصالك بالله يبقى كما هو، شعورك بأنه يحبك هو هو، أما إذا خالفت منهج الله عز وجل، شعرت بأنك مطرودٌ من رحمته، وهذا هو اللعن الذي ذكره الله في القرآن الكريم:

(أولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ)

(سورة محمد: من آية " 23 ")

أي أبعدهم عن حضرته، الإنسان الفاسق في الدنيا ملعون، أي بعيد، وفي الآخرة محجوب..

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15))

(سورة المطففين)

والله أيها الإخوة... ما من عذابٍ يعذّب الإنسان بعد أن يصحو من غفلته في الدنيا، " الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا "، بعد أن تصحو من غفلتك في الدنيا، ما من عذابٍ أشد على النفس من أن تحجب عن الله عز وجل، مصداقاً لقول الله عز وجل:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15))

(سورة المطففين)

أحد العلماء سئل عن المراقبة، فقال: أولها علم القلب بقرب الرب. إذا علمت أن الله معك، مر معي حديث شريف:

((أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله تعالى معه حيث كان))

(من الدر المنثور: عن " عبادة بن الصامت ")

أي أعلى درجات الإيمان أن تشعر دائماً أن الله معك، فإذا شعرت أن الله معك انتهى كل شيء، استحييت منه، صار في خجل، في حياء، في طاعة، في ورع، صار في إقبال، في قرب، صار في ذكر.

يروى أن الله تعالى قال لملائكته: أنتم موكّلون بالظاهر، وأنا الرقيب على السرائر. الظاهر للملائكة، وللخلق، أما السرائر، لله عز وجل، لذلك يقول العامة: الله رب النوايا. الصافي، البريء، المخلص، الله عز وجل يتولاّه، لأنه رب النوايا الطيبة.

أحدهم قال: اجعل مراقبتك لمَن لا تغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمَن لا تنقطع نعمه عليك، واجعل طاعتك لمَن لا تستغني عنه، واجعل خضوعك لمَن لا تخرج عن ملكه وسلطانه ـ اخضع لمن لا تستطيع أن تخرج عن ملكه وسلطانه، أنت في قبضته ـ واشكر مَن لا تنقطع نعمه عنك مع كل نفس.
دققوا أيها الإخوة، إذا الإنسان أفرغ مثانته هذه نعمة لا يعرفها إلا من أصيب بالفشل الكلوي، هذا الذي يضطر أن يغسل دمه كل أسبوع مرتين في المستشفى، وأن ينتظر ثماني ساعات إلى أن يأتي دوره، ومع ذلك عشرين بالمائة من (الأسيد أوريه) حمض البول، يبقى في الدم وهذه النسبة تسبب له التوتر العصبي، وضيق النفس، وسوء الأخلاء، لأن حمض البول إذا كثر في الدم له مضاعفات خطيرة جداً، فالإنسان إذا أفرغ مثانته وقال: الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني، وأبقى لي ما ينفعني. مع إفراغ المثانة، مع تناول الطعام، مع الاستلقاء، مع النوم، نعمة النوم لا يعرفها إلا من فقدها.

قال لي شخص: سافرت لبلد غربي وبقيت عشرين يوماً لم أذق طعم النوم، لم أدع طبيباً إلا وسألته، فيقول لي: الوضع جيد، الأجهزة سليمة، لكن هذه حالة قلقة، نفسية متوترة. إذا الإنسان يوم ما نام، ثاني يوم يشعر أنه مختل توازنه، لا يستطيع أن يفكر، إذا واحد يوم ما نام، أثناء الحج كان إقلاع الطائرة الثانية ليلاً، لم نتمكن من أن ننام، إعدادا الحاجات، و أقلعت الساعة السابعة صباحاً، الموعد الساعة الثانية، الإقلاع الساعة السابعة، ونهار مستمر، في المطار.. إلخ، يشعر الإنسان أنه كيانه كله مسدود، لا يقوى على التفكير، فكيف إذا ذهبت نعمة النوم ؟ إذا الإنسان شعر أن الله عز وجل تفضل عليه بنعمة الصحة، ونعمة الإيجاد..

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1))

(سورة الإنسان)

نعمة الإمداد ؛ بالهواء، بالماء، بالأجهزة، بالأعصاب، بالشرايين، بالقلب، بالرئتين، بالزوجة، بالأولاد، بالمأوى، بالدخل، بالحرفة.. إلخ، نعمة الإرشاد ؛ دلك عليك، أرشدك إليه، ساقك إلى بابه، دلك على أحبابه، نوَّر قلبك بنوره، وسَّع عقلك بكتابه، أليست هذه نعم لا تعد ولا تحصى ؟ يا إخوان، المؤمن دائماً

ممتن من الله عز وجل، إن سألته عن أحواله يقول لك، وكل خلية تنطق بهذه الكلمة: الحمد لله، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، الحمد لله على نعمة العقل، ونعمة الهدى، ونعمة الصحة، ونعمة الاستقرار، ونعمة السمعة الطيبة، ونعمة راحة البال، هذه كلها نِعَم..

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

(سورة إبراهيم: من آية " 7 ")

" ولا يغيِّر الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم "، ليطمئن أحدكم، القلق أيها الإخوة دمر النفوس، كتاب ألف في أمريكا اسمه (دع القلق وابدأ الحياة) ألفه (دييل كارينجي) طبع من هذا الكتاب خمسة ملايين نسخة، ماذا يعني هذا الرقم ؟ يعني أن القلق مرض العصر، توقع المصيبة مصيبة أكبر منها، أنت من خوف الفقر في فقر، وأنت من خوف المرض في مرض، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها، ونعمة الأمن هي نعمة خالصة لمَن ؟ للمؤمن، والدليل:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ)

(سورة الأنعام)

لو أن الله قال: أولئك الأمن لهم. ماذا يعني: أولئك لهم الأمن، بين الأمن لهم ؟ حصر، الأمن لهم ولغيرهم، أما أولئك لهم الأمن وحدهم.

(وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

(سورة الأنعام)

أيها الإخوة... قول الله عز وجل:

(أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4))

(سورة قريش)

نَم، ولست خائفاً، إذا واحد ارتكب جريمة وتوارى عن الأنظار، قد تأتيه حالة من شدة الخوف، والكوابيس، والآلام النفسية يذهب ليسلم نفسه ويستريح، لذلك:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112))

(سورة النحل)

الذي ينام مساءً مطمئن، لا لأنه قوي، لا، بل إلى رحمة الله، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتقي الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس، أن تشعر بالغنى الحقيقي، فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، قال لي أحدهم قبل يومين، قرأ كلمة أو سمعها من إنسان أعجبتني: واحد سألك آخر من أفقر الناس ؟ مَن هو الفقير ؟ قال له: الفقير الذي لا مال له، هذا

الفقير، صحيح، قال من أفقر منه ؟ قال: الذي لا يملك إلا المال، غني فقط،ولكنه جاهل، هذا أفقر من الفقير، الفقير من ليس له مال، لكن الأفقر منه مَن لا يملك إلا المال، يملك أموال طائلة، ولكن لا يملك شيئاً آخر ؛ لا علم، ولا حكمة، ولا رحمة في قلبه، ولا فهم، ولا عقيدة صحيحة، ولا استقامة، ولا فهم لكلام الله، هذا أفقر من الفقير، لهذا سيدان علي قال: " الغنى ولفقر بعد العرض على الله " لا يسمى الفقير فقيراً إلا بعد الموت، ولا يسمى الغني غنياً إلا بعد الموت، لأن الغنى هنا عرضي، " الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البر والفاجر، والآخرة وعد صادق يحكم فيه ملك عادل ".

إذاً: اجعل مراقبتك لمَن لا تغيب عن نظره مرة، واجعل شكرك لمَن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل طاعتك لمَن لا تستغني عنه، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه أبداً.

لذلك قال أحد الصالحين، قرأ حديثاً لرسول الله، استغنى به عن أربعمائة ألف حديث، حديث واحد، رواه الشبلي، قال:

((اعمل لدنياك بقدر بقاءك فيها. كم سنة ؟ واعمل لآخرتك بقدر مقامك فيها، واعمل لله بقدر حاجتك إليه، واتق النار بقدر صبرك عليها))

الله عز وجل، إذا قلت لفلان: ما أعدله !! هذه الصيغة ما نوعها ؟ ما أكرمه !! صيغة تعجب، ما أكرمه!! ما أعظمه !! في صيغة أخرى نظامية، صياغة أساسية: ما أكرمه، وأكرم به !! ما أعدله، وأعدل به !! ما معنى:

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا)

(سورة مريم: من آية " 38 ")

الآن:

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18))

(سورة البقرة)

ويوم القيامة:

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا)

(سورة مريم: من آية " 38 ")

ما أشد سمعهم الآن، ما أشد إدراكهم..

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22))

(سورة ق)

صيغة: ما أفعله !! صيغة تعجب، ربنا عز وجل قال:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175))

(سورة البقرة)

يعني كيف الإنسان يعصي الله وعقله برأسه ؟ أتحتمل النار ؟! أتحتمل لسعها ؟! أتحتمل وهجها ؟! أتحتمل حرها ؟! أحياناً ترتفع درجات الحرارة فوق معدَّلها، الناس يضجون، ويقولون: شيء لا يطاق، لم أنم للساعة الثالثة، نمت على الأسطوح. لا يتحمل، الله عز وجل أحياناً يذيقنا بعض الحر، لا نحتمل، فكيف بحر النار ؟! اعمل لله بقدر حاجتك إليه، اتق النار بقدر صبرك عليها، أعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، اعمل للآخر بقدر مقامك فيها.

قال أحد العلماء: لم يتزيَّن القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله يشاهده. فأحمل شعور ينتاب القلب هو أن تشعر أن الله يراقبك، أن الله معك، لذلك ورد في بعض الأحاديث القدسية:

" أن يا عبدي حسنت منظر الخلق سنين ـ الذي يدهن بيته، لماذا يدهنه ؟ في واحد ساكن بطابق من أبنية دمشق، فيبدو أن المدخل صار طلاؤه قديم، مزعوج من مدخل البناية، يقول لك: مدخل لا يليق، فجمع سكان البناية، أول جلسة، وثاني جلسة، وثالث جلسة، وأقنعهم أن يساهموا جميعاً في طلاء المدخل وتزيينه، ووضع أزهار وأصص، ولوحات على مدخل البناية، وإضاءة، وباب يفتح بطريق آلي، بدأ يعمل، ويعمل، ويعمل، وكان دعواه: لو صار عندنا لازمة بالبناية فو الله شيء مزري، يأتي الناس المعزين لهكذا مدخل، ولهكذا باب، وهكذا حوائط، فإلى أن انتهى البناء من الطلاء، والتزيينات، والتركيبات، والترتيبات، والأجهزة الكهربائية في فتح وإغلاق الأبواب، ما مضى يوم أو يومان على انتهاء الورشات من أعمالها، حتى وافته المنية، فكان كل هذا من أجله، فالإنسان ضعيف، اعمل لدنياك بقدر بقائك فيها.

قال سئل بعضهم: ما معنى قوله تعالى:

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (8))

(سورة البينة)

قال: معناه لمن راقب ربه. متى رضي الله عنك ؟ رضي الله عنك حينما استقمت على أمره، فلما استقمت على أمره، وأكرمك بما أكرمك به، رضيت عن الله، رضي الله عنك ؛ راقبته، فاستقمت على أمره، فرضي عنك، وبعد أن رضي عنك، رضيت عنه أنت، رضي الله عنهم ورضوا عنه.

سئل أحد العلماء: بمَ ينال العبد الجنة ؟ قال بخمس ؛ استقامة ليس فيها روغان، أحياناً الإنسان يجر المال إلى جانبه، ويستخدم القيم الدينية، يشعر بالحاسة السادسة، إذا القضية تنحل بالقضاء يقول: أنا أريد القضاء، نحن ببلد وفي قضاء، وإن شعر أن القانون ليس معه، لكن أحكام الشريعة تنصره، تجده يقول: أنا أريد شرع الله، أنا أريد الشرع، يكون عارف أن الشرع بجانبه، فإذا علم أن القانون إلى جانبه احتكم إلى القانون، وإذا علم أن الشرع إلى جانبه احتكم إلى الشرع، هذا اسمه روغان، هذا اسمه ختل، هذا اسمه تلبيس، تدليس، سئل أحد العلماء: بمَ ينال العبد الجنة ؟ قال: بخمس، استقامةٍ ليس فيها

روغان... قال لي شخص: دخل لبائع غرف نوم، فالغرفة فيها سريران قال له: لو أردت سريراً واحداً قال له نخصم لك ألفين ليرة، غرفة ثمنها مائة ألف نخصم لك ألفين ليرة، غبت عنه شهر وقلت له: شاف غرفة سرير واحد، لو أريد سرير: اثني عشر ألف، لماذا تلغي سرير انحسب ألفين، وتريد تضيف سرير صار اثني عشر ألف، هذا روغان، ختل، المستقيم دائماً يرفع رأسه، عزيز عند الله وعند الناس...

قال: استقامة ليس فيها روغان، واجتهاد ليس معه سهو... مجتهد دؤوب، أحياناً الإنسان يقبل على الدين بفورة، هذه مشكلة، هذه الفورة الله أعلم، شهر، شهرين، ثلاثة، ثم تجده همد، أنت تعامل الله عز وجل، لابد من الثبات يقول العوام: الثبات نبات، مَن لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة، الثبات يعمل تراكم، تراكم، تراكم علم، تراكم فهم، تراكم فضل، تراكم إقبال، تراكم استنارة، مع التراكم، مع الاستمرار، مع الثبات، لذلك الإنسان أحياناً يرتدي ثيابه ويخرج من بيته، كم مرة خروج ؟ في مليار خروج، خرج يدفع الكهرباء، خرج يداوم بوظيفته، خرج يشتري لحمة، خرج يزور صديق، خرج ضايق خلقه يتنزه بالطرقات، خرج، خرج..إلخ، أشرف خروج تخرجه من بيتك إذا توجهت إلى طلب العلم، " إن طالب العلم تضع له الملائكة أجنحتها رضا بما يصنع ".

لذلك:... واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة لله تعالى في السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب، بهذه الخصال الخمس تستحق الجنة.

قال بعض الشعراء:

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ول ا أن ما تخفيه عنه يغيب

ألم ترى أن اليوم أسرع ذاهب وأن غداً لناظره قريب !!

* * *

لذلك.. " مَن لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله ".

اسمعوا أيها الإخوة هذا الكلام الخطير، قال: إذا كنت عصيت الله خالياً، واحد عصى الله خالياً، في البيت وحده، وفتحت نافذة من نوافذ الجيران، فإذا امرأةٌ خلف النافذة، فنظرت إليها، وملأت عينيك منها، وأنت في البيت وحدك، ولا أحد يطلع عليك، قال: إذا عصيت الله خالياً ظننت أنه يراك إذا عصيته، وظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمرٍ عظيم، ولئن كنت تظن أنه لا يراك فقد كفرت. أي إذا الإنسان عصى الله خالياً إما أنك اجترأت، وإما أنك كفرت، يعني إذا اعتقدت أنه لا يراك فهذا كفر، كفر بكلام الله..

(وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (16))

(سورة الحجرات)

(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16))

(سورة ق)

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ)

(سورة الأنفال)

إذا توهَّمت أن الله لا يراك فقد كفرت، وإن علمت أنه يراك وقد عصيته فقد اجترأت، فالذي يعصي الله خالياً إما أن قد اجترأ، وإما أنه قد كفر.

قال: عليك بالمراقبة مما لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء مما يملك الوفاء، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة. فالمنافق ينظر، فإذا لا يوجد أحد يلغي طاعة، إذا ما في أحد ينظر، يطلق بصره، دائماً يشعر بمراقبة الناس له، قال: إن المنافق ينظر، فإذا لم يرَ أحد دخل مدخل السوء، وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله عز وجل. وهذه القصة أرويها كثيراً جداً، وأحياناً من الطرائف أنني أقرأ قصة وأرويها كثيراً، وأنسى من أين قرأتها، فأنا أقرأ هذه القصة من سنوات، ولكنني لا أدري أين هي، هنا الآن وجدتها، قال:

خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة، فعرَّسنا في بعض الطريق ـ معنى عرسنا أي جلسنا نستريح ـ فانحدر عليه راع من الجبل، فقال له:

ـ يا راع بعني شاة من هذا الغنم.

ـ فقال: إني مملوك.

ـ فقال: قل لسيدك أكلها الذئب.

ـ فقال: أين الله ؟ الله موجود.

قال: فبكى عمر، ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال: أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة، وأرجو أن تعتقك في الآخرة. هذه الكلمة: ولكن أين الله ؟

هذا هو الدين كله، إن قلت لي: يا أستاذ لخِّص لنا الدين كله. أقول لك: أن تراقب الله. لذلك التعامل مع المؤمن شيء مريح، مرة لزمني أطلي الدار، فأرسلت الأهل لبيت أهلهم، وأنا بعملي، وأخ كريم من إخواننا المؤمنين يطلي، البيت كل شيء فيه، لم أغلق شيء، فالجيران انتبهوا سألوني ؟! قلت لهم: هذا مؤمن، ما معنى مؤمن ؟ أي ثقتي به كثقتي بنفسي، هذا المؤمن، أي لا يمكن أن يأخذ قشة، هذا المؤمن، هذا الحد الأدنى وليس الأعلى، هذا الحد الأدنى، فبين تقعد مع الدهان وتراقبه، كم سطل دهان أحضرت، وإذا خرج من البيت تنظر ماذا أخذ معه، في واحد ذبح بطيخة وجورها ووضع فيها الدهان، معه بطيخة وأخذ فيها الدهانات، لا ترتاح، إذا أنت عندك أخ مؤمن وأحب أن يشتغل ببيتك، شيء مريح جداً لأنه يراقب الله، لا يكذب، لا يغش، ما في حاجة ما اشتراها، لا يرفع السعر عليك، ويقول: هذا

غشيم، لبسناه، لا يقدر، فإذا أنت تعاملت مع إخوانك المؤمن تشعر براحة كبيرة، نائم على ريش نعام، كلام التجار مرتاح، وإذا واحد غير مؤمن، فكأنك في معركة، خائف من كل حركة من حركاته.

قال لي واحد: أردت أن أحفر بئر بأرض، أحرنا حفار أبيار وليس حفار قبور، أحضرنا حفار مع الآلة والسيارة، حفر، حفر، حفر، ثم قال له: والله طلعوا ستة وثمانين متر، الحمد، كل متر له مبلغ باهظ، قال لي: أراد تركيب القمصان للبئر، قال له: احضر لي ستة وثمانين متر قمصان، فسأله: متى التركيب ؟ قال: بنصف الليل، هذا أنسب وقت من أجل الرطوبة، وغيرها، قال له: أنا سوف أنام اليوم عندك، فهو بيته بالشام وعنده مزرعة، لما اضطر ينام عنده، هذا الحفار حافر خمسين متر فقط، ويريد أن يأخذ ثمن ستة وثلاثين متر، ويأخذ بسيارة الستة وثمانين المتر حديد القمصان ليبيعهم، يريد أن يغشه مرتين ؛ مرة بأجر الحفر، ومرة بأجر القمصان، فلما رآه قاعد ما توقعها، فقال له: والله يظهر القسم السفلي أضيق قليلاً، اذهب وأحضر لي ستة وثلاثين متر قمصان أضيق. فقال لي: والله ما فهمت عليه، وجبت ثاني يوم، فأدخل هؤلاء بهؤلاء، هذا لا يراقب الله.

تشعر أنك إذا عاملت شخص ما فيه دين، يريد أن يذبحك ذبح، يريد أن يقدم لك أقل شيء بأغلى سعر، تعامل مع المؤمن تجده صادق فيجب أن تربحه هذا المؤمن. يا أخواننا، فأن تقول: هذا أخونا بالجامع ولا تربحه، هذه قلة مروءة، فمن أين يعيش إذاً ؟ يجب أن تربحه، تربحه ربح معتدل ولكن هو لا يغشك، ولن يكذب عليك، ولن يضرَّك.

فلذلك... عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية. أصحاب المصالح المؤمنون ما فيه يكذب، أحد إخواننا كان يلف محركات، فقبل التوبة، أو قبل الصلح مع الله وأحب هذه العبارة، قبل الصلح مع الله أحياناً يأتيه محرك، هذا المحرك ما فيه شيء، هو توهم أنه محروق، مقطوع فيه شريط، أفتحه أجده مقطوع، ألحمه بالكاوي خمسة دقائق، بعد جمعة يأتي أعمله صرعة: شغل، اشتغل، كان رايح فحم، يأخذ خمسة آلاف، لكن بعد الصلح مع الله تأتي هكذا محركات، أقول له: خمسة وعشرين ليرة، فيقول الزبون له: قلت لي خمسة آلاف، فيقول له: ظهر أن لا شيء فيه. هذا المثل البسيط، لا يقدر، ما عنده إمكانية يتكلم بخلاف الواقع، هذا المؤمن، فهذا البدوي الراعي، لما قال له: أين الله ؟ والله هذا الأعرابي أيها الإخوة وضع يده على جوهر الدين، وهذا هو الدين كله أن تراقب الله، تراقبه فأنت مؤمن.

أيها الإخوة الأكارم... السعيد منا مَن راقب الله عز وجل، هذا الدرس يضعنا جميعاً أمام مسؤوليَّاتنا، اجهد أن تشعر أن الله معك، وأن تراقبه في كل مكان، وفي كل زمان، في خلوته وفي جلوته، منفرداً ومجتمعاً، في بلد إقامتك وفي سفرك، في أحوالك كلها، فإذا راقبته أول ثمرة من ثمار المراقبة: الاستقامة، والاستقامة عين الكرامة، أول ثمرة من ثمار المراقبة أنك تستقيم على أمر الله، وإذا استقمت على أمر الله فقد حققت الهدف من وجودك، لأن الله عز وجل قال:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات)

والعبادة خضوع لله عز وجل وحب له، فلذلك مَن لم يكن مستقيماً على أمر الله فهذه علامة أن مراقبته لله ضعيفة، إذا شعر أن الله في السماء ونحن في الأرض، وأن الله لا يعلم، أو أن الله يعلم ولكن لن يحاسب، أو أن الله يعلم ويحاسب ولكن ماذا أفعل، غلبتني نفسي ؟ يعلم ويحاسب وغلبتني نفسي، أو يعلم ولا يحاسب، أو لا يعلم، هذه كلها أمراض خطيرة تقتضي المعالجة والانتباه، فالحال نفسي، المراقبة له مظهر مادي، المظهر المادي الاستقامة، في مراقبة من الداخل إذاً في استقامة من الخارج، الاستقامة ضعيفة، المراقبة ضعيفة، وكأن مؤشر الاستقامة مع مؤشر المراقبة متلازمان، فكلما ازدادت مراقبتك لله عز وجل ازدادت استقامتك، وإذا استقمت على أمر الله فقد أفلحت في الدنيا والآخرة، وفزت في الدنيا والآخرة، ونجحت في الدنيا والآخرة، وتفوقت في الدنيا والآخرة، وهذا الذي خلقنا من أجله، وفي درس قادم نتابع موضوعات إحياء علوم الدين، والله الموفق.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (046) :الأخلاق الإسلامية4 - الأخلاق الإجتماعية.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-08-31

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... مع الدرس الرابع من دروس الأخلاق الإسلامية، وقد انطلقنا قبل حين، قبل عدة أسابيع من الأخلاق الجماعية التي دعا إليها الإسلام، هناك أخلاقٌ فيما بينك وبين الله، وهناك أخلاقٌ فيما بينك وبين الجماعة، يعني ربنا جل جلاله حينما خلق الإنسان فطره فطرةً جماعية، فإذا استجاب لهذه الفطرة، فقد حقق منهج الله عزَّ وجل، وإن لم يستجب، وعاش في عزلةٍ شديدة، والعزلة أيها الإخوة عن المجتمع الصالح، العزلة عن الجماعة المؤمنة، العزلة عن المجتمع الإسلامي، العزلة عن أهل الإيمان، العزلة عن أهل التقوى، العزلة عن الصالحين، هذه عزلةٌ تسبب أمراضاً نفسية وبيلة، يقع في رأسها الأوهام، الشخص المنعزل يعيش في أوهام، إما أنه يمجِّد ذاته، وإما أنه يحتقر ما عند غيره، لأنه لم يتصل به، أهواؤه تملي عليه تضخيم ذاته، وأهواؤه تملي عليه تقليل حجوم الآخرين، يكفي أنه عاش في أوهام لا علاقة لها بالواقع، والعلم كما تعلمون أيها الإخوة هو ما طابق الواقع، المقياس الدقيق للعلم هو ما طابق الواقع.

فمثلاً كنت مرةً فسرت العلاقة العلمية، العلاقة العلمية هي علاقة قطعيَّةٌ وليست ظنية، تطابق الواقع، عليها دليل، معنى قطعية أي خرج منها الوهم، وخرج منها الظن، وخرج منها الشك، فالوهم أقل شيءٍ، والشك، والظن، فلا ظن، ولا وهم، ولا شك بل قطع.

تطابق العلاقة مع الواقع، إن لم تطابق فهو الجهل، تعريف الجهل، أكثر الناس يظنوا الجهل خلو الذهن من المعرفة، هذا ليس جهلاً، أما الجهل أن تعتقد اعتقادات لا يؤكدها الواقع، أن تعتقد اعتقادات لا يدعمها الواقع، أن تكون اعتقاداتك، تصوراتك بعيدةً عن الواقع، تعريف الجهل هو ما خالف الواقع، فهذا الضوء الأحمر في المركبة، الذي إذا تألّق أشار إلى خطرٍ كبير، إلى أن زيت المحرك قد انتهى، فإن لم تقف فوراً، وإن لم تضف للمحرك الزيت المناسب، احترق المحرك، فإذا اعتقد أحدهم أن هذا الضوء الأحمر إذا تألق فمن أجل أن يسلّي السائق في الطريق، زينة، أليس هذا الاعتقاد جهلاً ؟ هذا هو الجهل ؛ أن تعتقد شيئاً خلاف الواقع، وحينما تعتقد شيئاً خلاف الواقع فإنك تقع في الهلاك، هذا المثل البسيط إن توهمت وظننت أن هذه المصابيح التي أمام السائق تتألق بلونٍ أحمر من أجل أن تسلي السائق في الطريق، وهي في الحقيقة إذا تألّقت باللون الأحمر أشارت إلى خطرٍ كبير. اعتقادك الذي هو خلاف الواقع يسبب هلاك هذه المركبة.

فالجهل أولاً ما خالف الواقع، والظن والشك والوهم خلاف القطع، فأيَّة علاقةٍ بين شيئين مقطوعٌ بصحتها يؤكدها الواقع عليها دليل، إن تخلَّف الدليل فهو التقليد، وإن تخلف الواقع فهو الجهل، وإن تخلف القطع فهو الظن والوهم والشك، فالعلم لا ظنَّ، ولا شك، ولا وهم، الوهم بالمائة ثلاثين، الشك بالمائة خمسين، الظن بالمائة ثمانين، غلبة الظن بالمائة خمسة وتسعين، لكن القطع شيءٌ فوق كل ذلك، أي حقيقة ثابتة مائة بالمائة، فالإنسان حينما يبتعد عن المجتمع الصالح يعيش في أوهام، عندئذٍ يضخِّم ذاته، عندئذٍ يقلل ما عند الآخرين، عندئذٍ تنشأ بينه وبين المجتمع هوةٌ كبيرة وسحيقة، لذلك من علامات الصحة النفسية أن يكون في الإنسان جانبٌ اجتماعي، في العلاقات الاجتماعية تتأكَّد الصحة النفسية.

إذاً لو قرأنا كتاب الله عزَّ وجل، وقرأنا حديث النبي عليه الصلاة والسلام لوجدنا أن هناك جانباً كبيراً جداً يؤكِّد الأخلاق الاجتماعية، ولازلنا في الحديث عن الأخلاق الاجتماعية، وقد أمضينا في الدرس الماضي وقتاً طويلاً حول قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (59))

(سورة النساء)

لذلك الشرع الحكيم أراد أن تكون الجماعة منظمة، فكل ثلاثةٍ لهم أمير.. " إن كنتم ثلاثة فأمروا أحدكم ".. لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع أميري فقد أطاعني، ومن يعصي أميري فقد عصاني))

(من الجامع لأحكام القرآن: عن " أبي هريرة ")

معنى ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام حقيقته تشفُّ عن الحق، والداعية الصادق يجب أن يشف بأمانةٍ بالغة عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم، لأن النبي يشف عن الحقيقة الكبرى، إذاً طاعته عَين طاعة الله، ومعصيته عين معصية الله، وإذا كان الداعية الصادق يشف عن حقيقة النبي بسنته الفعلية، والقولية، والإقرارية، فهذا الداعية أيضاً طاعته عين طاعة رسول الله، إذا جاءك بالدليل طبعاً: يا بني هذه القضية حكمها كذا وكذا لقول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح كذا وكذا. أنت عندئذٍ تطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما هذا الداعية، أو هذا المرشد، أو هذا الإمام، إلا ناقلٌ أمين لسنة النبي عليه الصلاة والسلام.

لكن في نقطة دقيقة جداً، قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس، قال:

((من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحدٌ يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية))

فأحياناً نقول لفتاةٍ فرضاً: بقاؤك في بيت أبيك أفضل من أن تعيشي وحدكِ. في بالبيت مشكلة، الأب قاسي قليلاً لكن الخيرات التي تجنيها الفتاة من إقامتها في بيت أبيها، أفضل بكثير من أن تبقى مشردة في الطرقات، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام ـ أقولها دائماً ـ معصومٌ بمفرده، وأمته معصومة بمجموعها، فلا يستطيع أحدٌ على وجه الأرض كائناً من كان مهما علا قدره أن يدعي العصمة، إذاً مادام أحدٌ في العالم الإسلامي بعد النبي عليه الصلاة والسلام ليس معصوماً، إذاً أنت كلما رأيت شيئاً تكرهه من إنسان قل: هذا من عدم اتباعه للنبي، وكلما رأيت شيئاً تحبه في الإنسان قل: هذا من اتباعه للنبي، النبي كماله مطلق، لماذا ؟ لأن تولى الله جل جلاله أن يكون النبي مشرعاً، وألا ينطق إلا عن وحي يوحى لا عن هوىً، وقد تولى الله عصمته، وتكميله، وتأديبه، وجعله قدوةً لنا، معصوماً في أقواله، وأفعاله، وتصرفاته، وإقراراته، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام يُتَّبَع بلا توقُّف لأن معه كتاب الله، ومعه وحيٌ، وأمرنا كلام الله عزَّ وجل أن نتبعه..

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: من آية " 7 ")

لكن ما سوى النبي ليس معصوماً، فلذلك الإنسان حينما يعتقد العصمة بغير النبي يقع في مغامرةٍ ومقامرة، أما إذا اعتقد أن النبي وحده معصوم، وأن أمته بمجموعها معصومة، فالشيء الذي تكرهه من زيدٍ فهو من عدم عصمته، الشيء الذي تكرهه من عُبَيدٍ فهو من عدم اتباعه، والشيء الذي تحبه بزيد فمن اتباعه، والذي تعشقه في عُبيد من متابعته للنبي عليه الصلاة والسلام، هذه العقيدة المتوازنة تعمل صحة نفسية، تتعامل مع الناس تعامل صحي، تعامل مبني على الواقع، هكذا الواقع، لذلك كل بني آدم خطَّاء، والحقيقة الإنسان لو فرضنا ما أخطأ لاحتجنا من الدقة والحرص على أن يبقى مستقيماً استقامةً تامة الشيء الكثير، عندئذٍ وقع في ذنبٍ خطير وهو لا يدري وهو العجب، قال عليه الصلاة والسلام:

((لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر ـ ما هو الذي أكبر من الذنب ؟ ـ العجب))

(م أحاديث الإحياء: عن " أنس ")

لذلك حينما لا تخطئ إطلاقاً، وتعتقد أنك فوق الناس، وقعت في ذنبٍ أقبح من الذنب الذي تخافه وهو العجب، فلذلك العبودية لله تقتضي أن تعتقد أنك ضعيف، لكنك إذا كنت مع الله فأنت القوي، أن تعتقد أنك جاهل، لكن الله إذا أمدك بالعلم فأنت العالم، أن تعتقد أنك مقصر، لكن الله إذا أخذ بيدك فأنت المتفوق، هذا معنى قول العارف بالله:

وما لي سوى فقري إليك وسيلة فبالافتقار إليك فقري أدفعُ

وما لي سوى قرعي لبابك حيلة فإذا رددت فأي بابٍ أقرع؟

* * *

مثل من الأمثلة: الإنسان حيال النساء في الطريق، إذا اعتقد أنه مُحَصَّن، لا يتأثر، شهوته تحت قدمه، آخذٌ بقياد نفسه، هذه العقيدة تورثه كِبراً، هذا الكبر يقتضي التأديب، وكيف يكون التأديب ؟ عن طريق تضعيف مقاومته، فجأةً تضعف مقاومته، تزل قدمه، يقع في شر عمله، ينكسر، فيبكي، إنك حينما أعجبت بنفسك لابدَّ من أن تعالج بتضعيف مقاومتك، لذلك الله عزَّ وجل قال:

(وَاصْبِرْ)

(سورة النحل: من آية " 127 ")

ما معنى (واصبر) ؟ اصبر على ماذا ؟ المطلق على إطلاقه، العلماء عندما تحدثوا عن الصبر قالوا: هناك صبرٌ على الطاعة، وهناك صبرٌ عن المعصية، وهناك صبرٌ على أمر الله التكويني، جعل الله أحدهم عقيماً نقول له: اصبر، ابتلاه بزوجة سيئة نقول له: اصبر، والدنيا خضرةٌ نضرة الفتن فيها مستعرة، نقول له: اصبر عن الشهوة، واصبر على الطاعة، واصبر على أمر الله التكويني، اسمعوا، أكملوا الآية:

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ)

(سورة النحل: من آية " 127 ")

إلا بالله، فالصبر من نِعَم الله عزَّ وجل، لهذا كان سيدنا عمر رضي الله عنه إذا أصابته مصيبة قال: " الحمد لله ثلاثاً ـ يا رب لك الحمد ثلاث مرات ـ الحمد لله إذا لم تكن في ديني ـ يا رب لك الحمد ليست في ديني، بالمال، بالمحل التجاري، بتلك الوكالة، بهذه الصفقة، بجرحٍ بسيط يلتئم، لكن بالدين ؛ ترك الصلاة !! هذه مصيبة المصائب ـ والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ ألهمت الصبر عليها " سيدنا عمر يعلم أن الصبر بيد الله..

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ)

فإذا أنت انطلقت من كتاب الله أنه أنا أصبر عن الشهوة، أصبر عن المعصية، لكن بالله، تبقى في عبودية، في تواضع، في إنابة إلى الله، في نعومة، أما حينما تستقيم وتعتد باستقامتك، وترى أنك من طينةٍ أخرى غير هؤلاء الناس، أنت فوقهم، بهذا يكون الإنسان وقع في ذنبٍ أصعب من الذنب الذي يخافه وهو العجب لهذا:

((لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أكبر العجب العجب))

(من أحاديث الإحياء: عن " أنس ")

الموقف الكامل موقف سيدنا يوسف:

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33))

(سورة يوسف)

هذا كلام نبي، فأنت إذا انطلقت، الآن الواحد عندما يطلع من بيته أدعية النبي رائعة جداً، من الدعاء المأثور إذا خرجت من البيت أن تقول: " اللهم إني أعوذ بك من أن أضل أو أضل، أو أذل أو أذَل، أو أجهل أو يجهل علي " ممكن الواحد يجهل، ممكن أن يُجْهَل عليه، يغذى تغذية سيئة ويصدقها، فإذا هو كالطفل الصغير، أعوذ بك من أن أضل أو أضل، أو أذل أو أذَل، أو أجهل أو يُجْهَل علي. أي يجب أن تعرف ماذا يعني مقام العبودية لله عزَّ وجل، مقام العبودية لله أن تكون مفتقراً إلى الله حتى في طاعتك لله.

الشيء الثاني من التوجيهات الإسلامية المتعلقة بالأخلاق الجماعية: لزوم الجماعة، الملاحظ أنت لك أن تتحقق من هذا، حينما تجد إنسان كامل، أخلاقي، ملتزم، صادق، أمين، وقَّاف عند كتاب الله، ابحث ودقق تجد أن لهذا الإنسان مشرباً دينياً، لهذا الإنسان جماعةٌ ينتمي إليها، لهذا الإنسان موردٌ يشرب منه، لهذا الإنسان مصدرٌ ثقافي إسلامي ينهل منه، لهذا الإنسان إخوانٌ يقوون عزيمته، قلما تجد إنساناً ملتزماً في أعلى درجات الصدق، والأمانة، والشهامة، والورع، والتقوى وهو يعيش وحيداً بلا مؤمنين يستمد منهم ويقوون عزيمته، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام أمر بلزوم الجماعة، في أمر أبلغ ؛ الله جل جلاله أمرك بلزوم الجماعة، فقال جل جلاله:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119))

(سورة التوبة)

وفي آياتٍ تعطي المعنى المخالف:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

(سورة الممتحنة: من آية " 13 ")

في آيات أخرى:

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)

(سورة المائدة: من آية " 51 ")

(لَا تَتَّخِذُوا آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ)

(سورة التوبة: من آية " 23 ")

نحن ما عندنا تعصب، أخوك مَن كان على شاكلتك، أخوك مَن شعر بمشاعرك، أخوك مَن شرب مِن مشربك، أخوك مَن أحب الله كما تحبه، أخوك مَن كان مصدقاً لدينك كما تصدق. فلذلك روي الإمام أحمد والترمذي بإسنادٍ صحيح عن الحارث الأشعري أنه قال: قال عليه الصلاة والسلام:

((آمركم بخمس، آمركم بالجماعة والسمع والطاعة))

الجماعة بلا سمع ولا طاعة كرؤوس البصل، كل واحد له رأي، إذا عزَّ أخوك فهُن أنت، أنت مصلحة المسلمين أقوى عندك من مصالحك الشخصية، مصلحة المسلمين، مصلحة جماعة المسلمين أقوى عندك من نزواتك الفردية، لذلك لو كنت مع إخوانٍ عدة في جلسةٍ مع بعض الناس، ورأيت أحد إخوانك انطلق لسانه وقوي بيانه، ودعا إلى الله، فأنت أحياناً تشعر بشعور ليس سليماً: يتكلم لوحده أنا ليس أقل منه فهم، أقاطعه وأدخل على الخط، أخوك انطلق لسانه، وانسجم، وأصغوا له، ووضع يده على الجرح، وبدأ يؤثر، أنا أظل ساكت، أنا ليس أقل منه، إذا عزَّ أخوك فهُن أنت، إذا أخوك انطلق عاونه أنت، اسكت، ادعمه لينهي موضوعه، ليقدم موضوعه بشكل جيد، لذلك الإنسان يراقب نفسه، أحياناً الأنا تدخل بشكلٍ سلبي في الدعوة إلى الله عزَّ وجل، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((آمركم بخمس بالجماعة، والسمع والطاعة، والهجرة))

ما هي الهجرة ؟ بمعناها الواسع جداً أن أنت ليس لك حق من تجلس مع أناس بعيدين عن الله عزَّ وجل.. " من أقام مع المشركين فقد برئت منه ذمة الله ".. " من هوي الكفرة حشر معهم ولا ينفعه عمله شيئاً ".

أنت مسلم، أنت تحمل شهادة عالية، هذا الاختصاص أمتك الإسلامية تعبت عليك حتى بلغت هذا المستوى، لا ينبغي أن تقيم مع الكفار، تقدم لهم خبراتك، علمك، طبك، لا، فيجب أن تقدِّم هذه الخبرات لأمتك، لمن نشأت فيها.

فلذلك:

((آمركم بخمس بالجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة))

طبعاً الهجرة بين مكة والمدينة أغلق بابها، إذا واحد راح على الحج ركب من مكة بالنقل الجماعي المكيف وراح على المدينة، هل يسمى مهاجر ؟ أنا هاجرت، لا، الهجرة أغلقت أبوابها بعد فتح مكة، ولكن الهجرة مشروعةٌ إلى يوم القيامة بين كل مدينتين تشبهان مكة والمدينة وقت الهجرة، الهجرة مشروعة ومفروضة بين كل مدينتين تشبهان مكة والمدينة وقت الهجرة.

ذات مرة أحد إخواننا الكرام ذهب إلى الحج، وحينما زرته بعد الحج وهذه من السنة قال لي: هذه حجة بدل عن والدي رحمه الله، أنا أعرف أن النبي أمر فقال:

((أي الوالدين أشد حقاً علي ؟ قال: أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك "))

فقال: لا، أنا بدأت بوالدي، فسألته: لماذا ؟ قال: والدي جاء بنا في أوقاتٍ عصيبةٍ حينما منعنا من أداء شعائر ديننا في بلد أوروبي فهاجر إلى بلاد الشام قبل مائة عام، أو قبل خمسين عام تقريباً، فأنا أعزو

إسلامي وتقواي وصلاحي إلى والدي الذي أنقذني من هذه البيئة، فأيَّة مدينتين يشبهان مكة والمدينة وقت الهجرة باب الهجرة بينهما مفتوح.

والمعنى الواسع جداً للهجرة، كما قال الله جل جلاله في الحديث القدسي :

((العبادةُ في الهرج كهجرةٌ إليّ))

(من الجامع الصغير: عن " معقل بن يسار ")

الآن مثلاً في المدينة في أماكن عامة، في حدائق، في متنزهات، نساءٌ كاسياتٌ عاريات، مائلاتٌ مميلات، في سهرات وراء أجهزة اللهو، أحدكم ترك كل هذا وجاء إلى بيت من بيوت الله، هذه هجرة..

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً (16))

(سورة الكهف)

فأنت حينما تلجأ إلى بيتٍ من بيوت الله، تلجأ لسماع درس علمٍ، فهذه هجرة بمعناها الواسع، إذاً:

((آمركم بخمس ؛ بالجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، وإنه مَن خرج من الجماعة قيد شبرٍ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثِيّ جهنم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم))

من دعا بدعوى الجاهلية ؛ الانحياز الأعمى إلى أية جهة لمصلحةٍ راجحةٍ عندك، من دعا بدعوة الجاهلية فقال: أنا ابن فلان، نحن بيت فلان، نحن القبيلة الفلانية، نحن العشيرة الفلانية..

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

* * *

قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يكن أحدكم إمَّعَة ـ مَن هو الإمعة ـ الذي يقول أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت، وإن أساءوا أسأت...))

(من زيادة الجامع الصغير: عن " حذيفة ")

وهذا لسان حال معظم الناس: أخي ماذا نفعل، هكذا كل الناس، يا أخي هذه الحفلة لا تجوز، ماذا نفعل هكذا الموضة، هذه الثياب فاضحة، هذا الجرنالات هكذا جاء فيها، ماذا نفعل ؟ هؤلاء هم الإمعة، أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم على أن تحسنوا إن أساء الناس، هذه البيئة والتقاليد والعادات إذا خالفت كلام الله فتحت أقدامنا.

والله حضرت عقد قران في خلال هذا الأسبوع، وأنا والله لا أبالغ أن ثمن الورود التي وقعت عليها عيني تكفي لزواج شابين أو ثلاث، لذلك العادات، والتقاليد، والأعراف إن وافقت الشرع فعلى العين

والرأس، وإن خالفت الشرع فتحت أقدامنا، فدائماً اعلموا علم اليقين أن العظماء من الناس، أن الأبطال الذين يسهمون بشكلٍ أو بآخر بإصلاح مجتمعاتهم داسوا بيئتهم بأقدامهم.

أنا سمعت عن قصة قريةٍ الآن والله أعجبتني، قال لي شخص: اجتمع وجهاء القرية في هذه الظروف الصعبة، ولا سيما كساد الفتيات، وصعوبة الزواج وصعوبة وسائله من بيتٍ، وأثاثٍ وما شاكل ذلك، فاجتمعوا، وقرروا أن مهر أيَّة فتاةٍ في هذه القرية لا ينبغي عن أن يزيد عن ساعةٍ ومحبسٍ ذهبي، وانتهى الأمر، هذا هو المهر، شيء جميل !

الآن نحن دائماً نخاف من كلام الناس، غرفة واحدة تكفي أفضل من الزنا، أحد الأطباء الكرام المؤمنين مختص بالأمراض البولية والتناسلية، فجمع بعض الإخوة الأكارم، وحدثنا عن مؤشرٍ خطير في المجتمع، قال: أنا طبيب في هذا الاختصاص منذ ثلاثين عاماً، في هذه السنوات العشر الأخيرة تفاقمت الأمراض الجنسية بسبب الزنا إلى عشرة أمثال، لأن طرق الزواج مُغْلَقة، نريد بيت، والبيت ثمنه أربع ملايين، لا نسكنها بزملكا، مَن أنت ؟ كل البلاد بلاد الله عزَّ وجل، كل البلاد بلاد الله، مأوى، الآن بالعالم المتقدِّم أرقى الناس يعيَّشون خارج المدينة، لا ضجيج، ولا تلوّث، فبعض المظاهر الصارخة هذه تعيق طريق الزواج، فالآباء الآن ما لم يجتمعوا، ما لم يقرروا، ما لم يُسَهِّلوا، ما لم يخَفِّفوا فهناك فتنةٌ عمياء.. " إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبير ".. فلذلك موضوع البيئة والتقاليد والأعراف هذه كلها تحت القدم إذا خالفت شرع الله عزَّ وجل، فتجد مَن يقول: أنا لا أعرض ابنتي. قال له:

(إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ)

(سورة القصص: من آية " 27 ")

نبي مُرْسَل، إذا كان شاب مناسب وأخلاقه عالية، وعندك بنت مناسبة له، يا ابني أنا عندي بنت ابعث أهلك يرونها، عندنا كبر، عمرها اثنين وعشرين، خمسة وعشرين، سبعة وعشرين، وأنا لا أقل كلمة، لذلك ورد بالحديث الصحيح:

((أفضل شفاعةٍ أن تشفع بين اثنين في النكاح))

(من الدر المنثور: عن " أبي رهم ")

أي أفضل عمل أن تسهم في تزويج شاب لمؤمنة، مؤمن لمؤمنة..

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

(سورة النور: من آية " 26 ")

فنحن الآن أمام تحديات العصر، لابد من أن نطبق ديننا ؛ في زواجنا، في أعمالنا، في كلمتنا التي نقولها، لا نكذب مهما كلف الأمر، مهما كلف الصدق من متاعب، ألا تريد مجتمع متميز، مجتمع الناس يرمقونه بعيونهم ؟ ألا تحب مجتمعاً يؤكد للناس عظمة هذا الدين؟! أنا أقول لكم الآن كل واحد منكم، "

أنت على ثغرةٍ من ثغر الإسلام "، كل واحد منكم حينما يقف الموقف الأخلاقي، الموقف الأصولي، الموقف الملتزم فهو داعيةٌ وأي داعية، تجد بكل مجتمع: والله فلان ما شاء الله حوله، ما هذه الأخلاق ؟ أنا في الحج لمحت رجل لونه، ولون عينيه، ولون جلده، وهيئته العامة لا تشير إلى أنه عربي، أي أنه غربي، فسألت، فإذا هو ألماني غربي، لكن لو نظرت إليه وهو يطوف بالبيت، ويسعى، ويبكي، سألنا، فله قصَّة، قصة هذا الحاج الألماني الغربي الذي يطوف بالبيت ويبكي بسيطة جداً، سكن عنده طالب سوري، ولهذا الرجل الألماني فتاةٌ جميلة، وليس عنده مانع من أن يلتقي معها، وأن يجلس معها، وأن تدخل إلى غرفته، فالقضية سهلة عنده، ما في تكليف بين الجماعة، فما استطاع هذا الأب أن يلمح الشاب ينظر إلى فتاته إطلاقاً ولا نظرة، يغض بصره غضاً حازماً، والأمر ميسَّر، وفي موافقة من الأب، وهو ينتظر هذه العلاقة، أبداً، فجلس معه وسأله، قال: هذا ديننا، ديننا يحظِّر علينا أن نطلق بصرنا في الحرام، من مناقشة إلى مناقشة، أسلم على يديه وجاء للحج، هذا الطالب الذي دعا إلى الله بغض بصره فقط، قضية الدين بسيطة غير معقَّدة، الناس متعطِّشون لإنسان أخلاقي، متعطشون لإنسان أمين على الدرهم، صادق، ما في عنده ازدواجية، واضح، قال عليه الصلاة والسلام:

((تركتكم على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا ضال))

فلذلك أيها الإخوة... الحديث:

((آمركم بخمس بالجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، وإنه مَن خرج من الجماعة قيد شبرٍ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجِع، ومَن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثِيّ جهنم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم))

هذه آخر فقرة خطيرة جداً، أي ممكن تكون مصلي صائم، وتزعم أنك مسلم، والمصير مخيف. في عندنا توجيه جماعي آخر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (45) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46))

(سورة الأنفال)

المنازعة بين المؤمنين ليست في صالح مجموع المؤمنون، المؤمنون في مجموعهم لهم هيبةٌ، لهم شأنهم ، لهم قيمتهم، لهم وزنهم ـ بالتعبير المعاصر ـ فإذا تنازعوا، كلنا معجبون بهؤلاء الذين جاهدوا في الله حق جهاده، فلما تنازعوا فيما بينهم، رأينا استفهاماتٍ كبيرة، كانوا ضعافاً وأيدهم الله بنصرٍ من عنده، فلمال نجحوا تنازعوا، هذه المنازعة أسقطتهم في نظر الناس جميعاً، لذلك المنازعة في صالح الشيطان، ليست المنازعة لصالح مجموع المؤمنين، فكل مؤمن يحرص على دينه، ويحرص على سمعة إسلامه، وسمعة المسلمين يدع المنازعة.

قال شخص لسيدنا الصديق، يبدو أنه جاءته قضية فأحالها إلى سيدنا عمر، سيدنا عمر رفضها، هو كان ينتظر صاحب القضية أن يتشاورا فيما بينهم فقال له: هذه القضية مرفوضة. فذهب إلى الصديق ليوغر صدره على سيدنا عمر، قال له:

ـ الخليفة أنت أم هو ؟ هذا يتجاوز حدوده.

ـ قال له: هو إذا شاء. ما في فرق بيننا، وانتهى الأمر.

إذا واحد يريد أن يدخل بين مؤمنين إياك أن تسمح له، هو إذا شاء، أنا أوكّله وهو يمون عليّ. في عندنا آية أخرى، آية تؤكد الأخلاق الجماعية، قال الله عزَّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا)

(سورة آل عمران)

الشيء الدقيق جداً في هذه الآية أنه أي دعوة إلى الوحدة، والاعتصام، والتجمع، لا تنجح، لماذا ؟ لأن ما في مضمون، ضع صفر زائد صفر، فالمجموع صفر، زائد صفر ثالث، صفر رابع، مائة صفر زائد ألف صفر يطلعوا صفر، إذا ما في شيء يجمع، الدين يجمع، منهج يجمع، حب الله تجمع، " الأرواح جنودٌ مجنَّدة فما تعارف منها ائتلف "، القرآن يجمع، الإيمان بالله يجمع، حب الله يجمع، فهنا:

(وَاعْتَصِمُوا)

لم يقل: واعتصموا جميعاً، لو قال: واعتصموا جميعاً. فالآية ليست لها معنى، ربنا عزَّ وجل قال:

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

(سورة الحشر: من آية " 14 ")

يعني بين عناصر أهل الكفر والانحراف من العداوة فيما بينهم ما لا يعلمها إلا الله..

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

لكنه بين المؤمنين من المودة والرحمة، والإخلاص والحب الشيء الذي لا يوصف، من علامة المؤمنين أنهم نصحة متوادون ولو ابتعدت منازلهم، طبعاً هذه المودة لها أسباب علمية، علماء الاجتماع اكتشفوها، أنت مَن تحب ؟ أنت صادق تحب الصادق، أمين تحب الأمين، فهذا الذي تحبه كثيراً سبب حبك إياه أن هناك نقاط كثيرة جداً مشتركة بينك وبينه، نقاط كثيرة جداً، بل القانون أنه كلما كثرت نقاط اللقاء بينك وبين إنسان آخر اشتد حبك له، أنت منطقي، أمين، صادق، لا تحب الإسفاف بالكلام، فإن رأيت شخصاً على هذه الشاكلة تتعلق به، وتألفه، وتمضي معه الساعات الطوال، أما إن كنت عفيف اللسان، ورأيت إنسان بذيء اللسان، لا تحتمل أن تجلس معه ولا ساعة، ولا خمس دقائق، إن كنت صادقاً ورأيته يكذب كلما تنفس، تنفر منه، فما هو سر المودَّة الصادقة بين المؤمنين ؟ هو أن الإسلام

هذّبهم، وحينما هذبهم وحّد أخلاقهم، وحينما وحد أخلاقهم كثرت النقاط المشتركة بينهم، فتجد حالة غريبة أنه ممكن تجلس مع مؤمن عشر ساعات وأنت في غاية السعادة، أنا أعرف إخوان كثيرين تعلّقوا ببعضهم تعلقاً شديداً، لا يستطيعون أن يفارقوا بعضهم بعضاً، وأعرف رجل لا يحتمل أن يجلس مع أخيه النسبي ولا ساعة لأنه في واد وأخيه في واد، هو يؤثر طاعة الله وهذا الأخ يؤثر معصيته، لذلك:

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ)

إذا واحد غريق وألقي له حبل، وتمسك به، نجا، الغريق ما الذي ينجيه ؟ أن يمد له حبل، فإذا أمسكه فقد نجا، فالقرآن حبل الله..

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: من آية " 9 ")

الآن القرآن طبقه في بيتك، ما في مشاكل، لأن الله قال:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)

(سورة البقرة: من آية " 216 ")

(فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً (19))

(سورة النساء)

القصة معروفة.. واحد دخل بامرأةٍ فلم تعجبه، فهام على وجهه، فقالت له: أنس بن عامر ـ هي فقيهة ـ قد يكون الخير كامناً في الشر، لا تكره، " لا يفرك مؤمناً مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر " هام على وجهه وغاب عن المدينة عشرين عاماً، ثم حن إلى المدينة، فرجع، وحسب السنة عليه أن يصلي في المسجد ركعتين قبل دخول البيت، دخل إلى المسجد رأى شاباً تحلّق الناس حوله، وتعلّق الناس به، وهو يعلّم الناس، فسأل عنه، فقالوا: هذا مالك بن أنس. أي ابنه، وهو لا يدري، فلما انتهى المجلس قال له: يا أستاذنا الجليل قل لأمك إن بالباب رجلاً يقول لك: قد يكون الخير كامناً في الشر، قالت: يا بني هو أبوك، هذا أبوك. أنت الله اختار لك هذه الزوجة، لا تدقق كثير، هذا اختيار الله لك، أكرمها، قد يأتيك منها نسلاً ينفع الناس من بعدك.

الحديث الأخير وهو من أدق الأحاديث وأكثرها اتصالاً بالأخلاق الاجتماعية، نحن دائماً عندنا تصور خاطئ أنه يا أخي المدارس لا تعلم، الأب كأنه لا علاقة له بذلك، الخطأ خطأ المدارس، النبي عليه الصلاة والسلام ما أعفى إنساناً من المسؤولية، إياك أن تُلقي بالمسؤولية على أُناسٍ بعيدين، قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر:

((ألا كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته، فالإمام الذي على الناس راعٍ وهو مسؤولٌ عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤولٌ عن رعيته، والمرأة مسؤولة على بيت زوجها وولده وهي

مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤولٌ عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤولٌ عن رعيته))

لا يعفى مسلمٌ من المسؤولية، هذا حديث بعيد الغَوْر، خطير جداً، تقول: أخي أنا ما لي علاقة، هكذا صار مع ابني، ما علَّموه، لقَّنوه تلقين خاطئ ـ مثلاً ـ الله يصلحهم ويهديهم، أنت مسؤول، المرأة مسؤولة عن أولادها، وأنت عن أولادك، والموظف عن اختصاصه، عن القطاع الذي يغطيه مسؤول مسؤولية مباشرة، فمبدأ المسؤولية أساسيٌ في العلاقات الاجتماعية، فلذلك الإنسان كلما رأى فساداً ألصقه بالآخرين، أو بالكبار واستراح، لا، فلا تعفى من المسؤولية بل كل واحد محاسبٌ عن في نطاق مسئوليته، وفي نطاق عمله، فالمرأة مسؤولة، الرجل مسؤول، الإمام الأكبر مسؤول.

سيدنا عمر لما أمر امرأةً يحرس قافلتها أن ترضع ابنها لأنه بكى، فقال لها: أرضعيه. أرضعته للمرأة الأولى فبكى فقال: أرضعيه. فبكى، غضب فجاءها وقال: يا أمة السوء أرضعيه. قالت له: وما شأنك أنت بنا ؟ ما دخلك فينا أنت، إني أفطمه، قال لها: ولمَ تفطميه ؟ قالت: لأن عمر لا يعطينا العطاء إلا بعد الفطام، أي التعويض العائلي لا تستحقه الأم إلا بعد الفطام، سيدنا عمر ضرب جبهته وصاح صيحةً وقال: " ويحك يا ابن الخطاب كم قتلت من أطفال المسلمين ". وذهب ليصلي، فما سمع أصحابه قراءته في الصلاة من شدة بكائه، وكان يدعو ويقول: " رب هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي، أم رددتها فأعزيها؟"

وكان يقول: والله لو تعثرت بغلةٌ في العراق ـ وهو في المدينة ـ لحاسبني الله عنها لم لم تصلح الطريق لها يا عمر ". كان الله في عون وزراء المواصلات، لو تعثرت بغلةٌ في العراق لحاسبني الله عنها لمَ لمْ تصلح لها الطريق يا عمر، مسؤول.

قُدم له طعامٌ نفيس فقال: " بئس الخليفة أنا إذا أكلت أطيبها وأكل الناس كراديسها ".

أصاب الناس مجاعة في عهده، فخاطب بطنه فقال: " قرقر أيها البطن أو لا تقرقر فو الله لن تذوق اللحم حتى يشبع منه صبية المسلمين ".

فنحن إذا فهمنا هذا الحديث فهم دقيق ؛ أنت كأب مسؤول، كمعلم عندك ثلاثين طالب، طالب اشتكى على طالب، ضايق خلقك، فسلخت الاثنان ضربة، وارتحت، حطمت الطفل الثاني المظلوم، كره المدرسة، وكره التعليم، شعر أنه لا يوجد عدل، يشكوك، يشكو زميله، اسمع، فالقاضي أحياناً، المعلم، المهندس، الطبيب، فلذلك كل واحد مسؤول، وهذا الحديث حديث جماعي يظهر أخلاق الجماعة، ولا يعفى أحد من المسؤولية مهما عظم ومهما صغر، عبد، صانع، أحياناً سائق سيارة ينسى أن يضع الماء فتحترق البطارية، معلمي والله احترقت، هذه من تقصيرك، فالسائق مسؤول، المعلم مسؤول، المدرس مسؤول، الأستاذ مسؤول، المهندس مسؤول، المحامي مسؤول.

أعيد عليكم الحديث، رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر..

((ألا كلكم راع وكلكم مسؤولٌ عن رعيته، فالإمام الذي على الناس ـ الإمام الأعظم ـ راع وهو مسؤولٌ عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤولٌ عن رعيته، والمرأة مسؤولة على بيت زوجها وولده وهي مسؤولةٌ عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤولٌ عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤولٌ عن رعيته))

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (047) :إحياء علوم الدين4 - محاسبة النفس.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-09-07

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... مع الدرس الرابع من دروس إحياء علوم الدين، كنا في الدرس الماضي مع كتاب المُراقبة ؛ مراقبة الله تعالى، واليوم مع كتاب المحاسبة، وقبل أن نخوض في باب المحاسبة الذي عَقَدَ عليه الغزالي موضوعاً دقيقاً وخطيراً، أريد أن أقدِّم بين يدي الموضوع بالمقدمة التالية:

دائماً وأبداً العاقل هو الذي يتوافق مع المستقبل، هو الذي يتكيَّف مع المستقبل بحيث لا يندم على شيء فعله، فدائماً الغبي هو الذي يعيش الماضي، والأقل غباءً هو الذي يعيش حاضره، لكن العاقل هو الذي يعيش غده، ويتكيَّف معه منذ الآن، فترى الناس مثلاً حينما يتوقَّعون حدثاً معيناً في المستقبل يتكيّفون معه منذ الحاضر ؛ بإعداد العدة، وتهيئة الأسباب، فإذا جاء المستقبل بهذا الحدث كانوا مستعدين له، هذا هو العقل، العقل أن تصل إلى المستقبل بعقلك قبل أن تصل إليه بجسمك.

فأبسط مثل طالب في العام الدراسي، في خمسة حزيران امتحان الشهادة الثانوية، هذا حدث خطير مصيري مستقبلي، فالعاقل هو الذي يبدأ بالتكيّف مع هذا الحدث المصيري قبل تسعة أشهر من بدء العام الدراسي، والأقل عقلاً هو الذي يبدأ معه قُبَيل الحدث، قبل شهر، والغبي هو الذي لا يتكيَّف لا قبل بكثير ولا قبل بقليل.

أولاً: هل في القرآن الكريم آية تشير إلى معنى المحاسبة ؟ قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)

(سورة الحشر: من آية " 18 ")

أي لابد لك من جلسةٍ تتأمل فيها، ماذا فعلت ؟ ماذا قدمت ؟ هل قصَّرت ؟ هل سبقت ؟ هل أديت الحقوق ؟ هل أديت الواجبات ؟.

(اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)

(سورة الحشر: من آية " 18 ")

فهل من الممكن شركة تجارية من دون محاسبة ؟ ممكن إنسان ينفق بلا حساب ؟ يفلس، فالمحاسبة عملية تأمُّل، عملية تبصُّر، عملية تقييم، عملية امتحان، وربنا عز وجل يأمرنا أن نحاسب أنفسنا:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)

(سورة الحشر: من آية " 18 ")

هذه الآية فيها إشارة واضحة إلى المحاسبة عما مضى من الأعمال، سيدنا عمر له كلمة شهيرة يقولها معظم خطباء المساجد: " حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ". فمثلاً

واحد يريد أن يسافر، يعلم علم اليقين أن المسافر مسموح له بعشرين كيلو، فإذا اشترى أغراض من دون حساب، من دون وزن، وذهب إلى المطار، ووزنت حقائبه فإذا هي ستون كيلو، لكن على كل كيلو مبلغ ضخم جداً، هو أغلى بكثير من ثمن البضاعة، ألا يندم ندماً شديداً حينما يدفع مثلاً عشرة آلاف ليرة تجاوز وزن، لمَ لمْ يقم ميزاناً في البيت ويهيئ حاجاته ضمن عشرين كيلو ؟!

أمثلة كثيرة ؛ الطالب في العام الدراسي، المسافر في وزن الأمتعة، الذي يشتري بضاعة ليدخها إلى بلده دون أن يفقه قوانين البلد، هذه ممنوع إدخالها، هذه مصادرة، وهذه عليها غرامة ثلاثة أمثال، وهذه عليها مصالحة، فالإنسان قبل أن يتحرك يجب أن يفكر، إذاً الإنسان يتمتع بأعلى درجات العقل حينما يتكيّف مع المستقبل، ومعنى التكيف مع المستقبل أي حينما يفعل عملاً لا يندم عليه، مقياس عقلك هو أنك إذا فعلت شيئاً ندمت عليه، فهذا ضعفٌ في عقلك، وحينما تفعل شيئاً لا تندم عليه، هذه قوة في عقلك، لذلك النبي الكريم قال:

((الكيس من دان ـ ضبط ـ نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز مَن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني))

(من الجامع الصغير: عن " شداد بن أوس ")

أي كلما كبر عقلك كلما اتجه هذا العقل لضبط سلوكك لئلا تندم، والندم من أصعب المشاعر المؤلمة، فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم. عليه الصلاة والسلام جاءه رجل فقال:

ـ يا رسول الله أوصني.

ـ قال: أمستوصٍ أنت ؟ فعلاً، جاد في سؤالك ؟

ـ قال: نعم.

ـ قال: إذا هممت في أمرٍ فتدبر عاقبته، فإن كان رشداً فأمضه، وإن كان غياً فانته عنه.

هل هناك أكمل من هذه الوصية ؟ قال: يا رسول الله أوصني، قال: أمستوصٍ أنت، قال: نعم، قال: إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته، فإن كان رشداً فأمضه، وإن كان غياً فانته عنه، إنساناً أحياناً يسافر لبلد أجنبي، تأخذ لبه ؛ بنظافة البلد، وانتظام شوارعها، وارتفاع أبنيتها، والمحلات التجارية التي تعج بألوان البضاعة، وانتظام المواصلات، وتوفُّر حرية الإنسان إلى أقصى درجة، فيألف هذه البلد، ويتزوَّج، وحينما تكبر بنات، ويَصْحَبْنَ أصدقاء، يحس بندم ما بعده ندم، لماذا لم يتدبر عاقبة الأمر قبل أن يصل إليه ؟ هذا ضعف في عقل الإنسان.

أتمنى على الله عز وجل أن أوضح لكم هذه الحقيقة، فقبل أن تفعل شيئاً، قبل أن تتصرف، قبل أن تقف هذا الموقف، قبل أن تعطي، قبل أن تمنع، قبل أن توافق، قبل أن ترفض، قبل أن تتزوج، قبل أن تطلق،

قبل أن تتجر بهذه التجارة، رجاحة عقلك تظهر في تدبُّر العاقبة، فإن كان في عاقبة في هذا الأمر رشدٌ فاتبعه، وإن كان في عاقبة هذا الأمر غيٌّ فانته عنه، هذا هو العقل بأجلى صفاته.

في الخبر ؛ ينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات، ساعةٌ يحاسب فيها نفسه، ايها الأخ الكريم إياك أن تستهلك، أحياناً الدنيا تستهلك، جاء إلى البيت متأخر، تناول طعام العشاء، وآوى إلى فراشه، عنده موعد في وقت مبكر، توجّه إلى العمل، من لقاء إلى لقاء، ومن اتصال إلى اتصال، ومن اجتماع إلى اجتماع، ومن مشاحنة إلى مشاحنة، جاء وقت الظهيرة، جاء إلى البيت، تناول طعام الغداء، آوى إلى فراشه قليلاً، عنده مواعيد بعد الظهر، يوم كيوم، وأسبوع كأسبوع، وشهر كشهر، إلى أن وضعت النعوة على الجدران، رحمة الله عليه، توفى ؟ نعم توفاه الله، هذه مشكلة خطيرة، أن يستهلكك العمل، أن يستهلكك الوقت، أن تستهلكك هموم الدنيا، فلذلك الإنسان لابد له من وقتٍ يحاسب فيه نفسه.

الإنسان أحياناً يكون باللغة العامية (معجوء)، البيت مشكلات، وبيوت، ولقاءات، وزوجة لها مطالب، وأولاد لهم مشكلات، والجيران، والأحباب والأصدقاء، اخرج من البيت، اذهب إلى مكانٍ بعيد، اجلس في غرفة وحدك، انطلق في طريقٍ هادئ، اصعد إلى جبل، انزوي عن الناس قليلاً، حاسب نفسك ؟ مَن أنا ؟ لماذا كنت في الدنيا ؟ ماذا بعد الموت ؟ ما الذي ينبغي أن أفعله ؟ ما الشيء الذي يرضي الله عز وجل ؟ حاسب نفسك لابد من جلسة مع نفسك، لابد من تأمل، لابد من فحص، لابد من تقييم، لابد من عرض أعمالك على الشرع ؛ هل أنا مصيب في هذا ؟ هل أنا مخطئ ؟ هل إذا جاء الموت فجأة أصعق، أم أنا في حالة ترضي الله عز وجل ؟

فيا أيها الإخوة الأكارم... صدقوني أن هذا الموضوع دقيق جداً وخطير جداً، وقد تأخذون علي هذه الكلمة، لأن كل مرة أقول الموضوع خطير، هات موضوع ليس خطير، والله الدنيا كلها خطيرة، قال عليه الصلاة والسلام:

" إني لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم مائة مرة ".

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (201))

(سورة الأعراف)

الإنسان عليه أن يقف أن يقف عند بعض المشكلات ، لماذا أصابتني هذه المصيبة ؟ الله جل وعلا يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

(سورة النساء: من آية " 147 ")

ما التقصير الذي قصَّرته ؟ ما الذنب الذي اقترفته ؟ ما الخطأ الذي وقعت فيه ؟ قال سيدنا عمر كان يضرب قدميه بالدُّرة إذا جن الليل، ويقول لنفسه: " ماذا عملت اليوم ؟ " فأحدنا إذا آوى إلى فراشه،

والله هذا وقت مناسب، فليسأل نفسه: اليوم ماذا فعلت ؟ ما العمل الذي فعلته، ما الشيء الذي تركته، ما العمل الصالح الذي أكرمني الله به، ما الشيء الذي ابتعدت عنه ؟ قال كان عمر يضرب قدميه بالدرة إذا جن الليل ويقول لنفسه: " ماذا عملت اليوم ؟ ".

وعن أحد العلماء يقول: لا يكون العبد من المتَّقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه. الذي عنده شريك، الذي عنده شركة، في شركاء صعبين جداً، أشدّاء، قساة، أشِحَّة، يحاسبون شريكهم على الدرهم، على الليرة، على النظرة، على الدقيقة، على الساعة، فالإنسان المؤمن قال: لا يكون العبد من المتقين، حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه.

قال سيدنا أبو بكر حينما كان على فراش الموت، روت عنه عائشة ابنته قال: " ما أحدٌ من الناس أحب إلي من عمر. ثم قال لها: كيف قلت ؟ فأعادت عليه، فقال: ما أحد من الناس أعز علي من عمر ".

حاسب نفسه على كلمة أحب، ماذا قلت أعيدي علي ما قلت ؟ قالت له ما قال، قال: ما أحد من الناس أعز علي من عمر.

أحد الصحابة الكرام وهو في الصلاة شغله طائر، تدبر ذلك، فجعل حائطه بستانه صدقة لله تعالى، ندماً ورجاء العوض من الله عز وجل، معناها إذا واحد إذا طبق هذه الطريقة لا يتبقى عنده شيء أبداً، كلما صلى صلاة وانشغل بشيء فيها تصدق بأملاكه، انتهى، كان أصحاب النبي عليهم رضوان الله يأخذون أنفسهم بهذه العزيمة.

سيدنا الحسن قال

((المؤمن قوام على نفسه يحاسبها، وإنما خف الحساب على قومٍ حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة))

اسمعوا هذه الكلمة: " من حاسب نفسه في الدنيا حساباً يسيراً، قال: لا تدقق، والله غفور رحيم، والله عز وجل عفو، والنبي يتشفع لنا، ومن هنا إلى يوم الله يفرجها الله، والله عز وجل لن يحاسبنا، نحن من أمة محمد، من حاسب نفسه في الدنيا حساباً يسيراً كان حسابه يوم القيامة عسيراً، وبالعكس: مَن حساباً نفسه في الدنيا حساباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيراً ".

يروى عن النبي الكريم أن الوحي انقطع عنه ثلاثة أيام فقال:

((يا عائشة لعلها تمرة أكلتها من على الفراش، لعلها من تمر الصدقة))

(من كنز العمال: عن عمرو بن شعيب ")

حاسب نفسه أن الوحي انقطع عنه ثلاثة أيام لعله أكل هذه التمرة ولم تكن له، بل كانت من تمر الصدقة.

قال: إن المؤمن يفجأه الشيء، يعجبه، فيقول: والله إنك تعجبني، وإنك من حاجتي، ولكن هيهات حيل

بيني وبينك، هذا حسابٌ قبل العمل. عرض له الشيء، برق له الشيء، أحب شيئاً، أقبل على شيء، ويقع في مخالفة فيرجع إلى نفسه، فيقول: ماذا أردت بهذا ؟ والله لا أعذر عند الله بهذا، والله لا أعود له أبداً، فهذه محاسبة بعد العمل، إذاً هناك محاسبة قبل العمل، ومحاسبة بعد العمل.

قال أنس بن مالك خرج عمر وخرجت معه، حتى دخل حائطاً ـ أي بستاناً ـ فسمعته يقول وبيني وبينه جدار، وهو الحائط قال عمر: " عمر بن الخطاب ـ يخاطب نفسه ـ أمير المؤمنين، بخ بخ ـ أي خير إن شاء الله ـ والله يا عمر لتتقين الله أو ليعذبنك ". تقول: أنا أمير المؤمنين لا أحاسب، أنا قمة هذا المجتمع، يخاطب نفسه، دخل إلى بستان وبين أنس وبين عمر جدار فسمع عمر من وراء الجدار يقول: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ـ خير إن شاء الله لطفتها ـ بخ بخ، وإذا كان.

ذات مرة سيدنا عمر جاءه رسول من القادسية فقال له:

ـ حدثني ماذا جرى لكم ؟

ـ قال له: مات خلق كثير.

ـ قال له: مَن هم ؟

ـ قال له: إنك لا تعرفهم.

ـ بكى عمر وقال: وما ضرهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم.

ومَن أنا ؟ وما ضرهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم. يقول: " أن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ، والله لتتقين الله، أو ليعذبنك الله "

النبي الكريم حينما دعي إلى التمثيل ببعض القتلى الذين بالغوا في الإساءة إلى أصحابه، له كلمة لا أنساها، قال عليه الصلاة والسلام:

((لا أمثل بهم فيمثل الله بي ولو كنت نبياً))

هذا مقام النبوة، فنحن مَن ؟

سيدنا الحسن يقول حينما قرأ قوله تعالى:

(وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2))

(سورة القيامة)

قال:

((لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه...))

المؤمن دائماً يقول: "ماذا أردت بكلمتي ؟ وماذا أردت بأكلتي ؟ وماذا أردت بشربتي ؟ ". لماذا ذهبت لعندهم؟ لماذا قبلت هذه الدعوة ؟ لماذا دعوت الناس إلى البيت ؟ لماذا أقمت هذه الوليمة ؟ لماذا زرت هذه الزيارة ؟ لماذا قطعت فلاناً ؟ لماذا وصلته ؟ دائماً في حساب مع نفسه، وهذه النفس اللوامة التي

أثنى الله عليها، لذلك المنافق له حال واحد، المؤمن يتقلب في اليوم الواحد في أربعين حال، ساعةً يرضى، وساعةً يخاف، وساعةً يحزن، وساعةً يرجو، وساعةً يستغفر، وساعة يتمنى، وساعةً يخجل، وساعةً يُعَاتِب، وساعةً يعاتَب، لشدة حرصه على طاعة الله، ولشدة حرصه على إرضاء الله عز وجل، دائماً في حساب مع نفسه، داماً في سؤال وجواب، فقال: " المؤمن دائماً يعاتب نفسه يقول: ماذا أردت بكلمتي ؟ ماذا أردت بأكلتي ؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قدما لا يعاتب نفسه.. " في غفلة.

مالك بن دينار يقول: " رحم الله عبداً قال لنفسه: ألست صاحبة كذا، ألست صاحبة كذا، ثم ذمها، ثم خَطَمَها، ثم ألزمها كتاب الله تعالى، فكان له قائداً " وهذا من معاتبة النفس.

أيها الإخوة... هذه أشياء بين أيديكم، المؤمن دائم المعاتبة لنفسه، دائماً يسأل نفسه، يخاطب نفسه، يستفهم عن نفسه، يقيِّم عمله، يفحص نيَّته، يفحص قصده، هذا من صفات المؤمن.

أحد العلماء يقول: التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطانٍ غاشم، غشوم، أي ظلوم، السلطان الغشوم الظلوم يحاسب الناس حساباً عسيراً، يحاسب على الكلمة، يحاسب على النظرة، يحاسب على السكوت، يقول لك: هذا كتم معلومات، يحاسب على السكوت أحياناً فقال: المؤمن الصادق التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان غشوم، ومن شريك شحيح.

أحد العلماء يقول: " مثّلت لنفسي الجنة ؛ آكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها، ثم مثّلت لنفسي النار ؛ آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي: يا نفس أي شيء تريدين ؟ فقالت: أريد أن أرد إلى الدنيا، فأعمل صالحاً فقلت: فأنت في الدنيا " والله التفكير لطيف، تصور الجنة وما فيها من نعيم مقيم، ما فيها من جنات تجري من تحتها الأنهار، ما فيها من حور عين، ما فيها من ولدان مخلدون، تصور الجنة وهو في نعيمها يتقلب، تصور النار وهو في لهبها يحرق، ويشرب صديدها، ويعالج سلاسلها وأغلالها، ويأكل من زقومها، وقال: يا نفس أي شيء تريدين ؟ فقالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً، فقال: فأنت في الدنيا فاعملي صالحاً.

فإذا كان إنسان منغمساً في التجارة، وانغماس بالعمل، انغماس بكسب المال، انغماس في هذه الدعوى ؛ مع المحامين، مع الخصوم، وهو غافل عن نفسه، يفجأه الموت وهو غير مستعد له !! والله هذه قضية خطيرة جداً.

قال مالك بن دينار: " رحم الله امرئ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ". إذا الإنسان حاسب نفسه مع القوانين ؛ هذه الممنوعة تركها، هذه البضاعة ممنوع نقلها فامتنع عن حملها، هذا السير بهذا الطريق ممنوع، امتنع، فكل ما حاسب نفسه حساب شديد لم يقع بالمخالفات، ولكن عندما يهمل المحاسبة ينتقل الحساب إلى غيره، يضبط متلبساً بجريمة، بمخالفة، بمعصية.

صاحبٌ للأحنف بن قيس قال: كنت أصحبه، فكان عامة صلاته بالليل الدعاء، وكان يجيء إلى المصباح، فيضع إصبعه فيه حتى يحس بالنار، ثم يقول لنفسه: يا حنيف، ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟ النفس رعناء، النفس أحياناً تواقة للمعصية، النفس أمَّارة بالسوء، النفس ترغب في اللهو، ترغب في الملذات، ترغب في حظوظها، فإذا ما كان الإنسان يقظ، ودقيق، ومحاكمته قوية، ومحاسبته عسيرة، ومنطقه شديد، وفكره نَيِّر، وأدلته قوية، وبصيرته ثاقبة، تهلكه نفسه، إما أن تحملها على طاعة الله فتسعد بها، وإما أن تحملك على معصيةٍ فتسقى بها.

هذه كلها أحاديث وآيات وأقوال لصحابة وتابعين رضوان الله عليهم أجمعين تتحدث عن فضيلة المحاسبة، كيف يجب أن نحاسب أنفسنا، أما حقيقة المحاسبة قال:

الإنسان له رأس مال، وله ربح، وله خسارة، قال: رأس ماله أداء الفرائض، وربحه أداء النوافل، وخسارته فعل المعاصي، الفرائض رأس ماله، والنوافل أرباحه، والمعاصي خسائره، فالمؤمن دائماً يبحث عن رأس ماله، فإذا سَلِمَ رأس ماله بحث عن الربح، فإذا قلَّ رأس ماله بحث عن الخسارة، الخسارة في المعاصي، ورأس المال في الفرائض، والربح في النوافل.

في عندنا طائفة من قصص قصيرة جداً تتحدَّث عن المجاهدة، وعن أحوال السلف الصالح، والله قرأتها قبل أن آتي إليكم، فشعرت ببونٍ شاسعٍ جداً بين مجتمعاتنا ومجتمعاتهم، وبين ما يشغلنا وبين ما يشغلهم، وبين أشواقنا إلى الله عز وجل وأشواقهم إلى الله عز وجل، وبين عباداتنا وعباداتهم، فقلت: كأننا نحن لسنا من بني البشر، إن كانوا بشراً فنحن لسنا من بني البشر، وإن كنا بشراً فهم فوق البشر، همَّتهم عالية، شوقهم إلى الله عظيم، إقبالهم على الله شديد، ورعهم فوق التصور.

قال بعض الحكماء: " إن لله عباداً أنعم عليهم فعرفوه، وشرح صدورهم فأطاعوه، وتوكلوا عليه فسَلِموا من الخَلق، صارت قلوبهم معادن بصفاء اليقين، وبيوتاً للحكمة، وتوابيت للعظمة، وخزائن للقدرة، فهم بين الخلق مقبولون، قلوبهم تجول في الملكوت، وتلوذ بمحجوب الغيوب، ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد وما لا يمكن واصفاً له أن يصفه، فهم في باطن أمورهم كالديباج حُسْناً، وفي الظاهر مبذولون لمن أرادهم تواضعاً، هذه طريقة لا يبلغها إلا المتقون ".

بعضهم قال: " والله ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل ". الإنسان يصلي بالمسجد طبعاً بين إخوانه، وهو مراقب من قبل إخوانه، ويقيم صلاته حفاظاً على مكانته وسمعته، ولكن صلاة الليل، مَن يدري بها ؟ لا يدري بها إلا الواحد القهَّار، لذلك علامة الإخلاص صلاة الليل.

قيل للحسن رضي الله عنه: ما بال المتهجِّدين أحسن الناس وجوهاً؟ قال: " لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره ".

بعض التابعين كان يقول: " أيظن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يستأثروا به دوننا ؟ كلا، لا والله، لنزاحمهم عليه زحاماً حتى يعلموا أنهم قد خلّفوا وراءهم رجالاً " فالإنسان الغيور في الدين شيء رائع، الله عز وجل قال:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26))

(سورة المطففين)

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61))

(سورة الصافات)

يقول بعضهم: " ما رأيت مثل الجنة نام طالبها، ولا مثل النار نام هاربها ".

قال بعضهم: " يا عجباً لمن يعرف أن الجنة تزيَّن فوقه، وأن النار تسعَّر تحته، كيف ينام بينهما ؟!! ".

والله إذا الإنسان طلب للسؤال، تجده لا ينام الليل، فكيف إذا طلب للواحد الديان ؟! إذا الإنسان في أمامه أزمة أو مشكلة، يبقى قلقاً إلى ما شاء الله، فكيف إذا كان مُقْدِماً على حسابٍ دقيق، وعلى موقفٍ خطير؟!!

ابنة أحد العارفين قالت له: يا أبتِ ما لي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام ؟ فقال: يا بنتاه إن أباكِ يخاف البيات، يخاف أن يبيت وحده أن يبيت في وحشةٍ موحشةٍ.

لما تاب عتبة الغلام كان لا يتهنَّأ بالطعام والشراب، قالت له أمه: لو رفقت بنفسك. قال: الرفق أطلب، دعيني أتعب قليلاً وأتنعَّم طويلاً. حتى في الدنيا تجد شخص اعتنى بدراسته، نال أعلى شهادة بعد كذا سنة، سهر ليالي طويلة، فنال دكتوراه باختصاص نادر، فتح مكتب أو عيادة، أقبل عليه الناس، صار دخله اليومي خيالي، فهذا الدخل الخيالي بجهد قليل وعلم غزير، هو ثمنه سنوات طويلة أمضاها في الدراسة، أمضاها وراء الطاولة، سهر الليالي، لم ينم على المقعد، بل سهر الليالي.

واحد قال للثاني: لو سرَّحت لحيتك ـ مشطها ـ فقال: إني إذاً لفارغاً ـ أي إذاً أنا عندي وقت فراغ كبير ـ قيمة الوقت، كانوا يعرفون للوقت قيمة.

قال بعضهم:

ألـذ مـن التلـذذ بالـغواني	**إذا أقـبلنا فـي حـلـل حســان**
منيــب فر مـن أهلٍ ومالٍ	**يســيح إلـى مكـان من مكان**
فيدرك مـا أراد ومـا تـمنى	**من الراحـات فـي غرف الـجنـان**

* * *

يروى عن رابعة العدوية أنها كانت إذا صلّت العتمة ـ أي العشاء ـ قامت على سطح لها، وشدت عليها درعها وخمارها، ثم قالت:

((إلهي قد غارت النجوم، ونامت العيون، وغلَّقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك))

ثم تقبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت:

((إلهي هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنئٍ نفسي، أم رددتها فأعزيها ؟ وعزتك، هذا دأبي ما أبقيتني))

لا تعيشوا بالخيالات، إذا الواحد منا حاول يعمل خلوة مع الله عز وجل، يناجيه، في أدعية جميلة جداً احفظها وادعيها، ممكن تناجيه بالطريق، اعمل لك سير على الأقدام في شارع نائي، ناجيه،ادخل لغرفة وناجيه، لذة المناجاة، ألم يرد في بعض الأخبار أن عبداً يقول: يا رب لقد عاصيتك ولم تعاقبني، قال: عبدي قد عاقبتك ولم تدر، ألم أحرمك لذة مناجاتي ؟! أنا أضع بين أيديكم هذه الخبرة.

أيها الإخوة... أنا أتمنى على الله، لنفسي ولكم، أن يذيقنا الله حلاوة مناجاته، فإذا الإنسان تمكن يفرغ نفسه في الأربع وعشرين ساعة نصف ساعة، أو ربع ساعة، يحب في مكان خارج البيت، يحب ضمن بيته، غرفة، في مكان خلوة، ويناجي الله عز وجل، الدعاء مناجاة، والمناجاة دعاء، استغفار، تسبيح، تهليل، وأدق شيء بهذا اللقاء الروحي هو المناجاة، فإذا ناجيتم الله عز وجل، وذقتم حلاوة المناجاة، أدركتم على أصحاب هذه القصص والأقوال مدى السعادة التي شعروا بها وانغمسوا فيها، فأنت إذا اتصلت بالله عز وجل اتصلت بالكمال المُطْلَق، اتصلت بالنور المطلق، اتصلت بمصدر السعادة المطلقة.

فلذلك الدين كله كما قال أحد العارفين بالله وهو توفي، فرآه تلميذ له في الرؤيا فسأله:

ـ ما فعل الله بك ؟

ـ قال له: يا بني طاحت تلك العبارات ـ ترك مؤلفات ـ وذهبت تلك الإشارات، ولم يبق إلا ركيعات ركعناها في جوف الليل.

فأنا أدعوكم وأدعو نفسي والله قبلكم إلى خلوةٍ مع الله ؛ فيها الذكر، فيها المناجاة، فيها التبتُّل، فيها إعلان التوبة، فيها إعلان الخوف من الله، فيها الشكر، فيها طلب المزيد، هذه الجلسة مع الله، ذكرت لكم بعض هؤلاء الذين عاشوا هذه السعادة وهذا اللقاء فسعدوا وسعد مَن معهم، فنحن كما قلت قبل قليل موضوعنا هو كتاب المحاسبة، والمحاسبة أن تخلو مع نفسك في اليوم مرةً، لتفحص عملك، ولتنظر ماذا قدَّمت وماذا أخرت، وماذا أسررت، وماذا أعلنت، تفحص نيَّتك، تفحص قصدك، إذا فعلت هذا كنت ممن حاسب نفسه، ومرة أقول لكم: مَن حاسب نفسه في الدنيا حساباً عسيراً، كان حسابه يوم القيامة يسير، ومن حاسب نفسه في الدنيا حساباً يسيراً، كان حسابه يوم القيامة عسيراً.

والإنسان كما قال عليه الصلاة والسلام قال:

((أمرني ربي بتسع: خشية الله في السر والعلانية، كلمة العدل في الغضب والرضا، القصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأن أعفو عمن ظلمني، وأن أعطي منحرمني، وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عبرة))

والأصح من ذلك الإنسان دائماً وهو صامت يحدث نفسه، فهذا وقت راكب مركبتك، راكب مركبة عامة، انتظار تقرير من طبيب، في أوقات كثيرة جداً أنت ساكت، لاحظ الناس، أكثر خواطرهم حول الدنيا، وتجارتهم، وبيعهم، وشرائهم، ومسكنهم، وبيتهم، وأولادهم، إذا عوَّدت نفسك أن تشغل وقتك وأنت ساكت في محاسبة نفسك، وفي تقييم عملك، وفي التطلع للدار الآخرة، وفي سؤال نفسك: ماذا أردت من هذا الكلام ؟ من هذا اللقاء، من هذه الأكلة، من هذه الزيارة، من هذه النزهة، من هذه الشربة ؟ فحصت نواياك دائماً، فإذا كان هناك محاسبة مستمرة فأنت ممن أثنى الله عليهم حينما قال:

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2))

(سورة القيامة)

وهذه هي النفس اللوامة، هناك نفس مطمئنة، ونفسٌ لوامة، ونفسٌ أمارة بالسوء، نرجو الله عز وجل أن نكون من أصحاب النفوس اللوَّامة التي تحاسب نفسها كثيراً ؛ بدخلك، بإنفاق المال، بعلاقاتك الاجتماعية، بدراساتك، ماذا أبتغي من هذه الدراسة ؟ لعلَّها السمعة، لعلها الشأن، لعلها جمع الدرهم والدينار ؟ فأنت لن تتفوق عند الله عز وجل إلا بمحاسبتك لنفسك حساباً عسيراً، وأنصحك ألا تتساهل مع نفسك، كلما شددت عليها كلما سعدت بها، وكلما تساهلت معها، مثل الأب مع ابنه، إذا أهمله في البدايات، أتعبه في النهايات وأشقاه، فإذا شدد عليه، ورباه تربية عالية، أسعده وسعد به..

والنفس كالطل إن تتركه شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها إن الطعام يقوي شهوة النهم

* * *

وعد الوقت ثمين جداً، كل ثانية محاسبٌ عليها، ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي:

" يا ابن آدم أنا خلقٌ جديد وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة ".

" ولا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله علماً " .

" ولا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيها من الله قرباً "

وهذه التذكرة لعلها تنفعنا جميعاً.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (048) :الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-09-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... كلكم يعلم أن الفرائض خمس ؛ الشهادة، وصوم رمضان، والصلاة، والحج، والزكاة، أما هناك فريضة سادسة بإجماع علماء الأمة، وفرضيّتها جاءت من قوله تعالى:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

(سورة آل عمران: من آية " 104 ")

هذه اللام لام الأمر ، لام الأمر مع الفعل المضارع ، في مستوى فعل الأمر الصريح، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضةٌ سادسة.

لك صديق وزرته بمقر عمله، معين سكرتيره مثلاً، أنت كمسلم صديقك ، ولك عليه هيمنة ، إن صح التعبير ، لك عليه بالتعبير العامي (موانة)، بينك وبينه حديث طويل ، فإذا سكت ، وقلت: ما لي وله، يصطفل ، يعرف ذنبه. هذه كلمات لا ترضي الله عز وجل ، طبعاً ليس معنى الأمر بالمعروف أن تسبه، ولا أن تقرّعه ، ولا أن تتهم عقله ، لا، من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف ، وقد زرت صديق في مقر عمله وجدت عنده سكرتيره ، فقلت له هذا الكلام: أتمنى أن تستبدلها بموظف، قال لي: جزاك الله خيراً، والله زارني عدد كبير من الأصدقاء ما أحد ذكر ذلك، وفعلاً بعد فترة استبدلها بموظف.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة سادسة ، كيف أنك تصلي ، وتصوم، وتحج، وتزكي ، وتشهد، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة سادسة ، ولو كنا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر لكنا في حال غير هذا الحال، ولأن الله سبحانه وتعالى لا يعم بلاؤه الناس جميعاً إلا إذا كان الصالحون مقصِّرين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما قال الله عز وجل:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (117))

(سورة هود)

ما قال: صالحون، بل مصلحون، فأنت بشكل مبسَّط أليس لك أقارب ؛ إخوة ، أخوات، أبناء ، آباء، ألا تزورهم ؟ إن رأت منكراً، طبعاً الأسهل أن تصمت ولا تتكلم بكلمة واحدة، الأسهل أن تكون متملّقاً لهم، الأسهل أن تجاملهم ، لأسهل أن تكف عن أمرهم بالمعروف، لأنه في متاعب ، سيقول لك: أنت وشيخك غلطان ، أول كلمة رأسا وصل للشيخ ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دليل الغيرة ، إذا في عندك غيرة ، مثل بسيط أحضره لكم:

ثلاثة أطفال يمشون بالطريق ؛ واحد ابنك ، وواحد ابن أخوك، وواحد لا تعرفه ، هم لا يرونك، سمعت حديثاً بذيئاً فيما بينهم ، أو رأيتهم يدخّنون ، ألا تغلي بالنسبة لابنك ؟ ابن أخوك أقل درجة ، يا عم لماذا هكذا تفعل ؟ أما ابنك تمسكه، وتشده وتعمل له ليلة ليلاء، أما الثالث روح امشي اذهب لبيت أهلك، ولا كلمة تكلمه، فعواطفك دائماً مع أقرب الناس لك .

أما أنت كمسلم ومؤمن لو رأيت إخوانك المسلمين إخوة لك فعلاً ، لو رأيت إخوانك المؤمنين إخوة لك فعلاً، ورأيت أحدهم في طريق الهاوية، في طريق الهلاك، في طريق المعصية، طبعاً أقول لك بالحكمة، آتاك الله حكمة، وعقلا، وذكاءً، وأسلوباً تربوياً وتسكت!! والله هذا شيء يدعو إلى الشك بإيمانك.

أقول لكم هذه الحقيقة أيها الإخوة: حينما تنسجم مع أهل الفسق والفجور انسجام تام في لقاءاتك معهم، في سهراتك ، في نزهاتك ، في الدعوات ، تنسجم تماماً، وتصمت عن كل منكراتهم ، وعن أقوالهم ، وعن فُحْشِهم ، وعن شركهم، وعن طرحهم للقضايا من دون أن تحدث نفسك بأن تبين لهم، بأن تنصحهم ، فهذه علامةٌ، وأعني ما أقول، وأنا مسؤول عما أقول، علامة خطيرة جداً جداً جداً، وإليكم الدليل، الحديث الذي بين أيدينا ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان))

أضعف الإيمان لها معنيان ؛ المعنى الأول: إن رأيت منكراً ولا تستطيع أن تغيّره لا بديك ولا بلسانك، معنى ذلك الإيمان ضعيف جداً في هذا المجتمع ، فإذا تكلّمت لم يعنك أحد، بل هجم الناس عليك ، إن بلغت هذا الحد، إن عشت في مجتمعٍ هذا شأنه وهذا حاله، فأنت في مجتمعٍ الإيمان فيه ضعيف جداً هذا معنى ، هذا معنى يريح ضِعاف الإيمان، المعنى الثاني: إن هبت أن تأمر بالمعروف، وأن تنهى عن المنكر بيدك وبلسانك، فهذا دليل ضعف إيمانك ، المعنى الأول مقبول وصحيح ، والمعنى الثاني مقبول وصحيح ، اختر أحد المعنيين..

((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان))

(رواه مسلم)

إما أنك تعيش في مجتمع الإيمان فيه ضعيفٌ جداً، بحيث لا تستطيع أن تغيِّر المنكر بيدك، ولا بلسانك. ورد في بعض الأحاديث

((أنه يأتي على الناس زمان يذوب قلب المؤمن في جوفه ، مما يرى ولا يستطيع أن يغير "))

فإما أن أضعف الإيمان تعني إنك إن لم تستطع أن تأمر بالمعروف أو تنهى عن المنكر، فاعلم أنك في مجتمع الإيمان فيه ضعيف جداً، أو إنك إن قَدَرْتَ على أن تأمر بالمعروف ؛ أن تغير المنكر بيدك، أو بلسانك، فاكتفيت بقلبك، فهذا دليل ضعف إيمانك .

يروى أن أحد الخلفاء، مروان بن الحكم، بدأ بالخطبة قبل صلاة العيد، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين الصلاة قبل الخطبة . يبدو أن أمير المؤمنين لم يلتفت ولم يجبه ، فقال أحد الحاضرين: أما هذا فقد قضى ما عليه ، عليه أن يقول وقد قال وانتهى الأمر .

أحياناً في حالات إن فعلتها نجوت ، وإن لم تفعلها هلكت ، إن فعلتها نجوت ؛ لك أخ يقاطعك ، قلت له: السلام عليكم. ما رد عليك السلام، نجوت، وبقي الإثم متعلقاً فيه ، قال: أما هذا فقد قضى ما عليه .

في حديث آخر

((ما من نبي بعثه الله في أمة ـ هذا الحديث أعلق عليه أهمية كبيرة ـ قبلي إلا كان له من أمته حواريون، وأصحابٌ يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تَخْلُف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ـ الآن دقق ـ ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل))

(من رياض الصالحين: عن " ابن مسعود ")

ما نكرت عليهم ؛ لا بيدك، ولا بلسانك، ولا بقلبك ، انظر لكلام النبي الكريم أي ليس في قلبك مثقال حبة خردلٍ من إيمان، إذا قاعد مع مجتمع فاسق، ولا تشعر بالفسق إطلاقاً، ومنسجم تماماً، وفي علاقات حميمة ومودة كبيرة، رغم أن الأصحاب يشربون ويتكلمون بالفحش ، قال: فاعلم أنه ليس في قلبك مثقال ذرة من الإيمان، ولو صلى وصام وزعم أنه مسلم ، قضية مشاعر، من أبسط مشاعر المؤمن الغيرة.

إذاً فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، هؤلاء الذين يقولون ما لا يفعلون، أو يفعلون ما لا يؤمرون، من جاهدهم بيده فهو مؤمن، من جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، من جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل، لذلك، من علامة المؤمن دخل لبيت أخوه بيت أخته ، في عنده صانع كذب ، لا يظل ساكت، بل يقول له منبهاً: يا بني هذه هكذا.

مرة ثانية وثالثة ورابعة إياكم أن تظنوا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعني أن تسب الناس، يعني أن تفضحهم، يعني أن تتحاور معهم حواراً قاسياً، يعني أن تسيء إليهم، لا، ليس هذا هو المطلوب إطلاقاً، ولكن هناك أساليب ذكية جداً، وتربوية، ولبقة، ولطيفة، يمكن أن تسلكها لإيصال الحق إلى الناس.

حديث آخر..

((سيصيب أمتي في آخر الزمان بلاءٌ شديد من سلطانهم، لا ينجو منهم إلا رجل عرف دين الله فجاهد عليه بلسانه ويده وقلبه، فذلك الذي سبقت له السوابق، ورجل عرف دين الله وصدَّق به، ولكن ما فعل شيئاً ، فللأول عليه سابقه))

(من كنز العمال: عن " عمر ")

ولو بالقلب ؛ اللهم إن هذا منكر لا أرضى به ، أنت في الدنيا جئت إلى الدنيا للعمل الصالح ، وأشرف عمل صالح أن تقوّم المعوج ، وأن تصلح ما فسد، وأن تهدي إلى سواء السبيل، فأنت وجودك لا لذاتك بل لغيرك ، فالإنسان حينما ينكفئ إلى ذاته فيسعى لمصالحه الشخصية، هذا انتهى من درجات الآخرة الرفيعة، أما الذي خرج من ذاته لخدمة الخلق هذا دخل في مراتب الآخرة الرفيعة .

حديث رابع:

((سيكون بعدي فتنٌ لا يستطيع المؤمن فيها أن يغير بيده ولا بلسانه ، قلت: يا رسول الله وكيف ذلك ؟! قال: ينكرونه بقلوبهم ، قلت: يا رسول الله وهل ينقص ذلك إيمانهم شيئاً ؟ قال: لا))

فنحن في بحبوحة، ولكن الحد الأدنى أن تشعر بضيق ، الحد الأدنى أن تشعر بانزعاج إذا انتهكت حرمات الله، الحد الأدنى أن تنكر هذا بقلبك ، الحد الأدنى أن تقول: اللهم هذا منكر لا أرضى به، أما مجاملة إلى أقصى الحدود، إنسياح زيتي، مرن الإسلام، أين ما كان يمشي شغله ، مع كل الناس مسالم، ليس لك ولا خصم ؟! لا تقول كلمة لا إطلاقاً ، كل كلماتك نعم، وثناء، ومجاملة ، ومديح ، وترى بأم عينك المنكر أمامك ، وتمدح .

مثلاً لو لك أقرباء وعملوا عرس ، وصوروا تصوير فيديو بالعرس هل هناك منكر أشد من هذا، أن إنسان يجلس ببيت يشاهد هذه النساء كلها، هذه زوجة فلان ؟ هذا أشد أنواع المنكر، وتظل ساكت وتبعث زوجتك على العرس ؟! وتقول: ماذا نفعل عرس ابن أخي، بنت أخي، بيت عمتي ، بيت خالتي، هذا ليس إسلاماً إطلاقاً ، فالتصوير محرم ، التصوير في أعراس النساء لا أقول محرم بل من أشد أنواع المنكرات ، لأن هذا الشريط يصف كل امرأة وصفاً تاماً، يوضع في البيوت، ومن يقول: أنا لا أراهم. فهل تضمن ذلك؟ هل تضمن هذا أن يأتي ابنك ويراه؟ والله أنا حدثني أخ، أن عرس جرى في فندق، والذين أقاموا هذا العرس لهم اتجاه ديني، وأخذوا مواثيق، وأخذوا تعهدات أن هذه الصالة لا يدخلها أحد، فإذا في طابق آخر مركز مراقبة تلفزيونية، مجموعة شباب أعينهم كلها على الشاشة يرون النساء الكاسيات العاريات، والمظهر جماعة أصحاب دين، وعملوه بمكان فخم أمام الناس، ولكن أخذوا تعهدات من إدارة الفندق أن لا يدخل رجل، أما كاميرات المراقبة كلها تصور كل مَن في الحفل بشكل

فاضح، والرجال في الطابق الثاني متحلّقون حول هذه الشاشة يرون النساء الكاسيات العاريات والاتجاه ديني، وبكلمة ألطف محافظون، من أسرة محافظة.

نحن الحق حق، والباطل باطل، فهذا المكان ليس لأهل الإيمان فلذلك وتبقى ساكتاً، مجاملة ؟! مثل هذا الأعراس محرم تحريماً قطعياً بأشد ألفاظ التحريم أن ترسل زوجتك إلى هذه الأعراس، ما دام في تصوير، لأن الصور التقطت، والفيلم يعرض في البيوت، ويقال هذه فلانة، وهذه فلانة، وما أبشع أن تكون فلانة محجبة في الطريق ومكشوفة في الأفلام، هل هناك أبشع من ذلك ؟ هذا منكر مثلاً، التصوير في الأعراس منكر إنكار شديد.

على كلٍ كل هذه الأحاديث تؤكّد وجوب إنكار المنكر بحسب القدرة عليه، أما الإنكار بالقلب فلابد منه، لابد منه، فإن لم ينكر قلب المؤمن دل على ذهاب الإيمان من قلبه. لك صديق، لك أخ، لك قريب مؤمن، زوجته محجبة، إلى أين ؟ ذاهبين على المصيف سنأخذ الشاليه. ما هذا الكلام، ألا ترى هذه المرأة الرجال وعوراتهم مكشوفة، والفخذ عورة، ألا ترى أنت النساء السابحات وعوراتهن مكشوفة، فهل هذا مكان مؤمن ؟ يا أخي دايق خلقنا، لا تحل مشكلة بمشكلة أكبر منها، الإسلام دين، الإسلام نظام، الإسلام قيَم، الإسلام التزام، الإسلام مبادئ، مبادئك فوق كل شيء.

لكن والله المؤمن لا يعدم طريقة يحقق فيها حاجته من دون أن يعصي الله عز وجل، أن أقول لكم كمؤمنون في أماكن تكاد تكون محرَّمة على المؤمنين، إذا أنت إيمانك قوي، وأنت مؤمن هذا المكان ليس لك إطلاقاً، لا من قريب ولا من بعيد.

إذاً، هذه الأحاديث مجتمعة دلت على وجوب إنكار المنكر بحسب القدرة عليه، وأما إنكاره بالقلب فلابد منه، فمَن لم ينكر بقلبه دل على ذهاب الإيمان من قلبه كلياً، سيدنا علي يقول: " إن أول ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم، ثم الجهاد بألسنتكم، ثم الجهاد بقلوبكم، من لم يعرف قلبه المعروف وينكر قلبه المنكر، نكس فجعل أعلاه أسفله " نكس على رأسه، نزل على رأسه شك بالتعبير العامي.

ابن مسعود رضي الله عنه سمع رجل يقول: هلك مَن لم يأمر بالمعروف ومن لم ينه عن المنكر. فقال ابن مسعود: " هلك مَن لم يعرف بقلبه المعروف والمنكر ".

الآن، متى تأمر بالمعروف، ومتى تنه عن المنكر ؟ إذا عرفت المعروف وعرفت المنكر، أرأيتم كيف أن العلم طريق إلى الله عز وجل، قبل أن تأمر وقبل أن تنهى، الآن ينبغي أن تعرف ما المعروف وما المنكر؟ فالفتن تأتي من أين ؟ تأتي الفتن حينما يختلط الأمر لا تعرف ما المعروف، تنه عن شيء مباح، وتأمر بشيء محرم، هذا من الجهل، لو أن إنسان أحب يأمر وينهى وهو جاهل، أحدث فتن، لو أراد أن يأمر أو أن ينهى وهو جاهل، لأوقع بالناس فتنة عمياء، لذلك قبل أن تأمر وقبل أن تنهى، يجب أن تعرف ما المعروف وما المنكر، إذاً العلم هو الطريق إلى الله عز وجل.

مرة ثانية: سمع ابن مسعود رجلاً يقول: هلك مَن لم يأمر بالمعروف ومن لم ينه عن المنكر. فقال ابن مسعود: " هلك من لم يعرف بقلبه المعروف والمنكر "، اعرف المعروف، واعرف المنكر، عندئذٍ تأمر وتنهى، فقبل أن تأمل وتنهى يجب أن تتعلم.

ابن مسعود يقول: " يوشك من عاش منكم أن يرى منكراً لا يستطيع له غير أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره " أي يأتي زمان صعب ، لا تستطيع لا أن تقول ولا أن تفعل، ولكن إذا علم الله أنك كاره لهذا المنكر، فهذا مما نرجو أن يغفر الله لنا جميعاً به، إذا علم الله في قلوبنا إنكاراً للمنكر وحباً للخير.

في عندنا قول عن رسول الله دقيق جداً:

((إذا عملت الخطيئة في الأرض، كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها))

(من الجامع لأحكام القرآن)

واحد فرضاً ذهب لبلد أجنبي، وشاهد منكر بشع على قارعة الطريق، تحت سمعه وبصره، فكره هذا العمل كرهاً شديداً، ورأى أن هذا تخلف شديد للإنسان، وهذا رجوع بالإنسان إلى الحيوانية والبهيمية، وأن هذا المجمع مجتمع شارد وجاهل وضائع، ومجتمع غارق في الملدّات المحرَّمة، وتألم ألماً شديداً، قال: هذا لا شيء عليه، أما إذا كنت في بلدك، في بلدٍ يتَّصف بالتدين، وقرأت قصة عن بلد بعيد عنك آلاف الكيلو مترات في أقصى الدنيا، قرأت عن معصيةٍ، أو عن انحراف أخلاقي، ورأيت أن هذه المعصية شيء جميل، وشيء مُسعد وممتع، وأقررتها، كأنك شهدتها، اسمعوا القول:

((إذا عملت الخطيئة في الأرض، كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها))

(من الجامع لأحكام القرآن)

فالقضية قضية نفسية، " من هوي الكفرة حشر معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً"، حتى إذا أخوك ارتكب ذنب، وطبعاً الذنب معصية، وقلت: دبر حاله، عفارم عليه، شاطر، ركز وضعه، أمَّن مستقبله، حربوء دبر حاله، أنت وإياه في الإثم سواء، أنت لم تفعل شيء، أنت لم تقبض مال حرام، لكن لأنك قلت: هذا في منتهى الذكاء، شاطر، بأساليب ذكية أمن مستقبله، أمن محل، أمن بيت، أمن سيارة، إذا أنت قلت شاطر أو أثنيت عليه، أنت شريكه في الإثم، " الذنب شؤم على غير صاحبه، من ذكره فقد اغتابه، من عيَّره ابتلي به، من رضي به شاركه في الإثم ".

قال العلماء: الرضا بالخطايا من أقبح المحرمات، إلا أن إنكار الخطايا بالقلب هذا مما يسقط المسؤولية، قال " الإنكار بالقلب فرض على كل مسلم لا يسقط عن أحد في أي حال، الإنكار بالقلب، ما هو قولك الآن أنت معك مؤشر نفسي، كلما رأيت منكر لاحظ قلبك تحرك، تضايقت، انزعجت، ثارت عندك الغيرة لله عز وجل ؟ هذا علامة إيمانك، أما وجدت قلبك بارد لا يوجد حركة، وقلت يصطفلوا،

الناس فسدوا، إن لم تشعر بشيء إطلاقاً فهذه علامة خطيرة، لذلك إنكار المنكر بالقلب فرض عين على كل إنسان.

أما الإنكار باليد واللسان فبحسب القدرة، كما في حديث أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((ما من قول يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون على أن يغيّروا فلا يغيروا، إلا يوشك الله أن يعمهم بعقابه))

أنا سوف أريحك، من أجل أن توفق بين قوله تعالى:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة فاطر: من آية " 18 ")

مع قوله تعالى:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

(سورة الأنفال: من آية " 25")

من أجل أن توفّق بين آيتين كريمتين تبدوان متناقضتين، الحل الإنسان إن لم يأمر بالمعروف وهو قادرٌ عليه، البلاء يعم المذنبين والساكتين، لما جاء الأمر الإلهي بإهلاك قرية، فقالت الملائكة:

ـ إن فيها رجل صالح.

ـ قال: به فابدؤوا.

ـ قالوا: لمَ يا رب.

ـ قال: لأنه إذا رأى المنكر لم يتمعر وجهه. لم يسأل عن شيء.

في عندنا حالة مرضية خطيرة، الفساد عم، استشرى، المنكرات عمت الحفلات، وبحفلات الفرح، بكل المناسبات، بالطريق، واحد وجد أن أنسب شيء يضع ابنته على الصندوق بالمحل التجاري أنسب شيء، فابنته هذه أمينة، هذه البنت صبية، وله أقرباء، ومن عائلات بالتعبير الحديث محافظة، ولم يتكلم معه أحد ولا كلمة، فلذلك إذا كان المنكر عم، والناس رضوا به، وسكتوا عن إنكاره، عندئذٍ يعمهم الله بالبلاء.

مرة سمعت قصة ذكرتها لكم من قبل: سائق سيارة ركب معه شاب وزوجته، وينتظرون أن تأتي حقيبة، تأخر الذي سيأتي بها، فانزعج السائق، عنده موعد، ثم جاء الرجل الذي يحمل الحقيبة، فالشاب أمسك بيده ووكزه على صدغه، وقال له: لماذا تأخرت؟ فإذا هذا الرجل والد هذا الشاب، فلما علم السائق ذلك غضب أشد الغضب وطردهم من مركبته وقال: والله أخشى أن نقع بحادث دهس أو حادث مروع لأن الله غاضب عليكم. أنا أعجبني هذا الموقف إلى أقصى درجة، لما إنسان يرتكب غلط كبير

والناس ساكتة، ولا أحد يتحرك، نحن انتهينا، اقرأ علينا السلام، أما هذا السائق الشهم حينما رأى شاباً يدفع أباه في صدغه بشكل مهين، ويعنفه، ويبقى ساكتاً، طردهم شر طرده، وقال: أنا أخاف أن أرتكب حادثاً مروعاً من أجلكما، أنتما عاقّان.

فالإنسان إذا عمل منكر ووجد الناس كلها صارت ضده، يقول لك: لفها، أما كلهم ساكتين، يتطاول زيادة، خذها قاعدة: لا تسكت، طبعاً الآن أقول لكم التفاصيل، لست مكلفاً أن تلقي بيدك في التهلكة، أما إذا كانت القضية ضمن أسرة واحدة، ضمن أسر الأقارب لا يوجد مسؤولية، بيت أختك، بيت أخوك، بيت والدك، بيت ابنك، تظل ساكت، ويصطفلوا، وتقول: لا أريد أن أزعجهم، في نمط، في أمهات متقدمات بالسن المسبحة، والورد والحجاب الكامل، وأولادها يرتكبون المنكرات أمامها، وتقول: يا ابني يصطفلوا، اتركهم، هذا كلام الجهل، الأب يرغب أن يجامل أولاده، الأولاد يرتكبون كل المعاصي في البيت ؛ اختلاط، وسهرات.. إلخ، وهو ساكت، ويقول: الله يرضى عليهم ويفوقهم، هذا كلام ليس له معنى، إذا كنت تحبهم، إذا أردت أن يرضى الله عنهم لا تسمح بهذا في البيت، وبخهم.

((ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعمله))

مجتمع مدرسة، مستشفى، ممرض عمل معصية خشنة، مدير المستشفى، والأطباء، أكثر وأعز، فإذا سكتوا، أما إذا كانوا المدير والأطباء كلهم، وفي ممرض ضعيف مؤمن، رأى منكر كبير، هذا أقل وأضعف، الحديث:

((ما من قول يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعمل المعاصي، فلم يغيروه إلا عمهم الله بالعقاب))

(من الجامع الصغير: عن " جرير ")

هذا معنى جديد، إذا كانت الأكثرية قوية، ورأت منكراً من أقلية ضعيفة وبقيت ساكتة، فإثمها كبير جداً، أحياناً يكون أربع أخوات وأخ أصغر الأخوة، وارتكب منكراً، فتجد الأربعة ينفقون على البيت، وهم أقوى منه، وهو فعل هذا المنكر وبقوا ساكتين، والله هذه مشكلة كبيرة، هم أكثر وأعز ممن يعمل المنكر، فلم يغيروه إلا عمهم الله بالعقاب.

وقال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله لا يعذب العامَّة بعمل الخاصة، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قاردون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلو ذلك عذب الله العامة والخاصة))

(من الدر المنثور: عن " عدي بن عمير ")

صار شيء واضح تماماً، فكرة واضحة كالشمس، متى يعم العقاب؟ إذا تعطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا تبتعدوا كثيراً، هذه الأمة التي وصفها الله عز وجل بأنها خير أمة أخرجت للناس، ما علة خيّريتها ؟

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

(سورة آل عمران: من آية " 110 ")

على خيريتها، فإذا تعطلت هذه العلة، فإذا تعطل فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هل هي خير أمة أخرجت للناس ؟ انتهت، أب خاطب ابنه، عنده خمسة أولاد، الابن أخذ الأولية، قال له: أنت أحسن أولادي لأنك نجحت بتفوق. شيء جميل، العام القادم رسب، فلو قال: أبي قال لي أنا أحسن أولاده. قال لك: أنت أحسن أولاده لأنك نجحت، الآن أنت راسب، فالحكم انتهى، فكلمة خير أمة إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، فإذا تعطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقدنا هذه الخيرية.
إن الله جل جلاله ليسأل العبد يوم القيامة حتى يقول: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره ؟ قال: يا رب رجوتك وفرقت من الناس ـ خفت من الناس ـ بالآخرة لا يوجد كذب، الإنسان ينطق بلسان الحال، والنبي قال في خطبة، قال:

((ألا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه))

(من مختصر تفسير ابن كثير: عن " أبي سعيد الخدري ")

قال: " إن كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرب أجلاً "، هذا يجب أن يؤمن به، إن كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرب أجلاً.

النبي الكريم قال:

((لا يحقرن أحدكم نفسه، قالوا: يا رسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال: يرى أمر الله عليه فيه مقال ثم لا يقول فيه، فيقول الله له: ما منعك أن تقول في كذا وكذا ؟ فيقول: يا رب خشيت الناس، فيقول الله عز وجل: إياي كنت أحق أن تخشى))

(من مختصر تفسير ابن كثير: عن " ابي سعيد")

وربنا قال:

(أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ)

(سورة التوبة: من آية " 13 ")

بينما نحن جلوسٌ حول رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ ذكر الفتنة فقال

((إذا رأيتم الناس مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم، وكانوا هكذا، وشبك أصابعه، فقلت له: كيف أفعل عند ذلك جعلني الله فداك ؟ قال: إلزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ بما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر خاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة))

(من الجامع لأحكام القرآن: عن " عمرو بن العاص ")

في حالات خاصة في آخر الزمان لا تستطيع أن تقول كلمة، في مثل هذه الأحوال، إذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم، وكانوا هكذا، هذه لها تعبير عامي يقولون (الشغلة فايتة في بعضها) تناقضات، التواءات، حِيَل، ختل، تداخلات، تمثيل كثير، مواقف معلنة، مواقف مبطنة، فتن مستعرة، إذا رأيت الناس كذلك قال النبي الكريم:

((عليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة، إلزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة))

الشيء للطيف بآخر الدرس أن الصحابة ذكروا قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

(سورة المائدة: من آية " 105 ")

فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم يأتِ تأوليها بعد. المعنى الأول: عليكم أنفسكم، أي الزموا أنفسكم، تعاهدوها، طهروها، احملوها على الطاعة، عليك بفلان، أي ربيه، انتبه له، عينك عليه، عاونه، عليك بفلان، أي الزمه، عليكم أنفسكم إن كنتم كذلك عندئذٍ..

(لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ)

الضال لا يؤذيكم، لا يصل إليكم،لا يفتتن بكم، أما متى يؤذي الضال المهتدي ؟ المقصر، إذا واحد مؤمن مقصر وضال يؤذيه،الدعاء: " ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ".. " إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني " فالآية في المعنى الأول رائع جداً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ)

(سورة المائدة: من آية " 105 ")

اعتنوا، عرفوها بالله، طهروها من الدنس، احملوها على الطاعة، اسموا بها، فإن فعلتم ذلك لا يستطيع عدوكم أن ينال منكم، الله يحميكم، أنت مع الله، والله بيده لك شيء، إذا أنت مقصر، في تقصير، في إهمال، في مخالفات، في معاصي، الله عز وجل يغري الذي لا يعرفه أن ينالك منك، الله عز وجل قال:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6))

(سورة القصص)

معنى ذلك أن: إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني، فإذا أنت عليكم أنفسكم، اعتنيت بها، عرفتها بربها، حملتها على طاعة الله، عندئذٍ لا يستطيع عدوك مهما كان قوياً أن ينال منك، لأن عدوك بيد الله..

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

هذا المعنى الأول، في معنى ثاني: الصحابة قالوا وقتها: لم يأتِ تأويلها بعد. قال: إنما تأويلها في آخر الزمان، عن ابن مسعود قال: إذا اختلفت القلوب والأهواء، وأُلبِستم شيعاً، وذاق بعضكم بأس بعض، عندئذٍ جاء وقت هذه الآية، أي " إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوىً متبعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ـ الآن ـ فالزم بيتك، وأمسك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة " هذا معنى الآية الثانية..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ)

(سورة المائدة: من آية " 105 ")

عينك على حالك، لا تهتم بأمر العامة إطلاقاً..

(لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

(سورة المائدة: من آية " 105 ")

أنت اهتديت وانتهى، إذا كان الناس بلغوا درجة من البعد عن الله لا يسمحون لواحد أن يعظهم، ولا أن يذكرهم، وإن فعل هذا قتلوه، عندئذٍ سقط عنك الأمر بالمعروف باليد واللسان، وبقي الإنكار في القلب.

جبير بن نفير عن جماعة من الصحابة قالوا: هذه الآية لأقوامٍ يصدق عليهم الحديث النبوي:

((إذا رأيت شحاً مطاعاً))

، كما قلت قبل قليل، لكن في عندنا نقطة: قال إذا هاب الواعظ، وأنكر الموعوظ، فعليك حينذ بنفسك، لا يضرك من ضل إذا اهتديت. هاب الواعظ أي لا أقدر أن أتكلم، يفرموني، وأنكر الموعوظ، والموعوظ ليس مهتم، ليس فيه خير، غارق في الشهوة في الزنا، وفي الخمر، الواعظ خائف، والموعوظ ما فيه خير، عندئذٍ بقي الإنكار بالقلب، قال: لم يأت تأويلها بعد، متى تأويلها ؟ قال: إذا هاب الواعظ، وأنكر الموعوظ، فعليك حينذ بنفسك، لا يضرك من ضل إذا اهتديت.

قال: هذه الآية ما أضيقها وما أوسعها، تحب أن تأخذها على المعنى الأول: أنت ما دام اهتديت الناس يصطفلوا، هذا معنى واسع ومريح، والمعنى الأول أصعب، أي عليك بنفسك، الزم طاعة الله، الزم معرفة الله، ارقى بها، اجعلها مهبط لتجليات الله عز وجل، من أجل أن يحفظك الله من الآخرين هذا المعنى فيه حماس، المعنى الثاني سهل: أنت ما دام اهتديت الناس يصطفلوا، هذا المعنى، إذا هاب الواعظ، وأنكر الموعوظ.

ابن عمر له كلام لطيف، قال: " مَن علم أنه لا يقبل منه لم يجب عليه". أحياناً تشعر بالحاسة السادسة أن الشخص لا يمكن، أنت في واد وهو في واد، أي أنه غارق بالزنا، وبالخمر، وبالانحرافات إلى درجة أنه أنكر وجود الله، وتقول له: الخاتم الذهب بيدك حرام. أي حرام هذا ؟ هذا كلام ليس له معنى،

رأيت خاتم ذهب بيد واحد غارق بالزنا والخمر، وتقول له: حرام الخاتم الذهب ؟ فهو لا يعرف الله أساساً، فإذا عرفت أن هذا الذي أمامك لا يمكن أن يسمع عندئذٍ الأفضل استنباطاً من قوله تعالى:

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9))

(سورة الأعلى)

من تكلّم بالحكمة لغير أهلها فقد ظلمها، ومن منعها أهلها فقد ظلمهم، والله الموضوع لم ينتهي بعد، إن شاء الله في درس قادم الآن في عندنا ما المنكر ؟ المنكر الذي أجمع العلماء على إنكاره، وليس قضية خلافية، فإن شاء الله في درس قادم نتابع هذا الموضوع، لأن موضوع القسم الأخير دقيق جداً ؛ تعريف المنكر، تعريف المعروف، الوسائل، الأساليب، إن شاء الله في درس آخر نتابع هذا الموضوع وهو إنكار المنكر، والأمر بالمعروف.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (049) :الأخلاق الإسلامية5 - صلاة الجماعة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-09-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... لازلنا في موضوع الأخلاق الإسلامية، ومع الدرس الخامس في هذا الموضوع، ومن أبرز هذه الأخلاق الإسلامية الأخلاق المتعلقة بالجماعة، فربنا عزَّ وجل في قرآنه الكريم، وفي بيانه، وفي سنة نبيه هناك توجيهاتٌ دقيقة جداً متعلقة بالأخلاق الإسلامية التي تنطلق من الجماعة، فمثلاً:

الصلاة هناك حديثٌ صحيح في البخاري ومسلم يؤكد أن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفز ـ أي الفرد ـ بسبعٍ وعشرين درجة. سؤال: يا ترى إذا جئت إلى المسجد وصلّيت لماذا أجر هذه الصلاة سبعٌ وعشرون ضعفاً ؟ إذا الصلاة اتصال بالله، صلاتك في البيت كصلاتك في المسجد، ولكن ما حكمة أو ما علّة أن الله جل جلاله أوحى إلى نبيه هذا الحديث، لأن أحاديث النبي ـ كما تعلمون ـ وحيٌ غير متلو لقوله تعالى:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(سورة النجم)

لماذا أراد الله عزَّ وجل من خلال سنة النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤكد لنا أن صلاة الإنسان في المسجد تعدل سبعاً وعشرين ضعفاً ؟ أنت إذا ربحت بالمائة مائة يختل توازنك، بالمائة سبعة وعشرين ضعف، أي بالمائة ألفين وسبعمائة، قال: لأنك إذا أتيت إلى المسجد رأيت إخوانك، رأيتهم ورأوك، تفقدَّتهم وتفقَّدوك، لعلك تستفيد من بعضهم، قد يكون أخوك في حالٍ أعلى من حالك، قد تكون همة أخيك أعلى من همَّتك، قد تكون حالة أخيك أصفى من حالتك، فبهذا اللقاء، وذاك التواصل، وذاك التفقُّد يتم ما يسمى بالروح الجماعية.

فلذلك تصميم ربنا عزَّ وجل لنا أن نجتمع ؛ لأن الجماعة رحمة والفرقة عذاب، " عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية)

في نقطة مهمة بصلاة الجماعة، أن الإنسان حينما يأتي إلى المسجد، أولاً المسجد هو المكان الطبيعي للصلاة، بالبيت في أولاد، في صياح، في ضجيج، في طعام ينتظرك، في فراشٍ وثير ينتظرك، فالفراش يغريك أن تذهب إليه، والطعام يغريك أن تذهب إليه، وابنك الصغير تلهو به، يغريك أن تبقى معه، لكنك إذا أتيت إلى المسجد ؛ لا صياح، ولا جلبة، ولا ضجيج، ولا شيءٌ من هذا القبيل، فالمسجد هو المكان الطبيعي للصلاة، إذا داومت على صلاة الجماعة في المسجد صار لك إخوان، هناك متعة يجنيها

الإنسان من لقائه مع إخوانه، صار لك أصحاب، تأتي إلى المسجد تسألهم عن حالهم، يسألونك عن حالك، ربما تعاني من مشكلة حلها عند أخيك، ربما متضايق أخوك فرَّج عنك هذا الضيق، إذاً لحكمةٍ رائعةٍ رائعةٍ رائعة أرادها الله وبلغنا عنها النبي الكريم هو:

((أن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ ـ أي الفرد ـ بسبع وعشرين درجة ".))

إذاً الله جل جلاله أرادنا أن نجتمع، أرادنا أن نتعاون على البر والتقوى، أرادنا أن نلتقي، أرادنا أن نتواصل.

حديثٌ آخر في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال عليه الصلاة والسلام:

((والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطبٍ فيحطب ـ أي يُجْمَع ـ ثم آمر بالصلاة فيأذَّن لها، ثم آمر رجلاً فيؤمَّ الناس، ثم أخالف ـ أي أذهب ـ إلى رجالٍ لا يشهدون الصلاة فأحرِّق عليهم بيوتهم، والذي نفسي بيده لو يعلم أحدكم أنه يجد عَرْقاً سميناً، أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء))

فإذا إنسان مدعو إلى وليمة فيها قطعة لحم، عرقاً أي عظم عليه لحم سميناً، أو مرماتين أي عظمتان بينهما قطعة لحم، لو أنه دعي إلى طعام، إلى شيء يأكله لأسرع، أما إذا دعي إلى بيت الله لماذا يبطئ ؟ فهذا الحديث الثاني في البخاري حديثٌ دقيقٌ جداً.

لذلك من علامة المؤمن أنه في المسجد كالسمك في الماء، مرتاح، بيت الله، ترتاح نفسه في المسجد، ومن علامة المنافق أنه في المسجد كالعصفور في القفص، لذلك:

((سبعة يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله ـ من هؤلاء السبعة ـ رجلٌ قلبه معلقٌ بالمساجد))

يصلي، ويقرأ القرآن، ويذكر، ويتعلَّم أمور دينه.

اسمعوا الأحكام الفقهية: لو أن أهل بلدةٍ مسلمةٍ تركوا جميعاً صلاة الجماعة، طبعاً صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفز بسبعٍ وعشرين ضعفاً، أي مقبول من الإنسان أن يصلي في بيته، لكن صلاة المسجد تفضلها بسبعٍ وعشرين ضعفاً، لكن لو أن أهل بلدةٍ اتفقوا جميعاً على ألا يصلوا صلاة الجماعة، استمعوا إلى حكمٍ فقهي، لو ترك أهل بلدٍ مسلمٍ صلاة الجماعة كان من حق المسلمين تحت لواء قائدهم العام أن يقاتلوهم، المخالفة الفردية مقبولة لأنه في عذر، أما المخالفة الجماعية اتفاق، صار اتفاق على ترك سنة، السنة مَن أتى بها فقد أحسن وأجاد، ومن تركها فقد أساء، أما أن يتركها جميع الناس فهذا تواطؤ على تغيير الدين.

لذلك المسجد قائم مفتوح فيه صلاة جماعة، نحن لا نحاسب أحد، أما بلدةٌ إسلامية لو ترك جميع أهلها صلاة الجماعة هذا تغييرٌ في الدين، عندئذٍ أهل هذه البلدة يقاتَلوا، أي أن السنن إذا تركت جماعة إذاً فالعملية خطيرة، عملية تغيير في بُنية الدين.

قال: أعمى لقي النبي صلى الله عليه وسلم، وسأله أن يرخِّص له بالصلاة في بيته، أولاً أذن له، ثم دعاه فقال له:

((هل تسمع النداء للصلاة))

قال: نعم.

قال: فأجب.

((فالنبي كأنه أذن له مبدئياً ثم أعطاه الأحوط، قال له))

إن سمعت النداء فأجب

وروى مسلمٌ عن أبي هريرة قال

((أتى النبي رجلٌ أعمى قال: يا رسول الله إنه ليس لي قائدٍ يقودني إلى المسجد، فهل ترخِّص لي في أن أصلي في بيتي ؟ فرخَّص له، فلما ولَّى دعاه قال: هل تسمع النداء للصلاة ؟ قال: نعم. قال: فأجب))

حتى الأعمى في حديثين صحيحين النبي كان حريصاً على أن تؤدَّى الصلاة في المسجد، أحياناً تستغرب تجد الفجر فرضاً، نحن نصلي ثلاث صفوف، تجد بناء مؤلفاً من اثني عشر طابق وكل طابق ست شقق، بالثانية مثلها، الثالثة مثلها، الرابعة مثلها، لو أن سكان هذه الأبنية أرادوا أن يصلوا الفجر في جماعة لضاق بنا كل هذا المسجد في طوابقه كلها، تجد ثلاث صفوف أي واحد بالألف تقريباً، مع أنه " مَن صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله ".. و " ابن آدم لا تعجز عن ركعتين قبل الفجر أكفك النهار كله ".. " ولو يعلم الناس ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً ".

فسبحان الله عندما يكون في لقاء مع الإخوان في الجامع، تكون نائم الساعة الواحدة، تجد نفسك في الثالثة والنصف استيقظت، إخواني ينتظروني، متواعدين معاً نكون في المسجد، طبقوا هذه الطريقة، ليكن هناك لقاءات، طبعاً بالمسجد القريب من بيتكم، " صلاة الفجر في جماعة مع ذكر الله حتى تطلع الشمس بمثابة حجةٍ وعمرةٍ تامتين تامتين تامتين " إذا الإنسان تعود يصلي الفجر في جماعة ويذكر الله عزَّ وجل، إما أن يتلو كتاب الله، وإما أن يستغفر، وإما أن يهلل، وإما أن يكبِّر، وإما أن يسبِّح، وإما أن يذكر اسم الله المفرد (الله، الله) وإما أن يفكِّر في ملكوت السماوات والأرض، يعني جلسة مع الله، إذا أديت هذه الجلسة حتى شروق الشمس ثم أعقبتها بصلاة الضحى كتبت لك حجةٌ وعمرةٌ تامتين تامتين تامتين، ومعنى مَن صلى الفجر في جماعة كان في ذمة الله، واحد يقول لك: ابن دولة إذا كان يرتدي ثياب رسمية، إذا إنسان تهجَّم عليه فالعقاب مضاعف، يقول لك أثناء مهمته يا أخي، أنت لما تكون مصلي الفجر في جماعة صرت من أهل الله، " من أذى لي ولياً فقد آذنته بحرب "..

(إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62))

(سورة يونس)

ولكن هل هناك دليل أقوى من كل هذه الأدلة على صلاة الجماعة ؟ أول حديث في البخاري:

((صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة))

ثاني حديث:

((. ثم أخالف إلى رجالٍ لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم))

النبي لا يفعلها، ولكن هذا الحديث لبيان عظم صلاة الجماعة.

دليل ثاني قوي: الأعمى الأول والثاني قال له: هل تسمع النداء ؟ قال: نعم. قال: فأجب. هل هناك دليل أقوى من هذه كلها في القرآن تذكرونه ؟

(وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43))

(سورة البقرة)

(وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119))

(سورة التوبة)

(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى)

(سورة البقرة: من آية " 238")

هناك أقوى..

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14))

(سورة طه)

رهل هناك وضع أخطر أخطر، في ظرف عصيب كأن تقاتل عدو ؟ الإنسان هنا في بلده مطمئن، بيته، عمله، أما أنت في ساحة معركة ؛ حياة أو موت، روحك على كفك، قال تعالى:

(وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوّاً مُبِيناً (101) وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ)

(سورة النساء)

يعني الصلاة في أشد الظروف خطورةً تصلَّى جماعة، صلاة الحرب، فريقٌ يقف يحرس، وفريقٌ يسجد مع رسول الله، ويأتي الذي لم يصل فيصلي، صلاة الخوف وأنت في الحرب تؤدى جماعةً، العلماء قالوا: هذا من أقوى الأدلة، لأنه في خطر داهم، وفي قلق شديد ومع ذلك ما فرَّطنا في صلاة الجماعة، قد يقول قائل: في الظرف العصيب كل واحد يصلي لحاله، واحد واحد، لا، ونحن في الحرب نصلي صلاة الجماعة.

سؤال: هذه الصلوات الخمس تقريباً للأحياء، كل حي له مسجد تؤدَّى فيه الصلوات الخمس، لكن صلاة الجمعة أوسع، في عندنا مصلى في كل حي، وفي عندنا جامع، المصلى غير الجامع، أي مكانٍ يصلى

فيه فهو مصلى، أي مكان يسجد فيه لله عزَّ وجل فهو مسجد، لكن ما كل مسجدٍ جامع، الجامع تقام فيه صلاة الجمعة، صلاة الجمعة أوسع، أي مثلاً لو فرضنا في حيّ فيه خمس مساجد، وفي أحد المساجد يتَّسع لأهل الحي كلهم، صلاة المصلين في المساجد الصغيرة باطلة، من أجل اجتماع كلمة المسلمين، بالضبط أقول لكم.

مثلاً: أي حي من أحياء دمشق، لو أن هناك جامع يتسع لسكان الحي جميعاً، إذاً لابد من أن يصلوا جميعاً في مسجدٍ واحد لتتوحد كلمتهم، صار المسجد غير الجامع، المسجد كل مكانٍ يسجد فيه، لكن الجامع المسجد الذي تقام فيه صلاة الجمعة ـ أوسع ـ

سؤال: أما خطر في بالكم لماذا سنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أن نصلي صلاة العيدين في المصلى لا في المساجد ؟ السنة أن تصلى صلاة العيد في العراء، ما الحكمة من ذلك ؟ كل مسجد تؤدى فيه خطبة العيد، المفروض أن يجتمع مسلمون هذه البلدة كلهم في هذا المكان، كأن الإسلام حريص أن يجمع أكبر عدد ممكن، مقبول أن تصلي خمس أوقات في المسجد، لكن صلاة الجمعة لا تؤدى إلا في الجامع، وصلاة العيد ؛ الفطر والأضحى لا تؤدى إلا في العراء في المصلى، نختار مكان يتسع لمائة ألف، نحن ما عندنا في الشام جامع يتسع لمائة ألف، يجوز الجامع الأموي يتسع لخمسين ألف، أما لمائة ألف، الآن أهل الشام خمس ملايين، افرض النساء نصفهن اثنين ونصف مليون، نريد مكان يسع لمليون إنسان، هكذا السنة، والقصد أن الإنسان يكون مشدود لأخوه المؤمن، ما يكون في تفرقة.

في شيء آخر، والآية الكريمة:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

(سورة الحجرات: من آية " 10 ")

فيها هذه الآية دقائق دقيقة، ما دقائقها ؟ ماذا نفهم من كلمة (إنما) ؟ أداة قصر، ولكن ماذا تعني ؟ إعرابها كافة ومكفوفة، (إن) حرف مشبه بالفعل ينصب ويرفع، فجاءت (ما) فكفته عن العمل، فـ (الما) كافة، والـ (إن) هذا إعرابها، لكن معناها ؟ أنا أريد بالضبط ماذا تعني كلمة (إنما) بالآية

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

قصرت الإيمان على الأخوَّة، سؤال لو قلت: إنما شوقي شاعر، أو إنما الشاعر شوقي، ما هو الفرق بينهما ؟ فرق كبير جداً، لأنني لو قلت: إنما شوقي شاعر، إذاً شوقي فقط شاعر، لا كاتب، ولا حقوقي، ولا تاجر، فقط شاعر، أما إذا قلت: إنما الشاعر شوقي، لا في حافظ إبراهيم، ولا في محمود سامي باشا البارودي، ولا في شاعر آخر بالعالم العربي، إذا قلت: إنما الشاعر شوقي معنى هذا ما في شاعر آخر، إذا قلت: إنما شوقي شاعر أي شوقي ما له عمل آخر، بالتعبير الآخر مفهوم أننا قصرنا شوقي على الشعر، أما في الثاني نقول: قصرنا الشعر على شوقي..

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

هنا ما قصرنا الأخوة على المؤمنين، بل قصرنا الإيمان على الأخوّة، يعني دققوا في التفسير الدقيق: ما لم تكن، ما لم تشعر بأخوَّتك لكل المؤمنين فلست مؤمناً، لا تكون مؤمناً إلا إذا شعرت بهذه الأخوَّة، هذا معنى (إنما) من قال التركيب الإسمي ؟ ما معنى إسمي ؟ تفيد الثبات، الفعل يفيد الحدوث الطروق، دخل فلان، دخل مرة واحدة وجلس، أكل فلان، نام فلان، لكن إذا قلت: فلانٌ مخلصٌ، إذا قلت: أخلص فلان في تجارته، عمل صفقة واحدة وأخلص فيها وانتهى الأمر، أما فلانٌ مخلصٌ في تجارته يعني إخلاصه دائم، التركيب الإسمي يفيد الثبات والاستمرار، إذاً:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

قصرنا الإيمان على الأخوة، وأشعرنا أن الأخوة الإيمانية ثابتة ومستمرة.

هل هناك نقطة ثالثة بالآية: الأخ الصديق جمعها إخوان..

(كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً)

(سورة آل عمران: من آية " 103 ")

فالإخوان جمع أخ، يعني أخ صديق، أم الأخ النسبي جمعه إخوة..

(وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ)

(سورة النساء: من آية " 176")

فالإخوة نسباً، الإخوان صداقة، فربنا عزَّ وجل رفع مستوى أخوة المؤمنين إلى مستوى الأخوة النسبية، من (إنما) في حكم، ومن الأخوة النسبية في حكم، ومن التركيب الأسمى في حكم.

الثالثة:

(فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)

(سورة الحجرات: من آية " 10 ")

هذا هو الأصل، الأصل هذه المودة، وتلك المحبة، وهذا التعاطف، وتلك المشاركة، هذا هو الأصل، فإذا كان الأمر على خلاف ذلك نبقى ساكتين، نبقى مكتفين، نتفرج على خصومةٍ بين أخوين ؟ قال:

(فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10))

والله هذه الآية وحدها يا إخوان إذا فهمناها حق الفهم لكنا في حالٍ آخر، أيُّ إنسانٍ لا يشعر بهذه الأخوة مع مجموع المؤمنين لا مع فئةٍ خاصة، وأي إنسان لا تكون هذه الأخوة في حياته استمراراً وطبعاً ثابتاً، عندئذٍ لا يكون مؤمناً.

هل عندنا دائرة أوسع ؟ بالمناسبة

((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ". من هو أخوك ؟ أخوك بالإنسانية وليس بالإيمان، لأن النبي الكريم قال:" حتى يحب لأخيه))

(من الأذكار النووية:عن " أنس ")

والمطلق على إطلاقه، إذا قلنا: يحب لأخيه، أوسع دائرة يعبَّر عنها بكلمة أخيه في الإنسانية، لذلك لو كان إنسان غير مسلم وأحببت له خلاف ما تحب لنفسك فلست مؤمناً، الآن بالبيع والشراء يقول لك: هذا لبسَّنا البضاعة له، لما أنت تغش وتقول: هذا ليس مسلم وهو ماله مباح لنا. مَن قال لك ذلك ؟ ماله مباحٌ لك في ساحة الحرب فقط، إذا أنت تحاربه، صار في غنيمة، لكن في السلم ماله ليس مباح لك، كثير من التجار إذا رأوا شخص غير مسلم، يقول لك: أجرمه، ماله حلال. هذا كلام كله جهل، والآية التي بين أيديكم:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ)

الخطاب لمَن ؟ للمؤمنين..

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ)

ما هو الشنئان ؟ أشد أنواع البغض، الشنئان ليس بغضاً فقط بل أشد أنواع البغض يقال له شنئان..

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ)

المؤمن مَن عدوه ؟ الكافر، فيعني أيها المؤمن إن رأيت كافراً تكرهه كراهية شديدة، لا تحملك كراهته الشديدة على أن تظلمه، إذا توهَّمت أيها المؤمن أنني أرضى عنك إذا ظلمت الكافر الذي يكفر بي ويعاديني، إذا توهَّمت أنني أرضى عنك حينما تظلم كافراً فأنت مخطئ..

(اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا)

(سورة المائدة: من آية " 8 ")

اعدلوا مع مَن ؟ مع هذا الكافر العدو اللدود. اليوم مرَّ معنا بالفجر حديث أن أفضل أنواع الصدقة أن تقدمها لقريبٍ كاشح، معنى كاشح أي ممتلئ عداوة وبغضاء لك، فلماذا ؟ دائماً في بالأقرباء حساسة، إذا واحد ماديته جيدة، في له أقرباء يحسدوه، يحقدوا عليه، أفضل صدقة أن تقدم هذه الصدقة لعدوٍ قريب، لعله بهذه الصدقة يحبك حفاظاً على وحدة المؤمنين، لقريب كاشح، قريب في حساسة بينك وبينك، في نقد، في حسد أحياناً، في حقد، هذه عند الله لها فضلٌ كبير لأنها ربما أذابت من نفسه هذا الحقد، ربما أذابت هذه الكراهية، ربما أذابت هذا الألم، إذاً أوسع دائرة الأخوة الإنسانية..

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: من آية " 13 ")

سؤال: ما الذي يجعل المؤمن يحب المؤمن ؟ هو الله عزَّ وجل، ولكن الله عزَّ وجل قنن قوانين، وسن سنن، ووضع مبادئ، أي بحسب المبادئ التي خلقها الله عزَّ وجل، في نقاط مشتركة، المؤمنون يعتقدون عقيدة فكرية واحدة، أنت إذا اعتقدت أن الله عزَّ وجل ما له علاقة بالأحداث هذه، تتضايق، فما هذا الكلام ؟ الله ما دخله، الله خلق وترك العباد، إذا جلست مع إنسان وأعطاك هذه العقيدة هل تقبلها أنت

منه ؟ إذا الله خلق الخلق وتركهم، الآن أوروبا كلها يقولون: الله خلاّق ولكن ليس فعَّال، أعطى كل شيء قوام وترك الناس يشتغلوا، فهم بحسب عقيدتهم القوي يأكل الضعيف، ما في مانع، أما الله عزَّ وجل عند المسلمين خلاقٌ وفعال..

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ)

(سورة البقرة: من آية " 84 ")

أنت لو جلست مع إنسان عقيدته غير صحيحة هل ترتاح له ؟ هل تقدر تنسجم معه ؟ هل من الممكن تقيم معه علاقة حميمة ؟ إذاً ما الذي يدعوك إلى حب أخيك المؤمن ؟ أنه يعتقد ما تعتقد، ويؤمن بما تؤمن، ويستسلم لما تستسلم، أول شيء: الالتقاء الفكري على عقيدة واحدة.

الشيء الثاني: الالتقاء النفسي على عاطفة واحدة، الذي يهز مشاعرك يهز مشاعره، الذي تتمناه يتمناه، الحقيقة توافق المبادئ توافق المشاعر، صار في توافق مبادئ، أي قناعاتك كقناعاته، مشاعرك كمشاعره، يقول لك مثلاً: والله كان معنا بالعسكرية، فلماذا هذه المودة الزائدة ؟ صار في ضغط، وبهذا الضغط أصبحت المشاعر مشتركة، الآلام وحَّدت..

لمَّت الآلام منَّا شملنا ونمت ما بيننا من نسب

* * *

الآلام تجمع، المشاعر الواحدة تجمع، فسر الأخوة بين المؤمنين أن العقائد واحدة والمشاعر واحدة، وفوق ذلك السلوك موحَّد، مؤمنين ماشين بالطريق، مرت فتاة، فهل من المعقول واحد يبحلق فيها والثاني يغض بصره ؟ لا، تجد الاثنين يغضوا بصرهم، والله شيء جميل ! اثنان وقفوا على باب صديقهم كيف يدقوا الباب ؟ هل يدق الباب ويفتح عينه على الباب؟ لا، بل يعطي ظهره للباب، تجد السلوك واحد، الحياء مشترك، الخجل مشترك، الأدب مشترك، الإنصاف مشترك، التؤدة مشتركة، يمشون على الأرض هوناً، فالعقيدة واحدة، مشاعر واحدة، سلوك واحد، في مرجع واحد، فلو فرضنا اختلفوا القرآن حكمٌ بينهم جميعاً، في مرجع واحد، فلذلك سر هذا اللقاء ؛ عقيدة مشتركة، مشاعر مشتركة، سلوك مشترك، مرجع واحد مشترك، لذلك:

(لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 63 ")

أنا كثيراً ما دعوتكم إلى أن يتآخى أحدكم مع أخيه، أو أن تتآخوا اثنين اثنين، أنت لازم تصطفي أخ من إخوان المسجد تقول له: أنت أخي في الله حقاً، كلمة أنت أخي في الله هذا عهد، أي أنا معك على السرَّاء والضرَّاء، أنا لا أنساك، ولا أتخلى عنك، ولا أنسى تفقُّدك، ولا أنسى متاعبك، متاعبك متاعبي،

مشكلاتك مشكلاتي، آلامك آلامي، أفراحك أفراحي، نجاحك نجاحي، إخفاقك إخفاقي، أخٌ كريمٌ صادقٌ صدوق في الحياة قد ينسيك كل متاعب الحياة.

أنا أشعر أحياناً أن بعض إخواننا في علاقات مودة بالغة فيما بينهم، أحس أن هذه العلاقات ضمانة كبيرة على استمرار إيمانهم، لأن الإنسان لوحده أحياناً ينتكس، أحياناً واحد يكون شعوره أنه لحاله، تأتيه مشكلة فوق طاقة تحمله ينتكس، أما لو في أخ له ويسأله: أين كنت اليوم ؟ فيحكي له همه، يقول له: غلطان، عندما يكون لك أخ محب، وأنت أخذت خط غير صحيح، وانحرفت بك العقيدة، أو السلوك، أو المشاعر صار في عندك حقد، أو صار في عندك ضيق، أخوك يفرِّج عنك، فأنا والله أتمنى من كل قلبي أن نقلّد سنة النبي الكريم حينما هاجر هو وأصحابه الكرام للمدينة المنورة فقد

((جعل جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل أخوين، وجعل أبا بكرٍ وخارجة بن زيدٍ أخوين، وجعل حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة أخوين، وجعل عمر بن الخطاب وعثمان بن مالك أخوين، وجعل عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين))

قال له سعد بن الربيع: يا أخي عبد الرحمن عندي بستانان خذ واحداً منهما، وعندي حانوتان خذ واحداً منهما. قال له سيدنا عبد الرحمن: بارك الله لك في مالك ولكن دلني على السوق. واحد وقف في أعلى موقف في تضحية، والثاني أعلى موقف فيه تعفف، والله أنا مرة عملتها مع أخ ضاقت به الأمور فقلت له: والله نصف راتبي لك، هذا أقل شيء تقدمه لأخوك، إذا ما قدَّمنا لبعضنا فما قيمة هذا الانتماء ؟ أنت منتمي إلى أشرف دين، منتمي أعلى أعظم نبي، منتمي إلى دين الحق، إذا ما ظهر منك هذه التضحيات ما قيمة هذا الدين ؟ والله أنا أشعر بسعادة لا توصف حينما أرى إخواني متحابين، متكاتفين، متزاورين، متجالسين، يؤثر بعضهم بعضاً، ربنا عزَّ وجل قال:

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

(سورة الحشر: من آية " 9 ")

أخ من إخواننا حكى لي أنه ساكن في بيت، وأخوه أشد حاجة إلى البيت منه، أخوه يريد الزواج، فقال له: تعال اسكن مكاني، مَن يعطي بيت لإنسان الآن ؟ ولكن والله الأول لن يضيع عند الله عزَّ وجل، فهذا الشرط، الشرط ذلك الدين القيم.

حديثٌ شريف، يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي))

نكتة مرة صارت، ضمن عملي قديماً من قبل عشرين سنة تقريباً، كان في عرف أنه كل واحد يعزم المدرسين على طعام فطور، يأتي دوره بالشهرين مرة، ففي أخ كريم خطيب مسجد وأستاذ لغة عربية، أتى بأكل طيب كثير، واعتنى بنا كثير، وخبز بلدي، وحاجات، وفي واحد من مذهب لا إله، قال له:

والله بدك تأميم أنت يا أستاذ على هذه الأكلات الطيبين، فأنا قلت له رأساً: يا أستاذ فلان النبي ما قال لك لا يأكل طعامك إلا تقي ؟ أرأيت كيف أنك أطعمته فحسدك على ما عندك ؟! دائماً المؤمن يفرح لك. واحد دخلت لبيته فأكرمك، فستدعو له: الله يزيدك من فضله، أما غير المؤمن يحسدك، المؤمن يفرح لك.

فالنبي الكريم قال حديث رائع، روى أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي))

لما يدخل لبيتك مؤمن وتطعمه، تشعر أنك أنت تتغذى، لأنه مؤمن أكرمته بالطعام، لأن إطعام الطعام من السنة، أخ مسافر، عشيته، غذيته، جعلته ينام عندك، شيء رائع جداً لكن لا ترتاح لغير المؤمن..

((لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي))

الحديث الثاني: رواه ابو داود والترمذي بإسنادٍ صحيح عن أبي هريرة أن النبي قال:

((الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم مَن يخالل))

أنت مع مَن تنسجم ؟ مع مَن تقعد خمس ساعات ولا تقول أف الوقت الساعة واحدة ؟ مع من تقعد هذه القعدة ؟ مع أهل الدنيا ؟ مسكين، مع أهل الله ؟ فهنيئا لك، إذا ممكن تقعد مع أهل الله خمس أو ست ساعات سهرة ولا تشعر بالوقت إطلاقاً، والله كثيراً نكون قاعدين مع إخواننا أقول أن الساعة الحادية عشر، فأخرج فأجدها الواحدة صباحاً، الخطأ ساعتان، في انسجام، اقعد مع أهل الدنيا تجد نفسك في خلال ربع ساعة تغلي غليان، لأنه كلام فاضي، لأن حكيهم كله غلط، كلامهم فيه شرك، أو فيه كبر، أو فيه فخر، أو فيه استخفاف بالناس، أو في غيبة، أو في نميمة، أو في شعور بالحرمان، شعور بالقهر، هذا كله كلام الناس، لذلك تجد المؤمن عندما يجلس مع غير المؤمن يتثاءب، يمل، يريد فقط يمشي، ويقول: اسمحوا لي. أخي والله الآن أتيت ؟ أخي والله عندي موعد ولا أستطيع، مع غير المؤمن لا يستطيع يقعد معه، انظر الحديث ما أجمله

(("لا تصاحب إلا مؤمناً...))

عندما تجلس مع واحد خمس أو ست ساعات مع مَن ؟ قل لي مَن تصاحب أقل لك مَن أنت.

((" المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل))

أنا يا إخوان أتمنى عليكم العلاقات الحميمة لا ينبغي أن تعقدها إلا مع المؤمن، أما علاقات العمل هذه مفروضة عليك فرض، لأنه ممكن يكون لك رئيس في عملك، رئيس دائرة أنت لا تعجبك أخلاقه، وهذا لا يهم، أنت أدِ ما عليك، احترمه بحكم أنه أعلى منك، وأخلص بعملك، وأدِ واجبك، أما علاقات حميمة

لا أعقدها إلا مع أخي المؤمن لأنه في انسجام بالعقيدة، وبالمشاعر، وبالسوك، وبالمرجع، أما غير المؤمن تجد دائماً معه بإحراجات، بمفاجآت، بمطبات دائماً.

الحديث الأخير: روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيباً، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً منتناً))

فالمؤمن إن سكت نفسه طيبة، يقول لك: والله ارتحت، وهو ما حكى ولا كلمة، لما أنت زرته صار في اشتباك نفوس فارتحت، أولياء أمتي إذا رؤوا ذكر الله بهم، إن حدثك تستفيد من حديثه، إن عاملك حقاني وكريم، تعاملت معه تستفيد مادياً، إن جالسته ترتاح نفسياً، إن حدثته علمه يفيدك، فلذلك كن مع الجليس الصالح.

الملاحظة أن كل هذه التوجيهات توجيهات اجتماعية، فمؤمن منسحب من المجتمع هذا لا يكون، مؤمن بعيد عن مشكلاته لا يكون، الأنبياء..

(لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ)

(سورة الفرقان: من آية " 20 ")

فالتعامل مع الناس وفق قواعد الشرع هذا يؤدي إلى توسُّع دائرة الدين، فكلما كنت متفوقاً في معاملتك للناس، منضبطاً وفق الشريعة، عندئذٍ يدخل الناس في دين الله أفواجاً.

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله نتابع هذه الموضوعات التي أعلّق عليها أهمية كبيرة لأن: " المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يسلمه، ولا يحقره ".. و " الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (050) :إحياء علوم الدين5 - المحبة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-09-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم...

مع الدرس الخامس من دروس إحياء علوم الدين، في الدروس السابقة تحدَّثنا عن موضوع المحاسبة، كما ورد في إحياء علوم الدين، وعن موضوع المحاسبة وموضوع المراقبة، وتذكر الموت، وعن موضوع التفكر، هذه الأبواب الأربعة ؛ المحاسبة، والمراقبة، وذكر الموت، والتفكر في خلق السماوات والأرض هذه الموضوعات عقدت في الجزء السادس من إحياء علوم الدين.

أما في الجزء الخامس، من أبرز موضوعاته، بل من أخطرها، بل من أشدها لصوقاً بالمؤمن قال: " كتاب المحبة، والشوق، والأنس، والرضا، لفت نظري في مقدمة الكتاب هذه الأسطر، يقول أبو حامد الغزالي، في كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا من الجزء الخامس من إحياء علوم الدين، يقول: إن المحبة لله هي الغاية القصوى، من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام، إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، كالشوق والأنس والرضا، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمةٌ من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيره ".

يعني الغاية القصوى، ذروة المقامات، أعلى الدرجات، غاية الغايات، محط الرحال، منتهى الأمل، أن تحب الله عز وجل، فأي مقامٍ بعد هذا المقام ثمرةٌ من ثمار هذا المقام، إذا أحببت الله أنست به، إذا أحببت الله اشتقت إليه، إذا أحببت الله لزمت بابه، إذا أحببت الله أقبلت عليه، إذا أحببت الله خدمت عباده، إذا أحببت الله أكثرت من ذكره، إذا أحببت الله فعلت الخيرات تقرُّباً له، ذروة المقامات، وأعلى الدرجات، وغاية الغايات، ونهاية السُّلَّم، ما بعده مقام إلا وهو ثمرة له، ولا قبله مقام إلا وهو مقدّمة له ؛ التوبة، الزهد، الصبر، الإنابة، لأن هذا المقام أعلى المقامات، مقام الأنبياء.. " ألا لا إيمان لمن لا محبة له، ولا دين لمن لا عهد له ".

يعني لن تسعد في الجنة إلا إذا أحببت الله عز وجل، لن تستقيم على أمره إلا إذا أحببته، لن تشتاق إليه إلا إذا أحببته، الحُب هو كل شيء، الإنسان عقل يدرك، وقلب يحب، والعقل في خدمة القلب، أو العقل أميرٌ على القلب، والدليل " أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً ". كلما نما عقلك ازداد حبك، وازداد خوفك من انقطاع الصلة مع محبوبك، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((رأس الحكمة مخافة الله))

ماذا أقول لكم ؟ علم قليل مع الحب علم مبارك، حظ من الدنيا قليل مع الحب دنيا مباركة، زوجة ليست على ما يرام مع الحُب لله عز وجل، حياة أسرية سعيدة، فكأن الحب تيَّارٌ كهربائي يسري في هذه الأجهزة ؛ فالمروحة تدور، والبراد يبرِّد، والمكيِّف يعمل، والمكواة تعمل، كل شيء يعمل بهذا المحرك، لذلك إسلام بلا حب جسد من دون روح، جثة هامدة، إسلام بلا حب مركبة بلا محرك، العقل مِقوَد، أما الحب محرك، لخطورة هذا الموضوع، ولأنه غاية الغايات، ولأن الحب أعلى المقامات، ولأن الحب نهاية المطامح والآمال، وما من مقامٍ بعد الحب إلا وهو ثمرة من ثماره، وما من قبل الحب إلا هو مقدمةٌ له، وإن لم يخفق قلبك بحب الله فلست من الأحياء.

من لوازم الحي أنه يحب، والبطل هو الذي يعرف مَن يحب، إذا أحب الدنيا فهي فانية، إذا أحب امرأة فهي فانية، إذا أحب بيتاً أو بستاناً أو مقصفاً فهو فانٍ، لكنه إذا أحب الله عز وجل فهو الحيّ الذي لا يموت، هذه مقدمة، سؤال الآن: هل في الكتاب والسنة ما يؤكّد أن الحب هو أعلى المقامات ؟ اسمعوا، قال تعالى يصف المؤمنين بأنهم:

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

(سورة المائدة: من آية " 54 ")

حب..

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

(سورة المائدة: من آية " 54 ")

يصف المؤمنين بأنهم:

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ)

(سورة البقرة: من آية " 165 ")

وصفهم بالحب، ووصفهم بتفاوت الحب، الإنسان يحب، لكن المؤمن كل حبه لله عز وجل، حبه الشديد لله عز وجل أعلى درجات حبه لله عز وجل..

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا)

(سورة البقرة: من آية " 165)

نحن مع القرآن، الله جل جلاله أثبت الحب للمؤمنين وأثبت التفاوت في هذا الحب، فإن أحببت كذا وكذا وكذا، فالله ورسوله أحب إليك من كل شيء، النبي عليه الصلاة والسلام قيل له: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال:

((أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواه))

سؤال صغير: الآن يقول لك: أنا أحب الله عز وجل، لو سألت هذا السؤال لكل الناس من دون استثناء: أتحب الله ورسوله أكثر أم الزوجة ؟ يقول لك: أعوذ بالله، الله ورسوله. هذا كلام فارغ، المحك حينما

تطيع جهة غير الله عز وجل وتعصي الله، فأنت قولاً واحداً تحب هذه الجهة أكثر من الله ورسوله، المحك هو الطاعة.

أحياناً تأتيك ضغوط ؛ ضغط من شريك لإيداع المالِ في المصرف، وإن لم تفعل فصم معك الشركة، فأنت إذا كنت تحب الله ورسوله أكثر من هذه التجارة، ومن هذا الشريك، ومن هذا العمل، ومن هذه الأرباح، تقول له: لا أفعل وليكن ما يكن، لأن الله ورسوله أحب إليك مما سواهما.

لو أن امرأة ضغطت علك في شيء لا يرضي الله تقول لها: اعلمي أيتها المرأة أن الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أضحي بهن من أجلك. وانتهى الأمر، المؤمن ليس عنده مشكلة، ما عنده صراع، الله ورسوله أحب إليه مما سواهما..

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ)

(سورة الأحزاب: من آية " 36")

مستحل هذا، من رابع المستحيلات، أو من خامس المستحيلات، أو من سابع المستحيلات، أو من عاشر المستحيلات..

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: من آية " 36")

هذا حديث: يا رسول الله ما الإيمان ؟ قال:

((أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما))

في حديث آخر:

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما))

في حديث ثالث:

((لا يؤمن العبد حتى أكون ـ النبي ـ أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين ". وفي رواية: " ومن نفسه))

كيف من نفسه، كان يقف الصحابي الجليل يقول: يا رسول الله نحري دون نحرك، صدري دون صدرك، رأى حياة النبي أغلى عليه من حياته، رأى سلامة النبي أغلى عليه من سلامته.

هذه المرأة الأنصارية، والله حينما أروي قصتها أقف خاشعاً لها، مات أبوها في أحد، وابنها وأخوها وزوجها وتقول: ما فعل رسول الله ؟ ولم يهدأ لها بال حتى رأت النبي عليه الصلاة والسلام، فلما رأته قالت: يا رسول الله كل مصيبة بعدك جلل.

ما دمت حباً فالقضية سهلة، مصيبتي سهلة، هذا الحب، الكلام فيه سهل جداً، الكلام عن الحب سهل، سهل جداً، لكن البطولة في تحقيق هذه المعاني في أنفسنا، تقول: ألف مليون، سهلة، أقول لك: ألفين مليون، ثلاثة آلاف مليون، مليون، مليون، مليون، مليون، ولكن كم معك أنت من الليرات ؟ خمسة ليرات فقط، الحديث سهل، الحديث عن الحب سهل جداً وجميل، ولكن البطولة في تحقق هذا الحب في قلب المؤمن، والطريق واضح، الطريق طاعة الله عز وجل.

وفي الحديث الثالث:

((لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين ".. وفي رواية: " ومن نفسه))

ـ قال: كيف أصبحت يا عمر ؟

ـ قال: والله أحبك أكثر من أهلي ومالي وولدي والناس أجمعين إلا ـ صريح ـ نفسي التي بين جنبي.

ـ قال: لما يكمل إيمانك يا عمر. رآه مرة ثانية قال: كيف أصبحت يا عمر ؟.

ـ قال: أصبحت أحبك أكثر من أهلي ومالي وولدي والناس أجمعين حتى نفسي التي بين جنبي.

ـ قال: الآن يا عمر. هذا المؤمن.

قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا)

(ورة التوبة: من آية " 24 ")

يعني الطريق إلى الله مغلق، ليس سالكاً، ما دام هناك شيءٌ أحبَّ إليك من الله عز وجل فالطريق إلى الله مغلق..

(فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24))

(سورة التوبة: من آية " 24 ")

والله أيها الإخوة، هذه الآية وحدها لو تحققنا منها لكنا أناساً آخرين، الله عز وجل يخبرنا:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا)

(سورة التوبة: من آية " 24 ")

أي إذا حملكم أبوكم، أو أخوكم، أو ابنكم، أو زوجتكم، أو عشيرتكم، أو مال وفير، أو مسكن طيب، حبكم لهذه الأشياء إذا حملكم على أن تعصوا الله عز وجل..

(أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة التوبة: من آية " 24 ")

أي أحببتموها أكثر من الله، والدليل أنكم أطعتم هؤلاء وعصيتم الله، فتربصوا، يعني حبكم لها حملكم على الفسق..

(بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24))

(سورة التوبة: من آية " 24 ")

الآن أيها الإخوة... نحن مأمورون أن نحب الله عز وجل، والدليل، قال عليه الصلاة والسلام، وهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى:

((أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله إياي، وأحبوا آل بيتي لحبي، قالوا: مَن هم آل البيت ؟ قال: كل تقي من آل البيت))

كل تقي من آل بيت رسول الله:

((أنا جد كل تقي ولو كان عبداً حبشياً))

في معاني بنفسي لا أدري كيف أعبر عنها، الإسلام بسيط جداً، لا يحتاج إلى تعقيد، نحن عقَّدناه، يكفي أن تتجه إلى الله، يكفي أن ترى أن كل هؤلاء الناس الذين أمامك هم عباد الله، يكفي أن تتقرَّب إلى الله بخدمة عباده، يكفي أن تؤدّي الصلاة الخمس، يكفي أن تستقيم على أمره، يكفي أن تذكره، يكفي أن تتلو كتابه، عندئذٍ يلقي في قلبك النور، يلقي في قلبك الحبور، يلقي في قلبك حبه، وحب نبيه، وحب المؤمنين، فإذا أنت إنسان آخر.

رجل قال:

ـ يا رسول الله إني أحبك، والله إني أحبك.

ـ قال: انظر ما تقول ـ دقق، هذه كلمة خطيرة ـ

ـ قال: والله إني لأحبك.

ـ قال: انظر ما تقول ؟

ـ قال: والله إني لأحبك.

ـ قال: إن كنت صادقاً فيما تقول فاستعد للفقر.

بالطبع الحديث يحتاج إلى شرح طويل، ليس معنى الحديث أن كل من أحب النبي كان فقيراً، لا، لكن مَن أحب النبي وجاءته صفقة مشبوهة يقول: لا، إني أخاف الله رب العالمين، فالذي أحب النبي من أجل تطبيق سنته ربما ضاع عليه مال كثير، ودنيا عريضة، تجارة فيها شبهة، هو يحب رسول الله، والذي يحب النبي يتبع سنته، إذاً يقول والله باعتذار، والله اليوم زارني أخ عرضوا عليه شركة جيدة جداً، التمويل جاهز، والمحل جاهز، والأرباح طائلة، والسقف غير محدود، ولكن الذي سيموّل هذه الشركة سيأخذ قرضاً من المصرف بفائدة، قال له: ليس فيها شيء، كن مرن. قال له: الله غني، السلام عليكم.

ليس معناها كل من أحب النبي كان فقيراً، لا، ولكن معناها إذا أحببت النبي، من علامات حبك له تطبيق سنته، فإذا عرض عليك إنسان مشروعاً فيه شبهة ربا، فيه مخالفة للشرع، فيها بضاعة محرمة، لا ترضى بها، لابد من أن يفوتك مال كثير من اتباع سنة النبي، يأتيك مال وفير من جهة أخرى، بالبداية لابد من الامتحان..

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2))

(سورة العنكبوت)

ـ فقال هذا الرجل: إني أحب الله تعالى.

ـ قال: إذاً فاستعد للبلاء.

ادعاء الحب القضية جميلة جداً أن تقول: أنا أحب الله، والله هذا شيء سهل..

كل يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاك

* * *

أن تدعي أنك تحب الله قضية سهلة جداً، لكن يضعك الله في موقف حرج، إما أن تطيعه، وإما أن تطيع زيداً أو عُبيداً، ضغط، تعرض لك شهوة عاجلة ؛ إما أن تستجيب لها، وإما أن تقول: إني أخاف الله رب العالمين، فإذا قلت: إنني أحب الله. هناك ابتلاء وامتحان، وإذا قلت: إني أحب رسول الله. هناك تفويتٌ لفرص كثيرة.

في شاب من الصحابة الكرام، تقريباً بمنطق العصر ابن شخص غني، يتكلم التجار أحياناً يقول لك: يحكي بسبعمائة مليون، يحكي بثلاثمائة مليون وليس ليرة سورية يقول لك بالدولار، ينبهك ليس بالليرة السوري، شخص بهذا الغنى وعنده شاب وحيد، كم هذا الشاب مدلل، طعامه، شرابه، ثيابه، أناقته، حاجاته، شاب وحيد وأب غني مليء يحب هذا الشاب، هذا هو مصعب بن عمير، من أغنى شباب قريش، من أكثرهم رفاهاً من أكثرهم نعومة ؛ نعومة في ثيابه، في طعامه، في شرابه، هذا عندما آمن برسول الله، طرده أهله، وحرموه كل شيء، فكان من أفقر الشباب.

فيبدو أن النبي عليه الصلاة والسلام نظر إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه ثياب خشنة، ثياب خشنة رخيصة جداً، قد تنطق به، الثياب تنطق بفقره، واحد كان عايش بأعلى درجة من الرفاه، من الأناقة، من الثياب، من الطعام الطيب، فجأة حرمه أبوه كل شيء، وجعله مشرَّداً، نظر النبي إليه، فقال عليه الصلاة والسلام:

((انظروا إلى هذا الرجل الذي نور الله قلبه، لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون))

(من تخريج أحاديث الإحياء: عن " عمر ")

انظروا حب الله ورسوله، طبعاً امتحان، نحن ضعاف الله عز وجل يمتحننا ولكن لا يطول امتحانه رأساً يعوض علينا، لكن يبدو أن الصحابة الكرام لهم مقامات عليا، لماذا هذا الشاب يرتدي هذه الثياب الخشنة ؟ لماذا هو جائع ؟ لأنه آمن بالله وأحب الله ورسوله، فإذا أحدنا لأنه آمن بالله ضاعت منه وظيفة، أو ضاعت منه تجارة، أو ضاع منه عمل، أيندب حظه ؟ هذا وسام شرف، وسام شرف لك، فالنبي عليه الصلاة والسلام لما نظر إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب خشن قد تنطق به، قال عليه الصلاة والسلام:

((انظروا إلى هذا الرجل الذي نور الله قلبه، لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون))

(من تخريج أحاديث الإحياء: عن " عمر ")

أهل الكهف، الذي تقرءون قصتهم في القرآن الكريم، أين كانوا يعيشون ؟ في قصور الملك، ملك البلاد الأقوام الذين عاشوا قديماً جداً في هذه البلاد كانوا في أعلى درجات العز والرفاه، أهل الكهف كانوا يعيشون في قصر الملك، فلما آمنوا بالله عز وجل، لجئوا إلى الكهف..

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً (16))

(سورة الكهف)

أنت أحياناً ممكن أن تخسر شيء من الدنيا إذا كنت أحببت الله ورسوله، لكن العطاء كبير جداً. إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت، إذ جاء لقبض روحه قال: "يا ملك الموت هل رأيت خليلاً يميت خليله ؟! معقول ؟ قال فأوحى الله تعالى إليه: هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبه ؟!! هذا كان الرد، يا رب معقول هل رأيت خليلاً يميت خليله ؟! قال له قل له: هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبه ؟!! فقال إبراهيم: يا ملك الموت الآن فاقبض إذاً. إذاً غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه.

السيدة فاطمة قالت للنبي الكريم قبل أن يموت: واكربتاه يا أبتِ. قال: لا كرب على أبيك بعد اليوم.

أحياناً الإنسان يكون بالحياة متعَب، مثقَل، ساعة بالعبادات، ساعة بالدعوة إلى الله، ساعة بحل مشاكل الناس، يجد معارضات، يجد خصوم، يجد حساد، هناك من يتهمه ظلماً وزوراً، هناك صعوبات، هناك مشَقَّات، فإذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن، يشعر بشعور لا يوصف، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه.

تراودني نفسي أقول لكم قصة سمعتاه اليوم، وتأثرت بها تأثر كثير، كنا في دعوة بمناسبة وفاة امرأة، فأحد المدعوين حدثنا عن زوجته المتوفاة، أنا يغلب على ظني أنه صادق، لأن جالسين أولادها وجالسين أقربائها وكلهم كانوا يصدقونه، امرأة يكاد لا يوجد في بلدة كبيرة طويلة عريضة امرأة

تشبهها، مشغوفةٌ بحب اله عز وجل، صلاة الليل، وتلاوة القرآن في أسبوع، كل أسبوع ختمة، وتؤدي واجباتها تجاه زوجها أعلى أداء ؛ الاحترام، والتقدير، والخدمة، ثم إنها تعرض نفسها عليه، ولا تفعل شيئاً إلا بإذنه، يقول زوجها: والله حينما أنظر إلى وجهها حينما تقرأ القرآن أشعر كأنها شمس.

قبل أن تموت بأيام قالت له: كأنها اختارت الرفيق الأعلى، وذهبت وودَّعت أولادها، وبناتها وأقربائها واحداً واحداً، ثم توفاها الله بأحلى حال، يقول زوجها: بقيت معها خمسة وثلاثين سنة ما ساء تني ليلة واحدة، وأنا أتهيّبها لأنها تقوم بأعلى درجات الزوجة، كواجبات، وهي في أسعد أحوالها، جاءها بمبلغٌ من المال لإرث أصابها، وزعته كله لله عز وجل، ولم تنل منه شيئاً، كانت تحض زوجها على أن يقدم خروفاً كل أسبوع للفقراء، له مزرعة تحضّه على أن يعطي كل ثمارها للفقراء لطلاَّب العلم، تقول له: لو دعوت أهل العلم كل يوم لوجدتني خادمة لهم، أنا استمعت إلى حديثه خلال ساعة أو ساعتين، وهي ليست متعلمة، قلت: والله تضع عشرات المتعلمين في طرف جيبها، شيء عجيب، هذا الحب، هكذا يفعل الحب.

لا تتحرك حركة من دون رضاه، إذا دخل إلى البيت، وقفت وسلَّمت عليه بمنتهى الأدب، وكل شيء تقول له: أتأذن لي. ومع ذلك تمضي أطول ليلها في الصلاة، وأطول نهارها في تلاوة القرآن، وتقدم أعلى درجة من واجباتها الزوجية، ولكنه قال: والله أنها أعلى مني بآلاف المرَّات، فهو يشعر أنه صغير جداً أمامها، توفيت ابنتها، قالت له: هذا قضاء الله وقدره، إياك أن تقول كلمة قل " لا حول ولا قوة إلا بالله " كأنها هي الرجل. شيء عجيب هذا الإنسان إذا عرف الله عز وجل صار إنسان آخر، ما قيمة الدنيا، ما عبأت بالدنيا إطلاقاً ؟ لا تعبأ لا بطعام، ولا بشراب، ولا بلباس، ولا بثياب، ولا تسمح لأحد أن يقول كلمة غيبةٍ أو نميمة، بل تقول: اذكر الله.

قال لي: جاءه صديقٌ ومعه زوجته وهي من أشد النساء تهتُّكاً، فدخلت لعندها قال له: ما قولك أن زوجتي الآن تقنع زوجتك بأن تتحجَّب، قال له: والله هذا من سابع المستحيلات، عندي وحدة عنيدة. أقسم بالله في زيارة واحدة خرجت وهي محجبة، أعطتها حجاب، وحتى الآن بقيت محجبة، قوة تأثير، هذه القوة تأتي من اتصالها بالله عز وجل، هذا الإيمان يا أخوان. فأنا شعرت زوجها قال: والله حرام علي أن أتزوج امرأة بعدها، قلت له: لماذا ؟ قال لي: لا يمكن أن أرتاح مع امرأة غيرها. ما هذه الأخلاق ؟!! هذا الإيمان، هذا الحب.

وهي ليست مثقَّفة، قال لي: أحضر مجلس وعلم، وأذكرها لها، تكمل الآية عني، تكمل الحديث، هذه غلط، هذه صواب، الله فاتح بصيرتها، حدثني عنها طوال الوقت، قلت له: والله تعطَّر هذا المجلس بذكرها، أنا شعرت بسرور ما له حدود، يمكن اختياري لهذا الموضوع بهذا السبب، اخترت موضوع

الحب لتأثري الشديد، هو قال لي أول شيء: أنا عندي زوجة هي رابعة العدوية لهذا العصر. سبحان الله!! فالمرأة كالرجل تماماً..

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ)

(سورة آل عمران: من آية " 195 ")

لماذا كانت امرأة فرعون مؤمنة ؟ فرعون، قال: أنا ربكم الأعلى ما أرى لكم من إلهي غيري، يذبح أبناءهم، ويستحي نساءهم، ليؤكد الله لنا أن المرأة مستقلة في اختيارها عن زوجها، يمكن أن تبلغ إلى أعلى درجات الإيمان ولو كان زوجها كافراً.

الذي لفت نظري بهذه المرأة أن شدة طاعتها لله عز وجل وإقبالها على الله، قال لي: والله تطبخ والمصحف في يدها، في المطبخ والمصحف في يدها، تقرأه كل أربعة أو خمسة أيام مرة، مداومة على ذكر الله، لفت نظري على الرغم من انشغالها بكل هذه العبادة ؛ من صلاة، وذكر، واستغفار، وتلاوة قرآن، ما شغلت عن حقه أبداً، قال لي: مرة ثلاثة أيام زارت أمها كانت مريضة، جاءت بعد الأيام الثلاثة تقول له: سامحني، أنا قصَّرت في حقك، لعلك بحاجة إلي في هذه الأيام الثلاثة، هو الزوج يتكلم ويبكي. هذا هو الإيمان، الإنسان عندما يؤمن أصبح ألماس، لما يؤمن أصبح إشعاع من النور، مصدر ثقة، مصدر حبور.

أنا قلت لكم: غلب على ظني أنه صادق، لأن أولادها جالسون، وكلهم يؤكِّد كلامه، وحدثنا طوال الجلسة عن زوجته، وهي متوفاة ؛ عن فضائلها، عن تواضعها، عن خدمتها، عن عفتها، عن استقامتها، عن طاعتها له، عن أدائها لواجباتها الزوجية، عن أدبها الجم، حتى أنه ذكر أشياء لا تذكر العادة، لا يمكن إذا كان هناك مناسبة تحتاج بعدها إلى غسل إلا أن تقرأ القرآن أولاً، وتصلي ركعتين، لعل الله يهبهما ولداً صالحاً، على السنة أبداً، ما هذه الاهتمام، هذا الحب، إذا أردت أن تحب هذا هو الحب، إذا أحببت الله تألقت، أصبحت مشعاً، يقولون لك: معدن مشع، قوة تأثير. طوال الدرس تراودني أذكر القصة أم لا أذكرها ؟ فذكرتها لكم، غلبتني نفسي وحدثتكم بها.

قال نبينا عليه الصلاة والسلام في دعائه:

((اللهم ارزقني حبك، وحب مَن أحبك، وحب ما يقربني إلى حبك، واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد))

(من تخريج أحاديث الإحياء: عن " معاذ ")

قال جاء أعرابي قال:

ـ يا رسول الله متى الساعة ؟

ـ قال: ما أعددت لها ؟ هذا جواب ذكي جداً، إذا إنسان أحرجك أنت رد عليه بسؤال محرج، قال أحد القضاة أعداء أبي حنيفة وهو عند المنصور، أراد أن يحرجه بقوله:

ـ إذا أمرني المنصور ـ المنصور جالس وهو الخليفة ـ بقتل امرئٍ أأقتله أم أتريس فلعله مظلوم ؟

ـ فقال أبو حنيفة: الخليفة على الحق أم على الباطل ؟ والمنصور قاعد.

ـ قال له: على الحق.

ـ قال له: كن مع الحق. فقال لما خرج: أراد أن يقيدني فربطته.

فالنبي عليه الصلاة والسلام سأله أعرابي قال له:

ـ يا محمد متى الساعة ؟

ـ قال له: ماذا أعددت لها، ماذا هيأت لها ؟.

ـ فقال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أني أحب الله ورسوله.

ـ قال له عليه الصلاة والسلام: المرء مع من أحب.

بقيت لنا عدة نصوص من الدرس، سيدنا الصديق يقول: " من ذاق من خالص محبة الله تعالى، شغله ذلك عن طلب الدنيا، وأوحشه عن جميع البشر".

وقال الحسن رضي الله عنه: " من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل ـ إذا غفل عن الله يلهو ـ فإذا تفكر حزن".

وقال الداراني: " إن من خلق الله خلقاً ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه، فكيف يشتغلون عنه بالدنيا ؟ ".

وقال بعضهم: " المؤمن إذا عرف ربه أحبه، وإذا أحبه أقبل عليه، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ".

وقال يحيى بن معاذ: عفوه يستغرق الذنوب، فكيف رضوانه ؟ ورضوانه يستغرق الآمال، فكيف حبه ؟! وحبه يدهش العقول، فكيف وده؟!! ووده ينسي ما دونه، فكيف لطفه

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً (96))

(سورة مريم)

ورد في بعض الكتب: " أن عبدي أنا وحقك لك محبك، فبحقي عليك كن لي محباً ".

قال يحيى بن معاذ: " مثقال خردلةٍ من الحب ـ أي تنزل من عينك دمعة واحدة لا أنك خائف، دمعة حب، أن تبكي بشعورٍ من مشاعر الحب ـ أحب إلي من عبادة سبعين سنة بلا حب ". سبعين سنة بلا حب، أفضل منها مثقال خردلة من الحب.

ناجى بعضهم ربه قال: " يا إلهي إني مقيم بثنائك، مشغول بثنائك صغيرٌ أخذتني إليك، وسربلتني بمعرفتك، وأمكنتني من لطفك، ونقّلتني في الأحوال، وقلّبتني في الأعمال، ستراً، وتوبة، وزهداً، وشوقاً، ورضاً، وحباً، تسقيني من حياضك، وتلهمني من رياضك، ملازماً لأمرك، مشغوفاً بقولك، ولما طرَّ شاربي، ولاح طائري فكيف أنصرف عنك كبيراً وقد اعتدت منك هذا صغيراً ؟!

أي إذا أخ من الإخوان الكرام ليس له مع ربه مناجاة، ليس له مع ربه ساعة إقبال، ساعة رجاء، ساعة سؤال، ساعة ذكر، لا يسعد بلقاء الله عز وجل، والله يحتاج إلى علم طويل.

إن شاء الله في موضوع الدرس القادم إن أحيانا الله، موضوع دقيق جداً، الإنسان ماذا يحب ؟ أي قوانين الحب..

* أول قانون: يحب نفسه.

* ثاني قانون: يحب مَن أحسن إليه.

* ثالث قانون: يحب المُحسن ولو لم يحسن إليه.

* رابع قانون: يحب الجميل.

* خامس قانون: يحب من شابهه في الكمال.

هذه قوانين الحب، ومعها إن شاء الله تعالى في الدرس القادم ومعها في التفاصيل، الإنسان مَن يحب ولماذا يحب ؟ فإذا تذكّرتم أن الله وحده تجتمع فيه كل هذه القوانين، إذاً كل إنسان لا يحب الله وحده في عقله خلل، هذا موضوع الدرس القدم، ماذا نحب ؟ ولماذا نحب؟ ومَن نحب ؟ ولماذا ينبغي أن نحب الله وحده ؟ لأن كل قوانين الحب مجتمعةٌ في الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (051) :الترغيب والترهيب2 - برالوالدين - عيد الأم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-09-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، بعض الإخوة الكرام لِمَ لمْ تجعل خطبة الجمعة حول موضوع عيد الأم، الحقيقة أن هذا العيد مستورد استيراد، سأذكر لكم قصة عشتها، قبل سنوات عدة أنظمة التعليم العالي في بلدنا و أنظمة البعثات لا تسمح لإنسان يحمل أعلى شهادة أن يُعيَّن في هذا البلد ما لم يحمل شهادة ثانوية سورية، معه دكتوراه، معه بورد، لا يُعيَّن إلا إذا كان يحمل شهادة ثانوية سورية، هذا النظام حرمنا من كثير من أبنائنا النابغين و المتفوّقين، لذلك ظهر في السبعينات تعديل لهذا النظام أن كل إنسان يحمل شهادة عالية ؛ دكتوراه فما فوق و لا يحمل شهادة ثانوية، بإمكانه أن يتقدّم بامتحان يعادل الشهادة الثانوية، والحقيقة امتحان شكلي، مادة لغة عربية، و مادة جغرافيا و تاريخ، فإذا نجح في هذا الامتحان الشكلي عُدّ ممن يحمل الشهادة الثانوية السورية وعُيِّن، و بهذه الطريقة استقبلنا طلابنا اللذين حصلوا على شهادات عليا و لم يحملوا الشهادة الثانوية السورية، هذا الكلام لا يعنينا إطلاقا، لكن مرة أنا كُلّفت أن أصحِّح أوراق اللغة العربية في هذه الشهادة، في العام الواحد هناك ورقة ستة عشر أو عشرون أو خمسة عشر، كل عام العدد لا يزيد عن عشرين ورقة، مرة طرق بابي رجل فسألني: هنا بيت فلان ؟ فقلت: نعم أنا فلان، قال: لي عندك حديث خمس دقائق، تفضل، قال لي: أنا طبيب أعمل في بريطانيا، في مانشيستر، ودخله ثمانية آلاف جنيه بالشهر، هذا رقم خيالي، وسيارته جاكوار، و أراد أن يعود إلى بلده مختارا، وقبل أن يتقاضى راتبا في بلده في السبعينات لا يزيد عن ثلاثة آلاف ليرة، من ثمانية آلاف جنيه استرليني إلى ثلاثة آلاف ليرة سورية، على ا، يعمل في جامعة دمشق، قلت له: ما الذي حملك على أن تعود إلى بلدك، وأن تعمل في هذا البلد الطيب، طبعا الدخل قليل، قال: قصة عاينتها في البناء الذي أسكنه في مانشيستر، ما هذه القصة ؟ قال: يسكن في الطابق السادس، في البناء الذي أسكنه فيه بالذات رجل إنجليزي، وقد توفي في بيته، ومضى على وفاته ستة أشهر، الطقس في الشتاء بارد، و آخر طابق، و البيت محكم الإغلاق، إلى أن تفسخت الجثة، و شعر الجيران أن هناك إنسان ميت في الطابق العلوي، طبعا اقتحموا الباب عن طريق الشرطة، منظر لا يُصدَّق، إنسان متفسخ أسود اللون، روائح، و دود، الآن قصة طبيعية، أما الشيء غير الطبيعي أن لهذا الرجل ستة أولاد مقيمين في لندن، و ما خطر لواحد منهم أن يزوره في هذه الأشهر الستة مرة واحدة، قال لي: من أجل هذا عدت إلى بلدي، هؤلاء يحتاجون إلى عيد أم، وعيد أب، لكن نحن عندنا في ديننا الإسلامي إذا لا تزور والدتك كل

يوم، إذا لا تقدم لها كل الخدمات، فأنا لا أحب أن نستورد عيدا استيرادا، طبعا مع تقطُّعه العلاقات و ضعف الدين، العيد جيد، مناسبة، مجرد أم، أما أنا أتحدث من زاوية المسلم، من زاوية الإنسان العادي الضائع التائه الشارد، الذي ثقافته غير دينية، والله عيد الأم لا بأس به، نحن اقتربنا أن نكون مثل هذه المجتمعات، لكن لما أنا أخاطب مؤمنين، رواد مسجد، طلبة علم شرعي، حينما أخاطب هؤلاء أستحي أن أقول لهم ينبغي أن تحتفلوا بعيد الأم، وأن تقدِّموا لأمهاتكم هدية في هذه المناسبة، طبعا قدِّموا لها هدية، أنا لا أعترض عن تقديم الهدية، ولكن أعترض على أن تقدِّم لأمك هدية في العام يومًا واحدا، هنا الاعتراض، يجب أن تبرها كل يوم، و الحد الأدنى كل أسبوع، الحد الأدنى، إذا كنت مشغولا، غارقا في متاعبك، كل أسبوع، بالمقابل أخ كريم في هذا المسجد حدَّثني بقصة سأرويها لكم لفائدتها، أب عنده خمسة أولاد فجأة رأى في إبهامه ؛ إبهام قدمه الأيسر رأى سوادا، فلما ذهب إلى الطبيب، قال له: هذا السواد مرض خطير، هذا المرض مرض الموات، اسمه الأجنبي " GARGARINصلى الله عليه وسلم " فقال الطبيب: لا بد من قطع الإبهام اليوم، غدا قد يُقطع مكان أكبر، بعد أيام القدم، لهذا الأب خمسة أولاد، الأربعة أولاد قالوا: لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا أمر الله، وهذا قضاء الله و قدره، ووافقوا أن يُقطع إبهام أبيهم، إلا أنّ أحد هؤلاء الأولاد يبدو على برٍّ شديد بوالده، وعلى محبة قصوى، اعترض على أن يُقطع إبهام أبيه، فقال له الطبيب: أنت مخطئ يا بني، إن لم نقطع الإبهام اليوم قطعنا القدم بعد أيام، فلما رأى الطبيب هذا الابن يهوي من شدة الألم، و يتألم، و يتوسل، ليس هناك طريقة، لا يوجد حل، لا يوجد علاج، هذه قصة واقعية، مع قريب أحد إخواننا، يبدو أن الطبيب احترم هذا الابن، رأى فيه البرَّ و المودة و المحبة لأبيه، قال له: واللهِ يا ابني هناك علاج لكن احتمال نجاحه خمسة بالمائة، هذا الإبهام يحتاج إلى ثلاث حمامات كل يوم، و الحمامات مع مواد معينة، ولمدة طويلة جدا، و هناك احتمال أن تنجح هذه المعالجة دون قطع إبهام أبيك، قال له: أنا أتكفل بها، طبعا قال له: حينما نشاهد السواد امتدّ ميليمتر لابد من قطع الإبهام، أما إذا توقف السواد، ثم تراجع، فهذا احتمال النجاح بالمائة خمسة، فهذا الابن يعمل موظفا و يسكن في مزرعة، والده يسكن في الجادة السادسة في المهاجرين، فكان يخرج من بيته الساعة السادسة صباحا إلى بيت أبيه، يجري له هذا الحمّام مع المواد و ينطلق إلى عمله، و ظهرا يأتي إلى بيت أبيه مرة ثانية و يجري له حماما ثانيا و يعود إلى بيته، و مساء يأتي إلى بيت أبيه، و بقي على هذه الحالة ستة أشهر، دون أن يزداد السواد، و بعد هذه الأشهر الست تراجع السواد و شفي إبهام الأب، الجائزة في الآخرة، لكن الأخ الذي روى لي القصة قال لي: هذا الابن الآن حجمه المالي مائتا مليون فما فوق، وأخوته ليس معهم قرش، الأربعة الذين قالوا: لا حول و لا قوة إلا بالله، طبعا أنا ما أردت أن تكون هذه الجائزة، الجائزة الجنة، و لكن لا يمنع أن تكون الجائزة في الدنيا و جائزة في الآخرة، الله وفقه لعمل تجاري، و أموره ارتقت سريعا، فنحن عيد الأم

هو عيد المسلم كل يوم، الآن حتى الإنسان لا يغلط عندنا شيئان، إن تمسكنا بهما لا نغلط إطلاقا ؛ كتاب الله و سنة رسوله، الله عز وجل قال:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

[سورة النساء]

هذه الواو واو العطف من لوازمها أنه لا بد من تناسب بين المتعاطفين، لا بد من مشاركة بين المتعاطفين، لا بد من تشابه بين المتعاطفين، أي أن الله رفع برّ الوالدين إلى مستوى عبادته، فالأمر الذي يرقى إلى مستوى العبادة هو بر الوالدين، لكن هنا سؤال ؛ هل تعلمون أن في الأديان السماوية كلها توجيها ربانيا واحدا يدعو الآباء إلى العناية بالأبناء ؟ الجواب لا، كما أنه ليس هناك أمرا في أيٍّ دين سماوي بتناول الطعام، لماذا ؟ لأن تناول الطعام تحصيل حاصل، لأن الله عز وجل ركّب في بنية الإنسان دافعا إلى الطعام، هذا الدافع يتمثل في الشعور بالجوع، وهذا الشعور بالجوع لا يقاوم، إذًا من نافلة القول، و ما يسميه علماء العقيدة تحصيل حاصل، أن يكون هناك أمر بتناول الطعام، بالمقابل ليس في الدين الإسلامي كله أمر بالعناية بالأبناء، لماذا ؟ لأن هذا مركّب في أصل الفطرة، في أصل الطبع، و كل شيء مركب في أصل الطبع لا يحتاج إلى أمر، لا حاجة، و خير دليل على ذلك اذهب إلى مستشفى الأطفال، وانظر إلى الأمهات كلهن، من كل الأجناس، ومن كل الثقافات، و من كل المستويات، أودع اللهُ في قلب كل أمٍّ و في قلب كل أب شيئا فطريا يدفعه إلى العناية بابنه، لذلك لا تجد في القرآن و لا في السنة أمرا يحضُّ الآباء على أن يعتنوا بأبنائهم، إذًا العناية بالأبناء طبعٌ مركب في الإنسان، فالأمر به لا معنى له، بل هو تحصيل حاصل، لكن العناية بالآباء و الأمهات، بر الآباء و الأمهات هذا فيه تكليف، لأنه ليس مركبا في طبع الإنسان، بمعنى، لما الشاب يتزوج مع من مصلحته ؟ مع زوجته، يعني متعته في الدنيا مع زوجته، و مع أولاده، و علاقاته الحميمة مع أصدقائه، الأب والأم أغلب الظن من جيل آخر، هو الآن شاب، وأبوه من جيل آخر، فالأب و الأم عبء على الإنسان، لذلك جاء التكليف، التكليف ما كان مخالفا للطبع، أما حينما يكون الشيءُ مركبا في طبع الإنسان لا يحتاج غلى أمر، كما أننا لا نحتاج إلى أمر إلهي بتناول الطعام، لا يوجد آية " كلوا " هذا أمر إباحة، " و كلوا و اشربوا " هذا أمر إباحة، و ليس أمر إلزام، الإنسان عنده دافع إلى الطعام يدفعه إلى الطعام دون أن يشعر، إذًا حينما تعتني بابنك، أنا لا أقول: ليس لك أجر، إذا أطعمته واعتنيت به، العناية العادية أنت تلبِّي حاجة من حاجاتك النفسية، أما حينما تنشئه تنشئة دينية، وهذا يحتاج إلى جهد، يحتاج إلى صبر، و يحتاج إلى متابعة، يحتاج إلى مراقبة، يحتاج إلى جلسات طويلة تعكف فيها على توجيهه، يحتاج إلى أن تأخذه معك إلى الأمكنة الطيبة، إلى المساجد، هو عبء عليك، الأب لما يربِّي ابنه تربية إسلامية دينية راقية له أجر لهذا العبء الذي يحمله، أما حينما يرى ابنه في صحة طيِّبة، إذا ارتفعت حرارته يأخذه

إلى الطبيب فورا، لأن الأب متألّم، الأب يريح نفسه لما يعالجه و يعطيه الدواء، إذّا الشيء المألوف بين الناس، العناية بالأبناء بالمستوى المألوف هذا فطرة في الإنسان و طبع، أما حينما تعتني بابنك العناية الفائقة التي تجعله فيها مؤمنا مستقيما طاهرا عالما طالب علم شرعي، حينما تجعل من هذا الابن، كما قالت امرأة عمران:

(إذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي)

(سورة آل عمران)

عندئذ لك أجر كبير جدا، بل إن كل أعمال أولادك الذين ربّيتعهم هذه التربية و نشّأتهم هذه التنشئة في صحيفتك، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ)

[سورة الطور]

أي ألحقنا بهم أعمال ذرياتهم، قال تعالى:

(وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (21))

[سورة الطور]

وقال تعالى:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً)

[سورة الأحقاف]

و قال تعالى:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

[سورة الإسراء]

طبعا الآيات كثيرة جدا حول بر الوالدين.

الآن أيها الإخوة، أمامي كتاب " الترغيب و الترهيب " وهو اسم على مسمّى، في فصل الترهيب من عقوق الوالدين، في فصل آخر: الترغيب في بر الوالدين، يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ

((قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ وَوَأْدَ الْبَنَاتِ وَمَنْعَ وَهَاتِ وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ))

[رواه البخاري]

((إخواننا الكرام، يجب أن تعلموا أن عقوق الأمهات من أكبر الكبائر، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ثَلَاثًا قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ قَالَ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ))

[رواه البخاري]

أي الشيء الذي لا يُغفر، الإشراك بالله، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)

[سورة النساء]

و مع الإشراك بالله عقوق الوالدين، و أؤكد لكم لما الإنسان يكون بارا بوالديه يشعر بسعادة لا توصف، يشعر أنه في مرضاة الله، و يشعر أنه أدّى واجبه تجاه من كانا سبا في وجوده، نعمة الإيجاد من سببها؟ أبوك وأمك، نعمة الإمداد، هذه نعمة من الله مباشرة، الماء و الهواء و الطعام و الشراب، نعمة الهدى و الرشاد لمن دلك على الله، لذلك قالوا: لك آباء ثلاثة ؛ أبٌ أنجبك، و أب زوّجك، وأب دلك على الله، الأب الذي أنجبك هو الأب النسبي، والأب الذي زوّجك عمّك، كثير من الأشخاص يتطاولون على عمه، عمك والد زوجتك، ربَّاها لك ثمانية عشر سنة، عشرين سنة، كم ليلة أخذها على الطبيب ؟ وكم ليلة اعتنى بتربيتها و بأخلاقها و بذهابها و حضورها، حتى أصبحت مكتملة، جسما و عقلا و نفسا، ثم زوّجك إياها، و أنت الآن ندٌّ له، تحاسبه حسابا عسيرا، هذا من سوء معرفة الله عز وجل، و من ضعف المعرفة، و من ضعف الإيمان، هناك أب أنجبك، و هناك أب زوّجك، و هناك أب دلك على الله.

((وعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرَجِّلَةُ - أي المسترجلة -وَالدَّيُّوثُ وَثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ وَالْمُدْمِنُ عَلَى الْخَمْرِ وَالْمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى))

[رواه النسائي]

طبعا الديوث لها معنيان ؛ الذي لا يغار على عرضه، هذا المستوى الشائع، والمستوى الضيق هو الذي يرضى الفاحشة في أهله، هذا لا يريح رائحة الجنة، الذي لا يغار على أهله، أي زوجته تنشر الغسيل في الشُّرفة بقميص النوم، أما الناس، تحت سمعه و بصره، ليست مشكلة، و ضع طبيعي، روح رياضية، هذا الذي لا يغار على عرضه أو يرضى الفاحشة في أهله، هذا سمّاه النبي عليه الصلاة و السلام ديُّوثا، هذا لا يريح رائحة الجنة، هو مع العاق لوالديه، فنحن الدرس اليوم من أجل أن يكون كلُّ يوم عيدَ أمٍّ، كل يوم، الإنسان لا يظن بزيارة والديه كل يوم، لم يتمكن كل يوم، فيوم نعم و يوم لا، لم يتمكن بالأسبوع فيومين، لم يتمكن فيوم الجمعة، لأنه أحيانا الأب قد يكون في غنى عن ابنه، في غنى عن مال ابنه، لكن لا يوجد أب على وجه الأرض في غنى عن أولاده، أحد إخواننا الكرام سافر إلى ألمانيا بحكم العمل، فهناك الفنادق مكتظة ممتلئة، قال لي: سكنَّا في بيت، سكن في بيت، البيت فيه امرأة متقدمة في السن تسكن وحدها، و عندها حديقة من أجمل الحدائق التي رآها في البيوت، معتنى فيها عناية تفوق الخيال، هذه المرأة المتقدمة في السن لا شغل لها في الحياة، و لا همَّ له إلا أن تعتني بهذه النباتات المنسقة والجميلة، اي في البيت حديقة من الحدائق النادرة في المنازل، فلما سأل هذه المرأة

المتقدمة في السن عن هذه العناية الفائقة بالحديقة، قالت: من أجل أن أقنع أولادي أن يأتوا إليّ في العام مرة واحدة، يروا هذه الحديقة، قال لي: بعد أيام يبدو، ولا أذكر أنه عيد خاص بالأم، أو عيد الميلاد، العيد الأساسي في المجتمع هناك، هيَّأت نفسها بالأكلات الطيِّبة، الحلويات، شيء خلاف المعقول، وهي تنتظر أن يأتي أولادها، وهم في نفس المدينة، في نفس المدينة، ثم فوجئت أن الأولاد كلهم لم يأتوا، واحد اتصل بها هاتفيا واعتذر لها، واحد بعث لها بطاقة، ولم يأت أحد، فانكمشت على نفسها و أصابها غمٌّ و همٌّ، في مثل هذه المجتمعات فعلاً هم بحاجة ماسة إلى عيد الأم، إذا كان الابنُ في نفس المدينة، والدته تعتني بالحديقة طوال السنة، و تهيِّئ كل الأكلات الطيِّبة، حتى يتنازل ابنُها و يزورها، ومع ذلك واحد اتصل بالهاتف واعتذر، و الثاني بعث بطاقة، وما أحد زارها في النهاية، فنحن نقول لمثل هذه المجتمعات المتدابرة التي تحطّمت فيهال الأسرة، التي تفكّكت فيها العلاقات الإنسانية، لمثل هذه المجتمعات هم بحاجة ماسّة إلى عيد الأم، ونحن هذا شيء طيِّب، هذا من الأعمال الطيبة، لكن لا يمنع أن يكون كلُّ يوم من أيام العام عيد طالب العلم الشرعي، و عند المسلم الحقيقي، و عند المؤمن الذي يغار على دينه، أن يكون كل يوم عنده عيد أم، ومن عادتي أنا كذلك، كذلك هناك إخوان يأخذون عليّ: أنت يا أخي لم تكلّمنا و لو مرة عن عيد الميلاد في رأس السنة على ما يجري في الفنادق ؟ أنا لي رأي خاص، هؤلاء الذين أمامي لا يرتادون هذه الأماكن، فما معنى أن أحدِّثهم عن هذا الموضوع ؟ و الذين يرتادون هذه الأماكن لا يرتادون إليَّ، فالشيء الطبيعي، لما نقول لواحد راق جدا: حذار أن تسرق، هذه إهانة له، حينما أنهى إنسانا في أعلى درجات الأمانة عن السرقة، هذه في الحقيقة إهانة، و في البلاغة يقولون: أن يكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال، قال لك واحد: كم الساعة معك ؟ تقول له: واللهِ العظيم، واللهِ العظيم والله العظيم الساعة السابعة، هذا إنسان غير بليغ، لم ينكر عليك كم الساعة، ولا طلب منك أن تحلف باليمين، فإذا لم يأت الكلام مطابقا لمقتضى لحال، فالكلام غير بليغ، لو أنك أرسلت طفلا صغيرا لوضع رسالة في البريد، ماذا تقول له ؟ تقول له خمسين كلمة، اذهب للمكان الفلاني و اشتر الطابع بهذا المبلغ بالذات أ وانتبه، و بلّله و ضعه على الظرف بشكل محكم، وادعكه بيديك، وأمسك الرسالة و اذهب إلى الصندوق الأحمر الفلاني فيه شقٌّ عرضي، ضع الرسالة هناك، هذا كله من لوازم مخاطبة الطفل الصغير، أما لو كان صديقا من سِنّك، تقول له: هذه من فضلك في طريقك ضعها في البريد، التفصيل مع صديقك عيبٌ، و الإيجاز مع الطفل الصغير، فتعريف البلاغة: أن يأتي الكلام مطابقا لمقتضى الحال، إذًا نحن إذا تحدّثنا عن الأم فكي يكون كل يوم من أيامنا عيد أم، و أحد أسباب التوفيق في الحياة، أحد أسباب التفوّق أن يكون الإنسانٌ بارًّا بأمّه و أبيه.

وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال

((قال عليه الصلاة و السلام: يراح ريح من مسيرة خمسمائة عام، العاق لوالديه لا يجد ريح الجنة، و إن ريح الجنة ليجده الإنسان من مسيرة خمسمائة عام))

أحيانا الإنسان يسبِّب لوالديه الشتم، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ قَالَ يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ))

(رواه البخاري)

و الحديث يتوسّع معكم أكثر لو وسَّعته، أيُّ إساءة لأيّ إنسان تسبب أن يسبَّ هذا الإنسان والديه، فأنت الذي سبّبت ذلك بنفسك، إذا أهملت عملك، أو أخلفت موعدا، و هناك شخص سفيه، رأسا يسب أباك مباشرة، هذا على ألسنة الناس، مسبة الأب شيء أصبح من لوازم السباب، فكل إنسان يسيء في عمله، في مهنته و اختصاصه و حرفته، يخلف موعدا، يأكل مالا حراما، يسيء و يعتدي، فالسفهاء ماذا يفعلون، ؟ أول شيء يقابلك به يسبُّ الأب، من الذي سب الأب ؟ هو أنت بإساءتك، هذا معنى الحديث،

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ قَالَ يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ))

(رواه البخاري)

حديث دقيق جدا، عن جابر بن عبد لله رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه و سلم نحن مجتمعون، فقال: يا معشر المسلمين اتقوا الله، وصلوا أرحامكم - دققوا في الكلام الآن - فإنه ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم، و إياكم و البغي، فإنه ليس من عقوبة أسرع من عقوبة البغي، و إياكم و عقوق الوالدين، فإن ريح الجنة توجد من مسيرة ألف عام، ووالله لا يلجها عاق و لا قاطع رحم و لا شيخ زان، و لا جارٌ إزاره خيلاء، إنما الكبرياء لله رب العالمين "

مفاد هذا الحديث الطويل يعنينا منه فقرات متعلقة بالدرس، أنه لا يوجد شيء أسرع ثوابا في الدنيا من بر الوالدين، و لا شيء أسرع عقوبة في الدنيا من عقوق الوالدين، بالمناسبة ذنوب كثيرة كثيرة ربما أرجئ عقابها إلى يوم القيامة، إلا عقوق الوالدين فإن الله عز وجل يعجِّل للعاق العقوبة في الدنيا قبل الآخرة.

وفي الحديث الواضح عن أبي بكرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين، فإن الله يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات، تلاحظ أحيانا

ينزل بالإنسان أشياء مدمِّرة بسبب عقوقه لولديه، هذا هو الترهيب من عقوق الوالدين، أنا بدأت به كي أنهي الدرسَ بالترغيب في بر الوالدين، آخر انطباع يكون الترغيب لا الترهيب.

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ قَالَ الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا قَالَ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ قَالَ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))

(رواه البخاري)

أي أعلى الأعمال الصلاة على وقتها، و بر الوالدين، و الجهاد في سبيل الله.

المعنى الثاني،

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدًا إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ))

[رواه مسلم]

أيضا هذا الحديث يمكن أن يتوسّع، أي مهما فعلت لن تستطيع أن توفي حقهما إلا في حالة واحدة، أن يهتديا على يديك، الإنسان الله عز وجل قال:

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13))

[سورة البلد]

أي أيضا المعنى الواسع لهذه الآية، الإنسان عبد لشهواته، فما لم يتحرر من هذه العبودية من شهواته فلن يصل إلى الله عز وجل، فإذا اقتحم العقبة:

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13))

[سورة البلد]

أي فكَّ رقبته من العبودية لشهواته، و النبي عليه الصلاة و السلام يقول

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ))

[رواه البخاري]

فالإنسان عبد لشهواته، فإذا لم يتحرر من هذه العبودية لن يصل إلى الله عز وجل، يضاف إلى هذا المعنى كما قال عليه الصلاة و السلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدًا إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ))

[رواه مسلم]

أي إذا واحد الله عز وجل هكذا قدَّر، أو جعله إنسانا بعيدا عن الله، لا يصلي، و أحيانا يشرب، إذا كان الله قدّر لإنسان، لشاب مؤمن أن يكون من نسل أبٍ منحرف أو مقصِّر أو جاهل أو مرتكب لبعض الذنوب و المعاصي، والابن بحكمة بالغة بالغة، و بنفَس طويل، و بصبر كثير، و بدعوة لطيفة، بخدمة

فائقة، إذا استطاع الابنُ أن يحمل أباه على التوبة و على أن يسلك طريق الإيمان، يكون هذا الابن قد وفّى لوالده حقَّه عليه، لا تستطيع أن توفّي لوالدك حقَّه عليك ولا لوالدتك إلا أن يجعل الله هداهما على يديك، لكن هذا يحتاج إلى، سهل كثيرا أن تهدي صديقك، الأب صعب كثيرا، لأنك كنت بضعا منه، يقول: الآن ابننا يريد أن يعلمنا، لذلك الذي يحاول أن يعين أباه على دينه يحتاج إلى صبر كبير وإلى حكمة كبيرة و إلى نفَس طويل، و إلى خدمة فائقة، لذلك الإنسان بالإحسان يمكن أن ينتقل إلى الهدى، و قد قلت لكم في أصول الدعوة: الإحسان قبل البيان، و الآمر قبل الأمر، القدوة قبل الدعوة، فأنت لا تستطيع أن تقول كلمة لوالدك إلا إذا كنت غارقا في خدمتك، و تلبية حاجاتك، فإذا تكلمت يصغي لك، وإذا أصغى لك، واستطعت أن تدعوه إلى بيت الله، و قدرت أن تحمله على طاعة الله و ترك بعض المعاصي، هذا عمل لا يُقدّر بثمن، هو أنجبك، وسبب وجودك، أنت تقدر على أن تكافئه، ليس هناك من مكافئة أعظم من أن تكون سببا في هدايته، لذلك يقول عليه الصلاة و السلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدًا إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ))

[رواه مسلم

يقول عليه الصلاة والسلام، الآن عندنا خمسة أحاديث مفادها أن بر الوالدين يعدل الجهاد في سبيل الله، خمسة أحاديث مضمونها بر الوالدين يعدل الجهاد في سبيل الله، كما أن حسن تبعُّل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله، إذًا جاهد، تفضّل، لك أب و أم، فيهما فجاهد، أيتها المرأة أَلكِ زوج ؟ نعم، حسن تبعلك له هو جهاد في سبيل الله، أبواب الخير مفتّحة، و الإنسان من تعنته أحيانا يقول: لا يوجد أعمال صالحة في هذا الزمن، الأعمال الصالح لا يوجد أكثر منها دائما، يقول عليه الصلاة و السلام، جاء رجل إلى النبي عليه الصلاة و السلام يستأذنه في الجهاد، فقال عليه الصلاة و السلام،

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ أَحَيٌّ وَالِدَاكَ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ))

(رواه البخاري)

هذا أول حديث، و في رواية لمسلم

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ أَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنْ اللَّهِ قَالَ فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ قَالَ نَعَمْ بَلْ كِلَاهُمَا قَالَ فَتَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنْ اللَّهِ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا))

[رواه مسلم]

هذا الثاني، الثالث،

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ إِنِّي جِئْتُ أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ وَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَوَيَّ يَبْكِيَانِ قَالَ ارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا))

[رواه النسائي]

هذا الجهاد، صاروا ثلاثة،

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَجُلًا هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْيَمَنِ فَقَالَ هَلْ لَكَ أَحَدٌ بِالْيَمَنِ قَالَ أَبَوَايَ قَالَ أَذِنَا لَكَ قَالَ لَا قَالَ ارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَاسْتَأْذِنْهُمَا فَإِنْ أَذِنَا لَكَ فَجَاهِدْ وَإِلَّا فَبِرَّهُمَا))

[رواه أبو داود]

أي برك لهما جهاد، هذا الرابع، الخامس،

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ أَحَيٌّ وَالِدَاكَ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ))

[رواه مسلم]

و حديث سادس، عن أنس رضي الله عنه قال: أتى رجل إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقال:

((إني أشتهي الجهاد و لا أقدر عليه: فقال: هل بقي من والديك أحد ؟ قال: أمي، قال: قابل اللهَ في برها، فإذا فعلت ذلك فأنت حاجٌّ و معتمر و مجاهد))

رواه أبو يعلى والطبراني في الصغير والأوسط، وإسنادهما جيد.

كم حديث ؟ ستة أحاديث صحيحة تؤكد أنك إذا كنت بارا بأمك و أبيك فأنت كالمجاهد في سبيل الله، هذا كلام رسول، و ليس كلام شخص، كلام من لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، و كلما سمعتم حديث رسول الله تذكّروا قول سيدنا سعد ثلاثة أنا فيهن رجل، و ما في سوى ذلك فأنا واحد من الناس ؛ من هذه الثلاثة: و لا سمعت حديثا من رسول الله صلى الله عليه و سلم إلا علمت أنه حق من الله تعالى " الذي خلق هذا الكون أوحى إلى هذا النبي الذي هو رسوله و قد عصمه، و قد أمرنا أن نأخذ منه، الذي خلق هذا الكون أوحى إلى هذا النبي هذه التعليمات، فهذه تعليمات الصانع، و التعرف قيمة الحديث إلا إذا عرفت المتكلّم، المتكلم رسول الله، والمتكلم الذي يوحَى إليه، و العلماء قالوا: الوحي وحيان، وحي متلو وهو القرآن، ووحي غير متلو وهو السنة، فكلام النبي كالوحي تماما، إلا أن الصياغة من رسول الله.

هذا واحد سابع، و أنا عددت ستة،

((عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ جَاهِمَةَ السُّلَمِيِّ قَالَ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَرَدْتُ الْجِهَادَ مَعَكَ أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ قَالَ وَيْحَكَ أَحَيَّةٌ أُمُّكَ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ ارْجِعْ فَبَرَّهَا ثُمَّ أَتَيْتُهُ مِنْ الْجَانِبِ الْآخَرِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَرَدْتُ الْجِهَادَ مَعَكَ أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ قَالَ وَيْحَكَ أَحَيَّةٌ أُمُّكَ قُلْتُ نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَارْجِعْ إِلَيْهَا فَبَرَّهَا ثُمَّ أَتَيْتُهُ مِنْ أَمَامِهِ

فقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَرَدْتُ الْجِهَادَ مَعَكَ أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ قَالَ وَيْحَكَ أَحَيَّةٌ أُمُّكَ قُلْتُ نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ وَيْحَكَ الْزَمْ رِجْلَهَا فَثَمَّ الْجَنَّةُ))

[رواه ابن ماجه]

قال عليه الصلاة و السلام،

((عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا حَقُّ الْوَالِدَيْنِ عَلَى وَلَدِهِمَا قَالَ هُمَا جَنَّتُكَ وَنَارُكَ))

[رواه ابن ماجه]

أي برُّهما جنة، و عقوقهما نار، هما جنتك و نارك،

((عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ))

[رواه ابن ماجه]

معنى ذلك أن أحد أسباب الرزق الوفير طاعة الله عز وجل، والدليل، قال تعالى:

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً (16))

[سورة الجن]

((عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ))

[رواه ابن ماجه]

أي بر الوالدين،

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ))

[رواه البخاري]

لكن أنا أخشى من قراءة هذه الأحاديث أن تفهموا شيئا ما أراده النبي، النبي ما أراد أن تطيعا أباك و أمك في معصية الله، و أكثر الناس " هكذا تريد أمي " هناك أمهات يأمرن أولادهن بتطليق نسائهن، هذا كلام مرفوض، و هذا كلام خلاف السنة، أعط كل ذي حق حقه، تسأل سؤالا: أبي ليس مستقيما، أنت عليك أن تحسن إليه، لا أن تطيعه في معصية الله، لا تنسوا أن سيدنا سعد بن أبي وقاص لما أسلم قالت له أمه

((لن آكل شيئا حتى تكفر بمحمد، فقال: يا أمي لو أن لك مائة نفس، فخرجت واحدة واحدة ما كفرت بمحمد فكلي إن شئت أو لا تأكلي....))

تلوت عليكم هذه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله، لكنني و أنا أتلوها أخشى أن تفهموا أنه عليك أن تطيع الأب طاعة مطلقة، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، الأمر ليس في الطاعة، لو قرأت الآيات كلها، الأمر بالإحسان للوالدين، الله قال:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

[سورة الإسراء]

الإحسان شيء، و الطاعة شيء آخر، الطاعة لله وحده، و الإحسان للوالدين، فأحيانا " لا تفرِّق العائلة يا ابني، أغضب عليك، خمس نساء في أبهى زينة، زوجات الأولاد، على صفرة واحدة، هذا ينظر إلى امرأة أخية و يتمتع بها، و هذا يمزح معهن، هكذا تريد أمي، هذا كلام مرفوض، أقول لكم: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، و أقول لكم أيضا: لو قالت لك: أغضب عليك، الله عز وجل لا يأبه لغضبها إذا أمرتك بمعصية، ولو كانت كلمة كبيرة، أغضب عليك، يثقل قلبي عليك، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، أنت بقدر الإمكان كن لطيفا، و صاحبهما في الدنيا معروفا، لا تتحدّاها، إن شاء يصير خيرا، أطيلي بالك علينا، الله يصلح الأمور، تكلم كلاما، لطيفا، و لو أردت أن تخالف أمرها، تكلم كلاما لطيفا، و لكن أن تطيعها، فإن الله عز وجل لا يرضى عنك، هناك نموذج آخر أعرفه شائع جدا بين الناس، يقولون: " يا رضى الوالدين " ينسى رضا الله عز وجل، فعلا يرضي أمه إرضاء كاملا، أمه و أباه، و يتفلت على حسب هواه، قد أمّن كل شيء، أرضى أمه و أباه، واللهِ ما أمّنت شيئا، الأصل إرضاء الله عز وجل، فكل إنسان يتوهم أن أطاع والديه، برّ والديه، و أعطى لنفسه شهواتها و حظوظها، و ترك الأصدقاء، و سكر و ملاهي، و يقول لك: الحمد لله أنا بارٌّ بوالدي، هذا البر لا يقدِّم و لا يؤخر، الله عز وجل يؤدِّب الإنسان، أريد أن لا تكون المفهومات غلطا، الآن في المجتمع هناك مفهومات غلط، أن البار بوالديه موفق، هذا موفَّق إذا كان مستقيما على أمر الله، يأتي بر الوالدين تاجا يتوِّج عمله، أما إذا ترك أمر الله عز وجل، و خالف منهج الله عز وجل، ماذا يفعل هذا البر ؟ الله يؤدِّبه.

((وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم، قال: عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم، وبروا آباءكم تبركو أبناءكم))

" كما تدين تدان، البر لا يبلى، و الذنب لا يُنسى، و الديان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تدان.

هناك قصص أعتقد أنكم كلكم تعرفونها، أشخاص كثيرون أبناؤهم تطاولوا عليهم، و ضربوهم في مكان معين، و يقسم هذا المضروب أنه في هذا المكان قبل أرعين سنة ضرب والده فيه، من هذا النوع أحفظ حوالي عشرين قصة، لكن لا داعي للحديث عن التفاصيل، بالمكان نفسه، لذلك كما تدين تدان،

((عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم، وبروا آباءكم تبركو أبناءكم، و من أتاه أخوه متنصلا، فلقبل ذلك، محقا كان أو مبطلا.......))

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ رَغِمَ أَنْفُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ قِيلَ مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلْ الْجَنَّةَ))

(رواه مسلم)

أي بر الوالدين يكفي لدخول الجنة.

((وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي قَالَ أُمُّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أُمُّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أُمُّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أَبُوكَ))

(رواه البخاري)

لذلك لما سئل النبي: من أعظم الرجال حقا على المرأة ؟ قال: زوجها، فلما سئل: من أعظم النساء حقا على الرجل ؟ لم يقل زوجها، قال: أمه..." أعظم النساء حقا على الرجال أمه، و أعظم الرجال حقا على المرأة زوجها.

الآن هناك موضوع دقيق، والدتك مثلا ليس فيها دين، ولا تصلي، سافرة، تحب بعض المخالفات، إياك أن تظن أن وضعها الذي لا يرضي الله يعفيك من برها، اسمعوا الحديث

((عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ وَهِيَ رَاغِبَةٌ - أي أن تزورني - أَفَأَصِلُ أُمِّي قَالَ نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ))

(رواه البخاري)

ألك عذر بعد هذا ؟ أدِّ الذي عليك، واطلب من الله الذي لك، أنت عليك أن تبر أمك و أباك، وضعه جيد يصلي، أو لا يصلي، مؤمن، إيمانه قوي، إيمانه ضعيف، له مخالفات، والدتك سافرة، أبوك مثلا يمضي أوقاته وراء أجهزة اللهو، هذا شيء لا علاقة لك به، هذا أبوك، هذا قدرك، جعلك الله من نسله، عليك أن تؤدي الذي، وأن تطلب من الله الذي لك، دون أن تطيعه في معصية الله.

((وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ رِضَى الرَّبِّ فِي رِضَى الْوَالِدِ وَسَخَطُ الرَّبِّ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ))

[رواه الترمذي]

أي الإنسان إذا أرضى والديه فقد أدرك جزءا من رضاء الله، دقق معنا، إذا أرضى والديه، هل أدرك بهذا الإرضاء كل إرضاء الله عز وجل ؟ لا، هناك واجبات نحو أولادك، و نحو زوجتك، ونحو مجتمعك، و نحو زبائنك، نحو المرضى إذا كنت طبيبا، نحو الموكل إذا كنت محاميا، و نحو الطلاب إذا كنت مدرِّسا، عليك واجبات كثيرة، فإذا أرضيت والديك، أو بررت بوالديك فقد أدركت جزءا من إرضاء الله عز وجل، لكن إرضاء الله لا ينال إلا بطاعته كله.

((وعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَصَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا فَهَلْ لِي تَوْبَةٌ قَالَ هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ قَالَ لَا قَالَ هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَبِرَّهَا))

[رواه الترمذي]

معنى ذلك أن الخالة في منزلة الأم، والذي له خالة أيضا لا بد أن يصلها.

الآن، من أحب أن يصل أباه في قبره فليصل إخوان أبيه من بعده، أبوك ليس له أصحاب، ليس له إخوان، فالابن الذي يريد أن يبر والده بعد وفاته، فالباب مفتوح، فليصل إخوان أبيه بعده.

من القصص التي تفيدنا جميعا ؛ أب له مجلس علم، توفي، صدقوني لو أنم ابنه لزم هذا المجلس فكأنما برّه في حياته، من في المجلس ؟ إخوان أبيك كلهم، فإذا انخرط فيهم و انضم إليهم و لزم هذا المجلس، فإن الأب يرضى في قبره، فهذا من بر الأب، أعرف أشخاص الأب له بيت، كل ثلاثاء مجلس علم في لك البيت، فلما توفي الأب تعهد ابنه أن يستمر هذا المجلس ما دام الابن حيًّا، يأتي عالم جليل و يتكلم كلمتين، و يقرؤون القرآن، و يقرءون الحديث الشريف، عشرون أو ثلاثون شخصا، هذا البيت من ثلاثين سنة، في كل ثلاثاء مجلس علم، فلما توفي الأب تعهد الابن الأكبر على أن يستمر هذا المجلس مادمت حيا، شيء جميل جدا، أبوك له إخوان طيبون، أن تصلهم بعد موته، فكأنما بررته في حياته، دققوا في الحديث ؛ عن أبي بردة قال: قدمت المدينة قال: قدمت المدينة، فأتاني عبد الله بن عمر فقال: أتدري لِم أتيت ؟ قال: قلت: لا، قال: سمعت رسول الله صلى لله عليه و سلم يقول: من أحب أن يصل أباه في قبره فليصل إخوان أبيه بعده، وإنه كان بين أبي عمر و بين أبيك إخاء وود فأحببت أن أصل ذلك، في العيد القادم، الذي له والد توفاه الله و انتقل إلى رحمته، من هم إخوان أبيه، طبعا المؤمنون، و ليس المقصود أي أخ، إذا كان لأبيه رفقاء سوء - أعوذ بالله - يعني إذا أبوك له إخوان طيبون، إخوان في مسجد، طلبة علم، له شيخ، فزر شيخ أبيك، هذا من بر أبيك، قال: و إنه كان بين أبي عمر و بين أبيك إخاء وود، فأحببت أن أصل ذلك.

آخر حديث ؛

((عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ مَالِكِ بْنِ رَبِيعَةَ السَّاعِدِيِّ قَالَ بَيْنَا - أي بينما، في اللغة بينما كبين - نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ أَبَرُّهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا قَالَ نَعَمْ الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا))

[رواه أبوداود]

بعضهم قال: الصلاة هي الدعاء، أن تدعو لهما في كل صلاة، من دعا لوالديه في أعقاب كل صلاة فقد نفذ هذا الحديث، نعم الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما، فهذا الذي بقي لك من برهما بعد موتهما.

إخواننا الكرام ؛ بر الوالدين جزء أساسي من أوامر الله، ونحن في بر الوالدين ندعم الأسرة، كثير من الأسر يتوفى الأب، وتتوفى الأم، فيقول الناس: ما غاب إلا عين الأب و عين الأم، الأولاد على وفاق،

على تواصل وعلى محبة و على تسامح، أحيانا يتوفى الأب، بيت الأب كما هو في حياته، مقر و مستقر و ملتقى، فهناك أسر التواصل بينها شديد جدا، وهذا من فضل الله عز وجل، فأنتم تسمعون و أنا ألتزم الكتاب و السنة، حتى لا أغلط، وأي كلام آخر فيه مزلق، فالكتاب و السنة، القرآن و الحديث الصحيح، هذا من عند الله عز وجل، ليس فيه خطأ، وليس فيه زلل، و ليس فيه مبالغة، وليس فيه تقصير، و ليس فيه طمس، وليس فيه انحراف، وليس فيه تناقض، أنت مع كتاب الله و مع سنة رسول الله، وهذه توجيهات و تعليمات الصانع، و الحمد لله رب العالمين.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (052) :الأخلاق الإسلامية6 - التآخي والتوادد في الله.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-09-28

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس السادس من دروس الأخلاق الإسلامية، لا زلنا في موضوع الطابع الجماعي المتعلق بأخلاق المؤمن، تحدثنا في الدرس الماضي عن العبادات الجماعية، عن فضيلة الصلاة في جماعة، وعن حقيقة صلاة العيدين، و كيف ينبغي أن تؤدى في المصلى، وعن حقيقة الحج، و كيف أن من أهدافه الكبرى ذاك اللقاء بين المسلمين في شتى أقطاره، واليوم ننتقل إلى لون آخر من أوان العلاقات الاجتماعية في ظل الإسلام ألا وهي الـتآخي في الله والتحابب والتوادد، وما يتصل بذلك، وقبل أن نمضي في فقرات هذ الموضوع و تفصيلاته و النصوص المؤيدة له لا بد ن وقفة قصيرة كتمهيد لهذا الموضوع.

أيها الإخوة الأكارم، كلكلم يعلم أن طالب الشهادة الثانوية عنده مواد كثيرة، لو أنه ركز على بعض المواد و أدى الامتحان فنجح في بعضها و رسب في بعضها الآخر، هذا اسمه عند الناس ناجحا أم راسبا ؟ راسب، ولو نال علامة تامة في الفيزياء و الكيمياء، ولو نال علامة تامة في الرياضيات، هو عند عامة الناس وعند كل الناس راسب، لأن هذه المواد متكاملة، فإن لم يدرسها جميعا، وإن لم يحقق الحد المقبول فيها جميعا لا يسمى ناجحا، الفكرة التي أردتها من خلال هذا المثل أن هذا الدين فيه جانب عقائدي، وفيه جانب تعاملي، وفيه جانب أخلاقي، وفي جانب تربوي، فيه جانب جماعي، وفيه جانب سلوكي، وفيه جانب انفعالي، وفيه جانب دولي، على مستوى نشر الإسلام في العالم، فيه جانب خاص جدا متعلق بعلاقتك بأهلك و أولادك، فيه جانب أشد من خاص فيما بينك و بين نفسك، لا يفلح الإنسان إلا إذا أحاط الدين من كل جوانبه، فلذلك أكبر شيء يشوه الإسلام في العصور الحديثة أن كل فئة، أو كل جماعة فهمته من زاوية و ركزت على هذه الزاوية ولم تعبأ ببقية الزوايا، و جعلت الدين كله من هذه الزاوية، وأنكرت أن يكون الدين من زاوية أخرى، هذه النظرة الضيقة، وهذا الجانب المحدود من الدين، حينما تركز عليه، لا تحقق نجاحا لا على المستوى الفردي، و لا على المستوى الجماعي، لو قلت: إن الدين هو الفقه، الفقه جزء كبير و أساسي في الدين، أما إذا قلت: إن الدين هو فقه فقط فقد ابتعدت عن حقيقته، إذا قلت: إن الدين خلق، أقول لك: الخلق جزء أساسي من الدين، أما إذا قلت: الدين خلق فقط فقد ابتعدت عن حقيقة الدين.

فيا أيها الإخوة الأكامل الأكارم، والأكامل جمع كامل، لا ينبغي لواحد منا ا، ينظر إلى الدين من زاوية، و لا أن يعدَّ جزءا من الدين هو الدين، لذلك هناك من ركز على الفكر الإسلامي، القلب متصحِّر،و السلوك غير منضبط، أما الفكر نامي جدا، و المؤلفات عميقة، والكتب دقيقة، و السمعة متألقة، لكن التعامل ليس إسلاميا، والمشاعر ليست إسلامية، هؤلاء الذين ركزوا على الفكر الإسلامي فقد حققوا جزءا و فاتتهم أجزاء من الدين، و الذين ركزوا على القلب فقط و أحواله و طمأنينة النفس و استقرارها و غفلوا عن حقائق الدين الفكرية و العلمية و عن سلوك المسلم النموذجي فقد حققوا جزءا و غابت عنهم أجزاء، إذًا نحن في هذه الدروس، وفي هذا المسجد بالذات بقينا أسابيع عدة في الوجهة الاجتماعية للمسلم، أنت لست وحدك، أنت تعيش في مجتمع، وقد خطّط الله لك ذلك، و الدليل أنه جعلك بحاجة غلى عدد لا يحصر من الحاجات، و سمح لك أن تتقن شيئا واحدا، تتقن شيئا واحدا وأنت مفتقر إلى آلاف آلاف آلاف الأشياء، إذًا مصمم أن تعيش في جماعة، أن تعيش في مجتمع، أن تنشأ في أسرة، أنم تنشأ في حي، لك أقارب، ولك جيران ولك أعمام، و لك أخوال، ولك أحفاد، لك آباء و لك أجداد، ولك زملاء و لك جيران، فما لم تكن أخلاقيا، و ما لم تكن نموذجيا للمسلم فعقيدتك ومشاعرك لا قيمة لها ما لم تكن متخلقا بأخلاق المسلم.

الآن الموضوع الذي يلي العبادات الجماعية، التآخي في الله و التحابب و التوادد و ما يتصل بذلك، روى الإمام مالك عَن معاذ بن جبل قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ قَالَ

((اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ وَالْمُتَزَاورِينَ فِيَّ وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ))

(رواه مالك)

يا إخوان يا كرام، الصحابة رضي الله عنهم كانت بينهم علائق ووشائج وحب و توادد و تضحيات و إيثار بحيث لا يمكن لعقل أن يتصور ذلك، قال تعالى:

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

(سورة الحشر)

إذًا جزء من دين الصحابة هذه العلاقات المتينة بين الناس، وأنتم أيها الإخوة إذا أردتم أن تمثلوا الإسلام تمثيلا نموذجيا ينبغي أن تكونوا كذلك، عثرتُ في كتاب صفة الصفوة لبعض العلماء على قصة معنونة بكلمة " عابدتان في البصرة " القصة غريبة جدا، أن أحد تجار البصرة له زوجة يحبها حبا جما، و قد أراد أن يتزوج بأخرى لسبب أو لآخر، لكنه كتم زواجه عن الأولى، وصار يغيب عن البيت أحيانا، في الأسبوع مرة أو مرتين أو في النهار، شعرت عليه زوجته الأولى أنه ليس كما كان من قبل، طرأ على أحواله تغير، فأمرت إحدى جواريها أن تراقب سيدها في حركته بعد انتهاء عمله في دكانه، فاذا بها تجده يذهب إلى بيت تسأل الجيران فيقولون: إنها زوجته، أخبرت سيدتها، طبعا شأن كل أنثى

تألمت ألما شديدا و لم تتكلم بكلمة، لكن الشيء الذي يلفت النظر أن هذا الرجل توفي، ما كان من هذه الزوجة الصالحة إلا أن قسمت أمواله بين أولادها بحسب قواعد الميراث، وأما نصيب الزوجة الربع، أو الثمن إذا كان له أولاد، قسمته قسمين وأرسلت نصفه إلى ضرتها التي علمت بشكل أو بآخر أنها زوجته، ما كان من ضرتها إلا أن أعادت المبلغ إلى الأولى و قالت: واللهِ منذ أسبوعين طلقني، أنا مطلقة، الآن إذا الشخص غني وتوفي تظهر امرأة و تقول: أنا زوجته، معها عقد، انظر إلى أخلاق المسلمين، الأولى أرسلت نصف ميراثها من زوجها، ولا تعرف شكلها، و الضرة أقسمت أنها مطلقة من أسبوعين، ولا حق لها بهذا، هكذا الدين، نحن عندنا نقطة واللهِ أتمنى أن نستوعبها جميعا، أنتم حينما تتعاملون مع إخوانكم فقط، بنشاطاتكم و بتجاراتكم، أنتم في نعمة لا تعرفون قيمتها، تصور التعامل مع الناس كأنك في حقل ألغام، وضعت مالا في جهة طار المال، أقرضته لإنسان اختفى الإنسان، اتفقت مع إنسان على شيء، شيء مخيف، وهناك افتراءات زائدة، وهناك ضغوط، وهناك مطبات، و هناك ألغام في الحياة، لكن إذا صاحبت مؤمنا تشعر براحة، إذا كان بعته أو اشتريت منه وجرَّبته، شاركته، لسنا معصومين جميعا، لكن لا يوجد مؤمن يأكل مال الآخر غصبا، يبيعك و يربح منك، و لكن لا يغشك، فلذلك لما النبي عليه الصلاة والسلام قال

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ))

(رواه الترمذي)

هذا توجيه مهم جدا، أنا أشعر أن إخواننا الكرام يمضي سنوات و سنوات و سنوات ليس عنده مشكلة في حياته، لأن علاقاته كلها مع إخوانه المؤمنين، يرتاح معهم أشد الراحة، حتى إذا تعامل معهم، ودفع لهم الآلات ليصلحوها مثلا، إذا كلفهم ببعض الأعمال و تقدّم الأعمال بشكل جيد، و بسعر معتدل، مع أمانة و نزاهة لا حدود لها، بينما إذا تعاملت مع الناس دائما في توتر شديد، دائما في مطب، في لغم، في مشكلة، في قنص، في مفاجأة، في احتيال، هكذا شأن الناس، لذلك النبي عليه الصلاة و السلام فيما يرويه عن ربه قال

((عَن معاذ بن جبل قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ))

(رواه مالك)

الحب بين المؤمنين هكذا يأتي من السماء، لكن يُصنع صناعة، أجيبوني، أبو راشد، إذا مرض عدته، إذا أصابه خير هنأته، إذا أصابته مصيبة عزيته، إذا ألمت به نازلة أعنته، وإذا استقرضك أقرضته، إذا استعان بك أعنته، إذا تفقدت أحواله، إذا زرته في العيد، إذا واسيته في المصاب، إذا أقرضته مبلغا من

المال، إذا سألت عنه، دعاك فأجبته، سألك فأعطيته، إذا طبقت منهج الله عز وجل في تعاملك مع إخوانك نشأت هذه المحبة، زلت قدمه فغفرت له، سبق لسانه بكلمة لا ترضيك فعفوت عنه، الإنسان عبد الإحسان.

فيا أيها الإخوة الأكارم، أنا دائما أشعر أن العدد لا قيمة له، لأن واحدا كألف، و ألفا كأف، القيمة كان الشيوخ قديما يقولون: أنا سبعين سنة دعوت إلى الله وربيت واحدا، ولكن هذا الواحد قرد مليون تماما، فالإنسان أحيانا الرجال أحيانا يكثرون، إني أرى رجالا كثيرين و لكن لا أرى الرجل، هكذا قال أحدهم، العدد ليس له قيمة إطلاقا، القيمة لإنسان متفهم متمسك ملتزم أخلاقي يطبق الإسلام حقيقة، أنا أعرف طبيبا توفاه الله قبل أشهر كان في بلدة بعيدة عن دمشق، ترك في هذه البلدة أثرا صدقوني شيء لا يصدق، قال أحدهم: ما مر علينا في تاريخ هذه البلدة إنسان محسن ينكر ذاته، يساعد كل الناس، ويقدم خدماته لكل الناس كهذا الطبيب، فلما توفي توفي بمرض الكبد، و يحتاج فيما لو أراد أهله أن يُزرع له كبد في فرنسا أو في أمريكا يحتاج إلى سبعة ملايين ليرة، طبيب زميله اتصل بأهل هذه البلدة و قال لهم: الطبيب الذي تحبونه أصيب كبده، و إذا شئتم هناك من يزرع له كبدا في بلد غربي وتكلف العملية سبع ملايين، أقسم لي أن جميع من قال لهم ذلك ضربوا أيديهم على صدورهم وقالوا: نحن نؤمِّن هذا المبلغ، سبعة ملايين، لكن الله اختاره إلى جواره، أنا قلت: هذا المؤمن مات و لم يترك شيئا، إذا معه مائة ألف شخص خذها وحلّ مشكلتك بها، طبيب حلال مشاكل، مواسي الناس، مخلص، يأتيك ليلا نهار، صبحا و مساء، أي مريض فقير يعطيه ثمن الدواء، يعالجه مجانا، ويعطيه ثمن الدواء أو الدواء من عنده، الإنسان عبد الإحسان، قلت: واللهِ هذا هو المؤمن و الناس شاذون، أنت هذا هو المؤمن، أنت تمثل هذا الدين، تمثل خالق الكون، تمثل عظمة هذه الرسالة، فأنت كلك أخلاق، و كلك تضحية و كلك إيثار، كلك حب للناس، و كلك تواضع، وكلك عطاء، سعادة في إسعاد الآخرين، أنا مرة حدثني أستاذ - قلت لكم هذه القصة - أستاذ تربية دينية، في بلد بعيدون عن الدين بُعد الأرض عن السماء، و يكرهون الدين، ومع ذلك هذا الأستاذ بسلوكه الطيب و أعماله الطيبة جعل الناس يقبلون على هذا الدين أفواجا، طالب صف سابع من طلابه أصيب والده بحادث احتاج إلى دم، طبعا أهل هذا الطالب طرقوا كل البيوت، كلهم امتنع و اعتذر، طفل صغير على الفطرة قال لهم: اليوم كان الدرس عن التضحية، و أستاذنا يعطينا الدم لوالدي، فذهبوا إليه، طفل صغير، توجهوا إلى بيته الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، و قال له: حبا و كرامة، وذهب معهم، ومن حسن الحظ أن زمرة دمه تناسب دم الجريح و أعطاهم، بهذه المحافظة، بهذا العمل الأخلاقي صار له شأن، و صار له مكانة و هيمنة و تأثير و دعوة عريضة إلى الله عز وجل، قلت له: واللهِ هذه الكمية من الدم أبلغ من ألف محاضرة تلقيها على الناس، أنا ألحُّ على النواحي الأخلاقية لأن الدين أخلاق، أنا مرة جمعت تسعة أحاديث صحيحة تؤكد أن الإسلام هو

الخلق، و أن الإيمان هو الخلق، وأنّ أهل الجنة ما دخلوا الجنة إلا بحسن الخلق، فنحن أمام إظهار لعامة الناس أن الدين أخلاق، سمعت قصة اليوم، هناك أسبوع لتحفيظ القرآن، و أسبوع مهرجان للقرآن، أحد الإخوة الأكارم الدعاة الصادقون الذي فاز بالجائزة الأولى و عنده ألف وخمسمائة طالب، وحوالي ثلاثون إلى أربعين حافظا لكتاب الله، قاعد مع تلاميذه، هناك علبة محارم وجد فيها قسيمة خمسمائة ألف ليرة، جائزة، طبعا هذه يا نصيب مزقها أمامهم، مبلغ ضخم، أنت دائما طبعا بصرف النظر عن مناقشة الموضوع، هذا بحث آخر، لو فرضنا الإنسان مؤمن الخمسمائة ألف و المليون و المليونان تحت قدمه إذا كانت فيها شبهة، نحن نريد أن نربي أشخاصا هكذا، لن تستحق الدخول على الله عز وجل إلا إذا استوى عندك التبر و التراب، لمن هذا الوادي ؟ قال: هو لك، قال: أتهزأ بي، قال: هو لك، قال: اشهد أنك رسول الله، نحن مشكلتنا انتهى الإسلام على أساس صلاة و صوم وحج و زكاة، مع أن النبي عليه الصلاة و السلام يقول: - دقق، لمن قاله –

((عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ))

(رواه البخاري)

فالإسلام هو الخمس أم شيء آخر ؟ رأيتم الخمس

((عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ))

(رواه البخاري)

الصلاة والصوم الحج و الزكاة دعائم الإسلام، و ليست هي الإسلام،الإسلام بناء أخلاقي، الإسلام صدق، الإسلام أمانة، الإسلام عفاف، الإسلام إخلاص، الإسلام حب الآخرين،

((عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ))

(رواه البخاري)

نحن فهمنا الإسلام هذه الخمس، تركنا الإسلام و ظننا أنه خمس، قم فصل فإنك لم تصل فإنك لم تصل، أنا يا إخوان أتمنى على الله أن يمكنني أن أضع يدكم على جوهر الدين، قلت لكم من قبل: هذا الأعرابي البدوي الذي قال له سيدنا عمر: بعني هذه الشاة، و القصة معروفة عندكم، يمكن أنني ألقيتها على مسامعكم مئات المرات، فلما قال: و لكن أين الله ؟ هذا الإسلام، أين الله، سيدنا جعفر لما سأله النجاشي: حدثنا عن دينكم وعن نبيكم، ماذا قال؟ دققوا، هذا سيدنا جعفر من كبار الصحابة، قال

((عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ابْنَةِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ جَاوَرْنَا فِيهَا خَيْرَ جَارٍ النَّجَاشِيِّ......... فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لَهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ

كُنَّا قوْمًا أهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَة وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ - هذه صفات الجاهلية - فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِليْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ وَأَمَرَنَا أنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ قالَ فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أمُورَ الْإِسْلَامِ فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا وَأحْلَلْنَا مَا أحَلَّ لَنَا فَعَدَا عَلَيْنَا قوْمُنَا فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَأنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنْ الْخَبَائِثِ فَلَمَّا قهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ وَرَجَوْنَا أنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ.....))

(رواه أحمد)

هذا الدين أخلاق، أنا أقول لإخواننا: لفت مرة نظري في المطارات كل ألوان المركبات لون برتقالي فاقع، أو فوسفوري أو أصفر، لماذا ؟ هذا لون في الفيزياء له موجة طويلة، إذا رأيت لوحة من بعيد اللون حديدي و الكتابة بالأسود، تراها واضحة الكتابة بالأسود ؟ إذا كان رمادي على رمادي غامق واضحة ؟ أخضر مثلا على حشيشي واضحة ؟ أما أخضر على أصفر، اللون الأصفر موجته طويلة، يسمونه لونا صارخا، الأصفر و البرتقالي و الفوسفوري و الأحمر المؤمن أخلاقه صارخة، أينما غلس ما هذا الإنسان ؟ شهواته كلها مضبوطة، واحد في الحج ألماني غربي سألناه كيف أسلم، فقيل لنا: لأنه كان عنده طالب سوري، وفي هذا البيت فتاة جميلة، و لم يستطع هذا الأب أن يلحظ هذا الطالب السوري و لا مرة نظر إلى هذه الفتاة، هذا من طينة أخرى، أيُّ مبدأ يعتنق ؟ و بأيِّ دين يدين، فكان سلوك هذا الطالب سبب إسلامه.

عندنا أخ كريم يحضر معنا، ومرة ركبت معه سيارة، هكذا الله ألهمني، قلت له: متى أخذتها ؟ فقال: هذه لها قصة، قلت له: حدثني عن قصتك، فقال لي: أنا مقيم بمكان بمركز المدينة، و بيتي في المزة، و الطريق طويل، و الباصات قليلة و الازدحام شديد، أشتري الأغراض من سوق الهال، أثناء الازدحام تخرب كلها و انزعجت، نفسي اضطربت و ضاقت، فرأيت بائع يا نصيب فقلت: لعلي أشتري ورقة فأربح الجائزة الأولى فأشتري سيارة وأستريح من هذا التعب، طبعا هذا قبل أن يعرف الله عز وجل، قبل الصلح مع الله، قال: اشتريت هذه البطاقة ووضعتها في جيبي، اليوم خميس، دخل المسجد يوم الجمعة فإذا بالخطيب يجعل موضوع الخطبة عن اليانصيب، قال لي: واللهِ الذي لا إله إلا هو أخرجت هذه الورقة ومزقتها في المسجد، في اليوم التالي، له معمل صغير للطباعة، قال لي: جاءني زبون من

خارج القطر و طلب خمسين ألف قطعة، عملت حسابها فيها ربح صافي سبعة و عشرون ألف ليرة، بعدما أنجز عملا ذهب إلى سوق السيارات فوجد سيارة التي ركبناها، ثمنها سبعة و عشرون وخمسمائة، له عمل طبيب زاره و استقرض منه هذه الخمسمائة و اشترى هذه السيارة، أنا علقت على هذه القصة أنه أنت مزق هذه الورقة خوفا من الله عز وجل، واللهُ لا يكافئك ؟! مستحيل، أنت تعامل من ؟ أنت تعامل خالق الكون، أنت تعامل الذي بيده كل شيء، أنت تعامل المغني، أنت تعامل المحيي، تعامل الشافي، كم قصة هناك للشفاء، من مرض عضال، لأن هذا المؤمن وثق بالله عز وجل، نحن نريد أبطالا، نريد أبطالا الواحد كألف، أريد إنسانا في أسرته محور، قدوة، في محله و مصلحته و صنعته، بمهنته، بمدرسته و بجامعته، بمكتبه و بعيادته درجة أولى، و الناس لا يحترمونك إلا إذا كنت متفوقا في الدنيا، متقنا لاختصاصك، عندئذ يحترمون صلاتك، ويحترمون دينك، و يحترمون جامعك، ويحترمون من علمك، أما هناك تقصير، وهناك إهمال، و هناك تسيب، وهناك فوضى، وأنا مؤمن، واللهُ جل جلاله، هذا الكلام يسميه الناس زعبرة، زعبرة زائد تلبسة، أما إذا كنت في المستوى الذي أراده الله عز وجل ترقى عند الله، سمح للكفار أن يحاربوا المؤمنين و حثّ المؤمنين على الشجاعة فانتصروا، فالله سبحانه و تعالى..."

الآن النبي عليه الصلاة و السلام فيما رواه أبو داود

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ))

(رواه الترمذي)

طبق هذه النصيحة، لا تقِم علاقة حميمة إلا مع المؤمنين

((لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ * وروى أبوداود و الترمذي بإسناد صحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ))

(رواه الترمذي)

انظروا يا إخوان هذه نصيحة لوجه الله، أنت بحاجة ماسة إلى صديق مؤمن، إلى أخ، كحاجتك إلى الطعام و الشراب، بحاجة إلى من يعلمك، ولكن حاجتك إلى من يعلمك و يربيك و يرشدك لا تلغي حاجتك إلى أخ في الله، من سنك، قريبا منك، من حرفتك، جارا لك، فأنت لا بد لك من صاحب شئت أم أبيت، البطولة أن تختار صاحبا تستفيد من علمه و من أخلاقه و من أحواله، وبعض العلماء يقولون: لا تصاحب من لا ينهض بك إلى الله حالُه، ولا يدلك على الله مقالُه " الصاحب ساحب، ومن جانس جالس، و جالس جانس، هذا موضع يهمني كثيرا، اسأل نفسك هذا السؤال: من تصاحب أنت ؟ من هو صديقك ؟ دائما في حياة الإنسان ثلاثة رجال، أو ثلاثة أشخاص ؛ شخص تكونه، من مستواك، أنت

تحب المرح وهذا يحب المرح، أنت لا تميل القراءة، وهذا لا يميل للقراءة، شخص تكونه، وشخص تتمنى أن تكونه، و شخص تحتقر أن تكونه، أبدا، لحواك مليون شخص، هم ثلاثة، واحد على شاكلتك، وواحد أعلم منك، وواحد أدنى منك، الذي أعلى منك تتمنى أن تكونه، والذي أدنى منك تكره أن تكونه، و الذي على شاكلتك هو على شاكلتك، هذا الذي على شاكلتك لا ينفعك، لكنك تأنس به، وهذا الذي دونك يضرك و لا ينفعك، وتصغر في صحبتك معه، لكنك إذا كنت بطلا تصاحب مَن إذا صاحبته اقتبست من علمه و من أحواله و من إخلاصه و من أقواله و من أدبه ومن سمته ومن حبه للخير، فالإنسان عليه أن يختار أصحابه بعناية بالغة، مع من تمضي هذه السهرة ؟مع من تذهب إلى هذه النزهة ؟ مع من تمضي هذا الأسبوع، مع من تحج البيت، مع من تذهب إلى العمرة ؟ مع شخص له مزاح منحدر، هذا يفسد أخلاقك و يبعدك عن باب الله عز وجل ن هذا الذي قاله النبي، وهي نصيحة ثمينة

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ *))

(رواه الترمذي)

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ))

(رواه الترمذي)

هل تصدقون أن الإنسان أيها الإخوة إذا صحب الأراذل رُفضت شهادته، أحد القضاة طلب شاهدا فجاء، قال: هذا لا أقبل شهادته، لماذا يا سيدي، قال: هذا سمع مغنية فقال لها: أحسنتِ، قال له: لا يا سيدي: أنا لما سككتْ قلتُ لها: أحسنتِ، حتى قبل شهادته، حينما سكتت قلت لها: أحسنتِ، كيف كان القضاة سابقا إذا الإنسان سمع للغناء جُرحت شهادته، تعرفون الموضوع و أنا قلته كثيرا، العدالة، الإنسان فيه صفتان ؛ صفة عقلية اسمها الضبط، وصفة نفسية اسمها العدالة، فالإنسان تسقط عدالته أو تجرح عدالته، هذا الكأس يمكن أن أكسرها بالشاكوش، يمكن أن نشعرها شعرا، من عامل الناس فظلمهم، سقطت عدالته، من حدثهم فكذبهم سقطت عدالته، من وعدهم فأخلفهم سقطت عدالته، لهذا قال عليه الصلاة و السلام

((من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته و حرمت غيبته))

الآن هناك أشياء ليست ظلما و لا كذبا و إخلافا، و لكن واحد أكل في الطريق، جُرحت عدالته، بال في الطريق جرحت عدالته، مشى حافيا في الطريق جرحت عدالته، ما الذي يقابل المشي الحافي ؟ القميص الشيال يستقبلك و يجلس معك، ويضيفك قهوة بالقميص الشيال الداخلي، واللهِ خشنة، أليس كذلك ؟ ليس

فيها شيء، عادية جدا، من مشى حافيا جرحت عدالته، طيب من صحب الأراذل، أبدا، يكفي أن تصحب الأراذل تجرح عدالتك، طيب من تنزه في الطريق، هناك مقاهي على الطريق، تجد مقهى على أشد الطرق ازدحاما، عند أذواق المنحرفين متعة بالغة، أن تجلس على الرصيف و تأكل الحلويات، و تمتع عينيك بالحسناوات، يكفي أن تجلس في هذا المكان أو أن تقف في الطريق متنزها جرحت عدالتك، رفضت شهادتك، يكفي أن تركب حصانا أو سيارة تطلق لها العنان، السرعة الزائدة في قيادة المركبة أو في قيادة الحصان، هذا مما يجرح العدالة، يكفي أن تقود برذونا، حيوانا مخيفا، أحيانا كلب كبير يفلته على الناس و يمشي مفتخرا به، لي قريب ذهب غلى أمريكا عند أخيه، فأخوه له جار لاحظوا على الشرفات ألبسة صغيرة منشورة، و بعد حين صار هناك مناسبة ليزوروا هذا الجار، زاروه فطبعا أول سؤال: كم ولد عندكم ؟ ليس عندنا ولد، ليس معقولا، الألبسة هذه للكلاب، ليس عندهم أولاد، فهذا الإنسان مثلما حكينا، آخر واحدة ذكرناها " من قاد برذونا جرحت عدالته، تطفيف بتمرة جرحت عدالته، أكل لقمة من حرام جرحت عدالته، من علا صياحه في البيت جرحت عدالته، أنا أذكر أن الفقهاء عدُّوا ثلاثا و ثلاثين حالة تجرح العدالة وترد الشهادة، هكذا كان المسلمون، من علا صياحه في البيت.

ورى البخاري و مسلم عن أبي موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه و سلم قال، عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

((عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً))

(رواه البخاري)

تأكيدا على هذه المعاني الطيبة روى الترمذي بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال عليه الصلاة و السلام

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ فِي اللَّهِ نَادَاهُ مُنَادٍ أَنْ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّأْتَ مِنْ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا))

(رواه الترمذي)

أرأيتم أيها الإخوة كم هو شيء ثمين، أن تزور أخاك في الله

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ فِي اللَّهِ نَادَاهُ مُنَادٍ أَنْ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّأْتَ مِنْ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا))

(رواه الترمذي)

وقد روى مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه و سلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

((أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ - أي على طريقه - مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ أَيْنَ تُرِيدُ - طبعا ملك على شكل إنسان - قَالَ أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ قَالَ هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا قَالَ لَا غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ))

(رواه مسلم)

حديث رواه مسلم في صحيحه،عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

((عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ أَيْنَ تُرِيدُ قَالَ أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ قَالَ هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا قَالَ لَا غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ))

(رواه مسلم)

أنا أحب الإنسان إذا أحب أخاه أن يبلغه، هكذا النبي علّمنا

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ مَرَّ رَجُلٌ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ هَذَا الرَّجُلَ قَالَ هَلْ أَعْلَمْتَهُ ذَلِكَ قَالَ لَا فَقَالَ قُمْ فَأَعْلِمْهُ قَالَ فَقَامَ إِلَيْهِ فَقَالَ يَا هَذَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ فِي اللَّهِ قَالَ أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ))

(رواه أحمد)

أنت لا تبقَ ساكتا، إذا في نفسك تقدير لأخيك، إعجاب بأخلاقه، إعجاب بصلاته، إعجاب بعلمه، إعجاب بمنطقه، بحديثه، بضبطه للمواعيد لا تبقَ ساكتا، السكوت عن النعمة كفر لها،

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ أَيْنَ تُرِيدُ قَالَ أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ قَالَ هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا قَالَ لَا غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ))

(رواه مسلم)

روى مسلم

((عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعُمَرَ انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَزُورُهَا فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ فَقَالَا لَهَا مَا يُبْكِيكِ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ مَا أَبْكِي أَنْ لَا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ

اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقطعَ مِنْ السَّمَاءِ فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا))

(رواه مسلم)

أحيانا تكون أنت متضايقا، تزور أخاك في الله، وأخواك حاله أعلى، أقرب إلى الله منك، يحدثك بحديث، و يكلمك بكلمة تجد أنك استعد نشوتك، و استعدت نشاطك، و تأثرت و كأنك انطلقت انطلاقة جديدة.

طبعا هذا الباب حديثه الأول أعيده على أسماعكم

((عَن معاذ بن جبل قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ وَالْمُتَزَاورينَ فِيَّ وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ))

(رواه مالك)

نحن نريد إسلاما عمليا، نريد حياة إسلامية، نريد بيتا إسلاميا، نريد تجارة إسلامية، نريد علاقات إسلامية، نريد إسلاما متحركا، الصحابة الكرام لما رأوا القيم كلها تتحرك في بشر فتحركت نفوسهم، أما إذا قرؤوها في كتاب جامد سكنت نفوسهم وجمدت، فنحن نريد النبي كما قيل: قرآن يمشي، وأنا أريد الأخ المؤمن في علاقاته و مواعيده و عطائه و بيعه و شرائه وفي تجارته و دراسته في أخلاقه، دائما في أعلى مستوى، إنك إن كنتَ أخلاقيا رأيت الطريق إلى الله سالكا، وانطلقت إلى الله.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (053) :الترغيب والترهيب3 - اكتساب الرزق.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-10-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... موضوع الأحاديث الشريفة اليوم الترغيب في الاكتساب، اكتساب الرزق بالبيع وغيره، وقبل أن ندخل في شرح الأحاديث كما هو المعتاد، لابد من مقدمة قصيرة تلقي ضوءً على تلك الأحاديث الشريفة التي سوف ترد معنا في هذه الجلسة.

أولاً: الله جل جلاله أودع في الإنسان حاجة أساسية إلى الطعام والشراب، وأودع حاجة أساسية إلى استكمال نصفه الآخر، هاتان الحاجتان الأساسيتان كافيتان كي تدفعانه إلى العمل، فربنا جل جلاله حينما خلق الإنسان صممه ليعمل، فالعمل، والدافع للعمل واضح جداً ؛ الإحساس بالجوع إلى الطعام والشراب، والإحساس بالحاجة إلى النصف الآخر، هذان الدافعان القويان الكبيران الأساسيان هما اللذان يحركان الإنسان نحو العمل.

العمل ما مهمته ؟ العمل مهمته أن تبتلى به، أن تكشف على حقيقتك، أن تمتحن به، الإنسان من خلال العمل يظهر صدقه أو كذبه، استقامته أو انحرافه، عدله أو جَوْره، إحسانه أو إساءته، الجوع بنوعيه يدفعك إلى العمل، والعمل تمتحن به، وسر وجودك في الدنيا الابتلاء..

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

(سورة الملك: من آية " 2 ")

أي أن الإنسان مخلوق لجنةٍ عرضها السماوات والأرض، مخلوق ليسعد إلى الأبد في جنَّات الله، هذه الجنّات ثمنها العمل، والعمل لا تندفع إليه إلا بهذه الحاجات الأساسية.

تصور معي أيها الأخ الكريم أن الإنسان لا يجوع، ولا يعطش، ولا يحتاج إلى كساء، ولا يحتاج إلى زواج، كقطعة أثاثٍ في مكان ما، لولا الإحساس بالجوع لما رأيت على الأرض حجراً فوق حجر ؛ لا بناء، ولا مصنع، ولا مزرعة، ولا شيء، لولا الجوع لكان الإنسان جماداً، لكن هذا الدافع الذي أودعه الله في الإنسان، لأن النبي الكريم يقول:

((إذا أحرزت النفس رزقها اطمأنت))

(مجمع الزوائد: عن " زيد ")

هذا الدافع إلى الطعام، فإذا تأمَّن الطعام دافع إلى الزواج، فإذا تأمن الزواج دافع إلى الذِكر، الله عزَّ وجل قال:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

تأكل وتشرب، تتزوج، عندئذٍ تبحث عن الشأن والذكر والعلو بين الخلق. إذاً العمل قدرنا، مَن يعمل يحقق مراد الله عزَّ وجل، أحاديث كثيرة، آياتٌ كثيرة تدعونا إلى العمل، من خلال العمل يُكشف الإنسان على حقيقته، من خلال العمل يبتلى، من خلال العمل يظهر صدقه أو عدم

صدقه، إخلاصه أو عدم إخلاصه، إحسانه أو عدم إحسانه، وفاؤه أو عدم وفائه، يعني يجب أن تعلم أيها الأخ أن عملك، حرفتك، تجارتك، صناعتك، زراعتك، تدريسك، مقاضاتك أمام القضاة كمحامٍ، تطبيبك كطبيب، عملك كمهندس، عملك كبائع، كتاجر، تُكْشَف على حقيقتك من خلال عملك، وأنت مضطرٌ أن تعمل، مدفوعٌ إليه دفعاً، إذاً ربنا عزَّ وجل حينما يريد شيئاً يدفعك إليه دفعاً عن طريق زرع هذه الحاجة في نفسك.

في شيء ثانٍ، لو أن الله جل جلاله أرادنا ألا نعمل، لخالق الدنيا على نمطٍ آخر، يعني الذي خلق هذا الكون المُعْجِز يصعب عليه أن يخلق بيوت جاهزة ؟! لو كان القصد أن نستمتع في الدنيا، لوجدنا بيوت جاهزة وفيها مؤونة تكفي طول الحياة، ما كان في حاجة كي نزرع القمح، ولا كي نزرع الحمص، ولا كي نزرع الخضار والفواكه، ولا أن نبني البيوت، ولا أن نزرع القطن، ولا أن نحلُج القطن، ولا أن نغزل القطن، ولا أن ننسجه، ولا أن نلبسه.

فلما ربنا عزَّ وجل جعل ما في الأرض من مواد لا ينتفع بها إلا عن طريق العمل البشري، لابد من جهدٍ بشري، وعلمٍ بشري يحول هذه القدرات الكامنة، وهذه الطاقات، وتلك الثروات إلى شيءٍ ملموس، يعني مثلاً الحديد، لو كان القصد ألا نعمل لوجدناه مبروم جاهز، بسماكة ستة ميليمتر، وثمانية ميليمترات، واثني عشر، ومحلزن وغير محلزن، ومبسَّط، وصفائح، ومبروم..إلخ، لكن الله جعله فلزات؛ يحتاج إلى كشف، يحتاج إلى حفر هذه المنطقة، إلى تهيئة أفران عالية، إلى تصنيع الحديد ؛ بعضه فيه شوائب، وبعضه ما فيه شوائب، بعضه فيه فحم وبعضه ما فيه فحم، حديد خام، حديد مُطرَّق، حديد فولاذ، فولاذ مرن، فولاذ نقي، معنى هذا عندما ربنا عزَّ وجل خلق الحديد فقط فلذات، و أعطانا فكر معنى هذا أرادنا أن نعمل.

خلق النبات مرة واحدة، النبتة فيها بذر، أي أرادنا أن نزرع، لكن الذي صمم البذرة على أن تودَع في الأرض وفيها الرُشيم، فيها السويق، فيها الوريقة، فيها محفظة غذاء تكفي النبتة حتى تأخذ غذاءها من الأرض، ربنا جل جلاله.

فهذه المقدمة: حينما خلق فينا دافع الجوع ؛ الدافع إلى الطعام، والدافع إلى الجنس الآخر، وحينما جعل المواد التي أودعها في الأرض لا ينتفع بها إلا عن طريق العمل، أرادنا من العمل أن نُمْتَحَنَ به. الآن:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30))

(سورة المؤمنون)

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

(سورة الملك: من آية " 2 ")

(لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ)

(سورة الأنفال: من آية " 42")

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2))

(سورة العنكبوت)

إذاً أرادنا الله عزَّ وجل أن نعمل.

الآن، العمل في عمل حرام وفي عمل حلال، في عمل حلال وممارسته حرام، وفي عمل حرام ممارسته حلال، يعني البضاعة محرَّمة شرعاً ولكن السعر معتدل، ولا يوجد في البيع كذب، لم نستفد شيء، أصل البضاعة حرام، في عندنا أصلها حلال لكن طريقة التعامل بها طريقة محرَّمة، فالآن نحن دخلنا في بابٍ جديد، كل إنسان له حرفة، وله عمل، يجب أن يعلم أن دينه كله في عمله، دينه ليس في المسجد بل دينه كله في عمله، فالعبادات التعاملية هي أخطر العبادات في الإسلام، لأن العبادات الشعائرية تُبْنى عليها، العبادة الشعائرية تبنى على التعاملية، فإذا صحَّت علاقتك بالخلق وفق منهج خالق الكون صحت صلاتك، وصح صيامك، وصح حجك، وصحَّت أعمالك، أما إذا بنيت علاقاتك بالخلق على أساس الخروج عن منهج الله عزَّ وجل، صلاتك لا معنى لها.

فأنا الذي أتمناه، وقد قال لي أحد الإخوان البارحة: أنه عجيب تجد إنسان يرتاد المساجد، يحضر مجالس العلم، ويأكل الربا، يوكل الربا، يقرض بفائدة، عجيب **!!** فما كان مني إلا أن ذكرت له طُرفة، أحياناً الطرفة أبلغ من الكلام الجاد، قلت له: أحياناً يكون في آلة تصوير غالية جداً، ثمينة جداً، عدسة رائقة جداً، التعقيدات التي بها ؛ سرعة، ومسافة، وتحديد.. إلخ، وتأتي بهذه الآلة تضعها أمام منظر جميل جداً، وتحكم الفتحة، تحكم الإضاءة، تحكم المسافة، تحكم السرعة، وتركِّزها تماماً وتلتقط هذه الصورة، ولكن فيلم ما فيها، ما استفدنا شيء.

فكل واحد يرتاد بيوت الله عزَّ وجل وليس طالباً رضاء الله، ليس ناوياً أن يستقيم، ليس قاصداً الطاعة لله عزَّ وجل، هذا الإنسان مثله تماماً كمثل آلة تصويرٍ غاليةٍ جداً لكن لا فيلم فيها، فكأن الكلام الذي يسمعه دخل من أذنٍ وخرج من أخرى.

هذا الدرس أساسه كان هذه الملاحظة، هذا الأخ الذي لاحظ هذه الملاحظة قال لي: إنسان يصلي، إنسان في الصف الأول، إنسان يرتاد بيوت الله عزَّ وجل أيعقل أن يقرض بالربا ؟ أعوذ بالله **!!** وأين دينه ؟ ألم تقل السيدة عائشة عن أحد أصحاب النبي الذي خالف منهج الله في البيع والشراء، قالت:

((قولوا له إنه أبطل جهاده مع رسول الله))

فأنا أتمنى على الإخوان الكرام تعتقد أن دينك أين يظهر ؟ لا في المسجد، لا، في المسجد إنسان وديع، لطيف، جالس، مستمع، أقيمت الصلاة، وقفت صليت الفرض والسنة، وأغمضت عينك، ودعيت مع الداعين، لا، لا، لا، ليس هذا هو الدين، الدين لا يظهر إلا في محلك التجاري، في حرفتك، في عيادتك، في مكتبك، في تعامُلك، في بيعك، في شرائك، في بيتك، هذا الدين، لذلك كان هذا الدرس، هذا الدرس ما معنى الدين؟ يعني أنت إنسان أردت أن تُظْهرَ لله عزَّ وجل أنك مطيعٌ له، فظهرت هذه الطاعة في عملك.

وإذا أردتم أكبر مأخذ على أهل الدين، أكبر مأخذ يأخذه أعداء الدين على أهل الدين، لا يأخذون عليهم على أنهم يصلون ـ بالعكس ـ ولا على أنهم يصومون، لكن مأخذهم الوحيد أنه يا أخي معاملته سيئة، ما له صادق، ولا وفي، ما وفى بعهده، كذب، فإذا إنسان كذب مرة دخل بمخالفة كبيرة جداً، لأن المؤمن لا يكذب.

عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((ما أكل أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه الصلاة والسلام كان يأكل من عمل يده))

أولاً: هنيئاً لكل واحدٍ منكم يأكل من عمل يده، لأن النبي الكريم يجعل أن تأكل من عمل يدك هذا أرقى وأنقى دخل، لأنه أحياناً تكون أنت دلال مثلاً، ذهبت من زبون، رأى البيت، وأعجبه، أخي اسمح لنا بخمسين ألف، ماذا عمل هذا ؟ خمسين ألف بخمس دقائق، واحد أحياناً يأخذهم بسنة، يأخذهم بشهران أو ثلاثة، في أعمال طبعاً لها وجه، لا أقول العمل غير مشروع، لا، ولكن أحياناً لا يشعر الإنسان أن هذا المال أخذه حلال، أي أنه من دون مبرر، أو مبلغ كبير استكثره، في أعمال كثيرة تحس أن الدخل فيه شبهة، ما في جهد يقابل الدخل، أما إذا واحد عمل بيده عملاً شاقاً، وتصبب عرقاً، وبلغ به الجهد أقصاه، قال لك: اسمح لي بالأجرة، تقول له: الله يعطيك العافية، الله يمن عليك بالعافية، الله يجزيك الخير، وتفضل، تعطيه أجرته وترغب أن تعطيه زيادة، لماذا ؟ لا تعرف. لأنه تعب.

فإذا كنت تريد رزق حلال حلال حلال، أولاً: هنيئاً لكل الذين يعملون بأيديهم، طبعاً ليس شرط أن يكون عملك بالقدوم، اسأل المدرس أنا أعزي نفسي كذلك، الساعة السادسة تحس حالك مثل الليمونة المعصورة، ما عاد فيها شيء أبداً، الساعة السابعة تدريس، الساعة الثانية، الثالثة، الرابعة، الخامسة أمام خمسة وخمسين طالب تريد أن تقنعهم، وتفهمهم، وتبين لهم، وتعرب لهم، ووظائفهم، وبعدها تحس الساعة السادسة ما فيك حيل أبداً، تأتي للبيت ساكت، احكي ما بقى في حكي، خمس ساعات حكي، انتهيت، فما هو الشرط أن يكون عملاً بالمطرقة والقدوم، لا، لكن في أعمال شاقة، يعدون التدريس من أشق الأعمال بعد عمَّال المناجم، من أشق الأعمال لأنك تعالج نفس، هذا الخشب معروف في معك

مطرقة، ومعك منشار، ومعك فارة أليس كذلك ؟ ومعروف طبيعة الخشب هذا زان، هذا شوح، هذا رومي، هذا سويد، كل خشب له ترتيب معروف، المسمار بالزان ينثني، يجب أن يكون خشب شوح للمسمار، الزان يحتاج لبراغي، كل قضية لها ترتيبها، أما أنت بالتعليم تعامل نفس، أحياناً طالب شاذ، أحياناً طالب مزعج، أحياناً طالب لا يتعلم، جاء من أجل أهله، أحياناً طالب متخلّف عقلياً، طالب عنده حركة زائدة، تريدة إقناعه، وتعلمه، وتفهمه، فالقصد أن تبذل جهد حقيقي.

لو فرضنا دلاّل كلفته البيت، أراك أول بيت، والثاني، والثالث، والرابع، والخامس، رابع طابق، خامس طابق، طلع معك، نزل، أول جمعة، ثاني جمعة، خامس جمعة، وبعدها وجد لك بيت مناسب وسعر مناسب وقال لك: اسمح لنا، ستقول له: والله، الله يعطيك العافية، يطلع له والله، يحق له أن يأخذ مبلغ لا بأس به، لكن لأول علاقة، أول ما دليته على هذا البيت ناسبك، ثمن البيت كذا مليون، يقول لك: اسمح لنا بثمانين ألف، شغل خمس دقائق، أنت تتضايق ؛ لا يطلع له، هو ما عمل شيء، فهنا الحديث:

((ما أكل أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه الصلاة والسلام كان يأكل من عمل يده))

(رواه البخاري وغيره، وابن ماجه)

ولفظ ابن ماجه:

((ما كسب الرجل كسباً أطيب من عمل يده، وما أنفق الرجل على نفسه، وأهله، وولده، وخادمه فهو صدقة))

شيء جميل والله، إن كان لك عمل شاق، دخلك من هذا العمل حلالٌ مائة بالمائة، وإذا أنفقت من هذا الكسب على نفسك، وعلى أهلك، وولدك، وخادمك فهو لك صدقة، ما قولكم؟! فهو لك صدقة.

بالمناسبة: اسأل أطباء القلب كلهم، اسألهم: ما أفضل شيء لوقاية الإنسان من أمراض القلب ؟ يقولون لك: بذل الجهد، كبار الأغنياء يشتري مزرعة ويشتغل فيها، لأن أساس الصحة بذل الجهد، فلما ربنا عزَّ وجل صمم الإنسان يشتغل، ويتحرك، سيدنا الصديق كان راكب ناقته، فوقع زمامها على الأرض، فنزل ليأخذها فقالوا:

- يا خليفة رسول الله نكفيك ذلك.

- قال

((لا، سمعت حبيبي رسول الله يقول: " لا تسألوا الناس شيئاً))

عوِّد نفسك تبذل جهد، عود نفسك تشتغل، لأن هذه الصحة أيضاً، فخذها من الزاوية الصحية بذل الجهد أساس الوقاية من أمراض القلب، لازم تمشي، لازم تتحرَّك، لازم تشتغل، لازم تحمل، لازم تحفر إذا

كان عندك مزرعة، أنا أرى السعداء دائماً، الأصحاء في الدنيا في عندهم جهد واضح يبذلونه.
الآن الحديث الآخر: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره، خيرٌ له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه))

(رواه مالك والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي)

يعني شيء رائع جداً يكون لك عمل، مهما بدا لك أن ما هذا العمل ؟ ما هذه الشغلة ؟ إذا واحد جالس على الرصيف وباع خضرة مثلاً، أتى بباذنجان وميزان وباع، فهل عمله في شيء من الخجل ؟ لا والله، والله وسام شرف، أحياناً ما عنده دكان فأخذ رصيف وباع خضرة عليه، هذه أبلغ كأن تحتطب وتبيع الحطب.

حديث آخر: عن أنسٍ رضي الله عنه أن رجلاً من الأنصار ـ هذا حديث دقيق جداً ـ أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله، أي يريد شيء..

ـ فقال

((أما في بيتك شيء ؟))

في عندك شيء.

ـ قال: بلى حلسٌ ـ أي كساء يلي ظهر البعير ـ حلثٌ نلبث بعضه ونبسُط بعضه، وقعبٌ نشرب فيه الماء.

ـ قال: إئتني بهما ـ أحضرهما، الآن دققوا في هذه المعالجة ـ فأتاه بهما فأخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الآن يأتي إنسان ما عندي شيء. أكيد ؟ أبداً هذا البيت تفضل، حكى لي أخ كريم رئيس جمعية قال لي: والله نحن لا نشتغل بالتحقيق، نحن ما عندنا، أخذوا العنوان وطلعوا برأس الجبل، دقوا الباب فوجدوا البيت أعوذ بالله ما فيه شيء، بساط مقطوع وهلهل، طنجرة سوداء، قدرة ماء، فرشة من الإسفنج سماكة سنتيمتر، شيء يبكي، شيء يقطع القلب، هذه اللجنة ثلاثة، في واحد ما ارتاح للمنظر، ولكن ما حكى، ثاني يوم أتى للبيت مرة ثانية وطرق الباب ما في أحد، طرق كثيراً، فلم يجد أحد فيه، وبعدها طلعوا الجيران ماذا تريد يا أخي ؟ هذا البيت أين أصحابه ؟ قال: إنهم لا يسكنون هنا ولكنهم يسكنون في ذاك البيت، دق على البيت الثاني وجد ثريات، وبرَّاد، بيت درجة أولى، وهذا يعملونه عدة، مصلحة، يعطون العنوان للجنة، فتأتي اللجنة هنا، والله معهم حق، شيء يقطع القلب، انظر الصدق..
ـ قال له: أعندك شيء ؟ أما في بيتك شيء ؟
ـ قال: بلى حلسٌ نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه من الماء.

ـ قال: إئتني بهما. فأتاه بهما فأخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، هذه أول مزايدة بالإسلام، وقال:

ـ مَن يشتري هذين ؟

ـ قال رجل: أنا آخذهما بدرهم. يسووا درهم.

ـ فقال عليه الصلاة والسلام: مَن يزيد على درهمٍ مرتين ؟ ـ نريد سعر أعلى من هذا ـ أو ثلاثاً ؟

ـ قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين. رسا المزاد على درهمين، فأعطاهما إياه، فأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري، صار في قبض، سُلِّمت البضاعة وقُبض الثمن، فقال عليه الصلاة والسلام للأنصاري:

((اشتري بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك ـ بالدرهم طعام انبذه إلى أهلك أي ادفعه إلى أهلك ـ واشتري بالآخر قَدُوماً فاءتني به))

فأتاه به، فشد به النبي صلى الله عليه وسلم عوداً بيده ـ طبعاً اشترى قدوم حديد فقط ـ وشد فيه عوداً بيده، ثم قال:

((اذهب فاحتطب، وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوماً ـ أي لا تريني وجهك إلا بعد أسبوعين ـ ففعل، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم))

كان كل أثاث بيته ثمنه درهمين، أتى بخمس أضعاف أثاث بيته، فاشترى ببعضها ثوباً، وببعضها طعاماً، فقال عليه الصلاة والسلام:

((هذا خيرٌ لك من أن تجيء المسألة نكتةً في وجهك يوم القيامة))

هذه معالجة النبي الكريم لإنسان فقير، قال له: بع، مَن يشتري هذين ؟ قال له: بدرهم، من يزيد عليها مرتين أو ثلاث قال رجل آخر: أنا أشتريها بدرهمين، دفع له هذا الأثاث ؛ الحلس والقعب، وقبض الدرهمين، وقال للأنصاري: اشتري بأحدهما طعاماً، فانبذه إلى أهلك واشتري بالآخر قدوماً فاءتني به، فأتاه به فشد فيه النبي عوداً بيده وقال: اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوماً، ففعل، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً، فقال له النبي الكريم: هذا خيرٌ لك من ان تجيْ المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة ؟ يعني أثراً كالنقطة في الوجه، مثل عيب.؟

هذه قصة، وهذا توجيه، مهما كان العمل شاقاً خيرٌ لك من أن تسأل، مهما كان العمل خشناً خيرٌ لك من أن تسأل، لأنك بالعمل ترفع رأسك عالياً، بالعمل تحفظ ماء وجهك، بالعمل تُثبت أنك إنسان جدير بالعمل.

اسمعوا هذه الكلمة مني: من تأفف من عمله لا يصلح لأي عملٍ آخر، من السذاجة والغباء أن تعتقد أن هناك عمل كله ميزات وليس له متاعب، هذا التفكير تفكير ساذج وغبي، ما في عمل ما له متاعب، كل عمل له ميزات وله مسالب، ولكن ضعاف العقول ضيقوا الأفق يرون ميزات بعض الأعمال وينسون

مسالبها ومتاعبها، أما كل عمل يقول لك: أخي التجارة غير، هذا كلام الموظف، فعلاً دخلها أكبر، ولكن تأتي على التاجر ساعات مثلما قال النبي الكريم:

((يأتي على القاضي العدل ساعة يتمنى فيها أن لو لم يقض بين اثنين في تمرة))

في أزمات، في هبوط أسعار، في إفلاسات، في مسؤولية أمام الدولة أحياناً، في جهات عديدة جداً تسألك سؤالاً محرجاً، وتحاسبك حساباً عسيراً، وتدينك، فمقابل الدخل الأعلى من دخل الوظيفة، في هموم لا يعلمها إلا الواحد الديّان.

هذا الكلام ينقلنا إلى فكرة أتمنى أن أشرحها لكم بوضوح، هذه الفكرة ملخصها أن المجموع ثابت، معنى هذه الجملة، لو فرضنا أن الله عزَّ وجل أعطى لكل حظ علامة ؛ الصحة علامتان، أو عشر علامات، زوجة جيدة عشر علامات، صاروا عشرين، أولاد أبرار عشر علامات صاروا ثلاثين، دخل يكفي صار أربعين.. إلخ، جمِّع هذه الحظوظ كلها، لو عندك مقاييس دقيقة جداً تقيس بها الناس، آخذ كل واحد من ربه مائة علامة ولكن موزَّعين، ولكن المجموع ثابت، الذي عاطيه راحة بال لا يكفيه دخله، والذي يعطيه دخل فوق حاجته سلبه راحة البال، لا ينام الليل من الحسابات، والمشاكل، والهموم، الذي يعطيه دخل كبير تاعبه من جهة، والذي يعطيه دخل قليل مريحه من جهة، الذي يعطيه زوجة ممتازة أولاده متعبين أحياناً، أولاد جيدين زوجة متعبة، زوجة جيدة ودخل جيد ما في أولاد عقيم، أولاده كثير ودخله قليل، لو معنا مقاييس دقيقة وموضوعية نقيس بها هذه الحظوظ لوحَّدت الله عزَّ وجل وقلت: المجموع ثابت.

يعني الله موزع الحظوظ ولكن توزيع عادل، مجموع العلامات مائة ولكن كيف موزعين ؟ كل واحد له ترتيب خاص، فمن يتأفف من عمله لا يصلح لي عملٍ آخر، أبداً خذها قاعدة، كل عمل له متاعب، فالكسول يتأفف من هذا العمل، ولو عمل عملاً آخر لتأفف منه، ولو عمل عملاً ثالثاً لتأفف منه.

سُئل النبي عليه الصلاة والسلام: أي الكسب أطيب ؟ قال:

((عمل الرجل بيده، وكل كسبٍ مبرور))

(من كنز العمال: عن " الحارث عن علي ")

والله يا إخوان، واحد قال لي كلمة بزمانه، لو قلت لكم مركز عمله عنده مكتب فخم جداً تجاري، إن قلت لك طبيعة مكتبه لا يوصف ؛ فالأرض، والمكتب، والجدران كلها من خشب، وخمس أو ست هواتف، وموظفين، سيّارات، قال لي بالحرف الواحد: أنا عملي قذر، يبدو تجارة محرَّمة، أو في علاقات غير صحيحة، أو في احتيال، أو في تجارة ممنوعة عند الله عزَّ وجل، يجوز ولكن لا أعرف، أنا رأيت مكتب تجاري، قال لي: أنا عملي قذر، وحكاها باللغة الإنكليزية قال لي:(DRTY WORK) أنا عملي قذر، يبدو أنه استيقظ ضميره، أو شعر أن عمله ليس في صالح الناس، وليس في خدمة

الناس، يبدو أنه يكسب مالاً بالاحتيال أو بأسباب غير مشروعة، لا أعرف، فأنا لا أتدخل لأنه من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

ولكن من غرائب الصدف، يوم زرت أحد إخواننا مصلح سيارات وكان الوقت شتاء، وكان في وحل بالأرض، ولابس أفارول أساسه أزرق، وأصابه من الزيت، والشحم، والوحل ما لا سبيل إلى وصفه، ومنبطح تحت االسيارة، ويفك الأبواب، وتعبان، وبرد، والله طلعت من نفسي كلمة قلت: هذا عمل نظيف، وتذكَّرت مكتب الشخص البارحة الفخم، المكتب طوله ثمانية أمتار، وتليفونات، والأرض موكيت بسماكة كبيرة تغرق فيها، الجدران كلها خشب، النباتات الطبيعية الغالية جداً، الإضاءة المخفية، تصورت المكتب الفخم وقال لي: أنا عملي قذر، وتصورت هذا الأخ المؤمن النصوح، الذي يصلح التصليحة من قلبه بصدق ويأخذ أجر معتدل، ويقول لك: هذه جاهزة تفضل هذه السيارة، وماذا يأخذ ؟ طلع له مائة ورقة أو مائتين ورقة، طلعت مني صيحة أن هذا هو العمل النظيف.

أحياناً يكون لك محل قد يكون محل بين نوفوتيه مثلاً، بشارع مزدحم بالنساء، بالحمرة مثلاً، طريق الصالحية، النساء يدخلون كاسيات عاريات، مائلات مميلات، فاسقات، فاجرات، بحسب الظاهر والله شغلة ممتعة، جالس مع حسناوات، أما يمكن أي عمل آخر مع الحديد، مع الشحم، مع الباطون ولكن فيه استقامة، هذا العمل أنظف بكثير، ابحث عن عمل نظيف في حقيقته، ما فيه اختلاط، ما فيه كذب، ما فيه أيمان كاذبة، ما فيه احتيال.

الآن مصالح كثيرة، قال لي أخ اليوم: يعني يظهر أنه جالس مع زميل له بالمحاماة، ويحكي الأخ المؤمن بالقيَم، فماذا قال له زميله ؟ قال له: كفاك حكي، نحن إن لم نكذب ونحتال لا نعيش، ماذا نفعل ؟ قال لي: والله بعد أسبوع رأيت نعوته على الجدران، جمعة، بقيت الكلمة ترن بأذنه رن: أنه إذا ما كذبنا لا نعيش، هذه آية أم حديث ؟ مَن قال هذه الكلمة؟ انظر القرآن ماذا قال، ماذا قال النبي العدنان اللهم صلِ عليه.

فدرسي مهمته: أن دينك يظهر بعملك، دينك بتجارتك، دينك ببيعك، دينك بشرائك، دينك ببيتك، دينك بغض بصرك، دينك بصدقك، دينك بإخلاصك، دينك بوفائك، هذا هو الدين، إذا كان الناس هكذا دخل الناس في دين الله أفواجا، تجد أفواج داخلين بالدين، أما إذا صار الدين صوم وصلاة، صلاة جوفاء، وصوم شكلي، وحج للسمعة والتجارة، واحتفالات وأناشيد، وعطر، وتبجيل، وتعظيم، لكن ما في استقامة، عندئذٍ يجعلنا الله وراء الأمم كلها، الله قال:

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)

(سورة التوبة: من آية " 40 ")

معناها:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنَاً)

(سورة النور: من آية " 55 ")

فقال: أي الكسب أطيب ؟

قال:

((" عمل الرجل بيده وكل كسبٍ مبرور))

(من كنز العمال: عن " الحارث عن علي ")

وفي حديثٍ آخر: سُئِل عليه الصلاة والسلام عن أفضل الكسب ؟ فقال:

((بيعٌ مبرور وعمل الرجل بيده))

(من الدر المنثور: عن " رافع بن خديج ")

في حديث لكن هو ضيف ولكن ما في مانع من روايته:

((إن أطيب الكسب كسب التجار ؛ الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يطروا، وإذا كان لهم لم يعسّروا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا))

فالنبي الكريم يقول:

((كل بيع مبرور))

(من كنز العمال: عن " الحارث عن علي ")

الآن في عندنا حديث مهم جداً: عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: مرَّ على النبي صلى الله عليه وسلم رجلٌ ؛ قوي، نشيط، عضلات مفتولة، حركته نشيطة، فرأى أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم من جلده ونشاطه فقالوا:

ـ يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله !! لو أن هذه العضلات، هذا النشاط، هذه القدرة، هذه الحركة.

ـ فقال عليه الصلاة والسلام:

((إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفُّها فهو في سبيل الله))

يريد أن يتزوج ولا يريد أن يزني، يريد أن يشتري بيت، يريد أن يؤمِّن بيت، يريد أن يعمر غرفة واحدة بالغوطة ولا يريد شيء، غرفة ومنافعها ويشتغل عشر ساعات أو عشرين ساعة في اليوم، مَن قال لك أن هذا ليس في سبيل الله ؟ انظروا النبي الكريم اللهم صلِ عليه، قال:

((إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفُّها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرةً فهو في سبيل الشيطان "))

أن كنت تريد من عملك، أن يكون عمل لكسب رزقك، رزق أولادك، رزق زوجتك، تريد أن تطعمهم، تلبسهم، الدنيا شتاء مثلاً تدفئهم، تسرُّهم، مَن قال لك أن هذا العمل للدنيا؟ في سبيل الله، أنت فقط آمن بالله عزَّ وجل كله في سبيل الله، ما عاد في شيء لك وشيء لله عزَّ وجل، هذه ساعة لك وساعةٌ لربك ليست واردة إطلاقاً، حينما تعرف الله عزَّ وجل كل عملك يصبح في سبيل الله، بيعك، وشراءك، حتى دراستك الجامعية، حتى عيادتك، حتى مكتبك المحاماة، حتى مكتبك الهندسي، حتى تدريسك، حتى سفرك أحياناً.

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((إن الله يحب المؤمن المحترف))

(من الجامع لأحكام القرآن)

لك حرفة، صاحب مصلحة، عندك خبرة، شيء جميل **!** مؤمن هكذا كانوا العلماء سابقاً، سيدنا الصديق كان بزَّاز، سيدنا أبو عبيدة كان قصَّاب، سيدنا ابن عوف كان تاجر، سيدنا عثمان كان تاجر، سيدنا أبو حنيفة كان بزَّاز، سيدنا ابن حنبل كان يلتقط ما لم يؤخذ من الفواكه ويبيعه ويكتفي بدخله، قال:

((إن الله يحب المؤمن المحترف))

(من الجامع لأحكام القرآن)

سيدنا الصديق رضي الله عنه حينما تسلَّم الخلافة، في اليوم الأول حمل قماشاً على ظهره واتجه إلى السوق ليبيع القماش ليأكل، كَبُرَ على أصحابه ذلك: أنت خليفتنا، ونكفيك نحن أمر معاشك **!!** فقال سيدنا الصديق: " لقد علم قومي أن حرفتي لم تكن تعجز عن مؤنة أهلي ـ أنا عندي حرفة تعينني على تأمين رزقي وكفاية أهلي ـ ولكني شغلت بأمر المسلمين فسيأكل آل أبا بكرٍ من هذا المال.... ". أخذ الحد الأدنى، الحد الأدنى ما يسمى الآن تعويض تفرغ، تفرَّغ لإدارة شؤون المسلمين في كل الأقطار، أخذ تعويض من بيت المال تفرُّغ يكفيه الحد الأدنى، قال: " فسيأكل آل أبا بكر من هذا المال وأحترف للمسلمين " أنا أصبحت حرفتي الآن خدمة المسلمين ؛ رعاية مصالحهم، تأمين حاجاتهم، فتوح البلاد، فلما جاءه من الفتوح دخلٌ ـ استمعوا ـ رد كل ما أخذه من بيت المال وأعاده لبيت المال، عندئذٍ لم يأخذ من بيت المال شيئاً.

وارد بتفسير الحديث أن سيدنا نوح كان نجَّار، وسيدنا إدريس خيّاط، وسيدنا موسى كان راعي غنم، النقد دفعه من رعي الغنم..

(قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ)

(سورة القصص: من آية " 37 ")

داوود كان يعمل القفاف، وكان يعمل الدروع بنص القرآن الكريم، وكان ملك سيدنا داود، وكان النبي عليه الصلاة والسلام كم مهنة له ؟ كان راعي، وكان تاجر مُضارب، المال مال خديجة والجهد منه، هذه شركة مضاربة، شركة استثمارية، وكان تاجر بيَّاع، لكن فترة قصيرة كان له شريك في مكة، ثم تفرغ للمسلمين.

وتجد علماء كثر ؛ هذا نجار، هذا خوَّاص، مَن هو الخواص ؟ هذا شيخ الشعراني كان خواص يصنع الخص من القصب، يقول لك: عملنا خص قصب، الخواص الذي يصنع الخصوص. فتاريخ العلماء أيضاً كله مِهَن وأعمال، لأنه شيء رائع جداً تكون أنت قدوة، يصيبك ما يصيب الناس، الذي يخافه الناس تخافه أنت، الذي يحرص عليه الناس تحرص عليه أنت.

فهذا الدرس محوره: أنه ينبغي أن يظهر دينك في عملك، والدين يظهر أكثر ما يظهر في عملك.

آخر حديث في هذا الباب من الترغيب والترهيب، إذا واحد قال لك: يا أخي هلكنا ثمان ساعات عمل، جردنا، سافرنا، بعنا، جئنا، جمعنا ديوننا، بضاعة سلمناها، عديناها للساعة الثانية عشر، حملناها، ما هذه الحياة ؟ ما هذا التعب ؟ لا تتأفف واسمع هذا الحديث:

((من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له))

(من الجامع الصغير: عن " ابن عباس ")

لذلك ابتعد عن عمل فيه احتيال، فيه هيلمة، " من أصاب مالاً في نهاوش أذهبه الله في نهابر "، كثير في أعمال تجد ما ساويت شيء، حجر أنفه: ما لنا نحسة، ما لنا شيء ؟ يظل يضيِّق، ويتم يحرجك حتى يهبج له هبجة، ابحث عن عمل شريف، ابحث عن عمل فيه جهد حقيقي، ابحث عن عمل في مسؤولية، و..

((إن روح القدس نفثت في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله عباد الله وأجملوا في الطلب، واستجملوا مهنكم))

(مختصر تفسير ابن كثير: عن " ابن مسعود "

وكان سيدنا عمر يقول:

((إني أرى الرجل لا عمل له فيسقط من عيني))

والصحابة كانوا رهبان في الليل فرسان في النهار، وأبلغ قول قاله النبي الكريم عندما دخل إلى المسجد في النهار ورأى رجل يصلي ـ اسمعوا ماذا أحكي ـ فسأله النبي:

ـ من يطعمك ؟

ـ قال له: أخي. لي أخ الحمد لله هو ينفق علي وأنا هنا أتعبد.

ـ قال له: أخوك أعبد منك.

الذي يعمل وينفق أعبد منك لأن اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى، إلا إذا كان في طلب علم، شريك اشتكى للنبي على شريكه، شريكه كان طالب علم يبدو مقصر قليلاً، فلما شكى النبي على شريكه طالب العلم قال له النبي ـ حالة استثنائية ـ:

((لعلك ترزق به))

(من الجامع الصغير: عن " أنس ")

لأن طالب العلم يطلب العلم لغيره، لينفع الناس جميعاً، أما المتعبِّد يبحث عن سعادته الشخصية، قال له: أخوك أعبد منك، أما للشريك طالب العلم قال له: لعلك ترزق به.

انظروا مبادئ دقيقة جداً مرت اليوم عرضت: شرف العمل مهما كان عملك شاقاً، والله عزَّ وجل يوفق.

واسمعوا مني توجيه أخير هو آية قرآنية وحيدة، ومعروفة مرت معكم..

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)

(سورة هود: من آية " 88 ")

لا في كساد أسواق، ولا في وضع سيئ، ولا في سوق مسموم، ولا في وضع عاطل، في إله بيده كل شيء إن وفقّك سيكون في حكمة، وإن ما وفقك يكون في حكمة، وإن أعطاك يكون في حكمة، وإن منعك يكون في حكمة، أنت عليك أن تطيعه وأن تستسلم له، والتجَّار يحكوها وأسمعها منهم يقولون لك: مع الله ما في ذكي. أي أذكى تاجر يرده المهالك بذكائه، وإنسان بسيط الله رازقه أحياناً، لهذا قال الشاعر:

ولـو كانـت الأرزاق تجـري مـع الحجى هلكن إذا من جهلهن البهائمُ

* * *

لو القضية متعلقة بالذكاء يجب أن تموت البهائم من جوعهم، أما الله عزَّ وجل رازقهم أحسن منا.

إذاً ملخص الدرس: أنت في الدنيا من أجل أن تمتحن، ولا تمتحن إلا بالعمل، والذي يدفعك إلى العمل مقهوراً ؛ إحساسك بالجوع، إلى الطعام والشراب، وإلى شريك حياتك، إذاً أودع فينا حب الطعام والشراب، الحاجة الأساسية إليه، وأودع فينا رغبة في استكمال النصف الآخر من أجل أن نعمل، وإذا عملنا امتحنا، وإذا امتحنا استحققنا دخول الجنة أو دخول النار. والدليل الآخر أن كل ما في الأرض من ثروات، من طاقات لا ينتفع بها إلا بالعمل، أنت تجد الخيار جاهز أم يجب أن تزرعه ؟ فتحتاج أن تحرث الأرض، وتعشبها، وتسمدها، وتعقمها، تزرع البذرة بالكاسة فيها تورب، تنتظر أسبوع أو

أسبوعان لتنبت، تنقلها للحقل، ترعاها، تسقيها، ترشها، تبخها، حتى تحمل، ثم تجمع الثمار، توضب، تبعث على السوق، في جهد بين المواد الأولية وبين استخدامها في جهد كبير، والعمل مثلما قلت لكم: دينك يظهر في عملك، وفي تجارتك، وفي زراعتك، وفي صناعتك، وفي وظيفتك، وفي عيادتك، وفي مكتبك، وفي تعليمك، وفي هندستك، وفي بيعك، وفي شرائك هنا يظهر دينك. والناس لا يدخلون في دين الله أفواجا.

قال لي شخص قصة تأثرت لها كثيراً، قال لي: القصة من ستين سنة، كان والدي عليه دين لرجل من أهل الكتاب ـ نصراني ـ دين بالذهب، طلع قانون ما في تعامل بالذهب، فصار لو أدى الدين بالسوري أدى ربع الدين، فوالده ورع، راح دفع ما عليه لهذا النصراني بالذهب، النصراني ذهل، ما هذا ؟! هذا مسلم !! الدين ثابت ولكن القانون صار لمصلحته الوفاء بالسوري، هو رده ذهباً، هذا النصراني وهو على فراش الموت كان في سوريا ولبنان وحدة جمركية واحدة، كانت المصالح مشتركة جداً، وهذا النصراني كان وكيل شركة أجنبية كبيرة جداً اسمها (وستنج هاوس)، فلما قسموا الجمارك احتاج وكيل لسوريا، وهو على فراش الموت يقول: فلان الذي أدَّى ما عليه ذهباً أعطوه الوكالة، فذهب أولاده إليه، وعرضوا عليه العرض قال لهم: ما معي، قالوا له: ندفع لك نحن الرأسمال، ولكن هذه وصية أبينا أن تكون أنت الوكيل لهذه الشركة الضخمة، وكان هذا سبب غناه، الغنى الذي أنعم الله عليه.

أرأيتم الوفاء، فديننا كله معاملة، ديننا كله صدق، ديننا كله وفاء، ديننا كله استقامة، فأنت لا ترقى عند الناس إلا باستقامتك، يجب أن يشار للمؤمن بالبنان، انظروا كرمه، شوفوا أدبه، شوفوا وفاءه، أما تلجئ الناس للقضاء وأنت مسلم ؟! وتقول: يوجد سبع أبواب لقصر العدل، ما هذا، أهو جهنم ليكون له سبعه أبواب ؟!

(لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ)

(سورة الحجر: من آية " 44 ")

أي باب عجبك ادخل له، يدك وما تعطي، أهكذا المسلم ؟ أين الآية:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: من آية " 36 ")

والله في كل موقف من مسلم شيء لا يصدق، يكون مستأجر لبيت ثمنه ثمان أو تسع ملايين ويقول لصاحبه: هذا ليس لي هذا لك، تفضل هذا مفتاحه، فينظر صاحبه إليه متسائلاً: أهذا المستأجر مجنون ؟ طبعاً سلمه له لأنه ليس له، هذا المؤمن، أما أن تلجئ الناس للقضاء !! نحن ما مشكلتنا ؟ مشكلة ثقة، نحن فقدنا الثقة ببعضنا كمسلمين فانتهينا، أما لو كان الكلام كلام، والوعد وعد، والوفاء وفاء، لكنا في حال غير هذا الحال.

فأخي، ملخص الدرس: أن دينك يظهر في عملك، نريد عمل متقن، نريد صدق بالكلام، وفاء بالوعد، لا غش، لا كذب، لا احتيال، لا تدليس، لا مواربة، قال لي أخ: عندي قطعة للسيارة كسدانة من خمس سنوات، وغالية كثير ولم تباع، جاء زبون يريدها، طلعت على السلم أأتي بها، وهو طالع قال له الزبون: أصلية ؟ قال لحاله البيعة فقست لأنها ليست أصلية، فقال له: إنها غير أصلية، فقال له: هاتها أريدها، كلمة واحدة قال له: غير أصلية فكانت حلال البيعة، لا تبع دينك ولا بمليون ليرة، ولا بمائة مليون، كن صادق، أما كذب، وغش، وتدليس، شيء غير معقول ولا بشكل.

فنحن إن شاء الله إذا كان في لهذا الجامع هوية فهويته الاستقامة، إذا في هوية ديننا بعملنا، ديننا بعلاقاتنا اليومية، ديننا ببيعنا وشراءنا، هذا هو ديننا، حتى الناس يقولوا أن هذا الدين عظيم جداً، حتى الناس يشتهوا دينك، يشتهوا جامعك، يشتهوا ينضموا لكم، أما كذب وصلاة، احتيال وصلاة، هذه عملية تنفير، ففي بالإسلام داعية وفي منفر، مَن هو المنفر ؟ من له مظهر ديني، كهنوت، مظاهر صارخة ولا توجد استقامة.

مرة شخص تركي اشترى كيلو لحمة عنده عزيمة، عنده قط فأكله، فجلس القط يعمل ورد، له ورد، يخرخر القط، تطلع فيه وامتلأ غيظ منه قال له: " أوراد شوك، أمانات يوك "، الورد جيد ومظبوط، أما الأمانة غير موجود، نحن لا نريد مسلم مثل القط ؛ أوراد شوك أمانات يوك، نريد مسلم صادق المال تحت قدمه مهما بلغ، لا يكذب، ولا يغير، ولا يبدل.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (054) : التواضع .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-10-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... موضوعٌ دقيقٌ جداً ألا وهو التواضع، لكن التواضع إما أنه سلوكٌ ذكي، وإما أنه سلوكٌ عَفْويّ، الذي يعرف الله عزَّ وجل يعرف عظمته، ويعرف ضعفه، إن عرفت عظمة الله وعرفت ضعفك، إن عرفت قوته، إن عرفت غناه وعرفت فقرك، إن عرفت علمه وعرفت جهلك، دائماً في معرفتين أن تعرف َمن أنت وأن تعرف من ربك..

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (64))

(سورة غافر)

الشعور الناتج من تحققك لضعفك، وافتقارك، وجهلك، والشعور الناتج عن تحققك بغنى الله عزَّ وجل وعلمه وقدرته، من خلال هذين التحقيقين ينشأ سلوكٌ عفوي هو التواضع

لكن هناك أناسٌ كثيرون بحكم ذكائهم، واتقاد ذهنهم، ورغبتهم في أن ينتزعوا إعجاب الناس، وأن ينتزعوا حبَّهم، يسلكون سلوكاً متواضعاً، هذا السلوك ليس عبادةً، وليس مؤشراً على معرفة الله عزَّ وجل، ولا على عبودية الإنسان، الذي أتمناه على الله أن يتضح أمامكم الفرق الدقيق بين السلوك المَدَني، السلوك الذكي، وبين العبودية لله عزَّ وجل.

ذات مرة في خطبة ذكرت لكم: أن الإنسان لو أدى ما عليه من حقوق للناس هل يسمى أميناً ؟ الجواب لا، الإنسان الذكي يوازن بين اسمه، واسم شركته، واسم تجارته فإن لم يدفع، نهش الناس عرضه، وذمّوه، وتحدّثوا عليه، واغتابوه، فحينما يخاف الإنسان على سمعته، أو على مركزه التجاري، أو على مكانته الاجتماعية، ويبادر إلى دفع ما عليه هذا ليس عند الله أمانةً، هذا سلوك مدني مبني على الترجيح، أنت وازنت بين عدم الدفع، وأن تفتضح بين الناس، وبين أن تدفع وأن تنجو بسمعتك، فآثرت الدفع، سلوك مدني. مَن هو الأمين ؟

الأمين إنسان أودع عندك مائة ألف ليرة، أو نصف مليون ليرة، أو مليون ليرة، ولم يأخذ منك إيصالاً - فرضاً - ولم يُعْلِم أحداً، ومات فجأةً، وليس في الأرض كلها جهةٌ تقاضيك، أو تطالبك، أو تدينك، وذهبت طواعيةً إلى ورثة هذا الميت، وأعطيتهم هذا المبلغ، هذا هو السلوك العبادي، هذه هي العبادة، هذه هي الأمانة، إن لم تكن مُداناً من الخَلَق لكن الحق يعرف ذلك.

فنحن دائماً الأمور تختلط لنا، في عندنا مشكلة يعاني منها أكثر المؤمنين، يلتقي بشخص يقول لك: أخلاق عالية، صادق لا يكذب، شركة أجنبية لا تكذب أبداً، لو أنك أعلمتها أن البضاعة تالفة تعطيك

التعويض فوراً من دون تحقيق، ليس فقط هي صادقة بل تصدقك أيضاً، يجد حل بعدها: يا أخي أخذوا أخلاقنا وأعطونا أخلاقهم، هذه أخلاقنا وليس أخلاقهم، لكنهم لا يصلون، شاربين للخمر، مفرِّقين بين الشعوب، يبنون حضارتهم على أنقاض الشعوب، أخي هذه أخلاق الإسلام.

في عندنا مشكلة كبيرة، مشكلة عقائدية عندما تجد شخص صادق ولا يصلي، يجب أن تعلم وأن تفرق بين السلوك المدني، الذكي، المبني على الترجيح والموازنة، وبين العبادة لله عزَّ وجل، العبادة شي، ء والسلوك المدني المبني على المصلحة، وتوفير السمعة، وتحقيق المصلحة، شيءٌ آخر.

لذلك، يجب أن ننحي من درسنا هذا كل أنواع التواضع الناتجة عن الذكاء، أريد التواضع الحقيقي الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، أريد التواضع الذي يرقى بك إلى الله، أريد التواضع الذي هو انعكاسٌ لإيمانك، انعكاسٌ لمعرفتك بحقيقة ذاتك، انعكاسٌ لمعرفتك بالله عزَّ وجل، طبعاً عندما الإنسان يكون عنده آلة تريكو مثلاً موديل تسعة وأربعين، يدوية، يدخل لمعمل فيه ثلاثمائة آلة إلكترونية تعطيك إنتاج مذهل مع ضبط إلكتروني، مع كمبيوتر يحركها، مع ألوان، مع تنسيق، غير معقول تفتخر بماكينتك عندها، فمن أين يأتي تواضعك ؟ إن عرفت من أنت ومن هو الله، إن عرفته وعرفت نفسك نشأ التواضع.

لذلك التواضع أساسه معرفة، معرفةٌ بالله، ومعرفةٌ بحقيقة الإنسان، هذا التواضع، ولا في صفة أبغض إلى الله من الكبر، ولكن في سؤال: لماذا ؟ في ذنوب كثيرة جداً الله عزَّ وجل يغفرها، لكن مثقال ذرةٍ من كبر تكبُّ صاحبها في النار ؟! ما السبب ؟ العلماء قالوا: لأن الكبر يتناقض مع العبودية لله عزَّ وجل، أنت لا شيء والله هو كل شيء، أنت لا تعلم والله يعلم، أنت فقير والله غني، أنت جاهل والله عالم، لذلك قال الشاعر:

وما لي سوى فقري إليك وسيلةً   فبالافتـقار إليك فقري أدفعُ

وما لي سوى قرعي لبابك حيلةٌ   فلئن رددت فأي بابٍ أقرع

* * *

النقطة الدقيقة قبل أن نخوض في ثنيات الدرس هي: أنه على عكس ما يبدو لك، كلما تواضعت لله رفعك الله، وعلى عكس ما يبدو لعامة الناس كلما رفعت نفسك خفضك الله عزَّ وجل، وضعك الله، إن رفعت نفسك وضعها الله، وإن تواضعت لله عزَّ وجل رفعك الله، هذه واحدة.

الشيء الأخطر قد يقول قائل: ولو تكبَّر. المشكلة أن الإنسان بين حالتين ؛ إما التأييد، أو التخلي، الله عزَّ وجل يأيدك، ينصرك، يوفقك، يسدد لك خطاك، يعطيك رؤية صحيحة، يرشدك، ينبهك، يحفظك، يوفقك، أو يتخلى عنك، إذا تخلى الله عنك وقعت في مطباتٍ كثيرة، ظهرت منك حماقاتٌ كثيرة، وقعت في سلوكٍ مضطرب.

الآن سؤال: ما هو سرُّ التخلي، وما هو سر التوفيق ؟ لا أعتقد أحد من إخواننا الحاضرين إلا ويتمنى من كل قلبه أن يكون موفقاً ؛ في دراسته، في تجارته، في صناعته، في وظيفته، في بيته، في زواجه، في صحته، التوفيق شيء متألّق، شيء مرغوب فيه جداً أن تكون موفقاً، وأن تأتي الأمور على عكس ما تريد، على خلاف ما تريد، أن تُعسَّر الأمور، أنت تفاجأ بألغام، أن تفاجأ بمطبَّات، أن تتورط ورطات كبيرة جداً، أن تدمَّر، هنا السؤال: ما سر التأييد الإلهي وما سر التخلي ؟ هو التواضع والكبر. إذا قلت: أنا، المقابل التخلي، الدليل، طالبوني بالدليل؟

((من اتكل على نفسه أوكله الله إياها ـ تخلى الله عنه ـ ومن اتكل على الله كفاه الله كل مؤنة))

(من كنز العمال)

الدرس واسع جداً، بصحتك،ب تجارتك، بصناعتك، بدراستك، حتى بمركبتك، تقول هذه انتقيتها أحسن ماركة ما في مثلها، هذه الماركة شريف هذا الموديل، تقطعك. حينما تتكل على شيء، الله عزَّ وجل يهيئ ظروف يعرفك بحقيقته أنه ضعيف، لذلك في عندنا قصتان شهيرتان قرآنيّتان، بدر، وحنين..

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران: من آية " 123 ")

هنا (أذلة) أي مفتقرون إلى الله..

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ)

(سورة التوبة: من آية " 25 ")

واللهِ الذي لا إله إلا هو بحياة كل واحد منكم بكل يوم بدر وحنين، تقول له: يا رب إني تبرأت من حولي وقوتي وعلمي، والتجأت إلى حولك وقوتك وعلمك، تجد التأييد، السداد، الرؤية الصحيحة، القرار السليم، الكلمة الدقيقة، الموقف المشرف، التوفيق، التفوق، النجاح، قل: أنا، أنا ذكي، عندي خبرة، أربعين سنة خبرات متراكمة بالتجارة. ترتكب حماقة في شراء صفقة تفلس فيها.

فأنت لأن موضوع الدرس يومي، أنا أعني ما أقول، في حياة كل واحد منكم يومياً بدر وحنين، تقول: أنا. حنين، تقول: الله. بدر، يا رب ما في غيرك يوفقك الله عزَّ وجل، كل إنسان اتكل على ماله، ضل، اتكل على حسبه ونسبه، ذل، اتكل على علمه، ما وفقه الله عزَّ وجل، فلذلك ما عاد موضوع تواضع، موضوع سلوك يرضي الله، لا، لا، حقيقي أنت لا شيء، الله قادر يلقي في روعك فكرة غير صحيحة، قادر يخوفك من جهةٍ ضعيفة، وقادر يطمئنك من جهةٍ قوية، قادر يشعرك بالفقر وأنت غني، وقادر أن يشعرك بالغنى وأنت فقير، وقادر يسعدك وكل شروط السعادة غير متوافرة عندك، وقادر يشقيك وأنت في كل شروط السعادة، القضية بيد الله عزَّ وجل، والنهاية التوحيد، فبدر وحنين، بدر:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سوزرة آل عمران: من آية " 123 "

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً)

(سورة التوبة: من آية " 25 ")

أعتقد لو فتحنا المجال لإخواننا يعبروا عن موفقتهم لهذا الكلام ما في واحد ما في بحياته مع الله خبرات، أيام، يا رب فقط عاوني بالجبر لأن الهندسة قوي فيها، فيرسب في الهندسة، صار يا رب بالجبر والهندسة عليك، إذا كان بالدراسة، إن كان بالتجارة، إن كان بالصناعة، إن كان بالزراعة، إن كان بالوظيفة، فالإنسان دائماً يدخل مفتقر، المفتقر دائماً يأخذ كل شيء ، مثل بسيط:

برميل فيه عشرين حنفية على خط عمودي واحد، الحنفية العليا ممكن تأخذ منه خمس ليترات، الثاني عشر ليترات، الثالثة خمسة عشر، الرابعة عشرين، أما السفلية تفرغه كله، فأنت كلما نزلت تأخذ أكثر، وكلما طلعت تأخذ قليل.

طبعاً يجوز يقول لي واحد: أنا والله ما لي متكبر، مظبوط على ماذا تتكبر ؟ قد يكون واحد فقير، على ضعيف، على جاهل، نحن نخاف تقوى من جهة، القوة والغنى مزلة قدم، وأنت طالب علم، سنك صغير، غير متزوج، ليس لك بيت، ليس لك تجارة، ما عندك شيء بوضع عادي جداً، طبعاً متواضع، وما أحلاك أن تتكبر، على ماذا تتكبر ؟ ولكن نحن نخاف هذا الإنسان الله عزَّ وجل يوفقه، كثير في ناس كانوا في بداياتهم متواضعين، لكن دخلوا مدخلاً وخرجوا مخرجاً، خرجوا على غير ما دخلوا، أحياناً يصبح في مركز، أيام المال، أيام الغنى، أيام الوسامة، أيام التوفيق بالتجارة، هذا مزلة قدم، البطل هو الذي يتواضع وهو في قمة مجده، يتواضع وهو في قمة مجده، في أوج نشاطه، في أعلى درجات نجاحه في الحياة.

الآن إلى الحديث النبوي الشريف، هذا كلام رسول الله

عن عياض بن حماد رضي الله عنه قال: قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد))

(رواه مسلم)

تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد " لا فخر، ولا بغي، ولازم تعرف ما في إنسان على وجه الأرض كان أشد تواضعاً من رسول الله، بالمقابل ما في إنسان على وجه الأرض رفع الله شأنه، وأعلا مقامه، ورفع ذكره كرسول الله. يذكر النبي كلما ذكر الله عزَّ وجل.

هذا موضوع آخر: تكريم النبي عليه الصلاة والسلام، هل تصدقون أن الله جل جلاله إكراماً للنبي عليه الصلاة والسلام في الإسراء والمعراج أطلعه على كل ما سيكون ؟ في إنسان واحد في الأرض إن حدَّثك عن الجنة والنار يحدثك عن مشاهدة، النار والجنة خبر، الله أخبرنا أن هناك جنةً وهناك ناراً، إلا

النبي عليه الصلاة والسلام رأى رأي العين أهل الجنة في الجنة يتنعمون، وأهل النار في النار يتعذَّبون، لذلك إذا حدَّثك النبي عليه الصلاة والسلام عن الجنة والنار حدَّثك عن يقين، وعن شهود..

(لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18)

(سورة النجم)

أتمنى عليك هذا التمني: أيُّ شيءٍ دُهِشْتَ له في النبي عليه الصلاة والسلام أنت كمؤمن على قدر إيمانك، وعلى قدر إخلاصك، وعلى قدر صدقك من الله، الله يعطيك شيء منه، فإذا النبي الله رفع له ذِكره..

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4))

(سورة الشرح)

أنا أقول وأنا أعني ما أقول، وأحاسب عما أقول: ما في واحد منكم يتعامل مع الله مباشرةً، يخلص له، يطيعه، يذكره، يدعو إليه، يأتمر بأمره، ينتهي عما عنه نهى، إلا الله عزَّ وجل يرفع له ذكره ؛ في أسرته أولاً، في حَيِّه ثانياً، في عمله ثالثاً، بين إخوانه رابعاً، إلى أن يلتمع. هذه:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4))

لكن الله عزَّ وجل قال للنبي الكريم:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور: من آية " 48 ")

وأنت لك من هذه الآية نصيب على قدر إيمانك، فقضية الإيمان في ثمار يانعة جداً، الله عزَّ وجل طمأن النبي، وأنت أيضاً على قدر طاعتك لله يطمئنك الله عزَّ وجل،ت تفاجأ أحياناً أن إنسان قوي، وغني في عنده قلق عجيب، قلق مَرَضي، شعور بالقهر، معنوياته هابطة جداً، هذا هو الشِرك، من لوازم الشرك الخَوف، من لوازم الإيمان الطمأنينة، لذلك في قلب المؤمن طمأنينة لو وزِّعت على أهل بلدٍ لكفتهم، يا الله !! " إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد... ".

لا تقل لإنسان:

(أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً (34))

(سورة الكهف)

لا تنجح إلا إذا أغفلت شخصك نهائياً، لا تقل: أنا أبداً بل قل: بفضل الله عزَّ وجل، الله أكرمني، هذه حقيقة، الله يسر لي هذا الأمر، الله تفضل علي بهذا الأمر، الله سمح لي أزور بيته الحرام، سمح لي أدعو إليه. أما أن تقول: أخي قعدت في جلسة والله ما أحد استرجى يحكي كلمة، طلاقة لسانة مع قوة بيان. طول بالك، قل: الله عزَّ وجل تفضل علي وسمح لي أدعو إليه، سمح لي فأطلق لساني، آتاني

الحجة، آتاني قوة البيان، هذا الواقع، إن كان في توفيق، في تفوّق، فبفضل الله عزَّ وجل، في إخفاق فبذنبٍ ارتكبته، لذلك قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية..

شكوت إلى وكيٍ سوء حفظي

فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأنبـأني بأن العلـم نـورٌ

ونور الله لا يهـدى لعاصي

*** * ***

اتصل شخص اليوم، له قضية موضوع شائك جداً، فموكل محام، فالمحام قال له: إن لم تكذب لا يمشي الحال، يبدو أن المحامي أقنعه وضغط عليه لكي يؤمن له حقه، فأدلى بتصريح غير صحيح، هذا الشخص لا يفوته قيام الليل أبداً، قال لي: أول ليلة لا أستيقظ على قيام الله، طبعاً، لا يستيقظ لأنه كذب، فتريد التجلي، تريد الإقبال يجب أن تستقيم، فلا تقل لي المحامي أقنعني، إن لم تكذب لا تأخذ حقك، هذا كلام فارغ، لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

الآن، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

ما نقصت صدقةٌ من مال ـ يعني ما أنقصت (نقص) فعل لازم ومتعدٍ ـ وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله ".

هذه صيغة (ما، من) ماذا تفيد ؟

((ما نقصت صدقةٌ من مال، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله))

.. ما فعل عبدٌ كذا إلا صار معه كذا وكذا، هذه الصيغة ماذا تفيد ؟ القانون، تفيد أن هذه قاعدة لا تتخلف أبداً.

وعن نصيح العَنْسي عن ركب المصري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((طوبى لمن تواضع في غير منقصةٍ))

يعني إذا واحد قعد جاهل بين علماء، طبعاً سيتواضع، ولكن هذا التواضع سببه المَنْقَصَة، هو لا يقرأ ولا يكتب وجالس بين دكاترة مثلاً، الممرض بين الدكاترة يتواضع إجباري، الحاجب باجتماع رؤساء أركان سيتواضع إجباري، بائع متجول أمام أعضاء غرفة التجارة، كلهم من كبار أغنياء البلد، طبعاً سيتواضع، لكن نحن نريد واحد يتواضع من غير منقصة، يكون قوي، معه شهادة عُليا، غني، جميل الشكل، وسيم المنظر، من أسرة كريمة ومع هذا متواضع.

أحد إخواننا عندما كان صغيراً اشتغل بمعمل يقول لي: كلما أقرأ فاتحة أوهبها لوالدي ومعلمي في المعمل ـ صاحب المعمل ـ فما هو السبب ؟ قال لي: أولاً يعاملنا مثل أولاده، ثانياً يتغدى معنا، يأتيه أكل

طيب ويضعه أمامنا، هاتوا أكلاتكم، يأكل من أكلنا ونأكل من أكله، إذا واحد عليل له مشكلة على الفور يعاونه، أي أنه كان أرحم من الأب، هذا التواضع من قبل رب العمل رفعه حتى بعد وفاته، إنسان كلما قرأ فاتحة يوهبها لرب عمله ـ لصاحب المعمل ـ لأنه رأى منه رحمة الأب، وعطف الأم، والكرم، والعناية، نحن ما ذقنا الحياة الإسلامية الكاملة، أيام تبنى حياتنا على الحقد أحياناً، ويقول لك: صراع طبقي، الإسلام فيه تعاطف ديني، تعاطف إنساني، المؤمن ما عنده كبر أبداً، أعرف إخوةً كثيرين مؤمنين يعاملوا من معهم من موظفين وعمال كما يعاملون أبناءهم، طبعاً هذا المؤمن، لو كان في إيمان حقيقي، ما وجدت أبداً مجال في هذه النظريات المستوردة، التي أساسها الحقد.

((طوبى لمن تواضع في غير منقصةٍ، وذل في نفسه من غير مسألةٍ))

.. ذليل لله عزَّ وجل، أي أنه مستعد يمرغ جبهته بأعتاب الله عزَّ وجل، السجود ما هو ؟ السجود تذلل وضعف لله عزَّ وجل، والله عزَّ وجل وصف المؤمنين فقال:

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

(سورة المادة: من آية " 54 ")

فلماذا قال: أذلةً وأعزةً ؟ لئلا نتوهم أن الذليل أن الذل في طبعه، لا، لا بل هو على الكافر عزيز جداً، أما هو حينما يخضع للمؤمن هذا ذل العطف والشفقة، والدليل (على)، ما قال: أذلة للمؤمنين، بل:

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

(على) تفيد الشفقة، أي ذلهم شفقة على إخوانهم، أحياناً الأم من شدة حبها لابنها تتذلل له: واجعك شيء يا ماما، قل لي، تريد شيء، بالله قل لي، لتكون جائع ؟ أعمل لك أكلة ؟ فلماذا هذا التذلل ؟ هذا ذل الحب، عندما تحب الأم ابنها تصير أمامه ذليلة، فلما ربنا وصف الذل قال:

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

ما قال: للمؤمنين، بل (على)، هنا معنى الذل يعني الشفقة، أي هم مشفقون على إخوانهم إلى درجة أنهم يبدون وكأنهم أذلاًء أمامهم..

(أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

((طوبى لمن تواضع في غير منقصةٍ، وذل في نفسه من غير مسألةٍ، وأنفق مالاً جمعه في غير معصيةٍ، ورحم أهل الذل والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة، طوبى لمن طاب كسبه، وصلحت سريرته، وكرمت علانيته، وعزل عن الناس شرَّه، طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله))

أعيد على أسماعكم نصَّ الحديث، قال عليه الصلاة والسلام:

((طوبى لمن تواضع في غير منقصةٍ، وذل في نفسه من غير مسألةٍ، وأنفق مالاً جمعه في غير معصيةٍ، ورحم أهل الذل والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة، طوبى لمن طاب كسبه، وصلحت سريرته، وكَرُمَت علانيته، وعزل عن الناس شرَّه، طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله))

(رواه الطبراني)

كلامٌ واضحٌ كالشمس، جامعٌ مانع، مختصرٌ مفيد، بينٌ جلي، هذا منطق النبي عليه الصلاة والسلام.
سيدنا عمر كان على ناقةٍ له، وفي طريقه إلى الشام، ومعه أبو عبيدة بن الجراح، فأتوا على مخاضةٍ، أي طريق فيه ماء، وعمر على ناقةٍ له، سيدنا عمر نزل وخلع خفيه، وضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته فخاض، في المخاضة نزل، فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين تفعل هذا أنت ؟ ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك. أخاف أحد يراك، أنت فاتح البلاد، بلاد الشام فتحتها، وأنت أمير المؤمنين، وتحكم أقطار عديدة، يراك الناس هكذا نعلاك على عاتقك، وتخوض هذه المخاضة، تأخذ بزمام ناقتك ؟
قال: أواه، لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالاً لأمة محمد. أي لو حكاها غيرك هذه لكنت فرمته فرم، إنا كنا أذل قومٍ، هذه الحقيقة لا تعملوا لي كما في الجاهلية مفاخر، إنا كنا أذل قومٍ فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزَّ بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله.
هذا الدرس لنا اليوم، مهما طلبنا العز بغير هذا الدين أذلنا الله، قال له: لو يقل ذا غيرك يا أبا عبيدة لجعلته نكالاً لأمة محمد، إنا كنا أذل قومٍ فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله.

سيدنا الصديق ـ قلت لكم مرة ـ كان لهم جيران أرامل يحلب لهم الشياه، فلما صار خليفة، دخل البيت الحزن لأن هذه الخدمات توقفت، صار خليفة المسلمين، أول يوم تسلَّم منصبه كخليفةٍ للمسلمين طُرق باب الجيران، الأم قالت لابنتها: يا بنيتي افتحي الباب. فتحت الباب، فإذا سيدنا الصديق، قالت مَن الطارق يا بنية ؟ قالت: جاء حالب الشاة يا أماه. جاء يحلب الشياه، وهو خليفة المسلمين، هكذا علمنا.
سيدنا عمر كان مع سيدنا عبد الرحمن بن عوف في الليل، رأوا قافلة مقيمة في طرف المدينة فقال له: تعال نحرسها، فجلس، طفل بكى فقال لأمه: أرضعيه، بكى مرة ثانية قال لها: أرضعيه، بكى مرة ثالثة غضب، كان عصبي قال لها: يا أمة السوء أرضعيه، فقالت له: ما شأنك بنا، ما هو دخلك ؟ إنني أفطمه، قال: ولمَ، قالت: لأن عمر لا يعطينا العطاء إلا بعد الفطام، أي التعويض العائلي، سيدنا عمر يقول أنه ضرب جبهته وقال: ويحك يا ابن الخطاب كم قتلت من أطفال المسلمين. أنت معنى هذا قاتل،

الكل يفطمون أولادهم قبل الأوان حتى يأخذوا التعويض، عمم كتاب أن العطاء تستحقه الأم عند الولادة وليس عند الفطام.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((من تواضع لله درجة يرفعه الله درجة))

تصور واحد أعلى إنسان بمملكته ـ سيدنا عمر ـ أحب شخص يتقرب منه فقال له: والله يا أمير المؤمنين ما رأينا أفضل منك. تطلع فيهم سيأكلهم بلا ملح ـ كما يقول العوام ـ إلى أن قال أحدهم: لا والله لقد رأينا من هو خير منك، في من هو أحسن منك، وهو يخاطب أمير المؤمنين، قال له: ومَن هو؟ قال: أبو بكر، فقال رضي الله عنه: لقد كذبتم جميعاً، اعتبر سكوتهم كذباً وصدق، قال: كنت أضل من بعيري وكان أبو بكرٍ أطيب من ريح المسك.

وقف على المنبر ونزل درجة، لماذا نزل درجة إنه لم يخطب بعد؟ قال: ما كان الله ليراني أن أرى نفسي في مقام أبي بكر، هذه الدرجة الأخيرة لأبي بكر الصديق، لو توفى ولكنها له وليست لي، نزل درجة. منبرهم ما كان مثل منبرنا عشر درجات بل كان ثلاث درجات، نزل درجة وقعد على الوسطى، سيدنا عثمان لو نزل درجة لصار على الأرض، فتمَّ بالمرتبة الثانية. جاء خليفة أموي سأل وزيره قال له: عثمان لمَ لمْ ينزل درجة ؟ فقال: والله لو فعلها لكنت أنت في قعر بئر، جيد أنه لم ينزل درجة، إذا كان كل خليفة ينزل درجة سنحفر أبيار، أنت في قعر بئر.

على كلٍ هذا تواضع من سيدنا عمر. ما كان الله ليراني أن أرى في مكان أبا بكر، كنت أضل من بعيري وكان أبو بكرٍ أطيب من ريح المسك.

فيقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((من تواضع لله درجة يرفعه الله درجة، حتى يجعله الله في أعلى عليين))

يرووا أنه كان في رئيس جمهورية فرنسا (ديغول) يمشي بجانبه رئيس الوزراء تماماً بجانبه فقال له: خطوة إلى الوراء يا سيد، ليعلم من في البلد أنه في رئيس جمهورية واحد في البلد لا تقف بجانبي، خطوة إلى الوراء، إذا واحد ماشي مع شخص له قيمته لا يمشي بجانبه تماماً أو أمامه بدرجة هذا سوء أدب، ولو أخر حاله عشرة سنتيمتر فهو أكمل، في شخص تجده ماشي أمامك، غير معقول، كل واحدة، أحياناً واحد ماشي أمام أبوه، الابن يمشي وراءه درجة، ولو خمسة سنتيمتر، ولو عشرة سانتي، فقال له: خطوة للوراء يا سيدي ليعلم الناس أنه في فرنسا واحد وليس اثنان.

((من تواضع لله درجة يرفعه الله درجة، حتى يجعله الله في أعلى عليين، ومن تكبَّر على الله درجة يضعه الله درجة، حتى يجعله في أسفل سافلين))

تتواضع درجة يرفعك لأعلى عليين، تتكبر درجة تنزل إلى أسفل سافلين.

سيدنا عمر بن الخطاب كان على المنبر، في قصتين ثلاثة بهذه المعنى، فمرة يخطب خطبة لها موضوع موحَّد وماشي فيها، فتوقف وتكلم كلام ليس له علاقة بالخطبة إطلاقاً، مثلاً يحكي على موضوع معين فسكت وقال:

ـ كنت عميراً أرعى غنماً على قراريط بمكة. وأكمل خطبته، هذه مثل الدعاية بنصف الأخبار، ليس لها علاقة بالأخبار إطلاقاً، فلما نزل سيدنا عمر قال له ابن عوف:

ـ ماذا قلت على المنبر ما سمعنا ما حكيت ؟

ـ قال له: والله قالت لي نفسي: أنت أمير المؤمنين ـ أعلى شيء ـ وليس بينك وبين الله أحد، فأردت أن أعرِّف نفسي حقيقتها. أي كنت أنا عمير راعي غنم، أرعى غنماً على قراريط لأهل مكة، فخاطب نفسه بهذه الصورة حتى يعرفها حقيقتها.

فهنا سيدنا عمر يقول: أيها الناس تواضعوا ـ هذا حديث دقيق جداً ـ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((من تواضع لله رفعه الله وقال ـ أي قال الله له ـ انتعش نعشك الله فهو في أعين الناس عظيم وفي نفسه صغير، ومن تكبر قصمه الله وقال اخسأ، فهو في أعين الناس صغير وفي نفسه كبير))

تعليقي على الحديث: أن المتكبر بنظر نفسه كبير أما عند الناس صغير، وكل إنسان يتكبر يقلدونه بغيابه، يحكوا عليه، يسخروا منه، يصير مصدر مضحك، كل إنسان متكبِّر يلقى بغيبته السخرية، والذم والتعليقات اللاذعة إلى درجة غير معقولة، أما المتواضع يلقى في غيبته الاحترام الحقيقي، والتوقير، والتبجيل، إذاً المتواضع في عين نفسه صغير، لكنه في عين الناس كبير، أما المتكبر في عين نفسه كبير، لكنه في عين الناس صغير.

هذا الحديث خاص بالمؤمنين، قال:

((من تواضع لأخيه المسلم رفعه الله، ومن ارتفع عليه وضعه الله))

(من مجمع الزوائد: عن " أبي هريرة ")

أحياناً تحكم الظروف أنك مدير دائرة وعندك حاجب مؤمن، فإذا أنت مؤمن فعلاً تحس أنه أخوك في الله، لو أنت مدير عام وهذا حاجب، أنا سمعت مرة بالقلعة أنه كان في ضابط ووالده كان مساعد، والنظام العسكري يقتضي أن هذا المساعد يقدم الصف لهذا الضابط، والضابط ابنه، طبعاً استرح واستاعد، وبعدها يأخذ تحية نيابة عن كل المجموع، عن ستمائة عنصر، ويقدم الصف لسيده الملازم، سيده الملازم ابنه، هذا الملازم كان شهم، حينما يقدم الصف إليه يتجه إلى أبيه ويقبل يده أمام كل العناصر، فهنا:

((من تواضع لأخيه المسلم رفعه الله، ومن ارتفع عليه وضعه الله))

(من مجمع الزوائد: عن " أبي هريرة ")

والكبر ليس له علاقة بالغنى والفقر، أحياناً تقعد مع إنسان غني تشعر أن عنده تواضع عجيب جداً، كأنه إنسان عادي جداً، أو مع إنسان قوي، تحسه عادي جداً، تقعد مع إنسان لا يملك من الدنيا شيئاً جاهل، على فقير، على مغمور، تجد عنده كبر أعوذ بالله، فالكبر ليس له علاقة بالغنى والفقر، وليس له علاقة بالقوة والضعف، ما له علاقة بالشهرة وبعدم الشهرة، فالكبر مرض نفسي.

قال عليه الصلاة والسلام:

((إياكم والكبر فإن الكبر يكون في الرجل وإن عليه العباءة))

(من الجامع الصغير: عن " ابن عمر ")

عليه هذه العباءة ولا شيء غيرها.

وعن جابرٍ رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إن من أحبكم إليَّ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون ـ يعني مكلمْدان ـ والمتشدقون ـ يتفاصح ـ والمتفيهقون. قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارين ـ نعرفهم ـ والمتشدقين، فما المتفيهقون ؟ قال: المتكبرون))

أعيد وأرجع للنقطة الدقيقة: أنت عبد لله، شأن العبودية التواضع، فالتكبر ليس للعبد، مرة واحد طرق باب شخص اسمه بشر الحافي، كان غارق في الخمر، والقيان، والمعازف، والطرب، والمعاصي، والموبقات، فكان في كلام دقيق، طرق بابه شخص، فطلع له العبد قال له: قل لسيدك إن كان حراً فليفعل ما يشاء، وإن كان عبداً فما هكذا تصنع العبيدُ.

يبدو أن هذا الإنسان صحي فقال له: سيدي في الباب رجل يقول لك: إن كنت حراً فافعل ما تشاء، وإن كنت عبداً فما هكذا تصنع العبيد. داخ بهذه الكلمة، فانطلق إلى الباب ليرى مَن قائل هذا الكلام، لم يجد أحداً، فتبعه حافياً، وصار من كبار العارفين بالله بهذه الكلمة، قال له: إن كنت حراً فافعل ما تشاء، وإن كنت عبداً فما هكذا تصنع العبيد. نحن عبيد لله عزَّ وجل، نحن ما لنا خيار، فنحن عندنا أمر ونهي، في عندنا منهج، في عندنا شرع، هذه تجوز، وهذه لا تجوز، هكذا المؤمن.

لذلك في بالقرآن: عذاب مهين، وفي عذاب أليم، وفي عذاب عظيم، ذات مرة كنت بالحجاز، يظهر واضعين تنظيمات للمرور معينة، فواحد خالف التنظيمات، إلى الآن أتذكر أنه لابس جاكيت كحلي وعليه أزرار مذهبة، شيء أنيق جداً، أناقة من أعلى ما يكون، تلاسن مع واحد ممن كلفوا بضبط هذه الأمور، فضربه كفين أمام حوالي مائتي شخص، أنا تصورت أنه يجب ألا ينساهم للموت أمام كل الناس، وما تمكن يرد عليه لأنه جاء أناس، فقلت: هذا عذاب مهين، يمكن أحدنا عند طبيب الأسنان يتألم

أكثر من هذه، إذا كان ما في بنج يقول له: أستاذ يجب أن تتحملنا، فيكبس على الكرسي، الألم ألم، ولكن هذا عذاب مهين، ممكن تتألم ألم من دون ذل.

فربنا عزَّ وجل دائماً المتكبر يعالجه بعذاب مهين، ليس أليم، أحياناً في آلام بالمعدة لا تحتمل، في أحياناً نوبات (كريزات) كلية شيء فوق التصور، جالس في بيته الشخص ويتلوى في الفراش، هذا عذاب أليم، ولكن العذاب المهين، سيدنا علي سئل: ما الذل ؟ قال: أن يقف الكريم بباب اللئيم ثم يرده.

" واللهِ مرتين لحفر بئرين بإبرتين، ونقل بحرين زاخرين إلى أرض الصعيد بمنخلين ـ تنقل بحر بمنخل ـ وكنس أرض الحجاز بريشتين في يومٍ عاصف، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين، أهون عليَّ من طلب حاجةٍ من لئيمٍ لوفاء دين ". ففي مواقف صعبة كثير، الله عزَّ وجل لا يذلنا، المؤمن عزيز، الله عزَّ وجل يعزه، لكن عندما يرتكب الإنسان مخالفات تستدعي الذل، يكون وضع نفسه موضع الذل، لذلك في آية:

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً (144))

(سورة النساء)

إذا عندك كل البضاعة نظامية، ومرَّ رجل من رجال الجمارك فهل تتحرك شعرة من عندك ؟ أما إذا كله تهريب ترجف ركبك، على هوى البضاعة ؛ إذا كلها نظامية وفيها فواتير لا يهمك بل تقول له: تفضل، شرف، أما إذا كان عندك مخالفات تجد نفسك ترجف، فالإنسان عندما يعصي كأنه جعل لله عليه سلطاناً مبيناً، أما إذا كان مستقيم الله يطمئنه.

فهنا النقطة، يقول الله عزَّ وجل

((العزُّ إزاري، والكبرياء ردائي، فمن ينازعني عذبته ولا أبالي))

.. الإله له صفات، له أسماء، الكبرياء لله عزَّ وجل، من حقه لأنه إله أما أنا عبد، الكبرياء من عبد بالباطل، أما الكبرياء من الله بالحق

((والكبرياء ردائي، والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منها قذفته في النار))

عن سراقة بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((يا سراقة ألا أخبرك بأهل الجنة وأهل النار ؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: أما أهل النار فكل جعظريٍ جواظٍ مستكبر، وأما أهل الجنة فالضعفاء المغلوبون))

الجوَّاظ الصخاب، الجعفري سيئ الخلق، أخلاق سيئة، ولسان بذيء فاحش، وصخَّاب، وعدواني المزاج، هؤلاء هم أهل النار.

((وثلاثٌ لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذابٌ أليم: شيخٌ زانٍ، وإمامٌ جائر، وعائلٌ مستكبر))

(من الجامع الصغير: عن " أبي هريرة ")

العائل الفقير، فقير مستكبر.

وفي..

((أربعة يبغضهم الله عزَّ وجل البياع الحلاف، والفقير المختال، والشيخ الزاني، والإمام الجائر))

(من الجامع الصغير: عن " أبي هريرة " و..

((ثلاثٌ ـ أيضاً ـ يدخلون النار أول الداخلين: أميرٌ مسلَّط، وذو ثروةٍ من مالٍ لا يؤدي حق الله، وفقيرٌ فخور))

(من تخريج أحاديث الإحياء: عن " أبي هريرة ")

أخطر حديث:

((لا يدخل الجنة إنسانٌ في قلبه مثقال حبةٍ من خردلٍ من كبرٍ))

(من أحاديث الإحياء: عن " ابن مسعود ")

بقي علينا بعض التوضيحات ؛ عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كبرٍ، فقال رجل: يا رسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً. فقال عليه الصلاة والسلام: إن الله جميلٌ يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس))

رد الحق، واحتقار الناس، هذا هو الكبر، الكبر في التعريف الدقيق أن تتكبر عن قبول الحق، فأن قال له: هكذا الشرع. يقل: لا على المحكمة. هكذا أمر ربنا، هكذا القرآن، هكذا السنة، من حق الزوج يطلب زوجته لبيت الطاعة، لا، لا نعطيه إياها، هذه زوجته، كبر، كل إنسان لا يطلب الحق، يرفض أمر الله، حكم الله، فهو متكبر، وكل إنسان لا ينصف الآخرين، يعني يجحد حقهم، يجحد مكانتهم، لا ينصفهم فهو متكبر.. " من تعظم في نفسه، أو اختال في مشيته لقي الله تعالى وهو عليه غضبان ".

آخر حديث: يقول عليه الصلاة والسلام:

((بئس العبد عبدٌ تخيَّل واختال ـ تخيل حاله عظيم واختال في مشيته ـ ونسي الكبير المتعال، بئس العبد عبدٌ تجبَّر واعتدى ونسي الجبار الأعلى، بئس العبد عبدٌ سهى ولهى ونسي المقابر والبلى، بئس العبد عبدٌ عتا وطغى ونسي المبتدى والمنتهى، بئس العبد عبدٌ يختل الدنيا بالدين، بئس العبد عبدٌ يختل الدين بالشهوات، بئس العبد عبدٌ طمعٌ يقوده، بئس العبد عبدٌ هوىً يضله، بئس العبد عبدٌ رغبٌ يذله))

(من الجامع الصغير: عن " نعيم بن حمار ")

مرة ثانية: يقول عليه الصلاة والسلام:

((بئس العبد عبدٌ تخيَّل واختال ـ نسي الله شاف حاله قوي أو غني ـ...))

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (055) :الترغيب والترهيب4 - إدخال السرور على المسلم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-10-18

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... في كتاب الترغيب والترهيب للإمام المنذري رحمه الله تعالى، بابٌ عقده تحت عنوان (الترغيب في إدخال السرور على المؤمن)، فأجمل ما في هذا الدين أن الأعمال الصالحة التي تنفع الناس، ترتقي إلى مستوى العبادات، والأحاديث الشريفة في هذا الموضوع كثيرةٌ وغنيَّة.

فعن جعفر بن يزيد، عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده رضي الله عنهم قال: قال عليه الصلاة والسلام:

((ما أدخل رجلٌ على مؤمنٍ سروراً إلا خَلَقَ الله عزَّ وجل من ذلك السرور ملكاً يعبد الله عزَّ وجل ويوحِّده، فإذا صار العبد في قبره، أتاه ذلك السرور فيقول: أما تعرفني ؟! فيقول له: مَن أنت ؟ يقول: أنا السرور الذي أدخلتني على فلان، أنا اليوم أونس وحشتك، وألقّنك حجتك، وأثبتك بالقول الثابت، وأشهدك مشاهدك يوم القيامة، وأشفع لك إلى ربك، وأريك منزلتك في الجنة))

ما هذا الدين العظيم ؟!! إذا أدخلت على أخيك المؤمن السرور فهذه من أرقى العبادات، قد تسُرّه بكلمة، قد تسره بابتسامة، قد تسرُّه بعطاء، قد تسرُّه بهدية، قد تسره بقرض، قد تسره بإطعامه الطعام، قد تسره بتلبية دعوته ولو كان بيته بعيداً، أية طريقة من طرق إدخال السرور على المؤمن لها عند الله عزَّ وجل شأنٌ كبير.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أيُّ الناس أحب إلى الله ؟ يعني أن يحبك الله عزَّ وجل هذا منتهى الآمال، أن يحبك خالق الكون، أن يحبك مَن إليه المصير، أن يحبك من تؤول إليه إلى الأبد، العوام لهم كلمات عميقة يقول لك: الوجه الذي ستصابحه لا تقابحه. أحياناً يجمعك سفر مع شخص، اتفقتم أم لم تتفقوا ما شي الحال، سفرة يومين ماشي، تلتقي مع إنسان بالخدمة الإلزامية، يمكن ما يعجبك طبعه، فتدابروا، لكن جارك بيته مِلك وبيت ملك على طول، دائماً في مقابلة، فلما الإنسان يحتاج إلى أن يعد للمليون قبل أن يعادي جاره الذي هو وجهه بوجهه كل يوم، فكيف يقصِّر في إرضاء خالق الكون الذي سيؤول إليه الأبد ؟ ألم يقل الله عزَّ وجل للذي يموت ويوضع في قبره أول ليلة:

((عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق معمك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت))

فإذا كان إنسان مضطر لأن تكون معه لأمدٍ طويل ؛ مستحيل تعاديه، مستحيل تقصر معه، مستحيل تسيء له، وإذا كان أقوى منك !! إذا كان من مستواك، ليس لك مصلحة تعادي شخص من مستواك أنت مضطرٌ أن تكون معه لأمدٍ طويل، ما لك مصلحة، فكيف إذا كان أقوى منك ؟ وهذا الأمد الطويل إلى متى ؟ مهما كان هذا الأمد طويلاً ينتهي، أما أن تكون مع خالق الكون إلى الأبد، وأنت في هذه الدنيا المحدودة مقصرٌ معه، مسيءٌ إلى خلقه، مهملٌ لواجباته، فهذا شيءٌ غريب.

فلذلك قال: يا رسول الله أيُّ الناس أحب إلى الله ؟ اسمع كلام النبي عليه الصلاة والسلام، فقال: يا رسول الله أي الناس أحب إلى الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

((أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس))

يطلع منك خير، تخدم الناس، تعاونهم، أما كل مزاريبك للداخل، هذا تعبير شعبي، يعني كل خيرك للداخل فقط لأولادك، الناس الذين حولك يطلع منك شيء لهم ؟ تخدمهم ؟ تعاونهم ؟ تقرضهم ؟ تديّنهم ؟ تمنحهم شيء من الميزات ؟

((أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس ـ طبعاً بيت القصيد: لماذا وضع هذا الحديث في هذا الباب ؟ هنا ـ وأحب الأعمال إلى الله سرورٌ تدخله على مسلم))

هل تعرف أحياناً ابتسامتك فقط عمل، شخص عندك موظف عينته حديثاً خائف ما يكون جيد، ملبَّك، فأنت آنسته، ابتسمت بوجهه، وجدت منه عمل طيب فأثنيت عليه، رأيت غلطة من غير قصد تجاوزتها، هذه ابتسامتك عمل صالح، طمأنته، طيّبت قلبه، قربته منك، فالابتسامة أحياناً عمل، أحدكم قد لا يدري، وقد لا يصدِّق أن ابتسامةً، وترحيباً، ووجهاً طلقاً تعامل به بعض الناس، تشدهم به إلى الله، تحملهم على توبة

((لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طلق " إذا الإنسان دخل للبيت يسلِّم، كان إذا دخل بيته بساماً ضحَّاكاً، كان إذا دخل بيته آنس أهله..))

أكرموا النساء فإنهن المؤنسات الغاليات " هذه التي عندك امرأة إذا أدخلت على قلبها السرور أيضاً هذا عمل صالح، إذا أدخلت على أولادك السرور عمل صالح، إذا أدخلت على موظفيك السرور عمل صالح، إذا أدخلت على مَن يلوذ بك السرور عمل صالح.

وأنا لا أقول لك كيف يدخل هذا السرور ؟ أحياناً إنسان يكون بحاجة إلى قرض، وأنت مالك هذا المبلغ، وهو مؤمن وصادق وليس له سابقة سيئة، فأقرضته هذا المبلغ، كشفت غمَّه، فككت ضيقه، لبَّيت حاجته هذا عمل.

محور هذا الباب: أحب الأعمال إلى الله سرورٌ تدخله على مسلم تكشف عنه كربة. في عليه ضبط تمويني، وأنت تقدر ترفع عنه هذا الكُربة، لك أصحاب فقلت له: هذه اتركها لي، ذهبت ثاني يوم

وعطلت وقتك، وذهبت عند صديق لك، وشفعت له ليرفع عنه هذا الكَرب مثلاً، تكشف عنه كربةً، في له عند إنسان دين، وهذا الإنسان أنت تمون عليه فقلت له: هذا الدين خذه مني، في له قضية معقدة تحتاج لموافقة وهو غير مستطيع وأنت عندك إمكانية، تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، هذا معنى إدخال السرور على مسلم.

أحياناً الطفل يسره خمس ليرات، أحياناً تسره لعبة صغيرة، أحياناً تسرة مسطرة، أحبها، لذلك يقولون أن في بالجنة دار اسمها دار الفرح يدخلها الذين يفرِّحون الصبيان، أحياناً الآباء لا يقنعون بأشياء متعلّقة بأبنائهم، ابنك له عالمٌ خاص، له خيالات خاصة، له مطامح خاصة، فهذا المسلم، أحب الأعمال إلى الله عزَّ وجل سرورٌ تدخله على مسلم تكشف عنه كربةً، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً.

لكن إذا الإنسان هكذا شخص عظيم كثير ؛ إما بالعلم، أو بالمال، أو بالجاه، وله ولد، وأنت أدخلت على قلب هذا الولد السرور، أنت في الحقيقة تفعل هذا مع مَن ؟ مع الأب، حقيقة هذا العمل أنك تتقرب إلى الأب بإدخال السرور على قلب هذا الولد، هذا كل ما في الأمر، والمؤمن ـ وهذا ما أعتقده جزماً ويقيناً ـ المؤمن إذا خدم الناس، ومسح عنهم دموعهم، وأزال عنهم كُرَبهم، وأعانهم، وسترهم، أحياناً تطلع على سر لو بحت به لافتضح أناسٌ كثيرون، فجئت أنت وسترت، لأن اسم الله السَّتَّار، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((تخلقوا بأخلاق الله))

قصة أنا أحكيها كثير، وأنتم تعرفونها، أحد خطباء مساجد دمشق قبل خمسين ستين أو سبعين سنة ـ القصة قديمة ـ رأى النبي عليه الصلاة والسلام، قال له النبي عليه الصلاة والسلام في المنام: أبلغ جارك فلان أنه رفيقي في الجنة. فلان سمَّان، وهو الخطيب، وهو المدرس، وهو ذو الشأن، فالبشرى لجاره، معقول هذا ؟! وهو أين أصبح ؟!! طرق باب جاره وقال له: لي عندكم سؤال. قال له: تفضل. قال له: لك عندي بشارة من رسول الله، ولن أقولها لك إلا إذا أنبأتني ماذا فعلت مع الله حتى استحققت هذه البشارة ؟

طبعاً هذا الجار تمنَّع، وتأبى، إلى أن استحلفه بالله وألح عليه، قال: والله تزوجت امرأةً، ومضى على زواجي بها خمسة أشهر، فإذا هي في الشهر التاسع من حملها، قال له: بإمكاني أن أطلّقها، وبإمكاني أن أفضحها، وبإمكاني أن أسحقها، وبإمكاني أن أفعل كل شيء، لأن العرس صار له خمسة أشهر، وهي بالشهر التاسع، قال: جئت بقابلة وولدتها، وعلمت أنها أخطأت وأنها تابت، أخذت هذا المولود الصغير تحت عباءتي، ودخلت إلى المسجد، إلى أن نوى الإمام الصلاة، ووضعته وراء الباب، واقتديت مع الناس، فلما انتهت الصلاة بكى هذا الصغير، وتحلق الناس حوله، فحشرت أنفي معهم وكأنني لا أعرف

شيئاً، قلت: ما هذا ؟ قالوا: تعال انظر غلامٌ صغير ولد لتوه، قلت: أعطوه إلي أنا أكفله. أخذه ودفعه إلى أمه لتربيه، وسترها، وتابت على يديه، وكأن أمراً ما لم يحدث.

هذا الإنسان بهذا العمل استحق أن يرى جاره النبي عليه الصلاة والسلام، وأن يقول النبي عليه الصلاة والسلام: قل لفلانٍ إنه رفيقي في الجنة. إن الله ستَّار، وتخلَّقوا بأخلاق الله، هذا عمل طيب، في أشخاص في فمه بحصة، إلا ما يحكي القصة، استحلفك بالله، وترجَّاك ألا تحكيها، واستره، هو حكاها فقط لواحد، وهذا الواحد حكاها لعشرة، وكل واحد لعشرة، بعد يومين صارت كل البلدة تعرف قصَّته.

لذلك الإنسان طبعه يقتضي أن يحكي، لكن التكليف يقتضي أن يسكت، فالسكوت عمل صالح، في حالات تضبط نفسك، تسكت، تعرف قصة ممتعة، مثيرة جداً، وإذا تكلمت فيها فغر الناس أفواههم وقالوا لك: ما هذا الكلام أكمل أكمل !! تعرف قصص كثير لو حكيتها لكنت سيد المجلس، وانعقدت حولك العيون، وهفت إليك القلوب، ومع ذلك ينبغي أن تسكت، البطولة أن تسكت، والبطولة أن تصمت، والبطولة أن تستُر، والبطولة أن تحفظ الوَعد، والبطولة أن تنجز العهد، هذه البطولة.

إذاً

((" أحب الأعمال إلى الله عزَّ وجل سرورٍ تدخله على مسلم تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخ في حاجةٍ أحب إلى الله من أن أعتكف في هذا المسجد ـ يعني مسجد المدينة ـ شهراً..))

يا الله، نبيٌ كريم يقول:

((ولأن أمشي مع أخ في حاجةٍ أحب إلى الله من أن أعتكف في هذا المسجد شهراً))

أن تمشي مع أخٍ في حاجته، قال لك: أنت خبير بالخشب، ناوي أشتري غرفة نوم، أتذهب معي وتنصحني، تفحصها لي أنت ؟ قال له: على عيني، كل واحد عنده أعمال مغمور فيها، ومتاعب، وأعمال، ومواعيد، وما لي فاضي، واجتماعات، وحسابات، ولقاءات، اقتطعت من وقتك ثلاث ساعات ذهبت معه في حاجةٍ، فالإنسان عليه أن يبذل وقته رخيصاً في خدمة المؤمنين، هذا عمل طيب. شيء جميل جداً..

((ولأن أمشي مع أخ في حاجةٍ أحب إلى الله من أن أعتكف في هذا المسجد شهراً.. ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه))

أي أنه كظم غيظه لا عن واحد أعلى منه، في هذه سيكظم غيظه غصب عن رأسه، واحد أقوى من ستبلعها وتسكت، ولكن من كظم غيظه عن إنسان أدنى منه، عن طفل أحياناً، أحياناً يمتلئ المعلم غيظ يعني طلاب شوشوا عليه، يضرب واحد ضرب يفش قلبه، فيذهب سمعه.

((ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه...))

إذاً لا يسمى كظم الغيظ عن إنسان أقوى منك، هذا صبر ليس لله، هذا صبر فيه قهر، أما الله عزَّ وجل قال:

(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7))

(سورة المدثر)

((ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاً، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى يقضيها له ثبت الله قدميه يوم تزول الأقدام))

أسمع عن أشخاص كثيرين أنه خدومي، ما في إنسان طلب منه شيء إلا لبَّاه، هذه صفة المؤمن، ما في إنسان طرق بابه في حاجة إلى قضاها له، ما في إنسان طلب منه خدمة إلا قدَّمها له، هذا المؤمن.
أعيد على أسماعكم الحديث مرةً ثانية:

روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أي الناس أحب إلى الله، فقال عليه الصلاة والسلام:

((أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عزَّ وجل سرورٌ تدخله على مسلم تكشف عنه كربةً، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخ في حاجةٍ أحب إلى الله من أن أعتكف في هذا المسجد شهراً، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاً، ومَن مشى مع أخيه في حاجةٍ حتى يقضيها له ثبت الله قدميه يوم تزول الأقدام))

في أخ كريم حدثني، والله وترك في نفسي أثر، مؤمن غريب عن هذه البلدة، له حاجة، فتبرَّع هذا الأخ لخدمته، وذهب إلى المكان الذي تقضى به هذه الحاجة، وتوسَّط إلى أن قضاها له، وجاء بالوثيقة، فلما أعطاها إياه، وهو طالب علم، هذا الإنسان توجَّه إلى الله بكل قلبه أن يجزيه عنه كل خير، قال لي: واللهِ شعرت بقشعريرة وبقيت أياماً وأنا منتشٍ من هذه الدعوة التي دعاها لي في ظهر الغيب، لأنني قدَّمت له هذه الخدمة.

حدثني أخ ثاني كان متجه إلى دمشق من الزبداني بسيارته ـ والقصة قديمة ـ رأى إنسان وإنسانة يحملان طفلاً صغيراً الساعة الثانية عشر أو الواحدة مساءً في دُمَّر، فتوقف وسألهما: خير ؟ الابن حرارته واحد وأربعين والأشخاص من لبنان غرباء، هذا أثناء أحداث لبنان، ولا يدرون ماذا يصنعون، أخذ هذا الطفل إلى طبيب مناوب، وتعالج هذا الطفل، واشترى الدواء، وذهب إلى مستشفى أخذ إبر، قال لي: للساعة أربعة، بقيت معهم من الساعة الثانية عشر وحتى الساعة الرابعة قُبَيل الفجر، وأعدت الطفل وقد انخفضت حرارته، واطمأنت أمه، واطمأن أبيه، أعدتهم إلى بيتهم وعدت إلى بيتي، يقسم هذا الأخ أنه بقي أكثر من أسبوعين مَغْموساً بسعادةٍ لا توصف.

هذا الدين يا إخوان، الدين خدمة، كل هؤلاء الناس ربُّهم الله، فإذا خدمتهم تقرَّبت إلى خالقهم بخدمتهم، وكل إنسان يخدم، الله عزَّ وجل يجزيه في الدنيا قبل الآخرة.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال عليه الصلاة والسلام:

((من أدخل على أهل بيتٍ من المسلمين سروراً لم يرضَ الله له ثواباً دون الجنة))

أحياناً واحد يكون ساكن في ملحق، وأولاده الشباب والشَّابات ينامون في غرفةٍ واحدة، وهذه مخالفة للسنة، مُخالفة للدين أن ينام الشباب والشابَّات في غرفة واحدة، متضايق مادياً، مهموم، قلت له: اذهب وابن غرفةً وفرِّق بين الشباب والشابات، وهذه نفقة هذه الغرفة، أو تكاليف إنشائها، هذا عمل عظيم إذا أعنت إنسان على طاعة الله عزَّ وجل، أعنته على أن يقيم شرع الله عزَّ وجل.

حديثٌ آخر عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إن أحب الأعمال إلى الله تعالى ـ هذا أحب اسم تفضيل من دون استثناء ـ بعد الفرائض إدخال السرور على المسلم))

لذلك كان السلف الصالح، يا الله كم الفرق كبير ؟! السلف الصالح إذا فتح محله التجاري كان يقول: نويت خدمة المسلمين. ذاهب إلى عمله لا ليكدِّس المئات والألوف وليجمع ثروة طائلة، لا، ذهب إلى عمله ليخدم المسلمين، ليقضي حاجتهم، سمعت عن صاحب معمل صابون يبقي الصابون في الشمس عشر أمثال المدة التي تبقيها بقية المعامل، حتى ينشف، ويدعوا لي الناس، كثير في غش الآن، واحد والله قال لي: أخذنا غرفة نوم طلع منها عرق أخضر، نبتت، الخشب لا يقطع إلا في وقت معيّن، فيقطعونه في غير أوقاته وهو طري ويصنعونه رأساً.

وعن عمر رضي الله عنه مرفوعاً:

((أفضل الأعمال إدخال السرور على المؤمن، كسوت عورته...))

أحياناً يكون طفل صغير لباسه في الشتاء لا يكفي، ما في عنده معطف، أو كنزته رقيقة ومشلفة، أخذت له كنزة جديدة وألبستها له، فتدفأ فيها، في أعمال كثير، بيت بحاجة إلى مدفأة، بحاجة إلى وقود، ما في وقود فأمَّنت لهم ألف ليتر، هل هذه قليلة ؟ تؤمن للناس مواد أساسية، مواد تدفئة، الطعام، الشراب، الكساء، فقال:

((أفضل الأعمال إلى الله إدخال السرور على المؤمن، كسوت عورته، أو أشبعت جوعته))

والله اللحم شيء ثمين، ودخل الإنسان يتناقص مع ارتفاع الأسعار، وكلما تناقص الدخل يهبط مستوى الغذاء، فأن تقدم لإنسان قطعة لحم يأكلها هو وأولاده أنت أشبعته "... أو قضيت له حاجة ".

((.. كسوت عورته، أو أشبعت جوعته، أو قضيت له حاجة))

وقد روي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((إن من موجبات المغفرة))

ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام

((اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك))

(من الدر المنثور: عن " أنس ")

((إن من موجبات المغفرة إدخالك السرور على أخيك المسلم))

لو سألناكم سؤال الآن: ما البنود التي يمكن أن تدخل بها على أخيك سروراً، من يجيبني ؟ أحد هذه البنود أخوك مريض، ذهبت فعدته، عيادة المريض عمل عظيم، أنا أذكر منذ فترة بسيطة عدنا أخاً بالله، فشعر بسرورٍ بالغ، ونحن سررنا، لأنه هو بهذا المرض صار قريب من الله، لما جئناه شعر بسرور ونحن سررنا مع سروره، عيادة المريض، مثلاً

تلبية دعوته، دعاك، وقال سيأتي فلان، وانتظر، وانتظر، ولم ينفذ فلان، يتألم، لأنه تكلم، دعاك وتكلم، فإذا لم تأت يتألم ، لا سمح الله صار تعزية، فوجدك موجود، وعزيته، أو هنأته إذا جاءه مولود ، تزوج هنأته، اشترى بيت هنأته، زرته بلا سبب محبة له، أيضاً الزيارة، العيادة، التهنئة، أهديته، أنا أرى أن أثمن هدية تقدم عند الزواج، عندما أسمع أن أحد الإخوان تزوج، والإخوان تعاونوا ؛ أمنوا له سجادة، برَّاد، شهد الله أشعر براحة كبيرة جداً، والله شيء جميل هكذا الإسلام، تجد الشاب المتزوج في أمس الحاجة إلى مَن يساعده، تأتي الهداية مناسبة جداً، لا نريد هداية استعراضية نريد هدايا حقيقية، شيء أساسي، يريد غسالة، يريد براد، يريد ثريا، يريد سجادة، فتجد كل واحد مم الإخوة هذا يقول: هذه الحاجة علي، والآخر كذلك.. إلخ، أحياناً واحد ما معه يأمن له سجادة، تكاتفوا عليها أربعة أو خمسة تعاونوا، أجمل هدية تقدم للإنسان عند الزواج.

أحياناً يكون عنده حالة وضع وهو بحاجة ماسة، يقولون: له أطلب ماذا تريد ؟ أحياناً تجد نفسك بأمس الحاجة لشيء تأتيك أشياء ليس لها طعمة، لوحة، اثنين، أربعة، تصير تبيعهم، ماذا تفعل بهم، أما في أشياء ثمينة، في أشياء تأتي في وقتها المناسب.

إذاً إن من موجبات المغفرة إدخالك السرور على أخيك المسلم...

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال عليه الصلاة والسلام:

((مَن لقي أخاه المسلم يما يحبُّ ليسره بذلك، سره الله عز وجل يوم القيامة))

كل شيء عند الله محفوظ ؛ مواقفك، عطاءاتك، ابتساماتك، زياراتك، أحياناً الإنسان في عنده مشكلة، يتذكرها لأخوه، الله يلهمه أخوه، فيصدمه أخوه بقوله: هكذا أنت، أنا ليس كذلك، الحمد لله أنا ليس كذلك. يزيده ألم. سيدنا حنظلة كان يبكي في الطريق، مر سيدنا الصديق فسأله:

ـ مالك يا حنظلة تبكي ؟

ـ قال: نافق حنظلة.

ـ قال: ولمَ يا أخي ؟

ـ قال: نكون مع رسول الله ونحن والجنة كهاتين، فإذا عافسنا الأهل ننسى.

ماذا قال له الصديق ؟

ـ قال: أنا كذلك يا أخي. أنا مثلك.

أنظر إلى التواضع آنسه، ولم يوحشه، أحياناً في واحد يكون عنده ابن متعب يشكي لأخوه همي، يقول له: أنا والله عندي أولاد الحمد لله ؛ مؤدبين، أخلاق عالية، حرقته حرق بهذا الكلام، لابد أن تخفف عنه قليلاً، تقول له: الولد في هذا السن متعب، وهذه المشكلة عامة، وهذه بلوى عامة وليست لك فقط، في كلام يطيب القلب، في كلام موحش، النبي يقول هنا: " مَن لقي أخاه المؤسلم بما يحب ليسره بذلك سره الله عز وجل يوم القيامة ".

وقال عليه الصلاة والسلام:

((من كان وصلة لأخيه إلى ذي سلطانٍ في مبلغ برٍ، أو إدخال سرورٍ، رفعه الله في الدرجات العُلا من الجنة))

وصلة إلى ذي سلطانٍ، هذه الشفاعة الحسنة، أحياناً الإنسان يكون له أقرباء، يكون له أصحاب، يكون له زملاء بمراتب حساسة، هذا الشيء أنت الآن ممكن أن تعمل أعمال صالحة كثيراً، طبعاً بالحق وليس بالباطل، فقد يكون شخص مظلوم، ولو طلب مقابلة هذا الشخص لا يسمح له، وهذا المسؤول صديقك، فاذهب إليه اتصل معه، وقل له: هكذا فلان قصته، إياك أن تكون شفيعاً في ظُلامة، ولكن بالحق، كأن يكون مقدم طلب، ومهمل هذا الطلب، يريد رخصة مهمل الطلب، من شهرين بالدرج موضوع، في مخالفة لا يوجد مخالفة، من حقه، من حقه، ألا توقع له عليه ؟ نبهه.

((من كان وصلة إلى ذي سلطان في بملغ برٍ.. مقيدة القضية ليس ضده، في مبلغ بر.))

فلو واحد له عند شخص مبلغ من المال وأقام عليه دعوى، والقاضي صاحبك، فهل تقول له: سيدي أيمكنك تأجل لنا الدعوى على طول سنتين زمان تقريباً ؟ الله يعطيك العافية على هذه الوساطة، شخص له حق عند شخص وأقام عليه دعوى، والقاضي صاحبك، فأنت أردت أن تضيع هذا الحق، تترجى القاضي أن يؤجل، أجل لنا هذه القضية سنتين، نكون استفدنا من أرباح هذا المبلغ، وضعه باستثمار يربح الآن، فيأجل سنتين الدعوى، فليست كل وساطة مقبولة، هذا كان موضوع الخطبة الأسبوع الماضي.

رواية أخرى:

((من كان وصلة لأخيه المسلم إلى ذي سلطانٍ في مبلغ برٍ أو تيسير عسير أعانه الله على إجازة الصراط يوم القيامة عند دحض الأقدام))

أي عندما تزل الأقدام.

حديث دقيق جداً، وله أبعاد كبيرة، عن أبي قلابة: أن ناساً من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ـ أشخاص من أصحاب النبي ـ قدموا يثنون على صاحب لهم خيراً ـ يا رسول الله في شخص، مستواه راقي جداً، صلاته، ذكره، وتلاوته ـ قالوا: ما رأينا مثل فلان هذا قط، ما كان في مسيرٍ إلا كان في قراءة، ولا نزلنا في منزلٍ إلا كان في صلاة ـ دائماً يقرأ أو يصلي ـ فالنبي سأل، قال: فمن كان يكفيه ضيعته ؟ ـ له أرض مَن كان يزرعها له، أو يسمدها له، أو يسقيها له، حتى ذكر، فاضي ليس عنده ولا عمل ـ ومن كان يعلف جمله أو دابته ؟ قالوا: نحن ـ نحن نخدمه يا سيدي ـ فقال عليه الصلاة والسلام: فكلكم خير منه "

هل فهمتهم مراد النبي اللهم صل عليه، ما شفناه إلا وهو يصلي، ويقرأ أوراد من كان يكفيه ضيعته حتى ذكر ـ من كان يعلف جمله أو دابته ؟ قالوا: نحن فقال: كلكم خير منه ـ نحن نريد إسلام عملي، نريد إنسان ليس عالةً على أحد، نريد إنسان يده عُليا، نريد إنسان مفعال لا مقوال.

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

ـ على كل مسلمٍ صدقة.

ـ قيل: أرأيت إن لم يجد ؟

ـ قال: يعتمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق.

ـ قال: أرأيت إن لم يستطع.

ـ قال: يعين ذا الحاجة الملهوف.

ـ قال: قيل له أرأيت إن لم يستطع ؟

ـ قال، يأمر بالمعروف أو الخير.

ـ قال: أرأيت إن لم يفعل ؟

ـ قال: يمسك عن الشر فإنها صدقة.

وفي رواية أخرى:

ـ قالوا: وإن فعل هذا دخل الجنة ؟

ـ قال: ما من عبدٍ مسلمٍ يصيب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده حتى تدخله الجنة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، هذا الحديث ذكره ابن عباس كان معتكف في مسجد رسول، الله جاءه رجل جلس إلى جنبه رآه مغموماً فقال:

ـ مالك ؟

ـ قال: ديون ركبتي، لا أملك لها قضاءً.

ـ قال له: لمَن ؟

ـ قال: لزيد، لفلان.

ـ قال: أتحب أن أكلمه لك ؟

ـ قال له: إن أردت، إذا تحب.

فقام: سيدنا ابن عباس وخرج من معتكفه، فقيل له: يا ابن عم رسول الله أنسيت أنك معتكف ؟!! أنت في عبادة

ـ فقال ابن عباس: سمعت حبيبي ـ هكذا نص الحديث ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((من مشى في حاجة أخيه كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين، ومن اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله عز وجل، جعل الله بينه وبين النار ثلاث خنادق، كل خندقٍ أبعد مما بين الخافقين))

هكذا فهموا الصحابة الدين، ترك معتكفه وخرج، أنت معتكف نسيان ؟! قال له: ليس نسيان، ولكن النبي قال: من مشى في حاجة أخيه أخيه خير له من أن يعتكف عشر سنين.

وعن رسول الله صلى الله عيله وسلم أنه قال:

((ما من عبدٍ أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه ـ أي أتمها ـ ثم جعل من حوائج الناس إليه فتبرَّم فقد عرَّض تلك النعمة للزوال))

أنت بنعمة لا أعرف ما هي ؛ صحة، قوي، دخلك جيد، لك مركز رفيع مرموق، لك مكانتك، فلما رآك الناس مقتدر، ميسور الحال، لك شأنك، أقبلوا عليك ؛ هذا يريد مشكلة، هذا يريد حل قضية، هذا يريد عملية لابنه، هذا يريد ديناً، فأنت لا تتبرم، لو تبرمت، لو ضقت ذرعاً بهم، لو تأفَّفت، لعرَّضت هذه النعمة للزوال.

أروي لكم قصة تعرفونها: بيت من بيوت دمشق القديمة، فيه ليمونة تحمل أربعمائة أو خمسمائة حبة لسرٍ فيها، لكن صاحبة هذا البيت امرأة متقدِّمة في السن، ديِّنة، تحب الله ورسوله، ما مِن إنسان طرق بيتها وطلب ليمونة إلا قدمت له حاجته، تحملها أربعمائة أو خمسمائة، بيت عربي كبير، يطرقون بابها ويسألونها: نريد والله ليمونة، كان قديماً في تواصل، الآن تقول له: من جارك الذي يسكن فوقك ؟ يجبك: لا أعرف صار لي عشر سنين، لم أزره. كانت الأحياء أسرة واحدة، أنا أعرف سمعت إذا كان

أخ معه ضيف ولاحظوه الجيران كل إنسان يقدم له صحن، هذا يضع أكل فيجد ثلاثين نوع وضع، من أين أتى كل ذلك ؟!! جارنا معه ضيف، يسكبوله، في تعاون، في حرص.

فهذه الحرمة توفاها الله تعالى، هذه الختيارة، هذه الصالحة، هذه الدينة، لها كنة من الفأس الجديد، دق الباب نريد ليمونة: ما عندنا، وأغلقت الباب، على مرتين ثلاثة، الليمونة يبست، وماتت، فإذا أراد ربك إظهار فضله عليك، خلق الفضل ونسبه إليك، أنت كريم والله أكرم.

أحياناً تلاحظ الذي يعطي كثير، الله يعطيه كثيراً أيضاً، يعطيك على قدر ما تعطي، أما إذا بقيت تحسب، ولا يناسب، خبي قرشك، ضب يدك، طول بابك، والله يضب عنك يدهه كذلك، لا يوجد شيء، هذه خلصت، وهذه منعوا استيرادها، وهذه لم تصح لك، وهذه لابد من الترخيص، أين الدخل الكبير ؟ كله ذهب، لا توكي فيوكي عليك يا عائشة، لا تشنق الكيس، لا توكي فيوكئ عليك، تضييق الله يضيق عليك، تعطي الله يعطيك، ما نقص مالٌ من صدقة.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال عليه الصلاة والسلام:

((ما عظمت نعمة الله عز وجل على عبدٍ إلا اشتدت إليه موْنة الناس ـ الناس يميلو عليه، يطلبوا منه، يترجوه، يتقربوا منه، أما ـ ومن لم يحمل تلك المؤنة للناس فقد عرَّض تلك النعمة للزوال))

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال عليه الصلاة والسلام:

((إن لله أقواماً اختصهم بالنِعَم لمنافع العباد، يقرهم فيها ما بذلوها، فإذا منعوها نزعها منهم، فحوَّلها إلى غيرهم))

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (17))

(سورة الحجرات)

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال عليه الصلاة والسلام:

((إن لله خلقاً خلقهم لحوائج الناس، يفزع الناس إليهم في حوائجهم، أولئك الآمنون من عذاب الله))

الباب واسع جداً، وبقي بعض الأحاديث القليلة ننهيها مع نهاية هذا الدرس.. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((مَن نفَّس عن مسلمٍ كربة من كُرب الدنيا نفس الله عنها كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر في الدنيا ويسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر على مسلم في الدنيا ستر الله عنه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه))

أحد إخواننا الآن غير حاضر طبعاً، ساكن ببيت أجرة، صاحبة البيت رجته حينما أعطته البيت أن يسلّمها إيّاه متى طلبت، في أشد الأزمات طلبت منه البيت، فهو عند وعده وعند عهده فسلَّم البيت، طبعاً

أخذ مهلة ستة أشهر، جاءت بمحام ووقع عقد، المحام رتب العقد قال لي بالحرف الواحد: بعد أن وقعت هذا العقد قال لي محاميها: أمجنون أنت، أصبحت في الطريق.

والقصة طويلة جداً، لكن ملخصها: أن الله جل جلاله، بشيء لا يصدق خلال ستة أشهر رزقه بيت أفضل من ذلك البيت بعشرات المرات، وفي بناء عمله، أي مكان عمله في نفس البناء، والبيت صحي وواسع، فبعد حين سأل عن السر، فقيل له: إن هذه المرأة صاحبة البيت لها ابنة عانس، فجاءها خاطبٌ وقد فاتها قطار الزواج، جاءها خاطب جيد لكن لا بيت له، فقالت لأمها: قولي لفلان أيعطينا البيت ؟ قالت: والله أحاول، فلما حاولوا معه هذه المحاولة رضي، أعطاهم البيت، ذهبت ابنتها إلى العمرة، وكانت هذه الابنة طوال العمرة تقول: يا رب وفق فلان إلى بيتٍ خير من بيتنا، لأنه حل مشكلة كبير جداً، الخاطب موجود ولكن بيت لا يوجد، وهذه فاتها قطار الزواج، وتعلّقت بهذا الزواج، هو لبى هذه الرغبة، وسلم البيت، القصة غريبة جداً، أنا سمعتها منه ودعانا إلى عشاء في البيت تكريماً فرحاً بهذه المناسبة، وقال لنا: أنا ستة أشهر كنت مستأجر صرت مالك، وبيت أفضل من بيتي بعشرات المرّات، لكن تفاصيلها غريبة جداً الله فتح عليه وأمن البيت.

أن إنسان يحل مشكلة إنسان والله ينساه ؟! هذه مستحيلة، تحل مشكلة والله يتخلى عنك، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه إذاً:

((من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر في الدنيا يسر الله عليه في الدنيا والآخر، ومن ستر على مسلمٍ في الدنيا ستر الله عليه في الدنيا والآخر"))

آخر حديث في هذا الباب: عن أبي عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عيله وسلم قال:

((المسلم أخ المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، مَن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرَّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة))

هذا هو الدين يا إخوان، الدين أعمال، الدين مواقف، الدين أخلاق، الدين خدمات، الدين تعاون، الدين تعاضد، الدين حل مشكلات، والله عز وجل كما يقول الناس أكرم الأكرمين، أنت تتكارم الله أكرم منك، تعطي الله يعطيك، وكل واحد يعطي له مع الله تاريخ، يحكي لك مائة قصة، كنت في ضائقة، والله حدثني أخ قال لي: والله معي مبلغ بجيبي ليس معي سواه، تقريباً مئتين ليرة، طلع من المسجد وجد شخص بحاجة لمساعدة، طبعاً ليس متسول، أخ يريد منه قال له: معك هذا المبلغ ؟ وهو ما معه غيره، صار معه تردد: شعرت وقع بنفسي أن يا عبدي في مرة ما عوضنا عليك، فدفع المبلغ فوراً، الله عز وجل بنفس اليوم عوض عليه، بنفس اليوم، ما نقص مال من صدقة، أنفق بلالاً ولا تخش من ذي

العرش إقلالاً، عبدي أنفق أنفق عليك، أنت حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، وفي بالإنفاق لذَّة لا يعلمها إلا مَن نفق.

وحتى ربنا عز وجل يذوقنا طعم الإنفاق، أمرنا جميعاً في رمضان أن نتصدَّق ولو كنا فقراء، الذي يملك قوت يومه، الذي عنده بيضتين مسلوقتين فقط، وجبة طعام، عليه أن يدفع زكاة الفطر، من أجل ماذا ؟ من أجل أن يذوق طعم الإنفاق، أن يذوق طعم الإنفاق، والإنفاق أبوابه واسعة جداً ؛ في إنفاق طعام، في إنفاق أموال، في إنفاق مساعدات.. إلخ فهنيئاً لمَن كان عمله في مساعدة الآخرين، إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (056) :الحكم العطائية1 -اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-03-07

بسم الله الرحمن الرحيم

مراتب الإيمان :

أيها الأخوة الأكارم، منهجنا في درس الأحد أحاديث شريفة و فقه تشتد الحاجة إليه، ولكن في رمضان أردت أن أنوِّع لكم بعض الشيء في موضوعات يكثر الحديث عنها، فمثلا حِكم ابن عطاء الله السكندري التي وعدتكم إن شاء الله تعالى بعد رمضان عقب مجلس الذكر من فجر يوم الجمعة نأخذ كل يوم حكمة من حكم ابن عطاء الله السكندري، وهذه الحكم كما تعلمون هي قمة في معرفة الله عز وجل، قبل الدخول في موضوع الحكم لا بد من معرفة مراتب الإيمان، فإذا تصورنا أن دائرة واسعة جداً كل من آمن بوجود الله دخل فيها، كل من ترك شيئاً لله دخل فيها، كل من عمل عملاً لله دخل فيها، و لكن هذا الإيمان بوجود الله، وهذا الترك لما لا يرضي الله أحياناً، وهذه الفعل لما يرضيه، هذا السلوك سلوك إيماني، لكن ربما كان إيمانه من مستوى لا ينجيه من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فهذا الإيمان يمكن أن نسميه إيماناً غير منجٍ، فكلما توغل باتجاه مركز الدائرة كلما ازدادت معرفته بالله، أولاً: آمن بوجوده، آمن بوحدانيته، آمن بكماله، آمن بعلمه، آمن بقدراته، ترك هذا لله، وفعل هذا لله، هو ينتقل باتجاه مركز الدائرة إلى أن يصل بما يسمى بالمركز الأحمر إلى دائرة ضمن الدائرة الكبرى، هذا الخط الأحمر بعده دخل في الإيمان المنجي، أي هنا استقام استقامة تامة، أعماله الصالحة التي رافقتها أعمال سيئة، الأعمال الصالحة لها حساب، و السيئة لها حساب، و لكن مادام خلط عملاً صالحاً و آخر سيئاً، الطريق إلى الله غير سالك، ذنوبه حجاب بينه و بين الله، أما أعماله الصالحة فيكافأ عليها في الدنيا، هذا كلام دقيق جداً، نحن عندنا أهل كفر و أهل إيمان، من أنكر وجود الله، ومن كذّب بما جاء به النبي عليه الصلاة و السلام فقد كفر، أما إذا آمن بوجود بالله، آمن بوجوده، آمن بما جاء به النبي، آمن بالكتاب، آمن برسالة النبي، آمن بالنبوة، آمن بالقدر خيره و شره، إذا آمن بأركان الإيمان، وترك هذا لله و فعل هذا لله، و له أعمال سيئة و أعمال صالحة، فهذا الإيمان غير منجٍ، لكن أعماله الصالحة، وأعماله السيئة عليها عقاب، أما إذا بقي يرقى في هذه الدائرة باتجاه المركز إلى أن وصل إلى خطٍّ نقله إلى الإيمان المنجي، الإيمان المنجي الذي معه استقامة على أمر الله، فهذا لا ينفي الزلل، لا ينفي الخطأ غير المقصود، لا ينفي أن يتكلم بكلمة لا يقصدها، و لكنها لا ترضي الله عز وجل، علاج هذا الزلل و هذا

الخطر و هذه الهفوات التوبة السريعة إلى الله، لذلك المؤمن المذنب أوّاب، أما إذا تجاوز الخط الثاني في الدائرة و دخل في الإيمان المنجِّي ومع الإيمان المنجي استقامة على أمر الله، إذا بقي متوغلاً في اتجاه المركز، في مركز الأنبياء، في أعلى درجات العلم بالله، و أعلى درجات البذل و العطاء، وأعلى درجات السعادة، ألستم تقولون في الورد: الله صلِّ على أسعدنا محمد، هو أسعد الخلق، ويكفي أن تزور مقامه بعد وفاته حتى تشعر بهذه السعادة، فإذا تجاوزت مرتبة الاستقامة و بدأت ترقى، الآن يمكن أن نستفيد من حِكم ابن عطاء الله السكندري.

حكم ابن عطاء الله السكندري تفيد السالكين إلى الله :

حِكم ابن عطاء الله السكندري هي حكم لمن سلك إلى الله عز وجل، لا يكفي أن تلتزم أوامر الشرع فقط، لا، لا بد من شوق إلى الله، لا بد من عمل صالح، لا بد من بذل، و الحقيقة رمضان شهر يقدِّم نوعية في العبادة، رمضان هو المعرفة الجديدة لله عز وجل، والنبي عليه الصلاة و السلام يقول: "جددوا إيمانكم...." الإنسان إذا بقي في معرفة واحدة دخل في مرحلة السأم و الملل، فكل إنسان يقول: هذا كله أعرفه، معناها هو واقف في مرتبته و لم يتقدم، كلما خطا خطوة رأى شيئاً جديداً، و رأى حالاً لم يكن يعرفه من قبل، إذًا حكم ابن عطاء الله السكندري ربما أفادت السالكين إلى الله عز وجل، ألا تقرؤون سورة الواقعة فيها:

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ)

[سورة الواقعة: 10]

و فيها

(وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ)

[سورة الواقعة: 27]

و هناك

(وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ)

[سورة الواقعة: 41]

أصحاب الشمال هم الهالكون، أصحاب اليمين هم الناجون، و السابقون السابقون هم المتفوقون الذين تفوقوا وازدادوا معرفة وازدادوا حبًّاً.

الإنسان بإيمانه يصل إلى الله و يزداد معرفة به :

فمن حكم ابن عطاء الله السكندري، ونحن إن شاء الله تعالى كما وعدناكم صار في هذا المجلس الطيب مجلس ذكر يُعقد عقب صلاة الفجر من كل يوم جمعة في رمضان و بعد رمضان، أذكار وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم، و نقرأها قراءة جماعية، و ربما وزّعنا كتيبات فيها الأذكار، كما قال الله عز وجل:

(ألاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد: 28]

دائما عندنا غذاء للجسم هو الطعام والشراب، و عندنا غذاء للعقل هو العلم، وعندنا غذاء للقلب وهو الذكر، فالقلب يسعد بذكر الله، والعقل يرتاح بمعرفة الله، و الجسم يقوى بالطعام و الشراب، فأنت مثلاً لك جانب مادي و جانب عقلي وجانب نفسي، فنفسك تحتاج إلى ذكر الله عز وجل، و ليس بعد حكم ابن عطاء الله السكندري بمعنى أن الذي قالها تشعر أنه سلك طريق الإيمان حقيقة، و قد وصل إلى الله، و تعبير " وصل إلى الله " تعبير لطيف جداً، الإحاطة بالله مستحيلة، و لكن الوصول إليه ممكن، الإنسان بعقله و بإيمانه و باستقامته يصل إلى الله، لكن بإقباله على الله يزداد معرفة به.

اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل انطماس البصيرة :

يقول ابن عطاء الله السكندري - من بعض حكمه التي نأخذ بعضها في هذا الدرس-: "اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة " فلان أعمى، كيف؟ فلان لا يرى الحقائق، وفلان ضائع،هذا الذي يجتهد فيما ضمن الله له، وهذا الذي يتكاسل عما طلب منه، مثلاً، قال تعالى:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

[سورة النجم:39]

نحن مشكلتنا نقرأ كلام الله عز وجل قراءة إذا أحببت أن تسميها قراءة سريعة، ألطف تعبير، تحب أن تسميها قراءة غير مسؤولة، قراءة غير متأنية، قراءة و القارئ يقرأ و لا يشعر أن هذا الكلام خطير، مثلاً إنسان يخطب ابنته شابان، الأول مؤمن إيمانه عال و لكنه فقير، والثاني دينه رقيق، و إيمانه ضعيف، و صلواته غير محكمة، واستقامته غير تامة لكنه غني، فهذا الذي قرأ القرآن يقرأ و يقول لك: ختمنا أربع ختمات في رمضان، شيء جميل، جزاك الله خيراً، و كثر من أمثالك، أنت كلما تقرأ صفحة أو كلما تقرأ جزءاً تقول: صدق الله العظيم، فإذا اخترت زوجاً لابنتك، اخترت الغني على ضعف

إيمانه، و رفضت الفقير على قوة إيمانه، فأنت ما صدقت الله عز وجل، تقول: صدق الله العظيم، أنت ما صدّقته، صدّقت أن الغنى أنفع لابنتك من الإيمان، هذا واقع، فإذا تعاملك أنت مع القرآن تعاملاً ضبابياً، تعاملاً يسمونه رمزياً، هذا كلام الله جلا وعلا، والله قرأناه و استفدنا، و تباركنا به و الحمد لله، هذا الذي ضيّع المسلمين، أنت الآن تقرأ كلام خالق الكون، صدقوني أن هناك أشخاصاً اختاروا لبناتهم الزوج الغني على الزوج المؤمن، وهؤلاء الذين اختاروهم ضيعوا بناتهم و انتهى الأمر إلى الطلاق، الله قال:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

[سورة البقرة: 221]

من سلك سلوكاً مخالفاً للقرآن فقد كذبه :

وإذا الله قال:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: 276]

أنت هذا الكلام لست قابضاً له كثيراً بالتعبير اليومي، لا حاجة أن تقول كلاماً غير صحيح، أعوذ بالله، في العالم الإسلامي لا يستطيع إنسان أن يقول كلمة خلاف القرآن، أما الواقع و السلوك فكله خلاف القرآن، لذلك ماذا ننتظر من الله عز وجل؟ أنت حينما تسلك سلوكاً مخالفاً للقرآن إنك تكذبه و أنت لا تدري، تكذيب عملي، والتكذيب العملي أبلغ من التكذيب القولي، و السبب أن التكذيب القولي يجعل الناس يناقشونك و يوضّحون لك، و يبيّنون لك، ويؤكّدون لك بالدليل و البرهان و بالنقل و بالعقل، أما إذا أقررت ما أقرّ الناس و لم تسلك سبيل الله عز وجل، و خالفت القرآن أنت و الحالة هذه من مكذبي كتاب الله و أنت لا تدري، إذًا حينما يضمن الله لك الرزق، وحينما يقول لك:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

[سورة النجم:39]

أي إذا أدخلناك إلى غرفة فيها ألف قطعة معدنية و بلّغناك فيها مئة قطعة ذهب، عيار كل قطعة أربعة و عشرون، و مئة ثانية واحد و عشرون، ومئة ثالثة ستة عشر، ومئة رابعة أحد عشر، و مئة خامسة نحاس ملبس بالذهب، و مئة سادسة نحاس ملمّع، ومئة سابعة تنك، و لكن كله مدهن بالأصفر و يلمع، و لك الحق أن تأخذ مئة قطعة فقط، لو استطعت بشكل أو بآخر أن تأخذ مئة قطعة ذهب من عيار أربعة و عشرين تغنى إلى أولاد أولادك، وقالوا هناك مقياس غالي الثمن، و لكن بمجرد أن تضع القطعة عليه يكشف لك عيارها، هذا المقياس خطير جداً، فلو أن القرآن الكريم هو المقياس، كل شيء يقول لك: هذا

حلال، وهذا حرام، هذا فيه فلاح، وهذا فيه شقاء، و هذا فيه سعادة، وهذا فيه رضوان من الله، وهذا فيه غضب من الله، الكتاب هو الذي يدلك على ما في الدنيا من خير أو من شر، فاجتهادك فيما ضمن لك، و تقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك، أي أعمى القلب، المقبل على أشياء مضمونة، التارك أشياء مطلوبة، نحن كنا في الثانوي، في ثانوية جودت الهاشمي كان اسمها قديماً " التجهيز الأولى " هي الثانوية الوحيدة في القطر، في الثلاثينات كانت وحيدة، فالطابق العلوي كله مهاجع درجة أولى، و ابن خلدون الآن كانت كلها مطاعم، أما مكان التدريس فهي التجهيز الأولى الطابق السفلي، مهاجع كلها مفتوحة على بعضها، وطاولات، مكتبة من أفخم مكتبات دمشق، و كان الطلاب يقعدون فيها داخلياً، بعثات من المحافظات إلى هذه الثانوية، طبعا طعام وشراب و مطالعة، و هناك موجه ليلي، وموجه نهاري إلى آخره، فأنا خطر ببالي مثل منتزع من هذه الثانوية، يُقرع الجرس الساعة السادسة ينطلق الطلاب إلى المطعم، و المطعم مجهز بكل ما لذّ و طاب، ويقرع الجرس الساعة الثامنة ينطلق الطلاب إلى المطالعة، جو مريح، و تدفئة مركزية، إضاءة جيدة، ومكتبة غنية، و مشرفون، لكن لو أن الطالب مطلوب منه أن يدرس، و طعامه مضمون، وجاء على المطبخ هل قشرتم البصل؟ أنت يا أخي هذا ليس عملك، في الساعة السادسة يقْرع الجرس فتجد الطعام جاهزاً في أعلى مستوى، فحينما يتجه الإنسان إلى ما ضمن له فيهتم له و يحشر أنفه فيه، و حينما يدع ما طُلب منه، فهذا أعمى، هذا معنى قول ابن عطاء الله السكندري: اجتهادك فيما ضمن لك، وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك ".

الغنى و الفقر بعد العرض على الله :

إذًا من علامات العمى عمى القلب أن تنكب على الدنيا بكل وقتك، و معظم الناس ليل و نهار، و صبح ومساء، و صيف و شتاء في التجارة، يجمع، وطعامه طعامه، و شرابه شرابه، سريره سريره، استهلاكاته قليلة، أما جمعه فكثير، يفاجأ أنه على مشارف الموت، وما أعد للآخرة شيئاً،هذه الصعقة حينما يكتشف الإنسان أنه مقدم على حياة أبدية لا يملك من عملتها أو نقدها شيئاً، إذا الواحد ذهب إلى بلد أجنبي، و جمع أملاكاً من دول متخلفة مثلاً، و دخل لمطعم فخم وأعطاه مثلاً هذا الذي جمعه، فيقول له: هذه العملة ليست مقبولة، بل هي مرفوضة، الإنسان ما قوله لو فوجئ أن كل مكتسباته في الدنيا عملة مزيفة يوم القيامة؟

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء:88-89]

الغنى و الفقر بعد العرض على الله " الغنى غنى العمل، و الفقر فقر العمل، إذًا " اجتهادك فيما ضمن لك، وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك " هذه حكمة من حكم ابن عطاء الله السكندري.

عبادة القلب و الجوارح :

"الأعمال صور قائمة، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها " تصور إنساناً ميتاً موحشاً مخيفاً، لا أحد يقترب منه، أما إذا هناك حياة، الإنسان مؤنس مسلّ، قد يعلمك، و قد يعطيك من ماله، فالروح خطيرة جداً، فابن عطاء الله السكندري يقول: "الأعمال صور قائمة، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها " قد يكون لها صورة كبيرة جداً، لكن لعدم الإخلاص فيها فقدت روحها، إذًا لا قيمة لها، وهذا معنى قول الله عز وجل:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا)

[سورة الفرقان: 23]

ومعنى قول الله عز وجل:

(فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ)

[سورة محمد: 28]

إما أن عملهم بالبعد عن الله عز وجل يصبح شريراً و مؤذياً أو سخيفاً أو تافهاً، وإما أن أعمالهم الجليلة التي هي بمقياس الناس جليلة إذا فقدت الإخلاص منها أحبطت و فقدت قيمتها، لن تعينك على الإقبال على الله:

((عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ))

[مسلم عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ]

" الأعمال صور قائمة، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها " لذلك الآية الكريمة:

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)

[سورة الزمر:11]

القلب عبادته الإخلاص لله، و الجوارح عبادتها الانصياع لأمر الله، من الداخل إخلاص، و من الخارج انصياع، فلذلك قال الفضيل بن عياض: الأعمال لا تُقبل إلا بشرطين، أن تكون خالصة، وأن تكون صواباً، خالصة ما ابتُغي بها وجه الله، وصواباً ما وافقت السُّنة، هذا المقياس دقيق.

العودة إلى أصل الدين الكتاب و السنة :

لذلك هناك مطب كبير يقع فيه بعض المؤمنين، يقول لك: نيتي عالية، لا تكفي، لا يكفي أن تنوي نية طيبة، لا بد من أن تجعل عملك مطابقاً للشرع، فنيتك وحدها من دون تطبيق للشرع لا تكفي، كما أن انصياعك للشرع من دون إخلاص و نية عالية لا يكفي، لا هذا يكفي، ولا هذا يكفي، من الداخل إخلاص، و من الخارج عمل موافق للسنة، لا يوجد فرقة من الفرق الإسلامية الضالة ضلّت إلا بسبب مخالفة السنة، تصور نبع ماء صاف زلال تدفق و سار في المجاري، هذه المجاري جاءتها روافد، بعض هذه الروافد مياه طاهرة، وبعضها مياه نجسة، و بعضها مياه آسنة، وبعضها مياه مالحة، في نهاية مجرى هذا النبع أصبح الماء أسود اللون، الشاهد بين أيديكم، انظر إلى ماء نبع بردى، وانظر إلى ماء الغوطة الشرقية، أسود اللون، فهذا الدين العظيم عد إلى أصوله تجده عذباً فراتاً، عد إلى أصوله تجده ديناً عظيماً، أما لو أخذته من فروعه المتأخرة لوجدت الخرافة، و لوجدت الدجل أحياناً، لوجدت الشعوذة أحياناً، و لوجدت البُعد عن المنطق و العقل أحياناً، لوجدت سوء الفهم أحياناً، لوجدت الشطط أحياناً، لوجدت الغلو أحياناً، هناك غلو، و هناك شطط، وهناك بعد، وهناك مبالغة، و هناك دجل، وهناك تزوير، هذا كله جاءه من الروافد الفرعية، لذلك:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ وَنَحْنُ عِنْدَهُ طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ فَقِيلَ مَنْ الْغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أُنَاسٌ صَالِحُونَ فِي أُنَاسِ سُوءٍ كَثِيرٍ مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ))

[أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ]

نحن حينما تختلط الأمور، و حينما تتشعب المذاهب، و حينما تفترق الأمة، و حينما يتيه الناس في عقائد بعضها صحيح، و بعضها زائغ، في مثل هذه الحالات علينا أن نعود إلى أصل الدين، أصل الدين الكتاب و السنة:

((عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّتِهِ يَوْمَ عَرَفَةَ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ الْقَصْوَاءِ يَخْطُبُ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا كِتَابَ اللَّهِ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي))

[الترمذي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

كل شيء قائم بالله :

"الأعمال صور قائمة، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها، كيف يتصوَّر أن يحجبه شيءٌ وهو الذي أظهر كل شيء " أحياناً الإنسان يعجب بالعقل، يقول لك: انظر إلى هذا الجهاز، فاكس مثلاً، ليس معقولاً، وثيقة تضعها على جهاز تنتقل إلى أقصى الدنيا في الثانية نفسها، هناك الآن ملوَّن، بعض مراسلي الصحف يكفي أن يصور هذه الآلة تبث إلى قمر صناعي، والقمر الصناعي يبث إلى محطة مركزية في العالم، وهذه المحطة تبث إلى كل أنحاء العالم عن طريق الأقمار الصناعية، فالحدث الذي يقع في هذا المكان يشاهده سكان المعمورة بألوانه حيًّا، ما هذا؟ يقول لك: ما هذا العقل الجبّار؟ تركب طائرة أحياناً تجد ثلاثمائة و خمسين راكبا، مقاعد مريحة، و طعام ساخن، على ارتفاع ثلاثة و أربعون ألف قدم كل شيء فيها، اتصالات، أحياناً تُعقد مؤتمرات صحفية في الجو، أرسلوا إنساناً إلى القمر، فعقد مؤتمراً صحفياً وهو على القمر، والمراسلون يسألون من الأرض فأجابهم، أيُعقل أن يحجبك العقلُ عن الله؟ هو من صنعة الله عز وجل، هنا النقطة، أنا -اللهُ يشهد- حينما أرى شيئاً بالغ الدقة في صنعه أعظم الخالق، لأنه خلق هذا العقل، أنا مرة - من باب الطرفة - سمعت أن مجموعة من الحيوانات اخترعوا طائرة مثلاً، اخترعوا جهازاً، واخترعوا آلة، وعمّروا بيوتاً، ووضعوا نظاماً معيّناً، الحيوان حيوان، أما الإنسان بهذا العقل - الإنسان وُلِد عارياً- لبس أجمل لباس، صنع الخيوط، وصبغ الخيوط، و نسج الأنسجة، و خيط الثياب، تجد الثياب عالَماً قائماً بذاته، الجزء الثاني بعد الطعام و الشراب الثياب، سكن بيوتاً، و دفّأ البيوت، و برّد البيوت، ووضع فيها كل شيء، فيا ترى إذا عظّمت أنت العقل البشري بهذا الإنجاز الحضاري، أيُعقل أن يكون العقل حجاباً بينك و بين الله؟ بالعكس هو من صنع الله، فكيف يُتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كلَّ شيء، هذا العقل من خلق الله، و كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء، أول واحدة أظهر كل شيء، والثانية ظهر بكل شيء، كل شيء قائم بالله.

لولا الله ما كان وجود كل شيء :

ما معنى:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

[سورة البقرة: 255]

حياة كل كائن حي بالله عز وجل، وقيام كل شيء بالله، المادة فيها حياة، لكن لا نراها، الخشب الجامد فيه ذرات ونواة و إلكترونات كهارب و مدارات و حركات سريعة جداً، و شحنة موجبة و شحنة إيجابية، فإذا رأيت شيئاً حجبك عن الله عز وجل فهذا من ضعف البصيرة، لأن كل شيء أظهره الله، و أن الله أظهر كلَّ شيء، و ظهر بكل شيء، إنسان حيّ يسمع، لا يسمع فقط، بل يقول لك: فلان على الهاتف، معنى ذلك عنده ذاكرة أصوات، بمجرد أن يستمع إلى صوت فلان يقول لك: فلان، عنده ذاكرة، و يشم فيقول لك: هذه رائحة الورد، هذه رائحة الياسمين، هذه معطرة بالعطر الفلاني، عنده ذاكرة شمية و ذاكرة سمعية، يبصر أدق الأشياء، إذا كان هناك ميلي فعشر الميلي تكشفه العين، أنا مرة ركب لي أخ نجار مسكة مكتبة، قلت له: واللهِ مائلة، قال: أعوذ بالله أستاذ، رأساً أتى بالمتر وضعه في أول مكان والثاني، و قال: تفضل، ولكن أنا رأيتها مائلة، لما أنا أصررت على الميلان، أتى بالبيكار وضعه على أول مكان وقفله، وضعه على المحل الثاني، الفرق كان أقل من ربع الميلي، لما وضع ظفره على المتر أزاحه قليلا بظفره، قلت له: إنها مائلة و ليست متوازية مع الحرف الأول، فالعين تفرِّق بين درجتين و بين ثمانمئة ألف درجة بالعين البشرية، الإنسان يسمع و عنده ذاكرة صوتية، ويرى، و عنده ذاكرة صور، في الإنسان المتوسط تزيد عن سبعين مليار صورة، إذا الإنسان عمره ستون سنة، مخزن في ذاكرته سبعين مليار صورة.

دخلت إلى مكان أول مرة في حياتي، مكان لم أكن أرتاده، وجدت رجلاً ملامح هذا الرجل ليست بعيدة عني، بقيت ساعة و ساعتين و أنا في حيرة، هذا متى رأيته؟ وهذا المكان لم آته من قبل، وبعد البحث و الدرس تبيّن أن هذا الرجل والد لطالب كان من طلابي في الشام، ملامح مشتركة، هذه الذاكرة، أحياناً شخص غائب عنك مدة ثلاثين سنة تقول: أنا أعرفك، هناك في ذاكرتك سبعون ألف مليار صورة، و المحاكمة، و التخيل، و التصور، و التذكر، و الاستنتاج، و الاستقراء، والاستدلال، النشاط الفكري هائل جداً، في دماغه مئة و أربعون مليار خلية، القشرة السطحية أربعة عشر مليار خلية، العصب البصري تسعمئة ألف عصب مجموعة في عصب واحد، الشبكية مئة و ثلاثون مليون مخروط و عصية، الخلايا الذوقية و المعدة فيها خمس و ثلاثون مليون عصارة، تفرز لتراً ونصف من حمض كلور الماء مع وجبة طعام، ومع ذلك لا تضر نفسها، الكبد خمسة آلاف وظيفة، كل خلية من خلايا الكبد تقوم بكل هذه

الوظائف، الكظر شيء مذهل، النخامية نصف غرام و تفرز اثني عشر هرموناً، من هذه الهرمونات هرمون النمو، مؤلّف من مئة و ثمانية و ثمانين حمضاً أمينياً، لابد أن تكون عشر ميكروغرام بكل لتر دم، أكثر يتعملق الإنسان ، أقل يتقزّم، هذا الإنسان ضعه على ميزان حسّاس جداً، الآن هناك موازين تزن بها ورقة يكتب عليه كلمة واحدة ترجح الكفة، وزن الحبر، حساس، ضع هذا الإنسان على هذا الميزان، و لصدفة نادرة فقد روحه وهو على الميزان، الميزان ينقص، أين محاكمته؟ أين ذاكرته؟ و أين دقة بصره؟ أين عمل كبده؟ أين عمل دماغه؟ و أين عمل كليتيه؟ أين حركاته؟ أين بسمته؟ أين ذكاؤه؟ أين إيناسه؟ إذًا ظهر بكل شيء، فما معنى ظهر بكل شيء؟ أنت لولا الله لما كنت، و لما وقفت، و لما تكلمت، و لما رأيت، ولما سمعت، العين تبصر بالله، والأذن تسمع بالله، و العضلات تتقلص بالله، فكيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء، كان الله و لم يكن معه شيء، فكل شيء تراه عينك أظهره الله، أظهره بحكمة ما بعدها حكمة، بدقة ما بعدها دقة، و بعلم ما بعده علم.

الكون مظهر لأسماء الله الحسنى و لصفاته الفضلى :

إذًا هو ظهر بكل شيء، أظهر كل شيء، و ظهر بكل شيء، معنى ذلك أن الكون مظهر لأسماء الله الحسنى و لصفاته الفضلى، إذا أنت وقفت أمام نجّارين أحدهما طويل والآخر قصير، أحدهما أبيض و الآخر أسمر، أحدهما عيناه واسعتان، والثاني عيناه صغيرتان، أحدهما خداه أسيلان، و الثاني خداه ناتئان، أيهما أكثر إتقانا في عمله؟ هل تعرف إتقانهما من شكليهما؟ لا، لا علاقة بينهما، أما أنت انظر إلى غرفة نوم صنعها أحدهما، وانظر إلى غرفة نوم أخرى صنعها الآخر، أنت عندك خبرة، اختيار الألوان، نوع الخشب، و الدقة، فأنت تعرف النجار من صنعته، فالخالق من خلقه، و المكوِّن من كونه، و الصانع من صنعته، و المنظم من نظامه، و المسير من تسييره، إذّ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء، و كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء، انظر أظهر كل شيء، و ظهر بكل شيء، و كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء، أحيانا يقول لك: الله كبير، تجد شخصاً شاهد حادثاً يقول لك: الله كبير، يشعر الإنسان في حالات معينة بشكل واضح جداً بوجود الله، أحيانا ينقذ الإنسان من موت محقق، بقدرة قادر، أحياناً الله عز وجل ينتقم من ظالم، تجد الظالم وقع حتف أنفه، أعرف شخصاً له ظلم شديد، يأخذ ما له و ما ليس له، قوي، و له صلات كبيرة جداً، وناجحة، و ذكي، هو تاجر، صاحب معمل، لكن دائماً مع من حوله يأكل حقه و حقهم، دخل إلى الحمام رأى القاطع الكهربائي أصابه عطب فاستدعى كهربائي وقال له: أصلح لي إياه، فأصلحه، وقال له: يا سيدي أراه منخفضاً فهل أرفعه لك إلى فوق؟ فقال: ارفعه، المرة الثانية لزمه أن يحركه فوجده

أعلى من طوله، طلب كرسياً ليصعد عليه، فدخل عمود الكرسي في مقعدته، دخل المستشفى و مكث فيها عشرين يوماً، ثم خرج ميتاً، لسبب تافه جداً، وهو في أوج قوته، وأوج غناه، و أوج نشاطه، والله عز وجل على كل شيء قدير، تشعر أن هذا الإنسان الذي أكل المال الحرام اللهُ قصمه قصماً، و كذلك رجل آخر يبتز أموال الناس، و يستغل قوته فيبتز أموالهم، حتى أصبح من كبار الأغنياء، ولكن هذه الأموال كلها جاءته ظلماً، وهو يمشي في الطريق وراء سيارة محمّلة بالحديد صار هناك انزلاق دخلت مركبته في الشاحنة و الحديد بارز فدخل إلى رقبته فقصّها قصَّ، ورأى شهود عيان أعرفهم رأسه على المقعد الخلفي، الله كبير، هو ظهر بكل شيء، أظهر كل شيء وظهر بكل شيء، وظهر لكل شيء، الإيمان بالله كمن يؤمن بالشمس في رابعة النهار، لا يتجرّأ إنسان على إنكار وجودها، يا إمام متى كان الله؟ فقال: ومتى لم يكن؟ قل لي متى لم يكن حتى تقول لي متى كان الله.

الله كان و لم يكن معه شيء :

"و كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء " كل الكون حادث، قال تعالى:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

[سورة الإنسان : 1]

الكون كله حادث، والله عز وجل كان و لم يكن معه شيء، إذًا وهو الظاهر قبل وجود كل شيء، و كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء، تجد مدينة من مدن المغرب العابثة اللاهية، نوادي عراة، نوادي ليلية، أماكن للزنا، مدينة أغادير الزلزال لمدة ثلاث ثوان جعلها رأساً على عقب، أضخم فندق في هذه المدينة كان بؤرة للفساد و القمار والزنا و كل أنواع الموبقات، هذا الفندق غاص كله- ثلاثون طابقاً- وبقي منه طابق واحد وهو الطابق الأخير، وعلى الطابق الأخير اسم هذا الفندق الكبير، وكأنه شاهدة عليه، الله كبير هكذا يقولون، أرسلوا المركبة الفضائية سموها المتحدية، بعد سبعين ثانية أصبحت كتلة من اللهب، أنتم تتحدّون من؟ ترجمتها " المتحدي، واسمها "CHALENGER " تتحدون من؟ فالله عز وجل أظهر كل شيء، و ظهر بكل شيء، وظهر لكل شيء، وظهر قبل كل شيء، وهو أظهر من كل شيء، وكيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء، يقول لك أحدهم: ليس هناك إلا الله، يرى كل الأشخاص حتى الأقوياء دمى بيد الله عز وجل، يحرك هذا و يوقف هذا، فالله الملهم، فإذا كنت مع الأصل كان الفرع معك، وإن لم تكن مع الأصل لم يكن الفرع معك، "وكيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود كل شيء " هذا هو الله عز وجل، قال تعالى:

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

[سورة غافر: 64]

فكلما نما إيمان الإنسان كشف نفسه، كلما نما إيمان الإنسان لا يرى مع الله أحد.

في الكون حقيقة واحدة هي الله :

قلت لكم مرة: هناك في الكون حقيقة واحدة هي الله، فكل شيء يقربك إليها هو الحق، وكل شيء يبعدك عنها هو الباطل، كل شيء يقربك إليها هو الخير، وكل شيء يبعدك عنها هو الشر، كل شيء يعينك على أن تصل إلى الله عز وجل هو الهداية، و كل شيء يصرفك عن هذه الحقيقة هو الضلال، فالمؤمن مستنير، و المؤمن أموره واضحة جداً، قيمه ثابتة، تعامله مع القوانين، نعيده مرة ثانية من أجل أن نجمعها " كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء، وكيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء، وكيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء، وكيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء، وكيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء، وهو أظهر من كل شيء، وهو الواحد الذي ليس معه شيء، وهو أقرب منك من كل شيء، ولولاه ما كان وجود شيء " الله عز وجل:

(قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)

[سورة الأنعام : 91]

هذا التوحيد، و هذا الاتصال بالله، وهذا التنور، فلان منور القلب، رأى الحقائق، و لم ير الصور.

الإنسان مخلوق لمعرفة الله :

الآن هناك مرض، آخر حكمة من حكم ابن عطاء الله السكندري، طبعاً سنأخذها إن شاء الله بالتفصيل في يوم الجمعة القادمة، تجد شخصاً تقول له:لماذا لا تصلي معنا؟ فيقول: واللهِ لا يوجد وقت، لست متفرغاً، واللهِ عندنا موسم، عندنا دوام، مشغول، فمرة خطر ببالي مثل أن واحداً درس في أمريكا ثماني عشرة سنة وأخذ بورد، و جاء إلى الشام و فتح عيادة، و كتب على العيادة " من السابعة إلى التاسعة " جاءه مريض الساعة الثامنة، وقال له: لست متفرغاً، إذًا لأي شيء أنت متفرِّغ؟ إذا كنت لست متفرغاً أن تداوي مريضاً بعدما درست ثماني عشرة سنة في الوقت المخصص، لأيِّ شيء أنت متفرِّغ إذًا؟ أنت مخلوق لمعرفة الله، إذا لمعرفة الله لست متفرغا فلأي شيء متفرِّغ؟ قال تعالى:

(أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[سورة النمل: 84]

ماذا كنت تفعل؟ إذا بعثنا إنساناً للدراسة في أوروبا فاستأجر غرفة و زينها و رتبها و له أصدقاء و سهر معهم، و لكن لم يدرس، أنت لم تصنع شيئاً، ولكن لم يدرس، لستُ متفرغاً للدراسة، لأيِّ شيء متفرغ؟ أنت هناك متفرغ للدراسة، فإذا الشيء الأساسي أنت لست متفرغاً له، فأنت إنسان غريب الأطوار، قال: "إحالتك الأعمالَ على وجود الفراغ من رعونات النفس " النفس الرعناء الحمقاء البعيدة، يقول لك: واللهِ لست متفرغاً، متفرغ لأي شيء؟ كل شيء سوى الله فان زائل لا قيمة له، أنا مرة شخص قال لي كلمة، و كان عصبي جداً، قال: أقل من دخل كذا لا يعاش به، و وضع رقماً كبيراً جداً، الإنسان يعيش بواحد من المئة منه، كرامته، وأكله، وشربه، لا يعاش، سبحان الله مرض مرضاً شديداً زاره شخص، فقال له بالحرف الواحد: يا فلان الإنسان تكفيه ألف ليرة في الشهر، هو تصور حاله معافى من هذا المرض تكفيه ألف ليرة بالشهر، فهذه رعونات النفس، أحياناً يقول لك العوام: فلان أعجر، الإنسان تبدو رعونته من كلامه، وأحياناً من اعتراضه، وأحياناً من تكبره، أحياناً من عُجبه، أحياناً من ازدرائه للآخرين:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ مِنْهُمْ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ))

[الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

المؤمن أديب و لا يتكلم كلمة إلا بالحق :

النفس لها رعونات أيها الأخوة، و ليس هناك أرقى من نفس مهذبة، يا رسول الله ما هذا الأدب؟ قال:

((أدَّبني ربي فأحسن تأديبي))

[الجامع الصغير عن ابن مسعود]

تجد المؤمن أديباً و لا يتكلم كلمة إلا بالحق، كلمة أنا يستحي بها، إن شاء الله دائماً، أنا ألاحظ المؤمنين الصادقين إذا أراد أن يتكلم عن ميزة آتاه الله إياها يقول لك: من فضل الله عليّ، والله أكرمني، وأطلق لساني بهذا الموضوع، الله تفضل عليّ و أكرمني و ألّفت الكتاب، الله أكرمني وأخذت هذه الشهادة، الله أكرمني بهذه الزوجة، تفضل عليّ بهذا البيت، دائماً يرى فضل الله عليه، والله قال:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء: 113]

الآن إذا أنت مؤمن مستنير العقل، طليق اللسان، قرأت القرآن، وفهمت كلام النبي، والأمور عندك واضحة تماماً، لسانك منضبط، جوارحك منضبطة، بيتك إسلامي، وزوجتك إسلامية، أحوالك طيبة، و لك سمعة طيبة، اسمع الآية الكريمة:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا)

[سورة النور: 21]

الله زكّاك و دلّك عليه، جمعك مع أهل الحق، و نوّر قلبك بالإيمان، أطلق لسانك بتعريف الناس بالله:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا)

[سورة النور: 21]

لذلك قال تعالى:

(فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)

[سورة النجم: 32]

هذا المؤمن، لطيف، الطبيب شفى له ابنه، الله يجزيه الخير، واللهِ تفضّل علينا، اللهُ عز وجل قدّر الشفاء على يد هذا الطبيب، واللهِ كلام جميل، و كلام لطيف، وكلام علمي، الله عز وجل أكرمنا بشفاء الطفل على يد هذا الطبيب، أما هذا الطبيب لولاه لراحت، لولا هذا الطبيب لأتى أجل هذه البنت، فهمان، ومعه بورد، أي بورد؟ مثل بعضها، إذا لم يقدّر الله عز وجل هذا الشفاء لما ألهم الطبيب:

إن الطبيب له علم يدلُّ بــه إن كان للناس في الآجال تأخيرُ

حتى إذا ما انتهت أيامُ رحلته حار الطبيبُ وخانته العقاقيــرُ

***

أدب النبي صلى الله عليه و سلم :

المؤمن أيها الأخوة بشكل مختصر شخصية فذة، فحضور مجالس العلم، والقيام بالعبادات، و الإكثار من ذكر الله عز وجل، و ضبط الجوارح، و العمل الصالح، هذا يرقى بالإنسان، تارة يرقى فكره، وتارة يرقى قلبه بالذكر، وعقله بالعلم، وقلبه بالذكر، و جوارحه بالطاعات، فجوارحه في الطاعة، وعقله في معرفة الله، و قلبه في ذكر الله يرقى، إذا رقي تجده صار إنساناً مهذّباً، ما هذا الأدب؟ قال:

((أدَّبني ربي فأحسن تأديبي))

[الجامع الصغير عن ابن مسعود]

تصور عزيز مصر، تقريباً رئيس وزراء، و له أخوة حسدوه حينما كان صغيراً، فائتمروا على قتله، ووضعوه في غيابة الجب، وخرج من الجب و انتقل إلى قصر العزيز، وصار عزيز مصر، واستدعى إخوته الفقراء من أطراف البلاد، و دخلوا فعرفهم، قالوا:

(قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة يوسف: 90]

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي)

[سورة يوسف: 100]

أخوته جالسون:

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي)

[سورة يوسف: 100]

لو قال لهم من الجب لأذابهم خجلاً، و حرقهم حرقاً، ذكرهم بجريمتهم، ذكّرتهم بفعلتهم، قال:

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ)

[سورة يوسف: 100]

أغفل البئر، ما هذا الأدب؟ والنبي كان أديباً لأقصى درجة، رأى فتاة من قريباته ترتدي ثياباً شفافة قال: يا بنيتي إن هذه الثياب تصف حجم، يقول لها: ساقك، أي اسم من أسماء أعضاء المرأة تثير الشهوة، قال لها:

((يا بنيتي، إن هذه الثياب تصف حجم عظامك))

[أحمد والطبراني عن أسامة بن زيد]

((عَنِ ابْنِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ أَنَّ أَبَاهُ أُسَامَةَ قَالَ كَسَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُبْطِيَّةً كَثِيفَةً كَانَتْ مِمَّا أَهْدَاهَا دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ فَكَسَوْتُهَا امْرَأَتِي فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لَكَ لَمْ تَلْبَسْ الْقُبْطِيَّةَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَسَوْتُهَا امْرَأَتِي فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْهَا فَلْتَجْعَلْ تَحْتَهَا غِلَالَةً إِنِّي أَخَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِهَا))

[أحمد عَنِ ابْنِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ]

ما عُرف أنه تكلم كلمة تجرح المشاعر، أو تجرح حياء الصغار، هذا الأدب.

من يستقيم على أمر الله يسمو عقله و وجدانه :

أنت عندما تستقيم يعمر قلبُك بذكر الله، و عقلك بمعرفة الله، وجوارحك بطاعة الله، يسمو عقلك ووجدانك، و يستقيم لسانك، فالمؤمن شخصية فذة، شخصية علمية مع الحقائق، بل مع الحقيقة الكبرى، المؤمن رجل مبادئ، و ليس رجل مصالح، رجل مبادئ أخلاقي، رجل حقائق، رجل سعيد جمالي يعرف كيف يعيش، يعرف كيف يأكل و كيف يتزوج، زوجته طاهرة مؤنسة، أما إذا الواحد اختارها لجمالها فحسب وهي فاسقة، تصير بلاء من الله، يتزوج وفق هدي النبي، و يختار عملاً صالحاً فيه نفع للناس، وليس أعمالاً ربحها كبير لكن إيذاؤها كبير.

على كل إن شاء الله تعالى أردت أن أعطيكم نموذجاً من حِكم ابن عطاء الله السكندري، التي نرجو الله أن يوفقنا لتقريب هذه الحقائق في دروس الذكر عقب صلاة الفجر يوم الجمعة.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (057) :الإعتكاف.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-03-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، موضوع متعلق بالصيام، أومن متممات الصيام، هذا وقته المناسب وهو الاعتكاف، لا أريد منم هذا الموضوع أن يُفهم فهما ضيقا، بل أن يفهم فهما موسّعا، فأصل الاعتكاف أن الإنسان لا بد له من خلوة مع الله، إن لم تكن له هذه الخلوة فهو يعاني نقصا في طمأنينته و نقص في النور الذي يلقيه في قلبه، الاعتكاف النبي عليه الصلاة و السلام فعله في رمضان، وفي العشر الأواخر منه، وقد يكون أحدكم مرتبطا بعمل وظيفي لا يسمح له أن يعتكف هذه الأيام العشر، و لكن سوف نأخذ تفاصيل هذا الموضوع و سوف أطرق لكم طريقة تطبيق الاعتكاف بشكل يتناسب مع حياة كل منا.

على كلٍّ العشر الأخير في رمضان له طعم خاص، العشر الأخير في رمضان أساسه الانقطاع عن الدنيا، فمعنى الاعتكاف لغة، الاعتكاف لزوم الشيء و حبس النفس عليه، خيرا كان أم شرا، معناه اللغوي: عكف على هذا العمل أي ألزم نفسه به واقتصر عليه، قال تعالى:

(هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52))

(سورة الأنبياء)

فالعكوف على الشيء البقاء معه، و حبس النفس عليه، خيرا كان أو شرا، المقصود به بالمعنى الشرعي لزوم المسجد و الإقامة فيه بنية التقرب إلى الله عز وجل، الآن المعنى الدقيق أن أيَّ توجه إلى المسجد و أي بقاء فيه، وأيّ جلوس فيه، وأيّ استماع فيه، أو أيّة صلاة فيه، أو أي ذكر يُذكر الله فيه، أو أيّ تلاوة قرآن فيه نوع من أنواع الاعتكاف، إذًا أنت على مدار العام ما دمت قد أتيت أحد بيوت الله لا تبتغي منه تجارة و لا صفقة و لا بيعا ولا شراء و لا وجاهة ولا سمعة ولا علاقات مع إخوانك، لا تبتغي من هذا المجيء إلا رضاء الله عز وجل، فأنت ممن ينطبق عليك هذا الحكم، أنت معتكف في هذا المسجد، حتى إنكم تقرؤون في بعض المساجد لوحات كُتب عليه " نويت الاعتكاف في هذا المسجد ما دمت فيه " الاعتكاف عبادة من العبادات، بمعنى أو بآخر الانقطاع إلى الله عز وجل، الحياة فيها زحمة فيها مشكلات،وفيها متاعب، وفيها هموم، و فيها أحزان، وفيها مقلقات، إذا الإنسان دخل بيتا من بيوت الله ليصلي، فدخوله للصلاة وانتظاره للأذان وصلاة السنة، وانتظاره إقامة صلاة الفرض وأداؤه لصلاة الفرض، والدعاء بعد الصلاة هذا اعتكاف، هو دخل هذا البيت تقربا إلى الله عز وجل، ماذا ينتظر من الله

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمّارهما، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر...))

مشروعية الاعتكاف ؛ أجمع العلماء على أن الاعتكاف مشروع، فقد كان عليه الصلاة و السلام يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما انقضى العام الذي قُبض فيه اعتكف عشرين يوما، لا تصدق إنسانا يعتكف لا يلقى شيئا، و لا تصدق إنسانا يقرأ القرآن و لا يجد شيئا، يذكر و لا يجد شيء،ولكن ربنا عز وجل لا يعمل نتائج فورية، يمتحن صدقك، إذا أنت حريص على الدخول لهذا البيت تطرق أول مرة وثانية و ثالثة، أما إذا لم تكن حريصا، حريص أن تضع كارتا فقط في العيد، ولا مصلحة لك بالدخول، حريص تسمي أنك زرته، وما عندك وقت لمقابلته، تطرق الجرس مرة واحدة و لا تعيدها، فأخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

فالاعتكاف، ما الاعتكاف ؟ تقرع أنت باب الملِك، الاعتكاف تسأل الله الرحمة، ألم يقل الله عز وجل:

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفقاً (16)

(سورة الكهف)

إذا الإنسان صعد إلى الجبل، ذهب إلى البرية كما يقولون، شعر بضيق، فانطلق إلى فلاة، إلى مكان ليس فيه أحد، وقرأ القرآن، فهذا اعتكاف، إذا ضاقت علينا الأمور، واشتدت الهموم و الأحزان، شعر الإنسان بجفاف في قلبه، شعر بوحشة، شعر بسأم، بملل و ضجر، عليه بالاعتكاف، الاعتكاف أيها الإخوة يمكن أن تفعله طوال العام، وعلى مدار السنوات، كلما ضاقت نفسك ابتعد عن الناس، وابتعد عن عملك اليومي، ابتعد عن بيتك، والجأ إلى ركن من أركان الحياة، أحيانا الإنسان أحيانا في مكان بعيد عن الناس، بعيد عن الضوضاء، إذا جلس يقرأ القرآن فهو معتكف، الاعتكاف خلوة مع الله، بأضيق المعاني لو دخلت إلى غرفة الضيوف في بيتك و أغلقت الباب، وأطفأت الأنوار و دعوت الله عز وجل، أو قرأت القرآن أو صليت قيام الليل، هذا اعتكاف، أعطيكم المعاني الواسعة، المعنى الواسع خلوة مع الله، معناه الواسع انقطاع عن هموم الدنيا

((عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ قَالَ وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ قَالَ قُلْتُ نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا ذَاكَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ

اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

(رواه مسلم)

الحياة فيها متاعب، وفيها هموم، وفيها أشياء مملة، فيها أشياء تقليدية، أعراف و تقاليد، الإنسان يمل، يقول لك: شعرت قلبي تصدّى، العوام هكذا يقولون، و الله عز وجل قال:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28))

(سورة الرعد)

إن القلب لتصدأ قيل: وما جلاؤها ؟ قال: ذكر الله " أنت إذا دخلت إلى غرفة الضيوف، و أغلقت الباب و صليت ركعتين و تلوت القرآن فأنت معتكف، إذا ذهبت إلى مكان بعيد عن ضوضاء الناس، إلى شعب من شعاب الجبل، إلى بستان، إلى فلاة، إلى طريق منزوي، ودعوت الله عز وجل فأنت معتكف، الاعتكاف هي خلوة مع الله، الاعتكاف انقطاع عن الدنيا، فإذا ضاقت عليك الصدور كما قيل، عليكم بزيارة القبور، كل هؤلاء المدفونين لهم قوائم أعمال ماتوا و ما انتهت، كل واحد منا له دفتر، جدول أعمال، تشطيب، هذه ما انتهت، وهذه لا بد لها من مراجعة، هذه لا بد أن أتصل مع فلان، هذه قضية لا بد أن نسأل محاميا، هذه لا بد أن نأخذ رأي شريكنا، هذه لا بد أن نرى رأي الخانون، ما رأيك،كل قضية لها متابعة، يعيش الإنسان كل حياته و لا تنتهي القضايا، فلا بد لك أن تسحب نفسك من زحمة العمل، من وحل المادة، من الانغماس من هموم الحياة إلى ساعة لقاء مع الله عز وجل.

بالمناسبة إذا الإنسان طرق باب شخص، و أحب أن يكون استقباله جيدا جدا يأخذ معه هدية، أليس كذلك، طبعا إذا فات الواحد إلى بيت ومعه هدية شعر بثقة في نفسه كبيرو، طيب مع الله ماذا تفعل، قال تعالى:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110))

(سورة الكهف)

تصدق واختل مع الله، اخدم إنسانا وانقطع لله، اعمل عملا طيبا وناج الله عز وجل، فهذا اللقاء مع الله يحتاج إلى عمل صالح، قال تعالى:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110))

(سورة الكهف)

اعتكف أصحاب النبي وأزواجه معه و بعهده، وهو إن كان قربة إلا أنه لم يرد نص في فضله صحيح، لكن اعتكاف النبي وحده دليل لأن السنة كما تعلمون أقواله وأفعاله و إقراره.

الاعتكاف أنواع ؛ مسنون وواجب، فالمسنون ما تطوع به المسلم تقربا إلى الله عز وجل وطلبا لثوابه و اقتداء برسول الله صلى الله عليه و سلم، و يتأكد هذا الاعتكاف في العشر الأخير من رمضان، أما

الاعتكاف الواجب ما أوجبه المرء على نفسه إما بالنذر المطلق ؛ مثل أن يقول: للهِ عليّ أن أعتكف كذا، هذا النذر المطلق، أو بالنذر المعلق: لئن شفى الله مريضي لأعتكفن عشرة أيام، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

((عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ))

(رواه البخاري)

وفي صحيح البخاري

((عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ عُمَرَ سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ كُنْتُ نَذَرْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ أَعْتَكِفَ لَيْلَةً فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ قَالَ فَأَوْفِ بِنَذْرِكَ))

(رواه البخاري)

إذًا عندنا اعتكاف مسنون، سنة، و عندنا اعتكاف واجب، الواجب نوعان ؛ النذر المطلق و النذر المقيَّد، إذا الواحد عليه مادة في الامتحان صعبة جدا، يا ربي إذا أكرمتني أنا سأعتكف من أجلك أياما ثلاثة، وهناك طلابا في الجامعة يقولون: يا ربي إذا نجحت في أول دورة فالصيفية كلها لك، لا تشغلني الصيفية بغيرك، والله دعاء لطيف، ينجح في أول دورة، كان سابقا حمل المواد، فكان يقول الواحد: أنت حامل ؟ لا والله لست حاملا، صار كأنه ذكر أو أنثى، حامل أي عنده مواد، فإذا الإنسان نذر لله عز وجل إن نجحه في أول دورة أن يجعل الصيف كله لله عز وجل في الدعوة إليه و في طلب العلم الشرعي، و في خدمة المؤمنين، فهذا نذر، فإذا نجح من أول دورة فعليه أن يفيَ بنذره، و الأكمل لا تستخدم مع الله أسلوب النذر، لأن الله عز وجل أهل التقوى من دون شرط، لا تشارطه ولا تجربه، فالله عز وجل لا يُشارط و لا يجرَّب، إذا أردت التقرب منه فتقرَّب منه بلا شرط، بلا قيد و لا شرط.

الاعتكاف الواجب يُؤدّى بحسب ما نذر صاحبه، إن نذر يوما فيوم، وإن شهر فشهر، في رمضان، في رمضان، ليس له وقت محدد، بحسب ما تطلب أنت، أما الاعتكاف المستحب المسنون ليس له وقت محدود، أيُّ دخول للمسجد اعتكاف، أيّ حضور مجلس علم اعتكاف، أنتم جميعا الآن معتكفون، ليس هناك ضيافة،و لا قواعد وثيرة ومريحة، و لا عقد صفقات، ولا شركة، لا يوجد شيء، لا يوجد إلا أنك أتيت هذا البيت إرضاء لله عز وجل، لم تأت هذا البيت إلا تقربا إلى الله عز وجل، النية بالأساس، الأخ الكريم سأل من دون نية، النية من عمل القلب، أما ما يتوهمه بعض الأشخاص لا بد من أن تقول: نويت أن أصلي، العلماء حينما استحبوا التلفظ بالنية من أجل تأكيد نية القلب، أما النية في القلب إنما هي من أعماله فقط، فواحد يوم أحد، يوم الاثنين يوم الجمعة، يوم الجمعة، درس الجمعة، قبل المغرب بساعة لبس و هيأ نفسه و عمل حسابات لا بد من ساعة في الطريق أو نصف ساعة و ركب و جاء، لماذا جاء، هذه هي النية، واضحة جدا، ما جاء لهذا البيت إلا يبتغي حضور هذا المجلس، أما إذا كان على

موعد مع واحد في الجامع يدل على دلاّل ليشتري بيتا، فقال له: نلتقي بالجامع، هذا لم يعد درس علم، هذه النية اختلفت، أما ليس له أيّة علاقة مع إنسان القصد أنه يحضر مجلس العلم، هذا الاعتكاف بنية، لماذا طرحت هذا الموضوع ؟ أنتم طول السنة معتكفون، حضور هذه المجالس اعتكاف، حتى لو دخلت إلى الصلاة فأنت معتكف، أنت تركت دكانك و مكتبك و تجارتك و بيتك، البيت فيه مقاعد وثيرة، وفيه أركان في البيت مسلية، هناك أولادك بين يديك، هناك مطبخ، هاوت قهوة، هاتوا شاي، هنا في المسجد لا يوجد شيء من هذا، تركت البيوت جئت بيت الله عز وجل، طبعا

((إن بيوتي في الأرض المساجد، زوارها هم عمارها))

الاعتكاف المستحب ليس له وقت محدود، فهو يتحقق بالمكث في المسجد مع نية الاعتكاف طالا الوقت أم قصر، نية الاعتكاف لماذا ؟ حتى إذا الواحد لا بيعة في المسجد، أو يلتقي مع شخص في المسجد، إذا التقى معه فهو غير معتكف، إذا نفينا المصلحة المادية و الأهداف الضيقة الدنيوية، طبعا الاعتكاف نيته التقرب إلى الله عز وجل، و يثاب ما بقي في المسجد، فإذا خرج منه ثم عاد إليه جدّد النية إن قصد الاعتكاف، فعن يعلى بن أمية قال

((إني لأمكث في المسجد ساعة ما أمكث إلا لأعتكف " قال عطاء: هو اعتكاف ما مكث فيه، وإن جلس في المسجد احتسابا للخير، فهو معتكف، وإلا فلا))

إذّا أءت في عبادة ما دمت في المسجد تصلي أو تذكر أو تقرأ القرآن أو تنتظر الصلاة، أو تحضر مجلس العلم.

قال: للمعتكف أن يقطع اعتكافه المستحب متى شاء، إذا كان نذرا فله ترتيب، أما إذا كان سنة فمستحب متى شاء، قبل قضاء المدة التي نواها، فعن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يعتكف صلى الفجر ثم دخل معتكَفه

((عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْتَكِفَ صَلَّى الْفَجْرَ ثُمَّ دَخَلَ مُعْتَكَفَهُ قَالَتْ وَإِنَّهُ أَرَادَ مَرَّةً أَنْ يَعْتَكِفَ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ قَالَتْ فَأَمَرَ بِبِنَائِهِ فَضُرِبَ - مثل خيمة صغيرة - فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ أَمَرْتُ بِبِنَائِي فَضُرِبَ قَالَتْ وَأَمَرَ غَيْرِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبِنَائِهِ فَضُرِبَ فَلَمَّا صَلَّى الْفَجْرَ نَظَرَ إِلَى الْأَبْنِيَةِ فَقَالَ مَا هَذِهِ آلْبِرَّ تُرِدْنَ قَالَتْ فَأَمَرَ بِبِنَائِهِ فَقُوِّضَ وَأَمَرَ أَزْوَاجُهُ بِأَبْنِيَتِهِنَّ فَقُوِّضَتْ ثُمَّ أَخَّرَ الِاعْتِكَافَ إِلَى الْعَشْرِ الْأُوَلِ يَعْنِي مِنْ شَوَّالٍ))

(رواهأبو داوود)

المرأة أحيانا تتخذ حتى من العبادات مظاهر، البر أردتن، قالت عائشة، فأمر ببنائه فقوض، وأمر أزواجه ببنائهن فقوضن، ثم أخر الاعتكاف إلى العشر الأول من شوال " معناه أن النبي عليه الصلاة

والسلام ليس مثل رمضان ليس كالصوم، ممكن أن الإنسان لو قال: أنا أعتكف عشرة أيام، ثم رأى أن ينهي اعتكافه قبل مضي المدة لا عليه.

شروط الاعتكاف، أن يكون مسلما مميِّزا طاهرا من الجنابة و الحيض و النفاس، فلا يصح الاعتكاف لا من كافر و لا من صبيّ غير مميز و لا من جنب و لا من حائض ولا من نفساء، مسلم مميز طاهر من الجنابة، هذه شروط الاعتكاف.

أركانه ؛ المكث في المسجد بنية التقرب غلى الله تعالى، فلو لم يقع المكث في المسجد، أو لم تحدث نية الطاعة لا ينعقد الاعتكاف، المكث مع النية، و النية كما قلنا: قصد القلب، عزم القلب على فعل الطاعة.

وأما في المسجد فقال تعالى:

(وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ)

(سورة البقرة)

ووجه الاستدلال أن الاعتكاف في الأصح وفي الأعم الأغلب ينبغي أن يكون في المساجد، الأصل في الاعتكاف أن يكون في المساجد، أما في غير المساجد فنكون قد أعطينا الاعتكاف معنى أوسع، كما قلنا في الفلاة أو شعب م شعاب الجبل، أو في غرفة نائية في البيت، أو في مكتبة، فإذا وسّعنا معنى الاعتكاف يمكن أن يكون في غير المساجد.

المعتكِف إن صام فصومه حسن، و إن لم يصم فلا شيء عليه، يمكن أن تعتكف خارج رمضان و أن تأكل، فروى البخاري

((عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ عُمَرَ سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ كُنْتُ نَذَرْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ أَعْتَكِفَ لَيْلَةً فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ قَالَ فَأَوْفِ بِنَذْرِكَ))

(رواه البخاري)

ففي أمر النبي صلى الله عليه و سلم له بالوفاء بالنذر دليل على أن الصوم ليس شرطا لصحة الاعتكاف، إذ أنه لا يصح الصيام في الليل، الصوم ليس من لوازم الاعتكاف، و سئل سيدنا عمر بن عبد العزيز فقال: ليس على المعتكفة صيام إلا تجعله على نفسها نذرا " والحسن البصري قال: من اعتكف من غير صيام أجزأه ذلك " و المعتكف إن شاء صام وإن شاء أفطر، طبعا هذا الكلام خارج رمضان، أما في رمضان طبعا الصيام فرض، إذا قلت امرأة معذورة ليس لها حق أن تعتكف في المسجد، لأنه لا يصح أن تكون موجودة في المسجد، كان عليه الصلاة و السلام إذا أراد أن يعتكف صلى الفجر ثم دخل معتكفه، هذا البدء الطبيعي للاعتكاف.

يستحب للمعتكف أن يكثر من نوافل العبادات، ماذا يفعل الواحد في المسجد إذا كان معتكفا، أن يكثر من نوافل العبادات، و أن يشغل نفسه بالصلاة وتلاوة القرآن والتسبيح و التحميد و التهليل و التكبير و

الاستغفار و الصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم و الدعاء، ونحو ذلك من الطاعات التي تقرب إلى الله تعالى و تصل المرء بخالقه جل ذكره، إذًا المعتكف وظيفته أن يكثر من نوافل العبادات، صلاة، تلاوة تسبيح وتحميد وتهليل ، لا إله إلا الله، تكبير استغفار، صلاة على النبي صلى الله عليه و سلم، والدعاء للمعتكف.

قال العلماء يمكن أن يدخل في الاعتكاف دراسة العلم، والله شيء جميل، قراءة كتب التفسير و الحديث، قراءة سير الأنبياء و الصالحين، إذا الواحد صعد إلى المكتبة فتح كتاب سيرة معناها معتكف، فتح كتاب تفسير، معناها معتكف، فتح كتاب فقه معناها معتكف، و المكتبة ضمن المسجد، الباب خارجي، إذًا هذه رحمة، قال: مما يدخل في هذا الباب دراسة العلم ن وقراءة كتب التفسير و الحديث و قراءة سير الأنبياء و الصالحين، و كتب الفقه و الدين.

يكره للمعتكف أن يشغل نفسه بما لا يعنيه من قول أو عمل، إذا فوت معه راديو لسماع الأخبار، هذه لا، صار بيتا، لم يعد معتكفا ن صلاة و تلاوة و ذكر ودعاء واستغفار و تحميد وحمد وتهليل و تكبير و الصلاة على النبي صلى الله ع ليه و سلم و الدعاء فلا مانع، هذا كله اعتكاف، أما أن يشغل نفسه بما لا يعنيه من قصد أو عمل طبعا هذا مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه و سلم

((عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ))

(رواه الترمذي)

يكره له الإمساك عن الكلام ظنا منه أن ذلك مما يقرب إلى الله عز وجل، صيام الكلام ليس واد إطلاقا، ليس في شرعنا صيام الكلام، أما قوله تعالى:

(إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً (26))

(سورة مريم)

هذا في شرع من قبلنا، أما في شرعنا صيام الكلام ليس واردا إطلاقا، الدليل

((عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ بَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ فَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا أَبُو إِسْرَائِيلَ نَذَرَ أَنْ يَقُومَ وَلَا يَقْعُدَ وَلَا يَسْتَظِلَّ وَلَا يَتَكَلَّمَ وَيَصُومَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْهُ فَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ))

[رواه البخاري]

أحيانا يقول لك:واللهِ أنا يتيم، عمره خمسة و أربعون و يقول: أنا يتيم، فعليه الصلاة و السلام قال، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ حَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَامٍ وَلَا صُمَاتَ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ

[رواه أبو داوود]

واحد عمره خمسة عشر سنة بم يعد يتيما، كلمة يتيم تعني عمره سنتان أو ثلاثة أو أربعة، دون البلوغ، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ حَفِظْتُ

((عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَامٍ وَلَا صُمَاتَ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ))

[رواه أبو داوود]

في الإسلام لا يوجد صوم عن الكلام إطلاقا، لأن البيان الله عز وجل هذه نعمة كبيرة أنعم الله بها على الإنسان.

ماذا يباح للمعتكف ؟ قال: يباح للمعتكف خروجه من معتكفه، لتوديع أهله كما فعل النبي

((عليه الصلاة و السلام، عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْتَكِفًا فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلًا فَحَدَّثْتُهُ ثُمَّ قُمْتُ فَانْقَلَبْتُ فَقَامَ مَعِي لِيَقْلِبَنِي))

أي ليودعني إلى البيت

((وَكَانَ مَسْكَنُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ فَمَرَّ رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَارِ فَلَمَّا رَأَيَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْرَعَا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ فَقَالَا سُبْحَانَ - معقول - اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا أَوْ قَالَ شَيْئًا))

[رواه البخاري]

فإذا النبي سيد الخلق المعصوم الذي يوحى إليه لما رآه أصحابه مع زوجته صفية خاف أن يقع في نفوسهم شيء، فأنت إنسان عادي إذا فعلت شيئا يوجب التهمة، واتهمك الناس فلا تلم أحدا على ذلك، ابتعد عن مواطن التهمة، بيّن ووضِّح، لو فرضنا أن واحدة زوجها مسافر، و لها أخ قلما يأتي إليها، في غيبة زوجها بدأ الأخ يتردد إليها، ماذا يمنع أن تقول للجيران هذا أخي، أنا مرة كنت في محل تجاري، هذا المحل صاحبه رجل ديِّن، جاءه شخص آخر ملتحي عليه سماء الصلاح، فأنا جالس في المكتب الداخل، تأتي امرأة فيخف صاحب المحل لاستقبالها، نسمع كلاما فيه مودة، اشتقنا لكم لم، نعد نراكم، رأيت هذا الزائر قد تغير لونه، هذا معقول، إنسان يدير حديثا مع امرأة في مودة و في سؤال عن صحتها وعن الغيبة طالت، فأنا أحسنت الظن بصاحب المحل، جزمت أنها أخته، طبيعية جدا، أما أنت في محل بيع أقمشة و دخلت امرأة و تقول لها: اشتقنا لك، هذه لا تضبط، فإذا كان الرسول وهو سيد الخلق و حبيب الحق بيّن ووضح، يا إخوان، أكمل موقف و أذكى موقف أن تبين ذلك، لئلا تدع الناس يتهمونك، فإن اتهموك فأنت المذنب، هذا قول سيدنا علي

((لا تضع نفسك موضع التهمة ثم تلوم الناس إذا اتهموك))

مشكلة، قاعد وراء مكتب صديقك، و الباب مفتوح مملوء بالأموال، تريد الصرافة، طالعت خمسمائة وضعتها في الدرج أنت تأخذ المئات فلم تجد هذه مشكلة، استأذنه، اسمح لي أصرف هذه، ما هذه الكلفة، لعل يأتي وارد، لو فرضنا نقص الصندوق مبلغ صار عنده شاهد أنه صديقي فتح الدرج، إياك أن تفعل شيئا تتهم به، هذه قاعدة، انظر غلى موقف النبي، زوجته و سيد الأنبياء و رسول و نبي و معصوم و قال لهم: هذه زوجتي

((فَقَالَا سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا أَوْ قَالَ شَيْئًا))

هناك واحد من إخواننا عنده كم محل من الحلويات، طلب من معمل زبدة أن يأتيه بعدد من القوالب، فقال له: أريد مائة قالب، جاء صاحب المعمل وضع الكمية و ذهب، عدّهم وجدهم تسعة و تسعين، اقترب على معطف أحد العمال وجد في الجيب قالب زبدة، طبعا غلا و اتهم هذا الصانع بسوء الائتمان و زمجر و هم أن يطرده، لكن قال لي: إن الله هدأني، ذهب إلى صاحب المعمل ليحاسبه، قال له: بعثنا لك مائة قالب، اشترى صانعك قالبا هات ثمن التسعة و التسعين، الصانع مخطئ، كان لا بد أن يبلغ صاحب المحل، أنا أقول لكم أحيانا يقع طلاق تنفصم شركة لعدم التبيين، يكون جاء شخص للشريك وضع عنده مبلغ أمانة، ما قال للشهود، بعد يومين أما الشريك الآخر جاء الشخص أعطاه مبلغا، لم يسجل شيئا، ما هذا، يغلي، لم يسجل، ما سجل، محاسب لا يوجد شيء، هو دفع أمانة وضعت عنده مؤقتا، لو كان بلغ يا فلان وضع عندنا من أسبوع أمانة لفلان و ها أنذا أعطيه إياه، بكل علاقاتنا الاجتماعية و المادية و القرض و الدين و الأمانة، كله بين، اجعل شعارك البيان يطرد الشيطان، إذًا خروجه من معتكفه لتوديع أهله، و ترجيل شعره، إذا واحد معتكف لا بد أن يخيف، لا بد أن تخاف منه، إذا الواحد نظم شعره، لا مانع، ترجيل شعره و حلق رأسه وتقليم أظافره، وتنظيف بدنه من الشعر و الدرن ولبس أحسن الثياب و التطيب بالطيب، شيء جميل جدا، و أنت معتكف، حالق و مرتب و معطر، مهفهف و لابس، أنت مع الله، أنا كنت أسمع أن هناك من يصلي في الليل يلبس ثيابا حسنة و يتطيب و يقرأ القرآن، حتى في العلاقة مع الله الأكمل أن يكون الوضع مقبولا.

الشيء الثالث الخروج للحاجة التي لا بد منها

((عَنْ عُرْوَةَ أَنَّهُ سُئِلَ أَتَخْدُمُنِي الْحَائِضُ أَوْ تَدْنُو مِنِّي الْمَرْأَةُ وَهِيَ جُنُبٌ فَقَالَ عُرْوَةُ كُلُّ ذَلِكَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَكُلُّ ذَلِكَ تَخْدُمُنِي وَلَيْسَ عَلَى أَحَدٍ فِي ذَلِكَ بَأْسٌ أَخْبَرَتْنِي عَائِشَةُ أَنَّهَا كَانَتْ تُرَجِّلُ تَعْنِي رَأْسَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهِيَ حَائِضٌ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَئِذٍ مُجَاوِرٌ فِي الْمَسْجِدِ يُدْنِي لَهَا رَأْسَهُ وَهِيَ فِي حُجْرَتِهَا فَتُرَجِّلُهُ وَهِيَ حَائِضٌ))

[رواه البخاري]

يمكن أن يقضي الحاجة في بيته مثلا، و البيت جنب المسجد، خروج المعتكف لحاجة لا بد منها، لو فرضنا مثلا غفل نام قليلا فاحتلم، لا بد أن يغتسل، له أن يذهب إلى البيت و يغتسل و يعود إلى معتكفه، أجمع العلماء على أن للمعتكف أن يخرج من معتكفه للغائط و البول لن هذا مما لا بد منه، ولا يمكن فعله في المسجد، و في معناه الحاجة إلى المأكل والمشرب، إذا لم يكن له من يأتيه به فله الخروج إليه، يمكن أن تذهب لتتغدى و ترجع، تتعشى و ترجع، إذا أتوا لك، طبعا سندوش و ليس تسقية و شغلات، تكبه على السجاد، تعمل لن مشاكل، مبلول، إذا أكل لطيف خفيف ممكن أن تأكله في الجامع، و إلا اذهب إلى بيتك.

إذا كان هناك دورات، سمعت أن بعض البلدان هناك أماكن للاغتسال في المساجد، ماء ساخن، و ترتيبات، لا مانع، لكن البيت الحرام شيء لطيف دورات المياه خرج البيت الحرام، وضوء في البيت الحرام لا يوجد، ولا هناك دورات مياه.

قال: إذا اعتكف الرجل فليشهد الجمعة و ليحضر الجنازة و ليعن المريض، و ليأت أهله يأمرهم بحاجته وهو قائم، دخل على الباب: هيئوا لنا طعاما، الحاجة الفلانية، له أن يحضر جنازة و يشهد الجمعة ويعود المريض، وليأت أهله يأمرهم بحاجته.

وعن قتادة أنه كان يرخص للمعتكف أن يتبع الجنازة و يعود المريض ولا يجلس " إن جلس صار هناك خلاف الاعتكاف، على الواقف.

الآن، وله أن يأكل و يشرب في المسجد و ينام فيه مع المحافظة على نظافته و صيانته، هذا مباح للمعتكف.

الآن الذي يبطل الاعتكاف، الخروج من المسجد لغير حاجة عمدا، بلا سبب، ضاق خلقه، معناه انتهى، خروجه من المسجد عمدا بلا عذر ولا سبب، هذا الخروج و لو كان قليلا يبطل اعتكافه، بطل المكث في المسجد، والردة طبعا لمنافاتها للعبادة،

(لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ)

(سورة الزمر)

إذا الإنسان شك في هذا الدين انتهى اعتكافه، وذهاب العقل، بجنون أو سكر، و الحيض و النفاس، لفوات شرط التمييز، و الطهارة من الحيض و النفاس، هذه كلها تبطل الاعتكاف.

الآن عندنا قاعدة في الفقه ؛ إذا الإنسان شرع في عبادة نافلة، ثم قطعها انقلبت إلى عبادة واجبة، من شرع في الاعتكاف متطوعا ثم قطعه استحب له قضاؤه و قيل: يجب، واختلف أهل العلم في المعتكف إذا قطع اعتكافه قبل أن يتمه على ما نوى، قال مالك: إذا قطع اعتكافه وجب عليه القضاء، و احتجوا

بالحديث أن النبي صلى الله عليه و سلم لما خرج من اعتكافه فاعتكف شهرا من شوال " العبادة لعظمتها إذا بدأت بها ثم تركتها عليك أن تعيدها، كانت نفلا فأصبحت واجبا.

المعتكف إذا اعتكف من نذر: من نذر أن يعتكف يوما أو أياما ثم شرع فيه وأفسده وجب عليه قضاؤه بالإجماع، متى قدر عليه باتفاق الأئمة فإن مات قبل أن يقضيه لا يُقضى عنه، إذا كان الاعتكاف النذر هذا قضاؤه واجب، أما إذا اعتكاف سنة قضاؤه بعضهم قال واجب، و بعضهم قال مستحب.

من نذر الاعتكاف في المسجد الحرام أو النبوي أو الأقصى وجب عليه وفاؤه بنذره في المسجد عينه، بالحرام، بالحرام، بالنبوي بالنبوي، بالأقصى بالأقصى، الأقصى حتى يفتحه الله علينا، لقول النبي عليه الصلاة و السلام

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى))

[رواه البخاري]

الآن الحكم الثاني أما إذا نذرت الاعتكاف في غير هذه المساجد الثلاثة فلا يجب الاعتكاف في المسجد الذي عيّنته، أيّ مسجد غير هذه الثلاثة كلها سواء، لو قلت: أريد أن أتكف في الجامع الأموي في حلب، أموي الشام ماشي الحال، إذا نويت و عينت مسجدا غير الثلاثة يجزئك أن تعتكف في أي مسجد آخر، هذه قاعدة، أما إذا عينت المسجد الحرام أو المسجد النبوي أو الأقصى لا بد من أن تعتكف في أحد هذه المساجد بحسب ما عينت، ثبت عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ))

[رواه البخاري]

ألف بمائة، و الباقي عادي.

الآن من نذر الاعتكاف في المسجد النبوي قال: جاز له أن يعتكف في المسجد الحرام، النبوي لك أن تعتكف في الأهم، أما إذا نويت في الحرام لا يجزئك إلا أن تعتكف في المسجد الحرام.

ملخص الدرس بشكل سريع، الاعتكاف انقطاع إلى الله،الاعتكاف خروج من هموم الدنيا و من متاعبها و من مشكلاتها ومن مقلقاتها ومن همومها و من أحزانها، الاعتكاف خلوة مع الله، معناه الواسع أي انقطاع إلى الله عز وجل اعتكاف، معناه الضيق أن تلزم المسجد، المعنى الواسع في المسجد أيُّ دخول للمسجد بنية التقرب إلى الله بأداء صلاة لحضور مجلس علم، أو لقراءة قرآن أو لذكر، حتى لو طالعت كتب التفسير و كتب الحديث و الفقه و كتب السير ة وأي كتاب يمت إلى الدين بصلة، فأنت معتكف، أنت الآن في عبادة، دخلت إلى بيت من بيوت الله تبتغي وجه الله، تبتغي الصلاة، و تبتغي الذكر و

التلاوة و الدعاء والاستغفار و التحميد و التهليل و التكبير، تبتغي طلب العلم، سماع درس علم، مطالعة كتاب، أنت في بحبوحة الله عز وجل وفي ضيافة الله.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (058) :ما كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم في العيد.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-03-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم...

العيد على الأبواب ـ كما يقولون ـ والأعياد في حياة المسلمين لها معنىً خاص غير المعنى الذي عند أهل الدنيا، فلو دققتم في الأعياد الإسلامية لوجدتموها تأتي عقِب عبادة ؛ عقب الصيام، وعقب الحج، إذاً ومن سمات العيد الفرح، فما الموضوع الذي ينبغي أن يُفْرحنا في العيد، عامَّة الناس يفرحهم العطلة، وأكل الثريد، ولبس الجديد، والزيارات، واللقاءات، والسهرات، والحفلات، هذا الذي يفرح عامة الناس، لكن لو أردنا المعنى الإسلامي للعيد الحقيقة الإنسان حينما يؤدي عبادة كبرى من عبادات الإسلام، ويوفَّق إلى أدائها، وإلى قطف ثمارها، وإلى تحقيق الغاية منها، ينبغي أن يفرح، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

)فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا(

(سورة يونس: من آية " 58 ")

وأنا أقول لكم دائماً: قل لي ما الذي يفرحك أقل لك مَن أنت ؛ ما الذي يفرحك ؟ يفرحك قبض المال ؟ أنت من أهل الدنيا، تفرحك المراتب العليا، أنت من أهل الدنيا، لن تكون من أهل الله، ولا من المؤمنين الصادقين، ولا من المتقين إلا إذا كان موضوع فرحك متعلّقاً بالآخرة، والدليل.

)تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83)(

(سورة القصص)

إذاً الحقيقة العيد أصبح كما يسمونه بالعصر الحديث (فلكلور) أو عادات متوارثة، تجد الإنسان غير صائم ولكنه يعيد، ويأتي بحلوى على البيت، ويعمل زيارات، ويلبس ثياب جديدة وهو ما صام رمضان إطلاقاً، الصيام كله لا يقتنع به ومع ذلك يمارس الطقوس التي يمارسها الناس في العيد، فنحن كمسلمين، كمؤمنين، كطلاَّب عِلم ينبغي أن نفهم معنى الفرح في العيد. الحقيقة كما قال عليه الصلاة والسلام

((للصائم فرحتان فرحة يوم يفطر وفرحة يوم يلقي الله))

(من الجامع لاحكام القرآن)

يوم يفطر بماذا فرح، أنه انتهى قيد الصيام ؟ لا، الصيام محبَّب، لكنه فرح أن الله سبحانه وتعالى وفَّقه لأداء هذه العبادة، فرح أن الله سبحانه وتعالى أكرمه بصيامٍ وقيام، أكرمه بأنه لزم بيوت الله عزَّ وجل

في رمضان، إذاً أول شيء: العيد في الإسلام يأتي عقب عبادةٍ كبيرة، وإذا كان في العيد فرح فهو فرحٌ لأداء هذه العبادة، والنبي عليه الصلاة والسلام ربما استنبط هذا من قول الله تعالى:

(وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)(

(سورة البقرة)

والشكر دائماً يأتي بعد العطاء، معنى ذلك أن الله عزَّ وجل أكرمكم بصيام رمضان، وأكرمكم بقيامه، وأكرمكم بمعرفته والإقبال عليه، شعرتم أنكم في نعمةٍ كبرى، عندئذٍ كبَّرتم..

(وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)(

العيد كله مأخوذٌ من هذه الآية:

(وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)(

هذا هو المعنى الإسلامي في العيد، يأتي بعد عبادةٍ، وبعد توفيق الله في أداء العبادة، وبعد أداء العبادة كما أراد الله عزَّ وجل، إذاً هناك شعور بالإنجاز، شعور بالتفوق، بعدئذٍ يأتي العيد ليكون تعبيراً عن نجاح الإنسان في عبادته.

لاحظ الطلاَّب لهم أعياد خاصة، فعندما يقدم بكالوريا، ويأخذ مائتين وعشرة، يمضي جمعة وكأنه يمشي فوق الأرض، وإذا دخل جامعة، ونجح من أول دورة، وما كان حامل أي مادة ـ طلع ذكر وليس أنثى ـ ما كان حامل يحس بفرح، هذا عيده الحقيقي بالنسبة له طبعاً. المسلم عيده الحقيقي إذا وفِّق في صيام رمضان، أنا أضرب مثل من واقع الطلاب، لما ينجح بتفوق، قد يُبَلَّغ بالنتيجة في سبعة عشرة آب، ثمانية عشر أيلول يبلَّغ النتيجة، ثمانية عشر أيلول هو عيد الطالب، طبعاً لما يبلغ النتيجة، يبلغ أهله، يأتي المهنئون، يعمل ولائم أحياناً، يعمل نزهة، يعبِّر عن فرحه، هذا الحقيقة، فقل لي ما الذي يفرحك أقل لك مَن أنت، المؤمن يفرح بطاعة الله، وأهل الدنيا يفرحون بالدنيا.

في معنى دقيق أرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقني إلى توضيحه، العظيم عطاؤه لا ينقطع، فإذا أعطى عطاءً منقطعاً لا يسمى هذا عطاء، فإذا فرحت بشيء ينتهي عند الموت، هذا فرح ليس صحيحاً، ليس فرحاً حقيقياً، لأن الإله العظيم إذا أعطى أدهش، عطاؤه إلى أبد الآبدين، واحد يقول لك: خذ اركب بالسيارة ربع ساعة فقط، هذا ليس إكراماً، أما إذا قدِّمت لك هدية على طول، هذه هي الهدية، أما ربع ساعة ليس هذا عطاءً، والدنيا كلها لا تزيد عن ساعة..

(كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ (

(سورة المؤمنين)

في آية ثانية:

(كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ (

(سورة يونس: من آية " 45 ")

الدنيا كلها ساعة، إذاً حينما تفرح بالدنيا فأنت لا تعرف الله، والنبي الكريم يقول في بعض خطبه:

((من عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء))

أنا أعتقد الأخ المؤمن إذا صلَّى وخشع في صلاته، أو انهمرت دموعه في صلاته، يشعر بفرح كبير، إذا ذهب إلى الحج أثناء الطواف شعر بالخشوع، هذا طواف الحمد لله، دخل في طاعة، أثناء الطواف شعر بخشوع، هذا هو الطواف الحمد لله، دخل في طاعة، أثناء السعي شعر بخشوع، في عرفات انهمرت دموعه غزيرةً، شعر بالإقبال على الله، هذا هو الفرح، فرحه بطاعة الله عزَّ وجل.

فنحن لسنا كعامة الناس ؛ نفرح بلبس الجديد، وأكل الثريد، وأن نفعل ما نريد، ففرح المؤمنين في العيد لأن الله سبحانه وتعالى وفَّقهم فصاموا رمضان، صاموا نهاره وقاموا ليله، وقفزوا ـ إن صح التعبير ـ قفزةً نوعيةً في معرفة الله وفي الإقبال عليه.

* * * * *

ماذا كان يفعل النبي في الأعياد ؟ أولاً صلاة العيدين...

كان عليه الصلاة والسلام يلبس أجمل ثيابه في العيد. الأصول والكمال أن الإنسان يرتدي ثياب في العيد جديدة، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام من سنته أو أنه كان إذا حضر الوفود، أو كان يوم الجمعة ارتدى أجمل ثيابه، وكان عليَّة قومه يفعلون ذلك، كثير نلاحظ إخوان مؤمنين طيبين كثير، ومستقيمين لكن لا يهتمون بمظهرهم، فما السبب ؟! أنت تمثِّل دين، الآن سفير دولة مظهره الخارجي من حقه أم من حق دولته ؟ غير معقول، مرَّة رئيس وزارة ذهب لبلد غربي متقدِّم جداً بثياب العمل، ما استقبله رئيس الجمهورية، هذه إهانة للرئيس. فالنبي عليه الصلاة والسلام يرتدي أجمل ثيابه في العيد، والأكمل يوم الجمعة، والأكمل إذا في لقاءات، إذا في زيارات، أنت عند الناس مؤمن، أنت تمثِّل هذا الدين، فالعناية بالمنظر هذا من السنة، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((أصلحوا رحالكم وحسِّنوا لباسكم حتى تكونوا شامة بين الناس))

أما مؤمن أثناء العمل لو لبس ثياب مبتذلة، هذا الشيء مما يرفع مقامه عند الله، المتبذِّل في ثيابه في العمل معنى هذا متواضع، كل إنسان له عمل، وفي ثياب خاصة بالعمل، فأول شيء بالسنة أنه كان عليه الصلاة والسلام يلبس أحسن ثيابه في كل عيد.

وعن الحسن السبط ـ أي ابن ابنته ـ قال:

((أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في العيدين أن نلبس أجود ما نجده، وأن نتطيب بأجود ما نجد، وأن نضحي بأثمن ما نجد))

(رواه الحاكم وفيه إسحاق بن برزخ)

وكان صلى الله عليه وسلَّم يلبس لهما ـ للعيدين ـ أجمل ثيابه، وكان له حُلَّةٌ يلبسها للعيدين والجمعة ـ خاصَّة ـ أخ من إخواننا من مدة كان جالس هنا قال لي: ما حكم من يأتي إلى الجامع بالبيجاما ؟ والله معه حق، ملاحظة والله يجب أن تقال، ولو كان جار المسجد، هذا شيء يعبِّر عن استخفافه بهذا المقام وهذا البيت، فارتداء ثياب مقبولة، أنيقة، أنا أقول مقبولة حتى لا يكون هناك تكلُّف.

من السنة أيضاً الأكل قبل الخروج للفطر دون الأضحى، يسنُّ أكل تمرات وتراً قبل الحروج إلى الصلاة في عيد الفطر، يجب أن تأكل شيئاً قبل أن تذهب، لأن اليوم عيد، وأنت فطرت، فينبغي أن يكون هناك مظهر للفطر، هو أن تأكل، فإذا أكل الإنسان شيئاً قبل الصلاة هذا من السنة، أيمكن بدلاً منها قطعة من المعمول ؟ معمولة ماشي الحال، تمرة، معمولة، سكَّرة، أي شيء، كأس شراب، يسن أكل تمراتٍ وتراً قبل الخروج إلى صلاة عيد الفطر، وتأخير ذلك في عيد الأضحى، بالعكس، السنة أن تأكل بعد الصلاة في عيد الأضحى، وأن تأكل قبل الصلاة في عيد الفطر.

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال

((كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل تمراتٍ ويأكلهن وتراً))

أي إما واحدة، أو ثلاثة، أو خمساً، وأنت طالع.

وكان صلى الله عليه وسلم لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل، ولا يأكل يوم الأضحى حتى يرجع، هذه السنة ؛ بالأضحى بعد أن تعود، بالفطر قبل أن تذهب. إذاً ارتداء أجمل الثياب، ثم أن تأكل شيئاً قبل أن تذهب للصلاة.

وفي الموطأ عن سعيد بن المسيب أن الناس كانوا يؤمرون بالأكل قبل الغدو يوم الفطر. لأنك أنت اليوم أفطرت، فإذا بقيت صائم معنى هذا أنك لم تبالِ بالعيد.

وقال ابن قدامة: لا نعلم في استحباب تعجيل الأكل يوم الفطر اختلافاً، تعجيل الأكل قبل الفطر هذا شيءٌ مُجْمَعٌ عليه.

* * * * *

الآن، الخروج إلى المصلى...

سألني البارحة إنسان بعد الخطبة يوم الجمعة، قال لي: ما حكمة الصلاة في المصلَّى يوم العيد ؟ سؤال، قلت له: في الإسلام مصلَّى، هو مسجد صغير جداً في الأحياء الصغيرة، هذا المصلَّى تؤدَّى فيه الصلوات الخمس، ممكن بأي بناية تجارية غرفة مصلَّى، في عندنا بالحلالات مصلى، هل فيه خطبة ؟ ما فيه خطبة هو فقط مصلى، في السليمانية بالحريقة مصلى صغير ليس هناك خطيب، ولا خطبة، إلا أن التجار يؤدون الصلوات الخمس في هذا المصلى، هذا اسمه مصلى.

وفي عندنا مسجد، هذا المسجد تقام فيه الصلوات الخمس وخطبة الجمعة، هذا تابع للحي، لكن في عندنا حكم فقهي دقيق جداً، لو فرضنا أحد أحياء دمشق فيه أربع مساجد، وأحد هذه المساجد يتَّسع لأبناء الحي جميعاً، يجب الصلاة في مسجدٍ واحد، من أجل ماذا ؟ من أجل اجتماع الكلمة، ووحدة الصف، ووحدة التوجيه، لكن هذا الشيء في الشام غير واقع، لأن استيعاب جميع المساجد مجتمعةً، لا تستطيع أن تستوعب إلا خُمس سكان دمشق، الآن اجمع كل الجوامع تقريباً ثلاثمائة جامع في دمشق، لو كل واحد فيه ألف شخص، ثلاثمائة ألف، ألفين، ستمائة ألف ثلاث آلاف، تسعمائة ألف، ثلاثة آلاف وخمسمائة، مليون، الشام فيها خمس ملايين، خمسة في المساء فقط، في النهار ستة، دمشق، معنى هذا أن كل المساجد أقل من أن تستوعب أبناء دمشق، إذاً الصلاة صحيحةٌ يوم الجمعة في كل مساجد دمشق.

أما لو تصورنا قرية ـ مثال أوضح ـ فيها ثلاثة مساجد ؛ واحد قبلي، وواحد شرقي، وواحد غربي، وفي أحد هذه المساجد يتسع لسكان القرية جميعاً، فلا تصح الصلاة إلا في واحد، هذا الذي قالوا عنه: الجمعة لمَن سبق، هذا الذي يدعو بعض الإخوة الشوافعة أن يصلوا الظهر، يخافوا أن تكون الصلاة غير صحيحة، والحكم انتهى الآن لأن استيعاب المساجد أقل بكثير، من أجل ماذا ؟ من أجل وحدة الأمة.

إذاً بكل حي في جامع، أما صلاة العيد ليست لحيٍ بعينه بل لأهل البلدة مجتمعين، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام كان يصلي العيد في الفلاة، بساط البرية واسع، مهما كثر الناس هم في المصلّى، أيضاً من أجل وحدة الكلمة، والحكم الذي تعرفونه سابقاً أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((صلوا وراء كل برٍ وفاجر))

(من الجامع الصغير: عن " أبي هريرة ط)

لو دخلت إلى مسجد وتعلم أن الإمام ليس مستقيماً، ليس ماله حلالاً، أنت لست مكلفاً أن تمتنع عن أن تصلي وراءه، لست مكلفاً أن تقول للناس: هذا الإمام أخلاقه كذا وكذا، هذا يسبب فتنة في المجتمع، حفاظاً من النبي على وحدة المسلمين، وعلى حسن العلاقة بينهم قال:

((صلوا وراء كل برٍ وفاجر))

(من الجامع الصغير: عن " أبي هريرة ط)

لذلك صلاة العيد يجوز أن تؤدّى في المسجد، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أدَّاها في المصلّى خارج البلدة، وهذا الأداء أفضل ما لم يكن هناك عُذْرٍ كمطرٍ ونحوه، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي العيدين في المصلّى، ولم يصلِ العيد بمسجده إلا مرةً لعذر المطر..

فعن أبي هريرة رضي الله عنه:

((أنه أصابهم مطرٌ يوم العيد، فصلى بهم النبي صلاة العيد في المسجد))

* * * * *

الآن، مخالفة الطريق...

ذهب أكثر أهل العلم إلى استحباب الذهاب إلى العيد من طريقٍ، والرجوع إلى البيت من طريقٍ آخر، فالحكمة أن تلتقي بأكبر عددٍ ممكنٍ من إخوتك المؤمنين، وأن تسلم عليهم، أن تأتي إلى المسجد من طريق وأن تعود إلى البيت من طريقٍ آخر، والحكمة أن يكثر لقاؤك مع إخوانك المؤمنين.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه

((أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج إلى العيد يرجع في غير الطريق الذي خرج فيه))

(رواه أحمد ومسلم والترمذي)

طبعاً في حالات ولكنها نادرة أن يكون البيت بجانب الجامع، ولا يوجد إلا طريق واحد للخروج والرجوع، قال: ويجوز الرجوع في الطريق الذي ذهب منه، في حالات ممر إجباري ما في غيره.

* * * * *

وقت صلاة العيد ارتفاع الشمس قدر ثلاثة أمتارٍ إلى الزوال، الزوال يعني إلى قُبَيل الظهر، من ارتفاع الشمس ثلاثة أمتار إلى قبيل الظهر هي وقت صلاة العيد، طبعاً نحن الآن في كل الإمساكيات مكتوبة صلاة العيد الساعة السادسة وستة وخمسين دقيقة، القضية منتهية.

قال: بعضهم قال قدر رمحين، وبعضهم قال قدر ثلاثة أمتار، تقريباً متعادلين، من الأحكام الفقهية يستحب تعجيل صلاة عيد الأضحى ليتثنى للمسلم أن يضحي بعد الصلاة، ويستحب تأخير صلاة الفطر ليتثنى للمسلم أن يدفع زكاة فطره قبل الصلاة، لأنه إذا صلَّى، انتهى قبول زكاة الفطر، فصلاة الفطر تؤخَّر، وصلاة الأضحى تقدَّم، تؤخر صلاة الفطر لعلة التوسعة في دفع زكاة الفطر، وتقدم صلاة الأضحى لعلة تمكن المسلم من أن يضحي بعد الصلاة.

* * * * *

صلاة العيدين بلا آذان، وبلا إقامة، وبلا نداء ـ الأصح ـ وكان عليه الصلاة والسلام يخطب خطبتين قائماً يفصل بينهما بجلسةٍ صغيرة.

صلاة العيد ركعتان على المذهب الحنفي، تكبِّر تكبيرة الإحرام، وتقرأ دعاء الثناء (سبحانك اللهم وبحمدك) وبعدها تكبِّر ثلاث تكبيرات مع الإمام، بين التكبيرتين سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ثلاثة، يقرأ الإمام الفاتحة، يقرأ سبح اسم ربك الأعلى، ويركع، ويسجد، ويقعد، ويقف، ويقرأ

الفاتحة، وهل أتاك حديث الغاشية، وبعدها يكبِّر ثلاث تكبيرات، بين كل تكبيرتين سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ثم يركع، ويسجد، ويقعد، هذه صلاة العيد على المذهب الحنفي.

لو أن إنسان ما كبَّر، ليس عليه شيء، لأن التكبير في صلاة العيد سنةٌ وليست واجب.

لم يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى سنةً قبل صلاة العيد ولا بعد صلاة العيد، لا في قبله سنة ولا في بعده سنة. عن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال:

((خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم العيد فصلى ركعتين لم يصل قبلهما ولا بعدهما))

(رواه الجماعة)

* * * * *

تصحُّ صلاة العيد من الرجال، والنساء، والصبيان لأنه حينما كان عليه الصلاة والسلام يأمر أصحابه أن يخرجوا إلى المصلى كانوا يخرجون مع نسائهم وأطفالهم، إذاً تصح صلاة العيد من الرجال والنساء والصبيان.

بالمناسبة، مرة زارنا أستاذ في الجامعة من كلية الشريعة، فحينما رأى مرافق المسجد، ثم وصل إلى مصلَّى النساء، دهِش أن هذا مصلى نموذجي، له باب مستقل بعيد بعداً شديداً عن المدخل الرئيسي، طبعاً من فضل الله نحن جهّزناه تجهيز كامل ؛ موضأة، ماء ساخن، ماء بارد، صوت يصل إلى هناك، فقال لي: ما الذي يمنع ألا يفتح هذا المصلى للنساء يوم الجمعة ؟ قلت: ليس هناك من مانع، فذكر فكرة لطيفة أنه لا تجب على النساء، لكن ليس ممنوعاً أن يحضرن الجمعة النساء.

فأنا خطر في بالي إن شاء الله بعد العيد إذا واحد جاء مع زوجته من مكان بعيد ممكن أن تدخل إلى مصلى النساء، تستمع للخطبة وتصلي، ليس واجباً عليها، لكن بالمقابل ليس ممنوعاً عليها أن تصلي صلاة الجمعة، وأيضاً صلاة العيد، ففي العيد سنفتح المصلى هكذا يجب، لأنه هكذا ورد أنه تصح صلاة العيد من النساء والصبيان، مسافرين كانوا أو مقيمين، جماعة أو منفردين، في البيت، أو في المسجد، أو في المصلى، حتى في البيت. في البيت أو في المسجد أو في المصلى، رجالاً ونساءً، شيباً وشبَّاناً، مسافرين ومقيمين، جماعةً ومنفردين، في البيت أو في المسجد أو في المصلى.

ومن فاتته صلاة العيد مع الجماعة صلاَّها في البيت ركعتين، قال البخاري: باب إذا فاته العيد يصلي ركعتين، وكذلك النساء، ومن في البيوت والقرى، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((هذا عيدنا أهل الإسلام))

فإذا نبهتم زوجاتكم أن يصلوا ركعتين بعد أن ترتفع الشمس قدر رمحين، واحد لسبب قاهر ما صلى صلاة العيد، يصليها في البيت ركعتين، طبعاً إذاً رجالاً ونساءً صبياناً، مسافرين ومقيمين، جماعة

ومنفردين، في البيت أو المسجد أو المصلّى. ومن فاتته الصلاة مع الجماعة صلاها في البيت ركعتين، وهذا ورد عند البخاري طبعاً طبعاً.

وأمر أنس بن مالك مولاهم ابن أبي عتبة بالزاوية، فجمع أهله وبنيه، وصلى كصلاة أهل المصر وتكبيرهم، إذاً صلاة العيدين تصلى بأي طريقة من الطرق.

الخطبة بعد صلاة العيد سنة والاستماع كذلك إليها. فعن أبي سعيدٍ قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يخرج يوم الفطر والأضحى إلى المصلّى وأول شيءٍ يبدأ به الصلاة، ثم ينصرف، فيقوم مقابل الناس والناس جلوسٌ على صفوفهم، فيعظهم ويوصيهم ويأمرهم.

هنا قصة لطيفة أرويها لكم. قال أبو سعيد: فلم يزل الناس على ذلك حتى خرجت مع مروان وهو أمير المدينة في أضحى أو في فطر، فلما أتينا المصلى إذا منبرٌ بناه، فإذا مروان يرتقيه قبل أن يصلي، فجذبت بثوبه فجذبني ـ ما رد علي وطلع ـ فخطب قبل الصلاة، فقلت له:

ـ غيَّرتم والله ؟

ـ فقال: يا أبا سعيد قد ذهب ما تعلم.

ـ فقلت: ما أعلم والله ؟!! خير مما لا أعلم ؟

ـ قال: إن الناس كانوا لا يجلسون لنا بعد الصلاة فجعلتها قبل الصلاة.

لكن الآن الحمد لله لا أرى واحد يخرج أليس كذلك ؟ لكن نحن الحمد لله في كل المسجد نصلي أولاً، ونستمع جميعاً إلى الخطبة، ولكن الخطيب يجب ألا يطولها على الناس يوم العيد، الناس فرحانين بالعيد والأهل ينتظرونهم، في خطب تظل ساعة ونصف، في خطب للثالثة إلا ربع مثل خطب الجمعة، كذلك في جامع (السيرانية) هذا لوحده خمس دقائق الخطبة، كل المصلين معهم الأهل بالسيارات، واللحمة جاهزة، فقط ينتظرون أن يفرج عنهم ليخرجوا إلى السيران، لا نريد جامع كهذا خمس دقائق، وفي جوامع الخطبة ساعة ونصف ساعتين، أما الوضع المناسب نصف ساعة، ثلاثة أرباع الساعة.

* * * * *

قضاء صلاة العيد...

حدثني أبو عمير بن أنس، حدثني عمومتي من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: أغمي علينا خلال شوال وأصبحنا صياماً، فجاء ركبٌ من آخر النهار، فشهدوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم رأوا الهلال بالأمس، فأمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفطروا، وأن يخرجوا إلى عيدهم من الغد، أي أنهم صلوا صلاة العيد في اليوم التالي جماعةً، هذه حالات نادرة، لو فرضنا نحن يوم ثلاثين ظنناه رمضان لسببٍ أو لآخر، ثم ثبت لدينا أنه كان أول أيام العيد، وعلمنا ذلك ظهراً، ماذا نفعل ؟ نفطر، وفي اليوم التالي نصلي صلاة العيد جماعةً هكذا فعل النبي عليه الصلاة

والسلام.

لكن أنا أرى أن على الإنسان صومكم يوم تصومون، لا يجوز للمسلم أن ينفرد لوحده بالإفطار ولا بالصيام، هذا يعمل فتنة كبيرة في البلد، أنت في بلد إسلامي، وفي قاضي شرعي، وبرقبته الفتوى، ارتاح، يثبت، نصوم، يقول لك: غداً عيد، عيد، هذا الأكمل، أما كنت أشعر كل سنة في عندنا فتنة، أخي صيامنا غير صحيح، لا حول ولا قوة إلا بالله، الآن على هذه أنت، دائماً في تشويش، صيامنا غير صحيح، عيدنا ظبط، ما ظبط، السعودية، الأردن، تركيا، لبنان، العراق هذه الفتنة كل سنة تعاد، الجواب الشافي: أنت مواطن مسلم في بلد مسلم في أولو الأمر هم المعنيون بإثبات هلال العيد وإثبات هلال رمضان. فارتاح وريِّح.. " صومكم يوم تصومون وفطركم يوم تفطرون ".

أنت مع المجموع وليس بآثم إطلاقاً، إلا في حالة نادرة جداً أن تكون وحدك في الصحراء، وما في معك مذياع، ورأيت الهلاك عليك أن تصوم، كنت وحدك في الصحراء ورأيت هلال شوال عليك أن تفطر، وهذه حالات نادرة جداً، أي صحراء هذه ؟ نحن نعيش ضمن خمس ملايين إنسان، وضمن أجهزة كلها تقول: غداً وغداً. يعني فهو كما قال عليه الصلاة والسلام:

((العيد أيام أكلٍ وشربٍ وبعال))

كل شيء له وقت مناسب، أحياناً تجد أشخاص يسلكون سلوكاً غير مناسب في وقتٍ غير مناسب، واحد خطب فتاة، أول يوم التقى معها قال لها: سنفكر بالموت. هذه ليس لها طعمة الآن، هي مقبلة على زواج مبارك ميمون، ومعلقة آمال، وتقول لها: نفكر بالموت يا بنت الحلال حتى لا نتعلق بالدنيا، إنها لم تشاهد منك شيء بعد حتى تتعلق بالدنيا، فكذلك أيام العيد ما هي أيام مآسي وأحزان، والموعظة بالموت، بل هي أيام فرح، فالإنسان من المناسب أن يكون بشوش، طليق، حتى في إخوان كرام إذا في بالبيت مشكلة يجمدها لبعد العبد، يريد أن يحاسب أولاده بعد العيد، هذه أيام سرور، أيام فرح، أيام جبر، أيام بشاشة، أيام مداعبة، ضحك، في أشخاص بالعيد يريد أن يضبط الأمور، ويريد أن يعمل إجراءات حازمة في البيت، هذه غير مناسبة، فلهوٌ:

((أيام اكلٍ وشربٍ وبعال))

هكذا قال عليه الصلاة والسلام.قال عليه الصلاة والسلام:

((يا أبا بكر إن لكل قومٍ عيداً وإن اليوم عيدنا))

قال من سنة الأعياد استحباب التهنئة بالعيد، فعن زبير بن نفير قال: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقوا يوم العيد يقول بعضهم لبعضٍ: تقبَّل الله منا ومنك. تقبل الصيام أو تقبل الحج. طبعاً الزيارة بالعيد واردة، ونحن من فضل الله حللناها بموضوع المعايدة في المسجد، كل إخواننا مجتمعين يأتون ثاني أيام العيد نلتقي، فكل علاقة، كل زيارة مسنونة نقضيها في هذا اليوم الثاني، والسنة بقي

علينا أن تزور الأرحام، له بنت أخت، له أخت، له عمة، له خالة في أطراف المدينة قد لا تلتقي بهم إلا في العيد، فهذا العيد أيضاً من مهمتك أن تصل رحمك في الأعياد.

مرة حكينا كلمة: أنه ليست صلة الرحم أن تزور فقط، أن تقدم هدية، أن تتفقد الأحوال أن تقدِّم بعض المساعدات إذا كان في حالة ضعف مادي، هذه الصلة الحقيقية، أما والله السلام عليكم، كيف الصحة؟ اليوم ما في شوب والحمد لله، بخاطركم مع السلامة، هذا الشيء ماذا قدمت ؟ إذا كان في أسرة فقيرة، لك أقرباء بحاجة إلى مساعدة، فالصلة تعني أوسع من الزيارة، تعني البذل والعطاء والزيارة.

إذاً استحباب التهنئة بالعيد، وفي سنة من أفعال النبي صلى الله عليه وسلم، فما من أيام يرتفع فيها أجر العمل الصالح كأيام العيد، لأنها أيام ـ كما يقال ـ أيام جبر، فالبذل، والعطاء، والتوفيق بين المتخاصمين في العيد مثلاً، تعرف أنه بين زوج وزوجته متحاربين، زوجة حردانة، ما في عمل أعظم من أن توفِّق بين الناس في أيام العيد، أن تجمع شمل هذه الأسرة، في خصومة بين أب وابنه، بين أخ وأخوه، بين زوجة وزوجها، بين جارين، بين أخوين، فالعمل الصالح في العيد له أجر مضاعف.

العمل الصالح، توفيق بين المتخاصمين، الزيارة، التهنئة، التكبير في أيام العيدين سنة، ففي عيد الفطر قال تعالى:

)وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)(

(سورة البقرة)

وفي عيد الأضحى قال:

)وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ (

(سورة البقرة: من آية " 203 ")

وجمهور العلماء على أن التكبير في عيد الفطر من وقت الخروج إلى الصلاة إلى ابتداء الخطبة، فقط. وفي رأي آخر: التكبير يوم العيد ـ يوم عيد الفطر ـ من ليلة الفطر إذا رأوا الهلال حتى يغدو إلى المصلى، وحتى يخرج الإمام بعيد الفطر، إما من وقت الخروج صباحاً إلى الصلاة، أو من وقت رؤية هلال شوال، إلى أن يصعد الخطيب إلى المنبر ويخطب، انتهى التكبير. لكن في عيد الأضحى التكبير في أيام التشريق الثلاثة، أي من وقت الوقوف بعرفة وحتى عصر رابع أيام العيد.

هذه بعض السنن التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتعلقة بالعيدين. نرجو الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا الله صياماً مقبولاً، ويرزقنا عيداً سعيداً، وأساس الفرحة في العيد كما قلت قبل قليل ـ فرحك بهذه الطاعة، و..

((للصائم فرحتان فرحة يوم يفطر وفرحة يوم يلقى الله عزَّ وجل))

(من الجامع لأحكام القرآن)

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (059) :توجيهات عامة إلى رواد المساجد - التزام مجالس العلم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-06-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام... من حينٍ لآخر أشعر بحاجةٍ إلى أن يكون موضوع الدرس متعلّقاً بمشكلاتٍ نعانيها في هذا المسجد، سبب جعل هذا الدرس حول هذا الموضوع أنني حينما درَّست الفقه فوجئت أن كل السُنَن، وكل المكروهات التي وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم، أساسها أن أحد أصحابه سَلَكَ سلوكاً غير مقبول فنبَّهه النبي عليه الصلاة والسلام، مكروهٌ مثلاً أن ترتدي ثوباً من دون أن تدخل يدك في أكمامه في الصلاة، وضع الثوب من دون أن ترتديه، فيه نوعٌ من الكبر، يبدو أن النبي عليه الصلاة والسلام رأى أحداً يفعل هذا من أصحابه فنبَّهه.

فالدعاة إلى الله، والعلماء، والأصح طلاب العلم حينما تظن أنك عالم فأنت جاهل، يقول عليه الصلاة والسلام في بعض ما يقوله:

((يظل المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل))

طلاب العلم الذين يدعون إلى الله، أو الدعاة إلى الله، هؤلاء بين رجلين ؛ الأول يلقي الدرس ويمضي، ولا يعنيه من أمر إخوانه شيئاً، يعنيه أن يجتمع الناس في درسه وأن يصغوا إليه، هذا المعلم يعلّم فقط، لكن المربي له علاقةٌ مع إخوانه ؛ في علاقة، في مودة، في تفقُّد أحوال، فلو أن المربي رأى من أحد إخوانه موقفاً مخالفاً للسنة، ينبغي أن يوجِّهه إلى ذلك وإلا وقعت الخيانة في الدعوة، الخيانة في الدعوة أن هذا المدعو ما دام يداوم، ويواظب، ويقدِّم آيات التعظيم، والاحترام، انتهى الأمر ولا يؤثر، أما هو ملتزم، غير ملتزم، مستقيم غير مستقيم، في بيعه وشرائه، في مشكلات لا يعنيه ذلك ولا يُعْنَى بهذه الموضوعات.

أنا أرى أن المربي أعلى عند الله درجةً من المعلِّم، لأن المربي يأخذ بيد إخوانه ليسلّكهم إلى الله عزَّ وجل، فلو أردنا أن نعالج بعض المشكلات التي تتراكم أحياناً فيما بين الإخوة الكرام.

أولاً: النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل))

(من مختصر تفسير ابن كثير: عن " السيدة عائشة ")

يعني أنت حينما تخرج من بيتك، وتتوجه إلى المسجد لتتلقى العلم، أو تطلب العلم، أو لتنشد الراحة النفسيّة، أو الطمأنينة القلبية، هذا عملٌ لا تعرف قيمته إلا بعد فوات الأوان، ورد في بعض الأثر " أن

الإنسان لو أنه يملك الدنيا بأكملها، وخير عند مجيء ملك الموت أن يدفع كل ما يملك نظير أن يؤخره ملك الموت ليعبد الله عبادةً واحدة ركعتين " يتمنى. فالإنسان حينما يحضر مجالس العلم يتزود بالعلم، لكن لا يعرف قيمة العلم إلا إذا خالط أناساً لم يطلبوا العلم، يجد الفظاظة، والغلظة، والوقاحة، وضيق الأفق، والأنانية، والحقد شيء لا يحتمل، يعني إنسان ممتلئ بالأقذار، إنسان ممتلئ بالموبقات، إنسان سفيه، على أناني، على انحراف، منحرف، على متكبِّر، معتد بنفسه، مشرك، يحب أن يحيا ويموت الناس، المؤمن الصافي لا يتحمَّل مثل هؤلاء، هذه قيمة حضور مجالس العلم، هذه قيمة تَلَقي دروس العلم، هذه قيمة عبادة الله عزَّ وجل.

وأقول لكم كلمة صادق فيها: إن لم تشعر ـ لا كبراً ـ ولكن إدراكاً أنت من نوع آخر، من مستوى آخر، رقيٌّ في الفكر، رقيٌّ في المشاعر، رقيٌّ في السلوك، انضباطٌ في اللسان، حركة الناس أصبحت مصدر سعادةٍ للآخرين، أصبحت مصدر طمأنينةٍ لهم، إن لم تكن كذلك فلست مؤمناً. إذاً هناك خيرٌ كبيرٌ كبير من سلوك طريق الإيمان، هناك سعادة لا توصف، هناك مكاسب جمَّة ينبغي أن نحافظ عليها.

الشيء الأول: يعني أحياناً أتفقد بعض الإخوان أجد أن هناك اضطراباً في دوامهم. أنا لا أكلفهم فوق ما يطيقون، ولكن أتمنى عليهم أن يبرمجوا حياتهم على أن هذه الساعات الثلاث في الأسبوع هي لله عزَّ وجل، يبرمج زياراته، حركاته، سكناته، وأعماله، وصفقاته، وندواته وفق هذا النظام، لأن الثبات ـ كما يقال ـ نبات، لا تعرف قيمة حضور هذه المجالس إلا بعد انقضاء الوقت، تشعر أن كل مجلسٍ ترقى فيه عند الله درجات، مثل البناء تماماً، كل درس فيه بناء، إذاً أول نقطة أي أن الإنسان عندما ينتزع من أوقاته الثمينة أوقاتاً لحضور مجالس العلم، ليس هذا خسارةً، وليس هذا تضييعاً للوقت بل هو استثمارٌ للوقت. هذه واحدة، ولكن أنا لا أقول لك أنه يجب أن توقف كل أعمالك كي تحضر مجالس العلم، ولكن إذا أَلِفت أن تحضر الدروس كلها فتابع حضور الدروس كلها، إن ألفت أن تحضر أحد الدروس ثابر على حضور هذا الدرس، إن ألفت أن تحضر درسين ثابر على حضور هذين الدرسين، إن ألفت أن تحضر كل الدروس احضر كل الدروس لأن الثبات نبات، لا تشعر بالحركة نحو الأعلى، لا تشعر بالتقدم إلا بالمداومة..

((أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ))

(من مختصر تفسير ابن كثير: عن " السيدة عائشة ")

هذا أول حديث ..

النقطة الثانية: أحياناً الأخ الكريم يحب أن لا يغيب عن أي درس، لكنه يحب أحياناً أن يثبت وجوده، تجده يتشاغل حتى ينقضي الدرس ويدرك معنا صلاة العشاء، أهلاً وسهلاً ومرحباً به، وأنا والله بحضوره لسعيد، لكن يشعر أحياناً كيف أن الأم تطبخ طبخةً طيبةً طيبة، تضع فيها كل إمكاناتها، فإذا

بابنها قد حضر متأخراً وقد أكل في الطريق، تتألَّم الأم، أحياناً يكون في تجلي، في بركة في المجلس، في توفيق في أول الدرس، فأحياناً أشعر أن هذا الأخ لازم يحضر، ويتشاغل، وتجده قبل دقيقتان أو ثلاث يحضر، وكأنه وضع (ميم) وكأننا هنا جامعة والدوام إجباري، ولا يريد حضور المحاضرة، ويجب أن لا تحذف له علامات، كيفما كان يضع هذه (الميم)، صلَّى العشاء وسلَّم وانتهى ومعنى هذا أنه داوم، الدرس ما حضره.

أنا أقول لكم مرةً ثانية: والله لو حضرت معنا صلاة العشاء أنا سعيدٌ بذلك، لو سلَّمت سلاماً فقط أنا سعيد بذلك، ولكن أتمنى مادام حضرت وحضرت، ولبست، وتجشَّمت، وركبت، وتوجَّهت، الجهد جهد، المجيء، وارتداء الثياب والاستعداد للخروج من البيت، وركوب المركبة، والوصول هذا كله جهد واحد، بقي هذه الخمسين دقيقة إذا حضرناها بأكملها، فيا تُرى البركة في أولها، في منتصفها، في آخرها؟ لا نعرف، لا نعرف أي ساعة توافق.. " إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرَّضوا لها "..

أنا أعرف إخوان بخمس دقائق من الدرس انقلبت حياتهم رأساً على عقب، كأن شيء اشتغل، كأن آلة معطَّلة دارت، تكون في فكرة تحيره، فيأتي حديث، أو تأتي آية تحل المشكلة، يوافق ساعة صفاء تجده انطلق.

فأول طلب أنه كل واحد ألف أن يحضر مجموعة دروس، والذي ألف أن يحضر كل الدروس أتمنى عليه أن يثابر عليها، ألف أن يحضر بعضها فليحضر بعضها، أما الدوام المضّطرب، فأنا أعرف أن المؤمن الصادق لا لأتفه سبب يغيب عن الدرس، والله جاء صهره لعنده استحى منه، اليوم والله جاء زبون تأخر في المحل استحينا أن نقول له: والله عندنا درس فجلسنا معه، المؤمن الصادق يبرمج حياته، وعمله، ومواعيده، ولقاءاته وفق هذه المجالس، وكذلك المتكلم من الذي يعطيه الزخم، الاندفاع، النشاط؟ أن يرى إخوانه ملتزمين بالدرس، هم ملتزمون وهو ملتزمٌ مثلهم، هذه واحدة.

مادام حضرنا أرجو وأتمنى أن يكون الحضور مبكراً، أحياناً يكون في أول الدرس أجمل ما في الدرس، أحياناً بالوسط، فإذا الإنسان أراد أن يحضر فليحضر من أول الدرس، هذه واحدة.

شيء آخر: أنا من طبيعتي أخجل كثيراً، واستحيي كثيراً لكن تجد مثلاً أربعة أو خمسة أمام الطاولة والباقي موزَّعون بأطراف المسجد، كل واحد آخذ مركز كأنه استحكام آخذه ومرتاح فيه، أنا أتمنى أن نجتمع، اليوم في بالغرفة الثانية إخوان جالسون، درس الأحد يسع كل الحاضرين، الإنسان إذا بالغ بالراحة، لو كان بقاعة تدريس وضعنا له الكرسي مريح، وله الحركات الثلاث ووضعنا له متكأ، وريش نعام، وتكييف ينام الإنسان، كثرة الرفاه تجعل الإنسان ينام، طبيعة الدرس تحتاج إلى جلسة نظامية، كثرة الراحة والرفاه أثناء الدرس هذا شيء يدعو إلى الغفلة، فالدوام، بعد الدوام عدم التأخُّر، وبعدها الالتفاف حول المدرِّس، الاقتراب منه، وفي حديث:

((ادنوا من الإمام))

والنبي كان ذات مرة بإحدى غزواته، فأصحابه تفرَّقوا، وتبعثروا في راحتهم فنهاهم عن ذلك وأمرهم بالاجتماع، الجماعة رحمة والفرقة عذاب. المشكلة أنه إذا سكتنا عن الشيء نهائياً لا يتحسن، أنا كنت أظن أنه لو سكت لحالها تتحسن الأمور، هو هو الوضع، إذا ذكرت هذا الشيء لعل إخواننا الكرام يساعدوني ونتعاون سوى على نفي السلبيات، لأنه أحياناً يكون للجامع هوية، أن هذا الجامع الفلاني معروف أن إخوانه من مستوى معيّن، فإذا كان في خطأ أو تقصير يصير في لوم.

الآن شيء ثاني: هذا موضوع الدوام، والتبكير، والالتفاف، هذه الثلاث موضوعات أشعر أننا بحاجة إليها. الموضوع الثاني أنه كل إنسان حضر الدرس، وأخطر ما في الحضور أن ينقلب حضور الدروس إلى عادة، عادة تفقد مع المرور معناها، ففي كثير إخوان يحضروا خطب الجمعة يقال له: ماذا حكى الخطيب ؟ فيقول: والله يا أخي خطبة تآخذ العقل، ألم تتذكر شيء ؟ والله لا أذكر شيء ولكن خطبة حلوة، ولا كلمة، ولا حرف، أنت ماذا كنت تفعل ؟ والله الوقت ثمين يا إخوان، أنت محسوب على أهلك، وعلى زوجتك، وعلى إخوانك، أنت طالب علم، فيصير أحياناً مع مرور الزمن جزء من عاداته اليومية حضور الدروس، لا يصغي للدرس، ما عنده رغبة في الإصغاء، مادام قاعد قعدة نظامية، وأديب، ولطيف، والابتسامة على وجهه، وصلى وكل شيء وما بقي شيء.

أما لو فرضنا إنسان انتبه انتباه جيد، ولقط بعض الأشياء أو سجَّل، هذا الإنسان بعدما انتهى الدرس ما له زوجة ؟ ما له أولاد ؟ ما له أصحاب؟ ما له إخوان ؟ ما له جيران ؟ ما له معارف ؟ ما في وقت الشخص يمضيه مع الناس ؟ الوقت كبير، جلست معهم ماذا تقول ؟ والله في موجة حر، سأقول لك: كاذب ؟ حر حر، أنا ألاحظ أحياناً عندما يتكلموا الناس مع بعضهم كلام ليس له معنى أصلاً، تعرف أحياناً أخونا الذي يقص الشعر عشر قصات بالمقص بالهواء وواحدة على الشعر، عشرة على الفاضي، تجد أربع أخماس الكلام ليس له معنى، شايف على هذا الحر ؟ إيه والله، لا إن قلت في حر فالحر يوجد، ولا إذا قلت ما في حر يذهب الحر، أما إذا أنت منتبه لآية، لحديث، لموقف من مواقف الصحابة.

واللهِ أيها الإخوة أحياناً قصة عن صحابي، أحياناً حديث شريف يفعل بالإنسان فعل السحر، فهل أنت أيها الأخ الكريم معقول أن تقضي عمرك كله بالاستماع ؟! كل الجامعات تعمل تخريج، أخذ ليسانس صار يدرِّس، فأنت ألا تطمح أن تدعو إلى الله عزَّ وجل ؟ أنا أشعر ـ سأقول لكم الحقيقة الثابتة ـ الآن الدرس من القلب للقلب ما في شكليات، إذا المؤمن ما أعطى يشعر بعدم قيمته، أخي أنا صار لي بهذا الجامع اثني عشر سنة. أنعم، وأكرم ونحن سعداء بهذه المدة الطويلة، ولكن أما آن الأوان أن يكون لك دعوة إلى الله ؟ يكون لك لسان ينطلق بذكر الله ؟ يكون لك مسعى لهداية الخلق، نحن لا نطلب الآن الشيء الذي فوق طاقتكم، لا نريد منك شيء، إلا إذا استوعبت الدرس تحب أن تسجله، تحب أن تسمع

شريط عنه، تحب أن تأخذ نقاط عنه، لكن بأول لقاء تكلم، لما تتعود أن ينطلق اللسان بالحق صرت مصدر إشعاع للناس، والله حكى لنا أخونا فلان هكذا، اليوم فسر لنا الآية الفلانية، والله اليوم ذكرنا بالحديث الشريف، اليوم ذكرنا بموقف الصحابة، فأنت عندما تتعلم من دون ما تفكر بالتعليم والله مشكلة هذه، مشكلة كبيرة، كل إنسان يستوعب يجب أن يعطي، كل مدخل له مخرج، فآن الأوان أن تلقي بعدما تلقيت، تعطي بعد أن أخذت، تعلّم كما تعلمت، وربنا هكذا قال، فقال:

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

(سورة البقرة)

مثلما ذُكِّرتم ذكروا غيركم، فالإنسان والله أيها الإخوة نحن الآن في زمان فيه أعمال صالحة لا تعد ولا تحصى، أنا من يومين أو ثلاث دعيت لافتتاح مجلس بقرية من قرى الجولان، ذهبت، صليت المغرب فعملت درس بسيط، شعرت بسعادة، شعرت بإقبال، شعرت بتعطُّش فقلت: يا الله هؤلاء الناس محتارين ولكن تحركوا، ادعوا إلى الله، اطلع لقرية يا أخي اعمل لهم درس أسبوعي، الآن نحن سنعمل ترتيب آخر، أنه أنت أيها الأخ ألا يوجد لك أحد أبداً ؟ لك بنات، بنات بنات، لك أخوات، لك عمات، لك خالات، هؤلاء النساء، لك أصدقاء، لك جيران، إذا أنت صاحب محل في عندك كم صاحب بالمحل، صاحب معمل في عندك كم عامل، رئيس دائرة في عندك كم موظف، ما في إنسان ما فيه عنده عدد من الأشخاص، إذا نذرت نفسك بالأسبوع ساعة لهؤلاء ساعة لوجه الله، لا هي صفقة، ولا هي عملية تجارية، ولا هي شراكة، ولا شراء منزل ساعة لوجه الله.

في إخوان يجمعوا أقرباؤهم، عنده بناته وبنات بناته، أخ يجمع أخواته البنات، أخ يجمع أولاده، أو أولاد أخوه، أخ يجمع أصدقاؤه، يعني ساعة في هذا الأسبوع عود أن لسانك أن تدعو إلى الله، من هذه الدروس خذ آية من يوم الجمعة، خذ حديث من يوم الأحد، خذ صحابي من يوم الاثنين، اعمل درس مختصر ساعة واحدة. فإذا الواحد يريد الله ورسوله يرغب أن يعمل عمل صالح يرقى عند الله، يهيئ له مجلس علم صغير هو يتكلم فيه، الإنسان عندما يبدأ يعطي الله يعطيه، لا تتهيَّب، قل له: يا رب ما لي سواك، حضرت درس سجل عندك، اكتب شيء من الملاحظات، اليوم سورة الزمر مثلاً، أو سورة غافر، آية رقم سبعة حكينا عنها ساعة، ألا يعلق في ذهنك خمس دقائق فقط ؟ يوم الأحد درس طويل عريض شيء منه، خطبة الجمعة مثلاً، درس الاثنين، إذا عملت دفتر صغير مختارات، قسم للآيات، قسم للحديث، قسم للأحكام الفقهية، والله يمكن درس مراقي الفلاح درسته مرتين بالجامع هنا، فقه السنة درسته مرتين، بهذه العشرين سنة تكلمنا عن أحكام فقهية لا يعلمها إلا الله، إذا الأخ داوم دوام مديد وسجل يصير على شيء من العلم.

الآن نحن بعدما حضرنا الدرس، وحضرناه بالوقت المناسب، وتحلقنا حول الطاولة وما تباعدنا، حتى يصير في بركة، بعد هذا الشيء نحاول نفهم الدرس، نأخذ شريط، نستعير شريط من المكتبة ونسجل رؤوس أقلام، الآن نعمل مجلس علم ؛ الأب مع أولاده، الأخ مع أخواته، صاحب العمال مع عماله، والله في أخ عنده معمل صغير يعمل كل أسبوع للعمال غذاء لوجه الله، وفي هذا الغذاء يعمل لهم درس ساعة زمان، كانوا عمَّال صاروا مريدين، كانوا عمال صاروا إخوانه، ضمن أن لا يخونوه، ضمن إخلاصهم، ضمن وفاؤهم، ضمن مضاعفة نشاطهم، الذي عنده متجر موظفينه برقبته، الذي عنده معمل موظفين المعمل برقبته، الذي عنده مثلاً موظف وهو رئيس دائرة، والذي تحته برقبته، هؤلاء ـ اسمعوا هذه الكلمة ـ هؤلاء زادك إلى الله عزَّ وجل، أو بتنفق عليهم.

فأتمنى وأرجو من الله عزّ وجل أنه كل إنسان بعمله في حوله أناس، في حوله، وفي تحته، وفي من مستواه، وفي فوقه، الذي فوقه بالإحسان وبالأدب والتلطف، ممكن تعطيه شريط أنت متأثر فيه كثير، اسمع هذا الشريط، من أين هذا ؟ والله شيء حلو، والله نحن لنا درس، لا تعرف ماذا يكون وراء هذا الشريط، شريط وراء شريط تجد الإنسان صحى، والله شيء جميل، أين أخي هذا الجامع ؟ تغمض وتفتح تجده صار من إخواننا، وإخلاص، واهتمام، والتزام، وطاعة، ببركة شريط واحد، وهذا إذا أعلى منك. إذا من مستواك زره في البيت مرة واحكي له كلمة حق، والله شيء حلو، والله كلامه غير كلام الناس، كل كلام الناس بالدنيا، بالأسعار، وبالأكل، وبالشرب، وبالسيرين، وبالحر، وبالبرد، أما هنا في موضوع ثاني ؛ حكى لنا آية، وحكى لنا حديث، إذا كان أعلى منك لا تعمل له نصائح بل أعطى له شريط، وإذا كان من مستواك اعمل له زيارة، وإذا كان دونك احسن له تملك قلبه، لازم تفكر أنه أنت عندك محل وعندك صانعن أو ثلاث هؤلاء لك، هؤلاء زادك إلى الله عزَّ وجل، إذا تمكنت من أن تصلهم بالله هذه هي التجارة الرابحة، عندك ثمانية عشر عامل إذا تمكنت أن تدلهم على الله هذه التجارة الرابحة.

الآن في نشاط آخر، أول نشاط داومنا بالوقت المناسب وتحلقنا، الثاني نشاط ؛ أصغينا، حفظنا، استوعبنا، كتبنا، نريد أن نثبِّت، أحياناً يكون أخ ذكي جداً لكن يشبه آلة تصوير ثمنها خمسين ألف ولكن ما فيها فيلم، ما علَّم شيء، كل هذه اللقطات على الفاضي، أحياناً يكون فيه فلم كل شيء حكى سمعه.

الآن في شغلة ثانية، وأنا والله أعرف خطرها، كل أخ منكم هو عضو بأسرة، نحن أسرة كبيرة، أنا والله أتمنى أن تكون العلاقات بين الإخوان ممتازة ومتينة جداً، لكن هذه العلاقات لها أسباب، واحد داوم غاب درس ما أحد خبره، ما أحد سأل عنه، غاب درسين ثلاثة ولا حس ولا خبر، مرض ولا أحد سأل عنه، ما هذا الجامع وما هؤلاء الإخوان ؟ ما أحد سأل عني، يعني ما في عمل أراه أعظم من أنه إذا أخ غاب اتصلت معه بالهاتف، زرته، ما حكيت شيء أين أنت ؟ يشعر بقيمته، معنى هذا أنا مهم، غالي

على إخواني، حافظين اسمي، تفقدوا غيابي، أنت تساهم أولاً بهداية من هم دونك، أم من في مستواك، أم من فوقك بأساليب متعددة، لكن لك مساهمة أخرى بإخوان المسجد، أنا لا أريد أكثر منك أن تتعهد واحد ثاني، إذا أنت همتك أعلى اثنين تعهد، همتك أعلى على ثلاثة، على خمسة، على عشرة، هؤلاء الخمسة، أو الثلاثة، أو الاثنين، أو الواحد، لازم أأتي أجده في الجامع، لم أجده معنى هذا في مشكلة، أو مريض لا سمح الله، معنى هذا يعاني من قضية، وإذا كان لا مريض ولا يعاني معنى هذا هو مقصِّر ولكن عندما أزوره يخجل مني، فإذا أنت ساهمت بتمكين علاقة أخ بالمسجد هذا عمل طيب.

النقطة الثالثة: الذي آلمني أو سبب الكلام هذا أنه نحن صار لنا نعاني في أطباء كثر، في أطباء داخليين، في أطبار جراحيين، في أطباء عظام ولكن نحن ما عندنا ولا طبيب عيون، تفاجأت أنه في عندنا أخ طبيب عيون من أطباء العيون الناجحين أنا لا أعرفه، هو ما عرَّف على حاله، هذا ليس وصمة عار علينا أنه كان عندنا طبيب، نحن بحاجة لطبيب، إذا كان في أخ مؤمن، فلو سألني أحد: أريد أن أحكم عيوني. ماذا أقول له أنا ؟ لا أعرف والله أحد، المعروفين لا أعرف ما هو وضعهم، أما لو فرضنا أنه في أخ من إخواننا مؤمن، صادق، مستقيم، لا يبالغ، لا يكبر الوهم، لا يبتز أموال، مخلص، فالآن نحن في عندنا مشكلة ثانية أنه لا نعرف مَن عندنا، إذا أخ له مصلحة، أخ مهندس، أخ طبيب، ما الذي يمنع إذا صار في معرفة، الآن عملوا إخواننا اجتماع ـ إخواننا الأطباء ـ تبرعوا يأتون كل أحد، وثلاثاء، وجمعة للمعهد، إذا أخ في له استشارة يتفضَّل، بالعيادة ماءتي ليرة وهنا ببلاش، هذا أليس إنجاز هذا ؟ إخواننا الأطبار سيعاونا، إخوانا المحامين سيعاونونا، نريد أن نتعاون، الله قال:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

(سورة المائدة: من آية " 2 ")

يجب أن نتعاون، أحياناً الأخ بحاجة لا أن يتحكم بل يسأل عن طبيب مختص بهذا المرض بالذات، طبعاً الأطباء يعرفوا فلان مخلص، فلان فهمان، فلان شهادته عالية، ممكن تأتي الأحد الساعة الواحدة والنصف تجد طبيب أو طبيبان، الثلاثاء وقبل الدرس بساعة بإجازة المعهد، فنحن لازم نتعاون، والآن لازم الأخ يعرفنا على نفسه أقل شيء، أحياناً يلزمك خطاط للمسجد لا تعرف، فوجدنا في عندنا ثلاث خطاطين، تجد مهن نادرة ولها قيمتها، وأخ مداوم من خمس سنوات، ما في معرفة إطلاقاً، يا ترى التقصير منه أم مني ؟ أنا أعتقد أن التقصير منه وليس مني، ما هو المانع إذا الإنسان الذي يتعلم منه أنا فلان وهذا كرتي، هذا تلفوني، إذا تلزم أي خدمة.

والله جاءنا أخ من إخوننا الأتراك لا يعرف أحد، صار معه آلام في أمعائه فانتقل إلى مشفى ـ لن أذكر اسمها ـ أخطئوا بالعملية الجراحية وأخذوا منه ثمانية وعشرين ألف، وهو لا يوجد معه نقود، حجزوا جواز سفره، مرة جاءوا إخوان ذكروني بهذا الشيء، فقلت من يعرف ؟ سألت عن كم أخ طبيب طلعوا

أربعة أو خمسة اندفعوا اندفاع، وهو أخ طالب علم من تركيا ما معه المبلغ، انحجز جواز سفره بالمستشفى، والعملية فيها خطأ، والفاتورة ثمانية وعشرين ألف.

وممكن إخوان كثيرين طلبوا مني أنه إذا أخ يحب أن نساعده فنحن نساعده، في أطباء يحبوا يساعدوا، لو عندي علم مسبق كنا كلفنا أخ طبيب عمل له العملية مجَّاناً، ولكنه لم يتكلم، ففي أطباء مندفعين وفي مرضى بحاجة، التعارف ضروري جداً، فالواحد يعمل طريقة بأن نتعرف عليه، هذا مهندس، هذا محامي، هذا طبيب، هذا عنده محل مفروشات، تجد أخ يغلي على غرفة نوم ولا نعرف، نخاف أحد يغشنا، الذي عنده صالة مفروشات يقول: أنا عندي صالة، نحن ننفعه، بصراحة ينتفع هو وينفع إخوانه ولا يغشهم.

الآن تنشأ مشكلة سأقولها لكم، عندما يشعر الأخ أنه مطلوب، وكل إخوان الجامع يحبونه، وواثقين منه، يرفع سعره، غير معقول، يرفع السعر الضعف، يأتي إنسان هذا من إخواننا وهذا كذا، يأتي بعد شهر يسأل فيتبين أنه آخذ منه الضعف، يصير معه نكسة كبيرة كثير، كمان مرة ثانية لازم تأخذ سعر السوق بالضبط ولا ترفع السعر كثير، إن رفعت السعر معتمد أنك من إخوان المسجد وإخوانك يحبونك ولن يشتروا من برَّة، غلطان كثير، ما في شيء إلا ما ينكشف، كل هذا الكلام من قوله تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

(سورة المائدة: من آية " 2 ")

يجب أن تشعر أنك بمركز إسلامي، بمسجد، ابنك بالمعهد، الابن بالمعهد تحفيظ قرآن، نهيئ له نشاطات إسلامية، في نزهة أسبوعية أحياناً، أو نصف شهرية، يسبحوا في هذا المكان، يلعبوا، يأتي إلى المعهد نشيط، حفظ القرآن الكريم جزء أو بعض الأجزاء، أحكام التجويد، في درس فقه مبسَّط عن الصلاة، في درس عن الصحابة الكرام، في شيء عن العقيدة من القرآن الكريم، في توجيهات عامة، فابنك له مكان وله مناشط إسلامية أيضاً، مثلاً تريد أن تشتغل، في عندنا أحد إخواننا أي إنسان في عنده وظيفة شاغرة يبلغه إياها، أي إنسان يريد أن يشتغل نبعثه إليه، أخ الله يجزيه الخير حمل عبء جيد، وأربعة، خمسة، اثني عشر وجدوا شغل الحمد لله، إذاً نريد مكتب عمل صغير، واحد بدون شغل، وأخ لازمه محاسب، أخ لازمه موظف، أخ لازمه أمين مستودع، أخ لازمه كذا، يأتي هذا الأخ الذي لازمه هذا العمل للوظيفة الشاغرة يبلغ، والذي لازمه يشتغل يبلّغ، ونوفق بينهما، موضوع العمل مهم جداً.

أحياناً يقول لك أخ أريد أن أتزوج، فإذا كان في أخت كريمة تحضر معنا، يجوز تكون مناسبة جداً وهذا بيد الله عزَّ وجل، كذلك يصير خير من هذا الموضوع، فموضوع العمل، موضوع الزواج، موضوع الصحة أحياناً الواحد يتورط بعملية من دون ضرورة، هذا كلام مؤسف لكن يجب أن أقوله لكم، في أطباء أول أمر يأمرك به اعمل عملية، لمصلحته، أما إذا أنت استنرت، سألت طبيب مؤمن

حاذق يقول لك: لا أنت لا تحتاج لعملية، انتظر، والله بهذا الشهر عدة إخوان سألوا أطباء عملية فوراً، سألنا طبيب مؤمن قال: لا، لا تحتاج لعملية، انتظروا ستة أشهر ويتحسن الوضع، عمل جراحي أنت تفتح البطن، وهذه ليست قضية سهلة، يكون في إجماع أطباء ؟

حدثني طبيب ـ القصة نادرة جداً ـ طبيب أشعة، جاءته امرأة، استُأصل ثديها، وكانت مخطوبة والخطبة فسخت طبعاً، طبعاً ورم خبيث في ثديها، بعدما استئصل أرسلت إليه من أجل إجراء الأشعة ـ أشعة إكس، السينية ـ حتى لا يخلف السرطان، قال لي: فحصت النسيج فوجد ما فيه سرطان، قال لي: ركبت السيارة وذهبت إلى الطبيب الجراح قال له: أنت بعثت فلانة عندي حتى أعمل لها أشعة، أنت متأكد أنه في ورم خبيث؟ ضع يدك على ضميرك وقل لي: أعمل أشعة ؟ لأن الأشعة تخرِّب الرئة، قال له: بلا أشعة، طلع غلطان باستئصال الثدي، الإنسان قبل العمل الجراحي في استشارة طويلة عريضة، إيَّاك أن تعمل عمل جراحي، استشر طبيب واثنين وثلاثة وأربعة، وأهم من كل هؤلاء الأطباء طبيب مؤمن يخاف الله وحاذق، هذا يأتي بالتعاون إذا تعاوننا.

أنت عضو بأسرة، ليس الموضوع أنه والله حضرنا الدرس ومشينا، أنت عضو بأسرة، بمسجد، أنت من رواد مسجد، لك حقوق علينا، ولنا حقوق عليك، أما من دون معرفة **!!** لا أعرف والله، والله في أخ قال لي: أنا عندك من ثمان سنوات، اسمي فلان، لأول مرة يقول لي اسمه من ثمان سنوات، والله ما له حق، يمكن واحد أحياناً مثلاً أخ بلا شغل ما حكى، وفي إنسان بحاجة ماسة لاختصاصه، أنت عندما تعرِّف على حالك أنا فلان أتقن الكمبيوتر، إن صح لكم شغل قولوا لي، أنا يكون هذا الموضوع في ذهني، إذا واحد قال لي: والله أريد موظف أتذكره.

فأنا أطلب منكم أنه أول شيء داومنا، ثاني شيء بكَّرنا، ثالث شيء قرَّبنا، رابع شيء انتبهنا، سجلنا، أخذنا شريط، سادس شيء دعينا إلى الله عزَّ وجل، دعوتين ؛ دعوة على مستوى أهلك، وأقرباءك، وجيرانك، وأصحابك، ومن يلوذ بك، ودعوة على مستوى إخوانك نفسهم تتفقدهم، أنا أحياناً يقول لي أخ: والله أخونا الكريم كان في الحج وجاء، الله يجزيك الخير نذهب ونزوره، كم هي حلوة أن هذا الأخ حج وجاء شيخه وزاره، والله شيء حلو أمام أهله، أمامه، مكانته، شعوره، لكن راح على الحج ما عندي علم بذلك ولا قال لي، ولكن رأيته غاب كثير جاء وما دريت، هذه ليست أصول، أحياناً أخ يسافر سفرة طويلة ولا يحكي، يسافر سفرة طويلة لا حس ولا أنس ويأتي، عدم الاهتمام بالأمور الاجتماعية تضعف علاقة الإنسان بالمسجد، أما لو قال: أنا والله سيدي مسافر سفرة أربع أسابيع ادعوا لنا، فسندعو: الله يوفقك، رافقتك السلامة، لا تنسنا لا أُخي من دعائك، هكذا قال النبي لسيدنا عمر، والله شيء جميل، عندما جاء يجب أن نزوره ونهنيه، هذا صار واجب، الذي يودع حينما يأتي يستقبل، لكن لا سلم، ولا ودَّع، ولا أعلم، ولكنه غاب، فنسأل عنه: أين فلان ؟ يطلع مسافر.

أحياناً إنسان لسبب أو لآخر يسلّم محلّه، تسرع عليه دين سلم محله صفي في الطريق، طوِّل بالك، لعل أن الله ييسر لك دينة من جهة، هذا مورد رزقك، كثير في أخطاء يقع فيها الإخوة، أخطاء فاحشة من دون سؤال، من دون جواب، إنسان الله عزَّ وجل أكرمك بإخوان طيبين استشيرهم.. " من استشار استعار عقول الرجال ".. ببلاش، لا تستطيع أن تدخل عند محامي إلا بألف ليرة استشارة، وأول دفعة خمسة آلاف، والثانية عشرة آلاف، وبعدها مائة ألف، وبعدها القاضي بطنه كبير، إلخ.. لا نريد منك إلا أن تسأل، أحياناً في قضايا مصيرية اسأل، أحياناً طالعت ابني من المدرسة ما فيها خير، كيف ما فيها خير المدرسة ؟ يطلع جاهل، لأنه أخذ علامات قليلة وضعه في الطريق رأساً من دون استشارة، أمور تعليم ابنك، تعليم أولادك، زواجك، أحياناً يأتي شاب من دون ما يسأل عنه كأنه رأساً وافق على الزواج، وبعدها يطلع الشاب لا يصلي، يشرب مثلاً، له أصحاب سوء، وبعدها يغيب، فيأتي ويشكي مثلاً، لماذا لم تسأل أنت من الأول ؟ الأمر عملية معاونة.

وبعدها نحن نريد أن يكون في تعريف، واحد يعرف بحاله: أنا هذا عملي، وهنا مكان عملي، هذه بطاقتي، تلفون بيتي، مصلحته له وليس لنا، أحياناً يكون في شغل له، أحياناً يكون في عنده قضية تحل، أحياناً أخ تعاونه بهذه الطريقة، المعرفة ضرورية، ومن السنة أن يتعرف بعضنا إلى بعض، الإنسان إذا التقى بأخوه يجب أن يسأله عن اسمه، وعن اسم أبيه، وممَّن هو ـ هكذا الحديث الشريف ـ ذلك أوصل في المودَّة، أما إنسان يأتي على جامع سنتان، ثلاثة، خمسة، عشرة ولا يعرف أحد ولا أحد يعرفه هذه لا تصير، كيف ستسمح للأخ الذي أنت واثق منه أن يعاونك ؟ تسمح له يطببك إن صح التعبير، هذه كلها بعض المعاناة.

في أشياء أخرى أيضاً يعني الإنسان أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قِبلك، أي أنك تمثل الدين، أنت سفير المسلمين ؛ بمظهرك، بهندامك، بمواعيدك، بنظام عملك، ببيتك، إن لم تكن هكذا، فالمشكلة والله كبيرة، لكن عندما تكون أنت مثل أعلى، والناس يرمقونك بأبصارهم، ويتخذونك قدوةً لهم، هذا عمل عظيم جداً لا تعرف مداه إلا عندما تجد الثمار اليانعة.

وسبحان الله كل مسجد له هوية معينة، يعني هذا المسجد مظنة صلاح، أنا والله لا أقولها مفتخراً، أسمع في ثناء على هذا المسجد كثيراً، في كثير من الإخوان عندهم أعمال طلبوا مني أن أأمن لهم موظفين من إخوانك بالذات، مظنة صلاح، في أمانة الحمد لله، في ورع، في حياء في غض بصر، في صدق، ليس الكل لكن يغلب على رواد هذا المسجد هذه الأخلاق، أنا أحب أن أمكنها وأمتنها.

أحياناً ـ الآن غير الدعوة لله ـ أنت عملت أربعة خمسة من إخوانك، من أقرباءك، من أولادك، من أولاد أختك، من البنات عملت لهم مجلس علم، وتعاهدت أن تتفقد أحد إخوانك، ألا يجب أن تقدم عمل لهذا المسجد؟ عمل صغير ضمن اختصاصك، والله من يومين قال لي أخ: أنا كهربجي إذا كان يلزمكم

شيء تكونوا تفضلوا عليَّ، القاعة فتحناها من فترة ولا يوجد بها مراوح، أخ الله يجزيه الخير ركب مراوح واشتغلوا، عشر مراوح، شراء المراوح، تركيب المراوح يحتاج إلى جهد، هل من المعقول أن يكون للجامع كل هذه المرافق على مروحتين أو ثلاثة أو أربعة أهذا معقول ؟ في عندنا معهد، في عندنا مكتبة، في عندنا حديقة هنا، في عندنا قبو، في عندنا معهد دعاة، أي شبه عمل صحي، في عندنا زواج، والله جاء أخ محامي والله لا أنساها له، قال لي: أنا مختص بأمور الوفاق الزوجي، أي أخ مختلف مع زوجته كلفني وأنا أحل المشكلة بينهم، يبدو أنه هو حكم بالمحاكم عنده خبرة واسعة وطليق اللسان وذكي، فهذا عمل، لا يجب أن تساهم بعمل في المسجد ؟ هذا مثلاً قال لي أخ مهندس زراعي قال لي: والله أنا أرى أن عندكم نباتات مصابة بالمن، سأبخها لكم، قلت له: الله يجزيك الخير والله شيء جميل، هذا مختص بالزراعة رأى أنه هناك أمراض بالنباتات، هذا مختص بالكهرباء، هذا مختص بالميكانيك استلم الشوفاجات، الشوفاجات لها مشكلات، تحتاج لصيانة ومتابعة، الحمد لله صار جامعنا مهم، ومرتَّب، وقبلة الأنظار، الذي عمل لنا السجاد الله يجزيه الخير، هذا السجاد في تحته لبَّاد سماكة سنتيمتر، هذا في عزل كامل، هنا صار في سجاد موحد، معهد الدعاة تحت سجاد موحَّد، القاعة إذا لاحظتوها أصبحت سجاد موحد، شيء مرتب كثير.

فواحد بالسجاد، وواحد بالتهوية، وواحد بالتدفئة، وواحد بالثريات، وواحد بالكهرباء، يجب أن يساهم الإنسان، في إخوان جاءوا ينظفوا المسجد الله يجزيهم الخير، فنحن نريد منك أن تساهم لنا بشيء من اختصاصك، بأي شيء تحب، جزء من وقتك، جزء من خبرتك، جزء من مالك هذا مسجدكم، هذه الحديقة مبذول فيها جهد كبير جداً، فهي رئة المسجد، منظرها أثناء الدرس رائع جداً، كلها أشجار مثمرة مزروعة، وكلها نباتات وأزهار، ونباتات عطرية في عندنا كلونيا، وفي عندنا ياسمين أليس هذا شيء جميل، فهذه الطلبات هذه جلسة إدارية وليس درس علم، جلسة إدارية.

أولاً الدوام، مبكراً، مقترباً، الوعي، التسجيل، عقد مجلس علم خاص لك أنت رئيسه في بيتك، أولادك، بناتك، أولادك أختك، بنات أختك، أخواتك البنات المتزوجات جلسة أسبوعية، أنا أعرف عدة إخوان عاملين درس علم كل أسبوع في بيتهم، قال لي أخ أن عنده خمس أخوات بنات متزوجات هن وأولادهم وبناتهن بساعة زمان يقرؤوا قرآن، وتفسير حديث، وتفسير آية، وحكم فقهي، وقصة، هو مهيئهم ويحضر حاله، صار هذا الدرس له طعمة عنده، وصار مهم جداً، قال لي: والله أكثر بنات أخواتي تحجَّبوا، والله وفقنا زوجنا أربعة من إخوان المسجد ببركة مجلس علم واحد كل أسبوع.

فعملنا مجلس، فالآن تتفقد لنا أحد الإخوان، أنت اختار أخ تحبه قريب من بيتك، من عملك، بدائرة واحدة أنت وهو، قل له: أنت أخي في الله، إن غبت تفقدني وإن غبت أتفقدك، يقول لي أخ: فلان مريض هل تزوره ؟ أقول له: نعم والله أزوره، لما أزوره يحصل خير كبير كثير، شاف أن أستاذه جاء وزاره ؛

انتعش أمام أهله، وأمام زوجته، أنا أعلم بالغيب ؟ لا أعلم بالغيب لكن إذا أنت توليت تحكي لي عن أخوك، أحياناً أخي بحاجة لمعاونة معينة، إذا أستطيع والله أعاونه فيها، أحياناً له قضية بمحكمة، له قضية بمكان، له قضية بدائرة حكومية، معاملة واقفة بمحل ممكن نعاونه، يمكن يكون في أخ في نفس الدائرة، وأنت لا تعرف، هو هنا مشكلته.

فإذاً نريد أن تختار أخ وتتخذه أخ، وتتفقده ويتفقدك، تسأل عنه ويسأل عنك، تزوره ويزورك، وإن لزم أن أقدم شيء أنا لا أقصِّر، نريد فوقها تقدم للمسجد خدمة، كلٌ بحسب اختصاصه، في أخ عنده محل ساعات رآنا بحاجة لساعة فأتى لنا بهذه الساعة الله يجزيه الخير، أخ عمل لنا المنبر، الآن نريد طاولة لمعهد الدعاة، في أخ وعدنا بطاولة يصنعها، لا نريد شيء لنا ولكن للجامع، فكل إنسان هذا نجار، هذا حداد، هذا ميكانيكي، هذا كهربجي، هذا مهندي تبريد، هذا مهندي تدفئة مثلاً كل واحد باختصاصه، فهذه عملناها جلسة إدارية.

هل حفظتوهم أم نعيدهم مرة ثانية ؟ الدوام، التبكير، الالتفاف، الوعي، التسجيل، تهيئة مجلس علم مصغر، انتقي من الآن وخطط، أخواتك البنات، أو بناتك، أو بنات أخواتك، أو أولادك، أو أولاد إخواتك، أو جيرانك، أو عمالك، أو موظفينك، انتقي أربعة أو خمسة اعمل لهم درس أسبوعي، ينطلق لسانك، تحس بقيمتك بالحياة، يا رب أنا جئت إلى الدنيا ودعيت لك يا ربي، أنا دليت الناس عليك، يا بشر لا صدقة ولا جهاد فبمَ تلقى الله إذاً ؟

والله مرة دُعينا برمضان في دار بميتم، قدِّم طعام نفيس كثير هذا ليس أكل مطاعم، سألت فقيل لي أنه خمس أو ست أسر يتنافسوا على صنع الطعام للأيتام برمضان، يبرق، وكوسا محشي، وأكلات ممتازة، وكبة، أسر تشتغل ليل نهار تهيئ طعام لدور الأيتام، والله عمل طيب، في عندنا بعض الجهات كل إنسان يحتاج لعملية قلب يهيئوا له طبيب قلب على حساب المحسنين، بلد فيها خير كثير كثير فنحن يجب أن نتعاون.

ونحن نريد منك خدمة للمسجد بأي شكل تقدمها لنا، تشعر أنك عضو فعال في المسجد، أحياناً يأتي بباقة ورد، أحياناً الطالب حتى يمتن علاقته بالمدرسة يأتي بروزنامة ويضعها في الصف، كلما نظر لها هذه أنا أتيت بها أستاذ، يُسر، شغلة قدمها لنا، واحد عمل لنا هذه الزريعة في الخارج، أتى بالبراميل ووضعها وزرعها، والله اليوم نزل واحد قال لي: ما هذا هذه حديقة عندكم، شيء منعش، أصوات العصافير على بكرة، ورد والزريعة كلها، هذا بيتنا، بيت الله هذا إذا كان مرتب، ونظيف، وفي زريعة، وفي مكتبة فوق، والله فيها قريب المليون ليرة، كتب تفاسير، كتب حديث، كتب فقه،كتب السنة، في قسم إعارة أشرطة، واحد أحب أن لا يدفع ثمن شريط، يستعير شريط يسمعه ويرجعه، هذه نشاطات الجامع، هذا الكلام القصد منه أن نكون أسرة واحدة، ونطبق الدين تطبيق حقيقي.

مرة دخلت لمسجد، أنا لا أعتقد في بالشام مسجد أنظف من هذا المسجد، توفى الله يرحمه قيّم المسجد، تدخل لدورات المياه تقول خرج بيت واحدة موسوسة وليست إنسانة عادية، معها مرض الوسوسة، كأنه الآن الرخام مركب، يأتي بمواد للرخام، مواد أسيد وينظفه، فمرة قلت له: الله يعطيك العافية، تصلي على السجاد، تجده لابس بذلة كحلي فكأن السجاد ممسوح بالماء والصابون السجاد، مسجد نادر بنظافته، أتعرفون ماذا قال لي هذا الأخ، قال لي: أنا أهتدي بقوله تعالى:

(أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125)

(سورة البقرة)

يعني الله عزّ وجل عاهد لسيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل أن طهرا بيتي، هذه مهمة الأنبياء، فإذا واحد نال شرف تنظيف المسجد، تنظيف السجاد، تنظيف الحوائط، تنظيف البلور، تنظيف الباحة، صفوف المعهد هذا عمل عظيم، الله سمح لك أن تخدم بيته، الآن ملك خادم الحرمين، ملك ما عاد قال ملك بل خادم الحرمين، معنى هذا أن الخدمة شرف، خدمة الحرم بيت الله شرف له، فإذا واحد قال لك: أنا ناوي أن أنظف لكم هذا المعهد كل أسبوعين مرة، شطفة، الله يجزيكم الخير، القصد أن نتعاون، يحس أحدكم أن له عمل بالمسجد، موظف عند الله وليس عند عبد الله، هذه وظيفة عند الله عزّ وجل، كثير إخوان تبرعوا يدرسوا تجويد لطلاّب المعهد، صار في عندنا صباحاً ثماني شعب، ومساءً ست أو سبع شعب، وفي إقبال شديد والحمد لله.

فالقصد من هذه الجلسة الإدارية أن هذه الطلبات ؛ التزام، وبعد ذلك لطف الله عزّ وجل قال:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً)

(سورة البقرة: من آية " 83 ")

ما يجري بين الناس لا يمكن أن يجري بين إخوة المسجد، لطف ما بعده لطف، أدب ما بعده أدب، احترام ما بعده احترام، حسن ظن بإخواننا، قال: من أشاء الظن بأخيه فكأنما أساء الظن بربه. حسن الظن، الكلمة الطيبة، الاعتذار مثلاً، التوضيح، البيان، الاهتمام، فأرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الجلسة مفيدة ونافعة، وتجمع شملنا جميعاً، والإنسان عندما يشعر أنه أدى واجباته تجاه ربه، تجاه إخوانه يحس براحة شديدة، فالأساس كله أنه أنا عبد يا رب وهؤلاء عبادك كلهم، فإذا صدقتهم وأحسنت إليهم لعلك ترضى عني، هذا كل منطلق الاستقامة، استقامتك وأعمالك الطيبة هذه أساساً.

وفضلاً عن ذلك لما يحاول الإنسان أن يراجع هذه الدروس، يستعيد ما قيل فيها، يحاول أن يحسن ذكره لله عزّ وجل، يحسِّن تلاوة القرآن، يحسِّن طلب العلم، يدقق، ارتفع مستواه فصار يعطي، نحن عندنا معهد للدعاة يوم السبت عندنا درس من المغرب للعشاء، أنا تقاعدت بعد أن كنت أدرس فتقاعدت، نخبة من إخواننا الكرام هو الذي يدرس، أخ يحضر الدرس ويلقيه علينا محاضرة، أحياناً والله أيها

الإخوة أشعر بسعادة لا توصف، أنه الحمد لله أخ من إخواننا بعد أربع خمس سنوات صار يلقي محاضرة بأسلوب، بطلاقة لسان، بلغة قوية، بحنكة، بتنظيم، هذا الإنسان إذا الله أخذ بيده وصار داعية استلم مسجد، خطب بمسجد، ما خطب يا سيدي، دعي لإلقاء كلمة بحفلة أو بعقد قران ترك أثر طيب، الناس تابوا على يده، فهذه الدعوة لله صنعة الأنبياء، أعظم عمل تصنعه في الحياة أن تكون سبباً في هداية الخلق، فنبينا اللهم صل عليه، قال سيدنا سعد: " ما سمعت حديث من رسول الله إلا علمت أنه حق من الله تعالى ".

ألم يقل له:

((يا علي لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك ممن طلعت عليه الشمس))

((لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم))

(من الآذكار النووية: عن " سهل بن سعد ")

((خيرٌ لك من الدنيا وما فيها))

ماذا قدمت للإسلام ؟ أنا عندما كنت في الحج رأيت منظر أثار انتباهي وعجبي بآن واحد، في حجَّاج متقدمين بالسن، يطوفوا عن طريق المحامل، تجده جالس يهز، يطوفوا فيه، هذا المنظر استوحيت منه أنه في مسلم مثل هذا الشخص جالس مكوم ويحملونه ويمشون به، الإسلام حامله، ولكن في إنسان حامل الإسلام، لا تقل لي ماذا قدم الإسلام لك بل قل لي ماذا قدمت أنت للإسلام، دعيت لله عزَّ وجل، أمرت بالمعروف، نهيت عن المنكر، عاونت فقير، رعيت يتيم، هديت زوجتك إلى الله عزَّ وجل، لك عمل طيب مع أولادك، كنت تاجر مؤمن مستقيم فنصحت الناس بتجارتك، ماذا قدَّمت ؟

فأنا أقول: أن المسلم إما أن يحمل الإسلام، الصحابة حملوا الإسلام، باعوا أنفسهم، جاهدوا، سافروا، دفعوا أثمان باهظة، نحن في إخوان خدمونا، وفي أخ نمطه يحب أن يتلقى الخدمات، تعالوا خذوني، تعالوا أعطوني، تعالوا داوني، تعالوا حكموني، تعوا وتعوا ولا يشتغل شيء، فقط يتلقى خدمات، والله هذا إنسان أنا أراه مقصر، البطولة أن تقدم أنت الخدمات، كن جندي وقدم خدمات في سبيل الله.

عندما أجد إخواننا يحبوا بعضهم بعضاً، يتعاونوا، يعذروا بعضهم، يسامحوا بعضهم، يقدروا بعضهم أنسر، أحس حالي مثل رب أسرة وأولاده متحابين، أو إخوانه متحابين، أما عندما أجد مشاحنات، أجد حسد أحياناً، أجد طعن، والله أتألم ألم لا حدود له، أرى حالي ما قدَّمت شيء للإخوان، إذا هذه المحصلة أخين من جامع واحد، من مسجد واحد، من منهل واحد، من مشرب واحد، يبغيان وجه الله عزَّ وجل، همَّهما الدار الآخرة، في تحاسد، في طعن، في غمز في لمز، ما هذه التربية ؟ تربية فاشلة، فالذي يدفعني اندفع بكل ما أملك المودة التي بينكم، والمحبة، والتسامح، والمعاونة، وأن نقدر بعضكم بعض، إذا أخوكم اشترى بيت هذا لمصلحتك، أخذ شهادة عليا، تعين بمنصب هذا دعم للمسلكين، لا تحسده بل

بالعكس كلما أخ الله آتاه شيء اعتبره لك هذا الشيء، ويؤلمني الخصومات، والعداوات، والطعن، واللمز، والغمز هذا كله يضعف قيمة الدعوة إلى الله، أرجو الله سبحانه وتعالى ألا أكون أطلت عليكم، وأن يكون هذا الدرس له طعم خاص، هذا لا حديث، ولا فقه، ولا سيرة، ولا تفسير لكنه حديث إدراي، أي ترتيب الأوراق مثلما يقولون.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (060) :النجاسات - أمراض القذارة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-07-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... لا أدري لماذا قفز إلى ذهني في هذا اليوم موضوع النجاسات، موضوع النجاسات يحتل باباً كبيراً من أبواب الفقه، الذي خطر في بالي أن أمراضاً كثيرة كثيرة كثيرة سمَّاها العلماء أمراض القذارة، تصيب في العالم كله ما يزيد من مائة وثمانين مليون إنسان، والرقم قد يكون أكثر بكثير، هذا الذي بقي في ذهني من نشرةٍ اطلعت عليها قبل أشهر، الأمراض التي سببها القذارة، والتي تفتك بعشرات بل ببضع عشرات الملايين من البشر كل عام، المسلمون ربنا سبحانه وتعالى أكرمهم بالنجاة منها.

فهذا الذي يطبقه المسلم في حياته من نظافةٍ هي جزءٌ من عبادته، الوضوء للصلاة، الغُسل يوم الجمعة، غسل اليدين قبل تناول الطعام، ذكرت هذا الموضوع لأن أوبئة كثيرة تستشري في معظم البلاد ولا سيما في الصيف بسبب التساهل في النظافة، لذلك موضوع النجاسة موضوع ينبغي أن يدرك ملياً، ولا سيما وأن من الأمراض الوبيلة الفتَّاكة ما لا يسمح للمريض أن يستفيد من خطئه، ففي أمراض مميتة، مباشرة إسهالات، قيء، إلى أن يصبح ماؤه كله خارجه، ثم يأتيه الموت، فينبغي أن نحتاط كثيراً في أمور النظافة، ولا سيما في تطبيق الأوامر الإلهية التي أمرنا بها.

فالنجاسة هي القذارة التي ينبغي على المسلم أن يتنزَّه عنها، ويغسل ما أصابه منها، قال تعالى:

(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4))

(سورة المدثر)

وقال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222))

(سورة البقرة)

وقال عليه عليه الصلاة والسلام:

((الطهور شطر الإيمان))

(من الجامع لأحكام القرآن: عن " مالك الأشعري ")

وبالتعبير الدقيق الموجز (المؤمن نظيف) بكل معاني هذه الكلمة، بمعانيها المادية، ومعانيها الأخرى، بمعانيها المادية ؛ نظافته ظاهرة، ونظافته باطنة، يعني ألبسته، أدواته، حاجاته، ثيابه، بدنه، أعضاؤه، كلها نظيفة، لا لأنه يحب النظافة بل لأن الله سبحانه وتعالى أمره بها، فالآيات كثيرة:

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222))

(سورة البقرة)

والذي يلفت النظر هو أن بعض المعلومات الدقيقة، التي نظمتها منظمة الصحة العالمية، تشير إلى أن أمراض القذارة تقل كثيراً في بلاد المسلمين، والسبب هو: النظافة التي هي جزءٌ من عبادتهم، " اغتسل ولو مداً بدينار "، لو أن مُدَّ الماء بدينار عليك أن تغتسل، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((بركة الطعام الوضوء قبله وبعده))

(من الجامع لأحكام القرآن)

وضوء الطعام، غسل اليدين والفم، لأن معظم الأمراض التي تعدي تنتشر عن طريق الملامسة، وعن طريق الغذاء، فالإنسان إذا غَسَّل يديه قبل تناول الطعام وبعد الطعام فقد نجا من أمراضٍ كثيرة.

فأول أنواع النجاسات: الميتة، وتعريف الميّت: الميتة هي ما مات حتف أنفه أي من غير تذكية، التذكية هي الذبح، إنك إن ذبحت الحيوان من الوريد إلى الوريد، فقد ذكيته، وتعلمون أن القلب يقوم بدور مهم جداً بعد الذبح وهو إفراغ الدم من الحيوان، وتعلمون أيضاً أن النبي عليه الصلاة والسلام نهانا عن أن نقطع الرأس كلياً، لأن القلب يتلقى التنبيه الكهربائي من داخله، ولكن تنبيه القلب الذاتي هو يعطيه الحركة الثابتة، ثمانين ضربة، أما لو جاءه تنبيه استثنائي من الدماغ لارتفعت الضربات إلى مائة وثمانين ضربة، لذلك بقاء الرأس معلقاً بالجسم معناه ضمان أن يأتي الأمر الاستثنائي للقلب، فيقذف الدم كله خارج الجسد، لذلك الحيوان المذكى هو الحيوان الذي خرج دمه كله، فالميتة: هي كل حيوان مات حتف أنفه من غير تذكية، والتذكية هي الذبح، وتعلمون أن الحيوان لك أن تأكله إن لم يسمّى عليه، تسمي أنت عليه، ولكن لا ينبغي أن تأكله أبداً إن لم يذبح ذبحاً شرعياً، لذلك اللحوم المستوردة إن لم تكن متأكّداً أنها ذبحت ذبحاً شرعياً على الطريقة الإسلامية، لا ينبغي أن تأكلها لأن دمها فيها، والدم نجس.

الآن في عندنا حكم استثنائي، قال: ما قُطَّ من البهيمة وهي حية فهي ميتة. دابة لو قطعت منها جزءً من لحمها وهي حية، هذه القطعة في حكم الميِّتة، أكلها حرام، لأم الدم موجود فيها.

فيجب أن نعلم أيها الإخوة أن العلم كلما تقدَّم التقى مع الحكم الشرعي، لماذا ؟ لأن هذا الحكم الشرعي هو حكم الله خالق الكون، العلم إذا تقدم كشف الحكمة، لكن المسلم لا ينبغي له أن يطبِّق الشيء بعد أن يقرأ مقالة علمية، ليس عابداً لله عز وجل، الأصل أن تطبق الشيء إذا عرفت الحكم الشرعي، من الكتاب والسنة، إن عرفت هذا عندئذٍ تنطلق إلى تطبيقه، فالتطبيق ينطلق من أن هذا أمر إلهي، لكن تكريماً للإنسان العابد الذي يبادر إلى تطبيق الأمر الإلهي، ربنا سبحانه وتعالى يكشف له عن الحكمة.

فلما النبي عليه الصلاة والسلام نهانا عن أن نقطع رأس الدابة، وأن نذبحها من أوداجها، أن نذبح الشريانين الثخينين وأن نبقي الرأس بالدابة، هذا الآن كشفنا الحقيقة، أنا طبيب قلب حدثني قال لي:

القلب فيه ثلاثة مراكز تنبيه: لحكمة بالغة، إذا كان في مستشفى تجري عمليات خطيرة جداً، هل يمكن لهذه المستشفى أن تعتمد على التغذية الكهربائية الخارجية ؟ لو أن الكهرباء قطعت لسبب أو لآخر، والمريض قد يموت، فالمستشفيات الراقية لابد لها من تغذية كهربائية ذاتية، والقلب لأنه أخطر عضو في الجسم، لا يحتاج إلى تنبيه كهربائي خارجي يأتيه عن طريق الأعصاب، بل يحاج إلى تنبيه كهربائي ذاتي، في ثلاثة مراكز، المركز الأول وهو أكبر المراكز لو تعطل لعمل المركز الثاني، لو تعطل لعمل المركز الثالث، لكن هذه المراكز الثلاث، من شأنها أن تعطي القلب الضربات النظامية، أي ثمانين ضربة بالدقيقة، لما أحدنا يصعد درج أو يحمل ثقل أو يضطرب نفسياً، يشعر بأن قلبه ضرب مائة وثمانين ضربة، مَن الذي أعطى هذا الأمر للقلب أن يرفع الضربات ؟ الدماغ، الجهة المدركة في الجسم تعطي الأمر للقلب برفع الضربات.

إذاً في عندنا أمرين ؛ أمر داخلي يعطي الضربات النظامية وأمر خارجي يعطي الضربات الاستثنائية، فالدابة لو ذبحناها، وقطعنا رأسها كلياً، قطعنا التنبيه الخارجي، والقلب فيه تنبيه ذاتي، ترى أن هذا القلب ينبض نبضات نظامية، نبضاته المتباطئة لا تكفي لإخراج الدم كله من الذبيحة، يبقى دمها فيها، لكن لو قطعت الوريدين وبقي الرأس متصلاً، وهناك اتصالٌ عصبي بين الدماغ والقلب، عندئذٍ ينبض القلب نبضات عالية جداً، من شأن هذه النبضات أن تخرج الدم كله من الذبيحة.

هذا الشيء لا يمكن أن يعرف في عهد النبي، ولكن لأن النبي عليه الصلاة والسلام نبيٌ يوحى إليه، الشيء الدقيق، إيَّاك أن تظن أن النبي عبقري، هذه الصفة، هو عبقري، وذكي، وفطن جداً، ولكن إيَّاك أن تظن أن هذه الأحكام التي نطق بها من اجتهاداته، إنما هي من وحي الله له، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وعلامة الإيمان أن تشعر أن هذا الأمر الذي جاء به النبي هو من عند الله، من عند الصانع، من عند الخالق.

إذاً كلما تقدم العلم اكتشف أن الحكم الشرعي ينطبق مع أحدث البحوث العلمية، لكن نحن نطبق الحكم الشرعي لا لأن العلم أَيَّدَهُ بل لأن الله أخبرنا به، نطبق الأمر الإلهي لأنه أمر إلهي، فقالوا: علة أي أمرٍ من الله عز وجل أنه أمر من الله، وبعد تطبيقه يكشف الله للإنسان الحِكَمَ البالغة من تطبيقه.

إذاً ما قُطِعَ من لحم الدابة وهي حية فهو في حكم الميتة، هذا الحكم الفرعي، قالوا: استثنى من ذلك ميتة السمك والجراد، وأيضاً في حكمة بالغة، أنت تظن أحياناً عقل الإنسان يتساءل: إذا كان حكمة الذبح إخراج الدم من الدابة، فلماذا سُمِحَ لنا أن نأكل السمكة من دون ذبح ؟ إذاً دمه فيه، إذاً علة الذبح غير معقولة، فالسمك فيه دم، ما قولك أن العلماء اكتشفوا حينما تصطاده كل الدم الذي في جسمه ينتقل إلى غلاصيمه، فالدم كله ينتقل إلى الغلاصم وكأنك ذبحته، ولكن السمكة التي تطوف على سطح الماء، أي أنها ماتت منذ أمد بسبب موتها طافت، هذه في أغلب الآراء الفقهية أنه لا يجوز أكلها، السمكة الطافية

أي التي ماتت من دون صيد، لأن صيد السمكة من شأنه أن يجعل دمها كله في غلاصيمها، يستثنى من ذلك ميتة السمك والجراد فإنها طاهرة.

ومن أجل أن تعرف أن بعض المُعَلَّبات، وبعض الأغذية المستوردة يكتب عليها عبارات ترضي العالم الإسلامي، أن هذه اللحوم ذبحت وفق الشريعة الإسلامية، هناك علب سمك كتب عليها: ذبح هذا السمك وفق الطريقة الإسلامية. معناها ذلك كذب، فالأجانب مستعدين يتملَّقوا العالم الإسلامي، يكتبون ما نشاء على هذه المستوردات، فلابد من التحقق.

الآن في عندنا حكم فرعي ثالث

((عظم الميتة، وقرنها، وظفرها، وشعرها، وريشها، وجلدها))

وكل ما هو من جنس ذلك طاهر لأن الأصل في هذه كلها الطهارة، ولا دليل على نجاسته، عظم الميتة، وقرنها، وظفرها، وشعرها، وريشها، وجلدها، وكل ما كان من جنس هذا فهو طاهر لأن الأصل في هذا كله الطهارة.

روى البخاري أن النبي عليه الصلاة والسلام مر بشاة ميتة فقال عليه الصلاة والسلام:

((ـ هلا أخذتم إيهابها، فانتفعتم به ؟ـ قالوا: إنها ميتة.ـ قال: إنما حرم أكلها))

(رواه الجماعة)

معنى الجلد، العظم، الظفر، القرن، الشعر، الصوف، هذا كله طاهر، الأصل فيه الطهارة ولو كانت الدابة ميتة.

في عندنا قاعدة: " الحلال ما أحله الله في كتابه، والحرام ما حرمه الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفى عنه ". الإنسان في شيء الله عز وجل حرمه، وفي شيء حلله، وفي شيء سكت عنه، الشيء المسكوت عنه هناك حكمة من السكوت عنه لا تقل عن التصريح به، الشيء الذي ممكن يخضع إلى تطورات الله عز وجل سكت عنه رحمة بالخلق، فالإنسان ليس مكلف أن يسأل عن أشياء، أن يدقق في أشياء الشرع سكت عنها، الأصل في الأشياء الإباحة، ما لم يأتي دليل على حرمتها.

الآن، الدم، العنصر الثاني من النجاسات هو الدم، الدم، سواء ما كان دماً مسفوحاً أو مصبوباً، كالدم الذي يجري من المذبوح، أم دم الحيض هذا نجس، لكن العلماء قالوا: يعفى عن اليسير منه، فأحياناً نقطة دم أو نقطتان هذه لا تنجس الثوب، أما أكثر من ذلك كحجم الدرهم هذا يجعل الثوب نجساً، أحياناً تجد بالدجاجة عروق سوداء فيها دم، الأكمل تنزعها، وإذا ما نزعتها كذلك معفو عنها، فما بقي من آثار الدم في بعض الشرايين الفرعية، هذا مما عفى الله عنه.

الحقيقة من إعجاز لقرآن الكريم أن الدم المسفوح الدم المراق، لكن الدم وهو في جسم الإنسان هناك أجهزة كثيرة التصريف، الكليتان تصفي الدم، الرئتان تصفي الدم، الغدد العرقية تصفي الدم، فهناك تصفية عن طريق التنفُّس، وهناك تصفية عن طريق الكليتين، وهناك تصفية عن طريق التعرقُّ، إذاً ما دام الدم في الجسم فهو طاهر، أما إذا سفح صار بؤرةً للجراثيم والأوبئة.

الشيء الثالث من النجاسات: لحم الخنزير، قال تعالى:

(قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ)

(سورة الأنعام: من آية " 145 ")

أي نجس، فإن هذا كله خبيثٌ تعافه الطباع السليمة، فلحم الخنزير والميتة الدم فإنه رجس، وتعلمون أن لحم الخنزير فيه أمراض كثيرة من أبرزها الدودة الشرطية، وهذا الحيوان يحب أن يأكل الجيَف، إذا مات خنزير يأكله بقية الخنازير، والخنزير مُغْرَم بالجرذان، فهذا الحيوان من شأنه أن يأكل الجيف، وأن يأكل الميتة، وأن يأكل القذر، ولحمه مستعد باحتواء بعض الأمراض الخبيثة والوبيلة، فلذلك الله عز وجل نهانا عن هذا اللحم أكلاً وهو نجس.

بقي في بنود النجاسات قيء الآدمي وبوله، نجاسة هذه الأشياء متفقٌ عليها، إلا أنه يعفى عن يسير القيء، ويخفف في بول الصبي الذي لم يأكل الطعام، القيء القليل وبول الصبي الذي لم يأكل الطعام بعد، أي ما زال يرضع من ثدي أمه، هذا البول من النجاسة المخففة، النجاسة مخففة وليست مركزة، والقيء القليل مما هو معفوٌ عنه، أما القيء الكثير نجسٌ ينجِّس الثوب.

فاللهم صلي عليه كان قدوة، إحدى الصحابيات أم قيس، أتت النبي عليه الصلاة والسلام بابن لها لم يبلغ أن يأكل الطعام، وقد بال هذا الطفل الصغير في حجر النبي عليه الصلاة والسلام، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم بماءٍ فنضحه عن ثوبه، ولم يغسله غسلاً، ففهم أن بول الصبي الذي لم يأكل الطعام نجسٌ نجاسة مخففة ؛ بمعنى أن نضح الماء فوقه يطهره دون أن يغسل الثوب كلياً.

لكن الطفل الصغير إذا أكل الطعام، وبال على ثوب أو على شيء لابد من غسله، لأن هذا الشيء يصبح نجس نجاسة كلية.

هناك شيء آخر في النجاسات هو الودي، والودي ماءٌ أبيض ثخين يخرج بعد البول، وهو نجس من غير خلاف، قالت عائشة: " وأما الودي فإنه يكون بعد البول فيغسل ويتوضأ ولا يغتسل منه المرء ". أي يغسل ويتوضأ الإنسان وانتهى الأمر لا يحتاج إلى غسل، وكذلك المذي، هو الماء الأبيض اللزج الذي يخرج عند التفكير في شؤون الجماع، عند التفكير في هذا الموضوع ربما خرج ماءٌ أبيض لزج

هذا اسمه المذي، الودي والمذي لا يستوجبان الغسل، ولكن يكفي أن يغسل مكان وجوده، وأن يتوضأ، وأن يصلي الإنسان من دون شيء آخر.

أما المني فذهب بعض العلماء إلى القول بنجاسته، والظاهري أنه طاهر، هو ماء الحياة، لكن يستحب غسله إن كان رطباً، وفركه إن كان يابساً، إذاً هو طاهر يستحب غسله إن كان رطباً وفركه إن كان يابساً كما قلت.

بقي بول وروث ما لا يؤكل لحمه، فكل دابة لا يؤكل لحمها هو نجس.

ثم هناك الجَلاَّلة، الجلاَّلة الدابة التي تأكل الغائط، في دجاج يقول بيض بلدي، في دجاج يأكل النجس، فكل دابة تأكل النجس هذه اسمها جَلاَّلة لا يجوز أكلها ولا أكل منتجاتها، ما لم تعزل وتأكل العلف الصحيح إلى أن تذهب عنها هذه النجاسات. فالإنسان ينتبه، فالجلالة نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن شرب لبن الجَلاَّلة، إذا دابة تأكل النجس نهى النبي عن شرب لبنها، لأنه في إشكال يصير، والجلالة بالتعريف الدقيق هي التي تأكل العذرة من الإبل والبقر والغنم والدجاج والإوَز، تعزل عن هذا المكان، حتى يتغير ريحها، فإذا حبست بعيدةً عن العذرة زمناً وعرفت طاهراً، طاب لحمها وذهب اسم الجلالة عنها، وحلَّت.

ومن النجاسات الخمر، وهي نجسة عند جمهور العلماء، لقول الله عز وجل:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ)

(سورة المائدة: من آية " 90")

وذهبت طائفةٌ إلى القول بطهارتها، وحملوا الرجس في الآية على الرجس المعنوي، يقول لك: واحد صافح إنسان غير مسلم، فصافحه توضأ، يا ترى إذا إنسان اغتسل اغتسال جيد وما كان مسلم، وأنت صافحته، فهل حقيقة تنجست أنت ؟ هل هي نجاسة حقيقة ؟ الجواب: لا، نجاسة حُكمية، ما الفرق بين النجاسة الحقيقة والحكمية ؟ إذا كان عاملت إنسان كافر، زوجته، أو شاركته، أو صاحبته، أو سافرت معه، علاقاته كلها مشبوهة، دخله مشبوه، اختلاطه مع النساء فاضح، مزحه رخيص، نظراته خبيثة، فالنجاسة هنا ليست نجاسةً حقيقيةً، بل هي نجاسة حُكْمِيَّة، فمَن ذهب إلى أن الكافر إذا صافحتيه ينبغي أن تغسل يديك أو أن تتوضأ هذا تفسير غير صحيح، مع أن هناك من المتشددين من يفعل ذلك ؛ إما أن يصافحه من تحت العباءة يقول لك: هذا نجس، وهذه تسبب إحراجاً شديداً، وإرباكاً شديدة، ويظهر المسلم بأفق ضيِّق، وإما أن نفهم النجاسة على أنها نجاسة حكمية، بمعنى أنه نجاسة معنوية، فإذا عاشرته، أو عاملته، أو سافرت معه، أو زوجته، أوشاركته، ربما وجدت من أخلاقه ومن علاقته الشيء الذي لا يحمد، وربنا عز وجل قال:

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

(سورة التوبة: من آية " 28 ")

ودقة الآية ما قال: هم نجسون، قال:

(نَجَسٌ)

والفرق كبير بين كلمة نَجِس، وبين كلمة نَجَس، كلمة نَجِس هي صفة، أما نَجَس: اسم ذات، النَجَس عين النجاسة، أما النَجِس صفة الشيء، كل شيء نجس يمكن أن يطهر، لكن النَجَس نفسه هذا ما لا سبيل إلى تطهيره، فقال ربنا:

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

(ورة التوبة: من آية " 28 ")

وأنا لا أرى سبب لمذلة قدم المسلم، أو لتقصيره في دينه، أو لبعده عن الله عز وجل إلا صاحب السوء، لأنه هو نجس، والإفساد سهل، إذا أنت وجدت مادة متفجرة، إلقاء عود ثقاب عليها لا يكلف شيء، قضية سهلة جداً، فإفساد خُلُق الإنسان عن طريق إغراؤه بشيء من الشهوات المألوفة هذا عمل ليس بطولي، هذا عمل واطي، عمل حقير، عمل دنيء، فالإفساد سهل، وقاعدة عامة: (التخريب سهل والبناء صعب)، تبني إنسان بناء صحيح، تحتاج إلى جهد كبير، لكن إفساده يحتاج إلى جهد يسير، فالذين يفسدون الناس يفسدون العلاقات ؛ كلمة، غيبة واحد، أو نميمة واحدة، أو كلمة سوء تنقل من فلان إلى فلان، هذه تكفي لإفساد علاقة كبيرة جداً بين الناس.

لا زلنا في قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

(سورة التوبة: من آية " 28 ")

وحكمة الآية: أن المشرك ليس نَجِساً بل نَجَس، هو عين النجاسة لا يطهر ما لم يترك شركه، ما دام مشرك، ما دام لا يصلي، ما دام بعيد عن الدين، ما دام دنيوي، ما دام مادي فهو نجس، بمعنى أن العلاقة معه علاقةٌ سيئة قد تجرُّ إلى الفساد، والإنسان إن كان لذاته، أو لأولاده، أو لمَن حوله، أخطر شيء في الحياة صاحب السوء، لأن الصاحب ـ كما يقال ـ ساحب، والإنسان قد يتأثر بأصحابه أكثر بكثير مما يتأثر ممَّن يدرسه، لأن في مشاركة، في مقاربة في السن، في توافق بالطباع، فالصاحب له تأثير كبير جداً، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل))

(من الجامع لأحكام القرآن: عن " أبي هريرة ")

فإذا أنت بلغت معك الصحبة مع إنسان درجة عالية جداً إلى مستوى الخُلَّة، فهذه الخلة خطيرة، لماذا ؟ أقوى الخليلين يفرض على الطرف الآخر عقيدته، وقيمه، واتجاهاته، وأعماله، وسلوكه، وأنماط حياته، فأنت شئت أم أبيت إذا أحببت إنساناً إلى مستوى الخُلَّة، هذا الإنسان إن كان أقوى منك شخصية أثر

فيك، المرء على دين خليله، مهما يكن دين خليلك، ليس المقصود الدين الإسلامي هنا، الدين الاتجاه، أي أن خليلك اتجاهه يفرضه عليك، فلينظر أحدكم مَن يخالل، كما تنتقي الحاجات التي تستعملها يومياً بعناية فائقة، ينبغي أن تنتقي الأصحاب بدقة بالغة، ينبغي أن تنتقي الكتب التي تقرؤها بدقة بالغة.

لأن الكتاب أحياناً أنت مالك مسلح تسليح ضد شبه الكتاب، كتاب أحياناً يكون فيه شبهات حول الإسلام، إفساد للعقائد، الباطل يكون مزخرف، الباطل أحياناً يكون يدغدغ عواطف المنحرفين، فإذا الإنسان ما كان بالمستوى الذي يمكّنه من رد هذه الشبه ومن كشف زيفها، لو قرأت كتاباً من دون أن تكون مسلحاً بالإيمان ربما وأنت لا تشعر أثرت فيك أفكار هذا الكتاب، فلابد من قبل أن تقرأ هذا الكتاب من أن تسأل أهل الخبرة، وأهل الاختصاص، والمؤمنين الصادقين المتمرسين بالعلم: هل تنصحني بقراءة هذا الكتاب ؟ يجب أن تختار الكتب اختياراً دقيقاً كما ينبغي أن تختار الأصحاب اختياراً دقيقاً، وكما قلت قبل قليل: المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل.

في البداية قلت لكم: المؤمن نظيف، فذكرنا بعض النجاسات، لكن كأن الله سبحانه وتعالى أراد من النجاسة الخطيرة النجاسة المعنوية، أحياناً يكون حي موبوء، فإذا سكنت في حيٍّ ليس نظيفاً، العلاقات المشبوهة بين الفتيات والشباب في هذا الحي ربما أثرت تأثيراً سلبياً على بناتك وعلى أولادك، فيجب أن تختار الحي الذي تسكنه بعنايةٍ فائقة، يجب أن تختار البيت وأن تختار جيرانه أيضاً، في جيران غير مؤمنين، باحتفالاتهم، بعلاقاتهم، بتبذلهم، بشرفاتهم المكشوفة، بنوافذهم المفتوحة، قد يفسدوا الشباب.

إذاً معنى نَجِس أي صفة، أما نَجَس أي عين النجاسة، والمشرك نجس، حتى النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((اللهم لا تجعل لي خيراً على يد كافر أو منافق))

لماذا ؟ لأن هذا الخير إذا انحدر إليك عن طريق الكافر أو المنافق ماذا يحصل ؟ يحصل ميل قلبي، فإذا مِلت إلى هذا الإنسان الكافر، الفاسق، الفاجر ميلاً قلبياً حقيقياً، ربما اقتبست من أفكاره ومن عاداته ومن تقاليده، ومن قيمه الشيء الكثير، في شيء مهم جداً أذكره دائماً

أن كل إنسان منا له خطوط دفاع، أنا مسلم، الخمر حرام، أنا مسلم، السرقة حرام، أهل الكفر والضلال بطرق خفية جداً يتسللون عبر خطوط دفاع المسلم، فإذا قرأت قصةً، وفي هذه القصة البطل الإيجابي الأول كان يشرب الخمر، فالكاتب أضفى عليه صفات البطولة، صفات الشجاعة، صفات الجُرْأة، صفات العدالة، أضفى عليه من الصفات الأخلاقية الشيء الكثير، حتى أصبح هذا الشخص محطَّ الأنظار، ثم هو يشرب الخمر أو لا يصلي، ماذا يحدث ؟ وهذا أكثر مطب يقع به الشباب أحياناً والفتيات.

فكل عمل فني يظن أن أجهزة اللهو لها سيئة واحدة وهي الإثارة، الإثارة سيئة جداً، إنسان بينه وبين

الزواج مسافة كبيرة جداً وأمد طويل، لا زال في مقتبل حياته، فإذا شاهد في هذه الأجهزة المناظر المثيرة، ربما أثيرت هذه الغرائز عنده، ولا سبيل إلى تفريغها إلا عن طريق الحرام، فربما كانت الإثارة سبباً للفساد، هذا شيء مفروغ منه.

أقول لكم: هناك أخطار لأجهزة اللهو أكبر بكثير من الإثارة، وهو أن كل القيَم الإسلامية الرفيعة، ربما تهتز هذه القِيَم من خلال عمل فني، فيكفي أن ترى أن المرأة المسلمة امرأة جاهلة، وأن المرأة غير المسلمة منطلقة ؛ امرأة ذكية، وامرأة تعتني بأولادها، وربَّة بيتٍ من الطراز الأول، فأنت إذا رأيت امرأتين، واحدة مظهرها إسلامي لكنها مهملة لأولادها ؛ تحب الثرثرة، تمضي وقتها كله عند الجيران، أولادها في الطرقات، زوجها لا تعرف حقوقه، ولها مظهر إسلامي، والمرأة الثانية؛ منضبطة، وحريصة على أولادها، وسيدة بيت من الطراز الأول، هذا العمل فني لو شاهده شاب أو شاهدته شابة لتسللت إليه القيم غير الدينية دون أن يشعر، هذا الخطر، الخطر أن تتسرب إليك القيم غير الدينة وأنت لا تشعر، لذلك المسلم لا يستطيع أحد أن يجابهَهُ بإسلامه، في عنده خطوط دفاع، أما إذا تسللت هذه القيم وهو لا يدري.

فنحن عندما نسمح لشبابنا وبناتنا يتابعوا أعمال فنية الذين كتبوها، والذين أخرجوها، ليسوا مؤمنين بالقيم الإسلامية، فهناك خطر كبير أن يُبْنَى الإنسان بناء غير إسلامي، والحقيقة البناء خطير جداً، فكل مَن عنده أولاد أخطر ما في الشاب بناؤه الداخلي، في بناء أخلاقي، في بناء إسلامي، في بناء عقيدي صحيح، في بناء أساسه الإيمان، في بناء أساسه، أحياناً الناس يقولون لك: قد ما فيك غب. ما هذه الكلمة؟!! الشيطان ركّز هذه الكلمة؛ من حلال، من حرام، الآن أنت شاب، أنت على قدر ما تستطيع وتقدر اجمع مال كيف ما كان، الحلال على الشاطر. ما هذا الكلام، هذا كلام الجهل، كلام الشيطان.

فنحن لما نرتاد بيوت الله عز وجل، ونجلس في مجالس العلم، ونستمع إلى كتاب الله ، ونستمع إلى السنة، ونستمع إلى منهج الله التفصيلي في الحياة اليومية، معنى ذلك أن الإنسان يُبْنَى بناء صحيح، والملاحظ أن الإنسان عندما ينبنى بناء صحيح، بشكل أو بآخر وهو لا يدري يسلك سلوكاً صحيحاً، الله عز وجل قال:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر: من آية " 9 ")

إذا كان بناءك صحيح معناها السلوك صحيح، البناء أساسه التلقّي، فأنت وعاء، من أين تتلقى معلوماتك، تصوراتك، عقيدتك، قيَمك، مُثُلك العليا، من أين تأتي بها ؟ فدائماً انتبه ما الذي يغذي هذا الإنسان ؟ الإنسان يغذيه الطعام والشراب، يغذي جسمه، لكن روحه، نفسه، ما الذي يغذيها؟ قل لي ما الذي يغذيك من الثقافة أقل لك مَن أنت. المسلم يأتي إلى بيتٍ من بيوت الله يُغذى بالقرآن، يغذى بالسنة،

يغذى بالصحابة الكرام، يغذى بالمنهج، فالشيء الطبيعي جداً أن التغذية الصحيحة ينتُج عنها حركة صحيحة.

فتجد المسلم يبحث عن زوجة، هكذا مغذى أن أهم شيء الزواج نظام الأسرة الإسلامي نظام مقدس، وعلاقة الإنسان بالمرأة علاقة زواج فقط ليس غير، بينما إذا الإنسان غذي تغذية مغلوطة ؛ يبحث عن قضاء شهوته خارج الزواج، فالتغذية الغلط ينتج عنها سلوك غلط، أخطر إذاً ما في الحياة أن تبحث عن مصدر لتغذية نفسك، بناء إيمانك، بناء قيمك، بناء منهجك، إذاً النجاسة التي أرادها الله عز وجل في قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

(سورة التوبة: من آية " 28 ")

تعني النجاسة الحكمية، إذا أنت صاحبت إنسان فاسق، فاجر، ما فيه دين، علماني فرضاً، غير مسلم، فما عنده قيم، ما في عنده حدود، ما عنده محرمات، الدنيا هي كل شيء، المال هو كل شيء، المرأة هي كل شيء عنده، فينطلق بحركة عشوائية نحو قضاء شهوته، إن الشهوة المادية في كسب المال، أو الشهوة الأخرى عن طريق علاقات غير صحيحة.

إذاً أنت طلب العلم فرض واجب على كل مسلم، لماذا ؟ العلم حارس لك، الحقيقة في شيء آخر: أنت لما تعرف الحكم الشرعي، الله فرض الصلاة، هذا حكم شرعي، خمس صلوات، صبح، ظهر، عصر، مغرب، عشاء، الصبح ركعتين، هذه أحكام فقهية، سنة مؤكدة والفرض، تصلى قبل طلوع الشمس، والظهر أربع ركعات، وأربعة قبلها وأربعها بعدها، أو اثنين اثنين، أو أربع باثنين على اختلاف المذاهب، والعصر والمغرب والعشاء، السنن والحركات والقعود، هذا هي الأحكام الفقهية، لكن في أشياء بالصلاة أعمق من ذلك.

العلماء قالوا ثلاثة: عالم بالشريعة، وعالم بالطريقة، وعالم بالحقيقة. عالم الشريعة يعطيك الأحكام الفقهية، لكن عالم الطريقة له مهمة أخرى يقول لك: الصلاة صلة، والصلة بالله عز وجل أساسها الاستقامة، فما لم تكن مستقيماً لن تستطيع أن تتصل بالله عز وجل، وأن كل ذنب تقع فيه لابد له من توبة، وأن الله عز وجل يسترضى بالصدقة، فصار معك منهج ـ لا سمح الله ولا قدر ـ لو زلت قدمك بخطيئة لابد من التوبة، والتوبة تحتاج إلى بذل، فأن يلاحظ المسلم أن يكون مع الله دائماً، وأن يشعر أن الله راضٍ عنه دائماً، هذه حالة راقية جداً في الإيمان، فمثل ما قال سيدنا عمر: " تعهد قلبك " كيف أن الإنسان يتعهد عينه أحياناً، كيف إذا شعر أن في ذبابة تطير أمامه، إذاً في عنده خلل داخلي، مباشرة يتصل بطبيب عيون، كذلك المؤمن يتعاهد قلبه إن أنكر قلبه ؛ وجد في قلبه جفاف، أو بُعد، أو إعراض، أو صلاته لم تكن كما يريد، أو شعر أنه مقطوع عن الله عز وجل، فهذا يدفعه إلى أن يبحث عن السبب.

إذاً عالم الشريعة لا يكفي وحده، لابد من عالم يجمع بين الشريعة والطريقة، الصيام ترك الطعام والشراب وسائر المفطرات، من طلوع الفجر الصادق إلى غياب الشمس، شيء جميل، فهل هذا هو الصيام ؟ الصيام:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21))

(سورة البقرة)

معناها فيه تقوى بالصيام، ما هي التقوى ؟ إذاً الصائم يحاول طوال يوم الصيام أن يرقى بعبادته إلى المستوى الذي يؤهِّله أن يقف بين يدي الله في صلاة التراويح، ويؤدي صلاةً صحيحة كما أرادها الله عز وجل، إذاً العالم الأول عالم الشريعة الذي يعرف الأحكام الشرعية، تماماً لو التقيت بمهندس أطلعك على ورق فيه مخططات لبناء، حسابات دقيقة، مصوَّرات دقيقة، لكل طابق، لكل مرفق من مرافق البناء، البناء قبل أن يكسى، بعد أن يكسى، تصميمات حدائق كله على الورق، فأنت تجد شيء جيد جداً يعبر عن علمه الغزير، لكن في إنسان آخر يعطيك البناء نفسه البيت، فشتان بين بيتٍ على الورق وبين بيتٍ حقيقي.

فعالم الشريعة هو الذي يعرف الأحكام الشرعية، ولكن عالم الطريقة هو الذي يدلك على طريق الصلاة الصحيحة، طريق الصيام الصحيح، طريق الحج الصحيح، بأحكام الحج كل مَن طاف حول الكعبة طواف القدوم، وسعى بين الصفا والمروة، وتواجد في عرفات لحظة، ورجم، انتهى حجه، لكن الحج المعنى الذي أراده الله أهم من ذلك بكثير، الحج لقاء مع الله، صلح مع الله، معرفة بالله عز وجل، إذاً نحن نحتاج بالعبادات إلى مستوى أرقى من أدائها بشكل شكلي، نحتاج إلى مستوى فهم حقيقتها.

العالم الثالث هو عالم بالحقيقة، فشبهوا الذي يرسم لك مخطط البيت عالم الشريعة، والذي يدلك على الطرق الموصل إليه هو عالم الطريقة، والذي يأخذ بيدك ويدخلك القصر نفسه هو عالم الحقيقة، ولن يكون العالم عالماً إلا إذا كان عالماً بالشريعة، ولن يكون عالم الطريقة عالماً بالطريقة إلا إذا كان عالماً بالشريعة، ولكن يكون عالم الحقيقة عالماً بالحقيقة إلا إذا كان عالماً بالشريعة وعالماً بالطريقة.

إذاً الموضوع موضوع البناء الصحيح حتى الإنسان ينتقل إلى المستوى الذي يسعده في الدنيا والآخرة، إذاً أخطر مصدر على حياتنا الصاحب السيئ لأنه نَجِس، فانظر لعلاقاتك الاجتماعية، أصدقاءك، النشاط الاجتماعي مع مَن تمضيه ؟ مع مَن تمضي العطلة، مع مَن تسهر، مع مَن تجلس، مع مَن تذهب إلى النزهات، هؤلاء بقيمهم غير الصحيحة قد يؤثرون فيك، لذلك الحديث الشريف:

((لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي))

(من الجامع الصغير: عن " ابي سعيد ")

والحكمة العطائية: " لا تصاحب من لا يدلك على الله مقاله، ولا ينهض بك إلى الله حاله " الإنسان له مقال وله حال، فإذا صاحبت إنسان له مقال يدلك على الله عز وجل، وحال يوصلك به، فهذا الإنسان اصحبه، ودائماً الإنسان يصحب في أمر الدين من هو أرقى منه، يسعد به، وليصحب في أمر الدنيا مَن هو أدنى منه يتعبه، لو صاحبت أغنى منك تتعب كثيراً، دخلك محدود ودخل غير محدود، دائماً مسيطر عليك، بالإنفاق، إذا جاريته تخرب بيت حالك، لا تقدر، مع أهل الدنيا اصحب مَن هم دونك، مع أهل الدين اصحب مَن هم فوقك.

الآن حتى بالنظرة، الإنسان إذا وازن نفسه مع أهل الدنيا الكبار يرى أن الله حرمه كل شيء، " من دخل على الأغنياء خرج من عندهم وهو على الله ساخط " ما عنده شيء..

((يا عائشة إذا أردت اللحوق بي فليكفك من الدنيا كزاد الراكب، ولا تستخلقي ثوباً حتى ترقعيه، وإياك والدخول على الأغنياء))

(من الدر المنثور: عن " السيدة عائشة ")

طبعاً المقصود بهم الأغنياء غير المؤمنين، المؤمن متواضع.

فانطلقت من كلمة نجس إلى الصحبة والعلاقة، والتغذية الشيء أساسي بحياتنا، لاحظ المؤمن إذا نزهاته، سهراته، لقاءاته، نشاطه الإنساني كان محصور مع المؤمنين، يسعد، ويرقى، سبحان الله كل مؤمن يعطي أخاه المؤمن ما هو بحاجة إليه، تجد هذا المؤمن حليم، وهذا المؤمن مندفع، فإذا تصاحبوا اندفاع هذا ينتقل إلى الثاني وحلم الألو ينتقل إلى الثاني، فأرقى علاقة بين المؤمنين العلاقة الحميمة التي تصل إلى مستوى الخُلّة، فكل واحد عنده شيء ثمين يؤثر في الآخر.

فنحن يجب أن نستفيد من هذا أنه جزء من دينك أن تكون بعيد عن أهل الكفر، أن تكون بعيد عن أهل الفسق، ألا تصاحب إلا أهل الإيمان، ولكن مع أهل الفسق والفجور صحبتهم محرجة جداً، فقد تدعوه قائلاً: تفضل عندنا اسهر. يأتي هو وزوجته، يقعد يحرجك، وإن ذهبت إليه تستقبلك زوجته، يعدونها قضية بسيطة جداً، فإذا كان صار في اختلاطات أو علاقات غير صحيحة، ينتج عنها آثار كبيرة، لا تصاحب إلا مؤمناً لا، يأكل طعامك إلا تقي، في إخوان كثيرين يشارك أخ من أهل الدنيا، يؤمن باستثمار المال عن طريق البنوك مثلاً، معقول المال ما نربح فيه ؟! إحراجات كثيرة، يشتري بضاعة محرمة، ما عنده هذا الشيء، الهدف يربح، أما المؤمن الهدف يربح من طريق مشروع.

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

(سورة التوبة: من آية " 28 ")

هذه نجاسة ما نوعها ؟ حكمية، في نجاسة حقيقية، كنجاسة الدم المسفوح، ونجاسة لحم الخنزير، ونجاسة الميتة، ونجاسة الخمر، وهناك نجاسة حكمية ترقى إلى مستوى العلاقات، فإذا صحب المؤمن مؤمناً سعد في الدنيا والآخرة.

من الأشياء النجسة أيضاً: الكلب، هو نجس ويجب غسل ما ولغ فيه سبع مرات أولهن بالتراب، لحديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مراتٍ أولهن بالتراب))

(رواه مسلم وأحمد وأبو دواد والبيهقي)

طبعاً هذه الفقرة الأخيرة في الدرس، نجاسة الكلب إذا ولغ في إناء الإناء، أما شعر الكلب فالأظهَر أنه طاهر، لم تثبت نجاسته، إذا كان كلب جاف ولمس ثوبك من جهة شعره، الأغلب والأظهر أنه طاهر، لكن فم الكلب ولعاب الكلب هو النجس.

((طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أولهن بالتراب))

فالدرس الماضي إخواننا، والحمد لله رب العالمين، تأثروا كثيراً بموضوع نشاط المؤمن، أتمنى أن أذكر هذا باختصار شديد:

أن إخواننا لابد لهم من جلسة مع مَن يلوذ بهم من أقربائهم، فأنت إذا جلست مع أهلك جلسة مع أولادك، مع بناتك، مع إخواتك، مع بنات أخواتك، مع من يلوذ بك جلسة في الأسبوع الواحد نقلت لهم ما سمعته في هذه الدروس، اختار آية من الآيات، حديث من الأحاديث، اختار موضوع فقهي، اختار سيرة من سيَر الصحابة، هذه إذا ألقيتها إلى من يلوذ بك شعرت بالعطاء، الإنسان إذا أعطى يسعد، إذا كان عمله قليل، من قصر بالعمل ابتلاه الله بالهم.

في حقيقة الإنسان لابد من أن يرقى إلى الله، فإن لم يرقَ بعمله ربما رقي بصبره، بمعنى أن الله عز وجل ما رأى منك ذلك المسعى الطيِّب لخدمة الخلق، ربما ابتلاك ببعض المشكلات فإذا صبرت عليها ارتقيت إلى المستوى الذي كان من الممكن أن تصله، فأيهما أحب إليك أن ترقى بالعمل الصالح أم أن ترقى بالصبر ؟ والله الرقي بالعمل أرقى وأجمل وأريح، فإذاً الإنسان يجب أن يعاهد نفسه على العطاء، أن ينتقل من طور التلقي إلى الإلقاء، من الأخذ إلى العطاء، من التعلم إلى التعليم، من التذكُّر إلى التذكير، والآية الكريمة:

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آَيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152))

(سورة البقرة)

واتفقنا اتفاق ثاني أولاً: أن يكون لك نشاط في الدعوة إلى الله عز وجل ممن يلوذ بك، والنشاط الثاني: أن تتفقد أحد إخوانك، وهذا الشيء أنا حريص عليه، وكلما التقيت بأخ من الإخوان الكرام سأسأله: مَن أخوك في الله، مَن الأخ الذي اصطحبته في الله، من الأخ الذي تعهدت أن تصله، وأن تتفقد أموره، وأن تتفقد غيابه، وأن تصله، وأن تعوده إذا مرض، وأن تعينه إذا طلب، نشاط متعلق بمَن يلوذ بك، ونشاط آخر متعلق بإخوان هذا المسجد، فإذا فعلت هذا وهذا فقد خطوت خطوة في الطريق الصحيح الذي أراده الله سبحانه وتعالى.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (061) :التوكل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-07-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... اخترت لكم في هذا الدرس حديثاً شريفاً صحيحاً، لماذا اخترت هذا الحديث ؟ لأنني أرى كثيراً من حالاتٍ مرضيةٍ أساسها ضغوطٌ نفسية، أمراضٌ كثيرة ؛ تصيب الجهاز الهضمي، الجهاز العصبي، القلب، الضغط، هذه الأمراض تُعزا في الدرجة الأولى إلى الناحية النفسية الضاغطة، النفس تتلقّى ضغطاً، طبيعة الحياة معقَّدة جداً، المطالب كثيرة، الموارد قليلة، الضغوط كثيرة، التعقيدات بالغة، المنافسة شديدة، ما من بيتٍ إلا وفيه همومٌ لا يعلمها إلا الله، ما الخلاص من هذه الهموم، وهذه الضغوط، وهذه الصدمات، ثم في النهاية تلك الأمراض، لأن العضوية لا تحتمل هذا الضغط النفسي.

عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((لو أنكم توكَّلون على الله حق توكّله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً))

رواه الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وقال الترمذي: حسن صحيح.

حديث على إيجازه، بليغ في مدلولاته، أولاً: ما الذي يقلق الناس ؟ الرزق، وقبل الرزق ؟ الحياة، حياة الإنسان ورزقه، إذا أيقن العبد أن له عند الله عمراً لا ينقص ولا يزيد، وأن له عند الله رزقاً لابد من أن يستوفيه، إذا أيقن أن أجله محدود، ورزقه مقسوم، رفع عنه ضغطٌ كبير.

هذا الحديث يتعلق بالتوكل، ولو أنك توكلت على الله، أنت انظر إلى الطفل الصغير، لا يهتم ؛ لا بالإنفاق، ولا بالمصروف، ولا بارتفاع الأسعار، ولا بشح الموارد، ولا بتعقيد الحياة، كل همه على أبيه، لا يهتم بشيء إطلاقاً، تجده عمره سنة أو سنتين، تجده، يفرح ويمرح ويضحك، المؤمن الصادق حينما يضع همومه عند الله عز وجل يستريح.

هذا الحديث الشريف، قال عنه العلماء: أصلٌ في التوكل، في أحاديث تبين التوكل من زوايا فرعية، أما هذا الحديث يعد أصلاً في التوكل، وهذا الحديث يعد من أعظم الأسباب التي يجلب بها الرزق، أصلٌ في التوكل، وأصل في طلب الرزق، الله عز وجل قال:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

(سورة الطلاق)

النبي عليه الصلاة والسلام قرأ هذه الآية وقال:

((لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم))

(من زيادة الجامع الصغير: عن " أبي ذر ")

والآن نحن في أمس الحاجة إلى هذه الآية، نحن في أشدِّ الحاجة إلى التوكُّل، إلى أن تلقي الهموم كلها عند الله، " يا رب، أنا عبدك، وابن عبدك،وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في قضاؤك، نافذٌ في حكمك، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له السماوات والأرض، من أن تنزل بي سخطك، أو أن تحل بي غضبك، ولك العتبى حتى ترضى، ولكن عافيتك أوسع لي " هذا الدعاء من القلب، الدعاء مع الخشوع، الشعور أن الله بيده كل شيء، يا رب ليس لي إلا أنت، أنا لا أملك إلا رحمتك، إذا قطعت الأسباب، إذا قطعت العلائق وتوكّلت على الله عز وجل، لا شك أنك تشعر براحةٍ شديدة.

أنا علي أن أعبده، أنا علي أن أبحث عن أمره، أنا علي أن أطلب العلم، أن أتعلّم، وأن أتقصى أمره، وأن أنفذ أمره، والباقي كله عليه، هو يعلم حاجتي، " عبدي كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك ". أي لا تجشم، لا تكلف خاطرك تقول لي ماذا تريد، أعلم ماذا تريد، أعلم ماذا يصلحك، أعلم ماذا يسرُّك، أعلم ماذا يرضيك، أعلم ماذا يسعدك، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد.

يقول بعض السلف: لو حقق الناس التقوى والتوكل... توكل بلا تقوى لا يكون ـ هذه أخطر فكرة بالدرس ـ كل إنسان متلبِّس بالمعصية لا يستطيع أن يتوكل على الله لأنه خجول، لأن وجهه أسود، لا يستطيع أن يقول له: يا رب توكلت عليك. على ماذا ؟ فهو مقصر، أما إذا حقق العبد التقوى أي طاعة الله عز وجل بإمكانه أن يتوكل عليه، قدمت أنت شيء، يا ربي أنا أطيعك، هذا قسمي فيما أملك، أنا أملك أن أطيعك، ولكن لا أملك الأقدار، الأقدار بيدك يا رب، أنا لا أملك الصحة، ولكن أملك أن أطيعك، وأنا لا أملك المال المال يا رب، لكنك تملك المال، أنا أملك أن أطيعك، أنا لا أملك الأقوياء هم بيدك، أنا أملك أن أطيعك، الأمر واضح جداً أنت ماذا تملك ؟ تملك أن تطيعه، أنت مكلفٌ بطاعته، ما أنت مكلفٌ به، محاسب عليه، ما لست مكلفاً به لا تحاسب عليه، الأقوياء ليسوا بيدك، السماء ليست بيدك تمطر أو لا تمطر، يا رب إن أمطرتنا فهذه رحمتك الواسعة، وإن لم تمطرنا فهذه حكمتك البالغة، شيء مريح.

أنا قلت لكم مرة أستاذ لنا في الجامعة، من كبار أساتذة علم النفس، عقد مؤتمر للطب النفسي في أوروبا، في ألمانيا، وكان هو مندوب سوريا في هذا المؤتمر، بدأ محاضرة بليغة طويلة، قال في مقدمتها: أعلن عليكم أيها السادة أن نسبة الأمراض النفسية في مجتمعاتنا قلية جداً بسبب الإيمان بالله عز وجل..

هم لأحبة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي عنهمٌ معدل وإن عدلوا
والله وإن فتتوا في حبهم كبدي باقٍ على حبهم راضٍ بما فعلوا

* * *

في استسلام لله عز وجل، أقامك بهذا الشكل، وبهذا الدخل، وبهذه الإمكانيات، وبهذا البيت، وبهذه الحرفة، ليس في الإمكان أبدع مما كان، يا رب هذا حكمك وأنا راضٍ بحكمك، مشاعر الرضا لا توصف، المؤمن إذا ارتقى في الإيمان، يشعر بالسعادة التي لا توصف حينما يرضى بقضاء الله، ترضى بقضاء الله، وقد يكون هذا القضاء مكروهاً.

لذلك: قال التوكل من أعظم الأسباب التي يستجلب به الرزق، ولو حقق العباد التوكّل والتقوى لاكتفوا بذلك في مصالح دينهم ودنياهم. أرضين مُعَدَّتين للبناء، اشتراهما رجلان، الأرض الأولى لم يعطَ رخصة البناء، لأن هذه الأرض سوف تمر بها المجارير، الثاني أعطي رخصة البناء، فأنشأ المخططات، وحفر الأساسات، وأقبل عليه الناس، وقبض المبالغ الطائلة، وتألّق وجهه، ولمعت عيناه، وعَلَت الابتسامة على وجهه، شيء جميل، الثاني: يرى جاره يبيع ويشتري، وهو معَطَّل، مازال الهم يضغط عليه، ويضغط عليه حتى أصيب بأزمة قلبية، بعد عامين، نال الرخصة، فأصبحت سعر أرضه أضعافاً مضاعفة عن كل أرباح جاره، ولكن بعد فوات الأوان، لو توكل على الله لكسب الدنيا والآخرة، أنت لا تعرف الخير أين هو ؟.

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ((216)

(سورة البقرة)

أيها الإخوة الكرام... يكفينا جميعاً قصة سيدا الخضر، سفينة خُرقت، ولولا أنها خرقت لصودرت، ما الذي جعلها تنجو من المصادرة؟ أنها خرقت، فلو علم صاحبها مسبقاً أن هذا الخرق لصالحه لكان شاكراً للذي خرقها له، ولكنه لا يعلم، ثم كُشِفَ الغطاء....

إذا تحقق العبد من التقوى والتوكل، فقد اكتفى بهما في مصالح الدين والدنيا.

عَرَّف بعضهم التوكل: بأنه صدق اعتماد القلب على الله. أنت أحياناً تعتمد على جهة ولا تثق بها، نقول هذا اعتماد كاذب، ولكن التوكل الحقيقي الذي به تنجو من عذاب الدنيا والآخرة هو صدق اعتماد القلب على الله، اعتماد حقيقي، الإنسان أحياناً يوكّل قضيته لمحام لامع جداً، وبالتعبير العامي (يده طايلة)، مفتاح أكثر القضاة، تجده يرتاح فلان وكلته مثلاً، فكيف لو كان الله عز وجل هو الوكيل ؟!.

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج)

قال بعضهم، وهذه عبارة دقيقة: حسبك من التوسُّل إليه أن يعلم الله من قلبك حسن التوكل عليه. لك وسيلة واحدة لله، الوسيلة الوحيد أن يعلم الله أنك صادقٌ في التوكل عليه، فكم من عبدٍ من عباد الله فوَّض أمره إلى الله فكفاه الله كل ما أهمه.

يا إخوان نقطتين ؛ عليك أن تطيع الله، فإذا أطعته لك عليك دالة، تستطيع أن تتوكل، عليه التوكل على الله ممتع، ومسعد، ولكن العاصي يستحيي أن يتوكّل على الله، يخجل، لأن الذنوب حجاب.

حقيقة التوكل: " صدق اعتماد القلب على الله، في استجلاب المصالح ودفع المضار في أمور الدنيا والآخرة ". تعريف جامع، مانع، الطالب يتوكل على الله، والتاجر يتوكل يا جبار، والطالب يا رب يا معين، والمزارع يا رزاق، كل إنسان باختصاصه، والطبيب: بسم الله الرحمن الرحيم، حتى الله عز وجل يلهمك التشخيص الصحيح، ويلهمك الدواء المناسب، والمحام كذلك، والمهندس كذلك، فباب التوكل واسع جداً، عوِّد نفسك الدعاء كلما أقدمت على عمل فقل: " اللهم إني تبرأت من حولي وقوتي والتجأت إلى حولك وقوتك يا ذا القوة المتين ".

قال: تحقيق الإيمان، أي حقيقة الإيمان أنه لا يعطي ولا يمنع، ولا يضر ولا ينفع إلا الله، إذاً توكل عليه.

قال بعض العلماء: التوكل على الله جماع الإيمان، أي أن الإيمان بأكمله يلخَّص بالتوكل، الغاية القصوى هي التوكل نحن أحياناً باللغة العربية نعلم الطالب نصوص، نعلمه قواعد، نعلمه نحو، نعلمه صرف، نعلمه بلاغة، نعلمه عروض، الغاية الكبرى من كل هذه الفروع التعبير السليم، الشفهي والكتابي، فالتعبير غاية، لكن النصوص والقواعد والنحو والصرف والبلاغة والعروض وسائل، فالتوكُّل غاية، فإذا عرفت الله وكنت مستقيماً على أمره تتوكل عليه، في جلب المصالح ودفع المضار، في الدنيا والآخرة، وانتهى الأمر، طاعة وتوكل لجلب المصالح ودفع المضار في الدنيا والآخرة.

قال بعض العلماء: إن التوكل، توكل العبد على ربه أن يعلم أن الله هو ثقته. أحياناً الإنسان يقول: يا رب توكلت عليك، وكل ثقته بفلان، هذا يعلمه الله، يعلم الله حقيقة هذا التوكل. لذلك ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه: " من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ". وكان يدعو عليه الصلاة والسلام ويقول:

((اللهم إني أسألك صدق التوكل عليك))

دققوا: صدق التوكل، لأن في توكل كاذب..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آلعمران)

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

(سورة الحج: من آية " 78 ")

أسألك صدق التوكل على الله، التوكل الحقيقي، في دعاء آخر للنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اللهم اجعلني ممن توكل عليك فكفيته))

(من كنز العمال: عن " أنس ")

والله شيء جميل، هذه: " حسبي ونعم الوكيل " هل هي قليلة ؟!

لكن أيها الإخوة الذي لا أريده أن تفهموه مني أنك إذا توكلت على الله تركت السعي بالأسباب، الله عز وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

(سورة النساء: من آية " 71 ")

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

(سورة الأنفال: من آية " 10 ")

(فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ)

(سورة الجمعة: من آية " 10 ")

لذلك قال بعض العلماء: من طعن في الحركة أي في السعي والكسب فقد طعن في السنة، كل إنسان كسول يقبع في بيته، ويقول: على الله، كله شغل سيدك، أنا مفوض له، أنت واحد كسلان، ليس هذا هو التوكل، التوكل أن تأخذ بكل الأسباب، التوكل مكانه القلب، والجوارح مكانها السعي، لا تخلط هذا بذاك، لا تلبس على الناس دينهم، التوكل بالقلب، والسعي بالجوارح.

قال أحد العلماء: " مَن طعن في الحركة يعني في السعي والكسب، فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن بالإيمان " إذا الإنسان لم يتوكل معناها ضعيف الإيمان، وإذا ما سعى، ضعيف التطبيق للسنة، النبي كان يسعى.

أكمل شيء أيها الإخوة أن تسعى بجوارحك، وأن تتوكل بقلبك، أنا عليّ أن أسعى، وأوضح مثل أن المطاردين حينما وصلوا إلى غار ثور، النبي بقي رابط الجأش، هو عليه أخذ بالأسباب والآن متوكل، مثل الطالب درس، فليس مضطرب الآن توكل، التاجر، اشترى البضاعة المناسبة، واجتهد في اختيارها، وفي أسعار، وارتاح، الآن بيعها على الله، المزارع، زرع بالوقت المناسب وتوكل، شيء جميل لك مظهرين، مظهر السعي والنشاط والحركة والعلم والأسباب والخطط، ومظهر من الداخل كلام بكلام: يا رب هذا الذي علي فعلته بقي الذي عليك، بالدراسة، بالزواج، بالتجارة، بالصناعة، بالقضاء، بالطبابة، بالتدريس، بالهندسة، عليك سفر أنت هذه السيارة راجعت فيها، راجعت ميكانيكها وأجهزتها هذا الذي علي، وعلى الله الباقي، أما أن تقول: أنا راجعتها. فهذا لا يكفي، تنشأ معك مشكلة كبيرة ولو

راجعت للسيارة. أنا متوكل يا رب، ولا فيها فرام، ولا فيها شيء سليم، هذا ليس معقول، هذا ليس توكل، هذا الشخص المتوازن بقدر ما هو مستسلم، بقدر ما هو يأخذ بالأسباب.

أيها الإخوة... التوكل حال النبي، والكسب سنته، فمن عمل على حاله، لا ينبغي أن يترك سنته، سنته السعي، وحاله التوكل، أنت مكلف أن تقلده في حاله وفي سنته، في حاله الاستسلام، كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا جاءه أمر على ما يريد قال: " الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإن جاءت الأمور على غير ما يريد قال: الحمد لله على كل حال ". هكذا يريد الله، إن كانت لكلمة غير فصيحة لكن أتذوقها، الذي تحبه هكذا يريد (ياللي بتحبه هيك بدّه)، فالذي أنت بكل حياته من أجله..

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162))

(سورة الأنعام)

كل حياتي من أجلك يا رب، وهذا قرارك، وهذه حكمتك، والله مرة قرأت لوحة:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

(سورة الطور: من آية " 48")

اصبر، لو كان حكم الله واضح جداً لا يحتاج لصبر، لما أنت تكون مريض عند طبيب أسنان، ويعطيك إبرة البنج، المخدر، وأنت تعرف أن هذه الإبرة مؤلمة، لا أقول جداً لكن مؤلمة، لكن ألمها أخف كثير من آلام قلع الضرس، فالأمر واضح، لأنه واضح صابر، لكن الأمر إذا لم يكن واضح، الله يقول لك:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

(سورة الطور: من آية " 48")

أجمل شيء بحياة المؤمن: إذا جاءت الأمور على خلاف مراده يا رب لك الحمد، أنا مستسلم، أنا راضٍ، التوكل حال النبي، والكسب سنته، بعض العلماء قال: أفعال الإنسان ثلاث أنواع ؛ أولها الطاعات التي أمر الله عباده بها، وجعلها سبباً للنجاة من النار ودخول الجنة، هذه الطاعات لابد من فعلها مع التوكل على الله، والاستعانة به عليها، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، قال النبي الكريم في تفسير هذه الكلمة: " لا حول عن معصية الله إلا بالله، ولا قوة على طاعته إلا به ".

يجب أن تتوكل على الله في أداء الطاعات، فأحياناً الله عز وجل يضعف لك همتك، يضعف لك مقاومتك أحياناً، فإذا الإنسان الله رزقه الاستقامة لا ينبغي أن يتيه بها على الخلق، ويقول: أنا مستقيم، أنا غير فلان. ومَن أنت ؟ إذا كنت مستقيماً فهذا فضل من الله عليك، فالإنسان إذا استقام على أمر الله، واعتد باستقامته، وتاه بها على عباد الله، هذه ليست استقامة، لكن شابها الكِبْر، شابها الاعتداد، شابها العلو، لذلك هذه الاستقامة ليست مقبولة إلا إذا خالطها التواضع، خالطها العبودية لله.

المؤمن الصادق يا إخوان إذا وفقه الله لطاعة، يشكر الله على أنه وفّقه إليها: يا رب سمحت لي أن أقوم بهذا العمل، سمحت لي أن أحضر هذا المجلس، في إنسان يكون مريض، في إنسان الله عز وجل يسبب

له متاعب كثيرة جداً في حياته، ليس فاضي، مشاكل بالبيت، ومشاكل بالشغل، ومشاكل هنا، أولادي يغلبوني، إذا شخص الله عز وجل فرغه، سمح له يحضر مجلس علم هذه من نعم الله، لا يمن على الله فيه..

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (17))

(سورة الحجرات)

فحتى العبادة تحتاج إلى توكل، يا رب، والدليل الفاتحة:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5))

(سورة الفاتحة)

الفاتحة، تستعين بالله على صلاتك، وعلى صيامك، وعلى حجك، وعلى زكاة مالك، وعلى غض بصرك، وعلى ضبط لسانك، وعلى تحرير دخلك، وعلى قيامك بالأعمال الصالحة، هكذا.

الشيء الثاني: ما أجرى الله به العادة في الدنيا، وأمر عباده بتعاطيه كالأكل والشرب، كالأكل عند الجوع، والشرب عند العطش، والاستظلال من الحر، والتدفؤ من البرد، فهذه أيضاً أسباب إن لم تأخذ بها تحاسب عليها، إذا الإنسان أهمل طعام الفطور مثلاً، صار معه ضعف، أو أهمل نوع الطعام، صار في معه كتم، أهمل الحاجات الأساسية التي أمره الله بها، وصار في عنده مشكلة، هذه المشكلة يحاسب عليها، يحاسب على تقصيره، فجسمك ليس ملك، أولاً: هذا الجسم أمانة بين يديك، سلمك الله إياه، عليك أن تعتني به لأنه قوام حياتك، رأسمالك في حياتك، فالعناية بالصحة جزء من الدين.

أن تعلم ماذا تأكل ماذا تشرب، في أشياء فيها مواد ملوثة، في أمراض كثيرة جداً، وأمراض خطيرة جداً، وصار في حالات وفيات كثيرة جداً من التلوث، الآن أنا أنصح إخواننا الكرام أن يقصروا تناول الطعام في بيوتكم، تعرف أنها مغسولة جيداً، أحياناً يكون عامل بمطعم لا ينظف نفسه جيداً بعد قضاء الحاجة، آثار البراز بيديه، وأيضاً يعمل سلطة، لا تعرف السلطة ماذا فيها، بهذه الطريقة تنتقل الجراثيم، بهذه الطريقة تنتشر الأوبئة، فالنصيحة الآن الخضر الورقية ممنوع استعمالها، الطعام خارج المنزل الأولى الإنسان يبتعد عنه الآن لعدم الدقة في إعداد الطعام، الغسيل المتقن للخضار والفواكه هذا الأسباب وعلى الله الباقي، أما أهمل الأمر !! إذا المياه ليس متأكداً منها اغليها، إذا المياه ليست صالحة لتكن مغلية، هذا الثاني.

أنا لفت نظري أنني قرأت في الجريدة من يومين: أن كل موظفي المطاعم مكلّفون أن يقدموا فحوصاً لبرازهم للصحة، لعل يكون معهم مرض، وأثناء قضاء الحاجة ينتقل هذا المرض من برازهم إلى طعام رواد المطعم. خبر لفت نظري، معناها تنتقل الجراثيم بهذه الطريقة، لماذا النبي أمرنا بالنظافة البالغة

الشديدة ؟ الحقيقة موضوع الغذاء إذا كان مطعم القائمين عليه ليسوا مؤمنين، موضوع النظافة مهْمَل جداً، أما المؤمن حريص.

الآن، يقول بعض العلماء: لو حقق العباد التوكل على الله بقلوبهم لساق الله إليهم أرزاقهم مع أدنى سبب، كما يسوق إلى الطير أرزاقها بمجرد الغدو والرواح. في عندنا نقطة: أحياناً ربنا عز وجل يرزقك لكن بعد أن يعصرك عصر، تعمل اثني عشر ساعة، صياح، مشاكل عيّ، معاندة مع الناس لكي تلحق رزقك، وحياناً ربنا يكرمك يبعد لك رزقة تكفيك مع جهد بسيط، هذا من إكرام الله لك.

اسمعوا هذه الحقيقة يا إخوان: إذا طلبت العلم، وحضرت مجالس العلم، وأعطيت من وقتك الثمين وقتاً لمعرفة الله لفهم كتابه، لفهم سنة نبيه، لفهم سيرة أحبابه، إن أعطيت من وقتك الثمين وقتاً لمعرفة الله أرجو الله سبحانه وتعالى ألا أكون مبالغاً في هذا، ساق لك الله رزقاً وفيراً مع جهدٍ يسير، أنا اشعر أحياناً مع شخص يشكو إلى درجة غير معقولة يقول لك: مسحوق سحق، ليمونة معصورة، منتهي، أنام الساعة الواحدة، طبعاً للدنيا فقط، في فقط في أشخاص يناموا في الساعة الواحدة لكن للأمور الأخروية، لكن إذا كان الدنيا فقط تأخذ منك كل هذا الجهد وكل ذلك الوقت والله هذه حياة صعبة، الإنسان إذا ألغي وقت فراغه ألغي وجوده.

أنا أقول لكم الآن: أي عمل من أعمالكم إذا استغرق كل وقتكم مهما علا دخله هو خسارة كبيرة، إذا استغرق عملك الوقت كله فقد ألغى وجودك، أنت تعمل من أجل رسالة، من أجل إيمانك بالله، من أجل عمل صالح ينفعك بعد الموت، أنا أخالط أناساً الدنيا كل همهم، لا يوجد عنده شيء غير تجارته من الفجر، لأنصاف الليالي، لا زوجة لا أولاد، لا مجلس علم، لا درس فقه، لا قرآن، إطلاقاً، في تجارته، تجارته قبر له، في معمله، معمله قبر له، وفي وظيفته، وظيفته قبر له، انتهى الإنسان، هذه نصيحة أسديها لكم: العمل الذي يستغرق كل وقتك هو خسارة فادحة ولو درَّ عليك مئات الألوف، انتهى وجودك، انتهت رسالتك.

أحياناً في إنسان يتباهي: أنا أرجع للبيت قبل أن يناموا أولادي أذهب بعدما يفيقوا، جيد، لكن من لهم أولادك ؟ أنت لست أباً لهم أنت منفق عليهم فقط. لو حقق العباد التوكل على الله بقلوبهم لساق إليهم أرزاقهم مع أدنى سببٍ كما يسوق إلى الطير أرزاقها بمجرد الغدو والرواح.

لذلك، الإمام أبو حنيفة قرأ عن النبي حديثاً شريفاً، كان هذا الحديث الشريف انعطافا في حياته، ما هذا الحديث:

((من طلب العلم تكفل الله له برزقه))

الكلام أكيد، كلام قطعي، إذا طلبت العلم تكفل الله لك برزقك.

(من الدر المنثور: عن " زياد الصدغي ")

اسمعوا الآن قال: ربما حرم الإنسان الرزق بذنب يصيبه. يروي ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه))

معنى هذا أن أحياناً الذنوب تقطع الأرزاق.

في عندنا للرزق سبب آخر ؟ سؤال: هل هناك آية قرآنية استنبط منها العلماء أن هذا العمل يسبب بحبوحة الرزق ؟

(لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً (16))

(سورة الجن)

الاستقامة.

والصلاة:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)

(سورة طه: من آية " 132 ")

الدليل:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)

(سورة طه: من آية " 132 ")

التقوى والتوكل، هذه ثلاثة، أربعة: العبادة لله في كل شيء، الاستغفار، أيضاً إتقان العمل، الأمانة، صلة الرحم، الاستقامة، والأمانة، وصلة الرحم، وإتقان العمل، والصدقة، " استمطروا الرزق بالصدقة"، والتوكل مع التقوى.

التوكل مع التقوى، والصدقة، وصلة الرحم، والاستقامة، والأمانة والاستغفار، هذه كلها أسبابٌ لوفرة الرزق، وإذا كانت توافرت كلها والرزق قليل، بمَ نفسر ذلك ؟ نفسر ذلك بالحكمة، " إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، فإذا أغنيته أفسدت عليه دينه ".

الحديث دقيق احفظوه:

((إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه))

(من شرح الجامع الصغير)

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه:

((لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حل ودعوا ما حرم))

(من الجامع لأحكام القرآن)

لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها الأجل محدود والرزق مقسوم، إذاً لا تقلق

قال بعض السلف: توكل تُسَق إليك الأرزاق بلا تعب ولا تكلُّف.

سأل أحد العلماء قال: ما علامة صدق التوكل ؟ فقال: أن يتوكل العبد على الله، وألا يكون في قلبه أحد من الآدميين يطمع أن يجيبه بشيء. أي يجب أن تيأس مما في أيدي الخلق، ما دام فلان لا يقصر إذا طرقت بابه، فلان يودني، فلان مسَبِّق معه، قل فلان فقط، باب السماء مغلق، إذا يئست مما في أيدي الخلق أمدك الله عز وجل بما تحتاج، فعلامة صدق التوكل اليأس مما في أيدي الخلق

لا تسألن بني آدم حاجة

وسل الذي أبوابه لا تغلق

الله يغضب إن تركت سؤاله

وبني آدم حي ن يسأل يغضب

* * *

قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزوَّدون ويقولون نحن متوكلون، فيحجون فيأتون مكة، فيسألون الناس، فأنزل الله هذه الآية:

(وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)

(سورة البقرة)

هذه الآية تدل على الأخذ بالأسباب.

الحقيقة أيضاً صدق التوكل عرَّفه بعضهم: بأنه قطع الاستشراف من الخلق، الاستشراف أي الطمع، قطع الاستشراف من الخلق، فسئل أحد العلماء ما الدليل ؟ قال: قول إبراهيم عليه السلام لما عرض عليه جبريل أن يساعده وهو يرمى في النار فقال له: ألك حاجة ؟ فقال: أما إليك فلا. وظاهر الكلام أن إبراهيم ترفع سؤال جبريل حينما ألقي في النار فقال: أما لك فلا، علمه بحالي يغني عن سؤالي. أي أن الله عز وجل حينما رأى منك يأسك من الخلق أمدك بما تريد.

في تعبير دقيق سئل أحد العلماء، وهو بشر الحافي، عن التوكل ؟

ـ فقال: اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب. كلام ملغز، اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب.

ـ فقال له السائل: فسره لنا حتى نفقهه.

ـ فقال بشر: اضطراب بلا سكون ؛ رجل تضطرب جوارحه بالسعي، وقلبه ساكن إلى الله لا إلى عمله. سعى، وأخذ بالأسباب، وخطط، وصمم، وقدم استدعاء، وحاكى فلان، أخذ بكل الأسباب هذا اضطراب، لكن بلا سكون لهذا العمل بل السكون إلى الله، اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب، رجل ساكن إلى الله عز وجل بلا حركة، لا يوجد اضطراب، فاضطراب بلا سكون وسكون بلا

اضطراب.

إذا الإنسان توكل على الله عز وجل وقصر في تحصيل رزق أولاده، فهو محاسب عند الله والدليل: " كفى بالمرء إثماً أن يضيِّع مَن يقوت " أحياناً الإنسان يفرط، أنا أقول له: هذا ليس مالك هذا مال أولادك، عندك بنات، عندك شباب، له ورثة تاركها، له حساب قديم مع شخص هامله، له عقد شراكة مع شخص ويقول: يصطفل يعمل بأصله، أنت مكتفي ولكن عندك أولاد، لو أن هذا المال حصَّلته، وزوجت أولادك به كان أفضل، فالتقصير في المطالبة بالحقوق مع شدة الحاجة للمال، هذا الإنسان يحاسب عليه.

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف))

(من الأذكار النووية: عن " أبي هريرة ")

كل مؤمن يسعى، ويكسب المال، ويتخذ الأسباب هذا قوي، هذا أحب إلى الله من المؤمن الضعيف لأن قوته للمسلمين.

يعني أخ درس دراسة عالية جداً، احتل منصب رفيع، شيء جميل، تمكن يخدم خمسين أخ، فكلما إنسان قوي مركزه ، كثر ماله، علا شأنه، احتل مركزاً رفيعاً، كلما كثر مركزه، كثر عمله الصالح، **"المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير..."**

الكل على العين والرأس ولكن القوي أحسن.

(من الأذكار النووية: عن " أبي هريرة ")

إنسان يحمل شهادة عالية جداً، ويصلي أمام الناس، والله شيء جميل يشجع الضعفاء، صاحب مشروع ضخم ومستقيم استقامة تامة، العمال كلهم يرونه، شيء ممتاز أصبح قدوة، فالإنسان كلما ارتفعت مكانته الاجتماعية أصبح قدوة، أما إذا واحد مقصر، يقولون له: اذهب خذ شهادة أولاً، هذه حل مشاكلك قبل أن تنصحنا، فالإنسان إذا كان كسول، وفي الطبقات الدنيا الاجتماعية، طبعاً في كسل منه، كل إنسان الله أقامه بشيء، " رب أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره ".

قلت مرة لأخ: الناس الآن لا يحترمون المؤمن ولا يقتدون به إلا إذا تفوق بعمله. إذا كان دكان نظيفة جداً، شيء جميل، وحسابات دقيقة، شيء جميل، بالتعامل في رقي، وإذا كان في فوضى، في تقصير، في تجاوزات، في إهمال.

النبي عليه الصلاة والسلام قضى بين رجلين، فقال المقضي عليه ـ الذي جاء الحكم ضده لما أدبر: حسبنا الله ونعم الوكيل. فقال عليه الصلاة والسلام معلما:

((إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل حسبك لله ونعم الوكيل))

(من تفسير ابن كثير: عن " عوف بن مالك ")

واحد مقصر، لم ينجح، ولم يدرس ويقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، حسبي الله ونعم الوكيل. هذه زعبرة، ادرس، بعد ما رسب يقول: حسبي الله ونعم الوكيل، اشترى شروة بدون دراسة فلم تبع معه، هكذا ترتيب الله حسبي الله ونعم الوكيل، لا هذا تقصير منك، مسوقها كان سيئ جداً. النبي قال: " إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس ـ كن عاقلاً، هيئ أمورك ، أما ـ إذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل " أحياناً أمر قاهر.

النبي الكريم أبى يصلي على رجل ركب ناقة حروناً وقع من عليها فدقت عنقه، لم يصل عليه لأنه عصى قال: " من كان جمله حرون فلا يركبها ".

ركبها، ودقت عنقه فما صلى عليه، خذ بالأسباب وبعدها توكل.

أما أدق قول قاله النبي الكريم في هذا الموضوع:

((إن التوكل بعد الكيس))

(من كنز العمال: عن " عائذ بن قريظ)

معنى الكيس التعقل، إن التوكل بعد الكيس بعد أن تأخذ بالأسباب تتوكل على الله، أنا أعرف رجل، والله له أعمال طيبة، سافر سفرة، سيارته لم يراجعها من ست سنوات، ماشي على المائة والعشرين والميزان فلت، طبعاً مات، مات بأجله، لكن الإنسان يموت بهذه الطريقة ؟! إنسان عنده مركبة يجب أن يراجعها، أخطر شيء بالمركبة الميزان والمكابح، الميزان قد يقتل صاحب المركبة، والمكابح، في أشياء ليست خطيرة، أما هذان الشيئان خطيران في المركبة، فمن لوازم التوكُّل أخذ الأسباب.

العلماء قالوا: إن التوكل لا ينافي الإتيان بالأسباب، بل قد يكون الجمع بينهما أفضل، أن تجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله عز وجل، والتوكل بالقلب، والأسباب بالجوارح.

آخر نقطة في التوكل هي من أدق نقاطه، قال: من توكل عل الله لطلب الرزق، فقد جعل التوكل سبباً، أنا سوف أتوكل لكي يرزقني الله، جعلت التوكل سبباً، يجب أن تتوكل على الله لأنك راض بما قسمه لك، في فرق: إن توكلت على الله لأنك راضٍ بما قسمه لك، هذا هو التوكل الحقيقي، أما إذا توكلت على الله كي تجلب بهذا التوكل الرزق، هذا التوكل أصبح مشوب.

قال: لا تكونوا بالمضمون مهتمين فتكونوا للضامن متهمين.

الحكماء قالوا: التوكل على الله على ثلاث درجات، أولها ترك الشكاية، في إنسان كثير الشكوى، أينما جلس يحيطك بهالة سوداوية ؛ الشغل صعب، أولاد، بيت، جيران، مشاكل، تحس بانقباض معه متشائم، كثير الشكوى، قال: ترك الشكاية أول درجة من درجات التوكل، وثاني هذه الدرجات الرضا، وثالث هذه الدرجات المحبة.

فترك الشكاية درجة والرضا درجة، والمحبة درجة ثالثة، الأولى للزاهدين، والثانية للصادقين، والثالثة

للمرسلين، وكان سيدنا عمر بن عبد العزيز يقول: " أصبحت وما لي سرور إلا في مواضع القضاء والقدر " من شدة حبه لله، وتعلقه به، من شدة يقينه برحمته، من شدة استسلامه له، قال: " أصبحت وما لي سرور إلا في مواضع القضاء والقدر ". الذي يقضيه الله عز وجل أنا راضٍ به.

قال سيدنا علي: " الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين ".

سقت هذا الدرس للأسباب التالية: الحياة في المدن معقدة، والهموم كثيرة، والضغوط شديدة، والصراعات على أشدها، وكسب المال صعب، توفير الأعمال صعب، والشبهات كثيرة، فهذه الضغوط من شأنها أن تضغط على الإنسان فتصيبه بالعطب، الحل لمثل هذه الحالات الصعبة طاعة الله والتوكل عليه، الآية التي أتمنى أن تكون شعار لكم جميعاً أولها في بل، بل حرف إضراب، بل تنفي ما قبلها وتثبت ما بعدها..

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66))

(سورة الزمر)

هذه مهمتك، وبها تنتهي مهمتك، أنا علي أن أتعرف على الله، أتعرف لمنهجه وأطيعه، ثم علي أيضاً أن أشكره على نعمائه، لأن نعمائه سوف تتوارد عليه بشكل كثير، هذه مهمة العبد، أما إذا لم يستقم على أمر الله، لا يستطيع أن يتوكل عليه، قاعدة ويمكن هذه أهم نقطة بالدرس: لم تستطع التوكل عليه إلا إذا أطعته، إنك إن لم تطعه تشعر بالخجل، تشعر بالحجاب، ممكن مثل بسيط: إذا كان شخص مهم له ابن، ضربته ضرباً مبرحاً على مرأى منه، ثم طرقت بابه ترجوه أن يعاونك في قضية، ممكن أن تقرب عليه؟ أبداً مستحيل، ضربت ابنه ضرباً مبرحاً أمامه، ولم تعبأ به، وبعد قليل طرقت بابه تقول لك: أتساعدني في هذا الموضوع؟ الأصح لن تستطيع أن تطرق بابه، ما دمت قد أسأت إلى ابنه لن تستطيع أن تطرق بابه، إلا إذا كنت محسناً إلى أولاده، فالخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، فالإنسان المستقيم يرى أنه بإمكانه التوكل على الله عز وجل.

علاجنا أيها الإخوة إذا الأمور اشتدت، المكاسب ضاقت، الظروف عقدت مثلاً، الإنسان وقع في حرج، في بيته، في عمله، الضغط النفسي خطير جداً ينتهي برفع الضغط، ينتهي بأزمة قلبية، ينتهي بأمراض في المعدة، ينتهي بأمراض في العضلات، بانفجار في الدماغ، هذا الشيء ثابت، فالمفروض الإنسان يستسلم، ويستقيم، ويتوكل وعلى الله الباقي، تجد المؤمن ينام نوم مريح، في فندق بألمانيا مكتوب عليه: " إذا لم تنم نوماً مريحاً فلا تتهم فروشنا، اتهم ذنوبك ". إذا واحد لم يقدر ينام يكون له مشكلة مع ربه، أما إذا كان لم يعمل شيء، مستقيم، لا يوجد برقبته حقوق أبداً، لم يؤذ الناس، ينام براحة، فالتوكل يحتاج إلى استقامة، استقم ترى أن الله معك، كن مع الله ترى الله معك.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (062) :هل أنا مؤمن وما هي علامة إيمانك ؟؟؟..
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-11-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

من الموضوعات الحساسة إن صح التعبير أن الإنسان دائماً يتساءل هل أنا مؤمن ؟ أو هل أنا كامل الإيمان ؟ أو هل إيماني بالمستوى الذي ينجيني من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ؟ أو هل الله راض عني الإنسان أحياناً يتساءل هذا السؤال فإذا شعر أنه مؤمن اطمأن قلبه وإذا شعر أنه أقرب إلى النفاق اضطربت نفسه وانهارت قواه ومعنوياته فالحقيقة النبي عليه الصلاة والسلام في أحاديث كثيرة يعطينا وصفاً دقيقاً للمؤمن هذا الوصف يصلح أن يكون في وقت واحد هدفاً ومقياس حينما يصف النبي عليه الصلاة والسلام المؤمن هذا الوصف يصلح في الوقت نفسه هدفاً كي نسعى إليه ومقياساً نقيس به إيماننا من هذه الأحاديث الشريفة التي تصلح أن تكون هدفاً ومقياساً والتي تبصرنا بحقيقة، والتي تعرفنا بدرجتنا عند الله، والتي تضعنا في موقعنا الحقيقي.

أيها الأخوة:

أخطر شيء في حياة الإنسان أن يعيش الوهم، ومن الأدعية المأثورة

((اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل و الوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، من وحول الشهوات إلى أنوار القربات))

مرة قلت كلمة أنه من هو الجاهل ؟ كلكم تظنون أن الجاهل إنسان لا يعلم، لا بالتعبير العامي الجاهل إنسان ممتلئ معلومات ولكن كلها غلط، الجاهل هو الذي يعلم ولكن كل معلوماته غير صحيحة، كلها أوهام تخرصات فنحن حينما نقيس إيماننا ونعرف درجتنا عند الله عز وجل هذا منطلق، مثلاً أنت في طريق إذا عرفت أنك قطعت أربع أخماسه معنى هذا أنه بقي الخمس، إذا قطعت الخمس معنى هذا أنه بقي أربع أخماس، فأنت ليس من الممكن تحقق الهدف إلا إذا عرفت موقعك بالضبط، فالإنسان يكون جريء لا تغالط اعرف هل أنت مؤمن فعلاً كما أراد الله ؟ هل هناك صفات تقربك من النفاق ؟ هل هناك صفات ترسخ فيك الإيمان ؟

الآن يوجد عندنا حديث شريف هذا الحديث الشريف يصلح أن يكون هدفاً نسعى إليه ومقياساً نقيس به إيماننا:

((عن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال عليه الصلاة والسلام: لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به))

حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح، كلمة لا يؤمن أحدكم حتى، أي إنك إن لم تصل إلى هذا المستوى فأنت غير مؤمن، هل هناك أوضح من هذه العبارة إن لم تصل إلى هذه المرتبة فأنت لست مؤمناً،

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه))

الهوى هنا الميل، الحقيقة بعد قليل أوضح لكم معنى الهوى، الهوى أحياناً إذا أطلق صرف إلى الميل المخالف إلى الحق، لا تستدعي الهوى فيضلك عن سبيل الله، الميل المخالف للحق هو الهوى وأحياناً الهوى مطلق الميل للحق أو للباطل، للخير أو للشر، على كلٍ الإنسان مركب من الهوى أودع فيه الله غرائز ميول، شهوات إذا كان هواه ميله تبعاً لما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام فهو مؤمن ورب الكعبة، أما إذا ميوله على خلاف ما جاء به النبي فهذا لا أقول ضعيف الإيمان لكن النبي عليه الصلاة والسلام قال: ليس مؤمناً.

الآن هذا الحديث نريد أن نغنيه بالنصوص القرآنية والنبوية المشابهة له فالله سبحانه وتعالى يقول:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (65))

[سورة النساء]

ممكن تعرف حقيقة إيمانك إذا احتكمت إلى الله في أمر وعرفت أن حكم الله في ذلك كذا، إذا ارتاحت نفسك إلى هذا الحكم ولم تجد حرجاً فيه فأنت مؤمن ورب الكعبة، أما إذا رأيت أن هناك حرجاً وضيقاً ونفوراً من حكم الله وحكم رسوله فهذه علامة خطيرة.

أيام في حياتنا اليومية يوجد إشارات خطر، بالأجهزة أحياناً بالمركبات في ضوء أحمر معنى أنه يوجد خطر على المحرك بالطرقات منعطف خطر، تقاطع خطر، بأجهزة الحواسب في مستطيل أحمر يوجد خطر.

فإذا الإنسان شعر أن ميله خلاف ما جاء به القرآن وما جاء به النبي فهذا مؤشر خطير، علامة خطر الإنسان لا يكون ساذجاً يقعد على أمراضه النفسية، وعلى ضعف إيمانه، وعلى أوهام كلها ليست منتمية إلى الحق بصلة ويرتاح، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

" عجبت لثلاث، عجبت لغافل وليس بمغفول عنه، وعجبت لمؤمل والموت يطلبه، وعجبت لضاحك ملء فيه ولا يدري أساخط عنه الله أم راض "

أخطر ما في حياتنا أن نبنيها على حقائق، قال تعالى:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (65))

[سورة النساء]

يوجد استسلام للحق، هل يوجد استسلام لغض البصر ؟ هل هناك استسلام لترك الربا ؟ هل هناك استسلام لعدم الاختلاط ؟ لكن ميلك مع الاختلاط يقول يا أخي الدين كله قيود، إذا كان الميل مع الاختلاط وترى تعنتاً وعنتاً شديداً في البعد عن النساء اللواتي لا يحللن لك فهذه علامة خطر كبير، الآية الثانية التي تغني حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب)

أنت تختار هذه الزوجة أو تلك، هذا المحل أو ذاك، هذا البيت أو هذا البيت، تسافر إلى هذا البلد أو لهذا البلد هنا مجال اختيارك، أما إذا في حكم شرعي، في حكم قرآني في هذا الموضوع انتهى الاختيار، فعلامة المؤمن لا يمكن أن يدلي برأي مع أمر الله عز وجل لذلك جاءت الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1))

[سورة الحجرات]

يعني معقول ممرض صغير حديث العهد بالتمريض بعد أن داوم أسبوع يقترح على أعلى طبيب بالمستشفى يحمل بورد دكتور هذه لا تليق هذه أصح، يقول له من أنت ؟ ما حجمك أنت، مجند خدمة إلزامية التحق أول يوم غر يقترح على قائد جيش خطة عسكرية ليس معقول، بائع متجول يقترح على غرفة التجارة أن هذا القانون غير صحيح، من أنت ما معلوماتك ؟ قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1))

[سورة الحجرات]

فعلامة إيمانك أنك مستسلم لأمر الله، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب]

لا تظن أن هناك كلمات يقولها عوام الناس ليست فلتات لسان دليل ضعف الإيمان، يا أخي فلان متزمت، يعني إذا أقام شرع الله متزمت، يا أخي دينه يحله قليلاً قاسي جداً، لا يوجد قسوة هنا استمساك بدين الله، يعني كل إنسان يتذمر من أمر الله عز وجل من توجيهات الله، العوام يقولون متعصب، كلمة ليس لها معنى متمسك، المؤمن متمسك بدينه، لأنه التعصب معنى ذميم، التعصب انحياز أعمى، الأم الجاهلة مع ابنها ولو كان مخطئاً، يكون ابنها معتدي، وابنها سبب المشكلة، وابنها هو الظالم مع ابنها ضد خصومه، هذا هو التعصب، الانحياز الأعمى هو التعصب، العوام يقولوا عن الشاب المؤمن متعصب، الجواب متمسك، والتمسك بالدين بطولة.

الآن يوجد عندنا آية ثالثة قال تعالى:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (9))

[سورة محمد]

يعني مصيبة المصائب أن تكره حكم الله، أن تكره ما أنزل الله أن تكره شرع الله، تتضايق منه، سوف تشدد علينا، لا يوجد تشديد تنفيذ أمر الله عز وجل أين التشديد ؟ خالق الأمر هذا أمره، هو الحكيم، هو الرحيم.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (9))

[سورة محد]

لا يوجد لعلمه قيمة، حبط عمله وفقد ثوابه، حبط عمله لم يفلح في عمله، آية رابعة قال تعالى:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28))

[سورة محمد]

إذاً أهدافنا أو علامة من علامات إيماننا أن تكون ميولنا ورغباتنا متوافقة مع كتاب الله وسنة رسوله إذا في توافق أي كأنك تسبح مع اتجاه النهر، يوجد راحة، وانطلاق، وسرعة، أما إذا كنت تسبح على عكس اتجاه النهر يوجد مشقة، فلذلك الإنسان من أجمل ساعات إيمانه حينما يرى نفسه متوافقة مع أمر الله، أنا أطمئنكم أن المؤمن يصل إلى درجة لا يوجد عنده مشكلة بالإيمان ميوله ورغباته كلها مع الإيمان، سعادته في المسجد، سعادته في غض البصر، سعادته في قول الحق، سعادته في قول الصدق، سعادته في الحلال، لا يوجد عنده رغبة بالحرام، لو قطعته إرباً إرباً لا يأخذ درهماً حراماً.

أربع آيات تغني حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به))

بل الأصح أن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو إلا استنباط نبوي من هذه الآيات الأربعة، العلماء قالوا: من خصائص المؤمن أن يحب ما أحبه الله، محبة توجب له الإتيان بما وجب عليه منه، لأن الإدعاء سهل يجب أن تحب الله محبة تحملك على طاعته فإذا كانت محبتك التي تدعيها لا تحملك على طاعته فهذه ليست محبة يجب أن تحب الله محبة تحملك على طاعته، قال: فإذا زادت هذه المحبة حملتك على ما ندبك إليه، إذا أحببته نفذت ما عليك من واجبات فإذا زادت محبتك له قمت بالمندوبات، ويجب أن تكره ما كرهه الله، ويجب أن يحملك كره ما كرهه الله أن تدع ما كرهه الله فإذا زادت هذه الكراهية بما كرهه الله عز وجل تكره ما نهى عنه تنزيهاً عليه الصلاة والسلام.

كل ما زادت المحبة تنتقل من الواجب إلى المندوب، إلى المستحب إلى السنة، إلى النفل، وكلما كراهية المعصية اشتدت تنتقل من كراهية المحرمات إلى كراهية المكروهات تحريماً، إلى كراهية المكروهات تنزيهاً، إلى كراهية غير الله، فالكراهية تنتقل والمحبة تنتقل.

ثبت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((عَنْ زُهْرَةَ بْنِ مَعْبَدٍ عَنْ جَدِّهِ قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّهم عَنْهم فَقَالَ وَاللَّهِ لأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إلا نَفْسِي فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ عِنْدَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ قَالَ عُمَرُ فَلأَنْتَ الآنَ وَاللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الآنَ يَا عُمَرُ))

[البخاري]

كلام، لكن ما أحوجنا إلى أن نكون في مستواه، أن يكون الله ورسوله أحب إليك من نفسه، وولده، وأهله، والناس أجمعين سيدنا عمر قال: والله يا رسول الله أحبك أكثر من أهلي وولدي ومالي والناس أجمعين إلا نفسي التي بين جنبي، قال: لم يكمل إيمانك يا عمر، إلى أن قال له: الآن أصبحت أحبك أكثر من نفسي وولدي ومالي والناس أجمعين، قال: الآن يا عمر، هذا كلام النبي صلى الله عليه وسلم. العلماء قالوا المحبة الصحيحة تقتضي متابعة المحبوب فيما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر، لذلك الله عز وجل قال:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24))

[سورة التوبة]

يعني إذا كان بيت أحب إليك من طاعة الله، قد يكون هذا البيت ليس لك، فإذا تمسك به اغتصاباً، معنى ذلك أنك آثرته على طاعة الله، زوجة دعتك إلى معصية الله فاستجبت لها معنى ذلك أنك آثرتها على طاعة الله، هذا كلام صريح، إذا قلت لإنسان أتحب زوجتك أكثر من الله، يقول أعوذ بالله، هذا كلام حينما تطيع زوجتك وتعصي ربك فأنت آثرت زوجتك على الله عز وجل ولابد من أنك تحبها أكثر من الله، أما إذا كنت مع الله دائماً في أمره ونهيه.

ماذا تريد يا محمد ؟ إذا أردت المال جعلناك أغنى رجل فينا لو أردت العز أمرناك علينا، لو أردت النساء زوجناك أجمل فتياتنا قال: والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه

لذلك العلماء قالوا: لما كثر مدّعو المحبة طولبوا بالدليل، فأيام الإنسان يطلب منه إثبات حسن نيته، والمؤمن دائماً يقول أنا أحب الله والله كلام لطيف، ولكن ربنا عز وجل لابد من أن يضعه في ظرف تظهر هذه المحبة.

يعني أنا أعرف رجل سافر إلى بلد أجنبي وتزوج امرأة من بلاد الغرب وهو رجل دخله كبير، وسيم الطلعة، طويل القامة، بيته فخم مركبته فخمة، فهذه المرأة الأجنبية أسلمت وأمرها بالحجاب فتحجبت وحينما كانت تزور بيوتات المسلمين حجابها أدق من حجاب المسلمات في الأصل، تصلي الأوقات في أوقاتها يعني شيء جميل جداً امرأة من أصل أجنبي من ألمانيا الغربية مسلمة محجبة حجاب كامل وجهها مستور، الصلوات في أوقاتها، حصل خلاف بينها وبين زوجها، فنزعت الحجاب وقالت أنا لست مسلمة أنا كاثوليكية معنى ذلك هذه المسايرة لزوجها كان ملئ سمعها وبصرها، وكان في مستوى طموحها، فلما تناقضت مصالحها مع زوجها نزعت عنها الحجاب وأعلنت أنها ليست مسلمة، فربنا عز وجل دائماً وأبداً يضع الإنسان في ظرف يكشف به حقيقة إيمانه، من أسر سريرةً ألبسه الله إياها، شيء مخيف، طبعاً الآن بعدت عن الدين بعداً شديداً وعادت إلى بلدها وأخذت معها بناتها وانتهى الأمر، معنى هذا الإسلام ليس إسلاماً حقيقياً إسلام مسايرة، تحب زوجها وكل مصالحها مع زوجها إذاً سايرته فلما تناقضت المصالح تركته وعادت إلى دينها وإلى تفلتها وإلى إظهار مفاتنها للناس.

إذاً هذه النقطة دقيقة الله عز وجل بإمكانك أن تضلل الناس جميعاً لبعض الوقت، وبإمكانك أن تضلل واحداً لطول الوقت، أما أن تضلل الناس جميعاً لطول الوقت فهذا مستحيل، مستحيل أن تضلل الناس جميعاً لطول الوقت لابد من أن تكشف وربنا عز وجل يتولى كشف كل إنسان وهذا معنى قوله تعالى:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30))

(سورة المؤمنون)

الآن مثلاً صحابي مع رسول الله هل يوجد أعظم من هذا ؟ جاءت معركة الخندق، جاء عشرة آلاف مقاتل، وما اجتمع هذا العدد في تاريخ الجزيرة، ما جاءوا ليحاربوا محمداً، لا، جاءوا ليبيدوا المسلمين، جاءوا ليستأصلوا شأفة المسلمين، جاءوا لينهوا الإسلام نهائياً، واتفقوا مع اليهود ونقض اليهود عهدهم، وأصبح المسلمون بين فكي كماشة، بين العرب جميعاً من جهة واليهود من جهة ثانية الله عز وجل قال:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (11) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً (12))

[سورة المؤمنون]

هذه الآية نقلت قول أحدهم: أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته، هذا إيمانه، ولكن قال تعالى في آية ثانية:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23)

[سورة الأحزاب]

أنا أريد أن أهمس بأذن كل واحد منكم، أنت تتغير على الزواج ؟ معنى هذا أنت إيمانك ضعيف، وأنت شاب وليس متزوج في الجامع ليل نهار شيء جميل، تزوج من هنا ولم نشاهده انتهى، معنى هذا أنك فتنت بالزواج، مادام دخلك محدود ممتاز، كثر دخلك، قال له: أين زكاة مالك ؟ قال: وهل في الإسلام، قل لصاحبك ليس في الإسلام زكاة، إن صحت هذه القصة، الموضوع من أسر سريرةً ألبسه الله إياها، الله عز وجل يضعك في ظرف ما كان يخطر على بالك، لابد من أن تفتن، لابد من أن تمتحن، لابد من أن تبتلى بربكم هل في العالم كله جامعة واحدة تعطي الشهادات على تصريح الطلاب، اكتب تصريحاً أنك أنت بمستوى الدكتوراه وهذه دكتوراه هذه ليست جامعة، الجامعة يوجد عندها امتحانات، أطروحات لجان مناقشة، وأعرف أنا بعض الجامعات الفرنسية إذا ارتكب الطالب الدكتوراه غلطة واحدة في النحو في أثناء المناقشة لا ينجح في الدكتوراه، نحن كنا في الجامعة الآن لا يوجد صعوبة أبداً، كان عندنا فحص شفهي يعطونا كتاب الأغاني طبعة بولاق ستة وثلاثين لا يوجد نقطة ولا فاصلة ولا حرف وكله أخطاء وتصحيفات فإذا أخطأ الطالب الأولى والثانية يقول له الدكتور: أوصيك بالصيف الطويل فإنه خير الوصية، يعني أنك رسبت ويجب أن تقرأ وتعرب وتشرح وتوزن الأبيات، لأنه يوجد امتحان صعب، في أحد الأعوام لم ينجح أحد، مادة من المواد الأدب العربي لوحة الإعلانات لم ينجح أحد تقدموا مائتان وعشرون الذي نجح ثلاثة، هذه الامتحانات اسمعوا الآية:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2))

[سورة العنكبوت]

بهذه البساطة تلعب على حضرة الحق وتجعل نفسك مؤمن والشهوات تغلي بداخلك، ربنا يضعك في ظرف تنكشف كل الشهوات فلذلك انتبهوا، والله أنا كنت أعتقد أن المؤمن يبتلى أو لا يبتلى لفترة بعيدة، الآن أشعر والله بكل خلية من خلايا جسمي، بكل نقطة من دمي أن المؤمن لابد من أن يبتلى، قال تعالى:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30))

[سورة المؤمنين]

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2))

[سورة العنكبوت]

تفتن بالزوجة، بالمال، بالتجارة، بالبيع الشديد تصبح لا يتكلم معك، يقول لي رجل السوق كاسد، أقول له نعمة، يصبح التاجر يتكلم معه، تراه نسي واجباته، نسي أصدقاؤه، يقول لك: سوق مثل النار ويقول كلمة ثانية لا يوجد فيها أدب إطلاقاً، فلذلك قال تعالى:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3))

[سورة العنبوت]

أصحاب النبي قالوا: يا رسول الله إنا نحب ربنا حباً شديداً، كلام طيب، قال: فأراد الله أن يجعل لحبه علامة فأنزل هذه الآية:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31))

[سورة آل عمران]

أنت تحب الله أين طاعتك لرسوله ؟ هذه سنته، في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّهم عَنْهم عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ...))

يعني ممكن أن تقول لإنسان كيف صحتك ؟ أنا أقول لكم سلفاً المؤمن يقول الحمد لله، والله يقول الحمد لله وتخرج هذه الكلمة من أعماق أعماقه وتشعر فعلاً سعيد ولا يملك شيء، لا بيت ولا زوجة. علامة المؤمن سعيد، لأنه عرف الله، علامة البعيد عن الله شقي يوجد عنده قوائم يتكلم عن السوق، عن أسعار العملات، مستقبل التجارة، مستقبل الصناعة، عن الأمراض المتفشية، يتكلم عن انحسار مطامحه، دائماً في شكوى.

((ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ))

الإيمان حلو، والله مرة أخ ذهب إلى الحج، فلما عاد من الحج زرناه حسب السنة، أخ متقدم بالسن عمره ستين سبعين سنة الآن يمضي بعد الحج أسبوعين أو شهر زيادة على أيام الحج يحب أن يكون إلى جوار الكعبة، فسألته مرة فقال: والله يا أستاذ ـ وهذه الكلمة أعجبتني ـ ليس في الدنيا من هو أسعد مني، وجدتها مبالغة فقال: إلا أن يكون أتقى مني، الآن صح هذا الكلام.

إن لم تقل هذا الكلام فأنت لم تذق حلاوة الإيمان، خالق الكون راض عنك، خالق الكون يحبك، تمشي على الطريق الصحيح هدفك واضح، خطك البياني صاعد، لو جاء الموت إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض تتألم، المؤمن متفائل، المؤمن لا يرى مع الله أحداً، يوجد معلومات وأخبار وساعات تبرك الإنسان، من ضعف إيمان الإنسان يصدقها.

مرة زارنا أخ على الجامع هنا، والله من كثرة ما حدثني عن جفاف حوض دمشق، وهو عضو في لجنة حوض دمشق ومعلوماته دقيقة وعلمية أن انتهت دمشق بعد سنوات لم تسكن، لابد من أن نرحل عنها، جفاف استمر اثني عشرة سنة، نسب الأمطار قليلة جداً مياه الأحواض كلها جفت، أنا بعد أن ذهب أين الله ؟ الله عز وجل هو الكريم، العام الذي بعده ثلاث مائة وخمسين ملم، الذي بعده ثلاث مائة وخمسين ملم، في أنهار في الغوطة جافة منذ ثلاثين سنة الآن تفجرت، مياه عين منين إلى الشام وصلت

للقابون، عين الصاحب تفجرت، سبحان الله أين هذه المعلومات الميئسة ؟ ذهبت، رجل أيضاً عنده معمل سمع تصريح أن عام خمسة وثمانين ينتهي القطاع الخاص، باع الآلات بثمن بخس، ومن ثم تغير الوضع وصار تشجيع، الله عز وجل هو الرزاق، صحابية جليلة زوجها ذهب ليجاهد فخوفوها لا تدعيه أن يذهب تموتي من الجوع، قالت: أنا أعرف زوجي أكالاً لا أعرفه رزاقاً فإذا ذهب الأكال بقي الرزاق.

علامة إيمانك التفاؤل لا يوجد بيت الله ييسر لي اسأل الذين تزوجوا كيف تزوجوا ؟ بقدرة قادر من الصفر، كنا في الحج التقيت مع شخص قال لي: أنا أصلي حمال في سوق الخضرة ـ عتال ـ الآن أكبر تاجر خضرة في المملكة، أقسم بالله وقال: بحياتي ما فاتني فرض صلاة ولا أكلت قرش حرام، قال له الله خذ.

سمعت البارحة قصة شاب عمره ثمانية عشر عاماً، هذا الشاب صائم مصلي وحافظ القرآن كله، أصيب بمرض خبيث، والمرض تفاقم وتفاقم وتدهورت صحته وأخذ أدوية من آثار هذه الأدوية ذهب شعره كله، قال مرة قام ليصلي قيام الليل والده سمعه في الغرفة الثانية وقلق عليه، قال: يا رب أنا أصلي لك طول حياتي ولم أؤذي أحداً من خلقك ألا تشفيني، ألا يحق لي أن أطالبك بالشفاء ؟ أقسم بالله أهله ثاني ليلة الميزان تغير، بدأ ينمو شعره لمدة شهرين رجع شعره كما كان وانحسر المرض، والآن يتمتع في أعلى صحة، أنا قلت اليوم كلمة في درس الفجر، يجب أن يكون لك صلة بالله حوار مع الله دعاء، سؤال، رجاء، استعطاف، ترجي، تمني، ما لك مع الله صلة بقيام الليل، بالسجود، اطلب منه، اذكره، كن عزيز النفس على الخلق، أنت على قدر ما تستطيع ارفع رأسك وكن عزيزاً أمام الخلق أما عند الله عز وجل على قد ما تستطيع تذلل.

كنت أضرب مثلاً البرميل إذا فيه فتحات شاقولية كلما نزلت درجة تأخذ كمية أكبر، إذا نزلت إلى أقل فتحة تأخذ البرميل كله، باب الانكسار باب رائع جداً، فلذلك الإنسان:

((ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[مسلم ـ الترمذي ـ النسائي ـ ابن ماجة]

أعرف رجل بعيد عن الدين بعد الأرض عن السماء مختص باختصاص في الجامعة أقرب اختصاص للكفر، نظريات إلحادية اختصاصه فلسفة فهو يسخر ليل نهار من الأفكار الدينية، يسخر دائماً وهو وسيم الصورة، وماله جدي، وزوجته، وسيارته، وبيته من نادي لنادي، ومن سهرة إلى سهرة وأنا والله لا أسلم عليه لأنه لا يوجد أي شيء يجمعني معه، مرة يعني وجدته بمنتهى المودة أنا استغربت فقال لي: أستاذ أنا منذ زمان أحضر عندك، والله شيء جميل وهذا الحدث عندي كبير جداً، فاستفهمت منه

عن سر هذه العودة إلى الله، أخبرني أنه له فتاة ـ ابنته ـ يحبها حباً جما أصيبت بمرض عضال يعني كاد عقله يضطرب، وكانت نفسه تزيغ ألماً على هذه الفتاة، ثم أنه باع بيته وأخذها إلى بلد أجنبي لا يوجد فائدة المرض مستفحل والمرض عضال، قال لي: مرة خطر في بالي أنه يمكن الله أن يشفيها إذا تبنا إليه أنا وزوجتي، عقدت العزم أنا وزوجتي على توبةٍ نصوح، وبدأ يصلوا، وحجبت زوجته، يئسوا من العلاج الطبي، المرض انحسر شيئاً فشيئاً، بعد عدد من السنين دعيت إلى عقد قران وألقيت كلمة فلما خرجت قلت له: هي هي قال: هي هي، هي الفتاة نفسها، انظروا هذا المرض رد أباها وأمها إلى الله عز وجل، هكذا أفعال الله عز وجل، لا ترى مرض عضال، هذا المرض العضال الهدف منه رد الإنسان إلى الله عز وجل، والإنسان إذا عرف الله عرف كل شيء، وإذا الإنسان بالتعبير العامي فهم على الله حل كل مشكلته، فقط أن يفهم عليه، يا ربي لماذا هذه ؟ قال تعالى:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

[سورة التغابن]

قال: كل من ادعى محبة الله تعالى ولم يوافق الله في أمره فدعواه باطلة، كلام فارغ، وكل محب لا يخاف الله فهو مغرور.

وقال أحد العلماء: ليس لصادق من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده، وسئل أحدهم عن المحبة فقال: الموافقة في جميع الأحوال قال أحدهم:

لو قلت لي مت مت سمعاً وطاعة	**وقلت لداعي الموت أهلاً ومرحبا**
لو قال فيها قف على جمر الغضى	**لوقفت ممتثلاً ولم أتـــــــوقف**
أو كان من يرضى بخدي موطئاً	**لوضعته أرضاً ولم أستنكـــــــف**

معاني الحب، معاني محبة الله عز وجل، والإنسان يا أخوان لا يستحق أن يحب غير الله، لا يليق به أن يعطي قلبه لغير الله عز وجل، أن يكون لحساب غير الله عز وجل.

العلماء قالوا: جميع المعاصي إنما تنشأ من تقديم هوى النفوس على محبة الله ورسوله، المعاصي كلها أسبابها مؤاثرة هوى النفس على محبة الله ورسوله، ماذا وصف المشركون ؟ باتباع الهوى قال تعالى:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص]

إن اتباع الهوى هوان.

وا خجلتي من عتاب ربي إذا	**قيل لي أسرفت يا فـــلان**
إلى متى أنت في المعاصي	**تسير مرخى لك العنـــان**
عندي لك الصلح وهو بري	**وعندك السيف والـــسنان**

ترضى بأن تنقضي الليالي وما　　　انقضت حربك العـوان

فاستحي من كتاب كريـــــم　　　يحصي به العقل واللســان

واستحي من شيبة تراها في　　　النـارمسجونة تهـــان

البدع في الدين ما أسبابها ؟ تخترع شيء في العقيدة الإسلامية ما له أصل، تخترع شيء بالعبادة ليس له أصل، ما أسبابها ؟ اتباع الهوى، المعاصي زائد البدع أسبابها اتباع الهوى، لذلك ماذا يسمى أهل البدع ؟ يسمون عند العلماء أهل الأهواء، يعني هواه دعاه إلى اتباع هذه الفكرة، هواه دعاه إلى اتباع هذه العقيدة أو إلى إحداث هذا الشيء الذي لم يكن في أصل الدين، النبي عليه الصلاة والسلام يقول

((عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَعْطَى لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ))

[أبي داود]

ومن كان حبه وبغضه، وعطاؤه، ومنعه، لهوى نفسه كان ذلك نقصاً في إيمانه الواجب، أيام يكون إنسان وكيل شركة، يأتي مندوب الشركة يرحب به يقدم له المشروب إرضاءً له، يعني نحن وكلاء يقول لك فيها ربح كثير، آثر هوى نفسه، قدم ما يحرم أن يقدمه اتباعاً لهوى نفسه، يوجد ميزان دقيق يجب أن تدع تحت قدمك كل مصالحك إذا تعارضت مع الحق، لا تكن من أهل الإيمان إلا إذا استوى عندك التبر والتراب، لمن هذا الوادي ـ وادي من غنم ـ قال النبي الكريم: هو لك، قال: أتهزأ بي، قال: هو لك، قال: أشهد أنك رسول الله تعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

ورد أن موسى عليه السلام قال: يا ربي أوصني، فقال الله عز وجل: أوصيك بي قالها ثلاثاً حتى قال في الأخرى أوصيك بي أن لا يعرض لك أمراً إلا آثرت فيه محبتي على من سواها، فمن لم يفعل ذلك لم أزكه ولم أرحمه.

الآن الأزواج يدخل إلى البيت يوجد عنده مشكلة بين والدته وبين زوجته، قلبه مع زوجته والدته عبء عليه، ماذا يرضي الله ؟ افعل ما يرضي الله، بكل تصرف، في بيعك، في بيتك،، في علاقاتك في نزهاتك، في أفراحك، في أحزانك، في وصيتك، في سفرك ماذا يرضي الله ؟ الذي يرضي الله افعله، قال: أوصيك أن لا يعرض لك أمر إلا آثرت به محبتي على ما سواها فلم من يفعل ذلك لم أزكه ولم أرحمه، والآية الكريمة

(وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

[سورة ص]

والآية الكريمة الثانية:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41))

[سورة النازعات]

لكن أيضاً يوجد تطمين من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن الإنسان إذا أحب قوم على حق، إذا أحبهم حبه لهم دليل أنه منهم فالنبي سئل عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّجُلُ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ قَالَ الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ تَابَعَهُ أَبُو مُعَاوِيَةَ وَمُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ))

[مسلم ـ أحمد]

قلبك مع من ؟ مع أهل الحق أم مع أهل الباطل، مع أهل الدين أم مع أهل الأهواء، مع أهل الدنيا أم مع أهل الآخرة، قلبك في المساجد أم في الأسواق، هذه من علامات الإيمان.

أيها الأخوة الكرام:

موضوع أن نكتشف حقيقة إيماننا أو أن نمتحن إيماننا كل حين أو أن نجدد إيماننا هذا شغل المؤمن الشاغل، لا تكون كالنعامة غمست رأسها في الرمال وظنت أنها في منجاة من عدوها كن يقظاً لا تحابي نفسك، على قدر ما تستطع اتهم نفسك، قال أحد التابعين: التقيت مع أربعين من أصحاب رسول الله ما منهم واحد إلا يظن نفسه منافقاً على قدر ما تستطيع اتهم نفسك، واتهم نفسك بالنفاق، واتهم نفسك بعدم محبة الله حتى تصبح جيداً، أما إذا رضيت عن نفسك رضاءً موهوماً أجوفاً وأنت لست في المستوى التي تظنه هذه مصيبة المصائب، طالب ظن نفسه أن أقوى طالب بالرياضيات وهو صفر يأخذ، متى اكتشف الحقيقة ؟ اكتشف الحقيقة بعد فوات الأوان، فأنت دائماً اتهم نفسك.

سيدنا عمر هل كلامه غير صحيح لما قال: أتمنى أن ألقى الله لا لي ولا علي، ليت أم عمر لم تلد عمراً ليتها كانت عقيمة، لو أن الله أنزل أنه معذب واحداً لظننت أني ذلك الواحد، لو أن الله أنزل أنه راحم واحداً لرجوت أن أكون ذلك الواحد.

الطريق إلى الله يحتاج إلى جهد، ويحتاج إلى تضحية، ويحتاج إلى صبر، ويحتاج إلى بذل، ويحتاج إلى تعاون، وهذا الطريق طريق الآخرة، طريق جنة عرضها السماوات والأرض، طريق الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة، طريق الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ألا تقرءوا الفاتحة كل يوم:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

(سورة الفاتحة)

يا بني ما خير بعده النار بخير، وما شر بعده الجنة بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية، والنبي الكريم يقول شمروا، أيام يكون الإنسان يرتدي ثياب ويكون في قضية كبيرة جداً أول شيء يخلع جاكيت ويشمر ويقول انغمسنا في العمل، النبي قال:

((شمروا فإن الأمر جد، وتأهبوا فإن السفر قريب، وتزودوا فإن السفر بعيد، خففوا أثقالكم فإن في الطريق عقبة كؤود لا يجتازها إلا المخلصون، يا أبا ذر جدد السفينة فإن البحر عميق وأخلص النية فإن الناقد بصير))

يوجد كلام للنبي صلى الله عليه وسلم هذا من خطبه الشهيرة شيء بدائع، روائع، كلام جامع مانع هذه الخطب النبوية لو قرأناها وحفظناها واقتدينا بها، طريق الحق، المؤمن كما قال الله عز وجل:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ)

[سورة إبراهيم]

فهذا القول الثابت ، أنت باني حياتك على ثوابت ولم تفاجأ أكثر أهل المذاهب الوضعية أصيبوا بخيبة أمل حينما أمضوا عمراً مديداً يعتنقون هذه المذاهب ثم اكتشفوا أنها ليست صحيحة، أنها مبنية على سراب وعلى وهم، هذا خطأ كبير أن الإنسان يعتنق مذهب ثم يكتشف أن هذا المذهب لا أصل له وليس صحيحاً، أما المؤمن لم يفاجأ في حياته كلها ولا بعد مماته بأن الذي كان يعتقده ليس صحيحاً هذه من نعم الله الكبرى علينا، أنت مع الحق المبين، قال تعالى:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79))

[سورة النمل]

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (063) :الإستقامة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-11-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

الدرس اليوم حول حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم صحيح هذا الحديث يعد من أصول الدين، و كلكم يعلم أن في الإسلام استقامة و أن في الإسلام عملاً صالحاً، الحقيقة التي يجب أن تعلمونها أن كل إنسان بإمكانه أن يعمل صالحاً لكن ما كل إنسان بإمكانه أن يستقيم، بمعنى أن الذين يعملون الصالحات كثر لكن الذين يستقيمون على أمر الله قلائل، فالدرس كله و الحديث كله و الشروحات الطويلة كلها ملخصة في مثل، نحن الآن مقدمون على فصل الشتاء و كل منا بحاجة ماسة إلى وقود سائل، و لا بد لهذا الوقود من مستودع، كل إنسان له دخل معين، له إمكانات معينة، قد يملأ من الوقود ربعه أو نصفه أو كله، فهنا تفاوت بين الناس بحسن دخولهم و بحسب إمكاناتهم لكن كل من يملك مستودعاً للوقود لابد من أن يكون هذا المستودع محكماً، في الإحكام لا يوجد حل وسط، أما في التعبئة يوجد حل وسط، إذا شبهنا الاستقامة بإحكام المستودع و شبهنا العمل الصالح بكمية الوقود في هذا المستودع، الكميات متفاوتة كل بحسن إمكاناته المالية إلا أن الإحكام لا يتساهل به إطلاقاً، لو تساهلنا به لما بقي في المستودع شيء.

يقول عليه الصلاة و السلام فيما رواه أبو هريرة:

((كَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ "))

[البخاري - مسلم - الترمذي]

أي أنت كمسلم عندك قائمة محظورات، قائمة محرمات، في هذه القائمة ليس هناك حل وسط، ليس هناك بين بين، ليس هناك استقامة نسبية، ليس هناك أن تأخذ و أن تدع، و الدليل قال تعالى:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112))

[سورة هود]

فالأمر بالاستقامة موجه إلى النبي عليه الصلاة و السلام و إلى كل المؤمنين بالتبعية من دون تفرقة، دليل آخر: إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين.

أي بالطب عندنا ممرض، و عندنا ممرض متفوق، عندنا رئيس الممرضين، عندنا طالب طب، عندنا معهد متوسط طب، عندنا طبيب عندنا طبيب متمرن، طبيب يحمل إجازة، طبيب أنهى التدريب طبيب

يحمل دراسات عليا، طبيب معه دكتوراه، طبيب معه بورد، طبيب مع البورد يوجد خمسين عاماً خبرة، طبيب هناك عمليات مسجلة باسمه هو الذي ابتدعها، مع كل هذا التفاوت فيمن يعمل بحرفة الطب لو أراد أي من هؤلاء أن يعطي المريض حقنة لابد من تعقيمها لا يوجد خلاف هنا فأمور الاستقامة أ أمور تطبيق الشرع هذه لا يوجد فيها حل وسط، أي هذه الطائرة لا تطير إلا بتوافر شروط كثيرة، قد لا تصدقون جهاز تسخين للأجنحة إذا لم يتوافر لا تطير الطائرة، لأنه كلما ارتفعت في الجو هبطت درجة الحرارة إلى خمسين تحت الصفر على ارتفاع أربعين ألف قدم و الجو فيه بخار ماء، ما الذي يحصل ؟ يتكاثف بخار الماء على شكل جليد على أجنحة الطائرة فيخل توازنها فتقع، إذاً لابد من جهاز تسخين، إذا مالت نحو اليمين لابد من محركات تضخ الوقود نحو اليسار، لو كان نصف الأجنحة فيها وقود و مستودع الوقود أجوف فإذا مالت هكذا كل السائل انتقل إلى هنا تقع الطائرة، لابد من أجهزة ضخ معاكسة، الجو في الطائرة لابد من أن يكون وفق جو الأرض، إذا محقونة ثمانية أمثال فإذا تعطل جهاز حقن الهواء في الطائرة لابد من أن تهبط هبوطاً اضطرارياً و إلا يموت الركاب، لو تعطل جهاز خلط الهواء الساخن مع الهواء البارد لمات الركاب برداً أو احتراقاً، لأن هواء المحرك ثمانمائة، الهواء الخارجي خمسين تحت الصفر، لا أعرف كم جهازاً تحتاجه الطائرة و لكن إذا تعطل جهازاً واحداً لا تطير.

هذا المثل ليكن بين أيديكم، مادام هناك معصية و تعرفها معصية و تقيم عليها فهناك حجاب بينك و بين الله، لكن تصدقت بمائة ليرة، بثلاث مائة، بخمسمائة، بألف، بألفين، بخمسة آلاف، حسب إمكاناتك، بحسب درجتك، ممكن أن تتصدق بمائة و تنجو من عذاب الله، فالأعمال الصالحة ممكن أن تأتي منها ما استطعت، النوافل، الأعمال الصالحة، أعمال البر، الصدقات، خدمة الضعفاء، هذه الأعمال الصالحة ممكن أن تكون بحسب الطاقة و الاستعداد و الرغبة و التضحية و المرتبة عند الله، أما إذا تساهلنا في الاستقامة فهناك حجاب بيننا و بين الله، هذا محور الدرس يقول عليه الصلاة و السلام:

((مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ))

لا يوجد حل وسط، لا يوجد نسبياً، لا يوجد بين بين، بعض الشيء، إلى حد ما، هذه إلى حد ما ليست واردة، الاستقامة حدية و قطعية، و دع في ذهنك هذا المثل الذي ينطبق على الدرس تماماً، مستودع ممكن أن يكون فارغاً فيه عشرة لترات، عشرين لتراً، خمسين لتراً، مائة لتر خمسمائة لتر، ألف لتر، ممكن أما إذا يوجد ثقب واحد هذا الثقب يفرغ كل ما في هذا المستودع.

((مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ))

أما هو كل إنسان يتمكن أن يتصدق و لكن ليس كل إنسان يرغب أن يغض بصره، غض البصر يحتاج إلى قوة إرادة، و يحتاج إلى صلح مع الله، يحتاج إلى توبة، أما الإنسان إذا ميسور مالياً يدفع مئات

الألوف و له سهرات لا ترضي الله عز وجل، هذا الذي يخلط عملاً صالحاً و آخر سيئاً هؤلاء المخلطون بينهم و بين أن يرضى الله عنهم مسافات طويلة، لهذا ورد في الأثر

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

بهذا الحديث أشياء كثيرة جداً أرجو الله سبحانه و تعالى أن يوفقني إلى توضيحها، قال عليه الصلاة و السلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَقَالَ رَجُلٌ فِي كُلِّ عَامٍ: فَسَكَتَ عَنْهُ حَتَّى أَعَادَهُ ثَلاثًا فَقَالَ: لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَوْ وَجَبَتْ مَا قُمْتُمْ بِهَا ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالشَّيْءِ فَخُذُوا بِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ))

فأنزل الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ)

[سورة المائدة]

طبعاً الحديث في قسمه الأخير يقول:

((فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ"))

أي الإنسان عنده وقت إذا ملأ الوقت في فعل ما أمر و ترك ما نهي عنه فقد أفلح و نجح، أما إذا تساهل في المأمورات و في المنهيات و التفت إلى مسائل جديدة لم تعالج كم قبل و عنده رغبة في معالجتها من باب الترف العلمي، من باب المجادلة، فهذا العمل ليس عملاً مصيباً و لا عملاً يرضي الله عز وجل، أن تدع الأشياء الأساسية الواضحة، الحلال بين و الحرام بين، المأمورات معروفة، و المنهيات معروفة، أن تدع ما اتفق عليه من أمر و نهي و أن تغوص في مسائل افتراضية معظمها لا يقع، و معظمها مستحيل أن يقع، و أن تأخذ، و أن تعطي، و أن تسأل فلاناً و علاناً و تقول: لا، فلان قال غير ذلك، و فلان قال غير ذلك، فتوقع بين الدعاة إلى الله الفتنة و العداوة و البغضاء، و تنقل كلام هذا إلى هذا، هذا السلوك لا يرضي الله عز وجل، هذا السلوك نهانا عنه النبي عليه الصلاة و السلام، ثم عندنا قصة مشهورة جداً عندما الله عز وجل أمر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة، ما لونها ؟ و ما شكلها ؟ و ما نوعها، و ما هي ؟ بدأت تأتي التضييقات و التفصيلات و كلما أضيف إلى الشيء صفة ضاق الأمر هذه قاعدة معروفة، الصفة قيد، فالإنسان ليكن مع الله طبيعياً أما كل قضية قال لي رجل هل يجوز أن أشتري كنزة أجنبية ؟ قلت له: ماذا في هذا ؟ قال لي: هي صنع الكفار، و الله معك حق إذاً لا يجوز، لا يجوز أن تشتري كنزة أجنبية، هناك أشخاص يتركوا الأساسيات و يضيقوا في التفاصيل، يعطيك حجة إذاً لا بأس حرام، النبي الكريم قال:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اتْرُكُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ))

فتترك الأشياء الواضحة الأوامر و النواهي و تعمل بمسائل افتراضية لم تقع، و لن تقع، و يستحيل أن تقع، و تسأل فلان و علان، ثم تقول فلان قال غير فلان، هذه الرغبة في الإيقاع بين العلماء، و إثارة الفتنة و نقل كلام فلان إلى فلان، و الأمر أعظم من ذلك، أي أنت انتهيت من تطبيق كل أوامر الدين، لم يعد هناك شيء إطلاقاً، قال ورد في بعض الأحاديث:

((عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِ))

أحياناً تجد روتيناً معقداً، ما أصل الروتين ؟ إنسان عمل حيلة فأصبح مطلوب من كل إنسان أن يحضر وثيقة براءة ذمة، إنسان له عدة مشكلات عمل حيلة أخرى صرنا نريد براءة ذمة من جميع الموظفين، فكلما صار هناك حيلة تتعقد الأمور، فلما الإنسان يسأل سؤالاً معقداً، و يضع فوقه افتراضات غير معقولة، تأتي التشديدات كما قال عليه الصلاة و السلام:

((إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ "))

و كان عليه الصلاة و السلام ينهى عن قيل و قال و كثرة السؤال و إضاعة المال، و إذا الإنسان سلك طريق الإيمان حقاً لا يبقى عنده وقت يسأل فيه عن افتراضات لا تقع، إذا كان وقتك امتلأ بالإيجابيات، بالطاعات، بالأشياء الثابتة، النبي الكريم قال:

((عَنْ عُثْمَانَ رَضِي اللَّهم عَنْهم، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

هل تعلمت القرآن ؟ إذاً علِم القرآن، هذا شيء ثابت، قال: و لم يكن النبي عليه الصلاة و السلام يرخص في المسائل إلا للأعراب و نحوهم من الوفود القادمين عليه يتألفهم بذلك، أي الأعراب و الوفود إذا جاءوا النبي عليه الصلاة و السلام طبعاً يسألوا و النبي يجاوب، لكن أصحاب النبي الذين لازموه كانوا في شغل عن هذه المسائل، إنهم في طاعة الله و العمل الصالح و الدعوة إليه، هذا يملأ كل وقتهم. قال بعض الصحابة:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ فَيَسْأَلَهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ))

شدة هيبة النبي عليه الصلاة و السلام و ملازمتهم له كانت تمنعهم من السؤال أحياناً، لكن هذا الأعرابي يأتي و يسأل هم يستمعون و يجيب النبي عليه الصلاة و السلام، و قد قال ابن عباس رضي الله عنه ما رأيت قوماً أخير من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ما سألوه إلا عن اثنتي عشرة مسألة كلها في القرآن الكريم، قال تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ)

[سورة البقرة]

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ)

[سورة البقرة]

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ)

[سورة البقرة]

إلى آخر الآيات التي سأل عنها أصحاب النبي عليهم رضوان الله لكن أُثر عن أصحاب رسول الله أنهم كانوا يسألونه عن حكم حوادث قبل أن تقع كي يعرفوا كيف يتصرفون إذا وقعت، هذا السؤال ليس منهياً عنه، سألوه أيضاً عن الأمراء في آخر الزمان و عن طاعتهم ماذا نفعل ؟ سأله حذيفة بن اليمان عن الفتن و ماذا يصنع بها ؟ لكن لو حللنا سبب كراهة كثرة السؤال لوجدنا أن هناك تعليلات لطيفة، كان عليه الصلاة و السلام أي أول نقطة أن القرآن الكريم يجيب عن كل سؤال، أحياناً المدرس مهيأ درس دقيق جداً، مفصل، يغطي كل الفروع، فيرفع طالب إصبعه في أول الدرس يسأله سؤالاً، يقول له: هذا السؤال يأتي جوابه بعد حين انتظر، يسأل طالب سؤال ثان: سيأتي جوابه بعد حين، يسأل طالب سؤال ثالث، لو أن الطلاب أنصتوا و استمعوا إلى الدرس كله، أكثر هذه الأسئلة التي طرحوها، الدرس نفسه أجاب عنها، إذاً النهي عن السؤال لأن القرآن الكريم جامع مانع، تام و كامل قال تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

[سورة المائدة]

فحينما يكثر السؤال و الجواب سوف يأتي من خلال كلام الله عز وجل فهذا تضييع للوقت و إخلال للنظام، هذا تعليل من تعليلات كراهية النبي عليه الصلاة و السلام كثرة السؤال و قيل و قال و إضاعة المال، ابن عباس كان يقول: انتظروا فإذا نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شيء إلا وجدتم تبيانه. كان عليه الصلاة و السلام إذا سئل يحيل إلى القرآن الكريم، القرآن كلام الله عز وجل، أي أروع شيء أنك إذا سئلت و عندك آيه كريمة تغطي هذا السؤال انتهى الأمر، أخي أنا رأيت الجن ما قولك ؟الله عز وجل قال:

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ)

[سورة الأعراف]

أخي هناك دواء يطيل العمر ؟ الله عز وجل قال:

(فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (61))

[سورة النحل]

أي سؤال تسأله إذا أنت القرآن كله قرأته و استوعبته معظم ما فيه و بذهنك أكثر أحكامه فأي سؤال عندك له جواب قطعي، فمن السنة أن تحيل السائل إلى القرآن الكريم لأنه كلام الله عز وجل، لكن النهي

بسبب أن السائل أحياناً تنصرف همته عند سماع الأمر و النهي إلى افتراض أمور لا تقع، و قل أن تقع، و قد يستحيل أن تقع، هذا إذاً ترك ما أُمر به و التفت لشيء بعيد عن اهتمامه، عندنا قاعدة الإنسان مكلف و مضمون له شيء، الله جل جلاله ضمن للإنسان رزقه، و أمره بمعرفته و طاعته، فأكبر غلط يرتكبه الناس أن الشيء الذي ضُمن لهم يجهلون في تحصيله، و أن الشيء الذي أُمروا به يتوانون عنه، أمرت بالسعي فلم تسعَ، ضمن لك الرزق فاهتممت من أجله و أمضيت الوقت كله في طلب الكسب، رجل سأل ابن عمر عند استلام الحجر قال له: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يستلمه و يقبله، رجل سأل ابن عمر عن استلام الحجر الأسود و قال له: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يستلمه و يقبله، فقال الرجل: أرأيت إن غيبت عنه، أرأيت إن زوحمت، فقال له ابن عمر: اجعل أرأيت لليمن، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستلمه و يقبله، أي أرأيت لو أن كذا، لو أن كذا لو أن كذا، هذه افتراضات غير معقولة و لن تقع و قلما تقع و يبدو أنها لا تقع أبداً، فتنصب عليها الأسئلة، قال: روي عن علي كرم الله وجهه أنه ذكر فتناً تكون في آخر الزمان، فقال له أحدهم: متى ذلك ؟ قال: إذا تفقه لغير الدين، وتعلم لغير العمل، والتمست الدنيا لعمل الآخرة.

وهذه من أشراط الساعة، الفقه صار مستقل عن الدين، هو ليس مستقيم ولكن يتبجح بمعرفة أحكام الفقه، يطلب العلم لغير العلم لا للعمل ليقال عنه عالم لكن بينه وبين العلم مراحل فسيحة جداً.

قال لي شخص: دخل إنسان على غرفة مدرسين وعنده من الكبر والعنجهية، والاستعلاء الشيء الكثير، ألقى درساً في التواضع رائع جداً، الآيات والأحاديث والقصص، هو يحفظ كل ما قيل في التواضع أما حينما دخل على غرفة المدرسين كان من الكبر والاستعلاء والعنجهية بحيث لا يعقل أن يكون هذا الذي يتكلم هو نفسه الذي يتكبر، يأتي على الناس زمان يتفقه لغير الدين، يطلب العلم للعلم ليتباهى به بين الناس، وتعلم لغير العمل، والتمست الدنيا بعمل الآخرة، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إذا قل أمنائكم، وكثرت أمرائكم، وقل فقهائكم، وكثر قرائكم وتفقه لغير الدين، والتمست الدنيا لعمل الآخرة فانتظروا الساعة))

هذه من أشراط الساعة، سيدنا ابن عمر كان يقول: لا تسألوا عما لم يكن فإني سمعت عمر رضي الله عنه لعن السائل عما لم يكن.

أيام يقول لك إذا جفت الأنهار ماذا نفعل ؟ عندما تجف نحل هذا الموضوع، يرون قصة مشهورة جداً أن شخص توفي أخوه وترك له خمسة أولاد فصار يبكي، له شيخ قال له: مالك يا بني ؟ قال: أخي توفي وله خمسة أولاد لا أملك أن أعينهم، قال له: ما عندك شيء قال له: عندي ما يكفيني سنة تقريباً، قال له: بعد سنة ابكي.

ترى شخص متشائم يفترض مستقبل مظلم، إذا قلت له هذا الشيء سوف ينحل يقول لك ولا بخمس سنوات، يميل إلى التشاؤم، هذا أيضاً منهي عنه.

عن السلط ابن راشد قال: سألت طاووساً عن شيءٍ فانتهرني قال: أكان ذلك قلت نعم، قال: اله، إنما أصحابنا أخبرونا عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: يا أيها الناس لا تعجلوا بالبلاء قبل نزوله فيذهب بكم هاهنا وهاهنا.

إذا الإنسان تشاؤم وافترض البلاء وقع والبلاء لم يقع بعد، كم من إشاعةٍ راجت ولم تقع، كم من شيء خاف منه الناس ولم يأتي، هذا الذي يتصور المستقبل كتلة من المصائب هذا إنسان سوداوي المزاج وهذا منهي عنه وكأنه لا يعرف الله عز وجل، يوجد شيء آخر النبي عليه الصلاة والسلام فيما يتعلق بالسؤال والجواب، والمسائل وشرح الموضوعات، قال:

((عَنْ مُعَاوِيَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنِ الْغُلُوطَاتِ))

[أحمد]

يعني سؤال معقد جداً كيف ما أجبته يغلطك، يوجد أشخاص عندهم ولع بمسائل معقدة، مسائل نادرة، مسائل غريبة، نحن في النحو أيضاً يوجد عندنا أشياء غريبة، إن هندُ، ما إن هند، إن حرف مشبه بالفعل، إن هندَ، اسمها، إن هندُ المليحة الحسناءَ، هل تأتي صفة تابعة مرفوعة وصفة الثانية منصوبة، كيف إن هندُ المليحة الحسناءَ وهي من أضمرت لخل وفاءَ، هذه أسمها أغلوطة بيت ملغم، تطرحه في المجلس لا يعرفوا أن يعربوه، تسخر من هذا ومن هذا، وتمتحن فلان، وعملية عرض عضلات ليس إلا، هذه إنَ ليس حرف مشبه بالفعل هذه ونون توكيد ثقيلة، لأن فعل وئا، أي وعا، مضارعه يأي أمره اِ، مثل وقى، يقي، قِ، وفى يفي فـِ، فـِ لوحدها حرف أمر قِ حرف أمر، وئا وعد هذا ماضي، يئي يعد.

إنَ، يعني عديني، إنَ فعل أمر مضاف له نون توكيد ثقيلة، إنَ هند يعني عديني يا هند، المليحة هذه صفة تبعت حركة يا هند منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب، المليحة صفة تبعت محل النداء مبني على الضم في محل نصب، وئي مفعول مطلق، عديني وعدا، هذا بيت ملغم، يوجد في النحو، وفي الفقه، أحكام الطلاق، بالمواريث مسائل كثيرة جداً من هذا القبيل، عملية عرض عضلات امتحان الناس، فالنبي عليه الصلاة والسلام نهى عن الأغلوطات.

يقول لرجل هل يجوز لصحابي أن يصلي بلا وضوء ؟ أعوذ بالله، يقول له يوجد حديث صحيح ما هذا الكلام، قال: والله إني أصلي بغير وضوء سيدنا علي، فكان يصلي على النبي بدون وضوء، وأفر من رحمة الله، معقول المطر رحمة الله، مطر قوي ركض على البيت، ولي في الأرض ما ليس لله في السماء، أعوذ بالله طبعاً له زوجة وأولاد والله ليس له زوجة وأولاد في السماء هذه أغلوطات، يعني

العلم إذا كان أغلوطات هذا ليس علم هذه تسلية هذه أحاجي، فالنبي الكريم نهى عن الأغلوطات، العلم الشيء الواضح البسيط، الآيات الواضحة الأحاديث أما الأشياء المشكلة في النصوص، الطلاق المواريث، الأحكام الفقهية، مات عن زوج وزوجة، هذه أغلوطة الإنسان ممكن، مرة قال رجل لأخر أنت جد فاسد، أعوذ بالله هذا تعبير بالمواريث، جد فاسد يعني لا يرث، ويوجد تعبير ألطف جد غير ثابت.

النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن الأغلوطات هذه ليست هي العلم الإمام الأوزاعي فسر هذه الأغلوطات بأنها اشتداد المسائل، المسائل العويصة، أحد النحات قال: أموت وفي قلبي شيء من حتى، حصلت محاورة من أحد الخلفاء وما نجح بالمحاورة فسقط من نظر الخليفة الذي ناقشه عالم بالنحو، وقالوا: حتى حتحتت قلوب العلماء يقول لك: أكلت السمكة حتى رأسَها ورأسُها ورأسِها، يا ترى ما إعراب أكلت السمكة حتى رأسَها، أكلت السمكة حتى رأسُها، أكلت السمكة حتى رأسِها، تأتي حتى بمعنى إلى، أكلت السمكة إلى رأسها أكلت السمكة حتى رأسُها تأتي حرف ابتداء، لكل شيء آفة من جنسه انتهى الكلام حتى الحديد صطى عليه المبرد، هذه حتى حرف ابتداء وإذا قلنا أكلت السمكة حتى رأسَها يعني أكلت السمكة ورأسها، تأتي حتى حرف عطف وحرف ابتداء وحرف جر.

قال الأوزاعي: هي شداد المسائل، وقال عيسى ابن يونس هي ما لا يحتاج إليه، يعني قضايا لا نحتاج إليها، قال بعضهم شرار عباد الله الذين يتبعون شرار المسائل يغلطون بها العباد، يعني إذا كان العلم عندك موضوع مسائل وأحراجات وأغلوطات، وأسئلة عويصة وكلمات ملغزة، ومفردات صعبة وميتة، هذه تسلية، العلم كما قال عليه الصلاة والسلام: تركتكم على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا ضال.

الإمام الأوزاعي يقول: إن الله إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط، العلم له بركة عظيمة إذا الإنسان تعلم كتاب الله وعلمه، والناس استفادوا وطبقوا كلام الله عز وجل، واستقاموا على أمر الله وسعدوا في بيوتهم، وسعدوا في أعمالهم وأقبلوا على ربهم هذه بركة العلم، أما الأغلوطات ليس فيها بركة ينشأ منها حقد، عملية إحراج، عملية تسفيه، عملية انتصار، الإمام الأوزاعي يقول إن الله إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط.

ويقول الأوزاعي: إني رأيت هؤلاء أقل الناس علماً، هؤلاء الذين يعجبون بالأغلوطات قال هم أقل الناس علماً، الإمام مالك يقول: كان يعيب كثرة الكلام وكثرة الفتية، مثلاً فأرةٌ انطلقت ووقعت في بئر ما حكم ماء البئر، يوجد مسألتين، هل تبعتها هرة فخافت فبالت قبل أن تقع هذه ملاحظة، يوجد مسائل في الفقه عجيبة جداً والله أيام الإنسان يستحي أن يلفظها، كلها افتراضيات لا تقع، رجل ارتكب الفاحشة

بنصف عضوه، هل هذا معقول كلام غير معقول، فهذه الأغلوطات كما قلت لكم نهى عنها النبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85))

[سورة الإسراء]

هذا الموضوع ارتاح منه، يوجد تعليق لطيف جداً هنا، أنا أعتقد المؤمن لا يكمل إيمانه إلا إذا شعر أن هناك أشياء فوق إمكاناته أن يفهمها لأن الله عز وجل قال: وما أوتيتم من العلم.

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

[سورة البقرة]

وقال سيدنا الصديق: العجز عن الإدراك إدراك. أنا القول مثلته بمثل رجل سألك وأنت على شاطئ البحر المتوسط: هذا البحر كم لتي فقلت له: ثمانية وثلاثين مليار وسبعة مائة وخمسة وثلاثين أليس هذا الكلام جهل ؟ العلم لا أدري، إذا كنت فعلاً تعلم تقول لا أدري، فقالوا عين العلم في حق الله هو عين الجهل وعين الجهل هو عين العلم، إذا قلت أعلم فأنت لا تعلم، إذا قلت لا أعلم فأنت تعلم.

إذا وصل إلى ذات الله عز وجل، إلى أسماءه، إلى أشياء فوق طاقتنا، الماضي السحيق، المستقبل البعيد، ما غيبا عنا هذا نكتفي به بما ذكر الله، يوجد أشخاص عندهم ولع هذا الأعمى لماذا أعمى ؟ وكيف الله سوف يحاسبه وما ذنبه، الجواب بسيط جداً لا تستطيع أن تدرك عدالة الله ولا أن ترى حكمته إلا بحالة واحدة وهي أن يكون لك علم كعلمه، فإن لم يكن لك علم كعلمه هناك طريق قصير جداً لمعرفة عدالته أن تصدقه إذا أخبرك، قال تعالى:

(وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً (124))

[سورة النساء]

(وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً (124))

[سورة الإسراء]

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(47))

[سورة الأنبياء]

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (49))

[سورة الكهف]

خمسين ستين آية بألفاظ مؤكدة وأساليب متنوعة تبين لك أن الله لا يظلم ألا تكفي هذه، إذا أنت ما صدقت الله عز وجل فإيمانك فيه خلل كبير، هل ثبت عندك أن هذا الكون له إله عظيم ؟ له خالق حكيم هذا الإله الخالق المربي المسير موجود وكامل وواحد، هذا الشيء عقلك يكفي أن تصل إليه، هل ثبت عندك أن هذا الكتاب كتاب الله عز وجل ؟ هل ثبت أن الذي جاء به النبي من سنة مطهرة هو رسول الله

الله، والقرآن، والنبي، يمكن أن تتيقن بعقلك من كل الحقائق المتعلقة بها، بعد ذلك القرآن أخبرك عن أي شيء يعجز عقلك عن إدراكه، فأنت تركت كل هؤلاء، وقلت لماذا وقع زلزال في هذه المنطقة بالذات، الله تارك الكفار يسرحون ويمرحون وهؤلاء المسلمون فوق مصائبهم أيضاً زلزال، وفوق مصائبهم أيضاً حرب أهليه وفيضانات، هذا اعتراض فلذلك أسلك في معرفة الله طريق معرفة الله من خلال آياته الكونية فإذا عرفت عظمته تقول كمال الخلق يدل على كمال التصرف.

كان الإمام أحمد إذا سؤل عن مثل هذه المسائل المحدثة المتولدة التي لا تقع يقول: دعونا من هذه المسائل المحدثة.

خرج ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سؤل عن الراسخين في العلم فقال: من برت يمينه، وصدق لسانه، واستقام قلبه، ومن عف بطنه وعف فرجه، وذلك من الراسخين في العلم، هذا الكلام يدعوني إلى كلمة الأسلاك الآن يحتاج إلى تبصير، نحن عقدناه كثيراً، يحتاج إلى عقلنة، يحتاج إلى تطبيق، كل التألق في التطبيق يجب أن نعيش الإسلام لا أن نتحدث عن الإسلام، يوجد لفتة بسيطة رائعة جداً ربنا عز وجل ما قال لقد أفلح من تعلم كيف يذكي نفسه،

((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9))

[سورة الشمس]

هناك من يحدثك عن طريقة تزكية النفس وهو لا يزكيها، والفلاح ليس في طريقة تزكيتها بل الفلاح في تزكيتها فعلاً،

((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

[سورة الشمس]

أحد العلماء قال: الراسخون في العلم هم المتواضعون لله عز وجل والمتذللون لله في مرضاته لا يتعاظمون على من فوقهم ولا يحقرون من دونهم، كثير الإنسان أيام يحاول أن يتعاظم على من فوقه وهو يكون علمه محدود والتقى مع إنسان مشهود له بالفضل يجب أن يحرجه، يجب أن يتعالى عليه، يجب أن يظهر له أنه أفهم منه، هذه حالة مرضية، هذا يحتاج إلى معالجة نفسية هذا الذي يتعالى على من فوقه ويحتقر من دونه هذا ما دونك يحتاج إلى رعاية إلى تواضع إلى أن تأخذ بيده، فإذا تعاليت على من فوقك واحتقرت من دونك فلست من الراسخين بالعلم.

الإمام أحمد قيل له من نسأل بعدك ؟ قال: عبد الوهاب الورّاق، قيل له إنه ليس له اتساع في العلم، قال: إنه رجل صالح مثله يوفق لإصابة الحق، إذا أنت كنت صالح الله عز وجل يقودك إلى الصلاح و يهديك سواء السبيل و يعينك على أداء مهمتك.

هناك نقطة مهمة جداً واردة و هي:

((عَنْ مُسْلِمٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللَّهَ))

[الدارمي]

الإنسان حينما يستقيم على أمر الله فهو عالم عند الله، من باب الأمثلة لو تصورنا رجل يحتل أعلى منصب ديني في البلد، في بلاد مثل مصر يوجد مناصب دينية كثيرة كشيخ الأزهر، أي أعلى منصب، لو أن إنساناً يحتل أعلى منصب وهو في مكتبه الفخم له مائة و خمسين مؤلفاً و يحمل ثلاثة دكتوراه، و على بابه أذن أُمي لا يقرأ و لا يكتب، جاءت صحفية لتسأل هذا الشيخ الجليل عن موضوع ما، فهذا الأذن غض بصره عنها خوفاً من الله عز و جل و الثاني تأمل فيها، و أدار عينه في محاسنها، أيهما هو العالم ؟

((كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللَّهَ))

لكن لاشك أنه من وصل إلى هذه المرتبة لا يفعل ذلك أنا مثل افتراضي قد تكلمت، شيء لا يقع، الإنسان كلما ازداد علمه يزداد ورعه، و يزداد خوفه من الله عز وجل، و النبي الكريم أشدكم خشية لله أنا كلما ازداد علمك ازداد ورعك، و لكن افتراضاً لو أنه هذا الذي يحمل كل هذه الشهادات و له كل هذه المؤلفات و أدار عينيه في محاسن هذه المرأة و هذا الأذن الذي لا يقرأ و لا يكتب غض بصره عنها خوفاً من الله عز وجل، هذا الأذن الحاجب هو عند الله هو العالم و ذاك هو الجاهل لذلك قالوا:

((كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللَّهَ))

أحياناً أسمع أخ كريم يقول لي: أنا لست دارساً، أقول له أنعم و أكرم أنت تأتي إلى بيت من بيوت الله و تجلس في مجلس علم، صار لك عندنا عشر سنوات، كل أسبوع ثلاثة دروس و الخطبة أربعة و الفجر ثلاثة و في الكويتي درس ثان، كلهم تحضرهم أنت من عشر سنوات تقريباً، من خمس سنوات، هذا أيضاً علم و هو علم جيد، و مستقيم، و سمتك حسن، و تخشى الله عز وجل، فنحن لماذا فهمنا أنه يجب أن يكون معك شهادة، حينما تطلب العلم و تطبق العلم فأنت عالم، و الدليل:

((عَنْ مُسْلِمٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللَّهَ وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَنْ يُعْجَبَ بِعِلْمِهِ))

[الدارمي]

فالإنسان فقط عندما يعصي الله عز وجل جاهل، مدموغ بالجهل و لو كان معه أعلى شهادة، فالإنسان يجب أن يكون أقوى من أي شيء خارج عنه، لم يصح له أن يأخذ شهادات، باب الجنة مفتوح، باب الآخرة مفتوح، باب الطاعة مفتوح، الذي أخذ شهادة لا يوجد مانع أفضل لكن لم يصح له أن يأخذ شهادات، الباب منفتح على مصراعيه الله عز وجل:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))

[البخاري ـ الترمذي ـ ابن ماجة ـ أحمد ـ مالك]

على كل الحديث الشريف مداره، هذا الكلام خطير جداً، واحد مخلط له أعمال صالحة، له إنفاقه، له خدماته للناس لكن حظوظ نفسه يأخذها و لو لم تكن في طاعة الله، هذا الذي يأخذ حظوظ نفسه المادية من باب لا يرضي الله و له أعمال طيبة ثانية هذا خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، محور الدرس هو أن المنهيات ليس فيها أنصاف حلول:

((.. إِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ))

الأعمال الصالحة بقدر وسعك، بقدر إمكانياتك، بقدر مالك، بقدر عزمك، بقدر إيمانك، لكن أنت في سلامة، أما إذا وصلت إلى درجة أنك تفعل هذا و هذا، هذا مما لا يرضي الله عز وجل، لا تنسى أيها الأخ الكريم الآية واضحة جداً:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112)

[سورة هود]

إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، في الاستقامة ليس هناك حل وسط، و تذكر لي مثل المستودع ممكن أن تملأ منه بعضه أو نصفه، أو أربعة أخماسه، أو كله، و لكن ليس هناك إمكان أبداً أن يكون هناك خلل أو يوجد ثقب، فالاستقامة تمثل إحكام المستودع، و العمل الصالح يمثل الوقود الذي فيه، الاستقامة حدية ليس فيها حل وسط، العمل الصالح نسبي، قدر ما تستطيع، الله عز وجل هناك آيات كثيرة تؤكد هذا المعنى، هناك بعض النصوص المؤكدة لذلك قال: رد دانق من حرام ـ و الدانق سدس الدرهم، عشرين قرشاً سوري ـ أفضل من مائة ألف تنفق في سبيل الله، فالمال الحرام حجاب.
قول آخر لبعض السلف: ترك دانق مما يكرهه الله عز وجل أحب إلى الله من خمس مائة حجة، قال ذكر الله باللسان حسن، و أفضل منه أن يذكر العبد الله عند المعصية فيجتنبها، هذه أبلغ، يقول ابن المبارك: لئن أرد درهماً من شبهة أحب إلي من أن أتصدق بمائة ألف و مائة ألف حتى بلغ ست مائة ألف، أي درهم واحد أرده من شبهة قال سيدنا عمر بن عبد العزيز ليست التقوى قيام الليل و صيام النهار و التخليط فيما بين ذلك، و لكن التقوى أداء ما افترض الله عليك و ترك ما حرم الله عليك، أساس التقوى الاستقامة، قال أحدهم: وددت أني لا أصلي غير الصلوات الخمس، و أ، أؤدي الزكاة و لا أتصدق بعدها بدرهم واحد، و أن أصوم رمضان فلا أصوم بعده يوماً أبداً، و أ، أحج حجة الإسلام ثم لا أحج بعدها أبداً، ثم أعمد إلى فضل قوتي فأجعله فيما بيني و بين ما حرم الله، الخمس صلوات، و رمضان فقط، حجة واحدة فقط، وأداء الزكاة فقط، لا صدقة و لا صيام نفل لا حج نفل و لا صلوات نفل

و أن أستقيم على أمر الله، قال حاصل هذا الكلام كله أن الاستقامة أفضل من الإكثار من نوافل الطاعات، فإن الاستقامة فرض و ذاك نفل، قال هناك من يوجد كثير ممن يجتهد في فعل الطاعات و لا يقوى على ترك المحرمات، أي له أعمال في الطاعات كثيرة لكن لا يستطيع غض بصره، لا يستطيع لأن يدع الاختلاط، لا يستطيع أن يدع رؤية ما لا يرضي الله عز وجل، أما هو ينفق و يدفع مالاً كثيراً، قال هناك كثير من يجتهد في فعل الطاعات و لا يقوى على ترك المحرمات.

سيدنا عمر سئل عن قوم يشتهون المعصية و لا يعملون بها، قال أولئك قوم امتحن الله قلوبهم للتقوى، لهم مغفرة و أجر عظيم، قال: ورد في بعض الأحاديث، يقول الله عز وجل:

((أيها الشاب التارك لشهوته، المتبذل في شبابه من أجلي، أنت عندي كبعض ملائكتي))

أي شاب في مقتبل الحياة، مستقيم على أمر الله قال له: أنت عندي كبعض ملائكتي.

أردت أن أبقى في محور الدرس، محور الدرس يجب أن تهتموا بطاعة الله عز وجل، باستقامتكم على أمره، و بعدها أي عمل صالح هو خير كثير، لكن دون أن تستقيموا الأعمال الصالحة لا تعينكم على الاتصال بالله عز وجل، لذلك الاستقامة أرضية و العمل الصالح فوقه، الاستقامة تمهيد الطريق و العمل الصالح حركة على الطريق، إذا وجد عقبات أنت واقف، إذا كان العمل الصالح شبهناه بحركة على طريق فكل معصية عقبة كؤود تمنعك من الحركة، هذا كلام أيها الأخوة مؤداه كل واحد فيما بينه و بين نفسه في علاقاته الشخصية، في علاقاته الأسرية، في مهنته، في حرفته، في بيعه، في نزهاته، في معاصيه، دع المعاصي فأنت أعبد الناس، إذا تركت المعاصي الآن كل شيء يسجل لك، العمل مهما قل لك عند الله به أجر كبير، أما إذا كثر العمل و قلت الاستقامة لا تشعر أنك قريب من الله عز وجل، أحياناً أخ يقول لي لست مسروراً، أعمالي الصالحة كثيرة و لكن لا يوجد صلة بالله، أي المستودع مثقوب كلما ملأه يسرب، هناك ثقب بالقعر و هناك أناس لا يوجد عندهم قعر أبداً فكلما كبرت المعصية الثقب يتسع، حدثني أخ من حوالي عام ألف و تسع مائة و ثلاث و سبعين أنه أصبح هناك أزمة وقود كبيرة جداً، قال لي بقيت شهراً حتى تمكنت أن أحضر سيارة كبيرة تضع لي بهذا المستودع ألف لتر، و كان هناك ازدحام و أزمات، و قال لي الحمد لله لي صاحب تمكن أن يؤمن لي سيارة ففرحت فرحاً لا يتصوره إنسان، أنه عبئنا ألف لتر يكفونا عام، و دفع المال و كل شيء انتهى، جاء فوجد المستودع فارغ، نسيوا الصنبور مفتوح بالمرحاض، نزل جميعه، ممكن، و هذا إحباط العمل، كله معصية ثابت عليها، هي حجاب، أعماله الصالحة كلها مجمدة، لا يستفيد منها.

سنعيد الحديث قبل أن ننهي الدرس يقول عليه الصلاة و السلام هذا الحديث رواه البخاري و مسلم:

((مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ))

ما نهيتكم عنه فاجتنبوه أي لا يوجد مناقشة، حل وسط لا يوجد كن حكيم نفسك حتى تنطلق إلى الله من أجل أن تشعر بطعم الصلاة، وطعم الزكاة، وطعم الصيام، طعم الحج، وطعم القرب من الله استقم على أمره، الأعمال الصالحة لا تسجل أو لا تجدي في الاتصال بالله عز وجل إلا بعد أن تستقيم على أمره، أما إذا استقمت نور على نور خير على خير، والعمل الصالح يرفعه.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (064) :لماذا لا يستجيب الله لنا ؟.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-11-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

من درس من دروس نحن في أمس الحاجة إليها، قبل أن نصل إلى موضوع الدرس أقدم لكم التمهيد التالي: أخطر ما في الدين أن يفرغ من مضمونه وأن يبقى شكلاً بلا مضمون، أن يبقى طقوساً تؤدى بلا معنى، أن يبقى كلاماً يلفظ بلا فعل، عندئذٍ يرفض الناس الدين لأنه لا يحل مشكلاتهم، هناك مشكلات يعاني منها الفرد والمجتمع فإذا كان الدين بشكله وصورته لا يحل مشكلات المجتمع يخرج من دائرة اهتمامات الناس، الآية الكريمة التي تقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7))

[سورة محمد]

الحقيقة يوجد ظاهرة قد يسأل عنها كل مسلم، لماذا لا يستجيب الله دعاء المؤمنين، أو دعاء المسلم ؟ الشيء الظاهر أن أدعية فصيحة تلقى كل جمعة، وأدعية منمقة، وأدعية بصوت مرتفع، وأدعية مأثورة، هذه الأدعية على فصاحتها، وعلى تنميقها، وعلى رفع صوت الداعي لا تجد فيما يبدو استجابة لها.

هذا المرض الخطير الذي يعاني منه المسلمون أن لا تكون دعوتهم مستجابة، الإنسان ما ميزته حينما يؤمن، حينما يسلم ؟ هناك ميزات أقل هذه الميزات أن يكون مستجاب الدعوة، أن يكون بينه وبين الله اتصال، أن يكون بينه وبين الله سؤال وجواب، أن يدعو الله عز وجل، ظاهرة عدم الاستجابة لدعاء المسلم ما أسبابها ؟ هذه ظاهرة يعني قد يقول أحدكم: أهل الدنيا الكفار، الفساق، الغارقون في المعاصي أمورهم منتظمة وتأتيهم حاجاتهم في أعلى مستوى فما بال المؤمنين الذين يدعون على أعدائهم ليلاً نهاراً وقد يزداد أعداءهم قوةً ويزدادون هم ضعفاً، أعداؤهم متفقون على باطلهم والمسلمون متفرقون على حقهم.

الحقيقة درس اليوم يجيب عن هذا السؤال، لماذا لا يستجيب الله دعاء المؤمنين ؟ وهل هناك قانون أو سنة من سنن الله عز وجل مطبقة في كل زمان ومكان ؟ سيدنا عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يقول: إن الله تعالى لا يعذب العامة بعمل الخاصة، هناك مبدأ ثابت لا تزر وازرة وزر أخرى، كل إنسان محاسب وحده، كل إنسان محاسب عما اقترفته يمينه، لا يحاسب إنسان عن إنسان ولا يحمل إنسان وزر إنسان والآية واضحة الدلالة بل قطعية الدلالة:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

[سورة الأنعام]

فهذا الخليفة الراشد والذي يعد خامس الخلفاء الراشدين يقول: إن الله تعالى لا يعذب العامة بعمل الخاصة، ولكن إذا أظهرت المعاصي فلم ينكروا عليهم فقد استحقوا القوم جميعاً العقوبة.

يعني أكاد أن أقول إن في الإسلام ركناً سادساً ألا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يعني أحياناً تجد مسلماً أو مؤمناً يتعايش مع أقاربه وهم مقيمون مع المعاصي كلها يسهر معهم يدعوهم إلى البيت، يلبي دعوتهم، يتنزه وإياهم، يقيم علاقات حميمة ولا يخطر في باله إطلاقاً أن يوجه ملاحظة، أو يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر، الحقيقة حينما نعطل هذه الفريضة السادسة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ربما عمم الله بالبلاء.

الملاحظ أن الإنسان إذا فعل المنكرات ولم يتلقَ تعنيفاً، أو إنكاراً أو توجيهاً، أو أمراً، أو نهياً، استبرأ فعل هذه المنكرات، كشاهد واضح إنسان عنده مسبح مختلط وهل بعد هذا المنكر من منكر ؟ وأقام في هذا المسبح المختلط حفل مولد نبوي ودعا من دعا ولا أقول الذين دعوا، وهؤلاء الذين دعوا جلسوا، واستمعوا إلى الأناشيد واستمعوا إلى بعض الكلمات التي أشادت به، وانفض هذا المولد وكأن شيئاً لم يحدث، فأين هي أمانة العلم، أين هو الأمر بالمعروف أين هو النهي عن المنكر ؟ يعني هذه الظاهرة المتفشية في مجتمع المسلم، أخ له أخٌ وبين الأخوين مودة كبيرة وصلات شديدة بنت أخيه تخرج في الطريق بثياب تغضب الله عز وجل، لا يخطر في بال الأخ أن يوجه إلى أخيه أية نصيحة، فمتى لا يستجيب الله لنا ؟ إذا تركنا هذه الفريضة السادسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أنا أعرف إنسان أيها الأخوة أذكر هذه القصة لأبين لكم ماذا يفعل الأمر والمتابعة، والأمر دنيوي محض، إنسان له بيت قديم يسكن فيه صدر أمر بالاستملاك للمنطقة كلها وأودع لهذا البيت ثمن رمزي جداً وعد صاحب البيت مستأجر وبعد سنوات عدة استنفذ ثمن البيت كأجرة له، هذا الإنسان اتصل وقدم طلبات، واستدعاوات، كتب في الصحيفة، وأنا لي معه صداقة ومودة، فأنا أتابع الأمر والله فوجئت بعد أقل من ستة أشهر من متابعتي هذا الموضوع أن قراراً صدر بإلغاء الاستملاك، إنسان من أجل مصالحه، من أجل بيت يملكه لما تابع الأمر، طبعاً تظلم وقدم طلبات وقابل مسؤولين وضح الأمر صار في ضغط على المحافظ هذا الضغط انتهى به إلى إلغاء الاستملاك، ومن أجل دنيا حينما تأمر، وتسأل، وتعترض، وتحتج وتنكر، ألغي قانون استملاك منطقة كبيرة جداً في دمشق القديمة وهذا الشيء أنا عشته لأني لم أكن أصدق أن هذا سيصدر هذا القرار وصدر بالمتابعة، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

[أحمد]

يعني لك قريب انصحه، تودد منه، بين له الآية، الحديث، بين له مغبة عمله، فحينما تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر تستوجب وعد الله عز وجل الذي يقول:

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (60))

[سورة غافر]

الحقيقة كيف يقول الله عز وجل:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7))

[سورة محمد]

هل الله عز وجل بحاجة إلى من ينصره ؟ أنت إذا أمرت بالمعروف واتسعت دائرة المؤمنين، ونهيت عن المنكر، وانكمشت دائرة العصاة نصرت دين الله عز وجل، يعني إذا كنا في نزهة فرضاً مجموعة زملاء في العمل دعوا إلى نزهة ما قام أحد ليصلي لو أنهم قالوا: قوموا إلى الصلاة نصرت دين الله عز وجل، هذه قاعدة أنا لا أكلفكم ما لا تطيقون، يعني علينا بخاصة أنفسنا، إنسان له أخ، أخت، ابنة أخت، أنا أتحدث عن خاصة أنفسنا لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((. ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ الْعَوَامَّ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَزَادَنِي غَيْرُ عُتْبَةَ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ قَالَ بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ))

[النسائي ـ ابن ماجة]

أنت يمكن أنه قد لا تستطيع أن تقف في الطريق وأن توجه لوم لامرأة سافرة، قد تسمع منها كلاماً قاسياً، لم تؤمر بهذا، بل أنت مأمور أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر في مجال خاصة نفسك فيمن تمون عليهم، فيمن لهم بك صلة، فيمن تشعر أن كلامك عندهم مسموع، فهذا أول قول لعمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه: إن الله تعالى لا يعذب العامة بعمل الخاصة، ولكن إذا أظهرت المعاصي فلم ينكروا عليهم فقد استحقوا القوم جميعاً العقوبة.

أنا مرة سمعت قصة ما تزال ماثلة أمام مخيلتي، سائق سيارة ركب معه شاب وزوجته وقالا له انتظر قليلاً ريثما تأتي بعض متاعنا يبدو أن الذي سيأتي بالمتاع تأخر تململ السائق بعد حين جاء رجل متقدم بالسن يحمل متاع هذه المسافر ما كان من هذا المسافر الشاب إلا أن وكز هذا الرجل الكبير لأنه تأخر في إحضار المتاع، وحينما تأخر تململ السائق، السائق قال لهذا الشاب من هذا الذي وكزته ؟ قال له: هذا أبي، فقال له: قم وانزل من السيارة إذا بقيت فيها لابد من أن نقع في حادث جميعاً.

لو أن كل إنسان رفض أن يركب في مركبته مثل هذا الإنسان تضيق المعصية، أنا سمعت طيار في بعض البلاد العربية رفض أن يطير وعلى متن طائرته الخمر وهم في أمس الحاجة إليه فاستجابوا إليه، هو الوحيد الذي إذا ركب هذه الطائرة تخلى من كل المشروبات تحقيقاً لرغبته، يعني إذا الإنسان أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وقف موقفاً صلباً، ما أخذته في الله لومة لائم تجد أن المعاصي تضيق دائرتها والطاعات تتسع دائرتها، إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر فقد نصرت دين الله، قال تعالى:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7))

[سورة محمد]

ورد في الأثر أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى بعض أنبيائه أني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خياركم وستين ألفاً من شراركم فقال: يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار ؟ قال: إنهم لم يغضبوا لغضبي وآكلوهم وشاربوهم.

والحديث الذي تعرفونه جميعاً، حينما أمر الله بعض ملائكته لإهلاك قرية، فقالوا يا رب إن فيها رجل صالحاً، قال: به فابدؤوا لما يا رب ؟ قال: لأنه لا يتمعر وجهه إذا رأى منكراً، فهذه الأحاديث تفسر لنا لماذا لا يستجيب الله لنا، لماذا لا ينصرنا لأننا لا ننصره، وكيف ننصره ؟ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ مَغَالِيقَ لِلْخَيْرِ فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ "))

[ابن ماجة]

بعض الأحاديث القدسية ورد أن أوليائي إذا رأوا ذكر الله بهم يعني إذا إنسان معروف بالصلاح، معروف بغيرته الدينية، معروف بنصائحه القيمة إذا دخل إلى مجلس وكان في منكرات هذه المنكرات تغلق إكراماً له، الذي لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر يجلس والمنكرات من حوله فإذا رأوه لا يتأثر ولا يتحرك له، ولا يتكلم يستبرءون هذه المعاصي بحضرته.

اسمعوا ماذا قال الله عز وجل واصفاً المؤمنين، قال تعالى:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

[سورة التوبة]

أما المنافقون، قال تعالى:

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ)

[سورة التوبة]

ما قال أولياء بعض بل بعضهم من بعض، أعيد على أسماعكم الحقيقة التي أتمنى أن تقع في نفوسكمٌ موقعاً حسناً، الإيمان حركة يعني في اللحظة التي تستقر فيها حقيقة الإيمان في نفس الإنسان يأبى هذا الإيمان إلا أن يعبر عن نفسه بخدمة الخلق، والدعوة إلى الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الإمام علي كرم الله وجهه يقول: أفضل الأعمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أفضل الأعمال لأنك إذا أمرت بالمعروف واستجيب لك فقد أحييت نفساً بشرية ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً، أفضل الأعمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وشنآن الفاسق، لأنك إذا مدحت الفاسق غضب الله عز وجل، إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق، إذا مدحته يحصل اضطراب، يا ترى مدحه ومقيم على معصية، معنى ذلك أنها ليست معصية هذه.

أعرف رجل حديث عهد في صلحه مع الله كان شارداً واستقام استقامة طيبة وتاب لله عز وجل وحضر مجالس علم، فرحت به فرحاً كبيراً، كنت مرة في دائرته رأيته صافح امرأةً أجنبية قلت له كيف تصافحها ؟ وهذا مما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم قال: ليس معقول هل هناك من معصية من مصافحتها ! قلت: بلى وذكرت له الحديث، قال: عجيب فلان الفلاني معروف بالتدين والصلاح يصافح النساء كثيراً أمامي، هو استنبط حكم شرعي من هذا الذي عرف بالدين والصلاح، لذلك الإنسان عندما يرتكب مخالفة وله مكانة يظن العامة أن هذه طاعة أو كحد أدنى ليست معصية.

((روى سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ بمكة فقال: أنت الذي تزعم أنك رسول الله؟ قال: نعم، قال: أي الأعمال أحب إلى الله تعالى ؟ قال: الإيمان بالله، قال: ثم ماذا ؟ قال: صلة الرحم، قال: ثم ماذا ؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال: فاي الأعمال أبغض لله تعالى ؟ قال: الشرك بالله، قال: ثم ماذا ؟ قال: قطيعة الرحم قال: ثم ماذا ؟ قال: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر))

يعني هذه المعصية تأتي بالدرجة الثالثة، الشرك، قطيعة الرحم ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الإيمان بالله، صلة الرحم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن أيها الأخوة لا تنسوا قول النبي عليه الصلاة والسلام أنه من أمر بالمعروف فليكن أمره بالمعروف.

بالسيرة النبوية بعض القصص حول أسلوب الأمر بالمعروف سيدنا الحسن والحسين رأيا شيخاً كبيراً يتوضأ وفي وضوئه بعض الأغلاط فطلبا من الشيخ أن يحكم بينهما في قضية خلافية في الوضوء فتوضئا أمامه بشكل جيد فقال: أنا المخطئ.

يمكن أن توجه ملاحظة لطيفة جداً بأدب من دون إحراج، من دون تضييق، من دون قسوة، قال عليه الصلاة والسلام

((ما من قوم يكون فيهم رجل يعمل بالمعاصي ويقدرون أن يغيروه فلا يغيروه إلا عمهم الله بعذاب قبل أن يموت))

يعني ما من قوم فيهم من يعمل بالمعاصي ويقدرون أن يغيروه فلم يغيروه إلا عمهم الله بالبلاء، لذلك الترتيب الذي تعرفونه أول شيء أن تغيره بيدك فإن لم تستطع فبلسانك، فإن لم تستطع فبقلبك وهذا أضعف الإيمان.

((مَنْ رَأَى مُنْكَرًا فَلْيُنْكِرْهُ بِيَدِهِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ قَالَ أبو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ))

[مسلم ـ النسائي ـ ابن ماجة ـ أبي داود ـ أحمد]

يوجد تعليق على هذا القول، التحليل لهذا القول أن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من إنسان إنكاراً لمنكر بلسانه إذا كان بإمكانه أن يمنعه بيده، أيام ترى فتاة تفعل في خروجها ما لا يرضي الله عز وجل تسأل أباها، يقول لك: أنا نصحتها وهكذا تريد، أنت أبوها وأمرها بيدك، ونفقتها بيدك، هذا الأب بإمكانه أن يمنع هذا المنكر بيده فاكتفى بلسانه غير مقبول، والذي ينكر بقلبه وبإمكانه أن ينكر بلسانه إنكاره بقلبه غير مقبول.

الشيء الدقيق أنك إذا تبجحت أنك من أمة محمد صلى الله عليه وسلم اقرأ هذه الآية، قال تعالى:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

[سورة آل عمران]

هذه الخيرية جاءت علتها في الآية، وعندنا قاعدة في الفقه عندما تنعدم العلة ينعدم الحكم، خيرية هذه الأمة في أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فإذا كفت عن أن تأمر بالمعروف وعن أن تنهى عن المنكر فقدت خيريتها، أنا حدثني صديق يعمل في شركة طيران أقلت طائرة حجاجاً من المغرب العربي إلى جدة تعطلت هذه الطائرة في تونس قال لي: فوجئت أن الحجاج والحاجات انطلقوا إلى البحر ليسبحوا، كيف يفهمون الدين ؟ شيء عجيب امرأة ذاهبة إلى بيت الله الحرام لتحج، تسبح وبلباس السباحة مع الرجال ! هذا من ماذا ؟ من ضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الحقيقة لنا صديق ذهب إلى بلد في هذه البلاد التي تنكر وجود الله عز وجل وكانت متماسكة ثم تفككت، قال لي: شعر أحدهم وأنا في مجمع استهلاكي أنني مسلم فرحب بي أشد الترحيب وعانقني وشعر أنه وجد نفسه، وعبر عن حبه الشديد لي بأن اشترى لي زجاجة خمر هكذا والله قال لي، كيف وصلنا إلى هذا المستوى ؟ عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا سكتنا كلنا سوف نجد أن هناك من يفعل كل المعاصي ويصلي ويقول هذه حرام ! هناك من يفعل كل المعاصي ويصلي، ممكن إنسان

يضع خمر ولحم خنزير ويقول بسم الله أنا مسلم يجب أن اسمي، أية تسمية هذه ؟ هذا الشيء يبدو أنه غريب والدليل تبسمكم ولكن والله واقع، واقع في بلاد كثيرة إسلامية حينما انعدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقع هذا، وقد تجد في بعض البيوتات امرأة تصلي وأنعم بالصلاة ولكنها تخرج سافرةً تفسد الشباب، وتقول ماذا أفعل ؟ أليس لها أب ينبهها، زوج ينبهها كلما ضعف الأمر بالمعروف ترى المعاصي انتشرت وبقيت العبادات الشكلية التي لا تقدم ولا تؤخر، الدين نظام متكامل، أخطر ما في الدين أن تنتزع منه بعض الأشياء التي لا تكلف شيئاً وتفعلها.

سؤال المعروف ما هو تعريفه ؟ قال: المعروف ما وافق العقل والنقل، ما وافق العقل والشرع، ويجب أن تؤمن أيها الأخ الكريم أن العقل متفق مع النقل بالضرورة، فكل شيء يقبله العقل والشرع معاً فهو معروف، كل شيء ينكره العقل والشرع معاً فهو منكر هذه الآية تبين أن خيرية هذه الأمة بالأمر بالمعروف، أما الآية الثانية تأمرنا قال تعالى:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104))

[سورة آل عمران]

استحق أقوام الهلاك لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، والله كلما رأيت أخوانا الكرام في بيوتهم، في أعمالهم، مع أخوانهم، مع أصدقائهم، مع أقاربهم، مع جيرانهم...

وأنت أيضاً هذا نهى عنه الشرع إذا أنت مؤمن حقاً ورجل نصحك نصيحة وفيه خمسين عيب اقبلها منه وقل له جزاك الله خيراً وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقني إلى تنفيذ ما نصحتني به وبعد حين إذا كنت مخلصاً لله وصادقاً في الأمر بالمعروف توجه له نصيحة معاكسة، أما حينما توجه له نصيحة معاكسة في المجلس نفسه فقد حاربت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو أمرك بالمعروف بشيء واضح أو نهاك عن المنكر ومعه دليل وهو ليس معصوماً لكن أنت كل ما رجل يوجه لك نصيحة تبحث عن أخطاء المتكلم حتى تحجمه وتسكته وتنتصر لنفسك هذا أسلوب شيطاني، أنا أنصح أخوتنا الكرام أي رجل نصحك اقبل منه النصيحة لأن الله عز وجل قال:

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

[سورة العصر]

من معاني التواصي بالحق ليس معناها أن ترد على النصيحة بنصيحة، العلماء قالوا: معنى هذه الآية مادام الفعل فيه مشاركة أن تستجيب لهذه النصيحة، فإذا نصحت واستجبت فقد شاركته في أجر النصيحة، بل إن الذي يستجيب لنصيحة أسدلت له ليس أقل أجراً من الذي يسدي هذه النصيحة، فالمشاركة لا تكون بالرد على النصيحة بنصيحة معاكسة، بل تكون بالاستجابة للنصيحة، وإذا لك أنت

نصيحة تدخرها لأخ كريم إياك أن تلقيها على مسامعه وقت نصحه لك بعد حين، بعد حين ذكره بهذه الغلطة.

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (63))

[سورة المائدة]

يعني لا ينهاهم الربانيون، علماؤهم وفقهاؤهم وقراؤهم، عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ! صار في نوع من أنواع التباهي أن كل ما صار في حفل عقد قران مثلاً يجب أن ندعي عالم يزين المجلس والله شيء جميل، ولكن لما يكون في منكرات في هذا الحفل والعالم ساكت ما تكلم شيء هذا صار احتقار لمهمة هذه العالم، أحياناً ترى سهرة المنكرات في الغرفة الثانية أصوات الغناء وأصوات التمثيليات ورجل جالس مرتاح ويجامل الناس، هذا الذي يسمع من الغرفة الثانية ما رأيك به يا سيدنا ؟ نبقى ساكتين ساكتين والناس يأخذون راحتهم، يقومون ببعض المعاصي أو أكثر المعاصي على مرأى ومسمع من وكل أمر توجيههم، أو ممن حملوا أمانة التبين وهم لا يبينون وكل هذا دفعاً للحرج، نستحي من بعضنا بعضاً أما لو أردنا وجه الله عز وجل لقلنا الحق.

لو فرضنا أخ من أخوانك وأنت لك دعوة إلى الله عز وجل وأخ من أخوانك زرته في عمله وجدت عنده موظفة تساعده في أعماله ليست على ما ينبغي أن تكون عليه طبعاً كل وجودها غلط، تبقى ساكت، انصحه، إذاً إذا تركنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يوشك أن يعمنا الله بالبلاء وعندئذٍ ندعو فلا يستجاب لنا، لذلك أدق ما في الآية:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (117))

[سورة هود]

ما قال صالحون، صالحون يهلكون أما إذا كانوا مصلحون لا يهلكون، المصلح فعل متعدي من أصلح، أما الصالح من صلح فإذا كان أهلها صالحون يستحقون الهلاك، أما إذا كان أهلها مصلحون لعل الله سبحانه وتعالى ينجيهم من هذا البلاء.

لأبي الدرداء كلمة رائعة يقول: من وعظ أخاه في العلانية فقد شانه، ومن وعظ أخاه في السر فقد زانه.

يوجد حديث للنبي عليه الصلاة والسلام يشبه فيه مجتمعاً تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بتشبيه رائع جداً له رواية خاصة هنا:

((حَدَّثَنِي الشَّعْبِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِي اللَّهم عَنْهمَا يَقُولُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَثَلُ الْمُدْهِنِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا مَثَلُ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا سَفِينَةً فَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَسْفَلِهَا وَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَعْلاهَا فَكَانَ الَّذِي فِي أَسْفَلِهَا يَمُرُّونَ بِالْمَاءِ عَلَى الَّذِينَ فِي أَعْلاهَا فَتَأَذَّوْا بِهِ فَأَخَذَ

فَأَسًا فَجَعَلَ يَنْقُرُ أَسْفَلَ السَّفِينَةِ فَأَتَوْهُ فَقَالُوا مَا لَكَ قَالَ تَأَذَّيْتُمْ بِي وَلا بُدَّ لِي مِنَ الْمَاءِ فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَنْجَوْهُ وَنَجَّوْا أَنْفُسَهُمْ وَإِنْ تَرَكُوهُ أَهْلَكُوهُ وَأَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ))

[الترمذي ـ أحمد]

هذا أجمل مثل نحن المؤمنين جميعاً في سفينة واحدة فإذا فعل أحدنا شيئاً يوجب غرق السفينة هلكنا جميعاً فإن أخذنا على يديه نجونا ونجا وإن تركناه هلكنا وهلك، هذا أوضح مثل نحن في قارب واحد، أيام ثلاث شركاء في قارب واحد، إذا أحدهم استبرأ المعصية عمهم الله بالبلاء.

((روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: لتأمرن بالمعروف ولتنهن أو ليسلطن الله عليكم سلطاناً ظالماً لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم ويدعو خياركم فلا يستجاب لهم ويستنصرون فلا ينصرون، ويستغفرون فلا يغفر لهم))

((عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ))

[أحمد]

ألا ترون معي أن هذه الفريضة ربما كانت الفريضة السادسة شهادة أن لا إله إلا الله، وأداء الصلاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وأداء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، حتى يستمر الدين، تأخذ من أين ؟ من سورة العصر:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

[سورة العصر]

ربع الدين، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه إذا هابت الأمة أن تقول للعاصي أنت عاص فقد تودع منهم. انتهوا اقرأ عليهم السلام، بعضهم فسر فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان بعضهم قال: وهذا أضعَف الإيمان، ما الذي أضعفَ الإيمان ؟ أن يبقى إنكار المنكر بالقلب كله ساكت.

سيدنا عمر رضي الله عنه جالس مع أصحابه فقال له رجل وأراد أن يتقرب منه: والله ما رأينا خيراً منك بعد رسول الله، فأحد فيهم النظر، حتى قال رجل يوجد من هو خير منك، قال: من هو ؟ قال الصديق، فقال: رضي الله عنه كذبتم جميعاً وصدق هذا، سيدنا عمر عد سكوتهم كذباً، قال: والله كنت أضل من بعيري وكان أبو بكر أطيب من ريح المسك. فالسكوت يعد ضعفاً أو يعد إضعافاً للإيمان، حتى إنكار القلب إذا كان بإمكانك أن تنطق وسكت فأنت لم تنكر.

يوجد أخ مرة سألني سؤال يوجد موضوع خلافي قال: لو أن إنسان التقى بعالم وهذا العالم متساهل بهذا الموضوع وأفتى به، ما ذنب السائل ؟ يعني جمعت مع من يفتي بهذه المخالفة فأنا ليس مسؤول، قلت له: بل أنت مسؤول، قال: كيف ؟ قلت له: لو أن عندك بيتاً تريد أن تبيعه وجمعتك الصدف بدلال

أعطاك لهذا البيت سعراً لماذا تسأل عشر أشخاص يعملون في بيت البيوت عن سعر بيتك ؟ لما لم تكتفِ بهذا السعر الذي قاله لك فلان ؟ لأنك حريصاً أن تأخذ بهذا البيت أعلى سعر، لماذا في أمر دنياك تتشدد وفي أمر الدين تتساهل ؟ هذا مأخذ عليك.

تعرفون في قصة طويلة عن أنه في قديم الزمان كان هناك شجرة يعبدها الناس من دون الله أحد النساك حمل فأسه وتوجه إلى هذه الشجرة ليقطعها ويقطع معها الشرك التقى به في الطريق الشيطان وتصارعا وكاد هذا الناسك أن يصرع الشيطان لولا أن الشيطان وعده أن يرى تحت وسادته كل يوم دينار ذهبي، فرأى شيء مغري فكف عن هذه المحاولة وعاد إلى البيت ورأى كل يوم هذا الدينار بعد حين لم يجد الدينار، فحمل فاسه وذهب ليقطع الشجرة فضحك عليه الشيطان وقال له أنت اليوم لم تذهب من أجل الله، ذهبت من أجل الدينار الذي افتقدته وصرعه الشيطان ووضعه تحت أقدامه.

أيام الإنسان أحياناً تتضرر مصالحه يديرها دينية ويقول: لا يجوز ساكت ثلاثين سنة على هذه المعصية فلما صار موضوع مصالحك رفعت عقيرتك وقلت: معاذ الله، هذا لا يجوز، هذا شيء يأباه الشرع، هذه المواقف المتناقضة هذه مواقف مكشوفة الإنسان لا يسلكها إطلاقاً.

أيها الأخوة:

دققوا الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يحتاج إلى خمس أشياء:

ـ أولها العلم، قال له: أسلم، قال: ماذا أقول ؟ قال: لا أعرف ماذا تقول ؟ أحياناً تنهى عن منكر ليس منكر يوجد مذهب يغطيه ليس منكراً من جهلك ظننه منكراً فلا يستطيع أحد أن يأمر بالمعروف ولا أن ينهى عن منكر إلا إذا كان عالماً، عالماً بالمعروف والمنكر بحدود الشرع.

ـ الشيء الثاني أن يقصد بهذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجه الله تعالى، أنا أعرف أشخاص كثيرين ينطلقون ليعبروا عن غيرتهم على هذا الدين حينما تمس مصالحهم فقط، أما إذا كانت مصالحهم منسجمة يسكتون، إذاً تحتاج إلى إخلاص لله عز وجل.

ـ الشيء الثالث يحتاج الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر إلى شفقة على من يأمر باللين والتودد ولا يكون فظاً ولا غليظاً.

أيها الأخوة الأكارم:

دققوا في هذا الموضوع، النبي سيد الخلق حبيب الحق، سيد ولد آدم، سيد الأنبياء والمرسلين يوحى إليه، معصوم، معه القرآن مؤيد بنصر الله ومع ذلك قال تعالى: أنت يا محمد على كل هذه الفضائل وعل كل هذه الميزات:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

[سورة آل عمران]

إذا إنسان ليس هو سيد الخلق، ولا حبيب الحق، وليس معصوماً وليس معه وحي، وليس معه قرآن، ولا معه ولا ميزة، وكان فظ غليظ القلب، ذاك الذي ميزه الله على كل الخلق لو كان فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فكيف نحن ؟ لذلك يحتاج الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر إلى شفقة على من يأمر باللين والتودد ولا يكون فظاً ولا غليظاً.

يعني في إنسان في علمكم أنتم كان أشد انحرافاً وإشراكاً واستطالة وتطاولاً من فرعون، قال أنا ربكم الأعلى، ماذا قال لسيدنا موسى:

(فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44))

[سورة طه]

هل هناك أوضح من هذا الدليل، الذي قال أنا ربكم الأعلى قال له قولا له قولاً ليناً، قال له: أنا سوف أغلظ عليك، فقال له: على رسلك لقد أرسل الله من هو خير منك إلى من هو شر مني أرسل موسى إلى فرعون، ليس أنت موسى ولا أنا فرعون.

ـ الشيء الرابع أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر صبوراً حليماً لأن الله تعالى يقول:

(وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17))

[سورة لقمان]

ما أصابك من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أكثر الناس يقولون: سلامتك يا رأسي، فخار يكسر بعضه هذا موقف غير سليم

(وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17))

[سورة لقمان]

كأن الله عز وجل يقول لنا إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر فهناك متاعب اصبر عليها من أجلي أرفع مقامك عندي اصبر عليها.

يوجد أب قال لي شخص بالميزان واضع وزن، يبيع تمر فله ابن دين وتائب، شاب مؤمن، يعمل عنده فما قبل هذا الشيء فنصح أبوه فأبوه ضربه ووبخه وطرده من المحل، لأن البيع كله حرام تحت الكفة يوجد قطعة حديد وكل البيع غلط، والابن ما سكت، يمكن هذا الضرب يرفعه عند الله، هذا الطرد يرفعه عند الله، أيام يكون في البيت معصية والأخت خروجها لا يرضي الله، الابن غضب والأب غضب لغضب الأخت ووبخ ابنه، قال تعالى:

(وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17))

[سورة لقمان]

الأمر بالمعروف أيام له ثمن.

ـ أما الشيء الخامس أهم شيء ـ الأول أن تكون عالماً بالمعروف والمنكر، والثاني أن تكون مخلصاً، والثالث أن تكون مشفقاً، والرابع أن تكون صبوراً ـ أن تكون عاملاً بما أمرت تاركاً لما نهيت لأن الناس أعينهم مفتحة، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ قُلْتُ مَا هَؤُلاءِ قَالَ هَؤُلاءِ خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا يَعْقِلُونَ))

[أحمد]

الآن يوجد عندنا موضوع مهم جداً في الدرس، لو أن إنسان مقيم في مكان لا يستطيع أن يطيع الله ولا يستطيع أن يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، مروا بعض المسلمين في بلاد الشمال في ظروف صعبة جداً، يعني لا يمكن أن يسمح لك بأداء الشعائر الإسلامية ولا قال في مثل هذه الحالات النادرة، إذا كنت في أرض يستحيل أن تطيع الله فيها، يستحيل أن تقيم شرع الله في بيتك، ابنتك ليست ملكك ممنوع أن تسيطر عليها، يجب أن تفتن في مثل هذه البلاد التي لا يقوى إنسان على أن يطيع الله فيها يجب أن يفر بدينه منها وإذا بقي فيها سوف يحاسب ويقال له يوم القيامة:

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً (97))

[سورة النساء]

لهذا روى الحسن عن النبي رضي الله عنه:

((من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً فقد استوجب الجنة))

طبعاً متى نقول هذا الكلام ؟ حينما يستحل عليك أن تطيع الله في بلدك، أما إذا أطعت الله في بيتك وفي عملك ولو في فساد مادمت مستطيعاً أن تقيم شعائر الله هذه بلدك وابقى فيها وادعو إلى الله فيها

((بَاب فَضْلِ مَنْ يُصْرَعُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَاتَ فَهُوَ مِنْهُمْ))

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى

(وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

وَقَعَ وَجَبَ

((أيما مسلم خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ووضع رجله في غرز راحلته يعني في ركابة راحلته ولو خطوة واحدة ثم نزل به الموت أعطاه الله تعالى مثل أجور والمهاجرين، وأيما مسلم يخرج من بيته قاصداً في سبيل الله فقتل مات كيفما مات فهو شهيد وأيما مسلم خرج من بيته إلى بيت الله الحرام ثم نزل به الموت قبل بلوغه أوجب له الله تعالى الجنة))

هذا الذي يسافر في سبيل الله إما فراراً بدينه أو طلباً للعلم أو حاجاً أو معتمراً فقد وقع أجره على الله، الفقهاء قالوا: من لم يهاجر من أرضه وهو يقدر على أداء فرائض الله تعالى فلا بأس أن يقيم هناك ويكون كارهاً للمعاصي فهو معذور.

((وقد روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: بحسب امرئ منكم أنه إذا رأى منكراً لا يستطيع له تغيراً أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره))

أما قول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

[سورة المائدة]

فلهذا الآية معنىً قد لا يخطر في بالكم، عليكم اسم فعل أمر يعني الزموا أنفسكم تعاهدوا قلوبكن، زكوا أنفسكم، طهروها من كل درن حلوها بمكارم الأخلاق، عرفوها بالله عز وجل هذا معنى عليكم أنفسكم، فإن لم تفعلوا ذلك عندئذٍ يضركم من ضل يقوى عليكم يتسلط عليكم، ينال منكم يأخذ ما في أيديكم، يشتتكم، يقهركم، طبعاً هذه بعض المعاني.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

[سورة المائدة]

يعني إذا تعاهدتم أنفسكم بتعريفها بالله وتزكيتها، وتحليتها بالكمال وتعريفها بالله، وحملها على طاعة الله عز وجل، عندئذٍ الأمر كله بيد الله، عندئذٍ لا يستطيع من ضل أن يضركم، أما إذا توانيتم في تزكية نفوسكم وحملها على طاعة الله من ضل ينال منكم الشيء الكثير.

((عَنْ أَبِي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ قَالَ: أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ فَقُلْتُ لَهُ كَيْفَ تَصْنَعُ بِهَذِهِ الآيَةِ))

قَالَ: أَيَّةُ آيَةٍ قُلْتُ قَوْلُهُ تَعَالَى

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

((قَالَ أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ الْعَوَامَّ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ))

[النسائي - ابن ماجة]

سيدنا الصديق ورد عنه تفسير هذه الآية:

((عَنْ قَيْسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) قَالَ عَنْ خَالِدٍ وَإِنَّا سَمِعْنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ

يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ، و قَالَ عَمْرٌو عَنْ هُشَيْمٍ وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا ثُمَّ لا يُغَيِّرُوا إِلا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ))

إن لم ترعوا أنفسكم، إن لم تأمروا بالمعروف، إن لم تنهوا عن المنكر، فعندئذ سوف ينال منكم من ضل، أي سوف يعموا هؤلاء بالعقاب.

أيها الأخوة الكرام:

أرجو الله تعالى أن يترجم هذا الدرس إلى سلوك يومي لكن بالحكمة، و المخلص إذا نصح مقبولة نصيحته، المخلص لا المنتقد إذا كنت مخلصاً و متأدباً و لطيفاً و قلت قولاً رقيقاً ليناً نفسيتك الطاهرة و المخلصة هذه تجعل نصيحتك تسري و يستجيب لها، و هناك نتائج رائعة جداً و باهرة جداً تلمسها بيدك حينما تجد أن كلمة طيبة فعلت فعل السحر في نفوس من حولك، لا تنسوا أن الله سبحانه و تعالى يقول:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24))

[سورة إبراهيم]

و قد فسر المفسرون هذه الآية: كيف أن الشجر يبدأ من بذرة صغيرة، فإذا هي شجرة عملاقة فيها الثمار و في الثمار البذور و في كل بذرة شجرة، معنى ذلك بعد مائة عام البذرة الواحدة تصبح غابة و الكلمة الطيبة في فعلها الطيب كالبذرة التي ربما أصبحت بعد حين من الزمن غابة كثيفة ملء السمع و البصر، إذاً الكلمة الطيبة كشجرة طيبة:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24))

[سورة إبراهيم]

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (065) : الغضب جماع كل شر1.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-12-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:
كما ألفنا في مثل هذه الدروس أن نعالج موضوعات حساسة، وموضوعات يعاني منها معظم الناس، فبحكم عملي بالدعوة إلى الله عز وجل، وهذا الشرف الذي أكرمني الله به، أجد من خلال مشكلات الإخوة الكرام أن أحد أكبر عوامل الشقاء الأسري أو في العمل هي سرعة الغضب ! والنبي عليه الصلاة والسلام في أحاديث كثيرة متواترة تواتر معنوي، النبي الكريم يقول:

(أَنَّ رَجُلا أَتَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلِّمْنِي كَلِمَاتٍ أَعِيشُ بِهِنَّ وَلا تُكْثِرْ عَلَيَّ فَأَنْسَى، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا تَغْضَبْ)

(رواه مالك)

الأمر أيها الإخوة: أكبر من أن يشقى الإنسان في بيته فيطلق زوجته في ساعة غضب، أو يفصم شريكاً في ساعة غضب، أو يهدم عملاً طويلاً في ساعة غضب، أو يوقع بينه وبين الناس العداوة والبغضاء في ساعة غضب، الأمر قد يصل إلى صحته، الملاحظ الآن: أن الأمراض الخبيثة والوبيلة والمستعصية تنتشر بشكل غير معقول ! لا يكاد يمضي يوم أو أسبوع إلا وتسمع أن فلاناً أصيب بمرض خبيث ! أيها الإخوة: دققوا في هذا الكلام أحدث تفسير لهذا المرض: أن الشدة النفسية كالغضب يضعف في الإنسان جهازاً من أخطر الأجهزة هو جهاز المناعة، كيف أن فيروس الإيدز يضعف هذا الجهاز أو يلغي وجوده ؟ كذلك الغضب أو الشدة النفسية تسهم في إضعاف جهاز المناعة في الإنسان، ومتى ضعف هذا الجهاز نمت الخلايا نمواً عشوائياً، الآن هذا أحدث كلام فالجهاز المسؤول عن انضباط الخلايا جهاز المناعة، التنظيم في الجسم المسؤول عن ضبط نمو الخلايا هو جهاز المناعة، والشدة النفسية بالتعبير الحديث الطبي أو كلمة الغضب بالتعبير القديم الإسلامي هو الذي يسهم في إضعاف جهاز المناعة، وإضعاف هذا الجهاز يسهم في إضعاف في سيطرة هذا الجهاز على نمو الخلايا فهناك تلازم بين انتشار هذه الأمراض الخبيثة بشكل وبائي، وبين ارتفاع التوتر النفسي لدى الأشخاص، كنت أقول لكم دائماً أن سر سعادة أجدادنا مع أن حياتهم كانت من الخشونة ما كان كالغسيل بالطبق، والحركة سيراً، وليس هناك مصاعد، وليس هناك أجهزة حديثة، ومركبات فخمة، والأعمال كلها شاقة، وربما كان ماء الشرب يجلب حملاً، والخبز يصنع في البيت، فالأعمال التي كان الأجداد يمارسونها هي أعمال شاقة ومع ذلك كانوا أصح بدناً منا بما لا يقاس ! السبب فيما يقوله بعض الأطباء: إن أجدادنا كانوا يتمتعون

بشيئين: الأول جهد عضلي وهو طب طبيعي، والثاني الراحة النفسية، بينما الحياة المعاصرة أساسها الكسل العضلي، والتوتر النفسي،

أيها الأخوة: ما من شيء يضعف التوتر النفسي والصدمة الانفعالية وبالتعبير الأجنبي (strss) الضغط النفسي، والشدة النفسية ويذيبه كالتوحيد، دققوا في هذا الكلام، والشيء الغريب تذهب إلى طبيب القلب فإذا رأى خللاً يقول لك: هل هناك شيء أزعجك ؟ تذهب لطبيب الهضم فإذا كان هناك التهاب في المعدة أو قرحة يقول لك: هل هناك شيء أزعجك ؟ أي طبيب تذهب إليه يضع السبب الأول للمرض الصدمة النفسية التي أصابت الإنسان، الذي أراه أن ما من حالة أقرب غلى الاعتدال وإلى السلامة من حالة الموحد، الموحد: جمع الهموم كلها في هم واحد وهذا الهم هو إرضاء الله عز وجل، فكفاه الله الهموم كلها، الموحد رأى كل الأقوياء بيد الله عز وجل، وان عليه إرضاء ربه فإذا أرضاه أرضى عنه كل هؤلاء الذين يخيفون الناس، فما رأيت في علم الطب حالة نفسية صحية متوازنة كاملة كحالة الموحد ليس إلا الله، الأمر كله بيد الله فعليك إرضاءه وانتهى الأمر، فإذا رضي عنك فلا تعبأ بغضب الناس جميعاً، وإذا غضب الله عنك يجب أن تهيأ نفسك أن كل مخلوق سوف يزعجك، لأنه من أرضى اله بسخط الناس رضي الله عنه وارضى عنه الناس، ومن أسخط الله برضى الناس سخط الله عنه وأسخط عنه الناس، فيا أيها الإخوة: انظر لكلام رب العالمين :

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213))

(سورة الشعراء)

قاعدة كلام يشبه القانون، كلام واضح يشبه وضوح الشمس في وضح النهار.

إذا إخواننا التجار لهم محلات تجارية لا يوجد إلا الله عز وجل، يمكن أن يدخل إنسان لمحلك التجاري ويضعك في السجن مدة شهرين مباشرة لأتفه الأسباب ! إذا اعتقدت أن هذا الإنسان بإمكانه أن يحرمك من حريتك شهرين هذا اعتقاد مرضي، لا يستطيع أحد أن يضرك بشيء إلا أن يأذن الله عز وجل، فعليك إرضاءه،

هناك أشخاص بإمكانهم أن يوقعوا بك أشد أنواع الأذى، الحديث الذي أريد أن أجعله محوراً درسنا اليوم حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم موجز جامع مانع !

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهم أَنَّ رَجُلا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْصِنِي، قَالَ: لا تَغْضَبْ، فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ، لا تَغْضَبْ))

(رواه البخاري)

أول شيء يخطر ببالنا أن الغضب ليس عملاً إرادياً ربما كان عملاً عفوياً، فكيف يقول عليه الصلاة والسلام: لا تغضب مع أن الإنسان يغضب وهو لا يدري ! العلماء قالوا: إذا نهاك الرسول عن الغضب

أي نهاك عن أسباب الغضب، فالشيء الذي يمكن أن يغضبك ابتعد عنه، مثلاً: إنسان متعب ابتعد عنه، لا تقحم حياته فيتعبك، مشكلة قد تقع فيها بإشكال أو إحراج، ابتعد عنها، إما معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام: لا تغضب أي ابتعد عن أسباب الغضب، أو أنك إذا غضبت إياك أن تجعل هذا الغضب هو الذي يقودك في فعل كذا وترك كذا، لك أن تختار أحد المعنيين، ولك أن تجمع بينهما وهو الأكمل، أن تبتعد عن أسباب الغضب فإذا وقع الغضب لا تسمح له أن يلقي عليك الأوامر، افعل، سبه، اقطعه، اضربه، أغلق الباب في وجهه، كل له الصاع صاعين، عليك بالابتعاد عن أسباب الغضب وعليك أن لا تسمح للغضب إذا وقع عفواً أن يأخذك إلى حيث يريد، هذا الحديث كما قلت قبل قليل أنه ورد في طرق كثيرة، وأن من طرقه الأخرى:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: عَلِّمْنِي شَيْئًا وَلا تُكْثِرْ عَلَيَّ لَعَلِّي أَعِيهِ، قَالَ: لا تَغْضَبْ فَرَدَّدَ ذَلِكَ مِرَارًا كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: لا تَغْضَبْ.))

(رواه الترمذي)

هناك رواية ثالثة لغير الترمذي قلت

((يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة ولا تكثر علي، فقال عليه الصلاة والسلام: لا تغضب))

أول شيء أيها الأخوة:

كما قلت قبل قليل: (إن الغضب جماع كل شر) (وإن ترك الغضب جماع كل خير)، في البيت الغضب الشديد ربما حطم سعادتك الزوجية، في العمل الغضب الشديد ربما أخر عملك، في صحتك قبل قليل قلت لكم: أن أكثر أمراض القلب، يقول لك: ضغط دم وعائي، تصلب شرايين يرتفع الضغط، ويوجد ضغط دم عصبي أساسه شدة نفسية، الأوعية مريرة جداً هذا ضغط الدم العصبي أساسه الغضب والهم، ضغط الهم فضغط الدم، ممكن أن نعجب أمراض كثيرة جداً في مقدمتها أمراض القلب، وأمراض الجهاز الهضمي، والأمراض العصبية، وأمراض نقص المناعة، التي هي أخطر مرض، الآن الذي ثبت أن الشدة النفسية تسهم في نقص المناعة، ونقص المناعة يسهم في النمو العشوائي الخلايا، وفي غضون أسبوع واحد سمعت عن خمسة أشخاص مصابون بأمراض الورم الخبيثة، ما السبب ؟ هناك خطأ في العصر، وشدائد نفسية، التنافس والحسد، التكالب على الدنيا والمزاحمة، ورسم صورة رائعة جداً للبيت وحاجاته وأجهزته الكهربائية، وأجمل صورة للمركبة، وأجمل مركبة، والرسوم والضرائب هذه كلها تسبب ضغط نفسي، خذ من الدنيا ما شئت وخذ بقدرها هماً ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وصحته وهو لا يشعر، فالقلب له طاقة عندما الإنسان يحمله فوق طاقته يسهم في إضعافه قبل وقته المناسب، فاحفظوا ودققوا هذه الكلمة العلمية ودقيقة واستطعت أن أفسر بها آلاف الحالات

الشدة النفسية تضعف جهاز المناعة عند الإنسان وضعف جهاز المناعة مسؤول عن أمراض لا حصر لها في مقدمتها الأورام الخبيثة، ولا تنسى قوله تعالى:

(فلا تدعوا مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين)

لا تستطيع التخلص من الشدة النفسية إلا بالتوحيد، والتوحيد أن لا ترى مع الله أحداً هذه الحقيقة الأساسية، الله هو كل شيء، وفوق كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، ومالك كل شيء، وهو كل شيء، لا كشيء في شيء، وهو سميع عليم بصير قادر غني رحيم ودود عادل، الأمر كله بيده، فهذه الهموم وآلاف الهموم المؤمن جمعها في هم واحد، همه إرضاء الله عز وجل، فإذا رضي الله عنك لم يعبأ بأحد لا تكبراً ولكن شفاءً، فالتحرز من الغضب كما قال مفسرون هذا الحديث: (جماع كل خير) والغضب في حد ذاته جماع كل شر بدءاً من الصحة ومروراً بالأسرة وانتهاء بالشركة، من صحتك لمنزلك لعملك، كله يَفسُدْ في الغضب، جماع كل شر والتحرر من الغضب جماع كل خير، (وكاد الحليم أن يكون نبياً) (والحلم سيد الأخلاق) وأساس الغضب جهل، الغضب أساسه أنك لا ترى الله عز وجل، ترى زيد أو عبيد يفعل بك ما يشاء، طبعاً شيء مؤلم جداً أن ترى إنسان يريد لك الشر وهو قادر عليه وأنت لا تملك أن تفعل شيئاً، هذا شيء لا يحتمل، اسمه القهر والذل، أما المؤمن لا يرى أنه مقهور، يرى أنه عبد لله عز وجل، وأن الله لا يسلمه لأحد، وأنه ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله عائد إليك

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (123))

(سورة هود)

أي إنسان انطلق من هذه النظرة التوحيدية انتهت كل مشاكله صدقاً، (يا ربي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي)، راضي بقضاء الله، وقدره وقسمته ونصيبه وعن أهله وأولاده وزوجته ودخله وعمله حتى المشكلات التي يسوقها الله إليه يقول: ليس في الإمكان أبدع مما كان، إما نصيبي أو امتحان أو رفع درجات أو دفع إلى الله عز وجل، فسّر ما شئت كلما عزوت الخير إلى الله فأنت على حق، وكلما أحسنت الظن بالله فأنت على حق، وكلما اتهمت نفسك فأنت على حق.

رواية رابعة روى :

((الأحنف ابن قيس عن عمه حارث ابن قدامى أن رجلاً قال: يا رسول الله قل لي قولاً وأقلل علي لعلي أعقله، فقال عليه الصلاة والسلام: لا تغضب، فأعاد عليه مراراً كل ذلك والنبي يقول: لا تغضب))

هل تصدقون أن بعض الحروب العالمية التي أودت بخمسين مليون قتيل أساسها ساعة غضب ؟

حروب عالمية بأكملها ساعة غضب أي الشر كله كامن في الغضب على مستوى فردي وأسري وجماعي ودولي وتاريخي، الغضب وراء كل الأحداث المؤلمة والمؤسفة في العالم، فالمؤمن حليم، وحلمه عن علم، بأن يرى أن الأمر بيد الله، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وانتهى الأمر. ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده، يرى أن الله في السماء إله، وفي الأرض إله،

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح)

يا لجمال هذه الآية .

أحد الصحابة سأل النبي عليه الصلاة والسلام قال

((يا رسول الله ماذا يباعدني من غضب الله عز وجل قال أن لا تغضب، إن لم تغضب ابتعدت عن غضب الله، فإن غضبت تلبست بغضب الله))

التفسير سهل: إذا غضبت والمقصود في هذا الغضب الذي ينتج عنه العدوان، او السباب، أو الشتائم، أو الضرب، أو أخذ ما ليس لك، أو قهر وظلم، هذا الغضب الذي تنتج عنه هذه المشكلات، يغضب الله عز وجل، قال هذا الصحابي:

((فكرت فيما قال النبي فإذا الغضب يجمع الشر كله !))

أحد أصحاب النبي عليهم رضوان الله يقول:

((الغضب مفتاح كل شر))

إذا استعرضت المشكلات الخطيرة في الأسرة أساسها ساعات غضب، تقول: طلقتها في المرة الأولى والثانية والثالثة، لماذا طلقتها ؟ لأنك غضبت، فأنا أعجب من مؤمن ملتزم موحد يعرف ما له وما عليه بساعة غضب يطلق زوجته ثلاث مرات ! ويضيف أنه كلما حلل لك شيخ يحرمك عشرة، وبعد هذا حل الخلاف ويقف على باب المفتين ذليلاً يطرده هذا ويسترضي هذا ويسأل هذا... كان مالك، وأصبح مملوك، كان حراً، وأصبح عبداً، كان الأمر بيده، وأصبح بيدها، والذي يزداد عجبي له أن امرأة مسلمة يحلف زوجها عليها بالطلاق أن لا تفعل كذا فتفعله نكاية به، وتضحي بزواجها وتوقع زوجها في حرج شديد ! أهذه امرأة مسلمة ؟ أهذه امرأة يكفي أن زوجها وقع في شر عمله وغضب وحلف عليها يميناً بعدم الذهاب لبيت أهلها، أو أن تفعل شيئاً ! ومع هذا هناك من يفعل ذلك،

فهذا الصحابي الجليل قال: الغضب مفتاح كل شر وقيل لابن المبارك:

((اجمع لنا حسن الخلق في كلمة، فقال ابن المبارك: ترك الغضب))

مادام هادئاً شيء سهل، أما إذا كان غاضباً سيشتم فوراً، ويشتم شتيمة واحدة فيتلقى شتيمتين، يعطي ثلاثة يصبحوا خمسة، ثم يتقاتلوا ويكسروا ويطبشوا ويصابون بجروح... ثم يذهب بعضهم إلى المخفر والآخر إلى المشفى، ويكون أساسها كلمة أو ساعة غضب،

أحياناً إنسان في التربة والثاني في السجن حكم عليه مؤبداً، هذا عنده أولاد أصبحوا أيتام، والآخر كذلك، المسجون بحكم المفقود، ساعة غضب كلها ، لذلك حياتك ثمينة جداً، أنت مخلوق لرسالة كبيرة، لا تسمح لمعركة جانبية أن تصرفك عن هدفك العظيم، أنت مخلوق لمعرفة الله، وللعمل الصالح، أية قضية يجب أن تحجمها، أو تطوقها، أن تعزلها عن حياتك، وإذا أمكنك اركلها بقدمك، لا تسمح لقضية أن تستحوذ عليك وتستهلكك وشبابك وصحتك، فاستقرار حياتك وصحتك فوق كل مشكلة، يروى أن رجلاً أتى النبي الكريم من قبل وجهه فقال

((: يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ فقال: حسن الخلق، هذا أفضل عمل وهو ثمن الجنة، ثم أتاه عن يمينه قال: يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال: حسن الخلق، ثم أتاه عن شماله قال: يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال: حسن الخلق، ثم أتاه من خلفه قال: يا رسول الله أيالعمل أفضل ؟ قال: حسن الخلق، قال: فالتفت إليه النبي وقال: ما لك لا تفقه حسن الخلق ؟ هو أن لا تغضب ما استطعت))

كما تكلمنا في أول الدرس ممكن أن نفهم عدم الغضب، عدم التعرض لأسباب الغضب، هذا شيء بكل أسرة موجود، إذا إنسان نام وغير مهيأ لأشيائه لليوم الثاني أين الحاجة الفلانية ؟ لم يجدها، بقي دقيقتين وعنده دوام هذا يقع فيه الصغار والكبار سيغضب حتماً، فلو هيأت حاجتك قبل النوم أبعدت عن نفسك أسباب الغضب، أليس كذلك ؟ أحد أسباب الغضب التأخر على عملك تسمع كلمة قاسية من مديرك لا تتحمل ترد عليه ويرد عليك بعقوبة خصم راتب لشهر مثلاً، فأحد أسباب الغضب التأخر، وعدم تهيئة الحاجات، أنك لا تسجل شيء نسيت تدوينه تقع في المشاحنة دفعت لك كلا لم تدفع لي... إن دفعت له فقل له أن يشطب الحساب الواصل، لا تبرح دكانه قبل أن يسجل حسابك على دفتره، أعطيته الدفعة وهو مشغول يقول لك: معوضين ولم يسجلهم، بعد شهر قال لك: عليك من الشهر الماضي المبلغ الفلاني ، تقول: غير صحيح دفعت لك الحساب كامل ، دفعتهم لم تدفعهم تشاجرتم، فكل إنسان يكون دقيق بدفعه وقبضه ومواعيده ويرتب أموره بشكل عام يدفع عن نفسه أسباب الغضب، لم يسجل وجد الشك في الأمر، أحياناً تجد أناس واقعين بمئات الألوف مشكلة، أول جلسة لا تنحل والثانية كذلك، فهذا متمسك أنه لم يقبض، والثاني متمسك بأنه دفع، أعرف أسرتين لا أظن أن في الشام كلها مثل هذين الأسرتين بالتفاهم والمودة، أخوين يديران معمل هذا يسحب، والآخر كذلك دون أن يسجلون الحساب، هذا اشترى سيارة كبيرة، والثاني أخذها صغيرة وقع خلاف بين الزوجات، هذا عمل ثلاث ولائم، الآخر عمل ثمانية ولائم ، وجد الحسد فعدم تسجيل المسحوبات سبب عداء بين الأسرتين لا يعلمه إلا

الله، وانتهت بفصم الشركة، والمعمل أغلق، لو سجلوا لكان كل إنسان كتب مسحوباته، فلو أخذ ألف أو ثلاث لا مانع لأن هذا من أرباحه، لكن نحن أخوات لا فرق بيننا، لا هذا الكلام سيئ يوجد فرق كبير وواضح، وبالمستقبل ستتشكل عداوات لا يعلمها إلا الله، سجل هذا شيء كله أعانيه فأنا اخترت هذا الحديث الشريف لشدة ما أعاين من أخطاء، فكلمة لا تغضب أي ابتعد عن أسباب الغضب، كن عادلاً، وكلمة لا تغضب لا تسمح للغضب أن يسيرك كيف ما يريد، إنسان غضب لا يتخذ قرار، يصمت أفضل له ولغيره، فإن غضبت يمكن أن تطلق، يمكن أن تضرب، أو تتكلم بكلمة، يكون لك عمل طيب ومفضل على إخوتك بمساعدات أنا أعطيكم أنتم لا خير منكم، هذا العمل الطيب الذي كان سبب المودة انقلب لعمل شرير، ما منيت عليهم بالعطاء، يمكن بساعة غضب تصف أخوك بكلمة قاسية لا تنسى أبداً، أحياناً الإنسان كالزوج الذي يبنيه في سنة يخربه بليلة واحدة، يغضب فيشتم (أبوك على أبو الذي خلفك...) أو يضربها، سنة كاملة بالإحسان تقول: لم أرى منك خيراً قط ، فالغضب يهدر العمل في ظرف ساعة، يسبب بغضاء وأحقاد وفصم أسرة أو شركة وتشريد أولاد أحياناً في الطرقات والدهم طلق والدتهم في ساعة غضب، ففي أول الدرس تهيبت أن أقول: (أن الغضب جماع كل شر)، بدءاً من الصحة وانتهاءً بالأسرة والعمل، جماع كل شر، وطن نفسك، فالتوجيه الدقيق: ابتعد عن أسباب الغضب، فبالتعامل المالي دون كل شيء، دفعت خذ إيصال أ كثر الشركات بضاعة ما لم يأخذ وصلاً، هذه لم نستلمها، ما الذي تقوله ؟ ثمنها ثمانون ألفاً، لم نستلمها، فاقنعه وأحضر له الأدلة وذكره بالوقائع، عندما تسلمه خذ منه الإيصال، قبضت مبلغ أعطيه فيها إيصالاً، فإذا سجلت التسليم والاستلام للمال والبضاعة والذمم والقروض بإيصالات والاتفاقات بعقود أنت ابتعدت عن أسباب الغضب، إذا سجلت مواعيدك، وهيأت حاجاتك قبل الوقت، ابتعدت عن أسباب الغضب، فإذا وقع الغضب بشكل عفوي فإياك أن تستجيب له، وأن تتخذ قراراً وأنت غضبان، إلى أن يسقط عنك الغضب،

إليكم هذه القاعدة الذهبية: أن كل إنسان يقف أمام قضية أغضبته عليه أن يقول: أنه سوف يبحث به بعد أسبوعين، ففي المساء تخلد للنوم فتهدأ أعصابك وتفكر أنه من غير المعقول إلغاء الشراكة من أجل شريكي الذي تفوه بكلمة وهو في حالة الغضب ومضغوط وله مشكلة في منزله، عليك أن تبحث له عن عذر، وفي اليوم الثاني أنت قلت له كلمة أقسى منها مثلاً فأنت السبب أنت الذي بدأت، وفي اليوم الثالث أنا المخطئ ولست أنت، فأول يوم كان الحق معك، وفي اليوم الثالث وجدت أن الحق عليك، بالهدوء تخفف فكل قضية أغضبتك تقول أنا بعد أسبوعين سأتخذ بهذا قراراً، لم أتخذ قرار إلا بعد شهر، هذه القضية يكفيها أسبوع العوامل الضاغطة انتهيت منها، الغضب الشديد والغليان والهيجان انتهت، الآن أصبح تفكيرك سليم، فالمعطيات واضحة، والإيجابيات واضحة، والسلبيات واضحة، أحياناً إنسان يكون إلى جانبه سمّان يخطئ معه فيحلف بالله لن يعامله، تسرعت، يمكن أن يأتيك ضيف في وقت الغداء

يلزمك أوقية لبن، والسمان الثاني بعيد جداً وليس أمامك خيار، نفسك تكبر كيف تقول له أعطني لبن ؟ لا تتخذ قرار، فإذا تشاجرت معه فقل له: الله يسامحك، وليس لن أشتري من عندك بعد اليوم، يمين معظم لن أتعامل معك لا، أحرجت نفسك جداً، أكثر الناس يضع عليه قيود يقيد نفسه بمليون قيد، ومن الممكن أن يبقى حراً دون أي قيد، عاتبه عتاب لطيف، انزعجت منه اتركه دون أن تصرح بحزنك منه، أما لو اضطررت له فلا مانع من التعامل معه، فموضوع الغضب والحلم لا أعتقد وجود موضوع المؤمن في أمس الحاجة إلى هذا الموضوع، كما تكلمنا قبل قليل أن لا تضع نفسك في موضع يجرك فيه إلى الغضب، والمعنى الثاني أن لا تتخذ قرار وأنت غضبان، الله عز وجل قال:

(وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37))

(سورة الشورى)

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134))

(سورة آل عمران)

والنبي الكريم مدح من (ملك نفسه عند الغضب مدح شديد) ففي الصحيحين عن سليمان ابن صرد قال:

((قالَ: اسْتَبَّ رَجُلان عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا ذَهَبَ غَضَبُهُ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ))

(رواه أحمد)

لذلك بعض السلف الصالح إذا وجد مشاجرة في الطريق يقف، أو يستعيذ بالله، لأن هذه المشاجرة أساسها الشيطان، إنها من عمل الشيطان وخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي سعيد الخدري ان النبي قال في خطبته:

((وَإِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، أَمَا رَأَيْتُمْ إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ، وَانْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ، فَمَنْ أَحَسَّ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَلْصَقْ بِالأَرْضِ، وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ))

(رواه الترمذي)

ويقول عليه الصلاة والسلام: إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضجع، هناك أحاديث كثيرة في هذا المعنى أفضل شيء أن تكف عن الحركة والكلام الملخص، لأن الغضبان إذا تكلم فسيجرح، وإن تحرك سيضرب، فإذا كف عن الحركة والكلام فقد حد من غضبه، والنبي قال في الفتن إن المضجع فيها خير من القاعد، والقاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي خير من الساعي، أحدهم يسعى، والآخر ماشي، ومن ثم القائم والقاعد، والمضجع، أبعد هؤلاء عن الحركة المضجع ثم الجالس ثم القائم ثم الماشي ثم الساعي المسرع، ففي الفتن والغضب ابتعد عن الحركة والكلام،

الحديث الثاني: أخرجه الإمام أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: إذا غضب أحدكم فليسكت، ثم يجلس قالها ثلاثاً، أحد العلماء قال: والله ماامتلأت غضباً قط، ولا تكلمت في غضب قط، بما أندم عليه إذا رضيت، هناك الكثير من الناس مركزه هنا يغضب يتجاوز حده يضطر ليسترضي الناس فينزل لمستوى أقل من مستواه بكثير صار ذليلاً فأنت لا تتجاوز حدك ولا تذل نفسك، في ساعة غضب من الممكن أن تتحدث مع إنسان أكبر منه وله معه علاقة دائمة، فهذا القوي توعده بتربية الناس به فيضطر من الاعتذار منه بكل ذل، لإانت كان يغنيك عن هذا الذل أن لا تغضب، ارتفع ثم هبط، الأكمل بقائك في مكانك، إذا شيء لست بقدره ابق بحجمك الحقيقي، لا تتطاول ثم تضطر أن تبذل ماء وجهك أمام شخص لئيم، لأن سيدنا علي يقول: والله والله مرتين ؟ لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز في يوم عاصف بريشتين، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيران أبيضين، هذه كلها مستحيلات. أهون علي من طلب حاجة من لئيم لوفاء دين)، منتهى الذل أن يقف الكريم بباب اللئيم، ثم يرده، الإنسان لا يرتفع ولا يهبط، لا يتطاول ولا يتذلل، (رحم الله عبداً عرف حده فوقف عنده) قال: سمعنا أن سيدك سيبيعك، فأجاب: إنه يعرف عمله، فقال له المتكلم: أناسأشتريك،قال: تعرف عملك إذن، قال له:اهرب، فأجابه:أعرف عملي، كل رجل له اختصاص، أنت قف عند حدك تَسعد وتُسعد،

سيدنا عمر ابن عبد العزيز غضب مرة ليس معنى هذا أن الإنسان لا يغضب أبداً، له قول الإمام الشافعي: (من استرضي ولم يرضى، واستغضب ولم يغضب فليس من بني البشر) والنبي قال: اللهم إنني بشر أرضى كما يرضى البشر،وأغضب كما يغضب البشر، فعندما قلت أن الغضب عفوي اعني ما أقول، تغضب ولكن إرادتك في أن تبعد نفسك عن أسباب الغضب وإذا غضبت أن لا تسمح للغضب أن يسيرك، إذا ابتعدت عن الأسباب وإذا وقع لا سمح الله ما جعلت الغضب هو مالك المر، لا أنت مالك الأمر، وهناك قول رائع أنه (أنا أتغاضب ولا أغضب)

أحياناً الإنسان كونه معلم، مدير مؤسسة، رئيس مستشفى... يجب أن يكون له هيبة وعليه أن يظهر غضبه، لكن الفرق بين الغضب الذي يصنعه إنسان له منصب قيادي هذا اسمه تغاضض، فأنت من أعماقك في منتهى الهدوء، لكن صنعت الغضب، مثل سيدنا عمر عندما قال له سيدنا أبو ذر أن الناس هابوا شدتك، فقال: لو يعلم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عباءتي هذه ولكن هذا الأمر لا يناسبه إلا كما ترى، يحتاج لشدة ظاهرة، وإلا ذهبت هيبتك كلها.

فهناك أعمال كأن يكون مدير الثانوية مبتسم دائماً فترى المدرسين يأتون بعد ساعة من الوقت، فيلزم لهذا العمل الشدة والهيبة والمعاتبة ليلتزم العامل أو المدرس بالوقت، فكل إنسان له منصب قيادي إذا تساهل (لا تكن ليّناً فتعصر) فسيدنا عمر غضب، ابنه عبد الملك قال له: أنت يا أمير المؤمنين مع ما

أعطاك الله وفضلك به تغضب هذا الغضب ؟ فقال له سيدنا عمر: أو ما تغضب يا عبد الملك أنت ؟ فقال عبد الملك: وما يغني عني سعة جوفي إذا لم أردد فيه الغضب حتى لا يظهر ؟ فأنا غضبت ولكن لم أظهر الغضب، فالإنسان يغضب لكن الفرق بين من يغضب ويظهر غضبه، ومن يغضب ويكتم غضبه، هذا ما ذكر في القرآن الكريم (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهم عَنْهم أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ))

(رواه البخاري)

هذا في الصحيحين. أما في صحيح مسلم

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ ؟ قَالُوا: الَّذِي لا يَصْرَعُهُ الرِّجَالُ، قَالَ: لا، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ))

(رواه أبي داود)

هناك أحاديث كثيرة جداً تشجع على الصبر وهو الحلم.

يقول عليه الصلاة والسلام:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ جَرْعَةً أَفْضَلَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ جَرْعَةِ غَيْظٍ يَكْظِمُهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى))

(رواه الدرامي)

ممكن إنسان يغضب من والدته لأنها غير منصفة ولكن لم يتفوه بكلمة، أو من والده فهو غير معصوم لكن الأب أب، فأعظم عمل أن تغضب وأن تملك نفسك عند الغضب ابتغاء وجه الله تعالى. إذا كان عندك صانع وكسر لك شيئاً ما وثمنه ضخم جداً ويتيم وغير قاصد وخاف أن تقتله وبدأ يرتجف فهذا يكفيه من العقاب، قل له خير لا تحزن لا يهمك العمر لانتهى، هناك إنسان اشترى كنبات جديدة وجاء ابنه وأحضر الشفرة ومزع القماش هذا أمتعه فالقماش يفتح بسرعة في ساعة غضب ضربه على أصابعه فاسودوا أصابعه لا بد من قطع يديه ! فالأب انتحر لم يتحمل هذا الخبر طفل مثل الوردة ستقطع يديه ما ثمن الكنبات أربعين ألفاً ؟ الآن يتمنى أن يبيع بيته كله وهذه قصة واقعية، فالإنسان عندما يغضب يندم، فالوالد لم يتحمل أن يرى ابنه يترجاه أرجوك أخبرهم أن لا يقطعون لي يديّ يا بابا طفل صغير غير مدرك لما حوله،

يقول عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنَفِّذَهُ دَعَاهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ فِي أَيِّ الْحُورِ شَاءَ، قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ))

(رواه الترمذي)

مقام عالي جداً فأنت قوي وخصمك بين يديك تملكه وبإمكانك أن تسحقه سحق، وتجعله عبرة لمن يعتبر، والخصم ضعيف ومخطئ وأنت عفوت عنه وما غضبت تملكه وعفوت عنه، وَمَا

((مِنْ جَرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَرْعَةِ غَيْظٍ يَكْظِمُهَا عَبْدٌ مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ لِلَّهِ إِلا مَلأَ اللَّهُ جَوْفَهُ إِيمَانًا))

(رواه أحمد)

دققوا فيها كل إنسان يكظم غيظه الله عز وجل يملأ له قلبه إيمان وأمن، فما هذا الإيمان ما دام كظم غيظه ولم يتكلم أو يشتم أو يأذي أو يكسر ولم يلعن الساعة التي تعرف فيها على فلان.. فطريقه غلى الله أصبح سالكاً ضبط نفسه يقول: يا ر بي أنا في سبيلك فعلت هذا كي لا تغضب مني كظمت غيظي لألا تغضب علي فمعنى ملأ جوفه إيماناً أصبح طريقه إلى الله سالك، إذا وقف للصلاة تهدر دموعه فوراً، أما أمناً كل إنسان تأذيه يتوعدك أو يهددك ويكون ضعيف أو آذن عندك أو حاجب ولكن ممكن أن تتوسوس هل معقول أن يفعل هذا ؟ أنت استفززته وأغضبته وهنته فهددك، تخاف منه فيلزمك من يرافقك ويسير معك أو سيارة تنقلك لمنزلك لتأمن، إذا الإنسان لم ينتقم ولم يأذي لعل الله عز وجل يملأ قلبه إيماناً وأمناً في آن واحد، فعفوك عن المسيء تملأ قلبك إيماناً أي الطريق إلى الله سالك بإمكانك أن تصلي وأمناً عندما عفوت عنه اشتريته، وأصبح عبد بين يديك، إذا رجل مسيء وعفوت عنه يخبرك والله لا أنساها لك أبدا مادمت حياً إذا انتقمت منه ما لك عليه فضل انتهى كل فضلك بقي أن ينتقم هو منك .

أحدهم قال: إن غضبت فاملك شيئين لسانك ويدك، الحسن رضي الله عنه يقول:

(أربع منكن فيه عصمه الله من الشيطان وحرمه عن النار: من ملك نفسه عند الرغبة والرهبة والشهوة والغضب)

فعند الرغبة قد ترغب بشيء وقد تصل إليه بطريق محرم ، رجل رغب أن يقضي شهوته عن غير طريق الزواج وقع بالزنا، رجل رغب أن يقضي شهوته من جمع المال بالسرقة فإذا إنسان ملك نفسه عند الرغبة وعند الرهبة كأن يخاف من شيء فنافق فكذب وحلف يمين كذب هذا لم يملك نفسه عند الرهبة والشهوة والغضب، أربع حالات مهلكة: الرغبة والرهبة والشهوة والغضب، ولعل هذا الدرس يحتاج لدرس آخر لوجود نصوص فيه لعل الله سبحانه وتعالى يسمح لنا في الدرس القادم أن نتابع هذا الدرس.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (066) : الغضب جماع كل شر2.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-12-1993

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: تحدثنا في الأسبوع الماضي بل في درس الأحد الماضي، عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي نصه:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهم عَنْه، أَنَّ رَجُلا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْصِنِي، قَالَ: لا تَغْضَبْ، فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: لا تَغْضَبْ))

(صحيح البخاري)

وبينت لكم أن الغضب جماع كل شر، بدءاً من العطب الذي يصيب صحة الإنسان، وقد اكتشف حديثاً أن أخطر ما في جسم الإنسان جهاز المناعة فيه، وأن هذا الجهاز إذا ضعف وتضعفه الشدة النفسية، يضعفه الغضب، إذا ضعف ضعفت سيطرته على نمو الخلايا، وهذه أحدث نظرية في فهم الأورام الخبيثة، إذاً الشدة النفسية تكاد تكون أساس كل مرض، وتكاد تكون الصحة النفسية أساس الصحة، ولا شيء يعطي الإنسان الصحة النفسية كالتوحيد، فما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، والآية الكريمة:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213))

(سورة الشعراء)

وبينت لكم كيف أن النبي عليه الصلاة والسلام فصَّل وبيَّن في أحاديث كثيرة و أكد أن الغضب جماع كل شر.

والآن نتابع شرح هذا الحديث وقد وصلنا إلى قول الإمام الحسن رضي الله عنه حينما قال:

((أربع من كن فيه عصمه الله من الشيطان، وحرَّمه على النار، من ملك نفسه عند الرغبة والرهبة والشهوة والغضب.))

أساس الإيمان أن تملك نفسك، الكافر تملكه نفسه، المؤمن يملك نفسه، الكافر تسيره نفسه، المؤمن يسير نفسه، عقل المؤمن يقوده إلى الحق، عقل الكافر يبرر له انحرافه، فالعقل عند المؤمن له دور، وعند الكافر له دور، إما أنه قائد وإما أنه مُبَرِر، مُسَوِغ، مَقُود، نفس الإنسان إما أن تملكها فأنت مؤمن، وإما أن تملكك فهذا من صفات أهل البعد عن الله عز وجل.

أربع من كن فيه عصمه الله من الشيطان، وحرَّمه على النار، من ملك نفسه عند الرغبة.

فهذه الرغبة هي ميل النفس إلى الشيء، وميل النفس إلى الشيء عبَّر عنه القرآن الكريم بكلمة الهوى، والهوى ميل النفس، لكن هذه الكلمة استعملت في كل مواطن الآيات استعمالاً مذموماً، أي أن النفس إذا مالت فإلى الباطل، إذا مالت فإلى المعصية، إذا مالت فإلى الشهوة،

وقد ذكرت لكم قوله تعالى:

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ)

(سورة النجم)

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50))

(سورة القصص)

وذكرت وقتها أن اتباع الهوى من دون هدىً من الله لابد من أن يوقع الإنسان بالظلم، أودع الله بالإنسان حب النساء، فإذا أراد إرواء هذه الرغبة من دون منهج الله لابد من أن يقع في الزنى، والزنى عدوان، وبغي، وظلم، أودع الله في الإنسان حب المال، فلو أراد الإنسان من أن يتحرك ليروي هذه الرغبة من دون منهج الله عز وجل لابد من أن يقع في الكسب غير المشروع، أي أن هذا شيء دقيق جداً.

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50))

(سورة القصص)

فالهوى هو الميل، وقالوا من هوى فقد هوى، باللغة هوي يهوى، وهوى يهوي، هوي يهوى أي مال يميل، وهوى يهوي أي سقط يسقط، ولا عجب أن يتحد حرف الواو والهاء والألف أو الياء، بين الفعلين فلابد من قاسم مشترك بينهما، من مال إلى باطلٍ سقط، أن تهوى ينتهي بك الهوى إلى أن تهوي، إن اتباع الهوى هوان

وا خجلتي من عتاب ربي ... إذا قال لي أسرفت يا فلان

إلى متى أنت في المعاصي ... تسير مرخى لك العنان

عندي لك الصلح وهو بري ... وعندك السيف والسنان

ترضى بأن تنقضي الليالي ... وما انقضت حربك العوان

تستحي من كتابٍ كريم يح ... صي به العقل واللسان

واستح من شيبة تراها ... في النار مسجونة تهان

إذاً الرغبة في الشيء أي ميل النفس إليه لاعتقاد نفعه، فمن رغب في شيء طلبه، وقد يكون أسلوب طلبه حراماً، وقد يكون أصله حراماً، نحن تحدثنا من قبل أن هناك شيئاً محرماً لذاته، وشيء محرم لغيره، فأكل لحم الخنزير محرم لذاته، أما أكل لحم الضأن من دون دفع الثمن محرم لغيره، فهذا الشيء المرغوب قد يكون مسموح به لكن الوسيلة محرمة، وقد يكون محرم في الأصل، على كلٍ من رغب في شيء فقد وقع في أحد أمرين، إما أن يقع في الحرام المطلق، وإما أن يقع في الحرام النسبي، الحرام

النسبي أن الطريق إليه حرام، إذا من ملك نفسه عند الرغبة فقد نجى من عذاب الله، ونجى من الشيطان، ونجى من الهلاك، هذه الرغبات بعضها محرم، وبعضها محلل، لكن بعضها المحلل قد يكون الوصول إليه محرماً، لذلك المقولة الثابتة: من حاسب نفسه في الدنيا حساباً عسيراً، كان حسابه يوم القيامة يسير، ومن كان حسابه في الدنيا يسيراً، كان حسابه يوم القيامة عسير.

لا أنسى هذا الحديث الشريف: أخرجه ابن سعد عن أب البجير

((ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة))

(الجامع الصغير للإمام السيوطي)

والله أحياناً الإنسان تحدث معه عبر شديدة، أحياناً تدخل بيوت في أيام التعزية تقول: هذا البيت ثمنه أكثر من خمسين مليوناً، ممتلئ ومزين بطريقة تأخذ بالألباب، فأين صاحبه اليوم، ونحن في تعزيته ؟ في القبر، هذه هي الدنيا، تغر وتضر وتمر، مثل لمح البصر

الدنيا ساعة اجعلها طاعة والنفس طماعة عودها القناعة

ما من أحد منا أيها الأخوة إلا وقد مضى من عمره وقت، خمسة عشر، عشرون، خمسون، سبعون سنة... كيف مضت هذه الأعوام ؟ كلمح البصر.

إذاً من ملك نفسه عند الرغبة، فقد وقى نفسه من هلاك الدنيا، وعذاب الآخرة.

أما الرغبة فهي واضحة، رغبت شيئاً فاندفعت إليه، قد يكون الطريق محرماً، وقد يكون الشيء المرغوب في الأصل محرماً، أما الآن والرهبة، من ملك نفسه عند الرهبة، أحياناً الإنسان يخاف، خوفه يحمله على معصية، خوفه يحمله على الكذب، خوفه يحمله على أن يقترف معصية ليرضي الذي يخاف منه، إذاً حينما خاف الإنسان ما ملك نفسه، كان أمره فرطاً، إذاً الرغبة قد تحملك على المعصية، والرهبة أيضاً قد تحملك على المعصية، قد يتوهم الإنسان أحياناً أن النجاة من هذا الشيء المخيف بالكذب ! يكذب فينجو ! أتحلف بالله ؟ يقول لك: أحلف.

يقولون لك خير من شهرين في السجن، أحضر شاهداً أن سعر بيعك كان قانونياً، وبهذا تعفى، القاضي يصدر قرار بالعفو عنك، لكن أنت بحاجة إلى شاهد يحلف اليمين، تقنع إنساناً بأن يحلف يميناً كاذبة، خفت من السجن فوقعت في اليمين الكاذب، فالرهبة سببت هذه المعصية

إذاً كما أن الرغبة لها معصيتان إما أن تكون لذاتها محرمة، أو لطريق الوصول إليها، كذلك الرهبة محرمة، أحياناً يرتكب الإنسان معاصي أشد عند الرهبة، يكذب، أحياناً يفتري، أحياناً يلصق التهمة بغيره.

الشيء الثالث طبعاً إذا خاف الإنسان شيئاً اندفع إلى الخلاص منه، بطريق أو بآخر، بعض هذه الطرائق محرمة. بقي الشهوة.

من ملك نفسه عند الرغبة والرهبة والشهوة ..

طبعاً تميل النفس إلى الشهوات التي أودعها الله فيها، هذه الشهوات كما أقول دائماً: حيادية أو مطلقة، لها قناة واحدة نظيفة، لو غابت عنك هذه القناة بقية هذه القنوات كلها محرمة.

سبحان الله الشيء الحلال نظيف، ومريح، ومسعد، وتفعله وأنت في قمة إقبالك على الله، تفعله وأنت في قمة الرضى، تفعله وتنطلق بعدها إلى الصلاة، تفعله وتنطلق بعدها إلى قراءة القرآن، تفعله وينطلق لسانك في الحق، لأنه مشروع، وفق منهج الله، وفق النظام الإلهي، لكن الشيء المحرم: ولو كان طفيفاً تفعله وأنت في حرج.

كلم يسمع في الأعراس هذه السيارات التي تطلق أبواقها، وتسير في الطرقات ليلاً، تملأ المدينة صخباً وضجيجاً، ما الموضوع موضوع زواج، حسناً لماذا لا يستحون ؟ لا يستحون هذا زواج، شرعه الله عز وجل.

حدثني صديقي قال لي: طرق الباب مع الفجر، فتحت الباب فلم أجد أحداً، ثم حالت مني التفافة إلى الأسفل فرأيت محفظة تتحرك، عجبت للأمر ففتحتها، وإذا بها طفل صغير ولد لتوه، قال لي: حاولت أن آخذه إلى مستشفى الأطفال، إلى الحاضنة...إلخ ، ليس هنا المغزى ! المغزى أن هذا الطفل لو جاء من أبوين شرعيين، تجدهم قبل ثمانية أشهر قد تهيئوا، هيئوا المهد، هيئوا الوسائد، هيئوا الديارة، هيئوا الهدايا، يأتي الطفل فتجد الفرح، وقد أتته خمسون أو ستون هدية، ويفعلون المباركات والاحتفالات والتهنئات، طفل يأتي بطريق مشروع وحوله هذه الرغبة والفرحة، والهدايا، والاحتفالات، وطفل يوضع في محفظة وراء الباب ويورق، إذاً الشهوة تحمل صاحبها على ما لا يرضي الله، الإنسان قيمته بضبطه لنفسه، ربما من أيام سيدنا يوسف وحتى الآن نشيد به كل يوم، سيدنا لماذا ؟ لأنه ملك نفسه عند الشهوة،

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23))

(سورة يوسف)

كل هذه العظمة لأنه ملك نفسه عند الشهوة، وكل شاب الآن ممكن بقدر عفته، بقدر انضباطه، ضبط سمعه من الغناء، ضبط بصره من الحرام، ضبط لسانه من كل ما يغضب الله عز وجل، ضبط يده، ضبط رجله، أليس النبي قد قال: العين تزني وزناها النظر،والأذن تزني وزناها السمع، واليد تزني وزناها البطش أي الاغتصاب بالقوة – والرجل تزني وزناها المشي إذاً الرجل تزني، واليد تزني، والعين تزني، والأذن تزني.

فمن ملك نفسه عند الشهوة وقى نفسه من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، الغضب: من ملك نفسه عند الرغبة والرهبة والشهوة والغضب

الغضب يدفع الإنسان إلى إيقاع الأذى، إلى الضرب، إلى الشتم، هذه كلها أشياء محرمة، فالغضب جماع كل شر، أكمل المؤمنين إيماناً أشدهم حلماً، وكاد الحليم أن يكون نبياً، والحلم سيد الأخلاق، وأنت ما دمت حليماً فأنت مالكٌ لأمورك كلها، أحياناً الإنسان يتكلم كلمة - والله أيها الأخوة - يهدم عمل سنة، أو يهدم عمل مائة سنة، أليس قذف محصنة يهدم عمل مائة سنة، أكبر مناسبة لإلقاء الكلام جزافاً على عوائنه الغضب، فالإنسان لما يغضب كلامه سوف يكون قاسياً، سيكون فيه شتم، سيكون فيه تهجم، سيكون فيه تطاول، وإن تطاول على الله عز وجل فالله سيقصمه، وإن تطاول على عباد الله، الله عز وجل أدبه، وهذا من باب التواصي بالحق والتواصي بالصبر، الإنسان إذا غضب أن يسكت، وإذا غضب وهو في مكان فليخرج، إذا كان واقفاً فليجلس، إذا كان جالساً فليضطجع، ومن التوجيهات النبوية فليتوضأ، وتوجيهات أخرى أن يغتسل، أو فليخرج، أحياناً الخروج أولى، وضع متفجر، أحياناً الاغتسال ضروري، أحياناً الوضوء ضروري، أحياناً الجلوس ضروري، الإنسان إذا غضب صار وحشاً، ولو أن الغاضب نظر إلى نفسه في المرآة ما رأى أبشع منه، من دون مبالغة، ما رأى أبشع من إنسان غاضب، وحش، أنظر هذا الدين ما أعظمه.

قالَ: لا تَغْضَبْ

حسناً الآن بالعكس، هذه الشهوة إذا تناولها الإنسان من الطريق المشروع مسموح،

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص)

حسناً لو اتبع هواه وفق هدى الله عز وجل ؟ لا شيء عليه.

النبي عليه الصلاة والسلام كان لا ينتقم لنفسه إطلاقاً، لا ينتقم إلا لله، لا يغضب إلا لله، الحقيقة إذا أراد الإنسان -وهذا فضل من الله كبير - أن يكون باب لله عز وجل، داعية، يكون سبباً في هداية الخلق، يجب أن يضع نفسه تحت قدمه، إن لم يضع نفسه تحت قدمه، لا يمكن أن يجعله الله سبباً في هداية الآخرين، ولن يجعل قلوب العباد تميل إليه، إلا أن يضع نفسه تحت قدميه.

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة)

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)

(سورة البقرة)

((عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: أَخْبِرِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَتْ: كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ))

(مسند الإمام أحمد)

أي كان يتأدب بآداب القرآن، ويتخلق بأخلاق القرآن، الذي مدحه القرآن كان متمثلاً فيه، والذي ذمه القرآن كان مبتعداً عنه، وكان عليه الصلاة والسلام لشدة حيائه لا يواجه أحداً بما يكره، لشدة حيائه، كان يصعد المنبر ويقول: ما بال أناس يفعلون كذا وكذا. والقصة المعروفة التي أذكرها لكم مراراً.

((أن أحد أصحابه مرة كانوا في غداء وأكلوا لحم جذور، أحد أصحابه صدرت منه رائحة كريهة فلما حان وقت صلاة العصر قال عليه الصلاة والسلام: كل من أكل لحم جذور فليتوضأ. قالوا: كلنا أكلنا هذا اللحم، قال: فإذاً كلكم فتوضأوا))

ستراً لحال هذا الذي انتقض وضوءه، أخلاق النبي كانت أخلاق رضية، كان حليماً، كان لا يحمر الوجوه، لا يُخْجِل، أحياناً يكون الإنسان جالساً في مجلس، فتحكى فكرة، رقم إحصائي خاطئ، فإن كانت القضية ليس لها علاقة بالدين نمررها له، لكن الواقع لا يمررها بل يحرج الإنسان، يجب أن يكذبه، يجب أن يسفهه، إن كانت القضية لا تمس العقائد ولا تمس الدين والرقم خاطئ فالأولى أن تسكت، وتراه يصغي للحديث بسمعه وبقلبه ولعله أدرى به، وكان عليه الصلاة والسلام إذا كره شيئاً عُرِفَ هذا في وجهه، لم يكن يتكلم كثيراً، لكن وجهه كان شديد الحساسية، مثل المرآة.

((أحد أصحابه بلَّغه مرة عليه الصلاة والسلام، عن رجل لما أخذ نصيبه من الغنائم قال: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله. -يتكلم عن النبي صلى الله عليه وسلم - النبي تغير وجهه ولم يزد عن هذا إلا أنه قال: لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر))

أما إذا سمع النبي شيئاً، أو رأى شيئاً فيه خرق لحدود الله، كان يغضب أشد الغضب، هذا الغضب لله، والحقيقة من اسْتُغْضِبِ ولم يغضب في الله ليس مؤمناً، علامة الإيمان أنه إذا استغضب في الله يغضب. أيها الأخوة: هذا الحديث المرفوع للنبي صلى الله عليه وسلم، مهم جداً، كان عليه الصلاة والسلام يقول:

((عن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ثلاث من أخلاق الإيمان: من إذا غضب لم يدخله غضبه في باطل، ومن إذا رضي لم يخرجه رضاه من حق، ومن إذا قدر لم يتعاط ما ليس له))

(الجامع الصغير للسيوطي)

((من إذا غضب لم يدخله غضبه في باطل))

أحياناً تحدث خطوبة ثم لا يتم هذا الأمر، لسبب أو لآخر، والسبب حجمه صغير جداً، هاتان الأسرتان تتراشقان التهم، تهم كبيرة، قد تتهم هذه الفتاة المخطوبة بأن فيها مرض، وقد تتهم بأخلاقها، وقد يتهم هذا الشاب الخاطب بأن فيه مرض أيضاً، وقد يتهم بأخلاقه، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال

((: ثلاث من أخلاق الإيمان: من إذا غضب لم يدخله غضبه في باطل))

أنا أعتقد أنه من كمال المؤمن أنه إذا غضب يبقى منصفاً، باللغة الدارجة أن الإنسان إذا غضب يجعل الطرف الآخر -سكة عطل-، وإن رضي يجعله منزل من السماء، كلاهما مجانبة للحق، المؤمن الكامل منصف في غضبه وفي رضاه، تجد أحياناً تمت مصاهرة بين أسرتين، تسمع مديحاً عن هذا الصهر بشكل غير معقول، ولي، حكيم، ذكي، غني، من أسرة، ذو حسب ونسب، عالم تقي، صالح، يصبح فوراً حافظاً للقرآن، يحفظ القرآن في يوم واحد، قيام ليل صدقات، يده للخير، ثم تنشأ مشكلة بين الأسرتين، فتجده لا يصلي، يشرب الخمر، مباشرة، هذا الحديث دقيق، وأكثر الأسر واقعة في هذا المرض، لا يوجد إنصاف، إن كرهته تجعله في الحضيض، أحببته وضعته في الأوج، وهذا سلوك العوام أيها الأخوة، الغوغاء، عامة الناس، الجهلة، النبي رأى صهره بين الأسرى، -ما معنى بين الأسرى ؟ أي جاء صهره ليقاتله، أبو العاص، وكان من الممكن أن يقتله، لأنها حرب

((فلما تفحص الأسرى ورأى صهره قال عليه الصلاة والسلام: والله ما ذممناه صهراً))

هل ترى هذا الإنصاف ؟ أن يتمنى أحد ما أن يقتلك، ولا تنسى فضائله ؟ هل تقدر ؟ أحدنا لو أساء له شخص ما يريد أن يقطعه إرباً، هذا من الجهل

أخواننا المنصف له عند الله مقام كبير، أحياناً تكون بنت في بيت ليس فيه إنصاف، يحاسبونها على أقل خطأ، ويتغافل عن أكبر خطأ عن ابنته، ابنته في البيت، وزوجة ابنه في البيت، ابنته مهما فعلت فعلها مبرر، أما زوجة ابنه، أقل خطأ تجد القصوة والتعنيف، والتشهير، هل هذا هو الإنصاف ؟ إن لم يكن الإنسان منصفاً، فليضع نفسه تحت التراب، إن لم يكن منصفاً، وكلمة إنصاف وردت في بعض الأحاديث:

عدل يوم واحد أفضل من عبادة ستين سنة.

((رواه الديلمي عن أبي هريرة، وأسنده من طريق أبي نعيم بلفظ عدل حكم ساعة خير من عبادة سبعين سنة))

(كشف الخفاء للإمام العجلوني)

كأن تنصف زوجة ابنك، والله مظلومة، أنتم قد ظلمتموها، أو تنصف ابنتك، أو تنصف ابنك، أو صانع يعمل عندك، بذل كل جهده فإن غلط غلطة حطمته، لا يوجد إنصاف، الظلم لا يعرفه إلا من ذاقه، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أَخْبَرَنِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الأَسَدِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ *))

(مسند الإمام أحمد)

أكاد أقول لكم أيها الأخوة: علامة إيمانك إنصافك، يجب أن تنصف، أحياناً تكون أنت قوياً والطرف الثاني ضعيفاً، كل أخطائك تحمله إياها، وكل الميزات تأخذها عنه، يتألم الإنسان، الفكرة فكرته، والإنجاز إنجازه، والعمل عمله، أخذت ميزاته، وحمَّلته سيآتك، وأنت القوي لا يوجد من يحاسبك، لذلك الله عز وجل كل ذنب من هذا القبيل يبتلي صاحبه بإنسان أقوى منه، ويأخذ حق الأول منه.

وقف رجل بين يدي الحجاج، فقال وهو في ساعة خوف شديد: أسألك بالذي أنت بين يديه، أذل مني بين يديك، وهو على عقابك أقدر منك على عقابي.

كل قوي يوجد من هو أقوى منه، وكل ظالم يوجد من هو أظلم منه، وما من ظالم إلا سيبلى بأظلم، والظالم سوط الله، ينتقم به، ثم يأخذ الحق منه.

البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، أنا الآن أتمنى على أخواننا الكرام، ليس من أحد منا إلا وفي ذمته اثنين أو ثلاث، قد يكون أب عنده ولدين، وقد يكون جد عنده أولاد أولاد، قد يكون عنده محل تجاري وفي هذا المحل موظفين، فلماذا لأحدهما الإجازات والمكافآت، والثاني تهمله، لا يوجد إنصاف، إن لم تنصف فلست مؤمناً، وضع هذا الحديث في ذهنك:

((عدل حكم ساعة خير من عبادة سبعين سنة))

يقولون: حجر ضج بالشكوى إلى الله، قال: يا رب، إني عبدتك خمسين عاماً، وتضعني في أس كنيف ؟ فقال: تأدب يا حجر إذ لم أجعلك في مجلس قاضٍ ظالم.

قد يكون كل واحد منا قاضياً، فالإنصاف الإنصاف، أنصف بين أولادك ، حدثني أخ قال لي: رجل عنده ابنتين، بنت من زوجة تعيش معه، والأخرى من زوجة مطلقة، وعنده بيت فخم في مصيف، ابنته من الزوجة المطلقة في أول أيام العيد تمنت على زوجها أن يأخذها إلى بيت أبيها، فلما توجهت هذه الفتاة مع زوجها وأولادها إلى بيت أبيها، في صبيحة يوم العيد، طبعاً رأت أختها من أبيها قد سبقتها إلى بيت أبيها، الأخت من زوجة أبيها التي يعيش معها أعطاها مثلاً خمسة آلاف كهدية العيد، بينما أعطى الأخرى خمسمائة، البنت التي من زوجة أبيها التي يعيش معها طبعاً مدعوة إلى الغداء، وأفخر أنواع الطعام، أما الثانية التي جاءت لبيت أبيها في أول أيام العيد، تقول لها خالتها زوجة أبيها: هيا لا تطيلي فنحن اليوم مشغولون، قالت: أنها بقيت تبكي لسنة من هذا الظلم.

أحياناً الإنسان يظلم بنتاً أو أبناً، يعطي أحدهما، ويحرم الآخر، يعطي ابنة ويحرم أخرى.

فيا أيها الأخوة: اسمعوا مني هذا الكلام والله أقوله من قلبي، والله تضيعون صلاتكم، وصيامكم، وحجكم، وزكاتكم، تضيعونها كلها إن لم تكونوا منصفين، بين أولادكم، بين بناتكم، بين إخوانكم، حتى بين موظفيكم، من عنده معمل، من عنده متجر، الإنصاف الإنصاف، إن أفضل ما تفعل أن تكون منصفاً، لأن الله عادل يحب العدل، ولا تكن ظالماً، اسمع الآية الكريمة:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

(سورة الأنعام)

هنالك الكثير من الأمهات أو أمهات الأزواج (الحموات) يقع منهن الظلم، بهدف السيطرة، بهدف الإذلال، بهدف تمريغ أنفها بالتراب، هذه ابنة الناس، ولها أهل، ولها كرامتها، ونصيحة مني، على الإنسان أن يعد للمليون قبل أن يظلم إنساناً آخر، ولو كان مجوسياً، ولو كان ملحداً، ولو كان ضعيفاً وليس له أحد، عليه أن يعد إلى المليون قبل أن يظلم، يعد إلى المليون قبل أن لا ينصف، قبل أن يجحد، قبل أن يجحف، قبل أن يحابي، قبل أن يهمل، هذا الحديث دقيق.

((عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثلاث من أخلاق الإيمان: من إذا غضب لم يدخله غضبه في باطل، ومن إذا رضي لم يخرجه رضاه من حق، ومن إذا قدر لم يتعاط ما ليس له))

(الجامع الصغير للإمام السيوطي)

((ومن إذا رضي لم يخرجه رضاه من حق))

إن أحببناه ارتكبنا المعاصي من أجله، إن أحببناه تغاضينا عن كل معاصيه، حتى أننا قبلناها منه، وشاركناه بها ووقعنا في إثمه، وإن كرهناه سلكنا معه كل سبيل ظالم، معنى هذا أن كلا الحالتين فيها معصية، ضعيف الإيمان في محبته يعصي، وفي بغضه يعصي، إذا غضب أدخله غضبه في باطل، وإذا أحب أخرجه حبه عن حق.

((رجل سأل سيدنا عمر: قال له: هل تحبني ؟ قال له: والله لا أحبك، قال له: هل يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقي ؟ قال له: لا والله))

حقك قد وصلك لكنني لا أحبك، يجب أن تفصل بين المحبة والحق، له حق عندك أعطه إياه، تحبه أو لا تحبه هذا بحث آخر، أجابه إجابة غير أديبة، قال له: إذاً نأسف على حب النساء.

طالما أن حقي قد وصلني فلا تهمني محبتك، قال له: لا يهمنك.

((عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثلاث من أخلاق الإيمان: من إذا غضب لم يدخله غضبه في باطل، ومن إذا رضي لم يخرجه رضاه من حق، ومن إذا قدر لم يتعاط ما ليس له))

تستطيع أن تكون قوي جداً، والأشياء بين يديك، في متناول يديك، وتأخذ حقك فقط ؟ هل تقدر ؟ أحياناً يكون هناك أخ كبير وله خمسة أخوة صغار، يتوفى الأب، والميراث كله بيد الكبير، هذه السجادة ثمنها ثمانون ألفاً يقول لك: هذه من أثر والدي، يحملها ويضمها له، وهذا خارج التقسيم، كل ما يجدى من

تحف ثمينة يضمها لبيته، لأنها من أثر والده، لأنه يحب والده كثيراً، أخذ أثمن ما عنده خارج القسمة.
هل تستطيع أن تكون إنساناً قوياً وتأخذ حقك فقط ؟ هذا هو الإيمان، يا أخوان لماذا ترك الناس الدين ؟ لماذا خرج الناس من دين الله أفواجاً ؟ رأوا الدين صوم وصلاة ولكن بدون إنصاف، بل يوجد مداهنة ومراءاة، يوجد دجل، كذب، محاباة.
ثلاث أشياء

((من إذا غضب لم يدخله غضبه في باطل، ومن إذا رضي لم يخرجه رضاه من حق، ومن إذا قدر لم يتعاط ما ليس له))

غضب، رضى، قدرة، بالغضب لا تدخل في باطل، بالرضى لا تخرج من حق، بالقدرة لا تأخذ ما ليس لك، الله يمتحنك، يتعرض الإنسان لآلاف المواقف، قوي جداً لا يوجد من يحاسبه، أو لا يستطيع أحد أن يحاسبه، والمال بين يديه، فإذا استطاع أن يأخذ حقه فقط ويعطي للناس حقوقها... أنا أعرف أخ الله قد فتح عليه كثيراً، بأرقى أحياء دمشق، توفي والده وخلف بيت هو وأخته لا يوجد غيرهم، هذا البيت حق أخته فيه مثل حقه، أخته متزوجة، قيم البيت بسعره وهو فارغ، أعطى أخته المتزوجة التي تسكن في بيت، قيمة حصتها بالتمام والكمال، الآن ائتني بإنسان يسكن في بيت أبيه، وله خمس أخوة من البنات يجيبهم إلى حقهم، ألستن ساكنات ؟ حسناً. ماذا تريدن أكثر من هذا ؟ ألا تزوروننا كل أسبوع ؟ هأنتن ذا تأتون إلى بيتكن ؟ تعالوا واجلسوا عندنا إن أردتم، لا يعطيهم شيء، هذا البيت من حق الأولاد كلهم، لوجود الإرث، فإذا استطاع الإنسان أن يكون قوياً ويعطي هذه هي البطولة، هذا إيمانك، أن تكون قوياً منصفاً، أن تكون بيدك الأمور كلها وتأخذ حقك فقط، هذا الحديث احفظوه يا أخوان، مهم جداً.

((عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثلاث من أخلاق الإيمان: من إذا غضب لم يدخله غضبه في باطل، ومن إذا رضي لم يخرجه رضاه من حق، ومن إذا قدر لم يتعاط ما ليس له))

الآن من علامات الغضب السباب، قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((حَدَّثَنَا حَاتِمُ بْنُ إِسْمَعِيلَ عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ مُجَاهِدٍ أَبِي حَزْرَةَ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ:........ سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ بَطْنِ بُوَاطٍ، وَهُوَ يَطْلُبُ الْمَجْدِيَّ بْنَ عَمْرٍو الْجُهَنِيَّ، وَكَانَ النَّاضِحُ يَعْقُبُهُ مِنَّا الْخَمْسَةُ وَالسِّتَّةُ وَالسَّبْعَةُ فَدَارَتْ عُقْبَةُ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ عَلَى نَاضِحٍ لَهُ، فَأَنَاخَهُ فَرَكِبَهُ، ثُمَّ بَعَثَهُ فَتَلَدَّنَ عَلَيْهِ بَعْضَ التَّلَدُّنِ، فَقَالَ لَهُ: شَأْ لَعَنَكَ اللَّهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ هَذَا اللاعِنُ بَعِيرَهُ ؟ قَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: انْزِلْ عَنْهُ فَلا تَصْحَبْنَا بِمَلْعُونٍ.....))

(صحيح الإمام مسلم)

سامحنا الله جميعاً، كلمة الله يلعنه، واللعنه، هذه لا تجوز، فإذا خرجت من فم أحد ما فليدفع الكفارة أفضل، لا تلعن، إذا لعن الإنسان يقع في إثم.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ. قَالَ: إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً))

(صحيح الإمام مسلم)

يقول لك: لست منتبهاً. حسناً ادفع كفارة، ادفع صدقة وربي نفسك، كان أبا حنيفة النعمان رضي الله عنه، كل يمين صادق يحلفه يدفع عنه كفارة، ولكنه صادق ؟ حتى يؤدب نفسه، ليعود نفسه أن لا يحلف الأيمان إطلاقاً، فأثناء البيع لو حلف يمين صادق لا كذب فيه أبداً، يدفع صدقة ليؤدب نفسه، وإذا لعن الإنسان شيئاً فليدفع صدقة، وليؤدب نفسه، ولا يعود إليها، يعود نفسه أن لا يلعن، هذا الصحابي قال لجمله: شَأْ لَعَنَكَ اللَّهُ. لجمل ! وليس لشخص، فقال عليه الصلاة والسلام:

((انْزِلْ عَنْهُ فَلا تَصْحَبْنَا بِمَلْعُونٍ.....))

وقال عليه الصلاة والسلام:

((لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ لَا تُوَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ....))

(صحيح الإمام مسلم)

لعل الله عز وجل يستجيب لك في هذه الساعة وأنت تدعوا على أهلك، أو على أولادك، أو على نفسك، أو على مالك.

يقول أحد العلماء:

((ما أبكى العلماء بكاء آخر العمر من غضبة يغضبها أحدهم فيهدم عمر خمسين، سنة أو ستين سنة، أو سبعين سنة))،أي غضبة تدخله في باطل يهدم عمل خمسين سنة))

((ورب غضبة قد أقحمت صاحبها مقحماً ما استقاله))

لكن هنا يوجد أسباب، فإذا كان الغضب أسبابه مباحة، كأن يمرض أحد ما، ومرضه شديد، وآلامه لا تحتمل، أو فقد ماله كله، أي لديه مبرر فغضب، نسأل الله سبحانه وتعالى أن لا يحاسب على هذا الغضب، إذا كان سبب الغضب مباحاً، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((عن أنس بن مالك قال:... فَقُلْتُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ...))

(صحيح الإمام مسلم)

أريد أن أقول لكم نقطة دقيقة بالنسبة لموضوع الإنصاف: أحياناً الإنسان في بيته هو السيد الآمر، هو الزوج، هو المنفق، وكل أولاده صغار وزوجته شابة، وطلاقها يتم بكلمة إن أراد، فالإنسان إن كان قوياً - والله القوي - هو يتوهم نفسه قوياً، هو سيد الأسرة، وسيد هذا البيت، فإذا لم يحاسب نفسه حساب دقيق ربما زلت قدم إلى المعصية، لأنهم يخافوا أن يحاسبونه، هو لا يحاسب نفسه، فيقع في الظلم وهو لا يدري، وحينما يظلم الله عز وجل يؤدبه، فإذاً من بحاجة لمحاسبة نفسه أكثر من غيره ؟ من يجيب ؟ القوي، الذي مركزه قوي في عمله أو في بيته، لأن الإنسان إن كان محاسب دائماً فهو لا يريد هذه المحاسبة، أما إن كان هذا الشخص هو الذي يحاسب، ولا يوجد من يحاسبه فهذا مركزه خطير، ربما تكون أنت رئيس دائرة، ولديك خمس أو ست موظفين، والجميع يخافون منك، إذا لم تنصف فالله يحاسبك، أي أن القوي إن كان في دائرة، إن كان في متجر، إن كان في معمل، ممكن أن يقع في الخطأ، لأنه لا يوجد من يحاسبه، أنا أعرف معمل للحلويات، من أكبر معامل الحلويات في الشرق الأوسط، كان يصدر أيام نشاط بعض الدول المجاورة، يصدر كل يوم طائرة موثوقة بالحلويات إلى دول الخليج، كل يوم ! طبعاً لديه محلات ضخمة، ومحلات، عشرين أو ثلاثين متجر في بيروت، وتصدير إلى الخارج، مما يبدو أن صنعته ممتازة، دخل إلى معمله ولم يعجبه عمل أحد العمال، في عجن الجينة، فتناول قطعة من العجين ووضعها على الأرض، وعركها بحذائه، ليبين لهذا العامل طريقة عرك هذا العجين، فقال له العامل: بحذائك سيدي ؟ قال له: الناس يأكلون من تحت قدمي.

لم يمض شهر إلا وقطعت رجله، والآن هو مقيم في لندن، بلا رجلين، أنا أعني ما أقول، القوي ممكن أن يقع في الخطأ، لأنه لا يوجد من يحاسبه، لأنهم يخافون منه فلا يحاسبونه، كل إنسان إن كان في معمله، أو متجره، أو في دائرته، أو في عيادته، أو في مكتبه، أو في بيته، طالما أنه هو الرأس هو المسيطر، هو يحاسب، ولكن لا يوجد من يحاسبه، إن لم يحاسب نفسه حساب عسير الله سوف يفرمه، سيؤدبه، تأديباً شديداً، فإن كان أحد ما موقفه ضعيف ويتحاسب دائماً، هذا يوجد من يحاسبه، أما إن أحد ما ليس من شأنه أن يحاسب، هذا عليه أن يخاف كثيراً، لأن هذا أمامه مليون منزلق، أن يقع في الظلم، بالإجحاف، ألم تسمعوا الحديث الشريف الذي يقول

((يحشر الأغنياء أربع فرق يوم القيامة، فريق جمع المال من حرام وأنفقه في حرام - هذا حسابه سريع جداً يتم في ثانية واحدة - يقال له: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حلال،وأنفقه في حرام، يقال له أيضاً: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حرام وأنفقه في حلال، أيضاً يقال له: خذوه إلى النار، -حساب سريع جداً - إذاً من الذي يحاسب ؟ فلقد انتهينا من الثلاثة - فأما الذي جمع المال من حلال وأنفقه في حلال، قال: هذا قفوه فاسألوه))

هنا الحساب، هل ضيع فرض صلاة ؟ هل قال جيرانه: يا رب أغنيته بين أظهرنا فقصر في حقنا ؟ هل تاه على عباد الله ؟ هل زها بماله ؟ هل أعجبته نفسه ؟ هذا الذي يحاسب حساباً عسيراً.

فيا أيها الأخوة: هذه الأحاديث أنا أتمنى على كل أخ كريم، إن كان موقفه قوي بدءاً من بيته، إلى عمله، فليحاسب نفسه حساباً شديداً، وإلا سوف يحاسب.

فإن كان الغضب سببه مباحاً نرجو الله أن يغفر له، لقول النبي صلى الله عليه وسلم

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ...))

أحدهم كان تاجر صوف وسمن، كبر في السن ووكل ابنه، ابنه جاهل، جاهل جداً، ذهب إلى البادية ليشتري الصوف، وجد بدوياً جاهلاً، يزين الوزن فإذا هي خمس وثلاثون، فيقول له: سبع وعشرون كيلو وثمانمائة غرام، هذا البدوي أعجبه هذا الوزن، لأنه لم يسمع عن الغرام طيلة حياته، يسجل سبع وعشرون كيلو وثمانمائة غرام، ولكنه أنقص عشرة كيلو، بعد أن انتهت هذه العملية، وجد بالحدس أن هذه الكمية غير ممكن أن يكون هذا سعرها ! قال له البدوي: تلقاها بصحتك إن شاء الله، إن كنت قد لعبت علي، فهذا الوضع غير طبيعي، يقول هذا التاجر: ركبنا السيارة ومشينا، وقع بصراع مع نفسه، أرجع وأقول له ؟ لكن أمره سيفضح، وإن سكتت فقد دعا علي، حسناً: هل أعطيه مبلغ من المال دون أن أقول له شيئاً ؟ هذه مشكلة، قال لي: والله لقد سمعتها من فم هذا الإنسان. قال لي: دخلت في صراع، من البادية حتى بلدة الضُمَير، عند الضمير اتخذ قراراً، قال: وليكن ماذا حدث ؟ قال لي لم أقل هذه الكلمة في قلبي، حتى وجدت نفسي وسط بركة من الدماء، انقلبت السيارة، وانسكب السمن، وتبعثر ركابها، ووجدت نفسي مجروحاً وسط الدماء، هو أبرم أمر

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

هل هذا ما ارتأيت ؟ حسناً. أتقلها ! هل هذا قرارك ؟ أن لا مشكلة، لا بل يوجد مشكلة، فإن كان عند أحدهم يقظة، وكان عنده قدرة على المتابعة والتأمل، يجد أن لكل شيء حساب، وكلما كبر عقل الإنسان تزداد استقامته، كلما كبر عقله يخاف من الله كثيراً، كلما كبر عقله يتواضع، يعرف أن هناك رب وكيل للجميع، وكيل كل هؤلاء العباد.

أيها الأخوة: أتمنى على الله سبحانه وتعالى أن لا نغضب جميعاً، الغضب جماع كل شر، بدءاً بالصحة، إن أحببت اسأل طبيباً، قل له: ما هي الأمراض التي تسببها الشدة النفسية ؟ ارتفاع ضغط الدم من الشدة، ضيق الشريان التاجي من الشدة، القرحة من الشدة، السكري من الشدة، آلام عصبية من الشدة، الأورام الخبيثة من الشدة، الغضب جماع كل شر، وعلاج الغضب التوحيد، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، علاج الغضب أن تقول: لا يوجد غير الله، الأمر كله بيده، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن،

وكل هؤلاء الذين يزعجونك هؤلاء عصي بيد الله، فإن أصيب أحدهم بضرب من عصا، فهل ينتقم من العصا ؟ لأن الضارب رحيم وحكيم وعادل، هذا ملخص الملخص، والإنسان عندما يغضب تجده يخرج عن طوره، تجده يفقد عقله، تجده يفقد إمكانياته، فقد اعتباره الاجتماعي، وكلما كان حليماً أكثر كلما علا عند الله وعند الناس، الحلم سيد الأخلاق، وكاد الحليم أن يكون نبياً، ولا يكون الرفق في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه.

إلا في استثناء واحد قلته الدرس الماضي، أحياناً الإنسان وهو في موقع القيادة يضطر أن يتغاضب، أن يتصنع الغضب، هذه حكمة، أسلوب تربوي، لولا هذه الشدة لما انصاع الذين هم حولك، ما انصاعوا لك، فأحياناً في بعض المراكز الإدارية الأعمال تقتضي التغاضب، هذه لا مشكلة فيها، لكن من الداخل برد وسلام، الغضب خارجي فقط، في القشرة فقط، في الداخل لا يوجد غضب، هذا التغاضب، أما الغضب الحقيقي فمدمر، الغضب الحقيقي أحياناً يحمله على لفظ كلمة يخسر فيها زوجته، أو شريكه، أو يخسر حياته، أحياناً كلمة يخسر فيها حياته، فالغضب جماع كل شر، الآن آخر كلمة في الدرس، الغضب من لوازم الغفلة عن الله، انتبهوا لهذه الكلمة، الغضب من لوازم الغفلة عن الله، لو كنت مقبلاً على الله لما غضبت، الله ألقى في قلبك برد وسلام، ألقى الطمأنينة، ألقى التوازن، ألقى تحمل هذه المشكلة، أما إن رأى الإنسان السفينة الضخمة الراسية في البحر فهي مثل الجبل، أما المضطرب كثيراً فالقارب الصغير، أما السفينة فراسخة كالجبل، فكلما كنت متزناً أكثر فأنت كالجبل الأشم.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (067) :كيف يزكي الإنسان نفسه ؟.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-01-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: طلب مني أخ كريم أن أتحدث عن النفس الإنسانية، وعن حقيقتها، وعن قوانينها، وقد تمنيت أن يكون هذا الدرس من نوع خاص، من نوع التربية، كيف يزكي الإنسان نفسه ؟ وكيف يسلكها في طريق الإيمان ؟ وكيف يقطف الثمار اليانعة التي وعد الله بها المؤمنين

يا أيها الأخوة الكرام: قبل أن نخوض في هذا الموضوع أضع بين أيديكم وقائع من حال المسلمين، فهناك بعض المسلمين يعنون أشد العناية بالفكر الإسلامي، بالكتب بقراءتها بتلخيصها، بقراءة ما استحدث منها، وهذا نشاط طيب ومقبول، لكنه لا يكفي، هذا الجانب الفكري، وهناك أناسٌ يعنون بالأعمال، يؤسسون يعطون، يتعاونون، يبنون، يقدمون خدمات، هذا الجانب العملي، طيب جداً، ولكنه لا يكفي، جزء من الدين، هناك أناس آخرون يعنون بأذكارهم، وقلوبهم، وأحوالهم، وهذا أيضاً نشاط طيب جداً، ولكنه لا يكفي، حينما يتضخم جانب أساسي من جوانب الدين على حساب جانب آخر صاحبه لا يفلح،

يا أيها الأخوة الكرام: نريد أن نقف على حقيقة الدعوة النبوية، كيف أنها كانت تجمع بين الفكر النير، والنفس الطاهرة، والسلوك الطيب، فكر ونفس وسلوك، إذا اجتمعت هذه الثلاثة يمكن أن تقطف ثمار هذا الدين، ويمكن أن تحقق الهدف الذي من أجله انتسبت إلى هذا الدين.

يا أيها الأخوة: الإنسان ماذا ينشد ؟ الإنسان لا شيء أعظم في نفسه من أن يسعد، ولكن ما مقومات السعادة ؟ أول حقيقة في هذا الدرس هي أنه لا يمكن لإنسان أن يسعد وهو بعيد عن الله، إذا كان الهدف الأول لكل إنسان أن يسعد، لا يمكن لإنسان أن يذوق من السعادة ولو قيراطاً إذا كان بعيداً عن الله عز وجل، لذلك النشاط العلمي تزداد معلوماتك، تنمو ثقافتك، ينطلق لسانك، تقرأ تراجع تبحث، تدرس تحاور، نشاط رائع، لكن وأنت في قمة هذا النشاط تشعر أنك بعيد عن الله، أو تشعر بشكل أخف أن هناك حجاب بينك وبين الله.

وقد تسلك الطريق الآخر، أعمال صالحة، خدمات، جمعيات، مساعدة للفقراء، لليتامى للأرامل، ومع كل هذا النشاط الذي يستهلك كل الوقت تشعر أحياناً أن بينك وبين الله حجاباً، بمعنى أنك إذا أردت أن تصلي لا تشعر بطعم الصلاة، إذا أردت أن تقرأ القرآن لا تشعر بطعم القرآن، إذا أردت أن تدعو، أردت أن تناجي، أردت أن تصلي السحر، لا تشعر، وأحياناً تلتفت إلى قلبك، وإلى أحوال قلبك، وإلى طهارة نفسك، وتقعد عن طلب العلم والعمل، فإذا أنت عابد لا تستطيع أن تفعل شيئاً في هذه الحياة،

عابد أي التمس الراحة لقلبه، يا ترى هل يفلح العابد ؟ وهل يفلح من أمضى كل حياته في القيل والقال ؟ وهل يفلح من جعل دينه الأعمال فقط ؟ من دون تزكية النفس ؟

يا أيها الأخوة:

مشكلة المسلمين أن كل فئة أو كل جماعة نما عندها جانب على حساب الجوانب الأخرى، ليس هناك توازن، جانب نامي وجوانب أخرى ضامرة، لذلك يوجد بمجالات محددة تقدم شديد، أما هذه النفس أن تشعر بثمرات الدين، أن تشعر بما وعد الله به، أن تمر بالأحوال، وبالأعمال، وبالسمو الذي وصفه النبي عليه الصلاة والسلام بعيدة عن هذا ! لذلك أيها الأخوة: الذي أريد أن اجعله محور هذا الدرس، هو أن الإنسان إن لم يزدد علمه فهو في مشكلة كبيرة، إن لم يزدد علمه، العلم إذا بقي محدوداً النفس تضيق بهذا العلم المحدود، عندئذٍ يتسرب إليها بعض الملل، بعض السأم، بعض الضجر، الأشياء المعادة والمكررة من شأنها أن تجعل النفس في سأم وضجر، فالعلم لا بد من أن يطلب بشكل مستمر، وكلما ارتقى علمك، ارتقت معرفتك بالله عز وجل، كلم ارتقت معرفتك، انعكس هذا على السلوك، إذاً هناك ترابط بين العلم وبين السلوك، هناك علاقة مستمرة، علاقة متوازنة بين العلم والسلوك، الآن لو نما علمك، لو ازددت هدى، ولم تزدد تقاً، لم يزدك العلم إلا بعداً، أنا ألح في هذا الدرس على التوازن، على أن نعيش كما عاش النبي وأصحابه، قلب مفعم بحب الله، نفس زكية طاهرة، عقل ممتلئ علماً، سلوك طيب يرقى بصاحبه، هذه الجوانب الثلاث في شخصية الإنسان.

ولنأخذ بادئ ذي بدء جانب العبادات، العبادات كما تعرفون أيها الأخوة نوعان: عبادات شعائرية، وعبادات تعاملية، ولا يغني أحدهما عن الآخر، لا تغني العبادات الشعائرية عن العبادات التعاملية، كذلك لا تغني العبادات التعاملية عن العبادات الشعائرية، فأنا ألح على صلاة الفجر، وأقول لكم أيها الأخوة: كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله))

أخوة كثيرون يشكون إلي أن أصعب صلاة عليهم هي صلاة الفجر، والحقيقة هي أن النبي عليه الصلاة والسلام أشار إلى أن هذه الصلاة ينبغي أن تؤدى في جماعة، لأن هذه الجماعة تشدك إليها، واحدنا إن كان يوجد قرب بيته مسجد، ووطن نفسه أن يؤدي هذه الصلاة في هذا المسجد، مع مرور الأيام تنشأ علاقات بينك وبين المصلين، علاقات متينة جداً، علاقات حميمة جداً، هذا رفيق الفجر، رفيق صلاة الفجر، فلو إنسان ألزم نفسه ولو بالإكراه، ولو بالمتابعة الشديدة، أن يصلي الفجر في جماعة، هذه الجماعة تشده إلى المسجد، ولو سهر اليوم حتى الساعة الثانية صباحاً، يستيقظ ويصلي صلاة الفجر، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ:... ولَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْ))

(صحيح البخاري)

أنت تصور نفسك بدأت نهارك بصلاة متقنة، وادعة، وراء إمام قارئ، أسمعك آيات من كتاب الله، بقراءة جيدة، وأنت طاهر النفس، نمت على طهارة، واستيقظت على طهارة، وصليت الفجر في جماعة، فإذا أكرمك الله أن تتابع الصلاة بشيء من ذكر الله عز وجل، وشيء من تلاوة القرآن، وشيء من التفكر في خلق السماوات والأرض، أي النهار أربعٌ وعشرون ساعة، خالق الكون الإله العظيم، الجنة الأبدية ألا تستدعي أن نمضي ساعة مع خالقنا ؟ لو بدأنا بمشروع، أنا أعرف أن هناك الكثير من أخواننا الكرام، هذا الشيء يعرفونه ويطبقونه، ولكن قال الله تعالى:

(وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55))

(سورة الذاريات)

إذا حاولنا صباحاً أن نصلي الفجر في جماعة، وحاولنا أن نذكر الله ألف مرة، عشر مسابح، ولكن الذكر الشكلي ليس له قيمة، أقصد مع حضور قلبك، مع الخشوع، مع استحضار عظمة الله عز وجل، ونقرأ خمس صفحات من القرآن، ونتفكر بآية من آيات جسمنا، ربع ساعة، بربع ساعة، بربع ساعة، وصلاة الفجر بربع ساعة، المجموع ساعة، هذه الساعة كل يوم يا أيها الأخوة الكرام: يجب ولا بد من أن تشعر أنك في هذا اليوم إنسان آخر، انطلقنا إلى العمل، هناك عبادة هي عبادة غض البصر، وأخواننا الشباب في أمس الحاجة إليها، المأخذ الكبير والخطير للشاب هي الفتاة، فإذا غضضت بصرك عن محارم الله، وأكرم الله بهذه العبادة، التي تجد حلاوتها في قلبك، هذه عبادة في أثناء النهار، عبادة العين الغض عن محارم الله، عبادة الأذن أن لا تستمع إلى ما يرضي الله، من غناء وفحش ومزاح رخيص، وغيبة ونميمة، إذا ضبطت عينك، وضبطت أذنك، وضبطت لسانك، وكنت ملتزماً التزاما تاماً، كل كلمة قبل أن تقولها تدرسها، هذه فيها سخرية، هذه فيها استهزاء، هذه فيها جرح لأخ مؤمن، هذه فيها طعن، هذه فيها استعلاء، هذه فيها كبر، هذه فيها شرك، ضبط العين، بأن تغض عن محارم الله، وضبط الأذن بأن لا تستمع إلا لما يرضي الله، من قرآن من حديث طيب، من ذكر، من مديح، وهذا اللسان لا ينطق إلا بالحق، أي أن الإنسان لو أعطى نفسه راحتها، لو لم يراقبها مراقبة شديدة فعالة، النفس تستمرئ الغيبة، تستمرئ النميمة، تستمرئ الكلام الفارغ، أشد متعة من الكلام الجاد، ففي قراءتك، في مطالعتك، في كلامك فنحن لما بدأنا النهار بصلاة الفجر في جماعة، وأتبعناها بذكر وتلاوة وتفكر، في حدود ساعة، وكان بعض الصالحين لو فاتته هذه الساعة، كان يقضيها، يقضيها ضحاً، لسبب أو لآخر، لأمر قاهر ما تمكن أن يصلي الفجر في جماعة، صلاه قبيل طلوع الشمس بقليل، وهو متعب جداً، فخلد

إلى الراحة قليلاً، ثم استيقظ وقضى هذه الساعة التي فاتته في وقتها المناسب، ما من مانع، أخبار كثيرة عن الصالحين، كانوا يقضون ما فاتهم من أورادهم، وذكرهم، وتلاوتهم، دوامك الساعة الثامنة، لا يوجد وقت، هناك من يقضيها عصراً، أو ظهراً، أو عشاءً أو قبل أن ينام، أي يجب أن تجعل من وقتك الثمين وقتاً لأثمن ما في حياتك، إنها معرفة الله والتقرب إليه.

أيها الأخوة إنسان بدأ نهاره بصلاة الفجر في جماعة، وتفكر بآية من آيات الله إما في طعامه أو في شرابه، أو في المخلوقات، أو في جسمه، أو في ملكوت الأرض والسماوات، هذا التفكر زاده تعظيماً لله، وتعظيمه لله زاده خشوعاً، وخشوعه حمله على طاعة الله، الآن ضمن البيت يوجد عبادة، الإنسان له في البيت والدة، أو والد، أو زوجة، أو إن كانت هي زوجة لها زوج، وله أولاد ذكور وإناث، الابتسامة صدقة، الكلمة الطيبة صدقة، الحلم صدقة، خدمة الأهل صدقة، إدخال الفرح على الأولاد صدقة، أنت إن دخلت إلى بيتك لديك مجموعة عبادات، الحلم صدقة، تذكير الأهل بالله عز وجل عمل طيب، تذكيرهم بآية كونية، بآية قرآنية، بحديث شريف، بحكم فقهي هذا عمل طيب.

تصور المؤمن كيفما تحرك لديه أعمال صالحة، دخل إلى بيته بدأ بعالم جديد، من الأعمال الصالحة، وأن تضع اللقمة في فم زوجتك هي لك صدقة، أن تدخل على أولادك الفرح، هي لك صدقة، أن تعتني بهم لك صدقة، أن تعلمهم كتاب الله، لك صدقة، أن تنشأهم على حب النبي عليه الصلاة والسلام، هي لك صدقة، يا أخوان إن دخلت إلى بيتك، في بيتك مجموعة من الأعمال الصالحة، وعندما يعتني الإنسان بزوجته فيدلها على الله، إلى أن تغدو مؤمنة كاملة، إلى أن تغدو محبة لله عز وجل، عندئذ تنقلب من زوجة إلى رفيقة في طريق الإيمان، وهذا شيء مسعد جداً، أن ترى هذه المرأة التي هي شريكة حياتك، تتجاوب معك في أمور الدين، تلقي عليها معاني دقيقة فتتأثر بها، إذاً في بيتك مجال للعمل الصالح، إذا جلست إلى ابنك تعلمه، ولو علمته المواد المدرسية، إذا جلست إلى ابنك تعلمه أمور دينه، حتى لو آنسته،

((كان إذا خلا بنسائه ألين الناس وأكرم الناس، ضحاكا بساماً))

(الجامع الصغير للإمام السيوطي)

إذا دخلت إلى البيت فهناك مجالات ومجالات من الأعمال الصالحة، أي مؤمن يعيش كما يعيش الناس، يغضب كما يغضب الناس، يثور كما يثور الناس، يحب ذاته فقط كما يحب الناس ذواتهم، يهمل أولاده كما يهمل الناس أولادهم، هذا ليس مؤمناً، إذا لم يوجد تميز شديد جداً، إذا لم يوجد فرق نوعي صارخ، بينك وبين عامة الناس فأنت لست مؤمناً، ففي بيتك يوجد عبادة، الطريق له عبادة، فالرجل يصلي في اليوم خمس مرات، خمس مرات يتجه إلى الله، لكن إذا كلما مرت في الطريق فتاة سافرة، كاسية عارية، قلت إني أخاف الله رب العالمين، وشددت غض الطرف عنها، ألا تشعر أن كل نظرة

غضضتها في سبيل الله ترقى بك إلى الله ؟ الطريق فيه عبادة طبعاً، دخلت إلى عملك، أي عمل من دون استثناء، أنت بائع كن صادقاً، الصدق عبادة، الأمانة كن نصوحاً، هذا إن كنت تاجر، أما إن كنت صانع فأتقن عملك، كما لو أن هذه الحاجة لك في البيت، كيف لو أن هذا الشيء تخيطه لنفسك ؟ أو تصنعه لنفسك ؟ تعتني به عناية فائقة، هذه عبادة أيضاً، إتقان العمل عبادة، والصدق والأمانة في التجار عبادة أيضاً، الآن أنت موظف، خدمة المواطنين عبادة، هذا مواطن له عندك حاجة، وإذا أحب الله عبداً جعل حوائج الناس إليه، أنت طبيب، حينما تنصح المرضى، وتعطيهم الحجم الحقيقي لمرضهم، دون أن تزيده، ودون أن تقلل من شأنه، هذه عبادة، خطر في بالي مثل، أن رجل اشترى رفاريف سيارة، عنده سيارة ودواليب، وضع أربعة دواليب فوق بعضهم، ورفاريف، هل هذه سيارة ؟ اشترى محرك ووضعه على يسار السيارة، هذه ليست سيارة، وكذلك الدين متكامل، أي إن لم تسير هذه الآلة فهي ليست سيارة، هذا كله عبارة عن تخزين، ممكن أن تعمل أعمال صالحة، لكن كل هذه الأعمال الصالحة لا ترقى بك، ليس فيها تناسب، ليس فيها إحكام، فإذا الإنسان لم يحكم استقامته تماماً، لم يُحكم هذه الصلة مع الله عز وجل، يبقى هناك حجاب، ما معنى هناك حجاب ؟ أي الصلاة لا تعمل عملها، لو قرأ قرآن لا يشعر بشيء، لو دعا لا يحس بشيء، عينه لا تدمع، نفسه لا تخشع، جلده لا يقشعر، يشعر أنه كالناس تماماً، يصيبه ما يصيبهم، من هم وحزن، وقلق وخوف، وألم، وقد يخنع لهم، وقد ييأس، إذاً يوجد حجاب، أتمنى أن أضع هذه الحقيقة بين أيديكم، أنت لك ميزان، يجب أن يكون ميزانك صحيحاً، أي هل أنت مقبل أم محجوب ؟ الدروب تحجبك عن الله عز وجل، هل يعقل أنني آتي إلى الجوامع، وأحضر دروس العلم، ومحسوب على الناس مؤمناً، ومحسوب أمام الناس من رواد هذا المسجد، وأنني صاحب دين، أو أنني ملتزم، أو لي خلفية دينية، أو لي انتماء ديني، يكون إنسان محسوب بهذا الشكل على المسلمين، وهو لا يقطف أي ثمرة من ثمار الدين ؟ لا يوجد طمأنينة، لا يوجد سعادة، لا يوجد اتصال بالله عز وجل، لا يوجد شعور بالعبودية لله عز وجل، لا يوجد توكل صحيح، فيا أيها الأخوة: إنسان يأتي ويأتي لبيت الله، ويجلس ويستمع، والوقت إذا أمضى ساعة في المسجد، هذه الساعة تحتاج إلى ساعتين إعداد، وتهيئة وحضور، وطريق، أي ما يقارب ثلاث ساعات، فعندما يعمل الإنسان مراجعة لنفسه، مراجعة لحساباته، السؤال الدقيق الآن: هل أنت متصل أم محجوب ؟ إذا كنت متصل فزد هذا الاتصال شدة، وإذا كنت تشعر بوجود حجاب، يتمثل بأن الصلاة لا طعم لها، والذكر لا معنى له، وتلاوة القرآن لا تقبل عليها إقبال الشره، ولا تقوم إلى الصلاة نشيطاً، تقوم كسولاً، إذا كنت كذلك فهناك حجاب، والحجاب له أسباب، فالعوام يقولون: الإنسان حكيم نفسه. أنا أشعر أن الأخ المؤمن ينبغي أن يكون لديه ميزان دقيق يزين به نفسه، هل هي طاهرة ؟ هل هي متلبسة بأدران ؟ هل هي كما يرضى الله عنها ؟ هل هي مقبلة ؟ هل هي متفتحة، الشيء الثابت أن المؤمن كالكوكب الدري، المؤمن متألق، المؤمن عنده

قوة روحية مؤثرة، أو بالتعبير الآخر زخم روحي، المؤمن إذا تكلم ينطق من قلبه، وإذا حضر في مكان شاع في هذا المكان هيبة ووقار، هذا هو المؤمن، فنحن لئلا نقع ضحية، أي كما قلت قبل قليل، أربعة رفاريف لا يساوون سيارة، وأربعة دواليب، ومحرك، لا تمشي هذه كلها لها ثمن، إذا عمل الإنسان أعمال صالحة فهذا كله محفوظ عند الله عز وجل، لكن مجموع هذه الأعمال لا ترقى به إلى الله عز وجل، يأخذ ثمنها، لا ترقى به، نحن ماذا نريد ؟ نريد أن نُحْكِم استقامتنا، ونحكم عبادتنا، ونضاعف جهودنا في الأعمال الصالحة، حتى نصل إلى الله، الوصول إليه هو المعول عليه، والوصول إليه يحتاج إلى استقامة تامة، أي تجلس في المجلس تتكلم على هواك، وماذا في ذلك ؟ الله سيغفر لنا، مقطوع، في الطريق يوجد بعض الخطف للبصر، والله يا أخي هذا شيء صعب أين أذهب بعيني ؟ هذا الموقف محجوب عن الله عز وجل

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة)

فالذي أرجوه من الله عز وجل، وأتمناه عليكم، أن أحدنا في وقت قصير يصل إلى خير كثير، في وقت قصير يضع يده على جوهر الدين، أنا كنت أقول سابقاً: هذا الأعرابي، هذا البدوي، هذا الراعي، الذي قال له سيدنا عمر: بعني هذه الشاة، قال له: ولكن أين الله ؟

هذا البدوي أو الراعي وضع يده على جوهر الدين، ركعتان من وَرِع خير من ألف ركعة من مخلط، من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله.

فيا أيها الأخوة: الإنسان أحياناً الحياة تستهلكه، من موعد إلى موعد، عنده محل، وعنده وظيفة، وعنده أولاد، وحاجة البيت، وزوجته مريضة، وابنه يحتاج إلى تحاليل، الحياة امتصت كل وقته، لا بد من ساعة تخلو بها إلى نفسك، حاسب نفسك، كيف صلاتك ؟ كيف تلاوتك ؟ كيف فهمك لله ؟ يوجد أيضاً سؤال آخر، أين عملك الصالح ؟ بماذا تلقى الله عز وجل؟ يا بشر لا صدقة ولا جهاد فبم تلقى الله إذاً ؟

أنت حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، فكما قلت في بادئ الدرس: يوجد نشاط فكري، طيب وجيد ولكنه وحده لا يكفي، ويوجد نشاط سلوكي أعمال صالحة كثيرة جداً، إذا لم يوجد مع الأعمال الصالحة الاستقامة التامة، ولم توجد الوجهة لله عز وجل، لا يوجد ذكر، هذه الأعمال الصالحة تأخذ أجرها ولكنها لا ترقى بك، دقة التعبير تأخذ أجرها أضعاف مضاعفة، لكنها لا ترقى بك إلى الله، لو اعتنيت بقلبك عناية تامة واعتزلت الناس، وأكثرت من الأوراد والأذكار، ولكنك لم تطلب العلم، والعمل لم تحققه، تصبح عابداً، لا تستطيع أن تفعل شيئاً، وحدك، ربما تنجو، وهذه العبادة من دون علم، ومن دون عمل، هذه العبادة هشة، تحت أي ضغط تتمزق، تتهاوى، نحن نقول الآن: لا نريد علماً فقط، فكر نير وقلب متصحر، لا نريد قلب يغلي حباً بالله عز وجل مع عدم وجود الأفكار، ومع وجود أغلاط عظيمة

جداً في العقيدة والسلوك، يوجد جهل بالله وبالفقه، ولا نريد إنسان كل وقته عمل صالح لكن محجوب عن الله، هذا العمل لما كثر أصبح فيه نوع من أنواع الرياء، أي أنا أعمل عملاً عظيماً والناس يمدحونني، كأنه أصبح يعمل للناس، لا تنسوا سينا داوود لما عاتبه ربنا عز وجل، أنه كان قد آثر محرابه على الحكم بين الناس بالحق، وسيدنا سليمان أيضاً عاتبه الله، لأنه غلب على وجهته إلى الله العمل الصالح، فضيع صلاة وهو يضمر الخيل.

فلا بد من التوازن، لن نفلح أيها الأخوة إلا إذا أخذنا هذا الدين من كل جوانبه، لن نفلح إلا إذا توازنَّا، لن نفلح إلا إذا اعتدلنا، القلب له غذاء، وهو الذكر، والعقل له غذاء وهو العلم، والقلب له غذاء وهو العمل، لابد من قلب مفعم بحب الله عز وجل، وعقلٍ ممتلئٍ علماً، وحكمة، وعمل طيب يرقى بك إلى الله عز وجل.

أيها الأخوة: الإنسان نفس، وجسم، وروح، على أن هذا الموضوع خلافي، وكل إنسان له وجهة نظر، لكن الشيء الثابت أنك أنت لك ذات، ذاتك هي نفسك التي بين جنبيك، هي التي تؤمن، هي التي تكفر، هي التي تُقْبِل، هي التي تُعْرِض، هي التي تسعد، هي التي تشقى، هي السعيدة والشقية، والمؤمنة والكافرة، والمقبلة والمعرضة، هذه النفس لا تموت ! لكنها تذوق الموت

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

(سورة آل عمران)

أي أنت هو أنت، اتصالك هو اتصالك، وإقبالك هو إقبالك، طهارتك هي طهارتك، سموك هو سموك، ولو جاء الموت، أنت لا تموت، ولكن الموت في حقيقته هو انفصال للجسد الذي هو ثوب للنفس عن النفس، والتي هي ذات الإنسان، وانقطاع الإمداد الإلهي، الذي هو الروح، الروح هي القوى المحركة، تنقطع، إذا انقطعت مات الجسد، وعرجت النفس إلى بارئها، فكل شيء تعتني به في الدنيا ينصب على نفسك هو في مصلحتك، وكل عناية لجسدك هي خسارة، أي أن الإنسان ممكن أن يجعل كل حياته منصبة على جسده، راحته، منامه، بيته، متعه، طعامه وشرابه، ممكن أن يكون كل الاهتمام بجسمه، الجسم سوف يموت، أما إن كان هناك اهتمام بالنفس، بتزكيتها وتطهيرها، هذه التزكية والطهارة تبقى معك لما بعد الموت، وتسعد بها إلى أبد الآبدين، الله عز وجل قال:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

أنا لن أقول: جربوا، معاذ الله، الله لا يجرب، ولكن أطلب منكم طلب ملح، أي أنت عليك أن تقوم بمراجعة دقيقة، ليس عليك أن تكتفي بحضور هذه المجالس، يجب أن يكون لك مسعى خاص في البيت، من هذا المسعى أن تعتني بصلواتك، أن تعتني بعبادتك، أن تعتني بعبادة الجوارح، مثلما تحدثنا، الفجر

في جماعة، مع الفجر يوجد ذكر، مع الذكر يوجد تفكر، مع التفكر يوجد تلاوة، تلاوة، وذكر، وتفكر وصلاة الفجر في جماعة، هذه الساعة التي تغتنم بها الاتصال بالله عز وجل، هي أثمن ساعات عمرك

عالم كبير له مؤلفات لا تعد ولا تحصى، سؤل ما فعل الله بك ؟ قال له: طاحت تلك العبارات، وذهبت تلك الإشارات، ولم يبقَ إلا ركيعات ركعناها في جوف الليل، الإنسان قد يسافر أحياناً ولا ينام الليل، سيركب اليوم طيارة، لو عرف الإنسان قيمة الاتصال بالله عز وجل، اضبط المنبه قبل الفجر بربع ساعة، وقم وصلِّ ركعتين قيام الليل، وبعد أذان الفجر لديك من الوقت ثلث ساعة، اقرأ القرآن فيها، ثم صليت، وقمت بالذكر لمدة عشر دقائق، وتفكر لمدة عشر دقائق أخرى، فمجموعهم ساعة كاملة، قيام ليل، وصلاة فجر، وتلاوة قرآن، وبالمسجد، وذكر، وتفكر، تشعر نفسك محصناً، في هذا اليوم أنت أكثر حكمة، وأكثر قوة، وأقوى شخصية، وأمنع على الشيطان، وأقرب إلى الرحمن، هذه الصلاة التي بدأت بها يومك تعينك على أن تصلي الظهر في وقته، والعصر في وقته، وهكذا، إذا اعتنيت بالصلوات، أول ما يحاسب عنه العبد صلاته، فإذا صحت فقد نجح، وإن لم تصح ولم تقبل فقد خاب وخسر.

بالطريق: الطريق له عبادة، غض البصر، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، في البيت يوجد عبادة، في العمل يوجد عبادة، إذا كنت مع الله في كل أطوارك، تشعر عند ئذٍ أن كل النعم التي أنعم الله بها على المؤمنين لك منها نصيب، وأن كل الوعود التي وعد الله بها المؤمنين تتحقق، توفق، والأمور تجري كلها لصالحك، أعداءك يجهدون في خدمتك، فكيف أحبابك ؟ ينادى له في الكون أننا نحبه، فيسمع من في الكون أمر محبنا،

وجدناك مضطراً فقلنا لك ادعن ا نجبك، فهل أنت حقاً دعوتنا ؟

دعوناك للخيرات أعرضت نائياً فهل تلق من يحسن لمثلك مثلنا ؟

وهذا الذي أتمناه عليكم، أن يتحرك الإنسان حركة حقيقية، أن يتعامل مع الله بصدق كامل، وبإخلاص شديد، ولا يعبأ بأحد، من عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس به، وبأي سن، بالأربعين، أو بالخمسين، أو بالخمسة عشر.. مادام الإنسان في بحبوحة في حياته والقلب ينبض، فأمامه خيرات لا يعلمها إلا الله، فنحن أيها الأخوة ليست قضيتنا قضية تجميع للمعلومات، ولا قضية انهماك بأعمال، ولا قضية عبادة ينسحب بها العابد من المجتمع، وينزوي مع نفسه وخاصة نفسه، دون أن يستطيع أن يعمل عملاً صالحاً واحداً، لجهله ولضيق أفقه، لا نريد عابد خيره محصور فيه، ولا نريد إنسان كل حياته كتب، وملخصات، وأفكار، ومحاضرات، لكن يوجد حجاب بينه وبين الله، ولا نريد أعمال لكثرتها ابتغيت بها الناس، وسمعتك بين الناس، نريد العمل الخالص، والعلم المتقبل، والقلب المفعم بحب الله عز وجل، إذا تحققت هذه الأشياء الثلاثة، يمكن أن تقطف ثمار الدين، وأن تنال الوعود التي وعد الله بها المؤمنين

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج)

هذا وعد، من منكم يذكر وعداً من الوعود التي وعد الله بها المؤمنين ؟ هذا أول وعد

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا)

تجد الله عز وجل قد سخَّر لك الناس جميعاً ليدافعوا عنك، تشعر بوجود عناية مكثفة، وجود عناية إلهية كبيرة جداً، يوجد عناية مشددة، إلهية طبعاً، وعد آخر ؟

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور)

وهذه للنبي صلى الله عليه وسلم، إلا أن كل مؤمن له من الآيات الخاصة بالنبي نصيب، بقدر إيمانه وإخلاصه، شعورك أنت أنك في حفظ الله وفي رعاية الله، العلماء قالوا:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد)

هذه معية عامة، معكم بعلمه، لكن إن الله مع المؤمنين، إن الله مع المتقين، إن الله مع الصابرين، هذه معية خاصة، المعية الخاصة أساسها الحفظ والتأييد والنصر والتوفيق، هذا وعد، تجد نفسك موفق في عملك، أمورك ميسرة، لا يوجد عقبات، الأمور كلها تتحرك لمصلحتك، معنى هذا أنك قد قطفت ثمرات أخرى، الأولى: أن الله يدافع عنك، الثانية: أنت بعين الله.

من الجمهور:

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196))

(سورة الأعراف)

الأستاذ: الله متولٍ أمرك، هذه تقريباً من ثمار الإيمان،

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ)

(سورة فصلت)

الأستاذ: لا يوجد قلق، أو ضياع أو خوف، أو خنوع، أو تشاؤم، هذا كله غير موجود، وعد آخر من الجمهور:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة)

الأستاذ: هذه بداية، ينير له قلبه، يرى الحق حقاً فيتبعه، ويرى الباطل باطلاً فيجتنبه، من الجمهور:

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128))

(سورة النحل)

الأستاذ: هذه المعية الخاصة، والولاية، والدفاع، والحفظ من الجمهور:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ)

(سورة النور)

الأستاذ: ولكن هذه للذين آمنوا، وليس وعد الله المؤمن استخلافاً، لا يكفي أن يكون الرجل وحده، المؤمنون إذا آمنوا جميعاً، فإن الله يستخلفهم، وإن لم يؤمن الجميع ولم يستقيموا، والإنسان كان وحيداً، أي قلة قليلة التزمت الله يحفظها، إن لم يستخلفها يحفظها من الجمهور:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69))

(سورة العنكبوت)

والوعد لنهدينهم سبلنا، أي هداية السبيل من الجمهور:

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة)

الأستاذ: طبعاً نحن لا نريد أن نوسع الموضوع، حتى تصبح كل آية وعد، الآيات التي فيها وعد واضح جداً من الجمهور:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل)

الأستاذ: الحياة الطيبة وعد إلهي، من علامة الحياة الطيبة أن يقول المؤمن بكل جارحة من جوارحه: الحمد لله. مسرور من الجمهور:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128))

(سورة لأعراف)

الأستاذ: الأمور تدور، وتدور وتدور، ولا تستقر إلا في صالح المؤمن، هذا معناها، تستقر الأمور لمصلحة المؤمن، قد يمتحن، قد يضيق عليه، وقد يعلو عليه الكافر، ولكن النهاية الأمور لا تستقر إلا لمصلحته من الجمهور:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (107))

(سورة الكهف)

الأستاذ: هذه بعد الموت، ونحن نريد في الدنيا، نريد وعد للمؤمن في الدنيا من الجمهور:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (2))

(سورة الطلاق)

الأستاذ: مخرجاً، الأمور إذا ضاقت الله عز وجل يخلق له فرج، ومن يتق الله، في رزقه، في زواجه، عندما يعاني من مشكلة، الله عز وجل يفرج عنه، هذه من وعود الله عز وجل من الجمهور:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62))

(سورة يونس)

الأستاذ: لا يخافوا مما هو آت، ولا يندموا على ما فات من الجمهور:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46))

(سورة الرحمن)

الأستاذ: جنة في الدنيا، وجنة في الآخرة، أي أن الدنيا فيها جنة، كما قال أحد العلماء: بستاني في صدري، فماذا يفعل أعدائي بي ؟ إن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، فماذا يفعل أعدائي بي ؟ هذه هي الجنة، وفي الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة من الجمهور:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (9))

(سورة المائدة)

الأستاذ: أين الوعد ؟ وبماذا وعدهم ؟ وعدهم بالمغفرة، المغفرة يشعر بها المؤمن، يكون له ذنوب يشعر أن الله عز وجل عفا عنهم، ليس أن يعفي الله عنه ولا يشعره بذلك، بل يشعره في أعمق أعماقه أن الله سبحانه وتعالى قد غفر له.من الجمهور:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123))

(سورة طه)

لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه الأستاذ: أي أن لأحدنا، كلكم مؤمنين والحمد لله، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يحشرنا مع النبي عليه الصلاة والسلام، إذا لم يقطف الإنسان ثمار يانعة، ولم يتغلغل الدين إلى كل كيانه، ودخل في كل جوارحه، بكل مشاعره، بكل نشاطاته، بكل أطواره، بكل مكان وبكل زمان، أليس هذا هو الدين، الذي ضيع المسلمين أنهم اختصروه إلى بعض العبادات الشعائرية، بقي الدين عند بعض الناس، حركات تؤدى، وأقوال تردد، وانتهى الأمر من الجمهور:

(مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7))

(سورة الليل)

الأستاذ: تيسير الأمور، هذا من وعد الله لهم، إذاً نرجو الله سبحانه وتعالى أن يهبنا عماً نافعاً، وقلباً طاهراً، وعملاً متقبلاً، وأن يجعلنا على الصراط المستقيم، الذي إن سار عليه الإنسان لا خوفٌ عليه، ولا هو يحزن.

النقطة الدقيقة الأخيرة، أن الإنسان عندما يعمل عملاً صالحاً، وهذه نصيح أزجيها لكم، العمل الصاح إذا لم يستمر عليه لا يتراكم، وإذا لم يتراكم لم يعطي الثمار المرجوة، مثلاً لك ورد، لك ذكر، لك تلاوة، لك تفكر، لك حضور إلى مجلس علم، حافظ عليه، لك صدقة شهرية حافظ عليها، لك أعمال صالحة حافظ عليها، هنالك أشخاص يفورون ويهمدون، إذا أقبلوا إقبالهم عجيب، وإذا أدبروا إدبارهم عجيب، إذا جاءوا لم يأتوا، وإذا ذهبوا لم يأتوا، هذه حالات حادة، هذه الحالات المضطربة الحادة لا تجعله يستقر،

لكن أحب الأعمال إلى الله أدومها، وإن قل، فلما الإنسان يكون له مجلس علم يحافظ عليه، له صدقة شهرية يحافظ عليها، له زيارات شهرية إلى رحمه، يحافظ عليها، له تلاوة يومية للقرآن، يحافظ عليها، له صلاة في المسجد، يحافظ عليها، لأنه عندما يحافظ الإنسان على العبادات الشعائرية، والتعاملية، والأعمال الصالحة، ويمضيي عليه فترة طويلة، يثق أن الله يحبه، والله فعلاً يحبه كثيراً

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ:... وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ...))

(صحيح البخاري)

معنى هذا أن هناك مرحلة الثبات، أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلج الإنسان عليه أن يري الله من نفسه صدقاً، أن يري الله من نفسه اهتماماً، أن يري الله من نفسه ورعاً، أن يري الله من نفسه حباً، والإنسان إن لم يكن محباً يدعي الحب، إنما الحلم بالتحلم، والعلم بالتعلم، والكرم بالتكرم، أول الأمر يكون تقليد ثم يصبح أصيل، أول الأمر يكون فيه مجاهدة، لكن بعد ذلك ترقى النفس إلى مستوى الشرع، فإذا هو يفعل الأمر، ويدع النهي، وهو في راحة نفسية لا تقدر بثمن. أي كيف لو شعر أحدنا بشيء غير طبيعي في عينه ؟ رأى ذبابة طائرة أمام عينه، يسارع إلى الطبيب، أيضاً قلبك يجب أن تعتني به كما تعتني بعينك، هذه العين تنتهي عند الموت، لكن القلب يبدأ بعد الموت

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

القلب السليم حينما يتصل بالله يغدو سليماً، البارحة كنت في مقبرة، وجدت قبور كثيفة جداً، قلت كل هؤلاء كانت لهم أعمال، ومشاغل، وقوائم، وتشطيبات، وهذا عمر بيت، وهذا أخذ شهادات، وهذا تاجر، وهذا سافر، أين هم الآن ؟ تحت أطباق الثرى، ونحن جميعاً بعد حين نكون مثلهم، إذاً أنت الآن تحاسب على أنفاسك، تحاسب على نظراتك، على لفتاتك، على حركاتك، على سكناتك، هذا كله مسجل، وعندما يأتي الموت ينتهي كل شيء، ختم العمل، وانتهى الأجل، وانتهى الاختيار، وانتهى كل شيء، فأنت الآن رهن عملك السابق، رهن صلواتك، مر معي بعض النصوص، أن الإنسان إذا جاءه ملك الموت، وبيده الدنيا بأكملها يعطيها، على أن يسمح له أن يصلي ركعتين قبل أن يغادر الدنيا، لكن لا يسمح له، إذا كان قد جاء الأجل، فأنت الآن في بحبوحة، والله عز وجل يوفق ويرزق ويعطي، ثم أن هناك حديث أبقوه في ذهنكم:

((عَنْ أَبِي قَتَادَةَ وَأَبِي الدَّهْمَاءِ قَالا: أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، فَقُلْنَا: هَلْ سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا ؟ قَالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ: إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إلا بَدَّلَكَ اللَّهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ))

(مسند لإمام أحمد)

أنت عندما تترك عملك، وتأتي إلى مجلس العلم ، لك معاملة خاصة، لك أرباح خاصة، لك توفيقات خاصة، لك حماية من الله خاصة، هم في مساجدهم والله في حوائجهم، إن كنت تبذل وقتك في طلب العلم الله عز وجل ييسر لك رزق مريح وكافي، وإن أحد ما آثر الدنيا على الآخرة، الله يضيع له مئات الساعات بلا معنى، تجد وقته مهدوراً، إذا هان عليك أمر الله هنت على الله، يقول لك: يا أخي حرارة ابني واحد وأربعين، من طبيب إلى محلل، الساعة الثانية أيقظنا الطبيب، المحلل لم يفتح لنا الباب، سبعة أيام في عملك ليل ونهار، والحرارة على الأربعين لا تنزل، وابنك غالٍ عليك، فإذا بذل الإنسان وقته في طاعة الله، حينها ممكن لله عز وجل أن يحفظ له أهله، وأن يحفظ له أولاده، وأن ييسر له أموره، وأن يريحه من متاعب هو في غناً عنها، يريحه من مشاكل، من مطبات، من ورطات، طبعاً، فحفظ الله شيء عظيم يا أخوان

عبدي كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك، أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلّمت لي فيما أريد، كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد، أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

الإنسان كما قال أحد العارفين بالله: أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا، فإنا منحنا بالرضى من أحبنا، ولذ بحمانا، واحتمي بجنابنا، لنحميك مما فيه أشرار خلقنا.

كرجل عنده سيارة، استيقظ صباحاً فلم يجدها، قال: مساءاً سأذهب للمخفر وأسوي مذكرة ادعاء، ترك الأمر للمساء، لأنه مشغول، الذي سرقها هرَّب بها بضائع ممنوعة، وألقوا القبض عليه، وسألوا عن صاحب السيارة، ثم أخذوه إلى السجن، ووضعوه فيه لمدة ستة أشهر، ليس له علاقة، تأخر بإعلام المخفر بأن سيارته قد سرقت، فأصبح هو مسؤولاً، هنالك في الحياة ورطات كبيرة جداً، أنت لم تفعل شيء، تأتيك ورطة، لم تحسبها، فالله عز وجل قادر على أن يتلف لك كل مالك، قادر على أن يضيع لك كل وقتك، قادر على أن يشغلك ليلاً ونهاراً بتوافه الأمور، يشغلك أحياناً سنة ولا تربح شيئاً، سنة من الهموم، والحسابات والمطالبة، وتوزيع البضائع، ولا تربح شيئاً، قادر، فإذا كنت أنت في مرضاته عاملك معاملة طيبة، ووفر لك وقتك، وفر لك أعصابك، وفر لك قلبك، فالإنسان إن تعامل مع الله بصدق فهذه القضية ليست سهلة، يكون من الفائزين، من العباقرة، من الأذكياء، من الموفقين، من الفالحين، من الناجحين، تعامل مع الله بصدق، يحفظك، يرفع لك شأنك

((أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4))

(سورة الإنشراح)

والله الإيمان شيء محير، يا هل ترى توفيق مادي ؟ نعم هو كذلك، توفيق نفسي ؟ نعم هو كذلك، رفع شأن اجتماعي ؟ نعم هو كذلك، شيء محير، التوفيقات تأتي من كل الجهات، مادية ومعنوية،

واجتماعية، ونفسية، وعقلية، تجد نفسك بعناية بالغة من الله، لكن الثمن التعامل مع الله بصدق، أنت عاهدت خالق الكون

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23))

(سورة الأحزاب)

فيا أيها الأخوة: أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا ببعضنا، اصدقوا مع الله، وطبِّقوا السنة النبوية، واعتنوا بصلواتكم، واقرءوا كتاب الله، واعملوا الصاحات، واستقيموا، بالغوا في الاستقامة، لأنه:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات)

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (2))

(سورة الطلاق)

ولما الإنسان يطبق يقطف الثمار، يدعي دعوة صالحة، لكل أخ دله على هذا الطريق، إذا الإنسان قطف الثمار في بيته، في عمله، في نفسه، في جسمه، في مكانته، شيء ملموس تماماً، يشعر أنه إنسان منتقى، إنسان مميز عند الله عز وجل، والأمر مبذول لكل مخلوق، اسمعوا هذه الآية:

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56))

(سورة الأعراف)

رحمة الله مبذولة لكل مسلم، إذا دفع ثمنها، رحمة الله هذه الكلمة واسعة جداً، رحمة الله التجلي على قلبه، السعادة، التوفيق، الحفظ، النصر، التأييد، رفع الشأن، رفع الذكر، هذه هي رحمة الله عز وجل، هذه الرحمة مبذولة لكل مسلم، بشرط أن يدفع ثمنها، طاعةً وإخلاصاً، وبذلاً وتضحيةً، وقلت لكم أول الدرس: في بيتك يوجد عبادات كثيرة، في الطريق يوجد عبادة، أتحدى أي عمل من الأعمال إلا وفيه مجالاً لترقى فيه إلى الله عز وجل، كاتب في الوظيفة، يأتيك إنسان غشيم، تقوم تعينه، تفهمه، تساعده، توقع له، تدله على الموظف الثاني، تكلم له موظفاً ليعينه، هذا عمل صالح، كيفما كان عملك، ترقى به، محامي، طبيب، مهندس، مدرس، تاجر، عامل، صانع، بل على العكس، الحرف المتعبة إذا أتقنتها وأخلصت لله فيها، ونفعت المسلمين، ترقى بها أكثر، أسأل الله عز وجل أن يتولانا برحمته، وأوصيكم كما أوصي نفسي والله، بتطبيق هذه النصائح، وهذه النصائح النبوية التي وعظنا بها النبي، ونصحنا بها.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (068) :الترغيب والترهيب - الصوم عبادة الإخلاص.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-02-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

من أبرز كتاب الحديث الشريف كتاب الترغيب والترهيب، فقد وُضِعَ هذا الكتاب على طريقتين، الترغيب في ما أمر الله، والترهيب فيما نهى عنه، ففي كتاب الصوم أحاديث صحيحة ترغب في الصوم، وترهب من التقصير في هذه العبادة، فالحديث الصحيح الذي رواه الإمام البخاري ومسلم حديث قدسي:

((عَنْ أبي صَالِحٍ الزَّيَّاتِ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهم يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلا يَرْفُثْ، وَلا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا، إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ))

(رواه البخاري)

وفي رواية أخرى:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهم، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ))

(صحيح البخاري)

فممكن أن ألخص هذا الكلام بكلمة واحدة: الصوم عبادة الإخلاص، لأن كل الأوامر والنواهي يمكن أن تفهمها في ضوء مصلحتك، المر بالصدق بمصلحتك، الأمر بالأمانة بمصلحتك، غض البصر لراحة قلبك، ما من أمر إلهي إلا وتجد أن مصلحة الإنسان معقودة به، لكن الطعام والشراب مباح، فترك الطعام والشراب قد لا يفهمه الإنسان إلا أنه تعبد لله عز وجل، استجابة لأمره، هذا معنى: كل عمل بن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به

والصيام جُنّة أي وقاية وحصن، إذا ترك الإنسان المباح، فلا أن يترك المحرم من باب أولى وإلا في تناقض شديد، إنسان ترك الشراب أن يشرب كأس ماء، أن يحتسي طبق من الطعام، هذه أشياء مباحة، فمن ترك المباح واقترف المعاصي وقع في تناقض شديد، فربنا عز وجل أمرنا في رمضان أن ندع المباحات، فلا أن ندع المحرمات والمخالفات والمعاصي من باب أولى، معنى ذلك: أن الصيام جُنّة.

فالإنسان يقع بتناقض، فهل معقول أن يصوم ولا يصلي ؟ معقول أن يصلي ويطلق بصره في الحرام ؟ معقول يكذب ويغضب ؟ معقول يطغى ؟ مستحيل، هذا معنى والصيام جُنّة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث، الرفث بالمعنى الدقيق الأبحاث في القول، أي حديث متعلق بالنساء أي نظرة أي حركة، من شأنها أن تنمي هذه الشهوة في النفس هذه محرمة طبعاً تحريماً قطعياً، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابّه أحد أو قاتله، فليقل إني صائم، إني صائم.

العوام إذا غضب وتجاوز حده يقول لك: لأني صائم، إذا أساء للناس لأنه صائم، خلقه ضيق، لا بالعكس، الصيام يهذب ويرقق المشاعر، الصيام يجعل للإنسان صلة بالله عز وجل، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

طبعاً الإنسان بعد فترة، بعد ساعات عديدة من النهار تتغير رائحة فم الإنسان لامتناعه عن تناول الطعام والشراب، قال: هذه الرائحة ليست مستحبة هي خلوف فم الصائم، هي أطيب عند الله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما إذا فطر فرح بفطره، انظر لمشاعر الصائمين يوم العيد، هذا القيد انتهى، استيقظ صباحاً وقال: هاتوا القهوة، وجد الفطور جاهز، كان في رمضان إذا استيقظ أحياناً يجد أنه بحاجة لبعض الماء، فعندما يصوم الإنسان رمضان، ويأتي العيد ينتهي القيد، يفرح أنه أدى طاعة الله، وانتهى القيد، لكن الذي أفطر رمضان يشعر بالخزي والعار، الآن أفطر مع الناس لكنه اكتسب الإثم.

النقطة الدقيقة: أن الطاعة ينتهي عبئها ويبقى أجرها، والمعصية تزول لذتها وتبقى تبعتها، نقطة مهمة جداً: الطاعة عبئها يزول، ومشقتها تزول، تبقى ثمارها اليانعة، والمعصية لذتها تزول وتبقى تبعتها.

أوضح مثل عندما يكون الإنسان صائم ودخل للمطبخ، في البيت لا يوجد أحد، والبراد فيه ماء بارد، ما الذي يمنعه أن يشرب إلا خوفه من الله ؟ معنى هذا الصيام دليل الإيمان، وأنا أؤكد لكم أن غير المؤمن صعب أن يصوم، فالصيام بالنسبة له حمق، لن يصوم هو، لم يحرم نفسه الطعام والشراب ؟ فكأن الصيام حدي، من صام فهو على إيمان لا شك، ومن أفطر فهذا دليل أن إيمانه بالله ضعيف جداً، أو يكاد يكون إيمانه غير موجود.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال

((قال عليه الصلاة والسلام: اذكوا تغنموا، وصوموا تصحوا، وسافروا تستغنوا.))

(رواه الطبراني في الأوسط ورواته ثقات)

الإنسان أحياناً بحُكم بشريته يأمر أمر لهدف واحد، أما أن أمر الله عز وجل له أهداف لا تعد ولا تحصى، دعك من العبادة ودعك من تقوية الإرادة ودعك من التقرب إلى الله ودعك من شعور الصائم أنه مع الله ودعك من إقباله على الله ودعك من تربية روحه دعك من كل الفوائد التي نجدها في الصيام،

الصيام بشكل أو بآخر له أهداف صحية لا يعلمها إلا الله.

الأطباء قالوا: الصيام دورة سنوية وقائية وعلاجية، وقائية لكثير من الأمراض ! ولا سيما تلك الأمراض التي تصيب الشيخوخة، والتي أسبابها الإفراط في إرهاق العضوية، طعام دسم يومياً، استمتاع بالحياة تقصير في الوصايا الصحية، جهاز الدوران مرهق، وجهاز الهضم مرهق،جهاز التصفية مرهق، لو استمر الإرهاق ينتهي الإنسان ! يأتي رمضان أولاً يخفف العبء عن جهاز الدوران، القلب والأوعية، يخفف العبء عن جهاز الهضم، يخفف العبء عن جهاز التصفية، كلما أكثر من الطعام الكليتان ترهقان بطرح البولة، فجهاز البول مرتاح، جهاز الهضم مرتاح، جهاز الدوران مرتاح.

الإنسان لديه مخزون من السكر بالكبد، وعنده مخزون بروتيني بالعضلات، فلما يصوم يتحرك المخزون، عملية تجديد عملية تجريف، أحياناً الإنسان بالإفطار يكون في زوايا بأمعائه فيها طعام متخمر، فلما يصوم عملية تجريف وتنظيف وصيانة، أكثر المعامل الراقية تعطل شهر بالسنة بسبب الصيانة، هذه الآلة رأس مال الإنسان، جسمك رأس مالك، فموضوع الصيام خالق الكون مصمم هذا الجسد، أمرك بالصيام، وأدق كلام: أنه دورة وقائية لأمراض الشيخوخة التي أسبابها الإفراط في إرهاق العضوية، فهذا الصيام يخفف العبء عن جهاز الدوران، والعبء عن جهاز الهضم، والعبء عن جهاز التصفية، أي الكليتين، ويحرك سكر الكبد، الإنسان بحاجة إلى سكر.

بالمناسبة إذا شعر الإنسان بصداع في الصيام ليكثر صباحاً من تناول السكريات، لأن نقص السكر يسبب صداع في الرأس، الشيء الآخر يحرك بروتين العضلات، هذه المواد الغذائية المخزنة تحت الجلد هذه تتحرك، وشيء آخر: الصيام يعد علاج لأمراض كثيرة، لكن إياك أن تظن أنه علاج لكل الأمراض لا، هناك أمراض إذا صام الإنسان تشكل عليه خطر، لذلك على الإنسان أن يسأل طبيب مسلم حاذق ورع، أمراض القرحة مثلاً، أمراض الكليتين إذا صام الإنسان يسبب له جفاف، الكليتين من أهم ما يقيهما شرب الماء، فالمريض ليس له أجر إذا صام ! لأنه يلقي بنفسه إلى التهلكة، هذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام: اذكوا تغنموا، وصوموا تصحوا، وسافروا تستغنوا.

ممكن الصيام يحل مشكلة ارتفاع الضغط أحياناً، التوتر الشرياني، ممكن أن يحل مشكلة بعض المرضى السكري، ممكن يحل مشكلة بعض مرضى الهضم، التهاب المعدة الحاد، الإقياء العنيد، هذه كلها أمراض ممكن أن تنحل و تتخفف بالصيام، على كل الكلام الدقيق: وقاية لكثير من أمراض الشيخوخة، وعلاج لبعض الأمراض، والإنسان مادام لا يشعر بشيء فعليه أن يصوم، إلا إذا كان الصيام يسبب له بعض المتاعب الصحية عليه بطبيب مسلم حاذق يفتي له أهن يفطر أو أن يبقى صائم.

ذات مرة سألت طبيب سؤال عرضي: الوفيات هل لها موسم ؟ لو فرضنا سألنا مكتب دفن الموتى هل

عندكم موسم للموت مثلاً ؟ فجاء الجواب في رمضان أحياناً ! ؟لأن بعض الناس جاهلة، يجوز أن يكون عنده أمراض كثيرة غير منتبه لها، فالإنسان صحته رأس ماله، طبعاً الإنسان العادي لا شيء عليه، الصيام وفق طبيعته، لكن في بعض الأمراض يحتاج إلى سؤال، يقولون لك: يا أخي لا تسأل أفضل، لا ليس هذا هو موقف المسلم الصحيح، وقال لي: في الصيف أيضاً تكثر الوفيات، موسم ثاني بأيام الحر، موسم ثاني للوفاة، طبعاً ذكرت هذا الشيء من أجل أن لا يفرط الإنسان بصحته، ليس من الورع أن تصوم وأنت مريض، لأن ربنا عز وجل قال:

(وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)

(سورة البقرة)

هذا المعنى الصحي يؤكده حديث آخر: يقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه ابن ماجة:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ، وَزَكَاةُ الْجَسَدِ الصَّوْمُ، زَادَ مُحْرِزٌ فِي حَدِيثِهِ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصِّيَامُ نِصْفُ الصَّبْرِ))

(سنن ابن ماجة)

أحياناً الجسد يزكو ويصح ويقوى بالصوم، بالمناسبة لو الإنسان لم يعرف دقائق حكمة الصوم، لو لم يعرف النواحي الصحية في الصوم، يقطفها كلها، لأن كما قلت لكم دائماً: الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به، وأوضح مثل: ممكن أن تستخدم أرقى جهاز الآن كالكمبيوتر الحاسوب، ويقدم لك خدمات غير معقولة، ومع ذلك لا تعرف ماذا يجري بداخله ! إذاً ممكن أن تقطف ثمار الشيء من دون أن تعرف دقائق أو تفاصيل عمله.

وممكن أيضاً الإنسان العادي العامي، الله أمر بالصيام فصام، فمن دون أن يفهم حكمة الصيام، قطف كل ثمار الصيام صحّ فيه جسده، ويقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ، وَزَكَاةُ الْجَسَدِ الصَّوْمُ، زَادَ مُحْرِزٌ فِي حَدِيثِهِ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الصِّيَامُ نِصْفُ الصَّبْرِ))

(سنن ابن ماجه)

فإذا صام الإنسان يعني هذا أنه صابر، لكن لا تعدوا رمضان الشتاء هو الصبر، فهو عادي جداً، أما رمضان الصيف سبعة عشرة ساعة، والحرارة ست وخمسين، طبعاً في الحجاز أو خمس و أربعين في الشام، ثماني وأربعين، والصائم من الصباح عطشان، فالصبر الحقيقي هو الصيام في الصيف، والإنسان يأتي بعمره مرة أو مرتين الصيام في الصيف ! كل ست وثلاثين سنة يأتي الصيام بالصيف مرة، فحتى يقطع السبعين سنة يأتيه مرتين بأيام الصيف الحارة.

الشيء اللطيف أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول فيما رواه البيهقي:

((حَدَّثَنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ لِلصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ لَدَعْوَةً مَا تُرَدُّ...))

(سنن ابن ماجة)

ما قولكم ؟ فالإنسان إذا أطلق مدفع الإفطار أو سمع الأذان وأخذ التمرات ليأكلها وشرب كأس الماء، عليه أن يدعو الله عز وجل، لأن في هذه الساعة له دعوة ما ترد، إسأل الله خير الدنيا والآخرة، من الأدعية الجامعة المانعة: اللهم اهدني واهدي بي، ادعوا الله أن يهديك أولاً، وأن يجعلك هادياً للناس ثانياً، اللهم ارزقني طيباً، واستعملني صالحاً، اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعفوا عني يا كريم، اللهم آتي نفسي تقواها وزكها، أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم اغفر ذنبي، اقبل توبتي، واغفر ذلتي، وأقل عثرتي، وتولى أمري.

على الإنسان أن يحفظ أدعية كثيرة، أن الدعاء نصف العبادة، بل هو العبادة كلها، هذه أيضاً نصيحة من رسول الله، لك عند الله دعوة ساعة الإفطار لا ترد !

بعض الأحاديث ورد: أن الصائم عند الإفطار، والمعتمر والحاج حينما يرى الكعبة له دعوة لا ترد، فحينما تقع عينك على الكعبة بادئ ذي بدء قف وادعوا الله عز وجل ! وفي حديث آخر، وقد رواه الإمام أحمد في مسنده:

((حَدَّثَنَا أَبُو الْمُدِلَّةِ مَوْلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ... ثَلاثَةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمُ الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الْغَمَامِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ))

(مسند الإمام أحمد)

فالصائم حينما يفطر له دعوة لا ترد، إذا الإنسان سأل الله خير الدنيا: اللهم ارزق بناتي شباباً طاهرين، والله الصهر الممتاز هذا من نعم الله الكبرى، أن الصهر مثل ابنك، مخلص وفي رحيم محسن لابنتك، اطلب من الله صهر ديّن، من خير الدنيا الرزق الحلال، اطلب من الله أن يوسع في رزقك، الله عز وجل عنده خزائن كل شيء، ويقول عليه الصلاة والسلام في رواية للنسائي:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ))

(سنن النسائي)

وفي رواية أخرى:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهم، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ))

(صحيح البخاري)

معنى إيماناً: لولا أنه مؤمن، لأن الله أمر بهذا الأمر، وأنه سيحاسبه عنه، وأن المشقة التي يتحملها الصائم هي في سبيل الله، هذا معنى إيماناً واحتساباً، قال

((مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ))

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ))

(رواه البخاري ومسلم)

معنى هذا الصيام والقيام متلازمان، فهذا الذي يفرق بين القيام والصيام، صار لديه عرج، الله عز وجل فرض الصيام، والنبي عليه الصلاة والسلام الذي لا ينطق عن الهوى، وقد أُمرنا أن نأخذ منه:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ)

(سورة الحشر)

قال: ثنّى لنا قيامه، فمن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له، ومن قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له.

وهناك نقطة تكلمت بها يوم الجمعة في الخطبة: الإنسان إذا كان بعيداً عن الكبائر، يوجد هفوات وذلات وكلمة غير مناسبة ونظرة لم تقصدها وموقف لم يعجبك، قال:

((الصَّلَوَاتِ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ))

(رواه مسلم)

الإنسان تصفية حساب، من رمضان إلى رمضان، إذا الإنسان صام هذا الشهر صياماً لم يفسق لم يرفث لم يغتب لم ينظر إلى الحرام، ضبط دخله، ضبط إنفاقه، ضبط بيته، اتجه إلى الله عز وجل لكليته، اصطلح مع الله صلحاً تاماً، أقام الإسلام في بيته وفي عمله، وصام وقام، أغلب الظن أن الله سبحانه وتعالى يغفر له ذنوب العام كله، كأن الأول من شوال فتح مع الله صفحة جديدة ! ليس معنى هذا أن يسودها، كلما فتحنا صفحة نملئها ذنوب، لا، هذا سلوك فيه استهزاء بالله عز وجل، لكن إذا الإنسان عنده تقصيرات، عنده مشاعر أن عنده خطأ، صيام رمضان صياماً صحيحاً، يغفر له ما كان من قبل.

والشيء نفسه بالصلاة، الصلوات الخمس، أي الصلاة إلى الصلاة، الفجر صليته في جماعة، انطلقت إلى عملك، أثناء العمل قلت كلمة غير مناسبة، أذّن الظهر انطلقت إلى الصلاة بخشوع، صلاة الظهر تكفر ما كان بين الفجر والظهر، العصر ما بين الظهر والعصر، المغرب والعشاء إلى آخره.

فالصلوات الخمس، ولا جمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر.

إخواننا الكرام: يشعرون بهذا الشعور يقول لك: الجمعة انغسلنا، يكون أثناء الأسبوع سبت أحد اثنين، انشحن شحنة روحية، علمية روحية، أربعاء خميس، تجده ضعفت همته، صلواته أصبحت شكلية، مال للدنيا أكثر، يأتي يوم الجمعة يشحن هذه الشحنة الجديدة، ويشعر أنه انطلق انطلاقة جديدة، هذا الشعور قائم، الصلوات الخمس، الصلاة إلى الصلاة، الجمعة إلى الجمعة، رمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن طبعاً إذا اجتنبت الكبائر.

وأخرج البيهقي عن جابر بن عبد الله قال

((لما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر جعل له ثلاث عتبات، فلما صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم العتبة الأولى قال: آمين، ثم صعد العتبة الثانية فقال: آمين، حتى إذا صعد العتبة الثالثة قال: آمين. فقال المسلمون: يا رسول الله رأيناك تقول آمين آمين آمين ولا نرى أحدا؟! فقال: إن جبريل صعد قبلي العتبة الأولى فقال: يا محمد. فقلت لبيك وسعديك. فقال: من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يغفر له فأبعده الله، قل آمين. فقلت: آمين. فلنا صعد العتبة الثانية قال: يا محمد قلت: لبيك وسعديك. قال: من أدرك شهر رمضان وصام نهاره وقام ليله ثم مات ولم يغفر فدخل النار فأبعده الله، فقل آمين. فقلت: آمين. فلما صعد العتبة الثالثة قال: يا محمد. قلت: لبيك وسعديك. قال: من ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات ولم يغفر له فدخل فأبعده الله، قل آمين. فقلت: آمين))

(أخرجه البيهقي)

أي خاب وخسر، رغم أنف عبد أدرك رمضان فلم يغفر له، إن لم يغفر له فمتى ؟ مشكلة كبيرة أن تقول: أنا أفعل هذا بعد رمضان، هذا الشهر المناسب، فالشهر الذي قبل الامتحان إذا لم تدرس فيه، متى تدرس بعد الامتحان ؟ هذا أنسب شهر، أفضل شهر، طبعاً وقال: ثم أتاني فقال لي: يا محمد من أدرك والديه أو أحدهما فدخل النار، فأبعده الله فقلت: آمين، قال: ومن ذكرت عنده فلم يصلي عليك، فأبعده الله، فقلت: آمين.

رواية أخرى في الحديث معروفة.

وجدت الكلمات في الحديث رقم:

((عن سلمان قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر يوم من شعبان فقال: يا أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم شهر مبارك فيه ليلة خير من ألف شهر جعل الله تعالى صيامه فريضة وقيام ليله تطوعا، من تقرب فيه بخصلة من الخير، كان كمن أدى فريضة فيما سواه وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة، وشهر يزاد فيه رزق المؤمن، من فطر فيه صائما كان له مغفرة لذنوبه، وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء، قلنا: يا رسول الله ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يعطي الله تعالى هذا الثواب

من فطر صائما على مذقة لبن أو تمرة أو شربة ماء، ومن أشبع صائما سقاه الله تعالى من حوضي شربة لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنة، وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار فاستكثروا فيه من أربع خصال: خصلتين ترضون بهما ربكم، وخصلتين لا غنى بكم عنهما، فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم شهادة أن لا إله إلا الله وتستغفرونه، وأما اللتان لا غنى بكم عنهما فتسألون الله تعالى الجنة وتتعوذون به من النار))

(كنز العمال للمتقي الهندي)

وعن سلمان رضي الله عنه قال

((خطبنا رسول الله صلى الله))

في أصحاب الأعمال أحياناً يكلفون الموظفين فوق طاقتهم، الموظف ليس له غير العمل، وإذا تشاجر معلمه معه فهذه مشكلة، لكن هذا شهر الرحمة، شهر الشفقة، شهر العبادة، خفف عنه شيء، أحياناً في بعض المصالح يقول للعامل: تناول الفطور ثم أكمل عملك حتى منتصف الليل ! يأتي للبيت ثاني يوم الساعة التاسعة للمغرب، أيضاً هذا اسمه إرهاق، ومن خفف عن مملوكه فيه غفر الله له وأعتقه من النار.

قال :

((واستكثروا فيه من أربع خصال خصلتين ترضون بهما ربكم، وخصلتين لا غناء بكم عنهما، فأما الخصلتان اللتان ترضون بها ربكم فشهادة أن لا إله إلا الله، وتستغفرونه، وأما الخصلتان اللتان لا غناء بكم عنهما فتسألون الله الجنة وتعوذون به من النار، ومن سقى صائماً سقاه الله من حوضي شربة لا يظمأ حتى يدخل الجنة))

هذه خطة للنبي عليه الصلاة والسلام ن روى هذه الخطة ابن خزيمة في صحيحه، وقال: صح الخبر، ورواه من طريق البيهقي، ورواه بن حبان في الثواب باختصار عنهما.

في حديث آخر:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهم عَنْهم، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ))

(صحيح مسلم)

ذات مرة هذا الحديث شرحته، قلت: أن الإنسان لو تسائل في نفسه لما لا يغلق الله أبواب النار طوال العام ؟ ولما لا يصفد الله الشياطين طوال العام ؟ الحقيقة الحديث يشير بمعنى آخر: عندما يصطلح الإنسان مع الله وينطلق إلى بيوت الله، ويعرض عن كل معصية، دور المعاصي تغلق من تلقاء ذاتها، فهذا إغلاق حكمي، إذا تاب الإنسان، إذا فتح في مكان ما مقهى أو نادي ليلي أو مكان فيه معاصي ولم

يرتاده أحد فسيغلق هذا المكان، فالله عز وجل، يشير النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث إلى أن ينبغي للمؤمن أن ينطلق إلى طاعة الله، وأن تكون هذه الانطلاقة عامة.

يوجد كلمة دقيقة: عندما قال ربنا عز وجل:

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة النور)

ماذا نستفيد من كلمة جميعاً ؟

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ)

نستفيد منها أن ثمار غض البصر لا نعرفها على حقيقتها إلا إذا كان غض البصر مطبقاً في جميع المسلمين، تعرفوا قيمة هذا الغض، لو أن النساء كلهن تحجبن، والرجال كلهم غضوا أبصارهم، لعاش الشباب والرجال في راحة نفسية وفي صفاء لا يعرفه إلا من ذاقه، لكن حينما الأكثرية ينطلقون سافرات كاسيات عاريات، والأقلية يغضون أبصارهم عندئذ لا نعرف معنى حجم هذه الطاعة، طبعاً عندئذ يعاني الشاب من تفلت الفتيات، وربما وجد صعوبة في غض البصر، طبعاً الشاب ضعيف الإيمان، هذا معنى قول الله عز وجل:

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ)

مرة مثلتها بمثل: إذا كان لك خمسين صديق، وأنت وحدك لديك هاتف، هل هذا الهاتف له قيمة ؟ لا ليس له قيمة أبداً، لكن لا قيمة له إذلا إذا كان عند كل صديق هاتف، لا تعرف قيمة الهاتف ليكون منتشر بين الناس جميعاً، أما فلان ليس لديه، وفلان ليس لديه، ولو كان لديك أنت هاتف لا تستفيد شيء، فأحياناً لا نعرف حجم الطاعة إلا إذا طبقها جميع المسلمين، إذا طبقها قلة لهم أجر كبير، لكن تبقى فتنة، تبقى في مشكلة، هذا معنى قول الله عز وجل:

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31))

هنا أيضاً المعنى نفسه مطروق، إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين، لاحظنا برأس السنة كثير من الجوامع أحيت هذه الليلة ! وبيوت كثيرة جداً لا تعد ولا تحصى، أحيت هذه الليلة بذكر الله وطاعته، ولم نلاحظ أي مجون في الطرقات كما تشعرون، هذه بادرة طيبة، إذا التزمت الناس كلها هذه الأماكن التي لا ترضي الله ليس لها عمل، تغلق أبوابها، فأنت إذا استقمت ودعوت أخوك للاستقامة، أنت باستقامتك وتوبتك تغلق هذه الأماكن، وأنت حكماً تصفد هذه الشياطين تصفيداً.

هناك بشارة أخرى:

((حَدَّثَنَا النَّضْرُ بْنُ شَيْبَانَ قَالَ: لَقِيتُ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قُلْتُ: حَدِّثْنِي عَنْ شَيْءٍ سَمِعْتَهُ مِنْ أَبِيكَ، سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ قَالَ: نَعَمْ حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ صِيَامَ رَمَضَانَ، وَسَنَنْتُ قِيَامَهُ فَمَنْ صَامَهُ وَقَامَهُ احْتِسَابًا، خَرَجَ مِنَ الذُّنُوبِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ))

(مسند الإمام أحمد)

لكن أرجو أيها الأخوة: أن تنتبهوا لهذا المعنى الدقيق الخطير: حيث ما وردت كلمة خرج من الذنوب كيوم ولدته أمه، إن في أحاديث الحج، أو في أحاديث الصيام، هذه الذنوب التي يخرج منها كيوم ولدته أمه هي الذنوب فقط المحصورة بينه وبين الله عز وجل ! أما حقوق العباد هذه لا تسقط احفظوها جيداً لا تسقط إلا بإحدى حالتين: بالأداء أو المسامحة، عليك دين لفلان أنا سأصوم رمضان حتى يغفر الله لي هذه مماطلة، لا عليك حقوق لوالدتك لأخيك، حقوق لشريكك، حقوق لأولادك، هذه الحقوق لا تسقط لا بالحج ولا برمضان، ولا بأي عبادة، هذه لا تسقط إلا بالأداء أو المسامحة.

حتى الإنسان لا يتعلق بأوهام، ويتفاجأ يوم القيامة أنه حجّ فليس عليه ذنوب، لم يذهب منهم ولا ذنب، لو حججت خمسين حجة ! الذنوب التي بينك وبين الله تسقط، وبالصيام كذلك، ما كان بينك وبين الله يسقط، لكن ما كان بينك وبين العباد لا يسقط، لأن حقوق العباد مبنية على المشاححة، وحقوق الله عز وجل مبنية على المسامحة، فلا تتورط وتقول: أنك ستصوم رمضان والله يغفر لي، غداً أحج ألقي بكل ذنوبي، لا هذا مفهوم عامي ساذج، الشيطان يرسخه في نفوس العوام.

وإن شاء الله تعالى في درس آخر نأخذ الأحاديث التي تتعلق في الترهيب، على كل هناك أحاديث كثيرة جداً عن الصيام، وأنا اخترت الأحاديث غير المتكررة، وذات المعاني الدقيقة، فأولاً: يمكن أن يغفر لك كل ذنب إذا صمت رمضان متعلق بالله عز وجل، والشيء الثاني: أبواب النيران تغلق، والشياطين تصفد بطاعتك لله فقط، هذا المعنى الثاني، المعنى الثالث: رمضان فرصة سنوية وحيدة للمغفرة، وللانطلاق لله عز وجل، وإذا اجتنبت الكبائر، فرمضان إلى رمضان يكفر مابين رمضانين، وصيام رمضان يقابله قيام رمضان، صيام رمضان فرضه الله عز وجل، وقيام رمضان ثنّه النبي، والتراويح سنّة مؤكدة، والله عز وجل أكرمنا في رمضان نستمع من إيمامنا إلى القرآن كله في رمضان، فإذا حرص الإنسان على أداء الصلوات الفجر والتراويح هنا في هذا المسجد فهو يستمع إلى كتاب الله كله، وإذا كان ورع في نهار رمضان ورع جداً، وتناول طعام معتدل، تصبح الصلاة عنده قطعة من الجنة، والله تمضي ساعى دون أن نشعر إلا وكأنها خمس دقائق ! لكن الشرط إذا كان هناك مخالفات أثناء النهار في حجاب أثناء الصلاة، تصبح الصلاة مملة، إذا في مخالفات في حجاب، وإذا

كان مستقيم لكن أكثر من الطعام أيضاً سيجلس، لأن الوقفة طويلة عليه، فالإنسان المفروض نصيحتين أساسيتين: الورع إلى مستوى الوسوسة لا مانع من ذلك برمضان، تشعر وأنت واقف في التراويح أن الله ينظر إليك، وأن الله راض عنك، وأنك ملتزم، وأنك جاهدت نفسك وهواك، فالدقة التامة في وقت الجوارح في نهار رمضان، والطعام المعتدل عند الإفطار، من أجل أن تكون صلاة التراويح جنة ترقى بها إلى الله.

أحد العلماء قال: في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الله ! جنة الدنيا الإقبال على الله عز وجل، والإمام الغزالي يقول: أفضل حالة لقراءة القرآن أن تقرئه واقفاً في صلاة وأنت في المسجد، وهذه متوفرة في صلاة التراويح، نحن نقرأ في الفجر ست صفحات، وبالعشاء صفحتين أصبح عددهم ثمانية، الجزء عشرين صفحة، بقي أثنى عشر صفحة، فتقرأ هذه الصفحات بعشرين ركعة بشكل مريح جداً، ساعة ساعة وخمس دقائق، أنت تقرأ جزء، تستمع إلى جزء، وإن شاء الله الدرس ربع ساعة واكثر لا نزيد، ساعة وربع كل ليلة مع الله عز وجل، من قام رمضان، صمته في النهار فقمه في الليل، والحديث الآخر: أن زكاة الجسد الصوم، الصيام صحة، لو لم تعلم دقائق هذه الصحة، دورة صيانة للجسد، صيانة ووقاية وعلاج، علمت أم لم تعلم، لأن خالق الكون أمر بهذا الصيام.

وأول موضوع طرحناه: كل عمل بن آدم له، إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، الصوم عبادة الإخلاص، هذه أبرز الأحاديث التي وردت في الترغيب والترهيب في باب الصوم، أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بها جميعاً.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (070) : ليلة القدر .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-02-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام... في آخر سورة الدهر يقول الله عزَّ وجل:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (28) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (29))

(سورة الإنسان)

هذه الآية تؤكد أن الإنسان مخير..

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (29) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (30))

الحقيقة مشيئة الإنسان مشيئة اختيار، لكن مشيئة الله عزَّ وجل مشيئة فحصٍ واختبار، الإنسان يختار، لكن الله سبحانه وتعالى يتفحَّص اختياره، فإن كان صادقاً في اختياره، ودفع ثمن اختياره، يشاء الله له ما شاء من طلبٍ للخير، لئلا نقع في سوء فهمٍ لهذه الآية، ولئلا نفهمها فهماً جبرياً ما أراده الله..

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (29) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

تماماً كما لو قدَّم طالبٌ طلباً يختار في طلبه كلية الطب، إدارة الجامعة تفحصت الطلب، مجموعه قليل، ترفض هذا الطلب، مجموعة مناسب، تقبل هذا الطلب، مشيئة الإنسان مشيئة اختيار، لكن مشيئة الله عزَّ وجل مشيئة فحصٍ واختبار. فمن كان صادقاً في اختياره، ودفع ثمن اختياره، الله سبحانه وتعالى يحقق له مراده في دخول الجنة.

في نقطة دقيقة في آخر الآية:

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

لهذا الآية معنىً آخر: لولا أن مشيئة الله شاءت أن تشاءوا لما شئتم، أنت الآن مخير، وهذا الاختيار سبب سعادتك في الدنيا والآخرة، هذه المشيئة التي تتمتع بها أيها الإنسان، لولا أن الله شاء لك أن تكون ذا مشيئة، لما كنت ذا مشيئة..

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (30))

الآن توضِّح هذه الآية الأخيرة كيف أن مشيئة الله مشيئة فحصٍ واختبار..

(يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (31))

فمَن الذي أدخل في رحمته غير الظالمين ؟ معنى هذا أن الله عزَّ وجل فحص مشيئتهم، فلما كانوا صادقين، وكانوا مستقيمين، أدخلهم في رحمته، هذه الآية دقيقةٌ جداً في تأكيد حرية الاختيار، وتأكيد أن مشيئة الإنسان، لولا أن مشيئة الله شاءت له أن يشاء لما شاء، وليس هناك جنة إلا بهذه المشيئة الحرة التي يتمتع بها الإنسان.

أيها الإخوة... في سورة النازعات آيةٌ تؤكد أن الإنسان في هذه الدنيا لا يرقى إلا إذا خالف طبعه، في آيات تؤكد أن هذا الدين وفق الفطرة، وفي آيات تؤكد أن تكاليف الدين يجب أن تعاكس الطبع. والحقيقة الطبع غير الفطرة، الطبع أقرب إلى الجسد، والفطرة أقرب إلى النفس، فتكاليف الدين مخالفةٌ للطبع ـ وقد ذكرت هذا مراراً ـ طبع الإنسان يميل إلى أن ينام، والتكليف أن يستيقظ ويصلي الفجر حاضراً، طبعه يميل إلى أن ينظر إلى النساء، لكن التكليف يأمره بغض بصره، طبع الإنسان يميل إلى قبض المال، والتكليف إلى إنفاق المال، طبع الإنسان يميل إلى الحديث عن عورات الناس، لكن التكليف يأمره أن يكفَّ لسانه عن الغيبة والنميمة، فكأن التكليف ذو كُلفَة، والتكليف يتناقض مع طبع الإنسان. إذاً الإنسان لا يرقى إلى الله إلا إذا خالف طبعه، لكن الإنسان حينما يسلك طريق الإيمان، ويطيع الرحمن، ويتصل به، ترتاح نفسه، إذاً هذا الدين موافقٌ للفطرة ومخالفٌ للطبع.

هذا معنى قوله تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41))

(سورة النازعات)

فالإنسان في عنده غرائز وفي عنده عقل، العقل يأمره بطاعة الله، يأمره بالعمل للآخرة، والغريزة تأمره أن ينحرف إلى الدنيا.

بالقرآن الكريم إشارات إلى القرابات، في هذه السورة ـ سورة عبس ـ وقد يفهم الناس هذه السورة على خلاف ما أراد الله عزَّ وجل، النبي عليه الصلاة والسلام حينما عبس وتولى، الله عزَّ وجل وصف ولم يقيِّم، وصف فقال:

(عَبَسَ وَتَوَلَّى (1))

ليس هناك تكليف، لا معصية من دون تكليف، لكن الله سبحانه وتعالى أظهر أن هذا النبي عليه الصلاة والسلام حينما خُيِّر بين أمرين ؛ أمرٍ سهلٍ جداً عليه ؛ أن يجلس مع أحد أصحابه، أو أن يجلس مع صناديد قريش الكفار المعاندين، اختار الأصعب رحمةً بهؤلاء، فلعل الله يهديهم، وترك هذا الصحابي الجليل عبد الله ابن أم مكتوم لوقتٍ آخر، اختار الأصعب وعبَّر باختياره عن حبه لهداية الخلق، لكن الله سبحانه وتعالى وصف حاله ولفت نظره إلى وضعٍ آخر قال:

(عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2))

مادام ما في تكليف ما في معصية، والنبي اختار الأشد، لذلك قال العلماء: " إن الله سبحانه وتعالى لم يعتبْ عليه بل عَتِبَ له ". وفرقٌ كبير بين أن يعتَب عليه وبين أن يعتَب له، فالأب الذي يرى ابنه يقرأ ليلاً نهاراً يعتب له فيقول: كفاك قراءةً، اذهب ونم واسترح، هذا عتاب، لكن هذا العتاب يؤكد اجتهاد ابنه وتفانيه في الدراسة، فإذا صحَّ أن في هذه السورة عتابٌ للنبي فهو عتابٌ له لا عليه، لأنه اختار الأصعب ولا معصية من دون تكليف.

ثم إن الله سبحانه وتعالى أقحم بين السوَرة المكية التي تتحدث عن الكون، وعن الدار الآخرة، وعن كليات الدين، أقحم سورةً متعلقةً بحكمٍ فقهي، قال:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (6))

(سورة المطففين)

قال علماء التفسير: إن هذه السورة المتعلقة بحكمٍ شرعيٍ فقهي في البيع والشراء، أقحمت بين السور المكية، لبيان عِظَمِ المخالفة التي يقع بها بعض الناس، فحقوق العباد مبنيةٌ على المشاححة، وحقوق الله عزَّ وجل مبنيةٌ على المسامحة.

وكل إنسان أيها الإخوة يتوهَّم إذا ذهب إلى الحج، أو إذا صام رمضان، أو إذا فعل بعض العبادات تسقط عنه ذنوبه كلها، هذا وهمٌ خاطئ، لا تسقط عنه إلا الذنوب التي كانت بينه وبين الله، لكن التي بينه وبين العباد لا تسقط إلا بحالين: بالأداء أو المسامحة. لو ذهبت إلى الحج، لو اعتمرت كل عام، لو صمت رمضان، لو صمت الاثنين والخميس، لو صليت الأوابين وقيام الليل، مهما فعلت من عبادات حقوق العباد لا تسقط إلا بالأداء والمسامحة، لذلك قال تعالى:

(يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ)

(سورة الأحقاف: من آية " 31 ")

وهذه الـ(من) للتبعيض، أي أن الله عزَّ وجل يغفر لكم ما كان بينكم وبينه، لكنه ما كان بينكم وبين العباد لا يغفرها إلا العباد، فانتبهوا قضية حقوق العباد ما في معها حل وسط إطلاقاً، لذلك ربنا عزَّ وجل في خضم السور المكية أقحم سورةً تتحدث عن حكمٍ فقهي..

(وَيْلٌ)

أي الهلاك. يعني لما الإنسان يتعدى على حقوق الآخرين، حينما يعتدي على حقوقهم المادية أو الأدبية، أو حينما يعتدي على أعراضهم، فقد جعل الطريق إلى الله مقطوعاً..

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (7) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (8) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (9))

بعضهم قال: (مرقوم) من الرقم، أي من الصورة. وبعضهم قال: مرقوم من الرَّقم. فإذا قلنا مرقوم من الرَّقم أي أن كل مخالفةٍ ومعها صورتها، فإذا فتح الكتاب يوم القيامة الإنسان يرى المعاصي كلها وصورته في أثناء المعصية..

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (14))

(سورة الإسراء)

وإذا كان من الرَّقم فهذه الصفحات لا يمكن أن ينتزع منها شيء، كلها مسلسلة.

وربنا عزَّ وجل في سورة البروج يقول:

( ) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (16))

قبلها يقول:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14))

صفتين متناقضتين، أي إذا تبت إليه، وأقبلت عليه هو غفور ودود، يريك من وده ما لا يصدق، أي يعطيك من المودة، والتوفيق، والتيسير، والحفظ، والدعم، والطمأنينة، والسكينة، والبُشرى الشيء الكثير لأنه ودود. وإن أعرضت عنه، وأردت الدنيا، وكنت عدوانياً، وبغيت في الأرض..

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12))

يعني عنده علاجاتٌ قد لا تحتمل، وهذا معنى قوله تعالى:

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ)

(سورة البقرة: من آية " 286 ")

أحياناً مَرَضين، أدوية المرض الأول تزيد في المرض الثاني، وأدوية المرض الثاني تزيد في المرض الأول، قد يجمع الله للإنسان الفقر والمرض، أو الفقر والقهر، أو الشقاء البيتي والشقاء الخارجي..

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ)

هناك أمراضٌ وبيلة، هناك أمراض لها آلام لا تحتمل، هناك إهاناتٌ، هناك فقرٌ، هناك ذلٌ، هناك إلخ..

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12))

فكل إنسان لا يخاف الله عزَّ وجل هذا إنسان أحمق وغبي، ورأس الحكمة مخافة الله، وخوفك من الله يتناسب مع علمك به.

ومرةً ثانية في قوله تعالى في سورة الفجر:

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15))

فأيها الإخوة... كل الحظوظ التي يمنحها الله للإنسان بالتأكيد ليست نعمة وليست نقمة، إنها موقوفة على طريقة التعامل بها، فهذه الحظوظ إما أن ترقى بها، وإما أن تهوي بها. إذا وظفتها في الحق ترقى بها، وظفتها في الباطل تهوي بها..

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ)

هو، هذه مقالته والله لم يعترف بهذه المقالة..

(فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15))

والعوام دائماً إذا كان الواحد في بحبوحة مادية وعمل سياحة، يقولون لك: الله يحب عبده فيريه ملكه. هذا كلامه هو..

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16))

ليس عطاء الله إكراماً إنما هو ابتلاء، وليس حرمانه إهانة إنما هو دواء، وهذه الحظوظ البطل هو الذي يوظفها في طاعة الله، وظف مالك، فراغك، صحتك، إمكاناتك، عقلك، لسانك، قلمك، مالك، هذه حظوظ الدنيا، بيتك، زوجتك، أولادك كل هذه الحظوظ وهذه الطاقات ينبغي أن توظّف في طاعة الله. في سورة البلد يقول الله عزَّ وجل:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (4))

يعني طبيعة الحياة الدنيا قائمة على بذل الجُهد..

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ (6))

(سورة الانشقاق)

لكن طبيعة الحياة الآخرة قائمة على الطلب..

(لهم وَمَا تَشَاءُونَ فيها)

(سورة ق: من آية " 35 ")

فقط الطلب، بل الخاطر وحده يكفي، لمجرَّد أن تختار شيئاً هو أمامك، هذا نظام الآخرة. لكن نظام الدنيا لابدَّ من كدح، وسعي، وتكبُّد مشقةٍ لأنها ثمن الآخرة، هذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5))

ذرَّة من دمه، نقطة من دمه إذا تجمَّدت في أي مكان في دماغه إما أنه فقد ذاكرته، أو فقد حركته، أو فقد سمعه، أو فقد بصره، أو فقد بعض حواسه الأساسية..

(أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7))

أي كيف جمع هذا المال، بأية طريقةٍ ؟ وكيف أنفقه ؟ وما مصير هذا الإنفاق ؟..

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8))

مائة وثلاثين مليون عصية ومخروط في الشبكية، تسعمائة ألف عصب ضمن العصب البصري الموحَّد، ثمانمائة ألف درجة من اللون العين السليمة تفرق بين درجتين..

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَاناً)

كل حرف تسهم في صنعه سبعة عشر عضلة، إذا الكلمة تتكون من خمس حروف، والجملة خمس كلمات، والخطبة عشرة آلاف كلمة أو خمسة آلاف كلمة، كم حركة للسان تحرَّك ؟..

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10))

قال ابن عباس: (النجدان) هما الثديان، فيهما حليبٌ دافئٌ في الشتاء باردٌ في الصيف، نسبته تتغير كل يوم وفق طاقة الطفل ونمّوه، عيارات يومية، فيه مناعة الأم، فيه مواد تمنع التصاق الجراثيم بالأمعاء، فيه أشياء لا تقدر بثمن، وهذا الحليب هديةٌ من الله عزَّ وجل، معقم، جاهز، أحياناً الطفل بينما تكون غليت الحليب له، وتبرده يطق من البكاء، لكن مع أمه جاهز، حليب معقم دافئ، جاهز للاستعمال الفوري، وأحد أسباب سرطانات الثدي عدم إرضاع الأم ابنها، لذلك حليب الأم لا يعدله حليب..

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (9))

أما الشفتان، علماء نفس الطفل يقولون: الإنسان حينما يولد لا يملك أي قدرات، ولا مهارات، ولا أي شيء إلا منعكس واحد وهو منعكس المص، وهو منعكس معقَّد، لولا هذا المنعكس لما بقي أحدٌ منا على وجه الأرض، يضع شفتيه على حلمة ثدي أمه، ويحكم الإغلاق، ويسحب الهواء، الآن وُلِد من دون تعليم، هذا اسمه منعكس المَص وهذه غريزةٌ تولد مع الإنسان.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10))

هنا الآية:

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13))

أي ما دامت رقبتك منقادةً للشهوات، فالطريق إلى الله غير سالك، العقبة الوحيدة التي إذا أزلتها صار الطريق إلى الله سالكاً هي الشهوات، فكَّ رقبتك من الشهوات، لذلك: " تعس عبد الدرهم والدينار، تعس عبد الفرج، تعس عبد البطن، تعس عبد الخميصة ـ الثياب ـ ". الإنسان مادام عبد لشهواته فالطريق إلى الله غير سالك، إذا أزال هذه العقبة..

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ (16))

إذا فعل هذا، واقتحم العقبة، وفكَّ الرقبة، فكَّ رقبته من أسر الشهوات..

(ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17))

لما الإنسان يستقيم ويصطلح مع الله، يحس أن جبال جاثمة على صدره أزيحت، صرت خفيف، إذا أرضى الإنسان ربه، وسار على منهجه، واصطلح معه يشعر بالطمأنينة، يحس بالأمن، يحس أن الله راضٍ عنه، يحس أن له عند الله مكانة كبيرة، يحس أن الله سيكرمه، هذا كله..

(ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17))

وفي سورة الليل، الإنسان إذا نظر إلى طريق مزدحم ؛ مزدحم بالأشخاص، والسيارات، كل إنسان يتحرك نحو هدفه، لو أتيح لنا أن نشق على صدور هؤلاء الناس، أو أن نفتح عقولهم كل إنسان في بباله شيء ؛ هذا ذاهب يعقد صفقة، هذا ذاهب يقيم دعوى على فلان، هذا ذاهب يتنزَّه، هذا ذاهب يحدث مشكلة، هذا يذهب لحل مشكلة، قال:

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4))

(سورة الليل)

لكن السعي الناجح..

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7))

ربنا عزَّ وجل بكلمات قليلة لخَّص الدين، قال:

(أَعْطَى)

المؤمن ـ بالتعبير الحديث ـ استراتيجيته العطاء، الكافر الأخذ. يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ، أساس حياة المؤمن العطاء، يعطي من علمه، من ماله، من وقته، من خبرته، من جاهه، من خصائصه كلها، والكافر باني حياته على الأخذ، وعلى مصِّ دم الآخرين..

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5))

أن يعصي الله عزَّ وجل، يعني مع العمل الصالح في استقامة..

(وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6))

آمن، إيمان، استقامة، عمل صالح..

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7))

ممكن أن تقول: هذه الآية فيها قانون التيسير، ألا تحب أن تيسر أمورك ؟ ألا تحب أن تذلل العقبات أمامك ؟ قال:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ)

بنى حياته على الأخذ..

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8))

عن طاعة الله، أي عصاه..

(وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9))

هذا الدين رفضه، رفض الجنة، رفض عطاء الله عزَّ وجل، رفض الإيمان، قال:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10))

أمامه مطبات، ومصائب، ومضايقات، وإحباطات، ومشكلات.. إلخ. هذه الآية فيها قانون التيسير والتعسير، فلا تقل حظ، بل قل توفيق الله عزَّ وجل، الإنسان إما موفقاً أو غير موفق، بإيمانه بالله، واستقامته على منهجه، وعمله الصالح يوفق في أعماله الدنيوية والأخروية، وبكفره بالله، وتفلُّته من منهج الله، وأعماله السيئة تُعَسَّر أموره وتجعل العقبات أمامه.

في آية دقيقة جداً في سورة العلق، قال:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْداً إِذَا صَلَّى (10))

الآية انتهت، فماذا رأينا ؟ هذا الذي ينهى عن الصلاة انظر إلى أخلاقه، انظر إلى أمانته، انظر إلى علاقاته الخاصة، انظر إلى بيته، انظر إلى عمله، أعماله السيئة دليل أنه جاهل، أنه كاذب..

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْداً إِذَا صَلَّى (10))

إنسان آخر:

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (11))

انظر إلى أمانته، إلى استقامته، إلى صدقه، إلى تواضعه، إلى إنصافه، إلى حبه للخير، إلى رحمته، فالأهم من الكلام العمل، العمل ينطق بتقييم صاحبه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر..

وأما ليلة القدر قال:

(خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3))

(سورة القدر)

والألف شهر أي ثمانين عام، ثمانون عاماً من العبادات ؛ صيام، وصلاة، وحج، وزكاة، من دون معرفة لله عزَّ وجل، يفوقها لحظةٌ واحدة تقدِّر الله حق قدره، أي..

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر)

" فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ".. " كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ".. " لعالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد"، فرقٌ كبير بين أن تكون عالماً وبين أن تكون عابداً، والعلم فرض عينٍ على كل مسلم، لذلك:

(لَيْلَةُ الْقَدْرِ)

يعني في الليلة التي تقدِّر الله فيها حق قدره لقوله تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

(سورة الأنعام: من آية " 91 ")

إذا إنسان مثلاً يملك مائة مليون، أنت تظنه يملك مائة ألف، فهل قدرته حق قده ؟ إذا إنسان معه دكتوراه، وأنت ظننته يقرأ ويكتب فقط، فهل قدرته حق قدره ؟ من قدر الله حق قدره هذا هو العلم، لذلك الإنسان إذا ما طلب العلم يكون تخلى عن إنسانيته.. " لا خير في الحياة إلا لعالمٍ ناطق، ومستمعٍ واعٍ"..

" كن عالماً، أو متعلماً، أو مستمعاً، أو محباً ولا تكن الخامسة فتهلك ".

حينما تطلب العلم تؤكد إنسانيتك، الله ميزك عن كل المخلوقات، بالوزن في أوزن منك، بالبصر الصقر يرى ثمانية أضعاف ما يراه الإنسان، بالشم بعض الحيوانات تشم مليون ضعف عن الإنسان، الكلاب البوليسية. فبالشم، بالسمع، بالبصر، بالوزن، بالحجم، بالسباحة، بالطيران، أية صفةٍ يمتاز بها الإنسان هناك حيوانٌ أعجم يفوقه بها، لكن الإنسان ميزه الله بالقوة الإدراكية، فإذا عطلها، أو استخدمها و أساء استخدامها، فقد هبط عن مستوى إنسانيته.

لذلك:

(لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3))

والإنسان يجب بعد رمضان يطلب العلم، ويطلب العلم بشكل حثيث حتى يرتفع لمستوى إنسانيته. سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام التقى مع أعرابي قال له:

ـ عظني ولا تطل ؟

ـ قال له: قل آمنت بالله ثم استثقم.

ـ قال: أريد أخف من ذلك.

ـ قال: إذاً فاستعد للبلاء.

الشغلة واضحة مثل الشمس؛ إما أن تستقيم على أمر الله أو فاستعد للبلاء.

أعرابي آخر قال له: عظني ولا تطل. فقال له:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

ـ قال له: كفيت.

ـ فقال عليه الصلاة والسلام: فقه الرجل.

ما قال: فقِه أي علم الحكم، فقُه صار فقيهاً، فأعرابي في آية واحدة، والنبي لا ينطق عن الهوى ويقول فقُه الرجل، ونحن أمام ستمائة صفحة من كتاب الله، ثلاثين جزء، مائة وأربعة عشر سورة نقرأها، آيةٌ واحدة تكفينا..

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (1))

(سورة النساء)

تكفي هذه الآية..

(وَالْعَصْرِ (1))

(سورة العصر)

تكفي هذه الآية، إذاً:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

أما التكاثر أيها الإخوة أن تشتغل بالسفيه عن النفيس، أن تشتغل بالشيء الخسيس وأن تنسى النفيس، فجمع المال بالنسبة إلى مقامات الآخرة شيءٌ خسيس، قال:

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (2))

يأتي الموت فينتزع منك كل شيء في ثانيةٍ واحدة، قال:

(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4))

فالإنسان لابد من أن يعلم، لكن بطولته أن يعلم قبل أن يعلم، أن يعلم وهو في الدنيا ؛ وهو في صحته، وماله، وقوته، وأوْجِهِ قبل أن يعلم بعد فوات الأوان..

(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6))

آخر آية:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1))

(سورةالماعون)

هو نفسه فذلك..

(آالَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2))

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: من آية " 50 ")

هذا الترابط بين الخُلُق القويم وبين التدين الصحيح، إذا لم يكن هناك ترابط بين الخلق القويم والتدين الصحيح فهناك خلل في الدين.

ثم يقول الله عزَّ وجل:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (3))

(سورة النصر)

هذه نعوة النبي عليه الصلاة والسلام، العظماء حينما يحققون أهدافهم، ويبلغون رسالات ربهم، تنتهي مهمتهم، فهذه السورة فهمها ابن عباس رضي الله عنه على أنها نعوة النبي عليه الصلاة والسلام.

وأما:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2))

(سورة المسد)

فأبو لهب لو قال: أشهد ألا إله إلا الله لأبطل القرآن، لكن الله سبحانه وتعالى إذا أراد إنفاذ أمرٍ أخذ من كل ذي لبٍ لبه، وعلم الله أنه لن يؤمن، لذلك ما تمكن أن ينطق بالشهادة، والإنسان وضعه عند الموت يلخِّص كل حياته، يقول لك: ما تشاهد، لأنه قضى كل حياته بالمعاصي، لا يمكن أن ينطق بالشهادة، فالله سبحانه وتعالى يلهم العبد عند نزع روحه بسلوكٍ يلخص كل حياته، " يشيب المرء على ما شب عليه، ويموت على ما شاب عليه، ويحشر على ما مات عليه ".

الشيطان إذا وسوس سمَّاه الله خنَّاساً، الوسواس الخناس، لمجرد أن تقول: يا رب أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ينتهي فعل الشيطان، لا يملك إلا الوسوسة، وبالاستعاذة بالله تنتهي هذه الوسوسة.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (071) :الإعتكاف .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-03-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، الموضوع اليوم موضوع الاعتكاف، و أنا في طريقي إليكم قفز إلى ذهني مثل يوضِّح حقيقة الاعتكاف، هناك مصابيح كهربائية متنقلة إذا وضعتها في المأخذ مأخذ التيار الكهربائي تُشحن، فإذا وُضعت في المأخذ فترة كافية و شُحنت الشحنة الكافية الآن يتألق المصباح، إلى أن تضعف قوةُ الشحن فيه فتحتاج مرة ثانية إلى أن تضعه في المأخذ مأخذ التيار الكهربائي ليُشحن من جديد.

ما رأيت مثلا أدقَّ على موضوع الاعتكاف من هذا المثال، أنت إن لم تُشحن في خلوة فلن تتألق في الحياة، إذا شُحنت هذه الشحنة تضعف مع الأيام فلابد من شحنة من خمس شحنات في اليوم الصلاة، و شحنة أسبوعية هي صلاة الجمعة، و شحنة سنوية صوم رمضان، و شحنة قبل الختام شحنة الحج، فالإنسان لما يعتكف يحكِم الصلة بالله، و تألُّق الإنسان و انطلاقه في الحياة، و انطلاقه في الدعوة، في الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، الأعمال الصالحة، و موقفه السليم، ورؤيته الصحيحة، قراره الحكيم، القدرة على التصرف، هذا كله منوط بحجم هذه الشحنة التي تلقاها من الله عز وجل، من هنا كان الاعتكاف، و النبي عليه الصلاة و السلام لولا غار حراء لما كان نبيًّا غار حراء صنعه، كان يتعبد في غار حراء الليالي ذوات العدد، و إذا كان النبي عليه الصلاة و السلام ذهب إلى قمة الجبل مطل على الكعبة الشريفة، وهو حبل النور، و كل من ذهب إلى غار حراء عرف كم هي المشقة التي كان يعانيها النبي ليصل إلى هناك، و كيف أن الإنسان يبقى في هذا المكان أياما عديدة لا أحد معه، الإنسان لو سار في طريق في مدينة في الليل بلا أشخاص يشعر بوحشة، لو سكن في بيت فخم جدا في مصيف و لم يأت بعدُ الجيرانُ يشعر بوحشة، أما أن يجلس في رأس جبل و الطريق وعر جدا، الرجل الشديد الرياضي العتيد لا يستطيع أن يصل إلى غار حراء إلى في أكثر من ساعتين أو ثلاث من المشي الشاق، التعليق كم كان أنسه بالله قويا حتى غلب على وحشة المكان.

فأيها الأخ الكريم، مؤمن كل وقته مع الناس، كل وقته في بيته و عمله، ومع إخوانه، و في الأسواق، من دون ساعة خلوة مع الله، من دون جلسة مع الله، يذكر الله فيها، يصلي فيها، يقرأ القرآن فيها، يتأمل فيها، يحاسب نفسه، ينظر فيما سيكون، وفيما كان، هذا الاعتكاف من لوازم رمضان، كان عليه الصلاة والسلام يعتكف العشر الأواخر من رمضان، أنا أقول لكم، و أنا واقعي، طبيعة حياتكم الآن الذي عنده وظيفة لا يعتكف، الذي عنده محل تجاري، لكن المفروض على الإنسان في رمضان يخفف أعماله، و المفروض في العشر الأخير يفرِّغ نفسه أشد التفريغ مما سوى الله، أما الميسور الذي ليس مضطرا

ليداوم في عمله، لا عمل تجاري، ولا عمل إداري، و يستطيع أن يعتزل الناس في هذا العشر، و لكن هناك رأي معتدل جدا أن الاعتكاف المستمر قد يكون فوق طاقة الإنسان، و لكن لا بد من جلسات اعتكاف متناوبة، جلسات اعتكاف في البيت يمكن أن تعتكف، يمكن أن تعتكف في المسجد، أحيانا يدخل الإنسان المسجد قبل الأذان بربع ساعة، يضيق ذرعا، " لا يؤذن، و لا يصلون، مكتوب ثلث ساعة بعد الأذان، حتى يجتمع الناس، أحيانا يرى هذه الدقائق العشرين كأنها سنة، أنت الآن في مسجد فاعتكف، اذكر الله عز وجل، اقرأ القرآن، أغمض عينيك و توجّه إلى الله عز وجل، الإنسان ما لم يعتكف، الاعتكاف شحن لهذا المصباح، عندي مصباح قبل يومين استعمله فليس فيه ضوء إطلاقا، فشحنته، و هو سبب تذكُّر المثل، و نسيته في المأخذ الكهربائي، تمَّ فيه اثني عشر ساعة، طبعا هو اكتفى، فلما حرّكت مفتاحه ليتألّق المصباح رأيت قوة إضاءة لم أعهدها من قبل، شحِن شحنة كافية، و المؤمن كذلك، كلمت خلا مع الله ذكر الله خاليا شُحن، و يتألّق الآن، و التي تصدق إنسان تكون له مع الله خلوة، وهذه الخلوة لا تبدو جلية واضحة نيِّرة في أثناء النهار، له هيبته، و له نور على وجهه، قراره حكيم ، كلامه دقيق، سعيد مطمئن، و له من الله حافظ، موفَّق، والخيرات التي يجنيها المعتكِف لا يعلمها إلا الله، تقول: توفيق، توفيق، هيبة، وقع في مشكلة مما يقع الناسُ فيها إذا أراد أن يحاسبك تجده ارتبك، بماذا شعر ؟ أنت موصول، كانت الشحنة قوية، الشحنة قوية، و النور قوي، انبهر، تفضل، غيرك لم يقل له: تفضل، غيرك بالغ في الإساءة له، فهذا معنى الاعتكاف.

طبعا الموضوع أنا بحثته سابقا، ونبحث كل سنة في هذا الوقت الاعتكاف، وليس معنى ذلك أنكم لا تعرفونه، بل تعرفونه، و لكنه تذكير، قال تعالى:

(وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55))

[سورة الذاريات]

أجمع العلماء على أنه مشروع، فقد كان النبي عليه الصلاة و السلام يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قُبض فيه اعتكف عشرين يوما، معناه لزومُ الشيء وحبسُ النفس عليه خيرا كان أو شرا، قال تعالى :

(مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52))

[سورة الأنبياء]

والمقصود به شرعا لزومُ المسجد والإقامة فيه بنية التقرب إلى الله تعالى، أطمئنكم وأنتم الآن في هذا الدرس معتكفون، وأنتم في التراويح معتكفون، وأنتم في صلاة الفجر معتكفون، ما دمت تلزم المسجد بنية التقرُّب إلى الله فأنت معتكف.

قال: الاعتكاف المستحب ليس له وقت محدَّد، هو يتحقق بالمكث في المسجد مع النية الاعتكاف، طال

الوقتُ أو قصُر، ويُثاب ما بقي في المسجد، فإذا خرج منه ثم عاد إليه جدّد النية إن قصد الاعتكاف، لما كنتُ صغيرا أدخل مساجد دمشق، مكتوب على الأعمدة " نويت الاعتكاف في هذا المسجد ما دمت فيه" لو واحد دخل إلى بيت الله ينوي الاعتكاف، أحيانا يكون هناك أمر قاهر، أنا واللهِ تأخرت كنت في مصلحة للمسلمين، و راجحة جدا، أحيانا تكون المواصلات صعبة، هناك أمر قاهر، وكما يقول الناس " اللي في بيت أهله على مهله " أنت في بيت الله، إن بيوتي في الأرض المساجد، و إنّ زوارها هم عمّارها، فطوبى لعبد تطهّر في بيته ثم زارني، و حُقّ على المزور أن يكرم الزائر "

قال: للمعتكف أن يقطع اعتكافه المستحب متى شاء، الاعتكاف الواجب هو النذر، إذا واحد نذر أن يعتكف، هذا صار واجبا، أما الاعتكاف المستحب فليس له قاعدة، كلما دخلت بيت الله عز وجل بنية التقرّب إليه تصلي، تذكر الله، تقرأ القرآن، تتعلم، تصغي إلى درس علم، تعلّم، أنت معتكف، هذا المسجد متعلق بالآخرة، الجامعة متعلقة بالعلم، ماذا يوجد في الجامعة، فيها مقاعد، سبورة و محاضر و طلاب، هذه هي الجامعة، أساس بنائها من أجل العلم، و المسجد أساس بنائه من أجل الآخرة، في المسجد تتعرّف إلى الله، و في المسجد تتعرف إلى أمره، و في المسجد تصلي، و في المسجد تذكر الله عز وجل،

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْتَكِفَ صَلَّى الْفَجْرَ ثُمَّ دَخَلَ مُعْتَكَفَهُ وَإِنَّهُ أَمَرَ بِخِبَائِهِ فَضُرِبَ - أي خيمة خاصة له - أَرَادَ الِاعْتِكَافَ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ فَأَمَرَتْ زَيْنَبُ بِخِبَائِهَا فَضُرِبَ وَأَمَرَ غَيْرُهَا مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخِبَائِهِ فَضُرِبَ فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفَجْرَ نَظَرَ فَإِذَا الْأَخْبِيَةُ فَقَالَ آلْبِرَّ تُرِدْنَ فَأَمَرَ بِخِبَائِهِ فَقُوِّضَ وَتَرَكَ الِاعْتِكَافَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ حَتَّى اعْتَكَفَ فِي الْعَشْرِ الْأَوَّلِ مِنْ شَوَّالٍ))

[رواه مسلم]

أحيانا تكون هناك عدوى، أنا في العمرة صليت الفجر في جدة مرتين، في شيء أعجبني، لما انتهت الصلاة، لا يوجد ورد جماعي، يأتيني أخ من الحجاز أثناء الصيف ينتقد الورد الجماعي، قلت له: ماشي الحال، لكن أنا شعرت بعد أن انتهت الصلاة كلهم بقوا في المسجد، يدعون الله سرًا ت و يذكرونه سرا، بعد ربع ساعة انفض من في المسجد، أدركت أحيانا أن الورد يصير تقليدا جماعيا، يصير الورد مألوفا، أصوات ألِفها، تفقد مضمونها، فأنا واللهِ اقتنعت أن الورد الخاص و الدعاء الخاص و الابتهال ربما كان أفعلَ في نفسي من هذا الذي نقوله جماعة، و قد فقد مضمونه، و أصبح جزءًا من الصلاة، تنتهي الصلاة تجد الواحد يفكر أشكالا و ألوانا، و يقرأ الورد، فلما يأتي إخواننا من الحجاز يقولون لي: لماذا عندكم الورد بصوت عالي و جماعي ؟ أقول: هكذا نحن ألِفنا هنا في الشام، هذه أعرافنا الدينية، هم رأيهم لا، يجب أن يكون الورد سرا، وعلى انفراد، أنا لما صليت بجدة الفجرين تذوقت وجهة نظرهم،

فعلا الإنسان أغمض عينيه ودعا اللهَ من كل قلبه بخشوع، ربما كان أقرب إلى الله عز وجل من شيء يفعلونه، فالنبي قال: آالبرَّ تردن ؟ أم هي عدوى، صارت عدوى، ثم أمر ببنائه فقوض، وأمر بأبنية أزواجه فقوضت، ثم أخّر الاعتكاف إلى العشر الأول من شوال.

في شرح مسلم لهذا الحديث قال:

((سبب إنكاره عليه الصلاة و السلام أنه خاف أن يكن غير مخلصات في الاعتكاف))

أحيانا في إحياء ليلة القدر، كلها مدائح و أناشيد و ذكر جماعي، شيء جميل، لكن أليس لا بد من ساعة خلوة مع الله، أليس لا بد من دمعة تنزل من العين، لا نريد أن الإنسان يشعر بنفسه أنه اتصل بالله عز وجل، إذا كان هناك منشدون و مدائح و صخب و ضجيج، واللهِ أحييناها، هذه صارت ليلة طرب، و ليست ليلة إحياء، أنا لا أريد أن تدخل العادات مع العبادات، وتتداخل الأمور، الإنسان ينسى أنه في ليلة القدر يجب أن يحيي هذه الليلة، فأنا انطلاقا من هذه الحقيقة كنت أنفرد من بين المساجد، أنا أعتكف إلى الساعة الثانية عشر في ليلة القدر، اترك قِسما للأخ الكريم في بيته يتابع صلته بالله عز وجل على انفراد، و قسم " يد الله مع الجماعة "

أردت من هذا الكلام أنه لا بد للإنسان من خلوة مع الله، و قد يفسد هذه الخلوة، أنا كنت في عمرة مرة، وهي العمرة الأخيرة، كنت أمام مقام النبي عليه الصلاة و السلام، و في حالة متألّقة جدا، إلى درجة غير معقولة، رأيت أخا من إخوان دمشق، أهلا أستاذ، تفضل، انقطع الحال، كيف الصحة، متى وصلتم، و متى تسافرون، و أين نزلتم، أردت الرجوع إلى حالي فقلت له: أريد أن أصلي ركعتين بالروضة، فقال: أذهب معك أستاذ، لم نستفد شيئا، هذا الشخص قطع عليك الوجهة مع الله عز وجل، أخ كريم غال علي كثيرا، الخلوة أساسها أن تكون وحدك، الإنسان صعب مع شخص بجانبه يتزلف إلى الله عز وجل و يبكي و يشعر بحال، لا بد أن يكون وحده، أو بين ناس لا يعرفونه، حتى يكون إحكام الصلة بالله عز وجل، أنا أردت من هذا الكلام: الورد الجماعي مقبول، والذكر الجماعي مقبول، و إحياء رمضان مقبول، أنا معتدل جدا، لست متطرفا، إلا أنه لا أن تنوِّع، إذا كان لك ذكر جماعي، فليكن لك ذكر خاص، و إذا كان لك إحياء في مسجد، فليكن لك فترة إحياء في البيت، و إذا كان لك دعاء مشترك فليكن لك دعاء خاص، لا يتطرف الإنسان، فلا يرفض شيئا، و لا يدري شيئا.

القصة هذه تفيد، أحيانا بعض العبادات تكون عدوى، بعض العبادات يكون نصيب الإخلاص فيها قليلا، و الشيء الكثير هو العدوى الجماعي.

شروط الاعتكاف ؛ أنم يكون مسلما مميِّزا، طاهرا من الجنابة و الحيض و النفاس، فلا يصح من كافر و لا من صبي غير مميِّز، و لا جنب و لا حائض و لا نفساء.

أركان الاعتكاف ؛ المكث في المسجد بنية التقرُّب إلى الله تعالى، فلو لم يقع المكث في المسجد، أو لم

تحدث نيةُ الطاعة لا ينعقد الاعتكاف أبدا.

أنا في خطبة جمعة قبل أسبوعين فيما أذكر في آية قرآنية، قال تعالى:

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ)

[سورة الكهف]

المعنى الخاص معروف، فقرة من القصة هذه، لكن المعنى العام، أحيانا قد يكون المسجد كهف الإنسان، مكان يلجأ إليه، مكان يستريح فيه، مكان ترتاح نفسه فيه، مكان يستعيد ذاته، و يجد ذاته، فالمسجد أحيانا يكون هو المعتكَف، إذا الإنسان ما مكث في المسجد، أو مكث وما نوى، وإذا نوى و ما مكث في المسجد أو مكث و ما نوى فليس معتكفا، أركانه ركنا ؛ المكوث و النية، و استنبطوا أن الاعتكاف في المسجد حصرا، من قوله تعالى:

(وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ)

[سورة البقرة]

لكن هذا ليس دليلا قطعيا، بل دليل ظني.

يستحب للمعتكف أن يكثر من نواف العبادات، و أن يشغل نفسه بالصلاة و تلاوة القرآن، و التسبيح و التحميد و التهليل والتكبير و الاستغفار و الصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم و الدعاء.

قال: ومما يدخل في مستحبات الاعتكاف دراسة العلم و استذكار كتب التفسير و الحديث، و قراءة سير الأنبياء و الصالحين، درس العثمان الذي هو في السيرة مع الاعتكاف، ماذا نفعل فيه، نلقي فيه ماذا فعل سيدنا عمر من المآثر، مسلم مثل أعلى، دخل في الاعتكاف، حتى لو درس كتاب فقه فهو معتكف.

ويستحب له أن يتخذ خباء في صحن المسجد اقتداءً بالنبي عليه الصلاة و السلام، الآن الغرف الملحقة بالمسجد هي للاعتكاف، إذا كان في الصحن العام هذا داخل هذا خارج، السلام عليكم، هذا يصلي، هذا يقرأ القرآن، أحيانا يكون فيه حديث، نحن نريد خلوة، إذًا الخباء في صحن المسجد، أو إذا كان هناك غرفة ملحقة بالمسجد، أو زاوية نائية من زوايا الحرم مثلا، هذا المكان المناسب للاعتكاف.

قال: يكره للمعتكِف أن يشغل نفسه بما لا يعنيه من قول أو عمل، مرة ألقيت خطبة فيها توفيق إلهي، نزلت، أخ كريم تأمل في هذه الزخرفة، وجد النجمة سداسية، و كبرت عليه القضية، قلت: أنما واللهِ لم أنتبه لها، وأنا في هذا المسجد من عشرين سنة، وهي نجمة سداسية، و البناء بُني قبل أن تنشأ هذه النجمة بمئات السنين، هذا المكان مكان إقبال على الله عز وجل، هناك إنسان يرى السجاد، كيف تُنجد، و هل هل محكَمة، و يرى الثريات، و يرى السقف، يشغل نفسه بكل شيء إلا ما من أجله دخل المسجد، فالنبي قوله،

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ))

(رواه الترمذي)

يكره له الإمساك عن الكلام، ظنا منه أنّ في هذا قربة إلى الله عز وجل،

((عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ بَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ فَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا أَبُو إِسْرَائِيلَ نَذَرَ أَنْ يَقُومَ وَلَا يَقْعُدَ وَلَا يَسْتَظِلَّ وَلَا يَتَكَلَّمَ وَيَصُومَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْهُ فَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ))

[رواه البخاري]

((قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ حَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَامٍ وَلَا صُمَاتَ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ))

[رواه أبو داود]

هذا صيام الكلام منهي عنه في الإسلام، أحيانا الإنسان بكلمة ينقذ بها إنسان، أحيانا بكلمة يدل بها على الله عز وجل، أحيانا بكلمة يحلُّ مشكلة، أحيانا بكلمة يصلح ذات البين، كلام المؤمن عمل صالح. قال:

((يباح للمعتكِف خروجُه من معتكَفه لتوديع أهله، عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْتَكِفًا فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلًا فَحَدَّثْتُهُ ثُمَّ قُمْتُ فَانْقَلَبْتُ - أي عدت إلى البيت - فَقَامَ مَعِي لِيَقْلِبَنِي - أي ليمشي معي إلى البيت - وَكَانَ مَسْكَنُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ فَمَرَّ رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَارِ فَلَمَّا رَأَيَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْرَعَا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ فَقَالَا سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا أَوْ قَالَ شَيْئًا))

[رواه البخاري]

مرة كنت في محل تجاري، و هناك بائع صاحب جاء ليزور صاحب هذا المحل ليبيعه من بضاعته، وهناك مكتب داخلي، و مكان للبيع خارجي، بيع أقمشة، ورأيت صاحب المحل يستقبل امرأة، و يرحب بها أشد الترحيب، نظرت إلى وجه الضيف، و الضيف من أهل الصلاح، رجل طالب علم، رأيت وجهه انتقع، ما أعجبه سلوك هذا البائع مع هذه المرأة، رحّب بها، أهلا و سهلا، اشتقنا لكم، مثلا، لم نعد نراكم، أنا أعرف أن البائع صالح كذلك، فغلب على يقيني أنها أخته، قلت له: لعلها أخته، قال لي: معقول، فلما ذهبت و جاء صاحب المحل، قلت له: من هذه التي كنت تكلمها ؟ قال: أختي، فانطلقت أساريره، الإنسان لا بد له أن يبيِّن، تقول لها: أهلا و سهلا، و مشتاقون لك، و لم نعد نراك، أطلت الغياب علينا، هذا الكلام لا يقال لزبونة، يقال لقريبة، فالبائع انزعج، هذا التاجر طالب علم، و يعرف أن البائع صالح، ما هذا الكلام، تغيّر لونه، أنا أدركت أن الاثنين معهما الحق، مرة قيل إن جحا صار قاضيا، فجاءه اثنان ؛ تكلم الأول فقال له: واللهِ معك الحق، و لما تكلم الخصم قال له: و اللهِ أنت كذلك معك الحق، ما هذا الحكم ؟ زوجته من ورائه سمعته من وراء الستار، ما هذا الحكم ؟ فقال لها: والله

أنتِ كذلك معك الحق، فأنا رأيت أن هذا معه الحق، و هذا معه الحق، من هذه ؟ هذه أختي، مثلما ظننت أنا.

مرة ؛ و القصة أحكيها لأنني تأثرت بها، زرت أخًا مرة، توضأت عنده، و قدّم لي منشفة عليها اسم فندق شهير في الشام، أنا تضايقت كثيرا، معقول الإنسان يأخذ شيئا من فندق ليس له، ليس معقولا، بقي هذا الشيء في نفسي واللهِ سنة، خجلت أن أطلب منه التفسير، أخ مؤمن ملتزم في مسجد يعطيك منشفة عليها اسم فندق مشهور كثيرا، من أين أتيت بها ؟ بعد سنة كان عندنا أخ يعمل في فندق بالمصاعد، تكلم عرضا فقال لي: الفندق الفلاني كل سنة يوزع المناشف على الموظفين، كل سنة هناك مناشف جديدة، ما يفعلون بهذه المناشف، تعطى للموظفين، لو كنت في محل الأخ الذي قدّم لي منشفة عليها اسم الفندق لا بد أن يبيِّن لي أن هذه المنشفة هدية الفندق، فالبيان يطرد الشيطان، هذه زوجتي، واللهِ يا إخوان ينسحب عليها مليون سلوك، بيِّن، أعطاك مبلغا تأخذ له أغراضا، ما حدث مع الحساب، طلعنا خلاص، وأنت أمين، بيِّن له أسعار المواد، جمعا يكن، أعطاك ثلاثة آلاف، هذه ألف و ثلاثمائة، و هذه ألف و سبعمائة، بيِّن له، أما هناك كلمات، الإنسان بريء، لا يكفي أن يكون بريئا، يجب أن يزيل الشكَّ من الناس، أن يزيل الشك كلَّه، انظر إلى النبي ماذا علَّمنا، قال: هذه زوجتي، هذه محاسبة ضرورية، هكذا من دون محاسبة، من دون تفسير، من دون تبيين، من دون تعيين، ليس مسجلا، و لا كاتب عقد، ضع في جيبه، أمين، لكنه قد تأتي بالمشكلة، نسي مثلا، باع بيعة و نسي أن يسجِّلها.

قال: يجوز في الاعتكاف ترجيل الشعر و حلق الرأس و تقليم الأظافر و تنظيف البدن من الشعث و الدرن، و لبس أحسن الثياب و التطيُّب بالطيب، هذا كله مسموح في الاعتكاف، و له أن يخرج لحاجة لا بد منها، قضاء الحاجة، أو الطعام، في معنى الحاجة قضاء الحاجة، في معنى الحاجة الطعام و الشراب، وفرضا كان نائما في المسجد واحتلم، ألا يجب عليه الاغتسال ؟ الحاجة إذًا الاغتسال، الاغتسال و تناول الطعام و الشراب وقضاء الحاجة، هذا الخروج المسموح به في الاعتكاف.

والمعتكف له أن يأكل و يشرب في المسجد، لكن أكلات خفيفة، هناك أكلات لها مرق، فتسيل، أكلات خفيفة التي لا تؤذي المسجد، هناك أكلات لها رائحة كريهة، هذه ممنوعة، و له أن يأكل و يشرب في المسجد و ينام فيه، في المدينة، و في مطاعم المدينة، مرة تناولت فطور طعام ليس فيه ثوم أبدا، أنت عند رسول الله لماذا الثوم ؟ قال واحد: فيه، قال: لا، لست متأكدا فيه أو ليس فيه، ممنوع توزيع هذه، و لكن أعجبني ذلك، مطعم في المدينة، أي رائحة كريهة، واحد أكل ثوما عند رسول الله، ليست واردة إطلاقا، و أكثر شيء فيها أذى في التراويح، لك أن تأكل الثوم إحدى عشر شهرا، و يمكن أن تأكل الثوم في وقت لا تذهب فيه إلى المسجد، لكن المسجد، و صلاة التراويح طويلة، كل دقيقتين تخرج هذه الغازات، واللهِ مشكلة، مشكلة كبيرة، لا يوجد أنعم من المؤمن، و لا يوجد ألطف منه، ظلُّه خفيف،

مهقف، رائحته عطرة.

قال: يبطل الاعتكاف الخروج من المسجد لغير حاجة عمدا و إن قلَّ، الخروج من المسجد لغير حاجة عمدا وإن قلَّ، فوّت المكث في المسجد فبطل الاعتكاف، طبعا ذهاب بجنون أو سكر، و الحيض و النفاس، لفوات شرط التمييز و الطهارة من الحيض و النفاس، طبعا الوطء في المسجد، معقول الوطء في المسجد، أنت معتكف في المسجد، الشرع سمح لك أن تأكل و تشرب و تقضي حاجة، لكن ممنوع قضاء حاجة الجسد المعروفة مع الزوجة بالبيت و أنت معتكف، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ)

[سورة البقرة]

هناك ناس يفهمونها بسذاجة، معقول في المسجد، أي أنت معتكف في المسجد دخلت إلى البيت لقضاء الحاجة، ممنوع أن تقضي تلك الحاجة، هذه تتنافى مع الاعتكاف.

الإنسان من نذر أن يعتكف يوما أو أياما ثم شرع فيه و أفسده وجب عليه قضاؤه متى قدر عليه باتفاق الأئمة، إذا الإنسان بدأ بعبادة و لو نفلا، وأفسدها أصبح عليه أن يعيدها وجوبا، لا جوازا.

قال: من نذر أن يعتكف في المسجد الحرام أو المسجد النبوي أو المسجد الأقصى وجب عليه الوفاء بنذره في هذه المساجد، لقول النبي عليه الصلاة و السلام،

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى))

[رواه البخاري]

أما إذا نذر المرء أن يعتكف في غير هذه المساجد فلا يجب عليه أن يعتكف في واحد منها بالذات، لأنها كلها سواء في القربة إلى الله، لا يوجد إلى هذه الثلاثة ؛ المسجد النبوي والحرام والأقصى، ما سواها كلها سواء عند الله عز وجل، لقول النبي عليه الصلاة و السلام،

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ))

[رواه مسلم]

معنى ذلك أن الصلاة هناك بألف، و عند النبي بمائة، ألف ضعف ثوابه، إلا أنه من نذر أن يعتكف في المسجد النبوي جاز له أن يعتكف في المسجد الحرام، الإنسان لا بد أن يكون متعلّما، أنا في العمرة الأخيرة أثناء الطواف واحد بجانبي كان يقول وهو يطوف بالكعبة: أشهد أنك بلغت الرسالة و أدّيت الأمانة و نصحت الأمة و كشفت الغمة، ماذا يقرأ هذا ؟ هذا دعاء يقال عند قبر النبي عليه الصلاة و السلام، لأن معه دفتر، و الظاهر أنه أخذ دفترا محلّ دفتر فلم يعرف ما يفعل، فالإنسان لا بد له أن يتفقَّه.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (072) : ماذا قدمت بين يدي ربك ؟ مراجعة الحساب ....

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-11-20

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

تعودنا من حين إلى آخر وفي ما بين الموضوعات الكبرى وقد بقينا في موضوع تربية الأولاد ثلاثين درساً يعني ما يزيد عن نصف عام في موضوع تربية الأولاد في الإسلام، وقبل أن ننتقل إلى موضوع آخر يتصل اتصالاً وثيقاً في حياتنا، أردت أن يكون هذا الدرس درساً عاماً نجدد فيه إيماننا، ذكرت في خطبة الجمعة أن الإنسان كما تعلمون، أي إنسان منظم من حين لآخر يراجع حساباته، يرتب أوراقه، ورقة يلقيها في المهملات وورقة يحفظها، وورقة يضعها في جدول أعماله، وورقة يهتم بها ويصورها أليس كذلك من حين لآخر الإنسان يرتب مكتبته، هذا الكتاب ليس له يعطيه لصاحبه، هذا الكتاب يستعمله كثيراً يضعه في الرف القريب منه، هذا الكتاب قلما يحتاجه يضعه في أعلى المكتبة، عملية ترتيب الكتب، وترتيب الأوراق، وترتيب الحاجات، عملية الجرد والفرز والتقويم، عملية الجرد، والتنفيذ، والرعاية، والإهمال، هذه العملية نحن في أمس الحاجة إليها لانتظام بيوتنا وأعمالنا وأوراقنا، ومستنداتنا، وحساباتنا، التاجر الموفق دائماً حساباته جاهزة، رأس ماله وأرباحه، والخسائر البضاعة، والديون ما له وما عليه.

الإنسان أليست نفسه التي بين جنبيه، هذه النفس التي كرمها الله عز وجل ألا تستحق هذه المراجعة، قلت في خطبة الجمعة إن الوقت المناسب بعد يوم طويل من التعب، وبعد راحةٍ مديدة وقبل أن تنطلق إلى عمل آخر، هذا وقت السحر، وإن شاء الله لعل هذا الدرس من هذا القبيل، يعني أحدكم يقول أنا بقيت في هذا المسجد أربع سنوات، خمس سنوات، عشر سنوات، ماذا قدمت للمسلمين ؟ أنا أريد بشكل ملح أن لا يتوهم أحدكم أن حضور مجالس العلم فقط يحقق النجاح، تحضر أنت مجالس العلم من أجل أن تنطلق منها إلى العمل الصالح، سأبدأ درسي بهذه المقولة، وضعوها موضع الاهتمام، مهما استمعت إلى دروس العلم، مهما استمعت إلى الخطب، مهما استمعت إلى الأشرطة، مهما قرأت من كتب، لن تستطيع أن تحقق إنجازا عند الله أو ترتقي مرتبتك عند الله إلا بالتطبيق، والآن أنا معكم مهما ألقيت عليكم من حكم ومن مواعظ لا أرتقي عند الله إلا بالتطبيق، لا كلامي يفيدني وحده ولا استماعكم وحده يفيدكم، هذا كلام قطعي من أجل أن ترتقي سريعاً أن توفر وقتك وجهدك، العمر قصير وإذا ما كان قصيراً يمضي سريعاً، والإنسان ما بين حركةٍ وحركة إذا هو على مشارف مغادرة الدنيا، هذا السؤال

الأكبر ماذا قدمت بين يدي ربي يوم القيامة؟ أيام الإنسان تستهلكه الدنيا، عمل متعب دوامه طويل والبيت له مشاكل كثيرة ضغوط العمل، دائماً مهموم في الدنيا، متى يتفرغ لله عز وجل؟ لا تنسى أيها الأخ الكريم من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين، هذا الحديث يجب أن يكون في ذهن كل واحد منكم.

سنبدأ بالبيت، الغناء في البيت مشكلة كبيرة، الغناء ينبت النفاق، متابعة البرامج التي لا ترضي الله عز وجل هذه حجاب بينك وبين الله أنا أشعر أحياناً أن الأخ يتوهم أنه بحضور مجالس العلم قد أرضى الله لا، لا ترضي الله إلا بتنفيذ ما سمعته في مجالس العلم فراجع حساباتك خروج زوجتك يرضي الله، حجب بناتك، أولادك هل تأمرهم بالصلاة هل لك مع الله خلوة، صلي الفجر في جماعة، صلي في أقرب مسجد إلى بيتك، لكن الصلاة في المسجد لها طعم آخر، بعد حين ينشأ لك علاقات اجتماعية مع مصلي الفجر، لو نمت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ترى نفسك في وقت صلاة الفجر مسوقاً إلى المسجد لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله ولو يعلم الناس ما في العتمة والفجر لأتوهما ولو حبواً.

فأول شيء يجب أن تنتبه إلى علاقتك مع الله، علاقتك مع الله أيها الأخ لها ثلاث جوانب، إن رعيتها معاً تفوقت، وإن اعتنيت بواحد منها على حساب الاثنتين تطرفت، أنت بين التفوق والتطرف، الأولى أن تعتني بإيمانك وبعقيدتك، الثانية أن تعتني بقلبك، قلبك غذاءه الذكر، أنا لا أقيدك بذكر معين، أنا لا أقول لك أن تجلس وأن تقول الله، الله كما هي بعض الطرق، لا، أقول لك اذكر الله عز وجل، تحب أن تقول الله، الله، لقوله تعالى واذكر اسم ربك لا يوجد مانع، تحب أن تعمل استغفار كما فعل النبي مائة مرة، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، يوجد في كتاب الأذكار للنووي نماذج من أذكار النبي عليه الصلاة والسلام، تحب أن تقرأ القرآن أيضاً ذكر، تحب أن تتفكر في خلق السماوات والأرض هذا أعلى أنواع الذكر، التفكر وتلاوة القرآن وذكر اسم الله عز وجل والاستغفار والحمد والثناء والتسبيح والتهليل والتكبير الخ، ثلث ساعة، ربع ساعة، عشر دقائق، ساعة إلا ربع، ساعة وربع، حسب الأحوال لكن هذه الجلسة تعطيك قوة روحية في أثناء النهار تشعر بقربك من الله، تشعر بقوتك على نفسك، تشعر بكلامك السديد، برؤيتك الصحيحة.

أيها الأخ الكريم: هذه الجلسة، الخلوة، هذه مرةً جاءتني هدية متواضعة مصباح يشحن بالكهرباء، لما أنسى أن أشحنه وأضطر له فأجد ضوءه خافت مثل الشمعة، ولما أشحنه وأنساه بالشحن وأستعمله أجده مثل الشمس المتألقة، هذا المصباح علمني درس لا ينسى، وأنت أيضاً مصباح تنشحن تتألق، تخفف الشحن تنوص، تكثر من الذكر من تلاوة القرآن، من أداء الصلوات المكتوبات، والرواتب والنوافل ترقى قلبك لا تهمله، إذا أهملته تمل، العلم وحده ممل، والذكر وحده لا يرقى بالإنسان، يسعده ولا يرقى

به، ما الذي يرقى بك ؟ العلم يرقى بك والذكر يسعدك، وبلا عمل لا تستطيع الدخول على الله، بالعمل تدخل على الله، وبالذكر تسعد وبالعلم ترقى.

فإذا جمعت بين العلم والذكر والعمل تسعد وترقى وتدخل على الله عز وجل، الآية الكريمة:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28)

(سورة الكهف)

يعني كلمة فرطا سبحان الله أتذوقها دائماً أن يخطر في بالي أن أشبهها بشيء، حبات عنب نزعت من العنقود يقول لك عنب فرط إلى الخل، حبات تمر نزعت من العرجون، ويوجد إنسان أمره فرطا، ضائع، مشتت، غافل، تائه، يوجد عنده سأم وضجر، أنا ليست مهمتي في هذا المسجد فقط إلقاء المعلومات، هذه تحصل بكتاب، سألوا الإمام الغزالي رحمه الله أن فلان حفظ كتاب الأم للشافعي، فقال: زادت نسخة، أنا أدعوكم للعلم والدراسة إذا اقتصرت على المعلومات فقط، وقلبك لم ينتعش بذكر الله السلوك لم ينضبط المعلومات وحدها مملة، لذلك يقولوا عن بعض العلماء بأقطار العربية تعاني من الفقر هذا العالم يأكل عيش بعلمه، انفصل علمه عن سلوكه، علمه عن واقعه، فأول شيء لما تنتبه لعلاقتك مع الله.

أخوانا الكرام: سوف أقول لكم قضية أنا أعدها من أساسيات الطريق إلى الله، وأي مخالفة ترتكبها وتعلم أنها مخالفة تحجبك عن الله، أما إذا كان الأصل أنك أنت محجوب لا تشعر بشيء، تقول مالي أنا، إذا الإنسان في الأصل محجوب، أما لو أنك ضبطت استقامتك ضبطاً دقيقاً ومن خلال هذه الاستقامة أقبلت على الله عز وجل وذقت طعم القرب عندئذٍ تعرف طعم الحجاب، إذا الإنسان ذاق طعم القرب ثم حصلت منه مخالفة صغيرة حجبته عن الله عندئذٍ يغلي، لا يعرف مشقة الحجاب إلا من ذاق طعم القرب، لكن إذا الإنسان لم يهتم باستقامته أغلب الظن هذا ما اتصل حتى يشعر بالقطيعة، مقطوع دائماً، ما أقبل حتى يشعر بمغبة البعد، ما دخل نور الله إلى قلبه حتى يشعر بالظلمة، لكن إذا الإنسان ذاق طعم القرب، وذاق طعم الحب، طعم الشوق عندئذ يشعر بالجفوة، لذلك الله عز وجل يؤدب المؤمنين الصادقين بتأديب لطيف جداً يحجبهم عنه، والقصة أقولها لكم كثيراً هذا الذي زلت قدمه وانظر من الله العقاب ولم يأته العقاب، قال: يا رب وهو يناجي الله لقد عصيتك ولم تعاقبني، قال وقع في قلبه أن يا عبدي لقد عاقبتك ولم تدري ألم أحرمك لذة مناجاتي، أيام الإنسان الموصول بالله وقع في مخالفة الله عز وجل يؤدبه عن طريق الحجاب، الإنسان الراقي الحجاب يجرحه جرحاً بليغاً.

إذاً علاقتنا مع الله عز وجل، حال قلبنا، حال العلم، حال السلوك، الآن:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6))

(سورة التحريم)

أولادك هل تأمرهم بالصلاة ؟ هل تصطحبهم معك إلى المسجد، هل تلاحظ خروج بناتك وزوجتك، وضع مقبول غير مقبول، هل تعرف رفقاء أولادك، يا ترى رفقاء أولادك مؤمنين غير مؤمنين، يوجد انحراف، الآن انتقل من ذاتك إلى أهلك، وبالتأكيد الإنسان إذا لم يكن مع ذاته مستقيماً لا يستطيع أن يوجه أهله أبداً، يعني قوتك على أهلك وأولادك من استقامتك ومن قدوتك.

الآن حصل بفضل الله وتوفيقه علاقة مع الله طيبة، وحصل سير مع الأهل في طريق الإيمان هل تدري أن أعظم عملٍ على الإطلاق من دون استثناء أن تكون سبباً في هداية واحد من الناس، لو سألت نفسك هذا السؤال، أنت لك نشاط بالدعوة إلى الله ؟ ليس شرط أن تكون داعية ولك اسم براق، ولا شرط أن تكون خطيب مسجد ولك كرسي تدريس في دمشق، لا، لا تريد كرسي ولا منبر، ولا اسم براق، يكفي أن تجلس مع إنسان وأن تحدثه عن الله عز وجل، أليس لك أصحاب وجيران، وزملاء، أولاد أخ، أولاد أخت، أليس لك بنات أخت، وبنات أخ ؟ يوجد إنسان لا يوجد حوله عشرين ثلاثين ممن يلوذون به ألا تستطيع أن تجلس معهم بالأسبوعين جلسة في الشهر جلسة، أنت تتعلم ما سمعت في درس الجمع آية أو آيتين تأثرت بهم، كلما رأيت آية دقيقة تأثرت بها سجلها عندك، وسجل بعض المعاني التي تأثرت بها، اعمل دفتر تفسير بسيط، دفتر حديث بسيط، إذا سمعت حكم فقهي أعجبك دقيق سجله عندك، إذا سمعت موقف من السيرة رائع جداً يهز المشاعر سجله عندك، اعمل دفتر مختارات، يوجد طالب علم لا يكتب، هذا لا يصير، دفتر مختارات قسم منه قرآن، وقسم حديث، وقسم فقه، فأنت معك هذا الدفتر والأصح ممكن الإنسان بعد درس الأحد، الاثنين، بعد درس الجمعة أن يرجع إلى بيته ربع ساعة قيلت نقطة دقيقة في درس الاثنين سجلها عندك مع السيرة والشمائل، درس الأحد في نقطة تأثرت بها وحلت لك مشكلة سجلها عندك أنت بعد شهر شهرين ترى نفسك معك دفتر فيه أشياء ثمينة جداً، اجعل مضمون هذا الدفتر مادة الحديث مع الآخرين، وأنت لا تنسى لمجرد أن تكتب تحفظ إذا أردت أن تحفظ فاكتب، دفتر مختارات، لا أقيدك بكتاب ولا بمنهج دفتر ثلاثة أقسام أو أربعة أقسام، تفسير آيات، تفسير أحاديث، أحكام فقهية سيرة، أربعة وأين ما جلست، أيام تكون موظف ولا يوجد عمل والأضابير أرسلتها لأصحابها والدوام للساعة الثانية ويوجد أربعة موظفين في الغرفة ممكن أن تقول عدد من الآيات تلفت النظر يكون أحدهم غافل فيصحى، حديث شريف، تركب طريق طويل إلى حلب ولك جار بالمركبة سلم عليك وضيفك، حدثه، أنا الذي أتمناه على الله أن يكون كل واحد منكم داعية، ليس شرطاً

أن يكون لك اسم رنان طنان، فريد عصره ووحيد زمانه، لا يوجد حاجة، ولا تريد وظيفة بالأوقاف لامعة، أنت تستطيع أن تهدي إنسان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((عن سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: فَوَ اللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ))

يوجد طريقة بالدعوة رائعة جداً، يوجد درس تأثرت منه جداً تأخذ شريطه، ونحن إن شاء الله نفتح الإعارة تفتح على مصارعها، درس الاثنين، الأحد، الجمعة، تستعير شريطه تملك اشتري، لا يوجد معك استعير، تعرف أنه يوجد إنسان علاجه هذا الشريط خذ واسمع، كثير من أناس من سماع شريط أثنين يأتي إلى المسجد والتزم وأحضر أولاده وأصهاره وصارت أسرة بأكملها من وراء شريط فأنت أيضاً ممكن إذا درس تأثرت به تأثراً بالغاً يجب أن أقول لك يا فلان أنت كم إنسان جاء عن طريقك تقول لي ستة مثلاً، سبعة، واحد، عشرة، خمسة عشر، لا أن تكون أحضرته بالغصب على المسجد لا هذه ليس لها قيمة، يأتي معك درس واحد فقط، إذا أنت تعهدته بالنصح والإرشاد، وشاهدك إنسان كامل، سمتك حسن، أخلاقك عالية، ومبادئك سليمة، عقيدتك صحيحة، احتك معك وشاهدك إنسان كريم، حقاني، متواضع، تألقت أنت أمامه وعملت له زيارة، وأسمعته كم من الأشرطة، يقول لك أريد أن أحضر معك، هذا إذا جاء معك والله عز وجل هداه وارتقى، ارتقيت أنت به وارتقى هو بك. فهذا الدرس الذي هو استراحة بين موضوعات كبيرة، يعني مثل مراجعة للحسابات، راجع عباداتك مع الله عز وجل، يوجد قريب من أقربائك يوجد بينك وبينه خصومة، قال تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1))

(سورة الأنفال)

يا ترى هل يوجد علاقة مع أخ لك في المسجد، هل من المعقول سقف يجمع بين أخين مؤمنين متخاصمين، في مسجد واحد ؟ هذا ليس معقول من مشرب واحد، من مبادئ واحدة، من قيم واحدة، سقف يظلل أخين مؤمنين متخاصمين مستحيل، والنبي كما قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: تَهَادَوْا فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ وَلا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ شِقَّ فِرْسِنِ شَاةٍ))

لا تجعل علاقة مع أخ سيئة، إذا أنت غلط قل له أنا غلط وأنا أعتذر منك، هذه ترفعك عند الله إلى أعلى الدرجات، ودرسنا اليوم عملية جرد، مراجعة لحساباتنا، لسلوكنا، إلى دعوتنا إلى الله عز وجل، إلى مستوى دعوتنا، يا بشر لا صدقة ولا جهاد فبما تلقى الله إذاً

لو إنسان أدرك أن أجله قريب ما هو العمل الذي قدمه لله عز وجل، يعني إنسان يعمل في مهنة مثلاً، بالاثنين وثلاثين صار معه مرض عضال أنهى حياته، هذه الفكرة التي في ذهن الناس أنا في الستين لأموت، في السبعين، في الثمانين، هذه الفكرة غير صحيحة الموت لا يعرف صغير ولا كبير، فهذا الذي أردت أن يكون ماثلاً بين أيديكم، يوجد شيء ثاني أنا أذكره كثيراً وأتمنى على الله عز وجل أن تطبقوه الأخوة في الله، يجب أن تآخي واحد من أخوانك في الله واحد فقط مآخاة حقيقية، واحد تتفقده، يسأل عنك وتسأل عنه يتفقد شؤونك وتتفقد شؤونه، تتفقد سيره إلى الله ويتفقد سيرك إلى الله، تتفقد دوامه ويتفقد دوامك، وكل واحد وهذا ما أرجوه وما أتمناه ينتقي من أخوانه وذلك بحسب إقامتك، مكان عملك، زميلك في العمل، جارك في البيت، قريب منك، يوجد عنده هاتف قل له أنت أخي في الله، هكذا النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا تآخيا اثنين اثنين، هذا الأخ الذي أنت آخيته على الدرس لم يأتِ أنا لا أستطيع أن أعرف من بين ألف أو ثمان مائة أو ألفين من لم يأتِ، إلا أشخاص وجودهم قوي في المسجد، لكن أنت عندما تآخي أخ ويغيب درس واحد وأنت تسأل عنه يشعر أنه عضو في جماعة، هذا ذكرته سابقاً أنا وأتمنى على الله أنا وأرجو أن يكون واقعاً بينكم، آخي أخ من أخوانك مؤاخاة حقيقية تفقد دوامه، تفقد أحواله مع الله، هو يتفقد عملك، يتفقد دوامك، يتفقد شؤونك مع الله، اثنين اثنين وهذه علاقة ثنائية كما قلت في درس سابق.

وأن يكون لك أنت مجلس علم صغير، لأقربائك، سبحان الله الإنسان متى يسعد إذا خرج من ذاته، أكثر الناس ما الذي يشقيهم ؟ يحومون حول ذاتهم، دائماً يأكل هم مستقبله، بيته، مصروفه، دخله، أولاده، زوجته حامل، نفقات مستشفى باهظة، قيصرية، مسحوق سحق بالهموم، أخرج من ذاتك لخدمة الآخرين عندئذٍ يكفيك الله هم الدنيا، هم في مساجدهم والله في حوائجهم، يعني أنا أعرف معرفةً يقينيةً أن الإنسان لا يتألق إلا إذا ترجم كل معلوماته في الدين إلى وقائع، يعني أن تنهض لمساعدة أخ أفضل من أن تتعلم مائة أدب من آداب الإسلام ولا تطبقها، كلام فارغ وكنت دائماً أذكر لكم هذا المثل، قل ألف مليون واملكها، أليس هناك فرق كبير كبير بين أن تملكها وبين أن تنطق بها، الدين كذلك، فرق كبير بين أن تملك هذه المبادئ وهذه القيم وبين أن تنطق بها في حديثك، والله عز وجل قال

(إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

(سورة العصر)

يعني يوجد أشخاص يوءاثر السلامة لا ينصح أحد، يعني أخ رأيت منه شيء خلاف الشرع، وصديقك ويوجد مودة، وعلى انفراد، وبأدب جم يا فلان هذا العمل لا يجوز، فلما الأخ يشعر إذا كان قد أخطأ يوجد من ينصحه يعد للألف قبل أن يخطئ لكن نجامل بعضنا إلى درجة، نرى المعاصي في بيوت بعضنا ونبقى ساكتين، معاصي مخالفات، أيام ابن يكون منحرف الأب هامله، بنت خروجها غير

مناسب، مجلة في البيت لا يناسب وجودها في البيت، وأنت شاهدتها بعينك لا تبقى ساكت لا تجامل هذه المجاملة أسلوب أهل الدنيا، يقول لك أعطيه جَمَلُه، لكن المؤمن ينصح، ولكن النصيحة شيء والفضيحة شيء، النصيحة بينك وبينه وعلى انفراد وبأدب، وبأسلوب لطيف وأنا الله عز وجل لعل أن يكون لي أخطاء من نوع ثاني ولكن هذه الذي فعلتها معصية، تواضع أثناء النصيحة ولا تتكبر عليه، لا تعمل نفسك سيد وهو عبد أمامك، فهذا الذي أريده منكم إن شاء الله تعالى، يكون واقعاً في حياتك اليومية أن تحسن علاقتك مع الله عن طريق التحرك بثلاث محاور أساسية، محور العقيدة والعلم، محور الذكر والقلب، محور السلوك والانضباط

إذا حققت الخلوة مع الله وطلب العلم والانضباط والعمل الصالح هذه الثلاثة أحدهم أسعدك، والثاني ارتقى بك، والآخر سمح لك أن تدخل على الله، الآن أنت تفوقت وعندما وصلت إلى هذا المستوى الآن لك الحق أن تتقي الله في أهلك، رجل له أخ، قريب، عم، خال، يعني بالحسنى وأهم شيء بيتك، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105))

(سورة المائدة)

وعليك بخاصة نفسك يعني أسرتك ، انتقلت إلى عملك بعد هذا انتقلت إلى دعوة إلى الله عز وجل، يوجد شيء آخر أخوانا الكرام النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ وَأَنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ "))

يعني إنسان ارتاح بمجلس علم يثابر عليه، ارتاح لصلاة قيام الليل ولو ركعتين قبل الفجر يثبت عليهم، ارتاح لصلاة في المسجد الفجر يثبت عليها، الثبات كما يقال نبات، في الثبات تتراكم الحقائق، في الثبات ترقى فالذي يرقى بك هو الثبات، الإنسان أيام يكون موسمي يقول لك عامل موسمي يعني أنه ليس له تقاعدية، وليس له حقوق أبداً، أما العامل النظامي له تأمينات وتقاعدية وله حقوق كثيرة، أحياناً يقول لك على الفراغ لا يوجد عندنا موسم إذاً نأتي إلى المسجد، يجب أن تبرمج حياتك وفق دروس العلم أنا هذا رأيي، لا تبرمج الدروس وفق نشاطاتك الأكمل أن يكون الإنسان دوامه مستمر.

أنا جئت بالكتاب من أجل أن يكون الدرس فيه شيء من حديث رسول الله صلى الله عليه، يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكَرْبِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ))

لا يوجد إنسان عند الشدة إلا ينطلق إلى الله، ليس له فضل بهذا الانطلاق لأنه لا يوجد غيره، لكن محبتك إلى الله تتبدى ليس عند الشدة محبتك إلى الله تتبدى في الرخاء، في الصحة، لا يوجد مشكلة، بالك مرتاح، لك عمل، لكن عندما عملك يتوقف، يوجد شبح مرض لا سمح الله، شبح مشكلة، بعملك يوجد مشكلة كبيرة ترى نفسك انطلقت إلى المسجد وإلى بيت الله وإلى الدروس، طبعاً أهلاً وسهلاً، وهذا جميل جداً، يعني انطلاقك إلى الله في وقت الشدة هذا شيء نابع من حاجتك إلى الله عز وجل، أما انطلاقك إلى الله وأنت في الرخاء هذا شيء نابع من محبتك إلى الله، يوجد فرق، أحياناً تطرق باب رجل وليس لك عنده شيء ولا تحتاجه إطلاقاً ولكن ما جئته إلا حباً به، وهذه الزيارة لا تقدر بثمن، وأيام لك عنده حاجة له صاحب أنت لك عنده حاجة تذهب إليه وموقفك ضعيف.

الأشخاص أذكياء إذا كان يريد حاجة يعمل له أول شيء زيارة خلبية وهو مشتاق إليه، يريحه جمعة ثم يطلب منه المرة الثانية، حتى تكون أول زيارة خاصة لوجه الله ولكي لا تصبح الزيارة مشوبة، أنت لاحظ نفسك مع الله عز وجل لا يوجد مشكلة في صحتك أبداً ولا في بيتك ولا بعملك، لا يوجد أي مشكلة، وأحببت أن تصلي قيام الليل هذه محبة، أحببت أن تحضر مجالس العلم حضور تام، هذه محبة، أحببت أن تذكر الله عز وجل وتجلس بخلوة مع الله هذه محبة، لكن على أثر مشكلة، على أثر فحص الضغط اثنين وعشرين يا رب لا يوجد غيرك، الآن صار في التجاء إلى الله بدافع الحاجة، والأكمل الإنسان أن ينطلق إلى الله وهو في الرخاء انظر إلى الحديث:

((مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكَرْبِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ))

يوجد أخ حدثني أنه يوجد طالب يدرس الدكتوراه في الرياضيات في أمريكا، قال لي أربع سنوات بمعادلات معقدة جداً وصل إلى طريق مسدود وإذا لم تحل أربع سنوات خسرهم في الدراسة، هكذا قال لي: جلست لله وقلت يا رب أنا جئت في بلاد الغربة وتلفاز لم أشتر حياءً من وجهك الكريم - ويوجد ثلاث مائة وخمسين قناة في أمريكا، ممكن أن تسهر عشرين ساعة ولا تمل - وسجد لله عز وجل، وثاني يوم أجرى محاولة جديدة انفتح أمامه مسالك وخلال يومين ثلاثة وصل إلى نتيجة صحية ونال درجة امتياز في الرياضيات الفلكية، لما أنت خجلت منه في الرخاء في الشدة الطريق صار مسدود لباك الله عز وجل، هذا الحديث دقيق جداً.

مرة ثانية أقول لكم الدعاء في الرخاء شوق، وحب، ومعرفة، والدعاء في الشدة حاجة، على كل حال جيد إذا الله سبحانه وتعالى ساق له شدة والتجأ إلى الله لا يوجد مانع جيد جداً، ولكن الأكمل أن تعرفه في الرخاء لكي يعرفك في الشدة، الحديث الثاني:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُعَظِّمَ اللَّهُ رِزْقَهُ وَأَنْ يَمُدَّ فِي أَجَلِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ))

يوجد إنسان لا يتمنى أن يكون في بحبوحة ؟ لا أعتقد أنه يوجد إنسان على الإطلاق، انظر رغبتين على الوتر الحساس، يوجد إنسان لا يتمنى أن يعيش عمراً مديداً وبصحة طيبة وأن يكون رزقه وفيراً لا أعتقد هذا، وهذا كلام رسول الله، ومرة ثانية وثالثة صلة الرحم بالمعنى الساذج أن يدق الباب على خالته ويقول لها كيف صحتك، هل تريدين شيئاً السلام عليكم، قلت لكم سابقاً صلة الرحم تبدأ بالزيارة وتمر بالمساعدة وتنتهي بالهدى، زرت أختك وأختك زوجها دخله محدود وأنت ميسور الحال، ما هذا الكلام، كيف صحتك أتريدين شيء والسلام عليكم ؟ تفقد شؤونها الدنيا شتاء هل أمورها ميسرة، يوجد وقود عندها، أولادها في المدارس حاجاتهم مؤمنة، أنت عندما تبذل من مالك لزوجتك تميل، والميل يمكن أن تصغي لك الآن، ممكن أن تعمل لأختك وأولادها، فصلة الرحم تبدأ بالزيارة وتمر بتفقد الشؤون وتنتهي بالهدى، لأنه عمل عظيم.

((مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُعَظِّمَ اللَّهُ رِزْقَهُ وَأَنْ يَمُدَّ فِي أَجَلِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ))

أنا والله حينما أرى أخ كريم التحق في هذا المسجد وبعد سنة وسنيتن رأيت أخوته في المسجد وأصهاره في المسجد، وأولاد أخوته في المسجد يكبر في نظري كثيراً، الأقربون أولى بالمعروف، أيام أخ أصدقاءه جميعاً يحضرهم واحد واحد بحكمة، و ذكاء، بلطف، بمرونة بمعروف، انزعوا من أذهانكم الصلة التقليدية، الصلة زيارة، تفقد معاشي ثم دعوة إلى الله عز وجل.

((عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ خَطَبَ النَّاسَ بِالْجَابِيَةِ فَقَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ مَقَامِي فِيكُمْ فَقَالَ: اسْتَوْصُوا بِأَصْحَابِي خَيْرًا ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَبْتَدِئُ بِالشَّهَادَةِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا فَمَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ بَحْبَحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ لا يَخْلُوَنَّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا وَمَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ))

هل هذا المقياس دقيق ؟ المنافق ذنبه كذبابة على وجهه، والمؤمن ذنبه كجبل جاسمٍ على صدره، إذا كان ذنبك أقلقك، ما نيمك الليل هذه علامة طيبة، أما إذا ما باليت ما الذي حدث ؟ رب غفور رحيم، إذا ما باليت بالذنب هذه علامة خطيرة معنى هذا أنك اقتربت من النفاق.

((عَنْ قَيْسِ بْنِ كَثِيرٍ قَالَ: قَدِمَ رَجُلٌ مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ وَهُوَ بِدِمَشْقَ فَقَالَ: مَا أَقْدَمَكَ يَا أَخِي فَقَالَ حَدِيثٌ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أَمَا جِئْتَ لِحَاجَةٍ قَالَ: لا، قَالَ أَمَا قَدِمْتَ لِتِجَارَةٍ، قَالَ: لا، قَالَ: مَا جِئْتُ إِلا فِي طَلَبِ هَذَا الْحَدِيثِ قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى

الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ))

إلى أين ذاهب ؟ ذاهب لأشتري هذه الدكان، إلى أين ذاهب، نريد أن نسهر، إلى أين ذاهب يوجد مشروع تأسيس عمل، إلى أين ذاهب ؟ إلى المسجد، هذا الطريق إلى المسجد ينتهي بك إلى الجنة.

((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ))

طالب العلم عند الله له شأن كبير، أيها الأخ الكريم يجب أن تعلم أنك إنسان إذا طلبت العلم، فإن أعرضت عن العلم هبطت من إنسانيتك، تقول أنا إنسان على العين والرأس، يوجد لي قلب ومعدة وعينين ورأس والخروف له قلب ورئتين ومعدة وأمعاء، أبداً الأجهزة نفسها ويأكل حشيش أخضر وينام ويستريح، ويلتقي مع أنثى، حيوان، والإنسان حينما يكف عن طلب العلم هبط عن إنسانيته، الذي يؤكد أنك إنسان طلبك للعلم بالعلم ترقى عند الله عز وجل، لأن الله عز وجل قال:

(أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآَخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر)

((... مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ))

أنت تلاحظ شخص مهذب كلامه منضبط، منصف، حقاني، محسن، كريم، حليم، لا يمكن ما يكون له مشرب ديني، مستحيل، شخص فظ غليظ، لئيم، مقطوع عن الله عز وجل، المؤمن العالم لأنه يدعو إلى الله عز وجل، يسعى لبناء نفوس بناء صحيح، بناء متوازن، بناء أخلاقي، بناء قيمي، بناء مبدئي، هذا الإنسان يكون له زوجة وأولاد مرة سمعت من أسرة تشكر الله شكراً لا حدود له، الزوج يعرف الله كان شيء وصار شيء، صار ملائكة، وهذا من آثار طلب العلم، الإنسان المؤمن تراه حليم، منصف، رحيم، يعدل بين أولاده في العطية، لا يوجد عنده شطط إسراف، انحراف.

((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ))

يعني حجمك عند الله بحجم عملك، وحجمك عند الله بحجم عملك، من يحضر لي آيتين بهذا المعنى ؟
قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11))

(سورة المجادلة)

درجتك ترتفع بقدر علمك، العمل قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (132))

(سورة الأنعام)

أنت اعتبر درجتك عند الله بدرجة علمك ودرجة عملك.

((عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مَوْلَى شَدَّادِ بْنِ الْهَادِ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ سَمِعَ رَجُلاً يَنْشُدُ ضَالَّةً فِي الْمَسْجِدِ فَلْيَقُلْ لا رَدَّهَا اللَّهُ عَلَيْكَ فَإِنَّ الْمَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لِهَذَا))

بيع في المسجد، حل خصومة، هذا بيت الله عز وجل، هذا لنشر العلم، لأداء الصلوات، للأعمال الصالحة.

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ))

قلت لكم في الدرس الماضي أنه أعظم عمل الذي يستمر بعد موت صاحبه، وأسوأ عمل الذي يستمر بعد موت صاحبه فاجهد أن الإنسان إذا غابت عينه عن الدنيا أن يبقى عمله في الدينا، أيام تسمع قارئ من ثمان سنوات متوفي، تسمع صوته في كل الإذاعات، ومغني والاثنين ماتوا، أحدهم القرآن الذي تلاه يملأ الآفاق، وإنسان الغناء الذي غناه يملأ الآفاق، وكلاهما تحت أطباق الثرى، إنسان ألف كتاب، وإنسان ألف كتاب الأول فيه ضلالات، والثاني فيه هدى، كل من قرأ كتاب الهدى اهتدى به بعد موت صاحبه، أحياناً أراجع كتاب تفسير ألفه صاحبه من ألف سنة وأخذ منه مختصر وألقيها خطبة، وأقول الله يجزيه الخير، لأنه الآن تحت أطباق الثرى وخيره ما يزال، الغزالي من كم سنة متوفي والإحياء جعله بيننا، الشافعي، كما قال سيدنا علي: يا بني مات خزّان المال وهو أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة، إن شاء الله في الدرس القادم ننطلق إلى سلسلة في الدروس الفقهية التي تتعلق بموضوع أساسي في حياتنا.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: فالحديث الشريف الذي روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رواه محمد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((عَنْ أبي الْحَوْرَاءِ السَّعْدِيِّ قَالَ: قُلْتُ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ مَا حَفِظْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لا يَرِيبُكَ فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ))

هذا الحديث أيها الأخوة أصل في الورع، وركعتان من روع خير من ألف ركعة من مخلط، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، الحق يطمئن القلب إليه والباطل تتردد النفس بالإقبال عليه، ما حاك في صدرك، ما حاك في نفسك وتردد في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس هو الإثم فالمؤمن الورع يبتعد عن كل شيء فيه ريب، فيه شك، فيه التباس، علامة الورع أنه يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس، فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم:

((دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، قال: وكيف لي بالعلم بذلك ـ كيف أعرف الذي يريبني من الذي لا يريبني ـ قال: إذا أردت أمراً فضع يدك على صدرك فإن القلب يضطرب للحرام ويسكن للحلال، وإن المسلم الورع يدع الصغيرة مكان الكبيرة))

معنى ذلك أن هناك درجة عالية هي الورع، والورع أن تترك شيء من المشتبهات وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ))

استبرأ لدينه وعرضه، أي استبرأ لدينه عند الله، ولعرضه عند الناس عرضه عند الناس أي سمعته بين الناس، ودينه عند الله، والمؤمن الصادق يبالي بسمعته عند الناس لأنه مظنة صلاح، فلو أنه لا يبالي وعمل عملاً دعا الناس إلى الشك فيه والريب فيه فهذا ليس من أخلاق المؤمن، من وضع نفسه موضع تهمة ينبغي أن لا يلوم الناس إذا اتهموه، والنبي عليه الصلاة والسلام، والآن دخلنا في موضوع فرعي

يعني أحياناً تكون أنت أنقى من الثلج وأطهر من الملك، ومع ذلك قد تكون في وضع يستطيع فيه خصمك أن يتهمك قد تكون أنقى من الثلج وأطهر من الملك لكنك في موضع يستطيع خصمك أن يتهمك فإذا كنت عاقلاً لا تضع نفسك موضع التهمة.

والنبي عليه الصلاة والسلام علمنا كيف نوضح، كيف نبين، علمنا أن البيان يطرد الشيطان، وكان مع زوجته السيدة صفية، جاءته صفية إلى معتكفه فأراد النبي أن يوصلها إلى البيت في الطريق مر صحابيان جليلان، فقال عليه الصلاة والسلام: على رسليكما، أي انتظرا، هذه زوجتي صفية.

أخوانا الكرام: هذا الحديث ممكن أن يطبق على مليون حالة في حياتنا بين الحساب، وضح الملابسات، وضح لماذا تأخرت ؟ وضح لماذا لم تدفع ؟ وضح لماذا دفعت ؟ وضح لماذا خفضت السعر ؟ وضح لماذا غضبت ؟ البيان يطرد الشيطان، يوجد أشخاص عندهم خطأ سلوكي أساسه أنه يتوقع الناس يعرفون خباياه، الناس لا يعرفون خباياك، إذا أنت لك عمل طيب لكن ليس ظاهراً للناس، والذي ظهر عمل غير طيب، فمن وضع نفسه موضع التهمة لا ينبغي أن يلوم الناس إذا اتهموه، فكما أنك مكلف أن تدع ما يريبك إلى ما لا يريبك، أنت مكلف أن تسلك سلوكاً لا تسمح للخصوم أن يتهموك، يوجد حقيقة أيها الأخوة أحب أن تكون واضحة لديكم بشكل جيد وهي أن أهل الدنيا، أهل المعصية، أهل الفجور، المنحرفون، الذين يختل توازنهم الداخلي حينما ينحرفون، أي إنسان انحرف إما في أخذ المال الحرام، أو في ممارسة الشهوات التي لا يرضى الله عنها، إما لمكسبٍ مادي أو في إرواء شهوة محرمة، هؤلاء الذين ينحرفون في قبض الأموال وفي انتهاك الأعراض، والذين لا يبالون في شيء مصلحتهم وشهواتهم فوق كل شيء، هؤلاء حينما يقترفون السيئات ما الذي يحصل لهم ؟ بحكم فطرتهم التي فطرهم الله عليها، بحكم البنية الطاهرة التي خلق الله الإنسان بها يختل توازنهم الداخلي، يضيقون بانحرافهم، ما الذي يعيد لهم توازنهم ؟ أن يطعنوا في المؤمنين، أن يكتشفوا أخطاء المؤمنين، أن يروا أن المؤمنين ليسوا أفضل منهم ، لو أنهم رأوا هذه الرؤية لعاد إليهم توازنهم، فلذلك أيها الأخوة المؤمن الصادق يعد إلى المليون قبل أن يتحرك أما إنسان لا ديني، إنسان ينكر أصل الدين، إن هذا الإنسان يراك بشكل غير طبيعي، أخطاءك يكبرها ألف مرة لماذا ؟ ليستريح، هو عندما انحرف وحينما عصى، وحينما فجر اختل توازنه بحكم فطرته فضاقت نفسه به ذرعاً، أما إذا رأى خطأً في مؤمن أو زلة قدم أو تساهل، أخذ هذا الخطأ وكبره آلاف آلاف المرات وقال هكذا ألم أقل لكم إن الإيمان لا يقدم ولا يؤخر، لذلك سيدنا علي رضي الله عنه يقول قوام الدين والدنيا أربع رجال عالم مستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم وغنياً لا يبخل بماله، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا ضيع العالم علمه استكف الجاهل أن يتعلم.

دائماً وأبداً فكر أنك إذا أخطأت مع مسلم مثلك يقول المسلم فلان أساء إلي أما إذا أخطأت مع طرف آخر، إنسان ينكر الدين، إنسان فاجر يقول المسلمون سيئون، يغفل اسمك ويتهم دينك، لذلك كما قال عليه الصلاة والإسلام: أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يأتين من قبلك.

((دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، قال: وكيف لي بالعلم بذلك، قال: إذا أردت أمراً فضع يدك على صدرك فإن القلب يضطرب للحرام ويسكن للحلال، وإن المسلم الورع يدع الصغيرة مكان الكبيرة))

والله يا أخوانا مقياس دقيق، ولكن طبعاً أنا لا أقبله مع الفجار، العقل أحياناً يطغى والفطرة تنطمس، أقبله مع الذين حافظوا على نقاء فطرتهم فقلبك مشعر دقيق فإن المسلم الورع يدع الصغيرة مخافة الكبيرة، بالمناسبة ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط، يعني العوام يقولون: المعلم لو شلفها شلف بألف، بالتعبير الدارج، يعني الورع كيفما تحرك له أجر عند الله، والمخلط يوجد حجاب بينه وبين الله بمعنى أن أعماله الصالحة محفوظة عند الله لكنها مع السيئات لا تعينه على الاتصال بالله، أساس الدين الصلة بالله، لك عمل سيئ وعمل طيب، هذا الخلط بالعملين، السيئ حجبك عن الله والصالح لم يعد صالح، يعني أنت مثلاً من أجل أن تطبخ تحتاج إلى رأس غاز وإلى أسطوانة، لو عندك رأس غاز فقط لا تستطيع أن تطبخ، الرأس له ثمن وتستطيع أن تبيعه لكن هذا الرأس وحده لا يصنع لك طعاماً، عندك أسطوانة فقط جيدة وثمنها ألف ليرة لكنها وحدها لا تصنع طعاماً، لكن إذا جمعت بين الرأس والاسطوانة اتقد الرأس وأنضج لك الطعام.

فالعمل الصالح ينهض بك إلى الله، إذا خالطه عمل سيئ، السيئ حجبك عن الله، إذاً العمل الصالح الآن لا يكفي كي تقبل على الله خالطه عمل سيئ لكن الله عز وجل يعطيك ما يقابله في الدنيا، العمل الصالح له فوائد جمة، الأولى أنه ينهض بك إلى الله، والثانية أن الله يكافئك عليه في الدنيا أو في الآخرة، والوظيفة الكبرى الأساسية أنه ينهض بك إلى الله تعطلت، انظر إلى أكثر الناس لهم عمل طيب لكن خالطها معاصي وانحرافات إما في موضوع الشهوات أو موضوع كسب المال، وهذه المعاصي والانحرافات حجبتهم عن الله عز وجل لذلك الدين لم يبقَ له معنى عندهم، الإنسان عندما ينقطع عن الله يبقى الدين ثقافة، أفكار، يوجد عنده فكر إسلامي يطالع ويقرأ، حرارة الإيمان غير موجودة، حرارة الإقبال غير موجودة، النور الذي يلقيه الله في قلب المؤمن غير موجود، السكينة التي هي أثمن شيء في الدنيا فأنزل الله سكينته، لا تجد في قلبه سكينة، ولا نور، ولا إيمان حار تجعله يتأجج وينطلق إلى الله كالمرجل لأن السيئات خالطت الحسنات.

أخوانا الكرام: كلام النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ))

وأنا ذكرت سابقاً أن الإنسان ممكن أن ينحجب عن الله بجريمة كبيرة، بمعصية فادحة، بانحراف خطير، أما أن يحجب عن الله ويفقد أثمن ما في الدين بصغيرة تافهة، يكون مغبون جداً، أيام الإنسان يقول لك لا يوجد كهرباء في المدينة، والكهرباء منقطعة كل جهاز في البيت معطل أما أن الكهرباء واصلة إلى البيت وملم واحد مقطوع، كل شيء معطل في البيت لانقطاع شريط لك أن تصله بثانية، يمكن أن تتعطل كل الأجهزة في البيت إذا كان لا يوجد تيار رئيسي، ليس لك حيلة، أما التيار واصل ويوجد قطعة صغيرة بين طرفي شريط وبإمكانك أن تصلها بثانية، هل تضحي بكل هذه الأجهزة من أجل هذه القطعة الصغيرة أنت مغبون إذاً.

الإنسان إذا ارتكب الكبائر يحجب عن الله ولكن هذا الحجاب يتناسب مع الكبائر أما يحجب عن الله لصغائر.

((عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ))

اتبع لا تبتدع، الورع لا يتسع، اتضع لا ترتفع، درسنا اليوم عن الورع والحديث الوحيد الذي هو محور الدرس هو:

((دع ما يريبك إلى ما لا يريبك... " واثلة بن الأسقع روى عن النبي صلى الله عليه وسلم زيادة لهذا الحديث، قيل له فمن الورع يا رسول الله ؟ قال: الذي يقف عند الشبهة))

تعريف الورع عند النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي يقف عند الشبهة هذا هو الورع، يقول أحد أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم: لماذا تريد ما يريبك وحولك أربعة آلاف لا تريبك، هذا معنى جديد، يعني الأشياء المتفق عليها كثيرة جداً، أحياناً يكون ألف نوع من الطعام ويوجد علبة لحم مستوردة هل يا ترى مذبوح ذبح شرعي، أم الحيوان مصعوق صعق، دمه فيه، يا ترى مخلوط بشحم خنزير، هذه العلبة كلها انتهي منها، يوجد عندك ألف نوع طعام طاهر نظيف لا يوجد فيه إشكال، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك، وربنا عز وجل جعل الحلال كثير والحرام قليل، ما جعل ثلاثين نوع حرام وخمسة حلال، جعل ألف نوع حلال وواحد حرام، قال تعالى:

(وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35))

(سورة البقرة)

كم شراب مسموح به ؟ بالمئات، الخمر ممنوع، كم لحم مسموح به، الخنزير ممنوع، لك أن تتزوج، أخوانا الكرام ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناةً نظيفة في الإسلام لا يوجد فيه حرمان الإسلام كله نظافة، أهل الدنيا يتوهمون أن الدين يحرمهم من كل شيء يجب أن تفهم الدين هذا

الفهم أنك تسير في حقل فإذا بلافتة تقول لا تتجاوز الحقل يوجد ألغام، هل تحقد على من وضع هذه اللوحة ؟ أبداً، هل ترى أن هذه اللوحة تقيد حركتك ؟ لا والله، إنها ضمان لسلامتك، حينما تفهم المحرمات أنها ضمان لسلامتك فأنت فقيه، أما حينما تفهم المحرمات أنها قيد لحريتك فأنت لا تعرف شيئاً، ليست المحرمات قيداً لحريتك ولكن ضمان لسلامتك.

ما تريد إلى ما يريبك وحولك أربعة آلاف لا تريبك، لا يوجد إشكال لأن المؤمن يمشي على أرض صلبة، أرض مستوية، وأرض مائلة منزلقة فيها حشائش ومواد مزحلقة، ثم يوجد نهر عميق، سر على المنطقة الجافة المستوية واطمئن، أما هذه المنطقة خطرة تقودك إلى النهر.

سيدنا عمر قال: دع الربا والريبة، جناس ناقص، الريبة شيء مشكوك به، يعني أخوانا الكرام الحلال المحض القلب يطمئن له لا يضطرب القلب إلا إذا في شك، لذلك أنا أشعر أن كل إنسان يسأل سؤال والله سؤاله دليل ورعه، الحقيقة يوجد إنسان لا يسأل إطلاقاً، ولا يسأله لأنه ليس سائل، هذا إنسان خارج قوس، أما الذي يسأل هو يسأل ليعرف الحق، لكن لأنه سأل شعر بشك، شعر بريب والريب يدعوه للسؤال، والشبهات أيها الأخوة والنبي قال:

((عَنْ عَامِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ))

((... لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ.... "))

ما معنى ذلك ؟ معنى ذلك أن الشبهات ليس كل الناس لا يعلمونها بل أكثرهم لا يعلمونها إلا أن بعض الناس يعلمونها، قال لي أخ البارحة: أنه ساهم بثمن سيارة، ورجل قال له: أريد أجرة، والأجرة حق، ولكن بعد سنة أريد أن أسترد مبلغي كما هو، صارت ربا، هذا صار قرض جر نفع، لكن إذا بعد سنة السيارة قيمت إما أن يزداد ثمنها أو يقل إذا كنت راضياً أن تأخذ ثمن نصف السيارة مهما بلغ فالأجرة حق أما إذا أصررت على أن تأخذ المبلغ كما أديته، الأجرة ربا صارت.

أحد أصحاب النبي سئل، قال: ما شيء أهون من الورع ؟ الورع سهل لا يحتاج إلى علم واسع، تبحر، ما شيء أهون من الورع، إذا رابك شيء فدعه، هذا اسمه بالفقه الخروج من الخلاف، ياترى يجوز أن أمسح عن الجوربين، أبو حنيفة في آخر أيامه أجاز ويوجد أئمة رفضوا إذا خلعت الجوربين وتوضأت ماذا فعلت الآن ؟ خرجت من الخلاف، موضوع خلافي إن أخذت الأحوط انتهى الخلاف، لذلك الورع

دائماً يأخذ بالأحوط فيخرج من الخلاف، أما عند الضرورة لك أن تأخذ بالرخصة، أما عند الطمأنينة والبحبوحة لك أن تخرج من الخلاف، لأخذ الطرف الأشد.

أحد التابعين الأجلاء كتب غلام لحسان بن أبي سنان في الأهواز، إن قصب السكر أصابته آفة فاشتري السكر فيما عندك، مثل إذا الآن دولة تنتج قصب السكر بكميات تصديرية كبيرة أصابت هذا النبات آفة خطيرة، الناس لم يعرفوا، ولكن حتماً الأسعار سوف ترتفع، فهذا الرجل، قال ابن المبارك كتب غلام لحسان بن أبي سنان في الأهواز، إن قصب السكر أصابته آفة فاشتري السكر فيما عندك، فاشتراه من رجل ولم يأتِ عليه إلا قليل فإذا فيما اشتراه ربح ثلاثين ألفاً.

هو تلقى خبر من أماكن زراعة قصب السكر أنه أصابته آفة وهذا الخبر جاءه منفرداً، وهو ماذا فعل ؟ اشترى السكر وبعد حين وصل الخبر والأسعار ارتفعت، ولم يأتِ عليه إلا قليل فإذا الذي اشتراه ربح ثلاثين ألفاً، قال: فأتى صاحب السكر وقال: يا هذا إن غلامي كان قد كتب إليك فلم أعلمك فأقلني فيما اشتريته منك، اشترى وباع وربح ثلاثين ألف، لكن عندما اشترى ما أعلم هذا البائع أنه انتبه أن قصب السكر أصابته آفة والأسعار سوف ترتفع ارتفاعاً جنونياً وباعه بالسعر وهو جاهل بما أصاب قصب السكر، فلما عاد إلى نفسه رأى الأسلم أن يعيد هذه الصفة إلى صاحبها، قال: إن غلامي كان قد كتب إلي فلم أعلمك فأقلني فيما اشتريته منك، قال له الآخر: قد أعلمتني الآن وقد طيبته لك الآن أنا علمت وهي حلال لك، قال: فرجع فلم يحتمل قلبه فأتاه فقال: يا هذا إني لم آتِ هذا الأمر من قبل فأحب أن تسترد المبيع، لم يتحمل وهذا هو الورع، البائع قال له: أعلمتني الآن وأنا قبلت وطيبت لك هذا البيع، فعاد مرة ثانية، صار في غبن، تدليس، كتم معلومات، وهذه درجة من الورع عالية جداً والآن يعدونها الناس في منتهى الشطارة، ومنتهى الحنكة والذكاء والحنكة التجارية أن تأتي بمعلومات دقيقة وأن تشتري من أناس لا يعلمون شيئاً، أيام يشعر الإنسان أنه يوجد تنظيم للأرض، وخبر أخذه من مصادره، ومنابعه يذهب إلى هذه الأمكنة ويشتري أراضي بمئات الدونمات، بعد حين يظهر قانون التنظيم وترتفع الأسعار عشر أضعاف، عشرين ضعف، ويعد نفسه في غاية الذكاء، طبعاً هذه قصة من قصص الورع.

قال فما زال فيه حتى رده عليه، وكان يونس بن عبيد إذا طلب المتاع ونفقة أرسل ليشتريه يقول لمن يشتري له _أعلم من تشتري منه أن المتاع قد طلب، اشترى حاجة وباعها وصار عليها طلب، يرسل غلامه ليشتري بضاعة ليرمم ما نقص عنده فيقول له أعلم البائع أن البضاعة صار عليها طلب ونفقت، وما يكون في تدليس.

قال هشام بن حسان: ترك محمد بن سيرين أربعين ألفاً فيما لا ترون اليوم فيهم بأساً، ترك أربعين ألف ورعاً أما أهل زمان ابن سيرين لا يرون بأساً في أخذ هذا المال، معنى هذا أن الورع درجات.

الحجاج بن دينار بعث طعاماً إلى البصرة مع رجل ليبيعه له، ليبيع هذا الطعام بسعر يومه، إذا الإنسان أرسل طعام، أو جلب طعام وباعه بسعر يومه له أجر الصدقة، يوجد حاجة إلى مادة غذائية استوردتها وبعتها بسعر اليوم دون احتكار هذا المبيع يعد عند الله صدقة لك مع أنك بعت وربحت، لكن ما حبستها حتى يرتفع سعرها ولا سيما أقوات المسلمين، أرسل طعام إلى البصرة مع رجل وائمره أن يبيعه بسعر يومه، فأتاه كتابه إني قدمت البصرة فوجدت الطعام قليلاً فحبسته فزاد الطعام، فازددت فيه كذا وكذا، يعني ربحت أربعين، خمسين ألف وآخرته جمعة، وهو وصل إلى البصرة ووجد التجار قالوا له: ننصحك أن تحبسه أسبوعاً لأنه صار عليه طلب، وهو لصالح موكله حبس الطعام وارتفعت الأسعار وباع، وحقق ربح كبير وأرسل إلى سيده أنه حبست الطعام ثم بعته بكذا وكذا فكتب إليه الحجاج: إنك قد خنتنا وعملت بخلاف ما أمرناك به، فإذا أتاك كتابي هذا فتصدق بجميع ذلك الثمن، ثمن الطعام على فقراء البصرة، أنا أمرتك أن تبيع الطعام بسعر يومه فلماذا حبسته أسبوعاً عن المسلمين وازداد ثمنه وحققت أرباحاً طائلةً، أنا آمرك أن تقدم ثمن الطعام الذي بعته لفقراء البصرة ولا أريد منك شيئاً.

تنزه يزيد بن زريع عن خمسة ألف مائة من ميراث أبيه فلم يأخذه وكان أبوه يلي الأعمال للسلاطين، يعين أموال أبوه شك في حلها، فخمسة مائة ألف لم يأخذها من ميراث أبيه ورعاً، قد ترون هذه القصص ضرباً من الخيال لكن صدقوني أن الورع الله جل جلاله يكافئه أضعافاً مضاعفة لكن بعد حين، مرة قلت لكم فلاح صغير أعطوه قطعة أرض وعشرين دونم، وطول عمره فلاح وفجأةً صار صاحب أرض ففرحه بلغ درجة غير معقولة، له شيخ في الشام، قال له: يا سيدي منحت عشرين دونم من أراضي الإقطاع الفلاني وأصبحت مالك أرض وبارك لي، قال له: يا بني هذه أرض مغتصبة لا يحل لك أن تأخذها، يعني كأنه ألقى على فرحه ماء فانطفأ جمر فرحه، فقال له: ماذا أفعل ؟ قال له: حاول أن تشتريها من صاحبها، قال له: لا أملك، قال له: بع ما بحوزتك وادفعه دفعة أولا لعله يرضى، فذهب إليه قال: يا سيدي أعطيت من أرضك عشرين دونماً ولي شيخ أنبأني أن هذا لا يجوز فماذا أفعل هل تقبل أن تبيعني هذه الأرض، قال له: الإقطاعي أخذ مني أربع مائة دونم ولم يأتِ أحد إلي إلا أنت هذه هدية مني لك، تملكها حلالاً مني، طبعاً المؤمن ورع والله يكافئ الورع دائماً، يكافئ الورع مكافأة مجزية، أحدكم لا يخاف إذا رأى شيء فيه شبهة وتركها يبقى بلا شيء، لا يأتيه كل شيء.

أخوانا الكرام يوجد أحاديث أنا أعدها أصول، هذا الحديث يجب أن يكون عندكم جميعاً في أذهانكم: ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه، في دينه مع الله، وفي دنياه التي يعيشها.

أحد التجار ابن مخرمة احتكر طعاماً كثيراً فرأى سحاباً في الخريف فكرهه، رأى سحاب وأمطار كثيرة وهذه الأمطار تنتهي إلى موسم طيب، وهذا الموسم الطيب يخفض له الأسعار المخزونة عنده رأى سحاباً في الخريف فكرهه، فقال يخاطب نفسه: ألا أراني كرهت ما ينفع المسلمين فآل على نفسه أن لا

يربح بهذا المخزون شيئاً، وشعر بلؤمه، المؤمن إذا الأسعار هبطت يفرح، أما إذا إنسان بعيد عن الإيمان يقول لك السعر تشرشح، تبهدل، يعني إذا الناس أكلوا كرز تحزن أنت، يجب أن يكون سعر الكيلو مائة ليرة تفرح عندئذ، المؤمن يفرح إذا رخصت الأسعار.

سيدنا عمر أول سؤال كان يطرحه على واليه إذا التقاه، كيف الأسعار عندكم ؟ الله هو المسعر لكن سيدنا عمر يسأل عن السعر، والسعر مهم جداً، السعر المنخفض في بحبوحة للناس، والمرتفع، أيام ترى الحاجات كلها موفورة وأسعارها غير معقولة، أسعارها ليس في متناول الفقير شيء مؤلم جداً.

هناك حالات كثيرة جداً في العلاقات التجارية تدخلها الشبهة فالمؤمن الصادق يبحث عن الربح الحلال الطيب، إلا أنه يوجد نقطة دقيقة ليس كل شيء فيه شك بسيط تركناه، هناك رخص أحياناً، النبي رخص بها وهي ثابتة، وهذه الرخص قد لا تصل إلى بعض العلماء، فإن لم تصل إليهم وأفتوا في حرمة ذلك، ويوجد رخص ثابتة للنبي أنت يمكن أن تعتمد على الرخصة الثابتة، بحديث صحيح دون أن يكون هناك أحاديث مخالفة لهذا الترخيص، يعني الحقيقة أن التحريم سهل يستطيعه الجاهل، الجاهل يستطيع أن يقول لك عن كل شيء حرام، أما البطولة أن تعطي الرخصة الثابتة عن رسول الله، أيام الإنسان يعطي جزء من ربحه لشخص جاء بشاري، إذا كان الفرق من ربح لا يوجد مانع، يوجد إنسان يقول كله حرام، لا ليس كله حرام، إذا بضاعة سعرها في السوق مائة والذي جلب لك هذا الشاري أعطيته خمسة من ربحك الخاص وما زدت من ثمن المبيع هذا الشيء لا شيء عليه، الإنسان يسأل يوجد أشياء مباحة، وأشياء محرمة، يوجد أشياء فيها شبهات، طبعاً من ترك الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، طبعاً إذا كنت على ما هم عليه المسلمون فأنت في بحبوحة لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ أُمَّتِي لا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلالَةٍ فَإِذَا رَأَيْتُمُ اخْتِلافًا فَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الأَعْظَمِ))

مجموع المسلمين، والإجماع أحد المصادر الشرعية الأساسية، دائماً الفكر الشاذ والحكم الشاذ منبوذ مهاجم، أما لو أن المسلمين جميعاً في عصر ما اقتضوا شيئاً هذا الشيء مع الأدلة في الأعم الأغلب مقبول لأن النبي عليه الصلاة والسلام أنبأنا أن أمته لا تجتمع على خطأ، لكن يوجد في نقطة دقيقة جداً، ما ظهر العمل به في القرون الثلاثة المفضلة هو الحق وما عداه هو الباطل، قال عليه الصلاة والسلام: خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم.

فالقرون الثلاثة تسمعون ويسمع منكم، ويسمع من يسمع منكم، فهذه القرون الثلاثة إذا في شيء عمله الناس والصحابة بين ظهرانيهم، والتابعون كذلك، وتابعوا التابعين كذلك، إن هذا الأمر عليه إجماع المسلمين لا شبهة فيه، أما إذا فعله أناس قلائل وأدلتهم ضعيفة هذه الشبهة لا ينبغي أن تؤخذ، لكن الشيء الذي ينبغي أن نلفت النظر إليه أنه من يقع في انتهاك المحرمات الظاهرة ثم يتورع عن شيء

من دقائق الشبه، إن هذا لا يقبل منه، مرتكب أكبر المعاصي ويقول لك سمسمة بين أسناني هل يا ترى أفطرت يا سيدي، أي سمسمة هذه ؟ يكون مقترف الكبائر برمضان، وخاف أن يكون قد أفطر من سمسمة بين سنين فضغطها وشعر بطعمها، دائماً الورع المبالغ به.

سيدنا عمر كان يطوف حول الكعبة في موسم الحج ورجل وجد لوزة صاح ورفع صوته مَن صاحب هذه اللوزة ؟ من صاحب هذه اللوزة ؟ فقال له: كلها يا صاحب الورع الكاذب، فإذا الإنسان متلبس بالمعاصي بالكبائر، متفلت في كسب ماله ودخله ربوي، بيته متفلت لا يوجد فيه انضباط، وبدأ يسأل عن أشياء دقيقة جداً، هذا الورع ورع كاذب غير مقبول، العلماء قالوا: أما من يقع في انتهاء المحرمات الظاهرة ثم يريد أن يتورع عن شيء من دقائق الشبه فإن هذا ينكر عليه ولا يقبل منه.

قال مرة ابن عمر سأله سائل عن دم البعوض، الذي سأله من الخوارج أن دم البعوض وإذا البعوضة توقفت على ثوب والإنسان قتلها فإذا قتلها شيء من دمها يأتي هذا الثوب هل يجوز أن نصلي بهذا الثوب وعليه دم بعوضة، فقال: تسألني عن دم البعوض وقد قتلتم الحسين.

يعني قتلوا بعض الصحابة، قتلوا تابعين، هذا من الورع الكاذب، رجل له زوجة وأمه تأمره بطلاقها، فسأل أحد العلماء فقال: إن كان بر أمه في كل شيء ولم يبقَ من برها إلا طلاق زوجته فليفعل، يعني هو يعصي أمه في ألف شيء، فلما قالت له طلق امرأتك ورع، هل يجب أن تطلقها، أنت لماذا لم تحمل هذا الأمر على أوامرها الأخرى.

سئل الإمام أحمد عن رجل يشتري بقلاً ويشترط الخوصة، والخوصة ما يربط به البقل ـ أن هذه تكون حلال ـ فقال له: إيش هذه المسائل ـ يعني لأي شيء هذه المسائل ـ قيل له إن إبراهيم بن أبي نعيم يفعل ذلك فقال: إن كان إبراهيم بن أبي نعيم يفعل ذلك فنعم، فهذا لا يشبه هذا، لكل إنسان له مقام.

يوجد أشخاص ورعون جداً فإذا تورعوا عن أشياء دقيقة جداً، سيدنا أبو حنيفة تورع عن أن يقف في ظل بيت مرهونة عنده، أما إذا رجل جزء من دخله حرام، وقف في الظل لا بأس، اجلس في الظل، القصة الآن ليس مقبول ورع من إنسان غير ورع.

مر الإمام أحمد كان لا يستمد من محابر أصحابه وإنما يخرج معه محبرته يستمد منها ـ لا يحب أن يضع الريشة في محبرة صاحب لعل الحبر اشتري بطريقة غير شرعية فيأخذ معه محبرته وهذا منتهى الورع ـ مرة استأذنه رجل أن يأخذ من محبرته فقال له: اكتب فهذا ورع مظلم، واستأذنه رجل آخر في ذلك فقال: لم يبلغ ورعي ولا ورعك هذا، من الإمام أحمد مقبولة أما من إنسان غير منضبط غير مقبول منه أن يصل إلى هذه الدقائق ويترك الدقائق الواضحة.

على كلٍ الحديث الشريف الذي قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم

((عَنْ أَبِي الْحَوْرَاءِ السَّعْدِيِّ قَالَ: قُلْتُ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ مَا حَفِظْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لا يَرِيبُكَ فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ))

المؤمن قلقه وحيرته وأسئلته وتدقيقه، وعرض المسائل على المختصين بغية معرفة الوجه الصحيح فيها هذا أيضاً من الورع، هناك من لا يسأل وهناك من يسأل، الذي يسأل أفضل ألف مرة من الذي لا يسأل، والشبهات أحياناً يعلم حقيقتها بعض الناس، والعلماء المحققون يعلمونها قطعاً، فالإنسان ليسأل لأن الله عز وجل قال:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43))

(سورة النحل)

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (59))

(سورة الفرقان)

هاتان الآيتان تشيران إلى موضوعين كبيرين، اسأل في أمور متعلقة بالدين من عرف الله معرفةً يقينية، فسأل به خبيرا، واسأل في أمور الدنيا أهل الذكر، واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون، ومن استشار الرجال استعار عقولهم، والعلم مفتاحه السؤال.

والحمد لله رب العالمين

وردني سؤال من موضوع الدرس إن بعض العائلات، والحقيقة العائلات هذا خطأ شائع صوابها إن بعض الأسر لأن العائلة مؤنث عائل والعائل هو من ينفق على الآخرين، والحقيقة الذي يعيننا جميعاً هو الله عز وجل، نحن معانين، ولسنا معينين، أما الصواب إن بعض الأسر يقيمون جمعية خيرية توزع لكل منهم مبلغاً هل في هذا العمل من ربا ؟

يعين مجموعة أشخاص عشرين شخص يدفع كل واحد ألف في الشهر ويوجد كل شهر عشرين ألف ويدفعون هذا المبلغ كل شهر لواحد، هذا يوجد عنده ولادة، وهذا يوجد عنده مناسبة، شراء ألبسة لأولاده، هذا العمل لا يوجد فيه شيء إطلاقاً بالعكس تعاون وهذا مما يندب له لقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آَمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (2))

(سورة المائدة)

هذا بديل اليانصيب، الذي أخذ عشرين ألف أخذها قرضاً من أخوانه وسوف يؤديها منجمةً كل شهر، وهذا العمل طيب، كل شيء فيه حرمة له بديل، يوجد تأمين تعاوني ولكن نظري غير موجود، أما لو مائة تاجر اتفقوا أنه لو كل مستورد يدفع بالمائة اثنين من مستورداته في صندوق، واحد خسر ندفع له من هذا الصندوق ما يصلح مشكلته، أما الباقي لنا جميعاً ويمكن هذا المال أن نستثمره في جهة مشروعة وهذا موضوع تعاوني لا شيء عليه بالعكس ندوب إليه.

دين الله لا يمكن أن يعجز مهما تقدمت العصر، مهما تعقدت الأمور، دين الله وصفه بأنه:

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (3))

(سورة المائدة)

الدين تام وكامل ونحن أحياناً نرفض الطرح الديني لحل مشكلة والعلة ليست في الدين بل فينا، حينما نرفض الحل الديني، والدين يوجد عنده حل لك مشكلة، عوض أن تدفع مبلغ ويأتي إنسان ويأخذ مجموع المبالغ كرابح أول والكل محرومين، هذا عقد بلا عوض، أما حينما يدفع كل إنسان لسنة ويأخذ بالشهر اثني عشر ألف هذا شيء لا غبار عليه وهذا تعاون ولا شيء عليه، وأنا أتمنى من أخوانا أن السؤال مفتاح العلم، والإنسان لا يبقى على شيء يسأل في البيوع، في الرهون، وفي الآجار محور درسنا دع ما يريبك إلى ما لا يريبك بالتعليق على هذا الحديث من ودع، هذا دع فعل أمر ليس ماضي، ولكن ماضيه، من ودع ما يريبه إلى ما لا يريبه الله عز وجل يكافئه بأضعاف مضاعفة نظير ورعه، ما ترك عبد شيء لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون:

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لاَ تَحَاسَدُوا ولاَ تَنَاجَشُوا ولاَ تَبَاغَضُوا ولاَ تَدَابَرُوا ولاَ يَبِعْ أَحَدُكُمْ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ ولاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ حَسْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ))

أيها الأخوة الكرام قد يكون هذا الحديث من أروع أحاديث رسول الله في العلاقات الاجتماعية بين المؤمنين، ولو كان هذا الحديث في أذهاننا وفي قلوبنا وفي حياتنا لأغلقت المحاكم أبوابها، وهذا الحديث أصلٌ في العلاقات بين المؤمنين، أيها الأخوة الكرام لا شك أنكم سمعتموه كثيراً ولكن يبدو لي أن أحد أكبر أسباب المشكلات بين الناس تقصيرهم في تطبيق هذا الحديث، سأقول لكم كلمة الله جل جلاله حينما يقول في كتابه الكريم:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

لا مالك ولا أولادك ولا بيتك ولا أملاكك ولا أي شيء في الدنيا ينفعك إن لم تأتِ الله بقلب سليم، والقلب السليم هو القلب الذي سلِم من الحسد ومن النجش ومن التباغض ومن التدابر ومن كل ألوان الحيلة والخداع والإيذاء، أيها الأخوة لعل الفرق الذي يبدو صارخاً بين أصحاب رسول الله الذين فتحوا العالَم وبين المؤمنين في آخر الزمان والذين قد يزيدون عن المليار والمئتي مليون لعل الفرق الصارخ بين هؤلاء وهؤلاء ذاك القلب السليم الذي كان صدور أصحاب رسول الله، وذاك القلب الممتلئ بالحسد والضغن والتنافس والتدابر والتقاطع والبغضاء فالعبرة في تربية النفوس التي ربى بها النبي أصحابه الكرام، يا أيها الأخوة الكرام، قد يسألني سائل هذا الحسد من أين جاءنا ؟ ما مصدره ؟ هل هو مركب في أصل طباعنا ؟ وإن كان مركباً فمن ركّبه ؟ ولماذا ركّبه ؟ الحقيقة أنّ الله ركّب الغيرة، فالغيرة مع المؤمن أداة سبق، ومع الكافر تنقلب إلى حسد، الغيرة مركبة في أصل طباعنا، وهذه لصالحنا، لأنّ الإنسان حينما يغار ينطلق، حينما يغار يتسابق مع أخيه، قال الله تعالى:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26))

(سورة المطففين)

أي وضع في كيان الإنسان الغيرة وأعطاه حلبة السبق، تسابق مع أخيك في طريق الإيمان، تسابق مع أخيك في حفظ القرآن، تسابق مع أخيك في التمسك بأهداف الدين، تسابق مع أخيك في الدعوة إلى الله، في خدمة الخلق، في نصح المسلمين، تسابق مع أخيك في نيل درجات الآخرة، تكاد تكون هذه الغيرة مركبة في طبع كل إنسان، إلا أنّها حيادية، فإما أن توظف هذه الغيرة في مجال الآخرة فتغدو أحد البواعث القوية لسيرك إلى الله، وإما أن توظف في الدنيا فتصبح حسداً، فالغيرة التي ركّبها الله في كيان الإنسان إذا تحركت في طريق الآخرة أصبحت غيرة محمودة أو غبطة كما سماها النبي، أما إذا وُظفت في الدنيا أصبحت حسداً، أقل مراتب الحسد أن تتمنى أن تتحول النعمة التي على أخيك إليك، هذه أقل المراتب، مرتبة أشد أو نقيصة أشد أن تتمنى أن تتحول النعمة عن أخيك دون أن تصل إليك، أول مرتبة تمنيت هذه النعمة لك، ولو حوّلت عن أخيك، أما لو كنت عالماً لقلت: الذي أعطاه يعطيني، والذي أكرمه يكرمني، والذي رفعه يرفعني، هناك بيت شعر يقول:

ملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب

ولكني أجريت عليه تعديلاً طفيفاً:

ملك الملوك إذا وهب قم فاسألن عن السبب

كلنا عباد الله، الذي أعطاه يعطيني، والذي أكرمه يكرمني، والذي رفعه يرفعني، والذي مكّنه من العمل الصالح يمكّنني، والذي رزقه يرزقني، لو كان إيمانك صحيح فلن تحسد أبداً، إذا آمنت أنّ الله عطاؤه يشمل كل خلقه وأنّ الخلق جميعاً أمام الله سواسية، يتفاوتون بالطاعة وأنه كما قال الله عز وجل:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13))

(سورة الحجرات)

لذلك المؤمن لا يحسد أبداً لأنّ عقيدته صحيحة، هذا الإله يحب أخي ويحبني، يحبنا إذا أطعناه، أحياناً يغفل الحاسد عن حقيقة أنّ المحسود له عمل طيب، له إنفاق، له اجتهاد في العبادة، له دعوة إلى الله، يعمل ليلاً نهاراً، يريد أن يأخذ كل ما أعطاه الله بلا ثمن، والله عز وجل يعطي بالعدل، أنا أقول: لو أنه صح إيمانك لا يمكنك أن تحسد أحداً، الله جل جلاله رب الجميع وهو يعطي الجميع، ثم إنك تؤمن وهذا شيء مهم جداً أنّ الحظوظ التي وزعها الله في الدنيا، هذه وزعها توزيع ابتلاء، امتحنك بالفقر وامتحنه بالغنى، امتحنك بحدة الذهن وامتحنه بضعف التفكير، وامتحنك بالقوة وامتحنه بالضعف، وامتحنك بالصحة وامتحنه بالمرض، هذه الحظوظ التي وزعها الله في الناس وزعها توزيع ابتلاء، وصدقوني قد لا يعني هذا التوزيع أنّك مكرم عند الله لا إذا أعطاك ولا إذا منعك، ولكن الحظوظ هذه سوف توزع في الآخرة توزيع جزاء عندئذ تعني كل شيء، قد لا تعني الآن شيئاً، ألم يعطي الله المُلك لمن لا يحب، ألم

يعطي الله لقارون المال وهو لا يحبه، وقد أعطاه لسيدنا عبد الرحمن بن عوف وهو يحبه، وأعطاه لسيدنا عثمان بن عفان وهو يحبه، إذا شيء واحد أعطاه لمن لا يحب ولمن يحب معنى ذلك أن هذا ليس مقياساً، المقياس هو طاعة العبد لله عز وجل، طاعتك هي المقياس، إن قواك بالمال أعطاك حرية حركة أقوى بكثير، وسوف يحاسبك عليها، فالنقطة الأولى أنّ الإنسان إذا صحّ إيمانه لا يمكن أن يحسد أحداً، لكن متى يحسد ؟ يحسد عند ضعف إيمانه، إن صح إيمانه يوظف الغيرة التي ركبها الله في كيان كل إنسان يوظفها في طريق الحق، يتنافس مع أخيه في فهم كلام الله، في إنشاء المساجد، في إطعام الطعام وفي معرفة أحكام الفقه، يتنافس مع أخيه في إكرام الضيوف ممكن والدليل قوله تعالى:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26))

(سورة المطففين)

قال تعالى:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61))

(سورة الصافات)

قال تعالى:

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58))

(سورة يونس)

إذاً هذا سؤال فلسفة، لماذا نحسد ومن ركّب فينا الحسد ؟ نقول أنّ الله ركّب فيك صفة نفسية حيادية هي الغيرة، هذه الصفة الحيادية يمكن أن توظف في الآخرة فتغدو غبطة وتغدو غيرة، ويمكن أن توظف في الدنيا فتغدو حسداً، أول أنواع الحسد أن تتمنى تحول النعمة عن أخيك إليك، المستوى الأكثر شراً أن تتمنى تحول النعمة عن أخيك دون أن تصل إليك، البغضاء أشد الآن، أما المستوى الثالث والعياذ بالله أن تتحرك قولاً أو كتابة أو فعلاً لإيقاع الضرر وأن تحوِّل النعمة عن أخيك بيدك، بكلامك، بتقرير، هذا أشرّ أنواع الحسد، الحسد الأول نفسي، الحسد الثاني أشر، أما الثالث أصبح هناك عدواناً، طغياناً قال الله تعالى:

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109))

(سورة البقرة)

إذا أراد الإنسان أن يحملك على معصية، أراد أن يأتي بك إلى خندقه، إلى وحله، إلى سقوطه، الذي يحملك على معصية الله حتماً ينطلق من حسدٍ شديد قال تعالى:

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109))

(سورة البقرة)

يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمُ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ، حَالِقَةُ الدِّينِ لاَ حَالِقَةُ الشَّعَرِ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَفَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ))

لذلك ترى الناس جميعاً وقلوبهم شتى، متخاصمون على مستوى أمة، متخاصمون على مستوى شعب، متخاصمون على مستوى قبيلة، متخاصمون على مستوى عشيرة، على مستوى مدينة، على مستوى حي، على مستوى أسرة، في الأسرة الواحدة تجد خلافات، كل هذا من ضعف الإيمان، قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمُ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ، حَالِقَةُ الدِّينِ لاَ حَالِقَةُ الشَّعَرِ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَفَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ))

سبحان الله أيعقل أن تكون رذيلة كالحسد سبباً في حلق الدين، ينتهي الدين، دخل الحسد أصبح الدين شكلي، العبادات جوفاء، لا يوجد قرب من الله، ولا اتصال بالله، حدث نقص بالإيمان وبالنبل وبالفهم وبالسلوك، نقص بما ينبغي أن يكون عليه المؤمن، قال الرسول الكريم:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَفَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَمْرٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ))

أي بصراحة إذا لم يحب المؤمن إخوانه المؤمنين، عليه أن يبكي على نفسه لأن النبي نفى عنه الإيمان كلياً، قال: أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا بالليل والناس نيام، إلق أخاك بوجه طلق، إذا أصابه خير هنئه، اذهب إليه، إن أحببته أبلغه، مر صحابي برسول الله وأصحابه، كان في عمل، فقال أحد أصحابه: والله إني أحبه، قال: هل أعلمته ؟ قال: لا، قال: قم فأعلمْه، شيء رائع جداً أن تقول لأخيك المؤمن والله إني أحبك لله، أنا والله أفعلها، أحياناً أُعجب بأخ مؤمن أقول له والله أحبك لله، سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام قال: والله يا معاذ إني أحبك، فإذا أحبّ أحد منكم أخيه لسمْتِه الحسن، لأخلاقه الرضية، لتواضعه، لأناقته، لحسن معشره، للطفه، لدماثته، للين عريكته، لأُنسه، قل له والله إني أحبك، كان عليه الصلاة والسلام يثني على أصحابه، هذا شيء يقرب القلوب، يا فلان فيك خصلتان يحبهما الله ورسوله، قال: ما هما يا رسول الله، قال: الصمت وحسن الخلق، لا تضن على أخيك بالمدح، المدح المعتدل، الواقعي الصادق، المخلص، أخوك وفي أثني على وفائه، أخوك كريم أثني على كرمه، أخوك لماح الخاطر أثني على ذكائه، أخوك طليق اللسان أثني على طلاقة لسانه، وقد ورد في الأثر أنه إذا عز

أخوك فول أنت وإذا جماعة في مجلس وأخوكم انطلق في الحديث وأبدع إذن لا تقاطعه أنا لم أتكلم، كل الحديث له، هو يتكلم عن الله عز وجل هو انطلق في الحديث، الله أخذ بيده وترك أثر كبير اصمتوا، افسح له المجال، هذا المؤمن إذا عنده غيرة على الدين هذا هو الإيمان، إخواننا الكرام مع أننا نصلي كما يصلي أصحاب رسول الله ونصوم كما يصومون ونحج كما حجوا، ولكن يبدو أن البون شاسع جداً في أخلاقنا وفي نفسياتنا وفي حبنا لبعضنا، أنا أتمنى على الله أن يكون إخواننا المؤمنون كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضاً، قيل: تخلف عنك فلان يا رسول الله فقال واحد: والله يا رسول الله لقد تخلف عنك أناس ما نحن بأشد حباً لك منهم، ولو علموا أنك تلقى عدواً ما تخلفوا عنك، دافع عن أخيك التمس له عذر، برر له عمله أحسن الظن به، استفهم، اسأله قبل أن تفضحه، هذه أخلاق المؤمن يكاد يكون الإيمان كله أخلاق، يكاد يكون الدين كله أخلاق، فلذلك والذي نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا، يجب أن يخفق قلبك حباً إذا رأيت أخاك، يجب أن تشعر بوحشة في غيبته، يجب أن تشعر بشوق إليه، أما إذا زرته لا تبتغي من هذه الزيارة إلا أن تصله فالله سبحانه وتعالى يثني عليك قال الرسول الكريم:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَفَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَمْرٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ))

السلام عليكم كان أصحاب رسول الله إذا كان صحابيان يمشيان معاً فرقت بينهما شجرة فإذا التقيا بعدها قالا: السلام عليكم، كنا معاً في سيارة نزلنا ثم صعدنا فقلنا: السلام عليكم، شيء جميل جداً، السلام عليكم من صفات المؤمنين، سلام بطلاقة وجه، ببشاشة، بمودة، سلام بشد اليد على أخيك، سلام بابتسامة، برضى، يقول عليه الصلاة والسلام:

"عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ، أَوْ قَالَ الْعُشْبَ."*

أين حسناتي ذهبت كلها لأنك حسود، وقال عليه الصلاة والسلام:

((عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمُ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ حَالِقَةُ الدِّينِ لَا حَالِقَةُ الشَّعَرِ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ))

الهرج أي الفتن والمصائب، أيها الإخوة عندنا تعليق لطيف، قال: إذا حسد الحاسد غيره ولم يعمل بمقتضى حسده ولم يبغ على المحسود بقول ولا بفعل فأغلب الظن ونرجو من الله عز وجل ألا يأثم هذا الحاسد، فهو يغار فلما رأى نعمة على أخيه تألم ولكن لم يفعل شيء، هنأه وبش في وجهه ثم بارك له،

فهناك شعور داخلي ما عبأ به، أما سلوكه الظاهري منضبط، قال: مثل هذا الإنسان نرجو من الله أن يغفر له، النبي عليه الصلاة والسلام ذكر الحسد عند المؤمنين، قال:

((عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لا حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ))

لكن العلماء أجمعوا على أن هذا الحسد هو الغبطة بعينها، أنا الآن مضطر إلى شرح هذا القول، أنّ الله عز وجل جعل الناس درجات، قال: ماذا قال ؟ قال: انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض، في حقل الطب هناك ممرض وهناك خادم في مستشفى، وهناك طبيب متمرن وهناك طبيب غير متمرن وهناك رئيس قسم، وهناك مدير مستشفى، وفي حقل التجارة، هناك بائع متجول وبائع مفرق وبائع جملة وهناك مستورد وهناك ملك الحديد وهناك رئيس غرفة التجارة، وفي الجيش هناك مجند وهناك لواء، بالتعليم هناك أستاذ في القرية وأستاذ في الجامعة، قال تعالى:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (21))

(سورة الإسراء)

إخواننا الكرام درجات الدنيا لا تعني كل شيء، تعني شيئاً وليس كل شيء، وليست دائمة، لكن درجات الآخرة تعني كل شيء وهي أبدية فأين البطولة ؟ أن تحقق درجة في الآخرة، أين العقل ؟ أن يكون لك مقعد صدق عند مليك مقتدر، أين الذكاء ؟ أن تصل إلى الجنة، هذا هو الحسد، الحسد علاجه مزيد من الإيمان، المؤمن لا يحسد لأنه آمن أنّ الخلق كلهم عند الله سواسية، ولأنه آمن أن أكرمكم عند الله أتقاكم، ولأنه آمن الذي أعطى أخاك يعطيك، والذي أكرمه يكرمك، والذي منحه يمنحك، والذي رفعه يرفعك والذي فتح عليه يفتح عليك به، ما عليك إلا أن تطلب، هناك قصة ذكرتها كثيراً، أب أرسل ابنه للأزهر عاد طالب علم، الأب في الخامسة والخمسين تمنى أن يكون كابنه عالماً الأب أمي، جاهل، ركب دابته وتوجه إلى القاهرة، فسأل أحد الباعة أين الأزعر ؟ وهو يقصد الأزهر، أرشدوه إلى هذا الجامع العريق العتيد فهذه قصة واقعية، واسمه زكريا الأنصاري، هذا تعلم القراءة والكتابة في الخامسة والخمسين وتعلم القرآن في هذا السن، وطلب العلم تباعاً وارتقى حتى أصبح شيخ الأزهر، وما مات في السادسة والتسعين إلا شيخ الأزهر، قبل أسبوعين أو ثلاثة طرق بابي إنسان لا أعرفه، يعرفني من بعض الأشرطة، قال لي: أنا عمري سبعون عاماً قبل أيام نلت الإجازة في اللغة العربية من الجامعة اللبنانية، متى دخل الجامعة ؟ في الرابعة والستين، الباب مفتوح، لا تقل أصبحت كبيراً، العلم ليس له سن معين، هذه قبل أسابيع، قال لي أنا أخذت الإجازة باللغة العربية الآن، عمري سبعون عاماً، انتسبت للجامعة اللبنانية في الرابعة والستين، من منا وهو في الخمسين يفكر أن يأخذ شهادة، يقال لك: عند الكبرة جبة حمرا، اطلب العلم، لا تكن حسوداً بل كن غيوراً، لأن الغيور لا وقت عنده ليحسد، بدل أن

يحسد يعمل، بدل أن يهدم يبني، بدل أن ينظر ما عند الناس يعمل لبناء ذاته هذا هو الحسد، قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلاَ تَحَسَّسُوا وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا وَلاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا))

الناجش إنسان يشتري السلعة شراءً خلبياً كاذباً ليرفع السعر، وألوان النجش بحياتنا لا تعد ولا تحصى، قال لي أخ كريم: دخلنا بمناقصة أو بمزايدة لشراء محضر، قال لي: كلنا متفقين مع بعضنا، رفعنا قليلاً قليلاً، حتى رسا المحضر على سعر يقل عن سعره الحقيقي للنصف تقريباً، هذه مزايدة خلبية، هذا نجش أيضاً، أي احتيال لرفع السعر إذا أردت أن تبيع أو لخفضه إذا أردت أن تشتري، عملية احتيال زبون يشتري شيئاً وأنت جار البائع، فتقول: أنا أريدها، أريدها بثمانين، عرض عليك سبعين وتقول أنا أريدها بثمانين، ما الذي جعله يشتري هذه السلعة، إنه هذا الشراء الخلبي، التمثيلي، هناك بائع ألبسة عنده صانع متفق معه، يأتي زبون ويقول له: أريد هذه البلوزة، فيسأل معلمه: ما سعرها يا معلمي ؟ فيقول له المعلم: بتسعين، فيقول هذا الأجير بسبعين، فيشتريها الزبون بسرعة لاعتقاده أن الأجير قد سمع بشكل خاطئ، ويكون سعرها في الأصل ستين، طبعاً صاحب المحل تكلم بصوت عالٍ والاثنين قد سمعوا، ولكن الأجير يتظاهر بأن سمعه خفيف، أي طريقة من طرق الاحتيال تعد بيعاً محرماً، قال: أجمع العلماء على أن فاعل هذا البيع عاصٍ لله تعالى، يعني أي إمام، أي تدليس، أي لفت نظر، أي تزوير للماركة، أي غش أو خداع أو نجش أو بيع خلبي أو شراء خلبي أو احتيال أو اتفاق أو تآمر في البيع والشراء يعد هذا البيع نجشاً، العلماء قالوا: هذا البيع صحيح، لكنّ الذي باع بهذه الطريقة آثم أشد الإثم، البيع صحيح، أنت اشتريت حاجة بعد أن توهمت أنها سوف تفقد، أنت اشتريتها، شراؤك صحيح، لكنّ الآثم هو البائع، الإمام مالك قال: إذا علم المشتري بأن هناك ائتمار أو تلاعب هو في خيار، إما أن يمضي الشراء أو أن يطلب الإقالة، لكن العلماء قالوا: إذا كان هذا النجش في البيع رفع السعر إلى مستوى ثلاثين بالمائة من السعر الحقيقي دخلنا فيما يسمى بالغبن الفاحش، والغبن الفاحش يوجب الإقالة والفساد، أريد أن أنبه لنقطة أيها الإخوة، الإنسان إذا كان يعرف مدلول اللغة وسمع فليس منا يجب أن ترتعد فرائصه، قال النبي:

((عَنْ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ نِيَارٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى طَعَامًا فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهِ فَرَأَى غَيْرَ ذَلِكَ فَقَالَ: لَيْسَ مِنَّا مَنْ غَشَّنَا))

وقال أيضاً:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَجُلٍ يَبِيعُ طَعَامًا فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهِ فَإِذَا هُوَ مَغْشُوشٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَيْسَ مِنَّا مَنْ غَشَّ."*))

أول حديث من غشنا والثاني من غش، مطلق الغش، أي كل حديث فيه ليس منا يجب أن ينخلع قلبك لهذا الحديث، كلمة ليس منا، قال أيضاً:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَبَّبَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا أَوْ عَبْدًا عَلَى سَيِّدِهِ))

وقال أيضاً:

((ليس منا من نهب أو أشار بالنهب))

وقال:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا))

وقال:

((عَنْ عَبْدِاللَّهِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ))

وقال أيضاً:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ وَخَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ فَمَاتَ فَمِيتَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي بِسَيْفِهِ يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا لاَ يُحَاشِي مُؤْمِنًا لإِيمَانِهِ وَلاَ يَفِي لِذِي عَهْدٍ بِعَهْدِهِ فَلَيْسَ مِنْ أُمَّتِي وَمَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِلْعَصَبِيَّةِ أَوْ يُقَاتِلُ لِلْعَصَبِيَّةِ أَوْ يَدْعُو إِلَى الْعَصَبِيَّةِ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ))

أي يجب إذا قرأت حديث صحيح لرسول الله وتوعد فيه من يفعل هذا الذنب بأنه ليس منا، أنا أقول لكم وهذا علمي بالله عز وجل، يجب أن ينخلع قلب المؤمن إذا وجد نفسه متلبس بمعصية توعد بها النبي صاحبها بأنه ليس منا، أي أن النبي قد طردك من الإسلام كلياً، لست من ملته، لست من هذه الملة إطلاقاً، أي أنّ هذا الذنب قد أخرجك من ملة الإسلام، الغش شيء كبير جداً، فما قولك إن كانت حياتنا أربع أخماسها غش، إذا الأسواق تسعة أعشار البيع والشراء أساسه الغش، يقول عليه الصلاة والسلام:

((المكر والخداع في النار))

ويقول أيضاً:

((عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَلْعُونٌ مَنْ ضَارَّ مُؤْمِنًا أَوْ مَكَرَ بِهِ))

الآن عندنا مقياس آخر كلمة ملعون، الكلمة في اللغة كما نعرف إذا كثر استخدامها ضعُف مدلولها، قد نقول: لعن الله فلاناً، كلمة مألوفة جداً أما لو وقفت على معناها النظامي الشيطان ملعون، لعنه الله أي أبعده، أكبر عقاب ينزل بساحة المؤمن أن يلعنه الله، أن يبعده عن رحمته، فيقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَلْعُونٌ مَنْ ضَارَّ مُؤْمِنًا أَوْ مَكَرَ بِهِ))

دقق في البيع والشراء، دقق في المواصفات، دقق فيما يقال للشاري عن هذه البضاعة، يكون أسوء القماش والبائع يرتدي بنطالاً من هذا القماش يقول لك: نصيحة انظر، لا يتكلم، إنه يلبس منه، هو اختار أسوء لباس ولبس منه، هذه الإشارة إلى أنه يرتدي منه هذا البنطال هذا نوع من التضليل والله عز وجل هو الرزاق ذو القوة المتين، هو الكافي، قال: تدليس العيوب وكتمانها وغش المبيع الجيد بالرديء وغبن المسترسل هذا كله يدخل في بيع النجش، تدليس، فما قولك بدواء يكون مفعوله منتهياً، نمحي هذا التاريخ ونضع تاريخاً جديداً، أصبح هذا الدواء لا قيمة له، هذه سرقة، شيء منتهٍ مفعوله تبيعه على أنه فعّال هذا سرقة، أنا أرى أنّ دين الإنسان يبدو في البيع والشراء، دينك أكثر ما يبدو في دكانك، وفي مكتبك، وفي عيادتك، إن كنت محامياً في مكتب المحاماة، وإن كنت مهندساً في مكتب الهندسة، وإن كنت طبيباً ففي العيادة، دينك يبدو صارخاً ليس في المسجد وإنما في العمل لأنه كما قال الرسول:

((ترك دانق من الحرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام))

نا والله أقسم أنّ الطبيب المؤمن لا يمكن أن توصيه بمريض، لأنه يعرف الله ويعرف أنّ هذا المريض عبد لله، لا يمكن لطبيب مؤمن أن يغش مريضاً أو يخيفه أو يبتز ماله أو يكلفه بصور لا فائدة منها، أو بتحليل لا جدوى منه لكي يقتسم مع المحلل الأجر، لا يمكن أن يفعل طبيب مؤمن هذا الشيء، يستحيل في حقه استحالة مطلقة، مستحيل على محامي مؤمن يقبل دعوة فيها ظلم، أما يقبل دعوة من موكل صحيح، مستحيل مهندس يضعضع البناء حتى يربح طن حديد، يسحب الأسلاك بعد الكشف، فديننا دين عمل ومنهج، دين بناء أمة، عندما فهم الصحابة الكرام الدين هكذا كانوا في أطراف الدنيا، ولما فهمنا الدين كصوم وصلاة فقط، عندها انتهينا كأمة، لكن عندنا استثناء واحد فقط قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَرْبَ خَدْعَةً))

تستطيع فقط أن تخدع عدوك، لأن أساس الحرب خدعة، والخدعة هدفها نبيل، هدفها أن تقبض عليه مأسوراً لا أن تبيده، تخدعه لتقبض عليه فلعله يهتدي إذا كان أسيراً عندك، استثناء وحيد وهو الحرب، الفقرة الثالثة من الحديث ولا تباغضوا، نهى النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين عن التباغض بينهم في غير الله تعالى، أي لك أن تبغض أخاك إذا اقترف معصية، أو اقترف ذنباً، أو فعل شيئاً لا يليق، إن لم يتبع سبيل المؤمنين أبغضته هذا البغض لله، أما إذا أبغضته لغير الله فهذا البغض منهي عنه، الله جل جلاله جعل المسلمين إخوة، فالبغض يتناقض مع الإخوة، أي أنت على غير منهج الله، على غير

التصميم الإلهي لهذا المجتمع، إذا هناك بغضاء وعداوة لغير الله طبعاً، بسبب الأهواء قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَفَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَمْرٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ))

ذكرت هذا الحديث قبل قليل، الحقيقة البغض حال نفسي، والإنسان لا يملك نفسه، فما معنى الحديث لا تباغضوا ؟ لا تفعلوا شيئاً يسبب لأخيكم أن يبغضكم، لا تقترفوا أسباب البغضاء، كل شيء يؤدي إلى البغض والبغضاء لا تفعلوه، هذا معنى الحديث، أما البغض حال نفسي، عفوي يكون، لذلك الله عز وجل قال:

(إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (91))

(سورة المائدة)

الخمر والميسر أحد أسباب البغضاء، وقال تعالى:

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103))

(سورة آل عمران)

إذن المؤلف هو الله، وقال أيضاً:

(وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63))

(سورة الأنفال)

لذلك كلمة لا تباغضوا أي لا تغتابوا إخوانكم، لا تمشوا بالنميمة لأنها توقع العداوة والبغضاء، رخص في الكذب في الإصلاح بين المؤمنين، قال تعالى:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (114))

(سورة النساء)

وقال أيضاً:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9)

(سورة الحجرات)

هذه أدق آية فأصلحوا ذات بينكم، ما هي ذات بيننا، النفس، أصلح نفسك بتعريفها بالله وحملها على طاعته وجعلها تتصل بالله كي تشفى من أمراضها هذا هو معناه، أصلح أية علاقة بينك وبين المسلمين، مع والدك، مع والدتك، مع أخيك، مع أختك، مع زوجتك، مع أولادك، مع جيرانك، مع زملائك، مع أقاربك، مع من هم دونك، مع من هم فوقك، أصلحوا ذات بينكم، المعنى الثالث أصلح أية علاقة بين اثنين، لك أخ وأخت متخاصمان أصلح بينهما، هناك أشخاص بعيدين بعداً كبيراً عن هذا المستوى، قال لي أحدهم: والله شكوت إلى أخ أخته وهي زوجتي فقال له: طلقها لا تريدها، هل هذا إصلاح ؟ أي هناك من يتمنى أن تُفصم العلاقات، أن تزداد الهوة بين الناس، أن يتقاتل الناس، هذا في خندق المنافقين، هذا في خندق الكفار، من يتمنى العداوة والبغضاء بين الناس، قال الرسول الكريم:

(عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا وَبَيْنَ الأخ وَبَيْنَ أَخِيهِ)

روى أبو الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: إِصْلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ))

هذا كلام النبي عليه الصلاة والسلام، هذا حديث صحيح، أن تصلح بين الناس، فإنّ فساد ذات الدين هي الحالقة، يقول عليه الصلاة والسلام في حديث غيره:

((عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنْمٍ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خِيَارُ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ إِذَا رُءُوا ذُكِرَ اللَّهُ وَشِرَارُ عِبَادِ اللَّهِ الْمَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ الْبَاغُونَ الْبُرَآءَ الْعَنَتَ))

أما إذا أبغضت لله فهو عين الإيمان، أما البغض في الله فهو من أوثق عرى الإيمان، وليس داخلاً في هذا الموضوع، لو ظهر للرجل من أخيه شرٌ فأبغضه عليه وكان الرجل معذوراً في نفس الأمر أُثيب المبغض وأعذر الذي فعل هذا الشر، أنت لمجرد أن تكره الشر تثاب عليه، إذا كرهت الكذب النفاق الغيبة النميمة هذا البغض في الله، قال أحد التابعين: لو رأيت رجلاً يظهر خيراً ويُسِر شراً فأحببته آجرك الله على هذا الحب، ولو رأيت رجلاً يظهر شراً ويسر خيراً فأبغضته آجرك الله على هذا البغض، أنت لك الظاهر، عمل عملاً شريراً أبغضته، عمل عملاً طيباً أحببته، أنت لست موكلاً بالخلق وبأسرار الخلق، لك الظاهر، أيها الأخوة المؤمن يحب في الله ويُبغض في الله، محبته لا علاقة لها بالهوى، محبته لله وبُغضه لله، فمن أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان، هذا الحديث الشريف حديث طويل ويحتاج إلى درس أو اثنين أخريين.

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَلاَ يَبِعْ أَحَدُكُمْ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ وَكُونُوا عِبَادَ

اللَّهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ حَسْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ.))

رواه مسلم، هذا الحديث يمكن أن يُكتب وأن يعلّق في البيت كشعار، هذا منهج المسلمين، كل المسلم على المسلم حرام ماله ودمه وعرضه.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (075): الحسد2
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-08-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون:

قبل أن نقرأ الحديث الشريف الذي هو موضوع هذا الدرس، أذكركم بقول سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يقول هذا الصحابي الجليل: ثلاثة أنا فيهن رجل، ومعنى رجل أي بطل، وفيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس، من هذه الثلاثة، ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حق من الله تعالى، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، لو أخذت كلام الناس لوجدت معظمه وأكثره وجله ينطلق من الهوى، من مصلحته من شهوته، من غريزته، من نزوته، من ضيق أفقه، لكن النبي صلى الله عليه وسلم كلامه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، لذلك قال علماء العقيدة: الوحي وحيان، وحي مَتْلو وهو القرآن الكريم ووحي غير مَتْلو وهو حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيح طبعاً، فكلما ازداد إيمانك يزداد تعظيمك لكلام رسول الله، أنت في حياتك نصان: القرآن والحديث، أو القرآن وما صح من الحديث، لا يأتيه الباطل من بين أيديه ولا من خلفه، ما عليك إلا أن تتقصى صحة الحديث، والمدلول الصحيح للحديث، وعليك أن تطبقه أي نص آخر من إنسان كائن من كان يقيم من خلال الكتاب والسنة، فإن وافقه فعلى العين والرأس وإلا فلا، الحديث الذي يعد أصلاً في العلاقات الاجتماعية هو أصلاً حديث.

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَلاَ يَبِعْ أَحَدُكُمْ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ حَسْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ))

والله أيها الإخوة لو طبق هذا الحديث في المجتمع المسلم، لكان المجتمع كالبنيان المرصوص، لكانت حياة المسلمين في قمم السعادة، أجمل ما في الحياة أن تعيش بين إخوان متحابين، يحبونك وتحبهم يؤثرونك وتؤثرهم، يحفظونك وتحفظهم، يصلحونك وتصلحهم، ينصحونك وتنصحهم، يؤثرونك على أنفسهم وتؤثرهم على نفسك، يعني أحد أكبر سبب للسعادة في الدنيا أن تكون في مجتمع مؤمن، مجتمع متحابب، قال الله تعالى في الحديث القدسي:

((عَنْ مُعَاذٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْثُرُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَحَابُّونَ فِيَّ، وَيَتَجَالَسُونَ فِيَّ، وَيَتَبَاذَلُونَ فِيَّ))

هذا التداور والبغضاء والشحناء والحسد والضغينة، هذه جميعاً صفات مجتمع الكفار تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى، متفتتون لكن مجتمع المسلمين من نوع آخر فإن لم يكن كما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم فهناك خلل، خلل في إيمانهم خطير، لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا شرحناهم في الدرس الماضي، اليوم ولا تدابروا قال أبو عبيدة التدابر المصارمة والهجران ، ما بين الرجلين من قطيعة من تدابر أو هجران، هذا هو التدابر، قال: ولا تدابروا، لعلي أفهم من هذا الكلام الشريف ألاتفعل شيئاً تجعل أخوك يهجرك، لا تكن سبباً في قطيعة أخيك، طبعاً ليس النهي عن آخر مرحلة، النهي عن أسبابها، أسباب التدابر كلمة قاسية، نظرة قاسية، نظرة ساخرة، موقف فيه احتقار أن تكذب عليه، أن تستغله، يعني كل شيء يدعو أخاك إلى أن يقطعك لا تفعله، كقوله صلى الله عليه وسلم: لا تباغضوا البغض حالة نفسية عفوية ليست إرادية لكن بيدك أسباب البغضاء، لاتفعل شيئاً تدعو أخاك كي يبغضك، أو تحمل أخاك كي يهجرك، لا تدابروا أي التدابر هو فعل فيه مشاركة، دابر أي أدار كل طرف ظهره للآخر، أي تقاطع، يولي الرجل صاحبه دبره، أي يعرض عنه بوجهه، هو التقاطع، قال عليه الصلاة والسلام لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا أي ولا تقاطعوا أي كونوا عباد الله إخوانا، كما أمركم الله تعالى، في الصحيحين أنا بدأت الحديث وما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حق من الله تعالى والله سبحانه وتعالى لا يقبل أن تدعي محبته إن لم تطبق سنة رسوله لا يقبل قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31))

(سورة آل عمران)

بل إن الله سبحانه وتعالى طمأن كل مجتمع يقيم سنة رسول الله، قال الله تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33))

(سورة الأنفال)

هذه سنتك في الحياة، إذا كانت سنة النبي في أعمالهم في تجارتهم بيوعهم، شرائهم، في بيوتهم، مع زوجاتهم، مع أولادهم، في نزهاتهم، في أفراحهم، في أتراحهم، هم في بحبوحة من العذاب، في الحديث الذي ورد في الصحيحين، وهو أعلى درجات الحديث، قال الرسول الكريم:

((عَنْ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لا تَبَاغَضُوا وَلاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ))

أي لعل هناك مشكلات، يوم أو يومين أو ثلاث أما أكثر من ذلك فلا بد أنّ هناك مرض، صار هناك خلل في المجتمع، قال الرسول:

((عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثِ لَيَالٍ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلامِ))

الصد أريح لنا تتمشى مع رغبتك في القطيعة، في الانتقام، تصد عنه من أجل أن تشفي غليلك منه، قال فيصد هذا ويصد هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام، ويقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي خِرَاشٍ السُّلَمِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ سَنَةً فَهُوَ كَسَفْكِ دَمِهِ))

لأن الإنسان في الأصل اجتماعي، قلت لكم من قبل أن الله عز وجل قهرنا بالجوع الجوع دفعنا إلى أن نعمل، وقهرنا بحب الطرف الآخر، حب الطرف الآخر دفعنا إلى أن نتزوج، الجوع دفعنا إلى أن نأكل فنحافظ على بقاء الفرد، وحب الطرف الآخر دفعنا إلى أن نتزوج فنحافظ على بقاء النوع، وحب التفوق، العلو، تأكيد الذات، الأهمية دفعنا إلى أن نتفوق كي نشعر بأننا أصحاب مهمون، ثم إن الله قهرنا بالاجتماع، الإنسان اجتماعي بالطبع الإنسان يرتاح إذا كان في مجتمع العوام لهم أقوال كثيرة، الدنيا بلا ناس ما بتنداس، أيّ مكان فيه عزلة فهناك وحشة، مع الأشخاص هناك أنس لكن بالمناسبة المجتمع الصالح خير من الوحدة، والوحدة خير من جليس السوء، أنا أعطيكم ميزان دقيق، هي لعبة شد الحبل، إذا كان بإمكانك أن تشد الآخرين إلى الله ورسوله فكن معهم، أما إذا كان بإمكانهم أن يشدوك إلى خطتهم إلى انحرافهم ابتعد عنهم، المقياس لعبة شد الحبل، إذا كان بإمكانك أن تشدهم كن معهم، أنت قوي، أما إذا أمكنهم أن يشدوك ابتعد عنهم، مقياس الاختلاف والعزلة أساسه قدرتك على أن تؤثر، أو على أن تتأثر إذا كان تأثرك بهم أشد من تأثيرك فيهم ابتعد عنهم، وإذا كانت قوة تأثيرك فيهم أشد من تأثرك بهم خالطهم، نعم من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه، الله قهرنا بالطعام والشراب من أجل أن نعمل، وقهرنا بحب الطرف الآخر من أجل أن نتزوج، وقهرنا برغبة التفوق من أجل أن نبدع وأن نكون أبطالاً ثم قهرنا أن نكون مع الناس كي تظهر فضائلنا لو أنّ الإنسان سكن وحده في صومعة لا يمكن أن تظهر فضائله، فضائل الإنسان لا تبدو إلا في مجتمع، حلمك، عفوك، رحمتك، إنصافك، صدقك، عطاؤك، فلذلك من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه، بمعنى أنه حطّم فيه الدافع الاجتماعي، أو منعه من أن يلبي رغبته الاجتماعية، لذلك الإنسان إذا وضع في غرفة منفردة لا أدري كم يوم بشكل مستمر دون أن يشعر بالليل والنهار ودون أن يكون معه أي خبر من المحيط الخارجي ولا ساعة بعد حوالي عشرين ثلاثين يوم يختل عقله، لذلك هناك أناس يؤثرون أن يكونوا في مهجع على _أن يكونوا في غرفة منفردة لأنّ قضية الانعزال قد تصيب الإنسان بخلل، قال الرسول الكريم:

((عَنْ أَبِي خِرَاشٍ السُّلَمِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ سَنَةً فَهُوَ كَسَفْكِ دَمِهِ))

لكن هناك تعليقات كثيرة جداً ومهمة، هذا التقاطع من أجل الأمور الدنيوية، أما لأجل الدين فهناك شرح طويل، الثلاثة الذين خلّفوا عن غزوة تبوك النبي عليه الصلاة والسلام أمر أصحابه ولكن بأمر من الله ليس من عنده الأمر، قال له: قم حتى يقضي الله فيك، هذه من كعب بن مالك، النبي تلقى أمراً من الله بمقاطعتهم، قال تعالى:

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118))

(سورة التوبة)

إذاً لعلة يراها رسول الله صلى الله عليه وسلم يجوز أن يُقاطع الإنسان لأسباب تتعلق بآخرته، والنبي عليه الصلاة والسلام من خلال أحاديثه استنبط الفقهاء أنه يجوز أن تهجر أهل البدع المغلظة، إنسان جاء بشيء لم يرد في الدين، هذا مبتدع والمبتدع خطأه كبير، لأن الخطأ بالمفردات سهل أما بالميزان صعب، لو أنّ إنسان وزن وزنة وأخطأ فيها ممكن، ممكن أن يخطئ في الوزن، أما أن يكون خطأ في الميزان لو وزن به مليون وزنة كله غلط، لذلك الخطأ في العقيدة شيء، والخطأ في السلوك شيء آخر، الخطأ في العقيدة صاحبه مبتدع لا يتوب من ذنبه، بينما الخطأ في السلوك سريعاً ما يتوب، أكبر خطر يتهدد المؤمن أن تنحرف عقيدته، لذلك العاصي يعرف أنه عاصي فيتوب أما المبتدع فلا يعلم أنه مبتدع فلا يتوب، لكن الحكم الشرعي هنا طبعاً أصحاب البدع المغلّظة، جاء بشيء ليس من الدين، وكلكم يعلم أيها الأخوة أنّ موضوع البدع موضوع دقيق جداً، البدعة نوعان في الإسلام، بدعة في الدين وبدعة لغوية، هذه المروحة لم تكن على عهد رسول الله، وتكبير الصوت لم يكن على عهد رسول الله، وتكييف المسجد لم يكن على عهد رسول الله، وفي حياتنا آلاف المظاهر التي لم تكن على عهد رسول الله، لكن هذه البدع ليس لها علاقة بالدين، البدعة في الدين أن تأتي بشيء في العقيدة أو العبادة لم يكن قد جاء به رسول الله، لذلك قال تعالى:

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (3))

(سورة المائدة)

الإتمام في اللغة عددي، والإكمال نوعي، أي أنّ عدد القضايا التي عالجها الدين تام، وأنّ طريقة المعالجة كاملة، العدد تام والطريقة كاملة، لذلك لا يستطيع إنسان كائن من كان أن يضيف على الدين شيئاً ولا أن يحذف منه شيئاً، وإذا أردنا لهذا الدين أن يستمر إلى ما شاء الله كما بدأ ينبغي أن نحافظ عليه من أن يضاف عليه شيء ومن أن يحذف منه شيء، لذلك البدعة في الدين أن تأتي في العقيدة بشيء ما ورد في الكتاب والسنة، أو تأتي في العبادة بشيء ما ورد في الكتاب والسنة، أما البدعة في

اللغة فما أكثرها، أيّ شيء لم يكن على عهد رسول الله هو أنواع ثلاثة نوع متوافق مع أصول الدين، ومع فروع الدين، وهو لاشيء عليه، الله سبحانه وتعالى قال:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36))

(سورة النور)

فإذا حسنّا المسجد جعلناه مريحاً لطفنا جوه، جعلنا فيه الماء البارد، الماء الساخن في الشتاء، نقلنا الصوت إلى أرجائه هذا الشيء لم يكن، إنه متوافق مع الدين متوافق مع تحسين بيوت الله عز وجل، لكن هناك بدعة تتناقض مع الدين، لم يكن في حفلات الأعراس قبل ألف عام تصوير، أما حينما يكون في العرس تصوير والعياذ بالله، فهذه الآلة تلتقط صور النساء، وهن في أبهى زينة وهذا الفيلم يعرض في بيوت أزواج المدعوات، في كل بيت، فيشاهد الرجل كل نساء الحفل، وهن بأبهى زينة فهذه من أكبر المعاصي، لذلك التصوير في الأعراس بدعة ولكنها تتناقض مع أحكام الدين إذن هي محرمة، الثالثة هناك بدعة موقوفة على نوع استخدامها فهي إما أن تستخدم في الحق أو الباطل، قد تشتري مسجلة لتستمع إلى درس دين أو إلى قرآن كريم، وقد تشتري هذه المسجلة لتستمع إلى غناء وإلى فسق وفجور، فهذه الآية موقوفة على نوع استخدامها، أصبح عندنا البدعة في الدين وهي مرفوضة كلياً لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

((عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ يَقُولُ: مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ وَكُلُّ ضَلاَلَةٍ فِي النَّارِ، ثُمَّ يَقُولُ: بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَكَانَ إِذَا ذَكَرَ السَّاعَةَ احْمَرَّتْ وَجْنَتَاهُ وَعَلاَ صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ كَأَنَّهُ نَذِيرُ جَيْشٍ يَقُولُ: صَبَّحَكُمْ مَسَّاكُمْ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ تَرَكَ مَالاً فَلأَهْلِهِ وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ أَوْ عَلَيَّ وَأَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ))

أما البدعة في اللغة فشيء لا علاقة له لا بالعقيدة ولا بالعبادة، لم يكن على عهد رسول الله إلا أنواع ثلاثة، إما أنه متوافق مع أصول الدين وفروعه فهو مباح، وإما أنه مناقض فهو محرم، وإما أنه يمكن أن يستعمل في طريق مشروع أو في طريق غير مشروع، وذلك موقوف على نوع استعماله، هذا معنى المبتدع، المبتدع قال: أباح الإسلام أن تهجر أصحاب البدع المغلظة، الإنسان جاء ببدعة في العقيدة لم تكن، أفسد عقائد الناس، دلّهم على شيء فيه معصية، عدّ هذه المعصية مشروعة، هذا إذا احترمته وسلّمت عليه ووقفت له وأثنيت على علمه وذكائه أنت بذلك غششت الناس، فمن الدين أن تهجر أصحاب البدع المغلظة، انظر إلى دقة الكلام لو أنها بدعة غير مغلّظة، ننصحه، لا نقاطعه، هو لم يقصد، هناك خروج عن السنة ولكن بشكل طفيف، غير مقصود، غير صارخ، لا يؤذي المسلمين،

فأصحاب البدع الملطّفة يُنصحون، أما أصحاب البدع المغلظة يُهجرون وهذا من الدين، قال: والدعاة إلى الأهواء، أي هل من الممكن لصاحب مسبح مختلط أن يعمل مولد، ونلبي الدعوة، ونلقي كلمات ونثني عليه وعلى أخلاقه وورعه، أعوذ بالله، فهؤلاء الذين يدعون إلى البدع المغلظة أو إلى الأهواء والمعاصي، ينبغي أن يُهجروا استثناءً من قول النبي صلى الله عليه وسلم، ثم إنّ هجران الأب لابنه بقصد تربيته يجوز أن يزيد هذا الهجران على ثلاثة أيام، أحياناً ابن منحرف أرعن لا يعبأ بالدين إطلاقاً فالأب هنا مضطر أن يهجره فوق ثلاثة أيام، يردعه، ولكي يحمله على الطاعة، قال: يجوز للأب أن يهجر ابنه فوق ثلاث، ويجوز للزوج أن يهجر زوجته فوق ثلاث تأديباً لأن النبي صلى الله عليه وسلم هجر نساءه شهراً، الهجران متى ينقطع ؟ هل ينقطع للسلام، إذا قال السلام عليكم انتهى الهجران، هنا يوجد نظر، قالت طائفة من العلماء: الهجران ينقطع بالسلام، إذا سلمت على الذي هجرته انقطع الهجران، قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لاَ يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَهْجُرَ مُؤْمِنًا فَوْقَ ثَلاَثٍ فَإِنْ مَرَّتْ بِهِ ثَلاَثٌ فَلْيَلْقَهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ فَإِنْ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلاَمَ فَقَدِ اشْتَرَكَا فِي الأَجْرِ وَإِنْ لَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ فَقَدْ بَاءَ بِالإِثْمِ.))

إذاً برأي بعض العلماء أنّ طرح السلام، إلقاء السلام ورد السلام يُنهي الهجران، أخذاً من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لاَ يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَهْجُرَ مُؤْمِنًا فَوْقَ ثَلاَثٍ فَإِنْ مَرَّتْ بِهِ ثَلاَثٌ فَلْيَلْقَهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ فَإِنْ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلاَمَ فَقَدِ اشْتَرَكَا فِي الأَجْرِ وَإِنْ لَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ فَقَدْ بَاءَ بِالإِثْمِ))

الذي ألقى السلام خرج من الهجر، والذي أبى أن يرد السلام وقع في الإثم إذاً وقع هجران بين مؤمنين، مضت أيام ثلاثة، التقيا، قال أحدهما للآخر: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، قال له الآخر: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، انتهى الهجران، لم يرد عليه خرج الأول من إثم الهجران وبقي الثاني في هذا الإثم، الآن هناك شيء دقيق جداً عُدّ من الهجر، أي كان هناك مودة ومحبة وزيارات ونزهات مشتركة وبذل وهدايا وتضحية، حدثت مشكلة فتصارما، تقاطعا، تهاجرا، فجاء أحدهما وألقى السلام وردّ الثاني عليه وانتهى الهجران، لكن بقيا متباعدَين، متدابرين، ليس بينهما زيارات ولا مودة ولا بذل ولا نصيحة قال: بقي كل منهما هاجراً لصاحبه على الرغم من السلام، إذا كان هناك مودة بالغة ولقاء وزيارات وأنت تقطع الهجران بكلمة تقولها وانتهى الأمر لا، قال: إذا كان بينهما قبل الهجر مودة ولم يعودا إليها ففيها نظر، أصبح عندنا حكم ثالث، قال الإمام أحمد: وسُئل عن السلام يقطع هجران قال: قد يسلم عليه وقد صدّ عنه، ثم قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: يلتقيان فيصد هذا

ويصد هذا، أي القصد أنّ الإنسان عليه أن يعود إلى ما كان عليه لا إلى إلقاء السلام وانتهى الأمر، إذا كان بين مؤمنين مودة عميقة، بذل، تضحية، زيارات، وتقول: أنا ألقيت السلام، وتلقيت رد السلام، وانقطع الهجران وانتهى الأمر وبقي التدابر والصد والبعد وما إلى ذلك، يقول الإمام مالك: لا يُقطع الهجران بدون العودة إلى المودة، الآن عندنا شرط جديد، السلام وحده إلقاءً ورداً لا يقطع الهجران، يحتاج إلى أن تعود المودة إلى ما كانت عليه، فإذا كان أخ وله علاقة بأخ وصار هناك هجران بينهما، ينبغي أن يحاول أن يعيد المياه إلى مجاريها، والعلاقات إلى ما كانت عليه، علماء آخرون فرّقوا بين الأقارب والأباعد قال: الأباعد ينقطع الهجران بينهم بإلقاء السلام، أما الأقارب فلا ينقطع الهجران بينهم إلا بالمودة التي كانت من قبل، أن تعود المودة كما كانت من قبل، لأنه يوجد هنا صلة رحم، كان هناك تدابر، ثم أصبح سلام ورد سلام انتهى، ولكن لا يوجد زيارات، لا يوجد تعاون، لا يوجد لقاءات، هؤلاء أقرباء، هؤلاء رحم، لذلك التفريق الثالث أنّ الأباعد والأجانب ينقطع الهجران بينهم برد السلام، لكنّ الأقارب ذوي الرحم لا ينقطع الهجران بينهم إلا بالمودة التي كانت من قبل، هذا حول معنى قوله صلى الله عليه وسلم ولا تدابروا، أما قوله: لا يبع بعضكم على بيع بعض، النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيحين:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لاَ يَسُمِ الْمُسْلِمُ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ وَلاَ يَخْطُبْ عَلَى خِطْبَتِهِ))

أي الإنسان اشترى شيئاً ودفع ثمنه، لم يستلمه بعد، تذهب أنت وتدفع سعراً أعلى للبائع كي تأخذه من أخيك، هذا منهي عنه، هذا بيع على بيع، إنسان خطب فتاة فيأتي إنسان آخر ويخطبها بعد خطبة أخيه لها هذه خطبة على خطبة وبيع على بيع، هذا لا يجوز، قال الرسول:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاَ يَبِيعُ حَاضِرٌ لِبَادٍ وَلاَ تَنَاجَشُوا وَلاَ يَزِيدُ الرَّجُلُ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ وَلاَ يَخْطُبُ عَلَى خِطْبَتِهِ))

وفي رواية أخرى لمسلم:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لاَ يَسُمِ الْمُسْلِمُ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ وَلاَ يَخْطُبْ عَلَى خِطْبَتِهِ))

السوم يعني الأخذ والعطاء في البيع والشراء، لا يبيع على بيعه ولا يخطب على خطبته، إلا بإذن منه، في رواية ثانية، نعم المؤمن أخو المؤمن فلا يحل للمؤمن أن يبتاع على بيع أخيه ولا أن يخطب على خطبة أخيه حتى يذر، في أشخاص تعطي أسماء خمس أسر إذن هل من المعقول بيت اثنين ثلاث أربع، بيت بيت، صار في نصيب اتفقوا، ما صار انسحبت عندها صار في مجال لأخيك، أما خطبة على خطبة بيع على بيع اتفاق على اتفاق، هذا مما نهى عنه رسول الله عليه وسلم لا يخطب على خطبته

حتى يذر، حتى ينسحب هذا من حق المسلم على المسلم، لكن بعض العلماء قال: هذا الحق لا ينشأ للكافر على المسلم نعم رأي الإمام الأوزاعي والإمام أحمد، أن هذا الحق لا ينطبق على غير المسلم، لذلك حق الشفعة ألا تبيع البيت الذي لك فيه جار إلا أن تستأذن جارك، وهو أحق بشراء البيت من الغريب، قد يكون مضطر أن يتسع بالبيت، معه ثمن بيتك هو تحل له مشكلة فهو ساكن في البيت بيتين في شقة واحدة فتح الأبواب على بعضها أصبحت بيت واحد، معه ثمنه أن تبيعه للغريب لا يجوز، هذا الحق ثابت في الفقه، الحقيقة هناك خلاف بين العلماء، أن هذا النهي تحريماً أم تنزيهاً، منهم من قال: للتنزيه دون التحريم، والصحيح أن جمهور العلماء على أنه تحريم، لا يبع على بيع ولا يخطب على خطبة، هذا النهي ينصرف إلى التحريم لا إلى التنزيه، لكن السؤال هل يصح البيع، هو بيع محرم ولكن هل يصح، عند أبي حنيفة يصح البيع، لكنه يلقى من الله عذاباً وعقاباً على أنه باع على بيع أخيه، الإمام مالك في النكاح قال: إن دخل بها ثبت النكاح، إن لم يدخل فسخ النكاح، إذا كان نكاح على نكاح، خطبة على خطبة نعم، بعض العلماء قال: البيع باطل والخطبة باطلة إذا كان البيع على بيع والخطبة على خطبة، هذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: ولا يبع بعضكم على بيع بعض، أما الفقرة التي تلي هذه الفقرة في الحديث الشريف، وكونوا عباد الله إخوانا، متى يكون العباد إخوانا إذا تركوا الحسد، وتركوا النجش وتركوا التباغض، وتركوا التدابر، وتركوا التداخل في البيع والخطبة، وتركوا كل ما يؤدي إلى النفور بين المؤمنين، وفعلوا كل ما يؤدي إلى المودة، البشاشة، بذل السلام، تلبية الدعوة، تشميت العاطس، طرح السلام، هذا كله يزيد المودة بين المؤمنين، لذلك لا يكون المؤمنون عباد الله إخوانا، إلا إذا ابتعدوا عن كل ما يبعدهم عن بعضهم، وفعلوا كل ما يمتن علاقتهم ببعضهم، إن فعلوا كل هذا أو ذاك كانوا عباد الله إخواناً، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي مُسْلِمٍ عَبْدِ اللَّهِ الْخُرَاسَانِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَصَافَحُوا يَذْهَبِ الْغِلُّ وَتَهَادَوْا تَحَابُّوا وَتَذْهَبِ الشَّحْنَاءُ))

ماذا نستنبط من فعل تهادوا ؟ فعل مشاركة، تقدم هدية ويرد عليك أخوك بهدية مثلها، إي إذا كان بينك الإنسان وأخيه مشكلة، بغضاء، حسد، قضية عالقة هدية مخلصة، وليس من الضرورة أن تكون القيمة غالية، مهما تكون رمزية فإنها تذهب بوحل الصدر، سيدنا عمر بن عبد العزيز يقول: تصافحوا فإنه يُذهب الشحناء وتهادوا، الشحناء والضيق هذا كله تذهبه الهدية المخلصة، والمصافحة تزيد في المودة، قال الإمام المجاهد: بلغني أنه إذا تراءى المتحابان فضحك أحدهما إلى الآخر وتصافحا تحاتت خطاياهما كما يتحات الورق من الشجر، أي سقطت عنهما خطاياهما كما يسقط الورق من الشجر، إذا تراءى المتحابان وتصافحا وتَبَاشا، كان سيدنا محمد حكيم حكمة بالغة، عندما قال له أحد الصحابة، مر صحابي قال: والله إني أحبه، قال له النبي: هل أعلمته ؟ قال: لا، قال: قم فأعلمه، تبعه وقال له: يا فلان

إني والله أحبك لله، فقال: أحبك الذي أحببتني من أجله، أي إذا إنسان يُكِنُ لأخيه مودة يقدر فيه الصفة، يحب فيه أمانته، وإخلاصه، تواضعه، صبره، عمله الدؤوب، وبقيت صامتاً فأنت بهذا لم تنمِ هذه المودة، لا تَضِن بكلمة مديح صادقة لأخيك، نمِّ هذه العلاقة بالكلام الطيب والمديح المعتدل الصحيح الواقعي، هذا المديح بحالة معتدلة صحيحة واقعية تنم المودة، أحياناً يكون بأخيك ميزات كثيرة جداً أنت تعرفها لكن لا تعترف بها، تعرفها ولا تعترف بها، هذا يسبب تدابر، أما لو كان لأخيك ميزات طيبة وأنت أثنيت عليها ولم تضن بالحديث عنها، أثنيت على شجاعته، ودقة مواعيده، وعلى محبته، وعلى إخلاصه في عمله، أو على تفوقه في اختصاصه، سبحان الله الإنسان يحب أن يكون مقدراً، يحب أن يكون حجم قدراته معروفة عند الناس، فإذا أردت أن تستميل إنساناً فاعترف بفضله، ولا تنكر عليه فضله، لذلك المؤمن الصادق يعترف بفضل الآخرين ولا ينكر عليهم فضلهم، بهذه الطريقة تنشأ المودة، النبي صلى الله عليه وسلم ماذا قال لسيدنا الصدِّيق، قال: ما ساء ني قط، فاعرفوا له ذلك، ما دعيت أحداً إلى الإسلام إلا وكانت له كبوة إلا أخي أبا بكر ما كبا أبداً، ما طلعت شمس على رجل بعد نبي أفضل من أبي بكر، سيدنا عمر لو كان نبي بعدي لكان عمر، سيدنا خالد هو سيف من سيوف الله، سيدنا أبو عبيدة أمين هذه الأمة، سيدنا سعد ارم سعد فداك أبي وأمي، سيدنا الزبير حواري هذه الأمة، ليس هناك صحابي على الإطلاق إلا والنبي خصه بمديح صادق، مخلص، هذا ينمي العلاقات لذلك كان عليه الصلاة وسلم كل صحابي التقى به يظن نفسه أقرب الناس إليه، كل صحابي كان يعتقد أنه أقرب صحابة رسول الله إلى رسول الله، هذه بطولة في الإسلام، لذلك قال الله تعالى يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63))

(سورة الأنفال)

أي المظهر الصارخ للمؤمنين هذه المحبة، وهذه المودة، وهذا التواصل وهذا التبادل، وهذه المجانسة، قال الرسول الكريم:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ وَحَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ))

لذلك ما دام المسلم أخو المسلم نُهي المسلم عن أن يفعل شيئاً ينفّر أخاه منه، وأمر أن يفعل كل شيء يزيد المودة بينهم، المسلم من شأنه أن يوصل النفع لأخيه ويدفع عنه الضرر، قال الرسول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ))

وهناك رواية:

((وحتى يكره لها ما يكره لنفسه))

اسمعوا هذا الحديث ودققوا في مضمونه قال الرسول:

((عَنْ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبَا طَلْحَةَ بْنَ سَهْلٍ الأَنْصَارِيَّ يَقُولاَن: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا مِن امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إِلاَّ خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ وَمَا مِن امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلاَّ نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ))

أنت قوي وأخوك مؤمن، أُذِلّ أو أُهين أو انتُقِص من عرضه وتبقى ساكت وتقول لا علاقة لي بالأمر، عندها فإن الله عز وجل سيذيقك مثلها، تكون في أشد الحاجة إلى من ينصرك ولا أحد ينصرك. الفقرة التالية من الحديث:

((عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا ؟ قَالَ: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ))

أنت ينبغي أن تنصر أخاك دائماً ظالماً كان أو مظلوماً، مظلوماً بأن تضرب على يد من ظلمه، أما ظالماً أن تمنعه من الظلم، هذا هو النصر له، قال الرسول الكريم:

((عَنْ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبَا طَلْحَةَ بْنَ سَهْلٍ الأَنْصَارِيَّ يَقُولاَن: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا مِن امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إِلاَّ خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ وَمَا مِن امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلاَّ نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ))

أي كما تدين تدان، إن خذلت مسلماً يخذلك الله، وإن نصرته ينصرك الله، وقد ورد في الحديث الشريف:

((من نصر أخاه بالغيب وهو يستطيع نصره، نصره الله بالدنيا والآخرة))

بقي من الحديث:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لاَ تَنَاجَشُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَلاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ قَالَ إِسْمَاعِيلُ فِي حَدِيثِهِ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا التَّقْوَى هَاهُنَا يُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثًا حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ))

وقال أيضاً:

((عَنْ نَوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَبُرَتْ خِيَانَةً تُحَدِّثُ أَخَاكَ حَدِيثًا هُوَ لَكَ مُصَدِّقٌ وَأَنْتَ بِهِ كَاذِبٌ))

أي أكبر خيانة لأخيك المسلم أن تحدثه حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب، آخر شيء ولا يحقره، المتكبر ينظر إلى نفسه بعين الكمال وإلى غيره بعين الاحتقار، هذا هو المتكبر، فالكبر بطر الحق وغمط الناس، تعريف الكبر بطر الحق، رد الحق، وغمط الناس أي تحتقرهم أن ترفض الحق أنت متكبر، أن تحتقر الناس أنت متكبر، فأدق تعريف للنبي في الكبر هو بطر الحق وغمص الناس، وفي رواية أخرى:

((قَالَ كُرَيْبٌ: سَمِعْتُ أَبَا رَيْحَانَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ شَيْءٌ مِنَ الْكِبْرِ الْجَنَّةَ، قَالَ: فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَتَجَمَّلَ بِسَبْقِ سَوْطِي وَشِسْعِ نَعْلِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِالْكِبْرِ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ إِنَّمَا الْكِبْرُ مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ وَغَمَصَ النَّاسَ بِعَيْنَيْهِ))

أي أن ترد الحق وأن لا تقبل به، آخر شيء في الحديث هو قوله عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَخُونُهُ وَلاَ يَكْذِبُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ عِرْضُهُ وَمَالُهُ وَدَمُهُ التَّقْوَى هَا هُنَا بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْتَقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ))

لا يحل لك أن تأخذ من مال أخيك شيئاً إلا عن طيب نفس منه، ولا يحل لك أن تنتقص من قيمة أخيك في حضرته أو في غيبته، أي أن تنال من عرضه لأنّ عرضه محرّم عليك، من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته وحرمت غيبته، ليس لك أن تسفك دم المسلم ولا أن تنتهك عرضه، ولا أن تأخذ ماله إلا عن طيب نفس منه، هذا الحديث أيها الأخوة طبعاً شُرح سابقاً لكن من زاوية غير هذه الزاوية، إذا ورد حديث ذكر في درس الأحد يكون مطروق من زاوية جديدة ومن شرح لم يكن مشروحاً في الدرس الماضي، هذا الحديث أصل من أصول التعامل الاجتماعي بين المسلمين، فلو كتبه كل إنسان ودقق في كلماته كلمة كلمة وحاسب نفسه دائماً عن مدى تطبيق هذا الحديث وعن مدى التقصير في تطبيقه لكُنّا في حال غير هذه الحال، والمؤمنون لا يتحابون ولا يتوادون ولا يكونون كالبنيان المرصوص وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى إلا إذا طبقوا هذا الحديث، وهذا من أصول الأحاديث المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية بين المؤمنين

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (076) : الرحمة بالأولاد .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-09-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الأقرع بن حابس:

((عن أبو هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهم قال: قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الأقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا فقالَ: الأقْرَعُ إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قالَ: مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ))

أيها الأخوة: الأقرع بن حابس كان فيما ترويه الكتب رجلاً غليظ الطبع قاسي القلب قد استغرب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يقبل الحسن ابن علي بن أبي طالب وذكر أنه لم يقبل واحداً من أولاده فرد عليه النبي برواية أخرى أبلغ رد قال له:

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهَا قالتْ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالَ: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ فَمَا نُقَبِّلُهُمْ فقالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوَأَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ))

محور هذا الدرس الرحمة بالأولاد بعض الحكماء قال: ذهبت ملذات الدنيا إلا ثلاثة، شم الصبيان، وقيل لآخر من أحب أولادك إليك قال صغيرهم حتى يكبر ومريضهم حتى يبرأ وغائبهم حتى يحضر.
وقال الأحنف بن قيس رحمه الله تعالى: أولادنا ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم سماء ظليلة وأرض ذليلة وبهم نصول على كل جليلة فإن غضبوا فأرضهم، وإن سألوا فأعطهم، وإن لم يسألوا فبدئهم ولا تنظر إليهم شذراً فيملوا حياتك ويتمنوا وفاتك.

أيها الأخوة: أحد أكبر نجاحات الإنسان في الحياة أن يستميل قلب أولاده إليه وأحد أكبر نجاحات الإنسان في الحياة أن يحدث في أولاده تأثيراً واضحاً بفضل توجيهه وقدوته ورعايته وبذله وعطائه، وكان السلف الأولون من عظماء الصحابة والتابعين يداعبون أطفالهم ويتصابون لهم وهناك أدلة كثيرة وشواهد غزيرة في هذا الموضوع لكن أردت أن يكون محور هذا الدرس الرحمة بالأولاد إلا أن الإمام الغزالي رحمه الله تعالى ذكر في تربية الأولاد من كتاب الإحياء طرفاً صالحة وأفرد ذلك في بعض الكتب ومن كلام الغزالي ومحور هذا الدرس فصل في إحدى كتب الغزالي عن تربية الأولاد نظراً لأهميته البالغة أردت أن أشرحه لكم وأجعله محور هذا الدرس.

يقول: مهما رأى فيه ـ أي في ابنه ـ مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته، مراقبة الولد أحد أكبر مهام الأب، المراقبة لأن الغفلة قد تسبب انحراف، مراقبة أبناءكم جزء من عبادة ربكم، والمراقبة تحتاج إلى جهد، إلى يقظة، إلى سهر أحياناً، إلى انتظار، تأخر انتظره حتى يأتي، اسأله مع من كان، أين كان،

ماذا يفعل، المراقبة تحتاج إلى جهد، ورد في الأثر أنه: لاعب ولدك سبعاً، وأدبه سبعاً، وراقبه سبعاً، ثم اترك حبله على غاربه.

الأبوة مسؤولية، الأبوة رسالة، الأبوة جهد مبذول هذا الذي يتزوج ويبحث عن راحته، وعن استرخائه، وعن استجمامه، وعن النزهات وعن سفره، دون أن يرعى من أوكله الله بهم، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ))

الذي يضيع من يقوت ليس من أمة النبي عليه الصلاة والسلام، طبعاً هو يقيتهم، ويطعمهم، ما نفى عنه النبي الإطعام، يطعمهم لكنه ضيعهم مع ربهم، ضيعهم في أمر دينهم، ضيعهم ما علمهم، ضيعهم ما أخذهم معه إلى المسجد، ما لقنهم دروس العلم، قال: ينبغي أن يحسن مراقبته وأول ذلك ظهور أوائل الحياء، يعني الذي عنده ابن وفيه بوادر حياء فليستبشر لأن الحياء من الإيمان، والحياء والإيمان قرنا جميعاً فإذا ذهب أحدهما ذهب الآخر، لما تلاحظ أن ابنك يستحي أن يخلع ثيابه أمامك، يستحي إذا دخل عليك وأنت تخلع ثيابك، تبدلها إذا كان يستحي فهذه بادرة طيبة، والحياء من الإيمان وأذكركم أن الخجل عيب وأن الحياء فضيلة، الخجل أن تخجل أن تطالب بحق، الخجل أن تضطرب فلا تستطيع أن تتكلم بين الناس، الخجل مرض نفسي لكن الحياء فضيلة، والدين كله حياء، وهذا الذي يقول لا حياء في الدين يجب أن يعيد النظر في هذه المقولة، لا حياء في الدين اسأل عن كل شيء لأنك إن سألت عن أشياء محرجة وعرفت الحكم الشرعي أفضل ألف مرة من أن تجهلها وأن تقترف الحرام، قضية متعلقة بالغسل، قضية متعلقة بالجنابة، قضية متعلقة بالعلاقة الخاصة بين الزوجين، قضية متعلقة بأشياء يستحي الإنسان أن يبديها هذا نقول لك فعلاً لا حياء في الدين، يعني اسأل، أما لا حياء في الدين أن تسمي الأشياء بمسمياتها وأن تجعل محور الدعوة إلى الله الحديث عن هذه العلاقات وأن تمزح مزاحاً غليظاً متعلق بعلاقة المرأة بالرجل تحت غطاء لا حياء في الدين، ساعة ئذٍ نقول لك الدين كله حياء، لذلك وهذه قاعدة أنت إذا رأيت من صديق لك حياءً فاستبشر ودله على الله وخذ بيده وعاونه لأن الحياء من الإيمان، الذي يستحي من الناس ويستحي من الله هذا إنسان فيه خير كبير

قال: فإن كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل حتى يرى بعض الأشياء قبيحاً وبعض الأشياء مخالفاً للبعض، يعني إذا أنت وجدت من ابنك حياء يستحي أن يكذب، يستحي أن يبدو في شكل لا يرضي، يستحي أن يرتكب شيئاً نهى عنه الشرع فهذه علامة طيبة، لذلك كثير من الآباء، أصلحهم الله يضعفون روح الحياء في أبنائهم، يقحمه إقحاماً في الاختلاط، يدفعه إلى أن يخلو في بيت مع قريباته، لا تخاف، هذا الأب الذي يظن أن هذا تقوية لشخصية الطفل هو يدفعه إلى

حقل ألغام وهو لا يدري، لذلك إذا وجدت من ابنك مخايل الحياء فنمي هذا، ومهمة الأب المربي دائماً أن ينمي الجوانب الإيجابية في حياة ابنه، دائماً الأشخاص نوعان، شخص يبحث عن الكمال وينميه، وشخص يبحث عن النقيصة ويضخمها، فأهل الدنيا وأهل الفجور والعصيان في كل علاقاتهم الاجتماعية وفي كل لقاءاتهم يبحثون عن النقيصة ويضخمونها، بينما المؤمن يبحث عن الجانب الإيجابي في حياة كل إنسان.

هذا الذي دخل إلى المسجد ليدرك مع الرسول صلى الله عليه وسلم الركعة الأولى وأحدث جلبةً وضجيجاً حتى أنه شوش على الصحابة صلاتهم ماذا قال له النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّهُ انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ رَاكِعٌ فَرَكَعَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الصَّفِّ فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: زَادَكَ اللَّهُ حِرْصًا وَلا تَعُدْ))

رأى في ذلك حرصاً، وتعلمون جميعاً أن سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام رأى جيفةً مع أصحابه فقال أصحابه ما أنتن ريحها، فقال عيسى عليه السلام بل ما أشد بياض أسنانها، هذه القصة لها مغزى، لا يوجد إنسان لا يوجد عنده ميزة إطلاقاً، فالمربي الناجح يأخذ هذه الخصلة الحسنة ويثني عليها وينميها، ويتغافل عن الخصال الأخرى بهذه الطريقة يحبك الذين حولك، أما إذا نصبت نفسك قاضياً ووصياً وحاكماً وقامعاً لهم ينفرون منك، شيء آخر، اللهم صلي على رسول الله، قال له ربنا عز وجل:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159))

(سورة آل عمران)

لين النبي مع من حوله ما سببه بنص هذه الآية ؟ لين الجانب، لين العريكة، التسامح، التساهل، التغافل، العفو، عدم التدقيق، تنمية الفضائل، الغفلة عن النقائص، هذا الموقف اللين من النبي عليه الصلاة والسلام ما سببه ؟ الباء للسببية، فبما رحمة من الله لنت لهم، لذلك هذا الأقرع بن حابس الذي قال:

((الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا فَقَالَ: الأَقْرَعُ إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ ""... فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوَأَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ))

معنى ذلك اللين لا يفسر بالذكاء فقط، لا يفسر بالحكمة فقط، لا يفسر بالكياسة فقط، اللين يفسر بالرحمة، فالقلب الرحيم هو الذي يجعل الإنسان لين الجانب، لين العريكة، يألف ويؤلف فالمؤمن كما قال عنه النبي عليه الصلاة والسلام: يألف ويؤلف ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف.

النبي عليه الصلاة والسلام كان عبقرياً في قلب أعدائه إلى أصدقاء، دخل عليه رجل قال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا ـ ألا ترون هذا في منتهى الوقاحة أن يخاطب نبياً مرسلاً يأتيه الوحي، يقول له ائذن لي بالزنا والزنا فاحشة عند الناس جميعاً ـ فقال إليه أصحاب النبي، فقال: دعوه اقترب يا عبد الله، قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ قَالُوا مَهْ مَهْ فَقَالَ: ادْنُهْ فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا قَالَ فَجَلَسَ قَالَ أَتُحِبُّهُ لأُمِّكَ قَالَ: لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأُمَّهَاتِهِمْ قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لابْنَتِكَ، قَالَ: لا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ: وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ، قَالَ: لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأَخَوَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ، قَالَ: لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ: وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ، قَالَ: لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالاتِهِمْ، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ))

تألفه، هذا الذي أعطاه النبي ما أعطاه وقال يا هذا: هل أحسنت إليك قال: لا والله ولا أجملت، فقام أصحاب النبي، فقال: دعوه، زاده عطاءً فقال له: هل أحسنت إليك، قال: نعم جزاك الله عني خيراً، فقال عليه الصلاة والسلام: قل لأصحابي ما قلت لي لكي لا يجدوا عليك في أنفسهم، فقال: إن هذا يزعم أنه قد رضي أهكذا يا أعرابي، قال: نعم، قال النبي الكريم: مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل ناقة جمحت فتبعها أناس فزادوها نفوراً، أنا جئتها بطعام وقربته إليها حتى تألفتها، لو تركتم وشأنه لأهلكتموه ولقي الله عز وجل عاصياً.

فكان عليه الصلاة والسلام عبقرياً في قلب أعدائه إلى أصحاب، صفوان ابن أمية، عمير بن وهب جاء إلى المدينة ليقتل النبي، وسقى سيفه سماً وركب ناقته وتوجه إلى المدينة رآه عمر قال: هذا عدو الله عمير جاء يريد شراً قيده بحمالة سيفه وقاده إلى النبي، قال: يا عمر أطلقه، فأطلقه، قال: يا عمر ابتعد عنه فابتعد عنه، قال: يا عمير ادنو مني فدنا منه، قال: ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال له سلم علينا، قال: عمت صباحاً يا محمد، قال: قل السلام عليكم، قال له: لست بعيد عهد بسلام الجاهلية، بمنهى الفظاظة، قال له: ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال جئت أفدي ابني، قال: وهذه السيف الذي على عاتقك، قال: قاتلها الله من سيوف وهل نفعتنا يوم بدر، قال: ألم تقل لصفوان لولا ديون ركبتني وأولاد أخاف عليهم العنت لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه، وقف عمير وقال: أشهد أنك رسول الله، لأن هذا الذي جرى بيني وبين صفوان لا يعلمه أحد إلا الله وأنت رسول الله.

يوجد عشرات القصص كيف أن النبي عليه الصلاة والسلام استطاع أن يتألف قلوب أعداءه، يوجد أناس يجعلون أصدقاءهم أعداءً، بالمناسبة أخوانا الكرام دققوا في هذه الكلمة، إذا كنت صاحب معمل، مدير ثانوية مدير مستشفى، يعني لك منصب قيادي، معلم مدرس، قاضي أي منصب قيادي، عشرات التصرفات، بل بضع عشرات التصرفات الذكية جداً، بمجملها قد تشد الإنسان إليك، وتصرف واحد أحمق يبتعد عنك بعد الأرض عن السماء، وإذا ممكن أن تدقق في العلاقات الاجتماعية تجد أن أكبر العداوات سببها كلمة واحدة، إخلاف موعد، استهزاء، نظرة فيها شزر، ابتسامة ساخرة، جلسة فيها استعلاء، كلمة نابية، كلمة قاسية تجريح، أنا أعني ما أقول ألف تصرف ذكي يشد الإنسان إليك وتصرف واحد أحمق يبتعد عنك بعد الأرض عن السماء لذلك أحياناً تفسخ شركات، تطلق نساء، تهدم بيوت، تقوم حروب بين الدول يوجد حروب أساسها كلمة نابية من سفير إلى ملك في أوربا، حرب بقيت سنوات طويلة، حروب في الجاهلية رجل مد رجله وقال: من كان أشرف مني فليضربها، فقام رجل وضربها، عشر سنوات بقيت الحروب بين القبيلتين

الإنسان في تصرفات كثيرة جداً ذكية جداً حانية جداً راقية جداً حكيمة جداً تشد الناس إليك، تصرف أحمق واحد تبعدهم عنك بعد الأرض عن السماء، قال تعالى:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (269))

(سورة البقرة)

الحقيقة ليس القصد أن تشد الناس إليك لتكون لك جماعة، لتتقوى بها، لتشعر بالتيه والزهو، إذا قلت هؤلاء جميعاً أتباعي، لا هذه من الدنيا أيضاً، من تعلم العلم ليصرف وجوه الناس إليه فليتجهز إلى النار، ولكن أنت عندما تشد الناس إلى الكمال تكون قد أعنت على دينهم، تشد الناس إلى طاعة الله هؤلاء الذين يمسكون بالكتاب، هؤلاء هم خاصة أهل الله عز وجل، يعني يحملون الناس على التمسك في هذا الدين، فيا أيها الأخوة: الآية دقيقة دقيقة، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159))

(سورة آل عمران)

إذاً لينك ولين عريكتك سهل الخلق تألف وتؤلف هذا ليس بسبب ذكائك ولا بسبب حكمتك، لا، هذا بسبب رحمتك، هكذا القرآن الكريم، رحمة استقرت في قلب المؤمن من آثارها لين الجانب، لو الإنسان كان بعيداً عن الله كلما ابتعد عن الله قسا قلبه ومع قساوة القلب تظهر الفظاظة في السلوك، الفظاظة في السلوك هي المظهر المادي لقساوة القلب، كيف أن الحب في القلب كامن، المودة تجسد هذا الحب، كذلك

قسوة القلب تجسدها فظاظة، كلمة قاسية، نظرة قاسية، استعلاء عجرفة، غطرسة، تكبر، احتقار الآخرين.

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159))

(سورة آل عمران)

إذا كان النبي وهو سيد الخلق وحبيب الحق، سيد ولد آدم الذي أوتي القرآن ومثله معه، المعصوم، المبلغ، إذا كان مع كل هذه الخصائص فظاً غليظ القلب لانفض الناس من حوله، فما قولكم بداعية لا يملك لا معجزات ولا وحي، ولا شيء إطلاقاً مؤمن من المؤمنين فعلام الغلظة لا أنسى أحد الملوك دخل عليه واعظ لكن يبدو أن الملك أفقه من الواعظ، فقال له: إني سأعظك وسأغلظ عليك، فقال الملك: ولمَ الغلظة يا أخي، إن الله أرسل من هو خير منك إلى من شر مني أرسل موسى إلى فرعون، لا أنت موسى ولا أنا فرعون.

قال تعالى:

(فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44))

(سورة طه)

الإنسان باللين يملك قلوب الآخرين، الآن لا يوجد عبودية والحمد لله، لكن أنت ممكن أن تستعبد الحر بلطفك، بإنسانيتك، بتواضعك، برحمتك، باهتمامك، فالإنسان إذا الله عز وجل مكنه من الخلق الطيب هذا الخلق هو وسيلة لجلب الناس إلى الله.

ولكن بصراحة الناس رجلان، مقرب ومنفر إما أن تقرب الناس من الله وإما أن تنفرهم منه، كلما كنت كاملاً قربتهم من الله، وكلما كنت قاسياً نفرتهم من الله لذلك أحد العلماء يقول: من دعا إلى الله بمضمون سطحي ـ منامات، كرامات، شطحات، هالة كبيرة ـ غير متماسك وبأسلوب غير علمي وغير تربوي، أو دعا إلى الله بمضمون عميق، المدعو لم يجد في الداعي هذه المصداقية، قال: هذا المدعو لا يعد عند الله مبلغاً ويقع إثم تفلته من منهج الله على من دعاه بهذا الطريقة.

لأن الإنسان بأعمق أعماقه يشعر أن هذا الدين دين الله والله كامل، الله خالق السماوات والأرض، دائماً الدين يجب أن يكون في هذا المستوى الرفيع، فمن أظهر الدين بشكل ساذج أو سطحي أو غير متماسك أو متناقض، هذا المدعو يقول هذا ليس دين الله عز وجل، لو أنه رفض هذه الدعوة السطحية غير المتماسكة لا يعد عند الله مبلغاً، ليس هذا دينك يا الله دينك أرقى من هذا، هذه زعبرة، تلبسة، تناقضات، سحبات، منامات، كرامات، دين الله علم، أدلة، قواعد، مبادئ، قيم، هذا هو الدين.

بصراحة المؤمن يجب أن تحبه من أعماق أعماقك، يجب أن تحبه بأعمق ما في كيانك هذا هو المؤمن، لأن الله عز وجل قال:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159))

(سورة آل عمران)

لذلك يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل، أنت تظنه صغيراً هذا الطفل الصغير له نفس ينظر إليك على إنك قدوة فإذا قيدت قلبه، ابتسمت في وجهه، نصحته، ضممته إذا كان ابنك، يعني أكرمته، أيام تطعم طفل سكرة يميل قلبه إليك، سمعت في الأثر أن للجنة باب وهذا الباب لا يدخله إلا من فرح الصبيان، أنا أتمنى من أعماقي أن يكون بيت كل واحد منكم جنة، قد يكون البيت خمسين متر، وأن يكون لا يوجد أثاث أبداً، قد يكون الطعام خشن، أما بالمودة والمحبة والمرأة والصلة بالله عز وجل تصبح البيوت جنات يوجد بيت ثمنه خمسين مليون قطعة من الجحيم، يقول الشيطان إذا دخل أحدكم إلى البيت فقال: السلام عليكم، يقول الشيطان لإخوانه لا مبيت لكم في هذا البيت، قال: وإذا جلس إلى الطعام وقال: بسم الله، يقول ولا طعام لكم، الإنسان إذا دخل ولم يسلم وجلس إلى الطعام ولم يسم، يقول الشيطان إلى أخوانه: اطمئنوا أدركتم المبيت والعشاء قال فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه أو تمييزه، نحن عندنا دائماً أسلوب القمع وأسلوب التشجيع، أيام تقول لطفل أنت أبوك فلان وأنت من عائلة كريمة، وأنت مظنة صلاح يا بني هذا الكلام تستعين على تأديبه ببروءته، والإنسان دائماً يجمع بين الثناء والنقد يوجد آباء أصلحهم الله لا يعرف إلا أن ينتقد يكون لابنه ألف ميزة، مليون ميزة يتعامى عن كل الخصائص الطيبة ويثير النقاط السلبية، والطفل عندئذ ييأس، الأكمل كلما رأيت بابنك صفة طيبة أثني عليه ونمها، وامدحه بها، وشجعه، أيام المديح يفعل في النفس فعل السحر.

قال: يستعان على تأديبه بحيائه أو تميزه، أول ما يغلب على الطفل من الصفات شره الطعام، فينبغي أن يؤدب فيه أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه وأن يقول بسم الله عند أخذها، وأن يأكل مما يليه، وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره، وأن لا يحدق النظر إليه، ولا إلى من يأكل، ولا أن يسرع في الأكل، وأن يجيد المضغ، وأن لا يوالي بين اللقم، وأن لا يوسخ يده وثوبه، وأن يعود الخبز وحده في بعض الأوقات حتى لا يصير الإدام حتماً، يعني النبي صلى الله عليه وسلم قال: اخشوشنوا، وتمعددوا، أنا لا أقول أن الإنسان يضيع أهله، أحياناً من الحكمة ينبغي أن تأكل طعاماً متواضعاً ظهراً لعل أن يأتي خاطب ومناسب وأخلاقه عالية جداً وليس في بحبوحة عود ابنتك على الطعام العادي، طعام خشن أحياناً، الإنسان أخطر شيء أن يألف شيئاً ثابت، وأفضل عادة أن لا تتعود ولا عادة، النبي قال في الحديث

الصحيح اخشوشنوا وتمعددوا فإن النعم لا تدوم، الإنسان من حين إلى آخر أكل عادي أكل من الدرجة الثانية، أكل خشن أحياناً، بالتعبير الدارج ـ تمضاية ـ بدون فاكهة، هذا الشيء يربي الإنسان تربية عالية، الحقيقة أيام البذخ والترف يجعل في الطفل صفات غير مقبولة إطلاقاً يعني لا أحد يتمنى أن يجلس معه لعجرفته وغطرسته.

فينبغي أن يؤدب فيه أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه وأن يقول بسم الله عند أخذها، وأن يأكل مما يليه، وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره، وأن لا يحدق النظر إليه، ولا إلى من يأكل، ولا أن يسرع في الأكل، وأن يجيد المضغ، وأن لا يوالي بين اللقم، وأن لا يلطخ يده وثوبه، وأن يعود الخبز أي وحده في بعض الأوقات حتى لا يصير الإدام حتماً، ويقبح عنده كثرة الأكل، ثم إن هذا الغلام المستحي الذي وجهه أبوه لآداب الطعام، وأن يحبب إليه البياض من الثياب، وهو في السنة يوجد إشارة إلى اللون الأبيض، يعلم النظافة وقيه شيء من الوقار والملائكية وليكن الأب حافظاً هيبة الكلام مع ابنه فلا يوبخه إلا أحياناً، إذا التوبيخ زاد والله لا يعطيك عافية، وأنت لا يوجد خير منك إطلاقاً يوجد آباء لسانهم بذيء مع أولادهم، لأنه صار هدم بين الأب وابنه فالإنسان كلما ضبط لسانه مع أولاده كلما نمت هيبته، الهيبة لا تأتي من فراغ، لا تأتي من لا شيء فلان له هيبة، هيبته جاءت من انضباطه، هيبته جاءت من ضبط لسانه، هيبته جاءت من ضبط جوارحه، هيبته جاءت من رحمته، هيبته جاءت من عفوه، هيبته جاءت من حلمه طبعاً الحليم والعفو والرحيم وذو اللسان المستقيم، وذو الجوارح المنضبطة هذا يكون له هيبة في البيت.

الحقيقة أنا أضرب مثلاً دائماً في فحص القيادة، الفحص على غير ما تظنون لا يقال للمفحوص قد هذه المركبة نحو الأمام، لا قدها نحو الوراء والطريق ضيق ومتعرج، ويوجد علامات، لو مسح إحداها ووقعت رسب، أنا أقول لماذا هذه الصعوبات وهذه العقبات ؟ إذا أتقن أن يرجع بالمركبة بطريق ضيق ذو انعطافات كثيرة وذو علامات كثيرة ولم يرمِ أية علامة معنى ذلك أنه يحسن ما سواها، هذا أصعب شيء في القيادة، ماذا قال عليه الصلاة والسلام ؟ خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي.

إذا الإنسان كان في بيته قدوة ممكن أن يكون خارج بيته قدوة، لأن في الخارج أفضل الناس يحافظون على سمعتهم، وعلى مكانتهم ويتبعون أساليب منطقية، تراه يعتذر ويبتسم أحياناً ويصافحك، ولكن في البيت عندما يقصر بهذه القواعد الأخلاقية صار خارج البيت عملية تمثيل صارت، أما المحك الصحيح لخلق الإنسان، خلقه في البيت، لذلك كان يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤْذِي جَارَهُ وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاهُ فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا))

فو الله ما أكرمهن إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم يغلبن كل كريم ويغلبهن لئيم وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً، كان عليه الصلاة والسلام يقف لابنته فاطمة، وحينما جاءته فاطمة ضمها وشمها وقال:

(ريحانة أشمها وعلى الله رزقها)

لازلنا مع رسالة الإمام الغزالي في التربية، قال: فلا يوبخه إلا أحياناً والأم تخوفه بالأب، أيام يكون في تنسيق بين الأم والأب، والأم تأخذ جانب العفو والرحمة، والأب يأخذ جانب القسوة، ودائماً الأم تخوف، يوجد أمهات بحمق شديد تصغر الأب أمام أولاده، هذه أم حمقاء، لما تناقش الأب أمام أولادها مناقشة قاسية، لما تتكلم كلام لا يوجد فيه أدب مع زوجها أمام أولادها كأنها تجرأهم عليه، كأنها تدعوهم إلى أن يضعفوا في برهم له، لذلك الأم العاقلة ليس لها مصلحة أبداً أن تضعف مركز زوجها أمام أولادها إطلاقاً، فكلما حرصت الأم على توقير زوجها أمام أولادها لمصلحتها، لأنه يوجد عندها ورقة رابحة بالتعبير المعاصر، والورقة الرابحة هي الأب، فهي تخوف بالأب أولادها، وتطمع أولادها بأن يعطيهم الأب من أمواله، أما إذا صغرت الأب أمام أولاده ضعفت شخصيته ودفعت هي الثمن.

قال: وينبغي أن يمنع من النوم نهاراً فإنه يورث الكسل، الحقيقة النوم حاجة أساسية وذكرت البارحة كيف أن النوم من نعم الله الكبرى وكيف أن الأعصاب أثناء النوم تتباعد، فالسيالة العصبية إذا سرت في الأعصاب ترى مسافة واسعة تقف، لذلك النائم ينام ويرتاح، أما إذا جاء صوت كبير جداً، هذا الأثر القوي يقفز عندئذٍ يستيقظ الإنسان، الله جعل النوم سباتاً وجعل النهار معاشاً، أما النوم إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده، يقول الإنسان أيام استيقظت وجسدي مكسر، النوم المديد له مشكلة، أيام ينام الإنسان الساعة اثني عشر ويستيقظ الساعة الرابعة والنصف ويعود وينام بعد الصلاة، انقطع النوم، أما نوم ثمانية ساعات متصلة، القلب أثناء النوم المديد يصبح ضرباته خمسة وخمسين ضربة، وكلما الضربات خفت الدم يبطئ السير في الأوعية، وإذا أبطأ السير المواد العالقة ترسب على جدران الأوعية، وهذه مشاكل العالم كله الآن، يقول لك الشريان التاجي مسدود، الانغلاق سبعين بالمائة وستين بالمائة، ثلث المشكلات أن هذه الشرايين يترسب حولها هذه المواد الدهنية، هذا قرأته في مجلة علمية، النوم المديد المتصل يجعل بعض المواد العالقة بالدم ترسب على جدران الأوعية، الحقيقة لما الإنسان يقطع نومه ويصلي الفجر في جماعة ويعود إلى البيت ويستلقي مرة ثانية قطع هذا النوم المديد.

قال: ولا يمنع منه ليلاً، وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله خفية فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد قبيح، لما الإنسان يتعود أن لا يكون عنده حالتين يوجد أشخاص لهم موقف معلن وموقف مبطن، له جلوة وله خلوة، له مواقف خارج البيت، وفي البيت له مواقف عكسها، هذه الازدواجية مرض في الإنسان،

الحقيقة الازدواجية في الشخصية مرض في الإنسان، والازدواجية في المكيال مرض، والازدواجية بالمعاملة مرض، الأولى كما قال عليه الصلاة والسلام:

((تركتكم على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا ضال))

لذلك المؤمن خلوته كجلوته، سريرته كعلانيته، سره كجهره بيته كعمله في الطريق وفي البيت، حضره كسفره، يوجد أشخاص بالسفر يتفلتون كأن الله موجود فقط في بلد إقامتهم، إذا سافر لا يوجد رقابة إذاً هذا لا يخشى الله يخشى الناس، كل إنسان إذا سافر يغير من استقامته هذا ما يؤكد أنه يخشى الناس ولا يخشى الله.

أيها الأخوة الكرام: مرةً ثانية أقول لكم ما من شيء يدخل على قلب الأمهات والآباء السعادة كأن يكون أبناءهم في أعلى مستوى من التربية فلذلك الجهد الكبير الذي تبذله في تربية أولادك هذا مصدر سعادتك، وليس مع الخسائر بل مع المكاسب، يعني الجهد والوقت، والتعليم وإنفاق المال إذا انتهى بك إلى أن يكون الابن في المستوى الذي يرضي الله ويرضيك فأنت من أسعد الناس ولما الإنسان يتساهل في تربية أولاده ويرى الانحراف في سلوكهم عندئذٍ يدخل على قلبه من الألم والشقاء ما لم يوصف، لذلك ربنا عز وجل تعجل بالآباء والأبناء بثواب تربية أولادهم بالدنيا قبل الآخرة، ما هو هذا الثواب ؟ أن يجعل الله الآباء قريري العين بأولادهم من قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً (74))

(سورة الفرقان)

فالأب الصالح المؤمن الذي ربى أولاده تربية صالحة هذا يقطف ثمار هذه التربية قبل دخول الجنة هو في الدنيا، يقطف ثمار هذه التربية طمأنينة وسعادة في قلبه لا يعلمها إلا الله، ولما الإنسان الله عز وجل يتفضل عليه بولد صالح أو فتاة صالحة هذه أعظم نعمة على الإطلاق لكن لا يعرف هذه النعمة إلا من فقدها، وأتمنى على كل من أكرمه الله بهذه النعمة أن يرعاها، وأن يذكر الله عليها وأن يبالغ في خدمة هؤلاء الذين ساهموا في تربية.

طبعاً أحياناً الابن انضم إلى مسجد، الأب يقيم عليه النكير أحياناً، أن يخطر في بالي أن هذا الأب لو أن ابنه من ملهى إلى ملهى ومن صديق فاسق إلى صديق فاسق ومن سهرة وراء فيلم ماجن إلى فيلم ماجن وبلغه أن ابنه هكذا ماذا يفعل ؟ هذا الذي رباه لك ووجهه وعلمه أمر دينه وحمله على طاعة الله، وحمله على الاستقامة على أمر الله، ألا ينبغي أن يشكر وأن يدعم، لذلك ترى لسبب تافه مرة أب قال لي: قلت لابني درس واحد يكفي، وسبه لأنه يحضر ثلاث دروس في الأسبوع، هل من المعقول أن توبخ ابنك وأن تقيم عليه النكير من أجل طلب العلم، والله عز وجل يتكفل طالب العلم بالتوفيق والنجاح، أنا والله لا أعجب إلا من أب يكفر نعمة الابن الصالح، يكون عنده ابن صالح ومستقيم وجيد جداً ومؤدب، يحاسبه

أشد المحاسبة ويقيم عليه النكير، وابنه الفاسق الفاجر يتساهل معه ويسمع منه، ابنه الدّين قاسي معه ويحرمه أحياناً أشياء كثيرة، هذا محاسب على ذلك يوم القيامة، لذلك أخوانا الكرام سوف ألقي عليكم هذه الحقيقة، لو أن أب سار ابنه سيراً صحيحاً وسلك منهجاً قويماً والأب غير راضي عن هذا الاتجاه ليس له أجر عند الله أبداً ولو صار ابنه أكبر عالم، ليس له أجر لأنه ما أراد ذلك وعاكسه أيضاً، كل ابن في صحيفة الأب لا أبداً، ما كل ابن صالح أعماله في صحيفة أبيه أبداً، الابن الصالح الذي أراد أبوه أن يكون صالحاً وأعانه على أن يكون صالحاً ودفعه إلى الصالح وبذل من أجل الصلاح ما بذل هذا الأب هو الذي يكافأه الله في أن يجعل أعمال ابنه في صحيفته.

قضية كبيرة جداً أيها الأخوة أن الحياة تنتهي، أن تعيش ستين سنة، خمسة وستين، مائة وعشرة، انتهت الحياة لا أحد يخلد، إذا كان لك ابن صالح كل أعماله الطيبة في صحيفته، أولادك وأولاد أولادك، وأولاد أولاد أولادك إلى يوم القيامة، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (21))

(سورة الطور)

شيء كبير جداً أن تنتهي الحياة والعمل مستمر إلى ما شاء الله إلى يوم القيامة، وهذا كله تحصله بولد صالح، ونجعل محور هذا الدرس هذا الحديث:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهم أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثٍ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ وَعِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ))

الذي عنده ولد صالح هذه نعمة كبرى لا ينبغي أن تكفر، الذي عنده زوجة صالحة، الزوجة التي أكرمه الله عز وجل بزوج لا تكفر نعمة الزوج.

((عَنْ ثَوْبَانَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلاقًا مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ))

لا ينظر الله إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه، فنعمة الزوج، نعمة الولد الصالح، نعمة البنت الصالحة، هذه النعم ينبغي أن تشكر وينبغي أن نتسابق في هذا المضمار.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (077) : تزكية النفس .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-10-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

أحد كتب الإمام الغزالي رحمه الله تعالى عنوانه مكاشفة القلوب المقرب من علام الغيوب، في هذا الكتاب فصل وجدت فيه فائدةً كبيرةً فيما لو تدارسنا مضمونه في هذا الدرس، هذا الفصل في رياضة النفس، ويا أيها الأخوة كلكم يعلم أن كلمة أفلح وردت في القرآن مرات عديدة لا تزيد عن أربع فيما أذكر، أحد هذه الآيات:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14))

(سورة الأعلى)

وذكر اسم ربه من زكى نفسه من طهرها، من كملها، من سما بها، من عرفها بربها قد أفلح من تزكى، كيف يتزكى ؟ التزكية طريقها ذكر الله عز وجل، وآية أخرى ونحن مع الكتاب والسنة، قال تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88))

(سورة الشعراء)

إذاً أثمن شيء تلقى الله به قلب سليم، قلب طاهر، قلب مزكى، قلب موصول بالله عز وجل، لذلك هذا الفصل في كتاب الإمام الغزالي يتعلق بالتزكية، هذا الفصل يقول، أولاً اعلم عبد الله أن الله إذا أراد بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه، عيوب النفس هي المهلكات، الأمراض الوبيلة، الأمراض المستعصية ينتهي أثرها عند الموت، ولكن أمراض النفس تبدأ عند الموت وإلى أبد الآبدين، فلذلك، المؤمن الصادق يضع يده على جوهر الدين، جوهر الدين أن تزكي نفسك، وجوهر الدين أن تلقى الله بقلب سليم، وجوهر الدين أن تصل إلى الله ولن تصل إلى الله إلا إذا عرفته ثم أطعته، لذلك الدين واسع جداً، لا يمكن إذا قرأت كل يوم خمس مائة صفحة، لو أمضيت كل حياتك في قراءة كتب الدين لا تقرأ واحد بالمليون مما ألف في الدين، ولكن جوهر الدين أن تصل إلى الله، أن تتصل به، أن يكون قلبك سليماً وأن تكون نفسك زكيةً طاهرة، والقرآن الكريم بين أيديكم، قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14))

(سورة الأعلى)

فالإنسان أحياناً واجباته الدينية تصبح جزءاً من عاداته يعني ألف أن يأتي إلى المسجد وألف أن يسمع الدرس، وأن يعود إلى البيت، وأن يعمل والأيام تمضي هكذا إلى أن يأتي الأجل، قد يجد أنه ما وصل إلى جوهر الدين رغم عمره المديد، رغم مداومته على ما ألفه في حياته في شؤون الدين، لكن البطولة

أن تزكوا هذه النفس وأن يسلم هذا القلب، إذا طهرت النفس وتحلت بالكمال، وإذا سلم القلب من الآفات والعلل اتصل بالله، فإذا اتصل بالله وصل الإنسان إلى جوهر الدين.

أضرب لكم مثل من حياتنا بالتجارة، يوجد شيء اسمه محل، شراء محل، اختيار الموقع، اختيار المساحة، دفع الثمن، نقل الملكية، تزيين المحل، شراء البضاعة، توزيع البضاعة، بيع البضاعة، قبض الثمن، إجراء حسابات دقيقة، معاملة الزبائن بالحسنى، هذه النشاطات كلها لها مؤدى واحد كلها، لو أن التجارة ألف نشاط أو مائة ألف نشاط مؤداها أن تربح آخر العام فإن لم تربح فلا معنى لكل هذه النشاطات أليس كذلك التجارة عمل أساسه الربح، فإذا الإنسان ما ربح، ما قيمة محله الكبير وتزيين محله الرائع، وما قيمة الحسابات الدقيقة، وما قيمة المستودعات الأنيقة، وما قيمة الإعلانات البراقة، كل النشاطات التجارية إن لم تصل بك إلى ربح لا قيمة لها إطلاقاً، وكل الأعمال الدينية، يوجد نشاطات، عبادات، صلاة، حج، زكاة، بناء مساجد، كل النشاطات الدينية إن لم تصل بك إلى تزكية النفس وإلى سلامة القلب وإلى الاتصال بالله عز وجل لا معنى لها، فلذلك تزكية القلب، ورد في الأثر القدسي أن يا عبدي طهرت منظر الخلق سنين أفلا طهرت منظري ساعة.

الله عز وجل مطلع على قلب كل واحد، يا ترى يوجد في القلب غل، حقد، حسد، كبر، استعلاء، حب الذات، يا ترى إذا صليت هل ترى أن الطريق إلى الله سالكاً أم يوجد حجب، بالمناسبة يمكن أن تجعل قدرتك على الاتصال به أحد أكبر الأدلة على استقامتك، إذا الإنسان ما استقام يشعر إذا كان صادقاً مع نفسه بحجب بينه وبين الله، أما إذا استقام ليس هناك حجب لمجرد أن يدعو الله عز وجل يشعر أنه مع الله، لمجرد أن يذكره يشعر أنه معه، لمجرد أن يتصل به يشعر أنه معه.

فلذلك إذا أراد الله بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه، الآن من كانت له بصيرة نافذة لم تخفَ عليه عيوبه، الذي تخفى عليه عيوبه هو الأحمق الأحمق تخفى عليه عيوبه، لماذا ينبغي أن نعرف العيوب ؟ ينبغي أن نعرف العيوب كي نتطهر منها، هذا شيء بديهي، الإنسان متى يعالج نفسه من الضغط المرتفع ؟ إذا عرف أنه يحمل ضغط مرتفع، والضغط المرتفع ليس له آثار، أيام عرضاً الإنسان يقيس ضغطه فيكون ثمانية عشر فيرفع يديه ويبادر إلى معالجة الضغط، متى تحرك لمعالجة الضغط ؟ حينما عرف أنه معه ضغط، لذلك لماذا ينبغي أن نتعرف إلى العيوب ؟ من أجل أن نعالجها وأن ننجو منها، لذلك إذا أراد الله بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه، فمن كانت بصيرته نافذةً لم تخفَ عليه عيوبه، إذا عرف العيوب أمكن أن يعالجها.

لكن المشكلة أن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم، يرى أدق الانحرافات عند الآخرين، يرى أدق التقصيرات، يرى أدق الزلات، وهو واقع في زلة كبيرة وفي خطأ فاحش وفي انحراف خطير وهو لا

يدري، لأن الإنسان يتملق نفسه دائماً، الإنسان دائماً يميل إلى تبرء نفسه ويتهم الآخرين، هذه جبلة الإنسان الغافل، دائماً هو مبرأ ويبحث عن عيب طفيف في الآخرين ولا يرى عيب نفسه.

الإمام الغزالي يرى أنه من أراد أن يعرف عيوبه عليه بأربع طرق، أولاً المؤمن له مرجع، هذه كلمة دقيقة جداً، من هو الذي لا مرجع له الكافر، دابة فلتانة، المؤمن له مرجع، انظر إلى دائرة مديرها ممتاز الموظف قبل أن يتصرف يسأل ويستأذن، يطلب الموافقة، لا يوجد مكان ما فيه مرجعية، المدرسة لها مدير، والمستشفى لها مدير، الجامعة لها رئيس جامعة، الوزارة لها وزير، لا يوجد تجمع منظم إلا وله مرجع، المسلمون هكذا بلا مرجع، كل شيء خطر في باله يفعله هكذا، حق باطل، يجوز لا يجوز، متفق مع الشرع لا يتفق مع الشرع، الدليل قوي، ضعيف، الإنسان الذي لا مرجع له ضائع، أولاً تحتاج أنت إلى مرجع ترجع إليه، تحتاج إلى كتاب تستقي منه هو كتاب الله، تحتاج إلى إنسان فهم كلام الله أعلى فهم ليبين لك مضمونه تحتاج إلى السنة، تحتاج إلى أشخاص طبقوا هذا الشرع فقطفوا ثماره، تحتاج إلى سيرة، أنت بحاجة إلى مرجع أولى هذه المراجع كتاب الله، ثانيها سنة رسول الله، ثالثها سير أصحاب رسول الله، الذي له مرجع دائماً يفعل موازنة، يا ترى عملي صحيح، ما فعل هذا رسول الله، ما فعل هذا رسول الله، مثلاً وإن كان مثل صارخ ونادر، رجل شك بأخلاق ابنته، فعمل تحليل، يعني موظف المخبر وقع من يده التحليل فوقع وانكسر، وخاف من الطبيب فكتب النتيجة إيجابية أي يوجد حمل الأب جاء مساءً وطلب النتيجة فقال له مبروك يوجد حمل، فذهب وذبح ابنته، وابنته بريئة، النبي لما بلغه حديث الأفك ماذا فعل ؟ هل ذبح السيدة عائشة، يجب أن يكون لك مرجع، ماذا فعل النبي ؟ بكل قضية بمرض، بصحة، بسفر، بفقر، بغنى، بقوة، الله عز وجل جعل النبي مرجعاً لنا، جعله قدوةً لنا، فأول شيء أيها الأخوة لفت نظري أنا أن أحياناً أخ ليس له مرجع، هذا ضائع، هل أنت عندك إمكانية أن تتخذ قراراً صحيحاً ؟ أنت أحطت بالفقه كله، هل تعلم أحكام الفقه تماماً هل تعرف سيرة النبي تماماً، الذي ليس له مرجع يعود إليه هذا إنسان ضائع، لذلك الصحابة الكرام مرجعهم النبي، ونحن مرجعنا النبي عليه الصلاة والسلام، طبعاً إذا قلت فلان عالم وأنا أميل إلى أن أقول طالب علم دائماً، لماذا أقول أنني طالب علم ؟ ورد في الأثر أنه يظل المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل، لذلك أليق كلمة تقولها لأكبر عالم طالب علم، الإنسان إذا له أخ أسبق منه في طريق الإيمان وجعله مرجع هذه نعمة كبرى، اسأل، بالمناسبة لا تستطيع أن تسأل إنساناً مختصاً إلا أن يكون معك تعويض السؤال ما يقابل السؤال؟ الأتعاب، تدخل إلى مكتب محامي الأتعاب، إلى عيادة الطبيب الأجرة إلى مكتب المهندس الثمن، إلا إذا دخلت إلى بيت من بيوت الله وسألت هؤلاء المؤمنين الصادقين بلا مقابل، فالإنسان بالسؤال يستعير خبرات متراكمة، يستعير علم، يستعير فقه، يستعر فهم لكتاب الله، يستعير تجارب، يستعير نصائح، مفتاح العلم السؤال، أول شيء المؤمن له مرجع يرجع إليه، يسأل ما

حكم الشرع في هذا الموضوع أطلق أو لا أطلق، ماذا أفعل ؟ لذلك الطريق الأول سأؤخره قليلاً.
قال: أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً فينصبه رقيباً على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله، لا يوجد إنسان ما له صاحب لكن ذكاء الإنسان وتوفيقه في اختيار الصاحب، المؤمن الموفق يختار أصحاب أعلى منه في العلم وفي الدين، دائماً يقتبس منهم، والآن نحن مشكلتنا أن المداهنة حلت محل النصيحة ترى الناس يمدحون بعضهم مديح بغير حساب، في الحفلات، باللقاءات، كل واحد قطب الدين، وكل واحد أعلم علماء المسلمين، وكل واحد يعني أجرى الله على يده الفتح العظيم التناصح أفضل ألف مرة من المداهنة، فلذلك ماذا يقول سيدنا عمر ؟ يقول: رحم الله امرأً أهدى إلي عيوبي، يجب أن توطن نفسك أن تصغي إلى النصيحة، وتوطن نفسك أن تنصح، من أسدى نصيحة فله أجر ومن أصغى إلى نصيحة تهدى إليه فله أجر، وطن نفسك أن تنصح وتقبل نصيحة، أو تنصح وتستنصح، وطن نفسك أن لا تجامل، وطن نفسك أن لا تداهن، وطن نفسك أن هذا الأخ له حق عليك.
أنا أذكر مرة أخ من أخ من أخوانا تولى عمل في الدعوة إلى الله وأنا اقترحته، وصار خطأ فمن حوله غضبوا منه وأرادوا أن ينحى عن هذا العمل، استقدمته ونصحته والتزم، وانتهى الأمر، القضية تنحل بنصيحة، المؤمن عنده غيرة على المسلمين، أنا مرة دخلت إلى محل تجاري رأيت إنسانة تعاون المدير وغير لائق لأن المدير معروف أن له اتجاهه الديني وهذه لا تليق فنصحته، فقال لي: دخل علي عشرات بل بضع عشرات من الناس الصالحين ولم ينصحوني بهذا الموضوع، انصح بلبق، بأصول، بحكمة، على انفراد، ولكن وطن نفسك أن تهدي للناس عيوبهم، ووطن نفسك أن يهدوك عيوبك.
سيدنا عمر وما أدراكم ما عمر، عملاق الإسلام سأل سيدنا سلمان قال ما الذي بلغك عني مما تكرهه ؟ كأنه شيء لا يصدق، سيدنا عمر خليفة المسلمين الذي قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر مني كالسمع والبصر، عمر الذي قال عنه النبي لو كان نبي بعدي لكان عمر، عمر نفسه يسأل سيدنا سلمان قال له: يا سلمان ما الذي بلغك عني مما تكره، هل لك ملاحظة ؟ الإنسان عندما يطلب النصيحة لا يصغر، بل يكبر، لما يطلب رأي أخوانه الصالحين، المخلصين، لا يصغر ويكبر، يعلو عند الله وعند الناس، فاستعفف وخجل، فألح عليه قال: بلغني أنك جمعت بين إدامين على مائدةٍ واحدة، يعني خمس ست أصناف ومن ثم رز بحليب، وبعد ذلك حلويات، وفواكه، شاي أخضر وشاي أحمر وقبلها عصير، يقول لك لا يوجد شغل.
قال: بلغني أنك جمعت بين إدامين على مائدةٍ واحدة، وأن لك حلتين، حلة بالنهار وحلة بالليل، طبعاً ما قال هذا الكلام إلا بعد أن ألح عليه فقال: هل بلغك غير هذا ؟ قال: لا، قال: أما هذا فقد كفيتهما، هذا الكلام ليس له أصل، يعني اطمئن هل يوجد شيء ثاني، انظر إلى هذا الموقف المتواضع، الموقف المخلص.

سيدنا عمر عملاق الإسلام الذي قال عنه النبي: لو كان نبي بعدي لكان عمر، سأل سيدنا حذيفة وقال له: أنت صاحب سر رسول الله، سيدنا النبي أعطى سيدنا حذيفة أسماء المنافقين، وما أعطاها لغير حذيفة، فسيدنا عمر جاء إلى عند سيدنا حذيفة وقال: يا حذيفة هل ترى علي شيئاً من آثار المنافقين، بربك خليفة المسلمين كان، ما هذا التواضع ؟

سمعت أنا رجل ألقى درس وذكر حديث موضوع لا أصل له، جاء إنسان بكل لطف وكل أدب وقال له: يا سيدي إن هذا الحديث ليس له أصل، فقال له: ما دام شيخك قد قاله فهو صواب، وانتهى الأمر ولم يقبل النصيحة.

طبعاً سيدنا حذيفة خجل وارتبك، فقال له: لا والله ليس منهم، سيدنا عمر سأل، طبعاً الآن أحدكم يقول هناك قضية ثانية ليس لها حل ألم يبشره النبي بالجنة، وكلام النبي حق وهو مبشر، لكن من شدة خوفه من الله نسي أنه مبشر، ومن شدة حرصه على استقامته، ومن شدة رغبته بالكمال نسي.

أخوانا الكرام: يقول الإمام الغزالي: كل من كان أوفر عقلاً وأعلى منصباً كان أقل إعجاباً بنفسه وأعظم اتهاماً لنفسه، وكل إنسان والمشكلة أن الأصدقاء الآن يألفون أو يؤثرون المداهنة على المناصحة، النبي قال:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الدِّينُ النَّصِيحَةُ ثَلاثَ مِرَارٍ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: لِمَنْ قَالَ لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))

الدين في التعريف الجامع المانع النصيحة، لكن العلاقات الإنسانية، الاجتماعية إذا تدهورت تحل المداهنة محل المناصحة، عوض عن المناصحة المداهنة، يعني مديح كاذب، المناصحة أحياناً هي الموقف الكامل لكن إذا الإنسان ضعيف إيمانه إما أن يذكر فيك عيوباً ليست فيك حسداً أو أن يطلب ودك خوفاً أو طمعاً، إذا لم يكن له مصلحة معك بدافع الحسد يذكر عيوباً ليست فيك، وإذا كان له مصلحة معك ويطمع فيما عندك يداهنك، وهذا من ضعف العلاقات الاجتماعية، يعني إذا كان هناك تنبيه للأخطاء فيه مبالغة وفيه أخطاء ليست موجودة بدافع الحسد، وإذا في مديح فالمديح كاذب بدافع الخوف إما أن يكون مديح كاذب أو أن تكون نصيحة قاسية والحالتان مرضيتان.

قال داود الطائي اعتزل الناس قيل له لما لا تخالط الناس ؟ قال: وما أصنع بأقوام يخفون عني عيوبي، فإذا الإنسان سمع من أخوه نصيحة يتقبلها بنفس رضية، يتقبلها بصدر واسع، يتقبلها بعقل مفتوح، يوجد عقل مغلق، ويوجد صدر ضيق، ويوجد نفس قاسية، النصيحة يجب أن تقبل بعقل مفتوح وبصدر واسع وبنفس طيبة عندئذٍ المنصوح له أجر في قبولها والناصح له أجر في إبدائها، والدين النصيحة، نحن في التناصح نرقى وبالمداهنة نسقط، يعني سوف أحضر مثل صارخ، إذا كنت جالس في بستان مع صديق لك وتحت ثوبك يوجد عقرب مخيف قال لك: انتبه يوجد عقرب، بماذا تشعر اتجاه هذا الصديق بالحقد،

بالكراهية، أم تشعر بمنتهى الشكر والامتنان إذا كان عقرب لدغ إنسان وأخذ مضاد لقاح وبعد يومين ثلاث شفي من هذه اللدغة وأنت تشكره أعمق الشكر، إذا الإنسان نبهك لعيب أخطر من العقرب وأخطر من الأفعى وأخطر من السم الناقع، ألا تشكره، هكذا يقول الإمام الغزالي: الأخلاق السيئة حيات وعقارب لداغة فلو نبهنا منبه على أن تحت ثوبنا عقرباً لتقبلنا منه نصيحته وفرحنا به واشتغلنا لإزالة العقرب وإبعادها وقتلها، أما إذا إنسان نصحك في أمور دينك في أمور آخرتك، باستقامتك، ببيتك، بأخطاء تجري في البيت، بتفلت في أولادك، إذا إنسان نصح أخ وما قبل نصيحته فهذا إنسان غير موفق، إنسان بعيد عن مستوى الإيمان لذلك السلوك المزعج جداً بين الناس إذا رجل نصح الثاني فوراً الثاني يفكر ماذا له عيوب الذي نصحه، لا يخطر في باله أبداً أن يقبل النصيحة ولا يصدق هذا الكلام يخطر في باله أن يرد عليه بكشف عيوبه، وهذا سلوك شيطاني، لو كان للناصح عيوب الآن جمدها، الآن نصحك بشي واقعي ملموس اقبل نصيحته، وبعد حين في وقت آخر نبهه إلى أخطائه.

هذا كله من ضعف الإيمان، أول طريق يراه الإمام الغزالي أن تختار من المؤمنين مؤمناً صدوقاً، مخلصاً، أن تجعله مرجعاً لك، أن تستحلفه بالله ألي عيب غفلت عنه أرشدني إليه، استحلفه بالله لا تجاملني، أنا أقول لكم كلمة: الذي يمدحك لا يرقى بك، أما الذي ينتقضك يُنهضك، أنت بحاجة لا لمن يمدحك بحاجة إلى من ينصحك، الناصح يرفعك وغير الناصح الذي يمدحك يجعلك في مكانك دون أن تتقدم.

أخ سابق في الإيمان متفوق عليك مخلص في كلامه غيور عليك، اجعله مرجعاً لك واستحلفه بالله أن ينصحك وأن لا يجاملك، وأن لا يوفر كلماً صادقة يسديها إليك، قال يوجد طريق ثاني: أن يستفيد الإنسان من أقوال أعدائه به، طبعاً العدو لا يجاملك إطلاقاً والعدو يتمنى أن تكون منحرفاً، على كلٍ هناك أشخاصاً ما وفقوا يتهمون أعداءهم بالكذب دائماً من دون تفكير، هو طبعاً عدو لدود لكن هذا العدو اللدود ليس مستعداً إطلاقاً أن يجاملك، هو يبحث عن عيوبك وعن أخطائك فإن وجد عيباً أو خطأً نشره بين الناس، هذا عدو لا شك ولكن أنت كإنسان ذكي عاقل كلام العدو لا ترفضه، لا تلقه وراء ظهرك، استفد منه لعل هذا العدو أصاب في هذه الملاحظة فاستفد منها لذلك قال بعض الحكماء: عداتي جمع عدو لهم حق علي ومنةٌ فلا أذهب عني الله الأعادي.

له دور إيجابي لا تنتبه له، إذا رجل فرضاً جالس في جليسة ويوجد إنسان خصم له ومن اختصاصه وأحب أن يتكلم طبعاً يجب أن يكون دقيق جداً لأنه يوجد من يكذبه فوراً، يتكلم كلام دقيق مدروس مع أدلة وبراهين، الذي جعلك أن تتكلم كلام مضبوط وتنتبه إلى الأرقام والأدلة من ؟ الخصم فهو له فضل عليك بشكل سلبي، فلما الإنسان يصغي إلى النصيحة أو يصغي للمعارضة يرقى فإذا رفضها يسقط، الطريق الثاني أن تستفيد من أقوال أعدائك فيك، هو فعلاً عدو ولا يتمنى لك الخير ويكبر أخطاءك، لكن

لا دخان بلا نار، وهذه الفكرة دقيقة جداً وخطيرة جداً إياك أن تصدق أن شيئاً يأتي من لا شيء، شيء من لا شيء لا يكون فلو أن عدوك لا سمح الله انتقضك انتقاض جارح وبالغ، لكن هذا الانتقاض له أصل لا دخان بلا نار، فمن علامات التوفيق أن تستفيد من أقوال أعدائك فيك.

والإنسان كلما أصغى إلى نصيحة، أو كلما تفحص تهمة أو فريةً أو إفكاً، تفحص، يعني أحياناً الإنسان يكون بريء إلى أقصى درجة، يعني أخ من أخوانا قال لي: رجل درس نساء نصح كثيراً ما انتصح ثم ظهرت مشكلة كبيرة جداً اتهم تهمة هو منها بريء قولاً واحداً لكن لأنه وضع نفسه موضع التهمة، فإذا لامه الناس لا شيء عليهم لذلك الإنسان حتى أعداءه كلامهم يجب أن يصغى إليه لأنه لا يوجد دخان بلا نار، لو في مبالغة، لو في حقد خذ مضمون كلامهم وتفحصه، هو الإنسان الساذج دائماً يتهم خصومه أنهم كاذبون وكلامهم لا أصل له، هذا موقفاً غبياً وليس موقفاً ذكياً، ونحن في طريق تزكية النفس، طبعاً الإنسان دائماً يكذب عدوه ويحمل أقواله على الحسد إلا أن كلام عدوك له معنى وله أصل، وله منطلق ولا دخان بلا نار والسعيد من استفاد من أقوال أعدائه فيه.

يوجد عندنا طريق ثالث لمعرفة عيوب النفس، قل: أن تخالط الناس إن رأيت منهم شيئاً لم يعجبك إياك أن تفعله، إن رأيتهم ذموا إنساناً على فعل ناقص إياك أن تفعله، أنت ممكن أن تعلم النقص مما يجري حولك وهذا هو السعيد الذي يتعظ بغيره بينما الشقي لا يتعظ إلا بنفسه.

لذلك قيل لأحد الأنبياء من أدبك، قال: ما أدبني أحد رأيت جهل الجاهل شيئاً قبيحاً فاجتنبته.

أيام الإنسان يكون متلبس بشيء، يوجد عندنا مشكلة أنه لا يشعر به، إذا رآه أمامه مثلاً إذا رجل ضرب بقسوة وهو غاضب لا ينتبه لما يفعل أما إذا أنت رأيت إنسان يضرب طفلاً بقسوةٍ بالغة تستخشن عمله، وتستهجنه، وتستقبحه، وتلومه أنت الآن مراقب أدركت حجم العمل لأنك طرف آخر أما إذا كنت طرف في هذا الموضوع قد لا تنتبه لما تفعل فلذلك التأمل والاطلاع يكشف لك العيوب على حقيقتها فينبغي أن تستفيد من الخُلطة مع الناس.يقول الله عز وجل:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40))

(سورة النازعات)

كل شيء تدعوك نفسك إليه هذا يسقطك ولا يرفعك، دائماً خالف النفس وأهواءها، مخالفة الهوى أحد أسباب تزكية النفس، قال النبي عليه الصلاة والسلام: المؤمن بين خمس شدائد، مؤمن يحسده، ومنافق يبغضه، وكافر يقاتله، وشيطان يضله، ونفس تنازعه.

يوجد عنده خمس شدائد المؤمن هناك منافق يبغضه، وكافر يقاتله، وهناك مؤمن آخر ضعيف الإيمان يحسده، وهناك نفس ترديه وشيطان يغويه، وهذه شدائد المؤمن.

يروى في الأثر أن الله عز وجل قال: يا داود حذّر وأنذر أصحابك كل الشهوات فإن القلوب المتعلقة

بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة، يقول أحد العلماء: ما عالجت شيئاً أشد علي مني من نفسي مرةً لي ومرةً علي، ويوجد أحد الأشخاص يقول قول رائع: يا نفس لا في الدنيا مع أبناء الملوك تتنعمين ولا في طلب الآخرة مع العباد تجتهدين، كأني بك بين الجنة والنار تحبسين يا نفس ألا تستحيين. يعني أحياناً أنت ليس من أهل الدنيا الغارقين بالملذات والشهوات، ولا يسألون، وليس مع المتفوقين من أهل الإيمان ضائع بينهما، ليس محسوب مع هؤلاء، عندك بقية خوف من الله، عندك إيمان ولا تستطيع أن تكون مع المؤمنين المجتهدين، ضعف لابد من التفوق، إما مع هؤلاء وإما مع هؤلاء، بين هؤلاء وبين هؤلاء وضع صعب جداً أنت محسوب مع المؤمنين إذا لم تكن استقامتك جيدة واتصالك بالله شديد، وإذا ليس لك ذكر وجلسة مع الله، المشكلة كبيرة جداً لأنك لن تتنعم نعيم المؤمنين ولم تنغمس في الدنيا انغماس الفاجرين، لا هذه ولا تلك، الأولى أن تكون مع هؤلاء المؤمنين.

قال بعضهم: أعداء الإنسان ثلاثة، دنياه، وشيطانه، ونفسه، فاحترس من الدنيا في الزهد فيها، ومن الشيطان بمخالفته، ومن النفس بترك الشهوات، وقال بعضهم من استولت عليه النفس صار أسيراً في حب شهواتها، محصوراً في سجن أهوائها، مقهوراً مغلولاً زمامه في يدها تجره حيث شاءت فتمنع قلبه من الفوائد. قال العلماء أجمعوا على أن النعيم لا يدرك إلا بترك النعيم، نعيم الآخرة لا يدرك إلا بترك نعيم الدنيا، قال: يروى أن امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام بعد أن ملك خزائن الأرض وقعدت له على رابية الطريق في يوم موكبه وكان يركب معه خلق كثير، قالت: سبحان من جعل الملوك عبيداً بالمعصية هي كانت امرأة العزيز، وهي كانت ملكة وجعل العبيد، وكان يوسف عبداً، وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم له، إن الحرص والشهوة صيرا الملوك عبيداً وذلك جزاء المفسدين، وإن الصبر والتقوى صيرا العبيد ملوك، سيدنا يوسف قال عن نفسه في القرآن الكريم:

(قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90))

(سورة يوسف)

فإذا الإنسان صبر عن الشهوات، وعلى الطاعات، وعلى قضاء الله وقدره، هذا الصبر له ثمن عند الله كثير، لكن دائماً الأجر مؤجل الشيء السريع يفقد الاختيار، قال الجنيد مرة: أرقت ليلةً فقمت إلى وردي، يعني إذا الأخوان الكرام ألزموا أنفسهم أن يكون لهم مع الله جلسة أوراد ولو ربع ساعة، يعني إذا قرأ أستغفر الله مائة مرة، النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول إني أستغفر الله في اليوم مائة مرة، وهذا شيء بالصحاح وارد، وقال النبي الكريم:

((عن عَمِّ جَابِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ أَفْضَلُ الذِّكْرِ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ))

وإذا قال لا إله إلا الله مائة مرة، وأي لقاء مع الله لا يبدأ ولا يختم بالصلاة على النبي فهو أبتر، وإذا قال اللهم صلي على محمد مائة مرة ربع، مائة، بمائة، بمائة، يكفيهم ربع ساعة، أردت أن تزيد سبحان الله والحمد لله ولا الله أكبر مائة مرة، كثير خمسة وعشرين، أردت أن تزيد سبحان الله وبحمده، أردت أن تزيد حسبي الله ونعم الوكيل، أردت أن تزيد لا حول ولا قوة إلا بالله، أردت أن تذكر اسم الله المفرد لا يوجد مانع، واذكر اسم ربك بالقرآن واردة، يعني إذا الإنسان نصف ساعة ذكر الله وربع ساعة قرأ القرآن وربع ساعة تفكر بالأكوان يعني مائة وثماني وستين ساعة في الأسبوع، سبع ساعات من مائة وثماني وستين ساعة تستكثرها على أن تكون مع الله، يا موسى أتحب أن أكون جليسك قال كيف ذلك يا رب وأنت رب العالمين ؟ قال: أما علمت أني جليس من ذكرني وحيث التمسني عبدي وجدني، لك أن تجعل هذا اللقاء صباحاً بعد الفجر، لك أن تجعله بين المغرب والعشاء لك أن تجعله قبل أن تنام، أي وقت لابد من لقاء مع الله، هذا اللقاء يعطيك يسمونه قوة اندفاع، يعطيك طمأنينة، يعطيك ثقة بأن الله يحبك يعطيك مناعة مقاومة، يعطيك سعادة، لذلك أحد كبار العلماء يقول: لولا هذه الأوراد لهلكت.

سيدنا رسول الله كان في غار حراء يتعبد الله الليالي ذوات العدد، أنت اعمل غار حراء يومي، كل يوم ساعة غار حراء، إما أنها بعد الصلاة الفجر أو بين المغرب والعشاء أو قبل أن تنام، هذا من تزكية النفس ويوجد أخوان كثر نصحتهم بهذا وطبقوا هذا ورأوا فرقاً كبيراً جداً، أنت الآن جالس مع الله، جالس تنتظر رحمة الله، جالس تنتظر نفحة من نفحات اله، جالس تنتظر أن يلقي الله في قلبك نوراً.

قال الجنيد مرة: أرقت ليلةً فقمت إلى وردي فلم أجد حلاوةً، أيام الإنسان بالورد يبكي، وأنا لا أعتقد أنه يوجد شيء في الأرض أسعد من أن تنهمر دموعك من خشية الله، هذا بكاء المؤمنين الكبار، أن تبكي عيناك من خشية الله، من محبتك لله، يجوز أول يوم ثاني يوم لا تجد شيء لكن عندما الله عز وجل يراك مصراً وملحاً.أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع بالأبواب أن يلجا

الله عز وجل بعد أن يراك ملحاً يتجلى عليك، فقمت إلى وردي فلم أجد حلاوةً فأردت أن أنام فلم أقدر، فجلست فلم أطق الجلوس، أيام يقول لك قلقت، لا يستطيع أن ينام، ولا يستطيع أن يقوم فخرجت فإذا رجل ملتف في عباءة مطروح على الطريق، فلما أحس بي قال يا أبا القاسم إلي الساعة، فقلت يا سيدي من غير موعد ـ تأخرت علي من غير موعد ـ قال بلى سألت الله عز وجل أن يحرك لي قلبك، فقلت قد فعل، الورد لم يجد به حلاوة، أراد أن ينام ما استطاع جلس ما استطاع، ذكر لم يشعر بحلاوة، فخرج من البيت، قال: من غير موعد، قال: بلى سألت الله عز وجل أن يحرك لي قلبك، قلت قد فعل فما حاجتك ؟ فقال هذا الرجل: يا جنيد متى يصير داء النفس دواها فقلت: إذا خالفت النفس هواها.

هو الداء الهوى، هل يمكن أن يكون الداء نفسه دواء ؟ نعم، الهوى نفسه إذا خالفته صار دواء، لذلك الإنسان دائماً الشيء الذي تميل النفس إليه يبتعد عنه يرقى، فأقبل على نفسه وقال: اسمعي فقد أجبتك

بهذا سبع مراتٍ فأبيت إلا أن تسمعيه من الجنيد هذا الشخص الذي بالطريق وها قد سمعته، ثم انصرف وما عرفته.

سأل رجل سيدنا عمر بن عبد العزيز: متى أتكلم ؟ قال: إذا اشتهيت الصمت، أيام شخص أخطأ وأنت تمون عليه ولك مكانة عنده أنت أميل أن لا تفاتحه بشيء، اشتهيت الصمت تكلم، قال متى أصمت ؟ قال: إذا اشتهيت الكلام، رأيت نفسك تتكلم والناس كلها مسرورة وأنت كبرت جداً أمامهم ويثنون على علمك، ورأيت نفسك لا يوجد من هو أفضل منك وقعت في الحجاب وأنت لا تدري، إذا اشتهيت الكلام فاسكت، وإن اشتهيت السكوت فتكلم، يعني متى يكون داءها دواءها، قال إذا خالفت هواها.

سيدنا علي يقول: من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات في الدنيا، يعين أردت من هذا الدرس أن الإنسان عليه أن يزكي نفسه، أولاً بأن يكون له مرجعٌ يثق بعلمه واستقامته وإخلاصه وورعه يسأله عن كل قضية، وكل إنسان بلا مرجع إنسان ضائع، وعليه أن يستفيد من أقوال أعدائه فيه لا أن يتهمهم بالكذب كلياً لأنه لا دخان بلا نار، وعليه أيضاً أن يستفيد من معاشرته للناس، فالشيء الذي يكره من الناس ينبغي أن لا يفعله هو، بهذه الطرق تزكو نفسه، مع أوراده، ومع إقبالها، ومع استقامتها، لذلك شعار هذا الدرس قوله تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9))

(سورة الشمس)

شعار هذا الدرس قوله تعال:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88))

(ورة الشعراء)

والإنسان الذي نفسه زكية طاهرة، الطريق إلى الله سالك بأي لحظة العلماء السابقين لهم أمثلة لطيفة وقت ما كان يوجد كهرباء كان يوجد كازات، قال: المؤمن المستقيم فتيل مقصوصة والجرص مجلس، والمستودع ملآن، والبلورة ممسوحة وينقصه عود ثقاب، المستقيم سهل أن يتصل بالله عز وجل، لمجرد أن يجلس يقرأ القرآن اقشعر جلده، ذكر الله اقشعر جلده، استغفر شعر بسرور، لأنه لا يوجد عنده عقبات، جاهزيته عالية، لذلك الإنسان كما تكلمنا على التجارة أول الدرس إذا يوجد لها ألف نشاط مؤداها شيء واحد أن تربح فإن لم تربح فلا كانت كل هذه التجارة، والدين كله بكل نشاطاته مؤداه أن يكون قلبك سليماً ونفسك زكيةً وأن تصل إلى الله وأن تسعد به عن طريق معرفته والاستقامة على أمره وذكره فإن لم تفعل هذا فهذه الأعمال لا جدوى منها.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (078) : التوبة .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-11-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: لازلنا مع أبي حامد الغزالي في موضوعات دقيقةٍ تتعلق بسير الإنسان إلى الله عز وجل، لأن الإنسان كما قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))

لا أقول نوع الخطأ الذي يخطئه الإنسان ولكن الإنسان من شأنه أن يخطئ، الخطأ الذي يقع به الإنسان علاجه عند الله التوبة، لذلك من أقرب الموضوعات إلى النفس الإنسانية وإلى المؤمنين التوبة، وكلما ارتقى إيمان المؤمن يصبح كثير التوبة، يتوب من أدق الذنوب، ويتوب في كل وقت وحين، ويتوب في اليوم مائة مرة، فالتوبة من شأن المؤمن، لأن المؤمن يقبل وتكثر علاقته بالله أحياناً، يصيب وقد يخطئ، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))

أيها الأخوة قبل أن نخوض في موضوع التوبة، وقبل أن نذكر الآيات والأحاديث الشريفة الصحيحة المتعلقة بهذا الباب لابد من وقفةٍ قصيرة نحو أن المؤمن يراقب قلبه، هو يعلم علم اليقين ما إذا كان موصولاً أو مقطوعاً، فإذا كان موصولاً بالله، قال تعالى:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

(سورة القيامة)

يعلم علم اليقين ما إذا كان موصولاً أو مقطوعاً وللصلة قواعد وأسباب، فالاستقامة أحد أسباب الصلة، وإذا ضم إلى الاستقامة العمل الصالح تزداد هذه الصلة، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110))

(سورة الكهف)

يعني آية واضحة كالشمس، لأن الإنسان يقبل ويفتر، يصيب ويخطئ، من شأن الإنسان أن يخطئ لذلك الذي يغطي خطأه دائماً هو التوبة إلى الله عز وجل، أنا لا أقول أنَ المؤمنَ يخطئ خطأً مقصوداً ولا خطأً كبيراً، يغلب على الظن أن خطأ المؤمن ليس مقصوداً، وأن خطأ المؤمن ليس كبيراً، لكن ومع ذلك فقد يتكلم كلمة تسبب جرحاً لأخيه المؤمن، قد ينظر نظرة الأولى أن لا يتابع النظر، فهذه الأخطاء الذي يقع بها المؤمن علاجها السريع والحاسم واليومي التوبة إلى الله عز وجل، لذلك قال الله تعالى:

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31))

(سورة النور)

فالله سبحانه وتعالى ربط الفلاح بالتوبة، والفلاح شيء لا يتصور، قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1))

(سورة المؤمنون 9)

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14))

(سورة الأعلى)

في الحديث الصحيح:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ هُدِيَ إِلَى الإِسْلامِ وَرُزِقَ الْكَفَافَ وَقَنَعَ بِهِ))

فالله سبحانه وتعالى ربط الفلاح بالتوبة، قال:

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31))

(سورة النور)

لكن في هذه الآية نقطة دقيقة جداً قد تغيب عن البال، ماذا تفيد كلمة جميعاً ؟ لأن توبوا فاعلها واو الجماعة، واو الجماعة تدل على جماعة الفاعلين، وكلمة توبوا تعني أيها الناس جميعاً، أيها المؤمنون جميعاً، ماذا تفيد كلمة جميعاً ؟ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون، العلماء يقولون لا تشعر بقيمة المجتمع المسلم إلا إذا كان كل أفراده منضبطين، يعني لو فرضنا مثل بسيط أنت عندك هاتف ولك خمسين صديق لا يوجد عندهم هواتف، ما قيمة هاتفك ؟ لا شيء، متى يكون لهذا الجهاز قيمة كبيرة ؟ إذا كان منتشراً عند كل أصدقائك، لما المؤمنون جميعاً يتوبون، جميعاً يصدقون، جميعاً يؤتمنون، جميعاً يكسبون المال الحلال، جميعاً لا يغشون فالحياة في هذا المجتمع من متع الحياة، لذلك أحد أسباب راحة المؤمن في المسجد أن حوله أخوان مؤمنين يشعر بطمأنينة، يشعر أنه لا يقنص، ولا يغش، ولا يغدر، ولا يهان، ولا يوضع في موضع مهان لذلك المجتمع المؤمن مسعد، والله عز وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119))

(سورة التوبة)

يعني اختر مجتمعاً مؤمناً تسعد به، أقل ما في هذا المجتمع الطمأنينة، أقل ما في هذا المجتمع الصدق والأمانة، يوجد إنسان يعمل عمل لا يرضي الله عز وجل وله أصدقاء زملاء تابوا فتاب الله عليهم، مرةً زارهم فرأى في مجتمعهم الصدق، والمحبة، الإخلاص، والأمانة، التعاون، المواءثرة، وازن بين هذا المجتمع المسلم الصغير الطاهر النقي وبين مجتمع فيه الغدر، والخيانة، والرياء، فانضم إلى هؤلاء لأنه رأى الفرق شاسعاً وكبيراً بين مجتمع المؤمنين ومجتمع أهل الدنيا، المؤمنون إذا ذهبوا إلى نزهة

يعودون منها وقد ازدادت محبتهم إلى بعضهم بعض أهل الدنيا يعودون متخاصمين، لأن الدنيا تفرق والله يجمع، لذلك جاءت الآية الكريمة:

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31))

(سورة النور)

وإذا المؤمن تاب وحده مقبول عند الله ويسعد بتوبته، لكن تزداد سعادته آلاف الأضعاف حينما يعيش في مجتمع مؤمن كلهم تائب إلى الله عز وجل، يوجد نقطة تغيب عن الأذهان أن الله عز وجل نهاك عن أن تسرق، هل تعلم أنك واحد وأن ألف مليون إنسان منهي عن السرقة من أجلك، كما أن الله نهاك عن أن تسرق نهى كل من حولك عن أن يسرقوا منك، هذا الأمر لصالح من ؟ لصالح الفرد والمجتمع، أمرك أن تغض البصر لكن أمره عام، وأمر الآخرين أن يغضوا البصر عن نسائك، فأنت لما تطبق الأمر الإلهي تقطف أضعاف مضاعفة من الخيرات، أنت حينما تصدق أمر الآخرين أن يصدقوا معك، أنت حينما تؤتمن أمَر الآخرين أن يؤتمنوا معك، أنت حينما تنصح أمَر الآخرين أن ينصحوك، الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نكون في مجتمع صالح طيب، يد الله مع الجماعة، ويد الله على الجماعة، وأنا أقول لكم كلمة الإسلام لا تتسع دوائره ولا ترفرف راياته إلا إذا انطلق من مجتمع مسلم، مجتمع يطبق تعاليمه تطبيقاً صحيحاً، الإسلام لا يصدر بالأفكار يصدر بالنماذج الحية، يعني النموذج الحي أقوى في التأثير من آلاف الأقوال المجردة.

إذاً موضوع الدرس اليوم قوله تعالى:

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31))

(سورة النور)

الوقفة كانت عند كلمة جميعاً، يعني إذا تبتم جميعاً سعدتم سعادة عظمى أما إذا تاب إنسان وحده يعني هو إذا تاب وحده وحجب امرأته وخرج إلى الطريق ورأى النساء كاسياتٍ عاريات شعر بضيق شديد، أما إذا كانوا النساء جميعاً كما أمر الله ورسوله يسعد في بيته ويسعد إذا خرج من بيته، الآية الثانية في هذا الباب قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً (68))

(سورة الفرقان)

أحياناً قيمة الشيء لا تبدو إلا إذا ألغيته، يعني مثلاً قوله تعالى:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (30))

(سورة الملك)

قيمة هذا المفصل لا تبدو لك جلية إلا إذا ألغيته، ثبت هذه اليد وانظر كيف تعمل بها أحد أسباب معرفة حجم الشيء الحقيقي وقدره الحقيقي إلغائه، لو ألغينا التوبة، لو أن الله سبحانه وتعالى لم يشرع لنا التوبة ماذا نعمل، إنسان زلت قدمه ويعلم أن الله لا يتوب عليه، ما الذي يحصل ؟ تتفاقم المعاصي، تزداد، يفجر، ينتقل من حال إلى أسوء، من بعد إلى أبعد فالله سبحانه وتعالى جعل علاج الذنوب بالتوبة لأن الإنسان إذا أخطأ يعلم أن له رباً تواباً رحيماً بل إن الأحاديث التي تذكر موضوع التوبة تلفت النظر.

((يعني لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد))

دققوا في هذا الحديث، إنسان ضيع سند بنصف مليون وقال له ليس لك عندي شيء، ائتي به وخذ المبلغ، وجده بعد بحثٍ طويل كم هي فرحته بهذا السند، لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم، العقيم الوالد، يعني الإنسان إذا كان عقيماً ثم أكرمه الله بمولود يكاد يطير فرحاً، والظمآن الذي أشرف على الهلاك، لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد.

وأنا دائماً ألح على هذه القضية أن الله سبحانه وتعالى جعل نظام الأبوة والبنوة نظاماً يشير إليه من طرف خفي، يعني هذا الأب ماذا يسعده ؟ الأب المكتفي المستغني عن أولاده ماذا يسعده ؟ أن يسعدوا، ماذا يسعده؟ أن ينجحوا، ماذا يسعده ؟ أن يوفقوا، ماذا يسعده ؟ أن يكرموا فهذا الأب وفي قلبه هذه الرحمة، وبالمناسبة لما الله عز وجل خاطب النبي عليه الصلاة والسلام قال:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159))

(سورة آل عمران)

رحمةٍ نكرة، والشيء الثابت أن رحمة النبي صلى الله عليه وسلم هي أعظم رحمةٍ بالخلق، يعني أرحم الخلق بالخلق هو النبي عليه الصلاة والسلام، لكن بقية المؤمنون يتراحمون على قدر إيمانهم، بالمناسبة القلب القاسي بعيد عن الله عز وجل،، إن أبعد القلوب عن الله القلب القاسي بل إن الله سبحانه وتعالى يقول:

(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (22))

(سورة الزمر)

ويبدو أن الرحمة تتسرب إلى قلب المؤمن بقدر اتصاله بالله عز وجل والآية الكريمة:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159))

(سورة آل عمران)

وأخوانا الكرام هذا مقياس للإيمان دقيق جداً امتحن قلبك، هل يرحم الخلق ؟ هل يضطرب إن رأى شقاءً ؟ هل يضطرب إن رأى فقراً ؟ هل يضطرب إن رأى مرضاً ؟ هل يضطرب لدمعةٌ تسيل على خد إنسان أمامه ؟ فالراحمون يرحمهم الله، وإذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي، وأبعد القلوب عن الله القلب القاسي والقلب الرحيم مؤشر على عظم الإيمان في قلب الإنسان، فلذلك فبما رحمة من الله، أرحم الخلق بالخلق النبي عليه الصلاة والسلام، ماذا قال الله عن ذاته ؟ قال الله عن ذاته:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً (58))

(سورة الكهف)

هل تجد فرقاً بين فبما رحمة وبين وربك الغفور ذو الرحمة ؟ طبعاً الفرق كبير هذا التنكير تصغير فبما رحمة، يعني في قلبك يا محمد رحمة إذا قيست برحمة الله ليست بشيء، ومع ذلك قال لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً.

أنا أقول لكم أحدنا إن رأى شخصاً شارداً عن الله بعيد، فاسق، فاجر، لا يوجد به خير، لا يتألم لألمه، يعني الأدق من ذلك كنت أضرب هذا المثل أنت أب وجدت ثلاثة أطفال في الطريق يتكلمون كلاماً بذيئاً أحدهم ابنك والثاني ابن أخيك، والثالث لا تعرفه، الغضب الشديد ينصب على من في الدرجة الأولى ؟ على ابنك لشدة قربك منه وشدة قربه منك، وحبك له وحبه لك، ولرحمتك له، والغضب الأقل على ابن أخيك، أما الشاب الثالث تقول له انصرف إلى البيت، قد لا تؤنبه لأنك لا تشعر باتجاهه بأي عاطفة.

إن النبي عليه الصلاة والسلام ما جعله الله سيد الخلق ودققوا الآن إلا لأن قلبه اتسع لكل الخلق، هل لك قلب يتسع لكل الخلق ؟ هل تتألم لشقاء إنسان وإن كان بعيداً عنك ؟ أكثر الناس يرحمون أقرباءهم، يرحمون من يلوذ بهم، يرحمون أهلهم، يرحمون أولادهم، لكن الرحمة الخاصة فيما أعتقد وفيما أظن لا تؤجر عليها كما تؤجر على الرحمة العامة، لأن الرحمة الخاصة فطرية، بينما الرحمة العامة كسبية، وانتبهوا لما أقول، الرحمة الخاصة الله عز وجل أودع في قلب الأب والأم رحمةً من أجل أن تستمر الحياة، وكل شيء طبع عليه الإنسان لن يكلف به، الإنسان مطبوع على أن يأكل، لا يوجد أمر في القرآن والسنة على أن تأكل لأنك تأكل من دون أمر، الأمر الذي طبع عليه الإنسان لا يكلف به، ولكن بماذا يكلف ؟ بما لا يطبع عليه، لذلك النبي قال حينما تكلم عن الرحمة قال: ولكنها رحمة عامة، الذي يميز رحمة المؤمن عن رحمة غير المؤمن، أن رحمة المؤمن عامة، يعني قلب المؤمن ينبغي أن يتسع للقريب وللبعيد، لكن الأنبياء رحمتهم لكل أقوامهم، أما النبي عليه الصلاة والسلام فرحمته للخلق كافة، رحم الخلق كافة، فالواحد منا أخوانا الكرام يمتحن قلبه إذا فيه رحمة يضطرب للشقاء، يضطرب

للحرمان، يضطرب للفقر، يضطرب للمرض، يضطرب لتعذيب إنسان، هذه علامة طيبة جداً أن في قلبه رحمة، لأنه قريب من الله عز وجل، يعني هذا الكون قام على الحب وقام على الرحمة، فإذا رأيت قسوةً وحقداً وبعداً فاقرأ على هؤلاء السلام، لا يحبنا الله إلا إذا تراحمنا، الراحمون يرحمهم الله، إن أردتم رحمتي فارحموا خلقي، يعني موقف رحيم أفضل من عشر ساعات تمضيها بالذكر، لأن الذكر من أجل أن ترحم فإن لم ترحم فما قيمة هذا الذكر، الموقف الرحيم هو من ثمار الصلاة فإن صليت ولم ترحم فما قيمة هذه الصلاة ؟ يا أخوان أتمنى أن أذكر لكم دائماً أن الإسلام بني على خمس، الإسلام بناء أخلاقي، الإسلام قيم، الإسلام رحمة، هذه الرحمة إن لم تكن ما قيمة هذه الرحمة ؟ لا قيمة لها إطلاقاً لذلك لما قال الله عز وجل:

(وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً (69) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (70))

(سورة الفرقان)

المعنى المتبادر لهذه الآية أن الإنسان إذا تاب توبة نصوحة وأقبل على الله عز وجل وأشرق في قلبه نور الهداية، يبدل الله سيئاته حسنات يعني كان غضوباً فصار حليماً، كان بخيلاً فصار كريماً، كان حقوداً فصار سموحاً، كان جباناً فصار شجاعاً، كان مختلاً فصار حكيماً، كل سيئاته وكل أخطائه تنقلب إلى حسنات.

أيها الأخوة الكرام: الأحاديث التي تتعلق بالتوبة كثيرةً جداً، قد يقول أحدكم هذا الباب طرق سابقاً، باب التوبة ينبغي أن يطرق دائماً لأنه أقرب موضوع للنفس البشرية، أقرب موضوع للمؤمن أن يكثر من التوبة، والله إني لأستغفر الله كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة في اليوم.

((عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عُبَيْدَةَ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا))

يعني في النهار توبة وفي الليل توبة، والله عز وجل ينتظرنا أن نتوب إليه، ماذا نعمل ؟ لذلك الله عز وجل قال:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (286))

(سورة البقرة)

قد يقول قائل لما لم يقل لها ما كسبت وعليها ما كسبت، أو لما لم يقل لها ما اكتسبت وعليها ما اكتسبت، يعني العمل الصالح يسجل فوراً أما العمل السيئ كأن الله عز وجل ينتظر من عبده أن يتوب منه أو أن يندم عليه أو أن يقلع عليه حتى لا يسجله، لا يسجل إلا إذا اكتسب، اكتسب على وزن افتعل، فيه إصرار، فيه ثبات، فيه مداومة، فيه افتخار، في عدم ندم.

((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا))

وطلوع الشمس من مغربها من علامات قيام الساعة، على كلٍ أنت عندما تشعر أن الله عز وجل ينتظر منك أن تتوب وأنه ما أمرك بالتوبة إلا ليتوب عليك، وأنه مهما كان ذنبك عظيماً يغفره الله عز وجل فماذا تنتظر ؟ قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53))

(سورة الزمر)

والله ما من كلمة أحب من الله من أن يرى عبده في الليل يصلي ويقول يا رب تب علي، يا رب اقبل توبتي، يا رب استر عورتي، يا رب اغفر زلتي، هذه المناجاة، هذا الاتصال بالله عز وجل هو الذي يرقى بالإنسان هذا الحديث يجب أن نحفظه.

لكن يوجد في أحياناً أشخاص سبحان الله تقول له ما تتوب ؟ يقول: حتى الله يتوب علينا يستهزئ، الله عز وجل فتح لك باب التوبة، وينتظر منك أن تتوب فماذا تنتظر أنت ؟ أنا الذي أرجوه في هذا الدرس نقطة واحدة فقط، أيام الإنسان يرتكب ذنب يتوانى في التوبة ويرتكب أكبر، يتوانى أكبر، بعد ذلك يتدهور، ثم يقف موقفاً لا يستطيع أن يتوب لأن الحجاب بينه وبين الله صار ثخيناً، أيام العوام يقول لك لاحق قضيتك أولها سهل، قال لي شخص يجب أن تعمل فحص كل ستة أشهر، والسبب أنه أي مرض في بدايته سهل معالجته، وأيضاً لما الإنسان يتوب سريعاً ذنبه صغير والتوبة سهلة، أما إذا تراكم ذنب فوق ذنب تضعف ثقته بنفسه، كلما تراكمت الذنوب صار الحجاب كثيفاً وصار هتكه عسيراً، يوجد إنسان يتوهم وهم أنه في أي لحظة يتوب، لا، الباب مفتوح لكن أنت بالذات لا تستطيع أن تتوب في أي لحظة، النقطة الدقيقة أن الله سبحانه وتعالى، حينما يصل الإنسان إلى مشارف الموت يغلق باب التوبة، قال تعالى:

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (158))

(سورة الأنعام)

نحن الآن في نعمة كبيرة كثيراً أن باب التوبة مفتوح أمامنا وأن بإمكان أي منا أن يتوب مادام القلب ينبض، ومادام الإنسان لم يغرغر فباب التوبة مفتوح، روى ابن ماجة بسند جيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكُمُ السَّمَاءَ ثُمَّ تُبْتُمْ لَتَابَ عَلَيْكُمْ))

أنا لا أرضى من إنسان يتوقع أنه يوجد ذنب لا يمكن أن يتوب منه الإنسان، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم أتيتني تائباً غفرتها لك ولا أبالي، أنا أشجعكم على أن يتوب الإنسان من كل كلمة قالها، يا رب تبت إليك، من كل نظرة، من كل حركة، من كل سكنة والتوبة كما تعلمون جميعاً علم، وحال، وسلوك، وكنت أقول لكم دائماً أنت متى تعالج الضغط المرتفع ؟ في حالة واحدة بعد أن تعلم أن ضغطك مرتفع أما إن لم تعلم، أنا اخترت الضغط لماذا ؟ لأن الضغط قد يرتفع إلى أعلى درجة دون أن تشعر، والضغط أحياناً قد يرتفع دون أي أعراض يشعر بتمام الصحة والعافية والنشاط وضغطه ثمانية عشر، اثني عشر فمتى يتحرك الإنسان لمعالجة الضغط المرتفع ؟ بعد أن يعلم أن ضغطه مرتفع، ولا يوجد توبة بلا علم، لماذا تحضر أنت مجالس العلم ؟ كي تقيس سلوكك بالشرع، إذا كان في مخالفة تتوب، متى تتوب إذا كشفت الخطأ، إذا كشفت الذنب متى تتوب ؟ إذا شعرت بالتقصير، إذا إنسان لا يحضر مجلس علم ويعيش في مجتمع متفلت، هكذا المجتمع، هكذا نشأنا، هكذا أنشأنا والدنا، هكذا تربينا، ماذا نفعل ؟ ماذا نعمل ويكون متلبس بألف غلطة وألف ذنب، ويقول لك ماذا فعلت هذا علاجه مجلس علم، يعرف الحلال والحرام، الخير والشر ما ينبغي وما لا ينبغي ما يجوز وما لا يجوز، تلاحظون معي لا يوجد حركة إلى الله إلا أساسها العلم، التوبة بلا علم لا تتوب، ألا ترى أناساً يرتكبون الكبائر، يقولون ماذا نفعل هل هذه حرام ؟ لا يعرف والله قصة ممكن أن لا تصدقونها أخ حدثني ذهب إلى بلد إسلامي في أوربا الشرقية قال لي خطبت وثلاثة آلاف إنسان بالخطبة وأكثرهم يشرب أثناء الخطبة، هل الخمر حرام ؟ كيف يتوب إن لم يعلم أن الخمر حرام.

أنت أول مرحلة يجب أن تطلب العلم والعلم لماذا ؟ من أجل أن تعرف من أنت، مستقيم أم منحرف، محسن أم مسيء، دخلك حلال أم حرام العلم أولاً قبل كل شيء يجب أن تعلم لذلك طلب العلم حتم واجب على كل مسلم، طلب العلم فريضة على كل مسلم، أنا أحضرت مثل الضغط، لن تتحرك لمعالجة الضغط المرتفع إلا إذا علمت أن ضغطك مرتفع، إذاً تحتاج إلى أن تقيس ضغطك، بعدئذٍ فالتوبة علم، إذا قال لك الطبيب أعوذ بالله ثمانية عشر اثني عشر وأنت تعيش إلى الآن، يقول له ممكن أن يكون سكر، خثرة بالدماغ، اضطراب وخلل الشبكية مضاعفات خطيرة جداً للضغط المرتفع، خَوَفك، أول

شيء علمت، ثاني شيء خفت، ومن ثم شمرت وأوقفت الملح، عالجت الضغط بأدوية، ورياضة وما شاكل ذلك وحمية معينة.

لاحظ علمت، فخفت، فتحركت، التوبة علم وحال وعمل، لن يكون الحال إلا بعد العلم، ولن يكون العمل إلا بعد الحال، هذه سنة الله في خلقه لذلك:

((عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))

روى الشيخان يعني البخاري ومسلم:

((عن عَبْدَالرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي عَمْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ وَرُبَّمَا قَالَ أَصَبْتُ فَاغْفِرْ لِي فَقَالَ رَبُّهُ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ أَوْ أَصَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ فَقَالَ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا وَرُبَّمَا قَالَ أَصَابَ ذَنْبًا قَالَ قَالَ رَبِّ أَصَبْتُ أَوْ قَالَ أَذْنَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي فَقَالَ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلَاثًا فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ))

أيام يسألني أخ ويقول لي: أنا أذنبت، فأقول له: تب إلى الله، فيقول لي: أنا تبت سابقاً ثم عدت ما هو الحل، هل يوجد عندنا باب غير التوبة، طبعاً إذا كان الذنب الثاني غير الأول التوبة الثانية سهلة، قال تعالى:

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (54))

(سورة الأنعام)

دائماً الذنب الثاني إذا كان كالأول التوبة أصعب، أما من نوع ثاني أسهل أذنبت في هذا الحقل، تبت منه ويوجد مجال آخر تبت، فالمؤمن ديدنه التوبة، والتوبة القلبية، والتوبة القلبية لا تصلح إلا بثلاث أشياء العلم قلته لكم قبل قليل، احضر مجلس العلم من أجل أن تعرف من أنت وما حجم إيمانك وما نوع ذنبك وما نوع تقصيرك ؟ والحال هو الندم، أما العمل ينصب على ثلاثة أشياء، إقلاع في الحال وندم عن الماضي وعزم على المستقبل، يوجد فيه إقلاع فوراً وفيه ألم وفيه عزم على أن لا يعود إليه في المستقبل، هذه هي التوبة، والحديث المعروف عندكم:

((عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ هَلْ مِنْ تَائِبٍ هَلْ مِنْ سَائِلٍ هَلْ مِنْ دَاعٍ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ))

((ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ أَوْ أَصَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ فَقَالَ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا وَرُبَّمَا قَالَ أَصَابَ ذَنْبًا قَالَ قَالَ رَبِّ أَصَبْتُ أَوْ قَالَ أَذْنَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي فَقَالَ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلاثًا فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ))

مؤدى هذا الحديث ليس لنا إلا الله، لكن أنصح لكم أنه كلما تاب الإنسان ثم عاد لما فعل يصعب عليه أن يتوب مرةً ثانية إلا أن باب التوبة مفتوح، إلا أنه يوجد حالة تُعين، قال النبي الكريم:

((عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ))

والله عز وجل يقول:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (114))

(سورة هود)

يوجد أخ مثلاً يتبرع ويتصدق إذا وقع في غلط، يوجد أخ يصوم لا يملك، يوجد أخ يصلي، يوجد أخ يتهجد، يوجد أخ يخدم الناس، قال تعالى: إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، لكن عود نفسك أن تعمل ترميم كلما صار في غلط تعمل عمل صالح والعمل الصالح يطمئن الإنسان، أنا أشعر أنه ممكن إذا رجل غلط ودفع صدقة من دخله الحلال ومبلغها معقول يشعر أن الله قد رضي عنه، إن الحسنات يذهبن السيئات، يعني هذا باب إلى الله عز وجل، الباب أن تتبع السيئة الحسنة تمحوها بعمل صالح بخدمة مسجد أحياناً، بصلاة، بصيام، بنشر حق، بقيام ليل العمل، الصالح يمحو السيئة.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ فَإِنْ زَادَ زَادَتْ فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))

يعني أذنب ذنب نكتة سوداء في قلبه، ذنب آخر نكتة ثانية، إلى أن تستولي هذه الذنوب على قلبه فيختم، أما إذا أذنب ذنباً وكان هذا الذنب نكتة سوداء في قلبه فإن فاض ونزع واستغفر صقل منها، الملخص تابع ذنوبك ذنباً ذنباً، عالج نفسك، كن حكيماً، تعهد قلبك، لا يتراكموا، وكل شيء إذا لم يتراكم إزالته سهلة.

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً وإذا افترقن تكسرت آحادا

يعني غصن رفيع كسره سهل، لكن إذا اجتمعت هذه الأغصان وصارت حزمة ثخينة كسرها صعب ومستحيل، فالذنوب إذا كثرت ربما يصعب أن تتوب منها، والإمام الترمذي يقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً حَسَنه:

((عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ))

يعني إذا بلغت روحه الحلقوم عندئذٍ ليس هناك توبة، الطبراني روى بسند حسن، والبيهقي بسند فيه مجهول، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: أخذ بيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فمشى ميلاً ثم قال: يا معاذ أوصيك بتقوى الله، وصدق الحديث، ووفاء العهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، ورحمة اليتيم، وحفظ الجوار، وكظم الغيظ ولين الكلام، وبذل السلام ولزوم الإمام، والتفقه في القرآن وحب الآخرة، والجزع من الحساب، وقصر الأمل، وحسن العمل، وأنهاك أن تشتم مسلماً أو أن تصدق كاذباً أو أن تكذب صادقاً، أو أن تعصي إماماً عادلاً، أو أن تفسد في الأرض، يا معاذ اذكر الله عند كل شجر وحجر، وأحدث لكل ذنب توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية

المؤمن يكثر من ذكر الله في جلساته، في نزهاته، في سفره، في إقامته، في بيته، في عمله، مع أصدقائه مع زملائه، مع أخوانه، مع جيرانه، هذا ديدنه وهذا محبوبه، الأصفهاني يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((أنه إذا تاب العبد من ذنوبه ـ دققوا ـ أنسى الله حفظته ذنوبه، وأنسى بذلك جوارحه، ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله يوم القيامة وليس عليه شاهد من الله بذنب))

هذا مفتوح لنا جميعاً أيها الأخوان، افتح مع الله صفحة جديدة كاملة، عاهد الله عز وجل على التوبة النصوح، والله أيها الأخوة شعور التائب لا يقدر بثمن، يشعر نفسه خفيف عندما يشعر أنه تاب إلى الله والله قبل توبته، بالمناسبة كيف قال النبي إن روح القدس نفثت في روعي، أيام الإنسان يشعر، تسميه شعور، تسميه الله عز وجل أشعرك في هذا، ألقى في قلبك هذا، نفث في روعك، لا أعرف سمه ما شئت لكن الإنسان حينما يتوب يشعر أن الله قبله، والإنسان ينبغي أن يتوب توبة نصوحة، والتوبة النصوح التي لا عودة فيها إلى الذنب.

((أنه إذا تاب العبد توبة نصوحة أنسى الله حافظيه والملائكةوبقاع الأرض وأنسى بذلك جوارحه، ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله يوم القيامة وليس عليه شاهد من الله بذنب))

وروى أيضاً: " أن النادم ينتظر من الله الرحمة، من رحمة الله بنا أيها الأخوة أن العبد لمجرد أن يندم على ذنبه فإن الندم عند الله توبة، وهذه رحمة كبرى، لمجرد أن تندم ليتني لم أفعل، أيام ترى المؤمن لما يقع بذنب ينكسر بالتعبير العامي ـ يكن ـ يقال له مالك يا فلان ؟ كأنه يتيم، كأنه مقهور، هذا شعور طيب إذا الإنسان وقع بالذنب وشعر حاله مكسور فهذا الندم يعد عند الله توبة، لذلك: النادم ينتظر من الله الرحمة والمعجب ـ يعني بذنبه ـ ينتظر من الله المقت "

يعني لا يوجد إنسان أحقر من رجل عمل ذنب وهو يفتخر به، لا يبالي يتحدث به للناس، هذا اسمه عند الله فاجر، والفاجر لا غيبة له، اذكروا الفاجر بما فيه يحذره الناس، أجمل شيء بالمذنب أن يندم، وأقبح شيء بالمذنب أن لا يتأثر بذنبه، لذلك ورد في الحديث الصحيح:

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

يعني إن لم تشعروا بذنوبكم أنتم هلكى إذاً لجاء بقوم إذا أذنبوا شعروا فتابوا هذا المعنى، يعني إذا إنسان أصيب بحادث سير وفيه حياة يصرخ يوجد تنفس، الدم يخرج، أما يوجد إنسان آخر ميت لا يوجد حركة هذا ميت، فالحركة دليل الحياة، إذا الإنسان وقع بذنب وما تأثر إطلاقاً وقال لك ماذا فعلت ؟ هذه المصيبة، يعني أكبر مصيبة أن يرتكب الإنسان المعاصي دون أن يفكر بالتوبة إطلاقاً.

روى الإمام الطبراني بسند صحيح قال:

((عَنْ أبي عُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أبيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ))

إذا الإنسان تاب توبة نصوحة هذا الذنب محي نهائياً، وروى البيهقي من طريق آخر وزاد:

((والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه))

ومن أحاديث النبي الجامعة المانعة قوله صلى الله عليه وسلم:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْقِلٍ قَالَ: كَانَ أبي عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَسَمِعَهُ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: النَّدَمُ تَوْبَةٌ))

العلماء قالوا هذا الندم حال لابد من علم أوجبه ولابد من عمل يتبعه، كيف ربنا عز وجل قال:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات)

العبادة هي الطاعة، وهذه الطاعة لابد لها من علم سببها، ولابد لها من عمل نتج عنها، مركزية، جوهرها الطاعة والطاعة تحتاج إلى علم، والطاعة تفضي إلى سعادة، الندم توبة، الندم سببه علم، والندم من نتائجه السلوك، وفي حديث آخر:

((ما علم الله من عبد ندامة على ذنب إلا غفر له قبل أن يستغفر منه))

معنى ذلك أن الندم معرفة، أنت حينما تندم تعلم أنك مذنب، وحينما تندم ترجو الله أن يغفر لك، وحينما تندم ينتظر أن لا تعود إلى هذا الذنب، فالندم تقريباً توبة كاملة.

هذه القصة المشهورة الذي قتل تسعة وتسعين رجلاً ثم أتى كاهناً فسأله هل لي من توبة، قال: لا فكمل به المائة، لكنه حينما سأل أهل العلم المتحققين قالوا: هناك توبة، والقصة قد تكون رمزية لكنها ورددت

في الصحاح، إلا أن المفاد منها أنه ما من ذنب أكبر من أنه لا يغفر، هذه النقطة، ما من ذنب أكبر من أن يغفر، وسعت رحمتي كل شيء وأنت شيء، وأنت بكل ذنوبك شيء، وأنت برحمة الله، والآية الكريمة:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53))

(سورة الزمر)

أخوانا الكرام: مرةً ثانية تعقيباً على ما ذكرته في الدرسين السابقين، الإنسان حينما يبدأ يومه بذكر لله عز وجل، بتلاوة لكتاب الله، بتسبيح بحمد، بتكبير، باستغفارٍ، بذكر، بتفكر، بتلاوة، بصلاة، لابد من جلسة مع الله صباحاً، ولا بد من هذه الجلسة أن تعطيك في أثناء النهار رؤية صحيحة، تعطيك حكمة، تعطيك حصن، أنت محصن من أن تذنب، فالإنسان كلما غفل عن الله وقع في ذنب، وكلما كان مع الله حصنه الله من الذنب، فالحياة قال تعالى:

(إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً (7))

(سورة المزمل)

في النهار يوجد حديث وسؤال وجواب وبيع وشراء واختلاط في الطرقات، فالإنسان كلما كان محصناً، كلما كان مقبلاً، كلما كان معصوماً من قبل الله عز وجل هذا بسبب الذكر الصباحي، وأنا أنصح أخوتنا الكرام بعد صلاة الفجر، لو تلا بعض صفحات كتاب الله، لو استغفر الله مائة مرة، لو ذكر اسم الله مائة مرة، لو قال لا إله إلا الله وهو أفضل الذكر مائة مرة، لو صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ولو مائة مرة، لو قال حسبي الله ونعم الوكيل مائة مرة، لو قال لا حول ولا قوة بالله مائة مرة، لو قال سبحان الله العظيم وبحمده سبحان الله العظيم، هذه كلها أذكار وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة، فمثل هذه الأذكار ومثل هذه التلاوات تحصنك من أن تذنب، الإنسان كلما ذكر الله أكثر صار في الأعماق وصار عنده مقاومة كبيرة جداً، وكلما قل ذكره صار على الحواف، على حافة المعصية فالذكر يجعلك في الأعماق، والدين علم وذكر وسلوك، أحد كليات الدين الكبيرة أن تذكر الله عز وجل فالذكر له أثر كبير جداً، يمكن أن تذكر الله صباحاً أو بين المغرب والعشاء أو قبل أن تنام، والذكر الذي ورد في الصحاح أن تستغفر الله مائة مرة وأن توحده لا إله إلا الله مائة مرة، وأن تصلي على النبي مائة مرة ثم اذكر ما شئت من حسبي الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وسبحان الله وبحمده، ولك أن تذكر بالاسم المفرد، لقوله تعالى اذكر اسم ربك، ولك أن تقرأ بعد القرآن، ولك أن تفكر بخلق السماوات والأرض، يعني جلسة مع الله غار حراء مجزأ، كل يوم ربع ساعة، هذا الإقبال على الله، وهذا اللقاء مع الله يعطيك قوة دفع وحصانة في النهار عجيبة، هذا

أجدى وأنت أسعد بها من أن تقع بالذنب ثم تتوب منه، درهم وقاية خير من قنطار علاج، الوقاية أن تتحصن بالله عز وجل.

أيها الأخوة الكرام: موضوع التوبة موضوع كبير، موضوع مستمر، وموضوع دائم، المؤمن مذنب تواب، يعني كثير التوبة، أنا أهمس في آذانكم أنا لا أقصد أن المؤمن يرتكب الكبائر، هذا عن الصغائر، المؤمن الكامل لا يرتكب ذنب كبير ولا يرتكب ذنب وهو يقصد أن يقع بالذنب، لكن قد يقع بالصغائر دون أن يقصد، وهذه باب التوبة مفتوح على مصراعيه، لكن لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (079) : الذكر .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-03-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:
عقد الإمام البخاري في صحيحه كتاباً عنونه بالدعوات، ومن أبواب هذا الكتاب فضل ذكر الله جل جلاله، وفي هذا الباب حديثان الأول قول النبي صلى الله عليه وسلم:

((عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ))

في باب فضل ذكر الله عقد الإمام البخاري باباً فيه حديثان الأول، وشتان بين الحي والميت وليس هناك نسبة تجمع بينهما الحي والميت، الذي يذكر الله حي والذي لا يذكره ميت، هذا الحديث محور هذا الدرس ولكن لابد من تفصيلات دقيقة في معنى الذكر، إذا كان ينقل الإنسان من الموت إلى الحياة، من موت القلب إلى حياة القلب، من الضلال إلى الهدى، من الشقاء إلى السعادة.

أيها الأخوة: أولاً المراد بالذكر من معاني الذكر أن تأتي بالألفاظ التي ورد الترغيب في قولها وأن تكثر منها، هناك ألفاظ وردت عن رسول الله، الترغيب في لفظها وفي ذكرها وورد أن تكثر منها، كالباقيات الصالحات، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولكن لابد من التنويه إلى هذه الباقيات الصالحات التي قال بعض العلماء إنها سبحان اله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ليس القصد أن تلفظها لفظاً بلسانك، لكن القصد أن تعقل معناها، يعني أن تسبح الله حقيقةً، وأن تكبره حقيقةً وأن تحمده حقيقةً وأن توحده حقيقةً، ويلحق بهذه الباقيات الصالحات الحوقلة، أن تقول لا حول ولا قوة إلا بالله، يعني لا حول عن معصية الله إلا بالله ولا قوة على طاعته إلا به، ومنها البسملة، إن سميت معنى ذلك أنني أتحرك في هذا الباب باسم الله أي بمنهج الله، الله سبحانه وتعالى له منهج، فإذا أكلت وفق منهج الله، إذا شربت وفق منهج الله، إذا تاجرت وفق منهج الله، إذا فتحت دكانك وفق منهج الله، بسم الله، بسم الله أتحرك وفق منهجه وبسم الله أشكره على نعمه، هذا معنى البسملة، الحوقلة لا حول ولا قوة إلا بالله لا حول عن معصيته إلا به ولا قوة على طاعته إلا به.

والحسبلة، أن تقول حسبي الله ونعم الوكيل، يعني إذا كنت طائعاً لله وفاتتك الدنيا، حسبي الله ونعم الوكيل، انتصر خصمك عليك ولكنك في طاعة الله، حسبي الله ونعم الوكيل، فاتتك هذه الصفقة لأن فيها شبهة وفيها أرباح طائلة، حسبي الله ونعم الوكيل، فاتتك هذه السفرة لعل فيها مضرةً لك حسبي الله ونعم الوكيل، يعني يكفيني الله.

سيدنا الصديق من مظاهر تفوقه أنه ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط العبرة أن لا تقصر في الآخرة، أما في الدنيا كيف ما كان الحال إن أقبلت أهلاً وإن أدبرت مرحباً، والاستغفار، قال تعالى:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10))

(سورة نوح)

فالاستغفار، والحسبلة، والبسملة، والحوقلة، والباقيات الصالحات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، من الذكر أن تكثر من هذه العبارات التي ورد الترغيب في كثرة ذكرها، والدعاء من الذكر، الدعاء مخ العبادة، الدعاء يدور مع المؤمن في كل أحواله، دخلت إلى البيت، خرجت من البيت، دخلت إلى السوق، خرجت من السوق، دخلت إلى المسجد، خرجت من المسجد، واجهك قوي، واجهك شبح مصيبةٍ، إنسان يكيد لك، الدعاء يدور من المسلم حيث دار، فصار ذكر الله الباقيات الصالحات، وذكر الله الحوقلة، والبسملة، والحسبلة، والاستغفار، والدعاء بخيري الدنيا والآخرة، اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردنا.

الآن من معاني ذكر الله إضافة أن تلفظ بلسانك سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله واله أكبر، من معاني ذكر الله أن تواظب على العمل بما أوجبه الله، يعني إذا تلوت القرآن فأنت في ذكر الله دخلت التلاوة الآن، وإذا قرأت حديث النبي العدنان فأنت في ذكر، وإذا درست العلم أحكام الصلاة، أحكام الحج، أحكام البيوع، أحكام الزكاة، أحكام الشركة، أحكام الحوالة، أنت في ذكر، وإذا صليت صلاة نفل فأنت في ذكر، الصلاة ذكر، ومدارسة العلم ذكر، وقرأت حديث رسول الله ذكر، وتلاوة القرآن ذكر، والدعاء ذكر، والحسبلة والبسملة والحوقلة والتكبير والتهليل وسبحان الله والحمد لله ذكر، هذا معنى.

قال: الذكر يقع تارةً باللسان ويؤجر عليه الناطق ويقع تارةً بالجنان، بالقلب والأولى أن تجمع بين ذكر اللسان وبين ذكر القلب، قال: ذكر اللسان أن تقول بلسانك سبحان الله، أما ذكر القلب أن يتفكر القلب في ملكوت الله، الآن موضوع جديد التفكر في خلق السماوات والأرض من الذكر، التفكر في كأس الماء من الذكر، التفكر في هذا الخروف الذي خلقه الله لنا وذلله لنا من الذكر، التفكر في طعامنا وشرابنا، التفكر في أخلقنا من الذكر.

أيها الأخوة: إذا أضيف ذكر القلب إلى ذكر اللسان جمع المجد من طرفيه، ذكر القلب بالتفكر، وذكر اللسان بلفظ هذه الأذكار التي وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم، الآن إذا أضيف إلى ذكر اللسان وهو اللفظ بهذه الكلمات المأثورات، وأضيف إلى ذكر اللسان ذكر القلب وهو التفكر في ملكوت الأرض والسماوات، وإذا استحضرت معاني هذه الألفاظ، إذا قلت سبحان الله فمجدته، وقلت الحمد لله استحضرت نعم الله، وإذا قلت الله أكبر استحضرت قوته وقدرته، وإذا قلت لا حول ولا قوة إلا بالله استحضرت وحدانيته، الآن إذا ذكرت بلسانك واستحضرت معاني هذه الأذكار بقلبك فقد جمعت ذكر

القلب وذكر اللسان، الآن إذا أضيف إلى ذكر اللسان وذكر القلب القيام بالطاعات هذا أكمل، الأمر أن تذكر الله بلسانك، الأمر الثاني أن تستحضر هذه المعاني بجنانك، الأمر الثالث أن تبادر إلى الطاعات بأعضائك، الأمر الرابع أن تتوجه إلى الله بقلبك، صار الذكر لفظ واستحضار معنى القيام بطاعة وتوجه إلى الله، هذا الذكر الذي ينقلك من الموت إلى الحياة، من الشقاء إلى السعادة، من الضياع إلى الوجدان، من التشتت إلى الجمع، من السأم والضجر إلى الروح والريحان.

الإمام الرازي يقول: المقصود بالذكر الألفاظ الدالة على التسبيح والتحميد والتمجيد، هذا رأي الإمام الرازي، والذكر بالقلب التفكر في أدلة الذات والصفات، يعني إذا أردت أن تعرف الله وفكرت في خلقه فهذا ذكر القلب وعند بعض الأئمة إذا قلت سبحان الله واستحضرت بقلبك عظمة الله وقلت لا إله إلا الله واستحضرت وحدانيته، قلت الحمد لله واستحضرت نعمه، قلت الله أكبر واستحضرت قوته، فأول معنى أن تذكر الله بلسانك وأن تستحضر معاني هذه الأذكار بقلبك وأن تبادر بجوارحك إلى الطاعات وأن تتوجه إلى رب الأرض والسماوات.

الإمام الراوي يقول: ذكر القلب التفكر في ملكوت السماوات والأرض قال: ومن ذكر القلب البحث في أدلة التكاليف، أنت مكلف، إذا الإنسان حريص على القرب من الله يسأل نفسه ماذا أراد الله مني، ماذا ينبغي أن أفعل من أعطي من أمنع من أصل من أقطع مع من ألتقي مع من أبتعد.

وقال بعضهم ذكر الجوارح أن تنطلق إلى الطاعات والذي يلفت النظر أن الله سبحانه وتعالى سمى الصلاة ذكراً، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (9))

(سورة الجمعة)

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14))

(سورة طه)

أيها الأخوة: هذا الموضوع دقيق جداً، عندما النبي عليه الصلاة والسلام في أصح أحاديثه فيما رواه الإمام البخاري في صحيح يقول:

((عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ))

فرق شاسع كبير، ليس هناك مسافة تجمع بينهما، أن تذكر الله، لكن التفاصيل أن تذكره بلسانك وأن تستحضر معاني هذا الذكر بقلبك، وأن تنطلق بأعضائك إلى طاعته وأن تتوجه إليه بقلبك.

قال بعض العارفين: الذكر على سبعة أنحاء، ذكر العينين بالبكاء، إذا بكت العين من خشية الله فهذا ذكرها:

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: عَيْنَانِ لا تَمَسُّهُمَا النَّارُ عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))

فالعين التي تبكي من ذكر الله هي عين ذاكرة وليست غافلة، وذكر الأذنين الإصغاء، أن تجلس في مجلس وتستمع إلى علم يقربك من الله عز وجل، الإصغاء إلى الحق ذكر، وذكر اللسان بالثناء على الله، العين تذكر والأذن تذكر واللسان يذكر، وذكر اليدين العطاء، وذكر البدن الطاعة في كل ما أمر، وذكر القلب بالخوف والرجاء، في القلب ثلاث مشاعر، قال: يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك، قال: أحب عبادي إلي تقي القلب نقي اليدين لا يمشي إلى أحد بسوء أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقه، قال: يا رب إنك تعلم إنني أحبك وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك، قال: ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي، ذكرهم بآلائي من أجل أن يعظموني، وذكرهم بنعمائي من أجل أن يحبوني، وذكرهم ببلائي من أجل أن يخافوني.

فذكر القلب أن يجتمع فيه خوف، و تعظيم، ورجاء، خوف، ومحبة، وتعظيم.

ذكر النفس، التسليم والرضا، النفس إذا استسلمت، كل إنسان له واقع الناس رجلان راضٍ وساخط، المؤمن راض عن الله، راض عن الله في رزقه، في زوجته، في أولاده، في كل أحواله، ليس في الإمكان أبدع ما كان، هذه حكمتك وهذه رحمتك، وأنا راض بقضائك وقدرك، مشاعر الرضى أيها الأخوة لا توصف، الإنسان أحياناً يكون في أعلى درجات الغنى وهو ساخط على الله، يكون في أعلى درجات القوة وهو ساخط على الله، يكون في أعلى درجات القوة وهو ساخط على الله، ويأتي مريض وقد أصيب بمرض عضال ويقول يا رب أنا راض عليك فهل أنت راض عني ؟ فالبطولة أن ترضى عن الله حتى يرضى عنك، أن ترضى عن الله يعني أنك تعرفه، وأنك تحبه، وأنك واثقاً به وأنك تثق برحمته وحكمته ومن عدالته، ومحبته.

الآن هذا الموضوع دقيق ومن أهم موضوعات العبادات، الصلاة من أجل الذكر، الصيام من أجل الذكر، الحج من أجل الذكر، الصدقة من أجل الذكر، لذلك قال الله تعالى في الحديث القدسي:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

والله أيها الأخوة: لا يوجد إنسان لا يمر بالشدائد، إنسان يقطع رجاءه من الناس ويقول يا رب ليس لي إلا أنت، فربنا عز وجل يريه من آياته يريه كيف أن الله سبحانه وتعالى يسير الأمور كلها لصالحه، قال لي شخص قبل أيام، دفع مبلغ إلى إنسان وهذا الإنسان لم يكن مستقيماً، واحتمال أن يذهب المبلغ وهو مبلغ كبير مائة في المائة، فقال لي: صليت قيام الليل وناجيت الله يا رب هذا المال جمعته من طريق حلال وتعلم أنت ذلك، يا رب أتوسل إليك أن ترد لي هذا المبلغ، قال لي: والله من آيات الله الدالة على عظمته أن هذا الإنسان المتلاعب، المنحرف، الذي لا يحلل ولا يحرم رد له المبلغ كاملاً ولن يعطي أحد غيره، يقول لا أعلم كيف تم الأمر، أنت في صلاة الليل قلت يا رب ليس لي أحد إلا أنت، وهذا المبلغ جمعته من طريق مشروع فاحفظه لي و رده لي، إن الله يحب أن تسأله حاجتك كلها، إن الله يحب أن يسأله ملح طعامه، أن يسأله شسع نعله إذا انقطع، أقول لكم هذا الحديث أيها الأخوة، ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيته، فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني، أعرف ذلك من نيته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه.

أيها الأخوة الكرام: أنت إذا دعوت الله كنت أقوى الناس على الإطلاق لأنه إذا كان الله معك فمن عليك من يجرؤ بالكون أن ينالك بسوء، وإذا كان الله عليك فمن معك، والله أقرب الناس إليك يتطاول عليك، كم من ابن تطاول على أبيه، وكم من زوجة أساءت معاملة زوجها، وكم من شريك خان شريكه، إذا كان الله معك الكل في خدمتك وفي مقدمتهم أعداؤك وإذا تخلى الله عنك الكل يكيدوا لك وفي مقدمتهم أقرباؤك حديث دقيق.

قال: يا موسى إنك إن ذكرتني شكرتني وإذا ما نسيتني كفرتني، يعني السماء فيها غيوم قالوا: يوجد منخفض جوي، أنت قل كلاماً آخر، قل إن الله عز وجل تفضل علينا بمطر أحيا به الأرض بعد موتها، هذا كلام آخر، كلام طيب، كلام التوحيد، أديت فحص ونجحت أنا تعبت كثيراً، ما نمت الليل، قل الله أكرمني وأعانني على النجاح هذه أكمل وأصح، التوحيد هو علم، إنك إن ذكرتني شكرتني، عندك زوجة صالحة، والله أنا اخترتها زوجة صالحة من أسرة صالحة، قد تختارها من أعرق الأسر وقد تسيء إليك لا تعزي الأمور إلى جهدك ولا إلى ذكائك ولا إلى نفسك، هذا كلام فيه شرك، الفضل الذي تنعم فيه هو من فضل الله.

إنك إن ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني، إذا الإنسان شرب كأس ماء والطريق سالك، هذه نعمة لا يعرفها إلا من فقدها، إذا تناول الطعام وجهاز الهضم جيد، هناك من يتناول السيرون مكان الطعام، إذا كنت في بيتك آمناً، هناك من عليه مذكرة بحث، إن دخلت بيتك فهذه نعمة وإن تحركت ومشيت على قدميك فهذه نعمة، وإن كان الناس يحبونك فهذه نعمة، إنك إن ذكرتني شكرتني، اذكر

فضلي عليك، إن ذكرت فضلي عليك شكرتني وإذا ما نسيتني كفرتني.

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي وَأنَا مَعَهُ إذَا ذَكَرَنِي فَإنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ ذِرَاعًا وَإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ بَاعًا وَإنْ أتَانِي يَمْشِي أتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

أيام تجلس مع أناس همك أن تمجد نفسك وتركت، وربحت، سافرت، وأنفقت، وعملت، يأتي المؤمن إن جلس مع جماعة همه أن يثني على الله وأن يذكرهم بآيات الله، همه أن يحملهم على طاعة الله، همه أن يوصلهم بالله.

((عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي وَأنَا مَعَهُ إذَا ذَكَرَنِي فَإنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ...))

تجد بعد حين سمعة هذا الرجل معطرة، اسمه متألق نجمه ساطع، الكل تهفو قلوبهم إليه، ما أخلص عبد لله إلا جعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودة والرحمة.

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يَعْقِدُ الشَّيْطانُ عَلَى قافِيَةِ رَأس أحَدِكُمْ إذَا هُوَ نَامَ ثَلاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ مَكَانَهَا عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ فَإنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ فَإنْ تَوَضَّأ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ فَإنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقَدُهُ كُلُّهَا فَأصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْس وَإلا أصْبَحَ خَبيثَ النَّفْس كَسْلانَ))

إنسان نام الساعة الثانية بعد منتصف الليل، يستيقظ الساعة الرابعة يقول يا الله قام من الفراش توضأ جاء إلى المسجد، صار نشيطا حل عقد الشيطان عنه.

((عَن الأغَرِّ أبي مُسْلِمٍ أنَّهُ قالَ: أشْهَدُ عَلَى أبي هُرَيْرَةَ وَأبي سَعِيدٍ الْخُدْريِّ أنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ قالَ: لا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إلا حَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

المتكلم ذاكر والمستمع ذاكر، لماذا أتيت أنت ؟ أنت أتيت لوجه الله لا يوجد عطاء مادي ولا عطاء معنوي، إلا أنك في ضيافة الله وتتناول من مأدبة الله، كتاب الله مأدبته، فإذا دعاكم الله إلى مأدبته فلبوا، فأنت إذا جئت إلى بيت من بيوت الله فأنت ذاكر، استماعك ذكر، ألم أقل لكم قبل قليل الإصغاء ذكر.

((لا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إلا حَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ...))

الملك للمؤمن يلهمه الخير، صدقوني أيها الأخوة أنه أناس كثيرون حدثوني حديثاً متشابهاً، يعني أدى زكاة ماله وله أعمال بر كثيرة صفقة متألقة أمامه قال لي: شعرت بانقباض شديد عزفت عنها، لو أنه عقدها لكان إفلاسه فيها، ما الذي صرفه عنها ؟ الله جل جلاله، المؤمن مسدد رشيد له من الله حافظ، لما

أطاع ربه الله عز وجل أرسل ملك يلهمه الخير، عدة أخوة كرام أنفقوا من أموالهم في سبيل الله بغير حساب أدوا زكاة أموالهم عطفوا على الفقراء والمساكين، زوجوا بعض الشباب، أحياناً تلوح لهم صفقات رابحة جداً، يقول عجيب العقل والمنطق، والخبرة تقول اشتري هذه الصفقة أما انقباض عجيب في القلب، هذا الانقباض حملهم على أن يعزفوا عنها، فلما عزفوا عنها كان الذي اشتراها قد دمر نفسه وهو لا يشعر، الله يذهب عنك السوء، هذا معنى حفتهم الملائكة تلهمهم رشدهم، تلهمهم سواء السبيل، تلهمهم الخير

((... وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ...))

هذه السعادة التي في قلوبهم، يوجد توفيق في أعمالهم وسعادة في قلوبهم.

((وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ " هذا التجلي، هذا إكرام الله عز وجل.

"... لا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إلا حَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ مُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ يَعْنِي مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ قَالُوا جَلَسْنَا نَدْعُو اللَّهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِدِينِهِ وَمَنَّ عَلَيْنَا بِكَ، قَالَ: آللَّهُ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلا ذَلِكَ، قَالُوا: آللَّهُ مَا أَجْلَسَنَا إِلا ذَلِكَ، قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهَمَةً لَكُمْ وَإِنَّمَا أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلائِكَةَ))

كل رجل في بيته يوجد جلسة مريحة، غرفة جلوس، له أصدقاء لو أنه زارهم أدار معهم حديثاً ممتعاً، قدموا له الضيافة، لعلهم تفقهوا بحديث معين، كانوا مريحين، فالإنسان جاء إلى بيت الله ليتلقى رحمة الله.

أجمل شيء أنه لا ينبغي إلا أن تكون في حالين، إما في بيت من بيوت الله ترجو رحمة الله، وإما خارج بيت الله ترجو فضل الله، فكان عليه الصلاة والسلام إذا دخل المسجد قال:

((عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ))

بالمسجد رحمة خارجه فضل، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَحَبُّ الْكَلامِ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعٌ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ لا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ))

يوجد ملاحظة مع مضي الأيام والسنوات هذه الكلمات مألوفة في العالم الإسلامي، إذا إنسان غضب منك يقول لا إله إلا الله، يعني هذه الكلمات مألوفة إلى درجة أنه يقولها الإنسان وهو لا يدري ماذا يقول فهذه الكلمات حينما كثر استعمالها فقدت عند العامة مدلولها، أما لو أعدنا إليها مضمونها، أحييناها،

معنى لا إله إلا الله يعني لا معطي ولا مانع، ولا خافض، ولا رافع، ولا معز، ولا مذل، ولا باسط ولا قاض إلا الله، لا تخف من أحد كن مع الله ولا تبالي.

الله أكبر مهما كان خصمك كبيراً، مهما كان المرض عضالاً الله أكبر منه، يشفيك، مهما كان الوضع حرجاً الله هو القدير، الله أكبر، الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله، هذه كلمات نحي مدلولها لا أن نرددها تردداً أجوفاً كما فعل بعض الناس.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لأنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ))

النبي قدم تشبيه رائع قال: أمركم أن تذكروا الله، والله ماذا قال ؟ من يذكر آية تناسب هذا الحديث

(مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (7))

(سورة الحشر)

((عن الْحَارِثَ الأَشْعَرِيَّ حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا فَقَالَ: عِيسَى إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا فَإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ وَإِمَّا أَنْ آمُرَهُمْ فَقَالَ: يَحْيَى أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخْسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَامْتَلأَ الْمَسْجِدُ وَتَعَدَّوْا عَلَى الشُّرَفِ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ أَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي، وَهَذَا عَمَلِي فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَكُمْ بِالصَّلاةِ فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلا تَلْتَفِتُوا فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ فَكُلُّهُمْ يَعْجَبُ أَوْ يُعْجِبُهُ رِيحُهَا وَإِنَّ رِيحَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ الْعَدُوُّ فَأَوْثَقُوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ فَقَالَ أَنَا أَفْدِيهِ مِنْكُمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ فَفَدَى نَفْسَهُ مِنْهُمْ وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ كَذَلِكَ الْعَبْدُ لا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلا بِذِكْرِ اللَّهِ...))

يعني إذا ذكرت الله كنت في حص حصين، لا إله إلا الله حصني، من دخلها أمن من عذابي، أنت استعذت بعظيم ودخلت إلى حصن حصين وإلى حرز حريز هذا هو الذكر.

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ: لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ))

إذا كثرت عليك شرائع الإسلام فعليك بذكر الله، يقول عليه الصلاة و السلام:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا، قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ قَالَ: حِلَقُ الذِّكْرِ))

هذه روضة من رياض الجنة و كلكم يقول هذا الكلام، والله انشرحنا بالمسجد شعرنا بالسرور، هكذا قال سيدنا حنظلة مر على سيدنا الصديق قال نافق حنظلة، لما يا أخي قال له: نكون مع رسول الله ونحن كهاتين فإذا عافسنا الأهل ننسى، سيدنا الصديق كان متواضعاً وحكيماً، قال له: أنا كذلك يا أخي، انطلق بنا إلى النبي، النبي قال: أما أنتم يا أخي فساعة وساعة، لو بقيتم على الحال الذي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة، فكلنا في ضيافة الله في سعادة هذه رحمة الله الهموم تضاءلت، الرجاء ينمو، الهمة تشحن، لذلك نحن في الدروس كالبطارية تشحن فالمؤمن إذا لازم دروس العلم متألق دائماً، إذا لازم دروس العلم متألق دائماً، لما ينقطع تضعف البطارية.

((إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا، قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ قَالَ: حِلَقُ الذِّكْرِ))

أما الحديث الدقيق الدقيق في موضوع الذكر يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ، قَالُوا: بَلَى قَالَ ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ مَا شَيْءٌ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ))

قال العلماء: ما دام النبي عليه الصلاة والسلام جعل ذكر الله فوق كل شيء فلابد من أن يكون هذا الذكر مشتمل على أربع عناصر، ذكر باللسان، وذكر بالقلب، وطاعة بالجوارح، وتوجه إلى الله، نفس متوجهة إلى الله، أعضاءه وجوارحه في طاعة الله، قلب يذكر الله لسان ينطق باسم الله.

لسان وقلب وأعضاء ونفس، نفس مقبلة أعضاء مطيعة قلب ذاكر لسان ذاكر هذا هو الذكر الذي يرقى بالإنسان فيكون أعظم أعماله على الإطلاق.

((أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ، قَالُوا: بَلَى قَالَ ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى))

ما من عمل صالح إلا والذكر شرط في تصحيحه، رجل دفع زكاة ماله وأنت تدفع ينبغي أن تذكر الله، كي تصح هذه الزكاة، إنسان صام لابد من الذكر مع الصوم، لابد من الذكر مع الزكاة، لابد من الذكر

في الحج، لابد من الذكر في الصلاة، أي عمل، وأية عبادة لا يرافقها ذكر الله فهي غير صحيحة، شيء خطير، ما من عمل صالح إلا والذكر مشترط في تصحيحه.

من لم يذكر الله بقلبه عند صدقته وصيامه فليس عمله كاملاً ولا صحيحاً يعني مثلاً الآية الكريمة معروفة:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200))

(سورة الأعراف)

ما أكثر من قال لي أنا استعذت وما ذهب الشيطان بماذا أجيبه ؟ يجب أن تستعيذ به وأنت حاضر القلب، يجب أن تستعيذ بالشيطان بلسانك وبقلبك، أي استعاذه، أي عبادة صلاة، حج، صوم، زكاة، إنفاق، إذا ما رافقها ذكر الله بقلبك فهذه الطاعة ليست كاملة بل مشكوك في صحتها، يوجد حديث دقيق جداً، يقول عليه الصلاة والسلام:

((نية المؤمن خير من عمله، ونية الكافر شر من عمله))

المؤمن لأن قلبه موصول بالله عز وجل أنفق مائة ليرة ويتمنى أن ينفق ألف ليرة، أنفق ألف يتمنى أن ينفق عشرة آلاف، وعثرت على قول لسيدنا علي رضي الله عنه يقول: فاعل الخير خير من الخير، وفاعل الشر شر من الشر، رجل أنشأ مستشفى شيء جميل لكل المرضى سنة وسنتين وعشرة ألف سنة، يوم القيامة انتهت المستشفى ماذا بقي ؟ ينعم بالجنة إلى أبد الآبدين بهذا العمل الخير انتهى وبقي فاعل الخير، إنسان ألقى قنبلة على هيروشيما قتل ثلاث مائة ألف إنسان بثلاث ثوان الآن مضى عليها مائة سنة وانتهت لو فرضنا أنه ما ألقي عليهم قنبلة يموتون كلهم الآن، انتهت آجالهم ولكن ماذا بقي ؟ هذا العمل الإجرامي الذي يشقى به إلى أبد الآبدين، فاعل الخير خير من الخير، وفاعل الشر شر من الشر، الخير ينتهي مع يوم القيامة والشر ينتهي، الذي انشأ ملهى جاء يوم القيامة ماذا يبقى الذي أفسد الناس في هذا الملهى وحملهم على المعصية وأبعدهم عن طاعة الله، الشر انتهى مع مجيء يوم القيامة لكن هذا العمل المنحرف الفاسد يشقى به إلى أبد الآبدين.

في صحيح مسلم جاء هذا الحديث مضاف إليه كلمة، ورد عن الإمام مسلم في صحيحه:

((عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللَّهُ فِيهِ وَالْبَيْتِ الَّذِي لا يُذْكَرُ اللَّهُ فِيهِ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ))

أضيفت كلمة بيت ولها معنى، أنت بيتك مطعم، فندق، أو مسجد، يوجد بيت فيه قرآن، فيه ذكر، فيه سهرة فيها ذكر لله عز وجل، كثير من الزيارات في البيوت كلها كلام باطل، غيبة ونميمة، أما بيوت المؤمنين، إذا صار فيها سهرة وليمة، كل ما في البيت ذكر الله عز وجل، بيتك فيه صلاة، فيه علم، فيه

ذكر لله عز وجل، بيت فيه حياة، وبيت فيه موت، قبر معنى هذا، أكل وشرب ونوم، مطعم وفندق، أما يوجد بيوت فيها رحمة، وسرور، وذكر لله عز وجل، فيها دعوة إلى الله عز وجل.

محور هذا الدرس أنه إما أن تكون حياً بذكر الله، ولا سمح الله ولا قدر وإما أن يكون بعض الناس ميتين بعدم ذكر الله وأكبر مرض يصيب الإنسان في الدنيا مرض الغفلة عن الله، وقد قال الله عز وجل:

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ((205)

(سورة الأعراف)

أيها الأخوة الكرام: ما أروع أن نفهم حديث رسول الله الصحيح، ما أروع أن نقف عند دقائقه، عند تفاصيله، عند ملابساته، فهذا من ذكر الله صدقوني إن جئت المسجد واستمعت في درس لتفسير كلام الله فأنت ذاكر لله، إذا استمعت لدرس فيه حديث رسول الله فأنت ذاكر لله لأن عين معرفة رسول الله عين معرفة الله، إن استمعت لدرس فقه فأنت ذاكر لله، إن استمعت لدرس سيرة فأنت ذاكر لله كله من الذكر والحقيقة لما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((عن جَابِرُ بْنُ عَبْدِاللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً))

في أي مكان يمكن أن تصلي فيه، لذلك لماذا بنيت المساجد ؟ من أجل تعليم العلم، من أجل الذكر، أما الصلاة يمكن أن تؤدى في أي مكان أما بيت من بيوت الله من أجل أن نجتمع وأن نتعاون، ومن أجل أن نذكر الله عز وجل، كلمة الذكر يعني التعلم، التعليم.

كعودة سريعة أن تذكر الله بلسانك سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وأن تحوقل لا حول ولا قوة إلا بالله، وأن تبسمل، وأن تكبر، وأن تهلل، وأن تقول حسبي الله ونعم الوكيل وأن تدعو الله عز وجل بخيري الدنيا والآخرة، وأن تصلي، وأن تتلو القرآن، وأن تتلو دروس العلم، وأن يتجه قلبك في استحضار هذه المعاني ذكر القلب، وأن تنطلق جوارحك وأعضاءك إلى الطاعات، وأن تتوجه نفسك إلى الله، إن فعلت هذا:

((أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ، قَالُوا: بَلَى قَالَ ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ مَا شَيْءٌ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ))

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: محور الدرس اليوم الورع، لأنه ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط، وإن أردت الفرق الشاسع بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المسلمين في عصورهم المتأخرة لقلت لك إنه الورع، ذكرت يوم الجمعة أن سيدنا عمر رضي الله عنه وهو على فراش الموت استأذن السيدة عائشة رضي الله عنها أن يدفن إلى جوار النبي صلى الله عليه وسلم وإلى جوار سيدنا الصديق الحقيقة السيدة عائشة كانت تظن أن هذا المكان المكان المتبقي لها لأنه إلى جانبها زوجها وأبوها، لكنها آثرت الخليفة عمر بن الخطاب في هذا القبر وأذنت له، سيدنا عمر خشي أن تكون قد أذنت له وهو خليفة المسلمين وهو أمير المؤمنين، لذلك أمر أولاده أنه بعد أن يموت تستأذن السيدة عائشة مرة ثانية وقد مات الخليفة وأصبح في عداد أهل الآخرة، فإن أذنت مرة ثانية فادفنوني إلى جنب رسول اله وإلى جنب صاحبه، كانوا من الورع بشكل لا يوصف، والحقيقة الإنسان لا يستطيع أن يقبل على الله وقد وقع في الشبهات

((عَنْ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ))

قبل أيام توفي شيخ الأزهر قرأت عنه كلمات كثيرة تركت في نفسي أثراً له مواقف واضحة جداً في شأن الربا، الفوائد موقف مطابق للشرع تماماً، قرأت عنه الشيء الكثير كل هذا أخذه إلى معه إلى قبره، والإنسان أحياناً تغريه الدنيا فيرضي الآخرين ولا يرضي الله، أما إذا جاء الموت يندم أشد الندم، ويوجد أشخاص ربنا سبحانه وتعالى خشيته ماثلة في أذهانهم يرضونه ولا يعبئون بالآخرين، هذا كله يلقونه عند لقائهم الله عز وجل.

أيها الأخوة الكرام: ورد في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر نموذجاً من الورع، قال:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا لَهُ فَوَجَدَ الرَّجُلُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ فِي عَقَارِهِ جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ، فَقَالَ لَهُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ: خُذْ ذَهَبَكَ

مِنِّي إِنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الأَرْضَ وَلَمْ أَبْتَعْ مِنْكَ الذَّهَبَ، وَقَالَ الَّذِي لَهُ الأَرْضُ إِنَّمَا بِعْتُكَ الأَرْضَ وَمَا فِيهَا فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ فَقَالَ الَّذِي تَحَاكَمَا إِلَيْهِ أَلَكُمَا وَلَدٌ قَالَ أَحَدُهُمَا لِي غُلامٌ، وَقَالَ الآخَرُ لِي جَارِيَةٌ قَالَ: أَنْكِحُوا الْغُلامَ الْجَارِيَةَ وَأَنْفِقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمَا مِنْهُ وَتَصَدَّقَا))

إنسان وجد جرة ذهب في عقار اشتراه، قال أنا اشتريت العقار ولم أشتري الذهب، الذي باع العقار قال أنا بعتك العقار ولم أبعك الذهب، وقد قلت لكم قبل أيام كيف أن إنساناً تزوج امرأة ثانية قبل أن تعرف الأولى، الأولى علمت ولم تفاتح زوجها بما فعل، بعد حين توفي الزوج فمن روع الزوجة الأولى أنها أرسلت إلى الزوجة الثانية بنصيبها من الميراث، ففاجأتها الثانية قالت: لقد طلقني قبل أن يموت وليس لي عندكم شيء، إذا كنا كذلك رضي الله عنا وأكرمنا، الإنسان حينما يكون ورعاً يرقى عند الله إلى أعلى الدرجات.

((عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ: هَذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهِ: إِنِّي لأَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِي فَأَجِدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَى فِرَاشِي أَوْ فِي بَيْتِي فَأَرْفَعُهَا لآكُلَهَا ثُمَّ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً أَوْ مِنَ الصَّدَقَةِ فَأُلْقِيهَا))

ومرة مر معي حديث ولم أعثر عليه الآن قبل أن آتي إليكم إنه مرة انقطع عنه الوحي صلى الله عليه وسلم فقال يا عائشة: لعلها تمرة أكلتها من تمر الصدقات.

الورع قوام الدين الورع، ومرة ثانية ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط، الذين تفوقوا وأقبلوا على الله وانتصروا، والذين رأوا أن الطريق إلى الله سالك فيما بينه وبينهم، هؤلاء الورعون.

(((عَنْ عَطِيَّةَ السَّعْدِيِّ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا لِمَا بِهِ الْبَأْسُ قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لا نَعْرِفُهُ إِلا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ))

يعني أن تدع ما لا بأس به حذر ما فيه بأس، هناك نقطة دقيقة جداً، أنا أحياناً يوجد مناقشات حول قضايا فقهية أقول لأحد الأخوة الكرام افرض أن هذا الأمر الذي تطلب الفتوى من أجله، وجدت له فتوى ضعيفة، فتوى عند بعض العلماء أما جمهور العلماء ما أقرك على هذه الفتوى أليس الأحوط أن تدعها، الأحوط أن تدع هذا الشيء إن كنت ورعاً لأن الإنسان يرتقي عند الله بورعه، لكن بربكم لو أن إنساناً ترك شيء لله ورعاً أتظنوا أن الله سبحانه وتعالى يحرمه هذا الشيء ؟ لا والله و لابد من الصبر، أقول لا والله لأن الله سبحانه وتعالى أخبرنا على لسان نبيه، ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه، ولا يوجد أخ من أخوانا الكرام الصادقين وأنا أعلم علم اليقين أن في حياته عشرات الأمثلة ترك شيئاً لله فعوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه، الشيء الذي فيه شبهة لا تتردد عنده كثيراً انتصر على نفسك و اركله بقدمك وقل الله هو الغني.

أحد أخوانا الأطباء يجري عملية لطفل في قلبه، هناك جهة محسنة غطت هذه العملية لكن هذا الأب الورع عنده مكينات فقال لا والله لا أرضى، قال له: لماذا هذه الجهة المحسنة تبرعت وغطت هذه العملية قال: أنا عندي ما أبيعه اجعل هذا المبلغ لم لا يجد ما لا يبيعه، لا يوجد إنسان ورع إلا الله عز وجل يعطيه الدنيا وزيادة.

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ، قَالَ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ وَلَكِنَّ الاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى وَلْتَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبِلَى وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ))

قال تعالى:

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (36))

(سورة الإسراء)

ورع العين بغض البصر عن محارم الله، ورع الأذن بصونها عن سماع الغيبة والنميمة والغناء وما إلى ذلك، ورع اللسان أن لا تنطق إلا بالحق، ورع الفكر الدماغ أن لا تفكر إلا فيما يرضي الله، أيام الإنسان يسكت ولكنه يفكر فيما يرضي الناس، ورع الفكر، و ورع العين، و ورع اللسان،

((.... أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى...))

ماذا يخرج من فمك من كلام لابد من ضبط، الآن ماذا يدخل إلى بطنك من طعام لابد من ضبط.

أخ كريم له قريب بالسادسة والتسعين أجرى تحليلاً كاملاً لدمه وسوائله فكانت النتيجة أن كل النسب طبيعية، فعلق تعليقاً جميلاً أعجبني قال: والله ما أكلت في حياتي كلها درهماً حراماً، قال يا بني حفظناها بالصغر فحفظها الله علينا بالكبر، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة أنا أقول لكم بربكم هل واحد منكم تورع عن شيء ترك شيء لله، خشية الله، ابتغاء مرضاة الله، وقد حرمه الله ذلك الشيء ؟ لا والله تأتي الدنيا وهي راغمة.

((وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ))

إذا كانت زينة الدنيا تحملك على التقصير في العبادات، على التقصير في طلب العلم، ما قال أساسيات الدنيا، لابد أن تعمل، طلب الحلال فريضة بعد الفريضة، الكسب الحلال فريضة بعد الفريضة، لكن من ترك زينة الدنيا، أيام الإنسان ينهمك بالزينة، في الأشياء التي ليست أساسية في الحياة، يجب عليك أن توفرها، أما من أراد الآخرة ترك زينة الدنيا

((... فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ))

((عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ قَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ قَالَ وَمَعْنَى قَوْلِهِ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ يَقُولُ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يُحَاسَبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُرْوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا وَيُرْوَى عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ قَالَ لا يَكُونُ الْعَبْدُ تَقِيًّا حَتَّى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ كَمَا يُحَاسِبُ شَرِيكَهُ مِنْ أَيْنَ مَطْعَمُهُ وَمَلْبَسُهُ))

الله عز وجل لما وصف النبي صلى الله عليه وسلم:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خلق عظيم)

ولم يقل إنك ذو خلق عظيم، فرق كبير على فيها تمكن، أيام الإنسان يصبر لكن بينه وبين الانفجار شعرة، أيام يتصدق ولكن بينه وبين المنع شعرة، أيام يحلم ولكن بينه وبين الانتقام شعرة، نقول هذا ذو خلق أما المتمكن من خلقه، هو في الأعماق، هو في رأس جبل ماذا يفعل معه موج البحر، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما مدحه الله، مدحه بحسن الخلق، قال تعالى:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4))

(سورة القلم)

والحقيقة المؤمن المتفوق كالطود الشامخ، انظر إلى سفينة هي كالجبل في البحر، الأمواج لا تنال منها لكن انظر إلى قارب صغير تتلاعب به الأمواج كيف تشاء، فكلما ازداد إيمانك، ازداد رسوخك وعلا شأنك،

((... الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ...))

دان نفسه قال بعض العلماء، غير ضبط، حاسب نفسه حساباً عسيراً، ومن حاسب نفسه حساباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيراً، أنت انظر إلى الدنيا أيام يكون شخص مخيف، من حوله يحاسبون أنفسهم حساباً عسيراً، فإذا حاسبهم ليس له معهم كلام، كل قضية فيها توقيع أخذ موافقة مسبقة، وهذه فيها إيصال، إذا إنسان يخاف على سمعته ويوجد شخص آخر لعله يحاسبه حساباً عسيراً لا يتحرك حركة إلا بوثيقة، اشترى شيء أخذ فاتورة، إن تحرك حركة أخذ موافقة، فإذا حاسبه هذا القوي يقول له سافرت وهذا أمر السفر، أنفقت وهذه الفواتير، الإنسان إذا عامل خالق الكون حاسب نفسه حساباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيراً، أما هؤلاء الذين يقولون لا تدقق، هذه لا تدقق لا آية ولا حديث، هذه شيطانية، لا دقق، الله عز وجل سوف لا يحاسبنا، كل آيات المغفرة تليها آيات العقاب، قال تعالى:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50))

(سورة الحجر)

لسيدنا هذه المقولة التي يقولها الخطباء على المنابر، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، و اعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا وسيتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا وَأَحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا وَأَقِلَّ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ))

يعني أعبد الناس لا في كثرة صلاته، بل في شدة ورعه، كن ورعاً تكن أعبد الناس، يوجد شخص يصلي الصلوات الخمس ويصلي النفل، والضحى ثماني ركعات والأوابين، وقيام الليل شيء رائع جداً، لكن والله الذي لا إله إلا الله إن لم يكن ورعاً لا تنفعه هذه الصلوات الخمس لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((. كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ...))" ورعاً على وزن فعل من صيغ مبالغة اسم الفاعل، وقنع أيضاً على وزن فعل من صيغ مبالغة اسم الفاعل.

((وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا...))

علامة لإيمانك أن تحب للناس ما تحب لنفسك، ويوجد رواية أخرى وأن تكره لهم ما تكره لها، إذا إنسان إيمانه قوي يعطي الآخرين ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، أما التعبير العامي الطرية لحلقه واليابسة لغيره، هذا خلاف الدين، بالحقيقة المؤمن يبني حياته على العطاء لا على الأخذ، يبني حياته على الموءاثرة، كان مع النبي سواكان أحدهما معوج والآخر مستقيم أعطى المستقيم لأحد أصحابه وترك لنفسه المعوج، أنت لاحظ إذا اثنين قسموا تفاح أو بيض، الكبيرة إليه، خد أحمر إليه، الصفراء إليه، الصغيرة إلى عند أخيه الفرق لا يقدم ولا يؤخر، ولكن تكشف حقيقة الإنسان أما المؤمن دائماً وأبداً يؤثر أخاه، حياته أساسها الإيثار.

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا وَأَحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا وَأَقِلَّ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ))

أنا ذكرت مرةً أن أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام كانوا في سفر وليس معهم ما يأكلون، فأعطوا رغيفاً فأميرهم ارتأى أن يقسم هذا الرغيف إلى قطع صغيرة وكان الوقت ليلاً كل صحابي تصنع أنه يأكل وكلهم جائعون، لكنه لا يأكل من أجل أن يأكل أخوه، قل هذا في الطعام أما في مشهد للصحابة العقل لا يصدقه، في إحدى المعارك أربعة جرحى من أصحاب رسول الله، والجريح كما تعلمون لو أنك أعطيته كأس ماء لأعطاك ثمنه كل ما يملك في الحياة، الإنسان عندما ينزف دمه يشعر بعطش لا يقاوم، فجاء أحد الأصحاب معه شربة ماء جاء إلى الأول فقال أعطها لأخي لعله أحوج مني،

الثاني قال أعطها لأخي، الثالث قال أعطها لأخي الأخير توفي قبل أن يشرب، عاد إلى الثالث فوجده قد مات، عاد إلى الثاني فوجده قد مات، عاد إلى الأول فوجده قد مات، أربعة جرحى ينازعون ما قبل أحدهم أن يشرب ماءً دون أخيه، هكذا ربى النبي أصحابه الكرام، الآن تجد مائة وخمسين حجي على طائرة يتقاتلون على الصعود، والمائة والخمسون لهم مائة وخمسون مقعداً، هل يوجد حجي على الواقف، حجاج بيت الله الحرام بنظام الطيران هل يوجد أحد على الواقف إلى جدة ؟ وكل إنسان له رقم يجلس فيه، هذا الطقم غير ذلك الطقم، هذا طقم ثاني.

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا...))

والله مرة في أيام الحج بعد ما مضى على انتهاء الحج أكثر من أسبوعين، تقريباً الحرم المكي لا يوجد أحد لأن الحجاج إما إلى بلادهم أو إلى زيارة الحرم المدني، قليلون جداً حول الكعبة، اخترت وقتاً من أضعف الأوقات قبل العصر بربع ساعة والحر لا يحتمل، يوجد تقريباً عشرون شخص واقفون لتقبيل الحجر الأسود والله لو وقفوا في رتل لقبلوه جميعاً في خمس دقائق أما الازدحام والدفع والضرب أيعقل هذا ؟ هل هم في عبادة ؟ تفقهوا قبل أن تحجوا، أحياناً الحاج يدع فريضةً ليدرك سنة هذا من ضعف فقه، أين أصحاب رسول الله وهم على فراش الموت، آثروا أخوانهم بشربة ماء،

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا وَأَحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا وَأَقِلَّ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ))

يقولون أبو حنيفة النعمان رضي الله عنه له جار مغني، هذا الفقيه العظيم، وكان يزعجه ولا ينيمه الليل وهو يغني طوال الليل، أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وطعان خلس.

ألقي القبض عليه بمخالفة، فذهب بنفسه ليشفع له، طبعاً حينما دخل على المحتسب، مثل مدير شرطة، ما صدق فأخرج كل من في السجن إكراماً له، في طريق العودة هل أضعناك، الجار غالي من ما يكون، أنا مرة لي صديق في أحد أحياء دمشق، مرة طرقت الباب فلان قالوا لا نعرفه، في الطابق الذي فوقهم وهو يسكن من سنتين، السلف الصالح إذا الإنسان تخلف عن صلاة الفجر يأتينه كل أخوانه ضحى ذلك اليوم، الأحياء أسرة واحدة، نحن بالإمكان أن نعيد هذه الأمجاد، بالتعامل الطيب، بالسؤال، بالتفقه، بعيادة المريض، النبي قال أتدرون ما حق الجار، إذا استعان بك أعنته، إذا نصرك نصرته، إذا استقرضك أقرضته، إن مرض عدته، إن مات شيعته، إن أصابه خير هنأته، إن أصابته مصيبةٌ عزيته، لا تستطل عليه بالبناء فتحجب الريح إلا بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فأهدي له منها، فإن لم تفعل فأدخلها سراً ولا يخرج ولدك ليغظ ولده ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها، هذا حق الجار.

أنا أذكر إلى سنوات عديدة، كل بيت يقدم للجار طبق من طعامه يتبادلون، تجد على المائدة أطباق عديدة، يقدم طبق ويأخذ طبق لا يوجد خسارة تعادل، ولكن يصبح مودة، إذا الإنسان أحب أن يتزوج حوله خمسين أربعين أخ، هذا قدم له سجادة، هذا قدم له حاجة، خمسة قدموا له براد، وثمانية قدموا له سجادة هذا شيء يورث المحبة والمودة، وهذا المتزوج سوف يرد كل هذه الهدايا بعد حين، ولكن التعاون جيد، أيام يكون تعادل أخذت كما أعطيت ولكن ما الذي تركته المحبة، والصلة، أنا لا أتصور أن إنساناً مؤمناً مسلماً له أخوان أصحاب إلا وهو يعاملهم أرقى معاملة وإلا ما قيمة إسلامه، هل الإسلام معلومات ؟ ليس معلومات، إذا ظننت أن الإسلام ثقافة والعبادات طقوس هذا ليس إسلاماً، الإسلام أخلاق.

روى ابن ماجة أيضاً:

((عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ وَلا وَرَعَ كَالْكَفِّ وَلا حَسَبَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ))

ما قولك إنسان يبيع بيته ويقبض ثمنه عملة صعبة، ويوجد معه جهاز في جيبه لكشف العملة المزورة، ولا يستخدمه، ثم يفاجأ أن كل المبلغ مزيف، أين عقله وكل إنسان يوجد عنده عقل لا يندم إلا إذا عطل عقله علامة استخدام العقل أن لا تندم، علامة استخدام العقل أن تعيش المستقبل لا أن تعيش الماضي، ضعاف العقول يعيشون الماضي، متوسطوا العقول يعيشون الحاضر، حياته رد فعل، فعل ورد فعل، ألعوبة بين الناس، المجتمعات المتخلفة تبني حياتها على ردود الأفعال الأقوياء يخلقون لها ظروف ومهمتها أن ترد على هذه الأفعال، لردود هم يعرفونها مسبقاً، أما الأمم القوية تعيش المستقبل تخطط لعشرة أعوام قادمة هذا على مستوى الحضارة، أما على مستوى الإيمان بالله واليوم الآخر كلما زاد عقلك، كلما رجح عقلك تعاملت مع المستقبل كيف سألقى الله، كيف سأجيب الله.

((. لا عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ وَلا وَرَعَ كَالْكَفِّ...))

يوجد قصة رويتها لكم قديماً شاب في ريعان الشباب افتتح مكتبة في أحد أحياء دمشق يبدو يوجد ثانوية بنات، فتاة متفلتة غير مهذبة، ألانت له القول وكأنها دعته إلى الفاحشة فأغلق المحل وتبعها وهو في الطريق وراءها وكان قد حج بيت الله الحرام، فجرى صراع بينه وبين نفسه إلى أين أنت ذاهب يا فتى؟ تصور أنه إذا اقترف الفاحشة ضاعت عليه حجته، فكف راجعاً، غلب خوفه من الله على شهوته، هذا الشاب أنا قبل عشر سنوات كان حياً يرزق طبعاً صار كبيراً في السن، هذه القصة قديمة جداً، يقسم بالله العظيم في اليوم التالي وقف على دكانه أحد وجهاء الحي وسأله السؤال التالي: يا بني أنت متزوج، قال: لا، قال: أرسل أمك عندي بنت تناسبك، سبق إلى ذهنه أن هذه الفتاة فيها عيب، فعرضها أبوها عليه فوجئت أمه بأنها من أرقى مستوى صلاحاً في دينها وكمالاً في خلقها، جاءه بعد يومين، قال له: كيف

وجدت أمك الفتاة يا بني، قال له: جيدة جداً، ولكنني لا أملك شيئاً، فقال له: هذا ليس شأنك، وكان أبوها من تجار الزيت الكبار، باع محله وجعله معه شريك في هذه التجارة ولعشر سنوات أعرفه حياً يرزق وهو من كبار أغنياء الشام، ماذا فعل ؟ الكف قال معاذ الله إني أخاف الله رب العالمين، لا ورع كالكف، الإنسان وإذا نفسه حدثته بالنهاية ما فعل شيء هو عند الله من المقبولين أما إذا نفسه لم تحدثه أرقى، أما لو أن نفسه ضعفت ثم تغلب عليها هذا شيء جيد، يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ وَلا وَرَعَ كَالْكَفِّ وَلا حَسَبَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ))

رجل يرتدي أجمل ثياب وتكلم بكلام بذيء قال له إما أن تتكلم مثل لباسك أو البس مثل كلامك، يوجد إنسان يقول نحن من بيت فلان نحن من أرقى عوائل المدينة، خير إن شاء الله، النبي قال: أنا جد كل تقي ولو كان عبداً حبشياً، وقال أيضاً: سلمان منا أهل البيت، نعم العبد صهيب

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ وَأَهْلِ الْجَنَّةِ أَمَّا أَهْلُ الْجَنَّةِ فَكُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ أَشْعَثَ ذِي طِمْرَيْنِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ وَأَمَّا أَهْلُ النَّارِ فَكُلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ ذِي تَبَعٍ))

هذا هو ميزان الإسلام.

لا تقل أصلي وفصلي أبداً إنما أصل الفتى ما قد حصل

لا تفتخر افتخاراً جاهلياً الافتخار بالآباء افتخار جاهلي، الافتخار بالشكل ليس لك به جهد، وليس لك حق أن تنتقض إنسان شكله أقل مما يجب، هذا كأنه انتقاد لشكل الله عز وجل، إنسان الله خلقه بقوام معين، بطول معين، بلون معين، بشعر معين، بعاهة معينة، فكلما كنت أديباً مع الله احترمت هذا الإنسان، أما لو أخطأ أنت علاقتك مع الناس بالشرع، ألم يقل أحد التابعين، كان قصير القامة، أسمر اللون، غائر العينين، ناتئ الوجنتين، أحنف الرجل، مائل الذقن، ليس شيء من قبح المنظر إلا وهو أخذ منه بنصيب، وكان مع ذلك سيد قومه، قال: إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف سيف لا يسألونه لما غضب، وكان إذا علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه.

الإنسان قيمته بعلمه وعمله، إذا كنت جاهلياً تقيمه بماله، المال بيد الله عز وجل، يوجد فقر القدر، وفقر الكسل، لا تقيمه بماله ولا بشكله ولا إذا معه عاهة هذا ليس له علاقة، قيمه بعلمه وعمله، تقييم إسلامي وتقييم جاهلي، لا أخفيكم أنه واحد ممن كان مع النبي عليه الصلاة والسلام، الصحابة غير معصومين بساعة غضب قال لسيدنا بلال: يا ابن السوداء، فالنبي غضب غضباً ما غضبه من قبل، قال له: إنك امرئً فيك جاهلية.

سيدنا بلال أساساً ما أدري تصدقون أن سيدنا عمر عملاق الإسلام خليفة المسلمين، يخرج من المدينة إلى ظاهرها لاستقبال بلالٍ، الآن رئيس دولة يخرج إلى مدخل مدينة لاستقبال مواطن عادي ؟ هذا

شيء غير مألوف بالأمور العامة، سيدنا عمر بن الخطاب خرج إلى ظاهر المدينة لاستقبال بلال، سيدنا الصديق وضع يده تحت إبطه وقال: هذا أخي حقاً هذا هو الإسلام، لذلك أنا أقول لكم حقاً أيها الأخوة لا يضاف إلى كلمة مؤمن ولا كلمة، لأن أية كلمة تضيفها إلى مؤمن هذه إضافة جاهلية، المؤمن الإيمان صبغه بصبغة الكمال، تحبه غنياً، تحبه فقيراً، تحبه محدود الدخل، تحبه كبير الدخل، تحبه وسيم الطلعة، تحبه ذميم الهيئة تحبه مدنياً، تحبه ريفياً، تحبه من أرقى الأسر، تحبه من أقل الطبقات الاجتماعية شاناً، المؤمن مؤمن، هذا الإيمان غير هذا لا يوجد عندنا.

((عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا عَائِشَةُ إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الأَعْمَالِ فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا))

أحياناً نظرة ليست أديبة، أحياناً ابتسامة سخرية، أحياناً مط الشفتين، لي العنق، تصعير الخد، لم يتكلم ولا كلمة ولكنه صعر خده، دخل إلى بيت فكشر، كيف يسعك هذا البيت ؟ هذا اسمه سلوك حشري، الإنسان كلما تواضع يرقى، كلما استعلى يسقط، قال لي البارحة شخص طرفة أنه دخل إلى مطار باستعلاء غير معقول بكبر، وعنجهية وغطرسة فالموظف اغتاظ منه كثيراً فمتاعه كله أرسله إلى مدينة عكس سفره بعد أن ابتعد ابتسم، فقال له لماذا تبتسم، لأنه لا يعلم ماذا سيكون بعد حين، أيام شخص صغير يزعج جداً، أقل الناس شأناً يسببون للكبار مشكلات كثيرة، هو موظف عادي لماذا الكبر ؟ هو ذهب إلى أمريكا وضع المتاع إلى طوكيو، سوف يبعث فاكسات وينتظر يومين ثلاث.

((... يَا عَائِشَةُ إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الأَعْمَالِ فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا " بالمناسبة أيها الأخوة النبي عليه الصلاة والسلام قال: " عَنْ جَابِرٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ))

لكن ماذا بقي محقرات الأعمال ولكن رضي فيما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم، أنا قلت لكم دائماً الخط العريض من المسلمين لا أحد يشرب الخمر، من معظم المسلمين، ولا يوجد قتل ولا زنا، ولكن يوجد غيبة أحياناً، نميمة، نظرة غير صحيحة، هل معقول إنسان يحجب عن الله بأشياء قليلة ؟ إذا الإنسان ارتكب الكبائر محجوب طبعاً لأسباب وجيهة، أما إنسان يحجب لأسباب تافهة ليس معقول، الشيطان حينما يئس أن يعبد غير الله في بلاد المؤمنين رضي مما يحقره المسلمون من أعمالهم.

هذا الحديث دقيق وخطير:

((عَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

يعني المعلن رائع وإذا خلا مع نفسه لا يتقي الله، هذا معنى القول المأثور من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله، قصة نختم بها الدرس:

((عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ: خَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ وَعُبَيْدُ اللَّهِ ابْنَا عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي جَيْشٍ إِلَى الْعِرَاقِ فَلَمَّا قَفَلا مَرَّا عَلَى أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ وَهُوَ أَمِيرُ الْبَصْرَةِ فَرَحَّبَ بِهِمَا وَسَهَّلَ، ثُمَّ قَالَ: لَوْ أَقْدِرُ لَكُمَا عَلَى أَمْرٍ أَنْفَعُكُمَا بِهِ لَفَعَلْتُ، ثُمَّ قَالَ: بَلَى هَاهُنَا مَالٌ مِنْ مَالِ اللَّهِ أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَ بِهِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَأُسْلِفُكُمَاهُ فَتَبْتَاعَانِ بِهِ مَتَاعًا مِنْ مَتَاعِ الْعِرَاقِ ثُمَّ تَبِيعَانِهِ بِالْمَدِينَةِ فَتُؤَدِّيَانِ رَأْسَ الْمَالِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَيَكُونُ الرِّبْحُ لَكُمَا فَقَالا...))

شيء جميل مبلغ من المال معد إلى إرساله إلى المدينة.

((... وَدِدْنَا ذَلِكَ فَفَعَلَ وَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُمَا الْمَالَ فَلَمَّا قَدِمَا بَاعَا فَأُرْبِحَا فَلَمَّا دَفَعَا ذَلِكَ إِلَى عُمَرَ، قَالَ: أَكُلُّ الْجَيْشِ أَسْلَفَهُ مِثْلَ مَا أَسْلَفَكُمَا، قَالا لا، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: ابْنَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَأَسْلَفَكُمَا أَدِّيَا الْمَالَ وَرِبْحَهُ، فَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ فَسَكَتَ وَأَمَّا عُبَيْدُ اللَّهِ فَقَالَ: مَا يَنْبَغِي لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا لَوْ نَقَصَ هَذَا الْمَالُ أَوْ هَلَكَ لَضَمِنَّاهُ...))

هنا مناقشة فقهية

((... فَقَالَ عُمَرُ: أَدِّيَاهُ فَسَكَتَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَاجَعَهُ عُبَيْدُ اللَّهِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ جُلَسَاءِ عُمَرَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَوْ جَعَلْتَهُ قِرَاضًا فَقَالَ: عُمَرُ قَدْ جَعَلْتُهُ قِرَاضًا، فَأَخَذَ عُمَرُ رَأْسَ الْمَالِ وَنِصْفَ رِبْحِهِ وَأَخَذَ عَبْدُ اللَّهِ وَعُبَيْدُ اللَّهِ ابْنَا عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ نِصْفَ رِبْحِ الْمَالِ))

المال ليس مالكما، هذا المال مال بيت مال المسلمين فربح فرضاً هل المائة ألف ربحوا ألفاً هذه الألف بين صاحب الجهد و صاحب المال، فأديا رأس المال مع نصف الربح.

((... فَأَخَذَ عُمَرُ رَأْسَ الْمَالِ وَنِصْفَ رِبْحِهِ وَأَخَذَ عَبْدُ اللَّهِ وَعُبَيْدُ اللَّهِ ابْنَا عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ نِصْفَ رِبْحِ الْمَالِ))

يوجد قصة مشابهة تعرفونها، لما رأى سيدنا عمر إبل، قال: لمن هذه الإبل، قالوا: هي لابنك عبد الله، فقال: ائتوني به، فلما جاء رآه غاضباً، قال: لمن هذه، قال: هي لي اشتريتها بمالي وبعثت بها إلى المرعى لتسمن فماذا فعلت ؟ قال: يقول الناس ارعوا هذه الإبل فهي لابن أمير المؤمنين، اسقوا هذه الإبل فهي لابن أمير المؤمنين، وهكذا تسمن إبلك يا ابن أمير المؤمنين، طبعاً باستهزاءً، أنت تعرف لماذا سمنت هذه الإبل لأنك ابني، قال له بع هذه الإبل وخذ رأس مالك ورد الباقي لبيت مال المسلمين، هذا هو الورع.

((عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَجْرَؤُكُمْ عَلَى الْفُتْيَا أَجْرَؤُكُمْ عَلَى النَّارِ))

كلمة جبان في الفتيا مدح أم ذم ؟ مدح، كن جبان في الفتية لا تستعجل قل لا أدري، قل دع هذه المسألة أسبوع حتى أتأمل فيها، في الفتية لا تكن سريعاً في الإجابة.

((عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تَعِيرُ فِي هَذِهِ مَرَّةً وَفِي هَذِهِ مَرَّةً لَا تَدْرِي أَيَّهَا تَتْبَعُ))

لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، لأنه لا يوجد ورع، لا يقطف ثمار المؤمنين وليس يعد مع الكفار، مشكلة المنافق لا يقبله المؤمنون ولا يقبله الكفار لأنه ما أعلن كفره، أعلن إسلامه، قال تعالى:

(مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (143))

(سورة النساء)

والإنسان بالدين لا يوجد حل وسط، أنا أضرب مثل أنت مهندس وتقيم بناء لإنسان، قلت لصاحب البناء نحتاج ثمانية طن من الحديد، وخمسة طن إسمنت، إذا قلت له لا يوجد معي مال كافي، يكفي اثنين طن، ويكفي أربعة طن، هل يقبل معك المهندس، هل يوجد فيها حل وسط هذه، هذا علم أقل من ذلك يقع البناء، الدين لا يوجد فيه حل وسط، الدين نظام كامل، يجب أن تأخذه كله، أما إذا تريد أن تقلل من الالتزام

تجد نفسك كما قال النبي لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، ليس محسوباً مع الكفار لأنه مسلم ولا يقطف ثمار الإسلام لأنه ليس مستقيم استقامة كاملة لذلك يجب على الإنسان يحدد هويته أنا مؤمن ورب الكعبة، والمؤمن له خصائص وخصائصه الالتزام

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (081) :الدعوة إلى الله .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-05-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، هناك خلافات بين الناس، مشاحنات، عداوات، بغضاء، تحاسد، تنافس، تقاطع، تدابر، هناك علاقات فاسدة بين الناس، هذا شأن أي مجتمع، و لكن أي مجتمع بعيد عن الله عز وجل، أي مجتمع غير منضبط بكتاب الله و سنة رسوله، أيْ إنسان أودعت فيه شهوات، ليس منضبطا بالكتاب والسنة، هذه الشهوات لا بد من أن تتحرك، لا بد من أن تنطلق لتُروّى، بطري مشروع، أو بطريق غير مشروع، حينما تأخذ ما لك و ما ليس لك، و حينما تستمتع بما لك و بما ليس لك، تنشأ العداوات و الخصومات و التجاوزات، و الانحرافات و الطغيان، النبي عليه الصلاة و السلام في أحاديث كثيرة و صحيحة تزيد عن تسعة أحاديث رغّبنا في الإصلاح بين الناس.

أيها الإخوة الأكارم، الإنسان غالبا ما يكون له أحد دورين ؛ دور الموفّق، دور المبعِّد، دور المقرِّب و دور المبعِّد، دور المصلح، دور المفسد، دور الذي يقيم علاقات طيبة بين الناس، دور الذي يقيم علاقات خبيثة و فاسدة بين الناس، فالمؤمن ليس منا من فرّق، المؤمن دوره دائما التقريب والإصلاح و التعاون و التوحيد و التواصل، والتزاور، غير المؤمن الإفساد، أن يوقع بين الناس العداوة و البغضاء، شأنه شأن الشيطان، إذًا مقدمة هذه الأحاديث أن المجتمع الإنساني بسبب أن فيه المؤمن والكافر، فيه المنضبط وغير المنضبط ، وفيه المسيء، الإنسان مادام يتحرك بلا منهج لا بد من أن يعتدي، و المعتدي يُعتدى عليه، و حينما تنشأ العداوة ينشأ معها البغضاء، إذًا من طبيعة المجتمعات الإنسانية غير المنضبطة أو المقصرة، مجتمع مسلم و لكنه مقصِّر، النميمة و الغيبة و التجاوز و السخرية تسبب العداوات، أنا أقول لكم و اخترت هذا الموضوع بالذات لأن ما من مجتمع في قرية في المدينة، في حي، على مستوى أسرة، على مستوى حي، على مستوى قرية، على مستوى مجتمع إلا وفيه تحزُّبات و عداوات ومشاحنات و تدابر و تقاطع، ما دور المؤمن في مثل هذه الحالات، دوره دور الإصلاح، هذا شأن المؤمن، و إليكم هذه الأحاديث الشريفة الصحيحة التي وردت في كتاب الترغيب و الترهيب للإمام المنذري وهو من أجل كتب الحديث و من أمتعها.

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّ سُلَامَى مِنْ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ يَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ وَيُمِيطُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ))

(رواه البخاري)

أي الإنسان إذا طلعت عليه شمس يوم و عدل بين اثنين، أي وفّق بينهما، أصلح بينهما، قد يكونان زوجين، الآن المشكلة تنشأ بين زوجين، كل طرف تأبى عليه نفسه أن يبادر إلى الطرف الثاني، طيب التدابر يزداد، الهوة تزداد، الأقرباء ينفخون في هذه المشكلة فيزيدونها تفاخما، هؤلاء المؤمنون الطيبون هم الذين يتدخلون عند كلا الطرفين ليوفّقوا بينهما، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّ سُلَامَى مِنْ النَّاسِ

((عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ يَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ وَيُمِيطُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ))

(رواه البخاري)

رواه البخاري و مسلم، طبعا يعنينا من هذا الحديث الصحيح الفقرة الأولى منه، أن الإنسان إذا وفّق بين صديقين، بين جارين، بين شريكين، بين أخوين، بين أم وابنها، بين أب وابنه، بين أخ و أخيه، بين صاحب وصاحبه، بين زميل وزميله، إذا وفقت بين اثنين فهذه صدقة، و قد يعجب الإنسان " أنا دخلي محدود، فكيف أتصدق ! أبواب الصدقات لا تعد و لا تحصى، أبوب الصدقات التي فُتحت أبوبها أمام المسلمين لا تعد و لا تحصى، أليس في عائلتك، في جوارك، فيمن حولك، فيمن يلوذ بك شخصان متخاصمان، بإمكانك أن تأتي هذا وأن تأتي هذا، تعطّف قلب هذا على هذا، وتعطّف قلب هذا على هذا، تجمع بينهما عندك في البيت، تزور كلا منهما على حدة، تصالحهما، هذه صدقة من أجلِّ الصدقات، لأن المجتمع المسلم كلما كان متفكّكا كلما كان ضعيفا، و كلما كان متفككا كان صغيرا في نظر الآخرين، الآن أكبر مأخذ على المسلمين، " أنتم فيما بينكم متعادون " على مستوى الجماعات الدينية، كل جماعة تطعن في الأخرى، كل إنسان يعدّ نفسه محور العالم، وما سواه على باطل، هذا شيء يفرّق بين المؤمنين، فعلى مستوى بلدة واحدة كل جماعة تدّعي أنها الوحيدة الناجية، و ما سواها هالك، و الثانية الوحيدة الناجية و ما سواها هالك، نحن في نظر عامة الناس نصغر في أعينهم، أولا نضعف، و ثانيا نصغر، الله عز وجل قال:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

[سورة الحجرات]

فأنت قوي بأخيك ضعيف وحدك، أنت قوي إذا تعاونت مع أخيك، فنحن الأحاديث التي ذكرها النبي عليه الصلاة و السلام و التي أشرح بعضها في جامع العثمان كثيرة جدا، بل إن جزءا من الدين ذو طابع جماعي، عدد كبير من أخلاق المؤمن لا تكون لا في جماعة.

(وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ)

(رواه أبوداود)

و في دروس كثيرة بيّنت لكم معنى إصلاح ذات البين، ذات البين هي نفسك التي بين جنبيك، فإصلاح ذات البين أن تصلحها، و أن تطهرها من كل درن، أن تسموَ بها، و أن تحملها على طاعة الله، أن تصلح سريرتها، أن تصلح علانيتها، أن تصلح أقوالها، أن تصلح أفعالها، أن تصلح أحوالها، أن تعرّفها بربها، أن تحملها على مكارم الأخلاق، أن تحملها على القربات، هذا إصلاح ذات البين، و هناك إصلاح ذات البين ؛ أن تصلح كل علاقة بينك و بين الآخرين، أحيانا تلاحظون شركات الطيران تضع دعاية في بعض المجلات، تجعل العاصمة التي هي مقرها نقطة مركزية و خطوط إلى كل عواصم العالم، كل شركة طيران لها عاصمة تتخذها مركزا لها، هي عاصمة البلد التي هي فيه، و خطوطها كلها متجهة إلى جميع أنحاء العالم، المعنى الثاني أنك أنت المركز، علاقتك مع أخيك، علاقتك مع أبيك، علاقتك مع أمك، علاقتك مع أولادك، علاقتك مع جيرانك، علاقتك مع أستاذك، علاقتك مع إخوانك، علاقتك مع زبائنك، علاقتك مع رؤسائك، علاقتك مع مرءوسيك، المعنى الثاني إصلاح ذات البين إصلاح أيَّة علاقة بينك و بين الآخرين، المعنى الأول إصلاح نفسك وحدها، والمعنى الثاني إصلاح أيّة علاقة بينك و بين الناس، و المعنى الثالث إصلاح أيّة علاقة بين شخصين، لست أنت أحدهما.

فيا أيها الإخوة الأكارم، واللهِ إصلاح ذات البين باب كبير من أبواب الخير، و أنا متأكّد و ما اخترت هذا البحث اليوم إلا لأنني أعرف أن طبيعة حياتنا المادية، طبيعة الغفلة عن الله عز وجل، بسبب عدم الانضباط بالشرع، بسبب عدم ضبط اللسان، بسبب الطغيان أحيانا، بسبب الأثرة، بسبب حب الذات، بسبب تجاوز الحدود تنشأ خلافات بين الأسر، و مشكلات، تدابر، تباغض، تحاسد، تخاصم، تجريح، نهش أعراض، إلقاء تهم، فأنت أمامك باب كبير كبير من أبواب الخير، بإمكانك كمؤمن أن تجمع بين هؤلاء المتخاصمين، أن توفّق بينهما، أن تصلح بينهما، أن تقرّب أحدهما إلى الآخر، و لك أن تقول شيئا ما قاله أحدهما في الآخر، و لست كاذبا، لست كاذبا، و النبي عليه الصلاة و السلام يؤكّد في أحاديث كثيرة

((عَنْ أُمِّ كُلْثُومٍ بِنْتِ عُقْبَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا))

(رواه البخاري)

لو أنك قلت له قولا ما قاله فيه صاحبُه، إنه أثنى عليك و يكِنُّ لك مودة كبيرة، و لا ينسى لك فضلك عليه، تجد القلب يلين، و إذا قلت للآخر مثل هذا القول، أنت هويتك تعريفها، المبعِّد فاسق و كافر،

فاسق، و المقرِّب مؤمن، حديثك، تصرفاتك، نظراتك، حركاتك، سكناتك إذا أدّت إلى التباعد فهذه صفة أهل الفسق و الفجور، حركاتك و سكناتك ومواقفك إذا أدن إلى التقارب فهذه صفة أهل الإيمان، تعرف نفسك أنت من آثار أعمالك، مثلا ؛ يمكن أن زور أختك في العيد وز تقدم لك فاكهة اشتراها زوجها، من انتقى هذه ؟ هي تستحي بزوجها، و بهذه الفاكهة التي اشتراها زوجها، مساء تعاتبه، قد يكون الزوج مضغوطا ماديا ينفجر، يتلاسنان و يتصايحان، أنت حينما مططت شفتيك و ازوررت عن هذه الفاكهة التي قدّمتها لك أختك كنت سبب هذه الخصومة التي استمرت أسبوعين بين الزوجين، أنت إذًا مبعِّد، تفاحات صغيرة، يا أختي التفاح الصغير طيب جدا، لهم نكهة خاصة، أنا آتي لأولادي التفاح الصغير، هذا جبر خاطر، دائما أثن على ما قُدِّم إليك، أما أنت إذا اتّهمت أو أزوررت أو غنمت هذا الطعام، وهي قدّمته لك كضيافة، و هي انزعجت و خجلت أمامك، و صبّت غضبها على زوجها مساء، و زوجها مضغوط ماديا، وانفجر عليها، انظر دورك أنت، إما أن تقرِّب فأنت مؤمن، وإما أن تبعِّد، أحيانا إنسان يزور أشخاصا، و البيت صغير، كيف وسعكم هذا البيت، شيطان يتكلم، قد وسعهم، و النبي عليه الصلاة و السلام كان إذا صلى قيام الليل رفعت السيدة عائشة رجليها، لأن بيته الصغير لا يتّسع لصلاته و نوم زوجته، فإذا رأيت بيتا صغيرا فتكلم هكذا، بيت رسول الله كان صغيرا، المؤمن كل كلامه فيه جبر خاطر، لو دُعي إلى طعام متواضع جدا، و النبي دُعي إلى الخل، قال،

((عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ نِعْمَ الْأُدُمُ أَوْ الْإِدَامُ الْخَلُّ))

[رواه مسلم]

ما هذا الأدب ؟ فكلما تواضعت، و كلما قرّبت بين الناس، الفاسق يبعِّد بينهم بتعليقات، بنظرات، بحركات وجه، بمط شفة أحيانا، بحركة حواجب، بحركة عينين شيطانيتين، تجده قد نقّر و بعّد، فالمؤمن يقرِّب، و الفاسق يبعِّد، المؤمن يوفِّق، و الفاسق يفسد، والمؤمن يقيم علاقات طيبة بين الناس، و الفاسق يقيم علاقات خبيثة بين الناس، الفاسق يشكِّك، أنت تصدِّقه في هذا الكلام، نزع لك كل ثقتك من هذا الشخص، شخص جاءك معتذرا و مستسمحا، صدَّقته أنه كان البارحة مشغولا، لا تصدقه، أنت كنت مصدقه، فجاء فشكّك، و قال لك: لا تصدقه، هذا كذّاب، فأنت حملن بنفسه عليه،إذًا:

((عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال عليه الصلاة و السلام: وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ))

[رواه أبوداود]

و في رواية أخرى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((هِيَ الْحَالِقَةُ لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ))

[رواه الترمذي]

إذا كنا نحن على مستوى مسجد واحد هناك بعض خصومات، على مستوى عدة جوامع هناك مهاترات، ومطاعن، و على مستوى بلدة فيها الآلاف الخصومات، فما هذه الأمة التي يُرحى منها الخير، و كيف تنتصر على أعدائها، كيف تكون ذا هيبة عند عدوها، قال تعالى:

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

[سورة الأنفال]

إذًا التركيز على أن إصلاح ذات البين أن تصلح نفسك، أو أن تصلح كل علاقة بينك وبين الآخرين، أو أن تصلح علاقة بين اثنين لست أنت أحدهما، هذا المعنى.

((وعَنْ أُمِّ كُلْثُومٍ بِنْتِ عُقْبَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا))

(رواه البخاري)

أحيانا الابن يرتكب أخطر عمل وهولا يدري، هناك مشكلة بين الأب و الأم، ماذا قالت أمك في غيابي؟ فيقول: لا تريدك، أو ماذا قال أبوك ؟ قال: هو يبحث عن ثانية غير هذه الزوجة، يأتي الابن وهو لا يدري بسذاجة أو بخبث يفسد العلاقة بينهما، لو كذب الابن فلا مانع، انظر إلى الحديث، لو قال: واللهِ قال بعدما ذهبت: واللهِ أنتِ غالية عليه، لا يهون عليه أن يغضبك، لو أقسم بالله فليس عند رسول الله كاذبا، لأنه يصير هناك توفيق، وأفضل شفاعة أن تشفع بين اثنين، أن توفّق بينهما، لذلك

((عَنْ أُمِّ كُلْثُومٍ بِنْتِ عُقْبَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا))

(رواه البخاري)

تصريح من النبي، رخصة من النبي في حديث صحيح، أن النبي صلى الله عليه و سلم قال:

((عَنْ أُمِّ كُلْثُومٍ بِنْتِ عُقْبَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا))

(رواه البخاري)

نمَّى غير نمى، نمى أوصل، يقال: نُمي إلي، أي وصلني، أما نمّى منه النمّام الذي ينقل الأخبار السيئة بين الناس، قال علماء اللغة: نميت الحديث بتخفيف الميم، وليس نمّيت، نميت الحديث إذا بلّغته على وجه الإصلاح، و بتشديدها، على وجه الإفساد، نمَّيت بين اثنين، أوقعت بينهما العداوة و البغضاء.

((وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال: ما عمل شيء افضل من الصلاة، وإصلاح ذات البين، و خلق جائر بين المسلمين))

إصلاح ذات البين أي وإصلاح خلق جائر بين المسلمين، أحيانا هناك أشخاص أخلاقهم شرسة، أخلاقهم قاسية، أي شريرون، هذا الشرير هو في أمس الحاجة إليك، أحيانا إخواننا يجدون شخصا سمته

حسن صالح مؤمن مستقيم، يعتني به زيادة، هذا يمشي بنفسه، المؤمن المستقيم الصالح الحيي الوقور المتعلم طالب العلم، هذا ليس بحاجة إليك، لكن الذي في أمس الحاجة إليك، شخص مقصِّر، شخص طائش، يحتاج إلى ترشيد، إلى إصلاح، إلى توعية، إلى تهذيب، فالكلمة التي سمعتها أنا مرة من إنسان، تركت في نفسي أثرا كثيرا، توفي رحمه الله، قال لي: ابني الجيد لا يحتاجك، أنت يحتاجك واحد رديء، أي الشخص المقصِّر هو الذي يحتاجك، يحتاج إلى علمك، و يحتاج إلى حكمتك، وإلى تقديرك، و إلى حلمك، أما الشخص الجيد فليس له حاجة لك، هو منطلق، فلما أنت تعتني بشخص ممتاز، لم تفعل شيئا، هو من دونك ممتاز، أما بطولتك تكمن أن تجعل من إنسان سيئ ممتازا، في إنسان مقصر ممتازا.

((وعَنِ عبد الله بْن عمر أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أفضل الصدقة إصلح ذات البين....." أفضل الصدقة على الإطلاق إصلاح ذات البين، انظر الأحاديث التي فيها اسم التفضيل، اعلم ما معنى اسم التفضيل، إذا النبي الكريم يقول، عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

(رواه البخاري)

أي على وجه الإطلاق، خيركم من دون استثناء، إذا الواحد الله عز وجل علّمه القرآن، أو علّمه توجيده، و علّمه معانيه، أو تكرَّم عليه بتطبيقه، وعلّمه لناس، هناك كلمة قالها الإمام العكبري في كتابه الشهير " إعراب القرآن الكريم " قال

((تُؤخذ ألفاظه من حفّاظه، و تؤخذ معانيه ممن يعانيه))

القرآن له حفاظ، و له مفسِّرون، هؤلاء قدّموا شيئا ثمينا، وهؤلاء قدموا شيئا ثمينا، فأنت حينما تقرأ حديث النبي

((عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

(رواه البخاري)

و يقول عليه الصلاة و السلام:

((أفضل الصدقة إصلاح ذات البين....))

و قد روي عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال لأبي أيوب الأنصاري

((ألا أدلك على تجارة ؟ قال: بلى، قال: صِل بين الناس إذا تفاسدوا، و قرِّب بينهم إذا تباعدوا))

شيء جميل، و اللغة رائعة، في التوافق في الوزن، صِل بين الناس إذا تفاسدوا، و قرِّب بينهم إذا تباعدوا......" وفي رواية أخرى: ألا أدلك على عمل يرضاه الله ورسوله ؟ قال :

((بلى، قال: صِل بين الناس إذا تفاسدوا، و قرِّب بينهم إذا تباعدوا))

يا أبا أيوب - حديث آخر - يا أبا أيوب ألا أدلك على صدقة يحبها الله و رسوله ؟ تصلح بين الناس إذا تباغضوا وتفاسدوا......" أي إذا كان أخ كريم إذا الله عز وجل آتاه منطقا، وآتاه حجة، وهكذا شعر أن هناك أخ مع زوجته في خصومة، فأرسلناه إلى بيت الزوجة، واللهِ في مرة من المرات كان هناك شاب متزوج حديثا، و صار بينه خصومة وبين زوجته، هي عند أهلها، وهو عند أهله، و بقي الأمر ستة أشهر، علمت بالأمر، كلّفت أحد إخواننا الكرام فذهب إلى والد البنت فإذا هو صديقه الحميم، سبحان الله، الله ألهمني هذا الإنسان بالذات، وما هي إلا أيام حتى عادت إلى بيت زوجها، وصلح الأمر، هذا عمل عظيم، فإذا الإنسان آتاه الله طلاقة لسان و شخصية قوية و حجة، وكُلّف بإصلاح بين زوجين فلا يقصِّر، لا يقل: لا وقت عندي، والله عندي شغل، نحن عندنا موسم، هذا أعظم عمل، على كلمة " ماني فاضي " يقولون إن ابن سينا - هذا إنسان بلغ أعلى درجة من درجات العلم في عصره، حتى إنه لُقّب بالرئيس ابن سينا، أي رئيس العلماء، فكان عالم طب، و كان عالم فلسفة، و كان عالم كلام، وله تلميذ مقرّب جدا جدا، فهذا التلميذ من فلتات الزمان، قال له: يا سيدي لو ادّعيت النبوة لأدرجت في سجل الأنبياء، أنت إنسان عظيم جدا، و بإمكانك أن تقول كلاما مشابها لقول الأنبياء، نظر إليه نظرة خاصة و قال: انتظرني أياما، قال: هو يسكن في بلدة هي الآن في روسيا، الاتحاد السوفيتي سابقا، بلدة باردة جدا، أربعون تحت الصفر، فمرة في الساعة الثالثة صباحا، قبل الفجر بساعة أيقظ تلميذه الأول، هذا أقرب الناس له، هو الذي أشار عليه أن يدعي النبوة، أيقظه، قال: نعم يا سيدي، قال: أريد شربة ماء من البئر، اضطرب، يا سيدي الآن وقت برد، برد شديد، والماء متجمد، والوصول إلى البئر عمل شاق، هذا المؤذن من الذي أخرجه من بيته ؟ في هذا الوقت البارد، من الذي أخرجه من بيته و جعله يصعد المنارة ليؤذن، الذي أخرجه هو النبي الكريم عليه الصلاة و السلام، الذي جاء قبل أربعمائة عام، و الذي بين بلدته المدينة وبيننا عشرات الألوف الكيلومترات، فكيف تطلب مني أن أدّعي بالنبوة و لم أستطع أن أجعلك تقدم لي كأس ماء في هذه الساعة، هل عرفت من هو النبي ؟ الذي أخرج الناس من بيوتهم في أشد الأيام بردا، والله نحن في هذا الجامع المتواضع بالمصلى، في الفجر هناك إخوان جاءونا من المزة، في أيام الثلج، لما سقط الثلج، خمسة وأربعون سنتيمتر في دمشق، والله رأيتهم يأتون إلى صلاة الفجر من هذا المكان البعيد، إذا الإنسان تجلى الله عز وجل على قلبه في صلاة الفجر، لأنه من صلى الفجر في جماعة و بقي يذكر الله حتى تطلع الشمس كُتبت له حجة و عمرة تامتين تامتين تامتين...." الذي يجعل الناس يذهبون إلى المساجد في العتمة، في البرد، في المطر هو رسول الله، قال: أما أنا فلم أقدر أن أكلفك بكأس ماء في الليل، تلكّأت و اعتذرت و قدمت وأخرت، فالنبي عليه الصلاة و السلام أثره لا يتصور.

و روي عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال:

من أصلح بين الناس أصلح الله أمره......." هذا المعنى جديد، إذا أنت - لا سامح الله - وقعت في خلاف بينك و بين إنسان، أنت كما أصلحت بين الناس، الله جل جلاله سيلهم من يصلح بينك و بين هؤلاء، و أنت معزّز مكرم، محفوظ ماء الوجه، مثل ما أنت تبرعت و شمرت و أصلحت بين الناس، حينما تقع خصومة بينك و بين الناس، فالله عز وجل يتولى أمرك و يصلح هذه الخصومة "، من أصلح بين الناس أصلح الله أمره، و أعطاه بكل كلمة تكلم عتق رقبة، و رجع مغفورا له ما تقد من ذنبه.

إذًا تسعة أحاديث شريفة كلها حول فضل الإصلاح بين الناس، الإصلاح بين الناس أولاً: يكسب الصدقات الحميمة، ثانيا: تبلغ بها أعلى الدرجات عند الله عز وجل، ثالثا: تكسب بها محامد الطاعات، رابعا: تكون تاجرا مع الله بهذا، تعمل عملا يعود عليك بالخير أجره، و تعمل عملا يرضي الله عز وجل، و تعمل عملا هو أفضل الصدقات، بل أفضل من صلاة النافلة، لو واحد صلى الأوابين، وواحد أصلح بين اثنين، الإصلاح بين اثنين أفضل من صلاة النافلة، ومن صيام النفل، كنت صائما و دعوك إلى إصلاح بينهما ووضعوا الطعام و قال: كل، إذا أفطرت و أصلحت بينهما أفضل لك من صيام النفل، هذا موضوع درسنا اليوم، بقي نبذة سريعة عن السيدة فاطمة رضي الله عنها والسيدة خديجة رضي الله عنها.

طبعا أنا ما اخترت هذه ا لنصوص عن السيدة خديجة و السيدة فاطمة، يجب أن تعلموا دائما أن السيرة النبوية و سيرة من يلوذ بالنبي عليه الصلاة و السلام لا تعنينا كوقائع، بل تعنينا كاستنباطات، كأنها نار تنير لنا الدرب.

من وفاء النبي عليه الصلاة و السلام للسيدة خديجة، كيف كان وفيا، نحن في شهر المولد، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ مَا غِرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ وَمَا رَأَيْتُهَا وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلَّا خَدِيجَةُ فَيَقُولُ إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ))

(رواه البخاري)

كانت تصيبها الغيرة من خديجة، وما رأيتها، أي ما عاصرتها، ما رأيتها، طبعا مع السيدة عائشة و عدد كبير من زوجات النبي، ما غرت من واحدة منهن، لكنها غارت من امرأة لم ترها، وهي خديجة، وما سر ذلك ؟ قال: كان النبي عليه الصلاة و السلام يكثر ذكرها، إذا واحد تزوجت واحدة ثم توفيت، وتزوج الثانية، حتى يتقرب للجديدة، " تلك لم تكن جيدة، والله جلسة ساعة معك أحسن من سنة معها "

مثلا، أكلك أطيب من أكلها، دائما يطعن في القديمة حتى يرضي الجديدة، أما النبي فكان وفيا، فكان عليه الصلاة والسلام يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة يقطعها أعضاء، ثم يبعثها إلى صديقات خديجة، فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، لا يوجد غير هذه المرأة ؟ فيقول: إنها كانت، و كان منها الولد، أي نعم، كما تقولين، لا توجد غيرها، هذا منتهى الوفاء من النبي عليه الصلاة و السلام، و عنها قالت: كان عليه الصلاة و السلام لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة، فيحسن عليها الثناء، يثني عليها ثناء كبيرا، فذكرها يوما من الأيام، قالت السيدة عائشة: فأدركتني الغيرة، لم تتحمل، فقلت: هل كانت إلا عجوزا قد أخلفك الله خيرا منها، انظر إلي أنا، قالت: فغضب النبي عليه الصلاة و السلام، حتى اهتز مقدم شعره من الغضب..." صار يرجف، ثم قال: لا والله، لا والله، لا والله ما أخلف الله خيرا منها، لقد آمنت إذ كفر الناس، صدّقتني إذا كذّبني الناس، وواستتني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها أولادا إذ حرمني أولاد النساء، قالت: فقلت: بني وبين نفسي أبدا، لا أتجرأ، فعلتها مرة و أخطأت، أعيد النص مرة ثانية، كان عليه الصلاة و السلام لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة، فيحسن عليها الثناء، فذكرها يوما من الأيام، فأدركتني الغيرة... فقلت: هل كانت إلا عجوزا قد أخلفك الله خيرا منها....." قالت: فغضب النبي عليه الصلاة و السلام، حتى اهتز مقدم شعره من الغضب..، ثم قال: لا والله، لا والله، لا والله ما أخلف الله خيرا منها، لقد آمنت إذ كفر الناس، وصدّقتني إذا كذّبني الناس، وواستتني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها أولادا إذ حرمني أولاد النساء، قالت: فقلت: بيني وبين نفسي أبدا....." هذا هو الوفاء.

مواقف النبي عليه الصلاة و السلام، نحن في عيد مولده، من ابنته فاطمة رضي الله عنها،

((فعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا زَوَّجَهُ فَاطِمَةَ بَعَثَ مَعَهَا بِخَمِيلَةٍ وَوِسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ وَرَحَيَيْنِ - أي طاحونة - وَسِقَاءٍ وَجَرَّتَيْنِ))

[رواه أحمد]

هذا هو جهاز، الآن يقول لك: خاتم سوليتر ثمنه سبعون ألف، لا يوجد غير سقاء و جرتين ووسادة أدم حشوها ليف ورحيين و خميلة،

((فقَالَ عَلِيٌّ لِفَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ذَاتَ يَوْمٍ وَاللَّهِ لَقَدْ سَنَوْتُ حَتَّى لَقَدْ اشْتَكَيْتُ صَدْرِي قَالَ وَقَدْ جَاءَ اللَّهُ أَبَاكِ بِسَبْيٍ فَاذْهَبِي فَاسْتَخْدِمِيهِ فَقَالَتْ وَأَنَا وَاللَّهِ قَدْ طَحَنْتُ حَتَّى مَجِلَتْ يَدَايَ فَأَتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَا جَاءَ بِكِ أَيْ بُنَيَّةُ قَالَتْ جِئْتُ لِأُسَلِّمَ عَلَيْكَ وَاسْتَحْيَا أَنْ تَسْأَلَهُ وَرَجَعَتْ فَقَالَ مَا فَعَلْتِ قَالَتْ اسْتَحْيَيْتُ أَنْ أَسْأَلَهُ فَأَتَيْنَاهُ جَمِيعًا فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ لَقَدْ سَنَوْتُ حَتَّى اشْتَكَيْتُ صَدْرِي وَقَالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَدْ طَحَنْتُ حَتَّى مَجِلَتْ يَدَايَ وَقَدْ جَاءَكَ اللَّهُ بِسَبْيٍ وَسَعَةٍ فَأَخْدِمْنَا -أي إذا بعث لنا خادما يساعدنا أنا وأنت- فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهِ

لَا أُعْطِيكُمَا وَأَدَعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تَطْوَى بُطُونُهُمْ لَا أَجِدُ مَا أُنْفِقُ عَلَيْهِمْ وَلَكِنِّي أَبِيعُهُمْ وَأُنْفِقُ عَلَيْهِمْ أَثْمَانَهُمْ فَرَجَعَا فَأَتَاهُمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ دَخَلَا فِي قَطِيفَتِهِمَا إِذَا غَطَّتْ رُءُوسَهُمَا تَكَشَّفَتْ أَقْدَامُهُمَا وَإِذَا غَطَّيَا أَقْدَامَهُمَا تَكَشَّفَتْ رُءُوسُهُمَا فَثَارَا فَقَالَ مَكَانَكُمَا ثُمَّ قَالَ أَلَا أُخْبِرُكُمَا بِخَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمَانِي قَالَا بَلَى فَقَالَ - هو أولاً نبي، وثانيا رسول، و ثالثا قائد جيش، و رابعا رئيس دولة - كَلِمَاتٌ عَلَّمَنِيهِنَّ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام فَقَالَ تُسَبِّحَانِ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا وَتَحْمَدَانِ عَشْرًا وَتُكَبِّرَانِ عَشْرًا وَإِذَا أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا فَسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَكَبِّرَا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ قَالَ فَوَاللَّهِ مَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ عَلَّمَنِيهِنَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فَقَالَ لَهُ ابْنُ الْكَوَّاءِ وَلَا لَيْلَةَ صِفِّينَ فَقَالَ قَاتَلَكُمْ اللَّهُ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ نَعَمْ وَلَا لَيْلَةَ صِفِّينَ))

[رواه أحمد]

سبحان عشرة، و الحمد لله عشرة، والله أكبر عشرة، و لكن قد يقول قائل: ما هذا العمل ؟ ثلاثون مرة، كلمة تسبيح ليس فيها نفاق، أي سبح الله، أي سبحه حقيقة، أي نزهه ومجده، حمده و كبّره، و إذا أويتما إلى فراشكما، لماذا أربعا و ثلاثين، حتى تصير كلها مائة، قال: فو الله ما ترتهن مذ علمنيها رسول الله، هذه الطاعة، منذ أن علمها ذلك ما تركتها.

((عن ابْنِ أَبِي لَيْلَى حَدَّثَنَا عَلِيٌّ أَنَّ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَام اشْتَكَتْ مَا تَلْقَى مِنْ الرَّحَى مِمَّا تَطْحَنُ فَبَلَغَهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتِيَ بِسَبْيٍ فَأَتَتْهُ تَسْأَلُهُ خَادِمًا فَلَمْ تُوَافِقْهُ فَذَكَرَتْ لِعَائِشَةَ فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ عَائِشَةُ لَهُ فَأَتَانَا وَقَدْ دَخَلْنَا مَضَاجِعَنَا فَذَهَبْنَا لِنَقُومَ فَقَالَ عَلَى مَكَانِكُمَا - ارتاحوا، انظر إلى التواضع -حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ قَدَمَيْهِ عَلَى صَدْرِي فَقَالَ أَلَا أَدُلُّكُمَا عَلَى خَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمَاهُ إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا فَكَبِّرَا اللَّهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمَا مِمَّا سَأَلْتُمَاهُ))

[رواه البخاري]

لأن الخادم مسؤولية عند الله عز وجل، إن لم تطعمه مما تأكل، وإن كلفته ما لا يطيق، إن ظلمته، و إن حرمته النوم، هذا كله مسؤولية.

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ أَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مَشْيُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرْحَبًا بِابْنَتِي ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَبَكَتْ فَقُلْتُ لَهَا لِمَ تَبْكِينَ ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَضَحِكَتْ فَقُلْتُ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ - كلمتان أضحكها، و كلمتان أبكاها، العكس ؛ كلمتان أبكاها، كلمتان أضحكها - فَسَأَلْتُهَا -غير معقول، كلمتان تكلمهما فضحكت، ثم كلمتان تكلمهما فبكت -عَمَّا قَالَ فَقَالَتْ مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى قُبِضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلْتُهَا فَقَالَتْ أَسَرَّ إِلَيَّ إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ

يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً - أي يقرأه علي، و أقرأه عليه من أجل ضبطه -وَإِنَّهُ عَارَضَنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ وَلَا أُرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجَلِي وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لَحَاقًا بِي فَبَكَيْتُ فَقَالَ أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَوْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ فَضَحِكْتُ لِذَلِكَ))

(رواه البخاري)

أنبأها بموته فبكت، وأنبأها بأنها سوف تلحقه أول أهل بيته، وهي سيدة نساء المؤمنين فضحكت. وقال عليه الصلاة و السلام،

((عَنْ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي فَمَنْ أَغْضَبَهَا أَغْضَبَنِي))

(رواه البخاري)

لذلك أحيانا صهرك لا يقد لك شيئا أعظم إلا أن يكون حسن المعاشرة لابنتك، هذا أعظم صهر، أي ممكن هذه الفضيلة تغطي عن كل شيء، لأنه قال:

((عَنْ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي فَمَنْ أَغْضَبَهَا أَغْضَبَنِي))

(رواه البخاري)

وكل أب له بنت، و كل بنت هكذا، وكل إنسان يعتني بزوجته فقد أكرم أباها بهذه العناية، واللهُ جل جلاله لا بد أن يرزقه أصهارا يعتنون ببناته كما اعتنى ببنات الآخرين، كله دَيْن ووفاء.

وعن ابن أعبد قال: قال علي رضي الله عنه: يا ابن أعبد ألا أخبرك عني وعن فاطمة، قال: كانت ابنة رسول الله، صلى الله عليه و سلم، و أكرم أهله عليه، و كانت زوجتي، فجرت بالرحى - تطحن الطاحون - حتى أثر الرحى بيدها، واستقت بالقربة حتى أثرت القربة بنحرها، و قمّت البيت - كنسته - حتى اغبرت ثيابها، و أوقدت تحت القِدر حتى دنست ثيابها - تلوثت - فأصابها من ذلك ضر، وإن فاطمة كانت لتعجن، و إن قصتها - أي شعرها - لتضرب الأرض و الجفن " وتوفيت فاطمة بعد رسول الله صلى الله عليه و سلم بستة أشهر، و كانت بنت ثمان و عشرين سنة، واللهِ أحسن من مائتي سنة، ثمانية و عشرون سنة سيدة نساء المؤمنين، بإخبار النبي عليه الصلاة و السلام، ما ترفّهت، الآن كل شيء رفاهية، تشغّل الغسالة وتذهب إلى النوم، أوتوماتيك، صعود على الدرج لا يوجد، هناك مصعد، ابعث من يوصلني، وصلناها، ابعث من يأتي بي، أتينا بها، و آخرتها، فانظر اللهم صل عليه كيف كانت ابنته، سيدة نساء المؤمنين كانت تقم البيت و توقد تحت القدر، و تستقي بالقربة، و تجر بالرحى و تضرب بالعجين، وتوفيت وهي بنت ثمان و عشرين سنة.

هؤلاء أصحاب النبي، هؤلاء زوجاتهم، هؤلاء بناتهم، هؤلاء الأصحاب ذكورا و إناثا قدوة لنا، فالإنسان يرضى، إذا كانت الحياة خشنة، والبيت صغيرا، زوجة متعبة، لماذا نعيش، للعمل الصالح، هذا عمل

صالح، أيما امرأة قعدت على بيت أولادها فهي معي في الجنة....." أيْ المرأة أمام خيرات لا يعلمها إلا الله، لو أنها اعتنت بأولادها وزوجها و بتها، هو جهاد كجهاد الرجال في ساحة المعركة.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (082) : آداب الكلام .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-05-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

دروس الغيبة التي طرحت قبل أشهر سمعت من بعض الأخوة أن كان لها أثر طيب جداً، لهذا الوصف وهذه النتيجة الطيبة أردت أن أوسع الموضوع فبحثت عن آداب الكلام في سنة النبي عليه الصلاة والسلام، وقبل أن نخوض في هذا الموضوع أضع بين أيديكم هذه الحقيقة:

هو أن النبي عليه الصلاة والسلام وحده من بين البشر قاطبة هو المعصوم وكلامه ليس من عنده، كلامه وحي يوحى، غير القرآن الكريم، سنته وحي يوحى، علماء الأصول قالوا: الوحي وحيان وحي متلو هو القرآن الكريم ووحي غير متلو هو سنة النبي عليه الصلاة والسلام.

فحينما تعتقد أن كلام النبي وحي يوحى، وأنه منهج قويم، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يخطئ لا في أقواله، ولا في أفعاله، ولا في إقراره، ولا في مواقفه، ولا في صفاته فحينما تعتقد أن كلام النبي وحي يوحى، من هنا تتمسك بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التمسك الصحيح.

تحدثنا عن الغيبة بما فيه الكفاية في ست دروس الآن نوسع الدائرة الإنسان له نشاط، نشاط بياني، يعني يتكلم، قال تعالى:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

الإنسان ينام، يأكل، يمشي، يتكلم، أبرز نشاط حيوي للإنسان الكلام لأن هذا النشاط الكبير والخطير نشاط مصيري، يعني حسبكم من أهمية هذا الموضوع.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ))

كلمة واحدة، النقطة الدقيقة ينبغي أن نعد كلامنا من أعمالنا، كلامك عمل، بكلمة تقطع بين رجلين، تفرق بين أم وابنها، بين أخ وأخيه، بين زوج وزوجته، بين شريك وشريكه، بين جار وجاره، بكلمة تطيب خاطر إنسان، بكلمة تدل على الله، بكلمة تنفر من الله، بكلمة تقرب، بكلمة تباعد بكلمة تدخل السرور، بكلمة تدخل اليأس، هناك كلام ميئس، هناك كلام يبعث بالنفس الانقباض، شعور بالضيق، والأنبياء جاءوا بالكلمة والكفار أتوا بالكلمة، الكفر كلمة، والإيمان كلمة وعقد الزواج كلمة، والطلاق

كلمة.

فمن عد كلامه من عمله نجا، أكبر أجزاء عملك كلامك به ترقى وبه تسقط، لذلك موضوع الدرس اليوم آداب الكلام، هذه الآداب أحاديث صحيحة من كتاب البخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجة، والدارمي، ومن كتاب مسند الإمام أحمد، موطأ الإمام مالك، كلها كتب صحيحة، من بين هذه الكتب من الأحاديث الصحيحة التي أشارت إلى ضبط اللسان.

((عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا النَّجَاةُ، قَالَ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ))

الحديث في سنن الترمذي .

((عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ثُمَّ تَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

ضبط اللسان، دان عينه، دان رجله، دان كله، المؤمن جنته داره، زوجته أولاده، هم أهله أقرب الناس إليه زاده إلى الآخرة بإرشادهم وتوجيههم وخدمتهم يرقى إلى الله، أعظم عمل على الإطلاق أن تربي ولداً صالحاً يدعو لك من بعدك، وكلكم يعلم أن الإنسان إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث، من هذه الثلاث ولد صالح يدعو له، الولد الصالح استمرار لك، أنت إذا خلفت ولداً صالحاً لا تموت يموت اسمك ويبقى ذكرك.

فلذلك أقرب القربات إلى الله أن تربي ابناً صالحاً، طبعاً هذا وليسعك بيتك، أنت مقيم في البيت، تمضي وقتاً طويلاً في البيت، أحياناً بعض الأطباء النفسيين إذا يوجد في البيت خلل وخطر وانحراف يقول للأب يجب أن تبقى فترة طويلة في البيت، الغياب الشديد أن يأتي بعد منتصف الليل وأن يذهب قبل أن يستيقظ أولاده، وأن يكثر السفر وأن يبتعد عنه الأولاد فقدوا الموجه، يعني وجود الأب والأم في البيت جزء من مهمتهم، لذلك أي امرأة قعدت على بيت أولادها فهي معي في الجنة.

((أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ...))

يعني يجب أن تقيم في البيت، هناك من يجعل البيت فندقاً يأتيه في ساعة متأخرة من الليل ويغادره صباحاً، متى تربي أولادك، متى تصغي إلى حديثهم، متى توجههم، متى تعطيهم مما أعطاك الله ؟

((وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ...))

لأن المؤمن كما يقال إقامته في البيت، أما غير المؤمن نمطه نمط سوقي، أسواق، نوادي، مقاهي، متنزهات، دائماً خارج البيت، نمط المؤمن بيتوتي، لأن الإنسان، قال تعالى:

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفقاً (16))

(سورة الكهف)

((وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ))

هذه التوبة المستمرة، المؤمن يتوب سريعاً من ذنبه ويندم ويبكي أشد البكاء، في حديث آخر في مسند الإمام أحمد:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ صَمَتَ نَجَا))

أحفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغنك إنه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعان

عشرات من السنين أحياناً يفقد حريته لكلمةٍ لا طائل منها تكلم بها خطأ فالمؤمن قبل أن يتكلم يفكر في مؤدى هذه الكلمة ماذا أراد بها، ما أثرها، ما نفعها، ما جدواها، ماذا تحدث من أثر، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول: من صمت نجا، أحد أبواب النجاة الصمت، إذا صمت ولم تتكلم فأنت في سلامة، أما إن تكلمت كلاماً حقيقياً حقاً فأنت في رقي، أما إن ذل لسانك وتكلم كلاماً غير صحيح وقعت في الإثم، الصامت في سلامة والمتكلم له أو عليه.

وفي مسند الإمام أحمد أيضاً:

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ لا أَعْلَمُهُ إِلا رَفَعَهُ قَالَ: إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ أَعْضَاءَهُ تُكَفِّرُ لِلِّسَانِ تَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا فَإِنَّكَ إِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَأَنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا))

أكثر مظهر صارخ للمؤمن صمته، ضبط لسانه، يتكلم بوعي، يتكلم بحذر، يتكلم بضبط، يتكلم بحدود، يتكلم بنظام، هذا الذي يتكلم ما شاء له أن يتكلم بلا ضبط، بلا وعي، بلا حدود، بلا ضوابط، هذا إنسان غير مؤمن إيمانه ما ارتقى إلى المستوى الذي يحمله على طاعة الله.

((. اتَّقِ اللَّهَ فِينَا فَإِنَّكَ إِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَأَنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا))

يعني إذا الإنسان تكلم كلام غير منضبط يشعر بانقطاع عن الله عز وجل وكل واحد منا صادق، الذي عنده حساسية يشعر على قلبه إذا كان مقبلاً أو معرضاً، إذا تكلم كلاماً غير صحيح أو غير واقعي، أو كلام فيه افتراء، أو كلام فيه تزوير، أو فيه غيبة، أو نميمة أو تسرع ما دقق ولا حقق، كلام أساء، هذا الكلام يحجبه عن الله عز وجل، وإذا كان في الأصل محجوب عن الله عز وجل يقول لك أنا لم أحجب، لأنك ما ذقت طعم الوصل حتى تحجب، هذا الذي يعرف أنه حجب ذاق طعم الوصل.

من ذاق طعم الصلة بالله يشعر إذا حجب، أما الذي لم يذق هذا الطعم حجابه يقول لك أنا لم أحجب، لأنه ما ذاق طعم الوصل حتى يحجب، وفي مسند الإمام احمد أيضاً:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُفْيَانَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي أَمْرًا فِي الإِسْلامِ لا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ قَالَ قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيَّ شَيْءٍ أَتَّقِي قَالَ فَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى لِسَانِهِ))

يعني يريد كلمة حاسمة، كلمة جامعة مانعة، كلمة تلخص الإسلام كله الإنسان أحياناً يحب التفصيل، البيان، الشرح، التحليل، التعليق، التشقيق، التفريع، وأحياناً يحب الضغط، يحب الإيجاز، يحب أحياناً أن يضغط مبدأ بأكمله في كلمة، فقال هذا الرجل

((... قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي أَمْرًا فِي الإِسْلامِ لا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ قَالَ قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ...))

إن لم تستقم لا جدوى من هذا الدين كله، لا جدوى من كل ما تعتقد، لا جدوى من كل عباداتك، لا جدوى من كل تبجحاتك، لا جدوى من كل ادعاءاتك، لا جدوى أن تقول أنا حالي عالي الحال ليس له قيمة إطلاقاً قيمة الحال باستقامتك، فكل الدعاوى والتبجحات، والمزاعم، كل مظاهر الدين الصارخة من دون استقامة، قلت لكم نحن الحقيقة لقلة المستقيمين نشعر أن المستقيم إنسان نادر أما هذا هو الدين، الاستقامة في التعامل المادي، في قبض المال، في دفعه، في ضبط الجوارح، في ضبط البيت، فلذلك:

((قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي أَمْرًا فِي الإِسْلامِ لا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ قَالَ قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ...))

هذا كلام جامع مانع، مختصر مفيد.

((... قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيَّ شَيْءٍ أَتَّقِي قَالَ فَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى لِسَانِهِ))

والله أيها الأخوة أحياناً إنسان يتكلم بكلمة يجرح إنسان للعظم لمائة سنة يتكلم بكلمة يفرق بين شخصين، يلقي الهم في قلب إنسان، يوجد كلمات مهينة، يوجد كلمات ساخرة، يوجد كلمات متحدية، يوجد كلمات متعجرفة، يوجد كلمات متغطرسة، يوجد كلمات مفندة، يوجد كلمات مباعدة، يوجد كلمات ميئسة، كلمات منفرة، أكبر نشاط لك حديثك، والمؤمن أينما جلس يذكر الله إذا ذكر الله اجتمعت القلوب حوله، أما إذا ذكر الدنيا تفرقت القلوب وتشعبت شعباً كثيرة.

((... قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ، قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيَّ شَيْءٍ أَتَّقِي قَالَ فَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى لِسَانِهِ))

يعني اتقي هذا، كاتب منحرف عقيدته فاسدة، كتب كلمة أنت ضعيف لأنك أخلاقي وأنت أخلاقي لأنك ضعيف، هذه كلمة مدمرة لماذا أنت أخلاقي ؟ لأنك ضعيف، ولماذا أنت ضعيف لأنك أخلاقي، معنى هذا أن الأنبياء كانوا على خطأ حينما كانوا أخلاقيين هذا كلام من الشيطان، أنا ضربت مثل وقلت هناك كلمة ميئسة، كلمة مثبطة، كلمة منفرة، كلمة مباعدة، كلمة متعجرفة، متغطرسة، متكبرة، علوية، فإذا الإنسان سمع كلمة وليس عنده إمكان أن يناقشها، أو يكشف خطأها يكون هلك، الهدى كلمة والكفر كلمة.

كثير من الحالات، بجلسة عامة أيام بتعزية، بعقد قران، برحلة، يكون إنسان شارد ضائع في حيرة من أمره يوجد مشكلات، يوجد تساؤلات، تعليقات، يسمع كلمة من عالم لمدة ربع ساعة، أربع كلمات من ضمن هذه الكلمة يتقد قلبه شوقاً إلى الله، بعض الكلمات يعزم على التوبة، بعض الكلمات يشتاق إلى الله، بعض الكلمات ينوي أن يخدم الناس.

أولاً لا تزهد بالكلمة، أنا مرة ذكر لي أخ لا أعرفه أبداً، قال لي أنا كنت طالب عندك أكثر من ثلاثين سنة في الصف سنة السابع والخمسين هكذا قال لي: رأيتني وضيء الوجه فقلت لي لعلك صليت الفجر اليوم قال لي: والله لم أدع الصلاة حتى الآن.

بهذا التشجيع، ماذا كلفت هذه الكلمة ؟ أيام طفل يأتي إلى المسجد كلمة لطيفة ينشد إلى المسجد، كلمة قاسية يتعقد من المسجد، قضية التدريس وقضية بيوت الله عز وجل تحتاج إلى عناية بالغة، لأن الإنسان غالي وأولاده غاليين، أي إنسان يفصل بين الأخ وأولاده وقع في خطأ كبير، أولاد الأخ لهم مكانة الأخ ولهم محبة الأخ، إن كنت تحب أخاك فأحب أولاده، اصبر على أولاده لأن الطفل حينما يجد في الجامع مجتمع يحبه ويعطف عليه ويوقره ضمن المسجد كله كلام ولكن كلام ذكي جداً.

أخ ثاني له جار من رواد المسجد بمحاولات كثيرة جداً دعاه إلى حضور الدرس، هو جاء مجاملة، وجاء لمرة واحدة وأنا لم أنتبه سلمت عليه سلام بمودة وبوجه طليق، قال لي جاري فلان، فقلت له أهلاً وسهلاً هل كنت مسرور بالدرس، انتبه عليه.

ماذا كلفتني هذه الكلمات، قال تعالى:

إنكم لم تسعوا الناس بأموالكم فاسمعوهم بأخلاقكم وقولوا للناس حسنى.

أحد أسباب المداومة على الدروس كلها هذه الكلمة الطيبة، قال تعالى:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً (53))

(سورة الإسراء)

الإنسان يبدو رقيه من كلامه، مستوى الراقي الأخلاقي من كلامه، من احترامه للناس، سيدنا عمر مر بقوم يوقدون ناراً، قال السلام عليكم يا أهل الضوء وكره أن يقول السلام عليكم يا أهل النار، النار ضوء والضوء نار، لكن اختار كلمة الضوء.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ))

أكثر الناس صدى، ماذا سمع يتكلم من دون تمحيص، من دون حكمة من دون تصفية سمع تكلم، ناقل، غشاء طبل، أي تأثير من جانب ينتقل إلى الجانب الآخر هذا إثم كبير، هناك قصة تروى، وهناك قصة لا تروى، في قصة ظاهرها ظلم شديد إذا رويتها يئست الناس، هناك فصول لا تعرفها، لا تروي إلا

القصة الواضحة التي تشير إلى آيات الله، إلى عدالته، إلى حكمته، إلى عظمته، أما يوجد قصص أخرى تيأس الناس أحياناً، أنت لم تقف على حقيقتها، لذلك:

((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ))

المؤمن يوجد عنده جهاز مراقبة، يوجد عنده مقص مراقبة، يوجد عنده ممحاة يمحو بها بعض ما لا ينبغي أن يقال، لا تنقل مما سمعت إلا القليل، لذلك هذه النقطة يوجد مأخذ كبير على بعض مؤلفي كتب التاريخ أنهم جمعوا في كتبهم ما هب ودب، جمعوا في كتبهم كل ما وقع تحت أيديهم من روايات وحشروها حشراً لم يمحصوا ولم يدققوا، وهذه الكتب كتبت وتناقلها طلبة العلم ثم طبعت، ثم نسينا أن كاتب هذا الكتاب قال في المقدمة أنه جمع كل الروايات صحيحها وزائغها، قويها وضعيفها، جمعها في هذا الكتاب وكلف القارئ أن يمحص وأن يدقق وأن يراجع، هذه المقدمة نسيناها، غفلنا عنها نحن أمام كتاب، يقول لك هذه في الطبري واردة، لكنها قصة غير معقولة، قصة غير مقبولة لا تعبر عن كمال أصحاب رسول الله، لا تعبر عن حقيقة هذا الدين دخلت زوراً وبهتاناً، فهذا الذي يحدث بكل ما سمع هذا ليس إنساناً، آلة، مسجلة أما الإنسان هذا يقال وهذا لا يقال، لهذا قالوا ما كل ما يعلم يقال وما كل ما يقال له رجال، يوجد قصة لا تروى أمام أطفال صغار إذا رويت تنبهوا إلى شيء هم بعيدون عنه جداً، يوجد قصة لا تروى إلا أمام أشخاص معينين ومع ذلك لا تروى إلا في وقت مناسب.
لهذا قالوا ما كل ما يعلم يقال وما كل ما يقال له رجال، ولا إذا وجد الرجال آن الأوان.

((عَنْ أَبِي عُثْمَانَ جَلِيسِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ قَالَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ وَمَنْ أُفْتِيَ بِفُتْيَا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُ ذَلِكَ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ وَمَنِ اسْتَشَارَ أَخَاهُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِأَمْرٍ وَهُوَ يَرَى الرُّشْدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ خَانَهُ))

يعني قبل ما تروي حديث شريف ينبغي ان تتأكد من صحته، أنت تاجر عندك بضاعة مربحة وسألك رجل أنا أريد أن أشتري بضاعة، أشتري هذه البضاعة أم بضاعة أخرى، البضاعة التي تربح إذا لم تنصحه فقد خنته، كبرت خيانة أن تحدث أخاك بحديث هو لك به مصدق وأنت به كاذب.

((وَمَنْ أُفْتِيَ بِفُتْيَا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُ ذَلِكَ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ وَمَنِ اسْتَشَارَ أَخَاهُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِأَمْرٍ وَهُوَ يَرَى الرُّشْدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ خَانَهُ))

سبحان الله نقطة مهمة جداً، الحياة اختصاص يوجد طبيب قلب، طبيب داخلي، طبيب جراح، طبيب عيون، طبيب أسنان، طبيب جلد، طبيب معالج فيزيائي، صيدلي، قاضي، مجتهد، محامي، مهندس، كل اختصاص محترم له مبادئه، أربابه، رجاله، أما الدين أي إنسان صلى بالناس تسأله ومهما كان مستواه تعده مفتي، الإفتاء اختصاص أنت لاحظ نفسك بمركبتك يقول لك هذه حداد منجد، كهربائي، دوزان هل

من المعقول أن تذهب إلى المنجد إذا كانت السيارة تحتاج إلى حداد يقول لك هذه ليس عندي، أنت في أمور الدنيا تعرف ما هي الاختصاصات، الإفتاء اختصاص.

يوجد داعية والداعية غير مفتي، ويوجد مفتي، يوجد قاضي، مجتهد، عالم، معلم، مربي، المربي غير العالم غير المجتهد غير القاضي، غير المفتي، يجب الإنسان أن يسأل أهل الذكر، أسمع عن فتاوى ما أنزل الله بها من سلطان.

رجل لا يريد أن يصلي الجمعة، قال له ضع في جيبك سنين ثوم وكل ثوم، النبي قال: من أكل الثوم فلا يقربن مصلانا، النبي أمرك أن لا تأتي إلى الجمعة.

شيء مضحك، شيء يدعو إلى القيء أحياناً، كلام ما أنزل الله به من سلطان، ضع زكاة مالك في رغيف خبز وأعطه للفقير ثم استوهبت هذا الرغيف من الفقير يوجد به خمسة آلاف وأعطيته خمسة ليرات.

الفتاوى بهذا المستوى ضعفت، أما قضية الإفتاء خطيرة جداً، الإفتاء ينبغي أن يكون اختصاص، لا تسأل إلا من تثق بعلمه وورعه، والورع يقول لك أمهلني انتظرني، أنا أحياناً أقول الإنسان الجبان بالفتوى أعده إنساناً عظيماً عندي، والذي يفتي.

الإفتاء هناك من يقول لك حرام بلا تعمق، هذه سهلة جداً أي إنسان بإمكانه أن يقول لك حرام، كلمة حرام يستطيعها أي إنسان، لكن أحياناً تكون حلال، في وضع دقيق جداً الأفتية تحتاج إلى علم، مع ذلك أيام يختار رجل مفتي متساهل، وعندما اخترته متساهل أنت أردت المعصية، هناك من يقول لك افعل ولا حرج كل شيء مسموح، حتى كدنا أن نقول لك معصية فتوى ممكن.

((مَنْ قَالَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ وَمَنْ أُفْتِيَ بِفُتْيَا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُ ذَلِكَ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ وَمَن اسْتَشَارَ أَخَاهُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِأَمْرٍ وَهُوَ يَرَى الرُّشْدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ خَانَهُ "

" عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا يَحْقِرْ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَحْقِرُ أَحَدُنَا نَفْسَهُ ؟ قَالَ: يَرَى أَمْرًا لِلَّهِ عَلَيْهِ فِيهِ مَقَالٌ ثُمَّ لا يَقُولُ فِيهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَ فِي كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ خَشْيَةُ النَّاس فَيَقُولُ فَإِيَّايَ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَى))

بإمكانك أن تنصح وبإمكانك أن تقنع، وبإمكانك أن تظهر الحق، وبإمكانك أن تقف موقف، وبإمكانك أن تردع، ومع ذلك سكت طلباً للسلامة، معنى ذلك أن الإنسان إذا سكت عن الحق احتقر نفسه وصغر في عين نفسه وسقط من عين الله.

قال لي شخص: أنا كنت أشرب الخمر، تبت على يد سائق تكسي، اشترى خمر وأشار إلى سائق التكسي و وقت ازدحام شديد، توقف السائق، فلما رأى الخمر طرده، بقي ساعة ونصف ولا أحد يركبه

لحكمة أرادها الله تعالى، شعر في صغر وإهانة فنوى الإقلاع عن هذه المعصية لتوه، ماذا فعل السائق ؟ أنزله من مركبته، فتوبه، الإنسان أحياناً بكلمة يحل مشكلة.

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَامَ خَطِيبًا فَكَانَ فِيمَا قَالَ أَلا لا يَمْنَعَنَّ رَجُلاً هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا عَلِمَهُ قَالَ فَبَكَى أَبُو سَعِيدٍ وَقَالَ قَدْ وَاللَّهِ رَأَيْنَا أَشْيَاءَ فَهِبْنَا))

طبعاً ربنا عز وجل قال:

(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (13))

(سورة التوبة)

((حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بِشْرٍ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ أَبِيهِ عَلْقَمَةَ بْنِ وَقَّاصٍ قَالَ: مَرَّ بِهِ رَجُلٌ لَهُ شَرَفٌ فَقَالَ لَهُ عَلْقَمَةُ: إِنَّ لَكَ رَحِمًا وَإِنَّ لَكَ حَقًّا وَإِنِّي رَأَيْتُكَ تَدْخُلُ عَلَى هَؤُلاءِ الأُمَرَاءِ وَتَتَكَلَّمُ عِنْدَهُمْ بِمَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِهِ وَإِنِّي سَمِعْتُ بِلالَ بْنَ الْحَارِثِ الْمُزَنِيَّ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ فَيَكْتُبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ فَيَكْتُبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ بِهَا سُخْطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ))

((قَالَ عَلْقَمَةُ فَانْظُرْ وَيْحَكَ مَاذَا تَقُولُ وَمَاذَا تَكَلَّمُ بِهِ فَرُبَّ كَلامٍ قَدْ مَنَعَنِي أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ مَا سَمِعْتُ مِنْ بِلالِ بْنِ الْحَارِثِ))

والله يا أيها الأخوة كم من كلمات ألقيت كانت سبباً في هداية مئات الأشخاص، كلمة ألقيت بإخلاص، أيام شريط يذهب إلى بلد ينتشر ويطبع منه مئات النسخ وآلاف النسخ وتهتدي منه أسر، وهو في الأصل كلمة حق ألقيت بإخلاص، شيء خطير جداً بين أن تكون في رضوان الله إلى يوم القيامة، وبين أن تكون في سخطه إلى يوم تلقاه بكلمة واحدة.

((عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ، قَالَ: لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ تَعْبُدُ اللَّهَ وَلا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ وَتَحُجُّ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: أَلا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ وَصَلاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ قَالَ ثُمَّ تَلا (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) حَتَّى بَلَغَ (يَعْمَلُونَ) ثُمَّ قَالَ: أَلا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ، قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ...))

النبي الكريم حدثنا عن الصلاة والصيام والحج والزكاة، وحدثنا عن صلاة الليل، وعن الصدقة وحدثنا عن الجهاد.

((ثُمَّ قالَ: ألا أخْبِرُكَ بِمَلاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ))

كيف تزكي وتصوم وتحج وتجاهد.

((قُلْتُ بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ))

هذا من أخطر الأحاديث الصلاة والصوم والحج والجهاد ملاكها ضبط اللسان.

أيها الأخوة: لعله اتضح لكم أن كلام الإنسان خطير، وأنه جزء من عمله وأن الإنسان يرقى بكلامه ويسقط بكلامه، وأن الإنسان إذا عد كلامه من عمله سعد وأن الإنسان إذا عد كلامه لا علاقة له بعمله شقي وأن ضبط اللسان سبب صحة العبادات.

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ وَلا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ))

أيها الأخوة: نتابع هذا الموضوع إن شاء الله في درس قادم.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (083) : إحباط العمل .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-05-1996

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

في خطبة الجمعة تحدثت عن النفاق والحقيقة أن سبب طرح هذا الموضوع هو أن النفاق كما تعلمون نوعان كبيران، نوع نعوذ بالله أن نكون منه كافر ابتداءً إلا أنه أظهر الإسلام والإيمان لمصالح يبتغيها، فهذا الكافر الذي أظهر الإيمان والإسلام فيما بين المؤمنين تحقيقاً لمصالحه هذا منافق أصلي وهذا أشد إثماً من الكفر، قال تعالى:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (145))

(سورة النساء)

ولكن الذي لفت نظري هو أن صحابة كرام من علية الصحابة كانوا يتهمون أنفسهم بالنفاق، وعقد الإمام البخاري في صحيحه باباً هو خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، يوجد أمراض خبيثة تتسرب إلى الإنسان وهو لا يشعر، أخطر شيء يصيب المؤمن هو أنه له مجلس علمه، وله أخوان الذين هم حوله، لكن شيئاً فشيئاً شيئاً فشيئاً يصاب بنفاق آخر غير النفاق الأصلي، هذا النفاق الآخر اسمه نفاق طارئ ضغط شديد، أو إغراء شديد، أو شبهة لم يجد لها حلاً، تخرجه داخلياً من الإيمان وتبقيه ظاهرياً مع المؤمنين، هذا النوع من النفاق يكثر بين المؤمنين.

الأصل أنه مؤمن والأصل صادق، لكن ظرف طارئ أصابه، تغيرت عقيدته، أدى الصلوات أداء شكلي، سمح لنفسه أن ينظر، سمح لنفسه أن يأخذ ما ليس له، هذا وقع في النفاق وهو لا يدري، قلت لكم مرة ثانية إن السبب الذي دعاني إلى طرح هذه الموضوع إن في خطبة الجمعة وإن في درس الأحد هو أنني أعجب أشد العجب من أخوة كرام لهم سمت حسن والتزام رائع وغيرة شديدة، فإذا عاملتهم في الدرهم والدينار، أو إذا خلوا مع أنفسهم في بيوتهم وقعوا في سلوك لا يمكن أن يتناسب مع الإيمان، هذا نوع من النفاق، لذلك قال العلماء: هناك نفاق كفر، ونفاق معصية، نفاق الكفر ما كان صاحبه كافراً ابتداءً، ولمصالح مادية انضم إلى المؤمنون، الحقيقة الله جل جلاله في سورة البقرة وصف الصنفين، الأول قال تعالى:

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ(17))

(سورة البقرة)

هذا المنافق منافق الكفر، الكافر ابتداءً الذي ما أظهر الإسلام والإيمان إلا لمصلحة يريدها، هؤلاء يسعون في الدنيا فإذا أضاءت لهم وهو في أوج نجاحه، وهو في أوج غناه ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون، أرجو الله تعالى أن لا يكون واحد منا من هؤلاء، هؤلاء في الدرك الأسفل من النار.

إلا أن الذي يمكن أن نصاب به لحظة ضعف، سيدنا حاطب بن بلتعة، توهم أنه إذا أخبر قريشاً بغزو النبي لهم لعلهم يحمون أهله وماله فكتب هذا نفاق طارئ، سيدنا عمر قال لسيدنا رسول الله: دعني أضرب عنق هذا المنافق الذي أرسل لقريش إن محمداً سيغزوكم، فقال عليه الصلاة والسلام: لا يا عمر إنه شهد بدراً، هذا ابتدأ مؤمناً لكنها لحظة ضعف طارئة ألمت به.

كل واحد من المؤمنين ممكن بلحظة ضعف طارئة، إغراء شديد أو ضغط شديد، أو شبهة انقدحت في ذهنه، الشبهة تعالج بالسؤال، والضغط يعالج بالتوحيد، والإغراء يعالج بالهم لا عيش إلا عيش الآخرة، على كل أما النوع الثاني نفاق المعصية، نفاق الكفر شيء ونفاق المعصية شيء آخر، نفاق الكفر أصلي ونفاق المعصية طارئ، نفاق المعصية قوله تعالى:

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19))

(سورة البقرة)

سحابة من السماء، المنافق تنتابه حالات يتمنى أن يكون مؤمناً، إذا سمع عن حال المؤمنين وعن فوزهم وعن نجاحهم وعن تأييد الله لهم، وعن نصرهم يتمنى، قال تعالى:

(يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20))

(سورة البقرة)

أول زمرة صم بكم عمي فهم لا يرجعون، أما الزمرة الثانية فيهم بقية سمع، وفيهم بقية نظر، فلذلك الإنسان إذا رأى أخ متلبس بمعصية يوجد تقصير، يوجد بداخله شبهة لا ينبغي أن يطلقه، أن يحاربه، أن يفضحه عليه أن يأخذ بيده لحظة ضعف طارئة، ضغط شديد، إغراء شديد، شبهة انقدحت في ذهنه صار في اضطراب.

أيها الأخوة بما أن هذا الموضوع خطير جداً الإمام البخاري رحمه الله تعالى عقد باباً في كتابه سماه باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، ما معنى يحبط عمله ؟ يعني يحرم ثواب عمله، أيام إنسان يعمل في صفقة سنتين والمحصلة خسارة هذه الصفقة حبطت.

والحقيقة الإحباط نوعان، إحباط تناقض، وإحباط موازاة، إحباط التناقض أن النور ينقض وجود الظلام، وأن وجود الظلام ينقض وجود النور هذا الإحباط إحباط تناقض أما إحباط التوازي، إنسان له حسنات وله سيئات إن رجحت كفة الحسنات ففي رحمة الله وإن رجحت كفة السيئات ففي حكم الله، إما أن يعفو عنك وإما أن يعاقبك.

قال إبراهيم التيمي ما عرفت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذِباً وفي رواية مكذَباً، شيء خطير جداً دائماً راقب أقوالك، ماذا تقول لأولادك، ماذا تقول لزوجتك، ماذا تقول لأصدقائك، لأخوانك، بماذا تنصح ؟ دقق فيما تقول إعراض قولك على عملك، أو إعراض عملك على قولك إذا كان هناك مسافة فهذه أول بوادر النفاق، صار شخصيتين، صار نموذجين، صار شيء معلن وشيء غير معلن، ظاهر وباطن، خلوة وجلوة، سلوك في المنزل وسلوك في البيت، سلوك في المسجد وسلوك في الدكان، صار في ازدواجية.

قال إبراهيم التيمي ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذِباً وفي رواية مكذَباً، لو أن أحداً رأى عملي خلاف قولي لكذبني، هذا كان واعظاً، هو لو عرض عمله على قوله لرأى مسافةً لكذب نفسه

وقال ابن أبي مليكة هذا أحد التابعين: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي كلهم يخاف النفاق على نفسه.

إذا واحد منا ما خطر بكل حياته يتهم نفسه بالنفاق فأين هو من أصحاب رسول الله ؟ طرفة، يعني إذا الإنسان دهس رجلين في مركبته فالأول يصيح من شدة الألم والثاني ساكت لأنه ميت، سكوت الثاني سكوت موت.

فإذا الإنسان ما خطر في باله إطلاقاً أن يتهم نفسه بالنفاق معنى هذا أنه خارج الإيمان كلياً، ميت، علامة الإيمان التدقيق المتابعة، تفحص العمل، تفحص النية، القلق، الخوف، هذا القلق المقدس، هذا الخوف المقدس، هذا الحزن المقدس، أيام الإنسان يحزن على نفسه يبكي، أيام ينقبض هذه الشعور صحي، أما إنسان تراه لا يسأل، إذا كان حصل منه انحراف أو تقصير يقول ما الذي صار، هذا إنسان خارج الموضوع إطلاقاً، أما إذا فيه ذرة إيمان يكون في قلق.

وقال ابن أبي مليكة هذا أحد التابعين: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمانه جبريل وميكائيل.

يقول لك أنا مؤمن أفضل منك ويكون مرتكب مليون معصية، هكذا بعض الناس يدعي الإيمان وليس في قلبه ذرة إيمان، يدعي الورع وليس عنده شيء من الورع.

ويذكر عن الحسن قوله: ما خاف النفاق إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق، وما يحذر من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة، لقول الله تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135))

(سورة آل عمران)

أخوانا الكرام: الإنسان إذا أخطأ أو إذا زلت قدمه، أو إذا انحرف وندم وتاب، لا تنطبق عليه هذه الآية، ما أصر على ذنب من تاب منه ولو سبعين مرة، ما أصر على ذنب من ندم على وقوعه.

أيها الأخوة: الحقيقة النبي عليه الصلاة والسلام في قصة قصيرة يعالج هذه الحالات الطارئة، نحن نستبعد الآن موضوع النفاق الأصلي نفاق الكفر، نحن نتحدث عن نفاق المعصية، صار يوجد مسافة بين ما يعتقد وبين ما يفعل، صار في معصية، صار تقصير، صار تجاوز.

القصة عن عتبان بن مالك وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن شهد بدراً من الأنصار، الآن أريد أن أحاول وإياكم أن نستنبط قواعد من هذه القصة:

((حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عُفَيْرٍ قَالَ حَدَّثَنِي اللَّيْثُ قَالَ حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ أَخْبَرَنِي مَحْمُودُ بْنُ الرَّبِيعِ الأَنْصَارِيُّ أَنَّ عِتْبَانَ بْنَ مَالِكٍ وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الأَنْصَارِ أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: قَدْ أَنْكَرْتُ بَصَرِي...))

أي ضعف بصري، بالمناسبة الإنسان أحياناً بالأربعين والخمسين، خمسة وخمسين، ستين، يضعف بصره يضع نظارة، يشيب شعره، ينحني ظهره، تؤلمه مفاصله قليلاً، يعني يفحص يجد تقصير، كولسترول، أسيد أوريك، صار هناك أعراض طارئة تضعف عزيمته يضعف جسمه، يضعف سمعه أحياناً يشيب شعره.

أيها الأخوة: الحكمة البالغة من هذه الأعراض التي تصيب الإنسان في خريف عمره أنها إشارات لطيفة جداً من الله عز وجل، أن يا عبدي قد قرب اللقاء فهل أنت مستعد، اقتراب اللقاء، من دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة، والعمر طبعاً نحن نتمنى أن يبدأ الشاب إيمانه والتفاته وإقباله على الله في مقتبل حياته، ولكن نرحب بأي إنسان عرف الله في أي سن، لكن بشكل عام الإنسان بعد الأربعين دخل في أسواق الآخرة.

((فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: قَدْ أَنْكَرْتُ بَصَرِي وَأَنَا أُصَلِّي لِقَوْمِي فَإِذَا كَانَتِ الأَمْطَارُ سَالَ الْوَادِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ...))

يعني في الشتاء تهطل الأمطار والوادي يسيل يصبح هناك حاجز بين هذا الصحابي الجليل وبين الذين يأمهم بالمسجد.

((لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ آتِيَ مَسْجِدَهُمْ فَأُصَلِّيَ بِهِمْ وَوَدِدْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ تَأْتِينِي فَتُصَلِّيَ فِي بَيْتِي فَأَتَّخِذَهُ مُصَلًّى...))

أدركوا في تواضع النبي عليه الصلاة والسلام، يعني صحابي من عامة الصحابة، يطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيه في بيته ليصلي في بيته ليتخذ هذا المكان مصلى ويصلي به.

((قَالَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ... "))

يعني إذا دعيت فلبي من دعي ولم يلبِ فقد عصى أبا القاسم، والإنسان كلما ازداد تواضعاً ازداد عند الله رفعة، لولا التشهد كما يقولون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لاؤه نعم، ما سئل شيئاً فقال لا، وهكذا المؤمن.

((فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: قَدْ أَنْكَرْتُ بَصَرِي وَأَنَا أُصَلِّي لِقَوْمِي فَإِذَا كَانَتِ الْأَمْطَارُ سَالَ الْوَادِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ آتِيَ مَسْجِدَهُمْ فَأُصَلِّيَ بِهِمْ وَوَدِدْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ تَأْتِينِي فَتُصَلِّيَ فِي بَيْتِي فَأَتَّخِذَهُ مُصَلًّى، قَالَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ...))

إنسان وضع ثقته بك، إنسان طلب منك أمر، إنسان علق الأمل عليك، إنسان طلب أن تزوره، إنسان طلب أن تجلس معه، المؤمن متواضع، المؤمن يلبي، المؤمن يرى كل من يسأله إنما هو هدية من الله عز وجل.

((فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَالَ عِتْبَانُ فَغَدَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ...))

يعني الجماعة، رحمة المسافر وحده شيطان، والمسافران شيطانان، الركب الثلاثة ركب مبارك، الإنسان إذا أحب أن يتحرك أن يكون مع أصدقائه مع أخوانه، اثنين سافروا كل منهما حصن للآخر، كل منهما يذكر أخاه بصلاة، المسافر وحده لعله تضعف همته، لعل تزل قدمه، فعلمنا النبي اللهم صلي عليه، أنك إذا غدوت إلى مكان فاصحب معك من تثق به.

ولو أنك مدعو ينبغي أن تستأذن، ولو أن الإنسان في بيته وأمه في غرفتها ينبغي أن تستأذن على الدخول عليها.

رجل سأل النبي قال أمي، فقال الرسول: أتحب أن تراها عريانة ؟

حتى الاستئذان ضمن البيت من مكارم الخلاق، فالنبي مدعو لبيت عتبان ومع أنه مدعو استأذنه. النبي دعي مرات عديدة إلى طعام، أكل ثم صلى، أما الآن يوجد موقف جديد.

((قَالَ عِتْبَانُ فَغَدَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ حِينَ ارْتَفَعَ النَّهَارُ فَاسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَذِنْتُ لَهُ فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ ثُمَّ قَالَ أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ...))

شراح الحديث قالوا إذا كان دعي ليأكل يأكل ويصلي، أما إذا دعي ليصلي يصلي ثم يجلس، أنت لك هدف، واتضح من هذا ليس حركة النبي عشوائية، دعي ليصلي في أحد بيوت أصحابه فلم يقبل أن يجلس حتى أن يؤدي المهمة.

يا ترى أنت إذا تحركت لزيارة مريض، لعيادة مريض، لمعاونة أخ، لحل مشكلة، لتوفيق بين متخاصمين، أيام الإنسان ينسى المهمة، ويجلس ويستمتع بالحديث بوضع الطعام يأكل، نحن لماذا جئنا إلى هنا النبي عليه الصلاة والسلام أبى أن يجلس حتى يؤدي المهمة التي جاء من أجلها.

((قَالَ فَأَشَرْتُ لَهُ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ الْبَيْتِ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَبَّرَ فَقُمْنَا فَصَفَّنَا فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ...))

شيء كبير جداً أن يكون النبي في بيت أحد من أصحابه.

((. قَالَ وَحَبَسْنَاهُ عَلَى خَزِيرَةٍ...))

ما الخريزة ؟ قال العلماء: طحين خشن ألقي فيه شحم، وقال بعضهم نخالة الطحين، كيف كان النبي متواضعاً، قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كُرَاعٍ لأَجَبْتُ وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ))

الكراع مقدم واحد، والغميم مثل دمشق والكسوة، دمشق والمليحة دمشق والهامة، الإنسان إذا لب الدعوة فهذا من أدب الإسلام، ودائماً وأبداً أقول هذه الكلمة تلبية دعوة الأقوياء وتلبية دعوة الأغنياء من الدنيا أما تلبية دعوة الفقراء والمساكين والمؤمنين الصادقين من الآخرة، لا يوجد أجمل من إنسان مؤمن عفيف دعاك، بيته بعيد والطعام خشن، هو رأى في تلبية هذه الدعوة شرف له، يجب أن تلبي أناس كثيرون يفحص، يلبي الدعوات الدسمة أما الدعوات الخشنة يقول لك، مشغول لا يوجد وقت، أنا أعتذر. على ماذا حضر النبي ؟ على خريزة، نخالة الطحين ألقي فيها بعض الشحم، يوجد تفسير لبعض العلماء أنها طحين خشن ألقي فيها بعض الشحم.

((قَالَ وَحَبَسْنَاهُ عَلَى خَزِيرَةٍ صَنَعْنَاهَا لَهُ...))

يوجد نقطة دقيقة لو أن النبي كان غني، أو كان ملك، أو كان قوي، الناس يشكون في دعوته، إنه فقير متواضع يلبي دعوة كل فقير، يحب المساكين يرعاهم، الإنسان كلما تواضع رفعه الله، وكلما تكبر وضعه الله.

((قَالَ فَآبَ فِي الْبَيْتِ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ ذَوُو عَدَدٍ فَاجْتَمَعُوا فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: أَيْنَ مَالِكُ بْنُ الدُّخَيْشِنِ أَوِ ابْنُ الدُّخْشُنِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ ذَلِكَ مُنَافِقٌ لا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...))

دائماً كن طبيباً ولا تكن خصماً، ضع هذا المثل أمامك لو أنك طبيب أمراض جلدية وجاءك مريض معه أكزيما هل تحقد عليه أم ترثي لحاله النقص الخلقي، والضعف الخلقي، التقصير والمعصية، هي أمراض نفسية، فإذا كنت كبير القلب، رحيم القلب، لا تحقد على هؤلاء المقصرين، بل تحتويهم، تعطف عليهم، لأن الدعوة إلى الله ليست معلومات إنها قلب، إنها حب، إنها تواضع، إنها حب العطاء

((... فَقَالَ بَعْضُهُمْ ذَلِكَ مُنَافِقٌ لا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا تَقُلْ ذَلِكَ...))

طبعاً يوجد عدة روايات لهذه القصة هذه أصحها رواية البخاري، يوجد رواية لا، يا ترى لا ليس منافقاً، لا تقل ذلك، كلام موجز بليغ.

((لا تَقُلْ ذَلِكَ أَلا تَرَاهُ قَدْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ...))

نحن من أدبنا مع أخواننا من أدى الصلوات الخمس وصام رمضان وحج البيت وغض بصره عن الحرام، وسعى إلى أن يرقى في طريق الإيمان هذا عندنا مؤمن ولا نحاسبه على سريرته فسريرته لا يعلم إلا الله.

((لا تَقُلْ ذَلِكَ أَلا تَرَاهُ قَدْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ قَالَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ فَإِنَّا نَرَى وَجْهَهُ وَنَصِيحَتَهُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ..))

هل تصدق أيها الأخ الكريم أن كلمة قاسية منك عن أخيك إذا بلغته ربما قطعته عن الله عز وجل، ربما قطعته عن مجالس العلم، لأنه نخبة قليلة جداً من الناس يفرقون بين المبدأ وبين أصحابه، هؤلاء قلة في كل مجتمع، نخبة المجتمع، النخبة العالية هي التي تفرق بين الإسلام والمسلمين، بين التدين والمتدينين، بين حقيقة المبدأ وبين من يتكلمون بهذا المبدأ، هؤلاء القلة القليلة لا يتأثرون بهذه المواقف ولكن عامة الناس قد يرى الدين من خلال إنسان فإذا أخطأ هذا الإنسان في حقه انتكس نكسة كبيرة، والإنسان يتمنى أن يكون منفراً قاطعاً للطريق إلى الله عز وجل، قاطع الطريق يعاقب، وكل إنسان يقطع الناس عن الله إذا أساء إليهم أو طعن بهم أو شتمهم، أو اغتصب حقوقهم فقد أساء.

((لا تَقُلْ ذَلِكَ أَلا تَرَاهُ قَدْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ قَالَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ فَإِنَّا نَرَى وَجْهَهُ وَنَصِيحَتَهُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ..))

يعني إذا أنت وجدت إنساناً مقصراً، أو مع من لا يليق أن يكون معه كن له أنت أخاً صادقاً يقول سيدنا عمر رضي الله عنه، له صديق بلغه أنه ذهب إلى الشام وعاقر الخمر وابتعد عن طريق الإيمان، كتب له كتاب رقيق، قال: أحمد الله إليك غافر الذنب قابل التوب شديد العقاب ذي الطور، وعاتبه عتاباً رقيقاً وكان هذا الصديق يعاقر الخمر، فصار يقرأ الكتاب ويبكي، يقرأ ويبكي إلى أن حمله ذلك على التوبة، فقال عمر رضي الله عنه، هكذا كونوا عوناً لأخيكم على الشيطان ولا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم.

الحقيقة إذا الإنسان ضعفت همته أو قصر ورأى أخوة صادقين حوله يستوعبونه، يغفرون زلته، ينهضونه، وسيدنا حاطب بن بلتعة ذكرت قبل قليل طرف من قصته، يعني ارتكب خيانة عظمى أكبر عمل يرتكبه إنسان أرسل رسالة إلى كفار قريش يقول فيها إن محمداً سيغزوكم فخذوا حذركم، جاء الوحي للنبي بفعلة حاطب، فأرسل علي ابن أبي طالب وصحابي آخر إلى مكان بين مكة والمدينة اسمه

الروضة ليأخذا الكتاب من المرأة، أخذا الكتاب منها وجاءا به إلى النبي الكريم، قرأه النبي وطلب حاطب، وقال: ما هذا يا حاطب؟ ما حملك على هذا سيدنا عمر كان عصبي المزاج قال له: دعني أضرب عنق هذا المنافق قال لا يا عمر إنه شهد بدراً، قل لي يا حاطب ما حملك على ما صنعت قال والله يا رسول الله ما كفرت ولا ارتددت، ولكنني كنت لصيق في قريش لست منهم لصيقاً عليهم، فأردت أن يكون لي بهذا الكتاب يداً عندهم أحمي بها أهلي ومالي، فاغفر لي ذلك يا رسول الله.

انظر إلى هذا القلب الكبير، هذا قتله جائز، لو قتله النبي لدخل إلى النار، دخل متلبساً بخيانة عظمى للمسلمين، وفي أي نظام بالعالم جزاءه القتل، فقال عليه الصلاة والسلام إني صدقته فصدقوه ولا تقولوا فيه إلا خيراً.

أنهضه، قال كتاب السيرة عمر رضي الله عنه نظر إلى الذنب فرآه خيانة عظمى، لكن النبي نظر إلى صاحب الذنب فرآها لحظة ضعف طارئة فأنهضه.

((قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ))

يعني إذا إنسان أعلن إسلامه وصلى خمسه وصام شهره وكان مع المؤمنين لست وصياً عليه ولست محاسباً عنه، فيما بينه وبين الله دعه لله، الحقيقة لهذه القصة تتمة في كتب السيرة، هذا الصحابي ابن الدخيشن طبعاً سمع ما قاله النبي في غيبته، قالوا منافق، قال النبي لا إنه شهد أنه لا إله إلا الله يبغي بها وجه الله، قالوا وجهه ونصيحته للمنافقين، قال: لا.

لو أن النبي أقرهم على قولهم وبلغ هذا مالك بن الدخيشن لارتد عن الإسلام، أما بهذا الدفاع من قبل النبي عنه جذبه.

أنت الآن بطولتك بجذب الناس لا بتنفيرهم، باستيعابهم لا بمحاسبتهم، أنت لست قاضياً ولا وصياً عليهم أنت أخ كريم لهم.

((قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ قالَ ابْنُ شِهَابٍ ثُمَّ سَأَلْتُ الْحُصَيْنَ بْنَ مُحَمَّدٍ الأَنْصَارِيَّ وَهُوَ أَحَدُ بَنِي سَالِمٍ وَهُوَ مِنْ سَرَاتِهِمْ عَنْ حَدِيثِ مَحْمُودِ بْنِ الرَّبِيعِ الأَنْصَارِيِّ فَصَدَّقَهُ بِذَلِكَ))

إذاً هذا موقف النبي، ذكرت في مقدمة الدرس أن الصحابة الكرام على علو شأنهم خافوا على أنفسهم من النفاق وذكرت لكم في موضع آخر قول الإمام الحسن: ما خاف النفاق إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق، وإذا خاف المؤمن النفاق معنى ذلك أنه صاح، لأنه أخطر شيء يصيب الإنسان هي الغفلة، النفاق يتسرب شيئاً فشيئاً، يبدأ السلوك يبتعد عن أصل الدين، أما الشيء المعلن دين، الشيء المعلن مؤمن،

الشيء المعلن عقيدة صحيحة، أما في سلوك منحرف إذا بدا سلوكه يخالف منهج الله عز وجل فهذه بداية النفاق لا النفاق الأصلي نفاق الكفر بل نفاق المعصية.

وذكرت قبل قليل أن الضغط الشديد أحياناً والإغراء الشديد أو الشبهة هذه تجعل الإنسان يرتد عن دينه داخلياً وهو في الظاهر مع المؤمنين قال تعالى:

(فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (99))

(سورة الأعراف)

الذي لا يخاف على نفسه من النفاق، يأمن من النفاق أمناً ساذجاً قال تعالى:

(فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (99))

(سورة الأعراف)

يقول أحد أصحاب رسول الله: والذي لا إله إلا هو، ما مضى مؤمن قط ولا بقي إلا هو من النفاق مشفق.

يعني لا يوجد مؤمن على الإطلاق إلا وهو من النفاق مشفق، ولا مضى منافق قط ولا بقي وهو من النفاق آمن، المنافق يأمن النفاق والمؤمن يخاف النفاق، هذه من المفارقات.

وكان يقول أحد أصحاب النبي: من لم يخف النفاق فهو منافق، والله ما مضى مؤمن ولا بقي إلا وهو يخاف النفاق وما أمن النفاق إلا منافق.

الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (2))

(سورة الحجرات)

أخوانا الكرام: معنى إحباط العمل دقيق جداً، له معنيان الأول أن يسقط العمل من عين الله، مظهره جيد، العمل عظيم العمل إنساني، العمل فيه إنفاق، العمل فيه إحسان، فيه دعوة إلى الله لكن النية التي تخلفت، والإخلاص الذي نقص عن هذا العمل أحبطه، أو أن الإنسان حينما يبتعد عن الله عز وجل يسوء عمله، إما أن يفقد العمل قيمته لضعف الإخلاص له، وإما أن يفقد كماله، صار في عمل سيئ، فالعمل الذي يحبط هو العمل السيئ أو العمل الطيب التي لا ترافقه نية عالية.

أخوانا الكرام: يوجد تحذير العلماء قالوا: من أصر على نفاق المعصية معصية تعرفها معصية وأنت مصر عليها، من أصر على نفاق المعصية خشي عليه أن يفضي به ذلك إلى نفاق الكفر.

الإنسان أساسه متحرك، يوجد تعبير ديناميكي، يعني متحرك، وساكن فإذا الإنسان أصر على معصية انتقل إلى أكبر منها، أصر على غفلة انتقل إلى غفلة أشد، أصر على صغيرة انتقل إلى كبيرة، طبيعته متحرك، إذا فعل معروفاً بسيطاً انتقل إلى أعظم منه.

يقول بعض العلماء: من أصر على نفاق المعصية خشي عليه أن يفضي به ذلك إلى نفاق الكفر.

والعلماء قالوا: ما أصر من استغفر، دققوا من أصر على نفاق المعصية خشي عليه أن يفضي به ذلك إلى نفاق الكفر، لكن العلماء قالوا ما أصر من استغفر، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135))

(سورة آل عمران)

لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قِتَالُ الْمُسْلِمِ كُفْرٌ وَسِبَابُهُ فِسْقٌ))

السباب هو أن تذكر بالإنسان ما كان وما لم يكن، من أجل أن تعريه، من أجل أن تحطمه، فالإنسان إذا فكر أن يسب مسلماً وقع بالنفاق، أما إذا قاتله وقع في الكفر.

لذلك الإنسان يمكن أن يعرف مقامه عند ربه من محبته للمؤمنين، فإذا كان يحبهم ويحفظ غيبتهم، ويحفظ مكانتهم، ولا يحتقرهم، ولا يتهمهم ويحسن الظن بهم ويلتمس لهم العذر، ألم يقول النبي صلى الله عليه وسلم:

((التمس لأخيك عذراً ولو سبعين مرة))

هذا الذي قال: لي صديق أعظم الناس في عيني وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينيه، كان خارجاً عن سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجاً عن سلطان الجهالة فلا يتكلم بما لا يعلم، ولا يماري فيما علم وكان أكثر دهره صامتاً وكان يُرى ضعيفاً مستضعفاً فإذا جد الجد فهو الليث عادياً.

هذا صديق حميم كان لا يلوم أحداً فيما يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره، لعل مكانتك عند الله بمحبتك لأخوانك وتسامحك معهم وعرفانك لزلاتهم والتماسك لهم الأعذار ولو سبعين مرة.

أيها الأخوة: مرة ثانية الإمام البخاري عقد باباً سماه باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، يقول سيدنا عمر رضي الله عنه: تعاهد قلبك، الإنسان أحياناً الإنسان ينتقل شيئاً فشيئاً إلى منزلق النفاق فحص النية من حين لآخر ضروري، ياترى هل يحب المؤمنين، هل يبغضهم، حب الأنصار إيمان وبغضهم نفاق، حب العرب إيمان وبغضهم نفاق.

يا سلمان لا تبغضني فتفارق دينك، فقال سلمان يا رسول الله كيف أبغضك وبك هداني الله، قال: تبغض العرب فتبغضني.

الإنسان لا يسمح لنفسه أن يعادي إنساناً مؤمناً، أحياناً ينصب نفسه وصي وقد يكون أقل من ذلك، لو سألنا هذا السؤال لماذا أورد الله في كتابه الكريم في البقرة وفي التوبة وفي سورة المنافقين، أوصاف المنافقين طبعاً دون ذكر أسماء ؟ كي نحذر هذا معيار، القضية ليست قضية وصف معيار لنا، إذا إنسان أحب المؤمنين فهو مؤمن أبغضهم فهو منافق، إنسان له موقف مزدوج، الله عز وجل في البقرة وصف المؤمنين بثلاث آيات، قال تعالى:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5))

(سورة البقرة)

والكفار آيتين:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7))

(سورة البقرة)

أما المنافقين في ثلاث عشرة آية ورد ذكرهم، فنحن نرجو الله سبحانه وتعالى أن نتعاهد قلوبنا وأن نحسن نوايانا وأن نحسن الظن بإخواننا لأنه من أساء الظن بأخيه فكأن أساء الظن بربه، ويجب أن تبني علاقتك مع أخوانك على حسن الظن بهم وهذا من علامة الإيمان، أما سوء الظن أحد علامات النفاق.
طبعاً بالبقرة آيات المنافقين كثيرة جداً منها مثلاً، قال تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9))

(سورة البقرة)

علامة المؤمن على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا ضال، المؤمن يعمل تحت ضوء الشمس، سريرته كعلانيته، وخلوته كجلوته وما في قلبه على لسانه.

المنافق يفسد في الأرض ولا يصلح، وإفساد الشيء أن تخرجه عن طبيعته، إفساد العلاقات، إفساد الطرائق، إفساد الأساليب، والمنافق يجامل ويحتقر في غيبة المؤمن، قال تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آَمِنُوا كَمَا آَمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آَمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (13) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15))

(سورة البقرة)

أيها الأخوة الكرام: نرجو الله أن نسعى جاهدين لنكون عند حسن ظن ربنا بنا وأن نجتنب النفاق في الأقوال والأفعال، لأن النفاق يسري في نفس المؤمن وهو لا يشعر، ومن حين إلى آخر عليه أن يصحو وأن يتفقد نفسه.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (084) : الفحش والتفحش .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-06-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

الإنسان إذا أراد أن يصل إلى الله عز وجل ومن ثم أن يستحق الجنة التي خلقنا من أجلها، لابد من أن تطهر نفسه ويستقيم سلوكه، النفس من داخلها تطهر بالاتصال بالله والسلوك يطهر بالتعلم، فالشرع الحنيف منهج كامل هناك أوامر وهناك نواهي اخترت اليوم موضوع قد يبدو لكم صغيراً جداً ولكنه عند أهل العلم كبير، موضوع الفحش.

طبعاً المؤمن لسمو نفسه ولضبط نفسه لا يتكلم كلمةً فاحشة ولكن أكثر الناس بل وبعض المنافقين يستبرؤون الكلام الفاحش، والفحش إن بالقول أو في العمل، إن في الجد أو في المزاح لا يتماشى مع الإيمان إطلاقاً، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان في أعلى درجات الكمال القولي، يعني مرة رأى فتاةً من قريباته ترتدي ثياباً رقيقة فقال: يا فلانة إن هذه الثياب تصف حجم عظامك.

وأنت ابحث عن كلمة أخرى مكان العظام ترى أنها تثير، كان عليه الصلاة والسلام بعيداً بعداً كبيراً عن الفحش وعن كلمات العورات وعن الأوصاف التي لا تليق بالإنسان.

موضوع الدرس اليوم، المؤمن يجب أن ينزه لسانه عن مثل هذه الكلمات:

((حَدَّثَنَا مَالِكٌ أَتَيْنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحِيمًا رَفِيقًا...))

يعني رحيماً رقيقاً هنا يعني واقعي، كل سن له حاجاته أيام الإنسان يجوع، أيام يحتاج إلى الراحة، فكل إنسان في بقلبه رحمة يرحم من حوله، أحياناً بعض العلماء فسر العدوان بطوله أيام إنسان يدعو نصف ساعة هذا الطول في الدعاء هو عدوان بنفسه، سيدنا معاذ صلى بأصحاب رسول الله فقرأ الواقعة، يعني النبي عليه الصلاة والسلام عاتبه قال له: أفتان أنت يا معاذ.

كان عليه الصلاة والسلام يصلي صلاةً خفيفةً على الناس أما إذا صلى بنفسه صلها طويلاً، القصد أن النبي عليه الصلاة والسلام يعلمنا أنه كان رحيماً بأصحابه.

((حَدَّثَنَا مَالِكٌ أَتَيْنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحِيمًا رَفِيقًا فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدِ اشْتَهَيْنَا أَهْلَنَا أَوْ قَدِ اشْتَقْنَا سَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا...))

يعني أنتم متزوجون، لكم أهل، لكم أولاد، انظر إلى هذه الأخلاق، كل إنسان يتجاهل حاجة أخوانه، حاجاتهم إلى الراحة أحياناً، حاجاتهم إلى العمل والعمل مهم في حياة الإنسان، أنت حينما تبني شخصية يجب أن تبنيها بناءً متكاملاً، قد يكون الذي يبني متجاوز ألف مشكلة أما هذا الذي أمامه يحتاج إلى ألف قضية لا ينبغي أن تتجاوز حاجاته.

الناس حاجاتهم المادية، حاجاتهم إلى الزواج، حاجاتهم إلى عمل، حاجاتهم إلى تحقيق مصالح، فكل إنسان الله عز وجل سمح له أن يبني بشكل أو بآخر نفوساً مؤمنةً أن يرعى كل شيء وأن يحسب حساب كل شيء لأن إلقاء الدرس شيء وتعهد الأخوة المؤمنين شيء آخر، إلقاء الدرس تعليم أما تعاهد الأخوة الكرام لحل مشكلاتهم هذه تربية والنبي عليه الصلاة والسلام كان سيد المربين وكان إمام المعلمين، في سيرته الشريفة إشارات لطيفة إلى أنه كان يتعهد أصحابه، يسأل عنهم يسأل عن مريضهم يسأل عن أعزبهم أتزوجت، سيدنا ربيعة خدم رسول الله أيام عدة فقال: يا ربيعة سلني حاجتك، هل أنت متزوج، الإنسان لا يمكن أن يرقى عند الله إلا إذا مد يد العون لإخوانه، إلا إذا تفقد أحوالهم، إلا إذا عرف مشكلاتهم، إلا إذا آلمه ما يؤلمهم، أسعده ما يسعدهم، إلا إذا وضع نفسه مكانهم، أحياناً وصف يعجبني الإنسان الصادق بالدعوة إلى الله ينبغي أن يعد مشكلة أخوانه مشكلته، يسعده ما يسعدهم ويحزنه ما يحزنهم، يؤلمه ما يؤلمهم، إن كانوا بخير فهو بخير، هذا سلوك كل مؤمن إن أردت أن تدعو إلى الله ولو تدعو أخاً واحداً، أن تدعو صديقاً، أن تدعو جاراً، أن تدعو قريباً، إن لم يشعر هذا المدعو أنك تحوطه من كل جوانبه وترى مصالحه وأنت حريص على سعادته وعلى بيته وعلى زواجه وعلى سلامة صحته، هذا التعاون التعاون يجلب، التعاون يجمع، أما ممكن إنسان لا يوجد عنده مشكلة يلقي درس رائع جداً ولكن هو في واد والناس في وادٍ آخر، هو ليس عنده مشكلات بحكم لأسباب كثيرة لا يوجد عنده مشكلات لكن المشكلة أن لا تعاني مشكلة الآخرين، فالنبي عليه الصلاة والسلام شيء يلفت النظر:

((فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحِيمًا رَفِيقًا فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدِ اشْتَهَيْنَا أَهْلَنَا أَوْ قَدِ اشْتَقْنَا سَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا...))

الآن يقول لك أريد موظف غير متزوج، أو إذا متزوج ممنوع أن يحضر معه زوجته، هذا كلام خلاف الفطرة، خلاف الواقع، أنت تقتطع إنسان من أهله، من أولاده، من أجل أن ترتاح من إقامة زوجته يقول لك بلد إسلامي، أنت تخالف الفطرة، إذا لم يكن دخلك ستة آلاف ممنوع أن تحضر زوجتك، أنت الآن تخالف فطرة الله عز وجل، أما النبي عليه الصلاة والسلام:

((فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدِ اشْتَهَيْنَا أَهْلَنَا أَوْ قَدِ اشْتَقْنَا سَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا فَأَخْبَرْنَاهُ قَالَ ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ فَأَقِيمُوا فِيهِمْ..))

يوجد أشخاص إذا سافر يحدث عن النساء ويغوص، ويفحش بالقول ويتشهى ويصف، هذا إنسان بعيد عن الإيمان، الله عز وجل أودع هذه الحاجة ولكن علمنا الأدب.

((فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدِ اشْتَهَيْنَا أَهْلَنَا أَوْ قَدِ اشْتَقْنَا سَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا فَأَخْبَرْنَاهُ قَالَ ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ فَأَقِيمُوا فِيهِمْ...))

سيدنا عمر رضي الله عنه يعني سمع امرأة تتمثل بعض الأبيات كان يتفقد رعيته، فسأل عنها فإذا لها زوج في البعوث، فسأل ابنته حفصة قال: يا بنيتي كم تصبر المرأة عن زوجها، قالت: أربعة أشهر فأرسل إلى عماله في الأقاصي، في البلدان أن لا تجمروا البعوث.

سيدنا عمر لما تولى الخلافة قال في خطبته الأولى كلاماً له مغزى كبير طبعاً الناس لما تولى سيدنا عمر خافوا شدته، وخافوا بطشه، كان شديداً في الحق، فقال: أيها الناس لعل بعضكم قد خاف شدتي، لقد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، كنت خادمه، وجلوازه، وسيفه المسلول، فكان يغمدني إذا شاء وتوفي عني وهو راض والحمد لله على هذا كثيراً، وأنا به أسعد، ثم كان الأمر إلى أبي بكر فكنت خادمه وجلوازه، وسيفه المسلول وكان يغمدني إذا شاء وتوفي عني وهو عني راض والحمد لله على هذا كثيراً وأنا به أسعد.

بالمناسبة سيدنا الصديق وهو أعلى المؤمنين إيماناً بشهادة رسول الله: ما طلعت شمس على رجل بعد نبي أفضل من أبي بكر، ولما توفي النبي عليه الصلاة والسلام خذوا هذا الموقف، اجتمعوا أصحاب النبي في السقيفة، فجاء سيدنا الصديق وخاطب عمر فقال: يا بن الخطاب مد يدك لأبايعك، ما هذا التواضع، ما هذا الإنكار للذات، فقال سيدنا عمر فيما أذكر أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن تأمرت على قوم فيهم أبو بكر، يعني هذا شيء فوق طاقتي، قال: أنت أقوى مني يا عمر، قال: أنت أفضل مني، فقال عندئذ عمر رضي الله عنه: قوتي إلى فضلك، انظروا ماذا يقول، وتوفي عني وهو عني راض والحمد لله على هذا كثيراً وأنا به أسعد، ثم كانت الأمور إلي اعلموا أيها الناس أن تلك الشدة قد أضعفت وإني أضع خدي على الأرض ليطأه أهل العفاف والتقوى، أما أهل الظلم فأنا أشد عليهم من كل شديد.

أيها الناس: خمس خصال خذوني بهن، لكم علي أن لا أخذ من أموالكم شيئاً إلا بحقه، ولكم علي أن لا أنفق من هذه الأموال إلا بحقه، ولكم علي هنا موطن الشاهد أن لا أجمركم بالبعوث، إنسان أرسله إلى بلاد قاسية وزوجته في المدينة وأولاده، هذا خلاف الفطرة، ولكم علي أن أزيد عطاياكم إن شاء الله تعالى.

إذاً النبي عليه الصلاة والسلام كان رحيماً وكان واقعياً، كان يهتم بشؤون أصحابه الدنيوية فقال:

((قَالَ ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ وَذَكَرَ أَشْيَاءَ أَحْفَظُهَا أَوْ لا أَحْفَظُهَا وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ))

هذا من توجيه النبي عليه الصلاة والسلام، يعني أنت أيها الأخ الكريم أباً، معلماً، أخاً، كبيراً، مرشداً، موجهاً، يعني بأي دور قيادي، صاحب محل عنده موظفين ثلاثة، هؤلاء ألزمه الله بهم وسيحاسبه عنهم، أب عنده أولاد، أي إنسان تحت يده أشخاص، طبعاً أصغر منه سناً، هؤلاء أمرهم إليه إن لم يكن واقعياً، إن لم يكن منصفاً، إن لم يرعى شؤونهم، إن لم يتحقق من سلامتهم، إن لم يتفقد مشكلاتهم فليس أهلاً لأن يقودهم.

((عنْ عَبْدِاللَّهِ ابْنِ عَمْرٍو رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاحِشًا وَلا مُتَفَحِّشًا وَكَانَ يَقُولُ إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاقًا))

ما هو الشيء الفاحش ؟ قال الشيء الفاحش هو الشيء الذي خرج عن مقدار اعتداله إلى مقدار قبيح، يوجد مرض اسمه عملقة طول فاحش، في قصر فاحش، في سعر فاحش، أسعار فاحشة، في سلوك فاحش، في كلام فاحش، الفحش أن يزيد الشيء عن مقدار اعتداله حتى يصبح قبيحاً، والفحش في القول، والفحش في السلوك، والفحش في الوصف والحال، فالنبي عليه الصلاة والسلام لم يكن فاحشاً لا في أقواله ولا في أفعاله ولا في أحواله، كان معتدلاً والوسطية كما تعلمون هي الكمال ودائماً وأبداً الفضيلة وسط بين طرفين، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135))

(سورة آل عمران)

معنى الفاحشة سلوك يتجاوز حده المعتدل إلى حده فاحش، إلى حد متطرف إلى حد قبيح إلى حد مذموم، الفحشاء والمنكر، الفحشاء شيء تجاوز حده المعقول، المنكر شيء أنكرته النفوس البشرية، أنكرته الفطر السليمة، يوجد أقوال فاحشة وأسعار فاحشة.

التطرف هو الغلو، فالنبي عليه الصلاة لم يكن فاحشاً، من هو المتفحش ؟ المبالغة في الفحش، فاحش اسم فاعل، أما المتفحش الأكثر فحشاً، وقال بعضهم الفاحش في قوله والمتفحش في أعماله.

حدثني أخ كان في ألمانيا قال لي شيء لا يصدق إطلاقاً امرأة خلعت كل ثيابها في الطريق، والإنسان إذا خلع ثيابه يبدو قبيحاً أشد القبح، والله عز وجل جعل هذه الثياب نستر بها عوراتنا، قال تعالى:

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26))

(سورة الأعراف)

هناك ثياب نستر بها عوراتنا وهناك طاعة الله عز وجل نستر بها عيوبنا، وطاعة الله عز وجل هي التي تنفع بعد الموت، قال تعالى:

(الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (197))

(سورة البقرة)

يعني خير الزاد التقوى، وفضل الثياب التقوى، الإنسان يتجمل بالثياب وأحياناً قد يكون منحرف السلوك، فالإنسان كما تعلمون حينما تنظر إليه دون أن تعرفه من هو ربما قيمته من ثيابه، فإذا تكلم نسيت ثيابه وقومته بكلامه، فإذا عاملك نسيت كلامه وقومته بمعاملته، إن نظرت إليه ولا تعرفه قيمته بثيابه وأناقته، وألوان ثيابه، نظافة ثيابه، ومستوى ثيابه، أما إذا تكلم تنسى هيئته وثيابه، وتنظر إلى كلامه أينطق عن حق أم عن باطل، عن علم أم عن جهل، عن حكمة أم عن حمق، عن اتزان أم عن تطرف، فإذا أعجبك كلامه وطربت لعلمه ودهشت لمنطقه وسافرت معه فرأيته شحيح النفس، أناني السلوك يحب أن يستريح وأن تخدمه أنت سقط من عينك.

في طرفة رويتها لكم سابقاً إنسان ثيابه أنقية جداً وكلامه بذيء جداً فقال له أحدهم إما أن ترتدي ثياباً مثل كلامك وإما أن تتكلم مثل ثيابك، هذه الثياب الأنيقة والهيئة اللطيفة يناسبها كلام منضبط، كلام موزون.

((لَمْ يَكُن النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاحِشًا وَلا مُتَفَحِّشًا...))

لم يكن فاحشاً في أقواله، ولا متفحشاً في أعمال، والله سبحانه وتعالى في حديث آخر إن الله لا يحب كل فحاش متفحش، أنت دائماً تسعى لمرضاة الله اقرأ كتابه و اقرأ سنة رسوله قف عند ما الذي يحبه الله وما الذي لا يحبه الله، يوجد أشخاص منغلقين مهما تقربت إليه لا تستطيع مغلق، هو غني عن الناس يعيش لذاته لكن الله جل جلاله هو ربنا وخالقنا، الطرق إليه سالكة، استرضاءه ممكن، طلب رضاه ممكن، والدليل اقرأ كلام الله، إن الله يحب الصادقين، إن الله يحب الصابرين، المتقين، المتطهرين إن الله يحب التوابين، إن الله لا يحب الكافرين، لا يحب الفاسقين، لا يحب كل خوان كفور لا يحب كل مسرف كذاب يوجد اثني عشر آية يحب، واثني عشر تقريباً حسب التكرار لا يحب.

اقرأ سنة رسول الله قضية سهلة جداً، أشخاص من بني البشر مغلق لن تستطيع أن تصل إليه مستغني عن الناس كلهم، مهما توددت إليه، حدثني أخ قال لي: كنت في الحج التقيت مع رجل من أهل العلم وصالح، وتقي، وورع، تقربت منه بكلمة طيبة، بهدية، بفاكهة، لم يبتسم ولم يرحب ولم يسأل، ولم يبادر هذا الود بود مثله مغلق، بيت مغلق، لكنك إذا أردت أن تصل إلى الله الطرق إلى الله سالكة، استرضاءه ممكن كيف ؟ صدقة السر تطفئ غضب الرب، إذا إنسان زلت قدمه ارتكب خطأ، ابتعد عن الله، صار عنده نكسة وشعر بالبعد والجفاء والخوف، ماذا يفعل، الطريق مسدود ؟ لا سالك، الله عز وجل يسترضى بالصدقة، بادروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطاها.

الصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير، يمكن أن تسترضي الله بالصدقة، يمكن أن تسترضيه بالتوبة، يمكن أن تسترضيه بالعمل الصالح، والدليل، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110))

(سورة الكهف)

المشكلة أن إنسان عادي جداً وأقل من عادي قد لا يسترضى، يقول لك أخذت قرار لن أكلمك ما حييت، لن أرضى ما حييت، لن أرضى عنك ما حييت، لماذا ومن أنت، أما ربنا عز وجل خالق الكون يسترضى وبإمكانك أن تصل إليه، وبإمكانك أن تقبل عليه وبإمكانك أن تطلب وده وبإمكانك أن يعفو عنك، وأن يغفر ذنبك بالتوبة، وبالصدقة، وبالعمل الصالح وإن الحسنات يذهبن السيئات.

((لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاحِشًا وَلا مُتَفَحِّشًا...))

أنا يلفت نظري أنك تعيش مع مؤمن عشر سنوات، عشرين سنة ما تسمع منه كلمة فاحشة أبداً ولا سباباً فاحشاً ولا وصفاً لعورات الإنسان ولا وصفاً لامرأةٍ ولا حديث عن مغازلةٍ، هذا كله بعيد عنه، من لوازم إيمانه بل إن أصحاب النبي رضي الله تعالى عليهم ومنهم سيدنا جعفر لما سأله النجاشي قال له: حتى بعث الله فينا رجل نعرف أمانته وصدقه، وعفافه ونسبه.

أحياناً أولاد في الطريق يتكلمون بكلمات يحمر وجهك وأنت وحدك في البيت، تراه طفل، من أبوك ؟ لو كان له أب يربيه وأم ترعاه ما تكلم بهذا الكلام، من أخص خصائص المؤمن ضبط اللسان، من أخص خصائص المؤمن عفة اللسان، لا يتكلم بالعورات، والله أيها الأخوة أنا ذكرت هذا الكلام أو جعلت هذا الدرس حول الفحش والتفحش لأن مسلمين يصلون، يرتادون المساجد والله في أكثر حديثهم ملغوم بالعورات، كيفما تكلم يعني شيء، يستحيا أن نذكره، كيفما أشار كيفما وصف يذكر شيء، يوجد في المجلس صغار، كبار، أطفال، أحياناً نساء، من صفات المؤمن العفة، حتى بعث الله فينا رجل نعرف أمانته وصدقه وعفافه ونسبه، ساعة لك وساعة لربك هذا كلام مرفوض الله عز وجل سمح لك أن تجلس مع أهلك وأن تضاحكهم وأن تلاعبهم وأن تفعل كل شيء ولكن ضمن المنهج.

في إنسان يكون سيد الخلق، قمة المجتمع، نبي الأمة، يعني زعيم الأمة ببيته يمشي على أربع ليركب الحسن على ظهره، لك أن تفعل كل شيء هم أولادك وأنت أبوهم ولكن ضمن المنهج، الفحش والتفحش ليس من صفات النبي إطلاقاً، صدقوني أيها الأخوة يعني المؤمن ينتمي إلى المؤمنين يرتاد المساجد لو مزح مزاحاً رخيصاً أو لو وصف عورةً أو لو وصف قذراً، أو لو وصف جماعاً بكلماته المعتادة السوقية لسقط من عين المؤمنين، ضبط اللسان، المؤمن يعرف بعفته، بضبط لسانه.

((لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاحِشًا وَلا مُتَفَحِّشًا...))

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ يَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ فَقَالَتْ عَائِشَةُ: عَلَيْكُمْ وَلَعَنَكُمُ اللَّهُ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، قَالَ: مَهْلاً يَا عَائِشَةُ عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا، قَالَ: أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ وَلا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ))

يعني إياكِ والفحش والعنف جمعهم النبي صلى الله عليه وسلم في حديث العنف تطرف، والفحش تطرف، يقابله الرفق في الكلام والسلوك والحديث المعروف علموا ولا تعنفوا فإن المعلم خير من المعنف.

أنا أذكر بعض القصص لأنها نموذجية بالتعبير عن بعض الأفكار، إنسان اقترف ذنباً كبيراً هذا الشيء وقع إن كنت معلماً لا معنفاً، إن كنت مربياً لا مؤدباً، إن كنت أباً رحيماً استوعبت هذا الخطأ وأرشدت إلى الصواب ونبهت هذا العمل لا ينسى إلى الموت.

((قَالَ: مَهْلاً يَا عَائِشَةُ عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ))

بالمناسبة العنف كلمة مثلثة، ما معنى مثلثة ؟ تقول المصحف مثلثة يعني المُصحف بالضم، والمَصحف بالفتح، والمِصحف، والعنف أيضاً مثلثة عُنف وعَنف وعِنف فكلاهما صحيح ولكن المشهور كلمة العُنف.

((عنْ عَبْدِاللَّهِ ابْنِ عَمْرٍو رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاحِشًا وَلا مُتَفَحِّشًا وَكَانَ يَقُولُ إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاقًا))

الآن إذا الإنسان بوضع هادئ قد يضبط سلوكه وكلماته رقابة ذاتية، أو رقابة خارجية من فكره، ولكن حينما يثور غضبه، وحينما يخرج الأمر عن سيطرته قد يتكلم بالكلامٍ الفاحشة وقد يسلك سلوكاً فاحشاً، ماذا نفسر هذه الظاهرة ؟ معنى ذلك أن انضباطه خارجي، أما إذا كان اتصاله بالله شديداً، انضباطه داخلي، يعني كما قلت في أول الدرس التعلم يهيئ لك الضبط الخارجي هذه حلال وهذه حرام، أما الاتصال بالله عز وجل يهيئ لك الانضباط الخارجي، النهي الداخلي، إذا الإنسان كان تعلمه جيد وذاكرته قوية واستيعابه جيد كل شيء سمعه في درس العلم يطبقه وهو هادئ أما إذا استفز وخرج عن طوره واستشاط غضباً، وتفلتت نفسه من قيادته فعل شيئاً لا يرضي وتكلم كلاماً فاحشاً نقول انضباطه خارجي وليس انضباطه داخلياً، يعني تعلمه جيد وسيطرته على ذاته في الوضع العادي جيد جداً أما حينما استفز اتصاله بالله أقل من تعلمه، أما الاتصال بالله الشديد يصل هذا الطهر إلى أعماق النفس، فلو أنك استفززت هذه النفس لا تخرج عن الخط الصحيح.

((عنْ عَبْدِاللَّهِ ابْنِ عَمْرٍو رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاحِشًا وَلا مُتَفَحِّشًا وَكَانَ يَقُولُ إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاقًا))

والقرآن يعلمنا أشياء كثيرة شيء معروف عندكم، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7)

(سورة المؤمنون)

هل في اللغة عبارة ألطف وأجمل من هذه، وأوضح وأبين بالتعبير عن كل انحراف جنسي من هذه العبارة.

((وَكَانَ يَقُولُ إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا))

((عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ وَعَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، قَالَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَهْلاً يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ))

يعني ممكن أن تصل إلى هدفك من دون أن تزيد أو أن تنقص فهذا أيضاً من توجه النبي، قال تعالى:

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40))

(سورة الشورى)

يقول حتى أكيل لك الصاع عشرة، هذا خلاف السنة، ينبغي أن تكيل له الصاع صاعاً، أما إذا غلب على ظنك أن عفوك عنه يصلحه، فمن عفا وأصلح فأجره على الله، وهذا عمل عظيم جداً أن تتمكن من أن تكيل الصاع صاعاً لخصمك ثم تعفو عنه ابتغاء وجه الله.

الحقيقة أحياناً تتداخل الأخلاق اليومية التي ألفناها مع أخلاق الشرع، هناك أمثلة كثيرة، أيام أنت تعفو وأنت ضعيف فضعفك لا يجعل عفوك عفواً، أحياناً تؤدي ما هو عليك وأنت مدان، فلا يعد هذا الأداء أمانة أحياناً تصبر وأنت لا تستطيع أن تنفذ غضبك، فلا يعد هذا الصبر صبراً، متى يكون هذا الصبر صبراً إذا كنت قادراً على أن تسحق خصمك وصبرت، وصبرت لوجه الله، قال تعالى:

(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7))

(سورة المدثر)

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135))

(سورة آل عمران)

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134))

(سورة آل عمران)

ثلاث درجات، أيام إنسان يغلي كالمرجل من شدة الغيظ لكن أعصابه قوية، وإرادته قوية ويبتغي مرضاة الله عز وجل، يسيطر على ذاته أما من الداخل يغلي، يوجد مرحلة أرقى، قال تعالى:

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ((134)

(سورة آل عمران)

لا يغلي برداً وسلاماً من الداخل مستوى أرقى، يوجد مستوى أرقى وأرقى أن تحسن لمن أساء إليك، قال تعالى:

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ((34)

(سورة فصلت)

هذا امتحان لنا أعرف أين أنت، هل أنت من الكاظمين الغيظ، من العافين عن الناس، أم من المحسنين، وكلما ارتقى مستواك في الإيمان تنتقل من درجة إلى درجة إلى أن تصل إلى مرتبة الإحسان.

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَّابًا وَلا فَحَّاشًا وَلا لَعَّانًا كَانَ يَقُولُ لأَحَدِنَا عِنْدَ الْمَعْتِبَةِ مَا لَهُ تَرِبَ جَبِينُهُ))

سباباً يعني كثير السباب، يعني كلما ذكر شخص مسيء ينعته بصفة كبيرة مزعجة، إذا كان جاهل فلان كذا، وإذا كان ثقيل الدم فلان كذا، وإذا طول في الجلسة فلان كذا.

أنا أذكر إنسان يعمل في الكهرباء ركب أنترفون بين غرفة الجلوس والمطبخ، إذا أحب أن يطلب من زوجته شيء يقول لها على الأنترفون يوجد عنده ضيوف مقربين إليه كثيراً فأجلسهم في غرفة الجلوس وأطالوا المكوث والأنترفون مفتوح وهو لم ينتبه وذهب إلى زوجته وقال لها هؤلاء الغلاظ ما كانوا أن يذهبوا وكلامه مسموع إليهم، يقولون بخمس ست سنوات ما تمكن أن ينظر إليهم.

أيام الإنسان إذا ضبط نفسه يرتاح كثيراً، الكلام أن الذي لا تستطيع أن تقوله للإنسان إياك أن تقوله في غيبته، تبقى مرتاح.

" عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَّابًا وَلا فَحَّاشًا وَلا لَعَّانًا..."

يعني يوجد أناس كثيرين يلعن كل شيء، أيام يلعن الجماد، يلعن مركبته، بيته، أولاده، دائماً لعان سباب فحاش.

((كَانَ يَقُولُ لأَحَدِنَا عِنْدَ الْمَعْتِبَةِ مَا لَهُ تَرِبَ جَبِينُهُ))

النساء الصالحات قديماً إذا غضبت تقول الله يرضى عليك، الله يهديك في أعلى درجات الغضب، الله يصلحه، هكذا المؤمن، أنت عندك إمكان وأنت في أعلى درجة من الغضب وقد استفززت أن تقول أصلح الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، كلمة لا حول ولا قوة إلا بالله كلمة إسلامية رائعة، اللهم صلي على النبي، واستغفر، وحوقل، يعني قل لا حول ولا قوة إلا بالله، ولا تكن سباباً ولا فاحشاً ولا لعاناً ولا بذيئاً.

((كَانَ يَقُولُ لأَحَدِنَا عِنْدَ الْمَعْتِبَةِ مَا لَهُ تَرِبَ جَبِينُهُ))

يعني لامس جبينه التراب، بعض شراح الحديث قالوا: ترب جبينه يعني ليته يصلي ليلصق جبينه بالتراب، وبعضهم قال كلمة شائعة في حياة العرب، يعني لامس أنفه التراب، أو لامس جبينه التراب، هذه الكلمة التي كان عليه الصلاة والسلام يعاتب بها أصحابه.

((عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَجُلاً اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ وَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ...))

يعني إنسان سيء، إنسان ضال مضل، إنسان منحرف في عقيدته أو في سلوكه، إنسان منافق، النبي عليه الصلاة والسلام قالوا شراح الحديث ذكر هذا الكلام ليحذر منه أصحابه.

((عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَجُلاً اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ وَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ...))

أي ألان له الوجه، ونقطة دقيقة جداً الآن.

((فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا عَائِشَةُ مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ))

قال العلماء مقام النبي غير مقام المؤمنين، يعني هذا الكلام غير مقبول من المؤمن، أما النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى حذر أصحابه منه، أما حينما دخل عليه أراد أن يداريه، والمدارة بذل الدنيا من أجل الدين، يعني تلطف به لعله يميل إلى الإسلام وقال العلماء: مات كافراً هذا الرجل، فيبدو أن النبي عليه الصلاة والسلام عرف حقيقته ونصح أصحابه، لكن ألان له القول والمدارة كما تعلمون جيداً مندوب إليها، لكن المداهنة محرمة على المؤمنين، المداهنة بذل الدين من أجل الدنيا، أن تبذل دينك من أجل زيد أو عبيد هذه مداهنة والمداهنة محرمة، قال تعالى:

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9))

(سورة القلم)

إذا أنت كنت لا تحب إنساناً لفحشه أو لسوء عقيدته، أو لبدعته، أو لانحرافه والتقيت معه ما الذي يمنع أن تكون ليناً معه لعل قلبه يلين ، يوجد أبلغ من مناقشة بين النبي وبين الكفار، قال تعالى:

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24))

(سورة سباء)

كيف أن النبي عليه الصلاة والسلام علمه الله أن يجعل نفسه مع الخصوم بمرتبةٍ واحدة، نحن على حق أو على باطل وأنتم على حق أو على باطل، معنى أنه في مساواة، أما حينما تناقش إنسان وتنطلق من أنك على حق وحدك وهو على باطل وحده، هذا الإنسان لا يقتنع فيك.

للإمام الشافعي كلمة رائعة يقول: أنا على حق وقد أكون مخطئاً وخصمي على باطل وقد يكون مصيباً.

انظر إلى هذه النفسية أن تكون ذا عقل مفتوح، أن تصغي إلى آراء الخصوم، أنا على حق وخصمي على باطل، أنا على حق وقد أكون مخطئاً وخصمي على باطل وقد يكون مصيباً.

هذا الحديث أولاً مقام النبوة يقتضي تحذير الأصحاب من انحراف بعض الأشخاص، هذا إنسان مشرك ليس مسلم ويبدو أنه كشف الله للنبي عن حقيقته فنبه أصحابه، ولم يمنع هذا أن يلين له القول، وأن يستجلب قلبه فلعله يهتدي.

((فقالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا عَائِشَةُ مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ))

انظر إلى هذه الكلمة ما أبلغها، إذا الناس خافوا من شخص واتقوه وخافوا من شره ليس معنى هذا أنه شيء عظيم، معنى ذلك أنه شر الناس، إذا اتقى الناس إنساناً مخافة شره فهو شر الناس، الإنسان الجاهل قد يتوهم أن هذا مقام عظيم، الناس يخافون مني، أيام يكون موظف مؤذي وهو محترم زيادة، يحترمه الناس لأنه مؤذي وهو يأتيه الوهم الكاذب أنه محبوب، لا أنت ليس محبوب ولكن هناك من يتقي شرك.

ويوجد سلوك أنا أراه مناسباً أنت إذا رأيت إنساناً بعيداً عن مستواك لا يرقى إلى مستواك لا دينياً ولا خلقياً ولا عقيدياً لا ينبغي أن تعاديه معاداةً فاحشة انسحب منه شيئاً فشيئاً وابتعد عنه، لأنك لست في مستواه

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ...))

البخل، قال تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

دقق الآن إذا أنت منوع حريص على ما في يديك، يعني بخيل، شحيح فأنت لم تتصل بالله معنى ذلك، لو أنت متصل بالله لكنت كريماً حتماً، لأن البخل والجبن لا يجتمع عند المؤمن، المؤمن بريء من البخل والجبن، والنبي عليه الصلاة والسلام استعاذ من البخل والجبن معاً

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَمَرَهُمْ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا وَإِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلا التَّفَحُّشَ، قَالَ فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْمُسْلِمِينَ أَفْضَلُ قَالَ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ قَالَ: فَقَامَ هُوَ أَوْ آخَرُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ قَالَ: مَنْ عَقَرَ جَوَادَهُ وَأُهْرِيقَ دَمُهُ قَالَ أَبِي و قَالَ يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ فِي حَدِيثِهِ ثُمَّ نَادَاهُ هَذَا أَوْ غَيْرُهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْهِجْرَةِ أَفْضَلُ، قَالَ: أَنْ تَهْجُرَ مَا كَرِهَ رَبُّكَ وَهُمَا هِجْرَتَانِ هِجْرَةٌ لِلْبَادِي وَهِجْرَةٌ لِلْحَاضِرِ فَأَمَّا هِجْرَةُ الْبَادِي فَيُطِيعُ إِذَا أُمِرَ وَيُجِيبُ إِذَا دُعِيَ وَأَمَّا هِجْرَةُ الْحَاضِرِ فَهِيَ أَشَدُّهُمَا بَلِيَّةً وَأَعْظَمُهُمَا أَجْرًا"))

يعني هناك آلاف النقائص، آلاف المعاصي وراء صفة واحدة وهي الشح، الشحيح يغش الناس، الشحيح يكذب، الشحيح ينافق، الشحيح يدلس، آلاف المعاصي وراء الشح، قال تعالى:

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9))

(سورة الحشر)

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَمَرَهُمْ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا وَإِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلا التَّفَحُّشَ...))

يعني لا يوجد أقبح من إنسان حدث أصدقاءه عن علاقته بزوجته ولا يوجد أقبح من إنسانة حدثت صديقاتها عن علاقتها بزوجها، النبي وصف هذين الزوجين بأنهما شيطانان يلتقيان على قارعة الطريق، ما الفرق بين إنسانين يلتقيان على قارعة الطريق وبين إنسانين يحدثان الناس بما يفعلاه في الليل ؟ كلاهما سواء، وأحياناً ترى في مكان في موظف وموظفة هي تحدثه عن زوجها وهو يحدثها عن زوجته وبراءة الأطفال في أعينهما، هذا هو الفحش.

((وَإِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلا التَّفَحُّشَ، قَالَ فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْمُسْلِمِينَ أَفْضَلُ قَالَ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ...))

إنسان ما أذى إنسان بكلمة وما أكل حرام، ولا أوقع إنسان في مشكلة.

((فَقَامَ هُوَ أَوْ آخَرُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ قَالَ: مَنْ عَقَرَ جَوَادَهُ وَأُهْرِيقَ دَمُهُ ثُمَّ نَادَاهُ هَذَا أَوْ غَيْرُهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْهِجْرَةِ أَفْضَلُ، قَالَ: أَنْ تَهْجُرَ مَا كَرِهَ رَبُّكَ وَهُمَا هِجْرَتَانِ هِجْرَةٌ

لِلْبَادِي وَهِجْرَةٌ لِلْحَاضِرِ فَأَمَّا هِجْرَةُ الْبَادِي فَيُطِيعُ إِذَا أُمِرَ وَيُجِيبُ إِذَا دُعِيَ وَأَمَّا هِجْرَةُ الْحَاضِرِ فَهِيَ أَشَدُّهُمَا بَلِيَّةً وَأَعْظَمُهُمَا أَجْرًا))

الإنسان إذا أراد أن يقاتل مؤمن لا الأفضل أن يقتل جواده وأن يريق دمه ويرتاح، لأنه قتل مؤمن هذا العمل يخلد صاحبه في النار خالداً مخلداً، قال تعالى:

(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً (93))

(سورة النساء)

إذا فتنة بين المؤمنين ابتعد،

((... ثُمَّ نَادَاهُ هَذَا أَوْ غَيْرُهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْهِجْرَةِ أَفْضَلُ، قَالَ: أَنْ تَهْجُرَ مَا كَرِهَ رَبُّكَ...))

وهجر المعاصي تكن مهاجراً وانسحب من الفتن بين المؤمنين تكن معافى وإذا سلم المسلمون من لسانك ويدك فأنت أفضل مسلم.

أيها الأخوة: نلملم أطراف الحديث، محور هذا الدرس أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، والفحش زيادة عن الحد المعقول إلى درجة القبح في الأقوال والأفعال وفي الأحوال، والمؤمن بعيد بعد الأرض عن السماء عن كل قول فاحش أو عن كل سلوك فاحش، أو عن كل صفة فاحشة، والفحش من خصائص المنافقين وكلما ارتقى الإنسان في مراتب الإيمان ضبط لسانه وضبط سلوكه وضبط أحواله، وقد سلم المسلمون من لسانه ويده، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يترجم هذا الدرس إلى أعمالكم.

شيء جميل جداً أن يعيش الإنسان حميداً بين الناس، أن يضبط اللسان إلى أقصى درجة لأن كلامك من عملك، ولأن الفحش والبذاءة، والنبي لم يكن سباباً ولا لعاناً ولا فاحشاً ولا بذيئاً، هكذا النبي ومن كان مؤمناً حقاً عليه أن يقتضي برسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الاقتضاء به أمر واجب في القرآن الكريم، قال تعالى:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (21))

(سورة الأحزاب)

وصدقوني أيها الأخوة بإمكانك أن تعبر عن كل الحالات الصعبة والسيئة بعبارات لطيفة قال تعالى:

(أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ)

(سورة النساء)

مفهوم، واضحة مثل الشمس، قال تعالى:

(فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آَتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189))

(سورة الأعراف)

مفهومة، أقرأ أنت القرآن الكريم تجد أن كل العبارات التي وردت في القرآن الكريم لطيفة كنايات رائعة، تعلم من كتاب الله ومن كلام النبي يعني أيام له زوجة ولها اسم، يقول لك أهلي يعني زوجتي، أما قالت لي سحر، من هذه سحر ؟ زوجته، قل أهلي، قال تعالى:

(وَسَارَ بِأَهْلِهِ)

(سورة القصص)

هكذا الله علمنا، الإنسان يختار أفضل الكلمات، الإنسان المؤدب ينتقي العبارة اللطيفة وتستطيع أن تكون مرحاً وتستخدم العبارات لطيفة ولكن لا تجرح إنسان، ويوجد والله كلمات تجرح حياء الصخر، يقول لك مسلم ويرتاد مساجد وكل كلامه مغشوش كيف ما تكلم يشير إلى شيء، كيف ما تكلم يعني شيء ويضع ضمير الغائب، هذا مؤمن هذا، هذا إنسان بذيء اللسان، وأنا ذكرت هذا الموضوع وأنا لا أتحرك من فراغ أتحرك من واقع حينما أرى أن إنساناً من رواد المسجد في خلوته، مع أصدقائه في نزهة يطلق للسانه العنان، يمزح مزاح مقبول أو غير مقبول هذا لا يجوز، أو يتحدث عن النساء.

الحديث عن النساء يجرح العدالة، صحبة الأراذل تجرح العدالة، تطفيف بتمرة تجرح العدالة، أكل لقمة من حرام تجرح العدالة، التنزه في الطرقات تجرح العدالة، فإذا الإيمان ما ظهر في سلوكنا، بعلاقاتنا بمجالسنا، بسهراتنا، بندواتنا، بمزاحنا، والله يوجد آلاف الأساليب التي تجعل المجلس شعلة من السرور وأنت منضبط اللسان، كان عليه الصلاة والسلام يمزح ولا يمزح إلا حقاً، إنسان ذو دعابة عنده طرفة أما أن يصل إلى المستوى البذيء أو الفاحش أو القبيح، ليضحك الناس ليدخل على قلبهم السرور هذا من النفاق.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (085) :عواقب الذنوب
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1996-06-30

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:
لا زلنا في موضوع الذنوب، وكيف أن أخطر شيء على سلامة الإنسان وسعادته أن يقترف الذنوب، النبي عليه الصلاة والسلام في كلامه الجامع، فقد أُوتي جوامع الكلم قال حديثاً موجزاً قال: لا يخافن العبد إلا ذنبه.

وقد بينت في دروس سابقة أن في الكون حقيقة واحدة هي الله، أي شيء يقربك من الله هو الخير المطلق في دنياك وآخرتك، وأي شيء يبعدك عن الله هو الشر المطلق في دنياك وآخرتك، وقد بينت في دروس سابقة أو في الدرس السابق بالذات كيف أن للذنوب أخطار جسيمة، وكيف أن الذنب يؤثر على طبيعة النفس فيشقيها، كيف أنه يمحق الرزق ويذهب العلم، ويجلب الوحشة، ويجلب التعثير في الأمور إلى ما هنالك من فقرات طويلة تم الحديث عنها في الدرس الماضي، واليوم نتابع الحديث عن عواقب الذنوب.

أيها الأخوة الكرام: الله عز وجل بيده الخير المطلق، وكل مخلوقاته التي تأتمر بأمره التي سيرها أيضاً لا ينتج عنها إلا خير مطلق، أما المخلوق الأول الإنسان الذي أعطاه حرية الاختيار وأودع فيه الشهوات وكلفه أن يعبده، هذا إن لم يؤدي الأمانة وإن لم يفي بالعهد وإن خرج عن منهج الله عز وجل وإن أساء استعمال الأشياء، ينتج منه الشر !

فحقيقة الشر أن مخلوقاً كرمه الله بالاختيار وأودع فيه الشهوات ليرقى بها، إلى رب الأرض والسماوات، أساء الاختيار وتحرك من أجل شهواته بخلاف منهج الله عز وجل فكان الشر، هذا هو الذنب ! إنسان يملك مقود سيارة ليس حكيماً في قيادته ولم يتعلم أصول القيادة، أو شرب الخمر وهو يقود السيارة، السيارة حينما صُنعت صنعت لتأخذك من مكان لآخر، كل وسائل الراحة فيها، أما حينما تقودها مخالفاً تعليمات الصانع لابد أن يقع الحادث.

فلذلك أساس الذنب أن مخلوقاً أودع الله فيه شهوات ليرقى بها، أعطاه حرية اختيار ليثمن عمله، أخطأ في اختياره و أساء في ممارسة شهواته فكان الشر ! لذلك كل ذنب أي كل خروج عن منهج الله له مضاعفات خطيرة في الحياة.

الآن الموضوع الجديد المتعلق بالذنب أن الذنوب والمعاصي تحدث في الأرض أنواعاً من الفساد في كل شيء، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41))

(سورة الروم)

أضع بين أيديكم أشياء قريبة جداً، الله عز وجل حرم لحم الميتة، حرم أكل الدم، أطعموا قطعان البقر مسحوق لحم الجيَف، وأطعموه مسحوق الدم المجفف، فكانت كارثة على بني البشر! كارثة أصابت مالكي الأبقار جنت الأبقار، وكارثة أصابت الإنسان إن هذا المر ض ثبت أنه ينتقل إلى الإنسان، ولهذا المرض أخطار كبيرة جداً !

إذاً الأوامر الإلهية مرتبطة دائماً بنتائجها بعلاقات علمية، حينما اخترعوا المفاعلات النووية ماذا أحدثت هذه المفاعلة ؟ حققت نجاحاً في مجال، وحققت فساداً في البيئة في مجالاً آخر ! إن هذه الإشعاعات الذرية هي أعظم ما يشكو منه العالم اليوم.

لذلك الدول الصناعية تتخلى عن نفايتها الذرية ببيعها لتدفن في دول فقيرة، دول كثيرة جداً متخلفة تقبل أن تأخذ أموال طائلة كي تدفن في أرضها هذه النفايات.

فأنا سمعت عن بعض دول أفريقيا كالصومال تأتيها بواخر الغذاء ليساعدوها على إطعام أبنائها الجائعين ومع بواخر الغذاء نفايات ذرية تلقى على شواطئها ! هذا يسبب سرطانات في الجلد أمراض وبيلة، هذا فساد أي شيء يغيره الإنسان، حينما نعطي هذه النباتات مواد هرمونية تنمو سريعاً وكي تكبر هذه الهرمونات تتراكم في الجسم وتسبب أوراماً خبيثة، وقد قال لي بعض الأخوة الأطباء: أن هناك ارتفاعاً غير معقول في نسب المصابين بالأورام الخبيثة بسبب الفساد الذي فعله الإنسان في البر والبحر !

يوجد فساد في البيئة، وفي الجو تلوث، تلوث صوت وتلوث هواء وتلوث ماء وتلوث في الخضراوات،تلوث في المواد التي تؤثر في محتوياتها، المواد البلاستيكية إذا استعملتها في المواد الحارة والحامضية ربما سببت بعض السرطانات ! قد نشتري آنية نفرح أنها لا تجعل الطعام يلصق بها، هذه المادة التي طليت بها بعد حين تذهب أين ذهبت ؟ إلى معدتنا ! من كان لديه هذه الأدوات التي يوجد فيها مادة تمنع التصاق الطعام بها بعد حين لينظر إليها، كل هذه المواد تلاشت ودخلت مع الغذاء، وهذه المواد البلاستيكية لا تهضم تسبب تخريش في الأنسجة والخلايا، وأحد أكبر أسباب السرطان التخريش !

فلذلك أيها الأخوة يقول الله عز وجل:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41))

ربنا عز وجل أعطانا منهج، وأعطى لكل شيء خاصة، فإذا نحن خرجنا بهذه الأشياء عن خواصها، يوجد لدينا ملوحة في المياه سببها استعمال المبيدات الكيماوية، الآن صحونا و أردنا أن نستعمل

المبيدات الحيوية، فاستعمال المبيدات الكيماوية بشكل واسع جداً سبب ملوحة المياه، وسبب تلوث المياه والإنتاج الزراعي !

فالإنسان حينما يتحرك من دون منهج من دون تعليمات الصانع يظهر الفساد في البر والبحر، هذا الموضوع طويل جداً ولا ينتهي بسنوات، الآن في بعض الدول أسست وزارة اسمها وزارة البيئة، وربما الذي يشغل شغل الناس في العالم الغربي هو نظافة البيئة، أحياناً أنت هذا الصوت الذي يعلو عن مائة وخمس وعشرين بيسبل هذا يسبب بعض السمع، الأصوات المستمرة، هذا البث بث الإذاعات من كل الأنواع أنت تظن أن الجو ليس فيه شيء، هذا الجو فيه تلوث كهرطيسي يؤثر على أعصاب الإنسان.

الموضوع طويل فأنواع التلوث لا حصر لها، ويوجد تلوث الأخلاق، الإنسان حينما تفلت من منهج الله، المرأة خرجت كما يحلو لها، فسدت وأفسدت، ولو ذهبت كي تحصي الأخطار الذي تنجم عن الفساد في الأرض لرأيت أن المجلدات لا تكفيك ! خذ من هذه القاعدة أنا أقولها كثيراً: ما من مشكلة على وجه الأرض إلا بسبب مخالفة لمنهج الله، القتل السرقة الطلاق التشرد القهر العنف، هذه مشكلات كبيرة جداً، ما من مشكلة على وجه الأرض إلا بسبب خروج عن منهج الله، وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل، لذلك يجب أن تعتبر أو أن تعد أن الجهل هو العدو رقم واحد، لنا أعداء كثر، لنا أعداء يتربصون بنا، لنا أعداء كثيرون يتمنون أن نسحق وأن نمحق وأن يأخذوا أرضنا وبلادنا، كلكم يعرف ذلك، اليهود طموحاتهم لا حدود لها، وهم يأخذون أقصى المواقف، لكن عدونا الأكبر هو ذنوبنا! لأن هذه الذنوب هي التي تجلب لنا كل ما نستحق، الآية الكريمة التي أتمنى أن تكون واضحة لديكم قال تعالى:

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً (144))

(سورة النساء)

فالأب الرحيم الطبيب إن رأى شحوباً في وجه ابنه وفقراً في دمه أو ارتباكاً في هضمه أو التهاباً في أمعائه لابد من أن يسوق له بعض الأدوية بدافع علمه ورحمته، فعندما يرتكب الإنسان ذنب يقول: يا رب عالجني يا رب أدبني هذا لسان حاله، ومن أدق ما ورد في قصة قوم سبأ أنهم قالوا:

(فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا)

(سورة سبأ)

هذا غير معقول إنسان يدعو ربه أن يمحقه ويجعل أرضه يابسة، أن يعطل هطول الأمطار أن يعيق نمو الزرع ما هذا الدعاء ؟ أن يباعد بين المدن، كانت بلادهم جنات غناء، دعوا الله أن تكون قاحلة أن تكون بلادهم صحارى، الإنسان إذا سافر إلى حمص يشعر بوحشة، الطريق كله لا يوجد فيه عرق

أخضر، أما إذا ذهب نحو الساحل يشعر بسرور، لوجود جبال خضراء ونبات أخضر، فما هذا الدعاء:

(فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا)

قال علماء التفسير: الذي يعصي الله لسان حاله يقول: يا ربي امحقني يا ربي أدبني أفقرني وسق لي الشدائد !

فلذلك ربنا عز وجل قال:

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً (144))

أنتم حينما تقترفون الذنوب تخضعون للمعالجة لمعالجة الله عز وجل.

ذكر الإمام أحمد في مسنده: أنه وجد في خزائن بني أمية حبة حنطة بقدر نواة التمر وهي في صرة مكتوب عليها هذا كان ينبت في زمن العدل، أنا لا أبعد كثيراً نحن هنا في بلدنا الطيب قبل أربع خمس سنوات إنتاج بلدنا من القمح كان ثلاث ملايين طن ! وأقصى استهلاكنا مليون طن، ثلاث أمثال حاجتنا، وسنوات كثيرة مائتان وأربعين أو خمسين ألف طن أو ثلاثمائة ألف طن، ثلث حاجتنا، الله قادر ترون في أعينكم في عام يكثر إنتاج الفاكهة الفلانية يأكلوا الناس جميعاً ويطعمون ويضيفون.

فربنا إذا رضي عن قوم أمدهم بما لا يعلمون وبما يعلمون، فمشكلتنا مشكلة الذنوب.

اليوم رغم الظروف الصعبة إذا بيت يطبق الدين تطبيقاً صحيحاً هذا بيت مرزوق، إذا محل لا يوجد فيه كلمة سيئة ولا نظرة خبيثة والبضاعة كانت جيدة، السعر جيد ونصيحة لا يوجد كذب ولا احتكار ولا تدليس ولا إخفاء عين، يوجد أدب وعفة واستقامة تجد المحل مرزوق الله موجود بعدله ورحمته وعطائه، فنحن مشكلتنا مع الذنوب، أقول لكم دائماً وهذه الفكرة أرددها أن المؤمن مؤمن هذا الزمان في الأعم الأغلب لا يزني ولا يقتل ولا يسرق ولا يشرب الخمر، لكن ما الذي يحجبه عن الله ؟ هذه التي يراها صغائر الصغائر إذا استمر عليها الإنسان انقلبت إلى كبائر، كنت اضرب على هذا مثلاً: رجل يركب سيارة يسير في طريق عرضه ستين متر على اليمين يوجد وادي، لو حرك المقود سنتيمتر واحد صغيرة أما لو ثبتها لكانت على الوادي !

لكن سميت صغيرة لن تلافيها سهل جداً، حركة معاكسة وانتهت، أما لو ثبتناها لكانت على الوادي، الكبيرة انحراف تسعين درجة فجأة على الوادي فوراً، أما الصغيرة بعد مائتين متر ! من هنا قال عليه الصلاة والسلام عن عائشة قالت: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

((ولا صغيرة بصغيرة مع الإصرار * وقال عنه الإمام السيوطي أنه ضعيف))

(الجامع الصغير للإمام السيوطي)

إذا الإنسان قبل أن يقيم على بعض المخالفات محجوب، عندما انحجب عباداته لا طعم لها، اتصاله بالله شكلي، لذلك يشعر بملل وسأم وضجر يقوم إلى الصلاة وهو كسول، لا يذكر الله إلا قليلاً.

إذا كان هناك شيء أغلى عليك من الله، الله أغنى وأجل وأعظم أن يتجلى على قلبك، إذا وجد شيء مهما بدى لك صغيراً لا تقل: هذه لا أستطيع فعلها أنت تضع هذه المعصية الصغيرة بكفة وعطاء الله بكفة ثانية، أنت حينما تصر على هذه المخالفة الصغيرة ترفض ما عند الله من عطاء أو ترضى أن تكون عنه محجوباً وهذا اكبر ذنب.

فالقضية إخواننا الكرام حتى نستفيد من وقتنا العمر محدود وثمين، يوجد حقيقة والله أتمنى أن أوضحها لكم، و أتمنى أن تقنعوا بها: في الإسلام لا يوجد حل وسط، إذا أردت أن يكون انتمائك شكلي للدين ولم تقطف ثمار الدين أبداً مع دماء المسلمين مليار ومائتين مسلم يدعون الله صبحاً ومساءاً ولا يستجيب لهم، ويزداد أعدائهم قوة وجبروتاً الله عز وجل قال:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (141))

(سورة النساء)

فإذا كان للكافرين على المؤمنين ألف سبيل وسبيل كيف نفسر ذلك ؟ أن المسلمين محجوبون عن الله عز وجل بذنوبهم وعيوبهم، والدعاء الشريف: اللهم لا تقطعنا بقواطع الذنوب ولاتحجبنا بقبائح العيوب.

أنا أخجل أن أقول جربوا لأن الله لا يجرب، لكن لو أراد أحد أن يصطلح مع الله بشكل دقيق دقيق أسبوع واحد إذا لم يرى تبدل جزري بعلاقاته بنفسيته ومشاعره وتوفيقه وعمله وبيته هذا منهج الله عز وجل.

الذي يؤلمني أن جمهرة المسلمين محجوبون عن الله لا لذنوب كبيرة لكن للصغائر، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول

(عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الشيطان قد أيس أن يعبد بأضكم هذه ولكنه قد رضي منكم بما تحقرون))

(مسند الإمام أحمد)

ما الذي حصل سهرنا سوية ؟ والله لم آكلها ولم تأكلني، نحن نعرف أنفسنا، لكنك خالفت المنهج، تأملت محاسنها وتمنيت أن تكون زوجتك مثلها، جئت إلى البيت أصبح وضعك آخر اختلف وضعك، إذا كان البيت انهدم من داخله صار هناك مشكلة في البيت، عندما قبلت أن تختلط مع امرأة لا تحل لك أن تسهر معها وتدير معها حديث وأنت محترم وعفيف وشريف، لكن هذه المحادثة والتأمل هذه تجر إلى تمنيات وخواطر وإلى ما سوى ذلك تجر إلى نفور من الداخل، لها مضاعفات هذه، فأنت لست أفهم ممن شرع لك هذا الدين القويم.

أنا مطمئن غلى أن كل إخواننا الكرام الذين يرتادون بيوت الله عز وجل هؤلاء بعيدون بعد الأرض عن السماء عن أن يرتكبوا كبيرة، ولكن ما الذي يحجب بعضهم ؟ مما يحقرون من أعمالهم، صلي

الصلاة لوقتها، أحب العمال إلى الله الصلاة على وقتها، من صلى الصلاة بوقتها بارك الله له في عمره، يشعر أن الوقت مديد، أذن العصر قمت للصلاة مع الوقت، وقت طويل إلى صلاة المغرب، أما إذا أخرته دائماً تشعر بضيق، لم تصلي العصر لم تعد هناك بركة في وقتك.

فالإنسان آن له أن يشمّر وأن يتبع الحق كما نزل تماماً ثم لينظر كيف أنه ينال من الله شيئاً لا يوصف ! أنت تعامل خالق الكون وإله الكون أنت تعامل من بيده كل شيء، عندئذ يكون دعائك مستجاباً. فالذي أريد أن ألح عليه نحن لا نشكو الكبائر، ولكن نشكو الصغائر ولا صغيرة مع الإصرار، كما أنه لا كبيرة مع الاستغفار، مهما تكن الكبيرة كبيرة إذا قلت يا رب تبت إليك، يقول الله عز وجل: عبدي وأنا قد قبلت.

فالذنوب والمعاصي أعداء المسلمين رقم واحد هذا العدو، لن هذا الذنب سيحجبك عن الله والخير كله عند الله، خير مطلق بدأ من صحتك لأولادك لزواجك لعملك لأحوالك النفسية لسعادتك لا استقرارك لأمنك ومستقبلك ودنياك وأخراك كله بيد الله عز وجل، أنت حينما تستقيم على أمر الله، كأنك تقول أنا تحت ظلك أنا في رعايتك وحمايتك فإنك بأعيننا، سيدنا رسول الله عقب على قول سيدنا لوط:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِ لُوطٍ (لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَمَا بُعِثَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ إِلا فِي ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ))

(مسند الإمام أحمد)

فأنت لا تبعد إذا إنسان له صلة مع شخص قوي جداً، تجده غير سائل عن هذا لا يخاف ولا يحسب حساب، يوجد دعم شخص إنسان من بني البشر سوف يموت إذا كان قد أعطاك ضوء أخضر وقال لك: لا تخف أنا معك تجد حركتك تصبح غير طبيعية، فكيف إذا شعرت أن الله معك ؟ كلمة إن الله مع المؤمنين هل تعرفون قيمتها هذه ؟ معك مؤيداً وناصراً وحافظاً وملهماً رشدك وموفقاً في أعمالك. فالنقطة الدقيقة في هذا الدرس: ممكن أن ينحجب إنسان عن الله لأسباب وجيهة ارتكب جريمة قتل هذا محجوب ونصف حتى، شرب الخمر وزنى وسرق، بنى مجده على انقاض الناس بنى حياته على موته بنى غناه على فقره، بنى أمنه على خوفه هذا منته مقطوع، لكن مسلم لم يشرب الخمر ولم يزني ولم يقتل ولم يرتكب معصية ولم يقوم بمشكلة كبيرة فقط محجوب بتساهل بالنظر واللسان واللقاءات، معاصي أساسها النظر واللسان والاجتماع، يوجد اختلاط تابعنا شيء شاهدنا محطة يوجد فلم سيئ شاهدناه وحدنا وأنمنا الأطفال، هذه الأشياء تفعل مع الإنسان حجاب، هذا الحجاب الرقيق حجبك عن الله عز وجل وانتهى كل شيء.

فيا أيها الأخوة الكرام: لا أرى لحظة في حياة الإنسان أشد تألقاً من لحظة اصطلاحك مع الله، عندما يكون الطريق سالك سجوده اصبح سهل تجده يسجد ويمرغ رأسه في مكان سجوده، يركع ويخضع، الإنسان أحياناً يصلي ولا معنى لصلاته، أما عندما يقول: الحمد لله رب العالمين يتأمل في هذه الكلمة أي يا رب أنعمت علي بنعمة الوجود والإمداد رزقتني زوجة وولد ومأوى وعمل عرفتني بك، سمحت لي أن أتصل بك، الشيء الحمد يجب أن تسبح فيها آلاف الخواطر، الحمد لله رب العالمين، كل الكون بيده الرحمن الرحيم أساس علاقة الله بعباده الرحمة، إنسان علاقتك معه القنص ينتظرك على واحدة، وإنسان مثل أب وابنه علاقة الأب مع ابنه الرحمة، ليس له هم إلى رحمة ابنه ويكرمه وأن يصبح إنسان ذات قيمة، مالك يوم الدين أنت الآن مخير طليق تفعل ما تشاء لك أن تتوب وتستقيم وتؤدي من مالك الزكاة وأن تصحح ما سلب منك كل شيء سهل، أما حينما يأتي ملك الموت كل شيء انتهى.

لاحظ عندما يقرع الجرس انتهى الامتحان أخذوا الأوراق، فقط كلمة، أبداً ولا كلمة، بعد خروجه من الامتحان يقول هكذا حل المسألة لكن لم انتبه لها، للأسف انتهى الوقت المسموح لك، الآن تقول له: إياك نعبد وإياك نستعين ورد في بعض الأحاديث أن القرآن كله جمع في الفاتحة وأن الفاتحة جمعت في إياك نعبد وإياك نستعين وأحد كبار العلماء ألف كتاب سماه مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين، الدين كله إياك نعبد وإياك نستعين، الآن تقول لله عز وجل: اهدنا الصراط المستقيم يوجد ثلاث فئات فئة عرفوا الله وأطاعوه، وفئة عرفت الله عز وجل ولم تطعه غير المغضوب عليهم، وفئة لم تعرفه ولم تطعه ولا الضالين، يا رب اجعلني مع الذين أنعمت عليهم، مع الذين عرفوك وأطاعوك وأحبوك واستقاموا على منهجك والذين أقبلوا عليك والذين تابوا إليك، هذه الصلاة تناجي ربك.

بسم الله الرحمن الرحيم هذه الآية هذا جواب الله عز وجل:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

(سورة الإسراء)

انتبه لكلامك وانتقي أجمل كلمة ألطف كلمة، ألقيت درس بجامع الأحمدية درس جديد، ورواد الدرس لم يألفوا طبيعة الدرس، ويوجد أناس كثيرون يجهلون آداب مجالس العلم، فلاحظت أن بعد الدرس يقوم رجل ويسير من الأول إلى الآخر، قد يكون لديه موعد لكن القيام من درس العلم يثير معنى لا يليق بصاحبه، القصة تكررت أكثر من مرتين، طبعاً أنا أعذر هؤلاء لا يعلمون قيمة مجالس العلم ولا آدابها، ففي درس من الدروس قبل أن يبدأ الدرس قلت هذه المقدمة قلت لهم: هناك أشياء تحتاج إلى تحصيل معارف عالية وأشياء تعرف بالبديهة، معقول إنسان يستقبل ضيفه بالألبسة الداخلية ؟ هم استهجنوها ! غير معقول هذه يلزمها مدرسة ؟ لا يلزمها ليسانس أو دكتوراه ؟ لا أي إنسان مهما كانت ثقافته متواضعة غير معقول أن يستقبل ضيفه إلا بثياب مقبولة على الأقل، معقول أب يجلب طعام لبيته ثمين

جداً يأكله وحده وعنده زوجة وأولاد ؟ نظروا إلي باندهاش ! أكل وشبع ولم يترك شيء، الله يرضى عليكم يا بني ! ما هذا الكلام ؟ هذه لا يلومها دراسة ولا ذكاء ولا... معقول إنسان يأكل الطعام لوحده ببيته وله أولاد وزوجة ؟ أحضرت مثل آخر مستهجن ذكرت عدة أمثلة، ثم قلت: هل سمعتم أن في العالم كله جامعة أو ثانوية يمكن لطالب أن يخرج من الدرس مزاجياً ؟ الدرس كله نصف ساعة فأنت منذ البداية إذا لم يكن لك مصلحة بحضوره فعليك بالصلاة والذهاب فوراً، لم يقل لك أحد اجلس، أما أن تجلس ثم تخرج أمام الناس منذ الربع الول من الوقت وتسير من أول الجامع لآخره ! هذا يعني كأن الدرس لم يعجبك وأنك تفهم ما يحكى، قد يكون لديه وعد لا مشكلة في هذا.

أحياناً ألاحظ مشكلة في المسجد أتكلم عن مسجد آخر أنه ترتكب به هذه الأشياء، الله عز وجل قال لك:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً (53))

ألم تقل له أنت:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ)

يا عبدي إن من لوازم صراط الذين أنعمت عليهم أن يفعلوا كذا.

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

الله اكبر ركوع، ما الركوع أي سمعاً وطاعة يا رب أنا سأخضع لهذا الأمر وسأنفذ هذا الأمر وأنا تحت هذا الأمر، فالركوع خضوع، سمع الله لمن حمد، والله الإنسان يقولها أحياناً دون أن ينتبه ماذا يقول ! الآن الله عز وجل يستمع إليك تفضل وتكلم، هو يستمع إليك إذا حمدته، ربنا لك الحمد والشكر والنعمة والرضا حمداً كثيراً طيباً مباركاً بعدد خلقك ! سبحانك لا يحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، يقول الله لك: أنا أسمعك يا عبدي احمدني،لا أحد منتبه، الله أكبر تمهل قليلاً، سجد ما معنى السجود ؟ يا رب أنا خاضع لأمرك ولكن أعني عليه.

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33))

(سورة يوسف)

أنا خاضع لأمرك ولكن أنا مفتقر إلى فضلك، أصبح معنى الركوع الخضوع، ومعنى السجود طلب العون من الله هذه ركعة....

سبحان ربي العظيم أي سمعاً وطاعة يا رب، أنا خاضع لأمرك، أنا مستسلم لتوجيهك، سمع الله لمن حمد، احمده على نعمه كلها، الله أكبر سجود ربي أعني على تطبيق أمرك، الركوع خضوع، والسجود

طلب العون من الله، هذه ركعة نموذجية، فإذا حاولت أن تصلي كل صلاة بهذا الشكل تقرأ الفاتحة بهدوء وتتأمل في معانيها الدقيقة، ثم تقرأ الصورة التي هي أمر الله، ألم تقل له: اهدنا الصراط المستقيم؟ جواب الله لك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً)

(سورة التحريم)

هذا أمر ثاني، الله أكبر، سبحان ربي العظيم، يا ربي سأتوب لك كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة، سمع الله لمن حمد، الله أكبر، يا ربي أعيشني على التوبة، هذه الصلاة، إذا صلى الإنسان بهذه الطريقة شعر أنه من الله قريب، وأن الله تجلى على قلبه، انتهت الصلاة، أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، ثلاث مرات لعل هناك خطأ في الصلاة، كوجود سهو أو غفلة، اللهم أعنا على دوام ذكرك وشكرك وحسن عبادتك وارزقنا الشوق إلى لقائك ولذة النظر إلى وجهك الكريم، اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، صليت السنّة القبلية والبعدية والفرض ودعيت هذه الصلاة، كأنك شحنت البطارية، انشحنت إلى الصلاة الثانية، صعب أن ترتكب مخالفة بين الصلاتين، لأنك صاحي ومع الله، والله أعطاك قوة روحية وهذه تمنعك أن ترتكب ذنباً، تجده مسدد من الله مستنير قرارك حكيم وتصرفك سليم، معنوياتك عالية، محبتك لله كبيرة، ملهم حكيم رحيم منصف، كل الحماقات التي يرتكبها الناس لأنهم بعيدون عن الله، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((عن بلال بن يحيى قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن الصلاة فقال: الصلاة عمود الدين وهو مرسل ورجاله ثقات.ورواه بعض الفقهاء بلفظ الصلاة عماد الدين، فمن أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين - يعني دين نفسه))

(كشف الخفاء للإمام العجلوني)

ولا خير في دين لا صلاة فيه، ومن ترك الصلاة فقد كفر، وآية بيننا وبين المنافقين، طبعاً شهود العشاء، والصبح لا يستطيعونها، ثم عندما يقول لك النبي الكريم بالحديث الصحيح:

((عَنْ عُثْمَانَ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ كَقِيَامِ نِصْفِ لَيْلَةٍ، وَمَنْ صَلَّى الْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ كَقِيَامِ لَيْلَةٍ))

(سنن الدارمي)

ألا تريد أن تكون مع الله أنت ؟ الله أعطاك ضمانة من الصبح حتى العشاء لا يوجد أي مشكلة ولا ورطة، هناك دعاء ينخلع له القلب: يا ربي إني أعوذ بك من فجأة نقمتك، فجأة مرض عضال ! وتحول عافيتك وجميع سخطك ولك العتبة حتى ترضى.

أحياناً الإنسان بثانية شعر بألم لا تحتمل أخذوه، انشعر وانتهى الأمر، تسود الدنيا في عينيه، أحياناً يقولوا أن رقم واحد، سنجمد دماغ أول رجل أمامه صفر، معك مال ممتاز أصبح عشرة، عندك زوجة

أصبحوا صفرين، مائة عندك أولاد أصبحوا ألف، عندك عمل جيد عشرة آلاف، كل حظ من حظوظ الدنيا صفر، أما لو سحبت هذا الواحد كله أصفار، بعضهم يقول: أن الواحد هو الصحة، أنا أقول الإيمان، الغي الإيمان كله أصفار.

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (55))

(سورة التوبة)

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197))

(سورة آل عمران)

(رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آَمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ)

(سورة البقرة)

قال ومن كفر حتى الكافر أطعمه، وأحياناً يتغدى بثمانين ألف ليرة ! وأحياناً يذهب للسياحة ويدفع مليونين ليرة، وعرس لابنته بعشرين مليون، قال: ومن كفر أنا أطعم الجميع.

(وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126))

لا يغتر الإنسان، لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين.

(يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79))

(سورة القصص)

من باب الطرفة رجل قال لي بأذني: بقدر ما أحب هذه pm أتمنى أن تسير فوقي ! قلت له: هداك الله.

(يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً)

والله أيها الأخوة: المؤمن الدنيا في عينه صغيرة جداً، والكافر الدنيا في عينه كبيرة، لذلك المؤمن إذا كان لديه دنيا ففي بيته لا في قلبه، قلبه مع الله دائماً.

فالذي يحوى عليه هذا الدرس نحن مؤمنين والحمد لله، نرتاد بيوت الله ونحضر مجالس العلم، لكن هذا الدين يجب أن نقطف ثماره في الدنيا.

أمثلة بسيطة الجميع يدرس لكن هناك من يدرس ويحصل على شهادة عالية جداً من بلد متفوق بالعلم، يأتي ويفتح عيادة أو مكتب يقول لك شيء غريب غير معقول باليوم باليوم يجمع مائة ألف! هذا مثل صارخ كيف الإنسان قطف ثمار دراسته، أحياناً يسعى في اختراع شيء ينجح هذا الشيء، يصبح هناك مبيعات مذهلة يقول لك: دخله كل يوم مائتان ليرة، هذا إذا اخترع شيء أو أسس معمل ناجح جداً، أو أسس شركة مدروسة دراسة كبيرة جداً، أو نال شهادة عالية جداً، أو درس دراسة نادرة جداً، هناك

أشخاص لهم اختصاصات نادرة جداً، أحياناً تجد شخص عنده ثلاثين رجل وكل رجل ألفين ليرة، يحصّل كل يوم ستين ألف، إذاً ليس لديه مشكلة مادية أبداً، هذا قطف ثمار دراسته.

نحن ألا يجب أن نقطف ثمار الدين ؟ محسوبين مسلمين محسوبين على العالم مسلمين، والعالم كله يريد ضررنا، الحد الأدنى أن نقطف ثمار ديننا، كل العالم ضد المسلمين، وأنتم ترون بأعينكم وتسمعون أخبار كل يوم، مشكلة العالم الأولى المسلمين أينما ذهبت شرق وغرب شمال وجنوب، أقل الدرجات العالم كله ضدنا، أقل شيء ممكن أن نقطف ثمار الدين.

إن ما يلزمنا هو مراجعة حسابات وليس نبقى نسير سبهللة، يقول لك: (عم ندفش) ما هذه الكلمة ؟ عوضاً عن قول الحمد لله، انظر إلى هذه العبارة القاسية الجاهلة الغبية، أما المؤمن يجب أن لا يدفش يجب أن يركض هو لله عز وجل، إذا لم يركض يركضه الله، اركض وحدك أفضل لك، إذا الإنسان لم يركض الله يركضه، والله يعلم كيف يجعله يركض، ومنطقة الألم تماماً، المحل الحساس، من أين تتألم يعرف.

امرأة مسافرة متهتكة أصيبت بمرض خبيث قالت لهم: أضع جلال وليس منديل على رأسي ولكن أن يعافيني الله ! الحياة ليس لها معنى بالنسبة لها، فالله عز وجل له جهود لا يعلمها إلا الله.

فأنت معافى شديد شاب ليس لديك مشكلة اركض وحدك إلى الله عز وجل.

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (50))

(سورة الذاريات)

الشيء الذي يحير أن هذه الدنيا للتوبة، باب التوبة مفتوح وباب العطاء مفتوح، باب الإقبال مفتوح، باب الصلح مع الله مفتوح، مساجد والحمد لله، والله أننا نعيش بنعم أيها الأخوة لا نعلمها إلا إذا غادرنا هذا البلد، لا تستطيع الدخول إلى الجامع ولا مرة، مرة أخرى لك مشكلة، تدخل إلى المسجد وتصلي وتسمع الدروس، بيوت الله مفتوحة على مصاريعها، لا يوجد أي مشكلة والحمد لله، هذه نعمة لا تقدر بثمن من استغلها.

أنت تطلب العلم وبلا نقود، لا يوجد رسم دخول ولا استمارة... بلا مقابل، كل شيء يلزمه أتعاب، لا تستطيع الدخول إلى طبيب إلا إذا كان معك خمسمائة ليرة أقل شيء، بعض المحاميين استشارته خمسة آلاف لا يتكلم يقول لك: ليس لك فيها مصلحة فقط، يرفع رأسه خمسة آلاف، يهزه ألفين، هنا بلا نقود، دون أن تدفع أي قرش، فقط نريدك أن تسمع سنّة النبي اللهم صلي عليه، واسمع تفسير كتاب الله، اسمع السيرة النبوية المطهرة، اجعل النبي قدوة لك.

فيا أيها الأخوة: نحن ليست مشكلتنا بالكبائر، الحمد لله أنا ليس عندي ولا كبيرة، لا ينقصك إلا أن تعمل كبيرة، هذه ليست واردة أبداً، أنت طالب علم، نحن مشكلتنا بالصغائر، الصغائر حجب، وإذا لم ينتصر الإنسان على نفسه وأنهى الصغائر لن يجد الطريق إلى الله سالك.

فمن أجل أن تجد الطريق إلى الله سالكاً تب إلى الله توبة نصوحة، وهذه التوبة النصوحة والله أيها الأخوة: يوجد حديث له في نفسي بصمات عميقة جداً: استقيموا ولن تحصوا، إذا استقمت على أمر الله لا يمكن أن تحصي الخير، لأنه أكبر من أن يحصى، لأن الخير الذي يأتيك من توبتك واستقامتك وإقبالك وإخلاصك أكبر من أن يحصى بكل جوانب الحياة !

والله عز وجل يري آياته، أنا اسمع قصص من إخواننا كثيرة جداً، أكثر هذه القصص تؤكد هذه المعاني، فنحن كما قال عليه الصلاة والسلام:

((عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الشيطان قد أيس أن يعبد بأضكم هذه ولكنه قد رضي منكم بما تحقرون))

هذه واحدة، الثانية: في درس البارحة: النبي الكريم يقول

((ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة ـالحالقة": الخصلة التي تحلق أي تهلك وتستأصل الدين))

(الجامع الصغير لجلال الدين السيوطي)

فلا تتخيل أن تقوم عداوة بينك وبين أخوك لا تنعكس على الاثنين بتراجع في الدين نفسه، فقدر المستطاع نمي علاقاتك، سامح أعفو اغفر ارحم تسامح.

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34))

(سورة فصلت)

كن أكبر من خصمك، إخواننا الكرام الذي يعفو عن خصمه يشعر بسعادة لا توصف، من كظم غيظاً وهو قادر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً يوم القيامة، عندما تكون علاقاتك مع الناس كلها إيجابية وناجحة أميل للعفو والتسامح ليس عندك حقد موحد، فأنت تشعر أنك بين الأحباب دائماً، تجد رجل عمل دعوة مع شخص ثمانية سنوات أعصابه موترة ! يخبر المحامي الساعة الثانية عشرة ماذا حصل معك ؟ قدمت مذكرة ؟ ماذا قال القاضي ؟ يمكن أن تكون متفق مع الخصم، قال: لا تخف أنا دبرت القاضي، ثمانية سنوات أعصابك محروقة، هل هذا معقول؟ فأنت اعفو عنه، قال: الصلح سيد الأحكام.

فيا إخواننا الكرام: نحن نريد أن نقطف ثمار الدين، كلمة هلك المسوفون ليست حديثاً، لكن حكمة، المسوف هالك دائماً، كل شيء رجائي، إن شاء الله غداً أتوب حتى ينتهي العام الدراسي، حتى ينتهي الصيف حتى يبدأ العام، حتى أؤسس أو أتزوج أو أخطب... يمضي العمر كله تسويفاً.

فإذا اصطلحت مع الله من الآن: يا ربي تبت إليك، والنبي كان يحدق إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم اكثر من سبعين مرة، ما المانع ؟ المؤمن مذنب تواب، كلما وقعت في مشكلة تب إلى الله، وقعت فيها مرتين تب وتصدق، أصبح هناك خجل، إذا وقع بالذنب في المرة الأولى التوبة سهلة جداً، أما الثانية أصعب، مادامت اصعب يلزمه مقوي، المقوي هو الصدقة، الآية الكريمة:

(إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (114))

(سورة هود)

قال: من عواقب الذنوب أيضاً أنها تطفئ في القلب نار الغيرة، الإنسان يغار أحياناً على مصلحته ودينه وآخرته، ويتألم أشد الألم إذا كان مقصر، إذا فاته فرض صلاة يتألم كثيراً، إذا كان تكلم كلمة غيبة ينحرج كثيراً، فعندما يرتكب الإنسان ذنب ويستمر على هذا الذنب ويستمرء الذنب ولا يتب من الذنب تنطفي من قلبه نار الغيرة، يصبح غير مبالي، اللا مبالاة ليست حالة صحية، حالة اللا مبالاة حالة مرضية، تصيب الإنسان حينما يشعر بالإحباط، فإذا الإنسان لم يتب إلى الله بقي محجوب عنه، ينتقل لحالة كان بغيرة إلى اللا مبالاة، لا يسأل غير مبالي.

رجل هجا إنسان قال: لا يبالي وإذا بال فمن بال يبول.

لا يبالي أبداً يعيش على الهامش، ليس لديه اهتمام بأي شيء، فالذنب من لوازمه انه يطفئ من قلبك نار الغيرة، لا يوجد غيرة أما المؤمن حريص على استقامته ودينه وعلى صلاته وعلى أذكاره على تلاوته على غض بصره على دعوته إلى الله، ينطق بذكر الله دائماً، كلما ارتكب ذنب تضعف الغيرة عنده، إلى أن يصبح هامد ساكن سكونة، وينتهي الإنسان.

تجد أكثر الناس في حالة صعبة هو يقرف ويقرف غيره، تشعر أنه يقرف من كل شيء، وسلوكه يقرف، هذه من علامات الذنب إذا طال عليه الأمد.

(فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ)

(سورة الحديد)

(فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ)

(سورة التوبة)

فالإنسان إذا أذنب أن يصطلح مع الله فوراً، يحرك نفسه، سألني أخ مرة: كيف أحرك نفسي؟ بالعمل الصالح، الله عز وجل قال:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110))

(سورة الكهف)

إذا كانت صلواته واستقامته ما نهضت إلى حالة التألق والحرارة الإيمانية، لذلك قال بعض العلماء كلمة رائعة جداً: إبليس شر مطلق لكن الله كيف سمح له أن يتحرك ؟ الله خير مطلق، إبليس له مهمة

يفعلها وهو لا يدري ولا يريد، إبليس بوساوسه وأعماله يجعل الإيمان حرارته عالية دائماً، يوسوس لك تتألم تطلب العلم يرتفع مستواك.

كلما تحرك إبليس حركة للمؤمن يرقيه وهو لا يشعر ! دون أن يدري من حيث لا يريد ولا يشعر، لأن الإنسان إذا لم يتلقى وساوس وهو مقصر، كثيراً ما تجد كتاب كله بطل وفساد وهجوم عن الدين يصدر، الله كيف سمح به ؟ الله عز وجل قال:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113))

(سورة الأنعام)

كتاب يتألف كله ضلالات وكله طعن بالدين، يقرأه الإنسان يفزع إلى شيخه وإلى إخوانه يسأل عن مضامينه يزداد علماً وهو لا يشعر، والذي سؤل هذا السؤال يرد عليه بكتاب آخر، أصبح هناك حركة إيمانية أساسها هذا الكتاب الضال، فالله عز وجل يحب أن يرفع حرارة الإيمان دائماً عند المؤمنين، فإذا لم يكن هناك مشاكل لا يوجد حرارة إيمان، أتصور تصور بسيط أن الله خلق سيدنا رسول الله وأصحابه الكرام بقارة وكل الأوبة الثانية أبو جهل من قارة ثانية وبينهما بحار شاسعة.

لم يبق هناك حرارة إيمان، لا يوجد هجرة ولا إسراء ولا جهاد ولا مؤاثرة، كلهم يعيشون في بحبوحة، أما كيف ظهرت المؤاثرة ؟ عندما هاجر المسلمين إلى المدينة، إنسان فقير ترك الدنيا لله، إنسان غني أعطى الدنيا لله، إنسان تابعي تبع أهل الحق لله، فأحياناً الأحداث المؤلمة هي سبب حرارة الإيمان، والحزن خلاق دائماً.

أحياناً الفقر يكشف عن معدن نفيس فيك، أما الغنى لا يكشف عن المعدن أبداً، من معه مائة ألف وأعطى أخوه ألف لا يشعر بشيء، معه ألف فقط وبحاجة ماسة لها أعطاها لأخوه يتألق، فالحزن خلاق، أحياناً المصائب سبب رقي الإنسان.

(وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216))

(سورة البقرة)

ملخص الدرس: أنت محسوب من المسلمين، ولي ثقة كبيرة أن الكبائر لا تقترفها أبداً، مشكلتنا مع الصغائر، هذه تحجبنا كأنها كبائر، فلذلك مزيد من الطاعة والاستقامة والالتزام وحضور مجالس العلم، هذا الحضور مبارك، أولاً أنت حينما تحضر تقوي عزيمة إخوانك، ثانياً تستفيد علمياً أو روحياً، إذا دخلت بيت الله أنت ضيفه أكرمك.

إخواننا الكرام: أختم الدرس بهذا الملخص، موضوع الغيرة أن تغار على مصلحتك الدنيوية والأخروية، أن تغار على دينك، أن تغار على دين أهلك.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً)

(سورة التحريم)

أنا أعرف أناساً كثيرين هو صالح، أما أهله غير صالحين، لكن لا يغار على دينهم لا يهتم بهم، هذه مشكلة كبيرة، فالذنوب إذا تراكمت أطفأت نار الغيرة في قلب الإنسان.

في الحديث الصحيح: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أغير الخلق على الأمة، أرحم الخلق بالخلق، والله سبحانه أشد غيرة منه، قال عليه الصلاة والسلام:

((عن المغيرة بن شعبة قال: قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "أتعجبون من غيرة سعد فو الله لأنا أغير من سعد، والله أغير مني..))

(الدر المنثور في التفسير بالمأمور للإمام السيوطي)

أما الآن الناس لهم شعور غريب، لا يوجد غيرة أبداً، مهما حدث من مشكلة في أسرته وأقربائه لا يوجد غيرة أو حزن ولا قلق ولا اهتمام.

((أتعجبون من غيرة سعد فو الله لأنا أغير من سعد، والله أغير مني))

وفي الصحيح أيضاً:

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، مَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ، أَنْ يَرَى عَبْدَهُ أَوْ أَمَتَهُ تَزْنِي))

(صحيح البخاري)

بالمناسبة جاء الزنا بعد القتل، لا يوجد جريمة أكبر بعد القتل من الزنا ! وقد وردت في سورة الإسراء: الزنى بين قتلين لأنه قتل النفس.

أما الغنى التي يحبها الله قال عليه الصلاة والسلام: إن من الغيرة ما يحبها الله ومنها ما يبغضها الله، فالتي يبغضها الله الغيرة من غير ريبة، غيرة بلا دليل، إذا لم يوجد دليل هذه غيرة يبغضها الله عز وجل، أما إذا كان دليل والإنسان لا يغار قال النبي الكريم:

((الديوس لايروق رائحة الجنة، قيل يارسول الله من الديوس ؟ قال: الذي لا يغار على عرضه أو يرضى الفاحشة في أهله))

آخر حديث يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَبْدِاللَّهِ رَضِي اللَّهم عَنْهم قال قُلْتُ أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ عَبْدِاللَّهِ قالَ: نَعَمْ وَرَفَعَهُ قالَ: لا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمِدْحَةُ مِنَ اللَّهِ فَلِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ))

(صحيح البخاري)

من أجل ذلك أرسل المرسلين مبشرين ومنذرين، وَلا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمِدْحَةُ مِنَ اللَّهِ فَلِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ
*فأنت إذا أثنيت على الله كأنك دعوته

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ)

(سورة الأنبياء)

معنى هذا دعاء إذا أثنيت على الله فهذا دعاء، وإذا اعتذرت إليه يا ربي سامحني لم أكن أعرف، يا ربي اغفر لي ذنبي أقل عثرتي اغفر خطيئتي سدد خطاي ألهمني رشدي، يا ربي ألهمني الصواب، الإنسان إذا دعا الله واعتذر إليه الله يحب العذر، ولا أحد أغير من الله من أجلك ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

بعضهم يقول: إن الله سبحانه وتعالى رحيم لأنه رحيم يحب الرحماء لا تكن قاسياً، وأن الله سبحانه وتعالى كريم يحب الكرماء، وأن الله عليم يحب العلماء، قوي يحب المؤمن القوي، حيي يحب أهل الحياء، جميل يحب أهل الجمال، تنظف وتعطر واحلق وقص أظافرك رتب ثوبك وبيتك ومحلك لا تكن مهمل غير مرتب، ليس معنى هذا أن تلبس لباساً فخماً لا، مهما كانت ثيابك متواضعة نظفها واكويها واحلق وقص أظافرك واعتني بجواربك وبحذائك واهتم بمدخل بيتك ونظف البيت واهتم بمحلك التجاري، هذا الحديث جميل يحب أهل الجمال.

ولو لم يكن في الذنوب والمعاصي إلا أنها تنجب لصاحبها ضد هذه الصفات وتمنعه من الاتصاف بها لكفى بها عقوبة !

أيها الأخوة: أرجو الله سبحانه وتعالى في درس قادم أن نتابع هذا الموضوع، لأن أخطر شيء علينا الذنوب، بصراحة إذا صح التعبير إذا تخلى الله عنا الآن لأننا مذنبون، يوجد تخلي واضح، أنتم ملاحظون، كلما دعينا على أعدائنا يزدادوا قوة، يوجد تخلي والتخلي سببه الذنب، قال له: يا سعد خف من ذنوب جهودك أكثر مما تخاف من عدوك.

والحديث الصحيح: لا يخافن العبد إلا ذنبه.

وأنا أنصح إخواننا الكرام الأمور إذا جاءت على ما تريد فاحمد الله عز وجل، أما إذا جاءت على خلاف ما تريد فابحث عن ذنب، ابحث عن ذنب ترتكبه وأنت لا تدري، ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله أكثر.

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (30))

(سورة الشورى)

قصة رمزية: قال امرأة شوحة التقت مع سيدنا سليمان وكان يفهم لغة الطير قالت: يا نبي الله اسأل لنا ربك هو مهول أم عجول ؟ إذا أذنب الرجل يعاقبه فوراً أم يمهله ؟ فسأله، فقال له: قل أني مهول لعبدي، فاطمأنت وارتاحت، العقاب يطول إذاً، هناك أناس يشوون لحم، خطفت اللحم وأكلته، علقت مع اللحمة بصة حرقت العش والبيضات، عادت قالت: يا نبي الله سألت ربك فقال: أنه مهول، وها هو ذا عجول، فقال يا رب ماذا أجيبها ؟ فقال قل لها: هذا حساب قديم ! ليس على آخر فعلة لها، فكل شيء محسوب، لا أحد يتفلت من العقاب وبطولتك بالتوبة.

درسنا كله عن الذنوب اعمل مراجعة للبيت، أجهزة اللهو ممكن أن تبقى للساعة الواحدة والثانية بلعب الشدة والطاولة ؟ من لعب النرد فكأنما غمس يده في لحم خنزير، ممكن ؟ ممكن أن يكون هناك سهرة مختلطة ؟ أو إطلاق بصر ؟ أو كذب أو تجاوزات، إذا كان هناك تجاوزات لا يوجد اتصالات، مقطوعة الطرق كلها مغلقة، فهذا الذي أتمنى على الله عز وجل أن أوضحه لكم، أن نكسب حياتنا، يكفي إذا قطفنا ثمار ديننا لم يعد يهمنا أعدائنا، أما أعداء من الخارج، ونحن أعداء أنفسنا من الداخل، فكيف ينصرنا ربنا عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (086) : الذكر1.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-02-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: الدرس اليوم مستقى من كتاب شهير وقيم هو كتاب الترغيب والترهيب، فالإمام المنذري رحمه الله تعالى جمع بين دفتي هذا الكتاب من الأحاديث الصحيحة التي ترغب في أفعال معينة وترهب من أفعال معينة.

وقد اخترت لكم في هذا الدرس موضوع الترهيب من أن يجلس الإنسان مجلساً لا يذكر الله فيه، وما أكثر مجالسنا، وما أكثر لقاءاتنا، وما أكثر ولائمنا، وما أكثر نزهاتنا، هذه اللقاءات بينك وبين أولادك، بينك وبين أهلك، بينك وبين جيرانك، بينك وبين أصدقائك، بينك وبين زملائك، في البيت، في العمل، في النزهة، هذه اللقاءات تتخللها أحاديث هذه الأحاديث إما أن تبعدنا عن الله عز وجل وإما أن تقربنا منه إما أن تفرق وإما أن تجمع، إما أن تيأس وإما أن تبث التفاؤل في النفس إما أن نتألق في هذا المجلس وإما أن نخبو.

أيها الأخوة الكرام: المؤمن حينما يعد كلامه جزءاً من عمله ينجو ويسعد، النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو داود والترمذي والحديث حسن صحيح:

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: مَا جَلَسَ قوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ ولَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ إلا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً فإنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ قالَ أبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَقدْ رُوِيَ مِنْ غَيْر وَجْهٍ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعْنَى قوْلِهِ تِرَةً يَعْنِي حَسْرَةً وَنَدَامَة و قالَ بَعْضُ أهْلِ الْمَعْرِفةِ بِالْعَرَبِيَّةِ التِّرَةُ هُوَ الثَّأرُ))

قوم، أي قوم نكرة، مجلس، أي مجلس نكرة، لقاء عابر، لقاء معد له، لقاء أسري، لقاء تجاري، أي لقاء شئت وأي مجلس شئت وأي جماعة كانت وفي أي مناسبة، وفي أي مكان وفي أي زمان، صيغة تعميم.

((... مَا جَلَسَ قوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ...))

ليس شرطاً أن تقول الله الله والسبحة في يدك، مجلس تجاري هل ذكرت أمر الله في هذا الموضوع، هل ذكرت ما يرضي الله في التجارة، هل نويت من هذه التجارة خدمة المسلمين، هل قلت لو الله أكرمني في هذه الصفقة لأزوجن شاباً، هل قلت لو أن الله أكرمني في هذه الصفقة لأساهم في بناء مسجد، في حل مشكلة.

ذكر الله واسع جداً أي كلمة تقربك من الله ذكر لله، نصيحة أمر بالمعروف نهي عن منكر، ذكر آية، شرح آية، ذكر حديث، شرح حديث، ذكر قصة، حكم فقهي، أية معلومة تقرب هي ذكر لله، أية مقولة تبعد هي لهو وانحراف.

((مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ.))

لأن الله سبحانه وتعالى رفع ذكر النبي، قال تعالى:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4))

(سورة الشرح)

أينما، متى، ذكر الله عز وجل ذكر النبي معه، وأنا أقول لكم لا ينبغي أن نفهم هذا الحديث فهماً ضيقاً، يعني اللهم صلي عليه قضية حلت، هذه الصلوات الشكلية أما إذا بينت سنة النبي بيان النبي، دلالة النبي، حرص النبي على صالحنا، بينت صفاته، كمالاته.

لم يذكروا الله فيه، لم يذكروا عظمته، لم يذكروا أسماءه، لم يذكروا عدالته، لم يذكروا رحمته، لم يذكروا حلمه، لم يذكروا جنته وناره.

ولم يصلوا على نبيهم، لم يذكروا سنة النبي، أعمال النبي، أخلاق النبي، شمائل النبي، ولا سيما في هذا الموضع، أنا أقول لكم الاجتماع تجاري جيد، ما توجيه النبي بالتجارة ؟

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ))

إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يطروا، وإذا كان لهم لم يعسروا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا.

إن شئت أن تكون واقعياً بأي موضوع تلتقي من أجله، موضوع دراسي موضوع تربوي، موضوع تجاري، موضوع تعاوني، أي موضوع لله عز وجل توجيهات من خلال كتاب الله، للنبي عليه الصلاة والسلام توجيهات من خلال سنة رسول الله فإذا جلست مجلساً وطرح موضوع ما لا يكون هذا الموضوع بعيداً عن آيات الله، عن توجيه الله، عن سنة رسول الله.

((مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ إلا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ))

ما معنى ترة ؟ قال: نقص وخسارة أو تبعة ومسؤولية، لو أنك تكلمت في الطقس في أسعار الحاجيات، لا اغتبت ولا نممت، ولا استحقرت ولا أذريت، لم ترتكب أي معصية في اللسان، لمجرد أنك أمضيت الوقت في كلام لا طائل منه لقد خسرت، كلمة ترة خسارة، نقص، ترة، مسؤولية وتبعة.

فإذا كان هذا الحديث الذي هو بعيد عن ذكر الله إذا كان في المباحات ولم يرتكب فيه معصية كان خسارةً أمضيت وقت بلا طائل، أيامك أنت معدودة، ساعاتك معدودة، الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه، حتى المؤمن وهو في الجنة لا يندم إلا على ساعة مضت لم يذكر الله بها.

((مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا..))

أي مجلس، أي قوم مطلق نكرة، بأي موضوع على الإطلاق، أنا ذكرت قبل يومين ما معنى البسملة، أتيت بمثل إنسان جاهل لا يقرأ ولا يكتب عنده مكيف وضع يده على المفتاح فأعطاه هواء بارد، يعني هذه الضغطة وحدها صنعت هذا الهواء ؟ لا شركات كبيرة، عريقة، خبرات متراكمة، مهندسون، تجارب، تصحيحات وتحسينات إلى أن أعطوك هذا المكيف الذي لمجرد أن تضغط عليه يأتيك الهواء البارد، أنت باسم هذه الشركة الصانعة، باسم خبرتها، باسم علمها، باسم كفاءتها، باسم ذوقها، باسم خبراتها المتراكمة تلقيت هذا الهواء.

دقق في هذا المعنى أنت إذا تناولت الطعام قلت بسم الله من خلق لك جهاز الهضم، الفم، اللعاب، اللسان، لسان المزمار، المري، حلقات المري، الحلقات الدائرية، العضلات التي تتقلص تباعاً، الفؤاد، البواب، المعدة خمسة وثلاثين مليون عصارة هاضمة، الكبد خمسة آلاف وظيفة، البنكرياس، الصفراء الأثني عشر، الأمعاء الدقيقة التي تتجدد خلاياها كل ثمانية وأربعين ساعة، أقصر عمر للخلية عمر خلايا بطانة الأمعاء، كل ثمانية وأربعين ساعة تتجدد وأنت لا تدري، هذه تأخذ الكيلوس خلاصة الطعام تمتصها إلى داخل الجسم ليصبح دماً وغذاءً وطاقةً وحرارةً، ثم الأمعاء الغليظة، ثم خروج فضلات الطعام هذا جهاز الهضم، أنت أكلت ونمت.

لو أن الله سبحانه وتعالى كلفك بالهضم، ماذا تقول لمن يأتيك ؟ اعذرني أنا عندي ثلاث ساعات هضم، تأكل ربع ساعة عندك أربع ساعات هضم، ربنا عز وجل قال لك كل و دع الباقي علي، كل وانتهى الأمر، ما قولك لو أن الله سبحانه وتعالى كلفك بالتنفس هل تستطيع أن تنام ؟ ما معنى بسم الله ؟ يعني باسم قدرة الله، باسم حكمة الله، باسم رحمة الله، باسم جمال الله، باسم إبداع الله، أيام إنسان يكون أجهل الجهلاء يقتني أرقى آلة وينتفع بها انتفاع كبير، يعني هذا علمه ؟ لا خبرته ليس له خبرة هو أعطى أمر وانتفع، فالبسملة لا تعني أنك فعلت أنت، أنك باسم الله أكلت، باسم الله شربت، باسم الله تحركت، باسم الله وضعت خدك على الوسادة واستغرقت في نوم عميق باسم الله استيقظت، باسم الله تحركت، باسم الله عملت، من أعطاك هذا الفكر ؟ لو أن الله سبحانه وتعالى كما قال في سورة يس:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ (67))

(سورة يس)

الذاكرة لا يزيد حجمها في الدماغ على حبة العدس، فيها سبعين مليار صورة، لو أنها اضطربت لا تعرف بيتك، بذهن كل إنسان مئات ألوف الحاجات، أنا أعجب أحياناً من بائع قطع التبديل، عندك هذه القطعة، يقول لك نعم، يا بني اصعد إلى هذا الرف باقي قطعة هنا أعطه إياها، معنى ذلك أن كل بضاعة المحل في ذهنه ما هذه الذاكرة.

البسملة، أنت تأكل باسم الله تمشي باسم الله، ترى باسم الله، تسمه باسم الله، تنطق باسم الله، لا بقدرتك ولا بعلمك ولا بخبرتك ولا بحولك، كل هذا باسم الله، المعنى الثاني هذه الحركة التي بدأتها بسم الله ينبغي أن تتحرك فيها وفق منهج الله، هذا أهم هذه الآية التي يقولها الناس في اليوم آلاف المرات أو مئات المرات ولا يفقهون معناها، كأن البسملة تذكرك بنعمة الله وبأمر الله، لذلك أن تجلس مجلس إذا في نعمة أعزو هذه النعمة إلى الله، قل الله وفقنا في هذه الصفقة، الله ألهمنا الصواب الله أخذ بيدنا، الله أكرمنا، أعزو هذا إلى الله بين منهج الله، هذا العمل حلال أو حرام، أعزو النعمة إلى الله وبين منهج الله، ذكرت الله.

((... مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا..))

أي مجلس، مجلس تجاري، مجلس تربوي، مجلس تعليمي، مجلس ترفيهي، لولا أن الله سبحانه وتعالى سمح لك أن تضحك لا تضحك، لولا أن حياتك قد خلت من هموم كثير لا تضحك، الضحك معنى ذلك أنه لا يوجد عندك مشكلة كبيرة جداً، إذا الإنسان عمل فحوصات وتلقى خبر مؤلم جداً لا يضحك أبداً ينتهي الضحك من حياته، حتى إذا ضحكت الله سمح لك أن تضحك، فهذا ذكر الله عز وجل.

((.. مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ إلا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً...))

ترة يعني خسارةً أو نقصاً إذا كان الكلام مباح، يوجد موضوعات غير محرمة لكنها لا تعني شيئاً لا تقدم ولا تؤخر، أحياناً تجلس مجلس كلام لايفيد، كلام فارغ، مجمل هذا الكلام لا ينفعنا.

هكذا تروي كتب السيرة مرة رأى رجلاً تحلق الناس حوله، فسأل سؤال العارف من هذا ؟ قالوا: هذا نسابة، قال: وما نسابة، أيضاً سؤال العارف، قالوا: يعرف أنساب العرب، فقال عليه الصلاة والسلام ذلك علم لا ينفع من تعلمه ولا يضر من جهل به.

أنت كمؤمن يجب أن تصطفي من الكتب الكتاب المفيد، من القصص القصة المفيدة، من الأصدقاء الصديق النصوح القريب من الله، الذي يزيدك علماً وحالاً وقرباً من الله، الوقت محدود والعمر قصير واللقاءات معدودة، لا ينبغي أن تستهلك الوقت استهلاكاً رخيصاً، فإذا الموضوع مباح لا يوجد مشكلة، خسارة.

طالب في امتحان لو فرضنا ثلاث ساعات وامتحان مصيري، يمكن أن يرسم خمسات على المسودة، لم يفعل شيء لا أذى إنسان، ولا سب صديق، لا اقترف معصية، ولم يدخن، رسم خمسات فقط، يعني

رسم خطوط لا معنى لها والوقت امتحان، نقول خطأه الجسيم أنه استهلك وقته فيما لا طائل منه، هذه خسارة.

فإذا كان موضوع مباح كان عليهم ترةً، خسارةً ونقصاً، وإذا الموضوع محرم كان عليهم تبعةً ومسؤوليةً.

((.مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ إلا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ))

حديث آخر:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تِرَةٌ وَمَنِ اضْطَجَعَ مَضْجَعًا لا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تِرَةٌ))

رواه أحمد و ابن الدنيا والنسائي وابن حبان في صحيحه، من قعد مقعداً ومن اضطجع مضجعاً ومن مشى ممشىً لا يذكر الله إلا كان عليه ترة، يجب أن تذكر الله وأنت قاعد، وأنت قائم، وأنت مضجع، وأنت متحرك، قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

(سورة آل عمران)

يعني يذكرون الله دائماً.

أخوانا الكرام: الأمر أوله يحتاج إلى جهد لكن بعد حين يغدو ذكر الله محبباً، يقول لك فلان هاوي، إذا الإنسان مارس هواياته يمارسها وهو في متعة بالغة، أنت اجهد أول الأمر إلى أن تصل إلى درجة تذكر الله وأنت منغمس بالسعادة، الأمر أوله يحتاج إلى مجاهدة لكن بعد حين تتوافق النفس معه يصبح جزءاً من سعادتها.

سأذكر لكم وصية لسيدنا عمر دقيقة جداً، المسلمون بأمس الحاجة إليها يقول سيدنا عمر رضي الله عنه لبعض قواده: أوصيك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو يقول لك الحياة معركة الآن، الحياة حرب، الإنسان يرغب أن يوسع المفهومات، الحرب معروفة اصطدام بين جيشين، يقول لك التجارة معركة الآن، كثير من النشاطات البشرية تأخذ طابع المعركة فأنت إذا وسعت هذه الوصية التجارة معركة، كسب المال معركة، الدعوة إلى الله معركة، يوجد خصوم، أي نشاط إنساني لابد له من طرف آخر يناوئك ويناهضك.

سيدنا عمر يقول: إن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأفضل المكيدة في الحرب وأن تكون أنت ومن معك أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم.

يوجد عدو يتربص بنا الدوائر، يتمنى أن يهلكنا، الأمة لها أعداء، يقول لك الصهيونية العالمية، صح أعداء أشداء أقوياء يتمنون هلاكنا، يتمنون فقرنا، يتمنون تفرقنا، يتمنون أن نسحق، ما قولكم إن ذنوب المسلمين أكثر خطراً عليهم من عدوهم، كلام دقيق جداً.

يقول سيدنا عمر: وأن تكون أنت ومن معك أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم.

كنت أقول لكم دائماً المعركة بين حقين لا تكون أبداً مستحيل، لأن الحق لا يتعدد، الحق واحد، وبين حق وباطل لا تدوم لأن الله مع الحق، وبين باطلين لا تنتهي.

ولولا ذلك يقول سيدنا عمر: فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم.

المشكلة يقول الناس يوجد فرق حضاري، في هوة كبيرة جداً بين الدول المتخلفة والدول المتقدمة، هذه ليس لها حل ؟ يقول لك بعضهم إن هذه الهوة تزداد عمقاً واتساعاً مع مضي الزمن، لا يوجد أمل ؟ الله جل جلاله لم يأمرنا أن نعد لأعدائنا القوة المكافئة، أمرنا أن نعد لأعدائنا القوة المتاحة وعلى الله الباقي، قد يكون هناك فرق كبير بين دولة تمتلك السلاح الذري والنووي والأرض كلها مغطاة بالأقمار الصناعية ترقب حركة كل شيء وتملك أسلحة مدمرةً تدمر كل شيء في الأرض خمس مرات، وبين أمة نشيطة لكنها لم تستكمل أسباب قوتها.

إذا قلنا بمنطق أهل القوة إنكم لم تنتصروا إلا إذا أعددتم لعدوكم القوة المكافئة، نقول له لا هذا مستحيل، ولكننا ننتصر على أعدائنا مهما بدوا أقوياء، إن أعددنا العدة المتاحة وعلى الله الباقي.

يقول سيدنا عمر: فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة.

الطرفين عصاة لله، الطرفين لا يقيمون وزناً لدين الله، الطرفان لا يعبأن بمنهج الله، الطرفان لا يبتغون وجه الله، عندئذ تحدث عن العدد وعن القوة وعن الأسلحة وعن المدى المجدي، هذا يقول لك قنبلة ذكية وهذا قنبلة تتحرك على أشعة الليزر، وهذه شبح، وهذه قنبلة تركب خط معين، حدث عن الأسلحة وعن مفعولها وعن خصائصها الشيء الكثير.

فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، أنا لا أنسى هذا القول كفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله، أكبر سبب أن تنتصر على عدوك أنه في معصية الله وأنت في طاعة الله، وسع مفهوم المواجهة، أية مواجهة في أي مجال، أكبر سلاح تملكه أن تكون في طاعة الله، وأكبر نقطة

ضعف تنزل في عدوك أن يكون في معصية الله، لأن الله مع الطائعين، الله عز وجل سمعتم قبل أيام مائة وخمسين إنسان من نخبة جيش العدو ماتوا بحادث طائرتين، هذا العدد لم يخسروه في حروب.
الله عز وجل قوي وكبير، ما عليك إلا أن تكون معه، يعني من أجل ستين قتيل، اجتمعت الدنيا كلها، أما الآن مائة وخمسين إنسان من نخبة مقاتليهم ذهبوا بحادث معنى ذلك أن الله عز وجل كبير وينتقم، وهو مع الطائعين وهو على العصاة.
فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة وإلا ننصر عليهم بطاعتنا ولن نغلبهم بقوتنا.
والحقيقة إذا أردتم موضوع علمي لا بد من شيئين كل منهما شرط لازم غير كافي، الشيئان الاستعداد والإيمان، الإيمان وحده لا يكفي والاستعداد وحده لا يكفي، أما إذا توافر شرط الإيمان وشرط الاستعداد قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (60))

(سورة الأنفال)

فصار النصر محققاً، الإيمان شرط لازم غير كافي وإعداد القوة المتاحة شرط لازم غير كافي، إن اجتمعا كان النصر حليف المؤمنين.
واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم.
أنا من فضل الله علي في أدعية النصر، أقول اللهم أنصرنا على أنفسنا حتى نستحق أن تنصرنا على أعدائنا، النبي عليه الصلاة والسلام مؤدب جداً مع الله، كان يقول: اللهم إني أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك.
لا تطلب رحمة الله بلا ثمن لأنك لن تأخذها، لا تطلب نصر الله بلا حركة، بلا التزام بلا طاعة، طبعاً هذا من ذكر الله، أنا أردت أن أوسع مفهوم هذا الحديث، في أي مجال، في مجال المواجهة مع العدو أذكر أن الله هو القوي وهو الذي ينصر، في مجال العمل وكسب الرزق الاستقامة هي سبب الرزق لا الذكاء والاحتيال.
يعني أذكر الله عز وجل في أي مجال، اذكر الله الذكر الذي ينفعك في هذا المجال، ليس شرط أن تمسك في السبحة وتقول الله الله وأنت في اجتماع مثلاً، اذكر نعمة الله عليك واذكر أمر الله في هذا الموضوع، واذكر طموحك فيما لو نجحت ماذا تفعل، هذا الذي يريده رسول الله صلى الله عليه وسلم.
يوجد مجلس ليس له موضوع، يوجد لقاء ليس له موضوع، إذا كنا في عقد قران كيف نذكر الله نذكر منهج الله في الزواج، نذكر ما يطلب منا في تزويج الشباب ألم يقل الله تعالى:

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ())

(سورة النور)

نذكر أمر الله في هذا ونذكر منهج الله في هذا، والحقيقة الإنسان لا يعدم أن يختار من حقائق الدين، من نصوص الدين القرآنية والنبوية والصحيحة، لا يعدم أن يختار من الدين ما له علاقة بهذا الاجتماع، أيام اجتماع زواج، إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، اجتماع تجاري قال تعالى:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112))

(سورة هود)

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ))

اجتماع لقضاء نزهة، هذه النزهة يجب أن تكون في مرضاة الله لا يوجد فيها اختلاط، لا يوجد فيها إسراف، تبذير، فيها ذكر لله، فيها أداء للصلوات، فيها مسابقات تنمي عقل الإنسان، اختر من الدين ماله علاقة بهذا الاجتماع، هذا حديث دقيق جداً.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ إِلا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ))

حديث آخر:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تِرَةٌ وَمَنِ اضْطَجَعَ مَضْجَعًا لا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تِرَةٌ))

حديث ثالث:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَا قَعَدَ قَوْمٌ مَقْعَدًا لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَيُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلا كَانَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِنْ دَخَلُوا الْجَنَّةَ لِلثَّوَابِ))

بأي مجلس، والإنسان عندما يتعلم يعلم، طالب علم أخوانا الكرام أنتم محسوبون على الدين عند من ؟ عند من حولكم فلان أين هو في الجامع معنى أنت شئت أم أبيت محسوب على أهل الدين محسوب على المؤمنين، معنى ذلك أنك مظنة صلاح، معنى ذلك أنك مظنة علم، معنى ذلك أنك مظنة ورع، الآن الذين حولك كلما سألوا عنك في الجامع، ماذا ينتظرون منك ؟ أن تعلمهم أن تنقل لهم بعض ما سمعت،

((عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ))

حالات كثيرة مرت علي إنسان بلغ إنسان شيء الذي بلغ كان أفقه بكثير من الذي بلغ، والذي بلغ تألق تألقاً كبيراً جداً والذي بلغ خبى، أنت بلغ

((عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا مِنْ قوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ إلا قامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفةِ حِمَارٍ وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً))

يقولون في البلاغة يوجد تشبيه، والتشبيه هدفه التحديد أو التنفير ورد عن رسول الله أن العائد من هبته كالعائد من قيئه، شيء لا يحتمل لا يستطيع أحد أن يأكل قيئه أبداً، وليس من رائحةٍ أشد على النفس من رائحة دابة متفسخة وكلكم له تجربة، خمسة كيلو متر أحياناً تشعر برائحة لا تطلق وإلا بعد خمسة كيلو متر.

فالمجلس الذي فيه غيبة، ونميمة، وتباهي أنا أنفقت، وأنا سافرت، واشتريت، وأنا كذا، وفلانة وفلان، حديث عن النساء وعن الترف وعن البذخ، ينتهي المجلس وكأن دابة متفسخة في هذا المكان.

((.. قامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفةِ حِمَارٍ وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً))

أرأيتم إلى مثل هذا التشبيه أيها الأخوة الكرام، لذلك في بيتك تكلم عن الله عز وجل ترى الحاضرين تألقوا، لأن أنت تخاطب الفطرة، تخاطب العقل، تألف القلوب، الآخرة تجمع والدنيا تفرق، يوجد في الدنيا غني وفقير إن تكلمت عن حياتك وعن بيتك، وعن راحة بيتك، وعن سفراتك، وعن إنفاقك، مقتنياتك، والذين لا يوجد عندهم إمكانية يجاروك انكمشوا، وإذا عرفتهم بالله كلهم كبرتهم، وبشرتهم كلهم وقربتهم من الله كلهم فلذلك أيها الأخوة هذا درس عملي يجب أن نجعل جهدنا الجهيد أن نذكر الله.

يوجد شيء ثاني أحب أن أنقله لكم أرجو الله ان أوضح لكم هذه الحقيقة يعني إذا أنت أغفلت نفسك وتحدثت عن الله ترى شخص شخصه محور الجلسة أنا فعلت تركت، وعظت، هديت، إذا كان التركيز على شخصك الحاضرين يتألمون يضيقون ذرعاً بك، أما إن حدثتهم عن الله وعن رسول الله، وعن أصحاب رسول الله وأغفلت نفسك لم تسلط عليها الأضواء ما الذي يحصل ؟ الذي يحصل أنه كما ذكرت الله بملأ من خلقه يذكرك الله في ملأ خير منه، تجد لك سمعة عطرة الناس جميعاً يحبونك، الناس جميعاً يميلون إليك، قلوب الجميع تهفو إليك أنت ما تحدثت عن نفسك أبداً تحدثت عن الله، من أنا كي أتحدث.

كلمة والله أبكتني مرة، أحد كبار القواد الذين ردوا الأعاجم، ردوهم بقوة ضعيفة جداً، وهو يواجه قوى الشر والبغي والعدوان، الفرنجة، سجد لله وقال يا رب من نور الدين حتى تنصره انصر دينك. أنت كلما تواضعت لله رفعك، كلما وضعت نفسك في التعتيم أظهرك، وكلما أردت أن تظهر مقتك الناس فلذلك أنت حينما تذكر الله وتنسى نفسك، حينما تسلط الأضواء على كمالات الله، على آيات الله وعلى عباد الله الصالحين ولا تتحدث عن نفسك أبدا، الله عز وجل وفي يذكرك في ملأ خير منه، ما ذكرني

عبدي في نفسه إلا ذكرته في نفسي ما ذكرني عبدي في نفسه إلا ذكرته في ملائكتي، ما ذكرني عبدي في ملأ من خلقه إلا ذكرته في ملأ خير منهم.

أنت لا تزكي نفسك دع هذا لله، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (49))

(سورة النساء)

أنت دع تزكية نفسك للآخرين، والله أيها الأخوة آية كريمة نحن قد لا نقف عندها طويلاً قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (49))

(سورة النساء)

الله في هذه الآية يمدحهم أم يذمهم ؟ الله يذمهم، إنسان يزكي نفسه، إنسان يزكي جماعته، يوجد جماعات كثيرة تذكر هذا الموضوع، دع هذا لله، أوكل إظهار الحق لله عز وجل، فأنت إذا ذكرت الله في كل جلساتك، في كل لقاءاتك، في كل حركاتك وسكناتك أنت الرابح الأول لأن الله وَفي، أنت ذكرته وهو يذكرك، بل إن الله عز وجل حينما قال:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45))

(سورة العنكبوت)

من ألطف المعاني التي مرت بي في هذه الآية أنك تذكر الله والله يذكرك، ذكر الله لك خير ألف مرة ومليار مرة من ذكرك له، تذكره أنت لكن الله عز وجل عظيم ذكرته أم لم تذكره، سبحته أم لم تسبحه، أما إذا ذكرك هو ملأ قلبك غنىً، ملأ قلبك طمأنينة، ملأ قلبك سعادةً وفقك، صوب كلامك، سدد خطاك، أنعشك، قربك، رفع ذكرك، رفع شأنك ذكر الله لك أعظم ألف مرة ومليار مرة من ذكرك له، قال تعالى

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45))

(سورة العنكبوت)

ذكر الله لكم أكبر من ذكركم لله عز وجل آخر حديث:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي مَجْلِسٍ فَتَفَرَّقُوا وَلَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَيُصَلُّوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلا كَانَ مَجْلِسُهُمْ تِرَةً عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

خمسة أحاديث تبين أن الذي يجلس مجلساً لا يذكر الله فيه ندم، وحسرة ونقص، وخسارة، وتبعة، ومسؤولية، ورائحة كرائحة جيفة الحمار، أما إذا ذكرت الله عز وجل فالله يذكرك ويعلي قدرك ويرفع شأنك، ويحفظك، أحياناً الله يسخر لك أناساً يدافعون عنك وأنت لا تدري، يذكرونك بأحسن أفعالك،

يرفعونك إلى أعلى عليين وأنت لا تدري دعك من تزكية نفسك دعها إلى الله، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (49))

(سورة النساء)

لعلك تقول الذم في هذه الآية غير واضح، اسمع إلى النهي الصريح، قال تعالى:

(فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (32))

(سورة النجم)

لا تزكي نفسك ولا تزكي على الله أحداً، إنك إن فعلت هذا تأليت على الله من أنت ؟ وصي، إله أنت، أنت بشر ضعيف، قل كما قال سيدنا الصديق قال: والله أنا وليت عليهم أرحمهم فإن بدل وغير فلا علم لي بالغيب، عن سيدنا عمر.

عود نفسك أن لا تمدح مدحاً مطلقاً، فلان تقي ورع، نقي، قل أعلمه تقياً ولا أزكي على الله أحداً، انظر إلى هذا الأدب أعلمه تقياً ولا أزكي على الله أحداً.

هنيئاً لك أبا السائب فقد أكرمك الله، قال: ومن أدراكِ أن الله أكرمه قولي أرجو الله أن يكرمه. يوجد كلمة ترفع شأنك إلى الأوج وكلمة تصغرك عند الله، وكلمة تجعلك جاهل، أنت تزكي على الله، تتألى على الله، هذا الدرس أخوانا الكرام اغفل نفسك الأضواء سلطها على كمالات الله عز وجل، كمالات الأنبياء، على كمالات أصحاب رسول الله ودع نفسك لا تزكيها ولا تزكي أحداً إلا هؤلاء الذي شهد الله لهم، قال تعالى:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (18))

(سورة الفتح)

رضي عنهم تقريراً لا دعاءً، هذا منهجنا، تلغى كل العداوات، والمنافسات، والحسد، والضغينة، والكبر، والانكماش، والتنافس البغيض، كله ينتهي لا تضع نفسك موضعاً تفرضه على الناس، هم يرفعونك، أنت كن مع الناس.

قلت لكم مرة إنسان قدم كتاباً عن رسول الله قال: لقد هيأك تفوقك لتكون واحداً فوق الجميع فعشت واحداً بين الجميع.

سيرة النبي طافحة بتواضعه، طافحة بأنه جعل نفسه مع أقل جندي في جيشه، وأنا وعلي وأبو لبابة على راحلة، قائد الجيش رسول الله نبي هذه الأمة أكبر إنسان في الأرض قال: وأنا وعلي وأبو لبابة على راحلة، وعندما جاء دوره في المشي توسلا إليه أن يبقى راكباً، فقال:

ما أنتم بأقوى مني على السير، كان رياضي صلى الله عليه وسلم، وما أنا بأغنى منكم عن الأجر.

وقت السفر قال: وعلي جمع الحطب، قالوا نكفيك، قال: لا أعلم أنكم تكفونني ولكن الله يكره أن يرى عبده متميز على أقرانه.

هذه سنة النبي من استبدل بهذه السنة شيئاً آخر ضل سواء السبيل.

أيها الأخوة الكرام: محور درسنا هذا في كل مجالسك، في كل لقاءاتك في النزهات، في الولائم، في الحفلات، في عقود القران، في التعزية في عملك التجاري، اذكر الله، اذكر فضل الله ونهج الله.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (087) : الذكر2.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-02-23

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

لازلنا في موضوع مجالس الذكر وكيف أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ إلا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ))

هذا الحديث كان محور الدرس الماضي، وكيف أن الإنسان في لقاءاته وفي سهراته، وفي ندواته، وفي سفره، وفي إقامته، وفي ولائمه، وفي حفلاته ينبغي أن يذكر الله عز وجل وكان الحديث في الدرس الماضي كان عن هذا الحديث بالذات.

اليوم يوجد شيء آخر، قبل أن نتحدث عن هذا الشيء لابد من ضرب الأمثلة:

فللطائرات عجلات هذه العجلات إن بقيت أثناء الطيران تعيق حركة الطائرة وتستهلك كثيراً من الوقود، لابد من رفعها أثناء الطيران ولابد من إنزالها قبل الهبوط، هناك مشكلة لو أن هذه العجلة لم تنزل لتحطمت الطائرة، شيء خطير جداً أن لا تنزل هذه العجلة، إذاً لابد من احتياطات كثيرة حفاظاً على سلامة الركاب، هناك أجهزة بالغة الدقة والتعقيد والمتانة مهمتها إنزال العجلات فإن لم تفلح هذه الأجهزة هناك أجهزة بديلة مساوية لها تماماً نستخدم النظام الآخر، فإن لم تفلح مشكلة كبيرة جداً أربع مائة وخمسين راكب إذا لم تنزل العجلات تحطمت الطائرة، قال لابد من حركة يدوية في أرض الطائرة مكان يرفع الغطاء هناك عتلة يدوية تنزل العجلات، إذاً الحفاظ على سلامة الركاب يقتضي بدائل.

ضربت هذا المثل إنسان جلس في مجلس وزلت قدمه، أو أخطأ لسانه وقع في معصية ماذا يفعل ؟

الدرس الماضي يجب أن تذكر الله، ينبغي أن تذكر آيات الله، ينبغي أن تذكر توجيه رسول الله، ينبغي أن تذكر قصص صحابة رسول الله، ينبغي أن تأمر، ينبغي أن تنهى، ينبغي أن تبلغ، أن تبين، أن تفصل، أن تجمع القلوب، هذا الذي ينبغي أن يفعله الإنسان فإن لم يفعل قام من المجلس عن أنتن من جيفة حمار كما قال عليه الصلاة والسلام، وكان هذا المجلس ترةً على أصحابه، ترةً أي نقصاً وخساراً، أو مسؤولية وتبعة.

لو أن هذا الإنسان جلس في هذا المجلس وكان في هذا المجلس كلام لا يرضي الله ماذا يفعل ؟ جاء البديل قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ إِلا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ))

تذكرون أيها الأخوة قول الله عز وجل:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33))

(سورة الأنفال)

ما دمت يا محمد فيهم لن يعذبوا، هو رحل عنهم إلى الدار الآخرة، ما دامت سنتك مطبقة في بيوتهم، في أماكن عملهم، في حفلاتهم، في أفراحهم، في أحزانهم، في سفرهم، في إقامتهم، في نشاطاتهم، في حركاتهم، مادامو ا يستلهمون سنتك هم في بحبوحة من أن يعذبوا.

لو أنهم خالفوا سنتك، كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابين، ماذا ينبغي أن يفعلوا، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33))

(سورة الأنفال)

أنت حينما تستغفر، ما معنى أنك تستغفر ؟ معنى أنك تستغفر أنك علمت أن لك رباً له منهج وأنت خرجت عن منهجه، وأنه رحيم، وأنه يعفو عنك وإنك إن جئته تائباً أو مستغفراً غفر لك، أضرب لكم مثل آخر، هذا المثل كنت أتمنى أن أضربه لكم البارحة في درس الجمعة، مشروعية التوبة، الله عز وجل فتح باب التوبة، من أجل أن تعرف قيمة التوبة تصور أنه ليس هناك توبة الإنسان إذا أخطأ انتهى إلى النار ومعنى ذلك أنه في الأعم الأغلب لن يصل أحد إلى الجنة.

لو أن مدرسة رفيعة المستوى كان من نظامها الداخلي أن كل طالب يتأخر دقيقة واحدة يفصل فصلاً كاملاً من هذه المدرسة، معنى ذلك أنه بعد أسبوعين من فتحها لم يبق ولا طالب فيها، لأن الذي افتتحها يريد أن يعلم الناس، أن يثقفهم، أن يربيهم، يقول لك أول مرة مسامح، الثانية تنبيه، بعد ذلك تنبيه مسجل، ثم إحضار ولي، إلى أن تأتي بتقرير، ثم تمديد التقرير، تعهد إلى آخره، يضع عشرات البدائل إلى أن لا نفصل الطالب، معنى ذلك الذي أسس هذه المدرسة رحيم وهدفه نشر العلم.

أما لو ألغيت التوبة لانتهى معظم الناس إلى النار، ولفجر الإنسان، لكن إذا جئتني بملء السماوات والأرض خطاياها غفرتها لك ولا أبالي قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53))

(سورة الزمر)

هذا موضوع الدرس الماضي، البدائل أنك حينما تستغفر الله عز وجل أنت موقن أنه موجود وأن له منهج وقد خالفت المنهج، وقد رآك، وقد علم أنك خالفت هذا الأمر، وهو رحيم يغفر ويقبل.

هذه معرفة، أنا مرة ذكرت لكم أنت حينما تدعو الله، ماذا يعني أنك تدعو الله ؟ أنك مؤمن بوجوده، مؤمن بأنه يسمعك، مؤمن بأنه قادر على أن يجيبك، مؤمن بأنه يحب أن يجيب، لمجرد أن تدعو الله أنت آمنت بوجوده، وعلمه، وقدرته، ورحمته، اليوم الدرس الإنسان لو أنه جلس مجلس واخطأ فيه، ارتكب إحدى معاصي المجلس، ونتمنى على كل أخ كريم على أن ينزه لسانه في كل مجلس عن معاصي اللسان لكن لو حدث ما هو البديل ؟ دائماً نبحث عن البديل، البديل أن تقول بعد انتهاء المجلس سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك قال عليه الصلاة والسلام: إلا غفر ما كان في مجلسه ذلك.

ولئلا يفهم هذا الحديث على نحو ما أراده النبي عليه الصلاة والسلام، أضرب لكم مثلاً ثالثاً، إنسان يحج البيت الحرام أول مرة في حياته لا يعرف ملابسات أداء هذه الفريضة وضع ثياب الإحرام في حقيبة المتاع هذه الحقيبة أخذت منه إلى مكان المتاع في الطائرة، بعد أن صعد الطائرة وانطلقت الطائرة بعد ساعة، قال ربان الطائرة الآن وقت الإحرام أيها الحجاج أحرموا، أين ثياب الإحرام ؟ في متاعه، قال أتوني بها مستحيل، ماذا نفعل ؟ هذا إنسان دخل الميقات، دخل الحرم غير محرم، نقول له الحج بطل وهو دافع في الشام خمسين ألف بطاقة طائرة وبين اشتراكه في الفوج، ماذا نفعل ؟ قال عليه الصلاة والسلام وشرع لنا أن على هذا الحاج أن يذبخ هدياً يرمم هذا النقص في مناسك الحج. جاء إنسان غني وقال: أنا ثياب الإحرام ما أعجبتني مزعجة ومتعبة وغير معقولة لو أنني لبست ثيابي الكاملة كم علي بحسب القواعد الفقهية نقول له عليك ذبح، قال: أنا أذبح عشر دواب، وأدفع خمسين ألف وهذا مائة ألف، نقول لهذا الإنسان لو دفعت مليون ليرة حجك باطل، دققوا أخوانا الكرام ممكن تفعل هذا الشيء عن نسيان أو عن جهل نقول لك لهذا الشيء حل، والحل أن تقدم هدياً يرمم هذا الخلل في مناسك الحج، أما لو قصدت ذلك غير مقبول.

إنسان يجلس في مجلس وأنا أعرف ثمنه، سوف أغتاب، وأتكلم كلاماً سيئاً وأشرح أعراض الناس وعندما ينتهي المجلس كما قال النبي سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، نقول له لو قلت هذا الدعاء مائة ألف مرة لا يقبل منك إذا كنت تعلم أنك تغتاب عن قصد وعن تصميم، تريد أن تعصي الله وكفارة هذه المعصية أن أستغفر الله هذا ما أراده النبي، أنت ناوي الطاعة، ناوي أن تضبط لسانك، ناوي أن يكون هذا المجلس مجلس رحمة وذكر، إنسان جرك إلى حديث وأنت سهيت فبدر منك كلمة علاجها أن تقول سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

كلما أردت أن تتكلم في أعراض الناس وفي أخطائهم وأن تغتابهم، وأن تفسد ما بينهم، وأن ترتكب كل معاصي اللسان وبعد أن ينتهي المجلس تقول كما قال عليه الصلاة والسلام سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، نقول النبي عليه الصلاة والسلام ما أراد هذا، أنت الآن تستحل

المعصية في هذا الدعاء، والذي يدفع جزاء ارتدائه ثيابه العادية في الحج مائة ضعف لا يقبل منه لأنهم يستحلون بهذا الهدي نقص المناسك المقصود، أما إنسان لا يقصد أن يدخل الحرم غير محرم ولكن لجهله لقواعد السفر وضع ثياب الإحرام في محفظة المتاع ووضعت مع البضاعة ولن يستطيع أن يأخذها في أثناء طيران الطائرة فدخل الحرم غير محرم هذه القضية سهلة عليك دم جزاء يعني هدي أن تذبح غنمة، أما إذا أردت أن تستحل مناسك الحج بجمل لن تستطيع وأنت واعي لن أرتدي ثياب الإحرام وسأذبح بدنة، نقول لك هذا غير مقبول.

لكي لا تُفهم هذه الأحاديث على نحو ما أراده النبي عليه الصلاة والسلام بينت لكم هذه الحقيقة، أعيد على أسماعكم نص الحديث:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ إِلا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ))

هذا الكلام يقودنا إلى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار))

الكبيرة إن فعلها الإنسان عن غير قصد وعن غير سابق عزم ثم استغفر الله منها، والصغيرة إذا أراد الإنسان أن يستمر عليها وأن يتابعها تنقلب إلى كبيرة لأنها تحجبه عن الله جل جلاله.

((عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ بِأَخَرَةٍ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ مِنَ الْمَجْلِسِ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ لَتَقُولُ قَوْلاً مَا كُنْتَ تَقُولُهُ فِيمَا مَضَى فَقَالَ: كَفَّارَةٌ لِمَا يَكُونُ فِي الْمَجْلِسِ))

طبعاً سبحانك هذه كلمة يقولها معظم الناس، ولكن هي في الحقيقة تنزيه وتمجيد وخضوع لله عز وجل، والذي أرجوه من أخوتنا الكرام هذه الكلمات التي هي ذكر لله عز وجل أحياناً تؤدى باللسان فقط، وأحياناً فرغت من معناها الدقيق، وأحياناً تغدو من عاداتنا فقد لا نعني ما نقول ولا بد من أن تجدد معاني هذه المصطلحات، يعني إذا قلت سبحان الله ينبغي أن تنزهه عن كل ما لا يليق به، وينبغي أن تمجده وأن تجول في كمالاته، ينبغي ثالثة أن تخضع له، فمن أحب الله وما خضع له ما عبده، من نزهه ولم يخضع له ما عبده، من مجده ولم يخضع له ما عبده، إذاً سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

يروى أن الإمام الحسن البصري دخل عليه رجل قال يا إمام إني أشكو الفقر، فقال له: استغفر الله، قال يا إمام: إنني لا أنجب هذا إنسان آخر، قال له: استغفر الله، قال يا إمام: إني أخشى أن أصل إلى النار،

قال استغفر الله، فرجل جالس قال له: عجبت لأمرك يا إمام أكلما دخل عليك رجل قلت له استغفر الله، قال له: ألم تقرأ قوله تعالى:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (12) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13))

(سورة نوح)

كلام ربنا، فإذا الإنسان يشكو الفقر عليه أن يستغفر الله، إذا إنسان يشكو عدم الإنجاب عليه أن يستغفر الله، إذا إنسان يشكو قحط السماء عليه أن يستغفر الله.

أخوانا الكرام: يوجد نقطة مهمة جداً القرآن الكريم معجز، يوجد آية وآية ثانية المعنى الأول واضح والثاني واضح، لو جمعت الآيتين نشأ معنى ثالث من نظم الآيات مثلاً قال تعالى:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19))

(سورة محمد)

واضحة، بالمناسبة كلمة واعلم أنه لا إله إلا الله توجب أن العقيدة لا تقبل تقليداً أبداً لأننا إذا قبلنا من إنسان عقيدة تقليداً كل الفرق الضالة أصبحت على حق، سمعت شيئاً فصدقته، العقيدة لا تقبل إلا تحقيقاً لا تقليداً، لأن هذه العلم دين فلينظر أحدكم عمن يأخذ دينه.

الآية الثانية قال تعالى:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19))

(سورة محمد)

أين هو المعنى الثالث ؟ إن علمت أنه لا إله إلا الله أي أن الأمر كله بيد الله أي أن الله هو الذي يرفع وهو الذي يخفض، وهو الذي يعطي وهو الذي يمنع وهو الذي يعز وهو الذي يذل الأمر كله بيده، فإن كان في حياتك شيء مزعج لا تتهم الله في فعله واستغفر لذنبك.

الفعل فعله فإن جاءك من الله ما تكره فاستغفر لذنبك، أين العلاقة ؟ إن جاءك من الله ما تكره فاستغفر لذنبك، هذا الذي قاله النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إلا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي

شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

إذاً هذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، لا إله إلا أنت الفعل فعلك وإن جاءك من الله شيء لا ترضاه أستغفرك وأتوب إليك.

((فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ لَتَقُولُ قَوْلاً مَا كُنْتَ تَقُولُهُ فِيمَا مَضَى فَقَالَ: كَفَّارَةٌ لِمَا يَكُونُ فِي الْمَجْلِسِ))

رواه أبو داود.

مرة ثانية جلست مجلس وأنت ناوي أن تذكر الله، أنت تريد أن تستقيم في هذا المجلس لكن دون أن تشعر زلت قدمك، من دون أن تشعر زل لسانك، تكلمت كلمة لا ترضي الله عز وجل، هذه ترمم بالاستغفار أما أن تفكر تفكير أني أنا أعرف مهما تكلمت في هذا المجلس أنهي حديثي بهذا القول والله سبحانه وتعالى يغفر لي قال هذا غير مقبول من أي إنسان.

((عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا جَلَسَ مَجْلِسًا أَوْ صَلَّى تَكَلَّمَ بِكَلِمَاتٍ فَسَأَلَتْهُ عَائِشَةُ عَنِ الْكَلِمَاتِ فَقَالَ إِنْ تَكَلَّمَ بِخَيْرٍ كَانَ طَابِعًا عَلَيْهِنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِنْ تَكَلَّمَ بِغَيْرِ ذَلِكَ كَانَ كَفَّارَةً لَهُ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ))

يوجد عندنا حالة جديدة، أي إنسان جلس مجلس ذكر الله فيه ما تكلم كلمة غير شرعية قال فإذا انتهى المجلس قل سبحانك الله وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، إن لم تقل إلا خيراً هذا الكلام يؤكد ذكر هذا المجلس، وإذا فيه كلام غير مقبول أصبح هذا الكلام كفارة لهذا المجلس.

((عن زبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال عليه الصلاة والسلام:

من قال سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك فقالها في مجلس ذكر كان كالطابع يطبع عليه تصديقاً، ومن قالها في مجلس لهو كانت كفارةً له))

ولا تنسوا أن الله سبحانه وتعالى قال:

(الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ(4))

(سورة المؤمنين)

إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها ودنيها، أحياناً الإنسان يجلس مع مؤمن يستفيد، كلام يرقى به، الحديث عن الله عز وجل كما قلت البارحة في الدرس الماضي يجمع القلوب، الحديث عن رسول الله يطمئن القلوب، ألم يقل الله عز وجل:

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58))

(سورة يونس)

النبي عليه الصلاة والسلام كما قلت لكم من قبل خاطبه الله فقال:

(وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (120))

(سورة هود)

النبي يزداد قلبه ثبوتاً إذا تليت عليه قصة نبي دونه، نحن الذين أتينا في آخر الزمان وحالنا كما ترون لو سمعنا قصة رسول الله.

أنت في أي مجلس إذا أردت التألق، إذا أردت تأليف القلوب، أن تتألق العيون، إن أردت أن تجتمع القلوب فاذكر الله عز وجل.

وقال عليه الصلاة والسلام في الحديث الخامس:

((إذا جلس أحدكم في مجلس فلا يبرحن منه حتى يقول ثلاث مرات سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت اغفر لي وتب علي، فإن كان أتى خيراً كان كالطابع عليه وإن كان مجلس لهو كان كفارة لما كان في ذلك المجلس))

طبعاً الأحاديث كل حديث يضيف معنى فرعي، هنا ثلاث مرات الحديث الذي قبله يعني الإنسان يقول هذا النص ويقف عند معانيه الدقيقة والذي قبله كذلك، السادس:

((وعن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: كان عليه الصلاة والسلام إذا اجتمع إليه أصحابه قال سبحانك اللهم وبحمدك))

النبي قال هذا الكلام ومجلسه مجلس علم وذكر، فمعنى هذا أننا إذا جلسنا مجلس وما تكلمنا إلا عن الله عز وجل وقلنا هذا القول هذا القول لا شائبة عليه ولا يعني أننا تكلمنا كلام غير صحيح، إن تكلمنا كلاماً صحيحاً كان هذا الدعاء كالطابع المؤيد وإلا كان كفارة له، يوجد زيادة هنا:

((أستغفرك اللهم وأتوب إليك عملت سوءً وظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، قال: قلنا يا رسول الله إن هذه كلمات أحدثتهن، قال: أجل جاءني جبريل فقال يا محمد هن كفارة المجلس))

الآن من الأذكار المطلوبة في المجلس أن تكثر من ذكر لا إله إلا الله قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ))

الحقيقة مرةً قال عليه الصلاة والسلام:

((من قال لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قيل وما حقها ؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله))

يوجد سؤال قد يتبادر إلى الذهن، كل واحد من الأخوة الكرام، يعني معقول إنسان قال هذه الكلمة دخل الجنة، كلمة تقولها خلال ثواني لا من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، أيعقل أن يدخل الجنة التي عرضها السماوات والأرض والتي هي أعظم عطاء على الإطلاق أن يكون ثمنها هذا القول ؟ الآن نحن نعطي شهادة عليا لم يقدم استدعاء ويطلب، الكلام في أول الدعوة الناس يعبدون الأصنام، الناس يأتون الفواحش الناس يرتكبون الموبقات، الناس يعبدون صنماً، يعبدون حجراً، فإذا قال أحدهم لا إله إلا الله يعني انتقل من الكفر إلى الإيمان، من الشرك إلى التوحيد، من الكبائر إلى الاستقامة، شيء خطير جداً.

نحن الآن نقرأ هذا الحديث من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، أن تقول كلمة بأربع ثواني تدخل الجنة، هذه الكلمة نقلت الناس في عهد النبي من الكفر إلى الإيمان، من الشرك إلى التوحيد، من المعصية إلى الطاعة، فإذا كان هناك نقلة نوعية من جهة إلى جهة، هذا يمكن أن تكون ثمن الجنة، أما الآن يوجد حديث آخر.

((من قال لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قيل وما حقها ؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله))

في فترة من الفترات، الناس يعتقدون أن الشمس هي التي تدور حول الأرض، لأنهم يرون بأعينهم أن الشمس هي التي تشرق وتغيب، إذاً الأرض ثابتة والشمس متحركة، فالذي قال أن الشمس ثابتة والأرض تدور حولها أعدم في العصور الوسطى، إذا أحدهم قال في جو من الجهل وجو من اعتقاد أن الأرض ليست كرة وأن الأرض مركز العالم إذا قال: الأرض كوكب من هذه الكواكب تدور حول الشمس، يعني هذا أحدث قنبلة.

أن تقول الحق في جو من الباطل نقلة نوعية، ولكن بعد أن استقر في أذهاننا أن الأرض كرة، وليست مركز العالم، تدور هي حول الشمس فأن تقول هذا الكلام لا يقدم ولا يؤخر، لابد من أن تفعل شيئاً. لذلك أن تقول الآن لا إله إلا الله فقط هذه لا تفعل شيئاً إلا أن تحجزك عن محارم الله.

((من قال لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قيل وما حقها ؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله))

بالمناسبة أحكام الدين كله، أو عقائد الدين، العبادات الأوامر، النواهي كل هذه إن لم تنقلك إلى الطاعة لا جدوى منها، لا جدوى من هذه الكلمات التي تقال ولا من العبادات التي تؤدى إلا إذا نقلتك إلى الطاعة فلذلك حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ

وَالْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ قَالَ الْوَلِيدُ حَدَّثَنِي ابْنُ جَابِرٍ عَنْ عُمَيْرٍ عَنْ جُنَادَةَ وَزَادَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ أَيَّهَا شَاءَ))

ما هو الجديد في هذا الحديث ؟ من شهد وليس من قال، يوجد آية قرآنية فاعلم أنه لا إله إلا الله، أما هنا من شهد أن لا إله إلا الله.

بالمناسبة أكثر الآيات التي يقول ألم يروا، معنى ألم يروا أن هذه آية واضحة لكل إنسان، تحت سمعك وبصرك، هنا من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمد رسول الله إلا دخل الجنة.

((عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ قَالَ دَخَلْتُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ فَبَكَيْتُ فَقَالَ مَهْلاً لِمَ تَبْكِي فَوَاللَّهِ لَئِنِ اسْتُشْهِدْتُ لأَشْهَدَنَّ لَكَ وَلَئِنْ شُفِّعْتُ لأَشْفَعَنَّ لَكَ وَلَئِنِ اسْتَطَعْتُ لأَنْفَعَنَّكَ ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ مَا مِنْ حَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكُمْ فِيهِ خَيْرٌ إِلا حَدَّثْتُكُمُوهُ إِلا حَدِيثًا وَاحِدًا وَسَوْفَ أُحَدِّثُكُمُوهُ الْيَوْمَ وَقَدْ أُحِيطَ بِنَفْسِي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ ك مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ))

طبعاً إذا شهد أنه لا إله إلا الله فسيطيع الله، وإذا أطاع الله عز وجل حرم عليه النار.

تذكرون مرةً أن النبي عليه الصلاة والسلام كان معاذ رديفه فقال: يا معاذ ما حق الله على عباده ؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: يا معاذ ما حق الله على عباده مرة ثانية، قال: الله ورسوله أعلم، قال ثالثةً: يا معاذ ما حق الله على عباده، قال: الله ورسوله أعلم، قال حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، جيد بعد حين أعاد عليه السؤال، قال يا معاذ: ما حق العباد على الله إذا هم عبدوه، قال: الله ورسوله أعلم، سأله ثانيةً ما حق العباد على الله إذا هم عبدوه، قال: الله ورسوله أعلم، في الثالثة قال: حق العباد على الله إذا هم عبدوه أن لا يعذبهم.

هذا كلام النبي في الحديث الصحيح، يعني أنت إذا عبدت الله أنشأ الله لك حق عليه ألا يعذبك يدعم هذا المعنى أن الله عز وجل قال:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (18))

(سورة المائدة)

استنبط الإمام الشافعي أن الله لا يعذب أحبابه، لأنه رفض ادعاءهم أنهم أحباءه، لو قبل ادعاءهم أنهم أحبابه لما عذبهم، هنا الحديث:

((عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُعاذٌ رَدِيفُهُ عَلَى الرَّحْلِ قَالَ: يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ، قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: يَا مُعَاذُ، قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ثَلاثًا قَالَ: مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى

النَّار، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلا أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا، قَالَ: إِذًا يَتَّكِلُوا وَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا))

هذه كلمة لا إله إلا الله كلمة التوحيد، والإيمان بالخالق شيء والإيمان بالتوحيد شيء آخر أنت إذا وحدت الله عز وجل يعني أنك استقمت على أمره، لأنك إذا آمنت أن الأمر كله بيد الله وأنه لا معطي ولا مانع، ولا رافع ولا خافض، وجدت أنه لابد من طاعته وأن طاعته، هي الخير كله.

الرواية الخامسة، قال عليه الصلاة والسلام:

((قال عليه الصلاة والسلام: من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة قيل وما إخلاصها ؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله))

دققوا أول مرة من قال لا إله إلا الله فقط دخل الجنة، يعني حينما قالها ترك الشرك والكفر إلى الإيمان هذه نقلة نوعية، الحديث الثاني من شهد أنه لا إله إلا الله، الثالث من قال لا إله إلا الله مخلصاً. شيء آخر وهذه بشارة:

((من قال لا إله إلا الله نفعته يوماً من دهره يصيبه قبل ذلك ما أصابه))

يعني يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، نخلص من هذه الأحاديث أنك في بحبوحتين، بحبوحة طاعة الله، وبحبوحة الاستغفار، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33))

(سورة الأنفال)

الاستغفار لا تستحل به المعاصي، أما إن فعلت ذنباً عن غير قصد وعن غير إرادة ثم أتبعته باستغفار هذا الاستغفار يمحو عنك ذلك الذنب هذا المعنى، وضربت على ذلك أمثلة كثيرة في موضوع الحج، والشيء الثاني أن الله برحمته بنا جعل البدائل، تطيعه فإن زلت قدمك تستغفره لأنه يحبنا، يحب أن يرحمنا، يريد أن يسعدنا يوجد بديل دائماً كما أن الطائرة لحرص صانعها على سلامة الركاب يوجد بديل ثالث، أول ترتيب ونظام لإنزال العجلات، البديل الثاني نظام مشابه، الثالث نظام يدوي لإنزال العجلات.

يوجد أشخاص لجهلهم يقع في ذنب حجب عن الله، انتهى، ماذا تفعل استغفر توب، الله عز وجل صمم وضع منهج ووضع بدائل.

الإنسان في البيت يكون عنده صيدلية، الأصل أن يكون معافى سليم ولكن إذا صار شيء يوجد دواء معقم، دواء منشط، ملين، مميع للدم يوجد بدائل، فهذا الاستغفار والتوبة هي البدائل التي تحل محل الخطأ حين وجوده، أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علمنا وأن يلهمنا الخير .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: من خصائص الإنسان في هذه الحياة الدنيا أنه يمرض وقلما تجد بيتاً لا مرض فيه، قبل عدة أسابيع ذكرت في خطبة الجمعة أن فرنسا أجرت تفجيراً نووياً في صحراء الجزائر الكبرى والتفجير النووي كما تعلمون لا يبقي ولا يذر، لا يبقي أثراً للحياة فوجئ بعض العلماء أنه في بعض أماكن التفجير في اليوم التالي وجدوا عقرباً تمشي، فعكفوا على دراستها خمساً وعشرين عاماً، ونشرت أبحاث هذه الدراسة في بعض المجلات العلمية الرسمية.

نتائج هذه الدراسة أن العقرب يستطيع أن يعيش بلا طعام ولا شراب ثلاث سنوات متوالية دون أن يدخل إلى جوفه قطرة ماء ولا حبة من الغذاء، ويستطيع العقرب أن يبقى بلا هواء ثلاثة أيام، لو غمر بالمياه يبقى ثلاثة أيام من دون هواء، ثم اكتشف أن العقرب لو نقل من درجة حرارة تحت الصفر عشرة إلى ستين فوق الصفر، ثم عرض إلى أشعة نووية قاتلة هذه الأشعة ثلاث مائة ضعف عن الأشعة التي تقتل الإنسان ما مات.

أردت من هذا البحث العلمي أن أصل إلى أنه كان من الممكن ألا يكون مرض على سطح الأرض، ممكن وهذا العقرب ثلاث مائة ضعف أشعة نووية قاتلة لم يتأثر، سبعين درجة فرق حراري ما تأثر، ثلاث أيام بلا هواء، ثلاث سنوات بلا طعام ولا شراب.

إذاً المرض مقدر من الله عز وجل، كان من الممكن أن يكون كل جهاز من أجهزتنا فيه احتياطات كبيرة جداً، هذه الطاولة التي أضع عليها كتاب الحديث يمكن أن يقف عليها أربع رجال وتصمد، مادمت أضع عليها هذا الكتاب لن تقع طوال حياتي هذه الطاولة، معنى احتياطها أكبر من استعمالها بألف ضعف، تتحمل ألف ضعف عن وزن الكتاب، كان من الممكن أن كل عضو وكل جهاز وكل نسيج في أجسامنا يوجد به احتياط ألف ضعف، إذاً ليس هناك مرض.

إذاً المرض مقدر من الله تعالى، لكن هناك مرض يصيب المؤمن ومرض يصيب الكافر، لا علاقة لنا بالمرض الذي يصيب الكافر، نريد مرض المؤمن ما تفسيره ؟ ما فلسفته، ما حكمته، ما سره، الذي أذهلني أن في كتاب الترغيب والترهيب أكثر من مائة حديث عن علاقة المرض بالمؤمن، لكن هناك حديث قدسي:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلانًا

مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي))

أريد من هذا الحديث المعروف لديكم كثيراً والذي يكثر الخطباء تلاوته والمدرسون، أريد من هذا الحديث كلمة واحدة:

((قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ...))

معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى حينما يأخذ من المؤمن بعض صحته يعوضه عنها أضعافاً مضاعفة من القرب من الله عز وجل، فلذلك المؤمن راضي، وحينما يؤمن المؤمن بقضاء الله وقدره ينجح نجاحاً باهراً ويرقى عند الله إلى مرتبة عالية ويستحق جنة ربه، لأنه جاءه قدر فصبر عليه، الأحاديث كثيرة جداً أكثر من مائة حديث في كتاب الترغيب والترهيب للمنذري، أختار بعضها:

((وصب المؤمن كفارة لخطاياه))

الوصب الوجع الألم، أو التعب أو الفتور في البدن، هذا اسمه الوصب كنت أقول لكم دائماً الحديث الشريف لما سأل النبي الكريم ابنته فاطمة رضي الله عنها: مالكِ يا بنيتي، قالت: حمى لعنها الله، قال: لا تلعنيها فو الذي نفس محمد بيده لا تدع المؤمن وعليه من ذنب.

الحقيقة فلسفة المرض، أن الله عز وجل يعيننا على أنفسنا بالمرض، الإنسان القوي الشديد قد ينسى، قد ينسى افتقاره، قد ينسى ربه، قد ينسى أن يعمل للجنة، قد يلهو في الدنيا، قد تلهيه تجارة، يلهيه ماله، يلهيه أولاده، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(9))

(سورة المنافقون)

ربنا عز وجل جعل هذه الأمراض معيناً لنا على طاعة الله وعلى القرب منه، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْعَبْدِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يُكَفِّرُهَا مِنَ الْعَمَلِ ابْتَلاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْحُزْنِ لِيُكَفِّرَهَا عَنْهُ))

يوجد عندنا شيء جديد، شيء غير المرض أيام وهم، الإنسان أحياناً يتوهم مرض يتألم تضيق نفسه، يخاف، تسود الدنيا في عينه، هذا الحزن، وهذا الألم، وهذا القلق، وهذا الخوف، هو أيضاً مكفر للذنوب،

وفي حديث ثالث:

((إذا اشتكى العبد المؤمن أخلصه الله تعالى من الذنوب كما يخلص الكير خبث الحديد))

أيام الكير، يوضع الحديد في النار يذهب عنه خبثه ويبقى طيبه، الإنسان يقول لك أيام أتمنى أن لا أمرض لماذا ؟ لي أعمال صالحة، لي دروس، لي دعوة إلى الله، أيام أسافر وأتمنى أن لا أسافر، المؤمن يقلق على عمله الصالح، والنبي طمأنه:

((حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ السَّكْسَكِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا بُرْدَةَ بْنَ أَبِي مُوسَى وَاصْطَحَبَ هُوَ وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي كَبْشَةَ فِي سَفَرٍ وَكَانَ يَزِيدُ يَصُومُ فَقَالَ لَهُ أَبُو بُرْدَةَ: سَمِعْتُ أَبَا مُوسَى مِرَارًا يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا))

لا تقلق سافرت لك أجر العمل الذي تعمله مقيماً، مرضت لك أجر العمل الذي تعمله صحيحاً، لأن السفر والمرض من قضاء الله.

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يُصَابُ بِبَلاءٍ فِي جَسَدِهِ إِلا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ يَحْفَظُونَهُ فَقَالَ اكْتُبُوا لِعَبْدِي كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مَا كَانَ يَعْمَلُ مِنْ خَيْرٍ مَا كَانَ فِي وِثَاقِي))

ما معنى ما كان في وثاقي ؟ الإنسان هو صحيح ينطلق إلى عمله إلى أخوانه يزورهم، يذهب يسافر، يقيم حفلة، يقيم وليمة، ينام يستريح، يذهب إلى محله التجاري، أما إذا مرض دخل مستشفى صار يوجد إقامة جبرية، صار في سيرون، صار يوجد عيادة مريض يومياً، صار في تحليلات، انتهت حركته. يعني أن الله قد قيده بالمرض، كان طليق، الوثاق القيد، شدوا الوثاق أي شدوا القيد، والذي يوثق بالمرض يكتب له من الأعمال الصالحة ما كان يعمل في صحته، إذا كان مؤمناً يوجد معنى جديد

((روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال عليه الصلاة والسلام ما من عبد يمرض مرض إلا أمر الله حافظه، الملك الذي عن يمينه، أنما عمل من سيئة فلا يكتبها، وما عمل من حسنة أن يكتبها عشر حسنات، وأن يكتب له من العمل الصالح كما كان يعمل وهو صحيح وإن لم يعمل))

في أثناء المرض الحسنات تتضاعف إلى عشر أضعاف، والسيئات لا تكتب، النبي عليه الصلاة والسلام يطمئن المؤمن أنك عند الله عز وجل بمكان علي وأن مرضك لا يعيقك عن العمل الصالح. يروى أنه أحد العارفين بالله في دعائه قال له يا رب افعل بي كل شيء تجدني صابراً إلا البعد عنك، ويوجد بيتين من الشعر نسيتهم، وهو واثق من الصبر، يروى أن الله أراد أن يؤدبه، لأن هذه الكلمة فيها تجاوز، ساق له بعض الأمراض لم يحتمل، فكان يمشي ويلتقي بأطفال صغار في الطريق، اسألوا الله أن يغفر لعمكم الكذاب، أراد أن يشفع له هؤلاء الأطفال البرءاء عند الله، أنا يا رب كنت كذاباً عندما قلت لك افعل ما تشاء تجدني صابراً.

دعاء النبي صلى الله عليه بليغ، قال: ولكن عافيتك أوسع لي، سلوا الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

لا أحد يعتمد على قوة صبره قد لا يصبر، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((عجب للمؤمن وجزعه من السقم ولو كان يعلم ماله من السقم أحب أن يكون سقيماً الدهر))

اللهم صلي عليه، يطمئن المريض أن لك عند الله أجراً وهذا الألم الذي يؤلمك، وهذا التعب الذي يتعبك وهذا الضيق الذي تشعر به، هذا يكفر عنك كل ذنب سابق.

أيام الإنسان يزور مريض هذا المريض كثير الشكوى، يقول لك البارحة ما نمت، آلام في المفاصل في العضلات، شيء لا يحتمل، اسمعوا ماذا قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ مَلَكَيْنِ فَقَالَ انْظُرَا مَاذَا يَقُولُ لِعُوَّادِهِ فَإِنْ هُوَ إِذَا جَاءُوهُ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ رَفَعَا ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ أَعْلَمُ فَيَقُولُ لِعَبْدِي عَلَيَّ إِنْ تَوَفَّيْتُهُ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَإِنْ أَنَا شَفَيْتُهُ أَنْ أُبْدِلَ لَهُ لَحْمًا خَيْرًا مِنْ لَحْمِهِ وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ وَأَنْ أُكَفِّرَ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ))

كيف الصحة ؟ الحمد لله، خير إن شاء الله، الله عز وجل استفأدنا بمرض، وأنا مرتاح والحمد لله والله كريم لا يوجد عنده إلا الخير، نجح.

يوجد كلمات لطيفة أنا أعرف رجل أصيب بمرض خبيث في أمعائه، أنا أعلمه مؤمناً ولا أزكي على الله أحد بقي المرض معه سنتين، وفيما أعلم أن آلام السرطان في الأحشاء لا تحتمل، وقد يخرج الإنسان عن طوره وقد يرفع صوته دون أن يشعر، هذا الرجل شاب في مقتبل الحياة، بعد زواجه بسنتين أصيب بمرض عضال في أمعائه، تقول زوجته تمنت في السنتين اللتين أمضاهما في المرض الخبيث أن تسمع منه كلمة واحدة لا تعبر عن رضاه عن الله عز وجل.

أنا أقول هذا الإنسان إن لم يكن له عمل إلا هذا الصبر لكفاه، حدثني أخ طبيب يعمل في مستشفى قال لي من غرائب الصدف أنه جاءنا مريض مصاب بمرض خبيث في الأحشاء قال لي: عجيب كلما دخل عليه زائر عائد يقول له اشهد أنني راض عن الله، يا ربي لك الحمد، هذه كلمته المأثورة، اشهد أني راض عن الله، قال لي: عجيب أمر هذا المريض يعني الأطباء ما تركوه، الممرضين ما تركوه، يقرع الجرس يتدافعون الممرضين على دخول غرفته وخدمته، غرفته فيها روحانية فيها سرور فيها انشراح، فيها روائح طيبة، وكل ما دخل إنسان يعوده يقول له: اشهد أنني راض عن الله، يا ربي لك الحمد، ثم توفاه الله عز وجل في هذا المرض لكن ترك أثر طيب، علم الناس من هو المؤمن.

يوجد أخ أحد الدعاة إلى الله، والله أنا أحترمه كثيراً وأحبه وأجله، له ابن علمه طب وأخذ الدكتوراه في الطب اختصاص بالقلب، دخله شريعة، صار صف ثالث، حفظه كتاب الله، أدى الخدمة الإلزامية،

زوجه، ثم توفي بحادث، ذهب علماء دمشق إلى حلب ليعزوا هذا الأخ الكريم، أنا والله في لطريق أقول يا رب كيف سأجده ؟ مصاب كبير، البارحة في الخطبة قال تعالى:

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102))

(سورة الصافات)

يجب أن يذبحه في يده، شيخ عجوز وامرأته عاقر، وليس له إلا هذا الولد وبلغ معه السعي والأمر أن يذبحه، سماه بعض العلماء ابتلاء قاسي، ماذا فعل سيدنا إبراهيم ؟ قال يا رب ارحم شيخوختي، لا يوجد عندي غيره، يا رب اعفو عنه، بادر إلى ذبحه تنفيذاً لأمر الله، حب لله ما بعده حب، هذا حب لله فوق كل حب، هذا حب لله ما كلف المؤمن به، هذا فوق طاقتنا، ولكن ما الذي حصل ؟ أن الله سبحانه وتعالى ابتلاه فنجح، فلما نجح، قال تعالى:

(وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107))

(سورة الصافات)

ولكن كسب مرتبة عند الله، قلما يصل إليها إنسان، أنا ما علاقتي بهذا الموضوع، علاقتي أحياناً يأتيك أمر إلهي يضر بمصالحك الدنيوية، يضر بمصلحتك، ماذا تعمل ؟ المؤمن الصادق يستقبل هذا الأمر بالقبول، نجح الله عز وجل بعد أن نجح يمكن أن يعفيه من هذا الأمر ويكون كسب طاعة الله عز وجل والقرب منه وكسب الدنيا معاً.

أخوانا الكرام: دائماً يوجد عندنا قانونان، قانون معروف للناس، وقانون خفي لا يعرفه أحد، عندما الإنسان يبادر إلى طاعة الله ويضحي في مصالحه فيما يبدو له الله عز وجل يخضعه لقانون آخر هذا القانون قانون العناية الإلهية تأتيه الدنيا وهي راغمة، لذلك ما ترك عبد شيء لله إلا عوضه الله خير منه في دينه ودنياه.

((فَقَالَ انْظُرَا مَاذَا يَقُولُ لِعُوَّادِهِ فَإِنْ هُوَ إِذَا جَاءُوهُ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ رَفَعَا ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ أَعْلَمُ فَيَقُولُ لِعَبْدِي عَلَيَّ إِنْ تَوَفَّيْتُهُ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَإِنْ أَنَا شَفَيْتُهُ أَنْ أُبْدِلَ لَهُ لَحْمًا خَيْرًا مِنْ لَحْمِهِ وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ وَأَنْ أُكَفِّرَ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ))

بالمناسبة من منكم يصدق أن كل شيء في جسم الإنسان يتبدل كل خمس سنوات، اعمل تاريخ واحد، واحد، سبعة وتسعين، واحد، واحد ألفين واثنين، أنت إنسان آخر لا يوجد شيء من جسمك موجود أنت إنسان آخر، لأنه أطول خلية عمرها خمس سنوات، وأقصر خلية عمرها ثمانية وأربعين ساعة، خلايا الجهاز الهضمي، خلايا الزغابات المعوية عمرها ثمانية وأربعين ساعة، أنت عندك أمعاء جديدة كل ثمانية وأربعين ساعة إلا أنه الله سبحانه وتعالى رحمنا أن الدماغ لا يتغير، لو تغير مشكلة كبيرة جداً،

أنا كنت من كم سنة طبيب، أما الآن تبدل الدماغ طار العلم، أما الدماغ ثابت خبراتك ومعلوماتك، معارفك ذكرياتك، كل شيء حصلته بهذا العمر محفوظ بالدماغ، الدماغ لا يتبدل، ولحكمة أرادها الله، القلب لا يتبدل، القلب ثابت والدماغ ثابت بينما كل شيء في جسم الإنسان يتبدل.

ما زلنا في موضوع المرض، والمرض أحد خصائص الإنسان، أحد خصائص الإنسان أنه يمرض وإذا عنده فلسفة عن المرض صحيحة، إذا عنده فهم دقيق عن سر المرض وغاية المرض، أو علاقة المرض بالمؤمن استقبل المرض بالرضا دون أن يقبله، لكن عافيتك أوسع لي.

((عَنْ جَابِرٍ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لا يَمْرَضُ مُؤْمِنٌ وَلا مُؤْمِنَةٌ وَلا مُسْلِمٌ وَلا مُسْلِمَةٌ إِلا حَطَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ بِهَا خَطَايَاهُ))

صار عندنا يقين الآن أن مرض المؤمن في الدنيا كفارة له انتهى، مامن عثرة ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود، إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفو الله أكثر.

((عَنْ عَامِرٍ الرَّامِ أَخِي الْخَضِرِ قَالَ أَبُو دَاوُد قَالَ النُّفَيْلِيُّ هُوَ الْخُضْرُ وَلَكِنْ كَذَا قَالَ قَالَ إِنِّي لَبِبِلادِنَا إِذْ رُفِعَتْ لَنَا رَايَاتٌ وَأَلْوِيَةٌ فَقُلْتُ مَا هَذَا قَالُوا هَذَا لِوَاءُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ تَحْتَ شَجَرَةٍ قَدْ بُسِطَ لَهُ كِسَاءٌ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَيْهِ وَقَدِ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ أَصْحَابُهُ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِمْ فَذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأَسْقَامَ فَقَالَ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَصَابَهُ السَّقَمُ ثُمَّ أَعْفَاهُ اللَّهُ مِنْهُ كَانَ كَفَّارَةً لِمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ وَمَوْعِظَةً لَهُ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ وَإِنَّ الْمُنَافِقَ إِذَا مَرِضَ ثُمَّ أُعْفِيَ كَانَ كَالْبَعِيرِ عَقَلَهُ أَهْلُهُ ثُمَّ أَرْسَلُوهُ فَلَمْ يَدْرِ لِمَ عَقَلُوهُ وَلَمْ يَدْرِ لِمَ أَرْسَلُوهُ فَقَالَ رَجُلٌ مِمَّنْ حَوْلَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الأَسْقَامُ وَاللَّهِ مَا مَرِضْتُ قَطُّ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قُمْ عَنَّا فَلَسْتَ مِنَّا...))

يوجد صحابية جليلة لها زوج ما كان يمرض ولا مشكلة عنده، أرادت أن تشكوه إلى رسول الله، في الطريق وقع فتعثر ودميت قدماه، قالت ارجع.

المؤمن محبوب، وإذا أحب الله عبده ابتلاه، فالمرض يقربك من الله ويجعلك شفاف، يفتح لك نافذة إلى السماء ويرقق مشاعرك، يذكرك بالآخرة، يذكرك برحمة الله، المؤمن إذا رضي بالمرض كسب شيئين كسب ثواب الصبر وكسب الصحة.

النبي مرض وتوعك، وأصابته الحمى إلا أنه مرةً أعطي دواء ذات الجنب فغضب، قال: ذلك مرض ما كان الله ليصيبني به، له النبي صلى الله عليه وسلم ثقة بالله كبيرة جداً.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) بَلَغَتْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَبْلَغًا شَدِيدًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَارِبُوا وَسَدِّدُوا فَفِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ حَتَّى النَّكْبَةِ يُنْكَبُهَا أَوِ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا))

لي أخ كريم أصيب بمرض عضال التهام الكبد، أنا أتابع مرضه بعد ذلك اتضح لي أنه صار مشارف للموت، قمت على المنبر في أحد خطب الجمعة فدخل إلى المسجد، منتهي، والله إكراماً له قرأت هذا الحديث على إخواني، قلت ورد حديث قدسي يقول الله عز وجل وعزتي وجلالي

((لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده حتى أبلغ منه مثل الذر فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

نظرت إليه والله فإذا له وجه كالبدر، استبشر، يعني إذا الله عز وجل عالجنا ونجحنا في الدنيا واستقبلنا الموت طاهرين، مؤمنين، منيبين، فنحن أسعد الناس، لا تعبأ بالدنيا إن كانت تطهيراً من الذنوب أنعم بها من دنيا.

يروى عن سيدنا الصديق أنه قال:

((عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ الصَّلاحُ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) فَكُلَّ سُوءٍ عَمِلْنَا جُزِينَا بِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْتَ تَمْرَضُ أَلَسْتَ تَنْصَبُ أَلَسْتَ تَحْزَنُ أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللأْوَاءُ قَالَ: بَلَى قَالَ فَهُوَ مَا تُجْزَوْنَ بِهِ))

أيام مرضة، وعكة، هم، هذه كلها كفارات، لذلك المؤمن يصبر ويصبر حتى تأتي منيته فيستريح من عناء الدنيا، مستريح ومستراح منه.

((عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ مَلَكَيْنِ فَقَالَ: انْظُرَا مَاذَا يَقُولُ لِعُوَّادِهِ فَإِنْ هُوَ إِذَا جَاءُوهُ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ رَفَعَا ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ أَعْلَمُ فَيَقُولُ لِعَبْدِي عَلَيَّ إِنْ تَوَفَّيْتُهُ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَإِنْ أَنَا شَفَيْتُهُ أَنْ أُبْدِلَ لَهُ لَحْمًا خَيْرًا مِنْ لَحْمِهِ وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ وَأَنْ أُكَفِّرَ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ))

لذلك يجب على الإنسان أن يدقق في كلامه، تسأل تاجر يقول لك لا يوجد بيع، آكل شارب في بيت، ومركبة وأولاد، وكل شيء، وولائم ويقول لك لا يوجد عمل، الله عز وجل يمقت هذا الإنسان، ما دمت مُعفك في جسمك وعندك قوت يومك، أهلك سليمون أمامك فأنت في نعمة كبرى، الإنسان يحمد الله عز وجل علة كل نعمة.

في كلمة عن رسول الله تصفه كانت تعظم عنده النعمة مهما دقت، يوجد واحد منكم لا يوجد معه مفتاح بيت في كل الحاضرين، يوجد أناس لا يملكون مفتاح بيت، في الطريق في آسيا، تقول لي ملك، أجرة، كبير، صغير، شمالي، أنت معك مأوى تدخل إلى البيت تستلقي على فراشك تأكل تتحمم تنام هذا مأوى، إذا الإنسان قام قضى حاجته من دون أن يساعده نعمة كبيرة.

أعرف قريبة أصيبت بمرض الشلل، أول جمعة خدمة خمس نجوم، الجمعة الثانية أربع نجوم، الثالثة ثلاثة، الرابعة اثنين، الخامسة واحدة السادسة ترن الجرس لا أحد يستيقظ في الليل، ثم صار إهمال، ثم صار دعاء تسمعه أن يخفف الله عنها، الإنسان يقضي حاجته بنفسه قوته معه، دائماً اشكر الله عز وجل، قال تعالى:

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7))

(سورة إبراهيم)

طمئن نفسك ما دمت مستقيماً متواضعاً موحداً، منكسراً لله عز وجل أنت في بحبوحة ولم تفاجأ بشيء لا ترضاه، قال تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51))

(سورة التوبة)

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَأَيْتَ هَذِهِ الأَمْرَاضَ الَّتِي تُصِيبُنَا مَا لَنَا بِهَا، قَالَ: كَفَّارَاتٌ، قَالَ أَبِي: وَإِنْ قَلَّتْ، قَالَ: وَإِنْ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا، قَالَ: فَدَعَا أَبِي عَلَى نَفْسِهِ أَنْ لا يُفَارِقَهُ الْوَعْكُ حَتَّى يَمُوتَ فِي أَنْ لا يَشْغَلَهُ عَنْ حَجٍّ وَلا عُمْرَةٍ وَلا جِهَادٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا صَلاةٍ مَكْتُوبَةٍ فِي جَمَاعَةٍ فَمَا مَسَّهُ إِنْسَانٌ إِلا وَجَدَ حَرَّهُ حَتَّى مَاتَ))

أيام تدخل شوكة نهائياً يوجد نغزة وأنت متضايق، إن شوكة، إعراب شوكة خبر لكان المحذوفة مع اسمها، يعني وإن كانت شوكةً، وخطأ أن يدعو الإنسان على نفسه، ويطلب من الله السلامة لأنه قد لا يصبر.

((عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال من صدع رأسه في سبيل الله فاحتسب غفر له ما كان قبل ذلك من ذنب))

وفي حديث آخر:

((عن أبي سعيد الخدري، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: صداع المؤمن وشوكة يشاكها، أو شيء يؤذيه يرفعه الله بها يوم القيامة درجة ويكفر عنه بها ذنوبه))

أيها الأخوة: لا أحد ينكر وجود الأمراض، الفرق بين المؤمن والكافر أن المؤمن يفهم حكمتها، يفهم أن معها لطفاً، أن معها رحمةً، أن معها تقريباً من العبد لله عز وجل، بهذه المعاني يرضى عنه. مرة رجل يمشي في الطريق وله مكانة كبيرة جداً بالمجتمع يوجد على كتفه عقرب لا ينتبه إليه جاء شخص كأنه ضربه على كتفه لبعد عنه العقرب، يقول هذا الذي تلقى هذه الضربة يعني أصابني من الألم والضيق ما جعلني أتمنى أن أضربه، فلما التفت غاضباً وجدت العقرب خلال ثانية انقلب حمقي عليه شكراً وامتناناً.

مرة حدثني أخ قال لي: كنت طالب طب ولي بلد بعيد عن حلب، وذهب إلى مكان انطلاق السيارات ركب في السيارة أول مقعد، فجاء شخص ضخم الجثة، مخيف، فتح الباب وهو حجمه صغير ولم يتكلم معه أي كلمة حمله ووضعه خارج السيارة وجلس هو وصديقه، قال لي هذا الأخ: بحياتي ما شعرت برغبة بالقتل، يقول لي أِنزل أنزل، وركبوا أثنين وكان في المقعد الخلفي ثلاثة، والسيارة جاهزة، يقول لي شعرت بالألم والإهانة، وشعرت بحقد غير معقول، جرحه للعظم، انتظر ساعة ثانية وركب هذه السيارة وذهب إلى ادلب عند طلعة تفتناز السيارة متدهورة والخمسة ميتين، فقال لي: خلال ثانية انقلب ألمي إلى رضى من الله وشكر، يوجد أناس دعو دعوة فخمة جداً إلى بلد وبقوا مسجونين مع الرهائن وإلى الآن.

أنا قصدت من هذه القصة، عرف حكمة ربنا من مرضه لم يعد مرض صار نعمة باطنة يشكر الله عليها، وعندما الإنسان يصاب بمرض والله عز وجل يبين له الحكمة، ينقلب إلى حامد وشاكر، هذه الحياة.

قلت البارحة في درس السبت لنا أستاذ في علم النفس في الجامعة من أشهر الدكاترة، عقد مؤتمر في الأمراض النفسية في ألمانيا، فكان هو مندوب سوريا، ألقى محاضرة مختصرة قال: أيها السادة هكذا قال لنا أقول لكم بكل بساطة ليس يوجد في بلادنا أمراض نفسية بمعنى الوبائي والسبب بسيط جداً وهو أن مجتمعنا مؤمن بالله.

هكذا النبي قال:

((عَنِ ابْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَجِبْتُ لأمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ لَيْسَ ذَلِكَ لأحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ وَكَانَ خَيْرًا وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ وَكَانَ خَيْرًا))

مثل المنشار على الخير يشكر وعلى الشيء غير الجيد يشكر، الله عز وجل هو المربي.

((عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الرب سبحانه وتعالى يقول: وعزتي وجلالي لا أخرج أحد من الدنيا أريد أن أغفر له حتى استوفي كل خطيئة في عنقه، بسقم في بدنه، وإقتار في رزقه))

((عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ أَنَّ رَجُلاً جَاءَهُ الْمَوْتُ فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: رَجُلٌ هَنِيئًا لَهُ مَاتَ وَلَمْ يُبْتَلَ بِمَرَضٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَيْحَكَ وَمَا يُدْرِيكَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ ابْتَلاهُ بِمَرَضٍ يُكَفِّرُ بِهِ عَنْهُ مِنْ سَيِّئَاتِهِ))

والله أنا من حوالي ستة أشهر عدت أحد أخواننا المرضى أجريت له عملية في رأسه، والله بكى بكاء الشكر لدرجة أبكانا، شعرت بقرب من الله يفوق حد الخيال، يا ربي لك الحمد.

هذه حالات القرب من الله لا تأتي بلا سبب، الله عز وجل يعيننا على أنفسنا، الأنبياء حبهم لله عز وجل يجعلهم ينطلقون إليه بشكل عجيب، ما دون الأنبياء يحتاجون إلى مساعدة، فالمرض مساعدة من الله عز وجل يقربك من الله، يفتح لك نافذة إلى الله.

((عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ أَنَّ رَجُلاً جَاءَهُ الْمَوْتُ فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: رَجُلٌ هَنِيئًا لَهُ مَاتَ وَلَمْ يُبْتَلَ بِمَرَضٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَيْحَكَ وَمَا يُدْرِيكَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ ابْتَلاهُ بِمَرَضٍ يُكَفِّرُ بِهِ عَنْهُ مِنْ سَيِّئَاتِهِ))

لا تعترض ولا تتألى على الله، ولا تتمنى شيئاً ما أراده الله لك، ذكرت لكم في أول الدرس موضوع المرض للمؤمن وكيف أنه يكفر له خطاياه، أعتقد أن هناك أكثر من مائة حديث صحيح حول هذا الموضوع، اخترت بعضها إليكم، والإنسان عندما يستقبل قضاء الله وقدره برضى وطمأنينة، وشكر، الله عز وجل يكسبه أجر العابد ثم يشفيه من مرضه

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (089) :أسباب الشقاق الزوجي.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-06-22

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون:

هذا الدرس ، درس الأحد مخصص للسنة النبوية الشريفة ، إما أن تكون موضوعات فقهية أو أحاديث شريفة ، على كل الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن الكريم على النبي عليه الصلاة والسلام والنبي بيّن فهمه لهذا الكتاب ، حريص في هذا الدرس على أن تكون الموضوعات حيوية ، أي موضوعات تغطي حاجاتنا اليومية ، وقد وقع تحت يدي موضوع تشتد الحاجة إليه ، هذه الأسر أسر المسلمين إن تماسكت واستقامت واعتدلت أساس بناء المجتمع ، وإن تضعضعت ولم تتماسك وانهارت أساس تخلف المجتمع، لا أبالغ أيها الأخوة إذا قلت إنّ أخطر شيء في حياتكم التماسك الأسري ، السعادة الزوجية ، لأنّ الرجل حينما يكون سعيداً في بيته ينطلق إلى عمله ويتضاعف إنتاجه ، وحينما يكون البيت جحيماً ، غير مستقر ينعكس هذا على الزوج وعلى الزوجة وعلى الأولاد ، وكم من أولاد يعانون من أمراض نفسية سببها الشقاق المستمر بين الأب والأم ، سببها عدم توازن البيت ، ونحن أيها الأخوة معنا منهج خالقنا ، منهج ربنا جل جلاله ، وموضوع الزواج والأسر والاستقرار الزوجي والسعادة الزوجية من أخطر الموضوعات التي يحتاجها المؤمن ، أي إذا كانت حياة المؤمن في بيته كحياة بقية الناس ما قيمة إيمانه، إذا كان أهل الدنيا في حياتهم الزوجية شقاق وخصومات وكان أهل الدين كذلك ، الدين لم يظهر أثره إطلاقاً ، لا بد من أن يكون أثر الدين صارخاً ، لا بد من أن يكون أثر الدين واضحاً ، ولا سيما في البيت ، كلكم يعلم أنّ الإنسان أحياناً حينما يؤدي امتحان القيادة ، قيادة السيارة يوضع في ظرف صعب جداً ، ينبغي أن يرجع بمركبته نحو الوراء في طريق ضيق جداً ، ومتعرج كثيراً ، وهناك إشارات على أطراف الطريق ، فلو مسّ واحدة منها رسب ، لماذا هذا التعقيد ؟ إنه إن أتقن هذه العملية الصعبة كل شيء بعدها سهل ، ويقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي))

أي إذا كان في البيت طيباً ، _لأنه لا يوجد رقابة في البيت ، في البيت لا يوجد من يحاسبك ، ليس هناك مسؤولية ولا سيما الزوج ، فحينما يكون الزوج في بيته منضبطاً وأخلاقياً ومتواضعاً وحينما يكون واحداً من أهل البيت ، عندئذ يصلح خارج المنزل ، كما تعلمون أيها الأخوة الإنسان حريص على سمعته بين الناس ، فهناك انضباط خارجي سببه الضغط الاجتماعي ، أما في البيوت غالباً_ لا يوجد ضغط اجتماعي ، ولا رقابة ، ولا مسؤولية ، ولا حساب ، ولا مكانة تهتز ، فلذلك الإنسان في بيته

يرتدي ما يشاء ، يتكلم ما يشاء ، قد يقسو بكلامه ، قد يستخدم كلمات قاسية جداً ، قد يتحرك حركات غير لائقة ، قد يتطاول ، قد يسب ، هذا السلوك غير المنضبط في البيت لا يتناسب مع أهل الدين إطلاقاً، أهل الدين يتميزون بأخلاقهم الرفيعة في البيت ، وهناك زوجات كثيرات كان أزواجهن متفلّتين فلما التحقوا بمسجد والتزموا بجماعة واصطلحوا مع الله ، الزوجة كشفت الفرق الهائل بين أخلاق الزوج قبل الاصطلاح مع الله وبين أخلاقه بعد اصطلاحه مع الله ، موضوع الدرس اليوم حول أسباب الشقاق الزوجي ، الأصل في العلاقة الزوجية كما قال الله عز وجل:

(وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21))

(سورة الروم)

هذا هو الأصل ، أما الواقع ليس كذلك ، في الواقع هناك خصومات وشجار وبغضاء وغياب عن البيت، هناك أسباب ، أردت في هذا الدرس أن يوفقني الله عز وجل لوضع يدي على الأسباب ، إن وضعت اليد على الأسباب ، وقديماً قالوا: إن عُرِف السبب بطُل العجب، أول سبب في الشقاق الزوجي هو العدو رقم واحد الجهل ، جهل الزوج بواجباته تجاه زوجته، وجهل الزوجة بواجباتها تجاه زوجها ، وجهل الزوج بحقوق زوجته عليه ، وجهل الزوجة بحقوق زوجها عليها ، العدو الأول في سوء العلاقة الزوجية الجهل ، لذلك ما من عقد قران إلا ويقولون نقيم هذا العقد اقتداءاً بسنة رسول الله ، أي الزواج سنة ، حسناً هلاّ عرفتم الزوجين بتفاصيل هذه الكلمة ، وبحقوق الزوج على زوجته، وواجبات الزوجة تجاه زوجها ، وحقوق الزوجة على زوجها ، وواجبات الزوج تجاه زوجته ، هذه السنة ، فالإنسان حينما يعرف ما له وما عليه يؤدي ما عليه ويطالب بالذي له ، وحينما تعرف الزوجة ما لها وما عليها تؤدي الذي عليها وتطالب الذي لها تستقيم الحياة الزوجية لذلك أن تعرف حقوق الزوجة وواجبات الزوج شيء مهم جداً ، وأن تعرف الزوجة واجباتها تجاه زوجها وحقوق زوجها عليها شيء مهم جداً جداً ، أنا أذكر قبل أعوام عديدة قد تزيد عن ثمانية أعوام ألقيت في هذا الدرس بالذات سلسلة دروس تحت عنوان حق الزوج على زوجته في شريطين وحق الزوجة على زوجها في شريطين ، وحق الأبناء على الآباء في شريطين ، وحق الآباء على الأبناء في أربعة أشرطة ، المجموع عشرة ، وجرت العادة أنني كلما رأيت زواجاً ميموناً كنت أهدي الزوجين هذه الأشرطة العشرة لأعرِّف الزوج ما له وما عليه ، ولتعرف الزوجة ما لها وما عليها ، فأحد أكبر أسباب الشقاق الزوجي وانهيار الحياة الزوجية ، أحد أكبر أسباب الطلاق ، أحد أكبر أسباب الفصام بين الزوجين هو الجهل ، العدو الأول ، ويا أيها الإخوة الكرام يفعل الجاهل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به ، وهذا أستقيه من بعض المشكلات التي تعرض عليّ ، أجد السبب صارخاً جهل الزوج بحق الزوجة عليه ، جهل الزوجة بحق

زوجها عليها ، هي تنحرف وهو يقسو ، المحصلة شقاء زوجي ، لذلك الحياة السعيدة تحتاج إلى علم ، وأقول لكم والله ولا أبالغ ما من شيء يعلو في حياتك على طلب العلم ، لأنك بالعلم تعرف من أنت ، وتعرف سر وجودك ، وغاية وجودك ، وتعرف كيف تعيش ، كيف تعطي ، كيف تأخذ ، كيف تصل ، كيف تقطع ، متى تغضب ، متى ترضى ، متى تعفو ، متى تنتقم ، الإنسان من دون علم بهيمة ، وهناك أناس كالدواب والله ولا أبالغ لأنهم جهلوا ، فأول سبب كبير جداً للشقاق الزوجي هو الجهل ، السبب الثاني وهنا تكمن المشكلة أننا قد نجد زوجين ملتزمين ، زوجين يعلمان حق الزوج وحق الزوجة وواجبات الزوج وواجبات الزوجة ومع ذلك بينهما شقاق ، إلامَ نعزو هذا ؟ نعزو هذا إلى ضعف الإيمان ، حينما يضعف إيمانك لا تبالي بطاعة ربك ، أما إذا ارتفع إيمانك تحرص على طاعة ربك في العلاقة بزوجتك ، كنت أطمح كلما التقيت بزوجين شابين أن أقول للزوج لن تسعد بزوجتك إلا إذا عرفت الله أنت أولاً وسعدت بمعرفته وطاعته ، وعرّفت زوجتك بالله وسعدت بمعرفته وطاعته عندئذ تسعدك ويا أيتها الزوجة التي زاد إيمانها على إيمان زوجها إن عرفت ربك وسعدت بطاعته وقربه وأخذت بيد زوجك لتعريفه بالله عز وجل عندئذ يسعدك ، أي يستحيل أن يسعد زوج زوجته إلا إذا عرف الله ، الذي يحصل في حياة الزوجين المؤمنين أنّ كل طرف يتغاضى عن سلبيات الطرف الآخر، وينمي إيجابيات الطرف الآخر ، وأن كل طرف يتقرب إلى الله بتسامحه مع سلبيات الطرف الآخر وتنمية إيجابيات الطرف الآخر ، لذلك الزوج يتقرب إلى الله بصبره على زوجته وإكرامه لها ، والزوجة تتقرب إلى الله بصبرها على زوجها وإكرامها له ، أي كما قال تعالى:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آَمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11))

(سورة التحريم)

ألم تكن صابرة ، كانت صدِّيقة وجعلها الله تحت زوج كافر فاجر جبار سفاك للدماء ومع ذلك قال تعالى:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آَمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11))

(سورة التحريم)

إذاً السبب الثاني لو وجدنا زوجين ملتزمين أو يعلمان حق الزوج وحق الزوجة وواجبات كل منهما ولا يقومان بهذه الواجبات ولا يرعيانها رعاية تامة معنى ذلك توافر العلم وضَعُف الخوف من الله ، توافر العلم وضَعُف الإيمان والتطبيق ، إذاً نحن بحاجة إلى أن نعرف وبحاجة إلى ورع وإلى خوف من الله عز وجل من أجل أن نطبق ما نعرف ، طبعاً هذا يحتاج إلى توعية ، الأم من أكبر مهماتها أن تعلّم

ابنتها واجباتها تجاه زوجها ، وأن تنمي فيها إيمانها وإتقانها لصلواتها وحفظها لكتاب الله وعملها الصالح ، المشكلة أنّ الزوجة أحياناً تُقمع بالدين قمعاً ، يكون أباً قاسياً وديِّن فيعطي معلومات مشددة ويحاول تنفيذها بقسوة ، هذا أسلوب قمعي كثيراً ما يخفق الأب الصالح هو الذي يقنع ولا يقمع يأتي بالدليل يحاور ولا يفرض ، فحينما تجعل من زوجتك وبناتك قانعات لأحقيِّة هذا الدين ، قانعات لضرورة الأخذ به ، عندئذ يمكن أن ينمو الإيمان وإذا رافق هذا الإيمان معرفة بالحقوق والواجبات سعد الزوجان ، طبعاً هذه الأسباب الأساسية ، السبب الثالث للشقاق الزوجي سوء التصرف ، أي زوجة مثلاً زوجها غضبان تضحك ، هذا الضحك في الوقت الغير مناسب ربما زاد غضبه ورمى يمين الطلاق ، وهو في هيجان اتق الفرح معه إن كان ترحاً ، والترح إن كان فرحاً ، فلسوء التصرف أن تقابل الزوجة زوجها الغضبان بابتسامة وميوعة ، أو أن يقابل الزوج زوجته المتعبة بسخرية لاذعة ، هذا من سوء التصرف أو حينما تلح عليه في الوقت غير المناسب ، جاء ليرتاح ما إن دخل إلى البيت بدأت بعرض مشاكلها وطلباتها وضجرها وتبرمها ، هو جاء ليستريح ، جاء ليخلد إلى الراحة ، ما إن دخل إلى البيت حتى واجه سيلاً من المشكلات ، أيضاً هذا اسمه سوء التصرف ، أول سبب الجهل ثاني سبب ضعف الإيمان وضعف الخوف من الله ، السبب الثالث سوء التصرف ، لذلك قال تعالى:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (269))

(سورة البقرة)

أحياناً هي متعبة نظفت البيت كله غسلت الغسيل ، هيأت الطعام وقد وصلت إلى درجة الإعياء ، يطالبها بأشياء غير أساسية ، ثانوية بإلحاح تضجر ، ترفض ، ترفضين يقابلها بكلمات قاسية ، طلبه غير معقول في وقت غير مناسب ، وضعها غير لائق ، ضحكها أمام غضبه يثير غضبه أكثر ، لا مبالاته أمام تعبها يثير غضبها أكثر ، السبب الثالث سوء التصرف ، والشعار قوله تعالى:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (269))

(سورةالبقرة)

أي أحياناً ، أنا أضرب مثلاً، إناءآن من البلور لو صدمتهما ببعضهما ، ينكسران ، أما لو كان الأول من البلور والثاني من المطاط وصدمتهما ببعضهما لا يحصل شيئاً ، فكلما كان الزوج قاسي الطرف الثاني يجب أن يكون مرناً ، لو صار اصطدام لا يحصل شيئاً ، أي إنسان يقتحم ، إنسان يمتص هذه الصدمة ، أحياناً الزوج يقتحم الزوجة تمتص هذه الصدمة ، أحياناً الزوجة تقتحم الزوج يمتص هذه الصدمة، النبي عليه الصلاة والسلام جاءه طبق طعام من زوجته صفية وهو عند السيدة عائشة ، أصابتها الغيرة من شدة حبها لرسول الله ، وحرصها على إرضائه ما أرادت أن تسمح لأحد ضراتها أن تأتي بطعام طيب ، فأمسكت الطبق وكسرته ، النبي ماذا فعل ؟ قال: غضبت أمكم غضبت أمكم ، هي

اقتحمت هو امتص هذا الاقتحام ، فهذه قاعدة أساسية أحياناً تحل المشكلة بالسكوت ، تطاولت اسكت ، تطاول اسكتي ، الذي أريد أن أقوله لكم أنّ أكثر المشكلات تبدأ بكلمة كلمة قاسية ردت عليها بكلمتين قاسيتين ، رد عليها بخمس كلمات قاسية ، ثم ضربها ثم سب أهلها ، ثم طردها من البيت ، أساسها كلمة قاسية ، قال الرسول الكريم:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَرَى أَنْ تَبْلُغَ حَيْثُ بَلَغَتْ يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا))

قالت عن أختها أنها قصيرة قال: يا عائشة لقد قلت كلمة لو ألقيت في ماء البحر لأفسدته ، طبعاً أنا أضرب بعض الأمثلة ، ولكنّ هناك أمثلة كثيرة جداً ، سوء التصرف ، اتق الفرح معه إن كان ترحاً ، والترح إن كان فرحاً ، فإنّ الأولى من التقصير والثانية من التكبير ، لا تعصي له أمراً ، لا تفشي له سراً ، حرارة النوم جوع ملهبة تنغيص النوم مغضبة احرصي على نومه وعلى تأمين طعامه في الوقت المناسب ، هناك زوجات دائماً يقصرن في إعداد الطعام ، الزوج دخل الساعة الثالثة ، الساعة الرابعة ، ينتظر أن يأكل لقيمات وأن يستريح قليلاً فيجد الطعام غير جاهز ، وهذه مشكلة كبيرة يجب أن يكون الطعام جاهزاً في الوقت المناسب ، من سوء التصرف موضوع الطعام ، موضوع النوم ، موضوع الضحك مع غضبه ، لا مبالاة مع حزنه ، تكليفها بأعمال فوق طاقتها في وقت غير مناسب ، تعليقات ساخرة ، هذا ينضوي تحت باب سوء تصرف ، فمن وفّق إلى حسن التصرف وإلى امتلاك الحكمة فقد وفق إلى خير كثير ، السبب الرابع للشقاء الزوجي التعالي من بعض الأزواج ، إما _ن يتعالى عليها وإما أن تتعالى عليه ، إما أن يتغطرس عليها وإما أن تتغطرس عليه ، قد يكون هو أقوى وأغنى ، وقد تكون هي لها أب أغنى منه ويدعمها ، فحينما يعلو أحد الشريكين على الآخر هذا إسفين في هذه السعادة الزوجية ، التعالي ، أحياناً الزوج لا يُناقش ولا يُحاسب ، ولا يُراجع ، والزوجة دائماً هي المخطئة ، شدة الضغط يؤدي إلى الانفجار ، وأحياناً الزوجة قاسية جداً ، قال لي أخ أنه خطب من جماعة قال لي: أول سؤال سألتني إياه الخطيبة هل تعرف كيف تجلي وتطبخ ؟ قال لأمه: السلام عليكم هيا بنا ، سؤال أحمق ، في أول لقاء لكي يراها تسأله إن كان يعرف كيف يغسل الصحون ويطبخ ، أحياناً كلمة تدمر أسرة ، أحياناً تصرف أحمق يفصم العلاقة بين زوجين قال تعالى:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (269))

(سورة البقرة)

الإنسان إذا كان مع الله يؤتى الحكمة ، الحكمة ليست كسبية والدليل هو هذه الآية الكريمة ومن يؤتى ، تؤتى إيتاءً ، كأنّ الحكمة إكرام من الله ، كأنّ الحكمة التي يملكها الإنسان مكافأة من الله عز وجل على اتصاله به وعلى استقامته على أمره ، أي المعنى المخالف الكافر لا يؤتى الحكمة يؤتى الحماقة

والرعونة والتصرف القاسي ، المؤمن يؤتى الحكمة ، أحياناً سكوتك يحل المشكلة ، أحياناً خروجك من البيت يحل المشكلة ، أحياناً كلمة اعتذار تحل مشكلة ، تجد أنّ المشكلة قد انتهت ، والشيء المؤلم أنّ هناك حالات تنتهي إلى الطلاق ، وتشريد الأولاد بدأت بكلمة لو أنّ الزوج تحمّلها وسكت ، لو أنه اعتذر لانتهى كل شيء ، فكم من بيت انهار بسبب كلمة قاسية ألْقيت بدون سبب ، دائماً هذه الآية يجب أن نحفظها جميعاً ، قال تعالى:

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (228)

(سورة البقرة)

هي شريكة حياتك وأم أولادك ، لك ما لها ولها ما لك ، قال تعالى:

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (228)

(سورة البقرة)

درجة واحدة ، درجة القيادة ، أوضح شيء القطعات العسكرية يكون هناك كتيبة مِلاكُها مُقدّم ، هناك مقدمان في الكتيبة ، لا بد من أن يكون أحد المقدمين أقدم من الآخر ، الأقدم يعين قائد الكتيبة ، مقدمين رتبة واحدة ، التخرج واحد ، الترقية واحدة ، الراتب واحد، هذا تخرّج قبل شهرين ، صار أقدم وله حق القيادة ، وللرجال عليهن درجة واحدة هي درجة القيادة ، البيت مؤسسة لا يمكن أن تنجح إلا بقائد واحد ، السبب الخامس من أسباب الشقاق الزوجي التقليد الأعمى ، الزوجة تؤخذ بالمظاهر ، لها أخت زوجها تاجر ، وأنت زوجك موظف ، أي فعلوا اشتروا ، أقاموا وليمة ، سافروا ، تنزهوا ، فهذه القصص التي ترويها الزوجة ، زوجة الغني لأختها زوجة الفقير ، هذه القصص مؤلمة جداً ، فالفقيرة ماذا تفعل ؟ تضغط على زوجها كي تجاري أختها وما تدري أنها تضرب اسفين نعش هذا الزواج ، تكلفه ما لا يطيق ، قد تجد في بعض المحلات التجارية ثياب نسائية ، ثمن الثوب يساوي راتب الزوج كله ، هل من المعقول أن تطلب منه هذا الثوب ؟ حسناً ضعي نفسك مكانه ، ماذا يفعل بطعام الأولاد ؟ كيف يدفع نفقات الكهرباء والماء والحاجات الأساسية إن أردت هذا الثوب الذي يساوي راتب زوجك بأكمله ، مستحيل هذا الشيء ، فلذلك التقليد الأعمى ، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((يا عائشة إياك والدخول على الأغنياء))

المقصود الأغنياء غير المنضبطين ، الأغنياء المتفلتين من منهج الله ، الأغنياء غير المؤمنين ، من دخل على الأغنياء خرج من عندهم وهو على الله ساخط ، الفقير قد يقول: لا شيء عندي وهو عنده الصحة وعنده الزوجة والأولاد والوفاق الزوجي ومعرفة الله والطاعة لله ، هو أغنى الأغنياء الفقير ، ولكنه غفل عن هذا الغنى ، فلذلك التقليد الأعمى عند بعض الزوجات ، والمرأة سبحان الله تحب أن تغيظ أخواتها بحالاتها مع زوجها الإنفاق ، الثياب ، النزهات ، الولائم ، تتحدث بهذا ، وهذا شيء

خطير جداً ، خرج على قومه بزينته فخسفنا به وبداره الأرض هذا نوع من الفساد قال الرسول الكريم:

((عَنْ أبي أَيُّوبَ الأنْصَارِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْوَلَدِ وَوَالِدِهِ فِي الْبَيْعِ فَرَّقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

المؤمن يقرب لا يبعد ، أحياناً قصة ، ماذا أردت من هذه القصة إلا أن تغيظي هؤلاء النسوة ، وأن تظهري أن زوجك غني وأنه قادر على أن ينفق عليك الشيء الكثير ، هذه القصة تورث الحسد والضيق والألم عند الزوجة الأخرى غير المتمكنة من إيمانها ، لذلك أقول لكم هذه الكلمة ليس لكم مصلحة بأن تصاحب من طبقة أخرى ، أي أن تُصاحب من يرى لك من الفضل مثل ما ترى له ، إذا كان هناك أخ دخله معتدل يزور أخ ثاني من نفس المستوى يسعدان سعادة بالغة ، ينسجمان في الحديث ويعيشان في ساعات مسعدة جداً ، أما لو دخل أخ من طبقة أو من درجة معينة إلى بيت آخر يصغر والثاني يكبر ويستعلي ، لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له ، قال النبي:

((عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: خَطَبْتُ امْرَأَةً عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَظَرْتَ إِلَيْهَا ؟ قُلْتُ: لاَ ، قَالَ: فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا))

أي أن أحد أسباب الوفاق أن تنظر إليها وأن تنال إعجابك ، أحياناً الإنسان يستجيب لضغوط معينة ، ضغط والده ، ضغط والدته ، كيف لا يوافق ، هذه الزوجة التي اتخذتها زوجة كي تحصنك ، إن رأيت أنها لا تحصنك إطلاقاً ، وأن في خلقها عيباً خطيراً ، وهذا قد لا يسعدك بها ، لا توافق من الآن ، الذي يؤلمني أشد الألم أن يقول أنا أريدها مؤمنة فقط لا يهمني شكلها أبداً ، يأتي شرط الدين من أعلى مستوى ، بعد أن يتم الزواج يتهكم على شكلها، ويلوم حظه على هذا الاختيار السيئ ، وأنت كذا وكذا ، يجب أن لا تأخذها من الأصل، إما أن ترضى بها وترقى عند الله إلى أعلى درجة وأنت صامت ، أو في الأصل لا توافق عليها ، إخواننا الكرام نقطة دقيقة، البنت تكون في بيت أهلها معززة مكرمة البنت غالية كثيراً على أبيها وأمها ، يأتي الخطيب يأخذها ، يقبل بها في بادئ الأمر، ثم يكيد لها الانتقاد والسخرية ، هذا مما يضعف العلاقة بينهما ، أنا أقول لكم هذه الكلمة ، أنت يجب أن تأخذ قرار قاسي ، إما أن تقبل بها وأنت ساكت ، وإما أن ترفضها من بادئ الأمر ، أما أن تقول أنا أريد الدين فقط ، ولا يعنيني الشكل إطلاقاً ، ثم يظهر أن الشكل عندك أهم شيء ، هذا خطأ كبير ، فهناك أسباب للشقاق الزوجي ، أي زواجاً تم بسرعة ، ما نظر إليها ، ما دقق في طلبه منها ، ما راقت له ضغط عليه أهله فاستجاب لهم ، قبلها على مضض فنشأت المشكلة ، هذه زوجة لا تحصنه ، قد تحصن زوجاً آخر ، فأنا أقول إما أن تصبر وتسكت وإما أن ترفض في بادئ الأمر ، أما أن تقبل ثم تزعج هذا عمل فيه ظلم ، لأنها كانت عند أهلها معززة مكرمة ، فأنت أتيت بها كي تهينها ، هذا خطأ كبير.

إخواننا الكرام ، أحد أسباب الشقاق الزوجي ، الغياب الطويل عن المنزل ، والله أيها الإخوة عشرات القصص ، اطلعت عليها بعضها انتهى إلى خيانات ، سببها الغياب الطويل عن المنزل ، يخرج الساعة السادسة يأتي الساعة الثانية عشرة كل يوم ، هذه زوجة روح لا أحد يؤنسها ، لا بكلمة ولا بحركة ولا بشيء ، فهي بحاجة إلى من يؤنسها ، فإذا عرف أحد الخبثاء ضعفها في هذه الناحية ، فقد يستغل هذا وقد يصل إلى مطلوبة بالتدريج ، وقعت الخيانة ، فأحد الأسباب الغياب المديد عن البيت ، أنا أعجب من بعض الإخوة ، يقول أتاني عمل خارج القطر ، حسناً كم سنة ؟ يقول أربع سنوات وزوجته تبقى في الشام ، إذن هل من المعقول أن تدع زوجتك في الشام أربع سنوات وبمفردها ، وعندك أولاد منها ، هو كسب المال القليل ولكن ضيع الشيء الكثير ، الغياب الطويل عن الزوجة خطر كبير ، حاول أن يكون وجودك قوي في البيت ، وجودك يؤنسها ، وجودك يسعدها ، وجودك يحصنها ، وجودك يرعاها ، أما إذا كان هناك غياب مديد عندها تنشأ المشكلات ، أحياناً بعد الزواج يذهب الزوج كل يوم مع رفاقه هذه مشكلة فهو متزوج ، هذا رفيقته زوجته ، ويجب أن ينتبه زملاؤه إلى ذلك ، الإنسان عندما دخل قفص الزوجية إن صح التعبير ، صار له زوجة وأولاد أما أن يبقى على علاقاته مع أصدقائه يوم كان عازباً كما كان سابقاً فهذا شيء غير معقول إطلاقاً ، أحد أسباب الشقاق الطمع المالي ، ورثت ميراثاً من أبيها ، يريد هذا الميراث أو يسيء العلاقة بها ، يزعجها يضغط عليها وهي لا تملك أن تأخذ هذا المال من أخيها ، أيضاً أخيها انتبه أن هذا المال سيأخذه زوج أخته ، فجمد موضوع توزيع الإرث ، هو يضغط وأخيها يضغط ، الضحية الزوجة ، هذا سبب آخر من أسباب الشقاق الزوجي ، طمع كل طرف بمال الآخر ، الزوج الناجح لا يطمع أبداً بمال زوجته ، أي مكانته الزوجية وقوامته أساسها عدم طمعه بمال زوجته ، ثم أقول لكم أيها الإخوة أنّ هناك سبباً تاسعاً ، السبب التاسع هو أن بخل الزوج أحياناً يدمر أسرته ، أبشع صفة في الرجل بخله ، ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله ، الزوج الناجح يسعد بإطعام أهله وإكسائهم وإدخال الفرح على قلوبهم ، هذه سعادة الزوج والشيء المؤلم والذي لا أحب أن أقوله أبداً أن ينتظر أهله موته ، يعني أن إنساناً حدثت له مشكلة وجاء الطبيب وقال: عرضية ، يحزنون ويقولون كيف عرضية ألا يوجد شيء ، هذه بسيطة جداً ، يعتقد الطبيب أنه يطمئنهم ، وهم لا يريدون ذلك ، يريدون أن تكون المشكلة خطيرة ، حتى ينتهوا منه، البخيل دائماً يتمنى أقرب الناس إليه موته ، لأنه بخيل ، أما الكريم فيتمنون طول بقائه ، أنا ما رأيت أعقل ممن يكرم أهله في حياته ، أكرمهم وأعطهم ، حتى يتمنوا بقاءك ، ويسعدوا بقربك أما إنسان يعيش بين أناس يتمنون موته ، فهذه مشكلة ، البخلاء هكذا ، كل أب بخيل كأنه يدفع أولاده إلى تمني موته ، طبعاً لو أن إنسان عنده زوجتين ولم يعدل بينهما أحد أسباب الشقاق الزوجي ، أي فرق كبير بين البيتين في الإنفاق في السكنى فهذا يشكل ظلم شديد ، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ كَانَ لَهُ امْرَأَتَانِ يَمِيلُ لِإِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَدُ شِقَّيْهِ مَائِلٌ))

وكان من دعاء النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْسِمُ فَيَعْدِلُ وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ ، قَالَ: أَبُو دَاوُد يَعْنِي الْقَلْبَ))

هناك سبب حادي عشر هو سوء الظن غير المعتمد على دليل ، أنا أعرف رجل دائماً يسيء الظن بزوجته ، بدِّل زوجتك لأنّ الأصل حسن الظن ، ما لم يقم دليل الإنسان برئ ما لم يقم دليل ، هناك أزواج بلا دليل يسيئون الظن بزوجاتهم ، أو تسيء الظن به ، إذا تأخر مع من كنت ؟ هذا زوجك مؤمن، أعرف أزواج مؤمنين إذا تأخروا عن البيت تتهمه زوجته بأنه كان مع إنسانة ، أو بالعكس ، سوء الظن بلا دليل مشكلة كبيرة وقد يسبب الطلاق سوء الظن بلا دليل، سوء الظن مع الدليل من الحزم ، هناك دليل ، هناك حركة غير طبيعية ، هناك تلون و اضطراب ، فهناك آثار ، عندها لا يوجد أي مانع ، عندئذ قم بسوء الظن أما من دون دليل إطلاقاً تسيء الظن هذا كما قيل: قذف محصنة يهدم عمل مائة سنة ، هناك سبب آخر أن بعض الأزواج لا يفهم طبع زوجته هذا يقع بين الشركاء والأزواج، كل له طبع إنسان هادئ ، بارد ، وإنسان حاد ، وعصبي المزاج فإذا لم يفهم كل طرف طبع الطرف الآخر هذا يولد احتكاك ومشكلات ، وانفجار وشقاق وطلاق ، أغلب الظن بعد سنتين من الزواج يفهم كل منهما الآخر ، يتعامل معه حسب طبعه ، الآن الميل لأحد الأولاد يسبب شقاق زوجي ، أحياناً الأب يميل لابنه والزوجة تتألم من هذا الميل الظالم ، فهناك شقاق سببه أن الزوج يميل لأحد الأولاد ، ولا تنسوا أيها الإخوة أن العدل بين الأولاد من أبرز مواد منهج الله عز وجل ، سووا بين أولادكم في العطية ، قال أحدهم: يا رسول الله اشهد أنني نحلت ابني هذا حديقة ، فسأله النبي: وهل لك ولد غيره قال: نعم ، قال: أنحلتهم مثل ما نحلته قال: لا، قال: أشهد غيري فإني لا أشهد على جور ، لذلك أروع عمل يقوم به الأب هو العدل بين الأولاد في كل شيء ، يقول لي أحد الآباء: أن ابني هذا عاق فإذا حرمته فذلك أفضل ، قلت له: هو الآن عاق درجة ، حينما تحرمه تزيده عقوقاً ، وحينما تعدل بينه وبين إخوته تقربه إليك ، فأنا لست من أنصار التفريق في العطاء بين البار والعاق أبداً ، وزِّع بالتساوي ، فالعاق يخف عقوقه والبار يحترمك ، أما لو حرمت العاق البار يأخذ عليك أنك لم تكن عادلاً والعاق يزداد عقوقه، هناك شيء في الزواج أحياناً الزوج لا يقبل الطرف الآخر ، يقول لك: هذه ليست لي ، لا تليق بي ، يندب حظه طول حياته ، أو بالعكس تقول هي: أنا يليق بي زوج آخر ، أغنى أو أجمل ، فإذا الزوجة أو الزوج ما قبل أو قُبلت الطرف الآخر لن تقوم سعادة بين الزوجين ، هذه هدية من الله ، الآن أقول قسمة ونصيب ، الله عز وجل اختار لك هذه الزوجة ، وهي أنسب زوجة لك ،

فقضية قبول ، أنا قبلت هذه الزوجة ، أي بميزاتها ومساوئها والسبب الخامس عشر للشقاق الزوجي هو تدخل الآباء والأمهات في شؤون الأزواج ، والله أيها الأخوة في هذا الجامع المتواضع مئات حالات الشقاق سببها الأم أو الأب أو تعنت الوالدين ، أي أن الأب يريد أن ينفذ كلمته والأم كذلك على حساب سعادة أبنائهما ، هناك ضغوط شديدة جداً للآباء والأمهات وقد ينتهي الأمر إلى الطلاق ، طبعاً أنتم إن كنتم آباء لن تفعلوا هذا ولكن أرجو الله سبحانه وتعالى كما أقول في كل عقد قران وألهم أهليهما السداد والرشاد أي اجعل كل منهما قرة عين للآخر وألهم أهليهما السداد والرشاد ، أحياناً يرتكبون حماقة ، السبب السادس عشر للشقاق الزوجي خروج المرأة من منزلها بدون إذن زوجها ومن حق الزوج أن يعطي الموافقة أو عدم الموافقة ، أما أنها تخرج من دون إذنه ، قال لي أخ: كلما آتي إلى البيت لا أجدها في البيت وإنما عند الجيران وعندهم أجهزة فساد كبيرة جداً وتَفَلّت ، وأهلها يدافعون عنها وحياته قطعاً جحيم لأنها تخرج من بيتها بدون إذن زوجها وأية امرأة تخرج من بيتها من دون إذن زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع ، هذا السبب السادس عشر ، هناك سبب سابع عشر وأظنه الأخير خلو الزوجة ببعض أقارب الزوج ، وخلو الزوج ببعض أقارب الزوجة ، وعند العوام أخي هي أخت زوجتي ولا يوجد أحد غريب ، هذه مثل أختي إن شاء الله ، لا ليست مثل أختك هي امرأة غريبة ، هي امرأة أجنبية وتُشتهى ، وكم من حادث وقع بين الزوج وأخت زوجته ، كم من حادث ، وكم من جريمة ارتكبت ، وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ ، قَالَ: الْحَمْوُ الْمَوْتُ))

خلو الزوجة ببعض أقارب زوجها ، جاء أخو زوجها تقول له: تفضل ، أين أخي ؟ تقل له: لم يأت بعد، هذه مخالفة كبيرة جداً أو بالعكس ، أيها الأخوة سبعة عشر سبباً وراء الشقاق الزوجي ، آخر سبب خلو الزوجة ببعض أقارب الزوج غير المحارم ، وخلو الزوج ببعض أقارب الزوجة غير المحارم ، وقد قال عليه الصلاة السلام:

((عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ ، قَالَ: الْحَمْوُ الْمَوْتُ))

فأرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه النقاط بين أيدينا ، لأننا إذا حذفناها من حياتنا السعادة الزوجية قائمة وهي الأصل في العلاقة الزوجية.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (090) :حديث الإفك كما ورد في السنة الصحيحة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-07-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

موضوع الدرس اليوم حديث الإفك كما ورد في صحيح البخاري، هي قصة يمكن أن نستنبط منها عشرات الحقائق التي تعد منهجاً لنا في حياتنا، قبل أن أشرع في قراءة أحداث هذه القصة ينبغي أن نعلم علم اليقين أن كل حدث وقع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان هذا الحدث وقع لحكمة بالغة بالغة، أي أن كل حدث يمكن أن نستنبط منه حقيقة، لأن سيرة النبي وما رافقها من أحداث، وما رافقها من مواقف تعد منهجاً تفصيلياً هي أصدق في التعبير عن فهمه لكتاب الله من أقواله.

هذا الحديث، حديث الإفك الذي ورد في صحيح البخاري روته السيدة عائشة المتهمة:

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ َلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ سَهْمِي...))

والقرعة أيها الأخوة أسلوب شرعي وحيادي ومريح فإن رأيت هناك تنافس بين أولادك على مكان معين في غرفتهم، أقرع بينهم، إن أردت أن تأخذ واحد منهم في وليمة وتنافس الجميع على أن يذهبوا معك أقرع بينهم، كلما رأيت أن هناك حرجاً في توزيع شيء أو اختيار شيء لك أن تستخدم أسلوب القرعة، أسلوب نبوي شرعي، حيادي، محبب، يرضي الناس جميعاً.

تعليق بسيط، إذا سافرت سفراً طويلاً وبإمكانك أن تصطحب معك زوجتك فافعل، فهذا أحصن لك، وكان عليه الصلاة والسلام:

((قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ سَهْمِي...))

ولئلا يختار واحدة دون أخرى كان يقرع بينهم:

((فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ سَهْمِي فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

قبل أن نتابع، ما معنى حديث الإفك ؟ قال علماء اللغة: الإفك أقبح أنواع الكذب وأفحشه.

((قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ سَهْمِي فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَمَا نَزَلَ الْحِجَابُ))

معنى هذا أن آيات الحجاب نزلت، هناك أحاديث ووقائع وحوادث وردتنا قبل آيات الحجاب وهناك آيات ووقائع وردتنا بعد آيات الحجاب الحجاب حكم شرعي.

((فَأَنَا أَحْمَلُ فِي هَوْدَجِي))

صار في هودج، ما تركبه المرأة فوق الدابة بالسفر، يعني غرفة صغيرة من خشب توضع فوق الدابة، وتركب فيها المرأة من أجل أن لا ترى، إذاً من بعد أن نزلت آيات الحجاب.

((فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَمَا نَزَلَ الْحِجَابُ فَأَنَا أَحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأُنْزَلُ فِيهِ فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَزْوَتِهِ))

طبعاً العزوة ليست مقصودة في هذه القصة، القصة أنها خرجت مع رسول الله في غزوة وانتهت الغزوة، ولأن آيات الحجاب نزلت ركبت هذه السيدة المصون في هودجها، والهودج غرفة صغيرة توضع فوق الدابة تجلس فيها المرأة.

((فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَمَا نَزَلَ الْحِجَابُ فَأَنَا أَحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأُنْزَلُ فِيهِ فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ قَافِلِينَ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ..))

طبعاً السفر كان من قديم شاق وعلى مراحل، فآخر مرحلة هم في ظاهر المدينة جلسوا واستراحوا، ثم أجمعوا أن يتابعوا السير، فآخر مرحلة إلى المدينة.

((آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي...))

يعني ذهبت لتقضي حاجتها.

((فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ قَدِ انْقَطَعَ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي وَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ..))

العقد من ظفار يعني العقد من خرز، وظفار بلدة يقال لها ظفار مشتهرة بصناعة العقود، ويبدو أن العقد ثمين، والمرأة كما تعلمون متعلقة بحليها، فلما لمست صدرها ووجدت أن عقدها قد انقطع رجعت تلتمس عقدها.

((أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ قَدِ انْقَطَعَ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي وَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يَرْحَلُونَ لِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ رَكِبْتُ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ...))

طبعاً لشدة حيائهم وخجلهم، زوجة نبيهم عليه الصلاة والسلام:

((وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يُثْقِلْهُنَّ اللَّحْمُ إِنَّمَا تَأْكُلُ الْعُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ))

أكل القليل من الطعام يورث رشاقة.

((فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ خِفَّةَ الْهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، الجارية البنت الصغيرة." فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَمَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ))

وجدت عقدها لكن القافلة سارت.

((فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا دَاعٍ وَلا مُجِيبٌ فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ))

المنزل مكان نزولها، هذا كل ما حدث، ذهبت لقضاء شأنها عادت وضعت يدها على صدرها، فقدت عقدها، ذهبت لتبحث عنه، في أثناء بحثها عنه جاء الرهط الذين أوكل إليهم ترحيلها، حملوا الهودج وظنوا أن فيه السيدة عائشة وضعوه على البعير وساروا.

الآن بربكم أليس من الممكن أن ينتبهوا إلى أن الهودج فارغ، قضية سهلة جداً، لو خطر في بال أحد هؤلاء الرهط أن يناديها يا أمنا المصون هل أنت في الهودج ؟ لو أن واحد آخر لمحها تبحث عن عقدها انتهى الأمر، كل هذا الحديث وكل هذه الفتنة، وكل هذه المشكلة، وكل هذا الأمر العصيب الذي عصف بالمدينة ووصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وتألم منه أشد الألم ولفظ الناس بالحديث عنها كان من الممكن أن لا يكون، لو أن أحد أفراد الرهط تنبهوا أن السيدة عائشة ليست في الهودج انتظروها وبحثوا عنها.

((. غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ..))

النبي له خطة حكيمة عليه الصلاة والسلام وكل هذا الرجل سيدنا صفوان يأتي في مؤخرة الجيش، أي شيء وقع من أفراد الجيش، من حاجاتهم من متاعهم يأخذه، يعني يتفقد مؤخرة الجيش.

((غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ فَأَدْلَجَ فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَأَتَانِي فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الْحِجَابِ...))

معنى ذلك بعد الحجاب لا ينبغي أن يعرفها.

((.فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ))

رأى أم المؤمنين زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، مستلقية على الأرض غلبتها عيناها تنتظر أن يعودوا إليها فاستيقظت باسترجاعه فخمرت وجهي، معنى خمرت وجهي أي غطيت وجهي وهذه القصة في البخاري.

((فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي وَ وَاللَّهِ مَا كَلَّمَنِي كَلِمَةً وَلا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ))

كم هي بريئة هذه السيدة المصون، كم هي طاهرة.

((غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ عَلَى يَدَيْهَا فَرَكِبْتُهَا فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ))

هذه هي القصة بأكملها، حديث الإفك الذي استغرق صفحة في كتاب الله والذي عصف بالمسلمين، ونشأت فتنة كبيرة جداً، ولهط أهل المدينة المنافقون في سمعة السيدة عائشة ونهشوا من سمعتها، وتكلم المتكلمون، وتعفف المتعففون، وبرأ المؤمنون، هذا كله حدث في خلال هذه القصة.

((.. حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُوا مُوغِرِينَ))

موغرين يعني في أشد ساعات الحر.

((حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُوا مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الإِفْكَ عَبْدَاللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ ابْنَ سَلُولَ))

هذا الذي حينما مات، قال عليه الصلاة والسلام:

الآن استقر في جهنم حجر كان يهوي به سبعين خريفاً، وهذا رأس المنافقين طلب قميص رسول الله وهو على فراش الموت، وتروي كتب السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم ألبسه قميصه بيده، هذا رأس المنافقين على جسمه قميص النبي، وقد قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم:

الآن استقر في جهنم حجر كان يهوي به سبعين خريفاً.

ماذا فعل ؟ الذي فعله أنه أراد أن تشيع الفاحشة بالذين أمنوا، زوجة النبي عليه الصلاة والسلام اتهمها في عرضها.

((. قالَ عُرْوَةُ أُخْبِرْتُ أَنَّهُ كَانَ يُشَاعُ وَيُتَحَدَّثُ بِهِ عِنْدَهُ فَيُقِرُّهُ وَيَسْتَمِعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ...))

أيام تسمع خبر تكبره، تزيد عليه، تضخمه لتشفي غليلك، أخوانا الكرام: يقول الله عز وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11))

(سورة النور)

الكلام دقيق جداً ما دام هذا الحديث قد وقع فهو خير، كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

ما دام الشيء وقع أراده الله، ما دام الشيء وقع لحكمة بالغة، لعدل مطلق، قال تعالى:

(لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11))

(سورة النور)

هذا الذي يريد أن يزعزع سمعة المسلمين يريد أن يضعها في الوحل بتخطيط خبيث، هذا يرتكب أشد فاحشة في حياته، قال تعالى:

((لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (13))

(سورة النور)

المؤمن يحسن الظن بالمؤمنين، ويقول هذا إفك مبين، نتابع القصة.

((فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا...))

يعني مرضت.

((فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ لا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّطَفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ كَيْفَ تِيكُمْ))

الذي أزعجها وأقلقها وحملها على الاكتئاب أنها كانت إذا رأت رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تعرف منه اللطف التي كانت تراه فيه، كانت إذا أصابتها وعكة، كان عليه الصلاة والسلام ألطف الناس بها، كان يرحمها كثيراً، يعطف عليها كثيراً، يشفق عليها كثيراً، أما هذه المرة مع أنها مريضة ومضى على مرضها شهر كان عليه الصلاة والسلام:

((فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ كَيْفَ تِيكُمْ ثُمَّ يَنْصَرِفُ فَذَاكَ الَّذِي يَرِيبُنِي فَذَاكَ الَّذِي يَرِيبُنِي...))

وكان عليه الصلاة والسلام يقول كيف عويش، الاسم المحبب، أما هذه المرة يدخل ويسلم ويقول كيف تيكم.

شهر لم يعلمها أحد الخبر شاع ووصل إلى أطراف المدينة، والناس لغطوا في حديث الإفك، تقوله المتقولون، وتعفف عنه المتعففون، وأرجف به المبطلون، والنبي عليه الصلاة والسلام صامت إلا أن تبدل طرأ عليه، هو رجل غيور.

((وَلا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ حَتَّى خَرَجْتُ بَعْدَمَا نَقِهْتُ فَخَرَجَتْ مَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ وَقَدْ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا، فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ أَتَسُبِّينَ رَجُلاً شَهِدَ بَدْرًا))

مرطها، المرط هو كساء من الصوف.

((قَالَتْ أَيْ هَنْتَاهْ أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ ؟ قَالَتْ قُلْتُ: وَمَا قَالَ ؟ فَأَخْبَرَتْنِي))

بعد شهر علمت السيدة عائشة ما يقول الناس عنها، من أم مسطح بقول الإفك.

((فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي وَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعْنِي سَلَّمَ ثُمَّ قَالَ كَيْفَ تِيكُمْ...))

ولا كلمة، كان يقول كيف عويش، كان ألطف الناس بي، كان أرحم الناس بي.

((. فَقُلْتُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ، قَالَتْ وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا..))

لا يوجد معلومات إلا ما جاءت به أم مسطح.

((فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجِئْتُ أَبَوَيَّ فَقُلْتُ لأُمِّي يَا أُمَّتَاهْ مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ ؟ قَالَتْ يَا بُنَيَّةُ: هَوِّنِي عَلَيْكِ فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا قَالَتْ فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ أَوَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا ؟ قَالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ...))

أي لا ينقطع لي دمع، المرأة إذا أصيبت بشرفها أصيبت بأثمن ما تملك شيء خطير جداً، الرجل يتهم بإيمانه، المرأة تتهم بشرفها.

((حَتَّى أَصْبَحْتُ لا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ حَتَّى أَصْبَحْتُ أَبْكِي فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ يَسْتَأْمِرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ قَالَتْ: فَأَمَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْوُدِّ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَهْلَكَ وَلا نَعْلَمُ إِلا خَيْرًا...))

أرأيتم إلى النصح سيدنا أسامة بن زيد قال هم أهلك ولا نعلم عنهم إلا خيراً.

((وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ وَإِنْ تَسْأَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِيرَةَ فَقَالَ: أَيْ بَرِيرَةُ هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ، قَالَتْ بَرِيرَةُ: لا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنْ رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ))

يعني تنام على عجين أهلها تأتي الدجاج أو الطيور الأهلية في البيت فتأكل هذا العجين ولا يوجد شيء آخر هذه بريرة التي تتحدث، أحياناً أخوانا الكرام: كلمة عدل تعدل عند الله ثمانين عاماً.

((فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَعْذَرَ يَوْمَئِذٍ مِنْ عَبْدِاللَّهِ ابْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي...))

رجل آذاني في أهلي.

((فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِ لا خَيْرًا وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلاً مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلا خَيْرًا...))

يعني أنا أهلي ما علمت عليهم إلا خيراً وأن هذا الرجل الذي ذكروه في حديث الإفك والله ما علمت عليه إلا خيراً.

((. وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلا مَعِي قَالَتْ فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ لا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ قَالَتْ: فَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا لا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ وَلا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ يَظُنَّانِ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي))

محنة شديدة جداً، وهي أم المؤمنين، يعني إذا كانت امرأة في الزمن المتأخر كانت عفيفة، بريئةً، طاهرةً، حصينة، وتكلم الناس عنها افتراءً، لها في هذه السيدة المصون أسوة حسنة.

هذه القصص التي وقعت في عهد النبي فيها حكمة بالغة بالغة.

((قَالَتْ فَبَيْنَمَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي...))

من شدة التأثر.

((قَالَتْ فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ قَالَتْ وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا))

يعني أول لقاء جلس فيه منذ شهر.

((وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي...))

لو جاء الوحي بعد ربع ساعة بالتبرئة، انتهى الحديث كله، لو كان الوحي ليس من عند الله من عند محمد، كان من بعد دقيقة سوى آية اللهم صلي عليه، شهر بأكمله والوحي منقطع، معنى ذلك أن الوحي شيء مستقل عن رسول الله، لا يملك جلباً له ولا دفعاً.

((وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ جَلَسَ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ))

تعلموا الأدب يا أخوان والحكمة والهدوء.

((قَالَ: أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ...))

الله اسمه الحق وهذه لكل واحد بشارة، إذا كنت متهم وأنت بريء الله عز وجل هو الحق ولابد من أن يحق الحق، اطمئن.

لكن أحياناً ربنا عز وجل يؤخر التبرئة ليمتحن الناس ويأخذ كل أبعاده.

((.. وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ إِلَى اللَّهِ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً فَقُلْتُ لأَبِي أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا، قَالَ قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ لأُمِّي: أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ فَقُلْتُ: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي..))

الناس يميلون إلى الشيء الآخر.

((وَاللَّهِ مَا أَجِدُ لَكُمْ مَثَلاً إلا قَوْلَ أَبِي يُوسُفَ قَالَ (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ))

كل إنسان يا أخوان بريء اتهم تهمة كبيرة والله يعلم أنه بريء ليطمئن الله سوف يبرأه ويرسل من يدافع عنه، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38))

(سورة الحج)

هذه قصة مؤثرة جداً، زوجة رسول الله أم المؤمنين أنقى من ماء السماء اتهمت بشرفها، وعرضها، وهذا الذي حدث كان من الممكن أن لا يحدث ببساطة كبيرة، لو أنهم عندما حملوا الهودج رأوه خفيفاً أين السيدة عائشة ؟ انتهى الأمر، لو أنهم لمحوها عن بعد لانتهى الأمر لو لم ينقطع عقدها لانتهى الأمر، هناك آلاف الحالات كان من الممكن أن لا يقع هذا.

((قَالَتْ: ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي قَالَتْ وَأَنَا حِينَئِذٍ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي...))

أحياناً أخ من أخوانا قال لي: اتصال هاتفي مزعج كلمات بذيئة يعني وزوجته يعرفها معرفة قطعية أنها أنقى من ماء السماء فتألم ألماً لا حدود له وغابت عنه هذه القصة، فلما ذكرته بها، قال لي: والله كأن ثلج ألقي علي، من هي زوجتك أمام السيدة عائشة ؟ هذه القصة وقعت لتكون هذه السيدة أسوة لكل مؤمنة طاهرة، بريئة، عفيفة، اتهمت ظلماً وعدواناً في شرفها.

((وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ...))

رسول الله وسيدنا الصديق أم السيدة عائشة والسيدة عائشة، أربعة.

((وَلا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ))

بعد شهر، يعني شيء لا يحتمل.

((فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي يُنْزَلُ عَلَيْهِ قَالَتْ: فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُرِّيَ عَنْهُ وَهُوَ يَضْحَكُ...))

أحق الله الحق، جاءت البشارة.

((. فَكَانَتْ أَوَّلُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا يَا عَائِشَةُ أَمَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ بَرَّأَكِ فَقَالَتْ أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ، قَالَتْ فَقُلْتُ: لا وَاللَّهِ لا أَقُومُ إِلَيْهِ وَلا أَحْمَدُ إِلا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ...))

ما أحد صدقني منكم، رسول الله قال لها إن كنت فعلت هذا فتوبي إليه فقالت: أجيبي عني رسول الله فقالت ماذا أقول له، أجب يا أبي عني قالت والله لا أقوم إلا لله، فتبسم النبي عليه الصلاة والسلام وقال: عرفت الحق لأهله، قال تعال:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11))

(سورة النور)

كل واحد يتحمل مسئوليته، لذلك قالوا: قذف محصنة يهدم عمل مائة سنة، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11))

(سورة النور)

روجه، أزاد عليه، ضخمه، أراد أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين، هذا الذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم، قبل أن تتكلم عن المؤمن عد للمليون، هذا ولي الله عز وجل قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ))

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (12))

(سورة النور)

أنت لا يوجد عندك ثقة أن أخوك أنقى من ذلك، لا يوجد عندك إمكان أن تدافع عنه، قال تعالى:

(لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (13))

(سورة النور)

(لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (68))

(سورة الأنفال)

هؤلاء البريئون الذين رددوا الخبر، لولا فضل الله عليهم ورحمته لمسهم فيما تكلموا به عذاب عظيم، قال تعالى:

(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15))

(سورة النور)

عندما تزعزع ثقة الناس بإنسان ماذا تفعل ؟ قال أبو حنيفة لطفل: إياك يا غلام أن تسقط، وكان أمامه حفرة، فقال له هذا الطفل: بل إياك أنت يا إمام أن تسقط، إني إن سقطت، سقطت وحدي، وإنك إن سقطت سقط معك العالم.

قبل أن تقول فلان كذا، وتطعن وتضع سمعته في الوحل، هل أنت متأكد، رأيت بعينك، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6))

(سورة الحجرات)

(وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (16) يَعِظُكُمَ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (17) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (18))

(سورة النور)

أخوانا الكرام أدق فيما هذه القصة الآية الأولى، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11))

(سورة النور)

لا تحسبوه، هذا الحديث، هذه قاعدة أساسية في العقيدة، ما دام الشيء وقع خير، يوجد حكمة، الله كشف النفوس، المؤمن ظهر والمنافق ظهر، الحقود ظهر، والخسيس ظهر، الشريف ظهر، الورع ظهر، المحب ظهر، العدو ظهر.

يروون وورد هذا في الحديث الشريف، أنه حينما أحرق النمرود سيدنا إبراهيم جاء الوزغ، أبو بريص، فنفخ في النار ليزيد اشتعالها، وجاءت الضفدع فصبت على النار ماء، ولكن ماذا صبت على الماء ؟ خمسة سم مكعب، فلا الضفدع أطفأت النار، ولا الوزغ زاد اشتعالها لكن كل ظهر على حقيقته.

الذي روج الحديث الله برأها وظهر كاذب، منافق، والذي أحسن الظن بها ظهر إيمانه وحسن ظنه واحترامه للنبي صلى الله عليه، فقضية خطيرة جداً.

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11))

(سورة النور)

أي أن الله جعل هذا امتحان، وابتلاء وكشف نوايا وتحديد مواقف وفرز نوعي وكل إنسان عبر عن ذاته، قال تعالى:

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً (84)

(سورة الإسراء)

المؤمن ظهر والمنافق ظهر، والفضولي ظهر، والحاقد ظهر، والكافر ظهر، والنبي ظهر صبره، والوحي ظهر أنه ليس من عند رسول الله

لو كان الوحي من عند النبي بعد دقيقة تأتي آية تبرئ، بقي الوحي منقطعاً ثلاثين يوماً وقيل أربعين يوماً، يوجد نقطة دقيقة، توحيداً هذا الذي وقع أراده الله والدليل قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11))

(سورة النور)

التوحيد هل يلغي المسؤولية ؟ إذا طبيب أخطأ مع مريض والمريض مات الطبيب يقول: هذا أجله، أم نحاسب الطبيب ؟ التوحيد لا يلغي المسؤولية الدليل، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11))

(سورة النور)

الله قال خير، هذا توحيداً أما المسؤولية، والحساب، والعقاب، والجزاء، لا علاقة له بالتوحيد، الله شاء وسمح أن يقع ليكشف النفوس ويمتحن الرجال ولكن الذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم. الشيء الدقيق سيدنا الصديق كان ينفق على مسطح في قرابته منه هذا الذي روج الخبر وأشاع هذا الحديث الظالم وفقره، فقال رضي الله عنه

((قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ: وَاللَّهِ لا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ (وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) قَالَ أَبُو بَكْرٍ بَلَى: وَاللَّهِ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ وَقَالَ وَاللَّهِ لا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا...))

هل تتحمل إنسان تكلم عن ابنتك واتهمها بالزنا، وكنت أنت تساعده ثم توقف المساعدة فيعاتبك الله عز وجل.

((قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُ زَيْنَبَ ابْنَةَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ يَا زَيْنَبُ مَاذَا عَلِمْتِ أَوْ رَأَيْتِ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي مَا عَلِمْتُ إِلا خَيْرًا، قَالَتْ وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ مِنْ أَصْحَابِ الإِفْكِ))

قال هذه زينب كانت تنافسني وتضاهيني، ضرة حقيقية، انظر إلى الورع سألها عن أمري فقالت زينب:

((فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي مَا عَلِمْتُ إِلا خَيْرًا...))

إذا كانت امرأة عادية قالت: جاءت المناسبة، ضرة، هل عندك إمكانية إذا خصمك وقع بتهمة كبيرة وسألت عن هذا، أن تقول لا والله لا يفعله، هذه خصومة شريفة، "... فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ.. " هل عندك إمكانية يسألك إنسان عن قضية وتعطي رأيك الحق وقد يكون هذا الرأي ليس لصالحك هذا الإيمان.

أيها الأخوة: هذا الحديث يسري عن كل مؤمن، يعد تسلية لكل متهم بريء، يعد هذا الحديث عن طيب لقلب هؤلاء الذين أودعوا بامتحان شديد، والسيدة عائشة برأها الله عز وجل ورجع لها تألقها وقيمتها، وسمعتها الطيبة.

وأن يستنبطوا منها الأخلاق المحمدية، إنسان زوجته متهمة بالزنا دخل عليها كانت مريضة فقال

((فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ كَيْفَ تِيكُمْ...))

ثم إن هذه الجريمة جريمة الزنا قال عنها النبي:

((قَالَ: أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ...))

مع أنه يعلم عنها خيراً، قال والله ما علمت على أهلي إلا خيراً وما علمت عن هذا الذي قالوا عنه إلا خيراً، وما دخل إلى بيتي إلا وأنا معه.

هذه احتياطات، وهذه الضرة التي تنافس أختها حينما سئلت قالت: والله ما علمت عليها إلا خيراً.

سيدنا أسامة بن زيد قال:

((فَأَمَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْوُدِّ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَهْلَكَ وَلا نَعْلَمُ إِلا خَيْرًا...))

سيدنا علي قال: اسأل بريرة، سألوا بريرة قالت: والله ما علمنا عنها إلا خيراً، إلا أنها كانت تنام عن عجينها فيأتي بعض الطير فيأكله.

كل إنسان ظهر على حقيقته، فالمؤمن يحسن الظن بإخوانه، المؤمن يتوقف كثيراً قبل أن يقول كلمة من دون دليل، المؤمن يتريث، وكل إنسان بريء هذه إشارة من الله، والله عز وجل سوف يبرئه من هذه الورطة.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (091) :أمراض المؤمنين - موعظة لعباد بن عباد الخواص الشامي.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-08-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون:

عثرت وهذا التعبير الدقيق على موعظة بليغة لعالِمٍ جليل اسمه عباد بن عباد الخواص الشامي، وردت هذه الموعظة في مقدمة كتاب في الحديث الشريف هو سنن الدارمي، هذه الموعظة وجدتها تعالج أمراض المسلمين.

أيها الأخوة أنا حينما أتكلم، أتكلم لمن يدخل إلى بيت من بيوت الله، هؤلاء مؤمنون وهؤلاء مسلمون، لا أريد أن أعالج أمراض الكفار و المنحرفين و الفجار و المشركين والعصاة، يعنينا أن نعالج أمراض الذين التزموا بالدين، هؤلاء مع أنهم قد التزموا هناك مشكلات كثيرة يعانون منها، بعضها من صنع أيديهم و بعضها من طبيعة العصر، وجدت هذه الموعظة تنطبق انطباقاً كبيراً على واقع المسلمين اليوم، دائماً يوجد سؤال كبير، لماذا كان أصحاب رسول الله قمماً في كل شيء ؟ و لماذا على قلتهم و على ضعفهم أجرى الله على أيديهم الخير و نحن نعد ألف مليون و زيادة و في أيدينا إمكانات مذهلة و مع ذلك نجد هناك ضعفاً و تمزقاً و شتاتاً ؟ لعل هذه الموعظة تجعلنا نضع أيدينا على أمراض.
يقول عباد بن عباد الخواص الشامي كنيته أبو عتبة:

أما بعد: اعقلوا اعقلوا، أي أن هذا العقل، هذه الجوهرة ثمينة، هذه الأداة التي جعلها الله أداة معرفة لا ينبغي أن تعطل، اعقلوا و العقل نعمة، قال تعالى:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10))

(سورة الملك)

أي أحد أسباب دخول النار أن هؤلاء لم يعقلوا، اعقلوا و العقل نعمة، لكن العقل كيف ينحرف هنا السؤال ؟ هذا أول مرض، قال: فرب ذي عقل قد شغل قلبه بالتعمق عما هو عليه ضرر، ممكن أن نأخذ فرع من فروع الدين و نجعله مشكلة و نتخاصم و نتناحر و كل واحد ينحاز إلى طرف و بعضهم يكفر بعضهم الآخر هذا نقول له مشرك و هذا كافر و هذا منحرف و هذا زنديق، هناك قضايا بالدين فرعية نضخمها و نكبرها و نقيم عليها المشكلات و نضحي من أجلها بالود بين المؤمنين هذه مشكلة المسلمين اليوم، أطراف هؤلاء مع الكتاب و السنة و هؤلاء مع التصوف و هؤلاء مع كذا و هؤلاء مع كذا، كل يدعي أنه على حق كل يدعي أنه الفرقة النازية و ما سواه إلى النار و بئس المصير هذا واقع المسلمين

اليوم، اعقلوا والعقل نعمة، لكن فرب ذي عقل قد شُغِل قلبه بالتعمق عما هو عليه ضرر، ينبغي أن تصطفي، ينبغي أن تستخدم العقل فيما خلق له، ينبغي أن يكون العقل في موضوعات مجدية في موضوعات ثمينة، في أصول الدين كيف تنشر الحق، لا كيف تكيد لفلان، كيف تعمم الهدى، كيف تنشر الفضيلة، لا كيف تغيظ فلاناً، لا كيف أحجِّم فلاناً، لا كيف أسفه فلاناً، إذا انشغلنا ببعضنا انتهينا، قال تعالى:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46))

(سورة الأنفال)

عندئذ وهو في أعلى درجات التعقل يصبح ساهياً عن علة وجوده وعن هدفه الكبير وعما خلق له، كم من قضية ثانوية جداً أي بين أن تقول أشهد أن لا إله إلا الله وبين أن تفعل هكذا، مشكلات وخصومات واتهامات، بين أن يكون المنبر ثلاث درجات أو ثمان درجات، يعني أشياء لا تقدم ولا تؤخر، ثانوية جداً في الدين، لعل رقمها في سلم الأولويات مليون، أو مائة ألف، هل طبقت المائة ألف الأولى، هل أحكمتها هل أتقنتها، هل كملتها حتى وصلت إلى هذه، أيعقل أن تقيم مشكلة لموضوع صغير جداً يأتي ترتيبه في المليون، ينبغي أن نفقه سلم الأولويات يعني تصور إنسان يركب سيارة في سفر، المحرك احترق لن تتحرك ولا حركة، وفي حاجة للسيارة ثانوية جداً، أصابها خلل، يندب حظه لهذه الحجة الثانوية و ينسى أن محرك السيارة قد احترق، هذا الذي لا ينتبه لأولويات السيارة ليس حكيماً، هذا مرض، اعقلوا و العقل نعمة لكن من انحرافات العقل أن يسلط على موضوعات صغيرة و يكبرها و يجعل منها قضية و خصومة و تفرقة و تحزبات وتسليط و طعن و تحجيم و اتهام بالشرك و الكفر من أجل قضية ثانوية لا تقدم و لا تؤخر.

مرض ثان: أو رجل شغل قلبه ببدعة ما أنزل الله بها من سلطان، لم ترد عن النبي العدنان، ما فعلها أصحاب رسول الله و هم في أعلى درجة من الورع، أي حينما تظن أنك أورع من رسول الله فقد ابتعدت عن الصواب ابتعاداً كبيراً، ما من شيء يقربنا إلى الله إلا وأمرنا النبي به، و ما من شيء يبعدنا عن الله إلا و نهانا النبي عنه، فحينما تضيف على الإسلام شيئاً أنت تتهمه بالنقص و حينما تحذف منه شيئاً أنت تتهمه بالزيادة و الإسلام كامل

أو رجل شغل ببدعة قلد فيها دينه، رجالاً دون أصحاب رسول الله، أي أيهما أرقى ؟ أنا كنت أقول إذا أراد أحد أن يحاورني، حينما تتوهم أنّ في الأرض إنساناً أكمل من النبي ليس عندي وقت أن أجلس معك إطلاقاً، إذا كنت تزعم أنّ هذا الشيخ، أنّ هذا المرشد أكمل من رسول الله وعمله أبلغ ليس هناك لغة مشتركة بيني وبينك إطلاقاً، النبي معصوم بمفرده، أقواله وأفعاله وأحواله كلها حق من الله تعالى،

قال تعالى:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3))

(سورة النجم)

لا تزد على سنته شيئاً، ولا تنتقص منها شيئاً، لا تحدث تغييرات في الدين، كل محدثة بدعة، وكل بدعة دلالة، وكل دلالة في النار، قال النبي الكريم:

((عَنْ مَالِك أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ))

منهج، إنّ هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم، إذا أردنا أن نأتي بقضايا صغيرة وأن نكبرها وأن نجعلها قضية كبيرة وأن نصمّت الناس في ضوئها تمزق الإسلام، وتمزق المسلمون، وضعفوا، الشيء المؤلم إخواننا، وأنا لا أتكلم من هواء، من حين لآخر ألتقي بأناس أتوا من الغرب من أمريكا، أوروبة، الشيء الذي يتفطر له القلب أنّ مشكلات المسلمين في شرقهم نقلوها إلى غربهم، هذا المسجد للجماعة الفلانية لا يدخله هؤلاء، هؤلاء لا يصلوا وراء هؤلاء، وكم من معركة نشبت في بعض المساجد فجاء المسؤولون وأغلقوا المسجد، ما رأيت مسلماً يؤثر مصلحة المسلمين العامة على انتمائه الشخصي، نحن نريد انتماء إلى مجموع المسلمين، نريد مسلم له رؤية بعيدة، قال هذا المرض الثاني رجل شغل قلبه ببدعة قلّد فيها دينه رجالاً دون أصحاب رسول الله، أو اكتفى برأيه، جعل من رأيه ديناً، والآراء متفاوتة إذاً هناك عشرات الأديان كل يقول أنا رأيي كذا، يأخذ من الدين ما يعجبه ويدع ما لا يعجبه، أصبح عندنا أديان، اتجاهات، أنماط، والآن نلاحظ أنّ كل جماعة تعتني بشيء وتهمل شيء، الذي تعتني به تزهو به والذي تهمله تسكت عنه، هؤلاء يعتنون بشيء آخر، ليس هذا هو الدين الصحيح، الدين الصحيح أن تأخذ المنهج كله، بكل تفاصيله، دون أن تزيد عليه، دون أن تنتقص منه، اتبع لا تبتدع، اتبع لا ترتفع الورع لا يتسع، هذا الذي اتخذ رأيه ديناً يرى الهدى فيما هو فيه، ويرى الضلال فيما هو ليس فيه، أكثر الناس هذا من جماعتنا إذاً على حق، هذا ليس من جماعتنا إذاً على باطل، معقول هذا الكلام ! قد يزعم أنه أخذها من كتاب الله وهو يدعو إلى فراق كتاب الله، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (159))

(سورة الأنعام)

أصحاب النبي كانوا حملة القرآن، يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه وكانوا منه على منار كوضح الطريق، فكان القرآن إمام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رسول الله إماماً لأصحابه، وكان أصحابه أئمة لمن بعدهم، رجالٌ معروفون منسوبون في البلدان، متفقون في الرد على أصحاب الأهواء،

مع ما كان بينهم من الاختلاف، عندنا كما قال عليه الصلاة والسلام

((عَنْ عَبْدِاللَّهِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: خَيْرُ النَّاس قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ أَيْمَانَهُمْ وَأَيْمَانُهُمْ شَهَادَتَهُمْ))

لا ينبغي أن تفهم الإسلام فهماً مغايراً لفهم أصحاب رسول الله، لا ينبغي أن تبتدع عبادة ما فعلها أصحاب رسول الله، لا ينبغي أن تسلك مسلكاً ما فعله التابعون، لا ينبغي أن تبتدع ذكراً ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وإلا ضاع الإسلام وضاع الدين، وكلما أحدث الشيطان لهم بدعة انتقلوا إلى غيرها، أي ممكن حفل زفاف مختلط النساء فيه كاسيات عاريات ويأتي شيخ معمم ليحضر هذا الحفل ويبارك هذا العقد وجود هذا الشيخ المعمم إقرار لهذا الفسق والفجور، هكذا التقاليد، هكذا العادات، اختلف الوضع، دائماً هناك سؤال كبير هل تخلى الله عنا ؟ والله شيء مؤلم، لا أعتقد في تاريخ المسلمين مرت فترة عصيبة أعداؤنا على قلتهم يتحدوننا، نحن على كثرتنا لا نملك من أمرنا شيئاً، هذا وضع مؤلم جداً، فلذلك يجب أن نعلم حقيقة الأمر، أي حينما يهون أمر الله علينا، نهون على الله، معقول مسبح مختلط تسبح فيه النساء مع الرجال وصاحب هذا المسبح يقيم حفلاً بذكرى مولد رسول الله ويدعو أناساً كثيرين وتلقى الكلمات ويُشاد بصاحب الدعوة، هذا إسلام ! إلى هنا وصلنا ! هذه البدع في علاقاتنا، في احتفالاتنا، الآن كم بيت من المسلمين يجب أن يدخل العريس ويجلس إلى جانب العروس أمام جمع غفير من النساء الكاسيات العاريات، هذا يفعله معظم المسلمين، وإن لم يفعل العريس يقام عليه النكير، بقي الإسلام عبادات، انفصل عن الحياة، قد لا تجد الإسلام في حوانيت المسلمين لا في بيعهم ولا شرائهم، ولا في نزهاتهم أساساً، ولا في احتفالاتهم، ولا في أفراحهم ولا في أتراحهم، تقليد للأجانب قال الرسول الكريم:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ وَبَاعًا فَبَاعًا حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ، قَالُوا: وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَهْلُ الْكِتَابِ ؟ قَالَ: فَمَنْ))

أي معقول إنسان يهودي جالس أمام مكتب بفرنسا يرسم أزياء النساء كل سنة هناك نمط جديد، ونساء المسلمين يلهثون وراء هذه الموديلات، هل هذا الشيء معقول ؟ أهؤلاء ينصرهم الله عز وجل على أعدائهم، إنسان فاسق ماجن فاجر هو الذي يصمم لنا لباس نسائنا؟ هذا شيء واقع أم لا ؟ هذه الطرقات أمامكم، لم يبق من المرأة شيء لم يره الرجال، كما خلقها الله، قد يخفى اللون فقط، أما حجم أعضائها كما هو، نساء المسلمين هؤلاء أين آباءهم ؟ أين إخوتهم ؟ ماذا يفعل هؤلاء أعود وأقول حينما يهون أمر الله علينا نهون على الله، وحينما نُعِزّ أمر الله يعزنا الله، وحينما نبتغي العزة عن غير طريق هذا الدين العظيم يذلنا الله عز وجل، قال ذُكِر عن سيدنا عمر أنّه قال لزياد: هل تدري ما يهدم الإسلام ؟ قال: ماذا

يهدم الإسلام ؟ قال: زلة عالِم، وجدال منافق، وأئمة مضلون، فيهم الغيبة والنميمة والمشي بين الناس بوجهين ولسانين الآن صاحب هذه الموعظة وضع يده على مرض خطير، يقول: صاحب الوجهين واللسانين هو في وجهين ولسانين في نار جهنم، يلقاك صاحب الغيبة يعرف من أنت ومن خصومك، فيغتاب عندك من يرى أنك تحب غيبته ترتاح، ثم يذهب إلى صاحبك الذي اغتابه عندك فيأتيه عنك بمثله، يتحدث عنك كما تحدث لك عنه، فإذا هو قد أصاب عند كل واحد منكما حاجته، تقرب إليك بغيبة فلان وتقرب لفلان بغيبتك فلا تعرف ما فعل هذا، موضوع الغيبة أنا أقول لبعض الناس قال له أحدهم: لقد اغتبتني، فأجابه إجابة رائعة قال له: ومن أنت حتى أغتابك، أنت أقل من ذلك، لو أني مغتاب أحداً لاغتبت أمي وأبي لأنهم أولى بحسناتي منك، لأن المغتاب يوم القيامة ستؤخذ حسناته لمن اغتابه وسيطرح من اغتابه سيئاته عليه، وهذا مصداق قول النبي صلى الله عليه وسلم:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: تَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ، قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ، قَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُقْضَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

على كل سأذكركم بما حدث يوم الجمعة، طرفة، منذ ربع قرن وأنا أخطب على المنبر وما قاطعني أحد مرة في خطبتي إلا الأسبوع الماضي، رأيت شاباً يتجه من باب المسجد إلى أول المنبر ويصعد إلي ويعطيني ورقة، طبعاً أنا حينما رأيت إنسان يمشي، يتخطى الرقاب ليصل إلي، ما الذي حدث ؟ تصورت لعلي ذكرت حديثاً وقلت: قال الله تعالى، هذا شيء كبير جداً، لعلي أخطأت خطأً فاحشاً في الخطبة ممكن، لعل حرباً نشبت بين اليهود وبين العرب فينبغي أن أحمس الناس ممكن، لعل عالماً كبيراً توفي ينبغي أن نصلي عليه صلاة الغائب يجوز، غير معقول، مشى هذا الأخ ووصل إلي وصعد إلي وأعطاني هذه الورقة، نظرت إليها فإذا مكتوب عليها سيارة داسيا رقمها كذا بثلاثة دواليب تقف أمام سيارة يرجى من صاحبها أن يزيحها، نظرت إليه سبحان الله، والله نسيت أن أدعو الدعاء، خواطر كثيرة جداً جاءتني إلى أن وصل إلي، ثم فوجئت أنّ سيارة داسيا رقمها كذا، هذا الذي أرسل بالورقة أليس مسلماً ؟ ألا يصلي الجمعة، ما الذي حدث ؟ أرأيتم إلى تفاهة الناس أيها الأخوة.

قال له: اغتبتني، فأجابه: ومن أنت حتى أغتابك، من أنت، أنت أقل من ذلك، لو كنت مغتاباً أحداً لاغتبت أمي وأبي لأنهما أولى منك بحسناتي، إذاً أيها الأخوة ما قيمة الإسلام إذا وجدت الغيبة والنميمة والحقد والبغضاء والتحاسد والبغي، وكل إنسان يتمنى أن يحطم الآخر كل إنسان يتمنى أن يقف على أنقاض الآخر، هذا هو الدين، عندئذ أصبح الدين ثقافة، كتب وما أكثر الكتب، ما أكثر الأشرطة والمحاضرات، ما أكثر الندوات، حسناً هناك سؤال كبير جداً نحن مليار ومائتين مليون تخلى الله عنا

أيعقل أن يتخلى الله عنا ! طبعاً إذا عصيناه تخلى الله عنا، لأنه كما قال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (59))

(سورة مريم)

أي والله أيها الأخوة لا أتمنى على الله إلا هذا الشيء لشدة أهميته، أن يكون في أي مكان من العالَم مجموعة من الناس مهما قلّ عددهم يطبقون هذا الدين تطبيقاً صحيحاً يكون حجة على من سواهم، شبعنا كلاماً، مجرد خطب رنانة، محاضرات رائعة، لغة فصيحة، علم غزير، أدلة قوية، حجج ناصعة، إفحام، طلاقة لسان، شخصية قوية نريد مجتمعاً مسلماً، نريد صدق، نريد أمانة، نريد حب، أن يحب بعضكم بعضاً، نريد أن يلتمس أحدكم لأخيه عذراً، نريد أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه، وأن يكره له ما يكره لنفسه، الحق مهما تكن دائرته صغيرة إذا كان صحيحاً يتوسع، أما الباطل مهما تكن دائرته كبيرة يتقلص، يقول صاحب هذه الموعظة البليغة: أما في القوم من رشيد ولا مصلح يقمع هذا عن مكيدته ويرده عن عرض أخيه المسلم، يوجد الآن ظاهرة خطيرة جداً إذا التقى المسلمون مديحاً منقطع النظير، كله سيدي وسيدي وبارك الله بكم، إذا غاب عنه صار صاحب بدعة وصار لا يفهم، ما يقال في حضرة الناس شيء رائع جداً وما يقال في غيبتهم شيء قذر جداً هذه تسمى ازدواجية، الشخص الذي تستح أن تواجهه بخطأه ينبغي أن لا تذكر خطأه في غيبته، إن كنت شجاعاً فاذكر خطأه في وجهه وإلا فاسكت، أما هذا الموقف المتلون كالحرباء الموقف الازدواجي هذا الذي أفسد علاقة المسلمين، أنا أتحدث عن المسلمين، قلت لكم كثيراً هناك من يقول لي: أستاذ حدثنا عن أمراض المجتمع، أقول هؤلاء الذين أتحدث عنهم ليسوا أمامي، الذين أمامي ملتزمون، مؤمنون، مستقيمون، موضوع الخمر والرقص والحفلات والاختلاط، أنا إن تكلمت في هذا المسجد عن هؤلاء، هؤلاء لا يسمعونني، أنا أمامي أناس مستقيمون، فما معنى أن أعالج أمراضاً ليست عند هؤلاء المستمعين، أنا أعالج أمراض المؤمنين رواد المساجد الملتزمين، الذين يصلون ويصومون ويحجون ويزكون ولهم أعمال طيبة وصالحة ولهم أذكار ولهم قربات إلى الله، هؤلاء يعانون من مشكلات التحاسد، التباغض، الغيبة، الازدواجية، البدع، أو أن ينشغل عقله بأشياء ثانوية جداً يمضي فيها عمره، أنت لاحظ المختص بالتفسير يحتقر كل العلماء، يقول لك: أهم شيء التفسير، والمتفوق بالحديث لا يعبأ بكل العلماء الآخرين، والمتفوق في العقيدة يرى أنّ هذا أهم علم، لا يوجد هناك إنصاف، كل إنسان يتمحور حول ذاته، كل إنسان يعدّ نفسه محور العالَم، وأن ما سواه فاتته فرص النجاح، هناك نقطة دقيقة جداً مهما ضاقت رقعة الحق سوف تتسع، ومهما اتسعت رقعة الباطل سوف تنحسر، فنحن يهمنا ولو مجتمع صغير أن تعيش الإسلام كله، من لم يكن مطبقاً لعلمه يسقط علمه، لأنه إن لم يكن هو مطبقاً لعلمه ما قيمة هذا العلم ؟ في بعض النصائح في هذه الموعظة وهي طويلة آخذ منها مقتطفات، يقول: إذا كنتم

حملة الكتاب في السنة فإن الكتاب لا ينطق حتى يُنطق به أي حقيقة الإيمان إن استقرت في قلوبكم، لا بد أن تعبر عن ذاتها بذاتها، على شكل حركة نحو الآخرين أما أن لا تنطق لا بآية ولا بحديث ولا بحكمة ولا يهمك إنسان ضال ولا يهمك نصح إنسان، فأنت لست بمؤمن، لو أن في قلبك إيمان لنطقت به، قال: إذا كنتم حملة الكتاب والسنة فإن الكتاب لا ينطق حتى يُنطق به وإن السنة لا تعمل حتى يُعمل بها، قال: فمتى يتعلم الجاهل إذا سكت العالم، إذا العالم جامل يدخل إلى بيوت كثيرة، يرى المنكرات يرى التفلت يرى أجهزة اللهو، ترى مديح وثناء، والله أيها الإخوة، في بعض عقود القِران قام رجل ألقى كلمة، من أهل العلم أثنى على الأسرتين المتصاهرتين، وذكر عن تقوى الأسرتين وعن ورعها، والله الحاضرون يعلمون عن مخازي هاتين الأسرتين الشيء الذي لا يوصف، عن الإسراف وعن التبذير وعن التفلت وعن شرب الخمر، أنت لا تعرف شيئاً عن هاتين الأسرتين، كليشات جاهزة الأسرتين الكريمتين المتصاهرتين الى آخره الذين يحضرون، أقرباءهم يعرفون كل شيء، سقطت أنت وحدك هم معروفون، لابد أن يصان العلم لا تمدح إلا بعلم، سيدنا الصديق لما زكى سيدنا عمر ولاه بعده خليفة قال بعضهم: يا خليفة رسول الله لقد وليت علينا شديداً قال: والله لو سألني الله عز وجل من وليت عليهم يا أبا بكر، أقول لربي وليت عليهم أرحمهم، هذا علمي به فإن بدل وغير فلا علم لي بالغيب، انظر إلى هذا التحفظ فإن بدل وغيّر فلا علم لي بالغيب، هذا كلام دقيق لا تنطق إلا بالحق لا تزكي على الله أحداً، العلم شيء عظيم جداً لا تجعل العلم في الأوحال، اجعل هذا العلم في السماء، بم نلت هذا المقام قيل للإمام الحسن البصري قال: باستغنائي عن دنيا الناس، وحاجتهم إلى علمي، يجب أن تستغني عن دنيا الناس، العالِم إن لم ينكر ما ظهر و لم يأمر بما ترك ماذا بقي من علمه، ماذا قال الله عن العلماء قال تعالى:

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (187))

(سورة آل عمران)

فالعالِم إذا رأى منكراً فلم ينكره ورأى واجباً متروكاً فلم يأمر به ، ماذا بقي من مهمته، قال صاحب هذه الموعظة: اتقوا الله فإنكم في زمان رق فيه الورع، وقل فيه الخشوع وحمل العلم مفسدوه، فأحبوا أن يعرفوا بحمله، أهم شيء الشهادات هذه الدال التي تدل على الدكتور قبل الاسم ضرورية جداً هناك رجل رحمه الله تسلم منصباً رفيعاً فأخذ هذه الشهادة، فقال له: سيدي فلان يحمل هذه الشهادة، فقال له: هذه مثل شهادتي، صارت الشهادة مؤلفات، مظاهر، صار في الدين دنيا صارفي الدين مناصب، تنافس، مكاسب، صار الدين حرفة، كأية حرفة أخرى، لا كهنوت في الإسلام، سيدنا الصديق حمل على كتفه أثواب القماش ليبيعها وهو خليفة المسلمين كان تاجر قماش، حمل على كتفه أثواباً ليبيعها حتى

يأكل طعامه حلالاً وكان يحلب شياه جيرانه فلما صار خليفة المسلمين ظن الجيران أنه لن يفعل هذا بعد أن تسلم هذا المنصب، فلما طُرق الباب صبيحة يوم تسلّم منصبه قالت الأم لابنتها: افتحي الباب يا ابنتي، فلما فتحت الباب قالت: من الطارق ؟ قالت: جاء يا أمي حالب الشاة، أي جاء سيدنا الصدِّيق ليحلب شياه جيرانه وهو خليفة المسلمين هذه سنة النبي طبقوها، الذي عاش مع أصحابه كواحد منهم، وعلي جمع الحطب، يكفيك ذلك قال أعلم أنكم تكفوني ذلك ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه هذه هي السنة لذلك أي عالم يتفوق وينجح إذا تابع سنة النبي، ويلام ويذم إذا خالف سنة النبي، تنجح بقدر اتباعك، وتخفق بقدر مخالفتك لما العلماء قصروا كرهوا أن يعرفوا بتركه، فابتدعوا بدعاً لتغطي انحرافه فتسمع عن فتاوى الربا حلال، الربا ربا الذي وصفه النبي عليه الصلاة والسلام بأنه أشد من الزنى، هناك من يقول في بعض البلاد الإسلامية بأنه حلال، ولا شيء عليك ضع أموالك في المصرف وخذ فائدة عليها ولا شيء عليك، وضع هذا المال بمثابة أمانة عند هؤلاء والفائدة جائزة لك وانتهى الأمر، آخر نقطة في هذه الموعظة الخطأ الكبير أن يكون الخطأ في المنهج، بتعبير مجسد الخطأ في الميزان، الخطأ في الوزن لا يتكرر، ولا قيمة له أما الخطأ في الميزان لا يصلح إطلاقاً، فأخطر شيء أن يكون منهجك خطأ، تفكيرك خطأ، منهج التلقي خطأ، تقييمك للأمور خطأ، هذا الشيء خطير جداً العبرة أن يكون تلقيك للأمور صحيحاً، فالخطأ في الميزان لا يصحح، بينما الخطأ في الوزن لا يتكرر، فما دامت الأخطاء في الوزن فالقضية سهلة جداً، أما إن كانت في الميزان فالقضية خطيرة جداً، راجع موازينك يا ترى ميزانك الكتاب والسنة، أم أشخاص ليسوا معصومين، كل شيء قالوه هو صح هذه مشكلة خطيرة، هناك إنسان ميزانه الكتاب والسنة لا يقبل إلا بالدليل، ولا يدع إلا بالدليل، هناك أشخاص يقول فلان كل شيء قاله صحيح، من دون مناقشة، من دون دليل، من دون تفكير، هذا منهج وهذا منهج، المنهج الأول الكتاب والسنة صحيح، منهج سليم ولا يوجد فيه انتكاسات ولا مفاجآت، المنهج الثاني خطير وأساسه الشخص، والشخص أحياناً قد لا يكون معصوماً، لا أحد معصوم إلا النبي عليه الصلاة والسلام، لأجل ذلك نراجع المنهج، منهج التلقي.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (092) :بعض الذنوب الشائعة بين المسلمين.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-08-31

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

أنا لا أدري كيف هذا الدين العظيم وبمنهجه القويم، ببنود هذا المنهج الكثيرة جداً كيف أنه تضاءل فأصبح عبادات خمس، مع أن منهج الله عز وجل تفصلي دقيق يغطي كل حركات الإنسان وكل سكناته، وكل ألوان انفعالاته.

لذلك أردت من هذا الدرس أن أضعكم أمام طائفة كثيرة جداً من المخالفات التي يقع بها معظم المسلمين، المسلم أيام يتوهم أنه مسلم ومستقيم لا قتل، ولا شرب خمر، ولا زنيت، يوجد مخالفات كثيرة جداً نهى عنها النبي صلى الله عليه وسلم أشد النهي وهذا الدرس حول هذه المخالفات التي اعتادها المسلمون، تجد مسلم يصلي ويصوم ويحج ويزكي، ويقع في هذه المخالفة ولا يدري أنها مخالفة صريحة بنص نبوي شريف.

من هذه المخالفات التي يقع بها كثير من المسلمين أن يهجر المسلم أخاه فوق ثلاث، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي خِرَاشٍ السُّلَمِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ سَنَةً فَهُوَ كَسَفْكِ دَمِهِ))

وفي حديث آخر:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثٍ فَمَنْ هَجَرَ فَوْقَ ثَلاثٍ فَمَاتَ دَخَلَ النَّارَ))

هل تصدقون أنك إذا هجرت أخاك المسلم ثلاثة أيام ومت على هذه الحالة تدخل النار، هذه مخالفة كبيرة جداً، العداوات، والمخاصمات، والقطيعة، عشرين سنة ما زارت أخيها، فلما مات جاءت شامتة، وهي مسلمة، هل هذا معقول ؟ بين الأقارب، بين المؤمنين، بين المسلمين قطيعة مستمرة إلى متى.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثٍ فَمَنْ هَجَرَ فَوْقَ ثَلاثٍ فَمَاتَ دَخَلَ النَّارَ))

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: تُعْرَضُ أَعْمَالُ النَّاسِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ مَرَّتَيْنِ يَوْمَ الاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إلا عَبْدًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: اتْرُكُوا أو ارْكُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَفِيئَا))

الآن ما هو الحل ؟ يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثِ لَيَالٍ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلامِ))

أنت حينما تسلم عليه ولا يرد عليك السلام انتفت مسؤوليتك وبقيت عليه يعني ألقيت الكرة إلى حقله، إذا في خصومة أذهب إليه وأطرح عليه السلام فإن لم يستجب فهو الآثم وحده.

الآن يوجد موضوع دقيق جداً في هذا الباب، إذا كان هناك سبب شرعي للهجر، واحد له أخت متفلتة سألني هل أهجرها أم أصلها، قلت له: أن تهجر أختك المتفلتة أو صديقك المتفلت، أو إنسان منحرف إذا غلب على ظنك أن هجرك له يردعه ويقربه منك فاهجره، أما إذا كان هجرك لأختك يريحها منك فلا تهجرها، هذا الضابط المقياس، أنت حكيم، إذا كان هذا الهجران يزيد الأخت تفلتاً لا تهجرها ابقى فوق رأسها انصحها، أدبها، أحسن إليها، استمل قلبها، اقنعها، أما إذا كان لك عندها مكانة كبيرة جداً فإن هجرتها وأعرضت عنها ولم تستقبلها ولم تزرها فقامت ولم تقعد عندئذ ينبغي أنم تهجرها، هذا الهجران الشرعي، له سبب شرعي، هذه قاعدة، طبعاً ينسحب على هذه القاعدة، أنه لي قريب لا يصلي أأعطيه زكاة مالي ؟ هذا مسلم إذا كان ترك الصلاة تهاوناً شيء، وتركها إنكاراً لفرضيتها شيء آخر، إذا كان يغلب على ظنك أن إعطاء الزكاة إلى هذا القريب تقربه من الله ينبغي أن تعطيه زكاة مالك، أما إذا كانت هذه الزكاة تزيده إنفاقاً في الحرام ينبغي أن لا تعطيه زكاة مالك هذه واحدة.

أيام الإنسان يؤدب أولاده، يؤدب طلابه، عندنا نهي مشدد من قبل النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ جَابِرٍ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الضَّرْبِ فِي الْوَجْهِ وَعَنِ الْوَسْمِ فِي الْوَجْهِ))

أيام الإنسان ينفعل يضرب غلامه أو ابنه أو طالبه على وجهه، وهذا فيه نهي شديد من قبل النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا يقع فيه الآباء كثيراً والمعلمون، ينفعل، هذا وجه مكان تكرمة الله للإنسان، ينبغي أن تتقي الضرب على الوجه وهذا مخالفة كبيرة.

من المخالفات التي تكثر في مجتمع المسلمين، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي قِلابَةَ أَنَّ ثَابِتَ بْنَ الضَّحَّاكِ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ حَلَفَ عَلَى مِلَّةٍ غَيْرِ الإِسْلامِ فَهُوَ كَمَا قَالَ وَلَيْسَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَذْرٌ فِيمَا لا يَمْلِكُ وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ فِي الدُّنْيَا عُذِّبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ لَعَنَ مُؤْمِنًا فَهُوَ كَقَتْلِهِ وَمَنْ قَذَفَ مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ))

اللعن، يلعن أخاه، يلعن مؤمناً، يلعن أشياء في البيت، هذه العبارة التي جرت على ألسنة ينبغي أن ينزهوا ألسنتهم عنها.

أما الشيء الخطير ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((أن اللعنة ترجع عن صاحبها إن تلفظ بها ظلماً))

اللعنة ترجع على صاحبها، إذا الإنسان لعن شيئاً لا يستحقه، أو لعن شيئاً ظلماً هذه اللعنة ترجع على صاحبها، اللعن كلمة تدور مع الألسنة كثيراً، حتى بين المؤمنين وهذه مخالفة صريحة لمنهج الله عز وجل.

أما هذه النائحة التي يمت زوجها، أو ابنها، أو أخوها، أو أبوها، تضرب الوجه وتشق الجيب، تصرخ بالويل، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أبِي أمَامَة، أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ الْخَامِشَة وَجْهَهَا وَالشَّاقَّة جَيْبَهَا وَالدَّاعِيَة بِالْوَيْلِ وَالثُّبُور))

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ))

((عَنْ أبِي مَالِكٍ الأشْعَرِيِّ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: النِّيَاحَةُ مِنْ أمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ وَإِنَّ النَّائِحَة إِذَا مَاتَتْ وَلَمْ تَتُبْ قَطَعَ اللَّهُ لَهَا ثِيَابًا مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعًا مِنْ لَهَبِ النَّار))

طبعاً يقاس على هذا الرجل يأثم، هذا أيضاً مما شاع في بيوتات المسلمين، أنا أحد العلماء الأفاضل له ابن توفي في حادث، الابن طبيب قلب ومختص ودخل شريعة، وحفظ كتاب الله، وأدى الخدمة الإلزامية وتم عقد زواجه وعرسه بعد أسبوعين مات بحادث، ذهبنا إلى مدينة في الشمال نعزي والده العالم الجليل، أنا فوجئت أن هذا العالم الجليل استقبل هذا القضاء والقدر بنفس رضية مع أن هذا الحادث لو أصاب إنساناً آخر لانهارت أعصابه، هذا هو الإيمان، هذا قضاء الله وقدره، وهو راض بقضاء الله وقدره.

اللعب بالنرد شائع بين المسلمين، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَة عَنْ أبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ فَكَأَنَّمَا غَمَسَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ))

حديث صريح النرد قديم جداً، في أكثر بيوتات المسلمين يوجد طاولة زهر، في الصيفية في النزهة يأخذونها معهم، مخالفة شرعية، نحن نظن الإسلام صلاة وصوم، وحج، وزكاة، وتطبيق لمفردات المنهج، اللعب بالنرد محرم بنص هذا الحديث، مضيعة للوقت ويثير متابعة اللعب إلى ساعة متأخرة من الليل.

أنا اخترت هذا الدرس لأن هذه المخالفات صارت شائعة بين المسلمين، يصلون ويرتادون المساجد ويظنون أنهم على شيء، وحينما خالفوا نص أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام كانوا في حالة يرثى

لها.

المضارة بالوصية هذه من الكبائر، قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي صِرْمَةَ صَاحِبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ ضَارَّ أَضَرَّ اللَّهُ بِهِ وَمَنْ شَاقَّ شَاقَّ اللَّهُ عَلَيْهِ))

أن تحرم أحد الورثة، امرأة سألتني فقالت: زوجي حينما تزوجني اشترط علي أن لا أرث منه شيئاً كتب كل ماله في حياته إلى أقربائه ولم يعطني منها شيئاً وأصر على ذلك، قلت سبحان الله كأن هذا الإنسان يريد أن يكمل الشرع، شرع حكيم من عند خالق الكون لقد أعطى المرأة الثمن، أنت لما لم تعطيها.

أنا سمعت عن رجل تزوج امرأة ثم تزوج امرأة أخرى، الأولى شعرت أن هناك في حياته امرأة، فتتبعت الأمر وعلمت أن هناك زوجة ثانية تزوجها، ثم توفي زوجها، فأخذت نصيبها من إرثه وقسمته نصفين وبعثت بنصفه إلى الزوجة الثانية، ما كان من الثانية إلا أن ردت هذا المبلغ وقالت لقد طلقني قبل أن يموت بثلاثة أيام، وليس لي عنده شيء، هذا الدين، أناس مسلمون يحرمون زوجاتهم الإرث، يحرمون البنات الإرث، أو يورثون بناتهم وأبناءهم، فإذا أحد أولادهم يأخذ وكالة عامة من كل أخواته البنات ويحرمهم كل شيء، هذا واقع بين المسلمين.

أنا أريد أن أبرر لكم لماذا يبدو لكم أن الله تخلى عنا، الشرع غير مطبق المطبق عبادات شعائرية فقط، أما في الإرث في التعامل ليس هناك عدل بين الأولاد، وليس هناك إعطاء كل ذي حق حقه.

سوء الجوار، والله أستمع كل يوم إلى مشكلات بين الجيران يندى لها الجبين، مضايقات، إزعاج، استفزاز، تطاول، ازدراء، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ قِيلَ وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: الَّذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقه))

بيت غرفة واحدة، أولاد أطهار، رجل طالب علم ساكن في هذه الغرفة السطح الذي مجاوره حتى الساعة الخامسة صباحاً شباب يسهرون بثياب فاضحة يعلو صياحهم ولا أحد يستطيع أن ينام، هذا الحاضر، الجار مقدس في الإسلام.

أنا زارني أخ قبل يومين حدثني عما يفعل به جاره، والله شيء لا يصدق، أين الإسلام، أين الذوق، أين الخلق ؟ رجل طالب علم ويعمل في الدعوة، لأنه اعترض على هذا السهر المستمر حتى الساعة الخامسة وأولاده معهم حساسية، رموه بأقبح الشتائم، جار، أخوانا الكرام: الدار تغلو بجيرانها، وترخص بجيرانها.

التسمع لحديث قوم وهم له كارهون، معصية كبيرة قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12))

(سورة الحجرات)

((عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ يَسْتَمِعْ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ صُبَّ فِي أُذُنِهِ الآنُكُ))

تسمع، أيام ينشأ خصومة في بيت الجيران، الكل يسكتون ليصغوا لما يقال، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12))

(سورة الحجرات)

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ))

طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، هل تصدقون أنك إذا زرت مقبرةً وجلست على قبر أو وطئت قبر بقدمك فقد أهنت هذا الميت وهذا منهي عنه في منهج الله عز وجل، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُمْ عَلَى جَمْرَةٍ فَتُحْرِقَ ثِيَابَهُ فَتَخْلُصَ إِلَى جِلْدِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى قَبْرٍ))

إهانة الميت بعد موته كإهانته في حياته، إذا الإنسان غسل ميت بماء يغلي أثم، يقول لك ميت، يجب أن تغسله بماء يطيقه ولو كان حياً، إكراماً له هذا توجيه النبي عليه الصلاة والسلام

((عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: كَسْرُ عَظْمِ الْمَيِّتِ كَكَسْرِهِ حَيًّا))

((عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لأَنْ أَمْشِيَ عَلَى جَمْرَةٍ أَوْ سَيْفٍ أَوْ أَخْصِفَ نَعْلِي بِرِجْلِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمْشِيَ عَلَى قَبْرِ مُسْلِمٍ وَمَا أُبَالِي أَوَسْطَ الْقُبُورِ قَضَيْتُ حَاجَتِي أَوْ وَسْطَ السُّوقِ "))

أما الذي يقضي حاجته في المقبرة، ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((وَمَا أُبَالِي أَوَسْطَ الْقُبُورِ قَضَيْتُ حَاجَتِي أَوْ وَسْطَ السُّوقِ "))

تصور إنسان في الطريق مزدحم في سوق الحميدية يخلع ثيابه ويقضي حاجته كم هو يفضح، قال هذا الذي يقضي حاجته في المقبرة، لأنه أهان الموتى، الأموات لهم حرمتهم حتى بعد موتهم، في أكثر الجنائز يتدافعون يقفزون على القبور، يجلسون على القبور، يتغطون في المقابر، هذا كله محرم.

أنا أذكر لكم مفردات المنهج الإلهي التي ابتلي فيها المسلمون، هذه المخالفات وهم لا ينتبهون لا إلى أنها مخالفات كبيرة.

عدم الاستتار من البول:

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ أَوْ مَكَّةَ فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ثُمَّ قَالَ: بَلَى كَانَ أَحَدُهُمَا لا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ وَكَانَ الآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ ثُمَّ دَعَا بِجَرِيدَةٍ فَكَسَرَهَا كِسْرَتَيْنِ فَوَضَعَ عَلَى كُلِّ قَبْرٍ مِنْهُمَا كِسْرَةً فَقِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ فَعَلْتَ هَذَا قَالَ: لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ تَيْبَسَا أَوْ إِلَى أَنْ يَيْبَسَا))

إذا الإنسان بال على صخر وعاد البول على ثيابه هذه معصية كبيرة، إذا بال واقفاً وقع في معصية، إذا بال عكس الريح وارتد البول عليه هذه معصية أيضاً، عدم الاستتار من البول مما يسبب عذاب القبر.

العلماء قالوا عدم الاستتار من البول يشمل من يقوم من حاجته بسرعة قبل أن ينقطع بوله، أو يتعمد البول على هيئة أو في مكان يرتد عليه بوله، أو يتشبه بالجانب في أن يبول في المباول العامة أمام الناس.

يوجد طالب ذهب إلى بلد في روسيا ليدرس هذا فوجئ المراحيض في بهو كبير لمائة طالب، أمام بعضهم بعضاً والحمامات يتحممون عراة أمام بعضهم بعضاً، هكذا.

ومن المخالفات التي تقع بين المؤمنين اختلاق رؤى ومنامات لم يرها صاحبها، أيام رأيت ليكسب مكانة، حظوة، حتى يوهم الناس أنه صالح .

لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((عن وَاثِلَة بْنَ الأسْقَعِ يَقُولُ: قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْفِرَى أَنْ يُدْعَى الرَّجُلُ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ يُرِيَ عَيْنَيْهِ فِي الْمَنَامِ مَا لَمْ تَرَيَا أَوْ يَقُولَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لَمْ يَقُلْ))

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَنْ يَفْعَلَ))

صبغ الشعر بالسواد:

((عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: أُتِيَ بِأَبِي قُحَافَةَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ وَرَأْسُهُ وَلِحْيَتُهُ كَالثَّغَامَةِ بَيَاضًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: غَيِّرُوا هَذَا بِشَيْءٍ وَاجْتَنِبُوا السَّوَادَ))

والمرأة كالرجل، نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن صبغ الشعر باللون الأسود الفاحم، اللون البني مقبول، حدثني أخ وتأثرت تأثراً كبيراً في هذا الخبر، في اجتهادات محكمة النقد، أن الفعل المنافي للحشمة الذي يستوجب السجن ست سنوات، يعني من الأفعال المنافية للحشمة أن ترتدي المرأة البنطلون، قبل عشرين سنة.

لأن هذا البنطال يصف حجم أعضاءها ويبدو أنه كان فضفاضاً، لذلك لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء:

((عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ "))

المرأة التي تتشبه بالرجل ملعونة بنص حديث رسول الله:

((عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قالَ: لَعَنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُخَنَّثِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالْمُتَرَجِّلاتِ مِنَ النِّسَاءِ))

طبعاً الذي يحدث أن الرجل أحياناً يلبس الأساور أو البلاكات، هذا البلاك تشبه بالمرأة، وأحياناً يرتدي ألوان مزخرفة موردة، وكأنه امرأة، وأحياناً المرأة ارتدي البنطال وكأنها رجل

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قالَ: لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ الْمَرْأَةِ وَالْمَرْأَةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ))

هذا أيضاً من المعاصي الكبيرة التي نهى عنها الإسلام، طبعاً يضاف إلى هذه المعاصي الكبيرة لبس القصير والضيق من ثياب النساء، أن ترتدي المرأة لباساً قصيراً، أو ثياباً ضيقة، أو ثياباً شفافة، هذا لباس محرم، لزوجها لا يوجد مشكلة أما في الطريق أن ترتدي لباساً يصف حجم أعضاءها، أو يشف عن لون جلدها، أو قصيرة تكشف عن عورتها هذا منهي عنه أشد النهي في الإسلام، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاتٌ مَائِلاتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلا يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا))

كل هذه الثياب الذي ترتديها المرأة للأجانب والتي تصف حجم أعضاءها ولون جلدها وتكشف عن عورتها هي ثياب محرمة أشد التحريم، لأن ثوب المرأة يعبر عن دينها، كل سنتمتر من ثياب المرأة يتصل بدين المرأة.

تحلي الرجال بالذهب ساعة ذهبية، قلم ذهبي، أدوات الرجال الذهبية كلها محرمة:

((عَنْ أَبِي مُوسَى، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحَلَّ لِإِنَاثِ أُمَّتِي الْحَرِيرَ وَالذَّهَبَ وَحَرَّمَهُ عَلَى ذُكُورِهَا))

وسمعت بحث علمي نقل إلي أن الذهب إذا استعمله الرجل له تأثير سلبي على صحته ولا سيما على إنجابه، هكذا سمعت ممن أثق بهم، تحريم علمي، ساعات، نظارات، أقلام، ميداليات، كلها من الذهب في عيارات مختلفة أو مطلية بالذهب طلاء كامل.

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِ رَجُلٍ فَنَزَعَهُ فَطَرَحَهُ وَقَالَ: يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُذْ خَاتِمَكَ انْتَفِعْ بِهِ قَالَ: لا وَاللَّهِ لا آخُذُهُ أَبَدًا وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

بكل بساطة ترى ساعته ذهب نظارته ذهب، خاتمه ذهب، خاتم الخطبة ذهب، ويصلي، ويوجد نهي شديد.

ثلاثة يجلسان في مجلس يتحادث الاثنان دون الثالث، والله أراها دائماً بأم عيني، بعض الاحتفالات، في بعض الولائم، حديث على انفراد بين اثنين والثالث جالس كأنه ليس له علاقة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا كُنْتُمْ ثَلاثَةً فَلا يَتَنَاجَى رَجُلانِ دُونَ الآخَرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ أَجْلَ أَنْ يُحْزِنَهُ))

شارك الآخرين لا تشعرهم أنهم بعيدين عنك، أن يتناجى اثنين دون ثالث هذا محرم في الإسلام. ما قولكم أنك إذا نظرت إلى بيت جيرانك أنت في الطابق العلوي ولك جيران في الطابق السفلي، وهم يجلسون في الفتحة السماوية يأكلون، فإذا نظرت إليهم فقد فعلت عملاً محرماً، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (27))

(سورة النور)

وقال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: اطَّلَعَ رَجُلٌ مِنْ جُحْرٍ فِي حُجَرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِدْرًى يَحُكُّ بِهِ رَأْسَهُ فَقَالَ: لَوْ أَعْلَمُ أَنَّكَ تَنْظُرُ لَطَعَنْتُ بِهِ فِي عَيْنِكَ إِنَّمَا جُعِلَ الاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ))

وضح النبي العلة بالاستئذان مخافة الاطلاع على عورات أصحاب البيوت، غض البصر سمة أساسية من سمات المؤمن، لا يطلع على جيرانه لا من فوق ولا من تحت ولا من ثقب الباب ولا أي شيء من هذا القبيل، طبعاً ولا سيما الآن أبنية متقاربة، بيوت بعضها فوق بعض، والأغرب من ذلك هناك من يستخدم المناظير للاطلاع على عورات المسلمين، إذا أنت في غرفة يكون من ينظر إليك بمنظار يجب أن تنتبه.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنِ اطَّلَعَ فِي بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فَقَدْ حَلَّ لَهُمْ أَنْ يَفْقَئُوا عَيْنَهُ))

البيت له حرمته والنظر جريمة، وله قدسيته، أساساً من نظر إلى كتاب أخيه من غير أذنه فقد أتى شيئاً محرماً، أن تنظر في كتاب أخيك، له مذكرات، نسي دفتره عندك ليس لك الحق أن تطلع عليه أبداً وهذا هو الدين.

سماع المعازف والموسيقا، كان ابن مسعود يقسم بالله أن المراد بقوله تعالى:

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (6)}

(سورة لقمان)

هو الغناء.

((عن أَبُو مَالِكٍ الْأَشْعَرِيُّ وَاللَّهِ مَا كَذَبَنِي سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ وَلَيَنْزِلَنَّ أَقْوَامٌ إِلَى جَنْبِ عَلَمٍ يَرُوحُ عَلَيْهِمْ بِسَارِحَةٍ لَهُمْ يَأْتِيهِمْ يَعْنِي الْفَقِيرَ لِحَاجَةٍ فَيَقُولُونَ ارْجِعْ إِلَيْنَا غَدًا فَيُبَيِّتُهُمُ اللَّهُ وَيَضَعُ الْعَلَمَ وَيَمْسَخُ آخَرِينَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))

((عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: فِي هَذِهِ الأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَتَى ذَاكَ ؟ قَالَ: إِذَا ظَهَرَتِ الْقَيْنَاتُ وَالْمَعَازِفُ وَشُرِبَتِ الْخُمُورُ))

آلات اللهو محرمة.

شهادة الزور، كثير إلى ما يدعى الإنسان إلى أن يشهد شهادة زور من أجل قضية مخالفة تموينية يضع يده على كتاب الله ويقسم بالله العظيم أن صديقه كذا وكذا، وصديقه لم يكن كذا و كذا، بهذه البساطة، يقول لك أنقذنا، الله أغلى بكثير، أن تقسم بالله كذباً وقعت في إثم كبير جداً

استعمال أواني الذهب والفضة:

((عَنْ خَالَتِهِ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ شَرِبَ فِي إِنَاءٍ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ فَإِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارًا مِنْ جَهَنَّمَ))

المفضض غير الفضة، المطلية بالفضة، ولكن الأكمل لا الفضة والذهب، معالق مسكات، فتاحة أبواب، أغلى وأجمل، هذا كله محرم هل يخطر في بالكم أنك إذا استدنت مبلغاً من المال من دون حاجة إليه فقد وقعت في كبيرة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ))

مثلاً الشهيد ماذا قدم الشهيد ؟ قدم أثمن ما يملك على الإطلاق، قدم حياته ومع ذلك إذا كان عليه دين لا يغفر هذا الدين، مع فعل في الاستشهاد في سبيل الله، يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا مات أحد أصحابه ولو في معركة لا يصلي عليه إذا عليه دين، يقول أعليه دين، فإن قالوا نعم، يقول: صلوا على صاحبكم.

مرةً قال أحد أصحابه علي دينه فصلى عليه، سأله النبي في اليوم الثاني قال له: أديت الدين، قال: لا، سأله في اليوم الثالث: أأديت الدين، قال: لا، سأله في اليوم الرابع: أأديت الدين، قال: نعم، فقال عليه الصلاة والسلام: الآن ابترد جلده.

يبترد جلد المدين لا بضمانة الدين ولكن بأداء الدين، فالذي يستدين لا لحاجاته الأساسية ولا للفرعية، للكمالية، يوسع البيت يقتني أجهزة حديثة، هذا الذي يستدين للكماليات آثم عند الله عز وجل.

أناس كثيرون يدهن بيته، يوسع بيته، يشتري ثريات، جبصين، يغير الأساس كله بالدين، وهذا كله بالدين، والذي عليه دين لا يجوز له أن يأكل لونين من الطعام، ولا نوعين من الفاكهة، لا يجوز، الآخرون ليسوا مكلفين أن تترفه بمالهم، مكلفون أن تحل مشكلة أساسية بهذا المال، عملية جراحية

لكن ليس مكلفين برفاه الطرف الآخر، يقول عليه الصلاة والسلام في هذا المعنى:

((حَدَّثَنَا سَهْلُ ابْنُ الْحَنْظَلِيَّةِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ سَأَلَ وَعِنْدَهُ مَا يُغْنِيهِ فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنَ النَّارِ وَقَالَ النُّفَيْلِيُّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ جَمْرِ جَهَنَّمَ، فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَمَا يُغْنِيهِ، قَالَ: قَدْرُ مَا يُغَدِّيهِ وَيُعَشِّيهِ))

أحد أخوانا الكرام يعمل في الأعمال الخيرية، في المساعدات، جاءت امرأة عليها ثياب بالية، تكاد تموت من الجوع وطلبت مساعدة كبيرة ودلت على عنوانها، فذهبوا إلى بيتها بيت ليس فيه شيء، ثم اكتشف أن لهذه المرأة بناء من أربع طوابق مع دكاكينه، فلما واجهوها بالحقيقة قالت: هذا لابني الأول وهذا لابني الثاني وهذه الدكاكين كي نعيش منها كثير يوجد نصب يا أخوان، والآن المتسول ذكي جداً،

يستغل رحمتك يستغل نقطة ضعفك، يعطيك بيانات، راشيتات، أدلة تقرير عملية ويعطيك عنوان خلبي هذه عدة، البيت المتداعي هذا عدة النصب، يجب أن يتأكد الإنسان قبل أن يدفع، الذي عنده وجبتين طعام ينبغي أن لا يسأل أحد هكذا ورد.

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُمُوشٌ أَوْ خُدُوشٌ أَوْ كُدُوحٌ فِي وَجْهِهِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَمَا الْغِنَى قَالَ: خَمْسُونَ دِرْهَمًا أَوْ قِيمَتُهَا مِنَ الذَّهَبِ))

أخوانا الكرام: من الأعمال والمخالفات الكبيرة عدم العدل بين الأولاد في العطية، يا رسول الله أشهد أني نحلت ولدي هذا بستان، قال له: ألك ولد آخر، قال: نعم، قال: انحلت كل منهم ما نحلت الأول، قال: لا، قال: أشهد غيري فإني لا أشهد على جور.

قال تعالى:

(اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (8))

(سورة المائدة)

سألني رجل قال لي: لي ولد عاق وولد بار، ألا يجوز أن أحرم العاق وأعطي البار، قلت له: لا يجوز، قال: لما، قلت: لأنك تزيد العاق عقوقاً بحرمانه، أما لو سويت بينهم، لعلك تستميل قلب العاق فيميل إليك.

إذاً هذه بعض المخالفات مسلم يرتاد المساجد، وهذه مخالفات كبيرة جداً يقع بها المسلم، أرجو الله تعالى أن نتقي مثل هذه المخالفات لأن بنود منهج الله سبحانه وتعالى كثيرة جداً، منهج كامل، ترى مدرسة لها نظام داخلي خمس وثمانين صفحة، آلة حاسبة صغيرة دليل استعمالها ثمانين صفحة، وأنت أعقد آلة في الكون منهج الله فقط صلاة وصيام وزكاة، وحج، وافعل ما تشاء بعدها، يوجد مناهج تفصيلية وبنود، محرمات، ونواهي، وأوامر، كله ينبغي أن تتقيد به.

عرض سريع لما تم في هذا الدرس، هجر المسلم فوق ثلاث ذنب كبير، ضرب الوجه ذنب كبير، لعن المؤمن وهو لا يستحق ذنب كبير النياحة على الميت ذنب كبير، اللعب بالنرد ذنب كبير، المضارة بالوصية ذنب كبير، سوء الجوار ذنب كبير، التسمع إلى حديث قوم وهم له كارهون ذنب كبير، عدم الاستتار من البول ذنب كبير، الجلوس على القبر والوطء عليه، وقضاء الحاجة في المقابر ذنب كبير الكذب في المنام ذنب كبير، صبغ الشعر بالسواد، تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال، لبس القصير والرقيق والضيق من الثياب للنساء، تحلي الرجال بالذهب، تناجي اثنين دون ثالث، الاطلاع على بيوت الجيران، سماع المعازف والموسيقا، استعمال آنية الذهب والفضة، شهادة الزور، الاستدانة بدين لا

يريد وفاءه، سؤال الناس المال من غير حاجة، عدم العدل بين الأولاد، هذه بعض الذنوب التي شاعت بين المؤمنين وينسون أنها ذنوب تستوجب العقاب، وقد توعد النبي عليه الصلاة والسلام المؤمنين توعداً كبيراً، أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علمنا وأن يلهمنا الخير.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (093) :مقاصد الصلاة - رسالة العز بن عبد السلام.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-10-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون:

موضوع جديد وليس بجديد هو موضوع الصلاة، المسلمون يصلون، ولكن نتمنى على كل مسلم وأتمنى على نفسي أن يرتفع مستوى الصلاة من صلاة تؤدى شكلاً إلى صلاة أرادها الله عز وجل، الحقيقة لعالم جليل اسمه العز بن عبد السلام رسالة في الصلاة، وهذه الرسالة من الأهمية بمكان، إنها لا تشرح أحكام الصلاة التي تعرفونها جميعاً ولكن تشرح مقاصدها، والظاهر بيبرس قال مرة والله ما استقر ملكي، حتى مات العز بن عبد السلام، كان من العلماء العاملين، من العلماء المجاهدين، من العلماء الذين لا يخافون في الله لومة لائم، له رسالة رقيقة جداً وريقات، أصل مخطوطها في مكتبة الأسكريال في أسبانيا، أخذت وطبعت ونقحت ووجدتُ فيها شيئاً نحتاجه جميعاً، يقول هذا العالم الجليل: مقصود العبادات كلها التقرب إلى الله عز وجل، أمرك بالصلاة، أمرك بالزكاة، أمرك بالصيام، أمرك بالحج، كل العبادات الشعائرية والتعاملية، هدفها أن تقترب من الله عز وجل، وكنت أقول مرة الحج من أجل الصلاة، والصوم من أجل الصلاة، والزكاة من أجل الصلاة، والصلاة من أجل الصلاة، أي الاتصال بالله أي القرب، إذن العبادات الشعائرية التي أمر الله بها من أجل أن نقترب من الله عز وجل، الإمام الشافعي رحمه الله تعالى يقول: علة العبادات كلها العبادات معللة بمنافع العباد، وأية منفعة أعظم من أن تقترب من الله عز وجل، أيّ منفعة أعظم من أن تكون قريباً من خالق السماوات والأرض، بعد قليل نتحدث عن القرب ومعنى القرب، أولاً العبادات كلها معللة بمصالح العباد الحقيقية، هناك مصالح مزيفة ومصالح وهمية، المال مصلحة، أن تكون غنياً هذه مصلحة دنيوية ولكن المصلحة الحقيقية أن تصل إلى دار السلام بسلام، المصلحة الحقيقية أن تفوز بالجنان، وأن تفوز بالرضوان، وأن تكون في دار من سلام إلى سلام يهديهم سبل السلام، فنحن لئلا ينقلب الدين إلى طقوس تؤدى أداءً شكلياً أجوف لا معنى له، لئلا ينقلب الدين إلى حركات وسكنات لا معنى لها، لئلا يقترب الدين مما يسمى في اللغات الأجنبية فلكلور، وأنا أسفت أشد الأسف لأن عدداً من قراء القرآن الكريم وعدداً من الفرق الإنشادية ذهبت إلى عاصمة في أوربة، باريس وأقامت حفلاً شهيراً عرض على الجمهور الفرنسي تحت اسم فلكلور شرقي، ديننا، كتابنا، قرآننا، كلام رب العالمين يتلى في باريس، لا على أنه كلام الله بل على أنه فلكلور شرقي، يعني لئلا نقترب من الطقوس، لئلا يفرّغ الدين من مضمونه، لئلا يصبح الدين سلوكاً غير مفهوم، لئلا يصبح الإسلام اسماً بلا مسمى والقرآن رسماً بلا معنى، نريد أن نجدد أو أن نحسّن

من صلاتنا، وهذه الرسالة المتواضعة فيها تعريف بالصلاة، غير التعاريف الفقهية المألوفة، إخواننا الكرام يمكن أن أوضح لكم هذه الحقيقة على المستويات الثلاث، الأحكام الفقهية تشبه خرائط قصر صنعها أمهر المهندسين، أما الإنسان لا مأوى له، في أمس الحاجة إلى مأوى، إلى كوخ عنده خرائط لقصر منيف، وليس عنده كوخ يؤويه، فبعض العلماء قال: هناك عالم بالشريعة وعالم بالطريقة وعالم بالحقيقة، عالم الشريعة يبين لك أن الصلاة حركات وسكنات وأقوال وأفعال، تفتتح بالتكبير وتختتم بالتسليم، الوقوف كذا، الركوع كذا، السجود كذا، الاطمئنان، أي أوصاف حركات الصلاة، ما ينبغي أن تقرأ في الصلاة، هذه أحكام الصلاة الفقهية، هذه تعرفونها جميعاً ولا تخفى على أحد على تفاوت فيما بينكم، ولكن الصلاة إذا روعيت فيها هذه الأحكام الفقهية ليست هي الصلاة التي أرادها الله عز وجل، المشكلة الكبيرة أن الناس يذهبون إلى المسجد ويصلّون وكأن المسجد شيء وحياتهم شيء آخر وكأنه لا صلة بينهما ولا قرابة بين ميدان حياته وتفاصيل حياته وبين المسجد الذي تؤدى فيه الصلوات، فعالِم الشريعة يعطيك التعاريف الفقهية، أي إنسان ذهب إلى أوروبة ليدرس تزوج فتاة من هناك بإيجاب وقبول وشاهدين ومهر زواجه صحيح مائة بالمائة عند علماء الفقه والشريعة صحيح مائة بالمائة، أما إذا نوى أن يطلقها بعد انتهاء الدراسة فهذا زواج عند علماء الطريقة والحقيقة زواج سوف يحاسب الإنسان عليه أشد الحساب لأنه ما أراد التأبيد في هذا الزواج وعند الإمام الأوزعي التأبيد شرط صحة عقد الزواج، فعلماء الشريعة يعنيهم الظاهر، يعنيهم في العقود الإيجاب والقبول، لا يتدخلون في النوايا إطلاقاً ولكن عالم الطريقة إذا حدثك عن الصلاة نصحك أن تستقيم قبل أن تصلي، نصحك أن تغض بصرك، ينصحك أن تضبط لسانك، ينصحك أن تطهر قلبك من أجل أن يتلقى من الله المدد، النور، التجلي، السكينة، فعالِم الشريعة يعطيك الخرائط وعالِم الطريقة يدلك على القصر الذي بُني وفق هذه الخرائط، وعالم الحقيقة يأخذ بيدك ليدخلك إلى هذا القصر كي تستمتع به، فشتان بين أن تملك خرائط القصر وبين أن تسكن القصر، كما أنه وقد ورد في الحديث الصحيح:

((عَنْ أَنَسٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

لا تذوق حلاوة الإيمان عند تعارض المصالح إلا إذا آثرت طاعة الله على مصالحك الدنيوية، قد تتوافق مصالحك وطاعة الله، القضية سهلة جداً أنت في بستان جميل عند صديق لك مؤمن ودخل وقت الظهر فقمت وتوضأت وصليت لا يوجد مشكلة، أما حينما تتعارض مصالحك القريبة مع أوامر الله عز وجل وتهدر مصالحك، تضعها تحت قدمك وتطيع الله عز وجل، عندئذ تذوق حلاوة الإيمان، فمن أجل أن تدخل القصر وأن تسكن فيه لا بد من التضحية، أما من أجل أن تقتني هذه الخرائط وأن تتأمل بها لا

تحتاج إلى تضحية إطلاقاً، إذا كان معك ورق هذا ورق، أما إن أردت القصر الذي بني وفق هذا الورق لا بد من جهاد وتضحية، لا بد من تضحية بالغالي والرخيص والنفس والنفيس، فالقاعدة الأساسية في هذه الرسالة أن مقصود العبادات كلها التقرب إلى الله عز وجل، ماذا يعني القرب من الله ؟ الله في مكان، حاش له أن يكون في مكان لا يحويه مكان، ولا يحده زمان، هو خالق المكان وخالق الزمان، ما معنى القرب من الله ؟ قال صاحب هذه الرسالة العز بن عبد السلام القرب هو القرب من جوده وإحسانه أي أن الله هو مصدر الإحسان، مصدر إسعاد، مصدر أمن وطمأنينة، مصدر نور، فالقرب من الله لا لذاته فالله لا يحويه مكان ولكنه القرب من جوده وإحسانه المخْتَصَين بعباده المؤمنين، ثم إن الله جل جلاله يعامل المتقرب إليه معاملة المتقرب إليه بالطاعة والتعظيم والخضوع والتفخيم وإلا فالقرب من ذاته محال، القرب من ذات الله محال، أما القرب من إحسانه وجوده، قال: القرب نوعان: قرب بالعلم والرؤية وشمول السلطان، وقرب بالجود والإحسان، الأول عام والثاني خاص، هذه الحقيقة مهمة، مقصود العبادات كلها القرب من الله تعالى، ما معنى ذلك ؟ حينما قال الله عز وجل:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4))

سورة الحديد

أي قريب منكم هو معكم، هل هو بذاته معكم ؟ طبعاً لا، حاش له، معكم بعلمه، هو مع الكافر بعلمه، مع الملحد بعلمه، مع الزاني والسارق بعلمه، مع المؤمن بعلمه، مع المتعبد بعلمه مع المحسن بعلمه، القرب الأول قرب عام، هو معكم أينما كنتم معكم بعلمه، أما حينما يقول الله عز وجل:

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (194))

سورة التوبة

هذا قرب أيضاً، هذا قرب المتقي مع الله، أي قريب منه، الله مع عباده كلهم، أي علمه محيط بهم، يسمع جهرهم ويعلم سرهم ويرى تحركهم ويعلم كل خلجة في قلوبهم وكل خاطر يمر على أذهانهم وهو معكم أينما كنتم هذا القرب قرب العلم، أما القرب الثاني قرب خاص قال تعالى:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19))

سورة الأنفال

وقال أيضاً:

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (194))

سورة التوبة

قال: معهم لا بذاته ولكن بتأييده ونصره وتوفيقه وحفظه، أي أنت حينما تقترب من الله تقترب من حفظه وتأييده ونصره، هو معك بعلمه وأنت إذا كنت مؤمناً قريبٌ منه قريب من رحمته، قال تعالى:

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56))

سورة الأعراف

أنت قريب من رحمته قريب من رأفته، قريب من إحسانه من تأييده، من نصره من توفيقه، القرب الأول أنه معنا بعلمه قال تعالى:

(مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7))

سورة المجادلة

القرب الثاني هو قوله أيضاً:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19))

سورة العلق

وقال تعالى:

(عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (28))

سورة المطففين

وقال تعالى:

(فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (89))

(سورة الواقعة)

إذاً العبادات قصدها القرب من الله عز وجل، القرب نوعان: عام وخاص، العام أن الله معنا بعلمه أي قريب منا بعلمه، والخاص نحن نقترب من رحمته وتأييده ونصره وتوفيقه، أفضل ما في هذه الرسالة أن هذه العبادات تُرَتّب، كيف ترتّب ؟ قال ترتب بحسب فوائدها، هناك صلاة وصيام وحج وزكاة وذكر، هناك استغفار وتلاوة قرآن، كيف نرتب هذه العبادات وفق أي مقياس ؟ قال: هذه العبادات ترتب بحسب فوائدها، والشيء الجميل جداً قال: فأعظم العبادات فائدة هي أفضلها، كلما عظُمت الفائدة كلما ارتقت العبادة، والإمام العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى يبين أن أعظم عبادة على الإطلاق معرفة الله عز وجل هي قمة العبادات، لذلك يكاد يكون ثلث القرآن الكريم آيات دالة على عظمة الله عز وجل، في بعض كتب الجامعة كلية الشريعة كتاب تفحصته من زمن طويل فلفت نظري أنه في الصفحة الأولى يرتب العبادات ترتيباً بحسب أهميتها فيجعل ما يسميه مؤلف الكتاب عبادة التفكر أعلى كل العبادات على الإطلاق العبادة الأولى لأنك إن عرفته تقربت إليه فأعظم العبادات فائدة هي أفضلها وذلك معرفة الله عز وجل أصل الدين معرفته، ومشكلة العالم الإسلامي كله هو أن الأوامر والنواهي معروفة عند الجميع كيف نفسر عدم تطبيقها وعدم الأخذ بها وعدم الانصراف إلى طاعة الله هذا كله يفَسَر بأنهم عرفوا الأمر ولم يعرفوا الآمر، وما داموا قد عرفوا الأمر ولم يعرفوا الآمر تفننوا في التفلت من هذا الأمر، أما حينما يعرفون الآمر ثم يعرفون الأمر يتفانون في طاعة الله عز وجل، النقطة الثانية،

أولاً مقصد العبادات كلها القرب من الله القرب قربان هو قريب منا بعلمه ونحن إذا أخلصنا له وأحببناه وعبدناه حق العبادة نقترب من رحمته وحفظه وتأييده ونصره وتوفيقه، لذلك العبادة بلا إيمان لا معنى لها ولا تُقبل، أي لو أن إنسان غير مؤمن صلى صلاته غير مقبولة، قال تعالى:

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (54))

سورة التوبة

أثبت الله لهم الصلاة والإنفاق ورفضها منهم لأنهم لم يؤمنوا، النقطة الدقيقة جداً أية عبادة على الإطلاق أساسها الإيمان بالله عز وجل فإن لم يكن الإيمان قوياً فالعبادة لا معنى لها، ويقول الله عز وجل:

(إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27))

سورة المائدة

وقال أيضاً:

(إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (54))

سورة التوبة

والعبادات لها تقسيم آخر، هنا جعل قمة العبادات معرفة الله عز وجل، وأحد العلماء المعاصرين أسماها عبادة التفكر وأن الله عز وجل في آيات كثيرة جداً حثنا على التفكر، الآن عندنا عبادات تُرتب ترتيباً آخر بحسب نفعها للعباد، بحسب نفعها لصاحبها التفكر في قمة العبادات، بحسب نفعها للناس مثلاً الصدقات، الكفّارات، أية عبادة يتسع نطاقها ليجمع الناس الكثيرين، أي مثلاً يمكن أن تعبد الله ويمكن أن تطلب العلم، أيهما أفضل ؟ دخلت إلى مسجد وجدت درس علم وأبهاء بعيدة، دعك من الفرض، هل من الأفضل أن تجلس في مجلس علم، أم أن تذهب إلى مكان بعيد وتصلي صلاة نافلة، لا شك أن الصلاة النافلة عبادة، وطلب العلم عبادة، حسناً أية العبادتين يتسع نطاقها ليشمل أكبر عدد من الناس، طلب العلم، لذلك عندما شكا أحدهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام أن شريكه لا يعمل معه بالقدر الذي ينبغي وكان طالب علم فقال عليه الصلاة والسلام: لعلك تُرزق به، لذلك من أبواب الزكاة الإنفاق على طلبة العلم، طالب العلم لو أننا فرغناه تفريغاً كاملاً وهيأنا له كل حاجاته ولوازمه وأرحناه من كل هم وغم وجعلناه ينصرف إلى طلب العلم، طلب العلم عبادة بل هي من أرقى العبادات لأن نفعها يشمل عدداً كبيراً من الناس، العابد لنفسه أما العالِم لغيره، أما الذي سئل: من يطعمك ؟ وهو لا يعمل، قال: أخي، قيل له: أخوك أعبد منك، وقد أثنى صحابة رسول الله عليهم رضوان الله على رجل كثير التعبد فقال عليه الصلاة والسلام: من ينفق عليه ؟ قالوا: نحن جميعاً ننفق عليه، قال: كلكم أفضل منه، فالعبادة

التي تشمل أكبر عدد من الناس هذه أرقى، لذلك كانت الدعوة إلى الله عز وجل من أعظم الأعمال على الإطلاق والله عز وجل يقول:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33)

سورة فصلت

أي لن تجد في الأرض كلها إنساناً أعظم فلاحاً ونجاحاً وتوفيقاً وقرباً من الله عز وجل ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً.

الآن متعلقات الصلاة، الصلوات من أفضل العبادات الشعائرية لماذا ؟ قال: لأن الصلاة فيها معنى الحج، إنك في الصلاة تتوجه إلى بيت الله الحرام، وفي الصلاة معنى الزكاة إنك في الصلاة تقتطع من وقتك الذي هو أصل لكسب المال لأداء الصلوات ففيها إنفاق سلبي، هذا الوقت ممكن أن يزيد ربحك في الدكان، أغلقت الدكان وذهبت إلى المسجد فأنت أخذت من وقتك الذي هو أصلاً لكسب المال للصلاة ففيها معنى الزكاة، وفيها النطق بالشهادة فتقول في القعود أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وفي الصلاة معنى الصيام لأن الصيام هو امتناع عن الطعام والشراب وسائر المفطرات بينما الصلاة فيها امتناع عن الذي يباح لك في الصيام عن الكلام والحركة، فأولاً الصلاة تقع في قمة العبادات كلها إنها سيدة الطاعات وغرة العبادات ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماء، قال: علاقة الصلاة بالمصلي قال إن فيها مصلحة للمصلي عاجلة وآجله، أعظم ما فيها أنه شرّف بمناجاة الله عز وجل، أنت حينما تصلي سُمح لك أن تناجي الله تقول له قال تعالى:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

سورة الفاتحة

تقرأ الآية والمفروض كأنك تسمعها من الله عز وجل قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53))

سورة الزمر

انظر إلى الفاتحة أولاً بالثناء، قال تعالى:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

سورة الفاتحة

وقال أيضاً:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53))

سورة الزمر

تركع خاضعاً وتسجد مستمداً القوة من الله عز وجل على تنفيذ هذا الأمر الذي قرأته في الركعة وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ: حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: أَعْطُوا كُلَّ سُورَةٍ حَظَّهَا مِنَ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ))

أي أية آية تقرأها في الركوع والسجود لها ركوعها الخاص وسجودها الخاص، أي إذا تلوت قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30))

سورة النور

حينما تركع تقول سمعاً وطاعة يا رب، أنا خاضع لهذا الأمر، أما حينما تسجد تشعر بافتقارك إلى الله تقول: يا رب أعني على غض بصري، أعِنِّي على تنفيذ هذا الأمر وأعني على طاعتك، الركوع خضوع والسجود استعانة والسورة تسمعها من الله عز وجل تمهيدها قوله تعالى:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

سورة الفاتحة

في الفاتحة حمدت الله عز وجل وأثنيت عليه وهو رب العالمين الرحمن الرحيم ثم طلبت منه أن يعينك على عبادته وحده، طلبت إياك نعبد لم تقل نعبد إياك وإنما قال تعالى:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5))

سورة الفاتحة

ثم طلبت منه أن يهديك إلى الصراط المستقيم قال تعالى:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

سورة الفاتحة

السورة الركوع ثم السجود، قال أنىّ تعلقها بالمصلي ففيها من الدعاء بالمصلحة العاجلة و الآجلة، الصلاة دعاء، والصلاة ذكر، والصلاة مناجاة، والصلاة قرب قال تعالى:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19))

سورة العلق

وقال:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14))

سورة طه

هذه ذكر لو يعلم المصلي من يناجي ما انفتل، الصلاة دعاء، ليس المرء من صلاته إلا ما عقل منها عقل، فالصلاة دعاء وعقل ومناجاة وذكر وقرب، خمس تعريفات، الصلاة عقل قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً (43))

سورة النساء

حتى تعلموا ما تقولون، فالذي لا يعلم ما يقول هو في حكم السكران، فالصلاة عقل وقرب قال تعالى:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19))

(سورة العلق)

والصلاة ذكر قال تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14))

(سورة طه)

والصلاة دعاء، لو يعلم المصلي من يناجي ما انفتل، قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنِ الْبَيَاضِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ عَلَى النَّاسِ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَقَدْ عَلَتْ أَصْوَاتُهُمْ بِالْقِرَاءَةِ فَقَالَ: إِنَّ الْمُصَلِّيَ يُنَاجِي رَبَّهُ فَلْيَنْظُرْ بِمَا يُنَاجِيهِ بِهِ وَلَا يَجْهَرْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالْقُرْآنِ))

قال: يا عبدي أنا أسمعك، أنا أنتظر أن تحمدني، تقول: ربنا لك الحمد والشكر والنعمة والرضى حمداً كثيراً طيباً مباركاً بعدد خلقك، متعلقة بالمؤمن فيها تشريف بمناجاة الله عز وجل، المصلي يناجي ربه وفيها تعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم حينما تقول: اللهم صلي على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، أنت تطلب لرسول الله الرحمة، صلاة الله على النبي أن يتجلى عليه بالرحمة، قال: وأما تعلقها بجميع عباد الله المؤمنين فحينما تقول السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين إذن متعلقة بالمؤمنين وبرسول الله وبالمصلين، أيها الإخوة أهم شيء في الصلاة، أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، هنا محط الشاهد تنهى نهياً ذاتياً، وفي الإسلام هناك وازع داخلي وهناك رادع خارجي، القوانين تعتمد على الرادع، والصلاة تعتمد على الوازع، الوازع في الصلاة والرادع في القوانين، يعني إذا هناك مراقبة الأمور تنضبط، ما

في مراقبة الأمور لا تنضبط، حدثني أخ كان في أمريكا، قال: ركبت سيارة وانطلقت مع من ينطلق، السرعة عالية جداً فوجئت بعد حين، أن كل هذه السيارات خفضت من سرعتها إلى النصف، بعد أن كانت على مائة وثمانين، أو على مائتين، ما الذي حدث ؟ لم يفهم ما الذي حدث ثم علم فيما بعد، أن هناك نقطة رادار، وأن في كل السيارات جهاز يكشف الرادار، فحينما يعطي الجهاز إشارة إلى أنك اقتربت من الرادار الذي يكشف السرعات الزائدة كل خفض سرعته، إذن القانون لا يمكن إلا أن يعتمد على الرادع الخارجي، ودائماً واضع القانون ذكي والمواطن يمكن أن يكون أذكى منه، فكلما اخترع واضع القانون جهازاً، اخترع من يخضع للقوانين أجهزة، وهي معركة لا تنتهي بين عقلين، أما حينما يكون الشرع من الله عز وجل، يقول لك شعب راقي، فعندما انطفأت الكهرباء في نيويورك تمت مائتا ألف سرقة في ليلة واحدة، حدثني أخ كان في أمريكا، قال: في بعض أيام الشتاء القارسة، كان هناك ثلوج سيارة لحم كبيرة جداً زلقت وانقلبت والسائق كان تحت كبين القيادة، كل الناس الذين حول السيارة سارعوا إلى أخذ ما فيها ولم يفكر واحد منهم في السائق الذي مات من النزيف، أقول الكلام بدقة بالغة القانون يعتمد على الردع الخارجي، بينما الدين يعتمد على الوازع الداخلي، هناك بالإسلام شيء مدهش، كل إنسان وحده، انضباطه إلى أعلى درجة وهو وحده، لا أحد يحتاجه، إذا دخل أحد إلى الحمام في أيام رمضان ورمضان بالصيف في شهر آب وقبيل المغرب أو العصر يكاد يموت من العطش وفي الحمام صنبور ماء بارد هل تجد مسلماً واحداً يشرب من هذا الصنبور، من الذي يكشفه ؟ لا أحد إلا الله، هذه هي عظمة الدين، قال له: بعني هذه الشاة وخذ ثمنها، قال له: ليست لي، قال له: قل لصاحبها ماتت، قال له: ليست لي، قال له: قل له أكلها الذئب، قال له: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين ولكن أين الله، أنا أكاد أقول أروع ما في الدين أن المؤمن منضبط، لا يستطيع أن يأكل درهماً واحداً حرام، ولا يستطيع أن يملأ عينيه ولا للحظة واحد من محاسن امرأة أجنبية، مقيد، هذه عظمة الدين، تجد الناس منضبطون بلا ضوابط، والكفار مع الضوابط المذهلة والإلكترونية المبنية على الرادار، أي الآن في بعض محلات البيع السلعة إذا اشتريتها ولم تدفع ثمنها فيها مادة تتفاعل مع الباب الخارجي فيصدر صوت مخيف كأن هذا الصوت يقول: هذا الذي مر من تحت القوس لص اقبضوا عليه، ضوابط مذهلة ومع ذلك هناك من يتحايل عليها، أما المؤمن منضبط أشد الانضباط، تزوج أحدهم امرأة ثانية فعلمت زوجته الأولى دون أن تتأكد فبحثت وأرسلت من يجمع لها الأخبار فإذا هي تقع على الحقيقة زوجها تزوج امرأة ثانية وبعد حين مات الزوج، في أثناء توزيع التركة قسمت حصتها بينها وبين ضرتها وأرسلت هذا المبلغ إلى ضرتها على أنها زوجة ولها نصف الثلث، ما كان من ضرتها إلا أن قالت: والله طلقني قبل أن يموت وليس لي عنده شيء، حياة الوازع الداخلي شيء لا يصدق، أنت مطمئن مع الناس جميعاً، لا أحد يأكل على

الناس أموالهم، لا أحد يكذب، لا أحد يغش، إنه يخاف الله عز وجل، وحينما ينعدم الوازع الداخلي نعيش في غابة نحن مجتمع الغاب القوي يأكل الضعيف، الأذكى يستغل الأقل ذكاء، الأقوى يتحكم بالأضعف، الغني يتحكم بالفقير، هذا مجتمع الغاب من دون وازع داخلي، بالوازع الداخلي القضية سهلة جداً، الصلاة تحقق الوازع الداخلي قال تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45))

(سورة العنكبوت)

العلماء وقفوا عند هذه الآية وقفة رائعة جداً قالوا: لذكر الله أكبر ما فيها، ألم يقل الله عز وجل:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14))

(سورة طه)

ذكر الله أكبر ما في الصلاة، وبعضهم قال: أنت حينما تذكر الله يذكرك الله عز وجل، ذكر الله لك عقب ذكرك له أكبر من ذكرك له، هو المعطي وأنت المستجدي، هو القوي وأنت الضعيف، الإمام العز بن عبد السلام يقول: ومقصودها أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر وترفع درجات المصلي وتُكَفّر خطاياه، ومقصودها الأعظم تجديد العهد بالله، أنت عاهدته عند الفجر وتعاهده عند الظهر والعصر والمغرب والعشاء، تجديد العهد بالله، هذه هي الصلاة، قال: القلب له منها نصيب، القلب نصيبه منها النية والإخلاص والإيمان هذا الفرض، والندب الذل والخشوع، والضراعة والخضوع، وقال بعض العلماء: الخشوع في الصلاة ليس من فضائلها بل من فرائضها، قال: في الصلاة حقوق منقسمة إلى واجب ومندوب، حق الله في الفاتحة في شطرها الأول لأنها ثناء عليه قال تعالى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4))

(سورة الفاتحة)

وحق المصلي في الشطر الثاني قوله تعالى:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

(سورة الفاتحة)

كان أحد السلاطين الذين عاصروا الإمام العز بن عبد السلام كلما دخل عليه رجل يقول له: اقرؤوا عليه هذه الرسالة في مقاصد الصلاة، أنا ذكرت في مطلع الدرس أننا بحاجة لا إلى أحكام الصلاة الشرعية هذه معروفة، نحن بحاجة إلى مقاصدها، كي ترقى صلاتنا إلى المستوى الذي أراد الله عز وجل، والإنسان يحسّن صلاته، أما في الحقيقة الصلاة هي عماد الدين ومن أقامها فقد أقام الدين ومن تركها فقد هدم الدين وكان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة وكان يقول: أرحنا بها ولم يقل أرحنا منها، وهذا فرق واضح بين الحب والواجب، الواجب أرحنا منها أما الحب أرحنا بها،

والإنسان إذا صلى فلم يشعر بشيء وإذا ذكر الله فلم يشعر بشيء وإذا تلا القرآن فلم يشعر بشيء فهناك علة خطيرة في نفسه ينبغي أن يتلافاها، وأن يبحث فيها كي يتخلص منها، إن شاء الله هذا الموضوع في تحسين الصلاة لتجديد العهد بالله عز وجل، لرفع مستوى الصلاة من طقوس إلى عبادات، من عبادة غير متقبَلة إلى عبادة متقبَلة.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (094) :قواعد السلوك إلى الله1 - الخلوة - وهي إحدى طرق الوصول لله تعالى.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-11-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون:

موضوع الدرس اليوم ينضوي تحت ما يسمى طريق الوصول إلى الله، أن تعرف أحكام الشريعة شيء وأن تصل إلى الله شيء آخر، أن تستمتع بأفكار الدين شيء وأن تكون بمعيّة الله شيء آخر، أن تضع على الطاولة خرائط بيت جميل جداً ؛ خارطة للأساسات وخارطة لأول طابق وثاني طابق والأبهاء والمداخل والمخارج شيء، وأن تسكن هذا البيت شيء آخر، الخرائط شيء والبيت شيء آخر، فموضوع درسنا اليوم أنّني اجتهدت فوجدت أنه تشتد الحاجة إليه لا لعامة الناس وإنما لطلبة العلم، ولرواد المدارس، لمن يرجو الله واليوم الآخر، الموضوع عنوانه كلمة واحدة: " الخلوة "، وكما تعودنا، لا يمكن أن نحدِث في الإسلام مصطلحات جديدة، إلا أن الله سبحانه وتعالى من خلال النبي عليه الصلاة والسلام علمنا أن نخلو بأنفسنا، قال الرسول:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ: رَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خالياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ))

كان عليه الصلاة والسلام يعتكف في رمضان في العشر الأواخر، وكان عليه الصلاة والسلام يخلو بربه في غار حراء الليالي ذوات العدد، أيْ: أن تقتطع من زحمة العمل، من زحمة هموم المعاش، من زحمة مشكلات البيت، من زحمة المزاحمة في الدنيا، أن تقتطع من وقتك وقتاً تخلو فيه مع ربك، هذا هو موضوع درسنا اليوم. وهذا الكلام أنصحكم وأنصح نفسي به لأن الإنسان إذا استقام على أمر الله سلِم، لكنه لا يسعد إلا بذكره، أن تسْلَم شيء، وأن تسعد شيء آخر، لذلك جعلت موضوع هذا الدرس الخلوة، ولن أسمح لنفسي إلا أن آتيكم مع كل فكرة بدليلها من الكتاب والسنة، أقول لكم مرة ثانية: أنا أرفض رفضاً قاطعاً أن أحدث في الإسلام مصطلحات جديدة، لست مع من يحدث مصطلحات جديدة، ولكنّ الخلوة من صلب الدين، يعرّفها بعضهم بأنها نوع من الاعتكاف، والنبي عليه الصلاة والسلام فعل أشياء كثيرة وتركها، لماذا تركها ؟ لئلا تكون فرضاً على المسلمين، ولكن الاعتكاف ما تركه إطلاقاً، الاعتكاف أن تنسحب من الحياة مؤقتاً، تتأمل، تذكر الله، تفحص أعمالك، تفحص نواياك، تقرأ القرآن، تستغفر، تذكر اسم الله الأعظم، تناجي الله عز وجل، هذا هو الاعتكاف، يعني أن تخلو مع ربك، أيها الإخوة القصد البعيد من الخلوة تطهير القلب من أدناس الملابسة، ما الملابسة ؟ طبعاً كما قال أحد

الصحابة الكرام: نكون مع رسول الله ونحن والجنة كهاتين و أشار بالسبابة و الوسطى و أقرن بينهما فإذا عافسنا الأهل، و طالعتنا مشكلات البـيت، مشكلات الزوجة، مشكلات الأولاد، مشكلات البيع والشراء، كساد البضاعة، المدفوعات التي لا قِبل لك بها، الديون، المشاكسات أحياناً، متاعب الحياة، هذا شيء يعكر النفس، يعكر القلب، فأن تنسحب مؤقتاً من مشكلات الحياة لتخلو مع ربك في ساعة أو أقل منها أو أكثر منها، تناجيه أو تقرأ كلامه، لأنه ورد أنك إذا أردت أن تناجي الله عز وجل فاذكره، فإذا أردت أن يحدثك الله عز وجل فاقرأ القرآن، فأنصحكم وأنصح نفسي أن نقتطع ولا سيما بعد أو قبل صلاة الفجر وقتاً نقرأ القرآن، وقتاً نذكر الواحد الديّان، وقتاً نستغفر، وقتاً نتأمل في خلق السموات والأرض، يا موسى: أتحب أن أكون جليسك، قال وكيف ذلك يارب ؟ قال: أما علمت أني جليس من ذكرني وحيثما التمسني عبدي وجدني، الخلوة في تعريفها الدقيق: انقطاعٌ عن البشر لفترة محدودة وتركٌ للأعمال الدنيوية لمدة يسيرة كي يتفرغ القلب من هموم الحياة التي لا تنتهي، ويستريح الفكر من المشاغل اليومية التي لا تنقطع، اذهب إلى مقبرة وأقسم يميناً ولا تحنث: إنه ما من واحد مدفون في هذه المقبرة إلا وقبل أن يموت كان عنده قوائم أعمال طويلة لا حصر لها، الأعمال لا تنتهي إذْ يأتي الموت بغتة، الموت ينقلك من دار إلى دار، فهذا الدرس اجتهدت و أدركت أننا في أمس الحاجة لنخلو مع أنفسنا كي نناجي ربنا، كي نقرأ كلامه، كي نذكر أسماءه، كي نبتهل إليه، كي نتفكر في خلقه، هذه الخلوة مهما بدت قصيرة إلا أنها إذا استمرت كان لها أثر طيب، العوام لها كلمة تعجبني: الثبات نبات، ولو ربع ساعة تثبتْ عليه، لو ألزمت نفسك أن تناجي الله عز وجل خمس دقائق، أن تقرأ صفحة من كتاب الله، أن تستغفر الله مائة مرة، أن تقول لا إله إلا الله مائة مرة، أن تقول اللهم صلِ على سيدنا محمد مائة مرة، أن تقول حسبي الله ونعم الوكيل خمسين مرة فرضاً، أن تقول لا حول ولا قوة إلا بالله، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، هذه أذكار النبي عليه الصلاة و السلام.

مرة ثانية أقول: باستقامتك على أمر الله تسلم لكنك لا تسعد، تسعد بذكر الله والدليل قوله تعالى:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28)

(سورة الرعد)

ذكرُ الله بقلب خاشع وتفكُّرٌ في آلائه آناء الليل وأطراف النهار، هذه حقيقة الخلوة، الحياة مشاغل، أحياناً يحلو لي أن أصف الإنسان في هذا العصر كقطعة من عجلة تدور معها، فالإنسان من عمل إلى عمل ومن زيارة إلى زيارة ومن صفقة إلى صفقة ومن حل مشكلة إلى حل مشكلة، ومن توكيل محامٍ إلى قضاء قاضٍ إلى آخر ما هنالك، إلى أن يأتي الموت بغتة فإذا هو رهين عمله قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39))

(سورة المدثر)

كنت أذكر من قبل قوله تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً (63))

(سورة الفرقان)

معنى هوناً أي لا يسمح لمشكلات الدنيا أن تلغي وجوده، لا يسمح لمتاعب العمل أن تقضي على سعادته، لا يسمح لمتاعب الأسرة أن تقطعه عن الله عز وجل، هذا الإنسان الذي ينساق مع همومه ومتاعبه ومشكلات الحياة يلغى وجوده، أنت إنسان مكرم، أنت المخلوق الأول، أنت المخلوق الذي خلقت لعبادة الله عز وجل فكيف تسمح لمشكلة أن تلغي وجودك، لذلك قال تعالى:

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (22))

(سورة فاطر)

أي أن هذا الإنسانُ مقبور بشهوته، وهذا مقبور بهمه، وآخر مقبور بتجارته، و رابع مقبور ببيته، وكل إنسان حبيس همومه وشهواته ورغباته ومخاوفه، ما لم تخرج من هذه المخاوف ومن هذه الحياة الرتيبة: طعام وشراب ونوم وعمل، ما لم تخرج من هذه الحياة الرتيبة، ومن هموم المعاش، من مضايقات الناس، من هموم الولد والزوجة، من هموم العمل وكسب الرزق، من هموم مع مَن هم فوقك، مع مَن هم دونك، هذه كلها هموم، ذكرت لكم في مطلع الدرس أنني اجتهدت فأدركتُ أن الحاجة تشتد إلى هذا الدرس: الخلوة مع الله، إنها نافذة ؛ تصور إنساناً في معمل: ضجيج وآلات وروائح وغازات سامة، و هناك نافذة فتحها فأطل منها على حديقة جميلة فانتعش، أخذ طاقة جديدة، شعر بنشاط جديد، جددَ نشاطه، فهذه الخلوة التي يذكرها بعض علماء القلوب ضرورية للإنسان وليست بدعاً في الدين، إنها من أصل الدين وإنها جزء من الدين والآيات والأحاديث تغطيها و تؤكدها، و هاكم الدليل الأول على مشروعية الخلوة قوله تعالى:

(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8))

(سورة المزمل)

التبتل: الانقطاع لله عز وجل، لذلك من خصائص ساعات الفجر أنه ليس هناك مشكلات ولا صياح ولا ضجيج، و لا قرع جرس ولا قرع هاتف، ليس لديك مشاحنة ولا مشادة، ومعظم الناس نيام، ساعات الرحمة، لو يعلم الناس ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً، فلذلك الآية الدقيقة جداً قوله تعالى:

(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8))

(سورة المزمل)

أيْ: انقطع عن الناس وأسرتك وعملك وهموم المعاش، واخلُ مع ربك واذكر اسمه: الله الله، إما أن تذكر اسمه المفرد، وإما أن تذكر الأذكار التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام، قال بعض المفسرين: واذكر اسم ربك أي دُمْ على ذكره تعالى ليلاً ونهاراً على أيّ وجه كان: من التسبيح والتهليل والتحميد

إلى أن قال بعضهم: وتبتل وانقطع إليه بمجامع الهمة واستغراق العزيمة في مراقبته، كلام دقيق في تفسير هذه الآية. هذا الدليل القرآني على مشروعية الخلوة، وأما الدليل النبوي الذي لا ينطق عن الهوى لا في أقواله ولا في إقراره ولا في أفعاله: أن النبي عليه الصلاة والسلام فيما ترويه كتب السيرة كان يخلو بغار حراء يتعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله حتى جاء الحق وهو في غار حراء وبهذا تكون قد ثبتت مشروعية الخلوة، فالنبي كان يتعبد الله عز وجل الليالي ذوات العدد، أن تتعبد ربك الدقائق كل يوم ذوات العدد، أي إن لم يُتَح لك أن تترك البيت وأن تقبع في صومعتك تعبد الله الليالي ذوات العدد فاقبع في طرف غرفتك وأمسك سبحتك واذكر الله عز وجل عدداً تشعر فيه أنك قد صفا قلبك واطمأنت نفسك، وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ثم حببت إليه الخلوة فكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه أي يتعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة ويتزود لمثلها، حتى جاء الحق وهو في غار حراء، هذا الذي فعله النبي ينبغي أن نفعل جزءاً منه، ينبغي أن نفعل نموذجاً مصغراً منه، لأن الخلوة مع الله حياة للقلوب، عن أبي جمرة في شرحه على مختصر البخاري يقول: في الحديث دليل على أن الخلوة عون للإنسان على تعبده وصلاح دينه، في هذا الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد، لأن النبي عليه الصلاة والسلام لما اعتزل عن الناس وخلا بنفسه آتاه الله هذا الخير العظيم، الدليل قوله تعالى:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً (79))

(سورة الإسراء)

المقامات العالية عند الله ثمنها الخلوات، لذلك أحد العارفين الكبار رآه أحد تلاميذه في المنام قال له: يا سيدي ماذا فعل الله بك ؟ قال: يا بني راحت تلك العبارات وذهبت تلك الإشارات ولم يبق إلا ركيعات ركعناها في جوف الليل، إذاً: فالدعوة إلى طاعة الله دعوة إلى السلامة، والدعوة إلى الخلوة مع الله دعوة إلى السعادة، بطاعتك تسلم وبخلوتك مع الله تسعد، وإن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل، هناك استنباط آخر استنبطه شُرّاح الحديث هو: أن الأولى بأهل البداية الخلوة والاعتزال. فمن هم أهل البداية ؟ إنهم حديثو العهد بالإيمان، من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة، أنت بأول مراحل إيمانك تحتاج إلى خلوات وإلى جلوات وإلى قراءات وإلى أذكار وإلى مجالس علم، من أجل أن تكون هذه البداية محرقة كي تكون النهاية مشرقة، وأنا والله لا أغبط إلا شاباً صغيراً نشأ في طاعة الله أقول: هذا إذا بلغ الأربعين كيف يكون حاله ؟ منذ الخامسة عشرةَ هو مع الله ويذكر الله ويجتهد في طاعته فكيف إذا بلغ الأربعين أو الخمسين ؟ فالبدايات المحرقة لها نهايات مشرقة، الدليل على أن

البداية ليست كالنهاية لأن النبي عليه الصلاة والسلام أول ما بُدئ في نبوته المَرائي، ومازال عليه الصلاة والسلام يرتقي في الدرجات والفضل حتى جاءه المَلك في اليقظة بالوحي، ثم ما زال يرتقي حتى كان قاب قوسين أو أدنى وهي النهاية، بلغ النبي عليه الصلاة والسلام سدرة المنتهى، أي أنت كمؤمن يجب أن تشعر أنك في تطور، في رقي، من حال إلى حال، من مقام إلى مقام، من منزلة إلى منزلة، من درجة قرب إلى درجة قرب، أما أن تكون في حال واحدةٍ طوال الحياة فلا، بعض العارفين قال: المؤمن يتقلب في اليوم الواحد بأربعين حالاً، بينما المنافق يبقى في حال واحدةٍ أربعين عاماً، المفروض أن تتطور، أن تقول من حين لآخر رؤيتي اليوم غير رؤيتي بالأمس، معرفتي بالله غير معرفتي بالأمس، ورعي اليوم أشد من ورعي بالأمس، من لم يكن في زيادة فهو في نقصان، والمغبون من تساوى يوماه، وشعور المؤمن أنه يرتقي، فهذا شعور بالحيوية، أنت حيوي إذا كنت في تطور مستمر، لذلك من أدق التفاسير لقوله تعالى:

(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19))

(سورة محمد)

النبي ليس له ذنب، لكن كلما كان في رؤية لله عز وجل، ثم انتقل إلى رؤية أوسع، وأعمق يستحي برؤيته السابقة، وكأنها ذنب، يعني: أنت، مثلاً، جلست أمام إنسان فظننته يقرأ ويكتب، ثم اكتشفت أنه يحمل شهادة ثانوية، ثم اكتشفت أنه يحمل شهادة جامعية، ثم علمت أنه يحمل دكتوراه، ثم علمت أنه وحيد عصره في اختصاصه، فكلما علمت حقيقة عنه جديدة استحييت لفهمك السابق له أو بتقديرك السابق له، و هذا من أدق التفاسير في قول الله عز وجل:

(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19))

(سورة محمد)

فهذا هو ذنب النبي، هناك تطور مستمر فكلما عرف الله في مستوى شعر أن معرفته السابقة لا تليق بالله عز وجل، قال بعض علماء القلوب: من نال مقاماً فدام عليه بأدبه، ترقى إلى ما هو أعلى منه، فإذا وصل الإنسان مع الله إلى مرتبة فحافظ عليها بأدب جم، وشكرٍ كبير نقله الله إلى مرتبة أعلى، وهكذا، و الذي أتمناه على إخوتنا الكرام أن يشعر أحدهم بالتغير، نحو الأحسن، و بالتطور، أي أن تزداد معرفته، أن يزداد إقباله، أن يزداد ورعه، تمسكه، حرصه، مادام هناك زيادة إذاً هناك حركة ناجحة، هناك حركة نحو الأمام، من نال مقاماً فداوم عليه بأدب ترقى إلى ما هو أعلى منه، قال القسطلاني: الخلوة تريح القلب من أشغال الدنيا، وتفرغه لله تعالى، وتفجر ينابيع الحكمة، نعم، والخلوة أن يخلو عن غيره بل و عن نفسه لربه، ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن النبي عليه الصلاة والسلام ماترك هذه الخلوة إطلاقاً فكان بعدئذ يخلو في العشر الأخير من رمضان، وقد سماه الفقهاء اعتكافاً، الاعتكاف:

خلوة. و الشيء الذي يشجع المؤمن ويقوي همته، أن يجعل هذه الخلوة مجزأة كل يوم، قال تعالى:

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6) إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً (7))

(سورة المزمل)

لذلك مُدح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، بأنهم كانوا فرساناً في النهار رهباناً في الليل، يقول العالم الزهري: عجباً من الناس كيف تركوا الاعتكاف ؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل الشيء ويتركه لكنه ما ترك الاعتكاف حتى قُبض، وقال الإمام النووي في شرح حديث عائشة الوارد في صحيح مسلم عند قوله: حبب إليه الخلاء أوالخلوة، أما الخلاء فهو الخلوة وهي: شأن الصالحين وعباد الله العارفين، وفيها فراغ القلب وهي معينة على التفكر، وبها ينقطع الإنسان عن مألوفات البشر ويتخشع قلبه، أيها الإخوة هناك شيء آخر: الخلوة كما قال العالِم الكبير محمود العيني في شرحه على حديث عائشة قال: لِمَ حبب إليه الخلوة ؟ لأن معها فراغ القلب وهي معينة على التفكر. والبشر لا ينتقل أحدهم عن طبيعته إلا بالرياضة البليغة في هذه الطبيعة تأكل فتنام، تستيقظ فتعمل، تلتقي مع الناس فتأنس بهم هذه هي الطبيعة، أما أن تصل إلى الله فإنك تحتاج إلى مجاهدة، إلى جهد إضافي استثنائي، إلى إرادة قوية، لذلك لِمَ حببت الخلوة إلى النبي عليه الصلاة والسلام ؟ قال: لأن فيها فراغاً للقلب، وفراغُ القلب يعين على التفكر. والبشر من شأنهم أنهم لا يتحولون عن طبيعتهم إلا بالرياضة البليغة، فحببت إليه الخلوة لينقطع عن مخالطة البشر فينسى المألوفات من عاداته، والاستئناس بالناس من علامات الإفلاس، ماذا قال بعض العارفين قال: بستاني في صدري ماذا يفعل أعدائي بي ؟ إن أبعدوني فإبعادي سياحة وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة فماذا يفعل أعدائي بي ؟ بل إن الله سبحانه وتعالى ذكر أن حال أهل الجنة يذوقه المؤمن في الدنيا قال تعالى:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6))

(سورة محمد)

لذلك فسر بعضهم قول النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال: أبو بكر في الجنة، أي هو في جنة، هو في جنة القرب، هناك نار البعد وجنة القرب، ولا يعرف ما نقول إلا من اقتفى أثر الرسول، لا يعرف ماذا تعني جنة القرب وماذا تعني نار البعد إلا من ذاق القرب وذاق البعد، أحبابنا اختاروا المحبة مذهباً، وما خالفوا عن مذهب الحب شرعاً، ثم يقول هذا العارف بالله: فما حبنا سهل، وكل من ادّعى سهولته قلنا له قد جهلتنا:

فأيسر ما في الحب للصب قتله وأصعب من قتل الفتى يوم هجرنا

المؤمن الصادق الموصول بالله عز وجل حينما يحجب عن الله قليلاً يحترق، ليس هناك مصيبة، صحته وعمله ودخله، ولكنه اعتاد على الوصال فلما حجب احترق، لذلك، هذا شابٌ خطب فتاة اسمها

وصال وكان أبوها شيخاً فاشترط عليه أن يحضر دروسه، هذا الخاطب حضر الدروس فاتصل بالله فذاق نشوة القرب فنسي فتاته وصال، فلما سألته مرة: أين وعدك بالزواج، قال: يا وصال كنتِ سبب الاتصال، فلا تكوني سبب الانفصال، والدليل أنه من عرف الله زهد فيمن سواه، فإذا الإنسان وصل إلى الله فقد وصل إلى كل شيء.

أيها الإخوة عندما كنا في الجامعة علمونا أن قصيدة البردة للبوصيري تتميز بالعاطفة الصادقة، بينما نهج البردة التي ألفها شوقي فيها معانٍ دقيقة جداً، وفيها تفصيلات رائعة، لكنّها تفتقر إلى عاطفة البوصيري والأدب الخالد هو الأدب الذي ينطلق من عاطفة صادقة، فكان البوصيري محباً للرسول عليه الصلاة والسلام، فقد وصف النبي فقال: أَلِفَ النسكَ والعبادة والخلوة طفلاً وهكذا النجباء، العظماء لهم خلوة مع الله عز وجل، كبار المؤمنين، كبار الأولياء لهم خلواتهم ولهم جلواتهم، الإمام المناوي شارح الجامع الصغير وهو من أشهر كتب الحديث يقول: حبب إليه صلى الله عليه وسلم الخلوة والانفراد والنفور من مخالطة الناس حتى في الأهل والمال والعيال واستغرق في بحر الأذكار العلية فانقطع عن الأضداد فاستشعر حصول المراد وحصل له الأنس بالخلوة فانتقل من هذه الخلوة إلى الجلوة، الإنسان يتألق بعد الخلوة، يخلو مع ربه فيجلو له، العلماء كانوا في حيرة من أمرهم، ماذا كان عليه الصلاة والسلام يفعل في خلوته ؟ هل كان يتفكر أم يذكر؟ قلت لكم في بداية الدرس إن خلوت مع الله فهذا نوِّع، لكن لك أن تفكر في ملكوت السموات والأرض وهذا أعلى أنواع الذكر، ولك أن تذكر الله، ولك أن تقرأ كلامه، لكن العلماء اختلفوا في طبيعة خلوة النبي عليه الصلاة والسلام، فقال بعضهم: كانت عبادته بالفكر، وقال بعضهم: كانت عبادته بالذكر، وأنت إذا نوّعت بين الفكر والذكر لا شيء عليك، وكنت أتمنى أن على الإنسان بالخلوة التي هي ربع ساعة مثلاً إن تمكن أن يقضيها كل يوم و أن يجمع بين الفكر والذكر، و كثيراً ما كنت أروي لكم قصة دائماً خلاصتها: أن شاباً مؤمناً سمع من شيخه أن لكل سيئة عقاباً، زلّت قدمه يوماً في موضوع فصار ينتظر عقاب الله له، انتظر أياماً عديدة لم يصبهُ شيء، حالته جيدة، وضعه، أهله، أولاده، مركبته، فناجى ربه فقال: يارب لقد عصيتك فلم تعاقبني، فوقع في قلبه أن يا عبدي لقد عاقبتك ولم تدر، ألم أحرمك لذة مناجاتي، ألا يكفيك هذا عقاباً شديداً، أن تكون محجوباً عني، المؤمن الصادق المتفوق الموصول لا يخشى أن يسوق له الله مصيبة في ماله أو جسمه، بل أكبر مصيبته أن يُحجب عن الله، فما حبنا سهل، وكل من ادعى سهولته قلنا له إنك قد جهلتنا:

أيسر ما في الحب للصب قتله وأصعب من قتل الفتى يوم هجرنا

فإذا إنسان عوّده الله على الصلة، على الود، على الطمأنينة، على القرب، وأبعده مرة فهذا أبلغ عقاب، و أكبر كلمة تعد عقاباً أليماً أن الله لعنهم، يعني أبعدهم وحجبهم، قال رجل لبعض الأكابر: اذكرني عند

ربك في خلوتك، فقال له إذا ذكرتك فلستُ إذاً معه في خلوة، الخلوة أنني أنقطع إليه ولا أذكر معه أحداً، وليس مقبولاً إذا كنت في خلوة أن تذكر إنساناً كائناً من كان، وإلا شركت أنت الآن مع الله عز وجل، قال بعضهم يخلو مع ربه ليزداد علماً بالحق، فهناك علم تحصيلي و هناك علم إشراقي: العلم الإشراقي يأتي بالخلوة، يعني أحد أكبر أسباب العلم الإشراقي الرؤيا، الإنسان قد يلمع أمامه شيء، قد يقفز في المجهول، قد يكشف الله عن بصيرته، قد يُلقي في قلبه شيئاً، هذا يسمى عند العلماء العلم الإشراقي، طبعاً حتى لا نقع في خطأ العلم الإشراقي فهو مقيد بالكتاب والسنة، وإلا فهو مرفوض مثلاً يقول شخص: والله لقد صار لي تجلٍ فوجدت أن الصلاة غير ضرورية، هذا نصفعه، إذا صار لك علم إشراقي، فالعلم الإشراقي مقيد بالكتاب والسنة، قرأت فيما قرأت أنه في عهد الإمام العز بن عبد السلام جاءه رجل صالح، و قد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا شيخي رأيت النبي عليه الصلاة والسلام، فقال لي: في المكان الفلاني كنز، اذهب وابحث عنه وخذه، ولاتؤدِّ زكاته، هذا الرجل فيما تروي الكتب ذهب إلى ذاك المكان، فوجد الكنز وأخذه، فلما عرض على شيخه هذه الرؤيا، قال له: أما القسم الأول فهو صحيح، وأما الثاني فغير صحيح، لأن فتوى النبي في حياته أصح منها في نومك، قال: خذ الكنز وأدِّ زكاته، نحن ليس لدينا شيءٌ اسمه إشراق خلاف الشرع إطلاقاً، لا منام ولا شطحة ولا حلم يقظة، كل شيء تدعي أنه قفزة، إشراق، يجب أن يكون مقيداً بالكتاب والسنة، فأول ثمرة من ثمار الخلوة، إن صح التعبير ما يسمى بالعلم الإشراقي، نعم، يكشف عن بصيرته، يزود برؤيا صائبة، يلقى في قلبه النور بل إن التقوى في تعريف الإمام الغزالي، نور يقذفه الله في القلب، و هناك هدف آخر الخلوة تصفي الفكر، بينما مشاغل الدنيا حجابٌ بين الإنسان وبين الحقيقة.

حبك الشيء يُعمي ويُصم، الإنسان أحياناً تكون عنده بضاعة أسعارها نازلة، فهو مهموم لكنه إذا خلا مع الله عز وجل، وعرف سر وجوده وغاية وجوده، وأنه والجنة قاب قوسين وأن الله خلقه ليسعده، ينسى متاعب التجارة، وإذا الإنسان بَعُد عن الله عز وجل، فالهموم تأكل قلبه وتستحوذ عليه، الهموم تسحقه، حالياً أكثر الناس يتلقى خبراً معيناً فيُصاب بالجلطة، وقد يتلقى خبراً ثانياً يختل توازنه، ثم خبراً ثالثاً فحصلت له كآبة، والآن الكآبة مرض خطير، منتشر جداً في المجتمع، لأنه هموم مع البعد عن الله عز وجل، وبعضهم يرى أن في الخلوة أنس بالله عز وجل أي قمة سعادتهم هي في خلوتهم مع الله عز وجل، والإنسان أحياناً في ساعة صفاء يستمع إلى كتاب الله، إلى القرآن يتلى عليه فيبكي، هذا البكاء بكاء الرحمة، كان الصحابة بكّائين، والبكاء من علامات الإيمان الصادق، هناك خشوع، عين نزلت منها قطرة دمع خشية لله فهذه العين لا تمسها النار، الإسلام حب، الدين حب، وَجْدٌ، هل الوجد إلا أن قلبي لو دنا من الجمر قيد الرمح لاحترق الجمر، ما هذا القلب الذي له! هناك قلب كالصخر، وآخر كالثلج، برود لا يحتمل، وقلب متّقد محبة، فإنسان ليس له صلة مع الله، ليس له مناجاة ولا ذكر دموعه

لا تهمي، جلده لا يقشعر، هذا يعني أن عنده مشكلة، حتى قال بعض العارفين: الإنسان إذا صلى فلم يشعر بشيء، إن قرأ القرآن فلم يشعر بشيء، إن ذكر الله فلم يشعر بشيء، فلا بد وأن تكون عنده مشكلة خطيرة، إذا شاهد الطبيب شخصاً هامداً جسَّ النبض فإن لم يجد نبضاً، وضع مرآة أمام أنفه فلم يجد بخار ماء، جاء بمصباح شديد وضعه في قزحية العين فلم تصغر فهذا يعني أنه منتهٍ، عظّم الله أجركم، فلا شيء بالصلاة ولا بالتلاوة ولا بالذكر، و لا قلب ينبض بحب الله عز وجل فهو إذاً منتهٍ، و هكذا فقد درسنا الآن درساً قربنا من الله عز وجل، و نحن في حاجة إلى الذكر، و إلى القرب، و إلى نافذة إلى الله عز وجل نسعد بها، فنحتاج إلى خلوة، المستقيم سليم، إذا كنت مستقيماً فستسلم، لكنك لا تسعد بالاستقامة، لكنك تسعد بالقرب، بالذكر، بالخلوة، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ...... وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ))

بكاء الحب، بكاء الخشوع ليس سهلاً، إذا لم يتواجد قرب حقيقي من الله، إذا لم يتواجد استقامة حقيقية، ورجاء لرحمة الله، والله لا تنهمر ولا دمعة، أحياناً تجد بحفل عقد قران مُنشداً قلبه صاحٍ ونشيده جميل، تجد من بين ثلاثمائة مدعو خمسة فقط هم الذين بكوا، لماذا بكوا ؟ لأن هذه الابتهالات حرّكت خبراتهم العاطفية مع الله عز وجل، ذكّره مثلاً: وجدناك مضطراً فقلنا لك: ادعُنا نُجبك فهل أنت حقاً دعوتنا ؟ دعوناك للخيرات أعرضت نائياً فهل تلقى من يحسن لمثلك مثلنا، فوا خجلي منه إذا هو قال لي: يا عبدي ما قرأت كتابنا، أما تستحي منا ويكفيك ما جرى، أما تختشي من عُتبنا يوم جمعنا، أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً وتنظر ما به جاء وعدنا، فإن لم يهز مشاعر الإنسان شيءٌ فهذا حجاب كثيف.

أحياناً يسمع الإنسان مديحاً لرسول الله عليه الصلاة والسلام أو يستمع إلى ابتهال، و مناجاة لله عز وجل فيذوب قلبه في جوفه من شدة محبته، أيْ أن الإسلام ليس كله معلومات وأفكار وأدلة وبراهين فهذه ضرورية، ولكنها ليست الإسلام كله، الإسلام بكاء وحب وشوق إلى الله عز وجل الإسلام قلب ينبض بالحب، الإسلام علاقة طيبة مع الله، أن تكون علاقتك بالله طيبة، أن تكون ربانيّاً تحب الله وتعمل لله وترضي الله وترجو الله وتخشى الله هذا هو المؤمن فهو ربّاني، لذلك برئ من النفاق من أكثر من ذكر الله، قالوا: هذه الخلوة هدفها التعرف على فاطر السموات والأرض، هذا التعرف أساس للأحوال القلبية التي تسعد الإنسان، أحد العارفين بالله كان شاعراً فقال:

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا	**سر أرق من النسيم إذا سرى**
فدهشت بين جماله وجلاله	**وغدا لسان الحال عني مخبرا**

أي إذا طرق الإنسان باب الله عز وجل يمكن ألّا يفتح له في المرة الأولى، و هناك أشخاص يطرقون الباب فلا يجدون شيئاً، تجلس للذكر فلا تجد شيئاً، يقرأ أحدهم القرآن فلم يشعر بشيء، قال بعضهم:
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا
و إذا لم تشعر بشيء في أول يوم فإنك في اليوم الثاني عندما يجدك الله عز وجل مُصِراً يفتح لك الباب، وإذا فتح لك الباب أدهشك، وإذا أدهشك أسعدك:

ولي الله ليس له أنيس سوى الرحمن فهو له جليس

يُذَكِّرهُ فيـذكره فيبكي وحيد الـدهر جوهره نفيس

وقيل أيضاً:

على نفسه فليبك من باع عمر وليس له فيها نصيب ولاسهم

يقال ذات مرة إنَّ سيدنا بلالاً كان في الشام فرأى في المنام رسول الله عليه الصلاة والسلام قال له: ما هذه الجفوة يا بلال ؟ لماذا أنت تجافينا؟ فركب ناقته من توه وتوجه إلى المدينة المنورة وأذّن الأذان الوحيد بعد وفاة رسول الله، قالوا: لم تبق امرأة ولا رجل إلا خرج باكياً من بيته لأن آذانه ذكرهم بعهد رسول الله، أي أن المؤمن محبوبه الله، المؤمن أحسن الاختيار، الحب من صفات الإنسان، كل إنسان يحب ولكن المؤمن انتقى أعلى محبوب، محبوب باقٍ على الدوام، كل محبوبات الأرض تغادرها إما أن تغادرك وإما أن تغادرها، والحديث القدسي:

((عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ قَالَ: إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

مستحيل أيها الإخوة أن تخطب ود الله عز وجل ولا تجد أن الله قد أقبل عليك وأكرمك وأنزل على قلبك السكينة وتجلى على قلبك وأسعدك، أحياناً: إنسان يأتي إلى الجامع فيحس بحال طيب، هذه هي ضيافة ربنا عز وجل، تحس بالطمأنينة، بمحبتك لله، بقربك منه، إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمّارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني فهذه هي ضيافة الله عز وجل. بعضهم جمع فوائد هذه الخلوة قال: أولاً تهذب النفس وتزكيها، وتروضها على طاعة الله تعالى، والاستئناس بمجالسته، لأن من طبائع النفوس الأمارة بالسوء حب مجالسة الناس، والميل إلى اللهو والعبث والبطالة، وكراهية الخلوة مع الله، طبع الإنسان يميل إلى الجلوس مع الناس يضحك ويلعب، يأكل يعلق تعليقات ساخرة، يمتع عينه بشيء لا يرضي الله عز وجل، أما التكليف أن تخلو مع الحقيقة الأزلية، من فوائد الخلوة مع الله أنها تريح القلب والفكر والعقل، من الشواغل الدنيوية المتعاقبة، الإمام الشافعي يقول: من أحب أن يفتح الله قلبه وأن يرزقه العلم فعليه بالخلوة، وترك مخالطة السفهاء، والله أيها الإخوة أحياناً تجلس مع شخص تشعر أنك تبهدلت معه، نزلت مكانتك فهو شخص بذيء اللسان تعليقاته

سخيفة، تفكيره محدود نمطه شهواني، إنْ جالسته تحتقر نفسك أمامه، لذلك من أحب أن يفتح الله قلبه وأن يرزقه العلم، فعليه بالخلوة وترك مخالطة السفهاء، ومجالسة العارفين بالله والقريبين منه، " ابن عجيبة " الذي شرح حكم ابن عطاء الله السكندري، يقول: ما نفع القلب شيء مثل خلوة يدخل بها إلى ميدان ذكره، أبو الحسن رضي الله عنه يقول: ثمار الخلوة أربع: أولها كشف الغطاء: الإنسان عند الموت يكشف الغطاء عنه، ولكن بعد فوات الأوان، بالخلوة يكشف لك الغطاء وأنت في الدنيا، في الوقت المناسب وتنزل الرحمة، و يتم تحقيق المحبة، ولسان الصدق في الكلمة، بعضهم قال: في الخلوة فوائد كثيرة، منها السلامة من آفات اللسان، جلوس مع الناس، غيبة، نميمة، تعليق، سخرية، محاكاة، و كلها ذنوب، أما حينما خلوت مع الله نجوت من آفات اللسان كلها، وحينما تخلو مع الله سلمت من آفات النظر، إذا كنت في مجلس وكان هناك امرأة أو أي شيء فيه ملهاة، وحفظت قلبك وصنته عن الرياء والمداهنة وغيرهما من الأمراض، وحصّلت الزهد في الدنيا والقناعة منها فهذا شرف العبد، شرف العبد قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس، وسلمت من صحبة الأشرار، ومخالطة الأرذال، ففي اللقاء بهم فساد عظيم، لكن التفرغ للعبادة والذكر والعزم على التقوى والبر في البعد، و في الخلوة تجد حلاوة الطاعات ولذيذ المناجاة قال: لا يكون المريد صادقاً إلا إذا وجد في الخلوة من الحلاوة والنشاط والقوة ما لا يجده في العلانية ، و أنا أحياناً أتمنى وأريد أن يكون الدعاء بعد الصلاة دعاء سرياً، كل إنسان يناجي ربه، وله طلبات معينة، يعاني مشكلة فالطالب مثلاً له طلب، و التاجر له طلب، و الزوج له طلب، و الكبير له طلب، و الصغير له طلب، فالدعاء الذي بينك وبين الله دعاء صادق ومقبول ومستجاب، قال العلماء: في الخلوة راحة القلب والبدن لكن في مخالطة الناس ما يوجب تعب القلب والبدن، وفي الخلوة صيانة النفس والدين من أدران الشرور والآثام، وفي الخلوة تمكن من عبادة التفكر والاعتبار، وهو المقصود الأعظم من الخلوة ، أيها الإخوة الكرام هذه بعض أقوال العلماء حول ماورد في الكتاب والسنة وأقوال العلماء الصادقين العاملين الموصولين بالله عز وجل في موضوع الخلوة، و أختم هذا الدرس بتلخيص سريع له: لا بد لك من خلوة مع الله كل يوم، ونوّع بين أحوالك فيها، نوّع بها الذكر مع التفكر مع التلاوة مع الدعاء، ذكر، تفكر، تلاوة، دعاء، فهذه إذا حافظت عليها كل يوم كان لك في النهار سبحاً طويلاً، كنت في اليوم بحال آخر، تشعر بقوة تشعر بتوازن، تشعر بطمأنينة ونظر ثاقب، برأي سديد، بكلام محكم، و تصرفٍ حكيم، هذا كله من بركات الخلوة مع الله قبيل صلاة الفجر و بعدها، لذلك لو يعلم الناس ما في العتمة والفجر والصبح لأتوهما ولو حبواً، ومن صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله حتى يمسي ومن صلى العشاء في جماعة فهو في ذمة الله حتى يصبح، ويا ابن آدم لا تعجز عن ركعتين قبل الشمس أكفك النهار كله، أنت يومها في ضمان الله، وفي ذمة الله وفي حفظ الله وتوفيق الله، أردت من هذا الدرس أن نخصص وقتاً نكون فيه مع الله، ننسحب من همومنا، من

متاعبنا: متاعب الأسرة، متاعب العمل، متاعب الاختلاط، متاعب الأقارب، هذه كلها متاعب، لا يجب على الإنسان أن يكون لقمة سائغة لهذه المتاعب، لا يكون مستهلكاً من هذه المتاعب، هو أرقى من ذلك، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علمنا وأن يلهمنا الخير والصواب

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (095) :قواعد السلوك إلى الله2 - الصحبة - متى يجب أن تكون ومتى يجب أن تكون خلوة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-11-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون:

قبل أن أدخل في صلب الموضوع المخصص لهذا الدرس، لابد من مقدمة قصيرة وهي أن الإنسان إذا أصيب بمرض في عضو خطير لماذا يبحث عن أمهر الأطباء وعن أعلى الخبرات، وعن أدق الإمكانات، وعن أحدث الوسائل والأجهزة، لحرصه على حياته، أيهما أخطر حياته الدنيوية التي لابد من أن تنتهي بالموت، أم حياته الأبدية ؟ يعني أقرب الأمثلة: إذا أصيب الإنسان بمرض في عضو خطير، في عضو ينهي حياته كالقلب أو الدماغ، فإنه يبحث عن أمهر الأطباء وعن أحدث المستشفيات والتجهيزات، و هذا نابع من حرصه على صحته وسلامته. و قد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما رواه الإمام أحمد مرسلاً أي ليس عن صحابي:

((عَنْ ابْنُ عَوْنٍ عَنْ مُحَمَّدٍ: إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ))

الدين أخطر شيء في حياة الإنسان، اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، الأمور كلها تعود إلى الدين، فلذلك اتفقنا و قد طرحت هذا في درس سابق، أن قضية الدين قضية مصيرية، لا يستطيع أحد على الإطلاق كائن من كان أن يعطي رأياً شخصياً في الدين، لأن مصير الإنسان متعلق فيه، لا يستطيع ولا يجرؤ ولا يسمح لأحد في الأرض كائناً من كان أن يعطي رأياً خاصاً في الدين، لأن الخطأ في الدين خطأ في المصير، الخطأ في الدين يؤدي إلى نار الجحيم:

((عَنْ ابْنُ عَوْنٍ عَنْ مُحَمَّدٍ: إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ.))

ابنَ عمر دينك دينك، إنه لحمك ودمك خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا، فمن حرصي الشديد على تكوين منهج عند طلاب العلم، منهج تلقٍ، أقول: لا تقبل شيئاً من دون دليل، ولا ترفض شيئاً من دون دليل والدليل الأول هو الكتاب، والذي يليه هو السنة، وما سوى ذلك يقاس بالكتاب والسنة، فإن وافقه فعلى العين والرأس وإن لم يوافقه فلا نأخذ به، ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى العين والرأس وما جاءنا عن سواه فنحن رجال وهم رجال، كل إنسان يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذه القبة الخضراء، و بعدُ، فهناك موضوع في هذا الدرس قلما يطرح في مجالس العلم، وقد يرفضه بعضهم، هل ينبغي أن تكون مصاحباً لأهل الحق، أم أن تعيش وحدك، أيهما أولى ؟ أناس كثيرون جداً بل معظم الناس يرى أن يبقى وحده، فهو حر يقتنع أو لا يقتنع، ينصاع أو لا ينصاع،

يقرأ الكتاب أو يستمع، لكنه غير ملتزم، ليس تابعاً لأحد، لا يسلم قياده لأحد هذا رأي معظم الناس، وإذا أردت أن تعذرهم فأحياناً معهم العذر، وأنّ أناساً توهموا أنّ الحق في هذه الجهة، فخاب ظنهم و أرادوا أن يبقوا أحراراً، ولكن القضية ليست مزاجية، قضية مصيرية، السؤال الذي أجيبُ عنه إن شاء الله في هذا الدرس: هل الأفضل أن تبقى وحدك ؟ تقرأ كتاباً، تسمع شريطاً ، تحضر خطبة الجمعة، تعجبك أو لا تعجبك، لِمَ تكون مع أهل الحق وتبحث عنهم ؟ هذا السؤال و إجابته تجدها في هذا الدرس، وعنوان درسنا هذا: الصحبة، أي هل ينبغي أن تصاحب أهل الحق، أم أن تبقى وحدك، تستعمل عقلك وحدك، طبعاً كما عودتكم وكما ألزم هذا المنهج إن شاء الله، إلى أن تنتهي الحياة، ليس من عندي شيء ولا أستطيع أنا ولا غيري ولا أكبر مني ولا أصغر أن يعطي في الدين رأياً من عنده، لأن أول كلمة قالها سيد المؤمنين سيد المؤمنين، الصديق رضي الله عنه أول وهو على المنبر في خطبة الخلافة قال إنما أنا متّبع، و لست بمبتدع، لا يحق لإنسان أن يبتدع، إنما أنا متبع.

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق قال كما نص القرآن الكريم: " إن أتبع إلا ما يوحى إلي "، هذا الذي يرفع قدرك عند الله، أن تكون ملتزماً بتعليمات الصانع، أن تكون ملتزماً بمنهج الله عز وجل.

فنحن متبعون ولسنا مبتدعين، في موضوع الصحبة هل ينبغي أن تعيش وحدك، تُحكّم عقلك فقط و تنساق وراء مزاجك، يعجبك أو لا يعجبك ترضى أو لا ترضى، تقبل أو لا تقبل، تقوِّم الناس بتسرع، بلا تؤدة، بلا دليل، بنزوة طارئة، أم أن لك دليلاً أو مرجعاً في الحياة الدنيا ؟ وهذا المرجع له مرجع أيضاً، المرجع الذي ينبغي أن ترجع إليه يشبه لوحاً من البلور صافياً يشف عما وراءه، المرجع الذي ترجع إليه، مرجعه الكتاب والسنة، لا يقول لك افعل إلا بالدليل، ولا ينهاك عن فعل إلا بالدليل، ليس هناك مصالح لأحدٍ أياً كان. إذا كانت هناك مصالح فلا دعوة إذاً إلى الله عز وجل، المصالح منقطعة، قال تعالى:

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (50))

(سورة الأنعام)

وقال:

(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145))

(سورة الشعراء)

وقال أيضاً:

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21))

(سورة يس)

حينما تلمح أنّ هناك مصلحة، مكسباً قريباً أو بعيداً، كثيراً أو قليلاً، فالدعوة انتهت وبقيت المصلحة، والأرض ملأى بالتجمعات المصلحية، ففي العالم ملايين الفرق والطوائف والأحزاب كلها قد تجمعت

لمصلحة، فإذا كان التجمع لمصلحة فهذا من الدنيا، أما إذا كان الالتفاف مع أهل الحق في سبيل الله عز وجل فأنت متّبع وتتعاون ولا تتنافس، تتبع ولا تبتدع، تتعاون ولا تتنافس، تنصف ولا تجحد، فالابتداع و التنافس و الجحود علامات المبتدع. لذلك موضوع الدرس اليوم هل ينبغي أن أكون مع أهل الحق أم أن أكون مستقلاً لست مقيداً إطلاقاً، يعني حراً ؟ كلمة حر براقة ولكن وراءها ما وراءها، أن تكون حراً يعني أن تنحرف في الفتوى، إذا كانت مصلحتك في جهة فليس لك مرجع تستشيره، وليس لك قدرة على الوصول وحدك إلى حقائق الكتاب والسنة، لذلك قد تتعلق بآية تأخذ بظاهرها وتبني عليها حكماً وانتهى الأمر، إذا قال لك أحدهم قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130))

(سورة آل عمران)

تقول النفي ليس عن أكل الربا، وإنما عن أكله أضعافاً مضاعفة، حُلّت المشكلة، إذاً ما دامت النسبة قليلة فلا مشكلة، كل معصية قد تجد لها ثغرة، و قد خطر في بالي مثل قريب، البيت فيه غرفة ضيوف فيها ثريا غالية جداً فيها فرش نفيس جداً وسجاد، وغرفة صالون و غرفة طعام، هناك غرفة جلوس وآلات وكمبيوتر، هناك ثلاجة ومروحة ومكيف، ومطبخ وفي كل بيت هناك سلة قمامة، هل من الممكن أن يدخل إنسان إلى بيت لا يختار فيه إلا القمامة، ثم دخل لبيت آخر وأخذ القمامة، فجمّع قمامات البيوت في حاوية، و مثل هذه الحاوية كتاب ذكر مؤلفه أن الاختلاط: تلامُسُ الأجساد للأجساد، فإذا تباعد الجالس عن الآخر عشرة سنتيمترات فلم يعد هناك اختلاط، شيء جميل والله !! والثياب يجب أن تخفي لون العورة لا حجمها، أيْ أية ثياب ضيقة لا بأس، وقع تحت يدي هذا الكتاب قبل أسبوع، فلم أجد فيه معصية إلا مغطاة بدليل، ما رأيت مثلاً يعبّر عن هذا الكتاب إلا أنه حاوية، جمع قمامات الكتب في هذا الكتاب ورفع الحرج عن الإنسان وأطلقه ليفعل ما يشاء، فلذلك الحياة تحتاج إلى مرجع، فالإنسان بلا مرجع ضائع، ولو أن التعليم يصح بدون معلم لوفرنا على الأمة ألوف الملايين، و لألغينا عمل المعلمين، و ألغينا الأبنية المدرسية، و وفرنا الباهظ من المقاعد، ألغينا النفقات، تقريباً في كل العالم أول ميزانية للتربية والتعليم رواتب المعلمين والمدرسين والجامعات، و لو كان بالإمكان التعلم من دون معلم لألغت جميع الدول وزارات التربية و التعليم، و الإمام الشاطبي في موافقاته وهو من أرقى كتب الأصول يقول في المقدمة التاسعة فيما أذكر: لا يمكن أن يطلب العلم إلا على يد عالِمٍ متحقق ورع. و بعدُ، فلا زلت في التمهيد، أي هل يمكن أن تعيش وحدك، و بدون مرجع ؟ عقلك هو المرجع، كتاب في مكتبتك هو المرجع، وقد تجد كتباً والله أيها الإخوة وما أكثرها الآن فيها كل أنواع السلوك الإباحي مغطى ببعض الحجج الواهية فأنّى لك أن تكشف الحق من الباطل ؟ لا بد لك من مرجع متبصر متعمق عنده خبرات متراكمة يقدم لك رأيه ونصحه، فلذلك الشيء الثابت في علم النفس أن الإنسان إذا

صاحب إنساناً يكتسب منه ومن علمه وخبرته ومن أخلاقه ومن نورانيته إن وجدت، هناك إذاً اكتساب، وهذا الشيء ثابت عندنا، في علوم النفس مثلاً إذا إنسان صاحب شخصاً، يتكلم بالحقوق، فبعد شهر أو شهرين يستقي منه أفكاراً وأدلة حتى أساليب في الحديث، أساليب في الحركات، صار لديه استقاء فأثر الصحبة ثابت حتى عند أهل الغرب، وعند كل الناس، فالإنسان اجتماعي بطبعه، فليس هناك إنسان يعيش بمفرده، إن لم يكن لك صاحب من أهل الحق فلا بد أن تتخذ لك صاحباً من أهل الباطل، إما أن يكون لك صاحب جيد أو صاحب سيء، صاحب يدلك على الله أو صاحب يدلك على النار، صاحب يزين لك الآخرة، أو صاحب يزين لك الدنيا، صاحب يغريك بالطاعة، صاحب يغريك بالمعصية، أبداً لابد من إنسان تركن إليه، تأنس به، من هو هذا الإنسان ؟ هنا المشكلة، فأنت ملزم ولَسْتَ مخيراً، في البنية الاجتماعية.

فالله عز وجل حينما خلق الإنسان اجتماعياً بطبعه، لا يمكن أن يعيش بدون أناس، إذاً لابد من أناس تعيش معهم، من هم هؤلاء الذين ينبغي أن تكون بينهم ؟ هذا هو موضوع درسنا، فإذا لغى أحدٌ الصحبة الصالحة فله صحبة من نوع ثان، إذا كان له إخوان في المسجد، جلسوا يذكرون الله عز وجل، وتلطفوا له بالقول وتحدثوا معه في أمور الدين، وفي أمور القيم وفي أخبار الصحابة الكرام، وتحدثوا عما ينبغي أن يكون عليه المؤمن، فإن لم يكن له مثل هؤلاء، كان له جلساء آخرون مزاحهم جنسي، ونكاتهم قبيحة، وعلاقاتهم فيها أثرة وليس فيها مؤاثرة، أنت اجتماعي لابد لك من أناس تألفهم، تركن إليهم تحقق الدافع الاجتماعي في نفسك، هذه الفكرة الأولى أنت إنسان اجتماعي، لابد لك من مجتمع تعيش فيه، الـخيار إذاً بين شيئين لا ثالث لهما، جليس صالح أو جليس سوء، لذلك هؤلاء الذين اختارهم الله جل جلاله ليكونوا أصحاب نبيه الكريم، ما الذي جعلهم يفوزون؟ صحبتهم للنبي عليه الصلاة والسلام، أحد الصحابة و اسمه عقبة الجهني كان عنده غنيمات وكان يحرص عليها حرصاً بالغاً، فبلغته رسالة النبي عليه الصلاة والسلام، ذهب إلى النبي عليه الصلاة والسلام فبايعه، وعاد إلى غنيماته، كان يؤثر أن يبقى مع غنيماته وأن يستمع من أصحابه ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام، ثم خاطب نفسه قائلاً: ينبغي أن أكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصحبه وترك غنيماته، و ما كان يخطر في باله أن يكون قائداً فتحَ الشام، وتولى أمر مصر وكان من أعلم العلماء، ومن أرقى القراء لقد تحدثت عنه في خطبة حديثاً طويلاً أن هذا لو بقي مع غنيماته في الصحراء، ماعرفه أحد، لكنه لما صحب النبي عليه الصلاة والسلام بلغ ما بلغ، إذاً أصحاب رسول الله ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بصحبتهم مع رسول الله، أي من جالسهم سرى إليه حالهم وكلنا نعرف هذه الحقيقة، أي إذا الإنسان صاحب مؤمناً أرقى منه يشعر بسعادة، يأنس به يستمتع بحديثه، يستفيد من كلامه يشعر بحال متميز مع الله، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام يقول: أولياء أمتي إذا رُؤوا ذُكر الله بهم، هذه من علامة الولاية، أنك إذا

رأيت هذا الإنسان ذكرت الله عز وجل، يعني من جالسهم سرى حالهم إليه، من جالسهم تأدب بأدبهم، من جالسهم استقى من أخلاقهم، وابتعد عن زلاّت الناس، هنا نواجه السؤال الدقيق، أهؤلاء الذين خلفوا رسول الله عليه الصلاة والسلام أموجودون في كل مكان ؟ الجواب: نعم، الدليل لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة، لا تخلو منهم الأرض فابحث عنهم، لا تخلو من نفر عرفوا الحق و استقاموا على أمر الله، و طلبوا وجه الله عز وجل، أبداً، وهذه حجة الله على خلقه، هؤلاء قد يتسعون وقد يتقلصون، في العهود الغابرة كانوا كثيرين جداً، في زمن الفساد و الفتن ضاقت دائرتهم، ابحث عنهم لكن يجب أن تؤمن أن الأرض لا تخلو منهم أبداً، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما جاء في فيض القدير، أخرجه الحاكم و رواته على شرط مسلم: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة، يعني لا بد من وارث محمدي، لا بد من رجل عرف الله، لا أقول لكم كلمة المعرفة المطلقة و لا المعرفة التي ترقى لمعرفة رسول الله، هؤلاء صدقوا لكن أحياناً يكون لدينا كتيبة عسكرية فيجب أن يقودها لواء، لكنه غير موجود، هناك عندنا مقدم فلا بأس، أقل من مقدم لا بأس، فهذا الموجود، و لكن لابد لها من قائد، والمقولة الثابتة: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم يعني: أناس جلسوا في بيوت الله يتدارسون كتاب الله، الله جل جلاله ينزل عليهم السكينة تتغشاهم الرحمة، تحفهم الملائكة، يذكرهم الله فيمن عنده "

أنت في بيت الله، أنت في ضيافة الله، أنت جالس ليس هناك مقعد مريح ولا ضيافة طيبة، أنت جالس لتستمع إلى الحق و الثمار التي تقطفها بحضور مجلس العلم قد لا تصدق أنها أمن وطمأنينة، و أنها توفيق، و أنها نور يقذفه الله في قلبك، هذه المجالسة علامة المجانسة، أيُّ إنسانٍ إذا صاحب أهل الحق اقتبس منهم بالاقتداء، ونال بالاستفاء والتأثر الروحي، النقطة الدقيقة التي ألح عليها أن الإنسان عنده أمراض كثيرة جداً و هذه الأمراض إذا عاش مع مثيله من المرضى فلا أحد يعرف مرض الآخر أما الإنسان الطبيب الماهر المعافى من هذه الأمراض يكشف هذه الأمراض سريعاً، لذلك قالوا: أكبر مكسب وأكبر ثمرة من ثمار المصاحبة أن هؤلاء الذين تصحبهم ولك ثقة بعلمهم وأخلاقهم وحالهم العالي، هؤلاء يخلّصون طالب العلم من أمراضه الخفية، و أحياناً يقرأ الإنسان نصاً يكون حديث عهد بالعلم فيغلط عشرين غلطة في الصفحة لكن الأصول والأدب والكمال والطريقة الحكيمة أن تتلقى هذه القراءة بالقبول وتنبهه إلى غلطة واحدة وفي المرة الثانية تنبهه إلى غلطة أخرى، أما أن تصب عليه الأخطاء صباً فهذا مما يزعجه وقد ينفره و أهل الحق عندهم حكمة في تطهير الإنسان من بعض أخطائه، وأنا لي كلمة شهيرة: ليس العارُ أن تخطئ ولكن العار أن تبقى مخطئاً، كل بني آدم خطّاء، ليس العار أن تجهل، العار أن تبقى جاهلاً. فالجهل المؤقت ليس عاراً والخطأ المؤقت ليس عاراً وربنا عز وجل يؤدبنا، و أنا أسمع من إخواننا آلاف القصص، كيف أن الله عز وجل لفت نظره بلطف، أدبه،

نبهه، وهناك قصص كثيرة جداً، و قد سئل النبي عليه الصلاة والسلام: ما هذا الأدب يا رسول الله ؟ قال: أدبني ربي فأحسن تأديبي، فإذا لم يكن للإنسان مؤدب فهذه والله مشكلة، أحياناً ترى شخصاً أرعناً وقحاً لئيماً كلامه فيه فوقية، و هو لا يشعر بحاله، فمن سينبهه ؟ إنْ لم يعش مع إنسان أكمل منه يعلمه فكيف يتوازن ؟ و الإنسان عندما يعيش مع الكاملين يجد أخطاءه واضحة، صارخة، إذا عاش مع الساقطين يرى نفسه ولياً، يجب أن تعيش مع الكاملين لا مع الساقطين، أحياناً تجد كلمة مثيرة، لكن عليه الصلاة والسلام قال: يا بنيتي إن هذه الثياب تصف حجم عظامك، ما هي الكلمة البديل ؟ ساقك ! انتقى عليه الصلاة والسلام كلمة لا تثير الشهوة أبداً، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6))

(سورة المؤمنون)

و قد سُئِلَ صحابي جليل و أكبر من النبي سناً: أيهما أكبر أنت أم النبي ؟ فقال: هو أكبر مني ولكني ولدت قبله، ما هذا الأدب ؟ لقد جاء عكرمة بن أبي جهل العدو اللدود الذي حارب النبي ونكّل بأصحابه مسلماً، فقال عليه الصلاة والسلام: جاءكم عكرمة مسلماً فإياكم أن تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت، ما هذا الخلق الرفيع ؟ قال تعالى:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4))

(سورة القلم)

أي إذا لم تصاحب أهل الحق و إذ لم تَرَ من أدبهم ومن حيائهم ومن ضبط ألسنتهم ومن حسن تصرفهم ومن حكمتهم فمن أين تستقي هذه الكمالات ؟ فالإنسان لا بد له من مثل أعلى، لابد له من أناس يركن إليهم، و هأنذا أقول كلمة وأنا متأكد من صحتها: أحياناً أخ يلتقي مع بعض الإخوان، يجلس معهم جلسة يطير شوقاً إلى الله، كلام طيب، كلام فيه أدب وموضوعية ووفاء واحترام متبادل، فيه تضحية وإيثار، يستقي من أدبهم وعلمهم وحكمتهم، و الإنسان لن يصبح طبيباً إلا إذا درس في جامعة، و لا بد لك من مرجع تستقي منه، وكل إنسان في الجامع هو مرجع لمن هو مستجد، لك دور كبير جداً، يأتي أخ جديد يصاحب أخاً، يسهر معه سهرة فيجد من كلامه الطيب، من أدبه الرفيع، من حلمه، من كرمه وعطائه، فالذي يقربك من الله إخوانك الذين سبقوك بالإيمان، فأنا أصر طبعاً و لم تأت الأدلة بعد، على أن تكون مع أهل الحق، على أن يكون لك مرجع، تستشيره تستهديه تأخذ برأيه المعلل بالدليل، فهذه الأمراض القلبية، والعلل النفسية تستفحل إلى درجة أنْ تؤذيك، إن لم يكن لك مرجع، خبير، إذاً ليكن لك إخوان كمّل وأنت بينهم يتلطفون معك ينبهونك بإشارة، أو بعبارة، أو بصمت أحياناً، صمتهم توجيه، خرجت كلمة نابية فسكتوا جميعهم ولم يعلقوا بأي تعليق، أحياناً ندّت مزحة غير لائقة فلم يضحكوا فقد نبهوك ولكن بأدب و لم يخجلوك أو يحمِّروا وجهك، سكوتهم توجيه، فالإنسان يتأدب بمن سبقه في الإيمان،

يتأدب بالأكمل، بالأقوى، المشكلة الخطيرة أن تكون منحرف العقيدة والسلوك وأنت في وهمك أنك أحسن الناس، وأنك أرقى الناس، وأنك على الحق المبين، قال تعالى:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104))

(سورة الكهف)

هل هناك بيت ليس فيه مرآة ؟ إخواننا الكرام، بيت بلا مرآة ممكن، و لكنك تريد تصفيف شعرك، تريد أن ترتدي ملابسك، فلا بد من مرآة، وهل تصدقون أن المؤمن مرآة أخيه المؤمن، أنت بحاجة إلى مؤمن لأن المؤمن مرآة المؤمن، به ترى عيوبك ولكن بنعومة، بلطف، و بالمناسبة استمع الحديث الذي رواه أبو داود عن أبي هريرة:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ، وَالْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ يَكُفُّ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَيَحُوطُهُ مِنْ وَرَائِهِ))

ولكن هناك مرآة صافية تريك حجمك الحقيقي، تريك مرتبتك الحقيقية، وهناك مرآة جرباء تشوه الصورة، وهناك مرآة تكبِّر، هناك شخص يكبرك زيادة، وعندما كبّرك زيادة و صدقته، فتعاملت مع الناس بهذا الحجم الكبير فإنه يكون قد آذاك بذلك و يضعك في موقف إحباط، أراد أن يضعك في موقف حرج، هناك مرآة مقعرة تكبِّر وهناك شخص كيفما جلست معه يصغرك، بأيّ شيء تكلمت يسفه لك رأيك وعملك ووظيفتك وإنجازك وشهاداتك ودخلك، نمطه مرآة محدبة، فالمؤمنون مرآة صافية مستوية، المؤمن مرآة صافية مستوية، أما غير المؤمن إما مرآة جرباء تشوه الصورة أو تكبّر أو تصغّر، الأكمل ألا تكبِّره ولا تصغّره، أعطه حقه، كن منصفاً، وعامة الناس إذا أحبوا إنساناً رفعوه إلى أعلى عليين، وإذا سخطوا على إنسان جعلوه في أسفل سافلين وهذا ظلم وهذا عدم إنصاف قال تعالى:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (21))

(سورة الأحزاب)

سيد المربين رسول الله، سيد العلماء رسول الله، سيد الحكماء رسول الله، في النهاية القدوة المطلقة رسول الله بأخلاقه وحكمته وتربيته وأدبه الرفيع، كان أشد حياء من العذراء في خدرها، قال أبيّ بن كعب رضي الله عنه كنت في المسجد فدخل رجل فصلى، فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فلما قضيا الصلاة دخلنا جميعاً على النبي عليه الصلاة والسلام فقلت: يا رسول الله إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، فدخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه فأمرهما النبي عليه الصلاة والسلام أن يقرأا، فحسّن النبي شأنهما معاً، أبي كان قاسياً، و لابد له من أن يمسك السيف ويهوي به على أحدهما، أما النبي عليه الصلاة والسلام حكيم حسّن قراءتيهما معاً فسقط في نفسي

فأسقط في يدي ثم داخلني ريب، لماذا هذا الذي حدث ؟ قال: فلما رأى النبي عليه الصلاة والسلام ما غشيني ضرب في صدري ففضت عرقاً وكأني أنظر إلى الله فَرَقَاً، النبي مُربٍّ، النبي هادٍ، أحياناً مثلاً إنسان يقرأ قرآناً أمامك غاب عنه الإدغام هناك مُقرئين يسبونه أحياناً، أنت بذلك تكون قد حطمته، دع الإدغام لا يظهر ولكن احفظ له كرامته، هناك أناس فيهم قسوة بالغة أحياناً و ليس عندهم حكمة، تدريس ولكن بدون حكمة، فالنبي علّمنا. أحد الصحابة أثناء الصلاة عطس فقال له شخص آخر: يرحمك الله، بدوي جاء من فترة قصيرة إلى المدينة فصحابي ضربه على رجله وقال له: اسكت، فخاف خوفاً شديداً، خاف عند انتهائه من صلاته أن يميته ضرباً، فلما انتهت الصلاة قال له النبي: يا أخي إنّ هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنها التسبيح والذكر، فقال: بأبي هو وأمي والله ما قهرني وما عنّفني وما رأيت معلماً أرحم منه ولا أحكم، علّموا ولا تعنّفوا فإن المعلم خير من المعنّف، أحياناً يكون ابنك تعباً كلمة قاسية تجعله ينفجر، بل عليك أن تثني عليه بشيءٍ موجود فيه، ذات يوم دخل رجل ليلحق الصلاة مع النبي فملأ المسجد صخباً وضجيجاً، فلما انتهت الصلاة، قال له النبي عليه الصلاة والسلام: زادك الله حرصاً، ولا تعد، أثنى على حرصه، لكن أخطأ في الوسيلة، إخواننا الكرام هناك آيتان في القرآن الكريم أكثر المؤمنين يغفلون عن دقائقهما قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (2))

(سورة الجمعة)

يزكيهم، هي أكبر مهمة للنبي عليه الصلاة والسلام وللدعاة من بعده هذا مقام التربية، مقام التربية أبلغ من مقام التعليم بمليون مرة، التعليم: ألقى محاضرة وانتهى الأمر، ألقى المحاضرة وانتهى كل شيء، لكن الحقيقة لم ينته شيء بالأساس، أما التربية أن تلاحظ كل أخ كيف وضعه، و صلته بالله و إقامته، وضعه المعاشي، إقباله على الله، ماذا بحياته من عقبات ؟ ماذا لديه من المشكلات ؟ التربية تعني أبوة، الآن نصل إلى الأدلة، و السؤال: هل الأفـــضل أن تعيش وحدك مرجعك عقلك والكتب بين يديك والأشرطة كثيرة جداً والمحاضرات كذلك ؟ وكل يوم في جامع، و تقول أنا لا علاقة لي بأحد، أنا حر طليق، أنا مستقل، أليس هناك نواب مستقلون، نواب يمثلون جهات معينة، و تبقى تردد: أنا مستقل و هذا خطأ واضح و بعدُ، فإليك الأدلة، و هذه أول آية قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119))

(سورة التوبة)

أمر إلهي يقتضي الوجوب، والأدق من ذلك أن تفهم الآية فهماً عميقاً، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولن تستطيعوا إلا إذا كنتم مع الصادقين، اتقوا الله من أجل أن تحققوا هذا الهدف: كونوا مع الصادقين، أنت

بحاجة إلى بيئة راقية، والكلام الآن دقيق جداً تجد شخصاً متماسكاً ضعه في بيئة فاسدة يحافظ على تماسكه إلى حين ثم يهوي، لكن الإنسان الذي يعيش في بيئة راقية يسمو، هذه البيئة لها أثر كبير جداً، وليس هناك إنسان يصل إلى الله إلا بحمْية اجتماعية يصاحب من يشاء، و ذات مرةٍ في درس من دروس جامع الطاووسيّة كان هناك توفيق إلهي وقف أحدهم فجأة و قال: أستاذ، وليس من المألوف داخل درس عام أن يتكلم أحد معترضاً، قال لي: يا أخ نسمع منك شيء جميل جداً، وعندما نذهب إلى البيت نرجع كما كنا، ما هذه القصة، فألهمني الله جواباً سريعاً، قلت له: غيّر الطقم كله، إذا لم تغير الطقم فهذه مشكلة، إذا كان الطقم قديم: لعب طاولة ومزح ومناظر وشاشة مفتوحة وأفلام وصحون، فكل شيء حصّلته بالمسجد تفقده بالبيت، إذا لم تغير الطقم فليس هناك حل، لذلك قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119))

(سورة التوبة)

هذا أمر إلهي يقتضي الوجوب، بل إنّ تفصيل هذا الأمر إن لم تكن مع الصادقين لن تستطيع أن تتقي الله عز وجل، الثاني: من هم الصادقون ؟ قال العلماء: هم الصفوة من المؤمنين الذين عناهم الله بقوله تعالى:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23))

(سورة الأحزاب)

اسم القرآن مثاني لأن كل آية تنثني على أختها فتفسرها قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119))

(سورة التوبة)

من هم الصادقون ؟ قال العلماء: هم الصفوة من المؤمنين الذين عناهم الله عز وجل بقوله:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23))

(سورة الأحزاب)

الآية الثـانية موجهة إلى النبي عليه الصلاة والسلام ولكل مؤمن من خلال النبي عليه الصلاة والسلام قال تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28))

(سورة الكهف)

طبعاً هناك سهرة في مسجد وهناك سهرة في ملهى وهناك سهرة بالبيت هناك اختلاط وهناك غناء ومزاح ونظرات غير مهذبة وتعليقات غير سليمة وهناك عشاء فخم وجلسة مريحة وفيها سرور وفيها بهجة، وهناك جلسة بمسجد قال تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28))

(سورة الكهف)

هذا هو الدليل الثاني، أما الدليل الثالث قال تعالى:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15))

(سورة لقمان)

اتبع طريق الذي أناب إلى الله ورجعَ إليه وأقبلَ عليه واصطلحَ معه فاتبع سبيله، الدليل الرابع قوله:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً (29))

(سورة الفرقان)

الدليل الخامس قال تعالى:

(الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67))

(سورة الزخرف)

لا بد لك من خُلّة مع المتقين، وأن تتخذ مع الرسول سبيلاً وأن تتبع سبيل من أناب إلى الله وأن تصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي وأن تكون مع الصادقين، هذه خمسة أدلة، أما الدليل السادس قال تعالى:

(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (59))

(سورة الفرقان)

هذه ستة أدلة من كتاب الله و الدليل السابع قول سيدنا موسى عندما قال لسيدنا الخضر: قال تعالى:

(قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (66))

(سورة الكهف)

هذه سبع الآيات ألا ينبغي أن تكون دليلاً قاطعاً مانعاً جامعاً تدفعنا إلى أن نكون مع المؤمنين، وألا نكون مستقلين، الآن الدليل من السنة قال الرسول:

((عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً))

إذاً فهناك جليس صالح وجليس سوء، وحديث آخر:

((عن ابن عباس رضي الله عنه قال: يا رسول الله أي جلسائنا خير، قال: من ذكركم اللهَ رؤيتُه، وزاد في عملكم منطقُه، وذكركم في الآخرة عملُه))

يعلمك بعمله ويعلمك بمنطقه ويذكرك بالله عز وجل مثل هذا صاحبه، الدليل الثالث:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ))

دليل آخر:

((عَنْ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ ؟ قَالَ: هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلاَ أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فَوَاللَّهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ لاَ يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلاَ يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ (أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)"))

والله شيء جميل، هناك مخاوف بالأرض الآن تسحق أكبر إنسان، الأمراض وحدها شيء محير، و نفقات علاج الأمراض فوق طاقة الإنسان، في الأمراض وحدها القهرُ العام، أحياناً ترى شعوباً متخلفة و الدول العظمى تسحقها سحقاً، المخاوف كبيرة جداً فلذلك هؤلاء المؤمنون الصادقون لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس، و هذا دليل آخر:

((عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الرَّجُلُ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْمَلَ كَعَمَلِهِمْ، قَالَ: أَنْتَ يَا أَبَا ذَرٍّ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ، قَالَ: فَإِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قَالَ: فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ، قَالَ: فَأَعَادَهَا أَبُو ذَرٍّ فَأَعَادَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

لأن القوم لا يشقى بهم جليسهم. أيْ: لك شفاعة، وأدق نص هذا الذي تركته للأخير و هو:

((عَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ قَالَ وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا ذَاكَ ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا

كَثِيرًا فقالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلاثَ مَرَّاتٍ))

يكون هناك تجلٍ بالدرس أحياناً وسرور، راحة، طمأنينة، لكنَّ كل الهموم تتوالى بالطريق و هذا شيء طبيعي، هذه و في المسجد ضيافة الله عز وجل، وأنت آت لعند الله وليس لعند الشيخ، الله عز وجل يلهم هذا الرجل الذي نذر نفسه للدعوة لله، أن يختار شيئاً يناسبك، فأنت أتيت لبيت الله، وهذا بيته، فهذا الشعور بالسرور والأمن والطمأنينة والسعادة والراحة النفسية من ضيافة الله للمسجد والدليل الدقيق جداً:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

هناك تجلٍ، و سكينة، و هناك توفيق من الله، هم في مساجدهم والله في حوائجهم، بالمقابل:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ إِلاَّ قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً))

حديث الدنيا لا ينتهي، وهناك تنافس مستمر، وهناك أناس محرومون وآخرون متفوقون، وأناس معهم أموال طائلة وأناس ليس معهم شيء وأناس تكاد تنفجر بطونهم من كثرة الأكل وأناس يتمنون أكل لقمة، فيلّا بناها بخمسين مليوناً من أجل أسبوعين بالصيفية وآخر لا يوجد عنده غرفة بضاحية " عين ترمة " مثلاً، اجلس معهم تجد أن هناك مشكلات لا حصر لها. أما أنت فقد تحدث عن الله عز وجل و تصغّر الدنيا في عين الناس، الدنيا مؤقتة، تتمة الدليل قال له: نافق حنظلة، فقال له: ولِمَ يا أخي، قال له: نكون مع رسول الله ونحن والجنة كهاتين و قرن بين السبابة و الوسطى فإذا عافسنا الأهل ننسى، انظر إلى الأدب قال له: وأنا كذلك يا أخي، أحياناً: أخ لك يشكو لك من زوجته فتقول له: أنا زوجتي ممتازة والحمد لله، قد تكون كاسرة خاطره ويقول لك: زوجتي ممتازة، يقول آخر: والله ابني أتعبني، فيقول جليسه: أنا الذي عندي الله يرضى عليه، ممتاز ملاك. هذا كلام فيه قسوة، قال له: وأنا كذلك يا أخي، أرأيت إلى هذا الأدب و إلى هذا التواضع، ثم قال: انطلق بنا إلى رسول الله، فذهبا إلى النبي وحدثاه بقول حنظلة فقال عليه الصلاة و السلام: أما نحن معاشر الأنبياء فتنام أعيننا ولا تنام قلوبنا أما أنتم فساعة وساعة، نحن معاشر الأنبياء على اتصال دائم، انظر وتمعَّنْ: ساعة إقبال وساعة فتور، وليس ساعة إدبار، إقبال وفتور، لأن المؤمن مستقيم دائماً و لا إدبار لديه، فلو أعرض عن الله فإنه يعصيه، قال الرسول:

((إن للنفس إقبالاً وإدباراً، فإن أقبلت فاحملوها على النوافل، وإن فترت فاحملوها على الفرائض))

مهما كنت متضايقاً فعليك بالصلوات وغض البصر و حفظ اللسان و هذا ثابت، أما إذا كان هناك إقبال فهناك قيام ليل، و إذا كان هناك تألق فهناك قراءة جزء من القرآن كل يوم، ممكن أن تصلي صلوات نافلة وتصوم كل اثنين وخميس، و تعمل أعمالاً صالحة كثيرة جداً. هذه في حال الإقبال، أما بالفتور فإذا كان هناك مشكلة تعاني منها وهناك فتور فحافظ على الفرائض، وإن شاء الله هذه لا تطول و تخرج منها بعافية، قال له:

((عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ قَالَ وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا ذَاكَ ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

معنى ذلك أن كل مؤمن في بيت الله له حال مع الله، و هذه علامة إيمانك: الطمأنينة، هذا الدليل السادس من السنة، و بعد، فقد أصبح عندنا سبع آيات قرآنية وستة أدلة من السنة ألا تكفي هذه أن تكون مع الصادقين، أرجو الله سبحانه وتعالى أن أكون قد قدمت شيئاً بهذا الدرس، فخلاصة موضوع الصحبة: لا بد لك من أن تكون مع أهل الحق، لا بد من أن يكون لك مرجع تثق بعلمه وورعه، لا بد من أن تعيش مع المؤمنين من أجل أن تكون في بيئة صالحة، أحياناً يشتري المزارع أغلى بذرة ويضعها في تربة سمادها غير جيد، غير مخمر، غير معقم، فتتلف البذرة، يأتي مزارع آخر ببذرة وسط أو أقل من وسط يضعها في تربة معقمة مسمدة فتنمو، فالبيئة لها أثر كبير جداً في رقي الإنسان، و إن شاء الله لنا متابعة في هذا الموضوع، فهو موضوع أساسي جداً ولكني أرجو الله سبحانه وتعالى أن تحافظوا على مجالس العلم، فهذه نفحات إلهية، و الإنسان بلا علم تائه، شارد، ضال، بلا مرجع حائر، و أحياناً ييأس، و أحياناً تغلب عليه السوداوية، و أحياناً يرى مع الله آلهة أخرى، يرى فلاناً قوياً وآخر غنياً وفلاناً يعطيه وآخر يمنعه، نسي الله واتبع الناس فضاع وتشعب، قال الرسول:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوا الْعِلْمَ وَوَضَعُوهُ عِنْدَ أَهْلِهِ لَسَادُوا بِهِ أَهْلَ زَمَانِهِمْ وَلَكِنَّهُمْ بَذَلُوهُ لِأَهْلِ الدُّنْيَا لِيَنَالُوا بِهِ مِنْ دُنْيَاهُمْ فَهَانُوا عَلَيْهِمْ سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

يَقُولُ: مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ))

فلتبق أنت موحداً ولا بد لك من مرجع، وهذه سبع آيات وستة أحاديث تؤكد أنه لا بد من الصحبة، لا بد من أن تكون مع أهل الحق، لا بد لك من مرجع تركن إليه تثق بعلمه وورعه والجماعة رحمة والفرقة عذاب:

((قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَا مِنْ ثَلاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلاَ بَدْوٍ لاَ تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلاَةُ إِلاَّ قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ.))

والحياة المدنيّة حياة تفرق، لي صديق ذهبت إلى عيادته فأخبرني أنه يسكن في ركن الدين، بحارة كذا ببناء كذا و قال لي: إنه بالطابق الرابع فلعلي طرقت الطابق الثالث، سألتهم عن فلان فقالوا لي: لا نعرفه، هم صادقون فلا يعرفون اسمه، له أربع سنوات ساكن و لا يعرفونه، هكذا الناس كل واحد في بيته، لا أحد يعرف أحداً، أما المؤمن، فله أصدقاء و إخوة مؤمنون يعيش بينهم عندئذ لست وحدك في الحياة أنت ضمن إخوة كرام صادقين، والله أيها الإخوة أحياناً تُحل أكبر مشكلة بتعاون الجماعة، وأحياناً إنسان يعيش وحده تحطمه أقل مشكلة، أكبر مشكة تحل بالجماعة وأقل مشكلة تُحطم إنساناً ندّ عن الجماعة المؤمنة، فإذا كان الإنسان مع المؤمنين فهو في رحمة الله:

((عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لاَ يَجْمَعُ أُمَّتِي أَوْ قَالَ: أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ضَلاَلَةٍ وَيَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ))

عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة:

((قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَا مِنْ ثَلاَثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلاَ بَدْوٍ لاَ تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلاَةُ إِلاَّ قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ))

فجواب السؤال الذي طرح أول الدرس هل الأفضل أن تعيش وحدك؟ يقول: أنا عندي أشرطة وأقرأ كتباً وأحضر خطباً، أنوِّع وأنا مستقل وليس لي علاقة بأحد، فاحذر فقد تفتي فتوى غير صحيحة وقد تقنع قناعة غير صحيحة، وقد تنحرف انحرافاً خطيراً، أما أن تكون مع المؤمنين، مع الصادقين، فلك عندئذ مرجع تثق به. هذا هو الدرس اليوم عنوانه: " الصحبة " وما سُمي أصحابُ النبي أصحابَ النبي إلا لأنهم صحبوا النبي والنبي عليه الصلاة والسلام مثل أعلى، قال: إنّ الله اختارني واختار لي أصحابي. والإنسان على قدر صدقه وإخلاصه يجمعه مع من يستفيد منه

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (096) :قواعد السلوك إلى الله3 - الذكر.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-11-23

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون:

لا زلنا في سلسلة من دروس تتجه إلى تغذية القلب وعقد الصلة مع الله عز وجل، بدأنا هذه الدروس بدرس (الخلوة) وانتقلنا منها إلى درس(الصحبة)، وها نحن ننتقل إلى درس سادس موضوعه (الذكر)، أصل الذكر أن الله سبحانه وتعالى جعله غذاءً للقلب قال تعالى:

((الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28))

(سورة الرعد)

والقلب هنا قلب النفس، النفس بين أن تطمئن وبين أن تضطرب، بين أن تطمئن و بين أن تخاف، بين أن تطمئن وبين أن تقلق، مرض العصر القلق و الخوف و الاضطراب، فهذه الأمراض كلها تنتفى عن المؤمن حينما يذكر الله عز وجل، والآية الكريمة:

((الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28))

(سورة الرعد)

في الآية لفتة بلاغية، فيها قصر، لو أن الله سبحانه و تعالى قال: تطمئن القلوب بذكر الله، لكان المعنى أنها تطمئن بذكر الله وبغير ذكر الله، أما حينما قال الله تعالى:

((الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28))

(سورة الرعد)

أي أن القلوب لا تطمئن إلا بذكر الله، و هذه هي الفطرة، فالإنسان قبل أن يصطلح مع الله و قبل أن يعرف الله فهو في ضياع، كأنه فاقد شيئاً عظيماً، لا يدري ما هو، فإذا وصل إلى الله وذكره اطمأن قلبه، و هذه الطمأنينة لا تقدر بثمن، هي أثمن ما في الحياة النفسية فماذا تعني كلمة الذكر ؟ أو أن هذه الكلمة حينما وردت في كتاب الله، فما المعاني المستنبطة من سياق الآيات حول كلمة الذكر؟ أولاً الذكر هو القرآن الكريم بأكمله، قال تعالى:

((إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9))

(سورة الحجر)

وهذا الاسم لكتاب الله عز وجل اسم جامع مانع أي كأن هذا القرآن تذكرة لبني الإنسان، خالق الأكوان ذكّر الإنسان بهذا القرآن: هو ذكرى، و معنى ذكرى أنك إذا ذهبت إلى بلد ورأيت منظر جميل، ثم طال بك الأمد ونسيت هذا المنظر، فإذا أطلعناك على هذا المنظر بصورة مثلاً، تقول أذكره، معنى ذلك أن

الفطرة تتوافق مع الإيمان، فأنت حينما تُذكّرُ بالله تذكر بأن الله سبحانه وتعالى فطر النفوس فطرة إيمانية

فإذا انحرفتَ و طمست هذه الفطرة ثم ذكّرتها بربها ذكرت، لذلك ربنا عز وجل يقول: " كلا إنها تذكرة " كل هذا الدين تذكرة للإنسان، ليذكر ما عاهد الله عليه في عالم الأزل، قال تعالى:

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172))

(سورة الأعراف)

إذاً الذكرُ في المعاني الدقيقة لهذه الكلمة التي وردت في كتاب الله و القرآن الكريم، قال تعالى:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9))

(سورة الحجر)

هذا هو المعنى الأول، و المعنى الثاني: صلاة الجمعة و خطبتها، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (9))

(سورة الجمعة)

يعني اسعوا لخطبة الجمعة و للصلاة، لأنها تذكركم بالله، أنت سائح، أنت مستغرق في أمور الدنيا، يأتي يوم الجمعة، هذا اليوم لله، لتذكر الله، لتذكر مهمتك في الحياة الدنيا، فاسعوا لذكر الله، وقد أجمع العلماء على أنّ ذكر الله في هذه الآية هو خطبة الجمعة، لذلك فالشخص الذي يأتي المسجد في أول ساعة فكأنما قدّم بدنه، والذي يأتي في الساعة الثانية فكأنه قرّب بقرة، والذي يأتي في الساعة الثالثة فكأنه قرّب شاة، والذي يأتي في الساعة الرابعة فكأنه قرّب دجاجة، والذي يأتي في الساعة الخامسة فكأنه قرّب بيضة، فإذا صعد الخطيب المنبر فلا صلاة ولا كلام، و الملائكة تكف عن كتابة الأجر وتجلس لتستمع للخطبة كما ورد في الحديث الصحيح، وهذا المعنى الثاني لكلمة الذكر، أما المعنى الثالث: العلم قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43))

(سورة الأنبياء)

عندك آيتان قال تعالى:

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (59))

(سورة الفرقان)

وقال أيضاً:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43))

(سورة الأنبياء)

أنت في كل شؤون حياتك عليك أن تستشير أولي الخبرة والاختصاص اسأل أهل الذكر فأنت بالسؤال تستعير خبرات الرجال، وعلمهم، تستعير كل ما يملكون بسؤال مؤدب ؛ فهذا إنسان متخصص، متمكن، خبير باعه طويل في هذا الموضوع، أمضى أربعين عاماً في هذا الاختصاص، إن سألته أخذت كل علمه، لذلك قال العلماء: السؤال مفتاح العلم، وقد قال الله تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43))

(سورة الأنبياء)

أما إن أردت أن تعرف الله، أن تعرف أسماءه الحسنى، صفاته الفضلى، أما إن أردت أن تعرف ما عند الله من نعيم مقيم، وما عنده من عذاب أليم، أما إن أردت أن تعرف الله قال تعالى:

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (59))

(سورة الفرقان)

رمن هنا يقولون في وصف بعض العلماء " العارف بالله "، هناك من يعلم قوانين خلق الله، هذه جامعات العالم: الفيزياء والكيمياء والرياضيات والطب والهندسة، والفلك وعلم النفس وعلم الاجتماع والتربية، وعلم المستحاثات والجيولوجيا والفيزياء النووية، والكيمياء العضوية، إلى آخره فروع الجامعات كلها تعطي العلم بخلق الله، والجامعات في العالم الإسلامي تعطي العلم بأمر الله، الزواج والطلاق والميراث وأصول الفقه واستنباط الأحكام وتاريخ التشريع وعلوم القرآن وعلوم الحديث وعلوم السنة إلى آخره، فهذه أوامر الله عز وجل، لكنّ العلماء بالله وحدهم يعطونك العلم بالله، وعليه،فهناك عالِم بالشريعة وهناك عالِم بالطريقة وهناك عالِم بالحقيقة كما يرى بعض العلماء، قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43))

(سورة الأنبياء)

كلما قرأت هذه الآية فاقرأ الآية التالية قال تعالى:

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (59))

(سورة الفرقان)

إن أردت أن تعرف ما سوى الله فاسألوا أهل الذكر، إن أردت أن تعرف الله فاسأل به خبيراً،عندك مصدران للإجابة رجل يعرف الله، ورجل يعرف ما سوى الله، والسؤال مفتاح العلم، والإنسان بالسؤال يرقى وبالعلم يرقى، ولعل العلم وحده هو القيمة المرجحة للتفاوت بين البشر قال تعالى:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (9))

(سورة الزمر)

إذاً أول معنى للذكر القرآن الكريم، المعنى الثاني الذكر هو خطبة الجمعة وصلاتها، المعنى الثالث أهل الذكر أهل العلم، المعنى الرابع الذكر، ذكر الله بلسانك قال تعالى:

(فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً (103))

(سورة النساء)

ما معنى هذه الآية ؟ اذكروا الله وأنتم واقفون وأنتم جالسون وأنتم مضطجعون، أي فاذكروا الله دائماً، لذلك أوامر الذكر لا تنصب على الذكر وحده بل تنصب على الذكر الكثير لقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (42))

(سورة الأحزاب)

بل إنّ من علامات المنافقين أنهم لا يذكرون الله إلا قليلا، وإنّ الذي يذكر الله ذكراً كثيراً برئ من النفاق، إذاَ المعنى الرابع لكلمة الذكر أن تذكر الله بلسانك قال تعالى:

(فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً (103))

(سورة النساء)

وقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (45))

(سورة الأنفال)

وقال أيضاً:

(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8))

(سورة المزمل)

أما النبي عليه الصلاة والسلام فيقول في حديث قدسي:

((قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا مَعَ عَبْدِي حَيْثُمَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ))

أي أنا معه مؤيداً، ناصراً، حافظاً، موفقاً، مطمئناً، معزاً، أية صفة ترتاح إليها، أية صفة تصبو إليها، أي صفة تطمح إليها فالله جل جلاله يمنحك إياها إذا ذكرته، أي إن أردتم رحمتي فارحموا خلقي. إنك يا ابن آدم إن ذكرتني شكرتني، وإن نسيتني كفرتني، لمجرد أن تذكر الله فأنت شاكر لله، وأعود لأكرر الحديث الشريف:

((قالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ اللَّهُ تَعَالى: أنَا مَعَ عَبْدِي حَيْثُمَا ذكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ))

وقال أيضاً:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ أَنَّ أَعْرَابِيًّا قالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلامِ قدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ فَأَنْبِئْنِي مِنْهَا بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ قالَ: لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

الحقيقة أيها الإخوة، هذه كلمة فيما بين السطور، في أول الطريق الإنسان يجد صعوبة في الذكر، لكن والله الذي لا إله إلا هو، بعد أمد معين، بعد أن تخطو خطوات واسعة بطريق الإيمان، ليس في ذهنك وليس في مخيلتك وليس في طموحك وليس من نشاطاتك إلا أن تذكر الله عز وجل، المؤمن أينما حل لا يفتر لسانه عن ذكر الله، يعرِّف الناس بالله، بآية من كتابه، بحديث من نبيه، بقصة مؤثرة، بحكم فقهي، بآية كونية، بموعظة مؤثرة، بلفتة دقيقة، بحُكم يحتاج الناس إليه، أيّ كلامٍ يفضي إلى الله فهو من ذكر الله، بعد قليل ترون أنّ أوسع نشاط على الإطلاق يقوم به الإنسان هو أن يذكر الله، إذا قرأ القرآن الكريم فهو ذاكر لله، إذا قرأ الحديث الشريف فهو ذاكر لله، إذا قرأ تفسير القرآن فهو ذاكر لله، إن قرأ تفسير حديث رسول الله فهو ذاكر لله، أي نشاط على الإطلاق يمارسه الإنسان يفضي إلى الله، إن قرأت كتاب فقه، إن نصحت إنساناً، إن أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، إن أردت أن تقرب الناس إلى الله عز وجل بقصة مؤثرة فأنت ذاكر لله، لذلك قال الرسول الكريم:

((عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَرْضَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَمِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ قالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قالَ: ذِكْرُ اللَّهِ))

سبحان الله ؛ المؤمن أينما جلس يذكر الله، لذلك إذا رؤي يُذكَرُ اللهُ به، ليس عنده موضوعات أرضية، موضوعاته سماوية، الموضوعات الأرضية مملة وغير المملة تفرِّق الحاضرين، تحدث عن تجارة غير التاجر يتضجر، تحدث عن سفر غير المسافر يتبرّم، تحدث عن ميزات الزواج غير المتزوج يتألم، أيّ كلام دنيوي يقيم شرخاً في المجلس، أما إن تحدثت عن الله هو رب الجميع، هو خالق الجميع، وهو معقد آمال الجميع، لذلك إن أردت أن يحبك الناس فأكثر من ذكر الله، أما شأن الموضوعات الأرضية فيبينها قوله عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا مِنْ قوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ إِلاَّ قامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً))

بعد أن تنتهي الجلسة يقال: لقد تكسر جسمنا، لأنه ليس هناك خبر سار وليس هناك شيء مريح للنفس بل تكاثر وتفاخر، قال تعالى:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (20))

(سورة الحديد)

والإنسان أحياناً ينساق بالحديث مع الشيطان فيجعل نفسه محور كل حديث: يلقي الضوء على نفسه، على ذكائه على نشاطاته، على إنفاقه للمال قال تعالى:

(يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً (6))

(سورة البلد)

على مشاريعه على متعه الرخيصة، فهذا الحديث المتمحور حول الذات يمجه الناس، والإنسان له حاجة عند الله، فإن قربته إلى الله سعدت وأسعدت، سعدت بهذا الحديث وأسعدت غيرك لذلك فالذي أرجوه من الله عز وجل لنا جميعاً في أي مجلس كنا، في أي لقاء، في أي مناسبة، في سفر، في إقامة، في حفل، في وليمة، في عقد قران، ليكن لسانك رطباً بذكر الله، ربنا عز وجل يحبك عندئذ، قال:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِن اقْتَرَبَ إِلَيَّ شِبْرًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

أي أنت تضع نفسك في الظل وتمدح الله عز وجل، والله جل جلاله يرفع لك ذكرك، وأينما ذكر اسمك في المجتمعات يثنون عليك، هذا هو كمال الله عز وجل، أنت يا عبدي تذكرني وأنا أثني عليك أمام الخلق، أنا ألقي محبتك في قلوب الخلق، أنت تذكرني وأنا أرفع لك ذكرك بين الخلق، والإنسان إذا سلط الضوء على نفسه ومدح نفسه فحينما ينصرف من المجلس، فأول تعليق إنه مغرور، ثاني تعليق: ما هذه الفوقية، وأي شخص يتكلم في المجلس لا يتكلم إلاّ من باب المجاملة، أما حينما يخرج تتزاحم التعليقات اللاذعة، فلذلك حينما يضع الإنسان نفسه في الظل و يذكر سيده و مولاه يرفعه الله عز وجل وهذه قاعدة، يعني أنت ضع على نفسك إشارة إكس، من أنا ؟ نور الدين الشهيد قبل أن يواجه التتار، سجد لله، وقال: يا رب، سامحوني في هذه الكلمة، من هو الكلب نور الدين حتى تنصره، انصر دينك ، إنكار الذات أنا لا أعتقد أن أحداً في الأرض أنكر ذاته كرسول الله، كما أني لا أعتقد أن أحداً في الأرض رفعه الله كرسول الله، علاقة عكسية كلما تواضعت لله رفعك الله، كلما مرغت جبهتك في أعتاب الله أعزك الله، كلما أنكرت ذاتك ذكرك الناس بالخير، فلذلك إن جلست في مجلس ضع نفسك في التعتيم،عتم على نفسك واذكر ربك، اذكر نبيه الكريم، اذكر صحابته الكرام، اجعل من هؤلاء الصحابة الكرام الذين اصطفاهم الله لنبيه، اجعلهم مدار حديثك، أشد بأخلاقهم، بمحبتهم، بإخلاصهم، نحن بحاجة

إلى مثل أعلى، الصحابة الكرام مُثل عليا وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما أن تتكلم عن نفسك فهذا يقيم شرخاً في المجلس، بين منكر ومصدق، بين حاسد ومحب لا يخلو ممن حولك أن يكون حاسداً أو أن يكون محباً، المحب يقول ليته ما تكلم عن نفسه، والحاسد يتكلم بما لا يرضي، فلذلك الذي أرجوه من هذا الدرس أن تجعل من لقاءاتك وجلساتك وسمرك وولائمك وزياراتك وكل لقاءاتك مع الناس أن تجعل منها مجالس ذكر، والعلم ثمين جداً، وطالب العلم لديه شيء يتكلم به، أنا أعجب، سبحان الله، من أشخاص يديرون حديثاً فارغاً حديثاً سخيفاً، يثيرون الأحقاد، يتكبرون، مع أنهم لو طلبوا العلم لكان عندهم ما يقولونه لساعات طويلة، واسمحوا لي أن أقول: مستحيل على أخ من إخواننا الكرام يرتاد المساجد ويتزود بالعلم، مستحيل بل لا بد من أن يتكلم ساعات وساعات بدون تحضير، لأنه وعاء، درس الجمعة ودرس السبت ودرس الأحد ودرس الاثنين، وعند الفجر وعند الظهر هذه كلها معلومات تُخَزّن، لأنك إن جلست مع أشخاص فماذا يمكن أن تفعل ؟ تلقي هذه المعلومات إن ألقيتها بإخلاص دخل معها الحال، سأقول لكم معها نقطة دقيقة، أرجو الله أن أذكر النص الدقيق، أنه حال رجل في ألف رجل خير من قول ألف رجل في رجل، أي ألف إنسان يتكلمون بلا حال مع شخص لا يستطيعون أن يؤثروا كما لو أن إنساناً مخلصاً مقبلاً تكلم بمجلس ضمّ ألف شخص، ألف واحدٍ بلا حال لا يساوي حال واحد بألف، ألف كلام بلا حال لا يؤثرون بألف بينما كلام رجل واحد بحال يؤثر بألف، إذاً الذكر من صفات المؤمن، ونحن كما اتفقنا وكما بينا في درس سابق لا يستطيع أحد كائناً من كان مهما علا شأنه أن يقول في الدين برأيه، هذا دين الله لذلك وطّن نفسك على ألاّ تقبل شيئاً إلا بالدليل، وألا ترفض شيئاً إلا بالدليل، هذا الدين دين الله وهذا العلم هو دين فانظروا عمن تأخذون دينكم، وقال ابن عمر دينَك دينَك إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا، فأحياناً ينشأ انحراف فمثلاً: إنسان له اهتمام بالفكر الإسلامي وله مؤلفات ألقى محاضرات، متفوق بالفكر الإسلامي، لكن ذكره قليل إذاً حاله ضعيف، إذاً تأثيره قليل، إنسان آخر أهمل طلب العلم واعتنى بقلبه تأثيره شديد لكن الأثر عاطفي، لا يوجد أثر علمي، إذاً تأثيره شديد لكنه غير مديد، أما إذا جمع بين العلم والذكر جمع المجد من طرفيه، فقد جمع بين العلم وبين الذكر، لذلك أقول دائماً: الإنسان عقل مدرك وقلب محب، العقل غذاؤه العلم والقلب غذاؤه الذكر فإذا طلبت العلم وذكرت الله ما فاتك شيء من الدين، أما إن ذكرته بلا علم لم تستطع إلا أن تنقذ نفسك، وإن تعلمت ولم تذكره تصحر قلبك وشعرت بوحشة وفقد كلامك معناه هذه كلمة عن الذكر في القرآن الكريم، فالقرآن هو الذكر وخطبة الجمعة هي الذكر والعلماء بالكون هم أهل الذكر وأما ذكر اللسان فقد ورد في الآيات والأحاديث، والدليل على أن الذكر جزء أساسي من الدين، فمن الكتاب قال تعالى:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152))

(سورة البقرة)

لكن هناك آية أخرى رائعة جداً نُعطف عليها فتفسرها قال تعالى:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45))

(سورة العنكبوت)

ذكر الله أكبر شيء في الصلاة هذا معنى أوّل، لأن الله عز وجل يقول:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14))

(سورة طه)

المعنى الثاني أنّ ذكر الله لك حينما تذكره أكبر من ذكرك له، أنت تقول: يا رب، الله، لا إله إلا الله، اللهم صلّ على سيدنا رسول الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، حسبي الله ونِعم الوكيل، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فأنت تذكره، هذا ذكرك له، فما ذكره لك ؟ يطمئنك، يحفظك، ينصرك، يرفع ذكرك، يرفع قدرك، يُعزك، يقوي قلبك، يلين أعداءك، قال تعالى:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45))

(سورة العنكبوت)

أي أن ذكر الله لكم إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم له قال تعالى:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152))

(سورة البقرة)

اذكروني لعبادي أذكركم في ملأ خير منهم، اذكروني في أنفسكم أذكركم لملائكتي، اذكروني للخلق أذكر شأنكم بين الخلق، أذكركم جواب الطلب، العلاقة بين الفعلين علاقة شرط وطلب، الآية الثانية قال تعالى:

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

(سورة آل عمران)

أيْ: يذكرون الله دائماً، والذي يلفت النظر أن الإنسان المؤمن الصادق المقبل المتفوق أُمر أن يكون صمته فكراً ونطقه ذكراً ونظره عِبرة، إذا وصلت إلى هذا المستوى فما أروعك، أمرت أن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عِبرة، أمّا الآية الثالثة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (42)/

(سورة الأحزاب)

يعني إذا كان هناك فئة انحرفت عن المنهج القويم ومن خصائصها الذكر، فهل ترفض الذكر؟ أعوذ بالله فهذا أمر إلهي، وذكر الله جزء أساسي من الدين، من صفات المؤمنين قوله تعالى:

(وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (35))

(سورة الأحزاب)

والله أيها الإخوة إن الإنسان المؤمن يطمح إلى أن تنطبق عليه الآية الكريمة، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111))

(سورة التوبة)

بع نفسك بيعاً قطعياً وكن لي، أيْ: وقتك، علمك، لسانك، قلمك، تجارتك، ذات مرة سأل رجل عالِماً من العلماء قال له: كم الزكاة يا سيدي ؟ قال له: عندنا أم عندكم، قال: سبحان الله ما عندنا وما عندكم ؟ قال: عندكم اثنان ونصف في المائة أما عندنا العبد وماله لسيده أنت لاتملك شيئاً أبداً، إذا كان وقتك كله لله وطاقتك وإمكاناتك كلها لله طلاقة لسانك كلها لله قلمك السيال كان لله، مالك كله لله، فأنت من السابقين الصادقين من أولئك المقربين في جنات النعيم، فالإنسان سبحان الله، في الدنيا طموح إلى أعلى مرتبة، وإذا كان ميسور الحال كلما جدّ شيء جديد تراه يقتنيه، لا يحب أن يكون أقل من الآخرين، يحب أن يكون سبّاقاً، لماذا لا تكون مع الله بهذه الصفة؟ لمَ لا تحب أن تكون سبّاقاً إلى الله عز وجل هذه هي الآية الرابعة، الأولى قال تعالى:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152))

(سورة البقرة)

الثانية قوله تعالى:

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

(سورة آل عمران)

والثالثة قوله:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (42))

(سورة الأحزاب)

والرابعة قال تعالى:

(وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (35))

(سورة الأحزاب)

الخامسة الآن هي قوله تعالى:

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (41))

(سورة آل عمران)

أنا أقترح عليكم، أنا والله أمارسها كل يوم، بعد صلاة الفجر أستغفر الله مائة مرة، لا إله إلا الله مائة مرة، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم مائة مرة، ثم سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم مائة مرة، لا حول ولا قوة إلا بالله مائة مرة، حسبي الله ونِعم الوكيل مائة مرة هذه أذكار النبي عليه الصلاة والسلام تحتاج إلى ثلث ساعة أي عشرين دقيقة، فإذا لزمت هذا الذكر كل يوم بقلب غير مفعم مرةً، مرة بقلب مفعم بالحب، ومرة بحال، فأنت عليك أن تذكر وعلى الله الباقي، وعلى الله أن يمدك بإمداداته، هذا كله ذكر، إذا قرأت القرآن فأنت ذاكر، إذا قلت الله الله بالاسم المفرد مقبول وعلى العين والرأس فأنت ذاكر أيضاً، لا تحجر واسعاً، لا تقل هذه بدعة دعك من هذا، أنت تذكر الله بأذكار النبي وباسم مفرد وبتلاوة القرآن، العبرة أن تكون مع الله، وإليك الآية السادسة قال تعالى:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28))

(سورة الرعد)

أنت قد لا تصدق أنه بإمكاني أن أقول سبحان الله، أستغفر الله، لا إله إلا الله، ثم أحس براحة، الله وعد بهذا الشيء، خالق الكون، ذكرت البارحة فكرة دقيقة: أحياناً إنسان عظيم، ملك من الملوك الكبار، عظيم وعطاؤه كبير ولكن الأبواب دونه مغلقة، لن تستطيع أن تقابله، ولن يسمح لك أن تقدم له هدية، والله هذه مشكلة، الخير عنده والباب مغلق ولكن الله عز وجل ليس كذلك، إنه ملك الملوك والطرائق إليه مفتوحة الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، ذكرت من يومين وأنت في بيتك هناك طرق إلى الله، الأمومة الكاملة طريق إلى الله، البنوة الكاملة طريق إلى الله، أي إذا كنت باراً بأمك وأبيك فهذا طريق إلى الله، إذا كنت رحيماً بزوجتك فهذا طريق إلى الله كذلك، إن كانت هذه الزوجة تحسن تَبَعُّلَ زوجها فهذا طريق إلى الله، إن تحسن تربية أولادها فطريق إلى الله، خرجتَ من البيت وعن كل امرأة تغض البصر طريق إلى الله، صدقك وأمانتك ونصحك للمسلمين ورحمتك بهم طريق إلى الله، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، فالله عز وجل لأنه يحبنا ولأنه خلقنا ليرحمنا ولأنه خلقنا ليسعدنا جعل كل حركة وسكنة طريقاً إليه، بل الأغرب من ذلك كل مخلوقاته على الإطلاق إن أحسنت إليهم فهذا قرض لله عز وجل، قال تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (245))

(سورة البقرة)

كأن الله ينتظر أن تقرضه بالإحسان إلى عباده، أحياناً يأتيك إنسان بحاجة إلى مساعدة، إنسان بحاجة إلى أن تكون وسيطاً له، إنسان مكسور، إنسان على وشك الانهيار لجأ إليك، هؤلاء كلهم عباده فإذا أحسنت إليهم فهو الشكور، وهو الذي يعطيك، وهذه الآية السابعة قال تعالى:

(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (25))

(سورة الإنسان)

هؤلاء الذين يزعمون أن كلمة (الله الله) بدعة، هذه الآية واضحة الدلالة واذكر اسم ربك (الله) اسم الله الأعظم، الاسم الجامع لكل أسمائه الحسنى، العَلَم على الذات إذا قلت (الله الله) هذا من الذكر، قال تعالى:

(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8))

(سورة المزمل)

التبتل يعني الانقطاع إلى الله سبحانه.

قال تعالى:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45))

(سورة العنكبوت)

هذه الآية ذكرتها لكم قبل قليل وقال أيضاً:

(فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً (103))

(سورة النساء)

وقال:

(فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (10)

(سورة الجمعة)

وقال أيضاً

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ)

(سورة النور)

أي ماذا حصّلت في الصلاة ؟ بمعنى قوله تعالى:

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً (18))

(سورة الجن)

هذه البيوت أُنشئت ليذكر فيها اسم الله عز وجل، لذلك أقول لكم كما قلت سابقاً إن هذا المنبر وهذا الكرسي لهما شانهما منبر رسول الله فمن وقف عليه فليذكر الله ورسوله فقط ولا يدخل موضوعاً آخر

لا يليق بهذا المقام، ومن جلس على هذا الكرسي فلا ينبغي أن ينال من خصومه ولا أن يشفي صدره منهم ولا أن يبحث في قضايا شخصية، هذا يعتبر خيانة لهذا الكرسي، هذا المنبر وهذا الكرسي لذكر الله فقط، ويجب أن تضع نفسك في التعتيم الكامل وأن تلقي الضوء على كل ما يقرب الناس لله عز وجل، قال تعالى:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (114))

(ورة البقرة)

والعياذ بالله في بلاد الشرق قبل سبعين عاماً أو أكثر حوِّلت المساجد إلى مستودعات أو إلى إسطبلات أو إلى مخازن أو إلى ملاهٍ، قال تعالى:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (114))

(سورة البقرة)

ذات مرة سألني أخ أنا أعمل في الدنيا والعمل فيها مشروع لا معصية فيه، ولكن كيف أتأكد أني لست محباً للدنيا بهذا العمل ؟ سؤال دقيق، أنا أعمل ضمن منهج الله لكن من أدراني أني لا أحب الدنيا بهذا العمل، قلت: هناك ضابط، هناك كاشف، هناك مقياس، إذا التهيت بهذا العمل عن ذكر الله فأنت محب للدنيا، أما إذا كنت يقظاً ذاكراً لله فلست كذلك قال تعالى:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37))

(سورة النور)

إذاً هذه الدنيا بيديك وليست بقلبك، الدنيا إما أن تكون بيديك، وإما أن تكون في قلبك فإن كانت في قلبك ألهتك عن ذكر الله، أما إن كانت بيديك فلا تلهيك عن ذكر الله، رجال، معنى رجال هنا: أبطال، سيدنا عمر بن عبد العزيز كلّف عالِماً جليلاً في عصره اسمه عمر بن مزاحم فيما أذكر قال له: اجلس إلى جانبي وراقبني فإذا رأيتني ضللت فهزني هزاً شديداً، أمسكني من تلابيبي وهزني هزاً شديداً وقل لي: اتق الله يا عمر فإنك ستموت، أي إذا أحد ذكرك بالصلاة، ذكرك بالعمل الصالح، ذكرك بأن هذا المكان لا يليق بك، ذكرك بأن هذه النزهة تبعدك عن الله عز وجل، ذكرك بأن هؤلاء الأصحاب ليسوا على ما يرام، ذكرك بأن هذه التي خطبتها لا تناسبك وإنها متفلتة، ذكرك بأن هذا السفر ليس في مصلحة دينك، ذكرك بأن هذه التجارة لا تعود عليك بالخير، فهذا ينبغي أن تُقبّل يده على هذه النصيحة، المؤمن إذا ذكّرته ذكر، مرة تطاول إنسان على سيدنا عمر بن الخطاب قال له: إنك لا تعطي العدل فغضب، قال له أحد الحاضرين: يا أمير المؤمنين ألم يقل الله عز وجل:

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199))

(سورة الأعراف)

وهذا من الجاهلين، قالوا: وكان عمر وقافاً عند كتاب الله فوقف فوراً وسكنت نفسه، أنت كمؤمن إذا ذكّرك إنسان فاستجب، ونحن والله أيها الإخوة لا نرقى عند الله إلا إذا ذكّرنا بعضنا، إلا إذا ائتمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر، لماذا أهلك الله بني إسرائيل ؟ قال تعالى:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79))

(سورة المائدة)

مجاملات، تجد شخصاً لا يصلي، يشرب الخمر أحياناً، يُزار ويُحترم ويُثنى على أخلاقه وعلى ذكائه وعلى حكمته وعلى طيبه وتُقدم له الهدايا بالمناسبات وكأنه لم يفعل سوءاً بين الأقرباء، هذا الذي يشرب الخمر ولا يصلي ويتطاول على الدين، لماذا يُرى من يعظمه ويكرمه ؟ قال تعالى:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79))

(سورة المائدة)

وأهلكهم مرة ثانية قال الرسول الكريم:

((عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ امْرَأَةً سَرَقَتْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: مَا نُكَلِّمُهُ فِيهَا مَا مِنْ أَحَدٍ يُكَلِّمُهُ إِلاَّ حِبُّهُ أُسَامَةُ فَكَلَّمَهُ فَقَالَ: يَا أُسَامَةُ إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ هَلَكُوا بِمِثْلِ هَذَا كَانَ إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِنْ سَرَقَ فِيهِمُ الدُّونُ قَطَعُوهُ وَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ لَقَطَعْتُهَا))

لذلك ذكرت أمراض بني إسرائيل لنا في القرآن كثيراً فلماذا ؟ لأننا عندنا استعداد أن نقع فيها كلها، قال تعالى:

(قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (93))

(سورة البقرة)

ماذا يقول مسلمو اليوم: نحن عبيد إحسان ولسنا عبيد امتحان، ويقولون الله لا يمتحننا، كبني إسرائيل أي سمعنا وعصينا، إذا كان هناك عمل شاق مهلك تخلفوا، قال تعالى:

(قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24))

(سورة المائدة)

هذا إذاً مرض، في المغانم لا يتخلف أحد، في المغارم لا ترى أحداً، في المغارم لا أحد يتكلم، إذ كان هناك وليمة أو نزهة ترى الجميع موجودين ولا أحد منهم غائباً، أما إذا كان هناك عمل جماعي أو بذل أو تضحية أو معاونة تجد كل واحد منهم يعتذر اعتذاراً لطيفاً وينسحب وهذا معنى قول الله عز وجل:

(قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (93))

(سورة البقرة)

لذلك لو أننا كلنا أمرنا بعضنا بعضاً بالمعروف لكنا في حال غير هذا الحال، بل إن الله سبحانه وتعالى يهلك الصالح إذا كف عن إصلاح الناس، الله عز وجل أرسل ملائكة لإهلاك قرية، قالوا: يارب إنّ فيها صالحاً قال: به فابدؤوا، قالوا: لمَ يارب ؟ قال: لأن وجهه كان لا يتمعّر إذا رأى منكراً، وهذا معنى قول الله عز وجل:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (117))

(سورة هود)

لم يقل صالحون فالصالح يهلكه إن لم يأمر بمعروف وينه عن منكر أما المصلح فلا يهلكه، والإنسان أقرب الناس له أهله و جيرانه زملاؤه، وإذا كان هناك تناصح دائماً تجد أن الشر تضيق دائرته، تراهم مجتمعين في جلسة ونريد أن نصلي فكلهم ساكتون، وإن حدث هناك غلط مثلاً فالجميع يتكلم أن هذا غلط وينتقدون، هذا لا يجوز أبداً، طبعاً السكوت عندهم مريح، السكوت معه سلامة دائماً، الناس يميلون إلى السكوت، لا إحراج فيه، ولا مشكلة، ولا عتب، فالسكوت أسلم، أما الأقرب إلى الله أن تنطق بالحق، قال تعالى:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37))

(سورة النور)

وقال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(9))

(سورة المنافقون)

وقال جل جلاله:

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15))

(سورة التغابن)

هذا الصحابي الذي قال لسيدنا عمر رضي الله عنه: إنني أصلي في غير وضوء، أعوذ بالله، وأحب الفتنة وأكره اليقين وأفر من رحمة الله ولي في الأرض ما ليس لله في السماء، كلام غير مقبول وغير معقول، فقال له سيدنا علي: إنه يصلي على النبي بغير وضوء ممكن، وإنه يحب الفتنة أيْ يحب أولاده قال تعالى:

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15))

(سورة التغابن)

ويكره اليقين الموت قال تعالى:

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99))

(سورة الحجر)

وكلٌّ منا يكره الموت، المؤمن لأنه يطمع بعمل صالح أكثر فيحب أن يطول عمره ويصلح عمله، قال له: وأفرّ من رحمة الله من المطر، الله جعل المطر رحمة، إذا نزل مطر غزيراً فجميعنا نهرب، نفر منها، قال له: ولي في الأرض ما ليس لله في السماء، لي زوجة وأولاد والله في السماء ليس له زوجة ولا ولد، هذا تأويل، هذا النص يحتاج إلى تأويل لا إلى تفسير، إذاً قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(9))

(سورة المنافقون)

الخامس عشر قوله تعالى:

(وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (35))

(سورة الأحزاب)

ورد معي بعض الأحاديث ولكني لست متأكداً من صحتها ؛ أنه يجب أن تذكر الله حتى يقال مجنون، يقولون: ألا يوجد عنده غير هذا الحديث ؟ هكذا ليكن المؤمن، محبوبه هو الله، أينما جلس أو حل أو وقف ليس له حديث سوى ذكر الله عز وجل، ولقد ورد بالصحاح أن الإنسان المؤمن يوم القيامة لا يندم إلا على شيء واحد، على ساعة مرت لم يذكر الله فيها يندم أشد الندم، ذات مرة كان الرسول عليه الصلاة والسلام مع أصحابه فرأوا قبراً فقال كلمة مؤثرة جداً: صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم أحوج من كل دنياكم، تجد أراضي معروضة للبيع فيقال لك: الدُّنم بمليونين في بعض الأماكن، المتر بمليون في بعض المحلات التجارية، بعض شركات الأدوية مبيعاتها ة أربعمائة مليار، شركات السيارات فائضها النقدي مائة مليار، أرقام فلكية كلها، قال: صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم أحوج إليها من كل دنياكم قال تعالى:

(وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (35))

(سورة الأحزاب)

قال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد يذكرون الله في أدبار الصلوات وغدواً وعشياً وكلما استيقظ من نومه وكلما غدا من منزله ذكر الله تعالى، وقال مجاهد: لا يكون من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً، والشيء الدقيق جداً أن كل العبادات يشترط لصحتها شروط،

فمثلاً: الصلاة تحتاج إلى وضوء ودخول الوقت واستقبال القبلة وطهارة الثوب والبدن والمكان، والصيام يحتاج إلى ترك الطعام من الفجر الصادق إلى غروب الشمس، والحج يحتاج إلى إنفاق وإلى نية وإلى إحرام وما إلى ذلك، قال العلماء: جميع العبادات يشترط لصحتها شروط إلا ذكر الله تعالى فإنه يصح بطهارة وبغير طهارة ولو كنت جنباً ذكر الله غير التلاوة، تلاوة القرآن شيء ثان، إذا قلت لاإله إلا الله، سبحان الله، الحمد لله، فهذا الذكر ليس له علاقة بشرط قائم، مضطجع، نائم، لكن من الأدب أن تقرأ القرآن الكريم جالساً، أما و أنت مضطجع فلك أن تذكر الله، طاهر، متوضئ، غير متوضئ، جنب، واقف قاعد، ذكر الله ليس له أيّ شرط، بأي حال اذكر الله عز وجل يقول الإمام النووي: أجمع العلماء على جواز الذكر بالقلب واللسان محدث والجنب والحائض والنفساء، وذلك في التسبيح والتحميد والتكبير والصلاة على النبي والدعاء، نفساء، حائض، جنب، محدث، بالقلب، باللسان، مضطجع، قائم، واقف، بالذكر ليس هناك أي شرط أبداً، أما عند التلاوة فهناك أحكام دقيقة، هذا في القرآن أما في السنة يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أبي مُوسَى رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَثلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثلُ الحَيِّ وَالْمَيِّتِ))

الذاكر حي والذي لا يذكر ميت، قال تعالى:

(أمْوَاتٌ غيْرُ أحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أيَّانَ يُبْعَثُونَ (21))

(سورة النحل)

وقال أيضاً:

(وَمَا أنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُور (22))

(سورة فاطر)

وقال الرسول الكريم:

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنَّ لِلَّهِ مَلائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أهْلَ الذِّكْرِ فإذا وَجَدُوا قوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إلَى حَاجَتِكُمْ قالَ: فيَحُفُّونَهُمْ بِأجْنِحَتِهِمْ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا قالَ: فيَسْألُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أعْلَمُ مِنْهُمْ مَا يَقُولُ عِبَادِي قالُوا: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ قالَ: فيَقُولُ: هَلْ رَأوْنِي ؟ قالَ: فيَقُولُونَ: لاَ وَاللَّهِ مَا رَأوْكَ قالَ: فيَقُولُ: وَكَيْفَ لوْ رَأوْنِي قالَ: يَقُولُونَ: لوْ رَأوْكَ كَانُوا أشَدَّ لكَ عِبَادَةً وَأشَدَّ لكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا وَأكْثرَ لكَ تَسْبِيحًا، قالَ: يَقُولُ: فمَا يَسْألُونِي ؟ قالَ: يَسْألُونَكَ الْجَنَّةَ قالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأوْهَا ؟ قالَ: يَقُولُونَ: لاَ

وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً قَالَ: فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ قَالَ: يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ قَالَ: هُمُ الْجُلَسَاءُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ))

فيهم فلان آت إلى الدرس لا ليسمع الدرس لكنه واعدَ شخصاً بهذا الوقت، فهذا إذاً لا علاقة له بهم، أي إذا الإنسان وُعِد بلقاء في جامع فليذهب لعله لا يشقى بالحاضرين، هذا من كرم الله عز وجل، أي هم يستعيذون من النار وما رأوها، يسألون الجنة وما رأوها، يذكرون الله وما رأوه قال: كيف لو رأوني ؟ يقولون أنهم في الجنة ورد في الأحاديث سيرون ربهم:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتُضَامُونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَتُضَامُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ قَالُوا: لاَ، قَالَ: فَإِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لاَ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ))

قال تعالى:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23))

(سورة القيامة)

وقد ورد بالآثار أنّ المؤمن حينما يرى ربه في الجنة يغيب من نشوة النظرة خمسين ألف عام، لأن كل جمال الأرض مسحة من جمال الله، أجل، كل ما في الأرض من جمال مسحة من جمال الله، في الجنة يتاح للمؤمن أن يرى وجه الله الكريم:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: حِلَقُ الذِّكْرِ))

والله أيها الإخوة إن هذا الشيء واقع أحياناً إخوان كرام بجلسة، بسهرة، بوليمة، بنزهة أحياناً يغمرهم سرور وتجل وراحة نفسية مما لا حَدّله، ولا يوصف، هذا من كرم الله عز وجل، الله عز وجل يتجلى على المؤمن في الدنيا تجلياً وكأنه في الجنة لذلك قال تعالى:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6))

(سورة محمد)

عرفوا طعمها في الدنيا، ذاقوا نموذجاً منها، أحياناً هناك بعض البائعين كبائعي الحلويات، تدخل محله تريد كيلواً فيعطيك قطعة يقول لك: كل هذه، بدون مقابل، تذوقها فهذه نموذج فقط، والله عز وجل في

الدنيا أحياناً يذيقك بعض أحوال أهل الجنة، من أجل أن ترغب، لذلك قال بعض العارفين بالله: والله في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الله عز وجل، يجب أن يكون لك جنة في الدنيا، هناك جنة القرب، والقرب مع الله جميل جداً، أحياناً تأتي عليك حالة تقول: كأني والله في الجنة، قال لي شخص ذات مرة وقد حج بيت الله الحرام: والله ليس في الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني ولتشعر أنك من أسعد الناس، فالحياة كلها مصائب وكلها متاعب ومخاوف، والناس مسحوقون لأنهم بعيدون عن الله عز وجل لو اقتربوا لامتلأ قلبهم أمناً وطمأنينة، إنّ الإنسان إذا سعِد من داخله والله تكفيه لقيمات يأكلها، لكن الناس في زماننا يبحثون عن السعادة في بيت كبير مزخرف مزين، أثاث فخم، إطلالة جميلة، يتوهمون أن السعادة هنا، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام كان أسعد الخلق وغرفته لا تتسع لصلاته ونوم السيدة عائشة، من سعف النخل مسقوفة، ليس لها مناظر جميلة، ولا إطلالة على وادٍ جميل، ولا مساحة أربعمائة متر، ولا تكييف مركزي ولا تدفئة مركزية، ولا أقواس، ولا تزيينات، ولا غرفة شرقية، و لا غرفة غربية، لا شيئ من هذا كله، بل غرفة صغيرة، دخل عليه عدي بن حاتم ولا أثاث فيها قال حاتم: دفع إلي وسادة من أُدم محشوة بالقش وقال لي: اجلس عليها، قلت: بل أنت، قال: بل أنت، قال: فجلست عليها وجلس النبي على الأرض، هل هناك بيت من بيوت الحاضرين لا تجد فيه إلا وسادة واحدة، هذا الكلام غير معقول، هذا هو بيت النبي وهو أسعد الخلق، لذلك قال سيدنا علي كرم الله وجهه: فلينظر ناظرٌ بعقله هل أن الله أكرم محمداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا ؟، فإن قال: أهانه فقد كذب وإن قال: أكرمه فقد صدق.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (097) :قواعد السلوك إلى الله4 - موضوعات تتعلق بالقلب والذكر.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-11-30

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون :

لازلنا في موضوعات تتعلق بالقلب، وقد قال الله عز وجل:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء)

حينما يأتي قلبك سليماً يوم القيامة فقد فزت الفوز الكبير، لا ينفع مال حصّلته في الدنيا، ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وحينما قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24))

(سورة الأنفال)

فالحياة التي أرادها الله هي حياة القلب، الحياة التي تليق بالإنسان حياة القلب، الحياة التي يسمو بها الإنسان هي حياة القلب، الحياة التي ينجو بها الإنسان هي حياة القلب، الحياة التي خُلِق الإنسان لها هي حياة القلب، الحياة التي تنتهي به إلى جنة عرضها السماوات والأرض هي حياة القلب، فهناك إذًا قلب ميت وقلب حي، قلب مقفر وقلب غني، قلب شقي وقلب سعيد، قلب مدبر وقلب مقبل، قلب معرض وقلب موصول، ورد عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ))

(رواه البخاري)

لذلك وصف ربنا عز وجل أهل الكفر بأنهم أموات غير أحياء، ولا يشعرون أيّان يُبعثون، ووصف أهل الكفر بأنهم مقبورون في الحياة الدنيا، قال تعالى:

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (22))

(سورة فاطر)

وقال الإمام عليٌّ كرم الله وجهه: يا بني مات خُزّان المال وهم أحياء، وهم في أعلى درجة نشاطهم ميتون، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة، إذاً لا زلنا في دروس تتعلق بحياة القلب، تحدثنا عن (الخلوة) وتحدثنا عن (الصُحبة) وتحدثنا عن (الذكر) وها نحن أولاء في هذا الدرس نتابع حديثنا عن الذكر.

أيها الإخوة الكرام ألا يكفي أن نقرأ قوله تعالى:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14))

(سورة طه)

الصلاة في الأصل من أجل أن تذكر الله، ألم يقل الله عز وجل:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152))

(سورة البقرة)

ألم يقل الله عز وجل:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45))

(سورة العنكبوت)

أيْ: ذكر الله لك إذا ذكرته أكبرُ من ذكرك له، أنت تقول الله، لكن الله إذا ذكرك ألقى محبتك في قلوب الخلق، إذا ذكرك ملأ قلبك سعادة، إذا ذكرك ملأ قلبك طمأنينة ووفقك في حياتك وجعل قلوب المؤمنين تهفو إليك، قال تعالى:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14))

(سورة طه)

أيها الإخوة الكرام مما ورد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ شَغَلَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ عَنْ مَسْأَلَتِي وَذِكْرِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ ثَوَابِ السَّائِلِينَ وَفَضْلُ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ))

(رواه الترمذي والبيهقي وحسّنه الدرامي)

أيّ إنسان سأل الله، ودعاه بدعاء عريض، وعَمِلَ بكل الأسباب فلن يصل إلى مبتغاه كمن شُغِل عن دنياه بذكر الله، ومن طلب العلم تكفل الله له برزقه، أيْ: محالٌ أن تذكره وأن ينساك، محالٌ أن تذكره وأن تعاني مشكلات كنت في غنى عنها، إذاً من شغله قراءة القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين.

هذا الموضوع إخواننا الكرام يقودنا إلى فكرة هي: زكاة الوقت، فأنت حينما تقتطع من وقتك وقتاً لذكر الله، أو لقراءة القرآن، أو لسماع تفسير القرآن، أو لقراءة الحديث، أو لسماع تفسير الحديث، أو لمعرفة الحكم الفقهي، أو لمعرفة سير الصحابة، حينما تقتطع من وقتك وقتاً لمعرفة الله، ومعرفة الأسباب المؤدية إليه، ماذا يفعل الله معك ؟ يبارك لك ببقية وقتك، كيف حال الذي يؤدي زكاة ماله ؟ إذا دفع زكاة ماله حفظ الله له بقية ماله، أولاً، قال تعالى:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(103))

(سورة التوبة)

تزكيهم أي تنمي أموالهم، الله عز وجل يحفظ لك بقية الوقت إذا أديت زكاة وقتك، ويبارك لك في هذا الوقت، الله عز وجل قادر وهو على كل شيء قدير، أن يُستهلك وقتك الثمين لأتفه الأسباب، أي خطأ طفيف في آلة عندك، يمكن أن تستهلك من وقتك مائة ساعة لإصلاحها، خطأ طفيف، لو أن ابنك بَلِعَ قطعة معدنية، لاحتاج الأمر إلى تصوير، وإلى إجراء عملية أحياناً، وإلى مستشفى، وإلى تخدير، وإلى تصوير طبقي، قد يتكلف عشرة آلاف ليرة أو أكثر، أي يجب أن تعلم أن الله عز وجل قادر على أن يتبدد وقتك، ويُستهلك لأتفه الأسباب.

ذات مرةٍ سافر شخص بسيارة، نصحته بالمحافظة على الصلوات، وصل إلى بلد بين الشام والخليج عن طريق السعودية، وصل إلى بلد وكان من الأفضل أن يصلي الجمعة في هذا البلد، تذكر نصيحتي ثم قال: يجب أن أقطع المسافة فلم يصلِّ، بعد حين وصل إلى استراحة وقد تعب كثيراً من القيادة، وأراد أن يرتاح، وبعد أن ارتاح قليلا دخل الحمام ثم تابع سفره، وبعد أن قطع حوالي مائة وثمانين كيلو مترًا تذكر أنه نسي جواز سفره في الاستراحة، قال لي: كلفني تركُ الصلاة ثلاثمائة وستين كيلومترًا، وهناك آلاف الأمثلة، إذ يمكن وأنت تركّب آلة أن تخطئ بحركة، فتعيد العمل من أوّله مثلاً، وأنت على الحاسوب تخطئ خطأً يبدد عمل عشر ساعات، فأنا أضرب لكم أمثلة بأن الله عز وجل قادر أن يجعل وقتك يُستهلك لأسباب سخيفة وتافهة، أحياناً يمرض ابنك فتأخذه من طبيب إلى طبيب، ومن تحليل إلى تحليل، وبعد أيام وتكلفة ثمانية عشر ألفًا يشفيه الله، يا ليته لم يمرض، لكن يبارك الله لك في وقتك إذا اقتطعت وقتاً من وقتك الثمين لذكر الله، ولطلب العلم ولحضور مجالس العلم، حفظ الله لك بقية وقتك كما يحفظ ربنا للمزكي بقية ماله، ثم بارك لك في هذا الوقت كما ينمي ربنا للمزكي ماله، كيف تكون بركة الوقت ؟ تكون بأنْ تنجز عملاً أكبر في وقت قليل، بعض العلماء قسموا الكتب التي ألّفوها في حياتهم على أيام حياتهم منذ أن ولدوا فوجدوا أنهم كتبوا كل يوم بحدود تسعين صفحة، هل تستطيع أن تقرأ في اليوم عشر صفحات، تقرأ فقط، بينما هو كتب تأليفاً لا نسخا تسعين صفحة، إخواننا الكرام بركة الوقت شيء لا يُصدق، أحياناً يجعلك الله عز وجل تنجز إنجازاً كبيراً جداً في وقت قليل جداً لأنك اقتطعت من وقتك الثمين وقتاً لذكر الله، وقتاً لقراءة القرآن، وقتاً لتعلم القرآن وحضور مجالس العلم، فلا تنسَ مَثَلَ الزكاة، فكما أنه يجب أن تؤدي زكاة مالك يجب أن تؤدي زكاة وقتك، أداء الصلوات الخمس نوع من أداء زكاة الوقت، طلب العلم نوع من أداء زكاة الوقت، قراءة القرآن نوع من أداء زكاة الوقت، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نوع من أداء زكاة الوقت، وكل من يؤدي زكاة وقته يحفظ

الله له وقته من التلف ويبارك فيه، أنا ضربت مثالين أو ثلاثة، ولكن هناك ألف مثال، أصحاب الحرف، أصحاب الصناعات، أصحاب المعاملات، جاء أخ من حلب إلى الشام بمعاملة، وعندما وصل إلى الموظف المختص قال له: هذه المعاملة ينقصها توقيع أمين السجل المدني في حلب، لا حول ولا قوة إلا بالله، خمس ساعات ذهبت هدراً، وخمس ساعات عودة كذلك، ويوم في حلب لتوقيع المعاملة من أمين السجل المدني، فالله قادر أن يجعل وقتك يُستهلك لأتفه الأسباب، لنسيان بسيط، قال لي رجل يعمل في المحركات: بعد أن جهّزت المحرك واستهلك تركيبه من وقتي تسع ساعات نسيت تركيب قشرة، يكون أول عمل، عاد ففك المحرك كله ووضع القشرة، وقال لي شخص آخر: تركت مجلس علم عن قصد، عليه ضغط فاستجاب لهذا الضغط وأخذ أهله في نزهة، هو يخرج يوم الثلاثاء إلى نزهة، ولكنه أضاف إلى يوم الثلاثاء يوم الجمعة قال لي: لقد ضحيت بالخطبة وبالدرس، ثم قال: وبينما كنت أريد تعبئة وعاء أمام نبع ماء، أقبل علي شاب وأخذ هذا الوعاء وملأه عني، فشكرته شكراً عميقاً على هذا الأدب ثم تفقدت محفظتي فإذا هي قد سرقت، قال لي: لم يزعجني إلا فقدان الهوية، والميكانيك وشهادة القيادة، فقضيت سبعة أشهر وأنا أحاول أن أجدد هذه الوثائق من مكان إلى مكان، ومن دائرة إلى دائرة، ومن فرع إلى فرع، لذلك ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(("هم في مساجدهم والله في حوائجهم))

أكرر ثانية: حينما تقتطع من وقتك الثمين وقتاً لذكر الله، لتلاوة القرآن، لحضور مجالس العلم، للأمر بالمعروف، للدعوة إلى الله، فهذا الوقت الثمين الذي اقتطعته من وقتك أولاً حفظ لك بقية الوقت، ثانياً بارك الله لك في كل وقتك، هذه واحدة، واذكرْ قوله عليه الصلاة والسلام في حديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ شَغَلَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ عَنْ مَسْأَلَتِي وَذِكْرِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ ثَوَابِ السَّائِلِينَ وَفَضْلُ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ))

(رواه الترمذي والبيهقي وحسّنه الدرامي)

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((يَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: سَيُعْلَمُ أَهْلُ الْجَمْعِ الْيَوْمَ مِنْ أَهْلِ الْكَرَمِ، فَقِيلَ: وَمَنْ أَهْلُ الْكَرَمِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: أَهْلُ الذِّكْرِ فِي الْمَسَاجِدِ))

(رواه أحمد)

أيْ: إذا شرح الله صدر إنسان لمجالس العلم، وفي هذا المجلس استقى العلم والأدب، واطمأن قلبه بذكر الله، وعرف موقعه في الحياة الدنيا، وعرف سر وجوده، والمنهج الأمثل، وعرف طريق سعادته وفوزه، وطريق الجنة، فهذا من الموفقين، فالأخ الذي له مجلس علم، وأدَّبه الله بهذا المجلس، ورفع

ذكره، وملأ قلبه غنى، ونوّر عقله، لن يعرف قيمة نفسه إلا إذا جلس مع صديق له شارد عن منهج الله من سنه، اجلس معه، انظر إلى حديثه، إلى مزاحه، ومنطقه وأفكاره، وتصوراته وعقيدته، وإلى سلوكه واحتياله، لا تعرف قيمتك إلا إذا جلست مع من هو في سنك على غير شاكلتك، لذلك فالإنسان ينبغي عليه أن يصاحب أهل الإيمان ليرقى بهم، أما إذا أراد أن يعرف ما أعطاه الله من الدنيا فلينظر إلى أهل الحرمان، لا تنظر إلى من هو أعلى منك فذلك أحرى ألاّ تحتقر نعمة الله عليك، وفي حديثِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلاً قَطُّ أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ))

(رواه أحمد)

العجيب أن كل عبادة لها شروط، فالصلاة لها وضوء، دخول وقت، استقبال القبلة، طهارة الجسم، طهارة الثياب، وطهارة المكان، هذه الصلاة، أما الصيام فهو الامتناع عن الطعام والشراب وسائر المفطرات من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس، هذا هو الصيام، الحج هناك الإحرامُ، وهناك طوافُ القدوم، والوقوفُ بعرفة، وطوافُ الإفاضة، والبعدُ عن المحظورات كالطيب، والحلاقةُ، وما إلى ذلك، إلا الذكر ليس له أي شرط تستطيع أن تذكر الله في كل وقت، وفي أي وضع، قائماً، جالساً، نائماً، طاهراً، جنباً، مستلقياً، مقيماً، مسافرًا، مقبلاً، مدبراً، ليس له شرط، إذًا ليس هناك عذر مقبول في ترك الذكر، والمؤمن الذي نجا من عذاب النار هل يندم ؟ نعم، يندم على ساعة مضت لم يذكر الله فيها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى:

((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

(متفق عليه)

وأنا معه، ما معنى أن يكون الله معك ؟ إذا كان الله معك فمن عليك، من يجرؤ أن يكون عليك، من يجرؤ أن يكون ضدك، وإذا كان عليك فمن معك ؟ أنت إذا ذكرت الله كان الله معك، ومن كان الله معه فاز في الدنيا والآخرة.

ومرة ثانية إخواني الكرام ؛ وللتوضيح كلمة الذكر واسعة المفهوم، قد تسع كل نشاطات المسلم، إذا صلى ذ كر، لأنه قال تعالى:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14))

(سورة طه)

إذا قرأ كتاب فقه ذكر، لأن كتاب الفقه يوصله إلى أحكام الفقه، وإلى طاعة الله عز وجل، إذا قرأ سيرة فهو ذكر لأنه يرى الإسلام مجسداً في أشخاص، إسلام عملي، وهل إذا قرأ القرآن ذَكَر ؟ نعم، قال تعالى:

(فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (20))

(سورة المزمل)

إذا جلس يستمع إلى العلم فهو ذكر، أيّ نشاط يقربك من الله فهو ذكر، وأيّ نشاط يبعدك عن الله فهو لهو، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(9))

(سورة المنافقون)

هناك نشاط مبعد ونشاط مقرب، فأيُّ نشاط مقرب هو من نوع الذكر، والله أعلم، فالمؤمن إذا ارتقى يأتي عليه حال لا ينطق لسانه إلا بذكر الله، أينما جلس لا يرى شيئاً يستحق أن يهتم به إلا أن يذكر الله عز وجل، عندئذ يغدو ولياً لله، فإذا رئي ذكر الله به، أكرر: إذا رؤي ذكر الله برؤيته وعند رؤيته، ورد عن رسول الله أن أولياء أمتي إذا رُؤوا ذكر الله بهم، أنت علامة تشير إلى الدين، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا مِنْ قَوْمٍ اجْتَمَعُوا يَذْكُرُونَ اللَّهَ لا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ إِلاَّ وَجْهَهُ إِلاَّ نَادَاهُمْ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ قُومُوا مَغْفُورًا لَكُمْ قَدْ بُدِّلَتْ سَيِّئَاتُكُمْ حَسَنَاتٍ))

(رواه أحمد)

سألني أحدهم منذ أيام عن قوله عليه الصلاة و السلام:

((هُمْ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ))

(رواه مسلم عن أبي هريرة)

كان أحدهم على موعد مع شخص في المسجد له معه حساب، وشعر أنه قد يجده في المسجد، فقصد هذا المسجد ليلتقي به، فيطالبه بالحساب، هل يشمله الحديث ؟ ليس له علاقة بالدين إطلاقاً، بل جاء إلى المسجد كي يطالب فلانًا بديْن، استمعوا إلى هذه القصة ذكرتها البارحة فيما أذكر، وفيها الجواب، دعاني أحد الإخوة الكرام إلى بيته قبل سنتين، شكله ليس بعيداً عني، فلما وصلت إلى بيته قلت: أنت من أي وقت عرفت هذا المسجد، قال كان لي مع أخ من إخواني مبلغ من المال، ولم أستطع أن أصل إليه، ثم أخبروني أنه يحضر درس الجمعة في جامع النابلسي، فعند المغرب أتيت إلى المسجد لألتقي به، وأطالبه بهذا المبلغ، وتصورت أنني عند المغرب أستطيع أن ألتقي به، لكني لم أره في المسجد، قلت في

نفسي: لعلي ألتقي به عند صلاة العشاء، جلست واستمعت للدرس، ثم قال: واللهِ هذه السنة الثامنة التي ما غبت خلالها عن درس واحدٍ، هؤلاء هم القوم الذين لا يشقى بهم جليسهم، طلبنا العلم لغير الله، أو طلبنا المسجد لغير الله فأبى العلم أو أبى المسجد إلا أن يكون لله فأنت كيفما تقربت من بيت الله فلك أجر وقد تستفيد، وكم من إنسان اهتدى إلى الله بشكل عابر، كانت زيارة المسجد سببًا لهدايته، العلماء لهم أقوال كثيرة في الذكر وكملخص لهذه الأقوال قول الله عز وجل:

(فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً (103))

(سورة النساء)

وهناك آية ثانية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (45))

(سورة الأنفال)

العلماء قالوا: ما دام قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، أيْ: في كل أحوالهم، وأنت واقف، ماشٍ، جالس، قاعد، نائم، مضطجع، في كل أحوالك، أما الآية الثانية: ذكراً كثيراً ؛ أيْ: بالليل والنهار، وفي البر والبحر، وفي السفر والحضر، وفي الغنى والفقر، وفي الصحة والسقم، وفي السر والعلانية وعلى كل حال، ذكر الله يدور معكم أينما سرتم، في كل أحوالكم وكل نشاطاتكم وكل أطواركم وكل سني حياتكم، ابن عطاء الله السكندري يقول: الذكر هو التخلص من الغفلة والنسيان بدوام حضور القلب مع الحق، وقيل: ترديد اسم الله بالقلب واللسان، أو ترديد صفة من صفاته، أو حكم من أحكامه، أو فعل من أفعاله، أو غير ذلك مما يتقرب إلى الله به، فمجال الذكر واسع، الذكر تحقيق الإرادة وعلامة صحة البداية ودلالة صفاء النهاية فليس وراء الذكر شيء، وجميع الخصال المحمودة راجعة إلى الذكر ومنشؤها عن الذكر، لذلك العالِم الكبير الذي توفاه الله عز وجل وقد رآه أحد تلاميذه، قال: يا سيدي ماذا فعل الله بك، قال: يا بني راحت تلك العبارات وذهبت تلك الإشارات ولم يبق إلا ركيعات ركعناها في جوف الليل، فالذي يبقى هو الذكر، قال بعض العلماء: الذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى، المركبة مثلاً فيها أشياء كثيرة قدا يُستغنى عنها، هناك منصب يوضع على ظهرها يُستغنى عنه، أما المحرك، الوقود، المقود، المكبح، أساسيات في المركبة، لكن الفرش، الصندوق، بعض الأشياء التزيينية هذه يُستغنى عنها، الذكر في طريق الإيمان كالمحرك، ركن أساسي في طريق الحق سبحانه وتعالى بل هو العمدة في هذا الطريق ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر لأن الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (42))

(سورة الأحزاب)

ابن قيّم الجوزية وهو من أكبر العلماء يقول: لا ريب أنّ القلب يصدأ كما يصدأ الحديد، فأحياناً قد يملُّ الإنسان حياته، يملّ عمله، يمل علاقاته الاجتماعية، يملّ مَن حوله، والنبي عليه الصلاة والسلام عبّر عن هذا بصدأ القلب:

((إن القلوب لتصدأ، قيل: وما جلاؤها، قال: ذكر الله))

(كنز العمال)

لا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ الحديد، وجلاؤه بالذكر فإنه يجلوه حتى يصيِّره كالمرآة البيضاء، ولكني أتمنى على إخواننا الكرام أن يتبينوا ويتحسسوا فيما إذا كان صافياً أو مكدّراً، والذي ليس عنده حساسية فمشكلته كبيرة هناك شخص لا يعلم لأنه بعيد عن هذا المجال، أما الذي عنده هذه الحساسية البالغة يميز بين قلب صافٍ كالمرآة، وبين قلب مكدر كالماء العكر، فقلب الإنسان قد يصفو، وقد يمتلئ حباً وقد يمتلئ شوقاً إلى الله عز وجل وقد يمتلئ إخلاصاً كقوله تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

إنّ القلب إذا تُرك من دون ذكر صدِئ، فإذا ذكر الله جُلي هذا القلب، فالقلب يصدأ بحالتين في رأي ابن قيّم الجوزية يصدأ بالغفلة ويصدأ بالذنب، هذا معنى جديد الآن، فالشخص الذي ليس له معصية ولكنه غافل عبادته شكلية، وهذا يصدأ لغفلته، وقد يصدأ بالذنب، الذنب حجاب، والغفلة حجاب، فالذي يسبب صدأ القلب الغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين ؛ الاستغفار والذكر، الذنب نستغفر منه والغفلة نذكر الله فتجلو، المرضان لهما علاجان، الغفلة دواؤها الذكر، والذنب دواؤه الاستغفار قال: فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكماً على قلبه، أحياناً تجلس مع شخص غليظ، تعليقاته لاذعة، نظراته وقحة، ظله ثقيل، يتطاول على الآخرين، ليس عنده رقة، نقول: هذا قلبه يعلوه الصدأ ويغشاه، ابتعد عن الله فذهب عنه الكمال، فإن اقترب من الله اصطبغ بالكمال، أنت كامل بقدر اتصالك بالله، وأنت ناقص بقدر بعدك عن الله، فكلما اقتربت من الله ازددت كمالاً، الصحابة الكرام أحبوا النبي محبة لا توصف، لماذا أحبوه ؟ لأنه أكرم الخلق، ما رؤي ماداً رجليه قط، حدثني أخ قال لي: في بعض المساجد في أثناء درس العلم ترى مَن يمد رجليه، ومرة حدثني أخ آخر فقال: والله في مجلس علم لم يكتفِ أحدهم بمد ساقيه بل اضطجع، والنبي عليه الصلاة والسلام ما رؤي في كل حياته ماداً رجليه قط، ولا حمّر وجهاً، قال الرسول الكريم:

((لا تحمروا الوجوه))

وكان يخجل ويصطبغ وجهه بالحمرة كالعذراء في خدرها، بل كان أشد حياءً منها، عنده خجل، فاعلم الإيمان يربي اللسان، أحياناً تجلس مع إنسان أربعين سنة أو أكثر لا تسمع منه كلمة نابية، ولا تعليقًا فاحشًا، ولا نكتة ملغومة أبداً، من علامة الإيمان ضبط اللسان، قال الرسول:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لاَ يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ وَلاَ يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ))

(رواه أحمد)

وعلامة المؤمن أن لسانه مضبوط، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ(7))

(سورة المؤمنون)

فمن ابتغى وراء ذلك، هل هذه الكلمة في هذه الآية تجرح الحياء، تخجل، افتح أي كتاب فقه تجد أن هناك كلمات محرجة ومخجلة، العورات بأسمائها، والأفعال القبيحة بأوصافها، هذا في كتب الفقه أحياناً، أما في القرآن قوله تعالى:

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7))

(سورة المؤمنون)

عندما يكون عند الإنسان حياء من الله عز وجل فإنّ الله يلهمه أجمل كلمة وألطفها، وأبعدها عن الفحش، قال لها: يا بنيتي إنّ هذه الثياب تصف حجم عظامك، وابحث عن كلمة بديلة، فأي كلمة مثيرة، لكن حجم عظامك، العظام كلمة منَفّرة، وليست مثيرة إطلاقاً، أراد أحدهم أن يتغزل فقال:

إنّ سلمى خُلقت من قصب ... قصب السكر لا عظم الجمل

وإذا قربت منها بصـلاً غلب ... المسك على ريح البصل

هذا غزل مطبخي في الحقيقة، بصل وجمل وعظم وهذا البيت شاهد على أنّ الكلمات لا تناسب المعنى، أما النبي عليه الصلاة والسلام قال لها: يا بنيتي إنّ هذه الثياب تصف حجم عظامك، انظر إلى دقة هذه الكلمة، فالمؤمن يقلّد النبي عليه الصلاة والسلام، أنا والله لا أصدق، قد يقال لي ولكن لا أصدق: إنَّ مؤمنًا كلامه بذيء، أخ يذكر عورة بلسانه، يذكر العمل الفاحش بتفاصيله، مؤمن أعوذ بالله، فالواحد لا يعرف حقيقة إيمانه إلا إذا صاحب أهل الدنيا، أخ سافر مرة في رحلة جماعية، والعياذ بالله، فقال: سمعت تعليقات بذيئة، وطُرفًا جنسية، وقال: والله يندى لها الجبين، كلهم أشخاص محترمون، مثقفون، يشغلون أعمالاً طيبة في المجتمع، ذهبوا في رحلة جماعية والعياذ بالله، معهم أطفال ونساء، وما ارعوَوا عن فاحش من الكلام،

فعَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لاَ يَسْتَقِيمُ إيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قلبُهُ ولاَ يَسْتَقِيمُ قلبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ ولاَ يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّة لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ.))

(رواه أحمد)

والمؤمن الكامل يضبط لسانه، وينتقي أجمل كلمة وألطفها، قال: فمن كانت الغفلة أفضل أوقاته كان الصدأ متراكماً على قلبه، وصدؤه بحسب غفلته، وإذا صدئ القلبُ لم تنطبع فيه صورة المعلومات على ما هي عليه، ذكرت من مدة أن المرآة الصافية الصقيلة المستوية تنقل لك الصورة بأمانة، أما إنْ كانت مقعرة تكبر، وإنْ كانت محدبة تصغر، وإنْ كانت تالفة تشوه الصورة، فإذا صدئ القلب شوَّه الحقائق، فإذا تراكم الصدأ عليه، واسود ركبه الران، فهذا معنى قوله تعالى:

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14))

(سورة المطففين)

قالوا: فسد تصوره وإدراكه، وبعدُ فأكبر مصيبة على الإطلاق أنَّ هذا القلب الذي علاه الصدأ لا يقبل حقاً، ولا ينكر باطلاً، قال لي شخص: لقد أرسلت زوجتي مع السائق من جدة إلى الشام، وتابع قائلا: إنه طيب، فهل هذا معقول، وحدهما ومن جدة إلى الشام، ولم ينكر باطلاً، وبعض الناس يقول: ما الذي حدث، لن يفعل لك شيئًا، لا يقبل حقاً، ولا ينكر باطلاً، قال العلماء: وهذا من أعظم عقوبات القلب، أكبر عقاب يعاقب به القلب أنه أصبح مغطىً بالران، يرفض الحق ولا ينكر الباطل، لم يعد ينكر الباطل، فإنهما يطمسان نور القلب ويعميان بصره، والآن اسمع هذه الآية الكريمة، قال تعالى:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28)

(سورة الكهف)

قد يسأل سائل: أغفلنا قلبه، إذاً ليس له ذنب، فالله هو الذي أغفله ولا ذنب لصاحبه، فلولا أن الله أغفله لما كان غافلاً، فكيف يحاسبه ؟ افتح معاجم اللغة، قبل نزول القرآن، ما معنى فَعَلَ أفعلهُ ؟ ما معنى أغفلنا ؟ أي وجدناه غافلاً فقط، هناك فرق بين أن تفهم هذا الفعل على أن الله خلق في قلبه الغفلة، وبين أنه نظر إليه فوجده غافلاً، فعل أفعله أي وجده هكذا، عاشرت هذه القبيلة فما أبخلتهم، أي ما وجدتهم بخلاء، وما أجبنتهم، أي ما وجدتهم جبناء، هذا قول ابن قيّم الجوزية في الذكر، وفخر الدين الرازي يقول: قال تعالى:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(180))

(سورة الأعراف)

إن الموجب لدخول جهنم هو الغفلة عن ذكر الله، إذا أمضى الإنسان كل وقته إما في البيع والشراء، أو في الجلوس وراء هذه الشاشة الصغيرة حتى منتصف الليل، ينام كالبهيمة، يستيقظ على الأخبار، يأكل ثم يذهب إلى عمله، بيع وشراء في النهار، وفي المساء وراء الشاشة إلى أن يأتيه ملك الموت، أليس هذا غافلاً، بلى هذه هي الغفلة، شيء آخر ؛ الإنسان وعاء، فما الذي يملأ هذا الوعاء ؟ هذه الشاشة، إذا أراد أن يتكلم يتكلم من هذا الغذاء الذي تغذاه، فلانة وفلان، هذا كلّ حديثهم، والقصة الفلانية، والمسرحية الفلانية، والمسلسل الفلاني، ليس لديه حديث آخر، الشاشة تغذيه وهو إذا تكلم تكلم من الذي تغذى منه، هذا إنسان غافل، أما لو كان القرآن فإنه يغذيه، والسنة تغذيه، وسير الصحابة تغذيه، ولمَا تكلم إلا بالحق، ضع في ذهنك هذا المثل ؛ وهو وعاء الماء، له فتحة في الأعلى وصنبور في الأسفل، الذي يوضع فيه في الأعلى يخرج من هذا الصنبور، فعندما تتكلم تتكلم بحسب التغذية، بماذا غذيت نفسك ؟ بمجلس علم عندك حق، لك مجلس علم عندك قرآن، لك شاشة عندك مضمون الشاشة، هناك قنوات ماء زلال، وهناك قنوات مجارٍ، قال الإمام فخر الدين الرازي: إن الموجب لدخول جهنم هو الغفلة عن ذكر الله، والمُخَلِّص من عذاب جهنم هو ذكر الله تعالى، وأصحاب الذوق والمشاهدة يجدون من أرواحهم أن الأمر كذلك، فإن القلب إذا غفل عن ذكر الله وأقبل على الدنيا وشهواتها، وقع في باب الحرص وزمهرير الحرمان، ولا يزال ينتقل من رغبة إلى رغبة ومن طلب إلى طلب ومن ظلمة إلى ظلمة، فإذا انفتح على قلبه باب ذكر الله تعالى، ومعرفة الله تخلص من نيران الآفات، ومن حسرات الخسارات، واستشعر بمعرفة رب الأرض والسماوات، هناك صفة في الإنسان تُدعى الديناميكية، المترجم الحركية، أي الإنسان حركي، أي الطاعة تقوده إلى طاعة أكبر، سأل سيدنا أبو ذر النبي عليه الصلاة والسلام: ماذا ينجي العبد من النار ؟ قال: إيمان بالله، ثم قال: مع الإيمان عمل، ثم قال: أن تعطي مما أعطاك الله، إنفاق، تنفق مالك، تنفق علمك، تنفق قوتك وجاهك، تنفق خبرتك، قال له: فإن كان لا يستطيع قال: أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، قال: فإن كان لا يقدر، قال: فليُعِنْ الأخرق؛ ساعدْ إنسانًا ضعيفًا، قال: فإن كان لا يقدر، فقال عليه الصلاة والسلام: فليمسك أذاه عن الناس، فجاءه سؤال محرج ؛ أوَ إنْ فعل هذا دخل الجنة ؟ إن قال: نعم، أيْ لا يؤذي أحدًا فإنه سيصل إلى الجنة، لم يفعل شيئاً، ولكن لا يؤذي أحداً، طالب دخل إلى المدرسة ولم يضرب أحدًا من زملائه، وقال:، نجحوني، ولكن أنت لم تقرأ أبداً، ولكن أنا لم أؤذِ أحداً، إنه منطق مضحك، قال: أو إن فعل هذا دخل الجنة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: ما من عبد مسلم يصيب خصلة من هذه الخصال حتى أخذت بيده حتى تدخله الجنة، الإنسان حركي ديناميكي، كل عمل صالح يقوده إلى عمل أكبر، فإذا الإنسان بدأ بداية طيبة، ينتهي نهاية طيبة، بالمقابل والإنسان حركي، كلما عمل معصية تقوده إلى معصية أكبر، نظرة فابتسامة فموعد فلقاء، والأجانب ملّوا من هذه الإباحية، فاتجهوا إلى الجنس المِثْلي، وملّوا هذا

الجنس المثلي فاتجهوا إلى البهائم، شيء لا يصدق، انحطاط الناس شيء لا يصدق، المتفلتين، لأن الإنسان حركي، كلما عمل معصية يملها يريد شيئًا أبلغ، وأشنع، وأفحش، والإنسان كلمة حركية حيادية، فإذا اتجهت نحو الله تنقلك من حال إلى حال وإن اتجه الإنسان نحو المعصية تنقله الحركية من حال إلى حال، نحو الأسفل، ويقول أحد العلماء أيضاً: الخواص ثابتة في الأقوال والأفعال والأعيان، أعظمها خواص الأذكار، ما عَمِلَ آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله، وقد جعلها الله للأشياء، كالأشربة، لكلٍّ ما يخصه، أي لا شيء ينجيك من عذاب الله كأن تذكر الله، يا ابن آدم إن ذكرتني شكرتني، وإذا نسيتني كفرتني، قال يا ربّ: أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك؟ قال: أحَبُّ عبادي إلي تقيُّ القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي، قال: يا ربّ إنك تعلم أني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال: ذكّرهم بآلائي ونعمائي وبلائي، هذا منهج الدعاء ذكرهم بآلائي بالكون، ونعمائي بالعطاء، وبلائي بالعقاب، التقيت منذ مدة مع شخص فاستنصحني، وله عمل يمكن أن يؤذي به، قلت له: كل هؤلاء الناس عباد الله، وعند الله أمراض خبيثة، وعنده خثرة في الدماغ، وتشمع بالكبد، وفشل كلوي وشلل، فقدُ ذاكرة وعقل، كُساح، خلل بالسير، أخ جاءني من بلد بعيد من أمريكا، التقيت به اليوم، فقال: لي أخ يعمل عملاً من أسوأ الأعمال، عملاً متعلقًا بالأفلام والمونتاج، ثم قال: إنه قد سمع في شريط قوله تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12))

(سورة البروج)

وقال: لقد سمعه نحوًا من خمسين مرة، وتاب عقب سماع هذا الشريط، فقلت: ما الذي لفت نظره في هذا الشريط غير الآية، قال لي: قصة رويتها، رويتُها أنا في الشريط، رجل مقيم في أحد أحياء دمشق، وله رغبة في الصيف بأن يتمشى في طريق الصالحية عصراً، لا يفعل شيئاً، إلا أنه يُمتّع عينيه بمنظر الغاديات والرائحات والمتفلتات، يصعد إلى منطقة الجسر، ويعود إلى بوابة الصالحية مرتين فقط، وعنده زوجة وأولاد وبنات متزوجات، هذه رغبته، وهذا ميله، بعد سنوات عدة أصيب بمرض ارتخاء الجفون، لا يستطيع أن ينظر إلى إنسان إلا إذا أمسك جفنيه بيديه ورفعهما، ثم قال: إنّ هذه القصة التي وردت في الشريط مع قوله تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12))

(سورة البروج)

هذا الشريط هو سبب هداية أخي، وكرَّر: لقد أعاد الشريط خمسين مرة، وتاب إلى الله عز وجل، فمادام هناك بحبوحة لدى الإنسان في حياته فباب التوبة فسيح، احفظ الله يحفظك، قال له: يا سيدي ما هذه الصحة ؟ ستة وتسعون عاماً، قامة منتصبة، ونظر حاد، وسمع مرهف، وذاكرة قوية، وأسنانك في

فمك، وأنت وزوجتك، قال له: يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً، كلٌّ منا يتمنى شيخوخة مشرقة، صحة وعافية، يتمتع بصحته إلى آخر سنوات حياته، هذا طلب كل واحد منا ثمن هذا الطاعة، احفظ الله يحفظك، احفظ هذه العين من أن تنظر إلى حرام، من ملأ عينيه من الحرام ملأهما الله من جمر جهنم، احفظ هذه الأذن من أن تسمع حرامًا، احفظ هذا اللسان من أن ينطق بالباطل، احفظ هذه اليد من أن تبطش، احفظ هذه القدم من أن تسير إلى معصية احفظ الله يحفظك، قال تعالى:

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64))

(سورة يوسف)

أيها الإخوة في درس قادم إن شاء الله عز وجل نصل إلى درس هام في الذكر، وهو أقسام الذكر ؛ الذكر الخفي، والذكر الجهري، سنبسط القول وشرح ما جاء في الأحاديث، حول الذكر الخفي والجهري، إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (098) :قواعد السلوك إلى الله5 - ذكر القلب وذكر اللسان.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1997-12-07

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون :

لا زلنا في موضوع الذكر، وقد بينت لكم في درسين سابقين أنّه من أفضل أعمال المؤمن، وخير له من إنفاق الذهب والفضة، وخير له من أن يلقى عدوه فيضرب عنقه، قالوا: وما هو خير من كل ذلك ؟ قال: ذكر الله، وبينت أيضاً أن ذكر الله جل جلاله واسع جداً يشمل نشاطات المؤمن كلها، فإن قرأت القرآن ذكرته، وإن سبحته ذكرته، وإن وحدّته ذكرته، وإن حمدته ذكرته، وإن كبرته ذكرته، وإن دعوته ذكرته، وإن قرأت كتب العلم التي تقربك منه ذكرته وإن أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ذكرته، وإن دعوت إلى الله ذكرته، وحينما تذكره في خلقه يذكرك في ملأ خير منهم، ولقد قال الله عز وجل:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152))

(سورة البقرة)

وذكر الله هو معرفته ومحبته والتقرب منه، ننتقل اليوم إلى موضوع خاص في الذكر، ذكر اللسان وذكر القلب، الإمام النووي رحمه الله تعالى يقول: الذكر يكون بالقلب ويكون باللسان، والأفضل منه ما كان بالقلب واللسان معاً، ذكر اللسان كأنْ يمسك الإنسان سُبحة ويقول: الله، الله، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، وهو شارد بالشؤون الدنيوية، نقول: هذا ذكر باللسان، والإنسان أحياناً يغمض عينيه، ويتأمل في ملكوت السماوات والأرض، ويتأمل في عظمة الله، نقول هذا ذكر القلب، ولكن ذكر القلب أحياناً يشتط إلى أمور دنيوية، وذكر اللسان وحده أحياناً يشتط إلى خواطر بعيدة عن الذكر، لكن الإمام النووي رحمه الله تعالى يرى أن ذكر القلب واللسان معاً هو أفضل من ذكر اللسان وحده، وذكر القلب وحده، قال فإذا اقتصر على أحدهما، فالقلب أفضل، أكرر إن اقتصر الذكر على أحدهما ؛ القلب أو اللسان فالقلب أفضل، ثم لا ينبغي أن يترك الذكر باللسان مع القلب خوفاً من أن يُظن به الرياء، فالإنسان يتوقف عن التسبيح لئلا يقال عنه: مُراءٍ، هذا خطأ كبير، يتوقف عن الدعاء لئلا يقال عنه: مراءٍ، هذا خطأ كبير، ثم لا ينبغي أن يترك الذكر بالقلب مع اللسان خوفاً من أن يُظن به الرياء، بل يذكر بهما جميعاً، ويقصد بهما وجه الله عز وجل، إذًا هناك لسان وهناك قلب، والأفضل منهما أن يكون الذكر بالقلب واللسان معاً، وقد قال بعضهم: الذكر باللسان مشروع، للأكابر والأصاغر، الإنسان مهما دنا

شأنه ومهما قل شأنه، يذكر بلسانه، ومهما علا شأنه يذكر بلسانه، فكأن ذكر اللسان قاسم مشترك بين الأكابر والأصاغر، ولأحد العلماء مقولة طيبة، يقول إن ترك العمل لأجل الناس رياء، ولو فتح الإنسان على نفسه باب ملاحقة الناس، فمثلاً تنام عند إنسان آخر، ومن عادتك قيام الليل، فلو لم تقم الليل خوفاً من أن يقول: هذا يتظاهر أمامي بقيام الليل، وهذا رياء، لكن ما دام قيام الليل من شأنك فقم الليل، ولا تعبأ إطلاقاً، الإمام النووي رحمه الله تعالى يقول: أجمع العلماء على جواز الذكر بالقلب واللسان، دققوا للمُحْدِث، والجنب، والحائض، والنفساء، أي ما من عبادة إلا ولها شروط، تكثر أو تقل إلا الذكر، فليس له أيُّ شرط، أنت محدث اذكر، جنب اذكر، نفساء اذكري، حائض اذكري، مضجع اذكر، قائم اذكر متكئ اذكر، نائم اذكر، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41))

(سورة الأحزاب)

وقال أيضاً:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً (63))

(سورة الفرقان)

وقال:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

(سورة آل عمران)

أي دائماً، الإنسان في أول طريق الإيمان يذكر الله في بعض أحيانه، لكن كلما تقدم وتفوق في هذا الطريق ؛ أيْ طريق الإيمان بالله عز وجل، فإنه يذكر الله في أكثر أحيانه، بل إنه لا يستسيغ أن يتكلم كلامًا من كلام أهل الدنيا، سأضرب مثالاً: إنسان كان في الجاهلية، في جاهليته هو، أي قبل أن يلتزم، قبل أن يصطلح مع الله، له أغنيّة يحبها كثيراً يطرب لها، في أول توبته لو استمع إلى هذه الأغنيّة، طبعاً الصواب هو أغنيّة، أغنيَة غلط في اللغة، غنَّى يغنِّي أغنيّة بالتشديد، لو أنه سمع هذه الأغنيّة في مركبة عامة ربما طرب لها، ولكنه ليس مؤاخذاً على ذلك، أما إذا تقدم في مجال الإيمان وطال باعه في مسالك الإيمان، قد يستمع إلى الأغنيّة نفسها فيشمئزّ منها أشد الاشمئزاز، فهذه علامة طيبة، وأنت في الأساس محاسب على العمل، لكن أحياناً ترقى نفسك إلى مستوى الشرع، سلوك في مستوى الشرع، قد تقصر النفس عن مستوى الشرع أما إذا تعمقت في الإيمان وقوي إيمانك اشتدت صلتك بالله عز وجل، ترقى نفسك إلى مستوى الشرع، وبالمقابل، فالإنسان إذا أكثر من ذكر الله يصبح ذكر الله ديدنه، وعندئذ لا يستسيغ أن يقول كلاماً من كلام أهل الدنيا، المزاح، الحديث الفارغ، سفاسف الأمور، القيل والقال،

المماحكات، القضايا التافهة، هو أرقى من ذلك، يصون نفسه عن هذه الترهات، وعن هذه الأباطيل، وعن هذه السفاهات، وإن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها ودَنِيِّها، أي إذا قوي ذكرك سمت نفسك، أحياناً: أخ له إخوان في أول عهدهم بالإيمان، بالدرس العام منضبطون، في جلسة رسمية منضبطون، فإذا جلسوا مع بعضهم بعضاً مزحوا وعلا صياحهم، ومزح بعضهم مع بعض مزاحاً قد يكون غير مقبول، هذه خلوتهم، لكن لو رأيت هؤلاء أنفسهم بعد أن قوي إيمانهم لرأيتهم في أية جلسة هم في أعلى درجة من السمو، في أية جلسة سواء كانت علمية أو ذكرًا أو روحانية، فلذلك الذكر إذا داومت عليه لا تستطيع أن تنفك عنه، هناك بالفيزياء قانون يدعى العطالة، قانون رائع، على ما أعتقد أنّ القوانين المادية لها في النفس ما يشبهها، لأن الكون في وحدة بدءًا، من الذرة وانتهاءً بالمجرة، وبدءًا من المادة وانتهاءً بالروح، مبدأ العطالة أن الأجسام المتحركة ترفض السكون، لذلك يضعون في السيارات الأحزمة لأن هذا الراكب إذا ركب السيارة، وانطلقت به بسرعة مائة، ورأى السائق أنه من الضروري أن يـقف فجأة، فالراكب لا يقف، يبقى مندفعاً فيموت، إما بالزجاج، أو بمقدمة السيارة، فلا بد من الحزام، بسبب قانون العطالة، فالجسم المتحرك يرفض السكون، والجسم الساكن يرفض الحركة، فإذا ترك أخ من الإخوان من الدروس درساً واحداً أو درسين صار صعبًا عليه المجيء، فيختلق عذرًا لأتفه سبب، يريد به أن يترك الدرس الثالث، وبعد أربعة دروس أو خمسة لن يأتي أبداً، هذه هي العطالة، ما دام سكن لا يتحرك، والذي يداوم على الدروس لا يتركها، والمتحرك لا يقف، خاصة رائعة، هذا مبدأ فيزيائي، قانون فيزيائي مادي يعتمد على طبيعة النفس، فالإنسان إذا اجتهد لا يقف، إذا أكثر من ذكر الله لا يفتر لسانه عن الذكر، أحياناً بعض الإخوة الكرام يحدثونني، أننا لو فرضنا يوماً لم نحضر الدرس، أشعر كالضائع، كاليتيم، وأحتقر هذا الوقت الذي أمضيه في سفاسف الأمور، لقد فاتني خير كثير، لا تصدق أنَّ إنسانًا يدخل إلى بيت الله عز وجل إلاّ ويكرمه الله، وهناك كلمة واللهِ أعجبتني، أحد العلماء قال: هؤلاء الذين يأتون إلى الدروس، لا يأتون للشيخ يأتون لله عز وجل، هو ينتظر رحمة الله ينتظر السكينة من الله، التوفيق من الله، رعاية الله، ينتظر تيسير الأمور، ينتظر أن يزداد علمه، أن يزداد قربه من الله، هذا الذي يتكلم قد سخره الله لهداية العباد، أنت تأتي إلى بيت الله، ومحال على الله عز وجل أن تطرق بابه ولا يفتحه لك، أن تطرق باب رحمته ولا يفتحها لك، والله أيها الإخوة، وهذه من خبراتي الشخصية، أحياناً أخ كريم يحدثني أن الطرق كلها أمامه مسدودة، كل باب مغلق، أقول له: اصطلحْ مع الله، وتُبْ إليه، ولا تعبأ بشيء، والله الذي لا إله إلا هو أستمع منه إلى قصص تشبه الخيال، تَوَفَّق، واللهُ أكرمه في عمله، تيسر زواجه فقد يسر الله له بيتًا، سبحان الله إذا عقد الإنسانُ الأملَ على الله، ووضع ثقته بالله، رجا الله وحده ولم يرجُ غيره، فمن الطبيعي أن يمده الله بقوة من عنده، يقول الإمام النووي أجمع العلماء على جواز الذكر بالقلب واللسان للمحدث والجنب والحائض والنفساء،

وذلك في التسبيح والتحميد والتكبير والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والدعاء ونحو ذلك، والدعاء هو العبادة، اسمحوا لي أيها الإخوة أن أضع بين أيديكم هذه الحقيقة، إنسان أصابته محنة، ليعلم علم اليقين، أن هذه المحنة ما ساقها الله له إلا ليقفز قفزتين ؛ قفزة في معرفة الله، وقفزة في محبته، وتنتهي المحنة، ساق له محنة بعد هذه المحنة، فهناك منحة، ساق له شدَّة بعد هذه الّشدة، فكانت هناك شَدّةٌ إليه، لذلك الإسراء والمعراج متى جرى ؟ جرى بعد الطائف، ورحلة الطائف كانت محنة، الخط البياني لرسول الله عليه الصلاة والسلام كان في الطائف في الحضيض، ضُرب وكُذّب وسُخر منه، وجاءهم بعد أن أخرجه أهل مكة، وأعرضوا عن دعوته، قال إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ولك العتبى حتى ترضى، نحن كل عام نحتفل بالإسراء والمعراج، ما علاقتنا بهذه المناسبة، شيء وقع وانتهى، علاقتنا بهذه المناسبة أنك إذا كنت صادقاً مع الله، وجاءتك محنة أو ابتلاء أو مصيبة وصبرت ، واحتسبتها عند الله عز وجل ولم تزعزعك عن إيمانك، وعن استقامتك ولم تزحزحك عن صدق التوجه إلى الله عز وجل، فإن هذه المحنة سيعقبها منحة، النبي عليه الصلاة والسلام في رحلة الإسراء والمعراج عرف أنه سيد الأنبياء والمرسلين، وسيد ولد آدم، فكأن الإسراء والمعراج هو الرد الإلهي على محنة الطائف، وكأن ترحيب السماء وحفاوة السماء هي الرد على جفوة الأرض، نعم، والله أنا أعرف أخًا كان زميلي في العمل بالتدريس، أعرفه أنه كان من أبعد الناس عن الدين، واللهِ يكاد يكون ملحداً، زميل عمل، تعليقاته ساخرة لاذعة على هذا الدين، وعلى رسول الله، ويتمتع بصحة، وبشكل، وبجمال، وبذكاء، ويحمل شهادة عليا، وله زوجة متفلتة، يعيش تائها كما يعيش كثيرٌ من الناس، وذات مرةٍ رأيته يسلم عليّ سلام طالب علم على شيخه، وكدت ألاّ أصدق نفسي، ما هذا السلام ؟ قلت له: طمئني عن أحوالك، قال لي والله أنا عندك منذ ستة أشهر، أصلي الجمعة، أهلاً وسهلاً، وثار سؤال في ذهني: ما الذي جاء بك إلى المسجد، وأنا أعهده واللهِ أبعدَ الناس عن الدين، قال لي طفلة صغيرة أحبها حباً جنونياً أصيبت بمرض في دمها، مرض خبيث، ولأنني متعلق بها أشد التعلق أنفقت كل ما أملك من أجل شفائها حتى اضطررت إلى بيع بيتي وسافرت بها إلى بريطانيا، ولم أستفد شيئاً، وهي بين الموت والحياة، تعاني سرطان الدم، ثم قال: جاءني خاطر، قلت: لو أنني تبت إلى الله أنا وزوجتي لعل الله يشفيها لنا، قال: فعقدنا العزم أنا وزوجتي على التوبة، بدأت أصلي وحجّبت زوجتي بالاتفاق، وبيته قريب من هذا المسجد، فالتزم بهذا المسجد، فالذي لفت نظري سلامُه في أعلى درجة من الأدب، فعجبت له، سبحان الله، فاللهُ لم يخيب ظنه، تراجع المرض شيئاً فشيئاً، وبعد عدة سنوات لا أدري كم هي، زارني في عملي فدعاني إلى حضور عقد قران لابنته، وكنت قد نسيت هذه القصة، حضرت عقد القران وألقيت كلمة في هذا الحفل وبينما كنتُ خارجًا من مكان الحفل تبعني مرحِّبًا بي، ومودعاً لي، قلت له: من هي هذه التي زوجتها، أهي هي التي أصيبت بمرض خطير ؟ قال: هي هي، هذه القصة

أعطتني عبرةً عجيبةً، أنّ مرضاً خبيثاً من يحبه ؟ من لا ترتعد مفاصله إذا سمع به ؟ عن طريق هذا المرض الخبيث الذي جاء كالضيف وهدى الأم والأب ورحل، هذا فعل الله، هذه هي المصيبة تزيدك قربىً وتزيدك حباً.

أيها الإخوة مثل هذه القصة آلاف، ولقد زارني أخ مقيم في بلد غربي، وفي أعلى درجة من النجاح في الجراحة، أصيب بمرض عضال ؛ خثرة في الدماغ، قال لي: ناديت الله في منتصف الليل قلت يا الله إن أردتني أن أعيش فاشفني وإن أبقيتني مريضاً فخذني إليك وأعاهدك على الطاعة، وخدمة الحق، وهذا المرض والله لا ينجو منه بالألف شخص واحد، وانتهى هذا الإنسان وأصبح قعيد الفراش، والكرسي، لقد فقدَ الحركة كلياً، قال: ثم شفاه الله بعد ساعتين من دعائه، لقد قال : والله يا أستاذ ما من خلية في جسمي إلا ونادت الله عز وجل، ما من قطرة من دمي إلا وناجت الله عز وجل واستجاب الله وغيّر اتجاهه مائة وثمانين درجة.

أيها الإخوة ؛ إنّ الله موجود، وليس هناك إلا الله، وكل شيء بيده، أي بصراحة نقطة دم تجمدت في أحد أوعية الدماغ، شيء مخيف، إن تخثرت بمكان يحدث شلل، وبمكان آخر عمى، وبمكان ثالث فقد السمع، بمكان رابع فقد الذاكرة، هذه النقطة من الدم التي تجمدت أية يد تستطيع أن تدخل إلى وسط الدماغ، أو إلى الشريان وتذيبها، الله هو الذي بيده كل شيء، يجب أن تعلم أنّ كل أعضائك وأجهزتك وأوعيتك لله عز وجل فإذا كنت معه كان معك، القصة غريبة، فهو طبيب يَعْلَم مضاعفات ونتائج وأمد هذا المرض، يعرف هذا كله معرفة يقينية، واللهُ سبحانه وتعالى بمناجاة العبد الصادقة، وإخلاصه الشديد، ويقينه بقدرة الله عز وجل يفعل المستحيلات، ولقد مضى على هذه القصة سنة ونصف تقريباً، وهو الآن يتمتع بأعلى درجات الصحة، قال لي: وفي اليوم التالي أجريت فحوصًا شاملة ولم أجد شيئاً عند أطباء عصبيين كبار، فوجدت استجابات أعضاء القدم واليد وكل شيء طبيعية، فعَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي رَاشِدٍ قَالَ

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سُبْحَانَ اللَّهِ أَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ))

(رواه أحمد عن سعيد بن أبي راشد)

وأنا أقيس على هذا ؛ أين المرض إذا جاء الشفاء ؟ التغى المرض، الذي يخلق المرض يخلق الشفاء، قال بعض العلماء: قلب الغافل عليه غشاوة لا يجد صاحبها لطعم الذكر حلاوة ولا لغيره من العبادات، لذلك قيل: لا خير في ذكر مع قلب غافل ساهٍ، إذا كان قلب الإنسان غافلاً ساهيًا هل يترك الذكر ؟ لا، استيقظ، اذكر وقلبك حاضر، الإمام الغزالي رحمه الله تعالى له تمثيل لطيف قال: هذا الذكر لباب عليه ثلاثة قشور القشرة الأولى ذكر اللسان، والقشرة الثانية ذكر القلب، والقشرة الثالثة أن يتمكن المذكور من الإنسان، والقلب حينما يذكر الله عز وجل ويتعلق به لا يستطيع أن ينفكّ عنه أما لب الذكر قال: أن

يستمكن المذكور من القلب وينمحي الذكر ويختفي أي تنسى أنك تذكر الله، تنسى شكليات الذكر، وتحس أنك صرت مع الله، أيْ حقيقة الذكر أن تكون مع الله، مقدمات الذكر أن تذكر بلسانك، وأن تذكر بقلبك، وأن يتمكن الذكر من قلبك، لكن وأنت في كل هذه المراحل تعلم أنك تذكر الله عز وجل، أما إذا وصلت إلى الدرجة الرابعة إلى لب الذكر، فإنك تذكر الله، وتنسى أنك تذكر الله لأنّ الذكر أصبح جزءًا من كيانك، الإنسان أحياناً يُدعى إلى طعام، فيجلس إلى المائدة، وينتقي ألوان الطعام، أعطوني هذا الطبق، أعطوني ذاك الطبق، هو واعٍ لما يفعل، أما وهو يتنفس طوال النهار ينسى أنه يتنفس أليس كذلك ؟ فلحركة نَفَسِهِ غير واعٍ، لأنه شيء مستمر ومألوف، فقال الإمام الغزالي: إنّ أعلى درجة بالذكر أن ينمحي الذكر ويبقى المذكور، الوسائل يضعف وجودها ويبقى الله وتبقى أنت مع الله، قال: المراحل الثلاث مبدؤها ذكر اللسان ثم ذكر القلب تكلفاً ثم ذكر القلب طبعاً ثم استيلاء المذكور ومحو الذكر، هذا رأي الإمام الغزالي، وفي بعض الأحاديث الشريفة عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا، قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ ؟ قَالَ: حِلَقُ الذِّكْرِ.))

(رواه الترمذي)

أي هناك نِعَمٌ استمرارُها يؤدي إلى نسيان قيمتها، إنسان في برد شديد يكاد يموت من شدة البرد لو دخل إلى غرفة دافئة في العشر دقائق الأولى يشعر براحة ما بعدها راحة، بعد ساعة يألف هذا الجو المعتدل وينسى أنه انتقل من برد شديد إلى جو معتدل، فالذكر أوله جميل جداً بعد ذلك يصبح جزءًا من حياة الإنسان، وقال عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ قَالَ: فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ: مَا يَقُولُ عِبَادِي ؟ قَالُوا: يَقُولُونَ يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ قَالَ: فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي ؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي، قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا، قَالَ: يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي ؟ قَالَ: يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا، قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً، قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ، قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا، قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً، قَالَ: فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، قَالَ: يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ

لِحَاجَةٍ، قَالَ: هُمُ الْجُلَسَاءُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ))

(رواه مسلم)

أي إذا أنت دخلت إلى بيت الله عز وجل لك فعند الله كرامة ومكافأة وتوفيق، وفي حديث آخر عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

(رواه مسلم)

وعن معاوية رضي الله عنه قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على حلقة من أصحابه، طبعاً(حلَقة) - بالفتح - في اللغة خطأ صوابها (حلْقة) - بسكون اللام - يقول له: أنا سرت في المحلّق الجنوبي خطأ، المحلّق من التحليق، أما اسمه فهو المتحلّق الجنوبي، المحلِّق من حلّق طار في السماء، فهنا (الحلَقة) وليست (الحلْقة)، شخص ألف كتاباً سماه أخطاؤنا الشائعة فذكر أحدهم مقالة ذكر فيها أنّ عنوان الكتاب خطأ شائع لأن الخطأ لا يجمع على أخطاء يجمع على خطيئات، لقول الله عز وجل:

(مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً (25))

(سورة نوح)

ثم جاء إنسان ثالث قال: والعنوان الثاني خطأ، والصواب أغلاطنا الشائعة، لأن الخطأ علمي، والانحراف خطأ، أما الخطأ العلمي اسمه غلط، الخطأ الأخلاقي اسمه خطأ، قال تعالى:

(مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً (25))

(سورة نوح)

اللغة العربية دقيقة، يقول لك: أنا عملت (تجارُب)، (التجارب) العدوى بالجرب، يجب أن تقول: (تَجَارِب) بالكسر، يقول لك: هذا الطبيب (أخصائي) بأمراض الدم، أي يُخصي، الإخصاء مِن أخصى يُخصي إخصاء، والصواب اختصاصي، يقول لك: فلان موَلّع بكذا، (المُوَلّع) هو الثور الأحمر، يجب أن يقول (مُوْلَع)، فلان موْلع بكذا، وطبيب اختصاصي، وأجرى تجارب، وحلْقة لا حلَقة، لكنّ بعضهم قال: الخطأ الشائع خير من الصواب الضائع، أي إذا تكلم الإنسان بالكلمة وفق الصواب الصحيح يُتَّهم أنه أخطأ، إذا قال هذا بين من يجهلون اللغة العربية.

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ مُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ يَعْنِي مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَدْعُو اللَّهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِدِينِهِ

وَمَنَّ عَلَيْنَا بِكَ، قَالَ: آللَّهُ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَلِكَ، قَالُوا: آللَّهُ مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَلِكَ: قَالَ أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهَمَةً لَكُمْ وَإِنَّمَا أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ))

(رواه النسائي)

إذا كنت في مجلس ذكر، ومجالس الذكر كثيرة، شرحُ القرآن الكريم مجلسُ ذِكر، شرحُ الحديث مجلسُ ذِكر، تعليمُ العلم الشرعي مجلسُ ذِكر، الدعاءُ مجلسُ ذِكر.

((وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ ؟ قَالَ: حِلَقُ الذِّكْرِ))

(رواه الترمذي)

الإمام ابن علان شارح كتاب الأذكار يقول: إذا مررتم بجماعة يذكرون الله فاذكروا مواقفه لهم، أو اسمعوا أذكارهم، فإنهم في رياض الجنة حالاً أو مآلاً، لقوله تعالى:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46))

(سورة الرحمن)

وإليكم آداب الذكر المفرد، وذاك الذي مرَّ بنا هو الذكر مع المجموع، أما الذكر المفرد فله آثار، قالوا: له أثر فعّال في صفاء القلب وإيقادِهِ، وتعويد المؤمن على الأنس بربه، والتنعم بمناجاته والشعور بقربه فلا بد للمؤمن من جلسة يذكر الله خالياً منفرداً بربه بعد أن يحاسب نفسه ويطّلع على عيوب نفسه، وأخطائها، فإذا ما رأى سيئة استغفر وتاب وإذا ما رأى عيباً جاهد نفسه للتخلص منه.

إخوة كرام يذهبون لأداء فريضة الحج، وأقدس وأشرف مكان عرفة، ويوم عرفة خير أيام السنة، فيجلس أحدهم في الخيمة، فإما حديثه عادي، أو ذكر جماعي، هذا ما خلا بربه، وقد يندم أشد الندم، فهناك بعض الأماكن، بعض الحالات، بعض العبادات لا بد أن تخلو بالله عز وجل، ولا بد أن تذكر الله وحدك، الذكر المفرد فيه صفاء ويقظة وأُنس وتنَعُم بالمناجاة، والشعور بالقرب، لذلك مهما تحدثنا عن الذكر مع الإخوة الأكارم فلا بد من الذكر المفرد الذي له خصوصية خاصة، الدليل، لولا الدليل لقال من شاء ما شاء، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

((عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ رَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ))

(متفق عليه)

وهذه أشياء متممة للدرس، قال العلماء: ينبغي أن يكون الذاكر على أكمل الصفات، فإذا كان جالساً في موضع استقبل القبلة متذللاً متخشّعاً بسكينة ووقار، مطرقاً رأسه، ولو ذكر على غير هذه الأحوال جاز ولا كراهة في حقه، لكن إن كان بغير عذر كان تاركاً للأفضل، يجب أن يكون في مكان نظيف، متجهاً نحو القبلة، أما لو كنت معذورًا فلا حرج، الإنسان يعمل عملاً شاقاً، يحفر أرضًا مثلاً، يصلح سيارة مثلاً، إذا ذكر الله والشحم على ثيابه فما المانع ؟ أما بلا سبب يجب أن يجلس باتجاه القبلة و في مكان

نظيف ويكون هو نظيفاً قال العلماء: من دون عذر يكون قد ترك الأولى والأفضل، وهذا شيء آخر في موضوع الذكر ؛ فعندنا ذكر مقيد وذكر مطلق، فالمقيد كما قال العلماء: هو الذكر الذي ندبنا إليه النبي عليه الصلاة والسلام مقيداً بزمان خاص أو مكان خاص، كالذكر بعد أداء الصلاة ؛ من تسبيح وتحميد وتكبير وأذكار المسافر، وأذكار الآكل والشارب، وأذكار النكاح، أذكار تقال عند الشدة ودفع الآفات والمصائب، وأذكار تقال عند المرض وعند الموت وما يتعلق بهما، وبعد صلاة الجمعة وليلتها، وعند رؤية الهلال، أذكار الصائم، وأذكار الحج بأنواعها، وأذكار تقال في الصباح والمساء وعند النوم والاستيقاظ، وأذكار الجهاد في سبيل الله، هذه كلها أذكار مقيدة، أما الذكر المطلق فليس له قيد، فهو ما لم يقيد لا بمكان ولا بزمان، ولا بوقت ولا بحال، ولا بقيام ولا بقعود، فالمطلوب من المؤمن أن يذكر الله في كل حال حتى يكون لسانه رطباً بذكر الله، والآيات كثيرة منها قوله تعالى:

(يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (20))

(سورة الأنبياء)

وأيضاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (42))

(سورة الأحزاب)

وقال سبحانه:

(وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (35))

(سورة الأحزاب).

ومن الأحاديث ؛

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ فَأَنْبِئْنِي مِنْهَا بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ قَالَ: لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

(رواه الترمذي)

السيدة عائشة رضي الله عنها وصفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: كان يذكر الله في كل أحيانه.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال - وهذا كلامه وليس حديثاً شريفاً - قال: لم يفرض الله تعالى على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر، فإنه لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلا في حالة واحدة ؛ إذا كان مغلوباً على عقله، أي مجنونًا، وأمرهم بذكره في الأحوال كلها فقال عزّ من قائل:

(فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً (103))

(سورة النساء)

ابن آدم إنك إن ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني، أو تحب أن يكون الله جليسك، كيف هذا ؟ شيء يكاد لا يُصدق، قال: أما علمت أني جليس من ذكرني، وحيثما التمسني عبدي وجدني.

إخواننا الكرام ؛ أختم هذا الدرس بهذا التحذير، قال تعالى:

(وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37))

(سورة الزخرف)

إما أن تذكر الله، وإما أن يكون الشيطان هو الذي يسيّرك، الآية الثانية:

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (205))

(سورة الأعراف)

والآية الثالثة، قال الله عز وجل:و

(لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً (142))

(سورة النساء)

وهذه تتناول المنافقين وقد ذمَّهم الله تعالى.

أما النبي عليه الصلاة والسلام فيقول

((مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا فَتَفَرَّقُوا عَنْ غَيْرِ ذِكْرٍ إِلاَّ تَفَرَّقُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ وَكَانَ ذَلِكَ الْمَجْلِسُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

(رواه أبو داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ)

((وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ إِلاَّ كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ، قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعْنَى قَوْلِهِ تِرَةً: يَعْنِي حَسْرَةً وَنَدَامَةً و قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِالْعَرَبِيَّةِ: التِّرَةُ هُوَ الثَّأْرُ))

(رواه الترمذي)

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام :

موضوع الدرس اليوم خُلُقٌ من أخلاق المؤمن، ألا وهو العفة، وتذكرون أن الصحابة الكرام حينما التقوا النبي عليه الصلاة والسلام لفت نظرهم صدقه وأمانته وعفته، وكأنما هذه الأخلاق الثلاثة أعمدة صرح الأخلاق، ففي الحديث صادق، وفي التعامل أمين، وفي الشهوات عفيف، تكلُّم، تعامُل، اندفاع، حينما يندفع لتلبية شهوته فهو عفيف، وحينما يتكلم فهو صادق وحينما يتعامل مع الناس فهو أمين، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته وصدقه وعفافه ونسبه.

وقد ورد في بعض الأحاديث أن الإيمان عفة عن المطامع، عفة عن الشهوات، عفة عن الرغائب.

أيها الإخوة الكرام: محور الدرس اليوم العفة، فمتى يكون الإنسان عفيفاً ؟ إذا تعلقت آماله في الدار الآخرة، فإن لم يكن كذلك كان شهوانياً، وإن كانت الدنيا أكبر همه، ومبلغ علمه صار شهوانياً، أما إذا عرف أن الله خلقه لدار الآخرة، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لمجرد أن تنقل اهتماماتك من الدنيا إلى الآخرة، لمجرد أن تمسك بيدك ميزان الآخرة، فكل شيء في الآخرة بين يديك، نظام الآخرة نظام رائع، لا علاقة له بالسعي إطلاقا، قال تعالى:

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (35))

(سورة ق)

إنّ الدنيا مبنية على السعي، فمن أجل أن تأكل طبقًا من الطعام تبذل جهداً كبيراً، ومن أجل أن تسكن بيتاً صغيراً تبذل جهداً كبيراً، ومن أجل أن يكون لك في البيت زوجة تبذل جهداً كبيراً، ومن أجل أن تربي أولادك وأن تعلمهم تبذل جهداً كبيراً، لأن الحياة الدنيا أساسها الكدح، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ (6))

(سورة الانشقاق)

سمعت عن إنسان اشترى بيتًا في الشام بمائة وستين مليونًا، فكيف يداوم في معمله ؟ منذ عشرين عامًا يداوم من الساعة الخامسة صباحاً حتى منتصف الليل، بهذه الدقة وهذا السعي، وحرم نفسه كل شيء حتى صار غنياً، حتى الغنى له ثمنٌ باهظٌ، حتى يقال لإنسان دكتور يحتاج إلى ثلاثٍ وثلاثين سنة دراسة، أمضى زهرة شبابه في الدراسة حتى يوضع أمام اسمه دال، ترى بيتًا في طرف المدينة، وجهته شمالية، ومساحته ستون متراً، ثمنه خمس مائة ألف، راتب هذا الرجل أربعة آلاف، كيف جمعها؟ وعلى مدار كم سنة وهو يجمع هذا المبلغ حتى سكن في هذا البيت.

الحياة الدنيا أساسها الكدح أما الآخرة فأي شي خطر في بالك تجده أمامك، قال تعالى:

(قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ)

(سورة الحاقة)

الفواكه، قال تعالى:

(لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (33))

(سورة الواقعة)

(وَحُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24))

(سورة الواقعة)

هذا كلام رب العالمين، هذا كلام خالق الأكوان، الإنسان عملياً وكما أشعر فإن معظم المسلمين لم يُدخِلوا موضوع الدار الآخرة في حساباتهم فهم يقرؤون القرآن، ويعتقدون في الآخرة، لكن لا يعملون لها، وذكرت لكم ذات مرة في خطبة الجمعة أن أحد العارفين بالله اسمه إبراهيم بن أدهم، كان يمشي في أسواق البصرة قيل له: يا إبراهيم لماذا ندعو الله ولا يستجيب لنا ؟ قال: لأنكم أمتم قلوبكم بعشر خصال، ادّعيتم حب نبيكم ولم تعملوا بسنته، دفنتم موتاكم ولم تتعظوا، قلتم: إنكم آمنتم بالجنة فلم تعملوا لها، قلتم: إنكم تخافون من النار فلم تتقوا لهيبها، ذكر عشر صفات، كلها مواعظ و لم يعملوا بها.

إنّ الإنسان إذا لم يُدخِل في حساباته الدار الآخرة، إذا تصدق رب العالمين فمن تصدق ؟ إن لم يكن هذا القرآن الكريم المعجز عندك صادقاً فمن تصدق، أيُّ كتاب تصدقه إن لم تصدق هذا الكتاب ؟

أيها الإخوة ؛ الإنسان لا يعف عن المحارم، ولا يعف عن المطامع إلا إذا آمن بالدار الآخرة وعمل لها، ذات مرة أخ كريم من باب المداعبة قال لي: أنت تقول: إن المؤمن سعيد في حياته، ولكني أرى العكس، قلت له: كيف، قال: يصيب المؤمن ما يصيب الناس، إذا كانت موجة الحر تصيبه مع الناس، وإذا جاءت موجة البرد تصيبه مع الناس، إذا عمَّتْ موجة كساد كما هو الحال الآن يتحمل مع الناس ما يتحمل، إذا وقعتْ أزمة مواصلات فإنه يعاني منها كما يعاني غيرُه، إذا انتشر وباء فقد يمرض أولاده، فكيف تقول المؤمن سعيد وله معاملة خاصة ؟ فالله عز وجل ألهمني مثلاً تعرفونه، وذكرته كثيراً،وهو مثل تركيبي ؛ مثل تركيبي، إنسان معاشه ألف وثمان مائة ليرة، وعنده خمسة أولاد، بيته بالأجرة، وعليه دعوة إخلاء، مرض ثلاثة في البيت، ولا يملك ثمن الدواء والطعام والكساء، ويملك ما يسدِّد به أجرة البيت، ويريد أن يوكل محاميًا للإخلاء، وله عم حجمه المالي خمسة مائة مليون، وهو بخيل، وليس له أولاد، ومات في حادث فجأةً، فمن الوريث ؟ هذا الإنسان الفقير، إنسان بين ليلة وضحاها أصبح يملك خمسة مائة مليون لكن إجراءات المالية، وبراءات الذمة، والتركات قضية معقدة، وقبض أول مبلغ من هذه التركة بعد سنة ونصف من وفاة قريبه، لماذا هو في هذه السنة والنصف من أسعد الناس ؟ هو مثل تركيبي وضعي، تجده أسعد الناس مع أنه لم يذق لقمة طيبة في هذه الفترة، ولم يرتدِ

ثياباً جديدة، ولم يسكن بيتاً واسعاً، ولم يقتن سيارةً، ما الذي يسعده وهو لا يملك شيئاً ؟ كان في هذه السنة والنصف بين وفاة عمه وبين قبض المبلغ مِن أسعد الناس في هذه الفترة، مع أنه لم يأكل لقمة طعام تتميز أو تزيد على طعامه الأساسي فهو أسع الناس، لأنه دخل في الأمل والوعد، كان في هذه السنة والنصف كلما رأى سيارةً جميلة جداً قال أقتني مثل هذه إن شاء الله، كلما رأى بيتاً رائعاً جميلاً قال هذا أشتريه، دخل في الوعد.

هذا المؤمن، قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61))

(سورة القصص)

أيها الإخوة ؛ صدقوني أن المؤمن حينما يقرأ وعد الله له يحلّق في آفاق السعادة، قال تعالى:

(يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (21))

(سورة التوبة)

(فَبَشِّرْ عِبَادِ (17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (18))

(سورة الزمر)

كلما قرأ آية تبشير، آية ترغيب يفرح، سعادة المؤمن أن الله وعده بالجنة، والمؤمن يصدق الله عز وجل، هذا أحد أسباب عفة الإنسان، أما إذا الآخرة أسقطها من حسابه وأمامه الدنيا فقط وتتراءى له شهواتها، فشيء طبيعي حينئذٍ أن ينكب على هذه الشهوات يعبُّ منها، شيء طبيعي أن يندفع لتحقيق رغباته، فلا عفة تحجزه، بل تزاحم لديه طمع وجشع، وانطلق عاديًا يحدوه هوًى في العدوان على الأعراض والأموال، وعلى تحقيق المكانة والشهرة، يمكن أن ينتحل كتابًا ويقول: أنا مؤلفه، يريد بذلك مكانة، والإنسان لِمجرد أن يجعل الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه لا يعود عفيفاً.

إنّ الإيمان عفة عن المطامع، عفة عن المحارم، عفة عن المال، وعفة عن النساء، مرة التقيت برجل عمره ستة وتسعون عاماً في فترة العيد، وهو والد صديقي، قال لي: البارحة أجرينا تحاليل، والحمد لله كل شيء طبيعي، تحاليل كاملة، قال لي: والله لم آكل درهماً حراماً في حياتي، هذه عفة عن المطامع، وقال: ولا أعرف الحرام، عفة عن الشهوات.

وأهم شيء المال والنساء، العفة عن المال عفة عن المطامع، والعفة عن النساء عفة عن المحارم، وأكبر إنسان يُحطم بسبب المال والنساء، وأكبر إنسان يُفضح بسبب تهافته على المال والنساء، صوَّروه مثلاً، له مكانة كبيرة ففضح، لكن المؤمن محصن من المال والنساء، بينما غير المؤمن وقد سمعت - ولا أدري مبلغ صحة هذه الأخبار - في بعض البنوك في أمريكا مودِع حجمه المالي كبير، فهذا لو

طلب مبلغه لهزّ البنك، استدرجوه إلى فندق أو إلى مكان موبوء، وأغروه بامرأة، فلما سقط في حمأة الزنا صوَّروه، ثم أخذت هذه الصور، وأُطلع عليها، وأخبروه أنه لمجرد أن تطالب بالرصيد ننشر هذه الصور في المجلات، فصار عبدًا، فالإنسان حينما تزلّ به قدمه يصبح عبداً لمَن يملك للصور، لكن المؤمن دائماً رافع الرأس، فعفته عن المحارم، وعفته عن المطامع تجعله عفيفاً، وأكبر رجل يذل إن تلبس بسرقة أو إن تلبس بزنا، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام حرم علينا أن نخلو بامرأة ولو كنتَ نبياً.

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ، قَالَ: الْحَمْوُ الْمَوْتُ))

(متفق عليه)

وعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ وَمَعْنَى قَوْلِهِ الْحَمْوُ يُقَالُ هُوَ أَخُو الزَّوْجِ كَأَنَّهُ كَرِهَ لَهُ أَنْ يَخْلُوَ بِهَا))

(رواه الترمذي)

فما قال: كافر، ما قال: فاسق، ما قال: عاصٍ، وما قال: مؤمن، بل قال: رجل مؤمن، عاص، كافر، مشرك، فاسق، تقي، صديق،

((...لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ..))

إنّ الإيمان عفة عن المحارم عفة عن المطامع، درس اليوم العفة كما وردت في الصحاح أيْ: في الكتب الصحيحة.

((عَنْ حُبْشِيِّ بْنِ جُنَادَةَ السَّلُولِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهُوَ وَاقِفٌ بِعَرَفَةَ أَتَاهُ أَعْرَابِيٌّ فَأَخَذَ بِطَرَفِ رِدَائِهِ فَسَأَلَهُ إِيَّاهُ فَأَعْطَاهُ وَذَهَبَ فَعِنْدَ ذَلِكَ حَرُمَتِ الْمَسْأَلَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لا تَحِلُّ لِغَنِيٍّ وَلا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ إِلا لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ أَوْ غُرْمٍ مُفْظِعٍ وَمَنْ سَأَلَ النَّاسَ لِيُثْرِيَ بِهِ مَالَهُ كَانَ خُمُوشًا فِي وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرَضْفًا يَأْكُلُهُ مِنْ جَهَنَّمَ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُقِلَّ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْثِرْ))

(رواه الترمذي)

لنا أخ جراح قال لي: جاءني رجل بسيط له ابن متعلق به أشد التعلق، عمره سبع سنوات، معه آفة قلبية، والعملية تحتاج إلى مائتين وخمسين ألفًا، فحصه ووعده بإجراء العملية، بين الوعد وإجراء العملية اتصل إنسان مُحسن بالطبيب وقال له: العملية مغطاة، إنسان يسكن في رأس الجبل عنده ورشة أحذية، متواضعة وابنه معه آفة قلبية، أهل الخير كثيرون، ولما جاء والد الطفل الفقير، قال له الطبيب: نبشرك أن العملية مغطاة من قبل جهة محسنة، فقال له: لا أقبل، فقال الطبيب: أقول لك مغطاة، وانتهى

الأمر، جهة اتصلت بالمستشفى وسألت عن العملية، وكان الجواب: الفاتورة مغطاة كلها لوجه الله، فقال له: أنا عندي بعض الآلات لصنع الأحذية أبيعها، وأدفع ثمن العملية، وهذا المبلغ دعه لمن لا يملك شيئاً يبيعه، يقول لي هذا الطبـيب: أنا لم أر في حياتي إنساناً أكبر مروءةً منه، فقير ومعلوماته متواضعة، وقال: أنا عندي شيء أبيعه، وأعود صانعًا وأبيع الآلات، وهذا المبلغ دعه لإنسان عنده مشكلة في صحته، وليس له ما يبيعه، قال لي الطبيب: أنْ يكون ثمة إنسان بهذه العفة شيء لا يصدق، ولم يرض إلا وباع الآلات، وعاد يعمل صانعًا ودفع المبلغ بالتمام والكمال.

الإيمان عفة عن المطامع، عفة عن المحارم، تذكرون أم سلمة رضي الله عنها أثناء الهجرة ما فعل بها أهل زوجها، ما أعجبهم أن يهاجر أبو سلمة مع زوجته إلى المدينة، فمنعوه من أن يأخذ زوجته ومعها ابنها سلمة، وأهل زوجها ما استطاب لهم أن يدَعُوا ابنها معها، فأخذوه من يده، وشدوه فخلعوا يده، ففي دقائق معدودة فُرِّق بين أم سلمة وبين زوجها وبين ابنها، زوجها هاجر إلى المدينة ليلحق برسول الله، وهي أُخذت إلى بيت أهلها، وابنها سلمة أخذه أهل زوجها، وبقيت فيما تروي الروايات عاماً بأكمله تذهب إلى التنعيم، وتبكي وفي روايات سبعة أيام، ، إلى أن رق بعض أهلها وسمحوا لها أن تلحق بزوجها، وجاء من استعطف أهل زوجها أيـعقل أن تذهب إلى المدينة وابنها عندكم، موضوع الحكم الشرعي له تعريف دقيق، أما هي فمن شدة فرحها لأنه سُمح لها أن تلحق برسول الله وبزوجها ومعها ابنها، خافت أن ينشأ ظرف آخر فيعودوا و يمنعونها، لذلك رأساً أعدت ناقة وركبت مع ابنها وانطلقت من مكة، رآها رجل مشرك في التنعيم، قال: إلى أين ذاهبة قالت: إلى المدينة لألحق بزوجي، فقال: من معك، قالت: ما معي أحد إلا الله، وابني هذا، الرواية من الصعب أنْ تصدق، هذا المشرك طيلة اثني عشر يوماً وهو يقود جملها إلى المدينة، بعد مرحلة من السير ينيخ الجمل، ويبتعد بعيداً حتى لا يراها، فإذا ذهبت لتستريح عاد وهيأ الجمل، وقد استراح هو أيضا، ثم هيأ الجمل لتركب، ويعود فيقوده، وليس له شيء في المدينة، بعد أن أوصلها عاد إلى مكة، فقد مضى أربعةٌ وعشرون يومًا بلياليها لم ينظر إليها، قالت: ما رأيت إنساناً أشرف منه.

وسيدنا يوسف لأنه قال: معاذ الله، كم إنسان مِن يوضعِ في ظرف مشابه لسيدنا يوسف، ويرى هذا مغنماً، ويسقط في الوحل، والرسول اللهم صلِّ عليه بلغه أن شخصًا اعتدى على زوجة جار مسافر، ولديهم كلب عقور قتله، فقال عليه الصلاة والسلام: خان صاحبه والكلب قتله، والكلب خير منه.

لقد درسنا اليوم العفة عن المال، والعفة عن النساء، وإذا كنت عفيفاً عن المال والنساء، كنت في حصن حصين ولا يستطيع أحد على وجه الأرض أن ينالك بأذى أو أن يتهمك ولا أن يهددك.

مرة سمعت امرأة طلبت دينًا من شخص وهي جاهلة، كيف يأخذ منها سندًا ضمانا للمال، فقال لها أتصور معك في الأستديو، فتصور معها ومعه الصورة، إن امتنعت عن الدفع فيهددها بالصورة، شيء

مخيف، الإنسان دائماً يجب أن يعلم أنه بعفته يكون قويًا، بعفته عن المال يكون رافعًا رأسه، بعفته عن النساء يكون محصنًا.

وبالإيمان يكون عفيفًا عن المحارم عفيف عن المطامع، قال عليه الصلاة والسلام:

((...إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لا تَحِلُّ لِغَنِيٍّ وَلا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ..))

(رواه الترمذي عن عبد الله بن عمرو)

اثنان ؛ رجل غني ورجل قوي، هذان الإنسانان لا تحل لهم الصدقة، إلا في حالات نادرة جداً، رجل غني افتقر، لكنه قوي، إذا كان غنيًّا وله شأن اجتماعي كبير وافتقر فجأةً فليس معقولاً أن نقول له: اعمل عتالاً، بل نعطيه من مال الزكاة، ونحن نحفظ له ماء وجهه، هذا هو الحكم الشرعي.

أما بشكل عام فالقوي لا يجوز أن يعطى من الزكاة، والغني لا يعطى من الزكاة، وهناك حالة ثانية، قوي ولا يوجد عمل، بل بطالة، والآن العالم كله يعاني من أكبر مشكلة ألا وهي البطالة، في فرنسا ستة عشر مليونًا أو ستة عشر بالمائة لست متأكداً، يعانون من البطالة، نسبة مذهلة، والبطالة مخيفة، لذلك تأمين الأعمال من أعظم الأعمال الصالحة.

مرة أخ كريم عنده معمل قال لي: لا أربح، والقصة قديمة، المواد الأولية صعب تأمينها، وتأمينها بشكل صحيح غير ممكن، وبشكل غير نظامي هناك مسؤولية كبيرة، وعنده ثمانون عاملاً، والعمال لهم تأمينات، إن أغلق المعمل يدفع مبلغًا ضخمًا تأمينات وتعويضَ عمل، وإن أحضر بضاعة غير نظامي فالخطر كبير من الجمارك، والبضاعة النظامية غير موجودة، قال لي: فوقعت في حيرة كبيرة، ماذا أعمل، بعد حين توفرت المواد أولية، وشعر أنه يميل إلى ترك العمل، قلت له: ثماني عشرة أسرة توفر لها قوتها، ولو كنتَ لا تربح أبدًا، لكن هذا المعمل أنتج ما يغطي مصاريف المعمل، ورواتب العمال، فأنت إذًا قمت بعمل عظيم، أنت صنت ثمانين أسرة من الضياع، لذلك سيدنا عمر قال لأحد الولاة: ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب، قال: أقطع يده، قال: وإذا جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك، لماذا العمل محبب والربا محرم ؟ أنت افتح محلاً، واعمل مؤسسة، أو شركة تشغل خمس مائة شخص وأنت لا تدري، يعمل عندك خمس مائة بين موظفين ومهندسين ومحاسبين ومندوب مبيعات، فأنت تشغل خمس مائة شخص، وإليكم بيان ذلك، فالبضاعة طبعا مستوردة، و تحتاج إلى مخلص جمركي، والمخلص لديه موظفون وآلات، وهؤلاء لهم رواتب شهرية، والمخلص يحتاج إلى مطبوعات، يكلف بها المطبعة، كما يحتاج إلى وسيلة نقل، وهذه تحتاج إلى تصليح بين الحين والآخر، كذلك لا بد للمطبعة من حبر وورق و عمال، وهذه المؤسسة تحتاج إلى موظف يجيد اللغة الأجنبية للمراسلات وشحن البضاعة، ولا بد من مكاتب شحن، وهكذا، فالمؤسسة إذًا أو الشركة التي تمّ تأسيسها توظف لديها ثلاثمائة عامل وموظف أو أربعمائة، معنى ذلك أن الله أراد لنا أن نكسب المال عن طريق

العمل، وبذلك تتوزع الكتلة النقدية بين الناس، وكمثل بسيط، لو أن شابا عمل في هذه المؤسسة أو غيرها وكان له دخل يقدَّر بخمسة أو ستة آلاف ليرة شهرية، فإنه يستطيع أن يكون خارج دمشق فيبيت يستأجره بألفين تقريبا، ويتزوج ويكوِّن أسرة، و يكرمه الله بذرية تملأ عليه البيت سعادة، وقد يعمل عملاً آخر إضافيا بعد الظهر، أو في المساء فيصير صحيح النفس، لأن دخله يغنيه، سويًّا في صحته، منتجاً في وطنه، راعيًا لأسرته، كريما في مجتمعه.

وكل إنسان يكسب المال عن طريق الأعمال يسهم في تخفيف البطالة وهو لا يدري، والبطالة مرض خطير، قال أهل الخبرة: ما ذهب الفقر إلى بلد إلا قالت له الجريمة خذني معك.

كاد الفقر أن يكون كفراً،

((...إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لا تَحِلُّ لِغَنِيٍّ وَلا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ إِلا لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ أَوْ غُرْمٍ مُفْظِعٍ وَمَنْ سَأَلَ النَّاسَ لِيُثْرِيَ بِهِ مَالَهُ كَانَ خُمُوشًا فِي وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرَضْفًا يَأْكُلُهُ مِنْ جَهَنَّمَ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُقِلَّ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْثِرْ))

(رواه الترمذي)

أنا لا أحب أن أزهدكم في العمل الصالح، لكن من فضل الله عز وجل لنا إخوة كرام لهم أيادٍ بيضاء على هذه البلدة، هؤلاء الإخوة تمكنوا من تأسيس جمعية تكافح التسول، فقال لي أخ كريم منهم: نحن ألقينا القبض على ألف ومائة متسول في دمشق، خمسة فقط منهم فقراء، وفيهم مَن يملك سبع مائة ألف، وبينهم واحدة رصيدها في البنك ثمان مائة ألف، وواحدة أخرى تملك خمس مائة ألف، أغنى منا كلنا، وهي متسولة.

وأخ آخر أقسم بالله: وهو عندي صادق أنه يعرف متسولاً سلم محلاً بأربعين مليونًا، وهو متسول وعنده سيارتان عموميتان، كما يملك بيتين في ضاحية القدم .

((...إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لا تَحِلُّ لِغَنِيٍّ وَلا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ...))

قبل أن تلقي المال جزافاً تأكَّدْ، فمنذ يومين قصة طفل صغير والمطر ينهمر، قال لي: أنا جائع، فنظرت إليه حافيًا، لا حذاء ينتعله، ما هي قصتك يا بني ؟ قال: أنا أمي مطلقة وخالتي طردتني وأنا جائع، أين أمك ؟ في حوران، في درعا كلامه قصة مركبة، أحد إخواننا أمن له حذاء، وأطعمه، وأنا أعطيته مائة ليرة ليذهب إلى درعا، ثم رأيته في مكان وقد خلع الحذاء وعاد حافياً، فهذه أحوال النصابين، فانظر أين تضع صدقتك.

يقطع القلب، أمه مطلقة، وخالته طردته، وجائع، والمطر ينهمر، ويسير حافيًا، أعطيته مائة ليرة ليذهب إلى درعا وأحد إخواننا أطعمه وأمن له حذاء، وكلامه هذا تلفيق واختلاق.

واحدة تتسوّل، عندها بناء مؤلّف من ثلاثة طوابق، كل ولد من أولادها في طابق، فلما تحققوا وجدوها صاحبة البناء، لذلك فالتسول مرض، وقد سألوا متسولاً: أنت معك فكيف تسأل الناس ؟ فقال: القضية قضية مبدأ.

((...إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لا تَحِلُّ لِغَنِيٍّ وَلا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ...))

إنّ الإنسان حينما يعمل يرفع رأسه، إني أرى الرجل ليس له عمل فيسقط من عيني.

((...إلا لِذِي فقرٍ مُدْقِعٍ أوْ غُرْمٍ مُفْظِعٍ...))

غرم يعني عليه دية، قَتَلَ خطأً في حادثِ سير، والدِّية مائة ألف، ولا يملك، فهذا اسمه غرم مفظع، أو صار عنده إشكال، أحيانا بعض المحاسبين يُسرَق منهم مال، مليون ليرة اغتُصِبت منه في الطريق، ولا مجال أمامه إلا أن يدفع المبلغ، فتلك حالات نادرة، غرم مُفظع، وفقر مدقع، هذا إذا سأل فلا مانع لديه.

ولكن في المقابل فقد التقيت مع رجل زوجته أصيبت بمرض في أمعائها، سأل طبيبًا فقال له: تحتاج إلى تنظير، ولا يملك ثمن التنظير، فأهمل التنظير، بعد أشهر صار لديها ورم خبيث في الأمعاء، وانتقل إلى كل الجسم، أنا أشعر بخطأ كبير ارتكبه هذا الرجل، يجب أن يسأل، وألف إنسان يعطيه، وليس واحدًا، لا زلنا بخير، امرأة قالت لقريبة لي: في أثناء المعالجة عند طبيب الأسنان عرف أنها بحاجة إلى عملية لابنها فأعطاها المبلغ بكامله، امرأة ثانية ابنها بحاجة إلى عملية في القلب، لها جار أعطاها مائتي ألف، بلدنا فيه خير كبير، نحن بفضل الله، قبل فترة جمعنا إلى المنكوبين نتيجة فيضان مياه الأمطار، فهذا المسجد المتواضع القائم في حي شعبي جمع أكبر رقم في دمشق، بعد خطبة الجمعة، عدا جامع واحد لأنه جمع مرتين، فلذلك أيها الإخوة موضوع العفة أولاً، وقد ذكرت هذه القصص وأنا أقصد العبرة منها، فقبل أن تلقي المال جزافا انتبه إلى أنه في المجتمع مؤمن عزيز لا يسأل، يتحلّى بعفة تامة، قال تعالى:

(لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (273))

(سورة البقرة)

ابــحث عن هؤلاء، الشيء الثاني، ما دام الذي يستحق أن تعطيه لا يسألك يترتب عليك واجب لم يكن في الحسبان، وهو أن تسأل عنه، فلا بد من أن تسأل عن كل محتاج.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: عُرِضَ عَلَيَّ أَوَّلُ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ شَهِيدٌ وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ وَعَبْدٌ أَحْسَنَ عِبَادَةَ اللَّهِ وَنَصَحَ لِمَوَالِيهِ))

(رواه الترمذي)

شهيد أمْر بدهي، عفيف متعفف، العفة داخلية، والتعفف ظاهري، ذات مرة قلت لكم: أخ أحب أن يعمر جامعًا بالميدان بنهر عائشة، وبحث عن أرض مناسبة، هو رجل من أهل اليسار الغنى، وحجمه المالي كبير، فشاهد أرضًا مناسبة بثلاثة ملايين ونصف المليون، سأل عن صاحبها وصاحبها ورثها منذ أيام، آذن مدرسة لا يملك من الدنيا شيئًا إلا ثلاثة آلاف ليرة راتبه، وعنده خمسة أولاد، فقال له: هذا شيك بمليوني ليرة والمليون والنصف عند التنازل في الأوقاف، فقال له: ما شأن الأوقاف ؟ فقال له: نريد أن نبني عليها جامعًا، فقال له: تبنون جامعًا، فأرجع الشيك لصاحبه، وقال: أنا أولى منك أن أقدمها في سبيل الله، وقدمها فعلاً وأحد إخواننا عمّر المسجد، وهذه القصة واقعية وصارخة في واقعيتها، وعين صاحب الأرض الأصلي أيْ آذن المدرسة ناطورًا، ورتّب أربعة آلاف ليرة في الشهر فما رضي أن يأخذ المبلغ، وقال له: هذا كثير، فقال له: هكذا أجرة الناطور في أيّ مكان في الشام، فرضي أن يأخذ أربعة آلاف، وبشق الأنفس.

يقول هذا الغني الذي لم يستطع أن يشتري الأرض منه: في حياتي ما صغرت أمام شخص كما صغرت أمام هذا الإنسان، احتقر نفسه، فقال أنا أملك مائتي مليون، وأستطيع أنْ أدفع ثلاثة ملايين ونصف المليون، وهذا المبلغ بالنسبة لي لا يقدِّم ولا يؤخِّر، أما هو فلا يملك من الدنيا سوى هذا المبلغ، وتنازل عنه للمسجد، هذه هي العفة، عفت نفسه عن المال، ورأى أن العفة هي المال، ولعلها أغلى وأثمن.

((مرة سيدنا ربيعة رضي الله عنه، خدم النبي اللهم صلِّ عليه، وكل خدمة تقدم للنبي الكريم يراها ديناً عليه، فليس هناك عنصرية، هذا الصحابي ربيعة بن كعب خدم النبي سبعة أيام، فقال النبي: يا ربيعة سلني حاجتك، قال له: أمهلني، رآها فرصة ذهبية، لن أتسرع بالجواب، بل انصرف سيدنا ربيعة وهو بلا زوجة ولا ولد ولا بيت، ينام في المسجد مع أهل الصفة، فقير، فقال: لو سألته أن يزوجني أو أن يعطيني مالاً ينتهي هذا العطاء عند الموت، سأسأله أن أكون رفيقه في الجنة، قال له النبي ثاني يوم: ماذا عندك يا ربيعة، قال: أسألك أن تسأل الله لي أن أكون معك في الجنة، فقال: من علمك أن تقول هذا، قال: والله ما علمني أحد، لكن آثرت الآخرة على الدنيا، فالنبي أعجبه فقال: فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ))

((فعن رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي سَلْ فَقُلْتُ أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ قَالَ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ قُلْتُ هُوَ ذَاكَ قَالَ فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ))

(رواه مسلم)

وهناك أمر مهم، فمهما كان لك علاقة طيبة مع والدك الذي هو مدرس رياضيات مثلاً، ووالدك نزيه، إذا لم تدرس والمسألة حللتها بنفسك لم ينجحك، فهناك شيء عليك أنت حصرًا، أبوك أستاذ رياضيات، وأنت تلميذه، وغداً امتحان وأوراق مغلقة وأبوك يعرف خطك، ولكن لا يمكن أن ينجحك إذا لم تجب الإجابات الصحيحة.

مرة خطر في بالي مثل ؛ لو أنّ ملكًا قال له ابنه: أريد سيارة، طائرة خاصة، بيتًا فخًام، أتزوج، فحقق له رغباته كلها، فقال له: أريد أن أكون مدير جامعة، فقال له: هذه عليك وليست عليَّ، خذ دكتوراه أولاً حتى أعينك، لا تُحل بالمال، تحتاج إلى علم.

فقال له: أسألك أن تسأل الله لي أن أكون معك في الجنة، فقال له: أعني على نفسك بكثرة السجود.

لذلك دعاء النبي في أعلى درجة من الأدب ؛ فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى الأَسْلَمِيِّ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ

((مَنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى اللَّهِ أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ فَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ لِيَقُلْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ وَالسَّلامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ أَسْأَلُكَ أَلا تَدَعَ لِي ذَنْبًا إِلا غَفَرْتَهُ وَلا هَمًّا إِلا فَرَّجْتَهُ وَلا حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضًا إِلا قَضَيْتَهَا لِي ثُمَّ يَسْأَلُ اللَّهَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مَا شَاءَ فَإِنَّهُ يُقَدَّرُ))

(رواه الترمذي)

موجبات، الله كبير تطلب منه الجنة بلا ثمن، أفمِن المعقول أنْ تدع بائع سجاد يفرد لك خمسين سجادة، هذه بثمانمائة ألف، وهذه بمليون، هذه إيرانية، هذه أصفهانية، وتلك كاشانية، وتقول له: خذ ثمن هذه خمس ليرات ؟

أمِن المعقول أن تدفع ثمن سجادة قيمتها ثمانمائة ألف خمس ليرات ؟ أوَ تريد جنة بركعتين بلا وضوء، حضر حفلة ومولدًا، وقام بما يُسمّى حضرة، أهذا ثمن الجنة، إنه خداع ولهو.

((عن أبي هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ))

(رواه الترمذي)

وطلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: عُرِضَ عَلَيَّ أَوَّلُ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ شَهِيدٌ وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ وَعَبْدٌ أَحْسَنَ عِبَادَةَ اللَّهِ وَنَصَحَ لِمَوَالِيهِ))

(رواه الترمذي)

عفيف من الداخل، متعفف من الخارج، لا يسأل، وإذا أعطي يرفض، واللهِ حدثني أخ عن شخص يسكن في بيت أجرة، وهو موظف، ومحمي من القانون، ومرتبته عالية، فقدم البيت لصاحبه، ونام سنة

ونصف في مكتبه، وزوجته أرسلها إلى بيت أهلها، وما سأل أحدًا بأنه يريد بيتًا، فهل هناك مثل هذه الحالات ؟ الإنسان العفيف كبير، عفة عن المطامع عفة عن المحارم، عفة عن المال وعفة عن النساء.

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ، إِنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ: مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ))

(رواه البخاري)

قال لي أحدهم: دخلت إلى بستان كله خيرات وثمار وأشجار، وشجرة من شجر التفاح مثقلة بحملها، وعليها تفاحة أكبر قياس، وصفراء، ولها خد أحمر، يعني تُشتهَى، وقال له صاحب البستان: تجوَّلْ وكلْ تحب، قال: تاقت نفسي أن آكل هذه التفاحة كثيراً، فهي مغرية ؛ حجمٌ ولونٌ ورائحة، وتجولتُ في البستان لكن نفسي عفت أن قطفها وأكلها، قال لي: بعد الطعام وضع لنا طبق تفاح، وهذه التفاحة في أعلى الطبق.

نفسه عفت أن يأخذها وجاء صاحب البيت وقدمها له، قال لي: أكلتها من دون أن أسأل، بل ساقها الله تكرمة، طبعاً هذا مثل بسيط لكن له معنى كبير.

لي كلمة أقولها من زمن، إن هذه التفاحة على الغصن الثالث بالفرع الخامس، الشجرة الثانية في بستان، فلان في منطقة كذا هذه لفلان، الآن فلان يمكن أن يأخذها سرقة، وممكن أن يأخذها تسولاً، وممكن أن يشتريها، وممكن أن تقدم له هدية، وممكن أن تقدم له ضيافة، فهي له، والإنسان العاقل يتعفف، فالذي لك لك.

مرة زارني أخ كريم، عندي كاتو قدمتها له، أكل أول قطعة دعا دعاء واللهِ أبكاني، قال: سبحان من قسم لنا هذا، ولا ينسى من فضله أحدًا.

أنت عبد من عباده لا ينساك من فضله، هذا الكلام أقوله للشباب لك عند الله زوجة وبيت وعمل، لستَ محرومًا، ولكن كل شيء له أوان، من تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه، له أوان اصبر على الحرام يأتِك الحلال، وهناك حالات وقصص كثير، إنسان تعفف، وحين تعفف أعطاه الله، وإنسان سقط، مد يده إلى الحرام فقصمه الله.

لا بد من امتحان، الله عز وجل يحيطك بسور محكم الإغلاق، إلى أن تيأس من الناس يفتح لك باب السماء، إذاً:

((...وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ))

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى))

(رواه مسلم)

احفظوا هذه القاعدة ؛ ثلاثة أركان للأخلاق، صدق، أمانة، عفة، صدق بالحديث، أمانة بالتعامل، عفة عن النساء والأموال، هذه أركان الأخلاق، وقول سيدنا جعفر: كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونسيء الجوار ونقطع الرحم، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته وصدقه وعفافه ونسبه.

هذه أركان الأخلاق عفاف، نسب، تاج يوضع على رؤوس المؤمنين، عفاف صدق أمانة.

سيدنا الصديق قال: ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط.

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلا عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا حِفْظُ أَمَانَةٍ وَصِدْقُ حَدِيثٍ وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ وَعِفَّةٌ فِي طُعْمٍ))

(رواه أحمد)

قال أحد كبار العلماء وله أم في مدينة أرادت أن تجعله عالماً، أعطته أربعين ديناراً ذهبياً، ووجهته إلى البصرة مع قافلة لطلب العلم هناك، يعني جمعت كل ما تملك، وأعطته لابنها الصغير، وأوصته ألاّ يكذب، وفي الطريق قطاع طرق، أول قاطع طريق أوقفه، ما معك يا غلام؟ قال له: معي أربعون دينارًا ذهبيًا، اعتبره مجنونًا، فقال له سر، ولم يصدقه، القاطع الثاني أو الحاجز الثاني، ما معك يا غلام ؟ قال له معي أربعون دينارًا، قال له: أتكذب، قال: لا، والله فلِم ذكرت هذا ؟ فقال له: لأن أمي أوصتني ألاّ أكذب، فأنا أخاف أن أخون عهد أمي، فبكى هذا اللص القاطع، قال: أنت تخاف أن تخون عهد أمك، وأنا لا أخشى أن أخون عهد الله، فتاب على يديه وتاب من حوله من اللصوص على يدي هذا الغلام، هذا العالم الجيلاني إن شاء الله.

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلا عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا حِفْظُ أَمَانَةٍ وَصِدْقُ حَدِيثٍ وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ وَعِفَّةٌ فِي طُعْمٍ))

(رواه أحمد)

لكن إذا الشخص سألته زوجته: أتحبني ؟ وكان لا يحبها، فلا ينبغي عليه أن يصدق، هنا مسموح لك أن تكذب.

((عَن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي لأَعْلَمُ أَوَّلَ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ الشَّهِيدُ وَعَبْدٌ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ وَفَقِيرٌ عَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ وَإِنِّي لأَعْلَمُ أَوَّلَ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ سُلْطَانٌ مُتَسَلِّطٌ وَذُو ثَرْوَةٍ مِنْ مَالٍ لا يُؤَدِّي حَقَّهُ وَفَقِيرٌ فَخُورٌ))

(رواه أحمد)

ورد في الأثر القدسي: " أحب ثلاثاً وحبي لثلاث أشد، من هؤلاء الثلاثة، أحب الفقراء وحبي للفقير الكريم أشد، وأحب الأغنياء وحبي للغني السخي أشد "

((عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ))

(رواه أحمد)

هناك حديث شريف يخلع القلب:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلا قَالَ لا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ))

(رواه أحمد)

الخائن ما فيه إيمان أبداً، والذي يغدر ليس فيه إيمان أبداً.

((عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الأَشْجَعِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَا وَامْرَأَةٌ سَفْعَاءُ الْخَدَّيْنِ كَهَاتَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - وَأَوْمَأَ يَزِيدُ بِالْوُسْطَى وَالسَّبَّابَةِ - امْرَأَةٌ آمَتْ مِنْ زَوْجِهَا ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ حَبَسَتْ نَفْسَهَا عَلَى يَتَامَاهَا حَتَّى بَانُوا أَوْ مَاتُوا *))

(رواه أبو داود)

يعني امرأة مرغوبة كثيراً ومطلوبة جداً، تعففت من أجل أولادها.

أيها الإخوة الكرام ؛ أرجو الله سبحانه وتعالى أن تنقلب هذه الأحاديث إلى سلوك، وإلى عفة حقيقية، وأنت بالعفة أقوى إنسان، تعيش عاليَ الرأس، لأنك عزيز والله هو الغني، وكل إنسان ابتغى وجه الله فإنّ الله يغنيه.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (100) :العلاقة بين الزوجين وعدم تأثير الدعوة عليها .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-03-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

هذا الموضوعٌ وَجَدْتُه من أدقِّ المواضيع التي تَمَسُّ حياة المسلمين ولا سيَّما في مُستوى أُسَرِنا، فَكَم من أخ كريمٍ شَكَا لي انْصِراف زوْجَتِه عن العِناية به، والعِنايةِ بِنَفْسِها، وربما نشأ من هذا التَّقْصير جَفْوَةٌ بين الزَّوْجَيْن أو تطلُّعٌ إلى سِواها إذا كان الإيمان ضعيفاً، أكثر من عِدَّة شكاوى في هذا الأسْبوع جاءَتْني من إخْوةٍ كِرام يقولون: إنَّ زَوْجته لها اتّجاهٌ ديني ولها نشاطٌ في الدَّعوة إلى الله، ومع ذلك تُهْمِلُ أكبر الواجِبات التي كَلَّفَها الله بها.

أيها الإخوة:

بادىء ذي بدْء أُعْطيكم القواعد الأساسيَّة، فالقاعِدَة الأولى لا يُعْبَدُ إلا الله، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

[سورة الذاريات]

(لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ)

[سورة هود: الآية 2]

والقاعِدَة التي لا تَقِلُّ عنها أَهَمِّيَةً هي: أنَّ الله لا يُعْبد إلا وَفْق مَا شَرَّع، فأيُّ إنسان يريدُ أن يعْبد الله وَفْق اجْتِهادٍ بعيدٍ عن الشَّرْع، فهذه العِبادة مَرْفوضة لأنَّ أحد الأئِمَّة الأعْلام الفُضَيْل بن عِياض يقول: إنَّ العمل لا يُقْبل إلا بِشَرْطَيْن: إلا إذا كان خالصاً وكان صواباً، لو أنَّنا تَوَهَّمْنا أنَّ هذا الإنسان مُخْلِص في هذا العَمَل وأراد به وَجْه الله، فإن لم يَكُن هذا العَمَل مُطابِقاً للسُنَّة فَهُوَ مَرْفوضٌ عند الله، لأنَّ أكْمَل الخلْق هو رسول الله صلى الله عليه وسلّم ولأن النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهَوَى إنْ هو إلا وَحْيٌ يوحى.

فهذا الذي يتجاوَزُ تَوْجيهات النبي صلى الله عليه وسلّم أو يُقَصِّرُ عنها يُؤَكِّدُ ضِمْناً أنَّ النبي إما أَنَّهُ سها عن الذي أضافَهُ على سُنَّتِهِ، وإما أَنَّهُ زاد بِشَكْلٍ لا ينبغي أن يزْداد فيه، فهُوَ يتَّهِمُ النبي عليه الصلاة والسلام شاء أم أبى، مع أنَّ الله عز وجل يقول:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

[سورة المائدة:الآية 3]

طَبْعاً سأذْكر لكم مثَلاً صارخاً، أحْياناً المَثَل الحادّ يُوَضِّح الفِكْرة.

جاءَني اتِّصال هاتِفي قبل يوْميْن ؛ امْرأةٌ تُريدُ أن تَحُجَّ هذا العام وقد حَجَّتْ حجَّة الفرْض، ولا يوجد طريق لأنْ يكون معها مَحْرَم إلا أنْ تعْقِد عَقْد زواج صوري على رَجُل لِيَكون مَحْرَماً لها ! المرأة التي لا مَحْرَمَ لها هل هي مُكَلَّفَة بالحجّ ؟ لا، هذه المرأة تريد أن تعبدَ الله وَفْق مِزاجِها، تلْعَبُ بأقْدَس عقْدٍ في الأرْض ! فأقدس عقد بين إنسانين على وجه الأرض هو عقد الزواج، تعْقِدُ عَقْد قِرانٍ شكْلي صوري من أجل أنْ تَحُجَّ حجَّة بعد حَجَّة الفرْض ! هذا خِلاف الشرْع، مِثْل هذه الحالة عَشَرات بل مئات، أوَّلُ حقيقة لا يُعْبد إلا الله، ولا يُعْبَدُ الله تعالى إلا وَفْق ما شرَّع، إذاً هذه المرأة، وأنا لا أتَحَدَّثُ عن امْرأة مُتَفَلِّتَة، إطلاقاً، لا أتحدث عن امرأة لا تعرف الله، لا أتحدث عن امرأة لا تقْرأ القرآن، لا تعرف طريقها إلى الله، بل أتَحَدَّثُ عن امْرأة تدْعو إلى الله ولها دعوة، ولكِنَّها تُهْمِلُ حقَّ زَوْجِها إهْمالاً شنيعاً، بلا سَبَبٍ مُبَرِّرَ، مع أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام يقول، ويخاطب النساء عامة:

((اعلمي أيتها المرأة و أعلمي من دونك من النساء أن حسْنَ تبَعُّل المرأة زَوْجَها يعدل الجهاد في سبيل الله))

الشيء المُؤلم أنَّ الزَّوْج يومَ كان مُتَفَلِّتاً، ويوم كان بِإمْكانِهِ أن يجْلس مع أيَّةِ امْرأة وأن يسْتغْني عن زَوْجَتِه، وأن يمْلأ قلبها غَيْظاً، حينما ينْظر إلى غيرها ويُقيمُ علاقةً مع غيرها، تخْشى أنْ يتفَلَّتَ من يدَيْها فتعْتني بِشَكْلِها وهِنْدامِها وتُؤَدِّي له جميعَ حُقوقِهِ كاملة، فإذا تاب هذا الزَّوْج إلى الله توْبَةً نَصوحاً، وغَضَّ بصره عن محارِمِ الله، ولم يعد ينْظر إلى امْرأة لا تَحِلُّ له، إذا أصْبَح بهذه الحالة الطيبة المستقيمة وبعد أن اصْطَلَحَ مع الله، تُهْمِلُهُ زَوْجَتُهُ ! وكأنَّها تطْمَئِنّ إلى أنَّهُ لن يُقيمَ علاقةً مع امْرأةٍ أخرى بعد أن عرف الله، أهذا جزاءُ المُسْتقيم ؟! أهذا جزاءُ الرجل الذي تاب إلى الله تَوْبَةً نصوحاً ؟! تُهْمِلُ أداء حقوقه الزوجية ؟ فهذه التي تدْعو إلى الله وتتقرَّبُ إلى الله بتلاوة القرآن، بصلاة الليل، بحِجابِها، بتَرْبِيَة بنات المُسْلمين ؛ هذه مُقَصِّرَة في أكْبر واجِبٍ من واجِباتِها وهو زَوْجُها المؤمن الصادق المُسْتقيم ؛ من له غيرها ؟! من التي تُحْصِنُهُ غير زَوْجته ؟! ألا ترَوْنَ معي أنَّ هذا المَوْقِف لا يُرْضي الله عز وجل ؟ يوم كان مُتَفَلِّتاً تعْتني أشَدَّ العِناية به، تخاف عليه أنْ تخْسَرَهُ، تُقدِّمُ له كُلَّ ما تسْتطيع فلما تاب إلى الله واسْتقام على أمْر الله، وغَضَّ بصرهُ عن كُلِّ امْرأة لا تحِلُّ له، اطْمَأنَّتْ وارْتاحَتْ وأهْمَلَتْ واجِبها تجاه زوجها، فالزوج، ولا سيَّما إذا كان الزَّوْجُ شاباً، فمَنْ له غير زَوْجَتِه، وهي مُطْمئِنَّة أنَّهُ لن يعْصِيَ الله عز وجل، فلذلك هذا مَوْقِف غير واضِح، و غير مقبول، وغير مَنْطِقي، ولا يُرْضي الله عز وجل.

أنا أضَعُ بينكم هذه الحقيقة، عبادة الله عز وجل تقوم على أساسيْن:

أنْ تعْبُدَ الله فيما أقامك الله فيه، وأن تعْبُدَ الله في الظَّرْف الذي وَضَعَكَ الله فيه، فيمَ أقامك الله عز وجل ؟ أقامَكَ غَنِيّاً، إذاً عبادتُكَ إنْفاق المال، هذه هي الأولى، طبْعاً تُصَلِّي، وتصوم، وتحجُّ البيْت، و تؤدي الزكاة، وتصدق، وتكون عَفيفاً وأميناً، هذا شيء بديهي، أما عبادتك الأولى لأنَّ الله أقامك غَنِياً فهي

إنْفاق المال، العالم: عِبادَتُهُ الأولى لأنَّ الله تعالى مَنَّ عليه بالعِلْم هي نشر العلم، قال تعالى:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (113))

[سورة النساء: الآية 113]

القويّ: يصوم ويُصلي ويحج و يزكيّ و يصْدق و هو مؤتمن و عفيف إلا أنَّ عِبادَتَهُ الأولى إنْصافُ المَظْلومين، فالعالِم يُعَلِّم، والغني يُنْفِق، والقويّ يُنْصِف، لذلك وردَ أنّ الورَع حَسَن لكن في العلماء أحْسن، وأنَّ التوبة أمر حسن لكن في الشباب أحْسن، وأنّ الحياء حسن لكن في النِّساء أحْسن، وأنَّ الصبْر حسن لكن في الفقراء أحْسن، وأنَّ السَّخاء حسن لكِن في الأغنياء أحْسن، يجب أن تُلاحِظ ما هَوِيَّتُك ؟ أنت رجل، رجل غني فعليك إنْفاق المال، رجل عالِم فعليك تعليم العِلْم، رجل قوي فعليك إنصاف المظلومين، أنت امْرأة ما وَظيفَتُكِ الأولى التي أُنيطتْ بك ؟ أن تكوني زوْجَة صالِحَة، فأوَّلُ وظيفة أنْ تعْتني بزَوْجِك وأوْلادك، اِعْلمي أيَّتُها المرأة وأعْلِمي مَن دونَكِ من النِّساء أنَّ حُسْن تبعُّل المرأة زَوْجَها يَعْدِلُ الجِهاد في سبيل الله.

أضَعُ بين أيْديكم مثلاً آخر ؛ امْرأة لها أوْلاد قامتْ مِن الليل ما شاء لها أن تقوم، وصلَّتْ ما شاء الله لها أن تُصَلي، و قرأت القرآن و بكت، وفي الساعة السادِسَة أدْرَكَها التَّعَب فنامَتْ، ولها أوْلادٌ خَمْسَة أمَرَتْهُم أن يذْهبوا إلى المَدْرسة، وأن يأكلوا بمُفْرَدِهم معتمدين على أنفسهم، وأن يرْتدوا ثِيابَهُم وحدهم، لكن ثيابهم غير نظيفة، طعامُهم غير جَيِّد، أوْلاد صِغار، أنا والله الذي لا إله إلا هو الذي أعْرفُه عن الله تعالى أنَّ هذه المرْأة لو صلَّتْ فرْض الفجْر فقط وسُنَّتَهُ ورَعَتْ أوْلادها في هِنْدامِهم وطعامِهم ولباسِهم، وكانت خيْر أمٍّ لهم كانت أقْرب إلى الله ؛ هذا والله إيماني، أي: أقامها أماً، أعلى درَجَةٍ في عبادتها أنْ ترْعى أوْلادها، أقامَها زوْجة أعْلى درجة تنالها عند الله أن تكون زوجة صالحة، الصحابيَّات الجليلات كنَّ إذا أردْن أن يقُمْن الليل أو أن يتعَبَّدْن الله عز وجل يسْألن أزْواجَهُنّ في أول الليل، تقول له: يا فلان ألك بي حاجة ؟! لأنَّها تعلم من شِدَّة فِقْهها أنَّ الله تعالى لا يقْبل عبادَتها إن كان لِزَوْجِها عندها حاجة.

الذي أعْجبُ منه أنَّ المرأة هل تعبد الله وَفْق ما تريد، ووفق ما ترى، ووفق ما تجْتَهد، أم وَفْق ما يرْضي الله عز وجل ؟ فأيَّةُ امْرأة تُهْمِلُ زَوْجها، ولا تعْتني بهنْدامِها، ولا تُحَصِّن زوْجها، ولا تعْطيهِ حقَّهُ من ذاتِها، ولا ترْعى أوْلادها، والله لو صلَّتْ كُلَّ الليل، وقرأتْ كُلَّ يومين خَتْمة، هذا إيماني وهذه معْرِفَتي، فإن الله جل جلاله يُؤْثِرُ عليها امْرأة تقوم بواجِبِها نحو زوْجها وأوْلادها، لأنَّ العبادة الحقَّة أن تعْبد الله وِفْقَ ما شَرَّعَ الله لا وَفْق ما تريد، فهل مقبول من طبيب مثلاً أن يُهْمِلَ المَرْضى، أقامه الله طبيباً، ويهمل المرضى، يُعْطي أدْوِيَة غير مَدْروسة، ويتسرَّع بتَشْخيص الداء، و يلتفِت إلى قراءة القرآن بالعِيادة، سيّدنا عمر رأى رجُلاً يقْرأ القرآن ويبْدو أنَّهُ مُهْمِل لِعَمَلِه، فقال: إنما أُنْزل هذا القرآن لِيُعْمَلَ به أفاتَّخَذْت قِراءَتَهُ عَمَلاً ؟! أنا لا أتَكَلَّمُ مِن فراغ، والله في أسبوع واحدٍ وصلني أكثر من خمْس

شكاوى وهي شكاوى مُؤَثِّرَة جداً مِن أزْواج تابوا إلى الله تعالى، وتعرّفوا إليه، واسْتقاموا على أمْرِه، و زْوجاتهم بعْد أن كانت كل واحدة تخاف عليه خَوْفاً غير مَعْقول اطْمأنَّت وأهْمَلَتْ نفْسَها، فلا عِناية، ولا هِنْدام حسن، ولا اهْتِمام، ولا جلسَة مع الزَّوْج، ولا تلْبيَة لرغباته، مُنْصَرِفَة إلى الصلاة والصيام وإلى قراءة القرآن، وهذا على العَيْن والرأس لكن لا على حِساب القيام بواجباتها، وأداء حقوق زوْجها، أقول إن هذه المرأة وأنا لا أتَحَدَّثُ أبداً عن امْرأة مُتَفَلِّتَة، ولا عن امرأةٍ لا تعْرفُ الله تعالى، بل أعْني بِكَلامي امْرأة تعْرف الله تعالى، وتتقَرَّبُ إليه بأعْمالٍ جليلة وصالحة و جيدة، لكن لتعلم أنّ الله أقامها زوجة، فأوَّلُ عبادة لها أن تُؤدي حقَّ زَوْجِها الكامل، ولن يرْضى الله عن امْرأة ينام زوْجها وهو عليها ساخِط، لن يرضى الله عن امرأة تخْرج من بيتها من دون إذْنِ زوجها، لعَنتْها الملائِكَة حتى عادت، نِظامُ الزَّوْجِيَّة رائِع جداً، نِظامٌ مُؤسَّسة لها قائِد، وهذا القائِد له حُقوق، وعليه واجبات فإذا أدى ما عليه، فيحق له أن يأخذ ما له، طبْعاً قد يقول أحدكم: و هناك تقْصير من الأزْواج ؛ اِجْعل شِعارك أدِّ الذي عليك واطْلب من الله تعالى الذي لك.

يُرْوى أنَّ بعض الخلفاء في بني أُمَيَّة كلما جاء العيد و صلى بالناس صلاة العيد انْصرف الناس إلى بُيوتِهم، ولم يسْتَمِعوا إلى خُطْبَتِه، فأراد أن يخْطب قبل أن يُصلي بالناس العيد، صَعِدَ المِنْبر فأمْسَكَهُ أحد التابِعين من طرَفِ ثوْبِه وقال: أهذا فعلهُ رسول الله؟ طبعاً لم يلْتَفِت إليه، وصَعِد المِنْبر و ألقى الخطبة وعكس الآية خطب قبل أن يُصَلي لِيَضْمن بقاء الناس في المَسْجد ! ماذا قال أحدهم عن سعيد ابن المُسَيِّب؟ قال: أما هذا فقد أدّى الذي عليه أيْ الشخص الذي نَصَحَهُ، وأنا أقول: أيها الزَّوْج أدِّ الذي عليك، واطْلب من الله الذي لك، ويا أيَّتُها الزَّوْجة أدِّ الذي عليك واطْلبي من الله تعالى الذي لكِ، أما أن يُهْمِلَ الإنسان واجِبَهُ الأوَّل، وظيفته الأولى، مهمته الأولى، ويلْتفِت إلى شيء يعد نافلة، فالله لا يقبل النوافل ما لم تُؤد الفرائِض، أجل: إن الله جل جلاله لا يقبل النوافل إلا إذا أديت الفرائض.

أُعيدُ مرَّةَ و ثانِيَة و ثالثة، لا يُعْبد إلا الله، وإنَّ الله لا يُعْبد إلا وَفْق ما شَرَّع، لا تخْتَرِع ديناً جديداً، لا تجْتهد فيما لم يأت به النبي، لا تقل أنا علي أن أنْصرف إلى الله فقط ولا أعْبأ بأحدٍ، ما قال أحد هذا الكلام، هذا الكلام فيه بِدْعة، فالخِطابُ مُوَجَّه للأخوات المؤمنات الزَّوْجات الطاهرات العفيفات، لكن إذا قَصَّرْن في حقِّ أزْواجِهنّ فالله عز وجل ربما لن يقْبل عملهنّ ! لأنها قصَّرتْ فيما أقامها الله تعالى، أقامها الله زوجة، إذا قصَّرَ الزَّوْج فيما أقامه الله به يُحاسِبُه الله، إذا قصَّر الابن فيما أقامه الله تعالى به يُحاسِبُه الله طبعاً بالمُقابل قال تعالى:

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

[سورة البقرة:الآية 228]

و لهن مثل الذي عليهن بالمعروف هذا هو الدين، أتمنى أنَّ كُلَّ أخٍ ينْصح زَوْجَته إذا كان هناك تقْصير وإهْمال وعدم عِناية لأنَّ الرّجل غير المرأة، هذا موضوع يقودنا إلى بحث بعلم النفس، فعلاقة الرَّجل بالمرأة من زاوية، وعلاقتها به من زاوية أُخْرى، فالزوايا مُخْتَلِفة فهي تريدُهُ حامِياً لها، تريده حِصْناً لها، تريده قائِداً لها، تريد أن تحْتَمي به، وهو يُريدها كما فطرَهُ الله عز وجل أن تكون مقبولة مُتألِّقة، يريدها بِشَكْل ينْجذب به إليها، همه منها شيء و هَمُّها منه شيء آخر، وهذا الشيء أقَرَّهُ علماء النَّفْس، المرأة علاقتها بالرجل من نوعٍ يخْتلف عن علاقته بها، فهذه التي تُهْمِلُ زَوْجها إهمالاً شديداً، ولا ترْعى حَقَّهُ، ولا تعْبأ بهذه القضِيَّة إطْلاقاً، فهي مخطئة، فإذا قال كلمة: مِن حَقّي أن أتَزَوَّج، فأنا لا زلْتُ شاباً وأنت لا تُحْصنينني ؛ بإهمالك الشديد لا تحصنينني، أقامَت النَّكير، وقامت القيامة ولم تقعد، و لن تبقى في هذا البيت، أنتِ مهملة أد الذي عليك و أنت السيِّدة الأولى، أدِّ الذي عليك و أنت لكِ صدر البيت.

فالقاعدة التي تطبقها: لا أُعْطيكَ حَقَّك ولا أسمح لك أن تُمارسُ حَقَّك، و هي بهذا تكون حملته على المعصية، إخواننا الكرام هناك آية ذكرتها لكم عِدَّة مرات لكن مُحَيِّرَة قال تعالى:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ)

[سورة النور: الآية 33]

أنا أسْألكم برَبِّكم هل في العالم الإسلامي كله مؤمن مهما بدا لك إيمانه ضعيفاً يُجْبِرُ ابنته على الزنا ! مُسْتحيل، فالله تعالى يُخاطبُ من ؟ قال:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا)

[سورة النور: الآية 33]

العلماء قالوا: هذا الذي يقِفُ حائِلاً بين ابنته وبين زواجها بِشَكْلٍ أو بآخر، يريد أو لا يريد، يشْعر أو لا يشْعر، يُقَوِّي فيها رَغْبة المعْصِيَة ! أوضح من ذلك: أنا أضعُ إنساناً على صندوق في مَحَلّ تِجاري والغَلَّة كبيرة جداً ؛ بعَشَرات الألوف كُلَّ يوم و أُعْطيه مثلاً ألفَي ليرة في الشَّهْر ! فهذا المبلغ لا يكفيه لأيام عِدَّة، والصندوق بيَدِه، والأموال في متناول يَدِه، والمعلِّم غائب عن عمله، أنت حينما تعطيه مبْلغاً قليلاً جداً جداً والمال بين يدَيْه كأنَّك تدْفعُهُ لأخْذ المال الحرام؛ دون أن تشْعر، وأنا حينما أقف حائِلاً بين ابنتي وبين زواجها، فمن دون أن أشْعر، و من دون أن أُريد أُقوِّي فيها عُنْصر الشَّهْوة، فإذا زَلَّتْ قَدَمها فالأب هو المسؤول، سمِعْتُ كلمة بالهاتف من فتاة فقالت: جاءَني ثلاثون خاطِباً ولم يُوافق أبي ولا على واحد من دون سببٍ وجيه أبداً، هذا يسمى في الفقه "عضل" بالمناسبة الأب الذي يمْتنع من تَزْويج ابنته بلا سببٍ معْقول يُصبْحُ القاضي وَلِيَّ الفتاة ويُزَوِّجُها، شَرْعٌ حكيم، أيُّ أبٍ يمتنع، فالقاضي يسْتدْعيه ويسْأله لماذا تمتنع عن تزويج ابنتك ؟ فإذا أقْنعه الأب انْضَمَّ القاضي إلى الأب فقد يكون لِسَبَبِ المرض مثلاً فيحول يحول بينها وبين الزواج، و هي لا تعلم، أما إن لم يُقَدِّم السَّبب الكافي فالقاضي يُزَوِّجُها

مباشَرَةً وهو وَلِيُّها، و هاأنذا أصِلُ إلى مَوْطن الشاهد ؛ المرأة التي تُهْمِلُ نفسَها، لا تُلَبِّي رَغْبة زوْجها، الثياب التي لا تليق بها كزوجة ترْتديها أمامه، أما إذا هناك حفْلة، أو زيارة، أو في عندها سهرة، فتَرْتَدي أجْمل الثِّياب، وتعْتني بِهِنْدامها أجمل العناية، هذه امْرأة لا تعرف الله أبداً، لأنَّها تُهْمِلُ حق الإنسان الذي من حَقِّهِ أن تكون له، وتعتني بِأُناسٍ كثيرين ليْسَ مِن حَقِّهم أن تكون لهم أبداً، فالقضية دقيقة، الآن وصلت إلى الذي أريده فأيّةُ امرأة تهمل واجبها تجاه زوجها تُقَوِّي فيه رغْبته في النَّظر إلى غيرها فإذا زلَّتْ قدمهُ ونظر إلى غيرها وتمنى غيرها وفترتْ علاقته بالله، هِيَ المسؤولة الأولى أمام الله، هي سبب انْصِرافه عنها، هي سبب تطلّعه إلى غيرها، هي سبب زَيْغِهِ و انصرافه عن الله عز وجل، لأنَّ هذه حاجة أساسية عند الرجل، و أقول: أساسية جداً، وهي تُهْمِلُ هذه الحاجة الفطرية، فإذا كان منضبطاً انضباطاً شديداً يمكن أن يصبر و إذا لم يكن هناك انضباط ينزلق، و إذا انزلق فانزلاقه في صحيفة زوْجته التي أهْملَتْ واجِبَهُا تجاهه.

أيها الإخوة:

هذا موضوع حساس، لكنَّ الله عز وجل قال: عِظوهن، هناك زَوْج كأنَّهُ يخْجل أن يُطالب بِحَقِّه، يجب أن تكون واضِحاً، قل: أنا مُسْتقيم، أنا لا أعْصي الله عز وجل، وأنا لا أزال شاباً، فإذا تابَعَتْ إهْمالها فلا بدّ من تأديب، لابد من وعْظ، لابد من هجران، لابد من إعْراض، لابد من سُلوك يُذَكِّرُها بواجِبِها، المرأة أحياناً تنْصرف إلى ما هي فيه بِشَكْل غير معْقول وغير مقْبول لا عند الله ولا عند الناس، فأردْتُ من هذه الكلمة القصيرة في بداية هذا الدرْس أن يهْتَمَّ الأخوات المؤمنات الصالحات الداعِيات المنيبات إلى الله إلى أنَّهُنّ إذا أهْمَلْنَ حقَّ أزْواجِهِنّ فقد حِدْنَ عن منْهج الله الصحيح.

((سئل النبي عليه الصلاة والسلام من أعظم الناس حقاً على المرأة ـ على الإطلاق ـ؟ قال: زوْجها، فلما سُئِل: من أعظم النِّساء حقاً على الرَّجل ؟ قال: أمُّه))

أي أن أول امرأة في حياة الرجل أمه، و أول رجل في حياة المرأة زوجها، أنا والله الذي لا إله إلا هو أتمنى مِن كُلِّ أعْماقي أن تكون بُيوت المُسْلمين جنات بالوِفاق بين الزَّوْجَيْن، بالحبِّ بين الزوجين، بالودّ بين الزوجين، لأنَّ الله عز وجل يقول:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: الآية 21]

و بعضهم عَلَّق تعْليقاً لطيفاً على قوله " خلق لكم من أنفسكم " أي: وكأنَّ المرأة أحد أعْضاء الرجل، جُزْء منه، الإنسان كيف يعْتني بِعَيْنَيْه ؟ كيف يعتني بأعضائه النبيلة ؟ ينبغي أن يعْتني بزَوْجَتِه لأنَّها جُزْءٌ منه:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً(2))

المودَّة سُلوك يُعَبِّرُ عن شُعور، هناك بالقلب حبٌّ يظْهر بابْتِسامة، يظهر بهَدِيَّة، يظهر بمُداعَبَة أحياناً، هذه المودة، أما الرَّحْمة فأحْياناً تخبو لفتور العلاقة بين الزَّوْجيْن و عندئذ لابد من إحيائها. أنا دائِماً وأبداً أيها الإخوة أُلِحُّ على هذه الفِكْرة: عظمة هذا الدِّين أنَّ الله تعالى بَيْنَ كُلِّ مسلمين ؛ بين الزَّوْجَيْن، بين الجاريْن، بين الشَّريكين، بين الأخوين، لِنأخذ الزَّوْجين، الله بين الزوجين أي عَلاقة كُلٍّ منهما بالآخر من خِلال الله عز وجل، أي أن: الزوج يخاف الله تعالى أن يظْلِم زوجته، يخاف الله أن يُؤْذيها، يخاف الله أن يُهينَها، ويَرْجو رَحْمة الله بِصَبْرِهِ عليها، و يرجو رحمة الله بالغضِّ عن سَلْبِيَّاتِها، و الزَّوْجة تخاف الله أن تُهْمِلَ حقَّهُ، تخاف الله أن تظْلِمَهُ، تخاف الله أن تُقَصِّرَ فيما عليها تِّجاههُ، وترْجو رحْمة الله تعالى بإكْرامه، وخِدْمَتِه، والغضّ عن سِلْبِيَّاته، مادام الله بين الزَّوْجَيْن فهذه المؤَسَّسَة ستَسْتَمِرّ فإن لم تكن مَصْلَحةٌ بينهما كانت الرَّحْمة بينهما، في كثير من البيوت تجدُ الزوج مُقعداً ولا يُنْتِج المال، لكنه يلْقى أعْلى رِعايَة مِن زَوْجَتِه، وفي كثير من البيوت الزَّوْجة مريضة وليْسَت زَوْجة بالمعنى المفهوم، لكن زوجها بما في قلبه من رحمة يرعاها أشد الرعاية، فأنا أتمنى على كُلِّ زَوْج طبعاً الكلام للأزواج بالدرجة الأولى، وإلى الشباب إذا تَزَوَّجوا أن المودة و التراحم بين الزوجين سِياسَة شرْعِيَّة.

الحياة الزوجية فن، أي: ممكن لِلإنسان أن ينمي العلاقة، يجعلها علاقة حميمة، يجعلها علاقة إيجابية، أكثر شيء تُعاني منه الأُسَر الأجْنَبِيَّة ؛ هكذا قرأتُ تعاني من فُتور العلاقة بين الزَّوْجَين، هذا الفتور يُلْغي أجْمل ما في الزواج، هي مُهْمِلة وهو مُهْمِل، هي مُنصَرِفة عنه وهو منصرف عنها، فالبيت قِطْعة من الجحيم، أما إذا كان هناك تطْبيق للسنَّة فالسعادة محققة، فالنبي عليه الصلاة والسلام لم يكن يطْرق باب أهْله بعد سَفَرٍ مثلاً إلا إذا أعْلَمَهُم قبل وصوله. لماذا ؟ كي تسْتَعِدَّ المرأة لاسْتِقْبال زَوْجِها، فالمرأة المؤمنة تسْتَعِدّ لاسْتِقْبال زَوْجِها كُلّ يوم بِحُسْن هِنْدامِها، و حسن زينتِها، وابْتِسامَتِها، وتأمين حاجاتِه، و تأمين طعامِه، و تأمين شرابه، قالت: يا بُنَيَّتي لو أنَّ المرأة اسْتغْنَت عن الزَّوْج لِغِنى أبَوَيْها، أو لشِدَّة حاجَتِهما إليها لكُنت أغنى الناس عن الزوج، ولكِنَّ النِّساء خُلِقْن للرجال، ولهُنَّ خُلِق الرِّجال ! أيْ بُنَيَّتي إنَّك فارَقْتِ العُشَّ الذي فيه دَرَجْتِ، وغادَرْتِ البيْت الذي فيه نشأتِ إلى وَكْرٍ لا تعْرفيه، وأنيسٍ لم تألفيه، فأصْبَحَ بِملْكه عليك رقيباً ومليكاً، يا بُنَيَّتي كُوني له أمَةً يكُنْ لكِ عَبْداً وَ شريكاً، يا بُنَيَّتي خُذي عنِّي عَشْر خِصال تَكُن دُخْراً لك وأجْراً: الصُّحْبةُ بالقناعة، أعْظمُ النِّساء بركة أقلّهنّ مهْراً، أعظم النساء بركة أقلهن مؤونة، الصحبة بالقناعة، والمُعاشَرَة بِحُسْن السَّمْع والطاعة، طاعة المرأة زوْجها تعْدل رُبْع دينها: إذا صلَّت المرأة خمْسها، وصامتْ شهْرها، وحَفِظَت نفْسَها، وأطاعَتْ زَوْجها، دخَلَتْ جنَّة ربِّها:

((عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا صَلَّتْ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا وَصَامَتْ شَهْرَهَا وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ))

[أحمد]

قال أحدهم لامْرأته أو مَخْطوبَتِه: إنَّ في طَبْعي سوءاً - أراد أن ينْصَحَها أو ألا يُخْفِيَ عَيْبَهُ عنها - فقالتْ له: إنَّ أسْوَأَ خُلُقاً منك مَن حاجَّك لِسوء الخُلق !

الصُّحْبة بالقناعة، والمُعاشَرة بِحُسْن السَّمْع والطاعة، والتَّفَقد لِمَوْضع عَيْنِه، فلا تَقعُ عَيْنُهُ مِنْك على قبيح، ولا يَشَمّ منك إلا أطْيَبَ ريح، التفقد لموضع عينيه و التعهد لموضع أنفه، لذلك:

((فالنبي عليه الصلاة والسلام ذكر المرأة الصالحة فقال: إذا نظرْتَ إليها سَرَّتْك، وإذا غِبْتَ عنها حَفِظَتْك، وإذا أمَرْتَها أطاعَتْك، سِتِّيرَةٌ وَلودٌ ودودٌ))

وهناك شيءٌ آخر في رواية أخرى: إذا نَظَرْتَ سَرَّتْك (مَحْذوفة كلمة إليها) أيْ إذا نَظَرْتَ إلى بيْتِكَ سَرَّتْك، إذا نَظَرْتَ إلى غُرْفة النَّوْم سَرَّتْك، إذا نظرت إلى المطْبخ سرتك، إذا نظرت إلى أوْلادك سرتك، إذا نظرت سرتك، وإن غِبْتَ عنها حَفِظَتْك، وإن أمَرْتَها أطاعَتْك، ولود ودود ستِّيرة، الصُّحْبة بالقناعة والمُعاشَرة بِحُسْن السَّمْع والطاعة، و التعهد لموضع عينيه فلا تقَعُ عَيْنُهُ مِنْك على قبيح، ولا يَشَمُّ منك إلا أطْيَبَ ريح، والكحْل أحسن الحسن، والماء أطيب الطِّيب المفقود، و لقد ثبت أنَّ لِلجلد رائِحَة عَطِرَة، يكْفي أنْ تُنَظِّفَهُ فهناك رائِحَةٌ عطِرة فواحة من الجلد، لذلك و الكحل أحسن الحسن والماء أطيب الطِّيب المفقود، فالذي لا طيب له يُنَظِّف نفسه، فنظافته فيها رائِحَةٌ عَطِرة، بالمناسبة فلا بأس من أن ننتقل من موضوع إلى موضوع، ورد يوم الجمعة أنَّ هناك طريق الآلام وهو النِّهايات العَصَبِيَّة تَصِل إلى النخاع الشَّوْكي، والنُّخاع الشَّوْكي إلى جِسْم تحت السَّرير البصري، وهذا الجِسْم ينقلك إلى قِشْرة الدِّماغ ؛ فهذا الطريق هو طريق الآلام فإذا اِحْترقتْ يد الإنسان من النهايات العَصَبِيَّة إلى النُّخاع الشَّوْكي إلى تحت السَّرير البصري إلى قِشْرة الدِّماغ، فاُكْتُشف الآن أنَّ على هذا الطريق بوابات، وهذه البوابات قد تمْنع وُصول الألم إلى الدِّماغ، تغلق إذا أغلِقَتْ مَنَعَتْ وُصول الألم، من الذي يَتَحَكَّمْ في هذه البوابات ؟ قال الحالة النَّفْسِيَّة للإنسان، أيْ إذا كنت مؤمناً قد لا تتألَّم الألم الذي يتألَّمهُ غير المؤمن، سيِّدنا جعْفر لما قطِعَتْ يدهُ اليُمْنى، حَمَلَ الراية بيَدِه اليُسْرى، قطعت اليمنى فأين الآلام ؟ فلما قُطِعَتْ اليُسْرى حَمَلَها بِعَضُدَيْه إلى أن استشهد، هذا الموضوع العِلْمي يُفَسِّرْ لنا آلاف الحوادث التي جَرَتْ مع الصحابة الكِرام، ومع التابعين، ومع كِبار المؤمنين، أين الآلام؟

أيها الإخوة الكرام:

و الماء أطْيَبُ الطِّيب المفقود، ثمَّ التَعَهُّد لِوَقْت طعامه، والهُدوء عند منامِهِ، فإنَّ حرارة الجوع مَلْهَبَة، وتنْغيص النَّوم مبْغَضَة. تأمين طعامه في الوقت المناسب، وتأمين الراحة له إذا نام، و لا تفشي له سراً، فالمرأة المؤمنة سِتِّيرة، أما غير المؤمنة فَضَّاحة، المرأة الفاسقة فضاحة، تجد الزَّوْج كُلَّ قِصَصِه بين الناس، عَشَرات النِّساء يتكَلَّمْن عن أدَقِّ العلاقة بينَهُنّ وبين أزْواجِهِنّ، سلبيات أخْطاء وتجاوُزات تتكلم و تفضح زوجها، تجْلس في مجلس وتفْضَح زَوْجَها وتقول: أنا زوجي برَمضان يقترب منِّي و هو صائم !

فضحته و جعلته فاسقاً وقد تكون كاذِبَة أصلاً و لكن هناك امرأة فضاحة و هناك امرأة ستيرة، فالمؤمنة سْيترة.

لا تُفْشي له سِراً، ولا تعْصي له أمْراً، إنَّك إن أفْشَيْتِ سِرَّهُ لم تأمَني غَدْرَه، وإن عَصَيْتِ أمْرَهُ أوْغَرْتِ صدْره، واتَّق الفَرَح بين يديه إن كان تَرِحاً، هذه أكبر مُشْكِلَة، هناك ضُغوط للحياة قوية جداً، أحْياناً الإنسان بعمله تواجهه صُعوبات، عَقَبات، ضُغوط قد لا يحْتَمِلُها، ويأتي إلى البيْت مُحَطَّم الأعصاب هي مُرْتاحة بينما هو مكتئب، فالفرَح الزائِد والتعْليقات الساخرة والاسْتِخْفاف والمُزاح الرَّخيص والزوْج ممتلئ ألماً وضيقاً وهماً وحَزَناً هذا قد يجْعلهُ ينْفَجِر، و اتق الفرح بين يديه إن كان تَرِحاً، والتَّرَحَ إن كان فَرِحاً، فهو مُرْتاح النفس وحَقَّق إنْجازات و هي كئيبة، واتَّق التَرَح إن كان فرحاً، فإنَّ الأولى من التَّقْصير، والثانِيَة من التَّكْدير.

واعْلمي أنَّك لن تصِلِي إلى ما تُحِبِّين حتى تُؤْثِري رضاهُ على رضاك وهواهُ على هَواك فيما أحْبَبْت أو كَرِهْتِ، و آخر نصيحة وكوني أشَدَّ ما تكونين له إعْظاماً يكُنْ أشَدَّ ما يكون لك إكْراماً، فالزَّوْجة الحَمْقاء هي التي لا تحْتَرِم زوْجَها، لكن كُلَّما احْتَرَمَتْهُ و وقَّرَتْهُ أحَبَّها كثيراً، وكوني أشَدَّ ما تكونين له إعْظاماً يكُنْ أشَدَّ ما يكون لك إكْراماً، هذه الوَصِيَّة مع الأسَفِ الشديد قالتْها امْرأة في الجاهِلِيَّة، امرأة في الجاهلية نَصَحَتْ بها ابنتَها يوم زفافِها فإذا كانت هذه هي جاهِلِيَّتهم، فكَمْ هي عظمة إسْلامهم ؟ النِّساء الصحابيات كُنَّ بَطَلات تقفُ تُوَدِّعُ زَوْجها وتقول: اتَّق الله بنا نَحْنُ بك، إن اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنا، وإن اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنا، نصْبِرُ على الجوع ولا نصبْر على الحرام، الآن كم امْرأة تحْمِلُ زَوْجَها على كسْب المال الحرام، ضغط، ضغط، كُلُّ يومه شجار، يقول لك: دعيني يوماً واحداً فقط، قالت له: حسناً يوم نعم و يوم لا، فاليوم الذي لا يوجد شجار فيه تقول له: انتبه غداً الشجار، و لا يوجد أصعب من شجار النساء، كلَّ يوم، كلَّ يوم إلى أن يخرج من جلده.

أيها الإخوة و أيتها الأخوات:

المرأة التي تُطَبِّقُ السنَّة تتقرَّب إلى الله، ولها عند الله مقامٌ كبير قال تعالى:

(عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً (5))

[سورة التحريم: الآية 5]

فالذي أراه و الله أيها الإخوة و قد كنت في سَفَر وألْقَيْتُ محاضرة، و ذكرْت أنَّ شهادة المرأة الحقيقيَّة أوْلادها، فقد بلغني أنَّ هناك زوجات كثيرات لبعض الأخوة الذين أقاموا في بلاد الغرب طبيبات، وهنَّ يطلبْنَ مِن أزْواجِهنَّ أن يسْمحوا لهنّ بمُتابَعَة الدِّراسة لِنَيْل أعلى شَهادة في الطِّب، فكان رأيي أنَّ أيَّ امْرأة أحْسَنَتْ ترْبِيَة أوْلادها، فأوْلادها أعلى شَهادة تحْمِلُها، هناك البورد بأمريكا وFRS بإنكلترا و

ATRG بفرنسا، أعلى شَهادة تحْمِلُها امرأة أوْلادها الذين تعتني بهم، فابنها قد تربّى تربية عالية، حاجاته مُؤَمَّنة وثيابه وطعامه و شرابه ودِراسته، فهذه الأم التي تعتني بأولادها هذه العناية هي أرْقى أمّ عند الله عز وجل، لأنَّها عَبَدتْ ربَّها فيما أقامَها فيه، أقامها أماً، وأيُّما امرأة رَعتْ حقَّ زوْجها رعاية كاملة هي في أعلى منزلة عند الله لأنها عبدت ربها فيما أقامها فيه، ذكرت في أول الدرس أن الله: أقامك امرأة، أقامَكِ أمّاً أقامك رجلاً، أقامك غنياً، أقامك عالماً، أقامك قوياً، يجب أن تعبد الله فيما أقامك فيه، و يجب أن تعبد الله في الظَّرْف الذي وَضَعك فيه فإذا كان والِدُكَ مريضاً فأوَّل عبادة هي العِناية بوالِدِك، ابنك عنده امْتِحان فأوَّل عبادة العِناية بابنك، جاءك ضيْف فأوَّل عبادة إكْرام الضيف، مرَّةً ثانية: أن تعبده فيما أقامك فيه، وفي الظَّرْف الذي وَضَعك فيه، فيما أقامك و فيما وضعك، هذا هو الفقْه في الدِّين، البارحة زارني أخ وهذه آخر شَكْوى وذكر لي أنَّ زوْجته، صالحة وتحْفَظ كتاب الله، و تدعو إلى الله، أثنى عليها ثناءً كبيراً، إلا أنَّها تُهْمِلُهُ أشَدَّ الإهْمال إلى درجة أنَّهُ كاد أن ينْصرف عنها، فقال لي: إلى من أذهب ؟ أنا لي جاهِلِيَّة، وكانت لي علاقة مع مئة امْرأة، فيومَ كانت ليَ هذه العلاقات كانت تحْرص عَلَيَّ حِرْصاً لا حدود له، وتعْتني بِنَفْسِها عِناية تفوق حدَّ الخيال، وتُلاحِقُني في أيِّ مكان، فلما تُبْتُ إلى الله واستقمت على أمره و اطْمأنَّتْ أهْمَلَتْ ! أهذه هي الأخْلاق العالية ؟! يوم كانت تخاف أن يغْدِرَ بها اعْتَنَتْ به، فلما اطْمأنَّت إلى اسْتقامته وتوبته وأنَّهُ لن يفعل معْصِيَة انصرفت عنه و أهْمَلَتْ، فهذا ليس من المنطق السليم و لا من الخلق القويم ولا من العبادة الحقة في شيء، و قد تلقيت قبله ثلاث شكاوى مكتوبات على ورق، و اثنتان شفهيات، و البارحة آخر شكوى، فقلت: و الله هذا موضوع مهم، و في الأصل عندنا موضوع متسلسل فقلت نعود إليه بالدرس القادم إن شاء الله، لكني أردت أن أقطع التسلسل و نعالج هذا الموضوع الخطير، وَكُلُّ إنسان يُنَبِّه زوْجته. يقول سيِّدنا عليّ كرَّمَ الله وجْهه: لا أصْرِمُ أخاً قبل أن أُعاتِبَهُ، فالزَّوْجة من باب أوْلى، قبلَ أن تقْطعَها، قبل أن تنْصَرِفَ عنها، قبل أن تهملها، قبل أن تُفَكِّرَ في غيرها، عاتبها، بيِّن لها، انْصَحْها، بين لها كتاب الله، سَمِعْت عن زَوْجَيْن يوم العُرْس، طبعاً الزوج يوم العرس، أو يوم الكتاب، أو يوم اللقاء الأول، يُمَنِّيها بأشْياء كثيرة: بالبيت و الحلي والأثاث، ويجْعلها تعيش بأحلام كلها خيالية، إلا أنَّ هذا الزَّوْج من نمَطٍ آخر فقال: أنا من بيْتٍ وأنت من بيْت، أنا من بيئة وأنت من بيئة، فلا بدّ من أن نخْتَلِف فإذا اخْتَلَفْنا فَمَنْ هو الحَكَم بيننا ؟ اختاري حكماً، فقالتْ له: فلان، أي مثلاً ابنُ عَمِّه، فقال لها: هذا أُحِبُّه كثيراً، ويُحِبُّني كثيراً فإذا احْتَكَمْنا إليه وقف إلى جانبي، فلا مصْلَحَة لك، اخْتاري إنساناً آخر، وكلَّما تخْتار يقول: هذا صديقي، هذا أعرفه، ثم قال لها في النِّهاية: أتُحِبِّين أن يكون الله حكماً بيْننا ؟! جاء بِكِتاب الله وقال: هذا الكتاب بيننا فإذا اخْتَلَفْنا نعود إليه، هو حكم لصالح الزوج و لصالح الزوجة، قال تعالى:

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

[سورة البقرة: الآية 228]

و للرجال عليهن درجة واحدة، أي ليس أحدهما مجنداً و الآخر لواء، بل هم عميد ولِواء، درجة واحدة وهي درجة القيادة، مُؤَسَّسة بلا قائِد فَهِيَ فاشِلَة، أيَّة مؤسّسة لا بد لها من قائِد: و للرِّجال عليهن درجة، و قال الله سبحانه آمراً الرجال:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

[سورة النساء: الآية 19]

قال العلماء: ليْسَت المعاشَرة بالمعْروف أن تمْتنِع عن إيقاع الأذى بها، بل أن تحْتَمِل الأذى منها شيء جميل.

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

[سورة النساء: الآية 34]

فالرجل له القوامة، الإنفاق أساسي، والله عز وجل أمَرَنا بالنَّصيحة والموعظة والإعْراض والهجران.

أيها الإخوة:

المؤمن مُوَفَّق، إذا وُفِّق إلى علاقةٍ طيِّبَة بزوْجته، وكان الزواج مُتنامِياً و دائماً فيه دفء وحرارة، دائماً في كل منهما لَهْفة، وبين الزوجين وُدّ، سعداء أيما سعادة، هكذا كان النبي عليه الصلاة والسلام مع أزْواجه الطاهِرات، تسأله عائشة مرة: كيف حُبُّك لي ؟ يقول لها: كَعُقْدة الحبل، تقول له مِن حينٍ لآخر: كيف العُقْدة ؟ يقول: على حالها، فقد كان عليه الصلاة والسلام زوجاً مِن أنْجَح الأزْواج، ناجحاً جداً، ما شَغَلَتْهُ الدَّعْوة العظيمة، ومقام النبُوَّة والرسالة عن أن يكون زوجاً صالحاً، كان في بيته واحداً من أهل البيت، و كان إذا دخل بيْته بساماً ضحاكاً، كان يقول: أكْرِموا النِّساء فوالله ما أكْرَمَهنّ إلا كريم، ولا أهانَهُنّ إلا لئيم، يغْلِبْنَ كُلَّ كريم، ويغْلِبهنّ لئيم، وأنا أُحِبُّ أن أكون كريماً مغْلوباً مِن أن أكون لئيماً غالباً.

ويقول:

((عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا تَكْرَهُوا الْبَنَاتِ فَإِنَّهُنَّ الْمُؤْنِسَاتُ الْغَالِيَاتُ))

[أحمد]

((عَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ رَضِي اللَّه عَنْهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي فَمَنْ أَغْضَبَهَا أَغْضَبَنِي))

[رواه البخاري]

أيها الإخوة:

أتمَنى بعد أنْ تنْصَرِفوا إلى بيوتِكم، وأن تُحَسِّنوا علاقاتِكم بزَوْجاتِكم، وأن تأمروا زوْجاتكم أن يكنّ زوْجات صالحات مؤمنات، إنّكم لن تسَعوا الناس بأموالكم، فَسَعوهم بأخْلاقكم، يمكن أن يكون كل إنسان

زوجاً صالحاً، فإذا دخل البيت سلَّم، وإذا جلس للطعام سَمَّى، إذا تحلى بالصبْر و الحلم و عالج الأمر بحكمة و تؤدة وروية فلعلَّ الله عز وجل أن يجْعل هذا التَحلُّم حِلماً، وهذا التكرُّم كرماً، وهذا التَخلُّق بأخْلاق النبي خُلُقاً أصيلاً، ويمكن لكُلِّ إنسان إذا كان مرتاحاً ببيته أن يُضاعف إنتاجه خارج البيْت، فالرجل يتعَب ويشْقى، ومتاعب الحياة لا تعد ولا تحصى فهو يحب أن يأتي إلى بيْته مساءً ويجد امْرأة تُحبُّه، ويستأنِس بها، وترْعى حقه تعتني به وتخفف عنه عناء العمل.

أرْجو الله سبحانه وتعالى أن ينْقلب هذا الدرْس إلى واقِع، أن ينقلب هذا الدرس إلى بُيوت سعيدة لأنَّ المسلمين إذا سَعِدوا في بُيوتِهم أعْطَوا عطاءً كبيراً، والإنسان إذا شَقِي في بيته شَقِيَ في عمله، وضَعف إنتاجه، وقل دخله وتراجع مستوى معاشه وأسرته يقولون: كُلّ رجل عظيم وراءه امرأة، وأنا أقول لكم: أيّ إنسان حَقّق نجاحاً في الحياة فالمرأة التي أعانتْهُ على هذا النجاح لها شطْر أجْره، أحْياناً المؤلّف يقول: لولا زوْجَتي التي وفرت لي جَواً للتأليف، وأعانتْني، وأحاطتني برعاية وعطف ووفرت لي جواً للتأليف مريحاً وأراحتني من أعباء كثيرة لما ألفت هذا الكتاب. أهدي هذا الكتاب لزوجتي، والزَّوْجة لها عند الله أجْر كبير.

ودائِماً وأبداً يجب أن نذكر أنّ المرأة كالرجل تماماً في التكْليف والتشريف والمسؤوليَّة، وقد تسْبقهُ، وقد تكون قلامة ظفْر امْرأة أفضل عند الله من آلاف الرِّجال، قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97))

[سورة النحل]

وقال تعالى:

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ)

[سورة آل عمران: الآية 195]

صحابيات.

والله أيها الإخوة لو قرأتم تاريخ الصحابيَّة الجليلة السيدة خديجة لشعرتم أن السيِّدة خديجة ساهمت مساهمة كبيرة جداً في دفع هذه الدعوة وقد عانت، وتَحَمَّلَتْ، وأعانتْ، وصبرَت، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام لما فتَحَ مكَّة أين كان ينام ؟ هذه بلده فتحها بعد ثمانية أعوام من هجرته قال: انْصُبوا لي خَيْمَةً عند قبر خديجة ونصب راية عند قبْرها إشْعاراً للمسلمين أنَّه لولا هذه المرأة التي أعانتْني والتي صبرت معي والتي حملت معي هَمّ الإسلام والتي كانت خير مُعوان لما حَقَّقْتُ هذا النصْر، هذا إعلان فضل، يعني بفضل صبركِ.

فأنت إذاً لا تقل: هذه امْرأة ! سألوا أوَّل امرأة اشْتغلتْ بالمُحاماة ما الظرف الجديد الذي واجهته ؟ أنا لا أقر العمل !! ولكن أذكرها كقصة وعبرة. قالت: أثناء المرافعة صار هناك صخب، فقال القاضي: ما الذي يحْدث، فقال أحدهم: يا سيّدي، إنَّ فلاناً يشْتمني ! فقال له القاضي: ماذا قال لك ؟ فقال: قال لي أنت مُوَكِّل امْرأة ! أي هناك شخص جاهلي في النظرة والتفكير، نعم هذه امرأة، المرأة عند الله لها شأن كبير إذا عرفَتْهُ، واسْتقامَتْ على أمْره، وحَفِظَتْ نفْسَها ولم تكن فِتْنَةً للآخرين.

اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (101) :الدعوة إلى الله بشكلها المطلق .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-05-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون:
موضوع جديد تشتد الحاجة إليه، هذا المؤمن الذي عرف جانباً من عظمة الله، هذه المعرفة حملته على طاعته، ماذا ينبغي عليه أن يعمل وقضية الإيمان قضية عمل وليس قضية اعتقاد فقط، مع أن العمل يحتاج إلى اعتقاد إلا أن الاعتقاد وحده لا يكفي، كنت أوضح هذا المثل إنسان معه مرض جلدي علاجه الوحيد أن يتعرض إلى أشعة الشمس جالس في غرفة مظلمة والشمس ساطعة قال أنا مؤمن ورب الكعبة بأن الشمس ساطعة.
ماذا يقدم هذا الإيمان ؟ لا يقدم شيئاً إلا أن تتحرك وتقف تحت أشعة الشمس كي تشفى هذا المرض قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110))

(سورة الكهف)

الإيمان حركة، الإيمان موقف، الإيمان التزام، الإيمان ولاء، الإيمان حب في الله، الإيمان بغض في الله، الإيمان عطاء في الله، الإيمان منع في الله، الإيمان صلة في الله، الإيمان قطيعة في الله، الإيمان حركة.

الإنسان عرف جانباً من عظمة الله لأنه لا يعرف الله إلا الله، معظم الأنبياء عرفوا جانباً كبيراً من عظمة الله أما المعرفة المطلة مستحيلة لأن المخلوق الحادث لا يحيط بالأزلي الأبدي، إلا أن الناس يتفاوتون بإيمانهم بقدر معرفتهم بالله، إنسان على جانب من معرفة الله هذه المعرفة حملته على طاعة الله هذا جيد، ماذا عليه أن يعمل ؟ أعلى عمل وأثمن عمل، أغلى عمل، أسرع عمل، أعظم الأعمال الذي يقربك إلى الله أن تدعو إلى الله، قل لي ما هو الدليل، قال تعالى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33))

(سورة فصلت)

الله جل جلاله خالق الأكوان يقول ليس في الأرض كلها إنسان هو أحسن عندي ممن دعا إلى الله وعمل عملاً صالحاً، أول نقطة وأنا لا أكد عليها أن الدعوة فرض عين على كل مؤمن وعلى كل طالب علم، على كل من يحضر مجلس علم.

أنا لا أكلفك أن تكون أكبر داعية ولا أكبر علماء الأرض، ولا أن تكون وحيد عصرك ولا فريد زمانك، ولا تكون تتقن خمس لغات، ولا تكون قارئ مائة ألف كتاب، لا، الذي سمعته، الذي حفظته، سمعت درس حديث، خطبة، في حدود ما تعرف وفي حدود من تعلم.

سمعت عدد من الأحاديث، عدد من الآيات، عدد من قصص الصحابة حكم شرعي، فكرة في العقيدة مهمة جداً، ويوجد جيران لك وأصحاب هذه المعلومات مع هؤلاء الأشخاص، أنت نافذة لهم لذلك قال تعالى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108))

(سورة يوسف)

لا يمكن مؤمن يفيض إناءه إلا ويفيض على الآخرين، وإذا لم يفيض معنى هذا أن إناءه لم يمتلئ، إناءه فارغ، وعلامة امتلاء إناءه بأن يفيض على الآخرين.

إنسان يدعو إلى الله بكلامه، إنسان بعمله، إنسان بأعماله الصالحة، إنسان تُسمعه شريط، لا يوجد عندك إمكان أن تتكلم تقدم شريط، فالشريط يناسبك، وهناك أشخاص كثيرين اقتنوا مجموعة من الأشرطة كثيرة وزعها على أصدقائه وأخواته، على جيرانه وناقشهم في مضمونها ولاحظ رد الفعل ثم أعطاهم شريط آخر، وناقشهم بالثاني...صارت دعوة إلى الله.

هذا الدرس موضوعه الدعوة إلى الله وهذا الموضوع أنا عالجته كثيراً ولكن اليوم من زاوية جديدة، هناك عقبات تقف في طريق الدعوة منشأها المدعوين، بعضها من أصحاب الدعوات هذا الموضوع لا يهم إخوانا الحاضرين ويهم الدعاة وحدهم، بعض العقبات ناشئ من المدعوين، هذه تهم كل من تصدى إلى الدعوة إلى الله، يجب أن تعلم علم اليقين مادمت مؤمناً فأنت داعية بشكل أو بآخر، يمكن أن تزور جارك زيارة هادفة ولا تتمكن أن تتكلم معه ولا كلمة فزيارتك دعوة، ممكن أن تكون منصف في حكم بين جارين في التجارة إنصافك دعوة، يمكن أن تتفقد أخوك تفقدك دعوة، الدعوة واسعة جداً تكون بكلمة، تكون بزيارة، اتصال هاتفي، بعيادة مريض، تكون بقرد، تكون بمعاونة، تكون بنصيحة، تكون بابتسامة، تكون بمحاضرة، تكون بإلقاء كلمة، الدعوة واسعة جداً أي حركة تقرب الآخرين من الله دعوة.

حدثني أخ كان في أمريكا قبل أيام وقال: سائق سيارة مسلم ركبت معه سيدة أمريكية نسيت محفظتها، فتح المحفظة وفيها عشرة آلاف دولار كاش، ويوجد فيها حلي، يبدو أن السيدة غنية، هذا السائق المسلم اتصل بالشرطة رئيس قسم الشرطة دهش أن مبلغ عشرة آلاف دولار مبلغ كبير جداً كيف تأتي وتبلغنا عنه، فقال له: أنا مسلم وديني يمنعني أن أخذ شيئاً ليس لي، مدير الشرطة اتصل بحاكم الولاية وهي

ولاية واشنطن، حاكم الولاية دهش لأنه شيء صعب أن يتصوروه في هذا المجتمع المادي، وأنا هكذا سمعت والمتكلم عندي صادق، قال أراد حاكم الولاية أن يعطي درس في الأمانة لطلاب التعليم الثانوي فدعا إلى حفل كبير وجمع المدرسين والطلاب وطرح عليهم هذا السؤال: لو أن أحدكم وجد حقيبة فيها كذا... ماذا تفعلون ؟ بلا تردد، بلا تلكؤ نأخذه هذه غنيمة، فقال لهم: يوجد رجل مسلم لم يأخذه بل قدمه إلينا وكان حريصاً أن يصل إلى صاحبته، وأجري له احتفال خاص وكرموه هذه الحقيبة وإيصالها إلى الشرطة وهذا سائق التكسي، يمكن لا يستطيع أن يتكلم كلمة في الدين، ولكنه أكبر داعية في الدين هناك.

هذه دعوة، ضرب مثل وقال لأنني مسلم أنا أؤدي الأمانات إلى أهلها، مليون موقف، هناك أخ كريم لا أعرفه وذكرت ذلك مراراً وضع على الطاولة ورقة صغيرة وقال لي: أنا على أثر درس من دروس الأمانة التي ألقيتها في جامع العثمان أرجعت إلى ورثة عشرون مليون ليرة لا يملكون إيصال بها ولست في الأرض مدان إلا عند الله، أرجعتها إلى أصحابها، أخوانا الكرام أريد أن أأكد لكم أن الدعوة واسعة جداً، أداء الأمانات دعوة، شهادة صادقة دعوة.

حدثني أخ في أيام الحج يركب سيارته الخاصة وينطلق بسرعة سيارة شاحنة أطلت من شارع فرعي ثم توقفت فلما توقفت أطلق لسيارته العنان ثم بدا لهذا السائق أن يقطع الطريق فصار حادث رهيب، طبعاً يوجد طفل مات وطفل آخر جراحه بالغة والسائق وزوجته أصيبا بجراحات كثيرة، طبعاً في موسم الحج كما أعلم الدية مضاعفة مرتين أو ثلاث، وهذه مصيبة كبيرة جداً، وسائق هذه الشاحنة أفاد أمام الشرطة أنه هو المخطئ وحده، أحدهم صح له خمس مائة ألف ريال أو سبع مائة ألف ريال، فقال أنا وقفت ووقوفي إشارة إلى أن تابع طريقك ثم تابعت طريقي، هذه أداء الشهادة أن تؤدي الشهادة كما وقعت الحادثة دعوة إلى الله.

وسع مفهوم الدعوة، إذا أنت تاجر وبينت العيب في البضاعة هذه دعوة إلى الله، أحد أخوانا يعمل في تصليح السيارات جاءه شخص من دول الخليج وسيارته يريد إصلاحها وهي تنزيل المحرك والعملية تكلف أربعين ألف ليرة، فقال له المحرك سليم، لو عرضت الأمر على مائة مصلح التسع والتسعون ينفذ رغبة الشخص ويأخذ خمسين ألف بطريقة أو بأخرى، تعال خذها بعد يومين، يمكن يفك المحرك ويركبه ولم يغير شيء، فقال له المحرك سليم.

هذا الكلام دعوة إلى الله، شخص يلف محركات، جاءه محرك أجرته خمسة آلاف، جاء صاحبه بعد يومين فقال لصاحبه خمس وعشرون ليرة فقط، هو اتفق معك على خمسة آلاف وفي ذهنه المحرك محروق فالدعوة واسعة جداً وأقل ما فيها الكلام يا أيها الأخوان، وأقل ما فيها المعلومات وأعظم ما فيها المواقف والتصرفات، لذلك نحن نأتي إلى المسجد بالضبط من أجل أن نأخذ تعليمات الخالق ونأتي إليه

ثانية من أجل أن نقبض الثمن فقط، أما الدين ليس في المسجد، الدين في السوق الدين في الورشة.
قال لي شخص منذ ثلاث سنوات لم يشتري تنكة بنزين، كلما جاءته سيارة يسحب نصف تنكة بحجة غسل المحرك ويقول للعامل ضعهم في سيارتي يا بني، ثلاث سنوات لم يشتري تنكة بنزين.
المؤمن لا يأخذ ولا كأس بنزين، التنكة ثمنها أربع مائة وست ليرات أخذ تنكة وأقول لصاحبها غسيل محرك هذا الدين.
إذا فهمتوا الدين في السوق، في المكتب، في الورشة، الدين بدكانك، بعيادتك، في مكتبك الهندسي، في قاعة الصف، الآن صار هناك خط ساخن مع الله، تقف لتصلي فتشعر أنك موصول مع الله يمكن أن تبكي لأن عباده لم تغشهم، لم تخيفهم، لم تبتزهم، نصحتهم، أكرمتهم، إذا فهمنا الدين هكذا والله الذي لا إله إلا هو لن تغلب أمتي من اثني عشر ألف من قلة أما هي مليار ومائتان ألف مليون ومغلوبين لأنهم فهموا الدين شعائر، وفهموا الدين صلاة وصوم وحج فقط، الدين مائة ألف بند، ألف بند بينك وبين زوجتك، ألف بند بينك وبين أولادك، في نظافتك الشخصية، في اغتسالك، في وضوئك، في الأمور الشخصية جداً، في اكتساب مالك، في إنفاق مالك، في بيعك وشرائك، في كلامك، في مواعيدك هذا هو الدين، عندما تفهم الدين منهج كامل نقول لك أنت والله مؤمن ورب الكعبة.
الدعوة إلى الله واسعة جداً، آلاف القصص في كل مكان المؤمن باستقامته بعفته بصدقه بأمانته، بورعه، أكبر داعية، وأقل ما في الدعوة، الكلام وأرخص ما فيها الكلام، أما الفعل هو أكبر ما فيها.
حدثني أخ _أن هناك خضري في غوطة دمشق وهو من طلاب العلم وله درس علم وعليه إقبال شديد، وسبب إقباله ليس طلاقة لسانه ولا علمه الغزير، ولا قدرته على عرض الأفكار، مستقيم في بقاليته، سأله أحدهم فقال له: يوجد عندك بيض طازج، فقال له: لا يوجد عندي منذ أربع أيام ولكن جاري الآن أحضر البيض، حضر إليك ليشتري البيض فقال له جاري الان أحضر البيض وهو طازج.
عندما تكون صادق وأمين شيء رائع جداً، وكل واحد منكم له مجتمع صغير ولا واحد منكم إلا ومحسوب ممن حوله أنه شيخ، يقولون جاء الشيخ ويكون هذا الشخص مدني طالب علم عادي، ولكن أمام أهله يقولون جاء الشيخ، وكل واحد منكم في محيطه محسوب على المسلمين فمراقب مراقبة شديدة، فلو كذب كذبة واحدة أهدر مائة محاضرة، أنت تحضر دروس علم وتكذب، سقط، تحضر دروس وتحتال، تحضر دروس وتهمل واجباتك أمام والدتك ووالدك.
والناس لا ترحم، عندما تأخذ خط إسلامي، خط مشايخي، مسحة دينية يضعونك تحت المكبرات، يسلطون عليك الأضواء الشديدة، يحاسبونك على أنفاسك وعلى حركاتك، يجب أن لا يغضب، ويجب أن تأخذ ماله ولا يحاسبك، يجب أن لا يفاصل أبداً تقول له ألف يجب أن يدفع ألف لأنه شيخ فيجب أن

لا يطالبك بماله، ولا يفاصلك، ويجب أن لا يربي أولاده... الناس عملوا هالة غير معقولة أبداً قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110))

(سورة الكهف)

((عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ فَقَالَ: بَعْضُهُمْ لا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لا آكُلُ اللَّحْمَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ فَقَالَ: مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

هذا هو الواقع، إلا أنت في عملك في محيط جيرانك، في محيط أقربائك، في العمل، محسوب مؤمن، محسوب عالم، محسوب صاحب دين وأنت مراقب مراقبة شديدة وقوة تأثيرك ليس بكلامك بل بأفعالك، ممكن أن تكون أكبر داعية وأنت ساكت، والآن لا يحضرني من القصص الكثيرة حول هذا الموضوع وهناك آلاف القصص.

رجل يركب سيارة فخمة جداً في بعض البلاد الإسلامية رأى طالب أو شاب مقطوع في الطريق ومعه دراجة الجنزير مقطوع، توقف وهو عنده خبرة في الدراجات ووصل له الجنزير، فقال له أنا لي درس في المكان الفلاني، فصار من إخوانه وذلك بسبب أن هذا الشيخ أصلح له دراجته، النبي صلى الله عليه وسلم كان في خدمة أصحابه، كان إذا سقاهم أخرهم شربا، كان في مهنة أهله.

فالدعوة اقل ما فيها الكلام والدعوة فرض عين على كل مسلم، وأنت في محيطك داعية ومحسوب مؤمن، وصاحب دين، ومفتي وقاضي، وعالم، وأنت أوجه واحد فيهم، ويقدموك إلى الإمامة، وإذا كان هناك احتفال يقولون لك تكلم لنا بكلمة أستاذ، كل واحد منكم داعية، أنا لا أكلفك أن تترك عملك وتقرأ كتب لا، لك دروس ثلاثة، السبت والأحد والجمعة هذه دروس، اكتبها عندك، واحفظ الآية والحديث.

والله أنا يوجد عندي قصة لا أنساها من شدة تأثري بها، أحد أخوانا الكرام زار أخته وكان هناك خصومة بينها وبين زوجها، والقضية أنها تطلب منه مبلغ شهري لكسوتها وكسوة بناتها والزوج دخله محدود وليس يملك هذا المبلغ، وهذا الأخ الكريم ليس ميسوراً جداً وهو مبلغ ثلاث مائة في الشهر، فقال لها: الثلاث مائة خذيهم مني والقضية حلت فقال لي أول شهر الثلاث مائة في ظرف، ثاني شهر...فقال لي على الشهر السادس بالضبط قالت لأخيها نريد درس علم منك، وهو بعيد عن الدعوة وهو مهندس وفي حياته لم يلق درس دين، فقال لي: فرحت بهذا الطلب، وهو أخواته وبنات أخواته، قال لي: آية

سمعتها والجامع الصغير، هيأ نفسه بآية وحديث، جمعهم، هذا الدرس استمر وتنامى وهؤلاء البنات تأثروا وتحجبوا، وزوج عدد منهم لشباب مؤمنين

الثلاث مائة ليرة الذي ساعد بها أخته خرج منها خير لا يعلمه إلا الله وصار هناك درس أسبوعي لأخواته وبنات أخواته فقط، آيات عن النساء، وعن آداب المرأة، الفقه، والحديث.

يوجد لنا أخ له منصب رفيع جداً أخذ شعبة لتحفيظ القرآن الكريم، وقال لي أنا أصبحت إنساناً آخر، وقال لي: أنا أسعد إنسان في الأرض، عندما الإنسان يعطي يصبح شيئاً كبيراً، عندما تنقل الدين إلى الناس، عندما تساهم في تهذيب النفوس، عندما يكون لك بصمة في نفوس الناس شيء عظيم جداً.

إذا أردت أن تسعد فادعوا إلى الله، قد تكون مدني، وأنا أسميك هاوي وليس محترف، والذين نجحوا في الدعوة الهواة والمحترفون لم ينجحوا اجعل نفسك هاوي من الهواة، يقول أحدهم أنا لي ثلاثون سنة أستمع في هذا الجامع، متى سوف تلقي، ثلاثون سنة تتلقى خدمات متى سوف تخدم.

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، ولا تنسى ساعة نزول القبر لا ينفعك إلا عملك الصالح، واسأل كل يوم ماذا قدمت إلى هذه الأمة، هذه أمة المسلمين، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ماذا قدمت؟

إنسان بنى مسجد، إنسان بنى ميتم، إنسان ساهم بوقته في عمل صالح أنا لا أنسى موقف مرة، صار مسابقة قرآن كريم ودعيت إلى توزيع الجوائز، وقف الوزير السابق رحمه الله وقال: أنا أشكر هؤلاء الشباب الذين حفظوا كتاب الله هؤلاء فلذات كبد أهاليهم ولا شيء يسعد الأب كأن يرى ابنه من حفاظ كتاب الله وأشكر الذين علموهم، وهم جنود مجهولون، كما أني أشكر الذين فحصوهم هؤلاء المشايخ الكرام.

لكن أكثر شيء أثر بنفسي عندما قال: لكني أشكر هؤلاء الذين قدموا أموالهم لهؤلاء الحفاظ.

يوجد رجل غني قدم لكل حافظ عشرة آلاف ليرة، ويوجد رجل آخر قدم عمرة لكل طالب، أسبوعين ذهاب بالطائرة وإقامة في مكة والمدينة على حسابه.

عندما صار هناك عمرة وعشرة آلاف فصار إقبال على المسابقة، والمال شقيق الروح، أحدهم حفظ كتاب الله، والآخر علم، وآخر حكم وآخر علم، وآخر قدم ماله، أنت اسأل نفسك ماذا قدمت ؟

والله أيام أخ يأتي إلى عندي أحترمه احتراماً كبيراً، يقول لي أنا معلم في الكهرباء ماذا يلزم لهذا المسجد أنا جاهز، وأخ قال لي: أنا أعمل في الدهان وأريد أن أدهن الأبواب لوجه الله.

هذا حداد وهذا يعمل في الكهرباء، وهذا مهندس، وهذا كتب، وهذا وزع، وهذا حل مشكلة، اسأل نفسك ماذا قدمت لآخرتك، هذا بيت الله ونحن أسرة واحدة، ولا بد من أن نتعاون والإنسان ضعيف وحده أقوى إنسان وحده ضعيف وأضعف إنسان مع الآخرين قوي والدليل قال تعالى:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (29))

(سورة الفتح)

الإنسان قوي بإخوانه، قوي بمعاونيه، لا تهتم بالأضواء، ممكن إنسان يخطب ويتكلم والأضواء مسلطة عليه، ولكن الذين يعاونوه لهم مثل أجره.

أنا مرة قابلت شخص بالأوقاف فقلت له: الدعاة إلى الله لهم أسماء ومتألقون، الشيخ الفلاني و... ولكن هناك موظفون وراء المكاتب يخدمون الحق، يهيئون أجواء مناسبة للدعوة، يهيئون موافقات للمساجد هؤلاء شركاء في الدعوة، ليس كل إنسان تحت الأضواء له الجنة، الجنة لكل الناس، لكل مؤمن وكل واحد ساهم.

وأوضح مثال أسرة وضعوا الطعام، الأب جالس والأم والبنت والابن وهي افتراض، يأكلون، الأب جاء الساعة الثانية ثمان ساعات في العمل جاء بالمال، والأم طبخت الطعام، والبنت مسحت البيت، والابن أحضر الأغراض، من هو أحسن ؟ كلهم مثل بعضهم، أحدهم ساهم بماله والزوجة بخبرتها في الطهي، والبنت الصغيرة بمسح البيت والابن بإحضار الأغراض، هذه هي الأسرة ونحن أسرة.

رجل جاء إلى المسجد من مصر له ابن في الشام جاء وحضر خطبة يبدو أحب أن يقضي حاجة فدخل إلى دورات المياه فقال لي: ليس معقول إطلاقاً بحياتي وعمره ستين عام لم أرى مسجداً أنظف من هذا المسجد، يوجد عندنا أخ الله يجزيه الخير وأنا أكبره جداً أسبوعياً ينظف الدورات بأعلى درجة، كأنهم دورات منزل وليس مسجد وصاحبته موسوسة هذه دورات المياه في مسجدنا.

هذا الأخ أجره كبير عند الله، يوجد آية تغطي هذا العمل ؟ نعم قال تعالى:

(وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26))

(سورة الحج)

هذا بيت الله عز وجل، يوجد عندنا أخوان يوم الخميس ثمان ساعات يعملون والله في قلبي، كل هذا المسجد ينظف.

هذا الدرس دعوة وهو درس واسع جداً، وكل إنسان مكلف بالدعوة ولا يعفى منها أحد، وكل إنسان يدعو باختصاصه، لنا أخوان أطباء والله ما طلبت منهم طلب واحد، قلت: هناك طالب علم مريض، فقال لي: أنا أتكفل به وأنت لا تهتم، من طبيب لطبيب إلى مشفى حتى انتهت عمليته، يوجد أخ هناك

دواء ثمنه غالي جداً وهذا المبلغ فلكي، تأمن الثمن، ويقول لي هذا الأخ أنا إذا مت أريد أن أدفن في الشام وهو من تركيا، قال لي: وجدت من الرحمة في هذه البلدة ما لا أجدها في بلدي يوجد أطباء، يوجد مهندسين، يوجد أصحاب مصالح، كل إنسان يقدم شيء وهذا بيت الله عز وجل، ويجب أن تقدم شيء لله عز وجل وهذه دعوة أيضاً، قدمت شيء وقدم شيء لأهلك حتى تتميز بأنك صاحب دين.

أحياناً يصبح مع الإنسان إذا دعا ليس هناك حكمة يريد إذا دعا أن يكون هو فوق والمدعو تحت، هو العالم وغير جاهل، هناك أحدهم وهي طرفة، يدرس قرآن، قرأ والسماء ذات الحبك فقال السماء كل ما علاك فهو سماء، ذات، فقال: هذا نحن نعرفه ولا أنتم، نحن العلماء فكيف أنتم الجهلاء، أما الحبك فهذا شيء لا نعرفه لا نحن ولا أنتم.

أيام يريد أن يستعلي، قال لي أخ أحدهم سأله سؤال فقال له: هل تعلم معنى هذه الآية، فقال: سمعت بتفسيرها، فقال له تفضل: فقال له ما هي، فقال له تفضل وقل لي ما هو تفسيرها، فقال له هذا الرجل: تفسيرها فوق مستواك.

هذا شيء لا يحتمل، اسمعوا القرآن ماذا قال:

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24))

(سورة سبأ)

رسول الله يخاطب الكفار، فقال له الله قل لهم الحق معنا أو معكم، سوف نتناقش، هذا هو أدب القرآن الكريم، وهناك أدب آخر قال تعالى:

(قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25))

(سورة سبأ)

رسول الله مجرم، الكفار المجرمون، السفهاء، العصاة، الفجار، تعملون، وسيد الخلق عما أجرمنا، هذا أدب القرآن، أنت ماذا تريد ؟ تريد أن تهديه أو أن تحطمه، إذا أردت أن تحطمه أخرج من هذه الدعوة، أما إذا أردت أن تهديه فتواضع له.

هذا هو منهج الدعوة، وليس القضية وصاية، وأنت لست وصي عليه والدليل قال تعالى:

(قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (66))

(سورة الأنعام)

(وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (17))

(سورة يس)

لا يوجد وصاية، نحن ليس بقضاة، نحن دعاة إلى الله، سلاحك كمالك لو كنت مدير مستشفى، ثانوية، يوجد معك سلطة، تصدر قرار بالحسم بالمائة عشرة لمدة ستة أشهر، وأقول لكم هذا دائماً يوجد أنبياء وأقوياء الأنبياء سلطتهم الكمال يملكون القلوب، والأقوياء سلاحهم القوة يملكون الرقاب، ونحن تابعين

إلى هؤلاء أو إلى هؤلاء، شرطي صغير هذا تابع إلى الأقوياء، أما المؤمن تابع إلى الأنبياء سلاحه كماله، تواضعه، محبته إلى الناس، منطقه السليم، يملك حجة، ظله خفيف.

أحياناً أحدهم يتدين يريد أن يوقظ البيت كله إلى الفجر، يوجد شخص خفيف الظل، ويوجد شخص وجوده غليظ، بخدمة إلزامية أثناء التفتيش ينوي الصلاة هذا ليس معقولاً، كلية عسكرية يوجد نظام، متى تنوي الصلاة أثناء التفتيش هذه غلاظة، يوجد شخص دينه غليظ، يوجد شخص دينه لطيف يحبب الناس بالدين، وجوده مريح ومقبول، حتى بين أهل الدنيا، حتى بين أعداء الدين لا يوجد عنده غلظة.

سيد الخلق حبيب الحق الذي معه الوحي والذي معه المعجزات، والذي معه القرآن، والذي هو أعلى مخلوق في الكون، وكل هذه الميزات قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159))

(سورة آل عمران)

إذا رجل لا يملك الوحي، ولا القرآن، ولا معه معجزة، ولا هو سيد الخلق، ولا هو كامل، ولا معصوم، وفظ وغليظ، على أي شيء، النبي الذي جعله الله صفوة خلقه لو كان فظاً غليظ القلب لانفضوا من حوله، ماذا تملك حتى تكون بهذه الفظاظة ؟ الدعوة تحتاج إلى لطف وأنس.

سمعت عن بعض الدعاة في بعض البلاد الإسلامية أحد أكبر الدعاة التقيت مع ابنه عندما كان طالباً بالأزهر، يستيقظ أصدقاءه وهو مهيأ لهم الطعام وغاسل لهم ملابسهم، حتى يمسح لهم أحذيتهم، ويحبوه كثيراً، علمه عالي وخدمته عالية أيضاً، لا يوجد شخص يصل إلى درجة عالية إلا بالعمل والبذل والتضحية.

فإذا أردت أن تكون داعية ليس الموضوع أن تحفظ حديثين وتتبروظ بهم لا ليس هذه هي الدعوة، الدعوة إلى الله خدمة، الدعوة قلب كبير، الدعوة حلم، الدعوة أفق واسع، الدعوة صدر رحب، الدعوة أن تحب الآخرين، الدعوة أن تحبهم حقيقة.

يوجد أشخاص عندهم ذكاء اجتماعي يصافحك بحرارة، ويفكر أن يوقعك الداعية يجب أن يحب الناس حباً حقيقياً، والله الذي لا إله إلا هو إذا ما عاملت الناس كأنهم أخوتك النسبيون ليس داعية، هذه هي الدعوة، الدعوة كمال، الدعوة قلب واسع، أفق واسع، رحمة، حب، وضمنها يوجد كلام ونصوص، ويوجد أدلة، أما أدلة وحدها ونصوص وحدها ونفس حامضة، هذا منفر.

يا أيها الأخوة الكرام: حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، والدعوة فرض عين، قال تعالى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108))

(سورة يوسف)

سألني أخ فقال لي: أنا يوجد عندي اثني عشر عامل، هل أنا مكلف بدينهم ؟ فقلت له: طبعاً، الله عز وجل لماذا جعلهم تحت إمرتك ؟ وجعل رواتبهم من صندوقك، وجعلك قيم عليهم من أجل أن تنصحهم.

دخلت إلى معمل مرة رأيته معمر جامع داخل المعمل أذن الظهر الآلات توقفت والكل توقف، أذن المؤذن كل العمال جاءوا إلى المسجد، فقال لي: صلي بنا و اعمل لنا درس عشر دقائق، والله شيء جميل في أثناء الصلوات العمل يقف، أكثر عماله مؤمنين وأكثرهم انتموا إلى الإسلام الذي الله جعله قيم عليهم من العمال هم زاده إلى الله.

أنت معلم عندك ثلاثون طالب هم زادك إلى الله، أنت صاحب محل تجاري عنك أربع عمال هم زادك إلى الله، عندك عيادة يوجد موظفين هم زادك إلى الله، كل واحد الله جعله تحت يدك تحاسب عن دينه لماذا لم تنصحه، لما لم تدعه إلى الصلاة، إلى القرآن، إلى طلب العلم.

مرة قال لي أحدهم أريد كم موظف، فأحضرنا إليه كم أخ، فمنعهم من الدروس، حتى أنه قال يجب أن لا يصلي العامل أثناء الدوام ويصلي الكل مساءً لأن هذا وقت معلمه، الصلاة فرض ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، الصلاة فرض، بالمقابل يغيب ساعتين وهذه غلاظة.

أحد أخواننا الكرام في دائرة يعمل قدم طلب إجازة ستة أيام فقالوا له قابل المدير، فقال له المدير العام ماذا ستة أيام لا يوجد عندنا وقت، فقال له العامل أنا مستهلكها، فقال له: أنا أصلي في مسجد قرب الدائرة كل صلاة ربع ساعة جمعتهم في شهرين تقريباً فكانوا ستة أيام، فقال له: من شيخك أنت، وأقسم بالله هذا الأخ الدرس الثاني كان المدير العام في الدرس هنا، ما هذه النزاهة.

هذا المؤمن لا يأكل حرام في هذه الفترة، موقف أخلاقي، موقف فيه ورع، موقف فيه صدق، موقف فيه أمانة أفضل من مليون محاضرة عود على بدء هذا سائق التكسي الذي وجد محفظة بسيارته وقدمها إلى مدير الشرطة، والمدير قدمها إلى حاكم الولاية، وحاكم الولاية جمع طلاب التعليم الثانوي وامتحنهم وقال لهم أنه يوجد رجل مسلم أدى هذه المحفظة إلى الشرطة لتؤديها إلى صاحبتها، هذا عمل أعظم عمل في الدعوة وليس كل عمل في الدعوة كلام، ولو كانت لغتك ضعيفة.

أيام جمال العمل أجمل من جمال المحاضرة، رجل فصيح وكلمات مختارة، وعبارة متينة، جرس موسيقي، تشبيه، استعارة، كناية، ولكن لا يوجد استقامة هذا كله فارغ.

ورجل تكلم بالعمي ولكن بإخلاص، مرة في أمريكا حضرت خطبة آخر جمعة، وقف خطيب لعله من الباكستان قال: يا أيها المسلمون، يا أيها العرب أنتم أبناء التابعين والصحابة، وأنتم هديتمونا إلى الإسلام نحن كنا مجوس وعباد نار، ونحن ليس لنا تاريخ، أنتم أنقذتمونا وعرفتمونا بالله عز وجل، ولكن أنتم

تبيعون الخمر في أمريكا هكذا كانوا أجدادكم، سامحوني إذا كنت قد أسأت إليكم، أنتم أسيادنا وأنتم فضلتم علينا.

الخطبة ليس فيها عمق ولكن فيها عاطفة جياشة، هناك أناس بكوا وأنا بكيت معهم، الدعوة لا تحتاج إلى فلسفة تريد إخلاص وصدق، فبإخلاصه ولغته ضعيفة جداً وأذكر أنه قال: الله قال القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة، ولم يقل أمريكا وما أمريكا وما أدراك ما أمريكا، احترم العرب وقال أنه ليس له تاريخ.

الدعوة تحتاج إلى قلب صافي، تحتاج إلى إخلاص، حب، أرجو الله سبحانه وتعالى أن أكون قدمت شيء في هذا الدرس متعلق بالدعوة ووسعت المفهوم كثيراً حتى يشمل كل مواقفكم، موقفك دعوة، أمانتك دعوة، ورعك دعوة، عفتك دعوة، استقامتك دعوة، حرصك على نصح الناس دعوة، والدعوة فرض عين على كل مسلم، وكل واحد فينا داعية في حدود ما يعلم وفي حدود من يعرف، وحجمك عند الله بحجم الذين اهتدوا على يدك، وأعظم عمل على الإطلاق هي الدعوة صنعة الأنبياء.

وهناك ألف طريق لنشر الدعوة، والإسلام دين الله لا تقلق عليه، ولكن اقلق على نفسك إذا سمح لك الله أم لم يسمح، إذا سمح الله لك أعطاك هذا الشرف العظيم، وإذا لم يسمح معنى هذا قوله تعالى:

(هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38))

(سورة محمد)

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (102) :الروح الجماعية .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-06-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

لازلت أحاول في درس الأحد أن أركز على الموضوعات التي تشتد الحاجة إليها، لأن الدين هو الحياة، فالدين إذا نظم الحياة ورفع مستوى المؤمنين وحل مشكلاتهم هذا منهج الله عز وجل، والنبي عليه الصلاة والسلام من دعائه الشريف: اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا وأصلح لنا أخرتنا التي إليها مردنا.

أيها الأخوة الكرام:

هناك ثلاث مصطلحات أحب أن أوضحها تمهيداً لموضوع الدرس، المصطلح الأول الطبع، والمصطلح الثاني الفطرة، والمصطلح الثالث التكليف، فأنت بين طبع وفطرة وتكليف، الطبع أقرب إلى الجسم والفطرة أقرب إلى النفس، والتكليف منهج الله عز وجل افعل ولا تفعل، وقد ضربت هذا المثل توضيحاً: إنسان نام الساعة الثانية ليلاً والفجر ثلاثة ونصف، طبعاً جسمه يميل إلى البقاء في الفراش، طبعاً هذا الجسم متعب منهك، يحتاج إلى راحة والفراش وثير وفي الشتاء الفراش دافئ وقد تكون الغرفة مكيفة، أصعب شيء على هذا الجسد أن ينهض من الفراش فطبعه يميل إلى النوم، ولكنه إذا بقي نائماً ولم يصلي الفجر تضيق نفسه وينقبض قلبه، فطرته تميل إلى طاعة الله وطبعه يميل إلى النوم وفطرته تميل إلى طاعة الله، فالذي يستيقظ ويكابد مشقة الإيقاظ ويعاكس رغبة جسمه ويصلي الفجر ثم ينام يشعر براحة راحة الفطرة وتعب الجسم، والتكليف يقول لك استيقظ وصلي.

قس على هذا إطلاق البصر، الجسم يميل إلى أن يستمتع بمفاتن المرأة والفطرة حينما تشعر أن الإنسان عصى الله عز وجل تضيق، فغض البصر يحتاج إلى مقاومة رغبة الجسم لكنه يريح الفطرة، الإنسان إذا غض بصره شعر أنه في طاعة الله، والتكليف قال تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30))

(سورة النور)

كذلك إنفاق المال، الإنسان في إنفاق المال يقاوم طبعه لكن يستجيب لفطرته والتكليف أنفق، قال تعالى:

(وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً (39))

(سورة النساء)

إذاً قبل أن أعالج موضوع اليوم، موضوع الروح الجماعية في المجتمع الإسلامي، لا بد من توضيح الطبع والفطرة والتكليف، فالطبع يتناقض مع التكليف والفطرة تتوافق مع التكليف.

موضوعنا اليوم الروح الجماعية في المجتمع الإسلامي، الطبع فردي والتكليف جماعي، أنت مكلف أن تتعاون مع أخوك، مكلف أن تزور أخوك، مكلف أن تنصح أخوك، كل ما يمتن وحدة المسلمين، يمتن جماعتهم أنت مكلف به تكليفاً، أما الطبع أن تبقى وحدك، وأن تستمتع بالحياة وحدك فلذلك الله عز وجل في قرآنه الكريم والنبي عليه الصلاة والسلام في أحاديثه الصحيحة يأمرنا في التعاون والتناصح والتباذل والتزاور، والمجالسة وأن يتخذ أخ أخاً له في الله يمحضه النصح يعينه يعطيه، يقدم له شيئاً ثميناً.

أما العلماء رأوا أن الروح الجماعية لها فضائل كبيرة جداً، أحد أكبر هذه الفضائل أن جلائل الأعمال لا تقوم إلا بالعمل الجماعي، العمل الفردي لا يحقق شيء أما العمل الجماعي يحقق كل شيء، المسلمون إذا أرادوا أن ينهضوا، إذا أرادوا أن يحلوا مشكلاتهم لا بد من التعاون لابد من عمل جماعي كبير، أما إذا كان انتماؤهم إلى فرديتهم شديداً، فهؤلاء الأفراد مهما حققوا نجاح فردي كبير هذا النجاح الفردي محدود ولا يفعل شيئاً، لذلك الله تعالى قال:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (2))

(سورة المائدة)

أمر إلهي، ولا يخفى عنكم أن كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، والفهم الساذج الضعيف المضحك أن الدين أن تصلي، والدين أن تصوم وأن تحج وأن تزكي، بينما القرآن ست مائة صفحة، إذا قرأت القرآن الكريم كل أمر في القرآن لكريم يقتضي الوجوب، تقريباً الدين مائة ألف أمر، الصلاة والصوم والحج والزكاة أربع أوامر وإعلان الشهادة خمسة، والذي يصوم ويحج ويزكي حقق من الدين خمسة من مائة ألف، كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب قال تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30))

(سورة النور)

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152))

(سورة الأنعام)

أنت كأب ابنتك شكت لك زوجها إن لم تستمع من زوجها فلست حكماً عدلاً، أمر إلهي فبينما نفهم الدين عبادات خمسة تؤدى شكلاً وبينما نفهم الدين منهج كامل، منهج فيه تفاصيل مذهلة، النبي عليه الصلاة والسلام رأى رجلاً يقبل ابنه وله ولد آخر فقال له ألا قبلته مثله.

المنهج الإلهي يصل إلى مستوى أن تعدل بين أولادك بالقبل، والمنهج الإسلامي وصل إلى مستوى في علاقتك الحميمة مع زوجتك، يوجد حدود ويوجد أشياء محرمة، ويوجد أشياء مباحة.

الدين منهج كامل وأخطر شيء في الدين أن يختصر إلى عبادات خمس صار الدين في واد والحياة في وادي آخر، وترى المسلمين لم يحققوا شيء لأنهم فهموا دينهم طقوس، فهموا دينهم عبادات شعائرية ولم يفهموه عبادات تعاملية، أكثر من مائتين حديث في كسب المال، وأكثر من مائتين حديث في العلاقات الاجتماعية، النبي الكريم ترك ثروة من السنة لا تقدر بثمن كلها توجيهات، من علاقتك مع جسمك، إلى علاقتك مع بناتك.

النبي أمر الإنسان إذا دخل على أمه أن يستأذنها، فقال له: أمي، فقال عليه الصلاة والسلام: أتحب أن تراها عريانة.

ينبغي أن تستأذن، يوجد منهج، إذا أردت أن تدخل على أمك ينبغي أن تستأذن، وإذا أردت أن تدخل على ابنتك وهي في غرفتها ينبغي أن تستأذن، أتحب أن تراها عريانة، ابنتك ولكن يوجد حدود.

أكثر الأسر يقوم الشباب في ثياب متبذلة أمام أخواتهم البنات، والبنات كذلك، هذا خلاف الشرع لذلك قد تنشأ انحرافات بين الأخوة والأخوات بسبب مخالفة الشرع، أريد أن أركز على هذه الحقيقة وأنا لا أبالغ، المنهج الإسلامي مائة ألف بند، فالذي صام وصلى وحج وزكى وظن نفسه مسلم ومتدين ما فعل شيئاً، بكل علاقاتك وكل سكناتك.

معظم الأسر الدمشقية، يقول لك أسرتين عريقتين، تقيتين، صالحتين، يأتي العرس يجب أن يجلس العريس أمام مائتي امرأة متبذلة في ثيابها أين الدين ؟ كيف يسمح لهذا الشاب أن يرى كل هؤلاء النساء بأبهى زينة.

نحن سبب تخلفنا أننا فصلنا الدين عن الحياة، أبقينا الدين في المسجد، أخوانا الكرام: دققوا في هذه الكلمة، المسجد تتلقى فيه التعليمات وتقبض فيه الثمن والعمل خارج المسجد فقط، تحضر مجلس علم افعل ولا تفعل تنطلق إلى عملك إلى سوقك، إلى دكانك، إلى عيادتك، إلى معملك تنفذ التعليمات في المعمل، وفي الدكان، وفي المتجر، الآن تأتي لتصلي في الصلاة تنعقد لك مع الله صلة سببها استقامتك على منهج الله، أما الفهم السقيم للدين أن فلان ديّن طبعاً لأنه يصلي، من قال لك ذلك، قال تعالى:

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (54)

(سورة التوبة)

يمكن إنسان يصلي.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ فُلانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ: هِيَ فِي النَّارِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّ فُلانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلاتِهَا وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالأَثْوَارِ مِنَ الأَقِطِ وَلا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ هِيَ فِي الْجَنَّةِ "))

((عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، قَالَ: فَقَالَ: وَاللَّهُ أَعْلَمُ لا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا وَلا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ "))

أول نقطة ألح عليها كثيراً يجب أن تؤمن إيماناً عميقاً، أن الدين مثلاً مائة ألف بند، أنت كم بند طبقت منه، التقيت بامرأة أجنبية لا يجوز أن تصافحها هذا من الدين، جلست مع صديق لك ويوجد واحد ثالث لا ينبغي أن تنفرد معه في الحديث فإن هذا يحزنه، التقيت بأعمى ينبغي أن تسلم عليه لأن ترك السلام عليه خيانة.

اقرأ الأحاديث يوجد مائة ألف بند في كل حركاتك وفي كل سكناتك وأنت وحدك في الحمام، وأنت مع أهلك، وأولادك، وأنت في نزهة وأنت في حفل، وفي التعزية، عندما يقول رجل والله جسر وانهدم هذا كفر، هذا الذي مات هو الذي يعين أسرة، لا هو معان بالأساس، والمعين هو الله، السنة إن لله ما أعطى وله ما أخذ، عظم الله أجركم وليس جسر وانهدم.

وطن نفسك الإسلام منهج كامل، الإسلام مائة ألف بند في كل نشاطاتك أحدهم تلقى الركبان شراءه باطل، هذا الرجل يحمل التفاح ونازل إلى المدينة وتلقيته أنت وهو لا يعلم عن السعر، بنصف الطريق أوهمته أن السوق سعره رخيص ويوجد كساد.

لا تبع ما ليس عندك، افتح قسم البيوع ترى مائتان حديث، أربع أخماس بيوع الناس فيها انحراف.

أنا ألح على أن تنعتق من هذه الفكرة المضحكة أن الدين صلينا وصمنا وحجينا، لا، الدين منهج تفصيلي مؤلف من مائة ألف بند عليك أن تتابع هذه البنود واحداً واحداً، ومن أحد هذه البنود قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (2))

(سورة امائدة)

ترى مسلم يرتاد المساجد ويرتدي ثياب إسلامية مصحفه في جيبه، ومعطر عطر مشايخ، يستثمر ماله في ربح ثابت، أين دينك، هذا ربا أو أنه دفع مع رجل نصف ثمن بيت وأخذ أجرة ثابتة وضمنان المبلغ إلى بعد سنتين، وأنا لا أتحمل الخسارة إذا ارتفع ثمن البيت أو انخفض هذا ربا، ترى في التعامل اليومي يوجد ربا.

يملك بيت ويأجره وليس له علاقة ماذا يحدث به، وهو يأخذ أجرته في اليوم عشرة آلاف، معنى هذا هو ليس للنوم أنت تؤجره.

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (2))

(سورة المائدة)

أنا أريد في هذا الدرس أن أوضح أن لا تفهم الدين خمسة بنود، أفهم الدين مائة ألف بند، يجب أن تطلب العلم وإلا تقع في الحرام شئت أم أبيت، يجب أن تطلب العلم من منابعه الصحيحة، تعرف الأحكام الشرعية.

يوجد عنده أولاد من زوجة وأولاد من زوجة مطلقة، كل عواطفه وكل خيراته لأولاد الزوجة التي معه، أما أولاد الزوجة المطلقة إهمال شديد أنت ارتكبت أكبر معصية وهي أنك ما عدلت بين أولادك.

((عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ أَنَّ أَبَاهُ أَتَى بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي نَحَلْتُ ابْنِي هَذَا غُلامًا، فَقَالَ: أَكُلَّ وَلَدِكَ نَحَلْتَ مِثْلَهُ قَالَ: لا، قَالَ: فَارْجِعْهُ))

كم أسرة الآن في بلدنا البنت لا تعطى شيئاً لماذا ؟ لأن هذا المبلغ ذاهب إلى الصهر، تراه يخص الذكور في كل شيء ويحرم الإناث كل شيء وهو من رواد المساجد.

الإنسان يضر في الوصية فتجب له النار، لا أقول إن الله تخلى عنا، وكأنه تخلى عنا، كأن صلاتنا لا يرضى عنها، بالتعامل أحد أخوانا قاضي الله يجزيه الخير قال لي: يوجد ست مائة دعوى في قصر العدل كلها افتراء، هل هؤلاء مسلمون.

سيدنا عمر تولى منصب القضاء سنتين لم يرفع له أحد قضية، الآن ست آلاف دعوى إخلاء، مائة ألف دعوى احتيال، شيء غير معقول، فهؤلاء المسلمون الذين فهموا الإسلام عبادات شكلية، هؤلاء الذين تخلى الله عنهم وهؤلاء الذين لقوا الغي قال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (59))

(سورة مريم)

ولقد لقي ذلك الغي، ذكرت مرة مسبح مختلط أقيم فيه مولد بعيد الولد وجاء المنشدون والخطباء وتكلموا والمسبح مختلط، كيف توازن، كيف صاحب هذا المسبح متوازن، لا أدري.

يوجد مشكلات كبيرة جداً في كسب المال، في الأفراح، الأتراح، في السفر، في الصناعات الغذائية هدفنا الربح وصحة المسلمين ألا تغار على صحة المسلمين تضع هذه المواد المؤذية من أجل أن ترفع السعر.

أيها الأخوة الكرام: والله كلام من القلب يجب أن تطلب العلم، يجب أن تعرف الحكم الشرعي، يجب أن تعد الإسلام منهج تفصيلي كامل هذا المنهج يجب أن يؤخذ كله بحذافيره وإلا لا جدوى من أن تأخذ بعضه وتدع بعضه الآخر.

أول شيء في الروح الجماعية الأعمال العظيمة تحتاج إلى جماعة والدليل القرآني:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (29))

(سورة الفتح)

متى كان محمد شديداً على الكفار ؟ والذين معه، فكل عمل فردي لا جدوى منه، كل عمل فردي لا يقدم ولا يؤخر، أما العمل الجماعي هو الذي ينهض بالأمة، إذاً العمل الجماعي مطلوب.

مرة ذكرت لكم هذه القصة، لي صديق كان في هولندا قرأ في جريدة إعلان لوظيفة شهادة ثانوية فرضاً وخدمات معينة، البند الرابع هو أن يصلح للعمل ضمن فريق، من رقي الإنسان أن يعمل ضمن فريق، يتعاون ويكون هناك انسجام، يوجد شخص لا يحتمل أن يتلقى أمر من أحد هذا إنسان فردي النزعة، فردي النزعة وصمة عار في حق الإنسان، وكل إنسان يوجد عنده روح جماعية هذا رقي في حقه. بالمناسبة الإنسان في طبعه فردي وبالتكليف جماعي، أنت فردي بقدر تفلتك من منهج الله، وأنت جماعي بقدر طاعتك لله، فلذلك شيء جميل جداً أن يتعاون المؤمنون.

سمعت قصة عن رجل والله أنا ما رأيته ولا عرفت اسمه، رجل تاجر بناء عمل شيء لا أحد فعله قبله، عمر ثلاث أبنية في قرية من قرى ريف دمشق ثلاث أبنية كبيرة وكل بناء ثلاثون شقة، ومنع بيعها وأجرها للشباب المؤمنين تأجير، كل شقة بألفين ليرة في الشهر تسعون شقة، كل شاب يعلم فيه الصلاح أجره، الناس لا يفعلون هذا يبيع بيع ويرتاح منها ويحقق بها أرباح طائلة، وهؤلاء الشباب الذين أمامهم الطرق مسدودة والبيت أساسي في الزواج، من لهم هؤلاء الشباب، هل أحد فكر أن نساعد هؤلاء الشباب بمشروع بناء، في عمل جماعي.

ترى الشيء المؤلم جداً أن أهل الدنيا البعيدين عن الشرع يتعاونون تعاون مذهل، ونحن الدين ونحن على حق واضح كالشمس ومع ذلك النزعة الفردية طاغية.

أول نقطة من نقاط فوائد الجماعة أن الأعمال العظيمة لا تتم إلا بالروح الجماعية، أنا مرة قرأت إعلانين يمكن في مصر أحدهما أجري عقد قران لخمس مائة وخمسين شاباً في عقد واحد، أجروا مشروع بناء ضخم لخمس مائة وخمسين شقة توفير للنفقات.

يجب أن نفكر تفكير جماعي ونزوج الشباب، وإلا تتسع دوائر بيوت الدعارة، كلما سدت طرق النكاح فتحت طرق السفاح.

إذا جاءوكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه فإن لم تفعلوا تكن فتنة وفساد كبير.

الشيء الثاني، اثنين زائد اثنين أربعة، أما بالروح الجماعية اثنين زائد اثنين تساوي عشرة، لو جمعنا طاقتين جمع إفرادي المجموع ليس مجموعهما الحسابي، المجموع جداؤهما.

عندما يكون هناك تعاون هذه الطاقات تتعاون وتتضاعف فيما بينها، أما كل طاقة على حده ضعيفة، حتى الأعمال التجارية إنسان معه مبلغ بسيط ليس له عمل إطلاقاً، إذا صار مشروع، يجتمع خمس أطباء ويعملون عيادة جماعية تعاونوا.

دخلت إلى عيادة في بلد أجنبي كل شيء فيها ليس يقال لك اذهب وحلل اذهب وصور، كله في بناء واحد، والتعاون في كل شيء مطلوب والتعاون جزء من ديننا، وجزء من أخلاقنا، وجزء من إسلامنا.

النقطة الثانية الأعمال العظيمة لا تكون إلا بالتعاون.

النقطة الثالثة مجموع طاقات الأفراد بالتعاون تتضاعف، من دون تعاون لا قيمة لها، الإنسان بالنزعة الفردية، وإذا كان عنده نزعة فردية يوجد عنده ميل أن يحطم الآخرين، حتى يبقى بمفرده في الساحة فالنزعة الفردية خلق رذيل بالمعنى اللغوي، أما النزعة الجماعية فضيلة في الإنسان.

فيا أيها الأخوة الكرام حاول أن تتعاون مع أخوانك، تتعاون بالعمل التجاري، تتعاون بالعمل العلمي، ما الذي يمنع أن يكون نوع من التعاون بين العلماء لا شيء يمنع، من صفات المخلصين التعاون، إذا إنسان متفوق باختصاص، وإنسان متفوق في اختصاص آخر سألناه وإنسان ثالث متفوق باختصاص ثالث سألناه، كل واحد باختصاصه مرجع فصار هناك تكامل، أما كل واحد ينفرد وحده بالعلم ويأبى أن يسأل أي جهة أخرى، أنا أدعو على التعاون على كل المستويات وفي كل المناشط.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةِ الْمَالِ "))

عند هذه الآية وقفة جميلة جداً، لابد في الاعتصام من حبل نعتصم به، إذا لا يوجد شيء يجمعنا الاجتماع صار محالاً، قال تعالى:

(يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (14)

(سورة الحشر)

الاجتماع يحتاج إلى حبل، قال تعالى:

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103))

(سورة آل عمران)

لابد من منظومة قيم تجمعنا، لا بد من تاريخ يجمعنا، لابد من أهداف تجمعنا فإذا لم يكن هناك شيء موحد يجمعنا لن نجتمع والآية دقيقة جداً قال تعالى:

(يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (14)

(سورة الحشر)

التناصح وارد بين المؤمنين، المؤمنون بعضهم لبعض نصحة متوادون ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون ولو اقتربت منازلهم.

وحينما ندع النصيحة نقع في سخط الله عز وجل، الله عز وجل أراد إهلاك قرية، فقال الملائكة يا رب فيها رجل صالح قال: به فابدؤوا، قالوا: و لم، قال: لأنه لا يتمعر وجهه إذا رأى منكراً.

يوجد أشخاص ليس له علاقة، تأتيه ابنة أخيه بثياب فاضحة يرحب بها ويستقبلها ولا يلقي عليها أية نصيحة ولا يستنكر ثيابها، الإنسان عندما يدع التناصح يقع في سخط الله عز وجل.

وإذا كنا أمة كما وصفنا الله عز وجل بأننا خير أمة أخرجت للناس هذه الأمة علة خيريتها التناصح فإن تركت التناصح عادة الأمة كأي أمة لا قيمة لها.

((وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ))

((عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ خَطَبَنَا عُمَرُ بِالْجَابِيَةِ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قُمْتُ فِيكُمْ كَمَقَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِينَا فَقَالَ أُوصِيكُمْ بِأَصْحَابِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ وَلا يُسْتَحْلَفُ وَيَشْهَدَ الشَّاهِدُ وَلا يُسْتَشْهَدُ أَلا لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمُ الْمُؤْمِنُ))

ما الذي يصير، الأقوى يأخذ بيد الأضعف والأعلم يأخذ بيد الأقل علماً والأقرب إلى الله يأخذ بيد الأبعد، بالجماعة يوجد تعاون، إنسان جاء إلى الدرس، يرى أخ سابقه إلى الدرس يغار منه يتشجع، يرى أخ قد تفوق عليه بالعلم، تفوق عليه بالقرب إلى الله عز وجل، الله عز وجل أجرى على يديه أعمال صالحة كثيرة، فالجماعة تعمل حوافز وانضباط.

مرة كنت في مطار من أضخم مطارات العالم يجب أن تسير على شريط متحرك لمسافة طويلة جداً وعلى الشريط حاجزان عن يمين وعن يسار، سبحان الله خطر في بالي أن هذا الشريط المتحرك مع الحاجزين يمثل الجماعة، فأنت إذا مشيت على هذا الطريق تصبح السرعة عالية، فإذا مشيت عليه السرعة تضاعفت، ولهذا الشريط حاجزان يمنعان من السقوط، فأنت مع الجماعة، وهي مسرعة إلى الله

وتقي الزلل.

أنت ضمن مجموعة، أما بمفردك تفتي بمفردك، أنا لست قنعان أنها معصية، تمارس المعصية ويوجد عندك قناعة أنك لم تفعل شيء، أما بالجماعة لك أخوان ينكرون عليك ذلك، تفضل تكلم أمام أخ ورع يقول لك هذا لا يجوز، فأنت مع الجماعة تقريباً في حصن، يوجد حواجز تمنعك من أن تسقط، ومع الجماعة يوجد سرعة.

قديماً في الشام كان هناك حافلات كهربائية ويوجد لهذا الحي حافلة، فركاب الدراجات في الصعود صعبة جداً يضع يده على الحافلة فيسحبه إلى آخر الخط، أنا شبهت راكب الدراجة عندما وضع يده على هذه الحافلة ارتاح سحبته، والإنسان ضمن الجماعة ينسحب وينشد، تأتيه أحوال ليس منه بل من المجموع، يأتيه تألق من المجموع، الله قال سابقوا، هل يوجد سباق في الأرض من دون جماعة، هل سمعت إنسان أعلن عن سباق بمفرده، لا يوجد سباق في الأرض إلا جماعي سباق السيارات فيه عشرات السيارات، سباق الخيول فيه عشرات الخيول، سباق فردي لا يوجد، قال تعالى:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133))

(سورة آل عمران)

ما معنى هذا أي أنك ضمن جماعة، فضائل الجماعة كثيرة جداً تعطيك حصن، لا تزل قدمك، يوجد حماس، وروح عالية، زخم روحي ضمن الجماعة، لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم عليكم بالجماعة وهذه عليكم من ألفاظ الإغراء، أي الزموا الجماعة.

((عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمُ الْمُؤْمِنُ))

من سعادة الإنسان أن يكون له أخوة مؤمنين، ذكرت اليوم قصة فقلت له: إذا رجل ضمن مائة صديق عنده هاتف وحده هذا الهاتف لا قيمة له لأنك بمفردك، أنا إذا عند المائة صديق هواتف، هاتفك له قيمة كبيرة جداً، كل هؤلاء الأصدقاء تحت تصرفك.

الإنسان إذا عاش ضمن جماعة مؤمنة الحياة جنة والله، البيع والشراء كله سهل، لا يوجد مطبات، أما عامة الناس، الناس متفلتين ترى كل إنسان لغم، كل إنسان مطب، كل إنسان يخيف، لذلك قال تعالى:

(وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31))

(سورة النور)

أخ كان في السعودية، طبعاً مكة والمدينة السفور ممنوع، تعيش أسبوع أسبوعين لا يخطر ببالك خاطر نسائي لأنه يوجد انضباط، إذا كان هناك انضباط عام يوجد راحة نفسية عامة.

الحديث:

((عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمُ الْمُؤْمِنُ))

الآن النبي عليه الصلاة والسلام وصف المؤمن بأنه مألف أي يألف ويؤلف، قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمُؤْمِنُ مَأْلَفَةٌ وَلا خَيْرَ فِيمَنْ لا يَأْلَفُ وَلا يُؤْلَفُ))

المؤمن لين العريكة سمح، بشوش، يرحب بالآخرين، أي لبق يعرف متى ينبغي أن يسكت، متى ينبغي أن يتكلم، متى ينبغي أن ينسحب، متى ينبغي أن يبقى، متى ينبغي أن يتدخل، متى ينبغي أن لا يتدخل، عنده حكمة قال تعالى:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (269))

(سورة البقرة)

المؤمن مألف و لا خير فيمن لا يألف و لا يؤلف، و هناك حديث آخر عن روح الجماعة يقول عليه الصلاة و السلام:

((عَن أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا))

أحياناً شاب يتزوج، و الله أحياناً أشعر بسعادة لا توصف، حوله حوالي خمسين صديقاً، أربعة أو خمسة أخذوا له غسالة، أربعة خمسة سجادة، أربعة خمسة ثريا.

بلغني عن بعض البلدان الإسلامية هناك عادة طيبة جداً، الذي يزمع الزواج يضع كل حاجاته بجهة معينة و كل إنسان يريد أن يهديه هدية يأتي إلى هذه الجهة، يريد براداً، هذه من حق البراد و إذا كان في بحبوحة هذا براد مني، لا تقدم هدية بالخطأ، كل شيء يقدم لطالب الزواج هذا ضمن خطة، يُكتب أن فلان هذه حاجاته، فكل صديق أحب أن يقدم له هدية يسأل هذا المرجع ما هي حاجاته ؟ إما أن يساهم بجزء منها أو بكلها بحيث أن كل الهدايا في مجموعها تلبي حاجات هذا الطالب، هذه هو التعاون و هو شيء جميل جداً:

((عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ))

و هناك حديث آخر يقول عليه الصلاة و السلام:

((عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمُسْلِمُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ إِنِ اشْتَكَى عَيْنُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ وَإِنِ اشْتَكَى رَأْسُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ "))

وأقدم لكم هذه الحقيقة، لا تكون عند الله مؤمناً إن لم تحمل هموم المؤمنين.

((والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم))

هذه الروح الجماعية تجعلك تأكل وتطعم، أيام قال لي أخ: الله أكرمني بسيارة، وله عديل لا يملك سيارة ولا يوجد أمل أن يخرج نزهة فقال لي كلما ذهبت نزهة أخذه معي نزهة.

تخلى عن شيء من راحته وخفف من أعباء ضغط الحياة عليه، فالإنسان يساهم في بيته وبإمكاناته بالروح الجماعية.

((عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى "))

في الدرس يوجد نقطتين، الأولى وهي المنهج الإسلامي وأنا أقول رقم أطلقته غير دقيق، المنهج الإسلامي مائة ألف بند، فإذا أنت فقط صليت وصمت وزكيت... ما فعلت إلا خمسة من مائة ألف بند.

النقطة الثانية أحد أكبر هذه البنود قوله تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (2))

(سورة المائدة)

البر صلاح الدنيا والتقوى صلاح الآخرة، والإثم والعدوان، الإثم معصية فيما بينك وبين الله، والعدوان معصية فيما بينك وبين الخلق، وملخص الدرس هذه الآية:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (2))

(سورة المائدة)

والأمثلة كثيرة جداً والله تعالى قال:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3))

(سورة البقرة)

كل إنسان يقدم شيء من جهده، يقول لي أخ أنا أتقن الكهرباء أي خدمة في المسجد أنا جاهز، هذا أدى الذي عليه، هذا اختصاصه كهرباء وهذا اختصاصه بلاط، سجاد، يقدم خدمة لبيت الله بالتعاون كل شيء يرقى وبعدم التعاون صارت الحياة عبء شديد، والآن الحياة قاسية.

أخوانا الأطباء ذكروا لي الآن يوجد اختصاص عصبي غدي مناعي يعني جهاز المناعة وهو أخطر جهاز بالإنسان والجهاز العصبي والجهاز الهرموني هذه الأجهزة الثلاث يوجد تواصل بينها، يعني الشدة العصبية تنتقل إلى جهاز المناعة وتنتقل إلى الغدد، يوجد تواصل بين الجهاز المناعي والجهاز العصبي والجهاز الهرموني بحيث أن أي خلل بجهاز ينتقل إلى الجهاز الثاني، والآن أحدث اختصاص في الطب هو أن يبحثوا عن المرض من خلال الشدة النفسية وجهاز المناعة والجهاز الهرموني وهذه الغدد وإلا يوجد ظواهر كثيرة جداً لا تفهم إلا بهذا التفسير، الشدة النفسية ما هو سببها ؟ الحياة الفردية

إنسان من أجل ثمن دواء يعمل قرض من مصرف، لا يوجد من يقرضه خمسون ليرة، أما هذه ضمن المؤمنين لا يوجد مشكلة كل شيء يحل ضمن المؤمنين.

أيها الأخوة: العلم ما عمل به فقط، فإن لا يعمل به كان الجهل أولى، كلمة علم يعني شيء مطبق، شيء ممارس، شيء انقلب إلى واقع، أما أن تبقى المعلومات في الذهن رائعة ومتناسقة، ليس العلم في الإسلام هدف بذاته إطلاقاً، تعلموا ما شئتم فوالله لن تؤجروا حتى تعملوا بما علمتم.

أيام أخين يتعاملون بعمل تجاري بإخلاص وإنصاف هذه من ثمار الإيمان، أما يوجد مقولة خبيثة جداً، لا تشاركه بتخسروا، ما هذا الدين الذي إذا شاركته تخسره هذا دين هش، عن بعد جيد أما عن مشاركة تخسره، المؤمن على المشاركة تتفانى في محبته لأنه منصف قال تعالى:

(قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (23))

(سورة ص)

استنبط بعض العلماء من هذه الآية أن الذي يبغي على شريكه ليس مؤمناً، يجب أن تشارك أخيك، والعمل الجماعي عمل مجدي والعمل الفردي لا ينجح ولا سيما في هذا العصر بالذات عصر تكتلات.

دول أوربا بينها حروب من مئات الأعوان يتعاونون لدرجة أنهم سوف يصبحون دولة واحدة، عملة ورقية واحدة، إلغاء الحدود والجمارك، كتلة كبيرة، لا حياة للأفراد لا بد من العمل الجماعي وإلا نؤكل واحداً واحداً، وترون بأعينكم كيف أعداءنا اليوم يستغلونا أبشع استغلال وينقضون علينا واحداً واحداً فلابد من التعاون ونحن في أمس الحاجة إلى التعاون على مستوى عالم عربي وعلى مستوى عالم إسلامي وعلى مستوى شرق، وأرجو الله تعالى أن بعض حقائق هذا الدرس بما فيه من نصوص دقيقة جداً أن ينقلب إلى واقع، وأحب أن يظهر هذا في الأعمال التجارية، والتعاون الوظيفي.

العمل الفردي يفتت الجماعة والفردية من لوازمها تحطيم الآخرين، الذي يملك نزعة فردية من لوازم فرديته أن يحطم الآخرين، النزعة الجماعية من لوازمها التعاون.

وكنت أقول دائماً هناك دعوة إلى الله مخلصة أساسها الإتباع والتعاون ودعوة إلى الله غير مخلصة أساسها التنافس.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (103) :غض البصر - عبادة الإخلاص.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-06-28

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

أخ كريم طلب مني بإلحاح أن أجعل من أحد دروس الأحد حول غض البصر، يبدو أنه يعاني وأخوة كثر خلال هذا الوقت العصيب في الصيف عرضوا علي مشكلة أن حجابهم عن الله عز وجل كان في موضوع إطلاق البصر، ولأن هذا الموضوع وردت فيه آية قرآنية في القرآن الكريم معنى ذلك أن هذا شيء مهم جداً حول هذه النقطة أضع لكم هذه الحقيقة، محطة وقود تبيع وقود كالبنزين وهو سائل متفجر ويوجد مكان لإعلان يمكن أن يكتب في هذا الإعلان ألف جملة، مليون حكمة، ما الإعلان المناسب لهذه المحطة ؟ ممنوع التدخين لأن التدخين قد يحرق المحطة كلها، نسمي هذا الإعلان إعلان مصيري فصاحب المحطة الحكيم ينتقي إعلان متعلق بمصير المحطة.

كلام الله عز وجل ولله المثل الأعلى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو منهج الإنسان، هو الصراط المستقيم، هو حبل الله المتين، هو النور المبين، لما موضوع غض البصر يشغل حيز من غض البصر معنى هذا شيء مهم جداً لذلك بعض العلماء أعجبتني هذه الكلمة قال: ممكن أن نقول هناك مدرسة غض البصر.

الصفة الصارخة بالمؤمن أنه يغض بصره، هناك أنظمة وقوانين في كل بلد تمنع السرقة، تمنع القتل، فالذي لا يسرق احتمال كبير أنه يخاف من قسوة القوانين، ولكن شاءت حكمة الله البالغة أن يعطينا أمراً ليس في بلاد الأرض بلد تحرمه القوانين، فالذي يغض بصره لا يخشى قانوناً ولا يخشى سلطةً، ولا يخشى شيء إلا الله إذا كان هذا الأمر له خاصة فلأنه أمر يدل على إخلاصك لله، فامتناعك عن السرقة قد يُفسر طاعة لله وقد يُفسر خوفاً من القوانين، إلا أن غضك للبصر لا يفسر إلا خوفاً من الله عز وجل. وكلما استيقظت الفتن، وكلما عم الفساد، وكلما تفلتت الفتيات وخلعت جلباب الحياء، صار أمر غض البصر أشد أهميةً.

يعني بشكل مختصر الرجل الكهل يأخذ من المال والشاب يأخذ من المرأة، يوجد لغمين لغم يفجر الشاب و هو المرأة، ولغم يفجر الكهل وهو المال، وأكثر معاصي المسلمين في المرأة والمال، تسعة أعشار لتنظيم علاقة الرجل بالمرأة وعلاقته بكسب المال وإنفاق المال، يمكن أن تعد بقية الموضوعات عشر.

فحينما نخصص درس الأحد لموضوع غض البصر هذا شيء مهم جداً إلا أن الملاحظة التي أتمنى أن

تكون واضحة عندكم هو أن المؤمن يجب أن يصل إلى درجة أن يكون حكيم نفسه، أن يشعر متى غفل عن الله، متى اتصل به، متى شعر أنه محجوب، متى شعر أن الطريق إلى الله سالك، هذا شعور مهم جداً، الذي عنده حساسية في إيمانه لو أنه تساهل في موضوع البصر لشعر بالحجاب فوراً أثناء الصلوات.

فالذي يشعر بالحجاب وعدم الحجاب معنى هذا أنه يوجد عنده حياة، أما الذي لا يسأل هذا بالأساس لم يتصل بالله فلذلك لم يشعر بالحجاب، الحجاب متى تشعر به ؟ بعد الاتصال، بعد الاتصال ينكشف لك بعض حالات الحجاب أما قبل الاتصال على الحالتين محجوب، ما ذقت طعم العسل حتى تقول أين العسل، عندما الإنسان يستقيم ويصطلح مع الله عز وجل، عندما يضبط شهواته ضبط حازم ولا يسمح لهذه العين إلا أن تنظر لما أحله الله فقط، هذا الإنسان صار له صلة بالله لو غلط أو تساهل بعد حين يشعر بالحجاب، وشعوره بالحجاب لأنه كان في الماضي موصولاً، فالوصل يكشف لك الحجب. وإذا قلت لي ما هو أكبر عقاب ينال الإنسان على وجه الأرض ؟ أن يحجب عن الله، وقد قال الله عز وجل:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15))

(سورة المطففين)

وما أعظم سعادة يصل إليها الإنسان أن يكون في رضوان الله، أن يكون في طاعته، قد تكون مريضاً وقد تكون فقيراً وقد تحاط بهموم كالجبال ولكنك على منهج الله الصحيح، لكنك في رضوان الله، لكنك في طاعة الله لكن الله يحبك، وهذه هي البطولة، أن تكون في طاعة الله، أن تكون مع أحبابه، أن تكون من أوليائه، أن تكون مقرباً إليه أول الشيء كما هي عادة الإمام النووي رحمه الله أنه يعقد أبواباً حول موضوعات يراها مهمة جداً، من هذه الأبواب التي عقدها:

باب تحريم النظر إلى المرأة الأجنبية، مرة ثانية يوجد نقطة دقيقة، الدين له كليات، وله مقاصد بعيدة، من هو الفقيه ؟ هو الذي ربط جزئيات الدين بمقاصد الدين البعيدة.

إذا ربطت الأوامر التفصيلية ربطتها بالمقاصد الكبرى للدين أصبح لهذه الأوامر معنى، أنت تدرس لو وطنت نفسك أن كل فكرة جديدة تلفت النظر أن تكتبها على الهامش وكل عبارة مشرقة تضع تحتها خط أحمر ما علاقة هذا السلوك الجزئي ؟ هذا مربوط بالنجاح والنجاح مربوط بالوظيفة والوظيفة مربوطة بالزواج، أي أن أهدافك الكبرى يمكن أن تربط بدقة قراءتك للنص، الإنسان متى يسعد إذا كان له أهداف كبرى وكل الجزئيات ربطها بشبكة مع هذه الأهداف، الآن يفعل الجزئية بقناعة كبرى جداً. إذا الإنسان اعتلت صحته والمرض خطير، احتشاء فرضاً، فيقول له الطبيب سلطة بلا ملح، لا تصعد على الدرج، ترى هذا المريض الحريص على صحته يطبق هذه التعليمات بشكل مذهل، ربط الدرج

بالموت، ربط الملح بالموت، ربط الشدة النفسية بالموت.

أنت عندما تربط الجزئيات بالكليات الآن تنفذ هذه الجزئيات بدقة كبرى وأنا سوف أقول لكم هذه الكلمة إذا ربطت غض البصر بحسن صلتك بالله هل في حياتك كلها حالة أسعد من أن تكون مع الله ؟ من أن تكون موصول بالله، من أن يكون الله راضياً عنك، من أن تكون في رضوانه، إذا ربطت هذا الإنجاز الكبير حسن الصلة بالله بغض البصر صار لغض البصر معنى كبير جداً، ولم يعد عبء كبير عليك، صار متعة، أنت تشعر بقيمتك وبمكانتك عند الله، أنه شيء لا يحرمه قانون ولا نظام ولا شرطي يحاسبك، ولا مخالفة، ولا رسم، ولك أن تطلق البصر كما تشاء لكن الله يشاهدك، وأنت حينما تغض بصرك عن محارم الله معنى ذلك أنك ترضي الله وحده ولا تعبأ بأحد.

هذا الكلام عادي ولكن متى تشتد أهميته ؟ حينما تخرج المرأة من بيتها وكأنها في بيتها، وكأنها مع زوجها، وكأنها ليلة عرسها، وهذه مشكلة كبيرة جداً، لذلك يوجد نقطة دقيقة جداً أنه قديماً الفساد في بؤر محدودة بالخمسينات والأربعينات في كم سينما وكم ملهى والمدينة كلها نساء محجبات، دروس علم، مساجد، هذه حالة سهلة، كما أنك دخلت إلى حديقة حيوان هذه الحيوانات المفترسة جالسة في أقفاص وهؤلاء الناس في بحبوحة يتجولون في هذه الحديقة وينعمون في مروجها الخضراء أحب أن يرى بعض الحيوانات، أحب أن يرى الفيل فهو ضمن قفص والعملية سهلة، أما الآن يوجد حدائق حيوان في أفريقيا الحيوان طليق والزائر يجب أن يكون ضمن قفص.

الوضع الآن هكذا الفساد في كل مكان، في كل طريق، في كل مجلة، في كل إذاعة، جهاز إعلاني، ويجب الآن نحن أن نجلس ضمن قفص ما هو القفص ؟ هو غض البصر، نحن في قفص غض البصر لنسلم في بعض الأحيان إنسان ينتهي بامرأة.

أنا لا أبالغ، أنا عندي قصص، لا أتكلم من معلومات في الكتب، الإسلام هو الحياة، خلال هذه الدعوة الطويلة يوجد عندي قصص واقعية شباب كالملائكة كانوا، انتهى على يد فتاة وزلت قدمه، فموضوع الشهوة لغم، الآن الفساد في كل مكان عم أي ما سافرت، إذا أحببت أن تسافر من دمشق إلى حلب يجب أن تسمع أغاني ساقطة طول الطريق، في السفر يوجد أي جهاز إعلامي فيه نساء بأبهى زينة، أي مجلة تفتحها، نحن الآن يجب أن نعتصم بحصن غض البصر.

غض البصر متعلق بالله وحده، هذه عبادة الإخلاص، وصدقوني الحلاوة التي يذوقها الإنسان مع عض البصر لا تعدلها حلاوة.

من غض بصره عن محارم الله أورثه الله حلاوة في قلبه إلى يوم يلقاه لأن المرأة محببة، وكل إنسان عنده هذا الشعور الثابت، فحينما يغض بصره يدفع ثمن الجنة.

مرة خطر في بالي مثلاً رجل اشترى مكمورة كبيرة، وكلما لمح امرأة تلفت النظر غض بصره، كأنك وضعت في هذه المكمورة ليرة ذهب، كل غض بصر ليرة ذهب، وعندما الله عز وجل يأذن لك بالزواج تفتح هذه المكمورة فتجد فيها مائة ألف ليرة ذهب لأنه لا يوجد في الإسلام حرمان ولكن الذي يعف قبل الزواج يكافأه بزواج سعيد، والزواج لا يوجد حل وسط، إما قطعة من الجنة أو إنه حسنة الدنيا كما فسره بعض العلماء، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، ما هي حسنة الدنيا ؟ المرأة الصالحة التي إن نظرت إليها سرتك وإن أمرتها طاعتك وإن غبت عنها حفظتك، ولود ودود هذه هي المرأة الصالحة.

فكل إنسان يضبط نفسه قبل الزواج الله عز وجل لا يحرمك من هذا الذي أودعه فيك، ولكن في الوقت المناسب وفي الطريقة المناسبة مع الراحة النفسية، والراحة النفسية مريحة جداً، وأنت عندما تغض بصرك ماذا تفعل ؟ تتقرب إلى خالق الكون، يا رب أنا أحبك وها أنا قاومت شهوتي إرضاءً لك.

عجب ربكم من شاب ليست له صبوة، شاب في مقتبل العمر ضابط أموره، هذا ينتظره خير كثير، أنا والله لا من باب استعجال الأمور بل من باب الثقة بالله، شاب في أول حياته ضابط أموره، لا يكون له مستقبل مشرق مستحيل، مستحيل، الله عز وجل يهيئ له أجمل حياة، لأنه أراد طاعة الله عز وجل، لا تنسوا أنه يوجد حديث إذا الإنسان قرأه يقشعر جسمه، ويوجد عشرات الأحاديث، حق المسلم على المسلم حق الأخ على أخيه، حق الأب على أبيه، حق الزوجة على زوجها، إلا حديث واحد إذا قرأته وكنت في حال طيب مع الله يقشعر جلدك، حق المسلم على الله أن يعينه إذا طلب العفاف.

لا يوجد طلب محترم عند الله، طلب مشروع في مجتمع المسلمين بأن يقول شاب زوجوني، وكل إنسان يساهم في تزويجه، يهيئ له بيت، يهيئ له عمل، يسهم في تأسيس أسرة، له عند الله مقام لا يعلمه إلا الله.

الآن مشكلتنا في معالجة مشكلات الشباب، مشكلاتهم في بيت وزواج، الذي يقدم بيت ما هو المانع إذا كان الله عز وجل أكرمه بالغنى وعنده بنات وهيأ إلى كل بنت بيت عندئذ يأتيه أفضل إنسان، فكل إنسان يساهم في بيت، في تأمين عمل لشاب يكون حصن شاب وحصن شابة، ويكون قد ساهم في تأسيس عش إسلامي جديد.

درسنا غض البصر، وغض البصر تشتد الحاجة إليه في آخر الزمان، وتشتد الحاجة إليه في وقت الفتن يقظة، والشهوات مستعرة وكل شيء يدعو إلى الدنيا، والدنيا خضرة نضرة.

سيدنا يوسف وضع في ظرف قلما ينجو منه أحد، مغري جداً، سيدة القصر وعلى جانب كبير من الجمال وهي التي تأمره وليس لها مصلحة أن تفضح نفسها، وهو غريب وشاب، وغير متزوج، العلماء عدوا اثني عشر سبباً تزيد من احتمال استجابته لطلبها ومع ذلك قال معاذ الله إني أخاف الله رب

العالمين، فماذا كان ؟ كان عزيز مصر لما رأته جارية في القصر تعرفه عندما كان عبداً في القصر ثم رأته عزيز مصر قالت: سبحان من جعل العبيد ملوكاً بطاعته.
أنت لا تعلم لعل الله سبحانه وتعالى يهيئ لك أفضل زوجة وأفضل زواج، أفضل حياة مستمرة والثمن طاعتك لله، قال تعالى:

(يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (71))

(سورة الأحزاب)

الآن نحن يناسبنا آية فأووا إلى الكهف، أي كهف هذا ؟ بيتك كهف، والمسجد كهف، نريد أن نعمل نزهة، هذه القهوة طعامها جيد ولكن فيها نساء، وفيها أغاني، وفيها فتن، المؤمن جنته داره أو مكان جميل لا يوجد فيه معاصي، أما الأماكن العامة فيها فتن كثيرة، والعوام لهم كلمة، لا عين ترى ولا قلب يحزن.
الإنسان يرى الطعام وهو جائع، هذا حال أكثر الشباب الطعام شهي وممنوع يأكل، هذا حال أكثر الشباب، ممنوع أن تقترب هذا عذاب، أما أنت إذا جلست في بيتك أو في مكان لا يوجد فيه مثيرات هذا نوع من السعادة الدينية يفتقدها أهل الدنيا فأول آية افتتح بها الإمام النووي باب تحريم النظر إلى المرأة الأجنبية قال تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30))

(سورة النور)

الله عز وجل يخاطب الناس بأصول الدين و لكن بعد أن آمنت بالله و عرفت عظمة الله و عرفت ما عنده إذا أطعته و ما ينتظر العاصي من عذاب شديد في الدنيا و الآخرة قال يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا و كذا

الآن أنت مخاطب لأنك بعقد إيماني مع الله، لذلك الله يخاطب المؤمنين بفروع الدين، ليس من المعقول أن تقول لإنسان ملحد غض بصرك يتهمك بالجنون، ليس من العقل إطلاقاً أن تخاطب التائهين أو الشاردين بفروع الدين، هؤلاء يخاطبون بأصول الدين، بالإيمان بالله، بالإيمان باليوم الآخر، بأحقية هذا القرآن، أما حينما تؤمنوا بالله و برسوله و بكتابه و باليوم الآخر، أنت الآن مؤمن، ما دمت قد آمنت فهناك منهج تفصيلي، أحد بنود هذا المنهج التفصيلي هذه الآية، لكن هذه الآية أي القرآن الكريم بلسان عربي مبين و ذكرت هذا مرة في درس العثمان في آيات الأحكام، ماذا تعني كلمة من ؟ قال تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30))

(سورة النور)

من للتبعيض، أي ما كل النساء أنت مكلف أن تغض البصر عنهن، هناك الزوجة بدون قيد أو شرط، هناك المحارم الأم و البنت و الأخت و العمة و الخالة و بنت الأخ و بنت الأخت هؤلاء المحارم طبعاً هناك فرق بين الزوجة و المحارم، المحارم ينبغي أن تنظر إليهن بثياب الخدمة، أكثر الأسر بتفلت شديد في البيت، قد يقوم الشاب بالبيت بالثياب المبتذلة جداً الداخلية أمام أخته و قد تقوم الأخت أمام أخيها بثياب النوم الشفافة أحياناً، هذا عمل خطير جداً، أخي هي أختي، أختك أي بثياب الخدمة، أختك على العين و الرأس و لكن يجب أن تنظر إليها بثياب محتشمة و لا يجوز إطلاقاً أن تطلق البصر في أختك بثياب غير محتشمة، من هنا كان الاستئذان، يجب أن تستأذن إذا دخلت إلى غرفة ابنتك، يا رسول الله قال له: أمي كيف استأذنها في الدخول عليها، فقال عليه الصلاة و السلام: أتحب أن تراها عريانة، مستحيل الذي عنده أخت، أم، أو بنت يجب أن يستأذن في الدخول على غرفتها.

ضمن البيت هناك منهج ولو أنها أختك، لو أنها ابنتك أو عمتك أو خالتك أو أم زوجتك لا بد من أن تظهر أمامك بثياب الخدمة، أي نصف كم مسموح، قبة عالية، تحت الركبة، هذه ثياب الخدمة و المسلم منضبط.

الزوجة من دون قيد أو شرط، الزوجة وحدها صنف، أما المحارم صنف ثاني، فأنت مكلف أن تغض بصرك عن غير هؤلاء، عن بعض النساء الأجنبيات اللواتي لا يحللن لك هذه واحدة.

من الثانية: من زمانية، من الأولى عن بعض النساء، من الثانية عن زمن النظر، رجل ماشي في الطريق و هناك منعطف حاد فجأة أمام امرأة رآها كما هي، النظرة الأولى لك و لكن الأولى كما أرادها النبي عليه الصلاة و السلام و كما ذكروا علماء الفقه الأولى لا تؤثر إطلاقاً لأنه ليس لها زمن، فوراً تغض بصرك، الأولى لك و الثانية عليك، أما هذه الأولى في دقيقتين فهذه لم تعد أولى صاروا خمسة عشر، الأولى لا تنطبع الصورة على الشبكية إطلاقاً هذه الأولى، و كلما كان ورعك أشد تكون الأولى أقصر، هذه من الثانية، من للتبعيض و التبعيض الوقت.

الإنسان بحكم أنه يمشي في الطريق، دخل إلى دائرة، فجأة امرأة رآها الأولى لك و الثانية عليك، هذه من الثانية المعنى الثاني.

المعنى الثالث: حتى اللواتي يحل لك أن تنظر إليهن عدا الزوجة يجب ألا تنظر مدققاً في التفاصيل و لا أن تُتبع النظرة النظرة، الإنسان ليس له حق أن يتأمل بتفاصيل مثلاً جسم ابنته أو أخته أو عمته أو خالته، هناك نظرة شاملة كلية عادية طبيعية شريفة بريئة، أما التفاصيل مثلاً أحدهم قامت تريد أن تتناول غرضاً ما من الأرض يجب ألا تنظر و لو كانت خالتك أو عمتك أو ابنتك أو والدتك، هناك وضع دقيق في البيت هناك حركات للمرأة ببيتها قد تبدو خطوط جسمها أحياناً، فإذا وجدت حركة تبدو

معها خطوط الجسم و أنت ابنها و هذه أختك و هذه ابنتك لا ينبغي أن تدقق النظر إطلاقاً هذا المعنى الثالث قال تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30))

(سورة النور)

أروع ما في الآية طبعاً لا يوجد يحفظ من فروجهم هذه لا توجد إطلاقاً لا يوجد حالة ثالثة، لكن حينما جاء غض البصر قبل حفظ الفرج تبين أن طريق حفظ الفرج غض البصر، أي إنسان يغض بصره مستحيل أن يتورط في عملية زنا، الأبواب كلها مغلقة أمامه خارج الحصن، أما عندما يطلق بصره. وشيء دقيق جداً وهي من طبيعة النفس البشرية، هذه الشهوة عندما الإنسان يُثار وهذه قرأتها في مقالة علمية وهي حلت مشكلة كبيرة جداً إذا الإنسان أثير جنسياً الدماغ يفرز مادة يعطل المحاكمة العقلية، لذلك النبي حرم الخلوة بامرأة تحريم قطعي، ما قال ما خلا مؤمن، أو ما قال ما خلا كافر بامرأة، لا كافر، ولا منافق، ولا مؤمن، ولا تقي، ولا فاسق، قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ خَطَبَ النَّاسَ بِالْجَابِيَةِ فَقَالَ: لا يَخْلُوَنَّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا وَمَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ))

ولو عندك نفس طويل وترى حالات الفجر والفسوق من أين بدأت ؟ تراها من الخلوة، أنت حينما تمتنع عن الخلوة بامرأة أنت امتنعت عن أخطر شيء يهدد علاقتك بالله عز وجل

هذا الموضوع ليس فيه مجاملة، أتيت من مكان بعيد، وفي البيت لا يوجد أحد هل من المعقول أن لا أستقبلها، معقول أن لا تستقبلها وقل لها لا يوجد أحد في البيت، هذا هو المؤمن داخل في حصن وحصنه طاعته لله عز وجل.

أيها الأخوة: قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14))

(سورة فاطر)

الله هو الخبير، هو الذي خلقنا هذه الشهوة تشبه حجر مستقر في قمة جبل وأخذ مكانه، أنت عندما تدفعه إلى المنحدر، أنت عندك خيار واحد تدفعه أو لا تدفعه أما إذا دفعته لا يستقر إلا في قعر الوادي، لذلك أعجب أمر أن الأمر الإلهي في القرآن أن لا تقربوا الزنا ولم يقل لا تزنوا، لأنه عندما يندفع الحجر لا يستقر إلا في الوادي، والغلطة في البدايات.

قرأت كلمة للسيد المسيح: الشريف ليس الذي يهرب من الخطيئة لكنه الذي يهرب من أسبابها.

أسباب الزنا الخلوة، أسباب الزنا صحبة الأراذل، الإنسان له عدالة وهذه العدالة تسقط أو تجرح، الإنسان إذا عامل الناس فظلمهم تسقط عدالته، إذا حدثهم فكذبهم تسقط عدالته، إذا وعدهم فأخلفهم تسقط عدالته، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم فهو من كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته))

يوجد عندنا حالات كثيرة، حالة بين سقوط العدالة وبين سلامتها سموها جرح، كأس سليم وأحضرنا مطرقة وكسرنا هذه الكأس فأصبح طحين ويوجد حالة ثانية لعل هذا الكأس يقع فينشعر.

يوجد عندنا سقوط عدالة، وسلامة العدالة، جرح العدالة، التنزه في الطرقات يجرح العدالة السبب ؟ لأنه يوجد نساء، الحديث على النساء يجرح العدالة، التحدث عن أشكالهم، صحبة الأراذل، من علا صوته في البيت، من أطلق لفرسه العنان، من قاد برزوناً وأخاف الناس به، وهو متحضر يوجد عنده كلب ورابطه في مدخل البناء هذا تجرح عدالته، من أكل في الطريق.

أحد خطباء المساجد في الشام عنده ابن في روضة، فقال لي مرة استيقظنا صباحاً متأخرين ألبسناه بسرعة وأعطيناه سندويشة وقلنا له كلها في الطريق، فقال الابن: يا أبتي قال عليه الصلاة والسلام: الأكل في الطريق دناءة.

شيء جميل طفل في الحضانة يعلم السنة، من أكل في الطريق أو من بال في الطريق، من مشى حافياً، من طفف بتمرة، محطة الوقود ليس على الصفر بل على التسعة، ماذا يساوي ربع لتر فقط ولكن جرحت عدالته، إذا وزنتم فأرجحوا.

تطفيف بتمرة، أكل لقمة من حرام، رأى مشمش في الطريق ولم يريد أن يشتري فأكل وسأل البائع كم ثمنهم وتابع مشيه.

هذه كلها تجرح عدالة المسلم، فموضوع النساء صار في خلوة والقصة والفيلم والمسلسل كل شيء فيه إثارة هذا قربك من الطريق الغير المشروع.

طوبى لما وسعته السنة ولم تستهوه البدعة، قال تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30))

(سورة النور)

الصفة الصارخة الآن للمؤمن، كم مؤمن يسرق قلة كثيرة جداً، كم مؤمن يقتل ؟ لا يذكر تقريباً، كم مؤمن يغض بصره ؟ قلة جداً، غض البصر طريق إلى الله سالك، وإذا كان يوجد إطلاق بصر، هذا الموضوع اسأل عنه في اليوم مرتين، ثلاثة، شاب مثل الوردة نفسه غلبته فحجب عن الله.

لكل شيء أوان فمن تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه، أنا مرة أخ زارني كبير في السن عمره بالثمانينات تقريباً ضيفته قطعة كاتو وكأس شاي، وضع الشوكة في الكاتو وقال: بسم الله الرحمن الرحيم سبحان من قسم لنا هذا ولا ينسى من فضله أحد، والله أيها الأخوة عند قوله ولا ينسى من فضله أحد دمعت عيناي، هذه عميقة جداً، أنت شاب لا ينساك الله من فضله سوف تتزوج ويأتيك دخل وتعيش في بحبوحة، ولا ينسى من فضله أحد، ضعها في بالك.

الله سبحانه وتعالى لا يعطي الكفار وينساك أنت، كماله مطلق، سبحان من قسم لنا هذا ولا ينسى من فضله أحد، أنا سحبتها على كل شيء الله لا يوجد عنده ظروف صعبة هذه عندنا قال تعالى:

((وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21))

(سورة الحجر)

أنت عندما تعرف أن الله عنده كل شيء وأنت مع الله انتهى كل شيء، لماذا اخترت هذا الموضوع ؟ لأنه موضوع حيوي، نحن الآن متعلقون باليهود إذا يهودي مصمم أزياء في فرنسا خطر بباله أن يقصر يقصرون كلهم، ضيق يضيقون، نساء المسلمين تابعون إلى الجنرال والمجلة، دينهم الموضة، أنت زوجك مسلم وأنت من بيت مسلم هل من المعقول أن تلبسي هذا، هكذا الموضة، فلذلك موضوع غض البصر مهم جداً والذي عنده بنت، أو أخت، مفروض أن يوجهها، هذه الموضة والجنرالات إذا لم تضعها تحت قدمك لست مؤمناً، أنا ألبس ثياب فضفاضة ثخينة لا تبدي شيء.

مرة ألفّ كتاب عن المرأة أعجبني به فكرة جميلة جداً، المؤلف قال: لو فرضنا أن امرأة متبذلة جداً ومعها شهادة عليا دكتوراه ومحاضرة على ألف رجل وهي في ثياب فاضحة، كم رجل من هؤلاء يلتفت إلى كلامها ؟ ولا واحد، لو أنها محجبة كلهم يصغون إليها إذاً متى تساوي المرأة الرجل ؟ إذا تحجبت، فهي عالمة وصاحبة مبدأ إذا أغفلت مفاتنها عن الأجانب، أما إذا أظهرت مفاتنها كانت امرأة فأصبحت سلعة.

المرأة المسلمة خاصة لزوجها، والمرأة سبحان الله تبدو في أجمل ما تكون وهي محتشمة، وتسقط من عين الناس عندما تتبذل، قال تعالى:

((قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30))

(سورة النور)

هذا كلام ربنا جل جلاله، ومرة ثانية هذه عبادة عبادة الإخلاص، لا يوجد إنسان، أنت في غرفتك والبناء المجاور خرجت منه امرأة على الشرفة بثياب متبذلة لا يوجد جهة في الأرض تحاسبك أو تكشف مخالفتك إذا نظرت والمؤمن يغض البصر، يغلق الستار إني أخاف الله رب العالمين والآن تصلي لا يوجد حجاب بينك وبين الله.

يوجد بدعة أن هذه خيال الذي يكون على شاشة التلفاز، هذا شيء مضحك، أحدهم قال مثل وهذا المثل أعجبني، أحدهم يقف في الشرفة أمام مغسلة فيها مرآة وهذه المرآة معكوس بها صورة الجارة على الشرفة المقابلة إذا هذه المرآة نظر إليها ليس حرام نفس الشيء هذه ليست حقيقة ولكن خيال ولكن العبرة في الأثر، الأثر الذي تحدثه امرأة في المرآة هو الأثر الذي تحدثه امرأة حقيقة.

هذا المنظر يثير، فتقول صعب، ألا إن سلعة الله غالية، أين أذهب في عيوني، والله قال:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (286))

(سورة البقرة)

أنت إذا قلت أين أذهب في عيوني تكذب كلام الله، هل تعلم ماذا تقول تكذب الله تعالى مستحيل أن يكلفك فوق طاقتك، هو الخبير قال تعالى

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14))

(سورة فاطر)

الآن الآية الثانية قال تعالى:

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (36))

(سورة الإسراء)

الفؤاد إذا جاء مع السمع والبصر فهو الدماغ، الفكر، الإنسان أحياناً يفكر بالمعصية وليس أمامه شيء تصور، قال تعالى:

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (36))

(سورة الإسراء)

والآية الثالثة قال تعالى:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (19))

(سورة غافر)

الله وحده وليس في الأرض كلها جهة تعلم خائنة الأعين، أوضح شيء امرأة عند الطبيب، يفحصها بإمكانه أن يختلس النظر إلى عضو آخر لا تشكو منه لا يوجد جهة ممكن أن تحاسبه، لا يوجد جهة يمكن أن تضبطه بهذه المخالفة إلا الله.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (19))

(سورة غافر)

الضرورة تقدر بقدرها كما قال العلماء، الشيء المسموح لك أن تنظر إليه فانظر إليه ولا شيء عليك، أما مكان آخر، يوجد أطباء مؤمنين لهم سلوك رائع جداً، يوجد طبيب عظمية أنا أحترمه كثيراً، يوجد

عنده مثل ملاءة بيضاء لها فتحة صغيرة توضع هذه على المرأة ويسألها أين الألم وهو يرى من هذه الفتحة فقط ويعالجه، ممكن أن يكون طبيب مؤمن يسلك سلوك شريف جداً، يوجد أطباء عندهم عفة تفوق حد الخيال، امرأة مستور وجهها ليس له حاجة أن يرى وجهها، ويوجد طبيب متبذل، أنا أنصح الأخوان أن يبحثوا عن طبيب مؤمن وإذا كان يوجد طبيبة أفضل.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (19))

(سورة غافر)

والآية الأخيرة قال تعالى:

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14))

(سورة الفجر)

الله عز وجل يراك كما أنت لا تخفى عليه خافية، نحن نريد أن نصل إلى الله نريد أن يحبنا، وأن يرضى عنا، أحد العلماء له كلمة قال: علة أي أمر أنه أمر، من دون فلسفة.

يوجد نقطة مهمة اليوم ذكرتها إلى واحد قلت له: هذا المكيف يأتي رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب يضغط هذا الزر يأتيه هواء بارد، يأتي رجل معه دكتوراه بالتكنولوجيا وهو دارس التبريد ويعرف الغاز والتبريد، وآلية التبريد، الاثنين كانوا في الحر وجاءهم هواء بارد.

أمر الله عز وجل من دون فلسفة عندما تطبقه تأخذ ثماره، وفلسفه ولا تطبقه لا تستفيد شيء، إذا قلت أن التبريد رائع... ولم تضغط الزر لا تستفيد شيء، الدين بسيط جداً لا تعقدوا الأمور، غض بصرك تقطف كل الثمار.

اجتهد اجتهاداً عالياً كي تتصل بالله، حتى إذا صار هناك قطيعة تحن إلى الله، حاول أن تلتزم باستقامة حازمة جداً من أجل أن تنعقد هذه الصلة وتقبل على الله، من أجل أن تعرف طعم القرب، عندئذ إذا حصل شيء يبعدك على هذه الصلة، تحرص على إعادتها وتحن إليها والإنسان له مع الله حال ويجب هذا الحال أن يكون في صعود دائم وإذا أصابه خلل نعيد الكرة ونتوب، والمؤمن مذنب تواب، والله عز وجل يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن كثير.

يوجد أحاديث مهمة في هذا الباب:

((النظرة سهم من سهام إبليس))

((النظرة سهم مسموم))

والسهم المسموم يسمم كل الأجهزة، إذا أحدهم تلقى سهم غير مسموم، مكان الطعن فقط، أما إذا السهم مسموم السهم وصل إلى كل الأجهزة، معنى هذا أن الإنسان عندما يطلق بصره ترتبك كل حياته، مع أولاده وفي عمله، دخل في متاهة، ما هو السبب وراء تفوق المؤمنين ؟ يوجد عنده صفاء لا يوجد عنده

اضطراب نفسي، استقامته تكسبه صفاءً وتوازناً، يعني بالتعبير الشائع فكره نظيف، ونظافة فكره من نظافته، أنت عندما تستقيم وتكون عفيف، كيف أن العدسة تحرق ورقة بأشعة الشمس وتتجمع بالمحرق وتحرق، وأنت عندما تعطي طاقاتك كلها توجهها إلى شيء تفلح، إطلاق البصر يبعثر الطاقات، النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، معنى مسموم أي إطلاق البصر شوه لك حياتك، ردود فعلك غير طبيعية صار هناك إثارة مستمرة، لا يوجد تلبية ضغط.

ما هو الكبت ؟ إثارة بلا تلبية، وإذا لم يكن هناك إثارة لا يوجد كبت والكبت له أمراض كثيرة، أما إذا أنت ألغيت الإثارة لا يوجد كبت.

الذي يغض بصره يفلح في دراسته، في تجارته، في علاقاته، في بيته أخوانا المتزوجين الذين يغضون بصرهم أول مكافأة أن الله سبحانه وتعالى يلهم زوجته أن تكون كما يريد.

أيام المرأة تحرن، وأيام تتصرف بحمق، لذلك قال الشعراني: أنا أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي.

إذا أنت تغض بصرك في الطريق المكافأة الأولى من الله عز وجل يصلح لك زوجتك تراه يلبسك ثوب من المهابة، تحترمك كثيراً وتخدمك كثيراً، وعندما أنت تغلط مع الله في خارج البيت، تأتي وتراها لا يوجد احترام، ولا اهتمام، كلمة قاسية، كلام شديد، عدم مبالاة بأمرك هذه بتلك.

الشاب قبل الزواج صافي، ينجح في دراسته، ينجح في تأسيس عمله، والمتزوج مرتاح لا يوجد عنده موازنة ولا يوجد عنده تشويش، والله عز وجل يلهم زوجته أن تكون كما يريد، وإذا هو أخطأ يراها تتصرف بشيء غير معقول إطلاقاً بلا سبب، كلام قاسي حتى أنها تصل إلى الوقاحة، وهو أساء العلاقة مع الله، كشف ستر الله.

المتزوج بحاجة إلى غض البصر أكثر بكثير من العازب والأعزب مرتاح وكل شيء له أوان، وهذه من عبادة الإخلاص.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (104) :نصائح في الدعوة إلى الله1.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-07-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

ربط بدرس سابق حول أصول الدعوة إلى الله سأضع بين أيديكم ملخص درس سابق ليكون هذا الملخص تمهيداً لهذا الدرس، بينت لكم أن الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم في حدود من يعلم ومع من يعرف، انطلاقاً من قول النبي عليه الصلاة والسلام بلغوا عني ولو آية، ليس شرط أن تكون خطيب مسجد، ولا عالماً كبيراً، ولا داعية عظيماً يكفي أن تكون أحد المؤمنين، وأن تستوعب آية أو حديثاً، أو حكماً فقهياً، أو قضية إسلامية، أو قضية في العقيدة وأن تستوعبها وأن تنقلها لمن حولك لأصدقائك، وجيرانك، وزملائك، لمن هم دونك، لمن هم فوقك، بأسلوب لطيف فأنت داعية وفي الدرس السابق وسعت مفهوم الداعية، يكفي أن تستقيم على أمر الله فأنت داعية لقول النبي صلى الله عليه وسلم:

((استقيموا يستقم بكم))

صدقك، أمانتك، عفتك، ورعك، وفائك بالعهد، إنجازك للوعد تواضعك هو في حد ذاته دعوة إلى الله، واحفظ هذين الحديثين استقيموا يستقم بكم، والسلوك الكامل دعوة إلى الله، وهذا يستطيعه كل مؤمن في أي مكان وفي أي زمان، وبأي حالة، وبأي ثقافة، مؤمن صادق، مؤمن أمين لا تكذب، لا تغش... استقامتك دعوة إلى الله، ومعلوماتك المتواضعة، معرفتك المحدودة إذا نقلتها إلى الآخرين أديت ما عليك، وأحياناً تجد نفسك إذا أديت شريطاً هذا الشريط يكفيك مؤونة الحديث، قد يكون موضوع دقيق جداً والذي أمامك إنسان يدخن وأنت سمعت خطبة عن التدخين أعجبت بها وفيها حقائق، وإذا كان يدخن أعطيته شريط التدخين، وإذا كان لا يصلي أعطيته شريط الصلاة، وإذا كان يغتاب أعطيته شريط الغيبة، هذه دعوة كبيرة جداً.

ومرة ثانية ويكفي أن تتعلم القرآن وأن تعلمه فأنت مع المجاهدين ومع كبار المجاهدين لقول الله تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً (52))

(سورة الفرقان)

ويجب أن تعتقد أن الدعوة إلى الله فرض عين، لأن الله عز وجل يقول:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108))

(سورة يوسف)

فمن علامة اتباعك إلى الله أنك تدعو إلى الله على بصيرة بالدليل والتعليم، بطريقة علمية، بالدليل والبرهان، والحجة، وبالتعليم، وبالتطبيق وبالإخلاص، ويكفي أن تعتقد من خلال قوله تعالى:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

(سورة العصر)

فالتواصي بالحق أحد أركان النجاة، هذه الكلمات القليلة ملخص درس سابق، الدعوة إلى الله فرض عين، لا يمكن أن يستقر الإيمان في قلبك دون أن يتحرك ليعبر عن ذاته بالدعوة إلى الله، مستحيل أن يمتلئ إناؤك ثم لا يفيض على الآخرين، أما إذا لم يفض معنى ذلك أنه لم يمتلئ وهذا شيء بديهي. وذكرت لكم من قبل أن كل مؤمن لا يحدث نفسه بالجهاد مات على ثلمة من النفاق، والجهاد المتاح لكل إنسان وفي كل مكان، وفي كل قطر إسلامي الجهاد الدعوي قال تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً (52))

(سورة الفرقان)

هذه كلمات مختصرة مضيئة، مفيدة موجزة من درس سابق.

الآن أنت اقتنعت، لا بد لك من أن تسهم في الدعوة إلى الله، والحديث الذي يحرك كل المؤمنين:

((عَنْ سَهْلٍ يَعْنِي ابْنَ سَعْدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: وَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِهُدَاكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

سمعت عن شركة أدوية ألمانية فائضها المالي الذي لا يجدون له استثماراً في السنة مائة وستين مليار، فإذا إنسان يملك هذه الشركة أو شركة سيارات ضخمة جداً، أو شركة طائرات، أو شركة ملاحة عملاقة، أو معمل غذائي من الطراز الأول يبيع إنتاجه للعالم كله، يقول لك النبي وهو الصادق المصدوق الذي ينطق عن الهوى:

((عَنْ سَهْلٍ يَعْنِي ابْنَ سَعْدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: وَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِهُدَاكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

ومرة ذكرت أن أهل الدنيا يموتون ويتركون كل شيء بعد موتهم، ولا شك أنك ساقتك قدماك إلى تعزية في بيت فخم جداً، يوجد بيوت في الشام ثمنها مائة وخمسون مليوناً، صاحب البيت أين هو الآن ؟ في القبر أترى هذه النقلة المذهلة من بيت غالي إلى قبر، فإذا الإنسان مات وهو من أهل الدنيا يترك كل شيء، أما إذا إنسان له عمل صالح له دعوة إلى الله، تعلم القرآن وعلمه، ترك بصمات واضحة وعندما يموت يأخذ معه كل شيء.

كلمتين بين أن يدع كل شيء، وبين أن يأخذ كل شيء، كل شيء فعله في الدنيا يجده في قبره فإذا قبره روضة من رياض الجنة، وأعقل إنسان على الإطلاق هو الذي يعمل صالحاً، هو الذي يعمل أعمالاً صالحة يبتغي بها وجه الله سبحانه وتعالى، يبتغي بها خدمة هذا الدين الصحابة الكرام دفعوا ثمناً باهظاً لنشر هذا الدين، تدخل بيت الله وأنت مكرم، تدخل بيت الله وأنت آمن، تدخل بيت الله من دون حرج، من دون قلق، الذين دفعوا الثمن هم الصحابة الكرام ونحن نقطف الثمر، ألم تسأل نفسك هذا السؤال، ماذا قدمت إلى الإسلام ؟ من أعنت، ماذا أنفقت، ماذا قدمت من أموال، من طاقات، من خبرات، من جهد، من عرق، لرفع شأن المؤمنين، لتسيير أمورهم، لحل مشكلاتهم، للتوفيق بينهم، هذا ملخص درس سابق، درس الدعوة إلى الله بأوسع مفهوماته، قدمت هذا التقديم لأن الدرس الحالي متعلق بهذا الدرس. الآن أنت قنعت أن أعظم عمل على الإطلاق أن تسهم بشكل أو بآخر في هداية إنسان، قنعت أن الدعوة إلى الله فرض عين، قنعت أن وعاءك ينبغي أن يمتلئ ليفيض على الآخرين، قنعت أن أفضل جهاد متاح لنا هو تعريف الناس بهذا القرآن.

كيف تتحرك ؟ موضوع الدرس اليوم، هناك قضايا يكرهها الناس أشد الكراهية، فاحذر ثم احذر ثم احذر أن تقع فيما يكرهه الناس، إن وقعت فيما يكره الناس ألغيت دعوتك، ازور الناس عنك لم تستفد شيئاً هذا محور الدرس، بعد أن قنعت أنه لا بد من أن تدعو إلى الله بشكل أو بآخر، بطريقة أو بأخرى.

هناك خصائص للمجتمع البشري يوجد خصائص في الإنسان إذا فعلها كرهه الناس والمشكلة أن الناس لا يفرقون بين الحق وأهل الحق، إذا كرهوا أهل الحق كرهوا معه الحق، دققوا إذا كرهوا أهل الحق كرهوا معه الحق وقلة قليلة جداً من الذين يميزون بين الإسلام وأهله بين الإيمان والمؤمنون، ولكن الكثرة الكثيرة إذا كرهوا داعية كرهوا معه دعوته، وإذا كرهوا مسلماً كرهوا معه إسلامه، وإذا كرهوا ديناً كرهوا معه دينه.

أول ملاحظة الناس يكرهون النصيحة في العلن، هذه ليست نصيحة ولكنها فضيحة، لا تنتظر ممن تنصحه على ملأ من الناس أن يستجيب لك أو أن يخضع لك، سوف يقاومك، سوف يسفه رأيك، سوف يطعن في دينك، لا تستفز الناس، لا تجعل إنسان بين مجموع تنصه علانية هذه ليست دعوة إلى الله هذه حماقة، هذا حظ نفس، تريد أن تستعلي عليه، أن تحطمه، أن تشعره أنه دونك، لا إياك أن تنصح الناس علانية، الإمام الشافعي له بيتان رائعاً:

تعمدني بنصحك في انفراد وجنبني النصيحة في الجماعة

فإن النصح بين الناس نوع من التوبيخ لا أرضى استماعه

فإن خالفتني وعصيت قولي فلا تجزع إذا لم تعطى طاعة

لا تنصح أحد أمام ملأ، إن كنت مخلصاً، إن كنت تريد أن يلين قلبك إن أردت أن يصغي لك، إن أردت أن يراجع نفسه، انصحه بينك وبينه وانتقي أجمل عبارة، وأدق إشارة، وألطف حركة، لأن الله عز وجل يقول:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125))

(سورة النحل)

إذا جادلت إنسان بالتي هي أحسن، فرق كبير بين الموعظة الحسنة وبين الجدال بالتي هي أحسن، الموعظة الحسنة أن تكون كلمة طيبة، أما بالتي هي أحسن، فإذا كان هناك مائة كلمة حسنة ينبغي أن تختار أحسنها.

العبرة أن تستجلب قلبه، العبرة أن يحبك، لا تنسى هذه الحقيقة سيد الخلق وحبيب الحق، سيد ولد آدم، سيد الأولياء والمرسلين، أكمل الخلق قاطبة، التي بلغ سدرة المنتهى، الذي أثنى الله عليه في القرآن الكريم وقال له: وإنك لعلى خلق عظيم، هو نفسه المعصوم الذي يوحى إليه قال له سبحانه وتعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159))

(سورة آل عمران)

فإذا أنت لا يوحى إليك ولست معصوماً ولست على خلق عظيم ولا تملك أي ميزة من ميزات النبي، فإذا كنت قاسياً ماذا يفعل الناس بك ؟ هذه تكفي.

النقطة الثانية، لا تنتظر أن تجد استجابة فورية، الإنسان ليس هو آلة، أيام هذه الآلة يمكن أن تسحب مأخذها الكهربائي تضعه في مكان آخر، هذه العملية تتم في ثانية، الإنسان ليس كذلك، الإنسان شيء اسمه استمرار، ألف عادات معينة، ألف بيئة معينة، لا تنتظر تقول له كلمة حق يستجيب فوراً، هناك من يستجيب فوراً، ولكن قلة قليلة سحرة فرعون، جاءوا ليقهروا سيدنا موسى بسحرهم فلما رأوا عصاةً أصبحت ثعباناً مبيناً أمنوا به، قال تعالى:

(وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (120) قَالُوا آَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (122))

(سورة الأعراف)

(قَالَ آَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى (71))

(سورة طه)

هذه حالات نادرة جداً، حالات نادرة جداً أن ينتقل الإنسان فجأةً من الكفر إلى الإيمان، أما أغلب الناس يحتاجون إلى نفس طويل، إلى هدوء، أنت ابني كل يوم حجر ثم يصبح بناءً، لا تستعمل التغير المفاجئ، ألقي الحقيقة ودع صاحبها الذي ألقيتها عليه يتأمل

أنا أشبه هذا التشبيه، إنسان ميزان بكفة يوجد شهوات حب الطعام والشراب، وحب النساء وحب العلو في الأرض، سوف نصور الشهوات خمسة كيلو، أما أنت ألقيت عليه موعظة وزنها خمس غرامات، موعظة ثانية خمس غرامات، حتى تتجمع مواعظك والحقائق التي ألقيتها عليه خمسة كيلو عندئذ يتحرك الميزان، لكن هذه الخمس غرامات سوف تساهم في تحريك الميزان، من خمس غرامات فوقها خمس غرامات، من خطبة إلى درس إلى زيارة، لكلمة ألقيت لكتاب قرأه، مرض فزرته، بينت له حقيقة، هذه كلها تتراكم حتى يصبح وزنها خمس كيلو، دخل في الصراع، أول نصيحة لها دور ولكن وحدها لا تكفي أنت بحاجة إلى نفس طويل في الدعوة، لا يكن نفسك قصيراً اجعل نفسك طويلاً، صدقوني أيها الأخوة في أناس بعد أربع سنوات انطلقوا إلى الله، يوجد أخ كريم له أخ عزيز عليه جداً أعطاه أشرطة، نصحه، بعد سنوات سمع شريطاً واحداً انقلب مائة وثمانون درجة، هذه النصائح السابقة ساهمت بغير مباشر وهذا الشيء يعرفونه بالطب، أيام إنسان يشرب أصبغة فيها ملونات صناعية ويقول لك لا يوجد شيء في صحتي، فعلاً لا يوجد شيء ولكنها تتراكم في الجسم هذه الملونات الكيميائية، فجأة جاء المرض، من أين جاء المرض ؟ الآن التراكم بلغ إلى الحد الخطير، هذه يعبر عنها الأجداد القشة التي قصمت ظهر البعير.

أحياناً ترى تصرف جسمي نتج عنه مرض لا يتناسب مع هذا السبب، هذا السبب غير مباشر هناك تراكمات قديمة اجتمعت وهذا الشيء يذكرني بحديث شريف يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن الشيطان يئس أن يعبد في أرضكم))

مستحيل أن تجد في العالم الإسلامي إله غير الله يعبد، ولكن رضي فيما سوى ذلك ما تحقرون من أعمالكم.

لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ))

النصيحة الثالثة، الناس يكرهون أن تنصحهم بطريقة مباشرة، اسلك الطريق غير المباشر.

أنا أضرب لكم مثل، إذا كنت تشكو من ابنك خلقاً سيئاً ضعه أمامك وأعطيه محاضرة لا يستجيب، اجعله بين جمع بين الناس، سهرة مع أقربائك، وجه الكلام لغيره و حدثه عن قصة إنسان تلبس بهذه المشكلة فدفع ثمنها باهظاً، أنت انسى ابنك نهائياً و وجه الكلام لغير ابنك و حدثه عن قصة جرت، مثلاً

رجل مسرع قيادته رعناء و سرعته طائشة مهما ألقيت عليه مواعظ بالسرعة المعتدلة لا يستجيب، أنا متمكن، هذا الإنسان لو شاهد حادث مروع هذا الحادث أبلغ من ألف محاضرة في عدم السرعة، فالإنسان يتعلم بشكل غير مباشر، بطريقة سحرية و هذا معنى قول القائل:

إياك أعني و اسمعي يا جارة، أنت بإمكانك أن توجه الناس، توجه واحد واحد بطريقة ما ينصدم، أنت لا تعنيه ولا تقصده، ولا تنظر إليه.

الحسن والحسين عندما رأوا رجل كبير في السن يتوضأ وفي خطأ في وضوئه طلبا منه أن يحكم بينهما في الوضوء، فعرف أنه كان مخطئاً لوحده، اجعل أسلوبك غير مباشر، أنا أطبق هذا الأسلوب أرى سلوك لا يعجبني من أحد الأخوان، أتحدث عن جامع بعيد وأقول يوجد بعض الجوامع يفعل كذا، وما أحد شعر بأن بهذا الجامع يوجد مشكلة و لم ينحرج أحد و لا إنسان انزعج، قال النبي:

((لا تحمروا الاوجوه))

استخدم الأسلوب غير المباشر.

((قالَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ قالَ: وَذَكَرَ عَوْنَ بْنَ أبي جُحَيْفَة قالَ: سَمِعْتُ الْمُنْذِرَ بْنَ جَرِيرٍ يُحَدِّثُ عَنْ أبِيهِ قالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَدْرِ النَّهَارِ فَجَاءَ قَوْمٌ عُرَاةً حُفَاةً مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَا رَأى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلالًا فَأَذَّنَ فَأَقَامَ الصَّلَاةَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقالَ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) وَ (اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ) تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ حَتَّى قالَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ فَقالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا"))

ما استخدم أسلوب الإنشاء، استخدم أسلوب الخبر، واستخدم صيغة الماضي، ما طلب من أصحابه بشكل مباشر، إلا أنه قال رجل تصدق جزاه الله خيراً.

لا تستخدم الأسلوب المباشر، أسلوب الأمر، أسلوب الردع، استخدم أسلوباً غير مباشر،

الله عز وجل قال:

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (233))

(سورة البقرة)

ما قال يا أيتها الوالدات أرضعن أولادكن، المرأة الصالحة ترضع ولدها هذا أسلوب غير مباشر، وقال أيضاً:

(وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (26))

(سورة النور)

ما قال أحرصوا أن تزوجوا الطيبات للطيبين، وقال:

(فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97))

(سورة آل عمران)

ولم يقل اجعلوا هذا البيت أمناً، أرأيت إلى هذا الأسلوب اللطيف، أسلوب الخبر، أسلوب العرض، أسلوب غير مباشر، لا يوجد مواجهة استخدم الأسلوب غير المواجهة.

مثلاً: يوجد معلم في صف أحب أن ينقل طاولة ثقيلة من مكان إلى آخر ويوجد عدة طرق، تعال أنت وأنت وانقلوا هذه الطاولة، ما قولكم أيها الأعزاء لو نقلنا هذه الطاولة إلى هذا المكان وبدأ هو فانطلق سبعة طلاب وعاونوه، ظله خفيف، لا تفرض رأيك، لا تأمر، لا تعنف، لا تردع أقنع الناس بالعمل قبل أن يعملوه فهذه طريقة، استخدم الأسلوب غير المباشر لأن الناس لا يحبون الأسلوب المباشر. يوجد رجل داعية جاءه أحد أخوانه الذي يحبه كثيراً ولكن بآخر مكان فأثناء السلام قال له: الصوت يصل إلى عندك أخاف أن لا تسمع صوتي، ما قال له اقترب، أنت جالس في مكان بعيد جداً، ممكن أن تصل إلى كل أهدافك.

مرة أحد الصحابة دخل إلى المسجد ليلحق مع النبي في صلاته فأحدث جلبة، فلما الصلاة انتهت قال له زادك الله حرصاً ولا تعد.

((عَنِ الْحَسَنِ أَنَّ أَبَا بَكْرَةَ جَاءَ وَرَسُولُ اللَّهِ رَاكِعٌ فَرَكَعَ دُونَ الصَّفِّ ثُمَّ مَشَى إِلَى الصَّفِّ فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاتَهُ قَالَ: أَيُّكُمِ الَّذِي رَكَعَ دُونَ الصَّفِّ ثُمَّ مَشَى إِلَى الصَّفِّ، فَقَالَ أَبُو بَكْرَةَ: أَنَا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: زَادَكَ اللَّهُ حِرْصًا وَلَا تَعُدْ))

أثنى على اهتمامه، الله عز وجل يلهمنا الصواب، إذا الإنسان أخلص في خدمة الحق، أخلص في خدمة الخلق، الله عز وجل يهديه إلى الصواب.

يوجد طريقة ثانية، يجب أن تحبب الناس بهذا الأمر، عليه الصلاة والسلام قال:

((عَنْ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَخَلَّفَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي خَيْبَرَ وَكَانَ رَمِدًا فَقَالَ: أَنَا أَتَخَلَّفُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَحِقَ بِهِ فَلَمَّا بِتْنَا اللَّيْلَةَ الَّتِي فُتِحَتْ قَالَ: لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا أَوْ لَيَأْخُذَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلٌ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ يُفْتَحُ عَلَيْهِ فَنَحْنُ نَرْجُوهَا فَقِيلَ هَذَا عَلِيٌّ فَأَعْطَاهُ فَفُتِحَ عَلَيْهِ))

يقول سيدنا عمر: ما تمنيت في حياتي الإمارة إلا وقتها، لأن النبي قال لأعطين الراية غداً لرجل يحبه الله ورسوله.

إنسان رأى رجل يخدم بمسجد ليس له مصلحة وليس هو موظف، يخدم لوجه الله ينظف ويعمل ست ساعات، ألا يجب أن يشعر أن هذا العمل عظيم ؟ الله عز وجل نبي عظيم كلفهن قال تعالى:

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125))

(سورة البقرة)

نبيان عظيمان، أنت عندما الأمر تحيطه بتقديس وتعظيم، ينطلق الإنسان إلى تنفيذه بنفس رضية سيدنا أبو ذر الغفاري سأله الإمارة الجواب لا أنت ضعيف، لا يوجد عنده إمكانية الإمارة والإمارة تحتاج إلى حزم، قوة.

أحدهم قال لسيدنا عمر إن الناس خافوا شدتك، فقال له: والله يا أبا ذر لو يعلم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عباءتي هذه، ولكن هذا الأمر لا يناسبه إلا كما ترى.

يحتاج إلى شدة، أبو ذر ضعيف فقال: استعملني يا رسول الله، عيني بمنصب، الجواب يا أبا ذر إني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين.

شيء آخر، الله عز وجل إلهنا وربنا ونحن عبيده، كان من الممكن أن يأمرنا فقط، أنت ضابط كبير وعندك جندي غر، أنت ليس مضطراً أن تعطيه تعليل للأمر اجلس اذهب، تعال، إعطاء أوامر فقط، أما لو عللت الأمر يكون هذا أسلوب تربوي، ورحمة، واحترام لهذا الإنسان ربنا عز وجل قال:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103))

(سورة التوبة)

التعليل محبب، قال تعالى:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45))

(سورة العنكبوت)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183))

(سورة البقرة)

إذاً الإله العظيم أعطى الأوامر وأعطاها تعليلات، بينها، ووضحها، من أنت تعطي أمر من دون تعليل، وضح هذا العمل مفيد، هذا العمل يرقى بنا، هذا العمل يوصلنا إلى الله، هذا العمل يرضى علينا النبي عليه الصلاة والسلام، هذا العمل سر نجاحنا، سر التوفيق، غض البصر سر السعادة الزوجية، غض البصر سر الصفاء للأعزب قبل أن يتزوج.

الإنفاق سبب الغنى، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (39))

(سورة سباء)

كلما أعطيت توجيه إلهي، أو توجيه نبوي أعطيت تعليل، ويوجد آية تؤكد ذلك:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63))

(سورة البقرة)

إذا ذكرت ما فيه من الحكمة، من الرحمة، ومن الخير العميم، هذا يعينك على أن تأخذه بعزم وبحزم.
تعليل التوجيهات فيها أسلوب تربوي حكيم، والتعليل فيه احترام للمربى والتعليل فيه رحمة، وحكمة، لا تعطي أمر بلا تعليل، الأب الناجح مع أولاده يعطيهم أمر ويبين لهم الصواب، لو أعطيته أمر من دون تبيان الصواب لا يتعلم شيء.

أب يؤدب ابنه يضربه فقط دون أن يعلل له، هذا صار حقد، أما أنا ضربتك لهذا السبب، وإذا لم تبين التعليل لا تكون مربي، شكلت عنده عقدة أما هذا التأديب لهذا السبب، دائماً علل، الإله العظيم يعطي أمر لعباده ويعلل السبب، حتى يقوموا إلى تنفيذه بهمة عالية

التعامل مع الزوجة والأولاد في البيت، اليوم عندنا ضيوف ما رأيك أن ندعوهم إلى طعام العشاء لهم أليس أنسب، أفضل من أن تقول اصنعي عشاء، هذه غير هذه، لهم سوابق مرتين أكلنا عندهم ويجب أن يبيض وجهنا الآن، وأنا لي ثقة أنك عندك حكمة أفضل.

دائماً علل الأمر، الإنسان يكره الأمر غير المعلل، يكره الأمر الفوقي يكره الأمر الذي فيه استعلاء، حتى مع طفل صغير، مع ابنك، مع طالب عندك.

من فضل الله الإنسان إذا استلهم الله عز وجل يلهمه الصواب وترى علاقاته ناجحة مع الناس.

((عَنْ عَبْدِاللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا))

الناس يكرهون من يركز على السلبيات وينسى الإيجابيات، يأتيك يضجر من زوجته، مرة أحدهم زارني يشكو لي زوجته يريد أن يطلقها وأنا أردت أن أستدرجه لذكر ميزاتها، فقلت له: تخونك، فقال: أعوذ بالله لا يوجد أعف منها، فقلت له: طهيها للطعام سيئ، فقال: لا يوجد أطيب من طهيها ممتازة، فقلت له: هي وسخة، فقال: لا عفيفة وطبخها جيد، ونظيفة، وأنا أستدرجه للحديث عن ميزاتها فخجل لوحده لا تركز على السلبيات، الله يصلي عليه رأى صهره مع الأسرى وجاء ليقتله فقال: والله ما ذممناه صهرا، صهر ممتاز ولم ينسى له هذه.

الحديث الشريف:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ))

كن منصف تحدث عن الإيجابيات والسلبيات، دخل أحدث جلبة هذا الصحابي ما عنفه النبي، قال له زادك الله حرصاً ولا تعد.

والإنسان الذي عنده منصب قيادي، مدير معمل، مدير مستشفى، مدير دائرة أخطأ موظف عندك، ماذا يجب أن تعمل ؟ يجب أن تتذكر ميزاته وتذكر له ميزاته أولاً فتقول له: أنا معجب بأمانتك، معجب بإخلاصك وخبرتك، لكن يوجد تأخر يومي، كلمة معجب بإخلاصك وخبرتك واستقامتك، ارتاح ومعنى هذا أن المدير يعرف مكانتي، يعرف ميزاتي، لكن يوجد تأخر يومي، حاول أي إنسان تريد أن تنتقضه اذكر له فضائله الحقيقية ولا تكون كذب، الفضائل الحقيقية.

ذلك في كتاب كيف تُؤثر في الناس، جاء عالم من مصر فخرج كل قواعده على توجيهات قرآنية ونبوية كلها، علاقتك مع المرؤوسين تحتاج إلى دقة، كل موظف عندك أو ابنك عندما تتعامى عن

ميزاته يضجر، يوجد شخص قناص لا يرى إلا السيئات، لا يرى إلا الأخطاء صياد أخطاء، حفظها وكبرها، النبي قال:

اللهم إني أعوذ بك من إمام سوء، إن أحسنت لم يقبل، وإن أسأت لم يغفر، اللهم إني أعوذ بك من جار سوء إن رأى خيراً كتمه وإن رأى شراً أذاعه.

عود نفسك الإنصاف حتى لو كان عدوك، حتى لو كان شخص بينك وبينه خصومة كبيرة، لا تنسى ميزاته، لا تنسى فضائله، إذا ذكرت الإيجابيات مقبول أن تذكر السلبيات، إذا ذكرت المحاسن مقبول أن تذكر المساوئ، أما قناص عياب، لا يبحث إلا عن الأخطاء هذه شخصية ممقوتة.

أعرف أناس كثيرين إن قرأ كتاب ليبحث عن أخطائه، والتقى بإنسان ليبحث عن ثغراته، لقط وكأنه كمش صيد ثمين، ويبدأ يشهر به، هذه شخصية منبوذة ممقوتة لا يحبها الله عز وجل.

مر سيدنا عيسى مع أصحابه في الطريق على جيفة، يمكن الإنسان إذا شم رائحة جيفة يخرج من جلده، فقالوا: ما أشد نتن ريحها، فقال: بل ما أشد بياض أسنانها.

أخذ الناحية الإيجابية، فطيسة ولكن أسنانها نظيفة بيضاء، أنا أرى الإنسان الموفق يأخذ إيجابيات الناس، ويتغاضى عن السلبيات، وكلهم يحبوه ويستطيع أن يعينهم على أمر دينهم، لأنه لم يجرحهم أخذ الإيجابيات وتعامى عن السلبيات وغفلها.

لا تحمروا الوجوه، هناك شخص عياب همزة، لمزة، قناص، همه الأول أن يبحث عن عيوب الناس، وطوبى من شغله عيبه عن عيوب الناس، الناس يكرهون هذه الشخصية كراهيةً كبيرة، أن تبحث عن الأخطاء وأن تكبرها.

أنت كمسلم لك عقيدة ونحن لا نعتقد العصمة إلا للنبي وحده وما سوى النبي ليس معصوماً فإذا شيء لم يعجبك من عدم عصمته، يموت عالم من الأنسب أن نتكلم عن ميزاته فقط، دعه مثل أعلى ولا تهز هذه السورة تجده يبحث عن عيب ويذكره والنبي قال:

((عَن ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: اذْكُرُوا مَحَاسِنَ مَوْتَاكُمْ وَكُفُّوا عَنْ مَسَاوِيهِمْ))

الإنسان المربي يأخذ الميزات وينميها، فإذا نماها طغت على السلبيات، والإنسان الحاقد الأحمق غير الموفق يأخذ السلبيات فيذكرها فتنقلب إلى عداوة، المجتمع تفتت، المؤمنون كالجسد الواحد السبب؟ متعاونون، أما كل إنسان أظهرت له عيوبه المجتمع تفتت وصار متعادي قال تعالى:

(لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (14))

(سورة الحشر)

النبي عليه الصلاة والسلام كان قدوة في هذا فقال:

((عَنْ هِشَامِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: مَرَّ أَبُو بَكْرٍ وَالْعَبَّاسُ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا بِمَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الأَنْصَارِ وَهُمْ يَبْكُونَ فَقَالَ: مَا يُبْكِيكُمْ قَالُوا ذَكَرْنَا مَجْلِسَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَّا فَدَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ قَالَ: فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ عَصَبَ عَلَى رَأْسِهِ حَاشِيَةَ بُرْدٍ قَالَ: صَعِدَ الْمِنْبَرَ وَلَمْ يَصْعَدْهُ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أُوصِيكُمْ بِالأَنْصَارِ فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي وَقَدْ قَضَوْا الَّذِي عَلَيْهِمْ وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ))

انظروا إلى هذا المنهج ما أجمل هذا الموقف، وأنت في أسرتك، في عملك خذ الإيجابيات ونميها وتغاضى عن السلبيات الكل يحبك والكل يصلح نفسه.

مرة سمعت أحد العلماء الكبار الشيخ بدر الدين الحسني كان يمشي مع أصحابه في بستان والبستان فيه طين، جاء إنسان يركب بغل وأخلاقه كمن يركبه يطبش فنبهوه على رسلك إلا ورشم الشيخ بالطين، فهناك أخ لم يتحمل فضربه ضرب مبرحاً، فالشيخ لا يستطيع أن يقره على عمله فقال الشيخ: ما أفلح قوم لا سفيه لهم.

ريح الكل وبين أن هذا العمل لا يجوز، هناك طرق ذكية جداً في وضع الشيء في موضعه.

الناس يكرهون من لا ينسى الزلات الحاقد، المؤمن سموح وعفو، يوجد شخص يمضي على القصة خمس وعشرون سنة ولا ينسى، لا يحبوك الناس إلا إذا عفوت عنهم، انظروا سيدنا يوسف ما قال، هم ماذا أرادوا به ؟ أرادوا أن يقتلوه في البئر، قال تعالى:

(وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100))

(سورة يوسف)

أيهما أخطر البئر أم السجن ؟ البئر، لأن السجن حياتك مضمونة ولكن يوجد حصر حرية، ولم يذكرهم بجريمتهم، هم ليس لهم ذنب الشيطان هو الذي دخل بيننا.

لا أحد يحبك إلا إذا عفوت عنه، وتذكره بخطأ قديم هذه مشكلة كبيرة، يوجد شخص لا ينسى عنده ذاكرة للسيئات تثبيت ميكانيكي مستحيل أن تنسى، قال أحدهم:

إذا أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت

منك شيئاً قالت لم أر منك خيراً قط

قال لي أخ: تزوجنا وعملنا شهر عسل في منطقة جميلة بكسب وبعدها مضى عشرون سنة، مرة ضجرت زوجته فقالت له: لم أجد منك يوم خير، فقال لها: ولا يوم كسب، فسكتت.

يجب أن تنسى الأخطاء وتفتح صفحة جديدة مع الناس ولا تذكره بخطأه إطلاقاً، قال تعالى:

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ((134)

(سورة آل عمران)

وقال عليه الصلاة والسلام:

((حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ وَرَكِبَ أَبُو أَيُّوبَ إِلَى عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ إِلَى مِصْرَ فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ أَمْرٍ لَمْ يَبْقَ مِمَّنْ حَضَرَهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلا أَنَا وَأَنْتَ كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: فِي سَتْرِ الْمُؤْمِنِ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ سَتَرَ مُؤْمِنًا فِي الدُّنْيَا عَلَى عَوْرَةٍ سَتَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَمَا حَلَّ رَحْلَهُ يُحَدِّثُ هَذَا الْحَدِيثَ))

كثير من المواقف فيها عظمة، أنت هذا الشخص سترته وكأن شيئاً لم يكن، هذه أخلاق الله عز وجل، الله ستير وستار، لا تذكر الناس بعيوبها وبأخطائها، وأنا أنصحكم الإنسان لئيم، لا تفضح نفسك الله لم يكلفك أن تفضح نفسك، نحن لا يوجد عندنا اعتراف للشيخ، الله سترك اقبل ستره لا تذكر إلا الشيء الطيب، كثير من الأزواج بساعة صفاء يقول لزوجته أنا فعلت منكراً، وهي تراك أفضل زوج سقطت من عينها، الله سترك.

رجل له أخت وقعت في الفاحشة وأقيم عليها الحد الجلد، بعد سنوات جاءها خاطب فسأل سيدنا عمر أأذكر ما كان منها، فقال له: والله لو ذكرت له لقتلتك، الأمر انتهى أعفي، الناس يكرهون الحاقد الذي يذكر أخطاءهم.

أحد الملوك جالس بمجلس ومعه شيوخ القبائل، ويوجد فواكه ويوجد زبادي فيها ماء من أجل غسل الفواكه، وشيخ قبيلة لم ينتبه واعتقدها للشرب فأخذ الزبدية وشرب منها، الكل ابتسم ماذا فعل الملك ؟ أخذ الزبدية وشرب منها، الكل توقف عن الابتسام.

هناك مواقف حكيمة، وهذا شيء ورد اللهم صلي عليه مرة أكل مع أصحابه لحم جذور وصدرت رائحة كريهة وجاء وقت العصر فقال:

كل من أكل لحم جذور فليتوضأ.

ليس لها علاقة هذه بهذه، فقالوا: كلنا أكلنا هذا اللحم، فقال: كلكم فليتوضأ.

هذا الذي انتقض وضوءه ستره، ولهذا الدرس تتمة، وهناك أشياء أخرى يكرهها الناس ابتعد عنها إن أردت أن تدعوهم إلى الله، وهناك أشياء يحبها الناس، ولا تنسوا الربط الذي كان في مقدمة الدرس وبين مضمونه.

إن أردت أن تدعو إلى الله فاحذر أن تقع فيما يكره الناس، الناس لا يفرقون بين الإسلام والمسلمون، ولا بين الإيمان والمؤمنين، ولا بين الدعوة والدعاة، أحيان يكرهون الدعوة من أجل الدعاة والدين من أجل الدينين، والإسلام من أجل المسلمين.

فأنت إما أنك مقرب وإما أنك منفر، إما أنك تدعو إلى الله وإما أنك تدعو إلى الدنيا فإذا رأوا منك شيئاً، بالمناسبة أيها الأخوة يوجد آية دقيقة جداً، قال تعالى:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85))

(سورة يونس)

كافر شاهد مؤمن عمل تصريح كاذب، أنت أعنته على أن يبقى كافراً، أعنته على أن يتشبث بكفره، هذا المؤمن، المؤمن يكذب ؟ لا يصير وإذا حججت سابقاً فاعمل تصريح، فكان هناك ألوف الحجاج قدموا تصريح كاذب، فالطرف الآخر اعتبر هذا الشيء وصمة عار في حق المؤمنين، ولم يقدر الدين، حينما تخطئ، وحينما تكذب، وحينما تحتال تعطي الكافر حجة أن يبقى كافراً، أنت فتنته بكفره، أعجبه كفره.

نحن عندنا طريق مشروع لاستثمار الأموال، المضاربة، أيام ترى شخص كتلة نشاط وحيوية ولا يملك المال، وشخص كبير في السن لا يستطيع أن يستثمر هذا المال، لا يوجد أحل من هذه الطريقة.

ولأن أناس كثيرون جمعوا أموال طائلة ولم يؤدوا الأمانة بل أكلوا هذه الأموال ظلماً وبهتاناً، ما الذي قوي مركزه ؟ البنوك والفوائد، فهذا الذي استخدم الطريق الشرعي وأساء استخدامه قوى البنك وقوى الربا، وصار البديل هو الربا والبنك، ولو كنا اهتمينا بالمضاربة لا يوجد مشكلة، واستثمار المال حالة أساسية في المجتمع، يوجد أرملة وإنسان متقاعد، طفل صغير ورث من أبيه مبلغاً، ماذا نفعل بهذا المال نستثمره، والذين جمعوا الأموال وأكلوها وبالمليارات، هؤلاء ما أساءوا لأنفسهم أساءوا إلى الدين، الطريق المشروع لاستثمار الأموال أساءوا استخدامه فقوي مركز البنوك والربا، لا يوجد حل وسط إما مقرب من الله وإما مبعد، أداة وصل أو أداة فصل، الإنسان مقرب أو مبعد، محبب أو منفر.

قال يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: أحب عبادي إلي تقي القلب نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقي، قال: يا رب إنك تعلم إني أحبك وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك، قال: ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي.

مرة أخيرة لا يوجد حل وسط، مقرب من الله أو مبعد، محبب أو منفر أداة وصل أو أداة قطع، فإذا أخطأت الكافر افتتن بكفره.

عاملين بمعمل ورب العمل دينه قليل مثلاً، هذا العامل المسلم أخطأ وكذب وتوانى بعمله وسبب له خسارة كبيرة، والعامل الذي لا يصلي أخلص له وأتقن عمله، مدير المعمل يقول لك: الكفر أفضل من الإيمان.

دهانين اثنين، أحدهما له زي إسلامي صارخ والثاني وسط، فقال لهم صاحب البيت متى تحبون الهاتف جاهز، الذي له زي إسلامي صارخ فوراً أخبر السعودية خمس اتصالات ويطول ربع ساعة، فوراً فك الشركة معه وقال له سفهتنا قال لك استعمل الهاتف داخلي وليس خارجي، أنت بهذا المظهر الديني أكفرته بالدين، هذه هي مشكلتنا.

الدعوة ليس كلام، الدعوة صدق، أمانة، عفة، خدمة، تعاون، عطاء، وليس الدعوة أخذ، فإذا أنت أردت أن تكون سبب لهداية الخلق يجب أن تكون كاملاً، فلان إمام وهو إمام لأنه أمام الناس بأخلاقه، فيا أيها الأخوة عود على بدء إن الدعوة إلى الله صنعة الأنبياء ما من عمل أجل عند الله من الدعوة إليه والدليل قال تعالى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33))

(سورة فصلت)

لكن هذه الدعوة تحتاج إلى خلق، إن هذا الدين قد ارتضيته لنفسي ولا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (105) :نصائح في الدعوة إلى الله2.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-07-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

في الدرس الماضي ذكرت لكم أن الدعوة إلى الله فرض عين وأن كل إنسان لا يحدث نفسه بالجهاد الدعوي مات على ثلمة من النفاق، وإنك إن كنت متبع الرسول صلى الله عليه وسلم لا بد من أن تتبعه في الدعوة إلى الله قال تعالى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ((108)

(سورة يوسف)

وأن التواصي بالحق ربع النجاة في نص سورة العصر، قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

(سورة العصر)

وليس شرطاً أن تكون خطيباً لامعاً، ولا معلماً كبيراً، ولا وحيد عصرك، ولا فريد زمانك، مؤمن من عامة المؤمنين يمكن أن تكون داعية إلى الله في حدود ما تعلم ومع من تعرف، وبلغوا عني ولو آية، فإذا وطنت نفسك أي شيء استمعت إليه في دروس العلم سجلت نقاطه الرئيسة، وفي أي لقاء مع جيرانك، مع أصدقائك، مع من فوقك، مع من تحتك، وذكرت لهم آية، أو حديثاً، أو حكماً أو قصة، قربتهم من الله عز وجل فأنت داعية بشكل أو بآخر،

وبينت لكم أن هناك دعوة إلى الله لا تحتاج إلى كلام إطلاقاً لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((استقيموا يستقم بكم))

استقامتك دعوة، صدقك دعوة، أمانتك دعوة، عفتك دعوة، اتقان عملك دعوة، وفاءك بالعهد دعوة، هذا كله ذكرته في الدرس الماضي وبينت لكم أيضاً أن نعظم، الناس لا يفرقون بين الدعوة والدعاة، ولا بين الدين ورجال الدين، ولا بين الحق وأهل الحق فإذا كرهوا أهل الحق كرهوا الحق معه، وإذا كرهوا رجال الدين كرهوا الدين معه، وإذا كرهوا الدعاة كرهوا الدعوة مع الدعاة وهذا شيء خطير، والناس في النهاية رجلان مقرب ومبعد، محبب ومنفر، موصل وقاطع ففي الخطأ في قولك وبالخطأ في فعلك تقطع وتنفر وتبعد،

ثم بينت أيضاً أن المعاصي ذكرها الله في القرآن الكريم بشكل تصاعدي، فذكر الفحشاء والمنكر وذكر الإثم والعدوان، وذكر الشرك وذكر الكفر، وجعل أكبر معصية على الإطلاق أن تقول على الله ما لا تعلم، لأنك إذا قلت على الله ما لا تعلم أبعدت الناس عن الله عز وجل هذه مقدمة الدرس الماضي أعدتها مرة ثانية لتكون على علاقة وثيقة لبقية الدرس السابق، وذكرت أن الناس يكرهون أشياء وهذه الأشياء لو تمثلها الداعية لكرهوا دعوته، الناس يكرهون النصيحة في العلانية ذكرت هذا بالتفصيل في الدرس السابق، والناس يكرهون الأسلو ب المباشر في النقد، والناس يكرهون من يركز على السلبيات وينسى الإيجابيات، والناس يكرهون من لا ينسى الزلات، والناس يكرهون من يعاملهم باستعلاء، والناس يكرهون من يتسرع بالتوبيخ والتأنيب، لا تتسرع، اندم على كلمة لم تقلها أفضل ألف مرة من أن تندم على كلمة قلتها، لأن جراح اللسان أبلغ من جراح السنان، ورب كلمة قطعت، ورب كلمة أودت إلى الطلاق، ورب كلمة أودت إلى فك علاقة،

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ))

والناس كما تعلمون يعتقدون أن المعاصي أن تشرب الخمر، شرب الخمر معصية، والمعاصي أن تقتل والقتل معصية، ولكن الكلام أيضاً من المعاصي، وقد عد الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين أكثر من أربعة عشرة آفة من آفات اللسان،

وطوبى من شغله عيبه عن عيوب الناس ولا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه،

لا تتسرع في توجيه اللوم، تحقق قصص كثيرة من علامة عدم العمق وعدم النضج، وجدت ظاهراً فوراً ألصقتها بإنسان ووبخته هذا عمل أحمق قد يكون هذا الإنسان بريء و لا علاقة له بهذه المشكلة، ماذا قال سليمان عليه السلام لما جاءه الهدهد بخبر ؟ قال تعالى:

(قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27))

(سورة النمل)

هذا هو التحقيق، وكل واحد منكم في حياته تجارب، تسمع من شخص تراه مجرماً فتستمع إلى الطرف الثاني فتراه أرحم من خصمه، من الخطأ الفاحش أن تستمع إلى طرف دون أن تستمع إلى الطرف الآخر،

وهذه نصيحة لكم، لو أن إنسان حدثك عن شخص آخر كيفما يريد لو أصغيت إليه لاستمعت إلى وقت طويل عن مساوئ هذا الإنسان، لو أنك جمعت بينهما لنزل الحديث إلى عشر الكمية، شيء طبيعي

الإنسان إذا تحدث يركز على إيجابياته وعلى سلبيات الآخرين، ينسى سلبياته وينسى إيجابيات الآخرين، خبرة طويلة مريرة، تراه ركز على أشياء ويكون ملك وخصمه مجرم، النقاط السلبية التي تخصه أغفلها عتم عنها والنقاط الإيجابية التي لخصمه عتم عليها وأغفلها، أبرز إيجابياته وسلبيات الطرف الآخر، ليس هذا من الإنصاف بشيء،

جزء من علمك أن تكون منصفاً في تقييم الأشخاص، جزء من الدين أن تكون منصفاً في تقييم الأشخاص مع أن التقييم الحقيقي من شأن الله عز وجل، ولكن نحن كما قال عليه الصلاة والسلام لنا الظاهر، والله يتولى السرائر، حتى الظاهر يجب أن تكون منصفاً، والناس في أغلبهم إذا أحبوا قدسوا، وإذا أبغضوا أسقطوا، لا يوجد حل وسط ترى إنسان خطب من أسرة كيف صهرنا، تقى صلاح، حافظ قرآن، تنشأ مشكلة ينفصم هذا العقد، صار معه مرض خبيث وصلع، وسوء أخلاق، مائة وثمانين درجة يقلبون الأمور، من مدح مضحك إلى ذم مضحك،

بلغني من أحد الأخوة الأكارم أن هذا سليمان رشدي الذي افترى فيه على رسول الله، افتراءات لا تحتمل جعل بيت النبي بيت دعارة كتب قصة وهذه القصة لتفاهتها وحقارتها، ولضعفها وللكذب فيها عرضها على مئات دور النشر فما قبلت دار نشر أن تنشرها، فلما صدرت فتوى في قتله تهافتت عليه دور النشر وطبع أربعين طبعة،

شيء مؤلم جداً أن يتهم النبي وهو سيد الخلق وحبيب الحق، ولكن الذي حصل وهو رقم دقيق أربعين ألف بريطاني أسلموا بسبب هذا الكتاب، لا يعقل أن يكون هكذا نبي المسلمين فبحثوا عن كتب أخرى فإذا هم يسلمون، رب ضارة نافعة،

فعندما إنسان يذم ذماً غير حقيقي لا يصدق يسقط هو، كل إنسان له مكانة، أنا أقول لكم هذه الكلمة جزء من دينك أن تكون منصفاً في تقييم الأشخاص ولو كان هذا الشخص خصمك، النبي رأى صهره مع الأسرى جاء ليقاتله مشرك، قال: والله ما ذممناه صهراً، الإنصاف مذهل، الإنصاف يذيب الإنسان لا تفتري، لا تلصق تهماً لأشخاص بريئين، لا تكن متطرفاً، لا تكن مغالياً،

أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما

وأبغض بغيضك يوماً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما

لا تتسرع بتقييم الأشخاص، لا تتسرع بإطلاق الأحكام دون تبصر، أنا مرة ذكرت لكم أحد أخوتنا الأكارم، من أقدم الأخوة توفي رحمه الله منذ سنوات، عنده معمل كاتو ويوجد عنده صانع، طلب من معمل الزبدة مائة باكيت، الكمية وصلت عدّهم فوجدهم تسعة وتسعون، ذهب إلى معطف أحد الصناع فوجد باكيت في جيبته، هل هناك أوضح من هذا الدليل ؟ قال لي: سبحان الله الله ألجمني ما تكلمت ولا

كلمة، ذهبت إلى المعمل لأدفع الثمن قالوا لي: أرسلنا لك مائة باكيت واشترى صانعك باكيت ودفع ثمنه هات ثمن تسعة وتسعين.

لا تتسرع، يوجد قصة تروى وكانت مقررة في صف العاشر لشكسبير شكسبير ألف قصة اسمها عطيل، وعنده زوجة اسمها ديدمونة يحبها حباً جماً، فاستطاع أحد من حوله أن يلقي في روعه أنها تخونه وجاءه بدليل، وعند الإغريق كان هناك تقليد، الزوج يعطي زوجته منديلاً يوم العرس فإذا وصل هذا المنديل إلى إنسان آخر فهذا علامة خيانتها له فاستطاع هذا ياكو أن يأخذ هذا المنديل ويقدمه لزوجها، فاعتقد أنها خانته وقتلها ثم اكتشف أنها بريئة وأنها طاهرة، وأنه تسرع فقتلها وفي كلمة كأنها تخرج من أعماق قلبه، يقول: لا شيء يعزيني عن موت ديدمونة، لأنه تسرع،

أحياناً إنسان يندم ندم لا حدود له إذا هو تسرع وأخذ موقف، قال تعالى

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6))

(سورة الحجرات)

الله عز وجل يحق الحق، قال لي أحد الأخوان وهو عنده محل سجاد في الحريقة، قال لي عندي موظف من خمسة وثلاثين سنة وأنا واثق منه ثقة عمياء، أعد الغلة فإذا بها ناقصة خمس مائة ليرة، أين الخمس مائة ؟ قال لي: ارتبك، وقال لي: يمكن أحدهم جاء وصرف خمس مائة دفعتها من الدرج ووضعتها في جيبي، خذ هذه الخمس مائة، وبعد قليل دخل شخص وقال نحن اشترينا من الأخ سجادة وأخطأ معنا بخمس مائة ليرة، الله أظهر براءته فوراً، لا تتسرع دائماً التمس لأخيك عذراً ولو سبعين مرة، لا تأخذ بالظن وخذ باليقين،

قال أحد الولاة لسيدنا عمر إن أناساً قد اغتصبوا مالاً ليس لهم، لست أقدر على استخراجه منهم إلا أن أمسهم بالعذاب، فإن أذنت لي فعلت، سيدنا عمر قال: يا سبحان الله، أتستأذنني في تعذيب بشر، وهل لك أنا حصن من عذاب الله، وهل رضائي عنك ينجيك من سخط الله ؟ أقم عليهم البينة فإذا قامت فخذهم بالبينة، فإن لم تقم فادعوهم إلى الإقرار فإن أقروا فخذهم بإقرارهم، فإن لم يقروا فادعوهم إلى حلف اليمين فإن حلفوا فأطلق سراحهم، ويم الله لأن يلقوا الله بخيانتهم أهون من أن ألقى الله بدمائهم،

عند أخوانا القضاة قاعدة، لأن يخطئ القاضي بالعفو خير ألف مرة من أن يخطئ ظالماً، فإن الظلم يهتز له عرش الرحمن، أيام طفل في مدرسة المعلم يتهمه اتهاماً باطلاً ويعاقبه ولا يستمع إليه، والله أنا أكاد أن أقول أن هذا العمل فيه جريمة لأنه أورث هذا الطفل عقدة نفسية وهو بريء، اسألني ما هو أصعب شيء على الإطلاق ؟ أن تكون بريئاً وأن تتهم بتهمة ولا يسمح لك أن تدافع عن نفسك، قبل أن تتهم الناس ابحث عن الدليل اليقيني، مرة ذكر لي أخ وقال لي: أنا عندي محل في سوق

الجمعة، وأنا في محلي يأتي ابني الصغير ويقول لي في البيت رجل تعال وأنقذنا، رأى زوجته بثيابها الكاملة ويوجد رجل في البيت، قفل الباب وأحضر الشرطة وعمل محضر واتهم زوجته بالفاحشة، والقصة هي أن زوجته ليست فاحشة ولكن جاهلة، يوجد محل يبيع حاجات نسائية فاشترت منه حاجة، وقالت له: خفض لنا في سعر هذه السلعة، لماذا قلبك قاسي علينا، ماذا قال الله عز وجل ؟

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (32))

(سورة الأحزاب)

فثاني يوم توقع أن هذه المرأة من نوع آخر فطرق الباب ودخل فوراً، اقتحم البيت، وهي في ثيابها الكاملة، فاستنجدت بزوجها، لو زوجها لم يتسرع ما كان خسر زوجته، اتهمها بالفاحشة وهي أم أولاده، إياك أن تتسرع وإياك أن تتهم قبل أن تتحقق، قال تعالى:

(قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27))

(سورة النمل)

هذا الكلام يحتاجه الآباء، قبل أن تتهم صهرك سمعت من ابنتك، اسمع من صهرك ألا يحق له أن يدافع عن نفسه، قبل أن تتهم شريكك اسمع من شريكك، عد إلى الألف قبل أن تتهم، ولا تتسرع فالناس يكرهون التسرع، أشخاص كثيرون يعملون بالدعوة تراه وزع تهم على هؤلاء وهؤلاء، قال لي شخص انضم إلى جماعة دينية جيدة وهذه الحلقة تقيّم أحد العلماء تقييماً سيئاً، فقال لي: أنا صدقتهم، وكنت في عقد قران ألقى هذا العالم كلمة رائعة، وعلامات الصدق واضحة، والعمق، فقال لي أهدرت كل كلامهم وانصرفت عنهم لأن تقييمهم غير صحيح،

هناك شيء يسمى مصداقية، إياك أن تفقد مصداقيتك عند الناس عندما تفقد المصداقية تنتهي، دائماً احرص على حكم حيادي، احرص على حكم واقعي إياك أن تزيد، إياك أن تنقص، إياك أن تبالغ، إياك أن تهدر كرامة إنسان بالباطل، إياك أن ترفعه، القيمة الوحيدة التي تشترك بين العلم والأخلاق الموضوعية، الموضوعية قيمة خلقية والموضوعية قيمة علمية، والناس يكرهون من يتسرع بالاتهام والتوبيخ.

أحد الأشخاص اسمه عبيد بن سلاّم ذهب إلى أحمد بن حنبل، فقال: يا أبا عبد الله لو كنت أتيك على نحو ما تستحق لأتيتك كل يوم، قال أحمد ابن حنبل: لا تقل هذا إن لي أخواناً لا ألقاهم إلا قليلاً لكنني أثق من مودتهم أكثر مما ألقاهم كل يوم، إنسان مسافر، إنسان يقوم بعمل عظيم إنسان يؤلف كتاب، وليس معنى هذا أن كل رجل يجلس معك دائماً أنه جيد، مقياس غير دقيق، والآن دققوا، لو أن إنسان له أستاذ يعظمه ويبجله، ويرفع مكانته ويعمل كل شيء لتعظيمه، وهذا التلميذ ليس مستقيم على أمر الله وليس

في مستوى دعوة هذا الأستاذ، تلميذ آخر معتل وسلامه عادي لكن لا يوجد عنده هذا التعظيم الزائد ولكنه مستقيم والله الذي لا إله إلا هو أن هذا التلميذ الثاني الذي لا يوجد عنده أساليب التعظيم والله أقرب إلى الله، أقرب إلى الشيخ، أقرب إلى الأستاذ من الأول، الشيء ليس بالكلام الفارغ، الشيء بالاستقامة، قال تعالى:

(ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (23))

(سورة الشورى)

أنا لا أسألكم أجراً وإن كان هناك أجر أسألكم إياه أن تكونوا في مستوى الدعوة، اسأل أستاذ ما الذي يسعده ؟ أن يسمع أن أخوانه مستقيمون، وما الذي يزعجه ؟ أن تأتيه أخبار سيئة عن أخوانه، وأن هذا الأخ كثيراً يعظم ولكن على الدرهم والدينار ليس نظيف،على السفر يأتي فقط على الطعام، لا يعمل شيء، فإذا إنسان ليس في مستوى الدعوة كلامه لا يقدم ولا يؤخر، ولا يوجد حاجة للتعظيم يوجد حاجة للتطبيق، طبق يرفعك الله،

يوجد ثمانين منافق في عهد النبي تخلفوا عن غزوة تبوك وقدموا أعذار متقنة، والنبي قبل أعذارهم واستغفر لهم، جاءه أحد المتخلفين سيدنا كعب وقال له: والله إني أوتيت لساناً ولو جلست لأحد غيرك من أهل الدنيا لخرجت من سخطه، ولكنني خشيت أن أرضيك فيسخطك الله علي فإني سأصدقك، ما كنت في وقت أقوى ولا أنشط يوم تخلفت عنك فالنبي قال كلمة: أما هذا فقد صدق والثمانون كانوا كاذبين، مع أن حججهم قوية،

عامل نفسك بالصدق، أصدق مع الله واصدق مع عبد الله، لك مكانة كبيرة، لا تكذب،

((عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلالِ كُلِّهَا إِلا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

المؤمن لا يكذب، حينما يكذب أهدر كرامته، قال لي أحدهم كيف المؤمن لا يكذب، قلت له قد يغلب، تغلبه شهوته، أما الكذب لا يوجد فيه شهوة ولكن فيه خبثنة، فتزل قدمه، الكذب خبثنة، نفس شريرة تخطط،

لا تنسوا أن أصعب شيء على النفس أن تتهم اتهاماً باطلاً وأن لا يسمح لك أن تعبر عن نفسك، آباء كثيرون يرتكبون في حق أولادهم أنا أقول جريمة، يتسرع ويجد هذا الطفل أنه لا يوجد حق في الحياة، اتهمه أبوه وضربه وطرده إلى الخارج، هذا الأب غير ناجح، تحقق وإذا صار تأديب بيّن السبب، وإلا أنت لست مربياً، ما علمت شيء إلا الحقد، أما إذا أدبته فقل له السبب،

يوجد فضيلة ويمكن لو قرأتم عشرات الكتب ليس لها مكان في هذه الكتب، مكان خطير جداً، اسمها الرجوع إلى الحق، الإنسان في بيته سيد لا يعترف بخطئه أبداً يكابر، لا يسمح لأحد أن ينتقضه، والله لا أدري ما أقول لو تعلمنا هذه الفضيلة لكنا في حال غير هذا الحال، عود نفسك أن تعترف بخطئك أما من هو دونك،

كنت عند طبيب أجرى لي شبه عملية بسيطة وصار في خطأ، وأنا لا يمكن أن أكشف هذا الخطأ، فقال لي يوجد خطأ مني، وأنا أحترمه احتراماً كبيراً لأنه صادق، وأنا لا يوجد عندي إمكان أن أكتشف هذا الخطأ، يستطيع أن يعزو خطأ لأي سبب آخر، فقال لي: الخطأ مني أنا، والله الذي لا إله إلا هو كأنه لم يخطئ،

المعترف بالذنب كمن لا ذنب له، عود نفسك بالاعتراف بالذنب، لا يوجد معصوم إلا سيد الكائنات محمد، وما سوى رسول الله، أما غير المعصوم إما أن يكون أخلاقي يعترف بخطئه، أو يركب رأسه، وعندما يركب رأسه يزداد خصومه، طريق طويل تختصره في كلمة واحدة، لذلك أن تعترف بالخطأ جزء من الدين،

الرسول صلى الله عليه وسلم يوجد قصة مثل هذه كان لنا قدوة ؟ الأحداث التي عاشها النبي عليه الصلاة والسلام مدروسة بحكمة بالغة أكاد أن أقول لكم مفتعلة، الله سبحانه وتعالى افتعلها ليظهر كماله وقوته الله أخبره عن طريق الوحي بعشرات ألوف القضايا، في موقعة بدر النبي الله حجب عنه المكان المناسب اختار موقع ولا ألفى في روعه أن المكان المناسب ولا ألقاه وحياً ولا اجتهاداً، فجاء صحابي إخلاصه عجيب ومحبته عجيبة وأدبه عجيب، فقال: يا رسول الله هذا الموقع وحي أوحاه الله إليك، انظر الأدب، لو كان وحي أوحاه الله إليك ولا حرف، الله كماله مطلق، أم هو الرأي والمشورة، فقال له: بل هو الرأي والمشورة، فقال هذا الصحابي الأديب الجليل الغيور: يا رسول الله ليس بموقع، فالنبي صلى الله عليه بكل بساطة وبكل هدوء قال له: أين الموقع المناسب، فأشار عليه بالموقع المناسب، فقال له هذا هو الصواب وانتقلوا إلى الموقع الجيد،

ماذا فعل النبي ؟ رجع إلى الصواب وكان قدوة لنا في هذا الخلق، لذلك الناس يكرهون من يتمادى بالخطأ، من يركب رأسه، من يصر على موقفه أحمق، لذلك أنا يوجد عندي قاعدة إذا إنسان الخطأ واضح وركب رأسه لا أكلمه أبداً، وأرى مناقشته احتراماً له وهو أحقر من ذلك سؤال إذا إنسان عتال وعنده حمارة ماتت فقد دخله كلياً، فذهب ودفنها في مكان وعمر أربع جدران وقبة خضراء، وساواها ولي، وجاء الناس تباركوا بهذا الولي وقدم الهدايا وتنك السمن وهذه الذبائح، وهذا العتال عاش في بحبوحة مذهلة ما كان يحلم بها بحياته،

اسمعوا يا أخوان هل يوجد قوة في الأرض تقنع هذا الإنسان أن هنا دفن حمار ؟ قناعته أن هذا المدفون حمار أشد من الذي يناقشه لأنه دافنه بيده فهذا الإنسان لا يناقش، وإن ناقشته فأنت غير عاقل أبداً، المنتفع لا يناقش، ولا يوجد أبشع من أن الإنسان يركب رأسه، في أن يتمادى بالباطل وهو على خطأه،

الناس يكرهون من ينسب الفضل إلى ذاته، تجلس مع رجل كلامه لا يحتمل، فلان أنا صرفت عليه، فلان ساعدته، فلان اشتريت له بيت، فلان لحم أكتافه من خيري، هذا تبجح، الناس يكرهون من يمدح نفسه ويحبون من يعزو الفضل إلى الله سبحانه وتعالى، تجلس مع مؤمن تطرب لكلامه، هذه القضية الله وفقني بها، الله أكرمني بها، هذه الله ألهمني الصواب بها تراه متواضع يعزو الفضل إلى الله وإلى صاحب الفضل، فكل إنسان ينسب الفضل إلى ذاته هذا إنسان غير سوي، أكثر الناس إذا قضية جيدة هو الذي فعلها، أما إذا سيئة مهيئ جواب،

نحن من رواسب في حياتنا، إذا وجدت حفرة في الطريق يقول لك الاستعمار، الاستعمار مضى من خمسين سنة، هذه أخطاؤنا لا ترتاح وتعزي الخطأ للاستعمار، اعزي الخطأ لك أنت مكلف بعمل لم تتقنه، ما أحسنت عملك، اعترف بخطئك، أكثر الناس حتى بالقضاء والقدر إذا عمل عملاً جيداً يقول أنا فعلت هذا، أما إذا ارتكب معصية يقول الله مقدر علي، الله بعالم الأزل مقدر علي هذا العمل، كؤوس معدودة في أماكن محدودة،

المعاصي مقدرة عليه أما الطاعات هو فعلها، لا يوجد إنصاف، إما الطاعات والمعاصي لله، أو المعاصي والطاعات لنفسك قال تعالى:

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (28)

(سورةالأعراف)

أيها الأخوة: هذه القضايا متعلقة بالدعوة، والدعوة ليست قضايا تحفظها أقل ما في الدعوة المعلومات وأعظم ما فيها الأخلاق وهذه المبادئ، كيف الناس يلتفون حولك، كيف الناس يحبوك ؟ من التواضع، من الإنصاف، من عزو الشيء إلى سببه الحقيقي، عدم الاستعلاء، عدم الحقد، عدم تكرار الخطأ، الرجوع إلى الفضيلة،

فيا أيها الأخوة: كم من داعية هو لا يدعو إلى الله، يدعو إلى الشيطان وهو لا يشعر، أحياناً نأخذ قضية صغيرة ونجعلها قضية كبيرة مرة سألني شخص عن قضية، فقلت له: صح هذا هو الجواب، ولكن ترتيب هذه القضية إذا يوجد أولويات ترتيبها مائة ألف، فإذا أنت مطبق المائة ألف بند هذه يجب أن

تفعل، أما تارك أكبر شيء، أساسيات الدين وتلحق تفاصيل، هذا موقف مهزوز، موقف غير ذكي، موقف غير منصف،

هناك كثير أمثلة وقد تكون هذه الأمثلة جارحة، يعني بالتعبير الشائع يبلع الثور ويغص بالذنب، الأشياء الصغيرة جداً يجعلها كبائر، والكبائر يراها صغائر هذه صورة مهزوزة، لا تصلح للدعوة، يوجد شيء اسمه النقد الذاتي، أنا أتمنى على كل أخ ألقى كلمة، عامل أهله، جلس مع أصدقائه، يفعل مراجعة إلى ذاته هل يوجد كلمة أخطأت بها، يوجد كلمة أصبت بها، أيام الإنسان يتكلم كلمة يجرح أحدهم جرحاً عظيماً، هذا الجرح لا يندمل، أنت مدرس اتهمت حرفة من الحرف أن كل أصحابها كذابين، لعل طالب والده يعمل بهذه الحرفة لا يوجد حرفة كل أصحابها كاذبين، التعميم من العمى، لا يعمم إلا أعمى، تقييم الأشخاص هذا جزء من الدين، هذا شخص من أخوانا ممتاز، الولاء يغطي كل خطأ، وشخص ليس من أخوانا سيئ هذا شيء مضحك،لا أحد يحترم هذا الإنسان، فيا أيها الأخوة الدعوة أخلاق، الله عز وجل ما جعل النبي أعظم خطيب إذا تكلم ألم يؤتى جوامع الكلم ؟ صح ألم يكن قاضياً من الطراز الأول ؟ نعم، ألم يكن قائداً عسكرياً من النوع الأول ؟ نعم، ما كان رئيس دولة عظيم؟ نعم، ما كان قائداً فذاً نعم، كل هذه الصفات ما ذكرها الله، ولكن حين أثنى عليه قال:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4))

(سورة القلم)

مرة حاولت أن أفهم هذه النقطة بدقة وجدت لو أن أب أعطى ابنه سيارة وجلس في مجلس وقال: ابني عنده سيارة، هل هذا الشيء يرفع ابنك، هذه السيارة من عندك، أما لو قال ابني نجح بتفوق، هذا النجاح من جهده يمكن أن تثني عليه، كل شيء الله يعطيه للأنبياء من عنده جعله قائداً وجعله مجتهداً، خطيباً، عالماً، أما التي من النبي خلق كسبي، الخلق هو عملية ضبط، أحدهم يغضب يضرب، غضب فضبط نفسه معنى هذا أنه أخلاقي، إنسان يتهجم عليك تكيل الصاع عشرة، أما حلمت عليه، الحلم أخلاق، الشجاعة ضبط، وإنفاق المال ضبط، وضبط اللسان ضبط، وغض البصر ضبط فالخلق ضبط والضبط كسب من جهد الإنسان فلذلك الإنسان حينما ينضبط هذا الشيء من كسبه والله عز وجل يثيبه عليه، لذلك قال الله عز وجل:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4))

(سورة القلم)

والدين حسن الخلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين، الخلق من كسبك، الخلق من جهدك، الخلق من إرادتك القوية، أما إنسان ذكي ليس منه، إنسان شكله وسيم هبة من الله، إنسان ولد من غني ليس منه ليس له فضل بها، يمكن أن تقيمه من أخلاقه فقط

لذلك الدعوة أخلاق، ورد في الأثر إن هذا الدين قد ارتضيته لنفسي ولا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه،

أخوانا الكرام: إن شاء الله لا أبالغ على الإطلاق، ويوجد الآن مناصب رفيعة جداً، منصب الدولة العظمة التي تتحكم في العالم، ويوجد ثروات فلكية، ميكروسوفت، عنده خمسين مليار دولار وهو شاب عمره في الأربعينات ويوجد مناصب علمية مثل أنشتاين يعد أعلم علماء أرض الفيزياء،

((فَوَاللَّهِ لأنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ))

والهداية تحتاج إلى أخلاق، وتواضع، وإنصاف، وإنكار ذات، وأسلوب فيه أدب، قال تعالى:

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24))

(سورة سباء)

الله أمر النبي وهو سيد الخلق، أن يخاطب كفار قريش على حد سواء الحق مرة معنا أو معكم، هذه بعض الأخلاق الذي يكرهها الناس فإذا تمثل بها الداعية، وكلكم دعاة إلى الله، والدعوة فرض عين، الدرس القادم إن شاء الله يوجد عشر صفات يحبها الناس، فإذا تمثلت بها كنت داعية يحبك الناس،

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (106) :الأخلاق التي يحبها الناس من الداعية3.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-07-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

لازلنا مع دروس تفيد الدعاة، في الدرسين الماضيين بينت في مقدمتين أن أعظم عمل في الأرض أن تكون سبباً في هداية إنسان.

((عَنْ سَهْلٍ يَعْنِي ابْنَ سَعْدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: وَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِهُدَاكَ رَجلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

وأن الناس جميعاً لا يفرقون بين الدعوة والدعاة، وبين الدين ورجال الدين، ولا بين الإسلام والمسلمين، فإذا كرهوا داعية كرهوا دعوته، وإذا كره رجل دين كره الدين، وإذا كره مسلماً كره الإسلام، هذا شأن عوام الناس، فالذي يحرص على أن ينشر الحق يجب أن ينتبه إلى أن هناك صفات يكرهها الناس تحدثت عنها في درسين.

واليوم ننتقل إلى صفات يحبها الناس فإذا أردت أن تدخل إلى القلوب، أن تفتح القلوب قبل أن تفتح العقول فعليك بهذه الصفات، هذه الصفات تجعلك قريباً من الناس، هذه الصفات تجعلك محبوباً، إذا دخلت إلى قلب الإنسان أصغى إليك السمع، فتح لك عقله، أما إذا لم تستطع أن تدخل إلى قلبه كان عقله موصداً أمامك.

أيها الأخوة: هذه الحقائق التي سوف أذكرها في هذا الدرس مبنية على حقائق علم النفس، والعلوم إن جاءتنا عن طريق الوحيين، أو جاءتنا عن طريق العلوم التجريبية، فالحقيقة واحدة.

الناس يحبون من يهتمون بهم، يجب أن تهتم بالناس، أن تهتم بقضايا الناس، بالمشكلات التي يعانون منها الناس، بالمسائل التي تشغل بالهم كان عليه الصلاة والسلام مع أصحابه في مشكلاتهم.

ذكرت يوم الجمعة أن الأنبياء يعيشون في برج عاجي أخلاقي، ولا يعيشون في برج عاجي فكري، هم مع الناس، مع مشكلاتهم دون أن يسقطوا في وحولهم، هم في برج عاجي أخلاقي لكنهم مع الناس في كل قضاياهم، فالذي يتصدى للدعوة إلى الله ولو بشكل مبسط، ولو بشكل فردي، ولو على مستوى أصدقائه وجيرانه، ومن حوله، الذي يتصدى للدعوة إلى الله عليه أن يهتم بمشكلات الآخرين، وإن لم تكن مشكلاتهم مشكلاتك لن يصغوا إليك السمع، جلست مع إنسان أسأله عن عمله، عن بيته، عن أهله، هل يعاني من مشكلات هذا السؤال يجعل قلبه يميل إليك، إنك مهتم به تقدر شعوره، تقدر ما يعانيه من مشكلات يضربون على ذلك مثال: أن الفقراء حينما بلغت زوجة أحد الأباطرة في فرنسا، أن هناك

أناساً لا يجدون الخبز، أجابت بسذاجة ليأكلوا الكاتو، ألا يوجد كاتو، كم هي بعيدة عن أحوال الفقراء ؟
فإن لم تشعر بما يشعر به هؤلاء، جاء سفير رسول من أذربيجان لسيدنا عمر فجاءه بهدية، قال: ما هذا الذي معك ؟ قال: هدية بعثها إليك عاملك على أذربيجان، قال: ما هي ؟ قال: حلوى، أكل قطعة من هذه الحلوى فرآها طيبة المذاق، فقال له: يا هذا هل يأكل عندكم عامة المسلمين هذا الطعام ؟ قال: لا هذا طعام الخاصة، فلفظها من فمه وكتب إلى عامله يوبخه ويقول له: كل مما يأكل عامة المسلمين كيف يعنيك أمرهم إن لم تأكل مما يأكلون وإن لم تشرب مما يشربون.

لابد من أن تعاني مما يعانيه الناس، لا بد أن تشعر ما يشعر به الآخرون، لا بد من أن تتفاعل مع مشكلاتهم، لا بد أن تكون صدىً لآلامهم وأحزانهم، ولطموحاتهم، الناس يحبون من يهتم بهم وهذه أول حقيقة، ما الذي يشغل بالهم، ما الذي يصغون إليه، إلى ماذا يطمحون إذا جلست إلى إنسان وأردت أن يميل إليك وأن يصغي إليك، اهتم به اهتم بمشكلته، اهتم بأولاده، بمستقبله، بدخله هذا يحدث مشاركة وجدانية، والمشاركة الوجدانية تحدث ميل في القلب.

الحقيقة الثانية: الناس ميالون جداً إلى من يقضي حاجاتهم، أول درجة الاهتمام، الدرجة الثانية أن تقضي إليهم الحاجات، لابد أن تحسن إليهم قبل أن تبين لهم، لا بد أن تحسن إليهم وأن تقضي حاجاتهم قبل أن تكون خطيباً أو متكلماً أو محدثاً، لذلك خدمة الخلق من أجل الأعمال لأنها سبيل إلى أن تفتح عقولهم إلى كلامك، أحاديث كثيرة جداً:

((من كان في عون أخيه كان الله في عونه))

((عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ ولا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

((من أطعم طعاماً أكرمه الله))

أفضل الإسلام إطعام الطعام، أن تقضي حاجاتهم، أنت لا تقدر لو أنك خدمت ابن لأحد الأخوة، علمته درس رياضيات، اهتميت بشؤونه، قدمت له كتاب ثمين، الحقيقة الأولى أن تهتم بهم والاهتمام إكرام، الحقيقة الثانية أن تقضي حاجاتهم طبعاً ضمن الإمكان، ضمن إمكانك واستطاعتك.

النقطة الثالثة: أن تقدم لهم بعض الهدايا، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((تهادوا تحابوا))

إحدى أكبر وسائل الحب تقديم الهدية، أخوك مقدم على زواج، الهدية شيء ثمين جداً، كنت في بلد مجاور، هناك عادة رائعة جداً، الذي يزمع أن يتزوج يعتمد محل تجاري ويضع في هذا المحل كل

حاجاته فكل إنسان يريد أن يقدم له هدية يذهب إلى هذا المحل ويطلع على القائمة، ضمن طاقته، قد يجتمع اثنان أو أكثر يغطون هذه الحاجة، براد، ثريا، غسالة، سجادة، إما أن تكتفي بواحدة وإما أن تشترك مع بعض الأخوة بواحدة، لا يوجد أجمل من تقديم الهدية في هذه المناسبات أيام يوجد مناسبات افتتاح المدارس، فصل الشتاء، الناس إذا احتاجوا بعضهم بعضاً نشأت بينهم صلات طيبة جداً.

((عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي مُسْلِمٍ عَبْدِ اللَّهِ الْخُرَاسَانِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَصَافَحُوا يَذْهَبِ الْغِلُّ وَتَهَادَوْا تَحَابُّوا وَتَذْهَبِ الشَّحْنَاءُ))

تهادوا يوجد معنى المشاركة، يعني تهديه ويهديك، الهدية دين، إنسان في ضائقة جاءته هذه الهدية بعد أن أصبح في بحبوحة رد هذه الهداية، عملياً دفعت بقدر ما أخذت، لكن صار هناك تعاون، فالذي يريد أن تميل الناس إليه فليقدم بعض الهدايا.

وهذه لها أجر كبير جداً، هدية تأليف القلب، هدية كسب الود، والنبي عليه الصلاة والسلام يأمرنا بذلك، أهتم به أقضي حاجته، ليس له حاجة أقدم له هدية، الهدية تذهب بوحر الصدر، والهدية أسلوب حضاري جداً، بين الأصدقاء، بين الشريكين، بين الزوجين، بين الجارين، بين الابن وأبيه، الابن يقدم لأمه هدية، الأم تقدم لابنها هدية هذا يزيد العلاقات متانة.

لا تستطيع أن تجعله يصغي إليك إلا إذا فتح قلبه إليك، بطولتك أن تفتح قلبه إليك بإحسانك ليفتح لك عقله لبيانك، فالإحسان قبل البيان.

حدثني أخ راكب دراجة فقير، يركب هذه الدراجة بين قريتين، انقطع الجنزير، مرت سيارة فخمة جداً رأت دراجة مقطوع جنزيرها وصاحبها واقف إلى جانبها، فهذه السيارة يبدو أن صاحبها فيما مضى عنده خبرة فنزل وأصلح له الدراجة وقال له: أي خدمة.

هذه الحادثة سبب هداية راكب الدراجة، رجل له دعوة إلى الله فنزل وأصلح لهذا الإنسان دراجته بلطف جم، قصص كثيرة جداً، أحياناً عمل صالح.

حدثني أخ وقال لي: كنت في بلاد الحجاز في ثانوية يوجد أذان يخدمون، المدير شديد جداً يحب إذا قرع الجرس أن ينطلق المدرسون جميعاً إلى صفوفهم، قال لي: صببت كأس شاي فقرع الجرس، والشاي ساخن، فرأيت أمامي فرّاش فقلت له خذ واشرب هذه، وانطلقت إلى الصف، الفراش سألني بعد حين لماذا قدمت إلي هذا الكأس من الشاي، فقال لي: فاجأني بهذا السؤال، فقلت له: نحن أسرة واحدة، اشتهيت لك هذا الكأس، فقال له: والله أنا هنا من سنتين ما سلم أحد علي سلام، أنا فوجئت بهذا الكأس من الشاي تقدمه لي، وقال له: أنا أحمل ماجستير، وهو من بلاد آسيا وهو فقير جداً، عندما قال لي ماجستير ما صدقت فدعوته إلى بيتي، وافتعلت أن ابنتي سألتني سؤال معقد جداً في الفيزياء والكيمياء وقدم له موسوعة علمية في اللغة الإنكليزية، وقال له: سؤال ابنتي يوجد في هذه الموسوعة؟ فقال لي:

قرأ بطلاقة عجيبة وأجاب إجابة دقيقة جداً، فتأكدت أنه يحمل ماجستير وهو ليس مسلماً بوذياً، جلست أحدثه عن الإسلام، فتمنى علي أن يدعو أخوانه ممن يعملون معه، فقال لي: بعد يومين دعوت أخوانه ممن كانوا يعملون معه وهم ستة إلى طعام العشاء وتناقشنا في الإسلام وبعد شهر أو شهرين المحصلة أن هؤلاء الستة أعلنوا إسلامهم من أين بدأنا من كأس شاي، لا تزهد بالمعروف، ابتسامة رقيقة.

مرة حدثني أخ فقال لي: لي ابن خالة دعوته إلى المسجد كثيراً كان يتأبى علي فمن شدة ما ألححت عليه جاء مرةً واحدة ليستريح مني، فأنا أذكر بعد صلاة الجمعة جاء الأخ وقال لي: ابن خالتي، فأنا على عادتي سهلت ورحبت به وقلت له: إن شاء الله كنت مسروراً، فقال: نعم، فقلت له: عينك على ابن خالتك، وأنا فعلت شيء طبيعي، هذا الأخ فقير جداً ومن أطراف المدينة ولم يتوقع أن يلقى ترحاب مني، فقال له: والله لن أدع درس في هذا المسجد بعد هذا الترحيب.

ماذا كلفتني أنا ؟ ابتسامة ومصافحة بحرارة، الاهتمام والترحاب، والعلاقة الحارة، مالت، فإذا أنت أردت أن تكون داعيةً، سبب في هداية الخلق يجب:

أولاً أن تهتم بالناس، ثانياً يجب أن تقضي حوائجهم، ثالثاً أن تقدم لهم هدية تزيد العلاقة متانةً، ملخص هذا الإحسان قبل البيان.

قصة مشهورة جداً بمصر، رجل يعمل في القضاء ويشعر أنه إنسان متفوق، يركب مركبته فتعطلت في الطريق، مرت مركبة ثانية وتوقفت أي خدمة تحب أن تركب معنا أو أن نصلح لك مركبتك بكل بساطة، فقال لهم: أتمنى أن تصلح، فصلحوا له المركبة وسر كثيراً وصار هناك تعريف هذا الشخص القاضي صار من أتباع ذلك العالم وتألق تألقاً شديداً وعلا اسمه في الدعوة إلى الله من هذا العمل الطيب، لا تزهد في فعل الخير.

كن لي ما لا ترجو، أرجى منك لما ترجو، سيدنا موسى ذهب ليأتيهم بقبس فكلمه الله عز وجل قال تعالى:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14))

(سورة طه)

هل يعقل أن لهذا السبب المادي المحض كلمه الله عز وجل ؟

أخوانا الكرام: أخوة لنا كثر يسلكون هذا السبيل، يلتقي مع صديق بالعمل، إذا كان موظف جاره، إذا كان موظف آخر، ركب إلى حلب وله جار في السيارة سأله عن صحته، ماذا يعمل، عن أحواله أولاً والخدمة ثانياً، وتقديم الهدية ثالثاً، فتحت قلبه بإحسانك ففتح لك عقله لبيانك، الإحسان قبل البيان.

يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها، يوجد رجل كان ملحداً، ليس ملحداً بل كان مكلفاً، إذا كان إنسان أعلن إلحاده وعنده رواسب إيمان ضعيفة، أن يقضي عليها

كلياً، يجهز على إيمانه، مهمته شريرة، أصيب بمرض عضال لا يملك مال ويحتاج إلى مبلغ ضخم ليجري عملية في بلد بعيد، هناك أناس دلوه على بعض مساجد دمشق أن هذا الشيخ يجمع لك، قصة قديمة جداً قبل تنظيم الأمور، الآن مستحيل إلا عن طرق رسمية، فذهب إلى هذا الشيخ وعرض عليه ولم يقل لهذا الشيخ لست على إيمان أخفى إلحاده، فهذا الشيخ جمع له مبلغاً من المال، كان هو يلزمه ستين جمعوا له ثمانين، ذهب إلى بلد بعيد وأجرى العملية، بعد أن نجحت العملية أصبح من إخوان الشيخ، ولزم دروسه كلها وانقلب مائة وثمانين درجة من الإلحاد إلى الإيمان، لأن الإنسان عبد الإحسان.

يقول عليه الصلاة والسلام:

((أحب الناس إلى الله عز وجل أنفعهم للناس))

أحياناً يكون الإنسان مدير عمل، مدير مستشفى، مدير مدرسة، يوجد أعمال قيادية، ويوجد عنده أشخاص كثيرون هؤلاء الأشخاص الذين تحت يده إذا عدهم أرقاماً أخفق في إدارتهم أما إذا عدهم بشراً أناساً لهم شعور، إذا سألت إنسان يعمل حاجب عندك كيف حالك، كيف أمورك هل أنت مرتاح، هل أنت بحاجة إلى شيء، تريد مني شيء، نزلت إلى مستواه وتفقدت أمره.

يروون ولا أتخذهم مثلاً نابليون خرج وجد الحارس نائم والبندقية على الأرض، هذا يجب أن يسحقه، يعدمه، حارسه الشخصي نائم وبندقيته على الأرض فأخذ عنه البندقية ووقف مكانه إلى أن استيقظ.

لا يوجد أجمل من إنسان يقدر شعور الآخرين، جوعان، تعبان، يقول عليه الصلاة والسلام:

((أحب الناس إلى الله عز وجل أنفعهم للناس))

أعرف رجل وصل إلى مرتبة عالية جداً في السلك العسكري، جنوده يحبونه حباً فوق الخيال، هو لواء، قال لي: أتفقدهم في الليل في أيام الشتاء يغطي هذا الجند، والثاني يرعاه، كأنهم أولاده، العلاقات الشخصية تؤدي نجاحات تفوق حد الخيال.

إنسان بمرتبة عالية، له غرفته المكيفة والمدفأة في الشتاء، وله مركبته يدخل إلى المهجع ليلاً ليتفقد الجنود وأحوالهم وغطاءهم وفرشهم، يدخل إلى مطعمهم هل هناك مشكلة، إذا أنت لم تقدم شيء لم يقدم لك شيء، الحياة أخذ وعطاء.

كلمة أحب، ما اشتقاقها اللغوي، أحب، اسم تفضيل يعني أحب العمل على الإطلاق سرور تدخله على المسلم، تكشف عنه كربة، أو أن تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولو أن تمشي مع أخيك في حاجته أحب إليه من أن تعتكف في المسجد شهراً.

سيدنا ابن عباس كان معتكفاً في مسجد رسول الله، رأى رجلاً كئيباً، قال له: ما لي أراك كئيباً، فقال: ديون لزمتني لا أطيق سدادها، قال: لمن، قال: لفلان، قال له: أتحب أن أكلمه لك، فخرج من معتكفه،

فقال له إنسان، يا بن عباس أنسيت أنك معتكف، قال: لا والله ما نسيت ولكنني سمعت صاحب هذا القبر وأشار بيده إلى قبر النبي عليه الصلاة والسلام والعهد به قريب ودمعت عيناه، والله لأمشي مع أخ لي في حاجته خير لي من قيام شهر واعتكافه في مسجدي هذا.

أنت نجار من الطراز الأول قال لك أتذهب معي لنشتري غرفة نوم، والله لا يوجد لدي وقت اذهب بمفردك.

قال له حباً وكرامة، امضي ساعتين معه وأعطه خبرتك في غرف النوم، أنت إنسان تتقن اللغة الإنكليزية، تقول له نعم.

كلما كان إيمانك أكبر كلما كان عطاؤك أكبر، قال تعالى:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3))

(سورة البقرة)

والله لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر واعتكافه في مسجدي هذا.

قال يوجد في فرنسا، احتل بعض العمال المصانع لكن بعض العمال لم يضربوا عن العمل إطلاقاً إكراماً لأصحاب المعامل لأن لهم علاقات طيبة معهم.

العلاقات الشخصية التي أساسها الود، وأساسها الحب، وأساسها الإكرام، والاحترام المتبادل، قال لي أحدهم: شخص جاء إلى المطار شامخ أنفه بشكل غير معقول والناس كأنهم ذباب أمامه، فكلم الموظف الذي على بطاقة الصعود باستعلاء شديد، فأراد هذا الموظف أن يغيظه وهو وجهته إلى فرنسا، أرسل كل حقائبه إلى الصين، هذا الاستعلاء دفع ثمنه باهظاً، سيصل إلى فرنسا لا يوجد حقائب.

الإنسان لا يعامل الناس باستعلاء، أضعف إنسان يمكنه أن يغيظك، والتواضع من صفات المؤمن.

أحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مؤمن تكشف عنه كربةً، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً ولو أن تمشي مع أخيك في حاجته أحب إليه من أن تعتكف في المسجد شهراً.

يوجد نقطة مهمة جداً تفيدنا الآن، صناعة السيارات في أمريكا تراجعت أمام صناعة السيارات في اليابان، فحدثني بعض الأخوة رفيع المستوى ليتقصى ما الأسباب لماذا السيارات اليابانية تباع بكثرة مع أن أمريكا فيها معامل سيارات مشهورة جداً ؟ فوجئوا بأن السبب ليس مادياً ولا سبباً علمياً، ولا تكنولوجياً، السبب اجتماعي.

أصحاب المعامل والمدراء علاقتهم بالعمال جيدة جداً، المدراء هناك يأكلون مع عمالهم لا يوجد تكلفة، فالعامل يشعر بقيمته، ويسألني وأسأله، ويمزح معي وأمزح معه، وكأن المعمل معملي، إتقان العمل سمعت بعض المعامل، العامل مكرم جداً وجبة صباحية ووجبة غداء ويوجد مسجد ومطعم، دار حضانة لأولاده، فهذه الخدمات عندما تقدم للعمال صار هناك علاقات متينة انعكست إتقاناً.

شيء لفت نظري آلة تطريز مصنوعة في سويسرا عندنا مثلها تماماً، الثوب الذي صناعة هذه الآلة التي في سوريا ثمنه مائتان وخمسين ليرة توب ثلاثة عشر متراً، والمتر الواحد على آلة نفسها ولكن الصناعة في سويسرا ثمنه سبع مائة ليرة، وهذه القصة قديمة منذ عشر سنوات، الفرق إطلاق مطلق، يوجد أخطاء كثيرة عندنا، خيط مقطوع، وردة ناقصة، زفت وشحار، إذا كان هكذا التوب طبعاً ثمنه مائتان وخمسين ليرة، أما إذا يوجد إتقان تام سبع مائة المتر، ومائتان وخمسون الثلاثة عشر متراً، والآلة واحدة نفس الآلة، عندما يكون العامل مرتاح ومحترم يكون له سهم في المعمل، يعمل عمل عجيب وينعكس إتقان والإتقان رواج.

ففوجئ أن هؤلاء الذين يصنعون السيارات في اليابان، السبب هو سبب اجتماعي، تواضع رب العمل هو الذي يسبب هذا الإتقان.

دائماً الناس يحبون إلى من يستمع إليهم لا إلى من يحدثهم، يوجد شخص يأتي إلى مجلس يستلم الحديث ولا يدع الكلام لغيره من الستة وحتى الأثنا عشر وهم ساكتون، اجعل الحديث مناوبة وليس مناهبة اسمع له واسمع وجهة نظره، إذا جلست مع أخ لا تستأثر بالحديث واصغي إليه، اسمح له أن يتكلم وأن يعبر عن رأيه وعن عواطفه عن مشاعره، اشعره بأنه إنسان يُستمع إليه، اشعره بأهميته، فلذلك الناس يحبون من يستمع إلى حديثهم، لا إلى من يحدثهم عن نفسه، أنا سافرت، وأنفقت،... وأخرتها شيء ممل، الجلسة تحتاج إلى حوار، ومشاركة، مناوبة في الحديث، فهذا مما يعجب الناس، كثير من الجلسات يقولون صار تجلي، صار سرور، لا لأنه واحد تكلم بمفرده لا، الحديث كان مشترك، كان فيه تناوب، سمح هذا المتحدث اللبق أن يتحدثوا.

لذلك قالوا إذا أردت أن تكون متحدثاً لبقاً فكن مستمعاً لبقاً.

وتراه يصغي للحديث بسمعه وبقلبه ولعله أدرى بها

كان عليه الصلاة والسلام لا يقطع على أحد حديثه، هذه كلها حقائق إن أردت الناس أن يميلوا إليك، وأن يحبوا حديثك وأن ينتفعوا بك فكن هكذا معهم.

أتمنى لو أني حضرت لكم حديث رسول الله مع جابر في أحد المعارك ذات الرقاع سأذكر لكم ما بقي من ذهني من هذه القصة، النبي كان يسير آخر الركب رحمةً بالضعاف، فوجد سيدنا جابر يركب على جمل ضعيف فسأله، فقال له: هذا الجمل ضعيف، فالنبي عليه الصلاة والسلام أعانه على ضعفه وسارا معاً، فسأله عن حاله، هل تزوجت يا جابر ؟ قال له: نعم، قال له: بكراً أم ثيباً، فقال له: ثيباً، قال: هلا بكراً تزوجتها، قال له: عندي أخوة أردت أن أتزوج امرأة تلمهم وتجمعهم، قال له: حسن فعلت. حوار لطيف بشأن زواجه، فسأله وقال له: أتبيعني هذا الجمل ؟ قال له أبيعك إياه، قال له: بكم، قال: سم، قال له: بدرهم، فقال: درهم قليل يا رسول الله، بخستني ثمن هذا الجمل، يداعبه، فقال له: أزيدك

الدرهمين ثلاثة، إلى أن رضي فقال: بعتك، فاشتراه، فقال له: ابقى عليه إلى أن نصل إلى المدينة.
لا أذكر القصة تماماً، إن شاء الله في درس قادم أتيكم بتفاصيلها الجميلة، سيد الخلق، وسيدنا جابر كان شاباً صغيراً، وكان في المعركة معه، فسأله عن بيته وعن أخوته، وعن زواجه، وعن جمله وقال له لا يوجد عندي في البيت شيء فقال له: سيكون عندك إن شاء الله، وأعطاه أمل.
الناس يحبون الذي يحدثهم ويهتم بشؤونهم، يصغي إلى حديثهم، ويعالج مشكلاتهم.
كل واحد له حوادث شخصية، قد ينجب ولد، يجب أن تهنئه، قد يفقد عزيز يجب أن تعزيه، قد يرقى إلى منصب يجب أن تهنئه، لفته جميلة جداً أن تهنئ إنسان بنجاح ابنه، لفته أن تهنئ إنسان بشراء بيت، بزواج، التهنئة والتعزية تفعل صلات كثيرة جداً.
رجل التقى مع صديق له في الحرم فسأله عن أحواله، فقال له: أنا والحمد لله تبت إلى الله ولكن زوجتي تتعبني كثيراً، فقال له: يا أخي هناك أناس يلتزمون بالإسلام يجدون صعوبات بالتعامل مع زوجاتهم بعد فترة وقد يكون الخطأ منهم، فقال له: كيف، قال: لأنهم يتعجلون الأمور، يريدون من الزوجة أن تتغير بسرعة، الإنسان ليس آلة، أنت الله هداك شيء جميل ولكن هذه الزوجة تحتاج إلى قناعة، غداً كما أريد، البارحة شيء وغداً شيء بهذه البساطة، فكل إنسان يطلب من الآخرين أن يتغيروا تغيراً حاداً يكون بعيد عن فهم الإنسان، الإنسان يحتاج إلى إقناع، إلى تربية، إلى رفق، إلى أن تأخذ بيده قليلاً.
الناس يحبون البعد عن الجدل، بالتعبير العامي العي، الناس يكرهون الجدل، ابن جاء من فرنسا دارس فلسفة، جالس مع أبوه وأمه على مائدة فيها فروجين، الابن عنده قدرة إقناع كبيرة جداً، فقال لأبيه: أنا أستطيع أن أقنعك أن هذين الفروجين ثلاثة وبالدليل، فقال له: لا تقنع أنا سأكل واحداً، ولتأكل أمك واحداً ولتأكل أنت الثالث.
ابتعد عن الجدل الصفصطائي، الفارغ الذي لا جدوى منه، يقول لك فلان كلامه مليء.

((عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ))

دائماً تكلم كلام حاسم، من دون جدل، الجدل يربي عداوات، يربي اعتزاز بالفكرة، الإنسان عندما تجادله ربط فكرته بكرامته لا يتراجع، لا قضية إفحام ولا قضية تحطيم، ولا قضية انتصار، قضية هداية، الجدل أبعد طريق عن هداية الناس.
أحياناً الأمر يصل بجلسة إلى التصادم، المفروض أن يكون شخص لبق يحل المشكلة، هذه طرفة وهي أن جحا استلم القضاء مرة فجاءه خصمان، تكلم الأول كلام مقنع فقال له معك الحق، وتكلم الثاني كلام

مقنع فقال له معك الحق، زوجته سمعت هذا الكلام من وراء الستار فقالت له ما هذا الحكم، فقال لها معك الحق.

أيام يكون هناك تصادم، وتكون خصومة على درجة حرارة، على سعر عملة من دون قيمة، إذا كان هناك خطأ بالعقيدة لا نسكت، خطأ بفهم القرآن لا نسكت، أما قضية بسعر سلعة ما، لا تستهلك وقتك وطاقاتك وأعصابك بأشياء سخيفة لا تقدم ولا تؤخر وهناك مثل:

دابة واقفة بأشهر الصيف الحارة ولها ظل وإنسان جالس بهذا الظل قام ليشرب فجلس إنسان مكانه، فقال له هذا المكان لي، فقال له الآخر أنت تملكه الطابو باسمك تماسكوا وتضاربوا، مشت الدابة، وانتهت المشكلة.

هؤلاء الذين يتقاتلون على ظل الحمار، هذا معظم أهل الدنيا، اسألوا أخوانا القضاة كم دعوى تشطب لموت أحد الطرفين، دعوى عشرون سنة، خصومات وتوترات، سيدنا علي يقول لا أدخل معركة المنتصر فيها شر من المنهزم.

الناس يحبون من يقدرهم ويحترمهم، فلان طبيب تقول له الدكتور فلان لا تستهين بالناس، واحد له مرتبة علمية ناداه بها، وآخر له مرتبة اجتماعية ناداه بها، واحد يحب أن تقول له أبو فلان ناداه بكنيته، الناس يحبون من يحترمهم ويقدرهم، إنسان مختص بشيء لا تهمله، نأخذ رأي أخونا فلان هو مختص، يشعر بكيانه، تتكلم بالطب وجالس طبيب أمامك هذا اسمه تجاوز، تتكل بأمور عسكرية وأمامك ضابط أركان، تتكلم بأمور مالية ويوجد أمامك رجل مال كبير.

إذا وجد شخص أعلى منه باختصاص المفروض أن لا يتجاهله، المشاورة ما هي ؟ غير الفائدة العملية منها قضية احترام قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159))

(سورة آل عمران)

الإنسان عندما تشاوره ترفع قدره، وحينما تستشيره تعترف به، وحينما تستشيره تقدر علمه، المشاورة ضرورية جداً، والإنسان إذا استشار الناس استعار عقولهم، تستعير أكبر عقل بسؤال أديب، وفن السؤال فن دقيق جداً، ممكن أن تسأل أي اختصاصي وأي إنسان متفوق بأدب جم تأخذ كل المعلومات منه، والحقيقة أنت بحاجة إلى معلومات.

أهم شيء في الحياة، إذا عندك إنسان متفوق أن تقدّر فيه التفوق، عندك موظف أمين يجب أن تذكره أنني أقدر فيك أمانتك، أما ما فرق الصندوق ولا قرش ولا تتكلم كلمة ثناء عادي، يمل منك لأنه أمين

إلى أقصى درجة يجب أن يسمعها منك ألف مرة، أنا مقدر أمانتك، أنا مقدر حرصك، يجب أن تشعره أن هذا بعلمك.

اللهم صلي عليه: أبو عبيدة أمين هذه الأمة، خالد سيف الله، يا معاذ إني لأحبك، سعد هذا خالي أروني خال مثل خالي، لا يوجد صحابي إلا أعطاه قدره، لو كان نبي بعدي لكان عمر، أبو بكر وعمر مني بمثابة السمع والبصر، ما ساءني قط فاعرفوا له ذلك، ألا أستحي من عثمان فإن الملائكة تستحي من عثمان، سيدنا علي، سيدنا الصديق لا يوجد صحابي... هكذا كان النبي يقدر أصحابه.

يا فلان فيك خصلتان يحبهما الله ورسوله، قال: ما هما يا رسول الله قال: الصمت وحسن الخلق، قال: الحمد لله الذي جعلني على خلق يحبه الله ورسوله.

إنسان أمامك أديب أثني على أدبه، إنسان أمامك أمين أثني على أمانته أديب أثني على أدبه، متقن أثني على إتقانه، تعطيه دفع.

نقطة مهمة جداً الأب لأولاده، والزوج لزوجته، المدير لمرءوسيه، فيهم ميزات أبرزها.

يوجد امرأة بريطانية، طبخها متقن جداً ثلاثون سنة تطبخ أطيب الطعام زوجها وأولادها يأكلون ويسكتون، فمرة جلسوا إلى المائدة والطبق الكبير مغطى فتحوا فوجدوا تبن، فقالت ما سمعت كلمة ثناء في هذا العمر كله كلوا.

إنسان رأى شيء لطيف طبخها جيد، بيتها مرتب، الملابس مكوية، لا بد من الثناء حتى يصير تشجيع.

في كلمة لإنسان له كتاب عن فن القيادة، الإنسان يرفض الذل، لكنه لا يكره الخدمة والعمل، بل يجد فيهما إرضاء لغريزة الإخلاص شريطة أن يكون متأكداً من احترام رئيسه له وتقديره.

عندي قصة دقيقة ونموذجية، أخ كريم مدرس متفوق باللغة الأجنبية ويوجد مكتب استيراد فطلب مترجم، فكان هذا الأخ مناسب لهذا المنصب ويوجد في هذا المكتب شاب وهذا الرجل الوقور المدرس، يأتي ضيف إلى المكتب مهم، وكيل شركة يوجد مدير المكتب وهذا المترجم وهذا الأخ المترجم أخلاقه دمثة جداً، أخلاقه عالية، مدعوك بالمعنى الدارج يعمل قهوة نحن أسرة ويضيفه، بعد حين أحب المدير أن يعمل تنظيمات إدارية وكل شيء يجعله مكتوب، فكتب مهمة الأخ الترجمة وصنع القهوة والشاي، ثاني يوم ترك العمل.

هو يخدمك من باب المودة والإكرام، هو عمله الترجمة وليس القهوة والشاي، اعتبر المكتب أسرة، أنت مشغول مع الضيف وهو فاضي فلما كتب بالمهمات صنع القهوة والشاي ثاني يوم ترك العمل، قال له أنا مترجم وليس فراش بالتعبير.

فلذلك الإنسان عندما يخطئ مع الناس يدفع الثمن، وكل إنسان له مقام، وكل إنسان له عمل يليق به، إذا إنسان خدمك من عنده طوعاً لا تعتبر خادم لك هذا ليس خادم لك، ولكن لكرم أخلاقه قدم لك خدمة فقط، يجب أن تخدمه بالمقابل.

هل تصدقون أن النبي عليه الصلاة والسلام خدم وفد النجاشي بنفسه قال إنهم كانوا لأخواني مكرمين، أحب أن أكافئهم بنفسي.

النجاشي قدم بلاده كبلاد فيها أمن لأصحاب رسول الله وقدم لهم خدمات كبيرة، فالنبي كافأه على ذلك، بأنه خدم وفده بنفسه، سأقول لكم نقطة دقيقة، عندما تفكر أنه يوجد إنسان يجب أن يخدمك أنت اسمك عنصري وليس إنسان، لا يوجد إنسان في الأرض مكلف أن يخدمك أبداً، لما أنت تطلب من الناس أن يخدموك لميزة أنت تملكها لمال تملكه، لسلطان تملكه، فأنت صنفت معك مع العنصريين، أصبحت طبقي وعنصري، أما المسلم يخدم نفسه.

برأ من الكبر من حمل حاجته بيده، كان عليه الصلاة والسلام يخدم نفسه، ويخصف نعله، يعقل بعيره، ويحلب شاته، يرف ثوبه، وكان يصغي الإناء للهرة، وكان يأكل مع الخادم ويقول صاحب الحاجة أولى بحملها، هكذا كان النبي، حينما تتواضع يرفعك الناس فإذا تكبرت عليهم خفضوك، وعلى جمع الحطب، ما أنتما بأقدر مني على السير وما أنا بأغنى منكم على الأجر، دخلوا عليه فقالوا أيكم محمد، ليس له ولا ميزة ولا كرسي، هكذا كان النبي.

فيا أيها الأخوة: هذا الدرس له تتمة وهم أربع دروس درسين في الصفات التي يكرهها الناس، ودرسين في الصفات التي يحبها الناس فكل إنسان أراد أن يكون محبوباً أراد أن يكون داعية، أن يكون سبباً في هداية إنسان عليه أن يستمع إلى هذه الدروس الأربعة، إن شاء الله ويسمعها بعناية فائقة، ومبنية على قواعد علمية، والدعوة إلى الله صنعة الأنبياء وهي أعلى عمل على الإطلاق، ووسائل هذه الدعوة هذه الصفات، والدعوة ليست معلومات خلق، قال تعالى:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4))

(سورة القلم)

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذا الموضوع ونكمل الصفات التي يحبها الناس في الداعية.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (107) :الأخلاق التي يحبها الناس من الداعية4.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-07-26

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

هذا هو الدرس الرابع في موضوع الصفات التي يحبها الناس والتي يبغضها الناس، والذي يتصدى للدعوة إلى الله ولو بشكل محدود، إن تخلق بأخلاق يبغضها الناس أبغض الناس دعوته وهو لا يشعر فكان منفراً، وكان مبعداً، وكان قاطعاً.

وإن تخلق بأخلاق يحبها الناس، كان واصلاً، وكان مقرباً، وكان محبباً، وفي الأثر القدسي:

يا ربي أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك، قال: أحب عبادي إلي تقي القلب نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقي، قال: يا رب إنك تعلم إني أحبك وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال: ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي.

الدرس الماضي ذكرت لكم أن النبي عليه الصلاة والسلام كان في غزوة ذات الرقاع، وكان من عادته أن يمشي خلف جيشه ليتفقد ضعيفهم، من تأخرت به ناقته، من ألم به شيء يؤذيه، فكان عليه الصلاة والسلام، أحرص الناس على أصحابه.

((عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ مُرْتَحِلاً عَلَى جَمَلٍ لِي ضَعِيفٍ فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعَلَتِ الرِّفَاقُ تَمْضِي وَجَعَلْتُ أَتَخَلَّفُ حَتَّى أَدْرَكَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: مَا لَكَ يَا جَابِرُ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبْطَأَ بِي جَمَلِي هَذَا قَالَ: فَأَنِخْهُ وَأَنَاخَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: أَعْطِنِي هَذِهِ الْعَصَا مِنْ يَدِكَ أَوْ قَالَ اقْطَعْ لِي عَصًا مِنْ شَجَرَةٍ قَالَ: فَفَعَلْتُ، قَالَ: فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَخَسَهُ بِهَا نَخَسَاتٍ ثُمَّ قَالَ: ارْكَبْ فَرَكِبْتُ فَخَرَجَ وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ يُوَاهِقُ نَاقَتَهُ مُوَاهَقَةً قَالَ وَتَحَدَّثَ مَعِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: أَتَبِيعُنِي جَمَلَكَ هَذَا يَا جَابِرُ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَلْ أَهَبُهُ لَكَ قَالَ لَا وَلَكِنْ بِعْنِيهِ قَالَ قُلْتُ فَسُمْنِي بِهِ قَالَ قَدْ قُلْتُ أَخَذْتُهُ بِدِرْهَمٍ قَالَ قُلْتُ لا إِذًا يَغْبِنُنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَبِدِرْهَمَيْنِ، قَالَ قُلْتُ: لا، قَالَ فَلَمْ يَزَلْ يَرْفَعُ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَلَغَ الأُوقِيَّةَ، قَالَ: قُلْتُ فَقَدْ رَضِيتُ، قَالَ قَدْ رَضِيتَ قُلْتُ: نَعَمْ قُلْتُ هُوَ لَكَ، قَالَ: قَدْ أَخَذْتُهُ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ لِي: يَا جَابِرُ هَلْ تَزَوَّجْتَ بَعْدُ، قَالَ قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أَثَيِّبًا أَمْ بِكْرًا قَالَ قُلْتُ: بَلْ ثَيِّبًا، قَالَ: أَفَلا جَارِيَةً تُلاعِبُهَا وَتُلاعِبُكَ، قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَبِي أُصِيبَ يَوْمَ أُحُدٍ وَتَرَكَ بَنَاتٍ لَهُ سَبْعًا فَنَكَحْتُ امْرَأَةً جَامِعَةً تَجْمَعُ رُءُوسَهُنَّ وَتَقُومُ عَلَيْهِنَّ، قَالَ: أَصَبْتَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، قَالَ أَمَا إِنَّا لَوْ قَدْ جِئْنَا

صِرَارًا أَمَرْنَا بِجَزُورٍ فَنُحِرَتْ وَأَقَمْنَا عَلَيْهَا يَوْمَنَا ذَلِكَ وَسَمِعَتْ بِنَا فَنَفَضَتْ نَمَارِقَهَا قَالَ قُلْتُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَنَا مِنْ نَمَارِقَ، قَالَ: إِنَّهَا سَتَكُونُ فَإِذَا أَنْتَ قَدِمْتَ فَاعْمَلْ عَمَلاً كَيِّسًا، قَالَ: فَلَمَّا جِئْنَا صِرَارًا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِجَزُورٍ فَنُحِرَتْ فَأَقَمْنَا عَلَيْهَا ذَلِكَ الْيَوْمَ فَلَمَّا أَمْسَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ وَدَخَلْنَا قَالَ: فَأَخْبَرْتُ الْمَرْأَةَ الْحَدِيثَ وَمَا قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ فَدُونَكَ فَسَمْعًا وَطَاعَةً، قَالَ: فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخَذْتُ بِرَأْسِ الْجَمَلِ فَأَقْبَلْتُ بِهِ حَتَّى أَنَخْتُهُ عَلَى بَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ جَلَسْتُ فِي الْمَسْجِدِ قَرِيبًا مِنْهُ، قَالَ وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَأَى الْجَمَلَ فَقَالَ: مَا هَذَا قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا جَمَلٌ جَاءَ بِهِ جَابِرٌ قَالَ: فَأَيْنَ جَابِرٌ فَدُعِيتُ لَهُ، قَالَ: تَعَالَ أَيْ يَا ابْنَ أَخِي خُذْ بِرَأْسِ جَمَلِكَ فَهُوَ لَكَ قَالَ فَدَعَا بِلالاً فَقَالَ اذْهَبْ بِجَابِرٍ فَأَعْطِهِ أُوقِيَّةً فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَأَعْطَانِي أُوقِيَّةً وَزَادَنِي شَيْئًا يَسِيرًا قَالَ: فَوَاللَّهِ مَازَالَ يَنْمِي عِنْدَنَا وَنَرَى مَكَانَهُ مِنْ بَيْتِنَا حَتَّى أُصِيبَ أَمْسِ فِيمَا أُصِيبَ النَّاسُ يَعْنِي يَوْمَ الْحَرَّةِ))

تخيلوا قائد الجيش زعيم الأمة، نبي هذه الأمة، سيد الرسل، أعلى خلق الله، يلتقي مع شاب، يركب على جمل ضعيف.

((عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ مُرْتَحِلاً عَلَى جَمَلٍ لِي ضَعِيفٍ فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعَلَتِ الرِّفَاقُ تَمْضِي وَجَعَلْتُ أَتَخَلَّفُ حَتَّى أَدْرَكَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: مَا لَكَ يَا جَابِرُ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبْطَأَ بِي جَمَلِي هَذَا قَالَ: فَأَنِخْهُ وَأَنَاخَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: أَعْطِنِي هَذِهِ الْعَصَا مِنْ يَدِكَ أَوْ قَالَ اقْطَعْ لِي عَصًا مِنْ شَجَرَةٍ قَالَ: فَفَعَلْتُ، قَالَ: فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَخَسَهُ بِهَا نَخَسَاتٍ ثُمَّ قَالَ: ارْكَبْ فَرَكِبْتُ فَخَرَجَ وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ يُوَاهِقُ نَاقَتَهُ مُوَاهَقَةً...))

أنت تسير في الطريق وجدت إنسان مقطوع سألته عن حاجته هذا المؤمن، فالنبي عليه الصلاة والسلام أناخ جمله ووكز جمل عبد الله بن جابر، فلما ركبه صار يسابق ناقة رسول الله.

((وَتَحَدَّثَ مَعِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: أَتَبِيعُنِي جَمَلَكَ...))

أيام إنسان يكون له مكانة، يكون له حجم مالي، شهادة عالية، إذا جلس مع إنسان أقل منه ساكت، سكوت الكبر، سكوت أنه لا يوجد نسبة، من أنت حتى أتحدث معك، فالنبي عليه الصلاة والسلام أراد أن يؤنس جابر.

((. وَتَحَدَّثَ مَعِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: أَتَبِيعُنِي جَمَلَكَ هَذَا يَا جَابِرُ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَلْ أَهَبُهُ لَكَ قَالَ لَا وَلَكِنْ بِعْنِيهِ قَالَ قُلْتُ فَسُمْنِي بِهِ قَالَ قَدْ قُلْتُ أَخَذْتُهُ بِدِرْهَمٍ قَالَ قُلْتُ لا إِذًا يَغْبُنُنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَبِدِرْهَمَيْنِ، قَالَ قُلْتُ: لا، قَالَ فَلَمْ يَزَلْ يَرْفَعُ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَلَغَ الأُوقِيَّةَ، قَالَ: قُلْتُ فَقَدْ رَضِيتُ، قَالَ قَدْ رَضِيتَ قُلْتُ: نَعَمْ قُلْتُ هُوَ لَكَ،

قالَ: قَدْ أَخَذْتُهُ، قالَ: ثُمَّ قالَ لِي: يَا جَابِرُ هَلْ تَزَوَّجْتَ بَعْدُ، قالَ قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قالَ: أَثَيِّبًا أَمْ بِكْرًا قالَ قُلْتُ: بَلْ ثَيِّبًا، قالَ: أَفَلا جَارِيَةً تُلاعِبُهَا وَتُلاعِبُكَ، قالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَبِي أُصِيبَ يَوْمَ أُحُدٍ وَتَرَكَ بَنَاتٍ لَهُ سَبْعًا فَنَكَحْتُ امْرَأَةً جَامِعَةً تَجْمَعُ رُءُوسَهُنَّ وَتَقُومُ عَلَيْهِنَّ، قالَ: أَصَبْتَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ،))

النبي من زاوية وجد أن معه وجهة نظر، يوجد تتمة لهذه القصة أنه حينما تأتي إلى بيتك تجد زوجتك قد أعادت الطنافس أو الوسائد فقال له: لا يوجد عندنا من وسادة يا رسول الله.

((.قالَ: فَأَخْبَرْتُ الْمَرْأَةَ الْحَدِيثَ وَمَا قالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَتْ فَدُونَكَ فَسَمْعًا وَطَاعَةً...))

طبعاً الثمن كان كبيراً، أوقية ذهب، هو النبي رآه فقيراً فأراد أن يساعده من دون أن يجرح شعوره، فجعل من بيع الجمل سبباً لمساعدته بدأ بدرهم واحد.

((. قالَ: فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخَذْتُ بِرَأْسِ الْجَمَلِ فَأَقْبَلْتُ بِهِ حَتَّى أَنَخْتُهُ عَلَى بَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ جَلَسْتُ فِي الْمَسْجِدِ قَرِيبًا مِنْهُ، قالَ وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَأَى الْجَمَلَ فَقالَ: مَا هَذَا قالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا جَمَلٌ جَاءَ بِهِ جَابِرٌ قالَ: فَأَيْنَ جَابِرٌ فَدُعِيتُ لَهُ، قالَ: تَعَالَ أَيْ يَا ابْنَ أَخِي..))

اسمع إلى هذا الكلام تعال يا ابن أخي، سيدنا رسول الله جعل أبا جابر أخاه في الإيمان.

((قالَ فَدَعَا بِلالاً فَقالَ: اذْهَبْ بِجَابِرٍ فَأَعْطِهِ أُوقِيَّةً فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَأَعْطَانِي أُوقِيَّةً وَزَادَنِي شَيْئًا يَسِيرًا قالَ: فَوَاللَّهِ مَازَالَ يَنْمِي عِنْدَنَا وَنَرَى مَكَانَهُ مِنْ بَيْتِنَا حَتَّى أُصِيبَ أَمْسِ فِيمَا أُصِيبَ النَّاسُ يَعْنِي يَوْمَ الْحَرَّةِ))

الناس ماذا يحبون ؟ يحبون الذي يحدثهم ويستمع إليهم ويداعبهم، ويتواضع لهم، ويراعي شعورهم، ويساعدهم من غير أن يجرح كرامتهم، وكان السلف الصالح لهم أساليب رائعة جداً بالمساعدة من دون أن يجرح الشعور.

سمعت عن هذه البلدة الطيبة أن رجلاً من أهل اليسار يعني الغنى وليس الشمال سكن بحي وكل وجهاء الحي أقبلوا عليه وسلموا عليه، إلا جار له فقير، ما سلم عليه ولا زاره، فسأل عليه فقالوا له إنه فقير ومسكين كيف السبيل إلى معاونته من دون أن يجرح ؟ عرف متى يغيب عن البيت وفي أثناء غيابه عن البيت، جاء بصرة فيها ليرات ذهبية مبلغ كبير، وطرق الباب وقال: خذوا الأمانة، زوجته أخذت هذه الأمانة، فلما جاء مساءً، أقامت عليه النكير، تقول ما أملك شيء ولك عند الناس أمانة، خذ خمسة مائة ليرة ذهبية، قال: والله ليست لي، وليس لي عند أحد مبلغ، وأقسم لها أيمان مغلظة، وضعت هذه الصرة في مكان ليبحث عن صاحبها، بعد حين زاره جاره كيف حالك، كيف عملك، كيف شؤونك، والمؤمن

دائماً يسأل، كيف وضعك، كيف بيتك هل عليك ديون، لأنه يوجد نقطة مهمة جداً، لأن الذي يطلب ليس من الذين مدحهم الله عز وجل، والذين مدحهم الله عز وجل:

(يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (273))

(سورة البقرة)

فلما زاره وتفقد شؤونه وأحواله، قال له أمعك شيء فقال: لا والله، فقال له: أبداً، قال له: قبل أيام قرع الباب ودفعت لنا هذه الصرة وليست لي، فقال له هاتها، أنا سأدخلك معي في تجارة، وقال له: وحينما يأتي صاحبها أنا ضامن، فجاره دخل معه شراكة بهذا المبلغ الضخم، فنمى هذا المبلغ ونمى هذا المبلغ وصار من كبار التجار وأموره تيسرت ولم يشعر أن جاره الذي أشركه معه هو الذي قدم له هذه الصرة.

سمعت عن الأمير عبد القادر الجزائري هذا المجاهد الذي دفن في الشام وعقب انتصار الثورة الجزائرية نقل إلى هناك كان رجلاً شهماً وصاحب مروءة له جار فقير، هذا الجار عرض بيته للبيع من شدة فقره، دفع له مبلغ زهيد فغضب، وقال: أتدفع لي ثلاث مائة ليرة ذهبية بهذا البيت والله أنا لا أبيع جيرة الأمير بهذا المبلغ، فلما بلغ الأمير هذا الكلام أرسل له ثلاث مائة ليرة ذهبية وقال له: ابق جار لنا وكأنك بعت البيت كان هناك مروءة، تراحم، تعاطف، أرأيتم إلى هذا الخلق الرفيع.

يداعبه يسأله عن بيته، زواجه، عن جمله، عن أولاده، عن أخوته، تعالى يا ابن أخي هكذا كانت أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام.

أخوانا الكرام: بكلمة قد ترونها خطيرة، أقل ما في الدعوة المعلومات وأكثرها القلب الكبير، والعطف، والتراحم، لأن الله عز وجل حينما أثنى على النبي صلى الله عليه وسلم أثنى على خلقه العظيم.

الناس يحبون الذي يبتعد عن الجدل، يوجد شخص بالتعبير العامي قلبه حي، مناقشات ومتابعات، بقضايا جزئية جداً لا تقدم ولا تؤخر، قد تقام المشاحنات وتعلو الأصوات، وينفعل الإنسان من أجل قضية ثانوية في الدين، ويوجد أشياء مهمة كثيراً ومتروكة ولا أحد يتألم.

الشخصية المتناقضة يقوم بأكبر معصية، ويدقق على أقل قضية في الدين، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أَنَّ عَائِشَةَ مَرَّ بِهَا سَائِلٌ فَأَعْطَتْهُ كِسْرَةً وَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ عَلَيْهِ ثِيَابٌ وَهَيْئَةٌ فَأَقْعَدَتْهُ فَأَكَلَ فَقِيلَ لَهَا فِي ذَلِكَ، فَقَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ))

جزء من إيمانك أن تنزل الناس منازلهم، سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام، جاءه رجل، قال له: من الرجل، قال: عدي بن حاتم، كان ملك، قال: قام وانطلق بي إلى بيته.

وحينما تدعو إنسان إلى بيتك هذه دعوة ثمينة جداً، قال عدي بن حاتم: في الطريق استوقفته امرأة ضعيفة مسكينة، فكلمها طويلاً، قلت: والله ما هذا بأمر ملك، فلما دخل بيته ألقى إلي وسادة من أدم محشوة ليفاً، قال: اجلس عليها، قلت: بل أنت، قال: بل أنت، قال: فجلست عليها، وجلس هو على الأرض.

أنت حينما تحترم الناس وتنزلهم منازلهم وتناديهم بأحب الأسماء إليهم وبألقابهم العلمية، يعني الأولى أن تناديه بلقبه العلمي، النبي عليه الصلاة والسلام كتب رسالة إلى قيصر، فقال: من محمد رسول الله إلى عظيم الروم، هل هو عظيم ؟ لا ليس عظيماً بل هذا لقبه، وأنت عندما تناديه بلقبه يرتاح.

أنت موظف لك مدير مؤسسة دكتور، ناديته بلقبه، أنت في خدمة إلزامية لك رئيس عميد، أن تناديه بمرتبته العسكرية، أو بلقبه العلمي أو مرتبته الدينية، يوجد أشخاص وقحون لا يحترمون الآخرين، والذي لا يحترم لا يُحترم.

فالنبي عليه الصلاة والسلام وهذه من جوانب بطولته، هناك أشخاص كثيرون يصلون إلى القمم لكن لا يسمحون أن يلقى الضوء على واحد من أتباعهم إطلاقاً، الأضواء كلها عليهم، مدير ثانوية، مدير مستشفى الحديث كله عن نفسه، لا يسمح أن يمدح مدرس أمامه ولا يسمح مدير المستشفى أن يمدح طبيب أمامه وهذه نظرة ضيقة جداً وهذه صفة بالإنسان غير راقية، أن يعتم على من حوله، والأضواء كلها عليه والتعتيم على من حولك، هؤلاء الذين حولك عندهم قدرات، عندهم طاقات، تفوق، فإذا عتمت عليهم قمعتهم وثبطت عزيمتهم، وألغيت وجودهم، أما إذا كبرت أبرزت فضائلهم، وكبرت محاسنهم، وحسنت حسنهم وقبحت قبيحهم، هذا يرفعهم عندك.

كان عليه الصلاة والسلام يعرف قدر أصحابه واحداً واحد، سيدنا خالد قرشي ومكي وعاش في المدينة، وكانت مكة من أرقى بلاد الحجاز، أمسك ضباً وأكله أمام رسول الله، النبي قال: تعافه نفسي، سيدنا خالد أكل الضب وتعافه نفسه ولكن أراد أن يكون قدوة للجنود، أدرك أنه سيخوض معارك طويلة في سبيل نشر هذا الدين، وأغلبها في الصحراء وليس في الصحراء إلا الضب، فأراد أن يكون قدوة لجنوده، هذا الطعام الخشن فالنبي أدرك عليه، فقال: خالد عقب رؤيته له يأكل لحم الضب سيف الله، أدرك البعد العميق، أبو عبيدة أمين هذه الأمة، لو كان نبي بعدي لكان عمر، عبد الله الزبير بن العوام حواري هذه الأمة أفرضكم زيد، أقضاكم علي، لا يوجد صحابي إلا وأعطاه لقبه، فإذا أنت كنت بعمل ومعك أشخاص واحد متفوق بقوة المحاكمة، واحد متفوق بالأمانة الشديدة، الفهم السريع، بالحركة السريعة، فهذه الصفات العالية أبرزها، إن أبرزتها الإنسان يحب من يقدره.

تجلس في جلسة فلان من المتفوقين في هذا العلم، يرتاح هناك من يقدره، ولا يوجد شيء يؤلم النفس كما لو هناك من يتجاهل وجودك ويتجاهل فضلك، ويتجاهل إحسانك، ويتجاهل علمك، فالإنسان بطبعه يحب من يحبه ويحترمه ويقدره.

والحديث الشريف

((إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم))

يوجد أشخاص الله سبحانه وتعالى امتن عليهم بنعمة المال، لكن معظم الناس دخلهم يكفي حاجاتهم، وقد لا يكفي، مجال العمل الصالح بالمال صار محدوداً، إنسان عنده زوجة وأولاد وبيت وله دخل، لا يزيد عن بضع آلاف، يحتاج إلى حكمة بالغة بالغة حتى يكفيه هذا المال، موضوع الإنفاق.

ابتسامتك وأخلاقك، واعتذارك هذا نوع من العمل الصالح،

((عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ))

أيام بعض الأشخاص يبخل أن يبتسم في وجوه من حوله، يبخل أن يسأل عن أحوال من حوله، مرة كنت في دائرة حكومية ويوجد مدير عام، خرج من مكتبه إلى عمل فسأل مدير مكتبه تريد مني شيئاً، وقف باهتمام لا شكراً.

هذا كلام طيب، بالأخلاق العالية والاحترام، واهتمام الآخرين، وتقديرهم تنال حظوة كبيرة والناس يصغون إلى كلامك.

القيادة الحكيمة تحتاج إلى أن تعرف طاقات من حولك وأن تستغل هذه الطاقات أو أن تفجر هذه الطاقات، الإنسان عنده إمكانيات عالية إما أن تقمعه وأن تشل قدراته إما أن تفجر هذه الطاقات، يوجد إدارات يسمونها مركزية وكله عنده، فالذي يدير مؤسسة إدارة مركزية كل شيء عنده بدرجة أنه لا يثق بأحد ما الذي يحصل ؟ يصبح مثقل بأعمال لا يقدر أداءها وكلها تافهة وثانوية، استهلك فكره العالي بجزئيات لا قيمة لها.

مرة أذكر وزير التربية يوم استلم، جمع المدراء الكبار وقال: أنا لا يوجد عندي حل وسط إما أن أثق وإما أنا لا أثق، أنا أثق بكم، وكل مدير عام يمارس صلاحياته الكاملة ويمارس صلاحياته الكاملة، يوجد عنده إشكال يسألني، أما أنا مهمتي رفع مستوى التعليم بالقطر، مهمتي إحداث شيء جديد، تطوير.

إذا إنسان على رأس عمل له مهمات خطيرة جداً، المهمات الخطيرة الجوهرية منوطة برأس العمل، كل مدير عنده اختصاصات، إذا المدير العام تدخل في شؤون مدراء الأقسام تدخل شديد أصبحت الإدارة مركزية وهي من أسوأ الإدارات، بينما الإدارات الراقية كل مدير قسم مسؤول له قراره ويوجد

تنسيق وإعلام، المدير العام عنده فكرة عما يجري، ولا يوجد عنده وقت عما يجري بالتفاصيل أعمال مدرائه العامين.

قال إذا أردت أن تكون علاقتك حسنة بإنسان فابحث عن مزاياه وذكره بها فإذا هو طوع بنانك، شيء دقيق جداً حولك شخص ابحث عن مزاياه، وذكره بها، يحبك ويميل إليك، الإنسان يحب من يقدره ليس هذا كبراً بل إنصافاً يحب من يقدره.

يجب أن نألف أن العلماء يجب أن يقدروا بعضهم، يعرف كل واحد مزايا الآخر، يعرف كل واحد له نكهة خاصة كالفاكهة تماماً هذه النظرة نظرة مسعدة نظرة تقوي المسلمين، أما والعياذ بالله يوجد أشخاص دائماً يبحث عن العيوب كي يصرف الناس عن هذا، قناص يقنص العيوب ويكبرها، هذا عمله تخريبي وليس عمله إنشائي.

ذكرت لكم سابقاً أن في الإنسان ميول أساسية، عنده ميل إلى الطعام والشراب، هذا الميل ليحافظ على وجوده للحفاظ على الفرد، وعنده ميل للزواج ليحافظ على النوع، لولا الزواج لفنيت البشرية أما يوجد زواج دائم، لكن هذا الإنسان عنده ميل قوي ليؤكد ذاته، ليثبت ذاته، ليشعر بأهميته، القيادة الحكيمة دائماً تعين من حولها على تأكيد ذواتهم فكان عليه الصلاة والسلام يعرف كل أصحابه كل واحد وإمكاناته فكان يستخدمه ويستعمله فيما يملك وفيما هو أهل به، وكلهم ينجحون، وهي أكبر مهمة للمنصب القيادي، أن تعرف الإمكانات التي عند من حولك وأن تغنيها وأن تطلقها وأن تجعلها تتفجر، هذا لصالح العمل العام.

يوجد شخص عنده إمكانية خدمة عالية، تكلفه في عمل لا بد أن ينجزه يوجد إنسان علمي يقدم لك أشياء علمية جداً يوجد إنسان أحياناً عاطفي إذا مهمة تحتاج إلى عواطف جياشة ينجح بها، يوجد إنسان عنده قدرة يحكم بين الناس كي يسمح لهم بتحقيق ذواتهم، أحياناً الإنسان إذا ما كلف بعمل وما طلب منه، بالتعبير الدارج ينفجر، يريد عمل يشعره بوجوده وإمكاناته.

فلذلك الذين يتصدون للدعوة إلى الله عليهم أن يستفيدوا من قدرات الآخرين، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ لا يَشْكُرُ اللَّهَ قَالَ))

عود نفسك أي خدمة قدمت إليك، أي معروف أسدي إليك، أي عمل صالح وصل إليك إما أن ترد عليه بعمل صالح، والحد الأدنى أن ترد عليه شكراً عميقاً، فالشكر دائماً يسبب الترابط، وأنت تشجع الناس على العمل الصالح إذا شكرتهم.

طفل أحياناً وهذه نقطة للآباء مهمة، إذا الواحد ما صلى الصبح حاضر يوجد عقوبة أمامه، يوجد طريقة ثانية كل واحد يصلي الصبح حاضر له مكافأة، فرق كبير جداً بين أن ترغبهم وبين أن ترهبهم

بين أن تكافئهم وبين أن تعاقبهم، لما الإنسان يقدم شيء ويتحرك حركة صحيحة يجب أن تشجعه بالشكر والتقدير.

في التعليم يوجد صفات للمعلم أساسية، طفل يكون ضعيف في مادة يسأله الأستاذ سؤال صعب لا يعرف يوبخه ويسبه، يصفه بأفظع الصفات، انتهى الطفل تعقد، يوجد كلمات من بعض المعلمين تبقى آثارها خمسين عاماً، يقول له أنت غبي، يوجد كلمة أقصى من هذه.

ما الذي حصل ؟ لو فرضنا طفل ضعيف في مادة جاء المدرس وسأله سؤال سهل فأجاب عنه جيد أنت يا بني، ماذا فعل معه ؟ أعطاه حماس منقطع النظير، لا يوجد شيء يدفع الإنسان إلى الجد والنشاط كالثناء.

الإنسان المربي يبحث عن النقاط الإيجابية وينميها، والإنسان غير المربي الأحمق يبحث عن السلبيات ويعاقب عليها، فبينما تبحث عن الإيجابيات، وبينما تبحث عن السلبيات، هل معقول أن ترى جيفة منتنة لها رائحة لا تحتمل، بعض الأنبياء كان مع أصحابه رأوا جيفةً قالوا ما أنتن ريحها، فقال هذا النبي الكريم: بل ما أشد بياض أسنانها، نظر إلى ناحية إيجابية في هذه الجيفة.

أنا بصراحة تكون أنت ناجح كبير إذا استطعت أن تصل إلى النواحي الإيجابية لمن حولك، الإيجابيات ودعك من القنص، دعك من البحث عن العيوب، وأنت عندما تأخذ الإيجابيات وتنميها وضعفت به السلبيات أنت في النهاية إما أن تعينه على الشيطان، وإما أن تعين الشيطان عليه هذا ملخص الملخص.

((عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمُ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ حَالِقَةُ الدِّينِ لا حَالِقَةُ الشَّعَرِ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَفَلا أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ))

والله أيها الأخوة والله لا أبالغ، كلمة قاسية من أخ إلى أخ قد تسبب ترك المسجد، وقد تسبب ترك الصلاة، إنسان جاء إلى المسجد أحدهم دفعه بغلظة وقال له هذا مكاني، لا يوجد عندنا أرقام، موقف قاسي ترى الإنسان نفر، والنفور دائماً يستجري، وينتقل النفور إلى المسجد ثم إلى من في المسجد، يوجد أناس يصل بهم الأمر إلى ترك الصلاة ابحث عن السبب، ترى تلقى إساءة من إنسان له مظهر ديني، ويوجد أشخاص يسيئون إلى الدين.

قال لي رجل يوجد عندنا في البناء شخص سيئ جداً يا لطيف، ويصلي إمام بجامع، وله لحية، فقلت له ماذا فعل ؟ فقال: ابنه عنده دراجة رابطها في مدخل البناء أثناء الشطف يتركها، فقلت له هذه، قال: قليلة هذه يا أستاذ المدخل وسخ، يوجد دراجة وتحتها كم ورقة لم يتم غسل ما تحت الدراجة.

إذا إنسان ضد الحق يبحث عن أشياء ليس لها وجود، أعطاه حجم فاعتقدته مجرم، وقال لي لا يدع أحد من شره، الطرف الآخر دائماً يبحث عن العيوب، إياك أن تكون قناصاً.

من تتبع عورات المسلمين فضحه الله في عقر بيته، إياك أن تتهم إنساناً كبيراً، الله يضعك في ظرف يجعلك في الوحل وأنت بريء، سبحان الله أهل الدنيا عندهم رغبة جامحة أن يجرحوا بأهل الدين، أخلاق الصحابة كما وجههم النبي عليه الصلاة والسلام:

التمس لأخيك عذراً ولو سبعين مرة.

الإنسان عندما يضع نفسه محل الآخرين قد يسامحهم وقد يعذرهم، أكثر ما يجري هذا بين الزوجين، ضغوط عمل مشكلة كبيرة، جاء متوتر وهي في البيت مرتاحة، قلت لك أحضر هذه الحاجية، كل البيت لا يخطر بباله، الأطراف الأخرى لا يقدرون، أنت عندما تضع نفسك مكان الآخرين تسعد وتسعد، ترتاح وتريح.

((فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأنْصَارِ وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ قَالَ فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وَقَالُوا رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقْنَا))

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ أَلْقَى السِّلاحَ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ فَقَالَتِ الأَنْصَارُ أَمَّا الرَّجُلُ فَقَدْ أَخَذَتْهُ رَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ وَرَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ وَنَزَلَ الْوَحْيُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قُلْتُمْ أَمَّا الرَّجُلُ فَقَدْ أَخَذَتْهُ رَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ وَرَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ أَلا فَمَا اسْمِي إِذًا ثَلاثَ مَرَّاتٍ أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ هَاجَرْتُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْكُمْ فَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ قَالُوا وَاللَّهِ مَا قُلْنَا إِلا ضِنًّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ قَالَ فَإِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ وَيَعْذِرَانِكُمْ))

((ثُمَّ قَالَ أُوصِيكُمْ بِالأَنْصَارِ فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي وَقَدْ قَضَوْا الَّذِي عَلَيْهِمْ وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ))

هكذا النبي، لأنهم نصروه، أساساً لما وجدوا عليه في أنفسهم كان في أعلى درجات القوة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((قَالَ أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ وَعَائِلاً فَأَغْنَيْنَاكَ أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلامِكُمْ أَفَلا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ قَالَ فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وَقَالُوا رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقْنَا))

التقيت بإنسان في الحج يعد أكبر تاجر خضراوات في المملكة، فقال لي أنا أستاذ أصلي عتال في سوق الخضرة، ما فاتني فرض صلاة في حياتي، ولا أعرف الحرام في حياتي، من عتال في سوق الخضرة إلى أكبر تاجر في سوق الخضرة.

التقيت مع أعلى الأطباء في أمريكا، قال لي: أنا أصلي بياع أسكا، أن تذكر فضل الله عليك، الله أكرمني ويسر لي الدراسة وعنده بيت قصر والثاني قال لي: أنا كنت أدق سحاحير في الزبلطاني، نحن نشأنا فقراء.

إذا الإنسان اعترف بماضيه ورأى فضل الله عليه هذه من علامات الشكر، والتواضع، الإنسان لا ينسى أصله، عود نفسك أي شيء قُدم لك أن تقابله بمثله أو بشكر عميق، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ))

أحياناً هذه تجري في خطب الجمعة، يوجد خطباء يجرحون المصلين، لا تدفعون بخلاء، لماذا هذا الكلام ؟ بارك الله لكم في أهلكم، وأموالكم وفي صحتكم، ادفعوا يدفع الله عنكم كل مكروه، بدل أن تجرح امدح.

مرة سمعت شخص ألقى كلمة وهاجم الأغنياء كلهم، هذا الكلام غير صحيح، يوجد كل غني له مكانة عند الله لا تقل عن مكان أكبر داعية لأن المال شقيق الروح، يقدم وورع، ومتواضع، ومستقيم، منضبط، أخوانا الكرام: إياك أن تعمم، التعميم من العمى، قال تعالى:

(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227))

(سورة الشعراء)

يوجد استثناء، كثير من الأشخاص يأخذون أصحاب مصلحة ويقولون أن كلهم كاذبون، كلهم...، هذه كلمة كل شيطانية تسبب العداوة والبغضاء، من أقوال النبي عليه الصلاة والسلام، وذكرت هذا قبل قليل:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ عُمَرُ وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ ابْنُ جَبَلٍ أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا وَإِنَّ أَمِينَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ))

هذا عدم التعتيم على من حولك، الناس يحبون أن تصَحِحَ لهم أخطاءهم من دون أن تجرحهم، ماذا قال سيدنا إبراهيم لوالده ؟ قال تعالى:

(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً (43))

(سورة مريم)

لو قال له أنت لا تفهم شيء، ما الذي أفهمك، هكذا يوجد شباب، ممكن أن تصحح للناس أخطاءهم من دون أن تجرحهم، قال كلمة، هذه كذب، أنا لي رأي آخر لعله أصوب، لذلك وقولوا للناس حسنة.

الناس يحبون أن تناديهم بأحب الأسماء إليهم، كان عندنا معلم، اسم الطالب مثلاً إبراهيم والاسم الثاني لو ذكره يثير الضحك طول العام إبراهيم يناديه، والثاني كنيته أجمل طول العام بكنيته يناديه.

أنت من أجل أن يحبك الناس يجب أن تناديهم بأحب أسمائهم إليهم، يوجد شخص يأخذ كنية أصدقاءه، فلان يحب أن تناديه أبو فلان، بالمناسبة كحقيقة ليس في القرآن الكريم كله كنية إلا أبو لهب، قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1))

(سورة المسد)

أما كل أسماء القرآن، الاسم الصحيح، يا يحيى، يا موسى، يا زكريا يا عيسى، إذا واحد لا يعرف كنيتك وناداك بكنيتك لا تحزن، التوجيه أن تنادي الناس بأحب الأسماء إليهم.

كان عليه الصلاة والسلام يداعب طفل صغير فقال له: يا أبا عمير، طفل صغير.

((حَدَّثَنَا أَبُو التَّيَّاحِ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: إِنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيُخَالِطُنَا حَتَّى يَقُولَ لأَخٍ لِي صَغِيرٍ يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ))

النغير الطائر، أن تعرف الأسماء هذا يحتاج إلى ذاكرة قوية وإلى اهتمام، أن تعرف أسماء طلابك هذه مهمة جداً، ليس من السهل أن تحفظ أسماء من حولك، والذين عندهم أخوان كثر، يجب أن تعزروهم يقول لي أحدهم ألا تعرف فلان، أقول له لا والله لا أعرفه، أيام تنشأ علاقة سؤال فتوة زيارة تعرف اسمه، أما لا يوجد أي علاقة ولا أي شيء استثنائي، إذا الإنسان عرف أخوانه شيء جيد ولكن هذا يحتاج إلى جهد.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (108) :الموت .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-08-23

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

في أية رحلة يقوم بها الإنسان ليراقب نفسه مراقبةً دقيقة إنه في الثلث الأخير من الرحلة يفكر بالعودة وبشراء الحاجيات الأساسية، وفي قطع تذاكر السفر، وفي شراء الهدايا، في الثلث الأخير من أي رحلة ينعكس التفكير، كان مقبلاً فصار مدبراً، كان ذاهباً فصار أيباً، كان يسعى لاستكمال شرائط هذه الرحلة، فإذا هو يسعى لاستكمال شرائط العودة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: أَعْذَرَ اللَّهُ إلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً))

معنى أعذر أي لم يترك له عذراً، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((معترك المنايا بين الستين والسبعين))

استوفى أجله بقيت أمامه رحلة العودة، دائماً كما قلت لكم سابقاً الإنسان ضعيف التفكير يتغنى بالماضي مع أن الماضي لا يعود، والإنسان الأقل عقلاً يتغنى بالحاضر، لكن العباقرة والأذكياء يعيشون المستقبل، هم يصلون إليه بعقولهم قبل أن يصلوا إليه بأجسامهم.

وأوضح مثل قضية الامتحان، الذي ينجح بتفوق استحضر الامتحان من أول يوم في العام، لحظة الامتحان لا تغادر ذهنه أبداً، والإنسان بفضل الله عز وجل أعطاه ملكة اسمها ملكة التصور، لماذا تجلس البهيمة في بستان فيه حشيش أخضر دون كلل أو ملل، لا تمل أبداً ما دام الطعام متوفراً لا يوجد أي مشكلة لا تمل، الإنسان لماذا يضجر ؟ لأنه مزود بملكة التصور، التصور الإنسان يستطيع أن يصل بعقله أو بمخيلته إلى المستقبل قبل أن يصل إليه

فيا أيها الأخوة: الإنسان العاقل هو الذي يعيش لحظة لا بد منها، أتية إن قريباً أو بعيداً، فلذلك الإنسان يجب أن يستعد إلى هذه اللحظة وكل عقل الإنسان للاستعداد لهذه اللحظة.

((أَعْذَرَ اللَّهُ إلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً))

أليست هناك حوادث بالأربعين، وفي الثلاثين وفي العشرين وفي العشر سنوات، معترك المنايا بين الستين والسبعين، ورد عن ابن عباس

((أنه من بلغ الأربعين ولم يبلغ خيره شره فليتجهز إلى النار))

بالأربعين مقيم على معصية، بالأربعين يطلق بصره بالحرام، بالأربعين يأكل المال الحرام، بالأربعين يجلس مع من لا تحل له، بالأربعين يأخذ ما ليس له.

إذاً أعقل عمل تفعله على الإطلاق أن تجعل من ساعة الفراق ساعة أمام ذهنك دائماً وأن تستعد إلى هذه الساعة التي لا بد منها.

أيها الأخوة: أكثر المناظر تأثيراً هذا الإنسان عندما يوضع في النعش، تلف ساقه إلى ساقه، مرةً شاهدت ميتاً يغسل ويكفن جاء بقطعة قماش طويلة غمسها بالماء ثم ربط ساقيه بها، قال تعالى:

(وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30))

(سورة القيامة)

فلما وضع في النعش، ولما وصلت الجنازة إلى القبر فتح غطاء النعش وحمل هذا الإنسان ووضع بالتراب، ترك كل شيء ليس في القبر إلا عمله، والله أيها الأخوة لا أرى عاقلاً أعقل من أعد إلى هذه الساعة التي لا بد منها شئنا أو أبينا، أحببنا أو كرهنا.

من بلغ الأربعين ولم يبلغ خيره شره فليتجهز إلى النار.

وعن أحد الصحابة ورد أنه إذا بلغ الرجل أربعين سنة ناداه مناد دنا الرحيل فأعد زاداً.

أحياناً أخ كريم يقول لي أريد عملاً للآخرة يبحث عن عمل صالح لا يرجو منه شكراً ولا مديحاً ولا ثناءً، يريد عملاً لوجه الله، يريد عملاً يرضى الله عنه.

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبَعْضِ جَسَدِي فَقَالَ: اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ وَكُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ))

الإنسان يبني بيتاً يستهلك هذا البيت مائة رجل، يقول لك سبعة أكياس في المتر المكعب، أنت قد لا تستهلك هذا البيت واحد بالألف من عمره الإنسان هو أضعف مخلوق، الإنسان بالتعبير التجاري سريع العطب يعني غلطة، أيام خبر سيئ يجعله في القبر، أحياناً ضيق شريان ينهي حياته، قطرة دم لا تزيد عن رأس دبوس تتجمد في شرايين الدماغ، أحياناً حادث، رجل وزوجته وكل أولاده كانوا في نزهة صار حادث فماتوا جميعاً، فكيف الإنسان لا يفكر في هذه الساعة، والموت حق.

أيها الأخوة: "

((... كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ))

أنت لاحظ نفسك إذا دخلت إلى فندق، وجدت فيه غلط، شيء في الغرفة يحتاج إلى إصلاح، هل تنزعج كثيراً ؟ ليلة واحدة، ليلة تمضي لو استأجرت بيت في مصيف قد يكون لك على هذا البيت ألف ملاحظة هل تشعر بضيق لأن هناك ملاحظات لم تنجز ؟ القضية مؤقتة، حينما تعيش في الدنيا كأنك غريب تحل معظم مشكلاتك، يوجد في هذا المسجد لي قريب قبل أن يتسع كان هناك بيوت، وكان ساكن في غرفة

فلما علم بتوسعة المسجد ضجر أشد الضجر واشتكى، وعلا صوته لجنة بالاتفاق معي وعدتنا وعداً قاطعاً باستئجار بيت له جيد إلى أن ينتهي تطوير المسجد وتوسعته وقد وعد أن يكون له بيت في هذا المسجد، سبحان الله ما مضى شهران على هذا الضجر وقد وافته المنية قبل أن نفكر في أخذ بيته.
يرون قصة رمزية أن رجل توفي ترك أولاد وللأولاد عم، جاء شيخه يبكي وقال له أخي توفي وترك لي خمسة أولاد، فقال: ألم يترك شيئاً لهم، قال: نعم ترك شيء يكفيهم سنة، فقال له: جيد بعد أن تنتهي المؤونة بعد سنة ابدأ بالبكاء، مات بعد شهرين.
أنا أرجو الله تعالى أن نعيش طويلاً وأن نسعد بأعمارنا وأن يقدر الله على أيدينا الخير الكثير، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ خَيْرُ النَّاسِ قَالَ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ))

ولكن يجب، وهذه و الله نصيحة وأخذ نفسي بها، يجب أن نعيش أخطر حدث في حياتنا هو الموت، أن نعيشه لا من أجل أن نكسل، لا، لا من أجل نحجم عن العمل، لا، لا يوجد توجيه للنبي أروع من هذا التوجيه.

((حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ زَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ))

أيها الأخوة: أعني ما أقول أدعوكم إلى الدراسة، أدعوكم إلى تأسيس الأعمال، أدعوكم إلى كسب المال، أدعوكم إلى أن تكون مؤمناً قوياً لأن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، ولكن حينما أدعوك إلى أن تكثر التفكر بالموت، من أجل أن تنضبط، كلوا واشربوا من غير إسراف ولا مخيلة، وتزوجوا واسكنوا، وأسسوا أعمالاً، وحصلوا شهادات عليا.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ولا تَعْجَزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ "))

ولكن لا تنسوا أنه لا بد من ساعة نغادر فيها الدنيا جميعاً، هذه جلسة بعد كذا جلسة لا يوجد واحد منا فوق الأرض، والله أعلم، وكل إنسان رهين عمله، الإنسان يموت يبقى منه كلمة واحدة إما أن يقال في حقه الله يرحمه، أو الله لا يرحمه.

يروون أن سيدنا عمر بن عبد العزيز حينما تولى الخلافة رد المظالم إلى أصحابها وأخذ من الناس ما ليس لهم ففي رجل أقطعه أرضاً كبيرةً من بيت المال من كان قبل عمر بن عبد العزيز، وعاش في بحبوحة كبيرة فعندما جاء سيدنا عمر أخذها منه، استردها إلى بيت مال المسلمون، فجاء إلى من بعد

عمر بن عبد العزيز وقال له: اقطعني جدك أرضاً واستردها مني عمر رحمه الله، فقال له: عجبت منك، الذي أعطاك الأرض لم تترحم عليه، والذي أخذها منك ترحمت عليه.

الإنسان في النهاية كلمة واحدة يلخص عمله بكلمة رحمة الله عليه ولو لم تقل هذه الكلمة تشعر أنه فاز فوزاً عظيماً، والحياة كلها نجاح أو رسوب، الذي عرف الله نجح وأخذ معه كل شيء، والذي عرف الدنيا رسب وترك كل شيء.

وربنا عز وجل يقول:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7))

(سورةالروم)

((عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبَعْضِ جَسَدِي فَقَالَ: كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ وَعُدَّ نَفْسَكَ فِي أَهْلِ الْقُبُورِ، فَقَالَ لِي ابْنُ عُمَرَ إِذَا أَصْبَحْتَ فَلا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ فَإِنَّكَ لا تَدْرِي يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ غَدًا))

قصة من اثني عشر سنة كنا نقيم نزهة أسبوعية في طريق الوادي، أخ كريم مداوم على الذهاب معنا في هذه النزهة، لسبب أو آخر استبعد ليحل محله إنسان جاء من بلد بعيد وطلب أن يكون معنا في هذه النزهة فاستبعد أحد المشاركين في هذه النزهة، ذهبنا الساعة السابعة عدنا الساعة العاشرة توفاه الله الساعة التاسعة كان معنا، ذهب إلى السوق واشترى بعض الحاجيات وعاد إلى بيته، أثناء خلع ثيابه وقع ميتاً.

من هذا النوع هناك آلاف القصص، مرة يوجد مولد في الحنابلة دعيت إلى هذا المولد عقب درس الأحد، ذهبت إلى الجامع استقبلنا إنسان بترحاب منقطع النظير جلست في مكان أعد لي بعد وقت قصير وجدت اضطراب في المسجد ماذا حدث ؟ قال: الذي استقبلك وقع ميتاً، ذهبنا إلى مستشفى أمية فوجدناه مات، ممدداً من هذه القصة هناك آلاف وهذه للعبرة الموت المفاجئ.

((إِذَا أَصْبَحْتَ فَلا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ...))

قد يقول أحدكم الأستاذ هذه الدروس يكثرها علينا، النبي الكريم قال: أكثروا من ذكر هادم اللذات، مشتت الجماعات، مفرق الأحباب بتوجيه من النبي، من شهرين أو ثلاث أثناء الخطبة أحد الأخوة المصلين جالس في القاعة وهو جالس وقع ميتاً وذهبت إلى التعزية، يوجد محاسب في الأوقاف ذهبت إلى عنده، العادة طاولته كلها أوراق وأضابير رأيتها نظيفة بلور، أين الأخ ؟ قالوا: توفي، بهذه البساطة، بعد يومين زارنا معاون وزير الأوقاف يوم الجمعة، سألناه فلان كيف توفي ؟ قال: جاء إلي إلى المكتب وهو في المكتب جالس، أعطيته معاملة يدرسها رأيته جمد نظره ومال وكانت القاضية.

آلاف القصص، هل يوجد لك ضمانة أن تمتد بك الحياة إلى الثمانين ؟ هل عندك ضمانة إلى بعد ساعة، أنا لا أتشاءم كلنا تحت رحمة الله ولكن يجب أن نعد للموت عدته، أن نعد له التوبة، أن نعد له العمل الصالح، أن نعد له إنفاق المال، أن نعد له عملاً دينياً، إنسان أقطع أرض بداريا لإنشاء ثانوية شرعية هذه قصر في الجنة، يوجد أشخاص يبذلون من أموالهم، وطاقاتهم، وعلمهم، يبتغون الله والدار الآخرة

((...إِذَا أَصْبَحْتَ فَلا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ.))

والدليل، النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ فَإِنَّهُ لا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ بَعْدُ ثُمَّ لِيَقُلْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِاسْمِكَ أَرْفَعُهُ اللَّهُمَّ إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَاغْفِرْ لَهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ الصَّالِحِينَ))

((وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ فَإِنَّكَ لا تَدْرِي يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ غَدًا))

شاب مثل الحصان، قوي وأنت قوي اعمل أعمال صالحة يأتي وقت قعيد الفراش، تنكة أدوية، لا يناسبك أن تمشي، لا يناسبك أن تأكل أكلة فيها مواد دسمة، تميل إلى الراحة، الإنسان بعد سن معين يميل إلى الراحة.

((وَمِنْ حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ فَإِنَّكَ لا تَدْرِي يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ غَدًا))

قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100))

(سورة المؤمنون)

أنا لا يوجد كلمة تهز أعماقي كقول سيدنا علي، يقول هذا الإمام العظيم والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي.

لأنه يمشي بأعلى سرعة، والله أيها الأخوة وأنت مؤمن، وأنت مكرم، وأنت تعرف الله، لا بد من أن تندم على ساعة مرت لم تذكر الله بها.

ومن لم يخطر في باله قرب أجله فهو في غفلة دائمة وفتور مستمر، وتسويف متتابع إلى أن يدركه الموت، وتهلكه حسرة الفوت.

الإمام الغزالي رحمه الله تعالى قال: أن هناك مرضاً خطيراً اسمه طول الأمل، قال لي رجل: فلان يكسي بيته هلكنا، ماذا هلك فيك ؟ قال: بقي ستة أشهر محتار يفعل التمديد الشوفاج داخلي أم خارجي،

الداخلي أجمل والخارجي أدفئ، قال لي بعد ذلك استقر أنه سوف يجعله خارجياً وبعد عشرين سنة إذا صار فساد يجعله داخلياً، يعني سوف يعيش عشرون سنة قادمة وتكون أكفانه قد نسجت وهو لا يدري.

أول عرض من أعراض هذا المرض طول الأمل، ناوي أن يعيش مائة سنة، تسعون، أمله في الدنيا كبير، شاهدت شخص وهكذا سمعت، بالخمسة وسبعون يفكر أن يؤسس ملهى، معمل معقول، أما ملهى وهو مصابح مماسي سوف يلقى الله عز وجل.

من يومين دعيت إلى عقد قران في صالة وجدت شكلها غير طبيعي، قلت هذه الصالة لا أعرفها متى أسست ؟ قال لي: هذه لم تكن صالة أستاذ، كانت مكان قذر جداً لكن مات صاحبها قبل أن تفتتح، فحولت إلى صالة أفراح، وهي في صحيفته، إنما الأعمال بالنيات.

نحن نريد عمل يستمر بعد الموت، خذوا مثل القارئ والمغني، الاثنين ماتوا، واحد إلى مائة سنة قادمة تذاع أغانيه، واحد إلى مائة سنة قادمة تذاع قراءاته القرآن الكريم، واحد يرقى والثاني يسفل، والحقيقة أخطر عمل الذي يستمر بعد موت صاحبه.

أو عرض لهذا المرض، مرض طول الأمل، الكسل عن الطاعة، تقول سوف أصلي وسوف أزكي، وسوف أصوم، وسوف أحج، يوجد شخص مدخن أصيب بمرض خبيث في صدره ودخل المستشفى، زاره قريبه فقال له: حينما أشفى من هذا المرض لي مع هذا المرض موقف خطير سوف أعاقبه، لكن المرض عاقبه ولم يخرج من المستشفى إلا ميتاً.

أول شيء، سوف أصلي، سوف أصوم، سوف أزكي، سوف أحج والأيام أمامي كثيرة وقد لا تدرك منها شيئاً وأنت تحت الأرض بعد أن كنت فوق الثرى، وهذا أول عرض من أعراض مرض طول الأمل، ما الذي يسرق من عمرك ؟ كلمة سوف، هناك قول هلك المسوفون.

العرض الثاني لطول الأمل، ترك التوبة وتأجيلها، يقول سأتوب هذا جهل ووهم، فربما جاءت يد المنون قبل أن تتوب.

العرض الثالث، الحرص على الدنيا وجمع ما فيها، أخاف الفقر لا بد لي من مال أدخره لمرض أو لشيخوخة أو حاجة، أعرف شخص منظره أقل من عادي جاءه مرض عضال، عمل أول عملية والثانية والرابعة عمليات متتابعة ثم توفاه الله في سن مبكرة جمع مالاً كثيراً لكن هذا المال لم يستمتع به، هذه حقيقة صارخة، الحرص على الدنيا وجمع ما فيها، تقول أخاف الفقر لابد لي من مال أدخره لمرض أو شيخوخة أو حاجة فتحرص على ما في يديك وتمنع حق الفقير وتعيش فقيراً لتموت غنياً.

العرض الرابع لمرض طول الأمل قسوة القلب ونسيان الآخرة، لأنك إذا أملت طول العيش لم تذكر الموت، القلب يقسو بقوتك في الدنيا لذلك الآية الكريمة:

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً (80))

(سورة الإسراء)

قد تدخل صادقاً ولا تخرج صادقاً، قال تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (16))

(سورة الحديد)

أنا أتمنى الأخ أن يكون على إطلاع بحال قلبه أحياناً يقسو القلب، يستمرئ المعصية، يستمرئ البعد عن الله، أتمنى كل شاب كما قال هذا الفتى الذي زلت قدمه، انتظر من الله عقاباً شديداً لم يأته عقاب فصلى صلاة وناجى ربه فقال: يا رب لقد عصيتك فلم تعاقبني، قال وقع في قلبه أن يا عبدي لقد عاقبتك ولم تدر ألم أحرمك لذة مناجاتي.

أنت تستطيع القطيعة مع الله شهر ؟ تتحمل الجفوة مع الله شهر، المؤمن لا يحتملها أبداً يبادر إلى عمل صالح، إلى توبة نصوح إلى إنفاق مال، اتصال بأهل الحق حتى ينجلي قلبه، أما إذا استمرأ البعد عن الله.

لذلك أنا أنصح الأخوة بالدعوة إلى الله، السبب ؟ أول إنسان يستفيد من الدعوة هو الداعي، كلام دقيق، أول رابح من الدعوة الداعي لأنه مضطر أن يكون حاله طيباً وقوله طيباً، فهو يعد نفسه باستمرار أما الذي لا يدعو إلى الله قد تستمر غفلته أشهراً عديدة، فهو في غفلة، أما أنت عندما تقيم درس أسبوعي في بيتك إما لأولادك أو لأصهارك وبناتك طبعاً ليس مجتمعين، لأخواتك البنات، لجيرانك، أنت تحضر هذا الدرس وتحضر قلبك لهذا الدرس، فهناك شيء يدفعك إلى أن تكون مع الله، وأن يكون حالك مع الله طيباً وأن يكون كلامك سديداً، لذلك إذا دعوت إلى الله أنت أكبر مستفيد، أكبر رابح من الدعوة الداعي نفسه لأنه ألزم نفسه بشيء لا يستطيع التراجع عنه، أما إذا لم يكن لك عمل صالح قد تستمر الغفلة أشهر طويلة، والإنسان إذا غفل وامتدت غفلته الآية الكريمة، قسا قلبه.

والله أيها الأخوة لا أعتقد أن هناك حالة أجمل ولا أسعد من حالة التائب المصطلح مع الله، حالة صعب أن تتصوروها، كأنه يرقص، كأن جبال أزيحت عن كاهله، أنت أن يكون لك مودة مع الله قضية سهلة ؟ يوجد شيء مغري، في عالم التجارة إذا عليك مليونين لرجل ومعه سند وثلاث ملايين لواحد، وخمس ملايين لشخص، وكل بيتك ثمنه خمس ملايين وبيتك على الحجز، وعليك مذكرة بحث، ويوجد عليك مشاكل كثيرة ودعوى إخلاء مثلاً، أتيح لك أن تعفى من كل هذه الغرامات ومن كل هذه الديون ومن كل هذه المطالبات، ومن كل هذه القيود، بموقف تقفه من الله عز وجل أتتردد في أن تفعل هذا ؟ هذا هو الصلح مع الله.

وإذا رجع العبد إلى الله نادى منادي في السماوات والأرض أن هنئوا فلان فقد اصطلح مع الله، وإذا تاب العبد توبة نصوحة أنسى الله حافظيه والملائكة وبقاع الأرض كلها ذنوبه وخطاياه.
فأنت مدعو إلى أن تصطلح مع الله وأن تلغي الماضي كله، طبعاً بعد أن تؤدي الذي عليك من حقوق إلا أن يعفو صاحب الحق، أختم هذا الدرس بأقوال لطيفة قالها بعض الصحابة الكرام حينما دنا أجلهم.
النبي عليه الصلاة والسلام بكت فاطمة أمامه، فقال لها: لا تبكي وقولي إذا أنا مت إنا لله وإنا إليه راجعون، فإن لكل إنسان مصيبة معوضة، قالت: ومنك، قال: ومني.
ما هذا الكلام ؟ ولما أشرف على الموت قالت: وا كرباه، فقال عليه الصلاة والسلام: لا كربة على أبيك بعد اليوم.
سيدنا الصديق قال: هذا عهد أبي بكر بن أبي قحافة عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة، إني أمرت عليكم عمر بن الخطاب فإن عدل واتقى فذلك ظني به ورجائي فيه، والخير أردت ولا يعلم الغيب إلا الله.
كلام دقيق وعلمي، ولما حضرت عمر بن الخطاب الوفاة قال: اللهم كبرت سني وضعفت قوتي، وقلت حيلتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع، ولا مفرق، اللهم ارزقني الشهادة في سبيلك واجعل موتي في مدينة رسولك ثم قال لولده عبد الله ضع خدي على الأرض لعل الله يتعطف علي ويرحمني.
استأذن السيدة عائشة أن يدفن إلى جنب رسول الله، لكنه أوصى لعلها أذنت له وهو خليفة استحيت منه، فقال: بعد أن أموت مر بجنازتي أمام بيتها واستأذنها وأنا ميت فإن أذنت فادفني إلى جنب رسول الله، لدرجة بالغة أراد أن لا يكون لمنصبه دخل بهذا الإذن، الآن أذنت لي ولكن أريد أذن منها وأنا ميت لئلا يكون لي سلطة عليها.
لما حضرت الوفاة سيدنا علي كرم الله وجهه دعا ولديه الحسن والحسين وقال لهما: أوصيكما بتقوى الله والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة ولا تأسفا على شيء فاتكما منها فإنكما عنها راحلان، كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً.
وله كلمة أيضاً يقول: يا بني ما شر بعده الجنة بشر، ولا خير بعده النار بخير، وكل نعيم دون الجنة محقور وكل كل بلاء دون النار عافية من أبصر عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره، ومن رضي بما قسم الله له لم يحزن على ما فاته.
أيها الأخوة كلمة أخيرة قبل أن ينتهي الدرس، حدث الموت أخطر حدث في حياتنا وهو آت لا محالة، ولا يعني هذا أن ندع العمل

((...إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ))

التفكر بالموت من أجل أن تنضبط حركتك في الحياة، ومن أجل أن لا تقف وأن تتابع السير وأن تنضبط.

سيارة على طريق هي أمام خطرين، خطر أن تقف وخطر أن تحيد عن الطريق، التفكر بالموت يمنع الإنسان من أن يخرج عن منهج الله ويمنعه من أن يقف، ولكن لا مانع من أن تعمل وأن تجتهد، وأن تكون الأول، لأنك إن لم تتفوق لا يحترم دينك الآن، نحن الآن في عصر المظاهر وعصر المادة، وعصر النظرة المادية المحضة إن لم تكن متفوقاً لا يحترم دينك، والذي يريد التفوق من أجل نصرة هذا الدين هذا له عند الله شأن كبير.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلا تَعْجَزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

أنا لا أدعوكم من خلال هذا الدرس إلى العجز والكسل والقعود والاستكانة، لا، شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس متى تستغني عن الناس ؟ إذا كنت متفوقاً هذا الذي أتمناه عليكم، ولا تقولوا أكثر الأستاذ من دروس الموت والله الموت يجب أن نفكر فيه دائماً، وأنا لا أنسى كلمة قالها طالب نال الدرجة الأولى في الثانوية سئل ما سبب هذا التفوق ؟ فقال: لأن لحظة الامتحان لن تفارق ذهني طوال حياتي.

وإذا أردتم التفوق لحظة مغادرة الدنيا يجب أن لا تغادر ذهننا طوال حياتنا، دائماً فكر إذا وقفت أمام يد الله ماذا أقول له ؟ لما فعلت كذا، لما غششت، لما طلقت، أنا أقول دائماً هيئ لله جواب يوم القيامة، قد تكون ذكياً وقد تكون طليق اللسان وقد تستطيع بذكائك أن تقلب الحق إلى باطل، هذا عند الناس، ولكن هيئ لله جواب، هيئ للذي يعلم السر وأخفى الجواب، هيئ لمن مطلع عليك، لا تخفى عليه خافية، هيئ لمن يعلم كل شيء.

مرة سألني موظف: القوانين قاسية جداً وأستطيع أنا أن أكتب ضبوط وأضع الناس في السجون، موظف تموين، فقلت له لا يوجد مانع، هو استغرب، متوقع أن أقول له ارحم الناس الله يرضى عليك، خاف من الله، فقلت له اكتب مثل ما تريد ضبوط وضع الناس في السجون، وهو استغرب هذا الكلام مني، وقلت له: لكن إذا كنت بطل هيئ لله عز وجل جواباً عن كل ضبط تكتبه، فإذا ظلمت هذا الإنسان الله بالمرصاد، واتقوا دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب.

والله واحد أيها الأخوة ظلم إنسان ظلماً شديداً، يعني إنسان متعيش عنده سيارة بيك آب محمل بها حديد، سأله إنسان يعمل في حقل الجمارك هذا الحديد لمن، فقال له من فلان إلى فلان، فذهب هذا الموظف معه إلى فلان، فقال: ليس هذا الحديد، طبعاً عرف أنها مخالفة، من الذي صار مسؤول

بالقوانين الجمركية ؟ الناقل، هناك مسؤول الناقل والحامل والمستودع، فلما عرف القضية فيها مسؤولية قال له الحديد ليس لي فصار هذا الإنسان المتعيش أمي كلفوه بنقل هذين الطنين الحديد من مكان إلى مكان، أنا ليس لي علاقة وأنا عندي اثني عشر ولداً، ساقه إلى مكان الجمرك وصادر له السيارة بحسب القوانين النافذة أن هذا متورط وغاب عنه أنه إنسان غير متعلم، انكب على قدميه يرجوه أن لا يأخذ منه السيارة لأنها مصدر قوته الوحيد ولم يرد عليه أخذ السيارة وكتب الضبط، بعد ثلاثين يوم كان ذاهب هذا الإنسان إلى مزرعة في الغرب وراكب سيارة مازدا ويوجد سيارة محملة وقود فسال الوقود على الطريق، وأمامه سيارة حديد فاستعمل المكبح فدخل في سيارة الحديد فقطع رأسه عن جسده طبعاً هذه الحادثة بالليل.

أقسم لي رجل، طبعاً الحادث عرف صباحاً، عدة جرذان كانوا يأكلون منه صباحاً، اتقوا دعوة المظلوم، أنت قنعان بالمائة مليون أنه ليس له علاقة، هذا إنسان متعيش لم يقرأ القوانين إطلاقاً حمل الحديدات من فلان إلى فلان، وفلان لما عرف أن القضية فيها مسؤولية أنكر، ما رحمه وكان بإمكانه أن يرحمه، الله عز وجل انتقم منه شر انتقام والقصة لها متابعة له بنت جنت، وابنه مات بحادث والأسرة تدمرت.

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ: اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ))

يوجد واحد آخر زارني فقال لي كم تقدر عمري، فقلت له: ستين سنة فقال لي: ستة وسبعين سنة عمري وهو يعمل بالحقل نفسه، وقال: والله ما أكلت قرش حرام بحياتي، ولم أظالم إنساناً، وتكلم لي تفاصيل مذهلة، ولا يزال حي يرزق، وهذه القصة منذ عشر سنوات والآن عمره قريب التسعين سنة، السبب ؟ كان منصفاً كان يرحم عباد الله.

أما إذا واحد أساء، إن الله يذع بالسلطان ما لا يذعه بالقرآن، أحدهم يضع لحم كلاب في الصفيحة واردة، أحدهم يجد خروف مدهوس يجعله صفيحة ويبيعه إلى الناس، يجب أنت لا ترحمه قال تعالى:

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (2))

(سورة النور)

أنا لا أقيدك إذا كنت صاحب دين، إذا إنسان يسيء إلى صحة المواطنين يجب أن تضربه بيد من حديد، لا ترحمه، هذا الثاني الذي عاش ستة وسبعين سنة والقصة من عشر سنوات قال لي: أنا لا أرحم مهربي المخدرات ولا أتساهل معهم ولا شعرة، فقلت له معك الحق، أنت لست مقيداً، أنت معك منهج، المسيء يجب أن يعاقب والمظلوم يجب أن لا تظلمه الأمور بخواتيمها.

أنا أدعوكم إلى أن تخافوا من الله خوفاً حقيقياً وأن تحسب حساب وتعد إلى المليون قبل أن تقول كلمة غلط، قبل أن تسبب ضرراً إلى إنسان، أما إذا إنسان مسيء فالله عز وجل نهانا عن أن نرحم هؤلاء، قال تعالى:

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (2))

(سورة النور)

يوجد انحرافات كثيرة جداً، يوجد غش لا نهاية له، أسمع قصص صعب أن تصدقوها، يأتي زيت من أعلى نوع مستورد غالي يوضع مكانه زيت قطن، ويعبأ هذا الزيت الغالي في علب يباع ثلاثة أضعاف هل من المعقول أن تربح خمس مرات، من أجل المال يطعم الناس طعام من الدرجة العاشرة بأعلى سعر، فلذلك إن الله يذع بالسلطان ما لا يذعه بالقرآن، قال تعالى:

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (2))

(سورة النور)

الذي يؤذي المسلمين بغذائهم، يوجد رجل في بلد عربي استورد لحم لطعام الكلاب، يوجد بعض البلاد في أمريكا دابة ميتة حيوان ميت خنزير ميت، يضعوها في مراجل تسخن بالبخار والعظم يذوب هي وأحشائها وجلدها وروثها كله يذوب ومن ثم يعالجوه بمواد معينة ثم يصبوه في علب ويبيعوه طعام كلاب، يوجد رجل في بلد عربي اشترى كمية كبيرة ووضع لصاقة عليها غير اللصاقة الأساسية ووضعها للبشر.

آخر خبر سمعتموه هؤلاء اليهود الذين أرسلوا للأردن ماء المجاري ليشربوه ونصف السكان في المستشفيات الآن، الله كبير، الله عز وجل بالمرصاد حينما تتوهم لحظة أنك تنجو من عقاب الله أنت جاهل لا تنجو.

الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، والذي يتغطرس ويملأ الدنيا ضجيجاً كما قلت البارحة، على رأس أكبر دولة في العالم أذلته امرأة، وجعلته يعترف بالزنا في البيت الأبيض، اثني عشر مرة مع امرأة، واضطر أن يخسر ولاء زوجته، وولاء ابنته، وأمام الناس أصبح صفراً، إن ربك لبالمرصاد، مع الله لا يوجد ذكي أبداً، ولكن يوجد مستقيم، المستقيم يرفعه الله وينصره.

فيا أيها الأخوة: حاسب نفسك حساباً عسيراً ليكون حسابك يوم القيامة يسير، حاسب نفسك على الكلمة، على النظرة، والله عز وجل يرينا بأعيننا مصير الظالم والمنحرف.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (109) :طرق السير إلى الله .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-09-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون:

دروس سير الصحابيات الجليلات رضوان الله تعالى عليهم أجمعين أخذنا منهن زوجات النبي عليهم الصلاة والسلام وبنات النبي وبنات بنات النبي، ولابد من أن ننتقل إلى موضوع آخر وإلى أن نصل إلى هذا الموضوع الآخر سأجعل من هذا الدرس درساً في أصول السير إلى الله عز وجل يكون فاصلاً بين مجموعتين من الدروس.

أيها الأخوة الكرام: ذكرت سابقاً أن في مجالات كثيرة وليكن مجال التجارة نشاطات لا تعد ولا تحصى ولكن هذه التجارات العريضة ذات النشاطات المختلفة فيها شيء واحد إن لم يتحقق فلا معنى لها هذا الشيء هو أن تربح فإن لم تربح فلا معنى لشراء المحل ولا لاسترداد البضاعة ولا لتوزيعها ولا لتعيين الموظفين، كل هذا النشاط من دون ربح ليس له معنى، وفي الجامعة نشاطات عدة في الذهاب إلى الجامعة وحضور الدروس، اقتناء الكتب، اللقاء مع الأساتذة والقراءة والمطالعة التلخيص وكل هذه النشاطات إن لم تنتهِ بك إلى النجاح فلا معنى لها ولنأخذ جانب الدين يوجد في الدين صلوات خمس، صيام، حج، زكاة دروس علم، اقتناء كتب إسلامية، اقتناء أشرطة إسلامية، لقاء مع العلماء هذه النشاطات إقامة احتفالات، موالد إسلامية، جمع قصاصات عن أخبار العالم الإسلامي، سماع أخبار المسلمين، والتعاطف معهم كل هذه النشاطات إن لم تصل إلى الله فلا معنى لها، في التجارة أن تربح، وفي الجامعة أن تنجح، وفي الدين أن تصل إلى الله.

الوصول إلى الله أيها الأخوة: وأنا تجدني مضطر أضع يدي على الجوهر على الأصول في عالم الدين لابد من أن تعرف الله، مسلم يأكل مالاً حراماً أنا أقسم بالله أنه لا يعرف الله إطلاقاً لأنه لو عرفه لوقف عند حدوده، لأنه لو عرفه لخشي أن يأخذ ما ليس له، لأنه لو عرفه وكان على صلة به لخشي على هذه الصلة أن تنقطع، فحينما لا تعرف الله قد تفعل ألف شيء إسلامي ولكن في بعض الحالات تأخذ ما ليس لك وتفعل ما لا يليق بك إذاً أنت لا تعرف الله، رأس الدين معرفة الله فحينما ما عرف الله من عصاه، ما عرفه من لم يرجو قربه، ما عرفه من لم يخف منه، ما عرفه من لم يخدم عباده، أول شيء في هذا الدرس رأس الدين أن تعرف الله، يوجد عندنا قاعدة لا يوجد عندنا شيء يأتي من لا شيء يعني فاقد الشيء لا يعطيه، لا يمكن أن تعرفه دون أن تبذل جهداً، دون أن تدخر وقتاً، وقتك لا يسمح ولا يوجد عندك همة عالية كيف تعرفه، لا يمكن أن يقال لك دكتور إلا بعد أن تدرس ثلاثاً وثلاثين عاماً تقريباً،

ممكن إنسان لا يتسع وقته لحضور محاضرةٍ في الجامعة ولا يتسع وقته لقراءة كتاب هل يمكن في عالم الدنيا المحدود أن يصل إلى الدكتوراه؟ الإيمان مرتبة علمية ومرتبة عالية جداً يمكن أن تحصلها وأنت في الفراش، وأنت وراء الشاشة وأنت في الطريق، وأنت في العمل، وأنت تتكلم بلا ضابط، تتحرك بلا ضابط، حتى الوقت يكون ثمين وحتى لا تضيع الأعمال سدى رأس الدين معرفة الله، معرفة الله تحتاج إلى جهد وإلى وقت، لا تتصور أن تأخذ كفاءة ولا وثيقة إتمام مرحلة ولا شهادة ثانوية دون أن تبذل جهداً، يوجد طلاب كثيرين يتمنى أن يأخذ كفاءة قبل أسبوع يحضر مثلاً بالفيزياء ثلاث علامات من ستين، بالعربي علامتين، هذا الجهد الذي بذله، أن تنال مرتبة علمية من دون جهد أنت ممن يضحك على أنفسهم هذا الدين أساسه معرفة الله ومعرفة الله لا تؤكدها صلواتك ولا عباداتك تؤكدها معاملاتك.

إنسان مغتصب بيت وعنده بيت آخر اغتصاب البيت يدل على أنه لا يعرف الله، إنسان يغش في البيع والشراء ليأخذ مالاً وفيراً هذا الذي يغش المسلمين قطعاً لا يعرف الله لو عرفه لخاف منه، أول نقطة في هذا الدرس وأنا سوف أذكر إن شاء الله أربع أو خمس نقاط هي الدين وهي جوهر الدين والثاني يستكمل بقراءة كتاب، يستكمل بسماع شريط ولكن الشيء الذي لا بد أن تفعله أنت ولا تعفى منه هي ركائز الدين وأعمدة الدين، أحد ركائز الدين أن تعرف الله كيف تعرفه ؟ من خلقه كيف تعرفه ؟ من الكون الذي سخره لك تسخير تعريف، كيف تعرفه؟ من آياته في نفسك، كيف تعرفه ؟ من طعامك وشرابك، كيف تعرفه ؟ من أفعاله، كيف تعرفه ؟ من كلامه، خلقه وأفعاله وكلامه تعريفٌ به.

ما لم يتسع وقتك للتأمل بخلقه تارةً وبكلامه تارةً وبأفعاله تارةً أخرى أنت لا تعرفه، مرة كنت في مسجد من مساجد المهاجرين أصلي المغرب دخل رجل صغير الحجم قصير القامة نحيف منحني الظهر تقدمت به السن كثيراً، كنت مع صديق لي ما إن لمحت هذا الرجل حتى هرعت إليه وسلمت عليه سلاماً فيه احترام شديد، صديقي استغرب وقال لي من هذا الذي سلمت عليه ؟ قلت له لما كنا في الجامعة طلاباً كان عميد كليتنا وكان من أعلم العلماء المنطقة في اللغة و النحو والصرف، أنا أكبره لعلمه صديقي ما عرفه ظنه إنسان عادي إنسان في نهاية العمر يمضي هذه الأيام هكذا، بيني وبين صديقي أني أعرف مكانة هذا الرجل وهو لا يعرفه، لو جاء طبيب جراح أحد أندر الجراحين في العالم لو جاء إلى المطار وخرج لاستقباله طبيب زميل له كان تلميذه في أمريكا ترى في المطار ألف شخص كلهم ينظر إليه هكذا أما هذا التلميذ الذي كان تلميذه ويعرف إمكاناته وبراعته وعملياته الجراحية الكثيرة والنادرة، هذا يسلم عليه سلاماً حاراً ملؤه الاحترام.

أنا أركز على معرفة الله هل عرفت الله، صدقوني أيها الأخوة ولا أبالغ إياك أن تتوهم أنك تعرفه وأنت تعصيه إياك أن تتوهم أنك تعرفه وتؤذي له عباده، أنك تعرفه وأنك تكذب عليهم، أنك تعرفه و أنك

تحتال عليهم من سابع المستحيلات أن تعرفه وأن تؤذي عباده، أن تعرفه وأن تعلو على عباده هذه حقيقة، يعني ما لم تتفرغ للتأمل في الكون وللنظر في أفعال الله، قال تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11))

[سورة الأنعام]

اليوم ذكرت إلى أحدهم قصة وقلت له: موظفان أعرفهما جيداً أحدهم متعه الله بعمر مديد أعطاه رزقاً حلالاً وسمعة طيبة وأولاداً أبراراً، والآخر دمره الله عز وجل، الأول كان في خدمة الناس والثاني كان في موقع إيذائهم، إذا نظرت إلى أفعاله وحدته وإن لم تنظر إلى أفعاله ظننت أن الدنيا تجري هكذا، لذلك الدعوة التي جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام لماذا نجحت نجاحاً كبيراً ؟ لأنها بنيت على معرفة الله أولاً ثم على معرفة منهجه ثانياً، وأية دعوة تبدأ بمعرفة منهجه ولا تلقي بالاً لمعرفته هي دعوة عرجاء لا تقف على قدمين.

لذلك حينما تعرف الأمر ولا تعرف الآمر تتفنن بالتفلت من هذا الأمر، وحينما تعرف الآمر قبل الأمر تتفانى في تطبيق أمر الآمر، هي كلمتين بين أن تتفنن في التفلت من هذا الأمر وبين أن تتفانى في طاعة الله عز وجل، إذاً تحب صباحاً، بين المغرب والعشاء، قبل أن تنام، بعد أن تستيقظ، بعد أن تستيقظ من النومة التي بعد صلاة الفجر، لابد من أن يتسع وقتك لوقت تعرفه، إن أحببت من خلال كلامه وإن أحببت من خلال خلقه، وإن أحببت من خلال أفعاله فهذه الفقرة التي تزهد بها هي أصل الدين، لماذا كان عليه الصلاة والسلام في غار حراء يتعبد الله عز وجل لماذا لأنه في غار حراء كان يتعرف إلى الله ولا سيما الإنسان حينما يبدأ طريق الإيمان بمعرفة الله فيمشي على صخر لذلك قال تعالى:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23))

[سورة الأحزاب]

برنامج حياتك اليومي كثير جميل أن يكون لك برنامج وقت استيقاظ وقت نوم أدعية ما قبل النوم بين المغرب والعشاء الذي لا يوجد عنده دوام بعد الظهر هذا وقت مبارك إذا دخل إلى المسجد وقرأ فيه القرآن إذا فكر في آيات الله عز وجل في هذا الوقت لابد من خلوة، لا بد من غار حراء مجزأ، هذه الجلسة التأملية قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (46))

[سورة سباء]

هذه الجلسة لابد منها اجعلها صباحاً، اجعلها بين المغرب والعشاء، اجعلها قبل أن تنام، اجعلها بعد صلاة الفجر، لابد من جلسة مع الله هذه الجلسة تعطيك الوقود شحنة إن شحنت جيداً في هذه الجلسة فأنت في النهار ذو بصيرة، فأنت في النهار ذو حكمة، فأنت في النهار ذو جرأة في النهار تملك الرؤية الصحيح و التصرف الحكيم والكلمة السديدة والشعور بالأمن والشعور بالسمو والشعور بالنماء هذا كله من شحنة الفجر لا تعجز عن ركعتين قبل الفجر أكفك النهار كله، تماماً كما تشحن، أحياناً الذي عنده مركبة البطارية الجديدة حينما تحرك المفتاح يدور المحرك، أما إذا كان شحنها قديماً وفقدت معظم مخزونها ساعة المحرك لا يدور، ويوجد إنسان بطاريته جديدة مشحونة الشحنة للاتصال بالله عز وجل، فأول شيء ضعوه في أذهانكم الدين كبير جداً يوجد كتب في الإسلام لا تعد ولا تحصى، كتب التفسير بالمئات، كتب الحديث بالمئات، كتب السيرة بالمئات، كتب الفقه بالألوف ماذا ينبغي أن تقرأ، ينبغي أن تنتقي من الدين لبه، أصوله جوهره.

أول بند أن تعرفه، البند الثاني أن تطيعه ومن لوازم الطاعة أن تعرف أمره ونهيه، فإما أن تقرأ وإما أن تسأل هذه تجوز ما الحكم الشرعي في هذا ؟ ماذا أفعل هل لي أن أحلف اليمين ؟ هل يجوز أن أكذب؟ هل يجوز أن أحلف على نيتي أنا أو على نية المستحلف ؟ فلابد من أن تطيعه ومن لوازم الطاعة أن تعرف أمره ونهيه، إذاً بعد أن تجلس لتتعرف إليه متأملاً متفكراً لابد من أن تجلس على ركبتيك كي تقرأ الفقه إما سائلاً وإما قارئاً وإما طالب علم أما تطلب ممن تضع مالك عنده ربح ثابت إنك لا تعرف الله هذا ربا، تساعد إنسان في شراء بيت وتطالبه بأجرة ثابتة وتطالبه أن يضمن لك المبلغ دون أن ينقص ربا صار، فكيف تطيعه وأنت لا تعرف أمره ؟ قال أحدهم لرجل أسلم وشهر عليه السيف، قال له: ماذا أقول؟ قال له: والله لا أعرف.

أطع ربك، يقول أحدكم كيف أطيعه ؟ هل تعرف أمره ونهيه، ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ما لا تتم السنة به فهو سنة، ما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض، لا تصدق من يقول لك إنك حينما تطيع الله عز وجل تشعر أن الطريق إلى الله سالكٌ هذا الطريق السالك يمنحك صلة مستمرة هذه الصلة لا يعرفها إلا من ذاقها، المؤمن عليه الاتصال بالله، المؤمن قريب من الله لأنه هو في طاعة الله، هو مع الله في خلوته وفي جلوته، في سره وعلانيته، في حله وترحاله، يعني الشعور أنك مع الله، الشعور أنك في طاعة الله إذاً أنت معه هذا الشعور لا يقدر بثمن، هذا هو الدين كله، لذلك الحكمة تأتي من هنا، قال تعالى:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (269))

[سورة البقرة]

الحكمة تأتي من هذا الاتصال ولو كان هادئاً، الحكمة تأتي من هذا الاصطباغ بصبغة الله عز وجل، قال تعالى:

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138))

[سورة البقرة]

الاصطباغ ترى المؤمن عامر قلبه، حديثه هادئ، نظراته حارة، حركاته حكيمة، لسانه طيب، نفسيته طاهرة، نورانيته مشعة هذا من آثار الاتصال بالله عز وجل، يعني تعرفه تطيعه تتصل به، هي الطاعة سلبية والطاعة أكثرها مبدوء بكلمة ما، أنا ما أكلت مالاً حراماً ما تكلمت كلمة نابية، ما أسأت إلى صديقي وأهلي، أكثر الاستقامة مسبوقة بما معنى هذا أن الاستقامة عمل سلبي، الصيام، الصلاة فعل أما الصيام ترك الطعام والشراب، الصيام عبادة سلبية أما الصلاة عبادة إيجابية فيها حركة ووضوء ووقوف، قراءة، ركوع، سجود، الصلاة عمل أما الصيام ترك ؛ الاستقامة ترك، لكن لابد لك من عمل صالح هنا هل يوجد أيها الأخوة الحضور إنسان في الأرض ليس له عمل ؟ ليس له اختصاص، ليس له حرفة، ما له ميزة.

امرأة أصيبت بمرض خبيث في دماغها نذرت لئن شفاها الله عز وجل أن تجعل من كل إمكاناتها في خدمة المسلمين، امرأة فقيرة ماذا تستطيع أن تفعل، امرأة هل يسمح لها أن تخطب في المسلمين، أن تخرج إلى الجهاد مثلاً، هذه المرأة استأجرت بيتاً صغيراً وصارت تطبخ طبخات نفيسة جداً وتبيعها للأسر الغنية كل ربحها تعالج به فقراء المسلمين، أجرت بضع عشرات من العمليات الجراحية من أجرتها، أي إنسان فقير يحتاج إلى عملية جراحية كانت تكلف بعض الأطباء أن يجروا بعض العمليات الجراحية، هذه مثل أعلى هذه المرأة لا تحسن إلا أن تطبخ، لا تحسن إلا الطبخ فكان الطبخ سلماً لها إلى الجنة، لا تصدق إنسان لا يوجد عنده إمكانات أيام يأتي أخ بكل تواضع يقول لك أنا كهربائي ممكن أن أخدم المسجد، قدم هذا الجهد بنيةٍ طيبة، يوجد مدرس، محامي، طبيب، صيدلي، عندنا أخ طبيب متفوق جداً في الأسنان قال لي: جاءتني امرأة تعمل في التعليم فقيرةٌ جداً وتحتاج إلى عملية في أسنانها فلما عرفت قيمتها أحجمت، فقال لي: رق قلبي لها وقررت أن أجري لها عملية التقويم مجاناً، يقول لي: ما شعرت بسعادة بكل تاريخ المهنة إلا مع هذه الذي أصلحت أسنانها لوجه الله، ممكن إنسان ليس له اختصاص، ليس له حرفة أي شيء تحسنه يمكن أن تنفق منه في سبيل الله وقد قال الله تعالى:

(رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3))

[سورة البقرة]

نعرفه، نطبق منهجه، نتصل به، نفعل الصالحات، الاستقامة تسلم بها والأعمال الصالحة ترقى بها، الاستقامة تزيل العقبات من الطريق إلى الله كل معصية عقبة فأنت حينما تستقيم تزيح هذه العقبات عن

الطريق إلى الله أما حينما تعمل الصالحات تتحرك على هذا الطريق، فكرة دقيقة طريق كله عقبات وأنت أمام مهمتين أن تزيح هذه العقبات وأن تسير على هذا الطريق، الحركة على هذا الطريق العمل الصالح وإزاحة العقبات الاستقامة وأساسهما معرفة الله ونتائجهما الاتصال بالله هذا الدين كله بكل بساطة، هذا درسٌ لضغط الحقائق، تعرفه تطيعه تعمل الصالحات تتصل به، المعرفة جانب معرفي والاستقامة والعمل الصالح جانب سلوكي والاتصال به جانب جمالي وهي العبادة طاعة طوعية ممزوجة بمحبة قلبية أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادة أبدية، يعني إذا أردت الدين كله أن تراه في كلمات هذا هو الدين كله، قال تعالى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (23)

[سورة المؤمنون]

قالها سيدنا نوح العبارة نفسها، سيدنا شعيب، سيدنا موسى، سيدنا هود سيدنا صالح، العبارات نفسها، نهاية العلم التوحيد ونهاية العمل التقوى لذلك أنت الآن أمام عدة نشاطات إسلامية تقرأ كتاب تحضر مولد، تسمع شريط، تحضر درس علم، جوهر الدين معرفته من ثلاث مصادر خلقه وكلامه وأفعاله والعمل وفق منهجه، استقامة وعمل صالح الاستقامة سلبية إزاحة العقبات والعمل الصالح إيجابي حركة على هذا الطريق، الجانب الجمالي تتصل به وتصطبغ نفسك بصبغته معنى ذلك التفكر والاستقامة والعمل الصالح والاتصال هذا هو الدين وهذا هو أصل الدين وهذه هي ثمرة الدين ومن عرف هذه المبادئ الأربعة فقد عرف كيف يحقق الهدف من وجوده.

أنت الآن كالإناء لا يمكن لإناء أن تصب فيه حتى يبلغ القمة العليا بعدئذٍ هذا الماء يجب أن يفيض أنت حينما تمتلئ تفيض على غيرك، حينما تمتلئ تفيض على غيرك والإفاضة على غيرك هي الدعوة إلى الله، قال تعالى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108)

[سورة يوسف]

ومستحيل أن تستقر حقيقة الإيمان في قلبك ولا تؤكد ذاتها بحركة نحو خلقه يعني مسلم متقوقع لا يوجد، مسلم سلبي لا يوجد، مسلم منزوي في بيته لا يوجد، مسلم لا يفكر في أن يجاهد نفسه وهواه أو أن يقنع الآخرين بعظمة هذا الدين مثل هذا المسلم لا وجود له إنسان سلبي انطوائي متقوقع، هارب من الحياة هذا ليس مؤمناً، معنى هذا الشيء الخامس بعد أن تعرفه وبعد أن تستقيم على أمره وبعد أن تعمل الصالحات، وبعد أن تتصل به وتصطبغ نفسك بصبغة الكمال بعد كل ذلك تفيض على الآخرين، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْنِي يَقُولُ: بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ولا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))

يجب أن تشعر أنك بحاجةٍ إلى التبليغ والآن يوجد طريقة في تبليغ الحق يستعين بها من لا يملك القدرة على التبليغ أن تحضر مجلس علم إن أعجبك وإن تأثرت به تأثراً كثيراً خذ شريطه وأسمعه إلى الناس، يعني كلما سمعت درساً أسمع هذا الدرس إلى عشرة عن طريق شريط، أخوك، جارك، قريبك، ابن أخيك، أختك، ابنتك، زوجتك، أنت حينما توزع هذه الحقائق تكون قد دعوت الله بشكل أو بآخر، والحقيقة الآن بالعمل الصالح والأعمال الصالحة كثيرة لكن من هذه الأعمال أن تطعم الجائع، لكن هذا الجائع إذا أطعمته أكل وجبة وهضمها وانتهت يريد وجبة ثانية، أكل الثانية يريد الثالثة قضية ليس لها نهاية، هو لماذا يعاني ما يعاني ؟ يعاني ما يعاني بسبب شرود عن الله عز وجل أنت إذا دللته على الله أوصلته بالأصل بأصل الكون، معنى ذلك أنك قدمت له شيئاً ثميناً جداً وهذا هو العمل الصالح الذي يبقى بعد موت صاحبه، الحقيقة أعظم الأعمال هي التي تبقى بعد موت صاحبها وأخسر الأعمال دار لهو أنشأها صاحبها وربح منها أرباحاً طائلة ومات وترك هذا المال الوفير لأولاد فسقةٍ فجرة، وهذه الدار مفتحة أبوابها بعد موت صاحبها بعشرات السنين فكل معصيةٍ ترتكب في هذه الدار في صحيفة من أنشأها والآثار لا تنقطع بموته بل تزداد بموته فلذلك أخطر عمل هو العمل المستمر بعد موت صاحبه.

وأنجح عمل هو العمل المستمر بعد موت صاحبه قال الرسول صلى الله عليه وسلم:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثَةٍ إِلا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

من حوالي عشر سنوات يوجد آية بذهني أردت أن أجعلها محور لخطبة في المسجد فتحت تفسير عندي هذا التفسير قرأته فإذا فيه شرح دقيق جداً لهذه الآية، كان لهذه الخطبة أثر كبير بعد أن انتهت هذه الخطبة قلت سبحان الله صاحب هذا التفسير ألفه ومات قبل ألف عام وها أنا قد قرأت هذه الآية من هذا التفسير وشرحتها شرحاً مفصلاً للأخوة الحضور وكان تأثرهم بهذه الخطبة بليغاً وهو في قبره قبل ألف عام والأجر يصل إليه لأن هذه الخطبة كانت في صحيفته، لذلك اعمل عملاً يبقى بعد موتك، أعظم هذه الأعمال ابنك الصالح ابنك استمرار لك، ابنك يجعل عملك لا ينقضي.

والله مرة كنت في تعزية لأحد علماء دمشق وقام ابنه يخطب خطبةً في هذه المناسبة وكان متكلماً وكان أفكاره جيدة، وكان هذا الخطيب أحد خطباء دمشق الكبار وقد حضر هذه التعزية وزير الأوقاف فقال وأنا أعينه مكان أبيه تكريماً لأبيه، سبحان الله أنا قلت في نفسي والله ما مات أبوه مادام قد خلف شاباً

عالماً حل محل أبيه إذاً ما مات فلذلك بعد أن تعرف الله، وبعد أن تستقيم على أمره، وبعد أن تعمل الصالحات في سبيل القرب منه، وبعد أن تتصل به فتصطبغ نفسك بصبغته الكاملة عندئذٍ تفيض على الآخرين بعلمك وأحوالك، وعندما تهتدي إنساناً.

((يا علي لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها، وخير لك مما طلعت عليه الشمس، وخير لك من حمر النعم))

لذلك شمروا فإن الأمر جد وتأهبوا فإن السفر قريب وتزودوا فإن السفر بعيد وجددوا السفينة فإن البحر عميق وأكثروا من الزاد فإن السفر بعيد وخففوا أثقالكم فإن في الطريق عقبةً كؤود لا يجتازها إلا المخفون، وأخلصوا النية فإن الناقد بصير، وعش ما شئت فإنك ميت وأحبب ما شئت فإنك مفارق واعمل ما شئت فإنك مجزي به.

أنا والله أعجب من الصحابة الكرام يعني كانوا يستمعون إلى النبي قليلاً موعظة قليلة ترى الخطيب الآن ثلاث أرباع الساعة، يوجد خطيب ساعتين، خطب النبي تلقى في دقيقتين من خطب النبي يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن هذه الدنيا دار ارتواء لا دار استواء ومنزل ترح لا منزل فرح فمن عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى وجعل الآخرة دار عقبى فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضى فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي))

هذه خطبة كلمات قليلة موجزة جامعة مانعة والصحابة الكرام وصلوا إلى مرتبة رضوان الله، قال تعالى:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (18))

[سورة الفتح]

فالدين واضح وكلماته واضحة والطريق إليه واضح، وطريق الاستقامة واضح وطريق الجنة واضح ما علينا إلا الحركة يعني قصر في قمة الجبل وهذا القصر فيه كل شيء لمن يصل إليه فأنا لا أسير بل أقف كم غرفة فيه ؟ أريد دليل بل سر، سر على الطريق إليه بعد أن تدخله تعرف كل شيء هذا الوقت إياك أن تمضيه بالحوار والعي، سر إلى هذا القصر إن دخلته تعرف كل شيء يوجد إنسان عملي ويوجد إنسان نظري يحب المراء والمشاحنة والحوار والمشكلات والقضايا الجانبية أمضى كل وقته في القيل والقال:

((حَدَّثَنِي كَاتِبُ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ: أَنِ اكْتُبْ إِلَيَّ بِشَيْءٍ سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ

ثلاثًا قِيلَ وَقَالَ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ "))

يعني مثل أضعه بين أيديكم، المثل على الفكر العملي، ويجد فكر مجرد معك كتاب مائتان صفحة وعندك امتحان يوم السبت الساعة الثامنة وأنت يوم الجمعة صباحاً، جلست وصفنت هذا الأستاذ آدمي يا ترى سؤاله سهل ولا صعب، والله إذا كان صعب يكون ابن حرام، جالس لا يدرس هل من المعقول أن أنجح والله يجوز أن أنجح، إذا كان السؤال صعب ماذا أفعل الوقت يسير، هذا إذا ترك المناقشة وفتح الكتاب وقرأ الآن عمله واقعي وفكره عملي، أنا أتمنى على الأخوان أن يكون فكرهم عملي وليس نظري، الله عز وجل موجود وطريق الجنة واضح في هذا الوقت تقرأ القرآن، أخدم والدتي، أحل مشكلة لإنسان، أساعد فقير، العمل تتألق به، أما العي والسؤال والجواب والقضية الخلافية ورأي فلان بها يا ترى رأيه مخالف لغيره ليس له حق، له حق

((إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلاثًا قِيلَ وَقَالَ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ "))

كن عملي والوقت الضيق اعمل به عملاً مجدياً، مرةً أخرى قصر منيف كل شيء فيه هكذا الوصف الأولي والطريق له سالك، أنا يجب أن أسير، يا ترى كم غرفة، هل مسبحه مفلتر، يا أخي اذهب إلى القصر وترى كل شيء، هذه الأسئلة سوف تعرفها قطعاً، هذا الوقت الثمين لا تضيعه في إثارة المشكلات ضيعه بالحركة نحو هذا القصر، فممكن أن تكون عملي قم صلي، احفظ سورة وافهم تفسيرها، اخدم إنساناً، ساعد والدتك، قدم عمل، تحرك، في الحركة بركة جالس ويفكر هذا العالم هل من الحقيقة أن يكون مخلصاً في دعوته والله من الممكن أن لا يكون مخلصاً، إذا كان مخلص أو ليس مخلص ماذا تستفيد أنت، إذا ليس مخلص عليه وإذا مخلص له، اجعل نفسك عملي ابن جاء من فرنسا ودرس الفلسفة وجالس مع أبيه ويريد أن يريه براعته في الفلسفة وأمامه فروجين فقال له يا والدي: نحن أمامنا فروجين وأنا وأنت وأمي وأنا أستطيع أن أقنعك الآن أنهم ثلاثة، فقال له الأب: لا تغلب نفسك أنا سوف أكل واحد وأمك تأكل الآخر وكل أنت الثالث، الأب أذكى منه بكثير كان.

الطريق إلى الله سالك أستطيع أن أصلي هل يوجد أحد يمنعك من الصلاة في البيت أو في المسجد، الحمد لله والله نحن في نعم كبرى الجوامع مفتحة جاء أخ كريم من بلد من شمال إفريقيا لا تستطيع أن تدخل إلى المسجد ولا يعلم أين مصيرك انظر إلى دروس العلم في أي مسجد دروس العلم، تستطيع أن تصلي وتحضر دروس علم وتقرأ القرآن تغض بصرك وتدفع من مالك وتؤلف كتاب، تساعد إنسان هذا كله شيء عملي ومجدي، الخوض في قصص العلماء من على حق ومن على باطل وهذا عي اتركه وكن عملي، الإنسان العملي يتألق والعملي لا يوجد عنده وقت أن يفكر بالمشكلات، يعني إذا طعنت في الظهر فاعلم أنك في المقدمة.

اركض إلى الله عز وجل ويوجد نقطة مهمة إذا معك كيلو معدن وهو كيلو ذهب والناس يظنوه تنك أنت الرابح الأول، وإذا معك كيلو وأنت فصيح ومتكلم واستطعت أن تقنع الناس أنه ذهب أنت الخاسر، إذا قنعوا أنه ذهب أنت الخاسر وإذا توهموا أنه تنك أنت الرابح، مشكلتك معك وخيرك منك وشرك منك، رقيك منك، أنت وربك، أنا أصفن في هذه الخصومات والتقييمات، والخلافات، والتفاصيل، أنت تقول في القرآن مجاز، لا يوجد مجاز، القرآن منهج أضرب لكم مثل: بلد لا يوجد فيها إذاعة ولكن فيها بلاغات وضعوا بلاغ بمنع التجول تحت طائلة إطلاق الرصاص، جاء رجل وقال والله هذا الورق لا يوجد منه وشيء جميل جداً فيه رصفة، وحبر المطبعة جميل، التوقيع بالأخضر، والختم ممتاز واللغة جيدة، درس هذا البلاغ ودرس فيه كل شيء إلا أن يفهم مضمونه باعتبار خالف نص البلاغ ولم يكن في البيت بعد الساعة الثامنة جاءته رصاصة فأنهت حياته، ليته لم يفكر بالورق ولا التوقيع ولا بالصيغة والحبر والمطبعة والحرف، قرأ البلاغ ودخل إلى بيته.

يوجد موقف عملي، رجل أحب أن يتعلم الفقه جلس عند عالم بمصر ستة أشهر بأنواع المياه فترك الإسلام وخرجت روحه، قال له عالم آخر: الماء الذي تشربه توضأ منه، انتهت، أبقى عملي، واضح اجعل نفسك متحرك ولا تكون جامد كن ـ ديناميك ـ تحرك فالحركة فيها بركة، علم وسط مع تطبيق أفضل بألف مرة من علم غزير من دون تطبيق، إذا سائق أمي كل ما أحب أن يقود مركبته يفحص البطارية والزيت، ورجل معه دكتوراه بالميكانيك نسي البطارية والزيت فاحترق المحرك، أيهما أذكى؟ الأمي الذي استطاع أن يتعامل مع الأمور تعامل جيد، أنت ممكن أن تصل إلى مقام عالي جداً بالحركة الصحية والأمور الأساسية واضحة، قال تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30))

[سورة النور]

هل تحتاج هذه الآية للزمخشري، للقرطبي، للطبري، للرازي، لهؤلاء العلماء الكبار ؟ لا هذه الأشياء الأساسيات واضحة، الحلال بين والحرام بين، يوجد إنسان لا يعلم أن بر الوالدين الله يحبه عز وجل، هل يوجد إنسان لا يعلم أن الغش حرام، بل نحن دخلنا في متاهات عقدنا الدين تعقيد وصار الدين متاهة، الدين بسيط هذا الأعرابي الذي قال له سيدنا عمر: بعني هذه الشاة وخذ ثمنها ؟ قال له: ليست لي، قال له: قل لصاحبها أنها ماتت، قال له: ليست لي، قال له: خذ ثمنها، قال له: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني وإني عنده أمين ولكن أين الله.

هذا هو الدين، الدين أن تقول أين الله، الدين أن تضع يدك على جوهره هذا هو جوهره، الدين بسيط وواضح وعملي تألق به ترى الشاب يغض بصره وصادق بلسانه يؤدي صلواته ترى وجهه مثل البدر

وشخص يفهم أحكام دقيق جداً قارئ فقه مقارن تأتي على التعامل لا يوجد استقامة والله العلم لا يوجد أعظم منه لكن قيمة العلم ما عمل به فإن لم يعمل به ليس له قيمة، نحن لا يوجد عندنا علم هدف لذاته في الإسلام، العلم وسيلة وأنا أتمنى على أخوانا الكرام وأنا قلت مرة أنه يوجد رجل توفي رحمه الله وكان داعية كبير في بلد عربي قلت: أنا كشفت في هذا الإنسان ثلاث صفات، الدين بسطه وعقلنه وطبقه.

نحن بحاجة الآن إلى دين بسيط واضح ولا يتناقض مع العقل والعلم لأنه الذي خلق العقل هو الله والذي أنزل هذا القرآن هو الله، والكون خلقه فشيء طبيعي جداً أن لا يتناقض الدين مع الواقع ولا مع الفطرة ولا مع العقل ولا مع النقل، نبسطه ونعقلنه ونطبقه وكلمة أخيرة وإن كان المثل صارخ جداً: انظر ألف مليون بين أن تلفظها وبين أن تملكها وهذا هو الفرق بين من يطبق ما يعلم وبين من يقول ما يعلم، إذا قلت ما تعلم ولا تملك ثمن رغيف خبز وإذا طبقت ما تعلم تملك ألف مليون والفرق واسع جداً. قال له عظني ولا تطل والله شيء عجيب هذا الأعرابي، قال له: فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يرى ومن يعمل مثقال ذرة شراً يرى، قال له: كفيت، ترى إنسان حضر ثلاثين سنة، وكل أسبوع أربع دروس وفي النهاية ليس مستقيم، فقال عليه الصلاة والسلام: فقه الرجل.

أنا بصراحة إن رأيت شاب مطبق للدين يكبر بعيني جداً، وصل إلى الهدف ووضع يده على جوهر الدين، وإن رأيت إنسان يحب العي جداً ولكن ليس مستقيم أقول ما وصل والطريق مغلق أمامه، ملخص الدرس إذا أردنا أن نضغط الدين كله في خمس كلمات أن تعرف الله من خلال خلقه، ومن خلال فعله، ومن خلال كلامه، وأن تستقيم على أمره بترك ما حرم عليك وأن تعمل الصالحات تقرباً إليه عندئذٍ تتصل به وتصطبغ نفسك بصبغته العالية بعد ذلك تفيض على من حولك بالدعوة إليه، فإذا دعوت إليه عملت عملاً لا ينتهي بعد موتك مستمر.

قالوا لك أبٌ زوجك وأبٌ أنجبك وأبٌ دلك على الله، الذي أنجبك ينتهي فضله عند الموت والذي زوجك يبدأ فضله من الزواج وينتهي عند الفراق، والذي دلك على الله يبدأ فضله من اليوم الذي دلك على الله ويستمر إلى أبد الآبدين، هذه هي الحقيقة وأردت أن يكون هذا الدرس معالم الطريق إلى الله عز وجل. معرفة، استقامة، عمل صالح، اتصال، دعوة، والإنسان بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه، قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

[سورة العصر]

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (110) :الغضب ضعف في التوحيد .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-09-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

أنا حريص في هذه الدروس على معالجة موضوعات حساسة تتصل اتصالاً وثيقاً بحياتنا، اخترت لكم هذا الدرس موضوع الغضب وهذا الموضوع يعاني منه معظم الناس ولا سيما بسبب الضغوط الاجتماعية، الضغوط الاقتصادية والضغوط المتنوعة، فالغضب مرض خطير وسأضع بين أيديكم الغضب من زاوية إيمانية ومن زاوية علمية وسوف ترون كيف أعدى أعداء الإنسان الغضب، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْصِنِي، قَالَ: لا تَغْضَبْ، فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: لا تَغْضَبْ))

أولاً في مستوى الآيات يقول الله عز وجل:

(الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (32))

(سورة النجم)

إحدى خصائص المؤمن أخص خصائص المؤمن أنه إذا غضب يغفر قال تعالى:

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134))

(سورة آل عمران)

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34))

(سورة فصلت)

آية أخرى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً (63))

(سورة الفرقان)

ما غضب، يقول عليه الصلاة والسلام موصي رجل:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْصِنِي، قَالَ: لا تَغْضَبْ، فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: لا تَغْضَبْ))

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: عَلِّمْنِي شَيْئًا وَلا تُكْثِرْ عَلَيَّ لَعَلِّي أَعِيهِ، قَالَ لا تَغْضَبْ فَرَدَّدَ ذَلِكَ مِرَارًا كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ لا تَغْضَبْ))

((وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة، فقال عليه الصلاة والسلام: لا تغضب))

عمل، عدم الغضب عمل، لأنه يحتاج إلى جهد، اندفاع يحتاج إلى مكابح، الإنسان عندما لا يغضب يعمل عملاً، فسمى النبي عليه الصلاة والسلام عدم الغضب عمل.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ))

هذا هو البطل، البطل عند النبي ليس الذي يصرع الرجال ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب.

((عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقوم يصطرعون فقال: ما هذا ؟ قالوا فلان لا يصارع أحداً إلا صرعه، فقال عليه الصلاة والسلام أفلا أدلكم على من هو أشد منه، قالوا: نعم قال: رجل كلمه رجل فكظم غيظه وغلب الشيطان))

معنى ذلك أن الشيطان يأتي من أين ؟ من الغضب، كتمان الغضب أحد وسائل القربى إلى الله، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُنَفِّذَهُ دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُءُوسِ الْخَلائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ فِي أَيِّ الْحُورِ شَاءَ))

يعني أحد وسائل القرب من الله تعالى أن لا تغضب، والنبي عليه الصلاة والسلام مدح صحابياً فقال:

((عَنْ أَبِي جَمْرَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ))

وكاد الحليم أن يكون نبياً، والحلم سيد الخلاق، كم نص ؟ سبع آيات وخمس أحاديث كلها تؤكد أن كظم الغيظ أحد الفضائل الكبرى في الحياة وفسر المفسرون قوله تعالى:

(وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ (39))

(سورة آل عمران)

قالوا: السيد الذي لا يغلبه الغضب، فإذا غلبه الغضب فليس سيداً.

((" وعن الحسن رضي الله عنه: أن يا بن آدم كلما غضبت وثبت وثبة وقد تثب وثبة فتقع في النار))

أحياناً جرائم القتل عقب غضب شديد، ارتكاب الأعمال الشنيعة عقب الغضب الشديد.

أما أدق ما في الدرس ما معنى لا تغضب ؟ الغضب غير إرادي، الغضب شعور يجتاح النفس فتنفعل، أي لا تتعرض لأسباب الغضب هذا أول معنى، اجتنب أسباب الغضب أما الغضب نفسه يأتي بلا إرادة يأتي ويجتاح شعور الإنسان.

المعنى الثاني لا تفعل ما يأمرك به الغضب، يعني مثلاً يوجد علاقة مالية مع إنسان من دون تسجيل من دون عقد، من دون إيصال، فلما أنكر عليك حقك لو أنك وثقت هذا المبلغ بإيصال، بسند، بعقد، قيدته، لن يستطع أن يغضبك، أما حينما خالفت الشرع عرضت نفسك لأسباب الغضب، حينما تكون في دكان فرضاً وتفتح الدرج أنت وتبدل بعض الأوراق دون أن تستأذن صاحب المحل، فإذا كان هناك نقص ليس منك بل من غيرك و اتخذك به لأنك فتحت الدرج من دون إذنه وأنت الآن غضبت أشد الغضب لأنك أمين، لكنك فعلت فعلاً يمكن أن تتهم به، عرضت نفسك لمظنة العمل السيئ.

النبي عليه الصلاة والسلام كان يمشي مع زوجته فمر صاحبان قال على رسليكما، هذه زوجتي فلانة.

يعني مثل بسيط لو أنك سافرت إلى بلد بعيد وكلت أخ زوجتك أن يتفقد البيت ولم يعلم الجيران أن هذا أخو الزوجة، ماذا رأوا ؟ رأوا رجل يدخل ويخرج فأساءوا الظن ولغطوا فإذا تناهى إليه كلامهم لعلك تخرج من جلدك، إنك لو أعلمتهم أنك مسافر كما هي السنة وإنني وكلت أحداً أخ زوجتي أن يتفقد البيت انتهى الأمر.

لا تتعرض لأسباب الغضب، ولا تفعل ما يأمرك به الغضب، ولا تعمل وأنت غاضب عمل نهاك الله عنه هذا المعنى الثالث، ومجاهدة النفس والهوى أشد من مجاهدة العدو، فقد نقل عن بعض أصحاب رسول الله وقد كانوا في الجهاد، قال و رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى.

ويجب أن تعلم الذي يملك نفسه عند الغضب هو أعظم الناس قوة، ماذا قال بعض زعماء بريطانيا ؟ قال ملكنا العالم ولم نملك أنفسنا، ما هي أكبر صفة للمسلم ؟ أنه يضبط نفسه، سيطر على الذات، فالغضوب إنسان فقد السيطرة على ذاته ولو أن الإنسان نظر إلى المرأة وهو غاضب لاحتقر نفسه يصبح وحش والعياذ بالله حركات عشوائية كلام غير منضبط، فالإنسان حينما يغضب يقترب من الحيوانية.

الإمام الغزالي رحمه الله تعالى يقول: أقل الناس غضباً أعقلهم، كلما كبر عقلك قل غضبك وكلما قل عقلك زاد غضبك، بين الغضب والعقل نسبة عكسية.

كنا مرة في الثانوي طلاب في صف الحادي عشر، يوجد أستاذ غضوب والطلاب يحبون أن يستمتعوا في درس من الدروس فكانوا يأتون بأوراق بخبز يابس، بحذاء يضعونه على طاولته فإذا دخل والعياذ بالله انفعل انفعالاً، سب سباب وهذا المطلوب، المطلوب أن يرونه وهو يغضب، دخل أستاذ آخر حكيم

فعلوا معه مثل ما فعلوا مع الأول ولا تحرك ولا تكلم كلمة، قال أين عريف الصف، توقف طالب اذهب وائتني بآذن المدرسة، فقال له خذ هذه، وتابع الدرس، والطلاب لم يعيدوا هذه مرة ثانية معه.

الحليم مسيطر، أما الغضوب يتفلت الزمام من بين يديه، لذلك قال أحد زعماء ألمانيا بسمارك أنا أتغاضب ولا أغضب، لأنك حينما تغضب انتهيت فقدت الزمان، الإنسان في ساعة الغضب يهدم كل شيء يهدم علاقته الزوجية يطلق زوجته، أو يتهجم عليها فيحدث جرح لا يندمل ولا بخمسين عام بساعة غضب، أيام يفقد منصبه بساعة غضب، يفقد شركة بساعة غضب، فالإنسان لا يغضب، أعدى أعداء الإنسان الغضب، لا تغضب، وكلما وحدت أكثر لا تغضب وكلما كنت بعيد عن التوحيد تغضب.

التوحيد له معنى دقيق جداً، حدثني أخ شخص تزوج امرأة مما ينطبق عليهم خضراء الدمم، المرأة الحسناء في المنبت السوء، ثم اكتشف أن عشرات الرجال في حياتها فغضب غضباً لا يحتمل فطردها إلى بيت أهلها لا تعود إليه إلا بمهر جديد، فأضاف على نفسه مائة ألف ليرة حتى أرجعها إليه، ثم خرجت إلى بيت أهلها فغضب غضباً شديداً لأنه دفع مائة ألف فعادت يوم واحد ثم عادت إلى بيت أهلها فحمل مسدس وذهب إلى بيت أهلها، وأطلق عليها وعلى أمها النار وشعر أنه ارتكب جريمتين، فأطلق على نفسه النار، إصابته كانت قاتلة أما إصابة زوجته وحماته فكانت غير قاتلة.

بساعة غضب أنهى حياته أبشع نهاية والعياذ بالله الإنسان عند الغضب يصبح وحشاً، المؤمن لا يغضب لأنه موحد، لأن لكل شيء حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطأه وما أخطأه لم يكن ليصيبيه.

قال: أقل الناس غضباً أعقلهم، فإن كان عدم الغضب للدنيا فهو دهاء ومكر، وإن كان للآخرة فهو حلم وعلم.

قيل لعبد الله بن المبارك أجمل لنا حسن الخلق، فقال: ترك الغضب، كاد الحليم أن يكون نبياً، والحلم سيد الأخلاق، هذا القسم التوجيهي النصي من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والعلماء، القسم العلمي من الغضب هذا الشيء الذي لا يصدق.

الانفعالات الشديدة والضغوط العديدة التي يتعرض إليها الإنسان كالخوف والغضب، هذه الانفعالات تحرك الغدة النخامية وهي ملكة الغدد على إفراز هرمون متجه نحو الكظر، والكظر يفرز هرمونات عديدة، أول هذه الهرمونات هرمون يرفع ضربات القلب، وثاني هذه الهرمونات هرمون يزيد وجيب الرئتين، وثالث هذه الهرمونات هرمون يضيق الأوعية الدموية فيرتفع الضغط، ورابع هذه الهرمونات هرمون يطرح كمية سكر عالية في الدم، وخامس هذه الهرمونات هرمون يزيد إفراز الكبد لهرمون التجلط وصار الدم أكثر لزوجة والأوعية ضيقة والقلب شديد الخفقان والرئتان يزداد وجيبهما وسكر الدم مرتفع، هذا الذي يفعله الغضب بالإنسان.

أيها الأخوة الكرام: ارتفاع الضغط المفاجئ وهذا شيء واضح في الغضب لو قست ضغط إنسان وهو غاضب قد يصل إلى درجة اثنين وعشرين والضغط الاعتيادي اثني عشر، قد يرتفع عشر درجات وارتفاع الضغط المفاجئ قد يسبب أحياناً العمى، وأحياناً خثرة بالدماغ وأحياناً جلطة بالقلب، شلل، أخطر مرض يسببه الغضب ارتفاع الضغط المفاجئ.

إذا كان ارتفع الضغط بالدماغ سبب نزيف، ارتفع الضغط في القلب سبب جلطة، أكثر أمراض السكر تنتج فجأةً عن انفعال شديد يحرر كمية سكر كبيرة جداً من الكبد يطرحها بالدم ويختل طرح السكر في الجسم، والبنكرياس يفرز مادة يحرق بها السكر في درجة سبعة وثلاثين فإذا عجز البنكرياس عن هذه المادة ارتفع السكر بالدم إلى درجات عالية بالمائة خمسة وعشرين إلى أربع مائة وخمسين إلى ست مائة وخمسين أحياناً، ارتفاع السكر يؤدي إلى لزوجة الدم، هذه اللزوجة تؤدي إلى التجلط فبالدماغ عمى، شلل، في القلب إشكال.

لا تستغرب أكثر الأمراض العضالة تأتي عقب غضب شديد، أحياناً الغضب الشديد يرفع شحوم الدم، الذي معه ميل عصبي مستمر ترتفع شحوم دمه إلى درجة أنها تصيب أوعيته بالتصلب، والتصلب معنى ضعف القلب أو انتفاخ القلب.

الانفعال الشديد قد يصيب الأمعاء بالكسل، من لوازم الغضب الإمساك المزمن، كلام علمي مائة بالمائة، كلام بديهي من أولويات الطب، الغضب الشديد يؤدي إلى الإمساك، الغضب الشديد يؤدي إلى تصلب الشرايين، الغضب الشديد يؤدي إلى خثرة بالدماغ، الغضب الشديد يؤدي إلى عمى بالعين، الغضب الشديد يؤدي إلى جلطة بالقلب، هذه كلها من لوازم الغضب الشديد لأن الغضب الشديد يحث الغدة النخامية، تحث الكظر على إفراز ست هرمونات، واحد يسرع القلب والثاني يزيد وجيب الرئتين، والثالث يضيق لمعة الأوعية، ورابع يرفع الضغط، وخامس يطرح كمية سكر إضافية، وسادس يطرح هرمون التجلط، هذه كلها أعراض الغضب في الجسم.

((قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أربع من كن فيه وجبت له الجنة وحفظ من الشيطان، من يملك نفسه حين يرغب، ومن يملك نفسه حين يغضب، وحين يشتهي، وحين يرهب))

عند الخوف، وعند الرغبة، وعند الشهوة، وعند الرهبة، هو الدين كلها امتلاك للنفس، الدين كله ضبط للمشاعر.

أحد العلماء يقول إن أعظم شيء يدفع الغضب التوحيد، دقق الآن هذا الذي أغضبني، هذا الذي شتمني، هذا الذي تطاول علي هل فعل هذا من عنده أم الله سمح له ؟ الله سمح له، مكنه مني وقواه، والله عز وجل حكيم حكمة مطلقة وعادل، إذاً هو أداة بيد الله عز وجل، والله عز وجل كامل إذاً عندي مشكلة، انعكست.

سمعت قصة ذكرتها لكم كثيراً، رجل يوجد عنده محل أقمشة اختلف مع موظف عنده فطرده، الموظف أخبر عنه أنه يوجد عنده بضاعة غير نظامية والقصة قديمة فطبعاً المستودع دوهم، فإذا فيه بضاعة غالية جداً كلفوه والقصة من اثني عشر سنة بست مائة ألف ليرة، فانفعل صاحب المحل انفعالاً شديداً وعلم أن هذا ممن كان عنده، بساعة من ساعات الغضب أطلق عليه الرصاص فقتله، حكم ثلاثين سنة، بساعة غضب، لو كان حليم المبلغ الله يعوضه عليه بعد فترة، كان ينام مع أهله وأولاده، يوجد ألف حل أما حينما استجاب لغضبه فقد حريته ثلاثين عاماً، لو إنسان درس السجون لوجد أن معظم نزلاء السجون تورطوا بجرائم بساعة غضب، الغضب أعدى أعداء الإنسان.

لذلك استحضار التوحيد الحقيقي، مضمون التوحيد الحقيقي لا إله إلا الله وكل فاعل تراه عينك فهو آلة بيد الله، بربكم إذا إنسان لا سمح الله ضرب إنسان بعصاة، المضروب يغضب من العصاة أم من بيده العصاة هل من المعقول أن يصب غضبه على العصاة يكون مجنون، يغضب ممن ضربه لا من العصاة، إذا أيقنت أن كل إنسان أساء إليك هو أداة بيد الله انتهى الأمر، الله عز وجل رحيم وعادل وحكيم ولا يفعل إلا الخير، قال تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26))

(سورة آل عمران)

إذاً استحضار التوحيد أي إن الفاعل هو الله وحده وكل فاعل غيره آلة بيد الله عز وجل، قال تعالى:

(إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (90))

(سورة النساء)

أنت حينما إنسان يتجاوز حده معك، يقول أحد العارفين بالله: والله إني لأعرف مقامي عند ربي من أخلاق دابته، إذا أتعبته معنى هذا يوجد مشكلة مع الله.

ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله أكثر، الإنسان إذا غضب فليذكر الله يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم اللهم صلي على سيد المرسلين استحضر كلمات التوحيد وعندما تذكر الله يهرب الشيطان، الشيطان يفجر، الغاضب داخل فيه الشيطان يتفجر بذكر الله تهدأ النفس.

((حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ صُرَدٍ قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغْضَبًا قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ

قالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ لَوْ قالَ أعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ فقالُوا لِلرَّجُلِ ألا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: إنِّي لَسْتُ بِمَجْنُونٍ))

السنة أن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم عند الغضب هذه السنة، الآن علم النفس يؤيد السنة النبوية، قال ينصح علماء الطب النفسي الأشخاص الذين يتعرضون إلى الغضب الشديد إلى تمارين خاصة تؤدي إلى نتائج مذهلة هذه التمارين تسبب الاسترخاء.

هذا ماذا يقابله بالإسلام ؟ أن تستعيذ بالله عوض أن تعُد، حدثني طبيب قال لي: وجدنا بالطب إن الذين ينامون نوماً مديداً أكثر تعرضاً لأمراض القلب والأوعية والدم، والسبب الإنسان حينما ينام يضعف نبض قلبه قد يصل إلى خمسة وخمسين نبضة والاعتيادي ثمانين، وعندما القلب يضعف حركة الدم بطيئة في الشرايين وعندما تكون الحركة بطيئة يصبح ترسب، السائل إذا كان فيه أشياء عوالق وسريع تجري معه، فإذا أبطأنا السائل ترسب، فأحد أسباب ترسب المواد الدهنية على جدر الشرايين النوم المديد.

قال ينصح الأطباء الناس أن يقطعوا نومهم بعد أربع ساعات ليجروا بعض الحركات الرياضية أو ليجروا في الطريق ربع ساعة، يعني قم صلي الصبح في المسجد يعني ذهب إلى المسجد وصلى ورجع إلى البيت نام ولغى النوم المديد، أصحاب النوم المديد أكثر تعرضاً لتصلب الشرايين وتجلط الدم من غيرهم، معنى هذا أن الاستيقاظ صباحاً صحة لو يعلم الناس ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً.

والآية الكريمة:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200))

(سورة الأعراف)

من وصفات النبي الرائعة للغاضب أن يسكت، كل كلمة يتكلمها الإنسان الغضوب قنبلة، سوف يسب، ويسمع سب معاكس، وسوف يضرب ويتلقى ضرب معاكس الأمر انفجر، معه سكين ضربه بالسكين سال الدم، هذا الشيء الذي يحدث كل يوم، إذا غضبت فاسكت، من كلمة إلى كلمة يسب أبوها، تسب أبوه، بطلاق بالثلاث، يحللك شيخ يحرمك عشرة.

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَلِّمُوا وَيَسِّرُوا وَلا تُعَسِّرُوا وَإِذَا غَضِبْتَ فَاسْكُتْ وَإِذَا غَضِبْتَ فَاسْكُتْ وَإِذَا غَضِبْتَ فَاسْكُتْ))

هذه وصية، إذا غضبت فاستعذ بالله، قال تعالى:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200))

(سورة الأعراف)

هم يقولون عد إلى الثلاثين، وعوض أن تعد للثلاثين استعذ بالله، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، مرتين ثلاث يكونوا ثلاثين، الآن إذا غضبت فاسكت، الآن كلامك مخيف، كلامك قنابل، متفجرات، غضبت فقالت: لم أر منك خيراً قط، فطلقها لأنه هلكان في خدمتها.

جاءتني مداخلة طازجة، قال: البارحة في درعا وفي المحكمة الشرعية رجل حكم بنفقة وحضانة الأولاد لزوجته، كان معه سلاح فقتل زوجته بأربع رصاصات وقتل نفسه، البارحة الساعة السادسة مساءً والقاتل الزوج دفن الساعة السادسة والنصف مساءً.

ساعة غضب وكل إنسان معرض للغضب، المؤمن يستعيذ بالله، المؤمن إذا غضب يسكت، يوجد توجيه آخر، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أبِي ذَرٍّ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَنَا: إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلا فَلْيَضْطَجِعْ))

يوجد دكتور توفي رحمه الله متفوق جداً باكتشاف الإعجاز النبوي، باكتشاف دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام، هذا الطبيب اكتشف أن هرمون الغدة الكظرية الذي يسبب ارتفاع ضربات القلب وسرعة وجيب الرئتين وضيق الأوعية الدموية وارتفاع الضغط وزيادة السكر في الدم، وهرمون التجلط هذا الهرمون الذي يفرزه الكظر هذا الهرمون يزداد من ضعفين إلى ثلاث وأنت واقف وينخفض إلى الثلث وأنت جالس، طبيب توفي رحمه الله كنت أتابع مقالاته في المجلات الشهرية عنده باع طويل في كشف الدلائل العلمية للتوجيهات النبوية.

((إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلا فَلْيَضْطَجِعْ))

قال له اجلس هرمون الكظر يزداد ثلاثة أضعاف وأنت واقف، وينزل إلى الثلث وأنت واقف فإذا كنت واقفاً فاجلس، أولاً أسكت، ثانياً اجلس شيء ثاني يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: ذَكَرَ الأَخْلاقَ فَقَالَ يَكُونُ الرَّجُلُ سَرِيعَ الْغَضَبِ قَرِيبَ الْفَيْئَةِ فَهَذِهِ بِهَذِهِ وَيَكُونُ بَطِيءَ الْغَضَبِ بَطِيءَ الْفَيْئَةِ فَهَذِهِ بِهَذِهِ فَخَيْرُهُمْ بَطِيءُ الْغَضَبِ سَرِيعُ الْفَيْئَةِ وَشَرُّهُمْ سَرِيعُ الْغَضَبِ بَطِيءُ الْفَيْئَةِ، قَالَ وَإِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ تَتَوَقَّدُ أَلَمْ تَرَوْا إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ ذَلِكَ فَلْيَجْلِسْ أَوْ قَالَ فَلْيَلْصَقْ بِالأَرْضِ))

أحياناً يضعون قطعة حديد في الشاحنة إذا كان يوجد صاعقة تفرغ في الأرض، السيارة تكهرب أحياناً يكون فيها كهرباء ساكنة يضعون لها ذنب هذا الذنب يصرف الكهرباء في الأرض، فالنبي قال الصق خدك في الأرض، صار يوجد توتر صار ماس كهربائي، صار في صاعقة الصق خدك في الأرض إذا كنت غاضباً، هذا توجيه نبوي آخر، يعني اسجد لله، الصق خدك بالأرض يعني صلي ركعتين وقل يا رب أذهب عني الغضب.

عوض أن تقطع نومك بعد أربع ساعات وتعمل رياضة صلي الصبح في المسجد، عوض أن تعد إلى الثلاثين استعذ بالله من الشيطان الرجيم، وعوض أن تلصق خدك في الأرض برأي علماء النفس اسجد لله ركعتين.

كم نصيحة صاروا ؟ السكوت و الجلوس والاضطجاع، والالتصاق بالأرض، ثم واغتسل بالماء البارد، اغسل وجهك ويديك بحسب وصية النبي عليه الصلاة والسلام، فالغضب يتولد من الحرارة العامة والتعرق والإحساس بالضيق، يأتي الماء البارد يخفف هذه الأعراض وإذا كان الغضب شديداً أعمل حمام، الماء مريح يهدئ للأعصاب، والنبي قال فليغتسل، اسكت، وجالس، واضطجع، واسجد ركعتين لله.

أولاً، اسكت، استعذ بالله، اجلس، اضطجع، الصق خدك بالأرض صب على رأسك الماء البارد، اغتسل.

((حَدَّثَنَا أَبُو وَائِلٍ الْقَاصُّ قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى عُرْوَةَ بْنِ مُحَمَّدٍ السَّعْدِيِّ فَكَلَّمَهُ رَجُلٌ فَأَغْضَبَهُ فَقَامَ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ رَجَعَ وَقَدْ تَوَضَّأَ، فَقَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ جَدِّي عَطِيَّةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ))

يوجد شيء آخر إذا الأمر تفاقم أنت وزوجتك ماذا تفعل ؟ اخرج من البيت، أفضل شيء، إذا كان في غضب اخرج من البيت في محل تجاري اخرج من المحل، لأنه يوجد استفزاز.

هذه نصائح النبي وكلها نصائح علمية، سكوت لا يوجد كلمة قاسية ما جرحت أحداً، الاستعاذة بالله عددت إلى ثلاثين، جلست هبط هرمون الكظر إلى الثلث، اضطجعت وسجدت إلى الله فرغت الشحنة الكهربائية الساكنة ذهبت في الأرض، هذا كله من توجيهات النبي والعلم أكد هذا كله، يوجد خطر اخرج من البيت.

يقول بعض الأئمة الكبار أنما يعالج الغضب عند الهيجان بشيئين بالعلم والعمل، العلم ست أشياء، أن يتفكر المسلم في فضل كظم الغيظ فضيلة قربة إلى الله عز وجل:

((مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُنَفِّذَهُ دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ فِي أَيِّ الْحُورِ شَاءَ))

يوجد واحد ليس له مجلس علم اشترى طقم كنبات جميل جداً ابنه صغير عمره خمس سنوات مثل الوردة مسك شفرة ووضعها على القماش ففتح شيء جميل، فتح الطقم كله، جاء الأب ولم يتحمل أخذه الغضب أحضر يدي ابنه و وضعهما على الطاولة وضربهما بمسطرة، مساءً اسودت أصابع الغلام أخذ إلى المستشفى لابد من قطع الكفين، فلما علم الأب بذلك أطلق على نفسه الرصاص وقتل نفسه، ظفر ابنك يساوي مليون طقم.

((لا تضربوا إماءكم على كسر آنيتكم))

يوجد قصص مروعة سببها الغضب أعدى أعدائك الغضب إياك أن تغضب، تهدم شيء أعمرته بعشر سنوات، تهدم شيء معمر بعشرين سنة بغضب.

أولاً أن يتفكر المسلم في فضل كظم الغيظ وفضيلة العفو والحلم فيرغب في ثوابه فتمنعه شدة الحرص على ثواب الله أن يغضب.

الآن النبي وجد بعض أصحابه يضرب غلاماً:

((عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ كُنْتُ أَضْرِبُ غُلامًا لِي بِالسَّوْطِ فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ فَلَمْ أَفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ قَالَ فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي فَقَالَ: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلامِ قَالَ فَقُلْتُ: لا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا))

أنت مأخوذ بالغضب تذكر قدرة الله عليك، يجب أن تذكر نفسك بعقاب الله وقدرته عليك ويجب أن تحذر نفسك من عواقب الغضب وعواقب العداوة ونشر البغضاء بين من حولك، ويجب أن يتفكر المسلم في صورة قبح الغاضب.

أنا أتمنى إذا واحد غاضب أن نصوره دون أن يشعر صورة متحركة ونريه حاله، وحش، أين مكانته وهدوءه وشخصيته المتوازنة، وابتسامته المشرقة، إذا رأى نفسه وهو غاضب مجنون، الغضب ينقلك إلى مستوى حيواني.

الشيء الخامس أن يتفكر الغاضب بالسبب الذي يدعوه إلى الانتقام ويمنعه من كظم غيظه، قد يكون سبب تافه.

أدق فكرة في الموضوع الغاضب يجب أن يعلم أن هذا الشيء إذا جرى على مراد الله هو الحق، تريده أن يجري على مرادك، لا على مراد الله، الذي تحبه وتعبده وتعظمه هذا مراده سمح لإنسان أن يتطاول عليك، قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ لَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ وَكَانَ خَيْرًا وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ وَكَانَ خَيْرًا))

وكان عليه الصلاة والسلام إذا جاءت الأمور كما يشتهي يقول: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإن جاءت خلاف ما يشتهي يقول: الحمد لله على كل حال.

لأن لكل شيء حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطأه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

مراد الله أولى من مرادي، من الذي يغضب ؟ هو الذي يرفض مراد الله.

الآن العمل أن تقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كما أمرك النبي عليه الصلاة والسلام وأن تسكت، وإن كنت قائماً فلتجلس، وإن كنت جالساً فاضطجع، وأن تصلي ركعتين تمس جبهتك الأرض لتتفرغ الشحنة الكهربائية، ثم تتوضأ، ثم تغتسل، ثم تخرج من مكان الغضب

هذه النصائح الذي نصحنا بها النبي عليه الصلاة والسلام، والغضب أعدى أعداء الإنسان، والغضب ضعف في التوحيد، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، أنا علي أن أطيع الله والباقي على الله شاءت حكمة الله هذا، فالذي يرضى بقضاء الله وقدره هو موحد وهو الذي لا يغضب.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (111) :الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-10-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

هذا الدرس متعلق بخطبة الجمعة، في خطبة الجمعة عالجت موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبينت أن هذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الفريضة السادسة وأن علة خيرية هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن أعظم عمل على الإطلاق أن تكون سبباً في أخذ يد إلى الله عز وجل، تعريفه بالله، حمله على طاعته، وبذلك يسعد في الدنيا والآخرة ولكن المشكلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنه يحتاج إلى حكمةٍ بالغة لقول الله عز وجل:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (269))

(سورة البقرة)

قد ينطلق الإنسان ليأمر وينهى، ليعلم، ليبين، ليعظ، يفتقد الحكمة فيكون عمله غير متقبل لا عند الناس ولا عند الله عز وجل، لذلك هذا الدرس في تفاصيل عن أصول الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، لأن موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الموضوع الذي إن كان كما أراده الله عز وجل بقي الدين قوياً، إذا لم نأمر بالمعروف ولم ننهى عن المنكر تضاءلت دوائر الحق وحاصرتها دوائر الباطل، أما إذا أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر توسعت دوائر الحق وحاصرت دوائر الباطل لذلك في صورة العصر يعد التواصي بالحق ربع النجاة، الإنسان خاسر لا محال لأن مضي الزمن يستهلكه قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

(سورة العصر)

بإمكانك أن تتلافى هذه الخسارة المحققة حينما تنفق الزمن إنفاقاً استثمارياً لا إنفاقاً استهلاكيا، إنفاق الزمن إنفاق استثمارياً عن طريق الإيمان بالله والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، التواصي بالحق ربع أركان النجاة، ومرة ثانية وثالثة الدعوة لله عز وجل فرض عين على كل مسلم ولكن بشكل واقعي بسيط في حدود ما تعلم ومع من تعرف هذه فريضة العين، أما فرض الكفاية التبحر في العلم ومعرفة الأدلة التفصيلية، والقدرة على أن تدل على كل الشبهات والضلالات، والنظريات التي تعارض الدين هذا اختصاص،

قال تعالى :

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104))

(سورة آل عمران)

من للتبعيض، الدعوة إلى الله ومقدماتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هذه كاختصاص ولتكن منكم أمة، أما في حدود ما تعلم ومع من تعرف النبي عليه الصلاة والسلام قال: بلغوا عني ولو آية، يعني دوائر الحق لا تتسع ولا تحاصر دوائر الباطل ولا يبقى الحق قائم على قدمين إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأروع ما في موضوع المعروف أن النفس تعرفه، كلمة رائعة المعروف معروف عند النفوس السليمة معروف عند الإنسان قبل أن تطمس فطرته، والمنكر تنكره النفس.

((عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ وَابِصَةَ بْنَ مَعْبَدٍ صَاحِبَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: جِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْأَلُهُ عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ فَقَالَ: جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ فَقُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا جِئْتُكَ أَسْأَلُكَ عَنْ غَيْرِهِ، فَقَالَ: الْبِرُّ مَا انْشَرَحَ لَهُ صَدْرُكَ وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ عَنْهُ النَّاسُ))

فأنت تعرف المعروف فطرةً وتنكر المنكر فطرةً في الأصل، على كل هناك تداخل بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبين الدعوة إلى الله، وهناك تمايز وهناك تداخل، إن رأيت منكراً يجب أن تنهي عنه، وإن رأيت فرصة لمعروف ينبغي أن تأمر به، وإن أردت أن تمهد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عرف الإنسان بالله عز وجل عرفه بسر وجوده وغاية وجوده، وكلكم يعلم أن علة وجودنا في هذه الأرض أن نعمل صالحاً لأن العمل الصالح سبب دخول الجنة، قال تعالى:

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32))

(سورة النحل)

السبب شيء والثمن شيء آخر، الثمن لا يستطيع كائن من كان أن يدفع ثمن الجنة إنها محض فضل من الله عز وجل، أنت دخلك مائة ليرة ممكن أن تشتري مفتاح بيت ثمنه خمسين مليون، فهذا المبلغ خمسة عشرة ليرة، أما البيت ثمنه خمسين مليون، البيت قدم لك هدية فأنت بإمكانك أن تشتري مفتاح للبيت، كل عملك الصالح في الدنيا هو سبب لدخول الجنة وليس ثمن الجنة لأن الجنة محض فضل والعمل الصالح سبب لدخول الجنة، ادخلوا الجنة برحمتي واقتسموها بأعمالكم.

أيها الأخوة: كما تعملون العمل الصالح يقيم بنيته، إنما الأعمال بالنيات ويقيم بامتداد أثره، ويقيم باتساع رقعته، ويقيم بعمق أثره، فامتداد الأمد العمل الذي لا ينتهي عند موت صاحبه، هذا كلام دقيق جداً يعني المؤمن الصالح الموفق يحرص على عمل لا ينتهي عند موته بل يستمر من هذه الأعمال الذي يستمر

بعد الموت ترك أثر علمي، تعليم العلم، من هذه الأعمال التي تبقى بعد الموت الصدقة الجارية، من هذه الأعمال التي تبقى بعد الموت ولد صالح يدعو لأبيه، فأشياء ثلاثة خطيرة جداً صدقة جارية، مسجد معهد شرعي، ميتم، مستشفى، طريق يحل مشكلة المسلمين، مرفق حيوي، هذا الصدقة الجارية، العلم الذي ينتفع به علم ديني له أثر كبير في المجتمع، والولد الصالح الذي يدعو لأبيه، يعني صالح في أمر الآخرة، هذا تمهيد إلى الدرس يعني إذا استقر في أذهاننا أن أعظم عمل على الإطلاق أن تدعو إلى الله ومن لوازم الدعوة إلى الله أن تأمر بالمعروف وأن تنهى عن المنكر وإذا استقر في ذهنك أن هذه صنعة الأنبياء وأن النبي عليه الصلاة والسلام قد وصفه الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (45))

(سورة الأحزاب)

فإذا أردت أن تتحرك في طريق الدعوة إلى الله وهي فرض عين عليك أن تنتبه إلى هذه الملاحظات، لابد من أن يكون الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر رفيقاً، لطيفاً، مهذباً، رقيق المشاعر، حكيماً لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ))

علموا ولا تعنفوا فإن المعلم خير من المعنف، دائماً حتى في علم النفس يقول لك التكيف، التكيف أن تصل إلى هدفك بأيسر السبل وبأقل الخسائر وهذه هي الحكمة، أنا أنص زيداً أو عبيداً نصيحة خفيفة أحمله على تنفيذ هذه النصيحة من دون تعنيف، من دون توبيخ، من دون جرح، من دون كلمة قاسية، هذه طبيعة النفس، ذكر عبادي بإحساني إليهم فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها، التلطف بالكلام والرقة بالتعبير والنصيحة الهادئة بينك وبينه، ولفت النظر اللطيف الذكي هذا الذي يطلب من الداعية حتى تكون دعوته عند الناس.

((إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ))

هذا الحديث في صحيح مسلم، ويوجد حديث آخر أيضاً في صحيح مسلم:

((عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلا زَانَهُ وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلا شَانَهُ))

هذه الغلظة وهذه التعبيرات القاسية أمام الناس، أحياناً الأب يضرب ابنه أمام أخوته على تقصير في واجب ديني ضرباً مبرحاً، النفس حساسة جرحت، حطمت، ما هكذا يدعى إلى الله عز وجل، ما هكذا نأمر أولادنا بشكل عنيف منفر.

((عَنْ جَرِيرٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ))

العنف ممنوع في الدين، نحن مع كل هذا الرفق اسمنا الإرهابيين عند الأجانب ومتهمين بالإرهاب وبهذه الدعوة اللطيفة، فكيف إذا كان فعلاً عنيفين، طبعاً أنت مكلف أن تحبب الناس بهذا الدين.

أخوانا الكرام: نحن الآن أمام آية والله لا أرتوي من معانيها قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159))

(سورة آل عمران)

يعني هذا قانون، صار اتصال بالله من خلال هذا الاتصال استقرت رحمة في قلب المؤمن، يوجد بقلبه رحمة من خلال اتصاله بالله، هذه الرحمة منعكسها السلوكي اللين واللطف، يعني بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد كنت ليناً لهم، فاللين دليل الرحمة، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159))

(سورة آل عمران)

يعني فرضاً لو كنت منقطعاً عن الله لكان قلبك قاسياً، منعكس القسوة لكنت فظاً غليظ القلب، عندئذ ينفض الناس من حولك، فالقضية واضحة كالشمس قانون جامع مانع، اتصال، رحمة لين التفاف، انقطاع قسوة غلظة انقباض.

مرة ثانية وثالثة أقول لكم الناس رجلان، رجل سلاحه الكمال ورجل سلاحه القوة، صاحب الكمال يملك القلوب وصاحب القوة يملك الرقاب وشتان بين من يملك القلوب وبين من يملك الرقاب، أنت بلطفك ورحمتك، وإنفاقك، وتواضعك، تملك قلوب الآخرين وهذه أكبر ثروة تملكها أن يلقي الله حبك في قلوب الخلق، وما أخلص عبد لله إلا جعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودة والرحمة.

جرب يعني في بعض الحلقات الدينية يجب أن تحب كأن الحب شيء إرادي، الحب شيء لا إرادي، الحب شيء لا تملكه أنت، أنا أقول للذي يقول أحبني، أقول له: كن كاملاً أحبك، فإذا كنت كاملاً أحببتك دون أن أشعر ونهجت بذكرك دون أن أشعر.

مرة أخو أحد أخوانا الكرام حج فذهبت لتهنئته، هو لم ينتبه حدثنا عن رئيس الفوج دقيقة دقيقتين عشر دقائق نصف ساعة وهو مسترسل في الحديث عن هذا الإنسان، عن ورعه، استقامته، إتقانه لعمله، عفته عن أموال الآخرين، حساباته الدقيقة، دفع كما يدفع أي إنسان، فأنا داعبته فقلت له: هو كلفك أن تتحدث عنه، فقال: لا والله، قلت لهم: انظروا إلى الكمال ولأنه كان كامل دون أن يشعر حدثنا عنه نصف ساعة، وأنا سعيد بهذا الحديث.

أنت كن كاملاً الناس ينهجوا بمديحك، لا تقول لهم أحبوني هذا كلام فارغ، أنا حينما آتي بمنحدر لكن لن أفعلها أمامكم، وآتي بكأس ماء وأصب ماءه على هذا المنحدر الماء سوف ينحدر قل لهذا الماء لا تنحدر هذا كلام فارغ، قل للماء انحدر كلام فارغ، إن قلت له انحدر هو سوف ينحدر من دون كلام، وإن قلت له لا تنحدر سينحدر، أنت كن كاملاً يحبوك الناس، لا تقل لهم أحبوني كلام فارغ كن كاملاً معهم يحبوك فإن لم تكن كذلك لا يحبونك، فأنقص نقصاً ولو أولته بألف تأويل وتأويل، والكمال لا يحتاج إلى تأويل، الكمال لا يحتاج إلى لفت نظر، أما النقص مهما حاولت أن تؤوله يبقى نقصاً قضية الحب قضية لا شعورية، قضية عفوية، قضية منسجمة مع النفس، من خصائص النفس، الإنسان يحب المتواضع، يحب الكريم، يحب العالم، يحب الدقيق، يحب المنصف، والإنسان كما تعلمون يحب الجمال والكمال والنوال، القاضي العادل محبوب وما أخلص عبد لله إلا جعل قلوب المسلمين تهفو إليه بالمودة والرحمة، هذه أول آية، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159))

(سورة آل عمران)

أنت لاحظ الآن سوف أعمق، حتى لو كنت أباً والعلاقة بين الأب وابنه علاقة من خلق الله عز وجل ومع ذلك هناك ابن يكره أباه، إذا كان قاسي، ظالم، غير منصف، إذا ما أكرمه، إذا ما أعطاه، إذا ما اعتنى فيه، وهناك ابن يذوب في رحمة أبيه بالكمال، حتى العلاقات الأسرية الفطرية هذه الكمال يزيدها والنقص يبعدها، أنا متأكد هناك شخص إذا دخل بيته صار الجو عبوساً قمطريراً، وإذا خرج من بيته تنفس أهله الصعداء، الحمد لله إن شاء الله يطول، ويوجد أب إذا دخل بيته يصبح عيد من كماله، وكان عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيته بساماً ضحاكاً، وكان عليه الصلاة يكرم النساء يقول: أكرموهن فإنهن المؤنسات الغاليات، وكان إذا دخل بيته واحد من أهل بيته، وكان الحسن والحسين يرتحلان النبي أثناء السجود.

فالكمال هو الذي يأثر القلوب، دقق في هذا الكلام يوجد قوي ويوجد نبي والناس جميعاً أتباع قوي أو نبي، أتباع النبي سلاحهم الكمال، وأتباع القوي سلاحهم القوة، أتباع النبي ملكوا القلوب وأتباع القوي ملكوا الرقاب هذا كلام دقيق، الآية الثانية:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (128))

(سورة التوبة)

الرحمة شيء، أبعد قلب عن الله القلب القاسي، وأقرب قلب إلى الله القلب الرحيم، الراحمون يرحمهم الله، والراحمون معرضون إلى الرحمة.

من أنفسكم لولا أن النبي عليه الصلاة والسلام بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، العلماء قالوا النبي عليه الصلاة والسلام أرحم الخلق بالخلق قاطبةً.

فرعون أيها الأخوة من أكفر كفار الأرض، فرعون قال أنا ربكم الأعلى، فرعون ذبح أبناء بني إسرائيل واستحيا نسائهم، فرعون قال ما أرى من إله غيري ومع ذلك قال تعالى:

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44))

(سورة طه)

يعني لا يوجد إنسان مثل فرعون ولا داعية مثل سيدنا موسى ومع ذلك سيدنا موسى أمر أن يكلم فرعون بكلام لين.

الإمام أحمد يقول: الناس بحاجة إلى مداراة ورفق بالأمر بالمعروف بلا غلظة، المداراة أيها الأخوة بذل الدنيا من أجل الدين والمداهنة بذل الدين من أجل الدنيا، المداهنة انحراف خطير بالإنسان، أما المداراة كمال كبير رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس.

كان أصحاب ابن مسعود إذا مروا بقوم يرون منهم ما يكرهون قالوا: مهلاً رحمكم الله، وقال بعضهم: ما أغضبت رجلاً فقبل منك، يعني إن أغضبت الإنسان ما قبل منك، الإنسان له كرامة، له مشاعر إذا قسوت عليه يركب رأسه ويرفض كلامك ويتحداك.

وقال بعضهم: ما أغضبت رجلاً فقبل منك، إن أسمعتموه ما يكره عندئذٍ ينتصر لنفسه ويرفض نصيحتكم.

أخوانا الكرام: عندنا نماذج قرآنية مذهلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله، نبدأ بالنموذج الأول نموذج سيدنا موسى مع فرعون، فرعون الذي يقول ما علمت لكم من إله غيري، قال تعالى:

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)

(سورة القصص)

قال الله عز وجل:

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآَخِرَةِ وَالْأُولَى (25))

(سورة النازعات)

يقول أناس لما ما أخذه نكال الأولى والآخرة بالتسلسل والترتيب، فرعون في الأولى قال ما علمت لكم من إله غيري، كلام كفر لكن فيه بعض التحفظ يعني في حدود علمي ما علمت لكم من إله غيري، أما في المرة الثانية قال: أنا ربكم الأعلى، فالله عز وجل بدأ بالأكثر كفراً قال تعالى:

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآَخِرَةِ وَالْأُولَى (25))

(سورة النازعات)

(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52))

(سورة الزخرف)

(قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29))

(سورة الشعراء)

هذا كله كلام فرعون، قال تعالى:

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى (71))

(سورة طه)

هذه أقوال فرعون في القرآن الكريم، قال تعالى:

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26))

(سورة غافر)

هذا الإنسان الطاغية، الجبار، المتكبر، المتغطرس، الذي ادعى الألوهية، وادعى الربوبية، وتكلم بأقصى الكلمات على دعوة سيدنا موسى ماذا قال الله لسيدنا موسى وهارون أن يقولا لهذا الطاغية ؟

(فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44))

(سورة طه)

وفي آية ثانية:

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24))

(سورة طه)

لذلك يروى وهذه سمعتموها مني كثيراً أن واعظ أراد أن يعظ أميراً فقال له إني سأعظك وأغلظ عليك، فقال له: ولما الغلظة يا أخي لقد أرسل الله من هو خير منك إلى من هو شر مني، أرسل موسى إلى فرعون، ومع ذلك قولا له قولاً ليناً.

سيدنا عمر مرة له صديق انتكث وشرب الخمر وفعل الموبقات أرسل له رسالة قال: أحمد الله إليك غافر الذنب قابل التوب إلى آخره، فهذا الشخص العاصي الغارق بالشهوات قرأ الرسالة وبكى وبكى حتى تاب فقال رضي الله عنه هكذا افعلوا مع أخيكم إذا ضل كونوا عوناً له على الشيطان ولا تكونوا عوناً للشيطان عليه.

يوجد إنسان يكون إنساناً يضطرب يعطيه نصيحة قاسية يسب الدين، مهلاً هذا مضطرب يحتاج إلى هدوء، يحتاج إلى سعة صدر، يحتاج إلى استيعاب، فلذلك سيدنا موسى وقف الموقف الكامل، قال تعالى:

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44))

(سورة طه)

أسلوب العرض، هل لك أتحب، الدعاة ليسوا أوصياء، قال بعض الدعاة إلى الله: نحن لسنا قضاة لكننا دعاة، لسنا قضاة نحكم على الناس نوزع ألقاب الكفر على الناس نحن دعاة، وكلما كان الداعية متلطفاً خفيف الظل لين العبارة له ملاحظة شديدة كلما أكثر توفيقاً.

هكذا سمعت مرة في اجتماع رسمي وطبعاً في رمضان ممنوع تقديم الضيافة وهذا شيء طبيعي في كل الدوائر، يوجد رجل أرعن لا يوجد ضيافة، فمدير الاجتماع طلب الآذن وقال له: يوجد عندك ضيافة، فقال له: سيدي رمضان، فالمدير سمعه أنه رمضان من الآذن.

يوجد أسلوب ذكي جداً في نقل المعلومات، الإنسان يتلطف ممكن أن تصل إلى كل أهدافك بشكل لطيف غير مؤذي وغير جارح، ما قال له هل لك أن أزكيك ثقيلة، قال تعالى:

(فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (18))

(سورة النازعات)

اللهم صلي عليه له موقف شيء لا يصدق، بعد أن وصل النبي عليه الصلاة والسلام إلى أعلى درجة في القوة فتح مكة ودانت له الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها وانتصر على هوازن، جاء أحد أصحابه وقال له إن قومي وجدوا عليك في أنفسهم، أول سؤال سأله رسول الله قال له: يا سعد أين أنت من قومك، أنت ما موقفك، هل أنت ناقل فقط أم أنت متبني رأيهم، سيدنا سعد صريح، قال له: ما أنا إلا من قومي، الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمنين الصادقين وكلهم إلى إيمانهم، ففي رأي لطيف جداً أن هؤلاء الأنصار القضية ليست قضية غنائم، القضية أنه من أعطاه الرسول شيئاً هذا شرف له وما أخذوا شيئاً فتألموا، فقال له: اجمع لي قومك، الآن دققوا في هذا التحليل، النبي قوي جداً لو أنه فعل كما يفعل الأقوياء ألغى وجودهم كان من الممكن طبعاً لا يفعل هذا قوي أبداً، لكن ضمن إمكانيته.

الحل الثاني لو قال إن هؤلاء منافقون أنهاهم وأهدر كرامتهم، الأول ما فعله والثاني ما فعله، لو أهملهم، كثير من الأشخاص يقول كذا دعه وشأنه، والثالثة ما فعلها، لا ألغى وجودهم ولا أهدر كرامتهم ولا أهملهم.

لو أنه عاتبهم لصالحه وهذه ما فعلها، جمعهم وهو في أعلى درجات القوة وهو متمكن، ماذا قال لهم ؟ ذكرهم بفضلهم عليه قال: ألا إنكم لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم به، أتيتنا مكذباً فصدقناك، طريداً

فأويناك وعائلاً فأغنيناك، أنتم لكم فضل علي أنا كنت طريد أنتم أويتموني، أنا كنت فقيراً أنت أغنيتموني، أنا كنت مكذباً أنتم صدقتموني، قال: يا معشر الأنصار ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي، أنا أداة، عالة فأغناكم الله، يا معشر الأنصار أوجدتم علي في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوم ليسلموا ووكلتكم لإسلامكم، ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، قال: فبكوا حتى أخضلوا لحاهم ينقط الدمع من لحاهم من شدة البكاء.

ما هذا الكمال ؟ كان بإمكانه أن يلغي وجوده، وكان بإمكانه أن يهدر كرامتهم، وكان بإمكانه أن يهملهم، وكان بإمكانه أن يعاتبهم، جمعهم وذكرهم بفضلهم عليه ثم تلطف معهم وقال لهم ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي، علقت على هذه القصة تعليق مرة قلت: كان الله في عون كتاب السيرة هذه القصة أين مكانها في السيرة مع رحمته، أم مع حكمته، أم مع وفائه، أم مع حسن سياسته، هذه منتهى الرحمة ومنتهى الوفاء، ومنتهى الحكمة ومنتهى حسن السياسة، لذلك أبو سفيان لما فتحت مكة نظر وقال: يا بن أخي ما أعقلك، وما أرحمك وما أحكمك، وما أوصلك، سوف أقول آيتين قال تعالى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (77))

(سورة النساء)

ما هو متاع الدنيا يملك ثلاثة آلاف مليون هذا ميكروسوفت وصلت ثروته إلى أربعين مليار دولار، وعمره دون الأربعين سنة، الله سماه متاع قليل، قال تعالى:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (269))

(سورة البقرة)

الله يقول لك متاع الدنيا قليل، ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً أنت في الحكمة تحسن التصرف بالمال القليل ومن دون حكمة تتلف المال الكثير، بالحكمة تصلح الزوجة السيئة، من دون حكمة تفسد الزوجة الصالحة، بالحكمة تكسب الأصدقاء، من دون حكمة تخسر الأصدقاء الحميمين بكلمة قاسية.

بالمناسبة إذا الإنسان استلهم من الله الحكمة يا رب ارزقني الحكمة، يا رب اهديني إلى الصواب، يا رب وفقني في كلام سديد، إذا الإنسان قبل أن يقول كلمة استعان بالله من كلمة طائشة، من كلمة قاسية، من كلمة حمقاء، بصراحة يا أخوان وهذا الكلام دقيق جداً مائة أسلوب ذكي ومخلص، وحكيم تشد إنسان لك، وكلمة واحدة قاسية تبعده عنك، الهدم سهل جداً، بناء اثني عشر طابقاً تحتاج إلى عشر سنين بين رخصة وأساسات، عظم، بلوك، طينة، بلاط، نوافذ، أبجورات، الماء، الكهرباء، المدخل، الآن يوجد قنابل لهدم الأبنية تعمل ضغط داخلي خلال ثواني هذا البناء الذي استغرق بناءه عشر سنوات يتهاوى بأربع ثوان من الداخل، أسلوب معين عوض أن تنهدم إلى الخارج تهدم إلى الداخل.

التخريب سهل، الكلمة القاسية سهل جداً أن تقولها، وسهل جداً أن تفعل أشر فعل، أما كلمة طيبة وموقف حكيم وزيارة وسؤال واستخبار بالهاتف حتى هذا الإنسان تشده لك، تنفير الناس سهل لا يحتاج إلى بطولة يحتاج فقط إلى حماقة، أما تقريب الناس إلى الله يحتاج إلى جهد كبير.

عندنا موقف ثاني موقف رائع جداً، موقف مؤمن فرعون، لما قال فرعون لسيدنا موسى، قال تعالى:

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26))

(سورة غافر)

ماذا قال هذا المؤمن الذي يكتم إيمانه ؟

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28))

(سورة غافر)

من علامات آخر الزمان موت كعقاس الغنم، لا يدري المقتول لما قتل ولا القاتل فيما يقتل، لا القاتل يعلم فيما يقتل، الآن بالسرب مثلاً تطهير عرقي هل ارتكبوا جريمة ؟ لا لأنه مسلم فقط، بتاريخ البشرية يوجد قتل لأنه مجرم يقتل، مثلاً انتهك حرمات إنسان يقتل، سلب مال يقتل، أما لأنه مسلم يقتل، والطرف الثاني يسكت على هذه المجازر أشهر وبعد أن تتم يعمل تصريح انزعاج سوف نعمل استعراض طيران، تمثيل سخيف، تمثيل واضح جداً، بعد أن انتهت المجزرة وذهب ألوف المسلمين قتلاً سوف يوجهون إنذاراً إلى زعيم السرب حتى لا يعمل مجزرة أخرى، ويهددوه أنهم سوف يحاكموه بلاهاي، تنظر فتجد هناك تآمر على المسلمين في العالم كله.

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28))

(ورة غافر)

هو جاء بهذا الكلام إن كان صادق انتفعتم به، وإن كان كاذب عليه كذبه بدأ بأنه كاذب حتى يرتاحوا، العوام لهم كلمة رائعة، تعال ضدي وخلصني.

إذا جاء بكلام وكان صادق معنى هذا أنكم أمام مسؤولية كبيرة جداً، أما إذا كان كاذب الله يحاسبه، انظر ما قال لهم أنتم مسرفون أنتم كاذبون، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28))

أنت ممكن أن تقول كلام غائب، هذا في الدعوة لطيف جداً، الإنسان إذا عصى الله، الله يدمره، إنسان يقول إذا عصيتم الله، الله يدمركم هذا غلط، دع لهم وقار، لا تتكلم بالمخاطب، تعلموا أصول الحديث إذا قال إن الله لا يهديكم لأنكم مسرفون كذابون العبارة قاسية جداً، الداعية يستخدم حاجات الإنسان الأساسية، كل واحد منا له حاجات أساسية، السلامة أن لا يمرض، السعادة أن يكون سعيد في بيته، أن يكون دخله كافي، له مكانة، أنت حينما تؤكد للإنسان أن بالاستقامة الله عز وجل يرزقك، قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96))

(سورة الأعراف)

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً (16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً (17))

(سورة الجن)

كل إنسان عنده حاجات أساسية حاجة الرزق، السلامة، الأمن، قال تعالى:

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

(سورة الأنعام)

إذا أنت استعنت بحاجات الإنسان الأساسية للأمن، للرزق، للسعادة، استخدمتها استخدام حسن.

يقول أب لابنه إذا لم تستيقظ على صلاة الفجر سوف أضربك، هذه واحدة التوجيه الثاني إذا أحدكم استيقظ يا أولادي على صلاة الفجر له عندي مكافأة عشر ليرات، بين الطفل يستيقظ وهو راغب بالجائزة وبين أن ينام مقهور ويخاف من الضرب، فرق كبير جداً بينهما دائماً استخدم أنت حاجات الإنسان الأساسية.

ملك رأى مناماً مزعجاً فأحضر مفسراً للمنام، أن هذا المنام معناه أنك سوف تموت، فقتله الملك، وواحد آخر قال له: كل الذين حولك سوف يموتون قبلك، هو نفس المعنى، الأول قاله بشكل والثاني بشكل آخر، الصيغة الثانية مقبولة، أيام الإنسان يحتاج إلى حكمة، قال تعالى:

(يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29))

(سورة غافر)

ذكرهم بنعمة أنهم لهم الملك، إن لم تؤمنوا بهذه الدعوة هذا الملك قد يذهب منكم، استعان بالحاجات الأساسية، ثم ذكرهم بالمستقبل، قال تعالى:

(يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29))

(سورة غافر)

(وَقَالَ الَّذِي آَمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30))

(سورة غافر)

ذكرهم بالعبر السابقة، قال تعالى:

(مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ (31)

(سورة غافر)

(وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33))

(سورة غافر)

أنا أتمنى أن نستخدم أسلوب القرآن في الحوار وفي الدعوة إلى الله وفي الأمر بالمعروف وفي النهي عن المنكر، وهناك أسلوب ثاني، قال تعالى:

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24))

(سورة سبأ)

النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق وحبيب الحق يخاطب الكفار يعني الحق كرة عندنا أو عنكم، نزل مستواه إلى مستوى كافر مشرك هكذا.

يوجد أسلوب أبلغ، قال تعالى:

(قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25))

(سورة سبأ)

نحن أجرمنا، النبي عليه الصلاة والسلام، هذا أسلوب القرآن الكريم، بالنهاية أنت هدفك تحطمه أو تهديه إلى الله عز وجل ؟ إن أردت تحطيمه كن قاسياً ما شئت، أما إن أردت هدايته يجب أن تختار أجمل عبارة وألطف أسلوب وأدق ملاحظة وأسلوب الغائب، واستعن على هدايته بحاجاته الأساسية من حب للسلامة، والسعادة، والرزق، وللأمن هكذا، بقي فقرة بسيطة جداً.

((عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ..))

حديث عهد عطس رجل فقال له يرحمك الله.

((فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ فَقُلْتُ وَا ثُكْلَ أُمِّيَاهْ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ...))

رجل شاهد قطة وهو يصلي فقال لها بس، بس وهو يصلي فقال له الذي بجانبه كيف تقول هكذا للقطة، فقال له كلكم تكلمتم بالصلاة.

((فَقُلْتُ وَا ثُكْلَ أُمِّيَاهْ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ قَالَ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونِي لَكِنِّي سَكَتُّ فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ وَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلا شَتَمَنِي وَلا ضَرَبَنِي قَالَ إِنَّ هَذِهِ الصَّلاةَ لا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلامِ النَّاسِ هَذَا إِنَّمَا هِيَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ))

يعني بدوي عطس قال له يرحمك الله فنظروا إليه، فقال لهم ماذا فعلت أثناء الصلاة وخاف من النبي والنبي لم يفعل معه شيء.

رجل قال للنبي صلى الله عليه وسلم ائذن لي بالزنا:

((عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ قَالُوا: مَهْ مَهْ، فَقَالَ: ادْنُهْ فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، قَالَ فَجَلَسَ، قَالَ: أَتُحِبُّهُ لأُمِّكَ قَالَ: لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأُمَّهَاتِهِمْ قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لابْنَتِكَ، قَالَ: لا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ: وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ،قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ، قَالَ: لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأَخَوَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ، قَالَ: لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَ لا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ، قَالَ: لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالاتِهِمْ، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ))

بالمنطق، رجل دخل المسجد وبال:

((عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ وَهُوَ عَمُّ إِسْحَقَ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَهْ مَهْ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا تُزْرِمُوهُ دَعُوهُ فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلا الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالصَّلاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فَأَمَرَ رَجُلاً مِنَ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ))

((عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَلاةٍ وَقُمْنَا مَعَهُ فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ وَهُوَ فِي الصَّلاةِ اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا فَلَمَّا سَلَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لِلأَعْرَابِيِّ لَقَدْ حَجَّرْتَ وَاسِعًا يُرِيدُ رَحْمَةَ اللَّهِ))

اللهم صلي عليه كان في أعلى درجة من الأدب والتواضع، رجل قال له أعطني من هذا المال فهو ليس مالك ولا مال أبيك، قال له: صدق إنه مال الله.

رجل جذبه من ردائه حتى أثر على رقبته الشريفة، قال: دعوه، علمنا الأدب والاحتمال، والتلطف، والرحمة، والصبر، وسعة الصدر، هذه كلها من أخلاق النبي اللهم صلي عليه

أيها الأخوة: أنا أعتقد أن طموح كل واحد منكم أن يسمح الله له بهداية إنسان على يده، هذه الهداية تحتاج إلى رقة، إلى حكمة، إلى مودة إلى كلمة لطيفة، إلى خدمة، إلى معاونة، إذا أردت أن تأخذ بيد إنسان إلى الله يجب أن تكون كاملاً معه ولطيفاً وأن تتخذ الكلمة الألطف، لأن الله عز وجل قال:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125))

(سورة النحل)

فرق بين الموعظة الحسنة، وبين وجادلهم بالتي هي أحسن، الكلمة الحسنة حسنة أما الأحسن، إذا في مائة كلمة حسنة يجب أن تختار الأحسن في الجدال يوجد قضية نفوس، يوجد واحد منتصر والثاني منهزم، إذا لم يكن جدال أستخدم الكلمة الأحسن، بالدعوة إلى الله الموعظة الحسنة.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (112) :حلاوة الإيمان .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-10-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

من التعريفات الجامعة المانعة للدين أنه نقل عن الله عز وجل، فهذا الذي يسمي الإسلام تراث إنسان جاهل، تراث أرضي أما ديننا وحي من الله، من خالق الكون، فلذلك الدين نقل ولأن الدين نقل أخطر ما في النقل صحة النقل، وأخطر ما في النقل فهم النقل، العقل علاقته بالنقل له دور قبل النقل ودور بعد النقل، دوره قبل النقل التأكد من صحة النقل، ودوره بعد النقل فهم النقل، يعني فهم النص هذه نعمة من نعم الله الكبرى أن تفهم النص كما أراده الله عز وجل مع أن هناك علوماً راقية جداً لفهم النصوص ولاستنباط الأحكام الشرعية هذه العلوم من أرقى العلوم الشرعية هي علوم أصول الفقه.

كيف تستنبط المعنى الدقيق والحكم الشرعي والإشاري من النص، على كلٍ في هذا الدرس اخترت لكم نصاً ألقيته على مسامعكم كثيراً ولكن قد يسأل أحدكم لماذا تعيد نصاً تلوته على مسامعنا ؟ الإنسان أحياناً يذكر نصاً دون شرح، أو بشرح بسيط أما حينما يجعل النص محوراً لدرس لابد من أن تقف على جزئياته ودقائقه وقفة متأنية.

كنا في الجامعة أستاذ النصوص الأدبية كان يمضي ساعتين في شرح بيتين فقط، فهم النص شيء دقيق جداً وقد ورد في القرآن الكريم:

(وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6))

(سورة يوسف)

وقد ورد في الحديث الصحيح: إلا أن يؤتى فهماً في كتاب الله.

فالإنسان عندما يفهم النص الشرعي فهماً عميقاً أصولياً هذه نعمة كبرى بالمناسبة الدين نقل وكل دروس العلم في الحقيقة بشكل أو بآخر شرح لهذا النقل، الحديث اليوم:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

لماذا ينصرف الناس عن الدين، لماذا لا يدخل الناس في دين الله أفواجاً ؟ لأنهم ما ذاقوا حلاوة الإيمان، تعرفوا إلى حقائق الإيمان ومعرفة حقائق الإيمان شيء وأن تذوق حلاوة الإيمان شيء آخر وشتان بين المستويين، أن تعرف حقائق الإيمان شيء وأن تذوق حلاوة الإيمان شيء آخر.

قد تجد إنساناً في جامعة غربية قد يكون يهودياً، ذكي جداً يحمل أعلى الشهادات وصل إلى حد كبير من الإطلاع وقد يمنح شهادات في الشريعة هذا وصل إلى حقائق الإيمان، النظرية التي قرأها في الكتب، أما أن يذوق حلاوة الإيمان هذا له طريق.

أريد أن أقول لكم بادئ ذي بدء، أنه فرق كبير كبير كبير بين أن تعرف حقائق الإيمان وبين أن تذوق حلاوة الإيمان، مليار ومائتا مليون مسلم يعرفون حقائق الإيمان، ولو أن من هؤلاء، لو أن اثني عشر ألف منهم ذاقوا حلاوة الإيمان لن يغلبون في الأرض.

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُ مِائَةٍ وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلافٍ وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

فالعبرة أن تصل إلى الله كي تذوق حلاوة الإيمان لا أن تبقى في حدود المعرفة النظرية، أنا من باب التعليق على كلمات نسمعها كثيراً أنه فلان يوجد عنده خلفية إسلامية، فلان يوجد عنده أرضية إسلامية، فلان يوجد عند اتجاه إسلامي، نزعة إسلامية، فلان ثقافته إسلامية، هذا كله ثقافة معلومات أما حلاوة الإيمان شيء آخر، حلاوة الإيمان لا تذوقها إلا إذا اصطلحت مع الله، حلاوة الإيمان لا تذوقها إلا إذا آثرته على كل شيء، حلاوة الإيمان لا تذوقها إلا إذا استقمت على أمره، أما حلاوة الإيمان شيء لا يصدق، والله لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف، هذه الأحوال الذي عاشها الصحابة الكرام شيء لا يصدق، يعني خبيب بن عدي كان يعذب قبل أن يقتل، قال له أبو سفيان: أتحب أن يكون محمد مكانك وأنت معافى في أهلك، اسمعوا ماذا قال لأنه ذاق حلاوة الإيمان، قال: والله لا أحب أن أكون في أهلي ومالي وولدي، جالس في غرفة الجلوس زوجته أمامه متزينة أولاده أمامه، وعندي عافية الدنيا ونعيمها، صحة طيبة وتناول طعام العشاء والمكيف يعمل، وباقة ورد، وعصير وموالح، جالس ومرتاح والله لا أحب أن أكون في أهلي وولدي وعندي عافية الدنيا ونعيمها ويصاب رسول الله بشوكة، هؤلاء الذين ذاقوا حلاوة الإيمان هذا موقفهم.

صحابي جليل كان ينازع في أرض المعركة، قال له الذي كلفه النبي أن يتفقده: يا سعد أنت بين الأحياء أم بين الأموات، قال له: أنا مع الأموات أبلغ رسول الله مني السلام وقل له جزاك الله خير ما جزى نبياً عن أمته، وقل لأصحابه لا عذر لكم إذا خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف، وهو ينازع ذاق حلاوة الإيمان.

امرأة رأت زوجها قتيلاً، وابنها قتيلاً، وأباها قتيلاً، وأخيها قتيلاً، تقول ما فعل رسول الله، فلما وقعت عينها على النبي قالت: يا رسول الله كل مصيبةٍ بعدك جَلَد، أي تهون.

أخوانا الكرام: الصحابة بضعة آلاف فتحوا الدنيا لأنهم ذاقوا حلاوة الإيمان، درسنا اليوم حلاوة الإيمان، الحقائق بالكتب موجودة، تفتح كتب العقيدة، كتب السيرة، كتب الفقه، كتب الحديث، أصول الفقه، علم العقيدة، التاريخ الإسلامي، تاريخ التشريع، شيء لا ينتهي ملايين الكتب، أما حينما تجاهد نفسك وهواك وحينما تؤثر طاعة الله على كل شيء يكرمك الله إكراماً لا يوصف بأن يذيقك حلاوة الإيمان، حلاوة الإيمان أن تصل إلى الله، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِيِ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمَانِ...))

الإيمان له حلاوة يذوقها، ما الذي يدفع المؤمن إلى طاعة الله، المرأة محببة، ما الذي يحملك على غض البصر ؟ كن واقعي أن تطلق البصر هذا شيء يتفق مع الطبع أن تستمتع بمحاسن النساء الكاسيات العاريات هذا شيء يتوافق مع طبع الإنسان لكن يتناقض مع التكليف، التكليف عليك أن تغض البصر كأن حلاوة الإيمان لا يمكن أن تصل إليها إلا إذا خالفت نفسك وهواك، قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40))

(سورة النازعات)

أنت حينما تذوق حلاوة الإيمان تفعل الأعاجيب، شيء لا يصدق الذي فعله الصحابة الكرام، محبتهم كانت فوق التصور لأنهم ذاقوا حلاوة الإيمان، أيام ترى شخصاً دكان صغير بطرف السوق يجلس فيها اثني عشر ساعة، إذا كل يوم الغلة عشرة آلاف ليرة، مائة ألف مائتان ألف تراه الدكان أصبحت جنة له، فبحسب الوارد تتعلق.

أيها الأخوة: شبه الإيمان بشيء مادي له طعم وطعمه حلو وأضيف هذا الطعم إلى الإيمان، حلاوة الإيمان، شبه الإيمان بطعم حلوى ثم أضفت الإيمان إلى هذا الطعم فصار حلاوة الإيمان، لذلك هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان.

((أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا...))

هنا موطن الشاهد، يوجد نص ويوجد مصلحة، نص وشهوة، نص ورغبة، نص وتقليد اجتماعي، يجب أن تصافحها، يوجد نص ودعوة إلى حفلة رائعة جداً مختلطة، يوجد نص وجائزة كبيرة نلتها باليانصيب يوجد نص وسفرة ممتعة، حينما تؤثر طاعة الله في قرآنه، وطاعة النبي في سنته على الشهوات التي أودعت فيك يسمح الله لك أن تذوق حلاوة الإيمان، ومتى ذاق الإنسان حلاوة الإيمان آثر طاعة الله على كل شيء، قضية موازنة، أنت إذا توقفت أمام أي مكان في طريقك إلى دمشق ترى أمام الملهى مائة

سيارة، ماذا يوجد في الداخل ؟ يوجد طعام وغناء ورقص، ويوجد دفع،هؤلاء الذين قبعوا في هذه الأماكن يأكلون ويستمتعون، ويمتعون آذانهم وأعينهم بما حرم الله، لو ذاقوا حلاوة الإيمان لكان استمتاعهم بقرب الله يعني أضعافاً مضاعفة لكن لا يعلمون، إذا إنسان أقسم لك يميناً مغلظاً أن الدبس أطيب شيء في حياته صح لأنه لو ذاق العسل ما قال هذا الكلام.

أنا أقول لكم كلمة أيها الأخوة، المؤمن أكبر إنجاز له أنه أحسن الاختيار، اختار الله، إنسان اختار المرأة، اختار المال، الجاه، المتع الرحلات، اختار المظاهر الفخمة، ويوجد إنسان اختار الله عز وجل أعطى الإنسان أذكى إنسان هو الذي اختار الله ورسوله، الإنسان متى يشعر بالطعم الحلو ؟ إذا كان صحيح المزاج، إذا الإنسان مريض أو معه حالة تخمة، أو معه غثيان لا يقدر أن يتصور الطعام، لا يشعر بالطعم الطيب إلا صاحب المزاج الطيب، فالمؤمن مزاجه صحيح يذوق حلاوة الإيمان باستقامته يجرب، مع أن الله لا يجرب ولا يشارط جرب أن تصطلح معه اصطلاحاً تاماً، أن تصلي إن لم تكن الصلاة أعلى متعة في الأرض فهذا الدين باطل، تتصل بالله، تقبل عليه، تطلب منه تناجيه، تستغفره، يلقي في قلبك الأمن، الطمأنينة، يلقي في قلبك مجموعة مشاعر سماها النبي حلاوة الإيمان.

مرة عبرت عن هذا الحديث بهذا المثل، حقائق الإيمان أنت أمام خارطة لقصر شيء جميل لكن ورق، هنا الشرفة ثمانية أمتار بأربع أمتار ممتازة، إطلالة على السهل، الغرفة خمسة بأربعة، جيد ثلاث غرف نوم، حمام كبير، ولكن كله على الورق، هذا ورق ورق، فبين حقائق الإيمان وبين حلاوة الإيمان ما بين الورق والقصر نفسه، بين ورق وبين قصر، بين حقائق الإيمان وحلاوة الإيمان ما بين صورة تفاحة وتفاحة تأكلها، ما بين حقائق الإيمان وحلاوة الإيمان ما بين مليون تنطقها وبين مليون تملكها فرق كبير جداً، درسنا اليوم لا عن حقائق الإيمان بل عن حلاوة الإيمان.

حلاوة الإيمان تحتاج إلى مجاهدة، جاهد تشاهد، أما حقائق الإيمان تحتاج إلى مدارسة كتاب تقرأه، تسمع شريط، تحضر درس، تتثقف تزداد معلوماتك، هذه حقائق الإيمان تأتيك من درس علم من شريط من كتاب من محاضرة، هذه حقائق الإيمان، أما حلاوة الإيمان حينما تتصل بالله عز وجل وتذوق طعم القرب فقد ذقت حلاوة الإيمان.

حلاوة الإيمان تحتاج إلى إخلاص، الإخلاص عبادة القلب، الجوارح لها عبادة، عبادة العين غض البصر، عبادة الأذن أن تكف عن ما لا يرضي الله، عبادة اليد أن تكون في طاعة الله، عبادة الرجل أن تقودك إلى مجالس العلم، عبادة القلب الإخلاص، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24))

(سورة إبراهيم)

أنا أضع بين أيديكم هذه التجربة، أنت ذقت الطعام والشراب والسفر والزواج، والاستلقاء على فراش وثير، أن ترتدي ثياب جميلة جداً أن تدعى إلى حفلة فاخرة، هل ذقت حلاوة القرب من الله عز وجل، ادفع ثمنها، ثمنها العمل الصالح، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110))

(سورة الكهف)

إلا أن الحديث هنا يوجد شيء دقيق، اطلعت على شرح هذا الحديث في أوسع كتاب لشرح الأحاديث الصحيحة يوجد معنى لهذا الحديث ما ورد في الشرح،

((... أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا))

سواهما اسم تفضيل، يعني أنت أمام شيئين مما سواهما مساكن ترضونها، مما سواهما تجارة تخشون كسادها، مما سواها قل إن كان آباءكم، الأب لو أمرك بمعصية، قال لك إذا لم تفعل مثل ما أقول لك ليس لك شيء عندي وليس ابني، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24))

(سورة التوبة)

مرة ذكرت في خطبة في يوم الوقفة أن الإنسان إذا أطاع مخلوقاً وأطاع خالقه، ما قال الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة لأنه أطاع الأقوى في تصوره، الإنسان إذا آثر أن يكسب مالاً حراماً من غش الناس، هذا ما قال الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة لأنه رأى أن هذا المال الذي يجمعه من الغش أغلى عنده من طاعة الله ورسوله، الإنسان الذي لم يقم الإسلام في بيته إرضاءً لأهله ولأولاده ما قال الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة، لأنه رأى إرضاء الزوجة والأولاد أغلى عنده من إرضاء الله عز وجل، شيء محرج جداً أنت حينما تؤثر الدنيا على طاعة الله فأنت آثرت الأقوى أو الأنفع في نظرك عندئذ لا تذوق حلاوة الإيمان.

الآن يوجد مليار ومائتان مليون مسلم كلهم يعرفون الحلال والحرام، يعرفون الصدق فضيلة والكذب رذيلة وهو يكذبون، يعرفون الأمانة فضيلة والخيانة رذيلة وهم يخونون، لأنهم ما ذاقوا حلاوة الإيمان وعرفوا حقائق الإيمان.

يوجد نقطة بالحديث دقيقة أن يكون الله ورسوله يعني أوامر الله في قرآنه وأوامر النبي في سنته أحب إليك، يعني يوجد صراع ويوجد رأي دقيق أنه حين التعارض، حينما تتعارض مصالحك مع النص

الشرعي حينما يأتيك مبلغ مغري، أما هذا المبلغ يخالف نصاً شرعياً، حينما تكسب شيئاً ثميناً لكن الشرع لا يقرك عليه صار هناك صراع، إذا آثرت الله عز وجل في قرآنه والنبي في سنته أذاقك الله حلاوة الإيمان يوجد نقطة مهمة الحب نوعان، حب نفسي وحب عقلي، لما إنسان يكون له عمل شاق يطلب أجراً كبيراً جداً، يعني عشر أمثال أجر المثل العمل شاق لماذا أحب هذا العمل ؟ لا لأنه مريح بل هو شاق لكن أحب الدخل الكبير الذي يأتيه من هذا العمل، فهذا حب عقلي، الإنسان حينما يأخذ الدواء المر لماذا يحب الدواء ؟ يحبه حباً عقلياً، لأن بقناعته هذا الدواء ينهي هذا الألم، الدواء وإن كان مراً وإن كان غالي الثمن، وإن كان أخذه يحتاج إلى جهد كل ثلاث ساعات عليه أن يستيقظ في الليل ليأخذ الدواء مع أنه في نفقة، وضبط للأمور، وطعم مر، لكنه يحب الدواء حباً عقلياً وهذا العقل الذي أودعه الله في الإنسان هو الذي رفعه عن باقي المخلوقات.

أيها الأخوة: المؤمن حينما يوقن أن الشارع الحكيم لا يأمر ولا ينهى إلا ما فيه صلاح عاجل أو خلاص آجل، كل أوامر القرآن الكريم والسنة المطهرة فيها صلاح عاجل أو خلاص آجل، والعقل يقتني رجحان جانب الصلاح العاجل والخلاص الآجل.

شعور المؤمن المصطلح مع الله المستقيم، المستقبل مريح لا يوجد مفاجآت، أنت وازن بين شخصين، مستقيم علاقته بالمستقبل، إنسان غير مستقيم علاقته بالمستقبل، علاقة المستقيم بالمستقبل التفاؤل والطمأنينة والشعور أن الله لا يستغني عنه وأن الله يحسن ختامه وأن الله يرعى شيخوخته، بينما علاقة غير المؤمن بالمستقبل الخوف، توقع المصيبة مصيبة أكبر منها، أنت من خوف الفقر في خوف، من خوف المرض في مرض، هذا القلق المستمر، خوف المجهول خوف المستقبل، هذا وحده شقاء، حلاوة الإيمان تنفي عنك كل هذه الآلام، ماذا قال أحد العلماء: بستاني في صدري ماذا يفعل أعدائي بي إن أبعدوني فإبعادي سياحة، إن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، فماذا يفعل أعدائي بي.

بعض شراح الحديث لما قال النبي عليه الصلاة والسلام: أبو بكر في الجنة، لهذا القول معنيان المعنى الأول أنه الآن في جنة القرب وقال بعض العارفين بالله في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ويوجد آية قرآنية تشير إلى هذا المعنى:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46))

(سورة الرحمن)

جنة الدنيا وجنة الآخرة، قال تعالى:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6))

(سورة محمد)

أذاقهم طعمها في الدنيا، أنا ألح في هذا الدرس على حلاوة الإيمان، حلاوة الإيمان محرك تدفعك إلى العمل، إلى بذل الجهد والوقت، إلى بذل المال، توصلك بالله عز وجل، شيء غريب إن أردت أن تكون متألقاً، إن أردت محبة ثائرة لا فاترة، تألقاً لا خفوتاً فعليك بحلاوة الإيمان وهي أن تكون على طاعة الله مقيم.

يوجد شيء آخر الإنسان أحياناً يتلذذ بعقله، لو قلت إنسان تاجر ويبيع بيعاً كثيراً وهو متعب دخل المحل الساعة الثامنة وهو ليس متناول طعام الغذاء والدنيا حر والمروحة معطلة، والزبائن فوق بعضهم، يوجد لذة مادية، لا اللذة المادية أن يكون الإنسان مرتاحاً، مكيف، طعام، لكن هو اثني عشر ساعة عمل، الجو حار لكن الزبائن الكثر والدخل الكبير يعمل له لذة عقلية، المؤمن حينما تأتي حركته اليومية موافقة لهدفه في الحياة يوجد عنده لذة عقلية هو عرف سر وجوده وغاية وجوده، عرف الطريق إلى الله سبحانه وتعالى، عرف أن له عند الله مكانة، قال تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54))

(سورة القمر)

قال: أصغر اللذائذ الحسية الحلاوة، يوجد أطعمة صعب أن تميز بينها أما الشيء الحلو صارخ، الطفل الصغير يضعون في فمه لعقة عسل يُسر، أكثر الطعام الطيب حلو، كلمة الحلاوة صارخة والنبي لبلاغته الرائعة استعار الحلاوة لمشاعر الإيمان، قال:

((عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا))

حلاوة الإيمان تأتي من إيمان المؤمن أن الله تعالى هو المانح ولا مانع سواه، هو كل شيء، إذا أردنا أن نضغط الإيمان بالملخص، يوجد في الكون حقيقة واحدة هي الله أي قرب منها يحقق سعادة، أي بعد عنها يحقق انقباض، كل واحد منكم له مع الله تجربة لاشك، إذا كان غلط أو عينه رفت، أو لسانه تكلم كلمة لا ترضي الله، أو أساء، أو ظلم، أو شيء بسيط، مباشرةً يشعر بالحجاب، العوام لهم كلمة أحبها، الإنسان حكيم نفسه، إذا أنت بلغت في تعاملك مع نفسك أنك تشعر أنك الآن في قرب والآن في حجاب، إذا كان إدراك القرب والحجاب صارخاً فأنت في مرتبةٍ عالية أصبحت حكيم نفسك.

يوجد شخص أكله كله خفيف إذا شعر أن هذه الأكلة ثقيلة يدعها، يقولون أن فلان حكيم نفسه، الآن نريدك أن تكون حكيم نفسك مع الله إذا كان الطريق سالك، قال لي أحد الأخوان أنا فتحت مع الله طريق ساخن، موصول نريد هذا، هذا الذي يفتقده معظم المسلمين، يصلي صلاة جوفاء لا يوجد انضباط، الشيطان أساساً يئس أن يعبد في أرض المسلمين انتهى، عبادة الأوثان مستحيلة في العالم الإسلامي ولكن رضي فيما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم، رضي فيما دون ذلك، فهذه الصغائر الذي

يتوهمها الإنسان أنها صغائر هي كبائر في المفعول كما قلنا سابقاً إذا المقود ثبته سم والطريق مستقيم لابد من أن تسقط في الوادي بعد حين، هذه هي الصغير سنتمتر واحد ولكنك ثبته في النهاية هلاك.

لا صغيرة مع الإصرار، وسميت صغيرة لأن تعديلها يسير، أن تعدل المسار القضية سهلة جداً، أما إذا ثبت هذه الصغيرة انقلبت إلى كبيرة هذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام: لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار.

من أجل أن تذوق حلاوة الإيمان ينبغي أن لا تحب إلا ما يحب الله عز وجل، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به، الإنسان لما يستمر على طاعة الله تصبح الطاعة محببة له، مثل بسيط أحدهم حديث عهد بالإيمان يحب أغنيات كثيرة فلما آمن واستقام إلى الله ما سمع أغاني، لكن راكب سيارة عامة والسائق وضع أغنية يحبها، تفاعل معها تفاعلاً شديداً، وهذه ليست بيده ما استمع ولكن سمع، من استمع إلى غانية صب في أذنيه الأنك يوم القيامة.

مستواه النفسي لم يرقى، أما مستوى الضبط جيد، لكن صدق أو لا تصدق بعد حين لو أسمعته الأغنية نفسها التي يحبها حباً جماً لانزعج منها أشد الانزعاج، نقطة مهمة جداً لكل جعلنا شرعةً ومنهاجا، النفس قد تكون من حيث الظاهر وفق الشرع، من حيث الواقع بعيدة عن الشرع، أما في ذكر وفي ضبط، أما حينما ترقى في سلم الإيمان ترتقي النفس إلى مستوى الشرع، وعندما ترتقي النفس إلى مستوى الشرع لا يوجد مجاهدة.

المؤمن أجمل مكان عنده المسجد، أجمل مكان بيته، أجمل مكان أن يجلس مع أهله في البيت، لا يوجد عنده تطلعات للمعاصي أبداً، سعادته بالشيء النظيف، الشيء المباح، الشيء الصحيح، الشيء الذي يرضي الله، أجمل جلسة يجلس مع أخوانه المؤمنين، يتذاكرون العلم هذه أجمل جلسة.

أيام الإنسان يستغرب فلان له دعوة إلى الله وليس له اختصاص بالعلوم من أين جاء بهذه العلوم، هذا الكون لكل المخلوقات، هذا الكون قاسم مشترك، أساساً لما أنت تدعو إلى الله عز وجل يوجد شيء يخضع له الجميع هو الكون إن عرفتهم بدقائق الجسم، أنا ذكرت مرة قال تعالى:

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47))

(سورة الحج)

هناك آيتان بهذا المعنى، بعض العلماء قال: نحن نعد الزمن بالقمر، قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5))

(سورة يونس)

هذا القمر يدور حول الأرض في الشهر دورة، كيف نحسب المسافة التي يقطعها حول الأرض في الشهر ؟ نأخذ مركز القمر ومركز الأرض نصل بينهما بخط هذا الخط نصف قطر الدائرة التي يسير القمر عليها في دورته حول الشمس، والقانون الرياضي البسيط نعرف من نصف القطر محيط الدائرة حسبنا كم كيلو متر يقطع القمر في دورته حول الأرض، كم يقطع في سنة ضرب اثني عشر، كم يقطع في ألف عام ؟ ضرب ألف، معنا رقم كبير، الآية إن يوماً عند ربك، اليوم كم ثانية أربع وعشرين ضرب ستين ضرب ستين، لو قسمنا المسافة على الزمن القمر يدور حول الأرض كل شهر دورة في السنة ضرب اثني عشر، في ألف عام ضرب ألف، صار معنا رقم حسابي كبير قسمناه على ثواني اليوم، سوف نفاجأ أننا إذا قسمنا هذه المسافة التي يقطعها القمر في ألف عام على عدد ثواني اليوم لفوجئنا أن الناتج سرعة الضوء الدقيقة مائتان وتسعة وتسعين ألف وثمان مائة واثني عشر، هذه سرعة الضوء، معنى هذا أن هذه الآية تشير إلى سرعة الضوء الثابتة، قال تعالى:

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47))

(سورة الحج)

إلا أن الآية التي ذكر الله فيها خمسين ألف سنة، لا يوجد مما تعدون هذه سرعة الملائكة، خمسة أضعاف سرعة الضوء، الإنسان حينما يرى عظمة الكون ما الفائدة التي نجنيها حينما نضع أيدينا على حقائق الكون المذهلة إن في الآفاق وإن في النفس، قال تعالى:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53))

(سورة فصلت)

الإنسان حينما يضع يده على عظمة آيات الله عز وجل في الآفاق وفي الكون يشعر شعوراً عجيباً، أنه يوجد في الكون انسجام، الآن أكثر الناس عندهم العلم شيء والدين شيء، هذا الطلاق بين الدين والعلم عند أهل الضلال، أما أهل الإيمان عندهم شعور أن الذي خلق الكون أنزل هذا القرآن، وأن الذي أنزل هذا القرآن أرسل هذا النبي العدنان وأن كلام النبي شرح للقرآن، وأن خالق الأكوان منزل القرآن، وأن الحق دائرة يمر بها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، والعقل الصريح والفطرة السليمة، والواقع الموضوعي، لا يوجد عند المؤمن تناقض أبداً ينسجم مع الكون، الكون والقرآن واحد، أساساً قالوا: القرآن كون ناطق، والكون قرآن صامت، والنبي قرآن يمشي، كان خلقه القرآن، الانسجام الذي يتمتع به المؤمن لا يقدر بثمن، لا يوجد تناقض في حياته العلم هو القرآن والقرآن هو العلم، ويوجد في القرآن آيات حاسمة، قال تعالى:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (51))

(سورة الكهف)

فكل التكهن في بداية العلم تكهنات أما الشيء القاطع كلام الله عز وجل من أجل أن تذوق حلاوة الإيمان ينبغي أن تؤثر طاعة الله في قرآنه، وطاعة النبي في سنته على كل ما تتوهم أنه مصالحك، أو حظوظك، أو شهواتك، لذلك النشاط الفكري سهل، قالوا: هناك علم بأمره، علم بخلقه، علم بذاته، العلم بخلقه القضية سهلة خذ ثانوية وادخل جامعة يوجد طب، صيدلة، هندسة، طب أسنان، رياضيات، تاريخ، جغرافية، لغة إنكليزي، هذه الفروع بالجامعات هي علم بخلقه، ادخل شريعة الحلال والحرام، والطلاق، والأحكام الفقهية، والعقيدة هذا علم بأمره، كل العلوم علوم كونية أو علوم شرعية، علم بخلقه وعلم بأمره أما العلم النادر الآن هو علم به، العلم بخلقه وبأمره يحتاج إلى مدارسة إلى ذاكرة، معهد إلقاء محاضرة وكتابة، هذا علم بأمره وبخلقه، العلم بأمره وبخلقه لا يرقى بالإنسان إلا إذا اتخذ وسيلة إلى ذلك، أما العلم به هو الذي يسعدك، العلم به يحتاج إلى مجاهدة، أما العلم بأمره وبخلقه يحتاج إلى مدارسة.

أخوانا الكرام: يوجد في القرآن الكريم آية دقيقة:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24))

(سورة التوبة)

يعني إذا آثرتم هذه الأشياء أنت ساكن في بيت ثمنه اثني عشر مليون وأجرته مائة ليرة في الشهر والعقد قبل سنة السبعين، وعندك بيت ثاني ولكن هذا البيت أوجه فأنت آثرت أن تبقى في هذا البيت بمائة ليرة لكن كأن الله لا يرضى عنك أن تفعل ذلك، أن تحرم صاحب البيت من أن ينتفع ببيته وعندك بيت آخر، وأن تستغل القانون الذي لصالح المستأجر وأن تتمتع بهذا البيت، أنت ماذا فعلت ؟ ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله، والأمر فيه قانون إيجار في شرع الواحد الديان، لما الإنسان يآثر طاعة الله على مسكن فخم بأجرة رمزية، لما يآثر طاعة الله على تجارة رابحة لكن فيها شبهة، لما يآثر طاعة الله على أب يلزمك بأن تعصي الله، قال تعالى: فتربصوا، يعني الطريق إلى الله غير سالك، في حاجز مكانكِ تحمدي أو تستريحي، تربصوا حتى يأتي الله بأمره، أمر الله هو الموت، يموت الإنسان فقد الدنيا وفقد الآخرة والله لا يهدي القوم الفاسقين، معنى ذلك أن الفاسق آثر الدنيا على طاعة الله عز وجل.

أخوانا الكرام: يوجد نقطة دقيقة جداً، حينما تعصي الله لابد أن هناك خللاً في محبتك، وفي معرفته، أي معصية أساسها خلل في المحبة وفي المعرفة، إذا إنسان يحب إنسان لا يعصيه، فلما يكون في معصية يكون في خلل في المحبة والمعرفة، ويوجد شيء ثاني أيام الإنسان يسترسل بالمباحات، الشيطان له

مداخل كثيرة، مداخله على أهل الكفر بالمعاصي والمبيقات، مداخله على بعض الأشخاص بالتقاليد والعادات مداخله على بعض الناس بالحداثة والتجديد والتقدم، قال تعالى:

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17))

(سورة الأعراف)

علو، حداثة، أصالة، عصر الكومبيوتر، عصر الأقمار الصناعية، عصر الانفتاح يقول لك العالم كله قرية صغيرة، بيت صغير، غرفة صغيرة، ومن خلفهم، التراث، العادات والتقاليد، وعن أيمانهم المؤمنون من هنا يؤتون يغريه بالمبيحات، المباحات الملهيات لا يوجد عنده معصية لكن غارق في دنياه إلى قمة رأسه، هذا الانغماس بالدنيا يصرفه عن الله عز وجل.

فالاسترسال بالمباحات والاستكثار منها أحد مداخل الشيطان على عباد الرحمن، والمؤمن أيضاً لا يصغي إلا إلى من أناب إلى الله، قال تعالى:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15))

(سورة لقمان)

أيها الأخوة: أول بند من حلاوة الإيمان:

((ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

الأمر القرآني، والأمر النبوي أحب إليه عند التعارض والتناقض مما سواهما، فالآن نحن ندعو أخوانا الكرام إلى أن تذوقوا حلاوة الإيمان بمعصية الهوى، بمخالفة الهوى، إذا خالفت هواك نلت مناك.

الشيء الثاني:

((.... وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ...))

يعني تحب المؤمن ولو جافاك، تكره الفاسق ولو أعطاك، أما إذا كانت محبتك معلقة بالعطاء هذه مصلحة، المؤمن يحب المؤمن ولو جافاه ويكره الفاسق ولو أعطاه، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: اللهم لا تجعل لي خيراً على يد فاسق أو منافق، كافر أو منافق.

يوجد عندنا شيء دقيق جداً هو الحب في الله والحب مع الله، الحب في الله: أنا أحب المؤمنين لأني أحب الله، فحبي للمؤمنين لا يتناقض مع حبي لله، من جنس محبتي لله، محبتي لله أصل ومحبة أنبياء الله بسبب محبة الله، محبة أولياء الله بسبب محبتي لله، محبة بيوت الله بسبب محبتي لله، محبة الأعمال الصالحة بسبب محبتي لله، هذا حب في الله.

أما الشيء الخطير أن تحب مع الله، أن تحب جهة محبتها تبعدك عن الله، نحن عندن نقطتين وأنت بينهما، إذا قربت من هذه النقطة ابتعدت عن هذه طبعاً فإذا كان في شيء الآخرة والدنيا، كلما أحببت الآخرة ابتعدت عن الدنيا، وكلما أحببت الدنيا ابتعدت عن الآخرة، شخص لا يوجد فيه دين ولكن قوي فإذا أحببته ابتعدت بحبك له عن الله هذا حب مع الله خطير جداً، أما الحركة بجهة واحدة أنت أحببت مؤمن، نقلتك محبته إلى الله، أحببت بيت الله نقلتك محبته إلى الله، أحببت كتاب الله نقلتك محبته إلى الله، إذا أنت تسير في خط واحد وكل شيء قربك من هدف هذا حب في الله، أنت تسير في خط وكل شيء دفعك إلى مرتبة أعلى، أما إذا في شيئين متناقضين كلما أحببت هذا ابتعدت عن الله، هذا حب مع الله.

((وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلا لِلَّهِ...))

" فاحذر أن تحب مع الله أحداً وعليك أن تحب بالله، فالمؤمن يحب المؤمنين ويحب الأعمال الصالحة وبيوت الله، والإنفاق ومجالس العلم، وكتاب الله، هذا كله فيه انسجام كلما أحببت فقرة من هذه الفقرات نقلتك إلى التي أعلى.

الشيء الأخير:

((... وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

" هذه على حرف ليست واردة، قال تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11))

(سورة الحج)

نريد مؤمن بالأعماق، مؤمن بالخندق، قال تعالى:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23))

(سورة الأحزاب)

نريد هذا الإيمان، أما حينما قال تعالى:

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (11) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً (12))

(سورة الأحزاب)

فإذا الإنسان قلبه مريض يعني على الحرف، يعني غلطة من أخ تبعده، ضاقت يده في المال تراه يقول أين الله لماذا لم يعطيني ؟ هذا الذي يعبد الله على حرف، هذا وضعه خطير جداً يسير على حافة أي غلطة يصبح في النهر ويغرق، أما أنت ينبغي أن تكون في الأعماق فهيئ إيمان قوي لا يتزلزل،

الباخرة الضخمة كالجبل، أما القارب الصغير تتلاعب به الأمواج، فكن أنت راسخاً كالجبل لا قارب تتلاعب بك الأمواج هذا المعنى الثالث.

إذاً درسنا اليوم حلاوة الإيمان ثمنها أن تؤثر الله عز وجل، وطاعة رسوله على كل حظوظك وشهواتك ومصالحك، من أجل أن تذوق حلاوة الإيمان، وأن يكون ولاءك للمؤمنون وبراءتك من الكفار والمنافقين، أنت في حياتك كلمة لا، هذا الشخص لا أتعامل معه، هذه النزهة لا أذهب إليها، هذا المكان لا أجلس فيه، هذه الصفقة لا أعقدها هذه الحفلة لا أحضرها، هذا الولاء والبراء، توالي أهل الإيمان وتتبرأ من أهل الكفران.

آخر شيء أن تكون في الأعماق وأن تكره أن تعود في الكفر كما تكره أن تلقى في النار، هذا الأحاديث أيها الأخوة من أصول الأحاديث، حديث جامع مانع، هذا التفرقة بين حقائق الإيمان وبين حلاوة الإيمان والتفرقة بين خريطة لقصر وبين القصر نفسه، والذي يدفعك إلى الدين والذي يثبتك على الدين، والذي يجعلك تتألق هو حلاوة الإيمان وهذه تذوقها، والله يا أخوان لي كلمة ولو كانت لعلكم ترونها مبالغة إذا ما قلت لي أنا أسعد الناس يوجد عندك خلل، خالق الكون يحبك هذه قليلة، قال تعالى:

((إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً (96))

(سورة مريم)

((إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55))

(سورة القمر)

أنت عندما تكون غالي على الله عز وجل، والله يا معاذ إنني لأحبك، ارمي سعد فداك أبي وأمي، أبو بكر وعمر مني بمثابة السمع والبصر سدوا كل خوخة علي إلا خوخة أبي بكر، ما ساءني قط، هذا الثناء من رسول الله تعبير عن محبة الله لهذا الإنسان، الله عز وجل محبته بين يديك، قال تعالى:

((قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110))

(سورة الكهف)

بإمكانك أن تعمل عملاً تتألق به، أنا لا أريد الدين ثقافة، الدين ليس عادات وتقاليد، الدين ليس مظاهر استعراضية، في بعض البلاد الإسلامية مظاهر الدين صارخة جداً، ولكن الدين لا يوجد.

هذا واحد سمعت أنه تركي اشترى كيليان لحم وعنده عزيمة ففي قط أكل له اللحم، نظر إليه وتمنى أن يمزقه، سود له وجهه فالقط له ورد عندما يجلس تسمع له خرخرة، تطلع به وقال له، أوراد شوك أما أمنات يوك.

ترى شخص ثقافته جيدة ومعلوماته جيدة، لكن لا يوجد استقامة ما ذاق حلاوة الإيمان، أما عندما يذوق حلاوة الإيمان تعد للمليون قبل أن تعصي الله، تعد إلى المائة مليون قبل أن تأكل درهماً حرام، قبل أن

ترتكب خطيئة بلسانك، هذا الورع هذا يذيقك حلاوة الإيمان، وحينما يرضى الله عنك، حينما يكون الله معك من الذي سيكون عليك، وحينما تجد الله عز وجل ما فاتك شيء، يا ربي ماذا فقد من وجدك وماذا وجد من فقدك.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

من رحمة الله بالمؤمنين أنهم جعل لهم مناسبات دينية، في هذه المناسبات تغفر لهم ذنوبهم، فمن الجمعة إلى الجمعة، ومن رمضان إلى رمضان، من العمرة إلى العمرة، ومن الحج إلى الحج يغفر ما بينهما.

ومن أدق الأحاديث في هذا الموضوع أن النبي عليه الصلاة والسلام صعد المنبر فقال آمين، صعد الدرجة الثانية فقال آمين صعد الثالثة فقال آمين، فسأله الصحابة الكرام يا رسول الله علام أمنت ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: جاءني جبريل فقال لي: رغم أنف عبد أدرك والديه فلم يغفر له، رغم أنف عبد أدرك والديه ولم يدخلاه الجنة.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ رَغِمَ أَنْفُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ قِيلَ مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ))

[مسلم ـ أحمد]

معنى ذلك أن بر الوالدين أحد أبواب الجنة، أو أحد أسباب دخول الجنة، وقال: ثم جاءني في الثانية وقال: رغم أنف عبد ذكرت عنده فلم يصلِ عليك.

لأن الله عز وجل يقول:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (21))

[سورة الأحزاب]

فالإنسان لا يكون النبي أسوته إلا إذا كان يرجو الله واليوم الآخر فإذا كان يرجو الدنيا فأسوته أهل الدنيا، إذا كان يرجو المال فأسوته الأغنياء، إذا كان يرجو القوة أسوته الأقوياء، وقلت لكم سابقاً الناس رجلان قوي وتقي، فالقوي ملك الرقاب بقوته، والتقي ملك القلوب برحمته، والناس جميعاً تبع للأقوياء والأتقياء، الأنبياء ملكوا القلوب بكمالهم، والأقوياء ملكوا الرقاب بقوتهم، وكل واحد من الناس إما أنه تابع لقوي معه قوة يرهب بها الآخرين، أو أنه تابع لنبي معه كمال يملك بكماله قلوب الآخرين فأنت بين أن تملك الناس بالكمال وبين أن تملكهم بالقوة بالقوة تملك رقابهم، وبالرحمة والكمال تملك قلوبهم.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ فَانْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الْكِبَرَ فَلَمْ يُدْخِلاهُ الْجَنَّةَ))

[أحمد ـ مسلم ـ الترمذي]

وأما في الدرجة الثالثة قال جبريل:

((وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ فَانْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ))

فلا تتمنى أيها الأخ أن تفتح لك صفحة جديدة بعد رمضان، ثلاثين يوم، دورة كثيفة فيها صيام، وفيها قيام، وفيها غض بصر وضبط لسان، وفيها إنفاق للمال، وفيها تلاوة قرآن، هذه الأيام الثلاثين إذا انقضت بشكل منضبط عدت من ذنوبك كيوم ولدتك أمك يوم الجمعة فرصة، الجمعة تمسح سبعة أيام، بالمناسبة الصلاة شحنة يومية أما خطبة الجمعة شحنة أسبوعية، أما الصيام شحنة سنوية، أما الحج شحنة العمر.

الإنسان ينشحن من الصلاة إلى الصلاة الثانية، أما يوم الجمعة يوجد خطبة قد تكون نصف ساعة، فيها موضوع، فيها آيات أحاديث، توجيهات، شحنة يوم الجمعة إلى الجمعة الثانية، أما حينما يأتي رمضان فيه ثلاثين يوم، الجمعة ساعتين قد تكون الصلاة ربع ساعة، أما رمضان ثلاثون يوماً، فشحنة رمضان إلى رمضان، يعني كأنه ينبغي أن تمتلك زاداً روحياً يعينك على طاعة الله وعلى الإقبال عليه طوال العام، لكن الذي أذكره دائماً هو أن الإنسان حينما يلتقي في رمضان عليه أن يحافظ على هذا الرقي بقية العام ليكون رمضان مع رمضان درج ليتابع به الترقي لا ليمنع نفسه من التدني، أما إذا الإنسان في رمضان ارتفع وعاد بعد رمضان وارتفع وعاد بعد رمضان، في النهاية الحركة صفر، خطوة إلى الأمام والثانية إلى الوراء، لو فعلتها مليون مرة مكانكِ تحمدي أو تستريحي، أما خطوة إلى الأمام والثانية إلى الأمام صار في تقدم.

((.. وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ فَانْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ "))

أيها الأخوة:

أدق نقطة في رمضان أن الله يمنعك من المباحات يمنعك من المباحات لأن الله عز وجل يقول:

((قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إلا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ يَدَعُ طَعَامَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي))

[البخاري ـ مسلم ـ الترمذي ـ النسائي ـ أبي داود ـ ابن ماجة ـ مالك ـ الدارمي]

لو قال أب لابنه يا بني نظف أسنانك، تنظيف الأسنان لمن ؟ للابن لو قال يا بني ادرس، لمن الدراسة ؟ للابن، يا بني كن صادقاً لمن الصدق ؟ للابن، لو أن الأب أمر ابنه أوامر عديدة، هذه الأوامر مردودها على الابن، أما لو أن الابن جائع جداً والطعام طيب والطعام حلال، وقال: يا بني لا تأكل، الأمر غير واضح لكن الابن لشدة ثقته بأبيه وحبه له وانصياعه له، قال له: حاضر يا أبي كما تريد.

فالصيام ما نهاك عن الكذب، ما نهاك عن السرقة، ما أمرك بالصدق، قال لك: دع الطعام، والطعام حلال، هذا الطعام الذي في الثلاجة لا تأكله، لا تشرب، لا تقترب من هذه المباحة لك.

إذا الله عز وجل في رمضان منعك من المباحات فلأن تمتنع عن المحرمات من باب أولى، هذا المنطق، المباح منعك منه، منعك أن تشرب، منعك أن تأكل، منعك أن تلتقي، لذلك ترك الغيبة من باب أولى، ترك الكذب من باب أولى، ترك إطلاق البصر من باب أولى ترك الانحراف من باب أولى، فكأن الله بهذه الطريقة يجعلك في موقف حرج مع نفسك، صائم ولكن لا يصلي لماذا صائم ؟ ترك الطعام والشراب ولكنه لم يترك النظر إلى النساء، لا يوجد داعي لذلك:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهم قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

[البخاري ـ أبي داود ـ الترمذي ـ ابن ماجة ـ أحمد]

أول نقطة في هذا الدرس:

((... الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ...))

الصوم عبادة أمر تعبدي محض، أنت في الحمام بشهر آب والصيام سبعة عشر ساعة، والنهار طويل جداً، والحرارة تسعة وأربعين، والناس يذبون من الحر ويوجد صنبور ماء بارد وأنت لوحدك والحمام مغلق والباب مقفل هل تشرب ؟ تشعر أن الله كبير الله معك، الله يشاهدك، الله غالي عليك، وهذا الصيام يرفع معنويات الإنسان، هذا الشيء يشبه غض البصر، لا يوجد قانون يمنعك من إطلاق البصر، لا يوجد جهة في الأرض تمنعك إلا أن الله يأمرك أن تغض البصر، فلذلك الإنسان عندما يغض بصره يشعر أن هذه عبادة الإخلاص، وحينما يصوم ولا سيما وحده يشعر أنه عابد لله عز وجل، من باب الموازنة اللطيفة لو أن دولة من دول العالم لا يوجد في الدين صيام، والأطباء ارتأوا أن الصيام مفيد جداً فصدر مرسوم تشريعي يوجب على المواطنين الصوم، الصوم ليس من قبل الله، من قبل إنسان، كيف يطبق هذا القانون ؟ مستحيل أن يطبق، يدخل الإنسان إلى دورة المياه ويشرب، يغافل ويشرب، يأخذ معه إبريق إلى غرفته ويقفل الباب ويشرب، لا يوجد حل، أما لما إله يأمر.

مرة في أمريكا منعوا الخمر، يوجد مقالة عجيبة ثلاث مائة إنسان أعدموهم، وأربع مائة ألف نشرة طبعوا، وأربع خمس مائة ألف وضعوا في السجن، وصنعت بواخر ذات جدران مزدوجة لتهريب الخمر، لما قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90))

[سورة المائدة]

يعني أجمل شيء في العالم الإسلامي لا يوجد خمر، طبعاً في ولكن قليل يعني بالمائة شخص لا يوجد اثنين يشربون وهم عصاة أما في البلاد الغربية الخمر مثل الماء تماماً، أينما ذهبت في أي مكان ذهب

الخمر يوزع ويباع ويقدم ضيافة كالماء تماماً، في الطائرات يضعون كل شيء وفي المقدمة الخمر وأنواع الخمور كلها تقدم، لما الإله قال فاجتنبوه.

الصيام عبادة الإخلاص فأنت ممنوع أن تشرب، ممنوع أن تأكل هل يعقل أن ترتكب معصية، طبعاً أشد حرمة أن تغتاب، أن تكذب أن تطلق بصرك، إذاً أول نقطة الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ.

النقطة الثانية وضعك الله في موقف حرج، منعك أن تأكل، وأن تشرب، وأن تقترب من زوجتك، وهي أشياء مباحة ولا شيء عليها ولا تثريب على صاحبها، أنت ممنوع ان تفعل هذا فهل يعقل أن تضيف إلى ترك المباحات فعل المنكرات ؟ مستحيل، وفي بعض الأحاديث ورد:

((عَنْ عَرْفَجَةَ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ ذَكَرَ رَمَضَانَ فَقَالَ تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ النَّارِ وَتُصَفَّدُ فِيهِ الشَّيَاطِينُ وَيُنَادِي فِيهِ مُنَادٍ كُلَّ لَيْلَةٍ يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ هَلُمَّ وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ حَتَّى يَنْقَضِيَ رَمَضَانُ))

[أحمد ـ النسائي]

ويوجد إنسان علق تعليق لطيف قال: كأن الله جل جلاله أبقاها مقيدةً طوال العام نرتاح، الله يقيدها في رمضان ثم تفلت علينا بعد رمضان، يعني هذا الكلام غير معقول، بعضهم قال: صيامك الصحيح، واستقامتك على أمر الله، وتوبتك إلى الله، تقيد حكمي للشيطان، إذا في محل يبيع الخمر والناس ولا إنسان دخل واشترى منه كأنهم باستقامتهم أغلقوه حكماً، هذا هو المعنى، كأن أهل هذا الحي باستقامتهم، وطاعتهم لله، وابتعادهم عن هذا المحل الذي يبيع الخمر أغلقوه حكماً، ولذلك تصفيد الشياطين في رمضان تصفيد حكمي، لما المسلمون يصومون ويتوبون مهمة الشيطان تعطل كأنهم صفدوا. إذاً أول نقطة:

((الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ))

النقطة الثانية: الصوم عبادة الإخلاص وترى الإخلاص واضحاً في عملك.

الشيء الثالث: الشياطين تصفد في رمضان، أي الله عز وجل يذيقك طعم القرب، الله يعاونك، الله عز وجل عن طريق النبي الكريم أمرنا بصدقة الفطر، أغرب صدقة هذه الصدقة تجب على الغني والفقير، وعلى الحر والعبد، وعلى الذكر والأنثى، وعلى المقيم والمسافر، هي قليلة سهلة، لكن لماذا تجب على الفقير ؟ ليذيقه الله في كل عام مرةً طعم الإنفاق لعله يتمنى أن ينفق، الله يغنيه، والله عز وجل في رمضان يذيق الإنسان طعم القرب معاونة من الله.

ترى الناس في الصيام في صفاء، في هدوء، شيء آخر الصيام يعلم النظام، ترى مجتمع بأكمله يضع اللقمة في فمه في دقيقة واحدة هل تستطيع عن طريق قرار تجبر الناس يأكلون الساعة الثانية بتوقيت بيغ بن ؟ لا تستطيع أما الصيام الكل جالسين إلى المائدة المدفع ضرب الكل يأكلون، شيء رائع جداً،

ترى أثناء المغرب منع تجول كأن الطرقات فارغة، ترى الناس جميعاً يستيقظون للسحور استيقاظ موحد، طعام موحد، سلوك موحد، هذا نظام، والنظام حضارة، تعاليم ديننا فيه نظام.

الصيام شهر النظام، أكلك، قيامك، صيامك، سحورك استيقاظك موحد.

الصيام يعلم الإرادة، يوجد إنسان لا يقوى على ترك شيء، أما المؤمن يترك المباح ائتماراً بأمر الله، قوى لك إرادتك، وعلمك النظام، وحملك على الاستقامة، وجعل هذه العبادة خاصة له، قربى له، قال لك هذه العبادة جزاء صاحبها الجنة، جزاء صاحبها المغفرة وأنتم لا تعرفون معنى المغفرة، قلت هذا الشيء في درس الطاووسية الذي عنده دين يعرف قيمة الدين، الدين صعب جداً ذل في النهار وهم في الليل، إنسان له معك ملايين ولا تملك منها قرشاً طلب منك أن تمتنع ثلاثين يوماً عن الطعام ويعفيك منها هل تتردد ؟

إنسان له معك ثمانية ملايين وأنت معاشك خمسة آلاف لا يكفيك أكل وشرب، وعليك دين ثمانية ملايين، قال لك إذا تترك الطعام والشراب ثلاثين يوماً وتأكل المغرب مسموح أعفيك من الديون كلها هل يوجد إنسان يتردد ؟ لا يوجد إنسان يتردد، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

((عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ))

[البخاري ـ مسلم ـ الترمذي ـ النسائي ـ أبي داود ـ أحمد ـ الدارمي]

فصار رمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما، يوجد شيء آخر في رمضان، رمضان يعرفك بذاتك، أنت إنسان دارس، متعلم، لك منصب رفيع، أمرك نافذ، ممكن في الأرض، ولم أقول جبار، لا يوجد مؤمن جبار، ولكن يوجد مؤمن قوي، كل شيء منظم، كل شيء بأمرك، يأتي رمضان ولاسيما في الصيف أول يوم ترى نفسك ضعيف، كل سعادتك بكأس الماء، كل خواطرك ماء، عصير عرق سوس، كل خواطرك الماء البارد، الشراب المنعش، يعرفك أنك أنت مفتقر لكأس ماء، لكأس عصير، مفتقر إلى لقمة طعام.

يوجد نقطة في الأكل وهو أنه لولا هذا الجوع لا ترى في الأرض شيئاً أبداً، إذا كان الابن فقير ووالده متوفي لماذا تدرس ؟ لتأكل لماذا تدرس ؟ من أجل أن تنال شهادة وتتعين وتقبض معاش وتشتري طعام وأجمل ما في القرآن أن الأنبياء كانوا يأكلون الطعام ويمشون بالأسواق قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ)

[سورة الفرقان]

عبارة دقيقة، يعني مفتقرون في وجودهم إلى تناول الطعام مفتقرون إلى ثمن الطعام أن يمشوا في الأسواق، أي يشتغل ويكسب مال، ويشتري طعام، ويأكل لأنه شعر بالجوع، لولا الجوع ما رأيت

جامعة، ما رأيت بناء معمر، ما رأيت بئر مصنوع، ما رأيت نظارة مصنوعة، لماذا يعمل الإنسان ؟ هذه الطاولة لا يصنعوها، اتركها ألف سنة تبقى كما هي، لا يوجد عندها حاجة ذاتية، أما الإنسان يجوع يريد أن يأكل.

يوجد نقطة دقيقة جداً تغيب على معظم الناس، الدافع للجوع غير الدافع للجنس، الدافع للجوع ينبع من الداخل، أما دافع الجنس ينبع من الخارج، إذا إنسان دخل إلى غرفة وأغلق عليه الباب يجوع، أما لو غض بصره وامتنع عن الاختلاط، وامتنع عن المثيرات لا يجوع جنسياً أبداً بالعكس يرتاح، فذلك الدافع الأول دافع الطعام والشراب ينبع من الداخل، لا يوجد أي منظر طعام أمامه، لا يوجد أي صورة طعام، ولو ما رأيت شيء تجوع، أما إذا إنسان ما شاهد امرأة وغض بصره لا يشتهيها، فلذلك الإنسان يتزوج يرتاح نفسياً، في سعادة، طمأنينة، في راحة.

الطعام فيه استثناء، ممكن إنسان أن يأكل لحم خنزير إذا كان مضطر، لأن الجوع خطير، ممكن أن يشرب الخمر إذ كان يموت بغصة، ولكن لا يوجد بالجنس ضرورات، إذا كان مضطر اجلس السبب لأن دافع الجوع من الداخل دافع ثابت، أما دافع الجنس من الخارج، لذلك ربنا عز وجل قال:

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي)

[سورة النور]

بدأ بالزانية لأنها الأصل بالزنا، لولا أنها تكشفت وأثارت الرجل لما زنا بها، يوجد فرق كبير بين الجوع الجنسي، والجوع إلى الطعام والشراب، الأول يحتاج إلى إثارة خارجية، وإذا ما في إثارة وأوضح مثل لما الإنسان يذهب إلى الحج والعمرة، الحمد لله في مكة والمدينة الحجاب إلزامي، حجاب الوجه إلزامي، اسأل أخ ذهب إلى العمرة يقول لك أسبوعين ثلاثة ما خطر في بالي خاطر نسائي أبداً لأنه ما رأى شيئاً، أما إذا كان في تقصير في غض البصر وعاش في بلد متفلت لا يوجد فيه حجاب دائماً يوجد إثارة مستمرة هذه الإثارة المستمرة من دون تلبية تنشأ كبت والكبت له مضاعفات، أما إذا لا يوجد إثارة لا يوجد مشكلة أساساً، لذلك الشاب العفيف مرتاح يصرف طاقاته إلى دروسه، أما الشاب المتفلت متفجر.

الصوم يعرفك بحجمك، يعرفك بضعفك، يعرفك أنك مفتقر إلى الطعام والشراب، وأن الطعام والشراب أساسي في حياتك، ورد أن النفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت.

يوجد شيء آخر الصوم يشعرك بجوع الفقير، كثير من الصعب أن إنسان مترف أن يطلب من إنسان أن يصبر، دعوة المترف الفقير إلى الصبر مضحكة، دعوة البخيل إلى الإنفاق ساقطة، أنت لا تعرف الجوع أما في رمضان تعرف الجوع، تعرف قيمة كأس الماء بعد العيد يشعر الإنسان نفسه طليق شعر

بالعطش يشرب ماء، أما في رمضان لا يوجد كأس ماء العين بصيرة واليد قصيرة، رمضان لا يستطيع أن يشرب، تعرف قيمة فنجان القهوة وكأس الشاي، قيمة كأس العصير لأنك تنتعش به.

فلذلك قضية رمضان تعرفك بعبوديتك لله عز وجل، تقوي لك إرادتك، تعلمك على النظام، تسمح لك أن تفعل صلح مع الله تعطيك فرصة أن تلغي كل ديونك مهما كانت كبيرة، تعمل لك قفزة نوعية في كل عام، تعطيك شحنة للعام القادم، فمن شحنة سنوية إلى قفزة نوعية، إلى معرفة بحجم النفس وعبوديتها لله عز وجل إلى تقوية للإرادة، إلى محبة للنظام إلى استقامة على أمر الله لأنك في رمضان تارك للمباح فلأن تدع المحرم من باب أولى، وآخر شيء:

((الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ...))

الصوم لله وحده، يعني أنت عملت شيء يقول الأب لابنه يا بني نظف أسنانك، كن صادقاً، ادرس هذه كلها لك، لا تأكل لا يوجد مبرر، إذا كان ابن مهذب حاضر كما تريد يا أبت، أما إذا ابن من النوع الثاني لماذا لا آكل.

مرة سمعت شريط لعالم قال: يا بني يوجد إنسان مذهبه شافعي وإنسان مذهبه حنفي، وإنسان مذهبه مالكي، وإنسان مذهبه حنبلي ويوجد إنسان مذهبه بغالي، بغل، تسمع منه كلمة قاسية، الصيام يرقق النفس، أعطاك أمر تعبدي لا تأكل سمعاً وطاعةً يا رب.

مرة قلت لكم، ذهب عالم من علماء دمشق إلى أمريكا وسئل عن لحم الخنزير، أجاب بشرح بحكمة تحريم الخنزير وما فيه من طباع سيئة، وطعامه أساسه الجيف، الخنزير يحب الجيف، وأكثر طعام مفضل للخنزير الجرذان، هل تصدقون أنني اطلعت على برنامج وثائقي عن الجرذان أنه في بلاد الشرق في الصين يأكلونها كطعام نفيس جداً، كم نحن في خير، طعامك نظيف، عقيدتك سليمة علاقاتك نظيفة.

إحصاءات سمعتها في بلاد الغرب، المائة أسرة ستين فيها خيانة زوجية، مائة حالة زنا ثلاثة وثلاثين حالة زنا محارم، أخ مع أخته وأب مع ابنته، في مدينة تدعى ـ سان فرانسيسكو ـ تعد أجمل مدن أمريكا خمسة وسبعين بالمائة من قاطنيها شذوذ، يوجد نصف أحيائها ذكور مع ذكور وإناث مع إناث، وشاذ مسموح أن يأخذ معه شريكه من أجل لم شمل الأسرة، شيء عجيب كأنك تعيش مع وحوش.

انظر الأسر أنت خذ شارع، عشرين بناء كل بناء فيه عشر بيوت كم بيت به خيانة زوجية ؟ يجوز بالمائتين واحد، بالخمس مائة واحد أما ستين بالمائة، إحصاء ثاني اطلعت عليه، مائة طالب في المدرسة أربعين بالمائة مخدرات، أربعين بالمائة شذوذ، خمسين زنا، ثمانين دخان بالمائة، مائة طالب لا على التعيين.

يوجد إنسان في هذا الشهر حقن ابنه دم فيه إيدز، ابنه عمره شهرين ليأخذ تعويض مقابل إصابته بهذا المرض، يوجد إنسانة وضعت أولادها في سيارة وأطلقتها في البحيرة حتى ماتت وادعت أن أولادها قد فقدوا، ثم اكتشف الأمر، صار معها تحقيق فقالت: إن زوجها رفض أن ينام معها لأن أولادها يبكون فاذهبي ونامي معهم فقتلتهم حتى تنام مع زوجها.

ترى الإنسان يصل إلى مستوى بالوحشية في البعد عن الله يفوق حد الخيال، طبعاً في كل مكان يوجد جريمة، ولكن نسب الجريمة في بلاد تزيد عن الحد المعقول.

رمضان يقوي الإرادة، يعلم النظام، يعرفك بضعفك أنت ضعيف رمضان يشعرك بمعنى الجوع، كاد الفقر أن يكون كفراً.

سمعت عن أناس في لبنان مترفون أكثر قمامتهم طعام، يكبون الطعام، جاءهم ثلج سماكته خمسة أمتار وهذه القصة من خمس سنوات تقريباً فانقطعوا عن الاتصالات الخارجية جاعوا، فذهبوا إلى المزابل ليأكلوا الخبز الذي ألقوه قبل أسابيع ليأكلوه مع القمامة، ربنا عز وجل إذا الإنسان ما احترم نعمة الله عز وجل يفقدها، فرمضان يعلمك أن الجوع صعب.

هذا العالم الذي أسلم في أمريكا ـ جيفري لنك ـ قال أحد أيام رمضان الشديدة في أيام الحر والساعة الثانية عشر ولا يستطيعوا أن يبقوا في الجامعة، شعر بإعياء وانهيار، ذهب إلى البيت وانتظر المغرب الساعة التاسعة والنصف في بعض الولايات تناول الطعام شاهد برنامج إخباري عن الجياع في الصومال تأثر تأثراً بالغاً، أنه أنا جعت لكن في المغرب مائدة، أما هذا الجائع في الصومال لا يوجد عنده مائدة المغرب ليأكل جوع مستمر، نحن في الصيام نجوع جوع مؤقت ينتهي بالإفطار، والناس في رمضان أحياناً الذي فاتهم في الأثني عشر ساعة يأكلونه الضعف، يأكلوا ويبركوا، لم نستفد شيء من الصيام، صار الصيام عبء، يوجد عنده ثلاثة وجبات يأكلهم في الليل، كانت هذه الوجبات في النهار جعلها في الليل عنده إفطار وقيام الليل وعنده سحور، قيام الليل يعني أكل، هذه معلومات بعض حكم الصيام.

قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ سَهْلٍ رَضِي اللَّهم عَنْهم عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ يُقَالُ أَيْنَ الصَّائِمُونَ فَيَقُومُونَ لا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ))

[البخاري ـ مسلم ـ الترمذي ـ النسائي ـ ابن ماجة ـ أحمد]

شعور الصائم يوم العيد أنه مضى رمضان وبقي الأجر والثواب والآن أكل مع الناس، وشعور الذي لم يصم يوم العيد يعني كالخنزير أكل وشرب والآن انتهى رمضان والآن انتهى رمضان يأكل مع بقية الناس، فالعبادة تذهب مشقتها ويبقى أجرها، والمعصية تذهب ملذتها وتبقى تبعتها.

الشيء الثاني أن الصيام إما أن يعينك على متابعة الترقي أو يجعلك تدافع التدني، أيهما أرقى ؟ أن ترقى أم أن تدفع عن نفسك السقوط، أن ترقى أولى، يوجد صيام العوام، ويوجد صيام المؤمنين، وصيام المتقين، صيام العوام ترك الطعام والشراب صيام المؤمنين ترك المعاصي والآثام، صيام الأتقياء ترك ما سوى الله، لذلك في بالصيام اعتكاف، كان عليه الصلاة والسلام يعتكف العشر الأواخر من رمضان، يعني إذا الإنسان إذا أتيح له _أن يعتكف وكان عمله حر وأمره بيده واعتكف عشرة أيام مستحيل إنسان ينقطع لله ما يتلقى منه التجلي والإقبال، ما يتلقى منه الرحمة.

سيارة تجب أن تكون في هذه النقطة بسرعة مائة ماذا يعني على صاحبها أن يفعل ؟ يجب أن ينطلق من مكان قبل بسرعة تصل عند النقطة مائة، ليس الإنسان يبدأ الصيام ويحمى ضمن رمضان يجب أن يتحرك قبل، كل المحركات يجب أن تشغلها صباحاً ربع ساعة إذا كانت كبيرة، والإنسان يجب أن يهيئ نفسه لرمضان قبل رمضان وكنت أقول دائماً أنه ممكن برمضان يمكن أن توقف حل المشكلات إذا في مشكلة مع شريك، إذا في قضية مخالصة قضية عويصة رمضان لا يسع غيره، لا يسع مشكلة كبيرة، لا يسع مجادلة، لا يسع مشاحنة، لا يسع تصفية شركة، ولا يسع عرس، يعني في رمضان لا يناسب أن يكون عرس يصبح في منازعة.

يوجد شيء أتمنى على أخواننا أن يفعلوه، وأنا والله أفعله دائماً إلا إذا اضطررت والمصلحة مرجحة على ذلك، عندك أحد عشر شهر تدعو أهلك إلى الطعام، وترتاحوا، وتنسروا، أما لو رمضان لو جعلته كله عزائم، وكله طعام وشراب، وجلسة وسهرة، لا يوجد عبادة، ورمضان شهر تعبد، والأولى أن تخفف العلاقات في رمضان إلى أدنى حد، عندنا بالعكس العادات والتقاليد، رمضان شهر لقاءات، شهر سهرات، شهر ولائم، والعياذ بالله يقولون إكراماً لرمضان البرنامج الفلاني، وإكرام لرمضان المسلسل الفلاني كله إكرام لرمضان.

فإكرام لرمضان أن تنقطع لله عز وجل يعني إذا الإنسان جمد في رمضان كل الولائم وأكل طعام خفيف، وله صلاته في جامعه ووقف خاشع بين يدي الله عز وجل واستمع إلى القرآن بأكمله ولعل الله عز وجل ينظر إليه بعين العطف، ويتجلى على قلبه ساعة ينسى فيها كل هموم الدنيا، فهذا من لوازم رمضان، وأنا أتمنى أن تتفقوا بين بعضكم أن هذا رمضان اتركوه لله، سمعت من عدد من الأخوان هنا في الجامع وهم عشرين أخ تقريباً اتفقوا برمضان أن يكون كله عبادة، الإنسان لما يأكل في بيته يأكل طعام معتدل له نظام خاص وعندما ينعزم سبحان الله كأن الإكرام أن تطعمه فوق طاقته، وإلا أن

يطعموه شيء زيادة، ولقمة، تراه أكل فوق طاقته وصار الطعام عبء، فالإنسان حكيم نفسه يأكل طعام خفيف يأتي إلى المسجد مرتاح، في بلاد الحجاز عندهم ميزة أنهم يفطرون على تمر وقهوة ويصلوا التراويح ويأكلون بعد التراويح.

يوجد نقطة ثانية نحن إن شاء الله مثل العادة نصلي التراويح في هذا المسجد إن شاء الله ونقرأ أربع صفحات في الفجر وستة عشر في التراويح مجموعهم جزء، ثلاثين جزء في رمضان، يوجد اقتراح من أخواننا أن تبدأ التراويح بعد نصف ساعة لأنه يوجد أخوان يأتون من أماكن بعيدة والجوار لا يهمهم ممكن أن يصلي العشاء بعد ربع ساعة، في الحرمين المكي والمدني يقيمون العشاء بعد ساعة نحن هنا نصف ساعة.

بعد صلاة الفجر درس، ودرس في جامع الطاووسية على صلاة الظهر درس كل يوم، ودرس بالأحمدية، الأحد، والثلاثاء والخميس، بعد العصر، ودرس بعد التراويح والدرس لا يزيد عن ثلث ساعة إن شاء الله، تراويح وثلث ساعة درس يكفي.

كان عليه الصلاة والسلام:

((عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا))

[البخاري ـ مسلم ـ الترمذي ـ أحمد]

وإن شاء الله في كل سنة الدروس لها نمط، وهذه السنة يوجد نمط جديد للدروس درس متميز بعد التروايح، ودرس متميز بعد الفجر ودرس الطاووسية يستمر بأسماء الله الحسنى، ودرس الأحمدية يستمر حديث شريف، درس السبت والأحد والاثنين تعطل لأن رمضان لا يسع غيره، درس الجمعة لا نعطله لأنه أساسي جداً بعد العصر.

الشيء الثاني رمضان شهر القرآن فأكثروا من تلاوة القرآن ورمضان شهر الإنفاق فأكثروا من الإنفاق، هذه بعض الملاحظات التي يمكن أن تقال في الدرس الذي يسبق رمضان.

وأرجو أن يعتني المصلي بثيابه وجواربه، ولا يأكل الثوم والبصل والشيء الأخير ثلاث تمرات، سكر التمر أسرع سكر ينتقل من الفم إلى الدم بعشر دقائق، فإذا الإنسان أكل ثلاث تمرات وصلى المغرب يجلس على المائدة كأنه في يوم طبيعي أكل قبل ساعتين، عادي يأكل أكل معتدل، أما إذا بدأ بالمواد الدسمة، والمواد الدسمة لا تهضم قبل ثلاث ساعات، يعني أثر هذه المواد لا يصل إلى مركز الشبع في البصلة السيسائية إلا بعد ثلاث ساعات، لذلك متى يترك الطعام ؟ حتى ينفجر، جرب أن تأكل سكرة قبل الطعام تذهب قابليتك للطعام لذلك قال تعالى:

(وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21))

[سورة الواقعة]

طبعاً هذه في الجنة ولكن استنبط منها أن الفاكهة قبل الطعام مفيدة جداً، وفيها سكر فواكه، وسكر الفواكه أسرع السكريات بالامتصاص، وأنا طبقتها في السنوات الماضية ثلاث تمرات ونصلي المغرب تجلس إلى الطعام لا يوجد انكسرت حدة الجوع، تأكل طعام معتدل، الأكل المعتدل تحمده بالتراويح تجد نفسك تصلي وأنت مرتاح أين هو الآن؟ عند سيدنا الصديق، متى يصل إلى سيدنا علي؟ يظهر أنك أثقلت في الطعام، أما إذا آكل أكل خفيف تجد نفسك مرتاح والله أيام قطعة من الجنة صلاة التراويح ولكن تكون أن آكل طعام خفيف.

فهذا الرجاء تخفف الأكل، وتترك الثوم والبصل، وإذا تستطيع أن تنام ساعة العصر قيلولة تعينك على القيام، وطعام قليل، إلغاء الولائم برمضان نهائياً، تخفيف كل شيء في رمضان العلاقات، هذا مما يعيننا على صيام هذا الشهر، وهذا الشهر فرصة ذهبية أن نعود كيوم ولدتنا أمهاتنا، أيام يكون عليه مخالفة تموينية الإنسان عنده شهرين سجن، تؤجل يأتي عفو ألا تشعر براحة ؟ انتهت المخالفة ولم يبقَ في عقوبة، هذا رمضان عفو عن كل المخالفات السابقة، طبعاً إلا ما كان بينك وبين العباد لابد أن يؤدى أو أن تسامح.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (114) :رمضان دورة لما بعد العيد .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-01-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون...
نتابع تفسير سورة البقرة إن شاء الله بعد العيد، وجدت من المناسب أن يكون هذا الدرس في موضوع متعلّقٍ بعيد الفطر السعيد.
أيها الإخوة الكرام... ذكرت لكم من قبل أن الشيطان حينما يأتي على ابن آدم يأتيه من أبوابٍ متدرجة، يبدأ بِحَمْلِهِ على الكُفر، فإن كانت عقيدة الإنسان قوية انتقل إلى بابٍ آخر يَحْمِلُهُ على الشرك، فإن كان توحيده قوياً انتقل معه إلى بابٍ ثالث ألا وهو حَمْلُهُ عن الابتداع.
والابتداع الآن رائجةٌ سوقه، أي أن هذا الحكم غير معقول، وهذه الآية يجب أن نغيِّر مفهومها، وهذه السنة النبوية هذه بنت وقتها ولوقتها، ولا تصلح لهذا العصر، فحينما يستعصي على الشيطان أن يحمل الناس على الكفر لسلامة عقيدتهم، ويستعصي عليه أن يحملهم على الشرك لقوة توحيدهم يأتيهم من باب البدعة، فهذه قضية منطقية، وهذه فيها إنجاز حضاري، وهذه أمة، والمرأة نصف المجتمع، والأموال المجمدة يجب أن تأخذ فوائد، وكأن الله عزَّ وجل غاب عنه هذا العصر، شَرَّعَ لعصر الصحابة، أما معطيات هذا العصر لم تدخل في حسابات القرآن، فلذلك الابتداع بابٌ كبيرٌ من أبواب الشيطان.
فإن استعصى على الشيطان باب الابتداع، ينتقل إلى الكبائر، الكبائر، تَحْجُبُ عن الله عزَّ وجل، فإن استعصى عليه أن يفعل كبيرةً طَمَّعَهُ في الصغائر، الصغائر: لم نفعل شيئاً، لمم، استغفر الله عزَّ وجل، تجد المؤمن أو المسلم في هذه الأيام لا يزني فالزنا كبيرة، لا يسرق السرقة كبيرة، لا يقتل القتل كبيرة، لكن يجلس مع امرأةٍ لا تحلُّ له، ينظر إلى مناظر لا تحل له، يأكل في المال بشكل غير مشروع، يقول لك: فيها فتوى وبمصر أفتوها، فلما الإنسان يصل للصغائر حجب بها عن الله عزَّ وجل، الحديث الصحيح:

((لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار))

بدأ معه بالكفر، بالشرك، ابتداع، كبائر، صغائر، استعصى عليه لوَرَعه !
الآن في المباحات، يشغله في دنياه، كل طاقته، وكل وقته، وكل إمكاناته في بيت، في مزرعة، في تجارة، في معمل، كل طاقته وكل وقته، فلو جاءه ملك الموت لا يوجد معه شيء، لقابل الله صِفْرَ اليدين، المباحات أيضاً خطيرة، الإنسان له رسالة، له مهمة، وأنا أقول دائماً: العمل الذي يأخذ كل وقتك ولا يسمح لك أن تعرف الله، ولا أن تحضر مجلس علم، ولا أن تأمر بمعروف، ولا أن تنهى عن منكر،

ولا أن تتلو القرآن، ولا أن تربِّي أولادك، هذا العمل خسارة كبيرة جداً لأنه ألغى وجودك، الله عزَّ وجل قال:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

(سورة الفرقان: من آية " 63 ")

مع أن النبي لم يكن يمشي هونا، كأنه يَنْحَطُّ من صَبَب، كان يسرع في مشيه، سيدنا عمر كذلك، " كان إذا سار أسرع، وإذا أطعم أشبع، وإذا ضرب أوجع، وإذا قال أسمع "، يمشون هوناً أي لا يسمح للدنيا أن تأخذه، لا يسمح للدنيا أن تستهلكه، معظم الناس يعمل عمل شاق إلى أن تلصق نعوته على الجدار، لا يعرف آية من حديث، حكم شرعي لا يعرف، لا يعرف شيء عن الدين، أما بالعمل درجة أولى، فهذه المباحات ولو أنها مشروعة، ضمن الشرع، لكن نسي الله معها، فالمباحات أحد أبواب الشيطان على المؤمنين، فهو إما في البيت، أو في التجارة، أو في المصنع، أو في العمل، لدرجة الإتقان الكامل، لدرجة أن وقته ليل نهار.

رأيت شخص زرته، شاري بيت بمائة وستين مليون بدمشق، عنده معمل من الساعة الرابعة فجراً بالمعمل، يأتي أول إنسان ويذهب آخر إنسان، ليله نهار عمل مستمر، فهذا لو جاءه ملك الموت، لا يسمح له العمل أن يقرأ القرآن، ولا أن يعرف الله، ولا أن يعمل عملاً صالحاً.

فأنا دقيق بكلامي، بدأنا بالكفر، فالشرك، فالابتداع، فالكبائر، فالصغائر، فالمباحات، فإذا لم يتمكَّن شخص فقير، الآن بالتحريش بين المؤمنين، هنا المشكلة، تجد المؤمنين متخاصمون، متنازعون، متحاسدون، من فعل الشيطان، ضمن الأسرة الواحدة، ضمن الحي الواحد، ضمن القبيلة الواحدة، ضمن العَشيرة الواحدة، ضمن الإسلام، ضمن الدعوة إلى الله، تجد مهاترات، وتكفير، واتهام بالشرك، واتهام بالكفر، وطعن بالعلم، وحسد والعياذ بالله، ما هذا الإسلام ؟ هل يغري هذا الإسلام أحد أن يأتي إليه ؟ كم من مسلمٍ عرف الله في بلاد الغرب فلما جاء إلى بلادنا قال: " من نعم الله الكبرى أني عرفت الإسلام قبل أن ألتقي بالمسلمين، لو التقيت بهم لما أسلمت أساساً ".

فأنا أريد ونحن مقبلين على العيد، هذه الخصومات بين الأسر، هذه العداوات، هذا الكبر، إذا كل إنسان عاهد ربه في هذا العيد أن يحل مشكلة، يعمل جرد لعلاقاته، إنسان في قطيعة نزوره، لعل الزيارة تُلغي هذه القطيعة، إنسان في عنده شيء بقلبه نعمل له هدية، لعل هذه الهدية كما قال النبي تذهب بوحل الصدر، إنسان أسأنا له بكلمة نعتذر، لعل هذا العذر يقيم جسر بينك وبينه، حسن العلاقة مع الناس أساسية من أجل حسن العلاقة مع الله.

فأنا أتمنى على إخواننا الكرام.. شيء ذكرته بشكل سريع البارحة، وألمحت له إلماح سريع بالخطبة.. لكن نحن في عيد، فالإنسان يعمل جرد لأقربائه يجب أن يزورهم واحداً واحداً، نحن بالمناسبة إخواننا

الكرام مع بعضنا بعضاً كل السنة، كل السنة نتقابل في الخطبة، والجمعة، ودرس الجمعة، وسبت وأحد واثنين، لذلك عملنا حل، حل طيب، نلتقي مع بعضنا في القاعة الشرقية ثاني يوم العيد، من الساعة العاشرة صباحاً إلى الساعة العاشرة مساءً، مع راحة ساعتين أثناء الظهر، هذا اللقاء يحل مشكلة الزيارات، فالذي تجلس معه كل أسبوع ثلاثة أو أربع مرات، هذا تألفه، أما هذه الأخت التي تسكن بمنطقة منين، أخت بالمخيم، أخت ببيرود، هذا العيد مناسبة أساسية كي تزور أرحامك، أن تتفقد شؤونهم، أن ترعى أولادهم، هناك أولاد لا يعرفون أقرباءهم، فحاول أن تعمل علاقات بالعيد، والعلاقة تبدأ بزيارة، وتتابع بتفقد الأحوال وأن تسألهم: كيف أولادك يا أختي، أخ لي أخت فيسألها: أولادك، مدارسهم، وضعهم بالمدرسة، علاماتهم، ماذا يعملون بالصيف ؟ اسأل.

فأنا أفاجأ أحياناً لوجود إنسان لا يوجد لديه معلومات عن أقربائه إطلاقاً، كأنه في قطيعة معهم، تجده يلبي دعوات للكبراء، ويهمل صلة الرحم، مع أن في السنة النبوية الصحيحة أكثر من ثلاثين حديث صحيح، توعِد قاطع الرحم بالنار، فأنا أقول مثلاً: أختك، فالشخص العادي أنت له وغيرك له، أما أختك من لها غيرك ؟

أعرف رجل يوم الجمعة يأخذ معه كيلو فول ويطرق باب أخته ويقول لها: نكسر السفرة عندكم، هل تعلم ما معنى هذا العمل ؟ فماذا كلّف هذا الكيلو من الفول ؟ مبلغ بسيط جداً لكن جعل ألفة، جعل ود، نظر إلى أولاد أخته، زوج أخته، معنى هذا أن أخته ليست هيِّنة على أهلها، فلها من يتفقَّدها.

فأنا الذي أتمناه عليكم ونحن مقبلون على شهر، على عيد الفطر السعيد، يكون عيد مناسبات لصلات اجتماعية، ممكن تكون أنت شيخ أسرتك، كل إنسان له درس علم، هذا نافذة إلى السماء، فأنت هنا واحد من آلاف، أما أنت عند أهلك، أنت شيخهم، أنت النافذة الوحيدة إلى السماء، أنت تلميذ الجامع الفلاني، تعالى يا أخي أسألك هذا السؤال: إحكي لنا عن هذه الآية، عن هذا الحديث، عن الحكم الشرعي، فأنت من دون أن تشعر، يمكن أن تكون مُنقذ لمن حولك، فكل واحد له مجلس علم، له طلب علم، يُعَد شيخ على من دونه، فأنت أمام عمل عظيم عظيم عظيم ممكن تحصل منه على خير كبير وهو أن تتابع أقرباءك.

قصة ذكرتها كثيراً لكنها مناسبة جداً، مرة أخ كان عند أخته رأى في خصومة بين أخته وزوجها، طالبة منه ثلاثمائة ليرة بالشهر مصروف كسوة لها ولبناتها، فرفض الزوج لأنه موظف دخله محدود، فقال الأخ لأخته: المبلغ خذيه مني، كل شهر أطرق الباب وأعطيهم الثلاثمائة ليرة، بدأت معهم من هنا، قال لي: بعد ستة أشهر طلبت أختي مني درس أسبوعي لبناتها، بعد شهر أحضرت بنات أخوتها كذلك، أي كل أولاد أخوته، عملت درس، عملت عليهم شيخ، أحضر لهم آية، وحديث، وقصة، هذا اللقاء

الأسبوعي تحجبوا أكثرهم، وزوجنا ثلاثة منهن من شباب مؤمنين، قلت: سبحان الله، بدأت بثلاثمائة ليرة بالشهر انتهت بدعوة إلى الله.

فالإسلام فيه نظام عجيب، نظام الضمان الأُسَري، كل أسرة بأسرتها، ابحث عن أقرباءك، عن أولاد أخوك، أولاد أختك، بصراحة أقول لكم كلمة دقيقة: إذا أنت لبَّيت دعوة الأغنياء والكبراء هذا من الدنيا، مدعو لعشاء ثقيل جداً، مدعو لحفلة في فندق فخم، أما حينما تلبي دعوة الفقراء، والله هذا من عمل الآخرة، صدقوني مرة لبيِّت دعوة عقد قران بقرية من قرى ريف دمشق، يبدو أن التقليد هناك العقد يتم بالطريق، واضعين كراسي وقاطعين الطريق، والضيافة كأساً من الشاي، وأنا الذي أذكره أن أكثر من ثلاثين أخ التحق بجامعنا من وراء هذا العقد، ألقيت كلمة، ومرة حضرت عقد بأحد أحياء دمشق الغنية، والله لم أستطع أن أتكلم كلمة، كل الطرق مسدودة، ليس في وجه يفتح نور أساساً، العبرة لا بالفخامة، العبرة بالطيب بالقرب من الله عزَّ وجل.

أنا أتمنى، نحن ممكن أن نكمل تفسير الآيات في هذا الدرس ولكن نحن مقبلون على عيد، هذا العيد مناسبة لعمل صلة مع كل أقرباءك، تتفقدهم واحد واحد، لازم تتفاجأ، فلن تجد في أول الأمر استجابة، ستجد أحياناً سخرية، ستجد صَد، ستجد تعليقات لاذعة، هذه المؤمن يتحمل في سبيل الله، واحد يقولون أنه شيخ، أنا والله لا أعرف اسمه، لكن سمعت عنه سماعاً، دخل إلى محل تجاري يجمع لأيتام، يبدو أن صاحب المحل قاسي جداً وغير منضبط وفظ، قال له: نريد شيء لهؤلاء الأيتام فبصق بيده، قال له: هذه لذقني نريد شيء لله، فوقع على الأرض صعق، أعطاه مفتاح الصندوق قال له: أستحلفك بالله أن تأخذ ما شئت دون أن تعلمني كم أخذت، حجَّمه.

مِنْ إخواننا مَنْ يجمعون للأيتام، ولجمعيات، أنا أكبرهم كثيراً، لأنه ليس من السهل أن تبذل ماء وجهك، ففي شخص لا يقبل، أنا ليس بحاجة، أنا مكتفي، لكن هم أناس كرماء ومن أسر عريقة، وهم أغنياء يقفون ويذهبون من محل لمحل، من معمل لمعمل، يطلبون لهؤلاء الذين يموتون من الجوع، لولا التكافل الاجتماعي لانتهى المجتمع، فهناك من لا يجد ما يأكل والله، والله في أشخاص لا يذوقون اللحم في ستة أشهر، أنا أعرف ذلك، لي صديق وقف أمام بائع فرّوج، واقفة حُرمة طلبت منه كيلو رجلين دجاج، هذه يأكلها الكلاب فقط، تغليهم وتعمل مرقة منهم وتعملهم لأولادها، أناس يكادون يتخمون من الأكل، وأناس لا يجد ثمن فروج يأكله.

فكلنا محاسبون نتفقد بعض، ولا سيما المؤمنون، إنسان مستقيم، مؤمن، طاهر، لكن الطرق مسدودة الآن، في طرق كثير مسدودة، لا يوجد عمل، في كساد، فالعيد مناسبة لعمل صالح كبير، مناسبة تتفقد، إذا كل واحد تكفل بأهله، بأقربائه، لذلك في حكم شرعي: " لا تقبل زكاة مالك إذا كان من حولك محتاجون إليه " والعطاء للأقارب عصفورين بحجر؛ صدقة وصلة في وقتٍ وحد، أنا والله أتمنَّى وأعتز

ببعض الإخوة يقول لي: لا يوجد واحد من أسرتي محتاج، يتفقد الكل، إذا كل إنسان يتفقَّد أفراد أسرته، شباب، زوَّج البنات، أمَّن أعمال للشباب، اشترى بيوت للشباب، في أُناس في بحبوحة تقريباً، فقد آن الأوان نفكِّر بهؤلاء الشباب، فنحن على مشارف العيد.

دعيت مرَّة لعقد قِران، وقف الخطيب قائلاً: الهدية التي يمكن أن تقدم لكم ثمنها ألف ليرة، والأخ داعي ألف شخص، فالمبلغ مليون أودعه مع أحد العلماء كي ينفق على تزويج الشباب، أنت سوف تأخذ زبدية تضعها في الخزانة، أصبح لا يوجد عندك مكان، وليس لها طعمة، وهي واحدة لا يوجد لها مثيل، فشيء استهلاكي، استعراضي، لو بمليون زوَّجنا الشباب، لو كل عقد قِران فهذه الهدايا تلغى، مرة حضرت عقد قِران أشياء وزَّعوها بمليون ليرة، فالإنسان يتألم.

فهذا العيد مناسبة لصلة الرحم، لتفقد الفقراء والمساكين، إعطاء المحتاجين، أن تعلو البسمة أوجوه الصغار، أن تزيد المودَّة، أحياناً يدخل أخ يمتِّن علاقة أخته بزوجها، يمكنها، وفي إنسان شيطان يخرب هذه العلاقة، فكلما كنت أقرب للإيمان مَّتنت هذه العلاقات، تمتين العلاقات مهم جداً، وهذا قول " ما عبد الله بأفضل من جبر الخواطر "، وبعد ذلك في نقطة مهمة، لماذا الشرع أَلَحَّ على صلة الرحم ؟ أنت لا تعرف مقدار السعادة التي تَغْمُر الزوجة حينما يأتي أخوها لزيارتها، أمام زوجها، أمام أولادها، الذي ألفناه أن نحن مع بعضنا على طول، طوال السنة، بالعيد للأهل، العيد للأقارب، العيد للأرحام، العيد اعمل فيه وليمة لمن حولك من الفقراء، النبي الكريم يقول:

((أفضل الإسلام بذل الطعام))

الطعام يؤلِّف القلوب، يقرِّب الأشخاص، يجمع الناس، فممكن تعمل طعام، إطعام الطعام محل الأعمال الصالحة، التوجيه، ما الذي يمنع يكون لكل واحد منكم درس أسبوعي لأقرباؤه، إخواته، أولاد إخواته، سهرة، هذا الكلام الفارغ، لو أمضيت هذه السهرة في ذكر الله، في تلاوة صفحة من كتاب الله، في التعرف إلى سيرة رسول الله، إلى أحكامه الفقهية، إلى سننه القولية، فكثير من الأسر الآن لهم جلسات علم.

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28))

(سورة الرعد)

فهذا العيد له مهمة كبيرة، الصلة، تبدأ بالزيارة، والتفقد، والمعاونة، والدعوة إلى الله، هذا ملخص اللقاء، زيارة أولاً، ثم تفقُّد الشؤون، ثم مساعدة، ثم دعوة إلى الله، والإنسان يكون كبير له أخت فقيرة زوجها فقير، لما الكبير يزور الفقير لا يصغر بل يكبر أكثر، لكن الشيطان يوحي لأعوانه: أن هذا البيت ليس من مستواك، أنت أكبر بكثير، أنت يجب أن تزور أناس كبراء من مستواك، أما حينما تزور أُناس فقراء، ضعاف، وتملأ قلبهم سعادةً هذه من نعم الله الكبرى، لذلك " لا تصاحب من لا يرى لك من

الفضل مثل ما لا ترى له "، فهذا لا تصاحبه، الإنسان ليس قابضك، صاحب إنسان يعتزّ بزيارتك، صاحب إنسان يقدِّر مجيئك لعنده، صاحب إنسان في تناغم بينك وبينه، في مبادئ مشتركة، في قيم مشتركة، هذا الكلام أتمنى أن يكون واضحاً لديكم، ممكن يكون العيد مجال لعمل صالح كبير.
الشيء الملاحظ وجود التدابر بين الناس، مرة دخلت لبناء بحي ركن الدين، لي صديق بالطابق الثالث، طرقت بالخطأ على الطابق الثاني أو الرابع، لا يعرفونه، فلما التقيت فيه قلت له: هل يعقل أن جارك الأدنى والأعلى لا يعرف من أنت ؟ قال لي: هذا الواقع، ناس متقاطعون، فأسمع من بعض الإخوة الكرام المعمِّرين: إذا واحد دخل لحي من أحياء دمشق معه ضيف، فيفوت للبيت خمسين صحن طعام لأن جارنا معه ضيف، الضيف يُدْهَش، من أين هذا الطعام ؟ لمجرد أن تأتي إلى البيت ومعك ضيف انتبهوا الجيران، كل واحد قدَّم صحن من الأكل
لفترة قريبة في نوع من تقديم الطعام فيما بين الجيران كل واحد من طبخته يقدم صحن لجاره وجاره بالمقابل، في تنويع من الطعام، لقبل فترة إذا الإنسان لم يصل الفجر بالجامع يزورونه، معنى ذلك أنه مريض، تجد بناء اثنا عشر طابقاً وكل طابق ثمانية شقق، تجد بالجامع سبع أشخاص في صلاة الفجر فقط، في أحياء كل بناء اثنا عشر طابقاً لتحت لعند ساحة أمية، كل بناء اثنا عشر طابقاً أين الجماعة ؟ لا يوجد أحد، من ضعف الالتزام.
فيا أيها الإخوة... معلومات موجودة، كتب في، دراسات في، أشرطة في، مجامع علمية موجود، مؤتمرات في، كل شيء في، ولكن لا يوجد هذا الود، أين المؤمنين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، أين هذا ؟ دائماً أنت ابحث عن نقاط اللقاء وليس نقاط التناقض، الإنسان الذي مع الشيطان قنَّاص، الذي ماشي مع الشيطان قنَّاص يبحث عن العيب، أو زبال، أين يجد زبالة يأخذها، يعملها مجمَّع قمامة، هو صار مجمع قمامة، قنَّاص، أينما وجد خطأ يلقطه، يكبِّره يشيعه بين الناس، المؤمن بالعكس ستِّير، يتجاوز الخطأ ويكبر المعروف، كل إنسان فيه عنصر خيِّر، فيه عنصر إيجابي، فيه عنصر طيِّب، أنت خذ الطيب وكبِّره، لما يظهر الطيب يطغى على الخبث دائماً.
نحن إذا كان أخذنا بالسنة على حساب البدعة، إذا أخذنا بالبدعة على حساب السنة، في مساحة محدودة، كلما زادت مساحة السنة فيها ضاقت مساحة البدعة، وكلما زادت مساحة البدعة ضاقت مساحة السنة، فالإنسان لا يمشي مع هوى نفسه، هوى نفسه أن يجلس مع الكبراء أمثاله، هوى نفسه يزور أشخاص من مستواه، مستوى رفيع، أما الشرع يأمرك أن تزور الضعفاء والفقراء والمساكين.
حتى على مستوى ضمن بيته، يكون عنده ابن شاطر وحسن الصورة وذكي، وله ابن ثاني لم يعطهِ الله عزَّ وجل مثل الأول، فإذا اهتم بالأول دائماً تألق ولكن فالثاني ينشأ للثاني عقدة كبيرة جداً بنفسه، أما حينما يهتم بالاثنين معاً عندئذٍ ينشأ نوع من الود، كان عليه الصلاة والسلام يضع سيدنا أسامة بن زيد،

أنتم لا تعرفون من هو أسامة بن زيد، عبد أسود أفطس الأنف، يضعه على رجله اليمنى، ويضع الحسن على رجله اليسرى، ويضمهما ويشمهما ويقول

((اللهم إني أحبهما فأحبهما))

فالإنسان يجب أن يكون قلبه واسع للكل، لطيف مع الكل، فأنت ممكن لك أن تكون أكبر داعية وأنت صامت، الدعوة ليس كلها كلام أو حكي، زيارة الأرحام دعوة إلى الله، تنتهي بالهداية، أحياناً المساعدة المادية دعوة إلى الله، أحياناً الاهتمام دعوة إلى الله، أحياناً تكتب رسالة، تتصل بالهاتف، لها معنى كبير، فكثيراً تجد إنسان شكرك على اتصال هاتفي، معنى ذلك أنك متذكّره، داخل ببرنامجك، العيد مناسبة لعبادة من نوع آخر، عبادة جبر الخواطر، العيد مناسبة أن كل إنسان يكون في بسمة في وجهه.

في لنا إخوان كرام أحبهم والله لهم ترتيب بالعيد، لا يقدموا صدقة الفطر خمسين ليرة على الواحد، تجدهم يحضرون 2 كغ من اللحم، وعلبة بازلاء، و2 كغ أرز، وتنكة سمنة صغيرة، فهذه الكمية يعمل أكبر طبخة، تكفي أكبر أسرة في خلال أربعة أيام، قدَّمت للفقير شيء يأكله، الآن تجده يدفع الفطرة كيفما كان ويلقيها ويخلص منها، كيف ما كان، الحد الأدنى لا يكفي خمسين أستاذ ؟ يكفي، الفطرة أن تغني الفقير عن السؤال في العيد، طعمةٌ للمسكين وطهرةٌ للصائم من اللغو الرفث، فلو كلمة تكلم بها غير مقبولة، الله عزَّ وجل بهذه الفطرة غَطَّاها لك.

على كلٍ أرجو الله سبحانه وتعالى أن ننتفع بهذا اللقاء لأن أساسه أن نحسن العمل في العيد، والعيد نحن عندنا كمسلمين والفضل لله عزَّ وجل، عيدنا كله طاعات، في أعياد الأمم الأخرى معاصي، العيد معصية، العيد زنا، العيد خمر، العيد تفلُّت، العيد فيه يصيرون كالبهائم الفلتانة، فالأمم الشاردة البعيدة عنا والعياذ بالله أعيادهم تفلت، لكن والحمد لله نحن أعيادنا طاعات، أعيادنا صلاة العيد، أحياناً صلة الرحم، أعيادنا تفقُّد بعضنا البعض.

أيها الإخوة... في كلمتين قبل أن أنهي الدرس، الدرس لن أطيله عليكم فهذه أيام فيها إحراج كبير، أول نقطة نحن كالعادة نعطِّل أسبوع بعد العيد، نحن الآن درس الجمعة آخر درس، الأسبوع القادم ودرس السبت والأحد والاثنين عُطلة، نأخذ نحن جمعة استجمام بعد رمضان، فأكثركم الصبح جاء على الفجر والظهر بالطاووسية، والعصر بالأحمدية، والعشاء بالنابلسي، ثلاثين يوم أصبح لكم إشباع، فنحن نريد أن نأخذ استجمام حوالي أسبوع من الزمان في عندنا عطلة كاملة تبدأ من يوم الجمعة القادم إلى نهاية الاثنين، نبدأ مجموعة دروس كاملة في الأسبوع الذي بعده ويكون يوم تسعة وعشرين يوم الجمعة.

النقطة الثانية مثلما تكلمت قبل قليل: نحن عندنا لقاء بالمسجد وفي القاعة، والضيافة موجودة، وعندنا لقاء معايدة بالجامع محصورة، كلنا يعفي بعضنا البعض من زيارة البيوت، لأن نحن مع بعضنا كل السنة بكاملها، كل السنة مع بعضنا، فلكي نؤدي زيارة العيد نحن عندنا لقاء بهذه القاعة الشرقية، إن

شاء الله ثاني يوم العيد من الساعة العاشرة صباحاً إلى الساعة العاشرة مساءً، مع ساعتان استراحة وقت الظهر من الساعة الثانية إلى الرابعة إذا أمكن، فهذا الوقت كله يأتي الأخ يشوف إخوانه ويسلم ويمشي، وإذا كان أحضر معه ابنه ننسر أكثر، ونؤمن له هدية له عيدية وله أكلة طيبة، لأنني أريد ابنك أن تأخذ رجله على المسجد، فينظر إلى المسجد على أنه شيء محبب، يهمنا الصغار كثير جداً، فكل واحد عنده ابن يأتي به أيضاً، يعرفه على الجامع.

أنا مرة من سنتين من عادتنا أن نعمل عيدية للطفل وعيدية، فقال لي أب من الآباء: رجعت إلى البيت أنا بغرفة النوم وجدت ابني يتكلم مع أمه قال لها: والله يا ماما هذا الشيخ حبيِّته، أريد أن أتي عنده على طول، الطفل عبد الإحسان قطعة حلو وعشر ليرات جديدة، هذا الطفل وهذا هو عالمه، فأنا أحب ابنك أن يكون قبلك، يكون معك دائماً لأن ابنك هو رجل المستقبل، أما أنت الله يوفقك بهداية ابنك معنى ذلك أنَّك حققت عمل كبير لأن:

((أفضل كسب الرجل ولده))

فنريدك أنت وأولادك بالعيد إنشاء الله، واللقاء ثاني يوم يكون على أقدر التقدير يوم الثلاثاء إنشاء الله.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (115) :بعض الحكم العطائية2 - بَسَطَكَ كي لا يبقيك مع القبض وقَبَضَكَ كي لا يتركك مع البسط.......
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-02-07

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكمة أن يعرف الإنسان سرّ وجوده :

أيها الأخوة الكرام، انطلاقاً من قول الله عز وجل:

(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً)

[سورة البقرة: 269]

الحكمة أن تعرف الحقيقة، والحكمة أن تعرف سرّ وجودك، وأن تعرف لماذا أنت في الدنيا، وأن تتاجر مع الله، وأن تكسب الدار الآخرة، وأن تزكي نفسك، وأن تسعد بربك، كلمة جامعة مانعة، ولأن خالق الأكوان يقول لنا:

(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً)

[سورة البقرة: 269]

ولأن خالق الأكوان يقول لنا:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

[سورة النساء: 77]

فلو ملكت البلاد وجاءك ملك الموت فلابد من مفارقة الدنيا.

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

[سورة النساء: 77]

الحكم العطائية من أجَلِّ الحِكَم :

لذلك فإنَّ الأنبياء كُتِب عليهم الموت، وإنّ المؤمنين والكفار كتب عليهم الموت، لأن الموت مغادرة، فالبطولة أن يكون لك عند الله ما بعد الموت حظٌ كبير، فمن يؤتى الحكمة يعمل للدار الآخرة، والكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.
لقد اشتهر في العالم الإسلامي الحكم العطائية، وهي في الحقيقة من أجَلِّ الحِكَم، وقد درّستها قبل سنوات عديدة، وأخ كريم تمنى عليّ أن نقف وقفة عند بعض حكم ابن عطاء الله السكندري، الحقيقة أنّي تصفحت هذه الحكم، واخترت لكم بعضها.

البسط و القبض :

بعض قوله: "هذه الحكم بَسَطَكَ كي لا يبقيك مع القبض، وقَبَضَك كي لا يتركك مع البسط، وأخرجك عنهما كي لا تكون لشيء دونه ".

فالإنسان تعتريه أحوال، وفي بعض الأحيان يشعر بانشراح وامتداد وسرور وطمأنينة، والحديث عن المؤمنين، وعن طلاب العلم، عمن يطلب ويرجو الله واليوم الآخر، فأنا أخاطب طلاب علم، وأخاطب رواد مسجد، و أخاطب أناسًا إن شاء الله لهم باع طويل في معرفة الله، فالحديث ليس عاماً، بل هو خاص بالمؤمنين، ففي بعض الأحيان تشعر بانشراح وامتداد وتألق وطمأنينة وسعادة، وأنتَ أنت، وأنت مستقيم، وتؤدِّي عباداتك كلها، وأنت وقاف عند كتاب الله، وأنت مطبق لمنهج الله تشعر بالقبض فما الذي حصل؟ الذي حصل هو أن الله سبحانه وتعالى ربّ العالمين، فلو أن هذا الانبساط استمر، فالانبساط من لوازمه أن تضعف عبادة الإنسان، وأن تضعف همته، وأن يكسل عن بعض الطاعات، ويأتي الانقباض.

فالله عز وجل يتجلّى تارة باسم الجليل فتنقبض، ويتجلى تارة باسم الجميل فتنشرح، فقد يأتي القبض، وقد يأتي البسط، والحقيقة أن الله عز وجل يريدك أن تكون معه، لا أن تكون عبدًا للأحوال، فيجب أن تقدم له الأعمال، أمّا الأحوال فمرَغّبة معينة أحياناً، ولكن ليست مقياساً، والعلم حَكَم على الحال، فبسطك كي لا يبقيك مع القبض، فالله حكيم، ولو استمر القبضُ لضجر الإنسانُ، يأتي القبض فيضيق الإنسانُ به ذرعاً، فيأتي البسط فيرتاح، ولو استمر البسط نحن لسنا كالصادقين والأنبياء المقربين لا، فنحن حينما نرتاح نضعف، وقد كان عليه الصلاة والسلام يصلي الليل حتى تتورم قدماه، ويمضي النهار في الدعوة إلى الله.

((عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى حَتَّى انْتَفَخَتْ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: أَتَكَلَّفُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا))

[مسلم عَن المُغِيرَةِ بْن شُعْبَةَ]

فأحدنا إذا عمل عملاً صالحاً، أولاً: يعلن عنه كثيراً، ويملأ الدنيا صخباً، ثم يرتاح بعدها راحة عفوية، وقد كان عليه الصلاة والسلام يجهد النهار ويجهد الليل ويقول:

((..أفلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا))

[مسلم عَن المُغِيرَةِ بْن شُعْبَةَ]

فربنا عز وجل يعالجنا بالقبض والبسط، فإذا تبحبحنا يأتي القبض، وإذا كدنا نيئس يأتي البسط.

مهمة الإنسان في الحياة الدنيا :

أنت ما مهمتك؟ مهمتك أن تعبده وأن تدع أمر القبض والبسط إليه، والدليل على ذلك أن الله عز وجل يقول:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر: 66]

فهذه مهمتك، ارتَحْ وأَرِحْ، فأنا عليّ أن أطيعه، وهو ليفعل بي ما يشاء، فهو رحيم وحكيم وعليم وقدير، وأنا عليّ أن أطيعه، وتمثلوا قول النبي عليه الصلاة والسلام في الطائف:

((اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، لمن تكلني؟ إلى عبد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

ولا يوجد كلام أروع ولا أدق ولا أجمل ولا أعبق ولا أكثر أدبًا مع الله عز وجل من هذا الكلام! إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، ولكن عافيتك أوسع لي"

فإذا أعطاك فالحمد لله، وإذا منعك فالحمد لله، وإذا بسطك فالحمد لله، وإذا قبضك فالحمد لله، وإذا رفعك فالحمد لله، وإذا خفضك فالحمد لله، وإذا ضيّق عليك فالحمد لله، فهذا المؤمن الصادق، والله عز وجل الذي تحبه وتعبده وتؤثره وتشتاق إليه، فهذا الذي أنت فيه هو قراره، وقل مع الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: ليس في الإمكان أبدع مما كان، ولو كشف الغطاء لاخترتم الواقع، ولو أن كل إنسان انزعج من شيء ساقه الله إليه، ثم كشف الله له علم الغيب لمَا تمنَّى إلا أن يكون كما هو.

من استقبل مكروه القضاء بالرضا فقد عرف الله :

مرة قرأت مثلاً دقيقًا، أب عنده بنت جميلة، عمرها اثنتا عشرة سنة، قطعة من الجمال والحيوية، تملأ البيت حبوراً، لو أنها ماتت فموتُها شيء لا يحتمل، وشيء مؤلم، لا سمح الله ولا قدر، ولو أن الله كشف له أن هذه إذا عاشت عمرًا مديداً كانت زانية، والأب صاحب دين ومؤمن ماذا يسأل الله؟ يا رب اقبضها، لو أن الله كشف لك ما سيكون لما أردت إلا ما هو كائن، ولا تمنيت إلا ما هو كائن، ولذلك استسلمْ دائماً، وعندنا حالة اسمها القبول، فالمؤمن يقبل واقعه، وهذا القبول مسعد، عبَّر عنه علماء القلوب بالرضا، فهو راضٍ عن الله، قال له: يا رب هل أنت راض عني؟ وكان وراءه الإمام الشافعي

فقال له: هل أنت راض عن الله حتى يرضى عنك؟ قال له: يا سبحان الله من أنت؟ فقال: أنا محمد بن إدريس، قال: كيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه؟ قال له: إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله.

إذا كنتَ تستقبل مكروه القضاء بالرضا فأنت تعرف الله، فأنا لا أحب أن ينشغل المؤمن بالأحوال، فأحياناً تجد إنسانًا مشروحًا مسرورًا منبسطًا ممتدًّا، يتكلم بطلاقة، وفي عينيه تألق، عينان زئبقيتان، وخده متورّد، وكلامه دقيق، ومرتاح، وأحياناً تجده كابئًا، فإذا اعتمر الإنسان، فربنا عز وجل لحكمة بالغة يذيقه أحياناً الانقباض، وهناك أمام رسول الله، وأمام سيد الخلق لا شيء أبداً، مثل الحائط، لقد كان قادمًا من باب عالٍ، ويقول في نفسه: أنا وأنا، وأنا لي أعمال صالحة، وأنا مؤمن، والآن سأبكي أمام رسول الله، ثم لا يبكي أبداً، بل ينكسر، يأتي في اليوم الثاني منكسرًا، يفتح الله عليه، فيقول لك: ذقت لقاء مع رسول الله لا أنساه حتى الموت، فأول يوم لم يتحقق اللقاء، فكان فيه اعتداد وانبساط، ومع الانبساط يوجد اعتداد، وفي اليوم الثاني أصيب بانقباض، ومع الانقباض وُجِدَ تذلل، فالله فتح عليه.

للنفس إقبال و إدبار :

ولذلك الأحوال مسعدة، والانقباض صعب، ولكن الله يربِّينا عن طريق الانبساط والانقباض، وعن طريق البسط والقبض، والله عز وجل من أسمائه الباسط والقابض، يفهمون هذين الاسمين على أنهما بمعنى مادي، أي يعطي المال أو يأخذه، وهذا معنى مقبول، لكن هناك معنى أرقى فهو قابض، أي يقبض نفسك، فإذا هي تضجر، وباسط، أي يبسطها، فإذا هي تتألق، لقد بَسَطك كي لا يبقيك مع القبض، وقبضك كي لا يتركك مع البسط، وأنت له، أنت عبد الفتاح، لا عبد الفتح، وأنت عبد الله، لا عبد الأحوال، فإذا قام إنسان بخدمة كبيرة للمسلمين، وليس عنده أحوال، فسيدنا خالد كان يحارب ويفتح البلاد، وهو في أثناء الفتح منهمكٌ بوضع الخطط، ورسم الطرائق الناجعة لكسب المعارك، ويهتم لضعف العدد وقلة العُدد، فلا توجد الأحوال، ولكن توجد الهموم، وهذه الهموم مقدسة، أي أنت فوق الأحوال!، والأحوال يستمتع بها الأشخاص الذين ليس عندهم غير الأحوال، وهي مسعدة ممتعة، وبالتقريب إذا جلس إنسان في حمام وملأ الحوض مآء فاترًا، واستلقى، فارتاح، فهو شيء مريح، ولكنه لا يصبح تاجرًا عقب هذا الاستلقاء، ولو أمضى كل يوم ثماني ساعات لا يكون عالمًا، والاستمتاع ليس له أيّة ثمرة، فلو أنّ إنسانًا كان هدفه الأحوال فقط دون الأعمال فلا يرقى عند الله، والذي يرفعك عند الله هو العمل، قال تعالى:

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

[سورة فاطر: 10]

ولكن لا مانع من أن الله عز وجل يربِّي هذا الإنسان عن طريق الأحوال، عن طريق القبض تارة وعن طريق البسط تارة أخرى، والإمام علي كرم الله وجهه يقول: "النفس لها إدبار ولها إقبال، فإذا أقبلت فاحملوها على النوافل، وإذا أدبرت فاحملوها على الفرائض "، وفي حالة القبض يجب أن تحافظ على الفرائض، وفي حالة الانبساط ينبغي أن تسعى إلى النوافل، لكن هناك أشخاص إيمانهم ضعيف، فما دام في بسط فهو مرتاح، فإذا أصيب بالقبض تجده يقصّر، وحينما تقصر مع القبض فهذه بادرة غير طيبة إطلاقاً.

العارفون إذا بُسِطوا أخوف منهم إذا قُبضوا :

لدينا حكمة أخرى متعلقة بهذه الحكمة الأولى، " العارفون إذا بُسِطوا أخوف منهم إذا قُبضوا " فمع الانبساط مزل القدم، وهذا الشيء يستنبط من أن النبي عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن نفسه: جاءه جبريل قال: يا محمد أتريد أن تكون نبياً ملكاً أم نبياً عبداً؟ فقال: بل نبياً عبداً، أجوع يوماً فأذكره، وأشبع يوماً فأشكره "، ويبدو أن تلوين حياة المؤمن أكثر صلاحاً له من ثباتها على حال عالٍ، أجوع يوماً فأذكره، وأشبع يوماً فأشكره.

والآن القوي والضعيف ، فالقوي إذا كان إيمانه عاليًا بقوة يصالح المسلمين، ولكن مع القوة توجد المزالق، ومع الغنى توجد المزالق، فإذا كان احتمال الانزلاق كبيرًا فالضعف أفضل من القوة، وإذا كان الانزلاق كبيرًا مع الغنى فالفقر أقرب إلى السلامة من الغنى، قال له: أتريد أن تكون نبياً ملكاً أم نبياً عبداً؟ قال: بل نبياً عبداً، أجوع يوماً فأذكره، وأشبع يوماً فأشكره، فالعارفون إذا بُسِطوا أخوف منهم إذا قُبضوا، وأكثر الناس يتوهمون أن الصبر للفقير! لا، بل الصبر للغني، كيف؟ فالفقير ما الذي هو متاح أمامه؟ الدخل المحدود والبيت والعمل، فلو أنّ غنيًّا سافر إلى بلد غربي، ومعه الملايين فيتُاح له أن يفعل كل شيء، وأن يرتاد أي مكان، وأن يجلس في أي متنزه، وأن يدخل أي ملهى، وأن يلتقي مع أية امرأة في أي فندق متاح له، فإذا اكتفى بغرفته في الفندق، إلى مكتب العمل، وعاد إلى بلده وذكر الله كثيراً، فمن هو الذي يحتاج إلى الصبر أكثر؟ هو الغني، لأنّ المال قوة، والمال يتيح له أن يفعل كل شيء، وأن يأكل ما يشاء، وأن يلتقي مع مَن يشاء، وأن يسكن في أي مكان شاء، وهذه الحرية التي يتيحها المال تحتاج إلى صبر، فالقوي بإمكانه أن يظلم، ولو استفزه رجل لبطش به فوراً، لأنه قوي، فالقوي في أمس الحاجة إلى الصبر أكثر من الضعيف، وقد تجد أخًا مؤمّنا ملتزمًا تماماً متألقًا مرتاحًا، فإذا ازداد الحال معه، تجده إن رأى رجلاً مقصرًا يقول له: ماذا حصل لك؟ فهو يصاب بنوع من

الاستعلاء، فهذا الحال فيه اعتداد، وغفلة عن الله عز وجل، فمع الغفلة أحياناً يأتي الانقباض، انقباض بحجمك.

الأدب مع الله عز وجل :

قال لي أخ - وأنا أظنه صالحاً - والله اعتمرتُ عمرة وظننت أنني سأقف أمام النبي فأفنى من البكاء، واللهِ كنتُ كالحائط تماماً، في اليوم الثاني كُسِرت كسرًا شديدًا، فالله فتحها بوجهي، فالإنسان تحت رعاية الله فلا تقل: أنا، وتعتد باستقامتك، ومرة قال لي أخ: أنا لا أنتبه للفتيات، ولا أنظر إليهن و الحمد لله عندي قوة إرادة، قلت له: واللهِ هذا الكلام ليس فيه أدب مع الله، والذي فيه أدب هو الكلام الذي قاله سيدنا يوسف قال:

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

[سورة يوسف:33]

هذا كلام نبي كريم، فقد تجد إنسانًا ذكيًّا، ولكنه يرتكب حماقة كبيرة ، يُمَرّغ بالوحل من خلال لحظة ضعف ألمت به، ولذلك: العارفون إذا بُسِطوا أخوفُ منهم إذا قبضوا"، ولا يقف على حدود الأدب في البسط إلا القليل، مثلاً: مدير مؤسسة قرّب منه موظفًا زيادة عن غيره، وسهر معه سهرة، وذهب معه إلى نزهة وأكرمه، تجد الموظف يتمدَّد فيدخل من دون إذن أحياناً، ويجلس ويتكلم معه كلامًا فيه وحدة حال، فهذا الإكرام الزائد لا ينفعه لأنه تجاوز حدوده، ولو كان من المدير العام شدَّة لأخذ حجمه، وليس كل إنسان بالبسط يكون أديبًا، وحتى مع الله، فإذا بسَط اللهُ عز وجل للإنسان متَّعه بأحوال عالية، فربما اعتدَّ بهذه الأحوال، وظنَّ نفسه مقربًا، فاستعلى على الناس قليلاً، ولذلك قال ابن عطاء الله السكندري: "ربّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً، ولو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أكبر، العُجْبُ العُجْب".

الحكمة من المنع و العطاء :

والآن هناك حكمة مهمة، يقول ابن عطاء الله السكندري: "ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك "، كلام طيب ودقيق، فقد تجد مثلاً بلادًا تنعم بغنى كبير، ورفاهية كبيرة، والأمور ميسرة إلى درجة مذهلة، وكل شيء متوافر، فهذه الدنيا العريضة هي في الحقيقة حجاب بين هؤلاء وبين الله، وقد تجد مجتمعًا آخر في ضائقة، وهذه المشكلات تكون لهم دافعًا كبيرًا إلى الله، فالمجتمعات التي فيها قسوة

وضعف، وفقر وشدة، تجد مساجدها ممتلئة، ودروس العلم عامرة، والناس ملتفتون إلى الله عز وجل، فما أدراك أن هذه الشدة التي ساقها الله لهؤلاء الناس هي سبب قربهم من الله؟

وهناك رجلٌ عانى من أمراض كثيرةٍ طوال حياته، فيبدو بساعة مناجاة لله بدأ في نوع من العتاب، يقول: يا رب أنا لم أرتح يومًا في حياتي، فما الحكمة من ذلك؟ هكذا قال لي، توفي رحمه الله، قال: وقع في قلبي لولا هذا الحال لما كنت في هذا الحال، فكل رجل له ظروف نشأ فيها، وهذه الظروف هي أفضل شيء له، ولولاها لما كان في هذه الأحوال التي ينعم بها، وأحياناً ينشأ الولدُ يتيمًا، وليس معه ثمن طعام، فيدرس، ويأخذ أعلى شهادة، ويتألق ويعيش حياة كريمة، وهناك رجل قوي وغني، والابن ليس لديه الدافع ليدرس، وكل شيء موجود، سيارة، وبيت، وطعام، وشراب، ومال، يموت الأب فيصبح ابنَه وراء الناس في المؤخرة، فبربك هل اليُتم والفقر خيرٌ أم الغنى والدلال؟ إنّ الغنى والدلال جعله في المؤخرة، واليتم والفقر جعله في المقدمة، أليس كذلك؟ هذا معنى قول بن عطاء الله السكندري: "ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك ".

العاقل من ترك الأمر لله و استسلم لقضائه :

واللهِ أيها الأخوة، ما مِن آية في القرآن الكريم تهز مشاعر المؤمن كقوله تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 216]

دع الأمر لله عز وجل، واستسلم لقضائه، وارضَ بما أنت فيه، واقبَل واقعك، وقل: يا رب لك الحمد الذي أوجدتني، ولك الحمد الذي أمددتني، ولك الحمد الذي هديتني، "ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك "، ويوجد آباء ليسوا حكماء في تربية أولادهم، فيعطونهم كلَّ شيء، وهذا العطاء غير المعقول وغير المدروس وغير الحكيم سببُ حرمان الأولاد من مستقبل زاهر، ويوجد آباء بالعكس، في معاملتهم قسوة ظاهرة على أولادهم، وهذه القسوة الظاهرة سبب تألق الأولاد في مستقبلهم.

الإيمان معه راحة نفسية و جسمية :

وهناك حكمة متعلقة بالحكمة السابقة: قال: "متى فتح لك باب الفهم في المنع، عاد المنع عين العطاء"، وينبغي لك أنْ توقن أنّ الأشياء التي حُرِمتَ منها لو كشف الغطاء لشكرت الله على حرمانك منها، وهذا هو الإيمان، الإيمان معه راحة.

وإخواننا الأطباء يذكرون لي أنه كلما تقدم العلم الطبي يكتشف أن وراء معظم الأمراض شدة نفسية، فالقلق والخوف والندم ومشاعر الأسى كلها وراء أكثر الأمراض، وأما الذي يرضى عن الله عز وجل فقدْ حقق أول شرط في الصحة النفسية، وبالتالي الصحة الجسمية.

"متى فتح لك باب الفهم في المنع، عاد المنع عين العطاء "، ولذلك فالمشكلة أن المصيبة تقع، والعبرة لا أن تتأكد من وقوعها، فوقوعها سهل، فأحياناً يقع زلزال، وتتناقل وكالات الأنباء أخبار هذا الزلزال، ويذاع في كل إذاعة، وينشر في كل صحيفة، ويُرى في كل الأخبار المصورة، فهل العبرة أن ترى حوادث الزلزال أم أن تفهم حكمة الزلزال؟ العبرة أن تفهم الحكمة، والبطولة لا أن تتأكد من وقوع مصيبة، إنما البطولة أن تعرف الحكمة من هذه المصيبة، والآية الكريمة:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

[سورة التغابن: 11]

فمِن حكمة المصيبة إذا آمن الإنسان بالله يهدي قلبه.

موالاة الله تدفع الإنسان إلى الإحساس بالعزة :

ويقول ابن عطاء الله السكندري أيضاً:"إن أردت أن يكون لك عز لا يفنى فلا تستعزن بعز يفنى". وقد ذكرت البارحة أن الإنسان عنده دوافع، فالدافع إلى الطعام هذا أساسي لبقاء الفرد، والدافع إلى الطرف الآخر من الجنس لبقاء النوع، ولكن عنده دافع آخر إلى تأكيد الذات حفاظاً على بقاء الذكر، هذا الدافع الثالث لك أن تسميه دافع العزة:

فاجعل لربك كل عزك يستقر ويثبت فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

***

ومستحيل ثم مستحيل أن توالي الله ثم لا يعزك، والذين وقفوا مع النبي عليه الصلاة والسلام هم في أعلى عليين، والذين حاربوه وكفروا به هم في أسفل السافلين، فالصحابة الكرام الأبطال الأعلام، وكبار القادة المسلمين، وكبار علماء المسلمين، يذكرهم المسلمون في اليوم ملايين المرات، أما الذين حاربوا الإسلام فيُذكَرون بأشنع الصفات، فمثلاً: أبو جهل هل يترحَّم أحد عليه؟ مستحيل، قاتله الله، وأبو لهب، قاتله الله، وسيدنا الصديق رضي الله عنه! خلال ألف وأربعمئة عام كلما ذكره مسلم ترضَّى عنه، فماذا فعل؟ لقد وقف مع النبي، ومرة ذكرت آية وهي تدعو إلى الحيرة:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

[سورة التحريم: 4]

فهل مِن المعقول إذا انتقدت امرأتان جهة محترمة في بلد، فيُعلَن استنفار في القوى الجوية والقوى البرية والبحرية والشرطة؟ امرأتان "وإن تظاهرا عليه" وبعدها "فإن الله هو مولاه" حسناً "وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير".

لا يتناسب وامرأة ضعيفة أن يكون الرد على هذا التظاهر: الله وجبريل، وصالح المؤمنين والملائكة، فالعلماء قالوا: هذه الآية معناها: أنه لمجرد أن تفكر في معاداة أهل الحق، ومعاداة الدين، وفي إطفاء نور الله، اعلم من هو الطرف الآخر، أنت بأي بلد تعرف هذا الإنسان له صلة بأعلى جهة هل تسبب له مشكلة في الطريق؟ لا بل تريد السلامة منه، وتعرف من وراءه، اليوم شرطي عادي لا تستطيع أن تسبب له مشكلة لأنه يرتدي بذلة رسمية، والدولة كلها وراءه، وهذا شيء طبيعي في كل بلد، فإنه يمثل النظام، فإذا أنت أهنته أهنت النظام والجميع معه ضدك، وهذا في حياتنا اليومية هكذا، فإذا أراد الإنسانُ أن ينال من الدين، يا لطيف كم هو أحمق، لأن الطرف الآخر هو الله، والطرف الآخر حياته بيده، و قلبه بيده، ودسّامات قلبه بيده، وكليتاه بيده، يوجد عند الله أمراض وبيلة، والله عنده قهر، وعنده خسف.

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

[سورة القصص الآية:81]

ربنا عز وجل عنده أشياء كثيرة، فكلما كنت مؤمناً تأدبت مع الله كثيراً، وإن أردتَ أن يكون لك عز لا يفنى فلا تستعزن بعز يفنى:

اجعل لربك كل عزك يستقر ويثبت فإن اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

***

العطاء من الخلق حرمان والمنع من الله إحسان :

آخر حكمة: "العطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله إحسان ".

أحياناً ينالك من إنسان فاسق فاجر عطاء، فتميل له ميلاً شديدًا، وبهذا الميل تجامله، وتنافق له أحياناً، وتسترضيه، وهو ليس أهلاً لذلك، فحجبك عن الله، فعطاء هذا الإنسان سبب حرمانك من رحمة الله، وهناك إنسان له قريب غني جعله يعمل عنده، وعنده فتيات وسكرتيرات، وعنده بضاعة محرمة، إذْ يبيع خمورًا مثلاً، وخصص له معاشًا ثلاثين ألفًا مثلاً، فهذا القريب الغني فاسق، وعندما أعطاه راتبًا كبيرًا، وأعطاه تعويضات، وكل حياته في المعاصي، والمكتب كله فسق وفجور، والبضاعة كلها محرمة، ومَالَ معه، فهذا الميل حرمه من عطاء الله عز وجل، وهذا معنى العطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله إحسان.

وأحياناً يمنعك من شيء فتتذلل له، وترجوه، وتقبل عليه، فالعبرة أنه أصبح بينكما اتصال.

يروى أن إنسانًا خطب فتاة اسمها وصال، ولها والد شيخ، فقال له: المهر أن تلازم دروسي، فوافق لأنه يريدها، لا مشكلة، فقال: سآتي إلى المجلس، ويبدو أنه سُرَّ بدروسه، وتألق فنسي وصال، فمرة قالت له: أين الوعد؟ قال لها: يا وصال كنت سبب الاتصال فلا تكوني سبب الانفصال، وأحياناً يستخدم الله عز وجل حاجاتك للتقريب لأرضك، حاجة طارئة يجعلها بمسجد.

أخ كريم دعاني مرة إلى تناول طعام الغداء، وأنا لا أعرفه، قلت له: ما قصتك مع هذا المسجد؟ قال لي: أنا لي مع رجل دَيْن، وإنه يحضر عندك يوم الجمعة، فجئت لأطالبه بالدين، فدخلت المسجدَ وجلست، فرأيت أن ثمَّة درسًا، وليس من المعقول أن أطالبه قبل الدرس، أحضر الدرس أولاً، ثم أطالبه، والدرس أعجبني، فلم أتركه منذ ثماني سنوات، فقلت: سبحان الله، جاء فقط ليطالب إنسانًا بدين في هذا المسجد، فلزم الدروس ثماني سنوات، وأخ ثانٍ قال لي: أنا أدرس في الجامع الأموي، وأمر أمام بعض الدروس فأُسر وأسمع، وسبب هدايتي أنني نويت أن أدرس بالأموي، ويوجد فيه بعض دروس العلم، وفي أثناء سماع بعض الدروس تأثر، فأسلم.

فالله عز وجل يخلق مناسبات معينة، فالعطاء من الخلق حرمان، ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام: " رب لا تجعل لي خيراً على يد كافر أو منافق " تميل له، وإذا ملت إلى كافر أو منافق فقد أصبحتَ أسيرًا عنده، إذا تكلم بالخطأ تجامله، ويقول لك: رافقني إلى المكان الفلاني فتستحي منه، والأغنياء الشاردون عن الله مثل البحر وأنت القارب، فإذا بلعت شيئاً من مائه بلعك كلك، والسفينة إذا بلعت من ماء البحر شيئًا بلعها كلها، فأنا أتمنى أن يبقى الإنسان مع المؤمنين، ولا يقبل عطاءً من إنسان فاسق فاجر، يعطيه شروطًا معينة، فالعطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله إحسان.

إعادة لبعض الحكم :

هذه بعض الحكم، لا بأس من أن أتلوها على مسامعكم قراءة فقط:

بسطك كي لا يبقيك مع القبض وقبضك كي لا يتركك مع البسط، وأخرجك عنهما كي لا تكون لشيء دونه.

العارفون إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا، ولا يقف على حدود الأدب في البسط إلا قليل. ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك، ومتى فتح لك باب الفهم في المنع، عاد المنع عين العطاء.

وإن أردت أن يكون لك عز لا يفنى، فلا تستعزَّنَّ بعزٍ يفنى.

والعطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله إحسان.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (116) :بعض الحكم العطائية3 - من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل......

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-02-14

بسم الله الرحمن الرحيم

السالك إلى الله يمر بمراحل و أحوال عديدة :

أيها الأخوة الكرام، نتابع شرح بعض الحكم العطائية، لابن عطاء الله السكندري، ومن هذه الحكم: "من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل "، ولابد من التنويه إلى أن السالك إلى الله يمر بمراحل ويمر بأحوال، فقد ينجو من المعصية فيصير تائباً، وقد يمنحه الله عملاً صالحاً، وهذا شيء طيب، ولكن مع كل مرحلة صعوباتها، ومنزلقاتها، وحينما يستقيم ويعتد باستقامته، ويرى أنه فوق الناس، فهذه الاستقامة أحياناً تحجبه عن الله، لأنه اعتد بها، واستعلى على خلق الله، أما الموقف الكامل فموقف سيدنا يوسف قال:

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

[سورة يوسف:33]

فأنت إذا كنت عفيفاً، فهذا من معونة الله لك، ولو أن الله سبحانه وتعالى ضعّف مقاومتك لوقعت في المعصية، وهذا هو التوحيد، وهذا معنى قوله تعالى:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

[سورة الفاتحة: 5]

والإنسان حينما يستقيم يجد مزالق، فحينما يسلك الإنسان طريق الإيمان يجب أن يكون واعياً، وأن يكون يقظاً، وقد يطيب أن نعمق بعض فهمنا للإيمان، فطالب العلم يريد شيئًا بمستوى تطوره، ومستوى رقيه، فالاستقامة من نعم الله عز وجل الكبرى، ولكن حينما تعتد بها وتراها من إنجازك وقوة إرادتك، فهذه تصبح حجاباً لك عن الله، فيجب أن تفتقر إلى الله، ورب معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً.

منزلقات الاستقامة :

ومن المنزلقات التي يمكن أن يقع بها المؤمنون وهم مستقيمون على أمر الله أن يعتدوا باستقامتهم، وأن يزدروا مَنْ دونهم، ولو رأى إنسان عاصيًا، فيجب أن يشكر الله في قلبه على نعمة التوبة ويدعو له

بالتوفيق، أما أن يشمت به وأن يستعلي عليه، فهذا نقص في كماله، وقد قال بعض الأدباء: "رقصت الفضيلة تيهاً بنفسها، فانكشفت عورتها "، وأنت حينما تتيه بالفضل تقع في النقص وتقع في عدم الفضل. فالإنسان إذا استقام، ومن منزلقات الاستقامة أن يعتد بها، وأن يراها من كسبه الشخصي، ومن جهده، وأن ينسى فضل الله عليه إذ أعانه عليها، فنسيَ قوله تعالى:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

[سورة الفاتحة: 5]

فأنت في طاعة الله إذا أعانك الله عليها، وهذا هو الافتقار إلى الله عز وجل، والآن انتقلت إلى مرتبة العمل، فلك عمل في الدعوة، وفي مساعدة المساكين، وفي إنشاء المساجد، وفي العلم أحياناً، وهذا العمل قد يكون عملاً عظيمًا، فما الذي يفسده؟ أن تعتمد عليه، وفي الدعاء: "اللهم رحمتك أوسع من عملي "، واعتمادي على رحمتك أقوى من اعتمادي على عملي، فالذي يعتمد على عمله يورثه ذاك الاعتماد نقصانَ الرجاء عند وجود الزلل، فإذا زلت قدمه وقع في اليأس، لأن اعتماده كان على عمله، لا على رحمة الله عز وجل.

الغرور يحجب الإنسان عن الله :

بالمناسبة توجد صعوبات كثيرة وأنت في طريق الإيمان، وفي طلب العلم، وفي المسجد، ومع جماعة المؤمنين، تجد صعوبات كثيرة، وقد ذكرت لكم من قبل أن القمة ليس من السهل أن تصل إليها، إنها صعبة، ومع ذلك لو وصلت إليها فهناك مزلق خطير وأنت في قمة النجاح، أن تصاب بالغرور، والغرور أخطر مرض يصيب الناجحين، فلو نجحت في عمل صالح، أو في دعوة إلى الله، أو في خدمة الخلق، أو في إنجاز كبير، فهذا النجاح حوله خطر، هو خطر الغرور، وذات مرة ضربت مثلاً: إن القمة - قمة الجبل- الطريق إليها صعب، وهو طريق ملتوٍ وعر متعب، ولكن إذا وصلت إلى قمة هذا الجبل، فهناك طريق زلق يجعلك في الحضيض في ثانية واحدة، إنه الغرور.

وأحياناً الإنسان كثيرًا ما يصاب بالغرور، والغرور يحجبه عن الله عز وجل، حتى إذا كنت كاملاً مع الكمال، وإذا اعتمدت على الكمال، واعتبرته من إنجازك، ومن جهدك، ففيه غرور، لذلك ورد في بعض الأحاديث:

((الذنب شؤم على غير صاحبه، إن ذكره فقد اغتابه، وإن عيره ابتلي به، وإن أقره شاركه بالإثم))

[كنز العمال عن أنس]

حتى أنت لو لم تذنب، وغيرك أذنب، فأنت معرَّض إلى ثلاثة أخطار، خطر أن تعيِّره فتبتلى به، وخطر أن تذكره للناس فقد اغتبته، وخطر أن تقره عليه فقد شاركته في الإثم.

عدم تناقض الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله :

أيها الأخوة، إنَّ النفس تحتاج إلى عناية، وسيدنا عمر رضي الله عنه يقول: "تعهد قلبك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم"، فرعونات القلب حُجُبٌ بينك وبين الله، والكِبْر حجاب، والاعتماد على العمل حجاب، والنبي كان قدوة لنا في الأخذ بالأسباب، فالأخذ بالأسباب هذا موضوع يحتاجه المسلمون في مثل هذه الأوقات الصعبة، وهم في أمَسِّ الحاجة إلى مفهوم الأخذ بالأسباب، فقال له: يا رسول الله أعقلها أم أتوكل؟ إنها ناقة تركها بلا عقل، قال: أعقلها أم أتوكل؟ توهم هذا الأعرابي أن هناك تناقضاً بين الأخذ بالأسباب وبين التوكل على الله، فماذا أفعل يا رسول الله؟ أعقلها وآخذ بالأسباب أم أتوكل على الله وأدعها سائبة؟

((قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ، أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ: اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ))

[الترمذي عَنْ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ]

فالأخذ بالأسباب لا يتناقض مع التوكل، بل يتكامل معه، وهناك نقطة مهمة وهي أن الله عز وجل جعل لكل شيء سببًا، فهذه سنّته في خلقه، وخَلَقَ الكونَ وفق نظام دقيق، وأنت حينما لا تحترم هذا النظام، فأنت لست عبداً لله، وبعض الأمثلة: قال لك الطبيب: الملح يرفع لك الضغط، وأنت ضغطك مرتفع، أخي لا تسمع، كُلْ إنّه طعام لذيذ، وأكثر من الملح، وتوكل على الله، هذا ليس كلامًا إيمانيًا، ولا كلامًا علميًا أبداً، مثلاً: فاكهة تحتاج إلى غسيل، سمِّ الله ولا يضر مع اسمه شيء، هذا ضعف في العقل:

((من أكل الطين فكأنما أعان على قتل نفسه))

[أخرجه الطبراني عن سلمان]

التأدبَ مع قوانين الكون من لوازم العبودية لله :

أرى والله أعلم أن التأدبَ مع قوانين الكون من لوازم العبودية لله عز وجل، فالله عز وجل لا يخرق هذه القوانين إلا لضرورة ماسَّة، أرسل نبيًّا، فقال: أنا رسول الله، فالكلام الأولي أنت كاذب لست رسول الله، فماذا يفعل؟ لابد له من أن يأتي بمعجزة تثبت أنه رسول الله! فما المعجزة؟ هي خرق القوانين، فخرق القوانين يكون لنبي من أجل أن يتحدَّى الناس الذين كذّبوه، فالله عز وجل يخرق الأسباب، وسيدنا عيسى من دون أب، فهذا خرق للنظام العام، نظام الإنجاب من ذكر وأنثى، وسيدنا موسى ضرب البحر فصار طريقاً يبساً، وهذا خرق للقوانين، وسيدنا إبراهيم ألْقي في النار فلم تحرقه، فهذا خرق، لكن هذا الخرق للأنبياء لحكمة بالغة، لإثبات أنهم رسل من عند الله عز وجل، أما كل إنسان آمن بالله فهل يجب

أن يخرق الله له القوانين؟ هذا يسبب الفوضى، وهذا ما أراه، فالذي لا يحترم نظام الله عز وجل وقوانينه هو ليس عبداً لله عز وجل.

فالأخذ بالأسباب واجب، ولذلك أوضح مثلاً على ذلك سيدنا عمر رضي الله عنه هاجر، ولم يأخذ احتياطًا، ولا اختفى، ولا سار مساحلاً، ولم يمحُ الآثار، ولم يأتِ بالأخبار، بل تحدَّى الناس أمامهم جميعاً، من أراد أن تثكله أمه فليلحقني إلى هذا الوادي، إنّه شيء يحيِّر، والنبي لم يفعل ذلك، وسيدنا رسول الله خرج من مكة متخفياً، وسار مساحلاً، واختبأ في غار ثور، وكلَّف من يمحو له الآثار، ومن يأتيه بالأخبار، ومن يأتيه بالطعام، واستأجر دليلاً مشركًا رّجح فيه الخبرة على الولاء، يا ترى أيهما أصوب؟

أخواننا الكرام، النبي مشرّع، ولو أن النبي الكريم فعل ما فعله عمر لعدّ أخذ الاحتياط حراماً، ولعدّ الأخذ بالأسباب حراماً، ولعدّ ترك الحيطة واجباً، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام مشرّع أخذ بالأسباب كلها، فخرج متخفياً، وسار مساحلاً، واختبأ في غار ثور وقت شدة الطلب، وعيّن له من يأتيه بالأخبار، ومن يمحو له الآثار، واستأجر دليلاً للطريق رجّح فيه الخبرة على الولاء، ثم وصلوا إليه، وصلوا إلى غار ثور، هنا النقطة الدقيقة الحسَّاسة، ولو أنه اعتمد على هذه الأسباب لانهار عند وصول القوم إليه، فلقد أخذ بها تعبداً، ولم يعتمد عليها، إنه يعتمد على الله عز وجل، والحقيقة هذا موقف دقيق وحسَّاس، ونحن في أمس الحاجة إليه كل يوم، ونحن في طريق عن يمينه وادٍ سحيق، وعن يساره وادٍ سحيق، وهذا الطريق ضيّق، إنه الطريق الذي يجنح بين التوكل والأخذ بالأسباب، فتأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وتتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، وهذا هو الموقف الكامل.

الإعداد و الإيمان شرطان متلازمان للنصر :

الشرق الآن لم يأخذ بالأسباب، يقول لك: إيمان، فالإيمان يلزمه استعداد، والعدو يعمل ليلاً ونهاراً، نحن نقول: نحن مؤمنون ولم ينصرنا الله عز وجل، فلا يكفي الإيمان، إذْ لابد من الاستعداد.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال: 60]

ولابد من الإعداد، ومن الإيمان، وكلٌّ منهما شرط لازم وغير كافٍ، فالغرب أخذ بالأسباب، واعتمد عليها فأشرك، ونحن لم نأخذ بها فعصينا، والموقف الكامل الذي فعله النبي عليه الصلاة والسلام أخذ بكل الأسباب، واعتمد على الله:

((عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّه عَنْه قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا فِي الْغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا! فَقَالَ: مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا))

[البخاري عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه]

وفي رواية أخرى: قال: يا رسول الله وقعت عينهم علينا، قال: يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى:

(وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

[سورة الأعراف : 198]

وهذا الذي يحتاجه المسلم اليوم، فأعداء المسلمين أقوياء ووحوش، أعداء المسلمين أغنياء، وأذكياء، لكنه ذكاء شيطاني، والله لا يقبل منا أن نتوكل عليه هكذا، فلا بد أن نعمل، لا بد نأخذ بالأسباب، ويكمل هذا الموضوع هذا الحديث الشريف:

((عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ، فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

[أبي داود عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ]

أهكذا تستسلم، ولا تفعل أي شيء أبداً؟ ماذا نفعل؟ قدّم طلبًا، وصلّ ، وتحرك، وهناك طرفة رُوِيَتْ ولها معنى عميق أن رجلاً قال: الله هو الرزاق فلماذا أعمل؟ جلس في الشيخ محي الدين، وجاء رجل معه صفيحة ولم يتكلم ولا كلمة، ونسي أن يعطيه، فجاء رجل معه خبز لم يعطِه، وفي المرة الثالثة سَعَلْ فلفت النظر فأعطوه، إذًا تحرَّك واعطس، فلو توكلتم على الله حق التوكل كما قال عليه الصلاة والسلام:

((لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا))

[الترمذي عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ]

الطير ماذا فعلتْ؟ تغدو خماصاً و تروح بطاناً، تغدو: إذن توجد حركة، والمسلمون الآن في أمسِّ الحاجة لهذا المعنى، أن نأخذ بالأسباب، المسلم علمي، إذا مرض ابنه ماذا يفعل؟ يبحث عن أفضل طبيب، ويتلقى التعليمات بدقة، وينفذها بحذافيرها، ويتصدق، ويقول: يا رب توكلت عليك، يا رب اشفِ ابني، فهذا هو المؤمن، ولا نُحتَرم إلا إذا كنا هكذا! وميزان الحضارة الآن يجب أنْ نكون هكذا.

الاعتماد على الله مع الأخذ بالأسباب :

يتسوق بضاعة سيئة بسعر غالٍ، إنها لا تباع، فيقول: الله لم يوفقني، فأنت أين عقلك؟ ولماذا لم تقم بدراسة دقيقة للسوق؟ ولماذا لم تلاحظ جدوى البضاعة؟ هل سألت عن أسعارها؟ ومن لك منافس بالسوق؟ فهذه يلزمها دراسة، هذا المسلم الساذج البسيط الذي لا يتحرك حركة إنّه مرفوض الآن، لأن الحياة اليوم فيها تنازع مخيف، وحسبَ القوانين الإلهية، القوي الذي يتحرى الأسباب هو أقوى من المسلم الذي لا يأخذ بالأسباب، فالمسلمون الآن لا ينجيهم من أعدائهم الشرسين إلا أن يأخذوا بالأسباب

وأن يتوكلوا على الله، فإن أخذوا بها واعتمدوا عليها كانوا كالغربيين الذين وقعوا في وادي الشرك، وإن لم يأخذوا بها كانوا كالسُّذَّج الذين توكلوا على الله عز وجل توكلاً ساذجاً.

سيدنا عمر رأى أشخاصًا في موسم الحج فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون، قال: كذبتم، المتوكل من ألقى حبة في الأرض ثم توكل على الله، أنا والله أتمنى على إخواننا الكرام أن يكونوا علميِّين، يأخذون بالأسباب، ويتوكلون على الله، وهذا هو الموقف الكامل، ادرس وخذ بكل الأسباب، ثم قل: يا رب وفقني، أمّا: وفقني من غير حركة، ومن دون سعي، ومن دون إتقان عمل، ومن غير ضبط المواعيد، ومن غير دراسة للسوق، فهذه هي سذاجة المغفل، لا يحميه القانون، والمغفل لا يستحق نصر الله عز وجل بهذه السذاجة والبساطة، فمن علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل.

والآن أخذت بالأسباب الكاملة، وبقي عندك قضية إيمانية، فيجب أن تعتمد على الله الاعتماد الكبير، أخذت بالأسباب فعليك أن تعتمد على الله، وهذا المعنى فيما أرى أنّ المسلمين في أمسِّ الحاجة إليه في دنياهم وحياتهم، ومساكنهم، وتجارتهم، وتأمين طعامهم، وتأمين عمل لأولادهم، وتأمين مستلزمات حياتهم.. فيجب أن يأخذوا بالأسباب، وأنْ يتوكلوا على الله عز وجل.

التوكل من عمل القلوب والأخذ بالأسباب من عمل الجوارح :

المشكلة أن التوكل من عمل القلوب، والأخذ بالأسباب من عمل الجوارح، فإذا جعلتَ التوكل من عمل الجوارح لم تستفِد شيئاً، وهذه أكبر مشكلة، لأن التوكل الذي هو من عمل القلب أصبح من عمل الجوارح.

وفي حياتنا مغالطات، فإن كان الطبيب مهملاً مات المريض، فيقول لك: انتهى أجله، سبحان الله، ولا إله إلا الله، فهذا كلام فيه مغالطة، وقد ورد في بعض الأحاديث:

((مَنْ تَطَبَّبَ وَلَمْ يُعْلَمْ مِنْهُ طِبٌّ قَبْلَ ذَلِكَ فَهُوَ ضَامِنٌ))

[أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجة والحاكم عن عمرو بن شعيب]

يجب أن يدفع الدّية، وما يجري في الغرب أصْوَب مما نفعله نحن، فإذا أخطأ الطبيب يحاسب، أما موضوع انتهى أجله فهذا ليس عملك، وأمامك دليل قويٌّ، هو حديث الإفك، قال لي أخ منذ مدة: هناك مريض أجرى قسطرة، فسمعت أنه لا يجوز أن تُجرَى له مرتين، فلاحق المريض الطبيب وقال له: أجرِ لي عملية قسطرة، ولم يقل له: أنت قمت بها سابقًا؟ أجريتْ له فمات، ألا سألته هل أُجريتْ له سابقاً أم لا؟ فكان على عجلة فقال له: أجرِ لي عملية قسطرة، فالمرة الثانية كانت نهايته بهذه القسطرة، فهذا بالميزان الإسلامي يحاسب الطبيب حسابًا عسيرًا، لأنه سبب موت إنسان، فما الفرق بين إنسان قتل

إنسانًا خطأ وليس قصداً وإنسان قتل إنسانًا تقصيراً؟ من قتل إنسانًا خطأ عليه ديّة وصيام ستين يومًا متتابعة، ومن قتل إنسانًا تقصيراً فقد يسير الإنسانُ بسرعة عشرة فيمر طفل أمامه فيدهسه، فعليه الدية.

(وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ)

[سورة النساء : 92]

إذا كان الخطأ من الطفل فالإنسان يحاسب، وإذا كان الخطأ من الطبيب لأنه أهمل وقصّر فيجب أن يحاسب، الدليل، تخيّل أن السيدة عائشة زوجة النبي عليه الصلاة والسلام يقال عنها: زانية! وزوجها رسول الله! فهذا الشيء هل يحتمل؟ إنه لا يحتمل، بل شيء فوق طاقة البشر، وكل رجل منا يتحمل ألف مشكلة في بيته، أما أن تتهم زوجته بالزنى، وأن يشيع الخبر في المدينة كلها، فهذا الذي حدث، وهذا الذي سمح الله به، فقال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ)

[سورة النور : 11]

وبما أن الله سمح بهذا، فلدينا قاعدة ذهبية مريحة، إن لكل واقع حكمة، فهذا الكون ملك الله، ولا يليق أن يقع شيء في كونه دون إرادته، ودون أن يسمح له، ولا يقع شيء في الكون إلا إذا أراده الله، فمادام الشيء قد وقع، فلهذا الوقوع حكمة، سواء علمناها أم لم نعلمها، نكشفها أو لا نكشفها، إذْ لكل واقع حكمة، وهذه قاعدة، وطبعاً لها قاعدة أوسع: كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق، فإنه شيء قطعي، فالإفك وقع، وكان من الممكن ألا يقع.

التوحيد لا يلغي المسؤولية :

أجمل ما قرأت في التفاسير أنه يوجد اثنتا عشرة حالة، كل واحدة منها كانت تلغي حديث الإفك، فعندما حملَ أصحابُ رسول الله هودَجَ السيدة عائشة ووجدوه خفيفًا، فأين هي؟ بحثوا عنها فوجدوها، وانتهى الأمر، والتغى الحديث، وضاع عقدها، فلو لم يضِع عقدها لما كان الإفك! لقد ذهبت تبحث عنه، وابتعدت عن مكان الهودج، إنه خيط قد انقطع، وهو سبب حديث الإفك، حُمِل الهودج فشعروا أنه خفيف، فبحثوا عنها فوجدوها، وهي قصة طويلة، ولو أن مسطحاً لم يكن متأخرًا، لما بلغه الخبر بما تكلموا إلى آخره.

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ)

[سورة النور : 11]

توحيدياً سمح الله به، وتوحيدياً عدّه الله خيرًا، والله يحاسب الذي روّج الخبر، قال:

(وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

[سورة النور : 11]

انظر فإنّ التوحيد لا يلغي المسؤولية، إذا قصَّر الطبيب فمات المريض وقال: ترتيب أجله، لا إله إلا الله، إنه ترتيب يدك، جاء أجله لا يلغي محاسبة الطبيب، والتوحيد ليس لك علاقة فيه، توحيدياً مات بأجله، أما جزائياً فأنت مسؤول عن موته، وهذا يا إخواننا كلام دقيق، والمسلمون يقعون في مغالطات كثيرة، فيلغون أخطاءهم كلها بالتوحيد، أخي درست ولم أنجح، واللهُ لم يكتب لي أن أنجح، ما هذا الكلام؟ هذا كلام مضحك، كلام تشمئز منه النفوس، فأنت مقصِّر، ولم تدرس ورسبت بالعدل، أو باستحقاق، ثم تقول: اللهُ لم يكتب ليَ النجاح؟ وأكثر المسلمين بهذه التصورات، وأنا باعتقادي هذا سبب تخلفهم، وسبب أنهم الآن في المؤخرة وليسوا في المقدمة، لأنهم لم يأخذوا بالأسباب.

العاقل من تعامل مع الأشياء وفق الأسباب والمسببات :

انظر إلى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى التابعين، وإلى القرون الثلاث الأولى، وإلى المؤمنين الصادقين، إنه شيء عجيب، أخذوا بالأسباب من أعلى درجة، وتوكلوا على الله من أعلى درجة، وهكذا القرآن: وأعدوا لهم، والآن لو أخذنا بالأسباب فلدينا صعوبات أخرى، أن نعتمد عليها وننسى الله.

رجل فهيم، وأموره محكمة، وكل شيء لديه مدروس، تكلم كلمة فيها سوء أدب مع الله، فقال: الدراهم مراهم، وكل شيء يَنحلُّ بالمال، فالله عز وجل أدخله السجن، وبقي فيه ثلاثة وستين يومًا بالمنفردة، قال لي: كل يوم يأتيني ألف خاطر أن الدراهم مراهم؟ فتفضل وحُلّها بالمال، إنها لا تُحلُّ، فأنت برحمة الله، وبتوفيقه، وحفظه لك، وليس بذكائك.

فلذلك أيها الأخوة، قضية التوكل والأخذ بالأسباب من أخطر الموضوعات في حياة المسلمين، وخطؤهم الأول أنهم لم يأخذوا بالأسباب، وكل شيء له سبب، قال:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا)

[سورة الكهف: 83-85]

فإذا ركبتَ مركبة في طريق سفر، فوقفت فجأة في صحراء، ماذا تفعل؟ يا رب يسِّر لي؟ لا، هذه أخِّرها قليلاً، تفتح غطاء المحرك وتبحث عن الخطأ فتصلحه، يا رب لك الشكر، ولك الحمد، افتح غطاء المحرك، وابحث عن شريط مقطوع، وعن مشكلة، وعن خطأ، فعقلنا عقل طوبائي، وليس عقلاً

علميًّا، ونحن بحاجة إلى عقل علمي، أيْ أن نتعامل مع الأشياء وفق منهج الله، ووفق الأسباب والمسببات.

النبي أسوة و قدوة لنا :

النبيُّ صلّى الله عليه وسلم عندما توفي ابنه إبراهيم، وشاعت حكمة الله أن تكسف الشمس لموته، هذا ما فهمه الصحابة، إذْ ربطوا كسوف الشمس بموت إبراهيم، فالنبي بلغه ذلك:

((عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّاسِ، فَقَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ، ثُمَّ قَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ، وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ، وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ فَأَطَالَ السُّجُودَ،ثُمَّ فَعَلَ فِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ مِثْلَ مَا فَعَلَ فِي الأُولَى، ثُمَّ انْصَرَفَ، وَقَدِ انْجَلَتِ الشَّمْسُ، فَخَطَبَ النَّاسَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَادْعُوا اللَّهَ وَكَبِّرُوا وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا، ثُمَّ قَالَ: يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا))

[البخاري عَنْ عَائِشَةَ]

هذا هو الموقف العلمي، كنت مرة بالعمرة، فسمعت كلامًا عن المدينة غير معقول أبداً: مفادُه أنّ هناك أنوارًا تصعد من المقام النبوي، أنوار للسماء! ما هذه النورانية لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ والله سمعتها من شخص وشخصين وثلاثة وأربعة... وذهبت إلى المدينة وأنا أحرص على حضورِ درس علم هناك، فحضرت درس علم بين المغرب والعشاء، ورجل أحترمه، قال: يا أخوان اتصلت بأمير المدينة، فأبلغني أن هذه الأنوار الساطعة من مقام النبي هي أشعة الليزر، اليوم يوجد لدينا بناء يشع منه أشعة ليزر أخضر، انظر إلى الموقف العلمي، النبي منهجه السنّة، منهجه صلى الله عليه وسلم من الأحاديث، بهذه التوجيهات الرائعة، وبالموقف الكامل، هذا هو، ولا يوجد داعٍ لأن ترى أنوارًا صاعدة وهابطة، لا حاجة لذلك، اقرأ السنّة وتعلم منها، واجعله أسوة لك وقدوة.

تطبيق منهج الله و رسوله هو الأكمل :

ذات مرة ضربت مثلاً، والشيء بالشيء يذكر، هناك إنسان عالم كبير له حوالي ثلاثمئة أو أربعمئة مؤلف، ويحمل دكتوراه، وعنده حاجب لا يقرأ ولا يكتب، فهذا العالم له مكتب، ومكتبة ضخمة، وكرسي واسع، ففي غياب هذا العالم جلس هذا الحاجب على كرسيه وراء المكتب، فهل يرقى بهذه العملية

برأيكم؟ لا، لا يرقى، يبقى هذا الحاجب أمّيًّا وجاهلاً، ويبقى سيده عالمًا كبيرًا، أما لو أخذ الحاجب كفاءة، أو إتمام مرحلة، وسار في طريق العلم، فأخذ الكفاءة وأكمل، وأخذ البكالوريا، وأكمل لكان أرقى له.

وثمَّة مثل آخر، هذه كلها من أمراض المسلمين، نتبرّك، والتبرك وحده لا يكفي، وبالمناسبة أنا لا ألغي التبرك، ولا أعتدُّ به لدرجة أني ألغي عملي الصالح، وعندما تصلي بمصلى النبي تبكي ولا يوجد شك، وثمّة صلّى النبي، وهنا سجد، وكان وراءه سيدنا الصديق والصحابة، فلابد أن تتأثر، ولكن لا تعتمد على التبرك وحده، اعتمد على تطبيق منهج رسول الله، فهذا الأكمل.

مثل آخر: لو أن عالمًا كبيرًا له ابن جاهل، وهذا الابن مهما مدح أباه، ولو أمضى كل حياته يمدح والده، فالأب عالم والابن جاهل.

قد تجلس في عقود القران فمديح رسول الله شيء رائع، وتبكي أحياناً، ولكن يا تُرى إذا مدحناه طوال حياتنا وبيتنا ليس إسلاميًّا، ولم نطبق منهجه، فصدِّقوني أن هذا المديح لا قيمة له، لأني أنا أملك دليلاً، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة آل عمران: 31]

من طبق سنة النبي فهو في مأمن من عذاب الله :

قلت لكم سابقاً: مسبح مختلط، والنساء يسبحن شبه عاريات، وصاحب المسبح أقام مولدًا نبويًّا في المسبح نفسه، ودعا الناس، وفِرَقَ الإنشاد، وجاء أناس وألقوا كلمات، شيء جميل، وعملُه من أكبر المعاصي، ومع ذلك دعا فرقة نشيدٍ ومدحوا النبي صلى الله عليه وسلم، وجاء أناس والقوا كلمات وبارك الله بأبي فلان، وهكذا أصبحت حياتنا، تراها من غير تطبيق للإسلام، ولكن يوجد مظاهر، ومظاهر صارخة للإسلام، والآية الكريمة:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[سورة الأنفال: 33]

فما دمت يا محمد، وما دامت سنّتك مطبقة في حياتهم فهم في مأمن من عذاب الله، وماداموا يستغفرون فهم في مأمن آخر، أما لا يطبقون ولا يستغفرون، إذاً ما العمل؟ واللِه امرأة اتصلت وقالت لي: أستاذ أنا لدي زجاجة خمر، ولكنها غالية الثمن، وحرام أن أكسرها، فهل أهديها لأحد فيشربَها، هذه صاحبة دين وتخاف من الله!! جاءتها هدية، فهل من المعقول أن تكسرها؟ فهناك رجل يشرب فتهديها له لتكسب بياض الوجه، ورجل آخر قال لي: باقة الورد هل يمكن أن أحسبها من الزكاة يا أستاذ؟ يريد أن يحسب

ألف ليرة ثمن الورد من الزكاة، ويقدمه في عرس، عجبت لهذا وقلت في نفسي: أين يسير هؤلاء الناس؟ إنهم يسيرون في متاهات، وهذا الدين منهج إن أخذت شكلياته لن تستفيد شيئًا.

إذا أحضرت إشارة سيارة المرسيدس ووضعتها على عربة الحصان فإنها تبقى عربة ولا تصبح سيارة، فأرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بالحكمة الوحيدة اليوم: "من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل ".

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (117) :بعض الحكم العطائية4 - اجتهادك فيما ضُمِن لك وتقصيرك فيما طُلِب منك..........

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-02-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

طلب العلم الشرعي طريق الإنسان إلى الجنة :

أيها الأخوة الكرام:

((مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

[مسلم عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

فأنت حينما تأتي إلى بيت من بيوت الله لتطلب العلم الشرعي، ولتتعرف إلى الله، وإلى موقعك في الحياة، لتتعرف إلى مهمتك في الحياة، لتتعرف إلى العمل الذي يرضي الله، ويسعدك في الدنيا والآخرة، وعندما تكون في الطريق إلى بيت من بيوت الله، فأنت في طريق إلى الجنة، وهذه إشارة:

((... وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ ...))

[مسلم عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

فالحياة متعبة، وفيها هموم كثيرة، وحينما تدخل بيتاً من بيوت الله، فالله عز وجل هو المَزُور، وحُقّ على المزور أن يكرم الزائر، وإكرام الله لك شيء يفوق الخيال، يكرمك بالطمأنينة التي يفتقدها معظم الناس، وبالأمن الذي يحتاجه كل الناس، وبالفهم الذي عزّ على كثير من الناس، وبالتوازن، فالإنسان حينما يلجأ إلى الله، ويدخل بيتاً من بيوت الله ويلتمس فيه العلم، فإنما يسلك بهذا طريقاً إلى الجنة، وهذه إشارة، واللهُ عز وجل وصف المؤمنين بأنهم يعبدون الله خوفاً وطمعاً، رغباً ورهباً، فالداعية الذي يملأ قلوب طلاب العلم خوفاً، فهذا لم ينجح في دعوته، والداعية الذي يملأ قلوب طلاب العلم طمأنينة ساذجة

من دون مضمون من التزام أو عمل صالح أيضاً هذا لا يبني نفوس إخوانه بناءً صحيحاً، ولابد أن ترجوه وأن تخافه.

ورد في الأثر القدسي: "يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك؟ فقال الله عز وجل: أحب عبادي إليّ تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقي، قال: يا رب إنك تعلم أني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك؟ قال: ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي" ذكرهم بآلائي من أجل تعظيمي، وذكرهم بنعمائي من أجل محبتي ، وذكرهم ببلائي من أجل أن يخافوني، فلابد من أن يكون في قلب المؤمن تعظيم وحب وخوف في وقت واحد، تعظيم من آلائه، وحب لنعمائه، وخوف من بلائه.

طلب العلم حاجة عليا في الإنسان :

أيها الأخوة، طلب العلم هي الحاجة العليا في الإنسان، الذي يؤكد أنك إنسان طلبك للعلم، فلا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، الذين يعلمون سلموا وسعدوا في الدنيا والآخرة، والذين لا يعلمون هلكوا في الدنيا والآخرة.

وقبل أن نتابع الحديث عن بعض الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، أتمنى أن أضع بين أيديكم هذه الحقيقة: بقدر ما يشتد الخطر على المسلمين تشتد الحاجة إلى معرفة حقيقة الدين، وبقدر ما تستعر الفتن بقدر ما نحتاج إلى إيمان كبير، ونحن في ظرف استثنائي حيث الفتن ترقص، والفتن في الطريق، وفي أي مكان تجد فتنة، وإن أردت أن تشتري حاجة وجدتَ عليها صورة امرأة شبه عارية، وأينما ذهبت فالفتنة مستعرة، وأينما تحولت فالكسب غير مشروع، وأينما التفتَّ فالعلاقات غير إسلامية، وأي بيت دخلته ففي الأعم الأغلب ليس بيتاً إسلامياً، وأية علاقة أقمتها فهي في الغالب ليست علاقة إسلامية:

((يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ))

[الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

الدين الإسلامي دين الله :

أيها الأخوة، حقيقة أضعها بين أيديكم: لا تقلق على هذا الدين، إنه دين الله، ولولا أن هذا الدين دين الله لانهار منذ ألف عام، لشدة ما حوله من خصوم ومؤامرات وكيد، ولكن دين الله شامخ كالطود، وكلما ازداد أعداؤه ازداد قوة، وهؤلاء الذين يحاربون الدين يحاولون أن يطفئوا نور الله بأفواههم.

أخواننا الكرام، يمكن أن تقرأ آية ثلاثين سنة دون أن تنتبه لها.

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

[سورة الصف : 8]

دعك من نور الله، وتصور إنسانًا توجه إلى الشمس ونفخ ليطفئها، هذا يلزمه مصح عقلي، وهي شمس، فكيف إذا أراد أن يطفئ نور الله؟

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

[سورة الصف : 8]

ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره، فهذا الدين دين الله، والله سبحانه وتعالى قادر على أن ينصره بأية وسيلة، قادر على أن ينصره من قبل أعدائه من دون أن يشعروا، ومن دون أن يريدوا.

كل إنسان قادر على نصرة هذا الدين :

حدثني أخ رئيس مركز ثقافي إسلامي في بلد غربي قال لي: هل تصدق أن لديّ إحصاءً دقيقاً أنه قد أسلم في بريطانيا عشرون ألف بريطاني بسبب كتاب سلمان رشدي، فهل تصدقون؟ رجل ساقط قذر وصف بيت النبوة بأنه بيت دعارة، لقد وصل إلى هذا المستوى، والعالَم كله معه، ومع ذلك عشرون ألف بريطاني أسلموا بسبب هذا الكتاب، فالله عز وجل قال:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ)

[سورة الأنعام : 112-113]

لا تقلق على دين الله إنه دينه، والأمر كله بيده.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود: 123]

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الزمر: 63]

وأعداء الدين في قبضة الله، في أية لحظة يلغي وجودهم، فإذا سمح لهم أن ينالوا من الدين فلحكمة قد لا نعرفها، لا تقلق ولا تحزن ولا تضعف، ولو كانت الهجمة على الدين شرسة، ولكن أنت مسلم عاقل هل سمح الله لك أن تنصر دينه أم لم يسمح؟ وهل منحك شرفًا أن تدعو إليه أم لم يمنحك؟ وهل سمح لك أن تكون جنديًا بالحق وأعطاك شرفًا أن تنصر دينه؟ وكل رجل، وأنتم أمامي جميعاً، كل منكم قادر على أن ينصر هذا الدين بطريقة أو بأخرى، فإذا كنت صادقاً فصدقك دعوة إلى الله، وإذا كنت أميناً

فأمانتك دعوة إلى الله، وإذا كنت متقناً لعملك فإتقانك أيضًا دعوة، وإذا كنت أباً كاملاً فأبوَّتك دعوة، وإذا كنت امرأة صالحة فصلاحك دعوة إلى الله أمام مثيلاتك.

فلا تظن أن الدعوة هي إنسان يحمل الدكتوراه، ويعتلي منبرًا، ويلقي خطبة رائعة تهتز لها النفوس، لا، هؤلاء محترفون بالدعوة، وكل مسلم يمكن أن يكون داعية كبيرًا وهو صامت، باستقامته، وبإتقان عمله، بأبوته، وتربية أولاده، وصدقه، وأمانته، وحسن معاملته، وخلقه الحسن، أذكّركم بحقيقة دقيقة، بقدر ما يكون أعداء الدين شرسين، وأقوياء، وأغنياء، وخبثاء، يجب أنْ نكون متسلحين بالعلم.

ومن أروع ما قاله سيدنا عمر كلمة هي: لست بالخب ولا الخب يخدعني. أي لست من الخبث بحيث أَخْدَع، ولا من الغباء بحيث أُخْدع.

الدعوة إلى الله بالحكمة و الموعظة الحسنة :

الحقيقة الثانية: نحن في أمس الحاجة إلى دعاة إلى الله، ومرة قرأت مقالة ليس لها علاقة بالدعوة إطلاقاً، بل لها علاقة بالتموين، وهي في مجلة تموينية تابعة لوزارة التموين، قرأت المقالة فوجدتها منهجاً في الدعوة، المقالة هي أن باعة يغشون الناس، يبيعون بضاعة سيئة بأسعار غالية، فيسيئون معاملة الناس، فماذا تفعل وزارة التموين؟ أمامها طريقان، الطريق الأول طريق القمع، والطريق الثاني طريق التدخل الإيجابي.

وطريق القمع أن ترسل الوزارة بعض الموظفين إلى هذه المحلات، وتكتب الضبوط، وتغلق المحلات، وتختمها بالشمع الأحمر، وتنقل الغشاشين إلى السجن، فهذه طريقة القمع.

والطريقة الثانية طريقة التدخل الإيجابي، ونظرياً حتى أكون دقيقاً، إنه شيء غير عملي، بل هو نظري، وذلك بأن نفتح مؤسسة، ونبيع الناس أحسن البضاعة بأقل سعر، وبأطيب معاملة، فهؤلاء الباعة الغشاشون إن لم يقلدوا المؤسسة يموتون من الجوع، وهذا طريق آخر.

ولو طبق الدعاة إلى الله - المسلمون النشطون إن صح التعبير - هذا المبدأ بتدخل إيجابي لا تهاجم هذا الإنسان، ولا تنتقد، ولا تجرح، ولا تطعن، ولا تقم بحملة، بل حسبُك أن تسكت، وطبق الإسلام، وادعُ إلى الله عز وجل بالحكمة والموعظة الحسنة، وأظهر ما في الإسلام من عظمة، وما فيه مِن قيم ومبادئ، ترَ الآخرين إن لم يقلدوك انزاحوا من دربك، من دون مشكلة، من دون فتنة، وتعصب، ومن دون مشاحنات، و خصومات، فالجميع سوف ينتهي، وهذا هو أسلوب التدخل الإيجابي، فأنت في بيتك كن قدوة فقط، تجد أفراد الأسرة قلدوك واحداً واحِداً، من دون عنف، وضمن دائرتك، أنت موظف في دائرة كن صادقًا، وأميناً، وخفيف الظل، أدِّ صلواتك بسرعة، مثل موظف في محل يقول: أنا ذاهب إلى

الصلاة، فتجده يتغيب ساعة ونصفًا أو ساعتين، وعندما يُسأل يقول: لقد كنت أصلي، فأنت كرَّهت معلمك بالصلاة، غِبْ ربع ساعة وارجع فوراً، وصلِّ السنة والفرض وارجع فوراً، فلن تجد أية مشكلة، فكن إيجابياً، وإيجابيتك هي الدعوة إلى الله عز وجل.

على الإنسان أن يكون داعية إلى الله باستقامته وبعمله الصالح :

أول نقطة هي يجب أن تكون داعية إلى الله بطريقة أو بأخرى باستقامتك، فاستقيموا يُستقَم بكم، وبعملك الصالح يُقتدى بك، وببيانك الواضح، وأسلوبك اللطيف.

كنتُ في أمريكا العام الماضي، فجاءني سؤال من أخت كريمة، هو: أنا لا أفهم لم نهى النبي عن مصافحة الرجال؟ ونحن في موقف حرج نضطر أن نصافح، لم هذا التحريم وما حكمته؟ وهل من الممكن أن نتجاوز هذا الأمر؟

خطر في بالي أن هذا السؤال له جوابان: جواب فقهي، وجواب دعوي، الجواب الفقهي تقول: لا يجوز أن تصافح المرأةُ الرجلَ، وفعلاً هذا لا يجوز، لحديث أُمَيْمَة بِنْتِ رُقَيْقَة تَقُولُ:

((جِئْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نِسْوَةٍ نُبَايِعُهُ، فَقَالَ لَنَا: فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ إِنِّي لا أُصَافِحُ النِّسَاءَ))

[ابن ماجه عن أُمَيْمَة بِنْتِ رُقَيْقَة]

وهنالك جواب آخر، إنه جواب دعوي، فقلت: الملكة في بريطانيا بحسب القانون البريطاني، لا يصافحها إلا سبعة رجال، لعلو مكانتها وقداستها، والمرأة المسلمة كالملكة، لا يصافحها في نص القرآن الكريم إلا سبعة رجال، الحكم واحد، والجواب ممنوع أن تصافحي إلا المحارم، والثاني هو الجواب نفسُه، ولكن الثاني فيه تلطف، فإنسان يعيش في بلد متفلت، والمصافحة شيء بسيط، والإسلام نهى عنه، فيمكن لك أن تنقل الدين نقلاً رائعاً، مبسطاً، محبباً، فلذلك فإنّ العالم الإسلامي اليوم في أمس الحاجة إلى الدعاة، أكثر مما هو بحاجة إلى علماء متبحرين في العلم، ولكن لا يحسنون نقل الحق إلى الآخرين، فبقدر ما تكون مخلصاً لله عز وجل فسيعطيك الله الأسلوب، والطريقة، والبيان المقنع الواضح، الذي يحبب الناس بك.

على الداعية أن يكون قدوة بأخلاقه وحرفته واستقامته :

أيها الأخ الكريم، نقطة مهمة، يجب أن يحبك الناس، بكونك صادقاً، بكونك أميناً، وواضحاً، فكل واحد منكم يجب أن يكون قدوة، ومثلاً، وداعية، وبطريقة أو أخرى ما من إنسان إلا وحوله أناس يرونه

كبيراً، فكل واحد منكم بأسرته، أنت لك مسجد، ومرجعية دينية، وأنت محسوب على المؤمنين، ومحسوب أنك شيخ، فلو أن أحدهم له درس علم يقول لك والده: أصبح ولدنا شيخاً.

فأنت محسوب على المؤمنين، لذلك هؤلاء الذين حولك هم أمانة في عنقك، وبإمكانك أن تتعلم، وأن تُعلّم، وبإمكانك أن تَفْهَم، وأن تُفَهِّم، وأن تتلقى، وأن تُلقي، وأن تأخذ وأن تعطي.

وفي درس الجمعة البارحة تُوجد آية كريمة:

(خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ)

[سورة البقرة: 63]

فهناك معنى غفلت عن توضيحه في درس البارحة، وهو أنك تأخذ من أجل أن تعطي، فإنسان تلقى العلم فلِمَ تلقاه؟ من أجل أن يُلقي.

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي)

[سورة البقرة: 151-152]

كما هديناكم اهدوا غيركم، وهذا المعنى دقيق، كما أرسلنا فيكم رسولاً فاذكروني أذكركم، فكل رجل منكم يجب أن يكون داعية إلى الله عز وجل، ونحن في أمس الحاجة إلى الدعاة إلى الله، ولا سيّما في زمن الفتن والشهوات والضلالات والشبهات والخصومات، وفي زمن ضياع الحق، وسيطرة قوى الشر في العالم، وكلها ظروف صعبة، ونحن في أمسِّ الحاجة إلى الدعاة، وكلُّ رجل منكم يجب أن يكون داعية، وأن يكون قدوة، بأخلاقه وحرفته واستقامته، وهناك قصص كثيرة، واللهِ إنها مشرفة من إخواننا بسبب مواقفهم الأخلاقية والدينية، ومواقفهم الواضحة، وحولهم أناس كثيرون، هذه هي النقطة الثانية.

ارتقاء الإنسان عند الله باتساع دائرة اهتمامه :

لا تقلق على هذا الدين، ولكن اقلق هل سمح الله لك أن تنصره؟ وهل منحك شرفًا أن تكون جندياً له؟ وإلا ما قيمة هذا الانتماء؟ وما قيمة هذا التلقي؟ وربنا عز وجل حينما قال لك:

(خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ)

[سورة البقرة: 63]

فلماذا ينبغي لكم أن تأخذوا؟ من أجل أن تعطوا، فالحياة أخذ وعطاء، والحكمة التي بين أيدينا وهي الحكمة الخامسة من حكم ابن عطاء الله السكندري وهي مشهورة جداً: "اجتهادك فيما ضُمِنَ لك وتقصيرك فيما طُلِب منك، دليل على انطماس البصيرة منك "، والناس يجتهدون فيما ضمن لهم، مقصرون فيما طُلِب منهم، فالهمُّ كله من الدنيا، والجهد كله من أجل الدنيا، وطاقة الإنسان كلها من أجل

الدنيا، وعقله، وذكاؤه، وحيلته كلها كذلك، فمن أصبح وأكبر همِّه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قُدِّر له، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة.

انظر ما الذي يهمك؟ وما الذي يقلقك؟ وما الذي تسعى إليه؟ هل الدنيا أم الآخرة؟ فحينما تفتح عينيك في الصباح ما الذي يأتيك أوَّلاً أهموم الدنيا أم طلب معرفة الله عز وجل؟

تخيل سيدنا عمر طُعِن وهو يصلي، فأصابته غيبوبة، فلما صحا أول كلمة قالها: هل صلى المسلمون الفجر؟ لم يطمئن على صحته، يا ترى أنا مصاب بشيء خطر؟ فكيف كان التحليل؟ لا، قال: هل صلى المسلمون الفجر؟ قل لي ما الذي يهمك أقل لك من أنت.

وهناك إنسان تهمه الدعوة، وإنسان يهمه إخوانه، وكل إنسان له عند الله مكانة بحسب اهتماماته، ولعل النبي عليه الصلاة والسلام همُّه أمر الخلق جميعاً، ولذلك فهو أعلى إنسان، لأنه شَغَلَ اهتمامه بالخلق جميعاً، وهو أرحم الخلق بالخلق، وكلما اتسعت دائرة اهتمامك ارتقيت عند الله.

وهناك شخص والعياذ بالله تهمُّه نفسه، يأكل بمطعم، ولا يوجد في بيته طعام، فأكَل ولم يهمَّه أحد، فهذا وحش وليس أباً، إذْ يهمه أن يأكل وحده، ولا يعبأ بمن أكل ومن لم يأكل، وإنسان آخر تهمه زوجته وأولاده ، وإنسان اهتمامه يشمل أقرباءه، أخاه وأخته وزوج أخته وأولاده المتزوجون وأخواته، فاهتمامه أكبر، وكلما اتسعت دائرة الاهتمام ارتقيت عند الواحد الديّان.

قيمة الإنسان عند الله بقيمة عمله الصالح :

ولذلك فالإنسان حينما يضمن له الرزق.

(نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة الزخرف: 32]

دقق في قوله تعالى:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

[سورة النجم:39]

فليس لك إلا ما سعيت، والآية دقيقة، ولو أن الله جل جلاله قال: للإنسان ما سعى، وله ما لم يسعَ، لا يمنع أن يكون له ما لم يسعَ، أما حينما قال الله عز وجل:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى)

[سورة النجم:39]

فليس له حينئذٍ إلا سعيه، وقيمتك عند الله بقيمة عملك الصالح.

(لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا)

[سورة المؤمنون: 100]

فالإنسان يندم على أهم شيء في الدنيا، حينما يغادرها يندم على أهم شيء فيها وهو العمل الصالح، وقيمتك عند الله بعملك الصالح، وكلما ارتقيت عند الله قدر الله على يديك العمل الصالح.

من أحبّ ألا يموت فليترك صدقة جارية :

ذات مرة ألقيت خطبة من فضل الله تعالى كانت ناجحة، رجعت فيها إلى تفسير القرطبي، هناك آية شرحها شرحًا رائعًا، فنقلت ما في التفسير إلى الأخوة الكرام، وكان لها أثر بالغ، وبعد نزولي من المنبر قلت: هذا الإنسان قد مات من ألف عام، وانتفع الناس بتفسيره حتى اليوم، وأدركت معنى الصدقة الجارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له، فالصدقة الجارية، مسجد أُسس، أو ميتم، أو مستشفى، أو معهد شرعي، أو سبيل مثلاً، أو كتاب قيّم، أو شريط مؤثّر، أو ابن صالح، وهذا هو الذي يبقى مستمرًا بعد أن تفنى، فمن أحب ألاّ يموت وذلك سهلٌ عليه - بالمعنى العميق - فليترُكْ صدقة جارية.

ومرة من باب الطرفة سألت طلابي: من يذكر لي اسم تاجر عاش في دمشق عام ألف وثمانمئة وخمسة وستين وله علامة تامة؟ فكروا وفكروا وفكروا فلم يعرفوا أحدًا، فقلت لهم: وأنا لا أعلم مثلكم! كم مرة نذكر اسم سيدنا خالد؟ وسيدنا عمر، وسيدنا الصديق، وسيدنا صلاح الدين، وعمر بن عبد العزيز، والإمام الشافعي، والإمام أبي حنيفة، والإمام النووي، والإمام البخاري....؟ مئات ألوف المرات تذكر كل يوم هذه الأسماء، لأنهم تركوا علمًا، وعملاً، وبطولة.

فصلاح الدين الأيوبي ردّ بشجاعته وإيمانه وبجنود قِلة سبعًا وعشرين حملة أوربية، وكان مسلماً، وشريفًا، ورحيمًا، ولم يفتك، ولم يقتل قتلاً تعسفياً، ولذلك يأتي الناس من أطراف الدنيا ليزوروا قبره، ويقفوا أمامه بكل أدب واحترام.

وقد ترى أحياناً جنازة لا يوجد فيها أحد أبداً، فبشّارُ بن بردٍ حينما مات - مع العلم أنه كان شاعراً - ما مشى في جنازته أحد ولا إنسان، إنّه شاعر هِجاء، وغَزل، له ترتيب معين، فالإنسان قيمته عند الله بقيمة عمله الصالح، فاجتهادك فيما ضُمِن لك، وتقصيرك فيما طُلِب منك، دليل على انطماس البصيرة منك.

وليس لديك الوقت لتعرف طريق سعادتك، إذا لم يكن لديك الوقت لتعرف طريق سلامتك، وإذا لم يكن لك الوقت لتعرف منهجك في الحياة، لديك وقت لأي شيء؟ تخيل طبيبًا أحضر معه بورد، وفتح عيادة بالدَّيْن، وعليه مليونا ليرة، ومعه أعلى شهادة ومتخصص، وكاتب على الإعلان أنه يفتح من السابعة حتى التاسعة، وجاءه مريض الساعة الثامنة، فقال له: إنني مشغول ليس لدي وقت! فلماذا إذاً أنت تفتح

ولماذا أنت متفرغ؟ جاء ضمن وقت العيادة، وأنت بحاجة إلى المال، وعليك دين، وتقول ليس لديك وقت؟ مستحيل، وهل لديك عمل أهم من عملك؟ هذا عملك.

فالإنسان يمكن ألاً يكون لديه وقت ليحضر مجلس علم، أو ليعرف الحقيقة، أو ليعمل عملاً صالحاً، أو ليفهم القرآن، فكلمة ليس لدي وقت، أو أنا مشغول، أنا أعجب لها أشد العجب، فإنسان يأتي إلى المسجد على راحته، و ليس لديه أي شيء، لقد شعر بالملل، فيأتي إلى المسجد، لوجود درس لطيف وممتع، فنحن نلهو ونسمعه؟ فإذا جاءه شخص تافه تلغي الدرس وتؤجله، وإذا استمر الهاتف وقتاً يقول لك: لن ألحق، فالدرس قد بدأ، وإذا كان هناك عمل يمكن إنجازه بعد شهر ألغى الدرس وانشغل، وهذا الذي يأتي من دون تصميم، طالب علم من الدرجة العاشرة، وليس من الدرجة الأولى، فمن الدرجة الأولى ينظّم حياته وفق دروس العلم، لأنّ هذا الوقت لله عز وجل.

فالله عز وجل له عمل في الليل لا يقبله في النهار، ولله عمل في النهار لا يقبله في الليل.

العمل الذي يمتص كل وقت الإنسان خسارة محققة :

نقطة ثانية، العمل الذي يمتص كل وقتك خسارة محققة، ولو كان دخله بالشهر مليونًا، فإذا امتص العمل كل وقتك فقد ألغى وجودك، وألغى إنسانيتك، فتجد الإنسان يركب سيارته، ويصل إلى منطقة الحجاز، فيقف عند الإشارة، وزوجته إلى جانبه، فانحنى وأصيب بأزمة قلبية حادة، ولحكمة بالغةٍ بالغة كان صديقه في سيارة ثانية فصرخت زوجته، فنزل الصديق وحمل صديقه ووضعه في المقعد الخلفي، وصفَّ سيارته، وأخذه مع زوجته لإسعافه إلى مشفى راقٍ بالعناية المشددة، وبعد يومين وجد نفسه مرتاحًا، فطلب مسجلة وقال على شريط التسجيل: المحل الفلاني ليس لي إنما هو لأخوتي، والدكان الفلانية لأحد الورثة، فيبدو أنه اغتصب كل أموال والده، وحرم أخوته، فلما جاءته هذه الأزمة الشديدة، أراد أن ينجو من عذاب الله بإرجاع الحق لأصحابه، فكي يسرع ولا يتأخر قام باعترافه على شريط تسجيل، وبعد أسبوع انتهت هذه الأزمة، وعاد وكأن ليس به شيء، أين الشريط أعطوني إياه أخذه وقام بكسره!

جاءت أزمة ثانية بعد ثمانية أشهر وكانت القاضية، فالأولى جعلها الله إنذارًا مبكرًا، فأحياناً ربنا عز وجل يعطي إنذار مبكراً، فذهب إلى الحج وعاد، ولديه مطعم يباع فيه خمر فتاب، وعندما تاب هبطت غَلّته للثلث، وتحمل حوالي ثلاثين يومًا، ثم أرجع الخمر، بعد اثني عشر يوماً مات، لقد مات عاصيًا، فقضية الإنسان أن يعامل الله عز وجل، وربنا عز وجل إذا تبت إليه فلا تنتظر أن تصبح مليونيرًا بعد ساعة، بل انتظر رضاه عنك فقط، فالطاعة لها ثمن، ومن المضحك أنك عندما تطيعه تأمل أن تصبح

غنيًا فوراً، لا، لو كان الأمر كذلك لأطاعه أعداؤُه لينالوا المال، فأطِعه ولا تعلق أي عطاء دنيوي على طاعته، ويكفيك فلاحاً أنك مطيعٌ له فقط، فهو بحكمته البالغة يعطيك أو لا يعطيك، فاجعلْ اجتهادك فيما ضمن لك، ولا تجعل الدنيا أكبر همك، ولا مبلغ علمك، وتقصيرك فيما طُلِب منك، مطلوب منك أن تعرفه، وأن تعمل عملاً صالحاً، وأن تستقيم على أمره، فاجتهد فيما هو مضمون..

ذات مرة عندما كنا صغارًا في المدارس، كنت في ثانوية هي الثانوية الأولى في القطر، ثانوية التجهيز الأولى، فهذه المدرسة مهيأة أن يكون الطلاب جميعاً داخليين، فالقسم الخلفي الذي هو الآن ابن خلدون كان مطعمًا كبيرًا، فيه طباخون ماهرون، والطابق العلوي كان مهاجع للنوم، وغرف مطالعة للدراسة، وفيها أضخم مكتبة في دمشق، إنها التجهيز الأولى، فإذا أتيح للطالب أن يكون في هذه الثانوية من حلب، أو من حمص، أو من الحسكة، أو من دير الزور، أو من أي مكان فكأنه ذهب بعثة، وكانت تقبل طلابًا من المحافظات، وفيها مسجد، ومستوصف، ومطبخ راقٍ، وقاعات مطالعة، ومهاجع، وهذا الشيء كان قديماً في سنة الثلاثينات، واسمها التجهيز الأولى، كان هناك نظام دقيق في المدرسة، طباخون مهرة، وتوقيت دقيق، ووقت للراحة، وللنوم، و للمطالعة، وللطعام، فالطالب الداخلي في هذه الثانوية مطلوب منه أن يدرس، وما سوى ذلك مضمون له، فطالب من الطلاب ترك قاعة الدراسة وترك المطالعة، ونزل إلى المطبخ، وأخذ يسأل: هل قشّرتم البصلات؟ وهيأتم السَّلَطة؟ والشوربة؟ فقالوا له: اذهب لعملك، فهذا ليس عملك، وفي الساعة الثانية ستجد الطعام جاهزًا بأعلى درجة، لقد ترك مهمته الأساسية في الدراسة وطلب العلم، وحشر أنفه مع البصل، فهذا معنى الحكمة، "اجتهادك فيما ضمن لك، وتقصيرك فيما طلب منك، دليل انطماس البصيرة منك، وهو مطلوب منك أن تعرفه".

من طلب العلم تكفل الله له برزقه :

والله أيها الأخوة، هناك أشياء نعدها مستحيلة، يقول الناس: من رابع المستحيلات، وأشخاص يقولون: من سابع المستحيلات، أن تطلب العلم بإخلاص ثم لا تيسر أمورك في الدنيا، وقال: الإمام أبو حنيفة سبب طلبه للعلم أنه قرأ حديثاً: " من طلب العلم تكفل الله له برزقه " وطبعاً لن يجد ليرة ذهب تحت وسادته كل يوم، لكن الله سوف ييسر له عملاً دخله ووقته معقول، الإنسان عمله ثماني عشرة ساعة، وبعض الأعمال ست ساعات أو أربع ساعات، أو خمس ساعات، ودخلها جيد، فكل إنسان طلب العلم، فالمكافأة له من الله عز وجل أن ييسر له عمله، فدوامه معقول، إذْ يتيح له أن يطلب العلم، وجهده معقول، وهذا معنى: " من طلب العلم تكفل الله له برزقه " فهو خلقك لتعرفه، فهل مِن المعقول أنْ يمنعك من أن تعرفه؟ وهل مِن المعقول أن يشغلك بالدنيا لدرجة أنه لا يسمح لك أن تعرفه؟ فهذا شيء

فيه تناقض، خلقك لتعرفه، ولتسعد به، فأنت حينما تطلب العلم الشرعي، وأن تكون طالب علم، ومستقيماً على أمره، ييسر لك عملك، ولك معاملة خاصة، فأنا لا أقول هذا من باب التعالي، شخص يقول لك: أنا لي معاملة خاصة، لا، لكن أقول لك من باب القانون الإلهي، ومن باب سنّة الله في خلقه، إذا طلبت العلم بإخلاص فلك معاملة خاصة، فقل لي: هل معك دليل من القرآن؟ فمن معه دليل على هذه الفكرة؟ إذا طلب الإنسان العلم الشرعي واستقام، وطلب مرضاة الله عز وجل، فله معاملة خاصة، ومستحيل أو من سابع المستحيلات أن يعامل كما يعامل بقية الناس، الدليل:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

فالدنيا والآخرة مفروغ منها، سواء محياهم، أي زواج المؤمن كزواج الفاسق؟ لا، فهل عمل المؤمن كعمل الفاسق؟ لا، وهل تجارة المؤمن كتجارة الفاسق؟ لا، وهل وظيفة المؤمن كوظيفة الفاسق؟ لا، وهل إذا سافر المؤمن كسفر الفاسق؟ لا، هناك فرق كبير، يجب أن يكون هذا المعنى صارخاً لديك.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

هذه الآية أكبر دليل، واللهِ أيها الأخوة: إن هذه الآية لو تقرأها في اليوم ألف مرة فلن ترتوي منها، ولك معاملة خاصة، واللهُ عز وجل لا يحكمه شيء، ويوجد ظروف صعبة، لكنك مستثنى، ويوجد ضيق شديد، وأنت مستثنى، وكساد شديد ولا تصيبك خسارة، وصعوبات بالغة ولا يمسك شيء، وعقبات، وأنت في عافية، وضيق خانق أو انقباض وأنت في سلامة.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: 21]

سعادة الإنسان و تيسير أموره باستقامته :

أخواننا الكرام، أحياناً يحلو لي أنْ ألتقي بأخ طاهر مسلم، أعرف أنه كان يعاني من أزمة صعبة، فأقول له: طمئنّي، فيقول: والله كل شيء انحل، والله عشرات المئات، بل مئات المرات أطمئن على أخ أعرف أنه كان يعاني أزمة شديدة، إما صحية، أو مالية، أو اجتماعية، أو أسرية، فلما اصطلح مع الله عز وجل أزيحت.

فاسمحوا لي بمثل أضربه كثيراً، إنسان انحرف ، فالله عز وجل يقيض له كابوسًا، ولا يوجد قوة تزحزحه عنه، والكوابيس أنواع، كابوس مادي، وكابوس معنوي، واجتماعي، وأسري، وصحي، ومهما حاول لا يستطيع، لأن الله سلطه، في حالة واحدة يزاح عنه هذا الكابوس إذا استقام.

وهذا ملخص الملخص، وينحرف الإنسان فيأتيه كابوس، ويستقيم فينزاح عنه، فسعادتك بيدك، وتيسير أمورك بيدك، وحل مشكلاتك بيدك، بقوانين إلهية، وأكبر قانون:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيماً)

[سورة النساء: 147]

من استقام على أمر الله سعد في الدنيا و الآخرة :

قصة أختم بها الدرس، ويمكن عمر هذه القصة خمس وعشرون سنة، أول ما دَرَّسْت في هذا المسجد كان لنا درس وحيد، في يوم الأحد، ولم يكن هناك درس يوم الجمعة، وهذا في عام أربعة وسبعين، وفي نهاية درس من الدروس قال لي أخ: أنا بعثني فلان لعندك، فقلت: أهلاً وسهلاً، وهل يمكن أن أزورك في البيت؟ قلت له: تفضل، وكان منزلي بالعفيف، فأخذته معي إلى المنزل، تفضل، قال لي: أنا مهندس خيوط، درست في رومانيا، ومعي مرض الصرع، وقال لي: تأتيني هذه الحالة بالأسبوع ثلاث مرات، أو أربعًا، أو مرتين وقد حدث ذلك لي مرة في السيارة، ومرة أمام الموظفين، ومرة بالبيت أمام أولادي، وأنا من أشقى الناس، فهل عندك حل لهذا المرض؟ قلت له: أنا لست طبيبًا! أنا رجل أحضّر درسي، وألقيه على الإخوان، والحل يجب أن تذهب إلى الطبيب، قال: لا أنا أريد الدين، ما رأي الدين بهذا الموضوع؟ هل لي في الدين حلّ؟ ويبدو أنّ معاناته شديدة، مرض ليس له دواء، ويكون راكباً في السيارة يرمى في الأرض، ويظهر الزبد من فمه، أمام موظفيه أحياناً، وهو شاب جميل الصورة، ويتضح أنه ذكي، وأنا تورطت وقلت له: واللهِ أنا معلوماتي أن الله عز وجل لا يرسل لإنسان شيئًا مزعجًا بلا سبب، والدليل قوله تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيماً)

[سورة النساء: 147]

والله كأنني ألقيت عليه قنبلة، قال: إذا أنا استقمت وأرضيت الله أشفى من مرضي؟ قلت له: أنا هذه معلوماتي.

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيماً)

[سورة النساء: 147]

وأنت معذب، وشيء صعب جداً، أما بحسم القرآن، الله ليس له مصلحة أن يعذب إنسانًا بلا سبب، وهذا ما ظهر مني بالكلام معه، وأنا اعتبرتها ورطة، قال: ماذا أفعل؟ من شدة تحرقه أخذ ورقة؟ قلت له:غض بصرك، فكتبها، قال: أنا ألعب بالطاولة، قلت له: لعب الطاولة حرام، فكتبها، قال: أنا أسكن عند جيران، قلت له: الاختلاط حرام، قال: سأبحث عن بيت، قال: زوجتي سافرة، قلت: يلزمها حجاب، وأذكر أنه قدم له منديلاً هدية، فبقي موضوع البيت، يسكن في غرفة عند جيرانه، واختلاط، مطبخ واحد، وحمام واحد، والله تيسر له منزل خلال أسبوع، ذهبت لزيارته في البيت، وأخذت له المنديل، فأنا بعد أن قلت له قوله تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء: 147]

كأنني ندمت على هذا الكلام، فلو جاءته النوبة بعد ساعة، ماذا ستقول له؟ هذا سيستقيم حسب كلامي، مرض عضال، لو جاء بعد ساعة، ماذا أقول له؟ والله انتظرت إلى الأحد الثاني، فجاء وسلم عليَّ، فقلت له: طمئنِّي؟ فوالله الذي لا إله إلا هو قال: هذا أول أسبوع لم أصب بأي شيء إطلاقاً، ممتاز، والأحد الثاني قال: الحمد لله لم أُصب بشيء، وفيما أذكر سبعة أسابيع أسأله، ويجيب: بأنه لم يصب بشيء، والحمد لله، هو ملتزم تماماً، وما قلته له اعتبره قانونًا، وتأمن له البيت خلال أسبوع، من صدقه، وحجب زوجته، وترك الطاولة، وغض بصره، وترك الاختلاط، وفي الأحد الثامن لم يأتِ إلى الدرس، خير إن شاء الله، أنا قلقت، قلت: إن الحالة عادت له، فجاء الأحد التاسع طمأنني، قال: لقد عادت، ولكن لا تقلق على مبدئك، أنا زرت صديقًا، وجاءت زوجته وجلست معنا، وضحكنا قليلاً، وذهبت من عنده فعاودتني في الطريق والله، ولقد رأيته من عدة سنين في حلب، وسلمت عليه، وقد عامل الله بصدق، والشيء ليس سهلاً، فهذا الصرع تخرش في الدماغ، ومرض العمر أحياناً، والله سألته قال: الحمد لله، ويبدو أنه التزم تماماً، وقال:جاءته نكسة، ولكنه عرف السبب، وقال: لا تقلق على مبدئك، كلامك صحيح، ولكن أنا أخطأت هذه الجمعة، وعاودتني هذه الحالة.

فإذا عاملت الله بهذه الطريقة وأنت مخلص أنا لدي قرآن.

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء: 147]

أخ من إخواننا والله أحترمه كثيراً، وأحبه كثيراً، قال: أخطأت خطأً، وإنه خطأ في عمله، كان عليه ألاّ يفعل هذا، لديه ابن في الصف الرابع الابتدائي من طلاب معهدنا، قال له: بابا أنت لماذا فعلت هذا؟ يجب ألاّ تفعل هذا الشيء، قال: خجلت، فهذه البضاعة التي يجب ألاّ يبتاعها، رأسمالها مئة وعشرون ألفًا، وربحها مئة وعشرون ألفًا، قال: فرميتها بالمقطع وألغيتها كلها، باختياره ألغى صفقة بمئتين

وأربعين ألفًا، والله عز وجل يرقى به ويعوض عليه، فقد عامل الله بصدق، والله هو الغني، وهو القدير والمعطي، وإذا أعطى أدهش.

التوحيد والإيمان الحق ألا ترى مع الله أحداً :

أيها الأخوة الكرام، لا زلنا في هذه الحكمة: اجتهادك فيما ضمن لك، وتقصيرك فيما طلب منك دليل انطماس البصيرة منك، والعكس يجب أن تجتهد فيما طلب منك، وترتاح وتطمئن فيما ضمن لك، الله عز وجل ضمن لك.

مرة دخل أخٌ كبير في السن، عمره حوالي ثمانين سنة، ولدي قطعة كاتو قدمتها له مع فنجان من الشاي، فأمسك الشوكة أول قطعة يقطعها دعا دعاء، واللِه اقشعر جلدي منه، قال: سبحان من قسم لنا هذا، ولا ينسى من فضله أحداً، أنا تأثرت عند قوله " ولا ينسى من فضله أحداً "، والله خلقك، ولك عنده حق، ويجب أن يرزقك، ويكرمك، ويهيئ لك زوجة صالحة، ويهيئ لك مأوى تسكن فيه، لا تقلق، هو خلقك وهو أعلم بما تحتاج، ولكن أنت كن له كما يريد ليكون لك كما تريد، قال: عبدي كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك، ولا تكلف خاطرك وتقول لي ماذا يلزمك، كن لي كما أريد، ولا تعلمني بما يصلحك، أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد أعطيتك ما تريد، وإن لم تسلمني فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

لعل الله عز وجل يرحمنا جميعاً بهذه الحقائق، وما مِن إله إلا الله، ولا محرك إلا الله، ولا فعال إلا الله، ولا قوي ولا غني إلا الله، ولا رافع ولا خافض إلا الله، ولا معز ولا مذل إلا الله، ولا معطي ولا مانع إلا الله، وهذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، والإيمان الحق ألا ترى مع الله أحداً، ولو كنت تجد أمامك مليون شخص فلا ترى مع الله أحداً.

التولي و التخلي :

أخ من إخواننا الكرام متفوق باختصاصه تفوقًا كبيرًا، اختصاص إلكتروني، فطُلب لعمل، ويبدو أن صاحب المعمل شديد، وشدّد عليه بأن يراعيه، قال: قلت له كلمة خطأ، قلت له: أنا لست بحاجة إليك، وأنت بحاجة إلي، وأنت بالخيار، قال له: حسناً تعال، قال: أنا كل عمري أحل العطل في الجهاز المعقد، فالله آتاه تفوقًا كبيرًا، قال: في ربع ساعة، أو نصف ساعة، أو ساعة، أو ساعتين، وقد عملنا في هذه المشكلة ثمانيَ ساعات، ولم يتضح لي شيء، وثاني يوم ثماني ساعات ولم يتضح لي شيء، وصاحب المعمل يحاسب على الإنجاز، وليس على عدد الساعات، وثالث يوم ثماني ساعات لم يتضح شيء معه،

أقسَمَ بالله ثمانية أيام، وكل يوم ثماني ساعات، يأتي الساعة الثامنة ويذهب الساعة الثالثة، ولم يعرف أين العطل، قال: أنا أعتذر سآتيك بعد يومين، راجعت نفسي، ماذا تكلمت بشيء خطأ؟ فالله لم يفتح علي، فاستعرض فوجد هذه الكلمة أنه قال: أنا لست بحاجة إليك، وأنت بحاجة إلي، إنْ أعجبك سأعمل وفي ذلك تكبُّر، قال: تبت إلى الله، ودفعت صدقة، وذهبت في اليوم التاسع فخلال ربع ساعة انحلت، قضية كمبيوتر معقدة.

فالإنسان عندما يعتدُّ بخبرته وبعلمه، فهذا نوع من الشرك، وإذا افتقر إلى الله عز وجل فالله يتولاه، وعند الله عز وجل باب الانكسار، باب ليس عليه ازدحام أبداً، أما باب الاعتداد فعليه ازدحام شديد، ومعظم الناس يعتدُّون بعلمهم، وثقافتهم، وخبرتهم، ومالهم، ونسبهم، وحسبهم، وتفوقهم، ومؤلفاتهم، أما المؤمن الصادق فيعتد بالله، وليس بنفسه، ودائماً وأبداً نهاية الدرس إذا قلت الله يتولاك، وإذا قلت أنا، يتخلى الله عنك، وأنت لست أكرم على الله من الصحابة، الذين قالوا: نحن في معركة حنين، فأخجلهم الله.

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ)

[سورة التوبة: 25]

والصحابة الكرام، أعلام الأمة، الذين اختارهم الله لنبيه، وفيهم رسول الله، ولوا مدبرين!

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

[سورة التوبة: 25]

وفي بدر قال تعالى:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

[سورة آل عمران: 123]

فآخر كلام تقول أنا يتخلى عنك أم تقول الله فيتولاك؟ فأنت بين التولي والتخلي، وهذا الدرس درس بدر وحنين يقع معك في اليوم عشر مرات وتسمع من بعضهم يقول: هذا اختصاصي، ولا تفلح فيه أنت، وهذا الشيء أعرفه، قال يا رب: عليَّ الجبر وعليك الهندسة، طالب ضعيف بالهندسة ولكنه متفوق بالجبر، فرسب بالجبر فقال يا رب: أيضاً عليك الجبر، حتى طلاب العلم أحياناً يقولون: هذه مادة أنا أفهم فيها فلا ينجح، لي صديق دراسته غير معقولة، لكنه كان يؤثر الدراسة على الصلاة فجاء سؤال في التاريخ مؤتمر برلين أين عقد؟ فقال: عُقِد في باريس، لم ينتبه للاسم، وهو مكتوب برلين، فأين سيعقد برأيك؟ فأحياناً الإنسان تنطمس بصيرته في الامتحان، ويتحدث بكلام مضحك ليس له معنى إطلاقاً، وإذا وفق الله إنساناً فإنّه يعطيه أوضاعًا عالية.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

انطلاقاً من أن ركعتين من ورع خير من ألف ركعة من مخلط، المخلط الذي عمل عملاً صالحاً وعملاً سيئاً، جمع بين العمل الصالح والعمل السيئ، ركعتين من ورع خير من ألف ركعة من مخلط، وانطلاقاً من أن حال امرئ صادق في ألف خير من ألف قول من كاذب في واحد.

يعني ألف إنسان يتكلم بفصاحة وبوضوح لكن لا يوجد صدق في كلامه، لا يوجد مصداقية، ألف قائل لا يؤثر في واحد وإنسان صادق واحد يؤثر في ألف، لأن هناك في العالم الإسلامي ظاهرةً عجيبة، عدد كبير مليار ومائتين مليون، ليست كلمتهم هي العليا، ليس أمرهم بيدهم، لأعدائهم عليهم ألف سبيل وسبيل، بينما بضعة آلاف من أصحاب رسول الله كانت كلمتهم هي العليا ورفرفت راياتهم في الآفاق، وكانوا قادةً للأمم بعد أن كانوا رعاةً للغنم، المفارقة العجيبة بين ماضي هذه الأمة وبين حاضرها، لعل هذه المفارقة تضح من هاذين القولين ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط، وحال صادق في ألف خير من ألف قول في واحد.

ألف إنسان متكلم غير صادق لا يؤثر في واحد، ورجل واحد صادق له حال مع الله يؤثر في ألف.

موضوع الدرس اليوم الورع، الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى وهو من أعلام المسلمين يقول: لقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم الورع كله في كلمةٍ واحدة، فقال:

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ))

(ابن ماجة ـ الترمذي)

يقترب من هذا القول قوله صلى الله عليه وسلم:

((إياكم وفضول النظر فإنه يبدر في النفس الهوى))

التأمل الشديد في دقائق الأشياء الجميلة، وبأساليبها، وفي متع الكفار، وبيوتهم، ومركباتهم، و وأحوالهم، وكيف يعيشون، التأمل في حال هؤلاء يبعدك عن الآخرة.

المؤمن مشغول بداء رسالة، والمشغول ليس من شأنه أن يشتغل بقضايا تافهة، إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها ودنيها.

ابن القيم يقول: الورع كله جمعه النبي صلى الله عليه وسلم في كلمة واحدة:

((... مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ))

يعني تركه ما لا يعنيه من الكلام، وتركه ما لا يعنيه من النظر وتركه ما لا يعنيه من الاستماع، وتركه ما لا يعنيه من الحركة وتركه ما لا يعنيه من المشي، وتركه ما لا يعنيه من الفكر، وتركه ما لا يعنيه من سائر الحركات الظاهرة والباطنة.

أحد العلماء الكبراء إبراهيم ابن الأدهم، هذا كان سلطان، كان ملك وترك الملك زهداً به وصار عارفاً بالله فإذا قال هذا القول يصدق، قال: لو يعلم الملوك ما نحن عليه ـ لو قاله إنسان آخر ما نصدقه ونقول له أنت تعرف ما الملك ـ لقاتلونا عليه بالسيوف.

قال: الورع ترك كل شبهة، وترك ما لا يعنيك. أما أهم شيء بقوله ترك كل شبهة، في شيء واضح أنه حلال، ما أحد يسأل عنه أبداً، إنسان ماله حلال، وعنده أولاد اشترى طعام وأطعمه لأولاده هل سمعت بحياتك إنسان يسأل شيخ نحن اليوم في البيت طبخنا وأطعمنا الأولاد هل هذا العمل غلط ؟ ما أحد يسأل هذا السؤال لأنه واضح أنه عمل طيب، وعمل طبيعي، وعمل مشروع أولادك أحوج الناس إليك، أولى الناس بإطعامهم وإكسائهم، ولا يوجد إنسان قال القتل حلال، يحتار هل القتل حلال أم حرام، أم شرب الخمر حلال أم حلال، بديهي، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((عَنْ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ))

[البخاري ـ مسلم ـ الترمذي ـ النسائي ـ أبي داود ـ ابن ماجة ـ أحمد ـ الدارمي]

اسمحوا لي بمثل يوضح الورع، تصور برميل بلا قعر، كل شيء إذا ألقيته فيه يخرج منه ففي إنسان لا يوجد عنده شيء حرام أبداً كل شيء يفعله، كل طعام يأكله، كل مال يأخذه، كل شهوة يمارسها، كل عدوان يفعله، كل كذب يكذبه، يفعل ما يشاء، أبداً، هذا لا يسمى حر، هذا يسمى دابة فلتانة هذا أصح كلام، يوجد إنسان عنده شيء من الإيمان إيمانه عمل له شبكة ولكن عينها عشرين سنتمتر وهذه العين لا تمرر بطيخة، فورعه بمستوى، أو استقامته بمستوى أن الكبائر لا يفعلها، ولكن تمرر جوز هند، برتقالة، تفاحة، فشبكته لا تمرر بطيخة لكن تمرر جوز هند، هذا نوع من الاستقامة يوجد إنسان شبكته أضيق لا تمرر جوز هند ولكن تمرر برتقالة، رجل آخر شبكته أضيق لا تمرر برتقالة تمرر كرمنتينانية، رجل آخر شبكته أضيق لا تمرر تفاحة تمرر بندقة، ويوجد آخر شبكته أضيق لا تمرر بندقة

وتمرر حبة حمص، ويوجد آخر شبكته أضيق تمرر سمسمة، ويوجد إنسان استقامته صينية لا تمرر شيء أبداً.

كل إنسان له مستوى من الاستقامة فكل ما ارتفع مستوى استقامته صار أقرب إلى الله

فإذا لزم الاستقامة التامة فيما لزم الله وما نهى عنه صار مع الله دائماً، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110))

[سورة الكهف]

فالورع ترك كل شبهة، غير الورع يبحث عن فتوى ولو ضعيفة، عن رأي ولو شاذ، عن حكم فقهي ولو من فقيه غير متمكن، يسأل أي إنسان ويقول: قالوا حلال يا أستاذ، أقول له: من سألت، يقول: يوجد جامع فوق له إمام يصلي سألته وقال: لا شيء. بهذه البساطة إنسان لا تعرف عن ورعه ولا عن علمه شيء لأنه صلى بخمس أشخاص بجامع صغير جداً سألته وقال لا شيء عليك وانتهى الأمر.

الإنسان غير الورع يتعلق بفتوى ضعيفة، برأي شاذ، بحكم من عالم غير متمكن، أما صاحب الورع لا يقبل إلا الحكم المدعوم بالدليل القوي، بالمناسبة الجاهل وحده يستفتي غيره، ويقبل فتوى غيره، أما طالب العلم عليه أن يطلب الدليل وأن يوازن بين الأدلة، طالب العلم، رواد المساجد، المثقفون، هؤلاء لا يقبل منهم أن يسألوا إنسان يعمل في الحقل الديني، لا أقول عالم، يسألوه سؤال ويأخذوا جواب وانتهى الأمر، هذا ليس مقبولاً من المثقفين، ولا من طلاب العلم، ولا من رواد المساجد، يطلب الحكم الشرعي والدليل إذا سأل عالم آخر وأعطاه الدليل يوازن بين الأدلة، يوجد أدلة أقوى من أدلة، فلان دليله آية، فلان دليله حديث ضعيف، لا الآية أقوى فلان دليله آية بمعناها الظاهر، فلان دليله آية بمعناها لباطن، بمعنى مركب، بتأويل غير مقبول، يجر النص أيام جر، أنتم لا تلاحظون غنمة ساقوها إلى الذبح كيف تجر وهي لا تقبل، من يشد النصوص إلى أهوائه ومصالحه والنصوص تتأبى، لا تقبل النص ليس لهذه الحالة.

يقول لك لو أن الرجال أمروا بغض البصر لما كان للحجاب من معنى، المرأة لها أن تكشف عن محاسنها لأن الرجل مأمور بغض البصر، هذا الاستنباط مضحك، الرجل مأمور بغض البصر والمرأة مأمورة بالحجاب.

النبي عليه الصلاة والسلام يخاطب أبو هريرة:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا وَأَحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا وَأَقِلَّ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ))

[الترمذي ـ ابن ماجة]

يعني أعلى درجة في العبادة أن تكون ورعاً، لذلك مرة، ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط.

قال بعض العلماء: الورع أن يتورع الإنسان عن كل ما سوى الله. هذه درجة عالية جداً، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3))

[سورة المؤمنون]

ما هو اللغو ؟ كل ما سوى الله، أنت راقب حياة مؤمن متفوق لا يوجد عنده موضوع غير ذكر الله أينما جلس، أينما حل، أينما ذهب مع من التقى همه الوحيد توضيح حقيقة دينية، توضيح آية، حديث، توضيح حكم فقهي، رواية قصة عن صحابي، رواية قصة عن عالم جليل، دائماً يقرب الناس من الله، الإنسان الشارد المتفلت يحببهم بالدنيا ويزين لهم المعاصي والآثام، ويبعدهم عن الله، صار الناس رجلان مقرب، مبعد، واصل، قاطع، محبب، منفر.

يا ربي أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: أحب عبادي إلي تقي القلب نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقي، قال: يا رب إنك تعلم أني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى خلقك، قال: ذكرهم بآلائي، ونعمائي، وبلائي.

المؤمن دائماً يذكر الناس بنعم الله كي يزدادوا حباً له، يذكرهم بآلاء الله كي يزدادوا تعظيماً له، يذكرهم ببلاء الله كي يخافوا منه أو يزدادوا خوفاً منه، إذاً الورع أن يتورع المرء عن كل ما سوى الله، إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي.

وقال أبو سليمان الداراني وهذا من داريا، قرى الشام قرى مباركة نوى خرجت الإمام النووي، وداريا الإمام الداراني وأكثر مدن بلاد الشام خرجت علماء كبار ملئوا البلاد علماً وورعاً وقرباً، تلاحظ بالغوطة الشرقية يوجد تدين جيد لو عزوت هذا التدين إلى من ؟ إلى علماء كبار كانوا في الغوطة الشرقية، كانوا ورعين وكانوا قدوةً للناس وما تزال آثارهم حتى الآن واضحة، أسمع عن بعض القرى في الغوطة الشرقية فيها أمن، فيها أمان، يعني قلما يسرق مستودع هناك، يوجد عادات إسلامية أخذوها عن علمائهم الورعين.

قال أبو سليمان الداراني: الورع أول الزهد ن كما أن القناعة أول الرضا. أول الزهد أن تكون ورعاً، الإنسان الزاهد يكون ورع يأخذ الحلال ويدع الحرام، يأخذ ما له ويدع ما ليس له كما أن القناعة أول الرضا، هذه منازل، القناعة منزلة، الرضا منزلة، الزهد منزلة التوكل منزلة، الإيمان بالنهاية يجب أن ينتهي بك إلى هذه المنازل هذه منازل السالكين في مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين.

وقال يحيى بن معاذ: الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل.

كلام دقيق الله عز وجل قال:

(وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا)

[سورة البقرة]

حرم الربا، يأتي إنسان يؤول الربا بنسب قليلة مسموح، لقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130))

[سورة آل عمران]

يريد أن ينفذ من آية، من حديث، من نص ضعيف، إلى أن يحل الربا، فالورع أن تقف على حد العلم من دون تأويل، لذلك المؤمن كما قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب]

يعني علامة المؤمن الشيء الذي قضى الله فيه حكماً هذا الشيء غير خاضع للمناقشة، مرة كنت أستمع إلى برنامج، سألوا دكتورة في جامعة القاهرة عن رأيها في التعدد عبر الهاتف، طبعاً برنامج إذاعي، فقالت: ما يكون لي أن أدلي برأي سمح الله به. أنا ما رأيت إجابة أقوى من هذه الإيجابية، لذلك أخطر شيء أن تسأل إنسان عن شيء الله حكم به.

فالورع أن تقف على حد العلم من دون تأويل، وقال بعضهم: الورع على وجهين ورع في الظاهر وورع في الباطن.

الورع في الظاهر أن لا يتحرك المرء إلا لله، والباطن أن لا يدخل قلبه سوى الله، قالوا ليس الولي الذي يمشي على وجه الماء ولا الذي يطير في الهواء، الولي كل الولي من تجده عند الأمر والنهي، أن يجدك حيث أمرك وأن يفتقدك حيث نهاك، هذا الورع الظاهر، الساعة الثانية عشر وربع يوم الجمعة أين تشاهده ؟ في المسجد وقت خطبة، في وقت الصلوات في المسجد، وقت العمل في عمله، وقت الأسرة مع أسرته، أن يجدك حيث أمرك وأن يفتقدك حيث نهاك، والروع الباطن أن لا تدخل إلى قلبك سوى الله، يعني ورد ببعض الحكم العطائية، العمل المشترك لا أقبله، والقلب المشترك لا اقبل عليه، الله يريد عمل خالص له وقلب خالص له، فالقلب المشترك هذا القلب لا يقبل الله عليه، والعمل المشترك لا يقبله الله لأن الله عز وجل أغنى الأغنياء عن الشرك.

وفي قول في الورع: من لم ينظر في الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء. إذا كل قضية يقول لك لا تدقق الله غفور رحيم، يا أخي أنت متزمت ـ حلها برمة ـ إذا الإنسان هذا وضعه ما له شيء عند الله، كل قضية يقول لا تدقق، لا تكون متزمت، كل قضية الله لا يضع عقله بعقلنا ويحاسبنا، هكذا يقولوا العوام، ومادام رأيك لا تدقق لا يوجد عطاء، من لم ينظر في الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء.

وقال بعضهم: الورع الخروج من الشهوات وترك السيئات. ولعل الشهوات التي لا ترضي الله، لأن الله عز وجل ما من شهوة أودعها في الإنسان إلا وجعل لها قناةً نظيفة تسري خلالها.

يا أخوان:

كلام دقيق واضح في الإسلام لا يوجد حرمان، في الإسلام في نظافة، في تنظيم، ولا يوجد حرمان، والله عز وجل زين لك حب المرأة ما حرمك منها، لكن قال لك تزوجها ولتكن شريكة حياتك لتنجب لك أولاداً يملئون البيت سعادة، ما أمرك أن تكون محروماً منها، ولكن منعك أن تزني بها، منعك أن تستمتع من دون زواج، منعك أن تتخذها مطيةً لشهواتك، الإسلام واضح، ما حبب المال إليك إلا وقد سمح لك أن تكسبه من طريق مشروع، قال تعالى:

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ)

[سورة الأعراف]

يوجد فهم للزهد فهم مقيت غير صحيح، وفي فهم للحرية فهم التفلت، الورع الخروج من الشهوات وترك السيئات، ويوجد قول آخر من دق في لدينا ورعه جل في القيامة خطره. يعني مكانتك عند الله بحسب ورعك، قد يكون شيء غير مقبول لكن واقع، يقال سيدنا أبو حنيفة النعمان رحمه الله تعالى امتنع أن يقف في ظل بيت مرهون عنده، أبى أن ينتفع في ظل بيت مرهون عنده، والآن بقدر ورعك تقترب من الله واطمأن كل إنسان ورع، ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه.

أسأل أحياناً بعض الأخوان الكرام ترك شيء لله الله عوضه أضعاف مضاعفة من طريق مشروع، إلا عوضه الله دققوا خير منه في دينه ودنياه، في دينه بقي الطريق إلى الله سالكاً، بقي الخط الذي بينك وبين الله ساخناً يوجد حرارة، والدنيا تأتيك الدنيا وهي راغمة.

أخ من أخواننا له عمل غير مشروع في القوانين النافذة وبجانب منه غير مشروع عند الله من زاوية ضيقة، فسألني وقال لي أنا أعيش من هذا العمل ودخلي بالشهر أربعين خمسين ألف وأنا لي تقاعدية ثلاثة آلاف وخمس مائة، قلت له: إذا استطعت أن تلغي هذا الشرط من البضاعة لعله أن يكون مقبول، قال لي: أبداً هذه عملية كاملة، قلت له: ما لك مصلحة، فتركها، وهبط دخله إلى الثلاثة آلاف وعنده خمسة أولاد، قال لي: أستاذ أنا دخلي خمسين ألف يصبح ثلاثة آلاف، قلت له: الذي يريد الجنة يجب أن يضحي ن بالضبط قلت له هذا الكلام، مضى أسبوع أسبوعين ثلاثة شهر شهرين، فأرسل لي خبر مع أخ أن أسأل لي الأستاذ هل الامتحان يطول، والله بعد ذلك جاءه دخل مفتوح، الله امتحنه حتى ثبت حتى أخذ أبعاده.

والله أيها الأخوة:

هذه القصة تتكرر كل يوم وليس كل شهر، كل يوم الله يريد أن يمتحن صبرك، يوجد نقطة أحب أن أبينها وكثير ما ذكرتها وأوضح مثل مطعم يبيع الخمور صاحب المطعم تاب إلى الله، حج وتاب فلغى الخمر أنا سوف أسألكم أليس الله قادراً أن يجعل دخل صاحب المطعم خمس أمثال قبل أن يتوب ؟ قادر، ما الذي يحصل ؟ ينزل دخل المطعم إلى الثلث، الربع، لماذا يا رب ؟ لأنه لو أعطاه خمس أمثال عندما تاب صار الشغل تجارة، الاستقامة أربح من الفساد تصبح، والدليل وهذه طرفة ولكنها واقعة، يوجد في حلب صاحب مطعم كاتب الخمر ممنوع بأمر الرب والرزق على الله، هذا المطعم تأتيه الساعة و العاشرة لا يوجد محل، الساعة الثانية عشر لا يوجد محل، الساعة الرابعة لا يوجد محل، الخامسة، السادسة لا يوجد محل عليه إقبال منقطع النظير، أكثر من محل صاحبه أرمني كتب نفس اللوحة، هل هذه عن عبادة ؟ لا ليس عن عبادة ولكن وجد إقبال الزبائن على هذا المطعم عجيب، فلو الله رفع دخل المطعم عند التوبة إلى خمس أمثال كل إنسان يبيع الخمر يتوب ولكن ليس لله حباً للمال، يدفعك ثمن قرارك، ثم استقامتك دافعت ثمنها باهظ يهبط الدخل إلى العشر ماذا تفعل ؟ ثابت أم ندمت، يوجد رجل ندم، حج وعاد ولغى الخمر هبط الدخل إلى العشر بعد شهر أرجع الخمر، بعد أثني عشر يوم وافته المنية.

إذا أنت أردت أن تطيع الله في ثمن، وطن نفسك يجب أن تدفعه، يأتي إنسان من أمريكا جاء يرجع إلى بلده بنية أن يستقيم ويربي أولاده، قد يجد متاعب، لو ما وجد متاعب إطلاقاً ورأى الأمور كلها ميسرة ودخله في الشام أكبر ليس له أجر في العودة، ينصح الفسقة أن يرجعوا هنا أفضل، يجد بعض المتاعب في العمل، وهذه المتاعب ثمن قراره.

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

[سورة التوبة]

وهذا قرار إلهي، قال تعالى:

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

[سورة التوبة]

معنى هذا أنه سوف يكون ضعف في الدخول، فإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله، يعني الله عز وجل إذا أخذت قرار حكيم واصطلحت مع الله وأطعته يجب أن يدفعم ثمن هذا القرار من أجل أن ترقى عند الله، ومن أجل أن يغلق الطريق أمام المنافقين، طريق الجنة محفوف بالمكاره، طريق الجنة بالمتاعب ولكن ليس دائماً ولكن مرحلة فقط، كنت أقول دائماً: حياة المؤمن هي مرحلة تأديب إذا فيها

معاصي، ومرحلة ابتلاء وامتحان بعد الاستقامة، ومرحلة تكريم والله أعلم أن حياته تستقر على التكريم، بعد التأديب والابتلاء تستقر حياته على التأديب ولكن لابد من الابتلاء.
يا إمام ندعوا الله بالابتلاء أم بالتمكين، قال: لن تمكن قبل أن تبتلى، الفكرة دقيقة جداً إذا اتخذت قرار بطاعة الله وجاءتك الدنيا وهي راغمة عقب هذا القرار مباشرةً يتجه الناس إلى طاعة الله لا حباً به ولا إيمان بالآخرة ولكن حباً لمصالحهم، انتهى التدين وانتهى التعبد لكن دائماً الله عز وجل يدفعك ثمن استقامتك، هذا الثمن ترقى به عند الله، وهذا الثمن يؤيد صدقك، وهذا الثمن يبيض وجهك يوم القيامة، ثم تأتيك الدين وهي راغمة، فمن دق في الدنيا جل في القيامة خطره.
وقال بعض العلماء: الورع الخروج من كل شبهة ومحاسبة النفس في كل طرفة عين؟ كلما وجدت شبهة اخرج منها وحاسب نفسك حساباً عسيراً، من حاسب نفسه في الدنيا حساباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيراً، ومن حاسب نفسه في الدنيا يسيراً كان حسابه يوم القيامة عسيراً.
قال سفيان الثوري: ما رأيت أسهل من الورع، ما حاك في نفسك فاتركه، قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ، فَقَالَ: الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ "))

[مسلم - الترمذي - أحمد - الدارمي]

يوجد معك ميزان، وميزانك فطرتك، الشيء الحق، الحلال مريح، الشيء الحرام مقيت، والشبهات فيها ضيق، ذهبت إلى أمريكا سؤال واحد سؤلته أكثر من مائة مرة، لماذا هذا السؤال ؟ لأنه في ضيق، يأتي عالم يعطي فتوة لا يرتاحون لها، يسألون، يا أخي ألم تسألوا ؟ يقولون: لا نرتاح، معنى هذا الشيء غلط، مادام أنت جاءتك فتوى وأنت ما رضيتها معنى هذا أن الشيء غلط، وأنت عندك فطرة سليمة وميزان دقيق، ما رأيت أسهل من الورع، ما حاك في نفسك فاتركه.
وقال سهل: الحلال هو الذي لا يعصى الله فيه، والصافي منه هو الذي لا ينسى الله فيه. يوجد حلال ويوجد صفاء مع الحلال، فالحلال لا يعصى الله فيه، والصفاء الذي لا ينسى الله فيه، يعني تجارة مسموح بها لا يوجد بها معصية بيع أقمشة والشراء صحيح والبيع صحيح ولا يوجد كذب ولا تدليس، ولا إلى آخرة، ولكن إذا في موسم شديد هذا الإنسان قد ينسى، أما أيام يوجد أعمال أساسها في طاعة الله أساها في الدعوة إلى الله وأنت في عملك صافي، وأنت في عملك طائع هذا عمل حلال، أما وأنت في عملك صافي هذا عمل أرقى، فذلك أسعد الناس من كانت حرفته متوافقة مع اتجاهه، يعني إنسان يحب المطالعة وضعوه أمين مكتبة، أروع عمل عنده نهم للمطالعة شديد، عمله أمين مكتبة، إنسان يجب العلم عمله بنشر العلم، إنسان يحب العمل الصالح عمله في مشروع خيري أعظم شيء في الحياة أن يتوافق عملك المهني مع اتجاهك الشخصي.

الإمام الحسن رضي الله عنه سأل غلاماً فقال: ما ملاك الدين ؟ فقال: والورع، قال: فما آفته ؟ فقال: الطمع.

الإنسان حينما يطمع يسقط، أبو حنيفة النعمان رحمه الله تعالى رأى غلاماً أمامه حفرة قال له: إياك يا غلام أن تسقط، قال: إياك يا إمام أن تسقط إني إن سقط سقط وحدي وإنك إن سقطت سقط معك العالم .
وقال الإمام الحسن: مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثال من الصوم والصلاة. أنا سمعت قول لحد العلماء ولعله التستري قال: ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام.
الورع شيء رائع جداً يعني أجمل ما في حياة المؤمن الورع، والورع هو الناجح، هو الفالح، هو القريب من الله، ورزقه حلال والله زرت شخص في العيد وهو كبير في السن وهذه القصة من عشرين سنة عمره ستة وتسعين سنة، قال لي بالضبط: والله يا عم عملت تحليل البارحة كله كان طبيعي، تحليل دم كامل، كله طبيعي وقال: والله ما أكلت قرش حرام في حياتي ولا أعرف الحرام. والله رأيتها كلمة تكتب بماء الذهب، ألا يوجد عنده أسيد أوريك زيادة، شحوم ثلاثية، ألا يوجد عنده هذه الآفات، حمض البول مرتفع، كله تمام.

مرة سألت طبيب أسنان وليس معنى هذا أن إذا أحد صلح أسنانه أنا لا أقصد هذا، قلت له: هل مر معك إنسان أسنانه كلها كاملة ؟ قال: والدي، قلت له: كم عمره، قال: خمسة وثمانين سنة، لا يوجد عنده ولا سن غلط ولا أصلح ولا سن، سمعت عنه له ورع ليس معقول، ورع شديد جداً، قال: يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً.
أحد العلماء الذي نذر نفسه لتعليم الشرع والعلم الديني، بدأ في التعليم في الثامنة عشرة وتوفي في السادسة والتسعين أو في الثامنة والتسعين علم ثمانين سنة، كان يرى الشاب في الطريق يقول له يا بني أنت طالبي وكان أبوك تلميذي، وكان جدك تلميذي، وكان في الثامنة والتسعين منتصب القامة، حاد بالبصر، مرهف السمع، أسنانه في فمه وكلما يسأل يقول: يا سيدي ما هذه الصحة التي حباك الله إياها، يقول: يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر من عاش تقياً عاش قوياً.
التقيت في عالم جليل توفي رحمه الله، قلت له: كيف صحتك وعمره خمسة وثمانين سنة، فقال لي: ممتازة حسب سني.

يعني قوته وحركته ونشاطه، الله عز وجل أقول لكم هذه الكلمة: كل الشباب نشيطين أما في خريف العمر يتفاوتون الناس، يوجد إنسان في خريف العمر نشيط، ويوجد إنسان تضعف أحواله، فالله عز وجل يرزقنا النشاط،

الدعاء الشريف:

((عَنْ خَالِدِ بْنِ أبي عِمْرَانَ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ قَالَ: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلاءِ الدَّعَوَاتِ لأَصْحَابِهِ:.... وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا....))

[الترمذي]

يعني إذا الإنسان فقد حركته أقرب الناس له يتمنى موته، أعرف قريبة أصيبت بخثرة بالدماغ شلت، أول أسبوع خدمة خمس نجوم، ثاني أسبوع أربع نجوم تنام معها بنت من بناتها كل يوم، بعد شهرين ثلاثة ما أحد ينتبه إليها وأقرب الناس إليها تمنوا موتها، حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، قال تعالى:

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70))

[سورة النحل]

شيء رائع جداً أن تعيش حياتك كلها متمتع بصحتك، لكن هذه تحتاج إلى استقامة، غض بصر، تحتاج إلى ضبط الحواس، ضبط الجوارح، ضبط الدخل، ضبط الإنفاق، ستة وتسعين سنة كل التحاليل صحيحة لا يوجد غلطة في جسمه، قال: والله ما أكلت قرش حرام بحياتي ولا أعرف الحرم، وكله عند الله بحساب دقيق، لذلك: وقال الإمام الحسن: مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثال من الصوم والصلاة. وترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام.

أشد الأعمال ثلاثة الجود بالقلة، أحب ثلاثاً وحبي لثلاثٍ أشد، أحب الطائعين وحبي للشاب الطائع أشد، أحب الكرماء وحبي للفقير الكريم أشد، أحب المتواضعين وحبي للغني المتواضع أشد، وأبغض ثلاث وبغضي لثلاث أشد، أبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد ـ هذه المراهقة المتأخرة ـ وأبغض المتكبرين وبغضي للفقير المتكبر أشد، وأبغض البخلاء وبغضي للغني البخيل أشد.

الجود في القلة والورع في الخلوة، وكلمة الحق عند من يخاف ويرجى. كلام دقيق كلمة الحق عند من يخاف ويرجى، قال يزيد بن معاوية: تكلم يا أحنف عن ابني، قال له: والله أخاف الله إن كذبت وأخافكم إن صدقت، قال: فكان تلميحاً أبلغ من تصريح.

يقولون أن الحسن البصري أدى أمانة العلم وتكلم كلام ليس في صالحه، فبلغ الحجاج والحجاج كان بطاش، فقال لمن حوله يا جبناء والله لأروريناكم من دمه وأمر بقتله، وقتل إنسان عند الحجاج كقتل ذبابة، فجيء بالحسن البصري سيد التابعين، لما وصل طبعاً جاء بالسياف ومد النطع ودخل الإمام الحسن البصري ورأى السياف جاهز وكل شيء منته، فحرك شفتيه بكلمات ما سمعها أحد، وإذ الحجاج

يقف له، ويرحب به، ويقربه منه حتى أجلسه على سريره، وقال: يا أبا سعيد أدعو لنا أنت سيد العلماء، واستشاره، واستفتاه وسأله، وضيفه، وعطره، وشيعه إلى باب القصر، السياف والحاجب استغربوا، رجل جيء به ليقتل ما أدري ما حدث، فلما خرج تبعه الحاجب وقال له: يا إمام لقد جيء بك لغير ما فعل فيك فماذا قلت لربك ؟ قال: قلت يا ربي يا ملاذي عند كربتي ن يا مؤنثي في وحشتي اجعل نقمته علي برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم،اختلف الوضع.

كلام دقيق الجود بالقلة، أيام أخ مؤمن معه مائة ليرة رأى أخوه أشد، والله يوجد أخ من أخوانا أنا أحبه كثيراً والله، يعني آثر أن يأتي إلى هذه البلدة الطيبة ليطلب العلم، له عمل ببلد آخر، عمل مكانة، وبيت، ومرتبة، جاء إلى هنا الدخل قليل قال لي: عملت ووزعت على سيارة أخي بعض البضاعة على البائعين، كان يدخلهُ من هذا العمل ألفين ثلاثة لا بأس، له أخ من أخوانا المؤمنين فقد عمله فجأة ومتزوج حديثاً والتجئ له، لا يوجد حل، قال له: أجلس إلى جانبي في السيارة وخذ نصف دخلي ـ دخلك كله ألفين وخمس مائة أتقبل أن ينقسم قسمين ؟ ولكن مؤمن وأنا سمعت القصة من فمه ـ قال لي: الله ألهمنا بعمل ما خطر ببال أحد له تفصيله، أول شهر ربحت خمسة عشر ألف بعد أن قلت له تعالى واجلس إلى جانبي في السيارة وخذ نصف دخلي.

الله عز وجل كبير لما تأثر يعطيك والله إذا أعطى أدهش، أخ متزوج حديثاً فقد عمله ماذا يفعل ؟ قال لي: أنا دخلي ألفين وخمس مائة، اجلس إلى جانبي في السيارة وخذ نصف المبلغ، أنت أعطي البضاعة للبائع وأنا أبقى في السيارة، قال لي: والله أول شهر ربحنا خمسة عشر ألف أعطيته نصفهم، إنسان آثر وضحى، الله يحرمه ! يكون الدين بالطل.

لذلك الجود بالقلة، أنا تحدثت يوم الجمعة قصة على المنبر الناس تأثروا بها كثيراً، شخص أحب أن يعمر مسجد في منطقة القدم تقريباً فكلم أحد أخوانا المهندسين أن يختار له أرض، فوجد له أرض مناسبة جداً ثمنها ثلاثة ونصف مليون، وصاحبها ورثها وراثة قبل شهر مستخدم في مدرسة ابتدائية دخله أربعة آلاف وعنده ثمانية أولاد من أفقر الناس، تملكها من شهر ثمنها ثلاثة ونصف مليون، جاء صاحب المشروع الممول حتى يدفع الثمن، الأرض أعجبته والثمن مناسب، كتب شيك بمليونين ليرة وقال له: هذه أول دفعة، قال: له والثانية متى ؟ قال له: عند التنازل، قال: التنازل لمن ما موضوع التنازل، قال له للأوقاف، فقال له: لماذا الأوقاف ؟ قال له: هذه الأرض سوف ننشأ عليها مسجداً، قال له: مسجد ! قال له: نعم، أخذ الشيك بعد أن كتب ومزقه، قال له: أنا أولى منك أن أقدمها لله يقول هذا الرجل الثري والآن طريح الفراش عافاه الله: بحياتي ما صغرت أمام إنسان كما صغرت أما هذا المستخدم. لأنه إذا معه ثلاث مائة مليون ودفع ثلاث ملايين ماذا فعل، أما هذا لا يملك شيء ما معه

قرش إلا هذه الأرض وقدمها في سبيل الله، الجود في القلة والورع في الخلوة وكلمة الحق عند من يخاف منه ويرجى .

وقال أبو هريرة: جلساء الله غداً ـ في الجنة، هؤلاء الذين ينظرون إلى وجه الله الكريم ويغيبون من نشوة النظرة خمسين ألف عام ـ أهل الورع إن أردت أن تكون جليس الله في الجنة فكن ورعاً في الدنيا.

وقال بعض السلف: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس، وقد روي هذا النص مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال بعض الصحابة ودققوا في قول الصحابة: كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام. هذا الورع فيها شبهة لا نريدها.

أيها الأخوة:

عود على بدء ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط، والورع ملاك الدين، والورع هو التفسير الدقيق لما كان عليه أصحاب رسول الله من القوة والمنعة والعز، ولما آلت إليه حال المسلمين من الضعف والتخاذل وفقد القيام، وكانوا رعاة للغنم فأصبحوا رعاة للأم، أما نحن ليست كلمتنا هي العليا ولأعدائنا علينا ألف سبيل وسبيل، هذا من ضعف إيماننا ومن ضعف استقامتنا ومن فهمنا للدين فهماً تقيماً، فهمناه عبادات ليس غير ولم نفهمه منهجاً قويماً ولا استقامة ولا عطاءً وبذلاً ولا دعوةً إلى الله، فهمناه فهماً فلكلورياً فكنا على ما نحن عليه.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (119) :علاقة الإسلام بالجمال .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-04-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

درس لعله غريب على دروس العلم، ولكني وجدت أنه تشتد الحاجة إلى هذا الدرس، الإنسان أحياناً يذهب إلى قرية يراها متخلفة كثيراً، يرى الطرقات غير نظيفة، مداخل البيوت غير نظيفة، فإذا ذهب إلى قرية أخرى تابعة لطرف آخر غير طرف المسلمين وجد النظافة، الأناقة، المسلم يتألم أشد الألم، قد يدخل إلى دكان يجد فيها الغبار والفوضى وصاحبها من رواد المساجد، وقد يدخل إلى دكان أخرى يجد فيها التنظيم والنظافة وصاحبها من الطرف الآخر، هذا شيء يؤلم الإنسان أشد الألم.

المسلمون يحتاجون إلى حقيقة وهي أن كل مسلم عليه أن يكون مثلاً أعلى وقدوةً صالحة، وعليه أن يكون سفير المسلمين، فالإنسان بادئ ذي بدء يحكم على الرجل من مظهره، من ثيابه، من نظافته أريد أن أؤكد حقيقة مهمة جداً قبل أن أتابع الموضوع، قضية الغنى و الفقر لا علاقة لها بالدرس إطلاقاً، قضية أن تكون نظيفاً أنيقاً المظهر مقبول حسن، هذا يحتاج إلى جهد فقد لا يحتاج إلى مال.

ماذا يمنع أن تكون الأمور مضبوطة في محلك التجاري، المحل نظيف، لا يوجد أغراض بعضها فوق بعض، تدخل إلى صيدلية أحياناً شيء لا يحتمل، الأدوية أكوام، أكوام، الغبار، ويبحث عن الدواء بشق الأنفس، تدخل إلى صيدلية ثانية غاية الأناقة والنظام والضبط، والنظافة، يعني ألا يجدر بالمسلم أن يكون كذلك، الشيء الواقع وهذا شيء مؤلم جداً أن المسلم مهمل، دكانه غير منظمة بيته غير منظم، القرية إجمالاً غير نظيفة، غير جميلة، يدخل إلى قرية ثانية فيها جمال، فيها أناقة، فيها طرقات نظيفة البيوت كلها مطلية بلون لطيف، هذا الشيء مؤلم جداً كأن غير المسلمين يتهمون الدين بهذا التقصير، والدين بريء من هذا والله.

درس غريب من دروس العلم أن أبين علاقة الإسلام بالجمال يا ترى المجتمع الإسلامي مجتمع عبادة ونسك، مجتمع لا يجوز لشفة أن تبتسم، ولا للسان أن يضحك، ولا لقلب أن يفرح، ولا لبهجة أن ترتسم على وجوه الناس، عبوس، كل الأعمال التي فيها شدة، دائماً خوف شديد، لا ليس هذا هو المسلم، المسلم إنسان متفائل، المسلم إنسان أنيق، نظيف، بيته حسن، الأحاديث كثيرة جداً.

((أَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ وَأَصْلِحُوا لِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِي النَّاسِ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلا التَّفَحُّشَ، حَتَّى تَكُونُوا كَالشَّامَةِ فِي النَّاس))

[أبي داود ـ أحمد]

يجب أن تعلم علم اليقين لا يمكن أن تقنع أحداً بدينك إن لم تكن منضبطاً نظيفاً، أنيقاً ذا هيئة حسنة، مرةً ثانية لا تقل لي هذا من أسباب الفقر، لا، يمكن أن تكون غاية في الأناقة، والنظافة والهندام الحسن وأنت فقير، وقد تكون بدرجة غير مقبولة من الاضطراب، والفوضى، وعدم النظافة وأنت في أعلى درجة من الغنى، القضية ليس لها علاقة بالغنى والفقر، لها علاقة بصفة من الإنسان أساسية.

أنت إذا أردت أن يكون لهذا الدين شأن يجب أن تكون أنت محبباً إلى الناس، أن تكون قدوةً حسنةً لهم، قد تفاجئون أن هناك نصوصاً كثيرة جداً، في القرآن والسنة تحض على التجمل، على أن تكون أنيقاً، على أن تكون نظيفاً، على أن تكون الأمور منظمة مضبوطة.

أنا لا أصل إلى أماكن دقيقة الدرس عام، يعني رجل له بيت، له دكان، مكتب، له مظهر، ثياب، فكلما كانت هذه مقبولة وجذابة معنى هذا أنت يوجد عندك عنصر في الحياة جمالي، بالمناسبة الإنسان جسم، هذا الجسم غذاؤه الطعام والشراب، وحينما لا تعبأ بقوانين الجسم فأنت لا تعظم خالق هذا الجسم، الذي خلق هذا الجسم خلقه وفق قوانين دقيقة جداً فإذا تأدبت معها تكون متأدب مع الخالق إنسان لا يعبأ يرتكب مخالفات صحية ثم يأتيه المرض ويقول: الله قدره علي، لا، أمرك أن تأخذ بالأسباب، الطبيب منعك من هذا الطعام، منعك من الملح ضغطك مرتفع، لا تقل توكل على الله وكل الإنسان يموت بأجله، أنا عندي جواب لهذه الكلمة، الإنسان يموت بأجله لكن بين أن يمضي عشرين سنة على الفراش وبين أن يمضيها قائماً، لكن يموت بأجله فعلاً.

يوجد أخطاء كثيرة جداً عند المسلمين لا يعبئون بالأسباب، والأخذ بالأسباب من الدين، قال تعالى:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً (83))

[سورة الكهف]

عليك أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وعليك أن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، هذا هو الدين فالإسلام ليس قاسياً، المسلم ليس كئيباً، ليس فوضوياً، ليس مهملاً، ليس له منظر منفر، ليس هذا هو المسلم، المسلم شخصية فذة، جذابة، منظمة، منضبطة في سلوكه الشخصي، في بيته، في عمله، فما الذي يمنع الإنسان أن ينظف أمام داره ؟ ترى الذي يسافر أقل بيت أمامه حديقة صغيرة إذا مساحة من التراب تزرع حشيش أخضر، مسطح أخضر، دائماً يوجد طلاء جديد للبيت.

مرة ثالثة لا أقصد أن تكون غنياً كي تكون أنيقاً، يوجد أشياء لا تكلف شيئاً لكنها تدخل على قلب الإنسان البهجة والفرح، هل في القرآن والسنة ما يدعونا إلى تلبية الحاجة إلى الجمال ؟ أنت جسم له قوانين، وله غذاؤه وهو الطعام والشراب، وأنت عقل قوة إدراكية هائلة هذه القوة غذاؤها العلم، وأنت نفس لها متطلبات جمالية حاجة جمالية، هي أعلى حاجة جمالية تصل إليها أن تتصل بالله لأنه منبع الجمال، بعد الاتصال بالله أن تكون نظيفاً، أنيقاً، أضرب لكم مثل: باب من أبواب البيت يبدو أنه قديم

أثناء فتحه وإغلاقه يصدر صوتاً مزعجاً، هذا البيت يحتاج إلى نقطة زيت إن لم توضع يسبب ألف مشكلة هذا الباب، الأب الآن نام، الابن فتح الباب، يخرج الأب غضبان يسب، يضرب، يقتل، هل من المعقول قضية تنحل بنقطة زيت تسبب مائة مشكلة.

ورد في الأثر: اعمل لآخرتك وأصلح دنياك.

أيام نظام بيت معين، باب غرفة الجلوس مفتوح على مكان فيه مثلاً فناء الدار يسبب دخول هواء بارد فكلما دخل إنسان والباب ما أغلقه يسبب ضياع الدفء بالغرفة، فالأب يصيح أحياناً، أيام يشتم أولاده، ممكن أن يكون دافع للباب آلي لا يكلف شيء يحل مشكلة حل جذري، أصلح دنياك، اضبط أمورك، الآن هناك حل لكل مشكلة، فالإنسان حينما ينطلق من عقلية منضبطة، منظمة، فيها عنصر جمالي، نعيد مرة ثانية الإنسان جسم غذاؤه الطعام والشراب وعقل غذاؤه العلم، ونفس تحتاج إلى غذاء خاص، أعلى غذاء للنفس الاتصال بالله.

((عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ قَالَ: وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ قَالَ قُلْتُ نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا ذَاكَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

(مسلم ـ الترمذي ـ ابن ماجة ـ أحمد)

يعني أنت في ساعة الإقبال أنت في أعلى درجة من المساعدة لكن في الساعة الثانية التي فيها فتور، تحتاج إلى منظر جميل، أيام الإنسان يضع على النافذة زهور تبعث البهجة في النفس، أيام أمامه مسطح أخضر، أيام يضع منظر جميل، أيام يطلي الغرفة، أيام تكون الغرفة صغير الطلاء السماوي يعطيها شعور بالاتساع، إذا عرفة باردة الطلاء كان لو ـ بيج ـ يعطيها شعور بالدفء، يوجد أشياء دقيقة جداً بالألوان، فلو الإنسان إذا أراد أن يكون له مظهر مقبول، حسن، صار سفير المسلمين، يجب المسلم أن تكون أموره كلها مضطربة، بيته فوضوي، لا يوجد أناقة، لا يوجد نظافة أخي هذا مسلم رباني، لا،

نريد مسلم رحماني ولكن منضبط، قد يغيب عن أذهان الأخوة الكرام أن هناك آيات كثيرة تبين أن الجانب الجمالي في الحياة مطلوب بشكل دقيق جداً.

أول حقيقة في هذا الدرس أن الإسلام دين واقعي، في الهند الإنسان حينما يموت يحرق، يجب أن تحرق معه زوجته، هل هذا الدين واقعي ؟ ما ذنبها، وحتى الآن في بعض القرى حينما يموت الزوج توضع زوجته وهي حية لتحرق، الإسلام دين واقعي يتعامل مع الإنسان بكل جوانبه، يتعامل مع جسمه، امرأة مهملة رثت الهيئة، ثائرة الشعر دخلت على السيدة عائشة، هذا الوضع لم يعجبها، حدثت النبي عن زوجها، زوجها مهمل سيدنا رسول الله استدعى زوجها، غارق في العبادة، وفي الصيام والقيام، وأهمل زوجته، لما أهملها زوجها أهملت نفسها، لأنه لا يوجد إنسان ينظر إليها، فلما النبي نبهه، وقال: يا عثمان أليس لك بي أسوة ؟ فاستجاب والتفت إليها، ولما التفت إليها تنظفت، وتعطرت وتهندمت بالتعبير الشائع، فجاءت إلى بيت النبي في اليوم التالي عطرة نضرة، فوضعها الجديد لفت النظر، سألوها ماذا أصابكِ؟ قالت: أصابني ما أصاب الناس.

فالإسلام دين واقعي، إن لجسمك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا فأعطي كل ذي حق حقه، أول حقيقة في الدرس الإسلام واقعي يتعامل معك كجسم، وكنفس، وكعقل، وكحاجات، وقيم، وواقع وبيئة، وكل شيء غير واقعي لا يستمر، العلم: هو الوصف المطابق للواقع مع الدليل.

الإسلام في التعبير الدقيق وجه المسلمين إلى تلبية كل حاجات الإنسان كلها، الحاجة العقلية اطلب العلم، الحاجة الجسمية تناول الغذاء الجيد، الحالة النفسية كن مع الله، ومسموح لك أن تروي هذا الجانب بالأشياء الجمالية التي أجاز بها الشرع، لذلك الإسلام أمر أن تشبع هذه الحاجات في حدود الاعتدال، والآية الواضحة الدقيقة جداً:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً (67))

[سورة الفرقان]

لكن العلماء لهم رأي آخر في هذه الآية، قالوا: ليس هذا خلقهم في أمر المال، بل خلق أساسي عام في كل أمور الحياة، الاعتدال والوسطية، أنت سمح لك الشرع أن تلبي كل حاجاتك، الجسمية والعقلية، والاجتماعية، والنفسية، هذه حاجات أساسية النفسية الجمال، في قمة الجمال أن تكون مع الواحد الديان، ثم أن تكون في حياتك ومضات جمالية، أي شيء نظيف، شيء أنيق، شيء لطيف.

النقطة الثانية: القرآن الكريم يلح على عنصرين في كل شيء المنفعة و الجمال، أحياناً يصنعوا آلة عندما يُنتهى من تصنيعها الميكانيكي لها غلاف و الغلاف مطلي، و لها أشياء جميلة تحيط بها فدائماً كل شيء له فائدة عملية نفعية، و له فائدة جمالية أي من أجل أن يكون محبباً إلى النفس، أنت انظر إلى بناء غير مكسي، إسمنت من بعد الكسوة البناء صار له مدخل فيه بلاط، فيه رخام، هذا شيء كله جمالي،

أما هو على الهيكل غير مقبول، الإنسان من دون جلد لا يُقبل، لا يحتمل مخيف هذا الإنسان، هناك صور للإنسان عضلات فقط، شيء مخيف، إن الله جميل يحب الجمال، أعطاك جلد انسيابي، لون، خطوط كلها منحنيات لطيفة، هناك تناسق بالخطوط، تناسق بالأبعاد، هذه كلها أشياء جمالية، لذلك دققوا في قوله تعالى:

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5))

[سورة النحل]

فيها دفء: الصوف، فهناك عنصر نفعي بالأنعام، تركبها تحمل أثقالك عليها، تأكل من لحمها، تتدفأ بصوفها، الأنعام لها وظيفة جمالية، الحصان جميل جداً، هناك أنواع غالية إلى درجة أنها تكلف عشرات الملايين، هناك جمال قال تعالى:

(وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6))

[سورة النحل]

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

[سورة النحل]

دخل فيها كل شيء حديث، و يخلق مالا تعلمون، الله عز وجل في هذه الآيات يبين أن هذا الشيء الذي الله خلقه له وظيفة نفعية و له وظيفة جمالية، وظيفة للدنيا ووظيفة للمتعة، فالله عز وجل أقر أن يكون بحياة المؤمن شيء يستمتع به، السبب أنك أنت في الحياة الدنيا معك رسالة و تمشي في صحراء و يوجد خصوم، و الحقيقة معركة الحياة، أكبر معركة و أقدم معركة و أطول معركة و أعنف معركة، معركة الحق و الباطل، و أنت تستمع كل يوم إلى تفاصيل هذه المعركة، معركة الحق و الباطل، فالإنسان حينما يخوض معركة يحتاج إلى أوقات محدودة يستجيب فيها، يرتاح فيها، كيف الإنسان بالصحراء الصحراء قاحلة و موحشة يمر بواحة فيها ظل بركة ماء، تستريح، تأخذ قسطاً من الراحة تستعيد نشاطك، النوم مفيد جداً بعد يوم عمل شاق يمتص كل هذا التعب، تستيقظ على يوم جديد بنشاط جديد، أحياناً أخ يهمل أن يأخذ أولاده نزهة، أي نزهة مهما تكن بسيطة، مهما تكن قريبة، مهما تكن وسيلة النقل متواضعة مكان واسع، مكان جميل، مكان فيه بساط أخضر، فيه أشجار مكسوة بالأزهار، أخذ طعامه الطبيعي، أنا لم أركز على الغنى إطلاقاً، أنا أطلب من الإنسان مهما كان دخله محدوداً يكون عنده ومضات جمالية بحياته، لأن هذا الشيء يغذي النفس و يخفف التوتر مرة قصة أذكرها لكن لا أريد أن تفهموا منها شيء لم أريده أنا أبداً أخ له زوجة صالحة، واضعها في غرفة و طبعاً لا يوجد اختلاط سنتين ثلاثة أربعة، لم تخرج و لم تدخل، ثم ملت هذه الحياة هي نفس فنصحته أن يأخذها نزهة طويلة، فبعد أن أخذها هذه النزهة الأمور انقلبت رأساً على عقب و أصبح هناك ود، فالإنسان لا يغفل إن هذه الزوجة جالسة بالبيت، هذا الطفل يصرخ، بيت ضيق و غير صحي و ليس له إطلالة يبعث في

النفس الضيق، مثل هذا البيت يحتاج أهله إلى استجمام من حين لآخر، هذا شيء أساسي في حياة الإنسان، هذا من الدين، لا تستطيع أنت أن تهمل الناحية الجمالية في الحياة، ألم تأكل ؟ بلى و لكن روحي ستطلع، دائماً تكون المناقشة بالبيت هل يوجد بالأكل تقصير ؟ كلا لا يوجد تقصير الإنسان له حاجات جمالية غير الأكل و الشرب، يحتاج أن يمشي بمكان واسع، ينظر إلى نبات، إلى طبيعة جميلة، إلى جو هادئ إلى نسمات عليلة، أنا أطلب من الأخوان الكرام ألا يغفل الناحية الجمالية بحياته حتى يتوازن، أحياناً نزهة متواضعة لأهلك و لأولادك تخفف عنهم ضغط الحياة كثيراً و تعطيهم نشاط جديد، و اندفاع جديد، لا تهمل تقول أنا أعمل للآخرة و هدفي الله و رسوله صح أنت عندنا كبير جداً، و لكن لا تنسى أن الإنسان بحاجة إلى استجمام، إلى راحة، إلى ساعة فيما أباح الله عز وجل، روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلت عنت، فلذلك قال تعالى:

(وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6))

[سورة النحل]

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14))

[سورة النحل]

ما فائدة الحلي ؟ قضية جمالية محضة، ليس له أي فائدة الحلي لا يؤكل، لكن يتزين به، فالشيء المؤلم أن الطرف الآخر يعتنون بالمظاهر و بالأناقة و بالتزيينات، تناسق الألوان عناية تفوق حد الخيال، و المسلمون في هذه الناحية مقصرون جداً، فالإنسان لأول نظرة لا تعجبه بلاد المسلمين، يعجب ببلاد الشاردين، أناقة، حدائق دائماً الشيء جميل، دائماً الشيء مجدد، لاحظ لوحة طبيب و الله أيها الأخوة لشدة الوسخ عليها الحروف لا تقرأ، يمكن من اثنتي عشرة سنة لم يمسحها، فهذه أليست وصمة عار بحقنا ؟ لوحة، مرة لاحظت وكالة طيران ينظفوا اللوحات الخارجية، ورشة، لوحة نحن نعمل محلات فخمة و نهملها، ثم لا تحتمل أي الطرف الآخر عنده صيانة مستمرة، هذا البناء لو مضى عليه ثلاثين عاماً كأنه أسس البارحة، قضية الصيانة، والعيانة، والتنظيف الدوري هذه تعمل راحة للنفس.

أنت سر في الطريق كم لوحة غير ممسوحة من عشرين سنة انظر إلى الشرفات يوجد عنده مدفأة قديمة في الشرفة، سلم مكسور في الشرفة، منظر الشرفات لا يحتمل، لماذا لا يوجد عندنا منظر جمالي لبيوتنا لا يكلف شيء، إذا شيء منظره منفر أزحه من أمام الناظرين، هذا شيء من الدين، فقط الكافر أنيق، وبيته جميل والكافر فقط يعتني بمظهره ويكون معطر، المسلم أهم، ينبغي أن يكون المسلم على درجة عالية من المنظر الحسن، والنظافة.

أنا أخاف أن تفهموا أن هذا يحتاج إلى مال، لا أنا لا أتحدث عن المال، تحتاج إلى ذوق لا إلى المال، يمكن أن ترتدي ثياب رخيصة يوجد ألوان منسجمة، يمكن أن تدهن بيتك بأقل نوع من الدهان، لو هادئ، يمكن أن تحرص على الانسجام بألوان الأثاث فقط يكفي ممكن أن تضع منظر جميل، ورد صناعي تضعه في زاوية الغرفة يعطي حركة، أما دائماً أكل وشرب ونوم، وكله مهمل هذه مشكلة هذا بيت مسلم.

أنا أيام أدخل إلى بيت فيه أناقة يلفت نظري، يوجد نظام، ترتيب أيام ترى حاجة في طرف البيت ليس لها حاجة موضوعة منذ عشر سنوات، حاجزة حجم، ومنظر بشع لا يخطر في بال إنسان أن يزيحها، فقضية المظهر الحسن جزء من الدين، إذا الإنسان سافر يتوسع أفقه كثير، يرى مظاهر فخمة جداً، مظاهر أنيقة، عناية أنت يمكن إذا كان الشارع نظيف أن تلقي به ورقة ؟ تخجل أما أكلنا على الطريق من نافذة السيارة كله يلقى على الطرقات، مهما كان هناك نظافة وعناية هذا مستحيل.

هناك نقطة دقيقة جداً، دائماً نحن نعتني ببيوتنا، ولا نعتني بالطريق، يوجد وردة نقطفها، ترى المقاعد في الجبل كلها مكسرة وهذه مصنوعة من إسمنت تراها مكسرة، يشعر الرجل إذا كسر شيء عام أنه صنع شيء، هذا تخلف كبير جداً، جعلوا مرة في نبع بردى حديقة من أجمل الحدائق، إذا تذهب إلى هناك تتقيأ تأتي الأسرة إلى هناك تأكل وتترك كل شيء في مكانها، بقايا فراريج بقايا عظام، بقايا فواكه، تراها مكان للقمامة، أساسها حديقة الآن قمامة هذا شيء يدل على مستوى راقي جداً أن كل هذا ألقيناه في الطريق أكلنا وتركنا كل شيء مثل ما هو، أيام ترى في بعض الأماكن الجميلة بقايا فضلات الناس بحيث منظر لا يحتمل إطلاقاً ما الذي يمنع أن يكون المسلم نظيفاً، وأنيقاً، وحريصاً ؟ أيام الإنسان يأكل سكرة ورقة السكرة ليس لها وزن والله يستحي أن يلقيها في الطريق حتى يجد مكان، نحن دائماً نحافظ على نظافة براميل القمامة هذه مشكلة وأنا متألم، دائماً أرى مظهر غير مقبول، مظهر منفر مظهر... أنت مسلم، أنت مثل أعلى للناس بكل شيء.

قال تعالى:

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31))

[سورة الأعراف]

كان عليه الصلاة والسلام يعرف بطيب المسك، له رائحة عبقة شذية تظهر منه،

((أَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ وَأَصْلِحُوا لِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِي النَّاسِ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلا التَّفَحُّشَ، حَتَّى تَكُونُوا كَالشَّامَةِ فِي النَّاسِ))

آيات كثيرة جداً تحض على التجمل، طبعاً خطبة الجمعة السابقة كلها حول النظافة، نظافة البدن، نظافة الثوب، نظافة المكان نظافة الفناء البيت، نظافة الطريق، في الأماكن العامة ينبغي أن تكون نظيفاً، يوجد

بلدة من بلدات ريف دمشق هكذا سمعت عنها أنيقة جداً كل أهل القرية يوم الجمعة ينظفون الطرقات ويطلون الجدران، ويعتنون بمظهر بلدتهم، لها ميزة خاصة مزروعة أشجار صنوبر طرقاتها كلها ممهدة فيها مرافق عامة عالية جداً، وأهلها بالعكس عملوا عمل، نزعت الملكية من أصحابها وأصبحت ملكية مشاع زرعت فستق، وريع الفستق لكل أهل القرية، العمل الجماعي.

مرة صديق لي كان في هولندا قرأ إعلان بجريدة لوظيفة، طبعاً بالسن، والشهادة، أما في بند يلفت النظر وهو أن يصلح للعمل ضمن فريق، نحن الطابع الفردي يغلب علينا، ضمن بيتك لا يوجد مشكلة، ولكن خارج البيت لا يوجد تعاون أبداً، في الأبنية، في المداخل، يوجد بناء من الأبنية يلفت النظر هنا في دمشق، اجتمع أصحاب البناء، أنشأوا حديقة في فناء البناء للأطفال وصنعوا بها الألعاب، واشتروا مولدة للبناء بأكمله، وعندهم كل أسبوع سهرة يتواصلون بها، وعندهم نوع من العلاقة الاجتماعية راقية جداً يعني بناء يلفت النظر، كل إثنين عندهم سهرة، وكل جمعة يذهبون إلى جامع واحد يتعاونوا يسمعوا خطبة من مسجد واحد، وفي بينهم تعاون شديد، محولة كهرباء عامة، حديقة عامة، مرآب للسيارات عام، نظام فريد من نوعه هذا ينبغي أن يكون في كل بناء، ترى لا يوجد تعاون أبداً، بناء فردي هذا مظهر تخلف أيها الأخوة.

أنا قناعتي أن المؤمن عميق الإحساس في الجمال والكون والحياة والإنسان، لأن المؤمن شفاف، فطرته لن تطمس، فطرته نظيفة ومن لوازم الفطرة الجميلة عمق الإحساس بالجمال، دقيق إلى درجة لا تغيب عنه شاردة ولا واردة في العلاقات الاجتماعية، والعلاقات الجمالية، قال تعالى:

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (6))

[سورة ق]

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16))

[سورة الحجر]

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7))

[سورة ق]

يبعث البهجة في النفس، قال تعالى:

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60))

[سورة النمل]

(وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6))

[سورة النحل]

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3))

[سورة التغابن]

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7))

[سورة الانفطار]

المؤمن بفطرته السليمة وحسه المرهف وشفافيته، عنده إحساس بالجمال يفوق أي إنسان آخر، ما الذي يمنع أن يجمل حياته ؟ الإسلام لا يوجد فيه عبوس، كآبة، سوداوية، المؤمن مرح، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام كان يمزح ولا يمزح إلا حقاً، كان إذا دخل بيته بساماً ضحاكاً، يعين في بيته، مؤنس، علاقته مع زوجته عالية جداً، تقول له كيف حبك لي ؟ يقول: كعقدة الحبل، تقول له من حين لآخر: كيف العقدة ؟ يقول لها: على حالها.

تسابق معها مرةً فسبقته، قالت: فلما ركبني اللحم فسبقني. هو لم يتغير وزنه صلى الله عليه وسلم، الآية الكريمة الدقيقة جداً:

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ)

[سورة الأعراف]

هذه الزينة أضيفت إلى لفظ الجلالة زينة الله، التفاحة لها منظر جميل غير أنه مادة غذائية مفيدة منظرها جميل، كل شيء الله خلقه يوجد فيه ناحية جمالية، هذه زينة الله عز وجل، انظروا إلى الطفل قطعة جمالية، الشجرة جميلة جداً، الغابات، الجبال، الصحارى كل شيء الله خلقه فيه جمال، فالتفاعل مع الجمال من شأن الدين حتى الإنسان أحياناً لما يسافر يرى من مخلوقات الله الشيء العجيب والله المؤمن يزداد قرب من الله عز وجل مما يرى آلاء الله عز وجل الله جميل، في ساعات ترى البحر جميل جداً، الجبل جميل لكن الإنسان في بعده عن الله لوث الطبيعة، يقول لك البيئة، إذا رأيت مكان جميل جداً يوجد علاقات غير جميلة، وفي انحرافات أخلاقية خطيرة، هذه القذارة الأخلاقية تشوه الجمال الطبيعي قضية الجمال والنظافة شيء أساسي في الحياة

ذكرت يوم الجمعة في الخطبة، أن امرأة في الجاهلية تقول: يا بنيتي والماء أطيب الطيب المفقود. الجلد له رائحة عطرة فإذا نظفته يوجد رائحة طبيعية تظهر من الجلد، لعل الدرس بعيد عن الجو العام في المساجد لكن أنا أريد الناحية الجمالية مطلوبة في الحياة والإنسان ممكن أن يكون أنيق في ثيابه، رجل يرتدي ثياب أنيقة جداً كلامه بذيء، فقال له رجل: إما أن تتكلم مثل ثيابك أو البس مثل قولك.

الإنسان إذا أنيق وأيضاً كلامه مهذب، وبيته نظيف، أمور منظمة يوجد فوضى عند الناس لا تحتمل، هذه تتوضح في المحلات التجارية، تدخل إلى بيت تجد في أناقة، ضبط، لا يوجد حاجة في غير مكانه، لا يوجد حاجة ليس لها استعمال موجودة، تدخل إلى بيت ترى حاجة موجودة منذ عشرين سنة يجب أن تزاح من هذا المكان، تأخذ حجم ولها منظر سيئ هذا كله من ضعف الناحية الجمالية في الإنسان، أنت حينما تكون أنيقاً وذا مظهر حسن ويوجد انضباط في عملك، ونظافة، هذا يعود على دينك بالخير، لأنك

أيها المؤمن على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك.
أنا أتمنى أن يكون بيتكم جميل من دون إضافة نفقات أبداً، لكن بالتنظيف، دفتر مواعيد، دفتر حسابات، تقول لرجل قضية يقول لك: إن شاء الله ولا يفعلها، إذا نوي أن يفعلها يكتبها الشخص المنضبط، يوجد عنده نظام لمواعيده، نظام لإنجازاته، يوجد عنده مذكرة، مراجعة يومية، أما كله على التوكلي، تقول له على القضية مائة مرة لا يتذكرها، تقول له على الحاجة مرتين ثلاث يقول لك: نسيت، لا تشعر أنه يوجد انضباط.
منذ يومين اتصلت بشخص بمعهد شرعي طلبت منه حاجة قال لي: تأتي إلى عندك إلى البيت، بعد ثلاثة أيام كانت عندي في البيت قلت في نفسي: حتماً كتبها، معنى هذا أنه يوجد عنده جدول أعمال فعلاً كما وعدني نفذها، أرسل الأوراق وكتاب للبيت بعد ثلاثة أيام بالضبط.
كلما رأيت إنسان يسجل معنى هذا أنه منضبط، يقول لك نعم تكرم ولا يتذكرها، لا يتنفذ شيء، أيام أتعامل مع أشخاص أقول له على القضية ثلاث مرات وخمسة وعشرة ومائة، ولا ينفذ شيء وهو صادق وينوي أن ينفذها لكن لا يتذكر، لا يوجد عنده نظام مذكرات إطلاقاً، نظام يسجل يراجع أعماله لا يوجد عنده، لأنه موضوع عام يشمل الضبط، النظام، الناحية الجمالية، الأناقة، النظافة، المؤمن شخصية فذة، وليس شخصية عادية، ليس إنسان تكملة عدد، يقول لك ـ عم ندفش ـ هذه عبارة الناس، أنت مخلوق لهدف عظيم ما هذه الكلمة، كلام مضحك ليس له أي معنى.
أيها الأخوة:
إن أردت أن تكون داعية دون أن تكون متمكناً من الكلام كن منضبطاً، المنضبط إنسان محترم جداً، المنضبط إنسان عظيم أرجو الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا الدرس فيه نفع عام، والدرس سببه معاناة من بعض المسلمين تراه مقصر، مركبته قذرة، بيته فوضوي، محله التجاري، تدخل أيام إلى صيدلية ترى شيء غير معقول الأدوية أكوام أكوام، لا يوجد نظام ولا دقة، غبار، وهو مرتاح أيام تشاهد رجل كله مضبوط، الآية دقيقة:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28))

[سورة الكهف]

أموره غير مضبوطة، دفتر مواعيد، دفتر حسابات، لا يوجد عنده حساب صحيح كله غلط، في إنسان عنده دقة في الحسابات دقة في المواعيد، منظم وقته تنظيم دقيق أنت مؤمن، لا تقول أنا ليس مثقف، هذه لا تحتاج إلى ثقافة، جامعة، يقول لك أنا طالب جامعي، ما الجامعة ؟ يعني يوجد أستاذ، وقاعة تدريس، وسبعة ساعات على أربع سنوات يصبح معك لسانس، أنت منذ عشرين سنة وكل أسبوع يوجد

أربع دروس، هذه دروس مثل دروس الجامعة لا تقول لإنسان له مسجد يحضر درس علم أنا ليس متعلم لا أنت متعلم، هذا أرقى علم، تتعلم الكتاب كلام رب العالمين والسنة والسيرة، والحديث، والفقه، هذا أرقى أنواع العلم فالإنسان عندما يكون له مسجد يؤوي إليه، له توجيهات يستقيها المفروض أن يطبقها المفروض أن يكون أمره منضبط.

مثلاً إنسان لا يوجد عنده إضبارة للإيصالات، تقول له أنت دافع للمالية هات الوصل، لا يوجد معه وصل يدفع مرتين، كل إنسان يوجد عنده إضبارات، الإيصالات في مكان، تقول له عندك صورة لا يعرف، هل عندك صورة عن الوثيقة التي معك ؟ لا يتذكر أين موجودة، يوجد أناس عندهم إضبارة منسق كل أموره، طلب منه وثيقة، صورة هوية، صورة وكالة كله مرتب، هذا جزء من ضبط الإنسان، وإن كان الدرس بعيد عن جو دروس العلم في المساجد لكن ضروري جداً أن يكون المؤمن شخصية فذة، شخصية على مستوى عالي من الفهم، والدقة، والضبط، لأنك أنت سفير.

مرة كنت في بلد قلت لهم إن لم تكن متفوقاً في دنياك لا يحترم دينك، الآن هكذا إن لم تكن متفوقاً في دنياك لا يحترم دينك، يجب أن تكون المهندس الأول، والطبيب الأول، والتاجر الأول الانضباط يحتاج إلى ضبط، دقة، رغبة في التفوق، والتفوق رغبة أساسية للإنسان، أرجو الله عز وجل أن نكون كما يحب الله ويرضى.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (120) :درجة التقرب إلى الله وعلاجها الحجاب عن الله .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-05-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

درس اليوم موجه إلى فئة قليلة، في كل مجتمع في كل جامع في كل معهد في كل مؤسسة فئة متفوقة متألقة مجتهدة حققت نجاحاً، هؤلاء الذين تفوقوا وتألقوا وأفلحوا، هل هناك مطبات تنتظرهم ؟ هذا الدرس يفيد كل الفئات بشكل أو بآخر، يفيد فئة ينبغي أن تعلم أن الدين له بداية، لكن ليس له نهاية، كلما ازددت علماً ازددت قرباً، وكلما ازددت قرباً اتسع الأفق، وكلما اتسع الأفق كان الإدراك أعمق، وكان الكمال أشد، الشيء الذي لا يقبل أن الإنسان صلى وصام وحضر دروس العلم وعاش وأكل وشرب، هذا الدين ! لا، هذا هو الحد الأدنى، هذا هو التعليم الإلزامي، فوق التعليم الإلزامي تعليم ثانوي، تعليم جامعي، ثم الماجستير و الدكتوراه ومن ثم شهادات تخصصية عليا جداً، ثم إنتاج علمي، ثم بحث، ثم اختراع، فحتى في الحقل العلمي في العالم هناك درجات لا تنتهي ! أحياناً يقول لك: فلان معه أربع شهادات عالمية، فلان له ثلاثين أربعين مؤلف، فلان له اختراع باسمه.

يا ترى في الدين في الحقل الديني، وهو دين الله عز وجل ألا يمكن أن يكون هناك مراتب عليا جداً ؟ طبعاً، دعونا من الأنبياء والمرسلين، هذه مقامات مغلقة لا نبي بعدي، وأظن أن مقام الصديق لا يعدله مقام، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أخرج الحكيم الترمذي عن عمر بن الخطاب قال: لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح إيمان أبي بكر))

(الإصدار للإمام جلال الدين السيوطي)

دون مقام الصديق أليس هناك مقامات عليا ؟ مرتبة في أيمان عالية جداً ؟ طبعاً القرآن أقر بذلك، فهناك إسلام، وهناك إيمان.

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)

(سورة الحجرات)

هناك إحسان ذكره النبي عليه الصلاة والسلام أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك، هذا الدرس قد يوجه إلى فئة متألقة في المسجد، وقد يلفت نظر الباقيين إلى أن هناك مراتب عليا ينبغي أن نسعى إليها، لا أن نكتفي بأن صلينا الخمس، وصمنا رمضان، وحججنا بيت الله الحرام، ودفعنا زكاة أموالنا، وتصدقنا، وانتهى الأمر !! لا لم ينتهي الأمر، كل مرتبة فوقها مرتبة.

قال بعضهم: هناك مرتبة الإسلام التي فوق الإحسان، بالمعنى الدقيق جداً:

(إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131))

(سورة البقرة)

أنت تُخلي نفسك لله.

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3))

(سورة المؤمنون)

عما سوى الله، ففي مرتبة الإيمان، ومرتبة الإسلام، كل من ينصاع لأمر الله فهو مسلم، وكل من أقبل على الله بقلبه، وسعد بهذا الإقبال، فهو مؤمن، وكل من رأى الله في كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، وفوق كل شيء، وتحت كل شيء، كل من رأى الله في كل شيء فهو محسن، وحينما لا يكون لك اختيار مع اختيار الله، ولا إرادة مع إرادته، ولا تتمنى إلا أن تكون كما يريد، فهذه مرتبة الإسلام التي فوق الإحسان !

(إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131))

نحن إذا وقفنا وقفات متأنية عند بعض النصوص الدينية كما يفهمها كبار العارفين، حتى في التعليم يوضع نص من الشعر في كتاب الصف السابع، وقد تجد النص نفسه في كتاب الصف العاشر، وقد تجده في كتاب جامعي، وقد يدخل أستاذ في الدراسات العليا الأدبية فيأتي بالنص نفسه الذي في كتاب السابع ! فيشرح بيتاً في ثلاث ساعات، النص واحد، لكن الفهم يتغير، بل إن فهم النصوص شيء اختص الله به بعض الأنبياء.

(وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)

(سورة يوسف)

النص شيء، وفهمه شيء آخر، قد تفهم النص فهماً عميقاً جداً، يعطيك دفعاً إلى الله لا حدود له، وقد تفهم النص فهماً محدوداً، أو معكوساً يبعدك عن الله عز وجل ! والشواهد كثيرة جداً.

إذا فهمت أن النبي إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، إذا فهمت أن الشيطان يمكن أن يصل إلى النبي، وأن يلقي في أمنيته شيئاً، ما هذه النبوة ! ؟ أين التحصين ؟ هؤلاء الأنبياء قمم البشر، فإذا تمكن الشيطان أن يصل إليهم وأن يلقي في أمنيتهم، أما إذا فهمت الآية بمعنى آخر إذا تمنى النبي هداية قومه ألقى الشيطان في أمنيته هو كي يضلهم وانتهى. الأمر واضح جداً، إذا فهمت أن الله عز وجل حينما قال في الآية الكريمة:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13))

(سورة السجدة)

قد تفهم هذه الآية على نحو تبتعد عن الله بها، أن الله عز وجل قادر على هداية الخلق، لكنه لم يشأ أن يهديهم، لما لم يشأ أن يهديهم ؟ من أجل أن يملأ النار، هذا المعنى لا يليق بحضرة الله عز وجل، لا يليق بكماله، لكن المعنى: أنني يا عبادي لو كنت مجبركم على شيء ما، لما أجبرتكم إلا على الهدى، لكنكم مخيرون، هويتكم أنكم مخيرون، فإذا أخذت اختياركم ألغيت وجودكم، أنتم مخيرون، فلو أنني أردت أن أسلبكم اختياركم وأن أجبركم على شيء ما، لما أجبرتكم إلا على الهدى، فلا تزعموا أن أعمالكم السيئة بقدر من الله عليكم. ما كان الله ليأمر بالفحشاء، ولا يحمل عبده على الفحشاء، ولا ليجبر عبده على الفحشاء، وحسن الظن بالله ثمن الجنة !

نصوص كثيرة جداً، بين أن تفهمها فهماً تتألق بهذا الفهم، وبين أن تفهمها فهماً ثقيلاً.

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

إن فهمت هذه الآية على أن الله خلق في الإنسان الفجور انتهى الدين كله ! إذا فهمت هذه الآية على أن الله يخلق في النفس الفجور، ما ذنب هذا الفاجر ؟ معه الحجة على الله يوم القيامة ! لكن قال:

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

جبلها جبلة عالية راقية، بحيث لو فجرت تعرف ذاتياً أنها فجرت، أعطاك ميزاناً نفسي داخلي، دائماً أنت تعرف واقعك تماماً، يؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

(سورة القيامة)

أيها الأخوة: يقول عليه الصلاة والسلام

((: عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب....))

(الإصدار لجلال الدين السيوطي)

تجد إنسان يموت موتة رائعة، في بيته بين أحبابه، قبل أن يموت يلقي الله في روعه أنه اقترب أجله، فيودع أقربائه، يستغفر ربه، يكتب وصيته، يموت موتة هنيئة معززة مكرمة.

كنت ذات مرة في تعزية، جلس إلى جنبي أحد علماء دمشق الأجلاء، وهو يتمتع بأعلى درجة من الصحة، وسألته وأجابني، ودار بيننا حديث، ثم قام وخرج من التعزية، ما إن خرج من البيت متراً واحداً حتى لقيه أخ مؤمن لا يعرف اسمه، لكن عرفه من زيه الديني، دعاه إلى أن يوصله إلى بيته، ركب معه في السيارة، وانطلق به إلى البيت، دخل بيته، وصعد حتى الطابق الرابع، وفتح الباب، ودخل إلى بيته، ودخل إلى غرفته، ونزع عمامته، وخلع جبته، واستلقى على السرير، وفاضت روحه إلى

السماء ! لو أراد أن يأخذ سيارة أجرة يموت في السيارة، كيف سخر الله له إنسان لا يعرفه ولا يعرف اسمه، أقله إلى بيته وفاضت روحه على سريره !

بينما وجدت مرة إنسان أمام قصر العدل ملقى على الطريق، وقد جُلِل بقماش، قال: هذا مات هنا، ذهبت إلى عملي، وعدت بعد ست ساعات، هو مكانه مغطى، لم يأتي الطبيب الشرعي، إنسان يموت بالمرحاض أحياناً ! إنسان يموت شعر بأنه يرى التلفاز بشكل مشوش، شعر بأن هناك غصن من أغصان الشجرة التي أمام البيت تشوش الصورة من على الصحن، فجاء بسلم وصعد الشجرة، وقطع هذا الغصن، اختل توازنه، وتمسك بهذا الغصن ولكنه قد قطعه، فوقع ميتاً، موتة رائعة !! في سبيل نقاء الصورة.

معركة تم على السطح مع لص للإبر، فمعه أزمة قلبية، لكمه لكمة هذا اللص فأرداه قتيلاً، أيضاً على السطح، هناك من يموت وهو يعصي الله، يموت في دار لهو، يموت في ملهى، يموت وهو يتابع شيء محرم، وهناك من يموت في المسجد، هناك من يموت وهو يصلي، هناك من يموت في ليلة القدر، يقول عليه الصلاة والسلام:صنائع المعروف تقي مصارع السوء

الإنسان المؤمن الذي أمضى حياته في طاعة الله وفي تقواه، وفي طلب العلم، قرأ القرآن وعلمه، وتابع النبي العدنان له عند الله موتة راقية، بل إن الآية الكريمة يقول الله عز وجل:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ)

(سورة الجاثية)

الذي اتقى الله وعمل الصالحات لا يمكن أن يكون موته كالذي اجترح السيئات.

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21)

صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب.

والله الذي لا إله إلا هو ما من مؤمن يسترضي الله بصدقة، أحاطت به مشكلة شبح مصيبة، إنسان هدده، عليه مبلغ ضخم لا يجد سداداً له، المصائب كثيرة جداً في الحياة، والإنسان بهذا العصر سبحان الله لحكمة أرادها الله فوقه ألف سيف، كيفما تحرك قد يحاسب، لذلك الإنسان إذا شعر بخطر، شعر بمطب كبير، شعر بشبح مصيبة، لاح له خطر، إنسان توعده، إنسان لا يقوى على مغالبته، فدفع صدقة فيما بينه وبين الله، وصدقة السر تطفئ غضب الرب. باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطاها، الصدقة تقع في يد الله، قبل أن تقع في يد الفقير، والله أكثر من أخ، والله عشرات وقريب من مئات استرضوا الله بصدقة فأذهب الله عنهم كل مكروب.

نقطة دقيقة: الدعاء والصدقة يقويان العقيدة، أنت عندما تدعو الله عز وجل، والأمور كلها ضدك، بقدرة قادر تنعكس الآية، الأمور كلها لصالحك، معنى ذلك أن الأمر كله بيد الله، وأن الله سمعك واستجاب

لك، وأراد ك أن تتقوى عقيدتك بقدرته وسمعه وبصره ومحبته ورحمته.

العلماء قالوا: المصيبة التي لا تنجبر مصيبة المصائب، أكبر مصيبة تلم بالإنسان، الإنسان قد يسأل هل الفقر ؟ لا، مرض عضال ؟ لا، تشرد ؟ لا، مرض الولادة ؟ إفلاس ؟ فقر متقع ؟ دخول السجن ؟ لا، المصيبة التي لا تنجبر أن تكون محجوباً عن الله ! لأن الله عز وجل تجلى عليك وأنت في أصعب حالة تغدو أسعد الناس، قد يسعدك وأنت فقير، وقد يشقيك وأنت غني، قد يسعدك وأنت مريض، وقد يشقيك وأنت صحيح، قد يسعدك وأنت ضعيف، وقد يشقيك وأنت قوي، فالمصيبة التي لا تنجبر هي أن تكون محجوبا عن الله.

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15))

(سورة المطففين)

الآن دخلنا في الموضوع الذي بدأنا به، إنسان له مكانة، أخ كريم متفوق متألق موضع نظر المؤمنين، قدوة لهم، إخوانه يرمقونه بملء عيونهم، هذا لو أراد الله أن يؤدبه كيف يؤدبه ؟ لا يسوق له مصيبة مؤلمة مخذية لا، الله أجل من ذلك، يحجبه ! يقف ليصلي، يقرأ القرآن، يذكر الله، الله عز وجل يؤدبه، ويحفظ له مكانته وكرامته، ويستره، فإذا حجب الله عز وجل إنساناً بسبب تقصير أو ميل للدنيا، شرد خفي، يوجد شبهات، فالله عز وجل يحجب، وإذا حجب، يقول أحد الشباب: لزم شيخاً والشيخ علمه أن لكل سيئة عقاباً، وأن هذا الشاب ذلت قدمه مرة وقع في مخالفة، وحسب كلام الشيخ ينتظره من الله عقاب أليم، فصار ينتظر!

ظن أن العقاب لعله يأتي إلى جسمه أو إلى أهله أو أولاده إلى ماله، مضى أسبوع أسبوعان، في أثناء المناجاة قال: يا رب لقد عصيتك فلم تعاقبني، قال: وقع في قلبه أن يا عبد لقد عاقبتك ولم تدري ! ألم أحرمك لذة مناجاتي ؟ هذا اكبر عقاب، لا تنتظر إذا كنت قريب من الله، وعلى مستوى راق جداً، إذا كنت متألقاً لا تنتظر أن يكون العاب مصيبة في مالك أو جسمك، عقاب المتفوقين الحجاب، يحجبك عنه!

إذا ابن تربيته عالية جداً جداً، يكفي أن لا ينظر إليه أبوه حتى يحترق، أعرض عنه فقط، وأساساً من أطاع عصاك فقد عصاك، من يخاف من عقابك المادي هذا لا يحبك، أما الذي يخاف أن تنقطع صلته بك فهذا الذي يحبك، والمؤمن أحد أساب إقباله على الله الشديد أنه يخاف أن تنقطع صلته بالله، الدنيا محببة، وخضرة نضرة، لكنه يخشى إذا أخذ من مباحاتها أن يحجبه الله عز وجل، فيدع مالا بأس به حذراً مما به بأس، هذا الشاب قال له: إلهي كم أعصيك ولا تعاقبني ؟ فقيل له: ألم أحجبك عن لطائف أنسي ؟ ألم أخرج عن قلبك حلاوة مناجاتي ؟

قلت لكم مرة: الحسن البصري الحجاج أمر بقتله فلما دخل وجد السيّاف جاهز، قال له: يا مؤنسي في وحشتي، يا ملاذي عند قربتي، اجعل نقمته عليّ برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم! اختلف وضع الحجاج، جاء به ليقتله فاستقبله، ووقف له، وقال له: يا أبا سعيد أنت خير العلماء واستفتاه وأضافه وأكرمه وعطره وشيّعه إلى باب القبر !

لذلك المؤمن مستجاب الدعوة، أكبر كرامة له عند الله أنه مستجاب الدعوة، قال: الكفار محجوبون بظلمة الضلالة عن نور الهدى، أهل المعصية محجوبون بظلمة الغفلة عن أنوار التقوى، هنا الدرجة العليا: أهل الطاعة محجوبون أحياناً بظلمة رؤية الطاعة عن أنوار رؤية التوفيق أنا مستقيم باعتداد، وكأن هذا من جهده الشخصي، هذه بطولته، الناس ضائعين، أنا أضبط أموري، هذا نفسه ذنب، يجب أن ترى توفيق الله لك، يجب أن ترى معونة الله لك، يجب أن ترى أن الله سمح لك أن تكون مؤمناً، وأسمعك الحق.

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال)

يجب أن ترى لولا فضل الله عليك ما كنت كما أنت، دخلت لبيت أحد من يعمل في الحقل العلمي وجدت آية قرآنية، والله اقشعر جلدي.

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (113))

(سورة النساء)

هؤلاء الذين يرتكبون الجرائم بشر مثلنا، ساعة حمق قتل، وضع في السجن ثلاثين سنة، الله عز وجل نورك، هؤلاء الذين يرتادون الملاهي بشر مثلنا، كل يوم بالملهى، الذين يأخذون المخدرات بشر مثلنا، الذين يزنون بشر مثلنا، الذين يشربون الخمر، أناس كثيرون غارقون في شرب الخمر وتناول المخدرات في الزنا في الشذوذ في سرقة المال والاحتيال على الناس، الله عز وجل شرفك وكرمك وجعلك إنسان مؤمن، تعرف الحقيقة ومنضبط بالمنهج، هذه نعمة الله الكبرى، لا ترى أنك مستقيم، يجب أن ترى إلا توفيق الله لك حتى جعلك مستقيماً، فطبعا الكفار محجوبون بظلمة الضلالة عن نور الهدى، وأهل المعصية محجوبون بظلمة الغفلة عن أنوار التقوى، لكن أهل الطاعة محجوبون بظلمة رؤية الطاعة عن أنوار رؤية التوفيق، هذا الكلام يؤكده أخ من إخواننا زارني في البيت، ما إن دخل البيت حتى أجهش بالبكاء ! قلت له: خير ؟ قال: أنا أطلقت بصري في الحرام، ما عاذ الله، قلت له: تب إلى الله، قال: تبت عشرين مرة، وكل مرة أنقض التوبة، والله أنا وقتها لم أجد حل، قلت له: الحل عندي أن تتوب، قال: أتوب ثم أعود، زارني مرة ثانية فهمت، له أب ليس ملتزم مثله، يتابع بعض المسلسلات، تأتي خالته يجلسون سوية، بالنسبة له هذه حرام وهذه حرم.. فبدأ يحتقر والديه ! ويقسو في

الكلام، وبدأ يستعلي عليهما، عصاة هو مستقيم، فأدبه الله بأن ضعّف مقاومته ! اعتد استقامته، ما رأى توفيق الله له، رأى قدرته على طاعة الله، ورأى إرادته القوية، هو لا يتابع هذه المسلسلات، هو لا يجلس جلسة مختلطة، أبوه منحرف وعاصٍ، فلأنه نسي فضل الله عليه لفت الله نظره، ضعّف له مقاومته ! يا ترى هذا الكلام صح ؟ صح قاله سيدنا يوسف:

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33))

(سورة يوسف)

الأدب، هذه أعلى درجة في الأدب.

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33))

لذلك قال بن عطاء الله السكندري: رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً، المفتقر أقرب إلى الله، المكسور أقرب إلى الله، والمعتد محجوب عن الله، أنا أخاطب المتفوقين إذا كنت متفوق وإذا كنت داعية، وإذا كنت شخص مهم في الدين، عندك علم غزير، وحكمة بالغة، ينتظرك مطب خطير، أن تنظر إلى طاعتك لا إلى فضل الله عليك، أن تنظر إلى قوة إرادتك لا إلى معونة الله لك، هذا مطب.

طبعاً الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه الإحياء عقد باباً أظنه في الفصل الأول عن الغرور وقال: إن هذا المرض يصيب حتى العلماء، وكنت أقول دائماً: إن أراد الإنسان أن يصل إلى القمة، لا تقولوا قُمة، القمة أي القمامة، القِمة بالكسر، هناك أخطاء شائعة كثيرة جداً، يقول لك: أنا مولّع أي ثور أحمر ! قل: أنا مولَع، لا تتفاصح، تقول التجارب، التجارب العدوى بالجرب، يجب أن تقول: التجارِب، لا تقل أخي طبيب أخصائي في أمراض الدم، أي يخص، اختصاصي، يوجد كلمات كثيرة فيها خطأ شائع، لكن الخطأ الشائع هو الشائع، والصواب ضائع، هذه المشكلة.

فالإنسان حينما يعتد بطاعته، وينسى فضل الله عليه ما قرأ قوله تعالى:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5))

(سورة الفاتحة)

هذا مطب، القِمة بلوغها صعب يحتاج إلى جهد كبير، وكأنها قمة مادية لها طريق ملتو كله أكمات وأحجار وتراب وغبار، فإن وصلت إلى القِمة هناك طريق زلق يعيدك إلى القاع بثانية واحدة، وهو طريق الغرور .

فمن عظمة الأنبياء أنهم في أعلى درجات تألقهم كانوا في أعلى مستويات افتقارهم إلى الله !

والدرس الشهير جداً الذي أدب الله به أصحاب النبي الكرام: أنهم في بدر قال الله عنهم:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران)

وهذا الدرس يحتاجه كل مؤمن، كل يوم أنت في بيتك في عملك في وظيفتك في تسيير معاملة في بعض الدوائر تقول أنا لي مكانتي، الناس يحترموني يخافون مني، يستهابوني، لي أسلوب، الدراهم مراهم مثلاً، تفشل، تقول: يا رب أنا الضعيف، وأنت القوي، أنا الجاهل وأنت العالم، أنا الفقير وأنت الغني، إن أقبلت على الله مفتقراً تولاك الله، إن اعتددت بقدراتك الذاتية تخلى الله عنك، وكل واحد منا يحتاج إلى هذا الدرس كل يوم.

قال: من رأى نفسه عند الطاعة لم يتخلص من العجب، كلمات تحتاج إلى تبصرة، مكثفة جداً تحتاج إلى تمديد، ربما يُحسب المرء برؤية العبادة عن وجدان حلاوتها، وربما يحجب المرء بوجدان الحلاوة عن صحة الإرادة، وربما يحجب المرء برؤية المِنّى عن المنان، وربما يحجب المرء برؤية النعمة عن المنعم.

قال: من رأى الخلق لم يتخلص من الرياء، ومن رأى الطاعة لم يتخلص من الغرور، ومن رأى الثواب لم يتخلص من الحجاب، ينبغي أن ترى الله، هذه مستويات عالية، أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

قصة: قال دخل شيخ مدينة فتبعه خلق كثير، فلما نظر هذا الشيخ إليهم وإلى ازدحامهم عليه قال: اللهم؟ إني أعوذ بك أن تحجبني عنك بهم، وأعوذ بك أن تحجبهم عنك بي، كلام غميق، أحياناً الإنسان لا يرى إلا شيخه، لكن الله هو الأصل، وأحياناً شيخ لا يرى إلا مريدينه، والله هو الأصل. اللهم لا تحجبني عنك بهم، وأعوذ بك أن تحجبهم عنك بي، الله هو الأصل، لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لكان أبو بكر خليلي، ولكن أخ وصاحب بالله، هذا كلام غميق قليلاً، لا أعرف مدى قبوله عندكم، لكن هذا الواقع، يجب أن تكون مع الله دائماً، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، ألا تتكل على غيره، ألا تأنس إلا به، ألا تعتمد إلا عليه، ألا ترى أحداً فعال غيره، ألا ترى معطياً إلا هو، ألا ترى مانعاً، ألا ترى خافضاً، ألا ترى رافعاً، ألا ترى معزاً، ألا ترى مذلاً، هذا التوحيد، والتوحيد نهاية العلم، نهاية نهاية العلم أن توحد، والتقوى نهاية العمل، فإذا وحدت الله واتقيت أن تعصيه فقد مسكت المجد من طرفيه !

معنى هذا الكلام: أنك بحاجة إلى خلوة مع الله، وبحاجة إلى جلسة مع الناس، مع الناس ترقى بالعمل الصالح، ومع الله ترقى بالإقبال عليه، ولابد من التوازن، وطبعاً علمنا الله بالقرآن الكريم قصتين شهيرتين: قصة سيدنا داوود الذي آثر أن يكون مع الله على أن يكون مع الخلق، فعاتبه الله، وسيدنا سليمان الذي آثر أن يكون مع الخلق عن أن يكون مع الله فعاتبه الله، لا بد من التوازن، لابد من أن تكون مع الله ومع الخلق، مع الله مقبلاً، مع الخلق معيناً، مع الخلق يوجد عمل صالح، ومع الله يوجد شحن.

مرة كنت أذكر لكم هذا كثيراً: رجل قدم لي بيل صغير جاء به من بلد آخر، هذا يشحن في الكهرباء، لا

يوجد فيه بطاريات، فحينما أنسى أن أشحنه أستخدمه لا يعمل، وحينما أشحنه يتألق كالشمس، قلت هذا كالمؤمن إذا لم يشحن كل أسبوع شحنتين أو ثلاثة يضعف وينوص، يقول لك: مالل منزعج صحيح، شيء يقرف صحيح، هذا حال كل مؤمن لا ينشحن، الحياة مملة يا إخواننا، والله مملة، لكن يحبها من لم يصل لها، لا يزال شاب صغير، يفكر في بيته، ومن سيتزوج، وماذا سيعمل في الكبر، بعد أن تحدد عمله وزوجته وبيته، الحياة لم يعد لها معنى إطلاقاً، أنا أقول الإنسان شاب مادام الله همه، فإذا كان همه الدنيا انتهى، تجد شخص بعد أن يكون قد وصل لأهدافه لا يحتمل من استعلائه ولا يحتمل من تفاهته.
فيا أيها الأخوة: أنت شاب مادمت مع الله، شاب مادمت تحمل هموم المسلمين، شاب مادام الله هو هدفك الكبير، فإذا قنعت بالدنيا، وركنت إليها، انتهيت، الحجاب وهو أشد أنواع العقاب !
قال: من اشتغل بطرائف الحكمة ودقائقها صار محجوباً عن حقائقها، يحب هذه الطرف يحفظها ويحكيها ويضحك الناس، طرف جميلة جداً، من اشتغل بطرائف الحكمة ودقائقها صار محجوباً عن حقائقها، وما أعرف معصية أضرت بصاحبها من نسيان الرب، وعلاقة القلب بغيره، وكل هم وذكر لغير الله تعالى فهو حجاب بينك وبين الله، ورب حسنة يعملها الرجل لا يكون له سيئة أضر عليه منها، حسنة تجعله يتكبر.
لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أكبر، أعوذ بالله، أكبر من الذنب العجب العجب، سردت من يومين فكرة أن الإنسان أحياناً عنده كيلو لبن وجاءه عشرون شخصاً، ليس لديه شيء، شاي لا يملك، فأتى بخمسة كيلو ماء، خلط هذا اللبن بالماء ووضع ثلج وقدم عيران لهم، الكيلو لبن تحمل خمسة كيلو ماء، لكن لا يتحمل نقطة كاز واحدة، تهدره فوراً، الدين لا يتحمل كبر أبداً، لا يتحمل عجب أبداً، بالعجب تحجب فوراً، الكبرياء ريائي، والعظمة إيذاري، فمن نازعني شيء منهما أذقته عذابي ولا أبالي
رب معصية أورثت ذلا وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً والدليل الأقوى: النبي اللهم صلي عليه، قريش ناصبته العداء عشرين سنة، أخرجته وأتمرت على قتله، قتلت أصحابه، نكّلت به، حاربته ثلاث حروب، أرادت أن تستأصله، ثم فتح مكة، وكان منتصراً ومعه عشرة آلاف مقاتل، يأتمرون بكلمة منه، لو قال: أبيدوهم أبادوهم.
قال: ماتظنون اني فاعل بكم ؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.
ودخل مكة مطأطئ الرأس حتى كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله تعالى ! هذه نصيحة لوجه الله، مهما ارتفعت تواضع لله، لا تنظر إلى ما أنت فيه، انظر إلى فضل الله عليك، ينبغي أن لا تحجب بالنعمة عن المنعم، ولا بالفضل عن صاحب الفضل.
قال:رب حسنة يعملها الرجل لا يكون له سيئة أضر عليه منها، ورب سيئة يعملها الرجل لا يكون له حسنة أنفع له منها ! ينكسر ويكون قريب من الله ويتذلل ويتوب ويستغفر، أصبح قريب، هذه السيئة

كسرته فصار قريب، والحسنة مع ضعف الإيمان يتكبر بها، أصبح محجوب، درس مستواه للمتفوقين، أما العاديين أطع ربك تسمى أعظم إنسان، بعد أن تعمّق بالطاعة تجد أنه مع الطاعة اعتياد بالنفس.
سيدنا الصديق كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من الشرك الخفي، أن ترى نفسك شيء مهم، قال نور الدين الشهيد الذي رد المغول وحقق انتصارات مذهلة، مرة سجد لله عز وجل قال: يا رب من هو الكلب نور الدين حتى تنصره، انصر دينك ! هو حقق شيء كبير جداً وصف نفسه بهذا الوصف، ليظهر تواضعه لله عز جل، وليظهر عظمة الله عز وجل، إذا الإنسان أقبل على عمل قال: يا رب إني مفتقر إليك، اللهم إني تبرأت من حولي وقوتي وعلمي والتجأت إلى حولك وقوتك وعلمك، يا ذا القوة المتين، عود نفسك قبل كل عمل أن تستعين بالله، أن تتقوى بالله، أن تتعلم من الله عز وجل، دائماً الإنسان إذا أعجب بنفسه حجب عن الله عز وجل !
قال رقصت الفضيلة تيهاً بنفسها، فانكشفت عورتها، أحياناً يجلس شخص بجلسة أنا البارحة صليت قيام الليل، يا إلهي لهذا التجلي الذي حدث، ابقى صامتاً، عندما يمدح نفسه بقيام الليل، ويمدح نفسه بأذكاره أصبح لديه شهوة، شهوة أن يستجدي المديح.
قالت رابعة رضي الله عنها: حجبت الدنيا قلوب أهلها عن الله، فلو تركوها لجالت في ملكوته ثم رجعت لطرائف الحكمة.
سألوا أحد العارفين بالله: بأي شيء يعرف العبد بأنه غير محجوب عن ربه ؟ قال: إذا طلبته ولم تطلب منه، وأردته ولم ترد منه، واخترته ولم تختر منه شيئاً، من أحبنا أحببناه، ومن طلب منا أعطيناه، ومن اكتفى بنا عما لنا، كنا له وما لنا.
أحياناً تصبح لديك رغبة أن يكون الله راضياً عنك، هكذا قال النبي وهو في أشد حالات الضعف، النبي امتحن بالقهر، قُهر بالطائف كُذب، سُخر منه، وضُرب وسال الدم من قدميه، والسفهاء رموه بالحجارة، ومع ذلك جاءه جبريل ليعطيه القدرة على الانتقام منه،

((لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين، قال: لا يا أخي اللهم اهدي قومي إنهم لا يعلمون، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده قال: إن لم يكن بك غضب علي فلا ابالي ولك العتبة حتى ترضى، هذا حال المؤمن إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ولك العتبة حتى ترضى لكن عافيتك اوسع لي، هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا، فليس لي عنهم معدل وإن عدلوا، والله وإن فتتوا في حبهم كذبي باق على حبهم راض لما فعلوا

... يا محمد إن اللّه قد سمع قول قومك لك، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: "بل أرجو أن يخرج اللّه من

أصلابهم من يعبد اللّه لا يشرك به شيئا. فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم فاستأنا بهم، وسأل لهم التأخير لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً،))

(الإصدار لاختصار الصابوني)

((اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، لمن تكلني إلى عبد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك))

(الإصدار للإمام القرطبي)

الرضى بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين، قال كل من ليس في قلبه سلطان الهيبة ونار المحبة وأنس الصحبة فهو محجوب، قال: كفاك من المعرفة أن تعلم أن الله مطلع عليك، وكفاك من العبادة أن تعلم أن الله مستغن عنك، وكفاك من المحبة أن تعلم أن حبه سابق لحبك، وكفاك من الذكر أن تعلم أن ذكره متقدم على ذكرك، اذكروني أذكركم، والقلوب إذا قعدت على بساط الهيبة زالت عنها الشهوات، وإذا قعدت على بساط المعرفة زالت عنها الغفلات.

أيها الأخوة: الدين واسع جداً وله مراتب عالية جداً، وكلما ازددت توحيداً ازددت قرباً، وكلما ازددت إخلاصاً ازددت قرباً، وكلما ازددت تواضعاً ازددت من الله قربة، ونهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل التقوى وأنت كعبد.

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66))

(سورة الزمر)

أنت عليك أن تعبده وانتهى كل شيء، أدي الذي عليك وانتظر من الله الذي لك.

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آَتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144))

(سورة الأعراف)

هذا حال العبودية لله عز وجل.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بهذا الدرس، أن نكون في المستوى الذي يرضي الله عز وجل، ويجب أن تعلم هذه حقيقة من لم يكن في زيادة فهو في نقصان، والمغبون من تساوى يوماه، والدين فيه مراتب عالية جداً، وكلما وصلت إلى مرتبة ينبغي أن تطمح إلى التي أعلى منها، إلى ان تصل إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

آخر شيء سأقوله لكم: في عالم الحيوان أنت أمام غنمتين، أهزل غنمة ثمنها ألفين، وأسمن واحدة ثمنها ستة، السمينة ثلاثة أضعاف الهزيلة، أما بعالم البشر عندما النبي اللهم صلي عليه مر رجل:

((عَنْ سَهْلٍ قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟ قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ، قَالَ ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا ؟ قَالُوا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لا يُشَفَّعَ،وَإِنْ قَالَ أَنْ لا يُسْتَمَعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا))

(صحيح البخاري)

إذا أردنا أن نفهم النص فهماً رياضياً، هذه الأرض محيطها أربعين ألف كيلو متر، نحن من محيطها نعرف قطرها وحجمها، لو عرفنا حجم الأرض، لو أنها كرة مجوفة وأخذنا حجم الإنسان، وقسمنا حجم الأرض على حجم الإنسان، تظن كم مائة ألف مليار تتسع ؟ رقم فلكي، ممكن أن يكون إنسان أفضل من مائة ألف مليار إنسان ! إذا عرف الله واستقام على أمره، وقد يكون في الحياة إنسان عادي، عامة الناس شخص عادي جداً إذا حضر لا يعرف، وإذا غاب لم يفتقد.

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ، لا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ))

(سنن الترمذي)

قد تكون عند الله في أعلى العليين، وقد تكون في الدنيا إنسان في المرتبة الدنيا في المجتمع، قد يكون حاجب، أو ضارب آلة كاتبة، موظف معلم ابتدائي مدرس، لا يوجد من يعطيه ألقاب، وليس له وسائل ركوب خاصة، وقد يكون عند الله في أعلى عليين، لذلك ابتغوا الرفعة عند الله هذه الرفعة عند الله مستمرة حتى بعد الموت، أما رفعة الدنيا تنقطع عند الموت، طبعاً يقال له: يا عبد الله لو كان ملك سابق أليس كذلك ؟ هل قال له: يا صاحب الجلالة ؟ يا عبد الله ؟ الإنسان يعجب أن الدنيا يفقدها الإنسان في ثانية واحدة، الموت يلغي قوة القوي، وضعف الضعيف، وغنى الغني، وفقر الفقير، وصحة الصحيح، ومرض المريض، ووسامة الوسيم، ودمامة الدميم، الموت قطع.

(وَإِنَّ الدَّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ)

(سورة العنكبوت)

فبطولتنا جميعاً في العمل للآخرة، الدنيا والله محدودة ومملة، الإنسان ماذا يأكل في الصباح ؟ أفقر إنسان يمكن أن يستمتع بصحن فول مثل الملك، وأفقر إنسان يستمتع بأكلة مثل الملك، وأفقر إنسان يأنس بزوجته مثل الملك، وأفقر إنسان يأوي إلى بيته، مدفأ في الشتاء، أمامه أولاده مثل الملك، الفرق فرق بسيط جداً أساسيات الحياة بيد كل إنسان، أحياناً منظر القمر، منظر البحر، نسمات لطيفة، في الربيع ممكن أن تذهب إلى أي مكان ترى الأرض خضراء، أشجار جميلة، الأساسيات واحدة، لكن الناس من تعلقهم بالمظاهر أشقوا أنفسهم، أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بهذا الدرس.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (121) :التوبة -علم وحال وعمل والخروج من المظالم المادية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-07-18

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون:

موضوع دقيق، المؤمن حينما يتوب إلى الله توبةً نصوحة وقد علم أن التوبة علم، وحال، وعمل، إن لم تعلم أين موقعك من الدين لا تتوب، إن طلبت العلم عرفت موقعك، يعني مصيب أو مخطئ مقيم للشرع أو مخالف له، مطبق للأمر أو تارك له، لا تعلم أين موضعك من الدين إلا إذا طلبت العلم، فإن طلبت العلم عرفت أين أنت، عرفت ما نوع دخلك، عرفت ما تقييم عملك، عرفت ما تفسير حركتك في الدنيا.

لو أن إنساناً تاب إلى الله توبةً نصوحة بعد أن علم، وبعد أن تأثر ـ التوبة علم وحال ـ الآن عمل، ما هو العمل ؟ العمل إقلاع فوري في الحاضر، وعزم على ألا يعود في المستقبل، وإصلاح في الماضي، ما من مؤمن يتوب توبة نصوحة إلى الله عز وجل إلا ويراجع حساباته الماضية منذ أن أدرك البلوغ، هل لفلان حق علي؟ هل لفلان مال مغتصب؟ هل هناك حاجة مأخوذة لم يأخذها صاحبها؟ هل هناك دين علي ؟ ما من مؤمن صادق يتوب إلى الله إلا ويبحث إصلاح أخطائه الماضية، التوبة علم، وحال، وعمل، والعلم إن طلبته عرفت موقعك من الدين، الحال ندم شديد على ما فرط الإنسان عمل، إقلاع فوري عزم في المستقبل إصلاح في الماضي.

لو أخذنا الإصلاح في الماضي، جانب محدود هو الخروج من المظالم المالية، يعني ماذا يوجد حقوق مالية ؟ عليك كيف يخرج منها ؟ هذا موضوع يحتاجه كل تائب، ويحتاجه كل إنسان اصطلح مع الله ويحتاجه كل من كانت له جاهلية، ويحتاجه كل من أراد أن يفتح مع الله صفحةً جديدة، كيف يخرج التائب من المظالم المادية أي المالية؟ أول نقطة قال تعالى:

(يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآَمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31))

[سورة الأحقاف]

النقطة كلها في من، من للتبعيض، يعني يغفر لكم بعض ذنوبكم التي بينكم وبينه، أما ذنوبكم التي بينكم وبين العباد هذه لا تغفر إلا بالأداء أو المسامحة، هذه أول نقطة، يعني إذا في مظالم مادية دين، هل هناك أعظم من أن تكون صحابياً، واستشهدت في أرض المعركة، ومعك رسول الله ؟ إن كان عليك دين كان عليه الصلاة والسلام لا يصلي على هذا الإنسان يقول صلوا على صاحبكم:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلا الدَّيْنَ))

[أحمد ـ مسلم]

فإن قال أحد أصحابه علي دينه صلى عليه، هذا الذي قدم حياته هل هناك شيء أثمن من حياتك ؟ قدم حياته والدين لا يغفر، ليغفر لكم من ذنوبكم، لماذا اليوم انتهى الدين ؟ لضعف ذمة المسلمين عندما لا يؤدى الدين يكف الناس عن إقراض بعضهم بعضاً، هذا من منع الماعون، إذا أردت أن تمنع الخير كن مسيئاً لمن أسدى لك معروفاً.

أول نقطة في الدرس قوله تعالى:

(لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ)

[سورة إبراهيم]

أي يغفر لكم بعض ذنوبكم التي بينكم وبين الله عز وجل، أما الذنوب التي بينكم وبين العباد هذه لا تغفر إلا بالأداء أو بالمسامحة مهما مرغت جبهتك في باب الله، مهما أطلت السجود، مهما تذللت لله يقول لك يا عبدي ما كان بيني وبينك أغفرها لك لكن ما كان بينك وبين العباد لا أغفره لك إلا أن يسامحك زيد أو أن تؤدي له ما عليك هذا كلام دقيق، حتى لو حججت بيت الله الحرام وقرأت الحديث الصحيح:

((عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهم قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ))

[مسلم ـ البخاري ـ الترمذي ـ النسائي ـ أحمد ـ ابن ماجة ـ الدارمي]

من ذنوبه التي بينه وبين الله، أما من ذنوبه التي بينه وبين العباد والله لا يسقط عنها مثقال ذرة.

أخوانا الكرام:

أول نقطة مهمة يجب أن تعلم شيئين، أن تعرف الحرام في المال الذي تملكه، الشيء الثاني أن ترد هذا الحرام إلى أصحابه، لأنه لا تقبل توبة مسلم ما لم يفعل هاتين المسألتين، وإن شئتم أن ترجعوا إلى القرآن الكريم فهناك عدة آيات تزيد عن خمس آيات:

(وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآَمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (153))

[سورة الأعراف]

المغفرة من بعد أن تؤدي ما عليك، أهون شيء أن يكون معك مال ليس لك ولكنه معلوم العين، يعني قلم حبر غالي جداً، ساعة وديعة، أمانة، حاجة معلومة العين ليست لك، قضيتها سهلة جداً جداً، تذهب إلى صاحبها وتؤدها له، نسيت عندي هذه الساعة وأنا غاب عني أن أؤدها لك وهذه لك.

هناك مال مغصوب أو منسي، أو مودع عندك، أو هو أمانة معلوم العين، حاجة محددة واضحة، لها صاحب وصاحبها حي يرزق، القضية سهلة جداً خذها وأعطه إياها، تلطف واذكر كلاماً لا يجرح

مشاعرك.

الآن هناك مال من الأمثال، الدراهم، أنت سابقاً في فلان له معك مبلغ أقرضك إياه ولم ترده له وأنت أنفقته، ولكن إذا أقرضك مائة ألف، والمائة ألف موجودة الآن لها ما يشبهها، أقرضك ليرة ذهبية يوجد ليرة ذهبية الآن، أقرضك كيس قمح يوجد كيس قمح هذه مثليات اسمها، يوجد أموال أعيان وأمثال، أعيان ساعة بالذات بيت، مركبة، دابة أعيان، أما أمثال قمح، بيض، شعير، زبيب نقد، هذه كلها أمثال، إن كان أعيان ترد إلى صاحبها وانتهى الأمر إذا كان صاحبها قد مات ترد إلى ورثته وانتهى الأمر، إذا كان لا تعرف عنه شيئاً ولا عن ورثته تتصدق بها وانتهى الأمر، إما إليه وإما إلى ورثته، وإما أن تدفعها صدقة تسجل له وأنت لك أجر الوسيطة.

الآن إذا كان المال الحرام الذي بحوزة الإنسان مالاً مثلياً لكنه اختلط بمالك كيف تأخذه ؟ نحضر بعض الأمثلة: أنت تاجر أقمشة ويوجد عندك صفقة كاسدة فعرضتها على إنسان على طريق المرابحة بالمرابحة تكشف رأس مالك بالتفصيل ويعطيك على كل متر فرضاً خمس ليرات هذه طريقة في البيع اسمها المرابحة، قبل أن تعرف الله رفعت الأسعار، زورت الفاتورة مثلاً، عملت رحلة أنت وزوجتك وأضفتها على المصروف، فأنت أخذت على المتر خمس ليرات عملت أن رأس مالك ثلاثين، وأخذت منه خمسة وثلاثين وأنت رأس مالك خمسة وعشرين فهذه الخمس ليرات التي أضفتها على رأس مالك الحقيقي هذا مال حرام دخل في مالك، هنا المشكلة إذا المال الحرام دخل في المال الأساسي يجب أن تحسبه، أن هذه الصفقة ألف متر على المتر خمس ليرات، يعني في خمس آلاف ليرة دخلوا يجب أن تخرجها وأن تعيدها إلى صاحبها، بطريقة أو بأخرى، لكن من رحمة الله بنا أن الله جل جلاله لم يكلفنا أن نقول للطرف الآخر أخي هذا المبلغ أنا اغتصبته منك أو أخذته منك حراماً خذه، ما كلفك الله فوق ما تطيق، يجب أن يصل إليك بطريقة أو بأخرى أو في أية صورة وتحت أي بيان، دون أن يعلم أو يعلم حوالة من مجهول.

إنسان لك بذمته هذا المبلغ - س أو x - هذا المبلغ يجب أن يؤدى إلى صاحبه، إذا المال متميز القضية سهلة جداً، أما إذا غير متميز لابد من أن تفرزه، لابد من أن تحسبه، لابد من أن تعده، وإذا كان أضفت قليلاً احتياط من باب أولى، أورع.

العلماء قالوا: يحسب الحرام الذي في الحلال بطريقتين، بطريقة اليقين، وبطريقة الظن، يعني أنت مثلاً معك ألف ليرة أربع مائة ليرة حلال مائة في المائة، ويوجد أربع مائة ليرة ثانية حرام مائة بالمائة ويوجد مائتين مشكوك بأمرهم، طريق اليقين استبقي الأربع مائة الحلال مائة بالمائة وأن أتخلص من الست مائة، هذا الطريق اسمه طريق اليقين، أما يوجد طريق آخر اسمه طريق غلبة الظن، هذه المائتان هي أقرب إلى أن تكون حراماً أو أقرب إلى أن تكون حلالاً هذا الطريق اسمه غلبة الظن، يعني يوجد

عندك مائتين يغلب على ظنك أنها حلال ولكن لست مرتاحاً راحة تامة، الأولى أن تكون ورعاً وأن تدفعها، أما إذا ما كنت ورعاً تقول يوجد وجهة نظر تضم المائتين إلى الأربع مائة، فحينما تحسب المال الحرام الذي ضمن المال يجب أن تتبع أحد الطريقتين، طريق اليقين وطريق غلبة الظن.

يوجد قضايا العلماء عالجوها أنا لا أرى جدوى من البحث فيها أن إنسان أعطاك درهمين، درهم وفي درهم مغتصب واختلطوا ماذا تفعل ؟ أقول لك هذا المال نسبي مادام درهم محدد، أي الدرهمين رده إلى صاحبه، أما أن تتأكد أي الدرهمين كان لفلان، يعني هذا تعنت ما كلفنا الشرع به ولاسيما الآن خمسة مائة خمس مائة، لعل قديماً كان الدرهم يسبك سبكاً، وكل دينار له وزن فلو معك دينار ملكك ودينار مغتصب لإنسان طبعاً الفقهاء قالوا يجب أن ترد الدينار الذي لفلان بالذات لا أن تعطيه ديناراً آخر والسبب أن لكل دينار وزن خاص أما الآن العملات كلها متشابهة الخمس مائة، والألف هي هي، هذا الموضوع لا ينبغي أن نقف عنده طويلاً إلا إذا قال لك صاحب الدرهم المغتصب لا آخذ إلا عين درهمي، فإن لم تعرف أيهما المغتصب لا آخذه منك إطلاقاً، هذه حالات تزمت ما أنزل الله بها من سلطان.

يوجد حلول لطيفة، إنسان قبل أن يموت أوصى بمبلغ للفقراء ـ مبلغ قريب من خمسة وثلاثين ألفاً ـ المبلغ بحوزة ابنه، وأنا أعلم علم اليقين ابنه من الفقر بحيث لا يوصف، فقير جداً ولكن لأنه ابنه لا تجوز الوصية لوارث، وإن أردنا أن نبحث عن إنسان نعطيه هذا المبلغ لا نجد أفقر من ابنه ماذا نفعل ؟ و وصية لوارث، والوصية للفقراء غير ابنه، يوجد أخ جزاه الله خيراً أخذ هذا المبلغ منه ووزعه على الفقراء وأعطاه من زكاة ماله خمسة وثلاثين ألف، أخذ عين الخمسة والثلاثين ألف ووزعها على الفقراء وأعطاه من زكاة ماله خمسة وثلاثين ألف العملية حلت.

الآن يوجد عندنا نقطة لو أن إنسان اغتصب أرض، وأرض مغتصبة وصاحبها توفي وترك ورثة، المغتصب أعاد نصف هذه الأرض، لو فرضنا الورثة ابن له النصف وله أختان لهما النصف الآخر هل يستطيع الابن أن يأخذ نصف الأرض الذي أعادها المغتصب على أنها حصته ؟ لا يجوز أبداً، يجب أن يأخذ نصف الأرض، لأنه كلما صار اغتصاب ورد المغتصب بعض المال أو نصفه، هذا النصف لا لواحد بل لكل الورثة.

يوجد عندنا حالة أخرى وهي لو أن إنسان اغتصب دار، اغتصبها عشر سنوات ثم ردها إلى صاحبها بعد أن تاب يجب أن يضيف إلى ردها أجرتها خلال هذه الفترة لأن هذه مال ذو نفع، هذا البيت له انتفاع يجب أن ترد هذا النفع إلى صاحبه فكل إنسان اغتصب دار أو سيارة عليه أن يرد عين المال إلى صاحبه وأن يرد أجرة البيت أو السيارة إلى صاحبها.

يوجد عندنا موضوع ثاني، انتقال المال إلى الورثة هل يغير من صفة المال ؟ لو أن أب عنده أطفال صغار لا يعلمون شيئاً، والأب ماله بعضه حلال وبعضه حرام، ومات فجأة الأب فهذا المال الذي بعضه حرام ورثه الصغار هل يرثونه حلالاً ؟ الجواب نعم إذا كانوا لا يعلمون عن هذا المال شيئاً يرثونه حلالاً.

لذلك أندم الناس من دخل ورثته بماله الجنة ودخل هو بماله النار ترك لأولاده مائة مليون أخذوها حلالاً زلالاً وأنفقوها في طاعة الله تزوجوا وأسسوا أعمال وعاشوا في بحبوحة وماتوا على طاعة الله أولاده تنعموا بالمال وأنفقوه في حله ودخلوا الجنة والذي كسبه بعرق جبينه وكد يمينه لكن من طريق مشبوه دخل النار به، أندم الناس من دخل ورثته بماله الجنة، ودخل هو بماله النار.

لكن لو فرضنا إنسان وجد ملعقة ذهب عليها اسم فندق في خزانة والده، هذه مشكلة، معنى هذا أنها مأخوذة اغتصاباً، ولكن مرة صار معي حادثة أحد أخوانا الكرام زرته في بيته أعطاني منشفة عليها اسم فندق، والله أنا تألمت كثيراً يعني معنى هذه أنها مغتصبة من فندق، ما أدري ما تكلمت ولا كلمة ولكن هذا الأخ صار عليه إشكال، بعد حين سألت فكان الجواب لي مريحاً جداً، قال هذا الفندق يوزع كل المناشف والبشاكير على موظفيه آخر العام وهو يعمل في فندق إذاً حلال، إن بعض الظن إثم، الإنسان لا يتسرع كما علمنا النبي عليه الصلاة والسلام التمس لأخيك عذراً ولو سبعين مرة.

لو فرضنا وريث واعي ويعلم علم اليقين أن هذا المال مغتصب وصاحبه حي يرزق، إذا المال مغتصب وغير داخل في الحلال مفروز يجب أن يرد هذا المال إلى صاحبه ولو كان ورثه عن أبيه.

القضية كما قلت خلافية هناك من يعتقد أن الوريث يرث المال حلالاً صرفاً لأن موت المورث قلب صفة المال، بالمناسبة يوجد عندنا شاهد لطيف جداً، النبي عليه الصلاة والسلام دفع لأحد أصحابه الفقراء صدقة لعلها تمر فهذا الصحابي الجليل قدم للنبي هدية من هذا التمر، فالنبي أكلها، مع أن من صفات النبي عليه الصلاة والسلام أنه لا يأكل الصدقة، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، أصحابه سألوه قال: هي له صدقة ولنا هدية. يعني اختلفت صفة هذا التمر أنت عندما قدمته لفقير هو صدقة، الفقير ملكه وقدم لك حبة تمر لتأكلها هذه قدمت لك هدية، يمكن إنسان أن يضيفك ويكرمك وأنت أعطيته جزءاً من مالك، دخلت إلى عنده وضيفك من فاكهة والفاكهة اشتراها من المساعدة التي أعطيته إياها، أنت ممنوع أن تأكل من الصدقة إلا أنه انقلبت من صدقة إلى هدية أو إلى ضيافة.

يوجد حالات أندر من هذه، لو فرضنا إنسان والده صاحب ملهى يعني المال حرام صرف كله، أعرف فتاة والدها صاحب ملهى كبير قيل لي لو أنها طلبت من أبيها خمس ملايين لأعطاها إياها دون تردد تعمل في قرية خارج دمشق معلمة وتأكل من راتبها ولا تأكل من دخل أبيها ولا لقمة أبداً، قال تعالى:

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ)

[سورة الروم]

أعرف امرأة سمعت عنها زوجة إنسان عنده أماكن قمار، ما حضرت عرس ولد من أولادها، طبعاً أقيمت الأعراس وعقود القران في فنادق فخمة، وفي نوادي فخمة جداً، الأم لم تحضر ولا عقد قران ولا عرس أحد أولادها أو بناتها أبداً، النقطة الدقيقة لماذا جعل الله صديقة النساء آسيا امرأة فرعون تحت فرعون، وفرعون ادعى الألوهية ؟ قال: هذا مثل صارخ ليعلمنا أن المرأة مستقلة في دينها عن زوجها وأنها لا يقبل منها أن تقول هكذا يريد زوجي، فرعون الجبار الطاغية قالت، قال تعالى:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11)

[سورة التحريم]

الآن أكثر النساء لها حجة واهية هكذا يريد زوجي الله يهديه ماذا أفعل أنا ؟ أما المرأة المؤمنة لا تعصي الله ولو كلفها أن تطلق، مرة اتصلت بي امرأة قالت لي: زوجي ـ وهو طبيب لامع جداً ـ يجبرني على أن أذهب إلى البحر لأسبح مع أصدقائه وإن لم أفعل يطلقني قلت لها: دعيه يطلقك، ولكن ما طلقها، وهو أضعف من ذلك المرأة إذا كانت بالحق قوية، يخضع زوجها، وإذا كان متجبر ماذا يحدث ؟ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، إذا إنسان كل دخل والده حرام من ملهى ماذا يفعل ؟ العلماء قالوا يأخذ حاجته الأساسية كوريث ثمن طعامه وشرابه، أو ترك فتاة، أو زوجة والمال كله حرام، الحد الأدنى ما تقوم به حياتهما، إذا المال كله حرام صرف.

لكن في نقطة مهمة لو دعاك أخوك ـ وأخوك موظف في دائرة له معاش ويوجد دخل حرام يأخذه، له تعقيدات لبعض المواطنين وإذا ما أعطوه لا يمشي المعاملة، هذا المال حرام وله معاش يأخذه حلال لأن عمله مشروع بالأساس ـ فصار في اختلاط ومن أجل أن لا تقع فتن بين الناس، مادام في اختلاط بين الحلال والحرام سمح لك أن تأكل عنده والله عز وجل يجعل الطعام الذي أكلته من القسم الحلال من أجل أن لا تقع فتن بين الناس.

أنا مرة قلت لكم أنه يوجد أخ أعلمني بورقة لا تزال عندي أنه رد لورثة عشرين مليون ليرة لا يعلمون عليها شيئاً، وكان الأب حريص جداً وضعها معه في مشروع وتوفي بحادث لا يوجد ورقة، ولا وثيقة، ولا وصل، ولا يعلمون أهله عنها شيئاً ورد هذا المبلغ هذه هي الأمانة.

لو إنسان كان في معركة واغتصب درع هذا غلول اسمه قبل أن توزع الغنائم، هذا الدرع لمن ؟ لمائة ألف جندي أو لخمسين ألف جندي، إذا في استحالة أن يوزع ثمن هذا الدرع على كل هؤلاء الجنود قال: يمكن أن يدفع صدقة، إذا في استحالة أن يرد هذا المبلغ لصاحبه إما لوفاته أو لضياع عنوانه، أو لافتقاد ورثته، أو استحالة دفع مبلغ لخمسين ألف إنسان في مثل هذه الحالة يدفع المبلغ صدقة ويسجل في

صحيفة من استحقه.

يوجد حالة لطيفة، إذا إنسان دخل إلى مطعم لا سمح الله في الجاهلية وأكلت وما دفعت وصاحب المطعم لا يوجد به جنس الدين وغير مؤمن بالله إطلاقاً، قال: إن دفعت هذا المبلغ صدقة ولم يكن كذلك ليس له أجر والأجر لمن دفعها، أيام الأب لا يريد أن يكون ابنه صاحب دين، الأب ضد الدين وصار ابنه داعية لا يقال أن هذا العمل في صحيفة الأب لا أبداً، لو كان ابنه أكبر عالم، ما دام أنه ما ربى ليكون عالماً وما أراده أن يكون عالماً، ليس هذا في صحيفته إطلاقاً.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلا طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) وَقَالَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ))

[مسلم ـ الترمذي ـ أحمد ـ الدارمي]

يوجد سؤال هذا المال حرام كيف تتصدق به ؟ كيف نحل هذه المشكلة ؟ الجواب أنت حينما تنفق مالك إما أنك تبتغي الثواب وإما أنك تبتغي الخلاص، إذا كنت تبتغي الثواب لا يقبل إلا المال الطيب الحلال، وإذا كان بحوزتك مال حرام وأردت أن تنجو من عذاب الله يمكن أن تنفق هذا المال الحرام لفقير، هذا المال حرام ولكن الفقير بحاجة إليه وأخذه حلالاً، فهناك فرق بين طلب الثواب وطلب الخلاص، طلب الثواب يحتاج إلى مال حلال صرف، أما طلب الخلاص يمكن أن تنفق المال الحرام.

إذا إنسان كان له معاملات ربوية ومعه من أموال الفوائد ماذا يفعل بها ؟ إن قلنا له إياك أن تدخلها إلى جيبك، ماذا يفعل بها ؟ يتصدق بها، قد يقول قائل إن الله طيباً لا يقبل إلا طيباً، نقول له هو الآن يبغي الخلاص ولا يبغي الثواب، لو أنه يبغي الثواب ألزمناه أن يكون المال المتصدق به حلالاً، أما إذا كان يبغي الخلاص نقول له اخرج من هذا المال بأية طريقة.

يوجد فتوى للنبي عليه الصلاة والسلام سئل النبي عن مال سحت لا يدرى صاحبه، فقال: هذا سحت تصدق به.

يوجد أحد أخوانا توفي رحمه الله بحادث فكان له ابن صغير دون السن القانونية دية والده أودعها القاضي الشرعي في مصرف فائدة ـ حلو هذا الكلام القاضي الشرعي أودع هذا المبلغ بمصرف بفائدة ـ فلما كبر هذا الغلام جاءني إلى البيت قال لي ماذا أفعل بهذه الفائدة؟ قلت له تصدق بها وإياك أن تدخلها إلى جيبك، هذا الذي وقع.

يوجد نقطة مهمة، إنسان يوجد عنده مزرعة ويوجد عنده عنب كل طائر أكل من هذا العنب صدقة

لصاحب هذا العنب دون أن يدري ودون أن يريد، فلذلك وهذا قياس، يوجد إنسان مأخوذ من ماله عشرة آلاف إنسان اغتصبها ومات هو وانتهى، ما نوى أن يتصدق بها ولا عنده علم عنها إلا أن الذي اغتصبها تاب فلما تاب إلى الله دفعها صدقة فعلى الرغم من أنه ما فكر أن يدفعها صدقة ولا نوى ذلك تحسب له صدقة كما لو كان عندك مزرعة وأكلت منها الطيور تحسب لك صدقة دون أن تدري، والحديث الصحيح:

((إن للزارع والغارس أجراً في كل ما يصيبه الناس والطيور من ثماره وزرعه))

هناك قضية أخرى إنسان كان له مال في البنك وتاب توبة نصوحة وسحب ماله مع الفوائد وهذه الفوائد دفعها للفقير، قد يقول قائل لا نرضى لغيرنا ما لا نرضاه لأنفسنا هذا مال حرام فكيف نرضاه للفقير؟ الجواب حرام علينا لاستغنائنا عنه، وحلال للفقير لحاجته إليه أنت يجب أن تخرج منه ولكن هذا مال وهو قوام الحياة فإن أعطيته للفقير هو له حلال أما أنت لأنك مستغن عنه لا يجوز أن تأخذه.

إذا إنسان اغتصب من مغتصب وتاب إلى الله هل يعيد هذا المال للمغتصب ؟ الجواب لا، لأن المغتصب لا يعيده لصاحبه والأولى إذا كان اغتصاب الإنسان من مغتصب ينبغي أن تدفعه صدقة لا أن ترده إلى المغتصب.

الذي يريد أن يشتري بيت في أرض مغتصبة يجب أن يفكر جيداً مدفوع واحد بالألف من ثمنها يفكر في بيت آخر من أرض غير مغتصبة احتياط.

هذه بعض النقاط التي يمكن أن ترد في موضوع الخروج من المظالم المادية، مظالم الأموال.

أخوانا الكرام: نحن أحياء الآن، والقلب ينبض، وكل شيء يحل، كنت مرةً في العمرة ففي عالم جليل يلقي درس بين المغرب والعشاء في مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام، أنا من عادتي حضرت هذا الدرس فذكر حديث أنا أعرفه ولكن أضاف له إضافة لا أعرفها، لكن أضاف إليه إضافة أنا لا أعرفها.

رجل من أصحاب رسول الله توفي فالنبي سأل أعليه دين ؟ فقالوا نعم، قال: صلوا على صاحبكم، فقام أحد أصحابه وقال: يا رسول الله علي دينه، تكفل بالدين، سأله ثاني يوم هل أديت الدين ؟ وهذه هي الزيادة، قال: لا، سأله ثالث يوم أديت الدين ؟ قال: لا، سأله رابع يوم أديت الدين ؟ قال: نعم، فقال عليه الصلاة والسلام: الآن ابترد جلده.فابتراد الجلد لا بضمانة الصحابي بل بالأداء.

((عَنْ جَابِرٍ قَالَ تُوُفِّيَ رَجُلٌ فَغَسَّلْنَاهُ وَحَنَّطْنَاهُ وَكَفَّنَّاهُ ثُمَّ أَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي عَلَيْهِ فَقُلْنَا تُصَلِّي عَلَيْهِ فَخَطَا خُطًى ثُمَّ قَالَ أَعَلَيْهِ دَيْنٌ قُلْنَا دِينَارَانِ فَانْصَرَفَ فَتَحَمَّلَهُمَا أَبُو قَتَادَةَ فَأَتَيْنَاهُ فَقَالَ أَبُو قَتَادَةَ الدِّينَارَانِ عَلَيَّ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُحِقَّ الْغَرِيمُ وَبَرِئَ مِنْهُمَا الْمَيِّتُ قَالَ نَعَمْ فَصَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ بِيَوْمٍ مَا فَعَلَ الدِّينَارَانِ فَقَالَ إِنَّمَا مَاتَ أَمْسِ قَالَ فَعَادَ إِلَيْهِ مِنَ الْغَدِ فَقَالَ لَقَدْ قَضَيْتُهُمَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْآنَ بَرَدَتْ عَلَيْهِ جِلْدُهُ فَقَالَ مُعَاوِيَةُ بْنُ

عَمْرٍو فِي هَذَا الْحَدِيثِ فغَسَّلْنَاهُ وَقَالَ فقُلْنَا نُصَلِّي عَلَيْهِ))

[البخاري ـ أحمد ـ مسلم ـ النسائي ـ أبي داود ـ ابن ماجة ـ الدارمي]

قد يكون صحابي، قد يكون شهيد استشهد في معركة من أجل أن تعرفوا أن حقوق العباد مبنية على المشاححة وحقوق الله مبنية على المسامحة، عد إلى المليون قبل أن تأخذ مالاً ليس لك، لو ضحيت بأثمن ما تملك، لو خضت معركة مع أعداء الله وسقطت في أرض المعركة شهيداً وعليك دين لا تنجو من عذاب الله.

دققوا أنا أرى أحد أكبر أسباب توفيق المؤمن أنه بعد أن تاب إلى الله توبة نصوحة خرج من المظالم المادية القديمة، لي ابن عم كان عنده محل كاتو توفي رحمه الله قال لي: مرة دخل إلى عندي شاب يوجد معه ظرف القاه أمامي وهرب، فتحته يوجد به ثمن قطعة كاتو أكلها من عشرين سنة، يراجع حساباته.

أخ صاحب معمل قال لي: يوجد عندي كان سرقة في المعمل دائماً تنقص البضاعة، أضع في جيبي ألف ليرة تذهب، هذا العامل يده خفيفة بشكل عجيب، قال لي: فرزت رجل للمراقبة رغم المراقبة يسرق، ما تركت طريقة لأعرف من السارق بضاعة ومال، ثم توقفت السرقة، قال لي: بعد عشرين سنة جاءني كهل قال له: هل عرفتني ؟ قال له: لا والله ـ تغير شكله ـ قال له: أنا كنت أعمل عندك عامل منذ القديم، قال له: أنا الذي كنت آخذ من مالك ومن بضاعتك وجئت تائباً وأي شيء تريده أنا جاهز، قال له: نظير هذه التوبة أنا سامحتك.

يوجد فلاح أعطوه أرض عشرين دونم عقله طار بها، طول عمره مرابع يعمل أجير صار عنده أرض، أصبح مالك وفرح فرحاً لا حدود له، له شيخ في الميدان توفي رحمه الله قال له: يا سيدي أعطوني أرض، فقال له: هذه حرام، هذه أخذت من صاحبها دون رضا، فقال هذا الفلاح: كأن جمرة صببت فوقها ماء، كل هذه الفرحة ذهبت، ما الحل ؟ قال له: حاول أن تشتريها منه بالتقسيط بيع حلي زوجتك واذهب وفاوضه، فذهب إلى عنده وقال له: قصتي كذا كذا... هل تبيعني إياها يا سيدي، صفن به وقال له: يا بني أنا ذهب لي أربع مائة دونم وما عاد إلى عندي أحد هذه هدية مني لك ازرعها وتملكها وهي هدية مني لك.

حينما تتحرى الحلال يأتيك الحلال، يا أخوانا الكرام نحتاج إلى مراجعة، والله أنا أذكر أن أول حجة حججتها ما تركت مجلة ليست لي عندي أبداً إلا أرجعتها، مجلة أخ نسيها عندي ليس لها قيمة إطلاقاً، حاول أن تخرج من كل شيء وكلما كنت دقيق تشعر أنك خفيف، أحد سمات المؤمن أن يخرج من المظالم المادية.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (122) :فضائل سورة العصر - العمل الصالح علة وجودنا .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-07-26

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة:

بادئة ذي بدء الإمام، الإمام الشافعي يقول: لو تدبر الناس سورة العصر لكفتهم، ما في هذه السورة ؟ ربنا جل جلاله يقسم بالزمن، لهذا الإنسان الذي هو في حقيقته زمن يقسم ويقول:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3)

(سورة العصر)

قال العلماء أركان النجاة أربعة:

أن تؤمن بالله، أو أن تزداد علماً كل يوم، وأن تستقيم على أمر الله، أي أن تطبق منهج الله عز وجل، وتعمل العمل الصالح الذي يرضي الله عز وجل، وأن تتواص بالحق والتواصي بالحق فرض عين على كل مسلم، في حدود ما يعلم مع من يعرف، وأن يصبر على الطاعة، وعن المعصية، وعلى قضاء الله وقدره.

الإنسان خاسر لا محالة إن لم يفعل هذه الأشياء الأربعة، أن يزداد إيماناً، وأن يكتسب الأعمال الصالحة، وأن يتواص بالحق، وأن يتواص بالصبر، لذلك الإنسان بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه، وما من يوم ينشق فجره إلا وينادي يا ابن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة، الإنسان خاسر لأن مضي الزمن يستهلكه، الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه.

لو أردنا أن نركز على العمل الصالح، الذي هو أحد أركان النجاة للعمل الصالح مفهوم سلبي، وهو أن يستقيم على أمر الله وأن يطبق المنهج افعل أو لا تفعل، وللعمل الصالح مفهوم إيجابي، أن تعطي مما أعطاك الله عز وجل، كل إنسان عليه أن يعبد الله وفق هويته، فإن كان امرأة عبادتها الأولى أن تحسن رعاية زوجها وأولادها وإن كان عالماً عبادته الأولى أن يعلم العلم، وإن كان غنياً عبادته الأولى أن ينفق من ماله، وإن كان قوياً عبادته الأولى أن ينصف المظلوم، فالإنسان عليه أن يعبد الله فيما أقام، في هويته، في حقيقته وفي الظرف الذي وضعه فيه، فلو أن هناك مرضى، أو أن هناك ضيوف، تأدية حقهم وواجبهم هو العبادة الطارئة، وينبغي أن تعبد الله في الزمن الذي أظلك هذا مفهوم جديد للعبادة،

المفهوم الذي عاشه النبي وأصحابه، المفهوم الذي يجعل المسلم قوة محركة، الذي يجعل الإسلام ديناً حيوياً ينطبق مع الواقع ومع الفطرة.

أيها الأخوة الكرام:

العمل الصالح لا يقبل إلا بشرطين، إلا إذا كان خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وكان صواباً ما وافق السنة.

فمن عمل عملاً لا يبتغي به وجه الله، عمله مردود، والدليل أن الله عز وجل يقول:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

(سورة النور: 55)

هنا الدقة البالغة، الدين الذي يمكنه الله عز وجل في الأرض هو الذي يرتضيه، فلو لم يرتضيه لا يمكنه في الأرض، يمكن أن نستنبط استنباطاً رائعاً وهو أننا إن لم نمكن في الأرض فمعنى ذلك أن الله لا يرتضي ديننا، ديننا ليس كما يريد الله عز وجل، ديننا ليس فيه المنهج القويم الذي جاء فيه سيد المرسلين، فإن كنت ممكناً فدينك قد ارتضاه الله، وإن لم تمكن معنى ذلك أن هذا الدين الذي تتوهمه أنه دين يرضي الله هو لا يرضي الله عز وجل، الدين منهج متكامل، منهج كامل في كل نشاطات الإنسان، وحركاته، وسكناته، وحله، وترحاله وسفره وإقامته، وبيعه وشرائه، وفي بيته، وفي باطنه، وفي ظاهره وفي خلوته، وجلوته، هذا الدين منهج كامل، يكاد يكون الدين، يكاد رقم ليس دقيقاً 500 ألف بند فإذا اكتفينا منه بخمس بنود صوم وصلاة وحج وزكاة وإعلان الشهادة فقد نسخ الدين ولم يكن كما يرضي الله عز وجل

أيها الأخوة الكرام:

العمل الصالح ينبغي أن يكون صواباً، وخالصاً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله عز وجل، وصواباً ما وافق السنة.

(قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

(سورة الأحقاف: 15)

ترضاه جملة تعرب صفة لعمل صالح، والصفة قيد، يعني العمل الصالح الذي لا يرضاه الله عز وجل لا يقبله.

أيها الأخوة الكرام:

ربنا سبحانه وتعالى يعني تودد إلينا بالنعم، وخلق الود بيننا ورسم لنا الطرائق إليه لكسب مودته بعدد أنفاس الخلائق، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق.

هناك قوي وهناك ضعيف، الضعيف إذا أعانه القوي فالضعيف شكر، شكر الله عز وجل، فكانت إعانته طريقاً إلى الله، والقوي حينما يعين الضعيف، إعانته طريق إلى الله.

وهناك غني وفقير، فالغني إذا أعطى سلك طريقاً إلى الله سالكاً والفقير إذا شكر الله على هذه النعمة سلك إلى الله طريقاً سالكاً، وفي صحيح وفي مريض، هذا التفاوت في الحظوظ هو نعمة كبرى لا يعلمها إلا الله، التفاوت في الحظوظ، لولا التفاوت لبطل العمل الصالح لو أن الناس جميعاً أغنياء، الله عز وجل قادر على ذلك.

((عن أبي ذر رَضِيِ اللَّه عَنْه، عن النبّي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر.))

[أخرجه مسلم والترمذي وغيرهما]

ذلك لأن عطائي كلام وأخذي كلام كن فيكون زل فيزول، إذاً لو أن الله عز وجل أعطى الكل الغنى لتوقف العمل الصالح، لو أن الله عز وجل أعطى الكل الصحة لتوقف العمل الصالح، الله عز وجل خلقنا لجنة عرضها السماوات والأرض، هذه الجنة ثمنها العمل الصالح والعمل الصالح بسبب هذا التفاوت في الحظوظ بين الناس، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام.

((عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة))

(أخرجه عبد الرزاق ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة)

أيها الأخوة الكرام:

مفهوم الزكاة له مفهوم ضيق، وله مفهوم واسع، فالمفهوم الضيق أن تدفع من نصاب مالك الذي هو دخلك جزء منه للفقراء والمساكين المفهوم الواسع للزكاة أن تزكي عن وقتك، بطلب العلم وحضور مجالس العلم، وزكاة المال أن تدفع منه شيئاً، وزكاة الوقت أن تبذل من وقتك شيئاً، وزكاة الصحة أن تعطي مالاً لتعين المرضى هذا زكاة الصحة، لذلك العمل الصالح بمفهومه العميق أن تنفق مما أعطاك الله عز وجل فالذي يعطي ربنا عز وجل يعطيه أضعاف مضاعفة، أقول لكم أيها الأخوة إن حجمك عند الله بحجم عملك الصالح هذا كلام دقيق والدليل:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأحقاف: 19)

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح الذي ترتقى به عند الله، إن أردت أن تسلم فاستقم على أمر الله، وإن أردت أن تسعد فاعمل عملاً صالحاً يرضي الله، بل إن علة وجودك في سطح الأرض، أو على سطح الأرض أن تعمل صالحاً، يرضي الله عز وجل، والذي يغيب عن العمل الصالح يغيب عن وجوده

الإيماني، بل يغيب عن وجوده الإنساني والذي يغيب عن العمل الصالح يغيب عن المهمة التي خلق من أجلها.

أيها الأخوة الكرام:

الإنسان حينما يأتيه ملك الموت، لا يندم إلا على عمل صالح فاته مشى عليه الصلاة والسلام مع أصحابه فمروا بقبر، فقال عليه الصلاة والسلام صاحب هذا القبر، إلى ركعتين مم تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم، فالإنسان حينما يصحو، وحينما يستيقظ وحينما يعرف سر وجوده، وغاية وجوده، يعرف قيمة العمل الصالح بل إن الإنسان لو أطعم زوجته لقمة لرآها يوم القيامة كجبل أحد، فكيف لو أغاث مسكين، أطعم فقيراً، أعال فقيراً، شفى مريضاً، هذا كله له عند الله مراتب كثيرة.

أيها الأخوة الكرام:

بل إن العمل الصالح الذي يرقى بك عند الله إلى أعلى عليين هو العمل الذي يستمر بعد وفاة الإنسان، هناك أعمال تستمر بعد الوفاة، إن كانت خيرة فهي الصدقة الجارية، إنسان بنى مسجد، بني مستشفى بنى دار أيتام، بنى معهد شرعي، هذا مستمر بعد موته، وهذا من أرقى أنواع الأعمال الصالحة، الصدقة الجارية التي، يعني في صحيفة من أنفقها إلى ما بعد وفاته، وكل خير يأتي من هذه الصدقة في صحيفة الذي فعل ذلك.

أيها الأخوة الكرام:

العمل الصالح قد يكون ذا أثرٍ محدود وذا أثرٍ واسعٍ جداً، هذا الذي عد النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أول أبطال العالم جعله على رأس مائة الأوائل، ما المقياس الذي اعتمده في هذا التقيم، اعتمد عدة مقاييس، أحدها قوة تأثير هذا الإنسان، واعتمد أيضاً اتساع رقعة التأثير واعتمد أيضاً امتداد قوة التأثير، وليته أضاف إلى هذه المقاييس نوع التأثير، طبعاً لو اعتمدنا، قوة التأثير، ونوع التأثير، واتساع رقعة التأثير، وامتداد أمل التأثير، وعمق التأثير لكان عليه الصلاة والسلام كما هو الواقع هو الإنسان الأول سيد الخلق وحبيب الحق.

أيها الأخوة الكرام:

حينما يقول الله عز وجل " ولكل درجات مما عملوا " معنى ذلك أن حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، وأن التقسيمات البشرية لا معنى لها، التقسيم الحقيقي الناس رجلان إنسان عرف الله، فاتصل به وانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه فسعد في الدنيا والآخرة، وإنسان غفل عن الله، وتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه فشقي في الدنيا والآخرة.

أيها الأخوة الكرام:

((ولكل درجات مما عملوا))

وفي آية ثانية.

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

(سورة البقرة: 148)

أنت مخير، هذه الوجهة التي أنت موليها هي من اختيارك، قال تعالى:

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: 148)

يعني أنت مخير الآن، ولأنك مخير بإمكانك أن تختار الخير بإمكانك أن تصل إلى أعلى عليين، بإمكانك أن تكسب الدارة الآخرة أن تكسب الأبد، لكن هذا الاختيار لا يستمر، هذا الاختيار مؤقت

((ولكل وجهة هو موليها " والدليل أنه مؤقت " فاستبقوا الخيرات))

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً)

(سورة البقرة: 148)

يعني في أية مكانة كنت، وفي أي مكان كنت، لا بد من أن تلقى الله عز وجل، وورد في بعض الآثار أن الإنسان حينما يوضع في قبره ينادى أن عبدي رجعوا وتركوك وفي التراب دفنوك ولو بقوا معك ما نفعوك ولم يبقى لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت.

يا أيها الأخوة الكرام:

لو أن الإنسان عرف الحقيقة لكان في المقام الأول، هي الأزمة أزمة معرفة، أهل النار في النار يقولون:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10)

(سورة الملك: 10)

معنى ذلك الإنسان بدافع من حبه لوجوده، وحبه لسلامة وجوده وحبه لاستمرار وجوده، وحبه لكمال وجوده، يبحث عن الخير، الذي يتصوره، فإذا تطابقت رؤيته مع الحق سعد في الدنيا والآخرة، من هنا كان عليه الصلاة والسلام يدعو ويقول:

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

أيها الأخوة الكرام:

لا تحابي نفسك، نفسك مطيتك إلى الله، فرفق بها، لا تحابيها لا تتوهم أنك خير وأنت لست كذلك، يعني الإنسان العاقل هو الذي يعرف حقيقته تماماً، هو الذي يقبل الحقيقة المرة ولا يقبل الوهم المريح في الحياة وهم مريح وفيه حقيقة مرة، البطل دائماً الجريء يبحث عن الحقيقة المرة التي تؤلمه، ويبتعد عن الوهم المريح الذي يخدره، لو أن أحد منا لا سمح الله دنى أجله يقع في إشكال كبير مع الله، ما العمل الصالح الذي قدمه لله، هناك آلاف الأعمال لا قيمة لها، نبتغي بها مصالحنا، وإرواء ميولنا، ودغدغت

عواطفنا، لكن العمل الذي تفعله لوجه الله تعالى خالصا له، هذا العمل ينبغي أن تسعى إليه.

يعني أحد الصحابة الإكرام اسمه عبد الله بن رواحه رَضِيَ اللَّه عَنْه عينه النبي عليه الصلاة والسلام قائداً ثالثاً في معركة مؤتة، الأول سيدنا زيد رَضِيَ اللَّه عَنْه أخذ الراية فقاتل به حتى قتل، وجاء دور سيدنا جعفر رَضِيَ اللَّه عَنْه أخذ الراية فقاتل به حتى قتل، ثم جاء دور سيدنا عبد الله بن رواحه رَضِيَ اللَّه عَنْه، هو كان شاعراً رأى الموت بين يديه فتردد وقال بيتين من الشعر.

يا نفس إلا تقتلي تموتي   هذا حُمام الموت قد صليت

إن تفعلي فعلهما رضيت   وإن توليت فقد شــقيت

وأخذ الراية فقاتل بها حتى قتل، قال عليه الصلاة والسلام في المدينة: أخذ الراية أخوك زيد فقاتل بها حتى قتل وإني لرأى مقامه في الجنة، ثم أخذ الراية أخوك جعفر فقاتل بها حتى قتل وإني لرأى مقامه في الجنة، وسكت النبي صلى الله عليه وسلم فقلق أصحابه على أخيهم عبد الله، قالوا يا رسول الله ما فعل عبد الله قال: ثم أخذ الراية أخوك عبد الله وقاتل بها حتى قتل وإني لرأى في مقامه ازورارا عن صاحبيه هبط مقامه عن صاحبيه لأنه تردد ثلاثين ثانية، الذي يتردد من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ثلاثين ثانية عن بذل نفسه هبط مقامه، ماذا نطالب اليوم نحن، نطالب أن نعطي شيئاً من أموالنا، شيئاً من جهدنا شيئاً من خبرتنا، شيئاً من العلم، شيئاً من الجاه، شيئاً من القوة قال تعالى:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3))

(سورة البقرة: 3)

أول صفة من صفات المتقين:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3)

(سورة البقرة: 2 - 3)

يا أيها الأخوة الكرام:

ما أمرك الله أن تستعين به إلا ليعينك، فلو أن نواياك ارتقت بخدمة الخلق مكنك الله من هذا العمل، فما أنت فيه من عمل عظيم ليس من جهدك ولكن من تمكين الله لك، من توفيق الله لك، ما لست فيه من عمل طيب هذه تمنياتك، وما أنت فيه من عمل طيب هذا صدقك فلذلك ما أمرك الله أن تستعين به إلا ليعينك، وما أمرك أن تدعوه إلا ليجيبك وما أمرك أن تسأله إلا ليعطيك، ولا يليق بالله عز وجل أن يقول كلام لا معنى له، يقول الله عز وجل:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5))

(سورة الفاتحة: 5)

إذا كان ثلث الليل الأخير نزل ربكم إلى السماء الدنيا فيقول هل من سائل فأعطيه، هل من طالب حاجة فاقضيها له، هل من مستغفر فاغفر له، حتى ينفجر الفجر.

يا أيها الأخوة الكرام:

بعد أن تطمئن إلى الإيمان الذي حصلت منه شيئاً، حملك على طاعة الله، وبعد أن تطمئن إلى المنهج الذي كفيل أن يوصلك إلى الله لا ينبغي أن تفكر بشيء يعلو على العمل الصالح الذي هو علة وجودك في الدنيا، وأكبر دليل على ذلك الإنسان حينما يأتيه ملك الموت يقول:

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا)

(سورة المؤمنون: 99 - 100)

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24))

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (34))

(سورة الحاقة: 19 - 33)

أرجو الله سبحانه وتعالى أن أكون قد وفقت إلى توضيح قضية العمل الصالح الذي هو علة وجودنا.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (123) :مرض الغرور عند بعض من يرتادون المساجد .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-09-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون...

موضوعٌ دقيقٌ جداً يقع في براثنه معظم الناس، إنه وبشكلٍ مختصر:

الغرور

وقد يغترُّ أفقر الناس، وقد يغترُّ أضعف الناس، وقد يغتر أقوى الناس وأغنى الناس، فالغرور أحد الأسباب المُهلكة. هذا الموضوع في ذهني من مدةٍ طويلة، ولكنني كلَّما رأيت إنساناً ضحيةً لهذا المرض، أقول: لابدَّ من معالجة هذا الموضوع بالتفصيل في الدرس.

أيها الإخوة... قبل أن نبدأ الحديث عن تفاصيل هذا الموضوع لابدَّ من نظرةٍ كليَّة.

الغرور أن ترى شيئاً على خلاف ما هو عليه، أو أن تضخِّم شيئاً تضخيماً غير معقول، لو رأيت إنسان أتقن علماً من علوم الدين، وظن أن هذا العلم هو الدين كله هو مغتر، لو أن إنساناً ظنَّ أن إنفاق المال وحده يدخله الجنة، هذا غرور، لو أن إنسان ظنَّ أن أذكاره وحدها، والعناية بقلبه فقط يدخل به الجنة، هذا غرور، لو أن إنساناً ظنَّ أن الفقه وحده هو الدين وقع في الغرور، لو أن إنسان ظن أن العمل الصالح فقط بلا ورع وبلا عبادات.. ألخ، ينجي الإنسان فهو مغتر، وكم ممن يقول لك: أنا لا أأذي أحد فلي الجنَّة، وهو لا يصلي ولا يعبأ بأي عبادة، هو مغتر.

لكثرة شيوع هذا المرض بين الناس لابدَّ من وضع اليد على تفاصيل أعراضه..

المغتر يرى خلاف الواقع، الواقع هو المقياس، إذا توهَّمت شيئاً على خلاف ما هو عليه فأنت مغتر، والغرور يساوي الجهل، بل إن تعريف العلم الدقيق: الوصف المطابق للواقع مع الدليل.

كل شيء له حجم، فإذا عرفت هذا الشيء بحجمه الحقيقي فأنت موضوعي، أما إذا أعطيته حجماً فوق حجمه فأنت مغتر، وإذا قلَّلت من حجمه فأنت مغتر، وإذا فهمته على خلاف ما هو عليه فأنت مغتر.

مثل بسيط:

إنسان اقتنى سيارة، فتوهَّم أن الضوء الأحمر إذا تألَّق، هذا ضوء زينة، كي يتسلَّى في الطريق، مع أن هذا الضوء ضوء خطر، أي أن المحرِّك ليس فيه زيت، لو تابعت السير لاحترق المحرِّك وكلَّفك خمسين ألف ليرة، فتألُّق هذا المصباح لا يعني أنه للتسلية، فمن توهَّم أن هذا المصباح إذا تألَّق فهو كي يسليه في الطريق فهو مغتر، والمغتر جاهل، فالجهل أو الغرور أعدى أعداء الإنسان..

وأنا لا أريد أن أوسع الموضوع لدرجة أن يشمل الحياة كلَّها، أنا أقصر هذا الدرس على طلاب العلم فقط، على روَّاد المساجد. قد تجد إنسان أتقن شيء ؛ أتقن فرعاً من فروع الدين، وقد يكون فرع جُزئي جداً، إذا به يغتر، ويظن أن هذا الفرع هو الدين كله، ويستعلي على بقية الناس، ويقيِّمهم في ضوء هذا العلم الذي أتقنه، هذا غرور.

طبعاً لو أردنا أن نعطي أمثلة لاغترار أهل المعاصي فهناك أمثلة كثيرة جداً، فمثلاً:

هناك من يقول: الدنيا نقدٌ والآخرة نسيئة، والنقد خيرٌ من النسيئة، الدنيا شيء حاضر بين يديك، محسوسة ملموسة، انتهز هذه الفرصة، انغمس فيها إلى قمة رأسك، ولا شيء عليك، هذا أكبر أنواع الغرور، لكن هذا غرور أهل المعاصي. أنا لا أريد أن أخوض في غرور أهل الدنيا لأن هذا موضوع لا ينتهي.

هناك من يعصي الله ويقول: الله كريم، نتَّكل على عفوه، وربما اغتروا أيضاً بصلاح آبائهم، هذا غرور. طبعاً هذا الموضوع طويل جداً، قدَّمت لكم نماذج من اغترار أهل المعاصي أما نريد أن ندخل إلى صُلب الدرس.

هؤلاء الذين يحضروا مجالس العلم، هؤلاء الذين يرتادون المساجد، هؤلاء الذين يعتقدون أنهم على حق، وأنهم تفوَّقوا، وأنهم نجوا، هؤلاء قد تزل أقدامهم إلى غرورٍ خطير.

من أنواع هذا الغرور... الحديث عن طلاب العلم الذين بشكلٍ أو بآخر وقعوا في منزلق الغرور، قال: هناك فئة من طلاَّب العلم أحكموا العلوم الشرعيَّة والعقليَّة، وأهملوا تفقُّد الجوارح وحفظها عن المعاصي، أي معه شهادة، شيخه فلان، من المعهد الفلاني، بتفوُّق، بشهادة كبيرة جداً، أما غض بصره، ضبط لسانه، تحرير دخله ما في دقَّة، يسهر، يلعب نرد، يشرب أرجيلة، فهذه الأمور بسيطة، أما هو معه الشهادة الفلانيَّة، من المعهد الفلاني - وانتهى الأمر - هؤلاء الذين أتقنوا العلوم الشرعية والعقلية، وأهملوا تفقُّد الجوارح وحفظها عن المعاصي، لم يلزموا أنفسهم بالطاعات، اغتروا بعلمهم، ظنوا أنهم من الله بمكان، ولو نظر هؤلاء بعين البصيرة، علموا أن علم المعاملة لا يراد به إلا العمل.

لو أنك علمت كيف تعمل لا تنجو، ينبغي أن تعمل، علمت كيف تعمل، كيف تزكي نفسك، هذا لا يجدي، فالقصد أن تزكي نفسك، وهذه منزلق خطير جداً، تعلم كيف تكون التزكية، يجب أن تزكي نفسك، لا أن تعلم كيف تزكي نفسك، يجب أن تعمل لا أن تعلم كيف ينبغي أن تعمل، بل يجب أن تعمل، كلام دقيق، فعندما يتقن الإنسان العلم صار في عنده إمكان عن ماذا ينبغي أن تفعل.

حدَّثني أخ فقال لي: والله في مدرسة شرعيَّة رجل من أهل العلم، ألقى درس للصف الحادي عشر عن الكبر، مذمة الكبر. قال لي: والله أبدع إبداع، تفوق تفوُّق، لمَّ الموضوع من كل أطرافه، وأتى بشواهد من الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة، وقصص التابعين، شيء رائع جداً، فلما انتهى الدرس، دخل إلى

غرفة المدرسين، ولفَّ رجلاً على رجل، وانزوى ولم يشعر أن أحداً من الحاضرين له أن يكلّمه، هو فوق ذلك، هو قبل دقائق كان يتحدَّث عن الكِبْر، وهو في أعلى درجة من الكبر وهو لا يدري.

يا إخوان الكلام دقيق جداً، لا يجديك أن تتعلَّم كيف ينبغي أن تعمل ؛ بل يجديك أن تعمل، ولا ينبغي أن تتعلَّم كيف تكون التزكية ؛ بل لابدَّ من أن تزكي نفسك. في منزلق خطير في حلقات العلم، أنه يكتفي بالعلم ولا يعمل، والله أشياء ملموسة وواضحة جداً، صارخة كالشمس، أنت تعلّم أن الغيبة حرام، وأن المغتاب يقع في أشد أنواع الإثم، وأن الله عزَّ وجل قال:

(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

سورة الحجرات: من آية " 12 ")

وأن، وأن، وأن ثم أنت لا تتورَّع أن تغتاب كل المسلمين، بل كل العلماء. كنت مرَّة في جلسة فلفت نظري أن كل واحد نصَّب نفسه وصي على كل العلماء، وبدأ يشرِّحهم واحداً واحداً، وهو لم يقدِّم شيئاً للمسلمين، فقلت لهم: أنا لا أسمع منكم أي كلام ما لم تعملوا عملاً لخدمة المسلمين، وتأتوا به في الأسبوع القادم، وإلا النقد سهل جداً، فالآن لو فرضنا بناء. كنت في الخليج فهناك أبنية تُهدم بدقائق، بناء من عشر طوابق، من الأسمنت المسلَّح، الآن في قنابل لو وضعت يتداعى البناء إلى الداخل بدقائق، صار كوم من الأسمنت المفتَّت، الهدم سهل، أما لو أردنا أن ننشئ بناء فنحتاج إلى عشر سنوات أو خمس سنوات، الهدم سهل جداً، النقد سهل جداً، تجريح الناس سهل جداً، أنت ماذا قدَّمت ؟

فهذا الإنسان قدَّم شيء وأخطأ، أنت ماذا قدَّمت ؟ أنت لم تقدِّم شيئاً، لم تقدِّم شيئاً للمسلمين، هذا نمط والعياذ بالله شائع، انتماء شخصي، انتماء فردي، انتماء ذاتي ؛ بيته، أكله، نومه، راحته، مصروفه، أولاده، نزهته، استجمامه فقط، ومن بعده الطوفان، ما قدَّمت شيئاً، كيف تنصِّب نفسك وصياً على المسلمين تجرِّحهم واحداً واحداً ؟.

سأعيد الفكرة مرة ثانية: لا ينجيك أن تتعلَّم كيف ينبغي أن تعمل، ينجيك أن تعمل، لا ينجيك أن تتعلَّم كيف تزكي نفسك، ينجيك أن تزكي نفسك، العلم في الدين ليس هدفاً بذاته، إنما هو وسيلة، فالعلم ما عُمِل به فإن لم يُعمل به كان الجهل أولى.

الله عزَّ وجل ماذا قال ؟ قال:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9))

(سورة الشمس)

ولم يقل: قد أفلح من تعلَّم كيف يزكيها، ما قال هذا، بل قال:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9))

فعلاً، أما من تعلّم كيف يزكيها ليس له أجر إطلاقاً. هذه فرقة أي أنهم أتقنوا العلوم الشرعيَّة والعقليَّة وأهملوا العمل بها، هؤلاء مغترون، مغرورون وقد وقعوا في فخ خطير، فخ من الشيطان، وقد وقعوا في حبائل الشيطان.

الفرقة الثانية: أحكمت العلم والعمل الظاهر ؛ جوارحه ضبطها، دخله ضبطه، تعلّم علماً شرعياً وطبَّقه في حياته العملية، نقول: هذا الإنسان في عنده ورطة، هذه قد لا يعتني بقلبه، هو صار كامل علم وعمل، لكن ما طهَّر قلبه من العجب، من الكبر، من الحسد، هذه أمراض القلب مهلكة، فلا يكفي أن تتعلّم وأن تعمل بما عملت، بل ينبغي أن تتعلّم، وأن تعمل بما علمت، وأن تزكي نفسك، وتطهِّر قلبك لأن الله عزَّ وجل يقول:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلا إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ))

(من صحيح مسلم: عن " أبي هريرة ")

في الدرجة الثانية لا يكفي أن تعمل بما علمت ؛ بل ينبغي أن تطهِّر قلبك الذي هو منظر الرب، ما دام الله ينظر إلى قلوبنا فهو منظر الرب.

الآن الفرقة الثالثة، قال: فرقةٌ ثالثة من طلاب العلم علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة، إلا أنهم بعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكّون عنها. الثالثة علمت أن هناك أمراض في القلب مهلكة، لكنهم توهَّموا أنهم معافون منها، فإذا تكبَّر يقول لك: هذه عزَّ الطاعة. وإذا تطاول يقول لك: هذه تأديب للآخرين. فيكون عنده أمراض لم ينجو منها لكنه يفسرها تفسيراً لصالحه، هذه مشكلة كبيرة جداً، وهذا الشيء واقع.

والله أيها الإخوة إن شاء الله في هذا الدرس لا أتكلّم كلمة إلا وعندي أمثلة كثيرة جداً ممن ألتقي بهم. الآن يفسِّر نقائصه بالكمالات، معنى ذلك هو لم يتجاوز مرحلة تطهير القلب، هذه ما وصل إليها، ففي كبر، وفي تطيم للآخرين إذا ظهروا أمامه، أو إذا لفتوا نظر الآخرين يحطّمون. فأنت عند طبيب ـ بربك ـ إذا قال لك هذا الطبيب: من حكّمك سابقاً ؟ قلت له: فلان. فوصفه بأبشع وصف، أتحترمه هذا الطبيب؟ غير معقول، إنه لكي يلفت نظر مرضاه أنه هو الوحيد الفهيم كلّما سمع عن طبيب آخر يعطيه أقذع تهمة، هذا إنسان منحرف، فكل إنسان عندما يريد أن يتفرَّد لا يحتمل مدح الآخرين، فإذا واحد مدح آخر يطعن فيه على الفور.

سيدنا عمر رضي الله عنه عندما قَدِمَ الشام، عرضت له مخاضة، فنزل عن بعيره، ونزع خفيه وأمسكهما وخاض الماء، ومعه بعيره، فقال له أبو عبيدة ـ معقول أمير المؤمنين يخوض بمخاضة ويخلع نعليه ؟ ـ

ـ قال له: لقد صنعت اليوم صنعاً عظيماً عند أهل الأرض.

غير معقول أنت خليفة. بجوز الآن ـ اليوم ـ مقبول الكلام، أما وقت سيدنا عمر ما كان مقبول، فصكَّ في صدره وقال:

ـ لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة لفعلت معه وفعلت، إنكم كنتم أذل الناس وأحقرهم، فأعزَّكم الله بهذا الدين، فمهما تطلب العزَّ بغيره يذلكم الله عزَّ وجل.

هذا التاريخ المعاصر وما قبل المعاصر، مهما طلبت هذه الأمة العز بغير هذا الدين لا تناله، لا تناله إلا بالدين.

هناك منزلق آخر، المنزلق الأول يعلم ولا يعمل، هذا كثير جداً، في منزلق يعلم ويعمل ولا يطهِّر قلبه من أمراضه، في حالة ثالثة يعلم ويعمل ويعلم أن هناك أمراض في القلب، لكنه يؤوِّل أمراضه تأويلاً لصالحه، فإذا قسا على إنسان يقول: أأدبه ـ فهل أنت وصي ؟ ـ فإذا أخذه الزهو يقول: هذا عز الطاعة. فإذا تقرَّب إلى قوي قال: لصالح المسلمين أفعل هذا. هو يعلم أن في أمراض في القلب لكنه يؤوِّلها تأويل لصالحه.

الآن يوجد منزلق آخر، يبالغ في زينة الحياة الدنيا، يقول لك: حتى أرفع من شأن الإسلام. والله مرَّة دخلت إلى بيت غير معقول، كله رخام مستورد، أثاث مستورد، والرجل من أهل العلم قال لي: هكذا ينبغي أن نكون أمام الناس. لا ليس شرط، النبي ما فعل ذلك، النبي نام في بيت لو أراد أن يصلي قيام الليل، لا تتسع غرفته لصلاته ونوم زوجته، وكان سيد الخلق.

أيها الإخوة... لازلنا في مرض الغرور، ولازلنا في علاقة هذا المرض بطلاَّب العلم.

الآن في حالة أخرى وهي فرقة أحكموا العلم، وطهَّروا جوارحهم، وزيَّنوها بالطاعات، وتفقَّدوا قلوبهم بتصفيتها من الرياء والحسد والكبر، ولكن بقيت في زوايا القلب خفايا من مكائد الشيطان، وخِدَعِ النفس لم يفطنوا لها، وأهملوها، فترى أحدهم يسهر ليله، ويعمل في النهار كل الأعمال الصالحة، ويرى أن باعثه على ذلك الحرص على إظهار دين الله، هكذا يرى، وربما كان الباعث طلب الذكر وانتشار السيط، فلو إنسان طعن فيه، أو قلَّل من قدره تجده يقيم النكير.

فأنت تقول: الهدف نشر دين الله عزَّ وجل، فلماذا غضبت هذا الغضب حينما مسَّت شخصيَّتك ؟ هذه حالة دقيقة جداً، هم تعلَّموا، وعملوا، وطهَّروا قلوبهم، لكن بقيت في زوايا قلوبهم بعض الأمراض، هم توهَّموا أنهم ينشرون دين الله عزَّ وجل، لكن غاب عنهم أنهم يطلبون الذكر والسيط بين الناس، إما

صريحاً بالدعاوى الطويلة العريضة، وإما ضمناً بالطعن بالآخرين، لكن لا شعوري، كلّما سمع من إنسان كلمة يعطي طعن، أن هذه غلط وأنا الصح، غلط أنا الصح.

لكن أيها الإخوة... كما قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمُ الْمُؤْمِنُ))

(من سنن الترمذي: عن " ابن عمر ")

فهو مرجوٍ أمره عند الله عز وجل بخلاف من يزكي نفسه. بالمناسبة الله عزَّ وجل ذمَّ هؤلاء الذين يزكون أنفسهم فقال:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة النساء: من آية " 49 ")

أنا أتمنَّى الإنسان يقلّل من الحديث عن نفسه، ويكثر الحديث عن الله ورسوله، وأصحاب رسول الله..

((أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم))

(من صحيح البخاري: عن " أبي هريرة ")

تجد أحياناً الدرس كله محوره شخص، اجعل محور الدرس الله عزَّ وجل، ورسوله، وأصحابه الكرام. الآن في أنواع أخرى من الغرور أشرت إليها في أول الدرس. إنسان متبحِّر في علم الفتوى، ويظن أن الفتوى هي الدين كلُّه، قد يقصِّر في العمل الصالح، وقد تزل قدمه بمخالفاتٍ شرعيَّة، إلا أنه يتقن علم الفتوى، إنسان يقرأ قوله تعالى:

(فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ)

(سورة التوبة: من آية " 122 ")

أتقن الفقه فظن أن الفقه هو كل شيء، فهناك غير هذا كعلم العقيدة، وفي علم السلوك، وفي السلوك إلى الله عزَّ وجل، تطهير القلب، ظن أن الفقه هو الدين، إنسان ظن أن التجويد هو الدين، التجويد جزء من الدين وليس هو الدين كلّه، إنسان ظن أن علم المواريث هي الدين، إنسان ظن أن علم القراءات هي الدين، علم القراءات جزء من الدين، هذه كلها أجزاء من الدين، فالإنسان إذا توهَّم هذا الجزء كلاً وقع في الغرور.

وفي ناس أولعوا بالخلافيَّات، همَّه الأول أن يأتي بالرأي، والرأي المخالف، وحجج الفرقة الأولى، والرد على هذه الحُجَج، وحجج الفرقة الثانية، ورده على هذه الحجج، فقد ضيَّع كل حياته في القيل والقال، وإن الله كما قال عليه الصلاة والسلام:

((كَرِهَ لَكُمْ ثَلاثًا قِيلَ وَقَالَ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ))

(من صحيح البخاري: عن " المغيرة بن شعبة ")

وفي ناس اشتغلوا بعلم الكلام، والمنطق، والفلسفة الإغريقيَّة، هؤلاء أيضاً زلَّت أقدامهم، ولم يعلموا أن الدين ليس بحاجةٍ إلى علمٍ هجين، الدين دين الله، الكتاب والسنة يكفي، هل يجب أن تتعلَّم منطق اليونان لكي تفهم العقيدة ؟ يجب أن تتعلَّم علوم الإغريق كي تكون مؤمناً ؟ مستحيل. ورد في الحديث الصحيح أنه:

((مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلا أُوتُوا الْجَدَلَ))

(من سنن الترمذي: عن " أبي أمامة ")

العَيّ، والله مرة واحد سألني سؤال فقال لي: نحن في القرية مختلفين، ومتناقشين، ومتنازعين على تعريف التهجُّد بدقَّة، وتعريف قيام الليل، اختلفوا إذا الإنسان نام واستيقظ هل هذا تهجُّد أم هو قيام ليل ؟ قلت له: أنا أنصحك أن تستيقظ في هذا الليل، وتصلي ركعتان بإخلاص وخشوع، وقل له: يا رب أنا لا أدري ما اسم هذه الصلاة ولكن اقبلها مني فقط. ما صلَّى بحياته قيام الليل ولا تهجَّد، وغارقاً بالفرق بين قيام الليل والتهجُّد، أي واحد يكون قيام الليل هل هو القيام بعد النوم، أم الصلاة قبل النوم، واقع في هذا الجدل ولم يفكر أن يصلي قيام الليل، هذه مشكلة يعاني منها المسلمون، فأكثر المسلمين في قضايا صغيرة كثير يكبِّرها.

هناك أيضاً فرقة أخرى اشتغلت بالوعظ، الوعظ عن طريق القصص، والقصص غير الصحيحة، والأحاديث الضعيفة، يجب أن يأتي بشيء غريب، الإغراب مرض في الدعوة، حديث ضعيف، أنت اذكر حديث صحيح يعرفه كل الناس، وعمِّق فهمك له، واشرحه شرح طويل، لا تنزعج من حديث معروف، ابقَّ في الصحاح، واشرح حديث مألوف معروف لكن تعمَّق في شرحه، أحسن ما تضيِّع الناس بشيء في عليه إشكال.

وفي أناس اشتغلوا بالأشعار والأدب، تجد دعوة إلى الله مضمونها كله شعر، وأحياناً شعر غزلي، الحقيقة هو ممتع، في أشياء ممتعة بالأدب، لكن هل من المعقول تكون دعوة إلى الله في جامع أكثرها شعر وصف، بل وصف مثير ؟ هذا الشيء كذلك فيه انحراف بالدعوة.

سأضرب مثل يوضِّح الفكرة: لو أنه في بلد لا توجد فيها إذاعة، وأراد المسؤولون أن يمنعوا التجوُّل، فوضعوا إعلانات في الطرقات، إعلانات بمنع التجول تحت طائلة إطلاق الرصاص. فجاء واحد قال: والله هذا الورق لا يوجد مهنه، ورق مبرغل، هذا الورق غير وطني، هذا حتماً مستورد، فدقق فهنا جاءت حروف أجنبيَّة من ضمن تصنيع الورق، انتبه، والثاني انتبه للخط هذا ليس خط، هذا تنضيد حروف، هذا خط خطاط، وانتبه واحد لنوع الحبر فيه لمعة، ولا أحد انتبه لمضمون البلاغ، وهو يفكر بالخط جاءته رصاصة فقتلته، تقرأ البلاغ وتذهب إلى بيتك فقط، يجب تهتم بالمضمون.

الآن في كثير دعوة قضية أن القرآن فيه إعجاز عددي، سبعة وتسعة عشر، وحساب الأرقام، لكن وفي النهاية ؟!! هذا كتاب منهج هل قرأته ؟ هل فهمت المضمون ؟ هل عملت به ؟ هل جعلته دستوراً لك في حياتك ؟ فأخطر شيء في انحراف الدعوة أن تخرج الدعوة عن مسارها الصحيح إلى فروع جانبيَّة، تستهلك في هذه الفروع، ولا تؤتي ثمارها كما أرادها الله عزَّ وجل.

فالحديث يطول، يقول لك: إذا ما أتقنت الأربعة عشر شدة في الفاتحة، إن لم تأتِ بها فالصلاة باطلة، هذا غرور كذلك، مبالغة، فالله عزَّ وجل يقبل من إنسان أن يقرأ الفاتحة وسورة، ويركع ويسجد، الشيء المقبول لا بالتقعُّر، لهذه الدرجة ينسى الإنسان الصلاة كلها، هو يهتم بالشدات فيضيع عليه المعنى والخشوع في الصلاة كلها، في مبالغات كثيرة جداً.

وفي أناس اهتموا بالنوافل وتركوا الفرائض. يجب عليه أن يقبل الحجر الأسود، فيضرب واحد، ويرفس واحد، ويزيح واحد، فيرتكب عشر مخالفات ليقبِّل الحجر، أنا والله مرَّة شهدت في بعض الحجج، اخترت يوم في الساعة الثالثة قبل العصر بربع ساعة، والحرارة ثمانية وخمسين، وبعدما انتهى الحج بعشرين يوم، واقفين خمسين واحد، لو وقفوا بالدور لقبَّلوا الحجر في دقائق، لكن يطلع الواحد من التقبيل كأنه معصور بغسَّالة.

فلو تصورت أب قاعد مع أولاده، فجاء ابن مشاغب (أزعر)، مسك أول أخ رفسه، والثاني ضربه، وقبِّل يد أبوه في آخر الأمر، فالأب يقول له: تضرب أنت وهذا التقبيل. ينزعج الأب أهكذا تفعل ؟ أنه من أجل سنة ترتكب مخالفات كبيرة جداً ؟! فهو جهل كبير جداً في الحج، وفي الصيام، حتى في الصلوات، درس قائم، يريد أن يصلي جماعة بأعلى صوت، مرتاح، ويسمِّع ليس الصف الذي خلفه فقط بل الجامع كلَّه، فأي أدب هذا ؟.

إن شاء الله في درس أريد أن ألقيه عن أن الجماعة الأولى هي الجماعة فقط، والباقي ليسوا بجماعة، تشويش غير معقول في أكثر المساجد ؛ أول جماعة، والثانية، والثالثة، والرابعة.

في ناس اختصوا بالحيَل الشرعيَّة، يظن نفسه شاطر، قبل نهاية الحول يهب ماله لزوجته، فلما وُهِبَت هذا المال ما مضى عليها الحول، فإذا اقترب حوَلان الحول تهبه لزوجها، يطلع أنه كل حياته ما دفع زكاة، قبل نهاية الحول يهبه لزوجته، وقبل نهاية حولها تهبه لزوجها، وانتهى الأمر، ومختصين بالحيَل الشرعية، مع أن الحيل الشرعية لها جواب، ولها درس طويل، الحيل الشرعية مسموح بها الإيجابيَّة فقط، الإيجابية أي أنك تحتال على عمل صالح، إنسان لا يأخذ منك صدقة، تحتال بطريقة أنها بشكل هدية، الإيجابيات فقط، أما من أجل التهرُّب من التكاليف فترتكب حيلة شرعيَّة !!

فأنا أردت من هذا الدرس أنه الإنسان يكون مع الواقع، مع المنهج الصحيح، لا تزل قدمه إلى علم بلا عمل، إلى علم وعمل بلا تزكية، إلى علم وعمل وتزكية مع غرور، إلى علم وعمل وتزكية مع تعظيم فرع من فروع الدين وإهمال بقية الفروع.

وهناك غرور ثاني: أنه أنا من جماعة فلان وحدها على حق، وتزدري أي إنسان من جماعة أخرى، نحن فقط، الله لنا فقط، الجنة لنا فقط، تفكير محدود جداً، تفكير ممقوت جداً، هذا أيضاً من الغرور.

يا أيها الإخوة الكرام... باب الغرور طويل، وأنا اقتصرت على غرور يظهر عند طلاَّب العلم الشرعي، أما غرور أهل الدنيا، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33))

(سورة فاطر)

((الدنيا تغر وتضر وتمر))

(من شرح الجامع الصغير: عن " عمرو بن مُرَّة ")

والشيطان يعدهم ويمنيهم..

(وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً (120))

(سورة النساء)

فالشيطان يغرِّر بالإنسان، يقول له: الله غفورٌ رحيم. بالضبط كما لو أن طالب كسول قال لطالب في أول العام الدراسي: الأستاذ لا يدقق كثير، إذا أنت قدَّمت له هديَّة قبل الفحص يعطيك الأسئلة، ارتاح واذهب نام. يرتاح الطفل، ويؤدي كل السنة الدراسيَّة بالنوم، والسهر مع أصدقائه، وارتياد دور السينما، يأتي يوم الفحص فيطرق باب الأستاذ لكي يعطيه الهدية ويأخذ الأسئلة، فيضربه ويطرده، صحي، كان في غفلة فصحي، في أوهام كثيرة جداً تعشعش في أذهان المؤمنين وهي ليست صحيحة.

الدعاء الذي أدعو به أحياناً:

((اللهمَّ أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم...))

الوهم يلتقي مع الجهل، والوهم يلتقي مع الغرور، الجهل، والوهم، والغرور مسميات بشيء واحد.. " اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم، وأدخلنا في أنوار العلم، وأنقذنا من وحول الشهوات إلى جنات القربات ".

أيها الإخوة... الإنسان بحاجة إلى محاسبة النفس، والتدقيق مع الذات، لكي ينجو من هذه المطبات الخطيرة التي تهلك معظم المسلمين.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (124) :محاسبة النفس .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-01-16

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

الإنسان المُوَفّق والناجح في الحياة، من حينٍ إلى آخر يُرَتّبُ أوراقه، ويُراجعُ حساباته، ويضَعُ خِطّةً مرْحليّة، وكلّ إنسانٍ ناجحٍ هكذا يفعل، من حينٍ لآخر يرتّبُ أوراقه، يُراجعُ حساباته، ويضعُ خِطّةً لِمَرحلةٍ قادمة، فنحن بعد رمضان دخلنا في أوّل العام، رمضان دَوْرةٌ مكثّفة جدًّا، فيها صلاةٌ، وقيامٌ، وصِيامٌ، وغضّ بصر، وضَبْطُ لسانٍ وإنفاقُ مالٍ، وقراءة قرآن، وكلّ واحدٍ حصّل في هذا الشّهر ما سمَحَ الله أن يحصّلهُ، بِحَسَبِ ورَعِهِ، واسْتِقامتِهِ، ونِيَّتِهِ العاليَة في عبادته، وفي صَوْمِهِ، الآن بعد رمضان ماذا ينبغي أن نعمل ؟

أيها الإخوة الكرام، أوّل حقيقة هو أنّ الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره، الإنسان عليه أن يتأمَّل، هذا المَكْسب الذي حصّله في رمضان ينبغي أن يحافظ عليه بعد رمضان، الآن مراجعة الحسابات، هل في البيت مشكلة ؟ هل في البيت معصيَة ؟ هل في خروج البنات والزوجة مخالفة لِشَريعة الله عز وجل ؟ هل في البيت لقاءٌ لا يُرضي الله عز وجل ؟ هل في البيت علاقة اجتِماعيّة خارج منهج الله عز وجل ؟ نبدأ بالبيت والأصحّ أن نبدأ بالذات ؛ كيف اتّصالك بالله تعالى ؟ كيف تِلاوَتك للقرآن ؟ كيف ذِكْرُك لله تعالى ؟ كيف ضبْط حواسّك الخمْس ؟ كيف ضبْط أعضائِك ؟ كيف ضبْكُ لسانك ؟ ابْدَأ بمُراجعة الذات، ثمّ مراجعة البيت، ثمّ مراجعة العمل، ثلاثةُ مرتكزاتٍ كُبرى، فإذا كانت هناك مخالفة يجبُ أن تُزال، ولنفترض جدلاً أنَّ واحدًا منّا لا سمَحَ الله، ولا قدَّر لمْ يحقق في رمضان شيئًا يُذْكر، مضى عليه رمضان كأحد شُهور العام، ماذا يفعل ؟ بإمكانِهِ أن يفْتَحَ مع الله صفْحة جديدة في واحد شوّال.

أوَّلاً ضبْطُ الذات، أنت كإنسان تحتاج إلى علْم، وإلى عمل، وإلى حال هذه الحاجات الثلاثة الأساسيّة، تحتاجُ إلى علم، هل أنت مواظبٌ على مجلس علم ؟ هل تواظب على مجالس علمٍ متكاملة ؟ درس تفسير، درس حديث، درس سيرة، هل أنت تتابعُ بعض القضايا بنَفسِك؟ هل تسأل ؟ فالعِلْم أساسي فهو الذي يُميّز أهل الدنيا عن أهل الآخرة، قال تعالى:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10))

(سورة الملك)

فأنت لابدّ من طلب العلم، ويظلّ المرءُ عالمًا ما طلب العلم، فإذا ظنّ أنّه قد علم فقد جهل، فلابدّ من تغطيَة هذه الحاجة الأساسية ؛ طلب العلم الآن العمل، أخطرُ سؤال أين أنت مِمَّا تعلم ؟ كلّ واحدٍ مِنَّا وصَلَ إلى سمْعه حقائق كثيرة جدًّا، أين هو منها ؟ إذا كانت لك جُرأة أمام نفسك أنْ تكتشف الشيء الذي تعتقدهُ، والشيء الذي تدْعو إليه، وأنت غير مُطَبِّقٍ له هذه في حقّ الإيمان جريمة، مرّةً وقعَ تحت يدي كتاب مُصدّر بأربعة أدعيَة وفي الحقيقة مؤثِّرة جدًّا، أوّل دُعاء اللهمّ إنِّي أعوذ بك أن يكون أحدٌ أسْعد بما علّمتني مِنِّي، أنت الآن طلبْت العِلم، بإمكانك أن تُلقي على الناس دُروسًا رائعةً، بطُول أمد سماع العِلم صار عندك ذخيرة، وصار عندك كتلة معلومات يمكن أن تقول هذا، لكنْ بُطولتك أن تكتشف ما إذا كانت هذه المعلومات التي حصَّلتها من دروس العلم تعيشها في حياتك اليوميّة أو لا تعيشها ؟ هل هي مُطبّقة في بيتك أم غيرُ مطبّقة ؟ الحقيقة ربّنا عز وجل يعْتبُ على المؤمنين، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3))

[سورة الصف]

فأوّلُ ملاحظة، بدأت الدرس هكذا ؛ الإنسان الموفّق، الناجح في حياته، مِن حينٍ إلى آخر يرتِّبُ أوراقه الداخليّة، ويُراجعُ حساباته، ويضَعُ خِطَّةً مرحليّة، فَمِنْ باب مراجعة الحِسابات نبدأ بالذات، أنت مخلوقٌ في الأرض كي تعبدَ الله، والعبادة فيها جانبٌ معرفي، فهل أنت مواظبٌ على تحصيل العلم ؟ وهو كلّ شيءٍ في حياة المؤمن، طيّب تُحَصِّل أيَّ علم؟ علم القرآن، علم الحديث، علم السيرة، علم الشريعة، علم الحقيقة، أيّ علم تحصّل ؟ وهل تحصيلُك للعِلم متكامل ؟ هناك مواد أساسيّة أنت حريصٌ عليها، لابدّ أن تكون على علم بكِتاب الله، وبسُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، والأحكام الفقهيّة، وبعض سِيَر الصحابة، فهل أنت تُتَابعُ هذه الدّروس بشَكلٍ دقيق ؟ إن كنتَ كذلك حقّقْت الجانب الأوّل من العبادة، وهو طلب العلم، وطلب العلم مُسْتمرّ مع الحياة كلّها، لأنّ المقولة الرائعة ؛ أنت عالمٌ ما دُمْتَ تطلبُ العلم، فكلُّ من ظنَّ أنّه قد علِمَ فقد جهل، الآن المراجعة الدقيقة الخطيرة المحرجة، هذا الذي تعلَّمْتهُ ماذا عملْت به ؟ هذا الذي تعلّمتهُ في التفسير والحديث والفقه والسيرة ماذا عملْت به ؟ فإذا كان هناك تطابق فأنت رائع، أنت إنسانٌ صادق، أنت مخلص، أنت متماسك، أنت مِمَّن يحبّه الله عز وجل، أما إذا كان هناك انفصال، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3))

[سورة الصف]

هذه مشكلة كبيرة جدًّا، والإنسان يُسجّل، ويكتب، النّقطة الفلانية ضعيفٌ فيها أنا، ممكن أن تخجَل من الضّيوف، تجلسُ جلسة مختلطة، أنت بهذا خرقْت الاستقامة، ممكن تخجل من صديق كي تقوم تصلّي، ممكن تخجل من صديق فتجلس معهُ مجلسًا لا يرضي الله عز وجل، الآن السُّلوك فالقصْدُ الأوّل

تحصيلُ العلم، الآن السُّلوك، ثمّ إنّك تصلّي، وتقرأ القرآن، وتذكر الله تعالى، هل لك حالٌ مع الله ؟ لا بُكاء ولا خُشوع ولا قُشَعْريرةٌ، ولا من الذين إذا ذُكِر الله وجِلتْ قلوبهم، وإذا تُلِيَت عليهم آياته زادتهم إيمانا، وعلى ربّهم يتوكّلون، لا إن صلّيْتَ تشعر، ولا إن ذَكَرْت الله تشعرُ بشيءٍ، ولا إن قرأت القرآن تشعرُ بشيء، والله هناك مشكلة كبيرة جدًّا، أنت لماذا في أمور الدّنيا إن وجدْت ذبابة تطيرُ أمامك تراجع طبيب عُيون يقول لك أوّل موعِد بعد شهرين، وتنتظر الموعِد بفارغ الصَّبْر، يكون جوابك ؛ العين لا لعِبَ معها ! لماذا تحرسُ على سلامة عيْنِك، ولا تحرصُ على سلامة قلبك، إذًا نحن خطّة المراجعة هي طلبُ العِلْم، والعمل بالعِلْم، والاتّصال بالله عز وجل، هناك عقبات ومُثبّطات، وصوارخ، وعقبات كَأداء، وحجاب بينك وبين الله تعالى هذه هي المراجعة مع الذات، الآن خرجْت من ذاتك، زوجتك ؛ هل قصَّرْتَ في نصيحتها، هل هي في المستوى المطلوب ؟ هل تحْرصُ على دينها أم تحرصُ أن تأخذُ من خدماتها كلّ شيء، أولادك وبناتك، هل أنت في مستوى هذه الآية، قال تعالى:

(وَأمُرْ أهْلَكَ بالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)

[سورة طه]

هل تأمرهم بالصلاة ؟ هل تجعلُ بيتك عامرًا بذِكْر الله ؟ أم هو بيتٌ كالقبر هل في البيت لقاءٌ طيّب بين المؤمنين ؟ مدارسة قرآن كريم، جلسة لِوَجه الله تعالى، هل بيتك عامرٌ بذِكْر الله أم عامرٌ بالأكل والشّرب ؟ والضحك والتُّرَف ؟ والسّهْرة إلى الساعة اثنان بالليل، والضَّحِك بمِلء الفم، بيتُكَ بماذا هو عامرٌ ؟ بعدما راجعْت ذاتك، وراجعْت طلبك للعلم، وراجعْت عملك بما تعلم، راجعْت حالك مع الله، الآن راجع زوْجتك، وأولادك وبناتك.

الله عز وجل قال:

(وَأمُرْ أهْلَكَ بالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)

[سورة طه]

وقال تعالى:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214))

[سورة الشعراء]

يا ترى إخواتك، أكثرُ الناس يلتقي مع أخيه النَّسَبي، كيف حالك ؟ هل يلزمك شيء ؟ السلام عليكم !! لا يهتمّ بدينِهِ إطلاقًا، والله زرْتُه وهو الحمد لله بخَير، هل بيت أخيك فيه دين أم لا ؟ هل فيه مخالفة أم لا ؟ أنت الأخ الأكبر، قال أحدهم: متى أدْعو إلى الله ؟ قلتُ له: كهذا الكأس حينما يمتلأُ يفيض، إذا كان فارغًا لا توجد دَعوَة، إذا امتلأ الكأسُ كلّه فاض على الآخرين.

أنا أردْتُ من هذا الدّرْس أن يكون فاتحةٌ عامٍ جديد، طبعًا رمضان انتهى، والآن نفتحُ مع الله صفحة جديدة، لا يوجدُ أجملُ من التوبة إلى الله عز وجل، ولو كان هناك تقصيرٌ برَمضان نحن الآن مع الله

دائمًا، وبإمكان كلّ مؤمن أن يجعل كلّ الشهور كشهر رمضان، الصلاة يمكن أن تصلّي، ولك أن تقرأ القرآن، ولك أن تذكرَ الله، ولك أن تطلب العلم، ولك أن تفعلَ ما تشاء، إذًا نحن نراجعُ أوراقنا، ونراجعُ حساباتنا، ونضعُ خِطَّةً لِسُلوكنا إلى الله عز وجل مرحليّة، والآن ما بين العيدين، ماذا ينبغي أن نعمل ؟ والله أنا أنصحُكم وأنصحُ نفسي معكم، لابدّ مِن جلسةٍ مع الله عز وجل، تقرأُ فيها القرآن، تصلّي، تذكرُ فيها الله عز وجل، هذه الجلسة شُحنة، قويّة جدًّا، تمامًا كالطاقة في المركبة، مركبةٌ بلا طاقة تقف، طاقة المؤمن العبادة، وإحكامها، فهذه لا بدّ منها، صلاتك أساسيّة، غضّ بصرك، الاستقامة، الآن علاقة بإخوانك، هناك إنسان سلبي، قال: أنا لا يوجد إنسان ينزعِج مِنِّي ! طيِّبْ ماذا قدَّمْتَ ؟ ماذا قدَّمْت للمسلمين ؟ ماذا حملت من هموم المسلمين ؟ ماذا حقّقت في هذا العُمر ؟ هل تركتَ علمًا يُنتفعُ به ؟ أو ولدًا صالحًا يدعو لك من بعدك ؟ أو عملاً طيِّبًا ؟ أو مؤسسّة خيرية ؟ أو ألّفْت كتابًا معيَّنًا ؟ ساهمْت بهداية إنسان ؟ هل هناك سبعة أو ثمانية عن طريق جاءوا إلى المسجد ؟ هل كنت أنت السَّبَب في هدايتهم ؟ دائمًا الإنسان يحتاج إلى حركة، لكنْ مشكلة الناس يتحرّكون حركةً رتيبة نام واستيقظ وأكل وشرب، وذهب للمحلّ ورجع مساءً، وتعشّى، وقعد مع أهله، ونام واستيقظ ثاني يوم، حركة رتيبة ثابتة، لكنْ هل خرجْت عن هذه الحركة الرتيبة الثابتة ؟ هل تحرَّرْت من العرف الذي يعيشُه الناس جميعًا ؟ هل لك تطلُّع إلى الله عز وجل ؟ أنا الذي أراهُ أنّ أجْمَلَ ما في الحياة أن يكون لك هدفٌ، وما من شيءٍ يجعلُ حياتك سقيمةً مملّةً، رتيبةً كأنْ ينعدِمَ الهدف من حياتك، هذا الإله العظيم خلقك عبثًا ؟ كَوْنٌ ومجرّات ومائة ألف مليون مجرّة، وشُموس وكواكب، وأنظمة، والأرض فيها كلّ شيء، معادن وأشباه معادن، ونباتات، وأسماك وأطيار، وحيوانات وأزهار، هل كلّ هذا الكون من أجل العبث ؟! هذا كلام الجهلة، وأساسًا هناك شاعر جاهليّ قال:

فإن كنت لا تستطيعُ دفْع مَنِيَّتي فدَعني أبادرها بما ملَكَت يدي

هذه فلسفة، لا يوجد عمل إلا ووراءهُ رؤية، إن صحَّتْ هذه الرّؤية صحَّ العمل، أنا أضرب بعض الأمثلة الشهيرة، في أيّام المطر الشديد، رأيْتُ إنسانًا يركض في شارع العدوي، المطر منهمِرَة فوقهُ، ماذا رأى حتى فعلَ هذا الفِعْل ؟ لاشكّ أنّه رأى أنّ سلامة قلبه في الجري، وأنّ صِحَّتهُ بالجري، ولياقتهُ بالجري، وقُدرتهُ على العمل النشيط بالجري، هل لك رؤية تتميَّز بها عن رؤية الناس جميعًا ؟ الناسُ كلّهم ينكبُّون على الدنيا فهل اتَّجَهْت إلى الآخرة ؟ الإنسان حينما يأتيه ملكُ الموت، الحقيقة قضيّة ملك الموت، لا يوجدُ حدَثٌ أشدّ واقِعِيَّة من الموت، وهذا مصيرُ كلّ حيّ، ونحن في هذا المسجد المتواضع، يعني عشرات الإخوة الأكارم توَفَّاهم الله عز وجل، قول لك: والله كان يحضرُ الدروس معنا وقد انتقل إلى رحمة الله تعالى، وأنا سوف أنتقلُ، وأنت سوف تنتقلُ، واعلموا أنّ ملَكَ الموت قد تخطّانا إلى غيرنا وسيتخطّى غيرنا إلينا، فلْنتَّخِذ حِذْرنا.

لا أزالُ أبيِّنُ لكم أنّ هدفي من هذا الدرس، افتَح مع الله صفحة بعد رمضان، ونعملُ خِطَّة، فيها جانبٌ معرفي، وجانب سُلوكي، وجانب جمالي، وخِطَّة فيها مراجعة مع الذات، ومراجعة مع من هم حولك، ومن أشدّ الناس قربًا إليك، الزّوجة والأولاد والبنات، الآن دخلتُ إلى عملي يا ترى عملي في الأصل مَشْروع، اِسْأل فالله عز وجل قال:

(فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (7))

[سورة الأنبياء]

وقال تعالى:

(فاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (59))

[سورة الفرقان]

عندك قضيَّتان، قضيّة متعلّقة في الدنيا فاسألوا أهل الذّكر، وقضيّة متعلّقة بالله عز وجل فاسألْ به خبيرًا، والإنسان إذا سأل استعار عُقول الرّجال في سؤال واحدٍ، أنت لا تستطيع أن تدخل الطبيب من دون أن يكون معك اجْرُ المعاينَة، ولا تستطيع الدخول على مكتب محامي إلا ومعك الأتعاب لكن تستطيع أن تدخلَ أيّ مسجد من دون رسم دُخول، وتسأل أكبرَ عالمٍ تراه، من دون مُقابل، يُعطيكَ مِمَّا علَّمهُ الله عز وجل، اسألْ هل العمل حلال أم حرام ؟ فيه شبهة أم لا ؟ هذا القرْض هل فيه إشكال ؟ هذه التِّجارة هل ترضي الله عز وجل ؟ هذا السَّفر هل يرضي الله عز وجل ؟ أن أبتَعِد عن زوجتي سنة بأكملها من أجل أن أُحصِّل دَخْل إضافي قليل، هذا الشيء هل يُرضي الله عز وجل ؟ اِسْأَلْ ؟ قال تعالى:

(فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (7))

[سورة الأنبياء]

وقال تعالى:

(فاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (59))

[سورة الفرقان]

وتَطْييبًا لِقَلبك الله عز وجل أمرَ نبيَّهُ المصطفى أن يستشيرَ أصحابهُ قال تعالى:

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

[سورة آل عمران]

فإذا كان سيّد الخلق، وحبيب الحق قد أُمِرَ أن يُشاوِرَ أصحابهُ فمَن أنا حتى لا أُشاوِرَ؟ اسْأل رجلَ دينٍ تثقُ بعِلْمِهِ، وأفقهُ واسع، وخبرته بالحياة عالية، وعلمه الدِّيني، وعلمه بالحقيقة، اسْأل صديقًا مؤمنًا ترْكَنُ إليه فاسألوا أهل الذّكر إن كنتم لا تعلمون، دائمًا الأشياء التي تغري تُرْدي والأشياء التي تنفعُ في المستقبل قد لا ترضيك الآن، أنا أضربُ مثلاً إذا الواحد أراد أن يتعلّم على الآلة الكاتبة، أو على الكمبيوتر، من دون معلّم يستخدم أصبعًا واحدة، لو يستخدم الآلة الكاتبة أو الكمبيوتر ثلاثين سنة يحتاج

للصّفحة الواحدة ثلاثة ساعات، أما لو دخلت إلى مدرسة تعليم أوّل عمل يُكَلّفوك استخدام عشرة أصابع معًا، شيءٌ صعبٌ جدًّا في البداية ولكن في النهاية الصفحة عشرة دقائق، أنا أرى الخبراء في الكتابة هكذا، عينُه على الورقة ويحرّك أصابعهُ معًا، كلّ صفحة عشرة دقائق فالطريقة الناجحة مُتعبةٌ في أوّلها، والطريقة السهلة في أوّلها متعبةٌ في آخرها، فكلّ شيءٍ مريحٌ في البدايات متعبٌ في النهايات، وكلّ شيء مُتعبٌ في البدايات مريحٌ في النهايات، القاعدة هذه عامة في الحياة.

عَوْدٌ على بدء، بعد رمضان ينبغي أن نفتح مع الله صفحةً جديدة، فلْنُراجِع حِساباتنا، ولْنُرَتِّبْ أوراقنا، ولنَضَع خِطّةً مرحليّة، وهناك أسلوب مثبِّط، قد تقول لك الزوجة: الآن تريد أن تغيِّرَ نمَطَ حياتنا، مادام القلب ينبض، ممكن أن تتطوّر تطوُّرًا مذهِلاً، فأنا ما كنتُ راضٍ عن نفسي سابقًا، وقد غيَّرْتُ الآن، دائمًا المجتمع يشدّك للوراء، اِجْمع الأهل لطلب العلم تجدُ هذا نائمًا، وذاك لا يأتي، أما لو أصْرَرْتَ عليهم بعد فتْرةٍ يُصبحُ درسَ العلم شيئًا جميلاً بالبيت، ويصبحُ هذا لقاءً أسبوعيًّا، وصار هناك مجال لِنَقل حقيقة لِزَوجتك وأولادك، وأصبح هناك شيء اسمه تعليم فالإنسان يألف أن يعيشَ على القديم دائمًا، وإذا الإنسان أراد أن يغيّر بنَمَط حياته، أوَّل من يُعارضُه أقربُ الناس إليه، ألِفُوا عدم الصلاة جماعةً، ألِفوا أن يكون الحديث مفتوحًا من دون ضوابط، والله اخٌ من إخواننا أكْبِرُه كثيرًا، هم عشرة أصدقاء، فكلّ رمضان يمضي كما يمضي على الناس جميعًا، يعني شهرُ الولائم واللّقاءات، والسّهرة للثانية ليلا، وهناك مسلسل، وبرنامج خاص برمضان، انقلبَ هذا الشَّهر إلى شهر ولائم، وإلى شهر اجتماعي، إلى شهر تفلّت أحيانًا، هذا الأخ مع عشرة من إخوانه اتّفقوا على عدم تلبيَة أيّة دَعوَة، فهذا الشّهر شهر عبادة، ولا خرجوا من بيوتهم، أتقنوا صلاة التراويح، صلّوْها بإتقان، وأتقنوا ذِكْر الله عز وجل، وأتقنوا قراءة القرآن، وضبطوا أنفسهم وأزواجهم وأولادهم وبناتهم، فصار هذا الشَّهْر جنّة، جنّة بالمعنى الدقيق جدًّا، لأنّ أحد العلماء قال: في الدّنيا جنّة مَن لم يدْخلها لم يدخُل جنّة الآخرة، فأنا أتمنّى للإنسان أن لا يسمحَ للتقاليد، ونمط حياته الرتيبة أن يُسيْطِر عليه، ألف التقصير بالصلاة، وألِفَ عدم الانضباط بالكلام، أما أنت كُنْ كهذا الإنسان الورع، كان أحد علماء دمشق الكبار، لا يستطيعُ إنسانًا أن يتكلّم أمامهُ على إنسانٍ، ولا كلمة، اُسْكت، فأنت اُضبُط نفسكَ، الناس تعيشُ سَبَهْلَلاً يجلسُ ويحكي، ولا أحد منّا ينصح، كلمة النصيحة بغيضة، أنت بمَجلس عِلمٍ، ومع أصدقائِك، ومع إخوانك، صار هناك غيبة، عليك أن تقول: يا إخوان، هذه غِيبة، وهذا مسلم، له حقّ علينا، ومن كان حريصًا على مصلحته فلْيَذْهب إليه وينصحُه، أما أن تنْهشَ عِرْضهُ في غيبَتِهِ، ليس هذا من أخلاق المؤمن، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: الغيبة أشدّ من الزنا، يعني جميلٌ جدًّا أن تكون ضابطًا لأمورك، ضابطًا لِعَينِكَ، وسمعِكَ ولسانِك، وبيتِكَ، ورعٌ بحِساباتك، وبأخْذك وعطائك، لكي تكون ورعًا بهذا الشكل تجدُ الطريق إلى الله سالكًا، صلاتك غير صلاة، وحالك مع الله عالٍ جدًّا، أمورك ميسَّرة، وموفّق، السَّبَب أنّكَ أدَّيْتَ ما عليك، أقمْت

شرْع الله في بيتك، اقرأ القرآن من مِنّا يفهم الكتابَ فهمًا عميقًا ؟ وعلى أنَّه قانون ؟ كم عدد المسلمين الذي يخافون بالعالم ؟ كأنَّه توجد حرْب عالميّة أُعْلِنَت على المسلمين، الله تعالى ماذا قال ؟ قال تعالى:

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (120))

(سورة آل عمران)

هذا كلام الله عز وجل، لا يكفي أن يُطمئِنَك، فالله معنا إذا كنَّا نحن معه قال تعالى:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (12))

(سورة آل عمران)

قال تعالى:

(لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51))

[سورة غافر]

شيءٌ جميل ؛ في الدنيا ! وفي الحياة الدنيا ينصُر كلّ مؤمن، التوحيدُ مريحٌ جدًّا، تجدُ إنسانًا يائس، يجلسُ بِجَلسة أنّه هكذا فعل الأقوياء، وكادوا للمسلمين، وأنْهوا هذا البلد، وأنْهَوا الشيشان، معنى ذلك أنّ هؤلاء آلهة هذا الفِكْر لِوَحدِهِ يجعل اليأس، والضّعْف، قال تعالى:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146))

(سورة آل عمران)

فالإنسان عليه أن يكون له أملٌ بالله عز وجل، يقولون: أمطار لا توجد، كأنّ الله لا توجد عنده أمطار!!! الله على كلّ شيءٍ قدير، ولِنَصْطَلِحَ مع الله عز وجل تتغيَّر كلّ حياتنا، طبعًا ذكرْت بالخُطبة قبل يومين، أنّ الله عز وجل حينما قال:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96))

[سورة الأعراف]

قلتُ للإخوان الكرام: هذه الآية متعلّقة بالجماعات لا بالأفراد، يعني إذا أمّة بأكملها اتَّجَهت إلى الله اِتّجاهًا حقيقيًّا ؛ عبدَتْهُ، وأخْلصَت له، وكان عملها طيّبًا، هذه أُمّة يُمَكَّن لها في الأرض، ويُوَسَّع لها في الرّزق، أما إذا كان الناس شاردون، أنت بهذا لك معاملة خاصّة واستثنائيّة، أما الوضع العام سيئ، لأنّ هناك معصيَة، وتفلُّت عام، لا تظنّ أنَّ الدِّين عبارة عن عبادة بحْتة، لا علاقة له بالحياة، لما تكون هناك عبادة صحيحة، الحياة تنقلب رأسًا على عقب، الله عز وجل بيَدِه كلّ شيء، الآن صار هناك إنابة بالاستسقاء، وإنابة بالبكاء، وخشيَة، ورجاء حقيقيّ الله عز وجل استجاب، الحمدُ لله، صحيح نحن بِحَاجة ماسّة للأمطار، ولكن نزلَت كمّيات جيّدة جدًّا، ونزلتْ ثُلوج، هذا نمط، والله أرانا، وأنّ الأمر بيده

سبحانه، نحن نريد مَعْنَوِيَّاتٍ عاليَة، لا أن تكون ضعيفًا، فأنت مع الله شيء، والله بيَدِهِ كلّ شيء، ما سلّمك لأحدٍ أوَّلاً، أما أن يفهم الواحد الأخبار فهمًا سطحيًّا، وأنّ القطب الواحد متمكّن، ويفرض إرادته على كلّ الشُّعوب، وكلّ الشُّعوب تعملُ من أجله، وسخَّر لخِدمته، وهو يعيشُ في بحبوحة، فهذا كلام شيطان، قال تعالى:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4))

[سورة القصص]

لكن دقّق في قوله تعالى:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6))

[سورة القصص]

يعني أنت إذا كنت مستضعفًا فلكَ عند الله حُضْوةٌ كبيرة، أنت مستضعَف من أجل أن تمكَّنَ في الأرض، مستضعَف من أجل أن تكون خليفة الله في الأرض، مستضعَف من أجل أن تكون قريبًا من الله عز وجل، فالإيمان يقلِبُ المصائب نِعَمًا، ويقلبُ النِّعَم مصائبَ، فالعِبرة أن تملِكَ هذه الرؤية العميقة.
الذي أُريدُه في هذا اللّقاء الأوّل بعد شهر رمضان، أنّ كلَّ واحدٍ يجلسُ مع نفسِهِ جَلسة، مرَّةً ضربْتُ مثلاً لعلّهُ مناسب، أحيانًا يكون الإنسان برغي دولاب، والدولاب يدور، هذا البرغي بهذا الدولاب ما له إرادة مستقلّة عن الدولاب، هذا معنى العميِّين: نحن نُدَقِّش ! هناك حركة حياة تأخذنا جميعًا، كأنّ طريقًا إجباريّ موجود أساسًا للناس كلّها، إذا ما عرفوا الله عز وجل، يولدُ، الحمد لله تعالى سليم، يفرحُ أهله، بعد فتْرة ينظف فيقيمون حفلة، والحمد لله، وبعد هذا تخرج له أسنان، وبعد يكاغي، وبعدها حضانة، يقرأ الفاتحة فيطيرُ عقلا أبيه وأمّه، فالأب يأكل همّ ابنه يجدُ له عملاً، فيُزوّجُه ؛ طويلة وقصيرة، وبعيدة وقريبة، وبيضة وغير بيضة، ويدخلون في متاهة اختيار الزوجة، بعدها لم يخلّفوا أولادًا، يذهبون للطبيب، يا ترى منه أم منها ؟! وهذه متاهة أخرى، وبعدها ينجبُ أولاد، قد يكون منغولي، والآخر له مشكلة، فَمِنْ طبيب إلى طبيب يكبرُ الأولاد، لا بدّ لهم من الدّراسة يا ترى وظيفة أم عمل، أم حرّ، أيضَعُهُ بالمعمل أم بعمل تِجاري ؟ همّ الأولاد، زوَّجَهم ابنهُ ما أنجبَ أولاد كذلك مشكلة، بعدها تأتي المشكلة للأب ؛ التهاب مفاصل، أو أسيد أوريك ويحتاج بعدها إلى تنكة أدوية ؛ هذه قبل الأكل وهذه بعد الأكل، وفي الأخير تصدرُ النَّعْوَة !! هكذا الناس، أيوجدُ غير هذا ؟ هذا كلام واقعي فأوّل ما يولد كلّ من حولهُ يضحك وهو يبكي وحْدهُ، يمشي برحلة، فإذا بكلّ من حوله يبكي، فإذا كان بطلاً يضحكُ وحده، كلّ واحد دخل الأربعين أغلبُ الظنّ وأنا معكم قد يكون الباقي أقلّ مِمَّا مضى، طيّب هذا الذي مضى

مضى كلمْح البصَر، والباقي كذلك يمضي مثله، كُنَّا بالخمسينات 1957، ثمّ بعدها 1960، أي الستّينات، ثمّ السبعينات، ثمّ الثمانينات، ثمّ التسعينات، والآن ألفين !! يا ترى الواحد ألفين وواحد 2001 أم 2010، ملك الموت لا ندري متى يأتي، الإمام مالك رأى ملك الموت في المنام، قال له: يا ملكَ الموت كم بقيَ من عُمري ؟ فأشار له ملك الموت هكذا - خمسة - فلمّا استيقظ، يا ترى خمسة سنوات بقيَت أم خمسة أشهر أم خمسة أسابيع ؟!! أم خمسة أيّام أم خمسة ساعات، فسأل أحدهم علماء تفسير المنام، وهو ابن سيرين رحمه الله: وقصّ عليه ما رأى، فما تفسر هذه الرؤيا ؟ قال له ابن سيرين رحمه الله تعالى: يقول لك ملك الموت إنّ سؤالك من خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله، من مِنَّا يضْمن العيش بعد ساعة ؟ ولا دقيقة، لا تملك إلا هذه الساعة، فما مضى فات، والمُؤمَّل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها، وأنا أتمنَّى، وحريصٌ حرصًا لا حدود له، أنّ كلّ إنسان ينهي حِساباته، وكلّ الالتزامات، وإذا كان عليه حقوق، وعليه واجبات، يُنهي كلّ علاقاته، حتى يكون جاهزًا لِلقاء الله عز وجل، حينها يعيشُ حياةً فيها هناء، يصطلح مع الله، ويطبّق الإسلام في بيته، يتْقن عبادته، ويرجو رحمة الله، ويخشى عذابه تجدُ الإنسان المؤمن خفيف، مُريح، ولا هموم عنده كالجبال، لي قريب توُفّي لا بخمسة سنوات استطاعوا أن يُنهوا علاقاته المالية، هذا شريك معه بمَحلّ، وهذا أخذ له بيت وما دفع له ثمنها، لا توجد وثائق، قدر ما تقدر وضِّح الأمور، اُكْتُب كلّ شيءٍ، وسجِّل كلّ شيء، بيِّن كلّ شيء، ثبِّت كلّ شيء، بعُقود، لا تجعل الأمور عالقة، فالإنسان إذا انعدمت عليه الحقوق، وأدَّى واجباته اتّجاه الله فأهلاً وسهلاً، أخٌ من إخواننا تكلّم كلمة رائعة، أنا موقنٌ بالموت، وبِحَسب تصوُّري أمشي بأعلى سُرعة، ومتى ما جاء الموت أهلاً وسهلاً، الإمام عليّ رضي الله عنه قال: والله لو علمتُ أنّ غدًا أجلي ما قدرْتُ أن أزيدَ في عملي. وقْتُك كلّه لله، صلاتك، وتلاوتك، وذِكْرك لله عز وجل، أعمالك الصالحة، لا تتوانى عن عملٍ صالح، أو درس علْم، أو خِدمة مؤمن بيتك إسلامي، وعملك إسلامي، لا تكذب، ولا تغشّ، ولا تحتال، تمشي مستقيمًا، فإذا جاء الموت فأهلاً وسهلاً، لِيَأتي متى أراد، فالموت عرسُ المؤمن، والموت تحفتهُ، سمِعتُ عن واحد، وسمعتُ القصّة بشكلٍ متكرّر رجلٌ صالحٌ يحبّ الخير كثيرًا، عمَّر مسجدًا، ومن عادته إذا جاءتْهُ لجنة إلى معمله يحتاجون مساعدة يقول: افتحوا هذا الصّندوق وافتحوا ما شئْتم وأُناشدكم الله عز وجل لا تُعلموني كم أخذْتم !! هذا الرّجل صار معه مرض عُضال، دِقَّة القصّة أنّه سافر إلى بلدٍ وأقام تحاليل ورجع، وعدوه أن يُعطوه الجواب بالهاتف، فيوما كان جالسًا بالبيت رنّ التلفون رفع ابنهُ السماعة، فرفع هو من الجهة الأخرى، وسمِعَ النتيجة بنفسه، وأنّ معه سرطان بالدّم، أقصى مدّة ثلاثة أيّام ينتهي، ويبدو أنّ مؤشرات قوية جدًّا كأنهم قالوا: الساعة الواحدة ثالث يوم يكون خالص، هو سمِعَ القصّة بأُذنه، له صديق قال له: يا فلان أنا انتَهَيت، فأوَّل يوم أنهى علاقاته الماليّة كلّها وأحد الصفقات أوصى بإعطاء الرّبح للأولاد، وثاني يوم التقى مع كلّ أصهاره وأولاده وبناته وودَّعَهُم كلّهم، ثالث يوم

جاء الشيخ أقاموا تهليلة وهو دخل لِيَغْتسِلَ بيَدِهِ، وسبحان الله الساعة الواحدة سلَّمَ روحه لى بارئها وهذه القصّة مشهورة، فهذا ما أصابه دُعرٌ أبدًا، عملهُ الطيّب واستقامته وإنفاق ماله في سبيل الله، وأعماله الخيريّة، وإنشاء مسجِد، هذا جعل له طمأنينة، ما اضْطرب، وما ولْوَل، وما قال انتَهَيْت، لم يفعل شيئًا، وإنَّما استقبلَ قضاء الله وقدره بكلّ قبول، هناك حديث قدسي أيّها الإخوة يقول الله عز وجل: ما تردَّدْت في شيءٍ أنا فاعلهُ ترَدُّدِي في قبْضِيَ عبدي المؤمن.

هل يتردّد الله ؟ قال: يكرهُ الموت وأنا أكرهُ مساءتهُ، الموت قدَر أيّها الإخوة، فالإنسان يا ترى يموت ضمْن البيت، خارج البيت، بالصيف أم بالشتاء، بالليل أم بالنهار، أم ببَلَدٍ آخر، يموت عند أصدقائه، ام يموت بالمسجد، أين يموت يا ترى ؟ وكيف يموت ؟ هناك بوابات الخروج بالمطار، فمثلاً بوابة أربعة وخمسون، فأنا أشبّه الموت بهذه البوابات، فهذا خرج من الحياة بحادث، وهذا بمرض بالكلية، وهذا بالقلب، وهذا ورم، وهذا بالأعصاب، وهذا دسّام، كلّ واحد له بوابة يخرج منها، عندك مرضان مرض الموت، والمرض العادي، المرض العادي له دواء، ما من داء إلا وله عند الله دواء إلا مرض الموت، لو كان نبيّ، ولو كان وليّ، ولو كان صدِّيقًا، ما دام مرض الموت يكبر ولا يصغر، حتى ينتهي، هل مِنَّا يستطيع أن يقول لا ؟ وأنه لن يموت !! فكلّ إنسان له بوابة يخرجُ منها، مريضة قالت للطبيب: هل ستنجح العمليّة ؟ فقال لها الطبيب: بالمائة ثمانون، فقالت له ما معنى بالمائة ثمانون ؟ فقال لها: يعني إذا أقام العمليّة مائة شخص يموت عشرون ويبقى ثمانون، فقال لها: إذا كان العمليات مائة بالمائة كلّها فكيف تموت الناس ؟! فأنا أريد أن أخرجَ من بوابة، أحدهم صارتْ معه مشكلة بقلبه فحرصَ على حياته، وتوسْوَسَ وأخذ احتياطات تفوق حدّ الخيال، الرياضة، والمشي، والأكل المقنّن والسّلطات، وما ترك دواءً ما استعملهُ، هو يرى أنّ ملك يأخذه من قلبه فجاء ابنه مسافرًا، وأخذ أباه إلى مِشوارٍ، فعملَ حادثًا، ومات به، فهذا الرجل أُخِذَ ليس من قلبه، ولكن من محلّ آخر، فالقضيّة مهمّة جدًّا، فكلّ إنسان يتصوّر بوابة يخرج منها فإذا ببَوابة أخرى غير البوابة المتوقعة فالواحد إذا أدخل الموت بحِساباته اليوميّة، ودخل في مغادرة، وفي خروجٍ بلا عوْدَة، وبوابة لا بدّ أن نخرج منها إلى عالمٍ آخر، حينها يزْهدُ في الدنيا، وتضْعفُ رغبتُه في الدنيا، وتنتقلُ أهدافه إلى الآخرة، وكل الواحد منا أموره واضحة جدًّا، والشرْع واضح جدًّا، والطريق إلى الله تعالى سالكٌ، والآن نفتحُ صفحةً جديدة بعد رمضان، وكلّ إنسان يكون قدورة لنفسه ولغيره، ولِمَن حوله.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (125) :الموعظة بالتي هي أحسن - ثلاث رسائل الإمام النووي إلى الظاهر ببيرس .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-04-2000

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون.:

موضوعٌ دقيقٌ وقلّما يُعالج في المساجد، ذلك أن الله جل جلاله يقول:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

(سورة النحل: من آية 125)

فالدعوة الابتدائية تحتاج إلى موعظةٍ حسنة، ولكن الحوار يحتاج إلى أسلوبٍ أحسن، لأن في الحوار خصومةً، ولأن في الحوار مناظرةً بين شخصين، فقد يُجْرَحُ أحد الطرفين، فالتوجيه الإلهي أنك إذا دعوت إلى الله عزَّ وجل ينبغي أن تدعو إلى الله..

(بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)

وإنك إن حاورت، أو ناظرت، أو جادلت ينبغي أن تجادل..

(بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

هذا توجيه الله عزَّ وجل، ولا ريب أن كل إنسانٍ كرَّمه الله بالعلم عليه أن يبيّن، وأن ينصح، وأن يذكر، وأن القوي هو القوي في كل عصر.

عثرت على رسالةٍ من الإمام النووي رحمه الله تعالى. والإمام النووي عَلَمٌ من أعلام المسلمين ؛ صاحب رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين عليه أتم الصلاة والتسليم، والإمام النووي صاحب شرح صحيح مسلم، والإمام النووي صاحب كتاب بُغْية المُحتاج، وهو من أوسع كتب الفقه الشافعي، وورع الإمام النووي يفوق حدَّ الخيال، واستقامته والتزامه مضربان للمثل.

كيف نصح هذا الإمام النووي الظاهرة ببيرس ؟ دققوا في الحكمة التي استعملها، وفي الأسلوب الذي استخدمه، وهذا منهجٌ لنا، هناك من يتوهَّم أن النُصح يحتاج إلى غلظة، وإلى قسوة، وإلى كلامٍ يجرح، لا أبداً، بل يجب أن تؤدي أمانة العلم وأنت في أعلى درجةٍ من اللطف والتهذيب.

يبدو أنه في عهد الإمام النووي هناك مشكلةٌ وقعت في الشام، إنها مشكلة الحَوْطَة على الغوطة، الحوطة أي الاستملاك، أو مصادرة الأراضي، والغوطة هي المنطقة الخضراء المحيطة بالشام، في موضوع الحوطة على الغوطة مشكلة عانَ منها أهل الشام. والإمام النووي رحمه الله تعالى أراد أن يرفع هذه الظلامة عن أهل هذا البلد الطيب، فكتب رسالة إلى الظاهر ببيرس. كتب هذه الرسالة ووقَّع

عليها بعض العلماء ممن أخلصوا لله عزّ وجل ولا تأخذهم في الله لومة لائم. قالوا: ومما كتبه الإمام النووي في هذه الرسالة:

كتب: لما احتيط ـ أي صودرت هذه الأراضي واستملكت ـ على أملاك دمشق حرسها الله جل جلاله، قال:

"بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى:

(وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55))

(سورة الذاريات)

بدأ رسالته بهذه الآية:

(وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55))

وقال تعالى:

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ)

(سورة آل عمران: من آية 187)

وقال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

(سورة المائدة: من آية " 2 ")

أرأيتم إلى آيات القرآن الكريم كيف أنها بلسمٌ شافٍ..

(وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55))

(سورة الذاريات)

المؤمن يحتاج إلى أن تُذكِّرَهُ أحياناً، أن تذكره بآيةٍ، أو بحديثٍ، أو بحكمٍ فقهي، قد يغفل عنه، والآية الثانية مهمة العلماء التبيين، والآية الثالثة:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

(سورة المائدة: من آية " 2 ")

وقد أوجب الله على المكلّفين نصيحة السلطان أعزه الله وأعز أنصاره، ونصيحة عامة المسلمين، ففي الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((الدين النصيحة. قلنا: لمن يا رسول الله ؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم))

هذا هو الدين، أن تنصح، والله عزّ وجل أهلك بني إسرائيل لأنهم كانوا لا يتناهَوْن عن منكرٍ فعلوه.

أنا ما قرأت رسالة في منهجية، وفيها دقة كهذه الرسالة من عالمٍ جليل إلى سلطان الشام الظاهر بيبرس.

ثم قال: ومن نصيحة السلطان وفّقه الله لطاعته، وتولاّه بكرامته ـ هذا كلام الإمام النووي ـ ومن نصيحة السلطان وفقه الله لطاعته، وتولاه بكرامته أن تنهى إليه الأحكام إذا جرت على خلاف قواعد الإسلام.

أي إذا صار في إجراء يتنافى مع الإسلام، مهمَّة العلماء أن يبينوا هذا للسلطان.

وأوجب الله تعالى الشفقة على الرعيَّة، والاهتمام بالضعفة، وإزالة الضرر عنهم.

لو جاء إجراء من السلطان بما يخالف أحكام الإسلام، فالعلماء الصادقون، الورعون، المخلصون ينبغي أن يذكروا السلطان بأدبٍ، ولطفٍ إلى أن هذا مخالفٌ للإسلام، وأن الله أوجب عليه الشفقة على الرعية، والاهتمام بالضعفة، وإزالة الضرر عنهم، قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88))

(سورة الحجر)

وفي الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم))

(من الجامع الصغير: عن " سعد ")

وقال عليه الصلاة والسلام:

((مَن نفَّس عن مسلمٍ كربةً من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة))

(من الأذكار النووية)

و

((الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه))

(من الأذكار النووية)

طبعاً هذه مشكلة قديمة وليست جديدة، إنسان له أرض تستملك، قد يكون ثمن الدونم مليون فيعطى مائة ألف، أو يعطى ألف، وقد يعطى خمسمائة، فهذا إجحافٌ شديد، وظلمٍ شديد.

((مَن نفس عن مسلمٍ كربةً من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة))

(من الأذكار النووية)

و

((الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه))

(من الأذكار النووية)

وقال صلى الله عليه وسلم ـ لازلنا في رسالة الإمام النووي إلى السلطان الظاهر بيبرس ـ وقال صلى الله عليه وسلم:

((اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به يا رب، ومن شقَّ عليهم فاشقق عليه))

(من الجامع الصغعير: عن " السيدة عائشة ")

وقال صلى الله عليه وسلم:

((كلكم راعٍ ومسؤولٌ عن رعيته "))

(من الجامع الصغير: عن " ابن عمر ")

وقال صلى الله عليه وسلم:

((إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم ما ولّوا))

يأتيه بالآيات وبالأحاديث.

وقد أنعم الله علينا وعلى سائر المسلمين بالسلطان أعز الله أنصاره، فقد أقامه الله لنصرة الدين، والذب عن حياض المسلمين، وأذل له الأعداء من جميع الطوائف، وفتح عليه الفتوحات المشهورة في المدة اليسيرة، وأوقع الرُعب منه في قلوب أعداء الدين، وسائر المارقين، ومهَّد له البلاد والعباد وقمع بسببه أهل الزيغ والفساد، وأمده بالإعانة واللطف والسعادة، فلله الحمد على هذه النعم الظاهرة والخيرات المتكاثرة، نسأل الله الكريم دوامها له وللمسلمين، وزيادتها في خيرٍ وعافيةٍ، آمين.

أرأيتم إلى هذه الرقة، وإلى هذا اللطف ؟ وهو الإمام النووي يخاطب السلطان الظاهر بيبرس.

وقد أوجب الله شكر نعمه، ووعد الزيادة على الشاكرين، فقال تعالى:

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

(سورة إبراهيم: من آية " 7 ")

وقد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطة ـ أي هذه المصادرة ـ على أملاكهم أنواعٌ من الضر، لا يمكن التعبير عنها، وطُلِب منهم إثبات ما يلزمهم ـ طلب منهم إثبات ملكيتها ـ وإلا فهي مصادرة، فهذه الحوطة لا تحل عند أحدٍ من علماء المسلمين، بل من في يده شيٌ فهو ملكه، لا يحل الاعتراض عليه، ولا يكلف بإثباته ـ مادامت هذه الأرض بيده فهي ملكه في عرف ذلك الزمان، ولكل زمانٍ عرف، الآن يحتاج إلى سند تمليك، أما وقتها من كانت الأرض بيده فهي ملكه ـ وقد اشتهر من سيرة السلطان أنه يحب العمل بالشرع، ويوصي نوابه به، فهو أولى من عمل به، والمسؤول إطلاق الناس من هذه الحوطة ـ أي المطلوب أن تعفي الناس من هذا الاستملاك ـ والإفراج عن جميعهم، فأطلقهم أطلقك الله من كل مكروه فهم ضعفة ضعاف، وفيهم الأيتام، والأرامل، والمساكين، والضعفة، والصالحون، وبهم ننتصر، ونغاث، ونرزق ـ أي بدعائهم وصلاحهم وإخلاصهم ـ وهم سكان الشام المبارك، جيران الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وسكان ديارهم فلهم حرماتٌ من جهات ولو رأى السلطان ما يلحق الناس من الشدائد لاشتدَّ حزنه عليهم، وأطلقهم في الحال، ولم يؤخرهم، ولكن لا تُنْهَى الأمور إليك على وجهها ـ أي أن الأمور لا تصل إليه على وجهها أي على ما هي عليه، ولكن قد تصل إليه بخلاف ما هي عليه ـ فبالله ـ أي اقسم عليك بالله ـ أغث المسلمين يغثك الله، وارفق بهم يرفق الله بك، وعجِّل لهم

الإفراج قبل وقوع الأمطار وتلف غلاَّتهم، فإن أكثرهم ورثوا هذه الأملاك من أسلافهم، ولا يمكنهم تحصيل كتب الشراء، وقد نهبت كتبهم، وإذا رفق السكان بهم حصل له دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن رفق بأمته، ونصره على أعدائه، فقد قال الله تعالى:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

(سورة محمد: من آية " 7 ")

ويتوَّفر له من رعيته الدعوات، وتظهر في مملكته البركات، ويبارك له في جميع ما يقصده من الخيرات، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((من سنَّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة))

(من تخريج أحاديث الإحياء: عن " جرير بن عبد الله ")

لازلنا في رسالة الإمام النووي رحمه الله تعالى، إلى الظاهر بيبرس، بسبب مصادرة بعض أملاك أهل هذه البلدة الطيبة.

فنسأل الله الكريم أن يوفِّق السلطان للسنن الحسنة التي يُذْكَر بها إلى يوم القيامة، ويحميه من السنن السيئة، فهذه نصيحتنا الواجبة علينا للسلطان، ونرجو من فضل الله تعالى أن يلهمه الله فيها القبول، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * * * *

رسالة عثرت عليها من كتب التاريخ من الإمام النووي إلى السلطان الظاهر بيبرس.

معنى ذلك أن للعلم رسالة، وأن في عنق العلماء أمانة، وأن واجب الذين تعلموا العلم أن يبينوا إذا وقعت هناك مشكلةٌ بسبب مخالفة منهج الله عزَّ وجل فهذا هو الود، وهذا هو اللطف، وهذه هي الحكمة، وهذه هي الموعظة الحسنة، ومن توهَّم أن النصيحة تحتاج إلى قسوة، وإلى كلامٍ يجرح، وإلى موقفٍ أرعن، فهذا إنسانٌ جاهل، ذلك لأن الله عزَّ وجل حينما أرسل موسى إلى فرعون، وموسى نبيٌ عظيم، وفرعون طاغيةٌ كبير، قال:

(فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً)

(سورة طه: من آية " 44 ")

فلفرعون الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24))

(سورة النازعات)

و..

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القسس: من آية " 38 ")

قال:

(فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً)

(سورة طه: من آية " 44 ")

فكيف بإنسان يقول: لا إله إلا الله، وإنسان يتمسَّك بالدين، فإذا أنت لك أخ كريم متمسك بالدين غابت عنه قضيةٌ، يجب أن تنصحه، ولكن نصيحة فيها لطفٌ وفيها لباقة.

* * * * *

أيها الإخوة الكرام... بالبر يستعبد الحر، من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف.

((إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوي بها في جهنَّم سبعين خريفاً))

(من الجامع الصغير: عن " ابي هريرة ")

مرة ذكرت لكم أن واعظاً وعظ أميراً فقال:

ـ سأعظك وسأغلظ عليك.

ـ فقال هذا الأمير ـ وهو فقيه يبدو ـ قال له: ولمَ الغلظة يا أخي، لقد أرسل الله مَن هو خيرٌ منك إلى من هو شرٌ مني ؟ أرسل موسى إلى فرعون ومع ذلك قال:

(فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44))

(سورة طه)

سيدنا عمر رضي الله عنه وأرضاه، له صديقٌ شدَّ عن منهج الله، وسافر إلى بلاد الشام، وعاقر الخمر، وواجبٌ أن ينصحه، كتب له رسالةً رقيقة قال:

((أما بعد، أحمد الله إليك، غافر الذنب، قابل التوب، شديد العقاب ذي الطول، لا إله إلا هو... ووجه له كلماتٍ رقيقة، صار يقرأها ويبكي إلى أن تاب إلى الله عزَّ وجل، فقال سيدنا عمر: افعلوا هكذا إن رأيتم أخاكم قد ضل، لا تكونوا عوناً للشيطان عليه، ولكن كونوا عوناً له على الشيطان))

الكلمة الطيبة أيها الإخوة تُليِّن القلب، الكلمة الطيبة تثير العواطف، الكلمة الطيبة تجعل الإنسان ينقاد لك، أما الغِلْظة، والدليل يقول الله عزَّ وجل:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

(سورة آل عمران: من آية " 159 ")

معنى ذلك أن الإنسان إذا اتصل بالله عزَّ وجل يمتلئ قلبه رحمة، وإذا امتلأ قلبه رحمة انعكست الرحمة ليناً، ورقَّة، ولطفاً، فإذا فعل هذا التف الناس حوله وأحبوه، أما إذا كان منقطعاً عن الله عزَّ وجل يمتلئ قلبه قسوةً، وتنعكس القسوة غلظة وفظاظة، وهذه الغلظة والفظاظة تجعل الناس ينفضُّون من حوله..

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

أيها الإخوة... أكاد أشعر أن الإنسان حينما يخلص لله عزّ وجل يلهمه الصواب، يلهمه الأسلوب المؤثِّر، يلهمه فَصْلَ الخطاب، يلهمه الحكمة.

* * * * *

يبدو أن هناك رسالة ثانية للإمام النووي للسلطان الظاهر بيبرس وسوف أتلوها عليكم بما فيها من لطفٍ، ومن حكمةٍ، ومن بلاغة.

في مقدمة هذه الرسالة قال: اجتاح بلاد الشام القحط في سنةٍ من السنين التي عاشها الإمام النووي في عهد الملك الظاهر بيبرس، طبعاً هذا الملك الظاهر بيبرس كان رجلاً صالحاً، صاحب الفتوحات، والأخبار، والآثار، تولى سلطنة مصر والشام عام ستمائة وثمانيةٍ وخمسين، وكان شجاعاً، يباشر الحروب بنفسه، وله الوقائع الهائلة مع التتر، توفي في دمشق عام ستمائة وستةٍ وسبعين، وحول مرقده أقيمت ـ من يقول ؟ ـ المكتبة الظاهرية، حول قبره.

فلما صار هناك قحط وجفاف غلت الأسعار، وقلّت الغلاّت، وهلكت المواشي، فاجتمع الإمام النووي مع بعضٍ من العلماء الذين يؤثرون ما يؤثر طاعة الله عزّ وجل ومصلحة المسلمين، على أن يوقعوا كتاباً كتبه النووي ليرفعه إلى الظاهر بيبرس عن طريق الأمير بدر الدين الخِزْندار الظاهري، وهاكم نص الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم. بالمناسبة ورد في التاريخ أنه أحد خلفاء بني أمية أراد أن يغير سنة النبي في صلاة العيد، فمن أجل أن يبقى الناس في المسجد وأن يستمعوا إلى خطبته عكس الآية، أخَّر الصلاة إلى ما بعد الخطبة، تعلمون أن صلاة العيد نبدأ بالصلاة ونثني بالخطبة، فلما أراد أن يصعد المنبر ليخطب قبل الصلاة، أحد التابعين لفت نظره، وقال: إن هذا ما فعله رسول الله. طبعاً هذا الخليفة ما سمع إليه وصعد المنبر، فقال بعضهم: أما هذا فقد أدى الذي عليه.

مرة زرت أخ بمكتبه التجاري، وهو محسوبٌ على المسلمين، مسلم وله أعمال طيبة، رأيت عنده موظفة لا تليق به، موظفة غير محجَّبة، متبذلة في ثيابها، فنصحته، وعلى أثر هذه النصيحة استبدل بها موظفاً، وهو قال تعليقاً على نصحي له: أنه والله زارني أناس كثيرون ما أحد ذكر لي هذا الموضوع.

أنت عوِّد نفسك أن تؤدي أمانة العلم ؛ إن رأيت منكراً، إن رأيت مخالفة، إن رأيت تجاوزاً، هذا لا يكلفك إلا أن تقول بأدبٍ جم، ولطفٍ شديد: هذا الشيء مخالف للشرع، أنا أنصحك أن تتجاوزه.

ففي الرسالة الثانية يقول الإمام النووي في رسالةٍ بعث بها إلى الظاهر بيبرس عقب جائحةٍ اجتاحت أهل الشام، وأرسل هذا الكتاب وقد وقع عليه بعض العلماء المخلصين.

من عبد الله يحيا النووي سلام الله ورحمته وبركاته على المولى المُحْسِن، ملك الأمراء بدر الدين أدام الله الكريم له الخيرات، وتولاه بالحسنات، وبلّغه من خيرات الآخرة والأولى كل آماله، وبارك له في جميع أحواله آمين.

والله كلام لطيف جداً.

وننهي إلى العلوم الشريفة أن أهل الشام في هذه السنة، في ضيق عيشٍ، وضعف حالٍ بسبب قلة الأمطار، وغلاء الأسعار، وقلة الغلات والنبات، وهلاك المواشي وغير ذلك.

والله في أخبار مؤلمة جداً عن بعض البلاد في أفريقيا، صور كثيرة جداً الأبقار كلها ميّتة، المواشي ميتة، يموت الناس جوعاً، فالإنسان إذا كان يسكن في بيت، وعنده طعامه وشرابه، وفي ماء بالصنبور، هذه نعمةٌ كبرى، أنت ساكن في بيت.

مرة أخ تضجَّر أمامي فقلت له: ما الذي يزعجك ؟ قال لي: عندي ثلاثمائة دونم تفاح، وقد سعرت لي بأسعار بخسة، وقتها كان في تأمين تفاح في بعض السنوات قديماً، الأسعار قليلة، قلت: اشكر الله عزَّ وجل ذلك أن عندك شيئاً تبيعه، قلت: عندك شيئاً ـ بالنصب ـ أما إذا قلت: عندك شيءٌ تبيعه، هناك من لا يبيع شيئاً، تجد إنسان أجهزته كاملة، بيته موجود، عنده طعام يومه، زوجته أمامه، أولاده أمامه، يشكو، ممَ تشكو ؟ " إذا أصبح أحدكم آمناً في سربه، معافىً في جسمه، عنده قوت يومه فكأنما ملك الدنيا بحذافيرها ".

والله الذي لا إله إلا هو لو إنسان يملك ألف مليون دولار، وأصابه مرض عضال، يقول لك: أتمنى ألا أملك قوت يومي وأن يعافيني الله من هذا المرض.

لي صديقٌ له صديق يحمل دكتوراه من فرنسا في الأمور الفيزيائية، وتولى أعلى منصب في وزارة الصناعة، كفَّ بصره وهو في ريعان الشباب، فزاره صديقي، قال له: والله أتمنى أن أجلس على الرصيف، وأن أتكفف الناس، وأن يردَّ لي بصري.

الذي أكرمه الله عزَّ وجل بحواس خمس، أحياناً الإنسان عندما يضجر، وتضيق نفسه أقول له: أنت لست مضطر أن تغيّر صمام قلبك، ولا مضطر أن تزرع شريان قلب، ولا تزرع كلية بالهند، ولا مضطر تسافر لأمريكا من أجل خثرة في الدماغ فيها مشكلة، في كل مرض عضال يلغي الدنيا كلها، ويجعل الحياة جحيماً لا يطاق، فإذا أحدكم الله معافيه في جسمه، وعنده قوت يومه، وآمناً في سربه، وعنده أولاده وأهله فكأنما ملك الدنيا بحذافيرها

حدثني أخ عاقل قال لي: أشكو إلى أبي غلاء الأسعار، وقلة الدخول، فيقول له: يا ابني ما عندنا زلزال وهذه نعمة. أنتم ترون كيف أن الناس يشرَّدون في الصحارى، أو في الثلوج ؛ لا طعام، ولا شراب، ولا مأوى، هم وأطفالهم، وأولادهم، وشيوخهم، أنت آمن في سربك، هذه النِعَم التي لا تحصى والتي أكرمنا

الله بها في هذه البلدة، هذه نعم كبيرة ينبغي ألا ننساها. لك أن تأتي إلى المسجد وأن تستمع إلى درس علم، ولك أن تصلي، ولك أن تحضر خطبة الجمعة، ولك أن تحجِّب بناتك، هذا كله شيء ميسور لك، وهذا من نعم الله، وهذا مما تفضَّل الله به علينا في هذه البلدة الطيبة.

قال له: ننهي إلى العلوم الشريفة أن أهل الشام في هذه السنة في ضيق عيش، وضعف حالٍ بسبب قلة الأمطار، وغلاء الأسعار، وقلة الغلاَّت والنبات، وهلاك المواشي وغير ذلك، وأنتم تعلمون أنه يجب الشفقة على الرعيَّة، والسلطان، ونصيحته في مصلحته ومصلحتهم، فإن الدين النصيحة، وقد كتب خدمة الشرع الناصحون للسلطان، المحبون له كتاباً بتذكيره النظر في أحوال رعيته، والرفق بهم، وليس فيه ضرر بل هو نصيحة محضة، وشفقة تامة، وذكرى لأولي الألباب، والمسؤول من الأمير أيده الله تعالى تقديمه إلى السلطان أدام له الخيرات، وتتكلموا عليه من الإشارة بالرفق بالرعية إلى السلطان أدام الله له الخيرات، بما يجده مدخراً له عند الله، قال تعالى:

(يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ)

(سورة آل عمران: من آية " 30 ")

وهذا الكتاب الذي أرسله العلماء إلى الأمير أمانة ونصيحة للسلطان أعزه الله، وأنتم مسؤولون عن هذه الأمانة، ولا عذر لكم في التأخُّر عنها، ولا حجة لكم في التقصير فيها عند الله تعالى، وتسألون عنها..

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

أنتم بحمد الله تحبون الخير، وتحرصون عليه، وتسارعون إليه، وهذا من أهم الخيرات، وأفضل الطاعات، وقد أهّلتم له، وساقه الله إليكم وهو فضلٌ من الله، ونحن خائفون أن يزداد الأمر شدةً إن لم يحصل النظر في الرفق بهم، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (201))

(سورة الأعراف)

كأن التاريخ يعيد نفسه، قد تأتي سنواتٌ عجاف تضيق فيها الأحوال، تقل فيها الأمطار، يقل فيها النبات، تغلو فيها الأسعار.

سيدنا عمر إذا التقى بأحد ولاته، أول سؤال له: كيف الأسعار عندكم ؟.

(وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (35))

(سورة الأنبياء: من آية " 35 ")

أحياناً المسلمون يمتحنون بالغنى، والرواج، والتجارة، والدخول الكبيرة، يمتحنون فيسقطون في الامتحان، ينْسون طاعة الله، يغرقون في الملذّات، يتبعون الشهوات، ثم يمتحنون امتحاناً آخر بالضيق،

بالشدة، لو أن الأمطار انقطعت، والله لولا أن الله تداركنا برحمته، والله لكان الوضع مخيفاً في هذه البلاد، نحن أربعة أشهر ولم ينزل سوى أقل من عشرين ميليمتر، لولا أن الله أمدنا بهذه الأمطار، أي تقريباً الأمطار لا تزال مائة وعشرين ميليمتر من مائتين وعشرين، أو مائتين و أثنى عشر، فلا يزال هناك مسافة كبيرة إلى معدل الأمطار السنوي، في جفاف عام، هذا الجفاف معقول عندنا، أما إذا اشتدَّ أكثر فيكون جفاف مخيف.

قال: والجماعة الكاتبون منتظرون ثمرة هذا، مما إذا فعلتموه وجدتموه عند الله عزَّ وجل..

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128))

(سورة النحل)

فلما وصلت الورقتان إليه ـ أي إلى الأمير الخزندار ـ أوقف عليهما السلطان، فلما وقف عليهما ردَّ جواباً عنيفاً مؤْلماً، فتنكّدت خواطر الجماعة الكاتبين، فكتب رحمه الله تعالى جواباً ثالثاً، قال:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين اللهم صلِ على محمدٍ، وعلى آل محمد وسلم، من عبد الله يحيا النووي ينهي أن خَدَمَة الشرَع كانوا قد كتبوا ما بلغ السلطان، أعز الله أنصاره، فجاء الجواب بالإنكار والتهديد، وفهمنا منه أن الجهاد ذُكر في الجواب فلا خلاف على حكمه، وقد أوجب الله إيضاح الأحكام عند الحاجة فقال:

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ)

(سورة آل عمران: من آية " 187 ")

يبدو أن السلطان كان يواجه عدو التتر، وهو بحاجة ماسَّة إلى المال، فحينما جاء هذا الكتاب، رآه بعيداً عن الواقع، فكان رده عنيفاً، فقال الإمام النووي:

فوجب علينا حينئذٍ بيانه، وحرم علينا السكوت، قال تعالى:

(لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (91)

(سورة التوبة)

إخواننا... هذه الآية مهمة جداً:

(لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ)

إنسان معاشه أربع أو خمس آلاف لا يكفيه أسبوعين، هذا لا ينفِق، ضعيف، لا معه قوة، ولا معه مال، ولا معه علم، كيف يتقرب إلى الله عزَّ وجل ؟ قال: هذا الإنسان ينصح لله ولرسوله. ما قربة الضعيف إلى الله ؟ أن ينصح لله ورسوله، ما قربة الفقير إلى الله ؟ أن ينصح لله ولرسوله، فأنت بالكلمة الطيبة ترقى عند الله عزَّ وجل، إما أن ترقى بإنفاق مالك، وإما أن ترقى بإنصاف الضعيف، وإما أن ترقى بالكلمة الطيبة، فهؤلاء الضعفاء، والمرضى، والذين لا يجدون ما ينفقون مهمتهم أن ينصحوا لله

ولرسوله.

فقال الإمام النووي: إن الجهاد ليس مختصاً بالأجناد ولكن الجهاد فرض الكفاية، فإذا قرر السلطان له أجناداً مخصوصين، ولهم أخبارٌ معلومة من بيت المال كما هو الواقع، تفرَّغ باقي الرعية لمصالحهم ومصالح السلطان والأجناد، وغيرها من الزراعة والصنائع، وغيرها مما يحتاج الناس إليه، فجهاد الأجناد مقابل الأخبار الرواتب المقررة لهم، ولا محل أن يؤخذ من الرعية شيء، ما دام في بيت المال شيءٌ من نقدٍ، أو متاعٍ، أو أرضٍ، أو ضياعٍ وغير ذلك.

وهؤلاء علماء المسلمين في بلاد السلطان، أعز الله أنصاره، متفقون على هذا، وبيت المال بحمد الله معمور، زاده الله عمارةً وسعىً وخيراً وبركةً في حياة السلطان المقرونة بكمال السعادة والتوفيق والتثبيت، والظهور على أعداء الدين. وإنما يستعان في الجهاد وغيره بالافتقار إلى الله تعالى، واتباع آثار النبي، وملازمة أحكام الشرع، وجميع ما كتبناه أولاً وثانياً هو النصيحة التي نعتقدها، وندين الله بها، ونسأله الدوام عليها حتى نلقاه، والسلطان يعلم أنها نصيحةٌ له وللرعية، وليس فيها ما نُلام عليه، ولم نكتب هذا للسلطان إلا لعلمنا أنه يحب الشرع، ومتابعة أخلاق النبي في الرفق بالرعية، والشفقة عليهم، وإكرامه لآثار النبي صلى الله عليه وسلم، وكل ناصحٍ موافقٍ على هذا الذي كتبناه.

أنا عثرت على هذه الكتب الثلاثة للإمام النووي رحمه الله تعالى، أول شيءٌ يستنبط من هذه الكُتُب اهتمامه بمصالح المسلمين، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

أيها الإخوة... كتلخيصٍ لهذا الموضوع الدقيق، أولاً: مَن تصدى للدعوة إلى الله عليه أن يحمل هموم المسلمين، عليه أن يعنيه ما يعنيهم.

جاء رسول عامل سيدنا عمر على أذربيجان يحمل له هديةً ثمينة، وصل المدينة في منتصف الليل، فكره أن يطرق باب الأمير ليلاً، فذهب إلى المسجد، فإذا برجل يصلي ويقول:

ـ رب هل قبلت توبتي فأهنِّئ نفسي، أم رددتها فأعزيها ؟ قال له:

ـ من أنت يرحمك الله ؟.

ـ قال له: أنا عمر.

ـ قال له: يا سبحان الله ! ألا تنام الليل ؟.

ـ قال: إني إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي.

أخذه إلى البيت، وخيَّره بين أن يأكل عنده أو أن يأكل مع فقراء المسلمين، طبعاً على البديهة يأكل في بيت الأمير لأن الطعام أنفس ـ فقال لها:

ـ يا أم المؤمنين ماذا عندك من طعام ؟

ـ قالت: والله ما عندنا إلا خبزٌ وملح. وكان الفقراء يأكلون اللحم.

ـ قال لها: هاتيه لنا. وأكل هو وضيفه خبزاً وملحاً فقط وهو خليفة المسلمين، فلما انتهى من طعامه قال:

ـ الحمد لله الذي أطعمنا فأشبعنا، وسقانا فأروانا ؟ ثم قال له:

ـ ماذا عندك ؟

ـ قال له: جئتك من عند عاملك على أذربيجان.

ـ قال له: وماذا معك ؟

ـ قال: هديةٌ لك منه.

ـ قال له: افتحها. فتحها فإذا هو طعامٌ طيِّب، أي حلويات غالية جداً، توصاية.

ـ فقال له: هل يأكل عندكم عامة المسلمين هذا الطعام ؟

ـ قال: لا، هذا طعام الخاصة. الطبقة الغنية.

فوبَّخ الوالي توبيخاً شديداً وقال له:

ـ كل مما يأكل منه عامة المسلمين، كيف يعنيك أمرهم إن لم تأكل مما يأكلون ؟ إن لم تعان ما يعانون ؟.

فأول شيء يجب أن تحمل هم المسلمين.

الشيء الثاني: ينبغي أن تتحرك لرفع الضَيْم عنهم بالحكمة والموعظة الحسنة، أنا تجشمت أن أقرأ لكم الكتب الثلاثة لأجل أن تعرفوا كيف أن هذا العالم الجليل، الفقيه الكبير، المحدِّث، الورع، كيف خاطب أولي الأمر بمنتهى الرقة، واللطف، والذوق دون أن يقسو، دون أن يخلق فتنة، فهذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(لادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)

(سورة النحل: من آية " 125 ")

وقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف))

(من الجامع الصغير: عن " ابن عمر ")

والرقَّة مطلوبة، والحكمة مطلوبة، والكلام اللطيف مطلوب وعلى الله الباقي، فينبغي أن تحمل هم المسلمين، وأن تفعل شيئاً ما في التخفيف عنهم، بكلمةٍ، برسالةٍ، بنصيحةٍ، بموعظةٍ من دون قسوةٍ، ولا مبالغةٍ، ولا عملٍ عنيف.

والمجتمعات الإسلامية هي هي، مشكلاتها هي هي، والحاكم هو الحاكم، والعالم هو العالم، وكل شيء مسجلٌ عليك بحركتك وفق منهج الله، بنصحك، بتلطفك، بأسلوبٍ فرضه الله عليك.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (126) :أكل أموال الناس بالباطل تعد من الكبائر .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-05-07

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون:

اخترت لكم في هذا الدرس موضوعاً دقيقاً جداً، وبعضٌ من المسلمين بل معظم المسلمين لا ينتبهون إليه.

أيها الإخوة... العبادات التعاملية أساس الدين، فإن صَحَّت صحت العبادات الشعائرية، أما هؤلاء المسلمون الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، يحتالون، يغتصبون، يكذبون، يغشون هؤلاء توهَّموا أن الدين في واد، وأن الحياة في وادٍ آخر.

من أهم الموضوعات هي موضوعات الكبائر، هناك صغائر، وهناك كبائر، والكبائر تزيد عن سبعين كبيرة في إحصاء بعض العلماء، من أبرز هذه الكبائر أخذ أموال الناس بالباطل، فحينما يأكل الإنسان أموال الناس بالباطل كأنه يقيم حجاباً بينه وبين ربِّه، وكأن الطريق إلى الله ليست سالكة، عندئذٍ يصلي ولا يشعر أنه يصلي، يقرأ القرآن يرى قلبه مغلقاً، يذكر الله فلا يرتعش جلده، السبب أنه محجوبٌ بالظلم.

الآية التي هي أصلٌ في هذا الباب، هي قوله تعالى:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة البقرة: من آية " 188 ")

الأموال ينبغي أن تكون بينكم، ينبغي أن تكون متداولةً بينكم، الوضع الصحي، الوضع السليم، الحالة الطيِّبة، الحالة التي يرقى بها المجتمع، الحالة التي يرضى عنها الله عزَّ وجل، أن تكون هذه الكتلة النقدية بين أيدي الناس جميعاً، فالجميع يأكلون، ويشربون، ويسكنون، ويتزوَّجون، ويطعمون أولادهم، ويتداوَون، أما حينما تجتمع هذه الأموال في أيدٍ قليلة، وتحرم منها الكثرة الكثيرة ؛ تنشأ الجريمة، تفشو السرقات، تكثر دور الدعارة، لأن حاجة الإنسان إلى الطرف الآخر حاجة أساسية، فالجاهل يقضيها بالحرام، فإما أن يكون نكاحٌ وإلا كان السفاح.

فيا أيها الإخوة... أول نقطة في هذه الآية:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ)

يجب أن تكون هذه الأموال بينكم، متداولةً فيما بينكم، دائماً حينما تزداد الهوة بين الأغنياء والفقراء تتفجر في المجتمع مشكلاتٌ لا يعلمها إلا الله، تتفجَّر، ومتى يكون الناس بخير ؟ إذا كانوا جميعاً في بحبوحة، وحينما قال الله عزَّ وجل في سورة هود:

(إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ)

(سورة هود: من آية " 84 ")

فسر علماء القرآن هذه الآية بوفرة المواد ورخص الأسعار.

فأول نقطة: الوضع الطبيعي أن تكون هذه الكتلة النقدية متداولةً بين كل أفراد المجتمع الآن أيُّ طريقةٍ في البيع والشراء، وأية طريقة في كسب الأموال، وأية طريقةٍ في الحصول على ما في أيدي الناس مخالفةٌ لمنهج الله عزَّ وجل هي محرَّمة، يعني الأعمال تلد المال، طريق مشروع، أما إن ولد المال المال هذا هو الربا، الربا المال وحده ينمو، أما في أصل التشريع الأعمال وحدها تثمر المال.

النقطة الثانية أيها الإخوة في هذه الآية، أن الله عزَّ وجل ما قال: لا تأكلوا أموال إخوانكم، ما قال: لا تأكلوا أموال المسلمين، ما قال: لا تأكلوا أموال المؤمنين، ما قال: لا تأكلوا أموال الآخرين، بل قال:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

(سورة البقرة: من آية " 188 ")

يعني أنا ماذا فعلت لو أنني أخذت مائة ليرة من هذه الجيبة ووضعتها في هذه الجيبة ؟!! ما فعلت شيئاً، ليس هذا هو المقصود، المعنى هو أن مالك هو مال أخيك، وأن مال أخيك هو مالك، مال أخيك مالك من زاويةٍ رائعة، أي من زاويةٍ واحدة أن تحافظ عليه وكأنه مالك، إذا قلت: إن مال أخيك هو مالك، من زاوية الحفاظ عليه، كما لو أنك أعرت مركبة لإنسان يعز عليك وخفت أن يسيء استخدامها، فقلت له: اعتبرها سيارتك، إذا قلنا: مال أخيك هو مالك. بمعنى أن تجتهد في الحفاظ عليه وكأنه مالك، فلأن تمتنع عن أكله بالحرام من باب أولى.

الآن، مالك مال أخيك، كيف ؟ أي أن هذا المال الذي وهبك الله إياه ينبغي أن يُنْفَق في وجوهٍ تنفع المسلمين، أنت ما لك حر، أنا درست وجدت أن أربح شيء أعمل ملهى، هذا خطأ كبير، وقد تكون أرباحه طائلة، ولكن هذا الملهى لا ينفع المسلمين، بل يفسد أخلاق شباب المسلمين، يصرف المسلمين عن الجنة والآخرة، ويحببهم في الدنيا، يشجعهم على الحرام، وأكل المال الحرام، وشرب الخمر، فمالك مال الناس من زاويةٍ ثانية، ينبغي أن تنفقه في مصالح المسلمين، وليس لك حريةٌ أن تنفقه كما تشاء. مال أخيك مالك من زاوية أن تحافظ عليه، ومالك مال أخيك من زاوية أن تنفقه في مصالح المسلمين العامة.

يعني بشكل أو بآخر، لو معك أموال، ووجدت أن استثمارها في بلاد الغرب أعود عليك بالفائدة، أنت ماذا فعلت ؟ قوَّيت أعداء المسلمين وأضعفت المسلمين.

إذاً مالك مال أخيك من زاوية أنه ينبغي أن تنفقه ليتقوى به المسلمون، ولينتفع به المسلمون، وليعود على المسلمين بالنفع والخير، تقول لي: أنا حر، لا ليس بحر، وهذا عبَّر عنه الفقهاء بكلمة: السلوك التعسفي، أنا اشتريت مادة غذائية أساسية، ومنعت بيعها كي يرتفع ثمنها، فأنا محتكر، لو قال المحتكر: أخي هذه بضاعتي أفعل بها ما أشاء، أريد ألا أبيعها، لا، أنت بهذا تحاسب، هذا سوء استخدام هذه الحرية..

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ)

أحياناً بشكلٍ أو بآخر قد يكون القانون إلى جانبك، أكثر شيء واضح في هذا الإيجار، القانون يحمي المستأجر الذي عقده قبل عام السبعين، لكن إذا القانون يحميك، والقاضي يحكم بالقانون، فهل من الممكن تسكن في بيت ثمنه اثنا عشر مليون وبمائة ليرة في الشهر ؟ ممكن وأنت مرتاح، فهنا لو أدليت بهذه القضية إلى الحكام، وانتزعت منهم حكماً لصالحك، لا تنجو من عذاب الله، حُكم القضاة لا يغيِّر الحق، أكثر الناس يقول لك: أنا معي حكم، هذا الحكم لا ينفعك في القبر، قد ينفعك في الدنيا أما في القبر لا ينفعك ، فلو أن الحق مع خصمك، وانتزعته أنت منه بحكم قاضٍ، حكم القاضي لا يغيِّر الحق، ولا يجعل الحق باطلاً، الحق قديم، والحق مستمر، وأحكام القضاء لا تُلغي الحق، لذلك:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ)

* * * * *

والآية الثانية في هذا الباب، في كبيرة الظلم لأكل أموال الناس بالباطل هي قوله تعالى:

(إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (42))

(سورة الشورى)

فأنا أتمنى أن يكون هذا واضحاً لديكم، أنت حينما تأكل المال الحرام، والحقيقة أن تسرق المال هذه حالة نادرة جداً، ولا يفعل هذا إلا فئة قليلة جداً من أغبياء المجتمع، أما هناك ألف طريق لأكل أموال الناس بالباطل وهم لا يشعرون، ألف طريق، والله مائة ألف طريق، مليون طريق تأكل أموال الناس بالباطل وهم لا يشعرون، أصحاب المهن الراقية مَن يحاسبهم ؟ لو قال لك الطبيب: أريد اثنا عشرة تحليل، وأنت لا تحتاجها إطلاقاً مَن يستطيع أن يناقشه ؟ لو قال لك الطبيب: تحتاج إلى تخطيط، وأنت لا تحتاج إليه، مَن يحاسبه ؟ لو قال لك المحامي: أنا أضمن لك نجاح هذه الدعوى، وهو موقنٌ أنها لا تنجح، ومعه ثماني سنوات وقد يأخذ منك أموالاً طائلة، ويستغل حرصك على الكيد لخصمك، المدرس قد يقول لأبٍ أحد طلاَّبه: لو أعطيته دروساً خاصة سينجح، وهو موقن أنه لن ينجح.

أصحاب المهن الراقية التي تعتمد على اختصاص، هؤلاء معظم الناس لا يستطيعون أن يناقشوهم، لو قال الطبيب الجراح: تحتاج إلى عملية لاستئصال هذا الورم، والورم منتشر في كل الأحشاء، والأمل صفر، لكن يفتح البطن، ويزيل بعض هذا الورم ويأخذ مبلغاً طائلاً، وكذلك التجار، وهناك آلاف الطريق لكسب أموال الناس بالباطل.

يكفي أن تغير مصدر البضاعة، هي من صنع بلد شرقي، تبيعها على أنها من صنع بلد غربي. مرة رأيت تاجر اشترى حاشية (made in franc) بالمكواة تنطبع على حاشية الثوب هذه الكلمة، فصار القماش فرنسي، أربع أضعاف القماش الذي يصنع في دولة شرقية، هذا أكل أموال الناس بالباطل، أنواع الغش لا يعلمها إلا الله، الغش في البضاعة، الغش في نوعية البضاعة، الغش في طريقة عرض البضاعة. على كلٍ أنواع الغش لا يعلمها إلا الله، هذا من أكل أموال الناس بالباطل.

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((الظلم ظلماتٌ يوم القيامة))

(من الجامع الصغير: عن " ابن عمر ")

ورد في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى على السرير تمرة ـ وهو سيد الخلق وحبيب الحق ـ قال:

((يا عائشة لولا أنني أخشى أن تكون من تمر الصدقة لأكلتها))

هذا هو الورع، وركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعة من مخلّط. مثلاً: ممكن نشتري مواد أولية منته مفعولها، ونستخدمها في صناعة غذائية، ولا أحد يعلم إلا الله، ونربح أموالاً طائلة، لكن الله بالمرصاد.

حدثني أخ، توفي رحمه الله، يعمل في إصلاح السيارات، له جار جاءه شخص يركب مركبة حديثة جداً فيها خلل، وهو جاهل وحريص على سلامتها، فأدرك الشخص أنه إنسان حريص على سلامة هذه المركبة وهو لا يفقه شيئاً في أمور هذه المركبة، القضية تحتاج إلى ربع ساعة، فسمَّى له أسماء، وأعطى له أوصاف، وأعطاه طرائق لإصلاحها، وقال له: تكلف عشرة آلاف. فقال له: موافق. يقول لي هذا القريب رحمه الله: اتصل بأهله على البيت، وقال لهم: جهزوا حالكم سنذهب إلى الزبداني، سيارة حديثة جداً، فأخذهم أول نزهة، ثاني يوم على طريق المطار، ثالث يوم على وادي بردى، ثلاثة أيام ركبها واستمتع بها، وأصلحها بعشرة دقائق، وأخذ عشرة آلاف ليرة، يقول له هذا الأخ الكريم: معقول ذلك !! ألا تخاف الله ؟ قال له: هكذا العمل، هذه شطارة، جاهل.

له ابن يعمل في مخرطة، تدخل نثرة من البولاد بعينه، يأخذه إلى لبنان للجامعة الأمريكية، نزع هذه النثرة من قرنيته كلّفته ستة عشر ألف ليرة لبناني، قبل سنة الخمسة وسبعين، كانت الليرة تساوي مائة

وستين ليرة، كلفته خمسة وعشرين ألف. قال له: يا رب لقد عصيتك ولم تعاقبني، قال له: عبدي قد عاقبتك ولم تدرِ.

فأكل أموال الناس بالباطل مخيف، أما حينما تأكل المال الحلال، حينما تكون صادقاً، حينما لا تغش المسلمين، حينما تنصحهم، حينما ترحمهم بأسعارك، حينما تطعمهم بضاعةً جيدة تأكلها أنت، عندئذٍ يبارك الله لك في مالك، مالٌ قليل له نفعٌ كبير، وبالعكس، قد يكون المال كثير ليس فيه بركة، يذهب بطرقٍ شتى لا ترضي صاحبها.

((الظلم ظلماتٌ يوم القيامة))

(من الجامع الصغير: عن " ابن عمر ")

وقال عليه الصلاة والسلام:

((من أخذ شبراً من الأرض طوقه إلى سبع أرضين يوم القيامة))

(من الأذكار النووية)

شبر، والله أعرف شخص عنده أرض بسهل مضايا، جاره أخذ منه ثلاثمائة وثلاثين متر. شبر، الشبر طوقه إلى سبع أرضين يوم القيامة. مثلاً:

((دخلت امرأةٌ النار في هرة ربطتها ـ هرة ـ لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض))

(من الجامع الصغير: عن " أبي هريرة ")

فما قولك فيما فوق الهرة ؟ بالدنيا هناك حل لكل مشكلة، أما يوم القيامة لا يوجد حل، عندئذٍ يطوَّق به، والله في نصوص والله ينخلع لها القلب، إنسان قدم دفع مائة ألف، إنسان آخر دفع مليون، إنسان آخر دفع خمس ملايين لوجه الله، إنسان دفع مائة مليون، سمعت إنسان له ثلاثين محل في المدينة المنوَّرة، ولما وسعوا الحرم نُظِّمَت هذه المحلات واستملكت، وقرر له ثلاثمائة مليون ريال، أي أربعة آلاف مليون ليرة سوري، أبا أن يأخذها وقدَّمها لوجه الله، إنسان دفع مليون، خمس ملايين، مائة مليون، إنسان دفع ثلاثمائة مليون ريال، أي أربعة آلاف مليون ليرة، وإنسان قدَّم روحه في سبيل الله، من أعظم هؤلاء تضحية ؟ الشهيد، لأن إنفاق المال سهل، أما أن تضحِّي بحياتك، أن تضع روحك على كفك، هذا الشيء لا يقدَّر بثمن، ومع ذلك:

((يغفر للشهيد كل ذنبٍ إلا الدين))

(من الجامع الصغير: عن " ابن عمر ")

فهو ماذا فعل ؟ قدم حياته، قدم روحه، قدم أثمن ما يملك ولم ينجو من موضوع الدين.. قال صلى الله عليه وسلم:

ـ أعليه دين ؟

ـ قالوا: نعم.

ـ قال: صلوا على صاحبكم.

ـ فقال أحدهم: عليَّ دينه. فصلى عليه النبي.

ـ سأله: أأديت الدين ؟

ـ قال: لا.

ـ سأله مرةً ثانية: أأديت الدين ؟

ـ قال: لا.

ـ سأله ثالثة: أأديت الدين ؟

ـ قال: نعم.

ـ قال: الآن ابترد جلده ؟.

إخواننا الكرام... الذنوب ثلاثة: ذنبٌ لا يغفر وهو الشرك، وذنبٌ لا يترك وهو ظلم العباد بعضهم بعضاً، وذنبٌ يغفر ما كان بينك وبين الله. انتبه لحقوق العباد.

والله مرة أخ ـ في أوائل الدعوة في هذا المسجد من حوالي خمسة وعشرين سنة ـ أخ من إخواننا الآن لا أراه والله من زمن، قال لي: أخي كان ناظر وصي، في ثمانية آلاف ليرة كانت في ذمته وعليه أن يؤديها بعمل الخير، فلم يؤدها وصرفها، ووافته المنية، قال لي: والله رأيته يحترق في المنام ويقول: يا أخي الثمانية آلاف ـ وهو في المنام ـ وأخوه الله يجزيه الخير دفعها عنه، وفي أخ بحاجة إلى عمار غرفة ـ قصة قديمة كثير ـ عنده شباب وشابات وبغرفة واحدة يناموا، فالله ألهمني أن أقول له: أعطي هذا المبلغ لهذا الإنسان ليعمر غرفة ثانية لأولاده، قال له: ثمانية آلاف حرقوني.

فقضية حقوق العباد، لا صلاتك، ولا صيامك، ولا حجك تعدل عند الله جناح بعوضة إن أكلت أموال الناس بالباطل، فعظمة المؤمن نزاهته، يخاف الله عزَّ وجل، يخاف أن يأكل درهماً من حرام. فحقوق العباد مبنيةٌ على المُشاححة، وحقوق الله مبنيةٌ على المسامحة.

يقول عليه الصلاة والسلام:

((مطل الغني ظلمٌ))

(من كنز العمال: عن " ابن عمر ")

والله أعرف شخص يمكن معه قريب ألفين مليون، عليه أربعين ألف، يأتيه من يطالبه فيقول له: ثاني خميس، صار له سنتان، ثاني خميس، شيء عجيب !! ومعه أموال طائلة، وذمة ثابتة ولا يدفع، قال هذا هو:

((مطل الغني ظلمٌ يحل عرضه))

(من كنز العمال: عن " ابن عمر ")

أي لو تكلمت عنه لا تؤاخذ، لو قلت: سلعة، ما في مشكلة..

((مطل الغني ظلمٌ يحل عرضه))

(من كنز العمال: عن " ابن عمر ")

ومن أكبر الظلم اليمين الفاجرة، هذه اليمين الفاجرة اليمين الغموس، هذه اليمين لا كفَّارة لها، لأنها تخرج الإنسان من دينه، فإذا قال لك الطبيب: ليس له دواء يأكل ما يشاء، معنى هذا أنه منته، أما إذا في أمل بالشفاء، في تشدد كبير جداً، اليمين الغموس لا كفارة لها لأنها تغمس صاحبها في النار، ولأنها تخرج الإنسان من إسلامه، وبعد اليمين الغموس ينبغي أن يجدد إسلامه، وأن يعلن الشهادة، قال عليه الصلاة والسلام:

((من اقتطع حق امرئٍ مسلمٍ بيمينه فقد أوجب الله له النار))

(من رياض الصالحين: عن " أبي أمامة ")

قال له: تحلف، قال له: جاء الفرج أحلف. الكذاب إن دعوته لحلف اليمين يفرح. والله قال لي شخص: أتينا بشاهد زور لقضية فطلب خمسة آلاف، يبدو أنه يشهد أول مرة شهادة زور، دخل إلى المحكمة فوجد مصحف ويمين، فقال له: أريد عشرة، في يمين لا توفي معنا. فقال عليه الصلاة والسلام:

((من اقتطع حق امرئٍ مسلمٍ بيمينه فقد أوجب الله له النار))

(من رياض الصالحين: عن " أبي أمامة ")

والله في هذه البلدة الطيبة إخوة كُثُر لا يحلفون يميناً ولو كانوا على حق، من شدة ورعهم. قيل: يا رسول الله وإن كان شيئاً يسيراً ؟ قال:

((وإن كان قضيباً من أراك))

هذا الحديث رواه مسلم، وكل إنسان لا يصدق النبي كافر، ولكن يقول سيدنا سعد بن أبي وقاص:

((ثلاثة أنا فيهن رجل وفيما سوى ذلك فأنا واحدٌ من الناس، ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حقٌ من الله تعالى "))

يقول النبي الكريم:

((وإن كان قضيباً من أراك))

لو حلفت يميناً على عود أراك ولم تكن محقاً يقول:

((أوجب الله له النار))

((رواه الإمام مسلم))

أين المسلمين ؟ في حوالي خمسة وثلاثين ألف دعوى في قصر العدل، بيوت تغتصب، أموال تغتصب، شركات تغتصب، أرباح طائلة بغير حق، كلها من طريق غير مشروع، إنسان يحتال عليه، يبتز ماله،

كأن الله تخلى عن المسلمين، تخلى عنهم من سوء فهمهم لهذا الدين، فهموه عباداتٍ شعائريَّة، هو والله في الأساس عبادات تعاملية.

بهذه المناسبة الحديث الأول في هذا الموضوع، النبي عليه الصلاة والسلام سأل بعض أصحابه فقال:

ـ أتدرون من المفلس ؟

ـ قالوا: المفلس من لا درهم له ولا متاع.

ـ قال

((لا، المفلس من أتى بصلاةٍ، وصيامٍ، وصدقةٍ وقد أكل مال هذا، وشتم هذا، وضرب هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته طرحوا عليه سيئاتهم حتى يطرح في النار))

(من تخريج أحاديث الإحياء)

العبرة أن تتقي المحارم، العبرة أن تتقي أكل أموال الناس بالباطل، العبرة أن تكون نزيهاً، أن تكون ورعاً، وركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعةٍ من مخلط.

أحياناً تجد بائع قماش، إن اشترى قماش، كيف يكيل القماش ؟ تجد القماش عامل خط منحني تحت، يرخي، إذا باع قماش يشده، يكاد يتمزق القماش، بالبيع يشد، بالشراء يرخي، هذا أكل أموال الناس بالباطل. قل لواحد عنده غرفة نوم تختين ، قل له: أريد تخت واحد فيقول لك: أخصم لك ألف ليرة، ادخل لمحل ثاني عنده غرفة بتخت، قل له بتختين. يقول: خمسين ألف، أو ثلاثين ألف، لماذا بالخصم ألفين وبالإضافة ثلاثة ؟ ما في عدل أبداً، حتى بالقياسات، حتى بالمساحات في تزوير.

هذه النقطة دقيقة جداً أعيده ثانية الحديث رواه الإمام مسلم:

((من اقتطع حق امرئٍ مسلمٍ بيمينه فقد أوجب الله له النار، قيل: يا رسول الله وإن كان شيئاً يسيراً ؟ قال: وإن كان قضيباً من أراك "))

لكن هناك نقطة، ألف الناس أنه من يحلف يميناً غموساً ليقتطع به حق مسلم يعجل له الله العقاب، أناسٌ كثيرون يموتون فجأةً، وأحياناً يمدُّ الله لهم مدة على الرغم من يمينهم الغموس، هذه القضية تحلها آيتان، الآية الأولى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69))

(سورة النمل)

(فـاء) للترتيب على التعقيب، والآية الثانية:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11))

(سورة الأنعام)

على التراخي، فقد تقتضي حكمة الله عزَّ وجل أن يقسمه فوراً، وقد تقتضي حكمة الله عزَّ وجل أن يعطيه مهلةً لعلمه به، على كلٍ لابدَّ من عقاب.

وقال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم:

((من استعملناه على عملٍ فكتمنا مخيطاً فما فوقه كان غلولاً يأتي به يوم القيامة))

إذا لك عمل، أدوات العمل ليست لك، أما أن تستخدمها بحريةٍ كبيرة، أو أن تأخذها دون أن تعلم صاحب العمل، هذا اسمه في الدين غلول.

وقال عليه الصلاة والسلام:

((إن الشملة التي غلها ـ أحد المقاتلين شملة، رداء أخذها ولم يدخلها في الغنائم، كانت غلولا ـ كانت عليه غلولاً، فقام رجلٌ فجاء بشراكٍ كان قد أخذه لم تصبه المقاسم فقال: شراكٌ من نار))

أي حذاء، ما الذي يحصل ؟ يموت الأب فيأتي الأخ الأكبر يأخذ أثمن سجادة، هذه من رائحة أبي، والثاني أخذ ساعة، بحسب قوة الأولاد، كل ولد قوي يأخذ أفضل ما في التركة، والضعاف يأكلون الفتات، وكذلك بدعوى أن هذه من رائحة أبيه، كذلك دعوى فيها كذب.

أحد الأصحاب الكرام سأل النبي عليه الصلاة والسلام قال: يا رسول الله إن قتلت صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبرٍ أتكفر عني خطاياي ؟ قال:

((نعم إلا الدَّين))

(رواه مسلم)

وقال عليه الصلاة والسلام:

((إن رجالاً يتخوَّضون في مال الله بغير حقٍ فلهم النار يوم القيامة))

(رواه البخاري)

طبعاً هذه الأحاديث كلها صحيحة، وهذه الأحاديث كلها من عند النبي عليه الصلاة والسلام الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيٌ يوحى. وأبرز علامة للمؤمن ورعه، أبرز علامة للمؤمن نزاهته، أبرز علامة للمؤمن خوفه من المال الحرام.

واللهِ التقيت مع إنسان، توفي رحمه الله، وهو والد صديقي، زرته في العيد فقال لي: أنا عمري ستة وتسعين سنة، قال لي: عملنا من جمعة تحليل كامل ظهر كله طبيعي. والله ستة وتسعين سنة تحليل دم وبول كامل وكله طبيعي، قال لي: والله ما أكلت ولا قرش حرام طوال حياتي، ولا أعرف الحرام بالمعنى الثاني، مَن عاش تقياً عاش قوياً، يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً.

وعن جابرٍ رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لكعب بن عُجْرَةَ:

((يا كعبُ لا يدخل الجنة لحمٌ نبت من سحتٍ فالنار أولى به))

هذا صحيحٌ على شرط الشيخين.

هذا الحديث يعني أن الإنسان إذا أكل طعاماً من مالٍ حرام، فكأن هذا الطعام أنبت له لحماً من حرام، فالنار أولى به.

والله يا إخوان الآن شيء عجيب، لا أحد يسأل، يريد مالاً من طريق مشروع، غير مشروع، بحق، بباطل، مع الكذب، مع الضغط، مع المخادعة، مع الكذب، فقط يريد المال.

آخر حديثٍ، يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا يدخل الجنة جسدٌ غذي بالحرام))

لذلك الزوجة في عهد الصحابة الكرام كانت تقف على الباب قبل أن تودع زوجها تقول له: يا فلان، اتق الله بنا نحن بك ؛ إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا، نصبر على الجوع ولا نصبر على الحرام.

الزوجة المعاصرة لا تزال تضغط وتضغط إلى أن تحمل زوجها على أكل المال الحرام. وأنا أنصح كل أخٍ مؤمن، تلقّى ضغوط كبيرة من زوجته ليغير البيت، ليغير أثاث البيت، ولم تعبأ أن دخله هكذا لا يسمح له بما تطلب، ولو أكل المال الحرام ما في عندها مانع، أنصح مثل هذا الأخ أن يقول لها: يا فلانة، إن في الجنة من الحور العين ما لو أطلّت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بكِ من أجلهن، أفضل من أن أضحي بهن من أجلكِ.

المؤمن عنده حزم، لا تكلّف إلا أن تطعمها مما تأكل، وأن تلبسها مما تلبس، أما أن تأكل المال الحرام كي ترضى عنك، هذا شرك والله، أما أن يأكل إنسان ما لذ وطاب في الأسواق والمطاعم، ويأتي بأهله بطعام خشن، هذا والله ليس مؤمناً. دخلك محدود لا يوجد مانع، كل مما يأكلون، تطعمهم مما تأكل، وتأكل مما يأكلون فقط ولا شيء عليك، ونحن كل مشكلات الناس من الرفاه، أما:

((إذا أصبح أحدكم آمناً في سربه، معافىً في جسمه عنده قوت يومه))

والله إخوان كثيرون بتجارات واسعة غير مدروسة، جاءتهم هموم لا يعلمها إلا الله. يقول لي أحدهم: والله أتمنى أن آكل أخشن طعام دون أن أقع في هذه المشكلة، أن تعمل بأموال الناس، تجارة فيها مغامرة، فيها مخاطر. ورد في بعض الأحاديث أن

((الاقتصاد في المعيشة خيرٌ من بعض التجارة))

تجارة محرمة، أو تجارة فيها مغامرة كبيرة جداً، أو تجارة لا تنام الليل، أو تجارة إذا انكشفت تسبب لك كذا سنة سجن، أو في كذا مليون غرامة، هذه ليست تجارة، هذا شيء مقلق، فعلى كلٍ تقصَّى المال الحلال.

بالمناسبة أيها الإخوة تسعة وتسعون بالمائة من معاصي الناس في موضوعين اثنين المال والمرأة، تسعة وتسعين، فإذا الإنسان حصَّن نفسه من أن يأكل مالاً حراماً، وحصن نفسه من علاقة، أو من

نظرة، أو من حديث مع امرأةٍ لا تحل له فقد نجا، وأكبر رجل يسقط بإحدى هذين الموضوعين، إذا أردنا أن نحطم إنسان في عندنا فضيحتين ؛ ملف مالي، ملف جنسي، ينتهي الإنسان، بأحد الملفين ينتهي، فالمؤمن لماذا يرفع رأسه دائماً ؟ لماذا هو شامخ شموخ الإيمان، شموخ العفَّة، شموخ الاستقامة، لا يجرؤ أحد أن يقول له كلمة ؟ لأنه نزيه.

بالمناسبة سأضيف شيء ثالث، ليس فقط نزيه بل حريص على سمعته، فالنبي ماشي مع زوجته السيدة صفية، مرَّا صحابيان فقال:

((على رسليكما هذه زوجتي صفيَّة))

(من تخريج أحاديث الإحياء)

فالمؤمن حريص، لو أن الله يعلم ذلك بيِّن، وضِّح، كل شيء بحسابه، كل شيء مع التوضيح، كل شيء مع التبيين، وعندئذٍ تنام قرير العين، والسعادة النفسية أيها الإخوة الناتجة من استقامة الإنسان لا تقدر بثمن، يمكن أكبر سعادة أن تكون عند الله بريئاً وعند الناس محموداً، ومن أسماء النبي أنه محمود، قال بعض العلماء: محمودٌ عند الله، ومحمودٌ عند الناس، ومحمودٌ عند نفسه، وكلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرب أجلاً، والله عزَّ وجل ضمن لك رزقاً حلال.

أنا أضرب مثل أخير، مثل أعيده كثيراً، في أحد بساتين في الزبداني، في الشجرة العاشرة، الغصن الرابع، التفاحة الثامنة هذه لفلان منذ أن نبتت، وتكوَّنت، ونضجت هي لفلان، فلان مخير ؛ إما أن يسرقها، وإما أن يتسوَّلها، وإما أن يأكلها حراماً، وإما أن يأكلها بماله، وإما أن يأكلها ضيافة، وإما أن يأكلها هديةً، وهي له، الطرائق تختلف أما هي لك، فـ:

((إن روح القدس نفثت في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله عباد الله، وأجملوا في الطلب، واستجملوا مهنكم))

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (127) :التربية الجنسية للأولاد .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-10-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:
إتماماً لموضوع الدرس الماضي حول مؤتمر المرأة الذي عقد في القاهرة، ومؤتمر السكان والتنمية، الذي عقد في بكين، وحول المقررات التي توصل إلية المؤتمرون في تبديلٍ جذري للقيم الدينية التي هم عليها المؤمنون والمسلمون، المؤمنون بشكل عام، والمسلمون بشكل خاص وكيف أن هذه المؤتمرات تريد أن تجعل الزواج في دائرة واسعة جداً تنكره الأديان السماوية كلها، فالزواج عقد بين شخصين، وهناك فرق بين الزواج والإنجاب والجنس، وهناك ممارسات لجنس في بيوت الأباء والأمهات وتحت سمعهم وبصرهم، وهناك إجهاض آمن إلى ما هنالك من أشياء يندى لها الجبين وتتقزز منها النفس، إلا أن البديل ما هو.
أيها الأخوة:
شئنا أم أبينا نحن في عصر فساد عريض، قال عليه الصلاة والسلام:

((أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع أولها آخرها.))

(رواه أحمد) (عن أبي مويهبة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم)

وقال عليه الصلاة والسلام: اشتقت لأحبابي، فيما معناه، قالوا أو أولسنا أحبابك ؟ قال لا أنتم أصحابي، أحبابي أناس يأتون في آخر الزمان القابض منهم على دينه كالقابض على الجمر، أجرهم كأجر سبعين، قالوا منا أم منهم، قال: بل منكم، لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون.
وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح:

((عبادة في الهرج والفتنة كهجرة إلي.))

[أخرجه الطبراني - عن معقل بن يسار]

يعني تقريباً للتوضيح والتقريب الفساد كان قبل خمسين سنة في أي مدينة إسلامية في بؤر محدودة جداً، ما في مدينة ما فيها مركز مدينة بعض دور السينما، وبعض المسارح الهابطة، هنا الفساد، بينما معظم المدينة بيوتات منضبطة، جوامع مساجد، دروس علم، عادات إسلامية تقاليد إسلامية، حياء، خجل، مروءة، الخ...
المشكلة الآن الفساد في أن كل بيت، في الطريق، أينما التفت في فساد، إن اشتريت مجلة لتقرأها فيها فساد، جريدة فيها صورة، الشاشة مبنية على الفساد، الفضائيات الفساد حدث ولا حرج، وفي كل بيت ما

كان في بؤر محدودة جداً أصبح في كل بيت، وهذا الشيء صار وسيلة تغذية للمسلمين.
بمثل بسيط جداً ضربته لكم كثيراً هذا وعاء الماء المشهور البراد له فتحة علوية، وله صنبور سفلي، فالشيء الذي تضعه في فتحته العلوية تأخذ من الصنبور السفلي، إن وضعت ماءً تأخذ ماءً، إن وضعت ماءً طاهراً تأخذ ماءً طاهراً، إن وضعت ماءً آسناً تأخذ ماءً آسناً.
فهذا الإنسان، هذا الشاب ما الذي يهزج، كما قلت في الخطبة يغذيه أخبار الساقطين والساقطات، الأحياء منهم والأموات، بماذا يعتز بلاعب كرة، وقد يكون شاذاً جنسياً، وقد يحمل مرض الإيدز، بماذا يعتز بالمغني الفلاني، بالمغنية الفلانية، هؤلاء نجوم المجتمع، أخبارهم وانحرافاتهم، وسقوطهم، وزواجهم، وحماقاتهم، وانحلالهم، هو الذي يتغذى به شبابنا.
في مثل كنا أضربه سابقاً أن حدائق الحيوان فيما مضى التقليدية الوحوش في أقفاص، والزوار طلقاء، حدائق الحيوان الحديثة بإفريقيا الوحوش طلقاء والوحوش في حصون، في سيارات كلها مصفحة.
فنحن الآن وضعنا ابنك كيف ما تحرك سيشاهد تفلت، انحراف تقصير، عورات مكشوفة، نساء كاسيات عاريات، دور سينما، دور لهو مغنيات، راقصات، الخ...
فكأن الوحوش متفلتة، الآن حاجة ابنك للتربية، أنا والله لا أبالغ تكاد تصل إلى ألف ضعف عن حاجته قبل خمسين عام، أين ما تحركت.
قرأت قصة من أيام عن إنسان جاسوس للموساد الإسرائيلي أنه جاسوس لإف ب آي الأمريكي، قبض عليه بأفغانستان وسيعدم، أول قصته شاب من أسرة ملتزمة، أراد أبوه أن يكون طالب علم شرعي، صاحب صديق، أطلعه على فلم منحرف، ما رآه في الفلم مارسه بالفعل، ثم ألف الشذوذ سبعة أشهر، ثم أغري أن يكون عميلاً لجهات استعمارية وصهيونية، وضبط في أفغانستان يقدم معلومات، كي يجهز على المجاهدين، وانتهت محكمته بإعدامه، هذا الإعدام أساسه.
فيا أيها الأخوة:
الذي أقوله لكم في هذا الدرس خطير جداً، الآن أنا لا أبالغ ما من عمل أخطر على الإطلاق من تربية الأولاد، على الإطلاق، لأنه أي أب إن رأى ابنه منحرفاً سوف يشعر بضيق في نفسه لو وزع على أهل بلد لكفاهم.
قلت مرة في أمريكة: لو أنك تملك منصباً إدارياً ككلينتون، وثروة كأوناسيس، ومرتبة علمية كآنشتاين، هؤلاء أقطاب التفوق واحد حاكم العالم تقريباً، وواحد أكبر غني بالعالم، واحد أعلى شهادة علمية بالعالم أو مخترع أنشتاين، ولم يكون ابنك كما تتمنى فأنت أشقى الناس.
وبالمقابل والله هناك أباء ربوا أولادهم تربية إسلامية صحيحة والله هناك سعادة تملأ قلوبهم لو وزعت على أهل بلد لكفتهم، لذلك نحن يجب أن تخصص وقتاً من زبدة وقتك لتربية أولادك، ما يعلن في

المؤتمرات عن الشذوذ، وعن التفلت، وعن الممارسات غير الشرعية، وهذه المؤتمرات استبعدت كل القيم الدينية استبعاداً كلياً، حتى القيم الاجتماعية وتحت شعارات براقة، التنمية، والسكان، وحقوق المرأة، ومكافحة التميز ضد المرأة، الخ...

يعني أنا في هذا الدرس أبحث معكم كيف نربي أولادنا تربية جنسية، أنا من قبل درست موضوع تربية الأولاد في الإسلام بشكل مسهم ومفصل، وفي ثلاثين درساً بفضل الله عز وجل، وقد قسمت هذه الدروس بين التربية الإيمانية، والتربية الأخلاقية، والتربية العلمية والتربية الاجتماعية، والتربية النفسية، والتربية الجسمية، والتربية الجنسية.

أولاً: الشيء الذي يلفت النظر الطفل ينشأ إنساناً عادياً لا يميز بين عضو وعضو، ولا بين جهازٍ وجهاز، هو يحب أن يتعرف على كل شيء حوله، ويلمس كل شيء، ويعبث بكل شيء، ويستعمل حواسه في معرفة كل شيء، وضع طبيعي جداً، فلو أن ابناً سأل أباه عن أحد أعضاءه، والأب كان عقلية قديمة وعقلية متحجرة، اسكت حرام، عيب أنت بهذه الكلمات لفت نظره، وصار يركز تركيز غير معقول على هذه الأشياء.

حدثني أخ، قال لي كنت صغيراً وسألت والدي هذه الأسئلة فجاء بزهرة وأطلعني على زهرة كيف أن بعض الأزهار فيها عضو مذكر وبعض الأزهار فيها عضو مؤنث، وكيف يتم التلاقح وكيف تأتي زهرة جميلة وجديدة، ببساطة عفوية، من دون تشنج، من دون ما أن تضربه وتقول له عيب ما بتستحي تسأل هذا السؤال، الطفل بريء الطفل يحب أن يعرف كل شيء، وأن يسأل عن كل شيء، وأن يلمس كل شيء، وأن يعبث بكل شيء، فإذا سال أبوه عن شيء من أعضاءه الجنسية ينبغي أن يكون جوابه هادئ جداً، طبيعي، من دون تشنج، من أن تصيح به، من دون أن تضربه، إنك إن غضبت من هذا السؤال صار تركيزه على هذا الشيء غير طبيعياً، هذه أول نقطة.

وممكن يكون التفسير بسيط، تفسير لطيف، تفسير يتناسب مع الجمال، أن شوف الزهرة يا بني، هذه الزهرة هون في أعضاء مذكرة وهون في أعضاء مؤنثة، يصبح في تلاقح، بينشأ زهرة جديدة جميلة كذلك الحيوان هكذا، الغنمة، والشاة، وكيف تحمل الشاة، والإنسان كذلك يا بني، من دون تفاصيل، لكن هدوءك وراحتك وبيانك وهذا التفصيل اللطيف ريح الطفل، صار شيء طبيعي.

في شيء آخر:

أحياناً الأب والأم يسمون هذه الأعضاء بأسماء لطيفة بعيدة عن أسماء المبتذلة السوقية التي يسمعها الطفل في الطريق، أسماء لطيفة مثلاً قد يسأل الطفل أن ليش الماما لها ثدي والبابا ما له ثدي فرضاً، لأن الماما ترضع، ترضع ابنها، هذا مكان الحليب، والله في حكمة والله يشهد ما أحد ينتبه لها، أن هذا عضو الجنس هو عضو لإفراز البول، شوف الطفل يفهمه فهم آخر، لا يفهمه فهم جنس فهم بسيط، كما

أن الثدي من أجل إطعام الطفل الحليب، فممكن يكون بسيط، وأنت هادئ مرتاح، لا أن تصيح به، وأن تضربه، وان تقول عيب ما بتستحي هذا كله يتنافى مع التربية الصحيحة، ما في داعي يكون في تفاصيل ممكن أن تجيب ابنك إجابة هادئة لطيفة معبرةً في تمثيل، فيها أزهار، حيوانات، والإنسان كذلك يا بني، من أين جئت يا بابا، وجدناك في الطريق، ليست صحيحة هذه، أخذناك من النهر، ليست صحيحة، من السماء نزلت ليست صحيحة، لبثت في بطن أمك أشهر عديدة، ثم نزلت، كمان خليك واقعي أنا أريد أن أقدم في هذا الدرس كيف الأب يربي ابنه التربية الهادئة الصحيحة، حتى الابن لا يتشنج، ولا يركز تركيز غير مقول.

الآن يقول لك لا حياء في الدين، أنا أقول العكس الدين كله حياء والحياء من الإيمان، الآن انظر إلى الله عز وجل يعبر عن العلاقة الجنسية، قال:

(وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا)

(سورة المائدة: 6)

في كلمة جنباً، لو سأل ابن ما معنى جنب بابا، الآن أقول لكم ما معنى جنب.

(أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ)

(سورة البقرة: 187)

هذه الثانية:

(وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ)

(سورة الأحزاب: 35)

(وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ)

(سورة البقرة: 237)

(فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً)

(سورة الأعراف: 189)

(أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً)

(سورة النساء: 43)

كله حياء الدين، هل هناك كلمات ألطف من هذه الكلمات، هل هناك من كلمات الطفل لا يخدش حياءه بها، أما قد تجد في كتب الفقه كلمات مكشوفة، كلمات غير معقولة إطلاقاً، كل هذا تحت قولهم لا حياء في الدين، الحياء من الإيمان، والله المؤمن يمكن أن يعبر عن أدق الأشياء بألطف الكلمات، ألك بي حاجة، يقول لا، تذهب وتصلي، ألك بي حاجة، يعني أذكر أنا أقوال الصحابة عن قضية اللقاء الزوجي بعبارات لطيفة جداً، مهذبة جداً، يعني فيها إشارات من دون إحراج، من دون خدش حياء، من دون استخدام كلمات سوقية.

يقول أحد الأخوة الكرام: أنه أنا كنت أقرأ القرآن في رمضان ووصلت إلى قوله تعالى

((أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم))

سألت أبي ما معنى الرفث إلى نسائكم ؟ قال لي أبي عندما ننتهي من القراءة سوف أحدثك عن هذا الموضوع، وحدثني، وقال لي بدأ بالنباتات ثم حدثني عن الحيوانات، ثم بالحديث عن الإنسان، وقال الإنسان لا يختلف عن الكائنات الأخرى في هذا الموضوع، في جنس مذكر، وجنس مؤنث لا بد من لقاء، والجنين نتيجة هذا اللقاء يحتضن برحم الأم ثم يخرج هيك ببساطة.

والحقيقة مادة التربية الدينية يجب أن تكون المناسبة المهمة في توضيح هذه الأشياء للأطفال توضيح واضح، يعني مثلاً لو أن الأستاذ قال يا ابني إذا واحد استيقظ صباحاً وجد ثيابه الداخلية مبللة معناه في مادة خرجت منه تقتضي أن يغتسل، بهذه البساطة، تقول الأم لابنتها يعني إذا كان استيقظت البنت في يوم من الأيام في بألبستها الداخلية دم معناها بلغت سن الرشد، معناه وصلت إلى سن النضج، تحتاج أيضاً إلى أن تعتزل أو إلى أن تغتسل، الخ..

فالأم يجب أن توضح لابنتها هذه الحقائق، والأستاذ في المدرسة وفي رأي الأب يبلغ ابنه، والأم تبلغ ابنتها، وفي رأي ثاني الأم تبلغ ابنها وبنتها، يعني لابد من أن هذا الطفل لا يبق في تعتيم على الموضوع دائماً إذا في تعتيم على الموضوع صار في مجال إلى تفسيرات شاذة منحرفة.

على كلٍ الخجل مرض، والحياء فضيلة، أن تستحي أن تذكر أشياء أساسية في حياة الإنسان أن تستحي هذا خجل مرضي، أما يجب أن تستحي من معصية تقترفها، لا ينبغي أن تستحي من سؤال توضيحي.

تصور النبي عليه الصلاة والسلام، تسأله امرأة أنصارية عن غسل المحيض، فقال عليه الصلاة والسلام:

((تأخذ إحداكن ماءها وسدرها فتطهر فتحسن الطهور ثم تصب على رأسها فتدلكه دلكا شديدا حتى يبلغ شؤون رأسها، ثم تصب عليها الماء، ثم تأخذ فرصة ممسكة فتطهر بها.))

(أخرجه مسلم عن عائشة)

يعني خرقة مبللة بالمسك، تطهر بها، كيف أغتسل من الحيض يا رسول الله، امرأة أنصارية تسأل النبي على عظم قدره، وعلى جلالة هيبته، تقول له كيف أغتسل من الحيض، فقال عليه الصلاة والسلام: تأخذ إحداكن ماءها وسدرها، و بدأ الشرح، حتى وصل إلى قوله ثم تأخذ فرصة ممسكة فتطهر بها، يعني مبللة بالمسك، فقالت وكيف أطهر بها فقالت لها السيدة عائشة سبحان الله تتبعي بها أثر الدم، فقالت ثم سألته عن غسل الجنابة، السيدة عائشة أحرجت كثيراً، وانزعجت من هذه الأنصارية التي تسأل النبي عن أشياء خاصة جداً في النساء، فماذا قال عليه الصلاة والسلام ؟ قال:

((نعم النساء نساء الأنصار لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين.))

أرأيت إلى هذه التربية الجنسية الراقية، سيد الخلق يثني عن امرأة أنصارية جاءت بأدب جم تسأله عن شؤون دينها.

إذا ابنك سألك سؤال محرج يجب أن تضربه ! يجب أن تنهره ! يجب أن تسكته ! يجب أن تقول عيب ! امرأة تسأل النبي عن أدق أدق خصائص المرأة، ومع ذلك يجيبها إجابة هادئة، بل إنه أثنى عليها.

النص الأساسي السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنها تروي فيما يروي البخاري ومسلم عنها، أن أسماء بنت شكل أتت إلى النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسأله عن غسل المحيض فقال لها:

تأخذ إحداكن ماءها وسدرها، وبدأ يشرح لها، حتى وصل إلى قوله ثم تأخذ فرصة ممسكة فتطهر بها، أي خرقة مبللة بالمسك فتطهر بها فقالت وكيف أطهر بها، هنا يروى أن النبي احمر وجهه، فالسيدة عائشة أدركت الحرج فقالت لها السيدة عائشة سبحان الله تتبعي بها أثر الدم، ثم قالت سألته عن غسل الجنابة، وأنه في آخر الحديث، تقول السيدة عائشة نعم النساء نساء الأنصار لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين.

فأنت وضح لابنك البلوغ، في مادة بيضاء تخرج من الإنسان أحياناً في الليل يحتلم يجد ثيابه الداخلية مبللة، بمادة ثخينة وليست كالبول هذا يحتاج إلى أن يغتسل، وهذا مؤشر إلى أنه بلغ سن البلوغ، وهذه دليل رجولته أصبحت، وتبلغ الأم ابنتها حتى يبقى الأمر واضح، ما يسمع الابن من رفاق السوء تفسير هذه الحوادث، وهناك آباء لا يتكلمون بكلمة في هذا الموضوع.

سيدنا أنس بن مالك فيما يرويه الإمام مسلم يقول: إن أم سليم أتت إلى النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعنده السيدة عائشة، فقالت يا رسول الله إن المرأة ترى في المنام كما يرى الرجل، ثم ترى من نفسها كما يرى الرجل من نفسه، فقالت لها السيدة عائشة، فضحت النساء يا أم سليم تربت يمينك، فقال عليه الصلاة والسلام للسيدة عائشة: بل أنت تربت يمينك، يا أم سليم بل تغتسل كما يغتسل الرجل.

هكذا توجيه النبي، أوضح من هيك في ! يجوز كل شيء متعلق بالجنس يعني مستنكر مستهجن، في ضيق، يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم:

وفي بضع أحدكم صدقة.

والله ما هذا الدين العظيم، يعني لقاء الزوج عمل صالح، وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ معقول هذا عمل صالح ! بماذا أجاب النبي، قال عليه الصلاة والسلام: أرأيت لو وضعها في حرام أليس يكون عليه وزر، قالوا بلا، قال كذلك إذا وضعها في الحلال يكون له أجر.

هذا ديننا، دين واقع، مو دين يحرم الزواج، ولا كالغرب.

شاب خطب فتاة في أمريكا أعجبته، ذكر لوالده، قال له إياك يا بني هذه أختك وأمك لا تدري، يعني زاني بأمها، خطب فتاة ثانية، سأل والده وهذه أيضاً يا بني، إنها أختك وأمك لا تدري، خطب واحدة ثالثة نفس الشيء، أبوه زير نساء لأنه، وهذه أختك وأمك لا تدري، فضجر صار ضجران، فذهب إلى أمه وقال لها هكذا قالت له خذ أنىّ شئت فأنت لست ابنه وهو لا يدري، هيك الغرب، شعب منحل.
أما في الإسلام هذه العلاقة علاقة مقدسة، وعمل صالح.
وفي رواية الإمام أحمد: فكيف ألم تعتدون في الحرام ؟ إذاً الحلال ليس عدواناً، يعد عملاً صالحاً.
أيها الأخوة:
لا بد من أن يعطي الأب وقتاً كافياً لتربية أولاده، ولا بد من أن يعنى كما قلت في مطلع الدرس، أن يعنى بتربية إيمانية، وتربية أخلاقية وتربية علمية، وتربية نفسية، وتربية اجتماعية، وتربية جسمية، وتربية جنسية.
من آداب الإسلام في القضايا الجنسية.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ)

(سورة النور: 58)

الأطفال الصغار، أحياناً أقرأ بعض الحالات النفسية الصعبة كثير من هذه الحالات أن طفلاً صغيراً رأى أمه وأباه في حالة اللقاء الزوجي، فشعر أن هناك عدوان من أبيه على أمه، فهم الأمر فهم آخر فنشأ عنده عقد نفسية، القرآن إذا ذكر شيئاً شيء خطير جداً.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

(سورة النور: 58)

لازم يتربى الطفل أن لا يدخل باب غرفة نوم أبيه وأمه صباحاً إلا باستئذان، وكذلك بعض الظهر، وبعد العشاء، كثير في أطفال يدخل والأصعب من ذلك في آباء لا يتورعون، أنه لا يبالي في إغلاق الباب الآن في إرتاج، الباب يرتج، أنا أحمل الأم والأب مسؤولية كبيرة جداً إذا لقاء زوجي والباب غير مرتج، مرتج يعني مقفل، ومع ذلك يجب أن توجه ابنك توجيهاً دقيقاً جداً، ينبغي أن تستأذن على أمك وأبيك في هذه الأوقات الثلاثة، وإياك أن تدخل، أما الكبير لا يستأذن، هذا الصغير الكبير يجب أن يستأذن دائماً، قال له أأستأذن على أمي ؟ قال له أتحب أن تراها عريانة، ليش في مؤمن عنده أخوات بنات يدخل إلى غرفتهم بدون استئذان، لعل إحداهن تغير ملابسها، لعل إحداهن تنام مكشفة مثلاً يقدر

المؤمن أن يدخل على أخواته البنات بدون استئذان، أو على أمه تلك بديهية، أما الطفل له ثلاث أوقات محرمة

((من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض))

أنا عندي حالات كثيرة جداً وصلت إلى علمي من بعض الأخوة أن عقدة كبيرة وشديدة دمرت الطفل لأنه رأى اللقاء الزوجي بين أمه وأبيه دون أن تشعر، الآن أقول شيء واقع في بيوت المسلمين، أب يغير ملابسه أمام أولاده ! بكل بساطة، يصبح نوع من التقليد الشائع، أنه أريد أن أغير ملابسي، يخرجون من الغرفة، أما أب يغير ملابسة أمام أولاده ! في آباء والعياذ بالله يرتدون ثيابهم الداخلية فقط مع أولادهم والله حدثني أخ، قال لي امرأة أخي بالثياب الشفافة وأخوات الزوج بالألبسة الداخلية بالبيت، بين النور ما في تكليف، شيء شائع جداً أن الإنسان يقوم بالثياب الداخلية في بيته، وأخته بالثياب الشفافة، امرأة أخوه أيضاً بالبيت موجودة، من أين يأتي الفساد ؟ من هنا، أما ممنوع الأب يخلع ثيابه أمام أولاده أبداً، يقول عليه الصلاة والسلام:

((احفظ عورتك إلا من زوجتك.))

[أخرجه الترمذي]

أما في حديث آخر سبحان الله، يقول عليه الصلاة والسلام فيما يرويه الإمام أحمد في إسناد صحيح عن أبي كبشة الأنماري حديثاً طويلاً في آخره أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

من أماثل أعمالكم إتيان الحلال.

الذي أتمناه أن الإنسان يقول: اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك، بدل أن ينظر إلى غير زوجته، من حقه، زوجته من حقه، إذا في تقصير لازم ينبهها، تقصير بالثياب والهندام والزينة، يجب أن تأخذ زينتها، في ملامح السيرة عجيبة، أن النبي عليه الصلاة والسلام إذا كان مسافراً لا يمكن أن يطرق باب أهله ليلاً، لا يمكن أن يأتي إلى البيت فجأةً، كان يذهب إلى المسجد، ويصلي فيه، ويعلم الأهل، ما كان في هواتف، أما أنت مسافر وتأتي على البيت من دون إعلام، عم تغسل، أو تعزل مثلاً أو تنظف، هندامها سيئ جداً، وأنت تاركها شهر يصبح معك صدمة كبيرة كثير، يجب أن تخبرها متى تأتي، يجب أن تعلم قبل ساعات طويلة متى تأتي، هذا من السنة.

والله سمعت عن جريمة في أمريكا وقعت، أن امرأةً قتلت زوجها أثناء المحاكمة ذكرت عيباً في زوجها في اللقاء الزوجي، النبي عليه الصلاة والسلام أشار إلى ضده، أنه لا يتحول أحدكم عن زوجته قبل أن تقضي حاجتها، فحقدت عليه إلى أن قتلته، نحن منهجنا منهج كامل يعني حتى في أدق التفاصيل، منهج الإسلام قول خمسمائة ألف بند، في العلاقات الخاصة جداً هناك توجيهات نبوية، لا

يتحول أحدكم عن زوجته قبل أن تقضي حاجتها، هذه حقدت عليه حتى قتلته، وسمعت قصتها على شريط، وكيف أنها حقدت عليه لأنه أناني، من أماثل أعمالكم إتيان الحلال.

بعض الأخوة المدرسين في الجامعة، قال لنا أستاذ رحمه الله قال من خمسين سنة، قال وأنا في درس من دروس الدين علمنا أن يا أولادي حينما يقوم أحدكم صباحاً فيجد ملابسه مبللة هذا معناه كذا وكذا، وشرح لنا الموضوع، تقبلنا هذا الموضوع بكل صفاء، وبكل نقاء، وبكل نظافة وتعلمنا أحكام ديننا،، فأنت عود نفسك أن تعلم كل شيء، يعني الشيء إما أن توضح، وإما تعتم، إذا عتمت صار في مجال لأفكار غير صحيحة وتعليلات قبيحة، آثمة أحياناً.

مرةً ثانية أقول لكم لابد من بذل وقت كبير لتربية أولادنا، وهذا الطفل أمانة في أعناق والديه، والأب محاسب عن ابنه حساباً عسيراً ذلك أن الابن في الأصل ذخر للأب كبير، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أفضل كسب الرجل ولده وكل بيع مبرور.))

(عن أبي بردة بن نيار، رواه الطبراني)

يعني أعظم كسب للرجل ولده فيجب الهدوء، والحلم، ومتابعة والله أنا أحياناً يوم الجمعة عقب الخطبة كل طفل جاء مع والده أحب أن أقدم له هدية، قطعة حلوى، الأسبوع الماضي جبنا لـ120 طفل ولم يكفِ ما شاء الله شي 170 - 180 - وأيام الكبار يقصروا حالهن حتى يأخذوا شو بدنا نساوي، ماشي، بس مرة واحد أطول مني بمرة ونصف قال لي وين حصتي، قلت له تفضل، فوق ما في شي بالمرة، تعرف أنه ما في عقل برأسه من طلبه.

على كلٍ يجب أن تصحب ابنك إلى المسجد، وابنك غلاوته من غلاوتك في المسجد، وأن يكون في الصف الأول، وأنا والله إذا واحد أرجع طفل إلى الصف الثاني أتألم ألماً شديداً أول صف، أول صف يصلي هيك النبي علمنا قاعد إلى جانب النبي غلام صغير إلى يمينه، فجاءت ضيافة على يساره سيدنا الصديق، يعني معقول أن يبدأ بالصغير، قال له يا غلام أتأذن لي ، قال له لا والله لا أسمح، فأخذ الضيافة أولاً، حسب السنة عن يمينه لم يقبل هذا الطفل، يستأذنه أيضاً، أرأيتم إلى هذه التربية الإيمانية.

مرة اللهم صل عليه، قبيل معركة أحد والموقف عصيب، موقف يسمونه مصيري، أجاز أحد الشباب، ولم يجزِ الآخر، الذي لم يجزه تألم ألماً لا حدود له، وبكى وشكى إلى أمه، وقال أنا هذا الذي أجازه النبي أصرعه، فالأم جاءت إلى النبي وبلغته، لم يشغله إعداد المعركة عن جاء بالشابين واصطرعا أمامه، فأجاز الأول لحجمه والثاني لقوته أجازه، كان عليه الصلاة والسلام ينمي شخصية الأطفال، هل تصدقون أنه رأى أطفالاً يتسابقون فتسابق معهم على علو مقامه، وكان يدعو إذا مر بالصبيان يقول السلام عليكم يا صبيان، ومرة دعا غلاماً ليركب خلفه على الناقة إكراماً له، ومرة حمل الحسن

والحسين وصعد بهما إلى المنبر وتابع خطبته، في خطيب بالعالم الإسلامي وهو يلقي خطبة يرى ابن ابنته ما شي ينزل ويحمله ويصعد يكمل الخطبة ؟! هذا التعليم لنا أن الطفل له شأن كبير.

إن شاء الله في دروس قادمة، هذه النواحي الواقعية، أنا ذكرت شيء، أنا ما ذكرت كل شيء، ذكرت شيء كل بيت بحاجة له، يعني أنا من فضل الله عملت دروس ثلاثين درس في التربية، تربية الأولاد في الإسلام، من فضل الله بلبنان أذيعت عشرات المرات في الإذاعات عشرات المرات، فيها توفيق كبير، فإذا الإنسان متزوج حديثاً وعلى وشك إنجاب أولاد، إذا سمع هذه الأشرطة مع زوجته يعطيه منهج لتربية الأولاد، التربية الإيمانية، والتربية الأخلاقية، والعلمية، والعقلية والاجتماعية، والنفسية، والجسمية، والجنسية، والرياضية، يجب أن نربي أولادنا، ونحن هنا في المسجد والله الصغار لهم شان كبير جداً والله تبذل لهم عناية تفوق حد الخيال، وننتظر أن يكون أعلاماً في المجتمع، ودعاة إلى الله عز وجل وعلماء، أنتم أعينانا على أولادكم ليكونوا معكم في الدروس، يقول عليه الصلاة والسلام:

((ألزموا أولادكم))

كثير في آباء يحب أن يكون لوحده إذا كان برحلة أو بسيران أريح له فعلاً أريح له، الابن عبأ، إذا كان يحب الله ورسوله يجب أن يكون معه ابنه، أكثر الآباء يحب أن يكون من دون أولاده، مرتاح، لكن هذا يسبب أن الطفل انحرف، إذا لا يكون مع أبيه دائماً صار في تغذية أخرى لا ترضي الأب، الأب يكتشف فجأة الابن منحرف، الزموا أولادكم ابنك معك في المسجد، في الدرس، خذه نزهة هذا عمل صالح، أدخل الفرح على قلبه عمل صالح.

فأرجو الله أن ينفعنا بما علمنا، ويلهمنا الخير.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (128) :فتنة النساء1 - ثياب المرأة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-10-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام :

لا شك أن المسلم، أي مسلم، يتمنى أن ينصر الله المسلمين، بل يتمنى تمنياً شديداً، لأن من أشد حالات الفرح أن تستمع إلى أخبار طيبة عن نصر المسلم، ولكن كما هي سيرة السلف الصالح، إذا وقع المسلمون في مأزق، ووجدوا أن عدواً متربصاً بهم، لا بد من أن يصطلحوا مع الله ولا بد من أن يعيدوا حساباتهم، وأن يراجعوا أمورهم، وقد وجدت أن شيئين خطيرين يقع بهما معظم المسلمين، قضية المرأة، وقضية المال، فحتى نستحق نصر الله عز وجل، وحتى يلقي الله في قلوب أعدائنا الرهبة، ويعطينا الله قوة وعزيمة نواجه بها أعداءنا لا بد من أن نكون مع الله.

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ)

(سورة المائدة: 12)

بشرط:

(إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآَمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

(سورة المائدة: 12)

معية الله مشروطة، وكما ترون ما من بلد من بلاد المسلمين إلا و يعاني ما يعاني، من عدو شرس، متغطرس حقود، قاسي القلب، بطّاش وحش، فماذا ينجينا من عذاب الله ؟ هذا نوع من عذاب الله، ينجينا أن نكون مع الله، وأن نستقيم على أمر الله، وقد عم الفساد في الأرض، وهذا شيء طبيعي، أما أن يعم بين المسلمين، ومعهم كتاب، ومنهج، ودين عظيم، هنا المشكلة.

أيها الأخوة الكرام ؛ لنبدأ بالمرأة، الله عز وجل قال:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران: 14)

والدنيا كلها متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة، فأن يحب الرجل المرأة شيء مركب في أعمق أعماقه، ومركب في جبلته، ولكن هذا الحب، وهذا الاستحسان مقنن في الإسلام، فالله عز وجل ما حرمنا، ولكن سمح لنا أن نمارس هذه الشهوات التي أودعها الله فينا في قنوات نظيفة، ومن هذه القنوات الزواج، ولا شك أننا والحمد لله بنعم كبيرة إذا قسنا بلادنا مع بلاد الأجانب، فنحن حالة جيدة بالقياس إليهم، وفي حالة سيئة بالقياس إلى منهج ربنا.

أول نقطة ؛ أكثر النسوة يندبن حظهن، بأن الرجال قد ذهبوا بكل الأجر، إنّهم يحضرون الجمعة والجماعات، وهم يجاهدون في سبيل الله، فقال عليه الصلاة والسلام لامرأة:

((انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها، وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله))

[كنز العمال عن أسماء بنت يزيد الأنصارية]

أضيف إلى هذا شيئاً هو أن ثياب المرأة جزء لا يتجزأ من دينها، بل إن ثياب المرأة كل سم مربع منه متعلق بدينها، فالمرأة متميزة عن الرجل في أن ثيابها عبادة، هي إما أن تساهم في إعفاف الشباب فتستر مفاتنها، إلا لمن أن يحل له أن ينظر إليها، وإما أن تسهم في تحطيم الشباب، فماذا تفعل ؟ تدعي أنها شريفة، لكن مفاتنها ظاهرة، والشباب متحرقون إلى الزواج، وهذه امرأة تمشي أمامهم، ولا يستطيعون أن يكلموها، وهي تنشر مفاتنها بين الشباب، فالمرأة متميزة على الرجل بعبادة قد لا تنتبه إليها، حينما ترتدي ثياباً سابغة كثيفة وفضفاضة، وتخفي مفاتنها عمن لا يحل له أن ينظر إليها، فتعصم الشباب من الفتنة.

أيها الأخوة الكرام ؛ هناك نقطة دقيقة، لو جئنا برجل ووضعناه في غرفة، وأغلقنا الباب، ولا يرى شيئاً من ألوان الطعام، لا صورة، ولا فكرة، ولا مقالة، وبعد أيام يجوع، ويكاد يموت جوعاً، لأن دافع الطعام داخلي فلو لم يقرأ كلمة عن الطعام، أو لم ينظر إلى طعام، أو لم يسمع بطعام يجوع، ولذلك في حالات الضرورة سمح للمضطر أن يأكل لحم الخنزير لئلا يموت، والضرورة تقدر بقدرها، وسمح للرجل إذا كاد يموت بغصة أن يتجرع جرعة خمر كي تمر اللقمة إلى معدته، إذاً عندنا أكل عند الضرورة.

ولكن الدافع الجنسي تأثيره من الخارج لا من الداخل، ولذلك قد يعيش شاب في بيئة صالحة، بيئة نظيفة، ليس فيها مثيرات، وليس فيها نساء كاسيات عاريات، ولا مجلات ولا محطات تنقل الدعارة من أطراف الدنيا، وبإمكان شاب تائب مؤمن أن يعيش حياةً هادئة نظيفة خالية من كل ضغط. فأول نقطة ؛ الدافع الجنسي ليس من الداخل بل هو من الخارج يأتي على أثر إثارة، كامرأة سافرة، أو متفلتة، أو متبرجة، ولذلك ربنا عز وجل يقول:

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي)

(سورة النور: 2)

بدأ بالزانية، لأنها هي السبب، فكل مساحة من ثياب المرأة متعقلة بدينها، وكل مساحة ؛ من نوع الثياب، ومن لونها، ومن حجمها، ومن اتساعها متعلق بدينها، وهي بهذا تعبد ربها بثيابها، ولا أقول إلا الواقع، فالرجل أسهل له أن يرتدي ثياباً خفيفة في الصيف، ولكن المرأة ليس مسموحاً لها أن ترتدي

ثياباً خفيفة، فهي أكثر راحة، ولكنها أشد فتنة، إذاً ثياب المرأة جزء من دينها، بل إن كل سم مربع من ثياب المرأة متعلق بدينها، ومن عبادة المرأة لربها ثيابها، إنها تسهم بشكل أو بآخر في إعفاف الشباب، إذاً المرأة التي ترتدي ثياباً فضفاضة سابغة صفيقة ؛ أي سميكة، ولو كان الوقت حاراً لها عند الله أجر لا يوصف، لأنها ساهمت في نظافة المجتمع المسلم، بينما المرأة التي ترتدي ثياباً فاضحة، وتدعي أنها مستقيمة وشريفة، وهي كذابة، إنها بمفاتنها تثير غرائز الشباب، وقد تدفع بعضهم لممارسة شيء لا يرضي الله عز وجل إذاً جزء من دين المرأة ثيابها.

وأضعكم مع طائفة من أحاديث رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الموضوع، يقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو سعيد الخدري

((أن النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ *))

(رواه مسلم)

ومعي قصص بحكم عملي في الدعوة إلى الله الذي شرفني به، طبعاً يقع تحت سمعي قصص كثيرةٌ مما يلوذ بإخواننا، فتجد شابًا دُمِّر بسبب فتاة، وانتهى، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء، ويقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح

((عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ))

(رواه البخاري)

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ يقول عليه الصلاة والسلام:

((لم يكفر من كفر ممن مضى إلا من قبل النساء، وكفر من بقي من قبل النساء.))

وعن معاذ بن جبل يقول:

((ابتليتم بفتنة الضراء فصبرتم، وستبلون بفتنة السراء، وأخوف ما أخاف عليكم فتنة النساء، إذا تسورن الذهب والفضة، ولبسن رباط الشامي، وعصب اليمن، فأتعبن الغني، وكلفن الفقير مالا يجد.))

((وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الِاسْتِغْفَارَ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ فقالَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ جَزْلَةٌ وَمَا لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ قَالَ تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ وَمَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍّ مِنْكُنَّ قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ وَالدِّينِ قَالَ أَمَّا نُقْصَانُ الْعَقْلِ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تَعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ فَهَذَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ وَتَمْكُثُ اللَّيَالِي مَا تُصَلِّي وَتُفْطِرُ فِي رَمَضَانَ فَهَذَا نُقْصَانُ الدِّينِ *))

(رواه مسلم)

((وقد سألت السيدة فاطمة أباها صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما خير ما تفعله المرأة فقال عليه الصلاة والسلام: ليس للنساء خير لهن من ألا يراهن الرجال، ولا يرين الرجال))

(ذكره القرطبي في تفسيره عند الآية:4 من سورة العلق)

هذه أحاديث صحيحة تبين أن هناك خطراً كبيراً يهدد سلامة المؤمن، وإيمانه، وسلامته وسعادته في الدنيا والآخرة يأتي من قبل المرأة، ولذلك سداً لذريعة كل فساد أمر المؤمنون بغض البصر.

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: 30)

ولا أقبل، ولا تقبلون أنتم رجلاً يتصف بالإيمان ويطلق بصره في النساء، بل إن غض البصر مدرسة.

(النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة، فمن تركها من خوف الله أثابه إيمانا يجد حلاوته في قلبه".)

[أخرجه الحاكم وصحح إسناده من حديث حذيفة]

إنها سهم مسموم، يعني يسمم الحياة كلها، أيْ يسمم حياة الزوج، وحياة الأعَزَبِ، وحياة الطالب، وحياة التاجر، وكم من شركة انهارت بسبب امرأة، وكم من طالب رسب في صفه بسبب فتاة، واللهِ الذي أسمعه يكاد لا يصدق، وأذكر لكم ما وصل إلى سمعي من بعض أخوتنا، ممن يلوذ بهم، أو ما قرأته في بعض الكتب التي تتحدث عن قضايا المجتمع، ويقول عليه الصلاة والسلام

((صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مائلات رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا))

(رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ)

ومن أحاديث أشراط الساعة:

((عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي رِجَالٌ يَرْكَبُونَ عَلَى السُّرُوجِ كَأَشْبَاهِ الرِّجَالِ يَنْزِلُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ نِسَاؤُهُمْ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ عَلَى رُءُوسِهِمْ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْعِجَافِ الْعَنُوهُنَّ فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَاتٌ لَوْ كَانَتْ وَرَاءَكُمْ أُمَّةٌ مِنْ الْأُمَمِ لَخَدَمْنَ نِسَاؤُكُمْ نِسَاءَهُمْ كَمَا يَخْدِمْنَكُمْ نِسَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ))

(رواه أحمد)

إذاً نحن إن أردنا أن ينصرنا الله عز وجل، وأن يرحمنا، وأن ينجينا من أعدائنا، وأن يلقي في قلوب أعدائنا الخوف منا، نحتاج إلى أن نضبط أمورنا، وقد آن الأوان أن أصارحكم، فأنا أعرف طالب علم من رواد المساجد، غير مقبول إطلاقاً أن تكون زوجته غير محتشمة، وغير مقبول إطلاقاً أن تكون ابنته سافرة، ألا ترون في الطريق منظر امرأة محجبة حجابًا كاملاً وابنتُها إلى جانبها بأحدث الأزياء، فلِمَ لا تربَّى هذه الفتاة ؟ كنت أقول لكم دائماً: هؤلاء الفتيات الكاسيات العاريات اللواتي يظهرن مفاتنهن

لكل غاد ورائح أليس لهن آباء ؟ أو أمهات ؟ أو أزواج ؟ وأخوات ؟ وأبناء ؟ إلى الله نشكو ما نحن فيه.
أيها الأخوة ؛ أول شيء، من أبواب سد الذرائع، مثل كلمة السيد المسيح: ليس الشريف هو الذي يهرب من الخطيئة، ولكن الشريف هو الذي يهرب من أسباب الخطيئة.
وهنا نقطة مهمة كأن هذه الشهوة صخرة متربعة مستقرة في قمة جبل، فإن أردت أن تدفعها نحو المنحدر لا تستقر إلا بالوادي.
ولعل 95% من حالات الزنى ما أراد الشاب أن يزني، ولم ترد هي أن يزنى بها، ولكن لأنها تساهلت بالإجراءات الوقائية التي شرعها الإسلام فوصلت إلى نهاية الفاحشة، وأول شيء غض البصر.
وما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيرًا منه في دينه ودنياه، ومن غض بصره عن محارم الله أورثه الله حلاوةً في قلبه إلى يوم يلقاه.
ويقول أحدُكم: هذا خيال، فأنا لا أنظر إلى امرأة حقيقة، أنا أنظر إلى صورتها على الشاشة مثلاً، فأنا أضعك أمام هذا المثال، لو كنت في شرفة، وعلى هذه الشرفة مغسلة ومرآة، ووقفت تغسل يديك، فإذا زوجة جارك خرجت إلى الشرفة بثياب فاضحة، وأنت لم تنظر إليها مباشرةً، ولكن نظرت إلى المرآة فرأيتها كما هي، فهل يباح لك أن تنظر في المرآة إليها، وما الفرق ؟ لا فرق إطلاقاً بين أن تنظر إلى جسمها مباشرةً وبين أن تنظر إلى خيالها في المرآة، فالفتنة حاصلة في كلا الحالين، ولذلك فأول إجراء غض البصر، ومن صفات المؤمن أنه عفيف، من غض بصره عن محارم الله أورثه الله حلاوة في قلبه إلى يوم يلقاه.
والشيء الثاني ؛ والله أيها الأخوة كل بند من هذه البنود، معي عنه مائة قصة، ولكن المجال لا يتسع، فالخلوة بالأجنبية، وقد جاءتني رسالة امرأة محجبة وتحضر مجالس علم، ولها زوج دينه متوسط، وله قريب يعزه كثيراً، قال لها إذا جاء ابن عمي فهو كأخي أدخليه في غيبتي، وبذلك أعطاها أمرًا، وانتهى الأمر إلى مالا يحمد عقباه، إلى خيانة زوجية، من خلوة رجل وامرأة في بيت واحد، لذلك:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: 21)

الخلوة بالأجنبية خطوة من خطوات الشيطان، وإطلاق البصر خطوة من خطوات الشيطان.

(فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

(سورة النور: 21)

والشيطان كما قال عليه الصلاة والسلام في حديث الحسن بن علي

((إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ *))

[متفق عليه]

لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((أَلَا لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ))

[رواه الترمذي بتمامه عن ابن عمر]

قد تطرق الباب أخت زوجتك، وزوجتك ليست في البيت، وقد أتت من طرف المدينة، وخجلت منها فأدخلتها، فأنت خرجت عن مظلة الله عز وجل، فأدخلها واخرج من البيت، إن كنت إنسانياً لطيفاً فاخرج من البيت، أما أن تخلو بامرأة لا تحل لك، ولو كانت ابنة عمك أو ابنة خالتك، أو ابنة عمتك، أو أخت زوجتك، ولو كانت من الأقارب غير المحارم.

((فَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ قَالَ الْحَمْوُ الْمَوْتُ))

[متفق عليه]

الحمو أخو الزوج، أو أخت الزوجة، فأخو الزوج، وأخت الزوجة لهما من الطرف الآخر ألف سبيل وسبيل، في بيت واحد، وقد يكون فيه دعابة، ومزاح، والبيت صغير، ومرافقه محدودة، والمرأة من المطبخ إلى الحمام، وترتدي ثياب البيت، ومن أشد أنواع الفتن أن يختلط الرجل بزوجة أخيه، أو أن تختلط المرأة بأخ زوجها، والله أيها الأخوة قصص من هذا المسجد، لا أقول من أخوتنا الملازمين، لا، ممن حولهم قصص كثيرة جداً انتهت بالفاحشة بين المرأة وحميها، أو بين الرجل وحميه.

وشي آخر ؛ زنى العينين علاجه غض البصر، وزنى اليدين علاجه

(إِنِّي لَا أُصَافِحُ النِّسَاءَ))

(رواه النسائي عن أُمَيْمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ)

وقد سمعت قصة والله راقت لي، وزيرة نفط زارت بلداً إسلاميًّا، ووزير النفط في هذا البلد دعا كبار موظفيه لاستقبالها في المطار، ويبدو أن أحد كبار موظفيه متمسك بالدين تماماً، فلما نزلت من الطائرة ليصافحها كبار المستقبلين، هذا الموظف المستقيم الملتزم اعتذر على أن يصافحها فانزعجت انزعاجاً لا حدود له، والوزير هناك انزعج أيضاً وقال له: هل تأكلك لو صافحتها ؟ لقد سوَّدتَ وجهنا، هكذا قال له على طعام الغداء، فسألت وزير النفط: هذا الذي لم يصافحني أين هو ؟ طبعاً هو عندما لم يصافحها طرده من الوليمة، وقال: لا تأتِ اليوم، فقال له: لا بأس، فسألت عنه، فقال لها لعله اعتذر، قالت: أريد أن أراه، فاضطر الوزير إلى أن يسأل عنه، وأن يدعوه، ولو كانت الدعوة متأخرةً، قالت له لمَ لم تصافحني ؟ قال لأنني متمسك بديني، وديني يأمرني ألا أصافح النساء، فقالت له: لو أن المسلمين مثلك لكنا تحت حكمكم، وهي من دولة عظيمة، فالمؤمن ملتزم.

ومرة سئلت من قبل أخت، كنت ألقي محاضرة في أمريكا، قالت لي: لِمَ لا نصافح الرجال ؟ وهذا شيء محرج بالنسبة إلينا، فلمَ هذا الحكم الشرعي ؟ فقلت لها وقتها: إن الملكة في بريطانيا لا يصافحها إلا

سبعة رجال بحسب القانون البريطاني لعلو مقامها، وعندنا المرأة ملكة، لا يصافحها إلا سبعة رجال بحسب القانون القرآني.

وقد حدثني أخ فقال لي: والله كنت مسافرًا في عمل أشتري حاجات لمعمل ضخم من ألمانيا، دخلت على المدير العام فإذا عنده امرأة مديرة مكتبه، أو سكرتيرة، فقال لي: والله نصفها الأعلى عارٍ كله، فأنا غضضت بصري غضاً حازماً، فدخلتْ وأبلغته، هذا إنسان غريب، طبعاً هو أعجب بعفته،فأخذ تسهيلات في الدفع، وأسعارًا منخفضة، وأخذ كمية قليلة، في حين أن إنسانًا قبله من بلد آخر ملأ عينيه من محاسنها، فأخذ أسعارًا أعلى، فحتى المرأة تحترم العفيف، وتحتقر الذي يملأ عينيه من محاسنها. فهذا الذي يصافح ابنة عمه، وابنة خاله، وابنة عمته، وابنة خالته ، وأخت زوجته، هذا يخالف منهج رسول الله عليه الصلاة والسلام قال:

((إِنِّي لَا أُصَافِحُ النِّسَاءَ *))

(رواه النسائي عن أُمَيْمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ)

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له))

[رواه الطبراني: عن معقل بن يسار]

((وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنْ الزِّنَا مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الِاسْتِمَاعُ وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ *))

[أخرجه مسلم]

وقال في الحديث الصحيح

((إِنِّي لَا أُصَافِحُ النِّسَاءَ *))

(رواه النسائي عن أُمَيْمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ)

وفي حديث آخر:

((لا أمس أيدي النساء))

[رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف

((وعَنْ عُرْوَةَ أَنَّ عَائِشَةَ أَخْبَرَتْهُ عَنْ بَيْعَةِ النِّسَاءِ قَالَتْ مَا مَسَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ امْرَأَةً قَطُّ إِلَّا أَنْ يَأْخُذَ عَلَيْهَا فَإِذَا أَخَذَ عَلَيْهَا فَأَعْطَتْهُ قَالَ اذْهَبِي فَقَدْ بَايَعْتُكِ *))

(رواه مسلم)

هذه واحدة، أيضاً أن تسمح لزوجتك أن تصافح من تشاء، كيف ؟ ولِمَ تصافحه ؟ وكيف التقت به أساسًا، وكيف نظر إليها.

إذاً الذريعة الثانية؛: عدم مصافحة المرأة الأجنبية، والأولى: عدم الخلوة بالمرأة الأجنبية، والأولى

الأولى: غض البصر عنها.

والآن سفر المرأة من غير محرم، ففي رحلة طويلة كنت أركب الطائرة وورائي امرأة مسافرة من بلد بعيد من أقصى الغرب إلى دمشق تركب وحدها، وقد ركب إلى جانبها رجل، وأنا أسمع حديثهما، والله شيء عجيب، الحديث وصل إلى علاقات حميمة، وإلى علاقتها بزوجها ، وهي تضحك وتتفاصح أمامه، ويتدخل في شؤونها، والمرأة في السفر وحدها مغرية، هناك من يسمِعها كلمات معسولة، ومَن يسألها عن أحوالها، وعن زوجها، وعن علاقتها به، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((لَا تُسَافِرْ الْمَرْأَةُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ))

[رواه البخاري عن ابن عمر]

ولو أرادت أن تحج، يعني من أبشع ما سمعت أنه من هناك يعقد زواجاً صورياً على امرأة من أجل أن تحج معه، وهذا والله لعب بدين الله.

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

((لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُسَافِرَ مَسِيرَةَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ لَيْسَ مَعَهَا حُرْمَةٌ *))

[رواه البخاري عن أبي هريرة]

فالطائرة قد تتعطل، وقد يضطر الركاب النوم في الفندق، تنام في غرفة وحدها، وهناك من يطمع بها، وهناك مشكلات كثيرة، وقد سمعت قصة إنسانٍ مقيمٍ في دول الخليج، وعاد إلى بلده مصر، وتزوج امرأة عقد قرانه عليها، وسافر إلى بلد العمل، ووعدها أن يستقدمها بعد أن تجهز نفسها، ويبدو أنها وصلت إلى المطار بعد أشهر، وهي غير محجبة، وهناك من أنبأها أنه عنده اجتماع خطير، وأنا سأقودك إلى البيت، فصدقت، وقد زنى بها أناس كثيرون، لأنها من دون محرم، والقصة طويلة وشائكة.

وعلى كلٍ، فهناك أخطار كبيرة من سفر المرأة وحدها، والنبي الكريم وهو مشرع يقول

((لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُسَافِرَ مَسِيرَةَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ لَيْسَ مَعَهَا حُرْمَةٌ *))

[رواه البخاري عن أبي هريرة]

وهذا المحرم يجب أن يكون مسلماً بالغاً عاقلاً ذكراً، أبوها، أو ابنها، أو زوجها، أو أخوها، هكذا، وهم من محارمها الذين يحلُّ لهم أن يروها.

ومن لوازم غض البصر أنه لا يجوز أن ينظر الرجل إلى عورة الرجل والفخذ عورة، كما أنه لا يجوز أن تنظر المرأة إلى عورة المرأة وهناك عورة للمرأة على المرأة، وكل عضو لا يجوز النظر إليه لا يجوز مسه أيضاً، وهذا شيء ثابت.

والدياثة: نعوذ بالله منها قلّمَا نجدها في بلادنا، ولكن

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:ثَلَاثَةٌ قَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ الْجَنَّةَ مُدْمِنُ الْخَمْرِ وَالْعَاقُّ وَالدَّيُّوثُ الَّذِي يُقِرُّ فِي أَهْلِهِ الْخَبَثَ *))

(رواه أحمد)

فهو يمشي مع زوجته في أبهى زينة، وهو مرتاح، زوجتي فلانة، كلما التقى بصديق يعرِّفه بها، وسهراته مختلطة كلها، وهذا الذي لا يغار على عرضه، زوجته بكل فتنتها وزينتها تبدو أمام أصدقائه، بكل جمالها ورشاقتها، وتبدو أمام أقربائه غير المحارم، فهذا لا يغار على عرضه، وهي تخرج إلى الشرفة بثياب رقيقة شفافة، وليس عنده مشكلة أبداً، فهذا الذي لا يغار على عرضه ديوث، وبها وصفه النبي عليه الصلاة والسلام.

قرأت قصةً لأخ كريم ألف كتابًا عن جرائم وقعت، والمجرمون مودعون في سجن عدرا، 63 جريمة، إحدى هذه الجرائم ضحيَّتُها امرأة في أول أيام عرسها تتزين، وغير منضبطة أمام الجيران، ويبدو أن جاراً لها شديد الشدق كما يقولون اقتحم البيت، وفعل بها الفاحشة، طبعاً طلقت من زوجها، وانتهت حياتها الزوجية.

فهي امرأة لا تبالي أن تظهر على الشرفات بثياب غير محتشمة، فهذه المرأة تدعو الناس إليها، وهناك لسان حال ولسان مقال، وقد تكون ساكتة، لكن ثياب المرأة دعوة للرجال، فكلما كانت الثياب فاضحة فكأنها تدعو الرجال إلى أن يتحرشوا بها، ولذلك من أدق الآيات الكريمة قوله تعالى:

(ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ)

(سورة الأحزاب: 59)

وأنا أتحدى أن امرأة ترتدي ثياباً محتشمةً كاملة وتستر وجهها فلا يمكن لشاب ولا لإنسان في كل حياتها أن يسمعها كلمة واحدة، لأنه لا يرى منها شيئاً، ولا يرى خطوط جسمها، إذ ثيابها فضفاضة وسابغة إلى الأرض، ووجهها مستور، ولا يمكن لإنسان مهما كان صفيقاً، أو بذيئاً، ومهما كان زير نساء لا يمكن أن يسمعها كلمة واحدة، فالمرأة المحجبة ملكة، لها هيبة، وكلهم يعاملونها باحترام، أما حينما ترتدي ثياباً فاضحة فإنها تسمع في الطريق ألف تعليق وتعليق، ومنها تعليقات بذيئة، وتعليقات مهينة، وجارحة، ولا تحتمل لأن بثيابها الفاضحة تدعو الرجال إليها.

والآن ما يجري في بعض البلاد الإسلامية وهي عادة غير متفشية عندنا أن تركب مع السائق دائما، إذ يستقدمون سائقين من بلاد بعيدة من شرقي آسيا، وهذا في دول الخليج، وكأن السائق من أهل البيت، فالبنات والنساء يركبن معه ويضحكن، هذا أيضاً من نوع الخلوة بالأجنبي، و المصعد خلوة، والشاب الورع لا يركب مع فتاة وحدها في مصعد، و السيارة خلوة، وهذه عليها تعليقات طويلة، وخاصة السيارة بشكل إيماني.

والآن خروج المرأة من بيتها من دون حاجة، وهي غير محتشمة ولا ملتزمة بآداب الإسلام ألم يقل الله عز وجل:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)

(سورة الأحزاب: 33)

فامرأة تشتري حاجات من السوق فأسمعها البائع كلمات معسولة، فاستلطفت هذه الكلمات، ولم تسمعها من زوجها، وقدم لها هدية، فابتسمت له، وانتهى الأمر بالفاحشة، وسببها خروج غير ضروري.

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً)

(سورة الأحزاب: 32)

ووقت هذا الدرس مع ما يجري في الأرض المحتلة، فلا بد أن نعود إلى الله حتى يلقي المهابة في قلوب أعدائنا، ولا بد أن نعود إلى الله حتى نستحق أن ينصرنا الله على أعدائنا، وأحد أكبر المعاصي الآن موضوع النساء.

وفيما روى الطبراني:

((إنما النساء عورة وإن المرأة لتخرج من بيتها وما بها من بأس فيستشرفها الشيطان فيقول: إنك لا تمرين بأحد إلا أعجبتيه، وإن المرأة لتلبس ثيابها فيقال: أين تريدين ؟ فتقول: أعود مريضا أو أشهد جنازة أو أصلي في مسجد، وما عبدت امرأة ربها مثل أن تعبده في بيتها.))

وأقول ذلك للتي تخرج غير محتشمة، أما المرأة التي تخرج لدرس علم وهي محتشمة وثيابها فضفاضة، وسابغة، ووجهها مستور، فهذه لا علاقة لها بهذا الحديث.

وإن شاء الله في درس قادم أتحدث عن خمس صفات لثياب المرأة، وأول صفة استيعاب صفات جميع البدن، والصفة الثانية ألاّ يكون زينة في نفسه، والصفة الثالثة أن يكون صفيقاً لا يشف، والصفة الرابعة أن يكون فضفاضاً غير ضيق، والصفة الخامسة ألا يشبه ثياب الرجال، ولا واحدة مطبقة، ألا يشبه لباس الكافرات، وألا يكون لباس شهرة، وإن شاء الله في درس قادم نتحدث عن صفات المرأة، وهذه خطوة عملية كي ننتصر على أعدائنا، نبدأ ببيوتنا، وبنسائنا، وببناتنا، وكل واحد مسؤول عن رعيته، فالأب مسؤول عن ابنته، أما أنه هو بوادي وهي بوادٍ، فما هذا المسلم ؟ يقول: واللهِ أنا أنصحها، ولكن لا ترضى ابنتي، فهذا كلام لا يقال إطلاقاً، إذْ معك سلطة عليها، تنفق عليها، فترغبها، وتخوفها، وتسترضيها أحياناً، وتكرمها، فالمرأة ليست صعبة المراس، بل سهلة المراس، ولكن تحتاج إلى حكمة، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الانتفاضة في الأرض المحتلة سببًا لرجوع المسلمين إلى دينهم، وما منا واحد إلا ويتمنى النصر، والنصر بيد الله عز وجل، ولا بد لنستحقَّ عند الله النصر، أنْ نستحقه بالتزامنا وتطبيقنا، فموضوع المرأة والمال موضوعان خطيران جداً من موضوعات حياتنا.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (129) :فتنة النساء2 - خصائص ملابس النساء.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-10-22

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام :

أعوذ بالله أن أقع وإياكم في المبالغة، ولكنني واللهِ متأكد أنه مِن أكبر أخطار المسلم التي تصرفه عن الله، وتحجبه عنه ، والتي تسبب فتور عباداته، وإعراضه، هو المرأة، ولذلك فثياب المرأة جزء من دينها، بل إن كل سنتيمتر مربع من ثيابها متعلق بدينها.

أيها الأخوة الكرام ؛ لو أن محطة وقود فيها مكان لإعلان واحد، و نكتب في هذا الإعلان مليون حكمة، فلو اخترنا من مليون إعلان إعلانًا واحدًا " التدخين ممنوع "، لأن الدخان المشتعل قد يحرق هذه المحطة كلها، وقد يتلفها، فحينما اخترنا من بين مليون إعلان إعلانًا واحدًا فمعناه شيء خطير، وشيء مصيري.

وحينما نجد في كتاب الله، هذا القرآن الذي تعبَّدَنا الله بتلاوته إلى يوم القيامة، وحينما نجد في كتاب الله آياتٍ كثيرةً متعلقةً في حجاب المرأة وسترها، وإخفاء زينتها، وحشمتها، وأدبها، وحيائها، فمعنى ذلك أن هذا العصر الذي تفلتت فيه المرأة، ولبست ما تشتهي، وأبرزت من مفاتنها ما تريد، فشغلت الناس جميعاً صغيرهم وكبيرهم، متزوجهم وغير متزوجهم، ومعنى ذلك المرأة الواحدة قد يفوق خطرها ألف مِدفَع، ونحن كنا مستعمرين قديماً، لكنه استعمار واضح، جندي فرنسي، لابد أن نقاومه، أما الآن فهناك غزو فكري، غزا العالم الثالث، فأحال كل بيت ملهى، وأحال كل بيت مكانًا تُنتَهك فيه حرمات الله عز وجل، فانصرف الناس عن دين الله، فهناك من ترك الصلاة وهو في الستين، واتبع ما تبثه الفضائيات، وأقول لكم هذا الكلام وأرجو الله عز وجل أن تكون الموضوعات التي أختارها موضوعات أساسية، ومصيرية وحاسمة، ومتعلقة بمستقبل إيماننا، ذكرت لكم في الدرس الماضي أحاديث كثيرة كيف أن النبي عليه الصلاة والسلام حذرنا من المرأة فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في المرأة.

اتقوا الخمر والنساء.

فأكبر ما يصرفك عن الله المرأة، ويمكن لأخ أنْ يكون بأعلى درجة من الإيمان، وبأعلى درجة من الإقبال والورع، والسعادة، وهو يعمل في محل كل مَن يدخله مِن النساء الكاسيات العاريات، فلا يمكن إلاّ أنْ تتبدل نفسه فيعرض، ويكون على وجهه غمامة، مِنْ إطلاق البصر، فالوجه فيه ضياء مِنْ غض البصر.

فيا أيها الإخوة ؛ والله لا أبالغ إذا قلت: إن من أكبر الصوارف التي تصرف المؤمنين في آخر الزمان

عن ربهم، وتوقعهم في الإحباط، توقعهم في التقصير وتوقعهم في الحجاب هو هذا البصر، الذي أمرنا أن نغضه.

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: 30)

ألا تريدون أن تكون لنا عبادة نمارسها في اليوم مئات المرات، بل آلاف المرات، كلما غضضت بصرك عن امرأة لا تحل لك أورثك الله حلاوة في قلبك إلى يوم القيامة، وكل شيء محفوظ عند الله عز وجل.

زوجة طلبت من صحابي شيئاً من الدنيا، قال: اعلمِي يا أمة الله أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها الشمس والقمر، فلئن أضحي بك من أجلهن، أفضل ألف مرة من أن أضحي بهن من أجلك.

أيها الإخوة، الآية التي سأبدأ بها موضوع هذا الدرس، وعدتكم أن يكون هذا الدرس في شروط لباس المرأة، وأنا والله متأكد أن كل هذه الشروط غير مطبقة، وأن سبب الفساد تفلت نساء المسلمين من هذه الشروط، طبعاً في الأعم الأغلب، يقول الله عز وجل:

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آَبَائِهِنَّ أَوْ آَبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِالنِّسَاءِ) (وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ((31)

(سورة النور: 31)

أول شيء في هذه الآية أن المرأة مأمورة بصريح هذه الآية أن تستر زينتها كلها، وألا تظهر منها شيئاً أمام الأجانب، وهذا أمر الله عز وجل في القرآن الكريم

(("ولا يبدين زينتهن))

كل شيء زينها الله به ينبغي ألا تبديه للأجنبي، وكل زينة زينها الله بها لتكون محبوبة عند زوجها، ولتكون مرغوبة، ومطلوبة، ومرجوةً، هذه الزينة إنما صممت من أجل الوفاق الزوجي، والحب بين الزوجين، ومتانة العلاقة بينهما، لا من أجل أن تكون هذه الزينة لكل الناس، وإذا كانت لكل الناس دخلنا في فساد عريض، لأن الله عز وجل يقول:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ)

(سورة آل عمران: 14)

فالله عز وجل زين حبَّب المرأة في قلوب الرجال، فلو أن امرأة بالعمل ترتدي أجمل الثياب، وتتحرك حركات لطيفة، وتتكلم كلام لطيفًا رقيقًا فهذه تفتن كل الموظفين، والوضع اختلف، فقد يكون أحد الموظفين عنده زوجة وقد أنجبت له خمسة أولاد، وهي تعاني من نقص في صحتها، فانصرف هذا الرجل إلى هذه الفتاة التي تبدو أمامه حسناء عن زوجته ، فأول فتنة يقع فيها المسلمون الاختلاط، الاختلاط مع إبداء الزينة، وهذا كلام حقيقي، وكلام واقعي، لكن الحق مر، والناس لهم كلمات مضحكة مثل " أختي إن شاء الله"، لا ليست مثل أختك، من قال لك إنها مثل أختك ، قرأت كلمة البارحة أعجبتني، مدرس وطالبة، مدير وسكرتيرة، رجل يعمل في الدعوة وامرأة، وطالبة علم، لو جئت بمائة حالة، إنهما رجل وامرأة في النهاية، ولذلك حينما يخلو رجل بامرأة يأتي الشيطان فيزينها له.

((لا يخلون رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان.))

[رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني]

وهناك أشياء في الإسلام بديهية، لكن لأن مخالفتها عريضة جداً فنؤكد عليها، والله عز وجل أراد أن يميز المرأة المسلمة عن نساء الجاهلية ونساء المشركات، كما بين ابن كثير في تفسيره.

فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تبدي زينتها لمن لا يحل النظر إليها.

وهذه حقيقة، فالوجه من الزينة، بل كل الحسن مجموع في الوجه ، والأعضاء من الزينة

((ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها "))

والطول زينة، وهذا الطول ليس بإمكانها أن تخفيه، والامتلاء زينة، وليس بإمكانها أن تخفي امتلاءها

((ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر " ولم يقل إلا ما أظهرن منها، فإلا ما أظهرن موضوع ثانٍ، والموضوع كله اختلف، أما " إلا ما ظهر منها "))

دون أن تستطيع إخفاءه، كلون ثيابها، وطولها، وامتلائها.

وفي الآية كما قال ابن كثير رحمه الله تعالى تصريح لوجوب ستر العنق والصدر، وذلك لقوله تعالى:

((" وليضربن بخمرهن على جيوبهن "))

غطاء الرأس، كانت نساء الجاهلية يضربنه إلى خلف الظهر، فيبدو العنق والوجه والأذنان، جاء الأمر أن يضرب هذا الجلباب على الصدر مروراً بالوجه، فهذا الخمار كما قال الله عز وجل "

((وليضربن بخمرهن على جيوبهن "))

والجيب هو الصدر، وهذا الخمار ستر الوجه والعنق والأذنين والصدر، وهذه الآية، قرآن، قرآن يتلا إلى يوم القيامة، كلام خالق الأكوان، ذكر القرطبي في أمور الدين لا يوجد رأي شخصي.

((إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم.))

وبالدين لا توجد أهواء، ولا واقع مر، فالواقع المر يجب أن يغير قال القرطبي: إن النساء كن في الجاهلية إذا غطين رؤوسهن بالأخمرة وهي المقانع، أسدلنها من وراء الظهر كما يصنع النبط، فيبقى النحر والعنق والأذنان لا يسترهما شيء، فأمر الله تعالى بأن يضرب الخمار على الجيوب، والجيوب ؛ هي الصدور، وهذه واحدة، إذاً خمار الرأس كان يضرب إلى الظهر، ويبقى الوجه والعنق والأذنان مكشوفة فجاء الأمر

((" وليضربن بخمرهن على جيوبهن))

" تستر الوجه، والعنق، والصدر وفي آية ثانية:

((" ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن "))

إذاً الأرجل زينة، وزينة الأرجل، حتى الكعب، يدل على أن النساء يجب عليهن أن يسترن أرجلهن أيضاً، وهذا نص على أن الرجلين والساقين مما يخفى، ولا يحل إبداؤه، وأنا لا أنقل لكم من عندي شيئاً، فلا يوجد إنسان بإمكانه أن يكون مشرعاً، بل أنقل لكم ما في بعض كتب التفسير الراقية القرطبي كتاب تفسير كبير جداً، وابن كثير، حول آيات الحجاب.

ويشهد لهذا من السنة حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنهما قال: قال عليه الصلاة والسلام: مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرْ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ

((: فَكَيْفَ يَصْنَعُ النِّسَاءُ بِذُيُولِهِنَّ قَالَ يُرْخِينَ شِبْرًا، فَقَالَتْ إِذًا تَنْكَشِفُ أَقْدَامُهُنَّ قَالَ فَيُرْخِينَهُ ذِرَاعًا لَا يَزِدْنَ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.))

[رواه الترمذي]

إذاً المرأة مستثناة من حديث جرالإزار، إذْ يجب أن يكون الجلباب سابغاً، وفي الحديث رخصة للنساء في جر الإزار لأنه يكون أستر لهن.

وقال البيهقي: وفي هذا دليل على وجوب ستر قدميها، ومن خالف هذا فقال: إن القدمين ليستا بعورة، فإنه ليس معه دليل.

هذا ما جاء في القرطبي وفي ابن كثير، حول ضرب الخمار على الصدر، وحول عدم إظهار الرجلين بكل مساحاتهما، ثم إن الله عز وجل في موضوع آخر يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (59))

(سورة الأحزاب: 59)

والله أيها الإخوة لو لم يكن في الكتاب إلا هذه الآية لكفت، بربكم لو أن امرأةً تستر كل مفاتنها، أقول كل مفاتنها، ولا يرى منها شيء ، هل يمكن لشاب أن يُسمِعها كلمة واحدة، مستحيل

((ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين"))

أما الروعة بكلمة أدنى.

إذا رأيت في الطريق شباباً يرتدون ثياب الفتوة، فماذا تظن ؟ تظنهم طلاب مدرسة، يا ترى أن يرتدي الشاب هذه البذلة الخضراء هل هذا دليل يقيني على أنه طالب مدرسة، أم دليل ضعيف جداً، بل هو أدنى دليل.

فالمسلمة لا يكفي أن تستر مفاتنها فتكون مؤمنة فقط، فهناك حقوق الزوج، وهناك تربية الأولاد، ومعرفة الله، وأداء فرائضها وحسن رعايتها لزوجها، وأولادها، وطاعتها لربها، وخشيته، وهناك أشياء كثيرة، أدنى ما يشير إلى أنها مسلمة، أنها مستورة " ذلك

((أدنى أن يعرفن".))

أنا حينما أرى شابًا يرتدي بذلة خضراء، أقول: هذا طالب، أما قد يكون مطرودًا من كل مدارس القطر، وقد يكون آخذ أصفار بكل المواد ، لكن أقل دليل يشير إلى أنه طالب هذا الثوب.

فهناك نساء يتوهمن أنهن لمجرد أن ترتدي إحداهن ثياباً سابغةً ساترةً هي مسلمة كبيرة، لا، بقي عليها أن تعرف الله، وأن تؤدي الفرائض، وأن ترعى حق زوجها، وأن ترعى حق أولادها، وأن تقبل على الله، فهناك واجبات كثيرة تنتظرها، لكن أدنى ما يشير إلى أنها مسلمة حجابها، فإن لم تكن محجبة، فالحد الأدنى غير متوافر، إذاً إيمانها بقلبها فهذا كلام مضحك، وتصلي، وهي مصدر فتنة لكل من يراها في الطريق.

ولذلك فالآن عندنا شيء آخر في الحجاب، أن ترتدي الجلباب وهي ترتدي ثيابًا عادية، ولا بد من أن ترتدي فوق الثياب جلباباً نسميه معطفًا الآن في بلادنا، أو عباءة في بلاد الخليج، وهو ثوب يغطي ثيابها، وهذا الثوب فضفاض، ويخفي كل خطوط جسمها، وهناك معاطف ضيقة، على قدر جسم المرأة، وهذه المعاطف لا تعد جلباباً، فالجلباب هو الثوب الساتر الخارجي، وهناك ثياب من قطعتين، وهذه غير شرعية، ولا بد من ثوب ساتر فضفاض، والأكمل أن يغطي رأسها مع جسمها، وفي بعض توجد البلاد في تقاليد معينة، وعلى كلٍ فلا بد من ثوب ساتر هو الجلباب، ولا بدَّ أن تكون المرأة المسلمة مجلببةً ومنقبةً، وهذا هو الحق ولا أريد أن أحرج أحدًا، ولكن هذا هو الكمال، فأنت ينبغي لك أن تصل إلى هذا المستوى، أو أن تضع هذا الكمال نصب عينيك.

وبعض العلماء يقول: ينبغي للمرأة إذا خرجت من دارها أن تستر بدنها كاملاً، وأن تلبس العباءة، أو الجلباب كما جاء ذلك في الآيتين السابقتين، وذلك أستر لها، وأبعد عن أن يصف حجم رأسها وأكتافها وهذا أمر يطلبه المشرع الحكيم

((ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين"))

وأنا أتحدى أن تستمع امرأة تستر كل مفاتنها وفق الشريعة الإسلامية، ترتدي الجلباب، وتضرب خمارها على صدرها، ولا تضرب بأرجلها حتى لا يعلم ما تخفي من زينتها، فلو طبقت هذه الآيات الثلاث، فلا يمكن أن يتحرش بها شاب على الإطلاق، لأنه لا يرى منها شيئاً، وسبحان الله فالحجاب له ميزات سلبية، فقد تكون فتاة في أعلى درجات الإيمان والقرب من الله، لكن الله عز وجل ما وهبها شكلاً جاذبًا للنظر، فالحجاب يسترها، ويمنع عنها التعليقات المؤذية، فإن كانت على جانب من الجمال يمنع عنها التعليقات، وإذا كانت على جانب آخر من عدم الجمال يمنع عنها التعليقات، فهي ملكة، فالمرأة إذا التحفت بالجلباب عرفت بأنها من الحرائر، ومن العفائف المحصنات الطيبات، فلا يؤذيهن الفساق بما لا يليق من الكلام، وكلما كشفت المرأة عن بعض مفاتنها، ونحن عندنا في اللغة لسان الحال ولسان المقال، فقد تقول امرأة: تعال وانظر إلي، بلسان مقالها، وهذا قلّما تفعله امرأة، إلا الفاجرات، أما ملايين النسوة يدعون الرجال إلى النظر إليهن، وأن يملأ الرجال أعينهن من محاسنهن عن طريق التكشف فقط، فتكشيف المرأة عن بعض مفاتنها دعوة صريحة بلسان الحال للرجال أن يتحرشوا بها.

وهناك نقطة ثانية دقيقة،

((عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ الرُّكْبَانُ يَمُرُّونَ بِنَا وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحْرِمَاتٌ فَإِذَا حَاذَوْا بِنَا سَدَلَتْ إِحْدَانَا جِلْبَابَهَا مِنْ رَأْسِهَا عَلَى وَجْهِهَا فَإِذَا جَاوَزُونَا كَشَفْنَاهُ))

[أخرج أبو داود]

وعن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عنه وعَنها قالت: كنا نغطي وجوهنا من الرجال، وكنا نتمشط قبل ذلك بالإحرام.

وهذه الأدلة التي يجب أن تكون واضحة عند الإخوة الأكارم، الآن الشرط الثاني، أول شرط

((أن يستوعب الثوب كل الجسم))

والشرط الثاني

((ألا يكون زينة في نفسه،))

وهذا الشرط الثاني قال تعالى:

((ولا يبدين زينتهن "))

وهذا يشمل الثياب الظاهرة، فإذا كانت هذه الثياب الظاهرة بألوان زاهية، ونقوش رائعة، وزخرفات جميلة صار الثوب زينة، وقد أُمِرتْ أن تخفي زينتها، فإذا كان ثوبها زينة، إذْ بعض أغطية الرأس في بعض البلاد الإسلامية نوعٌ من الحرير بألوان جميلة، متناسبة، فغطاء الرأس يجذب النظر بشكل صارخ، فالشرط الثاني ألا يكون الثوب في حد ذاته زينةً.

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

(سورة الأحزاب: 33)

وقد ورد عن النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((ثَلَاثَةٌ لَا تَسْأَلْ عَنْهُمْ))

أي فإنهم من الهالكين

((رَجُلٌ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ وَعَصَى إِمَامَهُ وَمَاتَ عَاصِيًا وَأَمَةٌ أَوْ عَبْدٌ أَبَقَ فَمَاتَ وَامْرَأَةٌ غَابَ عَنْهَا زَوْجُهَا قَدْ كَفَاهَا مُؤْنَةَ الدُّنْيَا فَتَبَرَّجَتْ بَعْدَهُ فَلَا تَسْأَلْ عَنْهُمْ وَثَلَاثَةٌ لَا تَسْأَلْ عَنْهُمْ رَجُلٌ نَازَعَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ رِدَاءَهُ فَإِنَّ رِدَاءَهُ الْكِبْرِيَاءُ وَإِزَارَهُ الْعِزَّةُ وَرَجُلٌ شَكَّ فِي أَمْرِ اللَّهِ وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ))

[رواه أحمد عن فضالة بن عبيد]

تعريف التبرج أن تبدي المرأة من زينتها، ومحاسنها ما يجب عليها ستره مما تستدعي به شهوة الرجل.
وقد ذكرت نقطة دقيقة، هي أن شهوة الطعام تبدأ من الداخل، فلو وضعت إنسانًا بغرفة، ولم ير طعاماً، ولا شم رائحته، ولا رأى منظره ، ولا صورته، ولا سمع حديثًا عنه، ومع ذلك فإنه يجوع، أما شهوة الجنس فعلى عكس ذلك، إذ لم يكن هناك إثارة خارجية فلا يشتهي، إذا كان هناك حجاب كامل فالله عز وجل قال:

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31))

(سورة النور)

فلا نقطف ثمار الحجاب، إلا إذا طبَّقه جميع النسوة، و نحن مأمورون أن نغض البصر، وهن مأموراتٌ أن يتحجبن، أما لو حدث تفلت من هذا الأمر، فنحن نطيع الله، ولكن لا نقطف ثمار الحجاب، لأنّ ثمار الحجاب تُقطَف كاملة حينما تطبقه جميع الأخوات المؤمنات، وفي أمثلة واقعية ؛ إذا حَجَّ المسلمُ بيت الله الحرام، ففي الأعمِّ الأغلب يجد النساء هناك يتحجبن حجاباً كاملاً، فالإنسان قد لا يأتيه خاطر نسائي في الشهر مرة، فهذا الخاطر يغيب عنه كلياً، لأنه لا توجد إثارة، والشهوة تبدأ في الإثارة الخارجية، فإذا تحجبت النسوة، وغض المؤمن بصره فهذان إجراءان وقائيان.

والنبي عليه الصلاة والسلام، قرن التبرج بالشرك والزنا والسرقة، فالنبي حينما بايع النساء، بايعهن على أن لا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين

((فَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ جَاءَتْ أُمَيْمَةُ بِنْتُ رُقَيْقَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُبَايِعُهُ عَلَى الْإِسْلَامِ فَقَالَ أُبَايِعُكِ عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكِي بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا تَسْرِقِي وَلَا تَزْنِي وَلَا تَقْتُلِي وَلَدَكِ وَلَا تَأْتِي بِبُهْتَانٍ تَفْتَرِينَهُ بَيْنَ يَدَيْكِ وَرِجْلَيْكِ وَلَا تَنُوحِي وَلَا تَبَرَّجِي تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى *))

[رواه أحمد]

والعطف يقتضي المشاركة، والموازنة، فالمبايعة كانت على ألا تشرك، وألا تسرق، وألا تزني، وألا تقتل، وألا تأتي ببهتان تفتريه وألا تنوح على الميت، وألا تتبرج تبرج الجاهلية الأولى.

والشرط الثاني

((: ألا يكون الثوب زينةً في نفسه.))

والشرط الثالث

((: أن يكون صفيقاً ؛))

أي ثخيناً لا يشف، فالثياب الرقيقة ليست حجاباً، لأنها تشف عن لون البشرة، وبالمناسبة حتى أكون دقيقًا معكم، كل هذا الكلام لا علاقة له بما ترتديه المرأة أمام زوجها، فمباح لها أن ترتدي كل الثياب المحرمة، وليس بين الزوج وزوجته أي مانع أن ترتدي له ما تشاء، والأفضل أن ترتدي له أجمل الثياب، ولو كانت هذه الثياب غير محتشمة، وهذا الأفضل، وما يقال في البيت لا يقال في الطريق، لأن النبي قال

((مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ *))

(رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود)

كيف يكون الزواج أغض للبصر ؟ إذا بدت المرأة بأبهى زينة أمام زوجها، ولو ظهرت أعضاؤها أو مفاتنها فلا مانع، وبالعكس، فهذا الأولى، فما ترتديه المرأة أمام زوجها لا علاقة له بهذا الدرس إطلاقاً. أن يكون صفيقاً لا يشف ؛ أي ثخينًا، لأن التستر لا يتحقق إلا به، وأما الشفاف فإنه يزيد المرأة فتنة وزينة.

((عَنْ أُمِّ عَلْقَمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ دَخَلَتْ حَفْصَةُ بِنْتُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَلَى عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى حَفْصَةَ خِمَارٌ رَقِيقٌ فَشَقَّتْهُ عَائِشَةُ وَكَسَتْهَا خِمَارًا كَثِيفًا *))

(رواه مالك في الموطأ)

وفي رواية سعيد بن منصور، قالت عائشة

((أما تعلمين ما أنزل الله في سورة النور، ثم دعت بخمار فكستها إياها *))

(رواه سعيد بن منصور في سننه)

وهذه إشارة إلى من تسترت بثوب شفاف فإنه لم يستر، وإنها لم تتستر، ولم تأتمر بقوله تعالى

((وليضربن بخمرهن على جيوبهن ".))

والمشكلة الآن هناك ثياب صفيقة ضيقة، وكأنَّ المرأة عارية، ولا يخطر في بال أحد وصفٌ أبلغُ من وصف النبي "كاسيات عاريات" هي عارية تماماً، لكنها مكسوَّة بثياب ضيقة، ولأن الغرض من الثوب إنما هو رفع الفتنة، ولا يحصل هذا إلا بالثوب الفضفاض الواسع، أما الضيق فإنه ستر لون البشرة لكنه وصف حجم الجسم، أو بعضه.

أيها الإخوة ؛ إنَّ فهمكم كفاية، والأمر واضح، هذه الثياب الضيقة التي ترتديها النساء المسلمات محرمة أشد التحريم، وليس غريباً أن ترى امرأةً تبرز كل مفاتنها، أما الغريب أن امرأة ترتدي بنطالا وتضع على رأسها غطاء رقيقًا، أمسلمة هي ؟ فما قيمة هذه القماشة التي على رأسك أمام هذه الثياب الضيقة التي وصفت كل جسمك ؟ فعلاً إنّها مفارقة غريبة ، فالأولى أن يكون هذا واضحًا عندكم، يعني فتاة من بيت مسلم أن يسمح لها أبوها أن ترتدي بنطالاً، ولا أقول ضيقًا، فالبنطال فيه تشبه بالرجال، أن تسير ببنطال وعلى رأسها خمار، على أنها هي مسلمة، لا هذا كلام غير مقبول أبداً.

الشرط الخامس

((ألا يكون مبخراً مطيباً،))

لأنه كما قال عليه الصلاة والسلام: أيُّمَا

((امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا مِنْ رِيحِهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ *))

(رواه النسائي عن أبي موسى الأشعري)

زانية، كم هن نساء المسلمين بعيدات عن أحكام الشرع، بل إن الشريعة السمحاء شددت على من وضعت طيباً بأن تغتسل كغسل الجنابة إن أرادت الخروج ولو إلى المسجد، والمرأة التي استعطرت يجب عليها أن تغتسل غسل الجنابة.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّمَا امْرَأَةٍ تَطَيَّبَتْ ثُمَّ خَرَجَتْ إِلَى الْمَسْجِدِ لِيُوجَدَ رِيحُهَا لَمْ يُقْبَلْ مِنْهَا صَلَاةٌ حَتَّى تَغْتَسِلَ اغْتِسَالَهَا مِنْ الْجَنَابَةِ))

[رواه النسائي]

((وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ لَقِيَ امْرَأَةً مُتَطَيِّبَةً تُرِيدُ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: يَا أَمَةَ الْجَبَّارِ أَيْنَ تُرِيدِينَ ؟ قَالَتْ: الْمَسْجِدَ، قَالَ: وَلَهُ تَطَيَّبْتِ ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: أَيُّمَا امْرَأَةٍ تَطَيَّبَتْ ثُمَّ خَرَجَتْ إِلَى الْمَسْجِدِ لَمْ تُقْبَلْ لَهَا صَلَاةٌ حَتَّى تَغْتَسِلَ *))

[رواه النسائي]

إذاً عطر النساء له لون فقط تحت الحجاب، وعطر الرجال له رائحة فقط من دون لون.

الشرط السادس

((: من الفطرة التي شرعها الله لعباده أن يحافظ الرجل على رجولته، والأنثى على أنوثتها.))

والآن المرأة لها شيئان ؛ فيها جمال، وفيها أنوثة، الأنوثة غير الجمال، فلما تتكشف المرأة، وتخالط الرجال، وتحد النظر إليهم وتتكلم بصوت مرتفع، تبقى جميلة لكن فقدت أنوثتها، وأجمل ما في المرأة أنوثتها، فلذلك مما يذهب أنوثة المرأة تشبُّهها بالرجال، فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ

((لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنْ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنْ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ *))

(رواه البخاري)

والرجل الذي يتشبه بالمرأة فهو مخنث، وقد لعنه رسول الله والمرأة المتشبه بالرجل مسترجلة، وفي حديث آخر

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَشَبَّهَ بِالرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ وَلَا مَنْ تَشَبَّهَ بِالنِّسَاءِ مِنْ الرِّجَالِ *))

(رواه أحمد)

وقال عليه الصلاة والسلام :

((ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرَجِّلَةُ وَالدَّيُّوثُ وَثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ وَالْمُدْمِنُ عَلَى الْخَمْرِ وَالْمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى))

[رواه النسائي عن ابن عمر]

هؤلاء الثلاثة لا يدخلون الجنة.

الشرط السابع: ألا ترتدي المرأة ثياباً تشبه ثياب الكافرات، فأنتِ مؤمنة متميزة، فثياب الكافرات يجب أن تبتعد النساء عنه.

((وعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ *))

(أخرجه أبو داود)

قال عليه الصلاة والسلام:

((كل نفس تحشر على هواها فمن هوي الكفرة فهو مع الكفرة ولا ينفعه عمله شيئا))

[أخرجه الطبراني في الأوسط عن جابر]

الشرط الثامن

((ألا تكون ثياب شهرة))

صرعة حديثة، وهذه صرعات الأزياء الحديثة لا تليق بالمرأة المسلمة أن ترتديها، فهناك ثمانية شروط ينبغي لنا أن تنتظم ثياب المرأة، وثياب المرأة جزء من دينها، وهو جزء لا يتجزأ، بل إنها عبادة تختص بالنساء، وإن هذه المرأة المسلمة التي منحها الله جمالاً لتسهم في إعفاف الشباب، حينما تتحجب تسهم في إعفاف الشباب، إذاً هي عبادة، وبهذه العبادة تميزت بها النساء عن الرجال، وعندها عبادة كاملة هي أن تسهم في إعفاف الشباب، تستر هذه الزينة التي أكرمها الله بها، والتي جعلها لزوجها ولمحارمها، عن أعين الرجال الذئاب.

وأرجو الله سبحانه وتعالى أن تترجم هذه الحقائق، وهذه النصوص وهذه التوجيهات إلى واقع، ومناسبة هذا الدرس أن الله لا ينصرنا على أعدائنا إلا إذا أقمنا شرعه، وأحكام دينه، والإنسان مسؤول عن بيته وعن نفسه، فإذا أقمت الإسلام في بيتك، وفي عملك فقد أديتَ الذي عليك.

ومرة أحد خلفاء بني أمية أراد أن يخطب قبل صلاة العيد، فأمسك به أحد التابعين، وقال له: هذا لم يفعله النبي، فلم ينصع لنصيحته، فصعد المنبر، فقال أحدهم: أمَّا هذا فقد أدَّى الذي عليه.

وأنت حينما تقيم الإسلام في بيتك وفي عملك أديت الذي عليك، ولا تؤاخذ إلا عن هاتين المملكتين اللتين ملّكك الله إياهما

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (130) :فضل العقل .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-10-29

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

موضع الدرس اليوم فضل العقل ، الآيات التي تحدثت عن العقل بشكل أو بأخر تقترب من الألف ، والعقل أصل في الدين ، إلا أن العقل يختلف من إنسان إلى آخر ، لذلك نقول العقل الصريح ، هناك عقل تبريري ، وهناك عقل مرتبط بالأهواء والمصالح ، الإنسان كائن منطقي يفلسف عمله ، يفلسف انحرافه ، يفلسف طغيانه ، يفلسف جريمته ، فالعقل متبدل ومتغير من إنسان إلى آخر ، فإذا قلنا العقل فقط قد يكون عقل إنسان يخالف مصلحته ، ولكن الذي أتمنى أن يكون واضحاً لديكم أصل العقل العقل الصريح ، هذا الجهاز الخطير الذي أودعه الله فينا ، يجب أن يتوافق مع الشرع مائة بالمائة ، ذلك أن الشرع من عند الله ، هو النقل ، والعقل مقياس أودعه الله فينا ، والنقل من عند الله ، والفرعان إذا اتحدا في أصل واحد فهما متساويان ، لذلك ليس غريباً أن يؤلف أحد كبار العلماء كتاباً قيماً في حتمية توافق العقل مع النقل.

هل يعقل أن يعطنا الله مقياساً لو أعملناه في وحيه ، لوجدناه غير صحيح ؟ مستحيل، لأن العقل من صنع الله ، والنقل وحي الله ، إذاً لابد من التوافق ، لذلك بعض العلماء كتب كلمات رائعة حول العقل أردت أن أنقلها لكم مع الشرح ، قال:

اعلم أن لكل فضيلة أساً ، ولكل أدب ينبوعاً ، وأس الفضائل وينبوع الآداب هو العقل ، يعني إنسان مخلوق في دنيا محدودة ، أما هو يعد لحياة أبدية ، فالعقل يقتضي أن تتنعم في هذه الحياة الدنيا وتخسر الآخرة أم أن تتنعم إلى أبد الآبدين في جنة الله عز وجل ، العقل يقتضي أن تعمل للآخرة ، لذلك العلماء قالوا: ما من إنسان يعمل للدنيا وينسى الآخرة إلا وهو في الحقيقة مجنون ، ولو كان يحمل أعلى شهادة، تفوقه العلمي يسمى ذكاءً ولا يسمى عقلاً ، ولكن حينما غفل عن الحقيقة الكبرى في الكون ، وغفل عن الآخرة ، وغفل عن سر وجوده إذاً هو مجنون والآية الكريمة:

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2))

(سورة القلم: 1 - 2)

انت أعقل العقلاء ، لذلك لما رأى النبي مجنوناً في الطريق سأل أصحابه سؤال العارف ، من هذا ؟ قالوا هذا مجنون ، قال: لا هذا مبتلى المجنون من عصى الله ، يجب أن تؤمن ، وأن تعتقد بكل ذرة في كيانك ، أن هذا الذي لا يصلي ، ولا يتعرف إلى الله ، وهو غارق في المعاصي والآثام مجنون ، ولو

كان يحمل أعلى شهادة ، وأن هذا الذي يغتصب أموال الناس هو يتوهم نفسه شاطراً ذكياً ، لا ، هو أحمق لأنه سوف يسأل عن كل ذرة.

((فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة: 7 - 8)

قال العقل الذي جعله الله للدين أصلاً وللدنيا عماداً ، إنسان عاقل يعيش حياة هادئة، حياة فيها سلامة ، فيها سعادة ، أنه أخذ ما له ، وترك ما ليس له ، تحرك بحجمه ، بنى علاقاته بوضوح ، فالناس أحبوه وكسب مال حلال ، وأسس أسرة ، وربا أولاده ، تجد إنسان استعمل عقله في الآخرة فكسبها ، استعمل عقله في الدنيا فربحها ، فقال جعله الله تعالى للدين أصلاً ولدنيا عماداً.

أيها الأخوة:

يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام:

((ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله))

(أخرجه ابن المجبر في العقل وعنه الحارث بن أبي أسامة)

الإنسان غير العقل يشقى ويشقي ، حدثني صديق وزميل في العمل عنده زوجة يحبها حباً جما ، إلا أنها لا تنجب ، وهو غير مستعد أن يفرط بها ، وفي الوقت نفسه طاقت نفسه لولد يرثه من بعده ، ففاجأته زوجته التي لا تنجب بأن خطبت له دون أن يطلب منها ، خطبت له فتاةً لعل الله عز وجل يكرمه بولد منها ، هو مكافأة لها على هذه البادرة الطيبة اشترى لها من الحلي ما اشترى لهذه الزوجة الثانية ، وأكرمها إكراماً منقطع النظير ، ثم أن الزوجة الثانية أنجبت ، أقسم لي بالله وهو عندي صادق قال لي: مضى على زواجي من هذه المرأة الثانية أكثر من خمسة عشرة عاماً ولم تقع في البيت ولا مشكلة ، قال لي البنت حينما علمت أن هذه الزوجة الأولى هي التي خطبتها أحبتها ، والزوجة الأولى في مكانتها العلية.

الآن كم من امرأة زوجها في أمس الحاجة إلى زوجة ثانية ، وهو لا يتخلى عنها أبداً ، تقيم النكير ، وتجعل حياة زوجها جحيماً لا يطاق العاقل يسعد ويُسعد ، أما ضعيف العقل يشقى ويُشقي ، لذلك أنا أقول ولا أبالغ والله ما من عطاء إلهي يفوق في قيمته عطاء العقل أن يهبك الله عقلاً راجحاً ، يعينك أن تعيش بين الناس ، على أن يحبك الناس ، الآن في إنسان فنان باكتساب الأصدقاء ، بل إن بطولته أن يحول عدوه إلى صديق وكان عليه الصلاة والسلام ، أعداءه الألداء صاروا أحبابه ، وأصحابه في إنسان أحمق يحول أصدقاءه إلى أعداء ، اختصاص ، تصرفاته ، كلامه استكباره ، رده القبيح بالمعروف ، إهماله لأصحابه ، يجعل أخلص الناس إليه عدواً له ، أكاد أقول أن العقل ينعكس في

التصرفات حكمة ، وحينما قال الله عز وجل:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيرا)

(سورة البقرة: 269)

يعني أنت بالعقل والحكمة ، تسعد بزوجة من الدرجة الخامسة ومن دون عقل ولا حكمة تشقى بزوجة من الدرجة الأولى ، أنت بالعقل والحكمة تعيش بدخل محدود ، ومن دون عقل وحكمة تدمر نفسك وأنت بدخل غير محدود ، يقول عليه الصلاة والسلام : ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى.

أيها الأخوة الكرام:

أحد كبار الصحابة ، اسمه نعيم بن مسعود ، هذا زعيم غطفان وجاء على رأس جيش ليحارب النبي عليه الصلاة والسلام في معركة الخندق ، له قصة رائعة ، كان مستلقياً في خيمته ، وهو يحاصر النبي عليه الصلاة والسلام ، جرى حوار ذاتي ، داخلي ، الآن إذا إنسان ركب وسافر وحده ، ساكت ، هو ليس ساكتاً ، هناك حوار مع ذاته ، وكل واحد منكم إذا ماشي بالطريق وهو صامت ، أو جالس ينتظر وهو صامت ، لا بد من حوار مع الذات ، هذا الحوار مع الذات مهم جداً ، فهذا الصحابي الجليل يخاطب نفسه ، يقول ويحك يا نعيم ، أنت عاقل ، لمَ جئت تحارب هذا الرجل ، هل سفك دماً ، هل انتهك عرضاً ، هل اغتصب مالاً ، أيليق بك يا نعيم ، أن تحارب رجلاً رحيماً ، حاور نفسه ، كم إنسان يرتكب أبشع الأغلاط وهو غافل ، قال أيليق بك يا نعيم ، وأنت العاقل أن تحارب هذا الرجل ، ماذا فعل هذا الرجل ؟ ماذا فعل أصحابه ؟ ومازال يحاور نفسه ، ويؤنبها ، ويبحث عن الصواب ، إلى أن وقف واتجه نحو معسكر النبي ، ودخل على رسول الله ، فالنبي دهش ، زعيم قبيلة معادية، قال له نعيم ؟! قال له نعيم ، قال يا نعيم ما الذي جاء بك إلينا ، قال جئت لأعلن إسلامي ، سبحان الله بساعة تفكير ، ساعة إعمال عقل ، ساعة تأمل ساعة حديث مع الذات ، انقلب من رجل مشرك يحارب الله ورسوله ، إلى رجل مؤمن ، قال له امرني يا رسول الله ، المعركة على وشك أن ينتهي الإسلام ، قال بعض من كان مع النبي أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته ، الله عز وجل قال:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (11))

(سورة الأحزاب: 11)

الإنسان المراقب يوقن أنه بقي للإسلام ساعات ، ما اجتمع في الجزيرة عشرة آلاف مقاتل جاءوا ليستأصلوا الإسلام ، قال له امرني ، قال له أنت واحد ، فقال عليه الصلاة والسلام: خذل عنا ما استطعت ، هذا الرجل الواحد استطاع أن يدخل إلى قريش ، وأن يوقع بينها وبين اليهود الذين نقضوا

عهدهم مع النبي ، قال اليهود ندموا على نقض عهدهم مع محمد ، الآن سيطلبون منكم رهائن كي لا تتخلوا عنهم ، وهذه الرهائن سوف يقدمونها إلى النبي ليقتلهم ، وقال لقريش كلام معاكس ، وقع بين قريش واليهود ما فيه الشقاق ، والله عز وجل دعم الموقف لأنه أرسل رياحاً عاتية ، قلبت قدورهم ، وأطفأت نيرانهم ، واقتلعت خيامهم ، وكفى الله المؤمنين القتال.

طيب هذا إنسان من مقاتل مشرك إلى جهنم ، لما أعمل عقله وفكر الواحد منا المفروض إذا كان له عمل لا يرضي الله ، في بيته معصية زوجته ليست مستقيمة ، لم يربِ أولاده ، في دخله شبهة ، يراجع نفسه أيليق بك وأنت من طلاب العلم أن تعصي الله ، أن تفعل كذا وكذا ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى ، ويقول عليه الصلاة والسلام:

لكل شيء دعامة ، ودعامة عمل المرء عقله ، فبقدر عقله تكون عبادته لربه ، أما سمعتم قول الفجار:

((وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10))

(سورة الملك:10)

يعني مثلاً: أصحاب النبي الذين أمنوا بالنبي ، ونصروه وعزروه ، واتبعوا النور الذي انزل معه ، وصدقوه ، وحاربوا معه ، أين هم الآن ؟ في أعلى عليين ، ما من مسلم من مليار ومائتين مليون كلما ذكر أحد يقول سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ من ترض على أبو جهل، لعنه الله والملائكة والناس أجمعين إلى يوم الدين ، أبو جهل ، أبو لهب ، هؤلاء أعداء الحق ، لعنوا في الدنيا والآخرة ، ما استخدموا عقلهم ، خضعوا لبيئتهم ، خضعوا للتقاليد والعادات ، الآن معظم الناس لا يستخدمون عقولهم يعيشون لحظتهم فقط ، معه مال يفعل كما يفعل معظم الناس يرتكب المعاصي والآثام ، ما في عنده حلال وحرام ، ما في عنده قيم ، ما في عنده مبادئ ، بقلك أنا مع الناس ، يسمونه الخط العريض بالمجتمع قال تعالى:

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة الأنعام: 116)

فأنت مع الأكثرية أم مع الأقلية ، يجب أن تكون مع الأقلية المؤمنة مع الأقلية العاقلة ، مع الأقلية المفكرة.

سيدنا علي قال: يا بني الناس ثلاثة عالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولن يلجئوا إلى ركن وفيق ، فاحذر يا كميل أن تكون منهم.

في عندنا عالم رباني ، ومتعلم على سبيل النجاة ، وفي عندنا همج رعاع، هؤلاء يسمون السوقة ، دهماء الناس ، هذه الغوغائية ، كن مع النخبة ، كن مع الأقلية العاقلة ، كن مع الذي يؤثر في البيئة ولا يتأثر في البيئة.

يقول سيدنا عمر: أصل الرجل عقله ، وحسبه دينه ، ومروءته خلقه.

ويقول الإمام حسن البصري: ما استودع الله أحداً عقلاً إلا استنقذه به يوماً ما.

يعني أيام الإنسان موقف واحد يسعد به إلى أبد الآبدين ، كسيدنا نعيم لحظة عقل واحدة ، نقلته من مشرك مقاتل إلى جهنم ، إلى مؤمن صحابي جليل ، فتترض عنه الآن.

وقال بعض الأدباء صديق كل امرئ عقله ، وعدوه جهله ، أنا لا أرى عدواً أعدى من الجهل ، قد يكون لنا عدو ، اليهود لعنهم الله ، ولكن أشد عداوة لنا منهم جهلنا ، لأن الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به.

في مزارع من محافظة من محافظات بلدنا جاء إلى السوق ليشتر سماد في عنده بيوت بلاستيكية ، تقريباً غلتها مائتين ألف بأيام الشتاء وكلها حاملة ، فأراد أن يسمدها ، اشترى سماد ذواب ، قال له البائع تذوب لتر بالبرميل وترش ، بدي أكثر ، قام وضع لترين ، استيقظ ثاني يوم كله أسود ، يعني خسر مائتين ألف بيوم واحد ، لأنه ضاعف الكمية ، استخدم جهله ، ما استخدم علمه.

حدثني صديق لي يعمل في المطار قال لي عامل التنظيفات ، أثناء تنظيف الطائرة وجد أن العجلة لها غرفة كبيرة ، لما الطائرة تحلق ترفع العجلات ، حتى لا تكون العجلة مقاومة للهواء ، ولاحظ الطائر لما يطير يجعل أرجله هكذا ، حتى لا تكون الأرجل مقاومة للهواء ، كل الطائرات بعد التحليق ، هذه العجلات ترتفع وتدخل في جسم الطائرة ، فهذا العامل وجد غرفة واسعة ، قال أنا أجلس في الداخل ، لا أدفع أجرة طائرة ولا فيزا ، ولا تكيت ، ولا شيء ، شاف نفسه ذكي جداً ، ما في أزكى منه القصة وقعت في مطار دمشق ، صعد وجلس ، الطائرة ذاهبة إلى ليبيا حلقت ، بعد ما ارتفعت قليلاً أرضية الغرفة أصبحت هكذا تمهيداً لدخول العجلة ، فلما الأرض هكذا أصبحت وقع ميت ، هو أراد أن يموت؟! لا أراد أن يكون أزكى من كل الناس ، يصل إلى بلد من دون بطاقة طائرة من دون تأشيرة ، من دون فيزا ، من دون كل شيء ، فكانت منيته ، هذا الأخ الذي حدثني بالقصة قال لي أنا أعرف مكان في القسم الداخلي بس لو ركب ، الحرارة خارج الطائرة 50 تحت الصفر ، يموت بربع ساعة من البرد ، ما الذي دمره ؟.

مرة حدثني أخ قال لي والله كنت راكب مع شخص باتجاه المطار هذا الشخص يبدو متفلت من منهج الله، وجد جرو صغير ، وقت شتاء وبرد قارص ، والزفت لونه أسود يمتص حرارة ، فكان الطريق المعبد أدفئ من التراب ، هذا الكلب بردان قاعد ، فقدر السائق الماهر يقص يديه دون أن يميته ، أطلق ضحكة هستيرية ، أنه قدر فقط أن يقص يده ، الأخ الذي حدثني راكب إلى جانبه ، احتقره الحقيقة ، يبدو أنه لم يتكلم ولا كلمة قال لي والله السبت القادم بنفس المكان العجلة ضربة فنزل حتى يصلحها فك البراغي ، ورفع السيارة بالرافعة وسحب الدولاب وقعت فوق الدولاب السيارة ، والدولاب فوق

رسغيه، فانهرسوا ، بعد دقائق يداه اسودت ذهب إلى المستشفى وقطعت يداه الاثنتين ، أقسم لي بالله وهو حي يرزق وأعرفه ، قال لي والله بعد ثمانية أيام كان يداه مقطوعتين ، ما الذي قطع يديه ، جهله بالله ، هذا كلب ما في له أحد له رب الكلب.

من فترة بسيطة رجل وقور من أهل العلم ، راكب مركبته ضرب سيارة ضرب خفيف ، تصليحها يتم بنصف ساعة ، من ورعه كتب اسمه وكتب رقم تلفونه أنه أنا متكفل بتصليح السيارة ، يبدو أن صاحب السيارة سفيه جداً يعني بالغ بالإساءة ، قال له بدي ضرك ، قال له ربي يحميني قال له خلي الله يخلصك مني ، مضى أربع وعشرين ساعة ، صار معه حادث هذا الثاني الفاجر ، الآن معه شلل رباعي ، وفقد النطق ، كلمة حكاها ، أنا أقول كلام دقيق يا أخوان ، الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به ، هذا لو كان احترم الشخص الوقور ، وقال له مثل ما تريد ، صلحها ، ما كان صار معه شيء ، وهذا الذي داس يدي الكلب ، لو كان خاف من الله أن هذا له رب ، ما كان صار معه شيء نحن بالمناسبة كلمة لو ممنوعة بالإسلام ، إلا في عندنا لو واحدة مسموح بها لو الإيجابية ، لو ما قطعت يدي الكلب ، ما قطعت يداي ، صح هذا الكلام ، لو ما قال كلمة كبيرة جداً مع هذا الإنسان الوقور ، ما فقد حركته ونطقه ، الإنسان دائماً يحاسب نفسه ، وقال سيدنا عمر حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا.

لذلك صديق كل امرئ عقله ، وعدوه جهله ، وقال بعض البلغاء خير المواهب العقل ، وشر المصائب الجهل ، وقال بعض الشعراء:

يزين الفتى في الناس صحة عقله

وإن كان محظوراً عليه مكاسبه

يشين الفتى في الناس قلة عقله

وإن كرمت أعرافه ومنا سبه

يعيش الفتى بالعقل في الناس إنه

على العقل يجري علمه وتجاربه

وأفضل قسم الله للمرء عقله

فليس لأشياء شيء يقارب

إذا أكمل الرحمن للمرء عقله

فقد كملت أخلاقه ومآربه

الحقيقة في عندنا عقل غريزي وعقل كسبي ، لكل إنسان في عنده عقل ولو كان أمي ، لكن في إنسان معه دكتوراه ، الأول العقل الطبيعي الفطري ، العقل الثاني شحن معلومات ، الإنسان محاسب على عقله وعلى فطرته ، الآن أكثر سؤال يسأل عنه الإنسان ، يا أستاذ أهل الصين أهل اليابان ، الشعوب

الإفريقية ، بمجاهل إفريقية ، وغابات الأمازون كيف يحاسبون يوم القيامة ، أول شيء الله أودع فينا عقل ، هذا العقل كافي كي تعرفه ، وأودع فينا فطرة هذه الفطرة كافية لكي تعرف خطئك ، فكل إنسان لم تصله رسالة يحاسب على أصول الدين التي يمكن أن يعرفها العقل ، وعلى أصول فطرته التي يمكن أن تكشف خطئه ، أما تفاصيل الدين لا يحاسب عنها ، أما الشيء الدقيق هو أن الله تولى هداية الخلق قال:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12))

(سورة الليل: 12)

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

(سورة النحل: 9)

يعني وعلى الله بيان سبيل القصد وقال:

((وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23)

(سورة الأنفال: 23)

فلذلك الله عز وجل يتولى الناس كلهم بالهداية ، والإنسان محاسب على ما أودع الله فيه من عقل يعرفه بالله ، ومن فطرة تعرفه بخطئه بعض العلماء فسر قول الله تعالى:

(لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّا)

(سورة يس: 70)

أي من كان عاقلاً ، الحقيقة العقل هو الجهاز ، يتعرف إلى المحيط الخارجي ، هذا الجهاز لا يفهم الشيء إلا بسبب ، ولا يفهم الشيء إلا بغاية ولا يفهم الشيء إذا كان متناقضاً ، هذه مبادئ العقل الثلاث، الله عز وجل خالق الأسباب ، الله خلق الأسباب ، أودع فينا عقل لا يفهم الأشياء إلا بأسبابها. الآن قاضي التحقيق إذا كان أثبت هذا المتهم ، أن وقت الجريمة كان بحلب ، لا في دمشق ، يخرج براءة ، لأن القاضي عنده عقل الإنسان لا يكون في مكانين في آن واحد ، فإذا كان أثبت أنه كان في مدينة بعيدة وقت الجريمة إذاً هو ليس متهماً.

يعني كل واحد منا يستخدم عقله باليوم آلاف المرات ، واحد يقول لك في خربشة ، معناه في حشرة ، في حيوان في البيت ، فالصوت يدله على حركة ، الرائحة يقول لك في حريقة ، في شيء يحترق مثلاً، فالعقل لا يكشف الحقيقة إلا بأسباب مادية ، عن طريق الحواس ، هذه العملية اسمها الاستدلال ، هذه العملية الوحيدة للعقل ، الاستدلال ، ينتقل من محسوس إلى مجرد ، أما أمور الآخرة ، أمور الجنة والنار ، والجن والملائكة ، الماضي السحيق ، المستقبل البعيد ، هذه لا دخل للعقل بها إطلاقاً ، هذه أخبار ، نحن في عندنا يقين حسي ، ويقين استدلالي علقي ويقين إخباري ، فالحيوان يتعامل مع المحيط بالحواس فقط ، أما الإنسان يتعامل مع المحيط بالحواس والعقل ، أما المؤمن يتعامل مع الحقيقة بالخبر

الله أخبره في جنة ، الآن أكبر مشكلة تقع بين مسلم يناقش إنسان ملحد يقول له أين الله ، مثلاً ، الله عز وجل لا تدركه الأبصار ، اثبت لي أنه في جن ، ما في إثبات علمي ، في إثبات إخباري ، الله أخبرني ، أنا أمنت بالله والله عز وجل أخبرني أن هناك جن ، فأنت دائماً لازم تعرف في عندنا حقيقة حسية ، وحقيقة عقلية ، وحقيقة إخبارية ، كل حقيقة لها طريق ولها دليل ، ولها برهان ، برهان القضايا الحسية اللمس ، والشم والصوت ، والصورة ، وما إلى ذلك ، أما برهان القضايا العقلية الاستدلال برهان القضايا الغيبية الخبر ، فأنت تؤمن بالآخرة عن طريق الخبر تؤمن بوجود الله عن طريق العقل ، تؤمن بالشمس عن طريق العين ترى الشمس ساطعة فتؤمن ، ترى أن كل خلق يحتاج إلى خالق ، كل نظام يحتاج إلى منظم ، كل حكمة تحتاج إلى حكيم ، كل تسيير يحتاج إلى مسير تؤمن بالله استنباطاً ، أما أمور الآخرة تؤمن بها تصديقاً.

في موضوع دقيق جداً ، أنت لك حواس وعندك عقل ، في لذائذ حسية ولذائذ عقلية، إذا الإنسان برمضان ترك الطعام والشراب حسب ما الله أمره ، يجوع ، حسياً يجوع ، ويعطش ، ويتمنى أن يشرب ، يتمنى أن يأكل ، لكن شاعر بلذة عقلية أنه هو مطيع لله عز وجل ، يلي يأكلون كثير يتضايقون، في شخص لا يأكل لكن شاعر نفسه خفيف نشيط ، فكل ما ارتقى الإنسان يتعامل مع اللذائذ العقلية ، الآن إنفاق المال في خسارة مادية لكن في معه لذة عقلية ، أنه أنا أصبحت محسن ، الله يحبني ، أنا أكرمت إنسان ، ساهمت في حل مشكلة المسلمين ، فكل ما ارتقى الإنسان يبحث عن لذة عقلية ، وكل ما هبط مستواه يبحث عن لذة حسية ، الآن امرأة حسناء لك أن تملأ عينيك منها هذه لذة حسية ، ولك أن تغض البصر عنها لذة عقلية ، لأن أنت ما في قانون يمنعك ، ما في قانون أرضي يحاسبك على إطلاق البصر ، إلا أنك بإخلاصك الشديد لله ولمحبتك له ، ولخوفك منه ، تغض البصر ، مع أن جهة في الأرض لا تحاسبك ، من غض بصر عن محارم الله أورثه الله حلاوة في لبه إلى يوم يلقاه.

جلست مرة مع طبيب يعمل في جراحة القلب ، قدم له طعام نفيس جداً رفض أن يأكل ، يبدو أنه كل يوم عنده عملية ، يرى الأوعية مسدودة بالقشطة ، والكولسترول ، فما أكل ، الواحد يؤاثر ويأكل ، لكن ينسدوا شرايينه بدو عملية قلب بعدين ، هو ترك الطعام وهو يشتهيه ، لكن شعر بلذة أن إرادته قوية ، ويحمي قلبه من الانسداد.

فكل ما ارتقى مستواك تتعامل مع اللذائذ العقلية ، الآن انظر الذي يجاهد في سبيل الله ، روحه على كفه،لكن يشعر نفسه من أعظم الناس هو باع نفسه لله عز وجل ، انظر للذي ينفق ماله ، الأغنياء والأقوياء عندهم طرق للسعادة لا توصف لكن لا يعرفونها ، يظن سعادته بجمع المال أما إنفاق المال في سعادة كبيرة جداً ، يعني الذي يدخل على قلب المنفق من السرور لا يوصف أبداً ، لذلك الله عز وجل قال:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ ﴾

(سورة التوبة: 103)

تطهرهم من الشرك ، وتزكي نفوسهم بالإقبال على الله ، قال له:

﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾

(سورة التوبة: 103)

بالمناسبة الذي عنده عقل يتعامل مع البيان ، الذي ما عنده عقل يتعامل مع الواقع ، الدنيا شتاء ، وفي أمطار ، وفي ثلوج ، وأنت عندك سفرة لحمص ، طلعت ، وواضعين عند منطقة دوما لوحة أن الطريق إلى حمص مغلق بسبب تراكم الثلوج مثلاً في النبك ، أنت في دوما هل تكمل ؟ لكن الأرض ناشفة ، الطريق سالك ، تعاملت مع البيان فقط ، لو دابة ماشية ورأت هذه اللوحة تقف ؟ تكمل ، أين تقف ؟ عند الثلجات ، انظر إلى تعامل الإنسان مع البيان، ومع الواقع ، الآن الذي يدخن متى يقلع عن التدخين ؟ عند سرطان الرئة ، يقف ، أما إذا كان عنده عقل أن الدخان يتلف له جسمه ، يعمل جلطة ، يؤدي إلى غرغرين ، يؤدي إلى أمراض يدعه وهو صحيح ، في بشارة ، إذا الإنسان أقلع عن التدخين قال خلال شهر أو شهرين تزول أثار التدخين المتراكمة سابقاً ، والإنسان إذا ترك الدخان له مكافأة من الله عز وجل ، يعود جسمه صحيح ، قف عند هذه النقطة ، في تعامل مع البيان.

مثل آخر: راكب دراجة والطريق هابط ، والدارجة مريحة بالنزول ، والطريق معبد ، وفيه زهور ، وفي طريق صاعد حفر وأكمات ، وصخور ، وتتعرق ، وبالنزول تجرها جر ، الواقع يقول لك......... الآن أكثر الناس على النزلة ماشيين ، يملا عينيه من الحرام ويكسب مال حرام ، ويأكل طعام حرام ، مسرور ، الموضوع لوحة لطريقين هذا الطريق النازل ينتهي بحفرة ما لها من قرار ، فيها وحوش والطريق الصاعد ينتهي بقصر منيف لمن دخله ، في خمس كلمات على اللوحة بتخليك تصعد وتتحمل الصعود ومشاكله ، هذه القصة كلها.

هذا المثل ضربته آلاف المرات لكنه معبر ، كان بيتي في العفيف وما كان عندي سيارة أركب بباص المهاجرين ، بالمرجة بأيام الصيف يقف بالمرجة باتجاه الشرق آخر موقف له ، تلاقي على اليمين شمس على اليسار ظل ، اجلس على اليمين على الشمس ، الركاب ينظرون إلي ! الباص سيدور دورة خلال دقيقة ، وتنعكس الآية ، وأتمتع بالظل لآخر خط ثلث ساعة ، الراكب ما استخدم عقله تمتع بالظل دقيقة ، وجاءته أشعة الشمس ثلث ساعة، أنا جلست في الشمس ، لأنه سوف يدور الدورة ، هذا مثل بسيط جداً ، لكنه معبر جداً.

المؤمن أطاع الله في الدنيا فكسب الآخرة ، والكافر ؛ كم جلسة فيها فسق وفجور ، وكم فلم شاف ، وكم سهرة ماتينه ، ومات ، تحمل جهنم إلى أبد الآبدين ، فالمؤمن أطاع الله في الدنيا القصيرة ، فكسب

الآخرة ، هذه القضية كلها.

لذلك قيام المرء عقله ، والله قال:

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44))

(سورة القصص: 60)

(قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (10))

(سورة الملك: 23)

(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23))

(سورة الجاثية: 23)

(أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

(سورة الذاريات: 21)

(وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50))

(سورة آل عمران: 143)

قال له: اعقلها وتوكل ، للناقة ، ما معنى عقلت ؟ يعني ربطت ما معنى إنسان عاقل ، يعني عنده موانع ضد الأعمال السيئة ، يمنعه عقله أن يأكل مال حرام ، يمنعه عقله يزني ، يمنعه عقله يعتدي على أموال الناس ، يمنعه عقله يتكلم كلام بذيء ، فالعقل لجام ، والنبي قال:

الإيمان قيد الفتك ، ولا يفتك مؤمن.

يعني بشكل عام ، أنت عندك حركة باليوم ، تخرج من بيتك ، في فتاة ، أنت فيك تنظر ، أو تغض ، كل شيء بسعره ، تأتي إلى المحل ممكن أن تكذب ممكن أن تصدق ، تحلف له يمين أنها مو موفية مثلاً بالبيع والشراء ، ممكن أن تكذب ممكن أن تصدق ، فإذا استخدمت عقلك ليش لأكذب ، الرزاق هو الله ، ليش لأنظر لهذه المرأة ، الزواج طريقه سالك ، في بالجنة حور عين ، فكلما واجهت مشكلة استخدم عقلك واستخدم عقلك الصريح ، الأصلي ، واستخدم الشرف الحنيف ، وارجع للوحي الكتاب والسنة ، بتلاقي الكتاب والسنة ، والعقل الصحيح والفطرة السليمة ، تأمرك أن تكون مستقيماً.

والله مرة قرأت عن أستاذ جامعة في بلد أجنبي أنه ما شرب خمر بحياته ولا دخن ، وكان ينام باكراً ، ليس مسلماً ، ولكنه وصل بعقله أن لا بد له من أن ينام باكراً كي يستيقظ نشيطاً ، يذهب إلى عمله ، والدخان والخمر يتلفان حياته ، في أيام إنسان يصل للشرع من خلال علقه ، لأن الشرع يأمر بالخير ، بالسلامة بالسعادة.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ننتفع بعقولنا ، وقوام الرجل علقه والعقل أصل الدين.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (131) :الزهد.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-04-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:
موضوع يحتاجه المسلمون جميعاً ولاسيما في هذه الأيام، لأن الدنيا في آخر الزمان خضرة نضرة، وقد قال الله عز وجل:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ)

(سورة يونس)

كل شيء جميل التزيين هم الناس الأول، المسحة الجمالية في البيوت والمتاجر والمكاتب وفي الطرقات وفي المقاصف وفي المتنزهات تقع في الدرجة الأولى، لأن الناس أرادوا الدنيا، أرادوها دار نعيم، وغاب عنهم أنها دار عمل، أرادوها دار جزاء بحسب مقاييسهم وغاب عنهم أنها دار تكليف، لذلك ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((.. عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَعَثَ بِهِ إِلَى الْيَمَنِ قَالَ إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ..))

(مسند الإمام أحمد)

المؤمن قد يسر في الدنيا وقد ينعمه الله في الدنيا لكن دون أن يكون هذا مقصوداً عنده بشكل مركز واضح، المقصود عنده أن يعرف الله وأن يعمل عملاً صالحاً يلقى الله به، وأن يعمل عملاً طيباً يكون وجهه من خلاله أبيضاً يوم القيامة، لذلك يوجد موضوع أين من الرقائق، الرقائق باب من أبواب الدين قصص وأحاديث وآيات ترقق القلب، هناك من يشعر أن قلبه قاسٍ يصلي فلا يتأثر يقرأ القرآن فلا يتأثر يذكر الله فلا يتأثر، معنى ذلك أن القلب قاس وبعيد ومتعلق بما سوى الله، مكب على ما سوى الله، مثل هذا القلب يحتاج إلى مرققات، أشياء ترققه.

فموضوع الدرس اليوم من المرققات وهو حول الزهد في الدنيا لكن قد تفاجئون أن أعظم الزهّاد في الأرض هم أهل الدنيا لأنهم زهدوا في الآخرة زهدوا بدار لا تنتهي، زهدوا بالأبد بجنة عرضها السماوات والأرض زهدوا بدار لا نكد فيها ولا مرض فيها ولا فقر فيها ولا قلق فيها ولا اضطهاد فيها ولا ظلم فيها ولا حاجة فيها ولا تنافس فيها ولا تقدم في السن فيها ولا مرض القلب فيها ولا زوجة سيئة فيها ولا ابن عاق فيها ولا سوق بارد فيها ولا دفع دون أن تقبض، كل متاعب الدنيا لا نجدها في الآخرة، دار نعيم مقيم، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

الإمام أحمد يقول: الزهد في الدنيا قصر الأمل، ما الذي يمنع كلما استيقظت الحمد لله، الله سمح لي أن أعيش يوماً جديداً، أبدأ كل يوم بيومه، مادام الإنسان استيقظ وهكذا فعل النبي كان إذا استيقظ يقول:

((عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبيّ صلى اللّه عليه وسلم قال:"إذَا اسْتَيْقَظَ أحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي رَدَّ عَلَيّ رُوحِي، وَعافانِي في جَسَدِي، وأذِنَ لي بذِكْرِهِ"))

(الأذكار النووية للإمام النووي)

استيقظ جاهزية تامة صلى الصبح، إذاً الزهد في الدنيا قصر الأمل.

قصة: قال: والله هلكني، قال: خير ؟ قال: أكسي بيت لرجل انتظرته ستة أشهر ولم يأخذ قرار، يعمل التدفئة المركزية داخلية تحت البلاط أم خارجية ؟ احتار، يقول: داخلية أجمل لكن لو تعطلت أصيبت الأنابيب بالفساد، يحتاج لتكسير البلاط، وإذا خارجية غير حضارية، قال: ستة أشهر ثم اتخذ قرار رائع: قال: نعملها داخلية وبعد عشرين سنة إذا فسدت نعملها خارجية، لا نكسر البلاط، هذا طول الأمل، يجب أن يعيش عشرين سنة قادمة

وكم من شاب تمتلئ جوانحه طموحات لا تنتهي نسجت أكفانه وهو لا يدري التعريف الثاني: الزهد في الدينار والدرهم إذا كان من حرام، هذا نوع من الزهد، مبلغ ضخم تحل به كل مشكلاتك لكن فيه شبهة، اركله بقدمك وقل الله هو الغني.

وسُئل الجنيد عن الزهد فقال: استصغار الدنيا، كلما عظمت الدنيا عند الإنسان كان بعيداً عن الله، وكلما صغرت، لي صديق كان من أعظم الناس في عيني، وأعظم ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينيه، فكلما صغرت الدنيا عندك كنت عند الله كبيراً، وكلما كبرت عندك كنت عند الله صغيراً.

كنت بسفرة من السفرات باتجاه الشرق فدار الموضوع حول مقاطعة البضاعة الأجنبية، هذه البضاعة التي تملأ القارات الخمس (الكوكاكولا والبيتزا هات والمكدونالد والدخان الأميركي)، والحقيقة هناك أناس امتنعوا وأصبح أثر إيجابي كبير جداً فقال لي أحدهم: أنا لا أستطيع العيش دون البيبسي ! أريد بديل.

فكلما كبرت الدنيا عندك صغرت عند الله، وكلما صغرت الدنيا عندك كبرت عند الله.

وقال أبو سليمان الداراني: الزهد ترك كل ما يشغلك عن الله، شيء يبعدك عن الله أو يشغلك عنه ينبغي أن تتركه، هذا تعريف الزهد.

وقال بعض العلماء: الزهد ترك مالا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما تخاف ضرره في الآخرة.

والذي أجمع عليه العلماء والعارفون: أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا إلى وطن الآخرة، بربكم إذا إنسان قدم طلب لفيزا لبلد يظن أن هذا البلد أجمل وأغنى بلد في العالم، حينما يذهب ويحصل على الموافقة على جواز سفره ما الذي يحصل فجأة سافر، هو في الشام لا يزال، بينه وبين السفر شهران

سافر، كل خيالاته وتصوراته وخواطره وصوره ماذا أفعل أين أسكن كيف سأتمتع بالحياة هناك من أتزوج هكذا !

فأحياناً الإنسان يسافر قبل أن يسافر، إنسان بلغوه نبأ نيل الشهادة العليا، عندما نجح تخيل نفسه مهندس بمؤسسة ضخمة ومكتب خاص أنجز مشروع فرضاً هذا سافر إلى عمله قبل أن يسافر إليه، فكل واحد أحياناً يعيش بخياله وبتصوراته وطموحاته فهذا عند علماء أجلاء الزهد سفر القلب من وطن الدنيا إلى وطن الآخرة.

المؤمن دائماً يفكر بالآخرة ماذا سأخاطب الله عز وجل ؟ كيف سأدافع عن نفسي يوم القيامة ؟ أين مكاني في الجنة أم في النار ؟ هل ألتقي مع المؤمنين ؟ هؤلاء العلماء الكبار هل ألتقي بهم في الجنة ؟ يعيش أحوال أهل الجنة وهو في الدنيا، هذا من أجمل التعاريف الزهد سفر القلب من وطن الدنيا إلى وطن الآخرة.

إذا خطب أحد فتاة يوم يعتمد عليها ويقرءوا الفاتحة مع أن الفاتحة ليست عقداً ! فكر بالبيت كم غرفة ؟ غرفة النوم وغرفة الاستقبال وغرفة الطعام يفكر كيف سيربي ابنه مع أن هذا مبكراً عليه، يفكر كيف تكون الستائر يفكر بنظام خاص بالبيت يفكر بتعليماته لزوجته، هذا الذي عنده قدر عسل، وخطر في باله أن يبيعه، ويشتري غنم والغنم يتوالد ويصبح تاجر كبير، ثم يتزوج امرأة جميلة وينجب منها أولاد، فإذا أخطأ ابنه يضربه بالعصا ويؤدبه فرفع العصا فضربت القدرة فكسرته وتحطمت كل آماله ! على كل تعريف الزهد: سفر قلب المؤمن من وطن الدنيا غلى وطن الآخرة. سؤال: نحن نتلو كتاب الله، هل في كتاب الله آيات متعلقة بالزهد ؟ إذا كان في كتاب الله آيات متعلقة بالزهد فهذا موضوع خطير جداً، موضوع قرآني، وإذا قلت هذا: فيعني أنه شيء مهم جداً جداً جداً.

قال تعالى:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ)

(سورة الحديد)

طفل عمره أربع سنوات يشتري سيارة صغيرة يسيرها على الأرض ثم بالطلعة يعطيها صوت من عنده، ثم يقف ثم يقول: أصبح معنا حادث، يعيش بخيالات لو أن صور هذا الطفل بفيلم وعندما صار شخصية مهمة نظر لهذا الفيلم كيف كان عقله معلق بهذه السيارة وكيف كان يعيش بأحلام ألا يحتقر نفسه ؟ هكذا هذا اللعب، اللعب مرحلة إذا تجاوزتها تحتقره.

(إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ)

قد تلهو بها بالخسيس عن النفيس هذا اللهو، كلمة لهو تعني تركت شيء نفيس واتبعت شيئاً خسيساً.

(وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ)

لو جلست بجلسة ليس فيها ذكر لله اسمع الكلام: يقول: أنا سافرت أكلت لبست دفعت أنفقت عملت رتبت أنشأت ربحت أبداً تفاخر، ومجلس فيه تفاخر ليس فيه رحمة من الله أبداً، مجلس شيطاني، عود نفسك أن تتكلم عن الله عز وجل.

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (20)

(سورة الحديد)

إنسان توفي رحمه الله كان عنده دعابة كان صانعاً يعمل في سوق الحميدية فكان يكنّس المحل ويجمع القمامة بعلبة مرتبة ويلفها بورق غالي ويربطها بشرط حريري بشكل عقدة ويضعها على طرف الرصيف فيأتي إنسان شيء مغرٍ، يا ترى مضيف ألماس فيها ؟ يأخذها ويعدو يلحق به، بعد مائة متر اطمأن وفتح الشريط الحريري بعد مائة متر ثانية فكّ الغلاف الورقي، بعد مائة متر ثالثة فتحها فوجد قمامة المحل التجاري ! هذه مفاجئة صاعقة، والله الذي لا إله إلا هو سوف يفاجأ أهل الدنيا عند الموت كمثل هذه المفاجأة، ظن المال كل شيء بعد حين رآه شيئاً، أما قبل أن يموت رآه ليس بشيء، طاعة الله كل شيء، مر النبي الكريم مع أصحابه رضوان الله عليهم بقبر فقال صاحب هذا القبر: إلى ركعتين مما تحقرون من تنفركم خير له من كل دنياكم.

آية ثانية:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14))

(سورة آل عمران)

أي ما في الجنة خير وأبقى من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، المصير هو القبر، هل هناك من يشك في ذلك ؟ هل هناك من يجرؤ أن يعترض أن يقول لا يوجد موت، وهل غادر الموت أحداً ؟ أبداً.

والله من طرف حياتي من قبل من عشرين سنة عندي جهاز تسجيل للمكالمات إذا كنت غائباً عن البيت فهذا الشريط استمعت مرة قبل سنتين اثنا عشر شخصاً ماتوا به ! لكن لا أحد ينتبه، اثنا عشر شخصاً اتصلوا ولم أكن موجود وذكروا أسمائهم عدّيت الذين توفوا من هؤلاء الذين اتصلوا من فوق العشرة قطعاً.

فلذلك الدنيا تمضي، مرة اقتنيت كتاباً عن قصص العرب قرأته شيء ممتع جداً أربع أجزاء أما كان منه

موعظة كبيرة: أن هؤلاء أصحاب القصص منهم الأقوياء والوزراء وأغنياء وفقراء وأغبياء وأذكياء ومحتالون كل هؤلاء الآن تحت أطباق الثرى.

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30))

(سورة الزمر)

هذه الجلسة بعد خمسين سنة مائة سنة أكيد لا أحد منا يجلس هنا، شيء بالباب الصغير وشيء فوق بالجبل صحيح ؟

كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت.

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (20))

(سورة الشورى)

بالآخرة لا شيء، مرة نذكر اسم إنسان معه ملايين مملينة قال لي: واحد مسكين قلت: لماذا ؟ قال: ماذا أخذ من الدنيا ؟ قلت لم يأخذ شيء.

من هو الغني ؟ الغني من عرف الله وله عمل صالح.

الغنى غنى العمل الصالح.

(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24))

(سورة القصص)

سيدنا علي قال: الغنى والفقر بعد العرض على الله، فهذا فقير، حضرت أمسيات تعزية كثيرة جداً لكن بعضها ببيت ثمنه خمسين مليون أين صاحبه؟ هو الذي اختار البيت وكساه أذواق رفيعة جداً أساس فخم جداً أين صاحبه ؟ والله أعرف رجل عنده بيت يصعب وصفه وعمله تاجر تحف، وجاب أقطار الدنيا وكل سفرة عنده قطعة تحف من أعلى مستوى بالملايين ثمن القطعة، والبيت أربعمائة متر مساحته وقسم شرقي وقسم غربي، وكل جدرانه مزدوجة من أجل العدل، توفي في أحد أيام الشتاء المطيرة، مدير معمله حدثني بالقصة، القدر فتح في مياه سوداء فلت مجرى على القبر فسئل ابنه فقال: ماذا نفعل ضعوه، فلو وازنت بحياته في الدنيا وبين مصيره شيء لا يصدق، على كل هذا القبر مصير كل حي، وهذا المثوى الأخير فلذلك قال تعالى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (77))

(سورة النساء)

كان سيدنا عمر ابن عبد العزيز كلما دخل مكان عمله تلا هذه الآية:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (207))

(سورة الشعراء)

دخلت للأهرام يوجد ملك يمكن اسمه توت عنخ آمون مات في السابعة عشرة من عمره، كل أصبع له ملبسة بالذهب الخالص، معتنى به عناية حتى بالأهرام عربات ملكية تحت الأرض، عندهم اعتقاد خاطئ أنه يوجد حياة أخرى، اللحم مقدد من ستة آلاف عام، الخبز الحاجة النفيسة كلها بالأسفل بالأهرامات.

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (207))

والله هذه الآية مؤثرة جداً.

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء)

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27))

(سورة الإنسان)

(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17))

(سورة الأعلى)

هذه كلها آيات زهد، أما النبي عليه الصلاة والسلام ماذا قال عن الزهد

((بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ *))

(صحيح البخاري)

أحياناً ينزل شخص بفندق ليلة واحدة يجد خطأ بالفندق يوجد فرضاً الستار ممزق لا يتألم ليلة واحدة يمشي باليوم الثاني، إذا استأجر بيت شهر قد يجد فيه أخطاء كثيرة في الأثاث والتصميم وفي الطلاء والأجهزة لا يتحرك منه شعرة لأنه مؤقت، هذا الإحساس أنك تعيش حياة مؤقتة، لو أنه استقر واستمر لكنت في حال آخر مع الله، كن في الدنيا غريب أو عابر سبيل.

في هذا الحديث رواية للترمذي تتمة: وعد نفسك من أصحاب القبور ويمكن أن نقول قبل الصلاة صلي صلاة مودع، واستحضر عظمة الله عز وجل.

وفيما رواه الإمام مسلم: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.

إنسان ركب قارب بالبحر ومسك إبرة أغمسها بمياه البحر ثم سحبها، بما رجع من مياه البحر ؟ ما حجم المياه التي علقت بالإبرة ؟ تشبيه رائع جداً، يقول عليه الصلاة والسلام:

((ما الدنيا في الآخرة إلا كما يضع أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع))

(الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي)

من البحر المتوسط، والمحيط الهادي والمحيط الأطلسي والمحيط الهندي والمتجمد الشمالي والجنوبي خمس محيطات أربع أمثال اليابسة أو خمس أمثال اليابسة بحار، لو غمست أصبعك في مياه البحر ثم سحبتها ورجعت بما ترجع ؟ هذا كلام النبي لا ينطق عن الهوى إن هو إلى وحي يوحى.

هذا من تشبيهات النبي الرائعة، فلينظر بما يرجع، وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام:

((. مَا أَنَا وَالدُّنْيَا إِنَّمَا أَنَا وَالدُّنْيَا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا *))

(سنن ابن ماجة)

يوجد مثل شعبي مشهور ستعرفونه بعد قليل، دابة بأيام الحر الشديدة واحد جلس في ظلها قام ليشرب جلس آخر مكانه، قال: هذا مكاني لا مكانك لا مكاني لك حق تجلس مكاني لا ليس لك حق هل مطلوب باسمك تلاسنوا تماسكوا تضاربوا ثم الحمار سار ! هذه الدنيا، اسأل إخواننا المحاميين كم دعوة شطبت لموت أحد الطرفين ؟ والله آلاف الدعوات، تنتهي الدعوة بموت أحد الطرفين أبداً.

وفي حديث آخر:

((عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ *))

(سنن الترمذي)

أحياناً يقتل الإنسان حيواناً تجده اضطرب يتساءل هل يجوز قتله أم لا ؟ لكن أعتقد لا يوجد أحد من الحاضرين إذا قتل بعوضة على يده يشعر انه قتل مخلوق إطلاقاً لهوانها عند الناس، بعوضة، فمالقول في جناح بعوضة؟ ليس بالجناحين واحد ! لو أن الدنيا بأكملها تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء، هذه أحاديث مألوفة جداً لكن يبدو أن الإنسان أحياناً شدة القرب حجاب، حديث للنبي

((عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ *))

لو أن واحد ليس فيه دين غافل عن الله وشارد عنه غارق بالمعاصي معه مبلغ فلكي وساكن ببيت لا يوصف وراكب أغلى مركبة لمجرد أن تقول هنيئاً له فأنت لا تعرف الله.

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ)

(سورة القصص)

الآن يقول عليه الصلاة والسلام:

((ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّوكَ))

(سنن ابن ماجة)

لا تسئلن بني آدم حاجة وسل الذي أبوابه لا تغلق، الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يُسأل يغضب

أحياناً يكون لك علاقة طيبة مع إنسان عندما تسأله عن حاجة تجده يتنكر وابتعد عنك وليس موجود وليس له وقت معين ليأتي انسحب عندما سألته، مادامت العلاقة لا تكلف علاقة طيبة.

لا تسئلن بني آدم حاجة وسل الذي أبوابه لا تغلق، الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يُسأل يغضب

((ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّوكَ))

آخر حديث:

((اقتربت الساعة، ولا يزداد الناس إلا حرصا ولا يزدادون من الله إلا بعد))

(الجامع الصغير لجلال الدين السيوطي)

نقطتان الآخرة والدنيا وأنت بينهما، كلما اقتربت من أحدهما ابتعدت عن الآخر، لذلك ورد في الحديث الشريف:

((عَن أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى *))

(مسند الإمام أحمد)

سيدنا الصديق قيل عنه: أنه ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط أبداً.

الآن لبعض العلماء كلام طيب قال: ليس الزهد رفض الدنيا ولكن أن تستخدمها في طاعة الله، لا تتصور الزاهد إنسان مذري الهيئة جائع قابع في كوخ مثلاً مهمل حياته، لا ليس هذا الزاهد، الزاهد هو الذي يستخدم الدنيا للآخرة، يوظفها للآخرة، هذا تعريف ابن القيم، ليس المراد من الزهد رفضها أي الدنيا من الملك، فقد كان سليمان و داوود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما ولهما من المال والملك مالا يوصف، كما قال بعض العارفين: أن تنتقل من القلب إلى اليد، الدنيا موظفة عندك للآخرة توظف المال للحق، توظف الصحة للحق، توظف العلم للحق وهكذا، لأن الدنيا مزرعة الآخرة.

سيدنا عمر رأى رجال يتكففون الناس بالحج قال: من أنتم ؟ قالوا: نحن المتوكلون قال: كذبتم المتوكل من ألقى حبة في الأرض ثم توكل على الله رأى رجل في وقت العمل يتعبد قال: من يطعمك ؟ قال: أخي قال أخوك أعبدك ! سيدنا عمر رأى رجل يقرأ القرآن في النهار وليس له عمل قال: إنما أنزل هذا القرآن ليعمل به أفتخذت قراءته عملاً ؟ اعمل، فإسلامنا إسلام عمل لكن إسلام عمل موظف للآخرة وهادف، أما الآن الغرب والشرق يعملون لشهواتهم ومتعهم الخاصة لا يوجد هدف، أما المؤمن قد يتقن صنعة أو تجارة أو صناعة أو خبرة أو حرفة يوظف هذه الخبرات والدخل للآخرة، وحبذا المال كما

قال سيدنا أبو ذر أصون به عرضي وأتقرب به إلى ربي، أتمنى ألا تفهموا الزهد فهم غير صحيح، يوجد كلام آخر: ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن الزهد أن تكون من مثيل الله أوثق منك بما في يديك، أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك.

رجل جاء إلى الإمام الحسن رضي الله عنه قال: إن لي جاراً لا يأكل الفالوثج، يبدو أنه طعام من الحلويات الفاخرة بالعصر العباسي. فقال الحسن: ولما ؟ قال: لأنه يقول لا أؤدي شكره فقال الإمام الحسن: إن جارك جاهل وهل يؤدي شكر الماء والهواء ؟ لا يوجد نعمة يؤدى شكرها، والشيء الدقيق بالآية:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

(سورة إبراهيم)

لو أعطاك ليرة يقول لك: عدها كلام ليس له معنى، تعطيك عشرة تعدهم أما واحدة.

(وَإِنْ تَعُدُّوا)

معنى ذلك أن فضائل النعمة الواحدة لا تعد فضائلها، أنتم عاجزون عن عد فضائلها فلأن تكونوا عاجزين عن شكرها من باب أولى.

واحد جاءه مولود مثلاً جاءه مائة هدية أيهما أهون أن يعد هذه الهداية أم أن يكافئ على كل هدية بمثلها؟ مسافة كبيرة جداً عدّها سهل، كتب قائمة هذا من فلان وهذا من فلان، فعدها شيء.

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

أنتم عاجزون عن عدها، فلأن تكونوا عاجزين عن إحصائها من باب أولى.

مثلاً: من يتصور شخص صار مع مستقيمه شلل فلابد من إنسان آخر يخرج له هذا القذر، نعمة المستقيم هل تعادلها نعمة ؟ نعمة ضبط فتحات الإنسان، لو كانت غير مضبوطة يلزمه فوط، نعمة أنك تنام والهضم يعمل بشكل آلي، لو كان الهضم إرادي تأكل وعندك خمس ساعات عمل، الآن الصفراء الآن البنكرياس الآن الهضم غير معقول ! أنت كل وامشي تنام وترتاح، يوجد بجسمك نعم لا تعد ولا تحصى، نعمة أن تمشي على قدميك، لو لم يوجد جهاز توازن لا يوجد إنسان يستطيع السير على قدميه يحتاج لقاعدة إستناد عريضة جداً، المجسمات في بيع الألبسة لها قاعدة قطرها سبعين سنتيمتر، حتى تقف، والدليل الميت لا يقف، من يستطيع أن يوقف ميت ؟ لأنه لا يوجد توازن، الله وضع جهاز التوازن في الأذن ثلاث قنوات وسائل وشعيرات، لما تميل يتنبهوا الشعيرات الذين لامسوا الشعيرات مع الميل، السائل يبقى أفقي، فإذا الإنسان له قوس وفيه سائل ومال، فالسائل يرتفع في أحد الطرفين إلى أعصاب حساسة جداً وشعيرات فيتنبه أنه مال يعدل.

لذلك لا يمكن أن يركب دراجة إنسان معه التهاب بقنوات التوازن يقع، الطفل الصغير قبل ثلاثة أشهر ضعه في حضنك فإذا مال قليلاً تابع الميل حتى يقع، لكن بعض ثلاثة اشهر إذا مال قليلاً يعود ليجلس، جهاز التوازن بدأ بالعمل.

والله قد تمضي سنوات وسنوات في التفكر في نعم أجهزتك في الجسم لا تعد ولا تحصى، نعمة العين، واحد معه مرض ارتخاء جفون كيف يرى الشخص ؟ يمسك يداه ويرفع جفنه ليرى ثم يعيده، نعمة الجفن نعمة السمع والبصر والحركة والقيام، تعذر ذرع رئة، لأنه بعد ذرع الرئة السعال يختفي، والإنسان من دون سعال يموت بأمراض إنتانية في رئتيه ! آلية السعال معقدة جداً، أنت تنام يتجمع اللعاب بفمك، وأنت نائم يأتي الأمر للبلعوم يغلق القصبة الهوائية يفتح طريق المري تبلع رئتك وأنت نائم، هذا لسان المزمار يعمل ليلاً نهاراً وأنت نائم، تقلب تقريباً ثمانية وثلاثين مرة يمين ومرة يسار، لأنك تكون نائم بوضع الجهاز العظمي والعضلات فوق الجهاز ضاغطين على القسم الأسفل، هذا الضغط سبب ضيق لمعة الأوعية ضعف تروية تنميل وأنت نائم يأتي أمر فتقلب، مكان المضغوط ارتاح، فتصوروا رجل نائم ينقلب من ثمانية وثلاثين لأربعين مرة بالليلة الواحدة ! حتى يريح قسم ويستفيد من قسم، أما الذي معه سبات إذا لم يقلبوه الجسم يهتري قال الله عز وجل عن أهل الكهف:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

(سورة الكهف)

وهذا من إعجاز القرآن العلمي، فقال: لا يأكل الفالوثج لا يؤدي شكره، هل بإمكانك أن تؤدي شكر الهواء والماء والسير على قدميك ؟

إخواننا الكرام: الزهد أنواع عندنا زهد فرض أنت تزهد في الحرام هذا فرض عين على كل مسلم، وزهد بالشبهات وهذا الزهد بحسب مرتبة الشبهات، فإن قويت هذه الشبهة التحقت بالواجب وإن ضعفت كانت مستحبة.

الزهد في الفضول: إياك وفضول النظر فإنه يبذل في النفس الهوى، فضول الكلام، من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه، فضول النظر هذا زهد أيضاً زهد في الفضول.

زهد بالناس: شخص همه الأول سمعته ومكانته عند الناس ويعصي الله من أجل مكانته عند الناس هذا أيضاً مرض، ففي زهد في الناس، وزهد في النفس: أحياناً يخضعها في سبيل الله، شخص تأخذه العزة بالاسم لا يلين، أما شخص آخر نفسه متواضعة يذلها في سبيل الله، الحديث: ألا يرب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا يا رب مهين وهو لها مكرم.

عندنا زهد جامع لكل ذلك هو أن تزهد فيما سوى الله، كل شيء متعلق بالله، والجنة والآخرة والدين والعلم والصلاة والجوامع والقرآن الكريم والحديث والفقه وأخ مؤمن وميتم تجد أنت مغرم بالحديث عنه والسعي والعمل، كل شيء متعلق بالشهوات تبعد عنه، هذا التعريف الجامع المانع للزهد.

إخواننا الكرام: يوجد قول لبعض الأنبياء: اعبروها ولا تعمروها، وقول آخر: من ذا الذي يبني على موج البحر داراً تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً وفي قول آخر: إن من كان قبلنا كانوا يجعلون للدنيا ما فضل عن آخرتهم، وإنكم لتجعلون لآخرتكم ما فضل عن دنياكم، أما اليوم فأكثر أهل الدنيا قد زهدوا في الآخرة حتى بما فضل عن دنياهم.

الأسباب المعينة على الزهد: النظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها ونقصها وخستها وما في المزاحمة عليها من الغصص والنغص والأنكاد، والنظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات، الإكثار من ذكر الموت والدار الآخرة، تشييع الجنائز والتفكر في مصارع الأهل والأخوان، التفرغ للآخرة والإقبال على طاعة الله، إيثار المصالح الدينية على المصالح الدنيوية، البذل والإنفاق وكثرة الصدقات ترك مجالس أهل الدنيا والاشتغال بمجالس الآخرة، الإقلال من الطعام والشراب والنوم والضحك والمزاح مطالعة أخبار الزاهدين وبخاصة سيد المرسلين.

هذا موضوع خطير جداً: موضوع قرآني ونبوي وكما رأيتم أن الأدلة عليه كلها من الكتاب والسنة، ولا يعني أن تزهد في الدنيا أن تدع العمل ألا تأكل ولا ترتدي ثياباً ألا تتزوج، قال عليه الصلاة والسلام:

((وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي *))

(صحيح البخاري)

لزهد أن تنتقل من قلبك إلى يديك، أن توظف ما آتاك الله في الدنيا للآخرة، هذا تحت قوله تعالى:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)

(سورة القصص)

وأكبر زاهد في الدنيا بتعريف الزهد هو الإنسان العاصي لله الغارق في الدنيا، لأنه طمع في الدنيا وزهد في الآخرة، وأكبر طموح هو المؤمن زهد في الدنيا وطمح في الآخرة

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (132) : معرفة الآمر قبل الأمر.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-08-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون:

قبل أن نمضي في متابعة موضوع البيوع استوقفتني فكرة مهمة جداً، ألم يسأل أحدكم نفسه هؤلاء المسلمون وأحكام الفقه بين أيديهم والأمر والنهي في متناولهم، وخطب الجمعة ودروس العلم كلها تؤكد الحلال والحرام، هل عندكم جواب يشفي الصدر لماذا يعصي المسلم ربه ؟ وترون بأم أعينكم كم هي المعاصي منتشرة، كم هي البيوت متفلتة، كم هي العلاقات ليست شرعية، هذه مشكلة كبيرة جداً.

أنا أرى أن العلة في هذا معرفة الآمر ضعيفة وقيمة الأمر من الآمر وشرف الرسالة من المرسل فكلما عرف الناس ربهم انصاعوا إلى أمره ونهيه، يعني ألا تفكر أمضى النبي ثلاث عشرة عاماً في مكة ولم ينزل تشريع، ماذا فعل في هذه السنوات الطويلة ؟ ماذا فعل ؟ عرفهم بالله عز وجل، لو أنك قرأت الآيات المكية كلها تعريف بالله سدس القرآن الكريم آيات كونية، إن عرفت الآمر ثم عرفت الأمر كما كان أصحاب رسول الله تفانيت في طاعة الآمر أما حينما نلقي على مسامع الناس الأحكام الشرعية التفصيلية والآمر ليس عندهم عظيماً.

بالمناسبة قال تعالى:

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33))

[سورة الحاقة: الآية 33]

التركيز على كلمة عظيم، حتى إبليس آمن بالله، سألني سائل من هو المؤمن ؟ قلت له: دائرة كبيرة جداً، كل من كان بداخلها مؤمن إنسان ظلم إنسان وضربه ضرباً شديداً وهو بريء مشى أمتار حدث معه حادث مروع تحطمت مركبته فرجع إلى هذا الذي ضربه واعتذر منه، لماذا ربط هذا الإنسان الذي ظلم بين ضربه لهذا الإنسان المستضعف وبين حادث السير ؟ معنى هذا أنه مؤمن، حينما تشعر أن هناك إلهاً يحاسب هذا إيمان.

امرأة تعمل في حقل لا يرضي الله عز وجل في رمضان تمتنع لماذا ؟ لأنها تؤمن أن الله إن فعلت هذا في رمضان يعاقبها أشد العقاب ما كل مؤمن ناج هذه هي النقطة، إبليس آمن قال تعالى:

(قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (78) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (79) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (80) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (81))

[سورة ص]

(خَلَقْتَنِي)

[سورة ص: الآية 76]

((فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (78))

[سورة ص: الآية 79]

إبليس آمن بالله خالقاً، وآمن به رباً وآمن به عزيزياً وهو إبليس، فالمشكلة أن نبحث عن إيمان يحملنا على طاعة الله، الإيمان الذي لا يحملك على طاعة الله لا قيمة له، لذلك أنا أتألم أشد الألم أجد إنساناً ينتمي إلى الدين وقد يرتاد المساجد، حدثني أخ قبل يومين قال لي: إنسان مغتصب أموال لا تعد ولا تحصى رآه في المسجد يصلي. أنا أسأل كيف يتوازن ؟ كيف الإنسان يتوازن أن يعد نفسه مؤمناً أو مسلماً وقد أكل المال الحرام، هل تصدقون أن صحابياً جليلاً توفاه الله فدعي النبي صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه فقال: أعليه دين ؟ قالوا: نعم عليه درهمان، فقال: صلوا على صاحبكم. جاء أحد الصحابة قال: يا رسول الله علي الدرهمان، فصلى عليه، سأله في اليوم التالي أأديت ما عليك ؟ قال: لا، سأله في اليوم الثالث أأديت ما عليك، قال: لا، سأله في اليوم الرابع قال: أديت الدين، قال: الآن ابترد جلده. أنا الذي يؤلمني أن هؤلاء المسلمين يزيدون عن مليار ومائتي مليون والمعاصي الكبيرة واضحة للجميع هل مسلم على وجه الأرض لا يعلم أن أكل المال الحرام محرم أشد التحريم قلما يتحرى دخله حلالاً، يوجد غش وكذب، و يوجد تدليس، و يوجد احتكار، و يوجد استغلال، ويوجد اغتصاب، وعدوان، ويوجد من المعاصي مالا يعد ولا يحصى، فالمشكلة أيها الإخوة كيف دعا النبي إلى الله ؟ عرفهم بالله أولاً.

قصة رويتها كثيراً ولكنها دقيقة جداً أحد إخوانا كان يعمل في لف المحركات قال لي: قبل أن أعرف الله كان يأتي محرك متعطل عن العمل وطبعاً لف المحرك يكلف خمسة آلاف ليرة، أفتحه فأجد شريط خارجي مقطوع يلحم خلال دقيقة فيعمل المحرك، قبل أن أعرف الله حينما يأتي صاحب المحرك يشغله له أمامه ويقول له اسمح لنا بخمسة آلاف.

هو نفسه بعد أن عرف الله وجاءه مثل هذا المحرك يقول له خمس وعشرون ليرة، فقال له: عجيب الشرط خمسة آلاف ليرة، قال له: لا شيء به شريط خارجي مقطوع وأنا وصلته.

إذا الدين ما تغلغل إلى عملك إلى أعمق أعمالك، إذا الدين ما وصل إلى كسب مالك إلى إنفاق مالك إلى حركة حواسك الخمس، علاقتك في بيتك مع أولادك مع زوجتك، مع جيرانك، مع أقربائك، إذا الدين ما وصل إلى العلاقات العامة، العبادات الشعائرية لا قيمة لها إطلاقاً، العبادات الشعائرية تقبل إذا صحت العبادات التعاملية وبالدين لا يوجد مجال للآراء الشخصية إطلاقاً.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ قَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصِيَامٍ وَصَلَاةٍ

وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عِرْضَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ مِنْ الْخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[مسلم، الترمذي، أحمد]

هذا الحديث وحده يقسم الظهر، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصِيَامٍ وَصَلَاةٍ وَزَكَاةٍ وإلى النار، قال تعالى:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ (53))

[سورة التوبة: الآية 53]

(إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (54))

[سورة التوبة: الآية 54]

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ هِيَ فِي النَّارِ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنْ الْأَقِطِ وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ هِيَ فِي الْجَنَّةِ"))

[أحمد]

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ قَالَ فَقَالَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلَا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ "))

[البخاري]

بهذه الموازين الناس هالكون، ميزان التعامل الدقيق بميزان الورع بميزان كسب المال بميزان إنفاق المال، كم مسلم يحرم بناته من ثروته ويكتبها لأبنائه في حياته ؟ يقول لك هذا المال لا أريد أن يذهب إلى الصهر هو يشرع لوحده، هو يتألى على الله لا يريد أن يعطي بناته حقهن.

((إن الرجل ليعبد الله ستين عاماً ثم يضار بالوصية فتجب له النار "))

والله يا إخوان أريد أن أكمل تفاصيل الأحكام أشعر إذا الإنسان ما وصل إلى درجة وعرف من هو الله يعد للمليون قبل أن يعصيه، أما إذا فهم الدين فهم سطحي عبادات وتعاملات تجد مسلمون مثلاً يبيع بضاعة محرمة، يعلن عنها بطريقة محرمة أحياناً، تجد مسلم يبيع بضاعة فاسدة، الذي يؤلم أشد الألم أن الدين لن يكون في المسجد هو في العمل، في الأسواق، في المعامل، في المؤسسات، في مكاتب المحامين، في عيادات الأطباء، في قاعات التدريس، في أبهاء الجامعات، هنا الإسلام، يعني المسلم بالأساس داعية وهو صامت أمانته تلفت النظر عفته تلفت النظر، صدقه، حياؤه، انضباطه، تفوقه يلفت النظر، هذا هو المسلم، ترى كما قال الله عز وجل:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة الممتحنة: الآية 5]

كافر يرى مسلم يكذب يحتقره ويحتقر دينه ويقول لك أنا الصح، الكفر هو الصح لأن من يدعي الإسلام يكذب، من يدعي الإسلام يحتال، من يدعي الإسلام لا يتقن عمله، عمله سيئ، يعني لا تدقق، هذا كله كلام مرفوض.

كيف تحب من الناس أن يشدهوا من إسلامك ؟ من استقامتك، من صدقك، من أمانتك، من عفافك. أنا أتألم تجد في الأسواق أيمان كاذبة بضاعة مغشوشة، هذا الذي ينتج الفراريج والله حدثني من أثق به بالمائة عشرة خمسة عشر ميتين، يطعم الناس أحياناً لحم ميت وهو محرم أكله لا تدقق هذا كيف يصلي؟ كيف إنسان يكسب رزقه من مسبح مختلط ؟ ويقيم فيه مولداً ويدعو بعض المتكلمين ليتكلموا في هذا المسبح المختلط، كيف مطعم يبيع الخمر وصاحبه مسلم ؟ كيف إنسان يعيش من عمل لا يرضي الله عز وجل من علاقة محرمة ؟ كيف تؤجر بيتك الليلة بعشرة آلاف ؟ يقول أنا لا علاقة لي هذا آجار، تعلم علم اليقين أن هذا ليس أجار بل هذا بيت دعارة، لأن أغلى غرفة في الشيراتون بخمسة آلاف ليرة، عندما دفعوا لك في الليلة عشرة آلاف معنى هذا ليس هذا للسكن إطلاقاً.

ترى في آجار البيوت في معاصي كبيرة، بكسب المال في معاصي بمشاريع لا ترضي الله، لماذا تخلى الله عنا أين الخلل ؟ المسلم داعية كبير وهو صامت، تعامله صادق، يحدثك صادق، تعامله أمين، تعرض له شهوة عفيف، عفة وأمانة وصدق، هذه أركان الأخلاق فإذا المؤمن ما كانت أخلاقه صارخة واضحة يقتضي به الناس كيف يعجب الناس بالإسلام ؟ طالب مستحيل أن ينقل وقد يكون ملتحي تنقل، نقل المعلومات غش في الامتحان، ترى المسلم يبيح لنفسه كل شيء أما صلاته وصيامه وحفظه لكتاب الله لا يكفي.

أنا أتمنى في هذه العجالة أن أبين لكم حاسب نفسك حساباً عسيراً لا تجاملها إطلاقاً، اقسُ عليها، كلما حاسبت نفسك حساباً عسيراً في الدنيا كان حسابك يوم القيامة يسيراً وكلما كان حسابك في الدنيا يسيراً كان حسابك يوم القيامة عسيراً، حتى الإسلام ينتشر ويتسع ودوائر الحق تضيق على دوائر الباطل، حتى الإسلام يكون منارة عظيمة أنت لا تصدق أن العرب في جاهليتهم كانوا قبائل متحاربة متخلفة خمور زنا العلاقات الإباحية العقل لا يصدقها، يعني رجل يقول لزوجته وهو في أشد حالات الراحة اذهبي إلى فلان فاستبضعي منه يعني دعيه يجامعك حتى يأتينا رجل ذكي مثله ممكن ! فوضى جنسية في الجاهلية تفوق حد الخيال، ربا أضعاف مضاعفة، خمور ما الذي قلبهم ؟ ما الذي قلبهم مائة وثمانين درجة كيف كانوا ورعين ؟ كيف كان أحدهم يحاسب نفسه حساباً عسيراً ؟ أنا لا أقول لكم هذا شيء مشروع لكن أبو حنيفة النعمان رفض أن يقف في ظل بيت مرتهن عنده لئلا ينتفع بظله، الخلفاء كان إذا حدث حديثاً خاصاً يطفئ السراج، كان سيدنا عمر بن عبد العزيز إذا دخل إلى مركز عمله يقول:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205))

[سورة الشعراء: الآية 205]

كيف اختار هذه الآية ؟ هذه الآية تنطبق على من مكنه الله في الأرض.

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (207))

[سورة الشعراء]

إخواننا الكرام:

لماذا لا ثورة، انتفاضة ذاتية، راجع كل حساباتك، راجع كل تصوراتك، راجع كل سلوكك، راجع كل علاقاتك، أي علاقة لا ترضي الله دعها، أي شخص يبعدك عن الله انصرف عنه، أي بضاعة فيها تحريم شبهة دعها، حاول أن تعمل جرد إلى دخلك وإنفاقك وعملك وكل شيء، لا يوجد جدوى من إعطاء معلومات تفصيلية بينما الآمر الذي أمر ليس عندك ذلك التعظيم له:

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33))

[سورة الحاقة: الآية 33]

وأعيد وأكرر إنك إذا عرفت الأمر بعد أن عرفت الآمر تتفانى في طاعة الآمر أما إذا عرفت الأمر ولم تعرف الآمر تتفن في التفلت من هذا الأمر.

الآن يوجد موجة فتاوى يعني كل شيء يكاد أن يكون مباحاً يقول لك في المحطة الفضائية الفلانية يوجد ندوة سمعتها الربا لا يوجد مانع، الربا مسموح والغناء مسموح والرقص مسموح والتمثيل مسموح وسفر المرأة من دون محرم مسموح والتقسيط الربوي مسموح كل شيء مسموح، يقول لك الدين يسر الدين لا يوجد فيه حرج أنت تضيق على الأمة.

المنهج واضح، الأمر واضح، النهي واضح، عندما الله حرم الربا ألا يعلم أنه سيكون هناك في مستقبل الأيام بنوك تؤدي قروض استثمارية، المحرم من الربا الاستهلاكي محرم أما الاستثماري غير محرم يتفننون بالتفلت من الشرع.

أنا قناعتي لأن تعظيمه لله ضعيف، وقناعتي الثانية أن هذا الدين العظيم الناس لم يستوعبوه ترى من ضعف في الثقافة الأصيلة للدين إلى ندوات أو إلى محاضرات أو إلى كلمات يقحم نفسه في فهم تفاصيلها وقد تكون هذه الكلمات في الأصل صحيحة، يعيني بالنقطة الدقيقة الدقيقة مستحيل أن تستوعب الباطل كله، الباطل لا يعد ولا يحصى واضح جداً خط مستقيم بين نقطتين من هذين النقطتين لا يرسم إلا مستقيم واحد وإن رسمت مليون مستقيم تنطبق هذه المستقيمات على المستقيم الأول يعني الحق لا يتعدد فاستيعاب خط مستقيم واحد أهون أم أن تستوعب مليون خط منحني منكسر ؟ الباطل مليون مئة مليون فكلما أوغلت في استيعاب الباطل الطريق مسدود وطويل جداً البطولة أن تستوعب الحق إن استوعبت الحق كان الحق مقياساً لك ودليلاً على بطلان الباطل.

أنا أتمنى على الله عز وجل في هذا اللقاء أو في هذا الدرس، هذه الآيات الكونية التي في القرآن الكريم ماذا نفعل بها ؟ لعلنا إذا قرأناها وفكرنا بها ازدادت معرفتنا بالله، يزداد تعظيمنا له، تزداد خشيتنا له عندئذ تجد نفسك منساقة إلى تطبيق أمره، تقريباً ولله المثل الأعلى أنت في بميزان لو أن الشهوة التي بين جنبيك وزنها كيلو وعندك مجموعة قناعات وزنهم خمسة غرامات هل يمكن أن تقف هذه الغرامات الخمس أمام الألف غرام ؟ لو أردت أن أعطي وحدات للشهوة، الشهوة الجنسية ألف غرام سمعت عدداً من الخطب وقرأت عدداً من الكتب وجالس مع عدد من الأصدقاء وعندك قناعات وزنها خمسة غرامات، الخمسة غرامات لا تقف أمام الألف غرام.

إذا أعطينا وحدات للإيمان ووحدات للشهوة، إذا الشهوة ألف غرام لا يقف في وجه الشهوة إلا ألف وخمس مائة غرام، الإنسان أحياناً يغلب تكون قناعاته ضئيلة وشهواته كبيرة، أحياناً يدخل في صراع مرير إذا دخل في صراع مرير معنى هذا شهواته على قد قناعاته، أما إذا كان إيمانه كبير جداً ارتاح من الصراع ودخل في الأعماق فبين أن تكون مغلوباً إذا كانت الشهوة قوية والقناعات ضعيفة وبين أن تكون في صراع مرير إذا الشهوات في مستوى القناعات وبين أن تكون شهواتك أمام قناعتك لا شيء لذلك كما قال الله عز وجل واصفاً رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4))

[سورة القلم: الآية 4]

متمكن ليس إنك ذو خلق لا إنك لعلى خلق عظيم، تصور إنساناً يقف على شط البحر قد تأتي موجة عاتية فتأخذه أو تبلله أما إذا كان في رأس جبل مطل على بحر أكبر موجة أعتى موجة أعلى موجة لا تصل إليه، فكلما كنت في الأعماق أنت في حرز حريز في حصن حصين، الدنيا تغر وتضر وتمر.

زرت معمل إسمنت دخلت إلى مخبره لفت نظري أنه يوجد مكعبات وكل مكعب مربوط به بطاقة، سألت عن هذه المكعبات قال لي: كل مكعب يمثل طبخة، هذه الطبخة تصب على شكل مكعب ويوضع المكعب في جهاز بسيط يلقى من قسمه الأعلى ومن قسمه الأسفل كفة توضع فيها أوزان بالتدريج على أي وزن يكسر هذا المكعب أي قوة مقاومة هذه الطبخة تصنف هذه الطبخات، طبخة متينة طبخة أقل متانة. فأنا شعرت أن هذا المثل يفيدنا جداً كل إنسان له مستوى إيمان على أي شهوة مغرية يكسر ؟ أو على أي ضغط مخيف يكسر ؟ عندك عاملين للكسر إما الإغراء أو الضغط، يوجد إنسان يكسر على ضغط معين، أما سيدنا النبي الكريم قال: والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه.

يوجد إنسان لو قطعته إرباً إرباً لا يعصي الله، يوجد إنسان آخر لو قيل له أخذوا اسمك لا يأتي إلى الدروس، كلمة واحدة هذا فراق بيني وبين المسجد بكلمة قالها إنسان يمزح معه أحياناً أو غير متأكد.

أقول لكم كلمة لعلها قاسية هذا الذي تعبده إن كان لا يحميك لا تعبده إله قوى الأرض بكاملها في قبضته، الدول العظمى أسلحة الدول العظمى، كل شيء في الأرض في قبضته أيعقل أن يسلمك إلى إنسان أنت تريد أن تطيعه وهو لا يحميك !

هذا مستحيل يوجد حالات عندنا في الدين عجيبة تصور فئة قليلة سنسميها شرذمة معها سيدنا موسى وخائفة وهي متجهة نحو البحر وراءها فرعون بجبروته بكبريائه بطغيانه بأسلحته بأعوانه بأتباعه، في الحسابات الأرضية لا يوجد أمل، قال تعالى:

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62))

[سورة الشعراء]

في الأرض لا يوجد أمل جيش كبير أسلحة فتاكة نفس حاقدة طاغية وهؤلاء شرذمة قليل متجهون نحو البحر، البحر أمامهم والعدو وراءهم لا يوجد أمل، الله عز وجل جعل البحر طريقاً يبساً فلما خرج أصحاب موسى من الطرف الآخر وتبعهم فرعون أدركهم الغرق وهو في وسط البحر.

أنا أعيد هذا لأنه شيء رائع جداً، يعني في مصيبة بالأرض أكبر من أن ترى نفسك فجأةً في بطن حوت، في ظلمة بطن الحوت، الحوت وزنه مائة وخمسين طنّ وجبة أكله المعتدلة العصرونية له أربعة طن إذا أحب أن يعمل سندويشة يفتح فمه ويمشي يجمع السمك ويأكلهم، رضعة وليده الحليب ثلاث مائة كيلو ثلاث رضعات في اليوم طن حليب، الحوت حيوان ثدي، الحوت جر سفينة ضخمة ثمانية وأربعين ساعة وهي تعمل محركاتها عكس اتجاه الحوت، الحوت فيه خمسين طناً دهناً وخمسين طناً لحماً يخرج منه تسعين برميلاً، إنسان يجد نفسه فجأةً في بطن حوت هل يوجد أمل ؟ نسب أمل النجاة صفر، هل يوجد خليوي مع سيدنا يونس ؟ لا يوجد قال تعالى:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ)

[سورة الأنبياء: الآية 87]

أقسم بالله لو الآية أرويها ألف مرة لا أشبع منها.

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ)

[سورة الأنبياء]

ولا يمكن أن تكون قصص القرآن قصص إلا أنها قوانين:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88))

[سورة الأنبياء: الآية 88]

لا يوجد مشكلة ترقى إلى مستوى أن تكون في بطن حوت، لا يوجد مشكلة الله عز وجل يعطينا أمثلة، سيدنا إبراهيم ألقوه في النار كلمة واحدة، قال تعالى:

(يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69))

[سورة الأنبياء: الآية 69]

لو قال برداً لمات إبراهيم برداً من شدة البرد، لو لم يقل سلاماً لمات من البرد، لو لم يقل على إبراهيم لألغي مفعول النار إلى أبد الآبدين، يا نار يخاطب جنس النار، كوني برداً وسلاماً على إبراهيم هذه آية ثانية.

الذين طاردوا النبي عليه الصلاة والسلام و وصلوا إلى الغار يقول الصديق رضي الله عنه: لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا قال له: لا تحزن إن الله معنا، قال له مرة ثانية: لقد رأوني، قال له: يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى: وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون.

أنت مع من تمشي ؟ تمشي مع من بيده كل شيء، مهما علا معقول امرأة تخاف على ابنها أن يذبحه فرعون، قال تعالى:

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

[سورة القصص: الآية 7]

معنى هذا أنه مات وضعته في صندوق.

(وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7))

[سورة القصص: الآية 7]

أمرها بأمرين ونهاها عن نهيين وبشرها ببشارتين، قال تعالى:

وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه هذا أول أمر، فإذا خفت عليه فألقيه هذا ثاني أمر، ولا تخافي ولا تحزني هذا أمرين، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين بشارتين.

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9))

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ)

[سورة القصص]

وهذا التحريم تحريم منع لا تحريم تشريع، ما التقم ثدي مرضعة، أخته تتبعته عن بعد وقالت:

(هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

[سورة القصص]

أنت حينما تؤمن أقسم بالله العظيم الجبال تتحرك من أجلك إذا آمن أنت مع من ؟ مع خالق الأكوان مع من بيده الإنس والجان، مع من بيده أمر كل شيء إله إليه يرجع الأمر كله.

هذه تشالنجر الذين قالوا عنها المتحدي وجعلوا عداً تنازلياً وكل شيء مضبوط وكل جهاز فيه جهازين وكل شيء تمام وفيها سبعة رواد فضاء بينهما امرأة وأطلقوه سبعين ثانية كان كتلة من اللهب.

أعداؤنا لعنهم الله قبل أربع سنوات في إحدى ليالي القدر لي صديق توفاه الله قال لي: كنت أنا في الحرم المكي في ليلة القدر ودعا الإمام دعاء أبكى كل من حوله دعا على اليهود واستمر دعاءه على اليهود ربع ساعة تقريباً في ضمن هذه الربع ساعة اليهود أرادوا أن يأخذوا رهائن من المساجد لأن الناس كلهم في هذه الليلة في المساجد هيئوا طائرتين مروحيتين هيلوكوبتر وهيئوا مائة وعشرون ضابط كوماندوس كل واحد مكلف خمسة ملايين ولا يتعوضون ولا بعشرين سنة، وهذا الضابط الكوماندس المغوار يتقن الصراع الياباني يتقن اللغة العامية للمنطقة، يتقن السلاح الأبيض يتقن أعقد الأجهزة الإلكترونية رياضي من الطراز الأول مصارع يعني نخبة، الكوماندس نخبة هيئوا طائرتين لتحطان في جنوب لبنان ليخطفوا الناس من بيوت الله في ليلة القدر وقعت الطائرة العليا على الطائرة السفلى ووقعتا معاً على مستعمرةٍ هناك ومات في ليلة واحدة مائة وخمس وعشرون ضابطاً ولم يمنى اليهود بخسارة منذ أن أسست دولتهم وحتى الآن بمثل هذه الخسارة لأن الله قال:

(سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5))

[سورة القدر: الآية 5]

لما كشفوا الصندوق الأسود آخر كلمة قالها الطيار العلوي قال: أنا أسقط ولا أدري لما أسقط، لا أعرف.

الله تدخل إذا كنا نحن في طاعته وفي محبة بيننا وتعاون ونجدة ومروءة الله عز وجل يريهم النجوم ظهراً كل شيء بيد الله عز وجل، قال تعالى:

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

[سورة آل عمران: الآية 126]

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

[سورة آل عمران: الآية 160]

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة غافر: الآية 51]

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (173))

[سورة الصافات: الآية 173]

يوجد كل قصة شهد الله هؤلاء في الشمال جيراننا يوجد عندهم ساحل من أجمل سواحل العالم بين استنبول إلى أزمير أنا ركبته بالسيارة ثلاث مائة وثمانين كيلو متراً في منطقة اسمها إزميت غير أزمير هي لسان طويل يوجد حفل تخريج أو إحالة على التقاعد لا أدري ضباط بحرية وحفل ماجن وراقصات وضيوف من إسرائيل وضيوف من أمريكا وحفل بقي إلى ساعة متأخرة من الليل بعد الساعة الثانية عشر انتهى البرنامج الرسمي بقي المجون والرقص والغناء يبدو أن قائد القاعدة أصابه سكر طلب من ضابط كبير أن يأتي بمصحف هذا الضابط يمكن مقدم جاء بمصحف وضع المصحف تحت أقدام الراقصات ومزق هذا الضابط يمكن أن عنده إيمان من شدة خوفه ولى هارباً وهو الناجي الوحيد في الساعة الثالثة إلا عشرة جاء الزلزال هذه القاعدة أكبر قاعدة بكل من عليها بكل من فيها من الضيوف من أمريكا ومن إسرائيل والضباط والقاعدة والنساء والراقصات أصبحوا في خبر كان، بعد أيام نزلت غواصة إلى أعماق البحر، حدثني أخ من تركيا والله عندي صادق قال لي: حي بأكمله بأبنيته وسياراته حتى أسماء أصحاب البيوت على بيوتها كما هو في قاع البحر، قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12))

[سورة البروج: الآية 12]

هذا الذي نجا بنفسه هو صديق أخ لنا في تركيا وحدثه القصة تماماً وأنا ما رويتها وجاءتني مئات الأوراق عنها في الشام ما رويتها خوفاً أن يكون مبالغاً بها إلى أن التقيت بشخص وقد سمع من صديقه هذا الذي نجا بنفسه الوحيد الذي جاء بالمصحف ثم ولى هارباً الساعة الثالثة إلا عشرة كان الزلزال.

أما الشيء الذي لا يصدق كل أخ من إخواننا المهندسين إذا في زلزال أول بناء يتصدع الشامخ والذي له قاعدة صغيرة، بنصف إزميت يوجد مسجد على النمط التركي مئذنته عالية شامخة ومسجد تقليدي وبجانبه معهد شرعي كل ما حول المسجد أنقاض ارتفاعه ثلاثين سنتمتراً أنقاض هذه الصورة أنا أخذتها من الانترنيت وطبعناها ولوناها وعملنا عليها ثلاث تعليقات، قلت لهم في التعليق الأول: أن حرب الخليج رسالة أمريكا إلى العالم الثالث وأن حرب البلقان رسالتها إلى أوربا وأن زلزال أزميت رسالة الله إلى البشر، مئذنة ومسجد لم تمسان ومعهد شرعي وما حول هذه المئذنة والمسجد كل شيء مدمر وإزميت مركز الزلزال والقاعدة أصبحت في قاع البحر ويوجد قناة عرضت هذا الفيلم في تركيا.

مع من تمشي أنت ؟ أنت تمشي مع من يقل كن فيكون، زل فيزول اعرف مع من أنت تمشي، لماذا قال تعالى:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

[سورة التحريم: الآية 4]

الله يخاطب عائشة وحفصة، امرأتين.

(وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ)

[سورة التحريم: الآية 4]

هل هذا معقول امرأتين، قال إذا أردت أن تقف ضد الحق فاعلم من هو الطرف الأول ؟ اعلم من هو الطرف الأول ؟ أنت مع من تمشي ؟ لا تمشي مع شخص، جماعة، تمشي مع خالق الأكوان، مع من بيده صحتك، قلبك، رئتيك، أعصابك، المعدة، الغدة النخامية نصف غرام وزنها تعطي اثني عشر أمر الأمر ما تنفذ تصبح حياة الإنسان جحيم، أمر النمو إذا لا يوجد أمر النمو يوجد تقزيم رجل عمره ستين سنة طوله عشرين سنتمتر، تعطي أمر توازن السوائل إذا إنسان لا يوجد معه هذا الأمر يجب عليه أن يشرب عشر تنكات ماء أو عشرين ويخرجهم ليس له عمل إلا المرحاض والصنبور، كل أمر من هذه الغدة التي هي نصف غرام لو ما نفذ تغدو حياة الإنسان جحيماً.

أنت مع من ؟ أنت مع من يملك الغدة النخامية والغدة الكظرية والبنكرياس والدرقية هذه غدد صماء أكبر اختصاص حتى الآن، مع من بيده قلبك، القلب يضخ في اليوم ثمانية أمتار مكعب كل يوم يضخ بعمر متوسط ما يملأ أكبر ناطحة سحاب في العالم يعمل بلا كلل ولا ملل يأخذ أمر كهربائي من مركز كهربائي ذاتي خاص به وإن تعطل هذا المركز أخذه من مركز آخر وإن تعطل الآخر أخذه من مركز ثالث.

قلبك آية، رئتيك، آية لسانك آية، عينك آية، أذناك آية، شعرك آية، دماغك آية، كل هذه الدقة في الصنع وتغفل عن الله عز وجل، يجب أن نعلم نحن مع من ؟ نحن مع خالق الكون لا مع جماعة ولا مع فئة ولا مع شخص، الدين أكبر بكثير، قال تعالى:

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً (18))

[سورة الجن: الآية 18]

هذا المسجد لله لا يمكن أن يدعى فيه لإنسان إلا لله وحده وإلا إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، هنا الدعوة لله عز وجل فأنت عندما تعلم مع من تمشي أنت عبد لمن ؟ لا يليق بك إلا أن تكون لله حينما تكون لغير الله تحتقر نفسك، قال تعالى:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

[سورة البقرة: الآية 130]

احتقرها، أنت لا يليق بك إلا أن تكون لله أن تكون محسوباً على الله عالم جليل توفي رحمه الله عالج نفسه في بريطانيا فعملوا معه مقابلة في الإذاعة فجاءت آلاف الرسائل وآلاف الفاكسات والإيميلات فسألوه ما هذه المكانة التي حباك الله بها ؟ أجاب إجابة رائعة فقال: لأني محسوب على الله. نحن جميعاً يجب أن نكون محسوبين على الله، أنت عبد لله أنت سفير المسلمين، أنت وليك الله هدفك الله مسعاك لمرضاة الله أنت بعت نفسك بيع قطعي، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

[سورة التوبة: الآية 111]

إذا أنت بعت بيتاً قل لي بصراحة وقبضت ثمنه كاملاً وطوبت زرت صاحب البيت، لماذا زلت هذا الحائط بين الغرفتين ؟ لماذا هو حر أنت ألم تبعه، لماذا دهنته ؟ لماذا الحمام كبرته ؟ أنت انتهيت بعته وبعد أن بعت وقبضت ليس لك كلام.

الآن إذا أردت أن تفهم الآية فهماً دقيقاً إن الله اشترى منك نفسك، أنفسهم وأموالهم والثمن الجنة، جعل دخلك محدوداً هكذا هو يريد وأنا لا علاقة لي، بعث لك زوجة من الدرجة الأولى، من الدرجة الخامسة مثل ما يريد، أنا بعت وإذا بعت فعلاً لا تعترض إذا ما بعت يوجد مشكلة، لكن المؤمن الصادق باع وهذه غير بايعها بايعها يكون شخص مهمل.

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

[سورة التوبة: الآية 111]

أيها الإخوة:

والله قبل أن آتي إليكم أنا أعرف يوجد عندي منهج موضوع البيوع ولكن من شدة ما أرى من تقصير المسلمين وانحرافهم وعدم التزامهم وكأن الجامع شيء والبيت شيء آخر، والجامع شيء والعمل شيء ويسمعون كلام لا يطبقوه ويعيشون في واديين وصار في ازدواج شخصية أو انفصام شخصية.

جاء رجل معافى إلى طبيب نفسي فقال له: هل تستطيع أن تفعل انفصام شخصية ؟ قال له الطبيب: عجيب ما أحد سألني هذا السؤال بحياتي، فقال له: ضاق خلقي لوحدي لعلي أصبح شخصين فأتسلى.

يوجد انفصام شخصية يا إخوان، هذا الجامع له سمته الحسن وترتيباته أما في البيت إنسان آخر، في العمل إنسان آخر، في السفر إنسان آخر، صار ازدواج شخصية أي نفاق، النفاق استشرى مواقف مزدوجة استشرت تراه وديع في بيته وحش أحياناً، ترى الزوجة مظهرها مقدس وهي ليست كذلك في البيت مخيفة صار خلل، ديننا عظمته بالاستقامة، بالعفة، بالصدق، بالأمانة.

رجل تزوج امرأة خفية زوجته الأولى علمت وما تكلمت توفي من ورع الزوجة الأولى أرسلت إلى ضرتها نصيبها من الميراث فقالت لها: طلقني قبل يومين لا يوجد لي عنده شيء. الأولى ورعة خافت أن تضيع الحقوق فأرسلت إلى زوجته نصيبها من الميراث والثانية أيضاً ورعة قالت: أنا مطلقة ليس لي عندكم شيء.

ولو مداخلة في ضمن دروس البيوع لأن الله عز وجل في آيات جزء عم كلها الشمس والقمر والنجم والشمس وضحاها، والفجر وليال عشر، والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى كلها آيات كونية تأتي آية ليس لها علاقة بالكون إطلاقاً قوله تعالى:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1))

[سورة المطففين: الآية 1]

يا رب هذه مشاذ الآيات كلها كونية وليس لها علاقة بالكون بل بالتعامل، أجمل تحليل لهذا القطع للسياق قاله بعض المفسرين: أيها الإنسان أنت هالك إذا بخست حق أخيك ويل للمطففين إذا الوزن ما كان صحيحاً:

(الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2))

[سورة المطففين: الآية 2]

إذا في غش، كذب، تدليس، تجاوز، إيهام، احتكار، ويل، الهلاك، قال: إذا كنت هالكاً حينما تطفف حق أخ مسلم فكيف إذا بخست حق الذي خلقك ؟ علاقتها بالسياق العام هذا.

يوجد أحكام تفصيلية كثيرة واستدراكها سهل تماماً وأنا أريد هذا الذي عرف الله أولاً حتى يندفع اندفاعاً ذاتياً إلى طاعته.

عندي أسئلة:

السؤال: هذه الخلوة الصحيحة الكاملة بالمخطوبة تعتبر بمثابة الدخول عليها فعلاً ؟

الجواب: الخلوة الصحيحة الباب مغلق دخول يوجب المهر بكامله.

السؤال: عرض الأنصار على المهاجرين مشاركتهم لهم بالأموال والتجارة والدكاكين والبساتين حتى أنهم عرضوا عليهم اختيار الزوجة من بين الزوجات ؟

الجواب: أنا والله ما رويتها بحياتي هذه القصة هل سمعتموها مني مرة واحدة ! بكل تاريخ الدعوة أنا ما رويتها الله أعلم، قال: عندي بستانان خذ أحدهما مقبول، عندي حانوتان خذ أحدهم مقبول، عندي بيتان خذ أحدهما مقبول، أما عندي زوجتان اختر أحدهما ؟ أنا ما ذكرتها إطلاقاً يوجد إشكال كبير حولها.

قال: أليس ذلك ظلماً للزوجة ومعاملتها كالمتاع ؟

والله صح.

ورد في بعض كتب السيرة أن الأنصار عرضوا على المهاجرين أن يعطوهم نصف أملاكهم بيوتهم بساتينهم ولكن الشيء الذي لا يصدق أن التاريخ الإسلامي لم يسجل لمهاجر واحد أخذ من أنصاري شيء، كان جواب المهاجر بارك الله لك في مالك ولكن دلني على السوق هل ترون العفة، الآن اعمل أي مشروع خيري من ينتفع منه ؟ الأغنياء أول شيء يأخذون، كانوا فقراء جداً، المهاجرون بارك الله لك في مالك ولكن دلني على السوق والعرض كان مقبول دكان إحداهما، بيتين إحداهما أما زوجتين والله أنا ما رويتها لأني ما ارتحت لها مع أنها وردت في الكتب ولكن ما كل ما روي في الكتب يقال.

السؤال: ما معنى قوله تعالى:

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)

[سورة النور: الآية 31]

الجواب: كلمة ظهر دقيقة جداً، إلا ما ظهر هل تستطيع المرأة أن تخفي طولها ؟ لا تقدر، فطولها يظهر رغماً عنها، هل تستطيع امرأة أن تخفي امتلاء جسمها أم نحولها ؟ لا تقدر ممتلئة أو سمينة أو نحيفة، هل تستطيع امرأة أن تخفي لون ثيابها ؟ مستحيل، الله سبحانه وتعالى ما قال إلا ما أظهرن منها، إذا الشيء بإمكانها أن تظهره أو لا تظهره ليس له علاقة بالآية هذه، أما يفهمونها فهم شخصي يمكن أن تظهر وجهها، تظهر شيئاً من جسمها إلا ما ظهر منها لا الله ما قال إلا ما أظهرن منها، قال:

(إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا(31))

فكما أن المرأة لا تستطيع أن تخفي طولها ولا امتلاء جسمها ولا نحولها ولا لون ثيابها هذا شيء لا تؤاخذ عليه، قال تعالى:

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا(31))

أما إذا عندها موطن كبير للزينة بإمكانها أن تظهره أو لا تظهره فالحكم أن تخفيه، هنا صار إلا ما أظهرن منها، لا، الآية إلا ما ظهر منها، يعني لا يجوز أن تظهر المرأة شيئاً بإمكانها أن تخفيه لكن إذا ظهر منها شيء ليس في إمكانها أن تخفيه لا شيء عليها كطولها وامتلاء جسمها ولون ثيابها.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (133) :الآثار السلبية للغزو الثقافي في بيوت المسلمين .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2001-09-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

موضوع الدرس اليوم: أريد أن أتحدث عن هذه الموضوعات التي أختارها، الحقيقة ممكن أن يُفتح كتاب فقه ونقرأ هذه الموضوعات التقليدية، لكن أحياناً هناك موضوعات بالفقه بعيدة عن واقعنا بيع المنابزة بيع الملابسة، أكثر من عشرين ثلاثين نوع من البيع المحرم الآن غير موجود إطلاقاً، فأنا أتمنى أن أعالج موضوع نحن في أمس الحاجة إليه، موضوع حياتي عملي، موضوع نعيشه جميعاً، الموضوعات غير الواقعية لا يوصى إليها.

لو فرضنا تحدثت عن عتق العبيد الآن، أبواب بالفقه عن العبيد وعتق العبيد والحر والعبد والأمى وأم الولد، الآن لا يوجد ولا فرد عبد، لكن توجد شعوب مستعبدة ! الحديث الآن ينبغي أن يكون عن الشعوب المستعبدة لا عن الأفراد المستعبدة، الحقيقة أنا أبحث عن موضوع دائماً يغطي حاجة المومن، موضوع حياتي، عن موضوع يسبب إشكال كبير للمؤمن، الحقيقة وقع تحت يدي بحث في موقع يتحدث عن آثار هذه المواقع الإباحية في الإنترنت أو هذه المحطات الفضائية شيء لا يصدق، وبحكم عملي في الدعوة أيها الإخوة: تأتيني مشكلات هي إفراز لما يجري بين الناس الآن، فهذا المجتمع الإسلامي الطيب لا يمكن أن تخطر على بال مخلوق، من هذه المحطات الفضائية ومن هذه المواقع الإباحية في الإنترنت، ومن هذه المجلات ومن هذه الأعمال الفنية، فالقضية قضية مدمرة سبب اختياري لهذا الدرس أن رجلاً يقطن في أحد أحياء دمشق الراقية بالمفهوم المادي، جاء إلى أحد خطباء ذلك الحي وحدثه عن قضيته التي يندى لها الجبين ! وقال له: أرجوك يا أستاذ فلان أن تعرض قضيتي على المنبر، ما قضيته؟ عنده صحن واسع جداً ويأتيه بثلاثمائة وخمسين محطة، قال: مع أهله يتناولون طعام العشاء ويقلب في هذه المحطات فإذا بمنظر مرعب منظر إباحي، فالأب سرعان ما نقله إلى محطة أخرى وتناول الجميع طعام العشاء وآووا جميعاً إلى غرفهم، يقول هذا الأب: في الساعة الثانية بعد منتصف الليل سمعت أنيناً فاستيقظت مذعوراً وشاهدت مشهداً بين ابني وابنتي كدت أموت وأصعق، لأن هذا الابن بعد أن أوى والديه إلى فراشهما عاد إلى هذا الصحن وقلب المحطات وكان قد حفظ رقم المحطة التي بدلها أبوه فجأة، فهذا رأى ما بين ابنه وابنته كما بين الزوجين، فهذا الرجل رجاه أن يعرض قصته على الناس وهذا الخطيب صديقي، والله لولا أنني سمعت عشرات بل بضع عشرات

من هذه المشكلات في بيوتات المسلمين لما اخترت هذا الدرس، شيء مخيف، الإنسان يفتقر يمرض يخسر وظيفته، أما أن يرى الفاحشة بين ابنه وابنته في البيت ! ماذا يحصل لهذا الأب، عندنا أشياء مدمرة.

أيها الأخوة: نحن أمام غزو ثقافي، هذا الغزو يجعل من بيوت المسلمين ملاهي ونوادي ليلية ! والآثار على الأولاد، لو تصورنا أن الزوج والزوجة تحل مشكلتهما فيما بينهما، لكن هؤلاء الشباب والشابات حينما تأتي بهذا الصحن وحينما تسمح لأولادك أن يطّلعوا على ما في سرياته إلى بعد منتصف الليل، الظاهرة الآن النوافذ كلها مضيئة الساعة الثالثة الرابعة الخامسة ليلاً كله قيام ليل في قنوات المجاري، عثرت على موضوع تحت يدي خطير جداً مؤلف من اثنين وعشرين صفحة لكن أتخير من هذا الموضوع ما يناسبكم.

أولاً أيها الأخوة: يجب أن تعتقدوا أنه مادام الإنسان مخيراً فكل شيء حولك اعتيادي قابل إلى أن تستخدمه في الخير أو أن تستخدمه في الشر، كل شيء حولك حيادي وهو قابل إلى أن تستخدمه بالخير كما هو قابل أن تستخدمه في الشر، الكتاب هناك كتاب يثنو بك، وكتاب يهوي بك كتاب علم كتاب فقه كتاب تفسير كتاب حديث كتاب سيرة كتاب علمي يثنو به، ويوجد كتب فيها أعمال فنية ماجنة ساقطة من نوع الأدب المكشوف يهوي بك، قرص ليزري هناك قرص يسمو بك، وقرص يهوي بك، قصة تسمو بك وقصة تهوي بك، الحاسوب قد يستخدم استخدام فيه نفع لا يصدق وقد يستخدم استخداماً فيه أذى لا يصدق، الإنترنت يمكن أن تعيش مع العالم كله بكل مؤسساته العلمية وموضوعاته العميقة ويمكن أن تتنقل في كل المجالات ويمكن أن يكون هذا الموقع سبب دمار الإنسان،القضية خطيرة قضية بقاء أو تحلل انسياح، فلأنني سمعت من بعض من يلوذ بإخوانه مشكلات لا نهاية لها سواء من هذه الصحون أو تلك الأقراص أو هذا الإنترنت، لكل هذه استخدامات رشيدة ونافعة جداً ولكل هذه الوسائل استخدامات سيئة جداً، فالذي أتمناه على إخوتي الكرام أن يأخذوا هذا الموضوع أخذاً خطيراً، الأب الذي يسهو عما يجري في البيت يسافر يدع ابنه مع هذه الصحون لا يدري ماذا يحصل في هذا البيت، الأكمل: طوبى لمن وسعته السنّة تستهوه البدعة.

بادئ ذي بدء نبدأ مع النصوص، لأن النبي عليه الصلاة والسلام ما من شيء يقربنا إلى الله عز وجل إلا أمرنا به، وما من شيء يبعدنا عن الله عز وجل إلا نهانا عنه، لأنه نبي ولأنه يوحى إليه، ولأن الله عز وجل كلفه أن يخبرنا عن كل شيء، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِي اللَّهم عَنْهمما عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ))

(صحيح البخاري)

الفتنة الأولى والغرب يحاربنا بالمرأة، حدثني أخ في أمريكا متزوج من زوجة أمريكية كانا في الخليج فإذا امرأة ترتدي ثياباً داخلية تمشي في الطريق هكذا ! فزوجته سألته كيف تمشي هكذا قالت: هذه مهمتي، مهمتها أن تمشي هكذا، الغرب يحاربنا بالمرأة لأنه إذا فسد الشباب فسدت الأمة، وإذا انحلت الأسر انحلت الأمة، وإذا ضاعت الفتيات ضاعت الأمة أكبر خطر يواجه الأمة الإسلامية اليوم ضياع شبابها وانحراف شاباتها.

أيها الأخوة: تلك الفتيات الرائحات الغاديات الكاسيات العاريات المائلات المميلات أليس هؤلاء هن بنات المسلمين ؟ أليس لهؤلاء البنات آباء مسلمين يدخلن المساجد وإخوة مسلمون يرتادون المساجد ؟ كيف سمح لهن أن يخرجن هكذا ؟ فالأمر الآن أمر مصيري، فأي بيت حينما يتساهل في هذا الغزو الثقافي الخارجي إما عن طريق المحطات الفضائية أو عن طريق الأقراص الليزرية أو عن طريق مواقع الإنترنت هذه قد تكون مدمرة لذلك: مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ وبالتعبير الحديث: إذا كان بيدنا ورقة رابحة الآن وحيدة هي أبنائنا فإذا فسد أبنائنا انتهى مستقبل أمتنا، وإذا انتبهنا لأبنائنا فهم الورقة الرابحة الوحيدة في أيدينا، لذلك ما من عمل الآن أعظم على الإطلاق من العناية بأبنائنا وتحصينهم.

كنت أقول دائماً أيها الأخوة: فيما مضى الفساد محصور في بُئر محدودة، في كل مدينة دار سينما وتياترو فقط، والبيوت عامرة بالذكر والصلاة والطالب بين مدرسته وبيته فقط، لكن الآن توجد مشكلة كبيرة جداً، اطلعت مرة في موقع معلوماتي أن أباً يعمل في التدريس له ابن كل طموحه أن يكون عالماً، أدخله ثانوية شرعية، أصدقاء هذا الابن أطلعوه على فيلم إباحي فانحرفت أخلاقه ن وهذا الانحراف بقي يزداد إلى أن قبل أن يكون عميلاً لجهة استعمارية ليشتري بهذا المبلغ المخدرات من الشذوذ إلى المخدرات إلى أن يكون عميلاً للإف بي آي، بأفغانستان قُبض عليه يتجسس ليدل على مواقع المجاهدين فأُعدم، ابن أسرة محافظة تريد العلم، طموح أبيه أن يكون ابنه عالماً انتهى إلى أن يعدم بتهمة العمالة للاستعمار الغربي، وقبل أن يكون عميلاً كان مدمن مخدرات، وقبل أن يكون مدمن مخدرات كان مدمناً على أقراص الليزر التي فيها أفلام لا ترضي الله.

هؤلاء المجرمون المدمنون الساقطون أبناء أسر ولهم آباء وأمهات بل أسر محافظة.

فالأمر أيها الأخوة: أخطر مما تتصورون، ما من مصيبة أكبر على الإطلاق من أن ترى الفاحشة في بيتك، من أن يأتي ابنك الساعة الثانية بعد منصف الليل، ولا تستطيع أن تسأله أين كنت، لأنه وحش قد يتهجم عليك، هذه هي المصيبة لا أن تكون فقيراً لا والله، لا أن تأكل طعاماً خشناً، لا أن ترتدي ثياباً بسيطة لا والله، مرحباً بالفقر إذا فيه انضباط أسري وعفة في البيت واستقامة وأولاد أبرار وشابات

مؤمنات مسلمات تائبات قانتات عابدات سائحات مرحباً، أية مشكلة تهون مع أسرة متماسكة أي مشكلة تهون مع أولاد أبرار، أي مشكلة تهون مع شابة مسلمة تخشى الله عز وجل.

إخواننا الكرام: لا زلنا بخير، أنا لا أخيفكم الآن، لكن يوجد خطر خطير جداً، يوجد خطر قد يدمر أسرنا وأبنائنا وشاباتنا، هذا الإنسان المسلم الساذج يقول: أنا أحب أن أكون منفتح على الحضارة أن أطلع ما يجري في العالم هذا أنت، وابنك ؟ شيء ثاني، وابنتك ؟ أنت إذا اطلعت عنك حل لمشكلتك أما إذا اطلع ابنك أو ابنتك لا حل إلا الزنى، لأن الآن بين الشاب والزواج عشرون سنة، خمسة عشر.

يا أيها الأخوة: والله كلمة من القلب إلى القلب راجعوا أنفسكم وحساباتكم، اضبطوا منازلكم، أي جهاز ممكن أن يكون نافذة إلى معصية يجب أن تراقبوه وتضبطوه وتزيلوه.

يقول الله عز وجل:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران)

سيدنا عمر يقول: اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا، اللهم إني أسألك أن أنفقه في حقك، يا ربي هذه الشهوة التي أودعتها فينا اجعلها في مرضاتك، وفق منهج فيما يرضيك اجعلها مع منهج القرآن الكريم.

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ))

(صحيح مسلم)

وأقول لكم بكل صراحة إن أكبر فتنة المسلمين اليوم في النساء، وفي كسب المال الحرام بالضبط !

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)

(سورة نور)

إلى آخر الآية.

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (35))

(سورة الأحزاب)

هذا من حفظ الفرج، وطريق حفظ الفرج غض البصر، لا زلنا في النصوص الشرعية.

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6))

(سورة المؤمنون)

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

(سورة الإسراء)

دقق الآن: أي موقع إباحي أو أي قرص ليزري أو أية محطة فضائية تعرض عليك ما لا يجوز أن تراه هذه المشاهدة اقتراب من الزنى.

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32))

يوجد نقطة دقيقة جداً: الإنسان حينما يقترب من الزنى بأن يشاهد أو أن يستمع أو أن يقرأ، حينما يقترب من الزنى بأن يشاهد مالا يحل له أن يشاهده أو أن يستمع مالا يحل له أن يستمع إليه أو أن يقرأ ما لا يحل له أن يقرأه يفقد محاكمته، فالإنسان إذا استُثير يفقد محاكمته، وما من إنسان على وجه الأرض زلت قدمه إلا وهو معمّى عليه بعيد عن المحاكمة، وهذا معنى قول النبي الكريم:

((عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّهم عَنْهم خَطَبَ النَّاسَ بِالْجَابِيَةِ فَقَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ مَقَامِي فِيكُمْ فَقَالَ اسْتَوْصُوا بِأَصْحَابِي خَيْرًا ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَبْتَدِئُ بِالشَّهَادَةِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا فَمَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ بَحْبَحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ لَا يَخْلُوَنَّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا وَمَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ))

(مسند الإمام أحمد)

فأعيد وأكرر: مجلة لا ينبغي أن تقرأها لأن فيها قصصاً مثيرة، وقرص ليزري لا ينبغي أن تشاهده على الكمبيوتر، ومحطة فضائية لا ينبغي أن تطّلع عليها، وموقع إباحي لا ينبغي أن تراه في الإنترنت، من أقدم على هذه الأربع فقد اقترب من الزنى ، وحينما يقترب من الزنى يفقد إرادته، ما من مثل أوضح لذلك: من صخرة واقعة في قمة جبل، في ركن ركين أنت إذا دفعتها إلى الوادي وقلت: سأسمح لها أن تهبط مترين فقط لن تستقر إلا في قعر الوادي، وأنت حينما تسمح لنفسك أن ترى مالا ينبغي أن تراه أو أن تقرأ مالا ينبغي أن تقرأه، أو أن تسمع مالا ينبغي أن تسمعه أو أن تشاهد مالا ينبغي أن تشاهده فكأنك دفعت هذه الصخرة، وتمنيت عليها أن تقف عند حد، لن تقف إلا في قاع الوادي، لذلك أي اقتراب من الزنى ينتهي إلى الزنى.

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32))

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ لِكُلِّ بَنِي آدَمَ حَظٌّ مِنَ الزِّنَا فَالْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِالذي ينظر إلى أشياء إباحية كانه يزني. وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ وَالْيَدَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْبَطْشُ وَالرِّجْلَانِ يَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْمَشْيُ وَالْفَمُ يَزْنِي وَزِنَاهُ الْقُبَلُ وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ))

(مسند الإمام أحمد)

فالنظر نوع من الزنى، والملامسة نوع من الزنى، وأن يمشي إلى مكان لا يرضي الله نوع من الزنى.

((عن الهيثم بن مالك الطائي رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له))

(للإمام جلال الدين السيوطي)

والله أيها الأخوة: بحسب ما أكرمني الله به من عمل في الدعوة والله ينتهي إلى سمعي إما من انحلال بعض الإخوة أو من خلال الهاتف قصص تجري بين المسلمين لا يمكن أن تصدق بسبب هذه المحطات وتلك المواقع لا أريد أن أقول لكم أن هذه التجارة أصبحت ثالث أربح تجارة في العالم، تجارة الرقيق الأبيض !

مثلاً: هناك مائتا مليون صفحة في عام سبع وتسعين، وأربعمائة وأربعين مليون صفحة في الثامنة والتسعين، وأن رواد هذه الصفحات مائة وأربعين مليون في عام الثامنة والتسعين، وأن دخل هذه الشركات يعد ثالث دخل في العالم ! في دراسة علمية مكثفة تثبت أن هناك تأثير مباشر وملحوظ للتلفاز على سلك وتفكير مشاهديه، ففي عالم صرح بأن لو لم يخترع هذا الجهاز لكان في أمريكا في هذا العصر انخفاض في الإجرام بنسبة عشرة آلاف قتل جريمة سنوياً، وسبعين ألف جريمة اغتصاب، وسبعمائة ألف جريمة عنيفة، لولا هذا الجهاز الذي يعرض أفلام العنف والجنس لما كانت هذه الجرائم، أحد أكبر أسباب جرائم القتل والسرقة والاغتصاب والعنف هي هذه الأفلام التي يشاهدها الناس في هذه الأجهزة، هذا في أمريكا، وفي طبيب عالم آخر قال: إن هذا الجهاز دخل إلى أمريكا وكندة في عام ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين وفي الفترة ما بين الخمسة وأربعين وأربع وسبعين ارتفعت نسبة القتل في تلك الدولتين بنسبة ثلاث وتسعين بالمائة زيادة عن طريق هذه الأجهزة ! هذه كلها دراسات جادة ومطولة ومفصلة، وأنا أنقل لكم ما يصلح لدرس ديني في هذا المسجد، لا أنقل لكم كل شيء توجد بلدة بجنوب أفريقيا في بلد كان قد حرم هذا الجهاز فنسب الجريمة والقتل والسرقة هبطت إلى مستوى يكاد لا يذكر، فلما أدخل هذا الجهاز ارتفعت هذه النسب إلى نسب عالية جداً.

أيها الأخوة: الشيء الدقيق: أن الذين يكون في سلوكهم عنف شديد وعدم اكتراث لمصائب الآخرين وتقبل جرائم الاغتصاب هم يمتلكون آثار إباحية في بيوتهم، أكثر من تقرير ودراسة عندي حوالي

عشرين دراسة كلها تربط بين الجريمة والاغتصاب والشذوذ إدمان مخدرات والمواد الإباحية في المنزل، أنت لا تقول: أن هذا جهاز عصري، أصبح عندنا الحمد لله صحن ديجيتال يحضر ثلاثمائة وخمسين محطة قد يكون هذا الجهاز سبب دمار أسرة سبب قتل أو طلاق.

والله أخ من إخواننا الآن غير موجود قاضي الشرع الأول بقي ثلاثين عام في القضاء الشرعي قال: نسب الطلاق في بلادنا والحمد لله اثنان بالألف قبل هذه الصحون، بعد هذه الصحون خمسة عشر بالمائة ! كل مائة زواج خمسة عشر زيجة تنتهي إلى الطلاق، بسبب الصحون، يقول أحد العلماء بعد دراسة لمجموعة كبيرة ممن ابتلوا بهذا الداء أن وجود المواد الإباحية بسهولة أمام الناس بغير حجب أو تصفية يشكل إغراء شديد يصعب على الأفراد أن يقاوموه حتى لو كلف ذلك فقدان مبالغ ضخمة من المال، كما وجد أن تواجد هذه القنوات الفضائية الإباحية في المنازل يؤدي إلى نتائج وخيمة كاعتداء الأطفال على أخواتهم الصغار واغتصابهم.

أمامي عشرين دراسة طبعاً ليس من الممكن أن أذكر تفاصيلها فهي شنيعة جداً، كلها تربط بين هذه الجرائم وبين المواد الإباحية في المنزل.

أيها الآباء: دققوا وراجعوا حساباتكم وتحققوا واضبطوا شؤونكم، الأمر خطير.

يوجد واحد ارتكب عشرات الجرائم من القتل والاغتصاب فلما اعتقل وأدين ودخل السجن قال: لو أن مواد الدعارة والإباحية قد منعت مني في صباي لم يكن شغفي بالجنس والشذوذ والإجرام، قال: إن أثرها كان شنيعاً علي للغاية، فأنا شاذ ومغتصب للأطفال وقاتل، وما كان كل ذلك ليتحقق لولا وجود مودا الدعارى والإباحية وتفشيها، هذا أعدم، الدراسة ليست في بلادنا بل في أمريكا وموثقة، وكل دراسة من قام بالدراسة وفي أي جامعة الموضوع طويل جداً، وقصص شنيعة جداً يندى لها الجبين، وكلها هذه مرة رابعة تربط بين الجريمة والشذوذ والاغتصاب وبين المواد الإباحية في المنزل، يجب أن تراقب السيديات أيها الأخ الكريم، وتراقب هذه المواقع أنا والله اشكر المسؤوليين على حجب مواقع كثيرة، لكن هذا لا يخلو من إنسان يتسلل عبر المحجوبات لي ما يريد، لكن والحمد لله نحن بخير، أكثر المواقع الإباحية محجوبة، لكن ممكن أن تكون بأسماء مستعارة أو أسماء ثانية لابد من تحصين أولادنا، لابد من تربيتهم وتعريفهم بالله عز وجل.

ذكرت في مطلع الدرس أن وضعنا فيما مضى كان كحديقة حيوان تقليدية، الوحوش في أقفاصها، والزوار طلقاء، الفساد في بُئر محدودة جداً والناس في بحبوحة، هكذا نشأنا بيت ومدرسة، لا يوجد شيء، عندما كنا صغار لنا قريب أحضر راديو فنذهب لنسهر عنده ونسمع الأخبار، كان الراديو شيء نفيس جداً.

الشيء الثاني الذي أريد أن أسمعكم إياه يقول أحد المجرمين: أنا وأمثالي لن نولد وحوشاً نحن أبنائكم وأزواجكم تربينا في بيوت محافظة ولكن المواد الإباحية يمكنها اليوم أن تمد يديها داخل أي منزل فتخطف أطفالهم ! هذه الدراسة كلها في أمريكا، هؤلاء المجرمون العتاة الذين فجعوا المجتمع الأمريكي بجرائمهم وشذوذهم واغتصابهم، نحن كان عندنا باليمن سفاح كم طالبة طب اغتصبها وقتلها ؟ اعتر بستة عشر !

هذه الجرائم كثيرة جداً، وأنا والله لا أريد أن أخيفكم في بلادنا أيضاً أصبح هناك جرائم وزنى محارم، واغتصاب وجرائم جنس كثيرة جداً، كلها بسبب هذه الصحون، هذه أكبر حرب نحارب بها نحن، أنا لست ضد أن تطّلع عما يجري بالعالم، كالاطلاع على ندوة ثقافية، أنا لست ضد العلم، لكن ضد الفساد. مجرم آخر قبل إعدامه قال: لقد عشت الآن فترة طويلة في السجن وصاحبت رجالاً كثيرين قد اعتادوا العنف مثلي، وبدون استثناء فإنهم جميعاً كانوا شديدي الانغماس في الصور الإباحية، وشديدي التأثر بتلك المواد وهم مدمنون عليها.

أنا كل درسي اليوم: المواقع والسيديات والمحطات الفضائية والمجلات هذه يمكن أن تجعل من الابن مجرماً ومغتصباً وقاتلاً سارقاً ومدمن مخدرات، ولا تعرف مقدار الألم الذي ينتاب الأهل حينما يرون ابنهم مدمن مخدرات أو مدمن دخان أو مدمن انحراف، والله لا أتمنى أن أعكركم بهذه المعلومات فهي خطيرة جداً، وأردت أن ألفت نظركم إليها إذا كنتم معافون منها، أنا لا أحب أن أثير مشكلة، لكن والله لأنه اطلعت على مشكلات تزيد عن عشرون مشكلة سببها هذه المحطات، أكثر من عشر حالات خصام زوجي بسبب هذه المحطات.

شيء لم أقوله لكم بعد هو أخطر شيء وغاب عني: أول نتيجة من نتائج الإدمان على هذه المحطات والمواقع هو سوء العلاقة مع الزوجة تلغى وتهمل، وهذا شيء واضح جداً، الشيء الذي أودعه الله فينا مصمم عن طريق الزوجة، هذه الأشياء الأخرى التي لا ترضي الله عز وجل تنعكس سلباً على العلاقة الزوجية أكيد بالمائة مليار، والله الأسبوع الماضي عانيت أربع مشكلات سببها الصحون، الانشقاق بين الزوجين، زوجة من أكمل الزوجات لكن زوجها انحرف إلى هذه المحطات نسيها كلياً وأصبح شرس سبحان الله عندما يدمن الإنسان على مثل هذه الأعمال يصبح شرساً وحشاً، ردود فعله قاسية جداً وكلامه قاسي جداً ويضرب وهي آخر حادثة رفعت إلي الضرب والسباب، والله من إنسان أعرفه مهذب جداً حينما أدمن على هذه المحطات لا يمكن أن ينظر إلى زوجته، انتهت زوجته عنده، لأن هؤلاء يأتون بهن من أقاصي الدنيا خبيرات شيء آخر.

أنا لا أريد أن أعكر صفوكم الدرس مزعج ومؤلم، لكن والله لو لا أنني رأيت أننا على شفير الهاوية، الإنترنت انتشر، والسيديات انتشرت، وكلما كبر الصحن كلما كان صاحبه فهيم أكثر، أحضره ديجيتال

ثلاثمائة وخمسين محطة، وغاب عنه قيام الليل لا صلاة عشاء ولا صلاة فجر، وكل الغرف مضاءة ليلاً، وإذا واحد لا يوجد عنده ديش وجاره عنده يتحرك كل الليل تسمع صوت المحرك، هذا واقع المسلمين، أنطمع بأن ينصرنا الله عز وجل على أعدائنا ؟ إذا أنت لم تكن متميز عن هذا الفاسق ما قيمتك عند الله ؟ لابد من أن تكون متميزاً.

طبعاً ما يوجد في هذه الدراسة لا يمكن أن تلقى كلها في درس علم لأن ما فيها شيء مخيف، اثنتان وعشرون صفحة كلها حول ربط الجريمة والشذوذ والقتل والجنس بهذه المواقع الإباحية أو بالأقراص الليزرية أو بالمجلات الإباحية أو بالصور الداعرة، أو بالمحطات الفضائية، وتجارة الجنس الآن الرقام بألوف المليارات، سموها الآن تجارة الرقيق الأبيض، كل شهر، يوجد بأمريكا مائة وخمسين ألف امرأة من أوروبا الشرقية لتجارة الجنس، المواقع بمئات الملايين، الزوار ستمائة وخمسين مليار، كل يوم زوار بالملايين، هذه مشكلة العالم اليوم، تحت قوله تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاس)

(سورة الروم)

نحن الآن في آخر الزمان، لكن أختم درسي هذا بهذه الآية الكريمة:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (19)

(سورة النور)

فنحن إن شاء الله نرتاد هذه البيوت ونقرأ القرآن، ونقرأ سنّة النبي ونقتدي بأصحاب النبي، والشيء الذي أباحه الله لنا، لا مانع منه أبداً، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، أما أن تحاول الاستمتاع بما حرم الله فهذا انحراف خطير في الدين، طبعاً يوجد كلام يدغدغ العواطف نحن بخير الحمد لله، وهذه حضارة واطلاع على ما يجري في العالم وثقافة عامة وأفق واسع، وأنت ترى الصلاة بالكعبة كل يوم، فقط هذه ؟ هذه الحجة الكبرى، وكم ندوة جيدين، وهو بالحقيقة لا ندوات ولا صلاة بالكعبة، بل شيء ثاني مطلوب، هذه تغطية يوجد دجل وتزوير ونوع من الكذب، لا يمكن أن يرضى الله عنا ونحن في هذه الحال، لا يمكن أن تستطيع تربية أولادك وأنت في هذا الحال، الذي تبنيه بجمعة يهدم بربع ساعة، كل إنسان أودع الله فيه هذه الشهوة، نحن نفجرها، انتهى الإنسان، هذا حال المسلمين، لكن يوجد كلام آخر يرضي الناس أنا أتكلم الحقيقة إن شاء الله ولو أنها مُرّة.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (134) :آداب المسجد.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-02-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام ؛ موضوع الدرس اليوم آداب المسجد ، نظراً لما يرى من جهل بآداب المسجد ، أو انتهاك لقواعد دخوله ، والجلوس فيه ، والاستماع ، والصلاة ، وها أنا ذا أجعل هذا الدرس متعلق بآداب المسجد مع أن الذي يُلاحظ أن تسعة وتسعين بالمئة من رواد المسجد ملتزمون بآداب المسجد ، إما بدافع من ذوقهم العام أو بمعرفتهم بالحكم الشرعي ، أما القلة القليلة هذه ينبغي أن يُلفت نظرها إلى الآداب التي ينبغي أن يراعيها المسلم إذا دخل بيتاً من بيوت الله .

أيها الإخوة الكرام ؛ المساجد بيوت الله تعالى ، ومن أحب الله تعالى أحب بيوته ، وأكثر من زيارتها ، قال تعالى :

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً)

[سورة الجن الآية : 18]

ويا أيها الإخوة الكرام ؛ والضيف إذا نزل بساحة الكرماء ، ومنازل العظماء نال من أعطياتهم ، وغنم من جودهم وفضلهم ، فكيف بضيف نزل بأكرم الأكرمين ، وحل ببيت رب العالمين ؟ .

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه :

((إن بيوتي في الأرض المساجد ، وإن زواري فيها هم عمارها ، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي ، وحُق على المزور أن يكرم زائره))

[رواه أبو نعيم]

أيها الإخوة الكرام ؛ أعظم هذا الإكرام ، وأفضل هذه الأعطيات أن يذيق الله المسلم الذي يزور الله في بيته لذة القرب ، وحلاوة المناجاة ، وأن يمنحه شهادة الإيمان .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :] إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ [ ))

[أخرجه الترمذي وابن ماجه]

أيها الإخوة الكرام ؛ شيء آخر : في منازل يوم القيامة ، وكربات مواقفها ، وأهوال مشاهدها ، يكون الذي يرتاد المساجد في ظل عرش الله جل جلاله آمناً مطمئناً يوم لا ظل إلا ظله .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ الْإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأحمد ومالك]

الإنسان الذي يحب الدنيا قلبه معلق بالأماكن التي فيها الدنيا والإنسان الذي يحب الله ، والدار الآخرة ، قلبه معلق بالمكان الذي فيه قرب من الله والدار الآخرة ، الرجل الذي قلبه معلق بالمساجد ، هذا ينعم بظل الله يوم لا ظل إلا ظله ، كما ورد في الحديث الصحيح .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ نُزُلًا كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ))

[أخرجه البخاري ومسلم وأحمد]

أن تأتي إلى المسجد لصلاة الجمعة هذه فريضة ، لحضور مجلس علم لأداء الصلوات ، لذكر الله عز وجل ، لتلاوة القرآن ، لطلب العلم هذا مما يجعلك من المقربين عند الله عز وجل .

يا أيها الإخوة الكرام ؛ حقيقة دقيقة وعميقة ، أرجو أن يكون الانتباه إليها واضحاً ؛ دور المسجد تقلص في عصور تأخر المسلمين ، تقلص إلى أن أصبح مكاناً تؤدى فيه الصلوات ، مع أن أي مكان في الأرض يصلح لأداء الصلوات .

((أَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلَاةُ فَصَلِّ فَهُوَ مَسْجِدٌ))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه]

أي مكان أدركك فيه الوقت إذا صليت فيه فهو مسجد ؛ لأنه مكان السجود منْ فِعلِ سَجَدَ ، فأداء الصلوات يمكن أن يكون في أي مكان ولكن المسجد له دور أكبر بكثير ، وأخطر بكثير من أن يكون مكان تؤدى فيه الصلوات ، قال تعالى :

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)

[سورة النور الآية : 36]

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

[سورة طه الآية : 123]

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة الآية : 38]

هذا الهدى الذي إذا اتبعه الإنسان لا يضل عقله ، ولا تشقى نفسه أين نجده ؟ في الطريق ؟ في المجلات ؟ في أي مكان نجده ؟ نجده في المساجد .. مكان الهدى ، مكان نشر الحق ، مكان بيان الفضيلة ، مكن توضيح الهدى .

أيها الإخوة الكرام ؛ في المسجد خطبة الجمعة ، وفي المسجد تفسير كتاب الله ، وفي المسجد شرح حديث رسول الله ، وفي المسجد بيان سيرة رسول الله ، وفي المسجد بيان أحكام الفقه ، وفي المسجد قصص الصحابة الكرام إنها غذاء العقل لئلا يضل ، وغذاء للقلب لئلا يشقى . لا كيان بلا مكان الهدى أين مكانه ؟ في المسجد .

إذا أردت أن تكون طبيباً لا بد من جامعة تتعلم فيها ، وإذا أردت أن تكون مؤمناً مهتدياً مستقيماً عارفاً لحقيقة الحياة الدنيا ، عارفاً لحقيقة الإنسان ، هذا الهدى أين تجده ؟ في المسجد.

أيها الإخوة الكرام ؛ وفي المسجد أيضاً تعاون على البر والتقوى ، قال تعالى :

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

[سورة المائدة الآية : 2]

قال علماء التفسير : البر صلاح الدنيا ، والتقوى صلاح الآخرة .

والشاهد الذي يوضح هذه الحقيقة التي فحواها أن المسجد له دور كبير قول النبي صلى الله عليه وسلم في ما روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ : رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيمَنْ عِنْدَهُ وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

بيت الله المكان الطبيعي الصحيح لتلاوة كتاب الله وبيان معانيه ومدارسته .

السكينة : سَمِّها ما شئت ، ولكنها حال إذا أصاب المؤمن شعر كأنه ملك الدنيا . السكينة تجلٍ من الله عز وجل على قلب المؤمن يملؤه غنىً يملؤه رضاً ، يملؤه طمأنينة ، يملؤه تفاؤلاً ، يملؤه فرحاً ، يملؤه سعادة يملؤه شعوراً بالفوز ، شعوراً بالتفوق ، يملؤه شعوراً بالفلاح .

((وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ))

قد يقول أحدكم : والله شعرت براحة كبرى ، هذه الراحة هي السكينة التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام ، قد يقول أحدكم : والله شعرت بطمأنينة ، هي السكينة التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم .

((وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ))

أمدهم الله عز وجل برحمته ، إن في الأمور الدنيوية ، أو في الأمور الأخروية ، رحمة الله مطلقة وواسعة ، تشمل الدنيا والآخرة . هم في مساجدهم ، والله في حوائجهم .

((وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ))

الملك يلهم ويسدد .

((وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

ورفع الله ذكر هذا الإنسان الذي يرتاد المساجد .

هذا الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم هو المحور الذي ينبغي أن تكون عليه رسالة المسجد .

((وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

أيها الإخوة الكرام ؛ الآن إلى الآداب :

الأدب الأول : تعظيم بيوت الله .

إذا كان من حق الضيف أن نكرمه فإن من واجب الضيف أن يعرف قدر المزور وأن يتأدب معه ، من حق الضيف أن يُكرم من قبل صاحب البيت ، ومن واجب الضيف أن يعرف مَن صاحب البيت ، مَن الداعي من المزور ، أن تعرف من صاحب البيت وأن تتأدب معه ، لذلك أول أدب من آداب المسجد تعظيم بيوت الله جل جلاله ؛ لأنها بُنيت لذكره وبُنيت لعبادته ، ولتلاوة كتابه ، وأداء رسالة نبيه ، ونشر تعاليمه وتبليغ منهجه ، وبُنيت كي يتعارف المسلمون فيما بينهم ، مكان اللقاء مكان التعارف ، مكان التناصح ، مكان البذل ، مكان التضحية ، مكان الوئام مكان الحب .

أيها الإخوة الكرام ؛ المسلمون في بيوت الله ينبغي أن يتعارفوا ، وأن يلتقوا على محبة الله عز وجل ، وأن ينهلوا العلم ، والحكمة ، ومكارم الأخلاق ، قال تعالى :

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

[سورة الحج الآية : 32]

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ)

[سورة النور الآية : 36]

وقد ورد في الحديث فيما رواه الطبراني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((المسجد بيت كل تقي))

الأدب الثاني : العمل على إشادتها ، وصيانتها ، والعناية بها ودعوة الناس إلى ذلك .

فقد قال عليه الصلاة والسلام :

((مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ كَمَفْحَصِ قطاةٍ أَوْ أَصْغَرَ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ))

[أخرجه ابن ماجه وأحمد]

لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

((خير البلاد مساجدها))

مكان الهدى ، ومكان العبادة ، مكان الذكر ، مكان التعليم .

روي أن تميماً الداري أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل من الشام إلى المدينة قناديل وزيتاً وحبالاً ، فلما انتهى إلى المدينة وافق ذلك ليلة الجمعة ، أمر غلاماً له فربط الحبال ، وعلق القناديل وصب فيها الزيت ، وجعل فيها الفتيل ، فلما غربت الشمس أمر غلامه فأسرجها ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فإذا هي تزهر ، فقال : من فعل هذا ، قالوا : تميم الداري ، فقال عليه الصلاة والسلام موجهاً الخطاب إلى تميم الداري : يا تميم نورت الإسلام نور الله عليك في الدنيا والآخرة ، أما لو كانت لي ابنة لزوجتكها .

بناء المساجد ، تنوير المساجد ، توفير المرافق ، توفير راحة المصلي هذا عمل عظيم من أعظم الأعمال .

أيها الإخوة الكرام ؛ المكان النظيف يجذب الناس ، المكان المريح يجذب الناس ، المكان الجميل يجذب الناس ، فكما أننا نعتني بالبيوت ؛ ننظفها ، ونطليها ونؤثثها ، ينبغي أن نعتني بالمساجد كي تجذب الناس إليها . وأبلغ كلمة قيلت في هذا الموضوع أنه لا ينبغي أن تكون المساجد من حيث النظافة والأناقة ، والترتيب ، وتوفير الراحة أقل من بيوتنا ، حتى ينجذب الإنسان إلى المسجد .

أيها الإخوة الكرام ؛ لا ينبغي أن تكون الدور التي يُعصى الله فيها أنيقة ، ومزدانة ، بينما المساجد التي يُعبد الله فيها ينبغي أن تكون نظيفة ، وأنيقة ، ومزدانة ، وأن تكون عالية .

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ)

لم يقل الله أن تُبنى ، قال :

(أن تُرفع)

وفي هذه الكلمة دلالة على أن بيوت الله جل جلاله ينبغي أن تكون عالية شامخة .

الأدب الثالث : من آداب المسجد التهيؤ للذهاب إلى المسجد بالطهارة ، وحسن الوضوء ، والتسوك ، ولبس الثياب النظيفة وتقليم الأظافر ، وترجيل الشعر ، والتجمل ، والتطيب .

لذلك جعل النبي صلى الله عليه وسلم غُسل الجمعة واجباً عينياً على كل مسلم .

((اغتسل ولو مداً بدينار))

من أجل أن تأتي إلى بيت من بيوت الله نظيف الثياب ، قال تعالى :

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

[سورة الأعراف الآية : 31]

كيف بك إذا ذهبت إلى حفل بهيج ، إلى عقد قران ، ترتدي أجمل ثيابك ، ترجل شعرك ، تنظف هندامك ، تؤنّقه ، هكذا ينبغي أن تفعل إذا توجهت إلى بيت من بيوت الله .

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ مَشَى إِلَى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ كَانَتْ خَطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً وَالْأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً))

[أخرجه مسلم وبن ماجه]

الأدب الرابع : الدخول إلى المسجد بتقديم الرجل اليمنى ، والدعاء التالي : بسم الله ، اللهم صل على سيدنا محمد ، اللهم افتح لي أبواب رحمتك .

لأن الرحمة في المسجد ، وإذا خرج المسلم من المسجد يقدم اليسرى ويقول : اللهم افتح لي أبواب فضلك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ لِيَقُلِ اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ فَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ))

[أخرجه ابن ماجه وأبو داود]

أنت في حالين ، في المسجد تتلقى من الله الرحمات ، وخارج المسجد تتلقى من الله الفضل.

ومن آداب المسجد صلاة ركعتين تحية المسجد قبل الجلوس ، فإن لم تتمكن فقل : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ومن آداب المسجد خلع الحذاء ، وإزالة ما علق به وإطباقه ، ووضعه في المكان المناسب ، والحذر من رفعه فوق الرؤوس ، والحذر من تلويث المسجد به .

نفضه ، إزالة ما علق به ، طبقه ، وضعه في المكان المناسب .

ومن آداب المسجد الانتباه إلى نظافة الجوارب ، فكم من ضعيف في الإيمان نفر من المسجد من جورب ذي رائحة ، وكم من ضعيف في إيمانه ترك المسجد من مصل ذي رائحة ، لذلك ؛ التنَظُّف ، نظافة البدن والثياب ، والتجمل ، والتطيب ، من آداب المسجد .

أيها الإخوة الكرام ؛ ومن آداب المسجد تجنب أكل الثوم والبصل وما له رائحة كريهة ، فقد قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح :

((مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ الثُّومِ و قَالَ مَرَّةً مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكُرَّاثَ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وأحمد]

هذه الأكلة المحببة اجعلها في يوم آخر ، وليكن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أغلى عندك من هذه الأكلة .

أيها الإخوة الكرام ؛ ومن آداب المسجد تجنب رفع الصوت ولو بتلاوة القرآن .

عَن السَّائِبِ بْن يَزِيدَ قَالَ :

((كُنْتُ قَائِمًا فِي الْمَسْجِدِ فَحَصَبَنِي رَجُلٌ فَنَظَرْتُ فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ : اذْهَبْ فَأْتِنِي بِهَذَيْنِ فَجِئْتُهُ بِهِمَا قَالَ: مَنْ أَنْتُمَا ؟ أَوْ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمَا ؟ قَالَا مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ قَالَ : لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ لَأَوْجَعْتُكُمَا تَرْفَعَانِ أَصْوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[أخرجه البخاري]

رفع الصوت لا يجوز ولو بتلاوة القرآن ، ما الذي يحصل أحياناً مجلس علم في المسجد ، والدرس قائم ، يدخل رجل ليصلي إماماً ويرفع صوته بالقراءة فيشوش على المستمعين درسهم ، إذا رأيت الحرم ممتلئاً بمجلس علم فصل خارج الحرم ، وإذا أممت آخرين فأسمعهم فقط ، لا ينبغي أن تسمع كل من في المسجد قراءتك وتكبيراتك ، رفع الصوت حتى بالقرآن مكروه في المسجد .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ :

((اعْتَكَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ فَسَمِعَهُمْ يَجْهَرُونَ بِالْقِرَاءَةِ فَكَشَفَ السِّتْرَ وَقَالَ أَلَا إِنَّ كُلَّكُمْ مُنَاجٍ رَبَّهُ فَلَا يُؤْذِيَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَلَا يَرْفَعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْقِرَاءَةِ أَوْ قَالَ فِي الصَّلَاةِ))

[أخرجه أبو داود وأحمد]

وفي حديث آخر :

((إِنَّ الْمُصَلِّيَ يُنَاجِي رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ بِمَا يُنَاجِي رَبَّهُ وَلَا يَجْهَرْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالْقِرَاءَةِ))

[أخرجه أحمد ومالك]

أيها الإخوة الكرام ؛ ومن آداب المسجد تجنب الخصومات ، وتجنب الاشتغال بأمور الدنيا والبيع والشراء والبحث عن ضائع ، وإنشاء الشعر .

فعن ابن عمر رضي الله عنه :

((أن النبي صلى الله عليه وسلم نَهَى عَن الشِّرَاءِ وَالْبَيْعِ فِي الْمسجدَ ، وَأَنْ تُنْشَدَ فِيهِ الْأَشْعَارُ وَأَنْ تُنْشَدَ فِيهِ الضَّالَّةُ وَعَن الْحِلَقِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَبْلَ الصَّلَاةِ))

فقد روى الإمام الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

((إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاعُ فِي الْمَسْجِدِ فَقُولُوا لَا أَرْبَحَ اللَّهُ تِجَارَتَكَ وَإِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَنْشُدُ فِيهِ ضَالَّةً فَقُولُوا لَا رَدَّ اللَّهُ عَلَيْكَ))

ومن جلس في المسجد فإنما يجالس ربه ، فحقه أن لا يقول إلا خيراً .

ومن آداب المسجد تجنب الاحتباء ، أن تطوق ركبتيك بيديك ، وتشبيك الأصابع ، وفرقعتها ، والعبث بها .

ومن آداب المسجد عدم العبث بالمسبحة ، إذا قلت لصاحبك صه فقد لغوت .

عن مولى لأبي سعيد الخدري قال :

((بينا أنا مع أبي سعيد وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ دخلنا المسجد فإذا رجل جالس في وسط المسجد محتبيا مشبكاً أصابعه بعضها في بعض فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يفطن الرجل لإشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتفت إلى أبي سعيد فقال: إذا كان أحدكم في المسجد فلا يشبكن فإن التشبيك من الشيطان، وإن أحدكم لا يزال في صلاة ما كان في المسجد حتى يخرج منه))

[رواه أحمد وإسناده حسن]

الاحتباء : أن تضم الرجلان إلى البطن بثوب أو يدين .

أيها الإخوة الكرام ؛ ومن آداب المسجد تجنب الخروج من المسجد بعد الأذان إلا لعذر حتى يصلي المكتوبة .

أحياناً إمام في مسجد ، ومدرس يلقي درس علم فيه ، فتأخر قليلاً في درسه فأذن المؤذن ، يخرج الإمام من المسجد ليصلي إماماً في مسجد آخر . عَنْ أَبِي الشَّعْثَاءِ قَالَ :

((كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ فَأَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمَسْجِدِ يَمْشِي فَأَتْبَعَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ بَصَرَهُ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ أَمَّا هَذَا فَقَدْ عَصَى أَبَا الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجه وأحمد والدرامي]

ومن آداب المسجد تجنب تناول الأطعمة ، وتجنب جعل المسجد مكاناً للراحة ، والقيلولة ، والسمر . حديث دنيوي ، جلسة بعد العصر بأمور الدنيا ، هذا لا يجوز أبداً ليس مكاناً للسمر ولا للراحة ، ولا لتناول الطعام . وتجنب أيضاً الوقوع في المحرمات كالغيبة ، والنميمة ، والكذب فالغيبة عقابها كبير ، هذا العقاب يتضاعف إذا كانت في المسجد ، المسجد مكان مقدس لذكر الله ، لا لغيبة المسلمين .

ومن آداب المسجد تجنب المرور من المسجد كطريق .

أحياناً أناس كثيرون يدخلون إلى الجامع الأموي من باب ، ويخرجون منه من باب آخر ، اختصاراً

لطول لطريق ، هذا لا يجوز أن يكون المسجد ممراً . أو الدخول والخروج من غير صلاة ، أو ذكر ، أو تسبيح ، أو عبادة ، أو أمر بالمعروف ، أو نهي عن منكر ، أو طلب علم ، هذا كله لا يجوز .

ومن آداب المسجد القيامة بصيانة المسجد ، والحفاظ على نظافته وأناقته ، وأثاثه ، وأمتعته ، وكتبه ، ومصاحفه . فهذا الذي يأتي بغلام صغير فيبول في المسجد على السجاد الأنيق النظيف المخيط الذي أصبح قطعة واحدة ألم يسئ إلى المسجد إساءة بالغة .

روى الإمام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ببناء المساجد في الدور ، أي في الأماكن التي تُبنى فيها البيوت ، وأن تُنظف وأن تتطيب .

وفي حديث دقيق عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((عُرِضَتْ عَلَيَّ أُجُورُ أُمَّتِي حَتَّى الْقَذَاةُ يُخْرِجُهَا الرَّجُلُ مِنَ الْمَسْجِدِ وَعُرِضَتْ عَلَيَّ ذُنُوبُ أُمَّتِي فَلَمْ أَرَ ذَنْبًا أَعْظَمَ مِنْ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ آيَةٍ أُوتِيهَا رَجُلٌ ثُمَّ نَسِيَهَا))

[أخرجه الترمذي وأبو داود]

يعني قشة إن التقطتها من أرض المسجد ووضعتها في جيبك هذا العمل تُؤجر عليه .

أما الأطفال فوق السابعة ينبغي أن تأتي بهم إلى المسجد ، الأطفال هم المستقبل ، والكبار هم الحاضر، والحاضر عليه ألف مأخذ ، لكن المستقبل ينبغي أن يكون خيراً من الحاضر ، لذلك ليكن ابنك معك في المسجد لكن فوق السابعة ، كي يفهم الخطبة ، كي يفهم ما يتلى ، ما يقال أما إذا كان في سنٍ صغيرة جداً وأردت أن تجلبه معك لا لشيء إلا لتوجيه من زوجتك وقد يؤذي المسجد ، هذا ليس من تعويد الطفل على بيوت الله في هذه السن التي لا يفقه فيها شيئاً ، بل ربما كان إيذاؤه أكبر من نفعه .

أيها الإخوة الكرام ؛ ومن آداب المسجد تجنب التطيب ، والتزين ، والتبرج للمرأة التي تدخل المسجد ، وينبغي أن تدخل من مكان دخول النساء ، وأن لا تختلط بالرجال إطلاقاً .

عَنْ زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَتْ قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِذَا شَهِدَتْ إِحْدَاكُنَّ الْمَسْجِدَ فَلَا تَمَسَّ طِيبًا))

[أخرجه مسلم والنسائي وأحمد]

أيها الإخوة الكرام ؛ عود على بدء ، ذكرت أن تسعة وتسعين بالمائة من إخوتنا الكرام رواد هذا المسجد يلتزمون بهذه الآداب ، إما عن علم أو عن ذوق عام ، ولكن قلة قليلة لا تزيد عن واحد بالمائة لا تعرف هذه الأحكام ، وقد تجهلها ، لذلك جُعلت هذا الدرس لفت نظر لهؤلاء القلة القليلة من أجل أن يكون بيت الله معظماً ، ومن تعظيم بيت الله عز وجل اتباع هذه الآداب التي ورد في كل منها حديث صحيح .

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (135) :أسباب هدم البيوت1 - الخلوة والاختلاط.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-04-07

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون:

كتقديم لموضوع دقيق، الإنسان حينما يطلب العلم يعد العلم حارساً له، الإمام علي كرم الله وجهه يقول: يا بني العلم خير لك من المال لأن العلم يحرسك وأنت تحرس المال والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو عن الإنفاق.

ذكرت هذا قديماً أنه في أول خطبة خطبتها في هذا المسجد استوقفني أخ في صحن المسجد وصار يبكي والإنسان الرجل إذا بكى منظره مؤلم جداً، سألته عن السبب، قال: كشف خيانة زوجته مع جاره من سنتين، سألته كيف عرفت زوجتك جارك ؟ قال: والله كان عندنا في سهرة فأردت أن تجلس معنا لأنها كأخته وانتهى الأمر بالفاحشة.

ومرة سائق استوقفته امرأة أشارت له، وقف لها أين تريدين ؟ قالت: إلى حيث تشاء، قضى حاجته أعطته ظرفين في الأول رسالة وفي الثاني خمسة آلاف دولار، المبلغ مزور وضع في السجن وفي الثانية مرحباً بك في نادي الإيدز.

كان من الممكن لو أنه طلب العلم، لو أنه عرف حدود الشرع أن ينجو الأول من خيانة زوجته وينجو الثاني من هذا المرض القاتل.

العلم يحرسك.

إخوانا الكرام:

الوقت الذي توظفه في طلب العلم ليس استهلاكاً للوقت إنما هو استثماراً له، هذا الكلام يعرفه التجار، أحياناً تنفق نفقة في ظاهرها إطعام وكيل شركة لكن هذا الوكيل قد يعود عليك النفع أضعافاً مضاعفة، الوقت الذي تطلب به العلم هو استثمار للوقت وليس استهلاكاً له.

العلم خير من المال لأن العلم يحرسك وأنت تحرس المال والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق.

أقول لكم أيها الإخوة هذه الحقيقة هي قانون ما من مشكلة أو مصيبة على وجه الأرض، أقول ما من قانون إلا بسبب خروج عن منهج الله، لو طبقت تعليمات الصانع ليس هناك في الحياة ولا مشكلة وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل لذلك نحن نحتاج إلى العلم ذلك أنك تحب نفسك أنت تحب مصلحتك تحب وجودك تحب سلامة وجودك تحب كمال وجودك تحب استمرار وجودك، بقي أن

تعرف طريقة سعادتك اعتماداً على حبك لذاتك وعلى حبك لسلامتك وعلى حبك لسعادتك وعلى حبك لكمال وجودك وعلى حبك لاستمرار وجودك يكفي أن تعرف طريق السعادة فتسعد، لذلك أهل النار وهم في النار يقولون:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10))

[سورة الملك: الآية 10]

أزمتهم أزمة علم فقط، أنت لو رأيت صحابياً جليلاً والتقيت صدفة مع من عاصره من الكفار كلاهما جاءته الدعوة وكلاهما عاصر النبي صلى الله عليه وسلم لماذا كان الأول في أعلى عليين والثاني في أسفل سافلين؟ الفرق هو العلم لأن هذا الذي كفر لو تعلم الذي تعلمه هذا الصحابي لآمن كما آمن ولأقبل كما أقبل ولأحب كما أحب، أقول لكم مرة ثانية الأزمة أزمة علم فقط بين المؤمن والكافر ذلك أن المؤمن والكافر حريص على سعادته، حريص على سلامته، حريص على استمرار وجوده، حريص على كمال وجوده، حريص على وجوده.

هذه المقدمة ندخل منها إلى أنك حينما تتعرف إلى تعليمات الخبير، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14))

[سورة فاطر: الآية 14]

لا يمكن أن تكون أوامر الدين قيوداً لحريتك إنما هي ضمان لسلامتك لأنها تعليمات الصانع السعادة كل السعادة والفوز كل الفوز والنجاح كل النجاح والتفوق كل التفوق والفلاح كل الفلاح بطاعة الله عز وجل، يعني كلام قد يبدو لكم غريباً انطلاقا من حبك لذاتك، وبالتعبير الدقيق انطلاقا من أنانيتك وحرصك على مصلحتك ينبغي أن تعبد ربك، قال تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (71))

[سورة الأحزاب: الآية 71]

إخوانا الكرام:

وازنوا بين آيتين إله عظيم خالق السماوات والأرض يقول:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

[سورة النساء: الآية 77]

أي متاع لو كنت تملك مائة مليار دولار هذا بيل كيت يملك تسعين مليار دولار، إن كنت تملك في كل مدينة في العالم قصر، إن كنت تملك من كل نوع من أنواع السيارات مركبة من أعلى مستوى وطائرة خاصة و يخت في البحر لأن هناك موت ليس هذا بعطاء لأنه ينقطع عند الموت ليس هذا عطاء يليق بخالق السماوات والأرض عطاء خالق السماوات والأرض لا يليق به إلا أن يكون أبدياً سرمدياً، إذا

إنسان قال لك هذه السيارة ربع ساعة استعير مفاتيحها هذا عطاء ؟ إذا ما أعطاك السيارة هبةً مع أوراقها مع مفتاحها مع بونات البنزين دائماً هذا ليس عطاء ربع ساعة ليس بعطاء:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

[سورة النساء: الآية 77]

الآية الثانية:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (113))

[سورة النساء: الآية 113]

أي عطاء يقشعر الجلد له ؟ هو العطاء الأبدي السرمدي لذلك:

(هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104))

[سورة الكهف]

أنا أقول لكم كلمة فيها مفارقة الإنسان طموح إن كان طموحاً في الدنيا فهو أزهد الزاهدين، من هو الطموح ؟ الذي طمح إلى الآخرة طمح إلى عطاء أبدي سرمدي، طمع إلى حياة لا نغص فيها ولا تعب ولا هم ولا حزن، بربكم هذا الذي تسمعونه في الأخبار هل يسعدكم ؟ لا والله نحن لم يصبنا شيء والحمد لله، أنت كإنسان هل تحتمل ما يفعل بالإنسان ؟ كيف تداس كرامته ؟ كيف يؤخذ ماله ؟ كيف يقتل أولاده ؟ كيف يهدم بيته ؟ الحياة مركبة على المتاعب ولو سلمت أنت من هذه المتاعب رؤية هذه المتاعب وسماع هذه المتاعب تعكر صفوك.

إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ومنزل ترح لا منزل فرح فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء جعلها الله دار بلوى وجعل الآخرة دار عقبى فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي

إخوانا الكرام:

المقدمة تعني أن الوقت الذي تمضيه في معرفة الله ومعرفة منهجه هو استثمار للوقت لأنه قد تبتعد عن شيء مدمر بسبب معرفتك بالله عز وجل، وقد تبتعد عن سبب الهلاك وعن سبب الدمار وعن سبب الشقاء.

الفكرة الثانية أنت حينما تأتي إلى هذا البيت بيت الله عز وجل ما الضيافة ؟ أي مكان تدخله يوجد به كنبة، مقعد وثير مريح، أنت على الأرض جالس لا يقدم لا كأس شاي ولا كأس قهوة ولا فواكه ولا حلويات ولا طعام، لا يوجد شيء، هل تعلم ما الضيافة في بيت الله ؟ العلم، هل تعلم ما هي الضيافة ؟ السكينة، هل تعلم ما هي الضيافة ؟ الحكمة.

والله أيها الإخوة من دون حكمة تدمر نفسك، بالحكمة تسعد بزوجة من الدرجة الخامسة ومن دون الحكمة تشقى بزوجة من الدرجة الأولى تشقى بها، من دون حكمة تبدد المال وبالحكمة تكسب المال، الله عز وجل إذا أتيت بيته ضيافته لك أن يؤتيك الحكمة ضيافته لك أن يملأ قلبك سعادة ضيافته لك أن يملأ قلبك رضىً عن الله عز وجل، الآن في زمن صعب الناس محبطون الناس ممزقون الناس ضائعون كيف يفسرون هذا الذي يجري ؟ يصعب تفسيره من دون إيمان، من دون إضاءة قرآنية يصعب تفسيره، عدو لدود قوي جداً وأنت لا تملك شيئاً ويريد أن يسحققك وأن يدمرك وأن يأخذ كل شيء وأن يذلك وأن يقتل أولادك أمامك، قطع رأس رب البيت وألقي بين أولاده قبل يومين.

لكن إذا معك نور هذا النور يعطيك تفسيراً متوازناً لما يجري، النور يعطيك رضى عن الله عز وجل فلذلك لابد من طلب العلم وطلب العلم استثمار للوقت وليس استهلاكاً له، وطلب العلم فيه نتائج كبيرة جداً:

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً (114))

[سورة طه: الآية 114]

وأي علم ورد في كتاب الله المقصود به العلم بالله والعلم بمنهج الله عز وجل.

الآن موضوع الدرس إن شاء الله هذا الموضوع يحتاج إلى درسين أو ثلاثة ما هي الأسباب الخطيرة في تهديم البيوت ؟ قد يقول أحدكم هذا الموضوع نظري أم عملي ؟ والله الذي لا إله إلا هو بحكم عملي في الدعوة ليس هذا ميزة لي لا لكن لأني أدعو إلى الله كل إنسان عنده مشكلة يعرضها علي إما شخصياً أو برسالة أو بالهاتف، فأنا عندي كم من التصورات عن المجتمع كبير جداً، عندي عدة قصص جاءتني كرسائل عن بيوت هدمت فحينما أقرأ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوجيهاته في قيام البيت وسلامة البيت أشعر بإعجاب ما بعده إعجاب هذا النبي الكريم كأنه يعيش معنا الذي حذرنا منه واقع لا محال.

أول شيء إن من الأسباب التي تهدم البيوت الحذر من دخول الأقارب غير المحارم على المرأة في البيت عند غياب زوجها، وأتمنى أن لا أضطر إلى ذكر تفاصيل قصص وردتني أخاف إن ذكرت تفصيلاتها أن يسمع هذا الكلام الذي وقع معه فيتألم من ذكرها بالدرس، والله قصص لا تصدق وقعت الفاحشة وقعت الخيانة، من جهة هما مظنة صلاح أما حينما خلا رجل بامرأة كان الشيطان ثالثهما هذا أول توجيه في هذا الدرس.

((عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ قَالَ الْحَمْوُ الْمَوْتُ "))

[متفق عليه]

الحمو: أقرباء الزوج.

هل يجرؤ إنسان في الطريق أن يطرق باباً ليدخل على سيدة المنزل في غياب زوجها ؟ مستحيل هذا شيء لا يقع أبداً، من الذي يدخل على المرأة في غياب زوجها ؟ أقرباء الزوج أخيه، ابن عمه، ابن خالته، ابن عمته، أخوه، صديقه.

هو الحديث أقارب الزوج قال عليه الصلاة والسلام الحمو الموت، ألف الناس أن هؤلاء الأقارب معروفون موثوقون، النبي ما قال: ما خلا كافر بكافرة وما قال ما خلا فاسق بفاسقة وما قال ما خلا فاجر بفاجرة، قال ما خلا رجل مطلقاً بامرأة مطلقاً إلا كان الشيطان ثالثهما.

سألني أخ قبل يومين حول هذا الحديث قال لي إذا في ثقة قلت له هل يوجد بارود آدمي ؟ إذا قربنا النار من البارود ما الذي يحصل ؟ ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما هذا كلام سيد الخلق وحبيب الحق هذا كلام مبعوث العناية الإلهية، وأنت حينما تأخذ الاحتياط لا تضطر أن تصل إلى المتاهات.

لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ قَالَ الْحَمْوُ الْمَوْتُ"))

هذا الحديث رواه الإمام البخاري، الإمام النووي رحمه الله تعالى في شرح هذا الحديث قال: المراد بالحديث أقارب الزوج طبعاً عدا آباءه وأبناءه، والد الزوج من المحارم وابن الزوج من المحارم لأنهم محارم للزوجة لكن الأكمل أن لا تكون خلوة بين الصهرة الشابة وبين محارمها.

وقال الإمام النووي: المراد الأخ وابن الأخ والعم وابن العم وابن الأخت وغيرهم ممن يحل لها التزوج بهم لو لم تكن متزوجة، وهم أولى بالمنع من الأجنبي يوجد قرابة يوجد حديث أمام الجيران دخل إلى البيت أخوه عمه ابن أخيه....

ومن ألطف ما في شرح هذا الحديث قال: الحمو الموت أي أن الخلوة للحمو قد تؤدي إلى هلاك الدين إن وقعت المعصية، هلك دينه، يعني في بعض الرسائل تقول إن أخوه فعل معها الفاحشة لم يعلم أخو الزوج لكن هي انهارت، انهارت معنوياتها شعرت أنها مجرمة بحق زوجها أو أنها خانته فلذلك الموت بمعنى هلاك الدين إن وقعت المعصية، قال تعالى:

(وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ)

[سورة الفرقان: الآية 68]

جاء الزنا بعد القتل فاستنبط العلماء أن القتل قتلان قتل الجسد وقتل النفس، الإنسان إذا ارتكب الفاحشة كأنه قتل نفسياً، أما إذا أصابه ضرب مميت قتل جسدياً، فجاءت الآية:

(وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً (68))

[سورة الفرقان: الآية 68]

يعني بالزنا تقتل النفس وتحجب عن ربها وبالقتل ترتكب جريمة أخرى.

قال: أو تؤدي إلى الموت إن وقعت الفاحشة ووجب حد الرجم، الأول موت نفسي المعنى الثاني موت حقيقي، أو إلى هلاك المرأة بفراق زوجها لها إذا حملته الغيرة على تطليقها إما أن تنهار أمام ربها تموت موتاً نفسياً وإما أن ترتكب جريمة فتقتل وإما يحملها زوجها على الطلاق أو المقصود احذروا الخلوة للأجنبية كما تحذرون الموت، أو أن الخلوة مكروهة كما يكره الموت أو فليمت الإنسان ولا يخلو بأجنبية.

هذا توجيه النبي عليه الصلاة والسلام. لكن سبحان الله لو حللت الفواحش ما أسبابها ؟ أنا لا أبالغ أحد أكبر أسبابها الخلوة، وأنا قد أدافع وأقول قد لا يفكر أو لا تفكر، قد لا يفكر الرجل أو لا تفكر المرأة مسبقاً بالخيانة أما إذا وقعت الخلوة قد تنتهي بالخيانة دون أن تكون مرادةً قبل الدخول، الموانع خرقت يسمونه اختراق.

شيء شائع جداً بين الناس أنا واعد أخي الساعة الثالثة لعل أتأخر لو جاء استقبليه، يوجد أوسع من هذا واعد صديقي، قد تستقبل أخاه و قد تستقبل صديقه، و قد لا يتأثر الزوج إذا رأى زوجته تستقبل صديقه بزينتها أو غير محتشمة في ثيابها، هذا يعدوه حضارة أنه سبور، مجتمع مخملي، أو حضارة، هو واثق، يقول عليه الصلاة و السلام فيما رواه الإمام الترمذي:

((عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:..... لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ "))

[البخاري، مسلم، الترمذي، أحمد، الدارمي]

قال هذا الحديث يشمل أتقى الناس و أفجر الناس، و الشريعة لا تستثني من مثل هذه النصوص أحداً، أحياناً قد لا تقع الفاحشة و لكن يقع ما دون الفاحشة، أحياناً أخرى قد تنصرف المرأة إلى غير زوجها في قلبها و هذه مشكلة كبيرة جداً، إذا أردت الاسترسال في مضاعفات هذا الاختلاط دعك من الخلوة، الاختلاط، الخلوة اختلاط من دون أشخاص يعدون فريقاً ثالثاً، أما الاختلاط يوجد أشخاص كثر، ما الذي يحصل ؟ ماذا قال الله عز وجل ؟ قال:

(وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ)

[سورة الأحزاب: الآية 53]

الاستنباط العكسي لو أن هناك اختلاط بين النساء و الرجال لما كان القلب طاهراً لا يعمل شيئاً، إنسان محترم يخاف من الله لا يمكن أن يفعل الفاحشة لكن التقى مع زوجة أخيه، مع أخت زوجته، أخت زوجته أجمل لماذا الله عمى على قلبه و لم يدعه يأخذ هذه مثلاً ؟ هذا حديث داخلي، إنسان بشكل لا شعوري يوازن، أنا أتحدى إنسان كائناً من كان أن يرى امرأة أجنبية غير امرأته و لا يوازن بينهما، و

أتحدى امرأة لا ترى رجلاً مع زوجها و لا توازن بينه و بين زوجها، انظر إنه رشيق، انظر لمنطقه، زوجي جاهل هذا مثقف، لا تنام الليل يومها، هكذا حظي، حظي قليل، هذا و الله يحصل، لا أقصد أن أمتعكم و لكن هذا يحصل، و الله حدثني أخ أسرة ذهبت إلى الساحل في الصيف للاستجمام بعد العودة من هذه النزهة صار طلاق و زواج، تبادل زوجات، و أسرتين عريقتين مؤمنتين، بلا عراقة، بلا شيء، صار هناك اختلاط، الاختلاط يهدم البيوت، الحقيقة مرة و لكن الناس إذا غرقوا بمعصية بشكل مشترك لا يتكلمون عنها أبداً، يجاملوا بعضهم، أما جالس مع أخوات زوجتك، أو جالسة مع أخوات زوجها، و كل شخص له طريقة في الكلام، له ثقافة معينة، له منطق في الحديث، عنده طرف، عنده مواقف محرجة، مواقف ممتعة، يتحدث و أحياناً يقصد، أحياناً يكون الشيطان إذا وجد نساء غريبات يتفنن الرجل في النعومة، يتفنن في اللطف، يكون ببيته وحش، يتفنن أن يكون لطيفاً و شكراً و آسف و عدم المؤاخذة، هكذا اللطافة يصبح (very nice) بالتعبير الأجنبي، و قد تجد فتاة أيضاً تتفنن أمام رجل آخر غير زوجها فالله عز وجل منهج هذا، منهج إلهي قال:

(وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ)

[سورة الأحزاب: الآية 53]

و الله حدثني أخ قال لي كلما سهرنا سهرة مختلطة يوجد عندنا مشاكل للواحدة ليلاً، لماذا نظرت إليه زيادة ؟ تقول له: أنت كنت تغمز فتاة، هذا مجتمع الاختلاط، مجتمع المشكلات، مجتمع القلوب المريضة منهج الله أحق أن يُتبع، أي لا أستطيع بدرس دين أن أتكلم بتفاصيل أكثر أما تحدث منكرات لا يعلمها إلا الله، و قد يكون أكبر منكر أن تندم على زواجك، أن تندم على زواجها من زوجها، و أن يندم على زواجه من زوجته، التطلع إلى غير زوجته مشكلة، و تطلعها إلى غير زوجها مشكلة، موازنة الزوج زوجته مع غيرها مشكلة، و موازنة الزوجة زوجها مع غيره مشكلة، هذا واقع، مجتمع الإيمان مجتمع العفة، مجتمع الانضباط، المؤمن اجتماعي، المؤمن لطيف لكن وفق منهج الله، لا يوجد عنده لطف مدمر، أحياناً يصبح هناك تمثيل، يوجد قدرة بالإنسان اسمها القدرة على أن تبدو بأكبر من حجمك، مرة تكلمت بشاهد، قال له: أين تسكن ؟ قال له: بلاك ستون سيتي ؟ أين هذه ؟ بالحجر الأسود، كلامه صح، أي مدينة الحجر الأسود، تظن نيوجرسي، فيوجد إنسان يستطيع أن يعطيك لنفسه حجم كبير، بالاختلاط ما الذي يحصل؟ يستطيع الرجل أن يعطي حجماً لنفسه و الله كنت بالمكتب و مكتبه يكون صغير جداً، يوجد أساليب كثيرة تكبر حجمك الاقتصادي و الاجتماعي و قد يكون عندك هذه البدلة لا يوجد عندك غيرها و لكنها أنيقة جداً ماذا تظن المرأة ؟ أن كل بدلاته بهذه الأناقة، و هو قد يكون ملمع حاله زيادة، و قد تملك المرأة أيضاً أن تظهر بحجم أكبر من حجمها، تجد لها صوتاً عالياً مع زوجها و لكنها تصبح لا صوت لها مع الأجانب، لطيفة جداً، هذه مشكلة الاختلاط يا إخوان، فنحن

لولا أن الاختلاط في بيوتات المسلمين لما ذكرته، أنا لا أخاطب غائبين، لو أن معصية متعلقة بأناس لا يرتادون المساجد أبداً لا أتحدث عنها، أنا أخاطب رواد المساجد، أخاطب المسلمين، أخاطب المنتمين لهذا الدين، الاختلاط مشكلة كبيرة جداً في مجتمعات المؤمنين و أكبر دعوى تدعو إلى الاختلاط لا تفرق العائلة، ونريد أكلاً واحداً، أكبر دعوى، و الله تكاد تكون أكبر مشكلة، أي يعاني إخواننا منها مع أهلهم هذه المشكلة، إذا أراد أن يطبق شرع الله صار كأنه سيفرق العائلة ! سيعمل شقاقاً بين الإخوة، و هذا احتقار للإخوة، و الأم جاهلة، الأم يمتعها أن ترى كل أولادها في مكان واحد مع نسائهم، هذا شيء يمتع الأم و الأب لكن لا يرضي الله عز وجل، فهذا الذي يبدو بحجم أكبر من حجمه ذكره النبي عليه الصلاة و السلام قال:

((عَنْ أَسْمَاءَ أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي ضَرَّةً فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ إِنْ تَشَبَّعْتُ مِنْ زَوْجِي غَيْرَ الَّذِي يُعْطِينِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ "))

[البخاري، مسلم، أبو داود، أحمد]

إخواننا الكرام:

الإنسان حينما يعطي نفسه ما تشتهي، و يؤدي شعائر الله عز وجل، هذه الشعائر لا يقطف ثمارها أبداً، يسير فيما يسمى دين شكلي، دين مفرق من مضمونه، انتماء لا يعني شيئاً، أي لافتة وضاءة و المحل لا يوجد فيه بضاعة أبداً، و هذا الذي يجري أحد أكبر تفسيراته، الانتماء للدين شكلي، محسوبون على الله و لسنا كما يريد، ابن آدم كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد و لا تعلمني بما يصلحك، و الآيات كثيرة جداً تعد المؤمنين بالنصر، فلذلك نحن الآن في صدد أن هذه الأحداث التي تجري ينبغي أن نراجع أنفسنا، يوجد مخالفات ببيوتنا، يوجد عندنا كسب مال حرام، يوجد عندنا إنفاق حرام، يوجد عندنا علاقات آثمة، أي يقول لك: أنا الحمد لله لا أزني و لا أسرق و لا أشرب خمراً و لا أقاتل أحداً هذه كبائر، لذلك يقول عليه الصلاة و السلام:

((إن الشيطان يئس أن يعبد في أرضكم، و لكن رضي فيما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم "))

و النبي عليه الصلاة و السلام يقول:

((اللهم إني أعوذ بك مما أهتم له و مما لا أهتم له "))

هناك معاصي كثيرة هي في الشرع معصية لكن لشيوعها لا يهتم الناس لها، و عندهم عبارة مثل أخوك، هذه آية أم حديث، إن شاء الله مثل أخي، من قال مثل هذا الكلام ؟ الحقيقة مرة أما أحسن أن يكون هناك اختلاط، و أبسط و أروح للنفس، يقول لك بُلّ قلبنا مثلاً، إذا أردت الجنة، الجنة لها ثمن، الاختلاط مدمر و لو ما وصل إلى الفاحشة حتى أكون معك دقيق قد لا يصل إلى الفاحشة لكن يفضي إلى الندم، يفضي إلى انصراف الزوجة عن زوجها نفسياً، و يفضي إلى انصراف الزوج عن زوجته

نفسياً، انصراف أحد الطرفين عن الآخر هذه مصيبة كبيرة، لم يعد هناك تعلق، و دائماً يشكو المتزوجون أنه بعد حين هذا الحب فتر، أي بالخطبة ست ساعات المكالمة، يأتي إلى المنزل بعد بسنتين تأخذ منه الكلمة أخذاً صعباً، أين كان و هو يتكلم ست ساعات ؟ انتهوا، صار هناك انصراف إلى ما سوى الزوجة، و هي أيضاً تهتم بصديقاتها و بأهلها و بأولادها وتنسى زوجها، كذلك أصبح هناك انصراف، هي انصرفت و هو انصرف لأن شعلة الحب أطفأت بالاختلاط.

أيها الإخوة:

أنا معي نصوص لا تقبلوا مني كلمة من عندي، لا يوجد إنسان مهما كان كبيراً مؤهلاً أن يعطيك أمراً في أمر دينك، أمر الدين من عند الله عز وجل، ذكرت لكم هذه الآيات وهذه الأحاديث و كلها صحيحة، كلها في البخاري، أحد أسباب تهديم البيوت إما تقويض مالي أي طلاق أو جريمة أو تشرد أولاد أو تهديم معنوي، التهديم المعنوي يصبح به شقاق زوجي و انصراف الزوج عن زوجته و الزوجة عن زوجها، هذا يتأتى من الاختلاط و من الموازنة و من المقارنة و من الاستلطاف، و دائماً الشيطان مهمته بالمناسبة أكبر مهمة للشيطان أن يفرق بين المرء و أهله، فيزين له أية امرأة و لو أنها دون زوجته، و يزيه لها أي رجل و لو كان دون زوجها، فمهمته الشيطان الأولى وهكذا قال الله عز وجل، مهمة الشيطان الأولى التفريق بين الزوجين، فما الذي يغذي هذه المهمة ؟ الاختلاط، أنت حينما تختلط كأنك تعطي الشيطان تربة خصبة كي يفعل فعله وينفذ مهمته في هذه التربة.

يوجد شيء آخر بقي أن أذكره لكم مهم جداً: أن بعض الرجال يمدحون زوجاتهم أمام أقربائهم أو أصدقائهم، يمدحون ذكاءها و لطفها و أناقتها و رشاقتها و طبخها الجيد وإيناسها، ليس منتبهاً ماذا يتكلم، أذهان هؤلاء الرجال انصرفوا إلى زوجته، قال تعالى:

(وَسَارَ بِأَهْلِهِ)

[سورة القصص: الآية 29]

أو يذكر اسم زوجته و الله هكذا قالت لي سحر، من هذه سحر ؟ زوجته، هذه ليست سحارة قد تكون ليست ساحرة و لكن يوجد اسم مغري، فاتنة، سحر مثلاً، فيوجد أشخاص يتوسعوا بالحديث عن زوجاتهم و عن خصائص زوجاتهم، و عن ميزات زوجاتهم، و عن طبخها و عن أناقتها، و عن فهمها، و عن ذكائها، و قد تكون أقل من هذا بكثير، هذا نوع من النفاق، نوع من الكذب، ليس من المروءة أن تحدثنا عن زوجتك، ليس من المروءة أن تحدثنا عن أناقتها و لا عن رشاقتها و لا عن........، الآن لو أن امرأة وصفت لزوجها بعض صديقاتها محرم، محرم أن تصف له بعض صديقاتها، و محرم أيضاً أن يصف لها صديقه، شهم و غني و قوي ما شاء الله، الله أعطاه شكلاً رائعاً جداً، أيضاً انصرفت إليه، هذه حقائق فأرجو الله سبحانه و تعالى أن نأخذ بها، لكن قد يقول قائل هذه بلوى عامة و الله على

مستوى من يعمل في الحقل العلمي يوجد عنده اختلاط، زرت شخصاً في العيد قال لي: نحن نجلس مع زوجات إخوتي على طعام واحد، هكذا تريد أمي ماذا نعمل ؟ نريد أن نرضيها، هذا خلاف الشرع، هذه بلوى عامة لماذا أنتم تستغربوا أو تجدوا أن الموضوع غير معقول ؟ المعقول هو الشرع، ليس من المعقول ألا يجري، لذلك حينما تكون وقافاً عند كتاب الله الله عز و جل يحميك و يحفظك، يحميك من الداخل و الخارج، يحميك من أن تنصرف عن زوجتك، و يوجد شيء آخر لا أدري كيف أقنعكم به، أنت حينما تقيم أمر الله عز وجل يزينها في نظرك و يزينك في نظرها، هذا الشيء من فعل الله عز وجل، و قد تجد إنساناً يكره زوجته و هي قمة في الجمال، و هناك امرأة تكره زوجها و هو قمة في الجمال، لأنه هي حينما عصت ربها سوده في عينها و سودها في عينه، و أنت حينما تطيع الله عز وجل يزينها في عينك ويزينك في عينها.

إذاً الوصف ممنوع و الاختلاط و الخلوة و أهم شيء بالخلوة دخول الحمو، و الحمو أقرباء الزوج على الزوجة في غيبته و الأبلغ في سفره، و أنت حينما تكون وقافاً عند حدود الله فأنت آمن و في أرض صلبة جافة، أما حينما تخترق هذه المنهيات فأنت على أرض زلقة مائلة، و يوجد نهر عميق و الغرق محقق، و الحمد لله رب العالمين.

أيها الإخوة:

يوجد عدة أسئلة و لكن سؤال فقهي يقول أخ كريم أن رجلاً اشترى سلعة من تاجر و تم العقد على سعر معين و قد دفع المشتري للبائع ثلث المبلغ سلفاً تقديماً، على أن يأتي بالباقي فيما بعد و يأخذ السلعة بدون تحديد الزمن، فلما جاء بالمبلغ الباقي قال له البائع إن الأسعار قد ازدادت، السؤال فيه نقطة ضعف، متى أحضر المبلغ الباقي ؟

إذا أنت مشتري بيتاً بعشرين ألفاً بسنة الخمسة و خمسين دفعت عشرة آلاف و غبت خمسة و عشرون عاماً و أنت تحضر عشرة أخرى أعطني البيت، البيت أصبح سعره ثلاثة ملايين، أنت دافع نصف سعر البيت و البيت تضاعف مائة ضعف، لكن يوجد نقطة ضعف بالسؤال متى ؟ بعد ساعة، بعد أسبوع، أسبوعين إذا وجد غياب طويل و أنت حاجز سلعة يوجد جواب، قال له البائع: إن الأسعار قد ازدادت و يجب على المشتري أن يزيد في الثمن المتفق عليه يوم العقد و السؤال: ما الحكم الديني في هذه الزيادة هل هي من باب النسيئة أم لا و جزاكم الله خيراً ؟

إخوانا الكرام:

أنت حينما تشتري و تمت شروط البيع بالإيجاب و القبول و تحديد الثمن و الزمن وطريقة الدفع وجب البيع، الآن هذه السلعة لو لم يقبضها هي ملك الشاري و لك في ذمة الشاري مبلغ هذا هو الحكم الشرعي، لو لم يقبضها و بقيت في متجره، أما إذا كان الاتفاق بعد ساعة و جاء بعد سنتين اختلف

الوضع، القاعدة: أن كل جهالة تفضي إلى المنازعة، لم يتحدد الوقت، يوجد سلع تفسد، فالسؤال يحتاج إلى دقة متى نقدته بقية المبلغ بعد كم ؟ و هل كان الاتفاق أن تدفع المبلغ بعد أسبوع فرضاً و بينت أن السعر ثبت و لك في ذمة هذا المبلغ كذلك يختلف، المسلمون عند شروطهم و الجهالة تفضي إلى المنازعة، و أنت حينما تشتري بإيجاب و قبول و تحديد ثمن و تحديد وقت و طريقة دفع كل شيء صار واضحاً و لو لم تقبض السلعة هي لك لكن مودعة عنده أمانة و للبائع في ذمة المشتري نصف المبلغ، إذا كان ضمن الاتفاق ممنوع، أما لو فرضنا أن الاتفاق أسبوع و غاب ثلاث سنوات فرضاً اختلف الأمر.

سؤال آخر أنه انقطعت ثقتي بكل الناس من حولي حتى بأهلي لم أعد أثق بأحد و لولا إيماني بالله لانقطعت ثقتي بنفسي، ماذا أفعل ؟

لا تفعل شيئاً، من قال هلك الناس فهو أهلكُهم، و يوجد رواية فهو أهلَكَهم، هم ليسوا هالكين لكن هذا مرض بالإنسان، سوء الظن بالناس مرض، و زعزعة الثقة مرض، إذا شخص أساء لك اثنين ثلاثة هل تحكم على الجميع ؟ التعميم من العمى، قال:

أي هذا المشتكي و ما بك داء　　كيـف تغدو إذا غدوت عليلاً

أي هذا المشتكي و ما بك داء　　كن جميلاً ترى الوجود جميلاً

يوجد إنسان نمطه متفائل، يحسن الظن بالناس، يتعاون معهم، يوجد إنسان تشاؤمي دائماً يتهم الناس.

قال: أنا شاب عادي لست عالماً و لا زاهداً و لا شيخاً كيف أصل إلى الجنة برأيك ؟

لأصل أنا أولاً و لكن أطل بالك، الجنة برحمة الله لا أحد يضمنها لا يوجد غير عشرة فقط ضمنوها، الذين بشرهم النبي و ما سوى ذلك نحن كلنا على سبيل الرجاء، الجنة بطاعة الله، كيف ؟ بطاعة الله:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63))

[سورة يونس]

و طاعة الله عز وجل تعرف بالبديهة:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

[سورة القيامة]

بالبديهة تعرفها و هذا من فضل الله علينا:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

[سورة الشمس]

أي إذا أنت شخص استنصحك و لم تنصحه، عندك سلعة كاسدة قال لك: انصحني أنت خبير، فنصحته بالسلعة الكاسدة، لو لم تحضر درس علم في كل حياتك، لم تقرأ أي صفحة فقه بحياتك، ألا تحس نفسك أنك خنته ؟ بديهة.

إذا قالت لك الوالدة أريد نقوداً للدواء الساعة الواحدة ليلاً، و قلت لها إن الجميع أغلق، تقول لك: أكيد الجميع أغلق لا يوجد مناوبات ؟ سكتت أمه، ألم تجد نفسك أنك قصرت بحقها و سيارتك أمام البيت، تستطيع أن تذهب، لو ذهبت و لم تجد الدواء تنام مرتاحاً، و لكن بالحالتين هي لم تأخذ الدواء، و لكن أول مرة كذبت عليها لا تنام مرتاحاً، المرة الثانية كنت صادقاً معها الدواء مفقود فتنام مرتاحاً، الإنسان يعرف، إذا وجدت أمامك تفاحتين هذه فيها خد أحمر أخذها و وضع الأحمر للأسفل و أخذها و قشرها و اختارها هي و لكن أخفاها عن صديقه، ألا تكشف نفسك ؟

بالاختلاط من جاء ؟ تقول له صديقتي. تعالوا إلى هنا أدفأ لكم. لا تعرف أن هنا ليس أكثر دفئاً و لكن تريد أن ترى أخت زوجتك:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

[سورة القيامة]

بالبديهة عندما تطيع الله عز وجل تصل إلى الجنة:

(تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43))

[سورة الأعراف: الآية 43]

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (71))

[سورة الأحزاب: الآية 71]

ما الفرق بين المتدين في هذا الزمان و المتدين في الأزمنة القديمة ؟

إلهنا واحد و نبينا واحد و قرآن واحد و الشهوات واحدة و بكل عصر يوجد ضغوط، و بكل عصر يوجد مغريات، أين مات الإمام أبو حنيفة؟ بالسجن، أي بكل عصر يوجد قوة و يوجد ضغط و يوجد تهم أنت بريء منها، ابن تيمية أين مات ؟ أيضاً في السجن لأنه أفتى فتوى كل العالم الإسلامي يفتي بها الآن، أفتى أنه إذا الإنسان طلق زوجته ليحملها على فعل ما و يمنعها من فعل ما و يكره فراقها كفراق دينه هذا ليس طلاقاً هذا يمين قسمي، اسأل محاكم الشرع بالأرض الآن كل المحاكم الشرعية تأخذ بهذه الفتوى، و أكثر المفتين يفتون بهذا، فتوفي ابن تيمية في السجن لهذه الفتوى، و بكل عصر يوجد قوة و يوجد خصوم و يوجد أعداء و يوجد شهوات و يوجد منكرات، النبي رجم امرأة زانية بعهده، الشهوات هي الشهوات و المرأة هي المرأة و القوي هو القوي و الحاكم هو الحاكم و المنهج هو المنهج و الله موجود و الأنبياء موجودين، أنتم ترون دولة عظيمة تقهر الخلق:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ)

[سورة الحج: الآية 48]

إله يتكلم:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (48))

[سورة الحج: الآية 48]

أبداً، فبكل عصر يوجد ظروف صعبة و يوجد مغريات و يوجد صوارف و يوجد بواعث و يوجد عقبات.

أليس اختلاط النساء بعضهم مع بعضاً من أسباب الشقاق بين الزوجين في هذا العصر ؟

طبعاً إذا امرأة فاسقة، امرأة منافقة، و تكذب على صديقتها أن زوجها أخذها للمحل الفلاني و ناموا كذا و ذهب و أتى و تكذب عليها، طبعاً تفسد حياتها، و الثانية أيضاً ساذجة، اختلاط مجلس فيه فسق وفجور و كذب و غيبة و نميمة و مديح غير معقول يسبب الشقاق بين الزوجين.

إخوانا الكرام:

و الله ينبغي أن يختار الإنسان صديقه من بين المؤمنين الصادقين، و ينبغي أن تختار المرأة صديقتها من بين المؤمنات الصادقات، و إلا هناك مشكلات.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (136) :أسباب هدم البيوت2 - خطر الغزو الفكري من الأجهزة الحديثة التلفاز.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-04-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

في مثل هذه الأوقات العصيبة كنت أذكر أن على المؤمن أن يبحث عن كل إيجابي فيما يجري، فمن التوازن أن تبحث عن الإيجابيات كما تبحث عن السلبيات، لكن أحياناً في مواطن أخرى وفي موضوعات أخرى ينبغي أن تبحث عن السلبيات قبل الإيجابيات والدليل على ذلك أن الله سبحانه وتعالى حينما ذكر الخمر قال تعالى:

(فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

[سورة البقرة: الآية 219]

فهل منافع الخمر التي ذكرها القرآن الكريم تجعل الخمر مباحاً ؟ أبداً هي محرمة بإجماع الأمة، محرمة بالنصوص القطعية، محرمة بأحاديث رسول الله الصحيحة، و مع ذلك القرآن الكريم حينما ذكر الخمر قال:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)

[سورة المائدة: الآية 90]

و الاجتناب أشد أنواع التحريم، و تحدث عنها في آية أخرى فقال:

(فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا)

[سورة البقرة: الآية 219]

أي أن الشيء و لو تضمن نفعاً مقابل خطر شديد فتحريمه هو الوجه الصحيح، و حينما ترى أن هناك ضعفاً عاماً عند المسلمين، و حينما ترى أن هناك إخفاقاً في تحقيق أهدافهم الشيء الطبيعي و المنطقي أن تبحث عن الخلل، أين الخلل ؟ أنت حينما لا تستطيع تحقيق أهدافك، أو حينما لا تأتي وعود الله عز وجل متوافقة مع الواقع، كم وعد إلهي ؟ وعدنا بالنصر، وعدنا بالسيطرة على الآخرين:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (141))

[سورة النساء: الآية 141]

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47))

[سورة الروم: الآية 47]

حينما لا يأتي الواقع مصدقاً لوعود الله عز وجل إذاً هناك خلل لأن زوال الكون أهون على الله من أن لا يحقق وعوده للمؤمنين، و الوعود ثابتة بآيات كثيرة تزيد عن عشر آيات، فالوعود ثابتة و الواقع لا

يأتي مصدقاً لهذه الوعود، إذاً هناك مشكلة لذلك لابد أن تظهر كتب تحت عنوان أين الخلل ؟ فأنا في الدرس الماضي تحدثت عن أحد أكبر أسباب تهديم البيوت و قصرت الدرس على موضوع واحد هو دخول الحمو في غيبة الزوج و الاختلاط، و اليوم الحديث عن شيء آخر، هذا الشيء الآخر هو المصدر الثقافي لكل بيت مسلم، و كلمة ثقافة لا تعني كما تظنون، ثقافة أي مجموع أنماط السلوك و العادات و التقاليد التي يطبقها مجتمع ما، هذا التواصل الإعلامي الشديد بين الشرق والغرب له آثار خطيرة جداً أن هؤلاء الغربيين لهم عادات، لهم تقاليد، لهم تصورات، لهم معتقدات فاسدة، و يغلب على معتقداتهم إنكار الأديان، يغلب على معتقداتهم أنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا و هم عن الآخرة هم غافلون، يغلب على معتقداتهم أن الشهوة عندهم هي كل شيء:

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

[سورة الجاثية: الآية 23]

أي مجتمع لا يؤمن بالآخرة إطلاقاً بنص القرآن الكريم و مجتمع لا يؤمن إلا بالشهوة حصراً بنص القرآن الكريم:

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

[سورة الجاثية: الآية 23]

فمجتمع عقيدته إنكار الأديان و سلوكه تفلت من أي منهج سماوي، هذا المجتمع تُنقل إلينا حياته بأدق تفصيلاتها من خلال الأفلام، العلاقة الزوجية، سلوك الزوج، سلوك الزوجة، تبرج المرأة، تفلت الرجل، يوجد موضوعات في الأسرة الأوربية و الغربية كثيرة جداً هذه تنقل إلينا عبر هذه الشاشة الصغيرة، فلذلك حينما يصبح هذا الجهاز المصدر الثقافي الوحيد لأفراد الأسرة، للأمة، للزوجة، للبنت، للشابة، للشاب مصدره الوحيد، هو وعاء الإنسان و يغذى من هذا المشرب فشيء طبيعي جداً أن تجد ميلاً إلى الشهوات، أن تجد أن الفوز عند هؤلاء الذين يغذون من هذه الأجهزة هو في نيل المال فقط، و الفوز لا في البطولات و لا في التضحيات و لا في إقامة منهج الله عز وجل إنما الفوز بالشهوات، أي من الطُرف في بعض البلاد العربية أن طالب الطب له أربعة أهداف كبرى متمثلة بأربع عينات ـ أي حرف عين ـ هدفه عيادة و عربية و عروس و عيان أي مريض، الأهداف تصبح المادة فقط مال، بيت فقط، امرأة، تمتع بالحياة، هذه أهداف الناس الآن، من أين جاءت هذه الأهداف ؟ يوجد تغذيتين: يوجد تغذية ضعيفة يتلقاها الطالب في الأسبوع يتلقى درساً أو درسين، و يتلقى كل يوم ساعات طوالاً، التلقي قد يكون غير مباشر أي أنا ليس شرطاً ان ألقي عليك محاضرة، أنا قد أعرض عليك مشهداً محبباً فيه خرق لمنهج الله، قد أعرض عليك مشهداً محبباً فيه جرح لعقيدة المسلم، فأنت حينما ترى جيلاً ضائعاً، ترى جيلاً شهوانياً، ترى جيلاً متفلتاً و سألت عن السبب هذه التغذية تؤدي إلى هذه النتيجة، تماماً كهذا

الوعاء الذي نضع فيه الماء، الشيء الذي نضعه في هذا الوعاء نأخذه من صنبوره و الشيء الذي نربي به أولادنا ساعات طويلة كل يوم نستقيه من كلامهم و من تصرفاتهم، هذا الذي يعرض هل ينضبط بمنهج الله ؟ هذا الذي يعرض هل يتوافق مع الأمر و النهي الذي في القرآن الكريم ؟ هذا الذي يعرض هل يتوافق مع القيم التي جاء بها الإسلام ؟ أبداً، قيم أخرى و عقيدة أخرى و منهج آخر، فالشيء الطبيعي أن ترى هوة كبيرة بين الأب و أولاده و بين الأم و أولادها، أو بين الأم و بناتها، هذه الهوة بسبب هذه التغذية، فكما أن الاختلاط أحد أكبر أسباب تهديم البيوت كذلك هذا الذي يتصدر كل بيت و تتعلق به عيون كل أفراد الأسرة و يمضون أوقاتاً لا حدود لها إلى ما بعد منتصف الليل يتابعون ما فيها، هذه ثقافات أمم أخرى، هذه ثقافات أمم لا تعرف الله أبداً، ثقافات أمم لا تؤمن بالآخرة، الدنيا هي كل شيء، هذه ثقافات أمم ليس في حياتها منهج مقدس، منهجها تحقيق النمو الاقتصادي فقط، منهجها بلوغ أعلى درجة من التنمية، لذلك يوجد مشكلة نعانيها في أجيالنا ضعف عقيدتهم، ضعف انتمائهم لأمتهم، انغماسهم في شهوات محرمة في الأصل في قرآننا و في سنة نبينا، فأردت من هذا الدرس أن أضع بين أيديكم مخاطر هذه الأجهزة التي تتصدر كل البيوت و تنعقد عليها عيون أهل البيت و يمضون أوقاتاً طويلة وراءها و هم ينسون أنهم يهدمون بيوتهم بأيديهم، أي أمة أعزها الله بالإسلام، أمة لها تاريخ مشرف، أمة معها منهج الله عز وجل، أمة معها وحي بين أيديها كما نزل، هذه الأمة لماذا أجيالها هكذا ؟ هناك خلل، لعل أخطر شيء ـ دقق ـ في ثقافات الأمم و إذا قلت ثقافات الأمم أعني بها أنماط السلوك عند هؤلاء الأمم، فلان مثقف معه دكتوراه ليس هذا هو المعنى، كلمة ثقافة تعني أنماط السلوك، العادات، و التقاليد، أساليب الحياة، أنماط الزواج، أنماط العلاقات الاجتماعية، ثقافات الأمم أي عاداتها و تقاليدها، هذه كلها تنتقل إلينا عبر هذه الأطباق تنتقل و تعرض، فلذلك أردت في هذا الدرس أن أبين الأخطار الكبيرة التي تعمل على هدم البيوت عقائدياً.

بادئ ذي بدء المسلم يحمل عقيدة دقيقة جداً و صحيحة جداً عن فلسفة الوجود و عن فلسفة الحياة و عن فلسفة الإنسان، فلسفة الوجود فيما يعرض على أجيالنا الصاعدة أن هذا الكون لا يحتاج إلى إله إنما هو تطور ذاتي، ويكفي أن يقرأ أبناؤنا في المدارس و أن يرون في كل حلقة علمية أن الإنسان كان أصله قرداً و أنه تطور و أن نظرية التطور هي النظرية التي تفسر وجود الكون، إذاً هذا شيء يتناقض مع ما في القرآن الكريم، إذاً خطر كبير جداً أن يعتقد الإنسان شيئاً مناقضاً لما في الوحي، لما في القرآن الكريم، فحينما تعرض موضوعات علمية هذه تعرض على أنها ظواهر حيوية بيولوجية، ظواهر فيزيائية كيميائية، ظواهر جيولوجية، أما أن تستمع لكلمة حق أن لهذا الكون إلهاً عظيماً، أن هذا الكون من إبداع الله، أن هذا الكون من خلق الله، نحن درسنا في التعليم الثانوي أن هذا الطفل حينما يولد خلق الله في قلبه ثقباً بين الأذنين الذي كشف هذا الثقب عالم اسمه بوتان، فالطفل في بطن أمه ليس فيه هواء

و رئتاه معطلتان لأن دمه يتجدد عن طريق دم أمه، أما حينما يولد ينبغي أن يستنشق الهواء و أن تعمل رئتاه على تصفية الدم، إذاً هذا الثقب لابد من أن يغلق هكذا قال لنا أستاذنا حينما كنا في التعليم الثانوي، قال تأتي جلطة و تسد هذا الثقب، هل يعقل أن تأتي جلطة من عند ذاتها كي تغلق هذا الثقب ؟ و لو لم يغلق لأصبحت حياة هذا الطفل الوليد مستحيلة، أي يد الإله العظيم هي التي ساقت لهذا المولود الصغير هذه الجلطة حتى أغلقت هذا الثقب فانتقلت الدورة إلى الرئتين و تجدد الدم و انتعش الطفل، لي صديق لا يزال حياً يرزق عنده بنت صغيرة قال لي هذه معها داء الزرق أي الثقب لم يغلق و كل عشرة آلاف حالة ولادة تبقى حالة الثقب مفتوح لا تعيش فوق العشر سنوات، أذكر مرة أنها صعدت عشر درجات بربع ساعة لا يوجد قوة دمها أزرق أي دورة الرئتين معطلة لوجود ثقب الدم يختار الطريق الأسرع الأقرب، فكل حياة الإنسان تغدو مستحيلة لو أن هذا الثقب بقي مفتوحاً، الطرح العلمي طرح بعيد عن وجود الله، بعيد عن حكمة الله، بعيد عن رحمة الله، بعيد عن تقدير الله، بعيد عن لطف الله، فلذلك إذا الإنسان ترك أولاده يستقون ثقافتهم مما يعرض لاشيء يعرض يدل على الله إلا حالات قليلة جداً و نادرة أي الاستثناء ليس له حكم، أنا آخذ الخط العريض، آخذ ما يسمى بالأعم الأغلب، فلذلك يكفي أن تتوهم من خلال عرض أن هذا الكون خلق من تلقاء ذاته و أن الإنسان كان أصله قرداً و أنا و الله أحياناً في ساعات الألم أصدق هذه النظيرة معكوسة أنه كان إنساناً فصار قرداً، صار حيواناً، صار وحشاً، و الذي نراه اليوم أي لا يكذب هذه المقولة بل يصدقها، كيف أن الإنسان يمسخ إلى قرد ؟ كائن شهواني فقط لا يعنيه إلا الطعام و الشراب و الجنس فقط، فلعل أكبر شيء خطير فيما يعرض هو إفساد عقائد شباب المسلمين أنا أقول في الأعم الأغلب ليكون الدرس واقعي و موضوعي، أما الآن أي موسوعة علمية اشتريها مترجمة نظام الموسوعة أن الكون، أن الإنسان بدأ إنساناً متوحشاً، العصر الحجري عصر النبات، هذه المراحل الجيولوجية، هذه خلاف القرآن الكريم، و هذه النظرية نظرية داروين الآن ثبت بطلانها لكن ترويج هذه النظرية لغاية في نفس يعقوب، لماذا تروج ؟ الإنسان كيف يستطيع أن يمارس كل الشهوات ؟ حينما يعتقد أنه لا إله، إذا اعتقد أنه لا إله من السهل أن يفعل كل شيء، فالعقيدة التي تغطي انحرافاً كاملاً هي عقيدة إنكار الأديان، قد يقول أحدنا أمعقول ؟ لا تنظر إلى ما يقوله الناس انظر إلى ما يفعلونه هل تجد في فعل معظم الناس في القارات الخمس ما يؤكد إيمانهم بالله ؟ هل تجد في أفعالهم ما يؤكد خوفهم من الله ؟ هل تجد في أنماط سلوكهم ما يؤكد إيمانهم بالآخرة ؟ لا و الله، العبرة ليس هذا التكذيب اللفظي، أنا ذكرت سابقاً و أعيد لو أنك زرت طبيباً كي تعالج نفسك عنده و في أثناء المعالجة وجدته غير مؤهل كي يعالجك و أنت لطيف و لبق، انتهى من معالجته نقدته الأجرة و شكرته و ابتسمت في وجهه و لم تشتر الدواء الذي وصفه لك لأنك لست قانعاً به، أنت باللسان ما كذبته أنت باللسان احترمته لكن لعدم شراء الدواء الذي وصفه لك أنت كذبت علمه، فالتكذيب

العملي أبلغ من التكذيب القولي، فأنت حينما ترى معظم الناس يأكل مالاً حراماً هل تظن أن هذا الإنسان يعتقد بالآخرة ؟ مستحيل، حينما ترى إنساناً يفعل شيئاً محرماً هل تعتقد أن هذا الإنسان مؤمن بالآخرة ؟ فالعبرة لا ما يقوله الإنسان ما يفعله، فعل الناس لا يؤكد إيمانهم بالدار الآخرة، عدم إيمانه باليوم الآخر هو سبب تفلته من منهج الله عز وجل.

أيها الإخوة:

فأخطر شيء أن تستقي عقيدة من صور و من مشاهد و من أنماط سلوك هذه العقيدة أو من موضوع علمي تتناقض من منهج الله و مع وحي الله و مع قرآن الله عز وجل، أنت حينما تعجب بشخصيات لا تؤمن بالله عز وجل الإعجاب بهؤلاء الشخصيات حجاب بينك و بين الحق، من هوي الكفرة حشر معهم و لا ينفعه عمله شيئاً أي أنا حينما ترى المسلمين في عصورهم المزدهرة يعجبون بأصحاب رسول الله، بهؤلاء الأبطال الأعفة المطهرين، لكن حينما تعيش مع شاب معاصر ما الذي يعجبه ؟ لاعب الكرة الفلاني، أحياناً الممثل الفلاني، فالمثل العليا عند أجيال المسلمين السابقة غير المثل العليا عند الأجيال اللاحقة يوجد فرق كبير جداً، فالأول شيء العقيدة قد تكون غير صحيحة، عقيدة دنيوية محضة، عقيدة تؤمن بالإنسان و بشهوات الإنسان و بحريته في أن يفعل ما يشاء و قد تعطيك نماذج هي عند الله غير مقبولة، هي عند الله هالكة هذه النماذج تكون في أعلى عليين عند من ؟ عند من يستقي ثقافته من هذه الأجهزة.

و أيضاً مثل هذه الأجهزة تثير الشهوات و هذه الخلافات تعمق الخلافات الزوجية، أي الزوج ينصرف إلى غير زوجته، و الزوجة تنصرف إلى غير زوجها، أي يوجد شيء غير طبيعي أن هناك نماذج نادرة تعرض دائماً و هذه النماذج لو أن الإنسان وازن بينها و بين ما عنده زوجاً أو زوجة لو كان البون شاسع جداً هذا وحده يكفي لإعراض نفس الزوج عن زوجته و إعراض نفس الزوجة عن زوجها، إذاً يوجد أخطار ناتجة من إثارة الشهوات، تعظيم أشخاص عقيدتهم فاسدة، سلوكهم غير منضبط ثم إثارة الشهوات التي ينبغي ألا تثار إلا وفق منهج الله عز وجل، الآية:

((وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (74)))

[سورة المؤمنون: الآية 74]

الإنسان إن لم يؤمن بالآخرة لابد من أن يبتعد عن منهج الله عز وجل، إذاً عقائدياً قد تفسد عقائد هؤلاء الذين يستقون ثقافتهم من هذه الأعمال التي يشاهدونها و أخلاقياً قد تفسد أخلاقهم من هذه الشهوات التي تثار في هذه الأجهزة، و التاريخ الإسلامي أحياناً تطمس معالمه، قد يشوه، أي هناك الكثير من الأعمال التاريخية التي تشوه حقيقة التاريخ الإسلامي، إذاً كمصدر ثقافي غير منضبط لا يتوافق مع منهج الله و لا مع سنة رسول الله هناك خطر كبير، لذلك النبي عليه الصلاة و السلام قال:

((الزموا أولادكم))

الأب الصالح، الأب الحريص على إيمان أولاده دائماً يراقب المصادر الثقافية التي تغذي ابنه، لا يوجد سلوك إلا أساسه تلقي، هذا الابن من أين يتلقى ؟ أحياناً قصة تفسد حياة الإنسان، و أحياناً صديق متفلت يفسد أخلاق ابنك، إذاً الأب الكامل، الأب المسلم حريص على تغذية ابنه بمبادئ الدين، و قيم الدين، و منهج الله عز وجل، ذكرت مرة أن أحد الأشخاص روى قصة رمزية أعجبتني هذه القصة أنه استقبل ضيفاً وضعه في صدر المنزل و عظمه و بجله و بدأ يستمع له هو و أهله و يصغي له هو و أهله، هذا صاحب البيت بعد حين وجد أن أولاده بدؤوا ينصرفون عنه، كان إذا دخل إلى البيت دخوله عيد، بعد حين هم مقبلون على هذا الضيف الذي تصدر المجلس و هو يحدثهم ويريهم بعض المناظر، و الأب يأتي و يخرج و كأنه ما دخل و لا خرج، ثم اكتشف الأب أن مهمته الوحيدة أن يعمل عملاً شاقاً و يأتيهم بالطعام و انتهى دوره، هم متعلقون بهذا الضيف الذي تصدر المجلس و تصدر البيت و بدأ يعطي كل ما عنده لأفراد الأسرة عندئذ ضجر صاحب البيت و قال أخرجوا هذا الوحش، أي أنا لا أحب أن أكون مبالغاً لكن أقول لكم هناك خطر كبير جداً جداً جداً من وجود مصدر ثقافي يغذي أفراد الأسرة بعقيدة غير صحيحة و بقيم غير صحيحة و بأنماط سلوك غير صحيحة و هذه تنعكس على أفراد الأسرة سلوكاً منحرفاً، لذلك طوبي لمن وسعته السنة و لن تستهوه البدعة.

بيت يذكر الله فيه و بيت لا يذكر الله فيه كالحي و الميت، كيف الإنسان الحي يعجبك حديثه و يبهرك منظره و تأنس بالقرب منه، و الإنسان الميت تخاف منه، فبيت ميت لا يذكر الله فيه بل بيت فيه ما يناقض منهج الله عز وجل هذا بيت فيه خطر شديد و هو كالقبر فلذلك ما ذكر الله الأمر بالذكر إلا جاء الذكر مقيداً بالكثير:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41))

[سورة الأحزاب: الآية 41]

(وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ)

[سورة الأحزاب: الآية 35]

ذلك أن المنافق لا يذكر الله إلا قليلاً، المنافق يذكر الله ذكراً قليلاً بينما المؤمن يذكر الله ذكراً كثيراً و قد برأ من النفاق من أكثر من ذِكر الله، فنحن حينما نربي أبناءنا على ذكر الله و إقام الصلاة.

إخواننا الكرام:

يمكن أن تصلي الفرض في المسجد و ينبغي و الأولى أن تصلي السنة في البيت لئلا يكون البيت قبراً، ليكون البيت موصولاً بالله عز وجل، يوجد بيت كأنه مسجد أفراد البيت يتلون كتاب الله، يتذاكرون آيات

القرآن الكريم و يوجد بيت لا يوجد فيه ذكر إلا للأفلام، أي ذكر لهؤلاء الذين تصدروا المجالس في الحديث عنهم و هم ليسوا أهلاً لذلك.

أرجو الله سبحانه و تعالى أن أوفق في توضيح الفكرة.

لا كل عقيدة تقرؤها بكتاب، أحياناً تقتنع بفكرة استنبطتها من قصة، سيدنا يوسف هذه القصة الطويلة في القرآن بعد أن تقرأها ماذا تستفيد ؟ ما هي العقيدة التي تستقيها من هذه القصة ؟

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21))

[سورة يوسف: الآية 21]

الآية الكريمة:

(يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4))

[سورة يوسف: الآية 4]

معنى ذلك أن هذا الطفل الذي رأى رؤيا أن أمه و أباه و إخوته جميعاً سوف يخضعون له في مستقبل أيامه و كيف أن إخوته أرادوا به كيداً كيف أن إخوته وضعوه في الجب، إذاً قصة تقرؤها فتستنبط منها حقيقة، إذاً ما كل عقيدة تستنبط من كتاب العقيدة، ما كل عقيدة تستنبط من كتاب ديني، قد تستنبط آلاف التصورات العقدية غير الصحيحة من قصة تقرأها أو تشاهدها معنى هذا أنه في خطر على عقيدة المشاهد أحياناً من أن تتسرب إلى عقيدته شعور أن هذا الكون هكذا توالد ذاتياً كان يعزى إلى الطبيعة أو أن تتصور أن هذا السلوك لا شيء عليه سلوك إباحي أو سلوك فيه مجون لا شيء عليه شائع والعلماء تنبهوا إلى هذه الناحية سموها بلوى عامة، الشيء المحرم يقيناً في القرآن الكريم من كثرة ما يشاهده الأبناء في هذه الأجهزة كأنه شيء طبيعي صار، هبط مستوى الانضباط.

والله لو أردت أن أسمي الأشياء بأسمائها وأن أصل إلى أدق ما في الإنسان لوجدتم أن بناء الإنسان يختلف اختلافاً جذرياً حينما تغذي ابنك تغذية من هؤلاء الذين يجرون هذه البرامج وبين أن تغذيه تغذية إسلامية صحيحة.

إخوانا الكرام:

يسأل أخ هل ناسخة السيديات حرام مع العلم أنني لا أنسخ إلا البرامج الدينية والعلمية ؟

الشيء الثابت أن أية أداة كالسكين، اقتناء السكين حرام ؟ لو أن إنساناً ذبح بها طفلاً السكين تستخدم آلاف الاستخدامات المباحة ولها استخدامات أخرى قد تكون مؤذية، الأشياء التي تستخدم على أشكال متعددة حرمتها في استخدامها المحرم، فحينما تنسخ أقراصاً دينية لا شيء في ذلك، أما إذا استخدمت هذه الناسخة في غيبة صاحبها في نسخ أقراص أخرى فيها حرمة لا شي تحتاج إلى ضبط.

هذا يقودني الآن إلى فكرة خطيرة جداً وهي أن الضبط من الخارج أصبح مستحيلاً لابد من ضبط من الداخل يعني كل شيء يدعو إلى المعصية أينما ذهبت فبقي الإنسان حينما يربي أبناءه على الانضباط الذاتي هذه الضمانة الوحيدة أما الشيء العام كل شيء يمكن أن يستخدم استخداماً خطيراً فهذه ننسخ بها أقراص إسلامية لا يوجد مانع لكن لو غفلت فاستخدمت في غيبتك لنسخ أقراص غير صحيحة غير جيدة فصاحبها صار آثماً إذاً لابد من ضبطها، لابد من ضبطها ضبطاً محكماً كي تغدو في خدمة الدعوة.

يبدو أن هذا طفل صغير جزاه الله خيراً يقول أنا في مدرسة ومعلمتنا ليست محجبة فهل يجوز النظر إليها ؟

والله مرة حدثني أخ قال لي: يوجد مدرسة غير منضبطة إطلاقاً فدخلت إلى مدير إعدادية قالت له: فلان ـ ذكرت اسم طالب ـ هو ظنها تشتكي على طالب فقال لها: أفصله فوراً، فقالت له: لا إنه الأولي عندي، أول طالب عندي لكن لا ينظر إلي، فقال لها: هذا طالب له شيخ هو يؤدبه، أي قد تجد في الأطفال ورعاً يلفت النظر، حدثني أخ قال لي: أنا خطيب مسجد في الشام مرة استيقظنا متأخرين و الدنيا شتاء فهيأت الأم شطائر للطعام و قال لابنه: كلها في الطريق هذه، قال له: يا أبت قال عليه الصلاة والسلام: الأكل في الطريق دناءة، أي لا يوجد شيء أجمل من طفل نشأ في طاعة الله، و دائماً الطفل و هو صغير يشكل كما تريد، أي الطفل مادة خام كالعجينة تماماً تشكلها كما تريد، فهؤلاء الآباء الذين يدعون تشكيل أولادهم بهذه الأجهزة قد يتعلم الرقص، قد يتعلم مثلاً شيء فوق الرقص، قد يتعلم سلوكاً مستهجناً عند المسلمين، من أين تعلمه ؟ بالمناسبة مشاهد العنف لها آثار كبيرة جداً، مشاهد العنف أحياناً، مشاهد القتل تترك آثاراً خطيرة جداً في نفس الطفل الصغير فلذلك انتبهوا هذا مصدر ثقافي فقد يعلم العنف، قد يعلم الانحراف، قد يعلم الشذوذ، قد يعلم كل سلوك شائن لا يرضي الله عز وجل.

يقول أنا طالب في المدرسة، إذا طفل صغير جداً ذهب إلى الحج هل يقبل حجه ؟

طبعاً النبي عليه الصلاة و السلام علمنا كيف نربي أبناءنا، يوجد عندنا أحكام شرعية تأديبية و أحكام شرعية تكليفية، إذا ابنك عمره سبع سنوات تأمره بالصلاة و في العشر سنوات تضربه على تركها مع أنه مكلف بالصلاة بالثالثة عشر، مستحيل طفل فجأة يصلي لابد من أن يدرب على الصلاة في سن مبكرة، مستحيل طفل فجأة يصوم يصوم يوم نعم يوم لا، بعد ذلك يوم للظهر، يوم يفطر تسامحه، يوم يصوم تكافؤه، حتى يصبح بسن الثالثة عشر فيصبح الصيام عنده تكليف رسمي، فهذه الأوامر يسموها أوامر تأديبية لا أوامر تشريعية، فكل شخص عنده ابن لو أنه عندك ابنة صغيرة جداً و كان ثيابها سابغة أنت تؤدبها بآداب الإسلام قبل أن تؤمر بارتداء الحجاب، أنت تؤدبها بآداب الإسلام، هذه النقطة دقيقة

جداً، لو لم تكن هذه البنت مكلفة أن تتحجب ينبغي أن يكون ثوبها سابغاً أي كثير يوجد أمهات مسلمات محجبات ابنتها صغيرة أي عمرها أربع سنوات تلبسها ثياباً فاضحة أن هذه بنتاً صغيرة هذه البنت الصغيرة حينما ترتدي هذه الثياب و حينما يبدو معظم جسمها تظن أن هذا هو الصح فإذا كبرت تألف ما ألفت، لذلك ينبغي أن تؤدب فتياتنا بآداب الإسلام، و ينبغي أن يؤدب أبناؤنا الصغار بآداب الإسلام، و الله أنا في الحج حينما أشاهد طفلاً صغيراً يلبس ثياب الإحرام منظر رائع جداً، طفل يطوف، طفل يُقبل الحجر، شيء جميل جداً، و حينما يأتي الأب مع ابنه إلى المسجد أيضاً شيء جميل جداً، يجب أن يكون ابنك معك في المسجد، أنا و الله ممن يشجع وجود الأبناء و لكن طبعاً مع ضبطهم و ليس مع تفلتتهم، فالزموا أولادكم.

هذه نشرة سكان العالم ست مليارات و نصف، تعداد المسلمين مليار و ثلاثمائة مليون، المدخنين في العالم مليار و خمسة عشر مليوناً، أكبر نسبة مدخنين في المسلمين، وأرباح شركات التدخين أرباح فلكية تفوق حد الخيال، ماذا نفعل ؟ اترك الدخان هذا الشيء الذي يجب أن تفعله، وفر هذه النفقة لمؤمن، وفر هذه النفقة لأسرتك، فيوجد أرقام خيالية، نحن في بلدنا أربعمائة مليون ثمن الدخان اليومي، ثمن الدخان الذي يباع في قطرنا أربعمائة مليون كل يوم، بالعام كم مليون ؟ هذا من ثمن طعامنا و شرابنا، و من ثمن أجهزتنا و بيوتنا، و يقتطع من نفقات تربية أولادنا، و نفقات تزويج أبنائنا.

سؤال عام: ما رأيك بحرية المسلم ؟ و متى تبدأ و متى تنتهي ؟ و ما هي الحرية التي إذا طبقها المسلم لا يرتكب بها ذنباً ؟

هذا كلام عام لا معنى له إطلاقاً، المسلم معه منهج إذا طبقه ملزم بهذا المنهج، فالذي سمح الله به سمح الله به، أنت حر فيه، و الذي لم يسمح الله به لم يسمح الله به فأنت مقيد بمنهج الله عز وجل، يرسموا صورة توضيحية كفرس مثلاً مربوط، الحبل طوله خمسين متراً إذاً الفرس معه حرية حركة دائرة قطرها مائة متر أما يوجد حدود ينتهي عندها، فأنا قال لي الله:

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا)

[سورة الأعراف: الآية 31]

هذه منهج، أستطيع أن آكل و أشرب و لكن بدون إسراف أو دون افتخار و مخيلة:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ)

[سورة المؤمنون]

بكسب المال مسموح المال من التجارة أو من الإرث أو من الهبة أو من راتب تأخذه مقابل خدمة تؤديها، إما خدمات مأجورة أو تجارة أو زراعة أو صناعة أو إرث أو هبة، يانصيب لا يوجد، فائدة

ربوية لا يوجد، سرقة لا يوجد، احتيال لا يوجد، تدليس لا يوجد، فبكل موضوع يوجد أشياء مباحة و يوجد أشياء محرمة، واضحة بكسب المال، بالعلاقة بالنساء، النزهة مسموحة لكن لا يوجد اختلاط، نزهة بمكان عام، أغاني، ونساء كاسيات عاريات هذه ممنوعة كمسلم أنت، احتفال مسموح و لكن لا يوجد احتفال مختلط، عرس مختلط يدخل العريس و يجلس أمام نساء كاسيات عاريات لا يصح، فالسؤال مبهم في كل مجال، مجال النساء، مجال الطعام و الشراب، مجال النشاط الاجتماعي، مجال السفر يوجد منهج دقيق، لذلك هذا الذي يتوهم أن الإسلام عبارة عن صوم و صلاة و حج و زكاة واهم جداً، و الله لا أبالغ الإسلام قريب من خمسمائة ألف بند، إذا تقرأ الفقه بكسب مالك بحركاتك، بنشاطاتك، بتربية أولادك، بعلاقتك بزوجتك، بخروجك، بغض بصرك، بكلامك، بحديثك، يوجد سبعة عشر آفة للسان، هذه غيبة، هذه نميمة، هذه بهتان، هذه كذب، هذه استهزاء، هذه سخرية طبعاً بالبيع و الشراء يوجد مليون حالة فيها حرمة، هذه فيها تدليس، هذه فيها كذب، هذه فيها غش، هذه فيها تحميل شيء لا يحمله هذا الشيء المشترك، فما الحرية ؟ أنا لا يوجد عبارة أعبر فيها عن شعوري تجاه شخص غير منضبط غير أنه دابة فلتانة، هذه حرية شخص دابة فلتانة، يأكل ما يشاء، يتكلم ما يشاء، يفعل ما يشاء، يطلق بصره إلى من يشاء، دابة فلتانة، الإسلام كله انضباط في الكلام و في السلوك، عند الأجانب يقول لك تنتهي حريتك حينما تبدأ حرية الآخرين هذا كلام مطاط، أي أنت اسمع أغاني كما تريد و لكن لا ترفع صوت المذياع بحيث لا تزعج جارك هذه هي، فممكن أن تفعل المعاصي كلها بتعريف الغرب للحرية و لكن لا تؤذي شعور إنسان آخر، أي كنت أرى أشياء في العالم الغربي أي صحن فضاء واضعه شخص طبيب و صانع له زينة غير معقولة أي قماش و مزخرف و أقواس ما هذا؟ قال لي: جاري اشتكى عليّ منظر الصحن مؤذي إلى شعوره فيجب أن أزين له إياه، اصعد و انظر عندنا إلى قاسيون ماذا بها، أما امرأة تسير شبه عارية هذا غير مؤذي، فكلام الغرب مضحك جداً تنتهي حريتك حينما تبدأ حرية الآخرين، نحن تنتهي حريتنا حينما يأتي النص المحرم و تبدأ حريتنا حينما يبيح الله لنا شيء، المباح مباح و المحرم محرم هذا الانضباط.

يوجد شيء بالأجهزة بالبيوت تعلم التلقي، الإنسان منفعل و فاعل فإذا كان دائماً يتسمع أولاً ضاع وقت طويل و تلقي، أي لي تعبير لطيف أحياناً عمل ثلاث ساعات يوجد معلقة عسل مخلوطة بقنطار صبر، يوجد فائدة، يوجد موعظة، هذه الموعظة ملعقة عسل مذابة بقنطار صبر كي تدخل هذه المعلقة إلى جوفك يجب أن تشرب قنطار الصبر معها، أي تجد قصة طويلة عريضة ملخصها كلمتين و يوجد بها مشاهد و بها مواقف، مرة كاتب قال: أنه يجوز للأديب أن يصور الرذيلة على نحو نكرهها، أما إذا صورها على نحو نحبها فإن مجتمعاً بأكمله ينهدم بهذا العمل الأدبي، كلام دقيق، أنت ممكن أن تصور إنساناً انحرف فدخل السجن و انتهت حياته، أما حين يدخل السجن أطلعتنا على مشهد رائع بحياته و

شيء مغر أنت لم تصور الرذيلة على نحو نكرهها، صورتها على نحو نحبها فأنت أكبر مهدم بالمجتمع، إذا صور الأديب الرذيلة كقصة قبل أن تنقلب إلى عمل إذا صورها كقصة على نحو نكرهها جيد، أما إذا صورها على نحو نحبها فإن مجتمعاً بأكمله يمكن أن ينهار من خلال هذا الأدب.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (137) :أسباب هدم البيوت3 - الأثر السلبي للشاشة والتصوير والهاتف.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-04-21

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون:

بدأت قبل درسين في موضوع اجتماعي ديني كبير هو عوامل هدم البيوت، وحينما أقول هدم البيوت لا أقصد مشكلة تنشأ بين الزوجين، فما من بيت في العالم إلا وفيه مشكلات تنشأ بين الزوجين، لكن في حدها المعقول مقبولة، لكن حينما أقول هدم البيوت يعني انحراف خطير في الزوجة أو في البنت الأمر الذي يوجب الطلاق أحياناً، والأمر الذي يوجب انهيار البيت.

الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى وصف أهل الدنيا:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28))

(سورة الكهف)

ومن خلال محورين، المحور الأول الواقع المؤلم الذي يعيشه المسلمون، ومن خلال المنهيات الشرعية، أما الشيء الذي لا يصدق ذاك التوافق العجيب بين كل مشكلة خطيرة تهد البيت وتدمره، وربط هذه المشكلة بالنهي الشرعي.

مرة زرت مدير سجون القطر أهداني كتاباً فجاء بثلاث وستين جريمة كل أصحاب الجرائم عنده في السجن، ومع كل جريمة علق تعليقاً قانونياً لماذا حكم على هذا المجرم بسنوات عشر أو بثلاثين عام، لكن أجمل ما في الكتاب بعد التعليق القانوني هناك تعليق شرعي، ما المخالفة الشرعية التي استوجبت وقوع هذه الجريمة ؟

ومرة ثانية أؤكد لكم أن كل الأخوة الكرام الذي يعملون في حقل الدعوة بحكم أنهم عند معظم الناس مرجع لأسئلة كثيرة، فيتجمع لدى الداعية كم كبير من المشكلات لا يتاح لواحد من الأخوة المؤمنين أن يتجمع لديه، مهما تكن القضية نادرة هناك عشرات القصص والمآسي والبيوت المنهارة، كلها بسبب مخالفات نهى الشارع الحكيم عنها.

الإنسان أحياناً قد لا يقيم قيمة كبيرة لهذا النهي الشرعي، ثم يفاجأ أن مشكلة كبيرة جداً هدمت البيت بسبب دخول شخص إلى البيت نهى الشرع أن يدخله.

فكما تذكرون في الدرس الأول بينت أن الحمو الموت، والدرس ليس مجالاً لحديث قصص كثيرة، والله عندي من قصص الانحرافات الخطيرة التي أدت إلى خيانة وطلاق وانهيار أسرة بسبب دخول

الحمو البيت، النبي قال: الحمو الموت، فالتشدد عند رب الأسرة المؤمن لا يمكن أن يسمى تشدداً، هذا التشدد هو ضمان لسلامة هذه الأسرة، وأقول دائماً لكم لوحة حقل ألغام لا يمكن أن تكره واضعها، بل لابد أن تشكره لأن هذه اللوحة لا يمكن أن تكون حداً لحريتك، بل هي ضمان لسلامتك، فمن خلال كم المشكلات الكبير جداً الذي تعانيه أسر المسلمين، وكل داعية شاء أم أبى عنده كم كبير جداً، وكأنه يعيش الواقع بكل جزئياته وتفاصيله بحكم اتصالات هاتفية ورسائل ولقاءات وأسئلة وفتاوى، فعند الداعية صورة ليست مشرقة للمجتمع الإسلامي، لكن هذه الصورة قاتمة سببها أن منهج الله ليس مطبقاً في حياتنا، وكنت أقول دائماً أنك حينما تنطلق من حبك لوجودك ولسلامة وجودك وكماله واستمراره تطبق الشرع.

وكنت أقول دائماً وهذه أسس كبيرة: لا يمكن أن يكون في الإسلام حرمان ولكن فيه تنظيم، لأنه ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها.

صدقوا أيها الأخوة: أن أسراً أنا لا أقول جرائم وقعت هناك جرائم وقعت لو سألتم المراجع المعنية يعطونكم عشرات بل مئات من الجرائم التي وقعت في بيوتات المسلمين بسبب دخول الحمو، طبعاً الدخول فيه خلوة، والخلوة تنتهي بالخيانة، وتنتهي إما بجريمة أو طلاق، والأولاد يشردون!

فإذا تشدد الزوج المؤمن ليس أمره فرطاً، أمره منضبط، المؤمن تضبطه منظومة قيم، ويتساهل في مليون موضوع إلا في المنهيات الشرعية لا يتساهل أبداً، يوجد منظومة قيم ومنظومة أوامر ونواهي هذه ثوابت ليست خاضعة للمناقشة.

مشكلة الناس حينما فهموا الدين صلاة وصيام وحج وزكاة ولم يفهموه قواعد اجتماعية منضبطة فهذا البيت بيت المسلم من أجل أن يبقى بيتاً عزيزاً ومتماسكاً وفيه المودة والرحمة وفيه الحب والتربية والاتصال بالله، كالحي والميت، بيت يذكر فيه اسم الله....ونحن في درس سابق تحدثنا عن دخول من لا يسمح له الشرع أن يدخل إلى البيت في غيبة الزوج، وتحدثنا عن الاختلاط، لو كنت باحث اجتماعي وأخذت ملفات المشكلات من المحاكم الشرعية أو من مخافر الشرطة أو من مكاتب الأمن الجنائي لذهلت أنه مامن مشكلة على وجه الأرض إلا بسبب خروج عن منهج الله، وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب جهل بهذا المنهج، فالأصل أن تعلم منهج الله.

الدرس الثاني تحدثت فيه عن الشاشة، لا أستطيع أن أعطي أمر لكن أقول لك المخاطر وأنت افعل ما تشاء، إذا في ضبط نعمة كبيرة، أما مادة متفجرة وقربت منها ناراً فالتفجير حاصل لا محالة، هذا كلام من بديهيات الحياة، الله عز وجل أودع في الإنسان هذه الطاقة، وهذه الطاقة لا تتحرك إلا إذا استثيرت، فإنسان يضع نفسه تحت تأثير خطير جداً حتى تتحرك هذه الغريزة التي أوعها الله في الإنسان لهدف نبيل من أجل الزواج وإنجاب الأولاد، ومن أجل أن تكون أسرة تسعد بأفرادها لذلك قلت:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص)

وذكرت بالدرس الماضي أن هناك شيء خطير من فضل الله إدراكي له واضح جداً، الإنسان حينما يتحرك كيف يتحرك ؟ وفق تصورات، اسأل هذا اللص لماذا دخل إلى البيت ؟ لأنه توهم أن أخذ المال عن طريق السرقة سهل جداً وسوف يتمتع بهذا المال وتحل به مشكلاته، ولن يلقى القبض عليه، هكذا رأى ففعل، ما من فعل سيئ إلا ورائه رؤية غير صحيحة، من أين يبدأ الاحتياط والوقاية ؟ تبدأ الوقاية بتصحيح الرؤية، كيف تصحح ؟ بمعرفة منهج الله.

لذلك ليس من نافلة القول أن نأتي إلى درس علم، ليس من استهلاك الوقت أن نحضر درس علم، من استثمار الوقت وكما وصف الإمام علي كرم الله وجهه بأن العلم حارس: " يا بني العلم خير من المال لأن العلم يحرسك وأنت تحرس المال "

ألا تجد إنسان عاش حياة مديدة لا يوجد عنده مشكلة لا بمخفر ولا بقصر عدل ولا بدعوة وسمعته في الأوج، بيته طاهر أولاده تربيتهم عالية، بناته لهم تربية عالية، هذا بفضل تطبيق المنهج الإلهي، فأريد أن أضيف فكرة لعلي لم أشرحها جيداً في الدرس الماضي، الفكرة مادام السلوك منعكس لرؤية فهذه الرؤية من أين تأتي ؟ من مغذيات ثقافية، حينما أرتاد المساجد التغذية هي تغذية قرآن وسنة ويجوز ولا يجوز وحرام ومباح وجنة ونار وبطولة وآخرة ودنيا هذا حرام وهذا حلال هذه التغذية، أما لما أغذي نفسي وأولادي وزوجتي وأخواتي وبناتي تغذية تنطلق من العلمانية، أي عدم العلمان بالأديان بأن لهذا الكون خالقاً، أن هذه الحياة الدنيا بعدها حياة أبدية، أن الإنسان مخلوق لا لشهوة يستمتع بها بل مخلوق لعمل صالح يفعله كي يصل إلى الجنة، المنطلقات تختلف اختلاف كبير، أنت حينما تسمح لأولادك وبناتك أن يشاهدوا أعمال فنية تنطلق من إنكار الدين أو إنكار القيم ما الذي يحصل ؟ الكاتب قد يضفي على هذه الشخصية أعلى الصفات الإيجابية، أنا دراستي أدب عربي، وموضوع المسرحية جزء من دراساتنا المعمقة، فكاتب القصة حينما يضفي على شخصية القصة البطولة ثم تدخل لبيته فترى فيه باراً، جناح لشرب الخمر، فهذا الذي يشاهد ينظر أن هذا بطل أنقذ إخوانه بأعلى منصب، إنسان يحب الخير للمجتمع ! لكن عنده بار في البيت، أنت لا تعلم خطورة هذا، أصبح الخمر شيء من لوازم البطولة وحينما يعرض لك شيخ القرية أو شيخ الحي إنسان أفقه محدود تفكيره ضيق هيأته لا ترضي بيته غير منتظم أنت لم تتكلم بكلمة ضد الدين، لكن أعطيت نموذجين نموذج محبب شخص متألق لامع ذكي محبوب حوله أتباع كثر لكنه يشرب الخمر، وزوجته تستقبل أصدقاء زوجها في غيبته، والأمر طبيعي جداً يقول روح رياضية، لا مشكلة، فما الذي حصل لهذا الطفل أو الشابة التي تتابع هذا العمل ؟ الذي حصل أن هذه المعصية الكبيرة التي نهى عنها الشرع من خلال هذا العمل الفني ليست معصية،

شيء طبيعي جداً مألوف، وأن استقبال المرأة صديق زوجها في غيبة زوجها ويبقى صديق الزوج مع الزوجة بمفردهما في البيت شيء طبيعي جداً، نحن معقدين، وهذه الكلمات تقولها الشابات، إذا وُجدت شابة مؤمنة هذه معقدة، وشاب أراد أن يستقيم يقال عنه معقد، أما كل الجدر والحصون والموانع التي تمنع انهيار الأسرة هذه هدمت، فالانهيار حاصل.

صدقوا أيها الأخوة: أحياناً أستمع إلى قصة أبكي، المعصية واضحة جداً دمرت أسرة، المرأة طلقت الأولاد شردوا شيء طبيعي جداً، السبب مخالفة بسيطة السماح لدخول إنسان في غيبة الزوج مثلاً، هذه أشياء أنا لا أقول بسيطة، وليس كلما دخل إنسان في غيبة الزوج أصبح هناك خيانة لا أقصد هذا، لكن صار خطر، الأسرة عرضت كيانها للانهيار، فسلسلة هذه الدروس أول درس تحدثت عن دخول الحمو إلى البيت في غيبة الزوج وعن الاختلاط والموازنة وما إلى ذلك، وتحدثت في درس ثاني عن الشاشة كيف تعرض قيم دعك من الإثارة موضوع ثاني تطرح قيم، قلت لكم دائماً مسموح بالأدب أن تصور الرذيلة لكن على نحو نشمئز منه ونحتقرها ونكرهها ولا نحتملها، إن وصفت الرذيلة هكذا لا مشكلة أما الذي يقع عكس ذلك الرذيلة تصور بطريقة محببة وتغري متابع هذا المسلسل أن يفعلها، وهنا المشكلة فلو أن الأب على وعي شديد والأم كذلك هذا الطفل أو الشاب أو الشابة هل تدري أنك تعطيهم مغذيات تتناقض مع الدين ؟ هل تدري أن هذه الشاشة تعطيهم مغذيات ثقافية تتناقض مع القيم الإسلامية ؟ نحن معنا منهج وحي قرآن سنة، نحن أتباع سيد الأنبياء، تجد الحواجز الضخمة في الدين منهارة في هذه التغذيات الثقافية، فأنت لا تتصور قضية سهلة، إذا في انضباط الحمد لله نعمة كبيرة، أما من دون ضبط لا يمكن أن لا يكون هناك آثار لا تحمد عقباها، هذا الدرس الماضي لوجود نقطة أتمنى أن تكون واضحة لديكم، كل واحد منا حسب عقيدته وتغذيته الدينية أنت مسلم ناشئ في بلد مسلم من أب وأم مسلمين وأنت تحضر خطب جمعة من عمرك، فالقناعات الإسلامية من خلال خطب الجمعة وأستاذ الديانة بالمدرسة وأمك وأبوك الدينين تعطيك مجموعة تصورات ومجموعة قيم، هذه أسميها خط دفاع، لن يستطيع أحد أن يخترق هذه الخطبة، ماذا يفعل العمل الفني أحياناً ؟ يتسلل من بين هذه الخطوط الدفاعية دون أن تشعر، أضرب لكم مثل: لو ألقيت محاضرة على مجموعة شباب رائعة بالأدلة والشواهد والصور والمآسي عن أخطار السرعة الزائدة، لو أن أحد هؤلاء الشباب يركب مركبة وشاهد حادث مروع تسلل إلى قناعاته وغيرها، وكم من توبة عقدت إثر مصيبة نزلت ؟ فالعمل الثقافي الفني يتسلل في ما بين خطوط دفاع الإنسان ويعطيه تصور آخر، لذلك إذا أردت أن تكون عالم نفس وأن تحلل كل انحراف المجتمع سببه تغذية سيئة.

الأب الذي يحرص على زوجته وأولاده وبناته، كل بطولته أن يعمل بتغذية صحيحة ولا يسمح بتغذية منحرفة، فحينما تراقب أصدقاء ابنك من هم ؟ وترافق المجلات الذي يقرأها ابنك، وتراقب الأمسيات

التي يقضيها ابنك مع من ؟ الحديث هذا شيء مهم جداً، لا يوجد سلوك دون تصور، ولا تصور دون تغذية، درس العلم تغذية شرعية، عمل فني تغذية من نوع ثاني، ممكن لعمل فني تتسلل القيم المناقضة للدين والأفكار المناقضة للدين دون أن تشعر هذا يفسر كيف الجيل المجموع الأكثر منه رافض للقيم الإسلامية ليس رفض لساني، الإنسان ذكي لا يوجد من يتكلم ليثير حوله مشكلات، لكن رفض حقيقي رفض الانضباط وغض البصر وضبط اللسان ومطالعة أشياء.....

فأنا أرجو الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا الدرس في خدمة الإخوة الكرام: راقب التغذية الثقافية التي يغذى بها ابنك لو سألت قضاة عن أشياء لا تصدق سببها تغذية ثقافية سيئة، أحياناً في حالات سرقة السارق ليس فقيراً لكن رأى فيلماً من أفلام العنف والسطو شيء مدهش، أراد أن يقلد، طفل ذبح أخاه الصغير لأنه رأى جريمة بمسلسل كيف صغيراً ذبح أخاه ! لا تستهين برؤية الطفل إنه يتعلم، الطفل لا يملك ميزان، ما مشكلتنا ؟ الطفل يتعلم بالصورة فقط، أحضر عشر علماء كبار من علماء المسلمين ويحدثوا الناس عن عظمة هذا الدين، يأتي طفل يرى صورة إنسان دين لكنه قاسي القلب ورث الهيئة وكلامه قاسي، ويرى صورة إنسان لطيف جداً ومحسن قدم له هدية وهو أكبر فاسق، الطفل يتعلم بالصورة، هذه أخطر كلمة أقولها في هذا الدرس الطفل لا يتعلم بالفكرة بل بالصورة فأنت اعرض عليه صورة إنسان له مظهر ديني لكنه سيئ، واعرض عليه صورة إنسان له مظهر محبب لكنه ذو فكر غير ديني، يتعلق بالإنسان الثاني.

أقول هذه الكلمة لأخوتنا الكرام: ابنك يتعلم بالصورة فقط، حتى هذه الأعمال الخاصة بالصغار فيها توجيه إلحادي إباحي فيلم كرتون هذا الكرتون فيه توجيه إباحي إلحادي دون أن تشعر.

السطو والمطبات تجد الطفل يحبها، درّست ثلاثين سنة تقريباً، مرة رأيت طرف من الطلاب تتكرر في كل شعبة، نفسها أسمعها يوجد قاسم مشترك ثم علمت أن هناك مسرحية عرضت عن مدرسة وعن معلمة وطلاب مشاكسين ومطبات ومقالب تركت أثر هذه المسرحية في العالم الإسلامي يفوق حد الخيال، لأن العمل الفني محبب وفيه إتقان وشيء يمتع الحس والبصر والسمع، العمل الفني محبب، الإنسان العظيم يستخدم الفن الأدبي في نشر الحق، والبلاغة في إيصال الحق للآخرين.

كنت مرة في استانبول أطلعوني على عمل كرتوني حول محمد الفاتح بكيت خمس مرات ! تصور لو كان عمل فني عن شاب صغير فتح مدينة استعصت على الفتح قرون، والنبي أخبر عنه وأثنى عليه، والله ما ملكت دموعي، والعمل الفني كرتوني ليس حقيقي، فتصور لو كانت كل المغذيات إسلامية لوجدت جيل يهد الجبال، لكن عندما يلحق الإنسان شهوته يصبح كالخرقة.

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (54))

(سورة الزخرف)

إذا تبع الإنسان الشهوة يصبح جبان جداً، أناني وصولي انبطاحي وبصفات لا تحتمل، فعندما تكون التغذية غير إسلامية شهوانية إلحادية لا تؤمن بالأديان إطلاقاً، تصور إذا عرض شيء وثائقي أن في الإنسان الحجري يعيش بالكهوف هذه خلاف القرآن، الله عز وجل بدأ البشرية بنبي عظيم قال: " آدم ومن دونه تحت لوائي ولا فخر " الله عز وجل بدأ البشرية بأعظم إنسان وختمها بأعظم إنسان، فكل ما تراه في الموسوعات العلمية وفي الأعمال الفنية التاريخية غير صحيح يتناقض مع القرآن، أقول كان الله في عون طالبنا، يدخل أستاذ الطبيعيات يقول له الإنسان أصله قرد، يدخل أستاذ الديانة يقول على موضوع سيدنا آدم هنا آدم هنا قرد، يضيع الطالب، القضية الذي نعاني منها سلوك منحرف بسبب تغذية خطأ.

فأنا أقول دقق في المصادر الثقافية التي يغذى بها أولادك وأهلك في البيت، يكاد يكون السلوك المستنبط من الأعمال الفنية هو السائد في المجتمع، سمعت أنه كان في مسلسل من أراد أن يعمل مخالفة بالبناء أثناء المسلسل، الطرقات صار فيها منع تجول، من يريد تعمير غرفة بملحق يقوم بهذا وقت المسلسل لعدم وجود أحد ينتبه له، ما قولك بهكذا أمة ؟ مضطر أن أقول هذا الكلام لأن القضية خطيرة، لا تسأل ماذا أفعل ؟ أنبهك، ممكن أن تنهار أسرة وتتفاجأ بخبر عن ابنك لا سمح الله ولا قدر يهد الجبال، ممكن أن تتفاجأ بخبر من أهلك يهد الحبال، لوجود التغذية غير المعقولة، فأرجو الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا الأمر واضح لديكم.

نحتاج إلى بيت مسلم ونحن الآن بمحنة كبيرة ومعرضون إلى امتحان صعب من الله عز وجل، لا يوجد عندنا سلاح غير الاستقامة وأن تكون بيوتنا كلها مسلمة.

أنا أخاطب الآباء عد للمليار قبل أن تسمح لأولادك بتغذية ليست إسلامية، سأقول لك كلمتين: الإنسان عنده عقيدة وسلوك هذا الإنسان، العقيدة أحد حالتين إما إيمان بالله أو عدم الإيمان به، وعدم الإيمان بالله لها أشكال كثيرة يقول هذا علماني، البنت سبور كلام لطيف، فلان منفتح مرن أي غير مؤمن هذا العقيدة، السلوك لا شيء حرام كل شيء إباحي، تجد مؤمن بالله مؤمن بالدنيا فقط، وبالدنيا الأقوياء كل الحلول تأتي من الغرب أو منضبط أو إباحي، كلمتي دائماً: كم تجد في المجتمع من مدل ونحل واتجاهات ومذاهب ونزعات وطوائف وأديان وأجناس وأعصار البشر رجلان، لا يزيدون عنهما، إنسان عرف الله، فانضبط بمنهجه وأحسن إلى خلقه فسعد في الدنيا والآخرة، وإنسان غفل عن الله فتفلت من منهج الله وأساء إلى خلق الله فشقي في الدنيا والآخرة ولن تجد إنسان ثالث، فهذا كلام مؤلم لأنه يسبب مشكلة بالبيت لكن دائماً لوحة حقل ألغام يجب أن تعدها ضماناً لسلامتك، وليست حداً لحريتك.

موضوع ثاني: هذا الهاتف الذي هو من نعم الله العظمى قد يكون أحد أسباب خراب البيوت، أنا لا

أنطلق من كلام نظري والله بكل كلمة أقولها عندي مائة قصة، يوجد من يعاكس الفتيات في المنازل عشوائياً يدق أي رقم فإذا لقى تجاوب كلام، هذا الكلام لابد من أن ينتهي بلقاء بالنهاية بعد شهر أو شهرين أو ثلاثة.

مرة كنت بالعمرة ونزلت بفندق قريب من الحرم أمام المصعد يوجد لوحة قصص أيها النزيل استعر قصة وأرجعها، كنت وحدي استعرت قصة وأرجعتها، الأب مدرس والبيت محافظ بالتعبير الاجتماعي وفتاة طالبة ومحشومة لأقصى حد، بدأ باتصال هاتفي ورفضت مرتين وثلاثة ثم سلمت ثم أجابت ثم انتهى الأمر بالسجن محكومة ثلاثين سنة ! لأن هذا الذي بدأ معها بمكالمة استطاع أن يصل لها بالنهاية ويصورها ويبتزها بالأموال، وإذا رفضت يهددها بالصور، ثم علموا أهلها ثم بساعة من ساعات فورانها قتلته.

فأحياناً تبدأ مشكلة من هاتف، فالأب والأم ينبغي أن يكون الهاتف مراقباً مراقبة شديدة، أو توجيه كلمة خطأ تقطع المكالمة فوراً، أما تسأل وتجيب عندي مئات القصص، أقول لكم بالبداية لا يوجد كلمة أقولها إلا عندي مئات القصص والله من محبتي لكم وحرصي على قوة وسلامة بيوتكم أقول هذا الكلام، أحياناً ينهار البيت من هاتف، فإذا في مشكلة يجب أن يراقب الهاتف إلى أقصى درجة.

عرضوا علي إخوان أشرطة لمكالمات غير معقولة أبداً، طبعاً انتهت فوراً بالطلاق، روقب الخط وانتهت بالطلاق، وتمثيل كله يمثل أبعدنا وإياكم عن هذه القصص والمآسي الخطيرة، فالهاتف يجب أن يراقب، ماذا يعني أنت مؤمن ؟ تعرف هذا البيت منضبط بالشرع من يدخل ومن يخرج وكل الحركات والسكنات وفق منهج الله، أما أشياء مسيبة طبعاً يجب أن يكون هناك توجيه من الوالد والوالدة للشباب والشابات بأصول استخدام الهاتف، الإنسان يتكلم أنا فلان، إذا ما حكى تغلق السماعة، يوجد مشكلة اقطع الخط أو راقب أو سجل، عندما يكون انضباط أغلب الظن لا يوجد ما يضر، الهاتف أحد أسباب انهيار البيوت.

أجمل كلمة الشريف من يهرب من أسباب الخطيئة قال: ما بلغ من دهائك ياعمر ؟ قال: مادخلت مدخلاً إلا أحسنت الخروج منه، قال: لست بداهية، أما أنا والله مادخلت مدخلاً أحتاج أن أخرج منه.

أحياناً تسمع على الهاتف كلام السلام عليكم فلان يتكلم، يبدأ بالسلام، علموا أولادكم وأهلكم الانضباط على الهاتف.

((فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (32))

(سورة الأحزاب)

عندنا بند آخر: قصة قرأتها في موقع معلوماتي مدرسة محترمة جداً في نهاية العام الدراسي طلبت منها بعض تلميذاتها صورة تذكارية مدرسة موجهة محافظة موجهة توجيه ديني في بلد إسلامي في

الحجاز الصورة طبع منها عدد بعدد الطالبات، طالبة معها الصورة لها أخ منحرف أخذها منها مسحها على سكنر ودخلها بموقع في برنامج للصور يغير كل شيء فجعل رأسها على جسم آخر من دون ثياب، وعرضها بالإنترنت.

جاءوا الطالبات في اليوم الثاني هل رأيتم المعلمة ! ؟ كادت تموت من صورة أنا أنبهكم هذه صورة تذكارية، الشر تعمم اليوم يا إخوان، لم يعد كقبل، حياتنا أصبحت خلاط ؟ ما يعني خلاط ؟ خلاط الفواكه، عندنا أنينة بقين وقطعة لحم ضاني لكن هناك من وضع لحم خنزير وخمر ودار الخلاط التواصل الإعلامي العالم أصبح قرية صغيرة ثم بيت ثم غرفة الآن والله كل مأساة أطّلع عليها والله تنهد لها الجبال وكلها بسبب مخالفة بسيطة فهذه الصور الحقيقة في برامج للتصوير العقل لا يصدقها، مشهد قد يكون كله غير صحيح لكن بتوقيت خطير جداً وزع بأعلى درجة من النقمة على العالم الغربي، هذه النقمة امتصت بهذا الشريط، ممكن أشخاص رؤوسهم غير أجسامهم، ممكن في تقنية عالية يحرك شفتاه وفق النص، والنص ببرنامج ثاني يأخذ نبرة صاحبه، النص يدخل لبرنامج كمبيوتري يتغير النص يصبح النبرة نبرة الأصلي، فيأتي إنسان يتكلم نص يؤخذ على برنامج يتغير النبرة كنبرة صاحب الصورة ! وتتحرك شفتاه وفق الحروف تجده يلقي كلمة يكاد يخرج الإنسان فيها من جلده، تفضل شريط فيديو، الآن لا يمكن أن يؤخذ في القضاء لا شريط فيديو ولا صورة، لأن التقنية بالصورة بالتقليد والصوت بلغت حد الخيال، فأن يكون التصوير بهذه السهولة هذه أختك أو ابنتك تذكارية يجب أن تنتبه، يكون المر بتشدد كبير وبأيدي أمينة وبطرق مضمونة بالمائة مليون وإلا في مشكلة كبيرة، ولاسيما الشر يتعمم.

أكثر مشكلة تواجه الخطبة توقفت يريدون شريط الفيديو، لن الزوج معه شريط فيه كل أقرباء المخطوبة، حل المشكلة، يعطيهم إياه يكون نسخ نسخة أخرى عنده، والله يوجد مخاطر بحياتنا إذا غير منتبه يروح بها طوبى لمن وسعته السنة ولم تستهوه البدعة.

بشكل عام التصوير خطر انتبهوا، والهاتف خطر، والشاشة خطرة، ودخول الأقارب خطرة، والاختلاط خطر.

في غير بلاد أخطار ثانية السائقين والخدم نحن الحمد لله لا يوجد عندنا هذه نقطة بعيدين عنها، أما السائق والخادمة أحد أكبر أخطار البيوت.

ألا تعرف أبعاد الحديث الشريف:

((سَمِعْتُ عَبْدَاللَّهِ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ))

(صحيح البخاري)

إلا عندما تقرأ هذه القصص، قلت لكم من قبل أن الشيطان حينما يأتي الإنسان يوسوس له بالكفر، إن رآه على إيمان يوسوس له بالشرك، إن رآه على توحيد يوسوس له بالبدع، إن رآه على سنة يوسوس له بالكبائر، إن رآه على طاعة يوسوس له بالصغائر، إن رآه على ورع لم يعد يوجد غير ورقتين رابحتين يوسوس له بالتحريش بين المؤمنين.....

صدقوني أيها الأخوة: ما من مشكلة تنشأ بين المسلمين إلا بسبب تحريش الشيطان بينهما، فإن كان هناك تسامح ووعي وإدراك بقيت معه ورقة أخيرة المباحات، يعتني بالمباحات عناية ينفق وقته كله في تزيين البيت، البيت حاجة أساسية، وكلما تزين البيت أكثر تصبح مغادرته أصعب، فكلما أرى شيء شاطح من باب الدعابة أقول الله يعينكم على الموت والله صعب! مغادرة هذه العناية والترتيبات شيء صعب، فعندما يبالغ الإنسان بالدنيا عنده قلق عميق أنا هل أغادر البيت ؟ هل سأموت قريباً أم بعيداً ؟ ينشأ مشكلة، فإذا كان الشيء بسيط ولاحظ عندما تكون دنيا الإنسان عريضة يصبح جبان ويخاف، أما إذا إنسان حياته خشنة تجد عنده شجاعة وشعور متوازن من هنا قال عليه الصلاة والسلام: اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم، الإنسان إذا ألف بعض الخشونة في الحياة لا يخضع لا لضغط ولا لإغراء ولا يساوم على مبادئه، أما حينما يعيش حياة تفوق حد الخيال وهدد بقطع هذه الحياة....

ما أساليب الأقوياء مع الضعفاء بالعالم ؟ الإنسان أعطوه حياة خيالية، فأي خطأ يرتكبه يهدد بهذه الحياة، هو متمسك بها، من هو الذي يضحي بكل شيء ؟ لا يوجد شيء يخاف عليه أساساً، فالمبالغة في التزيين والأناقة والرفاه هذا يبعدك عن المبادئ الصحيحة، الإمام الغزالي رحمه الله يقول: من ألف حياة عالية ثم هدد بها أمامه إما أن يمالئ السلطان أو أن يأكل الحرام.

إذا اهتم الإنسان بالمباحات اهتمام غير طبيعي فصار عنده مكسب كبير يخاف عليه عنده حالتين إما أن يمالئ السلطان أو أن يأكل الحرام، هذه بعض الأخطار التي يمكن أن تسبب انهداماً للبيوت.

إخواننا الكرام: درهم وقاية خير من قنطار علاج، البطولة أن لا تقع مشكلة، والأقل بطولة إذا وقعت أن تعالجها، لكن من هو العاقل جداً ؟ هو الذي يحيط حياته بأسوار شرعية بحيث لا يحتاج إلى أن يفاجأ بخبر مؤلم، ويوجد أخبار والله تهد لها الجبال وكلها بسبب مخالفة منهج الله عز وجل، ويمكن أن أعقب تعقيباً من نوع عود على بدء: ما من مشكلة في العالم الإسلامي وفي العالم كله إلا بسبب خروج عن منهج الله، وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل، والجهل أعدى أعداء الإنسان ويفعل الجاهل بنفسه مالا يستطيع عدوه أن يفعله به.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (138) :قواعد اجتماعية تسهم في نجاح الحياة الزوجية.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-05-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

بيوت المسلمين ليست كما ينبغي أن تكون:

أيها الإخوة الكرام، موضوع هذا الدرس يتعلق بالحياة الأسرية، فبيوتات المسلمين ليست كما ينبغي أن تكون، أقصد ليست فيها السعادة التي وعد الله بها المؤمنين، وليس بين الزوجين تلك المودة والرحمة التي وردت في نص القرآن الكريم، ولا بين الزوجين المسلمين ما نقل إلينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كان بينه وبين زوجاته من الودّ الطيب.
أول نقطة: حينما تصلح العلاقة الزوجية، ويكون البيت عشاً هادئاً سعيداً هذا ينعكس على الأولاد والعمل والزوجة، والذي يقطف ثمار هذا الود الذي وصفه الله عز وجل في القرآن الكريم:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم)

سبب اختيار الموضوع:

لعلكم تسألون: ما المنطلق الذي أنطلق به في هذا الدرس ؟ شكاوى عبر الهاتف، وعبر لقاءات شخصية لا تعد ولا تحصى، من أن هذا البيت مع أن الزوج ينتمي إلى مسجد، وهو من طلاب العلم، ومحسوب على المسلمين المؤمنين، ومع أن الزوجة تخاف الله عز وجل، ومع أن هوية الزوجين هوية إيمانية، لكن لا تجد بينهما هذه المودة التي ذكرها الله في القرآن الكريم، لو أردنا أن نطبق قوانين الود العامة قال تعالى:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة المائدة)

مادام هناك تقصير في طاعة الله عز وجل فالناتج الطبيعي لهذا التقصير عدم الود بين الزوجين، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام في أكثر من حديث الشريف كما ورد في الأثر عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول:

((... والذي نفسي بيده ما تواد اثنان فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما))

[أحمد بسند صحيح]

لو تصورنا أن مؤمنين أخوين زوجين كلاهما على طاعة الله، وملتزمان أمام الله، ومطبقان لكتاب الله والسنة، نظرياً أصولياً قاعدياً مستحيل أن ينشأ بينهما خلاف ! إلا ما كان طفيفاً جداً في وجهات النظر، لكن هذا يدوم ساعة، أما الاختلاف العميق الذي نراه في البيوت فها هو الخطر.

واللهِ من كثرة ما يأتيني عبر الهاتف، ولقاءات شخصية من شكاوى من الزوجات أو من الأولاد هذا الذي حملني أن أخصص هذا الدرس للسعادة الزوجية.

ما الذي يحصل ؟ حينما كان في الخطبة كانت جنته وناره، يتصل بها، ويتكلم معها ساعات طويلة، ما باله بعد الزواج ؟ تفتر هذه العلاقة شيئاً فشيئاً إلى أن ينصرف كل واحد منهما عن الآخر، وقد لا يحتمل أحدهما أن يجلس مع الآخر، ما الذي حصل ؟

الحقيقة أن البارحة زارني أخ دعاني لحضور عقد قرانه، قال لي: انصحني، قلت: واللهِ النصيحة معقدة، لن تسعد بزواجك إلا إذا سعدتَ أنت بالله، إلا إذا عرفته، وأطعته، واتصلت به، وسعدت بقربه.

الآن إذا أخذت بيدها إلى الله، فعرفت ربها، وأطاعته، وسعدت بقربه الآن تسعدك، لأنها تترقب إلى الله بإسعادك، وأنت تتقرب إلى الله بإسعادها، لأنك تخشى الله أن تظلمها ، ولأنها تخشى الله أن تظلمك.

تصور زوجين كل منهما يخشى الآخر أن يظلم الطرف الآخر، وكل منهما يتقرب إلى الله بإسعاد الطرف الآخر، ما هذا الزواج ؟ لماذا هناك ثغرة ؟ في بداية الزواج شعلة، ثم تخبو شيئاً فشيئاً، ثم تنطفئ ؟ أليس من الممكن أن تستمر هذه الشعلة ؟ أنا الذي يصل إلى سمعي أن أسراً قليلة جداً بينهما ود وتراحم مستمر.

قواعد شرعية تسهم في السعادة الزوجية:

1 – تطبيق الزوجين لمنهج الله:

أيها الإخوة، أبدأ بالنواحي الشرعية، كلما طبق الإنسان منهج الله عز وجل في شأن زواجه، وفي شأن علاقته بزوجته كان الود أكثر، فتوجيهات النبي عليه الصلاة والسلام واضحة.

مثلاً قال للمرأة:

((انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته يعدل الجهاد))

(الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام جلال الدين السيوطي)

تصور الجهاد وهو ذروة سنام الإسلام، أعلى درجة في الإسلام أن تكون مجاهداً، وهذه المرأة التي تحسن رعاية زوجها، وأولادها هي في مرتبة المجاهد في سبيل الله، لكن بالتعبير الدارج لا يوجد امرأة تأخذ بهذا الكلام، لكن هذا كلام سيد الأنام، كلام حبيب الله، كلام سيد الخلق، وحبيب الحق، ومع ذلك هناك تقصير، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أكرموا النساء، فو الله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، ويغلبهن لئيم، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً))

(ورد في الأثر)

2 – المعاشرة بالمعروف:

لو قرأت القرآن الكريم:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

(سورة النساء)

ليست المعاشرة بالمعروف كما قال بعض المفسرين أن تمتنع عن إيقاع الأذى بها، بل أن تحتمل الأذى منها، هذه المعاشرة بالمعروف، امرأة اشتكت لي زوجها القاسي قلت لها: صديقة النساء آسيا امرأة فرعون جعلها الله تحت طاغية جبار كافر، بل من أكفر كفار الأرض لماذا ؟ لتكون قدوة لأية زوجة شاءت حكمة الله أن يكون زوجها قاسيًا أو ظالمًا، لأن لديها أولادًا فعليها أن تصبر، فلو قرأت القرآن الكريم لوجدت فيه من القصص ومن العبر ما لا ينتهي مثلاً:

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

(سورة البقرة)

أحياناً يسخر الإنسان من أهل زوجته، فإذا تكلمت امرأته كلمة في حق أهله أقام الدنيا، ولم يقعدها، لما هذا التميز ؟ كما أن أهلك تدافع عنهم، وتلتمس توقيرهم واحترامهم هي كذلك، فهذا المفهوم من بعض أحاديث رسول الله: أن عاملوا الناس كما تحب أن يعاملوك، هذا مقياس من أروع المقاييس، الشيء الذي يزعجك من زوجتك ينبغي ألا تفعله مع أهلها، الشيء الذي تأخذه عليها ينبغي ألا تفعله معها، هذه مقدمة.

طبعاً طاعة الله، الاتصال بالله أن يمتلئ القلب رحمة بالزوجة، هذا كله أسباب شرعية كافية لدوام الحب بين الزوجين.

قواعد اجتماعية تسهم في السعادة الزوجية:

لكن هناك توجيهات اجتماعية نفسية إن صح التعبير لو طبقناها لقطفنا ثماراً يانعة من العلاقة الزوجية، أنا سأشرح بعضها.

1 – السلام عند دخول البيت وتفقد الزوجة:

فمثلاً: عند عودتك إلى المنزل وهذه نصيحة، إنْ كان الزوج في عمله عند عودته إلى المنزل ابحث عن الزوجة، وسلم عليها بطريقة أو بأخرى، هناك مَن يدخل إلى البيت لشأن من شؤونه، وينسى أن في البيت زوجة، بعد حين تكتشف أنه في البيت ! هذه نصيحة لا تكلف شيئًا، لمجرد أن تدخل إلى البيت ابحث عنها، وسلم عليها، هي مركز ثقل في البيت، هي الأولى في البيت، أنت إذا دخلت لتقابل إنسانًا مهمًّا لا تهتم بالأثاث، تهتم أن تنظر إليه، وأن تسلم عليه بادئ ذي بدء، فحينما تعود إلى البيت، ويكون أول عمل لك أن تبحث عنها في البيت، وتسلم عليها بطريقة أو بأخرى، فهذه نقطة بسيطة جداً لكن لها معنى كبير.

أحياناً يقول الإنسان: لا تؤاخذني، كلمة قالها، لكن لها معنى كبير، إنسان يقول: أخطأت في حقك، سامحني، تنسيك كل الغضب، كل غضبك يتلاشى بكلمة واحدة، كلمة الحق مسعدة.

((إن الرجل ليتكلم الكلمة لا يرى بها بأسا يهوي بها سبعين خريفا في النار))

(الترمذي)

لا يلقي لها بالأ، لو أن الرجل يتكلم بكلمة طيبة يعلو بها إلى أعلى عليين، فلو قال لك أحد: هذا الفتور الذي بيني وبين أهلي، هذا الجفاء والانصراف كل منهما ينصرف عن الآخر، ما علاجه ؟ أنا أؤكد لكم أن سعادة كل واحد فيكم ببيته لها أثر كبير جداً في عمله، ولها أثر كبير عندها وعند الأولاد، هناك أولاد ينشؤون نشأة كاملة، أو نشأة صحيحة، أحد أكبر أسبابها حسن العلاقة بين الأب والأم، أما الأولاد إذا نشؤوا على خصام مستمر بين الأب والأم فلهم مستقبل لا يرضي أحدًا، مآله إلى التمزق، هذا أبوهم، وهذه أمهم، وخلافات مستمرة بينهما.

فأول ملاحظة: عند عودتك إلى البيت ابحث عنها أولاً، وسلم عليها، إشعاراً لها أنها أثمن ما في البيت، وأنها مركز الثقل في البيت.

2 – التماس العذر:

كما قلت قبل قليل: في أيام الخطبة قد تزيد المكالمة عن ست ساعات، لكن بعد حين لا ينطق في البيت بكلمة ! متعب، لكن ليس كل شيء ينبغي أن يكون مزاجياً، أحياناً المرأة لا تقدر عمل الزوج، يكون عمله شاقا، وفيه متاعب، وعقبات، وضغوط، وعليه دفع كثير، والدخل قليل، وهناك مشكلة في محله التجاري، وقضية مع التموين، وقضية مع الاستيراد، مثلاً، هو موظف، قضية مع موظف فوقه، عليه تضييق، فأحياناً يأتي الزوج مثقلا بالهموم، هذه الهموم التي أثقلته تحمله على أن يصمت، هي ليس عندها مشكلة، مرتاحة، تجده يكثر الصمت، فتنزعج.

التمس لأخيك عذراً، والزوج أولى أن يلتمَس له عذر، والزوجة أولى أن يلتمس لها عذر، لكن لا مانع، اسألها عن يومها بدقة، ماذا فعلت ؟ من زارك ؟ من اتصل بك ؟ هل هناك مشكلة عانيتِ منها ؟ فرضاً، هل هناك من مشكلة أزعجتك ؟ فالسؤال عن أحوال الشخص دليل مودة.

أحياناً تلتقي بإنسان فتقول له: كيف الصحة ؟ يقول: الحمد لله، العمل جيد ؟ الحمد لله، الأهل والأولاد بخير ؟ ابنك نجح ؟ ابنك الذي تزوج كيف حالته الزوجية ؟ هذه الأسئلة تجعل مودة كبيرة بينك وبين الشخص، معنى هذا أنك مهتم به كثيراً، بزوجته، بأولاده، بمستقبل أولاده، بزواج أولاده، بعمله التجاري، فحينما تكثر من السؤال مع الطرف الآخر هذا يمتّن العلاقة بينك وبينه، والزوجة في هذا أولى، فلو أنك دخلت إلى البيت، وبدأت دخولك بالسلام عليها، ثم ثنيت بسؤالها عن أحوالها، وعما جرى معها في اليوم، هذا أيضاً من باب المودة.

3 – الإنصات إلى الزوجة:

الحقيقة أن هذا الكلام أوجهه لكم ولنفسي، لست أنا مطبقاً له كله، حتى أكون معكم دقيقًا، حاول أن تنصت لها كثيراً، الإنصات أدب، أحياناً تحدثه زوجته وهو يقرأ الجريدة، أو يتابع على الكومبيوتر، أو يفتح كتاباً، ثم تملّ، من أصول المناقشة أن يصغي لها عندما تتحدث معه، هذه أيضاً تمتن العلاقة بين الزوجين، أن تحسن الإصغاء إليها، وأن تنظر إليها، وأن تدع ما بيدك، فحاول أن تنصت إليها وأن تسألها.

طبعاً هذا الدرس مجموعة قواعد بسيطة جداً لا تكلف شيئاً، لكن يمكن أن تسهم مادام ليس هناك أشياء كبيرة، مادام الزوجان مؤمنين طاهرين عفيفين مستقيمين ملتزمين، هذا الحديث لخاصة الخاصة، لزوجين يعرفان الله، ويخافانه، ويحبانه، ويسعيان لطاعته، فقد ينقضهما بعض الأشياء اللطيفة، النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال له بعض أصحابه:

((أن رجلاً كان عندَ النبيّ صلى اللّه عليه وسلم، فمرّ رجلٌ فقال: يا رسول اللّه، إني لأحبُّ هذا، فقال له النبيّ صلى اللّه عليه وسلم: هل أعْلَمْتَهُ ؟ قال: لا، قال: أعْلِمْهُ، فلحقه فقال: إني أحبك في اللّه، قال: أحبَّك الذي أحببتني له))

(الأذكار النووية للإمام النووي)

4 – التصريح بالحب والمودة:

فإذا كنت مقدّرًا شخصًا لمَ لا تعبر عن تقديرك ؟ إن كنت تحب شخصاً لمَ لا تعبر عن حبك ؟ ما الذي يمنعك ؟ ما الذي يمنعك أن تقول لها: إنني أحبك ؟ كانت السيدة عائشة تسأله: كيف حبك لي، ومتأكدة أنه يحبها، لكن ما مستوى محبته لها ؟ كيف حبك لي: قال:

((كعقدة الحبل، قالت: فكنت أقول له: كيف العقدة، فيقول: على حالها))

(تذكرة الموضوعات)

كان النبي الكريم زوجًا ناجحًا من الطراز الأول، وقد تسأل: هل من المعقول أن ينجح إنسان في بيته، وهو يقود أكبر دعوة إلى الله ؟ يمكن، نحن من تقصيرنا إذا نجح أحدنا خارج البيت يخطئ داخل البيت، وقد تجد إنسانًا ناجح جداً داخل البيت وليس له عمل خارج البيت، من السهل جداً أنْ تنجح بأحد الحقلين، لكن النبي الكريم نجح في كل الحقول، نبي مرسل يقود دعوة إلى الله، حارب قريش ثلاث حروب، يدير أمة، وفي بيته يقال له: كيف حبك لي ؟ يقول: كعقدة الحبل، وتسأله من حين لآخر: كيف العقدة ؟ يقول: على حالها.

إذاً قل لها: إنني أحبك، وأنت أغلى إنسان في حياتي، وقد أكرمني الله بك، وسعدت بقربك، لاحظ أنك لطيف جداً مع الآخرين، يأتي الضيف فترحب به أحلى ترحيب، تتواضع له، وتبش له، وتبتسم له، وتحلف عليه أن يأكل، ويرتاح، فإذا دخلت إليها لا تجد منك هذه المودة فتتألم، وهي أولى بمودتك، وأنا أحاول في هذا الدرس أشياء بسيطة جداً.

أقول مرة ثانية: إذا وجدت مخالفات شرعية كبيرة مهما طبقت من هذه النصائح فلن تجدي، إذا وجدت مخالفات شرعية كبيرة وتقصير في طاعة الله وعدم التزام، عين شاردة، أو متابعة لأعمال سخيفة على الشاشة، كل هذا خيانة زوجية، وأعمال منحطة، إذا وجد اهتمام بهذا الشأن الذي لا يرضي الله فهناك مشكلة لا تحل، وحينما تكون التغذية إسلامية فأنت قدوتك النبي الكريم، وأصحابه الكرام.

رجل تزوج امرأة بأمريكا، وهو يجلس معها، فذهبت، ولبست ثيابها، فسألها: إلى أين ؟ قالت: عندي موعد مع صديقي ! شيء طبيعي جداً، لم يتحمل، صبر في اليوم الثاني موعد ثانٍ، اليوم الثالث موعد ثالث، اليوم الرابع له فجلس معها ! هي تمشي بالعدل، فطلقها، تزوج امرأة مسلمة صالحة، وهي نائمة

يقول: الله يحفظ لي، أنت كلك لي، حتى لا يطمعها، عندما جلس مع الأمريكية وجدها من الطراز الأول.

المخالفات الشرعية مانعة من الوفاق الزوجي:

إذا كان هناك مخالفات شرعية فلا تجد الود ولا المحبة، وأنا أقول دائماً في عقود القران: ما من زواج يبنى على طاعة الله ولو افتقر إلى معظم مقومات نجاحه إلا ويتولى الله التوفيق بين الزوجين، وما من زواج يبنى على معصية الله ولو توافرت له كل أسباب نجاحه إلا ويتولى الشيطان التفريق بينهما، عرس كلّف ملايين بفندق، وهي على المائدة قال لها: أنت طالق، طالق، طالق، طلقها يوم العرس ! لأن الشيطان يدخل بينهما، أما المؤمنون فالله بينهما، يقولون: فلان شيطاني، وفلان رحماني، الزوج الرحماني رحيم لطيف حكيم، في قلبه شفقة، يخاف الله، والزوجة الرحمانية أيضاً تخاف الله، وتعطف على زوجها، أروع ما في الآية الكريمة:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم)

المودة واضحة، الرحمة ؟ المودة سلوك يعبر به عن الحب، والابتسامة مودة، لكنها منطلقة من محبة في القلب، والهدية مودة، أما الرحمة فقد تنقطع أسباب المنفعة بين الزوجين، كزوج مريض تخدمه زوجته سنوات طويلة، قد تمرض الزوجة فلا ينتفع بها كزوجة إطلاقاً، لكن يحفظ عهدها، ويرعى شأنها إلى أمد طويل، فهذا الزواج هو مبني على المودة والرحمة معاً، أو على كليهما، أما إذا فقَد أحدهما كان الآخر، لو فقدت المودة كانت الرحمة، لذلك قالوا: زوّج ابنتك للمؤمن، إن أحبها أكرمها، فرضاً ـ لا سمح الله ولا قدر ـ وإن لم يحبها لم يظلمها، كلمة: إنني أحبك، أنت أغلى مَن في حياتي، أكرمني الله بك، مَن أنا لولاك ؟ فرضاً، هذا كلام طيب، هو واقعي، الإنسان مفتقر لزوجة شئت أم أبيت، إذا سافرت زوجته لأمرٍ قاهر، أو سافر هو يعرف قيمتها تماماً في كل شيء.

5 – شكر الزوجة عمل زوجها وشكر الزوج عمل زوجته:

ملاحظة أخرى، اشكر لها عندما تؤدي عملاً، الطبخ طيب معتنى به جداً، ينبغي أن تذكر ذلك.

(وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ)

(سورة البقرة)

البيت نظافته درجة أولى، شيء يلفت النظر، ينبغي أن تذكر هذا، البيت مرتب، وفي الحديث الشريف رواية:

((إن نظرت سرتك))

وليس إليها، والمقصود إذا نظرت إلى المطبخ سرتك، إن نظرت إلى غرفة النوم سرتك مرتبة، إن نظرت إلى أولادك ثيابهم نظيفة سرتك، إن نظرت لمائدتك سرتك، هناك تنظيم على المائدة، إن نظرت إليها سرتك، أو إن نظرت سرتك، اشكرها حينما تؤدي عملاً طيباً، إن دخلنا البيت نبحث عنها، ونسلم عليها أولاً، وإن تكلمت نصغ إليها، وإن لم تتكلم نسألها عن شؤونها وأحوالها، وإن أبدت عملاً طيباً نشكرها على عملها، ومن حين لآخر عليك أن تقول: إنك تحبها، مرتين في اليوم، وليس بالسنة مرة، نصيحة بعض علماء النفس مرة في اليوم، ذكرها بفضلها.

مرة زارني أخ يزمع أن يطلق زوجته، فأنا في الحقيقة استدرجته، وقلت له: هل تخونك ؟ قال: أعوذ بالله ! ما هذا الكلام ؟ ! ارتعب من أعماقه، هل هي قذرة ؟ قال: لا والله، إنها نظيفة يا أستاذ، أريد أن أستدرجه ليذكر ميزاتها دون أن يشعر، تخونك ؟ أعوذ بالله، عفيفة جداً طاهرة، قذرة ؟ لا والله نظيفة جداً، طبخها ممتاز، فهو خجل، وجد أنه ذكر عن عفتها، وعن نظافتها، فذهب.

والله مرة شهد الله، وأنا أعدها من آيات الله الدالة على عظمته في درس من دروس الفجر، كالعادة أعطي من رياض الصالحين، أفتح الكتاب لا على التعيين، بالعادة أمشي بالتسلسل، أحد الأيام لا أدري ما السبب فتحته لا على التعيين، جاء الموضوع عن الزواج، أنا شعرت نفسي أن هناك مددًا إلهيًا عجيبًا، معاني دقيقة جداً بشكل رائع، درس بالتعبير العامي غير عادي، أنا لا أعرف ما الذي حدث، أولاً: اخترت حديثًا اختيارًا عشوائيًّا، وكان الشرح عميقًا جداً، يبدو أن هناك عاطفة صادقة، خرجت من الجامع، فوجدت رجلا يقف، فضمني وقبّلني، قال: أنا اليوم كنت سأطلق زوجتي، وعلى إثر الدرس ألغيت الطلاق ! فالله عز وجل ألهمني، أنا شعرت بمدد عجيب من الله عز وجل، معاني دقيقة، وعاطفة صادقة، وشرح دقيق، فلما خرجت عرفت السبب، كان هناك رجل على وشك أن يطلق زوجته، فهذا الدرس منعه من طلاقها.

عندما تعد المرأة الطعام امدح طهوها، أيضاً هذه ملاحظة، القمصان كلها مكوية ونظيفة، والمطبخ درجة أولى، البيت مرتب، والأولاد مرتبون، ونائمون في وقت معين، يكتبون وظائفهم، وتابعتهم، يجب أن تمدح عملها، ثم إذا قدمت لك طعاماً طيباً ينبغي أن تمدح طعامها.

6 – تزين المرأة لزوجها:

الآن أكثر الأزواج يشكون أن زوجته لا تتزين له، تهتم بزيارة أو باستقبال، أو بشيء، لكن لو تزينت لك هل تذكر ذلك أنت ؟ ولا كلمة، أحياناً تتزين، تتجمل، تعتني، ترتدي ثيابًا جديدة، تزين وجهها، ولا

كأنه يوجد شيء، فعلى الإنسان أن يكون منتبهاً، هناك اهتمام بالمظهر، ينبغي أن تثني على اهتمامها بمظهرها، هذا تشجيع لها، وأنا أرى في هذه الأيام بالذات اهتمام الزوجة بمظهرها وقوامها وثيابها جزءًا كبيرًا من عبادتها، لأنها بهذا تحصن زوجها، أما إذا أهملت، ولبست لباس المطبخ، بها روائح الأكل، وشعرها مضطرب بقوة، هي زوجة مخلصة، لكن لم تعد زوجة تسعد زوجها أو تحصنه من أن ينتظر لغيرها، فعناية الزوجة بمظهرها وأناقتها وقوامها، أقول قوامها لأنه أحياناً لا يكون عناية بالقوام أصبح مشكلة كبيرة، إهمال لقوامها لم تعد مقبولة عنده، تجده يبحث عن غيرها، هذا الإنسان غير الملتزم يبحث عن وسائل متعة أخرى ينصرف عنها، فعناية المرأة بمظهرها وقوامها وأشيائها التي تحببها لزوجها جزء من دينها، بل إن الصحابيات الجليلات كن يستأذن أزواجهن قبل النوم: ألك بي حاجة ؟ إن كان له بها حاجة فأداء حاجته فوق كل عباداتها ! إن قال: لا، تنصرف إلى قيام الليل.

هناك نقطة دقيقة، البيت غير المرتب مزعج جداً، وهناك أزواج قد يكون عندهم أشغال فوق التصور، لكن أي شيء يخلعونه يدعونه في مكانه، فالبيت مضطرب، لا يكفيها الوقت لتهتم بتنظيم البيت كله، تجد في البيت فوضى، يقول هنا: دع أشياءك في مكانها الصحيح، ولا تنتظر أن تقوم هي بذلك، إذا وضع إنسان حاجاته في أماكنها خفف عبئًا كبيرًا عن الزوجة، أما أربعة أولاد، وأبوهم، والكل يسبب الفوضى، وهي لا تستطيع تنظيم ذلك لعدم كفاية الوقت ! يكون رد الفعل إهمالا شديدًا، تجد البيت مخيفًا.

والله دخلت بيتًا غير معقول أبداً، الحذاء على الطاولة، رأيت شيئًا لا يصدق، سبعة أولاد لم يربوا تربية جيدة، والأب مهمل معهم، والزوجة ملّت، فهذه مشكلة، لكن دع أشياءك في مكانها الصحيح، ولا تنتظر أن تقوم هي بذلك، إذا وضع كل إنسان حاجاته في أماكنها خفف عبئًا كبيرًا عن الزوجة.

7 – مساعدة الزوجة في حال التعب والمرض:

ملاحظة أخرى، إذا بدت يوماً متعبة أو مشغولة فاعرض عليها مساعدتك بتأدية بعض الأعمال، أحياناً ترتيب غرفة، إعداد العشاء مثلاً، والحقيقة أن هناك تقصيرًا من الأزواج جميعاً، أما لو أنك من حين لآخر ساعدتها ببعض الأعمال فهذا شيء لا ينسى، وكان عليه الصلاة والسلام في خدمة أهله، أحياناً يكون في البيت أماكن تحتاج ليد قوية، وجهد كبير، فإن قمت في بعض الأحيان بمساعدتها في البيت فهذا يعمق المودة بينكما.

8 – مصاحبة الزوجة إلى نزهة شرعية:

أخرجها للتنزه معك ولو لوقت قصير من حين لآخر، الرجل يخرج من البيت، يتنشط، يلتقي بأصدقاء، يركب سيارة، يدخل معملا، أو متجرًا، عنده احتكاك، هي في البيت جالسة، أول يوم، ثاني يوم، سابع يوم، أول جمعة، ثاني جمعة، ثالث جمعة، ثم تنفجر، هي روح أيضاً، فأحياناً النزهة المتواضعة ـ أنا لا أقول: نزهة غالية جداً ـ في أيام الزهر خذها إلى الغوطة فرضاً، أو تأكلون خارج البيت، هذه النزهة من حين لآخر تعطي قوة دفع في الأسرة كبيرة جداً، والآن في ضغوط الحياة الشديدة جداً أنا أعرف إخوانًا كثيرين موضوع نزهة لا يدخل في حساباتهم إطلاقاً كل حياتهم، في البيت زوجة، في هذا البيت، في الغرفة، في المطبخ، أول سنة، ثاني سنة، ثالث سنة، رابع سنة، ثم تضجر، وقد قيل: روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلّت عميت، فالأولاد والمرأة يتنشطون، أنا أقول: نزهة إسلامية، لا يوجد فيها اختلاط، أو غناء أو مطاعم، بمكان طبيعي جميل بعيد عن الناس، معك أكلك، ولو كان مكانًا قريبًا.

والله مرة أخ من إخواننا قال: زوجتي تضجر كثيراً، ولا تريد أن تبقى معي، وتحب أن تجلس مع إخوتي، شيء لا يصدق، لم تكن هكذا، فسألته، قال: من أربع سنوات لم أصحبها إلى نزهة ! فنصحته أن يأخذها إلى نزهة طويلة، وإلى مكان بعيد، فحلّت المشكلة نهائياً، إذاً هناك حاجة للتنزه أحياناً، وفي هذه الأيام ضغوط العمل، بيوت غير صحية، بيت طابق مثل العلبة، حلت فيه ضجر.

والله أعرف أشخاصًا يقولون: تناولنا العشاء بالجبل، هناك أماكن بعيدة نائية لا ازدحام فيها، كلها ربع ساعة مثلاً يمكن أن تأتي نوعًا من النشاط، النزهة جزء من حياة الأسرة السعيدة، أنا ما أدعوك أن تتكلف، بل بأقلّ حد ممكن.

هناك كثير من الأزواج، وهو في عمله يخبر زوجته مرة أو مرتين، هل من شيء غير طبيعي ؟ يلزمك شيء، تريدين شيئًا ؟ ماذا تفعلين ؟ فرضاً، هذه تسبب ودًا كبيرًا، وأنت في عملك لا تنسَ زوجتك، اتصل بها من حين لآخر لتسألها عن أحوالها، أو لتشاركها شيئاً ما.

9– إخبار الزوج زوجتَه عن تأخره:

إذا كنت ستتأخر فاتصل بها لتخبرها، والله هناك كبير يمكن أن يكون عندك موعد عشاء سيمتد إلى الواحدة، وهي تنتظر، لم تأكل بعد، هذا شيء يحطم الأعصاب، إذا اتصلت أنك متأخر، وكان الأمر طاهرًا فهذا شيء، وإن كانت أشياء طفيفة جداً.

أنا بدأت بالدرس أن الأمور الكبيرة مطبقة، زوجان مؤمنان ملتزمان يحبان الله عز وجل يطيعانه، أما في الأمور الصغيرة فهناك تقصير، العلاقة تفتر .

10 – سؤال الزوج زوجته قبل خروجه من البيت:

قبل أن تخرج من البيت قل لها: هل تريدين شيئاً تأتيها به ؟ أيضاً هذا كلام لطيف.

11 – منح الزوج زوجته عشرين دقيقة للانتباه الكامل:

امنحها عشرين دقيقة من وقتك تنتبه إليها بكليتك من دون أن تكون على عجلة من أمرك، ولو باليوم عشرون دقيقة تنتبه لحديثها، دون أن تكون مشغولاً بشيء، هذا مما يمتن العلاقة بينك وبينها.

12 – تقبل عذرها:

تقبّل بهدوء تأخرها عن الاستعداد للخروج، قد تتأخر في نزهة، تبدأ بمشكلة، كلام قاس، النزهة كلها تعطلت، فالإنسان بقدر الإمكان يطبق هذه التعليمات.

13 – التعاطف معها عند الشعور بالضيق:

أيضاً تعاطف مع مشاعرها عندما تشعر بالضيق، كلمة: والله معك حق حسنة.

مرة أحد القضاة جاءه متخاصمان، فأول خصم حكى كلامًا مقنعًا، قال: والله معك حق، تكلم الآخر وقال له: معك حق، وكانت زوجته تجلس خلف الستار، فقالت له: ما هذا الحكم يا فلان ؟ قال: والله معك حق**!**

أحياناً هي معها حق، وأنت معك حق، هي مرهقة جداً تجلس وأنت جئت محطماً، الحياة صعبة جداً، الآن الذي يستطيع أن يؤمن مصروفه ليس قضية سهلة، المتطلبات كبيرة جداً، والأعمال غير ميسورة، وفرص عمل غير موجودة، والنفقات كبيرة، فالزوج معه حق أحياناً وهي معها حق، فإذا عبرت عن ألمها فتعاطفْ معها، وشاركها آلامها.

13 – المفاجأة بالهدية:

أيضاً فاجئها بهدية صغيرة من وقت لآخر، ليست العبرة بقيمة الهدية ولكن بمعناها بهدية صغيرة من وقت لآخر باقة ورد شيء بسيط من حاجاتها كهدية.

إن كانت مريضة فاسألها عن حالها وتطور مرضها، وذكرها بموعد الدواء هذا اهتمام كبير بها، وإذا جرحت مشاعرها فاعتذر لها، والاعتذار مناسب جداً، أنني أخطأت وسامحيني، إذا ذكرت كلمة قاسية وجرحت بها مشاعرها فاعتذر.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يكون في بعض القواعد التي شرحتها لكم عوناً على أن تكون المودة والرحمة بين الزوجين.

القاعدة العامة في التعامل بين الزوجين:

والقاعدة العامة أيها الإخوة، يجب على الزوج أن يخطو نصف الطريق، والزوجة نصف الطريق، لكن لا يوجد إنسان مهمل مقصر سيئ، وينتظر من الطرف الآخر أن يأتي إليه، هذه مشكلة المشاكل، خطوة منك وخطوة منها تلتقيان في وسط الطريق، أما إذا لم تقدم شيئًا، وتنتظر منها كل شيء فهذا مستحيل، لا تقدمِين شيئاً، وتنتظرين منه كل شيء، هذا غير صحيح.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا الدرس سبب في إشاعة المودة والرحمة بين الزوجين، وأنا والله مثلكم أستمع لهذه النصائح، وسأطبقها إن شاء الله، لعلي أنا أيضاً مقصر، والإنسان في بيته يأخذ حريته أحياناً، لكن هذه لها مضاعفات غير جيدة، والحمد لله رب العالمين.

سؤال:

تقول زوجة: إنها تطبق تسعين بالمئة مما تقول يا سيدي، ولكنني مللت الكلام، أريد أن تؤكد حبك لي بأن تشتري لي، وتأخذني إلى النزهات، غير أنني من ذوي الدخل المحدود، فما العمل ؟

نصيحة لسائل:

والله أن تصبر امرأة على دخل زوجها المحدود هذه مجاهدة في سبيل الله، الصحابية كانت تقول: اتق الله فينا، نصبر على الجوع، ولا نصبر على الحرام، وكم من امرأة ضغطت على زوجها فأكل المال الحرام.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ)

(سورة التغابن)

إذا ضغطت المرأة على زوجها ضغطاً يومياً من أجل أن يلبي حاجاتها حتى أكل الحرام كانت أكبر عدوة له، لأنها سبب دخوله النار.

لذلك الشرع وضع حدًا قاسمًا، أطعمها مما تأكل، وألبسها مما تلبس، أنت مؤاخذ ألف مرة حين تتغدى بمطاعم، شبعان، والبيت لا شيء فيه، أنت آثم والله.

والله أعرف أناسًا ما أكلوا أكلة في مطعم، أو بدعوة إلا جاءوا بمثلها إلى البيت، يأكل المؤمن بشهوة أهله، بيت المسلم كل الأكل بالبيت، قد يدعى الإنسان لطعام نفيس، يشتهي أهله بهذا الطعام، يصنعه لهم في اليوم التالي، هذا المؤمن، أطعمها مما تأكل، لكن هناك أناس كثيرون يأكلون مما يشتهون مع أصدقائهم، والبيت لا شيء فيه، هذا شيء خلاف الشرع، أما أطعمها مما تأكل، وألبسها مما تلبس.

سؤال ثان:

هل صحيح أنه لا يجب على المرأة غسل أغراض زوجها ؟

جواب:

والله هذا الكلام لا أصل له في الدين، السيدة فاطمة شكت لأبيها تعبها من خدمة البيت، فماذا قال لها ؟ هل قال لها: لا يحق عليك أن تخدمي علياً ! لا، لأن الزواج مشاركة.

قال تلك المرأة: إن زوجي تزوجني، وأنا شابة ذات أهل ومال، فلما كبرت سني، ونثر بطني، وتفرق أهلي، وذهب بالي قال: أنت علي كظهر أمي، ولي منه أولاد، إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا، هو يأتي بالشراب والطعام والرزق، وأنا أخدم في البيت، هذا شيء طبيعي.

كلام اسمعه من حين لآخر، أن الزوجة غير مكلفة إطلاقاً، لا تنظف، ولا تغسل، ولا تكوي، ولا تطبخ، مهمتها فقط للفراش، هذا كلام غير واقعي، ولم يفعله الصحابة إطلاقاً، والنبي لم يوجه هذا التوجيه، لماذا ليس في عقد الزواج أن عليها أن تطبخ، وتغسل، أصبح عقد خدمة ! صوناً لكرامتها ومكانتها ولأصالتها لا يمكن أن يكتب في عقد الزواج الخدمة، هذا عقد مقدس، عقد شريكين أقدس عقد في الحياة، لكن ما عليه أصحاب النبي أن الزوجة تخدم زوجها في البيت، وهو يأتي بالرزق، أما أنها ليست مكلفة بشيء فهذا كلام لا أصل له، وفيه مبالغة وتطرف في طرحه.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (139) :التوازن بالواجبات والقيادة للرجل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-05-12

بسم الله الرحمن الرحيم

مراعاة حاجة الناس إلى موضوعات معينة، ووجوب اهتمام الناس بالدروس:

وبعد ؛ أيها الإخوة، يمكن أن يعالج المتكلم موضوع بعيداً بُعد الأرض عن السماء عن اهتمام الناس، وهو بهذا لا يؤثر فيهم، وقد حدثني أخ كريم أن درساً ألقي في جامع، والدنيا تحترق، والحديث عن كسر همزة إن أو فتحها ! فالإنسان إذا تجاهل حاجات الناس واهتماماتهم لا يستطيع أن يؤثر فيهم.

وجوب استحضار القلب في أثناء الدرس:

كما أن هناك أناساً يجلسون في درس هم بعيدون عن محتوى الدرس.

حدثني أخ توفي ـ رحمه الله تعالى ـ كان يلقي درساً، ويتحدث عن فساد الزمان، ومن جملة ما تكلم أن فتاة تأتي البيت الساعة الثانية عشرة، وحينما تُسأل: أين كنت ؟ تقول: عند الحبيب، فقال مَن في المجلس: صلى على الحبيب ! فالمتكلم في وادٍ، والمستمع في وادٍ آخر.

ثمة إمام يصلي فقرأ قوله تعالى:] قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ [فقال المصلون: آمين، هم بعيدون.

آفة التدريس أن ينأى المتكلم بموضوعاته عن اهتمامات الناس، وآفة المستمع أن يكون وجوده شكلياً هو في واد، والمتكلم في واد، وحينما يقول الله عز وجل:

(وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الذاريات)

أي أن الأمر ينبغي أن يتكرر من حين إلى آخر، ولا تعجب أن تجد في القرآن الكريم موضوعات تتكرر كثيراً.

] إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّادِقِينَ [،] إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّادِقِينَ[، وبعض القصص تتكرر كثيراً.

لا بد للإنسان مِن حُسن الاختيار في حياته:

سبب اختيار موضوع هذا الدرس أن ظاهرة كثرت، وكادت أن تكون بلاء عاماً، هذه الظاهرة أن البيت المسلم حينما ينهار من الداخل هذا ينعكس على الحياة العامة، فأنا كنت أقول دائماً: ألصق شيء

في حياة الإنسان عمله وزواجه، فعمله يرتزق به، فالإنسان الموفق يختار عملاً شرعياً، والمؤمن إذا عرف الله في وقت مبكر، وهذه ميزة كبيرة يشكل حياته تشكيلاً إسلامياً، يختار عملاً ينفع به المسلمين، أما هذا الذي ابتلاه الله بعمل ليس فيه نفع للمسلمين فهو دائماً يُعذَّب نفسياً، وهناك آلاف الأعمال لا تنفع المسلمين، بل تفسدهم أحياناً.

يبيع النرد، ماذا يفعل ؟ قد يقضي أناس فيها ساعات وساعات، لا هي ذكرٌ، ولا هي متعة، ولا فائدة، إنما هي تضييع للوقت، فمن ابتلي ببيع النرد فهذا عمل يقلقه دائماً، من ابتلي ببيع ثياب نسائية فاضحة، كلما رأى فتاة ترتدي هذه الثياب يشعر أنه ساهم معها في هذه المعصية.

إذا اختار الإنسان عمله حيث يكون عملاً نافعاً فهذه مِن نعم الله الكبرى، إذا كان العمل وفق منهج الله يبيع الناس مواد مشروعة بشكل معتدل ونافع هذه نعمة كبيرة، وكل واحد له عمل تحت دائرة المعصية فهذه مشكلة كبيرة، الذي أتمناه على كل منا أن يراجع حساباته .

دعونا من موضوع العمل، فالعمل إذا كان مشروعاً في الأصل، تبيع الطعام أو الثياب الشرعية، أو تبيع حاجات أساسية، وهناك خدمات وبضائع وتجارات لا ترضي الله عز وجل، فهذا أحد أسباب الحجاب بينك وبين الله، لكن الدرس ليس حول العمل، بل حول موضوع آخر، حول الأسرة.

لا بد أن تعبد اللهَ فيما أقامك:

حينما يكون اختيار الزوجة غير صحيح تنشأ مشاكل لا تنتهي، فإذا عرف المؤمن الله في وقت مبكر يحسن اختيار زوجته، وكأن الذي يحسن اختيار زوجته يسعد بها، لأنها جاءت متوافقة معه، لكن المشكلة الثانية: أن الإنسان أحياناً مع ألفة الزوجين، ومع ضعف تطبيق منهج الله في أمر الزواج ينشأ فتور في العلاقة، وأحياناً خصومات داخل البيت، هذه تنعكس أشد الانعكاس السلبي على العلاقة بين الزوجين، وعلى تربية الأولاد.

فمثلاً: المرأة التي لا تعرف الله عز وجل تنسى أن مهمتها الأولى إحصان زوجها، وتنسى أن مهمتها الأولى رعاية زوجها وأولادها، وتنسى أن الله أمرها أن تعبده وفق ما أقامها، أقامها امرأة ينبغي أن تعبده في حسن رعايتها لزوجها وأولادها.

والحقيقة الثابتة أنه ينبغي أن تعبد الله فيما أقامك، وكنت أقول دائماً: إذا أقامك عالماً ينبغي أن تعبده في تعليم العلم، وإذا أقامك غنياً تعبده في إنفاق المال، وإن أقامك قوياً تعبده في إحقاق الحق، وإن كنت امرأة ينبغي أن تعبديه في حسن رعاية الزوج والأولاد.

أكثر من قضية أطلع عليها لأحكم بين الزوجين أجد أن هناك خللا كبيرًا في العلاقة بين الزوجين، السبب هو جهل كل منهما بحقوق الطرف الآخر، فإذا كان هذا الجهل مستمراً ينتهي بحدث مؤلم في الأسرة، إما الطلاق، أو التباعد الحقيقي بين الزوجين، وهذا ينعكس على الأولاد.
أقول: هذا المؤمن الذي تربى على موائد القرآن ألا ينبغي أن يعلم بناته حقوق الزوج ؟ أو هذه المرأة التي ربيت على موائد القرآن، وفي بيوت الله عز وجل ألا ينبغي أن تعلم بناتها حقوق الزوج ؟ وهذا الشاب الذي نشأ في طاعة الله ألا ينبغي أن يعرف مهمته في الزواج ؟

مراعاة الزوجين حقوق بعضهما:

أرى أن بيوتات المسلمين حينما تقوم دعائمها من الداخل ينعكس هذا قلقاً وشروداً وضعفاً في الإنتاج في الحياة العامة، فإذا أراد أحد أن يقف على حقوق الزوج وحقوق الزوجة في الإسلام، وأراد أن يطبق هذه الحقوق لاشك أنه يسعد في داخل البيت.
والحقيقة أننا ننتمي إلى الإسلام، وأخاف أن أقول: إنه انتماء شكلي، لكنني أجد أن معظم البيوت الإسلامُ غيرُ مقامٍ فيها.
أحياناً يرتدي إنسان زيًّا إسلاميًا، آية قرآنية في محله التجاري، أو مصحف في مقدمة مركبته، لكنه في التعامل اليومي، وفي العلاقات الزوجية لا تجد هذه الآيات مطبقة في حياته، فدائماً تنشأ مشكلة في البيت، أحد أسبابها جهل الزوجة بحقوق الزوج، وجهل الزوج بحقوق الزوجة، وهذه قضية مقلقة.
إن المرأة بعد وقت معين من الزواج تهتم بأولادها، وبعلاقاتها الاجتماعية، وبزياراتها، هذا كله على حساب حقوق زوجها، فالزوج لا يجد من يهتم به، يجد انصرافاً عنه، وإهمالاً له، وقد أودع الله في الإنسان هذه الغريزة بمستوى عميق وعالٍ، وأيّ تجاهل لهذه الغريزة التي أودعها الله في الإنسان يصرفه عن طاعة الله إلى معصيته، مشكلة أهل الدنيا أنه لا قيد عنده، فإذا انصرف عن زوجته اتجه لغيرها، ومتع بصره بكل ما يرى في الطريق، وكل ما يقرأ، وكل ما يسمع، فيحصل على متعة الحرام، وهو يعصي الله عز وجل، زوجته حينما تكمل واجباتها تجاه زوجها، ولا تحصنه، ولا ترعاه حق الرعاية فهي تسهم معه في هذا الإثم، وكم من أسرة انفصلت لهذا السبب، وكم من زوج وقع في إثم لهذا السبب، وكم من زوج انصرف عن زوجته لهذا السبب.
أيها الإخوة، إن لم تكن بيوتات المسلمين متماسكة وسعيدة شهد الله أن الرجل المؤمن إذا دخل إلى بيته كان في جنة، جنة الود بينه وبين زوجته، أما حينما ينظر إلى غيرها، وتنظر إلى غيره، وتوازن بين هذا الذي على الشاشة وبين زوجها، أو هو يوازن بين هذه التي على الشاشة وبين زوجته ينشأ تنافر

وانصراف، فالموازنة بين ما عندك وبين ما ترى في الطريق مشكلة كبيرة جداً، فإذا لم يكن هناك غض بصر، وانضباط كبير في البيت تنشأ مشكلات، أقلّها التباعد النفسي، وهذا التباعد النفسي له نتائجه الخطيرة في العلاقة بين الزوجين.

أنا أقول دائماً بحكم عملي في الدعوة إلى الله هذا العمل الذي شرفني الله به، أطلع على خبايا بيوتات المسلمين من حيث الشكاوى والاتصالات وحل القضايا والتحكيم، شيء مخيف، فما الذي يمنع أن نتحرك حركة إيجابية، هذه الزوجة ما حقوقها ؟ يجب أن تؤديها لها، وهذا الزوج ما حقوقه يجب أن تؤديها له، أما أنْ تظلم وهي مطمئنة أن أولادها قد كبروا، وأنها في حرز حريز، ومتمكن، وزوجها تهمله، وهذا يقع كثيراً فهذا لا يجوز، ومشكلات بيوت المسلمين حينما تعالج معالجة صحيحة نغدو قوة.

أحياناً أعيش جوًّا من التفاؤل عندما أجد بيتًا متماسكاً، زوج موفق، أولاد تربوا تربية إسلامية، أشعر أن المستقبل كبير للمسلمين، وحينما أرى التفلت والصراع، والخصام والشحناء والبغضاء، والأطفال متمزقون بين أبيهم وأمهم، كل هذا بسبب جهلِ كلِّ واحد بحقوق الآخر.

طبعاً لا يمكن أن أنحاز إلى المرأة، وأهمل واجبات الزوج تجاه المرأة، كما أنه لا يمكن أن أنحاز إلى الزوج وأهمل واجبات الزوجة تجاه زوجها، لابد من التوازن، لكن لو استعرضنا بعض الآيات الكريمة:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

(سورة النساء)

قوامة الرجل على المرأة:

إنّ كل مركبة لابد لها من قائد، إذا تنازع الزوجان في قيادة هذه المركبة هذا أول خطر يهدد الأسرة، وحينما يفهم الزوج أنه في أعلى درجة وزوجته في أدنى درجة، حينما تغدو المسافة كبيرة جداً بين الزوجين هنا المشكلة، قال الله عز وجل:

(وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

(سورة البقرة)

هي درجة القيادة، فالزوجة تدلي برأيها، وقد قال الله عز وجل:

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

(سورة الطلاق)

وفعل ائتمروا هو فعل أمر، أساسه فعل مشاركة، تأمرك وتأمرها، تنصحها وتنصحك، تنهاها وتنهاك.

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

الزوج صاحب القرار:

لكن الكلمة الفاصلة للزوج، لأنه يكمل درجة القيادة، فإذا كان هناك سفينة ضخمة عملاقة لها قائد عام، وله مساعد قد يكون أدنى منه بدرجة واحدة، وقد يكون في المرتبة نفسها، لكنه أقدم، فلابد من صاحب قرار واحد، فإذا لم يكن الزوج صاحب قرار فهذه مشكلة.

أول نقطة حينما نؤمن أن لهذا البيت يجب أن يكون قائد أمره نافذ، لولا هذا لا ينجح أب في تربية أولاده، وأكثر المشكلات تأتي من تنازع الأبوين في توجيهات الأولاد، الأم توجه توجيهًا بعاطفتها العمياء، والأب بعقله الراجح يوجه توجيهًا، فحينما يصطدم التوجيهان يتمزق شمل هذه الأسرة، ويضيع الأولاد بين أمهم وأبيهم، فالتوجيه القرآني أنه لابد لهذه الأسرة من صاحب قرار هو الزوج، لقوله تعالى:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

إن وجدت الزوجة زوجها ليس تقياً، ولا ورعاً، بل وجدته شهوانيًّا، حينما يصغر الزوج بعين زوجته لا تطيعه، وعند ذلك لا يمكن أن يكون قيوماً عليها، ولا صاحب القوامة عليها، وحينما يطمع الرجل بمال زوجته، ويهددها بالطلاق، إن لم تعطه ميراث أبيها، أيضاً طمعه يضعف مكانته في الأسرة، فحينما تنفق من مالك على زوجتك، وحينما تكون أتقى و أورع منها يهبك الله حقاً اسمه حق القوامة، وحق القيادة، كلمتك ينبغي أن تكون مسموعة، هذه واحدة، قال الله عز وجل:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ

(سورة الطلاق)

لا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنّ

أنا بحسب معلوماتي المتواضعة فإني أعلم أن أكثر حالات خروج الزوجة من بيت زوجها إما أن يخرجها، وإما أن تخرج، هذه الحالات قد تنتهي إلى الطلاق، ذلك أن المرأة إذا كانت في بيت زوجها أكبر مشكلة تتصاغر حتى تغدو أصغر مشكلة، هذا كلام عام، وهناك استثناءات كوجود ظلم شديد، فهذا موضوع آخر.

أما إذا خرجت المرأة من بيت زوجها ناشزة فيمكن أن ينتهي هذا الأمر إلى الطلاق، فلو أن الزوج والزوجة اتبعا قول الله عز وجل:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ

لكانت أكبر مشكلة والزوجة في بيتها في البيت تصغر بعد حين، وأصغر مشكلة والزوجة في بيت أهلها تتلقى تغذيات سيئة جداً.

مرة بثثتُ شعوري لزوج غاب عن زوجته أكثر من سنة تقريباً، كل واحد تبرج، قلت له: عملك الجليل وزوجتك معك فلا مشكلة لديها، لكن يريد أن يغيظ والدك، ووالدك زوجته عنده، لا مشكلة لديه، لكن يريد أن يغيظ الطرف الآخر، من هو الضحية ؟ أنت وزوجتك، فلما يلغي الزوج إخراج الزوجة من بيته، وتلغي المرأة خروجها من بيت زوجها، وتعد بيتها بيتاً يجب أن يبقى مستقراً، وأن أية مشكلة تحل بين الزوجين، وهي في بيت زوجها نكون قد أغلقنا باباً خطيراً من أبواب الشقاق الزوجي.

النقطة الأولى: البيت له قائد، لكن بين القائد والمقود درجة واحدة، هي إصدار القرار وتنفيذه، لكن لا يعقل أن يكون للزوج كل شيء، وليس للزوجة شيء.

النقطة الثانية: استقرار الحياة الزوجية تهز اهتزازًا شديدًا، كلما نشأت مشكلة ذهبت إلى بيت أهلها ولم تعُدْ، وكلما نشأت مشكلة أخرجها من بيتها لئلا تعود، هذه نقطة ثانية.

عامِل الناسَ كما تحب أن يعاملوك به:

النقطة الثالثة أيها الإخوة، الحديث مستنبط معناه من أحاديث كثيرة، لكن هذه قاعدة ذهبية لا يعلم إلا الله قيمة هذه القاعدة: عامل الناس كما تحب أن يعاملوك، فأنت حينما تضع نفسك مكان زوجتك هل تحتمل هذه المعاملة ؟ وأنت أيتها المرأة حينما تضعين نفسك مكان زوجك هل تحتملين هذه المعاملة ؟ لو أن كل مسلم عامل الناس كما يحب أن يعامل لحلت كل مشكلاتنا، هذه قضية ثالثة.

كما تتمنى أنت أن تحترم زوجتُك أمَّك، هي تتمنى أن تحترم أمَّها، كما تحب أن تحتفل بأهلك حينما يأتون إليك، فهي تحب أن تحتفل بأهلها حينما يأتون إليك، هذه مبادئ يجب أن تراعيها كشريك.

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَمْعَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يَجْلِدُ أَحَدُكُمْ امْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ، ثُمَّ يُجَامِعُهَا فِي آخِرِ الْيَوْمِ))

[البخاري]

هذه شريكة حياة، فالضرب يهبط بها من درجة الشريك إلى درجة العبد والأجير، فضربها إهانة. النبي عليه الصلاة والسلام لم يضرب زوجة إطلاقاً، أما نحن فكلما نشأ مشكلة نتهجم عليها بالضرب. المشكلة أيها الإخوة أن الإنسان يبني هذه العلاقة مع زوجته أشهراً عديدة، في ساعة غضب يخسر كل هذا الذي بناه، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((لاَ تَغْضَبْ))

[البخاري عن أبي هريرة]

أقول لكم دائماً أيها الإخوة: من السهل أن تصل إلى مكان معين، لكن البطولة أن تبقى فيه، زوج يحسن معاملة زوجته بشكل متتابع، وفي ساعة غضب وغفلة يخسر كل هذه العلاقة الطيبة بسبب غفلته عن الله، وشدته، وغضبه غير المعقول.

معنى المعاشرة بالمعروف:

شيء آخر، حينما يأمرك الله سبحانه وتعالى أن تصاحبها بالمعروف:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

والمعاشرة بالمعروف تقتضي أن تحتمل الذي منها كما قال عليه الصلاة والسلام في أكثر من حديث:

((أكرموا النساء فو الله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، ويغلبهن لئيم، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً))

[ورد في الأثر]

البند الأول: أن يكون لهذا البيت قائد.

والبند الثاني: أن تعاملها معاملة تحب أن تعاملك إياها.

والبند الثالث: ينبغي أن تعلم أن الزواج شركة، وكلما كنت متفقهاً بالدين شعرت أن هذه الزوجة شريكة حياتك.

والله الذي لا إله إلا هو أحياناً تجد أعمالا طيبة من امرأة لا يفعلها الرجال، هذه المرأة التي خرجت إلى ساحة المعركة في أُحُد تسأل عن رسول الله، وقد أبلغت أن زوجها قد قتل، وأن أخاها قد قتل، وأن ابنها قد قتل، وتقول: ما فعل النبي عليه الصلاة والسلام ؟ فلما أيقنت أنه سليم قالت: يا رسول الله، كل مصيبة بعدك جلل، لا أبالي إذا سلمتَ مَن هلك.

هذه السيدة خديجة رضي الله عنها حينما فتح الله على نبيه مكة، ودعاه أكثر أهل مكة ليستضيفوه في بيوتهم، ماذا فعل ؟ قال:

(انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة)

[ورد في الأثر]

من أجل أن يعرّف الناس بفضلها في الدعوة إلى الله، هذا الفتح الجليل لها فيه سهم كبير.

كلما احترم الإنسان زوجته كان مؤمنًا وحضاريًا، ويفهم حقوق الآخرين، والله الذي لا إله إلا هو حينما ينتهي عن علمي أسرة متماسكة أفرح أشد الفرح، هكذا ينبغي أن تكون بيوتات المسلمين.

قصص مِن واقع الناس:

هناك قصة سمعتها وطربت لها كثيراً: رجل توفيت زوجته وعنده أربعة أولاد، تزوج امرأة، هذه المرأة اعتنت به عناية فائقة، وتوفي هذا الزوج، جاء أولاده كي يعطوا زوجة أبيهم حقها، بحثوا عن المهر فكان خمسة عشر ألف ليرة، نقدوها هذا المهر، والمهر كما تعلمون دين ممتاز، ثم بعد يومين استردوا هذا المبلغ، سألوا عالماً، قال: هذا المهر ينبغي أن يقيم تقييماً جديداً، طبعاً القضاء شيء، والديانة شيء آخر.

امرأة مهرها ألفَا ليرة، كان ثمن البيت ستة آلاف، يعني أن مهرها ثلث ثمن البيت، الآن ثمن البيت ستة ملايين تعطيها ألفين، ماذا أعطيتها ؟ فديانة هناك من يقيم المهر تقييمًا بالقيم الثابتة، يبدو أن هؤلاء الشباب ورعون، سألوا عالماً جليلاً قال: ينبغي أن تعطوها حقها بسعر اليوم، أعادوا لها المبلغ مئة وخمسين ألف ليرة.

قالت لهم: إن أباكم ـ رحمه الله ـ قال لي: له عند أحد التجار خمسمئة ألف ليرة هي لك، هم صدقوها، لو أنهم لم يفعلوا ذلك لا شيء عليهم، الوريث لا يمكن أن يعطي إلا بأوراق رسمية، أما أن ينفذ كل كلام يقال له فهذا شيء ليس له نهاية، لكنهم صدقوا هذه المرأة الكريمة، وذهبوا إلى التاجر، وقالوا له: غيّر الوصل الذي لأبينا، واجعله لزوجة أبينا، ثم أخذوا منها المبلغ كله، واشتروا لها بيتاً صغيراً أوت إليه، وهم يعتنون بها عناية فائقة.

ألا تطرب لهذه القصة، وتشعر أن الإسلام شيء عظيم ؟! لمجرد أن يموت الأب تُطرَد زوجة الأب من البيت، ويبالغ في الإساءة إليها، ويُتشفى منها، شتان بين مؤمن وغير مؤمن.

تروي الكتب أن رجلاً تزوج امرأة خُفية عن زوجته، فعلمت الزوجة بذلك، لكنها ما أحبت أن تفاتح زوجها، بقيت صامتة، ثم توفى الله هذا الزوج، فالزوجة من شدة ورعها أرسلت لضرتها حصتها من الإرث حسب الشرع، فما كان من الزوجة التي تزوجها الزوج بعد زوجته الأولى إلا أن أعادت إليها المبلغ، وقالت لها: لقد طلقني قبل أسبوع، وليس لي عنده شيء.

اليوم تجد امرأة تدعي أنها ملتزمة تقيم الدعوى على زوجها عند قاض أمريكي كي تأخذ نصف ثروته، ولا ترضى بالشرع، ولا بمهرها.

الحقيقة أن الشيء المؤلم أنك ترى أن الإسلام مظاهر، مصاحف، مساجد، أشرطة، مظهر دينيًا، مؤتمرات، لكن لو دخلت إلى صميم حياة المسلمين لا تجد ورعاً، ولا إعطاء كل ذي حق حقه، الرجل يعبد الله ستين عاماً، ثم يضار في الوصية فتجب له النار.

كم أسرة تتهرب من إعطاء البنت حصتها، البنت لا ذنب لها، لأنها متزوجة الناس يتهيبون أن يعطوها حقها، فهذا الذي يعبد الله ستين عاماً ثم يضار في الوصية تجب له النار.

أين أداء الحقوق ؟ أعرف رجلا من إخواننا المؤمنين الكرام ترك له أبوه بيتاً في أرقى أحياء دمشق، والوريثان هو وأخته، وأخته متزوجة، ولها زوج وبيت، وأمورها جيدة جداً، لكن هذه الأخت لها حق في هذا البيت، والابن يسكن البيت مع أمه، قالت له: أين حصتي ؟ يقول: هذا بيت العائلة، أهلاً بك متى شئت، هكذا يقول معظم الأخوات، أقسم لي بالله أنه قيّمه على أنه بيت فارغ، ونقد أخته بأغلى ثمن حصتها، وفتح الله عليه فتحاً كبيراً في أعماله التجارية.

متى تعظم الدين ؟ عندما ترى مسلمًا متحررًا صادقًا يؤدي الحقوق لأصحابها، كفى بها نعمة أن يتصاحب المتصاحبان، ثم يفترقان، ويقول كل واحد منهما للآخر: جزاك الله عني كل خير.

التقيت بأخ في المدينة المنورة، يرسل راتبًا لزوجة أبيه من اثنتي عشرة سنة بشكل مجزي إكراماً لها، تجد الناس يتفننون بأخذ حقوق الآخرين، وبإيذاء الآخرين، وبأخذ أموالهم، وهضم حقوقهم، لذلك كيف يرضى الله عز وجل عنا ؟ هناك ظلم شديد بين المسلمين، كم من زوجة مظلومة ؟ وكم من زوج مظلوم؟ والزوجة المظلومة ليس لها إلا الله.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ:

((اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ))

[متفق عليه]

وفي رواية أخرى: اتقوا دعوة المظلوم ولو كان كافراً.

الجهل بالحقوق والتفلت من منهج الله سبب المشكلات:

والله أيها الإخوة، من شدة ما أستمع لقضايا بين الأزواج كل أسبوع قضيتين أو ثلاثة، وكلها بسبب جهل كل واحد بحقوق الآخر، وهذا الجهل ينتج عنه انحراف وخصومات، وأكثر شيء أنا أقول لكم هذا الكلام: حينما لا يتقيد الإنسان بمنهج الله في الزواج، إذا أطلق لعينيه العنان، وهي أيضاً كان الشقاق بين الزوجين.عندنا قانون رائع جداً:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة المائدة)

هذا قانون، لذلك ما تعاقد اثنان في الله ففرق بينهما إلا بذنب أصابه أحدهما.

وهذا الإمام الشعراني رحمه الله تعالى كان يقول

((أعرف مقامي عندي ربي من أخلاق زوجتي))

حينما تستقيم علاقتك بالله عز وجل يهيئ لهذه الزوجة طبع يرضيك، لك هيبة، يزرع الله في قلبها هيبة لك، وحينما يعصي الرجل ربه تسقط هيبته من عين زوجته.

فلذلك أيها الإخوة، كلما بالغت في طاعة الله أكسبك الله هيبة، من اتقى الله هابه كل شيء، ومن لم يتق الله أهابه الله من كل شيء.

مرة كنا في الحج، وكان معنا أخ كريم عالم جليل، زار أخاه بجدة، فبدأ أخوه يشكو من زوجته، قال: نجلس بالسهرة فهي تجلس على الأريكة، وهو في الأرض مرتاح، فوخزته بقدمها، قالت له: غيّر القناة. لم يتحمل، هناك زوجات وقحات جداً، وسيئة الطبع.

بالمناسبة، والله أتهيب كثيراً لأن أذكر هذا الحديث، لكنه حديث صحيح، وينبغي أن نحترم حديث رسول الله:

((من كانت تحته امرأة سيئة لا يستجيب الله دعائه))

[ورد في الأثر]

توضيح الفكرة: سألك: ماذا أفعل ؟ قلت: اخرج من هنا، فرفض الخروج، قال: ماذا أفعل ؟ لا علاقة لي، نصحتك ورفضت، فينبغي على الإنسان أن يقف عند حدود الله عز وجل، طبعاً الطلاق آخر حل، لكن أتألم لرؤية شخص ناجح بعمله وعلاقاته تأتي شكوى من زوجته كبيرة جداً، هذا النجاح لا قيمة له أبداً.

بالمناسبة من يكمل شهادة قيادة كيف يتم الفحص ؟ يجب أن يفحص، وهو يعود للخلف، والطريق متعرج بشكل إكس، وضيق، على عرض السيارة، وهناك عدة طرابيش بلاستيك، فإذا وقعت إحدى الطرابيش لا ينجح ! لماذا انتقوا هذا الأسلوب ؟ هذا أصعب شيء بالقيادة، أن ترجع القهقرى، ويكون رجوعك على الطريق، وتحتاط أن لا تمس شيئًا، وأنت ترجع، إن نجحت في هذا القيادة نحو الأمام فالأمر بعده سهل جداً.

هكذا كان النبي مع أهله:

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي))

[الترمذي، أبو داود]

هذا الحديث دقيق جداً، فعلاقاتك الخارجية الناجحة هذا شيء طبيعي، لأنك ذكي، ولك مصالح وسمعة تخاف عليها، فكل علاقاتك الناجحة خارج البيت تندرج تحت الذكاء الاجتماعي، لكن متى تظهر على حقيقتك ؟ في البيت تكون هادئًا رحيمًا متواضعًا.

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سُئِلَتْ: مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ ؟ قَالَتْ:

((كَانَ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ، يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ))

[أحمد]

سُئِلَت عَائِشَةَ: مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ ؟ قَالَتْ:

((كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ ...))

[صحيح البخاري]

عظمة الإنسان في البيت، واحد من أفراد البيت في تواضع، أيعقل أن يمشي النبي على يديه ورجليه ليركب الحسن والحسين على ظهره وهو سيد الخلق وحبيب الحق ؟

عَنْ أَنَسٍ قَالَ:

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ، فَأَرْسَلَتْ إِحْدَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِصَحْفَةٍ فِيهَا طَعَامٌ، فَضَرَبَتْ الَّتِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِهَا يَدَ الْخَادِمِ، فَسَقَطَتْ الصَّحْفَةُ، فَانْفَلَقَتْ، فَجَمَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِلَقَ الصحبة، ثُمَّ جَعَلَ يَجْمَعُ فِيهَا الطَّعَامَ الَّذِي كَانَ فِي الصَّحْفَةِ، وَيَقُولُ: غَارَتْ أُمُّكُمْ، ثُمَّ حَبَسَ الْخَادِمَ حَتَّى أُتِيَ بِصَحْفَةٍ مِنْ عِنْدِ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا، فَدَفَعَ الصَّحْفَةَ الصَّحِيحَةَ إِلَى الَّتِي كُسِرَتْ صَحْفَتُهَا، وَأَمْسَكَ الْمَكْسُورَةَ فِي بَيْتِ الَّتِي كَسَرَتْ))

[البخاري]

لا أنسى موقف للنبي الكريم: أنصاري دخل بستانه، وأكل منه بغير حق فقيده وساقه إلى النبي ليشكوه للنبي قال له عليه الصلاة والسلام سارق متلبس بالسرقة الموصوفة ويجب أن تقطع يده قال له النبي عليه الصلاة والسلام:

((هلا أطعمته إذا كان جائعاً، وهلا علمته إذا كان جاهلاً))

[ورد في الأثر]

معالجة المشكلة مِن أسبابها لا من نتائجها:

هذا الحديث له علاقة بالأحداث الخيرة، دائماً نعالج الإرهاب من نتائجه، ينبغي أن يعالج من أسبابه، وأنا أقول مرة: ما لم ينزع فتيل الظلم في العالم فالإرهاب لا ينتهي لوجود ظلم شديد.

وهذه الزوجة ما لم تكن مكرمة طيبة القلب لا يمكن أن تزعجك، أما يوجد ضغط فأنت ابحث بالسبب، والحقيقة أن الإنسان الذكي يبحث في أسباب المشكلة، فلو عرفت الأسباب قد تحل هذه المشكلة، وقد قيل: إذا ظهر السبب بطل العجب.

أحياناً لا تفهم شيئًا، لكن حينما تفهمه تحل المشكلة، كم أتمنى على كل أخ كريم أن يكون حليما متفهما واقعيا رحيما، لأن الرحمة من صفات المؤمن، والله بالهاتف أستمع لقصص من الزوجات، أو رسائل

يندى لها الجبين، كأنّ في البيت وحشًا، وأحياناً تجد زوجة والعياذ بالله لا تحتمل.

قيل لرجل: طلق امرأتك، له زوجة سيئة جداً، قال: والله لا أطلقها فأغش بها المسلمين.

هناك زوجة لا تحتمل، وهي بلاء من الله عز وجل.

ابحث عن زوجة ذي تربية إيمانية:

أتمنى على من لم يتزوج بعد أن يبحث عن زوجة ذات أخلاق عالية، مرباة في بيت علم، عندها حدود، تغذيتها إيمانية، وليست علمانية، التغذية نوعان، المرأة التي تغذى تغذية علمانية هذه لن تكون زوجة سعيدة.

ذكرت مرة أن أحد أكبر فنادق دمشق أراد أن يقيم حفل تكريمي لمن أجرى العقد في فندقه تشجيعاً للباقين، ستة عشر عقد تمت في ستة أشهر ثلاثة عشر من هذه العقود انتهت إلى الطلاق قبل مضي هذه الأشهر.

في كل عقد قران أقول هذه الكلمة: إذا بني الزواج على طاعة الله تولى الله في عليائه التوفيق بين الزوجين، أما إذا بني الزواج على معصية الله تولى الشيطان التفريق بينهما، الشيطان جاهز، وأكبر مهمة من مهماته التفريق بين الزوجين، ويزين للزوج غير زوجته، ويزين للزوجة غير زوجها، وهذا يتكرس كما يقال في الاطلاع على ما عند الآخرين في الاختلاط في هذه الشاشة التي تفسد بيوت كثيرة، هذا كله يحصل، شيء جميل جداً أن يكون البيت متماسكًا، فيه ود وحب، وعدل ورحمة، وذكر لله عز وجل.

أتمنى من أعماق قلبي أن يجهد كل واحد منا بإصلاح العلاقة بين زوجته، لأن الله يقول:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

(سورة الأنفال)

معنى: وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ:

هذه الآية تفهم على مستويات ثلاثة:

المعنى الأول:

أن نصلح ما بيننا وبين الله.

رأى رجلٌ زوجة بارعة الجمال لزوج دميم الخلق، شيء غير معقول، كيف قبلت به ؟ فسألها، قالت:

لعله عمل عملاً صالحاً عند الله اقتضى أن يكرمه الله بي، ولعلي أسأت علاقة مع الله فأدبني الله به.
أحياناً يكرم الله الإنسان بزوجة صالحة، أو يؤدبه بزوجة تريه النجوم ظهراً، أصلح علاقتك بينك وبين الله يصلح علاقتك مع الناس، وفي مقدمتهم زوجتك، فأول معنى أن تصلح علاقتك مع الله.

المعنى الثاني:

أن تصلح علاقتك فيما بينك وبين الناس.

المعنى الثالث:

أن تصلح علاقة بين شخصين، فالمؤمن هدفه الإصلاح.
قال واحد مرة: شكوت لأحد الإخوة زوجتي التي هي أخته قال: طلقها أفضل لك، عوضاً أن يصلح بينهما ينبه أخته، ويطيب خاطر صهره أشار بطلاقها، فأنت مكلف أن تصلح علاقتك مع الله، وأن تصلح علاقتك مع الناس، وأن تصلح كل علاقة بين اثنين.

الدعاء بتحسين علاقة الأزواج ببعضهم:

بقي أيها الإخوة أن نسأل الله عز وجل بدعاء مستمر أن يحسن العلاقة بين الزوجين، خطباء المساجد في عقود القران: اللهم أصلح بين الزوجين، أنجب منهما الكثير الطيب، اجعل كل منهما قرة عين للآخر، ألهم أهلهما السدادة والرشاد، هذا كله دعاء ينبغي أن يستمر.
ولا يوجد إنسان يقوم في جوف الليل إلا ويسأل الله أن يصلح العلاقة بينه وبين أهله، ماذا يقول الله عز وجل:

(وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ)

(سورة الأنبياء)

يا أيها الأزواج غيِّروا أحوالكم مع الله ليغيِّر الله حالكم:

عَن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ: إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ))

(صحيح مسلم)

ما معنى هذا الحديث ؟ إذا اصطلحت مع الله عز وجل وقلب زوجتك بعيد عنك، فالله عز وجل مكافأة لك على استقامتك، وتوبتك يتدخل فيملأ قلب زوجتك محبة وهيب وطاعة، وإذا فسدت علاقتك مع الله يملأ قلب الزوجة ازوراراً واحتقاراً وانصرافاً، فالطرف الآخر مع أنه مخير، لكن قلبه بيد الله عز وجل.

وصدقوا أيها الإخوة، كنت أستمع لبعض الأخوات الفاضلات شكوى على أزواجهن لا تصدق، فلما استقام هؤلاء على أمر الله سمعت ثناء لا يصدق، فلا تقنع نفسك أنك عاجز عن التغيير، هذا الذي لا يقدر أن يغير ليس من بني البشر أنت يجب أن تغير، لأن الله عز وجل قال:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد)

لو كان التغيير مستحيل لكانت الآية لا معنى لها.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

أخ من إخواننا عنده معمل وخالف منهج من مناهج الله في عمل بالمعمل هذه المخالفة اقتضت أن تسوء العلاقة بينه وبين زوجته حتى أشرف على تطليقها فشكا إلي مشكلته مع امرأته، سألته عن المعمل، ذكر لي شيئًا مخالفًا للشرع، قلت له: أزلْ هذه المخالفة، ولما أزالها عادت الأمور لمجاريها.

عندما أراد صلاح الدين أن يجاهد فرض ضريبة، ثم استشار أحد العلماء الورعين قال له: هذه حرام، تأخذها من الأغنياء، أما الفقراء فلا يتحملون حرام فألغاها، فتألم ضباطه الكبار لهذا الإلغاء، بل قالوا له: كيف تحارب وأنت ألغيت الضريبة ؟ فقال: لا أجاهد مع معصية، فلما ألغى هذه المعصية والضريبة الظالمة نصره الله، وفتح القدس.

عندما تقوم بصلح مع الله ستجد انعكاسات واضحة جداً مع الله حتى في بيتك، فأردت أن أنقل لكم ما كان يؤلمني كثيراً من مشكلات بين الأزواج المؤمنين، أنت مؤمن، عظمة زواجك الإسلامي أن الله بينك وبين زوجتك، ينبغي أن تخشى الله أن تظلمها، وتخشى الله أن تظلمك، وينبغي أن تتقرب إلى الله بخدمتها، وأن تتقرب هي إلى الله بخدمتك.

فمثل هذا الزواج لا ينهار بل يستمر، والذي يحكمه المودة والرحمة، المودة هي الحب والرحمة هي الإحسان.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (140) :الجمال من منظور إسلامي .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-06-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام:

ليس من المألوف أن يعالج موضوع كالذي سأعالجه في درس من دروس الدين، ولكن هذا الموضوع ألصق شيء في حياة الإنسان وهو موضوع الجمال، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ..... إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ.....*))

(صحيح مسلم)

الإنسان يسعى إلى بيت جميل، وإلى امرأة جميلة، ومركبة جميلة، وإلى حديقة جميلة، وإلى لباس جميل، بل إن الجمال هو ثمرة الإيمان، أليست العبادة طاعة طوعية ممزوجة بمحبة قلبية أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادة أبدية، السعادة هي أن تعيش في كنف الجمال، بل إن الله عز وجل حينما يقول:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود)

خلقهم ليرحمهم أي خلقهم ليسعدهم أي خلقهم ليتمتعوا بجماله جل جلاله، بل إن المؤمن يوم القيامة ينظر إلى ذات الله جل جلاله كما تروي بعض الأحاديث نظرة يغيب من نشوة النظرة خمسين سنة ! وفي الآية الكريمة:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23))

(سورة القيامة)

الجمال ثمرة الإيمان، لكن أن تتمتع بالجمال الأبدي العلوي، هؤلاء الذين يذهبون إلى الملاهي لماذا يذهبون ؟ ليتمتعوا بجمال عرضي، بجمال بني على مخالفة لمنهج الله عز وجل، هم يبحثون عن الجمال، ما منا واحد على وجه الأرض إلا ويتوق إلى الجمال، الجنة فيها كل الجمال، مع أن هذا الموضوع كما قلت في بداية هذا الدرس ليس مألوفاً أن يعالج في درس ديني، ولكنه ألصق موضوع في حياة الإنسان أن تصل إلى الجمال المطلق، أن تصل إلى الله عز وجل.

أيها الأخوة الكرام: الموضوع واسع جداً: هناك فعل جميل وهناك كلام جميل، وموقف جميل، حينما تصغي إلى قول النبي عليه الصلاة السلام عندما تمكن من أهل مكة، وكان بإمكانه أن يقضي عليهم قضاءً مبرماً، وقد تمكن منهم، فلما سألهم: ما تظنوني أني فاعل بكم قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

(ورد في الأثر)

قد ترددوا هذا القول مئات ألوف المرات ولا تشبعوا من هذا الموقف الجميل: حينما كان عليه الصلاة والسلام في الطائف قال:

((إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي....))

(للإمام القرطبي)

إن لم تكن هذه المحنة التي أنا فيها تعبير عن غضبك علي فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي أنت لماذا تتصل بالله عز وجل ؟ من أجل أن تتصل بجماله، ما هي السكينة التي يلقيها الله على قلب المؤمن؟

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

(سورة التوبة)

هو الجمال الذي يملأ قلبك، لكن يوجد جمال مادي حسي طارئ تعقبه كآبة، ويوجد جمال متنامي تعقبه سعادة.

فلذلك موضوع هذا الدرس: الجمال من منظور إسلامي.

جرت العادة على أن المعارف البشرية تصنف في أصناف ثلاثة علم وفلسفة وفن، فالعلم ما هو كائن، والفلسفة ما ينبغي أن يكون، والفن ما هو ممتع، كل شيء ممتع ينتمي إلى دائرة الفن، لكن ننطلق من قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ.....))

فالمؤمن جميل في أفعاله وأقواله وحركاته وجلسته وبيته ومظهره وعلاقاته كلكم يعلم أنك قد تلتقي بإنسان فتؤخذ بهيئته ! فإذا نطق تنسى هيأته لهبوط كلامه، أما إذا حدثك بكلام طيب إذا عاملك بعد الكلام تنسى كلامه لسوء فعاله، معنى ذلك عندنا مظهر ومنطق ومعاملة، لا يثبت الجمال إلا في المرحلة الثالثة، ينبغي أن تكون هيأته حسنة وكلامه طيب وفعاله جميلة.

أيها الأخوة: كل شيء كما قال العلماء جماله وحسنه كامن في الكمال اللائق به، أما إذا كان فيه بعض الكمال اللائق به ففيه بعض الحسن والجمال، وليس فيه كل الجمال.

الفرس الجميل جمع كل الصفات التي تليق بالفرس، الخط الجميل جمع كل الصفات التي تتوافر في الخط الجميل، لكن النقطة الدقيقة أن كل شيء لا يجمل بصفات غيره بل يجمل بصفاته اللائقة به. قال:

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50))

(سورة طه)

أعطاه الصفات الكاملة اللائقة به، انظر إلى الطير والغزال والوردة....

(الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ)

أعطاه صفاته الكاملة اللائقة به.

(ثُمَّ هَدَى (50))

أيها الأخوة الكرام: لا يغيب عن أذهانكم أن الجمال سمة واضحة في الصنعة الإلهية، ألا ترى إلى أنواع من السمك تحير العقول بجمالها ؟ ! ألا ترى إلا أنواع من الطير تحير العقول بجمالها ؟ ! ألا ترى إلى أنواع من الزهور والورود والنباتات تأخذ بالألباب بجمالها ؟! تجلى الله عليها باسم الجميل، ألا ترى إلى وجه طفل جميل لا ينسى من نظر إليه روعة جماله ؟! إن الله جميل هو الذي أبدع الجمال ووعدنا بجنة عرضها السماوات والأرض، وهو الذي وعدنا بنظرة إلى وجهه الكريم، فهدف العبادة أن تستمتع بالجمال، لكن أهل الدنيا استبقوا الأمور وأرادوا الجمال المادي الطارئ الفاني، وهذا الذي يستمتع بالجمال، ويخالف في استمتاعه منهج الله عز وجل لابد من أن يتحمل الكآبة التي تعقب هذا الاستمتاع.

أيها الأخوة: أول فكرة الجمال سمة واضحة في الصنعة الإلهية.

الآية الكريمة:

(وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99))

(سورة الأنعام)

الآن يوجد لوحات فنية راقية جداً فيها صور فواكه، الفاكهة فضلاً عن مذاقها لها منظر جميل، كل فاكهة على حدى شكلها ولونها وحجمها قوامها ورائحتها وطعمها، كلها عناصر جمالية في هذه الفاكهة، فالله عز وجل يقول:

(انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99))

أيها الأخوة الكرام: لعل أبرز حقيقة أقولها في هذا الدرس أن يشتق من قول النبي عليه الصلاة والسلام حينما نظر إلى هلال قال:

((حَدَّثَنَا قَتَادَةُ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا رَأَى الْهِلَالَ قَالَ هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ آمَنْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ يَقُولُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ذَهَبَ بِشَهْرِ كَذَا وَجَاءَ بِشَهْرِ كَذَا *))

(سنن أبي داوود)

أي أنا أنتفع به في الدنيا ويرشدني إلى الله، بناء على كلام النبي عليه الصلاة والسلام يستنبط أن كل

شيء خلقه الله له وظيفتان كبيرتان، الوظيفة الأولى الكبيرة أن تتعرف إلى الله من خلاله، والوظيفة الثانية أن تنتفع به في الدنيا، لو قرأت كتاباً عن النحل وخررت لله ساجداً ماالذي حصل ؟ ازددت معرفة بالله من خلال هذا المخلوق الذي يعطي العسل، سواء أكلت العسل أو لم تأكله أنت الآن بالهدف الثاني أن تنتفع بهذه المادة التي تنتجها هذه الحشرة، أما حينما تتعرف إلى الله من خلال النحلة حققت الهدف من خلق هذا المخلوق، الهدف الأول أن تتعرف إلى الله سبحانه وتعالى من خلال خلقه.

عندي موسوعات علمية مترجمة من أرقى مستوى فإحدى هذه الموسوعات عن الطير، في المقدمة إن أعظم طائرة صنعها الإنسان لا ترتقي إلى مستوى الطير ! هو يطير يحتاج إلى وزن خفيف عظامه مفرغة، يحتاج إلى تبريد حينما يستنشق الهواء، الهواء يصل إلى كل جسم الطير ليبرد عضلات الطير لأن بعض أنواع الطيور تطير ستاً وثمانين ساعة من دون توقف !

موسوعة واسعة جداً إن أعظم طائرة صنعها الإنسان لا ترتقي إلى مستوى الطير ! يوجد موسوعة أخرى عن النباتات إن أعظم معمل صنعه الإنسان لا يرقى إلى مستوى الورقة ! الورقة معمل لذلك قال تعالى:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر)

َ قَالَ هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ. أي شيء تقع عينك عليه ينبغي أن تنتفع من وظيفته الأولى، وظيفته الأولى أن تتعرف إلى الله من خلاله، وظيفته الثانية أن تنتفع به.

معظم الناس لا يسمح لهم دخلهم بشراء الزهور باستمرار فقط بالمناسبات، لو وقفت أمام بائع زهور وتأملت هذه الألوان التي أبدعها الله، لو تأملت في ألوان الفراشات والطيور وسبحت الله عز وجل، لو أنك لا تشتري كل يوم الزهور إنك حققت الهدف من خلق الزهور، أي إنك تعرفت إلى اسم الجميل من خلال الزهور، كبار مهندسو التزيين يشتقون الألوان من الزهور والفراشات.

آية ثانية:

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6))

(سورة النحل)

الخيل جميلة حتى أن بعض أنواع الخيل يباع بمائة ضعف عن ثمن السيارة كائن يتعاطف معك بل إن بعض الأخوة الكرام الذين كانوا في أمريكا أخبروني أن بحوثاً علمية جادة تؤكد أن ركوب الخيل يدفع الإنسان أمراض القلب والكليتين والكبد، بينما إدمان ركوب السيارة يجلب للإنسان أمراض القلب والكبد والكليتين.

في القرآن آيات كثيرة تلفت نظر الإنسان المؤمن إلى جمال الكون، الإنسان يعمل عملاً شاقاً لماذا ؟ كي يرتاح في بيته ويجلس جلسة ترتاح بها أعصابه مع زوجته وأولاده، قد يذهب إلى مكان جميل ومكان فيه حقل أخضر أو ماء نمير يسمع خريره وإلى أشجار باسقة جميلة، فجزء من حياة الإنسان لابد من أن يقطف ثمار تعبه بأن يستمتع بما خلق الله عز وجل، فالجمال ألصق شيء في حياة الإنسان، تبحث عن بيت جميل ولون ثياب جميلة وعن فواكه جميلة، أنت تختار الفاكهة واحدة واحدة، تبحث عن وجود الكمال اللائق بها.

الحقيقة علماء التفسير حينما فسروا قوله تعالى:

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (6))

(سورة ق)

الفروج شقوق، لا يوجد شقوق، نحن في المدينة بعيدون جداً عن جمال السماء، لكن مرة ذهبت لمكان ريفي واستمتعت بمنظر السماء في الليل، منظر يأخذ بالألباب، نحن في غمرة المدن والشوارع والكهرباء بعيدون عن جمال السماء. قال:

سلامة الشيء من العيوب أحد مقومات جماله، انظر

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (6))

إلى خلق الله عز وجل خلق كامل تام.

أيها الأخوة: من سمات الجمال أيضاً هو التنسيق والضبط والإحكام، الإنسان له شكل عظم الفخذ له عنق، لماذا ؟ الإنسان له حوض وفي الحوض مكانان لمشاشتي عظم الفخذ، لكن عظم الفخذ عظم متميز أنه مستقيم وفي نهايته عنق زاوية قائمة هنا المشاشة، لو أن عظم الفخذ كان مستقيماً فقط وينتهي بالمشاشة، والمشاشة في الحوض لكان شكل الإنسان من دون وسط متسع، فقد معظم جماله، أما حينما ينزل الجذع نحو الضيق ثم يتسع وسط الإنسان هذا منظر جمالي بسبب عنق الفخذ، فعنق الفخذ هو الذي يتحمل كل الثقل، يتحمل ما يزيد عن مائتي وخمسين كيلو غرام كل واحد، الإنسان الشديد القوي يتحمل نصف طن ! يتحمله عنق الفخذ، وعنق الفخذ من أجل القوام الجميل، فالتناسق لاحظ هذا المفصل داخلي في أي مكان ؟ مفصل الركبة خارجي، لو دققت في المفاصل رأيت الحكمة والجمال، الجمال في المقوم الثاني هو التناسق.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10))

(سورة البلد)

لاحظ الرأس وما حوى، انظر إلى الشعر والجبهة والعينين والحواجب، هذا كله من خلق الله عز وجل.

(خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (2))

(سورة الفرقان)

ففي أجزاء الإنسان محسوبة بدقة بالغة، الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7))

(سورة الانفطار)

الإنسان أحياناً تجرح أصبعه، فإذا تناول طعاماً بيده المصابة وفيه حمض يشعر بحرقة، يعني أن الأعصاب في الجلد موضوعة بحكمة بالغة، لو أن هذه الأعصاب كانت بقدر أكبر حياتنا لا تحتمل، لأن الأصبع جرح قليلاً ومس هذا الأصبع بعض الحموض حتى في الطعام تتألم، أحياناً تضع يدك على أذنك فتستمع إلى دوي وهو دوي الأجهزة الداخلية، لأن الأجسام الصلبة أكثر ناقلية للأصوات من الغازات، فهذا الدوي حركة الأمعاء والقلب والرئتين، فلذلك لو أن الإنسان يسمع صوت أحشائه بشكل مكبر حياته لا تحتمل.

أخ توفي رحمه الله كنت في عيادته قال: ركبت صمام للقلب معدني فيه خردقة قال: لا أنام الليل، بالنهار لا أشعر بها من الضجيج، أما في سكون الليل مع كل نبضة للقلب يوجد صوت لهذا الصمام المعدني الذي ركب في قلبه، كمال الإنسان الذي يليق به أن لا تسمع صوت الأحشاء، مثلاً: الأصوات في الأرض أمواجها الصوتية تتخامد، والله هذه النعمة أيها الأخوة لو لم تكن لأصبحت حياة الناس جحيماً لا تطاق، لو أن الأمواج الصوتية لا تتخامد كالأمواج الكهرطيسية.....

مركبة ذهبت إلى المشتري وبقيت تسير بأعلى سرعة صنعها الإنسان أربعين ألف مايل بالساعة، هذه المركبة استمرت في سيرها إلى المشتري كم ست سنوات حتى وصلت، من هناك أرسلت صوراً وإشارات عبر الأمواج الكهرطيسية، لو أن هذه الأمواج تتخامد لاتصل إلينا، أما لأنها أمواج لا تتخامد وصلت إلينا، لو أن الأمواج الصوتية لا تتخامد كل ما يجري في العالم من حروب وقنابل ومتفجرات وأصوات أمواج وفيضانات وأصوات معامل نسمعه جميعاً.

من منكم دخل لسوق النحاسيين ؟ هل يحتمل أن يبقى فيه ساعة لو أن الأمواج الصوتية لا تتخامد لكانت أصوات هذا السوق عندنا في المسجد ! فلذلك هذا جمال، أن الموجة الصوتية تتخامد، النسيان جمال أن تنسى موقف محرج جداً، تنساه لو كنت تذكره دائماً تذوب من الألم، فالله عز وجل أفعاله جميلة وخلقك كامل.

أحياناً يسد شريان يغذي القلب الشريان التاجي هم خمس شرايين، يسد أحدهم قال لي أحد الأخوة الكرام: أن الجسم بشكل ذاتي يصنع شريانات مجموع أقطارها يساوي الشريان المسدود دون أن تشعر !

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7))

تخيل لولا هذا المفصل كيف نعيش ؟ كيف نأكل ؟ لا يوجد طريقة ! ينبغي أن يأكل الإنسان كالقطة أن ينبطح ويلعق الصحن بلسانه ! عنده عزيمة الجميع منبطح وكل مدعو أمامه صحنه يلعق منه ! هذا

المفصل هذا جمال تأكل، الأصابع كلما تأملت في خلق الله عز وجل وعظمت الله كمال مطلق.

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7))

إدراك كمال الصنعة من الإيمان.

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس)

في الربيع ترون أن الأرض جنة، الأرض خضراء الأزهار الرياحين الأشجار مثمرة المياه غزيرة، هذا كله جمال ليلفت الله نظرك إلى صنعته الجميلة وأنه أعد لك جنات تجري من تحتها الأنهار. أول مقوم من مقومات الجمال أن يخلو من العيوب.

أخ كريم قال: أتمنى عليك أن تلقي على إخوانك هذه الحقيقة: لو أن إنساناً أنجب طفلاً كاملاً يجب أن يخر لله ساجداً لأن ابني أنجب بنتاً في خطأ في الشريان والوريد في قلبها، فهي زرقاء اللون، بحثنا عن طبيب في سوريا ليجري لها عملية خلال ساعات من ولادتها في تبديل الشريان والوريد في القلب لم نجد في كل سوريا طبيب جراح قلب متخصص بحديثي الولادة في لبنان طبيب طلب أربعمائة ألف ! والمشفى ثلاثمائة ألف والسيارة خمسة وعشرين ألف حاضنة بالسيارة، قال: خلال ساعات دفعت سبعمائة وخمسة وعشرين ألف حتى أنقذت حياة هذه الطفلة، فأن يأتي الطفل كامل في خلقه هذا شيء يلفت النظر.

من يومين سمعت قصة من أخ رجاني أن أنقلها إليكم: شاب متزوج أرعن زوجته حامل يقول لها دائماً: إن أنجبت بنتاً سوف أقطع يدها ! أنجبت بنتاً بلا يد ! هو يقولها مازحاً أو مهدداً لكن الله أدبه بهذا، ووهبه بنتاً مقطوعة اليد اليمنى.

أيها الأخوة الكرام: الإنسان ينبغي أن يلتفت إلى الله، كل شيء في الكون يدلك على الله.

طبعاً نتحدث عن الجمال المادي، لكن يوجد جمال معنوي، الجمال الحسي ذكرته لكم، أما الجمال الآخر جمال معنوي أوله جمال الأقوال أحياناً تستمتع بحديث محكم موجز عميق مؤصل فيه شواهد وتطبيقات ونطق واضح وفصاحة، الجمال كما قالوا: جمال الرجل فصاحته، والعرب كانوا يؤخذون بفصاحة الرجل، الأدب فن من أعظم الفنون جاء في تعريفه التعبير المثير عن حقائق الحياة.

واحد يقول: باللغة البسيطة تكاثرت علي المصائب، عبارة عادية لا يوجد فيها جمال، أما بعض الشعراء قال:

بلاني الدهر بالأرزاء حتـ ى فؤادي في غشاء من نبال

فكنت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

كلام رائع جداً، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً))

(سنن ابن ماجة)

شعر آخر له مشاهد رائعة، وصف شاعر مغني قال:

عواء كلب على أوتار مندفة   في قبح قرد وفي استكبار هامانِ

وتحسب العين فكيه إذا اختلفا   عند التنغم فكي بـغل طـحان

ففي الكلام أحياناً صور رائعة جداً، كان عليه الصلاة والسلام أفصح العرب قال: أنا أفصح العرب بيد أني من قريش، وقريش أفصح قبائل العرب.

هذا نوع من البلاغة اسمه تأكيد المديح بما يشبه الذم، فالكلام له جمال.

لفت نظري أن بعض البلاد الغربية تعلم جميع طلابها في كل فروع الجامعة فن الخطابة دهشت، فن الخطابة في ذهني متعلقة بكليات شرعية فقط حتى عندنا في كلية الشريعة ليس هناك مادة خطابة أبداً، في جامعات الغرب أي فرع بالجامعة لابد من أن يتعلم فن الخطابة، سألت ما السبب ؟ قال: هذا العالم كيف ينقل علمه ؟ لابد من أن يصوغ الكلام صياغة جيدة مرة إنسان صاغ خبراً قال: يسمح باستيراد العلف للمواطنين، هي ما صوابها؟ يسمح للمواطنين باستيراد العلف، فهذه عبارة قبيحة جداً، لو كان يتقن اللغة لما قال: يسمح باستيراد العلف للمواطنين، أحياناً كلمة قال ولست أبالي حينما أُقتل مسلماً على أي جنب ألقى في الله مصرعي

هذا قول أحد الصحابة وهو في الجنة، فواحد ضعيف باللغة متفاصح قال:

ولست أبالي حينما أقتل مسلماً   على أي جنب ألقى في الله مصرعي

هذا لجهنم ! حركة واحدة ينتقل بها الإنسان من الجنة إلى جهنم، اللغة لغة القرآن الكريم، اللغة الجميلة لها تأثير كبير.

دقق: لذلك قال تعالى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33))

(سورة فصلت)

اجلس في جلسة كلام سخيف.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً))

(سنن أبي داوود)

لاحظ هذه اللقاءات في البيوت موضوع الحديث غيبة ونميمة افتخار وتباهي تأكيد للذات لعب ولهو وزينة وتفاخر بالأموال والأولاد لا يوجد جمال، أما إذا عرفت الناس بالله عز وجل هذا كلام جميل،

انتقلنا من جمال الأشكال إلى جمال الكلام ثم إلى جمال الأفعال.

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً)

أحياناً تجلس في جلسة تسمع قصص عن مواقف بطولية تقول: والله سررنا تشعر بأن قلبك انتشى، وقد قال بعضهم بذكر الصالحين تتعطر المجالس.

ذكرت لكم كثيراً إنسان فقير جداً من شهر ورث قطعة أرض في أطراف دمشق، ورجل محسن كبير أراد إنشاء مسجد في هذه المنطقة فالأرض مناسبة جداً، المهندس الذي كلفه بالبحث عن أرض وجها مناسبة مساحة وسعراً، فجاء بالمحسن ليرى الأرض وليدفع دفعة من ثمنها، فسأل صاحبها عن ثمنها اتفقوا على السعر وحرر له شيك باثنان مليون ثمنها ثلاثة ونصف مليون ليرة، قال الفقير: الذي يعمل حاجب في مدرسة معاشه أربعة آلاف عنده خمس أولاد لا يكفيه أيام من الشهر قال: أين بقية المبلغ ؟ قال: عند التنازل، قال: أي تنازل ؟ قال: في الأوقاف، قال: لماذا ؟ قال: لأن هذه سوف تغدو مسجداً قال: مسجد**!** أخذ الشيك الموقع بمليونين ومزقه قال: أنا أولى منك أن أقدمها إلى الله، يقول هذا الغني المحسن ما صغرت في حياتي كما صغرت أمام هذا الفقير الذي لقنني درساً لا أنساه، قال: أنا أولى منك أن أقدمها لله، أنا أبيع أرضاً تغدو مسجداً ؟ دليل سياحي كريم تعرف إلى الله وسعد بمعرفته قال: كنت في مدينة في الشمال ومعه فوج سياحي، فأحد السواح أراد أن يشتري شيء من بائع متجول قال: كم ثمن هذا الشيء ؟ قال: أربعين ليرة، قال: قل له مائة فهذا سائح قال: سعري لا يتغير **!** سائح أو غير سائح لا يتغير السعر، قال: هذا البائع المتجول لقنني درس في الصدق لا أنساه.

فأحياناً يكون هناك موقف جميل، لاحظ إذا جلست جلسة واستمعت لكلام طيب ومواقف أخلاقية فيها شهامة ومروءة ونجدة.....

حدثني أخ: رجل أعطي أرض بحسب القوانين الأخيرة أخذ عشرين دونم، كان فلاح فقير معذّب لا يجد قوت يومه، فإذا به يملك عشرين دونم، كاد يرقص من الفرح، ذهب لشيخ له في الشام وحدثه عن هذه الأرض الذي أصبح بها مزارعاً قال له شيخه ببساطة: حرام أن تأخذها يا بني هذه الأرض ليست لك، ولم تؤخذ عن صاحبها عن رضا، يقول هذا الإنسان كأن كأس ماء صب على جمرة فأطفأها، كل آماله وسعادته تلاشت بفتوى شيخه، قال: ماذا أفعل ؟ قال: اذهب لصاحب الأرض لعله يبيعك إياها تقسيطاً بع حلي زوجتك فذهب إليه قال: يا سيدي أعطوني من أرضك عشرين دونم وقد سألت شيخي فأخبرني أنها أرض مغتصبة لا ينبغي علي أخذها، فهل تبيعني إياها ؟ قال له صاحب الأراضي: أنا ذهب مني أربعمائة دونم **!** لم يأت ممن أ خذها ولا واحد إلا أنت وهي هدية لك **!**

تملكها وازرعها وبارك الله لك بها، لاحظ هذا الموقف **!** موقف الفلاح الورع، وموقف صاحب الأرض الذي أكبر فيه هذا الورع فوهبه إياها.

أيها الأخوة الكرام: ملخص الدرس أنك مخلوق للعبادة.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات)

وأن العبادة طاعة طوعية أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادة أبدية أن تستمتع بجمال الله عز وجل إلى أبد الآبدين، فالجمال يطلبه المؤمن أضعاف مضاعفة عن ما يطلبه غير المؤمن، لكن المؤمن يطلب جمالاً أبدية وسعادة أبدية، يطلب جمالاً لا يعقبه قبح، فالجمال ألصق شيء في حياة الإنسان، بل إن الإنسان المؤمن حينما يتقي الله يصبغ الله عليه من متع الحياة النظيفة ما لا سبيل إلى وصفه، حتى إن بعضهم حينما قرأ قوله تعالى:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46))

(سورة الرحمن)

قيل جنة في الدنيا وجنة في الآخرة، وبعض العلماء يقول: من لم يدخل جنة الدنيا لم يدخل جنة الآخرة، جنة الدنيا هي جنة القرب من الله، والله عز وجل طريق جنة الدنيا في متناول يديك، أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإن منحنا بالرضا من أحبنا، ولذ بحمانا واحتمي بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا، وعن ذكرنا لا يشغلنك شاغل وأخلص لنا تلقى المسرة والهنا فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنا ولو سمعت أذنك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجب وجئتنا ولو ذقت من طعم المحبة ذرة عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا، ولو نسمت من قربنا لك نسمة لمت غريباً واشتياقاً لقربنا. لا يوجد إنسان على وجه الأرض كالمؤمن يسعى للجمال، لكن يسعى لجمال مقدس ودائم وأبدي. قصة عن مؤمن شهم كريم متواضع تعطر المجلس، وقصة عن إنسان لئيم منحرف ذاتي الاتجاه تعكر المجلس، فيوجد جمال أساسه نفي العيوب وجمال أساسه دقة التكوين والتناسق وجمال الكلام وجمال الأفعال، وحياة المؤمن كلها جمال في جمال وهو في أشد حالاته السلبية يذوق طعم الجمال ماذا يفعل أعدائي بي ؟ إن أبعدوني فإبعادي سياحة وإن حبسوني فحبسي خلوة وإن قتلوني فقتلي شهادة فماذا يفعل أعدائي بي ؟ الكافر وهو في وج النعيم في جحيم وشقاء والمؤمن ولو كان في أصعب حالاته هو في نعيم القرب، هذا معنى قول النبي:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ وَاصَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَهَاهُمْ وَقَالَ إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ إِنِّي أَظَلُّ عِنْدَ رَبِّي فَيُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي *))

(مسند الإمام أحمد)

فأنت إذا كشفت أن في الاتصال بالله جمال لا يدانيه جمال لكنت في حال غير هذا الحال.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (141) :صفات الداعيات1.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-04-20

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

كما هي العادة أحاول أن أضع يدي على جراح لهذه الأمة وأحاول بتوفيق الله تعالى أن أعالجها، الموضوع اليوم قد يبدو غريباً بالنسبة إليكم، الحقيقة الأمة في أمس الحاجة إلى الدعاة إلى الله لأن الأمة شردت عن منهج الله ولأن كل المصائب التي نزلت بها هي بسبب بعدها عن الله عز وجل وبسبب بعدها عن شريعة الله جل جلاله.

إذاً الأمة الإسلامية مع أن انتماءها شكلي لهذا الدين ومع أن انتماءها الذي هي عليه لن ينجها من بلاء كبير إذاً نحن في أمس الحاجة إلى الدعاة.

قد يتوهم شخص أن كل من تعلم شيئاً وتمكن من إلقائه فهو داعية وأن كل أخت طلبت العلم بشكل أو بآخر وتصدرت مجلساً وحولها تلميذاتها فهي داعية، الحقيقة ان الداعية رجل كان أو امرأة له صفات كبيرة ينبغي أن تتوافر فيه حتى يؤدي الرسالة التي أنيطت به.

الحديث اليوم عن الداعيات طبعاً أستمع أحياناً إلى أخطاء كثيرة تقع بها الداعيات وهذا الحكم ليس عاماً والتعميم من العمى هناك داعيات أرجو الله سبحانه وتعالى أن يجعلهن في أعلى مقام عنده داعيات تائبات مخلصات رحيمات ورعات، الإنسان الجيد لا يحتاج إلى معالجة دائماً الإنسان الجيد الحديث عنه قليل لأنه قام بواجبه وأدى رسالته وحقق الهدف أما الناس يتحدثون كثيراً عن الإنسان الذي يخطئ وأنا أقول دائماً النبي عليه الصلاة والسلام له سنة، له سنة عامة بمعنى افعل ولا تفعل وله سنة دعوية، هو النبي كيف دعا أصحابه إلى الدين كيف عاملهم كيف خدمهم كيف تواضع لهم كيف كان رحيماً بهم كيف كانت مشكلتهم مشكلته ؟

يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ يا من كانت الرحمة مهجتك والعدل شريعتك والحب فطرتك والسمو حرفتك ومشكلات الناس عبادتك.

فالنبي عليه الصلاة والسلام له سنة دعوية وكل داعية ذكر كان أو أنثى لم يتبع سنة النبي الدعوية يثير حوله جدلاً كبيراً وقد ينقلب أحيانا إلى منفر والأصل أن يكون مقرب الأصل في الداعية أن يكون مقرباً إلى الله عز وجل لذلك اسمحوا لي بهذه الكلمة أقل ما في الدعوة المعلومات وأكبر ما فيها القلب الكبير، ما الذي شد أصحاب النبي إلى النبي عليه الصلاة والسلام ؟ قلبه الكبير محبته لهم حرصه عليهم رأفته بهم قال تعالى:

(عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (128))

[سورة التوبة: الآية 128]

فلذلك أول حقيقة في الدعوة أن أقل ما فيها المعلومات وأن أكبر ما فيها القلب الكبير والخلق القويم والقدوة والمثل الأعلى.

هناك داعية لا تألف إلا من كان على مستواها فإن كانت من الطبقة الراقية لا تألف إلا من كن في الطبقة الراقية هذه ليست داعية النبي عليه الصلاة والسلام كان يجلس مع الكبير والصغير والغني الفقير وذو الشأن الكبير والأشعث الأغبر الذي لا يملك شيئاً من حطام الدنيا حتى أنه كان إذا صافح أحد أصحابه لم يكن ينزع يده حتى يسحبها الذي صافحه فكان مع الناس يمشي في الطريق يحمل حاجته في بيده تستوقفه امرأة مسنة ضعيفة يقف طويلاً يكلمها في حاجتها فهذا الذي شد الصحابة إلى النبي أخلاقه الرفيعة وقلبه الكبير.

فأنا بادئ ذي بدء ما كل أخت كريمة حفظت شيئاً من كتاب الله أو بعضاً من كتب الفقه أو بعض أحكام التجويد وجمعت حولها فئةً من الطالبات ممكن أن تكون داعيةً موفقة.

أيام الإنسان بكلمة واحدة يخرب ما بناه في شهر بكلمة غير مدروسة بكلمة غير منضبطة بكلمة فيها رعونة يخرب ما بناه في شهر، مرة ثانية هذا ما أرى أقل ما في الدعوة المعلومات وأكبر ما فيها الخلق القويم والقلب الكبير أما إنني لا أقصد أن الدعوة لا تحتاج إلى معلومات كل داعية يجب أن يكون عالماً لكن التبحر الكبير جداً على حساب المعاملة والخلق هذا قد لا يجدي، لابد من حد أدنى من المعلومات الصحيحة الدقيقة المدلل عليها بالشواهد الصحيحة من كتاب الله و من سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم، إذاً الداعية التي لا تألف إلا طبقة معينة من الطبقة المخملية من أصحاب البيوت الفخمة و لا تأبه للفقيرات هذه بعيدة عن أن تكون داعية في خدمة هذا الدين العظيم، لأنه قد تجد في الفقيرة من قلامة ظفرها تعدل عند الله ألف امرأة ليست على ما ينبغي، تأتلف البعيد و تربي القريبة و تداوي القلوب، أحد الشعراء قال:

إن القلوب إذا تنافر ودها مثل الزجاجة كسرها لا يجبر

جاء شاعر آخر فشطر البيت قال:

إن القلوب إذا تنافــر ودها   عند الأكارم جبرها لا يعسر

و قلوب أرذال الأنام إذا التوت   مثل الزجاجة كسرها لا يجبر

أي نظرة قاسية تخضع، كلمة قاسية تنفر، نظرة مستعلية تبعد.

من خلق النبي عليه الصلاة و السلام الذي كان يتمتع به أنه ما لقيه أحد من أصحابه إلا ظن أنه أقرب الناس إليه، هذه بطولة، أي الداعية الكريمة أية أخت من أخواتها و أية طالبة من طالباتها تظن أنها أقرب إنسانة إلى الداعية هكذا، هذه تحتاج إلى ذكاء و إلى طيب و إلى فطنة و إلى تواضع و إلى إدراك الفروق الفردية بين الناس و إلى إعطاء كل ذي حق حقه وأن تنزل الناس منازلهم.

فأول شيء يجب أن تكون لكل الطالبات على اختلاف طبقاتهن و اختلاف انتماءاتهن و اختلاف مستوياتهن.

و النقطة الثانية أن تكون الداعية قريبة من كل واحدة إلى درجة أن تظن كل طالبة من طالباتها أنها أقرب الطالبات إليها و هذه من سنة النبي عليه الصلاة و السلام.

لسيدنا علي كرم الله وجهه كلمة عميقة جداً قال هذا الإمام الكبير: نحن نعرف الرجال بالحق و لا نعرف الحق بالرجال، عكس هذه القاعدة متفشية أكثر ما يكون في الأخوات الداعيات، أي لا تحكم الشرع الحكيم، لا تحكم العقل السليم، أي فلانة و كفى، لا تناقش، لا تمحص، لا تدقق، لا تطلب الدليل، لا تطلب التعليل، هذه تلميذة فلانة مهما تكلمت فهي على صواب، النبي عليه الصلاة و السلام علم أصحابه من خلال قصة جرت أنه:

(("عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُطِيعُونِي قَالُوا بَلَى قَالَ قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَا جَمَعْتُمْ حَطَبًا وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا فَجَمَعُوا حَطَبًا فَأَوْقَدُوا نَارًا فَلَمَّا هَمُّوا بِالدُّخُولِ فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّمَا تَبِعْنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِرَارًا مِنْ النَّارِ أَفَنَدْخُلُهَا فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَمَدَتْ النَّارُ وَسَكَنَ غَضَبُهُ فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

[البخاري، مسلم، النسائي، أبو داود، أحمد]

أي قد تنهى أخت كريمة بناتها عن الزواج و هذا مخالف لمنهج الله عز وجل فلا يوجد توجيه مقبول من أي إنسان كائناً من كان مخالفاً لسنة النبي، و بطولة الداعية أن يعطي إخوانه و أن تعطي الداعية أخواتها منهج التلقي، ما الذي أقبله و ما الذي أرفضه ؟ لا أقبل إلا بالدليل و لا أرفض إلا بالدليل، لو ألغينا الدليل انتهى الدين كله، الدليل هو الذي يحصننا من الزيف والخطأ و الضلال، لو ألغي الدليل ألغي الدين، هذا الدين دين الله و لا يستطيع أحد في الأرض أن ينطق إلا بالدليل، و الله جاءتني البارحة رسالة قرأتها بعد أن انتهى الدرس، قبل البارحة يوم الجمعة و في نيتي أن أقرأها لكم أي أخت لا تنجب هكذا قالت أنا لا أعرف إلا الذي قرأته، من وراء ظهر زوجها سمعت أن شخصاً ما عنده طريقة في أن تكون منجبة ذهبت إليه ثم غابت عن الوعي فترة لشيء قد شربته عنده و بعد حين حملت و فرحت

فرحاً لا حدود له ثم اكتشفت أن زوجها لا ينجب إطلاقاً و الله يوجد دجاجلة في أنحاء العالم الإسلامي و الله يحتاجون إلى إعدام، ثم علمت بعد حين أن كل من تأتيه من النساء العقيمات هو الذي يسبب الحمل و ليس الزوج و رجتني أن أقول هذا في الدرس لأنها وقعت في الفخ، لا يوجد شيء أعدى للإنسان من جهله، الجهل أعدى أعداء الإنسان و الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع أن يفعله عدوه به، قصة لها تتمة لكن لا مجال لذكر التتمة، بعد أن علم زوجها أنها حامل و هو عقيم معنى هذا أنها زانية هذه وقعت قبل شهر تقريباً و الأخت الكريمة رجتني أن أقول هذا للناس لأنها وقعت في فخ الجهل، هذا الدين علم كما قال عليه الصلاة و السلام:

(("عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ "))

[مسلم]

ما أكثر الدجاجلة، ما أكثر الكذابين، ما أكثر المشعوذين، فلذلك الداعية الصادقة ينبغي أن تعلم طالباتها الدين و لو أنها مُرة، أي مئات الاتصالات تأتيني خطبها شاب و شيختها أجرت لها استخارة، بالإسلام لم يرد أبداً أن تجرى استخارة بالنيابة أبداً، هذا شيء مخالف للسنة، و يوجد اتجاه آخر نأخذ الاسم، نأخذ الحروف من أي برج إن كان من برج الثور له وضع، ما هذا الكلام ؟ هذا بين صفوف المسلمين أيها الإخوة، هذا بين صفوف بيوت المسلمين، قضية الأبراج، و قضية التخمين و العرافين و قضية الاستخارة بالنيابة و قضية الحروف حروف الاسم و اسم الأم و اسم الأب و يوجد معادلات رياضية هذا كله خرافات ما أنزل الله بها من سلطان، فأهم شيء أن الداعية مهمتها كبيرة أن تعطي الحقيقة و لو كانت مرة، هل تحبون دليلاً على ذلك ؟ أي حينما توفي إبراهيم ابن النبي عليه الصلاة و السلام كسفت الشمس و الصحابة الكرام هذا ابن نبيهم و نبيهم سيد الأنبياء فشيء عندهم مقبول جداً و معقول أن تكسف الشمس لموت إبراهيم، هكذا فهموا و هكذا قالوا فلما سمع النبي غضب غضباً شديداً قال: إن الشمس و القمر آيتان لا ينبغي أن تكسفا لموت واحد من خلقه، مع أنه أي إنسان يبدو له كرامة و الناس يذكروه فيها يرتاح و يسكت.

مرة طرق بابي أخ قال لي و الله معي تسرع قلب مئة و ثمانين ضربة فقط عندما أضع يدي على الجرس عندك يرجع طبيعياً، قلت له و الله هذا غير صحيح، هذا وهم و دجل، إذا هكذا القضية نجلب كل أمراض القلب لعندي دق الجرس فيعود طبيعياً، أنا أرجو ألا تقبلوا الخرافة، مرة كنت بمكة المكرمة بعمرة سمعت قصصاً عن الأنوار الساطعة من قبر النبي و الله أنا ما أدري أنه إلى كبد السماء أنوار النبي لا يوجد معي تعليق، ليس معي دليل إثبات و لا دليل نفي، ثم انتقلت إلى المدينة المنورة يوجد عالم جليل أحب أن أسمع درسه، كل ما أذهب عمرة أنا أسمع درسه، درسه بين المغرب و العشاء، سمعت درسه فقال في نهاية الدرس أيها الإخوة:

أعلمني أمير المدينة أن هناك أشعة ليزر فوق قبر النبي هذه تكريم للنبي، أشعة ليزر أي صنع بلاد الكفر لا تسموها أنواراً ساطعة للسماء، الإنسان يجب أن يكون علمياً، كل ما هو علمياً يكون كلامه مقبولاً، أما عندما يبالغ فالدعوة فقدت قيمتها، فلذلك أنا لا أعرف الحق بالرجال أعرف الرجال بالحق، أي مثلاً لو جاءني عن عالم كبير كبير كلام مخالف للقرآن و الله أنا من باب الأدب أقول لعل هذا الكلام ليس له، لعله أضيف إليه، لعله زور في كتبه، هذا أكمل موقف أن هذا العالم الجليل لا يعقل أن يقول هذا الكلام فإذا ثبت أنه في كتابه، أول احتمال لعله دس عليه، لو فرضنا يوجد محقق و الكتاب مطبوع طبعات كثيرة أو مخطوط بنسخ عديدة و هذا النص جاء في كل النسخ صار هناك تواتر فإذا ثبت أنه كتبه هو لعلي أبرأه بأنه قصد معنى آخراً غير المعنى الذي فهمته أنا أيضاً من باب حسن الظن و هذا أدب مع العلماء، فإذا ثبت في مكان آخر أن المعنى الذي أنكرته قصده أقول: لعله تاب منه، فإذا ثبت أنه مات و لم يتب منه فهو أخطأ انتهى، نحن عندنا واحد معصوم و انتهى الأمر صاحب القبة الخضراء هو المعصوم ما سواه غير معصوم و هذا من عدم عصمته، أحاول أول الأمر أن أقول إنه مدسوس عليه، ثبت أنه قاله أحاول أن ألتمس له عذراً لعله قصد بهذه الكلمة هذا المعنى هذه الثانية، قصد المعنى الذي أنكرته أنا أحاول أن أتلمس لعله تاب منه قبل أن يموت لا لم يتب منه إذاً أخطأ و انتهى الأمر.

نحن نعتقد أن النبي صلى الله عليه و سلم معصوم بمفرده بينما أمته معصومة بمجموعها لقول النبي عليه الصلاة و السلام: لا تجتمع أمتي على خطأ، فأمة النبي مجتمعة لا تخطئ أما الأفراد يخطئون، و دائماً أنت أرح نفسك، إن وجدت من إنسان له مكانة كبيرة خطأ هذا من عدم عصمته و انتهى الأمر، إذاً الداعية الكريمة لا ينبغي أن كل شيء قالته أستاذتها لا يراجع و لا يناقش و لا يغير و لا يبدل هذا ليس في سنة النبي عليه الصلاة و السلام بل بالعكس يوجد ملمح رائع النبي عليه الصلاة و السلام حينما فتح مكة و قد نهى أصحابه عن أن يقتلوا أحداً صار هناك مناوشات من طرف سيدنا خالد فغضب النبي غضباً شديداً فسأل أراجعه أحد ـ هل يوجد شخص انتقده، قالوا: نعم، قال: من ؟ قالوا: حذيفة، قال: الحمد لله.

أيها الإخوة الكرام:

إذا إنسان متكلم أخطأ و قال له أخطأت نكون نحن بخير، أما حدثني أخ توفي رحمه الله و كان له درس قال لي مرة أتحدث عن فساد المجتمع قال إنه تأتي الفتاة الساعة الثانية عشرة إلى المنزل، أين كنت ؟ و الله كنت عند الحبيب الكل صلوا على الحبيب أي لم يفهموا عن ماذا يتكلم.

يروي واقعة عن فساد المجتمع أن الفتاة تأتي إلى المنزل متأخرة أين كانت ؟ مع الحبيب فالجماعة مرتاحين و ليسوا مع الأستاذ سمعوا الحبيب اللهم صل على الحبيب، هذه مشكلة كبيرة جداً، إذاً الحق نقيس به الرجال و نقيس به الداعيات و ليس ـ دققوا ما أقول ـ تحليل الحرام بأقل من تحريم الحلال

كلاهما في الإثم سواء، شيء حلال تحرمه، توقع الناس في متاهة كبيرة، في عنت كبير، أو شيء حرام تحلله كلاهما خطأ كبير، أي الحق له معالم.

إخوانا الكرام:

الحق لا يخشى البحث، و لا يستحيا به، و لا يحتاج إلى أن تكذب له، و لا إلى أن تكذب عليه، و لا أن تقلل من خصومه، و لا إلى أن تبالغ فيه، الحق هو الله، قوي بذاته من دون تعديل، فالأخت الكريمة الداعية ينبغي أن تكون على علم ثابت، علمها موضوعي و ليس علمها شخصي، أي هكذا قالت الشيخة الفلانية انتهى لا تراجع و لا تناقش هذا شيء غير صحيح.

أي هنا يوجد ملمح لطيف أنه إذا قرعت فقيرة بيت الداعية ذكرتها بفقرها إلى الله، كلنا فقراء إلى الله، التواضع أرقى شيء بالإنسان الداعية لأنه هو لكل الناس، ليس فقط للأغنياء، مرة عالم جليل بمصر ذاع سيطه كثيراً فيوجد حزب عرض عليه أن يكون رئيسه الفخري قال له: أنتم كم ؟ قال له: نحن مليون، قال له: أنا لخمسين مليوناً، الداعية لكل الناس، للأغنياء و الفقراء و المثقفين ثقافة عالية جداً و الأناس الطيبين الذين لم يدرسوا و لكن و الله أحياناً تجد عند الذي لم يدرس من الطيب و الطهر و البساطة ما يوزع على المثقفين أوسمة.

أنا أقول كلمة إذا قلت مؤمن لا تضاف على هذه الكلمة و لا كلمة، إن كان غنياً والله تشتهي الغنى منه، و إذا فقيراً صدقوني ما أقول تشتهي الفقر منه بأدبه و عفته و عزة نفسه وكرامته و إدارته لبيته أي لا يصرف إلا صرفاً مدروساً، و إن كان ريفي تشتهي الريف من أجله ببراءته و كرامته، و إن كان مدنياً تشتهي المدني منه، تفرقة لا يوجد، صحابي جليل من كبار الصحابة لأنه بساعة غضب قال لشخص يا بن السوداء، النبي قال له إنك امرؤ فيك جاهلية، انتهى، فنحن عظمة هذا الدين أنه لكل الناس، و الداعية لكل الناس، كنت أقول دائماً تلبية دعوة الأغنياء من الدنيا، و تلبية دعوة الفقراء من الآخرة، أحياناً يدعوك إنسان بطرف المدينة و مشقة و مكان بعيد تشعر براحة و بانشراح لا يعلمه إلا الله، مرة أخ كريم طالب علم أحبه كثيراً دعانا إلى بيته أول جادة من فوق بيت متواضع جداً صار سروراً و الله لا أنساه حتى الموت هذا السرور، عندما الله يتجلى على الإنسان ينسيه كل شيء، فأنت للكل، أنا هذا الكلام أقوله للأخوات الداعيات: أنت لكل طالبات العلم، غنية، فقيرة، منزلها بالمالكي، منزلها بالشيخ محي الدين، شخص له دروس بالمالكي و كل تلاميذه يسكنون بالمالكي بغربي المالكي هذا أيضاً أرقى، و هو ساكن ببرزة، قال له سيدي أنت أين تسكن ؟ قال له، بشرقي المالكي.

من علامات قيام الساعة أن قيمة الإنسان بمتاعه، ببيته، بموقع بيته، بمساحة بيته، بسيارته، يوجد رقم غير الماركة، يوجد ستمئة و يوجد خمسمئة و خمسين و يوجد مئة و تسعون، يأخذ مكانته من رقم سيارته، هذا من علامات قيام الساعة، قيمة المرء متاعه.

فالداعية لكل طالبات العلم، و الله أيها الإخوة جبر خاطر إنسان لهذا الذي جبر خاطره أجر عند الله لا يعلمه إلا الله، و مرة يحيى البر مكي الذي كان اليد اليمنى لهارون الرشيد أي شيء لا يوصف الغنى و القوة و السلطان فجأة غضب عليهم الرشيد فأودعهم السجن، فجاء شخص و زاره قال له: ما هذا ؟ قال له: و الله لعل دعوة مظلوم أصابتني، و ترون كيف أن الله عز وجل يؤتي الملك من يشاء:

(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ)

[سورة آل عمران: الآية 26]

هل تسمعوا الأخبار كيف ينزع الملك ممن يشاء:

(وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26))

[سورة آل عمران: الآية 26]

أي يوجد معنى أن الأخت الداعية ليس لها فضل على بناتها بل لبناتها فضل عليها، رأيي قد يبدو غريباً، لو لم يكن هناك من يلتف حولها أين دعوتها ؟ فدائماً الإنسان المؤمن يرى فضل الناس عليه، أطلب دليلاً: عندما النبي الكريم بلغه صلى الله عليه و سلم أن الأنصار وجدوا عليه في أنفسهم، متى بلغه ذلك ؟ بعد أن انتهى من معركة حنين، أي بلغ أوج قوته، إذا يوجد خط بياني وصل خطه البياني إلى الذروة العلية أي سيطر على كل الجزيرة، انتهت الحروب، و خضع له كل العرب أجمعون:

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ الْقَالَةُ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ قَالَ فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي وَمَا أَنَا قَالَ فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ قَالَ فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ.....))

أنا شيء لفت نظري و يهز أعماقي أن النبي بدأ حديثه بفضلهم عليه، أي كان من الممكن كما يفعل الأقوياء أن يلغي وجودهم، أو أن يهدر كرامتهم، أو أن يهملهم، أو أن يعاتبهم، الذي فعل أنه ذكرهم بفضلهم عليك:.

((.... قَالَ فَجَاءَ رِجَالٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ قَالَ فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ ثُمَّ قَالَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ قَالُوا بَلْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ

قالَ أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ قَالُوا وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ قَالَ أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ.....))

إذا قلت هذا الكلام أنتم صادقون و الناس جميعاً يصدقونه:

((.....أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ وَعَائِلًا فَأَغْنَيْنَاكَ...))

كل كلامكم صحيح و لكم فضل علي، جاء دوره الآن:

((....أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ قَالَ فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وَقَالُوا رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقْنَا "))

[أحمد، الدارمي]

هداكم الله بي لم يقل فهديتكم، فتطييب قلب أي لا يوجد شيء يفسد العمل كالكبر إطلاقاً، أنا أضرب مثلاً أنه عندك كيلو من اللبن و جاءك عشرون شخصاً لا يوجد عندك شيء، لها حل أن يضع لهم خمسة كيلو من الماء مع قليل من الملح و ثلج صار لبناً عيراناً، أحضر قطارة و ضع فيها نفطاً و ضع بهذا الكيلو من اللبن قطرة نفط واحدة ماذا يفعل باللبن ؟ تتخلص منه، هذا النفط هو الكبر لا يدع شيئاً.

نتابع صفات الداعية الناجحة إن شاء الله:

أحياناً تكون الداعية زوجة و لها زوج أول ملاحظة أن الله أقامها زوجة فأول عبادة لها أن تعبد الله فيما أقامها و يوجد ظاهرة متفشية أن الأخت إذا دعت لله عز وجل على حساب زوجها و أولادها بهذا ما أحسنت، لا تكون الداعية ناجحة إلا إذا عبدت ربها فيما أقامها، تؤدي حق زوجها و حق أولادها إذاً هي قدوة لتلميذاتها، أما إذا أهملت زوجها لا يوجد طبخ و لا انضباط في المنزل و الأولاد غير معتنى بهم و النظافة درجة خامسة و هي داعية هذا الشيء غير مقبول أبداً، لذلك لا تستطيع أن تكون داعية نموذجية و تكون قدوة لبناتها إلا إذا أدت حق زوجها و أولادها، لأن النبي عليه الصلاة و السلام يقول مخاطباً امرأة:

((" اعلمي أيتها المرأة و أعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله "))

و الجهاد كما تعلمون ذروة سنام الإسلام، و كنت أضرب مثلاً لعل بعضهم ينتقدني بهذا المثل، إنسان قامت لصلاة الليل و قامت و صلت و أقبلت و الساعة السادسة تعبت فآوت إلى فراشها و الأولاد عندهم

مدرسة أي كلفتهم أن يدبروا شأنهم، يوجد طفل ثيابه غير منضبطة و يوجد طفل حذاؤه غير جيد، يوجد طفل لم يكتب وظيفته، يوجد طفل لم يأكل صباحاً أكل بطريقة عشوائية فصار مشكلة أخذ معه شطيرة لم يضعها في الكيس انتقل الزيت للكتب فوبخه و عنفه المعلم، لا إذا أنت استيقظت و صليت الفجر قبل طلوع الشمس و هيأت أكلاً للأولاد ودفأتهم قبل أن يذهبوا و راقبت وظائفهم و كتبهم و هندامهم أنت في الحالة الثانية أقرب إلى الله من الحالة الأولى، أقرب بكثير لأنك في الحالة الثانية عبدت الله فيما أقامك، الله عز وجل أقامك أماً لهؤلاء الأطفال فأنت عبدت الله عز وجل فيما أقامك، طبعاً أنا لا أتكلم من فراغ أنا أشعر أن هناك داعيات كثيرات مثل عليه لبناتهن في رعاية الزوج و الأولاد، و يوجد داعيات أصلحهن الله عز وجل مقصرات في حق أزواجهن و في حق أولادهن، و الصحابية الجليلة كانت تقول لزوجها قبل أن تقوم لقيام الليل ألك بي حاجة ؟ لأن الله صمم هكذا المرأة أن تكون حصناً للرجل، صممها أن تكون محصنة للرجل كما قال عليه الصلاة و السلام فإنه أغض للبصر.

إذاً الداعية الناجحة تعطي حق زوجها و أولادها كما لا تنسى حق دعوتها حتى تكون السيدة خديجة مثلاً أعلى لها، أي اقرؤوا قصة السيدة خديجة أنا ما قرأت قصة امرأة أخلصت لزوجها و خدمت زوجها و رغبت ما يرغب كالسيدة خديجة، لما النبي عليه الصلاة و السلام فتح مكة سئل أين تنام يا رسول الله ؟ كل مكة تتنافس على استضافته قال انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة و ركز لواء النصر أمام قبرها ليشعر الناس أن هذه المرأة لها سهم كبير بهذا الفتح المبين، كانت هذه السيدة رضي الله عنها سنده من الداخل، و الإنسان أحياناً ينجح إذا كان مرتاحاً في البيت، ينجح بعمله إذا كان عنده تلبية لحاجاته الأساسية، إذا كان مطمئناً على أولاده، مطمئناً على بيته، من هي المرأة الصالحة التي تسر زوجها إذا نظر إليها بأكمل درجة و تحفظه إذا غاب عنها و تطيعه إذا أمرها، هذه المرأة الصالحة، أي أنا لا أنسى عندما النبي عليه الصلاة و السلام و هو يدخل قال أول من يمسك بحلق الجنة أنا، أول إنسان يدخل الجنة هو رسول الله قال فإذا بامرأة تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي، قلت من هذه يا جبريل ؟ قال: هي امرأة مات زوجها فأبت الزواج من أجل أولادها، طبعاً الحديث له تفصيلات و شروح كثيرة و لكن يوجد ملمح واحد أنها أحسنت تربية أولادها فهي تنازع رسول الله دخول الجنة، إذاً حينما تعبد المرأة الداعية ربها فيما أقامها من رعاية زوجها و أولادها ثم تدعو إلى الله و قد كانت مثلاً أعلى لطالباتها تفوز برضوان الله، أما إذا أهملت واجبها الأساسي عندئذ لا تفلح عند الله عز وجل، أنا لي بهذا الموضوع شريطين قديماً من خمس أو ست سنوات و وضعت النقاط على الحروف و كان الشريط فيه تفصيل شديد في هذا المعنى.

من وفاء النبي للسيدة خديجة أنه قال عنها: صدقتني إذ كذبني الناس، و آوتني إذ طردني الناس و واستني بنفسها و مالها و رزقني الله منها الولد و لم يبدلني الله خيراً منها، مع إن عائشة جميلة و بكراً و لم يبدلني الله خيراً منها.

الآن شخص تموت زوجته يتزوج أخرى لا يوجد نسبة ما شاء الله حولك، رأساً ينسى فضلها و لم يبدلني الله خيراً منها، إن شاء الله في درس قادم نتابع هذا الموضوع، طبعاً هذا الكلام للداعيات و للدعاة لله عز وجل و لكل مؤمن، إياك أعني و اسمعي يا جارة.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (142) :صفات الداعيات2 - العودة إلى التوبة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-04-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة:

لازلنا في الموضوع الذي بدأناه في الدرس السابق حول الصفات التي ينبغي أن تتحلى بها الداعية، و ماذا يمنع أن يكون الدرس شاملاً للداعيات و للدعاة في وقت واحد ؟ لكن قبل أن أشرع في متابعة الحديث أريد أن أضع بين أيديكم حقيقة مهمة جداً، و هي: أن هذه المحن الشديدة التي تمر بالمسلمين هي محن من عند أنفسهم:

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

[سورة آل عمران: الآية 165]

إذاً البطولة ألا تعلق مشكلات المسلمين على جهات أخرى، العدو عدو شأن العدو أنه عدو، و شأن العدو أنه يبطش، و شأن العدو أنه يقهر، لا تعتب عليه، هكذا العدو، و لكن ينبغي أن نقول دائماً مع قول الله عز وجل:

(قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

[سورة آل عمران: الآية 165]

إذاً يوجد عندنا خلل خطير، ماذا ينبغي أن نفعل ؟ لابد من توضيح الخلل و لابد من توضيح الطريق الذي يؤدي إلى تلافي هذه المحن، هذه مهمة من ؟ المقدمة: نحن في محنة شديدة، و المقدمة الثانية: هذه المحنة من صنع أنفسنا، و المقدمة الثالثة: لابد من توضيح الحقائق للمسلمين، إذاً الآن المعول عليه الدعوة إلى الله، إذا كان النبي عليه الصلاة و السلام و هو سيد الخلق و حبيب الحق خاطبه الله عز وجل فقال:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (45) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ)

[سورة الأحزاب]

أريد و بالله التوفيق أن أنزع من أذهان الأخوة الكرام أن الدعوة من اختصاص الدعاة، الدعوة فرض عين على كل مسلم، هي فرض كفاية لمن تفرغ لها و تعمق بها و تبحر فيها، و لمن أتقنها و لمن علم الأدلة التفصيلية و لمن تمكن أن يرد على كل الشبهات هذه فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الكل، أما الدعوة بمفهومها البسيط الواسع فرض عين على كل مسلم لأن الله عز وجل حينما قال:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

[سورة العصر]

التواصي بالحق أحد أسباب النجاة بل ربع النجاة، و الآية الثانية:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف: الآية 108]

فإن لم تدعو على بصيرة أي بالدليل و التعليل لست متبعاً لرسول الله، و من لم يتبع رسول الله فهو لا يحب الله بدليل قول الله عز وجل:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي)

[سورة آل عمران: الآية 31]

إذاً نحن أمام مهمة أساسية مصيرية مكلف بها كل إنسان و في الحديث الصحيح: بلغوا عني و لو آية.

هذه الدعوة التي هي فرض عين بالضبط في حدود ما تعلم و مع من تعرف، ما كلفك الله فوق ما تطيق، إذا رأيتم شحاً مطاعاً، و هوى متبعاً، و إعجاب كل ذي رأي برأيه فالزم بيتك و أمسك لسانك و خذ ما تعرف و دع ما تنكر و دع عنك أمر العامة و عليك بخاصة نفسك.

خاصة النفس أقاربك، جيرانك، أصدقاؤك، زملاؤك، من هم معك في المسجد، هذا معنى عليك بخاصة نفسك.

إذاً الآن لا يوجد شيء ينجي المسلمين من هذه المحن المتتابعة، من هذه المحن الساحقة، من هذه المحن الماحقة، إلا التنوير، الدعوة، من أنت أيها المسلم ؟ من هو عدوك ؟ كيف السبيل إلى الانتصار عليه ؟ كيف السبيل إلى الخلاص منه ؟ ماذا يرضي الله عز وجل ؟ هذا مهمة كل مسلم، لذلك قد تقنع أخاً لك، قد تأتي به إلى المسجد، قد تقدم له شريطاً، قد تقدم له كتاباً، قد تقنعه أنت، الدعوة فرض عين على كل مسلم، و أعيد و أكرر: من لم يجاهد أو من لم يحدث نفسه بالجهاد مات على ثلمة من النفاق، و الحد المقبول من الجهاد هو الجهاد الدعوي لقوله تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً (52))

[سورة الفرقان: الآية 52]

هذه مقدمة، أي لابد من الدعوة إلى الله، و لابد من أن ينهض بها كل مسلم من دون استثناء، و الشيء الذي يلفت النظر هو أن الله سبحانه و تعالى حينما وصف هذه الأمة بأنها خير أمة أخرجت للناس، هذه الخيرية لها علة، فإذا انتفت هذه العلة انتفت هذه الخيرية، قال:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس)

[سورة آل عمران: الآية 110]

علة خيريتكم تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و تؤمنون بالله، علة خيرية هذه الأمة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، فإذا تركت هذه الفريضة السادسة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر انعدمت خيرية هذه الأمة، عندئذ أصبحنا كالذين قالوا:

(نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

[سورة المائدة: الآية 18]

فرد الله عليهم فقال:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: الآية 18]

أي حينما لا تستجيبون لله عز وجل و حينما تذنبون أنتم شأنكم كشأن أية أمة، ليس لكم و لا ميزة عند الله تعالى، الآن الدعوة إلى الله أيها الأخوة و هذا الذي أراه، الدعوة إلى الله لابد لها من معلومات كل داعية عالم لكن ما كل عالم بداعية، نقل المعلومات، توضيح الحقائق، تدعيمها بشواهد، بأمثلة، صياغتها بصياغة لطيفة، بسيطة، مألوفة، محببة، هذا اختصاص أو هذا فن في نقل الإنسان من حالة إلى حالة، فلابد للدعوة من علم، و لكن سأقول لكم هذه الحقيقة، لكن المعلومات في الدعوة هي أقل ما فيها، أكبر ما فيها قلب كبير، أكبر ما فيها خلق قويم، أكبر ما فيها قدوة حسنة، أكبر ما فيها أسوة حسنة، أي أنت تستطيع أن تؤثر فيمن حولك و في الذين معك بشكل غير معقول بقدر أن تكون قدوة لهم، أي الكلام يكاد ينتهي مفعوله فقط مع أن الأنبياء جاؤوا بالكلمة، لكنهم جاؤوا بالكلمة الطيبة، جاؤوا بالكلمة الصادقة و بالكلمة فقط قلبوا وجه الأرض، بالكلمة فقط رفرفت راياتهم في أطراف الدنيا، لأن الله عز وجل يقول:

(مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ)

[سورة إبراهيم]

الله عز وجل جعل الكلمة الطيبة تطير في الآفاق، الكلمة الطيبة الكلمة الصادقة، الكلمة الطيبة الكلمة المخلصة، الكلمة الطيبة الكلمة التي سلمت من الأهواء و الحظوظ و المصالح، الأنبياء جاؤوا بالكلمة الطيبة و بالكلمة الطيبة وحدها فعلوا كل شيء، لكن لكثرة النفاق و لكثرة معسول الكلام و لكثرة من ترى كلامه كالعسل و فعله كالأثل لكثرة هذه المفارقة الحادة تكاد الكلمة وحدها تفقد قيمتها، لابد لها من دعم سلوكي، لذلك الحقيقة الأولى أيها الأخوة:

الذي يشد الناس إليك معاملتك قبل كلماتك، كنت أقول دائماً القدوة قبل الدعوة، كان أصحاب النبي عليه الصلاة و السلام شدوا إليه شداً يفوق حد الخيال ماذا فعل إنه بشر لكنهم ما رأوا أبداً مسافة بين أقواله و أفعاله، ما رأوا مسافة أبداً بين ما يقول و بين ما يفعل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3))

[سورة الصف]

إذاً إنسان، إنسانة أو إنسان، تعلم أو تعلمت بعض العلم هذا العلم شيء شريف لكن نقله يحتاج إلى خلق عظيم، لذلك الله عز وجل حينما أراد أن يصف النبي أو حينما أراد أن يثني على النبي، أو حينما أراد أن يمدح النبي، طبعاً هو خطيب بارع و قائد حازم و زعيم فذ و مجتهد كبير و عالم جليل، كل الصفات كان في أعلاها، أما حينما الله عليه قال:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4))

[سورة القلم: الآية 4]

و كنت أقول سابقاً و لاحقاً أن هذا النبي الكريم الذي آتاه الله العلم و آتاه الحكمة و آتاه المعجزات و آتاه الفصاحة و آتاه الخلق العظيم هو نفسه على ما هو فيه من تفوق كبير قال له أنت نفسك:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ)

[سورة آل عمران: الآية 159]

أي هو نبي و رسول و سيد البشر و أوتي المعجزات و أوتي القرآن و هو موفق من قبل الله عز وجل و أفصح العرب قاطبة و كان جميل الصورة عليه الصلاة و السلام قال له أنت بذاتك:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

[سورة آل عمران: الآية 159]

فأنا كنت أقول إذاً هذا النبي ليس نبياً و لا رسولاً و لا يوحى إليه و ليس معصوماً وليس معه كتاب و ليس معه وحي و ليس معه معجزات و هو فظ غليظ القلب هذا منفر، فقبل أن تنطق بكلمة الحق عد للألف هل أنت محبوب ؟ هل يحبوا الناس أن يقتربوا منك ؟ هل أنت متواضع ؟ هل في قلبك رحمة ؟ هل تعيش مشكلات الآخرين ؟ هل يؤلمك ما يؤلمهم؟ أحياناً الإنسان بتصرف فيه رحمة أو تصرف فيه محبة من منكم يصدق أن أكبر إنسان ملحد بفرنسا من عدة سنين أسلم فسئل عن سبب إسلامه ؟ قال: بالحرب العالمية الثانية وقع أسيراً و الجندي الذي كان مكلفاً أن يقتله مسلماً فلم يقتله و أطلق سراحه أي لا ينسى هذا الموقف من هذا الإنسان المسلم و هذا الأمر اعتلج في نفسه سنوات و سنوات إلى أن دفعه في النهاية إلى أن يسلم.

موقف وحد، ذكرت مرة و هذا شيء مهم جداً أنه من تلبيس إبليس أن إبليس يزهد المؤمنين بما هم قادرون عليه، شيء بيدك، تصلي صلاة متقنة، تغض بصرك، لا تكذب، لا تغتاب، بيدك و إن فعلت هذا أثنى الناس عليك و لا أحد يسائلك و لا أحد يحاسبك و لا أحد يوقفك إذا كنت صادقاً أميناً عفيفاً متقناً لعملك، إذا كنت أباً رحيماً، إذا كنت أخاً كريماً، إذا كنت زوجاً وفياً، إذا أقمت أمر الله في بيتك، إذا أقمت أمر الله في عملك، من يستطيع أن يسائلك ؟ لا أحد، بالعكس هذا في مقدورك و في إمكانك و في قدرتك، إبليس اللعين يزهد المؤمنين بما هم قادرين عليه و يأتي إلى شيء مستحيل أن يفعلوه فوق

طاقتهم يدفعهم إليه، فبالنهاية لا الذي هم قادرون عليه فعلوه و الذي هو مستحيل طبعاً ما فعلوه، في النهاية ما فعلنا شيئاً، إذاً مكانك تحمدي أو تستريحي.

و الله أيها الإخوة ما رأيت مثلاً يوضح حال المسلمين اليوم كهذا التعريف و قد ذكرته لكم من قبل، الإسلام أصبح ظاهرة صوتية، أنت قد تأتي بمسجلة و معها مكبرات و تأتي بشريط و ترفع الصوت إلى أعلى مستوى فإذا هذه المسجلة و هذه المكبرات تملأ المكان صياحاً و ضجيجاً، هذا الصوت ينتهي بحركة واحدة، اقطع عن هذه المسجلة الكهرباء لم يعد هناك شيء. أيعقل أن يكون الإسلام ظاهرة صوتية ؟ أين الإسلام ؟ الإسلام هز أركان الدول و العروش، أي بالضبط و لا أبالغ وضع المسلمين في المدينة أمام دولتين عملاقتين الروم و فارس لا يزيد كثيراً عن وضع المسلمين أمام دولة عملاقة كبيرة و مع ذلك:

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ)

[سورة البقرة: الآية 249]

و يجب أن تعرفوا أن قوة العدو الآن إن كان الإسرائيلي و إن الثاني حليفه ليست قوة معدات بقدر ما هي قوة معلومات، و المعلومات من أين يأتون بها ؟ من ضعاف النفوس أليس كذلك ؟ إذاً يوجد كم كبير من ضعاف النفوس أعطوا هذه المعلومات فأضافوا إلى قوتهم العاتية قوة جديدة، فقضية خلل خطير في علاقاتنا، خلل خطير في معتقداتنا، خلل خطير في سلوكنا، و هذا الذي حدث:

(قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

[سورة آل عمران: الآية 165]

أول نقطة أنه أنت أيها الأخ أو أنت أيتها الأخت كداعية أو كداع إلى الله ينبغي ألا تزهد بما أنت قادر عليه، ممكن أن نعين أخاً، يمكن أن نتقن عملنا، يمكن أن نكون صادقين، يمكن أن نرأب الصدع، أي شخص شكا زوجته لأخيها فقال له طلقها أفضل لك، أين العطف و الوفاء و الاهتمام ؟ أنا ينتهي إلى علمي أحياناً أن زوجين متخاصمين مضى على الخصومة بينهما أشهر طويلة و لا أحد ممن حول الزوجين يفكر أن يصلح بينهما، يوجد حالة اسمها انتماء ذاتي لم يعد هناك انتماء جماعي، كل شخص همه الأول بيته، و همه مصالحه، و همه دخله، و همه استمتاعه بالحياة، على الدنيا السلام، هذا الإنسان لا يستحق أن ينتصر لأن الله عز وجل يقول:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

[سورة الأنفال: الآية 25]

أوضح مثل لو أن حريقاً نشب في حي من أحياء المدينة فالذي يسكن في آخر الحي قال أنا لا علاقة بي الحريق في أول بيت، نقول لصاحب آخر بيت إن لم تخرج من بيتك و تسهم في إطفاء الحريق فالحريق سيصل إليك و هذا معنى قوله تعالى:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

[سورة الأنفال: الآية 25]

أتمنى على كل أخ كريم أن يفكر كيف يضبط أموره أكثر، و كيف يضبط دخله أكثر، و كيف يضبط علاقاته أكثر، و كيف يضبط جوارحه أكثر، أنا لا أقول لا يوجد ضبط، شخص يرتاد بيتاً من بيوت الله، مؤمن بالله عز وجل، مؤمن بالآخرة، مؤمن بهذا الكتاب الكريم، لاشك أنه أقرب إلى الاستقامة و لكن أنا أقول نحتاج إلى مزيد من الاستقامة إلى أن تشعر أنك أديت الذي عليك، بقي الذي لك، إلى أن تشعر أنه ليس بينك و بين الله حجاب، لا يوجد مخالفة تقف بينك و بين الله، إن شاء الله فكرت قبل أيام أن أعالج موضوع غض البصر في خطبة قادمة إن شاء الله، أبسط شيء غض البصر، يوجد جهة بالأرض تمنعك أن تغض بصرك ؟ كلا و يوجد بها آية قرآنية، و غض البصر دليل إيمان بالله، دليل أنك مصدق بكتاب الله، فقبل أن تطبق تفاصيل الشريعة لا تستطيع أن تواجه عدواً، تبقى ظاهرة صوتية، احفظوا هذه، ظاهرة صوتية، بلحظة تنتهي هذه الظاهرة، كيف أنه بلحظة كل هذه القوة تبخرت و سقطت بغداد أين القوة، أين الفرق الخمسين ؟ أين...؟ جميعه تلاشى، ممكن المسلم أن يكون ظاهرة صوتية لإجراء بسيط انتهى كل شيء، هذا خلل خطير و هذا مؤشر، هذا مؤشر أيضاً خطير. فيا أيها الإخوة:

نحتاج إلى أن يكون كل واحد منا داعية، أي معقول و أنت تحضر دروساً عشرين عاماً تفسير و تحضر خطباً ثلاثين سنة، و تسمع تفسير آيات لما لا نهاية، و تسمع تفسير أحاديث، و قارئ للفقه، و لا تنطق بكلمة حق، كل العمر تلق لا يوجد إلقاء، كل العمر منفعل لا يوجد فاعل، لا يوجد فعل فقط منفعل، أي تثني على الدرس و على من يتكلم و على المسجد و نحن بخير و الحمد لله و جامعنا جيد، ماذا قدمت بين يدي الله عز وجل ؟ ماذا قدمت بين يديك لله عز وجل ؟ فأنا درسي الآن نحن كلنا دعاة إلى الله لك صديق بود، بلطف، من دون شدة، نبهه أن هذا العمل لا يجوز و الدليل الآية و الحديث، و بينك و بينه حتى لا يكون تشهير، النصيحة شيء و الفضيحة شيء آخر، إذا كان ضبطنا بيوتنا، و ضبطنا أعمالنا، و تناصحنا، و تواددنا، و وضعنا الخلافات بيننا تحت أقدامنا، لعل الله يرحمنا أو لعل الله يحفظنا،أي رأيتم ماذا حدث لم يبق شيء، دمار أمة، وثيقة لا يوجد، قيد نفوس لا يوجد، شهادات لا يوجد، دراسة لا يوجد، كل شيء ألغي، لا يوجد امتحانات أبداً، أي لزموا شركة بطبع كتب لتوزع على الطلاب، أي كتاب الديانة سيتألف بعيداً من وراء البحار، سوف يأتي يقرؤه الطالب لا يوجد شيء، لا يوجد قيود سجلات عقارية، لا يوجد قيود نفوس، لا يوجد جامعات، لا يوجد مدارس، لا يوجد طعام، ولا كهرباء، و لا تدفئة، لا يوجد شيء، تدمير كامل، خمسة عشر مليون كتاب أحرق، مئتي و خمسين ألف مخطوط أحرق، المتحف به آثار من سبعة آلاف سنة دمر و سرق، هكذا يفعل الكافر، هذا الذي

ترونه مخيف و كل دولة إسلامية مرشحة أن يصيبها ما أصاب شعب العراق، ماذا نفعل ؟ نفعل أن نطيع الله، نملك أن نتوب إلى الله، نملك أن نؤدي الذي علينا و أن نطلب من الله الذي لنا، الله عز وجل أرانا ماذا يفعل الكافر إذا انتصر، ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب، أي نجمع أسلحة تجمع كمية جيدة فجرناهم مات أربعين شخصاً لا يوجد مشكلة و سبعين جريحاً، لا يوجد مشكلة أبداً فهكذا يفعل:

(قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

[سورة آل عمران: الآية 165]

يوجد خلل، العلاقات بيننا سيئة، مرة أخ اختلف مع أخيه أنا دخلت وسيطاً بينهما وعملنا اتفاقاً و كتبنا و أمضينا سهرات عديدة ثم مات أحد الأخوة و دخل الأخ مع أبناء إخوته في القضاء عشر سنوات ثم أبرزوا الورقة التي كتبتها فالقاضي طلب شهادتي أن هذه بخطك ؟ قلت: نعم، فبعد أن بينت للقاضي شهادتي قلت له نحن مشكلتنا ليست مع أعدائنا مشكلتنا مع أنفسنا، لأن الله عز وجل يقول:

(وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ)

[سورة ص: الآية 24]

و الإمام الشافعي استنبط أن الذي يبغي على خليطه ليس مؤمناً، الزوجة خليط، و الشريك خليط، و الورثة خلطاء، فإذا إنسان بغى على خليطه، على شريكه، على أهله، على إخوته، على أقاربه، على جيرانه، ليس مؤمناً:

(وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ)

[سورة ص: الآية 24]

كم عدوان يوجد على بعضنا البعض ؟ أكل مال حرام، كم من إنسان يأكل المال الحرام ؟ كم من إنسان يعتدي على أملاك الغير ؟ كم من إنسان يعتدي على حقوق الغير ؟

(قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

[سورة آل عمران: الآية 165]

إخوانا الكرام:

الحقيقة مرة و سهل جداً أن تقول نحن لا علاقة لنا الاستعمار، الموساد، الصهيونية العالمية، سهل جداً، هذا شيء لا يكلفنا شيء بالعكس نرتاح، الخطأ ليس من عندنا من تآمر الاستعمار، من تآمر الصهيونية، لا:

(قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

[سورة آل عمران: الآية 165]

لا تعلق مشكلاتك على الآخر إطلاقاً الله موجود، كيف سمح لهم الله عز وجل ؟

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

[سورة الزخرف: الآية 84]

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (26))

[سورة الكهف: الآية 26]

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود: الآية 123]

فأنا أرى أنه ينجينا أن نواجه الحقيقة، ينجينا، نعترف بخطئنا، ينجينا أن نتحرك، يدمرنا أن نبقى ظاهرة صوتية، صوت فقط، نتكلم، يدمرنا ألا نقلع عن ذنوبنا، يدمرنا أن نهتم بما لا نستطيع و أن ندع ما نستطيع، أنتم تذكرون قبل سنة تصريح نريد أن نحاسب العراق، هذا كلام بعد ذلك أصبح فعلاً، ثم قصف، ثم تدمير، ثم احتلال، ثم نهب ثروات، بعد ذلك أخذوا كل شيء، لا تستهين بالكلام، البدايات كلام تصريحات، تهديد البداية، ثم بعد ذلك يصبح فعلاً، فأنت كمسلم ماذا عليك ؟ عليك أن تتوب إلى الله، عليك أن تصلح ذات بينك، أن تصلح علاقتك بالله، و أن تصلح علاقتك بمن حولك، و أن تصلح العلاقة بين اثنين، هذه مهمتك، من أروع الآيات:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال: الآية 1]

و الله موجود و الأمر بيده:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الفتح: الآية 10]

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

[سورة الأنفال: الآية 17]

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (26))

[سورة الكهف: الآية 26]

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

[سورة الزخرف: الآية 84]

هذه آيات التوحيد تملأ قلبك راحة، تملأ قلبك استسلام لله عز وجل، تملأ قلبك يقيناً، نحن في حاجة إلى التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، أي الجهة الطاغية إذا كانت قوية جداً فالله عز وجل أقوى، أنت عندما ترى لعبة السيارات الكهربائية تجد أنهم يتطاحنوا، صاحب المشروع قطع الكهرباء لم يعد هناك شيء انتهى كل شيء، جميعه جمد بمكانه، الله عنده القاطع، أي أكبر قوي تلاشى، و رأيتم أنتم كيف أن الله ينزع الملك ممن يشاء.

كنت بأعلى درجة وجاهة أصبحت ملاحقاً تريد أن تسلم نفسك أليس كذلك ؟ كيف ينزع الله الملك ممن يشاء ؟

(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

[سورة آل عمران: الآية 26]

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12))

[سورة البروج: الآية 12]

و الله عز وجل له سياسة يا أخوان، سياسته إرخاء الحبل، يرخى الحبل إلى درجة يتوهم الإنسان أنه لا يوجد مشكلة، يفعل، يتصرف بلا محاسبة، ثم يحاسب حساباً عسيراً

أيها الإخوة:

أريد أن أطمئنكم إلى أن الله سريع الاستجابة فإذا أنت عقدت العزم على توبة نصوح، عملت برنامجاً لما ينبغي و لما لا ينبغي، أي برنامج لعباداتك، برنامج لتلاوة القرآن، برنامج للجلوس مع أولادك و توجيههم، لو ابتعدنا قدر ما نستطيع عن هذه الملهيات و جلسنا مع أهلنا و علمناهم ما في الكتاب و ما في السنة، أي دائماً يوجد حركة حياة كلها منحرفة، بما أنها عامة أصبحت طبيعية دون أن نشعر، بما أنها عامة طبيعية، إذاً هذا الطفل بماذا يتغذى ؟ و هذه الفتاة ما الذي يغذيها ؟ الأفلام، فإذا كان البيت غير منضبط فالتغذية من جهات غير منضبطة، دائماً الذي يرى لا يوجد انضباط عقائدي و لا انضباط سلوكي، يعني إلحاد مع إباحية تقريباً، فإذا كانت الأمور هكذا الأولاد يستقون ثقافتهم من هذه الأعمال الفنية، و الزوجة مع الجيران، و الأب غارق بالعمل إلى قمة رأسه، هذه الأسرة المسلمة، لا يوجد انضباط و لا يوجد تربية، و لا يوجد اهتمام بمصير الأولاد، همه الأول أن يطعمهم و أن يسقيهم، همه الثاني أن ينجحوا في دراستهم فقط، هذا واقع المسلمين، الأب مسؤول عن أولاده، عن دين أولاده، عن سلوك أولاده، أنا لا أتكلم من فراغ، يوجد عندنا خلل خطير، تجد شخصاً يرتاد المسجد يا ترى بيته يتناسب مع انتمائه ؟يا ترى سلوك زوجته يتناسب مع انتمائه ؟يا ترى بناته خروجهم يتناسب مع انتمائه إلى المسجد ؟ إذاً يوجد خلل خطير إذا سمحنا لأعدائنا أن يغذونا بالثقافة المنحرفة، كم أسرة في دمشق لا تقبل من العريس إلا أن يجلس مع ابنتهم أمام كل النساء شبه العاريات ؟ تجد أسرة ترتاد المساجد لا يصير هذا يتكلموا علينا لا نستطيع، كم أسر فيها اختلاط بأعلى درجة ؟ كم أسرة لا يوجد انضباط باللباس بالبيت ؟ يوجد كثير، فقبل أن نقول يا رب لما لم تنصرنا يجب أن نسأل أنفسنا ماذا فعلنا حتى نستحق النصر ؟ و الله أيها الإخوة أتمنى أن أعالج موضوعات عادية لكن أشعر في خطر جاسم و خطر قريب، هذا الخطر لا يدفعه عنا إلا طاعتنا لله، فالله لا يريد مظاهراً، طبعاً ممكن يوم الجمعة أن تضع عطراً من مسك محضره من السعودية، و تمسك مسبحة تركواز و تطقطق بها، و لكن ليست هذه القصة، القصة تغض بصرك، القصة تحرر دخلك، القصة تعمل عملاً صالحاً، القصة تربي أولادك، أنا لا أتكلم من فراغ، أرى خللاً خطيراً، و الخلل صار منتشراً فأصبح مألوفاً، يقول لك لا أعمل شيئاً، أنت تعمل كل شيء، و ما عم تساوي شيء، لا تقبل امرأة مسلمة محجبة إلا إذا دعت كل أصهار و بنات أن

يأكلوا جميعاً على مائدة واحدة صح أم خطأ ؟ هذا الصهر شاهد زوجة عديله، و شاهد حركاتها وسكناتها و ضحكها، اختلاط، يوجد فساد كبير، هذا في الأسر الملتزمة، في الأسر التي ترتاد المساجد هكذا، فإذا أردنا أن نحدث عن الخلل في حياتنا يوجد خلل خطير هذا الخلل جلب هذا البلاء الكبير، فنحن لا نملك إلا أن نطيع الله عز وجل، لو دخلنا بالتفاصيل يوجد أكثر، يوجد بالبيوع مخالفات كبيرة جداً، يوجد باستثمار المال مخالفات كبيرة جداً، يوجد بالعلاقات الاجتماعية مخالفات كبيرة جداً، يوجد بخروج النساء بالطرقات مخالفات كبيرة جداً، يوجد بسماع الأغاني مخالفات كبيرة جداً، بيوت مسلمين تصدح بها الأغاني صح أم خطأ ؟ و الغناء معروف حكمه، الغناء محرم، غناء و كسب حرام و كسب ربوي أحياناً وشيء مألوف أنه أنا مالي أضعه في الصندوق الفلاني و بالبنك الفلاني، مرتاح و لا يوجد عنده مشكلة و الله لا ينصرنا.

الله عز وجل لا ينصرنا إلا إذا تركنا كل المنكرات، أنا لا أملك إلا هذه الدعوة إن شاء الله تكون صادقة، أن نصحو، أن نرجع، أن نغير، إذا ما غيرنا الله لا يغير ما بنا، إن لم نغير الله لا يغير، و على أسوأ، كم دعونا، يمكن لا يوجد مسجد بالعالم الإسلامي خلال عشرين يوماً يوجد دعاء القنوت بكل الصلوات صح ؟ لم يحصل شيء، الدعاء لا يكفي، إذا لم يوجد تغيير جذري الدعاء لا يكفي، أسأل الله أن يكون هذا آخر درس في موضوع حس النفوس على الطاعة، و على الاستقامة، و على العودة إلى الله، و على ضبط البيوت، وعلى ضبط الإنفاق، و ضبط الدخل، أجد مشكلات كبيرة جداً بين المسلمين و بالقضاء وبخلافات إذا هذا المال ليس لك كيف تأخذه ؟ أقول لك أنا وكلت محامياً، المحامي ينجيك من عذاب الله عز وجل ؟ لا ينجيك، شخص منكم يعمل مراجعة يدخل لبيته، أنا كنت أقول الكتاب السخيف تقرؤه فإذا انتهيت من قراءته تثاءبت و نمت، أما الكتاب الخطير فتبدأ متاعبك، أنا أنتظر من الأخ المؤمن الصادق إذا استمع إلى هذا الدرس أن تبدأ متاعبه، كيف أصلح بيتي ؟ كيف أصلح زوجتي، كيف أصلح بناتي ؟ ينتهي هذا الدرس فتبدأ متاعبنا هذا الإنسان الصادق و كل إنسان:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

[سورة فصلت: الآية 46]

الإنسان إذا انطلق من حبه لذاته أي إذا كان بالتعبير الدارج أناني عليه أن يطيع الله عز وجل لأنه أنت أعقد آلة بالكون، و الآلة المعقدة تعقيد إعجاز لها صانع و الصانع له تعليمات و لا يوجد جهة ينبغي أن تتبع تعليماتها إلا الصانع لأنه الخبير، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14))

[سورة فاطر: الآية 14]

فنكتفي بدرسين، المنطلق كان عن الداعيات ثم توسع الموضوع إلى الدعاة ثم أصبح دعوة إلى الصلح مع الله، دعوة إلى التوبة، دعوة إلى إصلاح البيوت، دعوة إلى تحري الحلال، دعوة إلى السلوك المنضبط الاجتماعي، فلعل الله سبحانه و تعالى يرينا من كرمه و حفظه وبأسه بأعدائنا ما تقر به عيوننا إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (143) :توجيه إلى الطلاب بشأن الامتحان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-06-06

بسم الله الرحمن الرحيم

الذاكرة شيء مهم جداً في حياة الطالب و الداعية:

أيها الأخوة الكرام: وعدتكم في الدرس الماضي أن يكون هذا الدرس عن أصول الدراسة، و المراجعة، و المذاكرة، لأن طلابنا الأعزاء في الشهادتين الإعدادية و الثانوية عندهم امتحانات لعلها كما تسمى مصيرية، فقد يتحدد مصير الطالب في كليات الجامعة بحسب العلامات التي نالها في الشهادة الثانوية.

أيها الأخوة الكرام: دائماً و أبداً هناك جهد مبذول في الدراسة، هذه حقيقة أولى، و لكن هذا الجهد إذا كان وفق أصول الدراسة قد يؤتي ثماره اليانعة، و إذا كان عشوائياً من دون قواعد و أصول قد لا يؤتي ثماره اليانعة.

بادئ ذي بدء: هذا النص الذي أمامك، أو هذا الكتاب الذي أمامك، أو الكتاب المقرر، سأسمح لنفسي أن أقول: لو أن الجهد يقاس بوحدات، لو أن الجهد في قراءة هذا الكتاب يقاس و في فهمه و في حفظه يقاس بوحدات، أي تقريباً أنا بحاجة إلى مئة وحدة كي ينتقل هذا الموضوع إلى ذاكرتي، بالمناسبة الذاكرة لها أهمية كبيرة جداً في الدراسة، أنت في الامتحان تكتب من ذاكرتك، أنت إذا ألقيت كلمة تكتب من ذاكرتك، أنت إذا ألقيت خطاباً تكتب من ذاكرتك، فقضية الذاكرة شيء مهم جداً في حياة الطالب و الداعية.

الذاكرة التعرفية و الذاكرة الاسترجاعية:

أيها الأخوة الكرام: لابد من أن أوضح لكم أن هناك ذاكرة تعرفية، و ذاكرة استرجاعية، و الفرق بينهما واسع جداً، أي أنت إذا قرأت كتاباً، لو أنك أردت بعد سبعة أيام أن تذكر ما الذي قرأته لا تذكر شيئاً، يبقى عندك انطباع، و الله كتاب جيد، كتاب عميق، كتاب عالج قضايا أساسية، أما التفاصيل لا تذكرها، و لو ذكر لك أحدهم بعد شهر أو شهرين قصة مثيرة تقول: هذه قرأتها في الكتاب، أنت لا تستطيع أن تستذكرها لكنها إذا ذكرت لك تتذكرها، إذاً الذي قرأته في هذا الكتاب أودع في ذاكرة اسمها الذاكرة التعرفية، هذه لا قيمة لها إطلاقاً.

أنت حينما ترى كلمة باللغة الإنكليزية تقول: هذه معناها صلة، لكن عندما تريد أن تتكلم قد لا تسعفك ذاكرتك بأن تعطيك هذه الكلمة، إذا رأيتها تعرف معناها لكن لا تستطيع أن تستدعيها، إذاً نحن أمام ذاكرة تعرفية لا قيمة لها إطلاقاً، القصة إذا ذكرت أمامك تستذكرها، الحادثة تستذكرها، المقولة تستذكرها، لكن لا تستطيع أن تستدعي هذه المعلومات، أو القصص، أو الحقائق، لأنها مخصصة في ذاكرة لا تفيدك عند الحاجة.

كيف أنقل هذه المعلومات من ذاكرة تعرفية إلى ذاكرة استرجاعية ؟ هنا الجهد، الذاكرة الاسترجاعية في أية لحظة تريد هذه المعلومة هي في ملكك تملكها، تنطق بها في أية لحظة، بالذاكرة التعرفية لا يمكن أن تستذكره، أما إذا قرأته ثانية تذكر أنك قرأته سابقاً، إذاً دعونا من الذاكرة التعرفية لأنها لا تجديك في الامتحان شيئاً، لكن الذي يجديك الذاكرة الاسترجاعية.

على الإنسان أن يودع الحقائق و المعلومات التي يقرؤها في الذاكرة الاسترجاعية:

الآن: أنا حينما أضع أمامي كتاباً، و أقرأ، بقدر الجهد الذي أبذله في القراءة بقدر ما تنتقل المعلومات إلى الذاكرة الاسترجاعية، من دون جهد يحفظ في الذاكرة التعرفية.

أحياناً الإنسان يوهم نفسه أنه يقرأ، يجلس بمكان، يضطجع أحياناً، يستلقي على السرير، يفتح الكتاب و يقرأ، هل تصدق أن الجهد المبذول في هذه القراءة يساوي وحدة واحدة، و أنت من أجل أن تنتقل هذه المعلومات إلى الذاكرة الاسترجاعية تحتاج إلى مئة وحدة، أما حينما تجلس على طاولة، و تمسك قلماً من الرصاص، و تقرأ الفقرة، و تلخصها على الهامش الأيمن، تقرأ الفقرة الثانية تلخصها، تربط بين الفقرتين، تقول: هذه الفقرة لها شاهد هنا، و هناك ليس لها شاهد، لماذا ؟ هذا الشاهد واقعي، هذا الشاهد نصي، هذا الشاهد تاريخي، أنت حينما تحلل ما تقرأ، أين الفكرة ؟ كيف شرحت ؟ كيف جاء الدليل عليها ؟ كيف ربطت ؟ و تكتب هذا كله على اليمين، الآن بذلت تسعين وحدة ، كلما ارتفعت نسبة الجهد في قراءة الموضوع كلما كان معظم هذا الموضوع قد أودع في الذاكرة الاسترجاعية، إذاً نحن بحاجة إلى أن نودع الحقائق التي نقرؤها، و المعلومات التي نقرؤها في الذاكرة الاسترجاعية.

أي عود نفسك أن التصفح هي قراءة لا قيمة لها إطلاقاً، يوجد دراسة أجريت عليها، أنت بعد سبعة أيام لا تذكر من الذي قرأته شيئاً، لا يبقى من الذي قرأته إلا انطباع عام، أما حينما تكتب، و تلخص، و تعلق، و تحلل، و تنتقد أحياناً، و تتساءل، ثم حينما تناقش أخاً لك في هذا الموضوع حينما يسألك أو تسأله، كلما بذلت جهداً أكبر رسخت المعلومات في ذاكرتك أكثر.

طريقة الحوار والسؤال والجواب أفضل طريقة في التدريس:

لذلك أسوأ طريقة في التدريس هي: طريقة الإلقاء، و أفضل طريقة في التدريس هي: طريقة الحوار، و السؤال و الجواب، حتى الآن بعض وسائل التدريس تقوم على أن يدير المدرس حواراً ذكياً جداً مع طلابه كي يصل إلى الحقائق من خلال الحوار.

و من ملك البلاد بغير حرب هان عليه تسليم البلاد

***

كلما كان الجهد في قراءة الكتاب بسيطاً كلما كان النسيان أسرع، و كلما كان الجهد في قراءة الكتاب عالياً كان الترسيخ، و الحفظ، و التخزين في الذاكرة الاسترجاعية أقوى.
أنت بالنهاية إنسان تجلس على طاولة الامتحان، معك قلم، و ورقة بيضاء، العامل الحاسم ما هو ؟ ذاكرتك، هذا التعليم المجرد، أما التعليم العملي له شأن آخر.

على كل إنسان أن يبذل جهداً كبيراً في قراءة كتاب ما:

أيها الأخوة الكرام: هذا الكتاب يحتاج إلى مئة وحدة، فإذا بذلت التسعين في القراءة الأولى بقي عليك عشر، و إذا بذلك عشر وحدات في القراءة الأولى بقي عليك تسعون، لا توهم نفسك أنك قرأت الكتاب، يجب أن تكون واضحاً مع نفسك، لابد من بذل جهد كبير في قراءة الكتاب.
هذا الجهد تكتفي بقراءة واحدة عميقة تحليلية، ثم أنت تحتاج إلى قراءة قبل الامتحان، و انتهى الأمر، أما أن يجلس فيقرأ كتاباً على شكل تصفح، و يتصفح الثاني و يوهم نفسه و يوهم من حوله أنه يدرس، لكن لا يوجد جهد أبداً، هذا لا يفيد.

نظرية الإعياء:

أيها الأخوة الكرام: الملاحظة الثانية: نظرية الإعياء ؛ أنا سأحضر كيلو أضعه في يدي، سأرفعه مرة، اثنتين، ثلاثة، خمس، عشر، خمسين، يوجد حالة اسمها الإعياء، بعد عدد معين من الرفع تصل العضلة إلى حالة الإعياء، أي لا أستطيع أن أحرك يدي إطلاقاً، تؤكد التجربة أنك لو وضعت نصف كيلو يمكن أن ترفع النصف كيلو مئة مرة ثانية، لو وضعت ثلاثمئة غرام ترفعه مئة ثالثة، لو وضعت مئتي غرام مئة رابعة، مئة غرام مئة خامسة، معنى ذلك أنت عندما تدرس ينبغي أن تبدأ بأصعب المواد، تتعب، تنتقل لمادة أسهل، فعندما تخفض مستوى المادة أنت في نشاط دائم، لكن أحياناً الطالب يلزم نفسه بكتاب

صعب يوماً بكامله، دون أن يشعر يضيع الوقت، و لا يدرس، لأن الكتاب صعب، و طاقة احتماله محدودة، كتاب بالفيزياء فرضاً، بالرياضيات، فأنا أنصح الطلاب حتى إذا درسوا بعد الامتحانات أو في الأعوام القادمة، أنا أرتب الكتب ترتيباً بحسب صعوبة المادة، أبدأ بأصعب كتاب، أقرأ فصلاً واحداً، أرتاح ربع ساعة، آخذ كتاباً مستواه أقل أقرأ فصلاً ثانياً، ثم أرتاح ربع ساعة، آخذ كتاباً ثالثاً يمكن أن تقرأ في اليوم الواحد الكتب كلها، و لكن من كل كتاب فصلاً، تبدل الموضوعات يصنع رغبة في الدراسة، كلما انخفض مستوى الكتاب كلما كنت أنشط على القراءة، فهذه حقيقة يجب أن نلاحظها في شؤون الامتحان.

إذاً نحن نقرأ و نرتاح، نقرأ و نبذل جهداً كبيراً، لكن تجد طالباً يقرأ و ينجح و أسلوبه هو هو، لم يرتق و لا شعرة، لأنه حينما يقرأ يقف عند المعاني فقط، و لا يلتفت للأسلوب.

الطريقة المثلى لارتقاء أسلوبك:

كيف يرتقي أسلوبك ؟ كيف يمكن أن تتكلم بكلمات فصيحة و بعبارات متينة و بصور بلاغية رائعة ؟ هذا الشيء يكاد يكون مستحيلاً عند الطلاب، ما لم تقرأ الكتاب قراءة أسلوبية، أي يوجد على الطاولة قلم رصاص و قلم أحمر، مثلاً وجدت كلمة وشيجة، "علاقات وشيجة"، أنت تستخدم متينة هذه كلمة ثانية وشيجة، تضع خطاً أحمر تحت كلمة وشيجة، يوجد عبارة ثانية "و إذا نسيت فلا أنسى" هذه العبارة لطيفة، و هنا محل الإشارة أضع، و يقتضي ذلك كلما وجدت عبارة متينة محكمة بكلمات جزلة، أو صورة أدبية، "لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه "هذه آية قرآنية لكن عبارة يمكن أن تستخدمها في كل كتاباتك، فكلما مررت على كلمة لا تستخدمها و رائعة، أو على عبارة لا تستخدمها لكنها رائعة ضع تحتها خطاً أحمر، فإذا أمسكت الكتاب كل أسبوع، و تصفحته بأقل من عشر دقائق فقط، وضعت عينيك على الكلمات التي تحتها خط أحمر تكون قد استعرضت هذه الكلمات الرائعة، و تلك العبارات المتينة، هذه مع مرور الزمن تنتقل إلى ذاكرتك الاسترجاعية، أنت ارتقى أسلوبك و ارتقت كلماتك.

كلما كانت مفرداتك من اللغة أوسع كلما كانت عبارتك أدق:

بالمناسبة أيها الأخوة: لو أعطينا إنساناً لونان أبيض و أسود، و وقف أمام منظر جميل نقول له: ارسم هذا المنظر، لأن الألوان محدودة نقل المنظر إلى اللوحة يكون محدوداً جداً، لكن المنظر يوجد فيه بيت سقفه قرميد أحمر لكن لا يوجد عنده أحمر، المنظر يوجد به حقل أخضر لكن لا يوجد عنده أخضر،

المنظر فيه ماء نهر أزرق لكن لا يوجد عنده أزرق، الآن أعطيناه أحمر، و أزرق، و أصفر، و أبيض، و أسود، كلما كثرت الكلمات دقت العبارة، جلسوا مع إنسان غير متعلم، أعطوه مسجلة، و سجل كل ما قاله في أسبوع، و حذفوا الكلمات المكررة فوجدوا أن هذا الإنسان الغير متعلم يستخدم بحياته كلها ثلاثمئة كلمة، أعطوا هذه المسجلة لأستاذ في الجامعة، وجدوه يستخدم بحياته بالأسبوع ألف و خمسمئة كلمة، الآن كلما كانت مفرداتك من اللغة أوسع كلما كانت عبارتك أدق.

اللغة العربية من أوسع اللغات اشتقاقاً:

مثلاً كلمة نظر، يوجد عندنا باللغة نظر، و يوجد عندنا باللغة حدج، قال عليه الصلاة و السلام:

((حدث القوم ما حدجوك بأبصارهم))

[فقه اللغة عن ابن مسعود]

التحديج: نظر مع محبة، إنسان يحب الآخر ينظر له هكذا، إذاً نظر و حدج، يوجد عندنا لمح، لمح نظر ثم أعرض، أي إنسان يمشي في الطريق يوجد باب مفتوح لم ينتبه أدار وجهه نحو الباب، فإذا امرأة، كونه مؤمن يغض بصره، نقول: هذا لمح امرأة، لا نقول نظر إلى امرأة، لكن أحياناً بالجو يوجد طائرة و يوجد غيوم، بين قطعتي غيم تلوح طائرة نقول: لاحت الطائرة، لاح أي الشيء ظهر و اختفى، أما لمح أنت نظرت و أعرضت، و حدج نظر مع محبة.

الآن نظر شزراً، أي نظر مع احتقار، إنسان بذيء اللسان تكلم بكلمات بذيئة تنظر له هكذا، تقول: نظرت إليه شزراً.

إذا الإنسان ساكن بغرفة سقفها متصدع، و سمع صوتاً، و الشق توسع فيخاف نقول: شخص، شخص نظر مع الخوف، حدج نظر مع المحبة، لاح الشيء ظهر و اختفى، لمح نظرت أنت و أعرضت.

الآن بحلق: نظر مع الدهشة، أحياناً شخص يقيس ضغطه فوجده اثنين و عشرين تكاد عيناه تخرجان من مكانهما.

الآن حملق ؛ عندنا للعين حملاق، لو شخص مسك الجفن و فتحه، يجد فيه لوناً أحمر، هذا اسمه حملاق العين، فحينما حملق ظهر باطن الجفن، نقول: حملق، و يوجد حدق ؛ الضوء خفيف جداً، و القطعة صغيرة، تجد حدقة العين تتسع، إذا اتسعت حدقة العين معناها حدق، و إذا ظهر حملاق العين حملق، و إذا نظر مع الدهشة بحلق، و إذا نظر مع المحبة حدج، و إذا ظهر الشيء و اختفى لاح، و إذا نظرت كمؤمن و أعرضت لمح، إذا كنت تقف بقمة جبل، و أمامك سهل جميل أخضر، و من بعيد البحر و أيام ربيع و الأرض كلها ترتدي حلة قشيبة، تقول: رنا، رنوت إلى المنظر أي نظرت مع الاستمتاع.

مراقب يراقب الطلاب و يوجد طالب حجمه صغير و لكنه ينقل و هو لا يراه، فالمراقب يمط حاله، إذا شخص رفع جسمه و مط نفسه نقول: استشرف، استشرف النظر مع التمطي، و إذا أعطيناك قماشاً نقول لك: هذا بوليستر أم صوف طبيعي نقول: استشف، رأى هذه رؤيا قلبية رأيت العلم نافعاً، العلم لا يرى بالعين أنا أرى هذا القلم أما رأيت العلم نافعاً تعني الرؤيا القلبية، و شخص مع الخوف، فكلما كانت الكلمات التي تستعملها كثيرة كلما جاءت العبارة دقيقة، قال:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17))

(سورة طه: الآية 17)

لو قرأت كل معاجم اللغة ليس هناك إلا كلمة واحدة تصلح لهذا الحادث أو هذا المعنى أهش، أضرب لا، أحياناً شخص يضع يده على يد صديقه نقول ضربه ؟ لا، مسه ؟ لا، ربت على كتفه.

الخلاصة: كلما جاءت الكلمات التي تستخدمها غزيرة جاءت العبارة دقيقة.

أسلوب الإنسان يتعلق بعدد الكلمات التي يمتلكها في الذاكرة الاسترجاعية:

كيف تنمو كلماتك ؟ أسلوبك متعلق بعدد الكلمات التي تمتلكها في الذاكرة الاسترجاعية، أسلوبك في الكتابة متعلق بعدد الكلمات التي تمتلكها في الذاكرة الاسترجاعية، تماماً كالألوان للرسام، إذا كان يملك مئة لون يمكن أن يعطي أدق التفاصيل، أما إذا عنده أربعة ألوان يختلف هذا، لذلك العين البشرية يمكن أن تفرق بين لونين من ثمانمئة ألف درجة، لو درجنا اللون الأخضر ثمانمئة ألف درجة العين البشرية تدرك الفرق بين درجتين.

لذلك لو صورنا الأخوة الحاضرين بآلة تصوير تكاد تكون الألوان متقاربة في الصورة، أما بالعين البشرية لا يوجد شخص من الأخوة الحاضرين له لون كاللون الثاني، العين تدرك ذلك.

إذاً حتى يقوى الأسلوب يجب أن نقرأ قراءة أسلوبية، يوجد معنا قلم رصاص و قلم أحمر، القلم الرصاص للأفكار، و تلخيصها، و التعقيب عليها، و ربطها، و ترتيبها، و تحليلها، و القلم الأحمر للكلمات الجيدة، للعبارات البلاغية، و الصور الجميلة.

آلاف الأشياء تستمتع بها بقدر ما تبذل بها من جهد إلا العلم:

أخواننا الكرام يوجد بالعلم شيء، آلاف الأشياء تستمتع بها بقدر ما تبذل بها من جهد إلا العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً، بالعلم لا يوجد حل وسط، أي أنت تعلم أن الهمزة المتوسطة تكتب على حرف يناسب أقوى الحركتين حركتها و حركة الحرف الذي قبلها،

قاعدة جامدة يصعب حفظها، مؤمن على الواو قبلها مضموم و هي ساكنة و الضم أقوى، أقوى الحركات الكسر، بعد الكسر الضم، بعد الضم الفتح، بعد الفتح السكون، لا يحفظوا، مرة دكتور في الجامعة قال لنا: ائت بقضيب من أجل أن تكسره تحتاج إلى أعلى جهد، أما من أجل أن تضمه يريد جهداً أقل، أما إذا كان مضموماً فتحه أسهل، أما أن تبقيه ساكناً لا يحتاج إلى جهد إطلاقاً، كسر ضم فتح سكون، فكلما تحفظ قضية تربطها بمثل، تربطها بشيء.

أحياناً يقول لك بالإعراب مثلاً: جاء أخي أو جاء والدي فرضاً، والدي فاعل مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منعاً من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، لا تحفظ هذه العبارة حفظاً جامداً، حاول أن تفهمها، هذه ياء المتكلم لا تقبل جاراً لها إلا مكسوراً لها مهيض الجناح، تقول: هذا قلمي هو قلم خبر مرفوع، تقول: هذا قلمي، قلم: خبر مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منعاً من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، أصل كتابة الهمزة تكتب الهمزة على حرف فيما لو سهلت قرئ ذلك الحرف، لأن قبيلة قريش تخفف الهمزات و قبيلة تميم تحققها، نحن عندنا كلمة تأريخ تميم تقول: تأريخ، قريش تقول: تاريخ، و لم يكن له كفؤاً أحد هذه تميم، قريش كفواً أحد، بئر، بير، باللغة العامية تسهل لا تحقق، مثلاً ذيب عوضاً عن ذئب، فنحن الهمزات تحقق و تسهل، الهمزات تكتب على حرف فيما لو سهلت قرئ ذلك الحرف، هذه القاعدة، مؤمن تكتب على الواو، إذا سهلتها تقول: مومن، ملائكة تكتب على النبرة لو سهلتها تقول: ملايكة، العوام يقولون: ملايكة و ليس ملائكة، أي سهلوا الهمزة، طبعاً الكلام لا يعني الطلاب فقط، أي أخ قرأ كتاباً إما أن يبذل جهداً كبيراً و لا ينتفع منه أبداً، و إما أن يقرأ هذا الكتاب فيصبح جزءاً من ثقافته.

الفرق الكبير بين الحفظ و النسيان:

فرق كبير جداً بين أن تقرأ و تنسى، إذا شخص عنده وعاء من دون قعر فتح عليه خمسة إنش لا يوجد شيء، بقدر ما فتحت لا يوجد قعر، هذا الدرس مهمته أن يكون لك قعر يجمع، و يجمع، إذا شخص لم يجمع عنده حسرة دائماً، و الله جلست بمكان يوجد قصة قرأتها و لكن نسيتها، و الله يوجد آية لم أتذكرها، و الله يوجد حديث لم أتذكره، تجده بتحسر دائم، يقرأ كثيراً و لكن لا يحفظ شيئاً، بهذه الطريقة تقرأ و تحفظ، و تقرأ و تستفيد، و تقرأ و تنفع من قراءتك الآخرين.

أهم الملاحظات قبل الامتحان:

1 ـ الابتعاد عن القلق الذي يولد عدم التركيز عند الطالب:

أخواننا الكرام: يوجد شعور ينتاب الطلاب بالامتحان أنجح، لا أنجح، أنسى، لا أنسى، أتذكر، لا أتذكر، هذا الشعور مزعج جداً، هذا الشعور الحقيقة بالمفهوم الديني من الشيطان، ييئسك، ليس من المعقول أن أتذكر كتاباً ثمانمئة صفحة لن أتذكر شيئاً، أنت ارتاح، أنت اقرأ بهذه الطريقة فقط، لا تشغل نفسك بهذه المقلقات أبداً، عندما يأتي السؤال تصبح حالة اسمها اصطفاء، كل شيء خلاف السؤال تهمله و تركز على هذا السؤال و قد تتذكر معظمه، أكثر الطلاب يعيشون حالة قلق أثناء الامتحان أنه قد لا أذكر، قد أنسى، أنت لا تنسى، أنت توكل على الله، أي لا يوجد أجمل من التوكل على الله في الامتحان، أكثر الطلاب يتوقع ألا ينجح، ينجح و يأخذ علامات جيدة لكن القلق يدمره.

2 ـ أخذ قسط من الراحة:

أحياناً الإنسان يجهد نفسه في أثناء الامتحان ينعكس هذا الجهد عدم تركيز في الامتحان، لي صديق دخل فحص الشهادة الثانوية بالتاريخ، كان السؤال: تحدث عن مؤتمر برلين ؟ قال لي: أكثر من ساعة و أنا أتذكر أين عقد المؤتمر ؟ مكتوب برلين، إذا كان هناك تعب، إعياء، سهر، أو يوجد شيء مقلق التركيز يضعف، القضية تكون بديهية لكن لا يستطيع أن يركز، فأنا أقول: يجب أن تأخذ قسطاً معقولاً من النوم و لكن لا أن تنام اثنتي عشرة ساعة يوم الامتحان، و إن لم تنم أبداً تذهب إلى الامتحان كيانك مهزوز، فقدت التركيز، فلابد من أخذ قسط من الراحة.

3 ـ ابتعاد الآباء و الأمهات عن المشاكل أيام الامتحان:

الشيء الآخر: أنا لي رغبة أن يبتعد الآباء و الأمهات في أيام الامتحان عن المشاكل في البيت، قد ينشب خلاف بين الزوج و زوجته أي الطالب بجو الامتحان يحتاج إلى صفاء، يحتاج إلى هدوء، يحتاج إلى راحة نفسية، إذا كان هناك مشكلات هذه تعيق التذكر، نحن امتحاناتنا هكذا.
يوجد امتحانات أخرى، مثلاً بامتحانات كتاب أربعمئة صفحة، يوجد أربعمئة سؤال كل سؤال من صفحة، و السؤال نعم أو لا، يوجد طريقة أخرى بالامتحانات هذه الطريقة تلغي الحظ كلياً، أي لابد أن تعرف في كل صفحة ما هو الجواب الصحيح، لذلك يوجد معك كتاب أسئلة هذه الطريقة تعمل مسحاً

كاملاً لمعلومات الطالب، عندنا غير مطبقة، أي في بلادنا لا تزال الامتحانات عامل الحظ فيها له أثر كبير، فإذا أنت قرأت، و كانت أعصابك مرتاحة، و عندك توكل على الله عز وجل، و جوك النفسي هادئ يمكن أن تذكر معظم المعلومات.

4 ـ حاجة الحفظ إلى الروابط:

الآن الحفظ يحتاج إلى روابط : " وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤوها و فتحت " لما فتحت، فتحت، " وسيق الذين اتقوا إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها و فتحت "، معظم الحفاظ يخطؤون، هل تستطيع أن تعمل رابطاً لماذا و فتحت ؟ لماذا فتحت ؟ أي المؤمن إذا ساقه الله إلى الجنة هذا إنسان مكرم تفتح أبوابها قبل أن يصل، هل من المعقول أن نستقبل رئيس جمهورية يدق الباب ؟ إذا عندنا ضيف رئيس جمهورية، و نريد أن نضيفه بالقصر، هل من المعقول أن يصل إلى القصر و الباب مغلق ؟ هذه ليست واردة إطلاقاً، الأبواب مفتحة، السجاد ممدود، الاستقبال:

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)

(سورة الزمر: الآية 73)

أما إذا شخص قادم إسعاف أو مجرم مقيد:

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)

(سورة الزمر: الآية 71)

الآن انتهت العملية.

على الإنسان أن يربط كل قضية ربطاً معيناً كي لا ينساها أبداً:

إذاً كل قضية تستطيع أن تربطها ربطاً معيناً لا تنساها أبداً، سئل عليه الصلاة و السلام كيف تحفظ القرآن ؟ فقال: أنا أعقله، أعقله أي يوجد روابط، أما أنتم تقرؤون هكذا لا تحفظ و لاسيما في المتشابهات، أي مثلاً يقول الله عز وجل:

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (2))

(سورة الجمعة: الآية 2)

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ)

(سورة البقرة: الآية 129

يوجد تسلسل، اجتهاد سيدنا إبراهيم أنه: يتلو عليهم آياتك و يعلمهم الكتاب و الحكمة و يزكيهم، لكن الله يقول: يتلو عليه آياتك و يزكيهم، التزكية مقدمة على المعلومات، يتلو عليه آياتك و يزكيهم و يعلمهم الكتاب و الحكمة، فلذلك عندما أنت تربط سيدنا إبراهيم اقتراحه ترك الأولى، أما الله عز وجل ذكر المنهج الصحيح، تلاوة الآيات ثم التزكية ثم تعليم الكتابة و الحكمة.

5 ـ الدقة في العبارة و الدقة في الحفظ:

ثم أحياناً يوجد بالامتحان أخطاء فاحشة، مثلاً: ذكر بيتين من الشعر قالهما أحد أصحاب رسول الله، حينما صلب:

و لست أبالي حين أقتَل مسلماً على أي جنب ألقى في الله مصرعي

***

شخص قرأ البيتين: و لست أبالي حين أقتُلُ مسلماً هذا لجهنم، كافر خالد مخلد في النار حين أقتل مسلماً، بين أقتُل و بين أقتَل مسافة كبيرة، يوجد قارئ توفي رحمه الله اقترب منه طالب علم أراد أن يثني عليه قال: أحب الصالحين و لستَ منهم، هي و لستُ منهم، انظر إلى الحركة، هي:

أحب الصالحين و لستُ منهم لـعلي أن أنال بهم شفاعة

وأكره من بضاعته المعاصي ولو كنا سواء في البضاعة

***

فأحياناً يوجد أخطاء كبيرة جداً، كلما تعلمت الدقة في العبارة و الدقة في الحفظ ارتقى أسلوبك.

6 ـ القراءة بشكل جهوري:

يوجد ملاحظة أن الطالب أحياناً لا يحسن أن يقرأ لأن قراءته كلها قراءة صامتة، كل حياته قراءة صامتة، لو كلفته أن يقرأ صفحة لا يحسنها، الذي يحصل أن اللغة العامية لها مدرج صوتي محدود، أما اللغة الفصحى لها مدرج صوتي أوسع، وكأنه دولاب يمشي على مسنن، كل حركته بهذه المنطقة المحدودة هنا حركته سهلة و لكن تعال و أوصله إلى مكان صدئ يتعسر.

نصحنا أستاذ في الجامعة أن نقرأ عشر صفحات من القرآن كل يوم بصوت جهوري، هذا يقوي الأسلوب، لأن الضاد لها مخرج، الدال و الضاد، و التاء و الطاء، باللغات العامية دائماً حرف يكفي عن اثنين، لا يوجد عندهم ثاء يوجد سين، أستاذ في الجامعة سأله طالب: يا أستاذ لغتنا معقدة ثاء و سين و ظاء و طاء، قال له: أتحب أن يقال كثر الله أمثالك، أم كسر الله أمثالك ؟ و الفرق كبير جداً بين كثر الله

أمثالك و بين كسر الله أمثالك.

حينما تنطق و تقرأ بصوت جهوري علم ابنك أن يقرأ كل يوم نصاً مكتوباً مضبوطاً بالشكل.

7 ـ الابتعاد عن العامية و القراءة بالفصحى:

قال لي طالب: أنا ضعيف بالإعراب كثيراً و لا يوجد معي ثمن دروس خاصة، هل يوجد طريقة أتقوى بها بالإعراب ؟ قلت له: نعم، يوجد كتاب اسمه: شذور الذهب في كلام العرب، هذا الكتاب ينتهي بثلاثمئة بيت من الشعر بالفهرس، أعرب أحد الأبيات مكتوب إلى جانب كل بيت رقم الصفحة التي أعرب فيها إعراباً دقيقاً، فأنت أعرب بيتاً و ارجع إلى مكان إعرابه و وازن بنفسك، لو استطعت أن تعرب ثلاثمئة بيت بجهدك الشخصي ثم ترى كيف تعرب هذه الأبيات بدقة باللغة تحل المشكلة. إذاً يمكن أن تتقوى بالإعراب، تتقوى بالنطق، باللغة العامية لا يوجد بها أحرف لثوية أبداً، " باللغة الفصحى لا يوجد غير ما، بالعامية يوجد ما، مو، مي، ما لقيته، مو موجود، مي طيبة هل الأكلة، ما لقيته ما، مو موجود مو، مي طيبة مي ".

الحقيقة أن اللغة الفصحى تقرؤها فتشعر بنشوة، و الإنسان عندما يتكلم باللغة الفصحى في بيته و مع أولاده و ليس اللغة المقعرة، قال لهم شخص: مالكم تكأكأتم عليّ كتكأكئكم على دجنة افرنقعوا عني، هذه اللغة غير مقبولة، و لكن بدل ضرب لك تلفون، اتصل بك، إذاً يوجد كلمات باللغة العامية غير مقبولة.

أهم الملاحظات أثناء الامتحان:

1ـ قراءة الأسئلة كلها و التأكد من المطلوب:

نصيحتي الأولى: أنت بالامتحان اقرأ الأسئلة كلها، أحياناً القلم تغلقه، و تستهلك عشر دقائق و أنت تتأمل في الأسئلة، هذا الوقت ليس هدراً و لكنه توظيف للامتحان، قبل أن تكتب اقرأ السؤال جيداً، كم من طالب أجاب إجابة لا علاقة لها بالسؤال، فهمه فهماً سريعاً، أول نصيحة لأخواننا الطلاب بالامتحان ضع السؤال أمامك، و اقرأ الأسئلة خلال خمس دقائق بهدوء، و أعد قراءتها حتى تتأكد ما هو المطلوب.

2 ـ كتابة السؤال الذي تعرف جوابه أول شيء وكتابة الخواطر على المسودة:

الآن ابدأ بأهون سؤال تراه أنت، يصير مع الطالب أنه يبدأ بأصعب سؤال، يحفظها تماماً أنا أعرف هذه، أنا بزحمة كتابة السؤال الصعب انتهى الوقت، يوجد عندك أشياء تعلمها تماماً و عليها علامات راحت عليك، فالمفروض أن تكتب السؤال الذي تعرف جوابه أول شيء، و أنت تكتب يوجد سؤال صعب تذكرت فكرة من السؤال الصعب اكتبها على المسودة، لأنه أحياناً تأتيك الخاطرة و تغيب عنك أحياناً أخرى، فأنت تكتب السؤال السهل أولاً، و أنت باعتبارك مشغول بالسؤال الصعب و قلق من أجله فعندما تأتيك فكرة من السؤال الصعب اكتبها على المسودة.

3 ـ تنقيح الكتابة:

التنقيح بالكتابة قد يعفيك من حسم علامات كثيرة، باللغة العربية إذا كان هناك أخطاء لغوية أو نحوية تحسم عدة علامات، لأن الإجابة دائماً نصف علامة على الموضوع و النصف على الأسلوب، فإذا أنت لم تهتم بتنقيح الأسلوب يوجد أخطاء بالهمزات، الاقتصاد هل تريد همزة ؟ لا، هذه همزة وصل، أنا أستغرب أذهب إلى المطارات أحياناً لوحات كبيرة يضعون همزات بالخطأ، همزة الوصل و القطع أضف لها واواً فإن سقطت فهي وصل، استيقظ ضع واواً ذهبت الهمزة إذاً لا تكتب، كتابتها خطأ، و إذا وجد عدة همزات خطأ بالإجابة تحسم نصف العلامة، فأنا أقول لك ابدأ بالسؤال الذي تعرفه تماماً.
ثانياً: الهمزات يجب أن تهتم بها، لكن يوجد عندنا قاعدة بالتصحيح إذا أهملت شيئاً من حقه الإثبات فسر سهواً، أما إذا أثبت شيئاً من حقه الإهمال فسر ضعفاً، أي أكل من دون همزة لابأس، أما استيقظ بهمزة يذهب عليها علامة، يوجد فرق لأن أكل من حقها الإثبات أهملتها أنت تفسر سهواً، أما استيقظ من حقها الإهمال إذا أنت أثبتها تفسر ضعفاً يوجد حسم علامات، أهم شيء التنقيح، دع عشر دقائق للتنقيح، قد تصحح عشرة أخطاء، تأخذ خمس علامات زيادة بالتنقيح.
إذاً نبدأ بالسؤال الذي نعرفه و إذا جاءتنا خواطر في السؤال الصعب نسجلها، ثم ننقح.

4ـ عدم تسليم الورقة إلا بعد أن تسحب منك قهراً:

النصيحة قبل الأخيرة لا تسلم الورقة إلا بعد أن تسحب منك قهراً، يذهب طالب بنصف الامتحان، هذه لم أكتبها، و هذه لم أكتبها، أين كنت ؟ لا تذهب، رغبة عند الطلاب عجيبة أن يخرج في نصف الوقت، عندك ساعتان اكتب لا تخرج من الامتحان إلا إذا سحبت منك الورقة.

5 ـ أن تأخذ بالأسباب و كأنها كل شيء ثم تتوكل على الله و كأنها ليست بشيء:

أخواننا الكرام: آخر ملاحظة ؛ أنك إذا درست جيداً أي أخذت بالأسباب، و نسيت الله، و اعتمدت عليها، و اعتددت بهذه الدراسة المتقنة، و قلت: أنا لابد من أن أنجح و سآخذ علامة عالية، قد لا تنجح لأنك ارتكبت أكبر خطأ بالتوحيد أنك اعتددت بدراستك و نسيت الله عز وجل، و إذا لم تدرس أيضاً لا تنجح لأنك لم تأخذ بالأسباب، الموقف الكامل أن تأخذ بالأسباب و كأنها كل شيء ثم تتوكل على الله و كأنها ليست بشيء.

قال له: يا رب عليّ الهندسة و عليك الجبر، هذه متأكد منها فلم ينجح لا بالهندسة و لا بالجبر، يجب أن تفتقر إلى الله، و الله عز وجل يمكن أن يمدك بمعلومات و أنت بالامتحان قد لا تذكرها أحياناً، معونة الله بالامتحان واضحة جداً تحتاج إلى دعاء، و إلى استقامة، و إلى توكل، و إلى أخذ بالأسباب.
فالمؤمن دائماً يأخذ بالأسباب و كأنها كل شيء ثم يتوكل على الله و كأنها ليست بشيء، يا رب عليك الجبر و الهندسة فقال له: ليس عليّ شيء.

الصحابة الكرام معهم سيد الخلق قالوا: لن نغلب من قلة، فلم ينتصروا:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ(25))

(سورة التوبة: الآية 25)

و يوجد قصص بهذا القبيل شيء لا يصدق، تكتب موضوعاً آخر تأخذ صفراً، ينصرف ذهنك إلى موضوع ثان من السرعة، و عدم التوفيق، و عدم التريث.

الأخذ بالأسباب ثم التوكل على رب الأرباب قبل القيام بأي عمل:

أتمنى على الطالب أنه أول ما يأخذ السؤال يغلق القلم، و يحاول أن يتأمل الأسئلة خمس دقائق، حتى يستوعب ما هو المطلوب.

الأخذ بالأسباب ثم التوكل على رب الأرباب، أن تأخذ بالأسباب و كأنها كل شيء ثم تتوكل على الله و كأنها ليست بشيء، و هذا الشيء يفيدنا بالامتحان، و بالحياة العملية، و قبل أن تلقي درساً، و قبل إجراء عملية، و قبل القيام بأي عمل.

كنت بطرابلس من حوالي شهرين، أول طبيب بطرابلس له صديق عزيز زوجته في ولادة عسرة، أي يوجد مشكلة كبيرة بالولادة، فجاء الصديق إلى صديقه الطبيب و عرض عليه حالة زوجته، قال له: أرجوك لو أنك سألت طبيباً آخر، أي لو عملتم استشارة طبية، قال له: أنا أفهم واحد، سوف أقول لكم

كلمة و العياذ بالله قال له: إذا الله يغلط أنا أغلط، هذا الطبيب الآن سحبت شهادته، أول مرة بتاريخ لبنان تسحب شهادة الطب، و يتغرم بمبلغ بالمليارات، ارتكب خطأ لا يرتكبه طالب طب، هذه حالة حادة جداً، بتاريخ لبنان لم تسحب من طبيب شهادته إلا هذا الطبيب، ارتكب خطأ لا يرتكبه طالب طب، وبعد التحقيق عملوا لجنة، و ماتت الزوجة.

أنا، نحن، لي، وعندي أربع كلمات مهلكات على الإنسان الابتعاد عنهن:

عندما تقول: أنا معنى هذا يوجد حمق، أربع كلمات مهلكات: أنا، و نحن، و لي، و عندي.

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

(سورة الأعراف: الآية 12)

فأهلكه الله.

(نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ)

(سورة النمل: الآية 33)

أهلكهم الله عز وجل.

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)

(سورة الزخرف: الآية 51)

أهلكه الله عز وجل.

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: الآية 78)

الآن يوجد أخ يقول لك: أنا جئت متأخراً، أعوذ بالله من كلمة أنا، تخرج روحك من هذه الكلمة يقولها لك مئة مرة، فقط مرة واحدة و انتهى، من كتب الوظيفة ؟ أنا أستاذ، أعوذ بالله من كلمة أنا، هذه غير صحيحة، تقول: أنا تعتد بها، إذا هناك اعتداد أنا، و نحن، و لي، و عندي، أما بدرج الكلام لا يوجد بها شيء، إذا ما قصدت الكبر، و الافتخار، و الزهو لا يوجد بها شيء.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (144) :موضوعات متنوعة لدفع الشعوب للأمام.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-01-22

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

لدرس واحد هو هذا الدرس أردت أن تكون موضوعاته متنوعة، فدائماً و أبداً الإنسان يشعر من حين إلى آخر أنه بحاجة إلى التجديد، و في التجديد حياة القلوب، أي ألفتم و ألفت معكم أن ألقي عليكم كل أحد درساً، لكن هذا الأخ الكريم الذي ألف سماع الدروس نسأله نحن بكل مودة و محبة هل ألقيت بعد أن تلقيت ؟ هل تحركت بعد أن سمعت ؟ ما العمل الذي اتخذته لآخرتك ؟ لأنه عندنا مبدأ بالفيزياء اسمه مبدأ العطالة، الأجسام المتحركة ترفض السكون و الساكنة ترفض الحركة، أحياناً الإنسان يألف شيئاً بالتعبير الآخر يدمن عليه يحس حاله جمد، يا ترى لو أن الواحد منا سأل نفسه سؤالاً و الله سؤالاً محرجاً لو أن الله أوقفني يوم القيامة و سألني عبدي ماذا فعلت من أجلي ؟ لعلكم تتوهمون أن حضور الدرس هو عمل، أنا أقول لكم لا، حضور الدرس يشبه تماماً موظف جاء إلى مكتبه التجاري يتلقى التعليمات من صاحب العمل، عمله مندوب مبيعات، عمله حجم مبيعاته، عمله أن يبحث عن مشترين نظيفين، عمله أن يحقق ربحاً للشركة، أما أن يأتي للمكتب هذا ليس عملاً هذا تلقي توجيهات فقط، و حينما يأتي مساء و معه الغلة الآن يكافئه و يعمل له بالمئة خمسة.

فأنت تأتي إلى المسجد مرتين مرة كي تتلقى توجيهات الخالق و مرة حينما تصلي ليكافئك الله على هذا العمل، فأنا أتمنى أن يكون درسنا عملياً، يا ترى لو أن شخصاً حاسب نفسه يومياً أنا ماذا فعلت ؟ أنت تلاحظون ماذا يجري بالعالم الإسلامي و الله يمكن ما مرّ على الأمة وقتاً صعباً معه إحباط أنا لست متشائماً أنا متفائل جداً، لكن الآن نحن بحاجة إلى عمل، بحاجة إلى تقديم عمل ثمين لهذا الدين العظيم.

قال لي مرة طالب صغير بالصف السابع قال لي ماذا أعمل ؟ قلت له أنت اجتهادك و تفوقك أكبر عمل، في أخ زرناه بمدينة بالشمال دخلنا إلى مخبره هذا متخصص بكمبيوترات المعامل، كومبيوتر المعمل فيه لوحة هذه أهم شيء بالكمبيوتر اسمها(matherbord)، هذه اللوحة تتعطل إصلاحها للمعامل من فوق المليون و يتعطل المعمل أسبوعين أو ثلاثة، تُرسل بالبريد الجوي تُصلح و تعود و المبالغ مليون فما فوق، هذا الأخ مشهور جداً استطاع أن يفك هذه اللوحات و يرسم خرائطها، و الله أطلعني على خارطة لقطعة من هذه القطع طولها ستة أمتار من الورق، رأيتها بأم عيني، استطاع أن يكشف الخلل يكون هناك صمام محروق، موضوع ضعيف خصيصاً كي يصلح كل عام، مليون كل عام، هذا الأخ يأخذ عشرة آلاف من كل معمل، يفكه و يرسمه و يعمل توصيلات يكشف أين الصمام

المحروق و يصلحه، طبعاً الآن كل معامل القطر تستنجد به إذا كان هناك خلل في الكومبيوتر الصناعي، هذا الإنسان كم وفر على البلاد من أموال طائلة ذهبت إلى الغرب ؟ هذا عمل، فنحن الآن نملك نتعلم، نملك نربي أولادنا، نملك نطور عملنا، نملك أن نستغني عن الاستيراد، هذا كل شيء نملكه، نملك أن نعمل جمعيات خيرية الآن مسموح بها، من يومين أشرفت على جمعية اسمها الإعفاف ما هذه الجمعية ؟ تزويج الشباب، إنشاء بيوت للشباب، تأمين قطع أثاث بأسعار مخفضة تقسيطاً إسلامياً من دون زيادة، لهم بالإنترنت موقعاً ممكن أن يكونوا وسطاء بالزواج بين شاب مؤمن و شابة مؤمنة، أنا تقريباً خلال شهر اطلعت على عشر جمعيات خيرية و أنا عضو بجمعيتين إحداهما مكافحة التدخين و الأخرى رعاية الطفولة، الآن لم يعد يتحمل الكلام بصراحة، شعرت لم أعد أريد كلاماً نريد عملاً، نريد شيئاً نحققه، نريد أن نقوي أنفسنا، أن نخدم وطننا، أن نحصن أنفسنا، أن نحصن أولادنا، قدم لي أخ كرت أضعه بالانترنيت يحجب كل المواقع الإباحية، هذا عمل الانترنيت مفيد جداً و بالمقابل خطر جداً لمن عنده أولاد، حل المشكلة وضع هذا الكرت، أتمنى أن نقدم شيئاً للأمة، الحد الأدنى الأدنى الأدنى أن تربي ابنك تربية عالية.

و الله أسمع من حين لآخر قصص و كأنني أتغذى بها، إنسان بطل يقدم شيء، يطور عمله، يخفف أعباء المسلمين، يحاول أن يتقدموا، أعداءنا الأقوياء بشر مثلنا لكن تعاونوا و الحقيقة المرة أنا أقول دائماً أفضل ألف مرة من الوهم المريح، نحن انتماؤنا فردي، أما قوتنا بالتعاون، لا نتعاون، الإنسان إذا التقى مع نده يحطمه، ادخل لشركة موظف جديد لا أحد يريحك، وشايات، تأخر سيدي، أمس تأخر، هذا عكس فريق العمل، لي قريب حضر دورة بإدارة الأعمال قال لي يأتي الموظف الذي ألقى الدورة قادم من بلد بعيد ألقاها بالإنكليزي، عندما يدخل موظف لشركة يشبه الصوص، حركة مستمرة و لكن لا يوجد عنده خبرة هو فرح لأنه تعين، اقتراح ثاني، ثالث، يعمل سجلات، يجد فرد و استخفاف و بعمله و تزهيد بعمله، مرة جاء طبيب عظمية أول بأمريكا قال لي أنا آتي شهر إلى هنا أنا متعود على العمل اليومي، أنا ليس داخلاً في برنامجي أن أجلس شهراً بلا عمل، قال لي أنا قادم لأخدم وطني، أنا فكرت قلت عندنا حالات صعبة جداً في المفاصل، يركب مفاصل من عشرين سنة و كأن المفصل طبيعي، هو جراح عظام من الطراز الأول أصله من سوريا أقام هناك يأتي كل سنة شهر، هو قال لي أريد عملاً بهذا الشهر بلا نقود لوجه الله، فقد أعمل أخدم هذا البلد، و الله أنا التقيت بوزير الأوقاف قلت له أنا عندي إخوان يأتوا من أمريكا بالصيف عندهم طاقة كبيرة جداً و يحبون أن يخدموا وطنهم ما قولك أن نعمل له مستوصف، غرفة بمستوصف، و نجمع خلال السنة الحالات الصعبة جداً بهذا الشهر يعالجها هو، قال لي أنا معك، و أعطى أمراً للمستوصف الكويتي و ذهبنا و قابلنا مدير المستوصف قال له ماذا تريد بوجع الرأس، تركه يبرك، لا يخدموا، فشل لنا المشروع كله خوفه و زهده.

الأمم الذين يتفوقوا علينا لا أبالغ يشتغل أحدهم ثمانية ساعات صافي بإحصاءات دقيقة جداً تابعة لمنظمة العمل اليومية الدول النامية يعمل الإنسان من سبع عشرة دقيقة إلى سبع و عشرين دقيقة فقط، لا يوجد عمل، كله تعال غداً، صور هويتك، افعل هذا، لازم يصرفوه بأي شكل قد يكون من حلب قادم، يبقيه بالفندق أول يوم و ثاني يوم و ثالث يوم كي لا يحضر إضبارة و يرى له إياها، لا يوجد عمل، لا يوجد إنتاج.

الكلمة الثانية التي من الصعب أن تصدقوها شركة سيارات يابانية أرباحها تساوي الدخل القومي لمصر سبعين مليون، شركة واحدة، فنحن بميزان التجارة مقصرون جداً، بميزان التنمية مقصرون جداً، نحن بحاجة إلى مشاريع سكنية لشبابنا و شاباتنا، بحاجة إلى فرص عمل و الله مرة أخ قال لي لم أعد أستطيع أن أتحمل صعوبات العمل، ماذا ستعمل ؟ قال لي سأسرح العمال و أغلق المعمل و أستريح، قال لي أنا معي كمية تكفيني أنا و أولادي و أولاد أولادي حتى النهاية، لست بحاجة إلى العمل، قلت له أنت مؤمن، قال لي طبعاً أعوذ بالله ما هذا السؤال، قلت له أنت تفتح ثمانين بيتاً هذا وحده ربح عند الله، فاتح ثمانين بيتاً لو لم تربح و لا ليرة طوال العام كونك مُؤَمن ثمانين أسرة و ثمانين أب و ثمانين أم و كل شخص أب و أم عندهم خمسة أولاد هذا ربح و الله و استجاب لنصيحتي و لم يسلم المعمل.

أنا أريد فكراً عميقاً قليلاً نحن بخطر يا إخوان، ترون التهديدات، ترون الآن لم يعد شيئاً مخبئاً كله مكشوف، يوجد عندهم مشروع شرق أوسط جديد، أساس تحديثه الفوضى التي ترونها بالعراق.

أقسم لي بالله شخص تكلم لي عن الحكم قبل الاحتلال قال لي لا يوجد حكم بالأرض بدمويته و ظلمه و استخفافه بالإنسان، قتل إنسان كقتل ذبابة و ملايين، ثم وقف أنا لفت نظري لما وقف، قال لي و الله ثم و الله ثم و الله بعدما رأينا الاحتلال كان ولياً الحكم السابق، قلت له كيف ولي ؟ قال لي يكفي تغلق محلك تجده صباحاً مغلقاً، تبعث ابنتك إلى المدرسة ترجع الظهر، يوجد بنزين بالمحطة، الآن ننتظر اثنتي عشرة ساعة، يوجد ماء نظيف بالبيوت الآن من نهر الفرات، يوجد كهرباء، الآن لا يوجد كهرباء، حكى كلاماً عندهم فوضى منظمة و راسمين لكل بلد بالأجندة تاريخ، و الذي سمعناه البارحة بالخطاب لا يوجد بلد ناج من هذا الشيء، حتى دول الخليج لا يوجد بلد ناج، يوجد خطة لشرق أوسط كبير يظهر حوالي مئة و خمسين دولة، كل بقعة صغيرة دولة، و الثروات لهم، وضاحة تماماً أنا لا أتكلم شيئاً مخبئاً هذا يُتكلم كل يوم في الإذاعة، أنا لا أتكلم بسر.

هذا المخطط لكن و الله بتماسكنا و تعاوننا و إيماننا القوي نفشل المخطط، زارني وفد جزائري تكلم لي عن قوة فرنسا و عن قنابل فرنسا بالأطنان و عن تدمير فرنسا عندما كانت محتلة الجزائر، القرى بأكملها قال لي و الله رأينا معاونة من الله و نصر عجيب، الله موجود، الذي نصر الصحابة القليلين

موجود، الذي نصر سيدنا صلاح الدين على دول أوربا كلها موجود، الذي نصر قطز على التتار موجود، دول عاتية كانت، أنا فقط أحب أن أحكي لكم شيئاً من همومنا، كل شخص منا يجب أن يقول أنا ماذا قدمت لهذه الأمة ؟ ماذا أقول لله عز وجل يوم القيامة لو قال لي يا فلان ماذا فعلت من أجلي ؟ الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، إنسانة بأعلى درجة من العلم رأت إنساناً يمكن أن تعينه في دعوته وافقت أن تكون الزوجة الثانية، عنده ثمانية أولاد ربتهم، علمتهم، أخذوا شهادات، دفعته للدراسة أخذ بكالوريا، دخلته للجامعة تنفق عليهم، ليس لها حظ نفس بهذا الموضوع ؟ كله عطاء عطاء، عرفت ساعتها أن المرأة قد تكون بطلة، أقسم بالله شعرتها صديقة بالتعبير الإسلامي، أي عطاء غير معقول و هي أسعد الناس، زوجها عنده بيت متواضع و هي تسكن بنصية، و هي تربي أولاده، تعتني به، تعاونه بالدعوة، تدفعه بالدراسة، قالت له إذا لم تأخذ دكتوراه بالشريعة لن أظل معك، ما كان معه بكالوريا، فممكن أن يكون لك عمل كبير كإنسان أو كامرأة أو كشاب، أنا هذا الذي أتمنى أن أبثه لكم في هذا اللقاء.

اعمل عملاً، يوجد عمل علمي، يوجد عمل اجتماعي، يوجد عمل خيري، يوجد عمل تنظيمي، اعمل شيئاً، قدم شيئاً .

مثلاً لأحضر بعض الأمثلة أخ مضطر لدم، يريد زمرة معينة أنا لا يوجد عندي معلومات من عنده هذه الزمرة، لو شخص قبِلَ أن يسأل كل أخ من إخواننا الكرام يوم الجمعة و الأحد أن يقول له أنت ما اسمك و تلفونك و زمرة دمك فقط، نعمل طبعة على الكمبيوتر بقائمة، يخبرك إنسان الساعة واحدة بالليل يقول لك أنا يلزمني لترين من الدم، أنا أفتح القائمة أخبر فلان، هذا أليس عملاً ؟ لكن يريد جهداً، أريد أن أقول لكم كلمة دقيقة يوجد إنسانة محجبة ولدت صار معها نزيف أثناء الولادة أحضروا لها لترين دم من بنك الدم أعطوها إياهم صار معها إيدز، الدم مفحوص فحصاً دقيقاً مكتوب النتيجة سلبية أي لا يوجد إيدز و صار معها إيدز، بعد ذلك اكتشفوا أن هذا الفيروس عنده ستة أشهر صمت مخبري، إذا شخص دخل له هذا الفيروس لبعد ستة أشهر حتى يُكشف بالتحليل فإذاً ممكن أن يضطر إنسان إلى دم، يذهب إلى بنك الدم الذي ترعاه الدولة و يوجد فحص دقيق و تأخذ عبوة و مفحوصة و النتيجة سلبية ينتقل لك مرض يدمر لك أسرتك كلها و يدمرك معها، ما قولك ؟ فاضطر مدير بنك الدم أن يعمل تصريحاً بتشرين أنا لا أنسى هذا التصريح قرأته كلمة كلمة و حفظته يقول هناك العمليات نوعان عملية باردة و عملية حارة.

ما معنى باردة ؟ أي أنا أرغب أستأصل المرارة يوجد فيها بحصات كثيرة و فيها التهابات، قال لي الطبيب استأصلها أفضل لك، متى ؟ قال لي معك شهرين أو ثلاثة، لا يوجد مشكلة، هذه اسمها عملية باردة، فينصح مدير بنك الدم الذي يوجد عنده عملية باردة باختياره توقيتها أن يعطي من دمه للمستشفى

أمانة له، عند العملية صار هناك حاجة للدم يأخذ دمه يسترجعه، أما المشكلة ليست هنا المشكلة في عملية حارة، حادث سير، نزيف داخلي، لابد من لترين دم ما الحل ؟ ينصح مدير بنك الدم بتشرين أن يبحث عن قريب مستقيم، تصريح قرأته بعيني ينصح مدير بنك الدم في العمليات الحارة أن يبحث الإنسان عن قريب مستقيم يعطيه الدم، فلو فرضنا أخ من الإخوان تبرع يسأل هذا الأخ أنت ما اسمك و تلفونك و زمرة دمك فقط ؟ إذا أنا عندي على الكومبيوتر زمر الدم أحياناً يأتيني اتصال الساعة الواحدة أقول له و الله لا أعرف، هذه تريد جهداً، هذا عمل عظيم، أي عندنا آلاف الأعمال الطرق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق.

أنتم بالحج ترون سابقاً الآن أوقفوها، العجزة، المتقدمين بالسن يجلسوا على هذه النقالة و يقول لك خشب خشب يحملوهم، أنا هذا الإنسان الذي عمره ثمانين سنة كومة عظام يهز هكذا أنا أرى المسلمين كهذا الشخص لا يعمل شيئاً، يا ترى يضربونا أستاذ ؟ و الله لا أعرف، يا ترى يحاصرونا ؟ لا نعرف، لا يعرفوا، ليس مستعداً أن يتحرك و لا أن يتكلم كلمة و لا أن يربي ابنه و لا يقدم خدمة، فقط يسمع دروساً و إلى متى سماع هذه الدروس ؟

و الله يا إخوان اعتبروا هذا الكلام من القلب إلى القلب و ريح الجنة في الشباب، تجد الشاب عنده إمكانيات مذهلة بالكومبيوتر، بالبرامج، تجده خبيراً بأعلى درجة، يقول سيدنا عمر إذا الشخص ليس له صنعة يسقط من عيني، أنت بماذا متفوق ؟ كل إنسان له تفوق بشيء.

أنا أتكلم عن قصة أعدتها عشرات المرات أخ مرة من الغوطة الشرقية أنا أرغب أن أكون داعياً و أنا أمي يا أستاذ ماذا أفعل ؟ قلت له خذ كم شريط و وزعهم، قال لي حسناً، اشترى مئة شريط دفع ثمنهم، أحصى أقرباءه كلهم يعطي هذا شريط يضع اسم فلان أخذ مثلاً اسم السلام، يغيب جمعة هل سمعته ؟ نعم شيء جميل، عندك غيره ؟ نعم تكرم، هكذا اشتغل حوالي سنة و نصف ثلاثين أربعين أخ صاروا بالجامع من أقرباء هذا، هذا داعية أمي.

عندما أنت تريد شيئاً الله يفتح لك الطريق، اقنع إنساناً يأتي إلى الدرس، أعط إنسان شريط درس تأثرت أنت به كثيراً، قدم له الشريط، اسمعه إياه، الدرس كان عن الربا و لك قريب مرابٍ هذا الدواء، و الله مرة أخ طلب مني شريطاً عن الغناء له قريب مغني، و أسمعه إياه و تاب و صار من إخوانا، مغني يتوب هذا عمل.

و الله أمامكم ملايين الأعمال، أحياناً أدخل إلى معهد أنا أدرس في الجامعة أجد أني أمام خمسة آلاف طالب من ست و خمسين جنسية يتعلموا الشرع و يرجعوا إلى بلادهم دعاة بأصعب الظروف، أنا أعد هذا المعهد أنه من الممكن أن تعمل مليون شيء بهذه الظروف، لا يوجد إلا الله، اطلب منه عملاً صالحاً، اطلب عملاً تلقى الله به، أريد عملاً، مرة دعيت لسهرة دورية اعتذرت ألحوا عليّ اعتذرت،

ألحوا عليّ اعتذرت، بعد ذلك وضعت شرطاً تعجيزياً، ما الشرط التعجيزي ؟ أنا لا أتكلم في الجلسة، عندنا مجموعة مهمات نعملهم، يوجد إنسان يريد عملية جراحية تبرعوا له، وضعهم المادي جيد و الله هكذا اتفقنا، يمكن أمتع سهرة أسهرها مع هؤلاء كلام لا يوجد، يكفي هذا كلام، نريد عملاً، نريد حركة، تقديم شيء.

أعيدها مرة ثانية الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، قد تكون إنساناً ضعيفاً لكن الله يعطيك طاقة كبيرة، إحياء علوم الدين هذا الكتاب الضخم، هذا الكتاب كتبه الغزالي من ذاكرته فقط بالشام، الإمام النووي ماذا ترك آثاراً ؟ الشافعي عاش ثمانية و أربعين سنة، النووي دون الخمسين سنة عاش، كم كتاب ترك ؟ القرطبي ماذا عمل ؟ هذا الكتاب صدقة جارية، تولف كتاباً، تبني ميتماً، أحياناً أجد معاهد شرعية الذين أسسوها توفوا لأنهم صادقون مع الله استمرت، هذا عمل.

النورسي بتركيا أنا أظنه صالحاً جداً موصول بالله عز وجل و كان جريئاً و كان حكيماً جداً، الآن أتباعه خمسة ملايين تقريباً، على منهجه يمشون، هذا عمل.

فكر بعمل يستمر بعد الوفاة، أحياناً أنا أسافر أسمع دروس أحد علماء القاهرة، علماء مصر أقول يا رب من ثلاث سنوات ميت و له كل يوم درس، و ترك أثراً كبيراً، أي نريد عملاً، تقيم عملك، تقيم حرفتك، تقيم بيتك، ربي أولادك، اخترع شيئاً، طور شيئاً، حسن شيئاً، اعمل جمعية خيرية، أي مليون عمل يوجد و أنا لا أصدق شخص يقول أنا لا أجد عملاً.

و الله الأعمال لا تعد و لا تحصى، أخ أخذ الموسوعة التابعة للنابلسي و أخذ موضوعاً منها، هذه الموسوعة فيها مئة و سبعين ألف صفحة، عندي موسوعة كل دروسي تقريباً و كل التفسيرات و كل شيء ألقيته في حياتي في سيرة واحدة، مئة و سبعين ألف صفحة أظهر منها كتاباً موضوعاً واحداً بالبحث يبحث قص و لصق جمعهم رتبهم ظهر كتاباً هذا عمل، أنت فقط قل لي أريد أن أعمل يوجد مليون عمل.

فيا أيها الإخوة الكرام، هذا اللقاء هدفه فقط أن نتعرف إلى الله لا من خلال أقوالنا، الأقوال تكفي، و الله أتمنى أن يصبح فترة صمت كاملة لا إذاعة و لا شيء نرتاح قليلاً من الكلام، كلام كلام كلام، مراسلين أخبار تحليلات، خرجنا من جلدنا من التحليلات، نحن بمؤخرة الأمم، نريد شيئاً نشعر أنه انتصرنا. فأرجوكم أن تعتبروا هذا الدرس محرك عمل و ليس محرك بحث، الشخص منا يعمل شيئاً، يقدم شيئاً، و قدم هذا الشيء إلى أي جهة تريد، نحن مع الكل.

الآن وحدتنا، تعاوننا ضرورة لا خيار لنا فيها، ليس فضيلة إنما ضرورة، لأن الطرف الآخر يستهدفنا جميعاً و مادام قد وضعنا في سلة واحدة ينبغي أن نقف في خندق واحد.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (145) :ذكرى الهجرة - الهجرة حركة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-01-29

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

من مناسبة ذكرى الهجرة هناك حقائق أتمنى أن أضعها بين أيديكم، الحقيقة الأولى أن الأحداث التي حدثت في عهد رسول الله كانت مقصودة لذاتها من قبل أحكم الحكماء ليقف النبي عليه الصلاة والسلام منها الموقف المشرع، نحن كما نعلم عندنا سنة قولية هي أقوال النبي عليه الصلاة والسلام وعندنا سنة عملية هي أفعاله، وعند المحققين أن أفعال النبي عليه الصلاة والسلام أبلغ في التعبير عن فهمه لحقيقة القرآن ولحقيقة الدين من أقواله لماذا ؟ لأن أقواله قابلة للتأويل ولفهم بسيط ولفهم عميق ولفهم مفتعل ما أراده النبي عليه الصلاة والسلام، فأقواله يمكن أن تفهم على مستويات كثيرة ويمكن أن توجه توجيهاً خبيثاً لكن أفعاله حدية لو أن إنساناً سئل عن الحجاب فأجاب هناك من يؤول كلامه على أن كشف الوجه مقبول عنده وهناك من يؤول كلامه على أن ستره هو الأصل، انظر إلى زوجته فإذا كان وجهها مستوراً معنى ذلك أمره لزوجته بستر وجهها هو فهمه الحقيقي للحجاب هو أبلغ من أقواله التي يمكن أن تؤول وفق ما يريد أو وفق ما لا يريد.

لذلك قال المحققون أفعال النبي حدية أي دلالتها على فهمه لحقيقة الدين ولكلام رب العالمين أبلغ من أقواله لذلك، كنت أقول دائماً لو لم يكن إلا سيرة النبي عليه الصلاة والسلام لكانت كتاباً وسنة أو لكانت فهماً للكتاب وفهماً لسنته القولية.

الإنسان يتحرك وفق فهم له بل حركة حدية، الآن كل شيء وقع في عهد النبي عليه الصلاة والسلام لماذا كانت البعثة في مكة ولماذا انتقل إلى المدينة ولماذا كان الإسراء والمعراج ولماذا كانت مكة في الصحراء ؟ كل شيء وقع في حياة النبي مقصود من قبل العناية الإلهية ليقف النبي من هذا الحدث الموقف المشرع، ذكرت سابقاً أن أخطر حدث في العصر الحديث بعثة النبي عليه الصلاة والسلام لأنه قال عن نفسه بعثت والساعة كهاتين قال بعض العلماء إن بعثته من علامات الساعة لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ولأن القرآن الكريم خاتم الكتب السماوية الآن ظهور بعثته أو نزول الوحي عليه أظهر الحق بعد فترة من الرسل أخطر حدث بعد البعثة الهجرة، البعثة نزول الوحي أو ظهور الدعوة والهجرة حركة نحو الحق، مشكلة المشكلات في العالم الإسلامي قعود نظر توقع تقوقع تكفير خصومات، أنا مضطر أن أتكلم ببعض الإحصاءات، في إحصاءات دقيقة جداً تشير والإحصاءات معقدة أساسها ساعات العمل مع عدد أفراد الأمة مع الإنتاج القومي، فالإنتاج القومي مع ساعات العمل مع عدد أفراد

العاملين المحصلة أن المواطن في دولة من العالم الثالث يعمل سبع وعشرين دقيقة في اليوم فقط في دولة أكثر تخلفاً المواطن يعمل سبع عشرة دقيقة، في الدول التي سيطرت على الأرض وأحكمت سيطرتها ونهبت ثرواتها وفرضت ثقافتها الإباحية على أفراد الأرض عن طريق الأقمار والفضائيات وعن طريق العدوان والقصف والعدوان يعملون ثمان ساعات كاملة، أمة تعمل سبع عشرة دقيقة في اليوم لا تستطيع أن تواجه أمة تعمل ثمان ساعات هذه حقيقة نحن أمة لا نعمل أو نحن أمة نائمون في ضوء الشمس والشمس هي الوحي وأعداؤنا يعملون في الظلام.

أؤكد لكم أن الذي يعمل في الظلام يسبق النائم في الشمس، نحن معنا وحي معنا قرآن معنا فلسفة الوجود معنا كلام النبي معنا قرآن كريم معنا البعثة الخاتمة ومع ذلك نائمون، فهذا الذي دفعني أن أنتهز ذكرى الهجرة ليكون محور هذا اللقاء الطيب أن الهجرة حركة، الذي أدعوكم إليه أن تقدم لله شيئاً وكل شيء مقبول هي كلمة قالها بعض العلماء لا أنساها ابن القيم رحمه الله قال الطرائق إلى الخلائق بعدد أنفاس الخلائق، مليون طريق وطريق إلى الله بين يديك ولا أحد يسائلك بل ترتقي عند الناس وعند الله، إن سألتني أم أقول لها وأنت في البيت هناك طريق إلى الجنة وأقول إلى الابن وأنت في المدرسة هناك طريق إلى الجنة يعني الإله واحد والعمل الذي يقبله عمل واحد، أما أنواع العمل لا تعد ولا تحصى سبحان الله إنسان تفوق في بناء المساجد إنسان تفوق في إلقاء الدروس إنسان تفوق في التأليف إنسان توفق في تأسيس جمعيات خيرية إنسان تفوق في رعاية الأيتام والأرامل كلهم عند الله سواسية هذا الوهم أن الجنة للدعاة لا، الجنة لطبيب بعيادته يعالج المسلمين بإخلاص وينصحهم ولا يبتز أموالهم، الجنة لمحامي أمسك قضية ودافع عن موكله بصدق وإخلاص وأمانة من دون كذب ودجل وإيهام، الجنة لتاجر اشترى بضاعة جيدة ينتفع بها المسلمون ووضع ربحاً معقولاً وعامل الناس بلطف وبشاشة واعتدال، الجنة للتاجر وللصانع وللموظف والجنة للطبيب والمحامي والمدرس وأستاذ الجامعة وللوزير، إذا وزير بيده مناهج القطر وأمر بتأليف مناهج ترضي الله عز وجل وتحفظ أخلاق الأمة القطر كله بصحيفته، مفهوم أن الجنة للدعاة أو للمشايخ مفهوم مضحك الجنة لكل مسلم وكل مسلم يستطيع أن يقدم لأمته كل خدمة وأن يصل إلى أعلى درجات الجنة وهو في أصعب الظروف والأمثلة كثيرة.

الهجرة حركة.

الفكرة الثانية أن النبي عليه الصلاة والسلام تلقى أمراً إلهياً بعدم الاقتتال في مكة، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا)

[سورة النساء: 77]

منع الصحابة منعاً باتاً من أي عمل عدائي أو عنيف أو قتالي في مكة حكمة، ما في كيان لأن البيت فيه مشرك ومسلم لو أن الله سمح بشيء من هذا القبيل في مكة لكانت حرباً أهلية لكن الأمر الإلهي بالكف أما في المدينة في كيان في دولة في رئيس دولة في سياسة خارجية في منهج، بالمدينة سمح بمكة لم يسمح.

إذاً هذه الهجرة درس بليغ بليغ بليغ وأنا أقول لكم وأنا أقول لكم ولا أبالغ ما من وقت يحتاج فيه المسلمون إلى دروس الهجرة كهذا الوقت لأنه بشكل عام المسلمون لم يأخذوا بالأسباب أما المنهج الإلهي أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء وأن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء. بربكم الإله العظيم الذي نقل رسوله من مكة إلى بيت المقدس في لمح البصر على البراق والإيمان بالإسراء إيمان من ضروريات الدين ومن يرفضه يكفر ونقل نبيه الكريم من بيت المقدس إلى سدرة المنتهى في لمح البصر وبلغ السماوات العلا ورأى من آيات ربه الكبرى ورأى ما كان وما يكون وما سيكون وعاد إلى فراشه وبقي فراشه ساخناً هذا الإله العظيم ألا يستطيع أن ينقل نبيه على البراق ثانية من مكة إلى المدينة ؟ لماذا هذا التعب وذاك النصب والسير ساحلاً والاختباء بغار ثور وأن يأتي المطاردون إلى غار ثور وأن يروا لكنهم لم يروا؟ ولماذا استأجر الناقة ؟ ولماذا تكليف دليل رجح فيه الخبرة على الولاء ؟ ولماذا تكليف من يمحو الآثار وتكليف من يأتي بالأخبار وتكليف من يأتي بالزاد ؟ ولماذا السفر أياماً طويلة وقد هدر دم النبي عليه الصلاة والسلام وتدافع الناس لقتله ليأخذوا المئة ناقة ؟ لما كل هذا التعب وقد نقل الله نبيه من مكة إلى بيت المقدس أبعد من المدينة بلمح البصر وعلى البراق ؟ هنا السؤال .

أيها الإخوة الكرام، من أخذ بالأسباب واعتمد عليها فقد أشرك وهذا شأن الطرف الآخر أخذوا بالأسباب أخذاً مذهلاً لكنهم ألهوا هذه الأسباب واعتمدوا عليها فوقعوا في الشرك والمؤمنون بجهلهم أو تقصيرهم لم يأخذوا بها وتوهموا أنهم مسلمون وأن الله سينصرهم بمعجزة، والله الذي لا إله إلا هو ليس من باب التشاؤم ليس هناك معجزات هناك معجزة إذا نفذت أمر الله إذا أعددت لهم ما تستطيع من عدة الفرق الله يهيئه بمعجزة أما ما في حركة أبداً فنحن دون أن نشعر ننتظر حادث خارق الله يدمر أعداءنا ننتظر صاعقة نحن مرتاحين لا نقدم ولا نؤخر ولا نفعل شيئاً ولكن ننتظر معجزة وهذا شيء مستحيل قال تعالى:

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

[سورة محمد: 4]

أحياناً الله عز وجل يفعل أفعالاً لها دلالات عميقة جداً قبل ست سبع سنوات في ليلة القدر وكان لي صديق طبيب في الحرم المكي وعقب ختم القرآن تجاوز الدعاء ساعة وقد خص إمام الحرم من دعائه

عشر دقائق أو أكثر دعا لنصرة المسلمين في فلسطين وعدونا أرسل طائرتين مروحيتين عليهما نخبة نخبة ضباطهم أغلى فئة الضباط المغاوير المغوار مكلف ملايين تدريب على السلاح الأبيض تدريب على أرقى الآلات تدريب على اللغة الدارجة بأي منطقة في الشرق الأوسط التدريب على الصراع الياباني التدريب على الطيران هذا الضابط المغوار والكلمة الأجنبية كوما ندوس هذا أُنفق عليه ملايين وفي طائرتين مئة وخمسة وعشرين ضابطاً من فرقة المغاوير مدربون تدريباً مذهلاً تدريب على السلاح الأبيض تدريب على أرقى الآلات تدريب على اللغة الدارجة، وقعت الطائرة العليا على السفلى ووقعت الطائرتان فوق مستعمرة إسرائيلية ومات جميع ركاب الطائرة وحينما فتحوا الصندوق الأسود سمعوا قائد الطائرة العليا يقول أنا أسقط ولا أدري لما أسقط، لو تدخل الله عز وجل هذا الذي هدم سبعين ألف بيت الله تدخل انتهى بثانية هو أقل أن تذكر أخباره في تعتيم على الأخبار انتهى بثانية هكذا الله عز وجل كل شيء بيده كل القوى بيده لو أن الله عز وجل أراد يتدخل صاعقة تصعق كل الكفار بثانية لا ترى شيء بعد ذلك والدليل قال تعالى:

(أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

[سورة يونس: 24]

إذاً الله عز وجل أوكل لنا أن ننتصر على أعدائنا بأن نعد لهم ما نستطيع نحن إذا أعددنا لهم ما نستطيع والذي أعددناه لا يكفي لمواجهتهم الآن تأتي معجزة، تأتي المعجزة بقوله تعالى:

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249))

[سورة البقرة]

الكرة في ملعبنا والأمل كبير لكن لا بد من أن تفعل شيئاً فالهجرة حركة الهجرة عمل الهجرة التزام الهجرة عطاء الهجرة أن تحمل هم المسلمين هذه الهجرة ما من وقت يحتاج المسلمون إلى دروس الهجرة كهذا الوقت الدرس الأول الذي لا يعلو عليه أن نأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء وأن نتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، طبعاً من السهل جداً التطرف أن تأخذ بالأسباب وأن تعتمد عليها قضية سهلة جداً وألا تأخذ بها وتتواكل على الله قضية أسهل لكن البطولة أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، سهل جداً أن تجري مراجعة دقيقة جداً لمركبتك قبل السفر لكن هذه المراجعة الدقيقة توهمك أنك لن تصاب بحادث هنا الخطر وسهل جداً تقول يا رب توكلت عليك وسلمت أمري إليك وما تفعل شيء وفي خلل في ميزان السيارة في خلل بالعجلات في خلل بالمكابح في خلل بالمحرك وأكثر الحوادث بسبب خلل مزمن بالمركبة لم يعالج في وقته، سهل ألا تأخذ بالأسباب وسهل أن تأخذ بها لكنه ليس من السهل أن تأخذ بها وكأنها كل شيء ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء

ماذا فعل النبي عليه الصلاة والسلام ؟ ما من إنسان على وجه الأرض أحق بالنصر من رسول الله ومع ذلك أخذ بالأسباب الوجهة إلى المدينة الطلب باتجاه المدينة سافر معاكساً باتجاه الساحل أول الأيام الثلاثة في طلب شديد عليه اختفى بغار ثور وغار ثور عالي جداً شاق لماذا وصل الكفار إليه ؟ لماذا سمح الله لهم أن يصلوا إليه ؟ الحقيقة يوجد جواب دقيق جداً لأنه لو كان النبي معتمداً على الأسباب التي أخذ بها ووصلوا إليه لانهارت قواه هو أخذ بها تعبداً واعتماده على الله لذلك لما قال له أبو بكر رضي الله عنه لقد رأونا أو لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا قال له يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما.

فالمؤمن يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء لكنه لا يعتمد عليها يعتمد على الله ولحكمة بالغة بالغلة أحياناً يأخذ أحدنا بالأسباب ويعتمد عليها فيأتيه الله من حيث لا يحتسب، أعرف رجلاً أظنه صالحاً ولا أزكي على الله أحداً أصيب بمرض عضال في قلبه ودخل إلى مستشفى في أمريكا والعملية كان احتمال نجاحها عشرين بالمئة فقط ونجحت كل تصوره أن نهايته من قلبه مات بحادث، أيام الإنسان يؤخذ من طريق آخر، على كل يوجد قصص كثيرة مثلاً في طبيب في أمريكا يؤمن بالجري والحقيقة الجري مفيد جداً والذين يأخذون برياضة الجري لهم قلوب قوية جداً وتعمر وشرايين مفتوحة دائماً وفي النوم لا تزيد ضربات قلوبهم عن خمسين ضربة فقط لأنهم عودوا على الجهد ففي الراحة يقل الجهد كثيراً، هذا الطبيب يؤمن بالجري وأجرى مناظرات في الإعلام وله مقالات وله كتب وهو يجري في اليوم عشرين كيلو متر وعمره يزيد عن أربعين بقليل ومات وهو يجري لا لأن الجري ضار لكنه أله الجري واعتمد عليه وخذوا هذه القاعدة ما من شيء تعتمد عليه إلا والله يغار عليك منه فيخيب ظنك فيه لو اعتمدت على قريب وقوي وله يد إن اعتمدت عليه يخيب ظنك، الله يلقي في روعه أن يخيب ظنك لأن الله يغار عليك أن تتجه إلى غيره.

فلذلك أيها الإخوة الكرام، النبي عليه الصلاة والسلام أخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، والله أحياناً لا أجد في الأشياء الكبيرة جداً نأخذ بأسبابها أبداً لذلك الدول النائمة كل أفعالها ردود أفعال لا تخطط أبداً، أنا كنت مرة في بلد بعيد في مهندس حضر اللقاء فكان مسروراً جداً سألته ماذا تعمل ؟ قال أنا مهندس في شركة سيارات كبيرة جداً، ما نوع عملك في هذه الشركة ؟ قال أنا أخطط لسيارة تصنع بعد عشرين عام، نتوقع سعر البترول نتوقع بنية الأسرة، الأسرة كانت زوج وزوجة وكم ولد الآن زوج وزوجة وكلبين لا يوجد أولاد لا تحتاج إلى أربعة أبواب يكفي بابين وأسعار الوقود لها علاقة بتصميم السيارة يعني شركة سيارات تصمم مركبة لألفين وعشرين لعشرين سنة قادمة، دائماً الإنسان العاقل يعيش المستقبل وبالمناسبة نحن أخطر حدث في المستقبل مغادرة الدنيا هذا الموت لذلك أعقل عقلاء الأرض هو الذي يخطط للقاء الله عز وجل، الحقيقة مصيبة الموت مصيبة كبيرة جداً ونحن دائماً لا نعيش حقيقة

الموت نعيش فكرته فقط، أنا أضرب مثلاً اسمحوا لي دعيت إلى إلقاء محاضرات في أستراليا وأستراليا القسم الجنوبي من الأرض ودائماً الفصول متعاكسة بين الشمال والجنوب، يعني في الشمال كنا في شهر الصيف وأذكر والله الحرارة ثلاثة وأربعين في دمشق فتحت الانترنيت على أستراليا على سيدني الحرارة ثلاثة أو أربعة أنا أعيش الحر أعيش الحر، الحر قوة ضاغطة علي وثلاثة وأربعة في الانترنيت فكرة لا أعيشها لذلك أنا استجبت إلى الجو الذي يحيط بي وأخذت معي ألبسة صيفية أنا بحَرٍ شديد وصلت إلى سيدني وعندي أول درس في المسجد لكاما صباحاً شعرت ببرد لا أعرفه بحياتي المصلين عباءات و فروات وقبعات وأنا رداء صيفي رقيق جداً وبعباءة رقيقة جداً، لا أنسى هذا الدرس نحن الآن الموت عندنا فكرة وليس حقيقة المغادرة صعبة جداً، بيت مئة وستين متراً فارشه على ذوقك جبصين ثريات سجاد سيارة على الباب زوجة أولاد مكتب تجاري مكانة بطاقات رحلات سفرات ما القبر في باب صغير والله شيء لا يصدق، والله أحد أخوانا توفيت والدته فكنت أنا في الجنازة لما وضعت في القبر شهد الله ما رأيت في الأرض أعقل ولا أذكى ممن يعمل لهذه الساعة التي لا بد منها، يعني كل شيء جمعته في ثلاثة وسبعين سنة تخسره بثانية كان شخصاً صار خبراً كان إذا دخل البيت يملأ البيت أنساً الآن بغرفة وجوده قبل دفنه وقبل تغسيله يخافوا يدخلوا عليه موحش لا تدخل إلى هنا هنا موجود ما الذي حدث البارحة كان مصدر أنس في البيت مصدر فرح الآن مصدر خوف، أنا أتمنى أن نعيش المستقبل، أعداؤنا مع الأسف الشديد يعيشون المستقبل بكل تخطيطاتهم يعيشون لعشرين سنة قادمة بكل شيء.

الهجرة حركة نحن ننتظر الفعل حتى نعمل رد فعل، صوروا النبي عليه الصلاة والسلام بصور بشعة جداً إرهابي قاتل قنبلة نووية برأسه ماذا نفعل ؟ ننتظر ما الله يلهمنا ما عندنا فعل يتلقى رد فعل نحن كلنا رد فعل هذا ليس من صفات المؤمن النبي كان يخطط من منا عنده هدف واضح يخطط له، فعلوا استبيان مع الأسف الشديد ثلاثة بالمئة من الناس في الدول النائمة يعرفون أهدافهم والباقي يقول بالتعبير الدارج عم ندفش ما في هدف واضح أبداً .

فالهجرة حركة يا أيها الإخوة الدرس الأول أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء وأن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، أكثر الحوادث في حياتنا عدم الأخذ بالأسباب، تيارنا مئتين وعشرين إذا إنسان مست يده التيار وكان في الحمام بالأرض في ماء يموت فوراً، يوجد آباء يضعون واقياً على مأخذ الكهرباء من أجل أولادهم الابن غالي جداً، أحياناً يكون مأخذ الكهرباء مكشوف لو الطفل مسكه يصل إلى الكهرباء والأرض ماء يموت فوراً لماذا في حياتنا بكل شيء نأخذ الاحتياطات ننسى التلقيح في أمراض نشتري مواد غذائية غير مدروسة قال لي أحد الأخوة كان بهولندا قال كان في برميل في مكان بيع اللحوم قال ما يخطر في بالك عين بقرة ذنب بقرة عظمة خنزير يوضع في البرميل تأتي سيارة

كبيرة تأخذ هذا البرميل يصهروه بمراجل يجعلوه سم يأتي إلى عندنا باسم رائع جداً شكل زرقاء وبقرة جالسة هذا كله سمون كالسموم ممنوع استعمالها في بلد المنشأ، قبل أن تشتري شيء فكر فيه ينفعني يضرني يعمل مشكلات أكثر السمون هي زيوت رخيصة مهدرجة معنى مهدرة أي عالقة بالدم في عندنا زيوت مشبعة وغر مشبعة، المشبعة لا تنهضم هي تسبب ضيق الشرايين العملية أربعمئة وخمسين ألف هكذا العمليات أرقام فوق طاقة الإنسان لأنه قصر بغذائه قبل أن تشتري المواد الدسمة اسأل تعلم والله أنا حريص حرصاً لا حدود له على الثقافة الصحية والثقافة الغذائية تعرف ماذا تأكل.

فيا أيها الإخوة الكرام، الهجرة حركة والهجرة أخذ بالأسباب سيد الخلق وحبيب الحق سيد ولد آدم هو أحق إنسان بالنصر ما نقله الله بالبراق الله عز وجل وما نقله بخفية من أعدائه أعداء موجودون ومتربصون وحاقدون وأقوياء وأغنياء ورسم خطة من مكة إلى غار ثور ثلاثة أيام استأجر خبيراً في الطريق غلب فيه الخبرة على الولاء مشرك وأمّن رجلاً يمحو الآثار وأمّن رجلاً يأتي بالأخبار وأمّن رجلاً يأتي بالزاد ووصلوا إليه ولأن اعتماده على الله لا على خططه بقي مرتاحاً ما ظنك باثنين الله ثالثهما الآن الحياة تحتاج إلى عمل طور صناعتك طور تجارتك طور حرفتك، التجارات العملاقة بالعالم الغربي شيء لا يصدق محرك بحث شابان في أمريكا استقرضا مئة ألف دولار الآن معروض بستة عشر مليار دولار غوغل، الأعمال العملاقة أولها فكر فردي مغامرة جرأة الإنسان يريد موظفاً بخمسة آلاف يقول لك لا يكفي المعاش اعمل حركة فكر بمشروع تعاون مع أخوك نحن ما عندنا تعاون نحن عملنا فردي، أكبر صفة بمجتمعنا انتماء فردي لا نتعاون أبداً والآن بالمناسبة لا يمكن أن ينجح مشروع إلا بالتعاون، المشاريع تحتاج إلى تعاون الآن سمحوا فيها عيادة مشتركة يدخل المريض صدرية قلبية هضمية وتحليل ومخبر، كنت في استنبول صدقوا شيء لا يصدق بناء للتجار سبعمئة مكتب تجاري المكتب محل ومكتب ومستودع وموقف لسيارتين، سيارة لصاحب المحل وسيارة لضيف أو زبون الضيف يجلس ساعة بعد الساعة في أجرة حتى لا يطول يدخل بسيارته إلى داخل المكتب سبعة طوابق سبعة طرق يدخل بسيارته وبضاعته وسيارته ومستودعه ومكتبه وكل ما يحتاج له من الدولة في هذا البناء أبداً البنوك الجمارك المالية كل شيء ومساجد ومطاعم يدخل الساعة الثامنة يخرج الساعة السادسة ليس مضطراً يذهب إلى مكان آخر في البلد انظر التفكير توفير الوقت مهم جداً خطط عندك محل تجاري رتبه ترى حاجات فوق بعضها غبار حسابات ما في كله على التوكل معوضين يضعهم في الجيبة، جيبته وجيبة المحل واحد ومعه أموال استثمار يصرف من الغلة من دون أن يسجله متوكل على الله يعني جادبها وماشي، وكان أمره فرطا.

أنا أتمنى بمناسبة الهجرة أن نأخذ الأسباب وكأنها كل شيء وأن نتوكل على الله وكأنها ليست بشيء وأن نقلد النبي عليه الصلاة والسلام في أخذه بالأسباب مع أنه أول من يستحق نصر الله عز وجل وأخذ

بالأسباب هذا درس كبير، يشتري صفقة من دون دراسة من دون دراسة سوق من دون دراسة أسعار من دون دراسة نوعية لا تباع معه يقول ما في جبر أنت غلطان بشرائك ما في دراسة الدراسة لا تتناقض مع الإيمان، نحن عندنا وهم خطير إذا درس أنت لست مؤمناً أين توكلك ؟ من قال لك أن هذا توكل، سيدنا عمر رأى أناساً يتكففون الناس في الحج سألهم من أنتم ؟ قالوا نحن المتوكلون قال كذبتم المتوكل من ألقى حبة في الأرض ثم توكل على الله، سعود نفسك أن تأخذ بالأسباب في نص آخر قوي جداً يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن الله يلوم على العجز))

تستسلم ما بيدنا شيء فات الأوان الله يسلمنا يا رب ما لنا غيرك هكذا المسلمين الآن

((إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس))

دبر فكر خطط اجلس مع أخوك خذ برأيه خذ رأي خبراء ضع خطة انقد الخطة تحرك أول حركة جس النبض تحرك ولكن عليكم بالكيس يعني التدبير فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل.

أوضح مثل ما نجحت لأنك ما درست لأنك توقعت أسئلة وما جاءت لأنك أمضيت العام الدراسي كله من دون دراسة، يأتي شخص تقول له نجحت يقول لا والله لماذا ؟ ما في نصيب الله ما كتب لي النجاح أنا راض عن الله أنا واثق من حكمته كله كذب ودجل وزعبرة وتلبسة قل أنا ما درست فما نجحت، أنا لي مصطلح أستخدمه أفرق بين القضاء والقدر وبين جزاء التقصير، يعني إنسان لا رياضة ولا حركة ولا نظام غذائي يأكل على كيفه ولا يتحرك مهمل كل قواعد الصحة وإذا جاءه مرض هكذا الله مقدر علي أنا صابر يا الله، لا هذا ليس قضاء وقدراً هذا جزاء التقصير جسمك له قوانين إذا أخذت بها وصار مرض هذا قضاء وقدر الشيء الذي يأتيك مع الأخذ بالأسباب هو القضاء والقدر أما الذي يأتيك عقباً على تقصير هذا اسمه جزاء التقصير كم حادث في البلد ؟ مثلاً رأينا أثناء صندوق العافية امرأة محروق وجهها كله السبب واضعة زجاجة فيها تنر فوق موقد الغاز وواضعة على الغاز زيت حمي الزيت لهب الزيت وصل إلى الزجاجة احترقت كلها والله منظرها شيء يخيف، ترى يتدمر الإنسان تتدمر حياته لأشياء بسيطة جداً، أنا أتمنى الأخذ بالأسباب أتمنى مؤمناً واعياً يقظاً قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

[سورة النساء: 71]

نحن ننام فنستيقظ على خطر لا نستطيع مواجهته، خذوا حذركم حينما تشعر أن الطرف الآخر في عنده بوادر عدوان نحن حتى يقع العدوان نقول عدوان غادر متى كان عدوان غير غادر ؟ كلام ليس له معنى إطلاقاً طبعاً العدوان غادر، إذاً الدرس الأول الذي يمكن أن نستفيد منه أن نأخذ بالأسباب ثم نتوكل على رب الأرباب، أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء وأن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء

هذا الموقف الكامل، الشرق لم يأخذ بها فعصى والغرب أخذ بها واعتمد عليها فوقع بالشرك، طالب تاجر صانع أنا أذكر في آلات صنعت في سويسرا آلات تطريز عندنا مثل هذه الآلات تماماً يباع التوب بكامله عندنا بمئتي ليرة نستورد على الآلات نفسها قماش مطرز المتر بسبعمئة وخمسين ليرة الآلة نفسها لأنه هنا لا يوجد إتقان هنا في خيط مقطوع في بقعة زيت على التوب هذا التوب كله بمئتي ليرة أما المتر بسبعمئة وخمسين ليرة الآلة نفسها مع الإتقان والإتقان جزء من الدين، ركب صحن موضوع الصحن موضوع آخر لكن ركب صحن مستعجل وضع برغيين عوض أربعة أثناء هبوب الرياح وقع فوق بنت أحد أصدقائي في الصف الثامن ماتت فوراً لا يوجد إتقان، أحياناً يقع زجاج فوق طفل يميته لأنه غير محكم، نركب سوراً لا نثبته جيداً على رياح ثمانين فما فوق يتهدم السور، في إهمال كثير ما في إتقان، الغرب ملك الدنيا بالإتقان أتقن إتقان فملك ناصية العالم والآن فرض ثقافته علينا وإباحيته علينا وخططه علينا ونحن لا نستطيع أن نفعل شيئاً لكن الكرة في ملعبنا وإن تعودوا نعد والله موجود وإله محمد إلهنا وإله الصحابة التي نصرهم في بدر إلهنا وإله الصحابة التي نصرهم في الخندق إلهنا والذي نصرهم في حنين لكنا في العناية المشددة نحن فينا خير أضرب لكم هذا المثل الواضح، طبيب يأتيه مريض معه التهاب معدة حاد يسأله ماذا آكل ؟ يعطيه تعليمات بمنتهى الشدة حليب فقط وتفاح ممنوع كل البهارات والمواد الحريفة وكل الحوامض وإذا بلغه أنه تجاوز هذه التعليمات يقيم الدنيا عليه ولا يقعدها، مريض معه سرطان منتشر يقول له ماذا آكل ؟ يقول له كُل كل شيء نحن في العناية المشددة.

المهندس عندما يعمر شرفة ويرى فيها شقوق في احتمال أن تقع وفي احتمال ألا تقع ماذا يفعل ؟ يحملها براميل ماء عشرين برميل ماء ممتلئة بالماء فإذا وقعت لا ردها الله وإن صمدت يعتني بها ويملأ الشقوق ويجري لها إصلاحات، فلعل الله عز وجل يمتحننا بالتحميل يحملنا ما لا نطيق والله الأخبار وحدها تسبب أزمة قلبية والله التهديدات وحدها لا تحتمل منظر القتل والدماء لا يحتمل قال تعالى:

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

[سورة آل عمران : 165]

تحتاج إلى صحوة حركة اصطلاح مع الله سير إلى الله ضبط الأمور حتى الله عز وجل ينظر إلينا برحمة وحتى ينصرنا على أعدائنا وما أكثرهم وما أشدهم حقداً وما أشدهم لؤماً.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (146) :معرفة خصائص النفس البشرية.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-02-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام:

لمعت في ذهني فكرة أن الأب لما لا يؤثر، الزوج لما لا يؤثر، مدير مدرسة ابتدائية لما لا يؤثر في المعلمين، مدير أي مؤسسة مستشفى جامعة معمل هؤلاء الذين أوكل لهم أمر التأثير والقيادة لما لا يؤثرون ؟ رأيت أن هؤلاء لأنهم جهلوا حقيقة النفس جهلوا خصائصها جهلوا سننها لذلك لم يؤثروا أبداً بالأب بالمعلم بالزوج، يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها. إن أردت أن تؤثر يجب أن تكون محسناً نحن كل حضارتنا مادية، كل علمنا متعلق بالجسم فقط الطب تقدم تقدماً مذهلاً لكن بالجسم أما الذين وقفوا على حقائق النفس وكيف تسعد وكيف تشقى وكيف تطيع وكيف تعصي وكيف تنساق وكيف تتمنع هؤلاء عرفوا حقيقة النفس حتى انقادت لهم النفوس لذلك الشاب بحاجة إلى هذا الدرس والأب بحاجة إلى هذا الدرس والمعلم بحاجة له والمدرس بحاجة له ومدير مستشفى بحاجة له، أي موقع قيادي يجب أن تلم بخصائص النفس حتى هؤلاء الذين حولك يعطونك كلما تريد، أعطي الإنسان رغيف خبزه وكرامته وخذ منه كل شيء، قد يأتي إنسان بعيد عن الدين بعد الأرض عن السماء لكن بذكاء يلتف من حوله التفافاً كبيراً السبب أنه وضع يده على حاجاتهم الأساسية أعطي الإنسان رغيف خبزه وكرامته وخذ منه كل شيء.

أنا أروي قصة لها دلالة كبيرة جداً أخ كريم متخصص باللغة الإنكليزية طُلب منه أن يكون موظفاً في مكتب تجاري كبير هذا المكتب له مدير شاب وأعماله كبيرة جداً وهم لا يحتاجون إلى موظفين كثر وهذا الأخ الموظف مهمته الترجمة وأن يرد على الرسائل التي تأتي بلغة أجنبية لكنه على ذوق رفيع وأدب جم فإذا جاء ضيف لمدير المكتب قد يكون الضيف مندوب شركة مهم ما في شاب في المكتب يصنع الضيافة فكان هذا الأخ الكريم الذي عمره خمسة وخمسين سنة وهو متمرس باللغة الإنكليزية ومترجم كأنه في بيته يصنع الضيافة ويقدمها ويشرب معهم بعد شهرين أو ثلاثة أراد مدير المكتب أن يجري تنظيمات إدارية وتوصيف لعمل كل موظف فكتب إلى جانب اسمه ترجمة وقهوة وشاي ثاني يوم ترك، بقي يقدم لك القهوة والشاي ستة أشهر عن طيب نفس عن عمل فيه بطولة عن عمل فيه تعاون أنكر ذاته أما لما كتبت في مواصفات عمله ترجمة وقهوة وشاي ثاني يوم ترك نهائياً.

أنت مدير أب معلم مدير مستشفى مدير جامعة أنت حينما تتقن معرفة خصائص النفس تنجح نجاحاً لا حدود له ومع الأسف الشديد الذين ما عرفوا الله وكفروا به وأباحوا لأنفسهم كل الشهوات لكن بذكاء

عال استطاعوا أن ينجحوا في إدارة أعمالهم بأنهم عرفوا أن هذا الإنسان يجب أن يأخذ حقه لذلك كنت أقول دائماً كل إيجابيات الغرب إسلامية، إيجابيات الغرب إسلامية لا عن عبادة لله أبداً هم كفروا بالله، ولا عن طاعة لله أبداً ولا عن خلق كريم أبداً بدافع من ذكائهم واكتشاف حقيقة الإنسان، أول خاصة، يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها. إذاً لا يمكن أن تمتلك قلوب من حولك إلا بالإحسان، لا يمكن أن تمتلك قلوبهم إلا بالعطاء، أنت حينما تعلم أن قيمتك فيمن حولك لا بقدر ما تأخذ بقدر ما تعطي، إنسان دون أن يشعر بجلسة يتبجح بنزهاته بمصروفه أنه كلفته هذه النزهة ثلاثين ألفاً بمركبته والحاضرين ليسوا على اهتمام بهذا الموضوع ينفرون منه أما لو خرج من ذاته وقدم لهم شيئاً ثميناً يلتفون حوله، أنا أرى أن معرفة خصائص النفس البشرية من أخطر موضوعات القادة، الأب قائد والمعلم قائد والمرشد قائد وكل إنسان يتولى أمر عشرة فهو قائد كنت أقول دائماً في ثقافة المسلمين الأب محترم جداً لكن ما كل أب محترم يحبه أولاده المحبة شيء والاحترام شيء آخر، الاحترام تقاليد وعادات أما المحبة ميل القلب بسبب العطاء لذلك قالوا النفس البشرية تحب الكمال والجمال والنوال موقف كامل فيه إنصاف موقف فيه عدالة موقف فيه رحمة موقف فيه حكمة لا تشبع من ترداده، ذكرت النبي عليه الصلاة والسلام حينما توجه إلى الطائف والطريق على الطائف من الوعورة بمكان بحيث أن الذي رصف طريقاً من مكة إلى الطائف اضطر أن يفكك الآلات العملاقة لشق الطريق وأن تركب في موقع العمل كأن الجبال جدار فكيف وصل النبي عليه الصلاة والسلام إلى الطائف على قدميه ؟ يوم اثنين ثلاثة خمسة عشر صعود جبال وصل إليهم كذبوه سخروا منه استخفوا بدعوته أغروا صبيانهم أن يضربوه أراد الله عز وجل أن يظهر عظمة هذا الإنسان، هذا الإنسان جاءه ملك الجبال ليبين عظمة كماله قال يا محمد لو شئت لأطبقت عليه الأخشبين يعني مكنه الله أن ينتقم منهم ماذا قال لا يا أخي اللهم اهدِ قومي، أولاً قومي نحن أحياناً إلى بلاد الغرب يرجع يقول لك هؤلاء العرب جهلة بجم يتكلم كلاماً قبيحاً على أمته وعلى أصله النبي عليه الصلاة والسلام قال : اللهم اهدِ قومي دعا لهم بالهداية واعتذر عنهم قال إنهم لا يعلمون وتمنى على الله أن يخرج من أصلابهم من يوحد الله.

بربكم هذه القصة من وقت وقوعها إلى الآن كم إنسان بالعالم رددها ؟ والله لا أشبع منها تكلم عن موقف لئيم خسيس دنيء حقير تكاد تخرج من جلدك، لذلك الإنسان يحب الكمال وقد يكون الذي يحب الكمال غير كامل، يحب النوال يحب العطاء يحب الجمال والجمال منوع في عبارة جميلة في موقف جميل وفي تصرف جميل، قاضي بأعلى درجة من الورع والتقى جاءته إنسانة من ريف دمشق وزنها كبير أصدرت صوتاً مزعجاً جداً ولا يليق بإنسان أن يتفلت هذا الصوت منه فاحمر وجهها وذابت من شدة الخجل وقالت لأختها لقد سمعنا فلما وصلت إليه قال ما اسمك يا أختي قالت له اسمها قال لم أسمع

أعيدي رفعت صوتها قال لم أسمع أنا سمعي ضعيف، هو ليس فيه شيء قصة رائعة جداً فيها موقف هذا جمال.

إنسان رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو خطيب مسجد في أحد أحياء دمشق العريقة والقصة قديمة جداً هكذا الرواية قال له النبي عليه الصلاة والسلام في المنام قل لجارك فلان إنه رفيقي في الجنة فهذا الخطيب كان يتوقع أن تكون البشارة له إذ هي لجار له من عامة الناس طرق بابه وقال له لك عندي بشارة من رسول الله ولكن والله لن ألقيها عليك إلا إذا حدثتني بماذا فعلت مع ربك حتى أنك استحقيت هذه البشارة، أنا والله ليس من عادتي أن أروي المنامات لكن الموقف مثير جداً فلما ألح عليه وأصر عليه قال والله تزوجت امرأة وفي الشهر الخامس على وشك الولادة معنى ذلك أن هذا الذي في بطنها ليس منه وقد زلت قدمها فأنا بين أن أفضحها وأسحقها وأطلقها وأجعلها مضغة في الأفواه وبين أن أسترها وأن يكون لي سبب توبتها فجاءها مولدة ولدت وأخذ الجنين تحت عباءته ودخل المسجد بعد أن نوى الإمام صلاة الفجر وضعه وراء الباب فلما انتهت الصلاة بكى الصغير واجتمع المصلون حوله فجاءهم وكأنه يعلم ماذا حدث قال ما الأمر ؟ قالوا لقيط قال أعطوني إياه أنا أربيه و أتكفله أعاده إلى أمه أمام كل أهل الحي على أنه لقيط وتكفل بتربيته.

يعني في قصة فيها كمال فيها عفو فيها رحمة فيها إنصاف فيها تواضع هذه القصة لا تمل مهما ذكرتها، لكن إذا أردت أن تعكر نفسك تحدث عن اللئام وعن دناءتهم وعن كذبهم وعن دجلهم وعن صدقوا أيها الإخوة الكرام، إذا سمعت إلى تصريحات العالم الغربي يعني في احتمال الإنسان يمرض كلام كذب بكذب كلام غير واقعي فيه دجل فلذلك هذه مقدمة من أجل أنك إذا كنت أباً أو معلماً أو مرشداً أو داعية إلى الله أو أستاذاً جامعياً أو كنت صاحب مصنع أو صاحب متجر وعندك موظفون إذا كنت رئيس جامعة أي منصب قيادي حولك أناس أوكلك الله بهم ينبغي أن تعرف طبيعة النفس البشرية، أنا ذكرت أحد قوانين النفس يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها. هذا قانون إن أردت أن تملك القلوب فكن محسناً إن أردت أن تملك الرقاب فكن قوياً فقط، القوي يملك الرقاب والنبي يملك القلوب.

قانون ثاني الإنسان يحب الكمال والجمال والنوال وإذا قلت جمال لا أقصد جمال امرأة كلمة جمال واسعة جداً إن الله جميل يحب الجمال، الكلمة الجميلة الجلسة المؤدبة الموقف الجميل الخلق الجميل، هل عندكم تصورات لطبيعة النفس ؟ قوانين النفس وكلما تعرفنا عليها أكثر كلما استطعنا أن نؤثر فيمن حولنا أكثر، القادة الكبار سبب نجاحهم بالقيادة أن الذين حولهم يرون رحمتهم والله أعرف إنساناً خدم في قطعات عسكرية بأعلى الرتب وتقاعد بأعلى رتبة في الجيش يومياً يتفقد جنوده بالثكنة ليلاً من بحاجة إلى شيء من يشكو من شيء يحسه كأنه أب لذلك أمره نافذ بشكل لا يصدق، أنت في البيت إذا

بنيت حياتك على العطف والأنس والمودة تملك سلطة عجيبة دائماً تقول الأنبياء يمدحون في غيبتهم والأقوياء في حضرتهم فأنت حينما تتعاطف مع من حولك حينما تضع يدك على جراحه حينما تعرف حاجته حينما تكون مشكلته مشكلتك ومسرته مسرتك حينما يشعر أنك قريب منه، كان عليه الصلاة والسلام من رآه بديهة هابه ومن عامله أحبه، واحد قال له هون عليك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة، متواضع جداً يجلس مع أصحابه كأنه واحد منهم يدخل عليه أعرابي يقول أيكم محمد؟ يقول له أنا معنى ما في له ثياب خاصة جلسة خاصة مقعد خاص كرسي خاص واحد من أصحابه أقول لكم كلمة أيها الإخوة الكرام، أي إنسان بمنصب قيادي إن قلد النبي قطف ثمار السلوك الرائع بشكل رائع وإن لم يقلد النبي تعالى على من حوله واستكبر عليهم وأثار فيهم الرعب، أحياناً يكون عندك مستخدم تسأله عن صحته وعن صحة أولاده هل أنت محتاج إلى شيء ؟ هل أنت مسرور ؟ والله يبقى هذا المستخدم شهر يترنم بكلماتك العذبة التي رفعت من شأنه لذلك أيها الإخوة الكرام، القيادة فن يكتبوا أيام القيادة فن وذوق وأخلاق أقول لكم القيادة بشكل عام فن وذوق أخلاق فيها علم مع الأسف الشديد أعداءنا عندهم فروع بالجامعات إدارة الأعمال هي فن القيادة هذا اختصاص هذا علم، أنا كنت في مؤتمر في بلاد بعيدة جداً أغرب اقتراح سمعته في هذا المؤتمر أن تضاف مادة إدارة الأعمال إلى كليات الشريعة لأن هذا المتخرج في النهاية قد يكون شيخاً قد يكون إمام مسجد أو خطيب مسجد حوله أناس كثيرون كيف تديرهم كيف تجعلهم جميعاً يلتفون حولك ؟ لذلك من خصائص النبي عليه الصلاة والسلام شيء لا يصدق أن كل صاحب من أصحابه كان يظن أنه أقرب الناس إليه، كل صاحب من أصحابه يقيناً أنه أقرب الناس إليه.

القضية ليست إلقاء أوامر، أنا حينما احترقت السيارات في باريس سمعت تعليقاً لكن دقيقاً جداً يشبه هذا التعليق قال هؤلاء الفقراء في أطراف باريس الدولة عندهم أوامر وقمع وشرطة وسجن ومخالفات لكن التصور عن الدولة عندهم قمع ومخالفة وضبط لكن الدولة لها وجه آخر الدولة حرص على مصالح المواطنين الدولة عطاء الدولة أمن الدولة قوة عسكرية رائعة للعدو الدولة تعليم الدولة تراث، فأنت حينما تكون علاقتك مع شخص إعطاء أوامر وضبط مخالفات أنت أسوأ قائد بالأرض إعطاء أوامر وضبط مخالفات أب، الأب أحياناً ينسى أن ابنه أميناً بحاسبه على خطأ طفيف جداً وينسى كل ميزاته لذلك النبي عليه الصلاة والسلام حينما دخل صحابي جليل ليلحق معه الركعة الأولى وأحدث جلبة وضجيجاً فلما انتهى النبي عليه الصلاة والسلام قال له زادك الله حرصاً ولا تعد، عندك موظف أمين مخلص لكن يتأخر كثيراً أنت إذا أردت أن تحاسبه على تأخره قال ينبغي أن تبدأ بميزاته يقول له المدير أنا عندي يقين أنك كفء وأنك مستقيم وأمين ونزيه ولكن التأخر يسبب لنا متاعب كثيرة، زادك الله حرصاً ولا تعد، ابدأ بالإيجابيات وثني بالسلبيات فكرة رائعة جداً إذا أنا علاقتي مع إنسان يعطيني

أوامر ويضبط المخالفات أنا لا أواليه أبداً لا أحبه ولا أنصاع له إن كان قوياً بالظاهر أواليه في الباطن أفكر في الانتقام منه هذا الواقع، على أي مستوى طبيعة النفس البشرية أنا حدثني أخ قرأ كتاباً أو مقدمة كتاب أكثر كتب التاريخ تصور ما فعله الفرنجة في القدس يوم فتحوها سبعين ألف ذبحوا فجأة صلاح الدين الأيوبي انتصر بشكل أسطوري كأنه سحر، قال أخطاء المؤرخون يغفلون ماذا كان قبل الانتصار فتح مدارس أزال المنكرات انهزام شديد ثم انتصار بلا مبرر هذا حال المسلمين اليوم ينتظرون معجزة ما في معجزات ينتظرون زلزال يدمر أعداءنا ما في زلزال ينتظرون شيئاً خارق للعادات ولا يعملوا، أما الذين انتصروا كصلاح الدين الأيوبي في حديث قد يحتاج إلى ألف صفحة ماذا فعل قبل أن ينتصر أزال المنكرات عرض الأمر على شيخ له قال له أزل المنكرات يا ولدي، قال لم يبق وقت فقال دفعه وقال له قم لا نصرك الله. عندئذ جمد كل شيء وأزال كل المنكرات وبعدئذ واجه الفرنجة القضية ما في سحر وما في معجزات في قوانين نحن ما لم نعرف هذه القوانين لا نفلح مع الطرف الآخر.

إذاً حينما يكون التركيز على خدمة من حولك يلتفون حولك أما إذا كان التركيز على شخصك ومصالحك هؤلاء ينفصلون عنك ولا ينصاعون لك ولا يتأثرون بكلامك، النقد على انفراد مقبول أما أمام جماعة مرفوض، كثير في آباء يعنف ابنه أمام أخواته البنات أو الذكور أو أمام أقربائه أو أمام الضيوف يمكن مهما كان الأب عنيفاً مع ابنه على انفراد مقبول أبوه أما أمام الضيوف أمام أقرباءه أمام أخوته الألم يتضاعف مئة ضعف لذلك لا تحمروا الوجوه النصيحة أمام الناس فضيحة والنصيحة بينك وبين المنصوح فضيلة هذه القاعدة الثانية الإنسان له مكانته لك كرامته طبعاً في قصص كثيرة جداً كان عليه الصلاة والسلام يتعامى عن موقف يحرج أصحابه، في مصطلح حديث لكن له أصول في الدين كبيرة جداً هذا المصطلح فريق العمل بأكثر الشركات الناجحة والمؤسسات ما في شيء اسمه مدير عام وحده معه فريق عمل حتى ممنوع أن يصور وحده إذا في صورة تذكارية مع فريق العمل وجميعاً عناصر نجاح هذا المشروع فنحن إذا كنا في أسرة نجاح الأسرة نجاح لكل أفرادها، كنت أقول دائماً وضربت هذا مرات عديدة كمثل أن الأب في عمله والأم تطبخ والبنت تنظف البيت والابن يأتي بالأغراض أما بالظهيرة هم على مائدة واحدة ومكانتهم واحدة فنحن مفهوم فريق العمل هذا أقوى مفهوم نجح الغرب في امتلاك ناصية الأرض بينما في بلاد متخلفة هذا المفهوم غير موجود يعني أي موظف يغلط ألف خبر يذهب إلى المدير العام غلط والكل يفرح وكأنه صار قناص لكن ما في موظف يأتي إلى هذا الموظف الحديث وينصحه هذا العمل لا يصلح دعه ويبقى ساكتاً، فعلامة النضج أن تعامل أخاك كما تحب أن يعاملك مفهوم فريق العمل أيها الإخوة الكرام، يدرس في الجامعات لذلك حتى ألعاب الصغار أساسها التعاون ينشأ الطفل ما في لعبة يلعب بها إلا تحتاج إلى فريق عمل حياة الفرد من دون تعاون مستحيل، فنحن لا نوطن نفسنا على أن نكون عضو بفريق عمل لذلك قالوا بعض البلاد الواحد

بعشرة والعشرة بواحد، العشرة بواحد يحطموا بعضهم يصبحوا واحد، والله في شركة أنتجت دواء عجزت عنه ألمانيا أعطوا المخترع ميزات تفوق حد الخيال بعد ذلك اختلفوا فيما بينهم وانتهت الشركة دائماً الحب الفوار فيه مادة محرمة سبي تروا قدر هذا المهندس أن يجعله بالماء ونجح نجاحاً كبيراً وذهب إلى أكبر شركة بألمانيا لما عرضوا عليهم المنتج عرضوا عليه الجنسية ومبلغ فلكي آثار أن يبقى في بلده واختلف الشركاء فيما بينهم العشرة بواحد يحطموا بعضهم وفي تفوق في بعض الدولة الواحد بعشرة والعشرة بواحد، لكن مفهوم فريق العمل تعاون على مستوى مسجد على مستوى شركة على مستوى مؤسسة على مستوى أسرة على مستوى مستشفى على أي مستوى نحن جميعاً فريق عمل والأضواء يجب أن تكون مسلطة على الجميع لذلك النبي عليه الصلاة والسلام كيف كان يقود فريق عمل ؟ يقول مثلاً أمين هذه الأمة أبو عبيدة، خالد سيف من سيوف الله، أبو بكر وعمر مني بمنزلة السمع والبصر، أعطى كل صحابي قدره في أشخاص يعتمون على من حولهم لا يذكر من حوله أبداً أما النبي عليه الصلاة والسلام يبرز من حوله سيدنا عمر لا تنسني يا أخي من دعائك، أفرضهم زيد، سيدنا الصديق بمنزلة السمع والبصر يقول مثلاً ما طلعت شمس بعد نبي أفضل من أبي بكر، السياسة دينياً في أعلى درجة من الإخلاص لله، مدنياً أعلى درجة من الذكاء.

مثلاً النبي عليه الصلاة والسلام لما جاءه سعد بن عبادة وقال يا رسول الله إن قومي وجدوا عليك في أنفسهم من أجل هذا الفيء الذي لم يأخذوا الأنصار منه شيئاً، أولاً النبي عليه الصلاة والسلام أراد أن يحدد هويته قال له أين أنت يا سعد منهم أنت ناقل أم متبني ؟ قال ما أنا إلا من قومي يعني أنا أيضاً متألم، قال اجمع لي قومك، الآن تصور قائد دانت له الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها بمنطق العنف والقهر بإمكانه أن يلغي وجودهم ببعض البلاد التي انهارت الشرقية كان إذا في اعتراض يدمرون مئات الألوف لمجرد الاعتراض، أولاً كان بإمكانه أن يلغي وجودهم وكان بإمكانه أن يهدر كرامتهم قوي بأعلى درجة من القوة هذه بعد حنين دانت له الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها وبإمكانه أن يهملهم وبإمكانه أن يعاتبهم لصالحه الشيء الذي لا يصدق أنه ذكرهم بفضلهم علي قال يا معشر الأنصار أما إنكم لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم أتيتنا مكذباً يا محمد فصدقناك طريداً فآويناك مكذباً ذكرهم بفضلهم علي وهو قوي جداً، ثم قال يا معشر الأنصار ألم تكون ضلالاً فهداكم الله بي ما قال فهديتهم، دقق في أدب النبي عليه الصلاة والسلام ألم تكونوا عالة فأغناكم الله ألم تكونوا أعداء فألف بين قلوبكم يا معشر الأنصار أوجدتم علي في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم ؟ قال فبكوا حتى أخضلوا لحاهم وقالوا رضينا برسول الله قسماً وحظاً.

أنا كنت أقول هذه القصة أين مكانها في السيرة مع حكمته أم مع رحمته أم مع تواضعه أم مع وفائه أم مع سياسته شيء يحير ؟ هذا الكمال النبوي فلذلك أيها الأخوة أنت قائد شئت أم أبيت قد تكون أخ أكبر عندك إخوة صغار، مرة اشتكت لي أم على الهاتف أن ابنها قاس جداً مع أخته فلما تلقيت التفاصيل وجدت أن الأخ غير منضبط أبداً إسلامياً لكنه يحاسب أخته على شيء لا تحاسب عليه فتاة جيدة هذا تناقض كيف تحبه إذا كان هو يتفلت ويحاسبها على أدق الأخطاء، لذلك أنت حينما تتناقض تسقط من عين الله ومن عين الخلق ولئن تمشي عرياناً أشرف لك من أن تكيل بمكيالين وأن تقيس بمقياسين.

مرة كنت في محل تجاري وابن صاحب المحل عند أبيه طالب في الصف الثامن وعنده طفل يتيم يعمل عنده ترك المدرسة من فقر الأسرة حمله أول توب والثاني والثالث قال لا أستطيع قال له أنت شاب، حمل ابنه توب واحد قال إياك ظهرك يا بني. ليس معقول الإنسان لما يتناقض يجب أن يدفن في التراب سقط من عين الله ومن عين الخلق إذاً أنت كابن كبير لك دور قيادي مع أخوتك الصغار، والله أستمع إلى قصص في الأسر الدمشقية من الكمال من الأخوة الكبار مع أخواتهم الصغار وأخوتهم الصغار شيء أيام أترنم شهر بهذه القصة، أنت تعيش عمر واحد ولك دور الله أعطاك إياه إذا كنت منصفاً وواضحاً ما الذي يمنع أن تقول لمن حولك سامحني أخطأت ؟ يكون في غضب شديد جداً ينتهي بكلمة، الإنسان له كرامته أنت حينما تستهين بكرامة الناس تذبحهم من الوريد إلى الوريد وتدفعهم إلى البطولة، أنا والله أقول كلما تحامق أعداؤنا فالخير لنا.

أريد أن أقول كلمة كتعليق جداً على هذا الموضوع، الإنسان معه تكليف وله طبع تأكدوا أن تناقض التكليف مع الطبع ثمن الجنة التكليف أن تنفق المال والطبع أن تأخذه التكليف أن تغض البصر والطبع أن تبحلق، التكليف أن تستيقظ والطبع أن تنام، التكيف أن تصمت لفضائح الناس والطبع أن تخوض فيها،هذه تمهيد الآن الطبع فردي والتكليف جماعي أنت تبرز من حولك وتنصفهم وتبين فضلهم تعطيهم حقهم تنوه بهم بقدر طاعتك لله وتعتم عليهم وتجعلهم في الظل وتلقي الأضواء على نفسك بقدر معصيتك لله، شيء واضح جداً أنه إذا فعل معك إنسان معروفاً ألا تنساه إلى الموت وفي قصص كثيرة والمقابل إذا فعلت المعروف مع الناس يجب أن تنساه، عود نفسك أن تنسى ما فعلت وألا تنسى ما فعل معك، هذه قاعدة مهمة جداً في العلاقات أيها الأخوة نحن بحاجة جداً إلى التماسك بحاجة للنجاح لأننا نحن أمام معركة خطيرة جداً معركة نكون أو لا نكون، معركة بقاء، والله الأعداء يتمنون إبادتنا ويتفننون في إذلالنا ومع ذلك الله عز وجل هو الإله وهو في السماء إله وفي الأرض إله والأمر بيده لكن نحن علينا أن نصلح أنفسنا وأن نقدم كل ما نستطيع من أجل أن نتماسك لما أجد شقاقاً بين أخوين أتألم ألماً لا حدود له العمر محدود والأهداف واحدة إذاً أنت بقدر معصيتك لله تكون فردياً وبقدر طاعتك له تكون تعاونياً جماعياً والآن التعاون فرض أساسي قال تعالى :

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

[سورة المائدة : 2]

إذاً هذا اللقاء تحدثنا فيه عن خصائص النفس فأنت كأب كطالب كأخ أكبر كزوج كمعلم كمدرس كمدير مستشفى ما في إنسان ما في تحته أشخاص أوكل أمرهم إليه، أقل شيء الأب فأنت إذا كنت منصفاً في بعض الآثار أن البنت الذي أهملها أبوها ولم يعبأ بزواجها وكلما جاء خاطب بحث عن بعض العيوب فرفضه هو ما عنده مشكلة هو مرتاح زوجته أمامه وأموره منتظمة أما هذه الفتاة التي تتحرق على زوج هذا شيء طبيعي قال يوم القيامة تقف بين يدي الله عز وجل تقول يا رب لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، حينما تشعر بمشكلة الآخرين أنت أفضل قائد لهم تشعر بمشكلتهم، أحياناً معمل يعطي معاشاً رمزياً لا يكفي العامل أيام وإذا في خطأ طفيف تقوم الدنيا ولا تقعد ليس واقعياً، بسفري الطويل وجدت أساليب في إدارة الأعمال فيها رقي كبير جداً سببه أدركوا أن الإنسان أعطه يعطيك، ما لم تؤمن له حاجاته الأساسية وعلى رأسها كرامته لا يعطيك شيئاً لذلك أعطي الإنسان رغيف خبزه يعني حاجاته المادية وكرامته حاجته المعنوية وخذ منه كل شيء، ونحن مكانتنا عند الله لا بقدر ما نأخذ بقدر ما نعطي، والأنبياء قمم البشر أعطوا ولم يأخذوا، والطغاة أعداء البشر أخذوا ولم يعطوا.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (147) :الصيام والتجهيز لرمضان .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-08-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس التربية الإسلامية، وسيكون محور هذا الدرس ما نحن قادمون عليه بعد عدة أسابيع من فريضة تعد ثاني أكبر العبادات في الإسلام.

أصول الإسلام:

لكن بادئ ذي بدء: العبادات في هذا الدين العظيم كما قال الإمام الشافعي: معللة بمصالح الخلق، إن صح أن هناك مثلثاً لهذا الدين العظيم:

المقطع الأول: العقائد.

المقطع الثاني: العبادات.

المقطع الثالث: المعاملات.

المقطع الرابع: الآداب.

فالدين عقيدة، وعبادة، وأحكام تعاملية، وآداب.

1 – العقيدة:

والعقيدة تقع على رأس هذه الأقسام، وإن صحت العقيدة صح العمل، وإن فسدت العقيدة فسد العمل.

2 – العبادات:

المقطع الثاني: هي العبادات، العبادات كما قال الإمام الشافعي: معللة بمصالح الخلق، فالصلاة بنص القرآن الكريم:

(تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

(سورة العنكبوت الآية: 45)

أ ـ الصلاة:

الله عز وجل ملك الملوك، خالق السماوات والأرض، يمكن أن يأمرنا أن نصلي ولكن رحمة بنا أعطانا تعليلاً للصلاة، كلما كان الآمر أكمل أعطى المأمور التعليل قال:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت الآية: 45)

إذاً: الصلاة معللة بمصالح الإنسان، تنهاه عن الفحشاء والمنكر، والفحشاء والمنكر سبب هلاكه في الدنيا والآخرة.

الآن هذا التعليل مهمته أنه من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فما قطف ثماراً من الصلاة، لئلا تقوم بأفعال لا معنى لها، لئلا تقوم بأفعال لا فائدة منها، لئلا تقوم بأفعال مفرغة من مضمونها، قال:

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((الصلاة طهور))

[ورد في الأثر]

مستحيل أن يكون المصلي حقوداً، الحقد مرض، مستحيل أن يكون المصلي ظالماً، الظلم مرض، مستحيل أن يكون المصلي مستكبراً، الكبر مرض، واحد.

الشيء الثاني: الصلاة حبور، سعادة،

((أرحنا بها يا بلال))

[أبو داود]

فالذي لسان حاله يقول: أرحنا منها لم يقطف ثمار الصلاة، فرق كبير بين أرحنا بها، وبين أرحنا منها.

والصلاة نور، من خلال الصلاة ترى الخير خيراً والشر شراً، ترى الخير خيراً فتتبعه، وترى الشر شراً فتجتنبه، والدليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد الآية: 28)

فالصلاة نور، والصلاة طهور، والصلاة حبور، والصلاة ميزان، هل تستطيع، وبلا مجاملة إن ارتكبت إثماً، أو اعتديت على إنسان على ماله أو على عرضه أن تصلي، بإمكانك أن تقف، وتقرأ الفاتحة وسورة، بإمكانك أن تركع وتسجد، لكن ليس بإمكانك أن تتصل بالله، لأن ذنبك حجبك عن الله عز وجل، فالصلاة ميزان صارت.

((الصلاة مكيال فمن وفى استوفى))

[رواه ابن المبارك عن أبي هريرة]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء الآية: 43)

فالذي لا يعلم ماذا يقول في الصلاة إذاً هو لم يصلِ الصلاة التي أرادها الله.

((ليس للمؤمن من صلاته إلا ما عقل منه))

[أخرجه أحمد عن عمار بن ياسر]

الصلاة قرب، وفي القرآن الكريم:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

(سورة العلق)

الصلاة دعاء:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

(سورة الفاتحة)

الصلاة ذكر:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه)

الصلاة معراج المؤمن، الصلاة أصل الطاعات، وغرة العبادات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات.

إذاً العبادات في الإسلام معللة بمصالح الخلق، هذه الصلاة.

ب ـ الصيام:

الصيام منطلق حديثنا.

((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا))

[رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس]

((كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش))

[أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة]

معنى ذلك أنه في الصيام بحسب الواحد الديان:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة)

لعلك إذا صمت، وتركت كل المعاصي والآثام، وأقبلت على الواحد الديان، واشتققت منه النور رأيت الحق حقاً والباطل باطلاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

إذاً العبادات معللة بمصالح الخلق.

ت ـ الزكاة:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ)

(سورة التوبة الآية: 103)

الغني يطهر من مرض الشح، قال تعالى:

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة الحشر)

ومن أدى زكاة ماله أذهب الله عنه الشح، والفقير يطهر بالزكاة من مرض الحقد ، لأن الفقير يحقد، فإن أعطيت له الزكاة لا يغدو حاقداً، والمال يطهر من تعلق حق الغير به.

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ)

(سورة التوبة الآية: 103)

التزكية أي أن نفس الفقير تنمو، لأنه شعر أن المجتمع لم ينسه، ونفس الغني تنمو حينما يشعر أنه أدخل الفرحة على قلوب الآلاف، والمال ينمو، التعليل:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

(سورة التوبة الآية: 103)

ث ـ الحج:

((من حج بمال حرام، ووضع رجله في الركاب، وقال: لبيك اللهم لبيك ينادى أن لا لبيك ولا سعديك، وحجك مردود عليك))

[ورد في الأثر]

لذلك قال تعالى:

(ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)

(سورة المائدة الآية: 97)

أنت لمجرد أن تعلم أن الله يعلم فقد حققت الثمرة من الحج.

بل والنطق بالشهادة من أركان الإيمان، أن تشهد أنه إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، يقول عليه الصلاة والسلام:

((من قال لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قيل وما حقها ؟ قال أن تحجبه عن محارم الله))

قلت كلمة في بداية الدرس: العبادات في الإسلام معللة بمصالح الخلق، لو أردنا أن نقف موقفة متأنية عند الصيام.

من تعريفات الصيام:

من تعريفات الصيام:

أنه عبادة الإخلاص، كيف ؟ قد يأتي رمضان في الصيف، واليوم في الصيف طويل، قد يقترب من 17 ساعة، والحر شديد، والعطش يكاد يميت الإنسان، تدخل إلى بيتك، وليس في البيت أحد، الثلاجة فيها ماء عذب فرات بارد، ولا تستطيع أن تضع قطرة ماء في جوفك، لماذا ؟ من يحاسب ؟ لا أحد في الأرض يحاسبك، لذلك:

((كل عمل ابن آدم له، إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به))

[متفق عليه]

أول شيء الصوم عبادة الإخلاص.

حِكمة الصيام: دورة تعبّدية

1 – دورة تعبدية:

لكن ما حكمته ؟ أنت في أشهر العام تأكل الطعام والشراب، هل تشعر بذنب إذا تناولت طعام الإفطار ؟ هل تشعر بذنب إذا شربت كأس ماء ؟ في أيام الإفطار هل تشعر بذنب إذا قاربت زوجتك، وهي حلال لك ؟ أبداً إطلاقاً، ولا واحد بالمليون، الأشياء المباحة الحلال التي أبيحت لك، ولا شيء عليك لو مارستها محرمة في نهار رمضان، إذا كان تناول الطعام والشراب وهو مباح في غير رمضان، محرماً في رمضان، فلأن تدع المعاصي والآثام من باب أولى، كأن الله عز وجل قوى فيك الإرادة، أنت ممتنع عن الطعام والشراب فهل يعقل أن تكذب ؟ هل يعقل أن تغتاب ؟ هل يعقل أن تقول الباطل ؟ هل يعقل أن تغش المسلمين ؟ أنت تارك الطعام والشراب الحلال تاركه، فلأن تدع الحرام من باب أولى، فكأن الله سبحانه وتعالى في هذا الشهر قوى لك الإرادة على أن تصوم رمضان.

الإنسان أحياناً يستثني دورة محدودة، قد لا يحتمل أن يدرس لخمسين سنة قادمة، أما دورة في ثلاثين يوما فقط يستطع.

2 – شهر المغفرة:

بالمناسبة:

((من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه))

[متفق عليه]

((من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه))

[متفق عليه]

للتقريب: المفاهيم المعاصرة واحد عليه 8 ملايين دينا، أمواله كلها محجوزة، عليه محاكمة، وعليه سجن، قيل له: افعل هذه الأفعال ثلاثين يوماً فقط، وبعدها أنت معفى من كل شيء، 8 ملايين ألغيت، والمحكمة ألغيت، والحجوزات ألغيت، هل يتردد الواحد منا ثانية ؟ أنت في رمضان تفتح مع الله صفحة جديدة.

((من صام رمضان ـ هذا في الصحاح ـ إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه))

((من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه))

إذاً أنت أمام فرصة ذهبية، كيف ؟ تفتح مع الله صفحة جديدة.

دع الأشغال وحلَّ المشكلات إلى ما بعد رمضان:

لكن هناك فكرة دقيقة، يجب أن تكون سرعتك في رمضان مئة، أنت هنا صفر، أو واحد، أنت لا تقدر أن تمشي على الواحد، لـ29 شعبان، وتقفز فوراً للمئة، لا تستطيع، المفروض أن تهيئ نفسك، هناك مشكلة حلّها قبل رمضان، مشكلة عويصة أجّلها إلى ما بعد رمضان، محاولة كسوة بيت افعلها قبل رمضان، لأن رمضان شهر عبادة، شهر تفرغ، والحقيقة النبي عليه الصلاة والسلام كان يعتكف في رمضان، وهو انقطاع عن العالم الخارجي كلياً، أنا قد لا أحتكم على أن تعتكفوا، الحياة معقدة، الحياة معقدة جداً، ولكن معنى الاعتكاف أن تنقطع عن العالم الخارجي، عن عالم القيل والقال، والسؤال والجواب، والنقد، والهموم والأحزان، هذا شهر دورة تدريبية مع الله، لأن العبادة فيها شحنة.

3 – شهر الشحنة الإيمانية:

أوضح مثل على ذلك: الهاتف المحمول يحتاج إلى شحن، فإن لم تشحنه تنطفئ شاشته ويسكت، أصبح قطعة بلاستيك لا قيمة لها إطلاقاً، وأنت كمؤمن تحتاج إلى شحن، الشحن كم نوعا ؟ عندنا شحن يومي، كلما وقفت في الصلاة من أجل أن تُشحن شحنة روحية ، لذلك:

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (6) إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً)

(سورة المزمل)

حينما تُشحن في صلاة الفجر تشعر طوال اليوم أنك ترى الحقيقة، وأنك مالكٌ لجوارحك، وأن كلامك سديد، وأن قلبك مستنير، وأن نفسك مطمئنة، وأن رحمة الله تحفّ بك، وأن توفيق الله عز وجل يؤيدك.

إذاً الصلاة شحنة، لكن طبيعة الصلاة ثلث ساعة، شحنة من الصباح إلى الظهر، الظهر شحنة ثانية إلى العصر، العصر شحنة ثالثة، إلى المغرب، المغرب شحنة إلى العشاء.

صلاة الفجر، كنت في الفراش، فالسنة قبلية وأنت نائم، فالسنة قبل الفرض تدريب، الفرض صحوت، باعتبار تعبك طوال النهار السنة في العشاء بعدية، السنة أقرب إلى النوم، الفجر السنة قبلية، العشاء سنة بعدية، في الفجر نفسك صافية، وفي العشاء ركعتان تكفيان، الظهر كنت في المحل التجاري، واحد أخذ عليك مبلغا، والثاني أزعجك، ما اشترى، والرابع طالبك بدينه، أنت مشوش، تصلي أربع ركعات، اثنتين قبل، واثنتين بعد، دائماً الركعات القبلية تهيئة، والبعدية ترميم، ما فاتك من الفرض ترممه في السنة البعدية، لذلك صلوات النهار طويلة، أما الفجر قصيرة، صحوت صافي الذهن، شحنة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما))

[أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة]

رمضان ثلاثون يوما من الصيام، ومن قراءة قرآن، ومن الذكر، ومن صلاة الفجر في المسجد، ومن صلاة العشاء في المسجد، وكل يوم عشرون ركعة تراويح، وثلاثون يوما من الإنفاق، وغض بصر، وضبط لسان، رمضان شحنة من العام إلى العام، الحج شحنة إلى بقية العمر، شهر من السفر وترك الأهل والأولاد، واستقبال الكعبة، والطواف، والسعي، ووقوف بعرفات، ووقوف بمنى ومزدلفة... إلخ.

إذاً: العبادات شحنات، وكلما كان الأمد أطول كانت الشحنة أشد، هذا معنى من معاني الصيام.

4 – الصيام تقوية النفس على الإرادة:

الصيام بادئ ذي بدء: عودك على أن تطيع الله، لأنك تركت المباحات، فلأن تدح المنهيات من باب أولى.

إذاً المسلم يصوم بفمه وجوارحه في رمضان، وفي شوال يفطر بفمه فقط، وتبقى جوارحه صائمة إلى نهاية العام، وغض بصره، وضبط لسانه، وتحري الحلال، هذا طوال العام، هذا واحد.

إذاً: الصيام تقوية الإرادة على طاعة الله، لكن نحن نتمنى من أعماق أعماقنا ألاّ يكون صيامنا صيام حديث، موسم رمضان في المجتمعات المعاصرة موسم الأفلام، موسم الفن، موسم السهرات، موسم

الولائم، موسم التخمة، موسم السهر إلى ساعة متأخرة من الليل، المؤمن يجعل من هذا الشهر شهر عبادة، لا شهر لقاءات وولائم، وما شاكل ذلك، والطبقة المخملية ـ والعياذ بالله ـ صيام رمضان عندها فلكلور، تأتي إلى الخيام الرمضانية تبدأ الخيمة بتناول طعام الإفطار، وتنتهي بالرقص والموسيقى والغناء، رمضان عند الشاردين موسم فني فقط، وكل الأعمال الساقطة يكتبون عنها: " إكراماً لقدوم شهر رمضان المبارك "، نحن كمؤمنين هذا الشهر شهر عبادة، يمكن أن تقفز قفزة نوعية في هذا الشهر.

5 ـ الشعور بالافتقار إلى الل

شيء آخر: الله عز وجل قال:

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

(سورة النساء)

لكنه قد لا يرى ضعفه، له منصب رفيع، قوي الشخصية، معه اتصالات، ألف إنسان يخضعون له، لكن برمضان الساعة 12 نشف لسانه، خواطره كلها كأس ماء بارد، كأس عرق سوس، كأس عصير، شيء بارد، كأن الله أراد في رمضان أراد أن يشعرنا بافتقارنا إليه، لما قال الله عز وجل في الأنبياء:

(لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ)

(سورة الفرقان الآية: 20)

ما معنى ذلك ؟ هذا الذي يأكل الطعام أي هو مفتقر في استمرار وجوده إلى أن تناول الطعام، إذاً هو ليس إلهاً، الله عز وجل قال:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)

(سورة الإخلاص)

الصمد، يعني أن وجوده ليس مفتقراً إلى غيره، أما أنت فإن أغلقت أنفك تختنق، أنت مفتقر للهواء، وأكثر من ثلاث دقائق تموت، وأنت مفتقر للماء، ومفتقر للطعام، ومفتقر للنوم، ومفتقر لزوجة، مفتقر إلى بعض الأدوات والأجهزة، لذلك في رمضان يشعر المؤمن بافتقاره إلى الله عز وجل، فما هي العبودية ؟ أن تفتقر إلى الله.

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران الآية: 123)

يعني مفتقرون، أما في حنين فلم يكونوا مفتقرين، فقالوا:

((لن تغلب اليوم من قلة))

[أخرجه البيهقي عن أنس]

نحن كثر.

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

أيها الإخوة، إحساسك بالجوع والعطش نوع من الافتقار إلى الله، أنت ـ عفواً ـ لا تعرف قيمة هذا القميص الذي ترتديه إلا في الحج، حيث ترتدي منشفتين، هنا قميص له أكمام، له أزرار، فضفاض، هناك ترتدي منشفتين، لا تعرف قيمة الثياب إلا في الحج، لذلك من توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهم أرنا نعمك بوفرتها لا بفقدها))

[ورد في الأثر]

الشيء بالشيء يذكر: نحن كنا ننعم بما يسمى بتوازن القوى في العالم، بوجود معسكرين كبيرين بينهما حرب باردة، وكلما تحرك معسكر ليأخذ ما ليس تصدى له المعسكر الآخر، فكل الدول الضعيفة تنعم برخاء بأمن واستقرار، لوجود معسكرين، لكن يوم كنا نعيش هذه الحرب الباردة ما كنا نعرف أن في الأرض معسكرين، أما حينما انفرد قطر واحد رأينا منه الأهوال، رأينا منه القهر، والنهب، والسلب، والإذلال، رأينا منه أنه فرض علينا ثقافته وإباحيته.

إذاً البطولة أن ترى النعمة بوفرتها، لا بزوالها، جميع الأغبياء يعرفون النعم عند غيابها، لكن الأذكياء الموفقون يعرفون النعم بفورتها.

لذلك مرة سأل وزير ملكا، وقد طلب كأساً من الماء، قال له: يا أمير المؤمنين، بكم تشتري هذا الكأس من الماء لو منع منك ؟ قال: بنصف ملكي، قال: فإذا منع إخراجه ؟ قال: بنصف ملكي الآخر، مُلك طويل عريض يساوي كأس ماء.

لذلك نحن في رمضان مفتقرون إلى الله، بكأس ماء، لقمة طعام.

5 ـ الشعور بمعاناة الفقر والجائع:

شيء آخر: فكرة، ومعاناة: لو أن لك صديقا نشأ خلاف بينه وبين زوجته، وزوجته تركته إلى بيت أهلها، أنت عندك فكرة أن زوجة صديقك ذهبت إلى بيت أهلها، هذه فكرة لا تقدم ولا تؤخر، ولا تؤثر على سلامتك وسعادتك، أما الصديق فيأتي ظهراً فلا يجد زوجة، وطبخا، ولا طعاما، الأولاد يحتاجون إلى عناية، الصديق عنده المعاناة، وأنت عندك فكرة هجر الزوجة، الفرق كبير.

مثلاً: لو أريتك خارطة لقصر، وفيها كل شيء، الطوابق، والغرف مساحاتها، الشرفات، هذه فكرة، أما أن تملك هذا القصر فشيء ثانٍ.

لو قلت لك: مئة مليون دولار، هذه واضحة، بين أن تملكها وأن تنطق بها فرق كبير جداً، مئة مليون دولار، النطق بها سهل جداً.

لذلك في رمضان تعرف معاناة الفقير أبداً، الفقراء في أول الثورة الفرنسية ما وجودوا خبزا، تقول ماري أنطوانيت: يأكلون (الكاتو)، إذا ما وجد أحدنا خبزا يأكل (الكاتو)، وهو أطيب، فلا معاناة إطلاقاً.

لذلك قالوا:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

***

أنت في رمضان يمكن أن تعاني مشكلة الفقير، أنت جائع، الذي ملأ معدته بالأكل لا يعنيه، أما الجائع فمنظر الأكل، ورائحة الطعام تعنيه، إذاً: يمكن أن تشعر بجوع الفقير في رمضان، وأن الجوع شيء لا يحتمل، الله عز وجل ذكر نعمتين عظيمتين من نعمه، فقال:

(أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

(سورة قريش)

أكبر نعمتين على الإطلاق أن تأكل فلا تجوع، وأن تأمن فلا تخاف، الآن أكبر عقابين للأقوام الفاسدة:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

أكبر نعمتين الشبع والأمن، وأكبر نقمتين الجوع والخوف،

(أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

إذاً أنت في رمضان فضلاً عن أنك تستعين بالصيام على طاعة الله التامة لأنك تركت الحلال، تركت المباح فلأن تدع الحرام من باب أولى.

وأعانك الله بالصيام على أن تشعر بجوع الفقير، أعانك الله بالصيام على أن تشعر بعبوديتك لله عز وجل.

الصيام عبادة جماعية:

شيء آخر، الصيام عبادة جماعية، تصور بلدنا خمسة ملايين في دمشق يأكلون في ثانية واحدة عقب إطلاق مدفع الإفطار، الطرقات فارغة، عبادة جماعية، النظام محبب، فكأن الله سبحانه وتعالى أرادنا أن نُنظم، تجد في رمضان النظام، الإمساك عن الطعام يتم مع أذان الإمساك، الصلوات في المسجد، الفجر في المسجد، العشاء في المسجد، الإفطار في وقت واحد، لذلك الصيام عبادة جماعية، يعلّم التعاون، يعلّم النظام.

حدثني مرة أخ والده ضابط، نحن من ثلاثين سنة نتناول طعام الغداء مع دقات ساعة بيك بن، الساعة الثانية، في البيت نظام صارم، وجبات الطعام لها أوقات.

النظام حضارة أيها الإخوة، أحياناً يأتي سائح أجنبي يرى الطرقات عند المغرب فارغة، ما هذا ؟ يشعر أن هناك عبادة جماعية، الله عز وجل أرادنا أن نكون منظمين.

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)

(سورة الصف)

الصلاة أيضاً فيها نظام، فيها أقات.

مرة قال لي أحدهم: أنا أصلي قبل دخول العصر، وهذا أكثر راحة لي، هناك نظام صارم جداً في الصلوات الخمس، وفي الصيام.

حج رجلٌ بيت الله الحرام، له منصب رفيع بمصر، في أثناء العودة بالطائرة قال: والله هناك عناية بالغة، لكن لو أقاموا الحج على خمس دورات، كل شهرين دورة لا يكون هناك ازدحام، أين هو من فهم هذه العبادة ؟! هي عبادة اجتماع.

أنا كنت في القاهرة بمؤتمر إسلامي، طربت طرباً شديداً لاقتراح وزير أوقاف مسلم قال: لو أن كل حاج باستمارته تكتب حرفته، وعلى الكمبيوتر نفرزه، مثلاً: مدرسو الجامعات يعقدون مؤتمرا بمنى لحلّ المشكلات، والهموم المشتركة، عندكم صناعيين يقيمون مؤتمرا، وللمزارعين مؤتمر، وللتجار مؤتمر، ولأصحاب الوظائف المعينة مؤتمر، الحج كأن الله أرادك أن تلتقي بكل المسلمين.

والحقيقة في الحج يرى الإنسان من كل الجنسيات.

إذاً: أراد الله من الصيام أن تكون عبادة جماعية، والعزائم التي يقوم بها المؤمن، ويفتقر إليها بعض المؤمنين تؤدى في رمضان بيسر وسهولة.

إذاً: أيها الإخوة، هذه بعض الملامح التي تلوح في الأفق بهذا الشهر الكريم الذي هو فرصة ذهبية لا تعوض إلا بعد عام آخر، كي تصطلح مع الله.

الخلاصة:

بالمناسبة، إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض، أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله، إذا رجع العبد إلى الله أنسى الله الملائكة وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه، إذا تاب العبد توبة نصوحاً أنسى الله حافظيه، والملائكة، وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه، ورمضان فرصة لفتح صفحة جديدة مع الله، فرصة جديدة للإقبال على الله.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (148) :البرنامج العملي لما بعد رمضان .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-11-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

أعياد المسلمين تأتي عقب عبادات

أيها الإخوة الكرام، قبل كل شيء كل عام وأنتم بخير، وأعياد المسلمين كما تعلمون تأتي عقب عبادات كبرى، فعيد الفطر السعيد يأتي عقب فريضة الصيام، وعيد الأضحى المبارك يأتي عقب الحج، لذلك فرح المسلم بأعياده فرح ديني، وما قوله تعالى:

(وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(سورة البقرة)

ما هذه التكبيرات إلا تكبيرات الشكر، لذلك هذا درس وحيد بعد العيد، وننتقل إن شاء الله في الدروس القادمة إلى فقه السيرة النبوية، ونستمر.

وما التكبيرات التي وردت في القرآن الكريم عقب آيات الصيام:

(وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

إلا من أجل أن نتابع المكتسبات التي كسبناها في رمضان بعد رمضان.

لذلك ما اصطفى الله من أشهر العام شهر رمضان إلاّ ليكون فيه الصفاء والقرب والعبادة، والتلاوة، والصلاة في المسجد فجراً وعشاءً إلا لينسحب هذا المكتسب على أشهر العام، أما حينما نقول: إننا نعود إلى ما كنا عليه فما استفدنا من شهر الصيام إطلاقاً.

(كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً)

(سورة النحل الآية: 92)

((مثل المنافق في الصيام كمثل الناقة حبسها أهلها فلا تدري لا لما حبست، ولا لما أطلقت))

ما الذي فعلته في الصيام ؟ صليت العشاء في المسجد، وصليت التراويح، وهي قيام الليل، وصليت الفجر في المسجد.

بنود البرنامج العملي لما بعد رمضان

البند الأول: صلاة الصبح والعشاء في المسجد جماعة:

البند الأول في هذا الدرس: أن تسعى جهدك أن تصلي فرضي الفجر والعشاء في المسجد، فَعَنْ جُنْدَبِ بْن عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ، فَلَا يَطْلُبَنَّكُمْ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ فَيُدْرِكَهُ فَيَكُبَّهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ))

[البخاري]

عَنْ عُثْمَانَ بْن عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَهُوَ كَمَنْ قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَهُوَ كَمَنْ قَامَ اللَّيْلَ كُلَّهُ))

[مسلم]

((ابن آدم: لا تعجز عن ركعتين قبل الشمس، وقبل الغروب أكفك ما بينهما))

[ورد في الأثر]

الإنسان فوقه أخطار لا تعد ولا تحصى، والدعاء النبوي الشريف:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ:

((اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا ؟ فَقَالَ: بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا))

[أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم من حديث ابن مسعود]

((أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السماوات والأرض، وأشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تحل علي غضبك، أو تنزل علي سخطك))

[رواه الطبراني في الكبير عن عبد الله بن جعفر]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْن عُمَرَ قَالَ: كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ))

[رواه مسلم]

الإنسان نقطة دم لا ترى بالعين، تتجمد في مكان بالدماغ فيفقد بصره، وفي مكان آخر يفقد ذاكرته، وفي مكان ثالث يفقد حركته، نحن تحت ألطاف الله عز وجل.

((لا تعجز عن ركعتين قبل طلوع الشمس، وقبل الغروب أكفك ما بينهما))

((مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ))

[البخاري]

في رعاية الله، في حفظ الله، في توفيق الله، في تأييد الله، في نصر الله.

((مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَهُوَ كَمَنْ قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَهُوَ كَمَنْ قَامَ اللَّيْلَ كُلَّهُ))

هذه واحدة.

أنت في رمضان صليت الفجر في جماعة، والعشاء في جماعة.

البند الثاني: المواظبة على قيام الليل:

الآن أنت في رمضان صليت قيام الليل، صليت عشرين ركعة، أو ثماني ركعات، ماذا عليك لو استيقظت قبل الفجر بربع ساعة ، وصليت ركعتين، وقدر ورد في الحديث الصحيح عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ))

[مسلم]

صليت في رمضان عشرين ركعة كل يوم، صل بعد رمضان ركعتين فقط، أو أربع ركعات، ولا مانع من أن تقرأ من المصحف، كختمة، كل ركعة صفحة، ضع أمامك مصحفًا، وابدأ ختمة لقيام الليل، كل ركعة صفحة، وتدبر كلام الله عز وجل.

أنا أعطيكم برنامجًا عمليًا، أنت في رمضان صليت الفجر في جماعة، والعشاء في جماعة، وصليت القيام حاول أن تصلي العشاء في المسجد، والفجر في المسجد، وأن تصلي ركعتين قبل الفجر في بيتك قيام ليل واقرأ بهما صفحتين.

البند الثالث: المواظبة على تلاوة القرآن:

أنت في رمضان تلوت القرآن الكريم، أليس كذلك ؟ ينبغي أن تقرأ كل يوم ست صفحات أو خمسًا، أو أربعًا، ابدأ بختمة تلاوة، الختمة الأولى، ختمة قراءة لقيام الليل اقرأ أربع صفحات، أو خمسًا، أو عشرًا، بقدر طاقتك، إذا أقبلت النفس فاحملها على النوافل، وإذا فَتَرتْ فاحملها على الفرائض، فأنت بين حالة

إقبال وفتور، إياك، ثم إياك، ثم إياك أن تقول كما يقول الجهلاء: ساعة لك، وساعة لربك، هذه مقولة شيطانية، أنت لله دائماً.

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأنعام)

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

(سورة التوبة الآية: 111)

صار معنا الفجر في المسجد، والعشاء في المسجد، وأربع صفحات قرآن، أو خمس، أو ست، ربع ساعة أو أقل عشر دقائق، وركعتان قيام ليل.

البند الرابع: المواظبة على غضٍّ البصر:

ماذا فعلت في رمضان أيضاً ؟ كنت في رمضان تغض البصر عن محارم الله.

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)

(سورة النور الآية: 30)

فإذا وفقك الله في رمضان في غض البصر فينبغي أن تتابع هذه العبادة بعد رمضان.

((من غض بصره عن محارم الله أورثه حلاوة في قلبه إلى يوم يلقاه))

[ورد في الأثر]

ينبغي أن تتابع هذه العبادة بعد رمضان.

((من غض بصره عن محارم الله أورثه حلاوة في قلبه إلى يوم يلقاه))

((ومن ملأ عينيه من الحرام ملأهما الله من جمر جهنم))

((والنظرة سهم مسموم من سهام إبليس لعنه الله، فمن تركها خوفا من الله آتاه الله عز وجل إيمانا يجد حلاوته في قلبه))

[أخرجه الحاكم وصحح إسناده من حديث حذيفة]

إذاً: البند الثالث بعد رمضان: أن تتابع غض البصر، وغض البصر من أولى ثمراته الوفاق الزوجي، وكان الإمام الشعراني رحمه الله تعالى يقول: " أنا أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي، مادام الزوج طائعاً لله، غاضاً للبصر، فالله عز وجل يرزقه محبة زوجته، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((الحمد لله الذي رزقني حب عائشة))

[ورد في الأثر]

مِن نِعم الله الكبرى أن تحب زوجتك، حلالك، أم أولادك التي أكرمك الله بها ومن شقاء الإنسان أن يبغض زوجته، وأن يحب امرأة لا تحل له.

((الحمد لله الذي رزقني حب عائشة))

إذاً: فلنتابع بعد رمضان غض البصر كما كنا في رمضان.

وأنتم جميعاً في رمضان تستمعون إلى الدعاء الشهير: اللهم أعنا على الصيام والقيام وغض البصر وحفظ اللسان.

البند الخامس: ضبطُ اللسان بعد رمضان:

في رمضان أغلب الظن أنك ابتعدت عن الغيبة والنميمة، أما أن تكون المجالس بعد رمضان مجالس غيبة ونميمة، وخوض في أعراض الناس، وافتراءات، وغمز، ولمز وما شاكل ذلك فهذا محرّم، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعالى فِيهِ إلاَّ قامُوا عَنْ مثل جِيفَةِ حِمارٍ وكانَ لَهُمْ حَسْرَةً))

[رواه أبو داود وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه]

((مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعالى فِيهِ))

بل هم في غيبة، ونميمة وغمز، ولمز، وسخرية، ومحاكاة

((إلاَّ قامُوا عَنْ مثل جِيفَةِ حِمارٍ))

((وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)

(سورة الأحزاب)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً)

(سورة الأحزاب)

((من أكثر ذكر الله فقد برئ من النفاق))

[أخرجه الطبراني في الصغير عن أبي هريرة]

أيها الإخوة، في رمضان صليت الفجر في جماعة، وبعد رمضان ينبغي أن تصلي الفجر في جماعة، في رمضان صليت العشاء في جماعة، وبعد رمضان ينبغي أن تصلي العشاء في جماعة، في رمضان صليت قيام الليل، وبعد رمضان ينبغي أن تصلي قيام الليل ولو ركعتان، في رمضان تلوت القرآن،

وبعد رمضان ينبغي أن تتلو القرآن كل يوم ، في رمضان غضضت بصرك عن محارم الله، وبعد رمضان ينبغي أن تتابع هذه العبادة وفيها آية كريمة:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

الآن في رمضان ضبطت لسانك عن الغيبة والنميمة والبهتان والقذف والغمز واللمز والسخرية، والتقليد، والمحاكاة، وقد عد الإمام الغزالي عد معاصي اللسان أكثر من ثلاثين معصية

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ))

[رَوَاهُ البُخَارِيُّ وأحمد]

السيدة عائشة وصفت السيدة صفية رضوان الله عليهما بأنها قصيرة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((يا عائِشَةَ لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْه))

[رواه أبو داود والترمذي، عن عائشة رضي الله عنها]

هذه مجالس النساء.

فلذلك أيها الإخوة، ضبط اللسان الذي كان في رمضان ينبغي أن يستمر بعد رمضان.

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلَا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ))

[أحمد]

احذر لسانَك أيُّــها الإنسانُ لا يلدغنَّك إنــه ثُــعبانُ

كم في المقابر من قتيل لسانِه كانت تهابَ لقاءَه الشجعانُ

***

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ:

((أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))

[أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه والحاكم]

مرة ثانية:

((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ))

[رَوَاهُ البُخَارِيُّ وأحمد]

دققوا ثانية في كلمة قصيرة، قالتها السيدة عائشة عن أختها صفية، فقال عليه الصلاة والسلام:

((يا عائِشَةَ لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ البَحْرِ لَمَزَجَتْه))

الفجر، والعشاء، والقيام، والتلاوة، وغض البصر، وحفظ اللسان.

البند السادس: المواظبة على الصدقة:

أنت في رمضان تصدقت، وكان عليه الصلاة والسلام جواداً، وكان أجود ما يكون في رمضان، وبعد رمضان ينبغي أن تتصدق، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ))

[متفق عليه عن عائشة]

الأعمال المستمرة تحدث في النفس التراكم، فتتراكم ثقتك بنفسك، ويتراكم إقبالك على الله، وتتراكم قربك من الله، لذلك:

((أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ))

عَنْ عَلْقَمَةَ قُلْتُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: هَلْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْتَصُّ مِنْ الْأَيَّامِ شَيْئًا ؟ قَالَتْ:

((لَا كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً...))

[متفق]

مستمراً، لذلك بطولتك أنك إذا فعلت عملاً صالحاً ينبغي أن تتابعه.

مثلاً: أعجبك درس السبت في هذا المسجد، البطولة أن تتابعه، فرضاً لو أحب الواحد المطالعة، ويحب المقالات الطبية، اشترى مجلة طبيية فقرأها كلها، هل يصبح طبيبًا ؟ هل يستطيع أن يفتح عيادة ؟ هل يستطيع أن يكتب الدكتور فلان ؟ يقصّون رقبته، ما اسمها هذه ؟ هذه ثقافة، عنده ثقافة طبية، قرأ المقالة، فتكلم كلمتين في بالطب، أما أن يفتح عيادة، أين الدكتوراه ؟ أين البكالوريا العلمي ؟ أين 230 علامة ؟ أين أول سنة علوم عامة ؟ أين ثاني سنة تشريح ؟ أين ثاني سنة فيزلوجيا ؟ أين رابع سنة علم الأمراض ؟ أين خامس سنة علم الأدوية ؟ أين السادسة والسابعة التاج، أين هم هذه كلها ؟.

فكل إنسان حضر درس علم والله شيء حلو، الله يجزيه الخير، بعد ذلك كان عنده عقد قران، فقام رجلٌ وألقى كلمتين، هذه ثقافة، لا تقدم ولا تؤخر، كما لو قرأت بعض المقالات الطبية، لا يمكن أن تكون طبيباً، بالضبط، هذا واضح.

الزم مجلس علم، اقرأ كتاباً على يد عالم، اسمع شرائط، في العقيدة، في السيرة، في الفقه، في التفسير،

في الحديث، اجلس مع طلاب العلم، استمع إليهم حاورهم، أسالهم، لمجرد أنك تطلب العلم إنك تؤكد إنسانيتك.

في الإنسان حاجات سفلى، نحن والبهائم سواء، نحن ننام والحيوان ينام، نحن نتزوج والحيوان يتزوج، نأكل ويأكلون، نشرب ويشربون، أليس كذلك ؟ نحن على أرقى، هناك غرفة نوم، هناك طاولة سفرة على أرقى، مادامت النوازع أرضية فقد هبطت عن مستوى إنسانيتك، واللهُ عزوجل أودع الله فيك حاجة علوية، قوة إدراكية، فإذا لبيت هذه الحاجة فأنت إنسان.

لذلك إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطِك شيئاً.

((مَثَلُ الَّذي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذي لا يَذْكُرُهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّت))

[رواه البخاري، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه]

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنْ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ))

[الترمذي، أحمد]

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالْآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ))

[رواه الترمذي عن أبي أمامة]

((وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ))

[الترمذي عن أبي الدرداء]

إذاً ينبغي أن تطلب العلم كي تعرف من أنت، لماذا أنت في الدنيا ؟ ما هو العمل المجدي ؟ كيف لا تندم، ما العمل الذي إذا فعلته لا تندم أبداً.

أيها الإخوة، كل الذي أتمناه عليكم أننا بعد رمضان ينبغي أن نحافظ على مكاسبنا التي حققناها في رمضان، بدءاً من صلاة في المسجد فجراً وعشاء، ثم تلاوة القرآن، ثم قيام الليل، ثم غض البصر، ثم حفظ اللسان، ثم الأعمال الصالحة، هذا الذي يأتيه ملك الموت على أي شيء يندم ؟ على العمل الصالح.

(رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

أيها الإخوة، هناك شيء دقيق جداً، أحد الصالحين حفر في صحن داره قبراً، وصار يضطجع فيه كل يوم خميس، ويتلو قوله تعالى:

(رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

فيخاطب نفسه ويقول: قومي لقد أرجعناك، تفضلي، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ ـ مفرق الأحباب، مشتت الجماعات ـ))

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي، و الحاكم، والبيهقي، عن علي]

((إن خيرا فخير، وإن شرا فشر))

[أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية عن واثلة]

البند السابع: المواظبة على القربِ من الله:

في رمضان كنت أقرب إلى الله، والحقيقة الدقيقة أن طالب العلم، وأن الصادق مع الله يجعل من شهور العام كلها رمضان، رب رمضان، ورب شوال، ورب ذي القعدة ورب ذي الحجة، ورب محرم...إلخ.

الله موجود:

إذا كنت في كل حال معي فعن حملي زادي أنا في غنى

فأنتم هو الحق لا غيركم فياليت شعري أنــا من أنا

***

ما الذي يمنع أن تكتب برنامجا يوميًا لك: الصلاة في المسجد، تلاوة أربع صفحات، قيام ليل ركعتين، اكتب برنامجًا، وحاسب نفسك فيه، واكتبْ مخالفات لنفسك، إذا قصرت في يوم فادفع صدقة، هذا هو السير إلى الله، هذا تجده في القبر.

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء)

قال العلماء: " القلب السليم هو القلب الذي لا يشتهي شهوة لا ترضي الله، والقلب السليم هو القلب الذي لا يصدق خبراً يتناقض مع وحي الله، والقلب السليم هو القلب الذي لا يعبد غير الله، والقلب السليم هو القلب الذي لا يحتكم إلا لشرع الله ".

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

درس شحذ للهمم، ورفع على القمم:

هذا هو القلب السليم.

أيها الإخوة، هذا الدرس شحذٌ للهمم، وتأجيج للمشاعر، وحفاظ على المكتسبات، لجعل أشهر العام رمضان، لإدامة الصلة بالله، لترميم الخطأ.

بعض الشعراء ولا أحب أن أذكر اسمه يقول:

رَمَضانُ وَلّى هاتِها يا ساقي   مُشتاقةً تَسعى إلى مُشتاق

***

مرة سمعت أنه عُوتب من قِبَل طالب علم، يوم كان حياً، القصة قديمة، فلما عُتب وهو الذي مدح رسول الله في قصيدتين شهيرتين كيف يقول:

رَمَضانُ وَلّى هاتِها يا ساقي   مُشتاقةً تَسعى إلى مُشتاق

كان هذا الشاعر ذكياً جداً، فدافع عن نفسه بآية كريمة قال:

(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ)

(سورة الشعراء)

أيْ ما فعلها، هكذا قال.

على كلٍ، هذه سقطة من سقطات المؤمن، أن يعود بعد رمضان إلى ما كان قبل رمضان، وكأنه ألغى هذا الشهر الكريم، وكأنه جعله طقساً، ولم يجعله عبادة، ما الطقوس ؟ الأديان الوضعية الأرضية هي طقوس، يعني حركات، وسكنات وإيماءات، وتمتمات، وكلمات، وأفعال لا معنى لها، ما لها معنى إطلاقاً، بينما العبادات معللة بمصالح الخلق، العبادة معللة.

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

(سورة العنكبوت الآية: 45)

العبادة، الصيام:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة)

الحج:

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)

(سورة المائدة الآية: 97)

الزكاة:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

(سورة التوبة الآية: 103)

فالعبادات معللة بمصالح الخلق.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (149) :الإخلاص - قيمة العلم والعمل بالإخلاص.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2006-11-26

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطاب القرآني للناس

1 – خطاب العامة بأصول الدين:

أيها الإخوة الكرام، أحياناً تتجه الدروس إلى عامة الناس، ومن أساليب القرآن الكريم أن الله حينما يخاطب الناس عامة يخاطبهم بأصول الدين، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

[سورة البقرة: 21]

1 – خطاب الخاصة من المؤمنين بفروع الدين:

أما إذا خاطب الخاصة منهم، أما إذا خاطب المؤمنين يخاطبهم بفروع الدين، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ)

[سورة البقرة: 183]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

[سورة المائدة: 1]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

[سورة آل عمران: 102]

ضرورة تخصيص الدروس لطلاب العلم:

1 ـ خطورة الإخلاص:

لكن أجد أحياناً ضرورة قصوى إلى توجيه الدرس إلى طلاب العلم، إلى رواد المساجد، إلى المؤمنين، إلى السالكين إلى الله، السبب أنه في باب الإخلاص قد تعمل عملاً كثيراً، وقد يتسرب الرياء إليك، فقد تكون كنت في خندق النفاق وأنت لا تشعر، لذلك أحد التابعين التقى بأربعين صحابياً فقال:

((ما منهم واحداً إلا ويظن نفسه منافقاً من شدة خوفه من الله))

1 - أهمية بيان النفاق:

وأقول لكم أيها الإخوة، إن المنافق يعيش في حال واحد أربعين عاماً، بينما المؤمن يتقلب في اليوم الواحد في أربعين حالاً من شدة خوفه وحرصه.

اخترت لكم في هذا اللقاء، وفي هذا الدرس المبارك إن شاء الله موضوع الإخلاص، لأن قيمة العمل بالإخلاص فقط، والله عز وجل أغنى الأغنياء عن الشرك، أنا حينما أتحدث عن الشرك لا أقصد الشرك الجلي، الشرك الجلي والفضل لله عز وجل غير موجود إطلاقاً في العالم الإسلامي، نحن ما عندنا آلهة، وما عندنا أصنام كبوذا نعبدها من دون الله، نعبد إلهاً واحداً، لكن الخطورة ليست في الشرك الجلي، بل هي في الشرك الخفي، الإنسان أحياناً يتقن صلاته أمام الإخوة الكرام، ولا يتقنها في بيته، دخلنا في باب من أبواب الرياء والنفاق، أحياناً إذا مدح يعمل عملاً صالحاً، فإن لم يمدح لم يعمل شيئاً، فيربط عمله بثناء الناس عليه، فقد وقع حينئذ في الشرك، وأشرك نفسه مع الله، فلذلك أيها الإخوة ما من كتاب في الفقه أو في الحديث ومعظم الكتب الدينية تبدأ باب الإخلاص، وقد يقول واحد منكم: هذا الموضوع طرح كثيراً، والجواب:

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنّ الذّكْرَى تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ ﴾

أحاديث عظيمة أصل في النيات:

الحديث الأول: إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ

أيها الأخوة الكرام، يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ))

[متفق عليه]

وفي رواية:

((بِالنِّيَّةِ))

إخوتنا الكرام، أحدُ الصالحين ما تخلف عن صلاة الفجر أربعين عاماً، وأدرك في هذه الأعوام الأربعين مع الإمام تكبيرة الإحرام، مرة أخذته سِنة من النوم، فاستيقظ بعد الشمس، وقال: ماذا يقول الناس عني اليوم ؟ أربعون سنة من أجل أن ينتزع إعجاب الناس، أنه رجل ملازم للمساجد، لا تفوته تكبيرة الإحرام في الصف الأول مع الإمام.

أنا ما اخترت هذا الدرس عبثاً، لأنه ضمن الحلقات الدينية ضمن المساجد هناك دنيا، هناك إنسان يحب السيطرة، خصمه يسحقه، وهو من رواد المساجد، وحينما لا يكون الإنسان مخلصاً تبدو منه صفات غريبة وعجيبة.

هذا الدرس ليس موجهاً إلى عامة الناس، الإنسان خارج المدرسة كلياً ما له علاقة بالوظائف والمذاكرات، والمناهج والتفوق والأطروحة والبحث الخاص، هذه شؤون تتعلق بطلاب المدارس، لذلك أنا حينما أخاطب رواد المساجد طلاب العلم، أنا أخاطبهم بخصوصيات الدين، الإخلاصَ الإخْلاصَ.

مؤشرات عدم الإخلاص :

أيها الإخوة الكرام، قبل أن نمضي في الحديث عن الإخلاص أعطيكم بعض المؤشرات:

ـ إذا اختلف العمل في جلوتك عن خلوتك فهذا مؤشر سلبي ليس في صالحك، فإن اختلف العمل بين خلوتك وبين جلوتك، يعني خلوتك وحدك جلوتك مع الناس، هذا مؤشر ليس في صالحك، معنى ذلك أن هناك خللاً في الإخلاص.

ـ إذا اختلف العمل مع مديح الناس لك أو مع ذمهم لك، لك أعمال طيبة مع أختك ـ وتقول دائماً: أنا أبتغي وجه الله بهذا العمل، صدر من هذه الأخت موقف غير مناسب، فتقسم بالأيمان المغلظة لن أساعدها بعد اليوم، معنى ذلك أنك حينما تساعدها تريد أن تستجدي مديحها وثناءها، والسمعة الطيبة، فلما واجهتك بموقف لم تكن تتوقعه حلفت الأيمان المغلظة ألا تمد إليها يد المساعدة.

إذاً: الإخلاص يعني ألا يتغير العمل مع المديح أو مع الذم، قال تعالى:

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً)

[سورة الإنسان: 9]

هذه علامة ثانية.

ـ العلامة الثالثة: ما من عمل يرفع إلى الله خالصاً لوجهه إلا عاد عليك منه سكينة.

العمل الصالح صحة نفسية وجسمية:

التقينا مع طبيب ـ جزاه الله خيراً ـ أنبأني بحقيقة رائعة، أن الإنسان لما يخاف من خطر، من شبح مصيبة، من شبح مرض، من شبح بطالة، لما يكون له عدو يتربص به تتبدل كيمياء دمه، الخطر يدرك بالدماغ، والدماغ ملك الجهاز العصبي، والدماغ يلتمس من ملكة الجهاز الهرموني الغدة النخامية أن تواجه الخطر، والغدة النخامية ملكة عندها وزراء، أهم وزرائها الكظر، غدة فوق الكلية تعطي أمراً لوزير داخليتها أن يواجه الخطر، الكظر معه أسلحة، أول سلاح يرسله يرفع نبض القلب، فالخائف يزداد نبض قلبه، السلاح الثاني يرسل أمرا إلى الرئتين يزداد الوجيب، سلاح ثالث يرسل أمرا إلى الكبد بإفراز كمية سكر إضافية، الأمر الرابع إلى الأوعية المحيطية، فتضيق لمعتها ليتوافر الدم للعضلات لا إلى الجلد، والأمر الخامس يرسل أمرا إلى الكبد لإطلاق هرمون التجلط سميكاً، بالتعبير الآخر لزجاً، لذلك هذا الهرمون يقرب من الجلطة، الدم لزج، والضغط مرتفع، ضربات القلب عالية، لو أنك عملت عملاً صالحاً، لو أنك خدمت الإنسان، خدمت من حولك، لو كنت صادقاً، لو كنت شهماً، لو كنت عطوفاً، لو كنت رحيماً، لو بذلت من مالك، بذلت من وقتك، بذلت من خبرتك، ما الذي يحصل ؟ هناك هرمون آخر معاكس يوسع الأوعية، ويخفض الضغط، وينزل ضربات القلب، ويخفض وجيب الرئتين، لا يطرح سكراً زائداً، الإنسان يشعر براحة، وبطمأنينة، وبسعادة، لذلك إذا أردت أن تسعد، أو أن تصح فأسعد الناس.

الشيء المدهش أن العمل الصالح له وزن كبير في الآخرة، لكن من يصدق أن العمل الصالح صحة، العمل الصالح ضغط منخفض، العمل الصالح نبض قلب منخفض، العمل الصالح أوعية واسعة، العمل الصالح دم سيال ما في جلطات، فلذلك هذه الهرمونات شيء عجيب هرمون التجلط هرمون التمييع، هرمون توسيع الأوعية هرمون تضيقها، هرمون رفع الضغط، هرمون تخفيض الضغط، هرمون رفع وجيب الرئتين، هرمون تخفيض وجيب الرئتين.

لذلك أيها الإخوة، لمجرد أن تعمل عملاً صالحاً خالصاً لله فأنت أسعد الناس، إذا أردت أن تكون أسعد الناس فأسعدهم.

أيها الإخوة الكرام، حدثني طبيب آخر أن عندنا طريق الآلام، طريق الآلام يبدأ من المحيط، من الحواس الخمس، ويتجمع في العمود الفقري في النخاع الشوكي، وينتقل إلى الدماغ، الآلام التي لا تحتمل موجودة في الدماغ، في قشرة الدماغ، لما يضطر الطبيب أن يقلع لإنسان أحد أسنانه ولا يستطيع المريض أن يتحمل المخدر، ففي أثناء نتش السن يصيب المريض ألم لا يصدق، يكاد يخرج من جلده،

فإذا أطلع الطبيب مريضه على السن يجد العصب الذي قطع أرفع من الشعرة، كل هذه الآلام من هذا العصب

هل تعلم أن في جسمك بوابات للألم

على طريق الآلام بوابات، إن أغلقت انخفض الألم إلى العشر، وإن فتحت تضاعف الألم إلى عشرة أمثال، إنها بوابات الألم، من الذي يتحكم في هذه البوابات ؟ الحالة النفسية للمريض، إذا كان مؤمناً كانت آلامه خفيفة جداً.

حدثني أخ طبيب هذه القصة، لعلي رويتها لكم، لكن الآن هي مناسبة أن يعاد سماعها، طبيب من إخواننا الكرام بمستشفى حكومي، جاءهم مريض مصاب بالسرطان في الأمعاء، شيء يلفت النظر، مبتسم، كلما دخل مَن يعوده يقول له: أهلاً وسهلاً، اشهد أنني راض عن الله، يا رب، لك الحمد، وجهه منير، نفسه طيبة، مرح، متفائل، والمرض خبيث، والمرض مميت، كلما دخل إنسان يزوره يشهده أنه راض عن الله، ويتبع هذا الكلام بكلمة الحمد لله رب العالمين، بقي أياما معدودة وتوفاه الله، لكن في هذه الغرفة سر وسحر وجذب، إن ضغط على المنبه يتنافس الممرضون على الدخول إلى غرفته، والأطباء يسرعون إليه، ويرتاحون عنده، نفسه راضية عن الله، نفسه مستسلمة لله، كلما دخل عليه إنسان قال: اشهد أنني راض عن الله، يا رب، لك الحمد.

والله أيها الإخوة، لي صديق حميم أصيب بهذا المرض، وبقي سنتين، تقسم بالله زوجته إنه خلال السنتين ما سمعت منه إلا الحمد لله، يا رب، لك الحمد، يا رب أنا راض، الإيمان درجة عالية جداً، سبحان الله، توفي، وجاء مريض آخر إلى الغرفة نفسها، والأطباء نفسهم، والممرضون نفسهم، ما مِن نبي ما سبّه هذا المريض الثاني، سبّ الدين كأنه استغفار، صوت لا يحتمل، رائحة كريهة، تشاؤم، سباب، أصبحت هذه الغرفة قطعة من الجحيم، يقرع الجرس فلا يجيبه أحد، الكل يتهرب منه، أقسم بالله هذا الطبيب وقال لي: درّس للمستشفى المرض نفسه، الآلام نفسها، قال لي: كأن المريض الأول لا يتألم، هذه بوابات الألم.

هذا الموضوع أنا أخذته من مجلة، لكن الموضوع ليس له علاقة بالدين إطلاقاً، إنها قضية علمية محضة، هناك بوابات ألم، فكلما ارتفعت معنويات المريض أغلقت هذه البوابات، فوصل من الألم العشر، وهو محتمل، وكلما ابتعد المريض عن الله عز وجل فتحت البوابات على مصارعها، وانهمر الألم بشكل لا يحتمل.

لذلك أيها الإخوة، المؤمن عنده هرمون آخر غير هرمون الكظر، هرمون يوسع الأوعية، هرمون يخفض الضغط، هرمون يخفض ضربات القلب، هرمون يبعث السرور والمرح، فلذلك إذا أردت أن تسعد فأسعد الآخرين، النصوص.

عبدي، كن لي كما تريد أكن لك كما تريد، عبدي، كن لي كما أريد، ولا تعلمني بما يصلحك، من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين.

الحديث الثاني: إنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ

أيها الإخوة الكرام، حديث آخر متعلق بالإخلاص عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))

[مسلم]

مرة كنت في مؤتمر إسلامي كبير في المغرب، الأيسيسكو، عام ثلاثة وتسعين، ونزلنا في أضخم فندق هناك، كان هذا الفندق مقراً لمؤتمرات القمة، وصلنا الساعة الثانية عشر ليلاً يوم الأحد، نمت في صبيحة اليوم الأول استمعت إلى قرآن كريم مع أذان الفجر رائع جداً، أطللت من النافذة فإذا بعاملِ الحديقة يصلي الفجر في وقته بصوت رائع، وبخشوع، وبقراءة مؤثّرة، والله أبكاني، وقلت: لعل هذا العامل أفضل عند الله مِن كل رؤساء الوفود في هذا المؤتمر، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[الترمذي]

قد يكون الإنسان في الدرجة الاجتماعية الدنيا، قد يكون حاجباً، لكنه موصول بالله، وهو عند الله كبير، لذلك:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ* خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)

[سورة الواقعة]

الذين كانوا في القمم قد يأتي يوم هُم في الحضيض، والذين كانوا في الحضيض قد يأتي يوم هم في القمم، خافضة رافعة، فالبطولة أن تتفوق لا بمقاييس البشر، بل بمقاييس رب البشر، أن تكون عند الله محبوباً، قال تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

[سورة القمر]

إذاً:

((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))

[مسلم]

قال بعض الشعراء:

جمال الجسم مع قبح النفوس كقنديل على قبر المجوس

***

أحيانا يكون عند الرجل جَمال، لكن كلامه بذيء.

مرة شخص أنيق جداً يبدو غنياً وألبسته غالية جداً، وتكلم كلاماً بذيئاً جداً، أحد الوجهاء قال له كلمة رائعة، قال له: إما أن تلبس مثل كلامك، أو تتكلم مثل لبْسِك.

التأدب في الكلام حلية نفسية:

المؤمن عفيف، والله لا أدري ماذا أقول، أنا لا أصدق أن ينطق المؤمن بكلمة فاحشة، هناك كلمات كثيرة، هذا الذي تجري على لسانه هذه الكلمات والله ما أستطيع أن ألفظها في حياتي كلها، هذا إنسان فاحش متفحش، ليس المؤمن بالفاحش ولا المتفحش، كلمات العورات، كلمات فضلات الإنسان، كلمات السباب الرخيص، كلمات سباب أهل الأزقة المنحرفين، هل هذا يكون في المسجد ؟ من مؤمن ؟ والله الذي لا إله إلا هو مستحيل وألف ألف مستحيل أن ينطق المؤمن بكلمة فاحشة، أو أن يكني عن العورات، أو أن ينطق بكلام ملغوم، أو مغشوش، أو مزاح جنسي، هذه كلها صفات المنافقين، صفات السفلة، صفات المنحرفين، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلَا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ))

[أحمد]

تعلموا الأدب من الصحابة، قالت امرأة لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، إن زوجي صوّام قوام، ما انتبه سيدنا عمر، قال: بارك الله لك بزوجك، قال سيدنا علي: إنها تشكو زوجها، ليس هذا موضوع مديح هنا، ماذا اختارت هذه المرأة: صوام قوام، في النهار صائم، في الليل قائم، لا علاقة له معي إطلاقاً، وأنا محرومة منه، اقرأ القرآن الكريم:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ)

[سورة المؤمنون]

دخل الجنس، ودخل السحاق واللواط، وتبادل الزوجات، والأفعال المنحرفة، وزنا البهائم، وزنا المحارم، كل هذه الانحرافات تضمنتها كلمة:

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

[سورة المؤمنون: 7]

اقرأ القرآن:

(فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً)

[سورة الأعراف: 189]

كلمة تغشاها لا تجرح الحياء إطلاقاً.

قال تعالى:

(أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً)

[سورة النساء: 43]

هناك كلمات قرآنية كلها أدب، تعلموا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأدب، تعلموا من القرآن الأدب، تعلموا من أصحاب رسول الله الأدب.

ثلاث نقط ملخص الإخلاص

أيها الإخوة الكرام، موضوع الإخلاص باب كبير، لكن أتمنى أن يكون التركيز على النقاط التالية الثلاث:

ـ المخلص لا يختلف عمله مع الناس أو وحده، لا في خلوته ولا في جلوته، عمل واحد، عبادة واحدة، انضباط واحد.

ـ المخلص لا يتأثر لا بالمديح ولا بالذم.

ـ المخلص يشعر بالسكينة، لأن السكينة شيء يلقى في قلبه يشعره بالسعادة، وإن لم تقل: أنا أسعد الناس فالإيمان في خلل.

الحديث الثالث: من هم بحسنة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ، وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ))

[مسلم]

لكن هنا سؤال: من همّ بحسنة فلم يستطع أن يعملها، ما له أجر إطلاقاً، ما استطاع أن يسرق، وجد في البيت أشخاصا، فلم يستطع أن يسرق، من هم بحسنة بنهي ذاتي، بندم ما عمِلها.

القضية في النية، طبعاً أضرب مثلاً مشهوراً لشخص يملك آلاف الدنمات، جاء من يهمس في أذنه أن هذه الأرض كلها مشاع، وأسعارها رخيصة جداً، أنت حينما تتبرع لبناء مسجد تضطر البلدية أن تنظم هذه الأرض إلى محاضر، فإذا فرزت إلى محاضر ارتفع سعرها، هو في الأصل لا يصلي، فقدم لبناء مسجد خمسة دنمات، فالبلدية اضطرت أن تنظم هذه الأرض أن تفرزها إلى محاضر، وارتفع السعر، هو عند الناس محسن كبير.

إياك والوقوف في خندق معاد للدين !!!

مرة أحد إخوتنا الكرام له زوجة مدرسة في ثانوية، والمديرة يبدو أنها حاقدة على كل فتاة محجبة، فتتفنن في إذلالها، في إيلامها، في فصلها، في تحقيرها، وكثير من المدرسات تركوا الثانوية خوفاً من بطشها، شوهدت بعد بضع سنوات على رأسها الحجاب، ما الذي حصل ؟ لعلها تابت، لا، أصيبت بمرض عضال في جلدة رأسها، فنصحها الطبيب أن تضع خمارا على رأسها، قالت له: هل يمكن أن أضع الباروكة (الشعر الاصطناعي)، قال: لا، تسبِّب لكِ حساسية، يجب أن تضعي خمارا فقهرها الله بالحجاب.

أشقى الناس من كان في خندق معادٍ للدين، هذا أشقى إنسان، لأنه في الآية ملمحًا دقيقًا، لما قال الله عز وجل:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

[سورة التحريم: 4]

هل من المعقول لعائشة، وأختها استنفار:

(فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

إذا انتقدت فتاة النظام يحدث استنفار القوى الجوية والبحرية، وقوى الأمن والإعلام، إنها امرأة انتقدت بكلمتين.

في الآية شيء ليس واضحاً، لكن بعض المفسرين قال: إذا كنت معادياً للحق فاعلم من هو الطرف الآخر، لذلك الله عز وجل توعد بالحرب لشخصين فقط في القرآن والسن توعد بحرب المرابي، قال تعالى:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

[سورة البقرة: 279]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ:

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ))

[البخاري]

سبحان الله !!! بعض الأشخاص أحياناً يتلذذ بقهر الضعيف، قد يكون مؤمنًا ضعيفًا، لكنه بريء، فيلصق به تهمة هو بريء منها، فيتفنن في إذلاله.

والله أعرف رجلاً هو من علماء الشام الأجلاء، عنده مركبة، في أثناء رجوعه يبدو أن مركبته مست مركبة أخرى، من أدبه وورعه كتب رسالة أن هذا تلفوني، وأنا مستعد لإصلاح الخلل مهما بلغ، الخلل ضربة خفيفة جداً، يمكن أن تصلح في دقائق، مع ذلك كتبها، في أثناء كتابة الورقة جاء صاحب السيارة، وله عمامة وجبة، لم يترك كلمة بذيئة ما نعته بها، الله يسامحك، مهما ترد أعطك، خذ عشرة أضعاف، هذا صاحب السيارة السفيه عنده ثاني يوم حفلة خارج دمشق، عنده مزرعة، فأحد أصدقائه ما عرف المزرعة، فقال له: أنا سآتي وآخذك، فوقع في حادث صدام فقطع عموده الفقري، عمره ست وعشرون سنة، وهو يقضي عمره كله مشلول.

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ))

[البخاري]

إياك أن تقترب من إنسان ولي لله عز وجل، تجلس فتنصب له فخًا أو سؤالا محرجًا، أو تتهمه بتهمة باطلة، أو أنه لا تقدّر، هذا ولي لله عز وجل، فالله يحارب اثنين، يحارب المرابي، و:

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ))

الإخلاص الإخلاص

أيها الإخوة الكرام، الموضوع يتعلق بالإخلاص، ومع الإخلاص ينفع قليل العمل وكثيره، ومن دون إخلاص لا ينفع قليل العمل ولا كثيره، والإخلاص عبادة القلب، ولا يعلم به أحد، لا ملك، ولا نبي، فلذلك الإخلاصَ الإخْلاصَ، وهناك إخلاص يحتاج إلى إخلاص.وراقب قلبك، هل تبتغي وجه الله، أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، الشرك أخفى من دبيب النملة السمراء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء.

هل يمكن أن تسمع مشي نملة في الليل على صخرة صماء ؟ هل تسمع صوت مشيها ؟ مستحيل، فالشرك أخفى من ذلك، وأدناه أن تحب على جور، إنسان جائر تحبه، غني قوي، يبرك فتتعامى عن

خطأه، لا تنصحه أبداً، يباع بالعزاء، أنا لي مصلحة معه الآن، أو أن إنساناً نصحك بأدب فلا تقبل، مَن أنت حتى تنصحني ؟ أخذته العزة بالإثم.

عليكم بالتواضع وإياكم العلو

فيا أيها الإخوة الكرام، تواضعوا لله، باب العلو في الأرض عليه ازدحام شديد، أما باب الانكسار إلى الله فليس عليه ازدحام أبداً.

بالمناسبة، أيها الإخوة الكرام، هناك ست جهات، شرق، غرب، شمال، جنوب، فوق، تحت، أليس كذلك؟ أربع جهات احتلها إبليس، قال تعالى:

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)

[سورة الأعراف: 17]

لكن ما تكلم عن فوق وتحت، الطريق إلى الله محروس من الشيطان، وطريق الانكسار أيضاً محروس، فتحت هناك حراسة، وفوق هناك حراسة، أما الأربع اتجاهات فللشيطان، قال تعالى:

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

[سورة الأعراف]

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (150) :التربية الإسلامية ـ قضايا سلوكية وإدارية .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-06-08

بسم الله الرحمن الرحيم

لا بد من مراجعة شاملة لسلوكيات النفس :

أيها الإخوة، دروس التفسير متسلسلة، وكلها مصورة، والآن التصوير معطل، فأنا من حين لآخر أريد أن أعالج قضايا سلوكية إلى الله، مضافاً إليها قضايا إدارية، والموضوعات معالجة إن شاء الله، الإدارية أؤخرها لنهاية الدرس، أما السلوكية فالإنسان يحتاج من وقت إلى آخر، من حين إلى آخر لمراجعة أوراقه.

أحيانا يرتب الإنسان مكتبته ، ويرتب أوراقه، ويرتب أشرطته، يكون عنده كمٌّ كبير من الأشرطة، يسمع ويصنف الإنسان يلغي ويمحو، ينظم أشرطته، ينظم أوراقه، ينظم مكتبته، لكن أعتقد أنه ما مِن شيء أهم من نفسك التي بين جنبيك، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

(سورة الشمس)

الإنسان يتذكر كل شيء إلا تزكية نفسه

هناك كمٌّ كبير من الإخوة الكرام على طيب أنفسهم، وعلى نيتهم الطيبة، لكنهم تاركون أنفسَهم هملاً، فهو يعاني من بُعدٍ، الموضوع لا يعالجه، يعاني من تعثر في سند الله عز وجل، يعاني أن مَن حوله ينفض من عنده، ما السبب ؟ الإنسان الذي لا يفكر، لا يتأمل، لا يراجع أوراقه، لا يسأل، ليس له مع نفسه جلسه، مع نفسك، الحياة معقدة والحياة ضاغطة، والحياة مكلفة، فالإنسان يُدفَع من حل مشكلة لحل مشكلة، من تحقيق هدف لتحقيق هدف، من عقد لقاء لعقد لقاء، من استقبال إنسان لتوديعه، يأتي الصيف فيستقبل أقرباءه المسافرين، يودعهم، يؤسس شركة، يجتمعون، لكن ينسى نفسه، ينسى أخطر شيء. أضرب مثلاً: ذهب أحدُهم إلى الحج فاشترى آلات، اشترى مسجلات، اشترى أجهزة عصارات، وخلاطات، وصل إلى مطار القاهرة فقال: يا الله، نسيت أن أحجّ، لكن ما نسي أن يشتري كل شيء. تجد الجلَ منغمسًا إلى قمة رأسه بمشاغل، ومتاعب، ولقاءات، وعقد شركات ، وحل مشكلات، واستقبال ضيوف، وتوديع ضيوف، وإقامة ولائم، لكن ينسى أخطر شيء نفسه التي بين جنبيه من حين لآخر أنت بحاجة إلى مراجعة أوراقك، كيف صلاتك ؟ كيف صلتك بالله عز وجل ؟ كيف بيتك فيه خلل ؟ هل

هناك ابن غير منضبط ؟ أو بنت لها ذهاب من غير إذن أحياناً، وتتأخر أحياناً،من يدخل إلى بيتك ؟ من يخرج ؟ هل دخْلك فيه شبهة ؟ هل أكيد أنه حلال 100 %، لك شريك يغش ؟ هو برقبتك، لأنك أنت شريكه، هل هناك بضاعة محرمة تباع ؟

أنا أتمنى، وأنا ما عندي غير أربعة بنود، الأربع بنود أعتقد من سنة أو سنتين ألح عليها، ما عندي شيء اسمه نجاح جزئي، لا يسمى النجاح الجزئي نجاحاً.

والله أعرف قصصا لرجل ذهب إلى الخليج ليعمل، ويأتي بثمن بيت جيد، أهمل زوجته، وإيمانها ضعيف، والوحدة سنة، وأهمل أولاده، وأولاده بالزقاق، وزوجته زلت قدمها، فما نجح، كيف بإنسان يقبل عملا من دون زوجته وأولاده سنتين، أربع سنوات ؟ هل يمكن أن يعيش أولادك سنوات من دون تربية ؟ الأب هو المربي.

بنود إصلاح النفس: فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم

البند الأول: إصلاح العلاقة مع الله

1 ـ كيف علاقتك مع الله عزوجل

أنا أتمنى الاهتمامَ بهذه الموضوعات الأربعة: أول شيء: كيف علاقتك مع الله ؟ بلا مواربة، حضور الدرس شيء، والعلاقة الطيبة مع الله شيء آخر، العلاقة الطيبة مع الله تحتاج جهد.

أحيانا الدرس، أنا مع احترامي غير المحدود بمن يحضر هذا الدرس، مع ثقتي أنه صادق مع الله، كان يتمنى أن يبقي في بيته قاعدا على مقعد وثير، يطلب كل حين كأس شاي، أو فنجان قهوة، وهاتوا الفواكه، وجاء رفيقه، ويطلبه ماذا حصل معه في السفر ، يمكن أن تجلس في بيتك مرتاحا، لكنك تركت بيتك، وزوجتك وأولادك وبناتك ، بيتك حتماً مريح ، ولا كرسي هنا ، ولا كأس شاي ، وأنت جالس على الأرض ، وتسمع لنا، معنى ذلك أنك تريد شيئًا ، وتطلب الله عز وجل.

2 ـ حضورُ مجالس العلم له تبعات سلوكية تطبيقية:

أنا لا أشك أن الحضور مهم جداً ، لكن الحضور له توابعه ، أريد فقط أقنعكم بشيء: هنا الجامع له مهمتان فقط ، تلقي التعليمات ، وقبض الثمن ، مثل مندوبي المبيعات، يأتي الساعة الثامنة ليأخذ

المهمات ، يأتي مساءً بالغلة فيعطى العمولة، أتيت بمئة ألف، هذه عشرة آلاف، يتلقى التعليمات، يأتي بالغلة، ويقبض العمولة.

كل مؤمن يدخل المسجد يتلقى التعليمات في درس العلم، يأتي مرة ثانية ليصلي فيبكي في الصلاة، لقد قبض الثمن، لكن أين البناء ؟ ببيتك، فهل بيتك منضبط ؟

والله قال لي إنسان: ابعث لي خطّابين، إنسان غالٍ عليّ، وله ست بنات خرجنَ بثياب فاضحة مباشرة، فعاتبته، قال لي: أنا تائب على كِبَر، حياتي مشكّلةٌ تشكيلا خاطئًا، ماذا أفعل ؟ هذا وضعي.

يمكن أن تحضر الدرس، كيف لكن بيتك ؟ الله عز وجل قال:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

(سورة الأنفال الآية: 1)

هذه الآية دقيقة جداً، هذه الراية فسرها الإمام الغزالي على أربع مستويات أول علاقة: أصلح علاقتك مع الله.

3 ـ ما دام فيك حياة فالتوبة ممكنة:

ما دام القلب ينبض فكل شيء يحلّ، عَن أَنَس بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

((يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

[الترمذي]

والصلحة بلمحة.

(إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

(سورة الزمر الآية: 52)

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة الأعراف الآية: 156)

أنت ألست شيئًا وسعتك رحمة الله ؟ ما دام هناك نبض فالتوبة قائمة، بل:

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ)

(سورة البقرة الآية: 222)

بل:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء الآية: 27)

وما أمرك أن تتوب إلا ليقبلك، وما أمرك أن تستغفر إلا ليغفر لك، وما أمرك أن تدعوه إلا ليجيبك، وما أمرك أن تسأله إلا ليعطيك.

لي رجاء عندكم، والله ما وصفته لإنسان إلا نجح، وأنا أمارسه والله، ما مِن إنسان ليس عنده مشاكل، أحيانا مشكلة مالية، مشكلة في الصحة، مشكلة في العمل، له عدو يتربص به، له منافس بالعمل يريد أن يزيحه من مكانه، مشكلات لا تعد ولا تحصى، وفي الحديث النبوي الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ فَيَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ))

[البخاري ومسلم]

أنا أنصحكم في هذه الحالة، الله يطلب منك أن اسألني يا عبدي، أنا نزلت إليك لأستمع إلى شكواك، إلى طلبك، إلى حاجتك، إلى مسألتك، إلى استفسارك، إلى توبتك، هذه واحدة.

الدرس الثاني: والله ما خاب معي مرة في حياتي، الله عز وجل يسترضى بماذا ؟ بالصدقة.

((صدقة السر تطفئ غضب الرب))

[أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس]

((باكروا بالصَّدقة، فإن البلاء لا يتخطاها))

[رواه أبو الشيخ، وابن أبي الدنيا والبيهقي، عن أنس]

((الصدقة تقع في يد الله تعالى قبل أن تقع في يد السائل))

[رواه الطبراني عن عبد الله بن مسعود]

لذلك أيها الإخوة، عندك صلاة قبل الفجر، حيث ينزل ربنا إلى السماء الدنيا ويقول: هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من طالب حاجة فأقضيها له ؟ هل من سائل فأعطيه ؟ وأن تسترضي الله بالصدقة.

أول بند بهذا اللقاء الطيب: أصلح علاقتك مع الله، والصلحة بلمحة، التوبة قائمة المؤمن تواب، مذنب تواب، كثير التوبة.

الدين كله استقامة وتفكر وعمل صالح واتصال بالله

الدين واسع كثير، لو أردت أن تختص بتاريخ التشريع يلزمك دكتوراه، فقه المقارن المواريث، أحكام الطلاق، الأحوال الشخصية، والله هناك مليارات الكتب الإسلامية، لكن يمكن أن أضغط لك الدين كله بأربع كلمات:

استقامة ـ تفكر ـ وعمل صالح ـ واتصال بالله.

بالتفكر ينمو إيمانك، وبالاستقامة يكون الطريق إلى الله سالكاً، بالعمل الصالح حركة على هذا الطريق، وبالاتصال سعادة.

الدين سهل يسير

يمكن أن تجد الدين معقدًا، أنا رأيي أنه يجب أن يكون كالهواء يستنشقه كل إنسان بأي مكان ببساطة بالغة، هذا هو الدين، ونحن عقدناه.

علِق أحدُهم مع شيخ أزهري في أحكام الوضوء، وضعه ستة أشهر في أحكام المياه، خرج من جلده، وترك الدين، خرجت روحه وما كانت ينتهي أحكام المياه، التقى بعالم آخر، قال له: الماء الذي تشربه توضأ منه، وانتهى الأمر.

نحن بحاجة للتبسيط، تدخل في متاهة تقرأ وراء الإمام، لا تقرأ، أنت حنفي لابد أن تسكت، شافعي لابد أن تقرأ الفاتحة، لا حنبلي، لا مالكي، يا أخي في الصلاة الجهرية اسكت، والسرية اقرأ، وانتهى الأمر، هذه الموضوع يفتح مئتي صفحة، وتجدنا نداخل بمتاهات، وأحاجي، وقضايا غير واقعية، والله أسمع أشياء لا يصدقها العقل بقدر ما هي غريبة.

هل تزداد علما ؟

أول شيء علاقتك بالله، علاقتك بالله هل تزداد علماً ؟.

((لا بورك لي في يوم طلوع شمس يوم لم أزداد فيه من الله علماً))

[ورد في الأثر]

من هو المغبون ؟ من تساوى يوماه.

من لم يكن في زيادة فهو في نقصان، أول شيء علاقتك بالله، هل تزداد علماً ؟ هل تزداد قرباً ؟ معنى ذلك أنت مستقيم، أن تزداد علماً، وأن تستقيم، وأن تزداد عطاءً، وعملاً صالحاً، هذا جانب.

الدين لا تعقده، بسّطه، الدين كالهواء، الدين لا يحتكره إنسان، ولا جماعة، ولا طائفة، ولا مذهب، الدين قوام الإنسان، الدين حياة الإنسان، والدين بسيط، أقول لك بصراحة: أكبر منصب ديني بالعالم الإسلامي لا أسميه بمرتبة رئيس وزارة، لو فرضنا صاحب هذا المنصب استقبل صحفية وثيابها فاضحة، وفي أثناء اللقاء ملأ عينيه من محاسنها، وعنده آذِنٌ لا يقرأ ولا يكتب، لكنه يخاف من الله، فلما دخلتْ غضَّ بصرهَ، من العالِم ؟

((كفى بالمرء علما أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلا أن يعصيه))

[رواه البيهقي في شعب الإيمان عن مسروق مرسلا]

لا تعقد الأمور بسطها كثير.

مرة اتصلوا بي من محافظة حماة، كادوا يقتتلون حول تعريف صلاة التهجد أو قيام الليل، اختلفوا، يا ترى أيّ صلاة تنام، تستيقظ، وتصلي ؟ هل هناك صلاة قبل أن تنام، وصلاة بعدما تنام، يا ترى التهجد قبل أن تنام ؟ أم بعدما تستيقظ ؟ أنا والله ما أجبتهم، ضحكت، قلت له: صلِ ركعتين، وقل: يا رب، أنا لا أعرف ما اسمها، اقبلهم مني، يا رب، لم أعرفها، يا لطيف سنمزق بعضنا من أجل هذه، ومن أجل هذه، سنقتتل، هذا شيء غير معقول

والله سمعت ماذا يجري في العراق، شيء لا يصدق، يتفننون بالتعذيب قبل القتل، ما هو الخلاف ؟ إله واحد، وقرآن واحد، والنبي واحد، وبأسنا بيننا، نحن بحالة تخلف لا يتصورها العقل.

والله مرة ألقيت كلمة أعتقد أنها كانت موفقة جداً العقل وتأثر كثير الحاضرين ، تكلمت عن تواضع النبي، كيف أنه لما كان قائد جيش وهو زعيم، وله منصب يسمونه زعيم أمة، رئيس جمهورية، ملكًا، مثلما تريد فسمِّه، ونبي، ورسول، وقائد جيش، الرواحل قليلة، الصحابة كثير، ماذا تريد الحل ؟ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:

((كُنَّا يَوْمَ بَدْرٍ كُلُّ ثَلَاثَةٍ عَلَى بَعِيرٍ، كَانَ أَبُو لُبَابَةَ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ زَمِيلَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: وَكَانَتْ عُقْبَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَقَالَا: نَحْنُ نَمْشِي عَنْكَ، فَقَالَ: مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي، وَلَا أَنَا بِأَغْنَى عَنْ الْأَجْرِ مِنْكُمَا))

[أحمد]

تأثر الناس بهذا التواضع، لأنه سوّى نفسه مع جندي.

انتهت كلمتي، جلس إلى جانبي أحد الدعاة، قال: هناك خطأ كبير في كلامك، قلت له: خير إن شاء الله، أين ؟ ما تكلمت كلمة غلطا، قال: قلت: الصحابة ألف، هم ألف وأربعة عشر.

والله مرة قلت على المنبر: إن ألمانيا استقدمت من تركيا أربعين ألف مومس من أجل المونديال، قال لي واحد: كيف ذهبوا، من دون محارم ؟

والله نحن نعيش سخافات لا يصدقها العقل، أين نحن ؟ نذبح من الوريد إلى الوريد، ونتقاتل فيما بيننا ببعضنا، هذا ما رفع يده، هذا صلى هكذا، هذا وضع ركبتيه قبل يديه، هذا وضع يديه قبل ركبتيه، متاهات، جزئيات، وهذا مرض خطير، أن نغرق في الجزئيات، وننسى الدين.

مرة هناك عالم أنا أحترمه كثيرا، بلغه أنّ مشادة حصلت بين فئتين في مسجد حول عدد ركعات التراويح، أنا وعيت على الدنيا بهذه المشكلة، ما كانت تنتهي، 8 أم 20 ؟ ما كنا ننتهي منها، نموت ولا

ننتهي منها، 8 أم 20 ؟ قال لي واحد: على الهواء: كم ركعة ؟ قلت له: صلِ 8، وصلِ 12، وصلِ 16، وصلِ 20، وصلِ في بيتك، وصلِ في الجامع، ولا تحدِث مشكلة، كفى دخولا بمتاهات الجزئيات، إلى درجة تمزقنا وتشرذمنا، ما يمكن أن تلتقي مع واحد، أنت مِن أين ؟ مِن أين شيخك ؟ تريد أن تصنفه حصلت تصنفه فوراً مع شيخه، ما تحصل على صاحب دين من دون شيخ، ما تحصل حلقة من أرقى الحلقات وفيها واحد سيء ؟

المبادئ لا الأشخاص

اسمعوا هذا الكلام، في أرقى حلقة أناس سيئون، وبأقل حلقة أناس طيبون، التعميم من العمى، لا تعمم، اسمعوا هذه الكلمة: المبادئ لا الأشخاص.

أنا كنت بالجامع الكويتي لي درس، درس السماء الحسنى بالكويتي كان ومدارج السالكين، زارنا الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ـ رحمه الله ـ معروف اتجاهه، تمنيت عليه أن يصلي بنا، فلما انتهى من صلاته رجوته أن يلقي علينا درسا، حتى علم إخواني، وكنت بهذا الجامع جاء الشيخ أحمد الحبال، ومعروف اتجاهه أيضاً، عكسه، 180 درجة وضعته مكاني، وجلست على الأرض، وقلت له: ادع لنا، أريد أن أعلم إخواني أننا كلنا واحد، مثل الفواكه، الدعاة كل فاكهة بطعمة.

مرة قال لي عالم: الداعية ألبسه الله ثوبا، لا يخلعه، ولا يليق لغيره، لا تقلد أحدا، كل إنسان له شيء الله وفقه به.

الجوهر لا الشكليات

أول بند علاقتك مع الله، من دون تعقيد، لك صلة بالله ؟. هذا الإعرابي الذي قال له ابن سيدنا عمر: << بعني هذه الشاة، وخذ ثمنها، قال له: ليست لي، قال له: قل: لصاحبها ماتت، أو أكلها الذئب، قال له: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها: ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله ؟ >>.

لا حل لها، أرأيت البدوي ؟ لا عنده مكتبة، ولا عنده 38 كتابا بالفقه، ولم يحضر مؤتمرا، ولا عنده كمبيوتر، ولا عنده عشرون ختمة لقراء، هذا البدوي الأعرابي الراعي وضع يده على جوهر الدين، ولكن أين الله.

لذلك:

((ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام))

[ورد في الأثر]

يمكن في أمور الطب (استاند) عمولته عشرة آلاف، احتمال النكسة فيه 20%، هناك (استاند) ما له عمولة، النكسة فيه 3%، أنت كطبيب تضع الذي بعشرة آلاف ؟ والنكسة فيه 20% من أجل عشرة آلاف ألغيت صلاتك، وصيامك، وحجك، وزكاتك، لأنك غششت مسلما.

أنا أفهم الدين غير هذا، أنا لا أفهم الدين مظاهر، دع مظهرك عاديا جداً، ما فيه أي إشارة إلى أنك مسلم، لكن كن صادقا، أمينا، لا تغش مريض إن كنتَ طبيبًا.

والله البارحة كان عندي إنسان قال لي: والله أخجل أن أقول لك، هذه شائعة جداً، أنت مريض ؟ أريد 12 تحليلا، مطلوب فقط 2، والـ10 مناصفة بين الطبيب والمحلل، وأنا برقبتي أضعها، لقد ألغوا صلاتهم، وصيامهم، وحجهم، وزكاتهم، لأنهم أخذوا مالا بالحرام، والمحامي الذي يقول: الدعوى ناجحة 100%، وخذها مني، وهو موقن يقينا قطعيا أنها خاسرة، لأنه في اجتهاد محكمة النقد لغير صالحه، يقول لك: من هنا لـ8 سنوات نكون سحبنا منه 200 ألف، بعد هذا نقول: القاضي ارتشى ندبر حالنا، أيضاً هذا المحامي لغى صلاته، وصيامه، وحجه، وزكاته.

والله ولا أبالغ، يقيم الأستاذ مذاكرة للطلاب والنتيجة كلها أصفار، يريدون دروسا خاصة، يبعث وراء آبائهم، كل درس بألف ليرة، ألغى صلاته، وصيامه، وحجه وزكاته، الدين بعملك، الدين ببيتك، الدين بالطريق، هنا نتلقى التعليمات، نتلقى المكافآت فقط، الدين هناك.

يجب أن تصلح علاقتك مع الله، عندك صفقة قماش زائدة، فيها لون لا يباع، زيتي، كل الأثواب نحيفة إلا هذا فثخين، ما بيع منه شيء، جاءك أحدُهم، وقال لك: الله أريد لونا يكون جميلا، هذا أجمل لون عندي، زيتي، لا تؤاخذوني، هذا ليس تشددا، لقد: غششته.

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ أَسِيدٍ الْحَضْرَمِيِّ: قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((كَبُرَتْ خِيَانَةً أَنْ تُحَدِّثَ أَخَاكَ حَدِيثًا هُوَ لَكَ بِهِ مُصَدِّقٌ، وَأَنْتَ لَهُ بِهِ كَاذِبٌ))

[رواه أحمد]

الأستقامة سبب الرزق الوفير

لما تمشي على الطريق الصحيح يفتح الله عليك رزقا وفيرًا، فإنه لا إله ولا رب إلا الله، يقال: أزمة عمل، كساد، بطالة، دخل قليل، مصروف كبير، والله لا إله إلا هو، ولا رب إلا هو لما تستقيم تماماً لما تتقي الله تماماً ترى معاملة لا يصدقها العقل.

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

(سورة الطلاق الآية: 2)

الله ما سلمك لغيره، ما سلمك لظروف صعبة أبداً.

والله مرة ماذا أقول لك، أخٌ لا يملك إلا ثيابه، وضعه صفر، هو من بلدٍ بعيد، ينام عند رفقاته، يبقى بالجامع للساعة 12 بالليل، يذهب، سواد الليل يكون الفجر بالجامع، الجامع جانب بيته، فجأة فتح الله له باب رزق، وتزوج، واشترى بيتا، واشترى مركبة.

فقط استقِم، اضبط لسانك، اضبط عينك، اضبط سمعك، اضبط يدك، اضبط حركتك، وإذا كنت الآن متزوجا اضبط بيتك زوجتك، بناتك، أولادك، لا ينساك الله عز وجل، عامل الله، أحيانا الدين يصبح طقوس، تعلمنا نصلي، ونصوم، وبرمضان نعمل كل يوم عزيمة، ونسهر للساعة ثلاثة، وننام قبل ما نصلي الفجر، ونتابع مسلسلات، وكل مسلسل إكراماً لقدوم شهر رمضان المبارك، كله إكرام لرمضان، هكذا أصحبنا.

فالعلاقة مع الله، الآن:

(فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ)

المعنى الأول: علاقتك مع الله.

البند الثاني: إصلاح العلاقة مع الزوجة

الآن علاقتك مع زوجتك أقرب الناس لك، والله هناك أُسَرٌ يتحاربون شهرًا، لا يتكلمون، خصام، وشتائم، وكلها بيوت مسلمين، تجده في الخارج لا أنعم منه، أين أخلاقك ؟ هذه زوجتك، هذه نصيبك، هذه هدية من الله، وأنتِ أيضاً هو زوجك أبو أولادك.

عَنْ ثَوْبَانَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلَاقًا مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ))

[أحمد وأبو داود والترمذي]

الزوجة ساكنة في بيت، وعندها زوج وأولاد، وكل يوم مشكلة، يخرج منها الواحد من جلده.

لذلك أيها الإخوة، هذه الزوجة انظر، لمَاذا كانت العلاقة فاترة بينك وبينها ؟ لمَ أنت منزعج منها ؟ صارحها، اجلس جلسة معها، قل لها: أنا أريد أن أعيش معك، نحن كل واحد منا قدرُ الثاني، كم يوما نريد أن نعيشه بسرور، انظر إلى المشكلات، ما الذي يؤلمها منك ؟ تسخر منها أمام أولادها، معها حق والله، ليست طفلة، هي كبيرة، عندها أولاد ، وتشتمها أمام أولادها، لم تعد تتحمل، طبعاً ستكرب معك، انظر ماذا يؤلمها ؟ حل مشكلة، انظر ماذا تريد، لما يكون البيت منضبطا فيه ود، فيه محبة، على من ينعكس ؟ على الأولاد، هذا أمه، وهذا أبوه، يحب بعضهم بعضا، بينهما مودة، ومحبة، واهتمام، واحترام متبادل.

والله أحيانا أدخل بيتا عنده 14 ولدا، اشتهيت أن اسمع صوتا، كلهم ساكتون، يكتبون وظائفهم، هناك تفاهم بين الأب والأم، بطولتك لا أن تكون ناجحا في الخارج، ابتسامة، وأناقة، ونعومة، وأنت في الداخل وحش.

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي))

[أخرجه الترمذي ابن ماجة]

أول بند علاقتك مع الله، مقياسها الاتصال بالله، لك صلة معه ؟ تبكي حين سماع بالقرآن ؟ تشعر أن الطريق سالك، الله معك، توصل بالطاعة، وبالمعصية تقطع، بكل بساطة، لا تعقد الأمور، غير معقول أن تغش الناس، وتكذب عليهم، وتحقق مصالحك، وتضحك عليهم، وتأكل مالا حراما، وتملأ عينيك من الحرام، وأذن الظهر فتقول: الله أكبر، وليس لك أن تتصل به، أنت فقط تقرأ، وتركع، وتسجد، لكن لا تتأثر، لأن الله عز وجل عزيز، ليس كل الناس يتجلى على قلبهم، أنا أضع يدي على الجرح، لو كان في صلة حقيقية فإنه:

((... لَا يُغْلَبُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ...))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن ابن عباس]

نحن مليار ونصف، وعندنا ثروات لا يعمها إلا الله، ومع ذلك فنحن فقراء، بل أفقر شعب.

والله زرت غينيا وهو أغنى بلد في إفريقيا بالألماس، والذهب، واليورانيوم، والثروات، وأفقر شعب، شيء مؤلم جداً، المسلمون يجلسون على ثروات لا يعلمها إلا الله، كلها لأعدائنا، من تفرقتنا، انظر للأجانب الأوربيين، كم دولة ؟ ينطق باسمهم شخص واحد جميعاً يسمونه منسق السياسة الأوربية، واحد يتكلم باسم بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وسويسرا والنمسا، وإسبانيا، واحد، ونحن دين واحد، وإله واحد، وقرآن واحد، وعلى الحدود تقف سبع ساعات، شيء مؤلم جداً، ونحن في قتال، وبلادنا محتلة الآن، أفغانستان، والعراق، ولبنان محتلة الآن، وفلسطين، والصومال، والآن في طريقهم إلى السودان، دار فور، ست دول محتلة، وهناك بلد فيها حرب أهلية ؟ نذبح بعضنا.

أهم شيء العلاقة بالله عز وجل، اجلس جلسة، وقل فيها: ما مشكلتي مع الله ؟ لماذا لا أصلي ؟ لماذا أقرأ القرآن فيضيق صدري ؟ لماذا أغلق فوراً ؟ اعمل لنفسك برنامجا، صلِّ ركعتين قيام الليل، ركعتين فقط، وتقرأ من القرآن ست صفحات، وتذكر الله، وتصلي الفجر في المسجد.

عَن جُنْدَبِ بْن عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ))

[مسلم]

أنت بضمان الله من الصبح للعشاء، ومن العشاء للصبح، هل هذه قليلة ؟ صل العشاء والفجر في الجامع، واقرأ ست صفحات من القرآن، صل وركعتين قيام ليل، وفي النهار غض بصرك، واضبط لسانك، وانصح الناس، وتكلم عن الله، لا عن سيرك.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعالى فِيهِ إِلاَّ قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمارٍ، وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً))

[رواه أبو داود وغيره]

عندنا الآن موضة جديدة، اسمها جلب الذات، تجلس مع شخص يتحدّث عن تخلفنا، وعن تفرقتنا، وعن ضياعنا، وعن شبابنا، وعن الفساد في المدارس، والطرقات، وعن النساء الكاسيات العاريات، وهذه امرأته خانته، وهذا أب طلق امرأته، والطلاق نسبته 50 %، ونصف نساء سورية من دون أزواج، والأسعار ترتفع، والفساد عم، وتوزيع مخدرات، وأقراص إباحية، لا تستطيع أن تقف من الفساد، ماذا تفعل ؟ اعمل عملا طيبا، قل: يا رب، أريد أن أخدم الأمة، قدم شيئًا للأمة.

إخواننا الكرام، العلاقة مع الله، غير دروسك، وغير الصلوات، الدرس ألفناه والصلاة ألفناها، كيف صلاتك ؟ كيف ذكرك ؟ كيف خشوعك ؟ كيف استقامتك ؟ لأي مستوى واصل بالاستقامة ؟ كيف بيتك؟ والله أحيانا أنظر، ليس بيدي شيء، أنا بشر، أجد إنسانا يلعب طاولة النرد يحضر عندنا دائماً، وقد قلنا مليون مرة:

عَنْ بُرَيْدَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ فَكَأَنَّمَا غَمَسَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ))

[رواه أبو داود]

لا علاقة له، يقول لك: واللهِ الدرس جميل، هو قد ضاقت نفسُه، والجو شتاء أين يذهب ؟ يأتي إلى الدرس ليتسلى، هذا أسميه زبونا شتويا، وفي الصيف لا تجده.

والله مرة أخ عرفني على ابنته، قال لها: ادخلي سلمي على الأستاذ، بالبنطال، فأدرتُ وجهي، لماذا تعرّفني عليها ؟ ما علاقتي معها أن أراها بهذا الوضع ؟! ما عنده شيء هذه ابنته، وإذا كانت ابنتك، ابنتك أجنبية مثلاً، بلا انضباط، ولا ورع، البيت منضبط بيت إسلامي، أما هو فغناء، يرن الهاتف تظهر أغنية فضيحة، ما وجدت غير هذه الأغنية تضعها بالهاتف.

العلاقة بالله، والعلاقة بالأهل، من اليوم ابدأ، لا تجعل بينك وبين زوجتك مشكلة، أولادك اجلس معهم، خذهم نزهة، أقول لك كلمة، وأنا واثق منها: والله لو أخذت أهلك نزهة فهي عبادة، ومتّنت علاقتك معهم، وأرحتَهم.

قد تجد الرجل رائحا غاديًا بنشاط، وفي سنة واحدة ما أخذ أهله إلى النزهة، فتجد بيته قطعة من الجحيم، اعمل لنفسك نزهة من حين لآخر، خذ معك أولادك، هذه من ضمن العبادة، أنت رب أسرة، مَن لهم غيرك ؟

والله أعرف رجالا الله يشهد أيّ أكلة يأكلها بالخارج ضيافة يأتي بمثلها إلى بيته، لا يحرم أهله شيئًا، وأحيانا يُدعَى الواحد، ويأكل ما يشتهي من الأكل، يأتي ثاني يوم بمثلها، أكل أكلت حلو يأتي مثلها ثاني يوم.

لا تنتظر واحدا يأتي إليك، امش نحوه نصف الطريق، أولادك وزوجتك، اقترب قليلاً منهم، لبِّ لهم حاجاتهم.

والله أعرف شخصا ـ رحمه الله ـ توفي، كل مشكلته مع زوجته، طول عمره بخلاف معها من أجل غسالة، والله قلّب فلوسه من عملة لعملة خسر ستة ملايين، كل طلبات زوجتك مئة ألف، خسر ستة ملايين.

الحياة فن، يجب أن تصلح علاقتك مع الله، ومع زوجتك وأولادك.

لا بد من المرح والفكاهة المشروعة

بقي عملك، عملك مورد رزقك، يتأخر، بعد ذلك يأتيه إنذار، سقط من عين المدير العام، يهمل، لا يكتب، كلها على الذاكرة.

نحن نعيش سبهللا، يلزمك أحيانا حاجة ناقصة للبيت، يمضى شهر وشهران، وثلاثة، وأربعة، وخمسة لا يأتي بها، تذكرها وأنت في البيت، ثم تخرج فتنساها، لأن لا تكتب، وإذا إنسان نظم أموره فلا يتكلم على الغنى إطلاقاً.

دخلت بيت في منطقة جوبر، والله ما أنساه، أصحابه من أفقر خَلق الله، بيت عربي مطليٌّ بالأبيض الناصع، وفيه زهور وورود، دخلت غرفة الضيوف فإذا فيها مفروشات عليها قماش أبيض، كله أناقة ونظافة وترتيب، ما لها علاقة بالغنى إطلاقاً، علاقتها بالذوق فقط، تكون مسحة جمالية بالبيت تجذب الابن، لا يكون الشجار في البيت، ألغ الشجار نهائياً، اترك الجو مريحًا، جوا للمرح، الزوج الناجح مرح، يلقي النكت في البيت، يضحك أولاده، يضحك زوجته، الدين القاسي دين الكهنوت، ولماذا هذا ؟

((الهوا والعبوا، فإني أكره أن يرى في دينكم غلظة))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن المطلب بن عبد الله]

كن مرحا قليلاً، ضحكهم، لاعبْ لأولادك، اجلبْ معك أكلة طيبة، أنا لا أطالبك بالمال إطلاقاً، والله مع الود والمحبة تأكل أخشن أكل مع زوجتك، وهي تفرح من أعماقها.

ومِن هذا كلام سيدنا عيسى، " ليس بالخبز وحده يحيى الإنسان "، أنت تعيش بالحب، تعيش بالمودة، باللطف، بالابتسامة، السلام عليكم، الله يعطيكِ العافية، ما هذا الأكل ! ابنك جالس اسأله: كيف أنت يا بني ؟ كيف مدرستك ؟ ماذا تكلم الأستاذ اليوم ؟ ادخل بمودة، هناك أناس عندهم عنف، وعندهم غلظة ، وبيتهم قطعة من الجحيم، تكسير أبواب، وخبط، وسباب، والشيطان داخل وجالس معهم.

البند الثالث: إصلاح العلاقة في العمل

علاقتك بالعمل، الدوام، الإتقان، إن كنت صاحب عمل فطوّر، نظّم، رتّب، ليكن دوامك صحيحا، يوصيك الواحد، ما كتبتها عندك، يكون ساكن فرضاً بمنطقة المخيم، ومحلك في ساحة المرجة، يركب الحافلات ساعة ليصل إليك، ثم تقول له: والله نسيت، تعال بعد أسبوع، هل أنت مسلم ؟! تحتاج إلى دفتر أعمال، أنا أقول لك بصراحة: الإنسان الناجح عنده دفتر مواعيد في بيته، وعدت رجلا الخميس، اكتب الخميس، اكتبها الأربعاء حتى يوم الخميس تكون حاجته جاهزة، لا أخرج من بيتي إلا وعندي جدول أعمال.

عملك إن كنت موظفًا، إن كنت طبيبا، إن كنت محاميا، أو صيدليا، عندك هذا الدواء ؟ لا والله، غداً تعال، كتبته ؟ ما كتبه، نسي، من أين أتيت به أنت ؟ من آخر الدنيا، وعدته به، والله ما أتيت به، أو يكذب، والله الذي وصيناه ما أتى به، أنت ما وصيت أحدا، الذي وصيناه ما أتى أيضاً، كذب، أضاف للإخلاف الكذب، كل شيء بالتأجيل والإهمال وعدم الدقة.

والله مرة سمعت قصة ارتجف قلبي منها، أب شك بابنته، وابنته طاهرة، ما فيها شيء، شك فيها، أجرى لها تحليلا، وهناك تحليل يبين إذا كانت حاملا أم لا، يبدو أن الموظف وقع بيده التحليل فانكسر، خاف من مديره فكتب في التحليل: إيجابي، قال له: مبارك، هي حاملة، ذبحها أبوها.

والله أعرف أخًا أتى من السعودية وقف عند محطة بنزين، يريد تبديل زيت، فكلف الصانع، فك، ووضع، هل هناك مَن يسمح للصانع أن يفك المحرك، هذا الصانع وضع البرغي، ولم يشده، لأن صاحب العمل ناداه وكلفه بعمل، قال له: انتهينا تفضل، فأصيب السائق بحادث فمات.

لي صديق عنده بنت مثل الوردة، في الصف الثالث، يحبها، في أثناء الرياح الشديدة وقع صحن الدش فوقها قتلها فوراً.

موضوع إتقان العمل، وموضوع العمل مهم جداً، كله متقن، كل شيء مسجل.

يقول لي طبيب: امرأة ولاّدة يضعون أمامها إضبارتها، إضبارتها زمرة دمها ، وما عندها من أمراض، وما عندها من أشياء من أجل أن يستأنس الطبيب، يحدث لها نزيف تحتاج إلى دم، يفتح

الطبيب الإضبارة يأخذ زمرة الدم فيأتي بالدم، فهذه الولادة ولدت ولادة بالتمام، وأخذوها إلى غرفتها، الذي حصل أن هذه الإضبارة نسوها، ما أخذوها، والتي أتوا بها بعدها ما جاؤوا بإضبارتها، نسوها، فصار معها نزيف، فتحت الإضبارة أخذت الزمرة، أعطاها دما فماتت فوراً بانحلال الدم، يمكن لامرأة عندها خمسة أولاد أن تقتلها من أجل إضبارة.

لذلك نحن مشكلتنا ببلادنا أنهم يفهمون القضاء والقدر كله ترتيب سيدك، بالغرب يدفعون الطبيب ثمانين مليون دولار.

دخلت على طبيب في أمريكا، وهو طبيب قلب، أراني عيادته، عنده مكتبة والله غير معقولة، على طول الحائط كلها أضابير، ما هذه ؟ قال لي: هؤلاء مرضاي الذين ماتوا قلت له: لماذا ؟ قال لي: لا أقدر، يجب أن يبقوا عندي خمس سنوات، لعل خطر ببال أحد أولاد المرضى المتوفين أن يقيم دعوى علي، أنا كيف عالجته ؟ يجب أن أخبئ إضبارته بعد وفاته بخمس سنوات، الإنسان محترم جداً هناك. والله لي أخ كريم والده عنده كُلية وقفت عن العمل، أجرى عملية، لكن نزعوا له الكلية الصحيحة، بقي يغسل الكلى عشر سنوات، عوض ما ينزعون المعطوبة نزعوا الصالحة.

مرة طبيب ـ رحمه الله ـ توفى، داوم عندي ثلاث سنين، نصحني نصيحة قال لي أستاذ: لا توافق لأخ يستأصل شيئًا من أعضائه إلا بثلاثة أراء لأطباء مختصين، قال لي: جاءتني امرأة مستأصلة ثديها، على أساس معها سرطان، وليس بها شيء إطلاقاً، كفى الطبيب أن استأصل الثدي، بعثها إلي حتى أعمل لها أشعة، أيضاً الأشعة مسرطنة، وقال له: لا يكفي أن استأصلت لها الثدي، مسكينة، لما استأصل ثديها طلقها زوجها، بهذه البساطة، هذه في غير بلاد يفرم الطبيب ، عندنا تساهل جداً، والله من طيبنا نتساهل، هكذا قضاء وقدر، لا، بل يجب محاسبة المخطئ، والدليل: عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ تَطَبَّبَ، وَلَا يُعْلَمُ مِنْهُ طِبٌّ فَهُوَ ضَامِنٌ))

[أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجة]

هذا ديننا، فأتقن عملك، أحيانا تدمر أسرة بخطأ منك، وقد يموت الابن حين يدخل الحمام حافيا، والتيار 220، الخيط مكشوف، أصلحه، وضع يده على الخيط فمات.

بقيت الصحة، يجب أن نعتني بصحتنا، هي رأس مالنا، أنا لا أستطيع أن أذكر كل شيء، لكن انتبه لغذائك، هناك أغذية مسرطنة، وسموم مهدرجة، تسبِّب جلطات، انظر ما نوع السمن الذي تأكله ؟ ما نوع الغذاء، ما نوع الخبز، يجب أن تعرف ماذا تأكل، نريد ثقافة غذائية أساسية في بيتك. هذا قسم السلوك إلى الله، هناك قسم ثاني قسم إداري.

القسم الأداري من إصلاح العمل

إخواننا الكرام، كل شيء له ضريبة، إذا اشتهر إنسان زيادة فله ضريبة قاسية جداً، الناس يحبونه كلهم.

لابد من التدقيق لكثرة الغش والاحتيال والكذب:

قصص من واقعنا القريب:

كان أحدُهم جالسا معنا أبلغني أن رجلا دخل على تاجر فقال له: أنا بعثني الأستاذ راتب إليك، قال له: أريد مئة ألف، قال له: هذه مئة ألف، والله لا أعرفه، ولا يعرفني، ولا سألني، هذه القصة تكرر كثيرا، إذا كان بالزواج، أحضر عنده، لا أعرفه إطلاقاً، إن كان بقرض، يسأل، أنا أذكر هذه القصة لأحد العلماء، قال لي: كشفنا واحدا صوته يشبه صوتي تماماً، يفتح تلفون لتاجر كبير، أنا فلان، يقول له: أهلاً وسهلاً ومرحباً، أهلاً بأستاذنا الكريم، يكون هو الناصب وليس الأستاذ، قال له: أخ عندي غال كثير، ويلزمه مئة ألف، سأبعثه لك، على عيني ورأسي أستاذ، يذهب بنفسه ليأخذ مئة ألف، والله لا أعرفه إطلاقاً، والأخ الذي أبلغني جالس معنا الآن.

مثلاً: يقدمون له بيت زوجته شرابا بلا كحول، فيشرب، قال لهم: أنا لا أشرب هذه، بلا كحول، قالوا له: الدكتور راتب أفتى بها، وأنا قلت بالعكس، والله حوالي مئة فتوى قلت بعكسها، يستغلون اسمي في فتاوى أنا بريء منها والله.

سأقول لكم على الملأ: بلغوا الناس كلهم، إذا كنتُ أريد من إنسان شيئًا أنا أخبره، وإذا ما أخبرته فالقصة لا يكون لها أصل، وفي الفتوى أفتي في درس، والدرس مسجل، والله سمعت مئة فتوى أنا أفتيت بعكسها.

مرة أقول لإخواننا: إن المصحف لو قبلته من أول وجه والثاني، كم وجها للمصحف ؟ ستة، لو قبلته من ستة وجوه، ولم تطبق أحكامه لا تنتفع به، فبلغ أحدَ الشيوخ، وأحبه كثير والله، أن الأستاذ راتب يحرم تقبيل المصحف، فأقام عليها القيامة في درس، وكان أحد الإخوة حاضرا، فقال له: ما هكذا قال، قال له: ماذا قال ؟ قال له: إذا قبَّلَ الرجلُ المصحف من ستة وجوه، وما طبق أحكامه لا ينتفع به، قال له: هذه ما فيها شيء، فلما رآني قال لي: لا تؤاخذني، أنا تسرعت، وقبلني.

هناك نقل سيئ، قبل أن تنقل الكلام تحقق، والله ينتقل كلام عكس ما قلته، تنتقل فتاوى عكس ما قلت، لا أعرفه، أحضر عنده، ماذا أقول لك ؟

امرأة غير مسلمة أسلمت، وتزوجت مسلما، قال لها: أنا أحضر عنده، وهي تسمع دروسي، عاملها معاملة لا يعاملها بها وحش، جاءت واشتكت، لا أعرفه والله إطلاقاً، يمكن قالت له: أنا أسمع دروسه، قال لها: أنا عنده أحضر، فصدّقت، فوراً وافقت، ثم تبيّن أن شارب خمر، ووحشٌ.

أتمنى عليكم أن تتحققوا، بلغوا مَن حولكم، إذا كنت أريد من إنسان خدمة فأنا أخبره، إذا ما أخبرته فلا تصدقوا من يأتيكم ، أو اسألني، لو فرضنا بالخطأ بعثته اسألني، أنا بين أيديكم موجود، وبالفتاوى تحقق منها.

والله أحيانا يأتي إلى سمعي أنك أفتيت ؟ والله مستحيل أن أقول هذا الكلام، كلامي واضح.

والشيء الثاني: أنت جالس مرتاح، قال لك واحد: ما عندي بيت، اقصد الأستاذ راتب، أنا عندي بيوت؟ ما عندي أنا ؟ والله أنا عبد فقير، هل عندي أن أوزع بيوتا ؟ والله هذا أمر الدولة، فهي توزع البيوت، أنت ما عملت شيئا، فقط دفعتَه إليّ، وأحرجتني، وأخجلتني أمامه، وأنت طمعته، وعاش بالأمل ساعتين، وقال: يؤمّن لي البيت، جاء واعتذرت له، ما هذا الكلام ؟ هناك أخطاء كبيرة تحدث، أنا أتحمل شيئًا فوق طاقتي والله.

رجاء، عاونوني لأتابع الدروس، أنا علي ضغط فوق التصور، سأقول لكم من دون مواربة: صار علي ضغط مئة ضعف عن الأول، والله أقول لك: مئتي ضعف، أسئلة، وهواتف، وحل مشكلات، والناس مثلما قال:

المرأة والولد الصغير يحسبان الرجل على كل شيء قدير.

والله أنا لا أستطيع أن أفعل شيئًا إلا ضمن إمكانياتي، فأنت لا تدفع إلي مَن لا تعرفه، وكل حاجة رأيتها كبيرة بعثت بها إلي ، والله ما عندي إمكانية، أنا إذا قدرت أن أخدم إخواني يكون الله قد تفضل علي.

إكراماً لله، إذا كان هناك مودة بيني وبينكم فراعوني بهذه القضايا، لا تنقل على لساني شيئًا ما سمعته، لا تقل: أنا أعرفه، وأنت لا تعرفني، ثم تعاتبني، اسألني يا أخي أنا موجود.

أخ من إخواننا أحترمه كثيرا، ما مِن إنسان يطلب منه شيئًا إلا ويخبرني، فلان طلب، والله ما عندي علم، يقول له: بعثني الأستاذ راتب، أنا والله ما عندي علم، لكن يحقق، تحتاج دقة قليلاً، لأن الاحتيال كبير.

والله مرة دق بيتي شخص قال لي: امرأتي بالمستشفى مفتوح بطنها، العملية 16 ألفا، يريدون 11 ألفا، يا أستاذ، والله قطع قلبي، أنا والله ما كان معي ، خبرت شخصا ليذهب معه إلى المستشفى، ثم تبين أنْ لا زوجة، ولا مستشفى، ولا شيء.

إخواننا القدامى قلبهم قاسٍ، كنت أنا عاتبهم على ذلك، والله أحيانا الواحد يقسو قلبه لكثرة الكذب والدجل.

مرة أحدهم له مظهر، قال لي: أنا جاءتني إعارة كمدرّس في اليمن، الحمد لله، قال لي: ينقصني بطاقة طائرة، إعارة، ومعاش مضاعف، وتحل مشكلته، فقير، لي صديق، قلت له: أمّن له بطاقة، قال لي:
على عيني، مضى جمعة أنا نسيت، خجلت منه، أخبرته، قال لي: والله ما جاء أحد، لا يريد بطاقة طائرة، يريد مالاً، اليمن كلها قصة لا أصل لها، أنا لا أيئسكم من العمل الصالح.
والله أحد إخواننا كافح التسول فحقق مع 1500 متسول، فقط خمسة فقراء، أحدهم معه أربعون مليون ليرة، وهو أحسن منا كلنا، البقية مليونان أو ثلاثة في البنوك، وله لباس خاص بالتسول.
مرة اتصل بي عالم جليل، قال: أنت قائل في إذاعة القدس " إن عائشة عاهر ؟ أنا أتكلم هذا الكلام ؟ هذا الكلام من سابع المستحيلات، ما هذا الكلام. هناك حسد، وافتراء، وسوء فهم، وسوء نقل، هذا كله موجود، أضعكم بالصورة.
قبل سنتين الأمر كان محدودا بجامعنا، الآن هناك إذاعة يسمع درسي باليوم 8 ملايين تقريباً بين فلسطين ودمشق بأكملها هذه تسبب مشكلات، أحيانا يكون سوء فهم للدرس، وكلمة تفهم بالعكس.
قيل لرجل: تأتي البنت الساعة 12 بالليل وحدها، أين كانت ؟ يحكي عن فساد المجتمع، قال له: كانت عند الحبيب، هي عند عشيقها، الكل صلوا على الحبيب الجالسين، لأنهم فهموا.

والحمد لله رب العالمين

التربية الإسلامية - موضوعات مختلفة - الدرس (151) :التوكل على الله .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-08-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الحديث

أيها الإخوة الكرام، اخترت لكم حديثاً صحيحاً شريفاً، لماذا اخترت هذا الحديث ؟ لأنني أرى كثيراً من حالات مرَضية أساسها ضغوط نفسية، أمراض كثيرة تصيب الجهاز الهضمي، الجهاز العصبي، القلب، الضغط، هذه الأمراض تعزى بالدرجة الأولى إلى الناحية النفسية الضاغطة، النفس تتلقى ضغطاً، وطبيعة الحياة معقدة جداً، المطالب كثيرة، الموارد قليلة، الضغوط كثيرة، التعقيدات بالغة، المنافسة شديدة، فما من بيت إلا وفيه هموم لا يعلمها إلا الله، ما الخلاص من هذه الهموم، وهذه الضغوط ، وهذه الصدمات، ثم في النهاية تلك الأمراض، لأن العضوية لا تحتمل هذا الضغط النفسي ؟

حديث عظيم يقنن سبيل المعيشة والرزق: لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ

عن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا))

[أحمد، النسائي، ابن ماجه، الحاكم، وقال الترمذي حسن صحيح]

1 – الحياة والرزق مصدرٌ لقلق الناسَ:

حديث على إيجازه بليغ في مدلولاته، أولاً ما الذي يقلق الناس ؟ الرزق وقبل الرزق الحياة، حياة الإنسان ورزقه، فإذا أيقن العبد أن له عند الله عمراً لا ينقص ولا يزيد، وأن له عند الله رزقاً لا بد من أن يستوفيه، إذا أيقن أن أجله محدود، ورزقه مقسوم رفع عنه ضغط كبير.

2 – هذا الحديث أصلٌ في التوكّل على الله:

هذا الحديث يتعلق بالتوكل، ولو أنك توكلت على الله، انظر إلى الطفل الصغير لا يهتم لا بالإنفاق ولا بالمصروف ولا بارتفاع الأسعار، ولا بشح الموارد، ولا بتعقيد الحياة، كل همه على أبيه، ما يهتم إطلاقاً، طفل عمره سنة أو سنتان، تراه يفرح، ويمرح، ويضحك، المؤمن الصادق حينما يضع همومه

عند الله عز وجل يستريح، هذا الحديث الشريف قال عنه العلماء: هو " أصل في التوكل "، وهناك أحاديث تبين التوكل من زوايا فرعية، أما هذا الحديث فيعد أصلاً في التوكل، وهذا الحديث يعد من أعظم الأسباب التي يجلب بها الرزق، فهو أصل في التوكل وأصل في طلب الرزق، قال تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

(سورة الطلاق)

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

(سورة الطلاق)

النبي عليه الصلاة والسلام قرأ هذه الآية، وقال: لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم.

3 – نحن بحاجة إلى التوكّل على الله

والآن نحن في أمسّ الحاجة إلى هذه الآية، نحن في أشد الحاجة إلى التوكل، إلى أن تلقي الهموم كلها عند الله، يا رب، أنا عبدك، وابن عبدك ناصيتي بيدك،

((اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ))

[أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم من حديث ابن مسعود]

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له السماوات والأرض من أن تنزل بي سخطك، أو تحلّ بي غضبك، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي.

هذا الدعاء من القلب، الدعاء مع الخشوع، الشعور أن الله بيده كل شيء، يا رب، ليس لي إلا أنت، أنا لا أملك إلا رحمتك، إذا قطعت الأسباب، إذا قطعت العلائق، وتوكلت على الله عز وجل فلا شك أنك تشعر براحة كبيرة، أنا علي أن أعبده، أنا علي أن أبحث عن أمره، أنا علي أن أطلب العلم، أن أتعلم، وأن أتقصى أمره، وأن أنفذ أمره، والباقي كله عليه، هو يعلم حاجتي، عبدي كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك، لا تجشم، لا تكلف خاطرك، تقول ماذا تريد، أعلم ماذا تريد، أعلم ماذا يصلحك، أعلم ماذا يسرك، أعلم ماذا يرضيك، أعلم ماذا يسعدك، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد.

4 – التوكل والتقوى:

يقول بعض السلف: " لو حقق الناس التقوى والتوكل لأفلحوا "، فإن التوكل بلا تقوى لا يصح، وكل إنسان متلبس، وهذه أخطر فكرة في الدرس، كل إنسان متلبس بالمعصية لا يستطيع أن يتوكل على الله، لأنه خجول، لأن وجهه أسود، لا يستطيع أن يقول: يا رب توكلت عليك، أما إذا حقق العبد التقوى، أي طاعة الله عز وجل فبإمكانه أن يتوكل عليه، قدمت شيئًا يا رب، أنا أطيعك، هذا قسمي فيما أملك، أنا

أملك أن أطيعك، لكن لا أملك الأقدار، الأقدار بيدك يا رب، أنا لا أملك الصحة، لكن أملك أن أطيعك، أنا لا أملك المال، لكنك تملك المال، أنا أملك أن أطيعك، أنا لا أملك الأقوياء، هم بيدك، أنا أملك أن أطيعك، الأمر واضح جداً، أنت ماذا تملك ؟ تملك أن تطيعه، أنت مكلف بطاعته، ما أنت مكلفٌ به محاسب عليه، وما لست مكلفاً به لا تحاسب عليه، الأقوياء ليسوا بيدك، السماء ليست بيدك، تمطر أو لا تمطر، يا رب إن أمطرتنا فهذه رحمتك الواسعة، وإن لم تمطرنا فهذه حكمتك البالغة، شيء مريح.

5 – التوكل استسلام لله تعالى:

أنا قلت لكم مرة: أستاذ لنا في الجامعة من كبار أساتذة علم النفس عقد مؤتمر للطب النفسي في أوربا في ألمانيا، وكان هو مندوب سوريا في هذا المؤتمر، بدأ محاضرة بليغة وطويلة، قال في مقدمتها: أعلن عليكم أيها السادة أن نسبة الأمراض النفسية في مجتمعاتنا قليلة جداً بسبب الإيمان بالله عز وجل.

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي عنهم معدل و إن عدلوا

والله و إن فتّتوا في حبهم كبدي باق على حبهم راض بما فعلوا

***

هناك استسلام لله عز وجل، أقامك في هذا الشكل، وفي هذا الدخل، وبهذه الإمكانيات، وبهذا البيت، وبهذه الحرفة، ليس في الإمكان أبدع مما كان، يا رب هذا حكمك، وأنا راض بحكمك، مشاعر الرضى لا توصف، المؤمن إذا ارتقى في الإيمان يشعر بالسعادة التي لا توصف حينما يرضى بقضاء الله، ترضى بقضاء الله، وقد يكون هذا القضاء مكروهاً.

لذلك كان التوكل من أعظم الأسباب التي يستجلب بها الرزق، ولو حقق العباد التوكل والتقوى لاكتفوا بذلك في مصالح دينهم ودينايهم.

هناك قطعتان من أرضٍ معدّان للبناء اشتراهما رجلان، الأرض الأولى لم يعطى رخصة البناء، لأن هذه الأرض سوف تمر بها المجاري، والثاني أعطي رخصة البناء، فأنشأ المخططات، وحفر الأساسات، وأقبل عليه الناس، وقبض المبالغ الطائلة وتألق وجهه، ولمعت عيناه، وعلت الابتسامة على وجهه، الثاني يرى جاره يبيع ويشتري، وهو معطل ما زال الهم يضغط عليه، ويضغط عليه حتى أصيب بأزمة قلبية، بعد عامين نال الرخصة، فأصبحت سعر أرضه أضعافاً مضاعفة عن كل أرباح جاره، ولكن بعد فوات الأوان، لو توكل على الله لكسب الدنيا والآخرة، لا تعرف الخير أين هو، قال تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة)

أيها الإخوة الكرام، يكفينا جميعاً قصة سيدنا الخضر، سفينة خرقت ولولا أنها خرقت لصودرت، ما الذي جعلها تنجو من المصادرة أنها خرقت، فلو علم صاحبها مسبقاً أن هذا الخرق لصالحه لكان شاكراً للذي خرقها له، لكنه لا يعلم، ثم كشف الغطاء.

إذا تحقق العدل من التقوى والتوكل فقد اكتفى بهما في مصالح الدين والدنيا.

معنى التوكل وحقيقه:

الحقيقة الأولى:

عرف بعضهم التوكل بأنه صدق اعتماد القلب على الله، أنت قد تعتمد على جهة، ولا تثق بها، تقول: هذا اعتماد كاذب، لكن التوكل الحقيقي الذي منه تنجو من عذاب الدنيا والآخرة هو صدق اعتماد القلب على الله اعتمادا حقيقيا، والإنسان أحياناً يوكل قضيته لمحامٍ لامع جداً، وبالتعبير العامي يده طائلة، مفتاح أكثر القضاة، فتراه يرتاح، فلان وكلته مثلاً، فكيف إذا كان الله جل جلاله هو الوكيل، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج)

الحقيقة الثانية:

قال بعضهم، وهذه عبارة دقيقة: حسبك من التوسل إليه أن يعلم الله من قلبك حسن التوكل عليه.

لك وسيلة واحدة إلى الله، الوسيلة الوحيدة أن يعلم الله أنك صادق في التوكل عليه، فكم من عبد من عباد الله فوض أمره إلى الله فكفاه الله كل ما أهمّه.

أيها الإخوة الكرام، نقطتان: عليك أن تطيع الله، فإذا أطعته فلك عليه حق، تستطيع أن تتوكل عليه، التوكل على الله ممتع ومسعد، لكن العاصي يستحي أن يتوكل على الله، يخجل، لأن الذنوب حجاب، حقيقة التوكل صدق اعتماد القلب على الله في استجلاب المصالح، ودفع المضار في أمور الدنيا والآخرة، وهذا تعريف جامع مانع، صدق اعتماد القلب على الله في استجلاب المصالح، ودفع المضار في أمور الدنيا والآخرة.

الطالب يتوكل على الله، والتاجر يتوكل على الله، يا جبار، والطالب يقول: يا معين، والمزارع: يا رزقا، كل إنسان باختصاصه، والطبيب يقول: بسم الله الرحمن الرحيم، حتى الله عز وجل يلهمك التشخيص الصحيح، ويلهمك الدواء المناسب، والمحامي كذلك، والمهندس كذلك، باب التوكل واسع جداً، عود نفسك الدعاء، كلما أقدمت على عمل فقل: اللهم إني تبرأت من حول وقوتي، والتجأت إلى حولك وقوتك يا ذا القوة المتين.

الحقيقة الثالثة:

تحقيق الإيمان أي حقيقة الإيمان: أنه لا يعطي ولا يمنع، ولا يضر ولا ينفع إلا الله، إذاً توكل عليه.
قال بعض العلماء: " التوكل على الله جماع الإيمان، فالإيمانُ بأكمله يلخص بالتوكل، والغاية القصوى هي التوكل، ونحن أحياناً في اللغة العربية نعلم الطالب نصوصا، نعلمه قواعد النحو، والصرف، والبلاغة، والعروض، الغاية الكبرى من كل هذه الفروع التعبير السليم الشفهي والكتابي، التعليم غاية، لكن النصوص والقواعد والنحو الصرف والبلاغة والعروض وسائل، فالتوكل غاية، فإذا عرفت الله، وكنت مستقيماً على أمره تتوكل عليه في جلب المصالح ودفع المضار في الدنيا والآخرة، فالطاعة والتوكل لجلب المصالح ودفع المضار في الدنيا والآخرة.

الحقيقة الرابعة:

قال بعض العلماء عن توكل العبد على ربه: " أن يعلم أن الله هو ثقته ".
أحيانا يقول الإنسان: يا رب، توكلت عليك، وكل ثقته بفلان، هذا يعلمه الله، يعلم الله حقيقة هذا التوكل، لذلك مَن سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، اللهم إني أسألك صدق التوكل عليك، دققوا، صدق التوكل، لأن هناك توكلا كاذبا، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران)

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

(سورة الحج)

أسألك صدق التوكل على الله التوكل الحقيقي، اللهم اجعلني ممن توكل عليك فكفيته، حسبي الله ونعم الوكيل.

الاخذ بالأسباب ثم التوكل على الله

لكن أيها الإخوة، الذي لا أريده أن تفهموه مني أنك إذا توكلت على الله تركت السعي بالأسباب، الله عز وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

(سورة النساء)

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

(سورة الأنفال)

(فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ)

(سورة الجمعة)

لذلك قال بعض العلماء:

((من طعن في الحركة يعني في السعي والكسب فقد طعن في السُّنة))

كل إنسان ساكن يقبع في بيته لا يتوكل على الله حقيقةً، أنت إنسان كسولٌ، ليس هذا هو التوكل، التوكل أن تأخذ بكل الأسباب، التوكل مكانه القلب، والجوارح مكانها السعي، لا تخلط هذا بذاك، لا تلبس على الناس دينهم، التوكل في القلب، والسعي بالجوارح، قال أحد العلماء: " من طعن في الحركة يعني في السعي والكسب فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان ".

إذا ما توكل الإنسان معنى ذلك أنه ضعيف الإيمان، وإذا ما سعى فهو ضعيف التطبيق للسنة، النبي كان يسعى، وأكملُ شيءٍ أن تسعى بجوارحك، وأن تتوكل بقلبك، أنا علي أن أسعى، وأوضحُ مثلٍ أن المطاردين من قريشٍ حينما وصلوا إلى غار ثور النبي بقي رابط الجأش، هو أخذ بالأسباب، والآن هو متوكل، مثلُ طالب درس، ليس مضطربا، الآن توكل التاجر، اشترى البضاعة المناسبة، واجتهد في اختيارها وأسعارها، ويرتاح، الآن بيعها على الله، المزارع زرع في الوقت المناسب وتوكل، شيء جميل، لك مظهران مظهر السعي والنشاط والحركة، والعلم والأسباب والخطط، ومظهر من الداخل سلام في سلام، يا رب، هذا الذي علي فعلته بقي الذي عليك، في الدراسة، والزواج والتجارة والصناعة والقضاء والطبابة والتدريس والهندسة، عليك سفر، أنت راجعت السيارة، الميكانيك والأجهزة فقط، وعلى الله الباقي، أما إذا ما راجعتها فلا يكفي التوكل، تنشأ معك مشكلة كبيرة، لو راجعت السيارة تقول: أنا متوكل يا رب، ما فيها كوابح، ولا شيء، هذا غير معقول، ما هذا التوكل ؟ هذا الشخص المتوازن بقدر ما هو مستسلم بقدر ما هو يأخذ بالأسباب.

التوكل حال النبي والكسب سنته

أيها الإخوة الكرام، التوكل حال النبي والكسب سنته، فمن عمل على حاله لا ينبغي أن يترك سنته، سنته السعي وحاله التوكل، أنت مكلف أن تقلده في حاله وفي سنته، في حاله بالاستسلام، فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا جاءه أمر على ما يريد قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإن جاءت الأمور على غير ما يريد قال: الحمد لله على كل حال، هكذا الله يريد، أنت كل حياتك من أجله، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأنعام)

كل حياتي من أجلك يا ب، وهذا قرارك، وهذه حكمتك.

والله مرة قرأت لوحة فيه:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

(سورة الطور: من الآية 48)

لو كان حكم الله واضحا جداً فا يحتاج إلى صبر، لما تكون مريضا عند طبيب أسنان، ويعطيك إبرة البنج المخدر، وتعرف أن الإبرة مؤلمة، لا أقول: جداً، لكن مؤلمة، لكن ألمها أخف بكثير من آلام قلع الضرس، فالأمر واضح عندك، لأنه واضح فأنت صابر، لكن الأمر إذا ما كان واضحا فالله عز وجل يقول لك:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

أجمل شيء في حياة المؤمن إذا جاءت الأمور على خلاف مراده يقول: يا رب، لك الحمد، أنا مستسلم، أنا راض يا رب، التوكل حال النبي، والكسب سنته.

علاقة التوكل بأفعال الإنسان التعبدية والعادية

1 – علاقة التوكّل بالطاعة والعبادة:

قال بعض العلماء: " أفعال الإنسان ثلاثة أنواع، أولها الطاعات التي أمر الله عباده بها، وجعلها سبباً للنجاة من النار ودخول الجنة، هذه الطاعات لا بد من فعلها مع التوكل على الله، والاستعانة به عليها، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، قال النبي عليه الصلاة والسلام في تفسير هذه الكلمة:

((لا حول عن معصية الله إلا بالله، ولا قوة على طاعته إلا به))

[ورد في الأثر]

يجب أن تتوكل على الله في أداء الطاعات، وأحيانا الله عز وجل يضعف لك همتك، يضعف لك مقاومتك أحياناً، وإذا رزق الله الإنسان الاستقامة فلا ينبغي أن يتيه بها على الخلق، أنا مستقيم، وأنا غير فلان، ومن أنت ؟ إذا كنت مستقيماً فهذا فضل من الله عليك، فإذا استقام الإنسان على أمر الله، واعتد باستقامتك، وتاه بها على عباد الله فهذه ليست استقامة، لقد شابها الكبر، شابها العلو، لذلك هذه الاستقامة ليست مقبولة إلا إذا خالطها التواضع، خالطها العبودية لله، المؤمن الصادق إذا وفقه الله لطاعة يشكر الله على أن وفقه إليها، يا رب، سمحت لي أن أقوم بهذا العمل، سمحت لي أن أحضر هذا المجلس، وهناك إنسان مريض، وإنسان يسبب الله عز وجل له متاعب كثيرة في حياته، مشاكل في البيت والعمل، والأولاد، فإذا فرغه الله عز وجل، وسمح له أن يحضر مجلس علم فهذه من نعم الله، قال تعالى:

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ)

(سورة الحجرات)

حتى العبادة تحتاج إلى توكل، والدليل، الفاتحة:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة: الآية 5)

تستعين بالله على صلاتك، وعلى صيامك، وعلى حجك، وعلى زكاة مالك، وعلى غض بصرك، وعلى ضبط لسانك، وعلى تحرير دخلك، وعلى قيامك بالأعمال الصالحة.

2 – علاقة التوكّل بالعادة والمباح

الشيء الثاني: ما أجرى الله به العادة في الدنيا، وأمر به عباده، كالأكل عند الجوع، والشرب عند العطش، والاستظلال من الحر والتدفؤ من البرد، هذه أيضاً أسباب، إن لم تأخذ بها تحاسب عليها، فإذا أهمل الإنسان طعام الفطور، وحدث معه ضعف، أو أهمل نوع الطعام، أهمل الحاجات الأساسية التي أمره الله بها، وحدثت له مشكلة فهذه المشكلة يحاسب عليها، يحاسب على تقصيره، جسمك ليس ملكك، فهذا الجسم أمانة بين يديك، سلمك الله إياك فعليك أن تعتني به لأنه قوام حياتك، ورأس مالك في حياتك، فالعناية بالصحة جزء من الدين، أن تعلم ماذا تأكل، ماذا تشرب، هناك أشياء فيها مواد ملوثة، قلنا لك: في الصيف أمراض كثيرة وخطيرة جداً، وحدثت حالات وفيات كثيرة جداً من التلوث، الآن أنا أنصح أن يكثروا تناول الطعام في بيوتهم، فالعامل في مطعم أحيانا لا ينظف نفسه إذا قضى حاجة، لا تعرف هذه السَّلَطة ما بها فيها مواد ملوثة، بهذه الطريقة تنتقل الجراثيم، بهذه الطريقة تنتشر الأوبئة، الخضار

الورقية ممنوع استعمالها، الطعام خارج المنزل الأولى للإنسان أن يبتعد عنه لعدم الدقة في إعداده، والغسيل المتقن للخضار والفواكه، هذا أخذٌ بالأسباب وعلى الله الباقي، أما أن تهمل الأمر فلا ينبغي.
لفت نظري أني قرأت في الجريدة منذ يومين أن كل موظفين المطاعم مكلفون أن يقدموا فحوصاً لبرازهم للصحة، خبر لفت نظري، معنى هذا تنتقل الجراثيم أن بهذه الطريقة، لماذا النبي عليه الصلاة والسلام أمرنا بالنظافة الشديدة، الحقيقة موضوع الغذاء إذا كان مطعم القائمين عليه ليسوا مؤمنين فموضوع النظافة مهمل جداً أن أما المؤمن فحريص على ذلك.

: لو حقق العباد التوكل على الله بقلوبهم لساق الله إليهم أرزاقهم مع أدنى سبب

الآن يقول بعض العلماء: لو حقق العباد التوكل على الله بقلوبهم لساق الله إليهم أرزاقهم مع أدنى سبب كما يسوق إلى الطير أرزاقها بمجرد الغدو والرواح.
أحيانا الله عز وجل يرزقك، لكن بعد أن يعصرك، مشاكل، ومعالجة مع الناس حتى تلحق رزقك، وأحيانا يكرمك الله فيبعث لك رزقا يكفيك مع جهد بسيط، هذا من إكرام الله لك.
اسمعوا هذه الحقيقة، إذا طلبت العلم، وحضرت مجالس العلم، وأعطيت من وقتك الثمين وقتاً لمعرفة الله، بفهم كتابه، بفهم سنة نبيه، بفهم السيرة، أرجو الله عز وجل ألا أكون مبالغاً في هذا، ساق الله لك رزقاً وفيراً مع جهد يسير، أنا أشعر أحيانا مع شخص يشكو لي درجة غير معقولة، يقول: أنا مسحوق كسحق الليمونة المعصورة، ينام الساعة الواحدة، إذا كانت الدنيا فقط تأخذ منك كل هذا الجهد، وكل ذاك الوقت، والله هذه حياة صعبة، فإذا ألغي وقت فراغ الإنسان فقد ألغي وجوده.
أنا أقول لكم: الآن أي عمل من أعمالكم إذا استغرق كل وقتكم مهما علا دخله فهو خسارة كبيرة، وقد ألغى وجودك، أنت تعمل من أجل رسالة، من أجل إيمانك بالله، من أجل عمل صالح ينفعك بعد الموت.
أنا أخالف أناساً، الدنيا كلها ما عنده شيء غير تجارته من الفجر إلى نصف الليالي، لا زوجة، لا أولاد، لا مجلس علم، لا درس فقه، لا قرآن، كل وقته في تجارته، تجارته قبر له، وفي معمله، معمله قبر له، وفي وظيفته، وظيفته قبر له، انتهى الإنسان، العمل الذي يستغرق كل وقتك هو خسارة فادحة، ولو در عليك مئات الألوف، لأنك انتهيت، انتهى وجودك، انتهت رسالتك.
أحيانا هناك إنسان يتباهى، والله أنا آتي بعد ما ينام أولادي، وأذهب قبل أن يستيقظوا، مَن لهم أولادك ؟ أنت لست أبًا، أنت منفق عليهم فقط، لو حقق العباد التوكل على الله بقلوبهم لساق الله إليهم أرزاقهم مع أدنى سبب، كما يسوق إلى الطير أرزاقها بمجرد الغدو والرواح.

لذلك الإمام أبو حنيفة قرأ عن النبي عليه الصلاة والسلام حديثاً، كان هذا الحديث انعطافاً في حياته، ما هذا الحديث ؟

((من طلب العلم تكفل الله له برزقه))

[ورد في الأثر]

هذا الكلام قطعي، إذا طلبت العلم تكفل الله لك برزقك، وربما حرم الإنسان الرزق بذنب يصيبه، لأن الذنوب تقطع الأرزاق.

من أسباب الرزق

1 ـ الاستقامة:

وعندنا للرزق سبب آخر، ففي آية قرآنية استنبط منها العلماء أن هذا العمل يسبب بحبوحة الرزق، قال تعالى:

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً)

(سورة الجن)

الاستقامة.

2 ـ الصلاة:

الصلاة، قال تعالى:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)

(سورة طه)

الدليل:

(لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)

(سورة طه)

3 ـ التقوى والتوكل:

التقوى والتوكل هذه الثالثة.

4 – الاستغفار وإتقان العمل والأمانة والصدقة وصلة الرحم:

الاستغفار، إتقان العمل، الأمانة، صلة الرحم، الاستقامة والأمانة وصلة الرحم وإتقان العمل والصدقة، استمطروا الرزق بالصدقة والتوكل مع التقوى.

بم نفسر عدم توافر الرزق مع توافر أسبابه

هذه كلها أسباب لوفرة الرزق، وإذا توافرت كلها والرزق قليل فبمَ نفسر ذلك ؟ نفسر ذلك بالحكمة، كما في الأثر: " إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، فإذا أغنيته أفسدت عليه دينه، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، والأجل محدود والزرق مقسوم، لا تقلق، قال بعض السلف: توكل تُسَقْ إليك الأرزاق بلا تعب ولا تكلف.

علامة صدق التوكل اليأس مما في أدي الخلق

سئِل أحد العلماء: " ما علامة صدق التوكل ؟ فقال: أن يتوكل العبد على الله، وألا يكون في قلبه أحد من الآدميين يطمع أن يجيبه بشيء.

يجب أن تيئس مما في أيدي الخلق، ما دام فلان لا يقصر لو طرقت بابه، فلان يودني، تقول: باب السماء مغلق، إذا يئست بما في أيدي الخلق أمدك الله عز وجل بما تحتاج، فعلامة صدق التوكل اليأس مما في أدي الخلق.

لا تسألن بني آدم حــاجة و   سل الذي أبوابه لا تُحجَب
الله يغضب إن تركت سؤاله   وبني آدم حين يُسأل يَغضب

***

كان أهل اليمن يحجون، ولا يتزودون، ويقولن: نحن متوكلون، فيحجون، فيأتون مكة، فيسألون الناس، فأنزل الله هذه الآية:

(وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)

(سورة البقرة)

هذه الآية تدل على الأخذ بالأسباب، الحقيقة أن صدق التوكل عرفه بعضهم بأنه قطع الاستشراف من الخلق، الاستشراف هو الطمع.

سئل أحد العلماء: ما الدليل ؟ قال: قول إبراهيم عليه السلام لما عرض عليه جبريل أن يساعده، وهو يرمى في النار، فقال له: ألك حاجة ؟ قال: أما إليك فلا، وظاهر الكلام أن إبراهيم ترفع عن سؤال جبريل حينما ألقي في النار.

الله عز وجل حينما رأى منك يأسك من الخلق أمدك بما تريد.

سئل أحد العلماء، وهو بشر الحافي عن التوكل فقال: اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب، فقال له السائل: فسره لنا حتى نفقهه، فقال بشر: اضطراب بلا سكون، رجل تطرب جوارحه بالسعي، وقلبه ساكن إلى الله لا إلى عمله، سعى وأخذ بالأسباب، وخطط، وسأل، وقدم واستدعى، أخذ بكل الأسباب، هذا اضطراب، لكن بلا سكون إلى هذا العمل، بل السكون إلى الله عز وجل، رجل ساكن إلى الله عز وجل بلا حركة، ولا اضطراب، فاضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب.

كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ

إذا توكل الإنسان على الله عز وجل، وقصر في تحصيل رزق أولاده فهو محاسب عند الله، والدليل :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ))

[أبو داود]

أحيانا يفرط الإنسان، أنا أقول له: هذا ليس مالك، هذا مال أولادك، عندك بنات، عندك شباب، له حساب قديم مع شخص أهمله، له عقد شراكة، دعه يعمل بأصله، هل أنت مكتفٍ ؟ لكن عندك أولاد، لو أن هذا المال حصلته، وزوجت أولادك به لكان أفضل، فالتقصير في المطالبة بالحقوق مع شدة الحاجة للمال هذا الإنسان يحاسب عليه.

الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ))

[صحيح مسلم]

كل مؤمن يسعى ويكسب المال، ويتخذ الأسباب، هذا قوي، هذا أحب إلى الله من المؤمن الضعيف، لأن قوته للمسلمين.

أخ درس دراسة عالية جداً، احتل منصبا رفيعا، تمكن أن يخدم خمسين أخا، فكلما قوي مركزُ الإنسان كثر ماله، وعلا شأنه، احتل مركزاً رفيعاً، كثر عمله الصالح ،

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ))

ولكن القوي أحسن، كإنسان يحمل شهادة عالية جداً، ويصلي أمام الناس، يشجع الضعفاء، صاحب مشروع ضخم، ومستقيم استقامة تامة، العمال كلهم يرونه قدوة، فكلما ارتفعت مكانةُ الإنسان الاجتماعية صار قدوة، أما إذا كان مقصرا فيقال له: اذهب وخذ الشهادة أولا، ثم حل مشاكلك قبل أن تنصحنا.

المؤمن العملي المثالي قدوة لغيره

أنا قلت مرة لأخ: الناس الآن لا يحترمون المؤمن، ولا يقتدون به إلا إذا تفوق في عمله، إذا كان دكانه نظيفة جداً، حسابات دقيقة مثلاً، إذا كان في التعامل رقي، وإذا كان فيه فوضى و تقصير تجاوزات وإهمال لا يُقتدى به.

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

[أبو داود]

إنسان مقصر ما نجح، وما درس يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، حسبي الله ونعم الوكيل، هذا جهل، ادرس، اشترى بضاعة من دون دراسة فما بيعت معه، ثم قال: هكذا ترتيب الله، حسبي الله ونعم الوكيل، لا هذا تقصير منك.

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

أحيانا يحدث أمر قاهر، وأدق قول قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن التوكل بعد الكيس))

[ورد في الأثر]

معنى الكيس التعقل، بعد أن تأخذ بالأسباب تتوكل على الله.

إنسان عنده مركبة، يجب أن يراجعها، أخطر شيء في المركبة الميزان والمكابح، الميزان والمكابح قد تقتل صاحب المركبة، وهناك أشياء ليست خطيرة، أما هذان الشيئان فخطيران في المركبة، فمن لوازم التوكل الأخذ الأسباب.

قال العلماء: إن التوكل لا ينافي الأسباب، بل قد يكون الجمع بينهما أفضل، أن تجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله عز وجل، والتوكل بالقلب، والأسباب بالجوارح.

أقوال حكيمة في التوكل على الله

1 – من توكل على الله لطلب الرزق فقد جعل التوكل سب

أخر نقطة في التوكل هي من أدق نقاطه: من توكل على الله لطلب الرزق فقد جعل التوكل سبباً، أنا سوف أتوكل حتى الله يرزقني، جعلت التوكل سبباً، يجب أن تتوكل على الله لأنك راض بما قسمه لك، وإن توكلت على الله لأنك راض بما قسمه لك فهذا هو التوكل الحقيقي، أما إذا توكلت على الله كي تجلب بهذا التوكل الرزق فهذا التوكل أصبح مشوبًا.

2 – من توكل على الله لطلب الرزق فقد جعل التوكل سبباً:

لا تكونوا بالمضمون مهتمين فتكونوا للضامن مُتَهمين.

3 – التوكل على الله على ثلاث درجات

الحكماء قالوا: التوكل على الله على ثلاث درجات: أولها ترك الشكاية، فهناك إنسان كثير الشكوى، أينما جلس يحيطك بهالة سوداء، الشغل صعب، أولاد، بيت، جيران، مشاكل، فترك الشكاية أول درجة من درجات التوكل.

وثاني هذه الدرجات: الرضا.

وثالث هذه الدرجات: المحبة، فترك الشكاية درجة، والرضا درجة، والمحبة درجة ثالثة، الأولى للزاهدين والثانية للصادقين والثالثة للمرسلين.

4 – أصبحت ومالي سرور إلا في مواضع القضاء والقدر:

كان سيدنا عمر بن عبد العزيز يقول: " أصبحت ومالي سرور إلا في مواضع القضاء والقدر الذي يقضيه الله عز وجل "، أنا راض به، قال سيدنا علي: << الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين>>.

لهذا كان التوكل موضوع هذا الدرس

سقت هذا الدرس للأسباب التالية:

الحياة في المدن معقدة، والهموم كثيرة، والضغوط شديدة، والصراعات على أشدها، وكسب المال صعب، وتوفير الأعمال صعب، والشبهات كثيرة، فهذه الضغوط من شأنها أن تضغط على الإنسان فتصيبه بالعطب، الحل لمثل هذه الحالات الصعبة طاعة الله، والتوكل عليه، الآية التي أتمنى أن تكون شعاراً لكم جميعاً أولها بل، بل حرف إضراب، بل تنفي ما قبلها، وتثبت ما بعدها، قال تعالى:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر)

هذه مهمتك، وبها تنتهي مهمتك، لن تستطيع التوكل عليه إلا إذا أطعته، إنك إن لم تطعه تشعر بالخجل، تشعر بالحجاب.

علاجنا أيها الإخوة إذا اشتدت الأمور، وضاقت المكاسب، وتعقدت الظروف في التوكل.

مثلاً هذا الضغط النفسي خطير جداً، ينتهي برفع الضغط، ينتهي بأزمة قلبية، ينتهي بأمراض في المعدة، ينتهي بأمراض في العضلات، بانفجار في الدماغ، وهذا شيء ثابت، فالمفروض على الإنسان أن يستسلم، ويستقيم، ويتوكل، وعلى الله الباقي، فالتوكل يحتاج إلى استقامة، استقم تر أن الله معك، وكن مع الله تر الله معك.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس